سراج الطالبين

شرح

الشيخ إحسان محمد دحلان

الجمفسى الكديرى

على

منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين

للامام حجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

(تمتاز هذه الطبعة بوضع كتاب منهاج العابدين
مضبوطا بالشكل الكامل بأعلا الصحائف)

الجزء الأول

دار الفكر

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً »
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أصعد قوالب الأصفياء بعقبة المجاهدات . وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدات . وخلص أشباح المتقين من ظلم الشهوات . وأخلص أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات . وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تضيء نجوم هدايتها فى أوج العنايات . وتزهر سرج يقينها من مشكاة الإصابات . نتمسك بها أبدا ما أبقانا . وندخرها لأهاويل ما يلقانا . فإنها عزيمة الايمان . وفاتحة الاحسان . ومرضاة الرحمن ومدحرة الشيطان . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد ولد عدنان . وخلاصة الخلاصة من نوع الانسان . المبعوث إلى كافة الإنس والجان . المؤيد بالحجة الباهرة وقواطع البرهان . من أعظمها القرآن الذى أعجز بلغاء كلّ عصر فى كلّ زمان . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأئمة الأعيان . ذوى الفصاحة والبيان . والديانة والمتانة والإيقان والاتقان . وعلى التابعين لهم باحسان وإيمان مع الاطمئنان . وسلم تسليما كثيرا ما دارت الأفلاك والملوان .

(أما بعد) فيقول المرتجى من ربه الغفران . الفقير إلى رحمته : إحسان ابن المرحوم محمد دحلان . الجمفسى ثم الكديرى ، أصلح له الله الحال والشان . وستر عيوبه فى الدارين : هذا شرح وجيز منيف . وتحرير رائق شريف . على كتاب « منهاج العابدين » . إلى جنة ربّ العالمين للامام الهمام مقتدى الخاص والعامّ ، حجة الاسلام ، وبركة الأنام ، وقطب رحا دائرة الاسلام . الذى ملأ ذكر كمالاته الخافقين فى مسامع الأعلام ، وقام صيت كتابه مقام الشمس فى رابعة النهار ، وعنت وجوه الأفاضل إليه من سائر الأقطار (أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى) سقى الله ضريحه صوب الغفران المتوالى . وضعته تذكرة لنفسى ، وللقاصرين مثلى من أبناء جنسى . وسميته :

سراج الطالبين : على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين

وما لى فى هذا المجموع إلا النقل والجمع من كلام العلماء الراسخين ، والصلحاء العارفين . فاذا رأيت صوابا فمن هؤلاء الأعلام ، وإن رأيت خللا فمن وهم صدر منى بسوء الافهام ، لعدم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تأهلى لذلك . وقصورى عن الوصول إلى ما هنالك . فالمتصدى للتأليف . والمعتنى بالتصنيف . ولو بلغ السهى فى النهى فقد استهدف . ومن أنصف أسعف . ولله در بعض الأكياس حيث قال: من صنف فقد وضع عقله فى طبق وعرضه على الناس . لا سيما من كان مثلى قليل البضاعة . فى كل علم وصناعة . على أنى والله عز وجل يعلم فى أكثر مدة جمعى له فى هم وحزن ، ومع قلة المعين والناصر ، والمنبه والمذاكر . فإن تصفح الناظر فيه الغلط فليصفح ، ولا يكن من أناس بالأغاليط يفرحون ، وليصلح بعد التأمل ما يجده فاسدا ، فإن الله تعالى ذم رهطا قال فيهم : « يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

وأسأل الله العظيم ، وأتوسل بنبيه الكريم ، أن يوفقنى وأحبابى لمرضاته ، وأن ينفع به كما نفع بأصله ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، فإنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير .

وهذا أوان الشروع فى المقصود مستمدا من حضرة الملك المعبود .

قال المصنف رحمه الله تعالى ، ونفعنا به آمين (بسم الله) أى أبدأ بكل اسم للذات الأقدس لا بغيره متلبسا للتبرك (الرحمن) أى المنعم بجلائل النعم ، كالإيمان والعافية والعقل والغنى عن الناس (الرحيم) أى المنعم بدقائقها : أى قليلها وصغيرها ، كزيادة الرزق ونحوها ، ولا ينافى ذلك قولهم : إن نعمة الله كلها عظيمة ، لأن المراد القليلة ولو بالنسبة لشيء آخر .

واعلم أنه ينبغى لكل شارع فى كل فن أن يتكلم على البسملة بما يناسب الفن المشروع فيه ، والشروع الآن فى فن التصوف . فينبغى أولا أن نبين حده وموضوعه وبقية المبادئ ، ثم نلحق ذلك بالتكلم على البسملة فنقول :

أما حده : فهو علم يعرف به أحوال النفس وصفاتها الذميمة والحميدة .

وأما موضوعه : فهو النفس من حيث ما يعرض لها من الأحوال والصفات .

وأما ثمرته : فهو التوصل به إلى تخلية القلب عن الأغيار ، وتحليته بمشاهدات الملك الغفار .

وأما حكمه : فهو الوجوب العينى على كل مكلف ، وذلك لأنه كما يجب تعلم ما يصلح الظاهر ، كذلك يجب تعلم ما يصلح الباطن .

وأما فضله : فهو فوقانه على سائر العلوم من جهة أنه يوصل إلى ما ذكر .

وأما نسبته للعلوم : فهى أنه أصل كل علم وما سواه فرع ، ونسبته للباطن كنسبة الفقه إلى الظاهر .

وأما واضعوه : فهم الأئمة الأعيان ، العارفون بربهم المنان .

وأما استمداده : فهو من كلام الله ، وكلام رسوله سيد ولد عدنان، صلى الله عليه وسلم ، وذوى اليقين والعرفان .

وأما مسائله : فهى قضاياه التى يبحث فيها عن عوارضه الذّاتية ، كالفناء والبقاء والمراقبة وغير ذلك .

ومما يتعلق بالبسملة من المعانى الدقيقة ما قيل : إن الباء بهاء الله ، والسين سناء الله ، والميم مجد الله ، وقيل : الباء بكاء التائبين ، والسين سهو الغافلين ، والميم مغفرته للمذنبين . وقال بعض الصوفية : الله لأهل الصفا ، الرحمن لأهل الوفا ، الرحيم لأهل الجفا ، وقالوا : أودع الله جميع العلوم فى الباء : أى بى كان ما كان وبى يكون ما يكون ، فوجود العوالم بى ، وليس لغيرى وجود حقيق إلا بالاسم ، وهو معنى قولهم : ما نظرت فى شيء إلا ورأيت الله فيه أو قبله ، والرحمن أيضا : كثير الرحمة ، ورحمته عامة على جميع مخلوقاته ، فينبغى لكل شخص أن يرحم أخاه للموافقة له عز وجلّ .

قال كعب الأحبار : مكتوب فى الإنجيل : يا ابن آدم كما ترحم كذلك ترحم ، فكيف ترجو أن يرحمك الله وأنت لا ترحم عباد الله . والرحيم كما تقدم : من إذا سئل أعطى ، وإذا لم يسئل يغضب . وأتى بهذين الاسمين دون غيرهما من بقية أسماء الله تعالى إشارة إلى أن رحمة الله سبقت غضبه كما فى الحديث .

(قال الشيخ) أى الشائخ ، فهو مصدر أريد به اسم الفاعل . وهو فى اللغة : من جاوز الأربعين ولو كافرا . وقيل : المنتهى فى السنّ . وفى العرف : من بلغ رتبة أهل الفضل ولو صبيا . وقال بعضهم : هو صاحب الفائدة والمائدة والحكمة الزائدة (الفقيه) أى العالم بعلم الشريعة ، من الفقه الذى هو الفهم مطلقا ، أو لما دقّ ؟ يقال : فقه يفقه بكسر القاف فى الماضى وفتحها فى المضارع : إذا فهم ، وفقه يفقه بالفتح فيهما إذا سبق غيره إلى الفهم ، وفقه يفقه بالضم فيهما : إذا صار الفقه سجية له : هذا هو المشهور . واصطلاحا : العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسب من أدلتها التفصيلية .

وذكر العلماء فى باب الوصية أن الفقيه : من يعرف من كل باب من الفقه طرفا صالحا يهتدى به إلى باقيه مدركا ، واستنباطا وإن لم يكن مجتهدا .

وقال شارح التعجيز : أولى الناس بالفقه فى الدين نور يقذف هيبة فى القلب : أى من فى قلبه ذلك ، وهذا القدر قد يحصل لبعض أهل العنايات موهبة من الله تعالى وهو المقصود الأعظم ، بخلاف ما يفهمه أكثر أهل الزمان فى ذلك . وسئل الحسن البصرى عن مسئلة فأجاب ، فقيل : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك ، فقال: وهل رأيتم فقيها قط ؟ الفقيه هو القائم ليله الصائم نهاره ، الزاهد فى الدنيا ، الذى لا يدارى ولا يمارى ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله تعالى ، وفقه عن الله أمره ونهيه ، وعلم ما يحبه وما يكرهه ، فذلك هو العالم الذى قيل فيه « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » فإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين ، ذكره الخطيب فى شرح المنهاج (الصالح)

الزَّاهِدُ عَبْدُ الملكِ بْنُ عَبْدِ اللهِ غفرَ اللهُ لَهُ : أَمْلَى عَلَيَّ شَيْخِي الْأَجَلُّ

اسم فاعل من صلح : إذا استقامت أفعاله وأحواله فيما بينه وبين الله تعالى ، أو القائم بحقوق الله وحقوق عباده .

وقال البيضاوى : هو الذى صرف عمره فى طاعة الله ، وماله فى مرضاته ، وهو ناظر للصالح الكامل. فلا ينافى أن من صرف مدة عمره عمل المعاصي ثم تاب توبة صحيحة ،. وسلك طريق السلوك وقام بخدمة ملك الملوك يسمى صالحا (الزاهد) أى عن الدنيا الفانية . الزهد لغة : الإعراض عن الشيء احتقارا له . وشرعا : أخذ قدر الضرورة من الحلال المتيقن الحل فهو أخص من الورع ، إذ هو ترك المشتبه ، وهذا هو زهد العارفين ، وهو المراد هنا وفيما يأتى . وأعلى منه زهد المقربين ، وهو الزهد فيما سوى الله من دنيا وجنة وغيرهما ، إذ ليس لصاحب هذا الزهد مقصد إلا الوصول إلى الله تعالى والقرب منه (عبد الملك بن عبد الله) وهمزة ابن تحذف إن لم تقع أول سطر ، لأنها وقعت بين علمين كما يأتى (غفر الله له) أى وللمسلمين آمين ، هذه جملة دعائية خبرية لفظا ، إنشائية معنى : أى اللهمّ اغفر له ذنوبه : أى امحها عنه من صحف الملائكة ، ويلزم من ذلك أنه لا يؤاخذه بها ، أو معناه : لاتؤاخذه بها وان كانت موجودة فى كتب الملائكة والأول أصح ، ويشهد له « إنّ الحسنات يذهبن السيئات » . وإنما آثر الفعلية لما يأتى فى شرح قوله : قدّس الله ، ومن هذا يؤخذ أن الدعاء جائز وأنه ينفع ، وهو ما عليه أهل السنة خلافا لبعض الصوفية فى قوله : إنّ الدّعاء قدح فى التوكل ، ولقول بعضهم : إنّ المدعوّ به إن كان قدّر فهو واقع لا محالة دعا أولا ، وإن لم يقدر لم يقع وإن دعا ، فهو مدفوع بأن المقدور قدّر بأسباب منها الدّعاء ، فلم يقدر منها مجردا عن سببه بل بسببه ، فاذا وجد السبب وقع وإلا فلا . وما درى هذا الأحمق أن الله قد رتب مصالح الدنيا والآخرة على الأسباب ، ومن ترك الأسباب اتكالا على القضاء لزمه أن لا يأكل إذا جاع ولا يشربه إذا عطش ، ولا يتداوى إذا مرض ، وأن يلقى الكفار بلا سلاح ، ويقول : ما قضاه الله لا يردّ ، وهذا لا يقوله مسلم بل ولا عاقل ، كذا قاله عبد الكريم الدمياطى (أملى علىّ شيخى) أى ألقى على وقرأ الكتاب الآتى ، من الإملاء بمعنى إلقاء الكلام على من يكتبه ، هذه لغة بنى تميم وقيس ، ولغة الحجاز وبنى أسد أملل إملالا ، وجاء الكتاب العزيز بهما قال تعالى « فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » . وقال تعالى « وليملل الذى عليه الحق » أفاده فى المصباح كما حرره العلامة عليش . وأصل الشيخ من شاخ فى السن وبلغ أربعين سنة إلى ثمانين سنة ، لكن المراد هنا الأستاذ المربى ولو صغيراً كما قاله الجرهزى (الأجلّ) أى الأعظم من غيره ممن عاصره فى الجملة . وقيل : إنه مجدد للقرن الخامس .

قال العلامة الزبيدى : روى أبو داود فى الملاحم والحاكم فى الفتن وصححه والبيهقى فى كتاب المعرفة له كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه رفعه « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . قال العراقى وغيره سنده صحيح : أى يقيض لها على

الْإِمَامُ الزَّاهِدُ

رأس كل مائة سنة من الهجرة أو غيرها رجلا كان أو أكثر من يبين السنة من البدعة ، ويكثر العلم وينصر أهله ، ويذل أهل البدعة . قالوا : ولا يكون إلا عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة فكان فى المائة الأولى عمر بن عبد العزيز . والثانية الشافعى والثالثة الأشعرى أو ابن سريج . والرابعة الاسفرايني أو الصعلوكى أو الباقلانى . والخامسة حجة الاسلام الغزالى ، إلى أن قال : وكذلك ذكره الحافظ جلال الدين الأسيوطى فى أرجوزة له فقال :

والخامس الحبر هو الغزالى ... وعدّه ما فيه من جدال

وقال فيها : والشرط فى ذلك أن تمضى المائه ... وهو على حياته بين الفئه

يشار بالعلم إلي مقامه ... وينصر السنة فى كلامه

وأن يكون جامعا لكل فن ... وأن يعم علمه أهل الزمن

وأن يكون فى حديث قد روى ... من أهل بيت المصطفي وقد قوى

وكونه فردا هو المشهور ... قد نطق الحديث والجمهور

ونقل العراقى عن البعض أنه جعل فى الرابعة أبا إسحق الشيرازى ، والخامسة أبا طاهر السلفي ، ولا مانع من الجمع ، فقد يكون المجدد أكثر من واحد . قال الذهبي : من هنا للجمع لا للفرد ، فتقول مثلا على رأس الثلاثمائة ابن سريج فى الفقه ، والأشعرى فى الأصول ، والنسائى فى الحديث (الامام) أي المقتدى به والمتبع ، من أمك : أى صار أمامك : أى قدامك . قال السمين : هو فى اللغة اسم لكل ما يؤتم به كالإزار اسم لما يؤتزر به . وفى الاصطلاح : من تصح الصلاة خلفه ، ولا شك أن كلا من المعنيين كان موجودا فى المصنف . ويطلق الامام على الواحد والجمع ، فهو مما استوى فيه المفرد والجمع كفلك ، وكثيرا ما يجمع على أئمة كما أفاده المناوى على الجامع الصغير (الزاهد) أي المتصف بالزهد : وهو فراغ القلب من الدنيا مع الاقتصار بحلالها بقدر الحاجة ، كذا أفاده العلامة عبد الكريم الدمياطى . قال العلامة مرتضي الزبيدى ورأيت فى بعض المجامع أن سبب سياحته وزهده أنه كان يوما يعظ الناس فدخل عليه أخوه أحمد فأنشده :

أخذت بأعضادهم إذ ونوا ... وخلفك الجهد إذ أسرعوا

وأصبحت تهدى ولا تهتدى ... وتسمع وعظا ولا تسمع

فياحجر الشحر حتى متى ... تسنّ الحديد ولا تقطع

فكان ذلك سببا لتركه علائق الدنيا . وذكر عبد الغافر بن إسماعيل الفارسى خطيب نيسابور فى ترجمته بعد أن وصفه ، قال : وسلك حجة الاسلام طريق الزهد والتأله وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة والاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، وقصد حج بيت الله الحرام ، ثم دخل الشام وأقام فى تلك الديار قريبا من عشر سنين يطوف ويزور المشاهد وأخذ فى التصانيف المشهورة

السَّعِيدُ الْمُوَفَّقُ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ زَيْنُ الدِّينِ شَرَفُ الْأُمَّةِ أَبُو حَامِد مُحَمَّدُ بْنُ مُحمدِ بن مُحَمَّدٍ

التى لم يسبق إليها : مثل إحياء علوم الدين والكتب المختصرة منها : مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التى من تأملها علم محل الرجل : يعنى الغزالى من فنون العلم ، وأخذ فى مجاهدة النفس ، وتغيير الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، وتهذيب المعاش ، والتزيى بزى الصالحين ، وقصر الأمل ، ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعرفة أو التيقظ بشىء من أنوار المشاهدة حتى مرن على ذلك ولان ، ثم عاد إلى وطنه لازما بيته مشتغلا بالفكر ملازما للوقت مقصودا ، وذخرا لكل من يقصده ويدخل عليه.. قال : فاتخذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم وخانقاه للصوفية ، وكان قد وزّع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة (السعيد) أى الذى سبقت له السعادة الأزلية (الموفق) ببنائه للمفعول أي الذي وفق لتحصيل أسباب الدجات العلا ، وهى الطاعة لله تعالى ولرسوله . والتوفيق لغة : موافقة الشىء للشىء . واصطلاحا خلق قدرة الطاعة فى العبد (حجة الإسلام) أى الدليل للاسلام . قال بعضهم : الحجة من أحاط بأكثر السنة ولم يفته منها إلا اليسير وهو رحمه الله محجة الدين التى يتوصل بها إلى دار الإسلام جامع أشتات العلوم والمبرز فى المنطوق فيها والمفهوم (زين الدين) أى مزين الدين بتأليفاته وتقريراته ، وهذا بحسب الأصل وإلا فهو الآن لقب . واللقب من أقسام العلم الجامد فلا معنى له ، بل مدلوله الذات ، كذا قاله الشرقاوى . وفى المختار الزينة مايتزين به ، والزين ضد الشين ، وقدم اللقب على الاسم لاشتهاره مثل « إنما المسيح عيسي ابن مريم » أو جريا على عادة المؤرخين كما قاله ابن عمر البجيرمي (شرف الأمة) أى فى المقدار . والشرف بفتح الشين والراء : العلو والمكان العالى ، كذا فى المختار ، والأمة : كل جماعة يجمعها أمر ما من دين واحد أو زمان أو مكان أو نحو ذلك سواء كان الجمع تسخيرا أو اختيارا ؛ والمراد هنا أهل ملته صلى الله عليه وسلم المجتمعون على دينه القويم كما ذكره الفاسي (أبو حامد) وسبقه بهذا التكنى من شيوخه جمع : منهم أحمد بن بشر أبو حامد المروزى ، توفى سنة ٣٦٢ وأحمد بن إسماعيل الفقيه أبو حامد الطوسي توفى سنة ٣٤٥ وأحمد بن الحسين الحافظ أبو حامد ، توفى سنة ٣٢٥ (محمد بن محمد بن محمد) وابن إذا وقع بين علمين ثانيهما أب للأول ، تحذف ألفه مالم تكن فى أول سطر ــ وفى سيرة الشامي أن ألف ابن تثبت فى تسعة مواضع : إذا أضيف إلى مضمر كهذا ابنك ، أو نسب إلى الأب الأعلى كقولك : محمد ابن شهاب التابعى فشهاب جده أو أضيف إلى غير أبيه كالمقداد ابن الأسود أبوه عمرو ، وتبناه الأسود ، ومحمد ابن الحنفية ، فالحنفية أمه ، أو عدل عن الصفة إلى الخبر كقولك : أظن محمدا ابن عبد الله ، أو إلى الإستفهام كقولك : هل تيم ابن

مرة ، أو ثنى كقولك زيد وعمرو ابنا محمد ، أو ذكر بغير اسم : كجاء ابن‌عبد الله ، أو كتب أول سطر أو اتصل بصفة كقولك : زيد الفاضل ابن عمرو . قال بعضهم : ومثل ابن ابنة ، وقد نظم العلامة الأجهورى تلك المواضع فقال :

احذف من ابن ألفا إن وقعا　　فى وسط اسمين تكن متبعا
إلا إذا أضيف للضمير　　فالألف اكتب فيه يا سميرى
ومثله أن اسمه قد حذفا　　كأكرم ابن عمر من أنصفا
قلت وفى استثناء ذين نظر　　إذ ليس بين اسمين من يذكر
كذاك مكتوب بصدر السطر　　أو مانسبته لجد فادر
أو من لغير أبيه قد انتسب　　نخاله فالحكم ذا له وجب
وما به لصفة قد عدلا　　لخبر كذلك اللذ فصلا
موصوفه منه وما يثنى　　أو عدل الاستفهام صدّعنا
قد قال ذا الشامي وبعض ابنه　　كالابن فى ذا وعليه العهده

ولد رحمه الله تعالى بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وتوفى بها صبيحة يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ، فكان عمره خمسا وخمسين سنة ، وفى كتاب الثبات عند الممات لابن الجوزى . قال أحمد أخو الغزالى : لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخى وصلى وقال علىّ بالكفن فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل فانتقل إلى رضوان الله تعالى قبل الاسفار طيب الثناء أعلى منزلة من نجم السماء لايكرهه إلا حاسد أو زنديق ولا يسومه بالسوء إلا من كان فى قلبه ريب أو حاد عن سواء الطريق . وقال فخر الدين بن عساكر : ودفن رحمه الله بظاهر قصبة طابران ، والله يخصه بأنواع الكرامة فى أخراه كما خصه بفنون العلم فى دنياه بمنه وفضله ولم يعقب إلا البنات ، وكان له من الأسباب إرثا وكسبا مايقوم بكفايته ونفقة أهله وأولاده ، فما كان يباسط أحدا فى الأمورالدنيوية ، وقد عرضت عليه فما قبلها وأعرض عنها واكتفى بالقدر الذى يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض للسؤال والمنال من غيره . قال ابن‌السمعانى : وقد زرت قبره بالطابران قصبة طوس سمعت أبا جعفر عمر بن محمد بن أحمد الطوسي مذاكرة يقول : تمثل الامام إسماعيل الحاكمى بعد وفاة الامام أبى حامد الغزالى بهذا البيت :

عجبت لصبرى بعده وهو ميت　　وكنت امرأ أبكى دما وهو غائب

وقال أبو المظفر الأبيوردى يرثيه :

بكى على حجة الإسلام حين ثوى　　من كل حى عظيم القدر أشرفه
فما لمن يمترى فى الله عبرته　　على أبى حامد لاح يعنفه

الْغَزَالِيُّ الطُّوسِيُّ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ وَرَفَعَ اللهُ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَتَهُ هٰذَا الْكِتَابَ الْمُخْتَصَرَ، وَهُوَ آخِرُ كِتَابٍ صَنَّفَهُ

تلك الرزية تستوهي قوى جلدى | والطرف تسهره والدمع تنزفه
فما له خلة فى الزهد تنكرها | وماله شبه فى العلم تعرفه
مضي فأعظم مفقود فجعت به | من لانظير له فى الناس يخلفه

وقال القاضي عبد الملك بن أحمد بن محمد بن المعافى :

بكيت بعين واجم القلب واله | فتى لم يوال الحق من لم يواله
وسيبت دمعا طالما قد حبسته | وقلت لجفنى واله ثم واله
أبا حامد محي العلوم ومن بقى | لشد عرى الإسلام وفق مقاله

(الغزالى) بتخفيف الزاى خلافا لابن الأثير فى قوله إنه بالتشديد نسبة إلى غزالة : قرية من قرى طوس (الطوسى) بضم الطاء : نسبة إلى طوس بلدة من أعمال نيسابور (قدس الله روحه ، ورفع الله فى الجنة دار الثواب درجته) جملة دعائية خبرية لفظا ، إنشائية معنى ، إذ المقصود بها الدعاء بالتقديس ورفع الدرجة ، وهو أبلغ من اللهم قدس وارفع لاشعاره بتحقيق الوقوع تفاؤلا ، وآثر الفعلية الدالة على التجدد والحدوث لحدوث المسئول بها كما أفاده العلامة ابن الدابغى وهذا الدعاء من الفقيه عبد الملك لشيخه حجة الإسلام كما علمت ، وإنما دعا له بما ذكر لكونه سعى فى إحياء السنة ونشر العلم الذى هو أعظم أنواع البرّ وبه قوام الدنيا والآخرة فيكون عاملا بقوله صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تكافئوه فادعوا له » . قال الفقيه : أملى علىّ شيخى الامام أبو حامد (هذا الكتاب) وهو فى الأصل مصدر كتب إذا خط وهو مصدر سماعي والقياس كتبا فأطلق على المكتوب مجازا ثم صار حقيقة عرفية فى المكتوب ، والعبارة على حذف مضاف : أي مدلول الكتاب ، لأن الألفاظ مدلول للمكتوب الذى هو النقوش ثم إن الكتاب صار حقيقة عرفية فى الألفاظ فلا يحتاج لتقدير مضاف كما ذكره العلامة العدوى (المختصر) اسم مفعول من الاختصار : وهو الذى قل لفظه وكثر معناه ، المسمى : [منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين] كما قاله العلامة الزبيدى . قال السجاعى : إن المختصر لغة : ماقل لفظه وكثر معناه . واصطلاحا : ما قل لفظه سواء كثر معناه أو قل أو ساوى ، فالقيد معتبر لغة لا اصطلاحا ، لأنه قد تكون المعانى قليلة كالألفاظ . قال الخليل بن أحمد : الكتاب يختصر ليحفظ ويبسط ليفهم . والاختصار ممدوح شرعا . قال صلى الله عليه وسلم « أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا » (وهو) أى هذا الكتاب (آخر كتاب صنفه) أى جمعه وجعله أصنافا بتمييز بعضها عن بعض ، فمؤلف الكتاب يفرد الصنف الذى هو فيه عن غيره ، ويفرد كل صنف مما هو فيه عن الآخر ، فالصوفى يفرد مثلا باب العلم عن باب التوبة . قيل : أول من صنف الكتب

وَلَمْ يَسْتَمْلِهِ مِنْهُ إِلا خَوَاصُّ أَصْحَابِهِ وَهُوَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ) الْمَلِكِ الْحَكِيمِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ

الربيع ابن صبيح . وقيل : سعد بن أبي عروبة . وقيل : ابن جريج كما قاله الخطيب فى شرح المنهاج ، والتصنيف هنا بمعنى التأليف ؛ وهو فى العلوم الواجبة لا المندوبة : كعلم العروض ، خلافا لمن عده من جملة فروض الكفاية من البدع الواجبة التى حدثت بعد عصر الصحابة كما ذكره العلامة ابن حجر ، ولعل محل الوجوب إذا توقف عليه حفظ العلم عن الضياع . وفى الكنز للأستاذ البكرى : وتصنيف العلم مستحب ، كذا ذكره الشروانى عن ابن قاسم . وكتابة العلم مستحبة ، وقيل واجبة ، وهو وجيه فى الأزمنة المتأخرة وإلا لضاع العلم ، وإذا وجبت كتابة الوثائق لحفظ الحقوق فالعلم أولى كما ذكره العلامة ابن حجر أيضا (ولم يستمله منه) أى لم يطلب بالإقبال على هذا المختصر من الشيخ (إلا خواص أصحابه) وهم المفضلون بالعقل الصافى والفهم الثاقب حتى لا تزلزل عقائدهم شبهة كما قاله الجرهزى (وهو) أى الكتاب المختصر : أى مضمونه (الحمد) هو لغة: الثناء . واصطلاحا : فعل ينبي عن تعظيم المنعم لإنعامه قولا أو فعلا أو اعتقادا مملوك (لله) فلا فرد منه لغيره تعالى وإن انتقم .

افتتح رحمه الله بعد التيمن بالبسملة بحمد الله تعالى أداء لحق شيء مما يجب عليه شكر نعمائه التى تأليف هذا الكتاب أثر من آثارها ، واقتداء بالكتاب العزيز وعملا بخبر « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع. وفى رواية: بالحمد لله ، وفى رواية: بحمد الله، وفى رواية: بالحمد ، وفى رواية: كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » . رواه أبو داود وغيره وحسنه ابن الصلاح وغيره . قال بعضهم : الحمد تعتريه أحكام أربعة : الوجوب كالحمد فى العمر مرة عند المالكية كالحج وكلمتى الشهادة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى خطبة الجمعة عند الشافعية . والندب كالحمد فى خطبة النكاح ، وفى ابتداء الدعاء وبعد الأكل والشرب . والكراهة كالحمد فى المواضع القذرة كالمجزرة والمزبلة والحرمة . كالحمد عند الفرح بوقوع المعصية ، كذا فى حاشية العشماوية (الملك) أى المتصرف فى جميع الموجودات بالأمر والنهى كما قاله الشبراملسي ، وقيل : هو الذى يستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود (الحكيم) فى صنعه : أى الذى يكون مصيبا فى التقدير ومحسنا فى التدبير ، وقيل ذو الحكمة : وهى عبارة عن كمال العلم وإحسان العمل . وقيل مبالغة فى الحاكم (الجواد) بتخفيف الواو : أى الواسع العطاء . وقيل : المتفضل بالنعم قبل استحقاقها ، المتكفل للأمم بأرزاقها . وقيل: الكثير الجود : أى العطاء .

وقد أخرج الترمذى فى جامعه حديثا مرفوعا ذكر فيه عن الرب سبحانه وتعالى أنه قال « وذلك أنى جواد ماجد » ويجمع على أجواد وأجاويد وجود كما ذكره الخطيب فى شرح المنهاج (الكريم) أى الذى لا تنقطع نعمه العظمى عمن التجأ إليه فى مهماته التى من جملتها تيسير مثل

الْعزِيزِ الرَّحيمِ ، الَّذِى خَلقَ الْإِنْسَانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيم ، وفَطَرَ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ وَدَبَّرَ الْأُمُورَ فى الدَّارَيْنِ بِحِكْمَتِهِ ، وَمَا خَلَقَ الجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِعِبَادَتِهِ . فَالطَّرِيقُ إِلَيْهِ وَاضِحٌ لِلْقَاصِدِينَ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ لاَئِحٌ لِلنَّاظِرِينَ ،

هذا الكتاب ، بل ولا عمن أعرض عن طاعته وشكره ، كما قاله العلامة ابن حجر فى شرح الأربعين . وقيل هو الذى يعطى من غير منة ، ومن كرمه تلقين الجواب حالة العتاب فى قوله تعالى «يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم» . ولا جواب له هنا سوى قوله : كرمك يارب (العزيز) أى الغالب على أمره ، فلا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده . وقيل : هو عديم المثل فيرجع إلى التنزيه ؛ والعزة فى الأصل : القوة والشدة والغلبة . تقول : عزّ يعز بالكسر : إذا صار عزيزا ، وعز يعز بالفتح : إذا اشتد (الرحيم) أى الرفيق بتعطف ، ذى الرحمة الكثيرة (الذى خلق الإنسان) أى جنسه (فى أحسن تقويم) أى تعديل لصورته ، لأنه تعالى خلق كل ذى روح مكبا على وجهه إلا الإنسان فإنه مديد القامة ، يتناول مأكوله بيده ، مزين بالعلم والفهم والعقل وغير ذلك ، فهو أحسن بحسب الظاهر والباطن ، وهذا مقتبس من قوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» (وفطر السموات والأرض) أي خلقهما بغير مثال ، وإنما جمع السماء لاختلافها بالآثار والحركات فى الحس وتباينها فى الجنس ، كما ورد فى كتاب المعراج ، للأستاذ القشيرى : إن السماء الأولى موج مكفوف : أى محبوس ، والثانية من نحاس ، والثالثة من الفضة ، والرابعة من الذهب ، والخامسة من الياقوت ، والسادسة من زمرذ ، والسابعة من نور ، وجمعها باعتبار كونها أفلاك الكواكب السبعة السيارة ، وقدمها لشرفها وعلوّ مكانها ، كذا نقله ابن الدابغى عن السعد فى حواشي الأربعين . قال النووي : والجمهور على تفضيل السماء على الأرض : أي ماعدا البقعة الشريفة النبوية (بقدرته) وإرادته (ودبر الأمور) أى أوجدها على وجه محكم متقن ، هذا معناه إن أضيف إلى الله كما هنا ، وإن أضيف إلى العبد فمعناه النظر فى عواقب الأمور (فى الدارين) أى فى الدنيا والآخرة (بحكمته) فلا يخلو شيء من المخلوقات عن الحكمة كما هو مذكور فى التنزيل (وما خلق الجن والإنس إلا لعبادته) أى إلا مهيئين ومستعدين لعبادته ، بأن خلق فيهم العقل والحواس والقدرة التى تتحصل بها العبادة ، وهذا لا ينافى تخلف العبادة بالفعل من بعضهم ؛ لأن هذا البعض وإن لم يعبد الله لكن فيه التهيؤ والاستعداد ، ولا يخفى أن هذا منتزع من قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ولعل تقديم خلق الجن فى الذكر لتقدمه على خلق الإنس فى الوجود كما نقله بعض المفسرين (فالطريق إليه) أى إلى خدمته وطاعته (واضح للقاصدين ، والدليل عليه) أي على وحدانيته (لائح) أى ظاهر (للناظرين) بقلوبهم نظر اعتبار . قال الشاعر :

أيا عجبا كيف يعصي الإلــه أم كيف يجحده جاحد

وَلَـٰكِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . والصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ،

وله في كل تحريكة وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(ولـكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (وهو أعلم) أى عالم ، لأن المقدورات بالنسبة إلى قدرته تعالى لا تتفاوت (بالمهتدين) أى بمن هو أهل للهداية (والصلاة) أى الرحمة المقرونة بالتعظيم (على سيد المرسلين) أى أشرفهم وأفضلهم ؛ وإذا كان أشرف المرسلين الذين هم أفضل الخلق فهو أشرف من غيرهم بالأولى ، فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق على الإطلاق ، وقد حكى الفخر الرازى الإجماع خلافا للزمخشرى فى تفسير كشافه حيث شذ بتفضيل جبريل عليه صلى الله عليه وسلم مستدلا بقوله تعالى « إنه لقول رسول كريم » الآية . حيث عدّ فيه فضائل جبريل فإنه وصف فيه بأنه رسول كريم إلى قوله « أمين » واقتصر على نفى الجنون عنه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالي « وما صاحبـكم بمجنون » . وقد خرق فى ذلك الاجماع ولا دلالة فى الآية لما ادعاه ، لأن المقصود منها نفى قولهم « إنما يعلمه بشر » وقوله « أفترى على الله كذبا أم به جنة » وليس المقصود المفاضلة بينهما ، وإنما هو شىء اقتضاه الحال ، ولا عبرة بما قد يتوهم من تفضيل جبريل عليه لـكونه كان يعلمه صلى الله عليه وسلم ، فـكم من معلم بالفتح أفضل من معلم بالـكسر ؛ على أنه قد ذكر الشيخ ابن العربى فى الفتوحات أن القرآن أنزل عليه صلى الله عليه وسلم قبل نزول جبريل به عليه ، لـكن قال الشعرانى بعد أن نقل ذلك عنه : وفيه نظر ، ولم أطلع على ذلك فى حديث والله أعلم . قال بعضهم : ولولا أنه تاب لـكان حقيقا بالعذاب ، وما ورد من النهى عن تفضيله صلى الله عليه وسلم كقوله « لاتفضلونى عن الأنبياء » وقوله « لاتفضلونى على يونس ابن متى » . وقوله « لاتخيرونى على موسى » ونحو ذلك فمحمول على تفضيل يؤدى إلى تنقيص غيره من الأنبياء ، أو أنه قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، ويحتمل أنه قاله تأدبا وتواضعا . وقيل معنى «لاتفضلونى على يونس بن متى » لاتعتقدوا أنى أقرب إلى الله من يونس فى الحس حيث ناجيت الله فوق السموات السبع وهو ناجى ربه فى بطن الحوت فى قاع البحر لتنزهه تعالى عن الجهة والمـكان ، فيستوى فى حقه من فوق السموات ومن فى قاع البحار ، وعدم التفضيل بهذا الاعتبار لاينافى أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الجميع ، وقد قال عليه الصلاة والسـلام « أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر أعظم من ذلك » أو ولا أقول فخرا ، بل تحدثا بالنعمة ، كـذا فى تحفة المريد . قال بعضهم : وتفضيله صلى الله عليه وسلم ليس لمزيه زائدة فيه على غيره ، وإنما ذلك من الله تعالى ، إذ للسيد أن يفضل من عبيده من شاء على من شاء : أى ففضله ذاتى لا كسبى كما قاله عبد الـكريم الدمياطى .

وَعَلَى آلِهِ الأَبْرَارِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، وَسَلِّمْ وَعَظِّمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

واعلم أن النبي ينتفع بصلاتنا عليه ، لكن لا ينبغي للمصلي أن يقصد ذلك ، وإنما يقصد نفع نفسه كما يزداد نفعه بتكرر العمل بالأحكام الشرعية الواردة عنه ، وكذلك الشيخ إذا علم إنسانا حكما فصار يعمل به ويعلمه للناس فإنه يزداد نفعه بتكرر العمل به كما قاله القطب الدسوقي وغيره .

﴿ فائدة ﴾ هل تجوز قراءة الفاتحة للنبي صلي الله عليه وسلم أولا ؟ قال الأجهوري : لانص في هذه المسئلة عندنا : أي معاشر المالكية ، والمعتمد عند الشافعية جواز ذلك فنرجع لمذهبهم فلا يحرم عندنا والكامل يقبل زيادة الكمال قاله الشيخ أحمد بن تركي في حاشية الخرشي (وعلي آله) أي أتباعه ، إذ هي أحد معنى الآل في مقام الدعاء فلا يرد على المصنف إهمال الصلاة على الأصحاب مع استحبابها عليهم كالآل ، بل فيه إيهام حسن لايخفي على أرباب الكمال ، وهو المسمى بالتورية أيضا في الاصطلاح ، وهو أن يكون للفظ معنيان : قريب ، وبعيد ، فيراد البعيد لقرينة خفية ، فالمعنى القريب المتبادر من آل النبي صلى الله عليه وسلم أهل بيته ، والمعنى البعيد بالنسبة إليه الأتباع ، والقرينة على إرادته قيل مقام الدعاء ، وقيل حال المصنف فإنها تقتضي أنه لم يهمل الأصحاب وأنه أراد بالآل مايعمهم فيكون إيهاما ، والمراد بكون هذا الإيهام الموجود هنا حسنا أنه زائد في الحسن ، وإلا فكل إيهام حسن لأنه من المحسنات البديعية كما أفاده الصبان في حواشيه على شرح العصام (الأبرار) جمع بارّ كما في القاموس : وهو الكثير البر كالصلة والإحسان ، أفاده الجرهزي في خريدته . والبر بالكسر : اسم جامع للخير والصدق . وقال الحسن : هم الذين لايؤذون الذر ولا يرضون الشر (الطيبين) أي الخالصين من شوائب الكدورات (الطاهرين) أي الخالصين من النقائص الحسية والمعنوية (وسلم) أي سلمه الله من النقائص ، وهو إما من التسليم وهي زيادة التحية والاكرام ، أو من السلامة وهي بمعنى السلامة من النقائص بمعنى لازمها وهو طلب الكمال بمعنى زيادته ، لأن الكامل يقبل الكمال زيادة على كماله ، أو السلام بمعنى الأمان : أي أمان الله عليه . فإن قلت تفسير السلام بالأمان يقتضي حصول الخوف له صلى الله عليه وسلم مع أن الجنة لم تخلق إلا لأجله ، بل الأشياء كلها لم تخلق إلا لأجله صلي الله عليه وسلم . فالجواب أن خوفه خوف إجلال وتعظيم لاخوف عقاب ، ذكره العلامة يوسف في حاشية العشماوية (وعظم) أي عظمه عليه الصلاة والسلام في الدنيا باعلاء ذكره إظهار دعوته وإبقاء شريعته ، وفي الآخرة بشفاعته في أمته وغير ذلك (إلى يوم الدين) أي والصلاة وما بعدها كائنة إلى يوم الدين ، والغرض من ذلك التعميم في جميع الأوقات على طريق الكناية كما هو عادة العرب كما جرى عليه الأخضري . والدين يطلق في اللغة على معان كثيرة المناسب منها هنا الجزاء : أي إلى يوم الجزاء وهو يوم القيامة . والجزاء إيصال مايليق بكل عامل إليه وفي الاصطلاح المسائل التي أتى بها النبي صلي الله عليه وسلم ، وأموره : أي علاماته الدالة على وجوده في الشخص أربعة : صدق القصد : أي أداء العبادة بالنية والاخلاص ، والوفاء بالعهد : أي الإتيان بالواجبات ، وترك

أَعْلَمُوا إخْوَانى أَسْعَدَكُمُ اللهُ وَإِيَّاىَ بِمَرْضَاتِهِ أَنَّ الْعِبَادَةَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ وَفَائِدَةُ الْعُمُرِ وَحَاصِلُ الْعَبِيدِ الْأَقْوِيَاءِ وَبِضَاعَةُ الْأَوْلِيَاءِ

النهى : أى اجتناب الحرام ، وصحة العقد : أى جزمه بما عليه أهل السنة من التوحيد ، كذا ذكره الحجازى (اعلموا) نزل المصنف رحمه الله تعالى لفظة اعلم المسند لضمير الجمع منزلة «أما بعد» فى الدلالة على الشروع فى المقصود لنكتة حسنة ، وهى التنبيه على أن غير العلم لا يطلبه العاقل ولا يرضاه سببا : أى حرفة وصنعة ، لأن فى الأشتغال بالعلم مع الإخلاص سعادة الدارين خصوصا العلم الموصل إلى معرفة الله تعالى ، وبهذا يجاب عن الاعتراض على المصنف فى مخالفته لغيره فى تعبيره بذلك دون أما بعد ، وحاصل ذلك الاعتراض أن الاتباع خير من الابتداع . فحاصل الجواب أن ذلك الابتداع للنكتة المذكورة فتأمل (إخوانى) أى يا إخوانى فهو نداء تعطف وشفقة ليكون أدعى إلى الامتثال والقبول . قال الله تعالى «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» والإخوان بكسر الهمزة على الأشهر وضمها لغة ضعيفة جمع أخ ، والأخ يطلق على من شاركك فى رحم أو فى صلب أو فيهما معا أو فى رضاع ، ويطلق على من شاركك فى صفة حميدة كالإسلام ، وهو المراد هنا وأكثر ما يجمع أخ على إخوان فى الصدقة ، وفى النسب على إخوة ؛ وقد يجمع أخ على إخوة فى الصداقة ، ومنه قوله تعالى «إنما المؤمنون إخوة» قاله العلامة يوسف فى حواشى العشماوية (أسعدكم الله) أى أعطاكم الله السعادة (وإياى بمرضاته) جملة دعائية (أن العبادة) وهى القيام بالفعل المطلوب شرعا (ثمرة العلم) الذى هو الأصل الأعظم فى كل مقام من مقامات الإيمان ، ولولاه لم تكن عبادة (وفائدة العمر) النفيس ، وبهذا يعلم أن العمر الخالى عن العبادة لا ينال فائدة ولا نفعا ، بل الخسران مآله ومرجعه وهو ظاهر (وحاصل العبيد) أى ما يحصل لهم من اجتهادهم فى طلبها وهو بمعنى العباد جمع عابد من العبادة بمعنى الخدمة والطاعة إلا أنه أبلغ كما ذكره الفاسى (الأقوياء) جمع قوىّ ضد الضعيف : وهم من بذلوا نفوسهم فى الطاعة يبتغون فضلا من الله تعالى (وبضاعة الأولياء) والبضاعة فى الأصل : قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة . قاله العلامة الزبيدى . والأولياء جمع ولىّ : وهو العارف بالله وصفاته حسبما يمكن المواظب على الطاعات ، المجتنب المعاصى ، والمعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات كما قاله العلامة ابن المدابغى نقلا عن السعد ، ففعيل بمعنى فاعل ؛ وعلم منه أن تعاطى الشهوات لا ينافى الولاية ، أو من تولى الله أمره فلم يكله لنفسه ، ففعيل بمعنى مفعول . قال الأستاذ أبو القاسم : الولى له معنيان : أحدهما فعيل بمعنى مفعول ، وهو من يتولى الله سبحانه أمره . قال الله تعالى «وهو يتولى الصالحين» فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولى الحق سبحانه رعايته ، والثانى فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذى يتولى عبادة الله تعالى وطاعته ، فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولى وليا يجب قيامه بحقوق الله تعالى على

الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله تعالى إياه فى السراء والضراء ، ومن شرط الولىّ أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما ، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع ، قال سمعت الأستاذ أبا علىّ الدقاق يقول : قصد أبو يزيد البسطامي بعض من وصف بالولاية فلما وافى مسجده قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتنحم فى المسجد فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه . وقال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة ، فكيف يكون أمينا على أسرار الحق التى وهبها لأوليائه . قال شيخ الإسلام : والغرض من ذلك تحذير الناس من الاغترار بجمال الأفعال وحسن المقال ، وجريان خوارق العادات ، وانتشار الثناء ، وشيوع الذكر فى الخلق من غير استقامة ؛ فلا يراعى فى الولىّ إلا الاستقامة على ما ثبت بالأدلة الصحيحة وجريان خوارق العادة على يد العبد لا يدل على ولايته ، بل قد يكون ممكورا به وكذابا على ربه ، ويكفى فى ذلك دليلا خروج الدجال فى آخر الزمان ومعه جنة ونار ويحي ويميت ، وهو عدوّ الرحمن . قال الأستاذ أبو القاسم : واختلفوا فى أن الولىّ هل يجوز أن يعلم أنه ولىّ أم لا ؟ فمنهم من قال لا يجوز ذلك ، وقال إن الولىّ يلاحظ نفسه بعين التصغير ، وإن ظهر عليه شىء من الكرامات خاف أن يكون مكرا ، وهو يستشعر الخوف دائما أبدا ، وإنما يخاف سقوطه عما هو فيه وأن تكون عاقبته بخلاف حاله ، وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية وفاء المآل ، وقد ورد فى هذا الباب حكايات كثيرة عن الشيوخ ، وإليه ذهب من شيوخ هذه الطائفة جماعة لا يحصون ، ولو اشتغلنا بذكر ما قالوا لخرجنا عن حد الاختصار ، ومنهم من قال يجوز أن يعلم الولىّ أنه ولىّ ، وليس من شرط الولاية فى الحال الوفاء فى المآل ؛ ثم إن كان ذلك من شرطه أيضا فيجوز أن يكون هذا الولىّ خص بكرامة هى تعريف الحق إياه أنه مأمون العاقبة ، إذ القول بجواز كرامات الأولياء واجب ، وهو وإن فارقه خوف العاقبة فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والإجلال فى الحال أتم وأشد . فإن اليسير من التعظيم والهيبة أهدى للقلوب من كثير من الخوف ، ولما قال صلى الله عليه وسلم « عشرة في الجنة من أصحابه » فالعشرة لا محالة صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفوا سلامة عاقبتهم ثم لم يقدح ذلك فى حالهم ، ولأن من شرط صحة المعرفة بالنبوة الوقوف على حد المعجزة ، ويدخل فى جملته العلم بحقيقة الكرامات ، فإذا رأى الكرامات ظاهرة عليه لا يمكنه أن لا يميز بينها وبين غيرها ، فإذا رأى شيئا من ذلك علم أنه في الحال على الحق ؛ ثم يجوز أنه يعرف أنه فى المآل يبقى على هذه الحالة ويكون هذا التعريف كرامة له ، والقول بكرامات الأولياء صحيح وكثير من حكايات القوم تدل على ذلك كما هو مبسوط في محله ، وإلى هذا القول كان يذهب من الشيوخ الأستاذ أبو على الدقاق رحمه الله تعالى . وقيل : إن إبراهيم بن أدهم قال لرجل أتحب أن تكون لله وليا ؟ فقال نعم ، فقال لا ترغب فى شيء من الدنيا والآخرة ، وفرّغ نفسك لله تعالى وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك . وقال يحي بن معاذ فى صفة الأولياء :

هم عباد تسربلوا بالأنس بعد المكابدة ، واعتنقوا الروح بعد المجاهدة بوصولهم إلى مقام الولاية . قال الأستاذ أبو القاسم : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى، يقول: سمعت منصور بن عبد الله ، يقول: سمعت عمى البسطامي يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا يزيد يقول : أولياء الله عرائس الله تعالى ولا يرى العرائس إلا المحرمون فهم مخدرون عنده فى حجاب الأنس لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة ، قال : سمعت أبا بكر الصيدلانى ؛ وكان رجلا صالحا قال : كنت أصلح اللوح في قبر أبى بكر الطمستانى أنقر فيه اسمه فى مقبرة الحيرة كثيرا ؛ وكان يقام ذلك اللوح ، ويسرق ولم يقلع من غيره من القبور فكنت أتعجب منه فسألت الأستاذ أبا علىّ الدقاق رحمه الله يوما عن ذلك فقال إن ذلك الشيخ آثر الخفاء في الدنيا ، وأنت تريد أن تشهر قبره باللوح الذى تصلحه فيه ، وأن الحق سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره كما آثر هو ستر نفسه . وقال أبو عثمان المغربى الولىّ قد يكون مشهورا ولكن لا يكون مفتونا بأن تكون شهرته بركة عليه وعلى غيره بأن لا تشغله عن ربه فيسعد بها وتضاعف أعماله بكثرة من يقتدى به ، بخلاف من أشغلته شهرته عن ربه فإنه يكون مفتونا بها ، وكان النصراباذى يقول : ليس للأولياء فى أغلب أحوالهم سؤال بألسنتهم ، إنما هو : أى سؤالهم فى بواطنهم الذبول والخمول والتذلل تحت جريان المقادير والرضى بما يجريه الحق عليهم فأ كثر أعمالهم بقلوبهم لأنها محل نظر ربهم ، ولأن أعمالها أشد من أعمال الجوارح ، وكان أيضا يقول : نهايات الأولياء بدايات الأنبياء . وقال سهل بن عبد الله : الولىّ الذى توالت أفعاله على الموافقة وقال يحي بن معاذ : الولىّ لا يرائى ولا ينافق ، وما أقلّ صديق من كان هذا حاله . وقال أبو على الجوزجانى : الولىّ هو الفانى فى حاله ، الباقى فى مشاهدة الحق سبحانه تولى الله سياسته فتوالت عليه أنوار التولى لم يكن له عن نفسه أخبار ، ولا مع غير الله قرار . وقال أبو يزيد : حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء ، وقيام كل فريق منهم باسم منها وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فمتى فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام ، فمن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته ، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى فى السرائر من أنواره ، ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق ، ومن كان حظه من اسمه الآخر كان مرتبطا بما يستقبله ، وكلّ كوشف على قدر طاقته إلا من تولاه الحق سبحانه ببره ، وقام عنه بنفسه ، وهذا الذى قاله أبو يزيد يشير إلى أن الخواصّ من عباده ارتقوا عن هذه الأقسام فلا العواقب هم فى ذكرها ، ولا السوابق هم فى فكرها ، ولا الطوارق هم فى أسرها ، وكذا أصحاب الحقائق يكونون محوا عن نعوت الخلائق . قال الله تعالى « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود » وقال يحي بن معاذ : الولىّ ريحان الله تعالى فى الأرض يشمه الصديقون فتصل رائحته إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم ويزدادون عبادة على تفاوت أحوالهم ، وسئل الواسطى كيف يغذي الوليّ فى ولايته ، فقال فى بدايته بعبادته وفى كهولته بستره بلطافته ثم يجذبه إلي ما سبق له من نعوته وصفاته ، ثم يذيقه طعم قيامه به فى أوقاته . وقيل علامة الولى ثلاثة : شغله بالله تعالى

وَطَرِيقُ الْأَتْقِيَاءِ وَقِسْمَةُ الْأَعِزَّةِ وَمَقْصِدُ ذَوِي الْهِمَّةِ وَشِعَارُ الْكِرَامِ ، وَحِرْفَةُ الرِّجَالِ وَاخْتِيَارُ أُولِي الْأَبْصَارِ وَهِيَ سَبِيلُ السَّعَادَةِ وَمِنْهَاجُ الْجَنَّةِ

وفراره إلى الله تعالى وهمه إلى الله عز وجل . قال الخراز : إذا أراد الله تعالى أن يوالى عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره ، فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجالس الأنس به ثم أجلسه على كرسى التوحيد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة ، فاذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو ، فحينئذ صار العبد زمنا فانيا فوقع فى حفظه سبحانه وبرئ من دعاوى نفسه .وقال أبو تراب النخشبيّ : إذا ألف القلب الإعراض عن الله تعالى صحبته الوقيعة فى أولياء الله تعالى ، ويقال صفة الوليّ أن لا يكون له خوف لأن الخوف ترقب مكروه يحل فى المستقبل أو انتظار محبوب يفوت فى المستأنف والولى ابن وقته ليس له مستقبل فيخاف شيئا وكما لاخوف له لا رجاء له ، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل أو مكروه يكشف وذلك فى الثانى من الوقت ، وكذلك لا حزن له ؟ ، لأن الحزن من حزونة الوقت ، ومن كان فى ضياء الرضى وبرد الموافقة فأنى يكون له حزن ؟. قال الله تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (وطريق الأتقياء) أي المؤمنين الموصوفين بالتقوى (وقسمة الأعزة) جمع عزيز ويجمع أيضا على عزائز وعلى أعزاء ويطلق العزيز على معان ، منها أنه الذى لا مثل له فى عصره وهو المناسب هنا كما قيل (ومقصد ذوى الهمة) العلية والهمة قوة راسخة في النفس طالبة لمعالى الأمور كما أفادة الزبيدى (وشعار الكرام) أى علامتهم ، جمع كريم ، وهو الجامع لأنواع الشرف وأوصاف الكمال أو هو المتصف بصفة تصدر عنها الأمور كالإعطاء ونحوه بسهولة أو هو شريف الأصل أو هو المفضل على غيره بحكم من الله كما نقله بعضهم عن الفاسى فى شرح الدلائل ، ومطلق الكريم في اللغة ضد اللئيم كما يؤخذ من المختار (وحرفة الرجال) الأعلام : أى صناعتهم ومعاملتهم (واختيار أولى الأبصار) أى أصحاب الأبصار والبصائر (وهى) أى العبادة (سبيل السعادة) الأبدية فى الدار الآخرة ، وهى الموت على الإيمان ، ويترتب عليها الخلود في الجنة : قال الله تعالى « وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها » كما قاله الشمس الرملى في غاية البيان (ومنهاج الجنة) أى طريقها الموصلة إليها . قال القشيرى في الرسالة : سمعت أبا علىّ الدقاق رحمه الله تعالى يقول : العبودية أتمّ من العبادة فأولا عبادة ، ثم عبودية ، ثم عبودة ، فالعبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخاص الخاص اه . قال شيخ الاسلام زكريا وكونها لخاص الخاص لكمال معرفته بربه حيث أتى بما طلب منه ، ورأى نفسه محلا لجريان قضاء الله فيه ولتوفيقه له في فعل ما طلب منه فقلبه أقرب إلى مقام الجمع ، وهو إفراد الحق بالفعل من الثانى ، لأن الثانى شاهد لنفسه كسبا واختيارا وإن كان مفتقرا لعون ربه فيما يختاره ، والأول أقرب إلى مقام التفرقة لكونه يرى نفسه عابدا محسنا مطيعا ويطلب الجزاء على عمله : وقال أيضا العبودية : هى التبرى

قالَ اللهُ تَعَالَى : وَأَنَا رَبُّكُمْ فاعْبُدُونِ . وقالَ تَعالَى : إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا . ثُمَّ إِنَّا نَظَرْنَا فِيهَا وَتَأَمَّلْنَا طَرِيقَهَا مِنْ مَبَادِيهَا إِلَى مَقَاصِدِهَا الَّتِي هِيَ أَمَانِي سَالِكِيهَا ، فَإِذَا هِيَ طَرِيقٌ وَعْرٌ وَسَبِيلٌ صَعْبٌ كَثِيرَةُ الْعَقَبَاتِ ، شَدِيدَةُ الْمَشَقَّاتِ بَعِيدَةُ الْمَسَافَاتِ ، عَظِيمَةُ الآفَاتِ كَثِيرَةُ الْعَوَائِقِ وَالْمَوَانِعِ ، حَفِيفَةُ الْمَهَالِكِ وَالْمَقَاطِعِ غَزِيرَةُ الْأَعْدَاءِ وَالْقُطَّاعِ ، عَزِيزَةُ الْأَشْيَاعِ وَالْأَتْبَاعِ ، وَهٰكَذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لِأَنَّهَا طَرِيقُ الْجَنَّةِ فَيَصِيرُ هٰذَا تَصْدِيقًا لِمَا قَالَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ .

من الحول والقوة في عبادته وأصلها العبادة ، وبهذا علم أن كلام المصنف رحمه الله يشمل العبودية فليتأمل (قال الله تعالى : وأنا ربكم فاعبدون) وقال عز من قائل « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (وقال تعالى إن هذا) أي نعيم الجنة (كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) أي مرضيا مقبولا مقابلا بالثواب كما نقله الجمل عن الكرخي (ثم إنا نظرنا فيها) أي العبادة (وتأملنا طريقها من مباديها) أي من أوائلها (إلى مقاصدها) وهي سعادة القرب من الرب عز وجل (التي هي أماني سالكيها) أي مطالبهم . والأماني جمع أمنية بتشديد الياء فيهما وتخفيفها فيهما ، وهو في الأصل ما يقدّر الانسان في نفسه ، من منى إذا قدر ، ولذلك تطلق على الكذب ، وعلى مايتمنى وما يقرأ وما يطلب كما قاله السمين (فاذا هي طريق وعر) أي صعب على السالك (وسبيل صعب) أي عسير في المدارك (كثيرة العقبات) وهي في الأصل الثنايا بين الجبال (شديدة المشقات بعيدة المسافات عظيمة الآفات كثيرة العوائق) أي الشواغل عن العبادة . قال في القاموس : عوائق الدهر : الشواغل من أحداثه (والموانع) عطف تفسير (حفيفة المهالك والمقاطع) أي محفوفة بهما (غزيرة الأعداء) ومعنى الغزارة الكثرة (والقطاع) وهم الذين يخيفون المارة بالإضرار والإتلاف (عزيزة الأشياع) أي قليلة الأتباع جدا . وفي المختار : وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع . وقوله تعالى « كما فعل بأشياعهم » أي بأمثالهم . قال القرطبي : والأشياع جمع شيع ، وشيع جمع شيعة ، فالأشياع جمع الجمع (والأتباع) عطف تفسير وهو بفتح الهمزة جمع تبع كسبب وأسباب ، ولا يخفى أن بين الغزيرة والعزيزة وبين الأشياع والأتباع جناس مصحف ، وهو اختلاف الحروف في النقط ، ومثله حديث الصحيحين « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » (وهكذا يجب) أي يحق (أن تكون) أي توجد تلك العبادة (لأنها طريق الجنة فيصير هذا) أي كون طريق العبادة على الصفات المذكورة من الوعر وغيره (تصديقا لما قاله صلى الله عليه وسلم : ألا) بفتح الهمزة والتخفيف حرف افتتاح معناه التنبيه (وإن الجنة حفت) بضم الحاء ، أي أحيطت (بالمكاره وإن النار حفت بالشهوات)

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : أَلاَ وَإِنَّ الْجَنَّةَ حَزْنٌ بِرُبْوَةٍ أَلاَ وَإِنَّ النَّارَ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ

هكذا رواه مسلم حفت ووقع للبخارى حفت ووقع فيه أيضا حجبت وكلاهما صحيح ومعناه لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره ، والنار إلا بارتكاب الشهوات ، وكذلك هما محجوبتان بهما ، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب ، فهتك حجاب الجنة : اقتحام المكاره ، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات . قال القرطبى فى التذكرة قال العلماء : والمكاره كل ما يشق على النفس فعله ويصعب عليها عمله كالطهارة فى شدة البرد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على ما يقاسيه من أهل المنكر ، والصبر على المصائب وجميع المكروهات اه فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادة والمواظبة عليها ، والصبر على مشقاتها ، وكظم الغيظ ، والحلم ، والصدقة ، والاحسان إلى المسيء والصبر عن الشهوات ؛ كذا قاله النووى ، وأطلق عليها مكاره لمشقتها على العامل وصعوبتها عليه قاله القسطلانى ، وأما الشهوات التى النار محفوفة بها ، فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك ، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه ، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجره إلى المحرمة أو يقسى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك كما قاله في شرح مسلم وأصل الحفاف هو الدائر بالشيء المحيط به الذى لا يتوصل إليه إلا بعد أن يتخطى ، وأما معنى الشهوات فهو كل ما يوافق هوى النفس ويلائمها وتدعو إليه ويوافقها كترك الطهارة عند النوم في البرد وترك التورّع فى المأكل والمنطق ونحوه ، كذا ذكره القرطبى ، وهذا الحديث من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس والحضّ على الطاعات وإن كرهتها النفوس وشقت عليها ، وفي رواية للترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما خلق الله الجنة أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاء جبريل عليه السلام ونظر إليها وإلى ما أعده الله تعالى لأهلها فيها قال : فيرجع إليه ، فقال فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، وقال : ارجع إليها فانظر ما أعددت لأهلها فيها ، قال فرجع إليها فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه سبحانه وتعالى وقال فوعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، ثم قال له اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فإذا هى يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه فقال : فوعزتك لقد خفت أن لا يسمع بها أحد فيدخلها فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال ارجع إليها فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها . (وقال صلى الله عليه وسلم ألا وإن الجنة) أى إن عملها الذى يوصل إليها كما في الجامع الصغير (حزن) أى صعب شاق على النفس (بربوة) بضم الراء أفصح من فتحها وكسرها : أى بمكان مرتفع فلا يصله الشخص إلا بمشقة كما في الخبر السابق «حفت الجنة بالمكاره» (ألا وإن النار) أى إن عمل النار الموصل إليها (سهل) أى على النفس لموافقته لشهواتها (بسهوة) بسين مهملة ، أى بأرض لينة ، قال في النهاية : السهوة : الأرض اللينة التربة ، شبه المعصية في

سهولتها على مرتكبها بالأرض السهلة التي لا خشونة فيها ، وهذا بعض حديث طويل رواه ابن سعد في الطبقات والبيهقي في شعب الإيمان عن أبى البجير ، وذكره السيوطى في الجامع الصغير بطوله وضعفه .

(فائدة) قد رخص في سوق الحديث بالمعنى دون سياقه على اللفظ جماعة منهم : على ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وأبو الدرداء ، وواثلة بن الأسقع ، وأبو هريرة رضى الله عنهم ، ثم جماعة من التابعين يكثر عددهم : منهم إمام الأئمة الحسن البصرى ثم الشعبي وعمرو بن دينار وإبراهيم النخعى ومجاهد وعكرمة ، نقل ذلك عنهم في كتب سيرهم بأخبار مختلفة الألفاظ . وقال ابن سيرين : كنت أسمع الحديث من عشرة ، المعنى واحد والألفاظ مختلفة ، وكذلك اختلفت ألفاظ الصحابة في رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من يرويه تاما ، ومنهم من يأتى بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصرا ، وبعضهم يغاير بين اللفظين ويراه واسعا إذا لم يخالف المعنى وكلهم لا يتعمد الكذب وجميعهم يقصد الصدق ومعنى ما سمع ، فلذلك وسعهم وكانوا يقولون إنما الكذب على من تعمده ، وقد روى عن عمران بن مسلم قال : قال رجل للحسن يا أبا سعيد إنك تحدث بالحديث أنت أحسن له سياقا وأجود تحبيرا وأفصح به لسانا منه إذا حدثنا به ، فقال إذا أصبت المعنى فلا بأس بذلك ، وقد قال النضر بن شميل : كان هشيم لحانا فكسوت لكم حديثا كسوة حسنة ، يعنى بالإعراب ، وكان النضر نحويا ، وكان سفيان يقول : إذا رأيتم الرجل يشدد في ألفاظ الحديث في المجلس فاعلم أنه يقول : اعرفونى ، قال وجعل رجل يسأل يحيى بن سعيد القطان عن حرف في الحديث على لفظه ، فقال له يحيى : يا هذا ليس في الدنيا أجلّ من كتاب الله قد رخص للقراءة فيه بالكلمة على سبعة أحرف فلا تشدد ، وفي شرح التقريب للحافظ السيوطى فى النوع السادس والعشرين في الفرع الرابع منه مانصه مع بعض اختصار : إن لم يكن الراوى عالما بالألفاظ خبيرا بما يحيل معانيها لم تجزله الرواية لما سمعه بالمعنى بلا خلاف ، بل يتعين اللفظ الذى سمعه ، فإن كان عالما بذلك ، فقالت طائفة من أهل الحديث والفقه والأصول لا يجوز إلا بلفظه ، وإليه ذهب ابن سيرين وثعلب وأبو بكر الرازى من الحنفية ، وروى عن ابن عمرو قال جمهور السلف والخلف من الطوائف ، منهم الأئمة الأربعة : يجوز بالمعنى في جميع ذلك إذا قطع بأداء المعنى لأن ذلك هو الذى يشهد به أحوال الصحابة والسلف ، ويدل عليه روايتهم اللفظة الواحدة بألفاظ مختلفة ، وقد ورد في المسئلة حديث مرفوع رواه ابن منده في معرفة الصحابة والطبرانى في الكبير من حديث عبد الله بن سليمان بن أكثم الليثى قال : قلت يارسول الله إنى إذا سمعت منك الحديث لا أستطيع أن أرويه كما أسمع منك يزيد حرفا أو ينقص حرفا ، فقال إذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس ، فذكر ذلك للحسن ، فقال لولا هذا ما حدثنا ، وقد استدل الشافعى لذلك بحديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » : وروى البيهقى عن مكحول قال : دخلت أنا

ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ ضَعِيفٌ، وَالزَّمَانُ صَعْبٌ، وَأَمْرُ الدِّينِ مُتَرَاجِعٌ

وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع ، فقلنا له حدثنا بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس فيه وهم ولا تزيد ولا نسيان ، فقال هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئا ؟ فقلنا نعم وما نحن له بحافظين جدا إنا لنزيد الواو والألف وننقص ، قال فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألونه حفظا ، وإنكم تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم عسى أن لا يكون سمعنا لها منه إلا مرة واحدة ، حسبكم إذا حدثناكم بالحديث على المعنى ، وأسند أيضا في المدخل عن جابر بن عبد الله قال : قال حذيفة إنا قوم عرب نورد الحديث فنقدم ونؤخر ، وأسند أيضا عن شعيب بن الحبحاب قال : دخلت أنا وعبدان على الحسن فقلنا : يا أبا سعيد الرجل يحدث بالحديث فيزيد فيه أو ينقص منه قال : إنما الكذب من تعمد ذلك ، وأسند أيضا عن جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يحدث بأحاديث ، الأصل واحد والكلام مختلف ، وأسند عن ابن عون قال كان الحسن وإبراهيم والشعبي يأتون بالحديث على المعانى ، وأسند عن أويس قال : سألنا الزهرى عن التقديم والتأخير في الحديث فقال :هذا يجوز فى القرآن فكيف به فى الحديث ، وإذا أصيب معنى الحديث فلم يحل به حراما ولم يحرم به حلالا فلا بأس ، ونقل ذلك سفيان عن عمرو بن دينار وأسند عن وكيع . قال : إن لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس ، انتهى ماتعلق الغرض به ، وقوله فى سياقه : منهم الأئمة الأربعة ، أى أئمة المذاهب ، والمشهور عن الامام الأعظم أبى حنيفة رحمه الله تعالى عند الأصحاب أنه لايجوز نقل الحديث إلا باللفظ دون المعنى ، قالوا وبهذا الاعتبار قلت روايته للحديث ، ورويناعن الامام أبى جعفر الطحاوى أنه قال : حدثنا سليمان بن شعيب ، حدثنا أبى قال : أملى علينا أبو يوسف قال قال أبو حنيفة رحمه الله : لاينبغى للرجل أن يحدث من الحديث إلا بما حفظه من يوم سمعه إلى يوم يحدث به ، وهكذا ذكره الحافظ الذهبي فى ترجمة الامام من تاريخه عن أبى يوسف عنه فافهمه فان اطلاقه فى العبارة ربما يوهم ماذكرناه ، وإليه ذهب القاضى عياض من المالكية حيث قال فيما نقله السيوطى فى شرح الكتاب المذكور : ينبغى سد باب الرواية بالمعنى لئلا يتسلط من لايحسن ممن يظن أنه يحسن كما وقع للرواة قديما وحديثا ، وعلى الجواز الأولى إيراد الحديث بلفظه دون التصرف فيه ، كذا ذكره فى الإتحاف . قال المصنف رحمه الله (ثم مع ذلك) أى الذى ذكرناه (كله فان العبد ضعيف والزمان صعب) بسبب مايقع فيه من المصائب والمحرمات ، لأن الزمان نفسه صعب ، واختلف فى الزمان فقيل إنه حركة الفلك . وقيل : نفس الفلك . وقيل : متجدد موهوم قارنه متجدد معلوم إزالة للابهام . وقيل : نفس المقارنة المذكورة ، أى أنه مقارنة متجدد موهوم لمتجدد معلوم كمقارنة إتيانك لطلوع الشمس ، كذا قاله الدسوقى . قال المحلي : والثالث قول المتكلمين (وأمر الدين متراجع) أى عائد إلى النقصان والضعف ، كذا فى سراج السالكين

وَالْفَرَاغُ قَلِيلٌ وَالشُّغْلُ كَثِيرٌ وَالْعُمْرُ قَصِيرٌ وَفِى الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ وَالْأَجَلُ قَرِيبٌ وَالسَّفَرُ بَعِيدٌ ، وَالطَّاعَةُ هِىَ الزَّادُ فَلَا بُدَّ مِنْهَا ، وَهِىَ فَائِتَةٌ فَلَا مَرَدَّ لَهَا

(والفراغ) من الشواغل (قليل والشغل) بما يصرف عن العبادة (كثير والعمر) وهو بالضم اسم لمدة عمارة البدن بالحياة (قصير ، وفى العمل تقصير ، والناقد) أى الرقيب (بصير ، والأجل) المضروب (قريب) جدا ، والمراد بالأجل هنا مدة حلول الموت ، لأن الأجل كما يطلق عليها يطلق على مدة العمر بتمامها ؛ فالأجل عندهم واحد لا يقبل الزيادة والنقصان . قال الله تعالى « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وقد دلت الأحاديث على أن كل هالك يستوفى أجله من غير تقدم عليه ولا تأخر عنه ؛ ولا يعارض هذه القواطع ماورد أن بعض الطاعات كصلة الرحم يزيد فى العمر لأنه خبر آحاد، أو أن الزيادة فيه بحسب الخير والبركة ، أو بالنسبة لما فى صحف الملائكة فقد يثبت الشىء مطلقا وهو فى علم الله مقيد كأن يكون فى صحف الملائكة أن عمر زيد خمسون مثلا مطلقا وهو فى علم الله مقيد بأن لا يفعل كذا من الطاعات وإن فعلها فله ستون ، فان سبق فى علمه تعالى أن يفعلها فلا يتخلف عن فعلها وكان عمره ستين فازيادة بحسب الظاهر على مافى صحف الملائكة وإلا فلا بد من تحقق مافى علمه تعالى كما يشير إليه « يمحوا الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » أى أصل اللوح المحفوظ ، وهو علمه تعالى الذى لا محو فيه ولا إثبات ، وأما اللوح المحفوظ فالحق قبول مافيه للمحو والاثبات كصحف الملائكة ، وبعضهم فسر أم الكتاب باللوح المحفوظ ، لأنه مامن كائن إلا وهو مكتوب فيه ، والراجح الأول ، كذا فى تحفة المريد (والسفر) للآخرة (بعيد) لكثرة عقباته (والطاعة) وهى كل مافيه رضا وتقرب إلى الله تعالى (هى الزاد) المحمول لأجله (فلا بد منها) أى وحيث كان الأمر كما ذكر فلا بد من الطاعة . قال الشيخ يحى فى قوله فلا بد : أصله فى الاثبات بدّ الأمر فرق وتبدد تفرق وجاءت الخيل بدادا : أى متفرقة ، فاذا انتفت التفرقة والمفارقة بين شيئين حصل تلازم بينهما دائما فصار أحدهما واجبا للاخر ، ومن ثم فسروه بوجب فاعرف ذلك كذا قاله العلامة الدسوقى (وهى) أى الطاعة بمعنى المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه المتلونة عليه (فائتة فلا مردّ) أى فلا عودة ولا رجوع (لها) أى إذا فاتت لأنها حقوق الأوقات التى لا يمكن قضاؤها إذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به ووارد يرد عليه حق جديد وأمر أكيد ولا يسعه إلا أن يوفيه إذ ذاك ، فان فاته لم يجد مجالا لقضائه ولا يمكنه ذلك ، فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التى لا يمكنه قضاؤها إن فاتت ، قال أبو العباس المرسى قدس سره : أوقات العبد أربعة لا خامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية ، ولله تعالى عليك فى كل وقت سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية . قال العلامة محمد بن إبراهيم الرندى رحمه الله : فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها ،

فَمَنْ ظَفِرَ بِهَا فَقَدْ فَازَ وَسَعِدَ أَبَدَ الآبِدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ ، وَمَنْ فَاتَهُ ذٰلِكَ خَسِرَ مَعَ الْخَاسِرِينَ ، وَهَلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ ، فَصارَ هٰذَا الْخَطْبُ إِذًا وَاللهِ مُعْضَلاً ، وَالْخَطَرُ عَظِيماً

ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم ، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله ، ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر ، والرضا رضا النفس عن الله ، والصبر مشتق من الإصبار . وهو نصب الغرض للسهام ، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء ، فان ثبت لها فهو صابر ، والصبر ثبات القلب بين يدى الرب . هـذا تفصيل قول أبى العباس قدس سره ، وهذا كله فى حقوق الأوقات التي هى المعاملات الباطنة . وأما الحقوق الكائنة فى الأوقات التى هى وظائف العبادة الظاهرة : من صلاة وصيام وغيرهما ، فمن فاته شىء منها فى وقته المعين أمكنه قضاؤه فى وقت آخر . إذ قد جعل له فى ذلك مجال رحب ، فيستدرك فيه مايفوته من تلك الحقوق ، كذا قرره بعض شيوخنا فى هذا المقام فليتأمل فانه مهم (فمن ظفر) أى حصل تلك الطاعة بقسميها ونال (بها) فى الدنيا (فقد فاز) أى نجا من العذاب (وسعد) بلقاء الله تعالى فى الجنة مع الملك الكبير والنعيم المقيم الذى لايحول ولا يزول ، وإليه يرشد قوله تعالى « نعيما وملكا كبيرا» (أبد الآبدين) ظرف زمان لسعد ، وفيه مبالغة فى التأبيد (ودهر الداهرين) فالأبد والدهر قيل معناهما واحد كما فى المختار ، فالعطف يشبه أن يكون مرادفا ، وقول بعضهم يشبه أن يكون تفسيرا ففيه شىء . لأن عطف التفسير ضابطه أن يكون الثانى أوضح من الأول كما قاله العلامة يوسف فى حواشى العشماوية ، مع أن الأول هنا أوضح من الثانى فليتأمل (ومن فاته ذلك) أى المذكور من الطاعة كما مر فقد (خسر) بالبعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعـذاب الأليم فى دركات الجحيم كما أشار اليه قوله تعالى « إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما » (مع الخاسرين) وهم المغرورون بالدنيا والشيطان الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم (وهلك مع الهالكين) فى النار كذلك ، أى أبد الآبدين ودهر الداهرين (فصار هذا الخطب) وهو العظيم من الأمور كما قاله الزبيدى ، والمراد هنا الاشتغال بأعمال الآخرة والإعراض عن أعمال الدنيا كما فى سراج السالكين (إذن) أى إذا كان العبد ضعيفا وإذا هنا بالتنوين عوضا من لفظ الجملة المضاف إليها كقوله تعالى «ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون » وإلحاقا بإذ في جواز ذلك كما ذكره العلامة الصبان فى حواشى الأشمونى عن الكافيجى ، وفيه أقوال كثيرة كما هو مقرر فى محله (والله) العظيم ، ولفظ الجلالة يجر بواو القسم (معضلا) بفتح الضاد وكسرها ، أى أمرا شاقا لا يهتدى لوجهه كما فى المختار (و) صار (الخطر) في هذا الأمر ، أى أمر العبادة (عظيما) الخطر بفتح الخاء والطاء فى الأصل: الاشراف على الهلاك وخوف التلف قالوا هو على خطر عظيم ، ثم سمى كل أمر عظيم خطرا

فَلِذَٰلِكَ عَزَّ مَنْ يَقْصِدُ هٰذَا الطَّرِيقَ وَقَلَّ ثُمَّ عَزَّ مِنَ الْقَاصِدِينَ مَنْ يَسْلُكُهُ ثُمَّ عَزَّ مِنَ السَّالِكِينَ مَنْ يَصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ وَيَظْفَرُ بِالْمَطْلُوبِ ، وَهُمُ الْأَعِزَّةُ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَسَدَّدَهُمْ بِتَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ ، ثُمَّ أَوْصَلَهُمْ بِفَضْلِهِ إِلَى رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ . فَنَسْأَلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنْ يَجْعَلَكُمْ وَإِيَّانَا مِنْ أُولَٰئِكَ الْفَائِزِينَ بِرَحْمَتِهِ .

لذلك كما قاله الزبيدى ، والمراد هنا المشقة المترتبة على هذا الأمر العظيم (فلذلك) أى المذكور من صيرورة الخطب والخطر معضلا وعظما (عز) أى قلّ وندر (من يقصد هذا الطريق) أى طريق العبادة (وقلّ ثم عز من القاصدين من يسلكه ثم عز من السالكين) أى السائرين فى هذا الطريق (من يصل إلى المقصود) الذى هو القرب من الله تعالى والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين من عباده (ويظفر بالمطلوب) وهى السعادة الأبدية التى لا شقاء بعدها ، واعلم أنه ليس قصد المصنف رحمه الله بتلك العبارة التنفير من مجاهدة النفس ، بل هى مأمور بها ممدوح عليها ، سلك أو لم يسلك ، لقوله تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » وإنما المقصود زيادة التحريض على تلك المقامات السنية كما نبه عليه الصعاوى فى شرح الخريدة (وهم) أى الواصلون (الأعزة) جمع عزيز (الذين اصطفاهم الله) أى اختارهم (عز) أى انفرد بصفة الجلال ، أو غلب لأنه قاهر لجميع الأشياء (وجل) أى اتصف بالصفة الدالة على العظمة كالقدرة والإرادة ونحوهما التى لا تماثل ، وتنزه عما لا يليق به كما قاله العلامة ابن منصور الهدهدي (لمعرفته) الخاصة التى لا يشركهم فيها غيرهم ، وهى أعلى المطالب وأسنى المواهب ، وهى ما يقع من تجلى الحق تعالى لقلوب خواصه وتحقق أسرارهم بأحديته ، وذلك لما أفضى عليهم سبحانه من أنوار الشهود وأطلعهم عليه من مكنون الوجود فانغمسوا فى بحار الأنوار وغرقوا فى المعانى والأسرار . وأما معرفة الله العامة التى يشترك فيها الخاص والعام ، بل هى أول الواجبات على كل مكلف ، فالمراد بها معرفة وجوده تعالى وما يجب له من إثبات أمور ونفى أمور وهى المعرفة الإيمانية والبرهانية ، لا الإدراك والإحاطة لامتناعه ، فالمعرفة عامة وخاصة ، والعامة بها يخرج المكلف عن عهدة الواجب ، لكنها ليست مرادة فى كلام المصنف رحمه الله هنا ، بل مراده الخاصة كما هو ظاهر ، فالمعرفة الأولى كرؤية نار أو موج بحر . والثانية كالاصطلاء بالنار ، والغوص فى البحر : وهى ثمرة البصيرة والمكاشفة ثم المشاهدة ، وكل يحصل له منها ما كتب له كما نبه عليه الكردى ملخصا (ومحبته) وسيأتى معناها (وسدّدهم) أى أرشدهم إلى السداد : أى الصواب من القول والعمل (بتوفيقه وعصمته) أى حفظه عن المخالفات (ثم أوصلهم بفضله) أى إحسانه من غير قهر له (إلى رضوانه وجنته) تعالى : وهى دار الثواب فى الآخرة (فنسأله جل ذكره) وتعالت عظمته (أن يجعلكم وإيانا من أولئك الفائزين) أى الناجين من عذاب الله (برحمته)

نَعَمْ وَلَمَّا وَجَدْنَا هٰذِهِ الطَّرِيقَ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ نَظَرْنا فأَمْعَنَّا النَّظَرَ فى كَيْفيَّةِ قَطْعِهاَ وما يَحْتاجُ إليْهِ الْعَبْدُ مِنَ الأُهْبةِ والعُدَّةِ والآلةِ والْحِيلةِ مِنْ عِلْمٍ وعمَلٍ عَسَى أَنْ يَقْطَعَهَا بِحُسْنِ تَوْفيقِ اللهِ فى سَلامَةٍ ، ولا يَنْقَطِعُ فى عَقَباتِها الْمُهْلِكَةِ فَيَهْلِكَ معَ الهالِكِينَ ، والعياذُ باللهِ . فصنفْنا فى قَطْعِ هٰذِهِ الطَّرِيقِ وسُلوكِها كُتُبًا كإِحْيَاء عُلومِ الدِّينِ والقرْبةِ إلى اللهِ تعالى ، وغَيْرِ ذٰلِكَ احْتَوَتْ عَلَى دَقائِقَ مِنَ العلُومِ اعْتاصَتْ

اللاحقين بالخير (نعم) استدراك على قوله : هى طريق وعر كما قرره شيخنا . قال العلامة عبد الحق ابن شاه فى سراج السالكين : هو جواب لمن قال : هل يمكن للانسان أن يسلك هذا الطريق فيصل إلى مقصوده ؟ . قيل فى جوابه نعم (ولما وجدنا هذه الطريق بهذه الصفة) أى من الصعوبة المذكورة والموانع الموصوفة (نظرنا فأمعنا النظر) من الإمعان ، وأصله أن يتباعد الفرس : أى جريه كما قاله الحريرى ، والمراد هنا بالغنا فى النظر (فى كيفية قطعها وما يحتاج إليه العبد) وهو الانسان مطلقا ذكرا كان أو أنثى كما فى القاموس ، وله معان أربعة : عبد بالايجاد وهو كل مخلوق لله ، وعبد الدينار والدرهم وهو المنهمك فى تحصيلهما وخدمتهما دائما ، وعبد العبودية وهو المنهمك فى طاعة مولاه ، وعبد البيع والشراء وهو الذى يجوز بيعه وشراؤه سواء كان أبيض أو أسود ، والذى فى القاموس معنى خامس كما ذكره العلامة يوسف السفطى (من الأهبة والعدة) بضم العين : أى الاستعداد فهو عطف تفسير . قال فى المصباح : والأهبة العدة ، والجمع أهب ، مثل غرفة وغرف (والآلة والحيلة) اسم من الاحتيال (من علم وعمل عسى أن يقطعها) أى الطريق لأنها تذكر وتؤنث (بحسن توفيق الله فى سلامة) من مهالكها (ولا ينقطع فى عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين) وخسر مع الخاسرين (والعياذ بالله) من الوقوع فى العقبة المهلكة (فضفنا) بعد إمعان النظر هذا جواب لما وجدنا (فى) بيان (قطع هذه الطريق وسلوكها كتبا) متعددة (كإحياء علوم الدين و) كتاب (القربة إلى الله تعالى وغير ذلك) : ومنه : معراج السالكين ، والقسطاس المستقيم ، وكيمياء السعادة ، ومشكاة الأنوار ونحوها مما ذكره الزبيدى فى شرح الإحياء مستوفى ، لأن له تصانيف فى غالب الفنون حتى فى علوم الحرف وأسرار الروحانيات . وخواص الأعداد ، ولطائف الأسماء الإلهية وغيرها . قال المناوى : نقل النووي في بستانه عن شيخه التغليسى قال نقلا عن بعضهم أنه قال : أحصيت كتب الغزالى التى صنفها ووزعت على عمره فخص كل يوم أربعة كراريس . قال السيد مرتضى : وهذا من قبيل نشر الزمان لهم ، وهو من أعظم الكرامات ، وقد وقع كذلك لغير واحد من الأئمة ، كابن جرير الطبرى وابن شاهين وابن النقيب والنووى والسبكى والسيوطى وغيرهم (احتوت) أى أحاطت هذه الكتب (على دقائق) جمع دقيق وهو الأمر الخفى (من العلوم اعتاصت) ضد انقادت : أى عسر كشفها ، يقال اعتاص

عَلَى أَفْهَامِ العَامَّةِ فَقَدَحُوا فِيهَا وَخَاضُوا فِيما لَمْ يُحْسِنُوهُ مِنْهَا ، فَأَيُّ كَلامٍ أَفْصَحُ مِنْ كَلامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وقَدْ قَالُوا فيهِ : إِنَّهُ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ،

عليه الأمر : إذا أشكل فلم يهتد إلى جهة الصواب فيه (على أفهام العامة) لقصورها (فقدحوا) أى طعنوا وشنعوا (فيها) لأن الناس أعداء ما جهلوا (وخاضوا) أى دخلوا فى التكلم والتحدث فى الباطل (فيما لم يحسنوه) أى لم يعرفوه ولم يحيطوا بعلمه (منها) ومع ذلك لا غرو ولا عجب (فأىّ كلام أفصح) أى لا كلام أبلغ وأحسن (من كلام رب العالمين ، و) الحال أنهم (قد قالوا فيه : إنه أساطير الأولين) أى حكاياتهم التى سطرت قديما ، جمع أسطورة بالضم أو إسطارة بالكسر كما قاله بعض المفسرين .

ومن الدقائق التى أنكرها المنكرون وطعنوا فيها على المصنف أبى حامد الغزالى ما وقعت فى مواضع من الإحياء : منها ما هو قول منسوب إليه ، ومنها ما نقله عن غيره من العارفين ، وأثبته وسكت عليه ، فالآن نذكر بعضها من شرح الإحياء ملخصا للايجاز كما هو مقتضى هذه التعليقات . فأقول وبالله التوفيق : فمن ذلك قوله فيه : المقصود بالرياضة تفريغ القلب وليس ذلك إلا بالخلوة والجلوس فى مكان مظلم ، فان لم يكن مظلما لف رأسه فى جيبه أو تدثر بكساء أو رداء فانه فى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال الربوبية . قال المنكر : انظروا إلى هذه الترهات العجيبة وكيف صدرت من فقيه ومن أين له أن الذى يسمعه إذ ذاك هو نداء الحق تعالى أو أن الذى يشاهده جلال الربوبية وما يؤمنه أن يكون ما يجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة وهذا هو الغالب ممن يستعمل التقلل فى المطعم فإنه يغلب عليه الماليخوليا . والجواب أن ما قاله الغزالى تبعا لغيره صحيح ، لكن له شروط عند أهل الطريق من بلوغه فى الورع الغاية القصوى ومداومة مراقبة الله مع الأنفاس وعدم شغل قلبه بنعيم الدنيا والآخرة ، وهناك يخرج العبد من مواطن التلبيس من النفس والشيطان وتصير روحه مانكية فيشاهد جلال الربوبية كما تشاهده الملائكة ، وكل من دخل الخلوة على مصطلح أهل الله عرف ما أقول ، ومن لم يدخل فهو معذور فى إنكاره لعدم وجدانه ما ذكره الغزالى فى نفسه ، ومما أنكروا عليه أيضا تقريره فى الإحياء قول أبى سليمان الدّارانى: إذا طلب الرجل الحديث أو سافر فى طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا قال المنكر : هذه الثلاثة أشياء مخالفة لقواعد الشريعة ، وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » . وكيف لا يطلب المعاش وقد قال عمر رضى الله عنه : لأن أموت من سعى رجلى أطلب كفاف وجهى أحبّ إلى من أن أموت غازيا فى سبيل الله ، وكيف لا يطلب التزويج وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول « تناكحوا تناسلوا » فما أدرى هذه الأوضاع من الصوفية إلا على خلاف الشرع . والجواب أن مثل الإمام الغزالى لا يجهل مثل هذه الأمور بدليل مدحها فى مواضع أخر من كتاب الإحياء ، وإنما مراده أن الدخول فى هذه

الأمور من لازمه غالبا دخول الآفات التي تحبطها ، فإن من طلب الحديث لزمته الرياسة وصار مقدما عند الناس في التعظيم والإكرام على من لم يطلبه ، وقل من يتخلص من الميل والمحبة لمثل ذلك . وأما التجارة والبيع والشراء مع الخلاص من الميل إلى الدنيا فلا يكون إلا ممن كمل سلوكه ودخل حضرة الله وعرف المواقع كلها ، فكلام أبى سليمان جرى على الغالب فلا لوم على حجة الإسلام الغزالى فى تقريره إياه . وأما كون التزويج من جملة الميل إلى الدنيا فهو ظاهر لأنه الغالب يطلب الاستمتاع ، وذلك لا يحصل إلا بالوقوع فى الآفات التي كان عنها بمعزل أيام عزوبته ، لاسيما إن كان متجردا عن القيام فى الأسباب التي تجلب له أمر معاشه فإنه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من أحسن إليه بلقمة أو خرقة أو غيرها ، فأبغض الخلق إليه من يذمه عنده خوفا أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكأن عبادة هذا كلها لأجل الذى أحسن إليه . وفى الحديث « خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذّ » : أى الذى لا زوجة له ولا ولد . وفى الحديث أيضا «سيأتى على أمتي زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وولده — فذكر الحديث إلى أن قال : وذلك أنهم يعيرونه بضيق المعيشة إلى أن يورده موارد الهلاك » وقد استشار شخص سيدى عليا الخواص فى التزويج فقال له شاور غيرى ، فقال له فقيه ما منعك أن تشير عليه بفعل السنة ؟ فقال له الشيخ أنت ماحفظت إلا كونه سنة ، أما تنظر الآفات المترتبة عليه من هلاك الدين وأكل الحرام والشبهات فاعلم ذلك . ومما أنكروه عليه تقريره فى الإحياء قول الجنيد : إذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام . قال ابن القيم : هذا غلط من الجنيد ومن أقره على ذلك ، فإن الجماع سنة أو مباح وكلاهما لا عقوبة على فاعله جريا على قواعد الشريعة . والجواب أن مراد الجنيد العقوبة التي تحصل بلازم ذلك لا بعينه . قال الله تعالى « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » . وقا تعالى «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » . ولا يحذر الله تعالى إلا ما فيه رائحة الإثم . ومن مصطلح القوم أن يؤاخذوا المريد على فعل المباح ويعاقبوه عليه من حيث كونه يوقف على الترقى ، ولكل مقام رجال . ومما أنكروه عليه أيضا تقريره قول أبى حمزة البغدادى : إنى لأستحى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل لئلا يكون شبعى زادا تزودت به . قال المنكر : ومن العجب اعتذاره عن أبى حمزة بقوله : كلام أبى حمزة صحيح ، لكن محتاج إلى شرطين : أحدهما أن تكون للانسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعا ونحوه . والثانى أن يمكنه التقوّت بالحشيش ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد أسبوع أو ينتهى إلى محلة أو حشيش يجد به ما يقوته . قال ابن القيم : أقبح ما فى هذا القول صدوره من فقيه فإنه قد لا يلقى أحدا وقد يضل وقد يمرض فلا يصلح له الحشيش وقد يلقاه من لا يطعمه وقد يموت فلا يدفنه أحد . فالجواب أما كلام أبى حمزة فهو فى نهاية الاخلاص وكذلك ماشرطه الغزالى هو صحيح يتمشى على قواعد الفقه . وأما ما ذكره ابن القيم فلا ينهض حجة واضحة على أبى حمزة

والغزالى لأنه لو حمل أيضا الزاد يجوز أن يقع له مايقع لمن لم يحمله من الأحوال التي ذكرها لكن لا يخفي أن حمل الزاد سنة ، ومن فعل السنة كان تحت نظر الله تعالى بالإمداد واللطف لأنه فعل ما كلفه ، بخلاف من لم يحمل زادا فإنه موكول إلى نفسه ولو كان ممن صحت تجربته للحق تعالى فإن الحق جل وعلا لا تقييد عليه ، يفعل ما يشاء إلا إن قيد على نفسه بشيء فللعبد طلبه منه عبودية . وقد قال رجل للحسن البصرى : إنى أريد أن أجلس فى مسجد وأترك السبب لاعتقادى أن الله لا يضيعنى ، فقال له الحسن البصرى : إن كنت على يقين السيد إبراهيم الخليل عليه السلام فافعل وإلا فالزم الحرفة ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السباع فى برّية ليمتحن توكله على الله تعالى هل صح أم لا ؟ . قال المنكر : كيف يجوز للغزالى أن يسكت على مافعله هذا الرجل مع تعرضه لأسباب الهلاك ببياته عند السباع لا سيما إن كانت جيعانة . وقد قال تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . والجواب أن ذلك فى حق أرباب الأحوال الذين يغلب حالهم حال السبع ويركبونه ويعركون أذنه وينقاد لهم بل يخاف هو منهم ، وهذا مقام يبلغه المريد أوائل دخوله فى الطريق فيمسح الله من قلبه الخوف من شيء من المخلوقات جملة واحدة ، وقد وقع ذلك لجملة من الأولياء ؛ وفوق هذا مقام أرفع من هذا وهو الخوف من كل شيء يؤذى والتباعد عنه ، ولو علمنا أن الحق تعالى قدر علينا ما يؤذينا فنتحفظ من الأذى حسب طاقاتنا ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء ويثاب على ذلك الحذر لا سيما إن كان مشهد أحدنا أن نفسنا وديعة عند الله تعالى وقد أمرنا بمدافعة الأقدار عنها ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا تقرير ما حكاه عن أبى الحسن الدينورى أنه حج اثنتى عشرة حجة وهو حاف مكشوف الرأس . قال ابن القيم : هذا من أعظم الجهل لما فى ذلك من الأذى للرأس والرجلين ، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكأن هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها [بالتصوف] وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بجانب ، نعوذ بالله من تلبيس إبليس ، فإن مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ويظنون أن فعله من الصواب . والجواب لاينبغى المبادرة بالإنكار على من أتلف جسمه في مرضاة الله تعالى وتعظيم حرماته ، وربما كان من خرج للحج حافيا مكشوف الرأس وقع في ذنب عظيم عنده وظن أن الحق تعالى قد سخط عليه بسببه فخرج بتلك الهيئة يطلب التنصل من ذنوبه علىوجه الذلوالانكسار ، وقد وقع لسفيان الثورى أنه حج من البصرة حافيا فتلقاه الفضيل بن عياض وابن أدهم وابن عيينة من خارج مكة فقالوا له : يا أبا عبد الله : أما كان من الرفق بذاتك أن تركب ولو حمارا ؟ فقال : أما يرضى العبد الآبق من سيده أن يأتى إلى مصالحته إلا راكبا ، فبكى الفضيل والجماعة ، فانظر ذلك واقتد به ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية بلا زاد من قوله : هذا من فعل رجال الله . قيل له فإن مات ؟ قال الدية على العاقلة . قال المنكر : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز لأحد دخول البادية بغير زاد ، وإن فعل كل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة في الآخرة . والجواب أن يكون مراد الغزالي من رجال الله أرباب الأحوال الذين غلبت عليهم أحوالهم لا العارفين من مشايخ الطريق بقرينة مامر في الجواب قبله ؛ فلا لوم على الغزالى إلا لو جعل ذلك شائعا فى كل الناس .

ومما أنكروه عليه أيضا تقريره عن أبي الخير الأقطع التيناني قوله : إني عقدت مع الله عهدا أن لا آكل شيئا من الشهوات ؛ فمددت يدى إلى ثمرة في شجرة فقطعتها فبينما أنا أمضغها إذ ذكرت العهد فرميت بها من فمى ، فداز بى فرسان وقالوا قم وأخرجونى إلى ساحل بحر أسكندرية ، وإذا أمير وحوله خيل وجند ، فقالوا أنت من اللصوص وإذا معهم جماعة ، من لصوص السودان ، فسألوهم عنى؛ فقالوا لا نعرفه ؛ فكذبهم الأمير وشرع يقدم يدا ويقطعها إلى أن وصل إلىّ وقال لى تقدم ومد يدك ؛ فمددتها فقطعت إلى آخرها . قال المنكر : فانظروا إلى هذا الجهل العظيم مافعل بصاحبه ، ولو أن عند التينانى رائحة علم لعلم أن مافعله حرام عليه وليس لإبليس عون على الزهاد والعباد أكثر من الجهل ، و ما أظن غالب مايقع لهؤلاء إلا من الماليخوليات . والجواب لاينبغى الانكار على أبي الخير ولا على الغزالى فانهما مجتهدان فى ذلك ، فرأيا أن نقض العهد عند الأكابر أعظم من سرقة ربع دينار ، وأيضا فان مشهد الأكابر حضرة التقدير الإلهى فهم مع الذى قدر القطع لامع الجلاد الذى يقطع اليد مثلا ، وكلام الغزالى فى حق الأكابر ، وكلام المنكر فى حق الأصاغر فانه كان يكفى عقوبة أحدهم أن يتوب ويستغفر من نقض العهد وليس له أن يمكن الجلاد من قطع يده ما أمكن لأن ذلك لم يأمر به الشرع ، والله أعلم .

ومما أنكروا عليه أيضا قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر بطالة . قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه ، وأصل ذم الصوفية العلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لايوصلهم إلى الرياسة إلا بعد طول زمان ، بخلاف طريقتهم المبتدعة من لبسهم الزىّ وصلاتهم بالليل وصيامهم بالنهار وتقصير الثياب والأكمام . والجواب لاينكر عليه ذلك ، فإن مراده الاشتغال به على طريق الجدال بطالة بالنسبة إلى طريق العلماء العاملين ، لاأن مراده بطالة من كل وجه ، وكيف يظن به أن يريد مافهمه المنكر وهو يعلم أن علم الشريعة هو أساس علم الحقيقة ، إذ الشريعة لها تقويم صور العبادات الظاهرة والحقيقة لها تقويم صور العبادات الباطنة بحيث تستحق أن يقبلها الله تفضلا منه ، وقد بلغنا أن الغزالي ماقال ذلك إلا فى حق نفسه لما دخل طريق القوم ورأى كمالها وآدابها ، فقال ضيعنا عمرنا فى البطالة .

ومما أنكروا عليه أيضا قوله : اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف إنما هو إلى تحصيل العلوم اللدنية دون العلوم النقلية ، ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم ولا تحصيل ماصنفه المصنفون ، وإنما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده والاشتغال بذكر الله فقط إلى آخر ماقال ، وعدّ المنكرون ذلك من جملة ماغلط فيه الغزالى وقالوا : قد حث الشارع على طلب العلم فكيف يمدح من لم يحض على تحصيله من الصوفية وقالوا : عزيز هذا الكلام أن يصدر من متشرع فانه لايخفى قبحه وهى كالطىّ لبساط الشريعة حقيقة ، ثم على هذا المذهب فقد فاتت الفضائل علماء الأمصار كلهم فانهم لم يسلكوا طريق الصوفية على هذا النحو الذى ذكره الغزالى ، وإذا ترك الانسان الاشتغال بعلم الشريعة خلت النفس بوساوسها وخيالاتها ولم يبق عندها من العلم مايطرد ذلك فيلعب بها مع إبليس أىّ ملعب . والجواب أن مراد الغزالى فيما حكاه عنهم إنما هو بعد إحكام الفقير علم الشريعة ، فانه حكى إجماع القوم على أنه لاينبغى لأحد أن يدخل طريق القوم إلا بعد تضلعه من علم الشريعة بحيث يصير يقطع علماء الشريعة بالحجج فى مجلس المناظرة فلا ينبغى حمل مثل كلامه على أن مراده مدح الاشتغال بأحوال طريق القوم من غير تقدم علمهم للشريعة فان ذلك أبعد من البعيد ، فالغزالى فى واد ، والمنكر فى واد ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا فى تفسير قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام « واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام » أن الأصنام هو الذهب والفضة ، وعبادتهما حبهما والاغترار بهما . قال ابن القيم . وهذا تفسير لم يقل به أحد من المفسرين . والجواب لاينبغى أن ينكر عليه بسبب ذلك ، فقد ورد الحديث « تعس عبد الدينار والدرهم وعبد الخميصة » فسمى محب هذه الأمور عبدا لها مع أنها لاتعقل ولا تدرك من يحبها ولا من يبغضها فكانت كالأصنام ، والعبادة فى اللغة : الميل للشىء والطاعة له . قال تعالى « ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان » أى لاتطيعوه فى وسوسته لكم بالسوء ، فلما كنى الحق تعالى عن طاعة إبليس بالعبادة له استعارة مجازية كذلك صح للغزالي استعارة العبادة للذهب والفضة الذى هو عبارة عن شدة محبتهما ومقاتلة الناس لأجلهما بجامع أن القلب يشتغل بهما عن الله تعالى كما يشتغل عباد الأصنام عن الله تعالى ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه تقريره فى الإحياء قول سهل التسترى : إن للربوبية سرا لو ظهر لبطلت النبوة ، وإن للنبوة سرا لو ظهر لبطل العلم ، وإن للعلماء سرا لو ظهر لبطلت الأحكام والشرائع . قال ابن القيم : انظروا إلى هذا التخليط القبيح ودعواه أن باطن الشريعة يخالف ظاهرها وذلك من الهذيان . والجواب لاينكر على سهل ولا على الغزالي ، لأن ماذكراه إنما هو على سبيل الفرض والتقدير : أى أن لله تعالى فى عباده وشرائعه أسرارا اختص بها دون خلقه لشدة حجابهم ولو رفع ذلك الحجاب لتساوى علمهم وعلم سيدهم ، ولا قائل بذلك ، ومن أراد أن يشم رائحة

ماذكرناه فلينظر إلى حضرة ربه سبحانه قبل خلقه الخلق يجد أحدا فردا لاثانى معه يشهد أبدا ثم يستصحب هذا المشهد وهو نازل فى المراتب من غير تخلل غفلة أو حجاب ، وأكثر من هذا لايقال وإذا لم يكن إلا واحدا لاخلق معه ذهبت الرسالة والرسول لعدم من تتوجه عليهم الأحكام فكان بقاء الرسالة وأحكامها بعدم كشف أسرار الربوبية فافهمه ، والله أعلم .

ومما أنكروه عليه أيضا حكايته عن أبى تراب النخشبى أنه قال لمريد له : لو رأيت أبا يزيد البسطامي مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة . قال ابن القيم : هذا الكلام فوق الجنون بدرجات . والجواب لا ينكر تقريره أبا تراب عن مقالته لأن مراده أن ذلك المريد يجهل مقام الأدب والمعرفة بالله تعالى ، فهو لا ينتفع برؤيته ، ولايصح أن يمنحه الحق تعالى بشىء من الآداب ، بخلاف رؤية أبى يزيد فإنها تعلمه طريق الآداب مع الله تعالى ومع خلقه ، فكانت أنفع له من رؤية ربه ، وهو لا يعرف أنه هو ، وهذا شأن أكثر الناس اليوم فلا يصح لهم الأخذ عن الله تعالى لكثرة حجبهم التى بينهم وبينه ، فهذا معنى قول أبى تراب ، وليس مراده أن رؤية أبى يزيد أفضل من رؤية الله تعالى لمن يعرفه فافهمه ، والله أعلم .

ومما أنكروا عليه أيضا فى حكايته عن ابن الكربى شيخ الجنيد أنه قال : نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فشتّ قلبي ونفر منى فدخلت الحمام وسرقت ثيابا فاخرة ولبستها ، ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت ، فجعلت أمشى قليلا قليلا ، فلحقونى وأخذوا منى الثياب وصفعونى وسمونى لص الحمام فسكنت نفسى . قال الغزالى : فهكذا كانوا يروّضون نفوسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر إلى الخلق ومراعاتهم ، ثم أهل النظر إلى النفس وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه مهما رأوا صلاح قلوبهم بذلك ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا فى الحمام . قال ابن القيم : سبحان من أخرج أبا حامدالغزالى من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الإحياء ، فليته لم يحك فيه مثل هذه الأمور التى لا يحل لأحد السكوت عليها ، والعجب أنه يحكى هذه الأمور ويستحسنها ؟ ويسمى أصحابها أرباب الأحوال ؟ وأى حالة أقبح من حال من خالف الشريعة ، ورأى المصلحة فى النهى عن اتباعها ؟ وكيف يجوز أن يطلب صلاح القلب بفعل المعاصى ، ثم كيف يجوز التصرف فى مال الغير بغير إذنه ، فان فى نصّ الإمام أحمد والشافعى : أن من سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده ، ثم أين أرباب الأحوال أولا حتى يعمل العبد على وفاقهم من الرياضة ، كلا والله إنها شريعة لو رام مثل أبى بكر رضى الله عنه أن يخرج عنها لما وجد لذلك مساغا ، ولو أنه خالفها وعمل برأيه لكان عمله مردودا عليه ، إذ الحق تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ماكان على وفق الشريعة المطهرة . قال : وتعجبى من هذا الفقيه الذى استلب التصوف علمه وعقله أكثر من تعجبى من هذا المستلب للثياب من الحمام ، فياليت أبا حامد بقى مع قواعد الفقه ، واستغنى عن هذه الهذيانات ، والجواب عن هذا كله أن القوم مجتهدون ،

فى أحكام الطريق ؛ فكل ما رأوه أصلح لقلوبهم عملوا به وذلك من باب تعارض المفسدتين ، فيجب ارتكاب الأخف منهما . وأما ما يترتب على ذلك الفعل شرعا فقد جربوا حمايتهم من وقوع العقوبة لهم بسببه . بل تعرفهم الناس بعد ذلك ويقبلون أيديهم فاعلم ذلك . قال السيد مرتضى : ونقل الغزالى مثل هذه الحكاية التى جرت فى الحمام لابن الكرنبى عن إبراهيم الخواص ، وأنكر عليه ابن القيم كإنكاره من الأول ، وتعجب من أبى حامد وقال فياليته لم يتصوف ، والجواب واحد ، وأن للفقير أن يداوى قلبه ببعض المحرمات ليدفع عنه محرما آخر هو أشد منه قياسا على مداواة الأجسام ، والأمراض إنما تداوى بأضداد عللها ، وأين هلاك الأبدان من هلاك القلوب والله أعلم .

ومما أنكروا عليه أيضا قوله ضاع لبعض الصوفية ولد صغير فقيل له : لو سألت الله أن يرده عليك ؛ فقال اعتراضى عليه أشد من ذهاب ولدى . قال ابن القيم : لقد طال تعجبي من أبى حامد هذا كيف يحكى هذه الحكايات على وجه الاستحسان لها والرضى عن أصحابها ، ويعد الدعاء والسؤال لله تعالى اعتراضا : لقد طوى هذا بساط الشريعة طيا ، إذ الدعاء مشروع بالاجماع . والجواب أن مراد الغزالى أن ذلك فيه معنى الاعتراض لا أنه اعتراض ، وإيضاحه أن الاعتراض يرجع إلى تمنى غير ماسبق فى علم الله عز وجل ، وقد سبق فى علمه تعالى ضياع ولد هذا الصوفى فرضى بقضاء ربه ، ولم يطلب رجوع ولده ، ليتساوى وجود ولده وعدمه عنده فى أى مكان كان ولا فرق بين كونه فى داره أو أقصى الأرض لأنه عبد الله تعالى لا عبد لولده فافهمه .

فهذا بعض ما تيسر بيانه مما أنكروا على أبى حامد الغزالى فى كتابه [الاحياء] ملخصا من شرحه للعلامة الزبيدى ، وإن أردت الاستيفاء فانظر هناك تجد ماتريد ، وهم : أى المنكرون من طوائف شتى مابين مغاربة ومشارقة ومالكية وشافعية وحنابلة . وقد رد ما اعترضوا عليه كما هو مقرر فى شرح الزبيدى ، وفى الجزء التاسع عشر من تذكرة الحافظ جلال الدين السيوطى قال : ومما وقع للعلماء من ضرب المثل لأهل عصرهم بالآيات ماوقع لحجة الإسلام الغزالى فى كتابه [الانتصار لما فى الاحياء من الأسرار] حين أنكر عليه علماء عصره مواضع منه ألف الكتاب المذكور لجواب ما أنكروه ، فقال فى أوله ما نصه : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها فى بعض ما وقع فى الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ولم يفز بشىء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وإجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وذعار أهل الإسلام حتي طعنوا عليه ، ونهروا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال ، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال فإلى الله انصرافهم ومآبهم ، وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسئلون «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» «وإذ لم يهتدوا به فسيقولون

هذا إفك قديم» ، «ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» ، ولكن الظالمون فى شقاق بعيد .

ولا عجب فقد توى أولاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، فلم يبق فى الغالب إلا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة . متظاهرين بظواهر بالعلم فاسدة ، ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا ، أو محبة ثناء أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبرّ ، وتألفوا جميعا على الفعل المنكر ، وعدمت النصائح منهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر : إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال فى علمهم ، الفقراء فى طولهم البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق ، ولا تستطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ، ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، وفوائد القطب وفى هذه أسباب السعادة ، وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق ، وعلموا علة أهل الباطن ، وداء أهل الغضب ، ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا بضائعهم ، حجبوا عن الحقيقة بأربعة بالجهل والإصرار ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والاعجاب والرياء ، والله من ورائهم محيط ، وهو على كل شىء شهيد ، فلا يغرنك ، أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم ، فكأن قد جمع الخلائق فى صعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وتلا « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » فياله موقفا قد أذهل ذوى العقول من القال والقيل ومتابعة الأباطيل ، فأعرض عن الجاهلين ولا تطع كل أفاك أثيم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة فاصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . «كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» . إلى هنا كلام الغزالى ، وما زالت الأخيار تبتلى بالأشرار . قال السيد مرتضى الحسينى : وجلالة قدره ، أى الغزالى ، وفخامة كتابه أشهر من الشمس فى رابعة النهار ، وما أحاط بمقام كتابه إلا من أفاض الله على قلبه الأنوار ، إذ كتابه متكفل ببيان العلوم الشرعية التى هى علم العقل ، وعلم الأحوال ، وعلم الأسرار ، وما فيه من علم الأحوال فلا سبيل إلى معرفته إلا بالذوق ، ولا يقدر عاقل على ذوقه ولا وجدانه ، ولا أن يقيم على معرفته دليلا ، وهو متوسط بين علم العقل وعلم الأسرار ، وهو إلى علم الأسرار أقرب منه إلى علم العقل النظرى ، ولا يكاد يلتذ به إذا جاء من غير نبى إلا أصحاب الأذواق السليمة ، وعلامة هذا الذوق كونه خارجا عن موازين العقول عكس العلم المكتسب ، إذ العلم المكتسب من شأنه أن يكون داخلا فى ميزان العقول

أَلَمْ تَسْمَعْ إلى قَوْلِ زينِ العابِدِينَ عليِّ بنِ الُحسَيْنِ بْنِ عليٍّ بن أبي طالِبٍ ، رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

ولذلك لا تتسارع الناس إلى إنكاره . وعلم الأذواق لما كان خارجا عن موازين العقول تسارعت الناس إلى إنكاره وردّه ، وهذا القدر كاف فى بيان المقصود والله أعلم . قال المصنف رحمه الله تعالى (ألم تسمع) إلى ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من العلم ، أما أحدهما فبثثته للناس ، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم منى هذا الحلقوم ، وإلى قول ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » لو ذكرت تفسيره كما علمته لرجمتمونى ، أى لم تحتمل عقولكم لدركه فتنكرون علىّ ذلك ، وفى لفظ آخر : لقلتم إنه كافر ، وألم تسمع أيضاً إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشىء وقر فى صدره » و (إلى قول زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم) أى رضوان من الله تعالى على سيدنا زين العابدين ومن بعده ، فالإضافة بمعنى من بدليل تصريحها فى قوله تعالى : « ورضوان من الله والله بصير بالعباد » وقوله « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » . ومذاهب السلف أن الرضا ثابت لله تعالى ولا يعلمه إلا هو ، ومذهب الخلف يؤولونه بالإنعام أو إرادته ، فهو إما صفة فعل بمعنى الإنعام ، أو صفة ذات بمعنى إرادة الإنعام ، والأول هنا أولى ، لأن هذه جملة دعائية ، والدعاء إنما يكون بمستقبل لم يجدّ فى الحال ، وإرادة الله تعالى قديمة يستحيل تجددها حتى يتعلق بها الدعاء ، ويجوز إرادة الثانى باعتبار تعلق الإرادة التنجيزىّ الحادث ، لأنه لا يستحيل تجدده ، وذلك التعلق هو الإنعام فيرجع للأول ، والرضا أعلى رتبة من العفو والمغفرة ، لأن العفو محو الذنب وعدم العقوبة عليه ، والمغفرة ستره وعدم العقوبة عليه وان لم يمح، فلذا قال مطرف بن عبد الله بن الشحير : اللهم ارض عنا فان لم ترض عنا فاعف ، فان المولى يعفو عن عبده وهو غير راض عنه ، ويسن الترضى والترحم على الصحابة ومن بعدهم من العلماء والعباد والأخيار ولا يختص بالصحابة ، كذا أفاده العلامة عبد الله الشرقاوى (أجمعين) أتى به تأكيدا للضمير المجرور ليفيد الإحاطة والشمول لجميعهم . قال السعد : إذا أكد بلفظ أجمعين نظر ، فان سبقه لفظ يدل على الشمول كان المقصود منه الجمعية ، يعنى اجتماع المحكوم عليهم فى الحكم فى آن واحد كما إذا قيل : جاء القوم كلهم أجمعون ، فأجمعون فى معنى الحال ، وكأنه قيل : جاءوا كلهم أجمعين ، أى فى آن واحد ، وان لم يسبقه لفظ يدل عليه ، أى الشمول كان المقصود منه الشمول كما هنا سواء كان فى الاثبات أو النفى اهـ ، ومقول القول هذا النظم من

إِنِّى لأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِى جَوَاهِرَهُ كَيْلاَ يَرَى ذَاكَ ذُوجَهْلٍ فَيَفْتَتِنَا
وقدْ تَقَدَّمَ فى هٰذَا أَبُو حَسَنٍ إلى الْحُسَيْنِ وَوَصَّى قَبْلَهُ الحَسَنَا
يَارُبَّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لوْ أَبُوحُ بهِ لَقِيلَ لِى أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الوَثَنَا
وَلاَسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِى يَرَوْنَ أَقْبَحَ مايأْتُونَهُ حَسَنَا

وَاقْتَضَتِ الحالُ عِنْدَ ذَوِى الدِّينِ هُمْ أَشرَفُ خَلْقِ اللهِ تَعالى النظَّرَ إلى كافَّةِ خَلْقِ اللهِ تعالى

بحر البسيط (إنى لأكتم) أى لأستر (من علمى جواهره) وهي أسرار الدين (كيلا يرى ذاك) فى نسخة كيلا يرى الحق (ذو جهل فيفتتنا) لقصور فهمه عن دقائق العلوم (وقد تقدم فى هذا) أى بكتم جواهرالعلم (أبوحسن * إلى الحسين) إلى بمعنى على (ووصى قبله الحسنا . يا)أيها الناس (رب جوهر علم) رب حرف جر (لوأبوح به) أى أظهر علم السر الذى هومثل الجوهر النفيس (لقيل لى : أنت ممن يعبد الوثنا) والألف للاطلاق. والوثن قيل : مرادف الصنم. وقيل متغايران، فالوثن ما كان له صورة وله جثة منحوتة معمولة من حجارة أوجص أوخشب أو غيرها من جواهر الأرض.والصنم : الصورة التى بغير جثة ، وقيل الصنم: هو المنحوت على خلقة البشر. والوثن ما كان منحوتا على غير خلقة البشر،وقيل الصنم:ما كان من حجر أونحوه، ولايقال وثن إلا ما كان من ذهب أو فضة أو نحاس، وقيل عكسه ، وإنما خصها بالذكر دون غيرها من المعبودات كالنار والكواكب لأنها معبودات العرب بجزيرتهم ، والناظم أصله منهم ، وهم الذين بعث فيهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أنقذ جميعهم من عبادتها ، فلم يبق فى جزيرة العرب إلا دين واحد، وهو دين الاسلام بخلاف غيرها من المعبودات فإنها باقية إلى الآن ، والأوثان والأصنام أخس المعبودات ، إذ هي من عمل اليد وعرضة للتغير بالدثور والانشقاق والانكسار وغير ذلك والتصرف فيها بالزيادة والنقص ومن جنس الأرض ولا نورية فيها ،كذا ذكره المهدى بن أحمد الفاسى (ولا ستحل رجال مسلمون دمى) كما قتلوا منصورا الحلاج بإفشاء شيء من ذلك حيث قال: ما فى الجبة إلا الله وذلك أن أهل الله لا يدركون وجود الله فى الأشياء ، أى قيامه وظهوره فيها ، وهذه غاية ما يمكن أن يعبر عن مقصودهم ، وإلا فهو أمر لا يدرك إلا بالذوق ، فمصدوق ما سئل وما شهد وما علم واحد ، وإنما يختلف باعتبار السؤال عنه وإنشائه بالعبارة وعموم ذكره (يرون) أى يعتقدون (أقبح ما يأتونه) من استحلال قتلى (حسنا . واقتضت الحال) أى طلبت الحال والمصلحة (عند ذوى الدين) والصلاح (الذين هم أشرف خلق الله تعالى النظر) مفعول اقتضت (إلى كافة خلق الله تعالى) أى جميعهم . قال الأزهرى : هو مصدر على فاعلة كالعافية والعاقبة ولا يثنى ولا يجمع

بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ وَتَرْكِ المُمَارَاةِ ، فَابْتَهَلْتُ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ الخَلْقُ وَالأَمْرُ أَنْ يُوَفِّقَنِي لِتَصْنِيفِ كِتَابٍ يَقَعُ عَلَيْهِ الإِجْمَاعُ وَيَحْصُلُ بِقِرَاءَتِهِ الانْتِفَاعُ ، فَأَجَابَنِي إِلَى ذَلِكَ الَّذِي يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ،

وفى المصباح : وجاء الناس كافة : قيل : منصوب على الحال نصبا لازما لايستعمل إلا كذلك ، وعليه قوله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس » أى إلا للناس جميعا . وقال أبو البقاء إضافة كافة إلى ما بعدها خطأ ، لأنه لا يقع إلا حالا ، وإنما قيل للناس كافة ، لأنه ينكف بعضهم إلى بعض ، وبالإضافة تصير إضافة الشىء إلى نفسه اهـ ، هذا إذا أريد بالكافة الجماعة ، وإذا ذهب إلى أنه مصدر كما قاله الأزهرى فلا يلزم منه إضافة الشىء إلى نفسه كما قاله الزبيدى فتأمل (بعين الرحمة) والرأفة (وترك المماراة) والمجادلة (فابتهلت) أى تضرعت (إلى من بيده) أى بقدرته (الخلق والأمر) فإنه الموجد والمتصرف ، فالخلق هو المخلوقات . والأمرهو الكلام . فالأول حادث والثانى قديم كما صرح به القسطلانى (أن يوفقنى) أى أن يقدرنى ويصرف عنى الشواغل ويقوى إدراكى ويصحح حواسى (لتصنيف كتاب) والتصنيف : ضم صنف من الكلام إلى صنف آخر وإن لم يكن على وجه الألفة ، بخلاف التأليف فإنه يشترط فيه أن يكون على وجه الألفة فالتأليف أخص من التصنيف . كذا قاله البيجورى (يقع عليه الإجماع) أى الاتفاق لذوى الألباب نظروا بعين الانصاف (ويحصل) للطالبين الأنجاب لهذا الكتاب المشتغلين (بقراءته الانتفاع) فى الدنيا والآخرة والانتفاع به أيضا لمصنفه كذلك ، ومعنى النفع فى حقه رحمه الله فى الدنيا اشتغال الناس به ، وفى الآخرة أن يكون سببا لحلوله فى دار النعيم ، ومعنى نفعهم به فى الحياة هو أن يلهمهم الله الاعتناء به تفهما وحفظا . قال بعضهم : ولو بمجرد كتابة ونقل ووقف ويمن عليهم بإدراك علم التصوف بسببه ، وبعد الممات بالفوز بدار السلام كما قاله ابن عبد البارى (فأجابنى إلى ذلك) التصنيف (الذى يجيب المضطر إذا دعاه) كما هو مذكور فى الكتاب العزيز فى قوله تعالى « أجيب دعوة الداع إذا دعان » وقوله صلى الله عليه وسلم « ما من رجل يدعو بدعاء إلا استجيب له فإما أن يعجل له فى الدنيا ، وإما أن يؤخر له فى الآخرة ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بمقدار ما دعا ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل ، قالوا يا رسول الله وكيف يستعجل ؟ قال : يقول دعوت فما استجاب » أخرجه الترمذى ، وقال حديث غريب . والمراد بالإجابة ترتب نفع على الدعاء ، إما بعين ما طلب أو بغيره ، وعلى كل إما فى الحال أو المستقبل كل ذلك إن أراد الله الإجابة ، وإلا فلا يجب عليه شىء من ذلك ، ذكره ابن سلمان السويفى . قال الزبيدى : وأما حقيقته ، يعنى الدعاء ، فمعنى قائم بالنفس وهو نوع من أنواع الكلام النفسى ، وله صيغ تخصه فى الايجاب : افعل ، وفى النفى لا تفعل ، وقد اجتمعا فى قوله « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا » الآية . وقال الخطابى : حقيقة الدعاء استدعاء العبد ربه العناية واستمداده إياه المعونة

وأَطْلَعَنِي بِفَضْلِهِ عَلَى أَسْرَارِ ذَلِكَ وَأَلْهَمَنِي فِيهِ تَرْتِيبًا عَجِيبًا لَمْ أَذْكُرْهُ فِى الْمُصَنَّفَاتِ الَّتِى تَقَدَّمَتْ فِى أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ ، وَهُوَ الَّذِى أَنَا لَهُ وَاصِفٌ فَأَقُولُ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ : إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنَبِّهُ الْعَبْدَ لِلْعِبَادَةِ وَيَتَجَرَّدُ لِسُلُوكِ طَرِيقِهَا بِخَطْرَةٍ سَمَاوِيَّةٍ مِنَ اللهِ وَتَوْفِيقٍ خَاصٍّ إِلَهِيٍّ ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

وحقيقته إظهار الافتقار إليه ، والبراءة من الحول والقوة التى له ، وهو بسمة العبودية ، وإظهار الدعاء الذلة البشرية ، وفيه معنى الثناء على الله تعالى ، وإضافة الجود والكرم إليه اهـ .

قال: والمضطر هو الملجأ بضم الميم وسكون اللام : أى الذى اشتدت حاجته ، وتبرأ من الحول والقوة فلا غياث له إلا مولاه .

واعلم أن المضطر أخص من الفقير ، لأن الفقير معناه المحتاج سواء كان مختارا أم لا ، بخلاف المضطر فهو الفقير الذى ليس بمختار كما قاله العلامة يوسف السفطى ، وفيه أن العبد وإن علت منزلته فهو دائم الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن ، وكل ممكن مضطر إلى ممد يمده ، وكما أن الحق تعالى هو الغنى المطلق ، فالعبد مضطر إليه أبدا ، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره وقد عتب الله قوما اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار ، فلما زالت زال اضطرارهم (وأطلعنى) أى أعلمنى (بفضله) أى بمحض إحسانه ، إذ لا يجب لأحد عليه تعالى شىء خلافا لزعم المعتزلة وجوب الأصلح عليه تعالى عن ذلك ، ولله در اللقانى :

وقولهم إن الصلاح واجب عليه زور ما عليه واجب

(على أسرار ذلك) أى خفيات المعانى فى ذلك التصنيف (وألهمنى فيه) أى وفقنى ولقننى فى التصنيف من الالهام ، وهو إلقاء الخير فى القلب بطريق الفيض لا الاكتساب . قال فى القاموس : ألهمه الله لقنه إياه : أى ألقاه فى قلبه (ترتيبا عجيبا) منه ، ومقصوده رحمة الله الاستحسان والاخبار عن رضاه به كما يعلم من المصباح (لم أذكره فى المصنفات التى تقدمت فى أسرار معاملات الدين) من إحياء العلوم وغيره (وهو) أى الكتاب المصنف على هذا الترتيب العجيب (الذى أنا له واصف) بقولنا هذا (فأقول وبالله التوفيق) والمستعان ، وقدم الجار والمجرور للاهتمام . قال العلامة العدوى : قدمه للحصر : أى وليس التوفيق إلا بالله اهـ . وفيه بحث لأن الحصر لا يخاطب به إلا من عنده إنكار ، فيلقى عليه الكلام حينئذ ليزول ما عنده ، ومعلوم أن المخاطب بهذا ليس منكرا إلا أن يقال : إن هذا منكر على سبيل الفرض والتقدير كما أفاده العلامة السفطى فتأمل (إن أول ما ينبه العبد) أى ما يستيقظه من سنة الغفلة إلى عز التيقظ (للعبادة) . قال فى التعريفات هل فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه ؟ وقد مر بيان ذلك (ويتجرد لسلوك طريقها بخطرة سماوية من الله وتوفيق خاص إلهىّ وهو المعنىّ) أى المراد (بقوله سبحانه) هو

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْاسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » وَأَشَارَ إِلَيْهِ صاحبُ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُه عليه فقالَ : « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ . فقِيلَ يَارَسُولَ اللهِ هَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا ؟ فقالَ: التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الموْتِ .

اسم ملازم للنصب مأخوذ من سبح فى الماء إذا غاب ومعناه تنزيهه تعالى عما لا يليق به (وتعالى) أى تنزه وارتفع عن الشركاء (أفمن شرح الله صدره للاسلام) وشرح الصدر للاسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فإنه محل للقلب الذى هو منبع للروح التى تتعلق بها النفس القابلة للاسلام فانشراحه مستدع لانشراح القلب كما قاله الجمل عن أبى السعود (فهو على نور) أى معرفة واهتداء إلى الحق (من ربه ، وأشار إليه) أى الشرح (صاحب الشرع ، صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح) . وقال القرطبى : والتحقيق فى معنى النور أنه مظهر لما ينسب إليه وهو يختلف بحسبه ، فنور السمع مظهر للمسموعات ، ونور البصر كاشف للمبصرات ، ونور القلب كاشف عن المعلومات ، ونور الجوارح مايبدو عليها من أعمال الطاعات (فقيل يا رسول الله هل لذلك) أى لانفساح القلب وانشراحه (من علامة يعرف بها ؟ فقال) صلى الله عليه وسلم (التجافى) أى التباعد (عن دار الغرور) أي الدنيا (والإنابة) أى الرجوع (إلي دار الخلود) أى الآخرة (والاستعداد) أى التهيؤ بالعمل الصالح (للموت قبل نزول الموت) أورده صاحب القوت هكذا فذكر سببه الزهد فى الدنيا والإقبال على خدمة المولى ، فحسن التواضع والإصابة فى العلم مواهب من الله عز وجل ، وأثرة يخص بها من يشاء .

وقال العراقى : رواه الحاكم فى المستدرك من رواية عدى بن الفضل عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن يرد الله » الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن النور إذا دخل الصدر انفسح ، فقيل يارسول الله : هل لذلك من علم يعرف ؟ قال نعم فذكره » قال : وقد سكت عليه الحاكم وهو ضعيف ، ورواه البيهقى فى الزهد من رواية عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود ، رواه ابن المبارك فى الزهد والرقائق قال : أخبرنا عبد الرحمن المسعودى عن عمرو ابن مرة عن أبى جعفر رجل من بنى هاشم وليس محمد بن على قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، فذكر مثل رواية الحاكم إلا أنه قال : قيل هل لذلك من آية يعرف بها ، وقال فى آخره قبل الموت ، وهذا مرسل ضعيف ، وهو الصواب فى رواية هذا الحديث ، وما قبله ضعيف كما بينه الدارقطنى فى العلل ، وسئل عنه فقال : يرويه عمرو بن مرة ، واختلف فيه عنه فرواه مالك بن مغول عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله قاله عبد الله بن محمد ابن المغيرة تفرّد بذلك ، ورواه زيد بن أبى أنيسة عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله

فإذا خُطِرَ بِقَلْبِ الْعَبْدِ أَوَّلَ كلِّ شَيْءٍ أَنِّي أَجِدُنِي مُنَعَّمًا بضرُوبٍ مِنَ النعَمِ عَلَيَّ كالحياةِ والقُدْرَةِ وَالْعَقْلِ وَالنُّطْقِ وسائِرِ المَعانِي الشَّرِيفَةِ وَاللَّذَّاتِ مَعَ مَا يَنصرِفُ عَنِّي مِنْ ضُرُوبِ المَضَارِّ والآفاتِ ، وَإِنَّ لهٰذِهِ النِّعَمِ مُنْعِمًا يُطالِبُنِي بِشُكْرِهِ وَخِدْمَتِهِ ، فَإِنْ غَفَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فَيُزِيلُ عَنِّي نِعْمَتَهُ ، وَيُذِيقُنِي بَأْسَهُ وَنِقْمَتَهُ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولاً

قاله أبو عبد الرحمن عن زيد ، وخالفه يزيد بن سنان فرواه عن زيد عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله وكلها وهم ، والصواب عن عمرو بن مرة عن أبي جعفرعبد الله بن المسور مرسلا عن النبي صلي الله عليه وسلم ، كذلك قاله الثورى . قال وعبد الله بن المسور : هذا متروك ، كذا قاله الزبيدى (فاذا خطر) بضم الخاء مبنيا للمفعول ، والنائب جملة أنى : أى أدير وحرك (بقلب العبد أول كل شيء) منصوب على الظرفية : أي قبل الشروع فى العبادة كما قرره بعضهم (أنى أجدنى) أى أجد نفسى (منعما) بضم الميم مع فتح العين على صيغة اسم المفعول (بضروب) أى بأنواع (من النعم علىّ) جمع نعمة . قال ابن مالك : ولفعلة فعل ، وهى كلّ ملائم تحمد عاقبته كما فى التحفة : وقال الفخر الرازى : هى المنفعلة المفعولة على جهة الاحسان إلي الغير ، وفى شرح الأربعين : هى لين العيش وخصبه ، أو الشىء المنعم به (كالحياة والقدرة والعقل والنطق وسائر المعانى الشريفة) كالسمع والبصر (واللذات مع ماينصرف) أى ينعزل ويندفع (عنى من ضروب المضارّ والآفات) . واعلم أن نعم الله تعالي وإن كانت لاتحصى باعتبار الأفراد كما فى قوله تعالى « وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » لكنها تنحصر باعتبار الأجناس فى جنسين: دنيوى ، وأخروى ، والأول قسمان : كسبيّ ووهبيّ ، والوهبى قسمان : روحانى كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى كالفكر والفهم والنطق ، وجسمانىّ كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء ، والكسبى تزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق والملكات الفاضلة وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والمال ، والثانى أن يعفو عما فرط منه ويرضى عنه ، ويبوئه فى أعلى عليين مع الملائكة المقربين كما قاله الرملى فى النهاية والسفطى فىحاشية العشماوية (و) خطر بقلبه أيضا (أن لهذه النعم) المذكورات (منعما) بكسر العين وهو الله سبحانه وتعالى (يطالبنى بشكره وخدمته) أى طاعته (فان غفلت عن ذلك) الشكر والطاعة (فيزيل عنى نعمته ويذيقنى) أى يلقى علىّ (بأسه) أى عذابه (ونقمته) أى عقوبته ، فهما مترادفان علي قول بعضهم (وقد بعث إلىّ رسولا) أى أرسل إلينا معاشر المخلوقين جنا وإنسا رسولا ، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إجماعا فهو معلوم من الدين بالضرورة فيكفرجاحده مبشرا ومنذرا ومبينا للناس مايحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين لإقامة حجته علي خلقه . قال تعالى « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله

أَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الخارِقَةِ لِلعَادَاتِ الخارِجَةِ عَنْ مَقْدُورِ الْبَشَرِ ، وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ لِي رَبًّا جَلَّ ذِكْرُهُ قادِرًا عَلِيماً حَيًّا مُرِيدًا مُتكلِّماً ، يَأْمُرُ وينْهَى ، قادِرًا عَلَى أَنْ يُعاقِبَ إِنْ عَصَيْتُهُ ، وَيُثِيبُ إِنْ أَطَعْتُهُ عَالِمًا بِأَسرَارِي وما يختَلِجُ فى أَفكارِي ، وَقَدْ وَعَدَ وَأَوْعَدَ ، وَأَمَرَ بِالْتِزَامِ قَوَانِينِ الشرْعِ ، فَيَقَعُ فى قَلْبِهِ أَنَّهُ

لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك » . قال الزبيدى : من أن أصل الرسل الانبعاث علي تؤدة ، ومنه ناقة رسلة أى سهلة الانقياد، وإبل مراسيل، ويصدرمنه تارة الرفق وتارة الانبعاث ومنه اشتق الرسول ، والجمع رسل بضمتين ويطلق الرسول تارة علي المتحمل بالرسالة ، وتارة على القول المتحمل ، وتارة يطابق مايراد به، وتارة يفرد وإن أريد به غير الواحد، وقد يراد بالرسل الملائكة ، وفى الاصطلاح إنسان بعثه الله لتبليغ الأحكام (أيده) أى قواه (بالمعجزات) جمع معجزة ، وهى أمر خارق للعادة يظهر على مدعى الرسالة عند تحدّى المنكرين ، أى يدعوهم ويسوقهم إلى الله تعالى، إذ مدعى الرسالة لابد له من دليل علي دعواه والمعجزة دليله (الخارقة) أى المخالفة (للعادات الخارجة عن مقدور البشر) لعجزهم عن الاتيان بمثلها ، وعبر عن عالم الانسان بالبشر اعتبارا بظاهر جلده من الشعر ، بخلاف الحيوان الذى عليه نحو صوف ووبر كذا فى شرح الاحياء .

﴿ فائدة ﴾ روى أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، وقيل غير ذلك ، وأن عدد الرسل ثلثمائة وثلاثة عشر ، وقيل غير ذلك (وأخبرنى) الرسول صلى الله عليه وسلم (بأن لى ربا) أى خالقا معبودا (جل ذكره) وعلت عظمته (قادرا) أى له قدرة قديمة ، وهى صفة أزلية تؤثر فى الممكن عند تعلقها به (عليما) أى له علم قديم ، وهى صفة أزلية لها تعلق بالشىء على وجه الإحاطة به على ما هو عليه (حيا) أى له حياة قديمة ، وهى صفة أزلية تقتضى صحة العلم لموصوفها (مريدا) أى له إرادة قديمة ، وهى صفة أزلية تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود أو عدم ومقدار وزمان ومكان وجهة (متكلما) أى له كلام ، وهى صفة أزلية عبر عنها بالنظم المعروف المسمى بكلام الله تعالى وبالقرآن أيضا ، وهذه الصفات مع زيادة السمع وغيره منظومة فى قول بعضهم :

حياة وعلم قدرة وإرادة ... كلام وإبصار وسمع مع البقا
فهذه صفات الله جل قديمة ... لدى الأشعرى الحبر ذى العلم والتقى

(يأمر) الرب جل ذكره بالمعروف (وينهى) عن الفحشاء والمنكر (قادرا على أن يعاقب) عليّ بعدله (إن عصيته ويثيب) لى بمحض فضله (إن أطعته عالما بأسرارى) جمع سر وهو باطن القلب كما قاله بعضهم (وما يختلج) أى يتحرك وينبعث (فى أفكارى وقد وعد) من آمن وعمل صالحا بالثواب والجنة (وأوعد) من كفر وعصى بالعقاب والنار (وأمر بالتزام قوانين الشرع) وحدوده (فيقع) جواب الشرط الذى فى قوله فإذا خطر الخ (فى قلبه) أى العبد (أنه) أى المذكور

ممكنٌ ، إذْ لاَ اسْتِحَالةَ لِذٰلِكَ فى العَقْلِ بأوّلِ الْبَدِيهةِ فيَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَ ذٰلكَ وَيفزَعُ فَهذَا خاطِرُ الْفزَعِ الّذِى يُنبِّهُ الْعَبْدَ وَيُلزِمُهُ الْحُجّةَ ، وَيقْطَعُ عَنْهُ الْمَعْذِرَةَ ، وَيُزْعِجُهُ إِلى النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلاَلِ ، فَيَهْتَاجُ الْعَبْدُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَقْلَقُ وَيَنْظُرُ فى طَرِيقِ الخَلاَصِ وَحُصُولِ الأَمَانِ لهُ مِمّا وَقَعَ بِقَلْبِهِ ، أَوْ سَمِعَ بِأُذنِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ سَبِيلاً سِوَى النَّظَرِ بِعَقْلِهِ فِى الدَّلاَئِلِ وَالِاسْتِدْلاَلِ بالصَّنْعَةِ عَلَى الصَّانِعِ

من مطالبة الرب بشكر نعمته (ممكن إذ لا استحالة لذلك) الوقوع (فى العقل بأول البديهة) أى الفجأة من دون توقف ولا تفكر (فيخاف) أى ذلك العبد (على نفسه عند ذلك) أى عند وقوع الامكان فى قلبه (ويفزع) أى يخاف (فهذا خاطر الفزع) والخوف (الذى ينبه العبد) أى يوقظه من نوم الغفلة (ويلزمه الحجة) أى الدليل القاطع بأن له ربا يعطيه أنواع النعم (ويقطع عنه المعذرة) أى الاعتذار (ويزعجه) أى يحركه ، وفى المختار أزعجه : أقلعه وقاعه من مكانه (إلى النظر) بعقله فى الدلائل (والاستدلال) الآثار على المؤثر ، والفاعل سبحانه وتعالى (فيهتاج العبد) أى يتحرك ويثور (عند ذلك) أى خاطر الفزع ، أى عند وقوعه وإزعاجه إلى ما ذكر (ويقلق) أى يضطرب ويعتريه الخوف ، وهو بفتح اللام من باب طرب ، فهوقلق ، يقال بات فلان قلقا وأقلقه غيره كما فى المختار (وينظر) أى يتأمل العبد (فى طريق الخلاص وحصول الأمان له مما وقع بقلبه) أى من الخاطر المذكور (أو سمع بأذنه فلم يجد فيه سبيلا) أى طريقا يخلص ويأمن فيه (سوى النظر بعقله فى الدلائل) متعلق بالنظر جمع دلالة : بمعنى الدليل ، وهو لغة : المرشد ، واصطلاحا : ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى علم أو ظن نقليا كان ، وهو الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، أوعقليا وهوالبرهان الاصطلاحى ، وهو ما تركب من قضيتين متى سلمتا لزمهما قول ثالث : كالعالم متغير وكل متغير حادث ، ينتج العالم حادث على ما هو مقرر فى محله من كتب الميزان كذا فى شرح الأربعين (والاستدلال بالصنعة على الصانع) كالعالم على وجوده تعالى ، والدليل المطلوب من العبد هو الدليل الجملى ، وهو المعجوز عن تقريره وحلّ شبهه كما إذا قيل له : إن الله موجود فيقول : نعم ، فيقول له وما دليلك على ذلك ؟ فيقول: هذه المخلوقات ، ويعجز عن التقرير المرتب على جهة دلالتها هل هى من جهة حدوثها أو إمكانها أو هما معا أو نحو ذلك كما قاله القطب السنوسى .

واختلف المتكلمون فى دلالة العالم على الصانع على أقوال أربعة : أولها من جهة حدوثه : أى وجوده بعد العدم ، ونظم الدليل عليه أن تقول: العالم حادث وكل حادث له صانع فالعالم له صانع. ثانيها من جهة إمكانه: أى استواء وجوده وعدمه . ونظم الدليل عليه أن تقول: العالم ممكن وكل ممكن له صانع ، فالعالم له صانع . ثالثها من جهتهما معا . رابعها من جهة الإمكان بشرط الحدوث ، ونظم الدليل عليهما أن تقول: العالم ممكن حادث وكل ممكن حادث له صانع ، فالعالم له صانع ، قاله العلامة ابن حجازى

لِيَحصُلَ لَهُ عِلْمُ الْيَقِينِ بِمَا هُوَ مَغِيبٌ ، وَيَعلَمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا كَلَّفَهُ وأَمَرَهُ وَنَهَاهُ .

فَهَذِهِ أَوَّلُ عَقَبَةٍ اسْتَقْبَلَتْهُ فِى طَرِيقِ العِبَادَةِ، وَهِىَ عَقَبَةُ الْعِلْمِ وَالْمَعرِفَةِ لِيَكُونَ مِنَ الأمْرِ عَلَى بَصِيرَةٍ فَيَأْخُذَ فِى قَطْعِهَا

الشرقاوى (ليحصل له علم اليقين بمـا هو مغيب ويعلم أن له ربا) أنعم عليه و (كلفه) شكره (وأمره) بالخدمة والطاعة (ونهاه) عن الـكفر وضروب المعاصى . واعلم أن اليقين عندجماعة هو توالى العلم بالمعلوم حتى لايكاد يغفل عنه فهو أخص من العلم ، قاله شيخ الاسلام زكريا ، وعن آخرين هو العلم الذى لا يتداخل صاحبه ريب على مطلق العرف ولا يطلق فى وصف الحق سبحانه لعدم التوقيف ، والعبارات التى تطلق على العلوم الجلية ثلاثة : علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين فعلم اليقين بموجب اصطلاحهم ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان: أى بطريق الـكشف والنوال ، وحق اليقين ما كان بنعت البيان ، والأول لأرباب العقول ، والثانى لأصحاب العلوم ، والثالث لأصحاب المعارف كما قاله القشيرى فى الرسالة ، وإيضاحه قول بعض العارفين علم اليقين يشهدك قربه تعالى منك ، وعين اليقين يشهدك عدمك لوجوده تعالى ، وحق اليقين يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك، وبينه بقوله: إن الذى ينـكشف بالنور الأول قرب الله منك،وثمرة ذلك مراقبته تعالى والاستحياء منه حتى لايراك حيث نهاك،ولا يفقدك حيث أمرك، والذى ينـكشف بالثانى عدمية كل موجود فى وجود الحق تعالى فيشهد الأكوان عدما فلا يعبأ بها ولا يلتفت إليها إذ وجودها عارية والوجود الحقيقى له سبحانه وتعالى وثمرة ذلك أن لا يبقى فى نظرك ماتستند إليه ولا ما تستأنس به فيتم لك التوكل والتفويض والرضا والاستسلام ، والذى ينـكشف بالثالث الذات المقدسة ، وثمرة ذلك الفناء الـكامل الذى هو دهليز البقاء فيفنى عن فنائه وعدمه استهلاكا فى وجود سيده ، وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والأسرار الإلهية ، فإذا ترقى عن ذلك حل فى مقام البقاء . قال السهروردى فى العوارف : والباقى فى مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ، ولا الخلق عن الحق ، والفانى محجوب بالحق عن الخلق اهـ (فهذه) أى المذكورة من النظر والاستدلال (أول عقبة) وهى فى الأصل الطريق الصعب فى الجبل ، والمراد بها المجاهدة كما قرره بعضهم (استقبلته فى طريق العبادة وهى عقبة العلم والمعرفة)وهما مترادفان بمعنى واحد على الصحيح وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الناشىء عن دليل (ليـكون) أى العبد(من الأمر)أى الشأن والحال (على بصيرة) أى علم وخبرة . قال السيد الجرجانى : البصيرة قوة للقلب بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها، وهى التى يسميها الحـكماء القوة العاقلة والقوة القدسية ، كذا نقله بعضهم (فيأخذ) أى يشرع العبد (فى قطعها

مِنْ غَيْرِ بُدٍّ ، بِحُسْنِ النَّظَرِ فى الدَّلَائِلِ وَوُفُورِ التَّأَمُّلِ وَالتَّعَلُّمِ وَالسُّؤَالِ مِنْ عُلَمَاءِ الْآخِرَةِ أَدِلَّاءِ الطَّرِيقِ ، سُرُجِ الْأُمَّةِ ،

من غير بدّ) أى فراق وغنى (بحسن النظر فى الدلائل ووفور التأمل) أى إتمامه (والتعلم) وهو تنبه النفس لتصور المعانى ، وقد أجمع العلماء على فضل التعلم من أفواه المشايخ على التعلم من الكتب خلافا لمن شذ فيه وذلك لوجوه ، منها: وصول المعانى من النسيب إلى النسيب خلاف وصولها من غير النسيب ، والنسيب الناطق أفهم للتعليم وهو المعلم ، وغير النسيب له جماد وهو الكتاب ومنها: أن المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهم من لفظه نقله إلى لفظ آخر ، والكتاب لا ينقل . فالمعلم فى إيصال العلم أصلح للتعليم من الكتاب . ومنها أنه يوجد فى الكتاب أشياء تعوق عن العلم وهى معدومة عند المعلم كالتصحيف العارض من اشتباه الحروف وقلة الخبرة وسقم النسخ ورداءة النقل وإدماج القارىء مواضع المقاطع وخلط مبادى التعليم وذكر ألفاظ مصطلح عليها فى تلك الصناعة ، فهذه كلها معوقة عن العلم وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته علي المعلم ، وإذ كان الأمر على هذه الصورة فالقراءة علي العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه . قال الصفدى : ولهذا قال العلماء : لا تأخذ العلم من صحف ومن مصحف ، يعنى لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف ولا الحديث وغيره علي من أخذ ذلك من الصحف ، كذا ذكره الزبيدى فى شرح الإحياء . قال وهو كلام حسن ينبغى الاهتمام بمعرفته (والسؤال من علماء الآخرة) وهم علماء الدين ولهم علامات تميزهم من علماء الدنيا ، وهم علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ، ومنها أن لا يطلبوا الدنيا بعلم المسائل التى تعلموها ولله در القائل :

ولعالم الأخرى علامات ترى لا يطلب الدنيا بعلم مسائلا

فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة وجلالة ملكها وصفاء نعيمها ودوامها ويعلم أنهما متضادتان لأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر ، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه فى الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر ، فان من لا يعرف ذلك فهو فاسد العقل ، كذا أفاده الغزالى فى الإحياء ، ومنها أن يكون يعنى عالم الآخرة معتنيا بتحصيل العلم النافع المرغب فى الطاعة ، الناهى عن الدنيا ويكون متوقيا علما يكون مكثرا قليلا وقالا :أى فضول ما يتحدث به المتجالسون وهكذا إلى آخر ما ذكره العلامة السيد بكرى من العلامات الثمانية فى شرح هداية الأتقياء (أدلاء) جمع دليل (الطريق) إلى الله (سرج الأمة) أى كالسرج فيهم ، والسرج بضمتين جمع سراج هو المصباح وهذا الذى ذكره قد جاء مصداقه فى الحديث الذى أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس رفعه بسند فيه القاسم بن إبراهيم الملطى . قال الدارقطنى : كذاب . اتبعوا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة ، والحديث وان كان أورده ابن الجوزى فى الموضوعات ، وجزم به

وقادَةِ الْأَئمَّةِ ، وَالِاسْتِفَادَةِ مِنهُمْ ، وَاسْتِهْدَاء الدُّعَاءِ الصَّالِحِ مِنهُمْ ، لِلتَّوْفِيقِ وَالإِعَانَةِ إِلى أَنْ يَقْطَعَهَا بِتَوْفِيقِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَيَحْصُلَ لَهُ عِلْمُ الْيَقِينِ بالْغَيْبِ ، وَهُوَ أَنَّ لَهُ إِلٰهاً وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لهُ ، هُوَ الَّذِى خَلَقَهُ وَأَنْعَمَ عليْهِ بِكُلِّ هٰذِهِ النِّعَمِ ، وأَنَّهُ كَلَّفَهُ شُكْرَهُ ، وأَمَرَهُ بِخِدْمَتِهِ وطَاعَتِهِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، وحَذَّرَهُ الْكُفْرَ وَضُرُوبَ الْمَعَاصِى ، وحَكَمَ لَهُ بِالثَّوَابِ الخَالِدِ إِنْ أَطَاعَهُ ،

السيوطي وغيره فالمعنى صحيح : أي يستضاء بهم من ظلمات الجهل كما ينجلى ظلام الليل بالسراج المنير بالليل ويهتدى به فيه ، فمن اقتدى بهم اهتدى بنورهم ، وشبه العالم بالسراج لأنه تقتبس منه الأنوار بسهولة وتبقى فروعه بعده ، وكذا العالم، ولأن البيت إذاكان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله مخالفة أن يفتضح ، وكذا العلماء إذاكانوا بين الناس اهتدوا بهم إلى طلب الحق وإزاحة ظلمة الجهل والبدعة ، ولأنه إذاكان في البيت سراج موضوع فى كوة مسدودة بالزجاج أضاء داخل البيت وخارجه ، وكذا سراج العلم يضىء فى القلب وخارج القلب حتى يشرق نوره علي الأذنين والعينين واللسان فتظهر فنون الطاعة من هذه الأعضاء ، ولأن البيت الذى فيه السراج فصاحبه متأنس مسرور فإذا طفىء استوحش ، فكذلك العلماء ما داموا فى الناس فهم مستأنسون مسرورون، فاذا ماتوا صار الناس فى غم وحزن، فإن قلت ما الحكمة فى التشبيه بخصوص السراج وما المناسبة التامة بينهما . قلت : المصباح تضره الرياح والعلم يضره الوسواس والشبهات والسراج لا يبقى بغير دهن ، والعلم لا يبقى بغير توفيق ، ولابد للسراج من حافظ يتعهده ، ولا بد لمصباح العلم من متعهد وهو فضل الله وهدايته ، كذا أفاده العلامة الزبيدى (وقادة الأئمة) أى رؤسائهم (والاستفادة منهم واستهداء الدعاء الصالح منهم) أى طلب هداية الدعاء الصالح من علماء الآخرة بمعنى الدلالة على طرق الحق والإيصال إليها (للتوفيق) أى لصرف الهمة كما قرره بعضهم لامعناه المعروف الذى هو خلق قدرة الطاعة فى العبد لأن كل مقام له مقال (والإعانة) أى الإقدار (إلى أن يقطعها) أى العقبة المذكورة (بتوفيق الله سبحانه فيحصل له علم اليقين بالغيب ، وهو) أى علم اليقين (أن له إلها واحدا) أى منفردا بذاته (لا شريك له) أى لا مشارك له فى صفاته وأفعاله وهو ردّ على المعتزلة القائلين بأن العبد يخلق أفعاله نفسه (هو الذى خلقه) أى أوجده بعد عدم (وأنعم عليه بكل هذه النعم) أى المذكورات من الحياة ونحوها (و) علم علما يقينا (أنه) سبحانه (كلفه) أى حمل العبد على المشقة (شكره وأمره بخدمته وطاعته) عطف تفسير (بظاهره) كالصلاة والزكاة وغيرها من العبادات وكترك الزنا والقتل وغيرهما من المحرمات (وباطنه) كالعلم بالله والحبّ له والتوكل عليه والخوف منه (وحذره) أى خوف الإله العبد (الكفر وضروب المعاصى) أى أنواعها (وحكم له بالثواب الخالد) فى الجنة (إن أطاعه) بفضله تعالى ورحمته

وبالعِقَابِ الخالِدِ إنْ عَصاهُ وَتوَلَّى عنهُ . فعِنْدَ ذَلكَ تبعَثهُ هٰذِهِ المَعْرِفَةُ وَالْيَقِينُ بالغَيْبِ عَلَى التَّشْمِيرِ لِلْخِدْمَةِ وَلإقْبَالِ عَلَى العِبَادَةِ لِهٰذَا السَّيِّدِ المُنعِمِ الَّذِى طَلَبَهُ فَوَجَدَهُ ، وَعَرَفَهُ بَعْدَ مَاجَهِلَهُ ، ولٰكِنَّهُ لَايَدْرِى كَيْفَ يَعْبُدُهُ وَمَاذَا يَلْزَمُهُ فِى خِدْمَتِهِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، فَبَعْدَ هَوْلِ هٰذِهِ المَعْرِفَةِ بِاللهِ

(و) حكم عليه (بالعقاب الخالد) فى النار (إن عصاه وتولى) أى أعرض عنه بعدله تعالى كما فى قوله :

وإن يثبنا فبمحض الفضل وان يعذب فبمحض العدل

فإثابته تعالى لنا إنما هى بفضله المحض : أى الخالص ، ومعنى الفضل المحض : الإعطاء عن اختيار كامل ، لا عن إيجاب بحيث يثيبنا ولا اختيار له فى الإثابة أبدا لكونه علة تنشأ عنها معلولاتها من غير اختيارلها كما يقوله الحكماء، ولا عن وجوب بحيث تصيرالإثابة مستحقة لازمة يقبح عليه تعالى تركها ، فيثيبنا باختياره لكن مع الوجوب كما يقوله المعتزلة ، فمذهب أهل السنة أن إثابته تعالى لنا بالفضل الخالص غير مشوبة بإيجاب ولا وجوب ، فقولنا بالفضل رد لكلام الحكماء ، وقولنا الخالص رد لكلام المعتزلة ، ويدل لمذهب أهل السنة أن طاعات العبد وإن كثرت لا تفى بشكر بعض ما أنعم الله به عليه فكيف يتصور استحقاقه عوضا عليها وإن يعذبنا فتعذيبه إنما هو بالعدل المحض ، ومعنى العدل المحض وضع الشىء فى محله من غير اعتراض على الفاعل، ضد الظلم الذى هو وضع الشىء فى غير محله مع الاعتراض على فاعله وبالجملة فهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية والكل بخلقه ، فليست الطاعة مستلزمة للثواب وليست المعصية مستلزمة للعقاب وإنما هما أمارتان تدلان على الثواب لمن أطاع ؛ والعقاب لمن عصى حتي لو عكس دلالتهما بأن قال : من أطاعنى عذبته ، ومن عصانى أثبته لكان ذلك منه حسنا فلا حرج عليه لا يسئل عما يفعل ، وهذا كله بحسب العقل ، وأما بحسب الشرع فلا يجوز خلف الوعد لأنه سفه وهو يستحيل عليه تعالى، وأما الوعيد فيجوز الخلف فيه لأنه كرم وفضل كما نبه عليه بعضهم (فعند ذلك) أى حصول علم اليقين (تبعثه) أى تحمله (هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير) أى التهيؤ ، يقال شمر عن ساقه وشمر فى أمره : أى خف ، وتشمر : أى تهيأ (للخدمة) أى الطاعة (والإقبال) بكنه الهمة (على العبادة لهذا السيد المنعم) جل وعز ، وفى السيد مذاهب ثلاثة : أحدها جواز إطلاقه على الله وعلى غيره . ثانيها وينسب للامام مالك أنه لا يطلق على الله أبدا . ثالثها أنه لا يطلق إلا على الله ، وفى الكتاب والسنة ما يرد هذا الثالث . قال تعالى فى حق يحي ابن زكريا عليهما السلام «وسيدا وحصورا» وفى الحديث «إن ابنى هذا» أى الحسن «سيد» (الذى طلبه) أى طلب العبد السيد المنعم (ووجده وعرفه بعد ماجهله ولكنه) أى العبد (لايدرى كيف يعبده وماذا يلزمه فى خدمته بظاهره وباطنه فبعد هول) أي مخيف (هذه المعرفة بالله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَهِدَ حَتَّى يَتَعَلَّمَ مَايَلْزَمُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ الشَّرْعِيَّةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . فَلَمَّا اسْتَكْمَلَ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ بِالْفَرَائِضِ انْبَعَثَ لِيَأْخُذَ فِى الْعِبَادَةِ وَيَشْتَغِلَ بِهَا فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ صَاحِبُ جِنَايَاتٍ وَذُنُوبٍ. وَهٰذَا حَالُ الْأَكْثَرِ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ : كَيْفَ أُقْبِلُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَنَا مُصِرٌّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مُتَلَطِّخٌ بِهَا فَيَجِبُ عَلَيَّ أَوَّلاً أَنْ أَتُوبَ إِلَيْهِ لِيَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي وَيُخَلِّصَنِي مِنْ أَسْرِهَا ، وَيُطَهِّرَنِي مِنْ أَقْذَارِهَا فَأَصْلُحَ لِلْخِدْمَةِ وَبِسَاطِ الْقُرْبَةِ ، فَتَسْتَقْبِلُهُ ههُنَا (عَقَبَةُ التَّوْبَةِ) .

سبحانه وتعالى) قال بعضهم : والهول الأمر المخيف الشاق (جهد) العبد واجتهد (حتى يتعلم مايلزمه من الفرائض الشرعية) كالطهارة والصلاة وغيرها (ظاهرا وباطنا ، فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرائض) الشرعية (انبعث) أى قام (ليأخذ) أى ليشرع (فى العبادة ويشتغل بها فنظر) من النظر بمعنى إعمال الفكر ومزيد التدبر والتأمل (فاذا هو صاحب جنايات وذنوب) هما مترادفان (وهذا) المذكور من المصاحبة (حال الأكثر من الناس فيقول كيف أقبل علي العبادة) وأشتغل بها (وأنا مصرّ) أى مقيم (على المعصية متلطخ) أى متلوّث كما فى المختار (بها فيجب عليّ أوّلا) أى قبل الإقبال على العبادة (أن أتوب اليه) سبحانه وتعالى (ليغفر لى ذنوبى) ويخلصنى أى يجعلنى الله خالصا ونجاه (من أسرها) أى المعصية أى حبسها وقيدها كما فى القاموس (ويطهرنى من أقذارها) جمع قذر ضد النظافة (فأصلح للخدمة وبساط القربة) إلى الله تعالى أي البساط الذى كل من جلس إليه حصل له القرب وهو تلك الحضرة الالهية فشبهت ببساط الملك يستريح الوفود إذا وصلوا إليه وجلسوا على بساطه (فتستقبله ههنا) فى وجوب التوبة (عقبة التوبة) أى التوبة الشبيهة بالعقبة بجامع أن كلا منهما طريق صعب على النفس ، وكذا يقال فيما يأتى ، والعقبة فى الأصل الطريق الصعب فى الجبل ، وليس هذا المعنى مرادا هنا ، بل المراد بها هنا مجاهدة النفس فى الطاعات وترك الذنوب المهلكات مطلقا. وقال الحسن هى والله عقبة شديدة مجاهدة نفسه وهواه وعداوة الشيطان ، أفاده القرطبي . قال بعضهم : ذكر العقبة ههنا مثل ضرب لمجاهدة النفس والهوى والشيطان فى أعمال البر فجعل كالذى يتكلف صعود العقبة . والتوبة لغة : مطلق الرجوع ،واصطلاحا: الرجوع عما كان مذموما فى الشرع إلى ماهو محمود فيه وسيأتى ماهو قريب منه فى بابها ، ولها بداية ونهاية ، فبدايتها التوبة من الكبائر ثم الصغائر ثم المكروهات ثم خلاف الأولى ثم من رؤية الحسنات ثم من رؤية أنه صار معدودا من فقراء الزمان ثم من رؤية أنه صدق فى التوبة ثم من خاطر له فى غير مرضاة الله عز وجل ، وأما نهايتها فكلما غفل عن شهود ربه طرفة عين ، بدأ بالتوبة لأنها أساس لكل مقام يرتقى إليه العبد حتى يموت ، فكما أن من لا أرض له فلا بناء له ، فكذلك من لا توبة له فلاحال له ولامقام ، ومن كلام العارفين :

فَيَحْتَاجُ لاَ مَحَالَةَ إِلَى قَطْعِهَا لِيَصِلَ إِلَى مَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا فَيَأْخُذَ فِى ذٰلِكَ بِإِقَامَةِ التَّوْبَةِ بِحُقُوقِهَا وَشَرَائِطِهَا إِلَى أَنْ يَقْطَعَهَا فَلَمَّا أَنْ حَصَلَتْ لَهُ التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ وَفَرَغَ مِنْ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ حَنَّ إِلَى الْعِبَادَةِ لِيَأْخُذَ فِيهَا فَنَظَرَ فَإِذَا حَوْلَهُ عَوَائِقُ مُحْدِقَةٌ بِهِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَعُوقُهُ عَمَّا قَصَدَ مِنَ الْعِبَادَةِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّعْوِيقِ ، فَتَأَمَّلْ فَإِذَا هِىَ أَرْبَعَةٌ : الدُّنْيَا وَالْخَلْقُ وَالشَّيْطَانُ وَالنَّفْسُ ، فَاحْتَاجَ لاَ مَحَالَةَ إِلَى دَفْعِ هٰذِهِ الْعَوَائِقِ وَإِزَاحَتِهَا عَنْهُ ، وَإِلاَّ فَلاَ يَتَأَتَّى لَهُ مُرَادُهُ مِنَ الْعِبَادَةِ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا .

من أحكم مقام توبته حفظه الله تعالى من سائر الشوائب فى الأعمال ، كذا قاله الصاوى فى شرحه على الخريدة (فيحتاج لا محالة) بفتح الميم مصدر ميمى من حال يحول ، يقال: لا محالة، أى لا بد وبالضم اسم مفعول من أحال يحيل ، يقال هو محال : أى باطل كما نقله الجمل عن الكرخى (إلى قطعها) وجوازها (ليصل إلي ما هو المقصود منها) وهو أمران كما يأتى فى بابها توفيق الطاعة وقبولها (فيأخذ) أى يشرع (فى ذلك) أى قطع العقبة (بإقامة التوبة بحقوقها وشرائطها) وستأتى فى الباب (إلى أن يقطعها) أى يتجاوزها (فلما أن) زائدة وتطرد زيادتها فى موضعين : أحدهما بعد لما كما هنا . والثانى قبل لو مسبوقة بقسم كقوله :

فاقسم أن لو التقينا وأنتم لـكان لنا يوم من الشر مظلم

كذا قاله الجمل عن السمين (حصلت له التوبة الصادقة) أى التى استجمعت شرائطها (وفرغ من هذه العقبة) أى قطعها (حنّ) أى اشتاق (إلى العبادة ليأخذ فيها فنظر فإذا) أى حين إذ نظر (حوله عوائق) أى موانع تشغله عنها (محدقة) أى محيطة (به كل واحد منها يعوقه) أى يمنعه (عما قصد من العبادة بضرب) أى بنوع (من التعويق) أى المنع والشغل (فتأمل) وأمعن النظر فى معرفة تلك العوائق (فإذا هى) أى العوائق (أربعة:الدنيا) لأنها قطعت الطريق على عباد الله ، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها (والخلق) فان أكثرهم يشغلون عن عبادة الله (والشيطان) فإنه يدعو إلى المعصية وفعل المحرمات . قال بعضهم : الشيطان كل جنّ كافر ، سمى شيطانا لأنه شطن : أى بعد عن رحمة الله ، وقيل لأنه شاط بأعماله : أى احترق بسببها . قال الجاحظ : الجن إذا كفر وظلم وتعدى وأفسد فهو شيطان ، فان قوى على حمل المشاق وعلى الشيء الثقيل وعلى استراقه السمع فهو مارد ، فان زاد على ذلك فهو عفريت ، كذا قاله الشبراملسى فى حواشى النهاية (والنفس) فانها أبدا تدعو الى الدعة والراحة والقعود عن عبادة ربها (فاحتاج) العبد (لا محالة إلى دفع هذه العوائق وإزاحتها) أى إزالتها (عنه وإلا) أى وإن لم يدفعها عنه (فلا يتأتى) أى فلا يسهل ولا يحصل (له مراده من العبادة فاستقبلته ههنا)

(عَقَبَةُ الْعَوَائِقِ) فَيَحْتَاجُ إِلَى قَطْعِهَا بِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ : التَّجَرُّدِ عَنِ الدنيا وَالتَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْمُحَارَبَةِ مَعَ الشَّيْطَانِ وَالْقَهْرِ لِلنفْسِ ، فَأَمَّا النَّفْسُ فَأَشَدُّهَا إِذْ لاَ يُمْكِنُهُ التَّجَرُّدُ عَنْهَا وَلاَ أَنْ يَقْهَرَهَا بِمَرَّةٍ وَيَقْمَعَهَا كَالشَّيْطَانِ ،

أى فى احتياجه إلى دفع هذه العوائق والموانع (عقبة العوائق فيحتاج إلى قطعها بأربعة أمور) أحدها (التجرد عن الدنيا) والزهد فيها لتستقيم له العبادة وتكثر ، فان الرغبة فى الدنيا تشغله. (و) ثانيها (التفرد عن الخلق) لتسلم له عبادته عن دواعى الرياء والتزين. (و) ثالثها (المحاربة مع الشيطان) لأنه عدو مضل مبين ومجبول على عداوته. (و) رابعها (القهر للنفس) لأنه أضر الأعداء ، وبلاؤها أصعب البلاء ، وعلاجها أعسر الأشياء ، وإليه أشار بقوله (فأما النفس فأشدها) أى الأمور الأربعة مجاهدة (إذ لا يمكنه التجرد عنها ولا أن يقهرها بمرة) أى بالكلية (و) لا (يقمعها) أى يذلها ويقهرها ، وقمعه وأقمعه : أى قهره وأذله كما فى المختار (كالشيطان) وسائر الأعداء ، والمراد بالنفس هنا : المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الانسان ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك» والنفس بهذا المعنى لا يتصور رجوعها إلى الله ، فانها مبعدة من حضرة الله وهى من حزب الشيطان كما قاله الغزالى . قال السيد مرتضى إلا أن صاحبها إذا لوحظ بعين الإمداد وجذبته العناية بأزمة السداد أهزل من أنفتها ما كان سمينا ، وحقر من افتخارها ما كان سمينا وأقرضها من الرياضة فى جبل صعب المسالك ، بعيد الذرى والمدارك ، ليس لعشاق الرياسة له من سبيل ، ولا للهمم الدنية عليه تعويل اه .

والنفوس سبعة بحسب أوصافها ، وإلا فهى واحدة : الأولى النفس الأمارة بالسوء ، وهى مأخوذة من قوله تعالى « إن النفس لأمارة بالسوء » وهى التى لا تأمر صاحبها بخير خالص من العلل ، فلا ينافى أنها قد تأمر بخير معلول ، فإذا جاهدها صاحبها وخالفها فى شهواتها حتى أذعنت لاتباع الحق وسكنت تحت الأمر التكليفي ، ولكنها تغلب صاحبها فى أكثر أحوالها ، ثم ترجع إليه باللوم على ما وقع سميت لوامة وهى الثانية ، مأخوذة من قوله تعالى « ولا أقسم بالنفس اللوامة » فإذا أخذ فى المجاهدة والكد حتى مالت إلى عالم القدس واستنارت بحيث ألهمت فجورها وتقواها سميت ملهمة وهى الثالثة ، مأخوذة من قوله تعالى « فألهمها فجورها وتقواها » وعلامتها أن يعرف صاحبها دسائسها الخفية الدقيقة من الرياء والعجب وغير ذلك ، فإذا لزم المجاهدة حتى زالت عنها الشهوات وتبدلت الصفات المذمومة بالمحمودة ، وتخلقت بأخلاق الله تعالى الجمالية من الرأفة والرحمة واللطف والكرم والود سميت مطمئنة وهى الرابعة ، هـذه وما بعدها إلى السابعة مأخوذة من قوله تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى

وادخلي جنتي » . وهذا المقام مبدأ الوصول إلى الله تعالى ولكنها لا تخلو من دسائس خفية جدا كالشرك الخفي وحب الرياسة إلا أنها لخفائها ودقتها لا يدركها إلا أهلها الذين نور الله بصائرهم ، لأن ظاهرها الصلاح والاتصاف بالصفات الحميدة من الكرم والحلم والتوكل والزهد والورع والشكر والصبر والتسليم والرضا بالقضاء مع انكشاف بعض أسرار ، وانخراق بعض عادات وظهور بعض كرامات ، فلربما ظن صاحبها أنه الامام الأعظم ، وأن مقامه هو المقام الأفخم ، وهذه من جملة الدسائس . فإذا أدركته العناية الإلهية ، واستند إلى شيخه بالكلية ، ولازم المجاهدة حتى تمكن من الصفات المحمودة وانقطع عنه عرق الرياء ، وصارت نفسه ذليلة ، واستوى عنده المدح والذم ، ودخلت في مقام الفناء ورضيت بكل ما يقع في الكون من غير اعتراض أصلا ، سميت راضية وهي الخامسة ولكن رؤية الفناء والإخلاص ربما أوقع في شيء من الإعجاب فيرجع به القهقرى ؛ فليستعذ بالله من ذلك مع مداومة الذكر والالتجاء إلى الله ، وملاحظة أنه لا يتم له الخلاص إلا بمدد الشيخ ؛ فإذا فني عن الفناء ، وخلص من رؤية الإخلاص : تجلى عليها بالرضى ، وعفا عن كل ما مضى ، وتبدلت سيئاتها حسنات ، وانفتح لها أبواب الأذواق والتجليات ، فصارت غريقة في بحار التوحيد ولذا سميت مرضية ، لأنها بعنايات الله مرعية ، وهي السادسة ، إلا أن صاحب الهمة العلية لا يرضى بالوقوف عند هذه المقامات وإن كانت سنية ، بل يسير من الفناء إلى البقاء ، ويطلب الوصول بتمام اللقاء ، فتناديه حقائق الأكوان : أي ذواتها « إنما نحن فتنة فلا تكفر — وأن إلى ربك المنتهى » : أي فلا تلتفت لغيره فإنه فتنة شاغلة لك عن مقصودك ، فإذا صار إلى منازل الأبطال : أي الشجعان ، وخلف الدنيا وراء ظهره ، ناداه ربه بأحسن مقال « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فيدخلها ربها في عباد الإحسان ، ويخلع عليها خلع الرضوان ، ويدخلها جنات الشهود ، ويجلسها في مقعد صدق عند الملك المعبود .

وفي هذا المقام قد تمت المجاهدة والمكابدة ، ومع ذلك فلا يأمن لنفسه ؛ بل دائما يتعهدها ويربيها . قال السيد بكري رحمه الله : النفس حية تسعى ولو بلغت مراتبها السبعة اهـ . وذلك : أي تمام هذه المجاهدة لأن صفات الكمال صارت لها طبعا وسجية ، وتسمى النفس فيه بالكاملة وهي السابعة ، وهي أعظم النفوس قدرا وأكملها فخرا ، ومع ذلك لا ينقطع ترقيها أبدا ، لأن الكامل يقبل الكمال ، فلم تزل تترقى حتى تشهد الحق تعالى قبل الأكوان ؛ ومشاهدته تعالى قبل كل شيء هو المسمى عندهم بالمعاينة ، وهذا عين اليقين بعد أن حازت علم اليقين الذي هو معرفته تعالى بالبراهين ثم حق اليقين ؛ وهي مشاهدته في كل شيء من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصال ولا انفصال كالمرآة ترى فيها وجهك من غير حلول الوجه فيها ولا اتحاد ؛ وهذا مشهد ذوقي لا يدركه إلا أهله ؛ وصاحب هذا المقام لا يفتر عن العبادة ؛ لأنها صارت طبعه إما باللسان وإما بالجنان وإما بالأركان ؛ فحركاته حسنات ، وأنفاسه عبادات ؛ **فهو محفوظ من الوقوع في المخالفات لحضوره.**

دائما مع الله فى جميع الحالات ؛ كذا حققه العلامة سيدى أحمد الدردير والعلامة سيدى أحمد ابن محمد الصاوي .

ولتمام هذه الفائدة نذكر عبارة الإحياء مع شرحه . وأما أفعاله فذكره خلق السموات والأرض وغيرها كالجبال والبحار ، فليفهم التالى من ذلك صفات الله تعالى وجلاله وعظمته وكمال قدرته ؛ إذ الفعل يدل على الفاعل وهو الذى صدر منه الفعل فتدل عظمته على عظمته وجلاله على جلاله ؛ فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل ؛ فمن عرف الحق تعالى رآه فى كل شىء فهو منه وإليه وبه وله ؛ يعنى أن معرفة الله سبحانه بطريق الأسماء والصفات والأفعال بالكمال لايكون إلا لله ، إلا أنا إذا علمنا ذاتا عالمة فقد علمنا شيئا مبهما لا ندرى حقيقته لكن ندرى أن له صفة العلم وإن كانت صفة العلم معلومة لنا حقيقة كان علمنا بأنه عالم أيضا علما تاما بحقيقة هذه الصفة وإلا فلا ؛ ولا يعرف أحد حقيقة علم الله تعالى إلا من له مثل علمه وليس ذلك إلا له جل وعز ، فلا يعرفه سواه تعالى وإنما يعرفه بالتشبيه بعلم نفسه ، وعلم الله لا يشبهه علم الخلق ألبتة ، فلا تكون معرفته به معرفة تامة أصلا بل إيهامية تشبيهية ، وكذلك الحاصل عندنا من قدرة الله تعالى ، وأنه ثمرة وصفه وأثره وجود الأشياء ، وينطلق عليه اسم القدرة ، لأنه يناسب قدرتنا كمناسبة لذة الجماع لذة السكر ، وهذا كله بمعزل عن حقيقة تلك القدرة . نعم كلما ازداد العبد إحاطة بتفاصيل المقدورات وعجائب الصنائع فى ملكوت الأرض والسموات كان حقه من معرفة صفة القدرة أوفر ، لأن الثمرة تدل على المثمر ، وإلى هذا يرجع تفاوت العارفين فى معرفة الله تعالى ، فمن قال لا أعرف إلا الله فقد صدق ، فإنه ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله ، فإذا نظر إلى أفعاله من حيث هي أفعاله وكان مقصور النظر عليها ولم يرها من حيث إنها سماء وأرض وشجر ، بل من حيث إنها صفة ، فلم تجاوز معرفة حضرة الربوبية فيمكنه أن يقول : ما أعرف إلا الله ولا أدرى إلا الله ، وهذا معنى قول المصنف : أى الغزالى : فمن رأى الحق رآه فى كل شىء الخ ، ولو تصور شخص لا يرى إلا الشمس ونورها المنتشر فى الآفاق يصح أن يقول: ما أرى إلا الشمس ، فإن النور الفائض منها هو من جملتها ليس خارجا عنها ، وكل ما فى الوجود نور من أنوار القدرة الأزلية وأثر من آثارها ؛ وكما أن الشمس ينبوع النور الفائض على كل موجود فليس فى الوجود إلا الله ، ومن عرفه عرف أن كل شىء ما خلا الله باطل ، وأن كل شىء هالك إلا وجهه لا أنه سيبطل ويهلك فى حال ثان : أى فى وقت من الأوقات ، بل هو الآن باطل وهالك أزلا وأبدا لا يتصور إلا كذلك ، فإن كل شىء إن اعتبر ذاته من حيث هو : أى من حيث ذاته فهو عدم محض إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وقدرته : أى من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول ، فيكون له بطريق التبعية ثبات أى وجود إلا فى ذاته ، لكن من الوجه الذى يلى موجده ، فيكون الموجد أصالة وجه الله فقط ، وبطريق الاستقلال والأصالة بطلان محض .

إِذْ هِيَ الْمَطِيَّةُ وَالآلَةُ، وَلاَ مَطْمَعَ أَيْضًا

والحاصل أن لكل شيء وجهين : وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ؛ فهو باعتبار وجه نفسه عدم ، وباعتبار وجه الله موجود ، فإذن لا موجود إلا الله ، فإذن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدا ، ولم يفتقرهؤلاء إلى قيام الساعة ليسمعوا نداء البارى« لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » بل هذا النداء لايفارق سمعهم أبدا وهذا الذىذكر مبدأ من مبادئ علوم المكاشفة ، ووراء ذلك أسراريطول الخوض فيها ؛ فوجه فى كلذى وجه إليه «فأينما تولوا فثم وجه الله» فإذن لا إله إلا هو فلا هو إلاهو ؛ لأن هوعبارة عما إليه إشارة كيفما كان فلاإشارة إلا إليه ؛ بل كل ماأشرت إليه فهو بالحقيقة إشارة إليه ؛ وإن كنت لا تعرفه أنت بغفلتك فكل ما فى الوجود فنسبته إليه فى ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس ؛ فإذن لا إله إلا الله توحيد العوام ، ولا هو إلا هو توحيد الخواص ؛ لأن هذا أدخل لصاحبه فى الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة ؛ ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية ؛ فليس وراءذلك مرقى ؛ إذ المرقىلايتصوربكثرة فإنه نوع إضافة يستدعى ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة ؛ وبطلت الاضافة ؛ وطاحت الاشارة ؛ فلم يبق علو ولاسفل ولا نازل ولا مرتفع ؛ فاستحال الترقى واستحال العروج فليس وراء الأعلى علو ولا مع الوحدة كثرة ، ولا مع انتفاء الكثرة عروج ؛ فهذا غاية الغايات ومنتهى الطلبات يعلمه من لايعلمه وينكره من يجهله ، وهومن العلم الذى هو كهيئة المكنون انتهت عبارته ملخصا .
وأما قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ؛ فقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : ليس يريد الصديق رضى الله عنه أنه لايعرف لأن العجز عند المحققين عجز عن الموجود دون المعدوم كالمقعد عاجز عن قعوده ؛ إذ ليس بكسب له ولا فعل ، والقعود موجود فيه ؛ كذلك العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه لأنها ضرورية . وعند هذه الطائفة المعرفة به سبحانه فى الانتهاء ضرورية ؛ فالمعرفة الكسبية فى الابتداء ، وإن كانت معرفة على التحقيق فلم يعدها الصديق رضى الله عنه شيئا بالاضافة إلى المعرفة الضرورية كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه اھ فلا مزيد لحسنه .

وأرى الآن قبض عنان البيان فما أراك تطيق من هذا الفن أكثر من هذا المقدار ، ولنرجع إلى شرح كلام المصنف (إذ هى) أى النفس (المطية) أى المركب للروح (والآلة ولا مطمع) أى لاطمع ولا رجاء (أيضا)أى كما أنه لايمكنه قهرها بالكلية كالشيطان . قال العلامة عبد الرحمن البنانى نقلا عن شيخ الاسلام زكريا : ولفظ أيضا هو مصدر آض يئيض أيضا : إذا رجع يرجع رجوعا وهو مفعول مطلق حذف عامله : أى ارجع إلى الإخبار بكذا رجوعا أو حال حذف عاملها وصاحبها: أى خبر بكذا راجعا إلى الإخبار به ، وإنما تستعمل بين شيئين بينهما توافق ، ويغنى كل منهما عن الآخر ، فلا يجوز جاء زيد أيضا ، ولا جاء زيد وقام عمرو أيضا ،

فى مُوَافقتِهَا عَلَى مَا يَقصِدُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، إِذْ هِيَ مَجْبُولَةٌ عَلَى ضِدِّ الْخَيْرِ كَاللَّهْوِ وَاتِّبَاعِهَا لَهُ ، فَاحْتَاجَ إِذًا إِلَى أَنْ يُلْجِمَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى لِتَبْقَى لَهُ فَلَا تَنْقَطِعَ وَتَنْقَادَ لَهُ فَلَا تَطْغَى ، فَيَسْتَعْمِلُهَا فى الْمَصَالِحِ وَالْمَرَاشِدِ وَيَمْنَعُهَا مِنَ الْمَهَالِكِ وَالْمَفَاسِدِ فَيَأْخُذُ إِذًا فى قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ وَيَسْتَعِينُ بِاللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَى ذٰلِكَ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَطْعِهَا رَجَعَ إِلَى قَصْدِ الْعِبَادَةِ ، فَإِذَا عَوَارِضُ تَعْتَرِضُهُ فَتَشْغَلُهُ عَنِ الإِقْبَالِ عَلَى مَقْصُودِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَتَصُدُّهُ عَنِ التَّفَرُّغِ لِذٰلِكَ كَمَا يَنْبَغِى ، فَتَأَمَّلَ فَإِذَا هِيَ أَرْبَعَةٌ :
الرِّزْقُ

ولااختصم زيد وعمرو أيضا (فى موافقتها على مايقصده العبد من العبادة والاقبال عليها) أى العبادة (إذ هى) أى النفس (مجبولة) أى مطبوعة ومخلوقة . قال فى المختار : وجبله الله : أى خلقه (على ضد الخير) وحب الشر (كاللهو) أى كالشىء الذى تفرح النفس به ، فيلهيها : أى يشغلها عما ينفعها ثم ينقضى كلهو الفتيان . قال الطرطوشى : وأصل اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة، كذا فى المصباح (واتباعها له) أى لضد الخير (فاحتاج إذن) أى إذا كانت النفس مجبولة على الشر (إلى أن يلجمها) أى يقيدها ، وهو بضم الياء وكسر الجيم من ألجم . وفى القاموس : وألجم الدابة : ألبسها اللجام، والجمع لجم مثل كتاب وكتب . قيل هو عربى . وقيل معرب (بلجام التقوى) أى التقوى الشبيهة باللجام فى أن كلا يمنع صاحبه عن الاسترسال والاهمال . والتقوى عبارة عن امتثال أوامر الله واجتناب مناهيه ، وسمى ذلك تقوى؛ لأنه يقى : أى يحفظ صاحبه من المهالك الدنيوية والأخروية ، وسيأتى بسط ذلك (لتبقى له) أى لتبقى النفس لصاحبه مطيعة (فلا تنقطع) عن سلوكها (وتنقاد له) أى تطيع وتذعن لصاحبها . وفى المصباح : انقاد فلان للأمر وأعطى القياد : إذا أذعن طوعا أو كرها (فلا تطغى) أى لا تجاوز حدها (فيستعملها فى المصالح والمراشد ويمنعها من) الوقوع فى (المهالك والمفاسد فيأخذ إذن) أى حين احتياجه إلى إلجام النفس بالتقوى (فى قطع هـذه العقبة) أى عقبة العوائق (ويستعين بالله جل ذكره على ذلك) أى قطع هذه العقبة (فلما فرغ) العبد السالك (من قطعها رجع إلى قصد العبادة) والإقبال عليها (فإذا) حوله (عوارض) جمع عارضة : أى موانع (تعترضه) أى تأتيه عارضة ومستقبلة كما يعلم من القاموس (فتشغله) بفتح التاء ، من باب قطع لا بضمها إلا على لغة رديئة (عن الإقبال على مقصوده من العبادة وتصده) أى تمنعه تلك العوارض (عن التفرغ) والبذل (لذلك) المقصود (كما ينبغى) أى على الوجه الذى ينبغى : أى يطلبه (فتأمل) فى تلك العوارض (فإذا هى أربعة) : الأول (الرزق) وهو مايسوقه الله تعالى إلى الحيوان فيأكله . وقيل هو

تُطَالِبُهُ النَّفْسُ بِهِ وَتَقُولُ : لاَبُدَّ لِي مِنْ رِزْقٍ وَقِوَامٍ وَقَدْ تَجَرَّدْتُ عَنِ الدُّنْيَا وَتَفَرَّدْتُ أَيْضًا عَنِ الْخَلْقِ فَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ قِوَامِي وَرِزْقِي . وَالثَّانِي الْأَخْطَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَخَافُهُ أَوْ يَرْجُوهُ أَوْ يُرِيدُهُ أَوْ يَكْرَهُهُ وَلاَ يَدْرِي صَلاَحَهُ فِي ذٰلِكَ أَوْ فَسَادَهُ ، لِأَنَّ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ مُبْهَمَةٌ فَيَشْتَغِلُ قَلْبُهُ بِهَا فَإِنَّهُ رُبَّمَا وَقَعَ فِي فَسَادٍ أَوْ مَهْلَكَةٍ . وَالثَّالِثُ الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ تُنْصَبُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لاَ سِيَّمَا وَقَدِ انْتَصَبَ لِمُخَالَفَةِ الْخَلْقِ وَمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَمُضَادَّةِ النَّفْسِ ، فَكَمْ مِنْ غُصَّةٍ يَتَجَرَّعُهَا ، وَكَمْ مِنْ شِدَّةٍ تَسْتَقْبِلُهُ ، وَكَمْ مِنْ هَمٍّ وَحَزَنٍ يَعْتَرِضُهُ ، وَكَمْ مِنْ مُصِيبَةٍ تَتَلَقَّاهُ ؟ . وَالرَّابِعُ أَنْوَاعُ الْقَضَاءِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

ما ساقه الله تعالى إلى الحيوان فانتفع به بالتغذى أو غيره ، وبحث فيه بالعارية . وأجيب بأن العارية الرزق فيها مقدار الانتفاع بها رزق ، فاندفع البحث وكونها ينتفع به أمر قطعي محسوس وفى الحديث المتكلم عليه إن الرزق يكثر بالأسباب بتقدير الله عز وجل قد جاءت فى ذلك أحاديث كثيرة قولية وفعلية ، وقد أفردها بالتأليف : الحافظ جلال الدين السيوطى ، رحمه الله سماه [حصول الرفق بأصول الرزق] كما أفاده الفاسى (تطالبه النفس به وتقول لا بد) أى لا غنى (لى من رزق وقوام) أى ما تقوم به بنيتى (وقد تجردت) أى تخليت وتعريت (عن الدنيا وتفردت أيضا) أى كما أنى تجردت عن الدنيا (عن الخلق ، فمن أين يكون قوامى ورزقى ؟ والثانى الأخطار) جمع خطر : وهو ما يخاف على عاقبته (من كل شيء يخافه أو يرجوه أو يريده ، أو يكرهه ولا يدرى) العبد (صلاحه فى ذلك) الشيء الذى يخطره (أو فساده ، لأن عواقب الأمور مبهمة) فكم من شر فى صورة خير ، وكم من ضر فى حلية نفع (فيشتغل قلبه بها) أى بالأخطار (فإنه ربما وقع فى فساد أو مهلكة . والثالث الشدائد والمصائب تنصب) بالبناء للمفعول : أى تقام (عليه من كل جانب لا سيما) كلمة يؤتى بها للدلالة على أن ما بعدها أولى بالحكم مما قبلها وترد مخففة ومشددة ، والسي : المثل ، وما زائدة كما فى القاموس أو موصولة كما قاله ابن حجر أفاده الجرهزى (وقد انتصب) أى تصدى وأقبل كما قاله الحريرى (لمخالفة الخلق ومحاربة الشيطان ومضادة النفس) أى مخالفتها (فكم من غصة) أى مرارة (يتجرعها) أى يشربها ، وهو كناية عن التكره كما قاله الحريرى (وكم من شدة) ومصيبة (تستقبله ، وكم من هم وحزن) بفتحتين مصدر قياسى أو بضم فسكون : اسم مصدر . قال العلامة الفاسى : هما متقاربان مؤداهما ما يحزن القلب ويغمه ويلازمه ويأخذ بالنفس بسبب ما يخاف ويتوقع من الأسواء والحالات المكروهة . وقال الشرقاوى : إن الهم متعلق بما يكون فى المستقبل ، والحزن متعلق بما يكون فى الماضى (يعترضه ، وكم من مصيبة تتلقاه . والرابع أنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى) والقضاء عند

بِالْحُلْوِ وَالْمُرِّ تَرِدُ عَلَيْهِ حَالاً فَحَالاً ، وَالنَّفْسُ تُسَارِعُ إِلَى السُّخْطِ وَتُبَادِرُ إِلَى الْفِتْنَةِ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا (عَقَبَةُ الْعَوَارِضِ الْأَرْبَعَةِ) فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ : التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِى مَوْضِعِ الرِّزْقِ ، وَالتَّفْوِيضِ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَزَّ فِى مَوْضِعِ الْخَطَرِ ،

الأشعرية : إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هى عليه فيما لايزال : أى فى المستقبل ، وأما القدر فهو إيجاده إياها على قدر مخصوص وتقدير معين فى ذواتها وأفعالها . والقضاء علمه أولا بالأشياء على ما هي عليه ؛ والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم ، كذا فى شرح الأربعين لابن حجر (بالحلو والمر) لحلو القضاء ما لاءم الطبع ووافق النفس كالتنعم والتلذذ بجميع الملاذ كالعافية والمأكل والمشرب والمنكح ، ومره جميع ما نفر الطبع وخالفه كالآلام والأسقام والأمراض والأوجاع والجوع والعطش والخوف كما قاله الفشنى (ترد) أى تجىء (عليه حالا فحالا ، والنفس تسارع) أى تبادر (إلى السخط) والبغض (وتبادر إلى الفتنة) وتقول لم كان كذا ولم يكون كذا ؟ (فاستقبلته ههنا) أى فى عقبة العوائق كما قرره بعضهم (عقبة العوارض الأربعة فاحتاج) أى العبد (إلى قطعها بأربعة أشياء) : أحدها (التوكل على الله سبحانه وتعالى فى موضع الرزق) أى اعتماد القلب على الوكيل الحق وحده ثقة بوعده واعتمادا على كمال كرمه ورحمته . فانه سبحانه وتعالى ضمن فى كتابه حيث قال « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » وأقسم عليه بقوله « وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون» كما سيأتى بسطه . فمن لم يعتمد على ضمان هذا الكريم ولم يثق بجود هذا الغنى الرحيم ، ولم يطمئن قلبه بوعده . فكيف يستقر الإيمان فى قلبه ، ومن أين معرفته ؟ .

سئل سلطان العارفين : أبو يزيد البسطامي من أين تأكل ؟ فقال : مولاى يطعم الكلب والخنزير . أفترى أن لايطعم أبا يزيد . وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان من أين تأكل ؟ قال ليس هذا العلم عندى ولكن اسأل ربك من أين يطعمنى ؟ .

والعجب ممن يدعى العقل وهو جرب ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة ليلا أو نهارا ولم يفته غداؤه ولا عشاؤه . أما يكفيه هذه التجربة إن لم يوجد العلم والمعرفة . نعوذ بالله من الجهل الدائم والحرص الهائم . وقد قيل : مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته إنسان مثله . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها » فنسأل الله الكريم أن يمن علينا بالثقة بوعده وجوده ، إنه على مايشاء قدير ، وبالاجابة جدير ، كذا قاله السيد بكرى (و) ثانيها (التفويض إليه جل وعز فى موضع الخطر) يقال فوض أمره إليه تفويضا : سلم أمره إليه كما فى المصباح :

وَالصَّبْرِ عِنْدَ نُزُولِ الشَّدَائِدِ ، وَالرِّضَا عِنْدَ نُزُولِ الْقَضَاءِ .

أى تسليم الأمور إلى الله تعالى فى الموضع المذكور ، وذلك لطمأنينة القلب فى الحال ، وحصول الصلاح والخير فى الاستقبال . (و) ثالثها (الصبر) أى حبس النفس على العبادات ومشاقها ، و (عند نزول الشدائد) أى المصائب عليه وحرارتها ، والصبر عن المنهيات والشهوات ولذاتها ، وأفضل أنواعه الأخير ، فالأول لخبر ابن أبى الدنيا وابن جرير ، لكن باسناد ضعيف « إن الصبر على المصيبة يكتب به للعبد ثلثمائة درجة ، وإن الصبر على الطاعة يكتب به للعبد ستمائة درجة ، وإن الصبر عن المعاصى يكتب له به تسعمائة درجة » ولله در القائل .

وقل من جد فى أمر يطالبه واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

وللعارفين فيه عبارات مآلها إلى معنى واحد نحو قولهم : الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة ، وقولهم: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب ، وقولهم أيضا: هو أن لا يعترض على المقدور، فلا ينافيه إظهار البلاء على وجه الشكوى . قال الله تعالى فى أيوب عليه السلام : « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب» مع أنه قال «مسنى الضر» كما أفاده العلامة ابن حجر فى شرح الأربعين . قال حجة الاسلام : وذلك للوصول إلى العبادة وحصول المقصود ، فان مبنى أمر العبادة كلها على الصبر واحتمال المشقات ، فمن لم يكن صبورا لم يصل إلى شىء من حقيقة العبادة . (و) رابعها (الرضا عند نزول القضاء) أى فيما حكم به فى الأزل من إشقاء وإسعاد وتقريب وإبعاد وشدة ورخاء . قال الله تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » فرضا الرب سبحانه سبب لرضا العبد عن الله ورضا العبد بالله وعن الله سبب لرضا الله عن عبده ، والرضا الأول ذاتى لتعلقه بتخصيص الإرادة ، والرضا الثانى فعل لأنه ثواب الله يفيضه على عبده الراضى زيادة على جزائه ، ثم قال « ذلك لمن خشى ربه » فان الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير ، وفى الخبر « طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به » . رواه مسلم من حديث فضالة بن عبيد . وقال صلى الله عليه وسلم «من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » قال العراقى : رويناه فى أمالى المحاملى من حديث على كرم الله وجهه . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه » . رواه صاحب القوت من طريق أهل البيت ، وقال صلى الله عليه وسلم « أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » رواه الديلمى فى مسند الفردوس . وقال أبو بكر بن طاهر : الرضا إخراج الكراهية من القلب حتى لا يكون فيه إلا فرح وسرور . وقال ابن خفيف : الرضا سكون القلب إلى أحكامه وموافقة القلب بما رضى الله به واختاره . وسئلت رابعة متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة . وبالجملة من عرف خفى لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال ، ويروى فى الاسرائيليات أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقال له يا هذا أى شىء

فَأَخَذَ فِى قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَأْيِيدِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَطْعِهَا وَعَادَ إِلَي قَصْدِ الْعِبَادَةِ نَظَرَ فَإِذَا النَّفْسُ فَاتِرَةٌ ضَعِيفَةٌ كَسْلَى لا تَنْشَطُ وَلاَ تَنْبَعِثُ لِخَيْرٍ كَمَا يَحِقُّ وَيَنْبَغِى ، وَإِنَّمَا مَيْلُهَا أَبَدًا إِلَي غَفْلَةٍ وَدَعَةٍ وَرَاحَةٍ وَبَطَالَةٍ ، بَلْ إِلَى شَرٍّ وَفُضُولٍ وَبَلِيَّةٍ وَجَهَالَةٍ ، فَاحْتَاجَ مَعَهَا هٰهُنَا إِلَى سَائِقٍ يَسُوقُهَا إِلَى الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ وَيُنَشِّطُهَا لَهُ ، وَزَاجِرٌ يَزْجُرُهَا عَنِ الشَّرِّ وَالْمَعْصِيَةِ وَيفْتُرُها عَنْهُ وَهُوَ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ ؛ فَالرَّجَاءُ فِى عَظِيمِ ثَوَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَحُسْنِ مَا وَعَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَرَامَةِ ، وَتَذَكُّرِ ذٰلِكَ

من البلاء أراه مصروفا عنك ؟ فقال يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ماجعل فى قلبي من معرفته، فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فأبرأه الله مما كان به فاذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به ببركة رضاه عن ربه ، فصحب عيسى عليه السلام مدة وتعبد معه . قال حجة الاسلام : وذلك ، أى مطلوب الرضا للتفرغ للعبادة وخطر مافى السخط من غضب الله تعالى (فأخذ) أى العبد (فى قطع هذه العقبة بإذن الله تعالى وحسن تأييده) أى تقويته وتوفيقه (فلما فرغ من قطعها وعاد إلى قصد العبادة نظر) جواب لما : أى فكر بقلبه (فاذا النفس فاترة) أى بطيئة عنها (ضعيفة كسلى) بوزن فعلى أى ثقيلة (لا تنشط) بفتح الشين من باب تعب : أى لا تسرع ولا تخف (ولا تنبعث لخير) أى لفعله (كما يحق ، و) كما (ينبغى) أى الذي يطلبه (وإنما ميلها أبدا إلى غفلة ودعة وراحة) هما بمعنى واحد : وهو الاستراحة والتلذذ بالمشتهيات (وبطالة) بفتح الباء وحكى بعضهم بالكسر وقال هو أفصح : أى خالية عن العمل وعاطلة من الشواغل (بل) تميل (إلى شر وفضول) وهوما لا يعنيه فى الدنيا والآخرة (وبلية) أى مصيبة (وجهالة) بالحق (فاحتاج معها ههنا) أى فى فتور النفس وكسلها عن العبادة (إلى سائق) أى باعث (يسوقها) أي يبعثها (إلى الخير والطاعة وينشطها له) أى لفعلها (و) احتاج أيضا إلى (زاجر) أى مانع (يزجرها) أى يمنعها وينهاها وهو من باب نصر (عن الشر والمعصية ويفترها) بفتح الياء من باب دخل : أى يضعفها ويكسرها (عنه) أى عن المذكور من الشر والمعصية (وهما) أي السائق والزاجر (الرجاء والخوف) . اعلم أنهما حالتان لابد لكل شخص منهما ولايخلو منهما أحد سلك الطريق أولا وسيأتى بيان ذلك . وقال العارفون : إن خوف السائر إلى الله يسمى قبضا، ورجاءه يسمى بسطا، والمتوسط يسمى أنسا وهيبة ، والكامل يسمى جلالا وجمالا (فالرجاء) مبتدأ خبره سائق (فى عظيم ثواب الله سبحانه) أى المتوقف على فعل الحسنات وترك السيئات (وحسن ما وعد من أنواع الكرامة وتذكر ذلك) أى عظيم الثواب

سَائِقٌ يَسُوقُهَا فَيَبْعَثُهَا عَلَى الطَّاعَةِ ، وَيُحَرِّكُهَا لِذَلِكَ وَيُنَشِّطُهَا ، وَالْخَوْفُ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصُعُوبَةِ مَا أَوْعَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَةِ وَالْإِهَانَةِ زَاجِرٌ يَزْجُرُهَا عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَيُجَنِّبُهَا وَيَفْتُرُهَا عَنْ ذَلِكَ . (فَهَذِهِ عَقَبَةُ الْبَوَاعِثِ) اسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِهَذَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ فَأَخَذَ فِيهَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَطَعَهَا فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا رَجَعَ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ فَلَمْ يَرَ عَائِقاً وَلَا شَاغِلاً وَوَجَدَ بَاعِثاً وَدَاعِياً ، فَنَشِطَ فِى الْعِبَادَةِ فَأَقَامَهَا وَعَانَقَهَا بِتَمَامِ الشَّوْقِ وَالرَّغْبَةِ فَأَدَامَهَا ، فَنَظَرَ فَإِذَا أَنَّهُ تَبْدُو لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَحْتَمَلَ فِيهَا كُلَّ ذَلِكَ آفَتَانِ عَظِيمَتَانِ وَهُمَا الرِّيَاءُ وَالْعُجْبُ ، تَارَةً يُرَائِى بِطَاعَتِهِ النَّاسَ فَيُفْسِدُهَا ،

وحسن الكرامة (سائق يسوقها) أي النفس (فيبعثها) أى يحملها (على الطاعة ويحركها لذلك) أى الطاعة ونحو ذلك من أنواع الخيرات (وينشطها ، والخوف) مبتدأ خبره زاجر (من أليم عقاب الله عز وجل) فى الآخرة (وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والإهانة زاجر يزجرها عن المعصية ويجنبها) أى يبعدها (ويفترها) أى يقطعها (عن ذلك) أي المعصية ، وذلك أن العبد إذا سمع ما يترتب على فعل الطاعة من الثواب أو على فعل المعصية من العقاب انساق إلى فعل الأول وترك الثانى كما ذكره العلامة الأمير (فهذه عقبة البواعث استقبلته ههنا)أى فى احتياجه إلى الرجاء والخوف (فاحتاج إلى قطعها بهذين المذكورين فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها) أى جاوزها (فلما فرغ منها رجع إلى الإقبال على العبادة فلم ير عائقا) يعوقه عنها (ولا شاغلا) يشغله عن ذلك (ووجد باعثا) للخير والطاعة (وداعيا) إليها (فنشط فى العبادة) أى أقبل عليها (فأقامها) أى العبادة بفرائضها وسننها (وعانقها) أى حصلها (بتمام الشوق) أى الميل إليها ميلا يحترق به الأحشاء بحيث لا يسكن إلا بإتيان قصده كما أفاده الفاسى (والرغبة) أى التوجه والإقبال (فأدامها) على ذلك (فنظر) أى العبد فى حاله من إدمان العبادة (فإذا) أى فحين حصل النظر والتأمل فى ذلك استشعر فى قلبه (أنه) أى الحال والشأن (تبدو) أى تظهر (لهذه العبادة العظيمة التى احتمل) وأقام (فيها كل ذلك) أى تمام الشوق والرغبة (آفتان عظيمتان : وهما الرياء) وهو الشرك الأصغر كما فى الخبر (والعجب) أى الإعجاب : أى تحسينه فعل نفسه على غيره وإن كان قبيحا (تارة يرائى بطاعته الناس) وذلك طلبه المنزلة فى قلوبهم لينال بها الجاه والحشمة وحب الجاه من الهوى المتبع وفيه هلك أكثر الناس ، ذكره حجة الاسلام (فيفسدها) أى يفسد الرياء طاعته ، يعنى يحبط ثوابها كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : ياكافر يافاجر ياغادر ياخاسر ، ضل سعيك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم ، التمس الأجر ممن كنت تعمل له » .

وَأُخْرَى يَمْتَنِعُ عَنْ ذٰلِكَ وَيَلُومُ نَفْسَهُ فَيَعْجَبُ بِنَفْسِهِ فَيُحْبِطُ الْعِبَادَةَ عَلَيْهِ وَيُتْلِفُهَا وَيُفْسِدُهَا فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا (عقبةُ الْقَوَادِحِ) فَاحْتَاجَ إِلَى قَطْعِهَا بِالْإِخْلَاصِ وَذِكْرِ الْمِنَّةِ وَنَحْوِهَا لِيَسْلَمَ لَهُ مَا يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ فَأَخَذَ فِى قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ بِإِذْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِجِدٍّ وَاحْتِيَاطٍ وَتَيَقُّظٍ بِحُسْنِ عِصْمَةِ الْجَبَّارِ تَعَالَى وَتَأْيِيدِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ هٰذِهِ كُلِّهَا حَصَلَتْ لَهُ الْعِبَادَةُ

واعلم أن المراءى به كثير يجمعه خمسة أقسام : الأول الرياء فى الدين بالبدن كاظهار النحول والصفار وتشعيث الشعر ليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل ، وعظم الحزن على الدين ، وبالتشعيث على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر. والثانى الرياء بالهيئة والزى كاطراق الرأس في المشى والهدوء فى الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا ولبس المرقعة . والثالث الرياء بالقول كالنطق بالحكمة وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات ، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن . والرابع الرياء بالعمل كمراءاة المصلى بطول القيام والسجود والركوع وترك الالتفات وإظهار السكون وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك فى الصوم والحج والصدقة وإطعام الطعام . والخامس المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذى يتكلف أن يستزير عالما أو عابدا أو ملكا أو عاملا من أعمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته فى الدين ، وكالذى يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقى شيوخا كثيرة واستفاد منهم فيتباهى بشيوخه أفاده بعض المحققين (وأخرى) أى تارة أخرى (يمتنع عن ذلك) الرياء (ويلوم) أى يعتب على ذلك (نفسه فيعجب بنفسه فيحبط) أى العجب (العبادة) أى ثوابها (عليه) بالكلية . ومعنى الإحباط : الإفساد والإهدار كما فى المصباح (ويتلفها ويفسدها) بمعنى واحد (فاستقبلته ههنا) أى فى ظهور الآفتين العظيمتين وهما الرياء والعجب (عقبة القوادح) جمع قادح ، وهو العيب والنقص كما فى المصباح ، والمراد هنا الصفات المهلكات للعبادة ، وهى الرياء والعجب (فاحتاج إلى قطعها بالإخلاص) لله تعالى (وذكر المنة) منه (ونحوها) أى كاستحضار نظر الله العليم بأسراره حال بروز العبادة منه (ليسلم له ما يعمل من خير فأخذ فى قطع هذه العقبة بإذن الله سبحانه وتعالى بجد) بكسر الجيم : أى اجتهاد ومبالغة فى الأمر (واحتياط وتيقظ) أى تنبه (بحسن عصمة) أى حفظ (الجبار) اسم من أسمائه (تعالى) وهو فى الأصل : إصلاح الشىء بضرب من القهر ؛ فمعناه المصلح لخلل العباد بردهم للتوبة أو بغير ذلك ، وقيل معناه الذى يقهر العباد على كل ما أراد (وتأييده) أى تقويته (فلما فرغ من هذه) أى من قطع هذه العقبات (كلها حصلت له العبادة)

كما يَحِقُّ وَيَنْبَغِي وَسَلِمَتْ مِنْ كُلِّ آفَةٍ ، وَلَكِنَّهُ نَظَرَ فَإِذَا هُوَ غَرِيقٌ فِي بُحُورِ مِنَنِ اللهِ تَعَالَى وَأَيَادِيهِ مِنْ كَثْرَةِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ إِمْدَادِ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ وَأَنْوَاعِ التَّأْيِيدِ وَالْحِرَاسَةِ وَالْكَرَامَةِ وَخَافَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ إِغْفَالٌ لِلشُّكْرِ فَيَقَعُ فِي الْكُفْرَانِ فَيَنْحَطُّ عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي هِيَ مَرْتَبَةُ الْخَدَمِ الْخَالِصِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَزُولُ عَنْهُ تِلْكَ النِّعَمُ الْكَرِيمَةُ مِنْ ضُرُوبِ أَلْطَافِ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنِ نَظَرِهِ إِلَيْهِ فَاسْتَقْبَلَتْهُ هٰهُنَا . (عقبةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ)

الخالصة (كما يحق وينبغي ، وسلمت) أى العبادة (من كل آفة) من الآفات المذكورة (ولكنه) أى العبد السالك (نظر) أى تفكر بقلبه (فاذا هو غريق فى بحور منن) جمع منة : بمعنى النعمة مطلقا أو بقيد كونها ثقيلة مبتدأة من غير مقابل كما ذكره باعشن : أى نعم (الله تعالى وأياديه) جمع يد ، وهى النعمة والإحسان (من كثرة ما أنعم الله عليه من إمداد التوفيق) الاضافة بيانية : أى الامداد الذى هو التوفيق كما قرره بعضهم (والعصمة) أى الحفظ عن الوقوع فى المخالفات (وأنواع التأييد) أى التقوية (والحراسة) من الأعداء (والكرامة) وهي الأمر الخارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة (وخاف أن يكون منه إغفال) أي غفلة (للشكر) على تلك المنن والنعم (فيقع فى الكفران) أى الجحد لها إن أغفله (فينحط) أى ينزل (عن تلك المرتبة الرفيعة التى هى مرتبة الخدم) جمع خادم (الخالصين) أى من المكدرات التى تحبط العمل كحب الظهور والشهرة والمحمدة . قال السيد الجرجانى : الإخلاص فى اللغة : ترك الرياء فى الطاعات ، وفي الاصطلاح : تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه ، وتحقيقه أن كل شىء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه يسمى خالصا ، ويسمى الفعل المخلص إخلاصا قال الله تعالى « من بين فرث ودم لبنا خالصا » فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الفرث والدم ، ويأتى بيان الإخلاص فى بابه (لله عز وجل) أي لوجهه ورضاه لا لغرض من الأغراض الفاسدة (وتزول عنه) أي عن العبد (تلك النعم الكريمة من ضروب) أي أنواع (ألطاف الله تعالى) والألطاف جمع لطف : وهو لغة يطلق على الرفق والإحسان ، يقال لطف به كنصر لطفا بالضم وعلى الصغر والدقة ، يقال لطف ككرم لطفا بالضم ولطافة . وفى اصطلاح جمهور المتكلمين : الإقدار على الطاعة فهو مساو عندهم للتوفيق ، وحمله هنا على معنى الرفق والإحسان أولى لعمومه من حمله على الصغر . والدقة : بمعنى النعم الصغيرة ، أو الإقدار على الطاعة كما أفاده الصبان فى حواشى العصام (وحسن نظره) تعالى (إليه) أى إلى العبد (فاستقبلته ههنا) أى فى غرقه فى بحور منن الله تعالى (عقبة الحمد والشكر) وسيأتى بيانهما .

اعلم أنهم قد اختلفوا فى الفرق بين الحمد والشكر أيهما أفضل ؟ وفى الحديث « الحمد رأس

فَأَخَذَ فِيهَا فَقَطَعَهَا بِمَا أَمْكَنَهُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عَلَى كَثِيرِ نِعَمِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ وَنَزَلَ فَإِذَا هُوَ بِمَقْصُودِهِ وَمُبْتَغَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى وَقَعَ فِى سَهْلِ الْفَضْلِ وَصَحْرَاءِ الشَّوْقِ

الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره » والفرق بينهما أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه وأخص من جهة متعلقاته ، والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب ؛ معنى هـذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعا واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافا ، وبالجوارح طاعة وانقيادا ، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتيـة ؛ فلا يقال شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود بها كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الإحسان والنعم ، فـكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد باللسان ، كذا قاله الزبيدى (فأخذ) أى شرع العبد السالك وسار (فيها) أى فى سلوكها وقطعها (فقطعها بما أمكنه من كثرة الحمـد والشكر على كثير نعمه) بعد قطع هذه العقبات كلها والظفر بالمقصود من هذه العبادة السالمة من الآفات (فلما فرغ من قطع هذه العقبة ونزل فإذا هو بمقصوده ومبتغاه) أى مطلوبه الذى طلبه بجد واجتهاد كما قاله الراغب ، وقال الحرانى : الابتغاء افتعال تكلف البغى وهو أشد الطلب (بين يديه) أى العبد (فلم يسر) فى سلوكه (إلا قليلا حتى وقع فى سهل الفضل) وسعته (وصحراء الشوق) أى الشوق الشبيه بالصحراء فى السعة وهو ثمرة المحبة . قال العلامة الفاسى : والشوق هو ولوع باطن المحب حال الفراق إلى وصل محبوبه ، وهو من الأحوال السنية والمقامات العلية . وقيل فيه : إنه عبارة عن هبوب قواصف رياح المحبة بشدة ميلها إلى لحاق المشتاق بمعشوقه ، فالشوق نتيجة المحبة وثمرتها ، فإذا استقرت المحبة ظهر الشوق فلا يكون المحب إلا مشوقا أبدا فهو من ضرورة صحتها والصدق فيها . قال : والشوق زيادة وصف المحبة ، فالعمل عليه عمل على المحبة الخالصة ، وهو شوق واشتياق ، فالشوق : هو شغف المحبة فى حال منع المحب من المحبوب . والاشتياق : هو زيادة الشغف فى حال وصل المحب بالمحبوب مخافة القطيعة بعد الوصلة ، فالشوق يكون بالتلاقى والرؤية ، والاشتياق لا يزول باللقاء ، وفى معناه أنشدوا :

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته   حتى يعود إليـه الطرف مشتاقا

ومن ثم قيل إن الاشتياق أعلى من الشوق لأنه لا يسكن بلقاء المشتاق إليه . وقال الشيخ أبو العباس المرسى قدس سره : الشوق على قسمين : شوق على الغيبة لا يسكن إلا بلقاء الحبيب وهو شوق النفوس . وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة انتهى ، وكأن شوق الأرواح هو الذى سماه غيره بالاشتياق كما صرح به الفاسى ، فالمحب أبدا مستغرق الهم فى شأن محبوبه كما أشار إلى ذلك الشيخ عمر بن الفارض رضى الله عنه حيث قال :

وما بين شوق واشتياق فنيت فى   تول بحظر أو تجل بحضرة

وَعَرَصَاتِ المَحَبَّةِ

وقال أبو عثمان : علامة الشوق حب الموت مع الراحة . وقال يحي بن معاذ : علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات ، قال شيخ الاسلام وذلك بأن يعرض العبد عنها شوقا إلى ربه كما يعرض الطفل عن اللبن حين يطيب له الطعام ويشتاق إليه .

وسئل ابن عطاء : الشوق أعلى أم المحبة ؟ فقال : المحبة لأن الشوق منها يتولد وهو أفضل من الأنس ولذلك قدمه ، لأن الآنس قصر نظره على ما انكشف له من جمال المحبوب ولم يمتد نظره إلى استكشاف ما غاب عنه . والمشتاق كالعطشان الذى لا ترويه البحار لمعرفته بأن الذى انكشف له من الأمور الإلهية بالنسبة إلى ما غاب عنه كالذرة بالنسبة إلى سعة الوجود ، ولله المثل الأعلى (وعرصات المحبة) والعرصات فى الأصل جمع عرصة يوزن ضربة ، وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، ومحبة الحق سبحانه للعبد إرادته لإنعام مخصوص عليه كما أن رحمته له إرادة الإنعام ؛ فالرحمة أخص من الإرادة ، والمحبة أخص من الرحمة ، فإرادة الله تعالى لأن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام تسمى رحمة ، وإرادته لأن يخصه بالقرب والأحوال العلية تسمى محبة ، فإرادته سبحانه صفة واحدة فبحسب تفاوت متعلقاتها تختلف أسماؤها ، فإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضبا ، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة ، وإذا تعلقت بخصوصها تسمى محبة ، وقوم قالوا محبة الحق سبحانه للعبد مدحه له وثناؤه عليه بالجميل فيعود معنى محبته له على هـذا القول إلى كلامه وكلامه قديم . وقال قوم محبته للعبد من صفات فعله ، وهو إحسان مخصوص يلقى الله العبد به من الصفات الخيرية ، فأطلقوا اللفظ وتوقفوا عن التفسير . فأما ما عدا هذه الجملة مما هو فى المعقول من صفة محبة الخلق كالميل إلى الشىء والاستئناس وكحالة يجدها المحب مع محبوبه من المخلوقين ، فالقديم سبحانه يتعالى عن ذلك .

وأما محبة العبـد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة ، وقد تحمله تلك الحالة على تعظيمه وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه مع الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه ، وليست محبة العبد له ميلا ولا اختلاطا ، كيف وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والإحاطة ، والمحب بوصف الاستهلاك فى المحبوب أولى منه بوصف الاختلاط ، ولا توصف المحبة بوصف ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من لفظ المحبة . قال جعفر : سمعت سمنونا يقول : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « المرء مع من أحبه » . فهم مع الله تعالى . وقال النصراباذى : المحبة مجانبة السلو على كل حال ثم أنشد :

ومن كان فى طول الهوى ذاق سلوة   فانى من ليلى لها غير ذائق
وأ كثر شىء نلته من وصالها   أمانى لم تصدق كلمحـة بارق

وقال محمد بن الفضل : المحبة سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب . وقال الجنيد : المحبة إفراط الميل بلا نيل ، ويقال المحبة تشويش فى القلوب يقع من المحبوب ، وقال الحسين بن منصور

ثُمَّ يَقَعُ فى رِيَاضِ الرِّضْوَانِ وَبَسَاتِينِ الْأُنْسِ إِلَى بِسَاطِ الِانْبِسَاطِ وَمَرْتَبَةِ التَّقْرِيبِ

حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك ، كذا قاله القشيرى فى الرسالة (ثم يقع فى رياض الرضوان) والرياض : جمع روضة : وهى البستان ، والرضوان : ضد السخط .

وقد اختلف العراقيون والخراسانيون فى الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ، ومعناه أنه يئول إلى أنه مما يئول إليه العبد باكتسابه ، وأما العراقيون فانهم قالوا الرضا من جملة الأحوال وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال . ويمكن الجمع بين قول الفريقين فيقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد وهى من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة له كالنوازل الضرورية كالرعشة والرعدة بالحمى .

واعلم أن الواجب على العبد الرضابالقضاء الذى أمر بالرضا به ، إذ ليس كل ماهو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصى وفنون محن المسلمين . قال القشيرى : قال عبد الواحد بن زيد : الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا .

واعلم أن العبد لايكاد يرضى عن الحق سبحانه إلا بعد أن يرضى عنه الحق سبحانه ، لأن الله عز وجل قال : رضى الله عنهم ورضوا عنه . قال ابن عطاء : الرضا نظر القلب إلي قديم اختيار الله تعالي للعبد ، وهو ترك التسخط . وقال المحاسبى : الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام . وقال النووى : الرضا سرور القلب بمر القضاء ، وسيأتى حقيقة ذلك ، وحكمه فى العارض الثالث (وبساتين الأنس إلى بساط الانبساط) أى البساط الذى كل من جلس عليه حصل له الانبساط وهو ترك الاحتشام : أى الغضب وهوتلك الحضرة الإلهية فشبهها ببساط ملك عظيم تستريح الوفود إذا وصلوا إليه وجلسوا على بساطه . قال شيخ الاسلام : والأنس ناشئ من البسط الناشيء من الرجاء ، لأن من خاف الله تعالى وعرف تقصيره فى حقه تعالى انقبض قلبه وبقى مشغولا بالله فيحصل له الهيبة منه ، ومن أمل وصوله إلى خير انبسط قلبه وبقى مشغولا بالله فيحصل له الأنس به ، ولذا قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : والأنس أتم من البسط (ومرتبة التقريب) من الله تعالى ، قال القشيرى : أول رتبة فى القرب القرب من طاعته والاتصاف فى دوام الأوقات بعباداته إلى أن قال : فقرب العبد أولا قرب بإيمانه وتصديقه ، ثم قرب باحسانه وتحقيقه ، وقرب الحق سبحانه مايخصه فى الدنيا به من العرفان ، وفى الآخرة مايكرمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك بوجوه اللطف والامتنان ؛ فقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عام للكافة، وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين ثم بخصائص التأنيس مختص بالأولياء . قال الله تعالى « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وقال تعالى « ونحن أقرب إليه منكم » وقال تعالي « وهو معكم أينما كنتم »

وَمَجْلِسِ الْمُنَاجَاةِ وَنَيْلِ الْخِلَعِ وَالْكَرَامَاتِ ، فَهُوَ يَتَنَعَّمُ فِى هٰذِهِ الْحَالَاتِ وَيَتَقَلَّبُ فِى طِيبِهَا أَيَّامَ بَقَائِهِ وَبَقِيَّةَ عُمْرِهِ بِشَخْصٍ فِى الدُّنْيَا وَقَلْبٍ فِى الْعُقْبَى يَنْتَظِرُ الْبَرِيدَ يَوْماً فَيَوْماً حَتَّى يَمَلَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ وَيَسْتَقْذِرَ الدُّنْيَا وَيَحِنَّ إِلَى الْمَوْتِ وَيَسْتَكْمِلَ الشَّوْقَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى فَإِذَا هُوَ بِرُسُلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ :

وقال تعالي « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » . اهـ ملخصا (ومجلس المناجاة) أي مجلس المحادثة فى سره بالمعارف والأسرار (ونيل الخلع) أى حصول العطايا ، وهى بكسر الخاء وفتح اللام جمع خلعة بكسر الخاء وسكون اللام ، وهى فى الأصل مايعطيه الملوك والكبراء غيرهم من الثياب كما أفاده بعضهم (و) حصول (الكرامات) أى الحقيقية : وهى حصول الاستقامة والوصول إلي كماله ومرجعها إلى أمرين : صحة الايمان بالله عز وجل، واتباع ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا .

وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين ، إذ قد يرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة ، ولذلك قال بعض العارفين : ليس الشأن من تطوى له الأرض فاذا هو بمكة وغيرها من البلدان ، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربه . وقال أبو يزيد قدس سره : لو أن رجلا بسط مصلاه على الماء وتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى . وقيل له : إن فلانا يقال إنه يمر فى ليلة إلي مكة ، فقال : الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلي المغرب ، وهو فى لعنة الله (فهو يتنعم فى هذه الحالات) المذكورات (ويتقلب) أى يتنزه ويتردد (فى طيبها أيام بقائه وبقية عمره بشخص) أى بجسم (فى الدنيا وقلب فى العقبى) أى فى الآخرة ، وهذا شأن من علت همته ولم يتعلق بالدنيا قلبه ، ولله در القائل :

فكن رجلا رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريا

(ينتظر البريد) أى الرسول ، وهو ملك الموت (يوما فيوما حتي يمل الخلق) من الملال بمعنى السآمة : أى يسأمهم (كلهم ويستقذر الدنيا) أى يعدها قذرا وخبثا (ويحن) أى يشتاق (إلي الموت ويستكمل الشوق) أى الميل (إلى الملأ) وهم الجماعة من الأشراف وذوى الرأى من القوم يملئون العيون والقلوب جلالة وبهاء (الأعلى) نعت له ، وهو أفعل من العلو دال على زيادته وكثرته ، والمراد به الملائكة . وقيل : الملائكة العلوية ومحلهم السماء ، وهى أعلى من الأرض وهم دائمون فى حضرة القدس ومحل القرب والمشاهدة والسماع للوحى (فإذا هو برسل) الله وهم ملائكة الموت (رب) أى ملك أوسيد أو مصلح أو مربى أو خالق أو معبود (العالمين) جمع عالم شذوذا لأنه اسم جمع كالأنام، وجمعه بالواو والنون أشذ لعدم استكماله شروط هذا الجمع ، لكن لما كان بعض مدلوله وهم العقلاء أشرف غلبوا ، ومنع المحقق ابن مالك كونه جمعا لعالم ، بل هو اسم جمع كما هو مقرر فى محله .

إِلَيْهِ يَرِدُونَ عَلَيْهِ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ ، وَالْبُشْرَى وَالرِّضْوَانِ مِنْ عِنْدِ رَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ فَيَنْقُلُونَهُ فِي طِيبَةِ النَّفْسِ وَتَمَامِ الْبِشْرِ وَالْأُنْسِ مِنْ هٰذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ الْمُفْتِنَةِ إِلَى الْحَضْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ وَمُسْتَقَرِّ رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَيَرَى لِنَفْسِهِ الضَّعِيفَةِ الْفَقِيرَةِ نَعِيماً مُقِيماً وَمُلْكاً كَبِيرًا عَظِيماً وَيَلْقَى هُنَالِكَ مِنْ سَيِّدِهِ الرَّحِيمِ الْمُتَفَضِّلِ الْكَرِيمِ جَلَّ ذِكْرُهُ مِنَ اللُّطْفِ بِهِ وَالْعَطْفِ وَالتَّرْحِيبِ وَالتَّقْرِيبِ وَالْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ وَنَعْتُ النَّاعِتِينَ

ونقل عن المتقدمين أعداد مختلفة فى العالمين وفى مقارّها الله أعلم بالصحيح منها ، كقول مقاتل: هى ثمانون ألف عالم ، والضحاك ثلاثمائة وستون عالما حفاة عراة لايعرفون خالقهم، وستون ألفا مكسيون يعرفونه ، قال ابن المسيب : لله ألف عالم ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر ، وقال مقاتل ثمانون ألفا نصفها فى البر ونصفها فى البحر ، وقال وهب . ثمانية عشر ألفا : عالم الدنيا عالم منها. وما العمران فى الخراب إلا كفسطاط فى صحراء ، وقال كعب الأحبار : لا يحصى عدد العالمين أحد غير الله تعالى . قال الله تعالى ــ وما يعلم جنود ربك إلا هو ــ كذا قاله العلامة ابن حجر فى شرح الأربعين (إليه يردون) بفتح الياء وكسر الراء : أى يحضرون (عليه بالروح) بالفتح : الراحة والرحمة والسعة والفرج (والريحان) أي المشموم من الجنة ، ويطلق على الرزق وعلى الاستراحة وعلى الطيب مطلقا وعلى الشجر المعروف وعلى كل نبت مشموم الرائحة ، فالريحان ما تنبسط إليه النفوس فهو دليل علي النعم فالمطلوب أن يلقى ريحانا من الجنة كما قررته . قال بعضهم : أريد به مطلق الرزق فى القبور ، وفى قوله : روح وريحان ضرب من التجنيس (والبشرى) بالجنة (والرضوان من عند رب راض غير غضبان) ويعرف رضاه سبحانه إذا وجد العبد قلبه راضيا عنه ، وقيل : قال موسى عليه السلام : إلهى دلني على عمل إذا عملته رضيت به عنى ، فقال إنك لا تطيق ذلك فخر موسى عليه السلام ساجدا متضرعا ، فأوحى الله تعالى إليه يا ابن عمران : إن رضاى فى رضاك بقضائى (فينقلونه) أى ينقله الرسل (فى طيبة النفس وتمام البشر) بكسر الباء : أى طلاقة الوجه (والأنس من هذه الدار الفانية المفتنة) وهى دار الدنيا (إلى الحضرة الإلهية) أى الحضرة المنسوبة إلى الإله جل ذكره (ومستقر رياض الجنة) أي محل استقرار بساتينها (فيرى) العبد (لنفسه الضعيفة) العاجزة (الفقيرة) أى الدائمة الحاجة (نعيما مقيما وملكا كبيرا) أى (عظيما ويلقى هنالك) أى فى الحضرة الإلهية (من سيده الرحيم المتفضل الكريم) أى ذى الكرم والجود (جل ذكره من اللطف) بيان مقدم لما فى قوله : ما لا يحيط وهو مفعول يلقى (به والعطف) والرحمة (والترحيب) أي التوسيع بقوله تعالى : مرحبا يا عبدي (والتقريب) قربا معنويا (والإنعام) بكسر الهمزة : أي إعطاء النعمة (والإكرام ما لا يحيط به وصف الواصفين ونعت الناعتين) هما مترادفان .

فَهُوَ فِى كُلِّ يَوْمٍ فِى زِيَادَةٍ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ فَيَا لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَيَا لَهَا مِنْ دَوْلَةٍ عَالِيَةٍ ، وَيَا لَهُ مِنْ عَبْدٍ مَسْعُودٍ وَامْرِئٍ مَغْبُوطٍ وَشَأْنٍ مَحْمُودٍ ، وَطُوبَى لَهُ وَحُسْنُ مَآب ، نَسْأَلُ اللهَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِهٰذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْمِنَّةِ الْجَسِيمَةِ

وفى القاموس : إن النعت والوصف مصدران بمعنى واحد ، وبعضهم جعل النعت أخص منه فلا يقال نعت إلا فيما هو محقق بخلاف الوصف ، والظاهر الأول كما قاله الزبيدى . والترادف كما فى جمع الجوامع : اتحاد المعنى دون اللفظ كالإنسان والبشر لترادفهما : أي تواليهما على معنى واحد . وعكسه هو المشترك ، وهو أن يتحد اللفظ ويتعدد المعنى كأن يكون للفظ معنيان إن كان اللفظ حقيقة فيهما مثلا كالقرء للحيض والطهر لاشتراكهما فيه ، وإلا فحقيقة ومجاز كالأسد للحيوان المفترس وللرجل الشجاع . قال فى البدر اللامع :

فان يك المعنى هو الذي اتحد لا اللفظ فهو مترادف يعد
وعكسه إن كان فى الشيئين حقيقة مشترك كالعين

والعين تقع بالاشتراك على أشياء مختلفة ، فمنها الباصرة وعين الماء وعين الشمس والعين الجارية والعين الطليعة وعين الشيء نفسه ، كذا فى المصباح (فهو فى كل يوم فى زيادة) من العطايا (إلى أبد الآبدين فيالها) أي يا قوم تعجبوا للنعمة التى أعطاها الله إياه التى هى السعادة العظيمة (من سعادة عظيمة) بيان للضمير واللام فى يالها للتعجب مثلها فى قوله :

فيالك من خد أسيل ومنطق رخيم ومن وجه تعلل عاذبه

كما نبه عليه الحريري فى مقاماته ، وكذا يقال فى قوله (ويالها من دولة) أي رتبة (عالية ويالة) أي يا قوم تعجبوا للعبد (من عبد مسعود) أي عبد أعطى سعادة عظيمة فى الدارين (وامرئ) أى شخص (مغبوط) اسم مفعول من غبطته غبطا من باب ضرب إذا تمنيت مثل ما ناله من غير أن تريد زواله عنه لما أعجبك منه وعظم عندك كذا فى المصباح (وشأن محمود) أى حال يحمد عند الله (وطوبى) أي الحسن والخيرة والشجرة التى فى الجنة التى تخرج منها ثياب وحلى (له وحسن مآب) أي مرجع (نسأل الله البر) بفتح الموحدة : أي المحسن . وقيل : الصادق فيما وعد وقيل خالق البر بكسر الباء الذى هو اسم جامع للخير ، وقيل اللطيف . وقيل : هو الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب . وقيل : هو المعطوف على عباده ببره ولطفه كما قاله الخطيب فى شرح المنهاج (الرحيم) أي ذي الرحمة الكثيرة (سبحانه وتعالى أن يمن) أى أن يتفضل (علينا وعليكم بهذه المنة العظيمة والنعمة الجسيمة) مرادف العظيمة ، وهى غير منحصرة فلا تستبعدوا الوصول إلى

وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ، وَأَنْ لاَ يَجْعَلَنَا مِنَ الَّذِينَ لاَ نَصِيبَ لَهُمْ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ إِلا وَصْفٌ وَسَمَاعٌ وَعِلْمٌ وَتَمَنٍّ بِلاَ انْتِفَاعٍ ، وَأَنْ لاَ يَجْعَلَ مَا تَعَلَّمْنَاهُ مِنَ الْعِلْمِ حُجَّةً عَلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا جَمِيعاً لِلْعَمَلِ بِذٰلِكَ وَالْقِيَامِ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ . فَهٰذَا هُوَ التَّرْتِيبُ الَّذِي أَلْهَمَنِي مَوْلاَيَ فِي طَرِيقِ الْعِبَادَةِ .

(فَاعْلَمِ الْآنَ) بِتَوْفِيقِ اللهِ أَنَّ الْحَاصِلَ مِنَ الْجُمْلَةِ سَبْعُ عَقَبَاتٍ : الْأُولَى عَقَبَةُ الْعِلْمِ ، الثَّانِيَةُ عَقَبَةُ التَّوْبَةِ ، الثَّالِثَةُ عَقَبَةُ الْعَوَائِقِ ، الرَّابِعَةُ عَقَبَةُ الْعَوَارِضِ ، الْخَامِسَةُ عَقَبَةُ الْبَوَاعِثِ ، السَّادِسَةُ عَقَبَةُ الْقَوَادِحِ ، السَّابِعَةُ عَقَبَةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَبِتَمَامِهَا يَتِمُّ كِتَابُ مِنْهَاجُ الْعَابِدِينَ إِلَى الْجَنَّةِ . وَنَحْنُ الْآنَ نَتَتَبَّعُ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ بِشَرْحٍ مُوجَزِ اللَّفْظِ مُشْتَمِلٍ عَلَى النُّكَتِ

هذا المقام الكريم (وما ذلك) أى ليس إعطاء هذا الفضل العظيم والإيصال إلى المقام الكريم (على الله بعزيز) أى عسير لأنه قادر على كل شىء ، وعليكم إخوانى القيام بحق الأسباب ومن الله رفع الحجاب (وأن لا يجعلنا من الذين لانصيب) أى لاحصة ولا حظ (لهم من هذا الأمر) يعنى السعادة الأبدية التى هى القرب من الله (إلا وصف) بلا اتصاف (وسماع) من أذن إلى أخرى بلا تأمل وتدبر (وعلم) بلا عمل (وتمن بلا انتفاع ، وأن لايجعل ما تعلمناه) وما علمناه (من العلم حجة علينا يوم القيامة) فنكون من الخاسرين (وأن يوفقنا جميعا) أى أن يخلق لنا جميعا قدرة وقوة (للعمل بذلك) بمقتضى ما تعلمناه وما علمناه (والقيام به كما يحب ويرضى إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله) أى أتباعه (وسلم وشرف وكرم . فهذا) أى ترتيب العقبات الذى ذكرناه (هو الترتيب الذى ألهمنى) أى أعطانى إلهاما (مولاى) المنفرد (فى) بيان (طريق العبادة ، فاعلم الآن) أى بعد الترتيب المذكور (بتوفيق الله أن الحاصل من الجملة) التى رتبناها (سبع عقبات : الأولى عقبة العلم) قدمه على غيره لشرفه ولكونه مدار أمر العبودية (الثانية عقبة التوبة . الثالثة عقبة العوائق . الرابعة عقبة العوارض الخامسة عقبة البواعث . السادسة عقبة القوادح . السابعة عقبة الحمد والشكر ، وبتمامها) أى السبع العقبات (يتم كتاب منهاج العابدين إلى الجنة) أى جنة رب العالمين (ونحن الآن نتتبع) أى نتبحث ونفتش تفتيشا تاما (هذه العقاب) السبعة أى عليها (بشرح) أى كشف وإيضاح كما فى اللغة ، وفى الاصطلاح : ألفاظ مخصوصة دالة على معان مخصوصة (موجز اللفظ) أى قصير اللفظ كثير المعنى (مشتمل على النكت) وهي الأحاديث المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم

الْمَقْصُودَةِ مِنْ هٰذَا الشَّأْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا فِى بَابٍ مُفْرَدٍ إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ بِمَنِّهِ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

والأقاويل المنقولة عن السلف فى أثناء هذا الشرح ، هذا هو المراد هنا ، وهى فى الأصل جمع نكتة مأخوذة من النكت ، وهو الحفر فى الأرض بعود مثلا فيؤثر فيها ، وقد تطلق على الأمر الدقيق كما هنا ، لأن الإنسان عند ما يتدبر أمرا دقيقا ويفكر فيه يحفر فى الأرض وهو لا يشعر فتسمية الشىء الدقيق بالنكتة من باب تسمية الشىء باسم مجاوره ، وهو مجاز متعارف كما قاله الدسوقى (المقصودة) تلك النكت (من هذا الشأن) وهو طريق العبادة (كل منها) أى من سبع عقبات (فى باب مفرد إن شاء الله عز وجل ، والله سبحانه ولي التوفيق) قال أبو البقاء : هو الهداية إلي وفق الشىء وقدره وما يوافقه ، وقال غيره : هو جعل الله فعل عبده موافقا لما يحبه ويرضاه (والتسديد) أى موافقة الصواب (بمنه) أى إنعامه ، ويطلق المن على ثلاثة معان : أحدها الإنعام وهو المراد هنا ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « ما من الناس أحد أمن علينا فى صحبته ولا ذات يده من ابن أبى قحافة » يريد أكثر إنعاما . وثانيها القطع ، ومنه قوله تعالى ـ فلهم أجر غير ممنون ـ أى مقطوع . وثالثها تعداد النعم بأن يقول المنعم لمن أنعم عليه فعلت معك كذا وكذا وهو مذموم إلا من الله والشيخ والوالدين فليس مذموما . قال بعضهم : إن حق الشيخ أقوى من حق الوالدين ، ولذا قالوا : إذا عق التلميذ شيخه لا تقبل توبته ، وحينئذ فافتخار الشيخ ليس بحرام ، وإنما كان حق الشيخ أقوى من حق الوالدين لأن تربيته لحفظ الروح باقية وتربية الوالدين لحفظ الجسم وهو فان وهالك وما أحسن قول بعضهم :

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
انهض إلى الروح فاستكمل فضائلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

كما أفاده العلامة يوسف فى حواشى العشماوية (ولا حول) أى لا حركة ولا استطاعة عن المعصية (ولا قوة) أى على هذا الشرح وغيره من بقية الأعمال الصالحة (إلا بالله) أى بعون الله (العلىّ) من العلو : وهو الرفعة ، وعلوه تعالى معنوى لا حسى لاستحالته عليه تعالى ، وهو عبارة عن تنزيهه تعالى عن كل نقص واتصافه بكل كمال (العظيم) أى الذى ليس لعظمته بداية ، ولا لكنه جلاله نهاية . فقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال « كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرى ما تفسيرها ، فقلت لا . قال : لا حول عن معصية الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله ، ثم ضرب بيديه على منكبى ، وقال : هكذا أخبرنى جبريل عليه السلام » . وفى الصحيحين « لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة » أى أجرها مدخر لقائلها كما يدخر الكنز كما نقله بعضهم عن المغنى ، وورد أنه صلى الله عليه وسلم قال « أكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله فإن ذكرها يدفع

العقبةُ الأُولى ، وَهِيَ عقبَةُ الْعِلْمِ

فَأَقُولُ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ : يَا طَالِبَ الْخَلَاصِ وَالْعِبادَةِ عَلَيْكَ أَوَّلاً ، وَفَّقَكَ اللهُ بِالْعِلْمِ فَإِنَّهُ الْقطبُ وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ .

تسعة وتسعين داء ، أدناها اللمم وهو طرف من الجنون » . وعن مكحول « أن من قالها كشف الله عنه سبعين بابا من البلاء » . وفي رواية « من الهم أدناها الفقر » كذا نقله بعضهم عن الجمل ، والله أعلم .

هـذا شرح (العقبة الأولى) من السبـع التى رتبها أولا (وهي عقبة العلم)

قدمه في البيان على لاحقه لشرفه ، ولأنه في الحقيقة غاية مايقصده الإنسان ويهتم له وينتهى إليه، وحده : صفة توجد تميزا لا يحتمل النقيض في الأمور المعنوية ، واحترزوا بقولهم : لا يحتمل النقيض عن مثل الظن ، وبقولهم في الأمور المعنوية عن إدراك الحواس لأن إدراكها في الأمور الظاهرة المحسوسة ، كذا قاله القسطلانى وهو الحد المختار عند المتكلمين ، وقيل : لا يحد لعسر تحديده ، وهذا رأى إمام الحرمين وتلميذه المصنف ، وقيل : حده اعتقاد جازم مطابق لموجب إما ضرورة أو دليل فيـه ، وفيه أنه يخرج عنه التصور لعدم اندراجه في الاعتقاد مع أنه علم ، ويخرج علم الله تعالى أيضا لأن الاعتقاد لا يطلق عليه ، ولأنه ليس بضرورة أو دليل ، وهـذا للفخر الرازى عرفه به بعد تنزيله كونه ضروريا ، وقيل : هو حصول صـورة الشيء في العقل قال ابن صدر الدين : هو أصح الحدود عند المحققين من الحكماء وبعض المتكلمين ولكن فيه أنه يتناول الظن والجهل المركب والتقليد والشك والوهم ، وقيل : هو صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت هى به . قال السيد الشريف . وهو أحسن ما قيل في الكشف عن ماهية العلم ، ومعناه أنه صفة ينكشف بها لمن قامت به ما من شأنه أن يذكر انكشافا تاما لا اشتباه فيه (فأقول) أى فإذا أردت بيان ذلك أقول (وبالله) تعالى لابغيره (التوفيق) إلى مرضاته وفهم حكمه وأسراره (يا طالب الخلاص) أي النجاة من المهلكات (والعبادة) الخالصة لرب المخلوقات (عليك) أى الزم (أولا) أي أول كل شيء (وفقك الله) أي أقدرك الله على الطاعة بخلق قدرتها فيك ، وإنما دعا رحمه الله بالتوفيق لعزته ، لأنه لم يذكر في القرآن إلا مرة واحدة في قوله تعالى « وما توفيقى إلا بالله » . وأما قوله تعالى « إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » فهو من الموافقة لا من التوفيق كما قاله بعض محشى الشماوية (بالعلم) أى الاشتغال بمطلبه متعلق بعليك (فإنه القطب) أى أصل أمر العبادة وملاكه (وعليه المدار) أي مدار العبودية وهو بمعنى ما قبله لأن من معنى القطب ملاك الشيء ومداره كما في القاموس ، وينقسم العلم بانقسام المعلومات وهي لا تحصى ، فمنها الظاهر والمراد به العلم الشرعى المقيد بما يلزم المكلف في أمر دينه عبادة ومعاملة ، وهو يدور على التفسير والفقه والحديث .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ جَوْهَرَانِ لِأَجْلِهِمَا كَانَ كُلُّ مَا تَرَى وَتَسْمَعُ مِنْ تَصْنِيفِ الْمُصَنِّفِينَ وَتَعْلِيمِ الْمُعَلِّمِينَ وَوَعْظِ الْوَاعِظِينَ وَنَظَرِ النَّاظِرِينَ ، بَلْ لِأَجْلِهِمَا أُنْزِلَتِ الْكُتُبُ

وقد عد الشيخ عز الدين بن عبد السلام تعلم النحو ، وحفظ غريب الكتاب والسنة ، وتدوين أصول الفقه من البدع الواجبة . ومنها علم الباطن وهو نوعان : الأول علم المعاملة ، وهو فرض عين فى فتوي علماء الآخرة ، فالمعرض عنه هالك بسطوة مالك الملوك فى الآخرة ، كما أن المعرض عن الاعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى علماء الدنيا ، وحقيقته النظر فى تصفية القلب وتهذيب النفس باتقاء الأخلاق الذميمة التى ذمها الشارع كالرياء والعجب والغش وحب العلو والثناء والفخر والطمع ليتصف بالأخلاق الحميدة المحمدية كالإخلاص والشكر والصبر والزهد والتقوى والقناعة ليصلح عند إحكامه ذلك لعمله بعلمه ليرث مالم يعلم ؛ فعلمه بلاعمال وسيلة بلاغاية ، وعكسه جناية ، وإتقانهما بلا ورع كلفة بلا أجرة ، فأهم الأمور زهد واستقامة لينتفع بعلمه وعمله .

وأما النوع الثانى فهو علم المكاشفة ، وهو نور يظهر فى القلب عند تزكيته فتظهر به المعانى المجملة فتحصل له المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وكتبه ورسله وتنكشف له الأستار عن مخبئات الأسرار فافهم ، وسلم تسلم ، ولا تكن من المنكرين تهلك مع الهالكين . قال بعض العارفين : من لم يكن له من هذا العلم شيء أخشى عليه سوء الخاتمة ، وأدنى الغيب منه التصديق به وتسليمه لأهله ، والله تعالي أعلم ، كذا ذكره القسطلانى . وفى الإحياء مع شرحه ، وهذه هى العلوم التي أمر بكتمانها وأنها لا تسطر فى الكتب ، لأنها علوم ذوقية كشفية تدرك عن مشاهدة لا عن دليل وبرهان ، ولأن المسطور فى كتاب يقع فى يد الأهل وغير الأهل ، فإن لم يكن أهلا لمعرفته يقع فى حيرة عظيمة تترتب عليها مفاسد ، ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشىء منها إلا مع أهله وإلا فقد وضع الشىء فى غير محله ، وقد نهى عن ذلك ، وهو : أى أهله المشارك فيه بذوقه السليم وفهمه المستقيم ، ويكون ذلك التحدث على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار ، وهذا هو العلم الخفى الذى أراده صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا أهل المعرفة بالله فاذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار به فلا تحقروا عالما آتاه الله علما ، فإن الله لم يحقره إذ آتاه العلم » اهـ ملخصا .

(واعلم أن العلم والعبادة جوهران) أى مثلهما فى النفاسة إذ لاخير سواهما ، والجوهرة فى الأصل حجر ينتفع به (لأجلهما كان كل ماترى وتسمع من تصنيف المصنفين ، وتعليم المعلمين ، ووعظ الواعظين ، ونظر الناظرين) أى وفكر المتفكرين (بل لأجلهما أنزلت الكتب)

وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ ، بَلْ لِأَجْلِهِمَا خُلِقَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْخَلْقِ . وَتَأَمَّلْ آيَتَيْنِ فِى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إِحْدَاهُمَا : قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ «اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا» وَكَفَى بِهٰذِهِ الْآيَةِ دَلِيلاً عَلَى شَرَفِ الْعِلْمِ لَا سِيَّمَا عِلْمَ التَّوْحِيدِ . وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

السماوية (وأرسلت الرسل) عليهم الصلاة والسلام (بل لأجلهما خلقت السماوات والأرض وما فيهن من الخلق ، وتأمل آيتين فى كتاب الله عز وجل : إحداهما قوله جل ذكره) فى سورة الطلاق (الله الذى خلق سبع سموات) مبتدأ وخبر (ومن الأرض مثلهن) أى وخلق مثلهن فى العدد من الأرض (يتنزل الأمر بينهن) أي يجرى أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن ، كذا فسره البيضاوى . وقيل هو مايدبر فيهن من عجائب تدبيره : ينزل المطر ، ويخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار ، وبالصيف والشتاء ، ويخلق الحيوان على هيئته ، وينقله من حال إلى حال فيحكم بحياة بعض وموت بعض ، وسلامة هذا وهلاك هذا . وقيل فى كل سماء من سمواته وأرض من أرضيه خلق من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه كما قاله الخازن (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) يعنى أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شىء لاتخفى عليه خافية ، وأنه قادر على الإنشاء بعد الإفناء ، وكل الكائنات جارية تحت قدرته داخلة فى علمه كما فى الخازن (وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم) ولو لم يكن من فضيلة العلم إلا قوله تعالى « شهد أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » كفى ذلك ، فبدأ الله تعالى بنفسه وثنى بملائكته ، وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفا ، والعلماء ورثة الأنبياء كما فى الحديث ، وإذا كان لارتبة فوق النبوة فلا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة ، وغاية العلم العمل لانه ثمرته ، وفائدة العمر وزاد الآخرة ، فمن ظفر به سعد ، ومن فاته خسر ، فاذن العلم أفضل من العمل به لأن شرفه بشرف معلومه ، والعمل بلا علم لايسمى عملا بل رد وباطل ، ولله در القائل :

وكل فضيلة فيها سناء ... وجدت العلم من هاتيك أسنى

فلا تعتقد غير العلم ذخرا ... فإن العلم كنز ليس يفنى

والأخبار والآثار فى فضله كثيرة شهيرة ويأتى بعض ذلك (لاسيما علم التوحيد) وسيأتى بيانه (والآية الثانية قوله جل من قائل) فى سورة والذاريات (وما خلقت الجن والإنس) أى من المؤمنين (إلا ليعبدون) قيل هذا خاص بأهل طاعته من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون ، ولذلك قال المصنف وغيره معناه : أى إلا

وَكَفَى بِهٰذِهِ الآيَةِ دَلِيلاً عَلَى شَرَفِ الْعِبَادَةِ وَلُزُومِ الإِقْبَالِ عَلَيْهَا فَأَعْظِمْ بِأَمْرَيْنِ هُمَا الْمَقْصُودُ مِنْ خَلْقِ الدَّارَيْنِ فَحَقٌّ لِلْعَبْدِ أَنْ لاَ يَشْتَغِلَ إِلاَّ بِهِمَا وَلاَ يَتْعَبَ إِلاَّ لَهُمَا، وَلاَ يَنْظُرَ إِلاَّ فِيهِمَا . وَاعْلَمْ أَنَّ مَا سِوَاهُمَا مِنَ الأُمُورِ بَاطِلٌ لاَ خَيْرَ فِيهِ ، وَلَغْوٌ لاَ حَاصِلَ لَهُ

ليعرفون أو يكونوا عبيدا لى خاصة ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولابد أن يعرف نفسه وربه كما يرشد إليه الخبر «من عرف نفسه عرف ربه» فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلى الخلق ليرشدوهم إلى ذلك ، وكذا بإرسال الكتب من السماء ، وتقديم خلق الجن فى الذكر مر بيانه فى أول الكتاب (وكفى بهذه الآية دليلا) يدل (على شرف العبادة) لرب العالمين (ولزوم الإقبال) والمواظبة (عليها) أى وتصريحا بأنهم خلقوا للعبادة ، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والاعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة ، فانها دار نفاد لامحل إخلاد ، ومركب عبور لامنزل حبور ، ومشرع انفصام لاموطن دوام ، فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد ، وأعقل الناس فيها هم الزهاد . قال الله تعالى « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السما فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، ولقد أحسن القائل حيث قال :

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحىّ وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

كذا قاله فى رياض الصالحين (فأعظم بأمرين) أى العلم والعبادة : وقوله فأعظم بوزن أفعل بكسر العين التعجب على صورة الأمر ، والباء زائدة لتحسين اللفظ ، لأن مجيء المرفوع بعد صورة الأمر قبيح كما قرره بعضهم (هما المقصود من الدارين) أى الدنيا والآخرة ، فاذا كان الهما : أى العلم والعبادة ماوصفته ، وحالنا وما خلقنا له ماقدمته (فحق للعبد) أى وجب عليه (أن لايشتغل إلا بهما ولا يتعب) نفسه (إلا لهما) أى لتحصيلهما (ولا ينظر) بقلبه (إلا فيهما . واعلم أن ماسواهما من الأمور) الدنيوية (باطل) أى فاسد (لا خير فيه) بل هو وبال على متعاطيه (ولغو) أى ساقط لانفع به (لا حاصل له) وهذا مصداق ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وما والاه أو معلم ومتعلم » قال السيد مرتضى : يعنى أن الدنيا مطرودة مبعودة من الله تعالى فانه لم ينظر إليها منذ خلقها ، ملعون

فَإِذَا عَلِمْتَ ذٰلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الْجَوْهَرَيْنِ وَأَفْضَلُهُمَا ، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليهِ وَسلمَ «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي» . وَقَالَ صلى الله عليه وسلمَ «نَظْرَةٌ إِلَى الْعَالِمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا» .

مافيها : أي ماشغل عن الله تعالى وأبعد عنه إلا ماقرب إليه فإنه محبوب محمود كما أشار إليه قوله: إلا ذكر الله وماوالاه : أي ماأحبه الله من الدنيا وهو العمل الصالح ، والموالاة : المحبة بين اثنين وقد تكون واحدا وهو المراد هنا ، وماكان طريقا إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة ، واللعنة واقعة على ماعداه ، إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه ، فهو متعلق العقاب، والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك ، وما أفضى إليه ، وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده ، كذا أفاده بعض المحققين (فاذا علمت ذلك) أي ماتقرر أن العلم هو قطب العبادة ومدار أمر العبودية (فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين) أي من العبادة (وأفضلهما) لأنها ثمرته كما سبق (ولذلك) أي أشرفية العلم على العبادة . (قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن فضل العالم) أي العامل بعلمه (على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي) . المراد بالفضل : كثرة الثواب الشامل لمايعطيه الله للعبد في الآخرة من درجات الجنة ولذاتها ومآكلها ومشاربها ومناكحها ومايعطيه الله تعالى للعبد من مقامات القرب ولذة النظر إليه وسماع كلامه كذا قاله العزيزي ، وهذا الحديث رواه الحارث بن أبي أسامة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . وفي رواية للترمذي عن أبي أمامة «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» أي نسبة شرف العالم على شرف العابد كنسبة شرف النبي إلى أدنى شرف الصحابة لأن المخاطبين بقوله : أدناكم : الصحب . قال الغزالي : فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة ، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة، كذا أفاده في شرح اللباب . وقال الطيبي : ولاتظنن أن العالم المفضل عار عن العمل ، ولا العابد عن العلم ، بل إن علم ذلك غالب على عمله ، وعمل هذا غالب على علمه ، ولذلك جعل العلماء ورثة الأنبياء الذين فازوا بالحسنيين : العلم والعمل ، وحازوا الفضيلتين : الكمال والتكميل ، وإذاعرفت ذلك ظهر لك سر قول الغزالي فيما قبل اهـ .

ثم إن المراد في هذه الأخبار بالعالم من صرف نفسه للتعليم والإرشاد والتصنيف ، وبالعابد من انقطع للعبادة تاركا ذلك وإن كان عالما كما قاله العلامة السيد مرتضى في شرح الإحياء . وقال الذهبي : إنما كان العلم أفضل ، لأن العالم إذا لم يكن عابدا فعلمه وبال عليه ، وأما العابد بغير فقه فمع نقصه هو أفضل بكثير من فقيه بلا تعبد كفقيه همته في الشغل بالرياسة فليتأمل . (وقال صلى الله عليه وسلم : نظرة) أي واحدة بنظر المحبة (إلى العالم) أي إلى وجهه كما في رواية (أحب إلي من عبادة سنة صيامها وقيامها) . وقال صلى الله عليه وسلم « فقيه متورع أشد على الشيطان من ألف عابد مجتهد جاهل ورع » . وفي رواية للترمذي وابن ماجه عن ابن عباس «فقيه

وَقَالَ صلى اللهُ عليهِ وَسلم « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَشْرَفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : هُمْ عُلَمَاءُ أُمَّتِى »

واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » اهـ. وذلك لأن الشيطان كلما فتح بابا على الناس من الأهواء ، وزين الشهوات فى قلوبهم بين الفقيه العارف مكايده ، فيسد ذلك الباب ويجعله خائبا خاسرا ، بخلاف العابد فإنه ربما يشتغل بالعبادة وهو فى حبائل الشيطان ولا يدرى ، أفاد ذلك العزيزى نقلا عن الطيبى . (وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة ؟ قالوا) أى الحاضرون عنده من الصحابة (بلى) دلنا (يا رسول الله ، قال : هم علماء أمتى) وقال صلى الله عليه وسلم « العلماء أهل الجنة خلفاء الأنبياء » كذا أورده الفشنى . قال عمر بن الخطاب : قال صلى الله عليه وسلم : « من مشى إلى حلقة عالم كان له بكل خطوة مائة حسنة ، فإذا جلس عنده واستمع ما يقول كان له بكل كلمة حسنة » كذا ذكره النووى فى رياض الصالحين . وعن سهل بن سعد رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه : لأن يهدى بك الله رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » . وقال صلى الله عليه وسلم « نظرك إلى وجه العالم خير لك من ألف فرس تتصدق بها فى سبيل الله ، وسلامك على العالم خير لك من عبادة ألف سنة » كذا ذكره الحافظ المنذرى فى الدرة اليتيمة . وقال صلى الله عليه وسلم « أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء ، فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله » رواه الخطيب البغدادى عن جابر . وقال صلى الله عليه وسلم « من أكرم عالما فقد أكرمنى ، ومن أكرمنى فقد أكرم الله ، ومن أكرم الله فمأواه الجنة » كذا ذكره الجلال السيوطى فى اللباب . وقال صلى الله عليه وسلم « من انتقل ليتعلم علما غفر له قبل أن يخطو » . قال بعضهم : أى خطوة من موضعه إذا أراد بذلك وجه الله تعالى : رواه الشيرازى عن عائشة . وقال صلى الله عليه وسلم « من نظر إلى وجه العالم نظرة ففرح بها خلق الله تعالى من تلك النظرة ملكا يستغفر له إلى يوم القيامة » كذا ذكره فى اللباب ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء » . وورد « أن العالم يشفع فى جيرانه وإخوانه ومن قضى له حاجة واحدة أو أطعمه لقمة إذا جاع أو سقاه شربة ماء إذا عطش » كذا ذكره فى حواشى الشماوية . وقال صلى الله عليه وسلم « من خرج لطلب علم كان كالمجاهد ، فإن مات مات شهيدا ، وإن عاد عاد بأجر وغنيمة » . وقال صلى الله عليه وسلم « معلم الخير إذا مات يبكى عليه طير السماء ودواب الأرض » . هذا من الأخبار . وأما من الآثار فما روى عن على

رضى الله عنه « كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح به إذا نسب إليـه ، وكفى بالجهل ذما أن يتبرأ منه من هو فيه » كما قيل : فالله در العلم ومن به تردى ، وتعسا للجهل ومن فى أوديته تردى . وقال أبو مسلم الخولاني : مثل العلماء فى الأرض مثل النجوم فى السماء إذا برزت للناس اهتدوا بها ، وإذاخفيت عليهم تحيروا . وعن معاذ رضى الله عنه « تعلم العلم فإن تعلمه لك حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة » . وقال على رضى الله عنه : العلم خير من المـال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمـال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق . وقال الشافعى رضى الله عنه : من لا يحب العلم لا خير فيه ، فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة فإنه حياة القلوب ومصباح البصائر . وقال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة . وقال : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، يدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » . قال عطاء : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام كيف تشترى وتبيع وتصلى وتصوم وتنكح وتطلق وتحج وأشباه ذلك . وقال « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم » أى فإنه يحتاج إليه فى كل منهما . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال «مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة» يدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم «يسير الفقه خير من كثير العبادة » والأخبار والآثار فى ذا الباب كثيرة لا تحصى .

ثم اعلم أن ما ذكر فى فضل العلم إنما هو فيمن طلبه مريدا به وجه الله تعالى ، فمن أراده لغرض دنيوى كمال أو رياسة أو منصب أو جاه أو شهرة أو استمالة الناس إليه أو نحو ذلك فهو مذموم . قال تعالى « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب » . وقال صلى الله عليه وسلم « من تعلم علما ينتفع به فى الآخرة يريد به غرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة » : أى لم يجد ريحها . وقال صلى الله عليه وسلم «أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه » . وقال صلى الله عليه وسلم « شرار الناس شرار العلماء » . وقال على رضى الله عنه : يا حملة العلم اعملوا به ، فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لايجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا يباهى بعضهم بعضا حتى أن الرجل يغضب على جليسه أن يجالس إلى غيره ويدعه أولئك لاتصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله تعالى . وقال سفيان : ما ازداد عبد علما فازداد فى الدنيا رغبة إلا ازداد من الله بعدا . وقال حاتم الأصم : ليس فى القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه ، وهلك .

وبالجملة فالأحاديث فى ذم علماء السوء وتوبيخ من لم يعمل بعلمه ومن خالف قوله عمله كثيرة جدا وفى هذا القدر كفاية ، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا بفضله ، وأن يحفظنا من الشيطان وجنده

فَبَانَ لَكَ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ جَوْهَرًا مِنَ الْعِبَادَةِ ، وَلٰكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْعِبَادَةِ مَعَ الْعِلْمِ وَإِلاَّ كَانَ عِلْمُهُ هَبَاءً مَنْثُورًا . فَإِنَّ الْعِلْمَ بِمَنْزِلَةِ الشَّجَرَةِ وَالْعِبَادَةَ بِمَنْزِلَةِ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِهَا ، فَالشَّرَفُ لِلشَّجَرَةِ إِذْ هِيَ الْأَصْلُ ، لٰكِنْ الِانْتِفَاعُ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِثَمَرَتِهَا فَإِذًا لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ كِلَا الْأَمْرَيْنِ حَظٌّ وَنَصِيبٌ وَلِهٰذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: اُطْلُبُوا هٰذَا الْعِلْمَ طَلَبًا لَا يَضُرُّ بِالْعِبَادَةِ ، وَاطْلُبُوا هٰذِهِ الْعِبَادَةَ طَلَبًا لَا يَضُرُّ بِالْعِلْمِ .

(فبان) أى ظهر (لك أن العلم أشرف جوهرا) على الإطلاق من غير إضافة ونسبة إلى شىء آخر ، بل أصل كل الفضائل الداخلية لأنه وصف لكمال الله تعالى ، وبه شرف الملائكة والأنبياء وغيرهم (من العبادة ولكن لابد للعبد من العبادة مع العلم ، وإلا كان علمه هباء منثورا) أي غبارا لطيفا متفرقا فلا استقرار له ولا اجتماع ، بل تضيعه الرياح : يعنى مثله فى عدم النفع به لما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من عالم لا يعمل بعلمه إلا نزع الله روحه على غير الشهادة ، وناداه مناد من السماء : يا فاجر خسرت الدنيا والآخرة » . وعن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن العالم إذا لم يعمل بعلمه لعنه العلم من جوفه ، ويلعنه كل شىء طلعت عليه الشمس ، وتكتب الحفظة كل يوم ختما على صحيفته : هذا عبد آيس من رحمة الله ، يا عبد الله يا مضيع حقوق سيده ، يا من لا يعمل بعلمه عليك لعنة الله ، فإذا مات نزع الله روحه على غير الشهادة ويحرم الموت على الإيمان » كذا فى شرح اللباب (فإن العلم) أصل (بمنزلة الشجرة ، والعبادة) ناشئة من ذلك الأصل ، فهى (بمنزلة ثمرة من ثمراتها) أى شجرة العلم (فالشرف للشجرة إذ هى الأصل لكن الانتفاع) التام (إنما يحصل بثمراتها) أى الشجرة وهى العبادة (فإذا) أى إذا كان الانتفاع لا يحصل إلا بذلك (لابد) أى وجب (للعبد من أن يكون له من كلا الأمرين) أى العلم والعبادة (حظ ونصيب) عطف تفسير كما يعلم من قول المصباح : والحظ : النصيب ، والجمع : حظوظ ، مثل فلس وفلوس (ولهذا) أى المذكور من قوله: لابد للعبد أن يكون له من الأمرين حظ. (قال الحسن) بن يسار (البصرى رحمه الله) هو مولى زيد بن ثابت ، وقيل مولى حمل بن قطبة ، وأبوه يسار من سبى ميسان أعتقته بنت النضر ولد الحسن زمن عمر وسمع عثمان وشهد الدار ابن إحدى عشرة سنة ، وروى عن عمران بن حصين وأبى موسى وابن عباس وجندب ، وعنه ابن عون ويونس كان كبير الشأن رفيع الذكر رأسا فى العلم ، مات فى رجب سنة ١١٠ كذا قاله العلامة السيد مرتضى فى الإتحاف (اطلبوا) أيها المسلمون (هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة) بأن كان الطالب عاملا بمطلوبه الذى هو العلم وإلا دخل فى الوعيد الشديد المتقدم ذكره (واطلبوا هذه العبادة طلبا لا يضر بالعلم) بأن كان العابد عالما

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَنَّهُ لاَ بُدَّ لِلعَبْدِ مِنْهُمَا جَمِيعًا ، فَالعِلْمُ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ لاَ مَحَالَةَ ، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ وَالدَّلِيلُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ صلى ٱللّٰهُ عليهِ وسلمَ «الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ» وَإِنَّمَا صَارَ الْعِلْمُ أَصْلاً مَتبُوعاً يَلْزَمُكَ تَقْدِيمُهُ عَلَى الْعِبَادَةِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِتَحْصُلَ لَكَ الْعِبَادَةُ وَتَسْلَمَ فَإِنَّكَ أَوَّلاً يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ الْمَعْبُودَ ثُمَّ تَعْبُدَهُ وَكَيْفَ تَعْبُدُ مَنْ لاَ تَعْرِفُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِ ذَاتِهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ وَمَا يَسْتَحِيلُ فِى نَعْتِهِ ، فَرُبَّمَا تَعْتَقِدُ فِيهِ وَفِى صِفَاتِهِ شَيْئاً وَالْعِيَاذُ بِاللهِ مِمَّا يُخَالِفُ

بأحوال عبادته ، وإلا كانت أعماله مردودة ، ولله در القائل :

وكل من بغير علم يعمل أعماله مردودة لا تقبل

لأن الجاهل لا يعلم ما يضره في عبادته ، بخلاف العالم ولو فاسقا فإنه يعلم ذلك لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « العالم حبيب الله ولو كان فاسقا ، والجاهل عدو الله ولو كان عابدا » .

وحكي أن بعض الناس اختلف فى شرف العالم الفاسق وشرف الجاهل العابد فخرج أحد منهم وذهب إلى صومعة العابد الجاهل فقال يا عبدى : قبلت دعوتك وغفرت لك ذنبك فاترك العبادة واسترح ، فقال العابد إلهى إني أرجو منك هذا وإنى أحمدك وأشكرك وأعبدك من زمان كذا فصار مخطئا وكافرا بجهله ، ثم ذهب أحد منهم إلى العالم الفاسق فإذا هو يشرب الخمر فقال : يا عبدى اتق منى وأنا ربك أستر ذنبك وأنت لا تستحى منى فإنى أريد أن أهلكك ، فسل العالم الفاسق سيفه وخرج من مكانه ، فقال يا ملعون أنت لاتعلم ربك ، فإنى أعلمك ربك الآن ففر ذلك القائل ، فعلم بذلك شرف العلم وأهله ، كذا فى شرح البداية (ولما استقر أنه) أى الحال والشأن (لابد للعبد منهما) أى من العلم والعبادة (جميعا فالعلم أولى) أى أفضل وأحق (بالتقديم) من غيره (لا محالة لأنه الأصل ، و) لأنه (الدليل) أى الموصل للهداية والمثمر لخشية الله عز وجل (ولذلك) أى لكون العلم أصلا ودليلا (قال صلى الله عليه وسلم : العلم إمام العمل والعمل تابعه) تمامه « يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » . هكذا رواه أبو نعيم فى الحلية وأبو طالب المكى فى القوت والخطيب وابن القيم وغيرهم موقوفا ، ورواه أبو نعيم فى المعجم وابن عبد البر كما تقدم مرفوعا . وقال فى آخره : وهوحديث حسن ولكن ليس له إسناد قوى (وانما صار العلم أصلا متبوعا يلزمك تقديمه على العبادة لأمرين : أحدهما لتحصل لك العبادة وتسلم) لك من غير آفة (فإنك أولا يجب عليك أن تعرف المعبود) بأسمائه وصفاته (ثم تعبده ، وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته و) أن تعرف (ما يجب له) من صفاته وما يجوز (وما يستحيل فى نعته) أى وصفه (فربما تعتقد فيه) أى المعبود (وفى صفاته شيئا) منكرا عند ذوى البصائر (والعياذ بالله مما يخالف) الاعتقاد

الْحَقِّ فَتَكُونُ عِبَادَتُكَ هَبَاءً مَنْثُورًا . وَقَدْ شَرَحْنَا مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ فِي بَيَانِ مَعْنَى سُوءِ الْخَاتِمَةِ مِنْ كِتَابِ الْخَوْفِ مِنْ جُمْلَةِ كُتُبِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ .

الحق فتكون عبادتك هباء منثورا) أى مثله فى عدم نفعها (وقد شرحنا ما فى ذلك) أى فى الاعتقاد (من الخطر) أى الخوف (العظيم فى بيان معنى سوء الخاتمة من كتاب الخوف من جملة كتب إحياء علوم الدين) وعبارته مع شرحها مختصرا ، فإن قلت : إن أكثر هؤلاء أى الصالحين يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة . فاعلم هداك الله تعالى أن سوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وشدائده وظهور أهواله ، إما الشك وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد الملازم . والرتبة الثانية : وهى دونها ؛ أى دون الأولى: أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه أى يغمره حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحالة ، فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها ، ومهما انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب عن الله تعالى نزل العذاب لا محالة ، إذ نار الله الموقدة المشار إليها فى الآية لا تأخذ إلا المحجوبين عنه . فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف إلى الله تعالى المشار إليه فى قوله تعالى — يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم — أى سليم عن حب الدنيا تقول له النار: جز يا مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهبي ، روى ذلك من حديث يعلى بن منية ، فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فإن الأمر مخطر ، لأن المرء يموت على ما عاش عليه كما أنه يبعث على مامات عليه . فان قلت : فما السبب الذى يفضى إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها إما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح فى الأعمال كالمبتدع الزاهد دخلت عليه المشاهدة من قبل المواجهة بالإنصاف والعدل بعيار العقل وإتلاف الحد من قبل قوة النظر فى الأكساب فعاقبته مخطرة جدا وإن كانت أعماله صالحة ؛ ويدلك على ذلك أن أكثر هذه المخاوف كانت فى البصريين وأهل عبادان والعسكر ، وكان مذهبهم القدر فوقعوا فى غاية الخطر ، ولست أعنى مذهبا فأقول إنه بدعة ، فإن بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم ؛ وعليه يعول وبه يغتر وإما أخذا بالتقليد فمن هذا حاله ، فاذا قرب الموت وظهر له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه فربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا فيتمنى أنه لم يعط عقلا إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادى سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض

الأمور ، فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به وجازما متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته وسببا لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل أن يتشبث ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » وبقوله تعالى « وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » وبقوله تعالى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فكم من مغبوط فى أحواله تقلبت عليه الحال ومنى بمقارفة قبيح الأعمال ، فبدل بالأنس وحشة وبالحضور غيبة ، وكل من اعتقد فى الله تعالى وفى صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ما هو به ، إما تقليدا لآبائه ومشايخه وإما نظرا بالرأى والمعقول فهو فى هذا الخطر ، والزهد والصلاح لا يكفى لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق ، والبله الغافلون بمعزل عن هذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا قويا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر ، ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ، ولا أصغوا إلى أصناف المتكلمين فى تقليد أقاويلهم المختلفة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثر أهل الجنة البله» رواه البيهقى فى شعب الايمان ، ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض فى الكلام والتفتيش عن هذه الأمور ، وأمروا الخلق على أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ماجاء من الظواهر فى الكتاب والسنة مع اعتقاد نفى التشبيه وإثبات التنزيه والتقديس ، ومنعوهم فى الخوض عن التأويل وفتح هذا الباب رأسا ، لأن الخطر فى البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كئودة : أى متعبة ، ومسالكه وعرة : أى صعبة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى وعظمته قاصرة ، وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة فلا تهدى إليها . وأما السبب الثانى فى سوء الخاتمة فهو ضعف الإيمان فى الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب وغلبته عليه ، ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا لأنهما ضدان ، فيصير بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث نفس لا يظهر له أثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة الذنوب على القلب ، ولا يزال يطفىء ما فيه عن نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا ، وإليه يشير قوله تعالى « فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » . وقوله تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » فاذا جاءت سكرات الموت وشدته ازداد ذلك الحب ، أعنى حب الله تعالى ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا ، وهى المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره : أى يتحرك بإنكار ما قدر عليه من الموت

ثُمَّ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعَلَّمَ مَا يَلْزَمُكَ فِعْلُهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى مَا أُمِرْتَ بِهِ لِتَفْعَلَ ذٰلِكَ ، وَمَا يَلْزَمُكَ تَرْكُهُ مِنَ الْمَنَاهِي لِتَتْرُكَ ذٰلِكَ ، وَإِلاَّ فَكَيْفَ تَقُومُ بِطَاعَاتٍ لاَ تَعْرِفُهَا مَاهِيَ ، وَكَيْفَ هِيَ ، وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تُفْعَلَ ، أَمْ كَيْفَ تَجْتَنِبُ مَعَاصِيَ لاَ تَعْلَمُ أَنَّهَا مَعَاصٍ ، حَتَّى لاَ تُوقِعَ نَفْسَكَ فِيهَا ، فَالْعِبَادَاتُ الشَّرْعِيَّةُ كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ وَغَيْرِهَا يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهَا بِأَحْكَامِهَا وَشَرَائِطِهَا حَتَّى تُقِيمَهَا فَرُبَّمَا أَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى شَيْءٍ سِنِينَ وَأَزْمَانًا مِمَّا يُفْسِدُ عَلَيْكَ طَهَارَتَكَ وَصَلَوَاتِكَ وَيُخْرِجُهُمَا عَنْ كَوْنِهِمَا وَاقِعَتَيْنِ عَلَى وِفَاقِ السُّنَّةِ وَأَنْتَ لاَ تَشْعُرُ بِذٰلِكَ ، وَرُبَّمَا يَعْتَرِضُ لَكَ مُشْكِلٌ وَلاَ تَجِدُ مَنْ تَسْأَلُهُ عَنْ ذٰلِكَ وَأَنْتَ مَا تَعَلَّمْتَهُ . ثُمَّ مَدَارُ هٰذَا الشَّأْنِ أَيْضًا عَلَى الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي هِيَ مَسَاعِي الْقَلْبِ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهَا مِنَ التَّوَكُّلِ وَالتَّفْوِيضِ وَالرِّضَا ، وَالصَّبْرِ وَالتَّوْبَةِ

وكراهته ذلك من حيث أنه من الله فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب اهـ ملخصاً (ثم يجب عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشرعية) كالصلاة والصوم وغيرهما (على ما أمرت به لتفعل ذلك و) تعلم (ما يلزمك تركه من المناهى) كالرياء والعجب وغيرهما من الصفات المذمومة (لتترك ذلك ، وإلا) أى وإن لم تعلم ما يلزمك فعله وتركه (فكيف تقوم بطاعات لا تعرفها ما هى) أى أى شىء يسمى طاعة (وكيف هى؟) أى كيف الإتيان بها (وكيف يجب أن تفعل) أى الطاعة (أم كيف تجتنب) أنت (معاصى) وأنت (لا تعلم أنها) أى الخصلة التى تفعلها (معاصى حتى لاتوقع نفسك فيها ، فالعبادة الشرعية كالطهارة والصلاة والصوم وغيرها) أى من الوظائف الدينية (يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها) على وفاق السنة ، وبيان ذلك مقرر فى الفقهية (فربما أنت مقيم على شىء) تظنه خيرا (سنين وأزمانا) وحقيقته أنه (مما يفسد عليك طهارتك وصلواتك ويخرجهما عن كونهما واقعتين على وفاق السنة وأنت لاتشعر) أى لاتعلم (بذلك) أى المفسد على طاعتك لجهلك بأحكامها وشرائطها (وربما يعترض) أى يقع ويظهر (لك مشكل) أى أمر مشكل من علم أو عمل (ولا تجد من تسأله عن ذلك) أى المشكل (وأنت ماتعلمته) لعدم تعلمك له (ثم مدار هذا الشأن) أى أصل هذا الشأن المعتبر وهو العلم (أيضا) أى كما تقدم من العبادات الشرعية (على العبادات الباطنة التى هى مساعى القلب) أى أعماله وهى جمع مسعى وهو مصدر ميمى ومعناه العمل (يجب أن تعلمها من التوكل) على الله تعالى (والتفويض) أى تسليم الأمور إليه تعالى (والرضا) بقضائه تعالى خيره وشره (والصبر) على

وَالْإِخْلَاصِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تعالى. وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ مَنَاهِيَهَا الَّتِي هِيَ أَضْدَادُ هٰذِهِ الْأُمُورِ: كَالسُّخْطِ وَالْأَمَلِ وَالرِّيَاءِ وَالْكِبْرِ لِتَجْتَنِبَ ذٰلِكَ، فَإِنَّ هٰذِهِ فَرَائِضُ وَنَصَّ اللّٰهُ تعالى عَلَى الْأَمْرِ بِهَا وَالنَّهْيِ عَنْ أَضْدَادِهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صلى اللّٰهُ عليه وَسلم كَمَا قَالَ تعالى: وَعَلَى اللّٰهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ـ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ـ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللّٰهِ. وَقَوْلُهُ: وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً، أَيْ أَخْلِصْ إِلَيْهِ إِخْلَاصاً

فعل الطاعة وعن المعصية (والتوبة) من الذنوب صغيرها وكبيرها (والإخلاص) أي ترك الرياء في العمل (وغير ذلك مما سيأتي) مبينا (ذكره إن شاء الله تعالى. ويجب أن تعلم مناهيها) أي المذكورات من التوكل وما بعده (التي هي) أي المناهي (أضداد هذه الأمور: كالسخط والأمل والرياء والكبر) وغير ذلك (لتجتنب ذلك) أي المذكور من المناهي فهو علة لقوله أن تعلم لأنه لايمكن الاجتناب إلا بعد العلم (فان هذه) أي الأمور من التوكل ونحوه (فرائض ونص الله تعالى على الأمر بها والنهى عن أضدادها في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى وعلى الله فتوكلوا) بالنصرة (إن كنتم مؤمنين) أي مؤمنين به ومصدقين لوعده وقوله تعالى «يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم» (واشكروا لله) على مارزقكم وأحل لكم (إن كنتم إياه تعبدون) إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم، فان عبادته تعالى لاتتم إلا بالشكر، فان المعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لاتمامه وهو عدم عند عدمه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: إني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري» وقوله تعالى (واصبر وماصبرك إلا بالله) بتوفيقه وتثبيته (وقوله) تعالى (وتبتل إليه تبتيلا) أي انقطع إليه انقطاعا، قال المصنف معناه (أي أخلص إليه إخلاصا) وكقوله صلى الله عليه وسلم «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها» وقوله صلى الله عليه وسلم «توبوا إلى الله فاني أتوب إليه كل يوم مائة مرة». وقوله صلى الله عليه وسلم «إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب». وقوله صلى الله عليه وسلم «من أخلص لله أربعين يوما أظهر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقوله صلى الله عليه وسلم «من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لاشريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض» وقوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الايمان» وقوله صلى الله عليه وسلم «الصبر كنز من كنوز الجنة» وقوله صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» وقوله صلى الله عليه وسلم «من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل» وفي مناجاة موسى عليه السلام «أي رب أي خلقك أحب إليك؟

وَنَحْوَ ذٰلِكَ مِنَ الآيَاتِ كَمَا نَصَّ عَلَى الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ فَمَالَكَ أَقْبَلْتَ عَلَى الصَّلَاةِ أَوِ الصَّوْمِ وَتَرَكْتَ هٰذِهِ الْفَرَائِضَ وَالْأَمْرَ بِهِمَا مِنْ رَبٍّ وَاحِدٍ فِى كِتَابٍ وَاحِدٍ ، بَلْ غَفَلْتَ عَنْهَا فَلَا تَعْرِفُ شَيْئًا مِنْهَا بِفَتْوَى مَنْ أَصْبَحَ بِعَاجِلِ حَظِّهِ مَشْغُوفًا حَتَّى صَيَّرَ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا ، وَمَنْ أَهْمَلَ الْعُلُومَ الَّتِى سَمَّاهَا اللّٰهُ فِى كِتَابِهِ نُورًا وَحِكْمَةً وَهُدًى وَأَقْبَلَ عَلَى مَا بِهِ يَكْتَسِبُ الْحَرَامَ وَيَكُونُ مَصِيدَةً لِلْحُطَامِ ، أَمَا تَخَافُ أَيُّهَا الْمُسْتَرْشِدُ أَنْ تَكُونَ مُضَيِّعًا لِشَىْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْوَاجِبَاتِ بَلْ لِأَكْثَرِهَا ، وَتَشْتَغِلُ بِصَلَاةِ التَّطَوُّعِ وَصَوْمِ النَّفْلِ فَتَكُونُ فِى لَاشَىْءٍ وَرُبَّمَا أَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْمَعَاصِى تَسْتَوْجِبُ بِهَا النَّارَ وَتَتْرُكُ مُبَاحًا

قال من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى . قال فأى خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال من يستخيرنى فى الأمر فاذا قضيت له سخط قضائى » (ونحو ذلك من الآيات) والأخبار (كما نص) الله تعالى (على الأمر بالصلاة والصوم) فى قوله عز وجل « وأقيموا الصلاة » وقوله جلّ من قائل « فليصمه » (فمالك) أى ما شأنك (أقبلت على الصلاة أو الصوم وتركت هذه الفرائض) أى المذكورات من التوكل وغيره (والأمر بهما) أى بالأمرين وهما الصلاة أو الصوم والفرائض (من رب واحد) أى ثبت منه جلّ وعز (فى كتاب واحد ، بل غفلت) أى تركت (عنها) أى عن الفرائض (فلا تعرف شيئا منها بفتوى من أصبح) أى صار (بعاجل) الباء بمعنى اللام ، أى لعاجل (حظه) أى نصيبه من الدنيا (مشغوفا) أى دخل الحب شغاف قلبه : أى غلافه وهو جلدة دونه كالحجاب ، وهذا كناية عن شدة حبه الدنيا (حتى صير المعروف) وهو ما قبله العقل وأقره الشرع ووافقه كرم الطبع (منكرا) وهو ماليس فيه رضا الله تعالى من قول أو فعل (و) صير (المنكر معروفا و) بفتوى (من أهمل العلوم) أى تركها (التى سماها الله فى كتابه نورا وحكمة وهدى وأقبل على ما) أى من علم الخصومة (به يكتسب الحرام و) ما (يكون مصيدة) بوزن معيشة : أى ما يصاد به (للحطام) أى متاع الدنيا الذى يصير آخره فانيا (أما تخاف أيها المسترشد) أى طالب الرشد والصواب (أن تكون مضيعا) أى مهلكا ، يقال ضاع الشىء ضياعا بفتح الضاد وكسرها : أى هلك ، والاضاعة والتضييع بمعنى ، كذا فى المختار (لشىء من هذه الواجبات) أى الفرائض المذكورات (بل لأكثرها وتشتغل بصلاة التطوع وصوم النفل فتكون فى لاشىء) بالجر لما يأتى آنفا ، وذلك لأنك قد ضيعت هذه الأمور (وربما أنت مصرّ) أى مقيم (على معصية) واحدة (من هذه المعاصى) وهى السخط والأمل والرياء والكبر وغيرها (التى تستوجب) أى تستحق (بها) بسببها (النار) أى دخولها (وتترك مباحا) وهو مالا يثاب

مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ نَوْمٍ تَبْتَغِي بِهِ قُرْبَةً إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَكُونُ فِي لَا شَيْءٍ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ أَنَّكَ تَكُونُ فِي أَسْرِ الْأَمَلِ وَالْأَمَلُ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ فَتَظُنُّهُ نِيَّةَ خَيْرٍ بِجَهْلِكَ بِالْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَتَقَارُبِهِمَا فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ،

على فعله ولا يعاقب على تركه (من طعام أو شراب أو نوم) حال كونك (تبتغى) أى تطلب (به) أى بترك المباح (قربة إلى الله عز وجل فتكون فى لاشىء) بالجر لأن الجار إذا دخل على لا خفض النكرة نحو: جئت بلا زاد وغضبت من لاشىء كما قاله الأشمونى، ولاملغاة معترضة بين الجار ومجروره، وعن الكوفيين أن لاحينئذ اسم بمعنى غير مجرور بالحرف وما بعده مجرور بالإضافة لا إليه كما أفاده الصبان، وشذ جئت بلا شىء بالفتح؛ والمعنى لانصيب لك لتضييعك الواجبات (وأشد من ذلك) أى المذكور من تضييع الواجبات وترك المباحات (كله أنك تكون فى أسر الأمل) أى حبسه (والأمل) أى إرادة الحياة والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها (معصية محضة) أى خالصة (فتظنه نية خير لجهلك بالفرق بينهما) أى بين الأمل ونية الخير (وتقاربهما فى بعض الوجوه) قال الأكثرون: والأمل إرادة الحياة للوقت المتراخى بالحكم، والنية المحمودة هى إرادة أخذ عمل مبتدأ به قبل سائر الأعمال بالحكم مع إرادة إتمامه بالتفويض والاستثناء كما يأتى فى باب الأمل. قال السيد مرتضى الزبيدى: وقد تلتبس النية بالأمنية فتحق والهمة والوسوسة فتشتبه. والنية ما كان يراد به وجه الله ويطلب به ماعنده، والأمنية ماتعلق بالخلق طلب منه عاجل الحظ من الملك الفانى؛ وقد تلتبس الارادة بالمحبة والحاجة بالشهوة. فالارادة أن يريد وقوع الأمر وقد لايحب كونه أو يريه أيضا وجود ضده. والمحبة ماقهر العقل وغلب الوجد وحل فى مجامع القلب وكره وجودغيره ولم يرد فقده. والحاجة مااضطررت إليه ولم يكن منه بد ولايستغنى عنه بغيره والشهوة مزيدة لذة واستدعاء فضل فاقة واجتلاب تقدم عادة، وقد يختلط الذكر بالقلب بالفكر فى معانى القرب. فالذكر ما أظهرالمنسى وكشف الغى وأذكر الشىء؛ والفكر ما صور الأمر وأظهر الخبر، وقد يلتبس الرجاء بالمحبة والهوى بالنية، فالرجاء: ما طمعت فيه بسبب ما أو لسبب ما، والمحبة ما تطعمت ذوقه ووجدته بغير سبب تستخرجه، وقد يلتبس ذل القلب بضعفه وقوته للطمع فى الخلق بذل النفس لمشاهدة غيرة الحق سبحانه، وقد يتداخل ذل الطمع لدناءة الهمة والنفس بذل العقل للاعتراف بالحق وخضوع العلم له، وقد يلتبس ذل النفس لغلبة الهوى وقهره للعقل بذل القلب لسرعة الانقياد للعالم المحق، وقد تختلط عزة القلب بعقله بدوام النظر إليه وعزة العقل بعلمه الذى كثر عنده، وقد تلتبس عزة النفس بوصفها المتسلط بعزة الإيمان المعزز بغيبته اليقين، فهذه فروق ظاهرة للعارفين وخروق متسعة توهت العاقلين، وقد تلتبس العبادة بالعادة مثل أن تكون للعبد نية فى علم أو عمل أو صدقة أو نفقة الشهر أو السنة ثم تعزب نيته فيبقى على عادته يرث حال الذى قد عرف به لا يحب أن يخرج من عرف الناس له فيستعمل لاستقامة الحال على

وَكَذٰلِكَ تَكُونُ فِى جَزَعٍ وَسُخْطٍ فَتَظُنُّهُ تَضَرُّعًا وَابْتِهَالاً إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَكُونُ فِى رِيَاءٍ مَحْضٍ وَتَحْسِبُهُ حَمْدًا لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْ دَعْوَةً لِلنَّاسِ إِلَى خَيْرٍ فَتَأْخُذُ تَعُدُّ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ المَعَاصِىَ بِالطَّاعَاتِ ، وَتَحْتَسِبُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ فِى مَوَاضِعِ الْعُقُوبَاتِ فَتَكُونُ فِى غُرُورٍ عَظِيمٍ وَغَفْلَةٍ قَبِيحَةٍ ، فَهٰذِهِ وَاللهِ مُصِيبَةٌ فَظِيعَةٌ لِلْعَامِلِينَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ

التكلف لتلك الأعمال فتذهب النية وتبقى العادة فيخرج به من إرادة الآخرة والسعى لها ويدخل فى إرادة الدنيا بالشهوات على جريان العادة بها ، وقد تلتبس طرقات الدنيا من طلب الرياسة لوجود الهوى بطرقات الآخرة فى معنى العلوم والأعمال، فما طلب من علوم السلف وأريد به تأديب النفس ويعلم به الزهد فى الدنيا فهذه طرقات الآخرة ، وما كان على ضده فهو طرقات الدنيا إذ هى ضدها، وقد يلتبس إظهار الأعمال وكشف ما كتم من الأحوال لأجل التأديب به والاتباع عليه أو لاظهار قدرة الله عز وجل وآياته لمزيد السامع من المعرفة به يفعل مثل ذلك للتزين والفخر أو للمدعى به وطلب الذكر .

وسئل أبو سليمان الدارانى عن الرجل يخبر بالشىء عن نفسه فقال : إذا كان إماما يقتدى به فنعم ، وقال مرة هو أو غيره يختلف ذلك على قدر الارادة به إن أراد التأديب للنفس حسن ذلك فهذا يلتبس بمداخلة النفس أو بغنائها بغيوبة شاهد اليقين للرب عز وجل (وكذلك) أى مثل كونك فى أسر الأمل فتظنه نية الخير (تكون فى جزع) محركة ضد الصبر (وسخط) بفتحتين ضد الرضا (فتظنه) أى المذكور من الجزع والسخط (تضرعا وابتهالا) عطف تفسير كما يعلم من صنيع المختار : أى إخلاصا فى الدعاء (إلى الله عز وجل.و) التحقيق أنك (تكون فى رياء محض) أو سمعة محضة (وتحسبه) أى تظن الرياء أو السمعة الخالصين (حمدا) وثناء (لله سبحانه وتعالى) وذلك لجهلك بآفات الأعمال (أو) تحسبه (دعوة للناس إلى خير فتأخذ) أى فتشرع (تعد على الله سبحانه المعاصى بالطاعات) الباء زائدة ، بأن تقول يا رب عملت كذا وكذا (وتحتسب الثواب العظيم فى مواضع العقوبات فتكون فى غرور عظيم) أى ضرر عظيم وخدع بما يغتر به ظاهره حسن ومآله قبيح ، وأصل الغرور : الغفلة وسكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع ، كذا قاله العلامة الزبيدى (وغفلة قبيحة) والغفلة عبارة عن فقد الشعور بما حقه أن يشعر به أو هى الذهول عن الشىء . وقال بعضهم : هى سهو يعترى عن قلة التحفظ والتيقظ ، وقيل بل هى متابعة النفس على ما تشتهيه . وأما القبح : فهو ضد الحسن كما فى المختار (فهذه) أى الحالة التى تكون عليها من الغرور والغفلة (والله) العظيم (مصيبة فظيعة) أى شديدة شنيعة كما فى المختار (للعاملين) أى الذين يعملون أعمالا (من غير علم) أو بصيرة، فإن منشأ هذا

الغرور الجهل بآفات الأعمال ومهلكاتها، ويكفى فى ذم الغرور قوله تعالى « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » وقوله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

والمغترون على أربعة أصناف كل صنف منها فروق كثيرة . وقد أشبع القول فيها مصنفنا أبو حامد الغزالى فى الإحياء ، وأذكر هنا قدرا يسيرا منه ملخصا للاختصار .

[الصنف الأول] أهل العلم والمغترون منهم فرق : ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى وإلزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان ومنزلة وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل فى الخلق شفاعتهم وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون ، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان : علم معاملة ، وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة .

فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهى علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. والفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور إذ قال تعالى « قد أفلح من زكاها » ولم يقل أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس ، وعند هذا يقول له الشيطان لا يغرنّ هذا فإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم ، فإن كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل ، وإن كان كيسا فطنا حاذقا فيقول للشيطان أتذكرنى فضائل العلم وتنسينى ما ورد فى العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه ، كقوله تعالى: « فمثله كمثل الكلب » وكقوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » فأى خزى أعظم من التمثيل بالكلب والحمار : أى وهما من أخس خلق الله تعالى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا » إلى غير ذلك من الأخبار التى وردت فى الصفات المذمومة ؛ فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الأصل إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

[الصنف الثانى] أرباب العبادة والعمل ، والمغرورون منهم فرق كثيرة : فمنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدّر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان

أشبه بسيرة الصحابة ، إذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام كما هو معروف من سيرته . وفرقة أخرى غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم . وفرقة أخرى تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاج فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته لايهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن الذى هو المقصود بالذات وعن الاتعاظ به وعن صرف الفهم إلى أسراره ، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام والمحاورة ، ولهذا لم ينقل عن أحد من السلف هذا التشدد . وفرقة أخرى جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم لا تنفك عن خيالهم مع تمنيهم أن يكونوا بها فيعدّون لذلك الأيام عدا ملتفتة إلى قول من يعرفه ان فلانا مجاور بمكة أو بالمدينة ، وتراه يتحدث مع الناس ويقول : قد جاورت بمكة أو بالمدينة كذا وكذا سنة وحضرت كذا وكذا موسما ولقيت بها فلانا وفلانا وإذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدث وأحب فى باطنه أن يعرفه الناس بذلك وهوغرور ، ثم إنه يجاور بهما ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس من الصدقات التى تفرق هناك ، فإذا جمع من ذلك شيئا شح عليه وأمسكه بخلا ولم تسمح نفسه بلقمة واحدة يتصدق بها على فقراء أهله فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان هو عنها بمعزل لو ترك المجاورة ، ولكن حب المحمدة والثناء وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل والخبائث فهو أيضا مغرور ، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات ظاهرة وباطنة ، فمنْ لم يعرف مداخل آفاتها ، واعتمد عليها فهو مغرور .

[الصنف الثالث] المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم . والمغترون منهم فرق كثيرة ، ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمهُ الله ادعوا علم المعرفة ومشاهدة الحق من عين القلب ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول إلى القرب ولا يعرف واحد منهم هذه الأمور إلا بالأسامى والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء والاحتقار فضلا عن العوام ، فانهم عنده كالأنعام، حتى إن الفلاح يترك فلاحته ، أى حراثة الأرض والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم الكلمات المزيفة فهو يرددها كأنه

يتكلم بها عن الوحى السماوى وعن سر الأسرار المكتوبة ، ويستحقر فى ذلك مطلقا لسانه فى جميع العباد والعلماء الذين هم من خواص عباد الله فيقول فى العباد إنهم متعبون ويقول فى العلماء إنهم بالحديث والقال والقيل عن الله محجوبون ، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه عنده من المقربين فى حضرته ، وهو فى الحقيقة عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين المغرورين لم يحكم قط علما : أى لم يتقنه، ولم يهذب قلبا بالمجاهدة ، ولم يرتب عملا يكون به واصلا ، ولم يراقب قلبا بالذكر سوى اتباع الهوى والشهوات وتلقف الهذيان وحفظه فما أشد غرور هذا . وفرقة أخرى اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خداعها علما وحرفة ، فهم فى جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام فى آفاتها فيقولون هذا فى النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب والالتفات إلى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات سلسة تضيع الأوقات فى تلفيقها ، ومن جعل طول عمره فى التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه ولا يعد من السالكين .

[الصنف الرابع] أرباب الأموال ، والمغترون منهم فرق : ففرقة منهم ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ويكرهون التصدق فى السر ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا ، وربما يحرصون على إنفاق المال فى الحج فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا ، ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهون عليهم السفر ، أى لما يتعودونه ويبسط لهم فى الرزق أو يكثر دخلهم بالتجارات وغيرها ويرجعون محرومين عن الأجر مسلوبين عن الثواب يهوى بأحدهم بعيره بين القفار والرمال وجاره مأسور أى مربوط إلى جنبه لا يواسيه ولا يسأل عنه . وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه باخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، فغرور هؤلاء فى ترك الأهم الأنفع . وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة لا يفارقونها ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا من الله تعالى وهم مغرورون ، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير فإن لم يهيج الرغبة فيه فلا خير فيه ، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل. فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها ، وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له ، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول يارب

ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ لِلْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ

سلم سلم ، أويقول نعوذ بالله أو سبحان الله أو نحو ذلك ، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور؛ فهذا وأمثاله من الغرور لا يحصى ، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور ليقاس عليه ما لم أذكره . فان قلت : فبم ينجو العبد من الغرور ؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة . أما العقل فالمراد به الفطرة الغريزية التى فطر عليها الإنسان والنور الأصلى الذى به يدرك حقائق الأشياء ، فالفطنة والكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة ، والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور ، فصفاء العقل وذكاء الفهم لابد منه فى أصل الفطرة ، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان من الأصل فاكتسابه غير ممكن ، نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة ، فأصل السعادات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبارك الذى قسم العقل بين عباده أشتاتا إن الرجلين ليستوى عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب أحد » أى الجبل المشهور « وما قسم الله لخلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين » .

وأما المعرفة: فالمراد بها أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة ، فيعرف نفسه بالعبودية والذل والافتقار ، ويعرف ربه بالسيادة والعظمة والاقتدار ، ويعرف أيضاً بكونه غريباً فى هذا العالم مسافرا منه إلى دار الآخرة وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط ؛ ولا يتصور أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما فى كتاب المحبة وفى كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكر والشكر من كتب إحياء علوم الدين ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ، ويحصل به التنبيه على الجملة ، ويعرف الدنيا والآخرة بما فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت من ذلك ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة ، فاذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه من معرفة الله تعالى حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه فى الآخرة ؛ وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها ، فإن كان أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منها الاستعانة على سلوك طريق الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى جانب الدنيا والجاه والمال والتطلع إليها فإن ذلك هو المفسد للنية .

وأما العلم : فالمراد به العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله والعلم بما يقربه من الله وبما يبعد عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله وجميع ذلك مما أكثره مسطور فى هذا الكتاب والله سبحانه وتعالى أعلم . قال رحمه الله تعالى (ثم مع ذلك) أى الغرور والـ... أى بعد بيانهما كما قرره بعضهم (كله ، فإن) أى فاعلم أن (للأعمال الظاهرة) كالصلاة والصوم

عَلاَئِقَ مِنَ المَسَاعِي الْبَاطِنَةِ تُصْلِحُهَا وَتُفْسِدُهَا : كَالْإِخْلاَصِ وَالرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ وَذِكْرِ الْمِنَّةِ وَغَيْرِهِ ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هٰذِهِ المَسَاعِي الْبَاطِنَةَ وَوُجُوهَ تَأْثِيرِهَا فِى الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَكَيْفِيَّةَ الاحْتِرَاسِ مِنْهَا وَحِفْظَ الْعَمَلِ عَنْهَا ، فَقَلَّمَا يَسْلَمُ لَهُ عَمَلُ الظَّاهِرِ أَيْضاً فَتَفُوتُهُ طاعَاتُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَلاَ يَبْقَى بِيَدِهِ إِلاَّ الشَّقَاءُ وَالْكَدَرُ وَهٰذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ وَلِهٰذَا قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلم فى صِفَةِ الْعِلْمِ : « إِنَّ نَوْمًا عَلَى عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاَةٍ عَلَى جَهْلٍ ، فَإِنَّ الْعامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ » . وَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فِى الْعِلْمِ « إِنَّهُ يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ

(علائق) جمع علاقة كسحابة : ما يتعلق بالمرء من صناعة وغيرها ومايتبلغ به من عيش ومن المهر مايتعلقون به على الزوج كما ذكره فى القاموس. والمراد هنا مايتعلق بالأعمال الظاهرة (من المساعى) أى الأعمال (الباطنة تصلحها) بضم التاء من أصلح : أى تصلح العلائق تلك الأعمال الظاهرة (وتفسدها) وذلك (كالإخلاص والرياء والعجب وذكر المنة وغيره) أى المذكور من الأمور الأربعة وسيأتى بيانها فى بابها (فمن لم يعرف هذه المساعى الباطنة و) لم يعرف (وجوه تأثيرها فى العبادات الظاهرة و)لم يعرف أيضا (كيفية الاحتراس) أى الحفظ (منها و) كيفية (حفظ العمل عنها) أى عن المساعى الباطنة (فقلما) أى قل جدا ، وما زائدة للتأكيد (يسلم له) أى العبد (عمل الظاهر أيضا) أى كالعمل الباطن (فتفوته طاعات الظاهر والباطن ولا يبقى بيده إلا الشقاء) بالفتح ضد السعادة كما فى المختار (والكدر) بالفتح : أى الشدة فى العمل كذا فى المختار (هذا) أى فوت الطاعات بقسميها وبقاء الشقاء والتعب فى العمل(هو الخسران المبين) لأنه أتعب نفسه فى عمل يرجو به فضلا فنال هلاكا (ولهذا) أى لقلة سلامة الأعمال عن الآفات إلا بمعرفتها وعلمها (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة العلم) أى وصفه ببيان فضيلته (إن نوما على علم) أى مع علم (خير من صلاة على جهل) أى معه لأن تركها خير من فعلها مع الجهل فقد يظن المبطل مصحا والممنوع جائزا كما قاله العزيزى ، رواه أبونعيم فى الحلية بإسناد ضعيف وذكره الجلال السيوطى فى اللباب بلفظ « نوم العالم أفضل من عبادة الجاهل » : أى نوم العالم الذى يراعى آداب العلم أفضل من عبادة الجاهل الذى لم يعلم آداب العبادة، وعلله المصنف رحمه الله بقوله (فإن العامل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح) أى يصلحه كما قال ضرار بن الأزور الصحابى: من عبد الله بجهل كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، وكما قال واثلة بن الأسقع : المتعبد بغير فقه كحمار الطاحون ، كذا فى شرح اللباب (وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العلم) هو إمام والعمل تابعه (إنه يلهمه) بضم الياء مع فتح الهاء : أى ألهم بالعلم (السعداء) أى من سبقت

وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاء » وَالْمَعنَى وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنَّ إِحْدَى شِقْوَتَيْهِ أَنْ لاَ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ ثُمَّ يَشْقَى وَيَتْعَبُ فِى الْعِبَادَةِ عَلَى خَبْطٍ فَمَا يَكُونُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلاَّ الْعَنَاء ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ لاَ يَنْفَعُ ، وَلِهٰذَا عَظُمَتْ عِنَايَةُ الْعُلَمَاءِ الزُّهَادِ الْعَامِلِينَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ

لهم السعادة الأزلية (ويحرمه) بضم الياء مع فتح الراء : أى يمنع منه (الأشقياء) أى من سبقت له الشقاوة الأزلية يعنى ليس لهم نصيب منه ، هكذا رواه أبو نعيم فى الحلية وأبو طالب المكى فى القوت والخطيب وابن القيم وغيرهم موقوفا ، ورواه أبو نعيم فى المعجم وابن عبد البر مرفوعا . وقال فى آخره : وهو حديث حسن ، ولكن ليس له إسناد قوى ، كذا فى شرح الإحياء (والمعنى) أى معنى الحديث (والعلم عند الله سبحانه) هذه جملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، أتى رحمه الله بهذه الجملة تبركا وتبريا من علمه إلى علم الله تعالى : أى علمه محيط بكل شىء ، وهذا نظير ما يقول المفتى فى آخر جوابه والله أعلم ، فيكل علمه إلى علم الله تعالى ويتبرأ من أن يقول فى دين الله ما ليس مطابقا لما هو فى نفس الأمر (إن إحدى شقوتيه) أى إحدى شقوتى العامل بغير علم (أن لا يتعلم العلم ثم يشقى ويتعب) بفتح العين (فى العبادة على خبط) أى فساد ، وهذه إحداها ، والشقوة الأخرى الكفر كما فى [سراج السالكين] (فما يكون له) أى ليس للعامل (من ذلك) العمل والتعب فيه (إلا العناء) بالفتح : أى التعب والمشقة بلا نفع ولا فائدة (والعياذ بالله من علم وعمل) أى كل منهما (لا ينفع) وعدم نفع العلم إما لأنه لا يصحبه العمل أو لم يؤذن فى تعلمه شرعا أو لا يهذب الأخلاق كما قاله بعضهم وعدم نفع العمل إما الرياء أو فقد إخلاص لكون صاحبه مغضوبا عليه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كثيرا فى الدعاء تعليما لأمته « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يسمع » . وفى رواية « لا يستجاب » رواه أحمد بن حنبل وابن حبان والحاكم عن أنس لكن بإسقاط « وقلب لا يخشع » (ولهذا) أى لأجل أن العمل بغير علم لا يفيد إلا العناء والتعب (عظمت عناية العلماء) أى اهتمامهم ، والعلماء : جمع عالم ، وهو العارف بالأحكام الشرعية التى عليها مدار صحة الدين اعتقادية كانت أو عملية ، والمراد بهم السلف الصالح ومن تبعهم باحسان (الزهاد) جمع زاهد وسبق معنى الزهد أول الكتاب (العاملين) بعلومهم ، وهذا كالتأكيد لقوله العلماء ، لأنه لا يقال له عالم حقيقة إلا إذا كان عاملا بعلمه . قال بعضهم :

العلم زين بالعمل لا بالتباهى والأمل فمن أتى فى وصفه بالقول والفعل كمل
ومن نأى عن فعله فهو حمار أو جمل يحمل أسفارا فلا يدرى لمعنى ما حمل

(رضى الله عنهم) أى حفظهم من سخطه ، إذ الرضا والرضوان ضد السخط كما قاله العلامة

بِالْعِلْمِ خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ ، فَإِنَّ مَدَارَ أَمْرِ الْعُبُودِيَّةِ وَمِلَاكَ الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْعِلْمِ ، وَهٰكَذَا يَكُونُ نَظَرُ أُولِي الْأَبصارِ وَأَهْلِ التَّأْيِيدِ وَالتَّوْفِيقِ ؛ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ بِهٰذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ الطَّاعَةَ تَحْصُلُ لِلْعَبْدِ وَلَا تَسْلَمُ لَهُ إِلَّا بِالْعِلْمِ فَيَلْزَمُ إِذًا تَقْدِيمُهُ فِي شَأْنِ الْعِبَادَةِ .

٦ (وَأَمَّا الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ) الَّتِي تُوجِبُ تَقْدِيمَ الْعِلْمِ : فَهِيَ أَنَّ الْعِلْمَ النَّافِعَ

ابن المدابغى فى حواشى الأربعين (بالعلم) متعلق بالعناية : أى بتحصيله قبل العمل (خاصة) أى خصوصا وانفرادا (من بين سائر الناس) أى عوامهم (فان مدارأمر العبودية وملاك العبادة) وسبق أول الكتاب معنى العبودية والعبادة مع الفرق بين أربابهما ، والملاك : مابه إحكام الشيء وتقويته ، وأهل اللغة يكسرون الميم ويفتحونها (والخدمة) أى الطاعة (لله رب العالمين) أى مالكهم ومصلحهم (على العلم) خبر إن: أى معه (وهكذا) أى العناية (يكون نظر أولى الأبصار) والبصائر (و) نظر (أهل التأييد والتوفيق) من الله تعالى (فاذا تبين لك بهذه الجملة) التى ذكرناها (أن الطاعة لاتحصل للعبد) يقينا (ولاتسلم له) قطعا (إلا بالعلم فيلزم إذا) أى حين إذ كانت الطاعة لاتحصل ولا تسلم إلا بالعلم (تقديمه) أى العلم على غيره (فى شأن العبادة) أى فى أمرها .

﴿ وأما الخصلة الثانية ﴾ من الأمرين السابقين (التى توجب تقديم العلم) أى على العبادة (فهى أن العلم النافع) هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه فهذا هو العلم الذى يبسط فى الصدر شعاعه فيتسع ، وينشرح للاسلام وينكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام ، وفى حكمة داود عليه الصلاة والسلام : العلم فى الصدر كالمصباح فى البيت : وقال محمد بن على الترمذى رضى الله عنه : العلم النافع هو الذى قد تمكن فى الصدور وتصور ؛ وذلك أن النور إذا أشرق فى الصدور تصورت الأمور حسنها وسيئها ، ووقع بذلك ظل فى الصدور فهو صورة الأمور ، فيأتى حسنها ويجتنب سيئها ، فذلك العلم النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم إلى الصدور وهى علامات الهوى ؛ والعلم الذى قد تعلمه فذلك علم اللسان إنما هو شىء قد استودع الحفظ والشهوة غالبة عليه قد أحاطت به وأذهب بظلمتها ضوءه . وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : والعلم النافع هو علم الوقت ، وصفاء القلب ، والزهد فى الدنيا وما يقرب من الجنة وما يبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها ، وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء دون علم اللسان المنقول والمعقول . وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله تعالى فى القلوب اه .

وإنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه ، ويبعده عن رؤية نفسه ، وذلك غاية سعادته ،

يُثْمِرُ خَشْيَةَ اللهِ تَعَالَى وَمَهَابَتَهُ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَمْ يَهَبْهُ حَقَّ مَهَابَتِهِ وَلَمْ يُعَظِّمْهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ وَحُرْمَتِهِ ، فَبِالْعِلْمِ يَعْرِفُهُ وَيُعَظِّمُهُ وَيَهَابُهُ ، فَصارَ الْعِلْمُ يُثْمِرُ الطَّاعَاتِ كُلَّهَا وَيَحْجُزُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ كُلِّهَا بِتَوْفِيقِ اللهِ

ومنتهى طلبه وإرادته . قال الجنيد رضى الله عنه : العلم أن تعرف ربك ولا تعدو قدرك : أى هو معرفة الله وحسن الأدب بين يديه ،وهذه هى العلوم التى ينبغى للانسان أن يستغرق فيها عمره الطويل ، ولا يقنع منها كثير ولا قليل . وقد قال الشاذلى رحمه الله : من لايتغلغل فى هذه العلوم يعنى علوم الصوفية مات مصرا على الكبائر وهو لايعلم ، وخير العلوم مايلزم وجود الخشية لله تعالى كما أشار إليه المصنف بقوله (يثمر) أى أن العلم النافع يثمر (خشية الله تعالى ومهابته) أى مخافته ، فكل علم لاخشية معه فلا خير فيه ، بل لايسمى صاحبه عالما على الحقيقة . قال الربيع ابن أنس رحمه الله : من لم يخش الله فليس بعالم ، ألا ترى أن داود عليه السلام قال ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك ، والحكمة الايمان بك فما علم من لايخشاك ، وما حكمة من لم يؤمن بك . قال فى لطائف المنن : فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية لله تعالى ، وشاهد الخشية موافقة الأمر . (قال الله تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء) فبين أن الخشية تلازم العلم ، وفهم من هذا أن العلماء هم أهل الخشية ، وكذلك قوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم » . وقوله « والراسخون فى العلم » . وقوله « وقل رب زدنى علما » . وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» . وقوله عليه الصلاة والسلام «العلماء ورثة الأنبياء» إنما المراد بالعلم فى هذه المواطن العلم النافع القاهر للهوى ، القامع للنفس وذلك يتعين بالضرورة ، لأن كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أجل من أن يحمل على غير هذا ، كذا قاله ابن عباد الرندى (وذلك) أى بيان إثمار العلم للخشية (أن من لم يعرفه) سبحانه وتعالى (حق معرفته لم يهبه) أى لم يخفه (حق مهابته ولم يعظمه) سبحانه (حق تعظيمه وحرمته، فبالعلم يعرفه) تعالى (ويعظمه ويهابه فصار العلم يثمر الطاعات كلها ويحجز) أى يمنع (عن المعصية كلها بتوفيق الله) هذا هو العالم النافع . وأما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا ، والتملق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها ، والجمع والادخار ، والمباهاة والاستكبار ، وطول الأمل ، ونسيان الآخرة ، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون ورثة الأنبياء ، وهل ينقل الشىء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه ، ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء مثل الشمعة تضىء على غيرها وهى تحرق نفسها ، جعل الله العلم علمه من هذا وصفه حجة عليه وسببا فى تكثير العقوبة لديه . وكان سهل بن عبد الله رحمه الله يقول . لاتقطعوا أمرا من أمور الدنيا والدين إلا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله تعالى . قيل ياأبا محمد : من العلماء ؟ قال الذين

وَلَيْسَ وَرَاءَ هٰذَيْنِ مَقْصِدٌ لِلْعَبْدِ فِى عِبادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ، فَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ أَرْشَدَكَ اللهُ يَاسالِكَ طَرِيقِ الآخِرَةِ أَوَّلَ كُلِّ شَىْءٍ، وَاللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَلَعَلَّكَ أَنْ تَقُولَ قَدْ وَرَدَ الْخَبَرُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

يؤثرون الآخرة على الدنيا ، ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصيته : وشاور فى أمرك الذين يخشون الله تعالى . وقال الواسطى رحمه الله : أرحم الناس العلماء لخشيتهم من الله تعالى ، وإشفاقهم مما علمهم الله عز وجل ، ولذلك قال بعض العارفين: العلم إن قارنته الخشية فلك منفعته فى الدنيا والآخرة وإلا فعليك مضرته فيهما ، وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا من حيث إن علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والعزة ، وقد بين علماؤنا رضى الله عنهم حال الفريقين وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات ، وأطالوا فى ذلك لما شاهدوا من انتشار الفساد فى الأرض بسبب جهل الناس بالعلم النافع أى شىء ؟ فمن أراد الشفاء فى ذلك واستيفاء الكلام عليه وما فى ذلك من الأخبار والآثار ، فعليه بالنظر فى كتاب العلم من كتاب [إحياء علوم الدين] لمصنفنا أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى رحمة واسعة (وليس وراء هذين) أى فعل الطاعات واجتناب المعصية (مقصد للعبد فى عبادة الله سبحانه وتعالى ، فعليك) أى الزم (بالعلم) أى بطلبه وتحصيله (أرشدك الله) جملة دعائية (يا سالك طريق الآخرة أول كل شىء) أى قبل كل عمل مطلوب شرعا (والله ولى التوفيق) والهداية (بفضله ورحمته، ولعلك أن تقول قد ورد الخبر عن) سيدنا محمد (صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : طلب العلم فريضة) بمعنى مفروضة خبر عن قوله طلب ، والتاء لتأكيد المبالغة لا للتأنيث كهى فى علامة ، فلا يقال إن الخبر لم يطابق المبتدأ فى التذكير (على كل مسلم) أى على كل فرد من أفراد المسلمين المكلفين كما يفيده التعبير بكل الدالة على الاستغراق ، ثم هذا لا يظهر معه التعميم السابق إلا إن جرينا على طريقة الجمهور ، ووافقهم السبكى من أن فرض الكفاية واجب على جميع المكلفين كفرض العين ، وإلا لما أثم الجميع بتركه ، وإنما سقط بفعل البعض تخفيفا . وأما إن جرينا على طريقة ابن السبكى من أن فرض الكفاية واجب على البعض ، وأن الواجب على الكل إنما فرض العين ، فلا يظهر ما ذكر ، بل يخص العلم بما وجب عينا لا غير ، وقوله : كل مسلم ليس قيدا فمثله الأنثى والخنثى ، لكن لما كان الغالب أن الرجال هم المتصدون لطلب العلم خصهم ، ونظير ذلك فى الأحاديث كثير كقوله صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » إلى غير ذلك من الأحاديث. إذا علمت هذا علمت أنه لا حاجة إلى زيادة مسلمة كما صنعه بعضهم مع أن هذه الزيادة ليست فى طريق من طرق الحديث كما قاله المحلى وغيره ، وهذا الحديث رواه ابن ماجه وابن عدى والبيهقى

فَمَا الْعِلْمُ الَّذِى طَلَبُهُ فَرْضٌ لاَزِمٌ وَمَا الْحَدُّ الَّذِى لاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ تَحْصِيلِهِ فِى أَمْرِ الْعِبَادَةِ؟. فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِى طَلَبُهَا فَرْضٌ فِى الْجُمْلَةِ ثَلاَثَةٌ : عِلْمُ التَّوْحِيدِ ، وَعِلْمُ السِّرِّ أَعْنِى بِهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ وَمَسَاعِيهِ ، وَعِلْمُ الشَّرِيعَةِ .

وابن عبدالبر عن أنس بن مالك ، ورواه الطبرانى فى الصغير والخطيب عن الحسين بن على ، ورواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس وتمام فى فوائده عن ابن عمر بن الخطاب ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود ، ورواه الخطيب عن على ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى عن أبى سعيد ، وأسانيده كلها ضعيفة لكن تقوى بكثره طرقه ، كذا فى سراج السالكين (فما العلم الذى طلبه فرض لازم وما الحد الذى لابد للعبد من تحصيله) أى العلم (فى أمر العبادة ؟ فاعلم) أرشدك الله تعالى (أن العلوم التى طلبها فرض فى الجملة) أى فى جميع الخلق (ثلاثة) : أحدها (علم التوحيد). والتوحيد مصدر وحد : إذا أوقع نسبة الواحد إلى موضوعه، فنى شرح الكبرى للسنوسى نقلا عن ابن التلمسانى : التوحيد اعتقاد الوحدة لله تعالى والإقرار بها . وقال بعض المحققين : حقيقته إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات ، فليس كذاته ذات ولا كصفاته صفة . وقال ذو النون : حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا علاج ، وصنعه بلا مزاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة بصنعه . وقال بعضهم : من ترك أربعا كمل توحيده ، وهى وكيف ومتى وأين كم . فالأول سؤال عن الكيفية ، وجوابه « ليس كمثله شىء » . والثانى سؤال عن الزمان ، وجوابه ليس يتقيد بزمان . والثالث سؤال عن المكان وجوابه ليس يتقيد بمكان . والرابع سؤال عن العدد ، وجوابه وهو الواحد الأحد ، كذا قاله الزبيدى . (و) ثانيها (علم السر : أعنى به مايتعلق بالقلب ومساعيه) أى أعماله كالإخلاص والتوكل وغيرهما . (و) ثالثها (علم الشريعة) وهذا الذى ذكره هو المختار من اختلاف طويل فى تفسير هذا الحديث ، وفهم معناه على أقوال شتى . وقال ابن عبد البر فى كتابه [بيان العلم] للفظ العلم إطلاقات متباينة ، ويترتب على ذلك اختلاف الحد والحكم كلفظ العالم والعلماء ، ومن هنا اختلفوا فى فهم هذا الحديث وتجاذب معناه اه .

ولنذكر تلك الأقوال بأحوالها بمجموعها على التفصيل الغالب فنقول :

اختلف العلماء فى فهم معنى هذا الحديث : فمن متكلم يحمله على علم الكلام ، فيحتج لذلك بأنه العلم المتقدم رتبة لأنه علم التوحيد الذى هو المبنى . والقائلون بهذا اختلفوا فى كيفية الطلب ، فمنهم من قال من طريق الاستدلال والاعتبار ، ومنهم من قال من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال من طريق التوفيق والأثر ، ومن فقيه يحمله على علم الفقه مطلقا . قال ابن عبد البر : وذلك هو المتبادر من إطلاق العلم فى علم الشرع ، وتندرج فيه ثلاثة أقوال : فمن قائل هو علم العبادات بشروطها وفرائضها وسننها . ومن قائل هو معرفة الحلال من الحرام ، واستدل عليه

بحديث ابن مسعود « طلب الحلال فريضة بعد فريضة » . وبحديث أنس « طلب الحلال واجب على كل مسلم » . وبحديث ابن عباس وابن عمر « طلب الحلال جهاد » . وروى « إن من الذنوب مالا يكفرها إلا الهم فى طلب الحلال » . وعند البيهقى فى السنن والديلمى فى مسند الفردوس « طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة » : أى لأن طلب كسب الحلال أصل الورع وأساس التقوى . وروى النووى فى بستانه عن خلف بن تميم قال : رأيت إبراهيم بن أدهم بالشام ، فقلت ما أقدمك ؟ قال لم أقدم لجهاد ولا لرباط ولكن لأشبع من خبز حلال ، وهذا قول عباد أهل الشام . وإليه مال يوسف بن أسباط وحبيب بن حرب ووهيب بن الورد وآخرون. ومن قائل هو علم المعاملات ، وهو قول أهل الكوفة كسفيان الثورى وأبى حنيفة وأتباعهما ، ومن مفسر يحمله على علم التفسير ، ومن محدث يحمله على علم الحديث ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها ، ومن نحوى يحمله على علم العربية ويقول : الشريعة إنما تتلقى من الكتاب والسنة . وقد قال تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » فلا بد من إتقان علم البيان : ذكره ابن عبد البر ، ومن طبيب يحمله على علم الطب الذى يعرف به الصحة والمرض . ويقول العلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ، وعلم الأبدان مقدم على علم الأديان ذكره بعضهم وفيه نظر ، وإيراده فى فروض الكفاية أشبه . ومن صوفى يقول هو علم التصوف خاصة ، وتندرج فى هذا القول خمسة أقوال : الأول هو علم حال العبد من مقامه وهو قول سهل التسترى . والثانى طلب علم المعرفة وقيام العبد بحكم ساعته ، وهو قول بعض العراقيين . والثالث هو طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس . وهو قول عبد الرحيم الأسود ومن تبعه من الشاميين ، نقله أبو طالب فى القوت والسهروردى فى عوارف المعارف . والرابع طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر ، وهو قول مالك بن دينار وفرقد السبخى وعبدالواحد بن زيد وأتباعهم نقله صاحب القوت والسهروردى . والخامس هو علم الباطن ، نقله صاحب القوت عن نساك البصرة . وقال السهروردى فى العوارف : هو ما يزداد به العبد يقينا وهو الذى يكتسب بصحبة الأولياء فهم وارثو المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهذه الأقوال الخمسة مندرجة فى علم التصوف . وأجود ماقيل قول القاضى : هو العلم الذى مالنا مندوحة عن تعلمه كمعرفة الصانع ونبوة رسله ؛ وكيفية الصلاة ونحوها فان تعلمه فرض عين . وقال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة : العلم الذى هو فرض عين لايسع مسلما جهله أنواع .

النوع الأول : علم أصول الإيمان الخمسة الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله اليوم الآخر ؛ فان من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل فى باب الايمان ولايستحق اسم المؤمن. قال الله تعالى « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » . وقال « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » . ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه

وسلم عن الايمان ؟ قال : تؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر وكتبه ورسله قال صدقت ، فالايمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها .

النوع الثانى : علم شرائع الاسلام، واللازم منها مايخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمسة التى اتفقت عليهاالرسل والشرائع والكتب الإلهية ،وهى المذكورة فى قوله تعالى « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » فهذه محرمات على كل أحد فى كل حال على لسان كل رسول لاتباح قط ، ولهذا أتى بانما المفيد للحصر مطلقا وغيرها محرم فى وقت مباح فى غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه ، فهذه ليست محرمة على الاطلاق والدوام فلم تدخل فى التحريم المحصور المطلق .

النوع الرابع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التى تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما . والواجب فى هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم ؛ فليس الواجب على الامام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرانه، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لايبيع ولا يشترى إلا ما تدعو الحاجة إليه ؛ وتفصيل هذه الجملة لاينضبط بحد لاختلاف الناس فى أسباب العلم الواجب ، وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول : اعتقاد ، وفعل ، وترك ، فالواجب فى الاعتقاد مطابقة للحق فى نفسه ، والواجب فى العمل معرفة موافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمرا وإباحة والواجب فى الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضاة الله تعالى وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستعمل فلا يتحرك فى طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين ، وقد دخل فى هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان اه وهو نفيس .

وفى منية السالكين وبغية العارفين : قد اختلف العلماء فى للعلم الذى هو فريضة ولا يسع الانسان جهله ، وكثرت أقاويلهم فى ذلك ، وأقربها إلى المقصودمن قال: هو علم الأوامر والنواهى، والمأمور مايثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمأمورات والمنهيات منها ماهو لازم مستمر للعبد بحكم الاسلام ، ومنها مايتوجه الأمر فيه والنهى عنه عند وجود الحادثة فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الاسلام علمه واجب من ضرورة الاسلام وما يتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهى عنه علمه عند تجدده فرض لايسع مسلما على الاطلاق أن يجهله ، وينحصر ذلك فى ثلاثة أنواع من العلوم : علم بالأوامر الشرعية ، وعلم بالنواهى الشرعية ، وعلم بالمباحات الدنيويةومدارك الحواس الضرورية والضرورة العقلية ، وتفصيل ذلك مستقصى فى كتب الفقه والأصول ولكن ننبهك بلمعة يسيرة تقف بالاشارات منها على مجمله وتفصيله .

أما علم الأوامر : فهوعلم الفرائض والسنن والفضائل . وأما علم النهى فهو علم الحلال والحرام

وَأَمَّا حَدُّ مَا يَجِبُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فَالَّذِي يَتَعَيَّنُ فَرْضُهُ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ مِقْدَارُ مَا تَعْرِفُ بِهِ أُصُولَ الدِّينِ ، وَهُوَ أَنَّ لَكَ إِلٰهًا عَالِمًا

والكراهة والتنزيه . وأما علم المباحات فهو العلم بالدنيا وأهلها وكيفية آداب المخالطة واكتساب المعيشة ، ولهذه الأقسام الثلاثة تعليم من طريق الشرع والسمع .

وأما مدارك الحواس والعلوم الضرورية فقد اشترك فيها الحيوان العاقل فلا يحتاج إلى اكتساب وإنما المراد هنا الكلام على الشرعية فقد عم العلم الظواهر كلها ، فلا يجوز لأحد أن يعمل عملا إلا يعلم بعلم الأمر الظاهر ، وهو موجود كله مضبوط فى كتب الفقه كالعلم بالاستنجاء فى الطهارة والصلاة وما يتعلق بها واختلاف أنواعها ، والزكاة وأنواعها ومصارفها ، وعلى من تجب ، والصوم والجهاد والحج وأنواعها ، وغير ذلك من الأحكام المأمور بها .

وأما علم النهى فالعلم بالمحرمات كلها على اختلاف أنواعها كالعلم بما يفسد الطهارة والصلاة والصوم والحج وغير ذلك ، وكالعلم بالأطعمة والأشربة المحرمة ، وأبواب الربا وغير ذلك وكالعلم بالمكروهات كلها ، وذلك كله موجود فى كتب الفقه . وأما علم المباح وأمور الدنيا فكالعلم بالصيد وآداب الأكل والشرب والجماع والمخالطة ومعرفة الدنيا وأسبابها ، وهذا كله موجود فى الكتب محررا ، فإذا أراد العبد أن لايتحرك بحركة إلا بالعلم وجد ذلك فى العلم لأن العلم واسع جدا ، مثال ذلك إذا أراد أن يسبح أو يمشى فى السوق فيقول : هل للسباحة والمشى فى السوق أصل فى العلم أم لا ؟ فيجده منصوصا عليه ، وكذا المزح واللعب وغير ذلك ، لكن مع سعة العلم قد ترك العمل به وأوثر العمل بالجهل ، فعليك بالعلم فى جميع الحركات والسكنات ، وهو العصمة فى مواطن المهلكات ، وليكن سبيلك فى العلوم اختيار أشرفها منزلة ، والميل إلى أنفعها ثمرة للدين والدنيا فتجعل نظرك فى نيل ذلك الفرع من العلم مما لابد لك منه ولا غنى لك عنه ، وتجعله مما ترضى أن ينسب إليك وتنسب إليه ، وتنزل غيرها من العلوم فى نفسك على قدر مراتبها ومواقع أقدارها من دينك ومنفعة نفسك فى دنياك وآخرتك ، الأوكد والأنفع فالأنفع ، وبالله التوفيق ؛ كذا ذكره المرتضى الزبيدى (وأما حد مايجب من كل واحد منها) أى من العلوم الثلاثة (فالذى يتعين فرضه) أى العلم الذى فرض عليك عينا (من علم التوحيد مقدار ماتعرف به أصول الدين) أى الإلهيات والنبوات والحشر والنشر كما نقله ابن المدابغى عن السعد (وهو) أن تعلم (أن لك إلها) أى معبودا بحق (عالما) بجميع الموجودات وعلمه محيط بجميع المعلومات على التفصيل فلا يعزب عن علمه الأزلى مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، صادقا فى قوله « وهو بكل شيء عليم » : ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، أوله وآخره ، وهذا من حيث الكشف على أتم ما يمكن فيه بحيث لايتصور مشاهدة وكشف أظهر منه ، ولا يكون مستفادا من المعلومات ، بل تكون المعلومات مستفادة منه .

قادرًا

قال المصنف أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى : للعبد حظ من وصف العلم ، ولكن يفارق علمه علم الله عز وجل فى خواص ثلاث : أحدها المعلومات فى كثرتها فان معلومات العبد وإن اتسعت فهى محصورة فى قلبه ، فأنى تناسب ما لا نهاية له ؟ والثانية إن كشفت أوانى العلم فلا يبين الغاية التي لاممكن وراءها ، بل يكون مشاهدته الأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق ولا تنكر درجات الكشف فإن البصيرة الباطنة كالبصر الظاهر ، وفرق بين مايتضح وقت الإسفار وبين ماينضح أول ضحوة النهار . والثالثة أن علم الله تعالى بالأشياء غير مستفاد من الأشياء بل الأشياء مستفادة ، وعلم العبد بالأشياء تابع الأشياء وحاصل بها ، وشرف العبد من سبب العلم من حيث إنه من صفات الله تعالى ، ولكن العلم الأشرف مامعلومه أشرف ، وأشرف المعلومات هو الله تعالى ولذلك كانت معرفته أفضل المعارف ، بل معرفة سائر الأشياء إنما تشرف لأنها معرفة لأفعال الله تعالى أو معرفة للطريق الذى يقرب العبد من الله تعالى فلا نظر إذا إلا فى الله تعالى اه .

وأما المحدث فيستدل بقوله تعالى « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة » وبحديث الاستخارة ، وفيه « فانك تعلم ولا أعلم » . وأما الصوفى فيقول العلم حقيقته من كانت الأشياء حاضرة لديه ، وليس من تكون الأشياء حاضرة لديه إلا من أفادها الشيئية ولا مفيد الأشياء شيئية إلا الله تعالى إذ هو المفيد لكل حقيقة عين تلك الحقيقة حتى المحال إن كانت له حقيقة عقلية أو وهمية فهو المفيد لها وهو المجلى لها فى الأذهان ، وبالضرورة من أجلى الحقائق لعبده فكيف لاتكون منجلية له ، بل لم تنجل بالتحقيق إلا له إذا ليس لغيره على التحقيق إحاطة بشىء والله أعلم (قادرا) أى ذا قدرة ، وهى عبارة عن المعنى الذى به يوجد الشيء مقدرا بتقدير الارادة والعلم واقعا على وفقهما ، فالقادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، وليس من شرطه أن يشاء لامحالة ، فان الله تعالى قادر علي إقامة القيامة الآن ، فانه لوشاء أقامها وإن كان لايقيمها ، فإنه لم يشأها ، ولا يشاؤها لما جرى فى سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها وذلك لايقدح فى القدرة والقادر المطلق هو الذي يخترع كل موجود اختراعا ينفرد به ويستغنى فيه عن معاونة غيره هو الله سبحانه وتعالى كذا قاله المرتضى نقلا عن قول المصنف أبى حامد الغزالى فى المقصد الأسنى . قال أبو منصور التميمى . قد وردت السنة بذكر القادر والمقتدر فى أسما الله تعالى ، وجاء القرآن بهذين الاسمين وبالقدير أيضا . والقدير أبلغ من القادر ، والمقتدر أبلغ من القادر ، وللقادر معنيان يكون بمعنى القدير من القدرة على كل شيء وذلك صفة لله تعالي وحده من دون غيره ، وإنما يوصف القادر منا بالقدرة على بعض المقدورات دون بعض . الوجه الثانى أن يكون بمنى المقدور ، يقال قدر بالتخفيف وقدر بالتشديد ، وجائز فى الكلام العربى أن يقال قدر واقتدر بمعنى واحد مثل جذب واجتذب . وفى كتاب محجة الحق لأبى الخير القزوينى مانصه : أما الأصل الأول فى معرفة

مُرِيداً

كون البارى تعالى عالما قادرا ، والدليل عليه صدور الأفعال المحكمة المتقنة عنه مثل خلق السموات والأرض وغيرها من الصنائع والبدائع فى عجائب التركيب ، ويدل ذلك قطعا على كون صانعها عالما بها قادرا عليها ، فان من يرى خطا منظوما أو ديباجا منسوجا ويجوز . أى يظن صدوره من جاهل به عاجز عنه يكون عن حيز العقل خارجا عنه وفى تيه الجهل والجا اه

قال السبكي فى شرح الحاجبية . اعلم أن القادر عند أهل السنة هو المتمكن من الفعل والترك بحسب الداعى الذى هو الارادة وإن شئت تقول . هو الذى إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتقول هو الفاعل على مقتضى العلم والارادة ، وأهل النظر العقلى من أهل السنة يقولون إن كل ماتتوقف دلالة السمع عليه لا يكفي فيه السمع ، فأقوى دليل لهم على أنه تعالى قادر بذلك التقدير أن يقال قد ثبت حدوث العالم كما مر ، فصانعه لولم يكن قادرا لزم تخلف المعلوم عن علته وهو محال . أما الملازمة فلأن صانع العالم قديم فلو لم يكن على ذلك التقدير قادرا فكان موجبا بالذات لزم التخلف المذكور ، وأيضا لو كان موجبا لزم من ارتفاع العالم ارتفاعه ، لأن ارتفاع الملزوم من لوازم ارتفاع اللازم ، لكن ارتفاع الواجب محال .

﴿ تنبيه ﴾ والمحدث يقول : قال الله تعالى « قل هو القادر ، وهو على كل شىء قدير » وأما الصوفى فيقول كيف لا يكون قادرا وهو قد أقدر العباد على طاعته وجعل ذلك صفة كمال فيهم وهو أولى بالكمال ، بل هومنفرد به فلا قادر فى التحقيق إلاهو ، إذ لافاعل إلا هو ، وأيضا فإنا إذا نظرنا فى أنفسنا واستقرينا من أحوالنا وجدنا ما يبدو فى ذواتنا من الأفعال على قسمين : منها ما يكون مصحوبا باعتبارنا كزيادة مقدار أجسامنا طولا وعرضا ، وما كان من هذا القبيل فهو يقف عند أمر خاص ولا يمر إلى غير نهاية ، فنسبة وقوفه عند ذلك الحد كنسبة وقوفنا فى المتحرك فيه ووقوفنا فيما يتحرك فيه فعل اختيارى ، ووقوف أجسامنا عند حدها فعل اختيارى وكل اختيارى لا يكون عن موجب ولا عن طبع وما لا يكون عن موجب ولاعن طبع فهو قادر ، فالفاعل لذواتنا قادر ، ولا يكون ذلك الفاعل إلا الله ، إذ ماسواه مثلنا ، والكلام فيه كالكلام فينا كذا أفاده العلامة الزبيدى (مريدا) لأفعاله جل وعز فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته ، فهو المبدىء المعيد ، والفعال لما يريد .

اعلم أن المريد لم يرد به السمع على هذه الصيغة وإنما ورد بصيغة الفعل ، ولكن إطلاق مريد مما ثبت بالإجماع ، وبالجملة فالمريد أو الذى يريد أو أراد هو الذى يخصص فعله بحالة دون حالة لصفة قائمة به اقتضت ذلك ، وتلك الصفة هى الإرادة وهى كما قال السنوسى : صفة أزلية تؤثر فى اختصاص أحد طرفى الممكن : من وجود وعدم أو طول أو قصر ونحوها بالوقوع بدلا عن مقابله اه .

حَيًّا

وقال النسفي في شرح العمدة : حدها عند المتكلمين معنى يوجب تخصيص المعقولات بوجه دون وجه . وقيل صفة تنفي عمن قامت به الجبر والاضطرار ، وفائدتها على هذا الحد أن يكون الموصوف بها مختارا فيما فعله غير مضطر إليه ، ثم صانع العالم يوجده باختياره ، إذ من لا اختيار له في فعله فهو مضطر والمضطر عاجز فيكون حادثا ، ولا اختيار بدون الإرادة فكان مريدا . وقال أبو منصور التميمي : الإرادة والمشيئة عندنا بمعنى القصد والاختيار ، وزعمت الكرامية أن المشيئة الأزلية صفة واحدة يتناول ما شاء الله عز وجل بها من حدث يحدث ، وإرادة الله غيرها وإرادته حادثة في ذاته قبل حدوث مراداته على عدد مراداته ، وقلنا مشيئته إرادته ، وهي متعلقة بحدوث جميع الحوادث على حسب تعلق علمه بها في معنى أنه أراد حدوث كل ما علم منها على ما علم من حدوثه عليه . وقد اختلفت عبارتهم في برهان الإرادة ، ففي التذكرة الشرقية لابن القشيري مانصه ، لأن فعله مرتب مختص بأوقات وأوصاف وترتيب الفعل دال على كون فاعله مريدا له قاصدا إليه ، وفي المدخل الأوسط لابن فورك : ظهور فعله دليل على قدرته ، لأن الفعل لا يظهر ممن لاقدرة له كما لايظهر ممن به عجز أو موت وكونه محكما متقنا دليل على علمه ، لأنه على إحكامه وإتقانه لايتأتى ممن لاعلم له ، وكونه متقنا دليل على إرادة فاعله إذ كما لايصح ظهوره من غير ذي علم كذلك لايصح ظهوره من غير ذي قصد إليه لولاه لم يكن وقوعه على وجه أولى من وقوعه على وجه آخر . وقال والد إمام الحرمين في كفاية المعتقد : والدليل علي إرادته تعالى وأنه مريد أن تخصيص حدوث المحدث بزمان دون زمان في مكان دون مكان على صفة دون صفة لايصير معقولا إلا بإرادة مريد . وقال أبو القاسم القشيري في كتاب الاعتقاد : الدليل عليه أن أفعاله مرتبة ترتيب الأفعال واختصاصها ببعض المجوزات يوجب أن يكون فاعله قاصدا إلى ترتيبه . وقال أبو الجبر القزويني في محجة الحق : الدليل علي كونه مريدا أن اختصاص الفعل شاهد يدل على كون فاعله مريدا ونحن نرى أفعال الباري تعالى مخصوصة بأوقات موصوفة بصفات مخصوصة جاز في العقل وقوعها على خلافها فتدل على كون فاعلها مريدا لها . وقال شيخ مشايخنا في إملائه : والدليل علي إرادته تعالى أنه لو لم يكن مريدا لكان كارها ، لأن الارادة هي القصد إلى تخصيص الجائز ببعض مايجوز عليه ، وقد تقرر أن ارادة الله تعالى عامة التعلق بجميع الممكنات فيستحيل وقوع شيء منها بغير إرادة منه تعالي لوقوع ذلك الشيء . وقال البكي في شرح الحاجبية قد ثبت أن صانع العالم فاعل بالاختيار ، وكل فاعل بالاختيار مريد ، فصانع العالم مريد . أما الصغرى فلما مر من حدوث العالم الدال على أنه قادر مختار وهو الذي إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل ، وأما الكبرى فلأن تخصيص الحوادث بحالة دون حالة وهو الارادة أوتعلقها والتخصيص حاصل ، فالارادة ثابتة وهو المطلوب قاله الزبيدي (حيا) أي ذا حياة ، وهي صفة أزلية توجب صحة العلم والارادة ، وباقي صفات المعاني والمعنوية . وذلك بأن تقول الله متصف بصفات المعاني

مُتَكَلِّماً

والمعنوية ، وكل من كان كذلك تجب له الحياة ينتج : الله يجب له الحياة إذ لا يتصور قيامها بغير حي ، وحياة الله لا بروح بخلاف حياة الحادث فإنها بالروح كما أفاده الصاوى فثبت بهذا أن يكون جلّ وعزّ حيا مطلقا ، وهو الذى تندرج جميع المدركات تحت إدراكه وجميع الموجودات تحت فعله حتى لا يشذ عن علمه مدرك ولا عن فعله مفعول ، وذلك هو الله تعالى ، فهو الحى الكامل المطلق ، وكل حى سواه فحياته بقدر إدراكه وفعله ، وكل ذلك محصور فى قلة ، وبرهانه أن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ، وأيضا دلنا عليه أن العالم فعله ويستحيل صدور الفعل عن الميت والجماد إذ لو تصور قادر عالم فاعل مدبر للكائنات دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات بل فى حياة أرباب الحرف والصناعة إذ لا يتصور قيام هذه الأوصاف المذكورة من القدرة والعلم والعقل والتدبر بغير حيّ وتصور قيامها بغير حى جحود وعناد ، بل انغماس فى غمرة الجهالات أعاذنا الله منها (متكلما) بكلام ، وهو وصف قائم بذاته ، أما قيامه بذاته فلأنه تعالى وصف نفسه بالكلام فى قوله تعالى « قلنا اهبطوا منها جميعا » وقوله « وقلنا يا آدم » ومواضع أخرى كثيرة ، والمتكلم الموصوف بالكلام لغة من قام الكلام بنفسه ، لامن أوجد الحروف فى غيره وليس بصوت ولاحرف ، بل لايشبه كلامه كلام غيره ، لأنه صفة من صفات الربوبية ولا مشابهة بين صفات البارى وصفات الآدميين ، فإن صفات الآدميين زائدة على ذواتهم لتكثر وحدتهم فتقوم أنفسهم بتلك الصفات وتتعين حدودهم ورسومهم بها وصفة البارى تعالى لا تحد ذاته ولا ترسم فليست إذا بشيء زئد على البارى تعالى .

ثم اعلم أن الكلام عند أهل الحق كما يقال على المعنيين ، يقال على النظم المركب من الأصوات والحروف ، وهو الكلام اللسانى ، وعلى المعنى القائم بالنفس ، وهو المسمى بالكلام النفسانى وهذا الإطلاق بالاشتراك اللفظى والحقيقة والمجاز . والمختار عند الأشاعرة الأول : أى أنه مشترك بين الألفاظ المسموعة وبين الكلام النفسي ، وذلك لأنه قد استعمل لغة وعرفا فيهما ، والأصل فى الإطلاق الحقيقة فيكون مشتركا ، أما استعماله فى العبارة فكثير كقوله تعالى « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه — فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ويقال سمعت كلام فلان وفصاحته : يعنى ألفاظه الفصيحة . وأما استعماله فى المعنى النفسي وهو مدلول العبارة فكقوله سبحانه « ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول — وأسروا قولكم أو اجهروا به » والقول يقال على ما يقال عليه الكلام إما بترادف أو تباين الخاص والعام . وقيل حقيقة فى اللسانى مجاز فى النفسانى . وقيل بالعكس ، وإليه أشار مصنفنا أبو حامد الغزالى فى الإحياء بقوله: والكلام بالحقيقة كلام النفس ، وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات . وقال إمام الحرمين وغيره : الكلام المطلق حقيقة هو ما فى النفس شاهدا وغائبا وإطلاق الكلام على الحروف والأصوات مجاز وإليه مال تلميذه أبو حامد الغزالى كما ترى . قال

القطب سيدى أحمد الدردير ، وكلامه تعالى يقتضى معنى يدل عليه دلالة مستمرة بلا انقطاع أزلا وأبدا فهو تعالى به آمرناه مخبر فهو فى نفسه واحد وتكثره إنما هو بتكثر التعلقات كالعلم والقدرة ولذا قسموه إلى أمر ونهى وخبر واستخبار فمن حيث اقتضاؤه فعلا أو تركا يسمى أمرا ونهيا ومن حيث تعلقه بثبوت أمر لأمر أو نفيه يسمى خبرا . قال الشمس الرملي : القرآن العزيز يطلق عليه شرعا إطلاقا حقيقيا لا مجازيا أنه مكتوب فى ألواحنا ومصاحفنا بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه . قال صلى الله عليه وسلم « لا تسافر القرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو » ولهذا قال بعض أصحابنا إنه ينعقد اليمين بالمصحف فى حالة الإطلاق وأنه مقروء بألسنتنا بحروفه الملفوظة المسموعة بآذاننا ، ولهذا حرمت قراءة القرآن على ذى الحدث الأكبر وأنه محفوظ بأذهاننا فى صدورنا ، واتصاف القرآن بهذه الأوصاف الثلاثة ، وبأنه غير مخلوق : أى موجود أزلا وأبدا اتصاف له باعتبار وجودات الموجودات الأربعة ، فإن لكل موجود وجودا فى الخارج ووجودا فى الذهن ووجودا فى العبارة ووجودا فى الكتابة فهى تدل على العبارة ، وهى على ما فى الذهن وهو على ما فى الخارج . فالقرآن باعتبار الوجود الذهنى محفوظ فى الصدور وباعتبار الوجود اللسانى مقروء بالألسنة ، وباعتبار الوجود البنانى مكتوب فى المصاحف ، وباعتبار الوجود الخارجى وهو المعنى القائم بالذات المقدسة ليس فى الصدور ولا فى الألسنة ولا فى المصاحف والله أعلم .

ودليل الأشاعرة والماتريدية فى إثبات صفة الكلام واحد قالوا لو لم يكن صانع العالم متكلما للزم النقص وهو محال ، أما الملازمة فإن صانع العالم حى وكل حى فهو اما متكلم أو مؤف والآفة نقص فتعين أن يكون متكلما وهو المطلوب ، وقد يستدل المحدث أيضا على إثبات صفة الكلام له تعالى بما تقدم ، وأما الصوفى فيقول : الكلام صفة كمالية إذ مرجع ذلك إلى الانباء عن الشىء وكل الأشياء قابلة للانباء ، فلا بد من حصول تلك الصفة على كمالها وحصولها على الكمال لا يكون إلا بحيث لا موقع لنقيضها ، وذلك لا يكون فى واجب الوجود فواجب الوجود له تلك الصفة الكمالية إذ هو الذى له الكمال المطلق وهو المطلوب (سميعا بصيرا) بلا جارحة وحدقة ولا أذن كما أنه تعالى عليم بلا دماغ وقلب فليس سمعه كسمع المخلوق الذى هو قوة مودعة فى مقعر الصماخ يتوقف إدراكها للاصوات على حصول الهواء الموصل إلى الحاسة وتأثر الحاسة ولا كبصر المخلوق الذى هو قوة مودعة فى العصبتين المجوفتين الخارجتين من الدماغ بل المراد بالسمع صفة وجودية قائمة بالذات شأنها إدراك كل مسموع وان خفى ، والمراد بالبصر صفة وجودية قائمة بالذات شأنها إدراك كل مبصر وان لطف لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير . قال مصنفنا أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى : البصير هو الذى يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى مع التنزيه عن أن يكون بحدقة وأجفان والتقديس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان فى ذاته كما ينطبع فى حدقة الإنسان ، فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضى للحدثان وإذا نزه عن

ذلك كان البصر فى حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات وذلك أوضح وأجلى مما تفهمه من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيات .

ثم اعلم أن ثبوت صفتي السمع والبصر بالسمع فقد ورد وصفه تعالى بهما فما لا يكاد يحصى من الكتاب والسنة ، وهو ما علم ضرورة من دينه صلي الله عليه وسلم فلا حاجة بنا إلى الاستدلال عليه كسائر ضروريات الدين ومع ذلك استدل عليه فى الإحياء بقوله وكيف لايكون سميعا بصيرا والسمع والبصر صفتا كمال وليس بنقص ، فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته والكمال فى خلقه وصنعته اه . هذا لايتصوره عاقل . وقال ابن فورك فى المدخل الأوسط : الدليل عليه أنه تعالي موجود حي لاتليق به الآفات التي تضاد السمع والبصر وكل حى ليس به آفة تضاد السمع والبصر فهو سميع بصير . وقال امام الحرمين فى لمع الأدلة : إذ قد ثبت كونه حيا والحى لا يخلف عن الاتصاف بالسمع والبصر والكلام وأضداها ، وأضداد هذه الصفات نقائص ، والرب يتقدس عن سمات النقص . وقال شيخ مشايخنا فى إملائه : لو لم يكن سميعا بصيرا لكان أصم أعمى ، وذلك نقص والنقص عليه تعالي محال لاحتياجه إلي من يكمله وذلك يستلزم حدوثه . وقال السبكي فى شرح الحاجبية أما كونه سميعا بصيرا فقد اتفق عليه أهل السنة . أما الأشعرى فيقول قد ثبت أن البارى تعالي عالم مريد حى وكل حى سميع أوقابل لذلك والواجب لايتصف بالقبول بل كل مايجوزله فهو واجب له وأيضا فانهما صفتا كمال والخلو عنهما نقص أوقصور فى الكمال ، وأيضا قد أجمعت عليه الكتب السماوية وخصوصا القرآن ، وهذا دليل المحدث . وأما الصوفى فيقول : حديث التقرب بالنوافل بين لكل من هو إلى عبودية وأصل أن السميع والبصير هو الله فقط (واحدا) . قال أكثر العلماء ان الواحد والأحد بمعنى واحد . وقال الأزهرى : الفرق بين الواحد والأحد فى صفاته أن الأحد بنى لنفى ما يذكرمعه العدد والواحد اسم لمفتتح العدد ، وتقول : ما أتانى منهم واحد وجاءنى منهم واحد والواحد بنى لانقطاع النظير وعوز المثل . وقال بعضهم : الواحد فى الحقيقة هو الشيء الذي لاجزء له ألبتة ثم يطلق فى كل موجود حتى إنه ما من عدد إلا ويصح وصفه به فيقال : عشرة واحدة ومائة واحدة . وقال الراغب : الواحد لفظ مشترك يستعمل فى ستة أوجه . الأول ماكان واحدا فى الجنس أو فى النوع كقولنا : الإنسان والفرس واحد فى الجنس ، وزيد وعمرو واحد فى النوع ، الثانى ماكان واحدا بالاتصال ، إما من حيث الخلقة كقولنا شخص واحد ، وإما من حيث الصناعة كقولنا حرفة واحدة . الثالث ماكان واحدا لعدم نظيره ، إما فى الخلقة كقولنا الشمس واحدة وإما فى دعوى الفضيلة كقولنا فلان واحد دهره مثل نسيج وحده . الرابع ماكان واحدا لامتناع التجزؤ فيه إما لصغره كالهباء ، وإما لصلابته كالألماس . الخامس للمبتدإ إما لمبتدأ الأعداد كقولنا واحد اثنان ، أو لمبتدإ الخط كقولنا النقطة الواحدة والوحدة فى كلها عارضة ، قال وإذا

لاَ شَرِيكَ لَهُ ، مُتَّصِفاً بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، مُنَزَّهاً عَنِ النُّقْصَانِ

وصف الله تعالى به ، فمعناه أنه لا يجرى عليه التجزى ولا التكثر . وقال مصنفنا أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى : الواحد هو الذى لا يتجزأ ولا يتثنى : أما الذى لا يتجزأ فكالجوهر الواحد الذى لا ينقسم فيقال إنه واحد بمعنى أنه لا جزء له ، وكذلك النقطة لاجزء لها والله تعالى واحد بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام فى ذاته ، وأما الذى لا يتثنى فهو الذى لا نظير له كالشمس مثلا فإنها وان كانت قابلة للانقسام بالفعل بتجزئه فى ذاتها لأنها من قبيل الأجسام فهى لا نظير لها إلا أنه يمكن أن يكون لها نظير ، فإن كان فى الوجود موجود ينفرد ويتوحد بخصوص وجوده تفردا أو وحدة (لا شريك له) أى لا يتصور أن يشاركه غيره فيه أصلا فهو الواحد المطلق أزلا وأبدا ، والعبد إنما يكون واحدا إذا لم يكن له فى أبناء جنسه نظير فى خصلة من خصال الخير وذلك بالاضافة إلى أبناء جنسه ، وبالاضافة إلى الوقت إذ يمكن أن يظهر فى وقت آخر مثله ، وبالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع فلا وحدة على الاطلاق إلا لله عزّ وجلّ .

وذكر الشيخ أبو منصور البغدادى فى الفرق بين الواحد والأحد أقوالا منها قدتقدم ذكرها آنفا ، ومنها ما لم يذكر ، فمن ذلك قال بعض المتكلمين إنه واحد فى ذاته أحد فى صفاته . وقال آخرون : إنه واحد بلا كيف ، أحد بلاحيث . وقال آخرون : وصفه بأنه الواحد يدل على أوليته وأزليته ، لأن الواحد فى العدد أول الأعداد ، والأحد فى ذاته إشارة إلى توحيده فى صفاته . وقال آخرون : إنه واحد بلا شريك فى الصنع لانفراده بالخلق والاختراع ، ولذلك قال الله تعالى « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » . أحد بنفي الابتداء والانتهاء والتشبيه عنه لقوله تعالى « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فلما نفى الشرك من الصنع والاختراع وصف نفسه بأنه واحد ، ولما نفى عن نفسه الابتداء والانتهاء ونفى التشبيه وصف نفسه بأنه أحد (متصفا بصفات الكمال) أى العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر والتكوين إلى ما لا يتناهى كما قاله بعض المحققين نقلا عن التونسى (منزها عن النقصان) أى مبرأ عما لا يليق بحاله وقدسه من كل عيب ونقص ومن كل صفة لا كمال فيها ولا نقصان على قول ، ومقدسا عن أن يحويه مكان فيشار إليه أو تضمه جهة ، وإنما اختصت السماء برفع الأيدى إليها عند الدعاء لأنها جعلت قبلة الأدعية كما أن الكعبة جعلت قبلة للمصلى يستقبلها فى الصلاة ولا يقال إن الله تعالى فى جهة الكعبة كما تقدس عن أن يحده زمان لأن المحدد محتو على أجزاء الماهية ، والله تعالى منزه عن ذلك ، بل كان تعالى قبل أن خلق الزمان والمكان والعرش والكرسى والسموات والأرضين وهو الآن على ماعليه من صفة الأزلية كما كان قبل خلقه الزمان والمكان وغيرهما وبائنا عن خلقه بصفاته العلية ليس فى ذاته سواه جل وعز ولا فى سواه ذاته الشريفة ، ومقدسا عن التغير من حال إلي حال والانتقال من مكان إلى مكان ، وكذا الاتصال والانفصال ، فإن كلا من ذلك من صفات المخلوقين ، وذلك النقصان كالجهل

وَالزَّوَالِ وَدَلَالَاتِ الْحُدُوثِ مُنفَرِدًا بِالْقِدَمِ عَنْ كُلِّ مُحْدَثٍ

والعجز والخرس والصمم والعمى وأمثالها كما قاله العلامة التونسى ، بل لايزال فى نعوت جلاله وأوصاف كماله منزها عن الخلل (و) مبرأ عن (الزوال) بل فى زيادة كمال مستغنيا عن زيادة الإستكمال ، إذ كل كمال فإنما يفاض منه بدءا وإليه يعود (و) مقدسا عن (دلالات الحدوث) من الجهات الست وغيرها . وقال إمام الحرمين فى لمع الأدلة : والدليل على تقدسه تعالى عن الاختصاص بجهة والاتصاف بالمتحاذيات ، وأنه لا تحده الأقطار ولا تكتنفه الأقدار ويجل عن قبول الحد والمقدار ، كل مختص بجهة شاغل لها ، وكل متحيز قابل لملاقاة الجواهر ومفارقتها وكل ما يقبل الاجتماع والافتراق لا يخلو عنهما ومالا يخلو من الافتراق والاجتماع حادث كالجواهر ، وإذا ثبت تقدس البارى عن التحيز والاختصاص بالجهات فيترتب على ذلك تعاليه عن الاختصاص بمكان وملاقاة أجرام وأجسام ، فقد بان لك تنزيه ذاته سبحانه عن كل ما لايليق بجلاله وقدوسيته (منفردا بالقدم عن كل محدث) أى مخرج من العدم إلى الوجود ، والمراد القدم الذاتى بمعنى أنه تعالى قديم بذاته لا لعلة قديمة اقتضت وجوده تعالى عن ذلك ، وليس المراد بالقدم الذاتى ما قابل القدم بالغير كما يقول الفلسفى لقيام البرهان القاطع على أنه لا شيء قديم بالغير وأن كل ما سوى الله وصفاته حادث ، فمعنى القدم سلب الأولية : أي أنه تعالى لاأول لوجوده إذ لو لم يكن قديما لكان حادثا تعالى عن ذلك ، وكذا قاله العلامة أحمد الدردير ، فإن قيل القول بالقدم يلزمه منه وجود أزمنة لا نهاية لها إذ لايعقل استمرار وجود ، وبقاؤه إلا بزمان وأنتم لا تقولون به قلنا الزمان يطلق باعتبارات ثلاث وكلها منتفية بالنسبة إلى الباري تعالى . الأول الإطلاق العرفى وهو مرور الليالى والأيام ، وذلك تابع لحركات الأفلاك ، وقد أقمنا الدليل على حدوث العالم ، فقد كان الله ولا زمان بهذا الاعتبار ، وكان الله ولا شيء معه . الثانى ما اصطلح عليه المتكلمون ، وهو مقارنة متجدد لمتجدد توقيتا للمجهول بالمعلوم وذلك يختلف بالنسبة إلى السميع فتقول : ولد النبى صلى الله عليه وسلم عام الفيل فتجعله وقتا لمولده صلي الله عليه وسلم وزمانا له لمن يعلم عام الفيل ولا يعلم مولده صلى الله عليه وسلم ، وتقول عام الفيل مولد النبى صلى الله عليه وسلم فتوقته بمولده صلي الله عليه وسلم لمن يعلمه ولا يعلم عام الفيل وهو أمر فرضى ، وذلك لا يتحقق فى الأزل أو لا يتجدد فى الأزل ، ويطلق باصطلاح الحكماء علي أمر حركة الفلك وهو تابع لحركات الأفلاك فلا يكون أزليا فبأي معنى فسر الزمان لا يكون أزليا : كذا قاله الزبيدى نقلا عن ابن التلمسانى فى شرح اللمع لإمام الحرمين .

وأما دليل قدمه تعالى عن المحدث فنقول قال تعالى « لم يلد و ولم يولد » وقال تعالى « هو الأول » وقال صلى الله عليه وسلم « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس دونك شيء » الحديث أخرجه أبو داود والترمذى ، فلو لم يكن قديما لكان حادثا ، ولو كان حادثا لكان قبله شيء ، وأما الصوفى فإنه يقول : كل قضية بديهية فلوازمها

البينة بديهية ، وهذا لازم بين لثبوت الوجود الذاتي ، إذ كلما تصور القدم ووجود الواجب لزم جزم العقل بوجوبهما ،

﴿ تتمة ﴾ نذكر فى هذا المقام جميع مسائل التوحيد التى اشملتها كلتا الشهادة كما أشار إليه السنوسى وغيره ، وهو الذى تجب على جميع المكلفين معرفته ، وتفصيل ذلك أن معنى لا إله إلا الله: لا مستغنى عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه إلا الله . ومعنى الألوهية : استغناء الإله عن كل ماسواه وافتقار كل ما عداه إليه ، فدخل تحت الاستغناء ثمانية وعشرون عقيدة : الوجود ، والقدم ، والبقاء والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، ووجوب السمع له والبصر والكلام ولوازمها ، وهى كونه سميعا بصيرا متكلما ، وتنزهه عن الغرض فى أفعاله وأحكامه وعن وجوب شىء عليه فعلا وتركا ، ومن كون شىء من الممكنات يؤثر بقوة أودعها الله فيه وأضدادها لجملتها ثمانية وعشرون عقيدة ، ودخل تحت الافتقار اثنان وعشرون عقيدة: الحياة ، وعموم القدرة والإرادة والعلم ولوازمها وهى كونه : حيا ، وقادرا ، ومريدا ، وعالما ، والوحدانية ، وحدوث العالم بأسره ، وأن لا تأثير لشىء من الكائنات فى أثر ما بطبع وأضدادها ، لجملتها اثنان وعشرون عقيدة ، ودخل تحت قولنا : محمد رسول الله اثنتا عشرة عقيدة : وجوب الصدق للرسل والأنبياء والأمانة والتبليغ وأضدادها ، والإيمان بسائر الملائكة ، والكتب السماوية ، واليوم الآخر ، وجواز وقوع الأعراض البشرية عليهم وعدم وقوعها ، فقد ظهر لك أن قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله تتضمن اثنتين وستين عقيدة : منها خمسون عقيده تحت لا إله إلا الله ، واثنتا عشرة تحت محمد رسول الله ، كذا أملاه شيخ مشايخنا الشيخ على الطولونى المحدث ، من تقرير شيخه سيدى على الجزائرى المغربى الحنفى رحمه الله تعالى ، كذا قاله العلامة مرتضى الزبيدى . ولنرجع إلى خدمة كلام المصنف البحر الزاخر بعون اللطيف الخبير (و) أن تعلم (أن محمدا)هو ابن عبدالله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وهو علم منقول من اسم مفعول المضعف موضوع لمن كثرت خصاله الحميدة ، سمى به نبينا بإلهام من الله تعالى لجده عبد المطلب بذلك ليكون على وفق تسميته تعالى له به قبل الخلق بألفى عام على ما ورد عند أبى نعيم كما قاله العلامة ابن حجر ، وفى سيرة الحافظ اليعمرى : وروينا عن أبى القاسم السهيلى قال : لا يعرف فى العرب من سمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاث : طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرب زمانه ، وأنه يبعث بالحجاز أن يكون ولدا لهم ، ذكرهم ابن فورك فى كتاب الفصول : وهم محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أحيحة بن الجلاح ، من الأوس ، والآخر محمد بن حمران من ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك وكان عنده علم بالكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وباسمه وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ولد ذكر لأن يسميه محمدا ، ففعلوا

صلى اللهُ عليه وَسلَّمَ عَبْدُهُ

ذلك انتهى . وفيها عن القاضى عياض بعد كلام يتعلق باسم احمد مانصه : وكذلك محمد أيضا لم يسم به أحد إلا بعد أن شاع قبيل وجوده عليه الصلاة والسلام وميلاده أن نبيا يبعث اسمه محمد ، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته . وهم محمد بن أحيحة بن الجلاح بتخفيف اللام الأوسي ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الحنفى، ومحمد بن خزاعى السلمى لاسابع لهم أى فيما أعلم ، ويقال إنَ أول من تسمى به محمد بن سفيان ، واليمن تقول بل محمد بن اليحمد الأزدى ، ثم حمى الله : أى منع كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها أحد له حتى تحققت التسميات بمحمد وأحمد له صلى الله عليه وسلم ولم ينازع فيهما . وفى سيرة الشيخ الحلبي عن بعضهم أنه عدهم ستة عشر ونظمهم فقال :

إن الذى سموا باسم محمد　　من قبل خير الخلق ضعف ثمان
ابن البراء مجاشع بن ربيعة　　ثم ابن مسلم يحمد حمرانى
ليثي السلمى وابن أسامة　　سعدى وابن سوأة همدانى
وابن الجلاح مع الأسيدى يافتى　　ثم الفقيمى هكذا الحرمانى

قال بعضهم : وفاته آخران لم يذكرهما ، وهما محمد بن الحارث ،ومحمد بن عمر بن مغفل بضم أوله وسكون المعجمة ثم لام ، وقد نظمها شيخنا القاضي فى بيت يضم إلى هذه الأبيات فقال :

وابنا الحارث زد لعدهم وزد　　ابن المغفل جاءنا فى بيان

وأما أحمد فلم يتسم به أحد قبله ولا فى زمانه ، بل هو أول من تسمى به ثم بعده والد الخليل الفراهيدى ، هكذا جزم بأنه من خصائصه الحافظ السيوطى وأقروه إلا أن البرهان اللقانى حكي فى شرح عقيدته الكبير أنه تسمى به أربعة بزمان طويل ، وجزم الشيخ زكريا فى شرح رسالة القشيرى بأن الخضر اسمه أحمد، والله أعلم ، كذا ذكره ابن المدابغى (صلى الله عليه وسلم) من الصلاة ، وهى من الله تعالى الرحمة ، وتعلق لفظ على بها لتضمن معنى النزول ، والسلام التسليم من الآفات المنفية لغاية الكمال ، وجمع بينهما لكراهة إفراد أحدهما عن الآخر أى لفظا لاخطا أو مطلقا ، وقد تقدم الكلام فى خطبة الكتاب (عبده) تعالى قدمه امتثالا لما فى الحديث الصحيح « ولكن قولوا عبد الله ورسوله » ولأنه أحب الأسماء إلى الله وأرفعها إليه ، ومن ثم وصفه الله تعالى به فى أشرف المقامات فذكره بإنزال القرآن عليه فى قوله تعالى « مما نزلنا على عبدنا » وقوله « أنزل على عبده الكتاب » . وقوله « نزل الفرقان على عبده » وفى مقام الدعوة إليه « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » ، وفى مقام الإسراء والوحى إليه فى « أسرى بعبده » « فأوحى إلى عبده ماأوحى » فلو كان له وصف أشرف منه لذكره به فى تلك المقامات العلية ،

وَرَسُولُهُ الصَّادِقُ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَفِيمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ.

ومن ثم خير صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا فاختار الثانى وسليمان عليه الصلاة والسلام سأل الأول فانظر بعد مابين المرتبتين ، وسبب أشرفية هذا الوصف أن الألوهية والسيادة والربوبية إنما هى فى الحقيقة لله تعالى لاغير والعبودية بالحقيقة لمن دونه ، ففي الوصف بها إشارة إلى غاية كماله تعالى وتعاليه واحتياج غيره إليه فى سائر أحواله ، كذا فى شرح الأربعين لابن حجر ، وكيف لا والعبودية هى ترك الاختيار والاختبار والثقة بالفاعل المختار ، وعدم منازعة الأقدار والتسليم لأمر الواحد القهار ، ومما ينسب للقاضى عياض :

ومما زادنى شرفا وتيها وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك ياعبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

ولبعضهم : يا قوم إن قلبي عند زهراء يعرفها السامع والرائى
لا تدعنى إلا بيا عبدها فانه أشرف أسمائى

(ورسوله) رسالة عامة فى الزمان والمكان جميع الخلق ، وأثر رحمه الله ذكره إشارة إلى رد ماعليه ابن عبد السلام من تفضيل النبوة لتعلقها بالحق على الرسالة لتعلقها بالخلق ، والفرق بينهما أن الأولى هي الانصراف من حضرة الخلق إلى الحق ، والثانية الانصراف من حضرة الحق إلى الخلق كما قاله بعض المحققين ، ووجه رده أن الرسالة فيها التعلقان بالحق والخلق كما هو ظاهر ، والكلام فى نبوة الرسول مع رسالته ، وإلا فالرسول أفضل من النبى قطعا كما قاله العلامة ابن حجر فى الأربعين ، وتعلم أنه صلى الله عليه وسلم (الصادق) والمحق (فى) جميع (ماجاء) وأخبر (به عن الله تعالى وتقدس) أى من الأحكام والأمور المغيبة ، بل جميع أقواله وإن لم تكن عن الله فيلزمنا الإيمان فى ذلك ، فمن أنكر شيئا من ذلك وكان معلوما من الدين بالضرورة كفر (و) الصادق (فيما ورد على لسانه) صلى الله عليه وسلم (من أمور) الدنيا و (الآخرة) أى المتعلقة بهما بعد أن خصه الله صلى الله عليه وسلم كما خص إخوانه من الأنبياء والرسل الكرام بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، فهذا أربع صفات تجب فى حقهم ، فالصدق وهو الإخبار بالحق الثابت فى نفس الأمر أى كون مابلغوا به عن الله تعالى موافقا لما عند الله تعالى إيجابا كان أو سلبا ، والأمانة كونهم لاتصدر عنهم مخالفة أصلا، وهي المعبر عنها عند بعضهم بالعصمة ، والتبليغ هو أنهم بلغوا جميع ما أمروا به اعتقاديا كان أو عمليا ولم يكتموا منه شيئا ، والفطانة : هى التيقظ لإلزام الخصوم وطرق إبطال تخيلهم ودعاويهم الباطلة :

ومما جاء به عليه الصلاة والسلام من أمور الآخرة : عذاب القبر ونعيمه والصراط والميزان والحوض والشفاعة ونحو ذلك مما يطول تتابعه ، وهو مفصل فى الكتاب والسنة وتآليف علماء الشريعة ، وسيأتى بعض ذلك عند كلام المصنف فيما ورد على لسان صاحب الشرع عليه الصلاة

ثُمَّ مَسَائِلُ فِى شَعَائِرِ السُّنَّةِ تَجِبُ مَعْرِفَتُهَا ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَبْتَدِعَ فِى دِينِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى مَالَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلاَ أَثَرٌ فَتَكُونَ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى أَعْظَمِ خَطَرٍ

والسلام (ثم) تتعين عليك (مسائل) أى مسائل أمور الدين جمع مسئلة : وهى المطلب الذى يبرهن عليه فى العلم ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها كذا أفاده شيخ مشايخنا (فى شعائر) أى علامات (السنة) أى الطريقة النبوية (تجب معرفتها) أى المسائل (وإياك) أى احذر تلاقيك (أن تبتدع) أى أن تخترع وتنشىء من قبلك أو من غيرك (فى دين الله سبحانه وتعالى) وهو ما شرعه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم واستمرّ العمل به (ما) أى أمراً حادثا (لم يأت به كتاب) من الله ولا خبر من رسوله صلى الله عليه وسلم أو إجماع من العلماء (ولا أثر) من الصحابة رضوان الله عليهم ، والفرق بين الخبر والأثر أن الخبر هو الحديث المنقول ، فهو مرادف للحديث عند الجمهور ، والأثر هو كلام السلف فى اصطلاح الفقهاء فإنهم يستعملونه فيه وفى ذلك بحث طويل محله كتب أصول الحديث (فتكون) أى فان فعلت البدعة المذمومة تكون (مع الله سبحانه على أعظم خطر) أى خوف لأن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار كما فى الخبر.

وقسم ابن عبد السلام الحوادث إلى الأحكام الخمسة فقال : البدعة فعل ما لم يعهد فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة كتعلم النحو وغريب الكتاب والسنة ونحوهما مما يتوقف فهم الشريعة عليه . ومحرمة كمذهب القدرية والجبرية والمجسمة . ومندوبة كإحداث الربط والمدارس ، وبناء القناطر ، وكل إحسان لم يعهد فى العصر الأوّل . ومكروهة كزخرفة المساجد ، وتزويق المصاحف ، ومباحة كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر ، والتوسع فى المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك كما أفاده الفشنى ، وقال الشافعى رضى الله عنه : ما أحدث وخالف كتابا أوسنة أو إجماعا أو أثرا فهو البدعة الضلالة ، وما أحدث من الخير ولم يخالف شيئا من ذلك فهو البدعة المحمودة . والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على ندبها وهى ما وافق شيئا مما مر ولا يلزم من فعله محذورشرعى. ومنها ما هوفرض كفاية كتصنيف العلوم ونحوها مما مر. قال الإمام أبوشامة شيخ النووى رحمهما الله تعالى : ومن أحسن ما ابتدع فى زماننا ما يفعل كل عام فى اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه وسلم من الصدقة والمعروف وإظهار الزينة والسرور فان ذلك مع ما فيه من الإحسان إلى الفقراء مشعر بمحبته صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وجلالته فى قلب فاعل ذلك ، وشكر الله تعالى على ما منّ به من إيجاد رسوله الذى أرسله رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم . وأما البدعة السيئة فهى ما خالف شيئا من ذلك صريحاً أو التزاماً قد تنتهى إلى ما يوجب التحريم تارة والكراهة، أخرى وإلى مايظن أنه طاعة وقربة . فمن الأول الانتماء إلى جماعة يزعمون التصوف ويخالفون ما كان عليه مشايخ الطريق من الزهد والورع وسائر الكمالات المشهورة عنهم ، بل كثير

وَجَمِيعُ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ مَوْجُودٌ أَصْلُهَا فِى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ

من أولئك إباحية لا يحرمون حراما لتلبيس الشيطان عليهم أحوالهم القبيحة الشنيعة ، فهم باسم الفسوق والكفر أحق منهم باسم التصوف أو الفقر، ومن الأول أيضاً ما عم به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليق حائط : أى بأن يخلقوه بالخلوق وهو نوع من الطيب أو تخليق عمود وتعظيم نحو عين أو حجر أو شجرة لرجاء شفاء أو قضاء حاجة ، وقبائحهم فى هذا ظاهرة غنية عن الإيضاح والبيان . وقد صح أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم مروا بشجرة سدر قبل حنين كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم : أى يعلقونها بها ، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى: « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ـ لتركبن سنن من كان قبلكم » ومن الثانى أى ما يظن أنه طاعة وقربة : نحو صوم يوم الشك أو التشريق ، والوصال وغيرها مما لو « قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » . ومنه أيضاً الصلاة ليلة الرغائب أول جمعة فى رجب ، وليلة النصف من شعبان ، فهما بدعتان مذمومتان خلافا لمن استحسنهما ، وحديثهما موضوع كما بينه النووى رحمه الله فى شرح المهذب ومنه أيضاً : الوقود ليلة عرفة والمشعر الحرام ، والاجتماع ليالى الختوم آخر رمضان ، ونصب المنابر والخطب عليها ، فيكره مالم يكن فيه اختلاط الرجال بالنساء بأن تتضامّ أجسامهم فإنه حرام وفسق قيل : ومن البدع صوم رجب وليس كذلك بل هو سنة فاضلة كما بينه العلامة ابن حجر فى فتاويه كذا لخصناه من شرح الأربعين (وجميع أدلة التوحيد) وهى كلام الله وسنة رسوله وإجماع الأمة وقياس الفقهاء (موجود أصلها فى كتاب الله سبحانه) ومشحون بها لأهل العرفان الذين وفقهم الديّان . قال الله تعالى « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ـ فاعلم أنه لا إله إلا الله » وقد جعلت كلمة التوحيد مفيدة لنفي ما سواه فى الألوهية وعدم غيره فى استحقاق العبودية مع اعتراف جميع الكفار بتوحيد الربوبية حيث قال تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . وقال تعالى « قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض » قال العلامة على بن سلطان القارى فى شرح الفقه الأكبر : فى ابتداء كلامه سبحانه وتعالى بالفاتحة « الحمد لله رب العالمين » إشارة إلى تقرير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضى من الخلق تحقيق العبودية ، وهو مما يجب على العبد أوّلا من معرفة الله سبحانه . والحاصل أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية دون العكس فى القضية لقوله سبحانه « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض » الآية ، وقوله حكاية عنهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة لنوعى التوحيد ، بل القرآن من أوّله إلى آخره فى بيانهما وتحقيق شأنهما ، فان القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمى الخبرى ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لاشريك له وخلع ما يعبدون من دونه فهو التوحيد الإرادى

الطلبي ، وإما أمر ونهى وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه أهل توحيده وإهانته لأهل الكفر ، وما فعل بهم فى الدنيا من النكال ، وما يحلّ بهم فى العقبى من العذاب والسلاسل والأغلال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد ، فالقرآن كله فى التوحيد وحقوق أهله ، وفى شأن ذمّ الشرك وعقوق أهله وجزائهم ، فالحمد لله ربّ العالمين : توحيد ، الرحمن الرحيم توحيد ، مالك يوم الدّين توحيد ، إياك نعبد وإياك نستعين توحيد ، اهدنا الصراط المستقيم توحيد ، متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أصل التوحيد ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ــ الذين فارقوا التوحيد عنادا وجهلا وإفسادا ، وكذا السنة تأتى مبينة أو مقررة لما دلّ عليه القرآن ، فلم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأى فلان وذوق فلان ووجه فلان فى أصول ديننا ، ولذا تجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين ، بل قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فلا نحتاج فى تكميله إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة كما قال « هذا بلاغ للناس » . وقال « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » وقال « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » : وإلى هذا المعنى أشار الطحاوى بقوله فى أوّل عقيدته : لا ندخل فى ذلك متأولين رأينا ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم الله عز وجل انتهى كلامه ، وإنما أوردته بطوله لكونه فى غاية الحسن ، فلله دره وشكر الله صنعه (وقد ذكرها) أى أدلة التوحيد (شيوخنا رضي الله عنهم) أى حفظهم من سخطه (فى كتبهم التى صنفوها فى أصول الديانات) قد أوسع الكلام فى أدلة التوحيد فما رأيت الإمام أبو منصور التميمى فى الأسماء والصفات فأورد فيه خمسة أدلة ، وشرط فى برهان التمانع شروطا لم أرمن تعرّض لها من المتكلمين . ونحن نورد لك كلامه بتمامه ليكون تبصرة للناظر يستفيد منه ، ولغرابة هذا الكتاب ربما لا يوجد فى أكثر البلاد ، فنقول : قال فى بيان أدلة الموحدين على توحيد الصانع :

ومما يدل على ذلك أنه إذا ثبت لنا حدوث العالم ، وثبت أنه لا بدّ من محدث لاستحالة وجود فعل بلا فاعل كاستحالة وجود ضرب بلا ضارب ، ووجود نسخ وكتابة بلا ناسخ وكاتب ، كان إثبات محدث واحد لجميع الحوادث صحيحا ، وكانت الأعداد ما زاد عليه متعارضة ؛ فلو جاز أن يكون للعالم صانعان لجاز أن يكون له ثلاثة صانعين ، ولجاز أربعة وأكثر منها لا إلى نهاية ، ولا يلزمنا على هذا الدليل إذا أوجبنا صانعا واحدا أن نجيز أكثر منه ، لأن الواحد أوجبه الدّليل بوجود الصنع ، وظهور الحوادث ، والزيادة على الواحد لا يوجبها دليل ، لأن الصنع لا يقتضي أكثر من صانع واحد .

ودليل آخر هو أنه لو جاز أن يكون للعقلاء والجمادات وسائر الحوادث صانعان أو أكثر من صانع واحد لم يصل الواحد من العقلاء إلى معرفة صانعه بعينه ليعبده ويشكره على إنعامه عليه

ولم يكن صانعه قادرا على تعريفه إياه ، وأنه هو الذى صنعه دون غيره ، لأن غيره قد يصنع مثل صنعه، وفى هذا تعجيز الصانع عن تعريف مصنوعه العاقل ما يدلّ عليه ، والعاجز لا يكون إلها صانعا .

ودليل ثالث لو كان للأجسام صانعان أو أكثر لم يخل أن يكون كلّ جزء من العالم فعلهما جميعا أو يكون بعض العالم فعل أحدهما وبعضه فعل الآخر ، ويستحيل حدوث كلّ واحد من فاعلين محدثين له ؛ لأنه باختراع أحدهما يوجد ، فلا معنى لاختراع الآخر منهما له ، ولأن قدرة كلّ واحد منهما إن كانت لا تصلح لاختراع الشىء إلا مع قدرة الآخر استحال صلاحهما مجموعتين لاختراعه لأن ما يصلح للاختراع مع ما لا يصلح للاختراع لا يقع بهما الاختراع ، لأن ما استحال فى الآحاد لم يتغير بالاجتماع ، وما وجب فى الآحاد لم يتغير بالاجتماع ، وليس كالحجر يحمله الجماعة ولا يحمله كلّ واحد منهما ولا كجواز الكذب على الآحاد وانتفائه عن أهل التواتر ، لأن هذا من باب الجواز فى الآحاد وما كان فى الآحاد على طرفى جواز جاز أن يتغير حكمه فى الاجتماع وما لزم فى الآحاد طريقة واحدة لم يتغير بالاجتماع والكثرة وإن كان كلّ واحد من الصانعين فاعلا لبعض العالم دون بعض لم يخل من أن يكون فعل كلّ واحد منهما من جنس فعل الآخر أو خلافه ، فإن اختلف فعلاهما مثل أن يكون أحدهما فاعلا للأجسام ، والآخر فاعلا للأعراض لم يجز اختصاص قدرة أحدهما بالأجسام دون الأعراض إلا بمخصص يخصصها بها ، وهذا يقتضى حدوث قدرتهما ، والقدرة المحدثة لا تحدث فى ذات الإله القديم لأن القديم لا يجوز أن يكون محلا للحوادث ، وإن كان فعل كلّ واحد منهما من جنس فعل الآخر وقدر كلّ واحد منهما على مثل ما قدر عليه الآخر من الأجسام والأعراض لم يخل من أن يكون مقدور كل واحد منهما مقدور الآخر أو غيره ، وإن كان من جنسه ، فإن كان مقدورات كلّ واحد منهما هى بعينها مقدورات الآخر ، وهما مع ذلك يجوز أن يتفقا فى إرادة إيقاع مقدور واحد لوجب حدوثه منهما ، ويستحيل وقوع حادث من محدثين كما يستحيل وقوع حركة واحدة من محركين فإن كان مقدورات كلّ واحد منهما غير مقدورات الآخر مع كونهما من جنسها فهو محال ، لأن كلّ شيئين من جنس واحد متماثلان يصحّ على كلّ واحد منهما ما يصحّ على الآخر ، وهذا يقتضى إذا كان مقدور أحدهما بقدرته أن تتعلق قدرة الآخر أيضا به ، وأن تتعلق قدرته بمقدور الآخر لأنه ليس من جنس مقدوره المتعلق بقدرته ، وإذا وجب هذا وآل الأمر إلى اشتراكهما فى المقدورات كلها أدّى إلى ما أفسدناه من حدوث مقدور واحد بقدرتين وليس ذلك كما نجيز وقوع كسب المكتسب بقدرته وحدوثه بقدرة الإله سبحانه ، لأنا لم نقل إنها مكتسبة بقدرتين ، بل قلنا إن حدوثه كان بقدرة واحدة وهى قدرة الإله ، واكتسابه بقدرة واحدة وهى قدرة المكتسب له وكان يصحّ حدوثه بقدرة إله غيره مكتسب لمكتسبه ، فبان الفرق بينهما .

ودليل رابع : وهو أنه لو كان للعالم صانعان وكان كلّ واحد منهما قادرا على إحداث كلّ ما يحدث الآخر ، فلا يخلو إذا أحدث أحدهما جسما أو عرضا أن يكون الآخر قادرا على إحداثه كما قدر عليه قبل حدوث ذلك الحادث أولا يكون قادرا عليه ، فإن قدر عليه قدر على إحداث ما هو

موجود حادث فهذا محال ، وإن خرج عن كونه قادرا عليه فصاحبه هو الذى منعه من إيجاد مقدوره وأخرجه عن القدرة عليه ، وهذا يوجب أن يكون ممنوعا ، والممنوع العاجز لا يكون إلها صانعا ، ولا يلزم على هذا وجود المقدور الواحد ، لأن الواحد لا يكون ممنوع نفسه؛ وقد يكون ممنوع غيره كما لا يصحّ أن يريد خلاف مراد نفسه ، ويجوز أن يريد خلاف مراد غيره ، والتمانع إنما يصحّ مع الاختلاف فى المراد .

ودليل خامس : وهو أنه لا بدّ للصانع من أن يكون حيا قادرا عالما مريدا مختارا ، ومن نازع فى هذه الصفات للصانع بينا الكلام معه عليها ؛ فاذا ثبت وصف الصانع بما ذكرناه قلنا لو كان للعالم صانعان وجب أن يكون كلّ واحد منهما حيا قادرا عالما مريدا مختارا ، والمختاران يجوز اختلافهما فى الاختيار ، لأن كلّ واحد منهما غير مجبر على موافقة الآخر فى اختياره ، فاذا صحّ هذا فلو أراد أحدهما خلاف مراد الآخر فى شيء لم يخل من أن يتمّ مرادهما أو لا يتمّ مرادهما أو يتمّ مراد أحدهما ولا يتم مراد الآخر ومحال تمام مراديهما لتضادّهما ، وإن لم يتم مرادهما فهما عاجزان ، وإن تم مراد أحدهما ولم يتم مراد الآخر فإن الذى لم يتم مراده عاجز ولا يكون العاجز إلها ولا قديما .

وهذه الدلالة معروفة عند الموحدين بدلالة التمانع ، ولها شروط : منها تفسير معنى التمانع وهو تفاعل من المنع ، وذلك أن يقصد كل منهما أن يمنع صاحبه . والشرط الثانى هو العلم بأن التمانع بين القادرين إنما يقع فى مخالفة أحدهما صاحبه فى المراد بأن يريد ما يكرهه صاحبه . فيكون حينئذ من لم يتم مراده منهما ممنوعا عن إيقاع مراده . وزعم بعض القدرية أن التمانع يقع فى الفعلين المقدورين لقادرين بأن يفعل أحدهما مقدوره فى محل يمتنع به القادر الآخر عن إيقاع مقدوره فيه ، ويلزمهم على هذا الأصل أن يكون البارى سبحانه ممنوعاً من فعل السكون فى محل قدرة غيره عندهم فيه حركة وهذا فاسد فما يؤدى إليه مثله . والشرط الثالث أن الحيين القادرين المتصرفين بإرادتين لا يستحيل منهما أن يريد أحدهما ما يكرهه الآخر لأن الذى ينفى إرادة أحدهما ليس هو النافى لإرادة الآخر لأن الشيئين لا يتضادان فى محلين ولولا جواز اختلاف المريدين فى المراد لما صح التمانع بينهما . والشرط الرابع أن التمانع بين القادرين لا يصح إلا بعد أن يكون محل فعلهما واحدا ولولا ذلك لصح من أحدهما أن يوقع فى محل فعلا ويوقع الآخر خلافه فى محل آخر ، لأن المتضادّين لا يتضادان فى محلين كالسواد والبياض فى محلين . والشرط الخامس العلم بأن إرادة أحدهما يجب أن تكون بحيث لا يصح وجود إرادة الآخر منه؛ إذ لو كان محل إرادتهما واحدا لوجب أن يصيرا معا مريدين بإرادة واحدة ولم يختلفا حينئذ فى المراد لوجوب كون كل واحد مريدا لما يريده الآخر بإرادته ، والشرط السادس العلم بأن إرادة كل واحد منهما يجب أن تكون غير مراده ، لأنه لو كانت الإرادة من المراد لكان كلما أراد أحدهما شيئا حصل مراده فى حال كونه مريدا ولم يصر ممنوعا عن مراده بحال . الشرط السابع العلم بأن المتمانعين يجب أن

وَعَلَى الْجُمْلَةِ كُلُّ مَا لاَ تَأْمَنُ الهَلاَكَ فِى جَهْلِهِ فَطَلَبُ عِلْمِهِ فَرْضٌ لاَيَسُوغُ لَكَ تَرْكُهُ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

وَأَمَّا الَّذِى يَتَعَيَّنُ فَرْضُهُ مِنْ عِلْمِ السِّرِّ فَمَعْرِفَةُ مَوَاجِبِهِ وَمَنَاهِيهِ حَتَّى يَحْصُلَ لَكَ تَعْظِيمُ اللهِ تَعالى وَالْإِخْلاَصُ لَهُ وَالنِّيَّةُ وَسَلاَمَةُ الْعَمَلِ، وَجَمِيعُ ذٰلِكَ يَأْتِى فِى كِتابِنَا هٰذَا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَأَمَّا مَا يَتَعيَّنُ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ

يكون إرادة كل منهما قبل مراده ، لأن إرادته لو حصلت مع مراده لما صح منعه عن مراده ، لأن الحى لا يكون ممنوعا من فعل ما قد وجد ولا يقع التمانع بين المتمانعين فى المراد ممنوعا عن إتمام مراده عاجزا عنه ، والعاجز لا يجوز أن يكون قديما . والدليل على استحالة وجود قديم عاجز أن الفاعل القديم القادر قد وجب حصوله بدلالة الحوادث عليه ، فلو صح كون قديم عاجز معه وقد صح من أصلنا أن القادر يكون قادرا بقدرة والعاجز يكون عاجزا بعجز لوجب أن يكون اختصاص أحدهما بالقدرة والآخر بالعجز بعد استوائهما فى الوجود والقدم والحياة والقيام بالنفس وسائر الأوصاف التى استحقها لأنفسها بمخصص خصصهما أو خص أحدهما بإحدى الصفتين وذلك يقتضى قيام معنى حادث بأحدهما وأن يكون محدث الحوادث محدثا غير قديم ، فهذا وجه بيان دلالة التمانع على التوحيد ، انتهى سياق الشيخ أبى منصور التميمى كما ذكره العلامة الزبيدى (وعلى الجملة) أى حاصل الكلام (كلّ ما) أى من الأقوال والأفعال (لا تأمن الهلاك فى جهله فطلب علمه فرض لا يسوغ) أى لا يجوز (لك تركه) وإلا وقعت فى الهلاك (فهذه) أى الجملة مبتدأ خبره (هذه) أى هى الموصوفة بالكمال والوصول إلى الغاية والنهاية، كذا في سراج السالكين (وبالله) تعالى لا بغيره (التوفيق) إلى مرضاته وفهم حكمه وأسراره . (وأما) العلم (الذى يتعين فرضه) عليك (من علم السر) أى خفيات صفات القلب (فمعرفة مواجبه) أى كعلم أحوال القلب المحمودة ، وذلك نحو الصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والقناعة ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الأحوال وحسن الظن والإخلاص ونحو ذلك (ومناهيه) أى علم السر كخوف الفقر وسخط المقدور وطلب العلو وحب الثناء وحب طول البقاء فى الدنيا للتمتع ونحو ذلك (حتى يحصل لك تعظيم الله تعالى و) يحصل (الإخلاص له) سبحانه (والنية) الحسنة (وسلامة العمل) من الآفات المهلكات (وجميع ذلك) أى المذكور من المواجب والمناهى والإخلاص والنية وسلامة العمل (يأتى في كتابنا هذا) أى هذا الكتاب المسمى : [منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين] (إن شاء الله عز وجل . وأما ما يتعين) عليك (من علم الشريعة) والشريعة لغة : مشرعة الماء . وشرعا : ما شرعه الله وأوضحه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام لعباده : أى ولو غير

فَكُلُّ مَا يَتعيَّنُ عَلَيْكَ فَرْضُ فِعْلِهِ وَجَبَ عَلَيْكَ مَعرِفَتُهُ لِتُؤَدِّيَهُ كالطَّهارَةِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ . وَأَمَّا الحجُّ وَالزَّكاةُ وَالجِهادُ ، فَإِنْ تَعيَّنَ عَلَيْكَ فَرْضُهُ وَجَبَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ

هذه الأمة ، قال تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (فكل ما) أى كل عمل قلبى كالنية والاعتقاد ، أو بدنى كالطهارة والصلاة وغيرهما مما يأتى وسواء كان عبادة كما ذكر أو غير عبادة كمنا كحة ومعاملة (يتعين عليك فرض فعله) أى مفروض فعله فهو مصدر مضاف أريد به اسم المفعول والجار والمجرور قبله متعلق به : أى يتعين مفروض فعله عليك ، وقدمه عليه للاشارة إلى أن العمل المفروض قد يختلف باختلاف أحوال الناس لأنه قد يجب على شخص دون آخر ؛ فإن المالك لإبل أو بقر أو غنم أو ذهب أو فضة يجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة المتعلقة به ، وغير المالك لا يجب عليه ذلك ، وكذا يقال فى القادر على الصوم والعاجز عنه وهكذا فكأنه رحمه الله قال فكل ما يتعين فرض فعله عليك لا على غيرك فتأمل ، وذلك بأن عشت من ضحوة النهار مثلا إلى وقت الظهر بعد أن صرت أهلا لوجوب الصلاة عليك ببلوغ أو إسلام فيتجدد عليك بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة كما أشار إليه بقوله (وجب عليك معرفته) أى طلب علمه : أى تعلمه فورا فى الفورى وموسعا فى الموسع كما يأتى (لتؤديه) أى ما يفرض عليك عينا على وجه صحيح (كالطهارة) أى الشاملة للوضوء والغسل والتيمم وإزالة النجاسة (والصلاة) بأن تعرف شروطها وأركانها وتقديم الطهارة لكونها من مقدمات الصلاة وإن كنت صحيحا وكان بحيث لو صبرت إلى زوال الشمس لم تتمكن من تمام التعلم والعمل ولا من بعضهما فى الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغلت بالتعلم فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه وهو الراجح كما قاله المصنف أبو حامد الغزالى فيجب عليك تقديم التعلم على الوقت (و) إن عشت إلى رمضان تجدد عليك بسبب دخولك فيه وجوب تعلم (الصوم) وهو أن تعلم أن وقته من طلوع الصبح إلى غروب قرص الشمس ، وأن الواجب النية ليلا ، والإمساك عن الأكل والشرب ، والوقاع وما فى معناه ، وأن ذلك يتمادى إلى وقت رؤية هلال شوال . (وأما الحج) إلى بيت الله الحرام (والزكاة) للأموال (والجهاد) أى القتال فى سبيل الله لإقامة الدين ، وهذا هو الجهاد الأصغر . وأما الجهاد الأكبر فهو مجاهدة النفس كما فى الخبر (فإن تعين عليك فرضه) أى المذكور من الثلاثة (وجب عليك علمه) وذلك بأن ملكت الزاد والراحلة ، وذلك مما فضل عن مسكنك وعما لا بد منه وعلى نفقة ذهابك وإيابك ونفقة عيالك كما هو مقرر فى محله حتى ربما ترى الحزم لنفسك فى المبادرة إليه ، فعند ذلك إذا عزمت عليه لزمك تعلم كيفية الحج ولم يلزمك إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ، فإن فعل ذلك نفل ، فعلمه أيضا نفل فلا يكون فرض عين وإن تجدد لك مال بكسب أو هبة أو إرث عند بلوغك أو قبل أن تبلغ بقليل كما قاله العلامة مرتضى لزمك تعلم ما يجب عليك من مسائل الزكاة ولا تلزمك الزكاة فى الحال إنما تلزمك عند تمام الحول من الإسلام بتحديد الشارع ، والمعتبر فيه

لِتُؤَدِّيَهُ وَإِلا فَلاَ ، فَهٰذَا حَدُّ مَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ تَحْصِيلُهُ مِنَ الْعِلْمِ لاَ مَحَالَةَ ، وَتَعَيَّنَ فَرْضُهُ بِحَيْثُ لاَبُدَّ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ .

فَإِنْ قُلْتَ فَهَلْ يَفْتَرِضُ عَلَيَّ أَنْ أَتَعَلَّمَ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ مَا أَنْقُضُ بِهِ جَمِيعَ مِلَلِ الْكُفْرِ وَأُلْزِمُهُمْ

الشهور القمرية كما في البلوغ لا الشمسية ، فإن لم تملك إلا الإبل لم يلزمك تعلم زكاة الغنم ، وكذا فى عكسه ، وهكذا فى سائر الأصناف من الأموال، ومثل الزكاة الجهاد فيما ذكر (لتؤديه) أى المذكور من الحج والزكاة والجهاد على أكمل وجه (وإلا) أى وإن لم يتعين عليك فرض فعله (فلا) يجب عليك معرفته وعلمه كما تقدم (فهذا) أى الذى ذكرناه مما يتعين عينا (أحد مايلزم العبد تحصيله من العلم لامحالة) أى لاتحوّل ولا انفكاك عن تحصيله (وتعين فرضه بحيث لابد لك من ذلك) أى التحصيل .

﴿تنبيه﴾ اعلم رحمك الله أنه لابد لسالك طريق الآخرة من الجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة وعدم التعطيل لشيء منها ، وذلك لأن الحقيقة بلا شريعة باطلة ، والشريعة بلا حقيقة عاطلة . مثال الأول أن تقول لشخص صلّ ، فيقول لك لاحاجة إلى الصلاة لأن السعيد سعيد فى الأزل ، فإن كنت سعيدا دخلت الجنة وإن لم أصلّ وإلا دخلت النار وإن صليت . ومثال الثانى من يعمل لأجل الجنة ويقول لولا عملى لما دخلتها فهذه شريعة عاطلة ؛ ومعنى كونها عاطلة أن وجودها كعدمها لأن دخول الجنة بفضل الله للحديث الشريف ، والشريعة هي المأمورات التى أمر الله بها ، والمنهيات التى نهى الله عنها ، والطريقة الجرى على ذلك والعمل به ، والحقيقة نظره لبواطن الأمور وشهود الفعل من الله ، فقوله تعالى تعليما لعباده «إياك نعبد» مراعى فيه ظاهر الشريعة لأنه منظور فيه إلى الكسب الظاهرى الذى هو فعل العبد . وقوله «وإياك نستعين» مراعى فيه الحقيقة ، لأن فيه تبرى العبد من حوله وقوته وشهود أن الفعل لايتم إلا بمعونة الله وقوته .

والحاصل يجب على العبد أن يعمل بجميع ماأمره الله به ويجتنب جميع مانهاه الله عنه لكنه لايلاحظ أن عمله هو الذى ينجيه وهو الذى يدخله الجنة ولولاه لماحصل له ذلك بل يلاحظ بالعمل امتثال أمر الله بقوله «فاعبد الله مخلصا له الدين» وإن أثابه على عمله فهو محض فضل منه سبحانه وتعالى ، وإن عاقبه فمحض عدل منه سبحانه وتعالى و«لايسئل عما يفعل» . قال الحسن البصرى : علم الحقيقة ترك ملاحظة ثواب العمل لاترك العمل . وقال على كرم الله وجهه : من ظن أنه بدون الجهد يصل إلى الجنة فهو متمنّ ، ومن ظن أنه يبذل الجهد يصل إلى الجنة فهو متعنّ . (فان قلت) لى (فهل يفترض على أن أتعلم من علم التوحيد ماأنقض) أى ماأبطل وأفسد (به) من إثبات النسبة الايجابية أوالسلبية بين شيئين بطريق الاستدلال وتحرير الأدلة والتحقيق فيها (جميع ملل الكفر وألزمهم) أى

حُجَّةَ الْإِسْلَامِ وَأَنْقُضُ بِهِ جَمِيعَ الْبِدَعِ وَأَلْزِمُهُمْ حُجَّةَ السُّنَّةِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ، وَإِنَّمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ مَا تُصَحِّحُ بِهِ اعْتِقَادَكَ فِى أُصُولِ الدِّينِ لَا غَيْرُ

ألزم الكفار (حجة الإسلام) أى حجة للاسلام ، وهى الدليل ، وهو مايتوصل بصحيح النظر فيه إلى علم أو ظن فالمراد الأدلة الدينية التى أثبتت أمرا دينيا سواء كان علميا أو اعتقاديا فدخل فيها بعض الأدلة العقلية كقولنا : العالم متغير وكل متغير حادث ، فهذا دليل دينى مع أنه عقلى ، وسمى الدليل حجة لأنه يحج به الخصم ولذا سميت البينة حجة (و) ما (أنقض به جميع) ملل (البدع) الحادثة فأحتاج إلى معرفة أدلة تفصيلية عقلية وسمعية (وألزمهم حجة السنة) أى دليل أهل السنة الذى استدلوا به على وجوده تعالى وحدوث العالم (ف) أقول لك (اعلم) أيها السائل المريد للخير (أن هذا) أى التعلم لنقض المذكورات (فرض على الكفاية) بمعنى أنه إذا قام به البعض سقط أى حرجه عن الباقين : أى باقى المخاطبين بذلك على تفصيل ذكروه فى محله .

والحاصل أن فرض الكفاية لم ينظر للفاعل بالخصوص ، بل النظر إلى حصول ذلك الفرض من أى شخص كان كما أفاده بعض المحققين . قال الماوردى : وإنما يتوجه فرض الكفاية فى العلم على كل مكلف حر ذكر غير بليد مكفى ولو فاسقا لكن يسقط به إذ لاتقبل فتواه ، ويسقط بالعبد والمرأة على أحد وجهين وإن لم يدخلا .

واختلفوا هل الأفضل القائم بفرض العين أو القائم بفرض الكفاية . قال ابن السبكى فى جمع الجوامع : وزعمه ، يعنى فرض الكفاية الأستاذ وإمام الحرمين وأبوه أفضل من العين . قال شارحه المحقق لأنه يصان بقيام البعض به الكافى فى الخروج عن عهدته جميع المكلفين عن الاثم المرتب على تركهم له ، وفرض العين إنما يصان بالقيام به عن الاثم القائم به فقط ، والمتبادر إلى الأذهان وإن لم يتعرضوا له فيما علمت أن فرض العين أفضل لشدة اعتناء الشارع به بقصد حصوله من كل مكلف فى الأغلب انتهى ، وجرى العلامة ابن حجر فى التحفة على الأول وأقره فى الروضة خلافا للمحلى والمغنى والنهاية كما قاله الشيخ عبد الحميد الداغشتاني (وإنما يتعين عليك ماتصحح به اعتقادك فى أصول الدين) الذى تقدم ذكره (لاغير) أى لاغير المصحح لاعتقادك من سائر العلوم المدونة لأنه إما حرام أو مكروه أو مباح ، فالأول كالفلسفة والشعبذة والتنجيم والرمل وعلوم الطبائعيين ، وكذا السحر على الصحيح . والثانى كأشعار المولدين المشتملة على الغزل والبطالة . والثالث كأشعارهم التى ليس فيها سخف ولا شيء مما يكره ، كذا قاله الشمس الرملى فى شرحه على الزبد . والحق أن دخول لاعلى غير جائز خلافا لمن قال إن غير لاتنفى إلا بليس ، ويدل للجواز قول الشاعر من بحر الطويل :

جوابا به تنجو اعتمد فوربنا لعن عمل أسلفت لاغير تسئل

وَكَذٰلِكَ لاَ يَتعَيَّنُ عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ فُرُوعِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ وَدَقَائِقِهِ وَالإِتْيَانُ عَلَى جَمِيعِ مَسَائِلِهِ ، نَعَمْ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْكَ شُبْهَةٌ فِى أُصُولِ الدِّينِ تَخَافُ أَنْ تَقْدَحَ فِى اعْتِقَادِكَ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ حَلُّ تِلْكَ الشُّبْهَةِ بِمَا أَمْكَنَ مِنَ الْكَلاَمِ الْمُقْنِعِ . وَإِيَّاكَ وَالْمُمَارَاةَ وَالْمُجَادَلَةَ

(وكذلك) أى كما ذكر من فرض الكفاية كما قرره بعضهم (لايتعين عليك معرفة فروع علم التوحيد) أى الذى هو عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة مع الخصوم ، والاحاطة بمناقضة أدلتهم إجمالا وتفصيلا (ودقائقه) ومثلها المسائل التي لاتعم بها البلوى كما قاله الشمس الرملى (و) لايتعين (الإتيان على جميع مسائله) أى علم التوحيد (نعم) لايتعين عليك معرفة الفروع والمسائل (إن وردت) أى جاءت (عليك شبهة) أى شبهة اعتقاد وهى مايظن دليلا وليس بدليل ، سميت بذلك لاشتباه أمرها على الناظر ، والمراد بها هنا مايشمل الاعتراضات كالتى أوردها الملحدة على دليل أهل السنة الذى استدلوا به على حدوث العالم كما هو مقرر فى محله (فى أصول الدين تخاف) من (أن تقدح) أى تضرّ (فى اعتقادك فيتعين عليك حل تلك الشبهة) أى وردها (بما أمكن من) علم (الكلام المقنع) بوزن مكرم اسم فاعل من أقنع الرباعى : أي المكفى أو مصدر ميمى بمعنى قناعة مبالغة على حد زيد عدل وذلك لأن مقصود علم الكلام كما قاله المصنف رحمه الله : حفظ المعتقدات التى نقلها أهل السنة والجماعة من السلف الصالحين لاغير وما وراء ذلك فانه طلب لكشف حقائق الأمور ، وإفشاء سر الربوبية من غير طريقه : من إيراد نقل البرهان والحجج ، وجلب الكلام من كل جهة إلى أن قال رحمه الله : والاقتصاد فيه مايبلغ قدر مائة ورقة فى المقدار وهو الذى أو ردناه فى كتاب [الاقتصاد فى الاعتقاد] ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامى ، وذلك لاينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم فى الدين : قال العلامة مرتضى : وأما الآن فاشتغالهم الكثير فى المختصرة على أم البراهين لمحمد ابن يوسف السنوسى ، وهو مختصر مفيد ، وعلي شروحه للمصنف والشهاب القاسمى ، وعلي الجوهرة للشيخ ابراهيم اللقانى . وشروحه الثلاثة ، وشروح ولده الشيخ عبد السلام (وإياك) أى احذر تلاقيك (والمماراة) أى المعارضة والمخاصمة (والمجادلة) هذا من عطف الأعمّ على الأخصّ لأن المراد هو الطعن فى القول والتزييف له والتصغير لقائله ، وليس فى ذلك غرض سوى ذلك ولا يكون المراء إلا اعتراضا على كلام سبق بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضا ويتعلق باظهار المذاهب وتقريرها كما أفاده بعضهم خلافا للعلامة محمد بن عمير البقرى حيث قال : عطف المجادلة على المماراة عطف تفسير ، والجدال مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة ، والمذموم : الجدالُ لأجل المغالبة . وأما الجدال لإظهار الحق فهو محمود إن كان مبتغيا به وجه الله تعالى كما يأتى ؛ والمراء تقدم أنه تفسير للجدال . قال القرطبى فى مختصر الصحاح : ماريته

فَإِنَّهَا دَاءٌ مَحْضٌ لَا دَوَاءَ لَهُ ، فَاحْتَرِزْ مِنْهُ جُهْدَكَ فَإِنَّ مَنِ ارْتَدَاهُ لَمْ يُفْلِحْ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي كُلِّ قُطْرٍ دَاعٍ مِنْ دُعَاةِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَحُلُّ الشُّبَهَ وَيَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ وَيَسْتَقِلُّ بِهَذَا الْعِلْمِ وَيُصَفِّي قُلُوبَ أَهْلِ الْحَقِّ عَنْ وَسَاوِسِ الْمُبْتَدِعَةِ ،

أماريه مراء : جادلته اه . فعلم من هذا أن الجدال والمراء مترادفان فعطف أحدهما على الآخر من عطف المترادفين (فإنها) أى المماراة والمجادلة (داء محض) أى خالص (لادواء له فاحترز منه) أى اجتنب من الداء اجتناب السم القاتل (جهدك) أى فى طاقتك ، لأنه الذى رد الفقهاء كلهم وصرفهم بسببه إلى طلب المنافسة والإعجاب والكبر والمباهاة وغير ذلك مما بينه المصنف رحمه الله تعالى من غوائلها وآفاتها فى كتاب : ذم الغرور من إحيائه . وفى الحديث فى معنى قوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه » هم أهل الجدل الذين عناهم الله تعالى بقوله « فاحذرهم » وفى الحديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ثم قرأ « ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » قال المناوى : يعنى من ترك سبيل الهدى وركب سنن الضلال لم يمش حاله إلا بالجدل : أى الخصومة بالباطل . وقال القاضى فى تفسيره : المراد التعصب لتخريج المذاهب الفاسدة والعقائد الزائغة لا المناظرة لإظهار الحق واستكشاف الحال واستعلام ماليس معلوما عنده فإنه فرض كفاية خارج عما نطق به الحديث (فان من ارتداه) أى لبسه رداء (لم يفلح) أى لم يظفر بمقصوده ومثله من يحاول حية نظرا للين مجسها وحسن شكلها فيجعلها طوقا فى عنقه فتلدغه كما قاله الزبيدى (إلا أن يتغمده الله تعالى) أى يستره ويعمه ، والمراد منه لازمه وهو التعميم (برحمته) أى بإحسانه (ولطفه) أى رأفته ورفقه . قال الخطيب الشربينى: واللطف الرأفة ، والرفق وهو من الله تعالى التوفيق والعصمة . قال الجوهرى : الرأفة أشد الرحمة ، والرفق ضد العنف (ثم اعلم) أيها المخاطب ، وهى كلمة يؤتى بها للاعتناء بما بعدها وإنما قال رحمه الله تعالى اعلم ولم يقل اعرف اقتداء بقوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » (أنه) معمول اعلم والضمير للشأن وهو مافسر بجملة سواء كانت اسمية أو فعلية . قال فى الكافية :

ومضمر الشأن ضميرا فسرا بجملة كأنه زيد سرى

(إذا كان فى كل قطر) أى ناحية وجانب فهو بضم القاف والجمع أقطار (داع) أى مناد ومرشد إلى طريق الحق فى أهل تلك الناحية (من دعاة أهل السنة يحل) بضم الحاء وبابه رد كما فى المختار : أى يفتح ويفك (الشبه) بفتحتين جمع شبهة (ويرد) أى يدفع (على أهل البدع) والأهواء (ويستقل) أي يتحمل وينفرد (بهذا العلم) أى علم الكلام الذى ردهم به (ويصفى) بضم الياء : أى يخلص هذا الداعى (قلوب أهل الحق) بسبب ردهم (عن وساوس المبتدعة)

فَقَدْ سَقَطَ الْفَرْضُ عَمَّنْ سِوَاهُ ، كَذٰلِكَ لاَ يَلْزَمُكَ مِنْ مَعْرِفَةِ دَقَائِقِ عِلْمِ السِّرِّ وَجَمِيعِ شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ إِلاَّ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ عِبَادَتَكَ ، فَيَجِبُ عَلَيْكَ مَعْرِفَتُهُ لِتَجْتَنِبَهُ ، وَمَا يَلْزَمُكَ فِعْلُهُ كَالْإِخْلاَصِ وَالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ فَيَلْزَمُكَ مَعْرِفَتُهُ لِتُؤَدِّيَهُ ، وَأَمَّا مَاسِوَاهُ فَلاَ . وَكَذٰلِكَ لاَ يَلْزَمُكَ مَعْرِفَةُ سَائِرِ أَبْوَابِ الْفِقْهِ مِنَ الْبُيُوعِ وَالْإِجَارَاتِ وَالنِّكَاحِ وَالطَّلاَقِ وَالْجِنَايَاتِ ، إِنَّمَا كُلُّ ذٰلِكَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ .

ودعاويهم المخترعة (فقد سقط الفرض) جواب إذا (عمن سواه) أى سوى الداعى من أهل القطر هذا معنى فرض الكفاية المذكور (وكذلك) أى مثل عدم التعين عليك فى معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه كما أفاده بعضهم (لايلزمك من معرفة دقائق علم السر) وذلك كشهود الأسماء والصفات وشهود الذات وأسرار القرآن وأسرار المنع والجواز والعلوم الغيبية التى لاتكسب من معلم وإنما تفهم من الله (وجميع شرح عجائب القلب) وقد أشبع الكلام عليها مصنفنا رحمه الله فى أول الجزء الثالث من الإحياء (إلا ما يفسد عليك عبادتك فيجب عليك معرفته) كالرياء والعجب والسمعة وغير ذلك من الصفات المهلكات (لتجتنبه) وإلا وقعت فى الهلاك ، لأن من لا يعرف الشر يقع فيه لامحالة كذا قيل ؛ وهذا المفسد للأعمال مما تكثر شعبه ويطول تفريعه وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى فى سلوك طريق الآخرة ويأتى أكثر ذلك فى بابه من هذا الكتاب (وما يلزمك فعله) من الصفات المحمودة (كالإخلاص والحمد والشكر) لله رب العالمين (والتوكل) عليه (ونحو ذلك) كالتفويض والرضا والصبر (فيلزمك معرفته لتؤديه) أى تفعله بوجهه فتكون من الفائزين (وأما ماسواه) أى غير مايفسد عبادتك وما يلزمك فعله (فلا) تجب عليك معرفته بل هو فرض كفاية كما يأتى (وكذلك لايلزمك) أى لاتجب (معرفة سائر أبواب الفقه) أى باقيها أو جميعها من السؤر أو سور البلد كما أفاده ابن حجر (من) باب (البيوع والإجارات والنكاح والطلاق والجنايات ، إنما كل ذلك) أى المذكور من البيوع وما بعدها ، أى معرفتها (فرض على الكفاية) ومثل ذلك علم النحو وغيره من علوم العربية وأصول الفقه والحساب المضطر إليه فى المواريث وغير ذلك . وبحث الفخر الرازى أنه لايحصل فرض الكفاية فى اللغة والنحو إلا بمعرفة جمع يبلغون حد التواتر ، وعلله بأن القرآن متواتر ومعرفته متوقفة على معرفة اللغة فلا بد أن تثبت بالتواتر حتى يحصل الوثوق بقولهم فيما سبيله القطع ؛ ويرد بأن كتبها متواترة وتواتر الكتب معتد به كما صرحوا به ، فينبغى حصول فرضهما بمعرفة الآحاد كما اقتضاه إطلاقهم لتمكنهم من إثبات مانوزع فيه من تلك الأصول بالقطع المستند فى كتب ذلك الفن كما

فَإِنْ قُلْتَ هٰذَا الْقَدْرُ مِنَ عِلْمِ التَّوْحِيدِ هَلْ يَحْصُلُ بِنَظَرِ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ مُعَلِّمٍ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأُسْتَاذَ فَاتِحٌ وَمُسَهِّلٌ وَالتَّحْصِيلُ مَعَهُ أَسْهَلُ وَأَرْوَحُ ، وَاللهُ تعالى بِفَضْلِهِ يَمْتَنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَيَكُونُ هُوَ مُعَلِّمَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعالى . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الَّتِي هِيَ عَقَبَةُ الْعِلْمِ عَقَبَةٌ كَئُودٌ وَلٰكِنْ بِهَا يُنَالُ الْمَطْلُوبُ وَالْمَقْصُودُ ، نَفْعُهَا كَثِيرٌ ، وَقَطْعُهَا شَدِيدٌ ، وَخَطَرُهَا عَظِيمٌ ، كَمْ مَنْ عَدَلَ عَنْهَا فَضَلَّ ، وَكَمْ مَنْ سَلَكَهَا فَزَلَّ ، وَكَمْ مِنْ تَائِهٍ فِيهَا مُتَحَيِّرٌ ، وَكَمْ مِنْ حَبْرٍ مُنْقَطِعٍ ، وَكَمْ مِنْ سَالِكٍ قَطَعَهَا

قاله بعض المحققين نقلا عن شرح المنهاج لابن حجر (فان قلت) لى (هـذا القدر) الذى ذكرته (من علم التوحيد هل يحصل بنظر الانسان) أى فكره الموصل إليه (من غير) واسطة (معلم) أو لا يحصل ذلك ؟ (ف) أقول لك أيها السائل (اعلم) أرشدك الله أن هذا يختلف باختلاف الناس ، فقد تحصل لبعضهم معرفة العقائد بالقاء الله تعالى فى قلبه بدون نظر واستدلال بنوع يسر وسهل ، وقد لاتحصل له أصلا ، وقد تحصل لبعض آخر بنوع عسر فى زمان طويل . وبالجملة (إن الأستاذ) أى المعلم للعلوم ، وأصل معنى الأستاذ الماهر بالشىء ، وهى كلمة أعجمية ، لأن السين والذال لا يجتمعان فى كلمة عربية وهمزته مضمومة كما أفاده فى المصباح (فاتح) للمريد (ومسهل) له (والتحصيل) أى تحصيل علم التوحيد وغيره (معه) أى مع إرشاد الأستاذ (أسهل) من غير إرشاده (وأروح) أى أعون للراحة للمتعلم (والله تعالى بفضله يمتن على من يشاء من عباده) بأن ألهمه الله تعالى معرفة العقائد بدون معلم كما وقع لبعض الخواص (فيكون هو معلمهم سبحانه وتعالى . ثم اعلم أن هذه العقبة) العظيمة لأنها مدار الكل (التي هى عقبة العلم عقبة كئود) أى صعبة المسالك (ولكن بها) أى بقطعها ومجاوزتها (ينال المطلوب والمقصود) وهو الخلاص والعبادة (نفعها كثير وقطعها شديد وخطرها عظيم ، كم من) أى شخص (عدل) أى تجاوز (عنها) أى هـذه العقبة ، يعنى لم يتعلم من العلم (فضل) أى ضاع وهلك ولم يهتد للصواب (وكم من سلكها) من غير اجتهاد واحتياط (فزل) قدمه فى المسلك (وكم من تائه) أى ضالّ عن الطريق ، هو اسم فاعل من تاه الإنسان في المفازة يتيه تيها : ضل عن الطريق ، كذا فى المصباح (فيها متحير) أى الذى لم يهتد لوجهه (وكم من حسير) أى ضعيف متلهف . وفى نسخة : وكم من حائر ، وفى المختار : حار يحار حيرة وحيرا بسكون الياء فيهما تحير فى أمره فهو حيران وقوم حيارى ، وحيره فتحير ورجل حائر بائر إذا لم يتجه لشىء ، وفى نسخة : وكم من جسير بالجيم ، وفى المختار جسر على كذا أقدم يجسر بالضم جسارة بالفتح وتجاسر أيضا ، والجسور بالفتح : المقدام اهـ . كما أفاده فى سراج السالكين (منقطع) عن الوصول إلى مقصوده وهو باق فى هذه العقبة (وكم من سالك قطعها) بتوفيق الله

فى مدَّةٍ يَسِيرَةٍ وَآخَرُ مُتَرَدِّدٌ فِيهَا سَبْعِينَ سَنَةً ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمَّا نفعُهُ فَعَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ شِدَّةِ الْحَاجَةِ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ وَبِنَاءِ أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلِّهِ عَلَيْهِ لَاسِيَّمَا عِلْمُ التَّوْحِيدِ وَعِلْمُ السِّرِّ .

وتأييده (فى مدة يسيرة ، وآخر متردد فيها سبعين سنة والأمر كله) من إسراع السالك وعدمه وسلامته وعدم ذلك (بيد الله) أى بقدرته (عز وجل) ثم فصل المصنف رحمه الله القول المذكور بعد الاجمال بقوله (أما نفعه) أى العلم (فعلى ماذكرنا) أى الذى ذكرناه (من شدة الحاجة للعبد إليه و) من (بناء أمر العبادة كله عليه) لأن العمل لايسمى عبادة إلا بالعلم (لاسيما علم التوحيد) أى إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى (وعلم السر) أى علم دقائق آفات الأعمال وأحوال القلب كما قرره بعضهم .

﴿ تنبيه ﴾ لامن لاسيما نافية للجنس ، وسى كمثل وزنا ومعنى اسمها .وخبرها محذوف وجوبا أى ثابت هذا هو المشهور ، وقيل إن مافى حالة رفع الاسم بعدها خبرها ورد بأنه يلزم عليه كف سىّ عن الإضافة من غير كاف ومانع ، وأصله سوى بكسر فسكون فعينه واو ، ودليله قولهم فى تصريف مادته تساويا تساوينا ومتساويان وتثنيته سيان ، واستغنوا بتثنيته عن تثنية سواء فلم يقولوا سوءآن إلا شاذا كتموله :

فيارب إن لم تجعل الحب بيننا سواءين فاجعل لى على حبها جلدا

فقلبت الواو من سوى ياء لاجتماعها مع الياء وسبق أحدهما بالسكون وأدغمت فى الياء ، ويجوز فى الاسم الواقع بعد ما الجر والرفع مطلقا : أى نكرة أو معرفة والنصب إن كان نكرة ، وقد روى بالأوجه الثلاثة قول امرىء القيس من بحر الطويل :

ألا رب يوم صالح لك منهما ولا سيما يوم بدارة جلجل

والجر أرجحها ، وهو على إضافة سى إليه ، وما زائدة بينهما مثلها فى « أيما الأجلين » . وأما الرفع فهو على أنه خبر لمبتدأ محذوف وما موصولة والجملة بعدها صلة لامحل لها من الإعراب أو نكرة موصوفة بالجملة بعدها : أى فهى فى محل جر والتقدير على اللف والنشر المرتب ولا مثل الذى هو علم التوحيد ولا مثل شىء هو علم التوحيد وما مضاف إليه فعلى كل من وجهى الجر والرفع تكون فتحة سى فتحة إعراب ، لأن اسم لاالنافية للجنس إذاكان مضافا يكون منصوبا ، وأما نصب النكرة بعدها فعلى التميز وماكافة عن الإضافة والفتحة فتحة بناء مثلها فى لارجل هذا نصب النكرة بعدها ، وأما المعرفة فلا يجوز نصبها عند الجمهور وجوز بعضهم نصبها بجعل ما كافة ولا سيما بمنزلة إلا الاستثنائية فما بعدها منصوب على الاستثناء كما نقله فى حواشى الأشمونى ، وقد نظم بعضهم حاصل ماذكر بقوله :

وما يلى لاسيما إن نكرا فاجرر أو ارفع ثم نصبه اذكرا
فى الجر مازيدت وفى رفع ألف وصل لها قل وتنكير وصف

فَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : يَا دَاوُدُ تَعَلَّمِ الْعِلْمَ النَّافِعَ ، فَقَالَ إِلٰهِي : وَمَا الْعِلْمُ النَّافِعُ ؟ فَقَالَ : أَنْ تَعْرِفَ جَلَالِي وَعَظَمَتِي وَكِبْرِيَائِي وَكَمَالَ قُدْرَتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِنَّ هٰذَا الَّذِي يُقَرِّبُكَ إِلَيَّ .

وعند رفع مبتدأ قدر وفى ... رفع وجر أعربن سى تفى
وانصب مميزا وقل لاسيما ... يوم أحوال ثلاث فاعلما
والنصب إن يعرف اسم فامنعا ... وبعد سىّ جملة فوقعا
أجاز ذا الرضى ولا تحذف لا ... من سيما وسى خفف تفضلا
وامنع على الصحيح الاستثنا بها ... ثم الصلاة للنبى ذى إليها

(فلقد روى أن الله تعالى أوحى إلى داود) بن إيشا (عليه السلام فقال : يا داود تعلم العلم النافع فقال) داود يا (إلهى وما العلم النافع ؟ فقال) جل وعز هو (أن تعرف جلالى) أى اتصافى بصفة الكمال جلالية وجمالية ، وذلك لأنها من الصفات الجامعة وهو المراد هنا ، وقيل يطلق الجلال على مايقابل الجمال كقولهم . هذه الصفة صفة جلال وهذه الصفة صفة جمال ، فيكون المراد بصفة الجلال الصفة الدالة على البطش والقهر مثلا كجبار وقهار ومنتقم ، والمراد بصفة الجمال الصفة الدالة على البسط كباسط ورحمن وغفور ، إلى غير ذلك كما أفاده الدسوقى (وعظمتى) أى عظمة قدرى عن الحد والمقدار . قال السيد مرتضى : العظمة كون الشىء فى نفسه كاملا شريفا مستغنيا (وكبريائى) عن مشاهدة الحواس وإدراك العقول ؛ والكبرياء كناية عن كمال الذات ، وأعنى بكمال الذات كمال الوجود وكمال الوجود يرجع إلى الشيئين : أحدهما دوامه أزلا وأبدا . والثانى أن وجوده هو الوجود الذى يصدر عنه وجود كل موجود ، كذا قاله السيد مرتضى . وقال الشيخ شرف الدين التلمسانى رحمه الله تعالى قال القاضى : وهو مشعر بثبوت جميع الصفات النفسية والمعنوية وانتفاء النقائص . قال عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى : «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار» كذا فى الجمل (و) أن تعرف (كمال قدرتى على كل شىء) من الممكنات (فإن هذا) أى المذكور من المعرفة هو (الذى يقربك إلىّ) أى قربا معنويا ، وهذا الحديث على أن العلم والمعرفة متحدان وهو الأصح كما قاله الشرقاوى فى شرحه على السنوسية خلافا لصاحب البصائر فانه فرق بين العلم والمعرفة حيث قال والفرق بينهما عند المحققين أن المعرفة هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه فلا يطلقون المعرفة علىمدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالما بالله وبالطريق الموصل إليه وبآفاتها وقواطعها وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة ، فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صدق الله فى معاملاته ، ثم أخلص له فى عقوده ونياته ، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته ، ثم صبر على أحكامه فى نعمه وبلياته ، ثم دعا الله على بصيرة بدينه وإيمانه ، ثم جرد

وَعَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ : مَا يَسُرُّنِي أَنْ لَوْ مِتُّ طِفْلاً وَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ وَلَمْ أَكْبَرْ فَأَعْرِفَ رَبِّي ، فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَشْيَةً وَأَكْثَرُهُمْ عِبَادَةً وَأَحْسَنُهُمْ فِي اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَصِيحَةً .

الدعوة إليه وحده بمـا جاء به رسول الله صلي الله عليه وسلم ولم يشهد بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقايسهم ومعقولاتهم ولم يزن بها ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهذا الذى يستحق اسم العارف على الحقيقة ، وإذا سمى به غيره فعلى الدعوى والاستعارة انتهى . وهذا المذكور هو العلم النافع . وأما الذى أكب الناس عليه وسموه علما فهو فضول لا يعنيهم بل يضرهم فى الدين وذلك كعلم السحر والنجوم والرمل ، وبالجملة إن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف هو العلم الذى يؤدى صاحبه إلى الخوف والخشية وملازمة التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الإيمان وتوافق الأسرار والاعلان إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها وإيثار الآخرة عليها والموالاة فى الله والمعاداة فيه والحرص على التفطن للأسباب الباعثة له على الاستقامة ولزوم الأدب بين يدى الله فيراعيها حفظا وطلبا ومعرفة الأسباب المضادة له عن ذلك فيرفضها رفضا وهربا إلى غير ذلك من الصفات العلية والمناحى السنية ، فبهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية ؛ فاذا خلا طالب العلم عنها أو عن بعضها ، فإن كان ما يطلبه علما حقيقيا كان حجة عليه ، وإن كان رسميا كان وبالا واصلا إليه والعياذ بالله من ذلك ، كذا قاله العلامة الرندى (و) روى (عن علىّ) بن أبى طالب (كرم الله وجهه) أى ذاته فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل وخصّ الوجه لأنه أشرف الأعضاء كما هو ظاهر ؛ وإنما يقال فى حقه كرم الله وجهه لأنه لم يسجد لصنم قط مع إسلامه صغيرا ، فلا يرد أبو بكر رضى الله عنه مع أنه لم يسجد لصنم أيضاً . ويقال فى حقه رضى الله عنه لا كرم الله وجهه لأنه أسلم كبيرا كما أفاده العلامة العنانى . وقيل إنما قيل فيه : أى فى علىّ ذلك : أى كرم الله وجهه لأنه لم ير عورته قطّ (أنه قال : ما يسرنى) بضم السين : أى ما يفرحنى (أن لو مت طفلا) أى صغيرا فاعل يسرنى (وأدخلت الجنة) بضم الهمزة : أى أدخلنيها ربى (ولم أكبر) بالفتح من كبر فى سنه كعلم . وأما كبر يكبر بالضم ففى القدر (فأعرف ربى) أى فيفوتنى معرفة ربى وذلك مما لا أحب أصلا (فان أعلم الناس بالله أشدهم خشية) له (وأكثرهم عبادة وأحسنهم فى الله) أى لأجله (سبحانه وتعالى) لا لغرض من الأغراض الفاسدة (نصيحة) أى إرادة الخير للعباد ، ويدل على هذا قوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقوله صلى الله عليه وسلم « أنا أعرفكم بالله وأشدّكم لله خشية » كما قاله أحمد بن عاصم . وقال آخر: من عرف الله ضاقت عليه الأرض بسعتها . وقال غيره : من عرف الله اتسع عليه كل ضيق ، ولا تنافى بين هذين الكلامين فإنه يضيق عليه كل مكان لا تساعه فيه على شأنه ومطلوبه ويتسع له ما ضاق على غيره لأنه ليس فيه ولا هو مساكن له بقلبه ، فقلبه غير محبوس فيه . والأول بداية المعرفة

وَأَمَّا شِدَّتُهَا فَابْذُلْ نَفْسَكَ فِى الْإِخْلَاصِ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ وَلْيَكُنِ الطَّلَبُ طَلَبَ دِرَايَةٍ لَا طَلَبَ رِوَايَةٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَرَ عَظِيمٌ فَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ وَيُجَالِسَ بِهِ الْأُمَرَاءَ وَيُبَاهِيَ بِهِ النُّظَرَاءَ وَيَتَصَيَّدَ بِهِ الْحُطَامَ

والثاني فى غايتها التى يصل إليها العبد . وقال آخر : من عرف الله تعالى صفا له العيش وطابت له الحياة وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله . وقال غيره : من عرف الله قرت عينه بالله وقرت به كل عين ، ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حسرات ، ومن عرف الله لم تبق له رغبة فيما سواه . وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة إذا نظر فيها رأى فيها الغيب الذى دعى إلى الايمان به فعلى قدر جلاء تلك المرآة يتراءى له فيها سبحانه والدار الآخرة والجنة والنار والملائكة والرسل كما قيل من بحر الوافر :

إذا سكن الغدير على صفاء ... فيشبه أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا مراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى ... يرى فى صفوها الله العظيم

كذا أفاده الزبيدى (وأما شدتها) أى عقبة العلم فهى كثرة الآفات والعوائق ومن ذلك عدم الاخلاص فى طلبه وحينئذ (ف)ا جتهد و (ابذل) أى أعط (نفسك) ظاهرا وباطنا (فى الإخلاص في طلب العلم وليكن الطلب طلب دراية) أى معرفة ، بأن تنوى بتحصيله إزالة الجهل عن نفسك وعن سائر الجهال ، وإحياء الدين ، وإبقاء الاسلام بالعلم والدار الآخرة ، ورضا الله تعالى ، وتنوى بذلك الشكر على نعمة العقل ونعمة صحة البدن كما أفاده بعضهم (لا طلب) مجرد (رواية) أى الحمل والنقل من العلماء لتخبر الناس ، ولذا قيل : كن عالما ولا تكن وعاء للعلم ، وإن كانت نيتك بالطلب كذلك أى الدراية والهداية ، فان الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت ، وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت وعلامة ذلك القصد أن يكون بحث العلم فى الخلاء أحب اليك من أن يكون فى الملأ ، وألا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك ، كذا في شرح البداية للنووى الجاوى . وأخرج أبو نعيم فى الحلية من طريق عون بن عبد الله بن مسعود قال : قال عبد الله بن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية لكن الخشية . (واعلم أن الخطر) أى الخوف فى عقبة العلم (عظيم فمن طلب العلم ليصرف) أى يميل ويطلب (به وجوه الناس) أى شرفاءهم بالإقبال (إليه ويجالس به) أى بسبب العلم (الأمراء) جمع أمير مع طلب الإكرام عندهم (ويباهى) أى يفاخر (به النظراء) أى الأمثال جمع نظير وهو من يساويك فى الدرجة كما أفاده بعضهم (ويتصيد) بفتح الياء والصاد مع الياء المشددة كما فى القاموس : وهو فى الأصل الخروج لطلب الصيد ، والمراد هنا أنه يطلب (به) أى بالعلم (الحطام) بالضم : أى متاع الدنيا

فَتِجَارَتُهُ بَائِرَةٌ وَصَفْقَتُهُ خَاسِرَةٌ . قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلم : « مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُفَاخِرَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ » .

قَالَ أَبُو يَزِيدَ الْبَسْطَامِي رَحِمَهُ اللهُ : عَمِلْتُ فِي الْمُجَاهَدَةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً فَمَا وَجَدْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْعِلْمِ وَخَطَرِهِ . وَإِيَّاكَ أَنْ يُزَيِّنَ لَكَ الشَّيْطَانُ فَيَقُولَ لَكَ : إِذَا كَانَ قَدْ وَرَدَ هٰذَا الْخَطَرُ الْعَظِيمُ فِي الْعِلْمِ فَتَرْكُهُ أَوْلَى ، فَلَا تَظُنَّنَّ ذٰلِكَ فَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم أنَّهُ قَالَ : « أُطْلِعْتُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ

(فتجارته) أى تصرفه فيه (بائرة) أى هالكة لا خير فيها ، وهذا كناية عن عدم النفع بذلك العلم (وصفقته) أى بيعته (خاسرة) أى ناقصة ، لأن الدنيا فى مقابلة ثواب الآخرة لا قيمة لها لحقارتها وخستها (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من طلب العلم) أى لا لله بل (ليفاخر به (العلماء أو ليمارى) أى يجادل (به السفهاء) الجهال جمع سفيه : قليل العقل ، والمراد به الجاهل كما تقرر (أو ليصرف به) أى يميل بالعلم (وجوه الناس) أى ساداتهم وشرفاءهم كما فى المصباح . لكن المراد هنا كما قاله صاحب السراج العوام ، أو الطلبة بالإقبال (إليه) أى ليعظموه أو يعطوا المال به (أدخله الله النار) . الظاهر أن هذا إخبار بأنه استحق دخول النار ، ويحتمل أن يكون جملة دعائية ، كذا فى سراج السالكين ، وهذا الحديث رواه الترمذى عن كعب بن مالك الأنصارى الخزرجى ، ورواه ابن ماجه عن ابن عمر (قال) سلطان العارفين (أبو يزيد) طيفور بن عيسى (البسطامى) بالفتح نسبة إلى بسطام : بلد بطريق نيسابور (رحمه الله) تعالى رحمة واسعة ؛ وكان جده مجوسيا أسلم ، وكانوا ثلاثة إخوة : آدم وطيفور وعلى ، وكلهم كانوا زهادا عبادا ، وأبو يزيد أجدهم حالا . قيل مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين ، ذكره القشيرى فى الرسالة (عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم وخطره) أى خطر متابعته بالأعمال لأنهما لا يتمان ولا يكملان للعبد إلا بمخالفة هواه واجتهاده فى تقواه ، وفى ذلك من المشقة ما لا يخفى ، لا سيما العلم المتعلق بالقلب من الرياء والعجب والكبر وغيرها من الأخلاق الذميمة ، والورع والزهد والإخلاص وغيرها من الأخلاق الحميدة كما ذكره شيخ الإسلام زكريا . قال المصنف رحمه الله تعالى (وإياك) أى احذر (أن يزين لك الشيطان فيقول لك إذا كان) أى الشأن (قد ورد هذا الخطر العظيم فى العلم) أى من قول أبى يزيد المذكور (فتركه) أى العلم (أولى) أى أفضل من طلبه . قال رحمه الله تعالى (فلا تظنن ذلك) أى ترك العلم أولى (فلقد روى عن) سيدنا (رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أطلعت) بضم الهمزة وكسر اللام : أى أطلعنى ربى (ليلة المعراج)

عَلَى النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ مِنَ الْمَالِ ؟ قَالَ لاَ : بَلْ مِنَ الْعِلْمِ فَمَنْ لاَ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ لاَ يَتَأَتَّى لَهُ أَحْكَامُ الْعِبَادَاتِ وَالْقِيَامُ بِحُقُوقِهَا كَمَا يَنْبَغِي ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً عَبَدَ اللهَ سُبْحَانَهُ عِبَادَةَ مَلاَئِكَةِ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَشَمِّرْ

أي الإسراء وكان يقظة بالروح والجسد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بشهادة الكتاب والسنة وإجماع القرن الثانى من الأمة ومن بعدهم ، ثم إلى السماء بالأحاديث المشهورة ، ومنها إلى الجنة ، ثم إلى المستوى أو العرش أو طرف العالم بخبر الواحد وذلك سنة إحدى عشر من البعثة ، وقيل قبل الهجرة بسنة ، قيل فى شهر ربيع الأول ، وقيل فى رمضان ، وقيل فى رجب وهو المشهور ، وعليه عمل الناس ، وكان ليلة الاثنين السابع والعشرين منه ، والقصة قد أفردت بالتأليف فلا نطيل هنا بذلك .

وفى السيرة الحلبية : أن صخرة بيت المقدس لما أراد جبريل عليه السلام أن يربط بها البراق لانت له وعادت كهيئة العجين فخرقها وربط البراق بها . قال الإمام أبو بكر بن العربى فى شرح الموطأ : إن صخرة بيت المقدس من عجائب الله تعالى فانها صخرة قائمة فى وسط المسجد الأقصى قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها إلا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فأعلاها من جهة الجنوب قدم النبي صلى الله عليه وسلم حين صعد عليها ، ومن الجهة الأخرى أصابع الملائكة التى أمسكتها لما مالت ، وتحتها المغارة التى انفصلت من كل جهة فهى معلقة بين السماء والأرض ، وامتنعت لهيبتها من أن أدخل تحتها ، لأنى كنت أخاف أن تسقط على بسبب ذنوبى ، ثم بعد مدة دخلتها فرأيت العجب العجاب تمشى فى جوانبها من كل جهة ، فتراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شىء ولا بعض شىء ، وبعض الجهات أشد انفصالا من بعض ، كذا نقله بعض المحققين (على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء قالوا) أى الصحابة رضوان الله عليهم (يا رسول الله من المال) أى أيكون الفقر منه (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا) أى لا يكون من ذلك (بل من العلم) أى المحمود منه كما هو ظاهر . قال المصنف رحمه الله تعالى (فمن لا يتعلم العلم لا يتأتى) أى لا يتيسر ولا يسهل ولايمكن (له إحكام العبادات) بكسر الهمزة :أى إتقانها وإثباتها (و) لا يتأتى (القيام بحقوقها) وشروطها (كما ينبغى) أى على الوجه الذى ينبغى (ولو أن رجلا عبد الله سبحانه عبادة) بالنصب على نزع الخافض : أى كعبادة (ملائكة السموات) السبع (بغير علم كان من الخاسرين) أى الذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يرجون به فضلا ، فضلوا هلاكا لأن عمله لا يسمى عبادة وطاعة حقيقة ، وإنما هو بحسب الصورة والظاهر ، وإلا فالعلم مدار العبادة ولولاه لم تكن كما علمت (فشمر) أى اجتهد وهيئ ، وفى نسخة فتشمر : أى تهيأ

فى طَلَبِ الْعِلْمِ بِالْبَحْثِ وَالتَّلْقِينِ وَالتَّدْرِيسِ وَاُجْتَنِبِ الْكَسَلَ وَالْمَلَالَ وَإِلاَّ فَأَنْتَ فى خَطَرِ الضَّلَالِ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(ثُمَّ جُمْلَةُ الْأَمْرِ) أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ فى دَلَائِلِ صُنْعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمْعَنْتَ النَّظَرَ عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ وَلَنَا إِلٰهًا قَادِرًا عَالِمًا حَيًّا مُرِيداً سَمِيعاً بَصِيرًا

(فى طلب العلم بالبحث) وهو فى الأصل النبش فى الأرض بعود ، والمراد به هنا التفتيش والتتبع فى العلم باثبات النسبة الإيجابية أو السلبية بين شيئين بطريق الاستدلال (والتلقين والتدريس ، واجتنب الكسل) بفتحتين : أى التثاقل فإنه انحطاط عن الرتبة العلية (والملال) بفتح الميم : أى السآمة فى طلب العلم (وإلا) أى إن لم تشمر فيه ولم تجتنبها (فأنت فى خطر الضلال والعياذ بالله عز وجل) من ذلك ؛ وبالجملة لا تكن عن العلوم قاعدا تاركا لها كسلا أو تكبرا عن تعلم العلم ممن دونك سنا أو أقل منك منزلة فى الدنيا ، فإن ذلك من الأمور القاطعة عن الخير ، الموقعة فى المهالك ، أعاذنا الله من ذلك ، بل جد واجتهد فى الطلب فإن العلم لا ينال إلا بالتعلم ، فشمر له عن ساعد الجد والاجتهاد ، وقم له على قدم العناية والسداد ، فإن ذلك من سبيل الرشاد ؛ فقد روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « متعلم كسلان » يعنى لا يجتهد فى طلب العلم « أفضل عند الله من سبعمائة عابد مجتهد » وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب العلم وأدركه كان له كفلان من الأجر ، ومن طلب العلم ولم يدركه كان له كفل من الأجر » وقال عليه الصلاة والسلام « من كانت همته فى طلب العلم سمى فى السماء نبيا ، وكتب الله له بكل شعرة فى جسده ثواب نبى ، وكأنما أعتق بكل قدم رقبة ، وبنى الله له بكل عرق فى جسده مدينة فى الجنة ، ويدخل مع النبيين بغير حساب » . وقال بعضهم : لا يسود حاسد ، ولا ينال الخير راقد ، ولا يحصل العلوم قاعد ، ومن يئس من رحمة الله فهو جاحد ؛ فإن الله تعالى هو الوهاب ، يهب فى الساعة الواحدة من الخيرات لمن يشاء ما لا يهبه لغيره فى طول الزمان ، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بزيادة إحسانه وفضله ، وبعفوه وغفرانه ، وهو رءوف رحيم ، جواد كريم ، كذا قاله العلامة محمد بن عمر البقرى رحمه الله تعالى (ثم جملة الأمر) أى ثم أقول لك : حاصل الكلام على الأمر المقصود والمطلوب بعد ما تقدم من المقالة (أنك إذا نظرت) أى أعملت فكرك (فى دلائل صنع الله عز وجل) على وحدانيته (وأمعنت النظر) أى بالغت وأكثرت التأمل والتدبر (علمت) علما يقينا (أن لك ولنا إلها) أى معبودا بحق (قادرا) على كل شىء من الممكنات (عالما) بجميع الموجودات ، ومحيطا بكل المخلوقات على التفصيل ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء (حيا) بلا زوج كاملا مطلقا (مريدا) لأفعاله ، فلا موجود إلا هو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته ، فهو المبتدئ المعيد ، الفعال لما يريد (سميعا بصيرا) بلا جارحة وحدقة ولا أذن ، لا يعزب عن رؤيته

مُتَكَلِّمًا مُنَزَّهًا عَنْ حُدُوثِ الْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ مُقَدَّسًا عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَآفَةٍ لَا يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ وَلَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ وَلَا تَتَضَمَّنُهُ الْأَمَاكِنُ وَالْجِهَاتُ ،

هواجس الضمير ، وخفايا الفهم والتفكير ، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (متكلما) بكلام ليس بصوت ولا حرف ، بل بكلام قديم لا أول له ولا آخر له . وأما معنى قوله تعالى «وكلم الله موسى تكليما» : أى أسمعه الله كلامه القديم بجميع أعضائه من جميع الجهات ، وكان جبريل معه فلم يسمع ما كلم الله به موسى ؛ وسمع كلامه القديم أيضا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وليس الله فى مكان ولا جهة ، بل المكان للسامع الحادث ، نسمع كلامه القديم أيضا فى القيامة والجنة بغير صوت ولا حرف ولاقرب ولا بعد، كما نرى ذاته تعالى فى الآخرة من غير شبه ولا مثل ولا داخل الجنة ولا خارجا عنها (منزها) أى مبرأ (عن حدوث الكلام والعلم والإرادة ، مقدسا عن كل نقص وآفة لا يوصف) تعالى (بصفات المحدثين) بفتح الدال : أى من الأجسام والأعراض وغيرهما من صفات المخلوقين (ولا يجوزعليه ما يجوز على المخلوقين) أى من كل حركة وسكون ، بل هو تعالى قديم لم يزل ، أزلى ليس لوجوده أول ؛ بل هو أول كل شىء ، وقبل كل ميت وحى (ولا يشبه) جل وعز (شيئا من خلقه ولا يشبهه شىء) من خلقه والمشابهة تتحقق من الطرفين ، إذ العالم جواهر وأعراض ، والله تعالى خالقها كلها ، بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثله شىء ، وكيف يشبه المخلوق خالقه والمقدورمقدره والمصور مصوره ، والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه ، فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته . قال العلامة القارى فى أماليه :

وما التشبيه للرحمن وجها فصن عن ذاك أصناف الأهالى

(ولا تتضمنه) أى لا تحتويه وفي نسخة ولا تضمه : أى لا تجمعه (الأماكن) جمع مكان (والجهات) أى ليست ذاته المقدسة في جهة من الجهات الست ولافي مكان من الأمكنة فإن الجهة وهى منتهى الإشارة ومقصد المتحرك بحركته من حيث حصوله ، فهى من ذوات الأوضاع المادية ، ومرجعها إلى نفس الأمكنة أو حدودها وأطرافها ، وهى تنقسم بحسب المشير إلى ستة إما فوق وإما أسفل وإما يمين أو شمال أو قدام أو خلف ، وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين : أحدهما يعتمد على الآخر ويسمى رجلا ، والآخر يقابله ويسمى رأسا فحدث اسم الفوق لما يلى جهة الرأس : أى معنى الفوق ما حاذى رأسه من جهة السماء ، واسم الأسفل لما يلى جهة الأرض مما يحاذى رجله ، وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى فى الغالب فحدث اسم اليمين الأقوى : أى اليمين ما يحاذى أقوى يديه غالبا ، والشمال لما يقابله ، وتسمى الجهة التى تلى اليمين يمينا والأخرى شمالا ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه ، فحدث له

وَلاَ تَحُلُّهُ الْحَوَادِثُ وَالآفاتُ ، وَنَظَرْتُ فى مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ صلى اللهُ عليه وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَآيَاتِهِ وَأَعْلاَمِ نُبُوَّتِهِ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ

اسم القدام للجهة التى يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها ، فالجهات حادثة بحدوث الإنسان فقبل خلق العالم لم يكن فوق ولا تحت ، إذ لم يكن ثم حيوان فلم يكن ثم رأس ولا رجل ولاظهر وهى مع ذلك اعتبارية لا حقيقية لا تتبدل ، ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة المعروفة ، وكذا كل حادث ، بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة ، فكيف كان تعالى فى الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة ، وهو تعالى كان موجودا فى الأزل ولم يكن شىء من الموجودات ، لأن كل موجود سواه حادث ، ولذلك قال العلامة القارى فى أماليه :

نسمى الله شيئا لا كالاشيا وذات عن جهات الست خالى

وفى المواقف أن الرب تعالى لو كان فى جهة ومكان لزم قدم المكان ، وقد برهنا : أى معاشر أهل الحق أن لا قديم سوى الله تعالى ، وعليه الاتفاق : أى من أهل الحق ، وفيه رد على المعتزلة والقدرية فإنهم قالوا إن الله فى كل مكان ، وعلى المشبهة والكرامية قالوا : إنه تعالى على العرش سبحانه وتعالى وهو رب العرش العظيم : أى خالقه وحامله ، فإنه قيوم العلويات والسفليات : أى قائم بتدبيرهما وما فيهما كما حققه بعض المحققين (ولا تحله) أى لا تدخله ولا تقعه (الحوادث) والتغيرات (والآفات) وجميع الصفات التى لا تليق به تعالى (و) إذا (نظرت فى معجزات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وآياته وأعلام نبوّته) جمع علم بمعنى العلامة : أى على صدقه ، والمعجزة هى الآية مع التحدى بها ، فكل معجزة آية لا العكس ، ثم المعجزة مأخوذة من العجز المقابل للقدرة ، وحقيقة الإعجاز إثبات العجز فاستعير لإظهاره ، ثم أسند مجازا إلى ماهو سبب للعجز ، ثم جعل اسما فقيل معجزة ، والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما فى الحقيقة أوللمبالغة كما فى العلامة . وحقيقة المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى موافق للدعوى ، سالم من المعارض على يد مدعى النبوة ، وقد ذكرنا مثله فيما مر ، ومعجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحصى : منها انشقاق القمر له فلقتين بمكة ؛ وقيل بمنى ، ومنها تسبيح الحصى ، ونطق العجماء ، وانفجار الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، ومن آياته الظاهرة التى تحدى بها مع كافة العرب القرآن العظيم فانهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبه ونهبه ولم يقدروا على معارضته بمثله ولو أقصر سورة منه .

[غريبة] أكرم الله موسى عليه السلام بفلق البحر فى الأرض ، وأكرم محمدا صلى الله عليه وسلم ففلق له القمر فى السماء ، فانظر إلى فرق مابين السماء والأرض كما فى تفسير الرازى فى سورة الكوثر كما ذكره الزبيدى (علمت) قطعا بلا شك ولا ريب (أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم) إلى الخلق أجمعين بالهدى ودين الحق (وأمينه) أى مأمونه (على) سر (وحيه)

أى وحيه الخفي ، والمراد بوحيه الأحكام التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت خفية علينا ولم تظهر إلا علي يده صلى الله عليه وسلم ، وعلمت أيضا أنه صلى الله عليه وسلم خاتم للنبيين وناسخ لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين وغيرها .

ثم اعلم أن العلم بثبوت الشيء فرع تصور ذلك الشيء ، وتصور ذلك الشيء إن كان بحسب اسمه فلا يتوقف علي وجوده ، وإن كان بحسب حقيقته وماهيته فيتوقف علي وجوده ، والتصديق المفروض هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله المفهوم من سياق المصنف رحمه الله ، ولا بد لحصول هذا من العلم بوجود هذا الموضوع وتعينه إذ هو شخص ، وتصورالشخص إنما هو بتعيناته الشخصية ، فلا بد من الكلام على مابه يتعين شخصا ، وذلك بالاستقراء من حيث نسبه ومولده ووفاته وزمانه وأسماؤه الموجبة لشهرته وشمائله التى امتاز بها عن غيره، فإذا كان كذلك فلابد من ذكر ذلك على الايجاز والاختصار ليكمل المعتقد من كل الوجوه ، وقد ذكر القرافى فى ذخيرته ، وأشار إليه فى شرح الأربعين أن جميع الأحوال المتعلقة بالرسول كلها فضلا عما به يتعين ترجع إلى العقائد لا إلى العمل ، فيجب البحث عن ذلك لتحصيل كال المعتقد بذلك .

أما وجوده صلى الله عليه وسلم ، فمعلوم بالضرورة تواترا عند أهل البرهان ، وكشفا عندأولى العيان ، فان الصوفى يقول : العلم بوجوده صلى الله عليه وسلم من قبيل المحسوسات المرئية بالأبصار يقظة عند المقربين ، ونوما عند غيرهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من رآنى فقد رآنى حقا فان الشيطان لايتمثل بصورتى » إذ معنى الحديث عند الأكثر أن من رآه نوما فتلك الرؤية مساوية للرؤية الحسية يقظة بل معنى كما نبه عليه علماء الحديث فانظره .

وأما تعيينه فأما من حيث نسبه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وإليه انتهى النسب الصحيح وما فوق عدنان فمختلف فيه ، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسمعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . وكنيته صلى الله عليه وسلم : أبو القاسم وهو الأشهر ، وأمه آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهنا تجتمع مع أبيه فى النسب .

وأمامولده صلى الله عليه وسلم أمامن حيث المكان فهو بمكة باجماع فى شعب أبى طالب . وأمامن حيث الزمان فيوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول، وذلك بعد قدوم الفيل بشهر ، وقيل بأربعين يوما ، وقيل بخمسين يوما ، ومات والده عنه صلى الله عليه وسلم وهو حمل ، وقيل : ابن سبعة أشهر ، والأول الصحيح ، وماتت أمه بالأبواء ولم يستكمل له سبع سنين ، وكفله جده عبد المطلب، وله صلى الله عليه وسلم ثمان سنين، وبعث صلى الله عليه وسلم لثمان مضين من شهر ربيع الأول ، سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة ، وقيل عشر سنين ، والأول أشهر ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وهو الثانى من شهر ربيع الأول ،

وَمَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُرَى فِى الآخِرَةِ

سنة أربع وخمسين من عام الفيل ، ومكث بها عشرة سنين ، وتوفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة فى بيت عائشة رضى الله عنها ، يوم نوبتها : يوم الاثنين ، أول يوم من شهر ربيع الأول، ودفن ليلة الأربعاء .

وأما صفته صلى الله عليه وسلم وشمائله الزكية فليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد ، ولا بالأبيض الأمهق ، ولا بالآدم ، ولا بالجعد القطط ، ولا بالسبط ، كان رجل الشعر أزهر اللون ، مشربا بحمرة فى بياض كأن وجهه القمر ، حسن العنق ، ضخم الكراديس ، أهدب الأشفار ؛ أدعج العينين ، حسن الثغر ، ضليع الفم ، حسن الأنف ، إذا مشى يتكفأ كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت معا ، جلّ نظره إلى الأرض ، كانت له جمة لم تبلغ شحمة أذنيه صلى الله عليه وسلم . وأما أسماؤه صلى الله عليه وسلم فهى كثيرة بلغت ألفا وقد ألف الحافظ ابن دحية فى ضبطها كتابا سماه [المستوفى] فيه مقنع لمن أراد التطلع بها والمنقول توقيفا ، فقد روى مالك وغيره رفعه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » ومن أسمائه فى القرآن : طه ، ويس ، والمدثر والمزمل ، وعبد الله ، والرءوف والرحيم ، ومن أسمائه أيضا : المقفى ، ونبى التوبة ، ونبى الملاحم ، والمتوكل ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ، أفاده العلامة مرتضى الزبيدى ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة (و) علمت (ماكان السلف الصالح) من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، خصوصا الأئمة الأربعة المجتهدين الذين انعقد الاجماع على امتناع الخروج عن مذاهبهم فى الإفتاء والحكم . وأما عمل الشخص فى نفسه فيجوز تقليد غيرهم فيه كما فى حاشية اللقانى ، وقيل السلف من قبل الخمسمائة من الهجرة ، وقيل من قبل القرون الثلاثة ، والصالح هو القائم بحقوق الله وحقوق عباده ، وهذا أندر من الكبريت الأحمر ويطلق الصالح على النبى كما يطلق على الولى : إلا أن الصالح فى الأنبياء أكمل منه فى الأولياء (يعتقدونه من أن الله يرى فى الآخرة) نظم المصنف رحمه الله هذا الأصل فى سلك هذا المقام نظرا إلى أن نفى الجهة يوهم أنه مقتضى للانتفاء ، فاقتضى المقام دفع هذا التوهم ببيان جواز الرؤية عقلا ووقوعها سمعا ، فهو كالتتمة للكلام فى نفى الجهة والمكان : أى يراه المؤمنون الأبرار بالأعين والأبصار دون الكفار فإنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، رؤية بغير كيفية ولا إدراك إحاطة ، وتحصل الرؤية بأن ينكشف انكشافا تاما منزها عن المقابلة والمكان والجهة والصورة ، وقيل : حول نظر العين للقلب ، واليه مال شيخنا . وقال ابن العربى : إن رؤية الله جعلت تقوية للمعرفة الحاصلة فى الدنيا ، فما راء كمن سمعا ، وأنكرها المعتزلة ، ولله در القائل العلامة القارى فى أماليه :

يراه المؤمنون بغير كيف وإدراك وضرب من مثال
فينسون النعيم إذا رأوه فياخسران أهل الاعتزال

ومن الدليل على جواز الرؤية من الكتاب قوله تعالى « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » خص الكفار بالحجاب تحقيرا لهم وإهانة ، فلو لم يكن المؤمنون بخلافهم لعم التحقير وبطل التخصيص . وقال النسفي : تخصيص الحجاب للكفار دليل على عدمه للأبرار ؛ وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول في هذه الآية : علمنا بذلك أن قوما غير محجوبين ينظرون اليه لايضامون في رؤيته .

ومما دل على الرؤية من الكتاب أيضا قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » فقد ورد من طرق صحيحة مرفوعة إلي النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الزيادة فقال : النظر إلى الله تعالى . وأما في السنة فلما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضى الله عنه رفعه « هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لايارسول الله ، قال فانكم ترونه كذلك » وفي بعض الروايات « هل تضامون » وفي بعضها « فإنكم ترون ربكم كذلك » والمقصود به تشبيه الرؤية لاتشبيه المرئى بالمرئى . واخرج القشيري في رسالته حديثا طويلا من رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، وفيه « فيكشف لهم الحجاب فينظرون الله فيتمتعون بنور الرحمن سبحانه حتى لايبصر بعضهم بعضا » وأحاديث الرؤية متواترة معنى ، فقد وردت بطرق كثيرة عن جمع كثير من الصحابة .

ثم إنهم بعد الجواز اختلفوا هل وقوع الرؤية مخصوص بالآخرة ؟ وهو قول جماعة وأحد قولى الأشعرى وظاهر قول مالك ، واليه مال المصنف رحمه الله تعالى كما صرح به في الإحياء ، ومنهم من قال وقوع الرؤية غير مخصوصة بالآخرة بل تقع في الدنيا ، وهو قول الكثير من السلف والخلف من أهل الحديث والتصوف والنظر ، وإذا قلنا بأنه غير مخصوص بالآخره فهل هو مخصوص بالأنبياء أو غير مخصوص ؟ بل يجوز للولى قولان للأشعري ، وعلى أنه مخصوص بالأنبياء فهل هو خاص بنبينا صلى الله عليه وسلم أو غير خاص ؟ .

وبالجملة فقد اتفق الكل على وقوعها في الآخرة لجميع المؤمنين .

وأما في الدنيا فاختلف فيه صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقوال : الأول أنه رأى ربه وهو قول أكثر السلف وجماعة الصوفية ؛ قال النووى : وهو الصحيح . الثاني أنه لم ير وهو قول أكثر الأشاعرة وبعض السلف: الثالث الوقف وهو اختيار القاضى عياض .

وبالجملة فاختلاف الصحابة في هذه المسئلة دليل على اعتقادهم جوازها ثم هل يجوز ذلك لأولياء أمته على سبيل الكرامة ؟ وطريق التبعية في ذلك قولان للأشعرى ، وأكثر أهل التصوف خصوصاً المتأخرين على أن ذلك يجوز كرامة ، وكرامة أولياء الله تعالى معجزة له صلى الله عليه وسلم ، هذا حال اليقظة ، وأما في النوم فاتفق الأكثر على جوازه ووقوعه ، ثم هذا المعتقد : أما جوازه فيصح التمسك فيه بالسمع والعقل وأما الوقوع فليس إلا بالسمع ، إذ العقل لايهتدى كما حققه العلامة الزبيدى

وَأَنَّهُ مَوْجُودٌ وَلَيْسَ فِي جِهَةٍ مَحْدُودَةٍ

(و) علمت (أنه) تعالى (موجود وليس فى جهة محدودة) لحدوثها ولأن ذلك من صفات المخلوقين . واعلم أن وجوده تعالى ذاتى بمعنى أنه لذاته لا لعلة، أى أن الغير ليس مؤثراً فى وجوده تعالى وليس المراد أن الذات أثرت نفسها إذ لا يقوله عاقل ، وأما الوجود غير الذاتى كوجودنا فهو بفعله تعالى ، وبعضهم لايشاهد لغيره تعالى وجودا ، وهذا يسمى عندهم وحدة الوجود وقد غرق فيه من غرق حتى وقع من بعض الأولياء مايوهم الاتحاد والحلول كقول الحلاج : أنا الله ، وكقول بعضهم : مافي الجبة إلا الله ، وهذا اللفظ لا يجوز شرعا لإيهامه ، لـكن القوم تارة تغلبهم الأحوال فيؤول مايقع منهم بما يناسبه وممن أفتي بقتل الحلاج حين قال المقالة السابقة الجنيد كما في شرح الـكبرى ، ومن اللفظ الموهم ما شاع على ألسنة العوام من قولهم : موجود فى كل الوجود ، ففيه إشارة إلى وحدة الوجود لـكنه ممتنع لإيهامه الحلول .

وقد اختلف فى الوجود هل هو عين الموجود أو غيره ؟ فقال الأشعرى: الوجود عين الموجود واختلف العلماء فى فهم المراد من عبارة الأشعرى ، فبعضهم أبقاها على ظاهرها ، وعليه يكون فى عد الوجود صفة تسامح لأنه يقع صفة فى مجرد اللفظ كأن يقال: الله موجود ، والمحققون كالسعد وأضرابه أولوا عبارة الأشعرى ، فقالوا ليس المراد العينية حقيقة بل المراد أنه ليس زائدا على الذات فى الخارج بحيث تصح رؤيته فلا ينافى أنه أمر اعتبارى وهو الحق الذى لا محيص عنه ، وعليه فلا يكون فى عد الوجود صفة تسامح ، لأن الصفة يكفى فيها مغايرة الموصوف وإن لم تـكن زائدة فى الخارج ، ونظيره الثوب مثلا إذا كان فى صندوق ثم أخرج منه فإنه يتصف بالظهور ، فهذا الظهور ليس وصفا زائدا على الثوب إلا أن العقل يقدّره وصفا زائدا فافهم هذا ، ودليله قوله تعالى «لا إله إلا أنا » وأيضاً لو لم يكن سبحانه وتعالى موجودا ما كان شىء من الخلق ، وقال السبكى فى شرح عقيدة ابن الحاجب ، وأما أهل الحديث فيقول : قد ثبت عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كان الله ولا شىء قبله » وفى طريق « ولا شىء غيره » وفى طريق « ولا شىء معه » .

وقد ثبت الإجماع بل إجماع الـكتب السماوية كلها كما نقله الفخر فى شرح عيون الحـكمة وجعل العمدة فى هذه المسئلة الإجماع ، قال وأما طريق الصوفى فيقول بما تقدم ثم يقول بلسان التنبيه مشيرا إلى ما يخصه من وجود كلّ شىء له اعتباران : اعتبار من حيث صورة ذاته ، واعتبار من حيث صورة العلم به . فالصورة الأولى صورة عينية . والثانية صورة علمية واعتبر نفسك فإنك تجد الآثار التى تبدو عنك لها صورتان : صورتها العلمية من حيث إنها فى ذهنك ، وصورتها العينية وهو ما بدا عنك مطابقا لعلمك ، فالأشياء أما من حيث صورتها العينية فحادثة قطعا ، وذلك هو وجودنا الذى يدرك منه وفيه تعيننا ، وهذا يجده كل مدرك عاقل من نفسه ، والعالم كله متماثل

وَأَنَّ الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَيْسَ بِحُرُوفٍ مُقَطَّعَةٍ وَلاَ أَصْوَاتٍ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ

ولا تفاوت فيه ، وقد ارتفع النزاع فى ذلك ، قال الله تعالى ـ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ وقال ـ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ـ وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم ربى ورب كل شىء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » . وأما من حيث صورتها العلمية : أعنى علم الله بها فذلك غيب عنا والله أعلم بغيبه ، فهذا ما نبه عليه الصوفى ، وغايته الرجوع إلى العجز الذى هو كمال الإدراك والتسليم لما فى علم الله من حيث علم الله ، ومن فهم هذا التنبيه فهم المسئلة الصعبة التى أشار إليها ابن عطاء الله فى أوّل التنوير ، وهذا البحث الذى ذكرناه لمن أراد الهمة العلية والرتبة الخاصة ، وإلا فإنه يكفى المكلف أن يعرف أن الله موجود ولا يجب عليه معرفة أن وجوده تعالى عين ذاته أو غير ذاته كما قاله سيدى محمد الصغير لأن ذلك من غوامض علم الكلام (و) علمت (أن القرآن) يطلق بحسب الاشتراك ويراد به القراءة، وهى المصدر الحاصل من القارىء ويراد به المصحف : أى المجموع المؤلف من الأصوات والحروف وهو بهذا المعنى حادث ، وإضافته إلى الله باعتبار أنه ليس من تأليفات البشر ، بل من تأليفات خالق القوى والقدر ، ولهذا يقال القرآن (كلام الله تعالى غير مخلوق) ولا يقال القرآن غير مخلوق لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلف من الأصوات والحروف قديم كما نقل عن بعض الحنابلة ، ويطلق ويراد به المقروء ، وهو الكلام النفسى ، وهو المعنى القائم بذات الله الذى هو صفة من صفاته (و) هو بهذا المعنى قديم (ليس بحروف مقطعة) أى متفرقة (ولا أصوات) هذا هو المراد من كلام المصنف رحمه الله (إذ لو كان) أى الكلام النفسى (كذلك) أى الحروف والأصوات (لكان من جملة المخلوقات) وهو باطل . وقال السنوسى وغيره من المتقدمين : إن الألفاظ التى نقرؤها تدلّ على الكلام القديم وهذا خلاف التحقيق ، لأن بعض مدلوله قديم كما فى قوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وبعض مدلوله حادث كما فى قوله تعالى ـ إن قارون كان من قوم موسى ـ والتحقيق أن هذه الألفاظ تدلّ على بعض مدلول الكلام القديم لأنه يدل على جميع الواجبات والجائزات والمستحيلات والألفاظ التى نقرؤها تدل على بعض هذا المدلول ، فلو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الكلام القديم طلب إقامة الصلاة مثلا نفهم ذلك من قوله تعالى ـ أقيموا الصلاة ـ ويصح أن يكون المراد أن الكلام اللفظى يدل على الكلام النفسى دلالة عقلية التزامية بحسب العرف ، فإن من أضيف له كلام لفظى دل عرفا على أن له كلاما نفسيا ، وقد أضيف له تعالى كلام لفظى كالقرآن فانه كلام الله قطعا بمعنى أنه خلقه فى اللوح المحفوظ ، فدلّ التزاما على أن له تعالى كلاما نفسيا ، وهذا هو المراد بقولهم القرآن حادث ومدلوله قديم ، فأرادوا بمدلوله الكلام النفسى وتكفى الإضافة الإجمالية وإن لم يكن اللفظى قائما بالذات ، وفهم القرافى رحمه الله أن المراد المدلول الوضعى فقال منه قديم وهو ذات الله وصفاته، وحادث كخلق السموات، ومستحيل كاتخذ الرحمن ولدا كما بسطه العلامة الملوى

وَأَنَّهُ لاَ يَكُونُ فى المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ فَلْتَةُ خَاطِرٍ وَلاَ لَفْتَةُ نَاظِرٍ إلاَّ بِقَضَاءِ اللهِ تَعالَى وَقَدَرِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، فَمِنْهُ الخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالنَّفْعُ وَالضُّرُّ وَالْإِيمانُ وَالْكُفْرُ ،

والحاصل أن للألفاظ التي نقرؤها دلالتين أولاهما التزامية عقلية عرفا كدلالة اللفظ على حياة اللافظ ، والمدلول بهذه الدلالة هو الكلام القديم ، وهذا محمل كلام السنوسى ومن تبعه ، وثانيتهما وضعية لفظية ، والمدلول بهذه الدلالة بعضه قديم وبعضه حادث ، وهذا محمل كلام القرافى وغيره فلا تنافى بين القولين كما يصرح به بعض حواشى الكبرى ، كذا أفاده العلامة البيجورى (و) علمت (أنه) أى الشأن (لا يكون فى الملك) أى العالم السفلى (والملكوت) أى العالم العلوى (فلتة) أى فجأة (خاطر ولالفتة ناظر) أى حركة عين وبين الفلتة واللفتة جناس القلب كما هو معلوم عند من له أدنى مسكة من علم البديع (إلا بقضاء الله تعالى وقدره) والقضاء عند الأشاعرة يرجع إلى الارادة ، والقدر إلى الخلق كما فى شرح المواقف ، وعند الماتريدية هما غير الارادة فالقضاء بمعنى الخلق ، والقدر بمعنى التقدير خلافا للأشاعرة نبه عليه العلامة مرتضى (وبإرادته ومشيئته) عطف تفسير للارادة ، فإرادته تعالى متعلقة بكل كائن غير متعلقة بما ليس بكائن . ثم بين رحمه الله تعالى تلك الحوادث التى تقع مرادة لله تعالى فقال (فمنه) تعالى (الخير والشرّ) خلافا للمعتزلة فانهم قالوا : إن الخير من الله والشرّ من العبد . ونقول نعم يظهر من العبد بحسب كسبه ، لكن بخلق الله تعالى فيه ، واستدلوا بقوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » والجواب عنه ، أن التقدير من فعل نفسك لئلا يضيف الشرّ إلى الله عند الانفراد مراعاة للأدب وإن كان ذلك من العبد بتخليق الله تعالى ، لأن الاضافة على نوعين : إضافة تحقيق وإضافة إكرام ، فأما إضافة التحقيق فمثل قوله تعالى « ولله ملك السموات والأرض » وأما إضافة الإكرام فمثل قوله تعالى « ناقة الله — ورسول الله » ثم الطاعة مكرمة مرضية ، فجاز أن تضاف إلى الله عند الانفراد ، فيقال الخير من الله والمعصية ليست بمحل الاكرام حتى تضاف إلى الله عند الانفراد بل عند الجملة كما قال « قل كلّ من عند الله » فإنه لا يقال ياخالق الخنازير والعقارب والحيات مراعاة للأدب ، بل يقال يا خالق كل شيء كما حققه بعض المحققين ، وكذلك يحمل نحو هذه الآية من الأحاديث على ما يناسبه ، وتسمية المذكور شرا بالنسبة إلى تعلقه بنا وضرره لنا لا بالنسبة إلى صدوره منه سبحانه ، فخلق الشر ليس قبيحا إذ لا قبيح منه تعالى ، وهذا أحد معانى حديث « والشر ليس إليك » (و) منه تعالى (النفع والضر والإيمان والكفر) والحلو والمرّ والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان وكلّ عما ذكر ضد لصاحبه ، لا راد لقضائه الذى قضاه وأراده ، ولامعقب لحكمه الذى أمضاه ودبره يضل من يشاء أن يضل لاستحبابه الضلال وصرف اختياره إليه ، ويهدى من يشاء أن يهديه لصرف اختياره إلى

وَأَنَّهُ لَا وَاجِبَ عَلَى اللهِ تَعَالَى لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَمَنْ أَثَابَهُ فَبِفَضْلِهِ وَمَنْ عَاقَبَهُ فَبِعَدْلِهِ ، وَمَا وَرَدَ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ كَالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ ،

الهداية (و) علمت يقينا (أنه لا واجب على الله تعالى لأحد من خلقه) سبحانه . حاصله كما قال العلامة مرتضى : أن جميع الـكائنات كيفما كانت على العموم كوجود العالم أو على الخصوص كوجود الإنسان ووجوده مابه مايكون كماله من العقل وتيسير المطالب والصحة وسلامة القوى وبعث الرسول والثواب والعقاب ، كل ذلك لا يجب عليه شيء منه لا بالوجوب الشرعي ولا العقلي ولا العادي ولا غير ذلك لجميع الـكائنات بالنسبة إليه على السوية ، وإنما المخصص لأحد الجانبين مشيئته ، وإرادته المتعلقة بالشيء تعلق التخصيص على نحو ما تعلق به العلم ، فجميع ما فعل مما فيه لطف بعبده بمحض فضل وكرم وإحسان منه إليه ، وما فيه من تعذيب وابتلاء فمحض عدل منه إليه ولو شاء لعكس كما أشار إليه رحمه الله بقوله (فمن أثابه ففضله) أى محض فضله ، ومعناه الإعطاء عن اختيار كامل لا عن إيجاب ونحوه (ومن عاقبه) أى عذبه (فبعدله) أى محض عدله وهو وضع الشيء فى محله من غير اعتراض على الفاعل ، ولله درّ العلامة اللقانى حيث قال :

فان يثبنا فبمحض الفضل   وإن يعذّب فبمحض العدل

(و) علمت (ماورد على لسان) سيدنا ومولانا محمد (صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه من أمور الآخرة) وهو حق والتصديق به واجب (كالحشر) وهو عبارة عن سوق الخلق جميعا إلى الموقف ، وهو الموضع الذى يقفون فيه من أرض القدس المبدلة التى لم يعص الله عليها لفصل القضاء بينهم ، ولا فرق فى ذلك بين من يجازى ، وهم الإنس والجنّ والملك ، وبين من لا يجازى كالبهائم والوحوش على ما ذهب إليه المحققون وصححه النووى .

ومما ورد فيه ما أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « إنكم محشورون إلى الله » الحديث ومن حديث سهل « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء » الحديث . ومن حديث عائشة « يحشرون يوم القيامة حفاة » الحديث، ومن حديث أبى هريرة « يحشر الناس على ثلاثة طرائق» ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبى صلى الله عليه وسلم « أفتنافى بيت المقدس ؟ قال أرض المحشر والنشر » الحديث وإسناده جيد .

وأوّل من تنشقّ عنه الأرض نبينا صلى الله عليه وسلم ، فهو أول من يبعث ، وأول وارد الحشر كما أنه أول داخل الجنة وبعده سيدنا نوح كما ورد ، لـكن ورد أن بعده صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، وحمل على أنه بعد الأنبياء ، ومراتب الناس فى الحشر متفاوتة ، فمنهم الراكب وهو التقى ومنهم الماشى على رجليه : وهو قليل العمل ، ومنهم الماشى على وجهه . وهو الـكافر (والنشر) وهو عبارة عن إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية ، وهى التى من شأنها

وَعَذَابِ القَبْرِ وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ ،

البقاء من أول العمر إلى آخره ولو قطعت قبل موته ، بخلاف التي ليس من شأنها البقاء كالظفر ، والدليل على جواز الإعادة ما أشار إليه نصوص الكتاب وفحوى الخطاب من نسبة الاعادة بالنشأة الأولى ، إذا ما جاز على الشيء جاز على مثله . قال الله تعالى « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكلّ خلق عليم » . فاستدل بالابتداء على الاعادة (وعذاب القبر) أى عذاب البرزخ ، وإنما أضيف إلى القبر لأنه الغالب وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه عذب ، قبر أو لم يقبر ، ولو صلب ، أو غرق فى بحر ، أو أكلته الدواب ، أو حرق حتى صار رمادا وذرى فى الريح ، ولا يمنع من ذلك كون الميت تفرقت أجزاؤه ، والمعذب البدن والروح جميعاً باتفاق أهل الحق ، ويكون للكافر والمنافق وعصاة المؤمنين ، ويدوم على الأولين وينقطع عن بعض عصاة المؤمنين ، وهو من خفت جرائمهم من العصاة فإنهم يعذبون بحسبها ، وقد يرفع عنهم بدعاء أو صدقة أو غير ذلك كما قاله ابن القيم ، وكل من لا يسئل فى قبره لا يعذب فيه أيضا .

ومن عذاب القبر ما أخرجه ابن أبى شيبة وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يسلط الله على الكافر فى قبره تسعة وتسعين تنينا تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ، لو أن تنينا منها نفخ على الأرض ما أنبتت خضراء » ، والتنين بكسر المثناة الفوقية وتشديد النون : وهو أكبر الثعابين ، قيل : وحكمة هذا العدد أنه كفر بأسماء الله الحسنى وهى تسعة وتسعون ، ومن عذابه أيضا ضغطته : وهى التقاء حافتيه ، وورد أن الأرض تضمه حتى تختلف أضلاعه ؛ ولا ينجو منها أحد ، ولو صغيرا سواء كان صالحا إلا الأنبياء وإلا فاطمة بنت أسد ، وإلا من قرأ سورة الإخلاص فى مرضه ، ولو نجا منها أحد لنجا منها سعد ابن معاذ الذي اهتزّ العرش لموته .

ومما ورد نعيم القبر ويكون للمؤمنين لما ورد من ذلك من النصوص البالغة مبلغ التواتر وإنما أضيف إلى القبر لأنه الغالب وإلا فلا يختص بالمقبور ولا يختص بمؤمنى هذه الأمة ولا بالمكلفين . ومن نعيمه توسيعه سبعين ذراعا عرضا وكذا طولا ، ومنه أيضا فتح طاقة فيه من الجنة وامتلاؤه بالريحان وجعله روضة من رياض الجنة ، وجعل قنديل بكسر القاف فيه تنوّر له قبره كالقمر ليلة البدر .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام « تعلم الخير وعلمه الناس فانى منوّر لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم » وعن عمر مرفوعا « من نوّر فى مساجد الله نور الله له فى قبره » وكل هذا محمول على حقيقته عند العلماء كما نبه عليه العلامة البيجورى (وسؤال منكر) بفتح الكاف (ونكير) للشخص فى قبره أو مقره عن ربه ودينه كما ورد فى الحديث الصحيح « فيقول المؤمن ربى الله ودينى الإسلام ونبيي محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقول الكافر

والفاجر هاء هاء لا أدرى» . وفى الخلاصة وفتاوى البزازية من أئمة الحنفية : أن من جعل فى التابوت أياما لينقل ما لم يدفن لم يسئل ، وهو ظاهر الأحاديث فتأمل ، ومن أكله السبع فالسؤال فى بطنه كما صرّحوا به ، وأما سؤال الصغير فمنقول عن السيد أبى شجاع من الحنفية ، واعتمده صاحب الخلاصة والبزازى فى فتاويه ، وجرى عليه النسفى فى العمدة لكن جزم صاحب بحر الكلام بخلافه وهو مقتضى قولة النووى فى الروضة والفتاوى وتوقف التاج الفاكهانى فى سؤال المجنون ونحوه . وأما الأنبياء عليهم السلام فالأصح أنهم لا يسئلون كما جزم به النسفى فى بحره ، وما ورد فى الصحيحين من استعاذة النبى صلى الله عليه وسلم من فتنة القبر وعذابه . أجاب عنه القاضى عياض فى شرح مسلم بأن ذلك التزام لحق الله تعالى وإعظامه ، والافتقار إليه وليقتدى به أمته وليبين لهم صفة الدعاء والمهم منه ، وأما الجن فمال بعض المتأخرين إلى أنهم يسئلون لعموم الأدلة الشاملة لهم ولغيرهم . وأما الملائكة فقال الفاكهانى : الظاهر أنهم لا يسئلون ، وميل القرطبى إلي خلافه والأظهر الأول . وقال ابن عبد البر : لا يسئل الكافر الصريح بل يعذب من غير سؤال وإنما السؤال للمنافق وخالفه القرطبى وابن القيم فقالا بسؤال كل منهما ، هذا .

وقد وردت أحاديث باستثناء عدة فلا يسئلون : منهم الشهيد والمرابط يوما وليلة فى سبيل الله ومن مات يوم الجمعة أو ليلتها ، ومن قرأ سورة الملك فى كل ليلة والمبطون ، والمراد بالبطن الاستسقاء أو الإسهال قولان للعلماء كما ذكره القرطبى . أما ما ذكره البلقينى من أن سؤال القبر يكون بالسريانى فغير معروف بين المتكلمين ولا بين المحدثين ، قال البرهان اللقانى ثم الحق أنه يسئل كل واحد بلسانه ، وذكر الترمذى وابن عبد البر أن سؤال القبر من خصائص هذه الأمة ، ولعل الحكمة فى ذلك أن يعجل عذابهم فى البرزخ فيوافون القيامة والذنوب ممحصة ، وسمى الملكان المذكوران بمنكر ونكير لأن الشخص ينكرهما حين يراهما بصورة منكرة فان صفتهما «أنهما أسودان أزرقان أعينهما كقدور النحاس» وفى رواية « كالبرق وأصواتهما كالرعد إذا تكلما يخرج من أفواههما لهيب النار ، بيد كل واحد منهما مطرق من حديد لو ضرب به الجبال لذابت » . وفى رواية « بيد أحدهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى ما أقلوها » وهما للمؤمن الطائع وغيره على الصحيح ، لكن يرفقان بالمؤمن ويقولان له إذا وفق للجواب : نم نومة العروس وينهران المنافق والكافر ، وقيل المؤمن الموفق له مبشر وبشير . وأما الكافر والمؤمن العاصى فلهما منكر ونكير كما أفاده بعضهم عن فتح القادر . قال العلامة النوبى : وإنما يسألانه بعد رد حياته إليه ، وهي غير الحياة المعهودة ، بل يحصل للبدن حياة أخرى ، كما أن حياة النائم غير حياة المستيقظ ، وهذه الحياة لا تزال متعلقة بالبدن وإن بلى وتمزق أو رد روحه إلى جسده كله أو إلى نصفه الأعلى فقط قال البرهان اللقانى نقلا عن ابن حجر ، وظاهر الخبر أنها تحل فى نصف الميت الأعلى ، فيسئل البدن وفيه الروح وهومذهب الجمهور . وقالت طائفة : السؤال للبدن بلاروح ، وأنكره الجمهور كما غلطوا من قال إن السؤال للروح بلا بدن ، وعلى كل حال هى حياة لا تنفي إطلاق اسم الميت عليه ، بل هى أمرٌ متوسط بين الموت والحياة كتوسط النوم بينها انتهى بمعناه .

وَالْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ ، فَهٰذِهِ أُصُولُ دَرَجَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ عَلَى اعْتِقَادِهَا وَالتَّمَسُّكِ بِهَا ، وَوَقَعَ عَلَيْهَا الْإِجْمَاعُ قَبْلَ تَنَوُّعِ الْبِدَعِ وَظُهُورِ الْأَهْوَاءِ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْإِبْتِدَاعِ فِى الدِّينِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى بِغَيْرِ دَلِيلٍ ،

وقد اتفقوا على أن الله لم يخلق فى الميت القدرة والأفعال الاختيارية وأنه لا يدرك الحاضرون حياته كمن أصابته السكتة . قال السعد ، وهو مشكل بجوابه للملكين . قلت يمكن التخصيص بغيره كما أفاده بعض المحققين نقلا عن التونسى (والميزان) وهو كميزان الدنيا قصبة وعمود وكفتان كلّ واحدة أوسع من طبقات السموات والأرض : كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة ، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار ، يزن به جبريل على الصراط بعد الحسنات فيأخذ بعموده وينظر إلى لسانه وميكائيل أمين عليه ، والثقيل ينزل إلى أسفل ، والخفيف يرتفع كميزان الدّنيا كما هو ظاهر الأحاديث أفاده بعضهم عن السحيمى (والصراط) وهو جسر منصوب على ظهر جهنم : أوله فى الموقف ، وآخره على باب الجنة ، يمر عليه الأولون والآخرون وهو أدق من الشعرة وأحدّ من السيف ، فهو مثل الموسى ، وأول من يجوز عليه نبينا وأمته ، فالسالمون من الذنوب يمرون كطرف العين ، وبعضهم الذين يجوزون كالبرق الخاطف ، وبعضهم الذين يجوزون كالريح العاصف : أى الشديد ، وبعضهم كالطير ، وبعضهم كالفرس السابق ، وبعضهم كأجود البهائم ، ثم بعضهم عدوا ومشيا ، ثم حبوا وهو الذى تطول عليه مسافة الصراط فيقول ربى لم أبطأت بى ؟ فيقول لم أبطىء بك إنما أبطأ بك عملك . وروى « إذا كان يوم القيامة يأتى قوم فيقفون على الصراط يبكون فيقال لهم . جوزوا على الصراط ، فيقولون نخاف من النار ، فيقول جبريل كيف كنتم تمرون على البحر ؟ فيقولون بالسفن ، فيؤتى بمساجد كانوا يصلون فيها كالسفن فيركبونها ويمرون على الصراط » ذكره السحيمى ، وأما حقيقة الصراط فانه شعرة من جفون عين مالك عليه السلام ، حكاه الرملى عن برهان الدين الحليمى كما أفاده بعضهم .

ومما ورد على لسان صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام : القيامة ، والحساب ، والثواب ، والعقاب ، والنار ، والحوض ، والشفاعة ، والجنة ، والخلود ، والرؤية لله تعالى فى الجنة وغير ذلك مما تقدم ذكره (فهذه) أى المعتقدات المذكورة من أن الله يرى فى الآخرة إلى آخره (أصول درج) أى سلك ومضى (السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين على اعتقادها) أى المذكورات (والتمسك) أى الاعتصام (بها ووقع عليها الإجماع) أى إجماع أهل السنة (قبل تنوع البدع) وفى نسخة نبوع : أى خروجها (و) قبل (ظهور الأهواء) والضلالة (نعوذ بالله من الابتداع) أى الإحداث والاختراع (فى الدين واتباع) بوصل الهمزة (الهوى بغير دليل) متعلق بقوله الابتداع فلا يصح تعلقه على الاتباع إلا أن يكون للكشف لأن من المعلوم أن اتباع الهوى فاسد وباطل

ثُمَّ نَظَرْتَ فى أَعْمَالِ الْقَلْبِ وَالْمَوَاجِبِ الْبَاطِنَةِ وَالْمَنَاهِى الَّتِى تَأْتِى فى هٰذَا الْكِتَابِ لِيَحْصُلَ لَكَ عِلْمُهُ ثُمَّ تَعْرِفُ جُمْلَةَ مَا تَحْتَاجُ إِلَى اسْتِعْمَالِهِ كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَنَحْوِهِ ، فَلَقَدْ أَدَّيْتَ فَرْضَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْكَ الَّذِى تَعَبَّدَكَ فى بَابِ الْعِلْمِ ، وَلَقَدْ صِرْتَ مِنْ عُلَمَاءِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم الرَّاسِخِينَ فى الْعِلْمِ ، فَإِنْ عَمِلْتَ بِعِلْمِكَ وَأَقْبَلْتَ عَلَى عِمَارَةِ مَعَادِكَ كُنْتَ عَبْدًا عَالِمًا عَامِلاً لِلهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ غَيْرَ جَاهِلٍ ، وَلَا مُقَلِّدٍ وَلَا غَافِلٍ ، فَلَكَ الشَّرَفُ الْعَظِيمُ . وَلِعِلْمِكَ الْقِيمَةُ الْكَبِيرَةُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ ، وَكُنْتَ قَدْ قَطَعْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ وَخَلَّفْتَهَا وَرَاءَكَ وَقَضَيْتَ حَقَّهَا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مَسْئُولٌ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

وسبب الانحطاط عن الرتبة العلية فلا دليل له أصلا (ثم نظرت فى أعمال القلب والمواجب الباطنة والمناهي التى تأتى فى هذا الكتاب) أى كتاب [منهاج العابدين] لأن التعريف للحضور كما علمت (ليحصل لك علمه) أى مافى القلب (ثم تعرف جملة ماتحتاج إلى استعماله كالطهارة والصلاة والصوم ونحوه) أى من الفرائض الشرعية (فلقد أديت فرض الله تعالى عليك الذى تعبدك) وكلفك (فى باب العلم ولقد صرت من جملة علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم الراسخين) أى الثابتين (فى العمل بمقتضى (العلم فإن عملت بعلمك) أى بمقتضاه (وأقبلت على عمارة معادك) أى آخرتك بالتقوى سميت بذلك لأنه معاد الخلق كلهم (كنت عبدا) كاملا (عالما عاملا لله تعالى على بصيرة غير جاهل) حال (ولا مقلد) للغير (ولا غافل فلك الشرف العظيم)والنعيم الدائم (ولعلمك القيمة الكبيرة والثواب الجزيل) أى العظيم (وكنت قد قطعت هذه العقبة وخلفتها) أى تركتها (وراءك وقضيت) أى أديت (حقها باذن الله تعالى) أى إرادته (والله سبحانه مسئول أن يمدك) بضم الياء وكسر الميم من الإمداد بمعنى التوفيق (وايانا بحسن توفيقه وتيسيره إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (ولا حول) أى لاقدرة ولا حركة (ولا قوة) أى ولا استطاعة (إلا بالله) أى بعونه (العلى) أى الرفيع فوق خلقه ، وليس فوقه شىء ، فالمراد به علو قدر ومنزلة ، وقيل العلى بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه فيها (العظيم) أى الجليل الكبير شأنه وقدره ، ولا يخفى عليك وجه إتيانه رحمه الله تعالى بالحوقلة هنا ، كيف وهى كنز من كنوز الجنة كما ورد فى الحديث ، ومن الأدعية المستجابة كما فى الفشنى أنه إذا نزل بالشخص أمر ضيق يطبق أصابع يده اليمنى ثم يفتحها بكلمة : لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم : "اللهم لك الحمد ، ومنك الفرج ، وإليك المشتكى ، وبك المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وهى فائدة عظيمة .

﴿ الْعَقَبَةُ الثَّانِيَةُ : وَهِيَ عَقَبَةُ التَّوْبَةِ ﴾

قال بعض الصالحين : وبالجملة فلا حول ولا قوة إلا بالله ، له تأثير عظيم فى طرد الشياطين والجن ، وفى جلب الرزق والغنى والشفاء ، وتحصيل القوة ، ودفع العجز وغير ذلك ، والله أعلم .

هذا شرح (العقبة الثانية) من السبع التى رتبها (وهى عقبة التوبة)
ولواحقها الفرار والإنابة والإخبات

وهى أهم قواعد الدين ، وأول منازل السالكين ، وأصل مقامات الطالبين، وجاء فيها آيات كثيرة وأحاديث شهيرة ، فمن الآيات قوله تعالى « وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون» وقوله تعالى «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين». ومن الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام « توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه كل يوم مائة مرة» . وقوله عليه الصلاة والسلام « فتح باب التوبة من المغرب لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » . وقوله عليه الصلاة والسلام «من تاب قبل أن يغرغر قبله الله ». وقوله عليه الصلاة والسلام «التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن وحشيا قاتل حمزة عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة : إنى أريد أن أسلم ، ولكن يمنعنى عن الإسلام آية من القرآن نزلت عليك وهى قوله تعالى « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما » وإنى قد فعلت هذه الأشياء الثلاثة فهل لى من توبة ؟ فنزلت هذه الآية « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » فكتب بذلك إلى وحشى فكتب إليه : إن فى الآية شرطا وهو العمل الصالح ، ولا أدرى هل أقدر على العمل الصالح أم لا ؟ فنزل قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فكتب بذلك إلى وحشى فكتب إليه : إن فى الآية شرطا أيضا ، فلا أدرى أيشاء أن يغفر لى أم لا ؟ فنزل قوله تعالى « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » فكتب إلى وحشى فلم يجد فيها شرطا فقدم المدينة وأسلم . وروى محمد بن عجلان عن مكحول قال « بلغنى أن إبراهيم عليه السلام لما عرج به إلى ملكوت السموات أبصر عبدا يزنى ، فدعا عليه فأهلكه الله تعالى ثم رأى عبدا يسرق فدعا عليه فأهلكه الله تعالى ، فقال الله تعالى : يا إبراهيم دع عنك عبادى فإن عبدى بين ثلاث خصال : بين أن يتوب فأتوب عليه ، وبين أن أستخرج له ذرية تعبدنى ، وبين أن يتغلب عليه الشقاء فمن ورائه جهنم » . قال أبو الليث السمرقندى : فى هذا الخبر دليل على أن العبد إذا تاب قبل الله توبته ، فلا ينبغى للعبد أن ييأس من رحمة الله تعالى ، فإن الله تعالى قال « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » : يعنى من رحمة الله تعالى ، فينبغى للعاقل أن يتوب إلى الله فى كل وقت ولا يكون مصرا على الذنب ،

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَةِ ـ وَفَّقَكَ اللهُ ـ بِالتَّوْبَةِ وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِيَحْصُلَ لَكَ تَوْفِيقُ الطَّاعَةِ فَإِنَّ شُؤْمَ الذُّنُوبِ يُورِثُ الْحِرْمَانَ وَيُعْقِبُ الْخِذْلَانَ وَأَنَّ قَيْدَ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ عَنِ الْمَشْيِ إِلَى طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى خِدْمَتِهِ لِأَنَّ ثِقَلَ الذُّنُوبِ يَمْنَعُ مِنَ الْخِفَّةِ لِلْخَيْرَاتِ وَالنَّشَاطِ فِي الطَّاعَاتِ ، وَأَنَّ الْإِصْرَارَ

فان الراجع عن ذنبه لا يكون مصرا وإن عاد فى اليوم سبعين مرة كما روى عن أبى بكرٍ الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » . ولذا قال المصنف رحمه الله تعالى (ثم عليك) أى الزم وتمسك (يا طالب العبادة) أى الخالصة (وفقك الله) جملة دعائية (بالتوبة) وهى كما قال أبو على الدقاق على ثلاثة أقسام : أولها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة ، فجعل التوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطتهما فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة فى الثواب أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة . قال العلامة القشنى : كما تجب التوبة من الكبائر تجب من الصغائر ، وهو فى الكبيرة باتفاق وفى الصغيرة قول الجمهور ، وتبعهم التاج السبكى ، وكان والده يتوقف فى ذلك لتكفيرها باجتناب الكبائر ، ومقتضاه أن الواجب فيها اجتناب الكبائر على أن المنقول عن الأستاذ الاسفرائينى أنه لا صغيرة لعظمة من يعصى . قال أبو حامد الغزالى : وهذا ضعيف ، إذ قال تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » قال السدى : والسيئات : الصغار ، ففى الآية دليل على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر (وذلك) أى وجوب التوبة عليك ، ومعناه هنا ما هو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد ، وهى الفوز بلقاء الله ، والنجاة من هلاك الأبد وهو البعد عن حضرة الله فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى يعقل (لأمرين : أحدهما ليحصل لك توفيق الطاعة) لأن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب مفتاح للطاعات ، وللفتوحات الدينية والدنيوية ، وأساس لكل الخيرات ، فعليها تنبنى المقامات ، فكل من أراد أن يبنى مقامه ، ولا يحكم أساسه لا يرتفع بل ينهدم ، ولله در القائل :

فالتوب مفتاح لكل إطاعة ... وأساس كل الخير أجمع أشملا

(فان شؤم) أى سوء (الذنوب) جمع ذنب أصله الأخذ بذنب الشيء ، وفى العرف الشرعى عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله فى ترك أو فعل ماتستوخم عاقبته ، ولذلك سمى تبعة اعتبارا بما يحصل من عاقبته ، وهو عند أهل الله ماحجب عن الله كما أشار إليه بقوله (يورث الحرمان) أى المنع عن أنواع الخيرات (ويعقب الخذلان) أى يعقب صاحبه الخذلان والهوان (وأن قيد الذنوب يمنع عن المشى إلى طاعة الله عز وجل و) عن (المسارعة إلى خدمته) أى طاعته (لأن ثقل الذنوب يمنع) المذنب (من الخفة للخيرات والنشاط) أى حركة السرور (فى الطاعات وأن الإصرار)

عَلَى الذُّنُوبِ مِمَّا يُسَوِّدُ الْقُلُوبَ فَتَجِدُهَا فِى ظُلْمَةٍ وَقَسَاوَةٍ لاَ خُلُوصَ فِيهَا وَلاَ صَفَاوَةَ وَلاَ لَذَّةَ وَلاَ حَلاَوَةَ ، وَإِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ فَسْتَجُرُّ صَاحِبَهَا إِلَى الْكُفْرِ وَالشَّقَاوَةِ ، فَيَا عَجَباً كَيْفَ يُوَفَّقُ لِلطَّاعَةِ مَنْ هُوَ فِى شُؤْمٍ وَقَسْوَةٍ ، وَكَيْفَ يُدْعَى إِلَى الْخِدْمَةِ مَنْ هُوَ مُصِرٌّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَمُقِيمٌ عَلَى الْجَفْوَةِ ، وَكَيْفَ يُقَرَّبُ لِلْمُنَاجَاةِ مَنْ هُوَ مُتَلَطِّخٌ بِالْأَقْذَارِ وَالنَّجَاسَاتِ ، فَفِى الْخَبَرِ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَنَحَّى عَنْهُ الْمَلَكَانِ مِنْ نَتْنِ مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ » فَكَيْفَ يَصْلُحُ هٰذَا اللِّسَانُ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلاَ جَرَمَ لاَ يَكَادُ يَجِدُ الْمُصِرُّ عَلَى الْعِصْيَانِ تَوْفِيقاً ،

أى الإقامة (على الذنوب مما يسود القلوب فتجدها) أى القلوب (فى ظلمة وقساوة لاخلوص فيها ولا صفاوة ولا لذة ولا حلاوة وإن لم يرحم الله) برحمته (فستجر) أى تجذب الذنوب تدريجا (صاحبها إلي الكفر والشقاوة) هما ضدا الإسلام والسعادة (فيا عجبا كيف يوفق للطاعة من هو فى شؤم وقسوة ، وكيف يدعى إلى الخدمة) والطاعة (من هو مصرّ على) ارتكاب (المعصية ومقيم) ومستمر (على الجفوة) ضد البر (وكيف يقرب) بضم الياء مع تشديد الراء من التقريب (للمناجاة من هو متلطخ) أى متلوث (بالأقذار) جمع قذر ضد النظافة (والنجاسات ، ففى الخبر عن الصادق) فى جميع مايقوله ، إذ هو الحق الصدق والمطابق للواقع (المصدوق) فما أوحى الله، لأن الملك يأتيه بالصدق ؛ والله سبحانه وتعالى يصدقه فما وعده به ، والجمع بينهما للتأكيد ، كذا قيل : إذ يلزم من أحدهما الآخر ، وعكس ذلك نحو ابن صياد فهو كاذب مكذوب ، ومن ثم لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يأتينى صادق وكاذب ، وأرى عرشا على الماء قال له : خلط عليك . (رسول الله صلى الله عليه وسلم) بدل مما قبله أو خبر مبتدأ مقدر (أنه قال : إذا كذب العبد) أى الإنسان (تنحى) أى تباعد (عنه الملكان من نتن) بفتح النون وسكون التاء : أى عفونة (مايخرج من فيه) أى من نتن الكذب الذى يخرج من فمه ، وأخرج الترمذى فى الزهد وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر « إذا كذب العبد كذبة تباعد عنه الملك ميلا من نتن ماجاء به » (فكيف يصلح هذا اللسان) الذى ينطق بالكذب (لذكر الله عزّ وجلّ فلا جرم) أى لابد ، أو حقا أو لامحالة (لايكاد يجد المصرّ) أى المقيم (على العصيان توفيقا) على الطاعة .

[تنبيهان : الأول] لاجرم سياقه على مذهب البصريين أن يجعل لازما ، وجرم فعل بمعنى حق أو كسب ، ويجوز أن يقال إن لاجرم نظير لابد فعل من الجرم وهو القطع ، كما أن بدا فعل من التبديد وهو التفريق ، فمعنى قوله تعالى « لاجرم أن لهم النار » : أى لاقطع لذلك بمعنى أنهم أبدا يستحقون النار . وروى عن العرب أنه لاجرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء على زنة

وَلاَ تَخِفَّ أَرْكَانُهُ لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، فَإِنِ اتَّفَقَ فَبِكَدٍّ لاَ حَلاَوَةَ مَعَهُ وَلاَ صَفْوَةَ ، وَكُلُّ ذٰلِكَ لِشُؤْمِ الذُّنُوبِ وَتَرْكِ التَّوْبَةِ ، وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ : إِذَا لَمْ تَقْوَ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهارِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُكَبُولٌ قَدْ كَبَّلَتْكَ خَطِيئَتُكَ

بد وفعل وفعل أخوان ، كرشد ورشد ، كذا فى الكشاف . وحاصل كلامه أن جرم فعل ماض بمعنى حق وثبت وما بعده فاعل ، أو بمعنى كسب ، وفاعله ضمير يعود إلى ماقبله وما بعده مفعول أو اسم بمعنى القطع ، ولا لنفى الجنس وما بعده خبر بتقدير حرف الجر . وأما مثل لاجرم فعلنا كذا ، فمن كلام المولدين ومن يجرى مجراهم كأنه قيل حقا فعلنا كذا ، وذكر فى الصحاح الجزم والقطع ، وقد جرم النخل واجترمه : أى صرمه ، وقولهم لاجرم . قال الفراء هى كلة كانت فى الأصل بمنزلة لابد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنه باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا ترى أنهم يقولون لاجرم لآتينك . وقال قوم : إن لازائدة ، ونقل فى المغنى عن الفراء أن لا لاتزاد فى أول الكلام ، وذكر فى حاشية المفتاح الشريفى أن لاجرم قد يكون لمجرد التأكيد بدون اعتبار معنى القسم ، كذا أفاده الهروى فى دره .

[الثانى] يكاد واوى العين فوزنه يكود كيعلم نقلت فتحة الواو إلى الساكن قبلها ثم يقال تحركت الواو بحسب الأصل وانفتح ماقبلها بحسب الآن فقلبت ألفا فصار يكاد بوزن يخاف ، وماضيه كود بكسر العين كخوف ، ومصدره الكود كالخوف ، وهذا فى كاد الناقصة كما هنا ، وأما كاد التامة فهى يائية العين المفتوحة فى الماضى كباع ومصدره الكيد كالبيع ، ولذلك جاء المضارع فى القرآن مختلفا « يكاد زيتها يضىء ــ فيكيدوا لك كيدا » . ومعنى التامة المكر ، ومعنى الناقصة المقاربة ، كذا قاله الجمل عن شيخه (ولا تخف) بفتح التاء وكسر الخاء مع تشديد الفاء : أى لاتسرع ولا تنشط (أركانه) أى أعضاؤه (لعبادة الله تعالى ، فان اتفق) أى فعل العبادة (فبكد) أى شدة فيه (لاحلاوة معه) أى مع فعلها (ولا صفوة ، وكل ذلك) أى المذكور من عدم وجدان الحلاوة والصفوة (لشؤم الذنوب) أى سوئها وقبحها (وترك التوبة) منها (ولقد صدق) أى وافق الحق (من قال) وهو فضيل بن عياض رحمه الله (إذا لم تقو) أى لم تستطع (على قيام الليل) أى من الصلاة ونحوها من الأوراد (وصيام النهار فاعلم أنك مكبول) أى مقيد (قد كبلتك) أى قيدتك (خطيئتك) أخرجه أبو نعيم فى الحلية فقال : حدثنا محمد بن على حدثنا الفضل بن محمد الجندى حدثنى إسحاق بن إبراهيم الطبرى قال سمعت الفضيل يقول : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك ، ومثله قال رجل للحسن البصري : ياأبا سعيد إنى أبيت معافى ، وأحب قيام الليل ، وأعدّ طهورى ، فما بالى أتكاسل ولا أقوم هل لذلك من سبب ؟ فقال : ذنوبك قيدتك : أى هى التى منعتك عن القيام ، نقله صاحب

فَهٰذِهِ هٰذِهِ . وَالثَّانِى مِنَ الْأَمْرَيْنِ إِنَّمَا تَلْزَمُكَ التَّوْبَةُ لِتُقْبَلَ مِنْكَ عِبادَتُكَ ، فَإِنَّ رَبَّ الدَّيْنِ لاَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَذٰلِكَ أَنَّ التَّوْبَةَ عَنِ المَعَاصِى وَإِرْضَاءَ الْخُصُومِ فَرْضٌ لاَزِمٌ وَعَامَّةُ الْعِبادَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا نَفْلٌ فَكَيْفَ يُقْبَلُ مِنْكَ تَبَرُّعُكَ وَالدَّيْنُ عَلَيْكَ حالٌّ لَمْ تَقْضِهِ ؟ وَكَيْفَ تَتْرُكُ لِأَجْلِهِ الْحَلاَلَ وَالْمُباحَ وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى فِعْلِ الْمَحْظُورِ وَالْحَرَامِ ؟ وَكَيْفَ تُنَاجِيهِ وَتَدْعُوهُ وَتُثْنِى عَلَيْهِ وَهُوَ ـ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ـ عَلَيْكَ غَضْبَانُ فَهٰذَا ظَاهِرُ حَالِ الْعُصَاةِ الْمُصِرِّينَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

فَإِنْ قُلْتَ فَمَا مَعْنَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ ، وَمَا يَنْبَغِى لِلْعَبْدِ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا ؟ فَأَقُولُ :

القوت والعوارف . وقال رجل لبعض الحكماء : إنى لأضعف عن قيام الليل : يعنى فما السبب فى ذلك وما دواؤه ؟ فقال له : ياأخى لاتعص الله بالنهار ، ولا تقم بالليل : يعنى شؤم ذنوبك هو الذى يمنعك من قيام الليل (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة . (والثانى من الأمرين ، إنما تلزمك التوبة لتقبل منك عبادتك فان رب) أي صاحب (الدين) بفتح الدال : أى الذى عليك له (لايقبل الهدية ، وذلك) أى بيان اللزوم (أن التوبة عن المعاصى وإرضاء الخصوم فرض لازم وعامة العبادة) أى كثرتها (التي تقصدها نفل ، فكيف يقبل منك تبرعك) أى هديتك (والدين) الذى (عليك حال) أى نقد (لم تقضه ، وكيف تترك لأجله الحلال والمباح وأنت مصر) أى مقيم (على فعل المحظور والحرام) عطف تفسير (وكيف تناجيه) أى رب الدين (وتدعوه وتثنى عليه ، وهو والعياذ) أى أعوذ وأعتصم (بالله) تعالى من ذلك ، جملة معترضة بين المبتدإ والخبر (عليك غضبان ، فهذا) أى الحال المذكور وهو ترك الحلال والمباح مع الاصرار على فعل المحظور (ظاهر حال العصاة المصرين على) فعل (المعصية ، والله المستعان . فان قلت) لى (فما معنى التوبة النصوح) التي ذكرت فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » (وما حدها وما ينبغى للعبد أن يفعله حتي يخرج من الذنوب كلها) أى صغائرها وكبائرها (فأقول) اعلم أيها السائل الراغب فى الخير أن حقيقة التوبة من كل ذنب عشرة أعمال إلا أن يكون العبد توابا يحبه الله ، ولا تكون توبته نصوحا التى شرطها الله تعالي وفسرتها النبوة إلا أن يحكم العبد عشر توبات من كل ذنب : أولها ترك العود إلى فعل الذنب ، ثم يتوب من القول به ، ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب ، ثم التوبة من السعى فى مثله ، ثم التوبة من النظر إليه ، ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به ، ثم التوبة من الهمة به ، ثم التوبة من التقصير فى حق التوبة ، ثم التوبة من أن لا يكون أراد إلا وجه الله خالصا بجميع ما تركه لوجهه ، ثم التوبة فى النظر إلى التوبة

أَمَّا التَّوْبَةُ فَإِنَّهَا سَعْيٌ مِنْ مَسَاعِي الْقَلْبِ

والسكون إليها والإدلال بها ، وهذا مطالعة التوحيد ، وعلو الإشراق بالمريد ، ثم يشهد بعد ذلك تقصيره كله عن القيام بحق الربوبية لعظم ما يشهد من جلاله ، فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته ، ويكون استغفاره من توبته لما ضعف قلبه ونقص همه عن معاينة مشاهده لعلو مقامه ، ودوام مزيده وإعلامه ، ولكل مقام توبة ، ولكل حال من مقامات التوبة توبة ، ولكل مشاهدة ومكاشفة توبة ، فهذا حال التائب المنيب الذى هو من الله مقرب وعنده حبيب ، وهذا مقام مفتن تواب : أى مختبر بالأشياء ، مبتلى بها تواب إلى الله تعالى منها ، راجع إليه عنها ، ناظر إليه بها لينظر مولاه ، أو ينظر بقلبه إليه أو إليها ، أو يعتكف عليه أو عليها ، أويطمئن بوجودها إليه ، أو إليها ، أويطالب إياه هربا منها أو إياها ، فعليه من كل مشاهدة لسواه ذنب ، وعليه من كل سكون إلى سواه عتب ، كما له من كل شهادة علو ، ومن كل إظهار فى الكون حكم ، فذنوبه وتوباته إلى الله لا تحصى .

وسئل ذو النون المصرى عن التوبة ؟ فقال : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة . وقال أبو الحسن النورى : التوبة أن تتوب من كل شىء سوى الله عز وجل . وقال عبد الله بن على التميمى : شتان ما بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات . وقال صاحب العوارف : توبة الاستجابة هى أن تستحى من الله لقربه منك إذا تحقق بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلمّ به سوى الله ، ويستغفر الله منه ، وهى لازمة لبواطن القرب كما قيل : وجودك ذنب لا يقاس به ذنب. وقال : وسئل أبو يعقوب السوسى عن التوبة ؟ فقال : التوبة من كل شىء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم . قال : وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم ، لأنه لا بقاء للجهل مع العلم كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس ، وهذا يستوعب أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام ، وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن لتطهر الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها . قال المصنف رحمه الله : وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق ، والمقدمة والترك كالثمرة ، والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام «الندم التوبة» إذ لا يخلو الندم عن علم أرجبه ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ، فيكون الندم محفوظا بطرفيه : أعنى ثمرته ومثمره ، وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة : إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، فان هذا يعرض لمجرد الألم ، ولذلك قيل هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة : إنه خلع لباس الجفاء ، ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت ، وأكل الحلال ، وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر ، ولذلك بينه رحمه الله تعالى على الاختصار فقال (أما التوبة) النصوح (فإنها سعى من مساعى القلب)

وَهِيَ عِنْدَ التَّحْصِيلِ فى قَوْلِ الْعُلَمَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنِ الذَّنْبِ . قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ فى حَدِّ التَّوْبَةِ : إِنَّهُ تَرْكُ اخْتِيَارِ ذَنْبٍ سَبَقَ مِثْلُهُ عَنْهُ مَنْزِلاً صُورَةً تَعْظِيماً لِلهِ تَعَالى وَحَذَرًا مِنْ سَخَطِهِ ، فَلَهَا إِذًا أَرْبَعَةُ شَرَائِطَ : إِحْدَاهَا تَرْكُ اخْتِيَارِ الذَّنْبِ وَهُوَ أَنْ يُوَطِّنَ قَلْبَهُ وَيُجَرِّدَ عَزْمَهُ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَعُودُ إِلى الذَّنْبِ أَلْبَتَّةَ ، فَأَمَّا إِنْ تَرَكَ الذَّنْبَ وَفِى نَفْسِهِ أَنَّهُ رُبَّمَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَوْ لاَ يَعْزِمُ

أى عمل من أعماله ، ومعنى النصوح : الخالص لله خاليا عن الشوائب ، وهو من النصح بضم فسكون فعول للمبالغة فى النصح ، وهو الخلوص ، ومنه قولهم : نصح العسل : إذا صفاه . وفى القوت ، وقيل اشتقاقه من النصاح بالكسر وهو الخيط ، والمعنى حينئذ ، أى مجردة لا تتعلق بشيء ولا يتعلق بها شيء ، وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب وأن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب متي قدر عليه ، وأن يترك الدنيا لأجل الله خالصة لوجهه ، كما ارتكبه لأجل هواه مجمعا عليه بقلبه ، فمتى لقى الله تعالى بقلب سليم من الهوى ، وعمل مستقيم على السنة فقد ختم الله له بحسن الخاتمة ،فحينئذ أدركته الحسنى السابقة ، وهذا هو التوبة النصوح وهذا العبد التواب ، المتطهر الحبيب .

وسئل الحسن عن التوبة النصوح ؟ فقال هي : ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وتزكية الجوارح ، وإضمار أن لا يعود . وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أبي بن كعب « التوبة النصوح الندم علي الذنب حين يفرط منك ، فتستغفر الله ثم لا تعود إليه أبدا » . قال القرطبي فى تفسير التوبة النصوح ثلاثة عشر قولا (وهى) أى التوبة النصوح (عند التحصيل في قول العلماء رضي الله عنهم : تنزيه القلب) أى تبعيده وتصفيته (عن الذنب . قال شيخنا) وهو الشيخ أبوبكر الطرطوسي كما فى سراج السالكين (رحمه الله فى حد التوبة إنه ترك اختيار ذنب) أى فعله وإيقاعه (سبق مثله) أبى الذنب (عنه) أى عن العبد (منزلة لا صورة تعظيما لله تعالى وحذرا) أى خوفا (من سخطه) أى غضبه تعالي ، ولذلك الندم على شرب الخمر مثلا لاضراره بالبدن ليس بتوبة كما يأتى (فلها) أي للتوبة (إذا) أى إذا جرينا على قول شيخنا وهو التحقيق (أربعة شرائط : إحداها ترك اختيار) فعل (الذنب ، وهو) أى الترك (أن يوطن) بفتح الواو وكسر الطاء مع التشديد : أى يقرر العبد السالك (قلبه ويجرد) أى يخلص (عزمه) أى قصده (على أنه) أى السالك (لا يعود إلى الذنب ألبتة) أى لا رجعة فيه ولا تردد قطعا ، وهو مصدر منصوب بفعل مقدر والتاء للمبالغة ، وأل فى ألبتة للجنس ، والمسموع قطع همزتها على غير قياس ، وحكم سيبويه بأن أل فيها لا زمة (فأما إن ترك الذنب وفى نفسه) أى قلبه خاطر من (أنه ربمـا يعود إليه) أى فعل الذنب (أولا يعزم) بفتح الياء وكسر الزاى من باب ضرب

عَلَى ذٰلِكَ بَلْ يَتَرَدَّدُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَقَعُ لَهُ الْعَوْدُ فَإِنَّهُ مُمْتَنِـعٌ عَنِ الذَّنْبِ غَيْرُ تَائِبٍ مِنْهُ . وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَنْبٍ قَدْ سَبَقَ عَنْهُ مِثْلُهُ إِذْ لَوْ لَمْ يَسْبِقْ عَنْهُ مِثْلُهُ لَـكَانَ مُتَّقِياً غَيْرَ تَائِبٍ ، أَلاَ تَرَى أَنَّهُ يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كَانَ مُتَّقِياً عَنِ الْـكُفْرِ وَلاَ يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ كَانَ تَائِباً عَنِ الْـكُفْرِ إِذْ لَمْ يَسْبِقْ عَنْهُ كُفْرٌ بِحَالٍ ، وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ تَائِباً عَنِ الْـكُفْرِ لِمَا سَبَقَ عَنْهُ ذٰلِكَ . وَالثَّالِثَةُ أَنَّ الَّذِي سَبَقَ عَنْهُ يَـكُونُ مِثْلَ الَّذِي يَتْرُكُ اخْتِيَارَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ لاَ فِي الصُّورَةِ ، أَلاَ تَرَى أَنَّ الشَّيْخَ الْهَرِمَ الْفَانِيَ الَّذِي سَبَقَ مِنْهُ الزِّنَا وَقَطْعُ الطَّرِيقِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتُوبَ عَنْ ذٰلِكَ تُمْـكِنُهُ التَّوْبَةُ لاَ مَحَالَةَ إِذْ لَمْ يُغْلَقْ عَنْهُ بَابُهَا ، وَلاَ يُمْـكِنُهُ تَرْكُ اخْتِيَارِ الزِّنَا وَقَطْعُ الطَّرِيقِ ،

أى لا يريد فعله ولا يقطع بفعله (على ذلك بل) هو (يتردد) بين العود إلى الذنب وعدم العزم عليه (فإنه) أى العبد المتردد (ربمـا يقع له العود) إلى ذلك الذنب (فإنه) جواب أما (ممتنع عن الذنب غير تائب منه . والثانية) من الشروط الأربعة (أن يتوب من ذنب قد سبق عنه) أى عن العبد (مثله ، إذ لو لم يسبق) بكسر الباء من باب ضرب (عنه مثله لـكان متقيا) أى مجتنبا عن الذنب (غير تائب ، ألا ترى أنه) أى الحال والشان ، ألا حرف تنبيه واستفتاح وليست مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية ، بل هى بسيطة ولـكنه لفظ مشترك بين التنبيه والاستفتاح فتدخل على الجملة اسمية كانت أو فعلية ، وبين العرض والتحضيض فتختص بالأفعال لفظا أو تقديرا كما أفاده الجمل عن السمين (يصح القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان متقيا عن الـكفر ، ولا يصح القول بأنه) صلى الله عليه وسلم (كان تائبا عن الـكفر ، إذ لم يسبق عنه) عليه الصلاة والسلام (كفر بحال) من الأحوال (و) يصح القول بـ(أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه كان تائبا عن الـكفر ، لمـا سبق عنه) أى عن سـيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (ذلك) الـكفر . (والثالثة) من الأربعة (أن الذى) أى الذنب الذى (سبق عنه) أى عن الشخص (يكون مثل الذى يترك) أى الشخص (اختياره فى المنزلة والدرجة) عطف تفسير (لا فى الصورة، ألا ترى أن الشيخ الهرم) بكسر الراء : أى الـكبير والضعيف (الفانى) أى القريب الفناء . قال الفيومى : وقيل للشيخ الهرم ذلك مجازا لقربه ودنوه من الفناء (الذى سبق) أى فى حال الشباب (منه) أى من الشيخ (الزنا وقطع الطريق) أى قطع المرور فيها بالتعرض للمار : أى منعه منه (إذا أراد أن يتوب عن ذلك) الزنا وقطع الطريق (تمـكنه التوبة لا محالة إذ لم يغلق) بضم الياء أى لم يسد (عنه بابها) أى التوبة (ولا يمكنه) أى الشيخ (ترك اختيار الزنا وقطع الطريق ،

إِذْ هُوَ لاَ يَقْدِرُ السَّاعَةَ عَلَى فِعْلِ ذٰلِكَ . فَلاَ يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ اخْتِيَارِهِ ، فَلاَ يَصِحُّ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ تَارِكٌ لَهُ مُمْتَنِعٌ عَنْهُ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ مِنْهُ ، لٰكِنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ مَا هُوَ مِثْلُ الزِّنَا وَقَطْعِ الطَّرِيقِ فِى الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ كَالْكَذِبِ وَالْقَذْفِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ ، إِذْ جَمِيعُ ذٰلِكَ مَعَاصٍ وَإِنْ كَانَ الْإِثْمُ يَتَفَاوَتُ فِى كُلٍّ وَاحِدَةٍ بِقَدْرِهَا ، لٰكِنْ جَمِيعُ هٰذِهِ الْمَعَاصِى الْفَرْعِيَّةِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِىَ دُونَ مَنْزِلَةِ الْبِدْعَةِ ، وَمَنْزِلَةُ الْبِدْعَةِ دُونَ مَنْزِلَةِ الْكُفْرِ فَلِذٰلِكَ تَصِحُّ مِنْهُ

إذ هو لا يقدر الساعة) منصوب على الظرفية : أى فى وقت الهرم (على فعل ذلك) أى المذكور (فلا يقدر على ترك اختياره) وحينئذ (فلا يصح وصفه) أى ذلك الشيخ (بأنه تارك له) أى للمذكور من الزنا ونحوه (ممتنع عنه وهو عاجز عنه غير متمكن منه) أى مما ذكر (لكنه) أى الشيخ (يقدر على فعل ماهومثل الزنا وقطع الطريق فى المنزلة والدرجة) وذلك (كالكذب) أى لغير مصلحة (والقذف) وهوالرمى بالزنا فى مقام التعيير والتوبيخ ، وهو من الكبائر ؛ ويتعلق به الحد بالكتاب والسنة وإجماع الأمة كما أفاده الحصنى (والغيبة) بكسر الغين ، وهى ذكرك أخاك المسلم بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه ، أو نسبه ، أو فى خلقه ، أوفى فعله ، أوفى قوله ، أو دينه أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته ، كقولك : الأحول والأسود ، وقولك : أبوه هندى أو فاسق ، وقولك : إنه بخيل أو سيء الخلق ، وقولك : سارق أو قليل الأدب ، وقولك : إنه وسخ الثياب وإن كان المذكور بلسانك موجودا فى أخيك المسلم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم ، قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه ، قال : إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه » وهى الصاعقة المهلكة كما سيأتى فى باب حفظ اللسان (والنميمة) وهى نقل القول للافساد . وحدّ النميمة كما قاله المصنف رحمه الله : كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أوالمنقول إليه ، أوكرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتاب أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ، أو نقصا فى المنقول عنه أو لم يكن ، بل حقيقة النميمة إفشاء السرّ وهتك الستر عما يكره كشفه ، بل كلّ ما رآه الإنسان من أحوال الناس فينبغى أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام » (إذ جميع ذلك) أى الكذب وما بعده (معاص وإن كان الإثم يتفاوت فى كلّ واحدة) أى من الكذب ونحوه (بقدرها ، لكن جميع هذه المعاصى الفرعية كلها بمنزلة واحدة وهى) أى منزلة المعاصى الفرعية (دون منزلة البدعة) فى الدين (ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فلذلك) أى فلكون جميع المعاصى الفرعية كلها بمنزلة واحدة (تصح منه) أى من الشيخ

التَّوْبَةُ عَنِ الزِّنَا وَقَطْعِ الطَّرِيقِ وَسَائِرِ مَا مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُوَ عَاجِزٌ عَنْ أَمْثَالِهَا الْيَوْمَ فِي الصُّورَةِ . وَالرَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ اخْتِيَارِهِ لِذَلِكَ تَعْظِيماً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحَذَرًا مِنْ سَخَطِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ مُجَرَّدًا لَا لِرَغْبَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَوْ رَهْبَةٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ طَلَبِ ثَنَاءٍ أَوْ صِيتٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ ضَعْفٍ فِي النَّفْسِ أَوْ فَقْرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، فَهَذِهِ شَرَائِطُ التَّوْبَةِ وَأَرْكَانُهَا ، فَإِذَا حَصَلَتْ وَاسْتَكْمَلَتْ فَهِيَ تَوْبَةٌ حَقِيقِيَّةٌ صَادِقَةٌ .

وَأَمَّا مُقَدِّمَاتُ التَّوْبَةِ فَثَلَاثٌ : إِحْدَاهَا ذِكْرُ غَايَةِ قُبْحِ الذُّنُوبِ .

الهرم (التوبة عن الزنا وقطع الطريق وسائر ما مضى من الذنوب التى هو عاجز عن) إتيان (أمثالها اليوم) أى زمن الهرم (فى الصورة) لافى المنزلة . (والرابعة) هذه آخر الشرائط الأربعة (أن يكون ترك اختياره) أى العبد السالك (لذلك) أى الذنب (تعظيما لله عزّ وجلّ وحذرا من سخطه وأليم عقابه) أى عذابه فى الدّار الآخرة (مجردا) أىَ عن نفع الدنيا (لا لرغبة دنيوية أو رهبة) أى خوف (من الناس أو طلب ثناء أو صيت) أى ذكر جميل ينتشر فى الناس دون القبيح ، يقال : ذهب صيته فى الناس ، وربما قالوا : انتشر صوته فى الناس بمعنى صيته كما فى المختار (أو جاه) أى قدر ومنزلة (أو ضعف فى النفس أو فقر أو غير ذلك) أى من الأمور الصارفة له عن تعظيم مولاه جل وعز (فهذه) أى الشرائط الأربعة (شرائط التوبة وأركانها ، فاذا حصلت) ذلك (واستكملت) أى بالعمل به (فهى) أى توبتك التى استجمعت الشروط والأركان (توبة حقيقية صادقة) فهى مقبولة لا محالة بفضل الله تعالى لا بطريق الوجوب ، إذ لا يجب شىء على الخالق لأنه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا . قال الله تعالى « ولا يخاف عقباها » .
قال المصنف رحمه الله تعالى : فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم من المعاصى مقبول عند الله تعالى ، ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوقه السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات ، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، بل ينسخه ويمحوه؛ بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى ولا يليق أن يكون فى جواره وحظيرته (وأما مقدمات التوبة)بكسر الدال أو فتحها : أى فى أمور متقدمة أو مقدمة على المقصود ، وهو التوبة للانتفاع بها فيه مع تحريض الدواعى (فثلاث : إحداها ذكر غاية قبح الذنوب) وضررها وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فان كان فواته بفعله تأسف على

وَالثَّانِيَةُ ذِكْرُ شِدَّةِ عُقُوبَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَلِيمِ سَخَطِهِ وَغَضَبِهِ الَّذِى لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ . وَالثَّالِثَةُ ذِكْرُ ضَعْفِكَ وَقِلَّةِ حِيلَتِكَ فى ذٰلِكَ ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَحْتَمِلُ حَرَّ شَمْسٍ وَلَا لَطْمَةَ شُرْطِيٍّ

الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما ، فإذا غلب هـذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصد إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا له ومصاحبا به ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب ، وأما بالماضى فبتدارك ما فات وفرط من أمره بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر (والثانية ذكر شدة عقوبة الله عز وجل وأليم سخطه وغضبه) عطف تفسير كما يعلم من المختار . والغضب فى الأصل : غليان الدم الموجب لإرادة الانتقام أطلق هنا وأريد به لازمه القريب وهو إرادة الانتقام ، أو البعيد وهو الانتقام لاستحالة المعنى الحقيقى عليه تعالى ، فالغضب صفة ذات على الأول ، وصفة فعل على الثانى ، وفى الكلام حذف مضاف : أى محل غضب الله وهو جهنم كما أفاده بعضهم (الذى لا طاقة) أى لا قدرة ولا قوة (لك به) أى بغضبه تعالى . وهذه العقوبات فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فتعجيل العقوبة متوقع على الذنوب ، بل كل ما يصيب العبد من المصائب والبلايا فهو بسبب جنايته التى صدرت منه ، فان الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه ، وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » رواه ابن ماجه والحاكم واللفظ له وصحح إسناده . قال المظهر : اللام فى الرجل للعهد ، والمعهود بعض الجنس من المسلمين ، فلا يقدح فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أعظم مالا وصحة من العلماء ، لأن الكلام فى مسلم يريد الله رفع درجته فى الآخرة فيصيبه من ذنوبه فى الدنيا ، وبه عرف أنه لا تناقض بينه وبين خبر « إن الرزق لا تنقصه المعصية » ولهذا وجه بعضهم الخبر بأن لله لطائف يحدثها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته والانهماك فى نهمته ، فاذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقه ، فيكون زجرا له إليه عما أقبل عليه وتأديبا له ، لأن لا يعود لمثله . (والثالثة ذكر ضعفك) بفتح الضاد وضمها : أى عجزك وعدم قوتك (و) ذكر (قلة حيلتك) أى قوتك بل عدمها أصلا ، وفى نسخة حيائك والصحيح الأول كما فى سراج السالكين (فى ذلك) أى شدة عقوبة الله وغضبه (فان من لا يحتمل حر شمس) مع أنه خفيف بالنسبة إلى عذابه الأليم ، بل لا نسبة بينهما (ولا لطمة) فى المختار : اللطم الضرب على الوجه بباطن الراحة ، وبابه ضرب : أى ضربة (شرطى) أى جندى ، وهم أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت ، وطائفة من خيار أعوان الولاة ، وهم رؤساء الضابطية الواحد شرطة ، سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها كما أفاده القاموس وغيره . وفى

وَلاَ قَرْصِ نَمْلَةٍ كَيْفَ يَحْتَمِلُ حَرَّ نَارِ جَهَنَّمَ وَضَرْبَ مَقَامِعَ الزَّبَانِيَةِ وَلَسْعَ حَيَّاتٍ كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ وَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ خُلِقَتْ مِنَ النَّارِ فِى دَارِ الْغَضَبِ وَالْبَوَارِ ، نَعُوذُ بِاللهِ ثُمَّ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ ، فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذِهِ الْأَذْكَارِ وَعَاوَدْتَهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَإِنَّهَا سَتَحْمِلُكَ عَلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ مِنَ الذُّنُوبِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ »

المصباح : الشرطة بالسكون والفتح أيضا : الجند ، والجمع شرط ، مثل رطب ، والشرط على لفظ الجمع : أعوان السلطان ، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها للأعداء ، الواحد : شرطة ، مثل غرف جمع غرفة ، وإذا نسبنا إلى هذا قيل شرطى بالسكون رداً إلى واحده (ولا قرص) أى عض (نملة كيف يحتمل حر نار جهنم وضرب مقامع الزبانية) جمع مقمعة بالكسر ، والمقامع : هي سياط من حديد رءوسها معوجة ، والزبانية : الملائكة الغلاظ الشداد ، سموا زبانية لأنهم يزبنون الكفار : أى يدفعونهم فى جهنم ، كذا قاله العلامة عبد الحى ابن شاه فى سراجه (و) كيف يحتمل (لسع) أى لدغ (حيات كأعناق البخت) بضم الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة ؛ نوع من الإبل طوال الأعناق (و) لسع (عقارب كالبغال) جمع بغل ، وهو حيوان معروف (خلقت) أى تلك الحيات والعقارب (من النار في دار الغضب والبوار) أى الهلاك (نعوذ) أى نتحصن (بالله ثم نعوذ بالله) تأكيد (من سخطه وعذابه ، فاذا واظبت) أى داومت (على هذه الأذكار) الثلاثة (وعاودتها) أى راجعتها مرة بعد أخرى (آناء) أى أطراف (الليل والنهار فإنها) أى الأذكار الثلاثة (ستحملك) أى ستبعثك (على التوبة النصوح) أى الخالص (من الذنوب ، والله الموفق بفضله) وإحسانه . قال بعض الفضلاء : لفظ الموفق لم يعلم وروده لا فى كتاب ولا سنة ، وأسماء الله توفيقية على الصحيح ، فلعل المصنف رحمه الله تعالى مشى على غير مذهب الجمهور من أن كل وصف يشعر بمدح يجوز إطلاقه عليه تعالى وإن لم يرد كتابا ولا سنة ، أو يقال إن المصنف رحمه الله رأى نصا بأن لفظ موفق يطلق على الله تعالى ، وهذا اللفظ وقع لكثير من المصنفين والمؤلفين ، وحاشاهم أن يفعلوا ذلك إلا لاستنادهم لنص (فان قيل أليس) الشأن (قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : الندم توبة) والمراد أن الندم لما كان معظم أركانها ، خصه بالذكر تنويها لشأنه ، لا أن الندم وحده كاف فيها ، فهو إذا من قبيل « الحج عرفة » قاله القشيري فى الرسالة ، وهذا الحديث قال العراقي : رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث أنس ، وقال صحيح على شرط الشيخين . قال العلامة الزبيدى رواه ابن ماجه من طريق عبد الكريم الجزرى عن زياد بن أبى مريم عن ابن معقل قال : دخلت مع أبى على ابن مسعود فسمعته يقول : أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التوبة ندم ؟ » قال نعم ، ومن هذا الوجه أخرجه الطيالسى فى مسنده .

وَلَمْ يَذْكُرْ مِمَّا ذَكَرْتُمْ مِنْ شَرَائِطِهَا وَشَدَّدْتُمْ شَيْئًا ؟ يُقَالُ لَهُ : اُعْلَمْ أَوَّلاً أَنَّ النَّدَمَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ ، أَلاَ تَرَى أَنَّهُ تَقَعُ النَّدَامَةُ عَنْ أُمُورٍ فِي قَلْبِهِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لاَ يَكُونَ ذٰلِكَ وَالتَّوْبَةُ مَقْدُورَةٌ لِلْعَبْدِ مَأْمُورٌ بِهَا . ثُمَّ إِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَوْ نَدِمَ عَلَى الذُّنُوبِ لَمَّا ذَهَبَ بِذٰلِكَ جَاهُهُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ مَالُهُ فِي النَّفَقَةِ فِيهَا ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لاَ يَكُونُ تَوْبَةً بِلاَ رَيْبٍ ، فَعَلِمْتَ بِذٰلِكَ أَنَّ فِي الْخَبَرِ مَعْنًى لَمْ تَفْهَمْهُ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَهُوَ أَنَّ النَّدَمَ لِتَعْظِيمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَخَوْفِ عِقَابِهِ مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ . فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ صِفَاتِ التَّائِبِينَ وَحَالِهِمْ ،

واختلف في حد الندم ، فقال الراغب : هو التحسر من تغرر : أي في أمر فائت ، وقال أبو البقاء : هو أن يلوم نفسه على تفريط وقع منه .وقال غيره : وهو غم يصحب الانسان يتمنى أن ما وقع منه لم يقع ، وكل هذه المعانى متقاربة (ولم يذكر) أى النبي صلى الله عليه وسلم (مما ذكرتم من شرائطها) أى شرائط التوبة الأربعة وأركانها ومقدماتها (وشددتم) على (شيئا) لم يذكر عن النبي عليه الصلاة والسلام (يقال له) أي للقائل (اعلم أولا) أى قبل بيان معنى الخبر (أن الندم غير مقدور للعبد، ألا ترى أنه) أى الشأن (تقع الندامة عن أمور فى قلبه وهو) أى العبد (يريد أن لا يكون) أى لا يلحقه (ذلك) أى الندم (والتوبة مقدورة للعبد مأمور بها ، ثم إنا علمنا) يقينا (أنه) أى العبد (لو ندم) بكسر الدال من باب طرب (على) ما فعله من (الذنوب لما ذهب) علة ندم وما زائدة أو مصدرية (بذلك) أى بارتكاب الذنوب وفعلها (جاهه) فاعل ذهب أى قدره (بين الناس أو ماله فى النفقة فيها) أى في التصرف والانفاق فى سبب تلك الذنوب (فان ذلك) أى الندم لما ذكر (لا يكون توبة) لعدم تعظيم الله تعالى وخوف عقابه (بلا ريب) أى بلا شك وحقيقة الريب كما قاله الزمخشرى : قلق النفس واضطرابها ، ومنه الحديث « دع ما يريبك » وليس قول من قال : الريب الشك مطلقا بجيد ، بل هو أخص من الشك . وقال بعضهم: فى الريب ثلاث معان : أحدها الشك . وثانيها التهمة . وثالثها الحاجة ، أفاده السمين (فعلمت بذلك) أى بقولنا إنه لو ندم إلى آخره (أن فى الخبر) المذكور ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » (معنى لم تفهمه من ظاهره) أى الخبر (وهو) أى ذلك المعنى (أن الندم) على فعل الذنوب هو (لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه) أى لا لخوف من الناس أو سقوط المنزلة وغير ذلك من الأغراض الدنيوية ، وذلك (مما يبعث) أى يحمل (على التوبة النصوح فان ذلك) أى الندم لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه (من صفات التائبين وحالهم) وباعتبار اختلاف مراتبهم ، يقال : التوبة صفة المؤمنين ، والإنابة صفة المقربين ، والأوبة صفة الأنبياء المرسلين ، ويقال : إن التوبة من طريق المعنى على ثلاثة أنواع : فالأول التوبة من ذنب يكون بين العبد وبين ربه ، وهذه تكون بندامة الجنان واستغفار اللسان . والثانى التوبة من

فَإِنَّهُ إِذَا ذَكَرَ الْأَذْكَارَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي هِيَ مُقَدِّمَاتُ التَّوْبَةِ نَدِمَ وَحَمَلَتْهُ النَّدَامَةُ عَلَى تَرْكِ اخْتِيَارِ الذُّنُوبِ وَتَبْقَى نَدَامَتُهُ فِي قَلْبِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَتَحْمِلُهُ عَلَى الِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ التَّوْبَةِ وَصِفَاتِ التَّائِبِ سَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِاسْمِ التَّوْبَةِ ، فَافْهَمْ ذَلِكَ مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى .

فَإِنْ قُلْتَ كَيْفَ يُمْكِنُ

ذنب يكون بين العبد وبين طاعة الرب ، وهذه تكون بجبر النقصان الواقع فيها . والثالث من ذنب يكون بين العبد وبين الخلق ، وهذه تكون بارضاء الخصوم بأى وجه من الامكان ، ومن طريق اللفظ ، وسبيل اللطف على ثلاثة وثلاثين درجة منها لاتكون مثمرة حتى يتم أمرها ، ولا تظن أنك مزيد فيها ، فان أباك آدم عليه السلام كان مقدم التائبين . وإذا أردت التوبة فهو المريد لتوبتك ، فاذا تاب فتوبته عليك جزاؤه بمحبته ، ولا تقبل توبة من يدخرها من الوقت ، ولا ينال مقام التوبة إلا بتوفيق الله ، وإذا تاب المؤمن أقبل الله عليه بالقبول ، وكفل له نيل المأمول ، ومن تاب كان في أمان الايمان مصاحبا لسلاح الصلاح ، ومن تاب وقصد الباب حصل له الفرج أفضل الأسباب ، إذا أقبل العبد على باب التوبة استحكم عقد أخوته مع أهل الايمان ، ومن أثار غبار المعاصى وأتبعه برشاش الندم غلبت الحكمة الإلهية طاعته على معصيته ومن لاذ بحرم التوبة قبل القدرة عليه فلا سبيل للايذاء عليه . وروى صاحب نهج البلاغة أن عليا رضى الله عنه قال لرجل قال بحضرته أستغفر الله : ثكلتك أمك ، أتدرى ما الاستغفار ؟ قال: الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها الندم على ما مضى ، والثانى العزم على ترك العود إليه أبدا . والثالث أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل ليس عليك تبعة . والرابع أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدىَ حقها . والخامس أن تعمد إلى اللحم الذى على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد . والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول أستغفر الله (فانه) أى العبد المذنب (إذا ذكر) فى قلبه (الأذكار الثلاثة التى هى مقدمات التوبة ندم) على فعله ما يخالف الشرع (وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب وتبقى ندامته فى قلبه فى المستقبل فتحمله) هذه الندامة (على الابتهال والتضرع) إلى الله تعالى ، هما مترادفان كما قيل (فلما كان ذلك) أى الندم لما ذكر (من أسباب التوبة وصفات التائب سماه) أى الندم لذلك (رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم التوبة) مجازا مرسلا من قبيل تسمية السبب باسم المسبب (فافهم ذلك) أى التسمية (موفقا) أى حال كونك أعطيت التوفيق من الله (إن شاء الله تعالى . فإن قلت : كيف يمكن

الْإِنْسَانُ أَنْ يَصِيرَ بِحَيْثُ لاَ يَقَعُ مِنْهُ ذَنْبٌ أَلْبَتَّةَ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ ، كَيْفَ وَأَنْبِيَاءُ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَفُ خَلْقِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، قَدِ اخْتَلَفَ فِيهِمْ أَهْلُ الْعِلْمِ : هَلْ نَالُوا هٰذِهِ الدَّرَجَةَ أَمْ لاَ ؟

الإنسان أن يصير بحيث لايقع منه ذنب ألبتة) أى قطعا (من صغير أو كبير ، كيف) يمكن ذلك (و) الحال أن (أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه الذين هم أشرف خلق الله سبحانه وتعالى قد اختلف فيهم) أي الأنبياء عليهم السلام (أهل العلم هل نالوا هذه الدرجة) وهى عدم وقوع الذنب مطلقا (أم لا) نالوا وحصلوا ذلك ، وفي ضوء المعالي لبدء الأمالى للعلامة على القارى رحمه الله : فالأنبياء عليهم السلام معصومون عن أنواع الكفر مطلقا قبل البعثة وبعدها بالإجماع وكذا عن سائر الكبائر عمدا باتفاق العلماء المعتبرين ، ومحله بعد البعثة ؛ وأما سهوا فجوزوا وقوعها منهم عند الأكثرين كما فى شرح العقائد انتهى . وفي شرح المواقف . وأما صدور الكبائر منهم سهوا أو على سبيل الخطأ فى التأويل فجوزه الأكثرون والمختار خلافه . وفى [ضوء المعالى] أيضا : وأما الصغائر فما كان منها دالا على الخسة كسرقة لقمة فلا خلاف فى عصمتهم منه مطلقا ، ومالا يدل على ذلك فالمختار لجمهور أهل السنة عصمتهم عن عمده . وأما سهوه فنقل ابن جماعة أن المعصية ضد الطاعة ، وأن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر عمدا وسهوا خلافا للحنفية فى سهو الصغائر انتهى . وهو مخالف لما حكي التفتازانى فيه الاتفاق . وأما قول شارح [المقدس] لعل مراده اتفاق الحنفية فغير صحيح لما بينه في شرح العقائد أنه أراد به الإجماع ، ولعل مراده إجماع المتقدمين أو جمهورهم فلا ينافيه المنقول عن الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني ، وأبى الفتح الشهرستانى والقاضى عياض أنهم معصومون عن الكبائر والصغائر عمدا وسهوا ، واختاره السبكى ولا يبعد أن يقال المراد بالاتفاق هو التجويز ، ومورد الاختلاف الوقوع ، والله أعلم .

قال العلامة النوبى : الذى أعتقده وأدين به وأعتمده تبعا للأستاذ أبى إسحاق الاسفراينى وأبى الفتح الشهرستانى والقاضى عياض وكثير من المتأخرين منهم الإمام السبكى والإمام البلقينى ، ونقله فى زيادات الروضة عن المحققين ، واعتمده القاضى حسين : هو أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الكبائر والصغائر عمدا وسهوا قبل النبوة وبعدها ، لأن المعصية ولو قبل النبوة تورث معرة وشبهة فى تبليغ الأحكام تمنع من اتباعهم فتفوت مصلحة البعثة ، ويؤيد عصمتهم قبل النبوة قوله تعالي « لا ينال عهدي الظالمين » ، وما نقل عنهما آحادا أو تواترا فمؤول بترك الأفضل كأ كل آدم وفعل إخوة يوسف ، على أن أ كل آدم من الشجرة إنما كان باجتهاد منه ، وهو أنه فهم من قوله تعالى « ولا تقربا هذه الشجرة » أن النهى خاص بشجرة معينة مستدلا بأن النهى جائز تخصيصه ، فلم يقرب تلك الشجرة المعينة ، فأكل من جنسها لامن عينها

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا أَمْرٌ مُمْكِنٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ ثُمَّ هُوَ هَيِّنٌ ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ . ثُمَّ مِنْ شَرْطِ التَّوْبَةِ أَنْ لَا يَتَعَمَّدَ ذَنْباً ، فَأَمَّا إِنْ وَقَعَ مِنْهُ بِسَهْوٍ أَوْ خَطَإٍ فَهُوَ مَعْفُوٌّ عَنْهُ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى ، وَهٰذَا هَيِّنٌ عَلَى مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّوْبَةِ أَنِّي أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي أَنِّي أَعُودُ إِلَى الذَّنْبِ وَلَا أَثْبُتُ عَلَى التَّوْبَةِ فَلَا فَائِدَةَ فِي ذٰلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ هٰذَا الْعِلْمُ فَعَسَى أَنْ تَمُوتَ تَائِباً قَبْلَ أَنْ تَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ .

وَأَمَّا الْخَوْفُ مِنَ الْعَوْدِ فَعَلَيْكَ الْعَزْمُ وَالصِّدْقُ فِي ذٰلِكَ وَعَلَيْهِ الْإِتْمَامُ ، فَإِنْ أَتَمَّ فَذَاكَ الْمَقْصُودُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ فَقَدْ غُفِرَتْ ذُنُوبُكَ السَّالِفَةُ كُلُّهَا وَتَخَلَّصْتَ مِنْهَا وَتَطَهَّرْتَ وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا هٰذَا الذَّنْبُ الَّذِي أَحْدَثْتَهُ الْآنَ

وبيع الحر كان مباحا فى ملتهم بالسرقة والدين والإقرار ، وقد سكت يوسف عليه السلام عند البيع وسكوته يؤذن بالإقرار ، فتبين بهذا أن ما اختاره القاضي عياض والبلقيني والسبكي هو الصحيح ، وإلى هذا أشار بقوله (فاعلم أن هذا) أى صيرورة الإنسان بحيث لايقع منه ذنب قطعا مطلقا (أمر ممكن غير مستحيل ، ثم هو) أى هذا الأمر (هين) أى سهل (والله) سبحانه وتعالى (يختص برحمته من يشاء) من عباده لاراد لما أعطى (ثم من شرط التوبة أن لايتعمد) أى لايقصد العبد (ذنبا فأما إن وقع) أى الذنب (منه) أى من العبد (بسهو أو خطأ) أى غير عمد (فهو) أى الذنب الواقع بلا عمد وقصد (معفوٌّ عنه بفضل الله تعالى ، وهذا) أى عدم قصد الذنب (هين على من وفقه الله تعالى . فان قلت : إنما يمنعنى من) إرادة (التوبة أنى أعلم من نفسى أنى أعود) أى أرجع (إلى الذنب) بعد التوبة (ولا أثبت على التوبة فلا فائدة) لي (فى ذلك) أى التوبة (فاعلم أن هذا) أى علمك بعودك إلى الذنب المانع من التوبة (من غرور الشيطان) وخداعه (ومن أين) حصل (لك هذا العلم) بالعود إلى الذنب (فعسى أن تموت تائبا قبل أن تعود إلي الذنب . وأما الخوف من العود ف) يلزم (عليك العزم) أى القصد (والصدق فى ذلك) أى الخوف منه (وعليه) تعالى على سبيل الفضل والانعام (الإتمام) على مقصودك ، بأن استعملك علي استمرار التوبة وعدم العود إلى المعصية (فان أتم) الله تعالى مرادك (فذاك) الاتمام هو (المقصود) الأعظم (من فضله) تعالى (وإن لم يتم) سبحانه وتعالى قصدك الاستمرار لما ذكر وذلك بأن استعملك علي ارتكاب المعصية بعد التوبة (فقد غفرت ذنوبك السالفة كلها وتخلصت منها وتطهرت وليس عليك إلا هذا الذنب الذى أحدثته) أى فعلته (الآن) أى بعد التوبة المقبولة . قال العلامة الجمل : الآن ظرف زمان يقتضى الحال ويخلص المضارع له عند

وَهٰذَا هُوَ الرِّبْحُ الْعَظِيمُ وَالْفَائِدَةُ الْعَظِيمَةُ الْكَبِيرَةُ فَلَا يَمْنَعْكَ خَوْفُ الْعَوْدِ عَنِ التَّوْبَةِ فَإِنَّكَ مِنَ التَّوْبَةِ أَبَدًا بَيْنَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

جمهور النحويين ، وهو لازم للظرفية لا يتصرف غالبا بنى لتضمنه معنى حرف الإشارة ، كأنك قلت هذا الوقت ؛ واختلف فى أل التى فيه . فقيل للتعريف الحضوري ، وقيل زائدة لازمة (فهذا) أي غفران الذنوب والتخليص والتطهير منها بفضل علام الغيوب (هو الربح العظيم والفائدة العظيمة الكبيرة فلا يمنعك خوف العود) إلى الذنب (عن التوبة ، فانك من التوبة أبدا بين إحدي الحسنيين) أي المتقدمتين وهما حصول المقصود إن أعطيت الإتمام ، وغفران الذنوب إن لم تعط ذلك من الملك العلام (والله ولى التوفيق والهداية) إلى سبيل الرشاد (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة .

[قسمة] اعلم أن الذنوب كما قاله أبو حامد الغزالى وغيره تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر اختلاف الناس فيها ، فقال قائلون : لا صغيرة ولا كبيرة ، بل كل مخالفة لله فهى كبيرة ، وهذا ضعيف إذ قال تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » وقال تعالي « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » وقال صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر » وفى لفظ آخر « كفارات لما بينهن إلا الكبائر » . رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس . وقد قال صلى الله عليه وسلم فما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الولدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » .

واختلف الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم فى عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك ، فقال ابن مسعود رضى الله عنه : هي أربع : الاشراك بالله ، واليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله . رواه عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن أبى الدنيا فى التوبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى . وقال ابن عمر : «هى سبع الإشراك بالله ، وقذف المحصنة ، وقتل النفس المؤمنة ، والفرار من الزحف ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم » أخرجه على ابن الجعد فى الجعديات والبيهقى عن طيلسة . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص : هى تسع : الاشراك بالله ، وقتل النسمة ، يعنى بغير حق ، وقذف المحصنة ، والفرار من الزحف ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والذى يستسحر ، وإلحاد فى المسجد الحرام ، وبكاء الوالدين من العقوق ، رواه البخارى فى الأدب المفرد وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير والقاضى إسمعيل فى أحكام القرآن وابن المنذر بسند حسن كلهم من طريق طيلسة ، وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر: الكبائر سبع ، يقول : هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد . وقال ابن عباس مرة : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة :

وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالتَّخَلُّصُ مِنْهَا . فَاعْلَمْ أَنَّ الذُّنُوبَ فِى الْجُمْلَةِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ :
أَحَدُهَا: تَرْكُ وَاجِبَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْكَ مِنْ صَلَاةٍ أَوْ صَوْمٍ أَوْ زَكَاةٍ

وقال غيره من السلف : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف : كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة : كزنا، ولواط ، وشرب خمر وإن قل ولم يسكر، ونبيذ ولم يعتقد حله ، وسرقة ، وقذف ، فهذه فيها حدود . وأما الصغائر عندهم من اللمم : وهو مالا حد فيه ومالم يتهدد بالنار عليه . وقال بعضهم : إنها : أى الكبائر مبهمة لا يعرف حقيقة عددها كليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، والصلاة الوسطى ليكون الناس على خوف ورجاء ، فلا يقطعون بشيء ولا يسكنون إلى شيء ، كذا فى القوت . وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه فيها قولا حسنا من طريق الاستنباط لما سئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » فكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلي هنا فهى كبيرة . قال العلامة مرتضى : ومن حدود الكبيرة كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة مبطلة للعدالة . وكل جريمة لا تؤذن بذلك بل لسبق حسن الظن ظاهرا بصاحبها لا تحبط العدالة ، وهذا أحسن ما يتميز به أحد الضدين عن الآخر كما قاله إمام الحرمين . ومن حدود الكبيرة ما قاله المصنف أبو حامد الغزالى فى بعض كتبه : كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف ووجدان ندم تهاونا واستجراء عليها فهى كبيرة ، وما يحمل على فلتات النفس ولا ينفك عن ندم يمتزج بها وينقص التلذذ بها فليس بكبيرة (وأما الخروج عن الذنوب والتخلص منها) أى من الذنوب (فاعلم أن الذنوب فى الجملة) أى من غير تفصيل لكلها (ثلاثة أقسام : أحدها ترك واجبات الله سبحانه وتعالى عليك من صلاة) فان كنت قد تركت صلاة من الخمس ، أو صليتها فى ثوب نجس أو بدن نجس أو مكان نجس ، أو صليتها بنية غير صحيحة لجهلك بشرط النية فتقضيها عن آخرها ، فان شككت فى عدد ما فاتك منها حسب من مدة بلوغك ، وترك القدر الذى تتيقن أنك أديته وتقضى الباقى ، ولك أن تأخذ فيه بغالب الظن الذى تصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد (أو صوم) فان كنت قد تركته فى سفر ولم تقضه ، أو أفطرت عمدا ، أو نسيت النية بالليل ولم تقض فتتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد وتشتغل بقضائه (أو زكاة) فتحسب جميع مالك وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ، فان الزكاة واجبة فى مال الصبى ، خلافا لأبى حنيفة فتؤدى ما علمت بغالب الظن أنه فى ذمتك ، فان أديته لا علي وجه يوافق مذهبك بأن لم تصرف إلى الأصناف الثمانية بل إلى بعضها كما هو مذهب أبى حنيفة ، أو أخرجت البدل كما هو مذهبه والحال أنك على مذهب الشافعى فتقضى جميع ذلك ، فان ذلك لا تجزيه أصلا ؛ وبالجملة إن حساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ، واحتياط وافٍ

أَوْ كَفَّارَةٍ أَوْ غَيْرِهَا فَتَقْضِي مَا امْكَنَكَ مِنها . وَالثَّانِي: ذُنُوبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَشُرْبِ الْخَمْرِ وَضَرْبِ الْمَزَامِيرِ وَأَكْلِ الرِّبَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ ، فَتَنْدَمُ عَلَى ذٰلِكَ وَتُوَطِّنُ قَلْبَكَ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَى مِثْلِهَا أَبَدًا . وَالثَّالِثُ: ذُنُوبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْعِبَادِ ، وَهٰذَا

(أو كفارة)وهي كثيرة كما هو مبسوط فى محله (أوغيرها) أىالصلاة والصوم والزكاة والكفارة ومنه الحج (فتقضى ما أمكنك) بالتتبع والتفتيش كما سبق (منها) أى من الواجبات المتروكة ، (و) القسم (الثانى ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشرب الخمر وضرب المزامير) جمع مزمار بكسر الميم: وهو ما يضرب به مع الأوتار. وهو مزمارعراقى كما قاله شيخ الاسلام فىالفتح ، والمراد هنا مايعم فيه من آلة الملاهى . وفى الحديث « من استمع آلة الملاهي فىالدنيا لم يسمع قراءة قراء أهل الجنة » . ومنهم يوسف ومحمد صلى الله عليه وسلم أفاده بعض المحققين (وأكل الربا ونحو ذلك) كنظر إلى غير محرم وقعود فى مسجد مع الجنابة ، ومس مصحف بغير وضوء ولا تيمم ، واعتقاد بدعة غير مخرجة عن الملة ؛ وإلقاء المال فى البحر وإنفاقه فى المعصية وغير ذلك (فتندم) وتتحسر (على ذلك) أى المذكور من الذنوب التى لاتتعلق بالعباد (وتوطن) أى تقرر (قلبك على ترك العود إلى مثلها) أى الذنوب المذكورة (أبدا) أى ثم تأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات بعد أن تحسب مقدارها من حيث كبرك ومدتك ، وتطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . رواه الترمذى وصححه ، بل من قوله تعالى « إن الحسنات يذهبن السيئات » فتكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه ، كالتصدق بشرب السكر مثلا تجعله فى كيزان وتسقى الناس فى المجامع ، أو تقف به فى ممر الناس فى أوقات شدة الحر والعطش ؛ وتكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ، وبمجالس الذكر والعلم ، وتكفر أكل الربا بالتصدق بالطعام الحلال ، وتكفر القعود فى المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ؛ وتكفر مس المصحف محدثا باكرام المصحف ، وكثرة قراءة القرآن منه ، وكثرة تقبيله ، وبأن تكتب مصحفا وتجعله وقفا وهكذا إلى مايناسب الذنوب ، وعد جميع المعاصى غير ممكن ، وإنما المقصود سلوك طريق المضادة ، فإن المرض إنما يعالج بضده ليقاومه فيعتدل المزاج ، وكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور ارتفعت إليها بطاعة من جنسها ، لكن تضادها والمضادات هى المتناسبات ، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها مع المضادات ، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج من التلطف فى طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق ، والثقة أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان أيضا مؤثرا فى المحو ، فهذا حكم مابينه وبين الله تعالى (و) القسم (الثالث ذنوب بينك وبين العباد وهذا) أى أمر

أَشْكَلُ وَأَصْعَبُ ، وَهِيَ أَقْسَامٌ قَدْ تَكُونُ فِى الْمَالِ وَفِى النَّفْسِ وَفِى الْعِرْضِ وَفِى الْحُرْمَةِ وَفِى الدِّينِ . فَمَا كَانَ فِى الْمَالِ فَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيْهِ إِنْ أَمْكَنَكَ ، فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذٰلِكَ لِعَدَمٍ وَفَقْرٍ فَتَسْتَحِلَّ مِنْهُ ، فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذٰلِكَ لِغَيْبَةِ الرَّجُلِ أَوْ مَوْتِهِ وَأَمْكَنَ التَّصَدُّقُ عَنْهُ فَافْعَلْ ، وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ فَعَلَيْكَ بِتَكْثِيرِ حَسَنَاتِكَ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ بِالتَّضَرُّعِ وَالْاِبْتِهَالِ أَنْ يُرْضِيَهُ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

هذه الذنوب (أشكل وأصعب) لكثرة مطالبه ووعور مسالكه (وهى) أى تلك الذنوب المتعلقة بينك وبين العباد (أقسام) أى خمسة (قد تكون فى المال وفى النفس وفى العرض) بكسر العين: موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه كما فى المرقاة . وفى المصباح : العرض بالكسر : النفس والحسب (وفى الحرمة) بالضم : مالا يحل انتهاكه كما فى المصباح (وفى الدين ، فما كان فى المال) أى من غصب ، أو خيانة ، أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس ، كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع ، أو نقص أجرة أجير استأجرته بأن تعطيه أقل مما تعطى أمثاله ، فكل ذلك يجب أن تفتش وتبحث عنه لامن حد بلوغك ، بل من أول مدة وجودك ، فان مايجب فى مال الصبى يجب على الصبى إخراجه بعد البلوغ إن كان الولى قد قصر فيه ، فان لم يفعل كان ظالما مطالبا به يوم القيامة ، إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبى والبالغ . ولتحاسب نفسك على الحبات والدوانق من أول يوم حياتك إلى يوم توبتك قبل أن تحاسب فى القيامة ؛ ولتناقش قبل أن تناقش ، فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه ، فإذا حصلت مجموع ماعليك بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن (فيجب عليك أن ترده) أى ماعليك من المال (عليه) أى على مالكه إن وجدته وإلا فورثته الأقرب فالأقرب كما قاله العلامة مرتضى ، هذا (إن أمكنك) الرد بأن حصلته كما ذكر (فإن عجزت عن ذلك) أى رد المال على مالكه (لعدم) أى لعدم ماأخذته (وفقر) أي عدم ماعندك من مال وغيره (فتستحل منه) أى تطلب من المالك أن يحل لك (فإن عجزت عن ذلك) أى الاستحلال (لغيبة الرجل) أى الذى هو مالك المال أو ذهابه (أو موته وأمكن التصدق عنه) أى عن ذلك الرجل (فافعل) أى التصدق ، ولكن بنية الغرامة إذا وجدته كما قاله العلامة عبد الحق بن شاه (وإن لم يمكن) التصدق (فعليك) أى الزم (بتكثير حسناتك) حتى تفيض عنك فتؤخذ حسناتك وتوضع فى موازين أرباب المظالم ، كما ورد فى الخبر ، ولتكن كثرة حسناتك بقدر كثرة مظالمك ، فإنه إن لم تف بها حسناتك حملت من سيئات أرباب المظالم فتهلك بسيئات غيرك ، فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم (والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال) ظاهرا وباطنا (أن يرضيه) أى خصمك الذى يملك الحق (عنك يوم القيامة ؛

وَأَمَّا مَا كَانَ فِي النَّفْسِ فَتُمَكِّنُهُ مِنَ الْقِصَاصِ أَوْ أَوْلِيَاءَهُ ، حَتَّى يَقْتَصَّ مِنْكَ أَوْ يَجْعَلَكَ فِي حَلٍّ فَإِنْ عَجَزْتَ فَالرُّجُوعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَالِابْتِهَالُ إِلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَأَمَّا فِي الْعِرْضِ فَإِنِ اغْتَبْتَهُ أَوْ بَهَتَّهُ أَوْ شَتَمْتَهُ فَحَقُّكَ أَنْ تُكَذِّبَ نَفْسَكَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَأَنْ تَسْتَحِلَّ مِنْ صَاحِبِهِ إِنْ أَمْكَنَكَ هَذَا إِذَا لَمْ تَخْشَ زِيَادَةَ غَيْظٍ أَوْ هَيْجِ فِتْنَةٍ فِي إِظْهَارِ ذَلِكَ أَوْ تَجْدِيدِهِ ، فَإِنْ خَشِيتَ ذَلِكَ فَالرُّجُوعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ وَيَجْعَلَ لَهُ خَيْرًا كَثِيرًا فِي مُقَابَلَتِهِ ،

وأما ما كان فى النفس) من قتل أو قذف (فتمكنه) أى المستحق (من القصاص) أو الحد (أو) تمكن منه (أولياءه) أى ورثته الأقرب فالأقرب كما تقدم ، هذا إن لم تجد المستحق بعينه (حتى يقتص) أى كل منهما (منك أو يجعلك فى حل) وعفو (فإن عجزت) عن تمكين المستحق وأهله لكونهم غائبين أو ميتين أو غير ذلك (فالرجوع) بتكثير الحسنات وأنواع الخيرات (إلى الله سبحانه والابتهال) أى التضرع بإخلاص الدعاء (إليه) جلّ وعز (أن يرضيه) أى بأن يرضيه الله تعالى بإسقاط المظالم (عنك يوم القيامة . وأما) المظالم التي كانت (فى العرض) ففيها تفصيل (فإن اغتبته) أى الإنسان (أو بهته) بفتحتين مع تشديد التاء للمخاطب وبابه نفع : أى قذفته وافتريت عليه الكذب (أو شتمته فحقك أن تكذب نفسك بين يدى من فعلت ذلك) أى ماذكر من الغيبة أو البهتان أو الشتم (عنده) أى عند من فعلت ذلك بأن تقول كذبت في قولى كذا وكذا فى حق ذلك الإنسان (و) حقك أيضا (أن تستحل) أى تطلب الاستحلال (من صاحبه) أي المذكور من الغيبة وما بعده . والصاحب هو الانسان الذى اغتبته أو نسبته إلى البهتان أو شتمته ، والاستحلال المذكور هو مع التفصيل ، وذلك بأن تعرفه قدر جنايتك وتعرضك له ، لأن الاستحلال المبهم لايكفى كما قاله فى الإحياء وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديك عليه لم تطب نفسه بالإحلال ، وادخر ذلك فى القيامه ذخيرة يأخذها من حسناتك أو يحملك من سيئاته ، هذا (إن أمكنك) الاستحلال وإلا بأن لم يمكنك ذلك لخوف فتنة أو موت أو غائب ، فقد فات أمر المستحق ، فلا سبيل لك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منك عوضا فى القيامة عند المحاسبة ، أو يرضيه الله عنك كما أشار بقوله رحمه الله تعالى (هذا) أى وجوب الاستحلال عليك (إذا لم تخش زيادة غيظ) أى غضب (أو هيج فتنة) أي إثارتها وتحركها (في إظهار ذلك) أى مافعلته من الجناية القلبية (أو تجديده) أى تجديد غيظ أو إثارة فتنة بسبب الذكر والتعريف ، لأن هذا سيئة جديدة يجب الاستحلال منها (فإن خشيت ذلك) أى زيادة الغيظ وما بعدها بسبب الإظهار (ف)لا سبيل لك إلا (الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ليرضيه عنك ويجعل له) أى لصاحب الحق (خيرا كثيرا فى مقابلته) أي معارضة ما فعلته مما ذكر

وَالاسْتِغْفَارُ الْكَثِيرُ لِصاحِبِهِ ، وَأَمّا الْحُرْمَةُ بِأَنْ خُنْتَهُ فِى أَهْلِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ نَحْوِهِ فَلاَ وَجْهَ لِلاسْتِحْلالِ وَالْإِظْهارِ لِأَنهُ يُوَلِّدُ فِتْنَةً وَغَيْظًا بَلْ تَتَضَرَّعُ إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ وَيَجْعَلَ لَهُ خَيْرًا كَثِيرًا فِى مُقَابَلَتِهِ ، فَإِنْ أَمِنْتَ الْفِتْنَةَ وَالْهَيْجَ وَهُوَ نَادِرٌ فَتَسْتَحِلَّ مِنْهُ

(و) إلا (الاستغفار الكثير لصاحبه) هذا طريق تائب عن المظالم يتعذر عليه الاستحلال (وأما الحرمة بأن خنته) بضم الخاء من باب قال أى فعلت الخيانة للشخص (فى أهله) أى زوجته أو أمته أو غيرهما من محجوراته كأن زنيت بها (أو ولده أو نحوه) أى كل من أهله وولده من قريبته البعيدة والقريبة (فلا وجه للاستحلال والإظهار ، لأنه) أى كلا منهما (يولد) أى يخرج وينتج (فتنة وغيظا بل تتضرع إلى الله سبحانه ليرضيه) الله تعالى ذلك الشخص (عنك ويجعل له خيرا كثيرا فى مقابلته ، فإن أمنت الفتنة والهيج) أى هيج الفتنة : أى تحركها (وهو) أى هذا الأمن (نادر) جدا (فتستحل منه) أى من الشخص المستحق لما ذكر ، فإن كان الشخص الذى طلبت منه الاستحلال قد أحله لك بطيب قلب منه ، وانشراح صدر ، فذلك كفارته كما قاله المصنف أبو حامد الغزالى فى بعض كتبه ، ومهما ذكرت جنايتك وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليك ، فإن هذا حقه ، فعليك أن تتلطف به ، وتسعى فى مهماته . وأغراضه الدنيوية ، وتظهر من حبه والشفقة عليه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، فيحب المحسن إليه بطبعه ، ويميل إليه بقلبه ، وكل من نفر عنك بسيئة مال إليك بحسنة ، فإذا طاب قلبه بكثرة توددك وتلطفك سمحت نفسه بالإحلال لا محالة ، فإن أبى إلا الإصرار على عدم السماح فيكون تلطفك به واعتذارك إليه من جملة حسناتك التى يمكن أن تجبر بها فى القيامة جنايته ؛ وليكن قدر سعيك فى فرحه وسرور قلبه بتوددك وتلطفك كقدر سعيك فى أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر وزاد عليه أخذ ذلك منك عوضا فى القيامة بحكم الله به عليك وهذا كمن أتلف فى الدنيا مالا لآخر فجاء المتلف بمثله فامتنع من له المال عن القبول وعن الإبراء ، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى رضى أم كره ، وكذلك يحكم فى صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين جل جلاله . وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه يعنى نفسه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا ، فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال

وَأَمَّا فى الدِّينِ بِأَن كَفَّرْتَهُ أَوْ بَدَّعْتَهُ أَوَ ضَلَّلْتَهُ ، فَهُوَ أَصعبُ الْأُمُورِ فَتَحْتَاجُ إِلَى تَكْذِيبِ نَفْسِكَ بَيْنَ يَدَىْ مَنْ قُلْتَ لَهُ ذٰلِكَ وَأَنْ تَسْتَحِلَّ مِنْ صَاحِبِكَ إِنْ أَمْكَنَكَ وَإِلاَّ فَالِابْتِهَالُ إِلى اللهِ تعالى جِدّاً وَالتَّنَدُّمُ عَلَى ذٰلِكَ لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ . وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ فَمَا أَمْكَنَكَ مِنْ إِرْضَاء الْخُصُومِ عَمِلْتَ وَمَا لَمْ يُمْكِنْكَ رَجَعْتَ إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهالِ وَالتَّصَدُّقِ لِيُرْضِيَهُ عَنْكَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ فى مَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ

ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه حكما بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة» وفى رواية لمسلم «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر ، فجعل من أهلها » وفى رواية « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » فبهذا الحديث يعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة ، فلا بد للتائب من تكثير الحسنات كذا قاله أبو حامد الغزالى وغيره (وأما) المظالم (فى الدين) وذلك (بأن كفرته) أى نسبت الإنسان إلى الكفر بأن قلت يا كافر (أو بدعته) أى نسبته إلى البدعة بأن قلت يا مبتدع (أو ضللته) أى نسبته إلى الضلال (فهو) أى التكفير وما بعده (أصعب الأمور) وأشقها (فتحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدى من قلت له ذلك) أى التكفير ونحوه بأن تقول إنى كذبت فى قولى كذا وكذا فى حق فلان (وأن تستحل من صاحبك) أى الذى هو الإنسان الكفر مثلا (إن أمكنك) الاستحلال (وإلا) أى وإن لم يمكن ذلك لموته أو غيره (ف)الواجب عليك (الابتهال) والتضرع باخلاص الدعاء (إلى الله تعالى جدا) بكسر الجيم أى اجتهادا كاملا (والتندم) أى تكلف الندم حتى يصير كالطبع بسبب فعلك (على ذلك) أى تكفير الغير وغيره من المظلمة (ليرضيه) الله تعالى (عنك) يوم القيامة عند محاسبة الأعمال (وجملة الأمر) أى حاصل الكلام (فما أمكنك من إرضاء الخصوم) بضم الخاء جمع خصم ، والخصم يقع على المفرد وغيره والذكر والأنثى بلفظ واحد ويجمع أيضا على خصام مثل بحر وبحار وبحور كما فى المصباح ، والمراد هنا المستحقون ما فيك من الحسنات (عملت) به مع التلطف بالإحسان إليهم (وما لم يمكنك) من الإرضاء لهم (رجعت إلى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهال والتصدق) على الفقراء بالمال الحلال (ليرضيه) أى ذلك الخصم (عنك فيكون ذلك) أى الإرضاء (فى مشيئة الله) وإرادته (سبحانه يوم القيامة) وقال فى الإحياء وغيره : فمتى تعلق به حق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر مع التضرع والابتهال وترك ماله فى المستقبل والإتيان بالحسنات التى هى أضدادنا : أى المعاصى ،

وَالرَّجَاءِ مِنْهُ بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ وَإِحْسَانِهِ الْعَمِيمِ أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الصِّدْقَ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ فَإِنَّهُ يُرْضِي خُصَمَاءَهُ مِنْ خِزَانَةِ فَضْلِهِ

فيقابل إيذاء الناس أي إن كان آذاهم بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق على الفقراء بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين والصلاح ، وإظهار ما يعرف به من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، وبث ذلك بين الناس، ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب ، لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده ، فالاعتاق إيجاد : أي بمنزلته لا يقدر الإنسان على أكثر منه ، إذ ليس في وسعه الإيجاد الحقيقي ، فجعل الاعتاق قائماً مقامه رحمة من الله على عباده ومنة منه عليهم ، فيقابل الإعدام الذى هو قتل النفس بالإيجاد الذى هو عتق الرقبة ، وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق الرقبة ؛ وهذا من الأسرار الإلهية التي لا يدركها إلا خواص البشر ، ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ، ولذا يطلب منه الرجوع إلى الله تعالى ليرضيهم عنه (والرجاء منه) تعالي (بفضله العظيم وإحسانه العميم) لجميع العوالم (أنه) سبحانه وتعالى (إذا علم) أي علم ظهور (الصدق من قلب العبد) وصدق العبد بأن يكثر من حسناته ليوم القصاص ويخفي بعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله (فإنه) جل وعز (يرضى خصماءه) أي العبد (من خزانة فضله) تعالي ، والخزانة بكسر الخاء والجمع خزائن : أي من فضله تعالى ولطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد ، كما روى عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه مايضحكك يارسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما : يارب خذلي مظلمتي من أخي ، فقال الله تعالى : أعط أخاك مظلمته ، فقال يارب لم يبق من حسناتي شيء ، فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ؟ قال يارب يتحمل عني من أوزاري ، قال : وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم ، قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان ، فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة ، وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا أو لأي صديق هذا ، أو لأي شهيد هذا ؟ قال لمن أعطاني الثمن ، قال يارب : ومن يملك ثمنه ، قال أنت تملكه ، قال وما هو ؟ قال عفوك عن أخيك ، قال يارب إني قد عفوت عنه ، قال الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ، وفي رواية : فادخلا الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين » . قال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالي : وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق

وَلاَ حكمَ فاعْلَمْ هٰذِهِ حَقُّها رَاشِدًا فَهٰذِهِ هٰذِهِ . فإذَا أَنْتَ عَمِلْتَ مَا وَصَفْناهُ وَبَرَّأْتَ الْقَلْبَ عَنِ اخْتيارِ مِثْلِهَا فى الْمُسْتَقْبَلِ فَقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّها ، وَإنْ حَصَلَتْ مِنْكَ تَبْرِئَةُ الْقَلْبِ وَلَمْ يَحْصُلْ مِنْكَ قَضَاءُ الْفَوائِتِ وَإرْضاءُ الْخُصُومِ فالتَّبِعاتُ لاَزِمَةٌ وَسَائِرُ الذُّنوبِ مَغْفُورَةٌ . وَلِهٰذَا الْبَابِ شَرْحٌ يطُولُ فَلَا يَحْتَمِلُهُ هٰذَا الْمُخْتَصَرُ ، وَانْظُرْ كِتابِ التَّوْبَةِ مِنْ كِتابِ إحْياءِ عُلُومِ الدِّينِ أَوَّلاً ، وَكِتابِ الْقُرْبَةِ إلى اللهِ تعالَى ثانياً ، وَكِتابِ الْغايَةِ الْقُصْوَى ثالِثاً

بأخلاق الله ، وهو إصلاح ذات البين ، وسائر الأخلاق المحمودة ، فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أوتلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء ، وقد خلع عليك خلعة الرضا ، وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء ، وبنعيم لايدور بحواشيه الفناء والله أعلم . قال رحمه الله تعالى : (ولاحكم) الآن بإرضاء الخصوم (فاعلم هذه) أى جملة الأمر و(حقها) هو التخلق بأخلاق الله والإتيان بحقوق عباده كما هو ظاهر (راشدا) أي إصابة للصواب (فهذه) الجملة (هذه) أي الموصوفة بالكمال والوصول إلى النهاية كذا فى سراج السالكين (فإذا أنت عملت ماوصفناه) لك من الندم على ارتكاب الذنب مع الابتهال إلى الله (وبرأت القلب عن اختيار مثلها) أى الذنوب التي تبت عنها ، وذلك بأن توطن قلبك على ترك العود إلى ذلك المثل أبدا (فى المستقبل) أى فيما يستقبل من الزمان وأرضيت الخصم عن الحقوق التى هى له عليك (فقد خرجت من الذنوب كلها) من حقوق الله وحقوق عباده (وإن حصلت منك تبرئة القلب) من اختيار مثل الذنوب (و) لكن (لم يحصل منك قضاء الفوائت) من الصلاة أو الصوم أو غيرهما فتوبتك صحيحة ولكن يجب عليك قضاء ما فات منها ، لأن التوبة عبادة الوقت لوجوبها على الفور وقد قمت بها ولا وقت لها معين والذمة مشغولة بك ، كذا أفاده الزبيدي ، وان لم تقض الفوائت فهى لازمة لك (و) كذا (إرضاء الخصوم فالتبعات) بفتح التاء وكسر الباء الوحدة جمع تبعة بفتح التاء وكسر الباء : أي حقوق الآدميين (لازمة) لك غير منفكة (و) أما (سائر الذنوب) غير التبعات فهى (مغفورة) بفضله تعالى ورحمته (ولهذا الباب) أى باب التوبة (شرح) أى بيان (يطول) ذكره (فلا يحتمله هذا المختصر) المسمى (منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين) لأن إيراد الشرح الكثير هنا خلاف الوعد الذي هو الإيجاز والاختصار لهذا الكتاب (و) إن أردت بسط الكلام (انظر) الكتاب الذى صنفناه ، أعنى (كتاب التوبة) فى ربع المنجيات (من كتاب إحياء علوم الدين أولا ، و) أنظر (كتاب القربة إلى الله تعالى ثانيا ، وكتاب الغاية القصوي ثالثا) وكلاهما أيضا للمصنف أبي حامد الغزالى أيضا ، لكن لايوجدان الآن فى أكثر البلاد حتي فى مصر والشام كما قد بحثه وتتبعه بعض

تَجِدْ فَوَائِدَ كَثِيرَةً وَشَرْحًا جَمًّا ، وَالَّذِى ذَكَرْنَاهُ هاهُنا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِى لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ فصل ﴾ ثُمَّ اعْلَمْ يَقِيناً أَنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ أَمْرُهَا مُهِمٌّ وَضَرَرُهَا عَظِيمٌ . فَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي إِسْحٰقَ الإِسْفَرَايِنِى رَحِمَهُ اللهُ ، وَكَانَ مِنَ الرَّاسِخِينَ فِى الْعِلْمِ الْعَامِلِينَ بِهِ أَنَّهُ قَالَ : دَعَوْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَنْ يَرْزُقَنِى تَوْبَةً نَصُوحًا ، ثُمَّ تَعَجَّبْتُ فِى نَفْسِى فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللهِ حَاجَةٌ

أصحاب المطبعة المصرية للاعتناء بخدمة العلوم حتى رحل البعض الي الأستانة العلية والعراق وكردستان فلم يجدها ، وإن نظرت هذه الكتب الثلاثة (تجد فوائد كثيرة وشرحا جما) أى بيانا كثيرا ، نعم لقد لقطنا دررا من كتاب (الإحياء) فى أثناء شرح هذا الباب كما تري (والذى ذكرناه ههنا)أي فى هذا المختصر (هو الأصل الذى لابد منه) أى من تحصيل هذا الأصل (وبالله) أى بسبب تفضله ومنته على من يشاء من خلقه (التوفيق) وهو خلق قدرة الطاعة ، ويرادفه باعتبار المآل اللطف ، وهو صلاح مابه العبد عند خاتمة عمره فمآلهما واحد ، وإن اختلف مفهومهما كما فى شرح الأربعين .

﴿ فصل ﴾ معنى الفصل فى اللغة : الحاجز بين الشيئين ، وفى الاصطلاح : طائفة من المسائل تغيرت أحكامها بالنسبة إلي ما قبلها ، فإن فصل عما بعده نون وإلا فلا ، كذا فى الأكملية ، فارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ على تقدير الوصف : أى فصل من الفصول فى عظم ضرر هذه العقبة ، وضرر الخوف فى تأخير التوبة (ثم اعلم) هداك الله (يقينا) أى علما يقينا بلا ريب (أن هذه العقبة) أى عقبة التوبة (عقبة صعبة) أى شديدة (أمرها مهم) ينبغى الاهتمام على كل راغب فى الآخرة (وضررها عظيم) لما فيها من تعب المجاهدة المترتب عليها الرتبة العلية ، وهى محبة الله لسالكها الواصل إلي مقصوده المسمى بالتائب الناصح (فلقد بلغنا عن الأستاذ أبى إسحاق الإسفراينى رحمه الله) بكسر الهمزة وفتح الفاء والراء وكسر التحتية الاسفراين : بلدة بنواحي نيسابور ، وهو الأستاذ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الفقيه العارف المتكلم الأصولى الشافعى صاحب التصانيف الجليلة ، توفى يوم عاشوراء سنة ثمان وعشرة وأربعمائة كما فى سراج السالكين ، خلافا لبعض حواشى أم البراهين ، واختلف إلى مجلسه أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة ، وأكثر الحافظ أبو بكر البيهقى عنه فى تصانيفه ، وغيره من المصنفين رحمهم الله أجمعين (وكان) أى الأستاذ أبو إسحاق (من الراسخين) أى الثابتين (فى العلم العاملين به) أى بمقتضاه (أنه) فاعل بلغنا (قال : دعوت الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقنى توبة نصوحا) أى خالصا لله تعالى عن الشوائب (ثم تعجبت فى نفسى فقلت) أى فى قلبي (سبحان الله حاجة)

دَعَوْتُ اللهَ فِيهاَ ثَلاثِينَ سَنَةً فَما قضيتْ إِلى الآنَ فرَأَيْتُ فِيماَ يَرَى النَّائِمُ كَأَنَّ قَائِلاً يَقُولُ لِي: أَتَتَعَجَّبُ مِنْ ذٰلِكَ ، أَتَدْرِي مَاذَا تَسْأَلُ اللهَ ؟ إِنَّما تَسْأَلُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُحِبَّكَ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ جَلَّ جَلاَلُهُ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » أَفَهٰذِهِ حَاجَةٌ هَيِّنَةٌ ؟ فَانْظُرْ إِلَي هٰؤُلاَءِ الْأَئِمَّةِ وَاهْتِمَامِهِمْ وَمُوَاظَبَتِهِمْ عَلَى صَلاَحِ قُلُوبِهِمْ وَالتَّزَوُّدِ لِمَعَادِهِمْ . وَأَمَّا الضَّرَرُ الْمَخُوفُ فى تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ الذَّنْبِ قَسْوَةٌ وَآخِرُهُ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ شُؤْمٌ وَشِقْوَةٌ ،

أى لنا حاجة (دعوت الله فيها) أي سألت الله أن يقضيني حاجتي (ثلاثين سنة فما قضيت) أى تلك الحاجة (إلى الآن) أى إلى الزمان الحاضر وهو بعد مدة ثلاثين سنة (فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول لى) ياأبا إسحق (أتتعجب) أى أتستشعر فى نفسك عجبا (من ذلك) أى من تأخير قضاء الحاجة (أتدرى ماذا ؟) أى أى شيء (تسأل الله إنما تسأل الله سبحانه) فى الحقيقة (أن يحبك ، أما سمعت قوله جل جلاله : إن الله يحب التوابين) من الذنوب (ويحب المتطهرين) أى المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمجامعة الحائض والإتيان فى غير المأتى كما قاله القاضى البيضاوى (أفهذه) أى أتظن أن هذه المحبة (حاجة هينة) أى سهلة (فانظر إلى) حال (هؤلاء الأئمة) منهم الأستاذ أبو إسحاق وكهمس بن الحسن الآتي (واهتمامهم ومواظبتهم) أي ملازمتهم (على صلاح قلوبهم) بالمجاهدة والمراقبة (والتزود) أى أخذ الزاد (لمعادهم) أى آخرتهم لأنها معاد الخلق كلهم .

﴿ تنبيه ﴾ وحيث أطلق القلب فى لسان الشرع فليس المراد به الجسم الصنوبرى الشكل فإنه للبهائم والأموات ، بل المراد به معنى آخر يسمى بالقلب أيضا ، وهو جسم لطيف قائم بالقلب اللحمانى قيام العرض بمحله أو قيام الحرارة بالفحم ، وهذا القلب هو الذى يحصل منه الإدراك ، وترتسم فيه العلوم والمعارف (وأما الضرر المخوف فى تأخير التوبة فإن أول الذنب قسوة) أى قسوة القلب بتراكم الظلمة عليه من المعاصي حتى تصير رينا وطبعا فلا تقبل المحو (وآخره) أي عاقبة الذنب (والعياذ بالله) أى أعوذ بالله من ذلك (شؤم) أى قبيح (وشقوة) ضد السعادة . قال لقمان لابنه : «يابنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة » أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائده والبيهقي عن عثمان بن زائدة .

قال المصنف أبو حامد وغيره : ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف : أى المطل والتأخير ، وأصله أن يقول لمن وعده بالوفاء : سوف أفعل مرة بعد أخرى كان بين خطرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى تصير رينا وطبعا فلا تقبل المحو . الثانى أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو لذلك، ورد فى الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من

فإيَّاكَ أنْ تَنْسَى أمْرَ إبْلِيسَ

التسويف فما هلك من هلك إلا بالتسويف » . وفى القوت : حقيقة التوبة أن لا يسوف أبدا ، إنما يلزم أنها فى الوقت ، فيكون تسويده للقلب بتلك المعاصى نقدا حاضرا وجلاؤه بالطاعة نسيئة وما زال كذلك إلى أن يخطفه الأجل بسرعة فيأتى الله يوم العرض بقلب غير سالم من الغش ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، والقلب أمانة الله عند عبده ، والعمر أمانة الله عنده ، وكذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر جدا (فإياك) أى احذر (أن تنسي أمر إبليس) عدو الله . قال كعب الأحبار : إن إبليس كان خازن الجنة أربعين ألف سنة ، ومع الملائكة ثمانين ألف سنة ، ووعظ الملائكة عشرين ألف سنة ، وسيد الكروبيين ثلاثين ألف سنة ، وسيد الروحانيين ألف سنة ، وطاف حول العرش أربعة عشر ألف سنة ، وكان اسمه فى سماء الدنيا العابد ، وفى السماء الثانية الزاهد ، وفى السماء الثالثة العارف ، وفى الرابعة الولى ، وفى الخامسة التقي ، وفي السادسة الخازن ، وفى السابعة عزازيل، وفى اللوح المحفوظ إبليس ، وهوغافل عن عاقبة أمره ، كذا نقله الجمل عن كشف البيان للسمرقندى . قال الجوهرى وغيره : كنيته أبو مرة .

واختلف العلماء فى أنه من الملائكة من طائفة يقال لهم الجن أم ليس من الملائكة ؟ وفي أنه اسم عربى أم عجمى ؟ والصحيح أنه من الملائكة وأنه عجمى . قال الإمام أبو الحسن الواحدى : قال أكثر أهل اللغة والتفسير : سمى إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى ، أى أيس ، والمبلس : المكتئب الحزين الآيس . قال : وعلي هذا هو عربى مشتق . قال : وقال ابن الأنبارى : لا يجوز أن يكون مشتقا من أبلس ، لأنه لوكان مشتقا لصرف ، كما أن إسحاق إذا كان عربيا مأخوذا من أسحقه الله إسحاقا : انصرف ، فلو كان إبليس مشتقا لصرف كاكليل وبابه ، فلما لم يصرف دل على أنه عجمى ، والعجمى ليس مشتقا . وقال ابن جرير : إنما لم يصرف وإن كان عربيا لقلة نظيره فى كلام العرب فشبهوه بالأعجمى ، وهذا الذى قاله ابن جرير يبطل بباب إفعيل ، فإنه مصروف كله إلا إبليس . قال الواحدي : والاختيار أنه ليس بمشتق لاجماع النحويين على أنه منع الصرف للعجمة والمعرفة . قال : واختلفوا فى أنه من الملائكة ، فروى عن طاوس ومجاهد عن ابن عباس أنه كان من الملائكة ، وكان عزازيل بالسريانية ، وبالعربية الحارث ، فلما عصى الله لعنه الله وجعله شيطانا مريدا وسماه إبليس ، وبهذا قال ابن مسعود وابن المسيب وقتادة وابن جريج وابن جرير ؛ واختاره الزجاج وابن الأنبارى . قالوا : وهو مستثنى من جنس المستثنى منه . قالوا : وقول الله تعالى « كان من الجن » : أى طائفة من الملائكة يقال لهم الجن . وقال الحسن وعبدالرحمن بن زيد وشهر بن حوشب : ما كان من الملائكة قط ، والاستثناء منقطع ، والمعنى عندهم : أن الملائكة وإبليس أمروا بالسجود ، فأطاعت الملائكة كلهم ، وعصى إبليس ، والصحيح أنه من الملائكة كما تقدم ، لأنه لم ينقل أن غير الملائكة أمر بالسجود ، والأصل

وَبَلْعَمَ بْنِ بَاعُورَاءَ إِذْ كَانَ مَبْدَأُ أَمْرِهِمَا ذَنْباً وَآخِرُهُ كُفْرًا فَهَلَكَا مَعَ الْهَالِكِينَ أَبَدَ الآبِدِينَ ، فَعَلَيْكَ رَحِمَكَ اللهُ بِالتَّيَقُّظِ وَالْجِهْدِ عَسَى أَنْ تَقْلَعَ مِنْ قَلْبِكَ عِرْقَ هٰذَا الإِصْرَارِ وَتُخَلِّصَ رَقَبَتَكَ مِنْ هٰذِهِ الأَوْزَارِ ، وَلاَ تَأْمَنْ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ مِنَ الذُّنُوبِ وَتَأَمَّلْ حَالَكَ فَلَقَدْ قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ : إِنَّ سَوَادَ الْقَلْبِ مِنَ الذُّنُوبِ،

فى الاستثناء أن يكون من جنس المستثنى منه ، وأما إنظاره إلى يوم القيامة فزيادة فى عقوبته ، وتكثير معاصيه وعواقبه . نسأل الله الكريم اللطف وخاتمة الخير ،كذا ذكره العلامة عبد الحق ابن شاه فى سراجه (و) احذر أنْ تنسى أمر (بلعم بن باعوراء) وكان عنده اسم الله الأعظم ويدعو به حيث شاء ، فيجاب بعين ما طلب فى الحال . وفى القرطبي : وكان بلعم من بني إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام وكان بحيث إذا نظر رأى العرش ، وهو المعنى بقوله تعالى « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » ولم يقل آية ، وكان فى مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ، ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا وذكر فيه أن ليس للعالم صانع ، نعوذ بالله من ذلك (إذ كان مبدأ أمرهما) أى إبليس وبلعم (ذنبا) وهو الحسد لآدم عليه السلام : هذا لإبليس ، وأما بلعم فاتباع هواه فى الميل إلى الدنيا ، حيث يحمله إلى الدعاء على موسى عليه السلام ، وأهداه هدية جماعته السائلون له فى الدعاء ، فدعا فانقلب عليه واندلع لسانه على صدره فأدركه الشيطان فكان من الغاوين ، وقد ذكر قصته الطويلة الخطيب فى تفسيره ، وسيأتى فى الكلام على الخوف ذكر قصته عن ابن عباس رضى الله عنهما (و) كان (آخره) أى عاقبة أمرهما (كفرا فهلكا مع الهالكين أبد الآبدين . فعليك) أى الزم (رحمك الله) جملة دعائية (بالتيقظ) أى التنبه من نوم الغفلة (والجهد) أى بذل الطاقة فى الأعمال ومراقبتها (عسى أن تقلع) بفتح التاء واللام ، من باب قطع : أى تنزع (من قلبك عرق هذا الإصرار) أى إصرار الذنب وإقامته المشبه بالعرق للجسد ، أو للشجرة فى الرسوخ والثبوت (وتخلص) من باب قعد (رقبتك) أى بدنك ظاهرا وباطنا من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل (من هذه الأوزار) أى الآثام (ولا تأمن قساوة القلب من الذنوب ، وتأمل) أى اعمل فكرك ونظرك (فى حالك) أى أنت متصف بالذنب أم لا ، فإن كنت متصفا به فابذل الجهد فى إقلاعه وتوبته ، وإن كنت غير متصف بذلك الذنب فاشكر الله تعالى بطاعته (فلقد قال بعض الصالحين) رحمه الله (إن سواد القلب) ناشىء (من الذنوب) ومصداقه فى حديث أبى هريرة « إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فان تاب صقل منها ، فان عاد زادت حتى تعظم فى قلبه » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم ، وقد كان الحسن يقول : إن بين العبد وبين الله تعالى حدا من المعاصى معلوما إذا بلغه العبد طبع على قلبه فلا يوفق بعدها لخير . قال أبو حامد الغزالى وغيره : حكي عن أبى عمرو بن علوان فى قصة يطول ذكرها قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلى فخامر قلبي :

وَعَلامَةُ سَوادِ الْقَلْبِ أَنْ لا تَجِدَ مِنَ الذُّنُوبِ مَفْزَعًا وَلا لِلطَّاعَةِ مَوْقِعاً وَلا لِلْمَوْعِظَةِ مَنْجَعاً وَلا تَسْتَحْقِرَنَ مِنَ الذُّنُوبِ شَيْئاً فَتَحْسِبَ نفْسَكَ تَائِباً وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَى الْكَبائِرِ . فَلَقَدْ بَلَغَنا عَنْ كَهْمَسِ بْنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قالَ : أَذْنَبْتُ ذَنْباً فَأَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قِيلَ ما هُوَ يا أَبا عَبْدِ اللهِ ؟

أي خلطه هوى : أي ميل نفسانى طاولته بفكرتى حتى تولد منه شهوة الرجل ، فوقعت فى الأرض واسود جسدى كله ، فاستترت فى البيت فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت فى أثناء هذه الأيام أعالج فى الحمام بالصابون والألوان الغاسلة فلا يزداد إلا سوادا ، ثم انكشف عنى بعد ثلاث ، فرجعت إلى لون البياض ، فلقيت أبا القاسم الجنيد رضى الله عنه وكان قد وجه إلى ، فأشخصنى من الرقة ، فلما أتيته قال : أما استحييت من الله تعالي كنت قائما بين يديه؟ فسارورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى ، فلولا أنى دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون ، قال : فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة وبينهما مسافة ولم يطلع إلا الله تعالى ، فذكر ذلك لبعض الأولياء ، فقال : هذا رفق من الله تعالى به وخيرة له إذا لم يسود قلبه ، وظهر السواد على جسده ، ولو بطن فى قلبه لأهلكه ، ثم قال : مامن ذنب يرتكبه يصر عليه إلا اسود القلب مثل سواد الجسم الذي ذكر ولا يجلوه إلا التوبة ، ولكن ليس كل عبد يصنع به صنع ابن علوان ، ولا يجد من يتيقظ له مثل أبى القاسم الجنيد رحمه الله تعالى ، ولذلك قال أبو حامد الغزالى رحمه الله : اعلم أنه لايذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه ، فان كان سعيدا ظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار (وعلامة سواد القلب أن لا تجد من) ارتكاب (الذنوب مفزعا) أى خوفا بل سرورا (ولا للطاعة موقعا) أي قدرا وتأثيرا (ولا للموعظة) أى النصيحة والتذكرة بالعواقب (منجعا) أى مدخلا وتأثيرا ظاهرا ، بل من شؤم الذنب فى الدنيا علي الجملة كما قاله أبو حامد الغزالى أن يكسب مابعده صفته ، فإن ابتلى بشىء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه ، وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ، ويحرم جميل الشكر حتي يعاقب على كفرانه ، هذا حال العاصى ، وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها ، أو تكون كل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته (ولا تستحقرن من الذنوب شيئا) ولو قليلا صغيرا ، لأن معظم النار من مستصغر الشرر كما قاله بعضهم (فتحسب) بفتح السين وكسرها : أى تظن (نفسك تائبا وأنت) فى الحقيقية (مصر) أى مقيم (على) ارتكاب (الكبائر، فلقد بلغنا عن كهمس بن الحسن) التميمى البصري رحمه الله ، كان ثقة ، مات سنة تسع وأربعين بعد المائة ، كذا فى سراج السالكين (أنه قال : أذنبت ذنبا فأنا أبكى عليه) أى لأجل الذنب (منذ) أى وقت (أربعين سنة ، قيل ماهو) أي ذلك الذنب (يا أبا عبد الله)

قالَ : زَارَنِى أخٌ لِى فى اللهِ فَاشْتَرَيْتُ لَهُ سَمَكاً فَأَكَلَ ثُمَّ قُمْتُ إلَى حَائِطِ جَارِى فَأَخَذْتُ مِنْهُ قِطْعَةَ طِينٍ فَغَسَلَ بِها يَدَهُ . فَنَاقِشْ نَفْسَكَ وَحَاسِبْهَا وَسَارِعْ إلى التَّوْبَةِ وَبَادِرْ فَإنَّ الْأَجَلَ مَكْتُومٌ ، وَالدُّنْيَا غُرُورٌ ،

كنية كهمس بن الحسن (قال : زارنى أخ لى فى) دين (الله فاشتريت) بدانق (له) أى لإكرام أخى كما هو حق المضيف (سمكا) مشويا وقدمت إليه (فأكل) أخى (ثم قمت إلى حائط جارى فأخذت منه قطعة طين فغسل) أي أخى (بها) أى القطعة (يده) ولم أستحله قبل أخذي له كما قاله القشيري فى الرسالة ، قال شيخ الاسلام : فبكاؤه على أخذه مع علمه بتحريمه ، وترك الاستحلال قبل أخذه ، وفى ذلك دلالة على غاية احترازه من الذنوب المستحقرة عند الناس . ورؤي عتبة الغلام بمكان يتصبب عرقا فى الشتاء ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنه مكان عصيت الله فيه ، فسئل عنه ؟ فقال : كشطت من هذا الجدار قطعة طين غسل بها ضيف لى يده ولم أستحل من صاحبه . قيل : وكان رجل من الصالحين يكتب رقعة وهو فى بيت بكراء ، فأراد أن يترب الكتاب من جدار البيت ، فخطر بباله أن البيت بالكراء ، ثم إنه خطر بباله أنه لاخطر لهذا ، فترب الكتاب ، فسمع هاتفا يقول : سيعلم المستخف بالتراب مايلقاه غدا من طول الحساب . قال شيخ الإسلام : فى ذلك تنبيه على رفعة منزلة هذا الرجل عند الله تعالى لكونه نبه هذا العبد فى مثل ذلك . قال المصنف (فناقش) أى فبعد أن عرفت هذه القصة ناقش ، أمر من المناقشة ، بمعنى الاستقصاء فى الحساب حتى لايترك منه شيء (نفسك وحاسبها) أى قبل أن تحاسب يوم القيامة (وسارع إلى التوبة) قبل انقضاء عمرك (وبادر) أي سارع إليها (فان الأجل) أى مدة حلول الموت (مكتوم) أى مستور ، فلا بد من هجومه على كل حال ، فالاستعداد له بالتوبة النصوح والعمل الصالح أحق من الاستعداد بالدنيا الزائدة على قدر الحاجة ، وأنت تعلم علم اليقين أنك لا تبقى فى دار الدنيا إلا مدة قليلة ، ولعله لم يبق من مدة حياتك إلا يوم واحد أو نفس واحد ، فقدر هجوم الموت فى لحظتك أو فى وقتك فى قلبك كل يوم . قال صلى الله عليه وسلم « تحفة المؤمن الموت » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن ، إذ لا يزال فيها فى تعب من تحمل مشقة نفسه وكسر شهواته ، ومدافعة شيطانه ، فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة : أى هدية فى حقه . وكان الربيع بن خثيم يقول : لوفارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد ، وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوما فيوما ، ولا تشتغل بالدنيا لأنها غرة : أى سبب فى الاغترار بها كما أشار بقوله رحمه الله (والدنيا) أى متاعها وزهرتها ، وكل مايمكن أن يكون للنفس فيه حظ (غرور) بضم الغين : أى خديعة لأنها حسنة الظاهر قبيحة الباطن كما قيل :

على وجه مى مسحة من ملاحة وتحت الثياب العار لو كان باديا

فهى من حيث ظاهرها محبوبة خضرة ، وبالنظر إلي باطنها جيفة قذرة ، فالنفس تنظر زينتها

وَالنَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ عَدُوَّانِ ، وَتَضَرَّعْ إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَابْتَهِلْ إِلَيْهِ وَاذْكُرْ حَالَ أَبِينَا آدَمَ صلى اللهُ عليهِ وَسلم الَّذِى خَلَقَهُ اللهُ تَعَالى بِيَدِهِ وَنفخَ فِيهِ ،

الظاهرة فتغتر بها فتهلك صاحبها ، والقلب ينظر إلي قبائحها الباطنة فيعتبر بها فيسلم من شرها . قال أبو طالب المكى : فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره ، ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ، ومن كشف له بعاقبتها لم يستهوه زخرفها . وكان عيسى عليه السلام يقول : ويلكم ياعلماء السوء مثلكم مثل قناة حشى ظاهرها جص وباطنها نتن (والنفس) عدو العدو لا يؤمن ، بل هى أعدى الأعداء كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » وهى أيضا خداعة أمارة بالسوء كما قال خالقها العالم جل جلاله « إن النفس لأمارة بالسوء » فكفي بهذا تنبيها لمن عقل (والشيطان) يكفيك فيه ما قال الله تعالي لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » وبذلك علم يقينا أنهما (عدوان) قاطعان لطريق الله تعالي . قال الله تعالى حكاية عن إبليس « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » (وتضرع إلى الله سبحانه) بقلبك (وابتهل) بلسانك (إليه) تعالي . وفى المختار : تضرع إلى الله : أى ابتهل اهـ . وأيضا فيه الابتهال : التضرع ، وقيل فى قوله تعالي « ثم نبتهل » : أى نخلص فى الدعاء ، انتهى فافهم (واذكر حال أبينا آدم صلى الله عليه وسلم) وهو كما فى الجامع الصغير « خلق من ثلاث تربات : سوداء ، وبيضاء ، وحمراء » رواه ابن سعد عن أبى ذر الغفارى . قال العلامة الحفنى : أشار فى هذا الحديث إلى سبب اختلاف بنى آدم . قال الفقيه أبو الليث السمرقندى : فأول المرسلين كان آدم صلى الله عليه وسلم وكان رسولا إلى أولاده ، خلقه الله من تراب ، وخلق زوجته حواء من ضلعه اليسرى ، وقد ولدت منه حواء أربعين ولدا فى عشرين بطنا من ذكر وأنثي ، وتوالدوا حتى كثروا كما قال الله تعالى « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » . وكانت كنيته فى الجنة أبا محمد ، لأن محمدا صلي الله عليه وسلم كان أكرم ولده . وكان يكنى به وكنيته فى الأرض أبا البشر ، وأنزل الله تعالى إليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ، هكذا ذكر أهل التوراة . وروى عن وهب بن منبه : أنه عاش ألف سنة . وفى شرح المواهب للزرقانى مانصه :

واختلفوا فى أن حواء خلقت فى الجنة ؟ فقال ابن إسحاق : خلقت قبل دخول آدم الجنة لقوله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » . وقيل : خلقت فى الجنة بعد دخول آدم الجنة ، لأنه لما أسكن الجنة مشى فيها مستوحشا ، فلما نام خلقت من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها ، قاله ابن عباس ، وينسب لأكثر المفسرين . وعلى هذا قيل : قال الله تعالى « اسكن أنت وزجك الجنة » بعد خلقها وهما فى الجنة ، وقيل : قبل خلقها ، وتوجه الخطاب للمعدوم لوجوده فى علم الله تعالى (الذى خلقه الله تعالى بيده) أى بقدرته (ونفخ فيه)

مِنْ رُوحِهِ وَحَمَلَهُ إلى جَنَّتِهِ عَلَى أَعْنَاقِ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يُذْنِبْ إِلاَّ ذَنْبًا وَاحِدًا فَنَزَلَ بِهِ مَا نَزَلَ حَتَّى رُوِيَ أَنَّ اللهَ تعالى قالَ لَهُ : يَا آدَمُ أَيُّ جَارٍ كُنْتُ لَكَ ، قالَ نِعْمَ الْجَارُ يَا رَبِّ ، قالَ يَا آدَمُ أُخْرُجْ مِنْ جِوَارِي وَضَعْ عَنْ رَأْسِكَ

عليه السلام (من روحه) وأسجد له ملائكته ، وألبسه ثوب كرامته ، وتوجه بتاج وقاره (وحمله إلى جنته على أعناق الملائكة) وسجودهم له عليه السلام قبل دخول الجنة كما قاله الجمل . وعن جعفر الصادق أنه قال : كان أول من سجد لآدم جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم عزرائيل ، ثم الملائكة المقربون ، وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر ، نقله الجمل من المواهب ، وقيل : بقيت الملائكة المقربون فى سجودهم مائة سنة ، وقال خمسمائة سنة ، ذكره الشبراملسى (لم يذنب) آدم عليه السلام (إلا ذنبا واحدا) وهو أكله من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ، وهذا الذنب فى الظاهر بالنظر لما فى علم الناس ، وفى نفس الأمر : أمره الله تعالى بالأكل منها لاقتضاء الحكمة الإلهية كونه عليه السلام خليفة فى الأرض ، فأكله منها فى الحقيقة امتثال للأمر الباطنى ، كذا ذكره العلامة الحفنى فى حواشى الجامع الصغير (فنزل) على آدم عليه السلام (به) أى بسبب الذنب الواحد (ما نزل) من الإخراج من الجنة والإهباط إلى الأرض ، وهل هى جنة الخلد أو جنة كانت فى الدنيا ؟ فيه خلاف كثير بين العلماء أورده ابن القيم فى أوائل كتاب (مفتاح عنوان دار السعادة) . قال محمد بن قيس : ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك ؟ قال أطعمتنى حواء ، قال لحواء لم أطعمتيه ؟ قالت أمرتنى الحية ، قال للحية لم أمرتيها ؟ قالت أمرنى إبليس . قال الله : أما أنت ياحواء فلأدمينك كل شهر كما أدميت الشجرة ، وأما أنت ياحية فأقطع رجليك فتمشين على وجهك ، وليشدخن رأسك كل من لقيك ، وأما أنت ياإبليس فملعون ، ذكره الخازن ، فهبط آدم بسرنديب : جبل بالهند ، وحواء بجدة ، وقيل بعرفة ، وقيل بمزدلفة ، وإبليس بالأبلة بضم الهمزة والموحدة وتشديد اللام : جبل بقرب البصرة ، وقيل بجدة ، والحية أهبطت بسجستان ، وقيل بأصبهان ، ذكره بعض شراح المواهب . وفى أخبار آدم عليه السلام : أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعولا في شيء من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة ، فلذلك نهيا عن أكلها . قال : فجعل يدور فى الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه ، فقال قل له أي شيء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع مافى بطنى من الأذى ، فقيل للملك : قل له فى أى مكان تضعه أتحت العرش ، أم على السرر ، أم تحت ظلال الأشجار ؟ هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ اهبط إلى الدنيا ، كذا نقله العلامة الجمل عن الإحياء (حتى روى) فى بعض الأخبار (أن الله تعالى قال له يا آدم : أى جار كنت لك ؟ قال) آدم عليه السلام (نعم الجار) أنت (يارب ، قال) عز وجل : لما أكل من الشجرة التي نهى عن أكلها (يا آدم اخرج من جوارى) فى الجنة مجاورة معنوية (وضع عن رأسك

تاجَ كَرَامَتِي فَإِنَّهُ لاَ يُجاوِرُنِي مَنْ عَصَانِي حَتَّى أَنَّهُ فِيمَا رُوِيَ بَكَى عَلَى ذَنْبِهِ مِائَتَيْ سَنَةٍ حَتَّى قَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ وَغَفَرَ ذَنْبَهُ الْوَاحِدَ .

تاج كرامتى فانه) أي الشأن (لايجاورنى من عصانى) فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هـذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب ، نقله صاحب القوت . وأخرج أبونعيم وابن عساكر عن مجاهد قال « أوحى الله إلى الملكين أخرجا آدم وحواء من جوارى فإنهما عصيانى ، فالتفت آدم إلى حواء باكيا ، قال : استعدى للخروج من جوار الله ؛ هـذا أول شؤم المعصية ، فنزع جبريل التاج وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق به عضو فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنـكس رأسه يقول : العفو العفو ، فقال الله تعالى فرارا منى ؟ فقال بل حياء منك ياسيدى » .

وقد اختلف فى الحلل التى كانت على آدم وحواء عليهما السلام ؟ فقيل هى من حلل الجنة ، وقيل من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلب السربال فبقي في أطراف أصابعه ، ويروي عنه « كان لباس آدم الظفر بمنزلة الريش على الطير ، فلما عصى سقط عنه لباسه وبقيت الأظفار زينة ومنافع » . رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أنس بن مالك قال « كان لباس آدم فى الجنة الياقوت ، فلما عصى قلص فصار الظفر » (حتى إنه فيما روى بكى على ذنبه) عليه السلام (مائتى سنة حتى قبل الله توبته وغفر ذنبه الواحد) . قالت عائشة رضى الله عنها : « لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم عليه السلام طاف بالبيت سبعا وهو يومئذ ليس بمبنى بل ربوة حمراء ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم قال : اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتي ، وتعلم حاجتى فأعطى سؤلى ، وتعلم مافى نفسى فاغفر لي ذنبى ، اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبي ، ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت على ، ورضنى بما قسمت لى ياذا الجلال والإكرام ، فأوحى الله عز وجل إليه أنى قد غفرت لك ، ولم يأت أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرت له ذنوبه ، وكشفت غمومه وهمومه ، ونزعت الفقر من بين عينيه ، واتجرت له من وراء كل تاجر ، وجاءت الدنيا وهي راغمة وان كان لايريدها » رواه أبو طالب المكى من طريق هشام بن عروة عن أبيه . وأخرج ابن الجوزى فى مثير العزم الساكن عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام طاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين ، ثم قال : اللهم إنك » فساقه إلى آخر الدعاء ، ثم قال : فأوحى الله عز وجل « يا آدم قد دعوتنى دعاء استجبت لك فيـه ، ولن يدعونى به أحد من ذريتك إلا استجبت له ، وغفرت له ذنوبه ، وفرجت همومه ، واتجرت له من وراء كل تاجر ، فأتته الدنيا وهي راغمة ، وإن كان لا يريدها » . وأخرجه أبوبكر بن أبي الدنيا فى كتاب اليقين بسنده عن عوف بن خالد قال : « وجدت فى بعض الكتب أن آدم عليـه السلام ركع إلى جانب الركن اليمانى ركعتين ثم قال : اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى إلى آخر الدعاء . قال : فأوحى

الله عز وجل : يا آدم إنه حق على أن لا يلزم أحد من ذريتك هذا الدعاء إلا أعطيته ما يحب ، ونجيته مما يكره ، ونزعت أمل الدنيا والفقرمن بين عينيه ، وملأت جوفه حكمة » . وروى البزار بسند فيه أبو مهدى بن سنان ، وهو ضعيف من حديث ابن عمر رفعه أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول هذه الكلمات « اللهم إني أسألك إيمانا يباشرقلبي، إلى آخره » وليس فيه ويقينا صادقا ، كذا أفاده الزبيدى . وحكى عن الجنيد رضى الله عنه قال : رأيت آدم عليه السلام فى النام وهو يبكي ، فقلت له ما يبكيك ؟ أليس قد غفر الله تعالى لك ووعدك بالرجوع إلى الجنة ، فناولنى ورقة مكتوبة ، فاستيقظت من منامى ووجدتها فى يدى وإذا فيها :

أحرقنى بالنار نار من النوى ونار النوى نار أحر من النار
شغفت بجار لابدار سكنتها على الجار أبكي لاعلي سكنة الدار
ولو لم يعدنى بالرجوع إلى المنى هلكت ولكنى نلت بالوعد أوطارى

هكذا ذكره اليافعى فى روضه . وكذلك ما وقع لداود عليه السلام من خطيئته . قال مجاهد رحمه الله تعالى : بكي داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتي نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه ، فنودى : يا داود أجائع أنت فتطعم ؟ أم ظمآن فتسقى ؟ أم عار فتكسى ؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من جوفه ، ثم أنزل الله عليه التوبة والمغفرة . فقال يارب اجعل خطيئتي في كفي ، فصارت خطيئته في كفه مكتوبة ، فكان لايبسط كفه لطعام ولا لشراب إلا رآها فأبكته . قال : وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ماء فاذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . وروى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عبد الله بن عمير الليثى : أن داود سجد حتى نبت ما حوله خضرا من دموعه ، فأوحى الله إليه : أن ياداود أتريد أن أزيدك فى مالك وعمرك ؟ فقال يارب أهذا تزيد على ؟ أريد أن تغفرلى ، وروى عبد بن حميد عن كعب قال : سجد داود نبي الله أربعين يوما وأربعين ليلة لا يرفع رأسه حتى رقأ دمعه وييس فكان من آخر دعائه وهو ساجد أن قال : يارب رزقتنى العافية فسألتك علما ، فلما ابتليتنى لم أصبر فإن تعذبنى فأنا أهل ذلك ، وإن تغفرلى فأنت أهل ذلك . وروى الحكيم وابن جرير وابن أبى حاتم بسند ضعيف عن أنس رفعه قال « سجد داود أربعين ليلة حتي نبت الزرع من دموعه على رأسه ؟ وأكلت الأرض جبينه وهو يقول فى سجوده : رب زل داود زلة أبعد ما بين المشرق والمغرب ، رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثا في الخلوف من بعدى فغفر له » وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما ، قيل إنه غزا صيدون من الجزائر ، فقتل ملكها وأصاب ابنته فأحبها ، وكان لايرقأ دمعها جزعا على أبيها ، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته . وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها فيسجدون لها كعادتهن فى ملكه ، فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة وخرج باكيا إلى الفلاة متضرعا ، فالخطيئة تغافله عن حال أهله ، لأن اتخاذ التماثيل كان جائزا حينئذ ،

هٰذَا حَالُهُ مَعَ نَبِيِّهِ وَصَفِيِّهِ فِى ذَنْبٍ ، وَاحِدٍ فَكَيْفَ حَالُ الْغَيْرِ فِى ذُنُوبٍ لا تُحْصَى ؟ وَهٰذَا تَضَرُّعُ التَّائِبِ وَابْتِهَالُهُ ، فَكَيْفَ بِالْمُصِرِّ الْمُتَعَسِّفِ ؟ وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتُوبُ ... فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يَتُوبُ

فَإِنْ تُبْتَ ثُمَّ نَقَضْتَ التَّوْبَةَ وَعُدْتَ إِلَى الذَّنْبِ ثَانِياً فَعُدْ إِلَى التَّوْبَةِ مُبَادِرًا

والسجود للصورة بغير علمه لا يضره ، كذا ذكره البيضاوى ، وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها ، فقال نعم ولم يفعل ، وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه ؟ هكذا ذكره في القوت ، فسلب ملكه أربعين يوما ، فهرب تائها على وجهه ؛ فكان يسأل بكفه فلا يطعم ، فإذا قال : أطعمونى فإنى سليمان بن داود : شج وطرد وضرب . وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت فى وجهه . وفي رواية « أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين أيام العقوبة . قال : فجاءت الطيور فعكفت على رأسه ؛ وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله ؛ فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه ، فقال : لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمدكم فى عذركم الآن ؛ إن هذا أمر كان من السماء ولابد منه » . وقيل : كان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلا يخاف خليله ؟ فيقول يا جبريل : إنى إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلق . رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب [الخائفين] . (هذا) أى الذي ذكرناه (حاله) عز وجل (مع نبيه وصفيه فى ذنب واحد) مع أنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته ، وقس نفسك وتأمل في قصورك عن لحوق درجاتهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (فكيف حال الغير فى) ارتكاب (ذنوب لا تحصى ، وهذا) أى بكاء آدم وغيره عليهم السلام (تضرع التائب وابتهاله) إلى مولاه الغفور الرحيم (فكيف) الحال (بالمصرّ) أى المقيم على الذنوب الغافل عن ستار العيوب (المتعسف) أى الخارج عن الطريق الظاهر كما قاله الشبراملسى . وفى المختار : العسف الأخذ على غير الطريق وبابه ضرب ، وكذا التعسف والاعتساف (ولقد أحسن من قال) شعرا من بحر المتقارب (يخاف على نفسه) الضمير عائد إلى متأخر فى اللفظ متقدم فى الرتبة ، لأن قوله من يتوب فاعل لقوله يخاف ، فرتبته التقدم على قوله على نفسه (من يتوب) إلى الله (فكيف ترى حال من لا يتوب) بل ينهمك في شهوته ، ويغفل عن عاقبة أمره لجهله بربه تعالى ، وهذا جدير بأن يعذبه الله عذابا أليما إن لم يرحمه أرحم الراحمين (فإن تبت) توبة صحيحة بتوفرشروطها (ثم نقضت التوبة . و) ذلك بأن (عدت إلي الذنب) الذى ارتكبته بعدها (ثانيا) فإنه لايضر توبة مضت، بل المعاودة ذنب آخر تجب منه التوبة كما أشار بقوله (فعد إلىالتوبة مبادرا)

وَقُلْ لِنَفْسِكَ لَعَلِّي أَمُوتُ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ هٰذِهِ الْمَرَّةَ ، وَكَذٰلِكَ ثَالِثًا وَرَابِعًا، وَكَمَا اتَّخَذْتَ الذَّنْبَ وَالْعَوْدَ إِلَيْهِ حِرْفَةً فَاتَّخِذِ التَّوْبَةَ أَيْضًا وَالْعَوْدَ إِلَيْهَا حِرْفَةً ، وَلَا تَكُنْ فِي التَّوْبَةِ أَعْجَزَ مِنْكَ فِي الذَّنْبِ وَلَا تَيْأَسْ وَلَا يَمْنَعْكَ الشَّيْطَانُ مِنَ التَّوْبَةِ بِسَبَبِ ذٰلِكَ ، فَإِنَّهُ دِلَالَةُ الْخَيْرِ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « خِيَارُكُمْ كُلُّ مُتَفَتَّنٍ تَوَّابٍ » أَيْ كَثِيرُ الْاِبْتِلَاءِ بِالذَّنْبِ كَثِيرُ التَّوْبَةِ مِنْهُ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِالنَّدَامَةِ ،

أي مسرعا ليرتفع عنك إثم فعله بالتوبة التي وعد الله بقبولها فضلا منه ، وظاهر إطلاقه يشمل ما إذا تاب من صغيرة ثم عاد إليها مع إصراره على ذنب آخر ولو كبيرا في أنه تصح توبته منها ، وهو كذلك عند الجمهور كما قاله الفشني (وقل لنفسك) يا نفسي بادري إلى التوبة ولا تكسلي عنها (لعلي أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة ، وكذلك) أي مثل فعلك بأن عدت إلى الذنب فبادر التوبة (ثالثا ورابعا) وهكذا (وكما اتخذت الذنب ، و) اتخذت (العود إليه) أي إلى ارتكاب الذنب (حرفة) أي صناعة (فاتخذ التوبة أيضا) أي كما اتخذت الذنب حرفة (و) اتخذ (العود إليها) أي التوبة (حرفة ولا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب ولا تيأس) من مغفرة الله ورحمته (ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك) أي بسبب نقض التوبة (فإنه) أي اتخاذ التوبة حرفة لكثرة الابتلاء بالذنب (دلالة الخير ، أما تسمع) قوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . والتواب من أبنية المبالغة الدالة على التكرار ، فلا يطلق إلا على من تكررت منه التوبة مرات ، وإطلاقه يقتضي أنه تكرر منه التوبة سواء أوقعت منه معصية أخرى مع التوبة أم لا ، كما قاله الفشني ، والعود إلى الذنب أقبح من ابتدائه لأنه انضم إلى الذنب نقض التوبة ، والعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها ، لأنه انضم إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم وأنه لا غافر للذنب سواه .

﴿ فائدة ﴾ قال ابن الأثير في معنى اسمه تعالى الغفار : هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد مرة وقال بعضهم : في معنى اسمه التواب هو في حق الله تعالى رجوعه إلى عبده بالقبول ، فهو التواب على من تاب ، وفي حق العبد رجوعه إلى الندم والطاعة ، والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة فاسمع (قوله صلى الله عليه وسلم : خياركم كل متفتن) بمثناة فوقية مشددة (تواب) أي كل ممتحن يمتحنه الله بالذنب ، ثم يتوب : ثم يعود ، ثم يتوب ، قال العراقي . رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف عن علي كرم الله وجهه : وروى أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس « إن المؤمن من خلق مفتانا توابا ناسيا إذا ذكر ذكر » . وفي رواية له « إن المؤمن خلق ناسيا ، فإذا ذكر ذكر » وروى أحمد من حديث علي « إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » . قال المصنف (أي كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه) أي من الذنب (والرجوع إلى الله جل جلاله بالندامة

وَالاسْتِغْفَارِ ، وَتَذَكَّرْ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ : (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيماً)

والاستغفار) وفي خبر آخر «المؤمن كالسنبلة يفيء أحيانا ويميل أحيانا» . رواه أبويعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ، وفى حديث جابر « مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة وتخرّ مرة ومثل الـكافر مثل الأرزة لا تزال مستقيمة حتى تخر ولا تشعر » . رواه أحمد وعبد بن حميد والسائسى والضياء فى المختارة ، وفى معناه ما رواه الشيخان من حديث أبى هريرة « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفتها ، فاذا سكنت اعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفى بالبلاء ، ومثل الفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله عز وجل إذا شاء» ، ومن حديث كعب بن مالك « مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة ، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انجفافها مرة واحدة » ، وكذلك رواه أحمد أيضا ، وفى لفظ لأحمد من حديث أبى هريرة « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تـكفئه ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة لا تستهزّ حتى تستحصد » . ورواه كذلك الترمذى وقال حسن صحيح وروى الطبراني في الـكبير « ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة ، أو ذنب هو يقيم عليه لا يفارقه حتي يفارق الدنيا ، إن المؤمن خلق مفتنا توابا نسيا إذا ذكر ذكر » . وفى لفظ له « مامن مسلم إلا وله ذنب يصيبه الفينة بعد الفينة ، إن المؤمن نساء إذا ذكر ذكر » . قال أبو حامد الغزالى رحمه الله فـكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين ، ولا يؤيس هذا عن درجة التائبين (وتذكر) أى استحضر فى قلبك قوله تعالى « واستغفره إنه كان توابا » . وقوله عز وجل « والمستغفرين بالأسحار » . و (قوله سبحانه ومن يعمل سوءا) أى قبيحا يسوء به غيره (أو يظلم نفسه) بما يختص به ولا يتعدّاه ، وقيل المراد بالسوء ما دون الشرك ، وقيل الصغيرة والـكبيرة (ثم يستغفر الله) بالتوبة (يجد الله غفورا) لذنوبه (رحيما) أى متفضلا عليه كما فى البيضاوى . قال علقمة ابن قيس والأسود بن يزيد النخعى رحمهما الله تعالى : قال عبد الله بن مسـعود رضى الله عنه : فى كتاب الله آيتان ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله له : الأولى قوله عز وجل « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » : الآية . والثانية قوله عز وجل « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » : وروى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أى عبد أصاب ذنبا وربما قال أذنب ذنبا ، فقال : رب أذنبت ذنبا ، وربما قال: أصبت ذنبا فاغفره لى،فقال ربه : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبا فقال : رب أذنبت أوأصبت آخر فاغفره ، فقال: أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، وربما قال : ثم أصاب ذنبا أو أذنب ذنبا ، فقال : رب أذنبت أو أصبت آخر فاغفره لى فيقول : أعلم عبدى أن له ربا

فَهٰذِهِ هٰذِهِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ فصل ﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا ابْتَدَأْتَ فَبَرَّأْتَ قَلْبَكَ عَنِ الذُّنُوبِ كُلِّهَا بِأَنْ تُوَطِّنَهُ عَلَى أَنْ لا تَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ أَبَدًا أَلْبَتَّةَ إِلاَّ مَا كَانَ مِنْكَ فِى عِلْمِ اللهِ عَلَى وَجْهِ عِلْمِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صِدْقَ عَزْمِكَ مِنْ قَلْبٍ نَقِيٍّ وَتُرْضِي الْخُصُومَ بِمَا أَمْكَنَكَ وَتَقْضِي الْفَوَائِتَ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ وَتَرْجِعُ فى الْبَوَاقِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتعالَى بِالِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ لِيَكْفِيَكَ

يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدى ثلاثا فليعمل ما شاء » . وقال صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر » . قال المناوى ، ليس المراد منه الحث على فعل الذنب أو الترخيص فيه كما توهمه بعض أهل الغرة ، فإن الرسل إنما بعثوا للردع من غشيان الذنوب ، بل ورد مورد البيان لعفو الله عن المذنبين وحسن التجاوز عنهم ليعظموا الرغبة فيما عنده من الخير ، والمراد أنه سبحانه كما يحب أن يحسن يحب أن يتجاوز عن المسىء ، والقصد بإيراده بهذا اللفظ الرد على منكر صدور الذنب من المؤمنين ، وأنه قادح فى إيمانهم انتهى . قال العراقى : رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ، والأدلة فى فضيلة الاستغفار أكثر من أن تحصى ، وفى هذا القدر الذى ذكرناه كفاية لأولى الألباب (فهذه) أى الجملة (هذه) أى عظيمة (وبالله التوفيق) هو خلق القدرة على الطاعة ، فهو أخص من الإعانة التى هى خلق القدرة على الفعل سواء كان طاعة أم لا ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ، فالإعانة أعم ، وقيل : إن التوفيق خلق الطاعة وهـذا أقرب ، لأن التوفيق مأخوذ من الوفاق وهو يحصل بالطاعة .

﴿ فصل ﴾ قال الدلجونى : الفصل فى اللغة معناه الحاجز بين الشيئين ، فهو بمعنى اسم الفاعل : أى هذا اللفظ فاصل : أى مميز لما ذكر بعده عما ذكر قبله ، أو بمعنى اسم المفعول بمعنى مفصول عما قبله . واصطلاحا : عنوان بحث سابق عن لاحق انتهى ، وذلك أن التراجم اسم للألفاظ ، فمدلولها الألفاظ التى تذكر بعدها تأمل (وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا ابتدأت) التوبة (فبرأت) بتشديد الراء (قلبك عن الذنوب كلها بأن توطنه) أى تقرر القلب (على أن لا تعود إلى الذنب أبدا ألبتة) أى قطعا (إلا ما كان منك) من الهفوة على سبيل الفلتة من غير قصد (فى علم الله على وجه علم الله سبحانه وتعالى صدق عزمك من قلب نقى) أى خالص من الكدورات (وترضى الخصوم) من الإرضاء عطف على توطن (بما أمكنك وتقضى الفوائت) أى من صلاة وصيام وغيرهما (بما تقدر عليه وترجع) أى أن ترجع (فى البواقى) أى من الفوائت التى لم تقدر على قضائها (إلى الله سبحانه وتعالى بالابتهال) أى باللسان (والتضرع) أى بالقلب (ليكفيك

ذٰلِكَ ثُمَّ تَذْهَبَ فَتَغْتَسِلَ وَتَغسِلَ ثِيَابَكَ وَتُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ كَمَا يَجِبُ ، وَتَضَعَ وَجْهَكَ عَلَى الْأَرْضِ فِى مَكَانٍ خَالٍ لَا يَرَاكَ إِلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ثُمَّ تَجْعَلَ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِكَ وَتُمَرِّغَ وَجْهَكَ الَّذِى هُوَ أَعَزُّ أَعْضَائِكَ فِى التُّرَابِ بِدَمْعٍ جَارٍ وَقَلْبٍ حَزِينٍ وَصَوْتٍ عَالٍ وَتَذْكُرَ ذُنُوبَكَ وَاحِدًا وَاحِدًا مَا أَمْكَنَكَ وَتَلُومَ نفْسَكَ الْعَاصِيَةَ عَلَيْهَا وَتُوَبِّخَهَا وَتقُولُ : أَمَا تَسْتَحِينَ يَا نفْسُ ، أَمَا آنَ لَكِ أَنْ تَتُوبِى ، أَلَكِ طَاقَةٌ بِعَذَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، أَلَكِ حَاجَةٌ بِسَخَطِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَتَذْكُرُ مِنْ هٰذَا كَثِيرًا وَتَبْكِى . ثُمَّ تَرْفَعُ يَدَيْكَ إِلى الرَّبِّ الرَّحِيمِ سُبْحَانَهُ وَتقُولُ : إِلٰهِى عَبْدُكَ الآبِقُ

ذلك) أى البواقى (ثم تذهب فتغتسل) أى بدنك (وتغسل) بكسر السين من باب ضرب كما فى المختار (ثيابك وتصلى أربع ركعات كما يجب) فى التطويل والقراءة كما فى سراج السالكين . قال الشعرانى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من عبد يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلى ثم يستغفر الله إلا غفر له ثم يقرأ : والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم الآية » . وفى رواية « ثم يصلى ركعتين أو أربعا مفروضة أو غير مفروضة » . وكان ثوبان رضى الله عنه يقول : التوبة من الذنب هى أن تتوضأ وتصلى ، ثم يقول : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم (وتضع وجهك على الأرض فى مكان خال) عن الناس حيث (لا يراك) فيه (إلا الله سبحانه وتعالى ، ثم تجعل التراب على رأسك وتمرغ) بصيغة المضارع : أى تمعك وتدلك (وجهك الذى هو أعز أعضائك فى التراب) مع البكاء (بدمع جار) أى سيلان (وقلب حزين) أى شديد الحزن على ما فرط من التقصير فى عبادة مولاك المقتدر (وصوت عال وتذكر) أى فى قلبك (ذنوبك واحدا واحدا) على التفصيل (ما أمكنك وتلوم) أى تذم (نفسك) الأمارة بالسوء (العاصية عليها) أى على صاحبها ، لأن النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها فى فسادها كما قاله ابن عطاء (وتوبخها وتقول : أما تستحين يا نفس) من خالقك ومولاك إذ قد فعلت كذا وكذا من الذنوب (أما آن لك) أى حان أى أما جاء لك وقت (أن تتوبى) إلى خالقك (ألك طاقة) أى قوة (بعذاب الله سبحانه ألك حاجة) وفى نسخة حاجز : أى مانع (بسخط الله سبحانه وتذكر من هذا) أى المذكور من عذاب الله وسخطه (كثيرا) أى ذكرا كثيرا فى قلبك (وتبكى ثم ترفع يديك إلى الرب) الغفور (الرحيم سبحانه وتقول : إلهى) أى يا معبودى بحق (عبدك الآبق) بالمد . قال أهل اللغة : يقال أبق العبد : إذا هرب من سيده بفتح الباء يأبق بضمها وكسرها فهو آبق ، وحكى ابن فارس أبق العبد بكسر الباء يأبق بفتحها . قال الثعالبى فى سر اللغة : لا يقال للعبد آبق إلا إذا كان

رَجَعَ إِلَى بَابِكَ، عَبْدُكَ الْعَاصِي، رَجَعَ إِلَى الصُّلْحِ عَبْدُكَ الْمُذْنِبُ أَتَاكَ بِالْعُذْرِ فَاعْفُ عَنِّي بِجُودِكَ وَتَقَبَّلْنِي بِفَضْلِكَ وَانْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَتِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ وَاعْصِمْنِي فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْأَجَلِ فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِكَ وَأَنْتَ بِنَا رَءُوفٌ

ذهابه من غير خوف ولا كدّ عمل وإلا فهو هارب ، وذكره ابن الملقن فى الإشارة : أى عبدك الهارب منك يا رب (رجع إلي بابك) أى باب رحمتك ، إلهى (عبدك العاصى رجع إلي الصلح) إلهى (عبدك المذنب) أى متحمل الذنب (أتاك بالعذر) أى الاعتذار (فاعف عنى) أى امح عنى جميع ما اقترفته من المعاصى والزلات (بجودك) وعطائك (وتقبلنى بفضلك) أى إحسانك (وانظر إليّ برحمتك) ولا تنظر على بغضبك (اللهم) فيه مذهبان للنحويين ، فقال الفراء والكوفيون : إن أصله يا الله أم بخير فكره استعماله ، فحذفت الهمزة تخفيفا ، وتركت الميم مفتوحة وقال الخليل والبصريون : إن أصله يا الله ، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو يا عوضوا منه هذه الميم المشددة ، والضمة فى الهاء هى ضمة الاسم المنادى المفرد ، وذهب حرفان فعوض بحرفين ، والميم مفتوحة لسكونها وسكون الميم قبلها ، ولا يقال : يا أللهم لئلا يجمع بين البدل والمبدل منه ، وقد سمع فى الشعر ، وأنكره الزجاج ، والله أعلم ، ذكره العلامة الفاسى (اغفر لى ما سلف من الذنوب واعصمنى) أى احفظنى (فيما بقى من الأجل) أى من العمر (فإن الخير) أى الشر (كله بيدك) أى بقدرتك ، هذا ما عليه الخلف من التأويل ، وأما مذهب السلف فهو جرى على ظاهره من إثبات يد له تعالى منزه عن سمات الحدوث . قال بعضهم : طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أحكم ، ورد غيره بأنه غير مستقيم لأنه ظن أن طريقة السلف مجرّد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه فى ذلك ، وأن طريقة الخلف هى استخراج معانى النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات ، فجمع هذا القائل بين الجهل بطريقة السلف والدعوى فى طريقة الخلف ، وليس الأمر كما ظن ، بل السلف فى غاية المعرفة بما يليق بالله تعالى وفى غاية التعظيم له ، والخضوع لأمره ، والتسليم لمراده ، وليس من سلك طريقة الخلف واثقا بأن الذى يتأوله هو المراد ، ولا يمكنه القطع بصحة تأويله انتهى ، ولهذا قال إمام الحرمين فى الرسالة النظامية بعد حكاية الطريقتين : والذى نرتضيه رأيا وندين الله به عقيدة اتباع سلف الأمة للدليل القاطع أن إجماع الأمة حجة ، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتما فلا شك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع والله أعلم ، كذا أفاده بعض المحققين (وأنت بنا رءوف) من الرأفة وهى شدة الرحمة . قال الجمل : الرءوف : ذو الرأفة ، وهى نهاية الرحمة ، فهو أخص من الرحيم وهو المعطف على المذنبين بالتوبة ، وعلى الأولياء بالعصمة ، وقيل : هو الذى ستر ما رأى من العيوب ثم عفا عما ستر من الذنوب ، وقيل : الذى صان أولياءه عن ملاحظة الأشكال ، وكفاهم

رَحِيمٌ ، ثُمَّ تَدْعُو دُعَاءَ الشِّدَّةِ وَهُوَ: يَا مُجْلِيَ عَظَائِمِ الْأُمُورِ يَا مُنْتَهَى هِمَّةِ الْمَهْمُومِينَ ، يَا مَنْ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أَحَاطَتْ بِنَا ذُنُوبُنَا أَنْتَ الْمَذْخُورُ لَهَا يَا مَذْخُورًا لِكُلِّ شِدَّةٍ كُنْتُ أَدَّخِرُكَ لِهَذِهِ السَّاعَةِ فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، ثُمَّ أَكْثِرْ مِنَ الْبُكَاءِ وَالتَّذَلُّلِ وَالتَّضَرُّعِ وَقُلْ : يَامَنْ لا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ وَلَا سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ ،

بفضله مؤنة الأشغال (رحيم) الذى رحمته الخاصة لخواص عباده من المؤمنين (ثم تدعو دعاء الشدة) أى الكربة (وهو: يا مجلى عظائم الأمور) أى يا مظهر كبائرها (يامنتهى همة المهمومين) أى غاية عزم الذين يتصفون بالهموم والأحزان (يا من إذا أراد أمرا) أى شيئا : أى خلق شىء (فإنما يقول له كن فيكون) أى فهو يكون : أى يحدث ، ومعنى يقول كن : يكوّنه ، فهو تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى أولية عمل ، واستعمال آلة قطعا لمادة الشبهة ، وقياس قدرة الله على قدرة الخلق كما قاله القارى ، فمعنى يقول له كن أن تتعلق به قدرته تعلقا تنجيزيا ، والإرادة نزوع : أى اشتياق النفس وميلها إلى فعل بحيث يحملها عليه، أو هى قوة هى مبدأ النزوع، والأول مع الفعل ، والثانى قبله ، وكلاهما مما لا يتصور فى حق الله تعالى ، وإرادته تعالى ترجيح أحد مقدوريه على الآخر بالإيقاع أو معنى يوجب هذا الترجيح ، بخلاف القدرة فإنها لاتخصص الفعل ببعض الوجوه ، بل هى موجدة للفعل مطلقا ، ومعلوم أن الارادة صفة ذاتية قديمة زائدة على العلم (أحاطت بنا ذنوبنا أنت المذخور لها) أى أنت المختار لغفران الذنوب (يامذخورا لكل شدة كنت أدخرك) أى أختارك أو أتخذك أو أجعلك ذخيرة نافعة (لهذه الساعة) أى زمن الشدة والكربة (فتب علىّ) أى تقبل توبتى (إنك أنت التواب الرحيم ، ثم أكثر) أيها العبد المذنب (من البكاء والتذلل) والتواضع والخضوع والخشوع (والتضرع) أى الخلوص فى الدعاء (وقل : يامن لايشغله شأن عن شأن) آخر . بخلاف المخلوق إذا كان فى شغل يشغله عن شغل آخر ، فانه إذا فرغ من ذلك الشغل شرع فى آخر (ولا) يشغله سبحانه (سمع عن سمع) أى مسموع آخر ، بل هو تعالى كل يوم فى شأن . قال سفيان بن عيينة : الدهر كله عند الله يومان: أحدهما مدة أيام الدنيا ، والآخر مدة الآخرة ، وشأنه فى يوم الدنيا الاختبار بالأمر والنهى ، والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع وغير ذلك ، وشأنه فى يوم القيامة : الجزاء والحساب ، والثواب والعقاب وغير ذلك ،وقيل شأنه تعالى أنه يخرج فى كل يوم ثلاثة عساكر : عسكرا من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ،وعسكرا من الأرحام إلى الدنيا ، وعسكرا من الدنيا إلى القبور ، ثم يرتحلون جميعا إليه تعالى ، كذا ذكره الخازن . وفي الحديث « من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين »

يَا مَنْ لاَ تُغَلِّطُهُ كَثْرَةُ المَسَائِلِ ، يَا مَنْ لاَ يَبْرَمُهُ إِلْحَاحُ المُلِحِّينَ ، أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ثُمَّ تُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ،

وهذا رد لقول اليهود : إن الله لايقضى يوم السبت شيئا كما قاله القاضى البيضاوى (يامن لاتغلطه) أى تخطئه (كثرة المسائل) من عباده (يامن لايبرمه) بفتح الياء من باب تعب : أى لايضجره ولا يمله (إلحاح الملحين) بكسر الهمزة : أى إقبال المقبلين المواظبين على السؤال (أذقنا برد)أى راحة (عفوك) أى محوك السيئات وتجاوزك عن المعاصى (وحلاوة) أى لذة (مغفرتك برحمتك) أى وارحمنا بفضلك الواسع لا بالوجوب عليك ، فيكون فيه إلى ما فى الصحيح « سددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولاأنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » وقد ورد فى الحديث عن سلمان رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تبارك وتعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق مابين السماء والأرض ، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة ، فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض ، حتى أن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه فإذا كان يوم القيامة رد الله تعالى هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين فأكملها مائة رحمة فيرحم بها عباده » (ياأرحم الراحمين) أى بعباده فإنه تعالى أرحم بالعبد من نفسه ، وأشفق عليه من والديه ولذا أحب توبته ورجوعه إليه . قال صلى الله عليه وسلم « لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط عليه بعيره قد أضله بأرض فلاة » رواه الشيخان . وفى الحديث « إن لله ملكا موكلا بمن يقول ياأرحم الراحمين ، فمن قالها ثلاثا قال له الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل » رواه الحاكم عن أبى أمامة ، ويا أرحم الراحمين كنز من كنوز الجنة ،ومن دعا به ألف مرة فى جوف الليل لأى حاجة كانت من الحاجات الدنيوية والأخروية قضى الله حاجته . اللهم يا أرحم الراحمين ، يا أرحم الراحمين ، ياأرحم الراحمين اقض حوائجنا الدنيوية والأخروية ، ووفقنا لإصلاح النية ، بجاه سيدنا محمد خير البرية ، وأهل بيته ذوى النفوس الزكية . قال الشيخ أبو عبد الله العربى رحمه الله تعالى : وأرحم اسم تفضيل ، وصف لله تعالى ، والراحمون جمع راحم ، والرحمة جميعها منه تعالى ، وإنما يوصف غيره بالرحمة بجعله هو له ذلك ، فباعتبار نسبة الرحمة المجعولة فيهم لهم قيل لهم راحمون ، وليست لهم رحمة من قبل أنفسهم ، فهى رحمة منه ظهرت فيهم فنسبت إليهم فما نسبه إليهم صح لهم الوصف حتى اعتد به موقعا للتفضل عليه فى الاسم الكريم (إنك على كل شىء قدير) والمراد بشىء كل موجود يمكن إيجاده ، لأن الله تعالى وإن دخل فى قوله كل شىء فانه شىء لا كالأشياء ، فقد خص العقل ذاته تعالى فليس عليها بقادر : أى لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات لابالواجبات ولا بالمستحيلات (ثم تصلى) وتسلم (على النبى) محمد بن عبد الله المختص

صلى اللهُ عليهِ وَسلم وَعَلَى آلِهِ ثُمَّ تَسْتَغْفِرُ لِجَميعِ الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ

بالنبوة الكلية المطلقة ، فلا يشارك فيها ولا فى حملها عليه حمل اشتقاق ، فأل للعهد الذهنى ، وقد يقال للعهد الحضورى : أى النبي الحاضر بين أظهر المخاطبين حينئذ . وعن أبى عثمان الواعظ قال : سمعت سهل بن محمد يقول هذا التشريف الذى شرف الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله « إن الله وملائكته يصلون على النبي » الآية أتمّ وأجمع من تشريف آدم عليه الصلاة والسلام بأمر الملائكة بالسجود له ، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة فى ذلك التشريف ، فتشريف يصدر عنه أبلغ من تشريف تختص به الملائكة . وقال أبو الليث السمرقندى رحمه الله إذا أردت أن تعرف أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر العبادات فانظر هذه الآية ، فأمر الله عباده بسائر العبادات ، وصلى عليه بنفسه أولا ، وأمر ملائكته بالصلاة عليه ، ثم أمر المؤمنين بأن يصلوا عليه انتهى ، والاغتنام للاكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم والجمع لذكره صلى الله عليه وسلم مع ذكر ربه عز وجل تأسيا بقوله تعالى « ورفعنا لك ذكرك » فقد روى جماعة من حديث أبي سعيد رضى الله عنه أن معناه : لاأذكر إلا ذكرت معى ، وللأداء لبعض ما يجب له صلى الله عليه وسلم ، إذ هو الواسطة بين الله سبحانه وتعالى وبين العباد وجميع النعم الواصلة إليهم التى أعظمها الهداية للاسلام إنما هى ببركته وعلى يديه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « لايشكر الله من لايشكر الناس » والقيام برسم العبودية بالرجوع لما يقتضى الأصل نفيه فهو أبلغ فى الامتثال ، ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم علي كل عمل ، والذى يقتضى الأصل نفيه هو كون العبد يتقرب إلى الله تعالى بالاشتغال بحق غيره ، لأن قولنا : اللهم صل على محمد هو اشتغال بحق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأصل التعبدات أن لايتقرب إلي الله تعالى إلا بالاشتغال بحقه ، ولكن لما كان الاشتغال بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم بإذن من الله تعالى كان الاشتغال بها أبلغ فى امتثال أمر الآمر بها ، فهى بمثابة أمر الله سبحانه للملائكة بالسجود لآدم عليه وعليهم الصلاة والسلام ، فكان شرفهم فى امتثال أمر الله تعالى ، وكانت إهانة إبليس لعنه الله فى مخالفة أمره سبحانه ، والامتثال لأمر الله تعالى فى قوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . وقد قال القاضى أبو بكر بن بكير فى الآية : افترض الله تعالى على خلقه أن يصلوا على نبيه صلى الله عليه وسلم ويسلموا تسليما ولم يجعل لذلك وقتا معلوما فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها ، كذا ذكره العلامة ابن يوسف الفاسى (صلى الله عليه وسلم ، و) تصلى وتسلم (على آله) بدون الصحب لانطباق لفظ الآل عليهم ، أو اقتصارا على مورد النص (ثم تستغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات) من الإنس والجن ، ويحتمل شمول الأمم الماضية ، وهو ظاهر حديث أنس الآتى ، وذلك لما ينبغى له أن يعم فى دعائه جميع المؤمنين . وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » . وقال إخبارا عن نوح عليه السلام فى دعائه « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات » .

وَتَرْجِعُ إِلَى طاعَةِ ٱللهِ جَلَّ جَلاَلُهُ فَتَكُونُ قدْ تُبْتَ تَوْبَةً نَصُوحاً وَقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ طَاهِرًا كَيَوْمِ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ، وَأَحَبَّكَ اللهُ سُبْحانهُ وَلكَ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَعليْكَ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ مالاَ يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ ، وَحَصَلَ لكَ الْأَمْنُ وَالْخَلاَصُ وَنجَوْتَ مِنْ غَضَبِهِ وَغُصَّةِ الْمَعاصِي ،

ودليل الاستغفار لهم ماروى الشيخ ابن حبان فى الثواب والمستغفرى فى الدعوات من حديث أنس بسند ضعيف « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه من كل مؤمن مضى من أول الدهر أو هو كائن إلى يوم القيامة » . وأخرج الطبرانى فى الكبير عن عبادة بن الصامت « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة » (وترجع إلى طاعة الله جل) من الجلال ، وهو من الصفات الجامعة للغنى المطلق ، والملك المحيط الدائم والتقدس عن كل نقص وكمال العلم والقدرة وسائر صفات الكمال (جلاله) أى عظمته تعالى (فتكون قد تبت) جواب إذا ابتدأت (توبة نصوحا) أى خالصا (وقد خرجت من الذنوب طاهرا) كمن لاذنب له كما ورد في الخبر (كيوم ولدتك أمك) أى خروجا مثل خروجك يوم ولدتك أمك ، أو حال كونك مشابها لنفسك يوم ولادتك فى البراءة ، فهو إما صفة لمصدر محذوف ، أو فى محل نصب على الحال (وأحبك الله سبحانه) وذلك لقوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ووجب له على الناس أربعة أشياء : أولها أن يحبوه فان الله تعالى قد أحبه . والثانى أن يحفظوه بالدعاء على أن يثبته الله على التوبة . والثالث أن لا يعيروه بما سلف من ذنوبه . والرابع أن يجالسوه ويذاكروه ويعينوه ، ويكرمه الله تعالى بأربع كرامات : أحدها أن يخرجه الله تعالى من الذنوب كأنه لم يذنب قط . والثانى أن يحبه الله تعالى . والثالث أن لايسلط عليه الشيطان ويحفظه منه . والرابع أن يؤمنه من الخوف قبل أن يخرج من الدنيا ، لأنه عز وجل قال « تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » . وروى عن خالد بن معدان أنه قال « إذا دخل التوابون الجنة قالوا ألم يعدنا ربنا أن نرد النار قبل أن ندخل الجنة ؟ قيل لهم : إنكم مررتم بها وهي خامدة» ذكره أبو الليث السمرقندى (ولك) ما لايحصى (من الأجر والثواب ، وعليك من البركة) أى الخير الإلهى (والرحمة ما لايحيط به وصف الواصفين وحصل لك الأمن) من المخاوف (والخلاص) أى النجاة من المهالك (ونجوت من غضبه) تعالى هو فى الأصل : غلظة عارضة للنفس تقتضى الانتقام بالايقاع أو الذم ، وتستعمل تارة فى مجرد غير هذه الغلظة ، وتارة فى مجرد الانتقام ، ويصاحبها غليان الدم واستشاطته فى الطبيعة ، وهى تابعة للسخط ، وهو عدم مطابقة الواقع لإرادة المريد الموجب لاعتراضه وعدم قبوله ، والمراد بغضبه تعالى انتقامه أو فى الكلام حذف مضاف : أى من محل غضبه تعالى وهو جهنم ، كذا قاله بعضهم (و) سلمت من (غصة المعاصى) أى مرارتها

وَبَلِيَّتِهَا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . وَكُنْتُ قَدْ قَطَعْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ بِإِذْنِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَاللّٰهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

﴿ الْعَقَبَةُ الثَّالِثَةُ : وَهِىَ عَقَبَةُ الْعَوَائِقِ ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَاطَالِبَ الْعِبَادَةِ ـ وَفَّقَكَ اللّٰهُ تَعَالَى ـ بِدَفْعِ الْعَوَائِقِ حَتَّى تَسْتَقِيمَ عِبَادَتُكَ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْعَوَائِقَ أَرْبَعَةٌ : أَحَدُهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

(و) من (بليتها) أى عذابها كما فى شرح الدلائل (فى الدنيا) بأن يعافيك من محنها وشدائدها (والآخرة) بأن لا يؤاخذك بذنوبك ولا يوبقك بأعمالك (وكنت قد قطعت) أى جاوزت (هذه العقبة) أى عقبة التوبة (بإذن الله) أى بارادته (سبحانه وتعالى ، والله ولىّ الهداية) أى متولى دلالة الخلق على سلوك سبيل الهدى (بمنه) أى بإنعامه وإحسانه (وفضله) أى ما تفضل به على عباده من إسداء غاية الإحسان إليهم ، وفيه رد على المعتزلة الذين يوجبون فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا باب شرح (العقبة الثالثة) من السبع المتقدمة (وهى عقبة العوائق) أى الموانع (ثم عليك) أى الزم (يا طالب العبادة وفقك الله تعالى) جملة دعائية (بدفع العوائق حتى تستقيم عبادتك) أى تعتدل ، وذلك زوال الاعوجاج والميل ، ويقال الاستقامة فى الأقوال بترك الغيبة وفى الأفعال بنفى البدعة ، وفى الأعمال بنفى الفترة ،وفى الأحوال بنفى الحجبة (وقد ذكرنا) من قبل (أن العوائق) أى الموانع الشاغلة عن العبادة (أربعة : أحدها الدنيا وما فيها) فانها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها نظر عناية مند خلقها، كما ورد ذلك فى الخبر : إلا ما يعين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام الذى به يتغذى ، ومن الماء الذى به يروى ، والقميص الواحد الخشن الذى يوارى عورته ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التى بها يتوصل إلى العلم والعمل فان ذلك ليس من الدنيا ، لأنه معين عليهما ، فمهما تناوله العبد بما لا يمكن التبلغ بأقل منه على قصد الاستعانة به على العلم والعمل فمعذور بل مشكور ومأجور ، ولم يكن به متناولا للدنيا ، ولم يصر به من أبناء الدنيا ولم يلحقه الذم وان كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى صار من جملة أبناء الدنيا المذمومة ، ولو كان المتناول حقيرا فى نفسه ، وبالجملة لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات:الأولى صفاء القلب : أي طهارته من أدناس الدنيا وأوساخها. والثانية أنسه بذكر الله تعالى . والثالثة حبه الله تعالى ، وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا وحظوظها ، والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه ، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة ، إذ من لم يعرف لم يحب ، ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر فى جلال الله وعظمته ، وهذه الصفات الثلاث هى المنجيات المسعدات للعبد بعد الموت كما ذكره المصنف

وَدَفْعِهَا ، إِنَّمَا هُوَ بِالتَّجَرُّدِ عنهَا وَالزُّهْدِ فِيهَا وَإِنَّمَا لَزِمَكَ هَـٰذَا التَّجَرُّدُ وَالزُّهْدُ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِتَسْتَقِيمَ لَكَ الْعِبَادَةُ وَتَكْثُرَ ، فَإِنَّ الرَّغْبَةَ فى الدُّنْيَا تَشْغَلُكَ ، أَمَّا ظَاهِرُكَ فَبِالطَّلَبِ ، وَأَمَّا بَاطِنُكَ فَبِالْإِرَادَةِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ وَكِلَاهُمَا يَمْنَعُ الْعِبَادَةَ ، فَإِنَّ النَّفْسَ وَاحِدَةٌ ، وَالْقَلْبَ وَاحِدٌ ، فَإِذَا اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ انْقَطَعَ عَنْ ضِدِّهِ ، وَإِنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَثَلِ الضَّرَّتَيْنِ إِنْ أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا أَسْخَطْتَ الْأُخْرَى ، وَأَنَّهُمَا كَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِقَدْرِ مَا تَمِيلُ إِلَى أَحَدِهِمَا أَعْرَضْتَ عَنِ الْآخَرِ ،

وغيره (ودفعها) أى الدنيا (إنما هو بالتجرد) أى الانزواء والتخلى (عنها) أي عن حبها (والزهد فيها) أى الاعراض عنها . وللزهد مراتب ودرجات . وذلك بحسب علو الهمة وانحطاطها وعلو الهمة بحسب ما يشرق من النور فى القلب فينشرح له الصدر ويحصل عنه العلم بأن المرغوب فيه أفضل من المزهود فيه (وإنما لزمك هذا التجرد والزهد لأمرين : أحدهما لتستقيم لك العبادة وتكثر ، فان الرغبة) أى التوجه والإقبال (فى الدنيا تشغلك) بفتح التاء والغين : من شغله شغلا وشغلا ثلاثيا مجردا : ضد الفراغ ، وأما أشغله مزيدا فلغة رديئة ، قاله الجوهري وابن القوطية وابن طريف : أى تشغلك عن العبادة ظاهرا وباطنا (أما ظاهرك) أى الاشتغال بظاهرك (فبالطلب) أى تحصيلها (وأما باطنك فبالإرادة) بالقلب (وحديث النفس . وكلاهما) أى الطلب والإرادة ظاهرا وباطنا (يمنع العبادة فان النفس واحدة والقلب واحد) وما جعل الله لرجل من قلبين (فاذا اشتغل) أى ذلك القلب (بشىء انقطع عن ضده) أى الشىء المشتغل به . وقال مالك بن دينار : بقدر ماتحزن للدنيا يخرج همّ الآخرة من قلبك . وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك (و) هذا اقتباس مما قاله على رضى الله عنه حيث قال فى تشبيه الدنيا والآخرة (إن مثل الدنيا والآخرة كمثل الضرتين) تثنية ضرة ، وضرة المرأة : امرأة زوجها كما فى المختار (إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وإنهما) أى الدنيا والآخرة (كالمشرق والمغرب بقدر ما تميل إلى أحدهما أعرضت عن الآخر) ومثل إناءين أحدهما فارغ ، والآخر ملآن بقدر ما تصبّ فى الفارغ ينقص الملآن ، وقد روى ذلك أيضا من قول وهب بن منبه كما فى الحلية ، ومثله قول عوف بن عبد الله المسعودى : الدنيا والآخرة فى العبد ككفتى الميزان ، ترجح إحداهما فتخفّ الأخرى ، وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى : إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها للؤمها ، وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة لكرمها ، نقله صاحب القوت ، وقال معناه إن يسير الدنيا يخرج كثير الآخرة ، وكثير من شأن الآخرة لا يخرج يسيرا من الدنيا وان كثيرا من أمر الآخرة قد يزيله قليل من أمر الدنيا ، وإن قليلا من أمر الدنيا قد لا يزيله الكثير من أمر الآخرة . هـذا لعزة شأن الآخرة وقلة النصيب منها ، وللؤم شأن الدنيا ودناءتها

أَمَّا شَغْلُهَا فِى الظاهِرِ فَقَدْ رَوَيْنا عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ: زَاوَلْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ الْعِبادَةِ وَالتِّجَارَةِ فَلَمْ يَجْتَمِعَا فَأَقْبَلْتُ عَلَى الْعِبَادَةِ وتَرَكْتُ التِّجَارَةَ . وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

وكثرة النصيب منها ، وعظم البلوى بها . قال المصنف الغزالى : وهـذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال : الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعا له : أى فالحكم للغالب ، وهـذا لا يمنع مزاحمة الدنيا مع الآخرة (أما شغلها) أى الدنيا عن العبادة (فى الظاهر) فهو عدم اجتماعها مع العبادة ، فتصير مشوشة مكدرة لها ، وحينئذ فالأولى ترك ما وراء الحاجة والاقبال على الطاعة كما أشار له بقوله رحمه الله (فقد روينا عن أبي الدرداء رضى الله عنه) أى الصحابي ، اسمه عويمر ، وقيل عامر بن زيد بن قيس بن عائشة بن أمية ابن مالك بن عامر بن عدى بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصارى ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة حديث وتسعة وسبعون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على حديثين وانفرد البخارى بثلاثة ، ومسلم بثمانية ، روى عنه ابن عمر وابن عباس وأنس وأبو أمامة وفضالة بن عبيد ويوسف بن عبدالله بن سلام رضى الله تعالى عنهم ، وروى عنه خلائق من التابعين : منهم خالد بن معدان ، ومعدان بن أبي طلحة وأسد بن وداعة وجبير بن نفير وعلقمة ابن قيس وعمرو وابنه بلال وزوجته أم الدرداء الصغرى وخلائق ، وكان فقيها حكيما زاهدا شهد ما بعد أحد من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واختلفوا فى شهوده أحدا لو كان إسلامه تأخر قليلا عن أول الهجرة ، وولي قضاء دمشق فى خلافة عثمان ، توفى بدمشق فى خلافة عثمان سنة إحدى؛ وقيل ثنتين وثلاثين من الهجرة ، وقبره وقبر زوجته أم الدرداء الصغرى بباب الصغير من دمشق مشهوران ، وكان له امرأتان كل واحدة يقال لها أم الدرداء صحابية وتابعية ، تزوج التابعية بعـد وفاة الصحابية ، اسم الصحابية خيرة ، والتابعية هجيمة فقيهة حكيمة ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي الدرداء وسلمان الفارسى ، وحديث زيارة سلمان له فى حياة رسول الله صـلى الله عليه وسلم مشهور فى صحيح البخارى وغيره وعن أبي الدرداء قال « إني لأدعو لسبعين رجلا من إخوانى فى صلاتى أسميهم وأسمى آباءهم » (أنه قال زاولت) أى أردت وفى نسخة حاولت (أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأقبلت على العبادة وتركت التجارة) وفى الحديث : « الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبها الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذ بعنقه » . أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا (و) روى (عن عمر) بن الخطاب (رضى الله عنه) اتفقوا على تسميته الفاروق ، واتفقوا على أنه أول من سمى أمير المؤمنين ، وإنما كان يقال لأبى بكر رضى الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وعمر رضى الله عنه أحد

أَنَّهُ قالَ : « لَوْ كَانَتَا مُجْتَمِعَتَيْنِ لِأَحَدٍ غَيْرِى لَاجْتَمَعَتَا لِى لِمَا أَعْطَانِى اللهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْقُوَّةِ وَاللِّيْنِ » فَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ كَذَلِكَ فَأَضِرَّ بِالفَانِيَةِ وَاخْتَرِ السَّلامَةَ ، والسَّلَامُ .
وَأَمَّا شَغْلُهَا

السابقين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ؟ وأحد الخلفاء الراشدين ؟ وأحد أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد كبار علماء الصحابة وزهادهم ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة حديث وتسعة وثلاثون حديثا اتفق البخارى ومسلم منها على ستة وعشرين حديثا ، وانفرد البخارى بأربعة وثلاثين ، ومسلم بأحد وعشرين ، روى عنه عثمان ابن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وابن مسعود ، وأبو ذر ، وعمرو بن عبسة ، وابنه عبد الله ، وابن عمر وابن عباس وابن الزبير ، وأنس ، وأبو موسى الأشعرى ، وجابر بن عبد الله ، وعمرو بن العاصى ، وأبو لبابة ابن عبد المنذر ، والبراء بن عازب ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو هريرة ، وابن السعدى ، وعقبة ابن عامر ، والنعمان بن بشير ، وعدى بن حاتم ، ويعلى بن أمية ، وسفيان بن وهب ، وعبد الله ابن سرجس ، والفلتان بن عاصم ، وخالد بن عرفطة ، والأشعث بن قيس ، وأبو أمامة الباهلى ، وعبد الله بن أنيس ، وبريدة الأسلمى ، وفضالة بن عبيد ، وشداد بن أوس ، وسعيد بن العاصى ، وكعب بن عجرة ، والمسور بن مخرمة ، والسائب بن يزيد ، وعبد الله بن أرقم ، وجابر بن سمرة ، وجيب بن مسلمة ، وعبد الرحمن بن أبزى ، وعمرو بن حريث ، وطارق بن شهاب ، ومعمر ابن عبد الله ، والمسيب بن حزن ، وسفيان بن عبد الله ، وأبو الطفيل ، وعائشة ، وحفصة رضى الله عنهم ، وكلهم صحابة ، روى عنه من التابعين خلائق : منهم ابنه عاصم ومالك بن أوس ، وعلقمة ابن وقاص ، وأبو عثمان النهدى ، وأسلم مولاه ، وقيس بن أبى حازم وخلق سواهم ، وأجمعوا على كثرة علمه رضى الله عنه ووفور فهمه وزهده وتواضعه ورفقه بالمسلمين وإكرامه أهل الفضل والخير ، وهى سنة أكثر من أن تستقصى ، وطعن رضى الله عنه يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من شهر ذى الحجة ، سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحدا وعشرين يوما ، وقيل غير ذلك ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين فى الصحيح المشهور ذكره فى سراج السالكين (أنه قال : لو كانتا) أى الدنيا والآخرة (مجتمعتين لأحد غيرى لاجتمعتا لى لما أعطانى الله سبحانه من القوة) أى القلبية (واللين) بالياء مع فتح اللام المشددة : ضد الخشونة . قال المصنف رحمه الله (فإذا كان الحديث) أى ما قاله عمر رضى الله عنه (كذلك) أى المذكور من عدم اجتماع الدنيا والآخرة له مع قوته ولينه (فأضرّ) من الإضرار (بالفانية) أى الدنيا التى لا بقاء لها (واختر السلامة) بالاقبال على الآخرة الباقية بطاعة الواحد القهار (والسلام) أى على من اتبع الهدى (وأما شغلها) أى الدنيا

بِالْقَلْبِ وهُوَ الْبَاطِنُ لِمَكَانِ الْإِرَادَةِ فَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » فَبَانَ لَكَ أَنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ ظَاهِرُكَ بِالدُّنْيَا وَبَاطِنُكَ بِإِرَادَتِهَا فَلاَ تَتَيَسَّرُ لَكَ الْعِبَادَةُ حَقَّهَا ، وَأَمَّا إِذَا زَهِدْتَ فِيهَا فَتَفَرَّغْتَ بِظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ تَتَيَسَّرُ لكَ الْعِبَادَةُ ، بَلْ تُعَاوِنُكَ أَعْضَاؤُكَ عَلَيْهَا . وَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(بالقلب وهو الباطن لمكان الارادة) فهو أن حبها إضرار بالآخرة لما أشار له بقوله (فما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب دنياه أضر بآخرته) لأن حب الدنيا يشغله عن تفريغ قلبه لحب ربه ولسانه لذكره فيضر آخرته ولابد (ومن أحب آخرته أضر بدنياه) لأن حب الآخرة يعطل عليه أسباب الكسب والمعاش فيضر بدنياه ولابد ، والباء في الموضعين للتعدية فهما ككفتي ميزان ، فإذا رجحت إحدى الكفتين خفت الأخرى (فآثروا) أى اختاروا (مايبقى على ما يفنى) قال العلامة عبد الحق بن شاه : رواه الإمام أحمد والحاكم عن أبي موسى الأشعرى قال العراقى : رواه أحمد والبزار والطبرانى وابن حبان والحاكم وصححه على شرط الشيخين . قال الزبيدى : وهو منقطع بين المطلب بن عبد الله وبين أبي موسى ، وسبقه إلى ذلك الذهبى ، وقد رواه كذلك القضاعى فى مسند الشهاب والبيهقى فى الشعب ؛ وقال المنذري : رجال أحمد ثقات ، وعند بعضهم : ألا فآثروا بزيادة ألا التنبيهية (فبان) أى ظهر (لك) بهذا الحديث (أنه) أى الشان (إذا اشتغل ظاهرك بالدنيا) أى بطلبها (وباطنك بإرادتها فلا تتيسر لك العبادة حقها) من الحضور القلبي وغيره ، بل تتيسر صورتها الظاهرة ، لأنك قد أديتها بعدم الحضور والخشوع فتكون كالجسد بلا روح (وأما إذا زهدت فيها) أى الدنيا ، يقال : زهد يزهد من باب منع وسمع وكرم كما قاله الشوبرى ، وهو لغة: الإعراض عن الشيء لاستصغاره وارتفاع الهمة عنه لاحتقاره ، من قولهم : شيء زهيد ، أى قليل ، وشرعا : أخذ قدر الضرورة من المال المتيقن الحل فهو أخص من الورع إذ هو ترك المشتبه ، وأحسن حدوده كما قال ابن القيم : أنه فراغ القلب من الدنيا ، لافراغ اليد ، وهذا زهد العارفين وأعلى منه زهد المقربين وهو الزهد فيما سوى الله من دنيا وجنة وغيرها إذ ليس لصاحب هذا الزهد مقصد إلا الوصول إليه تعالى والقرب منه (فتفرغت) أى اتصفت بالخلو من الميل إلي فان والثقة بزائل كما قرره بعضهم (بظاهرك وباطنك تتيسر لك العبادة) أى حقها (بل تعاونك أعضاؤك عليها) أى العبادة (ولقد روى عن سلمان الفارسى رضى الله عنه) أى الصحابى : وهو أبو عبد الله سلمان الخير مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن نسبه ؟ فقال أنا سلمان ابن الإسلام ، أصله من فرس من جى بفتح الجم وتشديد الياء : قرية من قرى أصبهان ، وقيل من رامهرمز ، روى ابن أبى خيثمة فى تاريخه عن ابن عباس قال حدثنى سلمان رضى الله تعالى عنه قال : كنت من أهل أصبهان من قرية يقال لها جى ، وكان

أبي دهقانها . وسبب إسلامه مشهور ، وأنه هرب من أبيه وكان مجوسيا ، فلحق براهب ، ثم جماعة من الرهبان واحدا بعد واحد يصحبهم إلى وفاتهم إلى أن دله الأخير إلى الذهاب إلي الحجاز وأخبره بظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، فقصده مع عرب ، فغدروا به وباعوه فى وادى القرى ليهودى ، ثم اشتراه منه يهودى من قريظة ، فقدم به المدينة فأقام به مدة حتى قدم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه بصدقة فلم يأكل منها ، ثم بعد مدة أتاه بهدية فأكل منها ، ثم رأى خاتم النبوة ، وكان الراهب الأخير وصف هذه العلامات الثلاث للنبي صلى الله عليه وسلم . قال سلمان: فرأيت الخاتم فقبلته وبكيت، فأجلسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه، فحدثنى بشأنى كله، وفاتنى بدر وأحد بسبب الرق، فقال لى ياسلمان كاتب عن نفسك ، فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته أن أغرس له ثلثمائة نخلة وعلى أربعين أوقية ذهب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم . أعينوا أخاكم سلمان بالنخل ، فأعانوني حتى اجتمعت لي قال فقرّبها ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدى ففعلت ؛ فأعاننى أصحابه حتى فرغت ، فأتيته فكنت آتيه بالنخلة فيضعها ؛ ويسوى عليها التراب ؛ فوالذي بعثه بالحق نبيا ما ماتت واحدة وبقى الذهب ؛ فجاء رجل بمثل البيضة من ذهب أصابه من بعض المعادن ؛ فقال ادع سلمان المسكين الفارسى المكاتب ؛ فقال أدّ هذه ؛ وروينا عنه قال تداولنى بضعة عشر ربا من رب إلى رب . وأول مشاهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ، ولم يتخلف عن مشهد بعدها ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبى الدرداء وبين سلمان ، ثبت ذلك فى صحيح البخاري ، وكان من فضلاء الصحابة ، وزهادهم وعلمائهم وذوى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق حين جاءت الأحزاب ، وسكن العراق ، وكان يعمل الخوص بيده فيأكل منه ، وكان عطاؤه خمسة آلاف فإذا خرج فرّقه ، وكان أبو الدرداء قد سكن الشام، فكتب إلى سلمان:

أما بعد ، فإن الله قد رزقنى مالا وولدا ، ونزلت الأرض المقدسة ؛ فكتب إليه سلمان : سلام عليك أما بعد ؛ فإنك كتبت إلى أن الله تعالى قد رزقك مالا وولدا ، فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد ؛ ولكن الخير أن يكثر حلمك وأن ينفعك علمك وكتبت إلى أنك بالأرض المقدسة وإن الأرض لا تقدس أحدا ؛ ونقلوا اتفاق العلماء على أن سلمان الفاسى عاش مائتين وخمسين سنة ، وقيل : ثلثمائة وخمسين سنة ؛ وقيل إنه أدرك وحى عيسى ابن مريم ؛ على نبينا وعليه الصلاة والسلام . روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم على ثلاثة ؛ ولمسلم ثلاثة ؛ وروى عنه ابن عباس وأنس وعقبة بن عامر وأبو سعيد وكعب بن عجرة وأبو الطفيل رضى الله عنهم ؛ وروى جماعات من التابعين : توفى سلمان بالمدائن فى أول سنة ست وثلاثين ، وقيل: سنة خمس وثلاثين ، ويقال فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وهو غلط . قال أبو بكر ابن أبى داود وغيره : لسلمان ثلاث بنات بأصبهان ، وروى الترمذى بإسناده عن أنس رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : على ، وعمار ،

أَنَّهُ قالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا زَهِدَ فِى الدُّنْيَا اسْتَنَارَ قَلْبُهُ بِالْحِكْمَةِ وَتعاوَنَتْ أَعْضاؤُهُ فِى الْعِبَادَةِ » فَهٰذِهِ هٰذِهِ . وَالثَّانِى مِنَ الْأَمْرَيْنِ أَنَّهُ يكثِرُ قِيمَةَ عَملِكَ وَيُعَظِّمُ قَدْرَهُ وَشَرَفَهُ ، فَلَقَدْ قالَ صلى اللّٰهُ عليْهِ وسلم : « رَكْعَتَانِ مِنْ رَجُلٍ عَالِمٍ زَاهِدٍ قَلْبُهُ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ عِبادةِ الْمُتَعَبِّدِينَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ » .

وسلمان رضى الله تعالى عنهم » قال الترمذى حديث حسن (أنه قال : إن العبد إذا زهد فى الدنيا استنار) أى أضاء (قلبه) قال حجة الإسلام : القلب لطيفة ربانية هى المخاطبة وهى التى تثاب وتعاقب ولها تعلق بالقلب اللحمانى الصنوبرى الشكل تعلق العرض بالجوهر ، ويسمى روحا ونفسا (بالحكمة) أى العلم النافع كما قاله بعضهم وهو العلم بالله ، وكذا العلم بأحكام الله (وتعاونت أعضاؤه فى العبادة فهذه) أى الجملة (هذه) أى هى الموصوفة بالكمال والعظمة ؛ وبالجملة إن الزهد هو الآلة التى لا يستغنى عنها عابد ولا عارف ، لأن الدنيا عدوة محبوبة ، أما كونها عدوة فلأنها قاطعة شاغلة ، وأما كونها محبوبة فلأن أصل الحياة وكمالها لا يتأتى إلا بها ، وأصل الحياة هو المقصود للعبادة والمعرفة ، وكمال الحياة بالنعيم هو القاطع إن كان محظورا ، والشاغل إن كان مباحا ؛ وأما الزهد فلا يتعلق إلا بترك المباح ، وترك المباح منوط بثلاث آفات : الآفة الأولى: أن الانهماك فيه يحمل على ترك الواجبات وفعل المحظورات ، ولا يقدر على فعل الواجبات وترك المحظورات إلا بترك فضول الشهوات المباحات . الآفة الثانية : اعتياد النفس وإلفها به : أى بالمباح فيشق عليها مفارقته ، والمفارقة للدنيا ضرورة . الآفة الثالثة: الاشتغال به عن معرفة الله التى ما خلقت إلا لأجلها ، والقلب لا يتسع الحالين : إما إقبال على الدنيا أو على الآخرة ، أو على الله تعالى ، فإذا عرفت هذا عرفت أن الزهد فى الدنيا ضرورة السالك ، فأما السبب الموجب للزهد ، فقد قال الله تعالى : « لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » وقال : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » فقد عرفك طريق الفكر فى الآية الأولى ، وهو أن تنظر إلى فناء الدنيا وسرعة ذهابها حتى كأنها لم تكن ، وفى بقاء الآخرة وثباتها حتى كأنها لم تزل مع ما اشتملت عليه الدنيا من الخساسة والقذارة والمكابدة ومحاصرة الشركاء ، وكذلك ما اشتملت عليه الآخرة من النفاسة والبهاء وعدم الآفات ، والإيمان بهاتين المعرفتين واجب لأنهما من عقود الإيمان بالله ، فإذا أضفت المعرفة بالآخرة إلى المعرفة بالدنيا وكانت إرادتك مائلة إلى الدنيا انصرفت إرادتك من الدنيا إلى الآخرة فحينئذ تعرف حقيقة الزهد بالذوق إن كنت مصدقا برهانا أو تقليدا ، فحقيقة الزهد انصراف الإرادة عن الدنيا حقارة لاستعظام ماعاين من نفاسة الآخرة كما ذكره العلامة الزبيدى . (و) الأمر (الثانى) الذى لزمك الزهد له (من الأمرين أنه) أى الزهد (يكثر قيمة عملك ويعظم) أى ذلك الزهد (قدره) أى قدر العمل (وشرفه فلقد قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : ركعتان من رجل عالم زاهد قلبه خير وأحب إلى الله جل جلاله من عباده المتعبدين إلى آخر الدهر) أى آخر الزمان الطويل والأبد المحدود

أَبَدًا سَرْمَدًا » فَإِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ تَشْرُفُ وَتَكْثُرُ بِذَلِكَ فَحَقٌّ لِمَنْ طَلَبَ الْعِبَادَةَ أَنْ يَزْهَدَ فِى الدُّنْيَا وَيَتَجَرَّدَ عَنْهَا .

ويطلق أيضا على ألف سنة ، وفى المشارق : الدهر مدة الدنيا . وقال بعضهم : وقد يقع الدهر على بعض الزمان انتهى . وفى كتاب [القرى] للمحب الطبرى قال ثم الزمان والدهر واحد ، وأنكر ذلك أبو الهيثم وقال: الزمان زمان الحر وزمان البرد وزمان الرطب ، ويكون الزمان من الشهرين إلى ستة أشهر ، والدهر لاينقطع إلا أن يشاء الله تعالى . وقال الأزهرى : الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر وعلى مدة الدنيا كلها يقولون : أقمنا على كذا دهرا انتهى . وقال حجة الإسلام الغزالى فى لباب المعارف العقلية : الزمان عدد حركات الفلك بعد الحصر والعدد ، والدهر حركات الفلك قبل العدد والحساب ، ولهذا قيل : إن الدهر أصل الزمان ، لأن الزمان ممتد مع السفليات ، والدهر ممتد مع العلويات ، كذا ذكره الفاسى (أبدا سرمدا) أى دائما ، روى هذا الحديث مسروق عن ابن مسعود كما فى القوت . قال الزبيدى : وقد روى نحوه مرفوعا من حديث أنس «ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط» . رواه أبو نعيم ، وروى ابن النجار عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » . وروى الشيرازى فى الألقاب من طريق مالك بن دينار عن الحسن عن أنس عن على رفعه « ركعتان من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد قد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة » وقال تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ، ولذلك قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه ، وأنطق بها لسانه . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا » فجعل الزهد سببا للمحبة ، فمن أحبه الله تعالى فهو فى أعلى الدرجات ، فينبغى أن يكون الزهد فى الدنيا من أفضل المقامات وصار الزاهد حبيب الله ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى . « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، وقيل له ماهذا الشرح ؟ فقال : إن النور إذا دخل فى القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله وهل لذلك من علامة ، قال نعم : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » فانظر كيف جعل الزهد فى علامة شرح الصدر بالنور ، وهو نور التصديق الذى هو عموم وصف المؤمنين ، لأنه هو التحقيق بالاسلام ، فهذا هو الزهد جعله شرطا للاسلام ، وهو التجافى عن دار الغرور ، وروى عن ابن المسيب عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه ، وعرفه داء الدنيا ودواءها ، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام » ، والأدلة فى بيان فضيلة الزهد أكثر من أن تحصى ، وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب (فاذا كانت العبادة تشرف وتكثر بذلك) أى بسبب الزهد (فحق) أى ثبت ووجب (لمن طلب العبادة) حقها (أن يزهد فى الدنيا ويتجرد عنها)

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى الزُّهْدِ فِى الدُّنْيَا وَمَا حَقِيقَةُ ذٰلِكَ . فَاعْلَمْ أَنَّ الزُّهْدَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ ٱللهُ زُهْدَانِ : زُهْدٌ مَقْدُورٌ لِلْعَبْدِ وَزُهْدٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ ، فَالَّذِى هُوَ مَقْدُورٌ ثَلاَثَةُ أَشْيَاءَ : تَرْكُ طَلَبِ الْمَفْقُودِ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَتَفْرِيقُ الْمَجْمُوعِ مِنْهَا وَتَرْكُ إِرَادَتِهَا وَٱخْتِيَارِهَا .

مع الاحتياط فإنه وان كان شاقا فمدته قريبة ، والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لايثقل على أهل المعرفة القاهرين أنفسهم بسياسة الشرع ، المعتصمين بعروة اليقين من معرفة المضادة التى بين الدنيا والدين . (فإن قلت) لى (فما معنى الزهد فى الدنيا وما حقيقة ذلك ؟ فاعلم)هداك الله تعالى (أن الزهد عند علمائنا) أى معاشر الصوفية (رحمهم الله زهدان : زهد مقدور للعبد ، وزهد غير مقدور) أى له (فالذى) أى الزهد الذى (هو مقدور ثلاثة أشياء) أحدها (ترك طلب المفقود من الدنيا . و) ثانيها (تفريق المجموع منها. و) ثالثها (ترك إرادتها) بالقلب (واختيارها) وهذا الذى ذكره قريب مما قاله الجنيد : الزهد معنيان : ظاهر وباطن ، فالظاهر نفض مافى الأيدي من الأملاك وترك طلب المفقود، والباطن زوال الرغبة عن القلب ووجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك . وفى الزهد أقاويل كثيرة بعضها عند التأمل يرجع إلى بعض ماذكر ، فمن ذلك قول بعضهم : الزهد أن لاتفرح بموجود من الدنيا ، ولا تتأسف على مفقود منها ، نزع بذلك إلى قوله تعالى « لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » . وقال أبو عثمان : الزهد أن تترك الدنيا ثم لاتبالى من أخذها . وقال أبو على الدقاق : الزهد أن تترك الدنيا كما هى لا تقول : أبنى رباطا ، ولا أعمر مسجدا . وقال ابن الجلاء : الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال لتصغر فى عينك ، فيسهل عليك الإعراض عنها . وقال الجنيد : الزهد : خلو القلب مما خلت منه اليد . وقال ابن المبارك : الزهد هو الثقة بالله مع حبّ الفقر ، وبه قال شقيق البلخى ويوسف بن أسباط . قال القشيرى : وهذا أيضا من أمارات الزهد ، فإنه لايقوى العبد على الزهد إلا بالثقة بالله . قال عبد الله بن زيد : الزهد ترك الدنيا والدرهم . وسأل رويم الجنيد عن الزهد ؟ فقال هو استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب ، ويروى عنه أيضا : الزهد خلو اليد من الملك ، وخلو القلب من التتبع . وقال الشبلى : الزهد أن تزهد فيما سوى الله تعالى . وقال ذو النون : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى النفس . وقال الحسن البصرى : الزهد فى الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض مافيها . وقال بعضهم : الزهد فى الدنيا ، هو ترك ما فيها على من فيها ، فهذه ثلاثة عشر قولا نقلها القشيرى فى الرسالة وفى القوت لأبى طالب المكى . وقالت طائفة : الزهد هو بغض المحمدة ، وأن لا تحبّ أن تحمد على شىء من أعمالك . وقال آخرون : الدنيا هى الأكل واللباس والمال ، والزهد: هو ترك فضول هذه الأشياء . وقال آخرون : حقيقة الدنيا هو حب الشرف والعلو وطلب العز والرياسة ، فينبغى أن يكون الزهد عند هؤلاء هو حب الخمول والذلة

وطلب الخضوع والضعة . وقال آخرون : الزهد مفارقة حظوظ النفس فى كل شىء . وكان سفيان يقول : الزهد فى الدنيا هو الصبر على الحق فى كل شىء . وسئل حاتم الأصم عن الزهد ، فقال : رأسه الثقة بالله ، ووسطه الصبر ، وآخره الإخلاص ؛ فأدخل فيه التوكل وجعله أوله لأنه لا يزهد حتى يثق بالله فى الرزق ؛ ويتوكل عليه فيه ؛ وجعل الصبر حالا منه أراد الثبات لئلا يميل أو يخرج فيرجع إلى الرغبة ؛ وجعل نهايته الإخلاص وهذا إخلاص الصادقين أن تريدبذلك وجه الله وحده وابتغاء مرضاته ، لا تطلعا إلى عوض ، ولا تطلبا لسبب هو دون الله تعالى ، وكذلك جعل أحمد ابن حنبل الإخلاص هو الزهد ففسره به لأنه إذا بلغ حقيقة الإخلاص لله وحده فقد زهد فيما سواه فاتفقا بمعنى تقاربا فيه ، أما أحدهما ففسر الزهد بالإخلاص جعله نهايته وهو حاتم ، وأحمد عبر عن الإخلاص بالزهد لأنه حقيقته ، وأما أيوب السختياني فإنه سئل عن الزهد ما هو ؟ فقال هو أن تقعد فى بيتك ، فان كان قعودك لله رضا وإلا خرجت تنفق درهمك ، فإن كان رضا وإلا أمسكت تمسك مالك ، فإن كان رضا وإلا أخرجته تسكت ، فإن كان سكوتك لله رضا ، وإلا تكلمت تتكلم ، فإن كلامك لله رضا وإلا سكت ، وهذا هو الزهد وإلا فلا تلعبوا ، وهذا مقام المحاسبة للنفس ، وحال المراقب للرب ووصف المراعى للوقت ، فجعل الدنيا هي ترك موافقة رضا الله تعالى فى كل شىء إذ جعل الزهد فيها هو اتباع مرضاته فى الأشياء . وقال مجاهد : الزهد الأثرة لله على ماسواه إذا أتاه شىء من الدنيا استعمل الخوف والحياء فيؤدى إلى كل ذى حق حقه . وكان ابن عيينة يقول : حدالزهد أن يكون شاكرا عند الرخاء صابرا عندالبلاء ، فهذا قد صير الشاكر على النعمة ، والصابر على البلية زاهدا ، وجمع له الزهد باجتماع الشكر والصبر ، وهـذا زهد عموم المؤمنين ، وقيل ليحيى بن معاذ متى يكون الرجل زاهـدا ؟ فقال : إذا بلغ حرصه فى ترك الدنيا حرص الطالب لها كان زاهدا . قال الدارانى : الزهد : التخلى من الدنيا والاشتغال بالعبادة ؛ فأما من تركها وتبطل فانما طلب الراحة لنفسه . وقال سهل : أول الزهد التوكل، وأوسطه إظهار القدرة . وقال أيضا : لايزهد العبد زهـدا حقيقيا لا رجعة بعده إلا بعد مشاهدة قدرة . وقال بعضهم : الزهد هو إخفاء الزهد . وقال سهل : لا ينال الزهد إلا بالخوف ، لأن من خاف ترك ، فجعل الزهد مقاما فى الخوف رفعة عليه . وفى الخبر « إنمـا الزهد أن تـكون بما فى يد الله تعالى أوثق منك بما فى يدك » فهذا مقام التوكل . وقال قوم : الزهد هو ترك الادخار ، فكانت الدنيا عندهم الجمع . وقال بعضهم : الدنيا ما شغل القلب واهتم به ، فجعلوا الزهد ترك الاهتمام وطرح النفس تحت تصريف الأحـكام وهـذا هو التفويض والرضا . وقال الدارانى : التورع أول الزهد . وقال أبو هشام المغازلى : الزهد قطع الآمال وإعطاء المجهود وخلع الراحة . وقال ابن السماك : الزهد أن لا يفرح بشىء من الدنيا أتاه ، ولا يحزن على شىء منها فاته لايبالى على عسر أصبح أم يسر . وقال طيفور البسطامى : الزهد أن لا يملك ولايملك . وقال علماء الظاهر الزهد فى الدنيا : موافقة العلم والقيام بأحكام الشرع وأخذ الشىء من وجهه ووضعه فى حقه ، وما خالف العلم فهو جهل كله وهوى ، فذكروا فرض الزهد وظاهره ولم يعرفوا غرائبه وباطنه ،ذلك مبلغهم من العـلم ونصيبهم من الفهم ، وهو مقامهم من المقال وطريقهم المشوب بالاعتلال . قال

وَأَمَّا الزُّهْدُ الَّذِى هُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ فَهُوَ بُرُودَةُ الشَّىْءِ عَلَى قَلْبِ الزَّاهِدِ . ثُمَّ الزُّهْدُ الَّذِى هُوَ مَقْدُورٌ لِلعَبْدِ مُقدِّماتٌ لِلزُّهْدِ الذى هُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ ، فَإِذَا أَتَى بِهِ الْعَبْدُ بِأَنْ لَا يَطْلُبَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَيُفَرِّقَ ما عِنْدَهُ مِنْها وَيَتْرُكَ بِالْقَلْبِ إِرَادَتَهَا وَاخْتِيارَهَا لِأَجْلِ اللهِ وَعَظِيمِ ثَوَابِهِ بِتَذَكُّرِهِ لِآفاتِها أَوْرَثَتْهُ تِلْكَ بُرُودَةَ

حجة الإسلام : وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة ، ولكنهم ذكروا ماذكروه عندالحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف ، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبارعن الحاجة الراهنة التى هى مقام العبد فى نفسه والأحوال تختلف ،فلاجرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، وأما الحق فى نفسه فلا يكون إلا واحدا ، ولا يتصور أن يختلف : أى على الصحيح من مذهب الأصوليين ، وإنما الجامع لهذه الأقاويل الكامل فى نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبوسليمان الداراني ، إذ قال : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا : ترك كل شىء يشغلك عن الله عز وجل . قال الزبيدى . وكأن الزهد عنده . دوام التفرغ لله تعالى بحسن الإقبال عليه . وقال شارح الرسالة : أراد بترك ما يشغل عن الله : أى بقلبه وإلا فهو من ثمرات الزهد ، فقد يترك الإنسان ما يشغله عن الله لزهده بل لشغله بما هو أشرف منه . وقد فصل الدارانى وقال : من تزوج أو سافر فى طلب المعيشة أوكتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدا للزهد ، وقد قرأ قوله تعالي « إلا من أتى الله بقلب سليم » قال : هو القلب الذى ليس فيه غير الله . قال الزبيدى : فهذا زهد الصديقين، وإنما تكون هذه الثلاث دنيا لمن أراد الدنيا لعاجل متعة النفس بها ، فأما من أراد بها الآخرة فهى طرقات له إلى الآخرة . وقال الدارانى مرة : إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم عن همومها للآخرة . قال بعضهم : فإذا رزق العبد فراغ القلب مع وجود هذه الثلاث التى ذكرت كن له قربات إلى المذكور ، وقد كان رحمه الله تعالى ذا عيال ولم يكن يشغله ذلك عن أوقاته مع الله ، ولا يدخلون عليه فى مقامه فيخرجونه من المقام ، كذا فى القوت . قال المصنف رحمه الله تعالى (وأما الزهد الذى هو غير مقدور للعبد فهو برودة الشىء على قلب الزاهد) أى لا يحبه (ثم الزهد الذى هو مقدور للعبد) وهو الثلاثة المذكورة (مقدمات للزهد الذى هو غير مقدور للعبد) وهو برودة الشىء على قلبه بمعنى عدم محبته له (فإذا أتى به) أى بالزهد المقدور له (العبد) وذلك (بأن لا يطلب ماليس عنده من الدنيا و) أن (يفرق) أى يقسم على وجه مرضى عند الله (ما عنده منها) أى من متاع الدنيا (و) أن (يترك بالقلب إرادتها واختيارها لأجل الله) أى لا لغرض من الأغراض الفاسدة (وعظيم ثوابه بتذكره) أى العبد (لآفاتها) أى الدنيا ، فإن التذكر لها يخففه على ما فعله من الأمور الثلاثة (أورثته) جواب إذا فى قوله فإذاأتى (تلك) أى الأمور الثلاثة (برودة

الدُّنْيَا عَلَى قَلْبِهِ ، وَهٰذَا عِنْدِي هُوَ الزُّهْدُ الْحَقِيقِيُّ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ أَصْعَبَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ إِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الْإِرَادَةِ بِالْقَلْبِ، إِذْ كَمْ مِنْ تَارِكٍ لَهَا بِظَاهِرِهِ مُحِبٍّ ، مُرِيدٍ لَهَا بِبَاطِنِهِ فَهُوَ فِي مُكَافَحَاتٍ وَمُقَاسَاةٍ

الدنيا على قلبه ، وهذا) أى عدم حب الدنيا المعبر عنه بالبرودة (عندى هو الزهد الحقيق) . وقال أبو سعيد بن الأعرابى عن أشياخه : إنما الزهد عندهم خروج قدر الدنيا من القلب إذ هي لا شيء، وهذا لعمرى هو الزهدلأنه زهد ثم لم ينظر إلى زهده فزهد فيه إذ لم يره شيئا لأنه زهد في لا شيء ، وهذا يشبه ما يقال إن حقيقة الزهد هو الزهد فى النفس ، لأنه قد يزهد فى الدنيا لنفسه طلبا للعوض ، فيكون ذلك رغبة على صفة ، فإذا زهد فى النفس التى يريد لها الأعواض على الزهد فهو حقيقة الزهد وهو يشبه قول من قال : أن حقيقة الزهد فى الغنى هو الزهد فى البقاء لأن العبد ربما زهد فى الغنى ولم يزهد فى البقاء فيكون فيه بقية من الرغبة ، فإذا زهد فى البقاء فهو حقيقة الزهد في الغنى إذ كان الغنى يراد للبقاء وإذ لا متعة بالبقاء بغير غنى ، كذا فى القوت .

﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن الزهد على قسمين : مراد لذاته ، وهو الزهد فما سوى الله تعالى من كل مايشغل عن عين الشهود ، وهو من عقود الإيمان بالله لتعلقه بالجلال والكمال ، ومراد لغيره وهو فراغ القلب لهذه المعرفة، وكلما ازددت تركا للدنيا ازددت بالله معرفة ، والقدر الواجب من الزهد المراد لغيره ما يحث على الفراغ لأوقات الواجبات ، وهو لعمرى سبب لإقامة الإخلاص الذى هو شرط فى صحة العبادات ، فلا يقدر على ترك جملة من الشرور الظاهرة والباطنة إلا بترك الدنيا إلا أن ما ينهى عنه لغيره غير ما ينهى عنه لأجل نفسه . والمباحات منهى عنها لأدائها إلى ما ذكرنا فى الغالب ، ومن أهل التمكين من يعطى قوة يدبر بها العالمين ، ولا يشغله شيء عن الله ، فمنهم من وصل إلى هذا المقام الشريف بالكسب والاجتهاد ، وهو المسمى مريدا ، ومنهم من وصل إليه بنفس نفخ الرحمة فى كشف الحجاب عن قلبه ، حتى وقف على حقيقة الأمر بغير مدافع ولا منازع وهو المسمى عند القوم مرادا ، وكل منهما مراد إلا أن هذا مراد بوسائط كثيرة ، وهذا مراد بغير واسطة ، وقد أخبر الله عن كلا الحالين فقال : « الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » وينبغى أن يجرى بينهما الخلاف الجارى فى التفاضل بين أفاضل المؤمنين وأفاضل الملائكة لمناسبة الجذب والترق ، هذا إذا اتحدت المعرفتان ، فإن اختلفا كانت الفضيلة على حسب المعرفة فافهم ، كذا ذكره العلامة الزبيدى (ثم اعلم) أرشدك الله (أن أصعب الأمور الثلاثة) وهى ترك طلب المفقود من الدنيا ، وتفريق المجموع منها ، وترك إرادتها واختيارها (إنما هو) أى الأصعب (ترك الإرادة) والمحبة للدنيا (بالقلب ، إذ كم من) شخص (تارك لها بظاهره) وهو (محب مريد لها بباطنه فهو فى مكافحات) أى مواجهات . قال الأصمعى : كافحوهم إذا استقبلوهم فى الحرب بوجوههم ليس دونها ترس ولا غيره، وفلان يكافح الأمور : أى يباشرها بنفسه (ومقاساة)

شَدِيدَةٍ مِنْ نفسِهِ ، وَالشَّأْنُ كُلُّهُ فى هٰذِهِ ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلى قوْلِهِ سُبْحَانَهُ عزّ مِنْ قَائِلٍ : « تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الْأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا » عَلّقَ الحكْمَ بِنَفْىِ الْإِرَادَةِ دُونَ الطّلَبِ وَالْفِعْلِ المُرَادِ ، وَقوْلِهِ سُبْحَانَهُ : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَا لَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » وقوْلِهِ تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيها مَا نَشاءُ » وقوْلِهِ : « وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَها سَعْيَها الآية » أَمَا تَرَى الْإِشارَةَ كُلَّهَا إِلَى الْإِرادَةِ فَأَمْرُهَا هُوَ الْمُهِمُّ إِذَنْ ، لٰكِنِ الْعَبْدُ إِذَا وَاظَبَ وَاسْتَقامَ عَلَى الْأَوَّلَيْنِ، أَعْنِى التَّفْرِيقَ

أى مكابدة (شديدة من نفسه) . وفى المختار : قاسى الأمر : كابده انتهى . وأيضا فيه كابد الأمر قاسى شدته (والشأن) أى شأن الزهد (كله فى هذه) أى الإرادة : أى تركها بالقلب (ألم تسمع إلي قوله سبحانه) أى تنزيها له عما لا يليق به ، وتعالت عظمته (عز من قائل) بيان للضمير الذى فى قوله عز ، أى عز الله من قائل : أى غلب الله الذى هو القائل على جميع القائلين . قال: بعضهم فيه وجهان : الأول أن من زائدة ، وقائل حال من فاعل عز ، أى عز قائلا . والثانى أن من زائدة ، وقائل تميز : أى عز من جهة القائلية ، وهو محول ، وأصله حينئذ عز قائليته، لأن التميز فاعل فى المعنى ، فهو يرفع الإبهام عن النسبة ، كذا فى سراج السالكين (تلك الدار الآخرة) أى الجنة (نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض) بالبغى (ولافسادا) بعمل المعاصى . قال المنصف (علق) سبحانه وتعالى (الحكم) وهو الجعل المذكور (بنفى الإرادة) للعلو والفساد (دون الطلب والفعل المراد ، و) ألم تسمع أيضا إلى (قوله سبحانه : من كان يريد) بعمله (حرث الآخرة) أى كسبها وهو الثواب (نزد له فى حرثه) بالتضعيف فيه الحسنة إلي عشر وأ كثر.قال الزبيدى : معنى نزد له فى حرثه ، أى لا نحاسبه بما نعطيه منها بعد أن لا يريدها وأن لا يكون من همه ، فما أدخل عليه منها يخرج منه العبد من غير محاسبة ، فهذا مجاز الدنيا لأن الرزق لايزاد فيه ذرة على ما قسم له أول مرة، فجعل ذلك له مجعل المجازاة على زهده فيها وجرى مجرى المكافأة لخروج همه منها (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها) بلا تضعيف ما قسم له (وما له فى الآخرة من نصيب) أى حظ (و) إلي (قوله تعالى : من كان يريد) بعمله (العاجلة) أى الدنيا (عجلنا له فيها ما نشاء) لا ما يشاء (و) إلى (قوله) تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) أى عمل عملها اللائق بها (الآية) أى اقرأ بقية الآية وهى قوله «وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا» (أما ترى الإشارة كلها إلى الإرادة ، فأمرها هو المهمّ إذن) أى حين وجدت الإشارة (لكن العبد إذا واظب واستقام) أى طلب الاستقامة (على الأولين : أعنى) بهما (التفريق) لما عنده

وَالتَّرْكَ فَمَأْمُولٌ مِنْ فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوَفِّقَهُ لِدَفْعِ هٰذِهِ الْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ عَنْ قَلْبِهِ ، فَإِنَّهُ الْمُتَفَضِّلُ الْكَرِيمُ عَزَّ وَجَلَّ . ثُمَّ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى التَّرْكِ وَالتَّفْرِيقِ وَيُهَوِّنُ عَلَيْكَ ذٰلِكَ ذِكْرُ آفَاتِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا ،

من الدنيا (والترك) أى ترك طلب المفقود منها (فمأمول) أى فهو مرجوّ (من فضل الله سبحانه أن يوفقه لدفع هذه الإرادة) للدّنيا (والاختيار) لها (عن قلبه فإنه) تعالى (المتفضل) على عباده (الكريم) أى ذو الإعطاء ، وقيل ذو القدرة التامة على الإعطاء ، فعلى الأوّل يكون الكرم صفة فعل وهى الإعطاء ، وعلى الثانى صفة ذات : وهى القدرة على الإعطاء (عز) ربنا عن الشركاء (وجلّ) عن الأغراض وعن الأعوان (ثم الذى يبعث) أى يحمل (على الترك) أى ترك الطلب (والتفريق) للمجموع (ويهوّن عليك ذلك) أى المذكور من الترك والتفريق هو (ذكر آفات الدنيا وعيوبها) وهوانها وذمّها ، فقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها ، قال : والذى نفسى بيده للدّنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » قال العراقي : رواه ابن ماجه والحاكم ، وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد . وقال صلي الله عليه وسلم » الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » قال العراقى : رواه مسلم من حديث أبى هريرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » . قال العراقي : رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة . وقال صلي الله عليه وسلم « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور» قال العراقى : رواه بن أبى الدنيا فى كتاب [ذمّ الدنيا] من حديث أبى جعفر مرسلا وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بنى إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت ، تاهوا فى الحلية والنساء والطيب والثياب » . رواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن مرسلا . وقال موسى بن يسار : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا ، وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها ، أى نظر رضا ، وإلا فهو ينظر إليها نظر تدبير ، ولولا ذلك لاضمحلت » . رواه بن أبى الدنيا فى ذم الدنيا ، وقال عيسى عليه السلام « ياطالب الدنيا لتبر بها تركك الدنيا أبر » . أخرجه بن أبى الدنيا « وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى لا تركنن إلى حب الدنيا فلن تأتينى بكبيرة أشد عليك منها » أخرجه صاحب الحلية من طريق سفيان عن منصور بن المعتمر عن مجاهد عن كعب . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام « ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها ويأمنها وتغره ، ويثق بها وتخذله ، ويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يوعدون ، ويل لمن الدنيا همه ، والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه » أخرجه ابن أبى الدنيا

وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ الْقَوْلَ فِى ذٰلِكَ فَمِنْهُ .

وقيل « أوحى الله إلى موسى عليه السلام : ياموسى مالك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هى إلا لعامل يعمل فيها ، فنعمت الدار هى ، يا موسى إنى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا ، وعلي الجملة فالأخبار فى هذا الباب أكثر من أن تحصى ، وأبعد من أن تستقصى ، وفيما أشرنا إليه كفاية ، وعبرة لمن يعتبر وتذكرة لمن يتذكر ، وما يتذكر إلا من ينيب (وقد أكثر الناس) أي العلماء من إطلاق العام وإرادة الخاص (القول فى ذلك) أى في ذكر آفات الدنيا وعيوبها (فمنه) قول يحي ابن معاذ « الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئا ، فيجىء فى طلبه فيأخذك » أخرجه ابن أبى الدنيا ، ومنه قول الفضيل بن عياض رحمه الله : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقي ، لكان ينبغى لنا أن نختار خزفا يبقي علي ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقي ؟ . أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وقول أبى الدرداء رضي الله عنه : من هوان الدنيا على الله أن لايعصى إلا فيها ، ولا ينال ماعنده إلا بتركها . أخرجه ابن أبى الدنيا . وقول بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئا فليصبر على معاشرة الكلاب ، وفي هذا المعنى قال الشافعى رحمه الله تعالى :

وما هى إلا جيفه مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها

ومن هنا يؤخذ القول المشهور على الألسنة : الدنيا جيفة وطلابها كلاب . وفى القوت: ولقد أشهد ذلك بعض المكاشفين فقال : رأيت الدنيا في صورة جيفة ، ورأيت إبليس فى صورة كلب وهو جاثم عليها ، ومناد ينادى من فوق : أنت كلب من كلابي ، وهذه جيفة من خلقي ، ولقد جعلتها نصيبك فمن نازعك شيئا منها فقد سلطتك عليه ، ومن ذلك قول بشر بن الحارث : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . نقله صاحب القوت ، وقول الحسن البصرى : لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه ، وقول أبى سليمان الدارانى : لايصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة ، وقول أبى حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة وإنك تجد الرجل يشغل نفسه بهم غيره حتى لهو أشد اهتماما من صاحب الهم بهم نفسه هكذا رواه صاحب الحلية ، وقول داود الطائى : ياابن آدم فرحت ببلوغ أملك وإنما بلغته بانقضاء أجلك ، ثم سوفت بعملك كأن منفعته لغيرك . وقول وهب بن منبه ، من فرح قلبه بشىء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب ، رواه أبو نعيم فى الحلية ، وقول حكيم من الحكماء لما قيل له الدنيا لمن هى ؟ قال لمن تركها ، فقيل الآخرة لمن هى؟ فقال لمن طلبها ، وقول أبى القاسم الجنيد : كان الشافعي رحمه الله من المؤيدين الناطقين بلسان

قَوْلُ بَعْضِهِمْ : تَرَكْتُ الدُّنْيَا لِقِلَّةِ غَنَائِهَا وَكَثْرَةِ عَنَائِهَا ، وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا وَخِسَّةِ شُرَكَائِهَا . قَالَ شَيْخِي الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

الحق في الدنيا ، وعظ أخا له في الله وخوفه بالله فقال ياأخي إن الدنيا دحض مذلة ودار مذلة عمرانها إلى الحرب صائر وساكنها إلى القبور زائر شملها على الفرقة مدقوف وغناها إلي الفقر مصروف الإكثار فيها إعسار ، والاعسار فيها يسار فافزع إلي الله وأرض برزق الله لاتتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك ، فإن عيشك فيء زائل وجدار مائل ، أكثر من عملك ،وأقصر من أملك . وقول يحي بن معاذ : الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لها يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها . أخرجه أبو نعيم في الحلية ، وقول بكر بن عبد الله : من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفيء النار بالتبن . أخرجه ابن أبي الدنيا ، وقول حكيم : الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها ، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها . أخرجه ابن أبي الدنيا . وقول بعض الحكماء : إنك لن تصبح في شيء في الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك ، وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم فلا تهالك في أكلة ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار، أخرجه ابن أبي الدنيا . وقول بعض الناس لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال يخلق الأبدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويبعد الأمنية قال فما حاله أهله ؟ قال من ظفر به تعب ومن فاته نصب ، وقد قيل في معنى ذلك :

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره   فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة   وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقول بعض بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إنا بنعمة زائلة ستزول قريبا ، أو بلية نازلة ستنزل قريبا ، أو منية قاضية . وقال بعضهم : من عيب الدنيا أنها لاتعطى أحدا مايستحق ، لكنها إما أن تزيد فوق استحقاقه وإما أن تنقص من استحقاقه . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر مما طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر منه ، وليس لهذا غاية ، ولا لهذا غاية . أخرجه أبو نعيم في الحلية ، ومما ذكر (قول بعضهم) وهو يحي بن معاذ الرازي رحمه الله كما قاله ابن علوى الحداد في رسالته (تركت الدنيا لقلة غنائها) بالفتح والمد: أى نفعها (وكثرة عنائها) بالفتح والمد : أى تعبها ، وبين الغناء والعناء الجناس المصحف ، وهو اختلاف الحروف في النقط . قال في عقود الجمان :

في النقط إذ يوجد فالمصحف   أو حركات فهو المحرف

(وسرعة فنائها وخسة شركائها ، قال شيخي الإمام رحمه الله) وهو أبو بكر الوراق رحمه الله

لـكِنْ يَجِيءُ مِنْ هٰذَا رَائِحَةُ الرَّغْبَةِ الْفَائِحَةُ لِأَنَّ مَنْ شَكَا فِرَاقَ أَحَدٍ أَحَبَّ وِصَالَهُ، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِمَكَانِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ أَحَبَّ لَوِ انْفَرَدَ بِهِ ، فَالْقَوْلُ الْبَالِغُ فِيهِ مَا قَالَهُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللّٰهُ تعالى : إِنَّ الدُّنْيَا عَدُوُّ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنْتَ مُحِبُّهُ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا أَبْغَضَ عَدُوَّهُ ، قَالَ : وَلِأَنَّهَا فِي أَصْلِهَا وَسِخَةٌ جِيفَةٌ ، أَلَا تَرَى أَنَّ آخِرَهَا إِلَى الْقَذَرِ وَالْفَسَادِ وَالتَّلَاشِي وَالِاضْمِحْلَالِ وَالنَّفَادِ ، لـكِنَّهَا جِيفَةٌ ضُمِّخَتْ بِطِيبٍ وَطُوِيَتْ بِزِينَةٍ فَاغْتَرَّ بِظَاهِرِهَا الْغَافِلُونَ ،

كما فى سراج السالكين (لـكن يجيء من هذا) أى الذى ذكره بعضهم (رائحة الرغبة الفائحة) أى المنتشرة ريحها ، وعلله رحمه الله بقوله (لأن من شكا فراق أحد أحب وصاله) أى وكره فراقه (ومن ترك شيئا لمكان الشركاء فيه أحب) أنه (لو انفرد به) ولم يشاركه فيه غيره . قال المصنف (فالقول البالغ) أى الكامل (فيه) أى فى ذكر آفات الدنيا الذى يبعث على الترك والتفريق (ماقاله شيخنا) وهو أبو بكر الطوسى (رحمه الله تعالى : إن الدنيا عدو الله عزّ وجل وأنت محبه ، ومن أحب أحدا أبغض عدوه) أي عدو ذلك الأحد ، جعلنا الله من المبغضين للدنيا والمحبين للآخرة (قال) شيخنا (ولأنها) أي الدنيا عطف على قوله إن الدنيا عطفا تلقينيا وضابطه أن يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بقال أو قيل ونحوهما كما يقال سأكرمك فتقول : وزيدا : أي وتكرم زيدا ، وتريد تلقينه ذلك ، وفى جواز العطف التلقيني خلاف والجمهور على المنع ، وأجازه بعضهم كما فى حاشية الشهاب على البيضاوى ، وعبارته ، وقد ذكر هذه المسئلة الأسنوي وغيره فى أصوله فقالوا : هل يتركب الكلام من كلمات متكلمين ؟ أجازه بعضهم ، ومنعه الجمهور ، وإلا لزم أن من قال امرأتى فقال آخر طالق يقع به الطلاق . ولا قائل به ، وأولوا كلام من قال بصحته بأن كلا منهما يضمر فى كلامه ما ذكره الآخر بقرينة المقام ، ولـكن يعد كلاما واحدا على التسامح ، ثم إنهم ذكروا أن التلقين ورد بالواو وغيرها من الحروف وأنه وقع فى الاستثناء كما فى الحديث « إن الله حرم شجر الحرم قالوا إلا الإذخر يا رسول الله » ذكره الـكرمانى فى شرح البخارى . وقال : إنه استثناء تلقيني ، كذا ذكرا بعض المحققين (فى أصلها وسخة جيفة) بكسر الجيم : أى بمنزلتها والجيفة جثة الميت المنتنة (ألا ترى أن آخرها) صائر (إلى القذر) ضد النظافة (والفساد والتلاشى) أى البطلان والهلاك (والاضمحلال) بكسر الهمزة . أى الزوال والذهاب (والنفاد) فى المختار: نفد الشيء نفادا : فنى (لـكنها) أى الدنيا (ضمخت) أى تلطخت وتلوثت (بطيب وطويت) بالبناء للمفعول : أى أخفيت . وفى نسخة : وطريت : أى حددث ، وفى أخرى : وطليت (بزينة) أى ما يتزين به (فاغتر) أى وقع في الاغترار والانخداع (بظاهرها) لحسنها وبهجتها (الغافلون) أى الجاهلون بعاقبتها ، لأن الدنيا كما قال ابن عطاء الله وغـيره : ظاهرها غرة ، وباطنها عبرة

وَزَهِدَ فِيهَا الْعَاقِلُونَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حُكْمُ الزُّهْدِ فِى الدُّنْيَا ، أَهُوَ فَرْضٌ أَمْ نَفْلٌ ؟ فَاعْلَمْ : أَنَّ الزُّهْدَ يَقَعُ عِنْدَنَا فِى الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، فَهُوَ فِى الْحَرَامِ فَرْضٌ ، وَفِى الْحَلَالِ نَفْلٌ ،

لقبحها وخستها فهى من حيث ظاهرها محبوبة حلوة خضرة ، وبالنظر إلى باطنها جيفة قذرة ، فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغتر بها فتهلك صاحبها والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنة فيعتبر بها فيسلم من شرها . وقد روى فى الكتب السالفة : أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام : ياروح الله صف لنا أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقال عليه السلام : هم الذين بهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وبهم علم الكتاب وبه علموا ، وبهم قام الكتاب وبه قاموا نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وعاينوا آجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم فصار ذكرهم فيها قوتا وفرحهم فيها حزنا ، ما عارضهم منها رفضوه وماأشرف لهم بغيرالحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها وخربت فيها بينهم فلم يعمروها ، وماتت فى صدورهم فلم يحيوها بعد موتها وبنوا بها آخرتهم : أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة : يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ويضيئون به : لهم الخبر العجب وعندهم الخبر العجيب . وكان بعض الأولياء يقول : ما سطع لى زينة من زخرف الدنيا إلا كشف لى باطنه فظهر لى غرور عنها . قال أبوطالب المكى : فهذه عناية من الله تعالى لمن وليه من أوليائه المقربين منه ، فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره ، ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ، ومن كشف له بعاقبتها لم يستهوه زخرفها . وكان عيسى عليه السلام يقول: ويلكم علماء السوء مثلكم مثل قناة حش ظاهرها جص وباطنها نتن ، والأدلة فى هذا الباب أكثر من أن تحصى ، وفى هذا القدر الذى ذكرناه كفاية لأولى الألباب (وزهد فيها) أى الدنيا (العاقلون) أى العالمون بباطنها (فإن قيل فما حكم الزهد فى الدنيا أهوفرض أم نفل ؟ فاعلم أن الزهد يقع عندنا فى الحلال والحرام فهو فى الحرام فرض ، وفى الحلال نفل) وزاد إبراهيم ابن أدهم : السلامة وهو الزهد فى الشبهات إذ قيل لمالك بن أنس : ما الزهد ؟ قال التقوى . قال العلامة الزبيدى : فأصل التقوى اتقاء الشرك ، ثم بعده اتقاء المعاصى والسيئات ، ثم بعده اتقاء الشبهات ثم يدع بعده الفضلات كذلك . وقال أبو حفص : التقوى فى الحلال المحض لاغير . وقال الدارانى : الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف الرضا : وقال ابن عطاء : للتقوى ظاهر وباطن فظاهره محافظة الحدود وباطنه النية والإخلاص ، وكان سهل يقول : أزهد الناس فى الدنيا أصفاهم مطعما : وقال أيضا أقصى مقام من الورع أو فى مقام من الزهد ، وتحقيق ذلك أن الدنيا هى نصيب كل عبد من الهوى وما دنا من قلبه من الشهوات فمن زهد فى نصيبه وملكه من هواه المذموم ، فهذا هو الزهد المفترض ، ومن زهد فى نصيبه من المباح وهو فضول الحاجات من كل شىء فهذا

ثُمَّ مَنْزِلَةُ هٰذَا الْحَرَامِ لِمُسْتَقِيمِى الطّاعَاتِ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ الْمُسْتَقْذَرَةِ لا يَقْدُمُ عَلَيْهَا إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ بِمِقْدَارِ دَفْعِ الضَّرَرِ . وَأَمَّا الزُّهْدُ فِى الْحَلاَلِ فَإِنَّمَا يَكُونُ فِى مَنْزِلَةِ الأَبْدَالِ يَكُونُ عِنْدَهُمُ الْحَلاَلُ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ لاَ يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا إِلاَّ قَدْرًا لاَ بُدَّ مِنْهُ ،

هو الزهد المفضل يرجع ذلك إلى حظوظ جوارحه التى هى أبواب الدنيا منه وطرقها إليه فالزهد فى محرماتها زهد المسلمين به يحسن إسلامهم : والزهد فى شبهاتها زهد الورعين به يكمل إيمانهم والزهد فى حلالها من فضل حاجات النفس زهد الزاهدين ، به يصفو يقينهم . وفى حديث عمرو ابن ميمون عن الزبير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يا زبير اجهد نفسك عند نزول الشهوات والشبهات بالورع الصادق ، وعن محارم الله وادخل الجنة بغير حساب » . وقال سلام بن أبى مطيع الزهد على ثلاثة وجوه : الأول أن يخلص العمل لله والقول فلا يريد بشىء منه الدنيا ولا ما عند الخلق . والثانى: ترك ما لا يطلح القلب والدين . والثالث : الحلال أن يزهد فى فضله وهذا تطوع . قال القشيرى : اختلف الناس فى الزهد فمنهم من قال : الزهد فى الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى فإذا أنعم الله على عبد بمال من حلال وتعبده بالشكر عليه فتركه باختياره ويحق لا يقدم على إمساكه بحق إذنه ، ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب وفى الحلال فضيلة ، فإن إقلال المال والعبد صابر فى حال راض بما قسم الله له قانع بما يعطيه أتم من توسعه وتبسطه فى الدنيا . ومنهم من قال : إذ انفق ماله فى الطاعة وعلم من حاله الصبر وترك التعرض لما ينهاه الشرع عنه فى حال التيسر فحينئذ يكون زهده فى المال الحلال أتم منه فى الحرام ، ومنهم من قال ينبغى أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه ولا طلب الفضول فما يحتاج إليه ويراعى القسمة فإن رزقه الله مالا من حلال شكره وان وقفه الله على حد الكفاف لم يتكلف فى طلب ما هو فضول المال ، فالصبر أحسن بصاحب الفقر ، والشكر أليق بصاحب المال . وقال صاحب القوت : وكان الشاميون من العلماء يقولون : أليس الزهادة فى الدنيا تحريم المال ولا إضاعة المال ولكن أن يكون ذامك ومادحك سواء ، وتكون حالك فى المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء وتكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يد غيرك ، فهذا مقام التوكل وحال الرضا (ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمى الطاعات بمنزلة الميتة المستقذرة لا يقدم عليها إلا عند) حال (الضرورة بمقدار دفع الضرر)وهو قدر سد الرمق (وأما الزهد فى الحلال فإنما يكون فى منزلة الأبدال) فى القاموس : الأبدال : قوم يقيم بهم الله عز وجل الأرض ، وهم سبعون ، أربعون بالشام . وثلاثون بغيرها لا يموت أحدهم إلا قام مقامه آخر من سائر الناس . وقال ابن دريد : الواحد بديل (يكون عندهم الحلال بمنزلة الميتة) المستقذرة (لايتناولون منها إلا قدرا لابد منه) وهو قدر الضرورة والحاجة عملا بقوله صلى الله عليه وسلم «الدنيا جيفة قذرة» ولم يأخذوا منها عليهم الرحمة والرضوان إلا شبه زاد المسافر المستعجل وقوله صلى الله عليه وسلم « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » أى فلا تحصل من الدنيا

وَالْحَرَامُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ لاَ يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ قصدُ تَنَاوُلِهَا بِحَالٍ، وَهٰذَا مَعْنَى الْبُرُودَةِ عَلَى الْقَلْبِ بِأَنْ يَقْطَعَ هِمَّتَهُ عَنْهَا وَيَسْتَقْذِرَهَا وَيَسْتَنْكِرَهَا جِدًّا فَلاَ يَبْقَى لَهَا فِى قَلْبِهِ اخْتِيَارٌ وَلاَ إِرَادَةٌ .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَصِيرَ الدُّنْيَا فِى شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا الْعَجِيبَةِ الْمَطْلُوبَةِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ أَوْ بِمَنْزِلَةِ الْجِيفَةِ الْمُسْتَقْذَرَةِ الْمُسْتَحِيلَةِ، وَالْبِنْيَةُ بِنْيَتُنَا وَالطَّبْعُ طَبْعُنَا ؟ فَاعْلَمْ : أَنَّ مَنْ وُفِّقَ التَّوْفِيقَ الْخَاصَّ وَعَلِمَ آفَاتِهَا

إلا الشيء القليل بقدر الضرورة لأن أن يكون لك أسوة بالأنبياء خيرة الله من خلقه (والحرام عندهم) أى هؤلاء الأبدال (بمنزلة النار لايخطر ببالهم) أى بقلبهم (قصد تناولها بحال) من الأحوال يعنى عند الضرورة أو غير الضرورة (وهذا) أى عدم الخطر على قصد تناولها (معنى البرودة على القلب) وذلك (بأن يقطع) أى العبد (همته عنها) أى عن الدنيا (ويستقذرها ويستنكرها جدا) بالكسر : أى غاية ومبالغة (فلا يبقى لها فى قلبه اختيار ولا إرادة) ولا التفات إليها أصلا بل وجودها كعدمها (فإن قلت : كيف يمكن أن تصير الدنيا فى شهواتها) الحبيبة (ولذاتها العجيبة المطلوبة عند الإنسان) الغافل عن عاقبة أمره (بمنزلة النار) خبر تصير (أو بمنزلة الجيفة المستقذرة المستحيلة) أى المتغيرة (والبنية) أى الخلقة (بنيتنا) والحال أنها ضعيفة (والطبع طبعنا) وهو شديد الحرص على الدنيا (فاعلم أن من وفق التوفيق الخاص وعلم) علما يقينيا (آفاتها) أى الدنيا وهى كثيرة : منها أن الدنيا تمنع إخلاص العبادة ، وأنها لايفى مرجوها بمخوفها ، ولله در القائل :

وليس يفى مرجوها بمخوفها ومكروهها إما تأملت راجح

ومنها أن الدنيا غدارة خداعة قد تزخرفت للناس بغرورها وفتنتهم بأمانيها وتزينت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية عند إهدائها لزوجها : العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثرت بوائقها وذمها خالقها ، فهو أعرف بها منا ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، وحيها يموت ، وخيرها يفوت . وقال أبو نعيم فى الحلية : حدثنا أبو حامد بن جبلة حدثنا محمد بن إسحاق وحدثنا محمد بن الصباح حدثنا سفيان قال : قال أبو حازم اشتدت مؤنة الدنيا والدين ، قالوا يا أبا حازم : هذا الدين فكيف الدنيا ؟ قال لأنك لاتمد يديك إلى شيء إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه . قال حجة الإسلام : فأما مؤنة الآخرة فانك لاتجد عليها أعوانا ، وقال سعد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذى يلعب بوجهه وهو لايشعر . وقال الحسن البصرى رحمه الله : والله لقد عبدت

وَقَدْرَهَا فِى أَصْلِهَا فَتَصِيرُ عِنْدَهُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يَتَعَجَّبُ مِنْ هٰذَا الرَّاغِبُونَ الْعُمْيَانُ عَنْ عُيُوبِ الدُّنْيَا وَآفَاتِهَا ، الْمُغْتَرُّونَ بِظَاهِرِهَا وَزِينَتِهَا . وَسَأَضْرِبُ لَكَ مَثَلاً لِذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا يُمَثَّلُ بِإِنْسَانٍ صَنَعَ خَبِيصاً بِشَرَائِطِهِ مِنَ السُّكَّرِ وَغَيْرِهِ ثُمَّ طَرَحَ فِيهِ قِطْعَةَ سُمٍّ قَاتِلٍ ، وَأَبْصَرَ ذَلِكَ رَجُلٌ ، وَلَمْ يُبْصِرْهُ آخَرُ ، وَوَضَعَ الْخَبِيصَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا مُزَيَّناً مُزَخْرَفاً ، فَالرَّجُلُ الَّذِى أَبْصَرَ مَا جُعِلَ ،

بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا فأوقعتهم فى الشرك ، والأدلة فى ذم الدنيا وآفاتها لا تحصى ، وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب (وقدرها) أى وعلم الموفق قذر الدنيا وخبثها (فى أصلها فتصير عنده كذلك) أى بمنزلة النار والجيفة (وإنما يتعجب من هذا) أى من أن تكون بمنزلة النار أو بمنزلة الجيفة (الراغبون) أى المقبلون على الدنيا والمتوجهون إليها (العميان) جمع الأعمى ، والمراد عمى القلوب (عن عيوب الدنيا وآفاتها المغترون) أى المخدوعون (بظاهرها وزينتها) لأن أوائلها تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها ، وهيهات فإن الخوض فى الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وبهذا يتبين أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها فاذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم فى الاغترار بظاهرها . قال أبو نصر العلاء بن زياد العدوي : رأيت فى النوم عجوزا كبيرة السن يابسة الجلد عليها من كل زينة الدنيا من الملابس الفاخرة والحلى والناس عكوف عليها قائمون لديها متعجبون ينظرون إليها ، ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها ، وقلت لها : ويلك من أنت ؟ قالت : أما تعرفنى ؟ فقلت لا أدرى من أنت . قالت : إنى أنا الدنيا ، فقلت : أعوذ بالله من شرك ، قالت : فإن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم . وقال أبو بكر بن عياش : رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها ، وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون ، فلما كانت بحذائى أقبلت على ، فقالت : لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء ، ثم بكى أبو بكر وقال رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد . قال المزى : وهو من مشهورى مشايخ الكوفة ومن قرائهم وقد دخل بغداد ونشر بها العلم وروى عنه أكابر الشيوخ ، مات سنة ٢٣٣ عن ست وسبعين سنة (وسأضرب) أى سأبين (لك مثلا لذلك) أى لصيرورة الدنيا بمنزلة النار أو الجيفة (فاعلم أن هذا) المذكور من الصيرورة (يمثل بإنسان صنع خبيصا) هو نوع من الحلاوات تعمله العرب من التمر والسمن والخضر من الأرز والدبس وهو مأخوذ من الخبص بمعنى الخلط (بشرائطه من السكر وغيره) كالتمر (ثم طرح) ذلك الإنسان (فيه) أي فى الخبيص (قطعة سم قاتل وأبصر ذلك) أى السم (رجل ولم يبصره) رجل (آخر ووضع) الإنسان (الخبيص بين أيديهما) أى الرجلين (مزينا مزخرفا) هما بمعنى واحد كما فى المختار (فالرجل الذى أبصر ما جعل) بالبناء للمفعول

فِيهِ مِنَ السُّمِّ يَكُونُ زَاهِدًا فِى ذٰلِكَ الْخَبِيصِ لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْهُ بِحَالٍ أَلْبَتَّةَ وَيَكُونُ ذٰلِكَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ النَّارِ بَلْ أَصْعَبُ لِمَكَانِ مَا يَعْلَمُ مِنْ آفَاتِهِ فَلَا يَغْتَرُّ بِظَاهِرِهِ وَزِينَتِهِ. وَأَمَّا الرَّجُلُ الْآخَرُ الَّذِى لَمْ يُبْصِرْ مَا جُعِلَ فِيهِ، اغْتَرَّ بِظَاهِرِهِ الْمُزَخْرَفِ وَحَرَصَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ وَأَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ صَاحِبِهِ الزَّاهِدِ فِيهِ وَرُبَّمَا يُسَفِّهُهُ فِى ذٰلِكَ فَهٰذَا مَثَلُ حَرَامِ الدُّنْيَا مَعَ الْبُصَرَاءِ الْمُسْتَقِيمِينَ وَالْجُهَّالِ الرَّاغِبِينَ فَإِنْ لَمْ يُطْرَحْ فِيهِ السُّمُّ وَلٰكِنْ بَصَقَ فِيهِ أَوِ امْتَخَطَ ثُمَّ ضَمَّخَهُ وَزَيَّنَهُ، فَالرَّجُلُ الَّذِى شَاهَدَ مِنْهُ ذٰلِكَ الْفِعْلَ يَكُونُ مُسْتَقْذِرًا لِذٰلِكَ الْخَبِيصِ نَافِرًا عَنْهُ لَا يَكَادُ يَقْدُمُ عَلَيْهِ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَالَّذِى لَمْ يُشَاهِدْ ذٰلِكَ فَهُوَ جَاهِلٌ بِمَا فِيهِ،

أى ماجعله الانسان (فيه) أى الخبيص (من السم) القاتل (يكون زاهـدا) أى مجتنبا (فى ذلك الخبيص) الموضوع بين يديه (لايخطر بباله) أى بقلبه (أن يتناول منه بحال) من الأحوال (ألبتة) أى قطعا (ويكون ذلك) الخبيص (عنده بمنزلة النار بل أصعب) منها (لمكان مايعلم من آفاته) المهلكات (فلا يغتر بظاهره) المزين (وزينته ، وأما الرجل الآخر الذي لم يبصر ماجعل) من السم المهلك (فيه) أى الخبيص (اغتر) أى انخدع (بظاهره المزخرف) أىالمزين (وحرص) بفتح الراء من باب ضرب : أى رغب رغبة مذمومة (عليه) أى أكل ذلك الخبيص (ولم يصبر عنه) أى عن تناوله (وأخذ) أى شرع الآخر (يتعجب من صاحبه) الذى أبصر ما فيه (الزاهد فيه وربما يسفه) بفتح الفاء من باب تعب : أى يجهل الحارص صاحبه (فى ذلك) أى زهده فى ذلك الخبيص ويقول له : أنت السفيه ، ألا تعرف أن هذا طيب لذيذ ، والحال أنه جاهل مغرور بظاهر الخبيص ولم يعرف باطنه (فهذا) المذكور من التمثيل (مثل حرام الدنيا مع البصراء) لحقيقتها (المستقيمين) فى اجتنابها (والجهال الراغبين) فى الدنيا المنهمكين فى تحصيلها الغافلين عن عاقبة أمرها (فإن لم يطرح) بالبناء للمفعول : أى لم يجعل ولم يرم (فيه) الخبيص (السم ولـكن بصق) فى المختار : البصاق : البزاق ، وقد بصق من باب نصر : أى بصق الصانع لذلك الخبيص (فيه أو امتخط) أى أخرج المخاط من أنفه ، والمخاط : مايسيل من الأنف (ثم ضمخه) أى لطخه (وزينه) بظاهره (فالرجل الذى شاهد) أى أبصر (منه) أى من صانع الخبيص (ذلك الفعل) وهو البصق أو الامتخاط (يكون مستقذرا) أى مستخبثا (لذلك الخبيص نافرا) أى متجافيا ومتباعدا (عنه لايكاد يقدم عليه) أى الخبيص (إلا عند الضرورة وشدة الحاجة إليه و) أما الرجل (الذى لم يشاهد ذلك) الفعل (فهو جاهل) أى غير عالم (بما فيه) أى فى الخبيص

مُغْتَرٌّ بِظَاهِرِهِ حَرِيصٌ عَلَيْهِ مُكِبٌّ مُعْجَبٌ مُحِبٌّ فَهٰذَا مَثَلُ حَلَالِ الدُّنْيَا مَعَ الْفَرِيقَيْنِ : أَهْلِ الْبَصِيرَةِ وَالْاسْتِقَامَةِ ، وَأَهْلِ الرَّغْبَةِ وَالْغَفْلَةِ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ حَالُ الرَّجُلَيْنِ مَعَ تَسَاوِيهِمَا فِى الطَّبْعِ وَالْبِنْيَةِ لِبَصَارَةٍ وَعِلْمٍ كَانَ لِأَحَدِهِمَا ، وَجَهْلٍ وَجفاء كَانَ لِلْآخَرِ ، فَلَوْ عَلِمَ الرَّاغِبُ وَأَبْصَرَ مَا عَلِمَهُ الزَّاهِدُ لَكَانَ زَاهِدًا مِثْلَهُ ، وَلَوْ جَهِلَ الزَّاهِدُ وَعَمِيَ عَمَّا عَمِيَ عَنْهُ الرَّاغِبُ لَكَانَ رَاغِبًا مِثْلَهُ ، فَعَلِمْتُ بِذٰلِكَ أَنَّ هٰذَا التَّمْيِيزَ لِمَكَانِ الْبَصَائِرِ دُونَ الطَّبَائِعِ ،وَهٰذَا أَصْلٌ مُفِيدٌ وَكَلَامٌ بَيِّنٌ سَدِيدٌ اعْتَرَفَ بِهِ مَنْ عَقَلَ وَأَنْصَفَ ، وَاللّٰهُ تعالى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ

من البصاق والمخاط (مغتر بظاهره حريص عليه مكب) أي مقبل (معجب محب ، فهذا) أى المذكور من التمثيل الثانى (مثل حلال الدنيا مع الفريقين) : الأول أهل البصيرة والاستقامة . (و) الثانى (أهل الرغبة) فى الدنيا (والغفلة) عن عاقبة أمرها (وإنما اختلف حال الرجلين) أى أهل البصيرة وأهل الرغبة (مع تساويهما فى الطبع والبنية) بكسر الباء : أى الخلقة (لبصارة وعلم كان) كل منهما (لأحدهما) أى الرجلين وهو أهل البصيرة والاستقامة (وجهل وجفاء) أى غلظة وفظاظة (كان للآخر) وهو أهل الرغبة والغفلة (فلو علم الراغب وأبصر) فى الدنيا مثل (ما علمه الزاهد) من آفاتها التي لا تحصي (لكان) الراغب (زاهدا مثله ، ولو جهل الزاهد وعمى عما عمى عنه الراغب) من الآفات (لكان) الزاهد الجاهل (راغبا مثله ، فعلمت بذلك) أى بسبب اختلافهما المذكور وهو العلم والجهل (أن هذا التميز) بين حالها (لمكان البصائر دون الطبائع ، وهذا) المذكور من المثال (أصل مفيد وكلام سديد) أى صواب (اعترف) أى أقرّ (به) أى بهذا الأصل (من عقل) وتأمل بالفكر الصافى (وأنصف) أى نظر بعين الإنصاف (والله تعالى ولىّ الهداية) أى متولى الدلالة للعباد على سلوك سبيل الهدى ، فإن الهدى هدى الله فهو مخصوص به تعالى . قال الجمل نقلا عن البيضاوى : الهداية دلالة بلطف ، ولذلك تستعمل فى الخير ، وهداية الله تعالى أنواع لا يحصيها عد ، لكنها تنحصر فى أجناس مترتبة : الأول إفاضة القوى التى بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية : أى العاقلة والحواسّ الباطنة والمشاعر الظاهرة . والثانى نصب الدلائل الفارقة بين الحقّ والباطل والصلاح والفساد . والثالث الهداية بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب . والرابع أن يكشف لقلوبهم السرائر ، ويريهم الأشياء كما هى بالوحى والإلهام والمنامات الصادقة ، وهذا القسم تختص بنيله الأنبياء والأولياء انتهى .قال العلامة الكردى ، وقد يستعمل الهدى فى حقّ البارى بمعنى الدلالة . قال تعالى « وأما ثمود فهديناهم » : أى دللناهم « فاستحبوا العمى على الهدى » . ولو أوصلهم لم يستحبوا العمى على الهدى ؛ والهداية فى حقّ الله تعالى بمعنى الدلالة . قال تعالى « وإنك لتهدى إلى صراط

وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَلَا بُدَّ مِنْ قَدْرٍ مِنَ الدُّنْيَا لِيَكُونَ قِوَامًا لَنَا ، فَكَيْفَ نَزْهَدُ فِيهَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الزُّهْدَ فِي الْفُضُولِ مِمَّا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي قِوَامِ الْبِنْيَةِ فَالْمَقْصُودُ الْقِوَامُ وَالْقُوَّةُ حَتَّى تَعْبُدَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالتَّلَذُّذُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى إِنْ شَاءَ أَقَامَهَا بِشَيْءٍ وَسَبَبٍ وَإِنْ شَاءَ تَعَالَى أَقَامَهَا بِغَيْرِ سَبَبٍ كَالْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ بِشَيْءٍ إِنْ شَاءَ فَبِشَيْءٍ حَاصِلٍ عِنْدَكَ أَوْ بِطَلَبِكَ وَكَسْبِكَ ، وَإِنْ شَاءَ بِشَيْءٍ غَيْرِهِ

مستقيم » أى لتدل إليه . وقال تعالى « إنك لاتهدى من أحببت » : أى لا توصله إنما لك الدلالة ، وقس على ذلك ما يمرّ عليك من معنى الهداية ، كذا ذكره بعض المحققين (والتوفيق) وهو خلق قدرة الطاعة فى العبد مع فعل الطاعة ، لأنها عند الأشعرى العرض القارن للفعل (بفضله) أى ما تفضل به على عباده من إسداء غاية الإحسان إليهم . (فإن قيل : فلا بد لنا من قدر) أى قدر ما يقوّت (من الدنيا ليكون) هذا القدر (قواما) وقوّة (لنا) . قال فى المختار : قوام الأمر ملاكه الذى يقوم به (فكيف نزهد فيها فاعلم أن الزهد فى الفضول) أى يجب فى الفضول كما فى نسخة ، وهو ما زاد على الحاجة كالخيل المسوّمة ، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها ، وهو قادر على رجليه أو على خيل أقلّ منها ، وأصناف الفضول لا تنحصر لكثرتها ، وأجمله المصنف بقوله (مما لا يحتاج إليه فى قوام البنية ، فالمقصود القوام والقوّة حتى تعبد الله سبحانه لا الأكل والشرب والتلذّذ) والتنعم بأنواع المشتهيات ، فإن ذلك شأن السفلة الجاهلين (والله تعالى إن شاء أقامها) أى البنية (بشىء وسبب) كالأكل والشرب (وإن شاء تعالى أقامها بغير سبب) من المأكولات والمشروبات ، بل بالتسبيح وغيره (كالملائكة عليهم) الصلاة و(السلام) جمع ملك ، وهو جسم لطيف نورانىّ يظهر فى صور مختلفة ، ويقدر على أفعال شاقة لا يقدر عليها البشر ، وهذا على مذهب من ينفى المجرّد ، ويحصر الممكن فى الجوهر والعرض ، وهو رأى أكثر الأشاعرة ؛ وأما من أثبته وهم بعض الأشاعرة : كالغزالى والراغب والحليمى ، وهو قول جميع المحققين من الصوفية ، ويعنون به ممكنا ليس بمتحيز ولا قائم بمتحيز فالملك عندهم مجرّد مخصوص بظهور الخير ودوام الذكر . وتوقف المقترح والفخر فى بعض كتبه فى إثبات المجرّد ، وعلى كلّ حال فالملائكة عند الجميع عباد مكرمون مواظبون على الطاعات لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأل فى الملائكة للجنس أو للعهد فى قوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبىّ » أو عوض من الضمير : أى ملائكته ليطابق الآية ، كذا ذكره العلامة المهدى بن أحمد الفاسى فى شرح الدلائل (ثم إن كان) تعالى أقامها (بشىء إن شاء) ذلك (فبشىء) أى فإما أقامها وقوّاها بشىء (حاصل عندك) من غير طلب وكسب (أو) إما (بطلبك وكسبك ، وإن شاء بشىء غيره)

يُسَيِّبْهُ لَكَ مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِبُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْكَ وَكَسْبٍ كَمَا قَالَ اللهُ تعالى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبْ» فَإِذًا لاَ تَحْتَاجُ بِحَالٍ إلى طلبٍ وَإِرَادَةٍ ، فَإِنْ لَمْ تَقْوَ عَلَى ذٰلِكَ الزُّهْدِ وطَلَبْتَ وَأَرَدْتَ فَانْوِ بِذٰلِكَ الْعُدَّةَ وَالتَّقْوِّيَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، دُونَ الشَّهْوَةِ وَاللَّذَّةِ ، فَإِنَّكَ إِذَا نَوَيْتَ ذٰلِكَ كَانَ الطَّلَبُ وَالْإِرَادَةُ مِنْكَ خَيْرًا وَطلبًا لِلْآخِرَةِ بِالْحَقِيقَةِ لاَ لِلدُّنْيَا وَلاَ يَقْدَحُ فِي زُهْدِكَ وَتَجَرُّدِكَ ، فَاعْلَمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ رَاشِدًا، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

أى غير الطلب والكسب (يسيبه) بضمّ الياء الأولى مع فتح السين وكسر الياء الثانية المشدّدة أى يعطيه الله (لك من حيث لا تحتسب من غير طلب منك وكسب كما قال الله تعالى : ومن يتق الله) أى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي (يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ، فإذا) أى إن كان المقصود القوام والقوّة للبنية لا الأكل والشراب (لاتحتاج بحال إلى طلب وإرادة) للقدر المذكور من الدنيا (فإن لم تقو على ذلك الزهد) لضعفك (وطلبت وأردت فانو بذلك) أى الطلب والإرادة (العدّة) بضم العين : أى الاستعداد والتأهب (والتقوّى) أى طلب القوّة (على عبادة الله سبحانه وتعالى دون) قصد (الشهوة واللذة فإنك إذا نويت ذلك) أى الاستعداد والتقوى على العبادة (كان الطلب والإرادة منك خيرا وطلبا للآخرة بالحقيقة) لأن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه (لا للدنيا ولا يقدح) أى لا يعيب ولا ينقص هذا الطلب (فى زهدك وتجردك) للعبادة . وإن قلت فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ ، فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ، ومن يقض حاجته فقد يستريح بذلك ولكن لايكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلايكون القلب منصرفا إليه كما قاله المصنف فى غيرهذا الكتاب (فاعلم هذه الجملة) التى ذكرناها (راشدا) أى إصابة للصواب (وبالله التوفيق) والعصمة .

[تتمة] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك أوثق بما فى يد الله وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها أو أنها أبقيت لك»رواه الترمذى وقال غريب ضعيف من حديث أبى ذر . ورواه البيهقى فى الزهد كذلك ، ورواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أبى الدرداء . وروى الديلمى من حديث ابن عباس « الزهد فى زمانى هذا فى الدنانير والدراهم وليأتين زمان الزهد فى الناس أنفع لهم من الزهد فى الدنانير والدراهم » . وروى أيضا من حديث أبى هريرة « الزهد أن تحب مايحب خالقك ، وأن تبغض ما يبغض خالقك وأن تتحرج من حلال الدنيا كما تتحرج من حرامها فإن حلالها حساب وحرامها عذاب وأن ترحم جميع المسلمين كما ترحم لنفسك

وأن تتحرج عن الكلام فيما لا يعنيك كما تتحرج من الحرام ، وأن تتحرج من كثرة الأكل كما تتحرج من الميتة التي قد اشتد نتنها ، وأن تتحرج من حطام الدنيا وزينتها كما تتحرج من النار ، وأن تقصر أملك من الدنيا فهذا هو الزهد فى الدنيا » فهذه الأخبار الثلاثة جامعة لحقائق الزهد وذكر العلامة الزبيدى : أن الزهد فى الدنيا على ثلاثة أحوال : رجل قد غلبها موجودة ومفقودة ورجل قد غلبته موجودة ومفقودة ورجل قد غلبها مفقودة وغلبته موجودة ، تفسيره : أن من الناس من قهر هواه وملك نفسه وشهوته وهو قادر عليها وهى موجودة له فذلك أحرى أن يغلب نفسه فيما فقد من الدنيا وغاب عنه وهذا مقام الصديقين . والثانى قد غلبته نفسه وأهواء الهوى وأمالته الشهوات موجودة إذا قدر عليها ومفقودة له بالاهتمام بها والفكر والخواطر فيها والإرادة لها فهذا ساقط لاقط لا مقام ولا وصف ، وهذا حال الجاهلين ونعت الغافلين . والثالث قد غلبته نفسه فى الموجود من الهوى والحاضر من الشهوة فإذا غاب ذلك عنه غلبها فى العدم وملكها عند الفقد وهذا حال المجاهدين وطريق السائرين ونعت المريدين . وقيل ليحي بن معاذ : أيصل العبد إلى درجة يسلم فيها من الذنب ومن الزهد إلى درجة يستغنى فيها عن الدنيا ، فقال : هذا لا يكون لا يستغنى عن الدنيا أحد وإنما وقع التفاضل بين الناس على القليل والكثير ، فأزهدهم فيها أقلهم حظا منها ، كما لا يسلم من الدنيا أحد ولكن أفضلهم أقلهم ذنبا . وكان رحمه الله يقول فى العدل قولا فصلا قال إن زهادكم يأمرونكم بأن يكون الدرهم أول شيء تتركونه من الدنيا وأنا آمركم أن يكون الدرهم آخر شيء تتركونه منها . قيل له لم ذلك ؟ قال لأن الدرهم معلق على شهوة النفس والشهوة معلقة على النفس فترك الدرهم من قبل إزالة الشهوة عن النفس بالسياسة خطأ ودخول فى الطمع لمن عنده الدرهم ووقوع البلاء حتى إذا زالت بحسن السياسة هذه الشهوة عن نفسك ذهب عنك حب الدرهم شئت أم أبيت ضرورة إذ كانت علة حبك له الشهوة والشهوة قد ذهبت وبالدرهم يتم أمر هذه السياسة فلهذا قلت : اجعل الدرهم آخر شى تتركه بعد الفراغ من النفس . واعلم أن إمساك الدرهم على هذا التدبير لا يكون علاقة ولكنه يكون سياسة يصلح به . وكان يقول: راحة الأبدان فى زهد القلوب ومشقة الأبدان فى حرص القلوب . وقال طلبت الدنيا فلم أسترح وطلبت العلو فلم أسترح وطلبت العبادة والعلم فلم أسترح ودخلت فى الزهد واستوطنت الثقة بالله فاسترحت ، وكان يقول : ما دامت شهوة النفس معك فأنت مطية الدنيا وتساق المطية حيث يريد صاحبها لا حيث تريد هى ، وإذا ذهبت الشهوة فالدنيا مطيته يسوقها حيث يريد . وقال بعض أهل المعرفة : إن الله لا يرضى ممن عرفه أن يعلق بشيء دونه فإن فعل ذلك غمه الله ولوعه من ذلك حتى يرجع إليه . ويقال : إن من صح زهده فى الدنيا حتى يستوى عنده ذهبها وحجرها مشى على الماء وفيه قال الشاعر :

لو كان زهدك فى الدنيا كزهدك فى وصلى مشيت بلا شك على الماء

وقال يحي بن معاذ : أولياء الآخرة ثلاثة : قانع ، وزاهد ، وصديق ، فالقانع المحترف الطالب للحلال المنفق على السبيل والسنة النازل عن جناح الرغبة فى طلب الفضول من حطام الدنيا ،

(الْعَائِقُ الثَّانِي : الْخَلْق) ثُمَّ عَلَيكَ وَفَّقَكَ اللهُ وَإِيَّانا لِطَاعَتِهِ بِالتَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ

والزاهد التارك للطلب ومعه شهوته ، فإن أصاب نعيم الدنيا من غير كلفة أكل ونكح ، وإن مع صبر ورضى ، والصديق هو واجد النعيم لا يريده لمزايلة الشهوة إياه . وقال أيضا : ليس بزاهد من استخدم غيره بما يصل هو إلى فعله ، وقد قال أبو سليمان لأحمد بن أبي الحوارى إذ قال : قلت لبعض أصحابنا اسقنى ماء فناولني شربة فقال لى أبو سليمان : رأيت من زهد فى الدنيا يستخدم ويقول اسقنى ماء . وكان يحي بن معاذ يدخل العلم والعبادة في الزهد يجعل الثلاثة كالشيء الواحد لايتم بعضه إلا ببعض ، فقال الزهد والعبادة والعلم مثل الثوب سداه الزهد ولحمته العبادة ونساجه العلم لا يلتحم الثوب بغير هذه الثلاث ، كذا لايلتحم أمر الآخرة إلا بثلاثتها . وكان يحي بن معاذ يقول : إذا وصل فرح فإذا اتصل استأنس ، فقيل له نراك بين الوصول والاتصال فتجعل الاتصال أعلى وأقرب ، فقال أضرب لكم مثل رجل سار طريقا وقصد ملكا كريما ثم وصل إليه حتى إذا قدم عليه فقد وصل ثم يتصل بمنادمة الملك شيئا بعد شيء يتقرب إليه ويقرب منه حتى يدنيه الملك ويؤانسه ؛ فالسير والتعب لقطع المنازل والفرح فى الوصول والأنس فى الاتصال والاتصال كان مقام أبي يزيد والوصول كان مقام يحي بن معاذ رحمه الله عليهما . وقال أبو يزيد البسطامى : حقيقة الزهد لا يكون إلا عند ظهور القدرة والعاجز لا يصح زهده وهو أن يغطيه كن ويطلعه على الاسم ويقدره على الأشياء بإظهار الكون فيزهد فى ذلك حبا لله تعالي أن يعمل عمله ويتركه حبا لله تعالى أن يقوم مقام القدرة وكشف هذا المقام يخرج إلى علم غريب لا يعرف وسر عجيب لا يوصف وفقنا الله وإياكم لما يحب ، وبلغنا ما نؤمل منه بفضله ورحمته . قال المصنف رحمه الله تعالى .

﴿العائق الثاني﴾ من العوائق الأربعة التي تمنع عن العبادة (الخلق . ثم عليك) أي الزم (وفقك الله وإيانا لطاعته) تعالى (بالتفرد عن الخلق) أى طلب الانفراد والعزلة والخلوة عنهم ، فالخلوة أعلى مقاما من العزلة ، ومنهم قال : الخلوة تكون من الأغيار والعزلة تكون من النفس وما تدعو إليه ويشغل عن الله ؛ فالخلوة كثيرة والعزلة قليلة ، وإليه جنح صاحب العوارف ، والمعروف الأول ، فقد كان صلي الله عليه وسلم أتم مقاما وأحسن حالا فقد حبب إليه الخلاء . وقال النووي : اختلف العلماء فى العزلة والاختلاط أيهما أفضل ؛ فمذهب الشافعي والأكثرين تفضيل الخلطة لما فيها من إكساب الفوائد وشهود شعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين وإيصال الخير إليهم ، والتعاون على البر والتقوى وإغاثة المحتاج ، فإن كان صاحب علم أو زهد تأكد فضل اختلاطه ، وذهب آخرون إلى تفضيل العزلة لما فيها من السلامة المحققة لكن بشرط أن يكون عارفا بوظائف العبادة التي تلزمه وقال الكرمانى فى شرح البخاري : المختار فى عصرنا تفضيل الاعتزال لندور خلو المحافل من المعاصى . وقال البدر العينى ، أنا موافق له فيما قال ، فإن الاختلاط مع الناس فى هذا الزمان لا يجلب إلا الشرور . وقال أبو البقاء الأحمدى : أنا أقول بأفضلية العزلة لبعدها عن الرياء فى العمل وخلو الخاطر وشهود سر الوحدانية فى الأزل . قال العلامة الزبيدى : وأنا موافق لما قالوا

وَذلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ يَشْغَلُونَكَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى ما حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : مَرَرْتُ بِجَمَاعَةٍ يَتَرَامَوْنَ، وَوَاحِدٌ جَالِسٌ بَعِيداً مِنْهُمْ فَأَرَدْتُ أَنْ أُكَلِّمَهُ فَقَالَ : ذِكْرُ اللهِ أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ كَلَامِكَ ، فَقُلْتُ أَنْتَ وَحْدَكَ ؟ فَقَالَ مَعِي رَبِّي وَمَلَكَايَ فَقُلْتُ : مَنْ سَبَقَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ؟ فَقَالَ : مَنْ غَفَرَ اللهُ لَهُ، فَقُلْتُ : أَيْنَ الطَّرِيقُ ؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ ، وَقَامَ وَتَرَكَنِي وَقَالَ : أَكْثَرُ خَلْقِكَ عَنْكَ شَاغِلٌ ،

من تفضيل العزلة لفساد الزمان والإخوان وإليه أشار المصنف بقوله (وذلك)أي مطلوبية الانفراد عن الخلق (لأمرين أحدهما أنهم) أي أكثر الخلق (يشغلونك عن عبادة الله عز وجل) وذلك بإدخال الهموم عليك ونحوه (علي ما حكي عن بعضهم) أي بعض العلماء (أنه قال مررت بجماعة يترامون) بالسهام ويتسابقون فيها (وواحد) منهم (جالس) حال كونه (بعيدا منهم فأردت أن أكلمه فقال) الجالس (ذكر الله أشهى) أي أشد شهوة وحبا (إلى من كلامك ، فقلت : أنت وحدك) أي منفردا بنفسك (فقال) ما أناوحدى ، بل (معى ربي وملكاى) أي ملك اليمن والشمال (فقلت : من سبق من هؤلاء) الذين يترامون (فقال) هم (من غفر الله له ، فقلت أين الطريق فأشار) ذلك الجالس (بيده نحو السماء) لأنها قبلة الداعى (وقام) من مجلسه (وتركنى وقال) أي دعا ياربى (أكثر خلقك عنك شاغل) فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالي لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك إلا بما هوفيه . وقيل لغزوان الرقاشى هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك ، . قال : إنى أصبت راحة قلبي فى مجالسة من عنده حاجتى . وقيل للحسن البصرىههنا : أى فى مسجد البصرة رجل لم نره جالسا قط إلا وحده خلف سارية من سوارى المسجد : فقال الحسن إذا رأيتموه فأخبرونى به فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن هذا الرجل الذىأخبرناك به وأشاروا إليه ، فمضى إليه الحسن وقال له ياعبد الله أراك قد حببت إليك العزلة والانفراد فما الذى يمنعك من مجالسةالناس ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس ، قال فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل الذى يقال له الحسن يعنىنفسه فتجلس إليه فتستفيد منه ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس وعن الحسن ، فقال له الحسن وما ذاك الشغل يرحمك الله ؟ قال : إنى أصبح وأمسى بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسى بشكر الله على النعمة والاستغفار من الذنب ، قال له الحسن : أنت يا عبد الله أفقه عندى من الحسن فالزم ما أنت عليه . وقال الفضيل رحمه الله : إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به وقلت أخلو بربى : أى لقلة مخالطة الناس عامة ، وإذا رأيت الصبح قد انفجر وأدركنى استرجعت : أى قلت إنا لله وإنا إليه راجعون ، وهى كلمة تقال عند حلول المصيبة كراهية لقاء الناس ، وأن يجيئنى من يشغلنى عن ربي ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية . وقال ذو النون المصرى قدس سره : سرور المؤمن ولذته فى الخلوة بمناجاة ربه . وقال مالك

فَالْخَلْقُ إِذًا يَشْغَلُونَكَ عَنِ الْعِبَادَةِ بَلْ يَمْنَعُونَكَ مِنْهَا ، بَلْ يُوقِعُونَكَ فِى الشَّرِّ وَالْهَلَاكِ عَلَى مَا قَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ رَحِمَهُ اللهُ : طَلَبْتُ مِنْ هٰذَا الْخَلْقِ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ فَلَمْ أَجِدْهَا : طَلَبْتُ مِنْهُمُ الطَّاعَةَ وَالزَّهَادَةَ فَلَمْ يَفْعَلُوا ، فَقُلْتُ أَعِينُونِى عَلَيْهِمَا إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَلَمْ يَفْعَلُوا ، فَقُلْتُ ارْضَوْا عَنِّى إِنْ فَعَلْتُ فَلَمْ يَفْعَلُوا ، فَقُلْتُ لَا تَمْنَعُونِى عَنْهُمَا إِذًا فَمَنَعُونِى ، فَقُلْتُ لَا تَدْعُونِى إِلَى مَا لَا يُرْضِى اللهَ الْعَظِيمَ وَلَا تُعَادُونِى عَلَيْهِ إِنْ لَمْ أُتَابِعْكُمْ

ابن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره . وقال ابن المبارك : ما أحسن حال من انقطع إلى الله عز وجل ! قال الزبيدى فى معناه أى اعتزل عن الخلطة وحبب إليه الانقطاع إلى الله بالخلوة ، وتفرغ الفكر لعبادته ، وقيل لبعض الرهبان من الاسلاميين إذ رآه منتبذا عن الناس ما أصبرك على الوحدة ! فقال ما أنا وحدى أنا جليس الله تعالي إذا شئت أن يناجينى قرأت كتابه ، وإذا شئت أن أناجيه صليت . وقيل لبعض الحكماء أى شيء أفضى بهم الزهد عن الدنيا والخلوة عن الناس أو الاعتزال عنهم ، فقال إلا الأنس بالله عز وجل . قال الزبيدى أشار بذلك إلى ثمرتهما ؛ وقيل لبعضهم ما الذى أرادوا بالخلوة واختيار العزلة ، فقال ليستدعوا : أي ليستجلوا بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم الإلهية التى وهبوها فضلا فى قلوبهم ليحيوا حياة طيبة فى الدارين ويذوقوا حلاوة المعرفة بالله (فالخلق إذا) أى حين إذ كان الأمر على الأقوال المذكورات (يشغلونك عن العبادة بل يمنعونك منها بل يوقعونك فى الشر والهلاك) لأن أكثرهم لا يعلمون حقيقة العبودية ، بل يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ،وهم عن الآخرة هم غافلون ولا يتدبرونها وذلك (على ماقال) أبو عبد الرحمن (حاتم) بن علوان (الأصم رحمه الله) ويقال حاتم بن يوسف من أكابر مشايخ خراسان وكان تلميذ شقيق وأستاذ أحمد بن خضرويه ، مات سنة سبع وثلاثين ومائتين . قيل لم يكن أصم ، وإنما تصم مرة فسمى به . قال أبو القاسم القشيرى فى الرسالة : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : جاءت امرأة فسألت حاتما عن مسئلة اتفق أنه خرج منها فى تلك الحالة صوت فخجلت فقال حاتم ارفعى صوتك فأرى من نفسه أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه اسم الصمم رحمة الله عليه (طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء فلم أجدها) أصلا : أحدها (طلبت منهم الطاعة والزهادة) فى الدنيا (فلم يفعلوا) . وثانيها (فقلت) لهم (أعينونى عليهما إن لم تفعلوا) ذلك . (فلم يفعلوا) الاعانة على ماذكر. وثالثها (فقلت : ارضوا عنى إن فعلت) بهما (فلم يفعلوا) الإرضاء بل سخطوا على من فعلها . ورابعها (فقلت لا تمنعونى عنهما إذا)أى حين فعلت ذلك (فمنعونى) من فعلها . وخامسها (فقلت لا تدعونى إلى ما لا يرضي الله العظيم ولا تعادونى) أى لا تنتجوا العداوة لي (عليه) أي مطلوبكم من ارتكاب مالا يرضاه تعالى (إن لم أتابعكم) على ذلك المطلوب

فَلَمْ يَفْعَلُوا ، فَتَرَكْتُهُمْ وَاشْتَغَلْتُ بِخَاصَّةِ نَفْسِى . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْأَخُ فى الدِّينِ أَنَّ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا صلى اللهُ عليه وسلم وَصَفَ زَمَانَ الْعُزْلَةِ وَبَيَّنَ نَعْتَهُ وَنَعْتَ أَهْلِهِ وَأَمَرَ فِيهِ بِالتَّفَرُّدِ وَكَانَ صلى اللهُ عليهِ وَسلم لاَ مَحَالَةَ أَعْلَمَ بِالصَّالِحِ وَأَنْصَحَ لَنَا مِنَّا لأَنْفُسِنَا ، فَإِنْ وَجَدْتَ زَمَانَكَ عَلَى مَا وَصَفَ وَبَيَّنَ فَامْتَثِلْ أَمْرَهُ صلى اللهُ عليه وسلم وَاقْبَلْ نَصِيحَتَهُ ، وَلاَ تَشُكَّ فى أَنَّهُ صلى اللهُ عليه وسلم كَانَ أَعْرَفَ بِمَا يَصْلُحُ لَكَ فى زَمَانِكَ ، وَلاَ تَتَعَلَّلْ بِالْعِلَلِ الْكَاذِبَةِ

(فلم يفعلوا) ترك العداوة (فتركتهم) جانبا (واشتغلت بخاصة نفسى) وهى الطاعة والزهادة فنلت وخسروا ما خسروا ، ولذلك قال أبو الدرداء رضي الله عنه : كان الناس ورقا لا شوك فيه، والناس اليوم شوك لا ورق فيه ، إن ناقدتهم ناقدوك وإن تركتهم لم يتركوك ، كذا فى القوت . وأخرجه أبو نعيم في الحلية ، أشار به إلى ماحصل من الاختلاف والتغيير والفتن واتباع الأهواء . قال حجة الاسلام : وإذا كان هذا حكم زمانه وهو فى آخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك فى أن الأخير شر . قال العلامة الزبيدى : وأنشدنا فى معناه شيخنا المرحوم السيد عبد الله بن إبراهيم الحسينى نزيل الطائف قدس سره لنفسه وكتبته من خطه :

إنما الناس كشوك نابت كيف ينجو من بذا الشواك اشتبك

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : اتقوا الله واحذروا الناس فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه : أى بأن يشغلوه عن الله تعالى بإدخال الهموم عليه : وقال بعضهم : أقلل من المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك ، لأنه يقال كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق ، وكلما طالت الصحبة تأكدت المراعاة وعسر القيام بالجميع ، نقله صاحب القوت ، وزاد وقال بعضهم : هل رأيت شرا إلا ممن تعرفه ؟ فكلما نقص من هذا فهو خير . (واعلم أيها الأخ فى الدين أن نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم وصف زمان العزلة) اسم من الاعتزال ، وهو تجنب السوى أو الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع ، كذا ذكره الزبيدى (وبين نعته) فيه مرادف للوصف (ونعت أهله وأمر) صلى الله عليه وسلم (فيه) أى فى ذلك الزمان (بالتفرد) عن الناس (وكان) نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم لا محالة) أى قطعا (أعلم) منا (بالمصالح) أى بالأمور التى تصلحنا فى ديننا ودنيانا (وأنصح) أى أشد إرادة للخير (لنا منا لأنفسنا ، فإن وجدت زمانك على ما وصف) رسول الله صلي الله عليه وسلم من كثرة الفتن كما يأتي (و) على ما (بين) صلى الله عليه وسلم (فامتثل) أنت أيها الأخ (أمره صلى الله عليه وسلم واقبل) بكنه الهمة (نصيحته ولا تشك فى أنه صلى الله عليه وسلم كان أعرف بما يصلح لك) من أمر الدنيا والدين (فى زمانك ولا تتعلل) أنت (بالعلل الكاذبة) وفى المختار

وَلاَ تُخَادِعْ نَفْسَكَ وَإِلا فَأَنْتَ هَالِكٌ وَلاَ عُذْرَ لَكَ ، وَالْوَصْفُ الَّذِى ذَكَرْنَاهُ مِنْهَا مَا هُوَ فى الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُما أَنَّهُ قالَ : بَيْنَا

علله بالشيء تعليلا : أى لهاه به كما يعلل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن ، ويقال : فلان يعلل نفسه بتعلة وتعلل به: أي تلهى به (ولا تخادع نفسك وإلا) بأن تتعلل بالكاذبة وتخادع نفسك (فأنت هالك) أبدا إن لم يعف الله الكريم (ولا عذر) أى لا اعتذار (لك) فى ذلك . قال السمين : وأصل الخداع الإخفاء ، ومنه الأخدعان عرقان مستبطنان فى العنق ، ومنه مخدع البيت . قال الطيبي : وقد يكون الخداع حسنا إذا كان الغرض منه استدراج الغير من الضلال إلى الرشد ، ومن ذلك استدراجات التنزيل على لسان الرسل فى دعوة الأمم (والوصف الذى ذكرناه منها) أى العزلة : أى وصفها (ماهو فى الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى عنهما) هو أبو محمد ، وقيل أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو نصير بضم النون عبد الله بن عمرو بن العاص بغير ياء هو الصحيح ابن وائل بن هاشم بن سعيد بضم السين وفتح العين ابن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى السهمى الزاهد العابد الصحابى ابن الصحابى رضى الله عنهما كان بينه وبين أبيه فى السن اثنتا عشرة سنة ، وأمه ريطة بنت منبه بن الحجاج ابن عامر بن حذيفة بن سعيد بن سهم ، أسلمت ، قالوا : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : نعم أهل البيت : عبد الله وأم عبد الله ، أسلم عبد الله قبل أبيه ، وكان كثير العلم مجتهدا فى العبادة وتلاوة القرآن ، وكان أكثر الناس أخذا للحديث والعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثبت فى الصحيح عن أبي هريرة قال « ما كان أحد أكثر حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب » روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعمائة حديث ، اتفق الشيخان على سبعة عشر منها ، وانفرد البخارى بثمانية ومسلم بعشرين ، وإنما قلت الرواية عنه مع كثرة ماحمل لأنه سكن مصر ، وكان الواردون إليها قليلا ، بخلاف أبى هريرة فإنه استوطن المدينة : وهي مقصد المسلمين من كل جهة ، روى عنه سعيد بن المسيب وعروة وأبو سلمة وحميد ابنا عبد الرحمن ومسروق وخلائق من كبار التابعين ، ونقلوا عنه أنه قال : حفظت عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف مثل ، وأنه قال لخير أعلمه اليوم أحب مالى من مثليه ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا ، وإنا اليوم مالت بنا الدنيا . وشهد مع أبيه فتح الشام معه راية أبيه يوم اليرموك ، وتوفى عبد الله سنة ثلاث وستين ، وقيل خمس وستين بمصر ، وقيل سنة سبع وستين بمكة ، وقيل سنة خمس وخمسين بالطائف ، وقيل سنة ثمان وستين ، وقيل سنة ثلاث وسبعين وهو ضعيف ، وقيل توفى بفلسطين سنة خمس وستين ، وكان عمره ثنتين وسبعين سنة ، كذا فى سراج السالكين (أنه قال: بينا) أصلها بين فتولدت الألف من إشباع الفتحة ثم زيدت الميم وقد لا تزاد فيقال بينا ثم ضمنت معنى الشرط ، فلذا كانت لابد لها من جواب وجوابها لابد أن يكون مقرونا

نَحْنُ حَوْلَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم إِذْ ذُكِرَتِ الْفِتْنَةُ فَقَالَ : « إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخفتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هٰكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، قُلْتُ : مَا أَصْنَعُ عِنْدَ ذٰلِكَ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءكَ ؟ قالَ : الْزَمْ بَيْتَكَ وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ » وَذَكَرَ

بإذ أو إذا الفجائيتين كما ذكره سيدى أحمد الدردير (نحن حول النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذكرت الفتنة فقال) صلى الله عليه وسلم (إذا رأيتم) وفى رواية « إذا رأيت » (الناس مرجت) وفى رواية « قد مرجت » (عهودهم) بالميم والجيم المفتوحتين بينهما راء مكسورة : أى اختلت وفسدت وقلت فيهم أسباب الديانات كما قاله العزيزى (وخفت) بالتشديد : أى قلت (أماناتهم) جمع أمانة . وهى ضد الخيانة (وكانوا هكذا) وبين الراوى ماوقعت عليه الاشارة بقوله (وشبك) أى خلط صلى الله عليه وسلم (بين أصابعه) وفى رواية « بين أنامله » : أى أنامل أصابع يده إشارة إلي تموج بعضهم في بعض وتلبيس أمر دينهم . قال عبد الله بن عمرو (قلت : ماأصنع عند ذلك) أى المذكور من فساد أسباب الديانات وقلة الأمانات (جعلنى الله فداءك) يا رسول الله . (قال) صلى الله عليه وسلم (الزم بيتك) وفى رواية « فالزم » بالفاء : أى اعتزل الناس وامتنع عنهم كما قاله المناوى (وأملك) بكسر اللام وقطع الهمزة المفتوحة ، أمر من الإملاك بمعنى الشد والإحكام يعنى أمسك (عليك لسانك) أى احفظه وصنه ولا تتكلم فى أحوال الناس كيلا يؤذوك ، قال العلقمى : قال ابن رسلان : أى أمسكه عما لايعنيك ولاتخرجه عن فيك ولا تجره إلا بما يكون لك لاعليك ، وللطبرانى « طوبى لمن ملك لسانه » (وخذ ماتعرف) أى من أمر دينك (ودع) أى اترك (ماتنكر) من أمر الناس المخالف للشرع (وعليك بأمر الخاصة) وفى رواية « وعليك بخاصة أمر نفسك » : أى استعملها فى المشروع وكفها عن النهى كما فى العزيزى (ودع عنك أمر العامة) أى اتركه فاذا غلب ظنك أن المنكر لايزول بإنكارك أو خفت محذورا فأنت فى سعة من تركه ، وأنكره بالقلب مع الامتناع . قال الزمخشرى : والمراد بالخاصة حادثة الوقت التي تخص الإنسان ، وهذا الحديث رواه الحاكم وقال صحيح وأقره الذهبي ، قاله ابن عبد الحق . وقال العراقى : رواه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد حسن . قال الزبيدى : ورواه الطبرانى من حديث سهل ابن سعد بلفظ « كيف ترون إذا أخرتم فى زمان حثالة الناس قد مرجت عهودهم ونذورهم فاشتبكوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابعه ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : تأخذون ماتعرفون ، وتدعون ماتنكرون ، ويقبل أحدكم على خاصة نفسه ، ويذر أمر العامة » ورواه البزار من حديث ثوبان بلفظ « كيف أنتم فى قوم مرجت عهودهم وأيمانهم وأماناتهم وصاروا هكذا وشبك بين أصابعه ؟ قالوا : كيف نصنع يا رسول الله ؟ قال اصبروا وخالقوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم فى أعمالهم» (وذكر

فى خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصلاَة وَالسَّلاَمُ قالَ ذٰلِكَ أَيَّامَ الْهَرْجِ ، قِيلَ : وَمَا أَيَّامُ الْهَرْجِ ؟ قالَ: حِينَ لاَ يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ . وَذَكَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى خَبَرٍ آخَرَ لِلْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ ،

فى خبر آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك) أى أيام الفتنة كما فى الإحياء (أيام الهرج) بفتح فسكون : أى الاختلاف والاختلاط ، هذا معناه فى اللغة العربية ، أما على اللغة الفارسية فمعناه القتل كما قاله العلامة الحفنى . قال العلقمى : وأخطأ من قال : نسبة تفسير الهرج بالقتل للسان الحبشة وهم من بعض الرواة وإلا فهى عربية صحيحة ، ووجه الخطأ أنها لاتستعمل فى اللغة العربية بمعنى القتل إلا على طريق المجاز لكون الاختلاط مع الاختلاف يفضى كثيرا إلى القتل ، وكثيرا مايسمون الشيء باسم مايئول إليه ، واستعمال الهرج فى القتل بطريق الحقيقة هو بلسان الحبشة ، نقله العزيزى . (قيل) والقائل هو ابن مسعود كما فى رواية أخرى (وما أيام الهرج) . وفى رواية : « قلت متى الهرج يارسول الله ؟ (قال) صلى الله عليه وسلم (حين لايأمن الرجل جليسه) أى من بوائقه ودواهيه ، وتمام هذا الحديث « قلت فبم تأمرنى إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال كف نفسك ويديك وادخل دارك . قال:قلت أرأيت يا رسول الله إن دخل على دارى قال فادخل بيتك : أى داخل الدار ، قال إن دخل علي بيتى ؟ قال فادخل مسجدك واصنع هكذا وقبض على الكوع وقل : ربى الله حتى تموت » قال العراقى: رواه أبو داود مختصرا ، والخطابى فى العزلة بتمامه ، وفى إسناده عند الخطابى انقطاع ، وصله أبوداود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفتة . قال العلامة الزبيدي : إن كان هو الراوى عن ابن مسعود فهو سالم البراد أبو عبد الله الكوفى روى عنه عبد الملك بن عمير وإسماعيل بن أبى خالد وثقه صالح جرزة (وذكر ابن مسعود) الصحابى (رضى الله عنه) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل بالغين المعجمة والفاء ابن حبيب الهذلى ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثا ، اتفق الشيخان منها على أربعة وستين ، وانفرد البخارى بأحد وعشرين ، ومسلم بخمسة وثلاثين روى عنه ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو موسى الأشعرى وأنس وجابر وابن سعيدوعمران ابن حصين وعمر بن حريث وأبو هريرة وغيرهم من الصحابة وخلائق لا يحصون من كبار التابعين نزل الكوفة فى آخر أمره ، وتوفى بها سنة ثنتين وثلاثين ، وقيل سنة ثلاث وثلاثين ، وقيل عاد إلي المدينة ، واتفقوا علي أنه توفى وهو ابن بضع وستين سنة ، والذين قالوا : توفى بالمدينة قالوا دفن بالبقيع . قيل وصلى عليه عثمان ، وقيل الزبير ، وقيل عمار بن ياسر ، وكان من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ومقدميهم فى القرآن والفقه والفتوى وأصحاب الاتباع فى العلم ، كذا ذكره ابن عبد الحق (فى خبر آخر للحارث بن عميرة) بضم العين الهذلى ، ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى عن عمر وابن مسعود أحاديث ، توفى سنة سبعين ، قاله ابن عبد الحق نقلا

أَنَّهُ صلى اللهُ عليْه وسلم قالَ لَهُ : « إِنْ يُدْفَعْ عَنْ عُمْرِكَ فَسَيَأْتِي عَلَيْكَ زَمَانٌ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ عُلَمَاؤُهُ كَثِيرٌ سُؤَّالُهُ قَلِيلٌ مُعْطُوهُ ، الْهَوَى فِيهِ قَائِدُ الْعِلْمِ ، قالَ : وَمَتَى ذَاكَ ؟ قالَ إِذَا أُمِيتَتِ الصَّلَاةُ وَقُبِلَتِ الرِّشَا وَيُبَاعُ الدِّينُ بِعَرَضٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ وَيْحَكَ ثُمَّ النَّجَاءَ »

عن أسد الغابة (أنه صلى الله عليه وسلم قال له إن يدفع) أى يعطى (عن عمرك) أى إن طال عمرك (فسيأتى عليك زمان كثير خطباؤه) جمع خطيب (قليل علماؤه كثير سؤاله) جمع سائل (قليل معطوه ، الهوى فيه) اى فى ذلك الزمان (قائد العلم) من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله ، يعنى يكون العلم فيه تابعا للهوى كما قاله ابن مسعود رضى الله عنه . قال صاحب القوت . والمراد بالعلم هو نص القرآن والسنة أو مادلا عليه واستنبط منهما أو وجد فيهما اسمه ومعناه من قول وفعل : والتأويل إذا لم يخرج من الإجماع داخل فى العلم ، والاستنباط إذا كان مستودعا فى الكتاب شهد به المجمل ولا ينافيه النص فهو علم ، والمراد من الهوى ما عدا ذلك من العلوم ، وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول : تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ما أقل العلم ما أقل العلم فيهم ، والله المستعان، ولذلك كان الشعبى إذا نظر ما أحدث الناس من الرأى والهوى يقول : لقد كان القعود فى هذا المسجد أحب إلى مما يعدل به ، فمذ صار فيه هؤلاء الرائيون فقد بغضوا إلى الجلوس فيه ، ولأن أقعد على مزبلة أحب إلى من أن أجلس فيه ، وكان يقول ما حدثوك عن السنن والآثار فخذ به ، وما حدثوك بما أحدثوا من رأيهم فامخط عليه ، وقال مرة : فبل عليه (قال) ابن عميرة (ومتى ذاك) الزمان (قال) صلى الله عليه وسلم (إذا أميتت الصلاة) بضم الهمزة : أى أهينت كما فى نسخة بأن تركت أصلا أو فعلت لكن بلا مراعاة الشروط والأركان (وقبلت الرشا) جمع رشوة بالضم والكسر ، وهى ما يعطى لإبطال حق ولإحقاق باطل ، كذا فى التعريفات (ويباع الدين بعرض يسير من الدنيا) أى بمتاع قليل من الدنيا وهو المال ، سمى عرضا لأنه متعرض للزوال سريعا ، قاله الخازن ، فإن العرض بفتح الراء : ما لاثبات له ، ومنه استعار المتكلمون العرض لمقابل الجوهر وقال أبو عبيدة : العرض بالفتح جميع متاع الدنيا غير النقدين ، وبالسكون المال والقيم ، ومنه : الدنيا عرض حاضر وظل زائل ، نقله الجمل عن الشهاب (فالنجاء النجاء) مصدر بمعنى الإسراع ويجوز أن يكون ممدودا ومقصورا ، وهو من باب الإغراء منصوب بفعل محذوف ، تقديره : الزم النجاء (ويحك ثم النجاء) ، فى المختار : ويح كلمة رحمة ، وقيل بمعنى ويل ، وويل كلمة عذاب وقيل هما بمعنى واحد ، تقول : ويح لزيد وويل لزيد ، فترفعهما على الابتداء ، ولك أن تنصبهما بإضمار فعل تقديره ألزمه الله ويحا وويلا ونحو ذلك : ويحك وويلك ، وويح زيد ، وويل زيد منصوب بفعل مضمر انتهى ، وأيضا فيه ويل كلمة مثل ويح إلا أنها كلمة عذاب ، وفى مسند الإمام أحمد من رواية حجاج بن الأسود : سمعت أبا الصديق يحدث ثابتا عن رجل عن أبى ذر « أن

(قُلْتُ) وَجَمِيعُ مَا ذُكِرَ فِى هٰذِهِ الْأَخْبَارِ تَرَاهُ بِعَيْنِكَ فِى زَمَانِكَ وَأَهْلِهِ ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ .

ثُمَّ إِنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ،

النبي صلي الله عليه وسلم قال : إنكم فى زمان علماؤه كثير وخطباؤه قليل ، من ترك فيه عشر ما يعلم هوى أو قال هلك ، وسيأتى على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه: من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا » . وللحديث المذكور شواهد : منها عند الترمذى من حديث أبى هريرة « إنكم فى زمان من ترك فيه عشر ما أمر هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منهم عشر ما أمر به نجا » ، وعند الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى التاريخ عن أبى هريرة أيضا « سيأتى زمان تكثر فيه القراء وتقل الفقهاء ، ويقبض العلم ويكثر الهرج ، ثم يأتى بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال من أمتى لا يجاوز تراقيهم ، ثم يأتى بعد ذلك زمان يجادل المشرك بالله المؤمن فى مثل ما يقول » . وأخرج أبو القاسم اللالكائى فى سننه من طريق علقمة عن عبد الله قال : كيف أنتم إذا لبستم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير إذا ترك فيها شىء ؟ قيل ترك السنة ، قيل متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : ذلك إذا ذهب علماؤكم وكثرت جهالكم وكثرت قراؤكم وقلت فقهاؤكم ، كذا نقله العلامة الزبيدى (قلت : وجميع ما ذكر فى هذه الأخبار) من الفتن وغيرها (تراه بعينك فى زمانك وأهله فانظر) أى فتفكر (لنفسك) أى فيما يصلح لنفسك (ثم) اعلم (أن السلف الصالح) ذوى البصائر ؛ والصالح من استقامت أفعاله وأقواله ، أو القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد ، أو الآتى بما ينبغى والمتحرز عما لا ينبغى ، كذا قاله الفاسى ، ويطلق الصالح على النبي كما يطلق على الولى إلا أن الصلاح فى الأنبياء أكمل منه فى الأولياء (رضوان الله عليهم) جملة خبرية اللفظ دعائية المعنى ، ورضى يتعدى بعلى كما يتعدى بعن ، قال القحيف العامرى العقيلى :

إذا رضيت على بنو قشير لعمر الله أعجبنى رضاها

أى عنى ، وقال ابن هشام : ويحتمل أن رضى ضمن معنى عطف . وقال الكسائى : حمل على نقيضه وهو سخطه كما يحمل على نظيره . قال ابن جنى : وكان أبو على يستحسن قوله ، وقد سلك سيبويه هذا الطريق فى المصادر كثيرا . وقال أبو عبيدة وغيره : إنما ساغ هذا لأن معناه أحببته وأقبلت عليه بوجه ود . قال الشيخ أبو عبد الله العربي الفارسى رحمه الله : وقد سلكوا فى الدعاء إيراد على مع المصدر سواء كان فعله يتعدى بنفسه كالرحمة واللعنة ، أم بحرف جر غير على كالرضوان ، وكأنهم راعوا وقوع المدعو به على المدعو له أو عليه ؛ نقله الفاسى فى شرح الدلائل

أَجْمَعُوا عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ زَمَانِهِمْ وَأَهْلِهِ وَآثَرُوا الْعُزْلَةَ وَأَمَرُوا بِذَلِكَ وَتَوَاصَوْا بِهِ وَلاَ شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا أَبْصَرَ وَأَنْصَحَ وَأَنَّ الزَّمَانَ لَمْ يَصِرْ بَعْدَهُمْ خَيْرًا مِمَّا كَانَ بَلْ هُوَ أَشَرُّ مِنْهُ وأَمَرُّ ، وَهٰذَا مَا ذُكِرَ عَنْ يُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ : وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ حَلَّتِ الْعُزْلَةَ فِي هٰذَا الزَّمَانِ ،

(أجمعوا) خبر أن : أى اتفقوا (على التحذير) أى التخويف (من زمانهم وأهله وآثروا) أى أى اختاروا (العزلة) والانفراد عن الناس (وأمروا بذلك) أى المذكور من العزلة (وتواصوا) أى أوصى بعضهم بعضا (به) أى بالعزلة (ولا شك أنهم) أى السلف الصالحين (كانوا أبصر) أى أكثر بصيرة (وأنصح) أى أكثر نصيحة وإرادة للخير (و) لا شك (أن الزمان لم يصر بعدهم خيرا مما كان) أى مما مضى (بل) صار (أشر منه وأمرّ) أى أشد مرارة منه (وهو) أى زمان الشر، أى بيانه من حل العزلة والانفراد فى ذلك الزمان (ما ذكر عن يوسف بن أسباط) الشيبانى رحمه الله تعالى أقام أربعين سنة ليس له إلا قميصان إذا غسل أحدهما لبس الآخر ، وكان يعمل الخوص بيده ويتقوت حتى مات ، توفى سنة نيف وتسعين ومائة وليس على جسمه أوقية لحم ، قاله ابن عبد الحق (أنه قال : سمعت) سفيان بن سعيد بن مسروق (الثورى) الكوفى كان إماما فى علم الحديث وغيره من العلوم ، وهو من تابعى التابعين ، سمع أبا إسحاق السبيعى وعبد الملك بن عمير وعمرو بن مرة وخلائق من كبار التابعين وغيرهم ، روى عنه محمد بن عجلان والأعمش وهما تابعيان ومعمر والأوزاعى وابن أبى إسحاق ومالك وابن عيينة وشعبة والفضيل ابن عياض وأبو الأحوص وأبو إسحق الفزارى وابن المبارك وزائدة وابن مهدى ووكيع وأبو نعيم ويحي القطان ومحمد بن يوسف الفريابى وخلائق ، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته ، وهو أحد الأئمة المجتهدين ، مولده فى سنة خمس ، وقيل ست ، وقيل سبع وتسعين من الهجرة ، وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة متواريا من السلطان ، ودفن عشاء . رحمه الله ولم يعقب والثورى بفتح الثاء المثلثة وبعدها واو ساكنة وراء نسبة إلى ثور بن عبد مناة رحمه الله (يقول : والله الذى لا إله إلا هو لقد حلت العزلة فى هذا الزمان) أخرجه أبو نعيم فى الحلية فقال : وحدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا أحمد بن روح حدثنا أحمد بن عتيق سمعت يوسف بن أسباط يقول : كنت مع سفيان الثورى فى المسجد الحرام ، فقال : والله الذى لا إله إلا هو ورب هذه الكعبة لقد حلت العزلة . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال « خذوا بحظكم من العزلة » . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة وذلك لأنها تدعو إلى السلامة من المحظورات . وقال الفضيل بن عياض : كفى بالله محبا ، وبالقرآن مؤنسا ، وبالموت واعظا . وقيل : اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا ، وروى ابن عساكر فى تاريخه من غريب المسلسل ما لفظه : أنبأنا أبو الفرج غيث بن على الخطيب ، أخبرنا أبو بكر الخطيب ، أخبرنا القاضى أبو محمد بن رامين الاستراباذى ،

قُلْتُ أنَا : وَلَئِنْ حَلَّتْ فى زَمَانِهِ فَفِي زَمَانِنَا هَـذا وَجَبَتْ وَافْتُرِضَتْ . وَعَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَيْضًا أنَّهُ كَتَبَ إلَى عَبَّادِ الْخَوَّاصِ رَحِمَهُمَا اللهُ : أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّكَ فى زَمَانٍ كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم يَتَعَوَّذُونَ بِاللهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكُوهُ فِيمَا بَلَغَنا وَلَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ،

أخبرنا عبد الله بن محمد الحميدى الشيرازى ، حدثنا القاضى أحمد بن محمود بن خرزاذ الأهوازى ، حدثنا على بن محمد النصرى ، حدثنا أحمد بن محمد الحلبى قال : سمعت سريا السقطى يقول سمعت بشرا ، يعنى ابن الحارث يقول : قال إبراهيم بن أدهم وقفت على راهب فى جبل لبنان فناديتـه ؟ فأشرف على فقلت له عظنى ، فأنشأ يقول :

خذ عن الناس جانبا   كى يعـدوك راهبا
إن دهـراً أظـلنى   قد أرانى العجائبـا
قلب الناس كيف شئـت   تجدهم عقاربا

قال بشر: هذه موعظة الراهب لك ، فعظنى أنت ، فأنشأ يقول :

توحش من الإخوان لا تبغ مؤنسا   ولا تتخذ أخا ولا تبغ صاحبا
وكن سامرى الفعل من نسل آدم   وكن أوحديا ما قدرت مجانبـا
فقد فسد الإخوان والحب والإخا   فلست ترى إلا مزوقا كاذبا

قال سرى ، فقلت لبشر : هـذه موعظة إبراهيم لك فعظنى أنت ، فساق الكلام بتمامه ، وفيه: فقال أبو بكر الخطيب ، فقلت للقاضى بن رامين هـذه موعظة الحميدى لك فعظنى ، فقال اتق الله وثق به ولا تتهمه فإن اختياره لك خير من اختيارك لنفسك ، وأنشأ :

اتخـذ الله صاحبا   وذر الناس جانبا
جرب الناس كيف شئـت تجـدهم عقاربا

وقال بشر بن عبد الله : أقل من معرفة الناس فإنك لا تدرى ما يكون يوم القيامة ، فإن تـكن فضيحة كان من يعرفك قليلا ، ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال : ألك حاجة ؟ قال نعم . قال ما هى ؟ قال لا ترانى ولا أراك . قال الزبيدى : أشار بذلك إلى أن الاعتزال عنهم أسلم للدين (قلت أنا : ولئن حلت) تلك العزلة (فى زمانه) وهو فى أوائل القرن الثانى (ففى زماننا هذا) يعنى فى أواخر القرن الخامس (وجبت وافترضت) هما مترادفان : أى وجبت العزلة والانفراد : هذا فى زمانه رحمه الله تعالى فـكيف الحال فى هذا الزمان ! فلا حول ، ولا قوة إلا بالله (و) روى (عن سفيان) بن سعيد (الثورى أيضا أنه كتب إلى عباد الخواص رحمهما الله : أما بعد) أى بعد إهداء السلام ونحوه (فإنك فى زمان كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتعوذون بالله من أن يدركوه) أى هذا الزمان (فيما بلغنا) أى من الأخبار (و) الحال أن (لهم من العلم) بمهمات

مَا لَيْسَ لَنَا ، فَكَيْفَ بِنَا حِينَ أَدْرَكْنَاهُ عَلَى قِلَّةِ عِلْمٍ وَقِلَّةِ صَبْرٍ وَقِلَّةِ أَعْوَانٍ عَلَى الْخَيْرِ وَكَدَرٍ مِنَ الدُّنْيَا وَفَسَادٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : فِى الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ مِنَ خُلَطَاءِ السُّوءِ ، وَفِى مِثْلِ هٰذَا قِيلَ :

هٰذَا الزَّمَانُ الَّذِى كُنَّا نُحَاذِرُهُ ... فِى قَوْلِ كَعْبٍ وَفِى قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ

دَهْرٌ بِهِ الْحَقُّ مَرْدُودٌ بِأَجْمَعِهِ ... وَالظُّلْمُ وَالْبَغْىُ فِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

أَعْمَى أَصَمٌّ مِنَ الْأَزْمَانِ مُلْتَبِسٌ ... فِيهِ لِإِبْلِيسَ تَصْوِيبٌ وَتَصْعِيدُ

الدين (ما ليس لنا فكيف) الحال (بنا حين أدركناه على) أى مع (قلة علم وقلة صبر) على الأذى (وقلة أعوان) جمع عون بمعنى معين (على الخير ، و) مع (كدر) ضد الصفو (وفساد من الناس ، فإن عمر بن الخطاب) أمير المؤمنين مشهور جم المناقب (رضى الله عنه قال : فى العزلة راحة من خلطاء السوء) جمع خليط ، وذلك لأن أنواع الشرور الذى يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة ، وبالعزلة ينتفى ذلك . وقد ترجم البخارى في الصحيح : العزلة راحة من خلطاء السوء ، وذكر حديث أبى سعيد مرفوعا « ورجل يعبد فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره » . وقال بعضهم لعبد الله بن الزبير ألا تأتى المدينة ؟ قال ما بقى إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة ، فإن رأى صاحبه في نعمة حسده عليها، وإن رأى به نقمة فرح بها ، وكان بعضهم لزم مطالعة الكتب في أى فن كان وزيارة المقابر فى طرف النهار ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال لم أر أسلم من وحدة ، ولا أوعظ من قبر ، ولا جليسا أمتع من دفتر ، وفى ذلك قيل :

نعم المحدث والجليس كتاب ... تلهو به إن خانك الأصحاب

لا مفشيا سرا إذا أودعته ... يوما إذا ما ملك الأحباب

وقال ابن السماك : كتب صاحب لنا : أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لادواء له ففر منهم فرارك من الأسد (وفى مثل هذا) المعنى (قيل) فى الشعر من بحر البسيط (هذا الزمان الذى كنا نحاذره) وفى نسخة نحذره : أى نخاف منه (فى) بمعنى عن (قول كعب) بن مانع الحميرى ، ولقبه الأحبار على المشهور، وكنيته أبو إسحاق ثقة مخضرم ، كان من أهل اليمن فسكن الشام ، مات فى آخر خلافة عثمان وقد زاد على المائة . قال الحافظ ابن حجر : وليس له فى البخارى رواية ولا فى مسلم إلا حكاية ويروى كذلك عن على وابن عباس و(فى) أى عن (قول ابن مسعود . دهر به الحق مردود بأجمعه . والظلم والبغى) مترادفان (فيه) أى الزمان (غير مردود أعمى أصم من الأزمان ملتبس) أى مختلط (فيه) خبر مقدم (لابليس تصويب) مبتدأ مؤخر والتصويب النزول . وتصعيد

إِنْ دَامَ هذَا وَلَمْ يَحْدُثْ لَهُ غِيَرٌ لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ

وَلَقَدْ وَجَدْتُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ لِلثَّوْرِيِّ أَوْصِنِي ، قَالَ : أَقْلِلْ مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ ، قُلْتُ يَرْحَمُكَ اللهُ ، أَلَيْسَ قَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « أَكْثِرُوا مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ فَإِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَفَاعَةً » قَالَ : لَا أَحْسِبُكَ رَأَيْتَ قَطُّ مَا تَكْرَهُهُ إِلَّا مِمَّنْ تَعْرِفُ ، قُلْتُ أَجَلْ . ثُمَّ مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ فَرَأَيْتُهُ

إن دام هذا) الزمان (ولم يحدث له غير) بوزن عنب اسم من قولك غيرت الشيء فتغير كما فى المختار (لم يبك ميت ولم يفرح بمولود) يولد . وفى بعض النسخ :

إن دام ذا الأمر لم تحزن على أحد منا بموت ولم نفرح بمولود

(ولقد وجدت عن) أبي محمد (سفيان بن عيينة) الهلالى، وهو من تابعى التابعين؛ سمع الزهرى وعمرو بن دينار والشعبي وعبد الله بن دينار ومحمد بن المنكدر وخلائق من التابعين وغيرهم . روى عنه الأعمش والثورى ومسعر وابن جريج وشعبة وهمام ووكيع وابن المبارك وابن مهدى والقطان وحماد بن زيد وقيس بن الربيع والحسن بن صالح والشافعي وابن وهب وأحمد بن حنبل وابن المديني وابن معين وابن راهويه والحميدى وخلائق لايحصون من الأئمة ، وروى الثورى عن القطان عن ابن عيينة واتفقوا على إمامته وجلالته وعظم مرتبته ، ولد سفيان سنة سبع ومائة ، وتوفى يوم السبت غرة رجب سنة ثمان وتسعين ومائة رحمه الله تعالى (أنه قال : قلت للثورى أوصنى . قال : أقلل من معرفة الناس) فإن التخلص منهم شديد . قال ابن عيينة (قلت : يرحمك الله أليس قد جاء فى الخبر أكثروا من معرفة الناس فان لكل مؤمن شفاعة) . أخرج الحاكم فى تاريخه عن أنس « أكثروا من المعارف من المؤمنين فإن لكل مؤمن شفاعة عند الله يوم القيامة » . (قال) الثورى (لاأحسبك رأيت قط) إذا أردت بقط الزمان فهي مشددة مضمومة أبدا غير منونة ، تقول : ما رأيت مثله قط ، فإن أردت التقليل بها فسكنها مخففة ؛ تقول: ماعندى إلا هذا قط ، فإن لقيتها همزة وصل كسرت ، تقول ماعلمت هذا قط الدهر ، وهى على كل حال تختص بالنفي فى الماضى ، والعامة تقول : لاأفعله قط؛ وهو غلط ، وسمع بعد الاثبات كنت أره قط: أى دائما ، وتوضأ ثلاثا قط ، وهو نادر لايقاس عليه (لاتكره إلا ممن تعرف . قلت أجل) حرف جواب مثل نعم . قال الأخفش : هو أحسن من نعم فى التصديق ونعم أحسن منه فى الاستفهام كما أفاده المختار (ثم مات) الثورى (رحمه الله) ، قال ابن عيينة (فرأيته) أى رأيت مثاله ، لأن المرئي فى المنام إنما هو المثال ، لكن إطلاق رؤية الشخص على رؤية المثال صحيح عقلا ونقلا ؛ ثم الرؤيا النامية منها مايرى على حقيقته فلا يحتاج إلى تعبير ، ومنها ماهو أمثلة يخلقها الله بواسطة الملك الموكل بها بتحديثه وإلقائه المعانى للروح فى صور المحسوسات المتخيلة فتكون تلك الصورة

بَعْدَ مَوْتِهِ فِى الْمَنَامِ بِحِجَجٍ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَبْدَ اللهِ أَوْصِنِي ، قَالَ أَقْلِلْ مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، فَإِنَّ التَّخَلُّصَ مِنْهُمْ شَدِيدٌ . وَقَدْ قِيلَ فِى مَعْنَى هَـٰذَا الْخَبَرِ نَظْماً :

الممثل بها دليلا على تلك المعانى ، وذلك كما كانت الأصوات والحروف والرقوم الكتابية دليلا على المعانى حسا وهذه هى التى تحتاج إلى التعبير . قال المهدى بن أحمد الفاسى : قال شيخ شيوخنا جدى للأب والأم : أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الفاسى رضى الله تعالى عنه : وسر جعلها فى قوالب الصور الحسية مجانسة مافى النفس من خيالات الحس وتلونها بالمحسوسات حتي لو تجردت وصفت من ذلك لكوشفت بالحقائق والمعانى صرفا من غير مثال ، ولذلك كان المثال بداية الوحى وأوائله ثم تدرج إلى المكالمة بصرف الحقائق والمعانى يقظة ونوما ، وكذلك من له نصيب من إرثه عليه الصلاة والسلام من الأولياء انتهى (بعد موته) أى الثورى رحمه الله ، والموت مفارقة الحياة للحى أو هو صفة يخلفها ضد لها (فى المنام) هو اسم مصدر نام نوما ، والنوم قال سديد الدين الكازروني . هو عبارة عن رجوع الحرارة الغريزية إلى الباطن طلبا للانضاج فلذلك يتبعها الروح النفساني وقواها ليتم ذلك الفعل . وقال غيره : النوم حال يعرض للحيوان من استرخاء الدماغ على رطوبة الأبخرة المتصاعدة من الجسد إلى الرأس بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الاحساس رأسا ، وذلك أن الأبخرة متصاعدة على الدوام من المعدة إلى الدماغ ، فمتى صادفت منه فتورا أوعيا استولت عليه وهومعدن الحس والحركة فيحصل فيه فتور وهوالسنة، فان عم الاستيلاء حاسة البصر فهو الغفوة والنوم الخفيف والنعاس ويكون صاحبه بين النائم واليقظان ، وإن عم جميع الجسد وحل بالقلب وأزال القوة والعقل فهوالنوم الثقيل ، وإنما تحصل الرؤيا كما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيرى إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار ، أفاده فى شرح الدلائل (بحجج) بوزن عنب جمع حجة بمعنى السنة كما فى المختار : أى بسنين أى بعد سنين (فقلت) له : أى لذلك المثالى المؤدى مافى الشخص الذى هو مثاله والمظهر لما عنده (يا أبا عبد الله) كنية الثورى رحمه الله (أوصنى . قال : أقلل من معرفة الناس ما استطعت فان التخلص منهم شديد) أى جدا ، أما قوله فى حياته فأخرجه أبو نعيم فى الحلية من طريق ابن حنيف ، حدثنا خلف بن تميم سمعت سفيان الثورى يقول : أقلل من معرفة الناس يقل عيبك . ومن طريق ابن المقرى قال : سمعت سفيان ابن عيينة يقول : رأيت سفيان الثورى فى المنام فقلت أوصنى . فقال : أقلل من معرفة الناس أو كما قال . ومن طريق إبراهيم بن أيوب : حدثنا سفيان بن عيينة قال : رأيت سفيان الثورى فى المنام فقلت أوصنى . قال : أقلل من مخالطة الناس : قلت زدنى . قال سترد فتعلم ، ذكره العلامة الزبيدى (وقد قيل فى معنى هذا الخبر نظما) من بحر الطويل :

وَمَا زِلْتُ مُذْ لاَحَ المَشِيبُ بِمَفْرِقِي ... أُفَتِّشُ عَلَى هٰذَا الْوَرَى وَأُكَشِّفُ
فَمَا أَنْ عَرَفْتُ النَّاسَ إِلاَّ ذَمَمْتُهُمْ ... جَزَى اللهُ خَيْرًا كُلَّ مَنْ لَسْتُ أُعْرِفُ
وَمَالِيَ ذَنْبٌ أَسْتَحِقُّ بِهِ الْجَفَا ... سِوَى أَنَّنِي أَحْبَبْتُ مَنْ لَيْسَ يُنْصِفُ

قالَ : وَقِيلَ كُتِبَ عَلَى بَابِ الدَّارِ : جَزَى اللهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُنَا خَيْرًا ، وَلاَ جَزَى بِذٰلِكَ أَصْدِقاءَنَا ، فَمَا أُوذِينَا قَطُّ إِلاَّ مِنْهُمْ ، وَأَنْشَدُوا فِيهِ :

جَزَى اللهُ عَنَّا الْخَيْرَ مَنْ لَيْسَ بَيْنَنَا ... وَلاَ بَيْنَهُ وُدٌّ وَلاَ نَتَعَـــارَفُ
فَمَا صَـــابَنَا هَمٌّ وَلاَ نَالَنَا أَذًى ... مِنَ النَّاسِ إِلاَّ مَنْ نَوَدُّ وَنَعْرِفُ

(وما زلت) من الأفعال الناقصة (مذلاح) أى حين ظهر (المشيب) أى الشيب (بمفرق) بفتح الراء وكسرها : أى وسط رأسى وهو الموضع الذى يفرق فيه الشعر كما فى المختار (أفتش) بضم الهمزة وكسر التاء من التفتيش بمعنى التفحص (عن هـذا الورى) أى الخلق (وأكشف) أى أبين عن حالهم (فما) نافية (إن) زائدة (عرفت الناس إلا ذممتهم) والذم خلاف المدح (جزى الله خيرا) جملة دعائية (كل من لست أعرف) لإفادته التخفيف لسقوط الحقوق عنه لأنه يقال : كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق ، وكلما طالت الصحبة تأكدت المراعاة (ومالى ذنب أستحق به) أى الذنب (الجفا) بالقصر للضرورة وهو ضد البر (سوى أنى أحببت من ليس ينصف) بضم الياء : أى يعدل من نفسه ، بخلاف من هو متصف بالعدل من نفسه فانه الجليس الصالح الذى يذكرك الله رؤيته وسيرته وإن وجدته كذلك فالزمه واعتقد قلبك علي خلطته ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فانها غنيمة العاقل وضالة المؤمن ، وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة ، وأن الوحدة خير من الجليس السوء ، ومهما فهمت هذه المعانى ولا حظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد عنه بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة ، وإياك أن تحكم مطلقا على العزلة أو الخلطة بأن أحدهما أولى من الآخر إذ كل مفصل ، فاطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف محض ولا حق فى المفصل إلا التفصيل فيعطى كل ذى حق حقه كذا فى الإحياء (قال) ابن عيينة (وقيل كتب على باب الدار) أى دار الثورى (جزى الله) جملة دعائية (من لا يعرفنا خيرا ولا جزى) الله (بذلك) الخير (أصدقاءنا) جمع صديق (فما أوذينا قط إلا منهم ، وأنشدوا) شعرا من بحر الطويل (فيه) أى فى معنى المكتوب على باب الدار (جزى الله عنا الخير من ليس بيننا. ولا بينه ود) بضم الواو وفتحها وكسرها : أى مودة ومحبة (ولا تتعارف . فما صابنا) صاب من باب باع لغة فى أصاب (هم) وحزن (ولا نالنا أذى . من الناس إلا من نود) أى نحب (و) من (نعرف) من حاله .

قالَ الْفُضَيْلُ رَحِمَهُ ٱللهُ : هٰذَا زَمَانٌ احْفَظْ لِسَانَكَ وَأُخْفِ مَكَانَكَ .

(قال) أبو على (الفضيل) ابن عياض بن مسعود بن بشر التميمى اليربوعى الزاهد ، ولد (رحمه الله) بسمرقد ، ونشأ بابيورد وكتب الحديث بالكوفة ، ثم تحول إلي مكة فاستوطنها حتى توفى بها أول سنة سبع وثمانين ومائة . سمع سليمان التيمى وحصين بن عبد الرحمن ومنصور بن معتمر والأعمش وحميدا الطويل ويحيي الأنصارى وعبد الله بن عمر العمرى والعلاء بن المسيب ومحمد بن جعفر الصادق وعطاء بن السائب وزياد بن سعد ومسلما الأعور وأشعث بن سوار وأبا هارون العبدى وعوفا الأعرابي ومخالد بن سعيد وبيان بن بشر وأبا إسحاق الشيباني وعبد العزيز بن الرفيع ومحمد بن عجلان ومحمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى وأبان بن أبى عياش وفطر بن خليفة وليث بن أبى سليم وسفيان الثورى ويحي بن عبد الله وهشام ابن حسان وغيرهم من الأئمة ، روى عنه خلائق من الأئمة : منهم الثورى وابن عيينة ويحي القطان وحسين بن على الجعفى وابن المبارك والشافعى والحميدى والقعنبي وابن مهدى ويحي بن يحي ويحي ابن صالح ومسدد وقتيبة ويحي الحمانى ومؤمل بن إسماعيل وإسحاق بن منصور وآخرون ، وأجمعوا على توثيقه والاحتجاج به وصلاحه وزهده وورعه ونحوها من طرائق الآخرة. قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى سمعت محمد بن الحسين يقول : أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر قال: حدثنا الحسن بن عبد الله العسكرى قال : حدثنا ابن أخى ذرعة قال : حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه قال : حدثنا أبو عمار عن الفضيل بن موسى قال : كان الفضيل شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » . فقال يارب قد آن ، فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم نرتحل ، وقال قوم حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا فتاب الفضيل وأمنهم وجاور الحرام حتى مات . وقال الفضيل بن عياض : إذا أحب الله عبدا أكثر غمه ، وإذا أبغض عبدا وسع عليه دنياه . وقال ابن المبارك : إذا مات الفضيل ارتفع الحزن . وقال الفضيل : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علىّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه . وقال الفضيل : لو حلفت إنى مراء أحب إلىّ من أن أحلف إني لست بمراء . وقال الفضيل : ترك العمل لأجل الناس هو الرياء والعمل لأجل الناس هو الشرك . وقال أبو على الرازى : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا متبسما إلا يوم مات ابنه على ، فقلت له فى ذلك ؟ فقال إن الله أحب أمرا فأحببت ذلك . وقال الفضيل : إني لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى . وقال أيضا (هذا) الزمان هو (زمان احفظ) فيه (لسانك) عن الكلام الذى لا يعنيك ولا ينفعك فى الدارين (واخف) أمر من خفاه من باب رمي : أى استروا كتم (مكانك) لكيلا يشغلك الناس عن عبادة ربك لأن شأنهم كذلك

وَعَالِجْ قَلْبَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ . وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : هٰذَا زَمَانُ السُّكُوتِ وَلُزُومُ الْبُيُوتِ وَالرِّضَا بِالْقُوتِ إِلَى أَنْ تَمُوتَ .

(وَعَنْ دَاوُدَ الطَّائِيِّ) رَحِمَهُ اللهُ : صُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَاجْعَلْ فِطْرَكَ الْآخِرَةَ

كما هو ظاهر (وعالج) أى زاول وداو (قلبك) أى بأنواع الخيرات (وخذ ماتعرف) من الخير (ودع) أى اترك (ما تنكر) من الشر. قال الشافعى رضى الله عنه ليونس بن عبد الأعلى والله ما أقول لك إلا نصحا ، إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل فانظر ماذا يصلحك فافعله ودع الناس وما هم فيه. وقال أيضا : ما من أحد إلا له محب ومبغض ، فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله ، أخرجه البيهقى فى مناقبه. وقيل للحسن البصرى يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم الفائدة منك ولا الأخذ منك إلا تتبع سقطات كلامك وتعنتك فى السؤال ليعيبوك بذلك ، فتبسم الحسن وقال هون على نفسك يا ابن أخى فانى حدثت نفسى بسكن الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت ولم تطمع فى السلامة من الناس لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم لم يسلم منهم فكيف أحدث نفسى بالسلامة ، ولذلك قال الثورى : رضا الناس غاية لاتدرك فأحمق الناس من طلب مالا درك فيه ، فرضا الله تعالى أولى بالطلب (وقال سفيان) بن سعيد (الثورى) رحمه الله (هذا زمان السكوت ولزوم البيوت) وزاد غيره فقال : والقناعة بأقل القوت (والرضا بالقوت) وفى نسخة: والرضا بما يقوت (إلى أن تموت). وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت والعاشر فى عزلة الناس ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية. وقال يوسف بن مسلم لعلى بن بكار المصيصى : ما أصبرك على الوحدة وقد كان لزم البيت فقال كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا كنت أجالس الناس ولا أكلمهم ، وقد جرى لداود الطائى هكذا فإنه جلس فى مجلس أبى حنيفة سنة ترد عليه الفتاوى والأسئلة وهو لا يكلمهم ثم اعتزل الناس، وقد علم من ذلك أن مخالطة الناس مع عدم الكلام معهم أشد من الانفراد والوحدة. وقال بعضهم : كنت فى سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا سبع ليال لا نسمع له كلاما فقلنا له : يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ليال فى هذه السفينة ، ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا ، فأنشأ يقول :

قليل الهم لا ولد يموت ولا أمر يحاذره يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علما فغايته التفرد والسكوت

(وعن) الأستاذ أبى القاسم القشيرى قال : أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهانى قال أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى قال : حدثنا قاسم بن أحمد قال : سمعت ميمونا الغزال قال : قال أبو الربيع الواسطي : قلت لأبى سليمان (داود) بن نصير (الطائى) الكوفى (رحمه الله أوصنى) فقال (صم عن الدنيا) بزهدك فيها وإمساكك عن نعيمها (واجعل فطرك الآخرة)

وَفِرَّ مِنَ النَّاسِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ .

لأن ذلك سبب سـلامة دينك وبدنك وعرضك ومعين على صومك عن الدنيا (وفر من الناس فرارك من الأسد) أخرج أبونعيم قال : حدثنا إبراهيم بن عبيد الله حدثنا محمد بن إسحاق زكريا عن أبى الربيع الأعرج قال : أتيت داود الطائى وكان داود لايخرج من منزله حتى يقول المؤذن قد قامت الصلاة فيخرج فيصلى فإذا سلم الإمام أخذ نعله ودخل منزله ، فلما طال ذلك على أدركته و فقلت له على رسالك فوقف لى ، فقلت : أبا سليمان أوصنى ، قال : اتق الله وإن كان لك والدان فبرهما ثلاث مرات ، ثم قال فى الرابعة ويحك صم عن الدنيا واجعل الفطر موتك واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم . وقال أيضا : حدثنا إبراهيم بن عبد الله حدثنا محمد إسحاق ، وحدثنا عبد الله ابن محمد حدثنا محمد بن عبد المجيد التميمى حدثنا عبد الله بن إدريس قال قلت لداود الطائى أوصنى فقال : أقلل من معرفة الناس ، قلت زدنى قال : ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين . قلت ، زدنى قال : اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطر على الموت . وأما قوله فر من الناس فرارك من الأسد فأخرجه أبو نعيم من طريق عثمان بن زفر حدثنا سعيد قال : كان داود شديد الانقباض ولقد جئته يوما فى وقت الصلاة فانتظرته حتى خرج فمشيت معه والمسجد منه قريب فسلك بى غيرطريقه . فقلت أين تريد ؟ فسلك بى فى سكك خالية حتى خرج على المسجد ، فقلت الطريق ثم أقرب عليك ، فقال يا سعيد فر من الناس فرارك من السبع ، إنه ما خالط أحد إلا نسى العهد . وأخرج أيضا من طريق حسن بن مالك عن بكر العابد قال : سمعت داود الطائي يقول : توحش من الناس كما تتوحش من السباع ، ذكره العلامة الزبيدى .

﴿ تنبيه ﴾ قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى أخبرنا الشيخ أبوعبد الرحمن السلمى رحمه الله قال أخبرنا أبوعمر بن مطر قال : حدثنا محمد بن المسيب قال : حدثنا ابن خبيق قال قال يوسف ورث داود الطائى عشرين دينارا فأ كلها فى عشرين سنة ؛ وقال : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : كان سبب زهد داود الطائي أنه كان يمر ببغـداد فمر يوما فنحاه المطرقون بين يدى حميد الطوسى فالتفت داود فرأى حميدا فقال داود أف لدنيا سبقك بها حميد ولزم البيت وأخذ فى الجهد والعبادة . وسمعت ببغداد بعض الفقراء يقول إن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأى خديك تبدى البلى وأى عينيك إذن سالا

وقيل كان سبب زهده أنه كان يجالس أباحنيفة رضى الله عنه فقال له أبوحنيفة يوما يا أبا سليمان أما الأداة فقد أحكمناها ، فقال له داود فأي شيء بقي ؟ فقال العمل به . قال داود فنازعتنى نفسى إلى العزلة . فقلت لنفسى حتى تجالسهم ولا تتكلم فى مسئلة ، قال فجالستهم سنة لا أتكلم فى مسئلة وكانت المسئلة تمر بى وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعا من العطشان إلى الماء البارد ولا أتكلم به ثم

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ : « مَا رَأَيْتُ حَكِيماً قَطُّ إِلاَّ قَالَ لِي فِي عَقِبِ كَلاَمِهِ : إِنْ أَحْبَبْتَ أَلاَّ تُعْرَفَ فَأَنْتَ مِنَ اللهِ عَلَى بَالٍ . وَالْأَخْبَارُ فِي هٰذَا الْبَابِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَمِلَهَا هٰذَا الْكِتَابُ .

صار أمره إلى ماصار . وقيل حجم جنيد الحجام داود الطائى فأعطاه دينارا فقيل هذا إسراف فقال لا عبادة لمن لامروءة له ؟ وكان يقول بالليل : إلهى همك عطل علي الهموم الدنيوية وحال بيني وبين الرقاد ؟ وقال الأستاذ أيضا سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول حدثنا محمد بن يوسف قال : حدثنا سعيد بن عمرو قال : حدثنا علي بن حرب الموصلى قال : حدثنا إسماعيل بن زياد الطائى قال : قالت جارية داود الطائى له أما تشتهى الخبز ؟ فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ولما توفى داود رآه بعض الصالحين فى المنام وهو يعدو فقال له مالك ؟ فقال : الساعة تخلصت من السجن فاستيقظ الرجل من منامه فارتفع الصياح بقول الناس مات داود الطائى ، وقال له رجل أوصنى : فقال عسكر الموت ينتظرونك . ودخل بعضهم عليه فرأى جرة ماء انبسطت عليها الشمس ، فقال له ألا تحولها إلى الظل ، فقال حين وضعتها لم يكن شمس وأنا أستحى أن يرانى الله أمشى لما فيه حظ نفسى . ودخل عليه بعضهم فجعل ينظر إليه ، فقال أما علمت أنهم كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . قال شيخ الإسلام : فيه تنبيه على كمال النصح لزائره ، ووعظه بما ينتفع به فى آخرته من ترك الفضول لعموم الخبر الصحيح « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » وهو مالا تدعو إليه حاجة دينية ، وقال العلامة محمد عبد الحق : توفى داود الطائى سنة ستين أو خمس وستين ومائة رحمه الله تعالى (وعن أبى عبيدة) القاسم بن سلام بتشديد اللام رحمه الله وهو معدود فيمن أخذوا الفقه عن الشافعى رضى الله عنه ، وكان إماما بارعا فى علوم كثيرة منها التفسير والقراءة والحديث والفقه واللغة والنحو والتاريخ ، توفى بمكة سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين ومائتين ، وقال البخارى سنة أربع وعشرين وزاد غيره فى المحرم . وقال الخطيب فى تاريخ بغداد : بلغنى أنه عاش سبعا وستين سنة (مارأيت حكيما) وهو العالم صاحب الحكمة المتقن للأمور . قيل لايسمى الرجل حكيما حتى يجمع العلم والعمل ، وعليه قول أبى الأسود الدؤلى لبعضهم :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا فعلت بذا فأنت حكيم

(قط إلا قال) الحكيم (لى فى عقب كلامه : إن أحببت أن لاتعرف) الناس (فأنت من الله على بال) أى حال تحمد عاقبته ، ومن ذلك الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والدخول فى غمارها والتعرض لأخطارها ، وقلما تخلو البلاد فى كل عصر وأوان عن تعصبات دنيوية وفتن وخصومات وشرور فالمعتزل عنهم فى سلامة منهم (والأخبار فى هذا الباب) أى باب العزلة (أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب) المختصر المسمى [منهاج العابدين إلي جنة

وَقَدْ صَنفْنَا فِيهِ كِتَابًا مُفْرَدًا وَسَمَّيْنَاهُ : [كِتَابَ أَخْلَاقِ الْأَبْرَارِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْأَشْرَارِ] فَقِفْ عَلَيْهِ تَرَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ ، وَالْعَاقِلُ يُكْفِيهِ إِشَارَةٌ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ ، وَالْهِدَايَةُ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا الْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي تَقْتَضِي التَّفَرُّدَ عَنِ النَّاسِ فِي هٰذَا الشَّأْنِ أَنَّ النَّاسَ يُفْسِدُونَ عَلَيْكَ مَا يَحْصُلُ لَكَ مِنَ الْعِبَادَةِ إِنْ لَمْ يَعْصِمِ اللهُ سُبْحَانَهُ بِسَبَبِ مَا يَعْرِضُ مِنْ قِبَلِهِمْ مِنْ دَوَاعِي الرِّيَاءِ وَالتَّزَيُّنِ ، وَلَقَدْ صَدَقَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ: رُؤْيَةُ النَّاسِ بِسَاطُ الرِّيَاءِ وَهٰؤُلَاءِ الزُّهَادُ قَدْ خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ هٰذَا الْمَعْنَى

ربّ العالمين] (وقد صنفنا فيه) أى فى هذا الباب (كتابا مفردا وسميناه : كتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار فقف) أى فاطلع وانظر (عليه) أى الكتاب المفرد (تر العجب العجاب) أى الشىء الغريب بالنسبة لأمثاله مما هو على حجمه : قاله الشبراملسي . قال بعضهم : العجاب ماجاوز حد العجب، وأمر عجب وعجاب بتخفيف الجيم وتشديدها للمبالغة ، أى يتعجب منه وعجب عجاب مبالغة ، قال البيضاوى فى تفسير قوله تعالى « إن هذا لشىء عجاب » : أى بليغ فى العجب فإنه خلاف ماأطبق عليه آباؤنا وما نشاهده من أن الواحد لايكفى علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة (والقائل يكفيه إشارة) والغافل لايفيده صريح عبارة (والله ولىّ التوفيق والهداية بفضله) أى منه وإحسانه [وأما الخصلة الثانية] من الأمرين (التى تقتضى) أى تطلب (التفرّد) أى الانفراد والعزلة (عن الناس فى هذا الشأن) المحمود (أن الناس) أى أكثرهم (يفسدون عليك مايحصل لك من العبادة) وهذا (إن لم يعصمه الله) أى يحفظه (سبحانه بسبب مايعرض) أى يحصل ويظهر (من قبلهم) بكسر القاف وفتح الباء : أى من جهتهم (من دواعى) أى أسباب (الرياء والتزين ، ولقد صدق) أبو زكريا الواعظ (يحيي بن معاذ الرازي) أحد رجال الطريقة ، توفى يوم الاثنين لست عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين (رحمه الله حيث قال : رؤية الناس بساط الرياء) بالكسر ممدودا مشتق من الرؤية : وهى النظر بحاسة البصر ؛ وقد رأى الشخص رؤية ، وأصل الرياء طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم خصال الخير فيظنون به خيرا ويكرمونه إلا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمال سوى العبادات ،وتارة تطلب بالعبادات واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها للناس فحد الرياء هو إرادة المنزلة عند العباد بطاعة الله . فالمرائى هو العابد يرائى الناس بعبادته ، والمرائي له هم الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم ، والمراءى به هو اسم الخصال التى قصد المرائى إظهارها لهم ، والرياء هو قصده إظهار ذلك ولا يقع غالبا إلا عن غفلة عن الخالق وعمايته عنه . قال المصنف (وهؤلاء الزهاد) من السلف الصالحين (قد خافوا على أنفسهم من هذا المعنى) وهو

حَتَّى تَرَكُوا الْمُلَاقَاةَ وَالتَّزَاوُرَ ، وَلَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ هَرِمَ بْنَ حَيَّانَ قَالَ لأُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ يَا أُوَيْسُ صِلْنَا بِالزِّيَارَةِ وَاللِّقَاءِ فَقَالَ أُوَيْسٌ قَدْ وَصَلْتُكَ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْهُمَا وَهُوَ الدُّعَاءُ عَلَى ظَهْرِ الْغَيْبِ ، لِأَنَّ الزِّيَارَةَ وَاللِّقَاءَ يَعْرِضُ فِيهِمَا التَّزَيُّنُ وَالرِّيَاءُ . وَقِيلَ لِسُلَيْمَانَ الْخَوَّاصِ حِينَ قَدِمَ

الرياء والتزين للناس ، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ . قال : الرياء ، يقول الله عزّ وجلّ : إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عنـدهم جزاء ؟ » قال العراقي : رواه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد ، وقوله صـلى الله عليه وسلم « استعيذوا بالله من جبّ الحزن . قيل: وما هو يارسول الله ؟ قال واد في جهنم أعدّ للقراء المرائين». قال العراقي : رواه الترمذي وقال غريب ؛ وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، وقوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عزّ وجل من عمل عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » . قال العراقي : رواه مالك في الموطأ ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى الرياء شرك » . رواه الطبراني ، وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله عملا فيه مثقال ذرة من رياء » . أخرجه أبو نعيم في الحلية إلى غير ذلك من الأخبار والآثار (حتى تركوا) أى هؤلاء الزهاد (الملاقاة والتزاور) أى زيارة بعضهم بعضا (ولقد ذكر أن هرم) ككتف (ابن حيان) أحد الأولياء المشهورين ترجمته في الحلية . قال الزبيدى : قال أحمد في الزهد حدثنا محمد بن مصعب سمعت مخلدا هو ابن حسين ذكر عن هشام ، يعنى ابن حسان عن الحسين أن هرما مات في غزاة في يوم صائف فلما فرغ من دفنه جاءته سحابة حتى كانت حيال القبر فرشت القبر حتى روى لا تجاوز قطرة ثم عادت عودها على بدئها (قال لأويس) بن عامر (القرنى) محركة روى له مسلم قصة مختصرة في آخر صحيحه وهو سيد التابعين قتل بصفين وله ترجمة واسعة ، وهو منسوب إلى قرن بن درعان ابن ناجية بن مراد أحد أجداده . روى عن على مرفوعا «خير التابعين أويس» ، وروى بن عدى عن ابن عباس « سيكون في أمتي رجل يقال له أويس القرني ، وإن شفاعته في أمتى مثل ربيعة ومضر » (رحمهما الله) رحمة واسعة (يا أويس صلنا بالزيارة واللقاء فقال أويس) يا هرم بن حيان (قد وصلتك بمـا هو أنفع لك منهما) أى الزيارة واللقاء (وهو الدعاء على ظهر الغيب) أى الغيب الشبيه بالظهر في القوة أو أن لفظ ظهر مقحم : أى زائد (لأن الزيارة واللقاء يعرض) أى قد يظهر ويحصل (فيهما التزين والرياء) . قال حجة الإسلام . وقيل : بينما أويس جالس إذ أتاه هرم بن حيان ، فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال جئت لآنس بك ، فقال أويس ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره (وقيل لسليمان الخواص) رحمه الله (حين قدم) أبو إسحاق

إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَم أَفَلاَ تَأْتِيهِ ؟ فَقَالَ لَأَنْ أَلْقَى شَيْطَانًا مَارِدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِقَائِهِ فَاسْتَنْكَرُوا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ ! فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ إِذَا لَقِيتُهُ أَنْ أَتَزَيَّنَ لَهُ وَ إِذَا لَقِيتُ شَيْطَانًا امْتَنَعْتُ مِنْهُ .

(إبراهيم بن أدهم) بن منصور من كورة بلخ ، كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا فأثار ثعلبا أو أرنبا وهو فى طلبه فهتف به هاتف : يا إبراهيم ألهذا خلقت ، أم بهذا أمرت ؟ ثم هتف به أيضا من قربوس سرجه . والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت ، فنزل عن دابته وصادف راعيا لأبيه فأخذ جبة للراعى من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ، ثم إنه دخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها سفيان الثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها سنة إحدى وستين ومائة وكان يأكل من يده مثل الحصاد وحفظ البستان وغير ذلك ، وأنه رأى فى البادية رجلا علمه اسم الله الأعظم فدعا به بعده فرأى الخضر عليه السلام وقال له إنما علمك أخى داود اسم الله الأعظم قال القشيرى : أخبرنا بذلك الشيخ أبوعبدالرحمن السلمى . قال حدثنا محمد بن الحسين بن الخشاب قال حدثنا أبو الحسين على بن محمد المصرى : قال حدثنا أبو سعيد الخراز قال : حدثنا إبراهيم ابن بشار قال : صحبت بن أدهم فقلت خبرنى عن بدء أمرك فذكر هذا ، وكان إبراهيم بن أدهم كبير الشأن فى باب الورع ، وقيل كان عامة دعائه اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك ، وقيل لإبراهيم بن أدهم إن اللحم قد غلا فقال أرخصوه : أى لا تشتروه وأنشد فى ذلك :

وإذا غلا شيء على تركته   فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال سهل بن إبراهيم صحبت إبراهيم بن أدهم فمرضت فأنفق على نفقته فاشتهيت شهوة فباع حماره وأنفق على ثمنه ، فلما تماثلت : أى قاربت البرء من مرضى قلت يا إبراهيم أين الحمار ؟ فقال بعناه فقلت فعلى ماذا أركب ؟ فقال يا أخى على عنق فحملنى ثلاث منازل (أفلا تأتيه فقال) الخواص (لأن ألقى شيطانا ما ردا) أى عاتيا عاصيا ذا إقدام وجرأة وبلوغ الغاية فى الشر ؟ كذا ذكره الفاسى (أحب إلى من لقائه) أى ابن أدهم (فاستنكروا) أى الحاضرون عند الخواص صدور (ذلك) المذكور (من قوله) أى الخواص مع جلالة قدر إبراهم بن أدهم وورعه (فقال) الخواص بيانا لذلك الكلام الذى صدر منه (إنى أخاف إذا لقيته) أى ابن أدهم (أن أتزين له) فى كلامى وتصنعت فى أحوالى (وإذا لقيت شيطانا امتنعت منه) لأنه عدو مبين ، ومثل ذلك ما وقع للفضيل ابن عياض رحمه الله كان جالسا وحده في المسجد الحرام ، فجاء إليه أخ له فى الله تعالى ، فقال له الفضيل ما جاء بك؟ قال المؤانسة يا أبا على قال هى والله بالمواحشة أشبه منها بالمؤانسة هل تريد إلا أن تتزين لى فى كلامك وأتزين لك فى كلامى وتكذب لى وأكذب لك ؟ إما أن تقوم عنى وإما أن أقوم عنك ؟ كذا فى الإحياء . وأخرج أبونعيم نحوه فى الحلية من طريق أحمد بن إبراهيم الدورقى حدثنا على بن الحسين قال : بلغ فضيلا أن جريرا يريد أن يأتيه قال فأقفل الباب من خارج فجاء

وَلَقَدْ لَقِىَ شَيْخِي الْإِمَامُ بَعْضَ الْعَارِفِينَ فَتَذَاكَرَا مَلِيًّا ثُمَّ دَعَوَا فى آخِرِ حَدِيثِهِمَا فَقَالَ شَيْخِي الْإِمَامُ للعارفِ ماأَظُنَّنى جَلَسْتُ مَجْلِساً أَنَا بِهِ أَرْجَى مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا فَقَالَ لَهُ الْعَارِفُ لـكِنِّي مَاجَلَسْتُ مَجْلِساً أَنَا لَهُ أَخْوَفُ مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا ، أَلَسْتَ تَعْمِدُ إِلَى أَحْسَنِ حَدِيثِكَ وَعُلُومِكَ فَتُحَدِّثُنِي بِهَا وَتُظْهِرُهَا بَيْنَ يَدَيَّ وَأَنَا كَذٰلِكَ فَقَدْ وَقَعَ الرِّيَاءُ فَبَكَى شَيْخِي الْإِمَامُ مَلِيًّا ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ فَكَانَ بَعْدَ ذٰلِكَ يَتَمَثَّلُ بِهٰذِهِ الأَبْيَاتِ :

يَاوَيْلَتَا مِنْ مُوقِفٍ مابِهِ ... أَخْوَفُ مَنْ يَعْدِلُ الْحَاكِمُ
أَبَارِزُ اللهَ بِعِصْيَانِهِ ... وَلَيْسَ لِي مِنْ دُونِهِ رَاحِمُ
يَارَبِّ عَفْوًا مِنْكَ عَنْ مُذْنِبٍ ... أَسْرَفَ إِلاَّ أَنَّهُ نَادِمُ
يَقُولُ فى اللَّيْلِ إِذَا مَادَجَى ... آهًا لِذَنْبٍ سَتَرَ الْعَالِمُ

جريرفرأى الباب مقفلا فرجع قال علىّ فبلغني ذلك فأتيته فقلت جرير ؟ فقال ما يصنع بى يظهر لى محاسن كلامه وأظهر له محاسن كلامى فلا يتزين لى ولا أتزين له خير له (ولقد لقى شيخي الإمام) أبو بكر الوراق رحمه الله تعالى (بعض العارفين فتذاكرا) أى شيخى الإمام والعارف (مليا) أى زمانا واسعا ، وفى المختار الملىّ : الزمان الطويل ، ومنه قوله تعالى « واهجرنى مليا » (ثم دعوا) أى شيخى والعارف (فى آخر حديثهما فقال شيخى الإمام للعارف ما أظننى) أى ما أظن نفسى (جلست مجلسا) هو مقر الناس فى بيوتهم ومحل اجتماعهم (أنا له) أى للمجلس (أرجى) أى أشد رجاء (من مجلسى هذا فقال له العارف لـكننى ما جلست مجلسا أنا له أخوف) أي أشد خوفا (من مجلسى هذا ألست) يا أبا بكر الوراق (تعمد) أى تقصد من باب ضرب (إلى أحسن حديثك وعلومك فتحدثنى بها) أى بالحديث والعلوم (وتظهرها بين يدل وأنا كذلك) أى مثل حالك من التحدث بالعلوم والإظهار بها (فقد وقع الرياء فبـكى شـيخى الإمام مليا) أى زمانا طويلا (ثم غشى عليه فـكان) شيخى (بعد ذلك) البـكاء (يتمثل) أى ينشد تـكرارا (بهذه الأبيات) وهى (ياويلتا) أى هلاكنا وهو مصدر لافعل له من لفظه بل من معناه وهو هلاك (من موقف مابه) أى ليس ذلك الموقف (أخوف من أن يعدل الحاكم) أى أشد وأكثر خوفا من عدله (أبارز الله) أى أظهر إليه تعالى (بعصيانه و) الحال أنه (ليس لى من دونه) أى غيره تعالى (راحم يا رب) أسألك (عفوا منك عن مذنب) اسم فاعل : أى مرتـكب الذنب (أشرف) فعل ماض صـفة مذنب : أى جاوز الحد (إلا أنه) أى لـكنه (نادم) على الذنوب (يقول فى الليل إذا ما دجي) وما زائدة ودجي من باب سما : أى إذا أظلم الليل (آها) بالمد مع تنوين الهاء : كلمة تحسر وتوجع كما صرح به الحريرى فى مقاماته (لذنب ستر العالم)

فَهٰذِهِ حَالُ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالرِّيَاضَةِ فِى مُلَاقَاتِهِمْ فَكَيْفَ حَالُ أَهْلِ الرَّغْبَةِ وَالْبَطَالَةِ بَلْ حَالُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْجَهَالَةِ .

اُعْلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ قَدْ أَصْبَحَ فِى فَسَادٍ عَظِيمٍ وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِى ضُرٍّ كَثِيرٍ فَإِنَّهُمْ يُشْغِلُونَكَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى لَا يَكَادُ يَحْصُلُ لَكَ مِنْهَا شَىْءٌ ثُمَّ يُفْسِدُونَ عَلَيْكَ مَا حَصَلَ لَكَ حَتَّى لَا يَكَادُ يَسْلَمُ لَكَ مِنْهَا شَىْءٌ فَلَزِمَتْكَ الْعُزْلَةُ وَالتَّفَرُّدُ عَنِ النَّاسِ وَالِاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هٰذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ وَاللهُ تَعَالَى الْحَافِظُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حُكْمُ الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ عَنِ النَّاسِ فَبَيِّنْ لَنَا حَالَ طَبَقَاتِ الْخَلْقِ فِيهَا وَالْحَدَّ الَّذِى يَجِبُ مِنْهَا ؟ فَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ وَإِيَّانَا أَنَّ النَّاسَ فِى هٰذَا الْبَابِ رَجُلَانِ رَجُلٌ

سبحانه وتعالى (فهذه) الحال المذكورة (حال أهل الزهد والرياضة) أى رياضة النفس وتذليلها وتهذيب الأخلاق (فى ملاقاتهم) أى لقاء بعضهم بعضا مع أنهم أعرف بما ينفعهم فى الدنيا والآخرة (فكيف حال أهل الرغبة) فى الدنيا (والبطالة) بفتح الباء : أى التعطل والإهمال عن العبادة لربهم (بل) كيف (حال أهل الشر والجهالة) الذين هم كالأنعام يأكلون ألوان الطعام ويتكلمون أنواع الكلام الذى لا يعنيهم فى أخراهم أولئك شرار خلق الله تعالى (اعلم) أرشدك الله (أن) هذا (الزمان) يعنى زمان المصنف (قد أصبح) أى صار (فى فساد عظيم) لعدم انقياد أهله للحق وإعراضهم عن الطاعات وانهماكهم فى الشهوات واللذات (وأصبح الناس فى ضر كثير فإنهم) أى الناس : أى أكثرهم (يشغلونك عن عبادة الله تعالى) بل قد يمنعونك عنها رأسا (حتى لا يكاد) أى لا يقرب (يحصل لك منها شىء ثم يفسدون عليك ما حصل لك) من العبادة (حتى لا يكاد يسلم لك منها شىء فلزمتك) أى وجبت عليك (العزلة والتفرد عن الناس) لأن فى العزلة النجاة من الفتن والخصومات ومن شر الناس ومن مشاهدة الثقلاء والسلامة من طمع الناس فيك ومن طمعك فى الناس ، فإن انقطاع طمع الناس عنك فيه فوائد ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك ، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ، وإن انقطاع طمعك عنهم فيه فائدة جزيلة فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ، ومهما اعتزل لم يشاهد وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ، أفاده العلامة محمد نووى الجاوى (و) لزمتك أيضا (الاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله) . قال بعض المحققين : ومن لطائف الاستعاذة أنه إقرار من العبد بالعجز والضعف واعتراف منه بقدرة البارى عز وجل وأنه الغنى القادر على دفع جميع المضرات والآفات (والله تعالى الحافظ) أولياءه عن اقتحام المعاصى والزلات (بفضله ورحمته . فإن قيل فما حكم العزلة والتفرد عن الناس فبين) أنت (لنا حال طبقات الخلق) أى مراتبهم وحالاتهم (فيها) أى فى العزلة (و) بين لنا (الحد الذى يجب منها ، فاعلم رحمك الله وإيانا أن الناس فى هذا الباب) أى باب العزلة والانفراد عن الناس (رجلان) : الأول (رجل

لَاحَاجَةَ بِالْخَلْقِ إِلَيْهِ فِى عِلْمٍ وَبَيَانِ حُكْمٍ فَالْأَوْلَى بِهٰذَا الرَّجُلِ التَّفَرُّدُ عَنِ النَّاسِ ، فَلاَ يُخَالِطُهُمْ إِلاَّ فِى جُمْعَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ حِجٍّ أَوْ مَجْلِسِ عِلْمٍ بِالسُّنَّةِ أَوْ حَاجَةٍ فِى مَعِيشَةٍ لَابُدَّ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ وَإِلاَّ فَيُوَارِى شَخْصَهُ وَيَلْزَمُ كِنَّهُ لَا يَعْرِفُ وَلاَ يُعْرَفُ ، فَأَمَّا إِنْ أَحَبَّ هٰذَا الرَّجُلُ أَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ فَلَا يُخَالِطُهُمْ فِى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ أَلْبَتَّةَ مِنْ دِينٍ أَوْ دُنْيَا وَجَمَاعَةٍ وَجُمْعَةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا لِمَا يَرَى لَهُ فِى ذٰلِكَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ وَفَرَاغِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسَعُهُ ذٰلِكَ إِلاَّ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَصِيرَ

لا حاجة بالخلق إليه) أى الرجل (فى علم وبيان حكم، فالأولى) أى الأفضل والأحق (بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم إلا فى) حضور (جمعة) لأنه قد ورد فى تركه وعيد فى أخبار صحيحة (أو جماعة) أى حضورها فى سائر الصلوات أيضا ، إذ لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر كعدو يرتقبه فى طريقه سواء كان إنسانا أوحيوانا أوغريما يلازمه بحيث يقاوم مايفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه وذلك لا يتفق إلا نادرا والنادر لا حكم له كما صرح به الزبيدى (أو عيد) للفطر والأضحى (أو حج) أى سفره إن استطاع إليه سبيلا كما هو ظاهر (أو) حضور (مجلس علم بالسنة) أى الطريقة النبوية (أو) طلب (حاجة فى معيشة) أى ما يعيش به (لابد له) أى لذلك الرجل (من ذلك) الحاجة فيه (وإلا) أى وإن لم ينفرد عن الناس بل أقام بينهم (فيوارى) أى يستر (شخصه) أى نفسه (ويلزم كنه) بكسر الكاف : أى بيته المخفي . قال فى المصباح : كننته أكنه من باب قتل ستره فى كنه بالكسر وهو السترة (لا يعرف) الرجل أحدا من الناس (ولا يعرف) لأحد منهم ، ولهذا قيل للفضيل بن عياض رحمه الله : إن عليا ابنك يقول لوددت أنى فى مكان أرى الناس ولا يرونى ، فبكى الفضيل وقال : يا ويح على أفلا أتمها ، فقال لا أراهم ولا يروني أخرجه صاحب الحلية . قال الزبيدى : أشار بذلك إلى أن المقام الثاني أفضل وأعلى درجة إذ فى رؤيته للناس شغل كبيرعن الله تعالى . وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أفضل المجالس مجلس فى قعر بيتك لا ترى أحدا ولا ترى أنت لأحد (فأما إن أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس) بالكلية (فلا يخالطهم فى أمر من الأمور) المطلوبة (ألبتة) أى قطعا (من دين أو دنيا وجماعة وجمعة وغيرهما) أى الدين والدنيا (لما يرى) بالبناء للمفعول : أى للأمر الذى يراه الرجل : أي يعتقده (له) أى لنفسه (فى ذلك) أى فى انقطاعه عن الناس وعدم مخالطتهم فى الأمر (من مصلحته) بيان لما (وفراغه) للعبادة بسبب فراره من الشواغل الدنيوية (فإنه) أى الحال والشأن هذا جواب قوله فأما إن أحب (لا يسعه) أى لا يجوز له (ذلك) أى المذكور من الانقطاع وعدم المخالفة (إلا بأحد أمرين) : الأول (إما أن يصير) أى يذهب الرجل

إلى مَوْضِعٍ لا يَلْزَمُهُ هُنَالِكَ هٰذِهِ الْفُرُوضُ كَرُءوسِ الْجِبالِ وَ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَنَحْوِها، وَلَعَلَّ هٰذَا أَحَدُ الْوُجُوهِ الَّتِي دَعَتِ الْعِبادَ إِلَى تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الْبَعِيدَةِ عَنِ النَّاسِ ، وَ إِمَّا أَنْ يَتَيَقَّنَ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّ الضَّرَرَ الَّذِى يُلْحِقُهُ فِى مُخَالَطَةِ النَّاسِ بِسَبَبِ هٰذِهِ الْفُرُوضِ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِهَا فَحِينَئِذٍ يَكُونُ لَهُ عُذْرٌ فِى تَرْكِها ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا بِمَكَّةَ حَرَسَهَا اللهُ بَعْضَ الْمَشَايِخِ الْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَهُوَ لاَ يَحْضُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فِى الْجَمَاعَاتِ مَعَ قُرْبِهِ مِنْهُ وَسَلاَمَةِ حَالِهِ ، فَحَاوَرْتُهُ فِى ذٰلِكَ يَوْماً فِى حَالِ تَرَدُّدِى إِلَيْهِ فَذَكَرَ

(إلى موضع لا يلزمه هنالك هذه الفروض) المذكورة كالجمعة وغيرها وذلك (كرءوس الجبال) وشعابها (وبطون الأودية ونحوها) من المواضع البعيدة عن العمران (ولعل هذا) أى عدم لزوم هذه الفروض فى الموضع المذكور (أحد الوجوه التى دعت) أى حملت وبعثت (العباد) جمع عابد من العبادة (إلى) الإقامة والملازمة فى (تلك المواضع البعيدة عن الناس) كما وقع لبعض السلف الصالحين أنه ترك الجمعة والجماعة وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى القرى فاتخذها دارا ، وبعضهم انحاز إلى قلل الجبال وشعابها ، وقيل : كان مالك بن أنس رضى الله عنه يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم ، فترك ذلك واحدا واحدا بالتدريج كلها واستمر على العزلة نحو اثنتى عشرة سنة ، وأقام عليه أهل عصره النكير وكثر فيه الكلام ، وكان إذا سئل عن انفراده يقول : لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر ، فرب عذر ينبغى عدم إفشائه . وكان سعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد قد لزما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها حتى ماتا بالعقيق ، وكل ذلك تفرغا للعبادة وفرارا من الشواغل الدنيوية كما ذكره حجة الإسلام وغيره (و) الثانى من الأمرين (إما أن يتيقن) أى الرجل المعتزل (بالحقيقة أن الضرر الذى يلحقه فى مخالطة الناس) كالتأذى منهم وغيره (بسبب هذه الفروض أعظم من تركها) أى الفروض (فحينئذ) أى حين إذ تيقن ذلك (يكون له) أى للمعتزل (عذر) مرخص (فى تركها) وهذا العذر خاصٌّ له لأن العذر إما عامٌّ وإما خاص . قال العلامة العنانى : العموم والخصوص بالنسبة للأشخاص لا للأزمنة ، فالعام هو الذى لا يختص بواحد دون آخر والخاص بخلافه . قال المصنف رحمه الله (ولقد رأيت أنا بمكة حرسها الله) جملة دعائية بزيادة الحراسة عليها وإلا فهى محروسة (بعض المشايخ المنفردين من أهل العلم وهو لا يحضر المسجد الحرام فى الجماعات مع قربه) أى بعض المشايخ (منه) أى من المسجد الحرام (و) مع (سلامة حاله) من الأعذار الحسية (فحاورته) أى راجعته فى الكلام . قال بعضهم : حاوره محاورة وحواراً جاوبه وراجعه فى الكلام (فى ذلك) أى فى عدم الحضور مع قرب المكان (يوما) من الأيام (فى حال ترددى إليه) أى إلى البعض (فذكر

مِنْ عُذْرِهِ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ أَنَّ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ لاَ يَفِي بِمَا يَلْحَقُهُ مِنَ الآثَامِ وَالتَّبِعَاتِ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسْجِدِ وَلِقَاءِ النَّاسِ . قُلْتُ أَنَا وَجُمْلَةُ الْأُمُورِ فَلاَ عَتْبَ عَلَى الْمَعْذُورِ ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالْعُذْرِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَلَكِنَّ الطَّرِيقَ الْعَدْلَ فِيهِ هُوَ الْأَوَّلُ بِأَنْ يُشَارِكَ النَّاسَ فِي الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْخَيْرَاتِ وَيُبَايِنَهُمْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ ، فَإِنْ أَحَبَّ الطَّرِيقَ الثَّانِيَ بِأَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ بِمَرَّةٍ فَسَبِيلُهُ الْخُرُوجُ إِلَى مَوَاضِعَ لاَ تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْفُرُوضُ ثَمَّ ، لِأَنَّ الطَّرِيقَ الثَّالِثَ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعَ النَّاسِ فِي مِصْرٍ وَاحِدٍ وَلاَ يَحْضُرُ جُمُعَةً وَلاَ جَمَاعَةً لِعُذْرٍ يَرَاهُ فِي ذَلِكَ مِنْ وِزْرٍ أَوْ تَبِعَةٍ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ دَقِيقٍ وَعَوَارِضَ عَظِيمَةٍ حَتَّى يَسْقُطَ ذَلِكَ عَنْهُ

البعض (من عذره ما أشرنا إليه وهو) أى ما أشرناه من الكلام (أن ما يحصل له) أى للبعض (من الثواب) أى الأجر والجزاء على العمل (لا يفى بمـا يلحقه) أى ما يلحق البعض بل يقصر عنه ولا يوازيه (من الآثام) بيان لما جمع إثم وهو الذنب (والتبعات) جمع تبعة : وهى حقوق الآدميين (فى الخروج) للجماعات (إلى المسجد) الحرام (ولقاء الناس) فى الطريق وغيره . (قلت أنا : وجملة الأمور) أى حاصل الكلام فيها (فلا عتب) أى لا لوم ولا ذم (على المعذور) بما ذكر عن بعض المشايخ (والله تعالى أعلم بالعذر وهو عليم بذات الصدور) أى بما فى القلوب من العزم على فعل المعصية والطاعة (ولكن الطريق العدل) أى الصواب (فيه) أى فى ذلك المعذور (هو الأول) وهو (بأن يشارك) المعذور (الناس فى) حضور (الجمعة والجماعات وضروب) أى أنواع (الخيرات ويباينهم) أى يفارقهم (فيما سوى ذلك) أى المذكور من الجمعة وما بعدها (فإن أحب) أى المعذور واختار (الطريق الثانى) وهو (بأن ينقطع عن الناس بمرة) يعنى بالكلية فلا يعرف الناس ولا يعرفونه (فسبيله) أى طريق المعذور فى الانقطاع عنهم (الخروج) والارتحال (إلى مواضع) بعيدة كرءوس الجبال والمفازة (لا تتوجه) أى تستقبل (عليه) أى المعذور (هذه الفروض) المذكورة (ثم) بفتح الثاء : أى فى تلك المواضع البعيدة (لأن الطريق الثالث ، وهو أن يكون مع الناس فى مصر واحد) أى فى بلد واحد أو قرية واحدة ، ومع ذلك (لا يحضر جمعة ولا) يحضر (جماعة لعذر) من الأعذار المعنوية (يراه) أى يرى المعذور ذلك العذر (فى ذلك) أى فى عدم الحضور إلى الجمعة والجماعة (من وزر) أى إثم (أو تبعة) أى ما يتبعه (عليه) أى على المعذور من الحقوق (فإنه) أى الطريق الثالث ، وهذا خبر قوله لأن الطريق (يحتاج إلى نظر) أى تأمل (دقيق وعوارض) أى ما يعترضه عليه من آفات (عظيمة حتى يسقط ذلك) أى المذكور من الفروض (عنه) أى عن الشخص المعذور

وَفِيهِ خَطَرٌ مِنَ الْغَلَطِ ، فَالْأَوَّلَانِ أَسْلَمُ وَأَحْفَظُ لَهُ ، وَاللهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا الرَّجُلُ الثَّانِي : فَرَجُلٌ يَكُونُ قُدْوَةً فِي الْعِلْمِ بِحَيْثُ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ لِبَيَانِ حَقٍّ أَوْ رَدٍّ عَلَى مُبْتَدِعٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِلَى خَيْرٍ بِفِعْلٍ أَوْ بِقَوْلٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، فَلَا يَسَعُ مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ الْاعْتِزَالُ عَنِ النَّاسِ

(و) حاصل الكلام يثبت (فيه) أى فى الطريق الثالث (خطر من الغلط) وهو ضد الصواب (فالأولان) أى الطريق الأول والثانى (أسلم وأحفظ له) أى للشخص من الطريق الثالث (والله ولى الهداية بفضله) ومنته (وأما الرجل الثانى فرجل يكون قدوة) بكسر القاف ويجوز ضمها ، كذا قاله الرشيدى كما فى المصباح وعكس ذلك فى المصباح : أى يقتدى به (فى العلم) ومثل هذا الرجل كما قاله حجة الإسلام وغيره المحتاج إلى تعلم ما هو فرض عليه إما عينا أو كفاية فهو عاص بالعزلة لفواته وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل فإن ذلك القدر يكفيه وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل ويتأتى منه تحصيلها فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران ، ولهذا قال إبراهيم بن يزيد النخعى وغيره من أهل العلم : تفقه ثم اعتزل ، قال الزبيدى : أى حصل من علوم الشرع ما تؤدى به فرضك ليكون بناء أمرك على أساس محكم ، ومن اعتزل قبل التعلم لما هو لازم عليه فهو فى الأكثر مضيع أوقاته إما بنوم فى غالب أوقاته أو فكر فى هوس واختلاط ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد من أذكار وأحزاب يستوعبها ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يغره الشيطان بها يخيب سعيه ويبطل عمله من حيث لا يدري ولا ينفك اعتقاده فى الله عز وجل وصفاته عن أوهام وأباطيل يتوهمها فى نفسه ويأنس بها ويألف إليها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها ولا يكاد يتخلص منها فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد ويتخيل إليه أنه فى زمرتهم فالعلم هو أصل الدين وأساسه الذى لا يتم إلا به فلا خير إذا فى عزلة العوام والجهال ، بل الأفضل فى حقهم الاختلاط ومعاشرة أهل العلم ليتعلموا ما وجب عليهم ، أعنى بهؤلاء من لا يحسن العبادة فى الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزمه فيها ولو بطريق التقليد ؛ فمثال النفس مثال مريض يفتقر إلى طبيب متلطف ليعالجه فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لا محالة مرضه فلا تليق العزلة إلا بالعالم الماهر ؛ وأما كون الرجل مقتدي به فى العلم فهذا (بحيث يحتاج الناس إليه) أى المقتدي به (فى أمر دينهم لبيان حق أو رد على مبتدع أو دعوة إلى خير بفعل أو بقول أو نحو ذلك) أي من الخصلة الحميدة (فلا يسع) أى لا يجوز (مثل هذا الرجل) الذي يكون قدوة للناس (الاعتزال) أى الانفراد (عن) مخالطة (الناس) لأن ما ذكر من التعليم والتعلم أعظم العبادات فى الدنيا ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة مع الناس فإن الانسان لا يتعلم بنفسه فلا بد من

بَلْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ بَيْنَهُمْ نَاصِحًا لِخَلْقِ اللهِ تَعَالَى ذَابًّا عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى مُبَيِّناً لِأَحْكَامِ اللهِ ، فَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ وَسَكَتَ الْعَالِمُ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ » هٰذَا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ ، وَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَلاَ يَجُوزُ لَهُ أَيْضًا الِاعْتِزَالُ . وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْأُسْتَاذَ أَبَا بَكْرِ بْنَ فَوْرَكَ رَحِمَهُ اللهُ قَصَدَ أَنْ يَنْفَرِدَ لِعِبَادَةِ اللهِ عَنِ النَّاسِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي بَعْضِ الْجِبَالِ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا يُنَادِي : يَا أَبَا بَكْرٍ إِذْ صِرْتَ مِنْ حُجَجِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ تَرَكْتَ عِبَادَ اللهِ ،

شيخ يريه طريق العلم ، وكذا التعليم يحتاج إلى تعديه للغير فلا بد من المخالطة (بل ينصب) بكسر الصاد من باب ضرب : أي يقيم (نفسه بينهم) أي الناس (ناصحا) أي مريدا للخير (لخلق الله تعالى ذابا) أي مانعا للباطل (عن دين الله تعالى مبينا) ومظهرا (لأحكام الله) جمع حكم وهو لغة : إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه . واصطلاحا: خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين من حيث إنهم مكلفون: أي كلامه القائم بذاته المتعلق بأفعال العباد تعلقا تنجيزيا كالمتعلق بالمكلفين ، أو تعلقا معنويا كالمتعلق بغير المكلفين فانه متعلق بهم بمعنى أنهم إذا كلفوا خوطبوا به على سبيل التنجيز ، أفاده الشوبرى (فلقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا ظهرت البدع) أي المذمومة المخالفة للشرع كما قاله العزيزى (وسكت العالم) عن علمه (فعليه لعنة الله) أى الإبعاد والطرد عن رحمته تعالى ، وهذا الحديث لم أظفر له بسند لكن معناه صحيح ، ففى الجامع الصغير « إذا ظهرت البدع ولعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فلينشره فان كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد فليلجم يوم القيامة بلجام من نار » . رواه ابن عساكر فى تاريخه عن معاذ بن جبل (هذا) أى عدم جواز الاعتزال (إذا كان) أى الرجل المقتدى به مقيما (بينهم وإذا خرج من بينهم فلا يجوز له أيضا) أى كما لايجوز إذا كان مقيما عندهم (الاعتزال) بل هو أكبر الكبائر إن صودف طالب لله تعالى ومتقرب فى العلم إلي الله تعالى ، لأن منع العلم عن أهله ظلم كما قاله حجة الإسلام (ولقد حكى أن الأستاذ أبا بكر بن فورك) هو محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهاني بلغت مصنفاته فى أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريبا من مائة مصنف ، وكانت وفاته سنة ست وأربعمائة . وفورك بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء وبعدها كاف وهو اسم علم كذا فى سراج السالكين (رحمه الله) رحمة واسعة (قصد أن ينفرد لعبادة الله عن) مخالطة (الناس فبينما هو فى بعض الجبال إذ سمع) جواب بينما (صوتا ينادى يا أبا بكر إذ صرت من) جملة من قام بحجة دينية من (حجج الله) بضم الحاء جمع حجة أى أدلة دينه (على خلقه) يعنى أن كلامه حجة لهم كالأدلة التى تثبت بها الأحكام لعلمهم بأن مايقوله هو المنقول كما أفاده العلامة الشبراملسي (تركت عباد الله) من غير أن تعلمهم فرائض

فَرَجَعَ وَكَانَ هٰذَا سَبَبَ صُحْبَتِهِ لِلْخَلْقِ . وَذَكَرَ لِى مَأْمُونُ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الْأُسْتَاذ أَبَا إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ لِعُبَّادِ جَبَلِ لُبْنَانَ : يَا أَكَلَةَ الْحَشِيشِ تَرَكْتُمْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم فى أَيْدِى الْمُبْتَدِعَةِ وَاشْتَغَلْتُمْ هَاهُنَا بِأَكْلِ الْحَشِيشِ ، قَالُوا لَهُ : إِنَّا لَا نَقْوَى عَلَى صُحْبَةِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا أَعْطَاكَ اللهُ قُوَّةً فَلَزِمَكَ ذٰلِكَ ، فَصَنَّفَ بَعْدَ ذٰلِكَ كِتَابَهُ : [الْجَامِعَ لِلْجَلِىِّ وَالْخَفِىِّ] وَكَانَ لَهُمْ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ مَعَ غَزَارَةِ عِلْمِهِمْ الْعَمَلُ الْجَمُّ وَالنَّظَرُ الدَّقِيقُ فى سُلُوكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ مِثْلَ هٰذَا الرَّجُلِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ النَّاسُ فى طُرُقِ بَابِ الدِّينِ يَحْتَاجُ فى صُحْبَةِ الْخَلْقِ إِلَى أَمْرَيْنِ شَدِيدَيْنِ : أَحَدُهُمَا صَبْرٌ طَوِيلٌ

دينهم ونوافله (فرجع) أبو بكر إلى مخالطتهم (وكان هذا) أى سماع النداء (سبب صحبته للخلق . وذكر لى مأمون بن أحمد رحمه الله أن الأستاذ أبا إسحاق) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفراينى الملقب بركن الدين الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى ، توفى سنة ثمان عشرة وأربعمائة (رحمه الله قال لعباد) جمع عابد (جبل لبنان) بضم اللام جبل بالشام كما فى القاموس (يا أكلة الحشيش) جمع آكل : أى الذين يأكلون الكلأ اليابس (تركتم أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى أيدى المبتدعة واشتغلتم ههنا) أى فى جبل لبنان (بأكل الحشيش ، قالوا) أى العباد (له) أى للأستاذ (إنا لانقوى على صحبة الناس) ومخالطتهم (وإنما أعطاك الله قوة) عليها (فلزمك ذلك) أى المذكور من الصحبة والمخالطة (فصنف) الأستاذ (بعد ذلك) أى بعد سماع الجواب من عباد لبنان بقولهم : لا نقوى على الصحبة (كتابه الجامع للجلى والخفى) أى للظاهر والباطن (وكان لهم) أى لعباد لبنان (رضى الله عنهم مع غزارة) أى كثرة (علمهم العمل الجم) أى الكثير (والنظر الدقيق فى سلوك طريق الآخرة . واعلم أن مثل هذا الرجل) المقتدى به فى العلم (المحتاج إليه الناس فى طرق باب الدين يحتاج فى صحبة الخلق) ومعاشرتهم (إلى أمرين شديدين : أحدهما صبر طويل) على مايناله من الأذى الحاصل من صحبتهم ، وهو مقام شريف أثنى الله عليه فى كتابه وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » فجعل سبحانه وتعالى الصابرين أئمة المتقين ، وقرن الصبر باليقين ، وأن بالصبر واليقين ينال الأمانة فى الدين . وقال تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر فقد أوجب الجزاء للمتصف به بغير حساب وحد ، ودل ذلك على أنه من أفضل المقامات ، وقال تعالى « واصبروا إن الله مع الصابرين » فهذا إخبار منه تعالى أنه معهم .

قال العلامة الزبيدي : أى معية تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ليست معية عامة ، أعنى معية العلم والإحاطة ، ومن كان معه الله غلب كمن كان معه عدة ، وهـذا كما قال « وأنتم الأعلون والله معكم » واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول . وأما الأخبار الواردة فى فضيلة الصبر فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » . رواه أبو نعيم والخطيب والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود ، وقال صلى الله عليه وسلم « الصبر كنز من كنوز الجنة » هكذا ذكره الغزالى وقال صلى الله عليه وسلم « فى الصبر على ماتـكره خير » ، قال العراقي : رواه الترمذى من حديث ابن عباس ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الصبر رجلا لـكان كريما والله يحب الصابرين » قال العراقى رواه الطبراني من حديث عائشة. وقال المسيح عليه السلام « إنـكم لاتدركون ماتحبون إلا بصبركم على ما تـكرهون » وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقي أني أنا الصبور . نقله صاحب الرسالة . وقال على كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل ، وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » بكى وقال : واعجباه أعطى وأثنى : أى هو المعطى الصبر وهو المثنى . قال الزبيدى : والرب إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه ، لأن أعمالهم من خلقه ، والأخبار والآثار فى ذا الباب مما لاتحصى ، وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب : واعلم أن الصبر فى اللغة : الحبس والـكف فى ضيق ، ومنه قتل فلان صبرا إذا أمسك وحبس للقتل . قال تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم » الآية : أى احبس نفسك معهم ، وهو ضربان : ضرب بدني ، ويقال له الجسمى أيضا ، وذلك كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها على قدر قوة البدن ، ونهايته معلومة وأكثرها لذوى الجسوم الخشنة ، وليس ذلك بفضيلة تامة ، ولهذا قال الشاعر :

والصبر بالأرواح يعرف فضله صبر الملوك وليس بالأجسام

وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة : إما من العبادات كأن يصلى حتى ترم رجلاه أو يصوم مواصلا حتى تسقط قوته ، أو من غيرها كالمشى الـكثير ورفع الحجر الثقيل ، وإما بالاحتمال وهو الانفعالى كالصبر على الضرب الشديد بالمقارع والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع نصا أو قياسا أو استحبابا ولـكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى وذلك بأن يكف النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى وبه تتعلق الفضيلة . ثم هذا الصبر ضربان : إن كان صبرا عن تناول شهوة البطن والفرج سمى عفة ، فالعفة لاتتعلق إلا بالقوى الشهوية ، ولا تتعلق من القوى الشهوية إلا بالملاذ الحيوانية وهى المعلقة بالغارين البطن والفرج دون الألوان الحسنة والألحان الطيبة والأشكال المنتظمة ، والعفة أس الفضائل وإنما تتعلق بضبط القلب عن التطلع للشهوات البدنية ، ومن اعتقاد ما يكون جالبا للبغى والعدوان ، وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح ، وإن كان عن احتمال مكروه وهو الضرب الثانى ، فهذا قد اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المـكروه الذى غلب عليه الصبر ، وأخص من ذلك اختلفت أساميه بحسب اختلاف مواقعه فان كان ذلك فى نزول مصيبة اقتصر به على اسم الصبر ولم يتعدّ به هذا الاسم

وَحِلْمٌ عَظِيمٌ وَنَظَرٌ لَطِيفٌ

وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع والحزن ، وهو إطلاق دواعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود ولدم الصدور وشق الجيوب وغيرها مما يشاكلها وإن كان ذلك فى إحتمال الغنى ، فقد سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر . وقال بعضهم : ضبط النفس فى الأشياء الملذة ، والصبر يقال فى الأشياء المحزنة . وقال بعضهم : بل هما فى الأسماء المترادفة على معنى واحد ، وإن كان ذلك فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن ؛ وإن كان فى كظم وهو إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حلما ويضاده التذمر بالذال المعجمة ؛ وإن كان فى بذل المال وإنفاقه سمى سخاء ويضاده التبذير ؛ وإن كان ذلك فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة : أى مقلقة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان فى إخفاء كلام وإمساكه فى الضمير سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما ويضاده الإفشاء ؛ وإن كان من فضول العيش سمى زهدا ويضاده الحرص ؛ وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره ، فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر ولذلك لما سئل عليه الصلاة والسلام مرة عن الإيمان قال هو الصبر ، لأنه أكثر أعماله وأعزها فحينئذ أقسام الصبر مختلفة باختلاف متعلقاتها ؛ ومن يأخذ المعانى من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامى مختلفة ، وهذا نظر قاصر ؛ والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله مما أفيض به على بصيرته يلحظ المعاني أوّلا فليطلع على حقائقها الأصلية ، ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى ؛ فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع ، ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل قدمه ، وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : « أفمن يمشى مكبا » يعثر كل ساعة ويخر « على وجهه أهدى » لوعرة طريقه واختلاف أجزائه ، ولذلك قابله بقبوله «أم من يمشى سويا» قائما سالما من العثار «على صراط مستقيم» مستوى الأجزاء والجهة ، فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات فكان سببا لعثارهم ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه آمين (وحلم) بكسر الحاء : أى ضبط النفس عند هيجان الغضب كما يأتي (عظيم ونظر لطيف) أى رفيق بالناس . واعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم : أى تكلف الحلم ، لأن صيغة التفعل فى الأكثر للتكلف ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فى دفعه إلى مجاهدة شديدة ورياضة بليغة ، ولكن إذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ بقوة ، وإن هاج يوما فلا يكون فى كظمه تعب لخفة وطأته وهو الحلم الطبيعى ، ولذا عبر عنه بعضهم بأنه الطمأنينة عند سورة الغضب ، ومنهم من قال هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب ، وفى معناه من قال : هو احتمال الأذى أو رفع المؤاخذة عن مستحقها بجناية فى حق مستعظم ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل بحيث لا تثور إلا حيثما يأمر العقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا . قال صلى الله عليه وسلم

وَٱسْتِعَانَةٌ بِاللهِ تعالى دَائِمَةٌ . وَالثَّانِى : أَنْ يَكُونَ فى هٰذَا المَعْنَى مُنْفَرِدًا عَنْهُمْ ، وَإِنْ كَانَ بِالشَّخْصِ مَعَهُمْ ، فَإِنْ كَلَّمُوهُ كَلَّمَهُمْ ، وَإِنْ زَارُوهُ عَظَّمَهُمْ

« إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه » قال العراقى : رواه الطبراني من حديث أبى الدرداء . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم أغنى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية » . قال الزبيدى رواه ابن النجار فى التاريخ ، والرافعى فى تاريخ قزوين من حديث ابن عمر . وقال عطاء بن أبى رباح : « يمشون على الأرض هونا » : أى حلما . وقال ابن أبى حبيب فى قوله تعالى « وكهلا » قال الكهل : منتهي الحلم ، وقال مجاهد : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » : أى إذا أوذوا صفحوا . قال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وقال على رضى الله عنه : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا تباهى الناس بعبادة الله وإذا أحسنت حمدت الله تعالى وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . أخرجه ابن أبى الدنيا في ذم الغضب والأدلة فى بيان فضيلة الحلم كثيرة وفيما ذكرنا كفاية لذوى العقول (واستعانة بالله تعالى دائمة) فى جميع أقواله وأفعاله (والثانى) من الأمرين الشديدين (أن يكون) الرجل المقتدى به فى العلم (فى هذا المعنى) أى من صحبة الناس (منفردا) بالقلب (عنهم وإن كان بالشخص) أى بالجسم (معهم) وفى الأثر : خالطوا الناس بأعمالهم وزايلوهم بالقلوب . كذا فى القوت؛ وأخرج العسكرى فى الأمثال من حديث ثوبان : خالطوا الناس بأخلاقكم وخالفوهم (فإن كلموه) أى إن كلم الناس للرجل بكلام حسن (كلمهم) أى وافق ذلك الرجل إياهم في الكلام ، لأن الموافقة فى الكلام والفعل والشفقة قوام الأخوة وأساسها كما قاله حجة الإسلام . قال أبو عثمان الحيرى : موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم : أى التى فيها المخالفة كما صرح به الزبيدى ؛ ولأن المخالفة والمماراة مذمومة ، وفى حديث أبى أمامة الباهلي رضى الله عنه قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمارى فغضب وقال : ذروا المراء لقلة خيره ، وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان » . قال العراقى أخرجه الطبرانى فى الكبير وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته ، وفى حديث على رضى الله عنه قال « من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته وحرمت غيبته » كذا نقله الزبيدى عن القوت . وقال عبد الله بن الحسن البصرى : إياك ومماراة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم (وإن زاروه عظمهم) وأكرمهم بأنواع التعظيم والإكرام مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة وإذا رجعوا من مكانه شيعهم . قال الحسن البصرى رحمه الله : من شيع أخاه فى الله بعث الله له ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة . كذا فى القوت ؛ ومعنى التشييع أن يتبعه عند رحيله إكراما له كما قاله الزبيدى

عَلَى قَدْرِهِمْ وَشُكْرِهِمْ ، وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ اسْتَغْنَمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا فِى حَقٍّ وَخَيْرٍ سَاعَدَهُمْ ، وَإِنْ صَارُوا إِلَى لَغْوٍ وَشَرٍّ خَالَفَهُمْ وَهَجَرَهُمْ بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ وَزَجَرَهُمْ إِنْ رَجَا قَبُولَهُمْ ، ثُمَّ يَقُومُ بِجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ مِنَ الزِّيَارَاتِ وَالْعِيَادَاتِ

(على قدرهم) أى وذلك التعظيم على اختلاف مرتبة الزائرين ؛ وهو كما قال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب ، ومع أبناء الآخرة بالعلم ، ومع العارفين كيف شئت كذا فى القوت . قال العلامة الزبيدى : والمراد بالعلم معرفة الفقه الباطن ومن جملته حفظ الخواطر الرديئة (وشكرهم)أى شكر المزور فعل الزائرين وأثنى لهم بما يعرف من محاسن أحوالهم فإن ذلك من أعظم الأسباب فى جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولادهم وأهلهم حتى على علمهم وتصنيفهم وجميع ما يفرحون به وذلك من غير كذب وإفراط كما قاله بعض المحققين (وإن سكتوا) أى الخلق (عنه) أى عن التكلم بهذا الرجل (وأعرضوا عنه) أى عن الرجل بأن لم يقبلوا عليه (استغنم) أى طلب الغنيمة (ذلك) السكوت والإعراض (منهم) وذلك بأن يشتغل فى وظائفه الخاصة به (وإن كانوا فى حق وخير) من أنواع الطاعات (ساعدهم) أى عاونهم ، وفى المختار المساعدة المعاونة (وإن صاروا إلى لغو وشر خالفهم) لأنه ليس من الوفاء بالصحبة موافقتهم فيما يخالف الحقّ الصريح فى أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء لهم المخالفة فيه كما صرّح به حجة الاسلام (وهجرهم) أى تركهم فى الصحبة والمخالطة ؛ وعليه قيل : مقاطعة الأحمق قربان إلى الله تعالى ، وقد جاء فى بعض الأخبار : إياك أن تصحب جاهلا فتجهل بصحبته أو غافلا عن مولاه متبعا لهواه فيصدّك عن سبيله فتردى كما قال تعالى « فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون » (بل رد عليهم) أفعالهم القبيحة (وزجرهم) أى نهاهم عن ذلك ونصحهم بأن يذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه ويخوفهم بما يكرههم فى الدنيا والآخرة لينزجروا عنه وينبههم على عيوبهم ، ولكن ينبغى أن يكون ذلك فى سر لايطلع عليه أحد فما كان على الملأ فهو مقابح وفضيحة ، وما كان فى السر فهو شفقة ونصيحة . وقال الشافعى رضى الله عنه : من وعظ أخا سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشأنه ، وذلك (إن رجا قبولهم) لذلك الزجل والنصح (ثم يقوم بجميع حقوقهم من الزيارات) لقوله صلى الله عليه وسلم « مازار رجل رجلا فى الله شوقا إليه ورغبة فى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة » قال العراقى رواه ابن عدى من حديث أنس ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن رجلا زار أخا له فى الله فأرصد الله له ملكا فقال أين تريد ؟ قال أريد أن أزور أخى فلانا ، فقال لحاجة لك عنده ؟ قال لا ، قال لقرابة بينك وبينه ؟ قال لا ، قال فبنعمة له عندك ؟ قال لا ، قال فبم ؟ قال أحبه فى الله ، قال فان الله أرسلنى إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة » قال العراقى رواه مسلم عن أبى هريرة (والعيادات) لمرضاهم

وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ الَّتِي تُرْفَعُ إِلَيْهِ مَا أَمْكَنَهُ وَلاَ يُطَالِبُهُمْ بِالْمُكَافَآتِ

فالمعرفة : أي التعرف والاسلام كافيان فى إثبات الحق ونيل فضله . قال الزبيدى : والظاهر أن كلا منهما شرط ، فاذا عدم أحدهما سقط حق العيادة ، وقد جاءت فى فضيلة العيادة أخبار : منها قوله صلى الله عليه وسلم « من عاد مريضا قعد فى مخارف الجنة » أى مجانى ثمارها «حتى إذا قام وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى الليل » قال العراقي رواه أصحاب السنن والحاكم من حديث علي . وقوله صلى الله عليه وسلم « إذا عاد الرجل المريض خاض فى الرحمة ، فاذا قعد عنده قرت» قال العراقى رواه الحاكم والبيهقي من حديث جابر. وقوله صلى الله عليه وسلم «إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوأت منزلا فى الجنة » . قال العراقى رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة . قال حجة الاسلام وغيره : وأدب العائد للمريض أمور : أحدها خفة الجلسة عنده لئلا يمل المريض منه ؛ فقد روى الديلمى من حديث أبى هريرة « من تمام العيادة خفة القيام عند المريض » . وثانيها قلة السؤال عن أحواله ،فإن كثرته تضجره . وثالثها إظهار الرقة له . ورابعها الدعاء له بالعافية . وخامسها غض البصرعن عورات الموضع ، فان هـذا ربمـا يكدر خاطر المريض . وسادسها أنه إذا جلس عنده فعرض عليه طعام أو شراب فلا يأكل ولايشرب ، فقد روى الديلمى من حديث أبي أمامة « إذا عاد أحدكم مريضا فلا يأكل عنده فإنه حظه من عيادته » وآدابه عند الاستئذان أن لايقابل الباب فى وقوفه فإنه ربمـا يقع بصره عند فتحه على مالا يحل له النظر إليه ، بل يقف فى طرف منه وإذا دق الباب يدق برفق ولين لابانزعاج ولا يقول أنا إذا قيل من بالباب فقد ورد النهى عن ذلك ، ولا يقول ياغلام ياولد ياجارية لـكن يحمد ويسبح ويهلل معلنا بذلك ، وإن قال فلان بن فلان فلا بأس بذلك ، لأن المقصود الإعلام وهو يحصل بذكر الاسم أكثر من التسبيح وإن جمع بينهما فحسن (وقضاء الحاجات التى ترفع إليه ما أمكنه) ذلك القضاء والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجات الخاصة المتعلقة بنفسه ولـكن مع البشاشة وإظهار الفرج وقبول المنة . قال جعفر بن محمد : إنى لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائى مخافة أن أردهم فيستغنوا عنى كذا فى القوت . قال حجة الاسلام هـذا في الأعداء فـكيف في الأصدقاء . وقال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضهافذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى ، فان لم يقضها فعاوده ثالثة فقد يكون شغل عنها بعذر ، فإن لم يقضها بعد ذلك فـكبر عليه واقرأ هذه الآية « والموتى يبعثهم الله » قال الزبيدى : أى صوره فى نفسك كأنه ميت فصل عليه صلاة الجنازة بالتكبيرات ، وإنما شبهه بالموتى إذ لا أنس فيه كما أن الميت لايستأنس به ؛ قضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة ، فجاءه بهدية فقال ابن شبرمة ما هذا ؟ فقال لما أسديته إلى ، فقال خذ مالك عافاك الله إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها فتوضأ وضوءك للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى ، نقله صاحب القوت (ولا يطالبهم) أى الخلق (بالمكافآت) أى المجازاة بالإحسان إليه ، بل لو فرض أنه كان أحسن إليهم

وَلاَ يَرْجُو ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَلاَ يُرِيهِمْ مِنْ نَفْسِهِ اسْتِيحَاشاً لِذٰلِكَ وَيُبَاسِطهُمْ بِالْبَذْلِ إِنْ قَدَرَ وَيَنقَبِضُ عَنْهُمْ فِى الأَخْذِ إِنْ أُعْطِىَ ، وَيَتَحَمَّلُ مِنْهُمُ الْأَذَى ، وَيُظْهِرُ لَهُمُ الْبِشْرَ وَيَتَجَمَّلُ بِظَاهِرِهِ لَهُمْ ، وَيَكْتُمُ حَاجَاتِهِ عَنْهُمْ فَيُقَاسِيهَا بِنَفْسِهِ وَيُعَالِجُهَا فِى سِرِّهِ وَبَاطِنِهِ ، ثُمَّ يَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً فَيَجْعَلَ لَهَا حَظًّا مِنَ الْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ : إِنْ نِمْتُ اللَّيْلَ لَأُضَيِّعَنَّ نَفْسِى ، وَإِنْ نِمْتُ النَّهَارَ لَأُضَيِّعَنَّ الرَّعِيَّةَ . فَكَيْفَ لِى بِالنَّوْمِ بَيْنَ هَاتَيْنِ ،

ثم صار فقيرا فلا يطلب الإحسان منهم كما صرح به العلامة الدسوقى (ولا يرجو ذلك) المكافآت والمجازاة (منهم) أى الخلق بل يرجوها من خالقهم (ولا يريهم من نفسه استيحاشا) أى عدم استئناس . وفى المصباح : الوحشة بين الناس هى الانقطاع وبعد القلوب عن المودات (ويباسطهم بالبذل) أى يوسعهم بالعطاء (إن قدر) على ذلك (وينقبض) أى يتأخر ، وذلك بأن لا يأخذ (عنهم فى الأخذ) أى أخذ عطائهم (إن أعطى) بالبناء للمفعول (ويتحمل منهم الأذى ويظهر) بضم الياء من أظهر (لهم البشر) بكسر الباء : أى طلاقة الوجه والفرح والبشاشة (ويتجمل) أى يتزين (بظاهره لهم ويكتم) أى يخفى (حاجاته عنهم فيقاسيها) أى يلازم المكابدة والشدة فى حاجاته . وفى القاموس : قاسى الأمر كابده (بنفسه ويعالجها) أى يزاولها (فى سره) أى قلبه (وباطنه) مرادف ماقبله كما قرره بعضهم (ثم يحتاج مع ذلك) أى المذكور من المقاساة والمكابدة (أن ينظر لنفسه خاصة) أى ما يختص به من الطاعات كما يدل عليه قوله (فيجعل لها) أى لنفسه (حظا) أى نصيبا (من العبادة الخالصة كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه) وهو أول من سمى بأمير المؤمنين . وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرة قال : كان يكتب من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرادوا أن يقولوا خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : هذا يطول قالوا لاولكنا أمرناك علينا وأنت أميرنا . قال نعم أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فكتب أمير المؤمنين ، ولا ينافى ماتقرر أن عبد الله بن جحش فى سريته التى نزل فيها قوله تعالى « يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه » الآية سمى أمير المؤمنين ، لأن تلك تسمية كانت خاصة والكلام فى تسمية الخليفة بذلك ، فعمر أول من وضع عليه هذا الاسم من حيث الخلافة . ومناقبه رضى الله عنه جمة ، وإن أردت ذلك فلتنظر إلى كتاب الصواعق للعلامة ابن حجر الهيتمى تجد ما تروم (إن نمت) بكسر النون (الليل لأضيعن) بالنون الثقيلة (نفسى) بترك أورادها الخاصة لها . وكان رضى الله عنه كثير الصلاة فى وسط الليل كما هو عند ابن شيبة وغيره (وإن نمت النهار لأضيعن الرعية) لأنه يشتغل عنهم فيضيع أمرهم . (فكيف لى بالنوم بين هاتين) المدتين ، وهما الليل والنهار ، وهذا يدل على

وَفى هٰذَا الْمَعْنَى عُرِضَ لِى أَبْيَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ ، وَهِىَ :

فَإِنْ كُنْتَ فى هَدْىِ الْأَئِمَّةِ رَاغِباً ... فَوَطِّنْ عَلَى أَنْ تَنْتَحِيكَ الْوَقَائِعُ
بِنَفْسٍ وَقُورٍ عِنْدَ كُلِّ كَرِيهَةٍ ... وَقَلْبٍ صَبُورٍ وَهْوَ فى الصَّدْرِ مَانِعُ
لِسَانُكَ مَخْزُونٌ وَطَرْفُكَ مُلْجَمٌ ... وَسِرُّكَ مَكْتُومٌ لَدَى الرَّبِّ ذَائِعُ
وَذِكْرُكَ مَغْمُورٌ وَبَابُكَ مُغْلَقٌ ... وَثَغْرُكَ بَسَّامٌ وَبَطْنُكَ جَائِعُ
وَقَلْبُكَ مَجْرُوحٌ وَسُوقُكَ كَاسِدٌ ... وَفَضْلُكَ مَدْفُونٌ وَطَعْنُكَ شَائِعُ

شدة احتياطه في أمور الدين وإقباله عليها كما علم من مناقبه رضى الله عنه ، وقد فهمت بما ذكرناه أنه يتقدم على العبادات البدنية أمران : أحدهما العلم ، والآخر الرفق بالمسلمين والنظر فى مصالحهم ، لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل فى نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات بتعدى فائدتهما إلى الغير وانتشار نفعهما فكانا مقدمين على سائر العبادات لذلك كذا فى الإحياء (وفى هذا المعنى) أى معنى قول سيدنا عمر رضي الله عنه (عرض) بالبناء للمفعول : أى أظهر وأبرز (لى أبيات من الشعر) الموسوم ببحر الطويل (وهى) أى الأبيات هذه (فإن كنت فى هدى الأئمة) أى سيرهم (راغبا) أى مريدا ومتوجها إلى ذلك (فوطن) أمر من التوطين بمعنى التمهيد (على أن تنتحيك) أى تقصدك ، يقال انتحاه انتحاء قصده وله اعتمد وعرض له وفى نسخة ترتكبك ، كذا فى سراج السالكين (الوقائع) أى الأمور التى تقع شديدة أو غيرها ، وهو جمع وقيعة كما يعلم من صنيع المختار (بنفس وقور) أى حليم (عند كل كريهة) أى أمور مكروهة للنفس (وقلب صبور) أى كثير الصبر (وهو) بسكون الهاء : أى ذلك القلب (فى الصدر مانع) عن الوقوع فيما لا يليق ، وهذا تكملة للبيت (لسانك مخزون) أى مصون ومكتوم (وطرفك) أى عينك (ملجم) بفتح الجيم على صيغة اسم المفعول : أى مقيد ومحبوس عن النظر فيما لا يحل ولا ينفع فى الدارين (وسرك) أى ما يخفيه قلبك (مكتوم) وهو (لدى) أى عند (الرب) تعالى (ذائع) أى ظاهر لا يخفى عليه شىء ، لأن الباطن كالظاهر بالنسبة لعلمه تعالى بخلافه عند الخلق (وذكرك مغمور) أى مستور (وبابك مغلق وثغرك) وهو ما تقدم من أسنانك (بسام) أى ضاحك كما قاله العلامة عبد الحق (وبطنك جائع وقلبك مجروح) أى كأنه أصابه الجرح من شدة تحمله ما يناله من صحبة الناس ومقاساة حوائج نفسه (وسوقك كاسد) أى غير نافق ورائج . قال العلامة عبد الحق : كسد الشىء وكسد يكسد كسادا وكسودا لم ينفق لقلة الرغاب فهو كاسد وكسيد ، وكسدت السوق لم ينفق ما بها فهى كاسد وكاسدة (وفضلك مدفون وطعنك) أى عيبك (شائع) أى منتشر .

وَفى كلِّ يَوْمٍ أَنْتَ جَارِعُ غُصَّةٍ ... مِنَ ٱلدَّهرِ والإِخْوَانِ وَالْقَلبُ طَائِعُ

نَهَارُكَ شَغْلُ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ مِنَّةٍ ... وَلَيْلُكَ شَوْقٌ غَابَ عَنْهُ الطَّلَائِعُ

فَدُونَكَ هٰذَا اللَّيْلَ خُذْهُ ذَرِيعَةً ... لِيَوْمٍ عَبُوسٍ عَزَّ فِيـهِ الذَّرَائِعُ

نَعَمْ يَكُونُ بِالنَّفْسِ مَعَهُمْ ، وَالْقَلْبُ مَا أَبْعَدَهُ عَنْهُمْ ! وَذٰلِكَ لَعمْرِى أَمْرٌ شَدِيدٌ وَعَيْشٌ نَـكِدٌ ، وَفِيهِ يَقُولُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ فى وَصِيَّتِهِ :

(وفي كل يوم أنت جارع) أى بالع (غصة) أى ما تغص به ، وهـذا كناية عن التـكره والأذى قد نالهما (من) حوادث (الدهر) أى الزمان (و) من (الاخوان والقلب طائع) أى مطيع (نهارك شغل) إصـلاح (الناس من غير منة) أى تعداد النعم بأن تقول لمن أنعمت عليه فعلت معك كذا وكذا ، لأن ذلك مذموم إلا من الله والشيخ والوالدين فليس مذموماً (وليلك شوق) أى اشتياق ومحبة إلى ربك وذلك بملازمة الطاعات التى تختص بك من بين سائر الناس (غاب عنه) أى الشوق (الطلائع) أى النواظر (فدونك هذا الليل) قيل إنه اسم فعل أمر بمعنى خذ والـكاف اللاحقة له حرف خطاب لا محل لها من الإعراب وفاعله ضمير مستتر فيه ، وهذا الليل مفعوله : أى خذ هـذا الليل ، والمراد بأخذه تعاطى العبادة فيه من ذكر أو صلاة أو غير ذلك . وقيل إنه اسم فعل أمر بمعنى الزم فالـكاف اللاحقة له ضمير مفعول أول لاسم الفعل والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ، وهذا الليل مفعول ثان والتقدير ألزم نفسك هذا الليل . وقيل إنه اسم فعل ماض بمعنى لزم والكاف اللاحقة له ضمير فاعل باسم الفعل ووضع ضمير غير الرفع موضع ضمير الرفع ؛ والمعنى لزمت هذا الليل . وقيل إنه اسم فعل وضع موضع المصدر والـكاف اللاحقة له فى محل جر بالإضافة : أي إلزامك هذا الليل : أى ألزمك هذا الليل إلزاما منسوبا لك من حيث تعلقه بك (خذه) أى هذا الليل (ذريعة) أى وسيلة (ليوم) أى لهوله (عبوس) أى شديد : وهو يوم القيامة . قال الخازن رحمه الله : وصف اليوم بالعبوس مجاز فى الاسناد كما يقال نهاره صائم ، والمراد أهله والمعنى تعبس فيه الوجوه من طوله وشدته (عز) أى قل (فيه) أى فى ذلك اليوم (الذرائع) أى الوسائل وهو جمع ذريعة كما فى السراج (نعم) جواب لمن قال هل يمكن للرجل المذكور أن يصاحب الخلق ويخالطهم بما ذكر وهو كونه منفرداً عنهم بقلبه ومصاحبا لهم بجسمه ؟ قيل فى جوابه نعم (يكون بالنفس معهم والقلب ما أبعده) فعل تعجب (عنهم و) لـكن (ذلك) أى الصحبة بالصفة المذكورة (لعمرى) أى لحياتى والقصد بهذا التأكيد لا حقيقة القسم إذ الأكابر يتحاشون عن الحلف بغير الله للنهى عنه (أمر شديد وعيش) أى معيشة (نـكد) أى شديد العسر والضيق . قال الجريرى : والنكد : الشؤم وقلة الخير (وفيه) أى فى هذا الأمر الشديد (يقول شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله فى وصيته)

يَا بُنَيَّ عِشْ مَعَ أَهْلِ زَمَانِكَ وَلاَ تَقْتَدِ بِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : مَا أَشَدَّ هٰذَا الْعَيْشَ مَعَ الْأَحْيَاءِ وَالِاقْتِدَاءِ بِالْأَمْوَاتِ .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : خَالِطِ النَّاسَ وَزَايِلْهُمْ وَدِينَكَ لاَ تَكْلِمَنَّهُ ، فَهٰذِهِ نُكْتَةٌ مُقْنِعَةٌ . ثُمَّ أَقُولُ إِذَا مَاجَ الْفِتَنُ بَعْضُهَا فِى بَعْضٍ ، وَتَرَاجَعَ الْأَمْرُ ، وَوَلَّى النَّاسُ عَنْ أَمْرِ الدِّينِ مُدْبِرِينَ لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ

لابنه (يابنى عش مع أهل زمانك) فيما وافق الحق (ولا تقتد بهم) فيما يخالفه (ثم قال) شيخنا أيضاً (ما أشد هذا العيش)مفعل تعجب (مع الأحياء) من أهل هذا الزمان لقلة انقيادهم للحق والصواب (والاقتداء بالأموات) من السلف الصالحين فى سبقهم إلى الخيرات وتركهم الشهوات . (وعن) أبى عبد الرحمن عبد الله (بن مسعود رضى الله عنه : خالط الناس) فى المعاملة والمبايعة وعند اللقاء (وزايلهم) أى فارقهم . وقال بعضهم : خالص المؤمن مخالصة ، وخالق الفاجر مخالقة فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن فى الظاهر ويميل إليه فيكون سببا لاستمالة قلبه ، نقله صاحب القوت . وأخرج أبو نعيم عن محمد بن الحنفية قال : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له فرجا ومخرجا (ودينك لا تكلمنه) بكسر اللام وفتح الميم والنون المشددة من الكلم بفتح الكاف وسكون اللام وهو الجرح : أى لا تجرحنه ودينك بالنصب فى الفرع : أى لا تكلمن دينك ، ويجوز الرفع مبتدأ خبره لا تكلمنه : أى خالط الناس بشرط أن لا يحصل فى دينك خلل . وهذا الأثر وصله الطبرانى فى الكبير بلفظ «خالطوا الناس وصافوهم بما يشتهون ودينكم فلا تكلمنه » بضم الميم « وزايلوهم » كما قاله القسطلانى (فهذه) أى الأقاويل التى ذكرناها (نكتة) أى نادرة مختارة من الكلام (مقنعة) أى مرضية من أقنعة الشىء : أى أرضاه (ثم أقول إذا ماج الفتن) أى اضطربت (بعضها فى بعض وتراجع الأمر) أى عاد أمر الدين إلى الضعف والنقصان (وولى) أى أدبر وأعرض (الناس عن أمر الدين مدبرين) حال مؤكدة كناية عن عدم مبالاتهم فى أمره (لا يرقبون) من باب دخل : أى لا يراعون (فى مؤمن إلا) منصوب بفتحة ظاهرة على المفعولية : أى قرابة ، وقيل حلفا وفى الإل أقوال لأهل اللغة : أحدها أن المراد به العهد قاله أبو عبيدة وابن زيد والسدى الثانى أن المراد به القرابة . وبه قال الفراء : الثالث أن المراد به الله تعالى : أى هو اسم من أسمائه . الرابع أن الإل الجؤار ، وهو رفع الصوت عند التحالف ، وذلك أنهم إذا تحالفوا جأروا بذلك جؤارا . الخامس أنه من أل البرق لمع ويجمع الإل فى القلة على آل والأصل أألل بزنة أفلس فأبدلت الهمزة الثانية ألفا لكونها بعد أخرى مفتوحة وأدغمت اللام فى اللام وفى الكثرة على الإلال كذئب وذئاب ، والأل بالفتح . قيل : شدة القنوط . قال الهروى فى الحديث « عجب ربكم من ألكم وقنوطكم » . وفى القاموس الإل بالكسر العهد والحلف وموضع والجؤار والقرابة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله

وَلاَ ذِمَّةً وَلاَ يَطْلُبُونَ عَالِماً ، وَلاَ يَرْمُقُونَ مُفِيدًا وَلاَ يَعْنِيهِمْ أَمْرُ دِينِهِمْ أَلْبَتَةَ ، وَتَرَى الْفِتْنَةَ تَعُمُّ الْعَامَّةَ وَتَدِبُّ بَيْنَ الْخَاصَّةِ ، فَلِلْعَالِمِ الْعُذْرُ فِى الْعِزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ وَدَفْنِ الْعِلْمِ ، وَأَخَافُ أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ هُوَ هٰذَا الزَّمَانُ النَّكِدُ الصَّعْبُ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلاَنُ ، فَهٰذَا حُكْمُ الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ عَنِ النَّاسِ ، فَافْهَمْهُ فَإِنَّ الْغَلَطَ فِيهِ عَظِيمٌ ، وَضَرَرُهُ

تعالى وكل اسم آخره أل أو إيل فمضاف إلى الله تعالى والرضا والأمان والجزع عند المصيبة ، ومنه ماروى « عجب ربكم من إلكم » فيمن رواه بالكسر ورواية الفتح أكثر (ولا) يرقبون (ذمة) أى عهدا كذا قيل فيكون مما كرر لاختلاف لفظه إذا قلنا إن الإل العهد أيضا فهو كقوله تعالى « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » وقيل الذمة الضمان يقال هو فى ذمتى : أى فى ضمانى وبه سمى أهل الذمة لدخولهم فى ضمان المسلمين . وقال ابن عرفة : يقال له ذمة وذمام ومذمة وهى الذم . وقال الراغب : الذمام ما يذم الرجل على إضاعته من عهد ، وكذلك الذمة والمذمة يعنى بالفتح والكسر ، وقيل لى مذمة فلا تهتكها . وقال غيره سميت ذمة لأن كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم يقال لها ذمة . وقال الأزهرى : الذمة الأمان ، وفى الحديث « يسعى بذمتهم أدناهم » (ولا يطلبون عالما) أى لإعراضهم عنه (ولا يرمقون) من باب نصر : أى لا ينظرون (مفيدا) يستفيدون منه أمر دينهم (ولا يعنيهم) أى لا يهمهم بفتح أوله من عناه الأمر إذا تعلقت عنايته به (أمر دينهم ألبتة) بل يشتغلون بأغراضهم الدنيوية الشهوية من التوسع فى الدنيا وطلب المناصب والرياسات وحب المحمدة والثناء والفضول فى الكلام والأفعال المباحة وغير ذلك مما لا يعود عليهم منه نفع أخروى ، وهو ضياع للوقت النفيس الذى لا يمكن أن يعوض فائته فيما لم يخلقوا لأجله ، وروى الترمذى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » وفى هذا الحديث إشارة إلى أن الشىء إما أن يعنى الإنسان أولا ، وعلى كل إما أن يتركه أو يفعله ، فالأقسام أربعة : فعل ما يعنى ، وترك مالا يعنى وهما حسنان ، وترك ما يعنى ، وفعل مالا يعنى وهما قبيحان كما أفاده العلامة ابن حجر (وترى الفتنة تعم العامة) أى الجهال (وتدب) أى تمشى (بين الخاصة) أى العلماء (فللعالم) جواب إذا ماج الفتن أى يجوز له (العذر) أى الاعتذار (فى العزلة والتفرد) عن الناس (و) فى (دفن العلم) أى إخفائه (وأخاف أن ما ذكرناه) من زمان موج الفتن واضطرابه (هو هذا الزمان) الحاضر (النكد) أى الشديد (الصعب) والوعر وهذا فى زمان المصنف رحمه الله فكيف فى زماننا هذا بعد القرن الثالث عشر فلا حول ولا قوة إلا بالله (والله المستعان) على كل خير (وعليه التكلان) أى الاعتماد وإظهار العجز لا على غيره (فهذا) أى ما ذكرناه (حكم العزلة والتفرد عن الناس فافهمه) أى الحكم (فإن الغلط فيه) أى فى هذا الحكم (عظيم و) أن (ضرره) أى الغلط

كَثِيرٌ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

(كثير وبالله التوفيق) والهداية إلى طريق السداد والصواب . قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : الخلوة صفة أهل الصفوة ، والعزلة من أمارات الوصلة ولا بد للمريد فى ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم فى نهايته التحقق بأنسه والعزلة فى الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة والتأثير لتبديل الصفات لا للتنائي عن الأوطان ، ولهذا قيل من العارف ؟ قالوا كائن بائن : يعنى كائنا مع الخلق بائنا عنهم بالسر . سمعت الأستاذ أبا على يقول : البس ما يلبسون وتناول ما يأكلون وانفرد عنهم بالسر ، وسمعته يقول : جاءنى إنسان وقال جئتك من مسافة بعدة ، فقلت ليس هذا الحديث من حديث قطع المسافات ومسافات الأسفار ففارق نفسك بخطوة وقد حصل مقصودك . وقيل : الانفراد بالخلوة أجمع لدواعى السلوة ، سمعت محمد بن الحسين ، سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيارة أبى بكر الوراق فلما أراد أن يرجع قال أوصنى فقال وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقلة وشرهما فى الكثرة والاختلاط . وسئل الجريرى عن العزلة فقال : هى الدخول بين الزحام وتحفظ سرك أن لا يزاحموك فيه وتعزل نفسك عن الأنام ويكون سرك مربوطا بالحق . وقيل من آثر العزلة حصل له العزلة . وقال سهل : لا تصح العزلة إلا بأكل الحلال ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى : وقال ذو النون لم أر شيئا أبعث فى الإخلاص من الخلوة وقال أبو عبد الله البرمكي : ليكن خدنك الخلوة وطعامك الجوع وحديثك المناجاة فإما أن تموت بذلك أو تصل إلي الله تعالى . وقال ذوالنون : من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله تعالى . وقال الجنيد : مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة . وقال مكحول : إن كان فى مخالطة الناس أنس فإن فى العزلة السلامة . وقال يحيى بن معاذ : الوحدة جليس الصديقين . وقال شعيب بن حرب : دخلت على مالك بن مغول بالكوفة وهو فى داره وحده فقلت له ماتستوحش وحدك ؟ فقال ما كنت أرى أن أحدا يستوحش من الله تعالى . وقال الجنيد : من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس فإن هذا زمان وحشة والعاقل من اختار فيه الوحدة . وقال أبو العباس الدامغاني : أوصانى الشبلى وقال الزم الوحدة وامح اسمك عن القوم واستقبل الجدار حتى تموت . وجاء رجل إلى شعيب بن حرب ، فقال ماجاء بك قال أكون معك ، قال يا أخى العبادة لا تكون بالشركة ومن لم يأنس بالله لم يأنس بشىء . وقيل لبعضهم ما هنا أحد تستأنس به ؟ فقال نعم ومد يده إلى مصحف فى حجره وقال هذا ، وفى معناه أنشدوا :

وكتبك حولى ما تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتم

وقال رجل لذى النون متى تصح العزلة ، فقال إذا قويت على عزلة النفس . وقيل لابن المبارك ما رواء القلب ، قال : قلة الملاقاة للناس .

﴿ تتمة ﴾ قال العلامة الزبيدى نقلا عن الشيخ الأكبر قدس سره فى الباب الثمانين من الفتوحات فى العزلة :

إذا اعتزلت فلا تركن إلى أحد ولا تعرج على أهل ولا ولد
ولا توال إذا وليت منزلة وغب عن الشرك والتوحيد بالأحد
وافزع إلى طلب العلياء منفردا بغير فكر ولا نفس ولا جسد
وسابق الهمة العلياء تحظ بمن سما بأسمائه الحسنى بلا عدد
وأعلم بأنك محبوس ومكتنف بالنور حبسا جليا لا إلى أمد

فلا يعتزل إلا من عرف نفسه وكل من عرف نفسه عرف ربه فليس له شهود إلا الله من حيث أسماؤه الحسنى وتخلقه بها ظاهرا وباطنا . وأسماؤه الحسنى على قسمين : أسماء يقبلها العقل ويثبتها ويسمى بها الله تعالى ، وأسماء أيضا إلهية لولا ورود الشرع ماقبلها فيقبلها إيمانا ولا يعقلها من حيث ذاته إلا إن أعلمه الحق بحقيقة نسبة الأسماء إليه ، فصاحب العزلة هو الذى يعتزل بما هو له من ربه من غير تخلق ، فمن رأى التخلق بها فلابد أن يظهر بها على الحد المشروع ، ولما رأى هذا المعتزل مزاحمة الحق فى النعوت التى ينبغى أن تكون للعبد كما هى فى نفس الأمر عنده قال الأليق فى أن أعتزل بأسماء ولا أزاحمه فيما يكون عارية عندى ، إذ كانت العارية أمانة مؤداة فاعتزل صاحب هذا النظر التخلق بالأسماء الحسنى ، وانفرد بفقره وذله ، وعجزه وقصوره وجهله فى بيته كلما قرع عليه الباب اسم إلهى قيل له ماهنا من يكلمك فاذا نقدح له بهذا الاعتزال أن الله أزلى الوجود فإما أن يعتزل عن الجميع وإما أن يتسمى بالجميع ، فقلنا له اعتزل عن الجميع واترك الحق إن شاء سماك بالأسماء كلها فاقبلها ولا تعترض وإن شاء سماك ببعضها وإن شاء لم يسمك ولا بواحد منها ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، فرجع العبد إلى خصوصيته التي هى العبودية فتحلى بها وقعد في بيته ينظر تصريف الحق فيه وهو معتزل عن التدبر فى ذلك ، فإن تسمى من هذه حاله بأى اسم كان فالله مسميه ماتسمى وليس له رد ماسماه به ، وتلك الأسماء هى خلع الحق على عباده وهي خلع تشريف ، فمن الأدب قبولها لأنها جاءته من غير سؤال ولا استشراف ، ووقف عند ذلك على أنه كان عاصيا لله فيما كان يزعم أنه له فاذا هو لله وهو قوله تعالى « وإليه يرجع الأمر كله » فأخذ منه جميع ماكان يزعم إلا العبادة فإنه لايأخذها إذ كانت ليست بصفة له ، فقال له تعالي لما مال إليه « وإليه يرجع الأمر كله فاعبده » : وهو أصله الذى خلق لأجله ، فقال تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فالعبادة اسم حقيقى فهى ذاته وموطنه وحاله وعينه ونفسه وحقيقته ووجهه ؛ فمن اعتزل هذه العزلة فهى عزلة العلماء بالله لاهجران الخلائق ولا غلق الأبواب وملازمة البيوت وهى العزلة التى عند الناس أن يلزم الانسان بيته ولا يعاشر ولا يخالط ويطلب السلامة ما استطاع بعزلته ليسلم من الناس ويسلم الناس منه فهذا طلب عامة أهل الطريق بالعزلة ؛ ثم إن ارتقي إلى طور أعلى من هذا فيجعل عزلته رياضة وتقدمه

فَإنْ قِيلَ : أَلَيْسَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ : « عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ يَدَ اللهِ تعالى عَلَى الْجَمَاعَةِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسانِ يَأْخُذُ الشَّاذَّةَ وَالنَّاجِيَةَ وَالْقاصِيَةَ وَالْفاذَّةَ » وَقالَ « إِنَّ الشَّيْطانُ مَعَ الْفَذِّ، وَهُوَ مِنَ الاُثْنَيْنِ أَبْعَدُ » .

بين يدى خلوته لتأليف النفس قطع المألوفات من الأنس بالخلوة فإن الأنس بالخلوة من العلائق الحائلة بينه وبين مطلوبه من الأنس بالله والانفراد به ، فإذا انتقل من العزلة بعد إحكامه شرائطها سهل عليه أمر الخلوة . هذا سبب العزلة عند خاصة أهل الله ، فهذه العزلة نسبة لامقام ، والعزلة الأولى التى ذكرناها مقام مطلوب وإذا كانت مقاما فهى من المقامات المستصحبة فى الدنيا والآخرة .

ثم لنرجع إلى خدمة كلام المصنف رحمه الله تعالى . قال (فإن قيل أليس النبى صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بالجماعة) أى الزموا ماعليه جماعة أهل السنة كما فى العزيزى (فان يد الله تعالى) كناية عن النصرة والغلبة أو الحفظ والرحمة ، أو معناه إحسانه وتوفيقه لاستنباط الأحكام والاطلاع على ماكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الاعتقاد والعمل (على الجماعة) الكثيرة المجتمعة من المسلمين . قال العلامة المناوى : يعنى أن جماعة أهل الاسلام فى كنف الله وحفظه فأقيموا فى كنف الله بين ظهرانيهم ولا تفارقوهم وتمامه عند مخرجه «ومن شذ شذ إلى النار» : أى من خرج من السواد الأعظم فى الإحلال والحرام الذى لم تختلف فيه الأمة فقد زاغ عن سبيل الهدى وذلك يؤديه إلى دخول النار . رواه الترمذى عن ابن عباس . قال العلقمى : حديث حسن (و) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان ذئب الانسان) أى مفسد للانسان ومهلك له باغوائه كإفساد الذئب إذا أرسل فى قطيع من الغنم (يأخذ) الشاة (الشاذة) بتشديد الذال المعجمة : أى النافرة التى لم تؤانس بأخواتها ولم تخلط بهن (والناجية) بالجيم : أى المنفردة عن صواحبتها وان لم تكن بعيدة كما قاله العلامة الحفنى ، وفى أكثر الروايات والنسخ بالحاء المهملة : أى التى غفل عنها وبقيت فى جانب منفردة فإن الناحية هى التى صارت فى ناحية من الأرض عن أخواتها لغفلتها (والقاصية) بصاد مهملة : أى البعيدة عن صواحباتها : أى التى قصدت البعد عنهن لأجل المرعى مثلا لا للتنفر (والفاذة) أى المنفردة ، وهذا تمثيل مثل حالة مفارقة الانسان الجماعة واعتزاله عنهم ، ثم تسلط الشيطان عليه بشاة منفردة عن الغنم ، ثم افتراس الذئب عنها بسبب انفرادها وانقطاعها وهذه قطعة حديث رواها أحمد والطبرانى عن معاذ بن جبل بلفظ «ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة إياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد » . (وقال) صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان مع الفذ) أى المنفرد (وهو) أى الشيطان (من الاثنين أبعد) وهو من الثلاثة أبعد منه من الاثنين وهكذا قاله العزيزى ، ولذا كان السفر من الاثنين أقل كراهة من السفر من الواحد كما صرح به العلامة الحفنى . رواه أحمد فى مسنده والترمذى والحاكم فى مستدركه عن عمر

فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ وَرَدَتْ وَوَرَدَ أَيْضًا « الْزَمْ بَيْتَكَ وَعَلَيْكَ بِالْخَاصَّةِ وَدَعْ أَمْرَ الْعَامَّةِ » فَأَمَرَ بِالْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ فِى الزَّمَانِ السُّوءِ وَلاَ تُنَاقُضَ فى قَوْلِهِ صلى اللّٰهُ عليه وسلم ، وَلاَ بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ بِحَوْلِ اللّٰهِ وَتَوْفِيقِهِ . فَأَقُولُ قَوْلُهُ صلى اللّٰهُ عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ » يَحْتَمِلُ ثَلاَثَةَ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ يَعْنِي بِهِ فِى الدِّينِ وَالْحُكْمِ ، إِذْ لاَ تَجْتَمِعُ هٰذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ضَلاَلَةٍ فَخَرْقُ الْإِجْمَاعِ وَالْحُكْمِ بِخِلاَفِ مَا عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ وَالشُّذُوذُ عَنْهُمْ بَاطِلٌ وَضَلاَلٌ ، وَإِمَّا أَنْ يَعْتَزِلَ عَنْهُمْ لِصَلاَحٍ فى دِينِهِ فَلَيْسَ هٰذَا مِنْ ذٰلِكَ

ابن الخطاب . وقال العزيزى : قال الشيخ حديث صحيح ، ورواه أبو الليث فى بستان العارفين بلفظ « إن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » . (فاعلم أن هذه)الأحاديث المذكورة (وردت) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . (وورد أيضا) أى كما وردت الأحاديث المذكورة (الزم بيتك) أى محل سكنك بيتا أوخلوة أو غيرهما فالمراد بلزومك كما قال العلامة عبدالحق التنزه عن نحو الإمارة وإيثار الانجماع والعزلة (وعليك) أى الزم (بالخاصة) أى بخاصة أمرك (ودع) أى اترك (أمر العامة) . قال العلامة عبد الحق : وهـذا الحديث رواه الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال المصنف رحمه الله تعالي (فأمر) النبى صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث (بالعزلة والتفرد) عن الناس (فى الزمان السوء) أهله لعدم انقيادهم للحق (ولا تناقض فى قوله صلى الله عليـه وسلم ولا بد) لنا (من الجمع بين) معنى (الخبرين) المذكورين وهما قوله عليـه الصلاة والسلام«عليكم بالجماعة» وقوله عليه الصلاة والسلام«الزم بيتك»(بحول الله وتوفيقه فأقول) أما (قوله صلى الله عليه وسلم : عليكم بالجماعة) فهو (يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها أنه) صلى الله عليه وسلم (يعنى) أى يريد (به) أى بقوله «عليكم بالجماعة» الاجماع (فى الدين والحكم ، إذ لا تجتمع هـذه الأمة) أى أمة الإجابة كما صرح به العزيزى (على ضـلالة) ولهذا كان إجماعهم حجة كما روى عن أنس بن مالك «إن أمتى لن تجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم» قال العزيزى . أى الزموا جماهر المسلمين وأكثرهم فهو الحق الواجب فان من خالفهم مات ميتة جاهلية (فخرق الإجماع) أى مخالفة اتفاق هذه الأمة (و) خرق (الحكم) وذلك بأن يفعل ما فعله من الدين والحكم (بخلاف ما عليه جمهور الأمة) أى أكثرهم (والشذوذ) بالرفع عطف علي الخرق : أى الانفراد (عنهم باطل وضلال) لأنهم أبعد عن مواقعة الخطأ (وإما أن يعتزل) الإنسان (عنهم لصلاح فى دينه) أى المعتزل (فليس هـذا) أى اعتزاله لمصلحة دينه (من ذلك) أى خرق الإجماع ولا المخالفة لمقتضى قوله عليه الصلاة والسلام « عليكم بالجماعة » لأن هذا المعتزل مجتمع بما عليه أهل السنة من الدين ومتدين به . وأما انفراده بجسمه لضعف هذا الرجل عن المخالطة فلا يسمى خرقا للاجماع ومخالفا له كما هو ظاهر ، وقد أجاب المصنف رحمه الله عن هذا الحديث

فى شَىْءٍ . وَالثَّانِى عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ بِأَلاَّ تَنقَطِعُوا عَنْهُمْ فِى جُمَعِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ وَنَحْوِهَا ، فَإِنَّ فِيهَا قُوَّةَ الدِّينِ وَكَمَالَ الْإِسْلاَمِ وَغَيْظَ الْكُفَّارِ وَالْمُلْحِدِينَ وَلاَ يَخْلُو ذٰلِكَ مِنْ بَرَكَاتٍ وَنَظَرٍ مِنَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالرَّحْمَةِ ، وَلِذٰلِكَ نَقُولُ : إِنَّ حَقَّ الْمُنْفَرِدِ أَنْ يُشَارِكَ النَّاسَ فِى الْجُمُوعِ الْعَامَّةِ فِى الْخَيْرِ وَأَنْ يُجَانِبَهُمْ فِى الصُّحْبَةِ وَالْمُزَاحَمَةِ فِى سَائِرِ الْأُمُورِ لِمَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْآفَاتِ . وَالثَّالِثُ أَنَّ ذٰلِكَ فِى غَيْرِ زَمَانِ الْفِتْنَةِ لِلرَّجُلِ الضَّعِيفِ فِى أَمْرِ الدِّينِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْبَصِيرُ الْقَوِىُّ فِى أَمْرِ اللّٰهِ تَعَالَى إِذَا رَأَى زَمَانَ الْفِتْنَةِ الَّذِى حَذَّرَ النَّبِىُّ صلى اللّٰهُ عليه وسلم الْأُمَّةَ مِنْهُ وَأَمَرَهُمْ بِالْعُزْلَةِ ،

فى الإحياء بقوله : وهذا إنما أراد به من اعتزل الجماعة قبل تمام العلم الواجب عليه تعلمه ، ولذلك قال إبراهيم النخعي : تفقه ثم اعتزل . (و) الوجه (الثانى) أن المراد (عليكم بالجماعة) وذلك (بأن لا تنقطعوا عنهم) أى جماعة المسلمين (فى جمعهم) بضم الجيم جمع جمعة (وجماعاتهم) لبقية الصلوات (ونحوها) من الخيرات (فإن فيها) أى الجماعة بالمعنى المذكور (قوة الدين وكمال الإسلام وغيظ الكفار ؛ و) غيظ (الملحدين) أى الزائغين عن طريق الصواب . قال بعض الأئمة . الملحدون فى زماننا هم الباطنية الذين يدعون أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأنهم يعلمون الباطن فأحالوا بذلك الشريعة لأنهم تأولوا بما يخالف العربية التى نزل بها القرآن ، أفاده الفيومى (ولا يخلو ذلك) أى ما ذكر من الجماعة (من بركات) أى خيرات إلهية (ونظر من الله عز وجل بالرحمة ، ولذلك) أى لعدم خلو الجماعة عن البركات والنظر من الله بعين الرحمة (نقول إن حق المنفرد) المعتزل عن الناس (أن يشارك الناس فى الجموع العامة فى الخير ، وأن يجانبهم) أى يباعدهم (فى الصحبة والمزاحمة) والمخالطة (فى سائر الأمور) الدنيوية (لما فيها) أى الصحبة (من ضروب) أى أنواع (الآفات) جمع آفة ، وهى العاهة وما يصيب الإنسان مما ينقص به دينه أو بدنه أو دنياه ، كذا أفاده العلامة الفاسى (و) الوجه (الثالث أن ذلك) أى الأمر بلزوم الجماعة المذكورة (فى غير زمان الفتنة) أى المحنة والابتلاء وأصل الفتنة ، من قولك : فتنت الذهب والفضة : إذا أحرقته بالنارليبين الجيد من الردىء كما فى المصباح (للرجل الضعيف فى أمر الدين) وأما فى زمان الفتنة فالضعيف كالقوى فى أن انفراده ولزوم بيته كان أليق به وأسلم عاقبة له من المخالطة المفضية إلى المتاعب ، فربّ شخص تكون سلامته فى العزلة عن الناس لا فى المخالطة معهم ، لكن بعد التعلم فى دينه ومعرفة أدب العزلة فى حقه وإلا وقع فى وساوس الشيطان كما قاله أبو حامد رحمه الله . (وأما الرجل البصير القوى فى أمر الله تعالى) أى دينه (إذا رأى زمان الفتنة الذى حذر) أى خوّف (النبي صلى الله عليه وسلم الأمة منه) أى زمان الفتنة (وأمرهم) أى الأمة (بالعزلة)

فِيهِ ، فَالْعُزْلَةُ أَوْلَى لِمَا فِي الْخُلْطَةِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْآفَاتِ ، وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لاَ يَنْقَطِعَ مِنْ جُمُوعِ الْإِسْلاَمِ وَالْخَيْرَاتِ الْعَامَّةِ ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ النَّاسِ بِمَرَّةٍ فَلْيَسْكُنْ بِشَاهِقِ جَبَلٍ أَوْ بَطْنِ فَلاَةٍ لِصَلاَحٍ يَرَاهُ فِي دِينِهِ . ثُمَّ قُلْتُ : وَلاَ أَرَى مِثْلَ هٰذَا الرَّجُلِ أَيْنَمَا كَانَ إِلاَّ وَيُمْكِنُهُ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُضُورِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُعَاتِ وَسَائِرِ جُمُوعِ الْإِسْلاَمِ ، فَيَحْضُرُ لِئَلاَّ يَفُوتَهُ الْحَظُّ مِنْهَا أَيْضاً ، فَإِنَّ جُمُوعَ الْإِسْلاَمِ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى بِمَكَانٍ وَإِنْ تَغَيَّرَ النَّاسُ وَفَسَدُوا ،

والتفرد عن الناس (فيه) أى فى ذلك الزمان (فالعزلة أولى) أى أفضل فى حقه (لما فى الخلطة) والصحبة (من الفساد والآفات ، وينبغى له) أى الرجل البصير (أن لا ينقطع من جموع الإسلام والخيرات العامة ، وإن أراد) الرجل المذكور (أن ينفرد عن الناس بمرة) أى بالكلية بأن لا يخالطهم فى جموع الإسلام والخيرات العامة (فليسكن بشاهق جبل) أى رأسه ومرتفعه (أو بطن فلاة) أى صحراء (لصلاح يراه) أى يعتقد الرجل ما يصلحه (فى دينه) وعلى هذا اعتزل جماعة من السلف حتى سكن بعضهم فى الجبل كما روى عن بعض الصالحين أنه قال : بينما أنا أسير فى بعض بلاد الشام إذ أنا بعابد من العباد خارج من بعض مغارات تلك الجبال ، فلما نظر إلىّ تنحى والتجأ إلى أصل شجرة وتستر به فقلت سبحان الله ! تبخل على بالنظر إليك ؟ فقال يا هذا عذرى أنى أقمت فى هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي فى الصبر عن الدنيا وأهلها فطال فى ذلك تعبي وفنى فيه عمرى ولم أحصل ذلك ، فسألت الله عز وجل أن لا يجعل حظى من أيامى الباقية في مجاهدة قلبي ، فسكنه الله عز وجل عن الاضطراب والقلق وألفه الوحدة والانفراد ، فلما نظرت إليك خفت أن أقع فى الأمر الأول وهو الخلطة ، فإليك عنى فإنى أعوذ من شرك برب العالمين وحبيب القانتين ؟ ثم صاح وقال : واغماه من طول المكث في الدنيا ، ثم حوّل وجهه عنى ثم نفض يديه وقال إليك عنى يا دنيا لغيرى فتزينى وأهلك فغرى ، ثم قال سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذّة الخدمة وحلاوة الانقطاع عن الخلق إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان وجمع همهم فى ذكره فلا شىء ألذّ عندهم من مناجاته ، ثم تركنى ومضى وهو يقول قدّوس قدّوس . قال الزبيدى : وهذا رجل قد استهلك فى حبّ الله وتنزه عما سواه ، ونزه الله عما لايليق بجلاله وكبريائه ألف بالوحدة نفورا عن الكثرة . (ثم قلت ولا أرى مثل هذا الرجل) البصير القوىّ المعتزل (أينما كان) أى فى أىّ مكان وجد (إلا ويمكنه الله عزّ وجلّ من حضور الجماعات والجمعات) بضمّ الجيم وسكون الميم وفتحها جمع جمعة (وسائر جموع الإسلام فيحضر) أى الرجل (لئلا يفوته الحظّ منها) أى جموع الإسلام (أيضا) أى كما أنه يحضر الجماعات والجمعات فإن (جموع الإسلام من الله تعالى) أى عنده (بمكان) أى رتبة ومنزلة (وإن تغير الناس وفسدوا

كَذَا سَمِعْنَا مِنْ حَالِ الْأَبْدَالِ ،

كذا) أى مثل الحضور (سمعنا من حال الأبدال) جمع بدل : وهم طائفة من الأولياء ، كأنهم أرادوا أنهم أبدال الأنبياء وخلفاؤهم ، وهم عند القوم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون ، قاله أبو البقاء . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : اعلم أن لله عبادا يقال لهم [الأبدال] خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض فلما انقضت النبوّة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسب حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع فى غير مذلة ، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا أو ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه .

واعلم يا أخى أنهم لا يلعنون شيئا ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحدا على ما آتاه الله من فضله ولا يحرصون على الدّنيا ، هم أطيب الناس خبرا بضم فسكون : أى مخبرا وألينهم عريكة ، أى طبيعة ، وأسخاهم نفسا ، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم فى خشية وغدا فى غفلة ولكن مداومون على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله واشتياقا إليه ؛ وقدما فى استباق الخيرات أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . قال الراوى : قلت يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد علىّ من تلك الصفة فكيف لى أن أبلغها ؟ فقال ما بينك وبين أن تكون فى أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة ، وبقدر حبك للآخرة تزهد فى الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك ، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة .

واعلم يا أخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل — إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون — قال يحي بن كثير الكاهلى الكوفى : فنظرنا فى ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته ، هكذا أورده الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول بطوله من قول أبى الدرداء . وقال العلامة الزبيدى : اعلم أن حديث الأبدال قد روى عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفا : منهم أنس مالك وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعوف بن مالك وأبو هريرة ومعاذ بن جبل ، أما حديث أنس فله طرق بألفاظ مختلفة : منها للخلال فى كرامات الأولياء والديلمى فى مسند الفردوس بلفظ « الأبدال أربعون رجلا وأربعون إمرأة كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ، وإذا ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة » . ومنها للطبرانى فى الأوساط بلفظ « لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن ، فبهم يسقون وبهم ينصرون ، مامات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر » وإسناده حسن . ومنها لابن عدى فى كامله بلفظ « البدلاء أربعون رجلا : اثنان وعشرون بالشام ، وثمانية عشر بالعراق ، وكلما

مات منهم واحد أبدل الله مكانه آخر ، فاذا جاء الأمر قبضوا كلهم فعند ذلك تقوم الساعة » . وقد رواه أيضا الحكيم فى نوادر الأصول والخلال فى كرامات الأولياء . ومنها «أن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين » رواه الدارقطنى فى كتاب [الأجواد] وابن لال فى [مكارم الأخلاق] . وقد رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد به نحوه . وقال فضيل بن عياض : لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولاصلاة وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة . وأما حديث عبادة ابن الصامت فلفظه « الأبدال فى هذه الأمة ثلاثون رجلا قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا » . رواه أحمد والحكيم والخلال فى كرامات الأولياء وإسناده حسن . وقال الهيتمى : رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الواحد بن قيس ، وثقه العجلى وأبو زرعة ، وضعفه غيرهما ، ويروى « لايزال فى هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن ، كلما مات أحد أبدل الله مكانه آخر » . وروى أحمد والخلال وهو عند الطبرانى فى الكبير بلفظ « لايزال فى أمتى ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم يمطرون وبهم ينصرون » وأما حديث عبد الله ابن عمر فأخرجه الطبرانى في الكبير وعنه أبو نعيم فى الحلية قال : حدثنا محمد بن الحارث ، حدثنا سعيد بن أبى زيدون ، حدثنا عبد الله بن هارون الصورى ، حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيار أمتى في كل قرن خمسمائة ، والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم ، قالوا يارسول الله دلنا على أعمالهم ، قال يعفون عمن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ويتواسون فيما آتاهم الله » وقد رواه كذلك ابن عساكر ، وفى لفظ للخلال « لايزال أربعون رجلا يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر ، وهم فى الأرض كلها » . وأما حديث على بن أبى طالب فيروى بلفظ «الأبدال ستون رجلا ليسوا بالمتنطعين ولا بالمبتدعين ولا بالمتعمقين ولا بالمعجبين لم ينالوا مانالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكن بسخاء الأنفس وسلامة القلوب والنصيحة لأئمتهم إنهم ياعلى فى أمتى أقل من الكبريت الأحمر» رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء والخلال فى كراماتهم ؛ ولأحمد فى مسنده من طريق ابن شريح يعنى ابن عبيد قال «ذكر أهل الشام عند على رضى الله عنه وهو بالعراق فقالوا العنهم يا أمير المؤمنين فقال لا إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « البدلاء » وفى لفظ « الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب » ورجاله من رواة الصحيح إلا شريحا وهو ثقة ورواه أيضا الطبرانى والحاكم من طرق تنوف على العشرة ، وأما حديث عبد الله بن مسعود فقال أبو نعيم في الحلية : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن السرى القنطرى حدثنا قيس ابن إبراهيم بن قيس السامرى ، حدثنا عبد الرحيم بن يحيى ، حدثنا عثمان بن عمارة حدثنا المعافى ابن عمران عن سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم «إن لله فى الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ، ولله فى الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام ، ولله فى الخلق سبعة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام ، ولله فى الخلق خمسة قلوبهم على قلب عزرائيل عليه السلام ، ولله فى الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام ، ولله فى الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة ، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة ، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة ، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة ، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة ، فبهم يحيي ويميت ، ويمطر وينبت ويدفع البلاء ، قيل لابن مسعود : كيف بهم يحيي ويميت ؟ قال : لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فيقصمون ويستقون فيسقون ويسألون فتنبت لهم الأرض ويدعون فتدفع عنهم أنواع البلاء » وأما حديث عوف بن مالك فأخرجه الطبرانى وابن عساكر بلفظ « الأبدال فى أهل الشام وبهم ينصرون وبهم يرزقون » . وأما حديث أبى هريرة فأخرجه ابن حبان فى تاريخه بلفظ «لن تخلو الأرض من ثلاثين مثل إبراهيم خليل الرحمن بهم يعافون وبهم يرزقون وبهم يمطرون» وإسناده حسن . وأما حديث معاذ بن جبل فأخرجه أبو عبد الرحمن السلمى فى سنن الصوفية والديلمى بلفظ « ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال الذين بهم قوام الدنيا وأهلها : الرضا بالقضاء والصبر على محارم الله والغضب فى ذات الله » . وقد روى موقوفا على علىّ كرم الله وجهه بلفظ « لا تسبوا أهل الشام جما غفيرا فإن بها الأبدال قالها ثلاثا » أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه البيهقى فى الدلائل ، بل أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه من قوله ، وكلهم رووه من طريق عبد الله بن صفوان عن علىّ ، وهذه الرواية صححها الضياء فى المختارة ولفظ الحاكم « لاتسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال » وقد رواه الطبرانى فى الأوساط وابن عساكر فى التاريخ من حديث على مرفوعا . ومن المراسيل ما رواه أبو داود فى مراسيله والحاكم فى الكنى من حديث عطاء بن رباح « الأبدال من الموالى ، زاد الحاكم : ولا يبغض الموالى إلا منافق » وفى مسنده رحال بن سالم منكر الحديث ، ومنها ما رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب الأولياء عن بكر ابن خنيس مرفوعا مرسلا « علامة أبدال أمتى أنهم لا يلعنون شيئا أبدا » ، وقال السخاوى : هو مرفوع معضل . وأما الآثار فسيأتى ذكرها ، وقد أورد ابن الجوزى أحاديث الأبدال فى الموضوعات وطعن فيها واحدا واحدا ، وتعقبه الحافظ السيوطى بأن خبر الأبدال صحيح وإن شئت قلت متواتر وأطال ، ثم قال مثل هذا بالغ حد التواتر المعنوى بحيث يقطع بصحة وجود الأبدال ضرورة انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى فتاويه : الأبدال وردت فى عدة أخبار منها ما يصح ومنها مالا يصح . وأما القطب فورد فى بعض الآثار . وأما الغوث بالوصف المشتهر بين الصوفية فلم يثبت انتهى .

وبما ذكر يظهر بطلان زعم ابن تيمية أنه لم يرد لفظ الأبدال فى خبر صحيح ولا ضعيف إلا فى خبر منقطع وليته نفى الرؤية بل نفى الوجود وكذب من ادعى الورود ، فهذه الأخبار وإن فرض ضعفها جميعها لكن لا ينكر تقوّى الحديث الضعيف بكثرة طرقه وتعدد مخرجيه . قال مصنفنا

أبو حامد الغزالى رحمه الله : وانما استتر الأبدال عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله وهم عند أنفسهم الجهلاء علماء انتهى . ورأى بعضهم النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال أين بدلاء أمتك ؟ فأومأ بيده نحو الشام . قال فقلت يارسول الله أما بالعراق منهم أحد ؟ قال بلى وسمى جماعة . ومما يتقوى به هذا الحديث ويدل لانتشاره بين الأئمة قول الامام الشافعى رحمه الله تعالى فى بعضهم كنا نعده من الأبدال ، وقول البخارى فى غيره كانوا لا يشكون أنه من الأبدال ، وكذا وصف غيرهما من النقاد والحفاظ والأئمة غير واحد بأنهم من الأبدال . وقال بعضهم : الأبدال أكلهم فاقة وكلامهم ضرورة . وقال بعضهم : علامة الأبدال أن لا يولد لهم . وعن معروف الكرخى قال : من قال اللهم ارحم أمة محمد فى كل يوم كتبه الله من الأبدال وهو فى الحلية بلفظ « من قال كل يوم اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد كتب من الأبدال » . وقال يزيد بن هارون : الأبدال هم أهل العلم . وقال أحمد : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم ؟ وقال أبو نعيم فى الحلية : حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد ابن مقسم ، حدثنا إلياس بن يوسف السكلى ، حدثنى محمد بن عبد المالك قال قال عبد البارى : قلت لذى النون المصرى صف لى الأبدال ، فقال : إنك لتسألنى عن دياجى الظلم لأكشفنها لك عند البارى : هم قوم إذا ذكروا الله بقلوبهم تعظما لربهم لمعرفتهم بجلاله فهم حجج الله على خلقه . ألبسهم النور الساطع من محبته ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته وأقامهم مقام الأبطال لإرادته وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفتهم وطهر أبدانهم بمراقبته ، وطيبهم بطيب أهل معاملته وكساهم حللا من نسج مودته ووضع على رءوسهم تيجان مسرته ثم أودع القلوب من ذخائر العيوب فهى معلقة بمواصلته ، فهمومهم إليه ثائرة وأعينهم إليه بالغيب ناظرة إلى آخر ماقاله . وروى الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول « إن الأرض اشتكت إلى ربها انقطاع النبوة ، فقال تعالى سوف أجعل على ظهرك أربعين صديقا كلما مات منهم رجل أبدلت مكانه رجلا » ولذلك سموا أبدالا ، فهم أوتاد الأرض وبهم تقوم الأرض وبهم يمطرون . وقال القطب أبو العباس المرسى قدس سره : جلت فى الملكوت فرأيت أبا مدين معلقا بساق العرش رجل أشعر أزرق العين ، فقلت له ما علومك وما مقامك ؟ قال علومي أحد وسبعون علما ، ومقامى رابع الخلفاء ورأس الأبدال السبعة . قلت فالشاذلى ؟ قال ذاك بحر لا يحاط به . وقال المرسى أيضا : كنت جالسا بين يدى أستاذى الشاذلى فدخل جماعة ، فقال هؤلاء أبدال فنظرت ببصيرتى فلم أرهم أبدالا فتحيرت ، فقال الشيخ : من بدلت سيآته حسنات فهو بدل ، فعلمت أنه أول مراتب البدلية . وأخرج ابن عساكر أن ابن المثنى سأل أحمد بن حنبل ما تقول فى بشر بن الحارث ؟ قال رابع سبعة من الأبدال . وقال بلال الخواص فيما رويناه فى مناقب الشافعى ، وفى رسالة القشيرى : كنت فى تيه بنى إسرائيل ، فإذا رجل يماشينى فتعجبت منه وألهمت أنه الخضر ، فقلت بحق الحق من أنت ؟ قال : أنا أخوك الخضر . فقلت له أريد أن أسألك ، قال سل ، قلت : ماتقول فى الشافعي ؟ قال هو من الأوتاد . قلت : فما تقول فى أحمد ؟ قال رجل صديق . قلت : فما تقول فى بشر بن الحارث ، قال : رجل لم

يخلق بعده مثله . قلت : فبأى وسيلة رأيتك ، قال ببرك بأمك . وفى تاريخ الخطيب عن أبى بكر الكتانى قال : النقباء ثلاثمائة والنجباء سبعون ، والبدلاء أربعون ، والأخيار سبعة ، والعمد أربعة ، والغوث واحد ؛ فمسكن النقباء المغرب ، ومسكن النجباء مصر ، ومسكن البدلاء الشام ، والأخيار سياحون فى الأرض ، والعمد فى زوايا الأرض ، ومسكن الغوث مكة .

﴿ فصل ﴾ قال الشيخ الأكبر قدس سره فى كتاب [حلية الأبدال] أخبرنى صاحب لنا قال : بينا أنا ليلة فى مصلاى قد أكملت وردى وجعلت رأسى بين ركبتي أذكر الله تعالى ، إذ حسست بشخص قد نفض مصلاى من تحتى وبسط عوضه حصيراً ، وقال صل عليه وباب بيتى علىّ مغلق فداخلنى منه الفزع ، فقال لى : من يأنس بالله لم يجزع ، ثم قال اتق الله فى كل حال ، ثم إنى ألهمت الصوت ، فقلت يا سيدى بماذا يصير الأبدال أبدالا ؟ فقال بالأربعة التى ذكرها أبو طالب فى القوت : الصمت ، والعزلة ، والجوع ، والسهر ثم انصرف ولا أعرف كيف دخل ولا خرج وبابى مغلق انتهى . قال الشيخ الأكبر : وهذا رجل من الأبدال اسمه معاذ بن أشرس ، والأربعة المذكورة هى عماد هذا الطريق الأسنى وقوائمه ومن لا قدم له فيها ولا رسوخ تائه عن طريق الله تعالى ، وفى ذلك قلت :

يا من أراد منازل الأبدال ... من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن بها فلست من أهلها ... إن لم تزاحمهم على الأحوال
واصمت بقلبك واعتزل عن كل من ... يدنيك من غير الحبيب الدالى
وإذا سهرت وجعت نلت مقامهم ... وصحبتهم فى الحل والترحال
بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم ... والجوع والسهر النزيه العالى

﴿ تنبيه ﴾ لا تناقض بين أخبار الأربعين والثلاثين ، لأن الجملة أربعون رجلا : منهم ثلاثون قلوبهم على قلب إبراهيم ، وعشرة ليسوا كذلك فلاخلاف كما صرح به خبر أبى هريرة عند الحكيم الترمذي . وقال الشيخ الأكبر قدس سره : الأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم أربعة فقط وهم أخص من الأبدال ، والإمامان أخص منهم ، والقطب أخص من الجماعة والأبدال لفظ مشترك يطلقونه على من تبدلت أوصافه المذمومة بالمحمودة ، ويطلقونه على عدد خاص وهم أربعون ، وقيل ثلاثون . وقيل سبعة ، وإنما سموا أبدالا لأنه إذا مات واحد منهم أبدل أولأنهم أعطوا من القوة أن يتركوا بدلهم حيث يريدون ، ولكل وتد من الأوتاد الأربعة ركن من أركان البيت ويكون على قلب نبى من الأنبياء . فالذى على قلب آدم له الركن الشامي ، والذي على قلب إبراهيم له الركن العراقى ، والذى على قلب يحي له الركن اليمانى ، والذي على قلب محمد صلى الله عليه وسلم له ركن الحجر الأسود ، وهو لنا بحمد الله تعالى . وقال فى الفتوحات : قوله فى حديث «على قلب إبراهيم» وفى حديث آخر «على قلب آدم» وكذا قوله فى غير هؤلاء ممن هو على قلب شخص من

أَنهُمْ يَحضُرُونَ جُمُوعَ الْإِسْلَامِ أَيْنَمَا كَانَتْ ، وَيَسِيرُونَ مِنَ الْأَرْضِ حَيْثُ شَاءُوا ، وَأَنَّ الْأَرْضَ لَهُمْ قَدَمٌ وَاحِدٌ . وَفِى الْأَخْبَارِ أَنَّ الْأَرْضَ تُطْوَى لَهُمْ وَيُنَادَوْنَ بِالتَّحِيَّاتِ وَيُتْحَفُونَ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَاتِ ، فَهَنِيئًا بِمَا ظَفِرُوا بِهِ ، وَأَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَ مَنْ غَفَلَ عَنِ النَّظَرِ فِى خَلَاصِ نَفْسِهِ وَأَعَانَ الطَّالِبَ الَّذِى لَمْ يَصِلْ إِلَى الْمَقْصُودِ أَمْثَالَنَا ، وَلَقَدْ عُرِضَ لِى فِى صِفَةِ حَالِى أَبْيَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ ، وَهِىَ :

ظَفِرَ الطَّالِبُونَ وَاتَّصَلَ الْوَصْلُ وَفَازَ الْأَحْبَابُ بِالْأَحْبَابِ

وَبَقِينَا مُذَبْذَبِينَ حَيَارَى بَيْنَ حَدِّ الْوِصَالِ وَالِاجْتِنَابِ

أكابر البشر أو الملائكة ، معناه : أنهم يتقلبون فى المعارف الإلهية بدل ذلك الشخص ، إذ كانت واردات العلوم الإلهية إنما ترد على القلوب ، فكل علم يرد على قلب ذلك الكبير من ملك أو رسول يرد على هذه القلوب التي هي على قلبه ، وربما يقول بعضهم : فلان على قدم فلان ، ومعناه ماذكر ، والله أعلم .

وهذا مراد العلامة الحفنى بقوله : ومعنى كون الولىّ على قلب نبىّ أن نور ولاية النبى الذى كان ينزل عليه ينزل على قلب ذلك الولى : أى الأسرار التى تنزل على ذلك النبى تنزل على قلب الولى وإن اختلفت كيفا ، وهو معنى قولهم في سيدى أحمد البدوى عيسوى ، وأما ما اشتهر من أن معنى عيسوى أنه كلما قدم الزمن زاد المدد فليس مرادا وإن كان صحيحا فى نفسه ، وبهذا تعلم معنى قول أهل التصوف : فلان مقامه محمدى ، وفلان عيسوى إلى آخره ، والمقام الأحمدى أعلى من المحمدى كما هو مبسوط فى كتب القوم يعرفه أهله سواء أظهروه أم كتموه (أنهم) أى الأبدال (يحضرون جموع الاسلام أينما كانت) أى فى أى ناحية كانت من مشارق الأرض أو مغاربها (ويسيرون من الأرض حيث شاءوا وأن الأرض لهم قدم واحد ، و) روى (فى الأخبار : أن الأرض تطوى لهم وينادون) أى ينادى بعضهم بعضا (بالتحيات) جمع تحية ، وهى ما يحيا به من قول أو فعل ، والمراد : يسلم بعضهم علي بعض (ويتحفون) أي يعطون تحفة وهدية من الله تعالى (بأنواع البر والكرامات فهنيئا) أى فهنأهم الله هنيئا (بما ظفروا) أى فازوا (به) أى من أنواع الكرامات ، والقرب من رب الأرض والسموات (وأحسن الله) جملة دعائية كما قرره بعضهم (عزاء) أى صبر (من غفل عن النظر) أى التفكر والتأمل (فى) أسباب (خلاص نفسه ، و) من (أعان الطالب الذى لم يصل إلى المقصود) وذلك (كأمثالنا) وهذا تواضع من المصنف رحمه الله كما هو ظاهر (ولقد عرض لى) بالبناء للمفعول (فى) بيان (صفة حالى أبيات من الشعر) الموزون ببحر الخفيف (وهى) أى الأبيات (ظفر الطالبون واتصل الوصل) وهذا مدور نصفه الصاد : أى لقاء الله الملك الرحمن (وفاز الأحباب بالأحباب . وبقينا مذبذبين) أى مترددين بين أمرين (حيارى) جمع حيران (بين حد الوصال) إلى الله تعالى (والاجتناب)

نَرْتَجِي الْقُرْبَ بِالْبِعَادِ وَهٰذَا   نَفْسُ حَالِ الْمُحَــالِ لِلْأَلْبَابِ
فَاسْقِنَا مِنْكَ شَرْبَةً تُذْهِبُ الْغَمْ   مَ وَتَهْدِي إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ
يَا طَبِيبَ السَّقَامِ يَا مَرْهَمَ الْجُرْ   حِ وَيَا مُنْقِذِي مِنَ الْأَوْصَابِ
لَسْتُ أَدْرِي بِمَا أُدَاوِي سِقَامِي   أَوْ بِمَاذَا أَفُوزُ يَوْمَ الْحِسَابِ
وَلْنَقْبِضِ الْآنَ

من الله (نرتجى القرب) من الله تعالى (بالبعاد) الباء بمعنى مع (وهــذا) أى رجاء القرب مع ارتــكاب الأفعال المبعدة عن الله تعالى (نفس حال المحال للألباب) أى العقول . وفى المختار : اللب العقل وجمعه ألباب (فاسقنا منك) يارب (شربة) أى من المدد والتوفيق (تذهب) بضم التاء : أى الشربة (الغم) وهذا مدور أيضا (وتهدى) تلك الشربة (إلى طريق الصواب . ياطبيب السقام) أى ياشافى المرض . قال شيخ الإسلام الهروى : لايجوز إطلاق الطبيب عليه تعالى ، وهو الموافق لشرح العمدة ، وشرح المواقف ، وتبصرة الأدلة ، وشرح المقاصد ، والعمدة الفارسية ، وشرح المختصر العضدى فى بحث أن للقرآن مجازا ، لـكن نقل فى الفصول العمادية أنه قيل له : أى لأبى بكر رضى الله عنه : دعونا لك طبيبا ، فقال لقد رآنى الطبيب وقال إنى فعال لما أريد . وقيل لأبى الدرداء فى مرضه ماتشتكى ؟ قال ذنوبى . قيل فما تشتهى ؟ قال مغفرة ربى ، قالوا ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال الطبيب أمرضنى ، ووقع فى كتاب [القصاص من المصابيح] : أنت الرفيق والله الطبيب ، فذكر الشارح التور بشتى : الرفق لين الجانب ، ولطافة الفعل : أى أنت المتصدى للعلاج بلطافة الفعل ، وإنمـا الشافى المزيل للداء هو الله ، وذهب فى ذلك إلى مقتضى المعنى من الطبيب لا إلى مقتضاه فى اللفظ ، ولا يوجب هــذا جواز تسمية الله طبيبا : بل الوجه فى ذلك كما فى قوله « إن الله هو الدهر » : أى الذى ينسبونه إلى الدهر فإن الله فاعله لا الدهر فتدبر (يا مرهم الجــرح) فيه ما تقدم : أى واضع المرهم فيه ، والمرهم : الذى يوضع فى الجراحات كما فى المختار (ويا منقذى) أى يا مخلصى (من الأوصاب) جمع الوصب بفتح الصاد : بمعنى المرض والوجع الدائم (لست أدرى بمـا) أى بأى شىء (أداوى سقامى . أو بمـاذا أفوز يوم الحساب) أى للأعمال ، وهو يوم القيامة (ولنقبض) أى نمسك (الآن) أى فى هذا الوقت الحاضر . قال بعض المحققين : والآن ظرف للوقت الحـاضر الذى هو فيه ولزم دخول الألف واللام ، وليس ذلك للتعريف لأنه تميز المشتركات ، وليس لذلك ما يشركه فى معناه ، ولذا ألغز فيه بعضهم بقوله :

مولاى قــد أبديت أحجيــة   تخالهـا دررا فى السلك منظومه
ما كلمة قدروها وهى حاصلة   فى اللفظ موجودة فى النطق مفهومه

عِنَانَ الْبَنَانِ وَنَرْجِعْ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ شَأْنِ الْعُزْلَةِ فَقَدْ خَرَجْنَا عَنْ شَرْطِ الْبَابِ . فَإِنْ قِيلَ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وسلم : « رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ » وَفِيهِ زَجْرٌ عَنِ التَّفَرُّدِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي غَيْرِ زَمَنِ الْفِتْنَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ ، وَأَيْضاً فَإِنَّهُ يَجْلِسُ فِي الْمَسْجِدِ وَلاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يُدَاخِلُهُمْ ، فَيَكُونُ بِالشَّخْصِ مَعَهُمْ ، وَفِي الْمَعْنَى مُنْفَرِدًا عَنْهُمْ ، وَهٰذَا هُوَ الْمَعْنِيُّ فِي الْعُزْلَةِ وَالتَّفَرُّدِ الَّذِي نَحْنُ فِي شَرْحِهِ ، لاَ التَّفَرُّدُ بِالشَّخْصِ وَالْمَكَانِ ، فَافْهَمْ ذَلِكَ رَحِمَكَ اللهُ ، وَفِيهِ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ : كُنْ وَاحِدًا جَامِعِيًّا ، وَمِنْ ،

وأجاب الشيخ أحمد الدمياطى رحمه الله بقوله :

الآن يا سيدى يأتى الجواب فلا تعجل بخالك فى الأذهان معلومه
فالآن قد بينت لدى تضمنها لآل ولكنها فى اللفظ مرقومه

(عنان) أى لجام (الجنان) بالفتح : القلب (ونرجع) أى ولنرجع (إلى المقصود من شأن العزلة فقد خرجنا عن شرط الباب) أى باب العزلة . (فان قيل أليس)الشأن (قدقال النبي صلى الله عليه وسلم : رهبانية أمتي) أى تبتل عبادة أمتي وانقطاعهم لها ، وهو من الرهبة بمعنى الخوف ، وقد ترهب الراهب : انقطع للعبادة ، كذا في الإتحاف (الجلوس فى المساجد) كذا فى القوت . وقال العراقي : لم أجد له أصلا . وروى جرير من حديث أبى هريرة « من جلس فىالمسجد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة ، والملائكة تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه مالم يحدث » . وروى مالك فى الموطأ وابن حبان والطبرانى والحاكم والبيهقى والضياء من حديث عبد الله بن سلام وأبى هريرة « من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة حتى تصلى » . وروى عبد بن حميد وابن جرير والطبرانى من حديث سهل بن سعد « من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة » كذا ذكره الزبيدي (وفيه) أى مفهوم هذا الحديث (زجر عن) العزلة و (التفرد) عن الناس . (فاعلم أن ذلك) أى الجلوس فى المساجد والمصاحبة معهم (فى غير زمن الفتنة كما ذكرناه) فى الوجه الثالث (وأيضا فإنه) أى العبد السالك (يجلس فى المسجد ولا يخالط الناس ولا يداخلهم) أى يصاحبهم (فيكون) العبد (بالشخص معهم وفى المعنى منفردا) بالقلب (عنهم وهذا) أى كونه بالشخص معهم وانفراده بالقلب عنهم (هو المعنى) أى المراد (فى العزلة والتفرد الذى نحن فى شرحه ، لا) المراد بالعزلة (التفرد بالشخص والمكان ، فافهم ذلك) أى التفرد الذى شرحناه (رحمك الله) جملة دعائية (وفيه) أى فى التفرد الذى أردناه (يقول إبراهيم بن أدهم) بن منصور (رحمه الله) توفى سنة إحدي وستين ومائة (كن واحدا) بالقلب (جامعيا) بالنفس (ومن

رَبِّكَ ذَا أُنسٍ ، وَمِنَ النَّاسِ وَحْشِيًّا . فَإِنْ قِيلَ فَمَا تَقُولُ فِي مَدَارِسِ عُلَمَاءِ الآخِرَةِ وَرِبَاطَاتِ الصُّوفِيَّةِ سَالِكِي طَرِيقِ الآخِرَةِ وَالسُّكُونِ فِيهَا . فَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى فِي هٰذَا الشَّأْنِ لِعَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالاجْتِهَادِ ، وَذٰلِكَ لِأَنَّهَا جَمَعَتِ الْمَعْنَيَيْنِ وَالْفَائِدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا الْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ وَالتَّفَرُّدُ عَنْهُمْ بِالصُّحْبَةِ وَالْمُخَالَطَةِ وَالْمُزَاحَمَةِ فِي أُمُورِهِمْ ، وَالثَّانِيَةُ الْمُشَارَكَةُ مَعَهُمْ فِي جَمْعِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ وَتَكْثِيرُ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ فَتَحْصُلُ السَّلَامَةُ الَّتِي هِيَ لِلْمُنْفَرِدِينَ وَالْخَيْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي هُوَ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ مَا لِلنَّاسِ فِيهِمْ مِنَ الْقُدْوَةِ ،

ربك ذا أنس ، و) كن (من الناس وحشيا) أى منقطعا وبعيدا بالقلب عن مودّاتهم (فان قيل : فما تقول فى مدارس علماء الآخرة ، ورباطات الصوفية) أى المواضع التى تبنى للذين هم متلبسون بالتصوف . قال الزبيدى : وأحسن ما قيل فى تعريف التصوف : الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر فى الباطن وباطنا فيرى حكمها من الباطن فى الظاهر . قال الشيخ أبو نعيم فى أول الحلية : فأما التصوف فاشتقاقه عند أهل الإشارات من الصفاء والوفاء والفناء ، واشتقاقه من حيث الحق التي أوجبت اللغة ، فانه عن أحد أربعة أشياء من الصوفانة : وهى بقلة زغباء قصيرة ، أو من صوفة : وهى قبيلة كانت فى الدهر الأول تجيز الحاج وتخدم الكعبة أو من صوفة القفا : وهى الشعرات النابتة فى مؤخره ، أو من الصوف المعروف على ظهور الضأن ثم أطال فى تقرير كل ذلك بدلائله وحججه . وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتاب [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان] هذه الأقوال كلها ؛ ورجح قول من قال : إنه منسوب إلى صوفة : اسم قبيلة ، ورد بقية الأوجه (سالكى طريق الآخرة) أى سائرين لها ، وتحذف نون الجمع للاضافة كما تحذف نون التثنية ، لذلك قال الحريرى :

وتحذف النونان للاضافه   نحو لقيت ساكنى الرصافه

(و) ماتقول فى (السكون فيها) أى فى المدارس والرباطات (فاعلم أن تلك) المدارس والرباطات مع السكون فيهما (الطريقة المثلى) أى الفضلى (فى هذا الشأن) أى شأن العزلة (لعامة أهل العلم) أى لكثرتهم (و) أهل (الاجتهاد) فى العبادة (وذلك) أى أفضلية هذه الطريقة (لأنها) أى الطريقة (جمعت المعنيين والفائدتين اللتين إحداهما : العزلة عن الناس) أى عن أكثرهم غير من ذكر من علماء الآخرة والصوفية (والتفرد عنهم بالصحبة والمخالطة والمزاحمة فى أمورهم . و) الفائدة (الثانية المشاركة معهم) أى علماء الآخرة (فى جمعهم) جمع جمعة (وجماعاتهم وتكثير شعائر الإسلام ، فتحصل السلامة التي هى للمنفردين ، و) يحصل (الخير الكثير الذى هو لعامة) أى كثرة (المسلمين مع ما) يحصل (للناس فيهم) أى علماء الآخرة (من القدوة) . وفى أكثر

وَالْبَرَكَةِ وَالنَّصِيحَةِ فَصَارَ السُّكُونُ فِيهَا أَعْدَلَ طَرِيقٍ، وَأَحْسَنَ حَالٍ، وَأَسْلَمَ سَبِيلٍ، وَلِهَذَا الشَّأْنِ أَقَامَ أَكْثَرُ الْعَارِفِينَ بَيْنَ النَّاسِ لِنَفْعِهِمْ لِعِبَادِ اللهِ تَعَالَى فِي بَابِ الدِّينِ وَقِلَّةِ أَذَاهُمْ وَمُشَاهَدَةِ الْخَلْقِ لِآدَابِهِمْ وَحُسْنِ رُسُومِهِمْ لِيَقْتَدُوا بِهِمْ، فَإِنَّ لِسَانَ الْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ، فَصَارَ ذَلِكَ أَحْسَنَ تَدْبِيرٍ فِي أَمْرِ الدِّينِ لِلْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَأَحْكَمَ رَأْيٍ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا حَالُ الْمُرِيدِ مَعَ الْمُجْتَهِدِينَ وَالْمُرْتَاضِينَ أَيَصْحَبُهُمْ أَمْ يَعْتَزِلُهُمْ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا ثَابِتِينَ عَلَى رُسُومِهِمُ الْأُولَى وَسِيرَتِهِمُ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ سَلَفِهِمْ فَهُمْ أَجَلُّ إِخْوَانٍ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَصْحَابٍ وَأَعْوَانٍ

النسخ من العدة: أى للطاعة (والبركة) أى الخير الإلهى (والنصيحة) هى كالنصح بضم النون مصدر نصح، وقيل: الأول اسم مصدر، والثانى مصدر. وهى لغة: الإخلاص والتصفية، من نصحت له القول والعمل: أخلصته، ونصحت العسل: صفيته، شبهوا تخليص الناصح قوله من الغش بتخليص العسل من شمعه، أو من النصح بفتح النون: وهو الخياطة، والمنصحة: الإبرة والنصاح بكسر النون: الخيط، والناصح: الخياط، شبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح وجمع شعثه بما تسده الإبرة وتضمه من خرق الثوب وخلله، ونصحت له أفصح من نصحته. وشرعا: إخلاص الرأى من الغش للمنصوح وإيثار مصلحته، ومن ثم كانت هذه الكلمة مع وجازة لفظها كلمة جامعة: معناها حيازة الخير للمنصوح له ليس فى كلام العرب أجمع منها، ومن كلمة الفلاح لخيرى الدنيا والآخرة كما نبه عليه العلامة ابن حجر فى شرح الأربعين (فصار السكون) والاجتماع (فيها) أى المدارس والرباطات (أعدل طريق وأحسن حال وأسلم سبيل ولهذا الشأن) المحمود من القدوة ونحو ذلك (أقام أكثر العارفين) قدس الله أسرارهم (بين الناس لنفعهم) أى العارفين (لعباد الله تعالى فى باب الدين وقلة أذاهم ومشاهدة الخلق لآدابهم وحسن رسومهم) أي عاداتهم وطرقهم (ليقتدوا) أى الخلق (بهم) أى بأعمالهم وأحوالهم (فإن لسان الحال أفصح) أى أظهر دلالة إلى المراد (من لسان المقال) ولأن طباع الناس إلى المعاونة فى الأعمال أميل إليها من المتابعة فى الأقوال (فصار ذلك) أى إقامة أكثر العارفين بين الناس (أحسن تدبير فى أمر الدين للعلم والعبادة، وأحكم رأى) أى أتقنه. (فإن قيل: فما حال المريد مع المجتهدين) فى العبادة (والمرتاضين) أى الذين يروضون ويجاهدون نفوسهم لامتثال الأوامر واجتناب النواهى (أيصحبهم أم يعتزلهم؟ فاعلم أنهم) أى المجتهدين والمرتاضين (إذا كانوا ثابتين على رسومهم) أى طرقهم (الأولى) أى الموروثة عن أسلافهم (وسيرتهم) بكسر السين مع سكون الياء بمعنى الطريقة والحالة والهيئة (الموروثة عن سلفهم) الصالحين (فهم) أى المجتهدون والمرتاضون (أجل) أى أعظم (إخوان فى) طاعة (الله عز وجل و) أجل (أصحاب وأعوان) جمع

عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تعالى ، فَلَا تَسَعُكَ عُزْلَةٌ وَتَفَرُّدٌ ، وَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ مَثَلُ مَا تَسْمَعُ مِنْ زُهَّادِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهِمْ : أَنَّ مِنْهُمْ جَمَاعَاتٍ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَيَتَوَاصَوْنَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ، وَأَمَّا إِذَا تَغَيَّرُوا عَنْ سِيرَتِهِمْ وَتَرَكُوا رُسُومَهُمْ وَأَخَلُّوا بِطَرِيقَتِهِمُ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ أَسْلَافِهِمُ الصَّالِحِينَ فَحُكْمُ هٰذَا الْمُجْتَهِدِ الْمُرْتَاضِ مَعَهُمْ كَحُكْمِهِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ يَلْزَمُ زَاوِيَتَهُ وَيَكُفُّ لِسَانَهُ ،

عون: بمعنى معين (على عبادة الله تعالى فلا تسعك) أى لا تجوز لك (عنهم عزلة وتفرد ، وإنما مثلهم) أى مثل هؤلاء المجتهدين في أنهم أعظم إخوان فى الله تعالى (مثل مانسمع من) حال (زهاد لبنان) اسم جبل بالشام (وغيرهم) وذلك (أن منهم) أىهؤلاء الزهاد (جماعات يتعاونون) أى يعاون بعضهم بعضا (علي البر) أى فعل ما أمروا به (والتقوى) أى بترك ما نهوا عنه (ويتواصون) أى يوصى بعضهم بعضا (بالحق) أى الأمر الثابت ، وهو كل ما حكم الشرع بصحته ولا يسوغ إنكاره ، وهو الخير كله من توحيد الله تعالى وطاعته ، واتباع كتبه ورسله ، والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ؛ كذا قاله الخطيب (و) يتواصون بـ(الصبر) على الطاعة وعن المعصية . قال العلامة الكرخى : وتخصيص هذا التواصى بالذكر مع اندراجه تحت التواصي بالحق لإبراز كمال الاعتناء به ، أو لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة التى هى فعل ما يرضى به الله تعالى . والثانى عبارة عن رتبة العبودية التى هى الرضا بما فعل الله ، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتوق إليه من فعل وترك ، بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالقبول ، والرضا به ظاهرا وباطنا (وأما إذا تغيروا) أى أولئك المجتهدون والمرتاضون (عن سيرتهم وتركوا رسومهم) أى علاماتهم (وأخلوا) أى تركوا (بطريقتهم الموروثة عن أسلافهم الصالحين ، فحكم هذا) المريد (المجتهد) فى العبادة (المرتاض) لنفسه المجاهد لها (معهم) أى مع أولئك المرتاضين (كحكمه) أى المجتهد (مع سائر الناس) أى باقيهم غير أولئك المذكورين (يلزم زاويته) أى ركن بيته أو مابنى كهيئة المسجد كما قاله بعض المحققين (ويكف) أى يحبس (لسانه)عن الشر ، لخبر الصحيحين « فليقل خيرا أو ليصمت » . وفى هذا إشارة إلى أن جهاد النفس بقمعها عن الكلام فيما يرديها ويؤذيها أشق عليها من جهاد الكفار وإن كان هذا هو الجهاد الأصغر وذاك هو الجهاد الأكبر، إذ منعها هواها من أجل ما اقتناه الإنسان . ومن أعظم آدابها : الصمت ، وترك الكلام فيما لا يعنى ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا » . فى الحديث الصحيح « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقى لها بالا يكتب له رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يعلم أنها تقع حيث تقع فيكتب له فيها سخطه إلى يوم يلقاه أو قال يهوى بها فى النار سبعين خريفا » . وفى الحكمة : لسانك أسدك ، إن أطلقته فرسك ، وإن أمسكته حرسك . ومن ثم كان أبو بكر رضى الله عنه يمسك لسانه ، ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد

وَيُشارِكَهُمْ فى خَيْرَاتِهِمْ، وَيُجَانِبَهُمْ فى سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ وَآفَاتِهِمْ، فَيَكُونُ هُوَ فى عُزْلَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعُزْلَةِ مُنْفَرِدًا عَنِ الْمُنْفَرِدِينَ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِنِ اخْتَارَ هٰذَا الْمُجْتَهِدُ الْمُرْتَاضُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلى مَكَانٍ آخَرَ لِصَلَاحٍ يَرَاهُ فى نَفْسِهِ وَتَجَنُّبِ آفَةٍ تَدْخُلُ عَلَيْهِ فى صُحْبَتِهِمْ . فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الْمَدَارِسَ وَالرِّبَاطَاتِ بِمَنْزِلَةِ حِصْنٍ حَصِينٍ يَتَحَصَّنُ بِهَا الْمُجْتَهِدُونَ عَنِ الْقُطَّاعِ وَالسُّرَّاقِ ، وَأَنَّ الْخَارِجَ بِمَنْزِلَةِ الصَّحْرَاءِ تَدُورُ فِيهَا فُرْسَانُ الشَّيَاطِينِ عَسْكَرًا عَسْكَرًا فَتَسْلُبُهُ أَوْ تَسْتَأْسِرُهُ ، فَكَيْفَ حَالُهُ إِذَا خَرَجَ إِلى الصَّحْرَاءِ وَتَمَكَّنَ الْعَدُوُّ مِنْهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَعْمَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ ؟ فَإِذًا لَيْسَ لِهٰذَا الضَّعِيفِ إِلَّا لُزُومُ الْحِصْنِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْقَوِىُّ الْبَصِيرُ الَّذِى لَا يَغْلِبُهُ الْأَعْدَاءُ وَاسْتَوَى عِنْدَهُ الْحِصْنُ وَالصَّحْرَاءُ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِ إِذَا خَرَجَ ، غَيْرَ

(ويشاركهم) أي يشارك ذلك المريد المجتهدين والمرتاضين (فى خيراتهم ويجانبهم) أى يباعدهم (فى سائر أحوالهم وآفاتهم ، فيكون هو) أى المريد المجتهد (فى عزلة من أهل العزلة منفرداً عن المنفردين . فان قلت : فان اختار هـذا المجتهد المرتاض أن يخرج من بينهم) أى بأن لم يسكن مدارسهم ورباطاتهم (إلى مكان آخر لصلاح يراه) أى الصلاح (فى نفسه و) لأجل (تجنب آفة) من الآفات (تدخل) أى تلك الآفة (عليه) أى المريد (فى صحبتهم . فاعلم أن هذه المدارس والرباطات بمنزلة حصن) أى حجاب مانع (حصين) بفتح الحاء : أى كثير المنع (يتحصن) أى يتحفظ (بها) أى بداخل هذه المدارس والرباطات (المجتهدون عن القطاع) أى قطاع الطريق فى عبادة الله (والسراق) جمع سارق (و) اعلم أيضا (أن) المكان (الخارج) من تلك المدارس والرباطات (بمنزلة الصحراء تدور فيها) أى الصحراء (فرسان) بضم الفاء وكسرها مع سكون الراء جمع فارس (الشياطين عسكرا عسكرا) . قال ابن الجواليقى : فارسى معرب : أي جيشاً بعد جيش (فتسلبه) بضم اللام من باب قتل : أى فتخلس فرسان الشياطين من يكون فى المكان الخارج (أو تستأسره)أى تطلبه بالتقييد والأسر (فكيف حاله) أى حال المريد الضعيف (إذا خرج) من داخل الحصن الحصين (إلى الصحراء وتمكن العدو منه) أى المريد الخارج من كل جانب يعمل (ذلك العدو) به مايشاء(فاذا) أى إذا تمكن العدو من كل جانب إن خرج ذلك المريد الضعيف (ليس) أى لا يجوز (لهذا الضعيف إلا لزوم الحصن) الحصين (وأما الرجل القوى البصير) لأنواع المكايد (الذى لا يغلبه الأعداء واستوى عنده) أى القوى البصير (الحصن والصحراء فلا خوف عليه إذا خرج) عن الحصن الحصين (غير) منصوب على الاستثناء

أَنَّ الْكَوْنَ فى الْحِصْنِ أَحْوَطُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِذْ لاَ يُؤْمَنُ مِنَ الْفَلَتَاتِ وَالاتِّفَاقَاتِ مَعَ قُرَنَاءِ السُّوءِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِهٰذِهِ الْمَثَابَةِ فَالْكَوْنُ مَعَ رِجَالِ اللهِ وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَقَّةِ الصُّحْبَةِ أَوْلى لِلْمُرْتَاضِ وَطَالِبِ الْخَيْرِ بِكُلِّ حَالٍ ، وَأَنْ لاَ مَانِعَ لِلْقَوِىِّ الْبَالِغِ مَبْلَغَ الِاسْتِقَامَةِ عَنِ التَّفَرُّدِ مِنْهُمْ ، فَاعْلَمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ وَتَأَمَّلْهَا تَغْنَمْ وَتَسْلَمْ إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُ فى زِيَارَةِ الْإِخْوَانِ فى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : وَمُوَاصَلَةِ الْأَصْحَابِ بِالتَّلَاقِى وَالتَّذَاكُرِ . فَاعْلَمْ أَنَّ زِيَارَةَ الْإِخْوَانِ فى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جَوَاهِرِ عِبَادَةِ اللهِ تعالى

(أن الـكون) أى كون المريد المجتهد ثابتا (فى الحصن أحوط) أى أشد احتياطاً (على كل حال) أى قويا كان أو ضعيفاً (إذ لا يؤمن) أى هـذا المريد (من الفلتات) جمع فلتة ، بمعنى بغتة ، وفلتات المجلس : هفواته وزلاته ، وحدث الأمر فلتة : أى فجأة من غير تردد ولا تدبر حتي كأنه افتلت سريعا . وفى نسخة : الغلتات بالغين المعجمة ، غلت يغلت غلتا : غلط ، أو الغلت فى الحساب والغلط فى القول ، والغلتة : اسم من الغلت ، غلتنى أغلتنى عليه اغتلاء : علاه بالشتم والضرب والقهر والغلبة . وفي نسخة أخرى : الغلبات ، كذا فى سراج السالكين (و) من (الاتفاقات مع قرناء السوء ، وإذا كان الأمر) أى حال المريد المجتهد كائنا (بهذه المثابة) أى المرجع من كونه فى الحصن أحوط (فالـكون) أي اجتماع هذا المريد (مع رجال الله والصبر على مشقة الصحبة) والمعاشرة (أولى) أى أفضل (للمرتاض) والمجاهد (وطالب الخير بكل حال ، وأن لا مانع للقوى البالغ مبلغ الاستقامة) فى طاعة الله (عن التفرد منهم) أي الناس . (فاعلم هـذه الجملة) التى ذكرناها (وتأملها) بقلب صاف (تغنم) أى تربح (وتسلم) أى من غوائل الأعداء ومكايدهم (إن شاء الله تعالى . فإن قيل : فما تقول فى زيارة الإخوان فى) دين (الله عز وجل ومواصلة الأصحاب بالتلاقي والتذاكر) وأنت تقول بالعزلة والانفراد عن الناس فكيف الجمع بينهما (فاعلم أن زيارة الإخوان فى الله عز وجل من جواهر عبادة الله تعالى) لما فيها من الألفة ، والألفة : ثمرة حسن الخلق ؛ فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، ومهما كان المثمر محموداً كانت الثمرة محمودة ، وحسن الخلق لاتخفى فى الدين فضيلته ، وهـو الذى مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام ، إذ قال ـ وإنك لعلى خلق عظيم ـ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أكثر ما يدخل الناس الجنة : تقوى الله وحسن الخلق » رواه الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة . وقال أسامة بن شريك « قلنا يا رسول الله ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فقال خلق حسن » . رواه ابن ماجه بإسناد صحيح . وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه أحمد والبيهقى والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة . قال الشيخ الأكبر قدس سره : معني الحديث : أنه لما قسمت الأخلاق إلى مكارم وإلى سفساف ، وظهرت مكارم الأخلاق كلها

وَفِيهَا الزُّلْفَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْفَوَائِدِ وَصَلَاحِ الْقَلْبِ وَلَٰكِنْ بِشَرْطَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ لَا تَخْرُجَ فِي ذَٰلِكَ إِلَى الْإِكْثَارِ وَالْإِفْرَاطِ . قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ ،

فى شرائع الرسل ، وتبين سفسافها من مكارمها عندهم وما فى العالم إلا أخلاق الله وكلها مكارم ، فما ثم سفساف أخلاق فبعث فبينها عليه السلام بالكلمة الجامعة إلي الناس كافة وأوتى جوامع الكلم وكل نبي يقدمه علي شرع خاص ، فأخبر عليه السلام أنه بعث ليتمم صالح الأخلاق لأنها أخلاق الله . فالحق ما قيل فيه : إنه سفساف أخلاق بمكارم أخلاق ، فصار الكل مكارم أخلاق ، فما ترك عليه الصلاة والسلام فى العالم سفساف أخلاق جملة واحدة لمن عرف مقصد الشرع ، فأبان لنا مصارف لهذا المسمى سفسافا من نحو حرص وحسد وشره وبخل وكل صنعة مذمومة فأعطانا لها مصارف إذا أجريناها عليها عادت مكارم أخلاق وزال عنها اسم الذم ، فكانت محمودة ، فتمم الله به مكارم الأخلاق فلا ضد لها كما أنه لا ضد للحق ، لكن منا من عرف المصارف ومنا من جهلها (وفيها) أى الزيارة (الزلفة) أى القربة (الكريمة إلى الله عز وجل مع ما فيها من ضروب) أى أنواع (الفوائد وصلاح القلب) أي ومحبة الله للزائرين . قال الله تعالى « وجبت محبتى للمتحابين فىّ والمتجالسين فىّ والمتباذلين فىّ والمتزاورين فى » رواه أحمد وابن حبان والطبرانى والحاكم والبيهقى من حديث معاذ، وروى مسلم عن أبى هريرة «أن رجلا زار أخا فى الله تعالى فى قرية أخري فأرصد الله تعالى على مدرجه ملكا فقال أين تريد ؟ قال أردت أخا فى هذه القرية ، قال هل بينك وبينه رحم تصلها أوله عليك نعمة تربها ؟ قال لا إنى أحببته فى الله عز وجل، قال فإنى رسول الله إليك إن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه » (ولكن بشرطين أحدهما أن لا تخرج) من منزلك (فى ذلك) أى المذكور من الزيارة والمواصلة (إلى الإكثار والإفراط) أى مجاوزة الحد (قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأبى هريرة) جره هو الأصل وصوبه جماعة ، لأن لفظ هريرة لا يمنع من الصرف نظراً للتأنيث اللفظى والعلمية لأنه ليس علما بل جزء علم ، إذ العلم مجموع المتضايفين وجزء العلم لا يمنع من الصرف . واختار آخرون منع صرفه كما هو الشائع على ألسنة العلماء من المحدثين وغيرهم لأن الكل :أى جزءى العلم وهما لفظ أبى ولفظ هريرة صار كالكلمة الواحدة ، يعنى أن بعضهم منع هريرة من الصرف نظرا لما فيه من التأنيث وتنزيلا لجزء العلم منزلة العلم لصيرورته مع المضاف كالشىء الواحد . قال ابن المدابغى :قال شيخ مشايخنا الشهاب السندوبي فى [المنح الوفية بشرح الخلاصة الألفية] أجري النحويون حكم الأعلام علي المضاف إليه فمنعوا صرفه بعلة أخرى كبنات الأوبر وأبى هريرة وإن كان العلم إنما هو المجموع لا الأخير ، وقالوا جاءنى أبو بكر بن فلان بترك تنوين بكر وإن كان الموصوف بابن هو المجموع ، نقله شيخنا الشيخ يس عن ابن هشام ، وليس ذلك خاصا بالأعلام الجنسية كما عرفته خلافا للشيخ خالد ، واعترض السيد الصفوى بأنه يلزم عليه : أى منع

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » .

الصرف رعاية الحال : أى حيث منعنا آخر العلم الصرف نظرا لصيرورة المتضايفين بالعلمية كالشيء الواحد ورعاية الأصل معا فى كلمة واحدة وهو أبو هريرة : أى حيث أعربنا الجزء الأول من العلم مضافا والجزء الثانى مضافا إليه نظراً للأصل : أى لما قبل العلمية وهو أنهما كلمتان بل فى لفظة هريرة إذا وقعت فاعلا مع المضاف مثلا كما إذا قيل جاء أبو هريرة فانها تعرب بإعراب المضاف إليه فتكون مجرورة بالفتحة نظراً للأصل وتمنع من الصرف نظرا للحال . ويجاب بأن الممتنع رعايتهما من جهة واحدة لا من جهتين كما هنا : أى فإنا راعينا الأصل من جهة الإعراب وراعينا الحال من جهة منع الصرف وكان الحامل عليه الخفة واشتهار هذه الكنية حتى نسى الاسم الأصلى بحيث اختلفوا فيه اختلافا كثيرا . وسبب تكنيته بذلك ما رواه ابن عبد البر عنه أنه قال « كنت أحمل يوما هرة فى كمى فرآنى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى ما هذه ؟ فقلت ، هرة . فقال يا أبا هريرة» وفى رواية ابن اسحاق : «وجدت هرة فحملتها فى كمى، فقيل لى ما هذه ؟ فقلت هرة فقيل لى : فأنت أبو هريرة » ورجح بعضهم الأول ، وقيل كان يلعب بها وهو صغير ، وقيل كان يحسن إليها . قال ابن المدابغى وهو راوى حديث « دخلت امرأة النار فى هرة » فلعله أخذ بقياس العكس ، ورجا الثواب فى الإحسان إليها ، وقيل المكنى له بذلك والده . واختلف فى اسمه واسم أبيه على خمسة وثلاثين قولا : أصحها عبد الرحمن ، روى ابن إسحاق عنه أنه أبدل به فى الإسلام عن شمس اسمه فى الجاهلية ابن صخر (رضى الله عنه) الدوسى ، أسلم عام خيبر وشهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لازمه الملازمة التامة رغبة فى العلم راضيا بشبع بطنه ، وكان يدور معه حيثما دار ومن ثم كان أحفظ الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حريص على العلم والحديث ، وقال « قلت يا رسول الله : إنى سمعت منك حديثاً كثيراً ، وإنى أخشى أن أنساه ، فقال ابسط رداءك فبسطته فضرب بيده فيه ثم قال : ضمه فضممته فما نسيت شيئا بعده » . قال البخارى : روى عنه أكثر من ثمانمائة ما بين صحابى وتابعى ، استعمله عمر على البحرين ثم عزله ، ثم راوده على العمل فأبى ، ولم يزل يسكن المدينة ، وبها توفى سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين عن ثمان وسبعين سنة ودفن بالبقيع . وما اشتهر أن قبره بقرب عسقلان لا أصل له ، وإنما هناك صحابى آخر اسمه جندرة روى له خمسة آلاف وثلثمائة حديث وأربعة وسبعون حديثا اتفق الشيخان منها على ثلثمائة وخمسة وعشرين ، وانفرد البخارى بثلاثة وتسعين ، ومسلم بمائة وتسعين (زر) أخاك يا أبا هريرة (غبا) بكسر الغين المعجمة : أى وقتا بعد وقت ولا تلازم زيارته كل يوم (تزدد) عنده (حبا) وبقدر الملازمة تهون عليه ، وانتصاب غبا على الظرف ، وحبا على التمييز . رواه البزار فى مسنده والطبرانى فى المعجم المتوسط والبيهقى عن أبى هريرة قال « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أين كنت بالأمس ؟ قال زرت ناسا من أهلى فذكره » قال المنذرى روي من طرق كثيرة ولم أقف له عن طريق صحيح ، بل له أسانيد حسان . وقال

وَالثَّانِي أَنْ تَحْفَظَ حَقَّ ذٰلِكَ بِالتَّجَنُّبِ عَنِ الرِّيَاءِ وَالتَّزَيُّنِ ، وَقَوْلِ اللَّغْوِ وَالْغِيبَةِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ فَيَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَخِيكَ الْوَبَالُ . فَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْفُضَيْلَ وَسُفْيَانَ رَحِمَهُمَا اللّٰهُ تَذَاكَرَا فَبَكَيَا ، فَقَالَ سُفْيَانُ : يَا أَبَا عَلِيٍّ أَرْجُو أَنَّا مَا جَلَسْنَا مَجْلِساً أَرْجَى لَنَا مِنْ هٰذَا الْمَجْلِسِ، فَقَالَ الْفُضَيْلُ : مَا جَلَسْتُ مَجْلِسًا أَخْوَفُ عَلَيَّ مِنْ هٰذَا ، فَقَالَ : وَكَيْفَ يَا أَبَا عَلِيٍّ ؟ قَالَ : أَلَسْتَ تَعْمَدُ إِلَى أَحْسَنِ حَدِيثِكَ فَتُحَدِّثُنِي بِهِ وَأَنَا عَمَدْتُ إِلَى أَحْسَنِ مَا عِنْدِي ، فَحَدَّثْتُكَ بِهِ فَتَزَيَّنْتَ لِي وَتَزَيَّنْتُ لَكَ فَبَكَى سُفْيَانُ ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُجَالَسَتُكَ لِلْإِخْوَانِ وَمُلَاقَاتِهِمْ عَلَى مِقْدَارِ قَصْدٍ وَاحْتِيَاطٍ وَنَظَرٍ لَطِيفٍ فَلَا يَقْدَحُ ذٰلِكَ حِينَئِذٍ

العزيزي : قال الشيخ حديث حسن (والثاني) من الشرطين (أن تحفظ حق ذلك) أي ما ذكر من الزيارة للاخوان (بالتجنب عن الرياء والتزين) والتصنع والسمعة (و) عن (قول اللغو) أي الباطل (والغيبة) بكسر الغين ، وهي ذكرك أخاك المسلم بما يكرهه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتي في ثوبه وداره ودابته كقولك الأحول والأسود ، وقولك أبوه هندي أو فاسق ، وقولك إنه بخيل أو سيء الخلق، وقولك سارق أو قليل الأدب ، وقولك إنه وسخ الثياب وإن كان المذكور بلسانك موجودا في أخيك المسلم لقوله صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم ، قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه ، قال إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه » (ونحو ذلك) من النميمة والكذب واليمين الكاذبة والقذف (فيعود) أي فان لم تحفظ حق ذلك يعود (عليك وعلى أخيك الوبال) أي سوء العاقبة والعذاب (فلقد حكى أن الفضيل) ابن عياض (وسفيان رحمهما الله تذاكرا فبكيا ، فقال سفيان : يا أبا علي) كنية فضيل (أرجو أنا ما جلسنا مجلسا أرجى لنا من هذا المجلس ، فقال الفضيل : ما جلست مجلسا أخوف) أي أشد خوفا (عليّ من هذا) المجلس الذي جلست معك (فقال) سفيان (وكيف) كان أخوف (يا أبا عليّ ؟ قال) الفضيل (ألست تعمد) بكسر الميم أي تقصد (إلى أحسن حديثك) وكلامك (فتحدثني به) أي الأحسن (وأنا) أيضا (عمدت) أي قصدت (إلى أحسن ما عندي فحدثتك به فتزينت لي) بأحسن حديثك (وتزينت لك) به فقد وقع الرياء (فبكى سفيان) رحمه الله تعالى . وقد وقع مثل هذه الحكاية للشيخ الإمام مع بعض العارفين ، وتقدم ذلك عند قول المصنف : وأما الخصلة الثانية ، فليراجع (فيجب أن تكون مجالستك للاخوان وملاقاتهم على مقدار قصد) أي عدل بين القليل والكثير (واحتياط ونظر) أي تفكر وتأمل (لطيف) أي دقيق (فلا يقدح) أي لا يطعن ولا يعيب (ذلك) أي المذكور من المجالسة والملاقاة (حينئذ) أي حين إذ تكون

فى عُزْلَتِكَ وَتَفَرُّدِكَ عَنِ النّاسِ ، وَلا يَعُودُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَخِيكَ بِضَرَرٍ وَآفَةٍ . بَلْ بِخَيْرٍ كَثِيرٍ وَنَفعٍ عَظِيمٍ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا يَبْعَثُنِى عَلَى الْعُزْلَةِ عَنِ النَّاسِ وَالتَّفَرُّدِ وَيُهَوِّنُ عَلَىَّ ذَلِكَ . فاعْلَمْ أَنَّ الَّذِى يُهَوِّنُ عَلَيْكَ ذَلِكَ ثَلاثَةُ أُمُورٍ : أَحَدُهَا اسْتِغْرَاقُ أَوْقَاتِكَ فى الْعِبادَةِ فَإِنَّ فى الْعِبادَةِ شُغْلاً وَإِنَّ الاُسْتِئْنَاسَ بِالنَّاسِ مِنْ عَلاَمَاتِ الإِفْلاَسِ ، فَإِذَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تَتَطَلَّعُ إِلى مُلاَقَاةِ النّاسِ وَكَلاَمِهِمْ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَضَرُورَةٍ فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ فُضُولٌ سَاقَهُ الْفَرَاغُ وَالْبَطَرُ ،

على مقدار العدل والاحتياط والنظر اللطيف (فى عزلتك وتفردك عن الناس ولا يعود) ما ذكر من ذلك (عليك وعلى أخيك بضرر وآفة ، بل) يعود (بخير كثير ونفع عظيم ، والله الموفق) للصواب (فإن قلت فما يبعثنى) أى ما الذى يحملني (على العزلة عن الناس والتفرد) عنهم (و) ما (يهوّن) أى يسهل ويخفف (على ذلك) العزلة والانفراد (فاعلم أن الذى يهون عليك ذلك ثلاثة أمور : أحدها استغراق) أى استيعاب (أوقاتك فى العبادة فإن فى العبادة شغلا) شاغلا عن ملاقاة الناس (و) قد قيل (إن الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس) يقال أفلس : إذا قل ماله . وقال القشيرى فى الرسالة : سمعت أبا على يقول : سمع الشبلى يقول : الإفلاس الإفلاس الإفلاس . فقيل له يا أبا بكر ما الافلاس ؟ قال من علامات الافلاس الاستئناس بالناس ، ولذلك قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه ، وأنكرها لخلو ذاته عن الفضيلة والكمال فيكثر حينئذ ملاقاة الناس والاستئناس بهم ويطرد الوحشة بذلك عن نفسه ، فاذا كانت ذاته فاضلة كاملة طلب الوحدة والانفراد وحبب إليها الخلاء ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم النافع والحكمة الإلهية ، فإذا هذه فائدة جزيلة ، ولكن فى حق بعض الخواصّ ، وهم الذين كملهم الله بالمعارف الظاهرة ، وحلي باطنهم بالأنوار الباهرة ، ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق فى معرفة الله أو فيما يكون وسيلة إليها فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة والمعاشرة ، فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محباً لله عارفا بالله ، وإليه الإشارة فى الخبر « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر القلبى ، ولا معرفة إلا بدوام الفكر الروحى وفراغ القلب من خطور خيال السوى شرط فى كل واحد منهما لا يتم إلا به ولا فراغ مع المخالطة إذ ليس فى الجوف قلبان ، كذا ذكره المصنف وغيره (فاذا رأيت نفسك تتطلع) أى تتشرف وتطلب مطلعك ومجيئك (إلى ملاقاة الناس وكلامهم من غير حاجة) داعية إليها (و) غير (ضرورة فاعلم أن ذلك) التطلع إلى الملاقاة والكلام بغير فائدة (فضول) أى ما لا يعنيك (ساقه) أى بعثه وحمله (الفراغ) من الشغل فى العبادة (والبطر) محركة : أى

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ فِى هٰذَا الْمَعْنَى :

إِنَّ الفرَاغَ إِلى سَلَامِكَ قَادَنِي   وَلَرُبَّما عَمِلَ الْفضُولُ الْفَارِغُ

فَأَنْتَ إِذَا عَانَقْتَ الْعِبَادَةَ بِحَقِّهَا وَجَدْتَ حَلَاوَةَ الْمُنَاجَاةِ فَاسْتَأْنَسْتَ بِكِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَاشْتَغَلْتَ عَنِ الْخَلْقِ وَاسْتَوْحَشْتَ مِنْ صُحْبَتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ . وَفِى الْخَبَرِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا رَجَعَ عَنِ الْمُنَاجَاةِ يَسْتَوْحِشُ مِنَ النَّاسِ وَكَانَ يَجْعَلُ أُصْبُعَيْهِ فى أُذُنَيْهِ لِئَلَّا يَسْمَعَ كَلَامَهُمْ ، وَكَانَ كَلَامُهُمْ عِنْدَهُ فِى النُّفُورِ وَالْوَحْشَةِ فى ذٰلِكَ الْوَقْتِ كَأَصْوَاتِ الْحَمِيرِ ، فَعَلَيْكَ بِمَا قَالَهُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ :

كفر النعمة (ولقد أحسن من قال) شعرا من بحر الكامل (فى هذا المعنى : إن الفراغ إلى سلامك) وفى نسخة: إلى كلامك (قادنى * ولربما عمل الفضول) مفعول (الفارغ) فاعل عمل (فأنت إذا عانقت) أى حصلت (العبادة بحقها وجدت) فى قلبك (حلاوة المناجاة) إلى الله تعالى (فاستأنست بكتاب الله سبحانه) أى بقراءة كتابه فإنه كلامه منه إليه (واشتغلت عن الخلق واستوحشت من صحبتهم) ومعاشرتهم (وكلامهم ، و) ورد (فى الخبر أن موسى عليه السلام كان إذا رجع عن المناجاة) إلي الله وسماع كلامه (يستوحش من) صحبة (الناس ، وكان) عليه السلام (يجعل أصبعيه فى أذنيه) يسدها (لئلا يسمع كلامهم) لأنه لا يستطيع ذلك (وكان كلامهم عنده فى النفور والوحشة فى ذلك الوقت) أى وقت رجوعه من المناجاة (كأصوات الحمير) جمع حمار : أى أصواتها المنكرة بسبب ماذاق من اللذة التى لا يحاط بها عند سماع كلام من ليس كمثله شىء ، وقد أشرق وجهه من النور ، فما رآه أحد إلا عمى فتبرقع وبقى البرقع على وجهه إلى أن مات . والمراد بتكليمه تعالى له عليه السلام أنه تعالى أزال عنه الحجاب وأسمعه الكلام القديم ثم أعاد الحجاب ، وليس المراد أنه تعالى يبتدىء كلاما ثم يسكت ، لأنه لم يزل متكلما أزلا وأبدا ؛ وماروا‌ه القضاعى من أن الله ناجى موسى بمائة ألف وأربعين كلة : معناه أنه فهم معانى يعبر عنها بهذه العدة لا لتبعيض فى نفس الكلام . وفى [لباب الحكمة الإلهية] للمصنف رحمه الله: كلام الله ليس سوى إفاضة مكنونات علمه على من يريد إكرامه كما قال تعالى « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه » شرفه الله بعزه وقربه بقدسه وأجلسه على بساط أنسه وشافهه بأجل صفاته وكلمه بعلم ذاته كما شاء كلمه وكما أراد سمع ، لايندرج كلامه تحت الكيفية ، ولا يحتاج إلى سؤال العلمية ، ولا يوصف بالماهية والكمية ، بل كلامه كعلمه ، وعلمه كإرادته ، وإرادته كصفته ، وصفته كذاته ، وذاته أجل من التنزيه والتكبر ، وصفاته أجلى من التفسير والتفصيل ، خالق كلّ شىء وهو على كل شىء قدير (فعليك) أى الزم (بما قاله شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله) من بحر الخفيف المجزوء

ارضَ بِاللهِ صَاحِباً وَذَرِ النَّاسِ جَانِباً

صَادِقِ الوُدِّ شَاهِدًا كُنْتَ فِيهِمْ وَغَائِبَا

قَلِّبِ النَّاسَ كَيْفَ شِئْتَ تَجِدْهُمْ عَقَارِبَا

وَالثَّانِى قَطْعُ الطَّمَعِ عَنْهُمْ بِمَرَّةٍ فَيَهُونُ عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ ، لأَنَّ مَنْ لاَ تَرْجُو نَفْعَهُ وَلاَ تَخَافُ ضَرَرَهُ فَوُجُودُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ .

وَالثَّالِثُ تَبَصُّرُ آفَاتِهِمْ وَتَذَكُّرُ ذَلِكَ وَتُكَرِّرُهُ عَلَى قَلْبِكَ لأَنَّ هَذِهِ الأَرْكَانَ الثَّلاَثَةَ

(ارض بالله) وفى نسخة : اتخذ الله (صاحبا) وذلك بملازمة الطاعة وإكثار الذكر واجتناب المعاصى كما أفاده بعض المحققين (وذر) أي اترك (الناس جانبا) وهذا شأن من عرف ربه حق معرفته ، ولله در القائل :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

مذ تجمعت ما خشيت افتراقا وأنا اليوم واصل مجموع

قال حجة الاسلام : فإن لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك فإياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه بمولاك وتتلذذ معه بمناجاتك له ، وعند ذلك فعليك أن تتعلم آداب الصحبة مع الله تعالى وآدابها أربعة عشر : الأول إطراق الرأس ، وغض الطرف . والثانى جمع الهم مع الاعتماد عليه تعالى . والثالث دوام الصمت عما لا يفيد فى الدين . والرابع سكون الجوارح عن اللاغاة . والخامس مبادرة امتثال الأمر من الواجب والمندوب . والسادس اجتناب النهى . والسابع عدم الاعتراض على القدر . والثامن دوام الذكر باللسان والقلب . والتاسع ملازمة الفكر فى نعمة الله تعالى وفى جلاله تعالى . والعاشر إيثار الحق على الباطل . والحادى عشر الإياس عن الخلق . والثانى عشر الخضوع تحت الهيبة مع الله تعالى . والثالث عشر الانكسار تحت الحياء منه تعالى لتقصيرك فى العبادة . والرابع عشر السكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان والاعتماد على فضله تعالى معرفة بحسن الاختيار ، فإن الله تعالى هو المدبر لعبده (صادق الودّ شاهدا) أى حاضرا (كنت فيهم) بالشخص (وغائبا) عنهم بالقلب (قلب الناس) أى أكثرهم (كيف شئت تجدهم عقاربا) أى بمنزلتها فى الإضرار ، لأن شأنهم صعب جدا كما قاله ابن العلاء الرقى (والثانى) من الأمور الثلاثة التى تهون عليك العزلة والتفرد عن الناس (قطع الطمع عنهم بمرة) أى عدم الاعتماد على الخلق بالكلية ، لأن الخلق لا تنفع ولا تضر (فيهون) أى يسهل (عليك أمرهم ، لأن من لا ترجو نفعه ولا تخاف ضره فوجوده وعدمه سواء) أى مستويان (والثالث) من الأمور الثلاثة (تبصر آفاتهم وتذكر ذلك) المذكور من آفاتهم وهى كثيرة (وتكرره) أى التذكر (على قلبك لأن هذه الأركان الثلاثة) وهى استغراق الأوقات فى العبادة وقطع الطمع عن الخلق بالكلية وإبصار آفاتهم

إِذَا لَزِمْتَهَا طَرَدْتَكَ عَنْ صُحْبَةِ الْخَلْقِ إِلَى بَابِ اللهِ تَعَالَى وَالتَّفَرُّدِ لِعِبَادَتِهِ وَحَبَّبَتْهُ إِلَيْكَ وَأَلْزَمَتْكَ بَابَهُ ، وَ بِاللهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ .

﴿ الْعَائِقُ الثَّالِثُ الشَّيْطَانُ ﴾ ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِي بِمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَقَهْرِهِ وَذٰلِكَ لِخَصْلَتَيْنِ . إِحْدَاهُمَا أَنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ وَلَا مَطْمَعَ فِيهِ لِمُصَالَحَةٍ وَ إِبْقَاءٍ عَلَيْكَ بَلْ لَا يُقْنِعُهُ إِلَّا هَلَاكُكَ أَصْلًا فَلَا وَجْهَ إِذًا لِلْأَمْنِ مِنْ مِثْلِ هٰـذَا الْعَدُوِّ وَالْغَفْلَةِ عَنْهُ ، وَتَأَمَّلْ

مع تذكرها وتكرره على القلب (إذا لزمتها طردتك) أى أبعدتك هذه الثلاثة (عن صحبة الخلق إلى باب) رحمة (الله تعالى و) إلى (التفرد لعبادته وحببته) أى حببت هذه الثلاثة الله سبحانه (إليك وألزمتك بابه) أى باب رحمته وفضله (وبالله) تعالى لا بغيره (التوفيق) إلى مرضاته وفهم حكمه (والعصمة) أى الحفظ عن الوقوع فى المخالفات ، ويؤخذ من كلامه أنه يجوز الدعاء لنا بالعصمة وهو ظاهر إن أريد بها الحفظ من الذنب مع جواز وقوع خلافه . وأما من منع الدعاء بها مطلقا ، واعترض على الشيخ الأستاذ أبى الحسن الشاذلى فى الدعاء بها فى حزبه فلم يصب ، إذ لا دليل يعضده ولا قياس ساعده كما ذكره العلامة ابن حجر . ووجه أخذ جواز الدعاء بها من كلامه أن المقصود من قول المصنف وبالله العصمة طلبها وإن كان فى الظاهر إخبارا ، فان المعنى وبالله التوفيق والعصمة فاسألهما واطلبهما منه سبحانه ، كذا قرره العلامة ابن المدابغى ، والله سبحانه وتعالي أعلم .

﴿ العائق الثالث ﴾ من عوائق العبادة الأربعة (الشيطان) عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر لقوله تعالى « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » وجنوده عشرة : الظلم ، والخيانة ، والكفر وترك حفظ الأمانة ، والنميمة ، والنفاق ، والخديعة ، والشك فى الواحد الخلاق ، والمخالفة لما أمر به ذو الجلال والاكرام ، والتغافل عن سنة النبى صلي الله عليه وسلم ، كذا أفاده بعضهم نقلا عن الهمدانى (ثم عليك) أى الزم (يا أخى) نداء تعطف وشفقة ليكون أدعى إلى الامتثال والقبول قال الله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . (بمحاربة الشيطان وقهره وذلك) أى لزوم المحاربة والقهر (لخصلتين : إحداهما أنه) أى الشيطان (عدو مضل) للانسان (مبين) أى بين العداوة والإضلال (ولا مطمع) أى لا طمع (فيه) أي الشيطان (لمصالحة) ومعاونة على الخير (وإبقاء) أى رحمة (عليك بل لا يقنعه) بفتح النون أى لا يرضاه (إلا هلاكك أصلا فلا وجه) أى لا سبيل (إذا) أى حين لا يرجى خيره بالكلية بل يخشى ضرره (للأمن من مثل هذا العدو) اللعين (والغفلة عنه) أى عن اللعين (وتأمل) أى

آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . وَهٰذَا أَقْصَى التَّحْذِيرِ وَغَايَتُهُ .

تفكر وتدبر (آيتين من كتاب الله تعالى إحداها قوله تعالى « ألم أعهد إليكم ») أى ألم آمركم وأوصيكم (يا بنى آدم) على لسان رسلى . والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد ههنا ما كلفهم الله به على ألسنة الرسل من الأوامر والنواهي . وقيل : المراد بالعهد هو السابق فى عالم الذر بقوله « ألست بربكم قالوا بلى » ولذا قال يا بنى آدم (أن لا تعبدوا الشيطان) أن مفسرة لأنه تقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه ولاناهية والفعل مجزوم بها ، والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يزينه عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادة الله تعالي (إنه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة تعليل للمنع عن عبادته بالطاعة فيما يحمله عليه كما صرح به البيضاوى وكون عدواته : أى الشيطان بينة بالنسبة لمن أنار الله قلبه ، وأما غيره فهو حليف له كما ذكره الجمل عن شيخه (و)الآية (الثانية قوله تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا») بطاعة الله ولا تطيعوه . فقد بين الله تعالى أن الشيطان عدو لبنى آدم ويريد ضلالتهم ليجرهم مع نفسه إلى النار ، فالواجب على العاقل أن يجتهد فى مجاهدته لكى يخلص نفسه منه فإنه عدو ظاهر للمؤمن (وهذا) المذكور من الآيتين (أقصى التحذير) لطاعة الشيطان (وغايته) أى التحذير وهذا مرادف لما قبله . وروت صفية بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » وعن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : «قل أعوذ برب الناس» يعنى سيد الناس «ملك الناس» كلهم من الجن والانس « إله الناس » يقول خالق الناس «من شر الوسواس» يعنى الشيطان « الخناس »وهو الشيطان «الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » يقول يدخل فى صدور الجن كما يدخل فى صدور الإنس فيوسوس فى صدورهم ، فاذا ذكر الله خنس وخرج من صدورهم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت داعيا ومبلغا وليس إلي من الهداية شىء وخلق إبليس مزينا وليس إليه من الضلالة شىء » يعنى أنه يوسوس ويزين المعصية وليس بيده أكثر من ذلك . فينبغى للعبد أن يجتهد فى دفع الوسوسة عن نفسه ويجتهد فى مخالفة عدوه ، لأن الله تعالى قال « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » وذكر عن وهب بن منبه رحمه الله أنه قال . إن إبليس لقى يحيى بن زكريا عليهما السلام ، فقال له يحيى بن زكريا : أخبرنى عن طبائع ابن آدم عندكم ؟ فقال إبليس : أما صنف منهم فهو مثلك معصومون لا نقدر منهم على شىء . والصنف الثانى فهم فى أيدينا كالكرة فى أيدى صبيانكم وقد كفونا أنفسهم ، والصنف الثالث فهم أشد الأصناف علينا فنقبل على أحدهم حتى ندرك منه حاجتنا ثم يفزع إلي الاستغفار فيفسد به علينا ما أدركنا منه ، فلا نحن نيأس منه

وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَى عَدَاوَتِكَ وَمُنْتَصِبٌ أَبَدًا لِمُحَارَبَتِكَ ، فَهُوَ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ يَرْمِيكَ بِسِهَامِهِ وَأَنْتَ غَافِلٌ عَنْهُ فَكَيْفَ يَكُونُ الْحَالُ .

ولا نحن ندرك حاجتنا منه ، وذكر فى الخبر « إن إبليس لعنه الله جاء إلى موسى عليه السلام وهو يناجى ربه ، فقال له ملك من الملائكة ويحك ما ترجو منه على هذه الحالة ! فقال أرجو منه ما رجوت من أبيه آدم وهو فى الجنة » . ويقال إذا حضر وقت الصلاة أمر إبليس جنوده بأن يتفرقوا ويأتوا الناس ويشغلوهم عن صلاتهم ، فيجىء الشيطان إلى من أراد الصلاة فيشغله ليؤخرها عن وقتها ، فان لم يقدر فإنه يأمره بأن لا يتم ركوعها وسجودها وقراءتها وتسبيحها ودعواتها : فإن لم يستطع فانه يشغل قلبه بأشغال الدنيا ، فإن لم يقدر على شىء من ذلك أمر إبليس بأن يوثق هذا الشيطان ويقذف به فى البحر ، فإن كان يقدر على شىء من ذلك فإنه يكرمه ويبجله . وقال الله عز وجل حكاية عن إبليس « لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم » يعنى على طريق الإسلام ولأرصدنهم ولأصدنهم « ثم لآتينهم من بين أيديهم » يعنى من أمر الآخرة حتى أجعلهم فى الشك « ومن خلفهم » لأزينن لهم الدنيا حتى يطمئنوا إليها « وعن أيمانهم » يعنى آتيهم من جهة الدين « وعن شمائلهم » يعنى من جهة المعاصى « ولا تجد أكثرهم شاكرين » يعنى على نعمك وذكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال : أمر الله تعالى إبليس أن يأتى محمدا صلى الله عليه وسلم ويجيبه عن كل ما يسأله ، فجاءه على صورة شيخ وبيده عكاز ، فقال له من أنت ؟ قال : أنا إبليس ، فقال لماذا جئت ؟ قال إن الله أمرنى أن آتيك وأجيبك عن كل ما تسألنى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا ملعون كم أعداؤك من أمتي ! قال خمسة عشر ، أولهم أنت والثانى إمام عادل . والثالث غنى متواضع . والرابع تاجر صادق . والخامس عالم متخشع . والسادس مؤمن ناصح . والسابع مؤمن رحيم القلب . والثامن تائب ثابت على التوبة . والتاسع متورع عن الحرام . والعاشر مؤمن يديم على الطهارة . والحادى عشر مؤمن كثير الصدقة . والثانى عشر مؤمن حسن الخلق مع الناس . والثالث عشر مؤمن ينفع الناس . والرابع عشر حامل القرآن يديم على تلاوته . والخامس عشر قائم بالليل والناس نيام ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : ومن رفقاؤك من أمتى ؟ قال عشرة : أولهم سلطان جائر . والثانى غنى متكبر . والثالث تاجر خائن . والرابع شارب الخمر . والخامس القتات . والسادس صاحب الزنا . والسابع آكل مال اليتيم . والثامن المتهاون بالصلاة . والتاسع مانع الزكاة . والعاشر الذي يطيل الأمل . فهؤلاء أصحابى وإخوانى كذا ذكره العلامة نصر بن محمد السمرقندي (والخصلة الثانية أنه) أى الشيطان (مجبول) أى مطبوع ومخلوق (على عداوتك ومنتصب) أي قائم (أبدا لمحاربتك) وقهرك (فهو آناء الليل) أى ساعاته وهو جمع أنى بالقصر مثل معى كما قاله الأخفش (وأطراف النهار) أى أجزاءه (يرميك بسهامه) أى بوسوسه الذى كالسهام (وأنت غافل عنه) أى عن سهامه (فكيف يكون الحال) فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه ، وذلك كما روى

ثُمَّ وَقعتْ مَعَكَ نُكْتَةٌ أُخْرَى ، وَهِيَ أَنَّكَ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى بَابِ اللهُ سُبْحَانَهُ بِفِعْلِكَ وَقَوْلِكَ ، وَهٰذَا ضِدُّ صَنِيعِ الشَّيْطَانِ

فى الخبر « أنه كان فى بنى إسرائيل رجل متعبد فى صومعة يقال له برصيصا العابد كان مستجاب الدعوة وكان الناس يأتونه بمريضهم فكان يدعو فيبرأ المريض ، فدعا إبليس الشياطين لعنهم الله وقال من يفتن هذا فإنه قد أعيا كم ؟ قال عفريت من الشياطين : أنا أفتنه فان لم أفتنه فلست لك بولى فقال له إبليس : أنت له فانطلق الشيطان حتى أتى منزل ملك من ملوك بنى إسرائيل وله ابنة من أحسن النساء وهى جالسة مع أبيها وأمها وأخواتها فخبلها ففزعوا لذلك فزعا شديداً فصارت بمنزلة المجنونة وكانت على ذلك أياما ، ثم أتاهم على صورة إنسان فقال لهم إن أردتم أن تبرأ فلانة فاذهبوا بها إلى فلان الراهب يعوذها ويدعو لها ، فذهبوا بها إليه فدعا لها فبرأت من علتها ، فلما رجعوا بها عاودها ذلك فأتاهم الشيطان فقال لهم : إن أردتم أن تبرأ فلانة فاجعلوها عنده أياما فانطلقوا بها إليه ليضعوها عنده فأبى الراهب أن يقبلها فألحوا عليه وتركوها عنده فكان الراهب يظل صائما ويمسى قائما فلا يتعرض الشيطان للجارية ، فإذا جلس الراهب ليطعم أظهر خبلها وكشفها فيعرض الراهب عنها بوجهه حتى طال ذلك فنظر يوما إلى وجهها وجسدها فرأى وجها وجسدا لم ير مثله فلم يصبر على ذلك حتى قربها فحبلت منه ، ثم أتاه الشيطان فقال له : إنك قد أحبلتها وليس ينجيك مما صنعت بها من عقوبة الملك إلا أن تقتلها وتدفنها عند صومعتك ، فاذا سألوك عنها فقل أتى عليها أجلها فماتت فانهم يصدقونك ، فقام إليها فذبحها ودفنها فجاءوا يسألون عنها فأخبرهم بأنها قد ماتت فصدقوه فرجعوا ، وفى رواية قال : إنها برئت وذهبت إلى منزلها فصدقوه فرجعوا وجعلوا يطلبونها من بيوت أقاربها ، فانطلق الشيطان فقال لهم : إن الراهب قد وقع عليها فأحبلها ، فلما خشى أن يطلع على ذلك ذبحها ودفنها فركب الملك فى الناس مقبلا نحو الراهب فحفروها فوجدوها مذبوحة فأخذوا الراهب فصلبوه . ثم جاءه الشيطان وهو مصلوب فقال أنا الذى فعلت بك ما فعلت ، وأنا أنجيك من ذلك وأخبرهم بأنه ذبحها غيرك وهم يصدقونى بذلك إن أنت سجدت لى سجدة من دون الله ، فقال كيف أسجد على هذه الحالة ؟ قال أنا أرضى أن تومىء إلى برأسك فسجد له سجدة ، فقال له الشيطان : أنا برىء منك فلذلك قول الله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين» (ثم وقعت معك نكتة أخرى) أى لطيفة متخرجة بالفكر مؤثرة فى القلب ، وأصله من نكت الأرض نكتا إذا أثر فيها بنحو قضيب (وهى) أى تلك النكتة (أنك فى عبادة الله تعالى ودعوة الخلق إلى باب) رحمة (الله سبحانه بفعلك وقولك ، وهذا) أى الذى فعلته من العبادة والدعوة (ضد صنيع الشيطان)

وَهِمَّتِهِ وَمُرَادِهِ وَحِرْفَتِهِ فَصِرْتَ كَأَنَّكَ قُمْتَ وَشَدَدْتَ وَسَطَكَ لِتُغَايِظُ الشَّيْطَانَ وَتُكَايِدَهُ وَتُنَاقِضَهُ ، فَهُوَ أَيْضاً يَشُدُّ وَسَطَهُ لِيُعَادِيكَ وَيُقَاتِلَكَ وَيُمَاكِرَكَ ، حَتَّى يُفْسِدَ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ عَلَيْكَ شَأْنَكَ ، بَلْ حَتَّى يُهْلِكَكَ أَسًّا ، إِذْ لاَ يَأْمَنُ مِنْ جَانِبِكَ بَعْدُ ، فَإِنَّهُ الَّذِي يُسِيءُ وَيَقْصِدُ بِالْهَلاَكِ إِلَى مَنْ لاَ يُغَايِظُهُ وَلاَ يُنَاقِضُهُ ، بَلْ يُصَادِقُهُ وَيُوَافِقُهُ كَالْكُفَّارِ وَأَهْلِ الرَّغْبَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَكَيْفَ قَصْدُهُ لِمَنْ قَامَ لِمُغَايَظَتِهِ وَتَجَرَّدَ لِمُنَاقَضَتِهِ فَلَهُ إِذَنْ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ عَدَاوَةٌ عَامَّةٌ وَمَعَكَ أَيُّهَا الْمُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ عَدَاوَةٌ خَاصَّةٌ ، وَإِنْ أَمْرَكَ لَهُ لَمُهِمٌّ وَمَعَهُ عَلَيْكَ أَعْوَانٌ أَشَدُّهَا عَلَيْكَ نَفْسُكَ وَهَوَاكَ ، وَلَهُ أَسْبَابٌ وَمَدَاخِلُ وَأَبْوَابٌ أَنْتَ عَنْهَا غَافِلٌ .

أي ما يصنعه من الإضلال والإغواء (و) ضد (همته ومراده وحرفته) وشغله (فصرت كأنك قمت وشددت وسطك) أي بطنك بالإزار ، وهذا كناية عن استعداده فى محاربة الشيطان (لتغايظ الشيطان) أي لتغضبه (وتكايده) أي تماكره (وتناقضه) أي تناقض مراده (فهو) أي الشيطان (أيضا) أي كما أنت عليه (يشد وسطه ليعاديك ويقاتلك ويماكرك حتى يفسد والعياذ بالله عليك شأنك بل) لا يقنعه ذلك الإفساد (حتى يهلكك رأسا) أي بالكلية (إذ لا يأمن) أي الشيطان (من جانبك بعد) معناه فى مثل هذا الموضع بالفارسية هنوز ، وكان أصله بعد ما مضى من الزمان إلى هذا الوقت ، ثم حذف المضاف إليه فبنى بعد على الضم (فإنه الذى يسيء ويقصد بالهلاك) الأبدى (إلى من لا يغايظه ولا يناقضه) ولا يخالفه (بل) يطيعه و (يصادقه) أي يأخذه صداقة ومحبة (ويوافقه) وذلك (كالكفار وأهل الضلال وأهل الرغبة فى بعض الأحوال ، فكيف) أي فانظر كيف كان (قصده) أي اللعين (لمن قام لمغايظته) أي ذلك اللعين (وتجرد لمناقضته فله إذن) أي حين لا يؤمن شره وهلاكه لأعدائه وأصدقائه (مع سائر الناس عداوة عامة ومعك أيها المجتهد فى العبادة والعلم عداوة خاصة) من بين سائر الناس (وإن أمرك) أي شأنك وحالك (له) أي للشيطان اللعين (لمهم) لأنك قد أقبلت على الاجتهاد فى العبادة التي هي خلاف مراد اللعين فيجتهد فى إفسادك بقدر جهده (ومعه عليك) أي على محاربتك (أعوان) أي جنود (أشدها عليك نفسك) الأمارة بالسوء (وهواك) لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه (وله) أي الشيطان (أسباب ومداخل) إلى القلب (وأبواب) إليه (أنت عنها غافل) اعلم أن مداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهى كثيرة ، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان . فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة فإن الغضب هو غول العقل ، وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ، وجند العقل هو العلم

بالله واليقين ، وجند الشيطان الجهل والطمع وحب الدنيا ، ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبى بالكرة يدحرجه كيف يشاء ، كما روى فى الإسرائيليات أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما ، وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربى أن يتوب عليّ ، فقال له موسى نعم ، فدعا موسى ربه عز وجل ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : ياموسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه ، فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه . فغضب إبليس واستكبر وقال : لم أسجد له حيا أأسجد له ميتاً ؟ ثم قال يا موسى إن لك عليّ حقا بما شفعت لى إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن : اذكرني حين تغضب ، فإن روحى فى قلبك ، وعينى فى عينك ، وأجري منك مجرى الدم ، واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى ظهره ، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فأنا رسولها إليك ورسولك إليها ، فقد أشار إبليس بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص ، فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله . وقد ذكر فى بعض الكتب : أن بعض الأولياء قال لإبليس أرنى كيف تغلب ابن آدم ؟ فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى : أى ميل للنفس إلى أمر دنيوى ، فقد حكى : أن إبليس ظهر لراهب من رهبان بنى إسرائيل ، فقال له الراهب : أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال الحدة : وهى التسرع فى الغضب ، فإن العبد إذا كان حديداً فى غضبه قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . وقيل إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه ، وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ، وابن آدم لا يخلو من تينك الحالتين ، وهو فيهما ملازم له يعده ويمنيه ويراه من حيث لا يراه فكيف يغلبه ؟ .

ومن أبوابه العظيمة : الحسد والحرص ، فمهما كان العبد حريصاً على كل شىء أعماه حرصه وأصمه ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشى يعمى ويصم » رواه أبو داود من حديث أبى الدرداء ، ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان ، فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة ، فيحسن ويزين عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكراً وفاحشا ، لكنه موافق لما تشتهيه نفسه .

ومن أبوابه العظيمة : الشبع من الطعام وإن كان حلالا صافيا لاشبهة فيه ، فان الشبع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليحي بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شىء ، فقال له يا إبليس ما هذه المعاليق ؟ قال هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم ، فقال فهل لي فيها من شىء ؟ قال ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر . قال فهل غير ذلك ؟ قال لا . قال : لله علي أن لا أملأ بطنى من الطعام

أبداً ، فقال إبليس : ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبدا ، ويقال فى كثرة الأكل ست خصال مذمومة : أولها أن يذهب خوف الله من قلبه . والثانى أن يذهب رحمة الخلق من قلبه ، لأنه يظن أنهم كلهم شباع . والثالث أنه يثقل عن الطاعة . والرابع أنه إذاسمع كلام الحكمة لا يجد له رقة . والخامس أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع فى قلوب الناس . والسادس أن يهيج فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب ، والدار التى يسكنها ؛ فان الشيطان إذ رأى ذلك غالبا علىقلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوه أولا إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها ، وتوسيع أبنيتها ، وكثرة مرافقها ، ويدعوه ثانيا إلى التزين بالثياب الفاخرة والدواب الفارهة ، ويستسخره فيها طول عمره ؛ وإذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية فإن بعض ذلك يجره إلى البعض ، فلا يزال يؤديه من شىء إلى شىء مثله إلى أن يساق إليه أجله المحتوم ، فيموت وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى النفسى ويخشى عليه من ذلك سوء العاقبة بالكفر ، نعوذ بالله منه ، وهذا مشاهد الآن في أكثر الناس .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع فى الناس ، فاذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فى ماله أو جاهه بأنواع من الرياء والتلبيس حتي يصير المطموع فيه كأنه معبوده ، فلا يزال يتفكر فى حيلة التودد والتحبب إليه ، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك صعب ذلك المدخل أو هان . وأقل أحواله : الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد روى صفوان بن سليم : أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة ابن أبي عامر الراهب الأنصارى ، فقال يا بن حنظلة احفظ عنى شيئا أعلمك به ؟ فقال لا حاجة لى به ، قال انظر فإن كان خيراً أخذت ، وإن كان شرا رددت ، يا ابن حنظلة لاتسأل أحداً غير الله سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت : يعنى كف نفسك عن إنزال حاجتها لغير الله ، واحفظها عند الغضب .

ومن أبوابه العظيمة : العجلة وترك التثبت فى الأمور ، قال صلى الله عليه وسلم « العجلة من الشيطان ، والتأنى من الله تعالي » رواه الترمذى من حديث سهل بن سعد . وقال عز وجل « خلق الإنسان من عجل » . وقال تعالي « وكان الإنسان عجولا » ، وقال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » . وهذا لأن الأعمال ينبغى أن تكون بعد التبصرة والمعرفة ، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك ، فقد روى البيهقى من طريق عكرمة عن ابن عباس رفعه « إذا تأنيت أصبت أو كدت وإذا استعجلت اخطأت أو كدت تخطىء » . وقيل فى ذلك :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدرى ، فقد روى « أنه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس ، فقالوا : أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها :

فقال هذا حادث قد حدث الزموا مكانكم حتى آتيكم بخبره ، فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئا ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا بالملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال : إن نبيا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا فأيسوا طمعكم من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة : أى فلم يكن لكم مدخل فيهم إلا من هذا الباب فقط . قال العلامة الزبيدى : وقد حمي الله عيسى عليه السلام من حضور الشيطان عند ولادته والطعن فى خاصرته كما ثبت ذلك فى الأخبار الصحيحة ، فقد روى أحمد وابن أبي شيبة ومسلم من حديث أبى هريرة «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه » : وعند ابن جرير «ما من مولود إلا وقدعصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم » .

ومن أبوابه العظيمة : الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار فكل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فان من معه قوته فهو فارغ القلب عن هم المعيشة ، فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيا ، وقد صار محتاجا إلى تسعمائة ليشترى من بعضها دارا يعمرها ويشترى من البعض جارية يتسراها ويشترى من البعض أثاث البيت من فرش وذخيرة ويشترى من البعض الثياب الفاخرة لنفسه وكل شيء من ذلك يستدعى أشياء أخرى تليق به مما لا يفى به ذلك المال ، وذلك لا آخر له فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر له سواه .

ومن أبوابه العظيمة : البخل . وخوف الفقر ، فإن ذلك هو الذى يمنع الإنسان من الانفاق فى سبيل الله ومن التصدق على المستحقين ويدعو إلى الإدخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . وقال خيثمة بن عبد الرحمن : إن الشيطان يقول ما غلبنى ابن آدم غلبة فلن يغلبنى على ثلاث : أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه وإنفاقه فى غير حقه ومنعه من حقه . وقال سفيان الثورى : ليس للشيطان سلاح يقاتل به ابن آدم مثل خوف الفقر ، فإذا قبل ذلك منه أخذ فى الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال والأسواق هى معشش الشياطين : أى مجمعهم الذى يلازمونه ويركزون فيها راياتهم . وروى أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتنى إلى الأرض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا ، قال الحمام : أى فهو يسكن فيه دائما إذ هو محل كشف العورات قال اجعل لى مجلسا أجلس فيه . قال الأسواق ومجامع الطرق . قال اجعل لى طعاما : قال طعامك

مالم يذكر اسم الله عليه . قال اجعل لى شرابا . قال كل مسكر. قال اجعل لي مؤذنا قال : المزامير : قال اجعل لى قرآنا قال : الشعر . قال اجعل لى كتابا : قال الوشم . قال اجعل لى حديثاً قال : الكذب . قال اجعل لى مكايد قال : النساء فهن حبائل الشيطان » كما رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الرحمن بن عابس . ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومة . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع لقوّة حالهم فى الذكر ، فأتى رفقة أخرى بالقرب من ذلك المجلس يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون ، وليس إياهم يريد ، وإنما يريد تفرقة أولئك القوم الذين يذكرون الله ، فقام الذين يذكرون الله فاشتغلوا يفصلون بينهم ويصالحونهم فتفرقوا عن مجلسهم وتركوا ذكر الله تعالى وذلك مراد الشيطان منهم .

ومن أبوابه العظيمة حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يزاولوا فيه بالتعلم وبالدراسة والانكباب على الهيئة المعهودة ولم يتبحروا فيه بالغوص على مشكلاته على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حدّ عقولهم حتى يوقعهم فى الشك فى أصل الدين أو يخيل إليهم فى الله تعالى خيالات وظنونات يتعالى الله عنها ويجل شأنه عن نسبتها إليه يصير بها كافراً أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع فى صدره يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله ، فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فى عقل نفسه إعجابا به ، وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى ، فيقول فمن خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله » أى فليقل أخالف عدو الله المعاند وأومن بالله وبما جاء به رسول الله ، فان ذلك يذهب عنه ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث فى علاج هذا الوسواس من الشيطان فإن هذا وسواس يجده عوامّ الناس دون العلماء العارفين بنور البصيرة وقد استقر الايمان فى قلوبهم فلا يتزلزلون ، وإنما حقّ العوام أن يصدقوا بقلوبهم وينقادوا لأمور الدين ، ويشتغلوا بعبادتهم الظاهرة ومعايشهم ، ويتركوا العلم والغوص فى معانيه للعلماء الصادقين ، فالعامى لو يزنى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم فى العلم فإنه من تكلم فى الله وفى دينه من غير إتقان العلم وذلك بمعرفة حججه وبراهينه مع مساعدة تأييد الله تعالى وشهود نور اليقين وقع فى الكفر من حيث لا يدرى كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ، ومن ذلك قول سهل التسترى : إفشاء الربوبية كفر فإن العوام إذا ورد على أسماعهم ما تنبو عنه طباعهم لم يقبلوه وصاروا أعداء ما جهلوه ؛ فالأولى أن لا يخاطبوا بمثل ذلك صيانة لهم عن الزيغ والوقوع فى الكفر ومكايد الشيطان فما يتعلق بالعقائد والمذاهب والأهواء والآراء لا تحصر ، وإنما أردنا بما أوردناه المثال لينبه على ماوراءه . فهذه المذكورات بعض مداخل

وَلَقَدْ صَدَقَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِى حَيْثُ قَالَ : الشَّيْطَانُ فَارِغٌ وَأَنْتَ مَشْغُولٌ وَالشَّيْطَانُ يَرَاكَ وَأَنْتَ لَاتَرَاهُ وَأَنْتَ تَنْسَاهُ وَهُوَ لَايَنْسَاكَ وَمِنْ نَفْسِكَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْكَ أَعْوَانٌ ، فَإِذَنْ لَابُدَّ مِنْ مُحَارَبَتِهِ وَقَهْرِهِ وَإِلَّا فَلَا تَأْمَنِ الْفَسَادَ وَالْهَلَاكَ .

فَإِنْ قُلْتَ فَبِأَىِّ شَىْءٍ أُحَارِبُ الشَّيْطَانَ وَبِأَىِّ شَىْءٍ أَقْهَرُهُ وَأَدْفَعُهُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لِأَهْلِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فِى هٰذِهِ الْمَسْئَلَةِ طَرِيقَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَاقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ التَّدْبِيرَ فِى دَفْعِ الشَّيْطَانِ الْاسْتِعَاذَةُ بِاللّٰهِ سُبْحَانَهُ لَاغَيْرُ

الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها على سبيل الاحاطة لم أقدر عليه . وفى هذا القدر الذى ذكر ما ينبه على غيره فليس فى الآدمى صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان يقاتل به المؤمن ومدخل من مداخله إلى القلب (ولقد صدق يحي بن معاذ الرازى) الواعظ نسيج وحده فى وقته له لسان فى الرجاء خصوصاً وكلام فى المعرفة ، خرج إلي بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين رحمه الله تعالى (حيث قال : الشيطان فارغ) عن الشواغل فلا يشغله إلا أن يهلكك (وأنت مشغول) بأنواع المشاغيل إما دنيوية أو أخروية (والشيطان يراك وأنت لا تراه) لكونه يجرى مجارى الدم (وأنت تنساه) أى الشيطان (وهو لا ينساك) بمنع الخير وإيقاع الشر عليك (ومن نفسك للشيطان عليك) أى على إفسادك (أعوان ، فإذن) أى إذا نظرت لقول ابن معاذ الرازى رحمه الله (لا بد من محاربته) أى الشيطان (وقهره وإلا) تحاربه وتقهره (فلا تأمن الفساد والهلاك) منه (فإن قلت فبأى شيء أحارب الشيطان) وأجاهده (وبأى شيء أقهره وأدفعه فاعلم أن لأهل هذه الصناعة) من الطائفة الصوفية (فى هذه المسئلة) أى مسئلة محاربة الشيطان ودفعه (طريقين : أحدهما ما قال بعضهم : إن التدبير) والحيلة (فى دفع الشيطان الاستعاذة) أى طلب التحصن والتحفظ منه (بالله سبحانه لا غير) بالضم : أى غير الاستعاذة ودليل ذلك قوله تعالى « فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » أى اطلب اللجأ إلى الله تعالى من شره . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : «التق شيطان المؤمن وشيطان الكافر ، فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاس ، وشيطان المؤمن مهزول : أى نحيف البدن أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول ؟ قال أنا مع رجل إذا أكل سمي الله تعالى على أكله فأظل جائعاً ، وإذا شرب سمى الله تعالى علي شربه فأظل عطشانا ، وإذا لبس سمى الله تعالى على لباسه فأظل عريانا ، وإذا ادهن سمى الله تعالى عند ادهانه فأظل شعثا ، فقال شيطان الكافر، لكنى مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشاركه فى طعامه وشرابه ولباسه وادهانه» فقد روى مسلم من حديث جابر « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فاذا سقطت من أحدكم اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها

فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَلْبٌ سَلَّطَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْكَ فَإِنِ اشْتَغَلْتَ بِمُحَارَبَتِهِ وَمُعَالَجَتِهِ تَعِبْتَ وَضَاعَ عَلَيْكَ وَقْتُكَ وَيَظْفَرُ بِكَ فَيَعْقِرُكَ وَيَجْرَحُكَ ، فَالرُّجُوعُ إِلَى رَبِّ الْكَلْبِ لِيَصْرِفَهُ عَنْكَ أَوْلَى . وَالثَّانِي مَا قَالَ آخَرُونَ : إِنَّ الطَّرِيقَ الْمُجَاهَدَةُ وَالْقِيَامُ عَلَيْهِ بِالدَّفْعِ وَالرَّدِّ وَالْمُخَالَفَةِ .

للشيطان » الحديث ، وروى الترمذى والحاكم من حديث أبي هريرة « إن الشيطان حساس لحاس من الطعام فاحذروه على أنفسكم » الحديث ، ودل أثر أبي هريرة السابق أن الشيطان يأكل ويشرب ويلبس ويشم حقيقة ، وقد شنع ابن العربى في شرح الترمذى على من قال : إن أكله إنما هو الشم فقط ، بل الصحيح أنه يشم ويأكل وله لذة فى الشم كلذة فى اللقمة كلذتنا فى كل طعمة ، وكان أبو عبد الله محمد بن واسع البصرى العابد يقول كل يوم بعد صلاة الصبح هذه الاستعاذة : اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا : يعنى به الشيطان، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم ، اللهم فأيسه منا كما أيسته من رحمتك ، وقنطه منا كما قنطته من عفوك ، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير . قال الراوى : فتمثل له إبليس يوما فى طريق المسجد ، فقال يا ابن واسع هل تعرفنى ؟ قال ومن أنت ؟ قال : أنا إبليس . قال وما تريد ؟ قال أريد أن لا تعلم أحدا هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك . قال والله ما أمنعها ممن أرادها فاصنع ما شئت . وقال الحسن البصرى رحمه الله « نبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال إن عفريتا من الجن يكيدك ، فاذا أويت إلي فراشك فاقرأ آية الكرسى » رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا (فان الشيطان كلب) أي بمنزلته (سلطه الله سبحانه) أى جعله قاهراً (عليك فان اشتغلت بمحاربته) أى كلب الشيطان (ومعالجته) أى مزاولته (تعبت وضاع) أى هلك (عليك وقتك) الذى هو جوهر نفيس فان فات فلا مرد (ويظفر بك) أى يغلب ذلك الشيطان عليك (فيعقرك ويجرحك) مرادف لما قبله كما أفاده العلامة عبد الحق (فالرجوع) أى إن كان الأمر كذلك فالرجوع بالتفويض (إلى رب الكلب) أى خالقه سبحانه وتعالى (ليصرفه عنك أولى) أى أفضل من اشتغالك بالمحاربة والمعالجة (والثاني) من الطريقين (ما قاله آخرون) وهو (أن الطريق) في دفع الشيطان(المجاهدة) بتطهير القلب من الصفات المذمومة ، وذلك مما يطول ذكره فلتنظر ربع المهلكات من الإحياء للمصنف تجده خير مسلك مبين فى ذلك (والقيام) أى المواظبة (عليه) أى الشيطان (بالدفع والرد والمخالفة) لمراده ، وذلك بتطهير القلب من الصفات المهلكات وسد مداخل الشيطان منها ، فاذاقطعت من القلب أصول هذه الصفات وسدت مداخله منها كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ، ولم يكن له استقرار وتمكن بالكلية ، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى ، لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارته بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة ، وذلك بعد

التنصل عن العلائق وصدق التوبة والإنابة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان ، ولذلك قال الله تعالى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » فإنه خصص بذلك المتق ، فقال «إن الذين اتقوا » فعلم من ذلك أن عمارة القلب بالتقوى شرط فى تأثير الذكر ودفع سورة الشيطان ، فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فانه ينزجر بأن تقول له اخسأ : أى تأخر، فمجرد الصوت يدفعه، فإن كان بين يديك لحم أو خبز وهو جائع فانه يهجم على اللحم أو الخبز ولا يندفع بمجرد الكلام الزاجر فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ولا يحتاج فى دفعه إلى معالجة . فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشى القلب فلم يتمكن من داخله فيستقر الشيطان فى داخل القلب فيحتاج إلى معالجة شديدة لإخراجه عنه . وأما قلوب المتقين الخالية عن الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات . بل لخلوها بالغفلة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان وتأخر . وقال صلى الله عليه وسلم « ماسلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير الذى سلكه عمر » . رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان ، وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهى الشهوات ، فمهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا وكنت كمن يسمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء من المغلظات والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ورديئها ، ويسمع أن ينفعه كما نفع الذى شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة لا يستويان ، فالذكر بمنزلة الدواء ، والتقوى بمنزلة الاحتماء وهى تخلى القلب عن الشهوات ، فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فى المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » وقال تعالى « كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه ، وإن ذكر الله بلسانه فانه لا يمنع موالاته وإن قلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فان هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسى التقم قلبه » قال العراقي : رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان فهذا الحديث قد ورد مطلقا أن الذكر يطرد الشيطان ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط معروفة نقلها علماء الدين . فالجواب انظر إلى نفسك فليس الخبر كالعيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة إذ هى أعظم القربات إلى الله تعالى ؛ فراقب قلبك وتأمل إذا كنت فى صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق ، وحساب العاملين ، وجواب المعاندين وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا فى صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت فيسوله بأنواع التسويلات ويشتته فى أودية لا آخر لها حتى لا يدرى تارة كم صلى ،فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساويها فإن كانت مطهرة عن الشهوات ظهرت محاسنها فى الصلاة بالإقبال على الله بكنه الهمة وإلقاء الوسواس وراء ظهره والا فبعكس ذلك ، فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا ، فلاجرم لا ينطرد عنك

قُلْتُ : وَالَّذِى عِنْدِى أَنَّ الطَّرِيقَ الْعَدْلَ الْجَامِعَ فِى أَمْرِهِ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ ، فَتَسْتَعِيذُ بِاللهِ تعالى أَوَّلاً مِنْ شَرِّهِ كَمَا أَمَرَنَا وَهُوَ الْكَافِى شَرَّهُ ، ثُمَّ إِنْ رَأَيْنَاهُ يَتَغَلَّبُ عَلَيْنَا عَلِمْنَا أَنَّهُ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللهِ تعالى لِيَرَى صِدْقَ مُجَاهَدَتِنَا وَقُوَّتِنَا فِى أَمْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَيَرَى صَبْرَنَا كَمَا أَنَّهُ سَلَّطَ عَلَيْنَا الْكُفَّارَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى كِفَايَةِ أَمْرِهِمْ وَشَرِّهِمْ لِيَكُونَ لَنَا حَظٌّ مِنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ وَالتَّمْحِيصِ وَالشَّهَادَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » وَقَالَ تَعَالَى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ

الشيطان ولا ينزجر بالذكر بل ربما يزيد عليك الضرر . فان أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى أولا ، ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه وهذا حال من انتهى به سلوكه وأشرقت عليه أنوار التوفيق فلبس لامة الصدق وتحلى بأسلحة العزل ودخل فى حومة الحرب بين باعث الدين وداعى الهوى فكانت الغلبة لداعى الدين وفرت جيوش الشياطين ، ولذلك قال أبو حازم : ما الشيطان حتى يهاب فوالله لقد أطيع فما نفع ، وعصى فما ضر . وقال بعضهم لولا أن الحقّ سبحانه أمرنا بالاستعاذة منه ما استعذت منه لحقارته ، وهذا شأن المتقين (قلت : والذى عندى أن الطريق العدل الجامع فى أمره) أى الشيطان : أى دفعه (أن تجمع بين الطريقين) وهما الاستعاذة والمجاهدة (فتستعيذ بالله تعالى أولا من شره) أى الشيطان (كما أمرنا) الله تعالى بقوله « فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (وهو) تعالى (الكافى) والمانع (شره) أى اللعين (ثم إن رأيناه يتغلب علينا علمنا) علما يقينا (أنه) أى الشيطان اللعين (ابتلاء من الله تعالى ليري) تعالى (صدق مجاهدتنا) أى لذلك الشيطان (وقوتنا فى أمره سبحانه وتعالى) بالمجاهدة (ويرى صبرنا ، كما أنه) تعالى (سلط) أى جعل القهر (علينا الكفار مع قدرته) تعالى (علي كفاية أمرهم وشرهم) وذلك (ليكون لنا حظ) أى نصيب (من الجهاد والصبر والتمحيص) أى التخليص من الذنوب ، وفي الخازن : وأصل المحص فى اللغة التنقية والإزالة . وفى القاموس : ومحص الذهب بالنار من باب منع أخلصه مما يشوبه ، والتمحيص الابتلاء والاختبار (والشهادة) فى سبيل الله (كما قال تعالى : وليعلم الله) علم ظهور : أى علم وجود : أى علما متعلقا بالوجود الخارجى ؟ والمراد الظهور : أى ليظهر لنا المؤمن من غيره وإلا فعلمه متعلق أزلا بكل شئ (الذين آمنوا) أى أخلصوا فى إيمانهم من غيرهم (ويتخذ) سبحانه وتعالى (منكم شهداء) أى يكرمهم بالشهادة فى سبيل الله (وقال تعالى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما) أى لم (يعلم الله) علم ظهور وهو الذى يتعلق به الثواب والعقاب كما علمه غيبا وله نظائر كثيرة في القرآن وإنما لم يحمل الكلام على حقيقته لدلالته على أن العلم يحصل بعد الفعل ، وعلم الله تعالى

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » فَكَذَٰلِكَ هٰذَا ؛ ثُمَّ إِنَّ مُحَارَبَتَهُ وَقَهْرَهُ فِيمَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا أَنْ تَتَعَرَّفَ وَتَتَعَلَّمَ مَكَايِدَهُ وَحِيَلَهُ فَلَا يَتَجَاسَرُ حِينَئِذٍ عَلَيْكَ كَاللِّصِّ إِذَا عَلِمَ أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ قَدْ أَحَسَّ بِهِ فَرَّ . وَالثَّانِي أَنْ تَسْتَخِفَّ بِدَعْوَتِهِ فَلَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِذَٰلِكَ وَلَا تَتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ النَّابِحِ إِنْ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ أُولِعَ بِكَ وَلَجَّ وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ سَكَتَ . وَالثَّالِثُ أَنْ تُدِيمَ ذِكْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ بِلِسَانِكَ وَقَلْبِكَ ،

لا يتصف بالحدوث كما صرح به العلامة الكرخي (الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) في الشدائد (فكذلك هذا) أي كما سلط الكفار سلط هذا الشيطان (ثم إن محاربته) أي الشيطان (وقهره فيما قاله علماؤنا رضي الله عنهم في ثلاثة أشياء : أحدها أن تتعرف) أي تطلب المعرفة (وتتعلم مكايده) أي مكره (وحيله) بكسر الحاء وفتح الياء جمع حيلة اسم من الاحتيال كما في المختار ، وسيأتي بيان ذلك عند قوله : فإن قلت (فلا يتجاسر) أي يجترىء ويقدم (حينئذ) أي حين إذ تعلم مكايده (عليك) وذلك (كاللص) بضم اللام وفتحها : أي السارق والجمع لصوص (إذا علم) أي السارق (أن صاحب الدار قد أحسّ به فرّ) أي هرب ذلك السارق خوفا من الأخذ ، وفي المصباح : فرّ من عدوه يفرّ من باب ضرب فرارا هرب (والثاني أن تستخف) أي تستهين (بدعوته) أي الشيطان إلى أنواع الشرور (فلا تعلق قلبك بذلك) أي بما دعاه إليها (ولا تتبعه فإنه) أي اللعين (بمنزلة الكلب النابح) النباح صوت الكلب (إن أقبلت عليه أولع بك) بالبناء للمجهول : أي علق بك شديدا (ولج) من باب ضرب ومن باب علم وهو أحسن : أي تمادى في الغلو إلى الفعل المزجور عنه في الخصومة وفي الأمر لازمه وواظبه وأبي أن ينصرف عنه (وإن أعرضت عنه) أي الكلب النابح (سكت . والثالث أن تديم ذكر الله سبحانه بلسانك وقلبك) وذلك لأن الشيطان هجام على قلب المؤمن غير غافل عن مكايده . قال رجل للحسن البصري : يا أبا سعيد أينام الشيطان ؟ فتبسم وقال : لو نام لاسترحنا . وقال بعض الحكماء : نظرت وتفكرت من أي باب يأتي الشيطان إلى الإنسان ، فاذا هو يأتي من عشرة أبواب : أولها يأتي من قبل الحرص وسوء الظن ، فقابلته بالثقة والقناعة ، فقلت بأي آية أتقوى عليه من كتاب الله تعالى ؟ فوجدت قول الله عز وجل « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » الآية فكسرته بذلك . والثاني نظرت فاذا هو يأتي من قبل الحياة وطول الأمل ، فقابلته بخوف مفاجأة الموت ، فقلت بأي آية أتقوي عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « وما تدري نفس بأي أرض تموت » فكسرته بها . والثالث نظرت فاذا هو يأتي من قبل طلب الراحة وطلب النعمة ، فقابلته بزوال النعمة وسوء الحساب ، فقلت بأي آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « ذرهم يأكلوا

فَلَقَدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم: « إِنَّ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى فى جَنْبِ الشَّيْطَانِ كَالْآكِلَةِ فى جَنْبِ ابْنِ آدَمَ » .

فَإِنْ قُلْتَ فَكَيْفَ تَعْلَمُ مَكَايِدَهُ وَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهُ وَسَاوِسَ هِيَ بِمَنْزِلَةِ السِّهَامِ الَّتِي يَرْمِيهَا ، وَذٰلِكَ إِنَّمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ بِمَعْرِفَةِ الْخَوَاطِرِ

ويتمتعوا » الآية ، وبقوله « أفرأيت إن متعناهم سنين » الآية ، فكسرته بذلك . والرابع نظرت فإذا هو يأتى من باب العجب ، فقابلته بالمنة وخوف العاقبة ؛ فقلت بأى آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « فمنهم شقي وسعيد » فلا أدرى من أى الفريقين أكون ، فكسرته بها . والخامس رأيته يأتي من باب الاستخفاف بالإخوان وقلة حرمتهم ، فقابلته بمعرفة حقهم وحرمتهم ، فقلت بأى آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى فى كتابه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » فكسرته بها . والسادس نظرت فاذا هو يأتى من باب الحسد ، فقابلته بالعدل وقسمة الله تعالى فى خلقه ، فقلت بأى آية أتقوي عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » فكسرته بها . والسابع نظرت فاذا هو يأتي من قبل الرياء ومدح الناس ، فقابلته بالإخلاص ، فقلت بأى آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » : يعنى مخلصا ، فكسرته بها . والثامن نظرت فإذا هو يأتى من باب البخل ، فقابلته بفناء ما فى أيدى الخلق وبقاء ما عند الله تعالى ، فقلت بأى آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » فكسرته بها . والتاسع نظرته فإذا هو يأتي من باب الكبر ، فقابلته بالتواضع ، فقلت بأي آية أتقوى عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فكسرته بها . والعاشر نظرت فاذا هو يأتى من باب الطمع ، فقابلته بالإياس من الناس والثقة بما عند الله ، فقلت بأى آية أتقوي عليه ؟ فوجدت قول الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » : كذا ذكره العلامة أبو الليث السمرقندى (فلقد قال صلى الله عليه وسلم : إن ذكر الله تعالى فى جنب الشيطان كالآكلة) بمد الهمزة : مرض معروف (فى جنب ابن آدم) لم أقف عليه أصلا إلا أن معناه صحيح. أخرج أبو يعلى فى مسنده عن أبى بكر الصديق « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء » (فان قلت فكيف نعلم مكايده) أى الشيطان (وكيف الطريق إلى معرفة ذلك) أى المذكور من مكايده وخدعه ومكره (فاعلم أن له وساوس) وهي الخطرة الرديئة (هى بمنزلة السهام التى يرميها وذلك) أى ما ذكر من وساوسه(إنما يتبين) معرفتها (لك) بالأمرين : الأول (بمعرفة الخواطر) جمع خاطر اسم لما يتحرك فى القلب

وَأَقْسَامِهَا . وَالثَّانِي أَنَّ لَهُ حِيَلاً هِيَ بِمَنْزِلَةِ الشَّبَكَاتِ الَّتِي تَنْصِبُهَا ، وَذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ بِمَعْرِفَةِ الْمَكَايِدِ وَأَوْصَافِهَا وَمَجَارِيهَا ، وَلَقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَبْوَاباً فِي الْخَوَاطِرِ ، وَقَدْ صَنَّفْنَا كِتَاباً سَمَّيْنَاهُ [تَلْبِيسَ إِبْلِيسَ] وَكِتَابُنَا هَذَا لاَ يَحْتَمِلُ الإِكْثَارَ ، لَكِنَّا نَذْكُرُ لَكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِنْ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَصْلاً كَافِياً إِذَا اعْتَصَمْتَ بِهِ . فَأَمَّا أَصْلُ الْخَوَاطِرِ فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَكَّلَ بِقَلْبِ ابْنِ آدَمَ مَلَكاً يَدْعُوهُ إِلَى الْخَيْرِ يُقَالُ لَهُ الْمُلْهِمُ وَلِدَعْوَتِهِ إِلْهَامٌ ، وَسَلَّطَ فِي مُقَابَلَتِهِ شَيْطَاناً يَدْعُو الْعَبْدَ إِلَى الشَّرِّ يُقَالُ لَهُ : وَسْوَاسٌ وَلِدَعْوَتِهِ وَسْوَسَةٌ .

من رأى أو سعى ؛ ثم سمى محله باسم ذلك ، وهو من الصفات الغالبة ، وأصل تركيبه يدل على الاضطراب والحركة ، قاله الزبيدى نقلا عن المطرزى (و) معرفة (أقسامها) أى تلك الخواطر (والثانى) من الأمرين (أن له) أى للشيطان (حيلا) جمع حيلة (هى بمنزلة الشبكات) وهى التي يصاد بها كما فى المختار (التى تنصبها ؛ وذلك) أى الحيل (يتبين لك بمعرفة المكايد) أى مكايد الشيطان ومصايده ونحوه (وأوصافها) أى تلك المكايد ، وفى أكثر النسخ : وأوضاعها : أى مواضعها (ومجاريها ، ولقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم أبوابا فى) بيان (الخواطر ، وقد صنفنا كتابا على الخصوص (سميناه : تلبيس إبليس) . وقد قلده جماعة ممن أتى بعده فألف كتابا سماه كذلك : منهم ابن الجوزى ، وذلك لأنه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد ، لا سيما فى المذاهب والاعتقادات ، فركبوا كل صعب وذلول ، وتعصبوا ونبذوا الحق وراء ظهورهم وخدعهم إبليس بما تلقفوه وجمدوا عليه (وكتابنا هذا) المختصر المسمى :[منهاج العابدين : إلي جنة رب العالمين] : (لا يحتمل الإكثار) من بيان الخواطر لكون هذا الكتاب وضعته على الاختصار (لكنا نذكر لك إن شاء الله تعالى من كل واحد منها) أى الخواطر (أصلا كافيا) لمن تدبره وتأمله ، وذلك (إذا اعتصمت به) أى تمسكت بذلك الأصل فنقول : (فأما أصل الخواطر) وهى المحركات للإرادة (فاعلم أن الله تعالى وكل بقلب ابن آدم ملكا) والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى : شأنه إفاضة الخير ، وإفادة العلم ، وكشف الحق ، والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره (يدعوه) أى ابن آدم (إلى الخير) أى إلى ما ينفع فى الدار الآخرة (يقال له) أى الملك (الملهم و) يقال (لدعوته) أى ذلك الملك ودعوته هو الخاطر المحمود (إلهام) وهو ما يلقى فى الروع بطريق الفيض (وسلط) الله تعالى (فى مقابلته) أى الملك سببا داعيا إلى الشر يسمى (شيطانا) وهو عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه ضد شأن الملك (يدعو العبد إلي الشر) أى إلى ما يضر فى العاقبة (يقال له) أى الشيطان (وسواس) من الوسوسة : وهي الخطرة الرديئة (و) يقال (لدعوته) وهو الخاطر المذموم الداعى إلى الشر (وسوسة) واللطف الذى به يتهيأ

فَالْمُلْهِمُ لَايَدْعُوهُ إِلاّ إِلَى الْخَيْرِ ، وَالْوَسْوَاسُ لَايَدْعُوهُ إِلا إِلَى الشَّرِّ فى قَوْلِ أَكْثَرِ عُلَمَائِنَا .

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ انّ الشَّيْطَانَ رُبَّمَا يَدْعُو إِلى الْخَيْرِ وَقَصْدُهُ فى ذٰلِكَ الشَّرَّ بِأَنْ يَدْعُوَهُ إِلَى الْمَفْضُولِ لِيَمْنَعَهُ عَنِ الْفَاضِلِ أَوْ يَدْعُوَهُ إِلَى خَيْرٍ لِيَجُرَّهُ إِلى ذَنْبٍ عَظِيمٍ لاَ يَفِي خَيْرُهُ بِذٰلِكَ الشَّرِّ مِنْ عُجْبٍ أَوْ غَيْرِهِ .

القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا، والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا ، فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أقسام مختلفة ، والوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان فى مقابلة الملك والتوفيق فى مقابلة الخذلان ، فكل منهما زوج للآخر مقابل له ؛ منها ماهي أدوات الظاهر ، ومنها ماهى أعراض الباطن وهى حواس الجسم والقلب بأدوات الجسم هى الصفات الظاهرة وأعراض القلب هي المعاني الباطنة قد عدلها سبحانه بحكمته وسواها علي مشيئته وقومها إتقانا بصنعته : أولها النفس والروح وهما مكانان للالقاء ، والعدو والملك وهما شخصان يلقيان الفجور والتقوى. ومنها عرضان متمسكان فى مكانين ، وهما العقل والهوى عن حكمين من مشيئة حاكم وهما التوفيق والإغواء ، ومنها نوران ساطعان فى القلب عن تخصيص من رحمة راحم، وهما العلم والإيمان فهذه أدوات القلب وحواسه ومعانيه وآلاته وإليه الإشارة بقوله تعالى «ومن كل شئ خلقنا زوجين» وقوله تعالي « الذى خلقك فسواك فعدلك » وقوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة مسواة معدولة مقومة إلا الله تعالى ، فإنه لا مقابل له ، كما أنه لا شريك له ، بل هو الواحد المطلق الخالق للأزواج كلها (فالمهم لا يدعوه) أى العبد (إلا إلى الخير والوسواس لا يدعوه إلا إلى الشر في قول أكثر علمائنا) رضى الله عنهم (وقد حكى عن شيخنا) أبى بكر الوراق (رحمه الله) أنه قال (إن الشيطان ربما يدعو) العباد (إلى الخير) لأن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح ، فيصوّر الشر ويلقيه بصورة الخير فيشبه عليهم بذلك ، كذا قاله الغزالى وغيره (وقصده) أى الشيطان (فى ذلك) أى فى دعوته إلى الخير (الشر) حتى يلحقهم «بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (بأن يدعوه) : الشيطان (إلى المفضول) من الأعمال (ليمنعه) أى العبد المدعو إلى المفضول (عن الفاضل أو) أن (يدعوه إلى خير ليجره) أى المدعو (إلى ذنب عظيم لا يفي خيره) أى خير عمل الخير الذى دعاه الشيطان إليه (بذلك الشر) الذى هو مطلوب ذلك اللعين (من عجب أو غيره) كالرياء والسمعة ونحو ذلك من الصفات المذمومة ، وصورة ذلك أى دعوة الشيطان إلى الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم الماهر بطريق الوعظ للعامة : أما تنظر للخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة ، قد أشرفوا على النار ، وكادوا أن يتساقطوا فيها ، أما لك رحمة على عباد الله تخلصهم من العطب والهلاك بنصحك ووعظك ، وقد أنعم الله عليك

فَهٰذَانِ دَاعِيَانِ قَائِمَانِ عَلَى قَلْبِهِ يَدْعُوَانِهِ وَهُوَ يَسْمَعُ قَلْبَهُ يُحِسُّ بِذٰلِكَ عَلَى مَا رُوِيَ فِى الْأَخْبَارِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : «إِذَا وُلِدَ لِابْنِ آدَمَ مَوْلُودٌ قَرَنَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ بِهِ مَلَكاً وَقَرَنَ الشَّيْطَانُ بِهِ شَيْطَاناً ، فَالشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى أُذُنِ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ الْأَيْسَرِ وَالْمَلَكُ جَاثِمٌ عَلَى أُذُنِ قَلْبِهِ الْأَيْمَنِ ، فَهُمَا يَدْعُوَانِهِ .

بقلب بصير للمعانى ، ولسان ذلق : ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وغضبه وتسكت عن إشاعة العلم وإفادته ، ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم ، ولا يزال اللعين يقرر ذلك وأمثاله ويستجره بلطيف الحيل ويستميله إلى ما يلقيه فى خياله إلى أن يشتغل بوعظ الناس مدة ، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ، ويقول له إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولا يهتدوا إلى الحق ، وإنما تجلب خواطرهم بتأثير كلامك فيهم إذا تزينت لهم بحسن الزى وأظهرت الفصاحة والبلاغة ، ولا يزال يقرر ذلك عنده ويحسنه له وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء ، وقبول الحق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والحشم والخدم ، وبكثرة العلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك فيتكلم على العامة وهو يظن أن قصده الخير ، وإنما قصده الجاه والقبول فيهلك بسببه وهو يظن فى نفسه أنه عند الله بمكان عظيم وهو ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لاخلاق لهم » . رواه النسائى من حديث أنس بإسناد جيد وقال « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبى هريرة ؛ ولذلك روى أن إبليس جاء لعيسى عليه السلام فقال له قل لا إله إلا الله ، فقال عيسى كلمة حق لاأقولها بقولك ، وذلك لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات ومخادعات ، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لاتتناهى ، وبها تهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض فى المعاصى المكشوفة الظاهر للناس ، فقد استهالهم بتلك الخدع : واستولى على قلوبهم فعميت بها أبصارهم ، كذا ذكره مصنفنا الغزالى وغيره (فهذان) أى الملهم والشيطان (داعيان قائمان على قلبه) أى العبد (يدعوانه) إلى مطلوبهما (وهو يسمع قلبه يحس) أى يعلم (بذلك) أى الذى يدعوانه إليه (على ما روى فى الأخبار أنه عليه الصلاة والسلام قال . إذا ولد ولد لابن آدم مولود قرن الله سبحانه به) أى المولود (ملكا وقرن الشيطان به شيطانا فالشيطان جاثم) أى قاعد (على أذن قلب ابن آدم الأيسر والملك جاثم على أذن قلبه) أى ابن آدم (الأيمن ، فهما) أى الملك والشيطان (يدعوانه) أى يدعو الملك ابن آدم إلى الخير والشيطان إلى الشر ، وهذا الحديث لم أر له أصلا يرجع إليه إلا أن معناه صحيح . روى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه بلفظ « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال وإياى إلا أن الله عز وجل أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير » وكذلك رواه أحمد .

وَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وَعَلَى آلِهِ وسلم : « لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ » يَعْنِي نَزْلَةٌ بِالدَّعْوَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ : لَمَّ بِالْمَكَانِ وَأَلَمَّ بِهِ إِذَا نَزَلَ بِهِ ،

(وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : للشيطان) أى إبليس أو بعض جنده (لمة) بالفتح وتشديد الميم فعلة من الإلمام ، ومعناه : النزول والقرب والإصابة ، والمراد بها ما يقع فى القلب بواسطة الشيطان أو الملك (بابن آدم) أى بهذا الجنس ، فالمراد به الإنسان ، ولمة الشيطان هو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا فى رواية أخرى (وللملك لمة) أى إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فاعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، وهذا الحديث أخرجه الترمذى والنسائى وابن حبان عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه (يعنى) باللمة (نزلة بالدعوة) من الجانبين ، مأخوذ (من قولهم لم) الرجل (بالمكان ، وألم به) إلماما ؛ ومعناه (إذا نزل به) أى بذلك المكان . وفى المصباح : وألم الرجل بالقوم إلماما : أتاهم فنزل بهم ، ولممت الشىء لما : ضممته انتهى . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : إنما هما همان يجولان فى القلب : هم من الله تعالى ، وهم من العدو ؛ فرحم الله عبدا وقف عند همه ، فما كان من الله تعالى أمضاه ، وما كان من عدو جاهده ؛ فالقلب إذا متجاذب بين الشيطان والملك ؛ ولتجاذب القلب بين هذين المسلمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر ؛ فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله فى التقليب والترديد ، كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك ، وجميع الألفاظ الموهومة فى الأخبار يكفي فى دفع إيهامها قرينة واحدة : وهى معرفة الله ، ومعرفة أنه ليس بجسم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والله تعالى إنما يفعل ما يفعله باستسخار الملك والشيطان ، وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب : أى جرها إلى خير أو شر ، كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام مثلا ، والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ، ولقبول آثار الشيطان صلاحا مساويا بطرفيه ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها ، فإن اتبع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسليط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه بأن تنصل عنها واسترذلها وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ؛ وبالجملة إن المستولى على الإنسان أولا : شهوته وغضبه ، وبحسب مقتضاهما انبعاثه إلى أن يظهر فيه الرغبة فى طلب الكمال والنظر للعاقبة ، وعصيان مقتضى الشهوة والغضب ، فإن غلب الشهوة والغضب حتى ملكهما وضعفا عن تحريكه وتسكينه أخذ بذلك شبها من الملائكة ، وكذلك

ثُمَّ رَكَّبَ اللهُ تَعالَى فى بِنْيَةِ الإِنْسانِ طَبِيعَةً مائِلَةً إلى الشَّهَواتِ وَنَيْلِ اللَّذَّاتِ كَيْفَ كانَتْ مِنْ حُسْنٍ أَوْ قُبْحٍ فَذٰلِكَ هَوَى النَّفْسِ الصَّارِفَةِ إلى الآفاتِ ، فَهٰذِهِ ثَلاثَةُ دُعاةٍ .

ثُمَّ اعْلَمْ بَعْدَ هٰذِهِ المُقَدِّمَةِ أَنَّ الخَواطِرَ هِيَ آثارٌ تَحْدُثُ فى قَلْبِ العَبْدِ تَبْعَثُهُ عَلَى الأَفْعالِ وَالتُّروكِ وَتَدْعُوهُ

إن فطم نفسه عن الجحود والخيالات والمحسوسات وأنس بالادراك أخذ شبها آخر من الملائكة ، فان خاصية الحياة الادراك والفعل ، وإليهما يتطرق النقصان والكمال ، ومهما اقتدى بالملائكة فى هاتين الخاصيتين كان أقرب من الملائكة كما أفاده العلامة الزبيدى .

واعلم أن التميز بين اللمتين لا يهتدى إليه أكثر الناس وإنما يتشوف إلى معرفتهما ، وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلي ذلك كتشوف العطشان إلى الماء لما يعلم من وقع ذلك وخطره وصلاحه وفساده ، ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين ، وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ، ومن أخذ به فى طريقهم ومن أخذ فى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف ، لأن التشوف إليه يكون علي قدر الهمة والطلب والارادة والحظ من الله الكريم ومن هو فى مقام عامة المسلمين والمؤمنين لايتطلع إلى معرفة اللمتين ، ولا يهتم بتمييز الخواطر (ثم ركب الله تعالى فى بنية الانسان) أى خلقته (طبيعة مائلة إلى الشهوات) أى المشتهيات (ونيل اللذات كيف كانت من حسن) أى حلال (أو قبيح) أى حرام (فذلك) أى الميل إلي الشهوات ونيل اللذات (هوى النفس الصارفة إلى الآفات) . والهوى بالقصر : ميل النفس إلى مالا يليق شرعا ، وقد يطلق على ميل النفس المحمود ، كقول عائشة رضى الله عنها : ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك : أى فما تميل إليه نفسك ، ولا تميل نفسه صلى الله عليه وسلم إلا إلي الممدوح (فهذه) أى المذكورات من الدعوات (ثلاثة دعاة) جمع داع ، وهى دعوة الملك ودعوة الشيطان ودعوه النفس . (ثم اعلم بعد هذه المقدمة) من بيان أصل الخواطر ، والمراد بها هنا مقدمة العلم التي هى اسم للمعانى المخصوصة ، وهى بكسر الدال من قدم اللازم بمعنى تقدم أو المتعدى لأنها مقدمة من فهمها على غيره ، وبالفتح من قدم المتعدى ، لأن أهل العقول قدموها لما اشتملت عليه ، والأول أولى لأنها تقدم غيرها ، وما قدم غيره أولى مما قدم نفسه ، لأن الغالب أن الشخص لا يقدم غيره إلا إذا كان مقدما كما أفاده العلامة ابن عمر البقرى (أن الخواطر) هى المحركات للارادات فإن النية والعزم والإراده إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لا محالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والنية تحرك الأعضاء ، فعلم من ذلك أنها (هى آثار تحدث) وتحصل (فى قلب العبد) بعد أن كان القلب غافلا عنها ، ويعنى بما يحدث ويحصل فيه مما ذكر إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر كما صرح به حجة الاسلام في غير هذا المحل (تبعثه) أى تحمله تلك الآثار الحاصلة فى قلبه (على الأفعال والتروك وتدعوه) أى العبد

إِلَيْهَا ، وَسُمِّيَتْ خَوَاطِرَ لِاضْطِرَابِهَا مِنْ خَطَرَاتِ الرِّيحِ وَنَحْوِهَا وَحُدُوثِهَا جَمِيعاً فِي قَلْبِ الْعَبْدِ بِالْحَقِيقَةِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

(إليها) أى الأفعال أو التروك (وسميت) أى الآثار (خواطر لاضطرابها) أى تقلبها ، فذلك مأخوذ (من خطرات الريح) . وفى نسخة: الرمح (ونحوها وحدوثها) أى الخواطر (جميعا فى قلب العبد بالحقيقة من الله سبحانه وتعالى) فالخواطر الواردة على القلب أربعة : خاطر ملكى ؛ وخاطر شيطانى ، وهما الأصلان المفهومان من حديث اللمتين المتقدم ذكره قريبا ، وخاطر روحى وخاطر نفسى وهما الفرعان . وفى كلام بعضهم : أن حركة النفس والروح هما الموجبتان للمتين ، والصحيح أن اللمتين تتقدمان على حركة الروح والنفس ؛ فحركة الروح من لمة الملك ، والهمة العالية من حركة الروح ، وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك ، وحركة النفس من لمة الشيطان ، ومن حركة النفس الهمة الدنيئة ، وهى شؤم لمة الشيطان ، فاذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبتل حكيم ، وقد تكون هاتان اللمتان متداركتين وينمحي أثر أحدهما بالآخر ؛ والمتفطن المتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته من باب أنس ويبقى أبدا مفتقدا حاله مطالعا آثار اللمتين ؛ وذكروا خاطرين آخرين : خاطر العقل ، وخاطر اليقين ؛ فخاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة ؛ يكون مع النفس والعدو لوجود التميز وإثبات الحجة على العبد ليدخل العبد فى الشىء بوجود عقلي ، إذ لو فقد العقل سقط العتاب والعقاب ، وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب ، وقد تقدمت الإشارة إلى أنه ليس من العقل خاطر على الاستقلال ؛ وإنما أصله تارة من خاطر الملك وتارة من خاطر النفس . وأما خاطر اليقين ، فهو روح الإيمان ومزيد اليقين ، وحاصله راجع إلى ما يرد من الحق سبحانه . وقال صاحبُ القوت : جمل الخواطر ستة : هى حدود القلب وقوادحه من ورائها خزائن القلب وملكوت القدرة وهى جنود الله تعالى ، والقلب خزانة من خزائن الملكوت ، وقد أودعه قبله من لطائف الرغبوت والرهبوت ، وشعشع فيه من أنوار العصمة والجبروت ، فأول التفصيل : خاطر النفس وخاطر العدو ، وهذان لا يعدمهما عموم المؤمنين ، وهما مذمومان محكوم لهما بالسواء لا يردان إلا بالهوى وضد العلم ، وخاطر الروح وخاطر الملك ، وهذان لا يعدمهما خصوص المؤمنين ، وهما محمودان لا يردان إلا بحق وبما دل عليه العلم ، وخاطر العقل متوسط بين هذه الأربعة يصلح للمذمومين فيكون حجة على العبد لمكان تميز العقل وتقسيم المعقول ، ويصلح أيضا أن يكون للمدوحين فيكون شاهدا للملك ومؤيدا لخاطر الروح . والخاطر السادس هو خاطر اليقين وهو روح الإيمان ومزيد العلم يردان إليه ويصدران عنه ، وهذا الخاطر مخصوص لخصوص لا يجده إلا الموقنون ، وهم الشهداء والصديقون لا يرد إلا بحق وإن خفى وروده ودق ، ولا يقدح إلا بعلم اختيار المراد مختار وإن لطفت أدلته وبطن وجه الاستدلال به ؛ ولكن ليس يخفى هذا الخاطر على مقصود به مراد له ، وهم الذين وصفهم الله تعالى بالذكرى ، فقال « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب »

لٰكنَّها أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : مِنْها ما يُحْدِثُهُ اللهُ تَعالى فى القَلْبِ ابتِداءً فيُقالُ لَهُ الخاطِرُ فَقط وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ مُوافِقاً لِطَبْعِ الإنْسانِ فيُقالُ لَهُ هَوى النَّفْسِ وَيُنْسَبُ إلَيْها . وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ عَقِيبَ دَعْوَةِ المُلْهِمِ فَيُنْسَبُ إلَيْهِ وَيُقالُ لَهُ الإلْهامُ . وَقِسْمٌ يُحْدِثُهُ عَقِيبَ دَعْوَةِ الشَّيْطانِ فَيُنْسَبُ إلَيْهِ وَيُقالُ لَهُ الوَسْوَسَةُ وَتُنْسَبُ إلَيْهِ بِأَنَّها خَواطِرُ مِنَ الشَّيْطانِ وَإنَّما هِيَ فى الحَقِيقَةِ حادِثَةٌ عِنْدَ دَعْوَتِهِ فَهُوَ كالسَّبَبِ فى ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّهُ يُنْسَبُ إلَيْهِ، فَهٰذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسامٍ مِنَ الخَواطِرِ .

أى من تولى الله حفظ قلبه ، وسائر ما ذكرناه من الخواطر لايعدمه المؤمنون . والقلب خزانة الله من خزائن الغيب ، وهذه المعانى جنود الله تعالى مقيمة حول القلب : يخفى منها ما يشاء ، ويظهر ويبدئ منها ما يريد ويعيد ، ويبسط القلب بما يشاء منها ، ويقبضه فيما يشاء عنها ، ثم قال : وقد أجمل الله تعالى ذكر تقليب الكون بمشيئته فى قوله « يقلب الله الليل والنهار » المعنى بما فيهما ، لأنهما ظرفان للأشياء المعبر عنهما ، فهما كقوله عز وجل « بل مكر الليل والنهار » والمعنى مكركم فى الليل والنهار ، فعبر بهما عن مكرهم لأنهما مكانان لمكرهم ، كذا ذكره الزبيدى

وقد بين المصنف رحمه الله أقسام الخواطر فى هذا المختصر أربعة فقال (لكنها) أى الخواطر (أربعة أقسام : منها) خبر مقدم : أى من الأقسام الأربعة (ما يحدثه الله تعالى) مبتدأ مؤخر : أى الخاطر الذى يوجده تعالى (فى القلب ابتداء ، فيقال له الخاطر فقط) أى بدون إضافة ونسبة (وقسم) ثان من الأربعة هو الخاطر الذى (يحدثه) الله تعالى (موافقا لطبع الإنسان فيقال له) أى للخاطر الثانى (هوى النفس وينسب) أى هذا الثانى (إليها) أى النفس (وقسم) ثالث منها هو الخاطر الذى (يحدثه) تعالى (عقيب دعوة) الملك (الملهم فينسب) أى الثالث (إليه) أى الملهم (ويقال له) أى هذا الثالث (الإلهام . وقسم) رابع منها الخاطر الذى (يحدثه) تعالى (عقيب دعوة الشيطان ، فينسب) أى الخاطر الرابع (إليه) أى الشيطان (ويقال له) أى لهذا الرابع (الوسوسة وتنسب) أى الوسوسة (إليه) أى الشيطان (بأنها) أى تلك الوسوسة (خواطر) رديئة (من الشيطان ، وإنما هي فى الحقيقة حادثة) من الله تعالى (عند دعوته) أى الشيطان (فهو) أى ذلك الشيطان (كالسبب فى ذلك) الخواطر الرديئة (ولكنه ينسب) أى السبب (إليه) أى الشيطان (فهذه) أى الأقسام المذكورات (أربعة أقسام من الخواطر) وقد قسم أبو طالب المكى صاحب القوت الخواطر وفسر أسماءها فقال : ما وقع فى القلب من عمل الخير فهو إلهام ، وما وقع من عمل الشر فهو وسواس ، وما وقع فى القلب من المخاوف فهو إيجاس ، وما كان من تقدير الخير وأمله فهو نية ، وماكان من تدبير المباحات والطمع وترجيها ، فهو أمل وأمنية ، وما كان من تذكر أمر الآخرة والوعد والوعيد فهو تذكر وتفكر ، وما كان من

ثُمَّ اعْلَمْ بَعْدَ هٰذَا التَّقْسِيمِ أَنَّ الْخَاطِرَ الَّذِى مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى ابْتِدَاءً قَدْ يَكُونُ بِخَيْرٍ إِكْرَامًا وَإِلْزَامًا لِلْحُجَّةِ ، وَقَدْ يَكُونُ بِشَرٍّ امْتِحَانًا وَتَغْلِيظًا لِلْمِحْنَةِ ؛ وَالْخَاطِرُ الَّذِى يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الْمُلْهِمِ لا يَكُونُ إِلاَّ بِخَيْرٍ إِذْ هُوَ نَاصِحٌ مُرْشِدٌ لَمْ يُرْسَلْ

معاينة الغيب بعين اليقين فهو مشاهدة ، وما كان من تحدث النفس بمعاشها فهو هم ، وما كان من خواطر العادات ونوازع الشهوات فهو لم ، ويسمى جميع ذلك خواطر، لأنه خطور همة نفس أو خطور عدو بحدس ، أو خطرة ملك بهمس ؛ ثم إن ترتيب الخواطر المنشأة من خزائن الغيب القادحة فى القلب على ستة معان ، وهى حدود الشىء المظهر ثلاثة منها معفوة ، وثلاثة مطالب بها ، فأول ذلك الهمة وهو ما يبدو من وسوسة النفس بالشيء يجده العبد بالحس كالبرق ، فان صرفها بالذكر امتحت ، وإن تركها بالغفلة صارت خواطر ، وهى خطور العدو بالتزيين ، وإن نفى الخاطر ذهب ، وإن دنا منه قوى فصار وسوسة ، وهذه محادثة النفس للعدو وإصغاؤها إليه ، وإن نفى العبد هذه الوسوسة بذكر الله عز وجل خنس العدو وضعفت النفس ، وهذه الثلاثة معفوة رحمة من الله تعالى غير مؤاخذ بها العبد ، وإن مرح العدو والنفس فى محادثة العدو وطاولت النفس للعدو بالإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة فصارت نية ، فان أبدل العبد هذه النية بنية خير أو استغفر منها وتاب وإلا قويت فصارت عقدا ، فان حل هذا العقد بالتوبة وهو الإصرار وإلا قوى فصار عزما ، وهو القصد ، وهذه الثلاثة من أعمال القلب مأخوذ بها العبد ومسئول عنها ، فان تداركه الله تعالى بعد العزم وإلا تمكن العزم فصار طلبا وسعيا ، وظهور العلم على الجوارح من خزانة الغيب والملكوت فصار من أعمال الجسم فى خزانة الملك والشهادة ، فهذه المعانى توجد من أعمال البر والإثم ، فما كان منها من البر همة ونية وعزما كان محسوبا للعبد فى باب النيات مكتوبا له فى ديوان الإرادات له به حسنات ، وما كان منها من الشر نية وعقدا وعزما ؛ فعلى العبد فيه مؤاخذة من باب أعمال القلوب ونيات السوء وعقود المعاصى ، وليس مجانس للعدو ومؤاخ له إلا النفس جمع بينهما فى الوسوسة : قال الله تعالى « الوسواس الخناس » . وقال تعالى « ونعلم ما توسوس به نفسه » وكل شىء خلقه الله تعالى فله مثل وضد ، فمثل النفس الشيطان ، وضدها الروح وأعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم فى الأجر والوزر معا إلا ما لا يتأتى أن يعلمه بظاهر الجسم من شهادة التوحيد أو وجود شك وكفر واعتقاد بدعة ، والله أعلم ، أفاده العلامة المحقق الزبيدى (ثم اعلم بعد هذا التقسيم) أى تقسيم الخواطر إلى أربعة أقسام كما ذكره المصنف (أن الخاطر الذى) يكون (من قبل الله تعالى) بكسر القاف وفتح الباء : أى من عنده (ابتداء قد يكون بخير إكراما وإلزاما للحجة ، وقد يكون) الخاطر (بشر امتحانا وتغليظا) أى تشديدا (للمحنة) أى البلية (والخاطر الذى يكون من قبل الملهم) أى جهته (لا يكون إلا بخير إذ هو) أى الملهم (ناصح) أى مريد للخير (مرشد لم يرسل) بالبناء للمفعول أى الملهم

إلاّ لِذٰلِكَ؛ وَالخَاطِرُ الَّذِى يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ لاَ يَكُونُ إلاَّ بِشَرٍّ إغْوَاءً وَاسْتِزْلاَلاً وَرُبَّمَا يَكُونُ بِالخَيْرِ مَكْرًا وَاسْتِدْرَاجًا؛ وَالَّذِى يَكُونُ مِنْ قِبَلِ هَوَى النَّفْسِ يَكُونُ بِالشَّرِّ وَبِمَا لاَ خَيْرَ فِيهِ تَمَنُّعًا وَتَعَسُّفًا، وَلَقَدْ وَجَدْتُ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ هَوَى النَّفْسِ أَيْضاً قَدْ يَدْعُو إِلى خَيْرٍ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ شَرٌّ كَالشَّيْطَانِ فَهٰذِهِ أَنْوَاعُهَا .

(إلا لذلك) الخير (والخاطر الذى يكون من قبل الشيطان لا يكون إلا بشر إغواء) أى إضلالا (واسترلالا) أى طلب للزلة (وربما يكون) خاطر الشيطان (بالخير مكرا واستدراجا) أى أخذا قليلا قليلا بمكيدته إلى غمرة الهلاك . قال بعضهم: الاستدراج استرسال النعم على العبد عند استرساله على المعاصى حتى يؤخذ بغتة (و) الخاطر (الذى يكون من قبل هوى النفس يكون بالشر وبما لا خير فيه تمنعا) أى منعا على الخير (وتعسفا) أى أخذا على غير الطريق (ولقد وجدت عن بعض السلف) الصالحين (أن هوى النفس أيضا) أى كالشيطان (قد يدعو إلى خير والمقصود منه) أى الخير الذى دعاه الهوى إليه (شر كالشيطان) هذا تأكيد لقوله أيضا (فهذه) أى الأنواع التى ذكرناها (أنواعها) أى الخواطر .

واعلم أنه قد تختلف اللمتان ، فربما تقدمت إليه لمة العدو بالأمر بالشر ويقدح بعدها لمة الملك نصرة للعبد ، وتثبيتا على الخير ، وعناية من الرب ، فينهى عن ذلك ؛ فعلى العبد أن يعصى الخاطر الأول ويتبع الثانى ، وقد يتقدم إلهام الملك بالخير ثم يقدح بعده خاطر العد وبالنهى عنه ، والإملاء بالتأخير عنه محنة من الله تعالى للعبد لينظر كيف يعمل ، فعليه أن يطيع الخاطر الأول ويعصى الثانى ، ثم ترقى الخاطر من إلهام ووسوسة ؛ وقد يتفاوت ذلك لقوة وضعف لتفاوت الأحكام والارادة من الحاكم ومن قبل تقدير القدرة وغرائب الأحكام بالمشيئة ، لأن له فى خزانة الخير خزائن شر إذا شاء ، وله فى خزانة الشر خزائن خير إذا أحب لمن يحب لئلا يسكن إلي سواه ، فإذا شهد العارف ذلك لم يقطع بخير ولا يدل به أبدا ، لأنه لا يأمن مكر الله بتقليب خزائن الشر من خزانة الخير ، إذ غلبه أبداه ولم ييأس من شر عليه أبدا ، لأنه يرجو تقليب خزائن الخير من حيث خزائن الشر ، فيكون بين الخوف والرجاء ، ولا يدرك ذلك إلا بدقائق العلوم ولطائف الفهوم وصفاء الأنوار من تعليم الرحيم الجبار ، فما كان العبد يجد بعد خطرة الشر خطرة خير تنهاه عنها فهو منظور إليه متدارك ، وهذا هو الواعظ القائم فى القلب ، والزاجر المؤيد العقل ؛ وقد تترادف خواطر الشر عن النفس والهوى ، فلا يعتقبها خاطر خير من الملك ، وهذا علامة البعد ، ونهاية قسوة القلب ، وقد يتتابع خاطر الخير من الروح والملك ويعافى العبد من خاطر الهوى والنفس ، وهذه علامة القرب وهو حال المقربين ، وقد ترد خواطر العدو ووساوسه بالخير ابتلاء من الله تعالى لعبده وحيلة من العدو ومكرا من النفس ، يريد العدو بذلك الشر ، أو يخرجه آخرا إلى إثم أو ليقطعه بذلك عن واجب يشغله به عن الأفضل فى الحال فيكون ظاهره برا وباطنه إثما ويكون

ثُمَّ اعْلَمْ بَعْدَ هٰـذَا أَنَّكَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعْرِفَةِ ثَلَاثَةِ فُصُولٍ لَابُدَّ لَكَ مِنْهَا أَلْبَتَّةَ وَفِيهَا الْمَقْصُودُ : أَحَدُهَا الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ الْخَيْرِ وَخَاطِرِ الشَّرِّ فِى الْجُمْلَةِ . وَالثَّانِي الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ ابْتِدَائِيٍّ أَوْ شَيْطَانِيٍّ أَوْ هَوَائِيٍّ ، وَبِمَاذَا يُفَرَّقُ بَيْنَهَا فَإِنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا دَفْعًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ وَالثَّالِثُ الْفَرْقُ بَيْنَ خَاطِرِ خَيْرٍ ابْتِدَائِيٍّ أَوْ إِلْهَامِيٍّ أَوْ شَيْطَانِيٍّ أَوْ هَوَائِيٍّ لِتَتَبَّعَ مَا يَكُونُ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَوْ مِنَ الْمُلْهِمِ وَتَجْتَنِبُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ . وَكَذٰلِكَ الْهَوَى عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِهِ

أوله خيرا وآخره شرا ، وبغية العدو من ذلك باطنه وآخره ، وشهوة النفس من ذلك هواها ومناها قد لبسا ظاهره بالخير وموها أوله بالبر تحسينا ، وهذا من أدق ما يبتلى به العاملون ، ولا يعرف بواطنه وسرائره إلا العالمون ، فأما خاطر الملك فلا يرد إلا بخير صريح وبر محض على كل حال إذا ورد ، لأن الخداع والحيله ليسا من وصف الملائكة، ولكن قد تنقطع خواطر الملك من القلب إذا اشتدت قسوته ، ودامت معصيته من المبعدين ، فيخلى بين القلب وبين نوازع العدو اللعين ، ويتخلى العدو بهوى النفس فيستحوذ ويقترن بالعبد ، نعوذ بالله من إبعاده ، ولا يزال العبد من إلهام الملك فى مقام الايمان ، فإذا رفع إلى مقامات اليقين تولاه الله تعالى بواسطة أنوار الروح ، فكأن الروح مكان لقاء الحق سبحانه حتي يرد عليه من الله تعالى من السرائر مالا يطلع عليه الملك ، ولا يكون ذلك حتي تفنى خواطر النفس بالهوى فلا تبق منها بقية ، وتقوى النفس فتدرج فى الروح فلا تظهر منها داعية ، ثم يتولاه الله بنور اليقين فيستطع له نور اليقين من خزانة الغيب بمكاشفة الجبروت ، فيشهد العبد شهادة الحق بالحق معاينة الغيب يفقد كونه ووجد كينوته ، وما لايصلح بعد ذلك كشفه إلا لأهله أو لمن سأل عنه ، وهذا يكون فى مقام التوحيد وهو أنصبة المقربين ، (ثم اعلم بعد هذا) أى التقسيم المذكور (أنك محتاج إلى معرفة ثلاثة فصول لابد) أى لا غنى (لك منها) أى المعرفة (البتة) أى قطعا (وفيها المقصود) أى من التقسيم الذى ذكر (أحدها) أى الفصول الثلاثة (الفرق بين خاطر الخير وخاطر الشر فى الجملة) أى من الله ومن هوى النفس ومن الشيطان (والثاني الفرق بين خاطر شر ابتدائى أو شيطانى أو هوائى وبماذا) أى بأى شىء (يفرق بينها) أى الخواطر الثلاث (فإن لكل واحد منها دفعا من نوع آخر . والثالث الفرق بين خاطر خير ابتدائى أو إلهامى أو شيطانى أو هوائى) وذلك (لتتبع ما) أى الخاطر الذى (يكون من الله تعالي أو) الذى يكون (من الملهم وتجتنب ما يكون من الشيطان وكذلك) المذكور من الشيطان رأى فى الاجتناب (الهوى على قول من يقول به) لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه .

فَأَمَّا الْفَصْلُ الْأَوَّلُ : فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ خَاطِرَ الْخَيْرِ مِنْ خَاطِرِ الشَّرِّ وَتُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَزِنْهُ بِأَحَدِ الْمَوَازِينِ الْأَرْبَعَةِ يَتَبَيَّنْ لَكَ حَالُهُ : الْأَوَّلُ أَنْ تَعْرِضَ الْأَمْرَ الَّذِي خَطَرَ بِبَالِكَ عَلَى الشَّرْعِ ، فَإِنْ وَافَقَ جِنْسَهُ فَهُوَ خَيْرٌ ، وَإِنْ كَانَ بِالضِّدِّ بِرُخْصَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ فَهُوَ شَرٌّ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَبِنْ لَكَ بِهَذَا الْمِيزَانِ فَاعْرِضْهُ عَلَى الْاقْتِدَاءِ فَإِنْ كَانَ

﴿تنبيه﴾ وسبب اشتباه الخواطر أربعة أشياء لا خامس لها : إما ضعف اليقين أوقلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها ، أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى ، أو محبة الدنيا وجاهها ومالها ، وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس ؛ فمن عصم عن هذه الأربعة يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومن ابتلى بها لايعلمها ولا يتطلبها ، وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض ، وأقوم الناس بتمييز الخواطر ، أقومهم بمعرفة النفس ، ومعرفة النفس عسر المنال ، لا يكاد يتيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوي .

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة . وقال أبو على الدقاق : من كان قوته معلوما لايفرق بين الإلهام والوسوسة ، قال الزبيدى : وهذا لا يصح على الاطلاق إلا بقيد ؛ وذلك أن من المعلوم ما يقيمه الحق تعالى لعبد سبق إليه الإذن فى الأخذ منه والتقوت ، ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر إنما يقال ذلك فى حق من دخل فى معلوم باختيار منه وإيثار ، لأنه يحجب لموضع اختياره والذى أشرنا إليه منسلخ عن إرادته ، ولا يحجبه المعلوم ، وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتي تصل إلى مرادها ، والشيطان إذا دعا ولم يجب يوسوس بأخري ، إذا لا غرض له فى تخصيص بل مراده الإغواء كيف أمكن . وتكلم الشيوخ فى الخاطرين إذا كان من الحق أيهما يتبع . قال الجنيد : الخاطر الأول ، لأنه إذا بقى رجع صاحبه إلى التأمل ؛ وهذا بشرط العلم . وقال ابن عطاء : الثانى لأنه ازداد قوة بالأول . وقال أبو عبد الله بن حفيف : هما سواء ، لأنهما من الحق فلا مزية لأحدهما على الآخر .

وقد فصل المصنف رحمه الله ما أجمله أولا بقوله (فأما الفصل الأول) من الفصول الثلاثة (فقال علماؤنا رضى الله عنهم : إذا أردت أن تعلم خاطر الخير من خاطر الشر ، و) أردت أن (تفرق بينهما) أي الخاطرين (فزنه) أى الخاطر أولا (بأحد الموازين الأربعة) المناسب الثلاثة (يتبين لك حاله) أي الخاطر من خير أو شر : (الأول أن تعرض الأمر الذى خطر ببالك) أى بقلبك (على) ميزان (الشرع فإن وافق) الخاطر الذى بقلبك (جنسه) أى جنس أمر الشرع (فهو خير وإن كان) الخاطر (بالضد) كأن كان (برخصة أو شبهة فهو شر ، فإن لم يستبن) أى لم يظهر (لك) حاله (بهذا الميزان) الأول (فاعرضه على الاقتداء) بالصالحين (فإن كان

فى فِعْلِهِ اُقْتِدَاءٌ بِالصَّالِحِينَ فَهُوَ خَيْرٌ ، وَإِنْ كَانَ بِالضِّدِّ اتِّبَاعاً لِلطَّالِحِينَ فَهُوَ شَرٌّ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَبِنْ لَكَ بِهٰذَا الْمِيزَانِ فَاعْرِضْهُ عَلَى النَّفْسِ وَالْهَوَى فَانْظُرْ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَنْفِرُ عَنْهُ النَّفْسُ نُفْرَةَ طَبْعٍ لاَ نُفْرَةَ خَشْيَةٍ وَتَرْهِيبٍ فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَيْرٌ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَمِيلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ مَيْلَ طَبْعٍ وَجِبِلَّةٍ لاَ مَيْلَ رَجَاءٍ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَتَرْغِيبٍ فَهُوَ شَرٌّ إِذِ النَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ لاَ تَمِيلُ بِأَصْلِهَا إِلَى خَيْرٍ فَبِأَحَدِ هٰذِهِ الْمَوَازِينِ إِذَا نَظَرْتَ وَأَمْعَنْتَ النَّظَرَ يَسْتَبِينُ لَكَ خَاطِرُ الْخَيْرِ مِنْ خَاطِرِ الشَّرِّ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

فى فعله) أى ما اقتضاه الخاطر (اقتداء بالصالحين فهو خير وإن كان) فى فعله (بالضد اتباعا للطالحين أى الفاجرين . قال العلامة عبد الحق : الطالح خلاف الصالح (فهو شر ، فان لم يستبن لك) حاله (بهذا الميزان) الثانى (فاعرضه) أى الخاطر (على النفس والهوى فانظر إن كان) مقتضى الخاطر (مما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية) من الله تعالى (وترهيب) أى خوف (فاعلم أنه خير ، وإن كان) مطلوبه (مما تميل النفس إليه ميل طبع) مفعول مطلق (وجبلة) أى خلقة وطبيعة (لا ميل رجاء إلى الله تعالى وترغيب فهو) أى ذلك الخاطر (شرّ) هذا هو الميزان الثالث ، ولم يذكر رحمه الله الميزان الرابع كما علمت (إذ النفس أمارة بالسوء لا تميل بأصلها إلى خير) أصلا بل تميل إلى دعة وراحة (فبأحد هذه الموازين) أى الثلاثة (إذا نظرت وأمعنت) أى بالغت (النظر يستبين) أى يظهر (لك خاطر الخير من خاطر الشر والله تعالى ولىّ الهداية بفضله) وإحسانه (إنه جواد كريم) ورءوف رحيم . وقد ذكر العلامة المحقق الزبيدى أن من قصر عن دقائق الزهد وتطلع إلي تمييز الخواطر بزن الخواطر أولا بميزان الشرع ؛ فما كان من ذلك فضلا أو فرضا يمضيه ، وما كان من ذلك محرما أو مكروها يتقيه.فاذا استوى الخاطران فى نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس، فان النفس قد يكون لها هوى كامنا فى أحدهما والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلىالدون، وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن أنه بنهوض القلب ، وقد يكون من القلب نفاق لسكونه إلى النفس ولايدرك نفاق الخواطر المتولدة منه إلا الراسخون ، وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال، فهم من هذا القبيل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم . وينبغى أن يعلم العبد أنه مهما بقى عليه أثر من الهوى وإن دق قد بقي عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر ثم قد يغلط فى تمييز الخواطر من حرم قليل العلم ، ولا يؤاخذ بذلك ما لم تكن عليه من الشرع مطالبة وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخطأ فى التمييز ثم استعجالهم مع

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّانِي ، فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ وَبَيْنَ خَاطِرِ شَرٍّ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ هَوَى النَّفْسِ أَوْ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى ابْتِدَاءً فَانْظُرْ فِيهِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : إِنْ وَجَدْتَهُ مُصَمِّمًا رَاتِبًا عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ فَهُوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَوْ مِنْ هَوَى النَّفْسِ ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ مُتَرَدِّدًا مُضْطَرِبًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ . وَكَانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ : مَثَلُ هَوَى النَّفْسِ مَثَلُ النَّمِرِ إِذَا حَارَبَ لَا يَنْصَرِفُ إِلَّا بِقَمْعٍ بَالِغٍ وَقَهْرٍ ظَاهِرٍ ، أَوْ مَثَلُ الْخَارِجِيِّ الَّذِي يُقَاتِلُ تَدَيُّنًا لَا يَكَادُ يَرْجِعُ حَتَّى يُقْتَلَ ، وَمَثَلُ الشَّيْطَانِ مَثَلُ الذِّئْبِ إِذَا طَرَدْتَهُ مِنْ جَانِبٍ دَخَلَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ . وَثَانِيهَا : إِنْ وَجَدْتَهُ عَقِيبَ ذَنْبٍ أَحْدَثْتَهُ فَهُوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى إِهَانَةً وَعُقُوبَةً بِشُؤْمِ ذَلِكَ الذَّنْبِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : (كَلَّا بَلْ رَانَ

علمهم وقلة التثبت ، وهذا الذي ذكر لخصته من [كتاب العوارف] .

(وأما الفصل الثاني) من الفصول الثلاثة (فقال علماؤنا) رضي الله عنهم (إذا أردت أن تفرق بين خاطر شر يكون من قبل) أي جهة (الشيطان وبين خاطر شر يكون من قبل هوى النفس أو) يكون (من قبل الله تعالى ابتداء) امتحانا وتغليظا للبلية (فانظر فيه) أي الخاطر (من ثلاثة أوجه : أحدها إن وجدته مصمما) أي محكما (راتبا) أي ثابتا (على حالة واحدة فهو من الله تعالى ، أو من هوى النفس ، وإن وجدته) أي ذلك الخاطر (مترددا مضطربا) أي متقلبا لا يثبت على حالة واحدة (فاعلم أنه) أي الخاطر المضطرب (من الشيطان . وكان بعض الصالحين رحمه الله يقول : مثل هوى النفس مثل النمر) بوزن الكتف: سبع ، وجمعه نمور بالضم ، وقد جاء في الشعر نمر بضمتين ، وهو شاذ والأنثى نمرة ، كذا في المختار . وفي محيط المحيط : النمر بفتح النون وكسر الميم ، ويجوز إسكان الميم مع فتح النون وكسرها كنظائره : ضرب من السباع فيه شبه من الأسد ، إلا أنه أصغر منه وأخبث وأجرأ ، وهو منقط الجلد نقطا سودا وبيضا ، سمي به للنمر التي فيه (إذا حارب) أي النمر (لا ينصرف) أي لا يذهب (إلا بقمع) أي قهر وقلع (بالغ) أي كامل (وقهر ظاهر أو) هو (مثل الخارجي) نسبة للخارج ، وهو كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفق الجماعة عليه سواء كان الخروج في الصحابة على الأئمة الراشدين أو بعدهم على التابعين بإحسان ، والأئمة في كل زمان ، كذا أفاده بعضهم (الذي يقاتل تدينا) أي لأجل الدين (لا يكاد) الخارجي (يرجع حتى يقتل ، ومثل الشيطان مثل الذئب إذا طردته) أي أبعدته (من جانب دخل من جانب آخر . وثانيها) أي الأوجه الثلاثة (إن وجدته) أي خاطر الشر (عقيب ذنب أحدثته) أي ارتكبته وفعلته (فهو من الله تعالى إهانة وعقوبة بشؤم ذلك الذنب) الذي أحدثته (قال الله تعالى: كلا بل ران)

عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) قَالَ شَيْخِي الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ : هٰكَذَا تُؤَدِّي الذُّنُوبُ إِلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ أَوَّلُهَا خَاطِرٌ ، ثُمَّ يُؤَدِّي إِلَى الْقَسْوَةِ وَالرَّيْنِ ، وَإِنْ كَانَ هٰذَا الْخَاطِرُ مُبْتَدَأً لَا عَقِيبَ ذَنْبٍ كَانَ مِنْكَ . فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ ، هٰذَا فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِدَعْوَةِ الشَّرِّ وَيَطْلُبُ الْإِغْوَاءَ بِكُلِّ حَالٍ ، وَثَالِثُهَا : إِنْ وَجَدْتَهُ لَا يَضْعُفُ وَلَا يَقِلُّ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَلَا يَزُولُ فَهُوَ مِنَ الْهَوَى ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ يَضْعُفُ وَيَقِلُّ بِذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ كَمَا ذُكِرَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) إِنَّ الشَّيْطَانَ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ : إِذَا ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى خَنَسَ ، وَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ .

أي غلب (على قلوبهم) فغشيها (ما كانوا يكسبون) من المعاصي فهو كالصدأ . (قال شيخي الإمام رحمه الله) هو أبو بكر الوراق كما في سراج السالكين (هكذا تؤدى الذنوب إلى قسوة القلب : أولها) أي الذنوب (خاطر ثم يؤدى) أي الخاطر الذى ينشأ منه الذنوب (إلى القسوة والرين) أي الغشاوة على القلب كالصدأ على الشيء الصقيل من سيف ومرآة ونحوهما (وإن كان هذا الخاطر مبتدأ لا عقيب ذنب كان) أي صدور ذلك الذنب (منك فاعلم أنه) أي الخاطر (من قبل الشيطان ، هذا) أي كون هذا الخاطر من جهة الشيطان (فى الأكثر لأنه) أي الشيطان (يبتدئ بدعوة الشر ويطلب) الشيطان اللعين بدعوته (الإغواء) والإضلال (بكل حال) سواء كان الخاطر مبتدأ أو عقيب ذنب . (وثالثها) أي الأوجه الثلاثة (إن وجدته) أي الخاطر (لايضعف ولا يقل بذكر الله تعالى ولا يزول ، فهو من الهوى ، وإن وجدته يضعف ويقل بذكر الله سبحانه فهو) أي الخاطر الضعيف بذكر الله (من الشيطان كما ذكر) عن ابن عباس (فى تفسير قوله تعالى « من شر الوسواس الخناس » : إن الشيطان جاثم) أي قاعد (على قلب ابن آدم إذا ذكر الله تعالى خنس) أي انقبض وتأخر ، وبابه دخل ، فبعد الشيطان من الإنسان على قدر ملازمته للذكر ، والناس فى ذلك متفاوتون (وإذا غفل) أي ابن آدم عن ذكر الله تعالى (وسوس) الشيطان : أخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن مردويه ، وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال « ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس فإن ذكر الله تعالى خنس وإذا غفل عن ذكر الله وسوس ، فذلك قوله تعالى « الوسواس الخناس » أخرجه ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى والضياء فى المختارة ، وروى عن مجاهد فى معنى قول الله تعالى « من شر الوسواس الخناس » . قال هو منبسط على القلب ، فاذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه ، هكذا نقله صاحب القوت ، فالتطارد بين ذكر الله .

وَأَمَّا الْفَصْلُ الثَّالِثُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ خَاطِرِ خَيْرٍ يَكُونُ مِنَ اللهِ تعالى أَوْ مِنَ الْمَلَكِ، فَانْظُرْ فِى ذَٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنْ تَنْظُرَ فَإِنْ كَانَ قَوِيًّا مُصَمِّمًا فَهُوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ مُتَرَدِّدًا فَهُوَ مِنَ الْمَلَكِ ، إِذْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ نَاصِحٍ يَدْخُلُ

ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام أحدهما ينسخ الثانى ، وبين الليل والنهار فاذا جاء الليل ذهب النهار وبالعكس ، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره ، وآخر بضده ، ومنهم من يكون زمنه نهارا كله وآخر بضده ، ولتضادهما قال الله تعالى « استحوذ عليهم الشـطيان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشـيطان هم الخاسرون » قال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس ، وإن نسى الله التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس » . قال العراقي : رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن عدى فى الكامل وفى الترغيب لابن شاهين عن أنس مرفوعا بلفظ « إن للوسواس خطما كخطم الطائر ، فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار فى أذن القلب يوسوس ، فإذا ذكر الله خنس فذلك الوسواس الخناس » وأخرج أبو بكر بن أبى داود فى كتاب ذم الوسوسة عن معاوية فى قوله « الوسوس الخناس » قال مثل الشـيطان كمثل عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس اليه ، فإذا ذكر الله خنس وإن سكت عاد إليه فهو الوسواس الخناس . قال حجة الإسلام : وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية فى لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع » . رواه الشـيخان وذلك لأن الجوع يكسر سورة الشهوات ومجرى الشيطان الشهوات فأمر بتضييقه بالجوع بكسر مايتولد منه ، ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه . قال الله تعالى إخبارا عن إبليس « لأقعـدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » ولذلك لايتصور أن ينفك عنه آدمى مادام حيا وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته ، فتارة يتابعه ، وتارة يخالفه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنـكم من أحد إلا وله شيطان قالوا ولك يا رسول الله ؟ قال: ولى ولـكن الله أعانني عليه فأسلم » . رواه ابن حبان والبغوى والطبراني .

قال المصنف رحمه الله تعالى (وأما الفصل الثالث) هذا آخر الفصول الثلاثة التى لا بد لك من معرفتها (إذا أردت أن تفرق بين خاطر خير يكون من الله تعالى، أو) يكون (من الملك) الملهم (فانظر فى ذلك) الخاطر (من ثلاثة أوجه : أحدها أن تنظر) فى ذلك الخاطر (فان كان قويا مصمما) أى محكما (فهو) أى الخاطر المصمم (من الله تعالى، وإن كان مترددا) لايثبت على حالة واحدة (فهو من الملك إذ هو) أى الملك (بمنزلة ناصح) أى مريد للخير (يدخل) ذلك الملك

مَعَكَ فى كُلِّ جَانِبٍ وَوَجْهٍ . وَيَعْرِضُ عَلَيْكَ كُلَّ نُصْحٍ رَجَاءَ إِجَابَتِكَ وَرَغْبَتِكَ فى الْخَيْرِ ، وَالثَّانِى إِنْ كَانَ عَقِيبَ اجْتِهَادٍ مِنْكَ وَطَاعَةٍ فَهُوَ مِنَ اللهِ تعالى، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى) وَإِنْ كَانَ مُبْتَدَأً فَهُوَ مِنَ الْمَلَكِ فى الْأَغْلَبِ ، وَالثَّالِثُ : إِنْ كَانَ فى الْأُصُولِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ فَهُوَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَإِنْ كَانَ فى الْفُرُوعِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ فَهُوَ مِنَ الْمَلَكِ فى الْأَكْثَرِ ، إِذِ الْمَلَكُ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى مَعْرِفَةِ بَاطِنِ الْعَبْدِ فى قَوْلِ أَكْثَرِهِمْ . وَأَمَّا خَاطِرُ الْخَيْرِ الَّذِى يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ اسْتِدْرَاجًا إِلَى شَرٍّ يَرْبِى عَلَيْهِ ، فَلَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : انْظُرْ إِنْ

(معك فى كل جانب ووجه) من الخيرات (ويعرض عليك كل نصح) ورشد (رجاء إجابتك ورغبتك فى الخير . و) الوجه (الثانى إن كان) الخاطر الذى فيه الخير (عقيب اجتهاد منك ، و) عقيب (طاعة فهو من الله تعالى . قال الله تعالى: والذين جاهدوا فينا) أى فى حقنا فإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة بأنواعه (لنهدينهم سبلنا) أى سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا أو لنهدينهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى » وفى الحديث « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » كذا ذكره البيضاوى (والذين اهتدوا) هم المؤمنون (زادهم) الله (هدى ، وإن كان) الخاطر (مبتدأ فهو من الملك فى الأغلب . و) الوجه (الثالث إن كان فى الأصول) أى فى الاعتقاد (والأعمال الباطنة) التى هى مساعى القلوب كالتوكل والرضا (فهو من الله سبحانه ، وإن كان) ذلك الخاطر (فى الفروع) أى فى المسئلة الفرعية (والأعمال الظاهرة فهو من الملك فى الأكثر ، إذ الملك لاسبيل له إلى معرفة باطن العبد فى قول أكثرهم) أى علمائنا رضى الله عنهم فقد قال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فسألنى أن أملى عليه شيئا من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد ، وقال : مانكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل نتقرب به إلى الله تعالى فقلت : ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا : بلى . قلت فيكفيكما ذلك ، هكذا نقله صاحب القوت . قال المصنف رحمه الله : وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لايطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين : بل يطلعون على بعض أعمال القلب بقرائن خارجة ، فإن المؤمن إذا ذكر الله فى قلبه فاحت منه رائحة طيبة إلى فمه فيشمونها الملائكة فيدركون بها إذا ذكر الله تعالى فيكتبون ذلك فى صحيفة حسناته ، كذا أفاده الزبيدى (وأما خاطر الخير الذى يكون من قبل الشيطان استدراجا إلي شر يربي عليه) أى يزيد عليه الشر (فلقد قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : انظر إن

وَجَدْتَ نَفْسَكَ فى ذٰلِكَ الْفِعْلِ الَّذِى خَطَرَ بِقَلْبِكَ مَعَ نَشَاطٍ لاَ مَعَ خَشْيَةٍ وَمَعَ عَجَلَةٍ لاَ مَعَ تَأَنٍّ، وَمَعَ أَمْنٍ لاَ مَعَ خَوْفٍ ، وَمَعَ عَمًى عَنِ الْعَاقِبَةِ لاَ مَعَ بَصِيرَةٍ . فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبْهُ ، وَإِنْ وَجَدْتَ نَفْسَكَ عَلَى ضِدِّ ذٰلِكَ مَعَ خَشْيَةٍ لاَ مَعَ نَشَاطٍ وَمَعَ تَأَنٍّ لاَ مَعَ عَجَلَةٍ ، وَمَعَ خَوْفٍ لاَ مَعَ أَمْنٍ ، وَمَعَ بَصَارَةٍ لِلْعَاقِبَةِ لاَ مَعَ عَمًى . فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَوْ مِنَ الْمَلَكِ . قُلْتُ أَنَا : وَكَأَنَّ النَّشَاطَ خِفَّةٌ فى الْإِنْسَانِ لِلْفِعْلِ مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَذِكْرِ ثَوَابٍ يَنْشِطُهُ فى ذٰلِكَ ؛ وَأَمَّا التَّأَنِّى فَمَحْمُودٌ إِلاَّ فى مَوَاضِعَ مَعْلُومَةٍ مَعْدُودَةٍ ، وَذُكِرَ فى الْخَبَرِ عَنِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : « الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ فى خَمْسَةِ مَوَاضِعَ: تَزْوِيجُ الْبِكْرِ إِذَا أَدْرَكَتْ ، وَقَضَاءُ الدَّيْنِ إِذَا وَجَبَ ،

وجدت نفسك فى ذلك الفعل الذى خطر بقلبك مع نشاط) أى خفة (لامع خشية) أى خوف من الله تعالى (ومع عجلة) أى إسراع (لامع تأن) أى تأخر (ومع أمن لامع خوف ومع عمى عن العاقبة) المحمودة ، وفى بعض النسخ عمى العاقبة (لامع بصيرة) أى علم وخبرة (فاعلم أنه) أى الفعل الذى خطر بقلبك (من الشيطان) أى من وسوسته (فاجتنبه وإن وجدت نفسك) فى ذلك الفعل (على ضد ذلك) المذكور من النشاط وعدم الخشية وما بعده ، يعنى به (مع خشية لامع نشاط ومع تأن) أى تثبت فى الأمور (لامع عجلة ومع خوف لامع أمن ومع بصارة للعاقبة لامع عمى) أى عنها (فاعلم أنه) أى الخاطر الذى وجدت على الضد (من الله سبحانه ، أو) أنه (من الملك) الملهم . هذا آخر كلام شيخه رحمه الله تعالى ، ثم قال المصنف (قلت أنا : وكأن النشاط خفة فى الإنسان للفعل من غير بصيرة) أى خبرة وتأمل للعاقبة (و) من غير (ذكر ثواب ينشطه) أى ينشط الإنسان البصيرة وذكر الثواب (فى ذلك) الفعل وقول المصنف رحمه الله ينشطه بفتح أوله وكسر ثالثه من باب ضرب إذا كان متعديا كما هنا ، وفى القاموس : ونشط الدلو من باب ضرب : نزعها بلا بكرة انتهى ، وأما إذا كان لازما فهو من باب تعب . وفى المصباح : نشط فى عمله ينشط من باب تعب: خف وأسرع نشاطا وهو نشيط، ونشطت الحبل نشطا من باب ضرب:عقدته بأنشوطة والأنشوطة بضم الهمزة : ربطة دون العقدة إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت ، وأنشطت الأنشوطة بالألف: حللتها، وأنشطت العقال: حللته، وأنشطت البعير من عقاله أطلقته: انتهى. (وأما التأنى) وهو التأنى والتمهل فى الأمور لامع العجلة (فمحمود إلا فى مواضع معلومة معدودة ، وذكر فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : العجلة من الشيطان) أى لأنها خفة وطيش يجلب الشر ويمنع الخير وذلك مما يحبه الشيطان فأضيف إليه ، كذا قاله العزيزى (إلا فى خمسة مواضع) أحدها (تزويج البكر إذا أدركت) أى بلغت (و) ثانيها (قضاء الدين إذا وجب) أى ثبت

وَتَجْهِيزُ المَيِّتِ إِذَا مَاتَ ، وَقِرَى الضَّيْفِ إِذَا نَزَلَ ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا أَذْنَبَ .

(و) ثالثها (تجهيز الميت إذا مات) من غسله وكفنه ودفنه وغير ذلك (و) رابعها (قرى الضيف إذا نزل) أى ضيافته وإطعامه . والضيف النزيل ينزل على غيره دعى أم لم يدع يكون للواحد والجمع ، لأنه فى الأصل مصدر تقول : زيد ضيف والزيدان ضيف والزيدون ضيف وهند ضيف والهندان ضيف والهندات ضيف ، من أضفته وضيفته إذا أنزلته بك ضيفا ، وضفته وتضيفته إذا نزلت عنده ضيفا ، وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان وأضائف وهى ضيف وضيفة (و) خامسها (التوبة من الذنب إذا أذنب) والتوبة لغة : الرجوع ، وشرعا الرجوع عن الذنب بأن يقلع عنه ويندم عليه ويعزم ألا يعود اليه ويرضى الآدمى فى ظلامته وتصح التوبة من الذنب وإن كان مصرا على ذنب آخر ، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاد لذلك الذنب الثانى لم تبطل توبته ، هذا مذهب أهل السنة ، قال العلقمى : وتوبة الكافر مقطوع بقبولها وما سواها من أنواع التوبة هل قبولها مقطوع به أم مظنون ؟ فيه خلاف أهل السنة . واختار إمام الحرمين أنه مظنون وهو الأصح . قال القرطبى : من استقرأ الشريعة علم أن الله يقبل توبة الصادقين قطعا نقله فى الفتح وأقره ، كذا أفاده العزيزى . والحديث المذكور رواه أبو نعيم فى الحلية قال حدثنا محمد بن الحسين ابن موسى قال : سمعت نصر بن أبى نصر يقول : سمعت أحمد بن سليمان الكفرسانى يقول : وجدت فى كتاب عن حاتم الأصم قال : كان يقال العجلة من الشيطان إلا فى خمس : إطعام الطعام إذا حضر الضيف ، وتجهيز الميت إذا مات ، وتزويج البكر اذا أدركت ، وقضاء الدين اذا وجب ، والتوبة من الذنب إذا أذنب . انتهى . قال العراقى : روى الترمذى من حديث سهل بن سعد « الأناة من الله والعجلة من الشيطان » وسنده ضعيف . وأما الاستثناء فروى أبو داود من حديث سعد بن أبى وقاص « التؤدة فى كل شىء خير إلا فى عمل الآخرة » ، وقال الأعمش : لا أعلم إلا أنه رفعه ، وروى المزى فى التهذيب فى ترجمة محمد بن موسى بن نفيع عن مشيخة من قومه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الأناة فى كل شىء إلا فى ثلاث إذا صيح فى خيل الله وإذا نودى بالصلاة وإذا كانت الجنازة » الحديث ، وهذا مرسل ، وللترمذى من حديث على « ثلاثة لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفؤا » وسنده حسن . وقال الزبيدى : حديث سهل بن سعد رواه أيضا العسكرى وغيره من طريق عبد المهيمن بن عباس بن سهل ابن سعد عن أبيه عن جده ، وقد تكلم بعضهم فى عبد المهيمن وضعفه من قبل حفظه ، فهذا معنى قول العراقى : وسنده ضعيف . وأما حديث سعد بن أبى وقاص فرواه أبو داود فى الأدب والحاكم فى الإيمان والبيهقى فى السنن ، وقال الحاكم صحيح على شرطهما ، وقال المنذرى لم يذكر الأعمش فيه من حديثه ولم يجزم برفعه ، وقوله إلا فى عمل الآخرة : أى فإن المستحسن الجهد فيه لتكثير القربات ورفع الدرجات، وأمور الآخرة محمودة العواقب فلا ينبغى التؤدة فيها ، كان البوشنجى

وَأَمَّا الْخَوْفُ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فى إِتْمَامِهِ وَأَدَائِهِ عَلَى وَجْهِهِ وَحَقِّهِ وَقَبُولِ اللهِ تَعالى إِيَّاه .

فى الخلاء فدعا خادمه فقال : انزع قميصى وأعطه فلانا . فقال هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال خطر لى بذله ولا آمن من نفسى التغير ».

ومن شواهد هذا الباب حديث أنس « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » رواه أبو بكر ابن أبى شيبة ومن طريقه أبو يعلى وابن منيع والحارث بن أبى أسامة فى مسانيدهم من رواية سنان ابن سعد ، ورواه البيهقى فسماه سعد بن سنان وسعد ضعيف ، وقيل لم يسمع من أنس ، وحديث ابن عباس مرفوعا « إذا تأنيت أصبت أو كدت تصيب وإذا استعجلت أخطأت أو كدت تخطئ » رواه البيهقى من طريق محمد بن سواد ، عن سعيد بن سماك بن حرب عن أبيه عن عكرمة عنه . وسعيد قال فيه ابن أبى حاتم متروك ، وحديث عقبة بن عامر مرفوعا « من تأنى أصاب أو كاد ومن عجل أخطأ أو كاد » ، رواه الطبرانى والعسكرى والقضاعى من طريق ابن لهيعة عن مشرح ابن هامان عنه . وروى العسكرى من حديث سهل بن أسلم عن الحسن رفعه مرسلا « التأنى من الله والعجلة من الشيطان فتبينوا » أى تثبتوا فى الأمور ، وقال ابن القيم : إنما كانت العجلة من الشيطان لأنها خفة وطيش وحدة فى العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب وضع الشئ بغير محله وتجلب الشر وتمنع الخير وهي متولدة بين خلقين مذمومين : التفريط ، والاستعجال قبل الوقت انتهى . وأما حديث على عند الترمذى فلفظه «ثلاث لا تؤخرهن : الصلاة إذا أتت» . هكذا بفوقيتين بخط العراقي : وقال التوربشتى ، هو تصحيف والمحفوظ آنت بالمد والنون على زنة حانت «والجنازة إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفؤا » ،هكذا أخرجه فى الصلاة ورواه الحاكم فى النكاح وصححه . وقال الترمذى غريب ، وليس سنده بمتصل وهو من رواية وهب عن سعد ابن عبد الله الجهنى عن محمد بن عمر بن على عن أبيه عن على . قال الذهبي : وسعد مجهول وقد ذكره ابن حبان فى الضعفاء انتهى . وجزم الحافظ ابن حجر في تخريج الهداية بضعف سنده وقال فى تخريج الرافعي . رواه من هذا الوجه فجعل محله سعيد بن عبد الرحمن الجحى وهو من أغاليطه الفاحشة انتهى ، ولما رواه البيهقى فى سننه عن سعيد عن عبد الله هذا ، قال : وفى الباب أحاديث كلها واهية أمثلها هذا ؛ وبه عرف ما فى جزم الحافظ العراقي بحسنه ، والله أعلم . وفى هذا الحديث قصة وهى ما أخرجه ابن دريد والعسكرى « أن معاوية رضى الله عنه قال يوما وعنده الأحنف ابن قيس : ما يعدل الأناة شئ ؟ فقال الأحنف إلا فى ثلاث : تبادر بالعمل الصالح أجلك ، وتعجل إخراج ميتك ، وتنكح كفؤا ، فقال رجل إنا لا نفتقر فى ذلك إلى الأحنف، قال: فلم ؟قال: لأنه عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا على فذكره » ، أفاده العلامه المحقق الزبيدى (وأما الخوف فيحتمل أن يكون) أى الخوف (فى إتمامه وأدائه) أى الفعل الذى خطر بقلبك (على وجهه) أى جهة صوابه (وحقه ، و) يحتمل أن يكون الخوف فى (قبول الله إياه) أى ذلك الفعل

وَأَمَّا بصَارَةُ الْعَاقِبَةِ فَبِأَنْ يَتَبَصَّرَ وَيَتَيَقَّنَ أَنَّهُ رُشْدٌ وَخَيْرٌ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِرُؤْيَةِ الثَّوَابِ فِى الْعُقْبَى وَرَجَائِهِ . فَاعْلَمْ ذٰلِكَ مُوَفَّقًا . فَهٰذِهِ جُمْلَةُ الْفُصُولِ الثَّلَاثَةِ الَّتِى لَزِمَتْكَ مَعْرِفَتُهَا فِى فَصْلِ الْخَوَاطِرِ فَارْعَهَا وَأَمْعِنِ النَّظَرَ فِيهَا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهَا مِنَ الْعُلُومِ اللَّطِيفَةِ وَالْأَسْرَارِ الشَّرِيفَةِ فِى هٰذَا الْبَابِ ، وَاللّٰهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ .

﴿ وَأَمَّا فَصْلُ الْحِيَلِ وَالْمُخَادَعَاتِ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ .

فَمَجْرَى ذٰلِكَ وَمِثَالُهُ : أَنَّ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ مَعَ ابْنِ آدَمَ فِى الطَّاعَةِ فِى سَبْعَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَنْهَاهُ عَنْهَا ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى رَدَّهُ بِأَنْ قَالَ إِنِّى لَمُحْتَاجٌ إِلَى ذٰلِكَ جِدًّا إِذْ لَا بُدَّ لِى مِنَ التَّزَوُّدِ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ لِلْآخِرَةِ الَّتِى لَا انْقِضَاءَ لَهَا ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالتَّسْوِيفِ ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ لَيْسَ أَجَلِى بِيَدِى ، عَلَى أَنِّى إِنْ سَوَّفْتُ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ ،

أيقبل أم لا ؟ (وأما بصارة العاقبة فبأن يتبصر ويتيقن) أى صاحب الخاطر (أنه) أى الفعل المذكور (رشد) أى صواب (وخير ويحتمل أن يكون) التبصر والتيقن (لرؤية الثواب فى ، العقبى) أى فى الآخرة (ورجائه) أى الثواب (فاعلم ذلك) أى المذكور من الاحتمالات (موفقا فهذه) أى التى ذكرناها من الأقوال (جملة الفصول الثلاثة التى لزمتك) أى وجبت عليك (معرفتها فى فصل الخواطر فارعها) أى فاحفظ هذه الفصول الثلاثة (وأمعن) أى بالغ (النظر فيها مااستطعت فإنها) أى الفصول الثلاثة (من العلوم اللطيفة) أى الدقيقة (والأسرار الشريفة فى هذا الباب) أى باب الخواطر (والله الموفق) أى لمرضاته (بفضله) وإحسانه .

﴿وأما فصل الحيل﴾ بكسر الحاء وفتح الياء جمع حيلة: أى خديعة ومكر (والمخادعات من الشيطان فمجرى ذلك) أى طريق جريان الحيل والمخادعات (ومثاله أن مكايد الشيطان مع ابن آدم فى الطاعة فى سبعة أوجه : أحدها أن ينهاه) أى ابن آدم (عنها) أى الطاعة (فإن عصمه الله تعالى) من الشيطان (و) حفظه منه (رده) أى الشيطان ، وذلك (بأن قال) أى ابن آدم للشيطان (إنى لمحتاج إلى ذلك) العمل لله تعالى والطاعة له (جدا) بكسر الجيم : أى حقا (إذ لابد) أى لاغنى (لى من التزود) أى أخذ الزاد (من هذه الدنيا الفانية للآخرة التى لاانقضاء) ولا انقطاع (لها) أى الآخرة (ثم يأمره) أى يأمر الشيطان ابن آدم من وجه ثان (بالتسويف) أى التأخير للعمل (فإن عصمه الله تعالى و) حفظه (رده) أى الشيطان (بأن قال) ابن آدم للشيطان اللعين (ليس أجلى) أى مدة حلول موتى (بيدى ، على أنى إن سوفت) أى أخرت (عمل اليوم إلى غد

فَعَمَلُ غدٍ مَتَى أَعْمَلُهُ ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلاً ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالْعَجَلَةِ فَيَقُولُ لَهُ عَجِّلْ عَجِلْ لِتَتَفَرَّغَ لِكَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَدَّهُ بِأَنْ قَالَ : قَلِيلُ الْعَمَلِ مَعَ التَّمَامِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ مَعَ النُّقْصَانِ ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِإِتْمَامِ الْعَمَلِ مُرَاآةً لِلنَّاسِ ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى رَدَّهَ ، بِأَنْ قَالَ : مَا الَّذِى أَعْمَلُ بِمُرَاآةِ النَّاسِ ؟ أَفَلَا تَكْفِينِي رُؤْيَةُ اللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُوقِعَهُ فِى الْعُجْبِ فَيَقُولُ : مَا أَعْظَمَكَ وَمَا أَيْقَظَكَ وَمَا أَفْضَلَكَ ! فَإِنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى رَدَّهُ بِأَنْ قَالَ : المِنَّةُ لِلهِ تَعَالَى فى ذٰلِكَ دُونِى فَهُوَ الَّذِى خَصَّنِى بِتَوْفِيقِهِ وَجَعَلَ لِعَمَلِى قِيمَةً عَظِيمَةً بِفَضْلِهِ ، وَلَوْلَا فَضْلُهُ فَمَاذَا كَانَ قِيمَةُ هٰذَا الْعَمَلِ فى جَنْبِ نِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَىَّ وَجَنْبِ مَعْصِيَتِى لَهُ ؟ . ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهٍ سَادِسٍ ، وَهُوَ أَعْظَمُهَا وَلَا يَقِفُ عَلَيْهِ إِلَّا مُتَيَقِّظٌ ، وَهُوَ :

فعمل غد متى أعمله ؟) أى عمل الغد (فإن لكل يوم عملا) مخصوصا (ثم يأمره) أى ابن آدم من وجه ثالث (بالعجلة) أى الإسراع فى العمل (فيقول) أى الشيطان (له) أى لابن آدم (عجل) أمر من العجل (عجل) أى أسرع أنت (لتتفرغ لكذا وكذا) من الأشغال (فإن عصمه الله تعالى و) حماه من ذلك اللعين (رده بأن قال) ابن آدم له (قليل العمل مع التمام) بإتيان أركانه وشروطه (خير من كثيره) أى العمل (مع النقصان) مما ذكر (ثم يأمره) من وجه رابع (بإتمام العمل مراءاة) أى لأجلها (للناس ، فان عصمه الله تعالى و) حماه (رده بأن قال) ابن آدم (ما الذى) أى أى شيء (أعمل بمراءاة الناس ؟ أفلا تكفينى رؤية الله تعالى ؟ ثم يريد) الشيطان من وجه خامس (أن يوقعه) أى ابن آدم (فى العجب) أى الإعجاب بنفسه (فيقول : ماأعظمك) ماتعجبية مبتدأ ، وأعظمك فعل ماض ، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا عائد على ما ، والكاف مفعوله على حذف مضاف : أى ماأعظم قدرك ، وكذا يقال فى قوله (وما أيقظك) أى مانبهك من نوم الغفلة (وما أفضلك) أى ماأكثر فضلك (فان عصمه الله تعالى رده) أى الشيطان (بأن قال : المنة) بكسر الميم : أى النعمة الثقيلة (لله تعالى فى ذلك) أى فى عظم القدر ويقظان القلب وكثرة الفضل (دونى) أى دون فعل نفسى (فهو) تعالى (الذى خصنى بتوفيقه) لمرضاته (وجعل) سبحانه (لعملى قيمة عظيمة بفضله) وإحسانه (ولولا فضله) وجوده (فماذا) أى أي شيء (كان قيمة هذا العمل في جنب نعمة الله تعالى على وجنب معصيتى له) تعالى (ثم يأتيه) أى يأتى الشيطان ابن آدم (من وجه سادس ، وهو) أى هذا الوجه السادس (أعظمها) أى الأوجه السبعة فى المكر والخديعة وأكثرها ضررا (ولا يقف) أى لايطلع (عليه) أى على الوجه السادس : أي المكر فيه (إلا متيقظ) أى متنبه القلب (وهو) أى بيان الوجه السادس

أَنْ يَقُولَ: اجْتَهِدْ أَنْتَ فِي السِّرِّ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُظْهِرُهُ عَلَيْكَ وَيَلْبِسُ كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. وَأَرَادَ بِذَٰلِكَ ضَرْبًا مِنَ الرِّيَاءِ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَدَّهُ بِأَنْ قَالَ: يَا مَلْعُونُ إِلَى الآنَ كُنْتَ تَأْتِينِي مِنْ وَجْهِ إِفْسَادِ عَمَلِي، وَالآنَ تَأْتِينِي مِنْ وَجْهِ إِصْلَاحِهِ لِتُفْسِدَهُ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ سَيِّدِي إِنْ شَاءَ أَظْهَرَ وَإِنْ شَاءَ أَخْفَى، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَنِي خَطِيرًا، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَنِي حَقِيرًا، وَذَٰلِكَ إِلَيْهِ، مَا أُبَالِي إِنْ أَظْهَرَ ذَٰلِكَ لِلنَّاسِ أَوْ لَمْ يُظْهِرْهُ. فَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهٍ سَابِعٍ وَيَقُولُ: لَا حَاجَةَ لَكَ إِلَى هَٰذَا الْعَمَلِ لِأَنَّكَ إِنْ خُلِقْتَ

(أن يقول) أى الشيطان لابن آدم (اجتهد أنت في السر) أى فى العمل الذى تسره وتخفيه عن الناس (فإن الله تعالى سيظهره) أى عملك فى السر (عليك) أى إظهارا يعرفك به الناس ويمدحونك ويقولون فيك: أنت من عباد الله المخلصين (ويلبس) أى يخلط هذا اللعين (كل عامل عمله) بأدق الحيل والمخادعات.

[تنبيه] قوله يلبس هو بكسر الباء لأن الماضى بفتحها لاغير، هذا فى الأمور المعنوية. قال تعالى « وللبسنا » أى خلطنا « عليهم مايلبسون » وأما فى الأمور المحسوسة فانه بكسر الباء فى الماضى وفتحها فى المضارع. قال تعالى « يلبسون ثيابا خضرا » ونظم بعضهم ذلك فقال:

بعين مضارع فى لبس ثوب ... أتى فتح وفى الماضى بكسر
وفي خلط الأمور أتى بعكس ... لعينها فخذه بغير عسر

(وأراد) أى قصد الشيطان (بذلك) أى بالقول المذكور (ضربا) أى نوعا (من الرياء) أى والتلبيس (فان عصمه الله تعالى و) حفظه من الشيطان (رده بأن قال) ابن آدم (ياملعون) أى المبعد من الرحمة (إلى الآن) أى هذا الزمن الحاضر (كنت تأتينى من وجه إفساد عملى والآن) أى فى هذا الوجه السادس (تأتينى من وجه إصلاحه) أى العمل الذى أعمله (لتفسده) أى العمل (إنما أنا عبد الله تعالى، وهو) سبحانه (سيدى) وخالق، فإن الأمور كلها بيده (إن شاء) تعالى إظهار عملى (أظهر وإن شاء) إخفاءه (أخفى) ماعملناه (وإن شاء) سبحانه وتعالى جعل قدرى عظيما (جعلنى خطيرا) أي عظيما شريفا (وإن شاء) سبحانه جعل قدرى ذليلا (جعلنى حقيرا) أي ذليلا مهينا (وذلك) الأمر من الاظهار والإخفاء ونحو ذلك (إليه) أى مفوض اليه تعالى (ماأبالى) أى لا أكترث (إن أظهر) تعالى (ذلك) الذى كنت أعمله (للناس أولم يظهره) الله لهم (فليس بأيديهم شيء) من النفع والضر (ثم يأتيه) أى يأتى الشيطان ابن آدم (من وجه سابع ويقول: لاحاجة لك إلى هذا العمل) الذى اجتهدت فيه (لأنك إن خلقت)

سَعِيدًا لَمْ يَضُرَّكَ تَرْكُ الْعَمَلِ ، وَإِن خُلِقْتَ شَقِيًّا لَمْ يَنْفَعْكَ فِعْلُهُ ، فَإِنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى رَدَّهُ بِأَنْ قَالَ : إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، وَعَلَى الْعَبْدِ امْتِثَالُ الْأَمْرِ لِعُبُودِيَّتِهِ ، وَالرَّبُّ أَعْلَمُ بِرُبُوبِيَّتِهِ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . وَلِأَنَّهُ يَنْفَعُنِي الْعَمَلُ كَيْفَمَا كُنْتُ لِأَنِّي إِنْ كُنْتُ سَعِيدًا احْتَجْتُ إِلَيْهِ لِزِيَادَةِ الثَّوَابِ ، وَإِنْ كُنْتُ شَقِيًّا فَأَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ كَيْ لَا أَلُومَ نَفْسِي ، عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُعَاقِبُنِي عَلَى الطَّاعَةِ بِكُلِّ حَالٍ وَلَا يَضُرُّنِي عَلَى أَنِّي إِنْ أُدْخِلْتُ النَّارَ وَأَنَا مُطِيعٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَدْخُلَهَا وَأَنَا عَاصٍ ، فَكَيْفَ وَوَعْدُهُ حَقٌّ وَقَوْلُهُ صِدْقٌ . وَقَدْ وَعَدَ عَلَى الطَّاعَاتِ بِالثَّوَابِ فَمَنْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ أَلْبَتَّةَ ؟ وَدَخَلَ الْجَنَّةَ لَا لِاسْتِحْقَاقِهِ بِعَمَلِهِ الْجَنَّةَ وَلَكِنْ لِوَعْدِ اللهِ الصَّادِقِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنِ السُّعَدَاءِ ، إِذْ قَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ،

بالبناء للمفعول : أى خلقك الله وقدرك (سعيدا) فى الأزل (لم يضرك ترك العمل ، وإن خلقت شقيا لم ينفعك فعله) أى هذا العمل (فان عصمه الله تعالى رده) أى الشيطان (بأن قال) أى ابن آدم (إنما أنا عبد ، و) حق (على العبد امتثال الأمر لعبوديته ، والرب) تعالى (أعلم بربوبيته يحكم مايشاء ويفعل مايريد ، ولأنه) أى الشأن (ينفعنى العمل كيفما كنت) مطلقا سعيدا أو شقيا (لأنى إن كنت سعيدا احتجت إليه) أى إلى ذلك العمل (لزيادة الثواب) والأجر فى الدار الآخرة (وإن كنت شقيا فأنا محتاج إليه) أى العمل (كى لاألوم نفسى) بترك الامتثال لأمر ربى (على أن الله تعالى لايعاقبنى على الطاعة بكل حال ولا يضرنى) عليها (على أنى إن أدخلت النار وأنا مطيع) لله تعالى (أحب إلىّ من أن أدخلها) أى النار (وأنا عاص) له تعالي (فكيف) يكون ذلك (ووعده) تعالى (حق ، وقوله) جلّ وعزّ (صدق ، وقد وعد) سبحانه وتعالى (على) فعل (الطاعات بالثواب فمن لقى الله تعالى) بالموت (على الإيمان والطاعة لم يدخل النار ألبتة) أى قطعا (ودخل الجنة ، لا) يدخلها (لاستحقاقه بعمله) دخول (الجنة ولكن) دخلها (لوعد الله الصادق تعالى وتقدس ، ولهذا المعنى) وهو دخول الجنة بوعده الكريم وفضله العظيم لا بالعمل المدخول الذميم (أخبر الله تعالى عن) حال (السعداء إذ قالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده) بالجنة : أى فى قوله «تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » كما صرح به الخطيب . قال حكيم من الحكماء العارفين : الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى ، فإن امتنع منها أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه فى بدعته ويحسن له إياها ، فإن أبى أمره بالتحرج والشدة حتي يحرم ما ليس بحرام ، فإن أبي من ذلك شككه فى وضوئه وصلاته حتى يخرج عن العلم

فَتَيَقَّظْ رَحِمَكَ اللهُ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ كَمَا تَرَى وَتَسْمَعُ قِسْ عَلَيْهِ سَائِرَ الْأَحْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ تَعَالَى وَاسْتَعِذْ بِهِ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ وَمِنْهُ التَّوْفِيقُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فتميل قلوبهم إليه ويعجب بنفسه وبه يهلكه وعنده تشتد الحاجة فإنها آخر درجة ، ويعلم أنه لو جازوها أفلت منه إلى الجنة فآخر أعماله إذا عجز عن ابن آدم إيقاعه فى العجب وهو سوس الأعمال وبه يتم الهلاك ، فإن سلم منه نجا بعمله . أعاذنا الله منه ، وقد يستأنس لهذا القول بحيث « ان الشطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام ، فقال أتسلم ؟ أتترك دينك ودين آبائك ؟ فعصاه وأسلم ؛ ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر أتدع أرضك وسماءك ؟ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة » قال العراقي : رواه النسائى من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح (فتيقظ) أى تنبه من سنة الغفلة (رحمك الله) جملة دعائية (فإن الأمر) أى أمر الطاعة لرب العالمين (كما ترى) من كثرة مكايد الشيطان ومكره (وتسمع وقس عليه) أى على هذا الأمر (سائر الأحوال والأفعال ، واستعن بالله تعالى واستعذ) واعتصم (به) تعالى من الشيطان الرجيم (فإن الأمر) كله (بيده) أى بقدرته تعالى (ومنه) سبحانه (التوفيق) أى لمرضاته (ولا حول) لنا نتحول به عن المعصية موجود (ولاقوة) لنا نتقوى بها على الطاعات موجودة (إلا) وهما (بالله) أى بإعانته سبحانه (العلى) الأعلى : أى البالغ فى العلو ، إذ لا رتبة إلا وهى منحطة عن رتبته ، أو الذى علا عن أن تدرك الخلق ذاته أو تتصور صفاته بالكنه والحقيقة فهو المرتفع (العظيم) فى ذاته على كل من سواه فليس لعظمته بداية ولا لكنه جلاله نهاية ، وليست بتعظيم الأغيار جل قدره عن الحد والمقدار وأظهر معانى العظمة القوة والقدرة ، وفيه إشارة لمجموع صفاته النفسية والمعنوية والقدسية وحظ العبد منه قوله صلى الله عليه وسلم « من تعلم وعلم فذلك يدعى فى ملكوت السماء عظيما » وأن يستحقر نفسه ويذللها بالإقبال والانقياد لأوامره تعالى واجتناب نواهيه .

[تنبيه] ينبغى الإكثار من : لا حول ولا قوة إلا بالله . قال صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة « ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله أسلم عبدى واستسلم » أى فوض أمر الكائنات إليه تعالى وانقاد له بنفسه مخلصا ، فإن لا حول يدل على نفى التدبير للكائنات وإثباته له تعالى . وقال عليه السلام لقيس بن سعد « ألا أدلك على باب الجنة » وفي رواية « على كنز من كنوز الجنة ؟ قال بلى ، قال لاحول ولا قوة إلا بالله العلي

العظيم » أى لأنها لما تضمنت براءة النفس من حولها وقوتها إلى حوله تعالى وقوته كانت موصلة إلى الجنة ، كذا قاله العلامة بابصيل .

﴿ العائق الرابع ﴾

وهذا آخر العوائق الأربعة (النفس) الأمارة بالسوء المتبعة للشهوة المائلة إلى الهوى ، المجانبة للحق والهدى فيما تأمر به وتنهى عنه : قال العلامة سعيد بابصيل وهى : أى النفس لطيفة ربانية خلقها الله سبحانه وتعالى قبل الأجساد بألفى عام ، إذ هى الروح ، فكانت حينئذ فى جوار الحق وقربه فتستفيض من حضرته بلا واسطة فلما أمرها الله أن تتعلق بالأجساد عرفت الغير فحجبت عن حضرته لبعدها عنه ، فلذا احتاجت لمذكر . قال تعالى « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » فهى قبل تعلقها بالجسد روحا وبعده نفسا فلايصح لعاقل الرضا عنها ولا موالاتها ، كيف وقد قال تعالى حاكيا عن سيدنا يوسف عليه السلام « وما أبرئ نفسى » الآية . قال فى روح البيان : أى لا أنزهها عن السوء ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، قاله تواضعا لله تعالى وهضما لنفسه الكريمة لاتزكية لها ، وعجبا بحاله فى الأمانة والمراد لا أنزهها من حيث هى هى ولا أسند إليها فضيلة بمقتضى طبعها ، بل بتوفيق الله تعالى ، فإن جميع النفوس أمارة بالقبائح والمعاصى لاستلذاذها بها .

ومن هنا وجب القول بأن كل من كان أوفر عقلا وأجل قدرا عنده تعالى كان أبصر بعيوب نفسه ، ومن كان أبصر بها كان أعظم اتهاما لنفسه وأقل إعجابا ، إلا ما رحم ربى من النفوس التى عصمها ، ومن جملتها نفسى ونفوس الأنبياء والملائكة ، فالنفوس من حيث هى كالبهائم . قال فى [التأويلات النجمية] خلقت النفس على جبلة الأمارة بالسوء طبعا حين خليت إلى طبعها لا يأتى منها إلا الشر ولا تأمر إلا بالسوء ، ولكن إذا رحمها ربها ونظر إليها بنظر العناية قلبها من طبعها وبدل صفاتها ، فيبدل الأمارية بالمأمورية ، وشريرتها بالخيرية ، فإذا تنفس صبح الهداية فى ليلة البشرية وأضاء أفق سماء القلب صارت النفس لوامة تلوم نفسها على سوء فعلها ، وندمت على ما صدر منها فتتوب إليه تعالى ، فإن الندم توبة ، وإذا طلعت شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس الملهمة لتنورها بأنوار شمس العناية فألهمها نورها فجورها وتقواها ، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية وأشرقت الأرض بنور ربها صارت النفس المطمئنة بجذبة : ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فليجتهد العبد مع نفسه حتى يصل إلى الاطمئنان فيتخلص من كيدها انتهى . قال تعالى « وأما من خاف مقام ربه » الآية . وقال عليه السلام « أعدى الأعداء نفسك التى بين جنبيك » وقال محمد بن واسع رحمه الله : من مقت نفسه فى ذات الله أمنه الله من مقته . وقال الجنيد : الأمارة هى الداعية إلى المهالك ؛ المعينة للأعداء ، المتبعة للهوى ، المتنعمة بأنواع الأسواء . وقال جعفر : لم يتهم نفسه على الدوام ولم يخالفها فى جميع الأحوال ويجبرها على مكروهها فى سائر الأيام كان مغرورا ، ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها . قال الجنيد : أرقت ليلة فقمت إلى وردى فلم أجد ما كنت أجده من الحلاوة فأردت أن أنام فلم أقدر فقعدت فلم أطق القعود ففتحت الباب

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَاتِ ، عَصَمَكَ اللهُ وَإِيَّانَا بِالْحَذَرِ مِنْ هٰذِهِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ فَإِنَّهَا أَضَرُّ الْأَعْدَاءِ . وَبَلاؤُهَا أَصْعَبُ الْبَلاءِ ، وَعِلاَجُهَا أَعْسَرُ الْأَشْيَاءِ وَدَاؤُهَا أَعْضَلُ الدَّاءِ وَدَوَاؤُهَا أَشْكَلُ الدَّوَاءِ ، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا عَدُوٌّ مِنْ دَاخِلٍ ،

فخرجت فإذا رجل ملتف بعباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بي رفع رأسه وقال : تأخرت إلى الساعة ؟ . قلت يا سيدى من غير موعد . فقال بلى قد سألت محرك القلوب أن يحرك إلى قلبك ، فقلت : فما حاجتك ؟ قال متي يصيرداء النفس دواءها ؟ قلت إذا خالفت هواها صار داؤها دواءها فأقبل على نفسه ، وقال اسمعى فقد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيت إلى أن سمعتيه من الجنيد وانصرف ولم أعرفه . قال شيخ الإسلام : ولها ، أى النفس أربعة أنواع : الأمارة بالسوء . قال تعالى « إن النفس لأمارة بالسوء » وهى نفس الكافر . واللوامة . قال تعالى : « ولا أقيم بالنفس اللوامة » وهى نفس عصاة المؤمنين . والملهمة . قال تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » وهى نفس عامة المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . والمطمئنة . قال تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة » ، الآية وهى نفس الأنبياء والأولياء والصديقين ، وقيل غير ذلك ، واللوامة إذا أطاعت المطمئنة لامت ذاتها فى الدنيا ، وإن أطاعت الأمارة لامت ذاتها فى الآخرة ، انتهى بمعناه . وفى شرح البردة للخربوطى أن الصوفية قالوا : إن النفس ست . الأولى الأمارة ، وهى التى تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب لجهة السفلية فهى مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة ، لأنها مبدأ الكبر ونحوه ، وهى نفس الكفار والشياطين والفاسقين . والثانية اللوامة ، وهى التى تنورت بنور القلب فتطيع العاقلة مرة وتعصى أخرى ثم تندم فتلوم نفسها ، وهى منبع الندامة ، لأنها مبدأ الهوس والعثرة والحرص وهى نفس العامة . والثالثة المطمئنة ، وهى التى تنورت بنور القلب حتى تخلت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة ، وهى نفس المتعلمين العاملين . والرابعة الملهمة ، وهى التى ألهمها العلم والتواضع والقناعة والسخاوة فلذا كانت منبع الصبر والتحمل والشكر وهى نفس الأولياء الكرام والخامسة المرضية ، وهى التى رضيت بتلك عن الله كما قال تعالى « ورضوا عنه » ويترك فيها الكرامات ويعرف فيها الله تعالى ، وهى نفس العارفين . والسادسة الصالحة ، وهى التى مقام الأسرار بين الله وبينها ؛ وهى نفس الأنبياء والمرسلين . قال المصنف رحمه الله (ثم عليك) أى الزم (يا طالب العبادات) لله رب العالمين (عصمك) أى حفظك (الله وإيانا) من آفات النفس جملة دعائية (بالحذر من هذه النفس الأمارة بالسوء ، فإنها أضر الأعداء وبلاؤها أصعب البلاء وعلاجها أعسر الأشياء وداؤها أعضل) أى أصعب (الداء ودواؤها أشكل الدواء ، وإنما) يلزم عليك (ذلك) الحذر (لأمرين : أحدها أنها) أى النفس (عدو من داخل) ولا كذلك الشيطان فإنه

وَاللِّصُّ إِذَا كَانَ مِنْ دَاخِلِ الْبَيْتِ عَزَّتِ الْحِيلَةُ فِيهِ وَعَظُمَ الضَّرَرُ ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

نَفْسِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعِي ... تُكَثِّرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي
كَيْفَ احْتِيَالِي مِنْ عَدُوٍّ إِذَا ... كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي

وَالثَّانِي أَنَّهُ عَدُوٌّ مَحْبُوبٌ وَالْإِنْسَانُ عَمٍ عَنْ عَيْبِ مَحْبُوبِهِ لَا يَكَادُ يُبْصِرُ عَيْبَهُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

وَلَسْتَ تَرَى عَيْباً لِذِي الْوِدِّ وَالْإِخَا ... وَلَا بَعْضَ مَا فِيهِ إِذَا كُنْتَ رَاضِياً
وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

عدو من خارج ، ولذلك قيل : الخروج عن النفس هو النعمة العظمى لأنها أعظم حجاب بين الشخص وربه .

وقد سئل بعض المشايخ عن الإسلام فقال ذبح النفس بسيوف المخالفة : أي لأنها إذا اعتادت اللذات لا تنصرف إلى الطاعات إلا بالمجاهدات والتوبيخات الشديدة ، ولذا سميت هذه الأمور سيوفا ، وذبحها قهرها ونقلها عن هواها ، كذا قرره العلامة باصيل . وقال سهل بن عبد الله : ماعبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى فهي رأس العبادة وأول مراتب السعادة (واللص) بتثليث اللام : أي السارق (إذا كان من داخل البيت عزت) أي قلت (الحيلة فيه) أي اللص (وعظم الضرر ، ولقد صدق القائل) حيث قال (نفسى إلى ما ضرنى) فى العاقبة (داعى * تكثر أسقامي) أي أمراضى (وأوجاعى) جمع وجع وهو المرض (كيف احتيالى من عدو إذا * كان عدوى بين أضلاعى) جمع ضلع ، وهى عظام الجنبين كما فى المصباح . (والثانى) من الأمرين (أنه) أي ما ذكر من النفس (عدو محبوب والإنسان عم) بوزن راض اسم فاعل من عمى كرضى ، أي فاقد البصر كما أفاده القاموس ، والمراد كناية عن عدم التفات الإنسان وإعراضه عما يأتى وهو قوله رحمه الله (عن عيب محبوبه لا يكاد) أي لا يقرب الإنسان (يبصر) بضم أوله وكسر ثالثه من أبصر كما قاله ابن المدابغى (عيبه) أي عيب المحبوب ونقصه (كما قال القائل) من بحر الطويل (ولست ترى عيبا لذى) أي صاحب (الود) بضم الواو وفتحها وكسرها : المودة والمحبة (و) لذى (الإخا) بكسر الهمزة مع القصر للوزن : أي الأخوة (ولا) ترى (بعض ما) أي العيب الذى ثبت (فيه) أي فى ذى المودة والأخوة (إذا كنت راضيا . وعين الرضا عن كل عيب) ونقص (كليلة) أي غاضة (ولكن عين السخط تبدى) أي تظهر (المساويا) والألف للاطلاق جمع مساءة ، وهى مصدر ميمي بمعنى القبيح من القول والفعل ، وذلك لأن

فَإِذَا يَسْتَحْسِنُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ قَبِيحٍ ، وَلاَ يَكَادُ يَطَّلِعُ عَلَى عَيْبٍ لَهَا وَهِيَ فِى عَدَاوَتِهَا وَأَضْرَارِهَا ، فَمَا أَوْشَكَ مَا تُوقِعُهُ فِى فَضِيحَةٍ وَهَلاَكٍ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ إِلاَّ أَنْ يَحْفَظَهُ اللهُ تَعالى بِفَضْلِهِ ، وَيُعِينَهُ عَلَيْهَا بِرَحْمَتِهِ .

ثُمَّ أَقُولُ : تَأَمَّلْ أَيُّهَا الرَّجُلُ نُكْتَةً وَاحِدَةً مُقْنِعَةً ، وَهِيَ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ وَجَدْتَ أَصْلَ كُلِّ فِتْنَةٍ وَفَضِيحَةٍ وَخِزْيٍ وَهَلاَكٍ وَذَنْبٍ وَآفَةٍ وَقَعَ فِى خَلْقِ اللهِ تَعَالَى مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ النَّفْسِ ، إِمَّا بِهَا وَحْدَهَا أَوْ بِمُعَاوَنَتِهَا وَمُشَارَكَتِهَا وَمُسَاعَدَتِهَا . فَأَوَّلُ الْمَعْصِيَةِ لِلّٰهِ تَعَالَى كَانَتْ مِنْ إِبْلِيسَ ، وَكَانَ سَبَبُهُ بَعْدَ الْقَضَاءِ السَّابِقِ هَوَى النَّفْسِ بِكِبْرِهَا وَحَسَدِهَا ،

الإنسان إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له داع من عقل أو دين أصمه حبه عن العذل وأعماه عن الرشد . وقال بعضهم فى ذلك * وعين أخى الرضا عن ذاك تعمى * (فإذا) أى حين إذا كان الأمر كما قاله القائل (يستحسن الإنسان من نفسه كل) أمر (قبيح ولا يكاد يطلع على عيب لها) أى لنفسه بخلاف عيب غيره فإنه يرى ذلك . وهذا من أقبح القبائح ، ولله در القائل :

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذى هو فيه
فلا خير فيمن لا يرى عيب نفسه ويعمى عن العيب الذى بأخيه

(وهى) أى تلك النفس (فى عداوتها وأضرارها فما أوشك) أى أقرب فعل تعجب (ماتوقعه) أى صاحبها (فى فضيحة وهلاك وهو) أى صاحب النفس (لايشعر) أى لا يعلم (إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله ويعينه عليها) أى على قهر النفس وقمعها (برحمته) تعالى فإنه نجا من الفضائح والمهالك (ثم أقول : تأمل) من التأمل بمعنى إعمال الفكر ومزيد التدبير (أيها الرجل) المريد لسلوك طريق الآخرة [نكتة] أى لطيفة مستخرجة بالفكر مؤثرة فى القلب (واحدة مقنعة) بوزن مكرمة اسم فاعل من أقنع الرباعى : أى كافية لمن تفكرها وتأملها ، أو مصدر ميمى بمعنى قناعة مبالغة على حد عدل زيد (وهى) أى النكتة المقنعة (أنك إذا نظرت) أى تأملت (وجدت أصل كل فتنة) أى بلية (وفضيحة وخزى) أى ذل (وهلاك وذنب وآفة وقع) أى كل ذلك (فى خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة من) متعلق بقوله وجدت (قبل) بكسر القاف أى جهة (هذه النفس) الأمارة بالسوء (إما بها وحدها) أى منفردة بذاتها (أو بمعاونتها ومشاركتها ومساعدتها فأول المعصية لله تعالى كانت من إبليس) اللعين ، وهى مخالفة أمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام (وكان سببه) أى عصيان إبليس (بعد القضاء السابق) فى علم الله الأزلى (هوى النفس) أى ما تهواه وتحبه من الصفة المذمومة (بكبرها) أى بسبب كبر نفس اللعين عن السجود لآدم عليه السلام (وحسدها) لآدم على ما شرفه الله وآتاه من فضله .

أَلْقَتْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ عَلَى مَا قِيلَ فِى بَحْرِ الضَّلَالِ فَغَرِقَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ دُنْيَا وَلَا خَلْقٌ وَلَا شَيْطَانٌ ، بَلْ كَانَتِ النَّفْسُ بِكِبْرِهَا وَحَسَدِهَا فَعَمِلَتْ بِهِ مَا عَمِلَتْ ، ثُمَّ ذَنْبُ آدَمَ

قال بعض السلف : إن أول خطيئة كانت هى الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام فأبى أن يسجد له فحمله على المعصية ، وعن ابن مسعود رفعه « إياكم والكبر ، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم ، وإياكم والحرص فإن آدم حمله الحرص على أكل الشجرة ، وإياكم والحسد فإن ابنى آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسدا ، فهن أصل كل خطيئة » . أخرجه القشيرى فى الرسالة وابن عساكر فى التاريخ من حديثه . وقال بعض الحكماء : إياكم والحسد فإن الحسد أول ذنب عصى الله تعالى به فى السماء وأول ذنب عصى الله به فى الأرض . وإنما أراد بقوله أول ذنب عصى الله تعالى به فى السماء ، يعنى إبليس حين أبى أن يسجد لآدم وقال « خلقتنى من نار وخلقته من طين » فحسده فلعنه الله تعالى بذلك ، وأما الذى عصى الله تعالى به فى الأرض فهو قابيل بن آدم حين قتل أخاه هابيل حسدا ، وهو قوله تعالى « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحقّ إذ قرّبا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين » . وكذا حكي أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان ابن المهلب يومئذ على واسط مدينة بالعراق ، فقال إنى أريد أن أعظك بشيء ، فقال وما هو ؟ قال إياك والكبر ، فإنه أوّل ذنب عصى الله به ثم قرأ « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس » الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ثم قرأ « اهبطوا منها » إلى آخر الآية وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ، ثم قرأ « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » الآيات ، وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك ، وإذا ذكرت النجوم فأمسك (ألقته) أى ألقت المعصية إبليس اللعين (بعد عبادة ثمانين ألف سنة على ما قيل فى بحر الضلال) والكفر ، بل قد روى عن كعب الأحبار رضى الله عنه «أن إبليس اللعين كان خازن الجنة أربعين ألف سنة ، ومع الملائكة ثمانين ألف سنة ، ووعظ الملائكة عشرين ألف سنة ، وسيد الكروبيين ثلاثين ألف سنة ، وسيد الروحانيين ألف سنة ، وطاف حول العرش أربعة عشر ألف سنة ، وكان اسمه فى سماء الدنيا العابد ، وفى السماء الثانية الزاهد ، وفى السماء الثالثة العارف ، وفى السماء الرابعة الولىّ ، وفى الخامسة التقىّ ، وفى السادسة الخازن ، وفى السابعة عزازيل ، وفى اللوح المحفوظ إبليس ، وهو غافل عن عاقبة أمره . (فغرق) اللعين (إلى أبد الآبدين إذ لم يكن هنالك) أى أوّل عصيان إبليس (دنيا ولا خلق ولا شيطان بل كانت) أى وجدت (النفس بكبرها وحسدها فعملت به) أى اللعين (ما عملت) من المعصية والمخالفة لأمر الله تعالى (ثم ذنب) أبينا (آدم

وَحَوَّاءِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ طَرَحَتْهُمَا شَهْوَةُ النَّفْسِ فِى ذٰلِكَ وَحِرْصُهُمَا عَلَى الْبَقَاءِ وَالْحَيَاةِ حَتَّى اغْتَرَّا بِقَوْلِ إِبْلِيسَ فَكَانَ ذٰلِكَ إِذًا بِعَوْنِ النَّفْسِ وَشِرْكَتِهَا حَتَّى سَقَطَا بِذٰلِكَ مِنْ جِوَارِ اللهِ تَعالى وَقَرَارِ الْفِرْدَوْسِ إِلَى هٰذِهِ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ النَّكِدَةِ الْفَانِيَةِ الْمُهْلِكَةِ وَلَقِيَا مَا لَقِيَا وَلَقِىَ أَوْلَادُهُمَا مَا لَقَوْا مِنْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ .

و) زوجته (حواء عليهما) الصلاة و (السلام) وذلك أ كلهما عليهما السلام من الشجرة التى نهيا عنها وأورد عليه أن آدم معصوم ، فكيف يخالف النهى ؟ وأجيب بوجوه : منها أنه اعتقد أن النهى للتنزيه لا للتحريم ، ومنها أنه نسى النهى ، ومنها أنه اعتقد نسخه بسبب مقاسمة إبليس له إنه لمن الناصحين فاعتقد أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا (طرحتهما) أى آدم وحوّاء (شهوة النفس)بوسوسة إبليس ألقى فى خاطرهما كما قاله الزبيدى (فى ذلك) أى فعل المنهى عنه (و) ألقاهما فى ذلك (حرصهما على البقاء والحياة حتى اغترا) أى آدم وحواء (بقول إبليس) اللعين لهما « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » وقوله « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » ومقاسمته لهما « إنى لكما لمن الناصحين » (فكان ذلك) أى الاغترار (إذا) أى حين قاله اللعين ما ذكر (بعون النفس) أى نفسهما (وشركتها حتى سقطا) عليهما السلام (بذلك) أى بقول إبليس ومعاونة النفس (من جوار الله تعالى) مجاورة معنوية (و) من (قرار) هما فى جنة (الفردوس إلى هذه الدنيا الحقيرة النكدة) أى القليلة (الفانية المهلكة). فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود ، وهبطت حواء بجدة ، وإبليس بالأبلة من أعمال البصرة (ولقيا) عليهما السلام (ما لقيا) من الأحزان فى دار الهوان ، وقد قيل إن آدم عليه السلام لما نزل الأرض مكث ثلثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله تعالى ، وقد قيل : لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع داود أكثر ، ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر ، كذا ذكره الخازن والقصة فى شأن آدم وحواء عليهما السلام مشهورة فى القرآن (ولقى أولادهما) أى آدم وحواء (ما لقوا) من ظلم بعضهم بعضا (من ذلك اليوم) أي يوم الهبوط من الجنة (إلى أبد الآبدين) وفى [شرح المواهب] للزرقانى ما نصه :

واختلفوا فى أن حوّاء خلقت فى الجنة ، فقال ابن إسحق خلقت قبل دخول آدم الجنة ، لقوله تعالى « أسكن أنت وزوجك الجنة » وقيل خلقت فى الجنة بعد دخول آدم الجنة لأنه لما أسكن الجنة مشى فيها مستوحشا ، فلما نام خلقت من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها قاله ابن عباس ، وينسب لأكثر المفسرين ، وعلى هذا قيل : قال الله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » بعد خلقها وهما فى الجنة . وقيل قبل خلقها وتوجه الخطاب للمعدوم لوجوده فى علم الله تعالى كذا نقله الجمل .

الناس أنك خير مني وأفضل ويفتخر ولدك على ولدي ، فقال هابيل : وما ذنبي ؟ « إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين » قال عبد الله بن عمر : كان المقتول أشد ، ولكنه منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده . قال الله تعالى « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله » الآية . قال السدى : لما قصد قابيل قتل هابيل راغ هابيل في رءوس الجبال ، ثم أتاه يوما من الأيام وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات . وقال ابن جريج : لم يدر قابيل كيف يقتل أخاه فتمثل له إبليس وأخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر وقابيل ينظر فعلمه القتل ، فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر ، وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة .

واختلفوا في مصرعه وموضع قتله ، فقال ابن عباس : على جبل ثور . وقيل على عقبة حراء . وحكى ابن جرير الطبرى قال جعفر الصادق : بالبصرة في موضع المسجد الأعظم ، فلما قتله تركه ولم يدر ما يصنع به ، لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم فقصدته السباع ، فحمله على ظهره في جراب أربعين يوما . وقال ابن عباس رضى الله عنهما سنة حتى أروح وأنتن وعكفت عليه الطير والسباع ينظرون أن يرمى به فتأكله ؛ فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجليه حفيرة ثم ألقاه فيها وواراه بالتراب وقابيل ينظر ، وذلك قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث في الأرض » : يعني يحفرها وينثر ترابها « ليريه كيف يواري سوأة أخيه » فلما رأى قابيل فعل الغراب « قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين » : يعني على حمله على ظهره مدة سنة لا على قتله . وقيل : إنه ندم على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله ، وسخط عليه أبواه وإخوته ، فندم لأجل ذلك ، لا لأجل أنه جنى جناية واقترف ذنبا عظيما بقتله ، فلم يكن ندمه ندم توبة وخوف وإشفاق من فعله ولأجل ذلك لم ينفعه الندم . وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » . قال المطلب بن عبد الله بن حنطب : لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ، وشربت دم المقتول كما تشرب الماء ، فناداه الله تعالى أين أخوك هابيل ؟ فقال : ما أدري ما كنت عليه رقيبا ؛ فقال الله تعالى : إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك ؟ . قال فأين دمه إن كنت قتلته ؟ فحرم الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دما بعده أبدا . وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال « لما قتل قابيل هابيل كان آدم بمكة فاشتاك الشجر ، وتغيرت الأطعمة ، وحمضت الفواكه ، واغبرت الأرض ، فقال آدم قد حدث في الأرض حدث ؛ فأتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل » وقيل لما رجع آدم سأل قابيل عن أخيه ؛ فقال ما كنت عليه وكيلا ، فقال بل قتلته ولذلك اسود جلدك . وقال سالم بن أبي الجعد لما قتل قابيل هابيل مكث آدم مائة سنة لا يضحك . وفي الخازن قال أصحاب الأخبار : فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة ، وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ، ولدت له حواء شيثا ،

ثُمَّ حَدِيثُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ كَانَ السَّبَبَ فِى شَأْنِهِمَا الشَّهْوَةُ ،

وتفسيره : هبة الله ، يعنى أنه خلف من هابيل وعلمه الله ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات الخلق فى كل ساعة وأنزل عليه خمسين صحيفة ، وصار وصى آدم وولى عهده . وأما قابيل فقيل له اذهب فذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من رآه ، فأخذ بيد أختــه إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن ، فأتاه إبليس وقال له إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها فانصب أنت نارا تـكون لك ولعقبك ، فبنى بيت النار فهو أول من عبد النار ؛ وكان قابيل لا يمر به أحد إلا رماه بالحجارة ، فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابنه ، فقال ابن الأعمي لأبيه هذا أبوك قابيل فرمي الأعمى أباه قابيل فقتله ، فقال ابن الأعمي لأبيه قتلت أباك قابيل ، فرفع الأعمي يده ولطم ابنه ، فمات ، فقال الأعمى : ويل لى قتلت أبى برميتى وقتلت ابنى بلطمتي ، فلما مات قابيل علقت إحدى رجليه بفخذه وعلق بها فهو معلق بها إلى يوم القيامة ، ووجهه إلى الشمس حيث دارت ، وعليه حظيرة من نار فى الصيف ، وحظيرة من ثلج في الشتاء ، فهو يعذب بذلك إلي يوم القيامة . قالوا واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من الطبول والزمور والعيدان والطنابير؛ وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والفواحش ، حتي أغرقهم الله تعالي جميعا بالطوفان فى زمن نوح عليه السلام ، فلم يبق من ذرية قابيل أحد ، وأبقى الله ذرية شيث ونسله إلى يوم القيامة .

قال المصنف رحمه الله تعالى (ثم حديث هاروت وماروت) هما اسمان سريانيان للملـكين ، ومنع صرفهما للعجمة والعلمية (كان السبب فى شأنهما الشهوة) . اعـلم أن المفسرين ذكروا لهذين الملـكين قصة عظيمة طويلة . حاصلها أن الملائـكة لما اعترضوا بقولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ومدحوا أنفسهم بقولهم « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » أراهم الله تعالى ما يدفع دعواهم ، فركب فى هاروت وماروت منهم شهوة وأنزلهما حاكمين فى الأرض فافتتنا بالزهرة مثلت لهما من أجمل النساء ، فلما وقعا بها خيرا بين عذابى الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يعذبان إلى يوم القيامة ، ونازع جماعة فى أصل ثبوت هذه القصة وليس كما زعموا لورود الحديث بل صحته بها ، وسيأتى لفظه . ومن جملته أنها لما مثلت لهما وراوداها عن نفسها أمرتهما بالشرك فامتنعا ، ثم بالقتل فامتنعا ، ثم بشرب الخمر فشرباها ، ثم وقعا بها وقتلا ، ثم أخبرتهما بما فعلاه فخيرا كما ذكروا ، ومن المنازعين الفخر قال : هذه القصة رواية فاسدة مردودة ليس فى كتاب الله ما يدل عليها ، بل فيه ما يبطلها من وجوه :

[الأول] عصمة الملائـكة من كل ذنب . ويجاب بأن محل العصمة ماداموا بوصف الملائكة ، أما إذا انتقلوا إلى وصف الإنسان فلا ، على أنه يعلم الحديث المذكور أن ما وقع لهما إنما هو من باب التمثيل لا الحقيقة ، لأن الزهرة تمثلت لهما امرأة وفعلت بهما ما مر دفعا لقولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كما يأتى ذكر ذلك فى الحديث . [الثانى] زعم أنهما خيرا بين العذابين فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة والعذاب

ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

لأن الله خير بينهما من أشرك طول عمره فهذان أولى . ويجاب بأن ذلك إنما فعل تغليظا للعقوبة عليهما ولا يقاسان بمن أشرك ، لأن الأمور التوقيفية لا مجال للرأى فيها .

[الثالث] من أعجب الأمور أنهما يعلمان الناس السحر في حال كونهما يعذبان ويدعوان إليه وهما يعاقبان . ويجاب بأنه لا عجب فى ذلك ، إذ لا مانع أن العذاب يفتر عنهما فى ساعات فيعلمان فيها لأنهما أنزلا فتنة عليهما لما وقع لهما مما ذكروا على الناس لتعلمهم منهما السحر ، كذا أفاده العلامة ابن حجر فى الزواجر في بيان السحر . وقد أفاد أيضا فى بيان شرب الخمر ، أخرج ابن حبان فى صحيحه ، وقيل الصحيح وقفه على كعب عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن آدم لما أهبط إلى الأرض قالت الملائكة : أى رب أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم . قال الله تعالي لملائكته : هلموا ملكين من الملائكة ، فننظر كيف يعملان ؟ قالوا ربنا هاروت وماروت . قال : اهبطا الى الأرض ، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر ، فجاآها فسألاها نفسها ، فقالت لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك قالا : والله لا نشرك بالله أبدا ، فذهبت عنهما ثم رجعت إليهما ومعها صبى تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت لا والله حتى تشربا هذه الخمر فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى ، فلما أفاقا قالت المرأة : والله ما تركتما من شيء أبيتما على إلا فعلتماه حين سكرتما ، فخيرا عند ذلك بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا » انتهى . قال ابن عباس : وذلك إذ علما أنه ينقطع فهما ببابل يعذبان . قيل إنهما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة ، وقيل : إنهما منكوسان يضربان بسياط الحديد . وقيل : إن رجلا قصدهما ليتعلم السحر ، فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة عيونهما مسودة جلودهما ، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا قدر أربع أصابع ، وهما يعذبان بالعطش ؟ فلما رأى ذلك هاله فقال لا إله إلا الله ، فلما سمعا كلامه قالا لا إله إلا الله ، من أنت ؟ قال رجل من الناس ، فقالا من أى أمة أنت ؟ قال من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قالا : أوقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، فقالا الحمد لله وأظهرا الاستبشار ، فقال الرجل مم استبشاركما ؟ قال إنه نبى الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا (ثم هلم جرا إلى يوم القيامة) هو منصوب على المفعول المطلق محذوف العامل . أى جر جرا ، أو على الحال بتأويل الصفة : أى هلم جرا ، وهلم كلمة بمعنى الدعاء إلى الشيء كتعال فتكون لازمة ، وقد تستعمل متعدية ، نحو « هلم شهداءكم » : أى أحضروهم ، وهى مركبة عند البصريين من هاء التنبيه ومن لم ، كأن المنادى أراد لم نفسك إلينا : أي ضم نفسك إلينا أو قرب ، وحذفت الألف من الهاء تخفيفا لكثرة الاستعمال ، وعند الكوفيين من هل أم : أى اقصد ، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام ، وسقطت ، وليس ببعيد أن يكون أصلها هلم بمعنى هنا ثم تصرفوا فيها . وهي عند الحجازيين من

وَلاَ تجدُ فى الْخَلْقِ فِتْنَةً وَلاَ فَضِيحَةً وَلاَ ضَلاَلاً وَلاَ مَعْصِيَةً إلاَّ وَأَصْلُهَا النَّفْسُ وَهَوَاهَا وَإِلاَّ كَانَ الْخَلْقُ فى سَلاَمَةٍ وَخَيْرٍ ، وَإِذَا كَانَ عَدُوٌّ بِهٰذَا الضَّرَرِ كُلِّهِ فَحَقٌّ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ تَعَالى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا الْحِيلَةُ إِذًا لَنَا فى هٰذَا الْعَدُوِّ وَمَا التَّدْبِيرُ فى أَمْرِهِ فَبَيِّنْ لَنَا ذٰلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّا ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ أَمْرَهَا عَسِيرٌ صَعْبٌ إِذْ لاَ يُمْكِنُ قَهْرُهَا بِمَرَّةٍ كَسَائِرِ الْأَعْدَاءِ إِذْ هِىَ الْمَطِيَّةُ وَالآلَةُ . وَقِيلَ إِنَّ أَعْرَابِيًّا دَعَا لإِنْسَانٍ بِخَيْرٍ، فَقَالَ : كَبَتَ اللهُ تَعَالى كُلَّ عَدُوٍّ لَكَ إِلاَّ نَفْسَكَ، وَلاَ يُمْكِنُ إِهْمَالُهَا بِمَرَّةٍ لِمَكَانِ ضَرَرِهَا فَتَحْتَاجُ إِلى طَرِيقٍ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ ،

أسماء الأفعال يستوى فيها الواحد والجمع والتذكير والتأنيث . ومنه فى سورة الأحزاب « والقائلين لإخوانهم هلم إلينا » . وتميم تجريها مجرى رد على أنها فعل أمر ، وأهل نجد يصرفونها : أى يستعملون منها غير الأمر لأنهم يجعلونها فعلا ويلحقونها الضمائر ، فيقولون فى المثنى هلما ؟ وفى المؤنث هلمى . وفى الجمع الذكور هلموا ، وللنساء هلممن ، وعليه أكثر العرب والأول أفصح ، فلا تجد فى الخلق فتنة ولا فضيحة ولا ضلالا ولا معصية إلا وأصلها النفس وهواها : أى النفس . ولما كان الهوى سببا للهلاك أجمع على ذمه العارفون ؟ ووردت بذمه الآيات والأحاديث لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكا ، ومدخل الشر مسلوكا . وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله وتلا قوله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » الآية . وقال الشعبى : إنما سمى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار . وبالجملة فالهوى أصل كل بلية . والخلاص منه عسر جدا إلا بتوفيق من الله تعالى (وإلا) أى إن لم توجد النفس والهوى (كان الخلق فى سلامة) من المعاصى (وخير ، وإذا كان عدو) متلبسا (بهذا الضرر كله فحق) أى وجب (للعاقل أن يهتم) ويجتهد (بأمره) أى العاقل ليكون فى سلامة ونيل خير فى الدنيا والآخرة (والله تعالى ولى الهداية والتوفيق بفضله) وجوده وكرمه (فإن قلت) لى (فما الحيلة إذا) أى إذا كان العدو بهذا الضرر (لنا فى) قهر (هذا العدو) أى النفس الأمارة بالسوء (وما التدبير) أى النظر (فى أمره) أى هذا العدو (فبين) أنت (لنا ذلك) الحيلة والتدبير فيما ذكر (فاعلم) هداك الله (أنا) قد (ذكرنا فيما تقدم) أى فى عقبة العوائق (أن أمرها) أى النفس (عسير صعب) مرادف لما قبله (إذ لا يمكن قهرها) ودفعها (بمرة كسائر الأعداء إذ هى المطية) أى المركب (والآلة) ولا مطمع فى موافقتها (وقيل إن أعرابيا) أى رجلا من سكان البادية (دعا لإنسان بخير فقال) أى ذلك الأعرابى (كبت) أى أذل (الله تعالى كل عدو لك إلا نفسك ، ولا يمكن إهمالها) أى تركها (بمرة لمكان ضررها فتحتاج) أنت (إلى طريق بين الطريقين) :

تُرَبِّيهَا وَتُقَوِّيهَا بِقَدْرِ مَا تَحْتَمِلُ فِعْلَ كُلِّ خَيْرٍ وَتُضْعِفُهَا وَتَحْبِسُهَا عَلَى حَدٍّ لاَ تَتَمَادَى فَأَنْتَ مِنْ أَمْرِهَا فِى عِلاَجٍ شَدِيدٍ وَنَظَرٍ لَطِيفٍ .

ثُمَّ قَدْ ذَكَرْنَا فِى أَمْرِهَا أَنْ تُلْجِمَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى وَالْوَرَعِ لِتَحْصُلَ الْفَائِدَتَيْنِ جَمِيعاً .

فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّ هٰذِهِ دَابَّةٌ جَمُوحٌ وَبَهِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَكِسَةٌ لاَ تَنْقَادُ لِلِّجَامِ ، فَمَا الْحِيلَةُ فِيهَا حَتَّى تُمَكِّنَنَا مِنْهَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّكَ فِيهَا صَادِقٌ ، وَالْحِيلَةُ تَذْلِيلُهَا حَتَّى تَنْقَادَ لِلِّجَامِ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ : إِنَّمَا يُذَلِّلُ النَّفْسَ وَيَكْسِرُ هَوَاهَا ثَلاَثَةُ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا : مَنْعُ الشَّهَوَاتِ فَإِنَّ الدَّابَّةَ الْحَرُونَ تَلِينُ إِذَا نُقِصَ مِنْ عَلَفِهَا ، وَالثَّانِى حَمْلُ أَثْقَالِ

الأول (تربيها) أي النفس وتعهدها (وتقويها بقدر ما تحتمل) أي تلك النفس (فعل كل خير و) الثاني (تضعفها وتحبسها) بفتح التاء وكسر الباء من باب ضرب (على حد لا يتمادى) أي لايتطاول ؛ وفى نسخة : لاتتمادى بالتاء فى أوله : أي لاتتجاوز النفس عن الحد (فأنت من أمرها فى علاج شديد ونظر لطيف) أي فكر دقيق (ثم) إنا (قد ذكرنا في أمرها) أي النفس فى عقبة العوائق (أن تلجمها) أي تقيدها (بلجام التقوى والورع) وهو ترك الشبهات ، والتقوى والورع أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلا عن الخوف لم يسم بهذه الأسامى (لتحصل الفائدتين) السابقتين هناك وهما استعمالها فى المصالح والمراشد ومنعها من المهالك والمفاسد (جميعا . فإن قلت) لى (إن هذه) النفس الأمارة بالسوء (دابة) أى بمنزلتها (جموح) أي غير منقادة لراكبها . وفى المصباح : جمح الفرس براكبه يجمح بفتحتين جماحا بالكسر وجموحا : استعصى حتى غلبه ، فهو جموح بالفتح ، وجامح يستوى فيه الذكر والأنثى (وبهيمة صعبة شكسة) أي سيئة الخلق ، يقال شكس شكسا وشكسة فهو شكس ، مثل شرس شراسة من باب تعب فهو شرس وزنا ومعنى . والشراسة بالفتح : سوء الخلق كما أفاده المصباح (لاتنقاد) أي لاتطيع (للجام فما الحيلة فيها) أي الدابة الجموح التى هى النفس (حتى تمكننا) أى تلك الحيلة (منها فاعلم أنك فيها) أى فى وصف النفس بأنها مثل الدابة الجموح والبهيمة الصعبة (صادق) غير كاذب (و) أما (الحيلة) فهو (تذليلها) وكسر هواها (حتى تنقاد) أىالنفس (للجام . قال علماؤنا رضى الله عنهم) فى بيان مايذلل النفس ويكسر هواها (إنما يذلل النفس ويكسر هواها ثلاثة أشياء: أحدها منع الشهوات)أى مشتهياتها (فإن الدابة الحرون) بوزن الرسول : أى التى لاتنقاد ، وفى المختار : فرس حرون لاينقاد وإذا اشتد به الجرى وقف ، وقد حرن من باب دخل وحرن بالضم صار حرونا والاسم الحران (تلين) وتضعف (إذا نقص) بالبناء للمفعول (من علفها) بفتحتين : أى معلوفها (والثانى حمل أثقاله

العِبَادَاتِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ الحِمَارَ إِذَا زِيدَ فِى حِمْلِهِ مَعَ النُّقْصَانِ مِنْ عَلَفِهِ تَذَلَّلَ وَانْقَادَ . وَالثَّالِثُ : الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ بِأَنْ يُعِينَكَ ، وَإِلاَّ فَلاَ مَخْلَصَ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى) فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ انْقَادَتْ لَكَ النَّفْسُ الجَمُوحُ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَحِينَئِذٍ تُبَادِرُ إِلَى أَنْ تَمْلِكَهَا وَتُلْجِمَهَا وَتَأْمَنَ مِنْ شَرِّهَا .

فَإِنْ قُلْتَ : فَبَيِّنْ لَنَا الآنَ مَا هُوَ التَّقْوَى حَتَّى نَعْلَمَهُ ؟ فَاعْلَمْ أَوَّلاً أَنَّ التَّقْوَى كَنْزٌ عَزِيزٌ ، فَلَئِنْ ظَفِرْتَ

العبادات عليها) أى النفس (فإن الحمار إذا زيد فى حمله مع النقصان من علفه) أى الحمار (تذلل وانقاد . والثالث الاستعانة بالله عز وجل والتضرع إليه) تعالى (بأن يعينك) على قهر النفس وكسر هواها (وإلا) أى إن لم تطلب الإعانة بالله والتضرع إليه (فلا مخلص) أى لاخلوص ولا سلامة من مكايد النفس وبوائقها (أما تسمع قول يوسف)النبى (عليه) الصلاة و (السلام) «وما أبرئ نفسى» (إن النفس لأمارة بالسوء) من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها وتستعمل القوى والجوارح فى أثرها كل الأوقات ، كذا ذكره البيضاوى . والسوء : لفظ جامع لكل مايهم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية . والسيئة : الفعلة القبيحة (إلا مارحم ربى) أى إلا وقت رحمة ربى أو إلا مارحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك . وقيل : الاستثناء منقطع أى ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الإساءة كما فى البيضاوى . وقال ابن عباس : معناه إلا من عصم ربى فتكون ما بمعنى من ، فهو كقوله « ما طاب لكم من النساء » يعنى من طاب لكم وعلى هذا المنقطع معناه : لكن من رحم ربى فعصمه من متابعة النفس الأمارة بالسوء (فإذا واظبت) أى لزمت (على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح بإذن الله عز وجل)وإرادته (فحينئذ) أى حين إذ تنقاد لك النفس (تبادر) أى تسرع (إلى أن تملكها) وتمسكها (وتلجمها) بضم التاء وكسر الجيم : أى تقيد النفس باللجام (و) مبادرتك بذلك إلى أن (تأمن من شرها . فإن قلت فبين) وفصل (لنا الآن) أى فى هذا الموضع (ماهو التقوى) أى أى شئ يسمى بها (حتى نعلمه) أى المسمى بالتقوى (فاعلم أولا أن التقوى) معنى جامع للعبادة ينتظم هذا المعنى فى قوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » حتى أن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة مخصوصة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد وآله أجمعين ، وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » وبالجملة إن التقوى (كنز عزيز ، فلئن ظفرت) بكسر الفاء

بِهِ فَكَمْ تَجِدُ فِيهِ مِنْ جَوْهَرٍ شَرِيفٍ ، وَعِلْقٍ نَفِيسٍ ، وَخَيْرٍ كَثِيرٍ وَرِزْقٍ كَرِيمٍ وَفَوْزٍ كَبِيرٍ وَغُنْمٍ جَسِيمٍ وَمُلْكٍ عَظِيمٍ ، فَكَأَنَّ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جُمِعَتْ فَجُعِلَتْ تَحْتَ هٰذِهِ الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى . وَتَأَمَّلْ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِهَا ، فَكَمْ عَلَّقَ بِهَا مِنْ خَيْرٍ ، وَكَمْ وَعَدَ عَلَيْهَا مِنْ أَجْرٍ وَثَوَابٍ ، وَكَمْ أَضَافَ إِلَيْهَا مِنْ سَعَادَةٍ ، وَأَنَا أَعُدُّ لَكَ مِنْ جُمْلَتِهَا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ خَصْلَةً : أَوَّلُهَا الْمِدْحَةُ وَالثَّنَاءُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) . وَالثَّانِي الْحِفْظُ وَالْحِرَاسَةُ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) . وَالثَّالِثُ التَّأْيِيدُ وَالنُّصْرَةُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وَقَالَ تَعَالَى : (وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

من باب طرب (به) أى بالكنز العزيز الذى هو مثل التقوى (فكم) أى كثيرا (تجد فيه) أي الكنز (من جوهر شريف وعلق نفيس) والعلق بالكسر: النفيس من كل شئ ، وأيضا الثوب الكريم والترس والسيف ، كذا فى سراج السالكين ؛ وعلى هذا فوصفه بالنفيس فى كلام المصنف للتأكيد (وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنم) فى الكليات: كلّ شيء مظفور به فإنه يسمى غنما بالضمّ ومغنم وغنيمة (جسيم) أى عظيم (وملك) بضمّ الميم وسكون اللام (عظيم ، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هى التقوى ، وتأمل ما في القرآن من ذكرها) فى أكثر من سبعين موضعا (فكم علق) سبحانه وتعالي (بها من خير وكم وعد عليها من أجر وثواب) عطف تفسير (وكم أضاف) أى نسب (إليها) أى التقوى (من سعادة) عظيمة (وأنا أعد) أى أحسب (لك من جملتها اثنتى عشرة خصلة : أولها المدحة) بالكسر الثناء الحسن (والثناء) الجميل (قال الله تعالى : وإن تصبروا) على ذلك : أى ما ذكر من قوله تعالى « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » (وتتقوا) الله (فان ذلك) أى المذكور من الأمرين : الصبر والتقوى (من عزم الأمور) أى من معزوماتها التى يجب العزم عليها . (و) الأمر (الثانى الحفظ والحراسة من الأعداء قال الله تعالى : وإن تصبروا) على أذاهم (وتتقوا) الله فى موالاتهم وغيرها (لا يضركم) بكسر الضاد وسكون الراء من ضار يضير وتضمّ الضاد والراء من ضرّ يضرّ (كيدهم شيئا) نصب على المصدرية : أي لا يضركم شيئا من الضرر بفضل الله وحفظه (و) الأمر (الثالث التأييد والنصرة . قال الله تعالى : إن الله مع الذين اتقوا) الكفر والمعاصى (والذين هم محسنون) بالطاعة والصبر ؛ وقوله : بالعون والنصر متعلق بقوله مع الذين (وقال تعالى : والله ولى المتقين) أى المؤمنين .

وَالرَّابِعُ النَّجَاةُ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالرِّزْقُ مِنَ الْحَلَالِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) . وَالْخَامِسُ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) . وَالسَّادِسُ : غُفْرَانُ الذُّنُوبِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) . وَالسَّابِعُ مَحَبَّةُ اللَّهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) وَالثَّامِنُ الْقَبُولُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) . وَالتَّاسِعُ الْإِعْزَازُ وَالْإِكْرَامُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وَالْعَاشِرُ : الْبِشَارَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) .

(و) الأمر (الرابع النجاة من الشدائد) والأهوال (والرزق) بالرفع عطف على النجاة (من الحلال قال الله تعالى: ومن يتق الله يجعل له مخرجا) من كرب الدنيا والآخرة (ويرزقه من حيث لا يحتسب) يخطر بباله . (والخامس إصلاح العمل ، قال الله تعالى: ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) صوابا (يصلح لكم أعمالكم) أي يتقبلها ، أو يوفقكم للأعمال الصالحة ، وآخر الآية « ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » أي نال غاية مطلوبه . (والسادس غفران الذنوب، قال الله تعالى: ويغفر لكم ذنوبكم. والسابع محبة الله قال الله تعالى : إن الله يحب المتقين) باتمام العهود (والثامن القبول) للأعمال (قال الله تعالى: إنما يتقبل الله من المتقين) يعني أن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال، أفاده الخازن (والتاسع الإعزاز والإكرام ، قال الله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . والعاشر البشارة عند الموت . قال الله تعالى) « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (الذين آمنوا) منصوب باضمار أعني أو لأنه صفة لأولياء أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي هم الذين آمنوا ، كذا ذكره النسفي في مدارك التنزيل وحقائق التأويل (وكانوا يتقون) أي يتقونه بامتثال أمره واجتناب نهيه (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) . اختلفوا في هذه البشرى ؛ فروي عن عبادة بن الصامت قال : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : لهم البشرى في الحياة الدنيا ؟ قال هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » أخرجه الترمذي . وله عن رجل من أهل مصر قال «سألت أبا الدرداء عن هذه الآية «لهم البشرى في الحياة الدنيا » قال : ماسألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وقال ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات . قالوا وما المبشرات ؟ قال: الرؤيا الصالحة» وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» هذا لفظ البخارى ، ولمسلم «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة » والرؤيا ثلاث : الرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه .

قال بعض العلماء : ووجه هذا القول أنا إذا حملنا قوله تبارك وتعالي «لهم البشرى» على الرؤيا الصالحة الصادقة ، فظاهر هذا النص يقتضى أن لا تحمل هذه الحالة إلا لهم ، وذلك لأن ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل ، ومن كان كذلك فانه عند النوم لا يبقى فى قلبه غير ذكر الله ومعرفته ، ومن المعلوم أن معرفة الله فى القلب لا تفيد إلا الحق والصدق . فإذا رأى الولى رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولى. قال الخطابى : فى هذه الأحاديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها ، وإنما كانت جزءا من أجزاء النبوة فى حق الأنبياء دون غيرهم ؛ وكان الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم فى منامهم كما يوحى إليهم فى اليقظة . قال الخطابى : قال بعض العلماء : معنى الحديث أن الرؤيا تأتى على موافقة النبوة لا أنها جزء من النبوة . وقال الخطابى وغيره فى معنى قوله « الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » أقام النبى صلى الله عليه وسلم فى النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح ، وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى فى المنام الوحى فهى جزء من ستة وأربعين جزءا . وقيل إن المنام لعل أن يكون فيه إخبار بغيب ، وهو أحد مراتب النبوة وهو يسير فى جانب النبوة ، لأنه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبيا يشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر بغيب أبدا ، فإذا وقع لأحد فى المنام الإخبار بغيب يكون هذا القدر جزءا من النبوة لا أنه نبى ، وإذا وقع ذلك لأحد فى المنام يكون صدقا ، والله أعلم . وقيل فى تفسير الآية : إن المراد بالبشرى فى الحياة الدنيا هى الثناء الحسن وفى الآخرة الجنة ، ويدل على ذلك ما روى عن أبى ذر قال « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن » . أخرجه مسلم . قال الشيخ محي الدين النووى : قال العلماء : معنى هذه البشرى المعجلة له بالخير وهى دليل للبشرى المؤخرة له فى الآخرة بقوله « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه إلى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول فى الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم . قال بعض المحققين : إذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نورا فيفيض من ذلك النور الذى فى قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع فيحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه . وقال الزهرى وقتادة فى تفسير البشرى هى نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى « تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » . وقال عطاء عن ابن عباس : البشرى

وَالْحَادِىَ عَشَرَ: النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ ، قالَ اللهُ تعالى : (ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا) وَقالَ تعالى : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى) . وَالثَّانِىَ عَشَرَ : الْخُلُودُ فى الْجَنَّةِ ، قالَ اللهُ تَعَالى : (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) فَهٰذَا بيانُ كُلِّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ فى الدَّارَيْنِ تَحْتَ هٰذِهِ التَّقْوَى ، فَلَا تَنْسَ

فى الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفى الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى . وقال الحسن : هى مابشر الله به المؤمنين فى كتابه من جنته وكريم ثوابه . ويدل عليه قوله تعالى « لاتبديل لكلمات الله » يعنى لاخلف لوعد الله الذى وعد به أولياءه وأهل طاعته فى كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغير لذلك الوعد « ذلك هو الفوز العظيم » يعني ماوعدهم به فى الآخرة ، والله أعلم (والحادى عشر النجاة من النار . قال الله تعالى ثم ننجى) مشددا ومخففا (الذين اتقوا) الشرك والكفر من جهنم (وقال تعالى وسيجنبها) أى سيبعد عنها (الأتقى) بمعنى التقى (والثاني عشر) وهذا آخر الخصال التى ذكرها المصنف (الخلود فى الجنة . قال الله تعالى : أعدت) أى الجنة (للمتقين) الله بعمل الطاعات وترك المعاصى (فهذا) المذكور من اثنتى عشرة خصلة (بيان كل خير وسعادة فى الدارين) أى الدنيا والآخرة (تحت هذه التقوي) وفى الأمر بالتقوى وفضيلته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . وقال عليه الصلاة والسلام « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدحبشى » الحديث. وقال عليه الصلاة والسلام «اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» وكان عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه« اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»وقال عليه الصلاة والسلام «لافضل لأبيض على أسود ولا لعربى على عجمى إلا بتقوى الله ، أنتم من آدم وآدم من تراب » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل استوصاه « عليك بتقوي الله فإنه جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم ، وعليك بذكر الله فإنه نور لك » . وروى « أن أنسا يقول : قيل يا نبى الله من آل محمد ؟ قال . كل تقي » وقال على كرم الله وجهه « إنه لايهيج على التقوى زرع قوم » ومعنى يهيج : يهلك . وقال الأعمش : من كان رأس ماله التقوى كلت الألسنة عن أن تصف ربحه . وكان سهل بن عبد الله يقول : لامعين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه . وقال الكتانى : قسمت البلوي على الدنيا ، وقسمت الآخرة على التقوى . وكان الجريرى يقول : من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة . وكان بشر الحافى ينشد شعرا :

موت التقي حياة لانفاد لها　　قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

وفضل التقوى والمتقين أكثر من أن يحصر ، وفيما ذكرناه كفاية للناظر بعين الإنصاف(فلاتنس

نَصِيبَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْهَا . ثُمَّ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ هٰذَا الشَّأْنُ مِنْ أَمْرِ الْعِبَادِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ : أَحَدُهَا التَّوْفِيقُ وَالتَّأْيِيدُ أَوَّلاً ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ اللهُ تعالى : (إِنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) . وَالثَّانِي إِصْلَاحُ الْعَمَلِ وَإِتْمَامُ التَّقْصِيرِ ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ اللهُ تعالى : (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) . وَالثَّالِثُ : قَبُولُ الْعَمَلِ ، وَهُوَ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ اللهُ تعالى : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) وَمَدَارُ الْعِبَادَةِ عَلَى هٰذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ : التَّوْفِيقُ أَوَّلاً حَتَّى تَعْمَلَ ، ثُمَّ الْإِصْلَاحُ لِلتَّقْصِيرِ حَتَّى يَتِمَّ ، ثُمَّ الْقَبُولُ إِذَا تَمَّ . وَهٰذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَتَضَرَّعُ فِيهَا الْعَابِدُونَ إِلَى اللهِ تعالى وَيَسْأَلُونَ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا وَفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ وَأَتْمِمْ تَقْصِيرَنَا وَتَقَبَّلْ مِنَّا ، وَقَدْ وَعَدَ اللهُ تَعَالَى ذٰلِكَ كُلَّهُ عَلَى التَّقْوَى وَأَكْرِمْ بِهَا الْمُتَّقِي سَأَلَ أَوْ لَمْ يَسْأَلْ ، فَعَلَيْكَ بِهٰذِهِ التَّقْوَى إِنْ أَرَدْتَ عِبَادَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ بَلْ إِنْ أَرَدْتَ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى ،

نصيبك أيها الرجل منها) أي التقوى (ثم الذي يختص به هذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول: أحدها التوفيق والتأييد) والنصرة (أولا، وهو) أي التوفيق والتأييد (للمتقين كما قال الله تعالى: إن الله مع المتقين . والثاني إصلاح العمل وإتمام التقصير وهو للمتقين كما قال الله تعالى : يصلح لكم أعمالكم . والثالث قبول العمل، وهو) أي القبول (للمتقين كما قال الله تعالى : إنما يتقبل الله من المتقين ؛ ومدار العبادة) أي أصلها وملاكها (على هذه الأمور الثلاثة) وهي (التوفيق أولا حتي تعمل، ثم الإصلاح للتقصير) في العمل (حتى يتم) ذلك العمل (ثم القبول إذا تم) أي العمل (وهـذه الأمور الثلاثة) هي (التى يتضرع فيها) أي الأمور الثلاثة (العابدون إلى الله تعالي ويسألون فيقولون) يا (ربنا وفقنا لطاعتك وأتمم تقصيرنا وتقبل منا) إنك أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين (وقد وعد الله تعالي ذلك) أي ما ذكر من الأمور الثلاثة (كله على التقوى وأكرم) تعالى (بها) أي التقوى (المتقي) كما تقدم بيانه (سأل) المتقى الإكرام (أو لم يسأل) ذلك (فعليك) أي الزم وتمسك (بهذه التقوى إن أردت عبادة الله سبحانه بل إن أردت سعادة الدنيا والعقبى) أي الآخرة . والحاصل لاينال خير عاجلا ولا آجلا إلا بالتقوى ولايدفع شر عاجلا ولا آجلا ظاهرا ولا باطنا إلا بالتقوى ، وهي وصية رب العالمين للأولين والآخرين . قال تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وبما ذكر علم أنها مدار كل سعادة في الدارين ، ولهذا لاينهدم مابني عليها على تعاقب الدهر، وخذ بها زادك إلى المعاد قبل أن تندم حيث لاينفع الندم ولا الملام ، وأنشد بعضهم من بحر الطويل :

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

مَنِ اتَّقَى اللهَ فَذَاكَ الَّذِي سِيقَ إِلَيْهِ الْمَتْجَرُ الرَّابِحُ

وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ هٰذَا الْبَيْتَ :

لاَ يَتْبَعُ الْمَرْءَ إِلَى قَبْرِهِ غَيْرُ التُّقَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ

وَقَالَ غَيْرُهُ :

مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِهِ مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِيّ

مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الْغِنَى وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِي

مَا ضَرَّ ذَا الطَّاعَةِ مَا نَالَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ وَمَاذَا لَقِي

وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ الْقُبُورِ :

لَيْسَ زَادٌ سِوَى التُّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْ دَعِي

ثُمَّ تَأَمَّلْ أَصْلاً وَاحِدًا ، وَهُوَ أَنَّهُ هَبْ

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لاتكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

(ولقد صدق القائل) حيث قال شعرا من بحر السريع وهو مستفعلن مستفعلن مفعولات مرتين (من اتقى الله فذاك الذى * سيق إليه) أى المتقى (المتجر) بفتح الميم وسكون التاء (الرابح) أى التجارة الرابحة : وهى سعادة الدارين (وكتب بعضهم هـذا البيت) من بحر السريع أيضا (لايتبع المرء إلى قبره * غير التقى) أى تقواه (والعمل الصالح . وقال غيره) أى غير بعضهم من بحر السريع كما تقدم (من عرف الله فلم تغنه * معرفة الله فذاك الشقى) ضـد السعيد (ما) أى شىء (يصنع العبد بعز الغنى * والعز كل العز للمتقى . ماضر) مانافية (ذا الطاعة) أى صاحبها (مانالهُ * فى طاعة الله وماذا لقى . وكتب بعضهم على بعض القبور) شعرا من بحر الخفيف المجزوء (ليس زاد) ينفع فى الدنيا والآخرة (سوى التقى) أى التقوى (فخذى) أيتها النفس (منه) أى من التقوى، وفى نسخة: فخذ الزاد تكن عزيزا شريفا فى الدارين (أو دعى) أى اتركى من ذلك تكن من الخاسرين فيهما (ثم تأمل) أيها الرجل المريد لطريق الآخرة (أصلا واحدا وهو) أى هـذا الأصل (أنه) أى الحال والشأن (هب) يعنى احسب ، يقال هب زيدا منطلقا : أى احسبه بتعدى إلى مفعولين ولايستعمل منه ماض ولا مستقبل فى هذا المعنى، صرح به فى تاج المصادر

أَنَّكَ قَدْ تَعِبْتَ جَمِيعَ عُمْرِكَ فِى الْعِبَادَةِ وَجَاهَدْتَ وَكَابَدْتَ حَتَّى حَصَلَ لَكَ مَا تَمَنَّيْتَ ، أَلَيْسَ الشَّأْنُ كُلُّهُ فِى الْقَبُولِ ؛ وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) فَرَجَعَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَى التَّقْوَى . وَلِذَٰلِكَ رُوِىَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : مَا أَعْجَبَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليْهِ وَعَلَى آلِهِ وسلَّم بِشَىْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلاَ أَعْجَبَهُ أَحَدٌ إِلاَّ ذُو تُقًى .

وغيره ، ونقله شيخ الإسلام الهروى وعبد الحق وأقراه (أنك قد تعبت جميع عمرك فى العبادة وجاهدت وكابدت) أى تحملت المشقة فى العبادة . وفى المختار : كابد الأمر قاسى شدته (حتي حصل لك ماتمنيت) ورجوت (أليس الشأن) المطلوب والمقصود (كله فى القبول ، ولقد علمت أن الله تعالى يقول «إنما يتقبل الله من المتقين» فرجع الأمر) أى أمر العبادة (كله إلي التقوى) لأنها أساس كل الخيرات (ولذلك) أى إرجاع الأمور كلها إلى التقوى . (روي عن) أم المؤمنين (عائشة) الصديقية بنت الصديق الحبيبة بنت الحبيب (رضى الله عنها) تزوجها صلى الله عليه وسلم بمكة ، وهي بنت ست بعد تزوجه بسودة بشهر وقبل الهجرة بسنة ودخل بها فى المدينة فى شوال منصرفه من بدر سنة اثنتين من الهجرة ، وهى بنت تسع سنين ، وتوفى صلى الله عليه وسلم وهى بنت ثمانية عشرة سنة ، وعاشت بعده أربعين سنة فإنها توفيت وسنها سبع أو ثمان وخمسون لثلاث عشرة بقيت من رمضان بعد الوتر ، وصلى عليها أبو هريرة لإمارته على المدينة حينئذ من قبل مروان روى لها ألف حديث ومائتان وعشرة وقيل ألف وعشرة اتفق البخارى ومسلم منها علي مائة وأربعة وسبعين وانفرد البخارى بأربعة وسبعين ومسلم بثمانية وستين ، كذا فى شرح الأربعين (أنها قالت : ما أعجب) أى ما أفرح (رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشئ) وفى رواية شئ (من الدنيا ولا أعجبه) أى ولا أفرحه (أحد إلا ذو تقى) لله ، هكذا نقله العلامة ابن علوى الحداد ولم يذكر إسناده . قال العلامة ابن حجر . وتقواه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه تعالى وقاية تقية منه ، وهي امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه وهذا على حد اتقوا الله : أى غضبه وهو أعظم ما يتقى ، إذ ينشأ عنه عقابه الدنيوى والأخروى ، ويحذركم الله نفسه ، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وفسر ذلك صلي الله عليه وسلم فقال « قال الله تعالى أنا أهل أن أتقى ، فمن اتقاني فلم يجعل معى إلها آخر فأنا أهل أن أغفر له » . وقد تضاف التقوى إلى عقابه أو مكانه أو زمانه : أى العقاب . فمثال الأول والثانى نحو « واتقوا النار » . ومثال الثالث « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » إلى أن قال : ثم حقيقة التقوى متوقفة على العلم ، إذ الجاهل لا يعلم كيف يتقى لا من جانب الأمر ولا من جانب النهى ، وبهذا تظهر فضيلة العلم وتميزه على سائر العبادات والأحوال والمقامات لتوقفها جميعها عليه ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين » وقال « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » . والمراد بالعلم المتوقف عليه

وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قالَ : مَكْتُوبٌ فى التَّوْرَاةِ : يَا بْنَ آدَمَ اتَّقِ اللهَ وَنَمْ حَيْثُ شِئْتَ . وَبَلَغَنِي عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ أَنَّهُ بَكَى عِنْدَ مَوْتِهِ ، وَكَانَ يُصَلِّى كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ ثُمَّ يَأْتِى إِلى فِرَاشِهِ فَيَقُولُ : يَا مَأْوَى

ذلك هو العلم العينى الذى لا رخصة للمكلف فى تركه ، وهو تعلم ما أنت متلبس به ، فنحو الصلاة وشروطها وأركانها والصوم وشروطه وأركانه يتعين على كل مكلف تعلم ظواهرها وما يكثر وقوعه منها ، وكذا الزكاة لمن له مال ، والحج لمن استطاعه . ونحو البيع لمن أراد مباشرته ، والنكاح لمن أراد الدخول فيه ، ومعاشرة الزوجات لمن أراد تزوج امرأة ثانية، فمن علم ماخوطب به عيناأو أراد التلبس به ثم اجتنب كل منهى وفعل كل مأمور فهو المتقى الكامل الذى لا يزال يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل حتى يحبه الحديث ، ومن ثم أخرج ابن حبان وغيره عن أبى ذر « قلت يارسول الله أوصنى قال : أوصيك بتقوي الله فإنها رأس الأمر كله » وعن أبى سعيد الخدرى «قلت يا رسول الله أوصنى قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل شئ » . وفى رواية « عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير » وأخرج الترمذى عن يزيد بن سلمة « أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله إنى سمعت منك حديثا كثيرا فأخاف أن ينسيني أوله آخره، فحدثنى كلمة تكون جماعا ، قال : اتق الله فيما تعلم » (و) روى (عن قتادة) بن دعامة بكسر الدال المهملة كان تابعيا وكان عالما كبيرا ولد أعمى ، سمع أنس بن مالك وعبد الله بن سرجس وأبا الطفيل وابن المسيب وأبا عثمان النهدى والحسن وابن سيرين وعكرمة وزرارة بن أوفى والشعبى وخلائق غيرهم من التابعين ، وروى عنه جماعة من التابعين : منهم سليمان التيمي ، وحميد الطويل ، والأعمش ، وأيوب وخلائق من تابعى التابعين : منهم المطر الوراق ، وجرير بن حازم ، وشعبة ، والأوزاعى وغيرهم ،وأجمعوا على جلالته وتوثيقه وحفظه وإتقانه وفضله ، توفى سنة سبع عشرة ، وقيل ثمانى عشرة ومائة وهو ابن ست وخمسين سنة . وقيل خمس وخمسين رحمه الله (أنه قال: مكتوب فى التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم) بفتح النون أمر من نام ينام (حيث شئت) هكذا ساقه ابن علوى الحداد ولم يذكر إسناده ، وروى عن أبى أمامة صدي ابن عجلان الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فى حجة الوداع فقال : « اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا أمراءكم تدخلوا جنة ربكم » . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ، كذا فى رياض الصالحين (وبلغنى عن عامر بن عبد) الله بن (قيس) هو أبو بردة عامر بن أبى موسى عبد الله ابن قيس الأشعرى من سادات التابعين ، وكان أبوه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه من اليمن فى الأشعريين فأسلموا . وأبو بردة كان قاضيا على الكوفة وله مكارم ومآثر مشهورة. مات سنة أربع ومائة . وقيل غير ذلك (أنه بكى عند موته) أى عند إرادته (وكان) عامر (يصلى كل يوم وليلة ألف ركعة ثم يأتى) بعد صلاته (إلى فراشه فيقول يا مأوى) أي مرجع

كُلِّ شَرٍّ ، وَاللهِ مَا رَضِيتُكَ لِلهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَبَكَى يَوْمًا ، فَقِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

ثُمَّ تَأَمَّلْ نُكْتَةً أُخْرَى ، وَهِيَ أَصْلُ الْأُصُولِ ، وَهِيَ مَا ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ قَالَ لِبَعْضِ أَشْيَاخِهِ : أَوْصِنِي بِوَصِيَّةٍ ، فَقَالَ : أُوصِيكَ بِوَصِيَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ) قُلْتُ أَنَا : أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى أَعْلَمَ بِصَلَاحِ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ، أَوْ لَيْسَ هُوَ أَنْصَحَ لَهُ وَأَرْحَمَ وَأَرْأَفَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ؟ وَلَوْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ خَصْلَةٌ هِيَ أَصْلَحُ لِلْعَبْدِ وَأَجْمَعُ لِلْخَيْرِ وَأَعْظَمُ لِلْأَجْرِ وَأَجَلُّ فِي الْعُبُودِيَّةِ وَأَعْظَمُ فِي الْقَدْرِ وَأَوْلَى بِالْحَالِ وَأَنْجَحُ فِي الْمَآلِ مِنْ هَٰذِهِ الْخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى لَكَانَ اللهُ تَعَالَى أَمَرَ بِهَا

(كل شر والله) العظيم (ما رضيتك لله) أى لأجل الله (طرفة عين. وبكى يوما) من الأيام (فقيل ما يبكيك) أى أىّ شئ يبكيك ؟ (قال) عامر أبكانى (قوله تعالى : إنما يتقبل الله من المتقين) . قال المصنف رحمه الله (ثم تأمل نكتة) أى لطيفة مختارة (أخرى) قال شيخ الإسلام الهروى النكتة تجمع على نكت بضم النون وفتح الكاف . وأما النكات بالضم فعلى كون الألف للاشباع مثل الدرهام فى الدرهم والخاتام فى الخاتم كما يستفاد من المغرب وحقائق المنظومة أو على قلب الكسرة ضمة كما قال جدى فى تنظيره فى تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يقول » الآية ، فإن النكات بالكسر جمع كقصعة وقصاع وبقعة وبقاع ، صرح به فى المغرب ، وإنما ارتكبنا ذلك لأن فعالا بالضم ليس من أبنية الجمع عند الجمهور والمحققين . لكنه ذكر فى الصحاح أن رخالا بالضم والكسر جمع رخل بكسر الخاء المعجمة : أى الأنثى من ولد الضأن ، والله أعلم (وهى) أى تلك النكتة (أصل الأصول وهى ما ذكر) من (أن بعض الصالحين قال لبعض أشياخه أوصنى بوصية فقال) شيخه (أوصيك بوصية الله رب العالمين للأولين والآخرين) وهى (قوله تعالى : ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) وهذه الآية قطب القرآن ، لأن مدار القرآن كله على هذا قاله العلامة الزبيدى (قلت أنا : أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد) فى دينه ودنياه (من كل أحد أو ليس هو) جل وعز (أنصح) أى أراد الخير (وأرحم) أى أشد رحمة (وأرأف) أى أشد رأفة من كل أحد بلى هو تعالى أعلم وأنصح وأرحم وأرأف من كل أحد من العالمين (ولو كانت فى العالم) أى فى عالم الدنيا (خصلة هى أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر والثواب) (وأجلّ) أى أعظم (فى العبودية وأعظم فى القدر) أى الرتبة والمنزلة (وأولى) أى أفضل (بالحال وأنجح) أى أكثر نجاحا وظفراً للمراد (فى المآل) أى فى العاقبة (من هذه الخصلة التى هى التقوى لكان الله تعالى أمر بها) أى الخصلة التى هى أصلح للعبد من

عِبادَهُ وَأَوْصَى خَوَاصَّهُ بِذَلِكَ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، فَلَمَّا أَوْصَى بِهَذِهِ الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ وَجَمْعَ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِي ذَلِكَ وَاقْتَصَرَ عَلَيْهَا عَلِمْتَ أَنَّهَا الْغَايَةُ الَّتِي لَا تَجَاوُزَ عَنْهَا وَلَا مَقْصِدَ دُونَهَا ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَ كُلَّ نُصْحٍ وَدَلَالَةٍ وَإِرْشَادٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَعْلِيمٍ وَتَهْذِيبٍ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْوَاحِدَةِ كَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ هَذِهِ الْخَصْلَةَ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى هِيَ الْجَامِعَةُ لِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، الْكَافِيَةُ لِجَمِيعِ الْمُهِمَّاتِ الْمُبَلِّغَةُ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمْ ... وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالْعَدَمْ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ ... إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ

وَهَذَا أَصْلٌ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ أَبْصَرَ النُّورَ وَاهْتَدَى وَعَمِلَ بِذَلِكَ وَاسْتَغْنَى،

هذه التقوى (عباده وأوصى) أى أمر (خواصه) وأصفياءه (بذلك) المذكور من الأصلح والأولى للعبد (لكمال حكمته) تعالى (وسعة رحمته، فلما أوصى) أى أمر الله تعالى (بهذه الخصلة الواحدة) التى هي التقوى (وجمع) سبحانه وتعالى (الأولين والآخرين من عباده فى ذلك) الأمر بالتقوى (واقتصر) تعالى (عليها) أى التقوى (علمت أنها الغاية) الأقصى (التى لاتجاوز عنها) أى الغاية (ولا مقصد) أى لاقصد (دونها) أى غيرها (و) علمت (أنه عز وجل قد جمع كل نصح ودلالة وإرشاد) للخيرات (وتنبيه وتأديب وتعليم) لعباده (وتهذيب) لأخلاقهم (فى هذه الوصية الواحدة كما يليق بحكمته) تعالى (ورحمته ، وعلمت) أيضا (أن هذه الخصلة التى هي التقوى هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة الكافية) بالرفع صفة للتقوى (لجميع المهمات المبلغة) أى الموصلة (إلى أعلى الدرجات فى العبودية وقد أحسن من قال) وهو أبو العتاهية حين حجم شخصا من بحر الطويل (ألا) أداة تنبيه (إنما التقوى هي العز والكرم) لقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (وحبك للدنيا هو الذل والعدم * وليس على عبد تقى) لربه (نقيصة * إذا صحح) أى العبد (التقوى وإن حاك) أي نسج ثوبا . وفى لسان العرب : حاك الثوب يحوكه حوكا وحيا كا وحياكة نسجه ، ورجل حائك من قوم حاكة وحوكة أيضا، وهو من الشاذ (أو حجم) أى المتق ، وفى المختار: الحجم فعل الحاجم وبابه نصر والاسم الحجامة بالكسر والمحجم والمحجمة قارورته (وهذا) أى ماقلنا (أصل لامزيد علية) فى حسنه واختصاره (وفيه) أى فى هذا الأصل (كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك) أى بمقتضى نوره وهدايته (واستغنى)

وَاللهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : لَقَدْ عَظُمَ قَدْرُ هٰذِهِ الْخَصْلَةِ وَجَلَّ مَوْقِعُهَا وَاشْتَدَّتِ الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا ، فَلاَ بُدَّ الْآنَ مِنْ تَفْصِيلِهَا . فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ كَذٰلِكَ ، فَحَقَّ لَهَا أَنْ يَجِلَّ قَدْرُهَا وَيَلْزَمَ طَلَبُهَا وَتَمَسَّ الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا ، وَلٰكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ خَطِيرٍ وَكَبِيرٍ يَحْتَاجُ فِى اجْتِلاَبِهِ إِلَى طَلَبٍ كَثِيرٍ وَتَعَبٍ كَبِيرٍ وَهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَجُهْدٍ شَدِيدٍ ، فَإِذًا كَمَا أَنَّ هٰذِهِ الْخَصْلَةَ خَصْلَةٌ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ ، فَإِنَّ الْمُجَاهَدَةَ فِى طَلَبِهَا وَالْقِيَامَ بِحَقِّهَا وَالْعِنَايَةَ فِى تَحْصِيلِهَا أَيْضًا لِفِعْلٌ كَبِيرٌ وَشَأْنٌ عَظِيمٌ ، فَإِنَّ الْمَكَارِمَ عَلَى حَسَبِ الْمَكَارِهِ ، وَإِنَّ اللَّذَّاتِ عَلَى حَسَبِ الْمُؤْنَاتِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) وَهُوَ الرَّءُوفُ الَّذِى بِيَدِهِ تَيْسِيرُ كُلِّ عَسِيرٍ ، فَاسْتَمِعْ وَتَنَبَّهْ وَتَفَهَّمْ جِدًّا بَيَانَ هٰذِهِ الْخَصْلَةِ حَتَّى تَعْلَمَهَا ، ثُمَّ تَشَمَّرْ لِلْقِيَامِ بِهَا وَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ

أى اكتفى به (والله ولى الهداية والتوفيق بمنه) تعالى وكرمه . (فإن قلت : لقد عظم قدر) أى رتبة (هذه الخصلة) التى هى التقوى (وجلّ) أى عظم (موقها) أى تلك الخصلة فى القلوب (واشتدت الحاجة إلى معرفتها فلا بد) أى لاغنى (الآن) أى فى شدة الاحتياج إلى معرفة ذلك (من تفصيلها) وبيانها (فاعلم أن الأمر كذلك) أى لا بد من التفصيل (لحق) أى وجب وثبت (لها) أى لهذه الخصلة (أن يجل قدرها) أى يعظم رتبتها ومنزلتها (ويلزم طلبها) على سالكى طريق الآخرة (وتمس الحاجة إلى معرفتها ولـكنك تعلم) يقينا (أن كل خطير) أى عظيم وشريف (وكبير يحتاج فى اجتلابه) أى إتيان كل خطير ونيله (إلى طلب كثير وتعب كبير وهمة عالية وجهد شديد) واجتهاد بالغ (فإذا) أى إن كان الأمر الخطير يحتاج فى تحصيله إلى مثل الطلب الكثير والتعب الكبير فـ(كـ) ذلك (ما) هنا ، وهو (أن هذه الخصلة) وهى التقوى (خصلة عظيمة كبيرة ؛ فإن المجاهدة فى طلبها و) إن (القيام بحقها والعناية) أى القصد والاهتمام (فى تحصيلها أيضا) أى كـكل أمر خطير (لفعل كبير وشأن عظيم ، فان المكارم) والمحامد (على حسب) بفتح السين : أى على قدر وعدد المشاق و (المكاره) أى ماتكرهه النفوس (وإن اللذات على حسب المؤنات) جمع مؤنة ، بمعنى الثقل والشدة والتعب (والله تعالى يقول: والذين جاهدوا فينا) أى فى حقنا (لنهدينهم سبلنا) أى طرق السير إلينا والوصول إلى مرضاتنا (وإن الله لمع المحسنين) أى المؤمنين بالنصر والعون (وهو الرءوف) الرحيم (الذى بيده) أى بقدرته (تيسير كل عسير فاستمع) بأذنك سماع قبول (وتنبه وتفهم) بقلبك بتدبر وتأمل (جدا بيان هذه الخصلة) المذكورة (حتى تعلمها ثم تشمر) أى تهيأ واجتهد (للقيام بها) أى الخصلة (واستعن بالله عز وجل

حَتّى تَعْمَلَ بِمَا تَعْلَمُ ، فَإِنّ الشَّأْنَ كُلَّهُ فى ذٰلِكَ ، وَاللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

فَنَقُولُ : أَعْلَمْ أَوَّلاً بَارَكَ اللهُ فى دِينِكَ ، وَزَادَ فى يَقِينِكَ : أَنّ التَّقْوَى فى قَوْلِ شُيُوخِنا رَحِمَهُمُ اللهُ هُوَ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنْ ذَنْبٍ لَمْ يَسْبِقْ عَنْكَ مِثْلُهُ حَتّى تَحْصُلَ لَكَ مِنْ قُوَّةِ الْعَزْمِ عَلَى تَرْكِها وِقايَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعاصِى ، هٰكَذا قالَ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللهُ .

حتي تعمل بما تعلم ، فإن الشأن) أى شأن العبادة (كله فى ذلك) المذكور من الخصلة التى هى التقوى (والله ولى التوفيق والهداية بفضله) وإحسانه (فنقول : اعلم أولا بارك الله فى دينك وزاد فى يقينك) جملة دعائية (أن التقوى) معمول اعلم (فى قول شيوخنا) من الطائفة الصوفية (رحمهم الله هو تنزيه القلب) وتطهيره (عن ذنب لم يسبق) بكسر الباء من باب ضرب (عنك مثله) أى الذنب (حتي تحصل لك من قوة العزم على تركها) أى الذنوب (وقاية) بالرفع فاعل تحصل : أى صيانة (بينك وبين المعاصى هكذا) أى مثل ماقالوا (قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله) . وقال النصراباذى : التقوى أن يتقى العبد ماسواه تعالي . وقال سهل : من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها ، وقال أبو عبد الله الروذبارى : التقوى مجانبة مايبعدك عن الله . وقال ذو النون المصرى : التقى من لايدنس ظاهره بالمعارضات ولا باطنه بالعلالات ، ويكون واقفا مع الله موقف الاتفاق . وكان ابن عطاء يقول : للتقوى ظاهر وباطن ، فظاهره محافظة الحدود ، وباطنه النية والإخلاص . وقال ذو النون :

فلا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلي التقوى وترتاح إلى الذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

وقيل يستدل على تقوى الرجل بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ماقد فات . وقال طلق بن حبيب : التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله . وقال على بن أحمد الجيزى : التقوى لغة اجتناب الشخص مايضره فى دينه ودنياه . وفى اصطلاح الشرع : امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، وقد تخص باجتناب الشبهات . انتهي ، وتكاليف الشرع لاتخرج عن ذلك كما قاله بعض المحققين . وقال أبو حفص : التقوى بالحلال المحض لاغير . وقال الواسطى : التقوى أن يتقى من تقواه يعنى من رؤية تقواه ، والمتقى مثل ابن سيرين اشترى أربعين نحيا سمنا فأخرج غلامه فأرة من نحى ، فسأله من أى نحي أخرجتها؟ فقال لا أدرى فصبها كلها ، ومثل أبى يزيد اشترى بهمذان حب القرطم ففضل منه شىء ، فلما رجع إلى بسطام رأى فيه نملتين ، فرجع إلى همذان فوضع النملتين.

ويحكي أن أبا حنيفة كان لايجلس فى ظل شجرة غريمه ، ويقول فى الخبر « كل قرض جر نفعا فهو ربا » وقيل : إن أبا يزيد غسل ثوبه فى الصحراء مع صاحب له ، فقال صاحبه نعلق الثوب فى جدار الكرم ؟ فقال لا، لاتغرز الوتد فى جدار الناس ، فقال نعلقه فى الشجر ؟ فقال لا،

وَذٰلِكَ أَنَّ أَصْلَ لَفْظَةِ التَّقْوَى فى اللُّغَةِ هُوَ الْوَقْوَى بِالْوَاوِ ، وَهُوَ مَصْدَرُ الْوِقَايَةِ ، يُقَالُ وَقَى يَقِي وِقَايَةً وَوَقْوَى فَأُبْدِلَتْ عَنِ الْوَاوِ تَاءٌ كَمَا هُوَ فى الْوُكْلَانِ وَالتُّكْلَانِ وَنَحْوِهِمَا فَقِيلَ تَقْوَى ، فَإِذًا لَمَّا حَصَلَتْ وِقَايَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْمَعَاصِي مِنْ قُوَّةِ عَزْمِهِ **عَلَى** تَرْكِهَا وَتَوْطِينِ قَلْبِهِ عَلَى ذٰلِكَ فَيُوصَفُ حِينَئِذٍ بِأَنَّهُ مُتَّقٍ ،

بإنه يكسر الأغصان ، فقال نبسطه على الإذخر ؟ فقال لا ، إنه علف الدواب لانستره عنها ، فولى ظهره إلي الشمس والقميص على ظهره حتى جفّ جانب ، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر . وقيل إن أبا يزيد دخل يوما الجامع فغرز عصاه فى الأرض فسقطت ووقعت على عصا شيخ بجنبه ركز عصاه فى الأرض فألقتها فانحنى الشيخ وأخذ عصاه فمضى أبو يزيد الى بيت الشيخ واستحله وقال كان السبب فى انحنائك تفريطي فى غرز عصاي حيث احتجت إلى أن تنحنى . وروى عتبة الغلام بمكان يتصبب عرقا فى الشتاء ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال إنه مكان عصيت الله فيه ، فسئل عنه فقال كشطت من هذا الجدار قطعة طين غسل بها ضيف لى يده ولم أستحلّ من صاحبه . وقال إبراهيم بن أدهم : بت ليله تحت الصخرة ببيت المقدس ، فلما كان بعض الليل نزل ملكان ، فقال أحدهما لصاحبه من ههنا ؟ فقال الآخر إبراهيم بن أدهم ، فقال ذاك الذى حط الله درجة من درجاته ، فقال لم ؟ قال لأنه اشترى بالبصرة التمر فوقعت تمرة على تمره من تمر البقال فلم يردها على صاحبها . قال إبراهيم فمضيت إلى البصرة واشتريت التمر من ذلك الرجل وأوقعت تمرة على تمره ورجعت إلى بيت المقدس وبت فى الصخرة ؛ فلما كان بعض الليل إذا أنا بملكين نزلا من السماء ، فقال أحدهما لصاحبه من ههنا ؟ فقال الآخر إبراهيم بن أدهم ، فقال ذاك الذى رد الله مكانه ورفعت درجته ،ذكره القشيرى فى الرسالة(وذلك)أي بيان أخذ المعنى المذكور من التقوى (أنّ أصل لفظة التقوى فى اللغة هو الوقوى بالواو وهو) أى لفظ الوقوى (مصدر الوقاية) أى منها (يقال وقى يقى وقاية) أى وقاه الله السوء يقيه وقاية بالكسر : حفظه وصانه ، والوقاء مثل كتاب : كل ما وقيت به شيئا . وروى أبو عبيد عن الكسائى الفتح فى الوقاية والوقاء أيضا ، واتقيت الله اتقاء ، والتقية والتقوى اسم منه ، والتاء مبدلة من الواو ، والأصل وقوى من وقيت (ووقوى فأبدلت عن الواو تاء كما هو) أي كابدال الذى ثبت (فى الوكلان والتكلان ونحوهما) كتراث فى وراث (فقيل تقوى ، فإذن) أى حين إذ كان أصل لفظة التقوى كذلك ، فأقول لك (لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصى من قوة عزمه) أى قصده (على تركها) أى المعاصى (و) من (توطين) أى تقرير (قلبه) أى العبد . قال العلامة عبد الحق : وطن نفسه على الأمر : مهدها لفعله وذللها وسكنها وأقرها عليه (على ذلك) أى ترك المعاصى (فيوصف) العبد (حينئذ) أى حين إذ حصلت الوقاية من قوة العزم على الترك وتوطين القلب على ذلك (بأنه متق

وَيُقالُ لِذٰلِكَ التّنْزِيهِ وَالْعَزْمِ وَالتّوْطِينِ تَقْوَى . وَالتّقْوَى فى الْقُرْآنِ تُطْلَقُ عَلَى ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ : أَحَدُها : بِمَعْنَى الْخَشْيَةِ وَالْهَيْبَةِ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : (وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) وَقالَ اللهُ تَعَالَى : (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى اللهِ). وَالثّانِي : بِمَعْنَى الطّاعَةِ وَالْعِبادَةِ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) .

ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين : تقوى . والتقوى فى القرآن تطلق على ثلاثة أشياء : أحدها بمعنى الخشية والهيبة . قال الله تعالى وإياى فاتقون) أى دون غيرى . (وقال الله تعالى : واتقوا يوما ترجعون) بالبناء للمفعول تردون ، وللفاعل تصيرون (فيه) أى فى ذلك اليوم (إلى الله) هو يوم القيامة . (والثانى) أن التقوى (بمعنى الطاعة والعبادة . قال الله تعالى : يا أيها الدين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) أى حق تقواه ، وما يجب منها وهو استفراغ الوسع فى القيام بالمواجب والاجتناب عن المحارم ، كقوله « فاتقوا الله ما استطعتم » كما فسره البيضاوى . قال مقاتل بن حبان : كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهليـة وقتال ، فلما هاجر رسـول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أصلح بينهم ، فافتخر بعد ذلك منهم رجلان : وهما ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج ، فقال الأوس منا خزيمة بن ثابت ذوالشهادتين ومنا حنظلة غسيل الملائـكة ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدبر ومنا سعد بن معاذ الذى اهتزعرش الرحمن له : أى لموته ، ورضى الله بحكمه فى بنى قريظة . وقال الخزرجى : منا أربعة أحكموا القرآن : أبى بن كعب ومعاذ بن جبـل وزيد بن ثابت وأبو زيد ، ومنا سعد بن عبادة : خطيب الأنصار ورئيسهم ، فجرى الحديث بينهما ، فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا ، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح ، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية « يا أيها الذى آمنوا اتقوا الله حق تقاته » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى . وقال مجاهـد هو أن تجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم ، وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائـكم . وعن أنس قال « لا يتقى الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه » . وقيل حق تقاته ، يعنى واجب تقواه : وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم .

واختلف العلماء فى هذا القدر من هذه الآية هل هو منسوخ أم لا ؟ على قولين : أحدهما أنه منسوخ ، وذلك أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا يا رسول الله ومن يقوى على هذا ؟ فأنزل الله تعالى الناسخ وهو قوله تعالى في سـورة التغابن « فاتقوا الله ما استطعتم » : وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد والسدى رضى الله عنهم .

والقول الثاني : أنها محـكمة غير منسوخة ، وهورواية عن ابن عباس أيضا ، وبها قال طاوس. وموجب هذا الاختلاف يرجع إلى معنى الآية ، فمن قال إنها منسوخة قال : حق تقاته هو أن يأتى

قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا :

العبد بكل ما يجب لله ويستحقه ، فهذا يعجز العبد عن الوفاء به فتحصيله ممتنع ، ومن قال بأنها محكمة قال إن حق تقاته أداء مايلزم العبد على قدر طاقته فكان قوله تعالى « اتقوا الله مااستطعتم » مفسرا لحق تقاته لا ناسخا ولا مخصصا ؛ فمن اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقواه . وقيل معنى حق تقاته كما يجب أن يتقي ، وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه . وقيل في معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما هو أن يطاع فلا يعصى هـذا صحيح ، والذى يصدر من العبد على سبيل السهو والنسيان غير قادح فيه ، لأن التكليف فى تلك الحال مرفوع عنه ، وكذلك قوله: وأن يشكر فلا يكفر ، فواجب على العبد حضور ما أنعم الله به عليه بالبال ، وأما عند السهو فلا يجب عليه ، وكذلك قوله وأن يذكر فلا ينسى ؛ فإن هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة لا عند السهو والنسيان كما ذكره الخازن . (قال) حبر الأمة وبحر العلم أبو الخلفاء ، وترجمان القرآن : أبو العباس عبد الله (ابن عباس) عم النبي صلى الله عليه وسلم (رضى الله عنهما) ولد قبل الهجرة بثلاث سنين بالشعب ، وبنو هاشم محصورون فيه قبل خروجهم منه بيسير ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقيل ابن خمس عشرة ، وصححه أحمد ، وقيل ابن عشر ويؤيد الأول ماصح عنه من قوله فى حجة الوداع « وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام » : أى قاربته ، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ، اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن ، اللهم بارك فيه وانشر منه « أى أكثر نسله واجعله من عبادك الصالحين » اللهم زده علما وفقها » . وثبت عنه أنه قال : رأيت جبريل مرتين وهذا سبب عماه فى آخر عمره فإنه ورد أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن رآه معه ولم يعرفه ، فقال له ذاك جبريل أما إنه ستفقد بصرك ، وفى ذلك يقول :

إن يأخذ الله من عينى نورهما فنى لسانى وقلبى منهما نور
قلبى ذكى وعقلى غير ذى دخل وفى فمى صارم كالسيف مأثور

وكان عمر يقول : ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سئول ، وقلب عقول ، وكان يحبه ويدنيه من مجالسه ويدخله مع كبار الصحابة ويستشيره ويعده للمعضلات . وقال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد . وقال مسروق : أدركت خمسمائة من الصحابة إذا خالفوا ابن عباس لم يزل يقررهم حتي يرجعوا إلى ما قال. وقال : كنت إذا رأيته قلت أحلم الناس ، وإذا تكلم قلت أفصح الناس ، وإذا حدث قلت أعلم الناس . وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلسا أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس . وروى أنه لما وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض قال شيخنا هو روحه ، فوقع على أكفانه ثم دخل فالتمس فلم يوجد ، فلما سوى التراب سمع قائل يقول « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك » الآية ، روى له ألف حديث وستمائة

أَطِيعُوا اللّٰهَ حَقَّ طَاعَتِهِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى ، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ . وَالثَّالِثُ : بِمَعْنَى تَنْزِيهِ الْقَلْبِ عَنِ الذُّنُوبِ ، فَهٰذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي التَّقْوَى دُونَ الْأَوَّلَيْنِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى يَقُولُ : (وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللّٰهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

وستون ، اتفق الشيخان منها على خمسة وتسعين ، وانفرد البخارى بثمانية وعشرين ، ومسلم بتسعة وأربعين . مات بالطائف ودفن بها سنة ثمان وستين فى خلافة ابن الزبير رضى الله تعالى عنهم ، وقيل سنة تسع ، وقيل سنة سبعين ، وصلى عليه محمد بن الحنفية . وقال مات ربانى هذه الأمة ، ومناقبه كثيرة رضى الله تعالى عنه أكثر من أن تحصر ، وأظهر من أن تنشر ، لما حفه من تلك الدعوات الباهرة ، وظهر على غرر فضائله من الخصوصيات الظاهرة المطبوقة بالتوفيق من الصغر والمصحوبة بالفقه ، فقد استأذنه صلى الله عليه وسلم وهو على يمينه حين شرب فقال أتأذن لى أن أعطى الأشياخ ؟ أى أبا بكر وعمر وغيرهما ، فقال والله لا أوثر بنصيبى منك فتل القدح فى يده : أى وضعه صلى الله عليه وسلم فى يد ابن عباس رضى الله تعالى عنهما (أطيعوا الله حق طاعته) هكذا ذكره العلامة أبو طاهر فى تفسيره [تنوير المقباس من تفسير ابن عباس] (وقال مجاهد) بن جبر ، ويقال ابن جبير بالتصغير : المكى المخزومى ، وهو تابعى ، إمام متفق على جلالته وإمامته ، سمع ابن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وابن عمرو بن العاص وأبا سعيد وأبا هريرة وعائشة وغيرهم من الصحابة ، رضى الله تعالى عنهم ، وسمع من التابعين : طاوسا وابن أبى ليلى ومصعب بن سعد وآخرين . روى عنه طاوس وعكرمة وعمرو بن دينار وأبو الزبير والحكم وابن عون والأعمش ومنصور وحماد بن أبى سليمان وطلحة بن مصرف وأيوب السختيانى وعبد الله بن أبى نجيح وخلائق لا يحصون ، وهو إمام فى الفقه والتفسير والحديث . قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة . وقال خصيف : كان أعلمهم بالتفسير مجاهد ، ومناقبه كثيرة مشهورة . وقال ابن بكير : توفى مجاهد سنة إحدى ومائة وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، كذا فى سراج السالكين (هو) أى تفسير قوله تعالى « حق تقاته » (أن يطاع) الله : أى أن يطيعه العبد (فلا يعصى ، وأن يذكر) بالبناء للمفعول كما فى سابقه ولاحقه (فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر) وهذا التفسير روى عن ابن عباس أيضا كما ذكر فى قول مقاتل بن حيان. (الثالث) أن التقوى (بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب ، فهذه هى) أى الثالثة (الحقيقة فى التقوى دون الأولين) أى الأول والثانى (ألا ترى أن الله تعالى يقول : ومن يطع الله ورسوله فيما يأمر وينهى ، أو فى الفرائض والسنن (ويخشى الله) أى يخافه على ما صدر منه من الذنوب (ويتقه) فيما بقى من عمره ، هكذا فى تفسير البيضاوى وغيره (فأولئك) أى العالو الرتبة (هم الفائزون) بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم ، وقرأ : يتقه

ذِكرَ الطَّاعَةَ وَالخَشْيَةَ، ثُمَّ ذَكَرَ التَّقْوَى فَعلِمْتَ أَنّ حَقِيقَةَ التَّقْوَى مَعْنًى سِوَى الطَّاعَةِ. وَالخَشْيَةِ، وَهِيَ تَنزِيهُ الْقَلْبِ عَمَّا ذَكَرْنَاهُ، ثُمَّ قالُوا رَحِمَهُمُ اللهُ: مَنَازِلُ التَّقْوَى ثَلَاثَةٌ: تَقْوَى عَنِ الشِّرْكِ، وَتَقْوَى عَنِ الْبِدْعَةِ، وَتَقْوَى عَنِ المَعَاصِي الْفَرْعِيَّةِ، وَلَقَدْ ذَكَرَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتعالى فى آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا). فالتَّقْوَى الْأُولى تَقْوَى عَنِ الشِّرْكِ وَالإِيمَانِ الذى فى مُقَابَلَتِهَا التَّوْحِيدُ، وَالتَّقْوَى الثَّانِيَةُ: عَنِ الْبِدْعَةِ وَالإِيمَانِ الَّذِى ذُكِرَ مَعَهَا إِقْرَارُ عُقُودِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ.

بكسر الهاء بلا إشباع قالون وحفص ويعقوب. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وهشام فى أحد أوجهه الثلاثة بإسكانها. والثانى لهشام الإشباع. والثالث الاختلاس. وقرأ ابن ذكوان والباقون وهم ورش وابن كثير وخلف عن حمزة وعن نفسه والكسائي بالاشباع بلا خلاف. وقرأ حفص بسكون القاف مع اختلاس الهاء كما مر (ذكر) سبحانه وتعالى فى هذه الآية (الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى) فى قوله يتقه (فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهى) أى تلك الحقيقة (تنزيه القلب عما ذكرناه) من الذنب الذي لم يسبق مثله (ثم) بعد أن علمت حقيقتها (قالوا) أى شيوخنا فى بيان أقسامها (رحمهم الله: منازل) أى مراتب (التقوى ثلاثة): الأولى (تقوى عن الشرك) بالله. (و) الثانية تقوى (عن البدعة) فى دين الله. (و) الثالثة (تقوى عن المعاصى الفرعية، ولقد ذكرها) أى المنازل الثلاث (الله سبحانه وتعالى فى آية واحدة، وهي قوله جل من قائل) من فيه زائدة، وقائل حال من الضمير فى جل: أى جل حالة كونه قائلا (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الفرائض والنوافل (جناح) أى إثم (فيما طعموا) أى أكلوا من الخمر والميسر قبل التحريم (إذا مااتقوا) المحرمات (وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقو وآمنوا) أى ثبتوا على التقوى والايمان (ثم اتقوا) الظلم (وأحسنوا) العمل كما فى الجلالين وغيره؛ فالمراد بالتقوى الأولي ترك المحرمات؛ وبالثانية المداومة عليه؛ وبالثالثة اتقاء الظلم: هذا ما سلكه بعضهم، لكن المصنف رحمه الله فسر ذلك بقوله (فالتقوى الأولى تقوى عن الشرك، و) أما (الإيمان الذى فى مقابلتها) أى التقوى الأولى فهو (التوحيد والتقوى الثانية) تقوى (عن البدعة، و) أما (الإيمان الذى ذكر معها) أى التقوى الثانية (إقرار عقود) أى اعتقادات أهل (السنة) أى طريق النبي صلي الله عليه وسلم (والجماعة) أى طريق الصحابة رضى الله عنهم. قال العلامة الزبيدى: إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية. قال الخيالى فى حاشيته على شرح العقائد هم أهل السنة والجماعة هذا هو المشهور فى ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار، وفى ديار ما وراء النهر يطلق ذلك

على الماتريدية أصحاب الإمام أبى منصور ، وبين الطائفتين اختلاف فى بعض المسائل كمسألة التكوين وغيرها . وقال الكستلى فى حاشيته عليه : المشهور من أهل السنة فى ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار هم الأشاعرة أصحاب أبي الحسن الأشعرى أول من خالف أبا على الجبائى ورجع عن مذهبه إلى السنة والجماعة . وفى ديار ما وراء النهر الماتريدية أصحاب أبى منصور الماتريدية وتلميذ أبى نصر العياضى تلميذ أبى بكر الجوزجاني صاحب أبي سليمان الجوزجانى صاحب محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة ، وبين الطائفتين اختلاف فى بعض الأصول كمسألة التكوين ومسألة الاستثناء فى الأيمان ومسألة إيمان المقلد ، والمحققون من الفريقين لا ينسب أحدهما الآخر إلى البدعة والضلالة . وقال ابن السبكى في شرح عقيدة ابن الحاجب : اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجوز ويستحيل وإن اختلفوا فى الطرق والمبادى الموصلة لذلك أو فى كمية ما هنالك ؛ وبالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف : الأولى أهل الحديث ومعتمد مباديهم الأدلة السمعية ، أعنى الكتاب والسنة والإجماع . الثانية أهل النظر العقلى والصناعة الفكرية ؛ وهم الأشعرية والحنفية ، وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشعرى ، وشيخ الحنفية أبو منصور الماتريدى ، وهم متفقون فى المبادى العقلية فى كل مطلب يتوقف السمع عليه وفى المبادى السمعية فيما يدرك العقل جوازه فقط والعقلية والسمعية فى غيرها . واتفقوا فى جميع المطالب الاعتقادية إلا فى مسئلة التكوين ومسئلة التقليد . الثالثة أهل الوجدان والكشف وهم الصوفية ومباديهم مبادى أهل النظر والحديث فى البداية والكشف والإلهام في النهاية ، وما أحسن قول السبكى من بحر الكامل :

والكل معتقدون أن إلهنا ... متوحد فرد قديم دانى
حى عليم قادر متكلم ... عال ولا يعنى علو مكان
باق له سمع وإبصار يريـ ... ـد جميع ما يجرى من الإنسان
قد نزهوا الرحمن عن شبه وقد ... دانوا بما جاء فى القرآن

وليعلم أن كلا من الإمامين أبى الحسن وأبى منصور رضى الله عنهما لم يبدعا من عندهما رأيا ولم يشتقا مذهبا : إنما هما مقرران لمذاهب السلف مناضلان عما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحدهما قام بنصرة نصوص مذهب الشافعى ومادلت عليه . والثانى قام بنصرة نصوص مذهب أبى حنيفة ومادلت عليه وناظر كل منهما ذوى البدع والضلالات حتى انقطعوا وولوا منهزمين وهذا فى الحقيقة هو أصل الجهاد الحقيقى ، فالانتساب إليهما إنما هو باعتبار أن كلا منهما عقد على طريق السلف نطاقا وتمسك وأقام الحجج والبراهين عليه ، فصار المقتدى به فى تلك المسالك والدلائل يسمى أشعريا وماتريديا .

ألا ترى أن مذهب أهل المدينة نسب إلى مالك ، ومن كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكي ، ومالك إنما جرى على سنن من كان قبله وكان كثير الاتباع لهم ، إلا أنه لما زاد المذهب بيانا وبسطا عزى إليه ؛ كذلك أبو الحسن الأشعرى لافرق ليس له فى مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتآليفه في نصرته .

وَالتَّقْوَى الثَّالِثَةُ عَنِ المَعَاصِي الْفَرْعِيَّةِ وَلاَ إِقْرَارَ فِي هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، فَقَابَلَهَا بِالْإِحْسَانِ وَهُوَ الطَّاعَةُ وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَيْهَا ، فَتَكُونُ مَنْزِلَةَ مُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ ، فَالْآيَةُ جَمَعَتْ ذِكْرَ الْمَنَازِلِ الثَّلَاثِ : مَنْزِلَةِ الْإِيمَانِ ، وَمَنْزِلَةِ السُّنَّةِ ، وَمَنْزِلَةِ اسْتِقَامَةِ الطَّاعَةِ ؛ فَهٰذَا مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ فِي بَيَانِ مَعْنَى التَّقْوَى . قُلْتُ : وَأَنَا وَجَدْتُ التَّقْوَى بِمَعْنَى اجْتِنَابِ فُضُولِ الْحَلَالِ ، وَهُوَ مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْمُتَّقُونَ مُتَّقِينَ لِتَرْكِهِمْ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا عَمَّا بِهِ بَأْسٌ » .

قال التاج : وقد أخذ عامة أصحاب الشافعي بما استقر عليه مذهب أبي الحسن . وصنف أصحاب الشافعي كتبا كثيرة علي وفق ماذهب إليه الأشعرى ، إلا أن بعض أصحابنا من أهل السنة والجماعة خطأ أبا الحسن في بعض المسائل مثل قوله : التكوين والمكون واحد ونحوها ، فمن وقف على المسائل التى أخطأ فيها أبو الحسن وعرف خطأه فلا بأس له بالنظر في كتبه فقد أمسك كتبه كثير من أصحابنا من أهل السنة والجماعة ونظروا فيها (والتقوى الثالثة) تقوى (عن المعاصى الفرعية ولا إقرار في هذه المنزلة) أى الثالثة (فقابلها) الله تعالى (بالإحسان : وهو الطاعة والاستقامة عليها) أى الطاعة (فتكون) أى هذه المنزلة (منزلة مستقيمي الطاعة) أى المستقيمين عليها (فالآية) الواحدة وهي قوله تعالي « ليس على الذين آمنوا » الآية (جمعت ذكر المنازل الثلاث) وهى (منزلة الإيمان ومنزلة السنة ومنزلة استقامة الطاعة ، فهذا) أى المذكور من تقسيم منازل التقوى على الثلاثة (ماقاله العلماء رحمهم الله في بيان معنى التقوى) وقيل التقوى على وجوه : للعامة تقوى الشرك . وللخاصة تقوى المعاصى . وللأولياء تقوى التوسل بالأفعال . وللأنبياء تقوى نسبة الأفعال ، إذ تقواهم منه إليه جل وعز ، هكذا أورده أبو القاسم القشيرى (قلت وأنا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال) هو كالحل ماانحلت عنه التبعات ضد الحرام ، وفسره الإمام مالك والشافعى بما لم يرد بتحريمه دليل وأبو حنيفة بما دل دليل على حله ، فالمسكوت عنه حلال عندهما دونه ويؤيدهما « قل لاأجد فيما أوحي إلى محرما » الآية . وأما فضوله : أي الحلال فهو مايزيد علي قدر الكفاية كما قاله بعضهم (وهو) أى كون التقوى ، بمعنى الاجتناب (ماروى في الخبر المشهور عن النبى صلي الله عليه وسلم أنه قال : إنما سمى المتقون متقين) جمع متق ، وهو لغة اسم فاعل من وقاه فاتق ، والوقاية : فرط الصيانة ، ومنه فرس واق : أي يقي لجامه أن يصيبه أدنى شئ من بوله . وشرعا من يقي نفسه تعاطى مايستوجب العقوبة من فعل أو ترك ، كذا قاله الزبيدى (لتركهم مالا بأس به حذرا عما به بأس) يعني لتركهم تناول الحلال مخافة من الوقوع في الحرام ، قال العراقى : رواه ابن ماجه وقال الزبيدى : وكذلك رواه الترمذى والحاكم كلهم من حديث عطية بن عروة السعدى . قال الترمذى : حسن غريب ولفظهم جميعا « لا يبلغ

فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ مَاقالَهُ عُلَمَاؤُنا رَحِمَهُمُ اللهُ . وَبَيْنَ مَا جَاءَ فى الْخَبَرِ عَنِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فَيَكُونُ حَدًّا جَامِعاً وَمَعْنًى بَالِغاً .

فَأَقُولُ: التَّقْوَى : هُوَ اجْتِنَابُ كُلِّ مَا تَخافُ مِنْهُ ضَرَرًا فى دِينِكَ ، أَلاَ تَرَى أَنَّهُ يُقَالُ لِلْمَرِيضِ الْمُحْتَمِى إِنَّهُ يَتَّقِى إِذَا اجْتَنَبَ كُلَّ شَىْءٍ يَضُرُّهُ فى بَدَنِهِ : مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ فاكِهَةٍ أَوْ غَيْرِهَا . ثُمَّ الَّذِى يُخافُ مِنْهُ الضُّرُّ فى أَمْرِ الدِّينِ قِسْمَانِ : مَحْضُ الْحَرَامِ وَالْمَعْصِيَةِ . وَفُضُولُ الْحَلاَلِ ، لِأَنَّ الِاشْتِغالَ بِفُضُولِ الْحَلاَلِ وَالِانْهِمَاكَ فِيهِ يَسْتَجِرُّ صَاحِبَهُ إِلى الْحَرَامِ وَمَحْضِ الْعِصْيَانِ ، وَذَلِكَ لِشَرَهِ النَّفْسِ وَطُغْيَانِهَا وَتَمَرُّدِ الْهَوَى وَعِصْيَانِهِ ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْمَنَ الضَّرَرَ فى أَمْرِ دِينِهِ اجْتَنَبَ الْخَطَرَ ،

العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس » ويسمى هذا ورع المتقين ؛ وهو الدرجة الثالثة من درجات الورع . قال عمر : كنا ندع تسعة أعشار الحلال خوف الوقوع فى الحرام (فأحببت أن أجمع بين ماقاله علماؤنا رحمهم الله) وهو أن التقوى تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله حتى تحصل لك من قوة العزم على تركه وقاية بينك وبين المعاصى (وبين ماجاء فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم) وهو مامر آنفا (فيكون) أى مجموع الدليلين (حدا جامعا) للمحدود (ومعنى بالغا) أى كامـلا (فأقول : التقوى هو اجتناب كل ماتخاف منه ضررا فى دينك : ألا ترى أنه) أى الشأن (يقال للمريض المحتمى) أى الممتنع عما يضره (إنه) أى المريض (يتقى) وذلك (إذا اجتنب كل شيء يضره) أى المريض (فى بدنه من طعام أوشراب أو فاكهة أو غيرها) من المشتهيات (ثم) الأمر (الذى يخاف) بالبناء للمفعول (منه فى أمر الدين قسمان) الأول (محض الحرام) أى خالصه ، وهو مانص أو أجمع على تحريمه بعينه أو جنسه أو على أن فيه عقوبة أو وعيدا ، ثم التحريم إما لمفسدة أو مضرة خفية كالربا ومذكى المجوس أو واضحة كالسم والخمر (و) محض (المعصية. و) الثانى (فضول الحلال) وذلك (لأن الاشتغال بفضول الحلال و) أن (الانهماك) أى الدخول (فيه) أى فضول الحلال . وفى المختار انهمك الرجل فى الأمر : أى جد ، ولج: بمعني دخل (يسـتجر) أى الاشـتغال بالفضول والانهماك فيه (صاحبه إلى) محض (الحرام ومحض العصيان، وذلك) أى علة طلب الجر لصاحبه (لشره النفس) أى شـدة حرصها . والشره : غلبة الحرص ، وقد شره من باب طرب فهو شره كما أفاده المختار (وطغيانها) أى تجاوزها الجد (وتمرد الهوى) أى طغيانه وعتوه (وعصيانه) أى الهوى (فمن أراد أن يأمن الضرر فى أمر دينـه اجتنب) أى مريد الأمان (الحظر) أى الحرام

وَامْتَنَعَ عَنْ فُضُولِ الْحَلَالِ حَذَرًا أَنْ يَجُرَّهُ إِلَى مَحْضِ الْحَرَامِ عَلَى مَا قَالَهُ صلى الله عليه وسلم لِتَرْكِهِمْ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا عَمَّا بِهِ بَأْسٌ ، يَعْنِي لِتَرْكِهِمْ فُضُولَ الْحَلَالِ حَذَرًا عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ ؛ فَالتَّقْوَى الْبَالِغَةُ الْجَامِعَةُ اجْتِنَابُ كُلِّ مَا فِيهِ ضَرَرٌ لِأَمْرِ الدِّينِ وَهُوَ الْمَعْصِيَةُ وَالْفُضُولُ هٰذَا تَفْصِيلُهَا .

وَأَمَّا إِذَا أَرَدْنَا تَحْدِيدَهَا عَلَى مَوْضُوعِ عِلْمِ الشَّرْعِ ، فَنَقُولُ : حَدُّ التَّقْوَى الْجَامِعُ تَنْزِيهُ الْقَلْبِ عَنْ شَرٍّ لَمْ يَسْبِقْ عَنْكَ مِثْلُهُ بِقُوَّةِ الْعَزْمِ عَلَى تَرْكِهِ حَتَّى يَصِيرَ ذٰلِكَ وِقَايَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ كُلِّ شَرٍّ ، ثُمَّ الشُّرُورُ ضَرْبَانِ : شَرٌّ أَصْلِيٌّ ، وَهُوَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ تَحْرِيمًا كَالْمَعَاصِي الْمَحْضَةِ ، وَشَرٌّ غَيْرُ أَصْلِيٍّ ، وَهُوَ مَا نَهَى عَنْهُ تَأْدِيبًا ، وَهُوَ فُضُولُ الْحَلَالِ كَالْمُبَاحَاتِ الْمَأْخُوذَةِ بِالشَّهْوَةِ . فَالْأُولَى تَقْوَى فَرْضٍ يَلْزَمُ بِتَرْكِهَا عَذَابُ النَّارِ . وَالثَّانِيَةُ : تَقْوَى خَيْرٍ وَأَدَبٍ يَلْزَمُ بِتَرْكِهَا الْحَبْسُ

(وامتنع عن فضول الحلال حذرا) أي تحرزا من (أن يجره) ذلك الفضول (إلى محض الحرام على ما قاله) رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنما سمى المتقون متقين (لتركهم) أي المتقين (مالا بأس به حذرا عما به بأس) . قال المصنف (يعنى) أي النبي صلى الله عليه وسلم (لتركهم فضول الحلال حذرا عن الوقوع فى الحرام، فالتقوى البالغة) أي الكاملة (الجامعة) هي(اجتناب كل مافيه ضرر لأمر الدين ، وهو) أي مافيه الضرر (المعصية والفضول) وكل مالا يعنيه فى الدين (هذا) الذى ذكرناه من الحد الجامع (تفصيلها) أي التقوى (وأما إذا أردنا تحديدها على موضوع علم السر) أي الخفي ، وذكر المصنف فى الإملاء أن السر ماخفى عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق . وسر السر مالا يحس به السر . والسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة ؛ فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل ، وسر الحال معرفة مراد الله فى الحال من الله ، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة (فنقول : حد التقوى الجامع تنزيه القلب) أي تبريئه وتطهيره (عن شر لم يسبق) بكسر الباء على حد ضرب (عنك مثله بقوة العزم على تركه) أي الشر (حتى يصير ذلك) أي التنزيه الحاصل من قوة العزم (وقاية) أي صيانة (بينك وبين كل شر . ثم الشرور ضربان) أي نوعان : النوع الأول (شر أصلى ، وهو ما نهي الله عنه) أي عن فعله (تحريما كالمعاصي المحضة) أي الخالصة . (و) النوع الثانى (شر غير أصلي، وهو مانهى) الله (عنه تأديبا ، وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوة) أي شهوة النفس (فالأولى) وهي الاجتناب عن كل معصية (تقوى فرض يلزم بتركها) أي الأولى (عذاب النار) فى الآخره (والثانية) وهى الاجتناب عن الفضول (تقوى خير وأدب يلزم بتركها) أي الثانية (الحبس) على الصراط

وَالْحِسَابُ وَالتَّعْيِيرُ وَاللوْمُ ؛ فَمَنْ أَتَى بِالْأُولى فَهُوَ فى الدَّرَجَةِ الدُّنْيَا مِنَ التَّقْوَى ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ مُسْتَقِيمِي الطَّاعَةِ ، وَمَنْ أَتَى بِالْأُخْرَى فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنَ التَّقْوَى ، وَذَٰلِكَ مَنْزِلَةُ مُسْتَقِيمِي تَرْكِ الْمُبَاحِ ، فَإِذَا جَمَعَ الْعَبْدُ بَيْنَهُمَا أَعْنِي اجْتِنَابَ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَفُضُولٍ . فَقَدِ اسْتَكْمَلَ مَعْنَى التَّقْوَى وَقَامَ بِحَقِّهَا وَجَمَعَ كُلَّ خَيْرٍ فِيهَا ، وَهٰذَا هُوَ الْوَرَعُ الْكَامِلُ الَّذِى هُوَ مِلَاكُ أَمْرِ الدِّينِ ، وَذَٰلِكَ مَنْزِلَةُ الْأَدَبِ عَلَى بَابِ اللهِ تَعَالَى ، فَهٰذَا مَعْنَى التَّقْوَى وَبَيَانُهَا فى الْجُمْلَةِ فَافْهَمْهُ مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قُلْتَ : فَفَصِّلْ لَنَا الآنَ هٰذَا الْمَعْنَى فى النَّفْسِ وَاسْتِعْمَالَهُ فِيهَا ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ جَاءَتْ مِنْ هُنَالِكَ لِنَعْلَمَ كَيْفَ نُلْجِمُ هٰذِهِ النَّفْسَ بِهٰذَا الْمَعْنَى الَّذِى فَصَّلْتَ مِنْ حَقِيقَةِ التَّقْوَى .

فَأَقُولُ: أَجَلْ إِنَّمَا تَفْصِيلُهُ فى أَمْرِ هٰذِهِ النَّفْسِ أَنْ تَقُومَ عَلَيْهَا بِقُوَّةِ الْعَزْمِ فَتَمْنَعَهَا عَنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَتَصُونَهَا عَنْ كُلِّ

(والحساب والتعيير) أى إظهار العيب (واللوم) أى العذل والذم (فمن أتى بالأولي) أى تقوى فرض (فهو فى الدرجة الدنيا) أى الدنيئة (من التقوى ، وهي) أى هذه الدرجة (منزلة) أى رتبة (مستقيمى الطاعة ، ومن أتى بالأخرى) وهي تقوى خير وأدب (فهو فى الدرجة العليا من التقوى وذلك) أى مافعله من الدرجة العليا (منزلة مستقيمي ترك المباح ، فإذا جمع العبد بينهما) أى الدرجتين (أعنى) بهما (اجتناب كل معصية و) اجتناب كل (فضول فقد استكمل) أى العبد (معنى التقوى) وحقيقتها (وقام بحقها) أى التقوى (وجمع) أى العبد (كل خير فيها) أى فى تلك التقوى (وهذا هو) أى جمع العبد بين الرتبتين (الورع الكامل الذى هو ملاك أمر الدين) أى أصله وأساسه (وذلك) أى الورع الكامل (منزلة الأدب على باب الله تعالى، فهذا) الذى ذكرناه من الحد الجامع على موضوع علم السر (معنى التقوى وبيانها فى الجملة) من غير تفصيل كثير (فافهمه) أى هذا المعنى (موفقا إن شاء الله . فإن قلت ففصل) أى بين أنت (لنا الآن) أى بعد ذكر الحد المذكور (هذا المعنى) أى معنى التقوى (فى النفس واستعماله) أى هذا المعنى (فيها) أى النفس (فإن الحاجة جاءت من هنالك) أى النفس (لتعلم كيف نلجم) أى نقيد (هذه النفس بهذا المعنى الذى فصلت) أى بينت (من حقيقة التقوى . فأقول أجل) أى نعم فصلت وبينت . وفى المختار: أجل جواب مثل نعم . قال الأخفش : هو أحسن من نعم فى التصديق ونعم أحسن منه فى الاستفهام (إنما تفصيله) أى معنى التقوى (فى أمر هذه النفس أن تقوم عليها) أى النفس (بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية وتصونها) أى تحفظها (عن كل

فُضُولٍ . فَإِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ كُنْتَ قَدِ اتَّقَيْتَ اللّٰهَ تَعَالَى فِى عَيْنِكَ وَأُذُنِكَ وَلِسَانِكَ وَقَلْبِكَ وَبَطْنِكَ وَفَرْجِكَ وَجَمِيعِ أَرْكَانِكَ وَأَلْجَمْتَهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى ، وَلِهٰذَا الْبَابِ شَرْحٌ يَطُولُ ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِى كِتَابِ : [إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ] .

وَأَمَّا الَّذِى لَابُدَّ مِنْهُ هٰهُنَا ، فَأَنْ نَقُولَ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّقِىَ اللّٰهَ فَلْيُرَاعِ الْأَعْضَاءَ الْخَمْسَةَ فَإِنَّهُنَّ الْأُصُولُ ، وَهِىَ : الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ وَاللِّسَانُ وَالْقَلْبُ وَالْبَطْنُ فَيَحْرِصُ عَلَيْهَا بِالصِّيَانَةِ لَهَا عَنْ كُلِّ مَا يَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا فِى أَمْرِ الدِّينِ مِنْ مَعْصِيَةٍ وَحَرَامٍ وَفُضُولٍ وَإِسْرَافٍ مِنْ حَلَالٍ ، وَإِذَا حَصَّلَ صِيَانَةَ هٰذِهِ الْأَعْضَاءِ فَمَرْجُوٌّ أَنْ يَكْفِىَ سَائِرَ أَرْكَانِهِ وَيَكُونَ قَدْ قَامَ بِالتَّقْوَى الْجَامِعَةِ بِجَمِيعِ بَدَنِهِ لِلّٰهِ تَعَالَى ، فَدَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِ خَمْسَةِ فُصُولٍ لِهٰذِهِ الْأَعْضَاءِ وَتَفْصِيلِ مَا يَحْرُمُ فِى حَقِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى قَدْرِ مَا يَلِيقُ بِهٰذَا الْكِتَابِ .

فضول. فإذا فعلت ذلك) أى منع النفس عن كل معصية وصونها وحفظها عن كل فضول (كنت قد اتقيت الله تعالى فى عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك) أى جوارحك (وألجمتها) أى العين وما بعدها (بلجام التقوى ولهذا الباب) أى باب التقوى (شرح يطول وقد أشرنا إليه) أى الشرح (فى) تصنيفنا (كتاب إحياء علوم الدين) ولكن الذى فى هذا المختصر كاف لمن تأمله بصافى الفكر . ولذلك لم أنقل مافى الإحياء فى هذا المقام روما للايجاز والاختصار (وأما الذى لابد منه) من معنى التقوى (ههنا) أى فى هذا المختصر (فأن نقول: من أراد أن يتقى الله فليراع) أى فليحافظ (الأعضاء الخمسة فانهن) أى هذه الأعضاء الخمسة (الأصول وهى العين والأذن واللسان والقلب والبطن) وكل واحد من هذه نعمة يجب على صاحبه أداء شكره باستعماله فى طاعة الله تعالى (فيحرص) العبد (عليها) أى الأعضاء الخمسة (بالصيانة) والوقاية (لها عن كل ما يخاف منه ضررا فى أمر الدين من معصية) بيان لما يخاف منه الضرر (وحرام وفضول) وهو مالا يعنيه فى الدارين (وإسراف) أى مجاوزة حد (من حلال وإذا حصل) العبد (صيانة هذه الأعضاء) الخمسة (ف) هو (مرجو أن يكفي سائر أركانه) أى جوارحه (ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى فدعت الحاجة إلى بيان خمسة فصول لهذه الأعضاء و) دعت أيضا إلى (تفصيل ما يحرم فى حق كل واحد منها) أى الأعضاء (على قدر ما يليق بهذا الكتاب) المختصر المسمى بالمنهاج .

﴿ الفصل الأول : فصل العين ﴾

ثمّ عَلَيْكَ وَفّقَكَ اللهُ وَ إِيَّانَا بِحِفْظِ الْعَيْنِ

﴿ الفصل الأول ﴾ من الفصول الخمسة (فصل العين . ثم عليك) أى الزم (وفقك الله وإيانا بحفظ العين) عن الوقوع فى المعاصى وهى كثيرة : منها النظر إلى شئ من جميع بدن أحد من النساء الأجنبيات مع القصد بخلاف النظر فجأة ثم الغض أو لنحو معاملة كبيع وشراء ليرجع بالعهدة ويطالب بالثمن مثلا ، أو لشهادة تحملا ، أو أداء لها أو عليها : كنظر فرج لشهادة بزنا أو ولادة أو نحو ذلك ، وتعمده للشهادة جائز وإن تيسر النساء أو المحارم ، والفرق بينها وبين نحو القصد أن النساء ناقصات ، وقد لا تقبل شهادتهن والمحارم قد لا يشهدون كما فى التحفة ، ولا بأس بالتأمل فى جسدها وعليها ثياب ما لم يكن ثوب يبين حجمها ، وإلا فلا ينظر إليه لقوله عليه الصلاة والسلام « من تأمل خلف امرأة ورأى ثيابها حتى تبين له حجم عظامها لم يرح رائحة الجنة » كما أفاده بعض المحققين ، ومنها النظر شزرا إلى المسلم، فإنه يحرم النظر بالاستحقار والاستخفاف إلى أى مسلم كان من المسلمين صغيرا أو كبيرا قال عليه الصلاة والسلام « لا تحاسدوا » الحديث وقال فى آخره « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » قال القرطبي في تفسير قوله تعالى « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » من لقب أخاه وسخر به ، فهو فاسق . والسخرية : الاستحقار والإستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه ، وقد تكون بالمحاكاة بالفعل والقول أو الإشارة أو الإيماء أو الضحك علي كلامه إذا تخبط فيه أو غلطه أو على ضعته أو قبح صورته .

وقد عد العلامة ابن حجر فى الزواجر الاستهزاء والسخرية بالمسلم من الكبائر . ومنها نظر العورات ولو مع اتحاد الجنس جمع عورة . وهى لغة النقص . وشرعا مايجب ستره ، والمراد به هنا السرة والركبة وما بينهما : قال تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » الآيات ثم قال : « وقل للمؤمنات » الآية . وقال عليه الصلاة والسلام « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ، ولا المرأة إلى المرأة فى ثوب واحد » :

وسئل الشبلى رحمه الله تعالى عن قوله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فقال : أبصار الرءوس عن المحرمات وأبصار القلوب عن الخطرات ، وإليه يشير حديث « زنا العين بالنظر ، وزنا القلب بالفكر » وورد أنه يعذر فى النظرة الأولى، ففى حديث «يا علي لاتتبع النظرة النظرة فان لك الأولي وليست لك الثانية » . والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس المرجوم ، لأنها تدعو إلى الفكر والفكر يدعو إلى الزنا ، والمحتاط من حسم المادة . قال حجة الإسلام الغزالى رحمه الله : أول العشق السالب للعقل نظرة تقع بغير قصد إلى صورة ، ثم لا تزال تقوى وتسترسل حتى تصير عشقا

ثُمَّ حَدِيثُ قَابِيلَ وَهابِيلَ كانَ السَّبَبَ فى أَمْرِهِمَا الْحَسَدُ وَالشُّحُّ

﴿تنبيه﴾ اعلم أن لفظ آدم غيرمنصرف للعلمية ووزن الفعل إذ وزنه أأدم : أفعل ، أبدلت فاؤه ألفا فأصله أأدم بهمزتين الأولى متحركة والثانية ساكنة فأبدلت الثانية وهى فاؤه ألفا على القاعدة المذكورة فى قول ابن مالك .

ومدّا ابدل ثانى الهمزين من كلمة ان يسكن كآثر واتتمن

وعلة هذا الإبدال التخفيف لاستثقال اجتماع الهمزتين ، وهو مشتقّ من أديم الأرض ، وهو ظاهر وجهها لأنه مخلوق منـه . في الحديث « خلق الله آدم من أديم الأرض كلها ، فخرجت ذريته على نحو ذلك : منهم الأبيض والأسود والأحمر والسهل والحزن والطيب والخبيث» أومشتق من الأدمة بضم الهمزة وسكون الدال : وهى حمرة تميل إلى السواد ، كما قاله العلامة ابن حجر . وقال بعضهم : خلق الله آدم من ستين نوعا من أنواع الأرض وطبائعها ، فجاءت أولاده مختلفى الألوان والطبائع . قيل : ولهذا المعنى أوجب الله فى الكفارة إطعام ستين مسكينا بعدد أنواع بنى آدم ليعمهم الجميع بالصدقة ، وكان طوله ستين ذراعا ، والذراع ثمانية أشبار ، فهو أربعمائة وثمانون شبرا ، وعاش ألف سنة ، أفاده الشبرخيتى (ثم حديث قابيل وهابيل) ابنى آدم (كان السبب فى أمرهما الحسد والشح) أى البخل .

قال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين : إن حواء كانت تلد لآدم توأمين فى كل بطن غلاما وجارية ، وكان جميع من ولدته حواء أربعين ولدا من ذكر وأنثى فى عشرين بطنا : أولهم قابيل وتوأمته إقليما ، وآخرهم عبد المغيث وتوءمته أم المغيث ، ثم أكثر الله فى نسل آدم كما قال تعالى «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة» الآية . قال ابن عباس : لم يمت آدم حتى رأي من ولده وولد ولده أربعين ألفا .

واختلف العلماء فى وقت مولد قابيل وهابيل ، فقال بعضهم : غشى آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة ، فولدت له قابيل وتوأمته إقليما فى بطن ، ثم هابيل وتوأمته لبودا فى بطن واحد . وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأوّل : إن آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن يصيب الخطيئة ، فحملت له بقابيل وتوأمته ، فلم تجد عليهما وحما ولا نصبا ولا طلقا حين ولدتهما ولم تر معهما دما لطهارة لبنه ، فلما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها تغشاها ، فحملت بهابيل وتوأمته لبودا ، فوجدت فيهما الوحم والنصب والطلق والدم حتى إذا كبر أولاده زوّج غلام هذا البطن جارية البطن الأخرى ، وزوّج جارية هذا البطن غلام البطن الأخرى ، وكان الرجل منهم يتزوّج أية أخواته شاء غير توأمته التى ولدت معه فإنها لا تحل له ، وذلك لأنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواتهم وأمهم حوّاء ، فكبر قابيل وأخوه هابيل ، وكان بينهما سنتان فى قول الكلبى ، فلما بلغوا أمرالله تعالى آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل ، ويزوج هابيل

إقليما أخت قابيل ، وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن خلقا من لبودا ، فذكر آدم ذلك لهما فرضى هابيل وسخط قابيل وقال هى أختى ولدت معى فى بطن وهى أحسن من أخت هابيل فأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض ، فقال له أبوه آدم إنها لا تحل لك ، فأبى أن يقبل ذلك منـه ، وقال : إن الله تعالى لم يأمرك بهذا وإنما هو من رأيك ، فقال لهما آدم قرّبا لله قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها . وقال معاوية بن عمار : سألت جعفرا الصادق أكان آدم زوج ابنته من ابنه ، فقال معاذ الله لو فعل ذلك لما رغب عنه رسول الله صلى الله عليه وسـلم ولا كان دين آدم إلا دين نبينا محمد صلى الله عليه وسـلم ، إن الله أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ، وولد له بنت فسماها عناق فبغت وهى أوّل من بغى فى الأرض فسلط الله من قتلها ؛ فولد لآدم على أثرها قابيل ثم ولد له هابيل ، فلما أدرك قابيل أظهر الله تعالى جنية من الجن يقال لها عمالة فى صورة إنسية ، وخلق لها رحما وأوحى الله تعالى إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه ، فلما أدرك هابيل أهبط الله تعالى إلى آدم حوراء فى صورة إنسية ، وخلق الله تعالى لها رحما وكان اسمها تركة ، فلما نظر إليها هابيل ورمقها أوحى الله إلى آدم أن زوّجها من هابيل ففعل ، فقال قابيل يا أبت ألست أكبر من أخي وأحقّ بما فعلت به منه ؟ فقال يابنىّ إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ؛ فقال لا ولـكنك آثرته على هواك ، فقال إن كنت تريد أن تعلم ذلك فقربا قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أولى بها من صاحبه . قالوا وكانت القرابين حينئذ إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها وإن لم تكن مقبولة لم تنزل النار ، بل تأكلها الطير والسباع ، فخرجا من عنـد آدم ليقرّبا القربان ، وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام من أردأ زرعه ، وأضمر فى نفسه : لا أبالى أيتقبل منى أم لا ؟ لا يتزوج أختى أحد غيرى أبدا ؛ وكان هابيل صاحب غنم فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقربه وأضمر فى نفسـه الرضا بالله والتسليم لأمره . وقال إسماعيل بن رافع : إن هابيل نتج له كبش فى غنمه فلما كبر لم يكن له مال أحب إليه منه وكان يحمله على ظهره ، فلما أمر بالقربان قربه . قال فوضعا قربانهما على جبل ثم دعا آدم فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل من قربان قابيل حبة ، لأنه لم يكن زاكى القلب ، وقبل قربان هابيل لأنه كان زاكى القلب ، فما زال الـكبش يرتع فى الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم ، فذلك قوله تعالى « فتقبل من أحدهما » : يعنى هابيل « ولم يتقبل من الآخر » : يعنى قابيل إلى قوله « من المتقين » فنزلا عن الجبل وتفرقا ، وقد غضب قابيل لما رد الله قربانه وظهر فيه الحسد والبغى ، وكان يضمرهما قبل ذلك فى نفسه إلى أن أتى آدم مكة ليزور البيت ، فلما أراد أن يأتى مكة قال للسماء : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، فقال ذلك للأرض والجبال : فأبيا ، فقال ذلك لقابيل . فقال نعم ترجع وتراه كما يسرك ، فرجع آدم وقد قتل قابيل هابيل ، فذلك قوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » : يعنى قابيل حين حمل أمانة أبيه ثم خانه . قالوا : فلما غاب آدم أتى قابيل إلى هابيل وهو فى غنمه . فقال لأقتلنك . قال ولم ؟ قال لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قربانى وتنـكح أختى الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث

وقد تقتل العاشق إذا عف ، فإن وقع فى الزنا هالك فى دينه ، وبهلاكه يكون هلاك الأبد . فإذا ترك النظر سلم من الفكر فيسلم من الزنا قال عليه الصلاة والسلام « العين تزنى ، والقلب يصدق ذلك أو يكذبه » وقال عليه الصلاة والسلام « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » .

﴿ تنبيه ﴾ ما يحرم نظره من الرجل أوالمرأة متصلا يحرم نظره منفصلا كقلامة يد أو رجل فتجب مواراتها وكذا الدم . قال فى التحفة : وما قيل مالا يتميز بشكله كشعر ينبغى حل نظره غفلة عما فى الروضة فإنه نقله فيها احتمالا عن الإمام ثم ضعفه . قال العلامة بابصيل : من أقبح المحرمات وأشد المحظورات اختلاط الرجال بالنساء فى الجموعات لما يترتب على ذلك من المفاسد والفتن القبيحة . قال سيدنا الحداد فى بعض مكاتباته لبعض الأمراء: وما ذكرتم من اجتماع النساء متزينات بمحل قريب من محل رجال يجتمعون فيه منسوب لسيدنا عمر المحضار ، فإن خيفت فتنة بنحو سماع صوت فهو من المنكرات التى يجب النهى عنها على ولاة الأمر ويحسن من غيرهم إذا خاف على نفسه أن لا يحضرهم لقوله عليه الصلاة والسلام لما وصف الفتنة «وعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة » وهذا الزمان وأهله قد صار إلى فساد عظيم وفتن هائلة وإعراض عن الله والدار الآخرة لا يمكن الاحتراز عنها انتهى بمعناه . قال فى التحفة : ويحرم أيضا نظر شىء من بدن أمرد وهو من لم يبلغ أوان طلوع اللحية غالبا ، ويظهر ضبط ابتدائه بحيث لو كان صغيرة لاشتهيت ولو بلا شهوة خوف فتنة لأنه مظنة الفتنة كالمرأة ، بل قيل إنه أعظم إذ لا يحل بحال وإنما لم يؤمروا بالاحتجاب للمشقة فى ترك التعلم والسبب واكتفاء بوجوب الغض عنهم إلا لحاجة تعليمه ما يجب تعليمه كالفاتحة وما يتعين من الصنائع ، وقد بالغ السلف فى التنفير عنهم وسموهم الأنتان لاستقذارهم شرعا . ووقع نظر بعضهم على أمرد فأعجبه فأخبر أستاذه فقال : سترى غبه فنسى القرآن بعد عشرين سنة . وشرط الحرمة مع أمن الفتنة وانتفاء الشهوة عدم المحرمية من الناظر بنسب أو رضاع أو مصاهرة والسيادة ، وأن يكون المنظور جميلا بحسب طبع الناظر ، لأن الحسن يختلف باختلاف الطباع ؛ وخرج بالنظر المس فيحرم وإن حل النظر كما جزم به بعضهم وتحرم الخلوة به . وقال العلامة ابن حجر فى الزواجر إن نظره ومسه والخلوة به مع الشهوة وخوف الفتنة من الكبائر . والأصح حرمتها معه كالمرأة ولو بلا شهوة وفتنة حسما للمادة ، ثم قال وقد حرم بعض العلماء الخلوة مع الأمرد فى بيت أو حانوت أو حمام قياسا على المرأة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » وفى المرد من يفوق النساء لحسنه ، فالفتنة به أعظم ولأنه يمكن فى حقه من الشر ما لا يمكن فى حق المرأة فهو بالتحريم أولى ، وأقاويل السلف فى التنفير عنه والتحذير من رؤيته أكثر من أن تحصر وسواء فى كل ما ذكرناه نظر المنسوب إلى الصلاح وغيره . ودخل سفيان الثورى الحمام فدخل عليه صبى حسن الوجه فقال أخرجوه عنا فإنى أرى مع كل امرأة شيطانا ومع كل أمرد سبعة عشر شيطانا . وجاء رجل إلى الامام أحمد بأمرد حسن ، فقال له من هذا ؟ فقال ابن أختى ، فقال لا تجىء به إلينا مرة أخرى ولا تمش معه بطريق لئلا يظن بك من لا يعرفك سوءا ، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه إنه جواد كريم رءوف

فَإِنَّهَا سَبَبُ كُلِّ فِتْنَةٍ وَآفَةٍ وَأَذْكُرُ فِي أَمْرِهَا ثَلَاثَةَ أُصُولٍ كَافِيَةٍ . أَحَدُهَا : مَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

رحيم . ومنها : أي من معاصى العين النظر فى بيت الغير بغير إذنه ، والنظر فى شيء أخفاه كذلك وقد عد العلامة ابن حجر فى الزواجر الاطلاع من نحو ثقب ضيق فى دار غيره بغير إذنه على حرمه من الكبائر لقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاث لا يحل لأحد أن يفعلهن : لا يؤم رجل قوما فيخص نفسه بالدعاء دونهم فان فعل فقد خانهم ، ولا ينظر فى قعر بيت قبل أن يستأذن : فان فعل فقد دخل : أى صار كالذى دخل بيت غيره بلا إذنه ، ولا يصلي وهو حقن حتى يخفف ». وروى أن رجلا اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرته ، فقال النبي له : لو علمت أنك تنظر لطعنت بها : أى بمدراة كانت معه عينك « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » وقال عليه الصلاة والسلام «من اطلع فى بيت قوم بغيرذنهم فقدحل لهم أن يفقئوا عينه » وقال عليه الصلاة والسلام « أيما رجل كشف سترا فأدخل بصرهقبل أن يؤذن له فقد أتى حدا لا يحل له أن يأتيه ولو أن رجلا فقأ عينه لهدرت ، ولو أن رجلا مر على باب لاستر له فرأى عورة أهله فلا خطيئة ،إنما الخطيئة على أهل المنزل » وقال عليه الصلاة والسلام « من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم فلا إذن له وقد عصى ربه » .

﴿ تنبيه ﴾ ما ذكر فى هذه الأحاديث من أنه يجوز لصاحب المنزل أن يفقأ عين ذلك الناظر ولو أنثى ومراهقا جائز عندنا بشرط أن يكون الناظر قاصدا نظرا محرما من كوة ضيقة أو شق باب مردود أو سطح غير ذلك المنزل كسطح مسجد ومنارة وصاحب الدار مكشوف العورة ولو غير السوءة أو بها حرمه كزوجة ومحرم وأمة وأمرد يحرم نظره ولو مستورات إذ قد ينكشفن ولا يجب أن ينذره قبل الرمى خلافا للامام وأن يكون الرمي حال النظر بنحو حصاة من كل خفيف يقصد بمثله العين وإن أعماها ، فإن لم يمكن رمي عينه أو لم يندفع بخفيف استغاث عليه ، فان لم يندفع ضربه بنحو سلاح مما يردعه ، وأن يكون للناظر محرم مستترة ولو غير ساكنة أو زوجة أو أمة ولو مكشوفة وغير ساكنة كما ستوجهه فى الفتح وإلا لم يجز لشبهة النظر حينئذ بخلاف محرم مكشوفة ما بين السرة والركبة لحرمة النظر حينئذ ، وأن لا يكون فيه متاع ، وخرج بالعين غيرها وبالمنزل نحو مسجد وللمنظورة ومحارمها رميه وإن لم يستحقوا منفعة المنزل كما استوجهه فى الفتح وبضيق الواسع كباب مفتوح وكوة واسعة وشباك واسع لتقصير صاحبه إلا أن ينذره فيرميه ولو فتح الناظر الباب ولم يتمكن صاحبه من إغلاقه جاز الرمى إذ لا تقصير .

وبالجملة فالنظر بريد الزنا كما قاله بعضهم ، فينبغى للعبد حفظ عينه (فانها) أى العين (سبب كل فتنة وآفة . وأذكر فى أمرها ثلاثة أصول كافية) لمن تأملها حق التأمل (أحدها ما قال الله سبحانه : قل للمؤمنين يغضوا) والغض إطباق الجفن بحيث يمنع الرؤية (من أبصارهم) أي عما

وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) .

وَاعْلَمْ أَنِّى تَأَمَّلْتُ هٰذِهِ الآيَةَ فَإِذَا فِيهَا مَعَ قِصَرِهَا ثَلاثَةُ مَعَانٍ عَزِيزَةٌ : تَأْدِيبٌ وَتَنْبِيهٌ وَتَهْدِيدٌ . فَأَمَّا التَّأْدِيبُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) وَلاَ بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنَ امْتِثَالِ أَمْرِ السَّيِّدِ وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهِ ، وَإِلاَّ فَيَكُونَ سَيِّئَ الأَدَبِ فَيُحْجَبُ فَلاَ يُؤْذَنُ لَهُ فى حُضُورِ المَجْلِسِ وَالمُثُولِ بِالحَضْرَةِ فَافْهَمْ هٰذِهِ النُّكْتَةَ وَتَأَمَّلْ مَا تَحْتَهَا فَإِنَّ فِيهَا مَا فِيهَا . وَأَمَّا التَّنْبِيهُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (ذٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

عما لا يحلّ النظر إليه ، قيل معناه يغضوا أبصارهم فمن زائدة ، وقيل من للتبعيض لأنه لا يجب الغض عما يحل إليه النظر وإنما أمروا أن يغضوا عما لا يحلّ النظر إليه كما فسره الخازن (ويحفظوا فروجهم) أى عما لا يحل . قال أبو العالية : كل مافى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا فى هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليـه . فإن قلت كيف أدخل من على غض البصر دون حفظ الفرج ، قلت : فيـه دلالة على أن أمر النظر أوسع ، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وثديهن وأعضادهن وأقدامهن ، وكذلك الجوارى المستعرضات فى البيع ، والأجنبية يجوز النظر إلى وجهها وكفيها للحاجة إلى ذلك . وأما أمر الفروج فمضيق وكفاك أن أبيح النظر إلا ما استثنى منـه ، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه . فان قلت كيف قدم غض البصر على حفظ الفرج . قلت لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوة فيه أشد ولا يكاد أحد يقدر على الاحتراس منه (ذلك) أى غض البصر وحفظ الفرج (أزكى لهم) أى أنفع لهم وأطهر لما فيه من البعد عن الريبة كما فى البيضاوى (إن الله خبير بمـا يصنعون) لا يخفي عليـه إجالة أبصارهم واستعمال سائر حواسهم وتحريك جوارحهم وما يقصـدون بها فليـكونوا على حذر منه فى كل حركة وسكون . (واعلم أنى تأملت) وتدبرت (هـذه الآية فإذا فيها) أى الآية (مع قصرها ثلاثة معان عزيزة) : أحدها (تأديب ، و) ثانيها (تنبيه ، و) ثالثها (تهديد) أى تخويف (فأما التأديب فقوله تعالى : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) وهذا أمر (ولا بد للعبد من امتثال أمر السيد و) من (التأديب بآدابه) أى السيد والتخلق بأخلاقه (وإلا) أى إن لم يمتثل أمر السيد ولم يتأدب بآدابه (فيـكون سيىء الأدب فيحجب) بالبناء للمفعول : أى يحجب المسىء عن حضرة ربه (فلا يؤذن له) أى المسىء الأدب (فى حضور المجلس و) فى (المثول) أى القيام (بالحضرة) أى حضرة سيده (فافهم هذه النكتة) النادرة (وتأمل ما تحتها فإن فيها) أى هذه النكتة (ما فيها) أى مافى النكتة ، وهذا إشارة إلى سريان الأثر من الأعضاء الظاهرة إلى الباطن والقلب كما يكون سريان الأثر من الباطن والقلب إلى الأعضاء الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل فى الوجه ، كذا فى سراج السالكين ، تأمل (وأما التنبيه ، فقوله تعالى : ذلك أزكى لهم

وَيُطلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ وَاللهُ أَعْلَمُ . الأوَّلُ : ذٰلِكَ أَطهَرُ لِقُلُوبِهِمْ ، وَالزَّكَاةُ الطهارَة وَالتزْكِيَةُ : التَّطْهِيرُ. وَالثَّانِى : ذٰلِكَ أَنْمَى لِخَيْرِهِمْ وَأَكْثَرُ ، وَالزَّكَاةُ فى الأَصْلِ : النُّمُوُّ ، فَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ فى غَضِّ الْبَصَرِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ وَتَكْثِيرَ الطَّاعَةِ وَالْخَيْرِ ، وَذٰلِكَ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَغُضَّ بَصَرَكَ وَأَرْخَيْتَ عِنَانَهُ تَنْظُرْ إلى مَالا يَعْنِيكَ فَلاَ يَخْلُو مِنْ أَنْ تَقَعَ عَيْنُكَ عَلَى حَرَامٍ ، فَإِنْ تَعَمَّدْتَ فَذَنْبٌ كَبِيرٌ ، وَرُبَّمَا تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِذٰلِكَ فَتَهْلِكُ إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ تَعَالَى ، فَلَقَدْ رُوِىَ أَنَّ الْعَبْدَ لَيَنْظُرُ النَّظْرَةَ يَنْغَلُ فِيهَا قَلْبُهُ

ويطلق) هذا (على معنيين ، والله أعلم : الأول ذلك أطهر لقلوبهم) من دنس الإثم هكذا فسره ابن عباس (والزكاة الطهارة والتزكية التطهير) ومن ذلك قوله تعالي « قد أفلح من زكاها » أى طهرها من الذنوب (والثانى ذلك أنمى) أى أزيد (لخيرهم وأكثر . والزكاة فى الأصل) أى فى اللغة (النمو) أى الزيادة ، يقال زكا الزرع إذا نما من باب قعد كما فى المصباح ، ومن باب سما كما فى المختار . وتطلق أيضا على البركة ، يقال زكت النفقة إذا بورك فيها . وعلى كثرة الخير ، يقال فلان زاك : أى كثير الخير . وعلي التطهير . قال تعالى « قد أفلح من زكاها » أى طهرها من الأدناس كما سبق ، وعلى المدح قال تعالى « فلا تزكوا أنفسكم » أى لا تمدحوها (فنبه) تعالى (على أن فى غض البصر تطهير القلب) من دنس الإثم ، وقوله تطهير بالنصب اسم أن مؤخرا . قال ابن مالك :

وراع ذا الترتيب إلا فى الذى كليت فيها أو هنا غير البذى

(وتكثير الطاعة) عطف على قوله تطهير (و) إكثار (الخير وذلك) أى بيان تطهير القلب وتكثير الطاعة والخير (أنك إن لم تغض) بضمّ الغين من باب رد (بصرك وأرخيت) أى أرسلت (عنانه) بكسر العين : أى لجامه (تنظر إلى مالا يعنيك) أى لايهمك مما لا منفعة فيه بفتح أوّله من عناه الأمر : إذا تعلقت عنايته به . والذى يعنى الإنسان من الأمور ما يتعلق بضرورة حياته فى معاشه وسلامته فى معاده ، وفى الحديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » رواه الترمذى وغيره (فلا يخلو من أن تقع عينك على حرام ، فإن تعمدت) إلى نظره (ف)هو (ذنب كبير وربما تعلق قلبك بذلك) أى الحرام الذى رأيته (فتهلك) مع الهالكين (إن لم يرحم الله تعالى) ولله در القائل :

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر

يسر ناظره ما ضر خاطره لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

(فلقد روى إن العبد لينظر النظرة ينغل) أى ينفسد وبابه طرب (فيها) أى بسبب النظرة (قلبه

كَمَا يَنغَلُ الْأَدِيمُ فِى الدِّبَاغِ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ أَبَدًا وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا ، فَرُبَّمَا يَشْتَغِلُ قَلْبُكَ بِهِ فَجَاءَكَ الْوَسَاوِسُ وَالْخَوَاطِرُ بِسَبَبِهِ وَلَعَلَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ فَتَبْقَى مَشْغُولَ الْقَلْبِ مُنْقَطِعًا عَنِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَ ذَلِكَ كُنْتَ مُسْتَرِيحًا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَفِى هَذَا الْمَعْنَى ذُكِرَ عَنْ عِيسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ : « إِيَّاكُمْ وَالنَّظْرَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِى الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ ، وَكَفَى بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً »

كما ينغل الأديم) وهو الجلد قبل أن يدبغ (فى الدباغ فلا ينتفع به) أى بقلبه (أبدا) هكذا ذكره المصنف هنا ، وذكره فى الإحياء بلفظ : قال بعض السلف : إن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه فينغل كما ينغل الأديم فلا يعود إلى حاله أبدا ولم يذكر إسناده (وإن كان) ما رأيته بعينك (مباحا فربما يشتغل قلبك به) أى بالمباح (فجاءك الوساوس والخواطر بسببه) أى المباح أى رؤيته (ولعلك لا تصل إليه) أي إلى تناول ما رأيته من المباح لمانع من الموانع (فتبقى مشغول القلب) بالفكر فى ذلك (منقطعا عن الخير) هذا شؤم عدم حفظ العين المسمى بزناها ، وزنا العين كما قاله حجة الإسلام وغيره هو من كبار الصغائر وهى تؤدى على القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج ، وأول خطايا الفرج شهوة القلب بمسامرة الفكر وهو معفو ، كما أن النظر الأول معفو ، والخطيئة الثانية إنعاظ الفرج عن شهوة القلب فهذا عمل ، فإن ظهرت الشهوة من الفرج فهى معصية ، ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ دينه ، لأن أصل البلاء كله من النظر (وإن كنت لم تر ذلك) المذكور من المباح وغيره مما لا ينفعك (كنت مستريحا عن ذلك) الذى ذكر من الوساوس والخواطر (كله ، وفى هذا المعنى) الذى ذكرناه (ذكر عن عيسى) ابن مريم هو عبد الله ورسوله وكلمته وروح منه (صلوات الله عليه : إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها) أى النظرة (لصاحبها فتنة) هكذا ذكره فى الإحياء . وأخرج أبو نعيم فى الحلية ، فقال حدثنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنى أبى ، حدثنا معتمر عن إسحاق بن سويد عن العلاء بن زياد قال « لاتتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يجعل فى القلب شهوة » . وقال سعيد بن جبير : إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة ولذلك قال لابنه سليمان عليهما السلام : يا بنى امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة ، وقيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام ما بدء الزنا ؟ قال : النظر والتمنى ؛ فالنظر من العين ، والتمنى من القلب ، والفرج يصدق أو يكذب . وقال الفضيل بن عياض : يقول إبليس هى قوسى القويمة التى أرمى بها وسهمى الذى لا يخطىء فى إصابة غرضى : يعنى النظرة ، وقلما يخلو الإنسان فى تردده عن وقوع البصر على النساء والصبيان فمهما يخيل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة . وعنده ينبغى أن يقرر فى نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت النفس بالشهوة وعجز عن الوصول إلى المطلوب فلا يحصل له إلا التحسر وإن استقبح لم يلتذ ، لأن الاستلذاذ

وَقالَ ذُو النُّونِ : نِعْمَ حَاجِبُ الشَّهوَاتِ غضُّ الأَبصارِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ :

وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الّذِى لاكُلُّهُ أَنْتَ قادِرٌ عَلَيْهِ وَلاَ عَنْ بَعْضِه أَنْتَ صَابِرُ

فاذن

لايكون إلا مع الاستحسان وتألم فى نفسه لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه فلا يخلو فى كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر ، ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات ، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن والتيسر ، فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق من الله تعالى . فقد روى أبو نعيم فى الحلية عن أبى بكر بن عبد الله المزنى أن قصابا أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها فى حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له لاتفعل لأنا أشد حبالك منى ولكن أخاف الله تعالى . قال القصاب وأنت تخافينه وأنا لاأخافه ؟ قال : فرجع تائبا فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه ، فاذا هو برسول لبعض أنبياء بنى إسرائيل فسأله فقال مالك ؟ قال : العطش قال تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية . قال القصاب : مالى من عمل صالح فادع أنت قال : فأنا أدعو وأمن أنت : أى قل آمين على دعائى ، فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه . فقال له الرسول زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك دونى ، لتخبرنى بأمرك فأخبره بما جرى له مع الجارية ، فقال الرسول : إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه (وقال) أبو الفيض (ذو النون) المصرى واسمه ثوبان بن إبراهيم . وقيل اسمه الفيض بن إبراهيم ، توفى سنة خمس وأربعين ومائتين فائق هذا الشأن وأوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا ، وهو معدود فى جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه . قال القشيرى : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول حضرت مجلس ذى النون يوما وجاءه سالم المغربى ، فقال له يا أبا الفيض ما كان سبب توبتك ؟ قال: عجب لاتطيقه قال بمعبودك إلاأخبرتنى ، فقال ذوالنون أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ، ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض فخرج منها سكر جتان : إحداهما ذهب والأخرى فضة وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا فقلت حسبى قد تبت ، ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل (نعم حاجب الشهوات غض الأبصار ولقد أحسن القائل) من بحر الطويل (وأنت إذا أرسلت طرفك) بسكون الراء : أى عينك (رائدا) أى طالبا (لقلبك يوما) من الأيام (أتعبتك المناظر . رأيت الذى) اشتهيته (لا كله) أى جميع الذى رأيته من المشتهيات (أنت قادر * عليه) أى على كله (ولا عن) تناول (بعضه) أى الذى رأيته (أنت صابر . فإذن) أى حين إذ علمت ماقاله عيسى عليه السلام من أن النظرة

مَهمَا كُنتَ غَاضًا لِلْبَصَرِ حَافِظًا للعَيْنِ لاَتَنظُرُ إِلَى مَالاَ يَعنِيكَ وَلاَ يَهُمُّكَ كُنتَ نَقِي الصَّدْرِ فارِغَ القَلْبِ مُسْتَرِيحًا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْوَسْوَاسِ سَالِمَ النَّفْسِ عَنْ الآفَاتِ مُتَزَايِدًا فِى الْخَيْرَاتِ فَتَنَبَّهْ لِهٰذِهِ النُّكْتَةِ الْجَامِعَةِ وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُوَفِّقُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

وَأَمَّا التَّهْدِيدُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) وَقالَ تَعالَى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) وَكَفَى بِهٰذَا تَحْذِيرًا لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ فَهٰذَا أَصْلٌ وَاحِدٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

الْأَصْلُ الثَّانِى مَارَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ « إِنَّ النَّظَرَ إِلَى مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَهَا أَذَاقَهُ اللهُ تَعَالَى طَعْمَ عِبَادَةٍ تَسُرُّهُ»

الواحدة تزرع فى القلب شهوة وتكفى لصاحبها فتنة (مهما كنت غاضا للبصر حافظا للعين لاتنظر إلى مالا يعنيك) أي لاينفعك (ولا يهمك) أى لم يحوجك بالنظر إليه (كنت نقى الصدر) أى طاهر القلب (فارغ القلب) من الشواغل (مستريحا عن كثير من الوسواس) والخواطر (سالم النفس عن الآفات متزايدا فى الخيرات، فتنبه) أيها الرجل (لهذه النكتة الجامعة) أى التى ذكرناها من التنبيه المأخوذ من قوله تعالى « ذلك أزكى لهم » إلى آخره (والله عز وجل الموفق بمنه) أي بفضله تعالى (وكرمه) إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين (وأما التهديد فقوله تعالى : إن الله خبير بما يصنعون) من الخير والشر (وقال تعالى: يعلم) سبحانه وتعالى (خائنة الأعين) أى خيانتها التى هى أخفى مايقع من أفعال الظاهر وهو الإشارة ، كذا قاله الشربينى ؛ ويصح أن يكون ذلك من إضافة الصفة للموصوف : أى العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى مالا يحل . قال العلامة عبد الحق : والنظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى المحرم واستراق النظر اليه (وما تخفى الصدور) أى القلوب من العزم على فعل المعصية والطاعة (وكفى بهذا) المذكور من الدليلين المخوفين (تحذيرا) وتخويفا (لمن خاف مقام ربه) أى قيامه بين يدى ربه (فهذا) التهديد (أصل واحد من كتاب الله عز وجل . الأصل الثانى ماروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن النظر إلى محاسن المرأة) والمحاسن هى مواضعها الحسنة من البدن ، ومفرده محسن ، وقيل لاواحد له أفاده فى سراج السالكين (سهم مسموم من سهام إبليس) اللعين (فمن تركها) أى النظرة خوفا من الله تعالى كما فى رواية (أذاقه الله تعالى طعم) أى حلاوة ولذة (عبادة تسره) أى تفرحه رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة ، وأورده ابن الجوزى فى كتابه [تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر] بلفظ « النظر إلى المرأة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن تركه ابتغاء مرضاة الله أعطاه الله إيمانا فى قلبه يجد حلاوته » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل ابن آدم حظه من

وَإِنْ وَجَدَ أَنَّ حَلاَوَةَ الْعِبَادَةِ وَلَذَّةَ الْمُنَاجَاةِ مِنَ الْعَابِدِينَ بِمَكَانٍ وَهٰذَا شَيْءٌ مُجَرَّبٌ عَلِمَهُ وَتَحَقَّقَهُ مَنْ عَمِلَ بِهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا امْتَنَعَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَالاَ يَعْنِيهِ يَجِدُ لَذَّةً لِلْعِبَادَةِ وَحَلاَوَةً لِلطَّاعَةِ وَلِلْقَلْبِ صَفْوَةً لَمْ يَجِدْهَا قَبْلَ ذٰلِكَ .

الْأَصْلُ الثَّالِثُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِكَ يَصْلُحُ لِمَاذَا وَيُنْظَرُ لَهُ مَاذَا؟ فَعَلَى حَسَبِ ذٰلِكَ

الزنا ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والفم يزنى وزناه القبل ، والقلب يهم ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » . رواه مسلم والبيهق ، وهذا الحديث إشارة إلى أن أصل زنا الفرج العينان ، فانهما له رائدان ، وإليه داعيان وقد قالوا : من سرح ناظره أتعب خاطره ، ومن كثرت لحظاته دامت حسراته وضاعت أوقاته . قال الشاعر :

نظر العيون إلى العيون هو الذى جعل الهلاك إلى الفؤاد سبيلا

وقالت أم سلمة رضى الله عنها « استأذن ابن أم مكتوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان، فقال عليه الصلاة والسلام احتجبا، فقلنا أوليس بأعمى لايبصرنا ؟ فقال : وأنتما لاتبصرانه » رواه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح ، وهذا الحديث يدل على أنه لايجوز للنساء مجالسة العميان كماجرت به العادة فى المآتم والولائم، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء الأجانب ، صرح بذلك غير واحد من العلماء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة ضرورية فإنه على كل حال أجنبي وفيه مافى الرجال وأكثر ، لأن غض البصر عن المحارم ممايورث قوة على الجماع ، وهؤلاء قدحجبت أبصارهم عن الرؤية ، فرجعت قوتها إلى الجماع فلهم فيه حظ أكثر من الذى يبصر ، فحينئذ فتنة النساء بهم أكثر ، فيجب منعهن عن الخلوة بهم ومحادثتهم فإنهم أشد ضررا من إبليس .

ومن المشهور قول العامة : مامن فتنة تكون فى بيت الإنسان إذا حقق أصلها إما من امرأة أو فقيه أعمى كما صرح به العلامة الزبيدى (وإن وجد أن حلاوة العبادة ولذة المناجاة) إلى الله تعالى (من العابدين بمكان) أى رتبة ومنزلة (وهذا) أى إن ترك النظر إلى مالا يعنيه يلقيه ويذيقه حلاوة العبادة ولذة المناجاة (شيء مجرب علمه وتحققه من عمل به لأنه) أى العبد (إذا امتنع عن النظر إلى مالا يعنيه) ولا يفيده فى دينه ودنياه (يجد لذة للعبادة وحلاوة للطاعة و) يجد (للقلب صفوة لم يجدها) أى صفوة القلب (قبل ذلك) أى الامتناع عما ذكر .

(الأصل الثالث أن تنظر إلي كل عضو من أعضائك يصلح) أى العضو (لماذا) أى لأى شيء يفعله (وينظر له) أى للعضو بالبناء للمجهول (ماذا) يصلح له (فعلى حسب ذلك) أى النظر فى أمر

تَصُونُهُ وَتَحْفَظُهُ ؛ فالرِّجْلُ

كل العضو (تصونه وتحفظه) مرادف لما قبله (فالرجل) يجب عليك أن تحفظها عن معاصيها وهى كثيرة : منها المشى بها فى كل محرم ومعصية ، وذلك كالمشى بها فى سعاية بمسلم أو قتله أو فيما يضره إذا كان ذلك بغير حق . قال عليه الصلاة والسلام « الساعى متلف » أى مهلك بسعايته نفسه والمسعى به وإليه ، وعدها فى الزواجر من الكبائر . ثم قال : وكونها كبيرة إذا كان ماينشأ عنها صغيرة إلا أن يقال تصير كبيرة بما ينضم لذلك من الرعب بالمسعى به وإرجاف أهله وترويعهم بطلب السلطان ، كذا قيل . والصواب أنها كبيرة لأنها نميمة بل هى أقبح أنواعها وقد ثبت فى الصحيح بتسمية النميمة كبيرة . والمراد السعى إلى سلطان أو غيره من الولاة بالبرئ ، وأما ما جازت فيه شهادة الحسبة فليس منها ، بل يجب الرفع فيه إلا لعذر . وقد قال فى الجواهر : قال النووى : فلو دعت إلى النميمة حاجة فلا منع منها كما إذا أخبره شخص أن إنسانا يريد الفتك به أو بأهله أو بماله وأخبره أن فلانا يسعى بما فيه مفسدة . ويجب على الوالي الكشف عن ذلك وما أشبهه ، فكل ذلك لاحرمة فيه ، بلقد يجب تارة ، ويندب أخرى بحسب المواطن . ومنها : أى من معاصى الرجل التبختر فى المشى ، وهو من الكبائر إن قصد به التكبر المنضم إليه نحو استحقار الخلق ، وأما تقرير الشيخين صاحب العمدة على أنه صغيرة فمحمول على ما إذا لم ينته به الحال إلى قصد ذلك . كما قاله العلامة بابصيل . قال تعالى « ولاتمش فىالأرض مرحا » الآية . قال النووى . والمرح : التبختر . وقال عليه الصلاة والسلام « إذا مشت أمتي المطيطياء وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض » ، والمطيطياء بضم ففتح مصغر ولم تكبر : التبختر ومد اليدين فى المشى . وقال عليه الصلاة والسلام « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان » . وقال عليه الصلاة والسلام « بئس العبد عبد تخيل واختال ونسى الكبير المتعال » الحديث . ومنها تخطى رقاب المصلين إلا إذا صدر من إمام . وكذا من غيره لفرجة أمامهم لتقصيرهم لسدها ، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسرا إلى جهنم » . وفى حديث « الذى يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين اثنين بعد خروج الإمام كجارّ قصبه : أى أمعاءه فى النار » . قال القسطلانى : قال العراقى والمشهور اتخذ مبنيا للمفعول : أى يجعل جسرا على طريق جهنم ليوطأ ويتخطى كما يتخطى رقاب الناس فإن الجزاء من جنس العمل ، ويحتمل البناء للفاعل : أى اتخذ لنفسه جسرا يمشى عليه إلى جهنم بسبب ذلك . قيل والتقيد بالجمعة للغالب ، وجرى بعض المتأخرين على أنه كبيرة وكأنه أخذه من هذه الأحاديث ، وهو وإن كان قريبا إلا أن الأصح من مذهبنا أنه مكروه إلا فى مسائل . ويجمع بينه وبين تلك الأحاديث بحملها على من آذى به الناس أذي شديدا عرفا ، وحمل الكراهة على ما إذا خف ذلك الأذى . ومنها المرور بين يدى المصلى صلاة صحيحة فى اعتقاد المصلى ولو نفلا : أى بينه وبين سترته وإن لم يجد طريقا آخر حيث لم يقصر المصلى كما فى الفتح . وفى النهاية أنه يجوز إذا اضطر إليه لإنقاذ نحو غريق . قال الكردى : وهو المعتمد ، بل نقل

لِلْمَشْى فى رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَقُصُورِهَا ، وَالْيَدُ

الإمام عن الأئمة جوازه إن لم يجد طريقا واعتمده الأسنوى وغيره لكنه ضعيف ، ومحل الحرمة إذا كملت شروط سترته بأن قرب منها ثلاثة أذرع فأقل بذراع اليد المعتدلة ، وتحسب من العقب عند ابن حجر ومن الأصابع عند الرملي وكانت مرتفعة ثلثى ذراع إن وجدها وإلا فمصلى يفترشه فإن لم يجده فخطا يخطه من قدميه إلى نحو القبلة ، وشرطهما كالمرتفع ، فإن فقد شرط من ذلك كأن قصر بصلاته فى محل يغلب فيه المرور ذلك الوقت كالمطاف أو ترك فرجة فى صف أمامه فاحتيج للمرور بين يديه لسدها لم يحرم وإن تعددت الصفوف فى الأخيرة ، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « لو يعلم المار بين يدى المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خريفا خيرا له من أن يمر بين يديه » ومنها مد الرجل إلى المصحف . قال فى التحفة فيحرم كما قاله الزركشى لكن إذا كان المصحف غير مرتفع على شئ لما فيه من إهانته كالقائه بقاذورة وكتبه بنجس ومسه بعضو متنجس برطب مطلقا أو بجاف غير معفو عنه . ومنها المشى بها إلى كل أمر محرم فى الشرع فعله أو قوله أو سماعه ، وكذا إلى ماهو فى الأصل مباح كبيع وشراء ، لكن يحصل بالمشى إليه نحو تخلف عن واجب من واجبات الشرع كأن يحصل به تأخير نحو صلاة عن وقتها . قال تعالى « ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولاأولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » وإنما وجب عليك حفظ الرجل من المعاصى كلها ، لأن الرجل إنما خلقت (للمشى) إلى طاعة الله تعالى (فى رياض الجنة وقصورها. و) أما (اليد) فاحفظها عن أن تضرب بها مسلما أو ذميا بغير مسوغ شرعى كالضرب فى الوجه أو تقتله بها بمباشرة أو بسبب كحفر البئر عدوانا أو تتناول بها مالا حراما أو تؤذى بها أحدا من الخلق أو تخون بها فى أمانة أو تكتب بها مالا يجوز النطق به فإن القلم أحد اللسانين فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان منه .

والحاصل أن معاصى اليد كثيرة : منها التطفيف فى الكيل والوزن والذرع والسرقة والنهب والغصب والمكس والغلول من الغنيمة . ومنها اللعب بالنرد وكل ما فيه قمار وهو حرام كما فى الأم وجرى عليه الأصحاب والشيخان وغيرهما . وقيل مكروه وزيف بأن الأخبار صريحة فى التحريم بل في كونه كبيرة فلا يعول عليه : أى هذا القيل . كيف وقد نقل القرطبى اتفاق العلماء على تحريم اللعب به . قال عليه الصلاة والسلام « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » . وقال عليه الصلاة والسلام « مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم يصلى مثل الذى يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلى » أى فلا تقبل صلاته كما صرحت به رواية أخرى ،وحكمة تحريمه أن فيه حزرا وتخمينا فيؤدى للتخاصم والفتن التى لا غاية لها . ففطم الناس عنه حذرا من الشرور المترتبة عليه وكل ما كان كذلك فهو حرام كما ذكره العلامة بابصيل .

ومنها لمس جزء من بدن المرأة الأجنبية إذا كان ذلك عمدا وبغير حائل مطلقا بشهوة أو بغير

لِكَأْسِ الشَّرَابِ وَتَنَاوُلِ الْأَثْمَارِ وَكَذٰلِكَ فِى سَائِرِ الْأَعْضَاءِ

شهوة ؛ وإذا كان به شهوة حرم ولو مع اتحاد جنس كرجل مع مثله وامرأة كذلك لورود الحديث بأن زنا اليد البطش بها . ومثل الأجنبية فى ذلك الأمرد . وقد عدلمسهما فى الزواجر من الكبائر. ومن ذلك آلات اللهو المحرمة كالطنبور والرباب والمزمار بل وجميع الأوتار . قال فى كف الرعاع عن الدونق : قد علم من غير شك أن الشافعى حرم سائر أنواع المزامير والشبابة من جملتها ، وإنما حرمت هذه الأشياء لما فيها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ومفارقة التقوى والميل إلى الهوى والانغماس فى المعاصى ، وأطال فى تقرير التحريم ، وأنه الذى درج عليه الأصحاب من لدن الشافعى إلى آخر وقته من البصريين والبغداديين والخراسانيين والشاميين ومن سكن الجبال وما وراء النهر واليمن كلهم يستدل بقصة ابن عمر رضى الله عنهما ، يعنى حديث زمارة الراعى ، وقد بسطها رحمه الله بما تنبغى مراجعته ، وإنما تمنع اليد عن المعاصى المذكورة لأن اليد (ل) أخذ (كأس الشراب وتناول الأثمار) فى الجنة مع الأبرار (وكذلك) الصيانة والحفظ (فى سائر الأعضاء) وهو الفرج فاحفظه عن المعاصى : منها الزنا ، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه ، وهو من الكبائر كما فى الزواجر ، لقوله تعالى « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ، وقوله تعالى « واللاتى يأتين الفاحشة » الآيات . وقوله عليه الصلاة والسلام « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . وقوله عليه الصلاة والسلام « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا فى إحدى ثلاث : زنا بعد إحصان فإنه يرجم » الحديث ، وقوله عليه الصلاة والسلام « الزناة تشتعل وجوههم نارا » . وفى الحديث « إن السموات والأرض السبع تلعن الشيخ الزانى ، وإن فروج الزناة ليؤذي أهل النار نتن ريحها » . وقال عليه الصلاة والسلام « لا تزال أمتى بخير مالم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة » . وقال عليه الصلاة والسلام « ما ظهر فى قوم الزنا والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله » . وورد « إن فى جهنم واديا فيه حيات وعقارب كل عقرب بقدر البغل لها سبعون شوكة فى كل شوكة سم تضرب الزانى وتفرغ سمها فى جسده يجد مرارة وجعها ألف سنة ثم يتهرى لحمه ويسيل من فرجه القيح والصديد » .

ثم اعلم أنه على ثلاث مراتب : الأولى بأجنبية خلية عن نحو الزوج وهو عظيم أمره كما علمت . والثانية بنحو متزوجة وهو أعظم فاحشة وقبحا . والثالثة بمحرم وهو أقبح وأقبح . وهو من الثيب أقبح منه من البكر ، بدليل اختلاف حديهما كما هو مبسوط فى محله ، ومن الشيخ أقبح من الشباب لكمال عقله ، ومن الحر أقبح منه من القن ، ومن العالم أقبح منه من الجاهل . ومن معاصى الفرج اللواط وهو أعظم من الزنا ، بدليل قول مالك وأحمد رحمهما الله تعالى : يرجم اللوطى ولو غير محصن ، بخلاف الزانى غير المحصن . وقول جماعة : يشدد فى حده مالم يشدد به فى حد الزانى . وفى الإحياء : إن الزنا أشد ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه

ويعظم ضرره : أي لأنه يترتب عليه اختلاف الأنساب ، وكم ورد في ذمه والتشديد فيه : قال عليه الصلاة والسلام « إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط » وقال عليه الصلاة والسلام « إذا كثرت اللوطية رفع الله عز وجل يده عن الخلق فلا يبالي في أي واد هلكوا » . وقال عليه الصلاة والسلام « لعن الله من عمل عمل قوم لوط ثلاثا » وهو من عملهم كما قصه الله علينا في غير ما آية تحذيرا لنا أن نفعل فعلهم فيصيبنا ما أصابهم . قال تعالى « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها » الآية .

ومنها ترك الختان بعد البلوغ ، إذ هو واجب حينئذ على المكلف سواء الذكر والأنثى ، وكان من ملة إبراهيم عليه السلام . قال تعالى « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا » . وقال عليه الصلاة والسلام لرجل أسلم « ألق عنك شعار الكفر واختتن » أما ختان الصبي والمجنون فغير واجب . قال العلامة ابن حجر في الزواجر : وتركه بعد البلوغ من الرجل والمرأة من الكبائر كذا ذكره بعضهم ؛ وله نوع اتجاه في ترك ختان الذكر لما يترتب عليه من المفاسد التي من جملتها ترك الصلاة غالبا ، لأن غير المختون لا يصح استنجاؤه حتى يغسل الحشفة التي داخل قلفته ، لأنها لما كانت مستحقة الإزالة كان ما تحتها في حكم الظاهر فوجب غسله : والظاهر من أحوال غير المختون التساهل في ذلك وعدم الاعتناء فلا تصح صلاته ، وكان هذا ملحظ من عده كبيرة ، وأما في حق الأنثى فلا وجه لكونه كبيرة ، ثم رأيت في كلام الأصحاب مايصرح بما ذكرته وذلك أنهم حكوا وجهين في قبول شهادة الأقلف . قال بعض شراح المنهاج كالكمال الدميري والصحيح أنا إذا أوجبنا الختان فتركه بلا عذر فسق ، فأفهم أن الكلام إنما هو في الذكر دون الأنثى وأن الذكر يفسق بتركه الختان بلا عذر ، ويلزم من فسقه به كونه كبيرة ووجهه ما قدمته . قال بعضهم وعدّ هذا من معاصي الفرج باعتبار أنه متعلق به ، وإلا فهو من المعصية بكل البدن فليتأمل .

﴿تنبيه : فيما جاء في حفظ الفرج﴾ روى « أن كفلا من بني إسرائيل كان لا يتورع من ذنب أتته امرأة فأعطاها ستين دينارا ليطأها ، فلما راودها عن نفسها ارتعدت وبكت ، فسألها فقالت هذا عمل ما عملته وحملتني عليه الحاجة ، فقال أنا أحرى بذلك اذهبي فلك ما أعطيتك ووالله لا أعصيه بعدها أبدا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه : إن الله قد غفر للكفل» وفي الحديث «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه تضمنت له بالجنة » . وعشق بعض العرب امرأة فمكنته من نفسها ، فلما أراد الفعل وقف ففكر وأراد القيام ، فقالت له مالك ؟ فقال إن من يبيع جنة عرضها السموات والأرض بقدر فتر لقليل الخبرة بالمساحة ثم تركها .

ووقع لبعض الصالحين أنه حدثته نفسه بفاحشة فأدخل أصبعه بفتيلة وقال يانفس إن صبرت على حرها مكنتك مما تريدين ، فحست نفسه أن روحه كادت تخرج من شدة حرها وهو يتجلد على ذلك ويقول هل تصبرين وإذا لم تصبرى على هذه النار اليسيرة التى طفئت بالماء سبعين مرة حتى

فَالْعَيْنُ إِنَّمَا هِيَ لِلنَّظَرِ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ

قدر أهل الدنيا على مقابلتها فكيف تصبرين على حر نار جهنم المتضاعفة حرارتها على هذه سبعين ضعفا، فرجعت نفسه عن ذلك الخاطر ولم يخطر لها بعد ذلك والله الموفق .

قال المصنف رحمه الله (فالعين) إنما خلقت لك لتهتدى بها فى الظلمات ، وتستعين بها فى الحاجات ، وتنظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات ، وتعتبر وتتعظ بمافى عجائبهمامن الدلالات الواضحات على وحدانية الله كما قال تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » : أى ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون ، لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة و (إنما) خلقت (هي) أى العين أيضا (للنظر إلى رب العالمين سبحانه) فى جنة عدن ، يعنى الانكشاف التام من غير إحاطة بحدود المرئى تعالى ونهايته لاستحالة الحدود والنهايات عليه تعالى ، فكأن المؤمنين يعلمونه بلا حد ونهاية ، وبلا كيف يرونه كذلك ، فيرى لافى مكان ولا فى جهة ، ولا باتصال شعاع ولا على مسافة بينه تعالى وبين الرائى ، لأن الرؤية عندنا نوع من الإدراك يخلقه الله متى شاء ولأى شىء شاء فى أى محل شاء ، بل يحار العبد فى العظمة والجلال حتى لايعرف اسمه ولا يشعر بمن حوله من الخلائق ، فان العقل يعجز هنالك عن الفهم ، ويتلاشى الكل فى جنب عظمته تعالى ، ولله در القائل اللقانى :

ومنه أن ينظر بالأبصار لكن بلا كيف ولا انحصار
للمؤمنين إذ بجائز علقت هذا وللمختار دنيا ثبتت

وقال العلامة القارى :

يراه المؤمنون بغير كيف وإدراك وضرب من مثال
فينسون النعيم إذا رأوه فياخسران أهل الإعتزال

وهل يجوز أن يرى فى المنام ؟ فقيل لا ، وقيل نعم ، والحق أنه لامانع من هذه الرؤية وإن لم تكن رؤيا حقيقة ، ومن جملة من رآه فى المنام الامام أحمد بن حنبل ؛ فقد نقل عنه انه رآه فى المنام تسعة وتسعين مرة وقال لئن رأيته تمام المائة لأسألنه عن أفضل مايتقرب به المقربون ، فرآه تمام المائة ، وسأله فقال له بتلاوة كلامى يا أحمد ، فقال بفهم وبغير فهم ؟ فقال بفهم وبغير فهم . وقد قال بعض الصوفية : إنه رأى ربه فى منامه على وصفه ، فقيل له كيف رأيته ؟ فقال انعكس بصرى فى بصيرتى فصرت كلى بصرا ، فرأيت من ليس كمثله شىء . قال فى البدر اللامع :

وَلَيْسَ فِى الدَّارَيْنِ كَرَامَةٌ أجلُّ وَأَكْبَرُ مِنْ ذٰلِكَ فَحَقِيقٌ لِشَىْءٍ يَنْتَظَرُ وَيُرْجَى لَهُ مِثْلُ هٰـذِهِ الْكَرَامَةِ أَنْ يُصَانَ وَيُحْفَظَ وَيُعَزَّ وَيُكْرَمَ . فَهٰذِهِ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ إِذَا أَحْسَنْتَ التَّأَمُّلَ فِيهَا كَفَتْكَ الْمُؤْنَةُ فِى هٰذَا الْفَصْلِ ، وَاللّٰهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقُ ، وَهُوَ حَسْبِى وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

﴿ الفصل الثانى الأذن ﴾

فَعَلَيْكَ بِصِيَانَةِ سَمْعِكَ عَنِ الْخَنَا وَالْفُضُولِ

يراه مؤمنون فى القيامه	وهل يرى الآن وفى المنامه
قلت أرى الامكان فيهما أسد	أما الوقوع يقظة فالجل رد
نعم لطه وقعت على الجلى	ووقعت فى النوم لابن حنبل

والدلائل على جواز الرؤية كثيرة ليس هذا محل ذلك فانظر شرح الإحياء للعلامة السيد مرتضى الحسينى تجد كلاما حسنا فى بحث الرؤية ودلائله وغير ذلك (وليس فى الدارين) أى دار الدنيا والآخرة (كرامة أجل) أى أعظم (وأكبر من ذلك) أى النظر إلي رب العالمين (فحقيق) أى جدير لائق (لشىء ينتظر ويرجى له) أى للشىء (مثل هـذه الكرامة) العظيمة التى هى الرؤية لوجهه الكريم (أن يصان) أى ذلك الشىء (ويحفظ) مرادف لما قبله (ويعز ويكرم ، فهذه الأصول الثلاثة) الكافية فى أمر العين (إذا أحسنت التأمل فيها) أى فى الأصول الثلاثة (كفتك المؤنة) أى الشدة والتعب (في هذا الفصل) الأول وهو فصل العين (والله ولى التوفيق) والهداية (وهو حسبى) أى كافى، فحسب بمعنى كاف فهو بمعنى اسم الفاعل . قال تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أى كافيه . فالحاصل أن من اكتفى بالله كفاه وأعطاه سؤله ومناه ، وكشف همه وأزال غمه ، كيف لا؟ ومن التجأ إلي ملك من الملوك حفظه وسلك به أحسن السلوك فالأولى بذلك من يحتسب رب العالمين، ويكتفي به عن الخلائق أجمعين (ونعم الوكيل) أى نعم الموكول إليه الأمر ، فوكيل فعيل بمعنى مفعول ، لأن عباده وكلوا أمورهم إليه ، واعتمدوا فى حوائجهم عليه . وقيل معناه القائم على خلقه بما يصلحهم ، فوكل أمور عبادة إلى نفسه وقام بها فرزقهم وقضى حوائجهم ، ومنحهم كل خير ، ودفع عنهم كل شر ، فوكيل على هـذا بمعنى فاعل والأول هو المشهور ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ، والله أعلم .

﴿ الفصل الثانى ﴾ من الفصول الخمسة (الأذن) أى فصل الأذن فى بيان حفظها (فعليك) أى الزم (بصيانة سمعك) وحفظه (عن الخنا) أى الفحش (والفضول) من الكلام كافشاء سر زوجته وهى سره بأن يذكر كل منهما مايقع بينهما من تفاصيل الجماع ونحوها مما يخفى واحفظها أيضا عن أن تصغى بها إلى البدعة أو إلي ذكر مساوى الناس وغيرها من الفواحش، فانما خلقت

وَذَٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِمَا رُوِيَ أَنَّ الْمُسْتَمِعَ شَرِيكُ الْمُتَكَلِّمِ ، وَفِي ذَٰلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ :

تَحَرَّ مِنَ الطُّرْقِ أَوْسَاطَهَا وَعُدَّ عَنِ الْجَانِبِ الْمُشْتَبِهِ
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقَبِيحِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهِ

الأذن لك لتسمع بها كلام الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمة أوليائه ، وتتوصل باستفادة العلم إلى الملك المقيم والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين ، فإذا أصغيت بها إلى شىء من المكاره صار ماكان نافعا لك ضارا عليك ، وانقلب ما كان سبب فوزك بالثواب سبب هلاكك بحصول العقاب إن لم تتب ، وهذا غاية الخسران (وذلك) أى لزوم صيانة السمع عن الفحش والفضول (لأمرين : أحدها) لقوله تعالى « سماعون للكذب أكالون للسحت » فقد سوّى الله تعالى فى هذه الآية بين المستمع وآكل السحت ، فهذا دليل على أن ماحرم قوله حرم الإصغاء اليه ، لأن إصغاءه حينئذ يكون دليلا على رضاه المحرم . وقوله تعالى « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت » ، فالسكوت على الغيبة حرام ، والساكت يشارك المغتاب فى الإثم . وقوله تعالى « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم » أى فى الإثم ، و(لما روى أن المستمع شريك المتكلم) أى فى الإثم . قال العراقى : غريب ، وللطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة » . قال الزبيدى : رواه فى الكبير وكذا الخطيب فى التاريخ بلفظ « نهى عن الغناء وعن الاستماع إلى الغناء ، وعن الغيبة والاستماع إلى الغيبة ، وعن النميمة والاستماع إلى النميمة » : قال الهيتمى فى سندها . فرات بن السائب وهو متروك ، وذكره العلامة عبد الرءوف المناوى فى كنوز الحقائق عن الغزالى بلفظ « المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم » . (وفى ذلك) أى فى كون المستمع شريك القائل فى الإثم وهو أحد المغتابين (يقول القائل) من بحر المتقارب (تحرّ) أى اطلب واجتهد (من الطرق أوساطها . وعد) أى تجاوز (عن الجانب المشتبه ، وسمعك) بالنصب (صن) أى احفظ (عن سماع القبيح . كصون اللسان عن النطق به) أى بذلك القبيح (فانك عند استماع القبيح . شريك لقائله) فى الإثم والحرمة (فانتبه) بكسر الهاء للضرورة : أى فانتبه وتيقظ من نوم الغفلة . قال النووى : ولا بد من كراهة نحو الغيبة بقلبه إن خاف ضررا ظاهرا فى نهيه باليد أو باللسان ، ومتى اضطر إلى القام فى ذلك المجلس الذى فيه نحو الغيبة وعجز عن الإنكار أو أنكر فلم يقبل منه ولم يمكنه المفارقة بطريق حرم عليه الاستماع والإصغاء له بل طريقه أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه أو بقلبه أو يفكر فى أمر آخر ليشتغل عن استماعها ، ولا يضره بعد ذلك السماع من غير استماع وإصغاء فى هذه الحالة ، فإن تمكن بعد

وَالثَّانِي أَنَّ ذٰلِكَ يُهَيِّجُ الْخَوَاطِرَ وَالْوَسَاوِسَ فِى الْقَلْبِ ثُمَّ مِنْ ذٰلِكَ يَبْدُو الْاشْتِغَالُ فِى الْبَدَنِ فَمَا يَبْقَى لِلْعِبَادَةِ شَيْءٌ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِى يَقَعُ فِى قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَسَمْعِهِ بِمَنْزِلَةِ الطَّعَامِ الَّذِى يَقَعُ فِى جَوْفِهِ فَمِنْهُ الضَّارُّ وَمِنْهُ النَّافِعُ، وَمِنْهُ الْغِذَاءُ وَمِنْهُ السُّمُّ بَلْ إِنَّ بَقَاءَ الْكَلَامِ وَتَجَرُّعَهُ أَكْثَرُ وَأَبْلَغُ مِنَ الطَّعَامِ، فَإِنَّ الطَّعَامَ يَزُولُ عَنِ الْمَعِدَةِ بِنَوْمٍ وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا يَبْقَى أَثَرُهُ زَمَانًا ثُمَّ يَزُولُ وَلَهُ دَوَاءٌ يُزِيلُ أَثَرَهُ مِنْ جِسْمِ الْإِنْسَانِ، وَأَمَّا الْكَلَامُ الَّذِى وَقَعَ فِى قَلْبِهِ فَرُبَّمَا يَبْقَى مَعَهُ جَمِيعَ عُمُرِهِ وَلَا يَنْسَاهُ، فَإِنْ كَانَ رَدِيئًا فَلَا يَزَالُ يُتْعِبُهُ وَيُعْيِيهُ وَتَرِدُ بِسَبَبِهِ خَوَاطِرُ فِى الْقَلْبِ وَوَسَاوِسُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُعْرِضَ عَنْهَا،

ذلك من المفارقة وهم مستمرون فى الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة ، وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه دعي إلى وليمة فحضر فذكروا رجلا لم يأتهم ، فقالوا إنه ثقيل، فقال إبراهيم: أنا قد فعلت هذا بنفسى حيث حضرت موضعا يغتاب فيه الناس ، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام . (والثانى) من الأمرين (أن ذلك) أى سماع الفحش والفضول (يهيج) أى يحرك (الخواطر والوساوس فى القلب ثم من ذلك) أى من هيجان الخواطر والوساوس واضطرابهما فى القلب (يبدو) أى يظهر (الاشتغال فى البدن فما يبقى للعبادة شيء) وإن وجدت تلك العبادة فلا تحصل لذلك لذة وحلاوة أصلا (ثم اعلم أن الكلام الذى يقع فى قلب الإنسان وسمعه) أى أذنه (بمنزلة الطعام الذى يقع فى جوفه) أى بطنه (فمنه) أى الطعام (الضار ومنه النافع ومنه الغذاء) والقوة (ومنه السم) القاتل (بل إن بقاء الكلام) فى القلب (وتجرعه) أى كظم غصص الكلام فيه (أكثر وأبلغ) أى أشد (من الطعام فان الطعام يزول عن المعدة) وهى مقر الطعام والشراب وتخفف بكسر الميم وسكون العين ، وجمعت على معد ، مثل سدرة وسدر كما فى المصباح (بنوم وغيره) كالدواء المزيل لذلك الطعام (وربما يبقى أثره) أى الطعام (زمانا) طويلا (ثم يزول) ذلك الأثر (وله) أى للطعام (دواء يزيل أثره من جسم الإنسان ، وأما الكلام الذى وقع فى قلبه) أى الإنسان (فربما يبقى) أى الكلام فلا يزول (معه) أى الإنسان (جميع عمره ولا ينساه) أى الإنسان ذلك الكلام الواقع فى قلبه (فإن كان) أى الكلام الواقع فيه (رديئا) خسيسا (فلا يزال) أى الكلام (يتعبه) بضم الياء وكسر العين من الإتعاب : أى يوقعه فى التعب والمشقة (ويعييه) أى يوقعه فى العيب وفى نسخة يعنته : أى يوقعه فى العنت بمعنى المشقة كما فى سراج السالكين وعلى هذا فهو مرادف لسابقه (وترد) أى تحضر وتجيء (بسببه) أى الكلام الرديء والخسيس (خواطر فى القلب ووساوس يحتاج) الإنسان (إلى أن يعرض) بضم الياء وكسر الراء : أى يصد (عنها) أى

وَيَعْدِلَ بِقَلْبِهِ عَنْ تَذَكُّرِهَا وَيَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا . وَلاَ يَأْمَنُ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى بَلِيَّةٍ وَيُحَرِّكَهُ حَتَّى يَقَعَ آخِرَ الْأَمْرِ فِى آفَةٍ عَظِيمَةٍ بِسَبَبِ ذَٰلِكَ . وَلَوْ كُنْتَ حَفِظْتَ سَمْعَكَ عَمَّا لاَ يَعْنِيكَ كُنْتَ عَنْ هَٰذِهِ الْمُؤَنِ مُسْتَرِيحاً فَلْيَنْظُرِ الْعَاقِلُ فِى ذَٰلِكَ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ الفصل الثالث اللسان ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِ اللِّسَانِ وَضَبْطِهِ وَتَقْيِيدِهِ فَإِنَّهُ أَشَدُّ الْأَعْضَاءِ جِمَاحًا وَطُغْيَانًا وَأَكْثَرُهَا فَسَادًا وَعُدْوَانًا .

عن الخواطر والوساوس (و) أن (يعدل) أى الإنسان بفتح الياء وكسر الدال من باب جلس : أى يميل وينصرف (بقلبه عن تذكرها ، و) أن (يستعيذ بالله من شرها) أى الخواطر والوساوس (ولا يأمن) الإنسان من (أن يحمله) ذلك الكلام الردىء (على بلية ويحركه) أى يحرك الكلام الإنسان على تلك البلية (حتى يقع آخر الأمر فى آفة عظيمة بسبب ذلك) الكلام القبيح : أى سماعه (ولو كنت حفظت سمعك عما لا يعنيك) كما هو المطلوب منك (كنت عن هذه المؤن) أى المشقات (مستريحا، فلينظر العاقل) بقلبه (فى ذلك) الذى ذكرناه من مطلوبية حفظ الأذن عن السماع فيما لا يعنيه وفائدة حفظها وبلية تركه (وبالله) تعالى لا بغيره (التوفيق) إلى مرضاته وفهم حكمه وأسراره .

﴿ الفصل الثالث ﴾ من الفصول الخمسة (اللسان) أى فى بيان حفظه وتقييده وغير ذلك . اعلم أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة ؛ فهو صغير جرمه عظيم طاعته وإثمه ، إذ لا يتبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ؛ ثم إنه ما من موجود ومعلوم ، خالق أو مخلوق ، متخيل أو معلوم ، مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى ، فإن كلّ ما يتناوله العلم يعبر عنه اللسان إما بحق أو باطل ، ولا شىء إلا والعلم متناول له ولا يخرج إلى الوجود إلا بواسطة تعبير اللسان ، وهذه خاصة خصه الله بها لا توجد فى سائر الأعضاء ، فاللسان حينئذ رحب الميدان ليس له مردود ، ولا لمجاله منتهى وحدّ لسعة متعلقاته ، له فى الخير مجال رحب ، وفي الشر ذيل سحب ، فمن أطلق عذبة اللسان ، وأهمله مرخى العنان ، سلك به الشيطان فى كل ميدان ، وساقه إلي شفا جرف هار إلى أن يضطره ويلجئه إلى البوار ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، ولا يطلقه إلا فيما ينفعه إما فى الدنيا حالا أو فى الآخرة مآلا ، ويمنعه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجلته وآجلته ، ولذلك قال المصنف رحمه الله (ثم عليك بحفظ اللسان وضبطه وتقييده فإنه) أى اللسان (أشد الأعضاء جماحا وطغيانا وأكثرها) أى الأعضاء (فسادا وعدوانا) وظلما فانه لا تعب فى إطلاق اللسان ولا مؤنة فى تحريكه ، وقد

وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ قالَ : قُلْتُ: يارَسُولَ اللهِ مَا أَكْثَرُ مَاتَخافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قالَ: هٰذَا . وَعَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ: إِنِّى وَجَدْتُ نَفْسِى تَحْتَمِلُ مُؤْنَةَ الصِّيَامِ فِى الْحَرِّ الشَّدِيدِ بِالْبَصْرَةِ. وَلاَ تَحْتَمِلُ تَرْكَ كَلِمَةٍ لاَ تَعْنِيهَا فَعَلَيْكَ إِذَنْ بِالتَّحَفُّظِ جِدًّا وَبَذْلِ الْمَجْهُودِ . وَتَذَكُّرِ خَمْسَةِ أُصُولٍ : أَحَدُهَا مَارَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ،

يتساهل الخلق فى الاحتراز من آفاته وغوائله ودواهيه المترتبة عليه وفى الحذر عن مصايده وحبائله وجهلوا أنه أعظم آلة للشيطان فى استغواء الإنسان ، فبه يملك نواصيهم ويغتالهم ، وقد بسط الكلام على آفاته حجة الإسلام في الإحياء فانظره تجد شفاء بينا وكلاما حسنا (ولقد روينا عن سفيان بن عبد الله) بن ربيعة بن الحارث الثقفى الطائفي صحابى ، وكان عامل عمر على الطائف ، روى له مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه (أنه قال : قلت يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ) أي أمسك نبينا (عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال) صلى الله عليه وسلم (هـذا) أى اللسان. قال العراقى : رواه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه عن عقبة بن عامر أنه قال «قلت: يا رسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك». وقال سهل ابن سعد الساعدى : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « من يتكفل لى ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » . وقال أنس : قال صلى الله عليه وسلم « من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله » . القبقب هو البطن ، والذبذب هو الفرج ، واللقلق هو اللسان ، فهـذه الشهوات الثلاث تهلك أكثر الخلق وروى « أن معاذا قال يا رسول الله أى الأعمال أفضـل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه » . (وعن يونس بن عبيد الله) التابعى الجليل ، اتفقوا على جلالته وتوثيقه ؛ توفى سـنة تسع وثلاثين ومائة (إنى وجدت نفسى تحتمل مؤنة) أى مشقة (الصـيام فى الحر الشديد بالبصرة) اسم بلد شرقى عن مصر القاهرة ، وعرضه شمالى بقدر ثلاثين درجة واثنين وثلاثين دقيقة ، وطوله ستة عشر درجة وستة وثلاثون دقيقة كما حققه الزرقاوى فى زيجه (ولاتحتمل) نفسى (ترك كلمة لا تعنيها) أى لا تنفعها .

قال المصنف (فعليك إذن) أى إذا عرفت قول يونس بن عبد الله (بالتحفظ) أي تحفظ اللسان (جدا وبذل المجهود) فى تحصيل المطلوب (وتذكر خمسة أصول : أحدها ماروى أبو سعيد) سعد بن مالك بن سنان الأنصارى الخزرجي (الخدرى رضى الله عنه) استصغر أبو سعيد يوم أحد فرد ، وغزا بعد ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنتى عشرة غزوة ، وكان أبوه مالك صحابيا استشهد يوم أحد رضى الله عنه ، روى لأبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف حديث ومائة وسبعون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم علي ستة وأربعين منها ، وانفرد البخارى بستة عشر ومسلم باثنين وخمسين ، وروى أبو سعيد عن جماعة من الصحابة أيضا : منهم أبو بكر وعمرو عثمان

أَنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا أَصْبَحَ بَكَرَتِ الْأَعْضَاءُ كُلُّهَا إِلَى اللِّسَانِ وَقُلْنَ لَهُ نَنْشُدُكَ أَنْ تَسْتَقِيمَ فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا. قُلْتُ: وَالْمَعْنَى فِيهِ (وَاللهُ أَعْلَمُ) أَنَّ نُطْقَ اللِّسَانِ يُؤَثِّرُ فِي أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ بِالتَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ. يُؤَكِّدُ هٰذَا الْمَعْنَى مَا حُكِيَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ قَسَاوَةً فِي قَلْبِكَ وَوَهْنًا فِي بَدَنِكَ وَحِرْمَانًا فِي رِزْقِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ.

وزيد بن ثابت وأبو قتادة وعبدالله بن سلام وأبوه مالك بن سنان، وروى عنه جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وغيرهم رضى الله تعالى عنهم أجمعين وروى عنه خلائق من التابعين: منهم ابن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبوسلمة وحميد ابنا عبد الرحمن بن عوف وعامر بن سعد وعطاء بن يزيد وعطاء بن يسار وعبيد بن حنين بنونين ونافع وخلائق. وكان رضى الله عنه من فقهاء الصحابة وفضلائهم البارعين، ومناقبه كثيرة، توفى بالمدينة يوم الجمعة سنة أربع وستين، وقيل سنة أربع وسبعين، ودفن بالبقيع (أن ابن آدم إذا أصبح) أى دخل فى الصباح (بكرت) أى أسرعت (الأعضاء) جمع عضو بالضم وبالكسر لغة: كل عضو وافر بلحمه (كلها) بالرفع تأكيد (إلى اللسان وقلن) أى الأعضاء (له) أى اللسان (ننشدك الله) أى نسألك بالله (أن تستقيم فإنك إن استقمت) أى اعتدلت (استقمنا) أى اعتدلنا تبعا لك (وإن اعوججت) أى ملت عن طريق الاعتدال والهدى (اعوججنا) أى ملنا عنه اقتداء بك، قال الطيبى: وهذا لا تناقض بينه وبين خبر «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله» الحديث، لأن اللسان ترجمان القلب وخليفته فى ظاهر البدن، فإذا أسند إليه الأمر فهو مجاز في الحكم، وهذا الحديث رواه الترمذى فى الزهد وابن خزيمة فى صحيحه، والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى بلفظ «إذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا فانما نحن بك، فان استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»: (قلت والمعنى فيه) أى هذا الحديث المروى عن أبى سعيد (والله أعلم) جملة معترضة (أن نطق اللسان يؤثر فى أعضاء الانسان بالتوفيق) على الطاعة (والخذلان) ضد التوفيق، فهو خلق القدرة على المعصية والداعية إليها، أو خلق المعصية (يؤكد) أى يقوى (هذا المعنى) الذى ذكرناه (ماحكى عن مالك بن دينار) هو أبو يحيى البصرى رضى الله عنه، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة (أنه قال: إذا رأيت قساوة فى قلبك، ووهنا) أى ضعفا (فى بدنك، وحرمانا) أى حجابا ومنعا (فى رزقك فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك) من فضول الكلام.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بضبط، بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى. قال الله عز وجل «لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس». وقال صلى الله عليه وسلم: «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله» فانظر وتأمل

وَالْأَصْلُ الثَّانِى: حِفْظُ وَقْتِكَ فَإِنَّ أَكْثَرَ مَايَتَكَلَّمُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى فَعَلَى الْأَقَلِّ يَكُونُ لَغْوًا يَضِيعُ الْوَقْتُ بِهِ .

كيف قلب الناس الأمر فى ذلك ، فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان .وقال ابن مسعود أنذرتكم فضول الكلام بحسب أحدكم من الكلام مابلغ حاجته . وقال ابراهيم بن يزيد التيمى : المؤمن إذا أراد أن يتكلم نظر ، فان كان كلامه له تكلم ، وإن كان عليه أمسك عنه ، والفاجر إنما كلامه رسلا رسلا : أى كثيرا يتبع بعضه بعضا . وقال الحسن البصرى : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار : « تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال له كم دون لسانك من حجاب : فقال شفتاى وأسنانى ، قال أفما كان لك فى ذلك ما يرد كلامك ؟ » وفى رواية أنه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر ؛ أى بالغ وأطال فى الكلام ، ثم قال : ما أوتى رجل شرا من فضل فى لسانه . وقال عمر بن عبد العزيز : إنه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة ، وقال بعض الحكماء . إذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت ، وإن كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبى حبيب : من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع وإن وجد من يكفيه ، فإن فى الاستماع سلامة وزيادة فى العلم ، والمستمع شريك المتكلم فى الكلام إلا من عصم الله ، وفى الكلام ترفق وتزين وزيادة ونقصان ، وقال ابن عمران : أحق ما طهر الرجل لسانه ، ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة اللسان فقال : لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها . وقال إبراهيم النخعى يهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام ، فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته، والله الموفق . ﴿والأصل الثانى﴾ من الأصول الخمسة (حفظ وقتك فإن أكثر مايتكلم به الإنسان من غير ذكر الله تعالى) وتلاوة كتابه (فعلى الأقل يكون) أى أكثر الكلام (لغوا) وباطلا (يضيع الوقت به) أى بالكلام اللغو ، فيكون الإنسان قد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالي ، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ، ونظره إلا عبرة ، ونطقه إلا ذكرا، هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال الإنسان أوقاته ، ومهما صرفها إلى مالا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله وخسر خسرانا مبينا ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » بل ورد ما هو أشد من هذا . قال أنس بن مالك « استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يابنى ، فقال صلى الله عليه وسلم: ومايدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالايضره » . قال العراقى : رواه الترمذى . وفى حديث آخر « أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعب بن عجرة فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه عائدا له ، فلما دخل عليه قال أبشر يا كعب ، فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وسلم : من هذه المتألية على الله ؟ قال كعب : هي أمى

وَذُكِرَ أَنَّ حَسَّانَ بْنَ أَبِي سِنَانٍ مَرَّ عَلَى غُرْفَةٍ بُنِيَتْ فَقَالَ: مُنْذُ كَمْ بُنِيَتْ هٰذِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ . وَقَالَ يَا نَفْسِي الْغَرُورَةَ تَسْأَلِينَ عَمَّا لَا يَعْنِيكِ وَعَاقَبَهَا بِصَوْمِ سَنَةٍ . قُلْتُ : فَيَاطُوبَى لِلْمُهْتَمِّينَ بِأَنْفُسِهِمْ ؛ وَيَا وَيْحَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ خَلَعُوا الْعِذَارَ وَأَرْخَوُا الْعِنَانَ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ وَأَحْسَنَ حَيْثُ يَقُولُ :

يا رسول الله ! قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع مالا يغنيه » . قال حجة الإسلام : ومعناه إنما يتهيأ للجنة من لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ؟ وإن كان كلامه مباحا فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة فى الحساب فإنه نوع عذاب « من نوقش الحساب عذب » وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من يدخل الجنة من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك، وقالوا أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به ؟ فقال إنى لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك مالا يعنينى » . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا .وقال أبو ذر رضى الله عنه قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان ؟ قلت: بلى يا رسول الله ، قال : هو الصمت ؛ وحسن الخلق ، وترك مالا يعنيك » قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا أيضا . (وذكر : أن حسان بن أبى سنان) البصرى صدوق عابد من أتباع التابعين (مر على غرفة) عالية (بنيت) أى الغرفة (فقال) ابن أبى سنان (منذ كم بنيت هذه) أى تلك الغرفة ، فتذكر أن هذا الكلام فضول لايعنيه (ثم أقبل) ابن أبى سنان يلوم (على نفسه وقال: يا نفسى الغرورة) أى كثيرة الغرور والخداع (تسألين عما لا يعنيك وعاقبها) أى عاقب ابن أبى سنان نفسه (بصوم سنة . قلت : فياطوبى للمهتمين) والمجتهدين (بأنفسهم وياويح الغافلين) أى هلا كهم (الذين خلعوا) أى سلبوا (العذار) من اللجام ذواله : أى جانباه ، وهو ماسال على خد الفرس ، ويقال للمنهمك فى الغى المتبع هواه خلع عذاره : أى الحياء وهذا مثل للشاب المنهمك فى غيه أى ألقى عنه جلباب الحياء كما خلع الفرس العذار فجمح وطمح ، ويستعمل فى رسن الدابة ، وقولهم : فلان خلع العذار يفعل ويقول مايشاء ولا يبالى ولا يخاف من الله ومن ملامة الناس كالدابة التى لارسن لها على رأسها (وأرخوا) أى أرسلوا (العنان) بكسر العين : أى الخيط، وهذا كناية عن استرسالهم في الشهوات من غير تقييد بلجام التقوى فهم كالدابة التى أرخى لها عنانها ، وتذهب وتروح أينما كانت (والله المستعان) فى كل مطلوب على كل حال (ولقد صدق القائل وأحسن حيث يقول) من بحر الخفيف :

وَاغْتَنِم رَكْعَتَيْنِ فى ظُلْمَةِ اللَّيْـلِ إِذَا كُنْتَ خَالِياً مُسْتَرِيحَا
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِاللَّغْوِ فى الْبَا طِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحَا
وَلُزُومُ السُّكُوتِ خَيْرٌ مِنَ النُّطْـ قِ وَإِنْ كُنْتَ فى الْكَلَامِ فَصِيحَا

(واغتنم) أمر من الغنيمة : أى اطلبها (ركعتين فى ظلمات الليل إذا كنت خاليا) وفى نسخة فارغا (مستريحا . وإذا ماهممت) أى قصدت، وما زائدة (باللغو فى الباطل فاجعل مكانه) أى الباطل (تسبيحا . ولزوم السكوت) عما لا يعنيك (خير من النطق) بمالا يعنيك (وإن كنت فى الكلام فصيحا) بليغا ، وبالجملة إن السكوت سلامة ، ولله در القائل :

العلم زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا
ما إن ندمت على سكوت مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

وما أحسن حميد بن عباس حيث يقول من بحر الطويل :

لعمرك ماشىء علمت مكانه أحق بسجن من لسان مذلل
على فيك مما ليس يعنيك شأنه بقفل وثيق حيث كنت فأقفل
فرب كلام قد جرى من ممازح فساق إليه سهم حتف معجل
وللصمت خير من كلام ممازح فكن صامتا تسلم وإن قلت فاعدل
ولا تك فى جنب الأخلاء مفرطا وإن كنت أبغضت البغيض فأجمل
فانك لاتدرى متى أنت مبغض حبيبك أو تهوى بغيضك فاعقل

وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن : الصمت وحسن الخلق » . وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » . وقال الحسن البصرى : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم » . وقيل لعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة ؟ قال : لاتنطقوا أبدا. قالوا: لانستطيع ذلك . قال فلا تنطقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وعن البراء بن عازب قال « جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلنى على عمل يدخلنى الجنة ؟ قال : أطعم الجائع ، وأسق الظمآن ؛ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير » وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان » .وقال الأوزاعى : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد فإن من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فما يعنيه . وقال الحسن البصرى: ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال بعض الحكماء : فى الصمت سبعة آلاف خير ، وقد اجتمع ذلك كله فى سبع كلمات فى كل كلمة منها ألف : أولها إن الصمت عبادة

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ : حِفْظُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَصُنْ لِسَانَهُ وَأَكْثَرَ الْكَلَامَ يَقَعُ لَا مَحَالَةَ فِي غِيبَةِ النَّاسِ ، كَمَا قِيلَ : مَنْ كَثُرَ لَغَطُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ،

من غير عناء . والثانى زينة من غير حلى . والثالث هيبة من غير سلطان . والرابع حصن من غير حائط . والخامس الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد . والسادس راحة الكرام الكاتبين . والسابع ستر لعيوبه ، ويقال : الصمت زين للعالم وستر للجاهل ، والأخبار والآثار فى فضيلة الصمت أكثر من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب . ﴿والأصل الثالث﴾ من الأصول الخمسة (حفظ الأعمال الصالحة) عن الآفات المهلكات (فإن من لم يصن لسانه) عما لايعنيه (وأكثر الكلام يقع لامحالة) أى قطعا (فى غيبة الناس كما قيل) فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم (من كثر لغطه) . وفى رواية : كلامه (كثر سقطه) أى سقوطه فى الكلام وكذبه ، وتمام الحديث « ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » : أى لأن السقط كما قاله العلامة الزبيدى مالا عبرة به ولا نفع فيه ، فإن كان لغو الإثم فيه حوسب على تضييع عمره ، وكفران النعمة بصرف نعمة اللسان عن الذكر إلى الهذيان ، وقلما سلم من الخروج إلى مايوجب الإثم فتصير النار أولى به من الجنة لذلك ، قال العراقي : رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حيان فى روضة العقلاء والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب . قال الزبيدى : وكذلك رواه الطبرانى فى الأوسط والقضاعى فى مسند الشهاب والعسكرى فى الأمثال كلهم من حديث ابن عمر ؛ ولفظ العسكرى « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثر كذبه ، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه » والباقي سواء ، فبعضهم رواه من طريق ابن عجلان ، وبعضهم من طريق يحي بن أبى كثير ، كلاهما عن نافع عن ابن عمر مرفوعا . وقال العسكرى : أحسبه وهما ، وإن الصواب أنه عن عمر من قوله وقول العراقى بسند ضعيف لأن فيه إبراهيم ابن الأشعث ، ذكره ابن حيان فى الثقات وقال فيه : يغرب ويخطىء وينفرد ويخالف ، ولذا قال ابن الجوزي حديث لايصح . وقال ابن أبى الدنيا في الصمت : حدثنى أحمد بن عبيد التيمى ، حدثنا عبيد الله بن محمد التيمى ، حدثنا دريد بن مجاشع عن غالب القطان عن مالك بن دينار عن الأحنف بن قيس قال : قال عمر بن الخطاب « من كثر كلامه كثر سقطه » . ورواه العسكرى من هذه الطريق ، ولفظه « قال لى : يا أحنف من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » وكذا أورده العسكرى من طريق معاوية فى قصة قال فيها معاوية « من كثر كلامه كثر سقطه » وفى الباب عن معاذ ؛ وفى تاريخ ابن عساكر من حديث أبى هريرة « من كثر ضحكه استخف بحقه ، ومن كثرت دعابته ذهبت جلالته ، ومن كثر مزاحه ذهب وقاره ، ومن شرب الماء على الريق ذهب بنصف قوته ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت خطاياه ، ومن كثرت خطاياه كانت النار أولى به » قال ابن عساكر

وَالْغِيبَةُ : هِيَ الصَّاعِقَةُ الْمُهْلِكَةُ لِلطَّاعَاتِ عَلَى مَا قِيلَ : إِنَّ مَثَلَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ مَثَلُ مَنْ نَصَبَ مَنْجَنِيقًا فَهُوَ يَرْمِي بِهِ حَسَنَاتِهِ شَرْقًا وَغَرْبًا يَمِينًا وَشِمَالاً .

غريب الإسناد والمتن . وفى الزهد لابن المبارك ومن جهته ابن أبى الدنيا فى الصمت من طريق شفى الأصبحى قال : ومن كثر كلامه كثرت خطيئته ، هكذا حققه الزبيدى (والغيبة) بكسر الغين هى تناول العرض بما يكره ، وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » وقال عليه الصلاة والسلام « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » . وعن جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا ، فان الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، ولهذا حكى أن رجلا اغتاب ابن الجلاء فأرسل يستحله فأبى وقال ليس فى صحيفتى حسنة أحسن منها فكيف أمحوها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : إذا ذكرت أخاك بما يكره فقد اغتبته . قيل أرأيت إن كان مافى أخى ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » يعنى قلت فيه بهتانا . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليلة أسرى بى إلى السماء مررت بقوم يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه ثم يقال لهم كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم ، فقلت ياجبريل من هؤلاء ؟قالهؤلاء من أمتك الهمازون اللمازون» . قال أبو الليث يعنى المغتابين . وعن مجاهد بن جبر المكى قال في قوله تعالي « ويل لكل همزة لمزة » الهمزة الطعان فى الناس ، واللمزة : الذى يأكل لحوم الناس . وقال قتادة بن دعامة البصرى : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاث أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من البول ، وثلث من النميمة . وقال الحسن البصرى : والله للغيبة أسرع فى دين المؤمن من الأكلة فى الجسد . قال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ؛ ولكن فى الكف عن أعراض الناس . وسمع علىّ ابن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال له إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : عليكم بذكر الله فانه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فانه داء . والأخبار والآثار فى ذمّ الغيبة أكثر من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية ، نسأل الله حسن التوفيق لطاعته . وبالجملة إن الغيبة (هى الصاعقة) قطعة من النار (المهلكة للطاعات على ما قيل : إن مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجنيقا) وهى آلة ترمى بها الحجارة مؤنثة وقد تذكر كما فى سراج السالكين (فهو) أي المغتاب (يرمى به) أى بالمنجنيق (حسناته) أى المغتاب (شرقا وغربا يمينا وشمالا) يغتاب واحدا خراسانيا، وآخر حجازيا ، وآخر تركيا فيفرق حسناته ويقوم ولا شىء معه ، هكذا

ذكره أبو القاسم القشيري في الرسالة . قال حجة الإسلام مصنفنا الغزالي وغيره : اعلم أن حدّ الغيبة على ما ذكره العلماء أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، وسواء بلغه أو لم يبلغه سواء ذكرت مما يكرهه نقصانا في بدنه أو في نسبه أو في خلقه بالضمّ أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه الذي يلبسه وفي داره التي يسكنها ودابته التي يركبها . أما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان ، وأما النسب فبأن تقول أبوه نبطي : أي ممن يخدم الأرض بالحراثة أو هندي، هذا إذا كان يكره الاعتزاء إلى أحد هذين أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان ؛ فالمناط هو الكراهة ، وأما من يعتاد شيئا من ذلك فخرا له ، فلا يكونْ إطلاق مثله على اللسان غيبة له ، وأما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق إما في المعاملة أو في المحاورة ، بخيل بماله متكبر على إخوانه ، مراء شديد الغضب في أحواله ؛ جبان بارد الهمة ، عاجز في كثير من أموره ضعيف القلب لا جرءة له متهور : أي مفرط في الشجاعة حتي يرمى نفسه في النار وما يجرى مجراه وأما في أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك : هو سارق أو مختلس أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أوظالم أو متهاون بالصلاة وبالطهارة أو بالزكاة ، فيؤخر الصلاة عن وقتها ويشتغل بغيرها ، ولا يعطي زكاة ماله أو تقول هو لا يحسن الركوع والسجود في صلاته أولا يحترزعن النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو بأحدهما أو لا يضع الزكاة في مواضعها أو لا يحسن قسمتها أو لايحرس صومه من الرفث: وهو الكلام القبيح، ومن الغيبة والتعرض لأعراض الناس بالاستطالة فيها ، وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك : إنه قليل الأدب يتهاون بالناس ويسخر بهم ولا يرى لأحد حقا على نفسه ويرى لنفسه حقا عليهم أو أنه كثير الكلام كثير الأكل أو أنه كثير النوم وينام في غير وقته ويجلس في غير موضعه ، وأما في ثوبه فكقولك . إنه واسع الكم طويل الذيل يجره إلى الأرض ، وسخ الثياب دنس الجيب ونحو ذلك مما يكرهه ؛ وقد قال قوم لا غيبة في الدين ولو كان المغتاب يكره ذلك لأنه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي ، وذمه بها يجوز زجرا له ، بدليل ما روى «أنه ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال هي في النار ، وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة ، فقال فماخيرها إذاً ؟ » قال حجة الإسلام : وهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام الشرعية بالسؤال والبحث ، ولم يكن غرضهم من سياق قول من الأقوال التنقص ولا الهضم للجانب ، ولا يحتاج إليه في غير مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره من ورائه بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة كما ذكر من الأخبار . قال العلامة الزبيدي : وفيما ذكره الغزالي بحث ، لأن الصحابة كانوا عارفين بأن أذى الجار والبخل من الصفات الذميمة ، وقد يقال إن هذا : أي المذكور من الأخبار عام، وقد خص منها أحكام فلا حجة فيه ولا إلزام فتأمل .

﴿ تنبيه ﴾ عد العلامة ابن حجر في الزواجر الغيبة والسكوت عليها رضا أو تقريرا من الكبائر قال وعدها هو ماجرى عليه كثيرون ، ويلزمه أن السكوت عليها رضا بها كبيرة ، ثم رأيت الأذرعي صرح به ، نعم لو لم يمكنه دفعها فيلزم عند الأمكنية مفارقة المغتاب ، وماقيل إنها صغيرة ضعيف أو باطل وقد نقل القرطبي وغيره الإجماع علي أنها كبيرة وهو الذى تدل عليه الأحاديث الصحيحة لكنها بحسب المفسدة خفة وثقلا خلافا للعلامة زين الدين بن عبد العزيز المليبارى ؛ وحمل مانقلوا من الإجماع المذكور على غيبة أهل العلم وحملة القرآن لعموم البلوى بها . قال السيد البكرى : وإنما حمل الإجماع على ذلك ولم يبق على إطلاقه لعموم البلوى بالغيبة فيحصل حرج عظيم لو لم يحمل عليه انتهى .

ثم إن الأصل فى الغيبة الحرمة ، وقد تجب أو تباح لغرض صحيح شرعى لايتوصل إليه إلا بها. وينحصر فى ستة أسباب : الأول التظلم ، فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن أن له قدرة على إزالة ظلمه أو تخفيفه . والثانى الاستعانة على تغيير منكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته بنحو : فلان يعمل كذا فازجره بقصد التوصيل لإزالة المنكر وإلا كان غيبة محرمة مالم يكن جاهلا . الثالث الاستفتاء بأن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له وماطريقي فى خلاصى منه أو تحصيل حقي أو نحو ذلك ، والأفضل أن يبهمه فيقول : ماتقول فى شخص أو زوج كان من أمره كذا ، وإنما جاز التصريح باسمه لأن المفتي قد يدرك من تعيينه معنى لايدركه من إبهامه . الرابع تحذير المسلمين من الشر ونصحهم كجرح الرواة والشهود والمصنفين والمتصدين لإفتاء أو علم أو قراءة مع عدم أهلية أو مع نحو فسق أو بدعة وهم دعاة إليها ولو سرا فتجوز إجماعا بل تجب ، وكأن يشير وإن لم يستشر على مريد تزوج أو مخالطة لغيره فى أمر دينى أو دنيوى ، وقد علم فى ذلك الغير قبيحا منفرا كفسق أو بدعة أو طمع أو غير ذلك كفقر فى الزوج بترك تزوجه ، ثم إن اكتفي بنحو لايصلح لك لم يزد عليه وإن توقف على ذكر عيب ذكره بلا زيادة كاباحة ميتة لمضطر ولا بد أن يقصد بذلك بذل النصيحة لله دون حظ آخر ، وكثيرا مايغفل عن ذلك ومن ذلك أن يعلم فى ذى ولاية قادحا فيجب عليه ذكره ذلك لمن يقدر على عزله وتولية غيره أو على نصحه وحثه علي الاستقامة الخامس أن يتجاهر بفسقه أو بدعته كالمكاسين وشربة الخمر ظاهرا وذى الولايات الباطلة فيجوز ذكرهم بما يتجاهرون به دون غيره ، فيحرم ذكرهم بعيب آخر إلا أن يكون له سبب آخر مما مر . السادس التعريف بنحو لقب كالأعمش والأصم والأقرع والأعور وإن أمكن تعريفه بغيره وتعريفه به على جهة التعريف لاالتنقيص والأولى بغيره إن سهل ، وأكثر هذه الأسباب الستة مجمع عليه ويدل لها من السنة أحاديث صحيحة مشهورة .

﴿ فروع ﴾ :(الأول) سئل حجة الإسلام الغزالى مصنف هذا الكتاب عن غيبة الكافر ، فقال هي فى حق المسلم محذورة لثلاث علل : الإيذاء ، وتنقيص ماخلقه الله تعالى ، وتضييع الوقت بما لايعنى . والأولى تقتضى التحريم ، والثانية الكراهة ، والثالثة خلاف الأولى . وأما الذمي فكالمسلم فيما يرجع إلي المنع من الإيذاء ، لأن الشرع عصم دمه وعرضه وماله . قال الزركشى فى الخادم :

والأولى هو الصواب . وقدقال عليه الصلاة والسلام « من سمع : أي أسمع يهوديا أونصرانيا مايؤذيه فله النار » ولا كلام بعد هذا لظهور دلالته على الحرمة . وأما الحربى فليس بمحرم على الأولى ، ويكره على الثانية والثالثة . وأما المبتدع فإن كفر فكالحربى وإلا فكالمسلم ، وأما ذكره ببدعته فليس مكروها .

(الثانى) قد يتوهم من حد الغيبة أنها تختص باللسان وليس كذلك إذ علة التحريم الإيذاء وهذا موجود حيث أفهمت الغير مايكرهه المغتاب ولو بتعريض وفعل وإشارة وإيماء وغمز ورمز وكتابة بلا خلاف كما قاله النووى ، وكذا سائر مايتوصل به إلى فهم المقصود كأن يمشي مشيته ، بل هو أعظم كما قاله الغزالى لأنه أبلغ من التصريح والتفهيم وأنكى للقلب ، والغيبة بالقلب هي أن تظن به السوء وتصمم عليه بقلبك من غير أن تستند فى ذلك إلى مسوغ شرعى فهذا هو الذى يتعين أن يكون مرادهم بالغيبة بالقلب ، وأما مجرد الحكاية عن مبهم لمخاطبك لكنه معين عندك فليس فيه ذلك الاعتقاد والتصميم فافترقا ، ثم رأيته صرح به فى الإحياء .

ومن أخبث أنواع الغيبة مايقع لبعض المرائين من أن يذكر عنده غيره ، فيقول : الحمد لله الذي ما ابتلانا بقلة الحياء أو بالدخول على السلاطين ، وليس قصده بدعائه إلا أن يفهم عيب ذلك الغير ، وقد يزيد خبثه فيقدم مدحه حتي يظهر تنصله فى الغيبة فيقول كان فلان مجتهدا فى العبادة أو العلم لكنه فتر وابتلى بما ابتلينا به كلنا ، وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده ذم غيره والتمدح بالتشبه بالصالحين فى ذم نفوسهم فيجمع بين ثلاث فواحش : الغيبة ، والرياء ، وتزكية النفس ، بل أربعة لأنه يظن بجهله أنه مع ذلك من الصالحين المتعففين عن الغيبة ، ومنشأ ذلك الجهل ، فإن من تعبد على جهل لعب به الشيطان وضحك عليه وسخر به فأحبط عمله وضيع تعبه وأرداه إلى دركات البوار والضلال، ومن ذلك أن يقول : ساءنى ماوقع لصديقنا من كذا ، فنسأل الله أن يعافيه وهو كاذب وما درى الجاهل أن الله مطلع على خبث ضميره وأنه قد تعرض بذلك لمقت الله أعظم مما يتعرض له الجهال إذا جاهروا به ، ومن ذلك الإصغاء للمغتاب على جهة التعجب ليزداد نشاطه واسترساله فى الغيبة وما درى الجاهل أن التصديق بالغيبة غيبة بل الساكت عليها شريك المغتاب ، كما فى خبر « المستمع أحد المغتابين » فلا يخرج عن الشركة إلا إن أنكر بلسانه ولو بأن يخوض فى كلام آخر فإن عجز فبقلبه ، ويلزمه مفارقة المجلس إلا لضرورة ولا ينفعه أن يقول بلسانه أو يشير بنحو يده اسكت وقلبه مشته لاستمراره فيها . وفى الحديث « من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » .

(الثالث) البواعث على الغيبة كثيرة ، وهى : عامة وخاصة ، فالعامة إما تشفى الغيظ بذكر مساوى من أغضبه ، وقد لا يشفيه ذلك فيحتقن الغضب فى باطنه ويصير حقدا ثابتا ، فيكون سببا دائما ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة ، وأما موافقة الإخوان ومجاملتهم بالاسترسال معهم فيما هم فيه أو إبداء نظير ماأبدوه خشية أنه لوسكت وأنكر استثقلوه ونفروا عنه ويظن لجهله أن هذا من المجاملة فى الصحبة ، بل وقد يغضب لغضبه إظهارا للجاهلية فى السراء والضراء

وَبَلَغَنَا عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ إِنَّ فُلَانًا اغْتَابَكَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِطَبَقٍ فِيهِ رُطَبٌ وَقَالَ بَلَغَنِي أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتِكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُكَافِئَكَ . وَذُكِرَتِ الْغِيبَةُ عِنْدَ ابْنِ الْمُبَارَكِ

فيخوض معهم فى ذكر المساوى والعيوب فيهلك ، وإما أن يستشعر من غيره أنه يريد تنقيصه أو الشهادة عليه عند كبير فيسبقه بذكر مساويه عند ذلك الكبير ليسقطه من عينه ، وربما روج كذبه بأن يبدأ بذكر الصدق من عيوبه ثم يتدرج إلى غيره ليشهد بصدقه فى ذلك أنه صادق فى الكل ، وإما أن ينسب لقبيح فيبرأ منه بأن فاعله فلان وهو قبيح . وأما التصنع كفلان جاهل فهمه ركيك تدريجا لإظهار فضله وسلامته عن مثل ذلك . وأما الحسد لثناء الناس عليه ومحبتهم له فيريد أن يغضبهم إليه بالقدح فيه ، وأما اللعب فيذكر من غيره ما يضحك به الناس ، وأما السخرية فى غيبته وكذا فى حضرته تحقيرا له والخاصة وهي أشر وأخبث . أما التعجب من فعل غيره منكرا ، كأن يقول : ما أعجب ما رأيت من فلان أو عجيب من فلان كيف يحب أمته وهي قبيحة ! أو كيف يقرأ على فلان الجاهل فهو وإن صدق إلا أنه كان غنيا عن ذكره باسمه ، وأما الاغتمام مما ابتلى به كان يقول : مسكين فلان ساءتنى بلواه بكذا فهو وإن صدق فى اغتمامه لكن من حقه أن لا يذكر اسمه . وأما الغضب من أجل مقارفة غيره لمنكر فيظهر غضبه لله ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف ولا يظهره على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره فهذه الثلاثة مما يغمض إدراكها على العلماء فضلا عن العوام لظنهم أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله كان عذرا فى ذكر الاسم وهو خطأ ، بل الرخص فى الغيبة الأعذار السابقة فقط ، والفرض أنه لا شيء منها هنا ، كذا ذكره العلامة بابصيل (وبلغنا عن الحسن) البصرى رحمه الله تعالى (أنه قيل له يا أبا سعيد) كنية الحسن (إن فلانا اغتابك فبعث) أى أرسل (إليه) الحسن (بطبق) وهو الذى يؤكل عليه . وفى المصباح : الطبق من أمتعة البيت ، والجمع أطباق مثل سبب وأسباب ، وطباق أيضا مثل جبل وجبال (فيه) أى فى الطبق (رطب . وقال) الحسن (بلغنى أنك أهديت إلي حسناتك فأحببت أن أ كافئك) أى أجازيك عليها فاعذرني فإنى لا أقدر أن أ كافئك على التمام ، هكذا أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، ونقله فى الإحياء (وذكرت الغيبة عند) أبى عبدالرحمن عبد الله (بن المبارك) بن الواضح الحنظلى مولاهم المروزى الإمام المجمع على إمامته وجلالته فى كل شيء ، الذى تتنزل الرحمة بذكره ، وترتجى المغفرة بحبه ، وهو من تابعى التابعين سمع هشام بن عروة الأنصارى وسليمان التيمى وحميدا الطويل وإسماعيل ابن أبى خالد وعبد الرحمن بن يزيدبن جابر والأعمش وابن عون وموسى بن عقبة وجماعات وغيرهم من التابعين وخلائق غيرهم من أتباع التابعين : منهم سفيانان ومالك وشعبة والحمادان ومعمر ، وآخرون لا ينحصرون ، روي عنه الثورى وجعفر بن سليمان وداود العطار وأبو الأحوص والفضيل

ابن عياض وأبو إسحاق الفزارى وأبو داود الطيالسى ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ويحي القطان وابن مهدى وابن وهب وعبد الرزاق وخلائق غيرهم ، وكان أبوه تركيا مملوكا لرجل من همدان ؛ وأمه خوارزمية . قال أبو أسامة : ما رأيت أطلق للعلم من ابن المبارك فى الشام ومصر واليمن والحجاز ، روينا عن الحسن بن عيسى قال : اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك ، فقالوا تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير ، فقالوا : جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والورع والإنصاف وقيام الليل والعبادة والشدة فى رأيه وقلة الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه ، وكان كثيرا ما يتمثل بهذين البيتين :

وإذا صاحبت فاصحب صاحبا　　ذا حياء وعفاف وكرم

قائلا للشئ لا إن قلت لا　　وإذا قلت نعم قال نعم

وقال العباس بن مصعب : جمع ابن المبارك الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء والتجارة والمحبة عند الفرق . وقال سفيان بن عيينة حين توفى ابن المبارك رحمه الله كان فقيها عالما عابدا زاهدا سخيا شجاعا ، وقال عمار بن الحسن يمدحه ببيتين :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة　　فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأحبار من كل بلدة　　فهم أنجم فيها وأنت هلالها

قال المعتمر بن سليمان : ما رأيت مثل ابن المبارك يصاب عنده الشئ الذى لا يصاب عند أحد . وقال عبد الرحمن بن مهدى : حدثنى ابن المبارك وكان نسيج وحده . وقال هو أفضل من الثورى فقيل له إن الناس يخالفونك ، فقال إن الناس لم يجربوا ، ما رأيت مثل ابن المبارك . وقال أيضا الأئمة أربعة : الثورى ، ومالك ، وحماد بن زيد ، وابن المبارك . وقال الأوزاعى لأبي عثمان الكلابى لو رأيت ابن المبارك لقرت عينيك ، وقال أبو إسحاق الفزارى : ابن المبارك إمام المسلمين . وقال أبو أسامة : ابن المبارك فى أصحاب الحديث كأمير المؤمنين فى الناس . قال أحمد بن حنبل : لم يكن فى زمن ابن المبارك أطلب للعلم منه ، رحل إلى اليمن ومصر والشام والبصرة والكوفة ، وكان من رواة العلم وأهل ذلك ، كتب عن الصغار والكبار ، وجمع أمرا عظيما وكان صاحب حديث حافظا وقال عبد الرحمن بن أبي جميل : قلنا لابن المبارك يا عالم المشرق حدثنا فسمعنا سفيان فقال ويحكم عالم المشرق والمغرب وما بينهما . وقال شعيب بن حرب : كنا نأتي ابن المبارك نحفظ عنه فما نستطيع أن نتلقق عليه بشئ . وروينا عن عشير بن القاسم قال : لما قدم ابن المبارك وهارون الرشيد بالرقة أشرفت أم ولد له من قصر ، فرأت الغبرة قد ارتفعت والنعال قد تقطعت وانجفل الناس ، فقالت من هذا ؟ فقالوا عالم من خراسان يقال له ابن المبارك ، فقالت هذا والله الملك لا الملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بالسوط والخشب . وقال أسود بن سالم : كان ابن المبارك إماما يقتدى به وهو من أثبت الناس فى السنة . وقال محمد بن سعد : طلب ابن المبارك العلم وروى رواية كثيرة وصنف كتبا كثيرة فى أبواب العلم وصنوفه ، وقال الشعر فى الزهد والحث على الجهاد ، وسمع علما

فَقَالَ : لَوْ كُنْتُ مُغْتَابًا أَحَدًا لَاغْتَبْتُ أُمِّي لِأَنَّهَا أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي ، وَذُكِرَ أَنَّهُ فَاتَ حَاتِمًا الْأَصَمَّ لَيْلَةً الْقِيَامُ فَعَيَّرَتْهُ زَوْجَتُهُ ، فَقَالَ إِنَّ أَقْوَامًا صَلَّوْا بِاللَّيْلِ الْبَارِحَةَ ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا نَالُوا مِنِّي ، فَتَكُونُ صَلَاتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِيزَانِي .

وَالْأَصْلُ الرَّابِعُ : السَّلَامَةُ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا عَلَى مَا قَالَ سُفْيَانُ : لَا تَتَكَلَّمْ بِلِسَانِكَ مَا تَكْسِرُ بِهِ أَسْنَانَكَ . وَقَالَ الْآخَرُ: لَا تَبْسُطَنَّ لِسَانَكَ فَيُفْسِدُ عَلَيْكَ شَأْنَكَ،

كثيرا . وكان ثقة مأمونا حجة كثير الحديث ، توفى بهيت منصرفا من الغزو سنة إحدى وثمانين ومائة وهو ابن ثلاث وستين سنة . وقال البخارى : توفى فى رمضان من السنة المذكورة . قال العلامة عبد الحق : هيت مدينة معروفة على الفرات فوق الأنبار . قال الخطيب : حدث عن ابن المبارك معمر والحسين بن داود ، وبين وفاتيهما مائة واثنتان وثلاثون سنة . وقيل مائة وثلاثون سنة ، كذا نقله صاحب سراج السالكين عن تهذيب الأسماء (فقال) ابن المبارك (لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت أمى لأنها) وفى الرسالة لأبي القاسم القشيرى والدى لأنهما (أحق أن تأخذ (بحسناتي) أو آخذ من سيئاتها يوم القيامة كما فى شرح الإحياء (وذكر أنه فات حاتم الأصم) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان ، ويقال حاتم بن يوسف الأصم من أكابر مشايخ خراسان ، وكان تلميذ شقيق ، وأستاذ أحمد بن خضرويه . مات سنة سبع وثلاثين ومائتين؛ وقد سبق ذكر ترجمته رحمه الله تعالى (ليلة) من الليالى (القيام) أى صلاة الليل (فعيرته) أى عيبته (زوجته ، فقال) حاتم الأصم (إن أقواما صلوا بالليل البارحة) أى أقرب ليلة مضت، قال عبد الحق: والبارحة الأولى لليلة التى قبلها ، وهو من برح : أى زال ، والعرب تقول بعد الزوال . فعلنا البارحة كذا ، وقبل الزوال : فعلنا الليلة كذا (فلما أصبحوا) أى دخلوا فى الصباح (نالوا منى) أى اغتابونى (فتكون صلاتهم) أى ثواب صلاة هؤلاء القوم (يوم القيامة فى ميزانى) أى ميزان حسناتى .

﴿ والأصل الرابع ﴾ من الأصول الخمسة (السلامة من آفات الدنيا على ما قال) أبو عبد الله (سفيان) بن سعيد الثورى الكوفى ، الإمام الجامع لأنواع المحاسن ، وهو من تابع التابعين ، ولد سنة سبع وتسعين ، وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة رضى الله تعالى عنه (لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك . وقال الآخر: لا تبسطن) أى ترسلن (لسانك فيفسد عليك شأنك) ولله در القائل :

لا تنطقن بما كرهت فربما نطق اللسان بحادث فيكون

وقال بعض الحكماء : ست خصال يعرف بهن الجاهل أحدها الغضب فى غيرشىء يعنى يغضب على ابن آدم وعلى الحيوان وعلى كل شيء يستقبله منه مكروه ، فهذا من علامة الجهل . والثانى فى غير نفع ؛ فينبغى للعاقل أن لا يتكلم بكلام لا فائدة له فيه ، وينبغى له أن يتكلم بكل كلام فيه منفعة

وَأَنْشَدُوا :

أَحْفَظْ لِسانَكَ لاَ تَقُولُ فَتُبْتَلَى إِنّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ

وَلِابْنِ الْمُبَارَكِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ :

أَلاَ أحفَظْ لِسَانَكَ إِنّ اللِّسَانَ سَرِيعٌ إِلى الْمَرْءِ فى قَتْـلِهِ

وَإِنَّ اللِّسَانَ دَلِيلُ الْفُؤَادِ يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْـلِهِ

وَلِابْنِ الْمُطِيعِ رَحِمَهُ اللّٰهُ :

لِسَـانُ المرْءِ لَيْثٌ فى كَمِينٍ إِذَا خَلَّى عَلَيْهِ لَهُ إِغَارَهْ

فى أمر دنياه وآخرته . والثالث العطية فى غير موضع يعنى يدفع ماله إلى من لا يكون له فى ذلك أجر وهو علامة الجهل . والرابع إفشاء السر عند كل أحد . والخامس الثقة بكل إنسان . والسادس أن لا يعرف صديقه من عدوه ، يعنى أن الرجل ينبغى له أن يعرف صديقه فيطيعه ويعرف عدوه فيحذره (وأنشدوا) فى معنى ذلك من بحر الكامل (احفظ لسانك لا تقول) أى لا تتكلم (فتبتلى * إن البلاء موكل بالمنطق) مصدر ميمى : أى النطق (ولابن المبارك رضى الله عنه) من بحر المتقارب (ألا احفظ لسانك إن اللسان * سريع إلى المرء في قتله . وإن اللسان دليل الفؤاد) أى يدل على ما فى القلب (يدل) أى اللسان (الرجال على عقله) ولبعضهم :

يموت الفتى من عثرة من لسانه وعثرته بالرجل تبرى على مهل

ولآخر :

احفظ لسانك واستعذ من شره إن اللسان هو العـدو الذابح

وزن الكلام إذا نطقت بمجلس وزنا يلوح به الصواب اللائح

فالصمت من سعد السعود بمطلع يحمى الفتى والنطق سعد الذابح

(ولابن أبى المطيع) شعر من بحر الوافر (رحمه الله) وفى نسخة: عن ابن المطيع، وفى أخرى لابن مطيع ، وهو عبد الله بن مطيع بن الأسـود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عريج ابن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى المدنى ، ولد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولأبيه صحبة كان من رجال قريش جلدا وشجاعة ؛ كان على قريش يوم الحرة وقتل مع ابن الزبير بمكة ، وكان قد استعمله على الكوفة ، روى له مسلم حديثا واحدا ، كذا قاله الزبيدى (لسان المرء ليث) أى كأنه أسد (فى كمين) فى المغرب كمن كمونا : توارى واستخفى، ومنه الكمين من حيل الحرب وهو أن يستخفوا فى مكمن لا يفطن لهم انتهى (إذا خلى عليه) أى المرء (له) أى للمرء متعلق قوله (إغاره) أى أوقع اللسان صاحبه فى الإغارة ، في لسان العرب الإغارة المصدر والغارة

فَصُنْهُ عَنِ الْخَنَا بِلِجَامِ صَمْتٍ ... يَكُنْ لَكَ مِنْ بَلِيَّاتٍ سِتَارَهْ

وَفِى الْمَثَلِ السَّائِرِ : رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ لِصَاحِبِهَا : دَعْنِي ، نَسْأَلُ اللهَ التَّوْفِيقَ بِرَحْمَتِهِ .

الْأَصْلُ الْخَامِسُ : ذِكْرُ آفَاتِ الْآخِرَةِ وَعَوَاقِبِهَا ، وَأَذْكُرُ فِيهِ نُكْتَةً وَاحِدَةً ، وَهِيَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ تَقُولَ قَوْلًا مَحْظُورًا حَرَامًا أَوْ قَوْلًا مُبَاحًا مِنْ فُضُولٍ لَا يَعْنِيكَ ، فَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا حَرَامًا فَفِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى الَّذِى لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ ، فَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ فِى النَّارِ قَوْمًا يَأْكُلُونَ الْجِيَفَ ، فَقُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَنْ هٰؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ » .

الاسم من الاغارة على العدو ، وفى المصباح أغار على العدو : هجم عليهم ديارهم وأوقع بهم (فصنه) أي احفظه (عن الخنا) أي الفحش من الكلام (بلجام صمت) فى مختار الصحاح صمت : سكت وبابه نصر وصماتا وصمتانا أيضا بالضم (يكن لك من بليات ستاره) الستارة مايستر به (وفى المثل السائر) أى الجارى بين الناس (رب كلة تقول لصاحبها : دعنى) أى اتركنى ، وهذا يضرب فى النهى عن الإكثار مخافة الإهجار. ذكروا أن ملكا من ملوك حمير خرج متصيدا ومعه نديم وكان يقربه ويكرمه فأشرف على صخرة ملساء ووقف عليها فقال له النديم لو أن إنسانا ذبح على هذه الصخرة إلى أين كان يبلغ دمه ؟ فقال الملك : اذبحوه عليها ليرى دمه أين يبلغ فذبح عليها ، فقال الملك : رب كلة تقول لصاحبها : دعنى (نسأل الله التوفيق برحمته . الأصل الخامس) وهذا آخر الأصول الخمسة (ذكر آفات الآخرة وعواقبها ، وأذكر فيه) أى فى هذا الأصل الخامس (نكتة واحدة وهى) أى هذه النكتة (أنه) أى الحال والشأن (لايخلو إما أن تقول قولا محظورا حراما) تفسير للمحظور (أو قولا مباحا من فضول لايعنيك فإن كان) القول (محظورا حراما ففيه) أى في المحظور (من عذاب الله تعالى الذي لاطاقة) أى لا قوة (لك به) أى بالعذاب (فقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «ليلة أسرى بى رأيت فى النار قوما يأكلون الجيف) جمع جيفة ، وهى جثة الميت (فقلت : يا جبريل من هؤلاء) الذين يأكلون الجيف ؟ (قال) جبريل عليه السلام (هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس) ويقعون فى أعراضهم» . وفى رواية رواها أبو سعيد الخدرى قال : « هؤلاء من أمتك الهمازون اللمازون» . وروى ابن أبى الدنيا فى الصمت قال : حدثنى أبو بكر محمد بن أبى عتاب ، حدثنا عبد القدوس أبو المغيرة ، عن صفوان ابن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم » . وقال أيضا حدثنا حسين

وَلَقَدْ قالَ صلّى اللّهُ عليهِ وسَلَّمَ لِمُعاذٍ : «اُقْطَعْ لِسانَكَ عَنْ حَمَلَةِ القُرْآنِ وَطُلاَّبِ العِلْمِ ، وَلاَ تُمَزِّقِ النّاسَ بِلِسانِكَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ النّارِ » .

ابن مهدى ، حدثنا عبد القدوس أبو المغيرة ، حدثنا صفوان بن عمرو السكسكى ، حدثنى راشد ابن سعد وعبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : «من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة ، فقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فيضج ويكلح : أى يعبس وجهه» رواه بن أبى الدنيا هكذا موقوفا (ولقد قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم لمعاذ) هو بالذال المعجمة أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى الخيثمى المدنى الفقيه الفاضل الصالح أسلم معاذ وهو ابن ثمان عشرة سنة ، وشهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار ، ثم شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود ، وروى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة حديث وسبعة وخمسون حديثا اتفق البخارى ومسلم على حديثين ، وانفرد البخارى بثلاث ، ومسلم بحديث . روى عنه ابن عمر وابن عباس وابن عمرو ابن العاصى وأبو قتادة وجابر وأنس وأبو ثعلبة وعبد الرحمن بن سمرة وآخرون من الصحابة رضى الله عنهم وخلائق من التابعين ، توفى فى طاعون عمواس بالشام سنة ثمان عشرة ، وقيل سبع عشرة . والصحيح الأول ، وقبره فى مشاق غورسيان ، وعمواس التى نسب إليها الطاعون بين الرملة وبيت المقدس نسب الطاعون إليها ؛ لأنه بدأ منها وهو بفتح العين والميم ، وتوفى شهيدا فى الطاعون وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل أربع وثلاثين ، وقيل ثمان وثلاثين . وعن جابر ابن عبد الله قال : كان معاذ من أحسن الناس وجها وخلقا وأسمحهم كفا ، ولما وقع الطاعون بالشام قال معاذ : اللهم أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذا ، فطعنت له امرأتان فماتتا ، ثم طعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم طعن معاذ فجعل يغشى عليه فإذا أفاق قال : رب غمنى غمك فوعزتك إنك لتعلم أنى أحبك ثم يغشى عليه ، فاذا أفاق قال مثله ؛ ولما حضرته الوفاة قال : مرحبا بالموت مرحبا زائرا حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى أخافك وأنا اليوم أرجوك أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ، وأحوال معاذ كثيرة ومناقبه غير محصورة رضى الله عنه (اقطع لسانك عن) الوقيعة فى إخوانك من (حملة القرآن) يعنى من حفظ مبانيه وعرف معانيه وعمل بأوامره ونواهيه (وطلاب العلم) أى والناس عامة (ولا تمزق الناس بلسانك) أى لاتطعن فى عرضهم ولاتغتب ولاتشتم (فتمزقك) أى تشققك (كلاب النار) أى

وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ : إِنَّ فِي الْغِيبَةِ خَرَابَ الْقَلْبِ مِنَ الْهُدَى ، فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعِصْمَةَ مِنْ ذٰلِكَ بِفَضْلِهِ هٰذَا فِي الْكَلَامِ الْمَحْظُورِ . وَأَمَّا الْمُبَاحُ فَفِيهِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ : أَحَدُهَا : شَغْلُ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ بِمَا لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا فَائِدَةَ ، وَحَقَّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَسْتَحِيَ مِنْهُمَا فَلَا يُؤْذِيهِمَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »

جهنم يوم القيامة في النار . قال الله تعالى « والناشطات نشطا » هل تدرى ماهن يا معاذ؟ قلت ماهى بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم: كلاب فى النار تنشط اللحم من العظم قلت بأبي وأمي يا رسول الله من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها ؟ قال : يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ، إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ماتحب لنفسك ، وتكره لهم ماتكره لنفسك فإذن أنت يامعاذ قد سلمت » وهذا الحديث رواه ابن المبارك عن خالد بن معدان

(وعن أبى قلابة) بكسر القاف البصرى الجرمي طلب للقضاء فهرب إلى الشام ، وهو عبد الله ابن زيد كان رأسا فى العلم والعمل ، مات بالشام سنة مائة وست . والجرمي بفتح الجيم والراء كما فى سراج السالكين (أنه قال : إن فى الغيبة خراب القلب) أى فساده (من الهدى ، فنسأل الله تعالى العصمة) والحفظ (من ذلك) أى خراب القلب من الهدى (بفضله) ومنه (هذا) المذكور من العذاب الذى لاطاقة لك به (فى الكلام المحظور . وأما المباح) من الكلام (ففيه أربعة أمور : أحدها شغل) الملائكة (الكرام) على الله (الكاتبين) للأعمال فى الصحف كما تكتب الشهود من الناس ليقع الجزاء على غاية التحرير ، وتعظيم الكتبة بكونهم كراما عند الله لتعظيم الجزاء لأن تعظيمهم يدل على تعظيم شغلهم وهو ضبط الأعمال ، فيدل على تعظيم جزائها ، إذ لو لم يكن مايترتب على الأعمال عظيما لم يكن ضبطها وكتبها عظيما كما أفاده بعض المفسرين (بما لاخير فيه) متعلق بالشغل (ولا فائدة ، وحق) أى وجب (للمرء أن يستحى منهما) أى الملكين الكاتبين للأعمال (فلا يؤذيهما) بما لاخير فيه ولا نفع (قال الله تعالى : مايلفظ من قول) أى مايتكلم العبد من كلام يخرج من فيه (إلا لديه) أى عنده (رقيب) أى ملك يرقب عمله (عتيد) أى حاضر أينما كان سوى وقت الغائط ، وعند جماعه فانهما يتأخران عنه فلا يجوز للانسان أن يتكلم فى هاتين الحالتين حتى لايؤذى الملائكة بدنوهما منه وهو على تلك الحالة حتى يكتبا مايتكلم به . قيل إنهما يكتبان عليه كل شىء يتكلم به حتى أنينه فى مرضه وقيل لايكتبان إلا ماله أجر وثواب أو عليه وزر وعقاب . وقيل إن مجلسهما تحت الشعر على الحنك ، وكان الحسن البصرى يعجبه أن ينظف عنفقته . روى البغوى بإسناد الثعلبي عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر »

وَالثَّانِي إِرْسَالُ كِتَابٍ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ اللَّغْوِ وَالْهَذَرِ ، فَلْيَحْذَرِ الْعَبْدُ مِنْ ذَلِكَ وَلْيَخْشَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ .

وَذُكِرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ يَتَكَلَّمُ بِالْخَنَا ، فَقَالَ : يَا هٰذَا وَيْحَكَ ، إِنَّمَا تُمْلِي كِتَابًا إِلَى رَبِّكَ فَانْظُرْ مَاذَا تُمْلِي ؟ وَالثَّالِثُ قِرَاءَتُهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ بَيْنَ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ ، عَطْشَانَ عُرْيَانَ جَيْعَانَ مُنْقَطِعًا عَنِ الْجَنَّةِ مَحْبُوسًا عَنِ النِّعْمَةِ . وَالرَّابِعُ : اللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ بِمَاذَا قُلْتَ ، وَانْقِطَاعُ الْحُجَّةِ ، وَالْحَيَاءُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ، فَقَدْ قِيلَ : إِيَّاكَ وَالْفُضُولَ ، فَإِنَّ حِسَابَهُ يَطُولُ ، وَكَفَى بِهٰذِهِ الْأُصُولِ وَاعِظًا لِمَنِ اتَّعَظَ ، وَقَدْ بَسَطْنَا فِي كِتَابِ [أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ] مَا فِيهِ مَقْنَعٌ فَانْظُرْ مَا فِيهِ تَجِدِ الشِّفَاءَ .

(والثانى) من الأمور الأربعة (إرسال كتاب إلى الله سبحانه وتعالى من اللغو والهذر) أى الكلام الساقط والباطل. وفى القاموس وغيره : هذر كلامه كفرح : كثر فى الخطأ والباطل ، والهذر محركة : الكثير الردىء، أو سقط الكلام الذى لا يعبأ به ، هذر فى منطقه يهذر هذرا وتهذرا وأهذر هذى : أى خلط وتكلم بما لا ينبغى (فليحذر العبد من ذلك) أى إرسال الكتاب الذى فيه اللغو والهذر (وليخش الله عز وجل . وذكر أن بعضهم) أى السلف الصالحين (نظر إلى رجل يتكلم بالخنا) أى الفحش (فقال) البعض (ياهذا) أى المتكلم (ويحك إنما تملى) أى تقرئ (كتابا إلى ربك فانظر ماذا) أى أى شيء (تملى) إليه تعالى . (والثالث) من الأمور الأربعة (قراءته) أى كتاب أعمالك (بين يدي الملك الجبار) جل جلاله (يوم القيامة على رءوس الأشهاد) أى حضرتهم ؛ والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب، والمراد من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين (بين الشدائد والأهوال) عطف تفسير (عطشان) أى ذا عطش (عريان) نقيض اللابس (جيعان منقطعا عن الجنة محبوسا عن النعمة . والرابع) هذا آخر الأمور الأربعة (اللوم) أى العذل ، يقال : لامه لوما من باب قال : عذله فهو ملوم على النقص ، والفاعل لائم ؛ والجمع لوم مثل راكع وركع ، كما فى المصباح (والتعيير) أى التقبيح (بماذا) أى بأى شيء (قلت ، وانقطاع الحجة والحياء من رب العزة) سبحانه وتعالى (فقد قيل) أى قاله بعضهم (إياك) أى احذر (والفضول) وهو مالا ينفع فى الدارين من قول أو فعل (فان حسابه يطول ، وكفى بهذه الأصول) الخمسة (واعظا لمن اتعظ) وتذكر (وقد بسطنا فى كتاب أسرار معاملات الدين) من الإحياء (مافيه مقنع) أى كاف (فانظر مافيه) أى فى الكتاب (تجد الشفاء) والبيان وقد لقطنا عبارته قليلا فى أثناء كلامه هنا قصدا للاختصار والإيجاز كما هو شرط هذه التعليقات فى أول هذا المختصر .

[خاتمة] نسأل الله حسن الختام . يتعين عليك معرفة علاج الغيبة ، وهو إما إجمالي بأن تعلم أنك قد تعرضت بها لسخط الله تعالى وعقوبته كما دلت عليه الآية والأخبار ، وأيضا فهي تحبط حسناتك فاحذر أن تكون سببا لفناء حسناتك وزيادة سيئاتك فتكون من أهل النار ، وقد ورد في الخبر « ماالنار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد » ومن ثم قال رجل للحسن البصري : بلغني أنك تغتابني ؟ فقال مابلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي ، ومما ينفعك أيضا أنك تتدبر في عيوبك وتجتهد في الطهارة منها لتدخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » وتستحي من أن تذم غيرك بما أنت متلبس به أو بنظيره ، فإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق ، إذ من ذم صنعة ذم صانعها ، وأن تعلم أن تأذى غيرك بالغيبة كتأذيك بها فكيف ترضى لغيرك ماتتأذى به . وإما تفصيلي بأن تنظر في باعثها فتقطعه من أصله ، إذ علاج العلة إنما يكون بقطع سببها ، ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة بشروطها المقررة في بابها . قال أبو الليث السمرقندي : قد تكلم العلماء في توبة المغتاب هل تجوز من غير أن يستحل من صاحبه . قال بعضهم : يجوز . وقال بعضهم : لا يجوز مالم يستحل من صاحبه ، وهو عندنا على وجهين إن كان ذلك القول قد بلغ إلى الذي اغتابه فتوبته أن يستحل منه وإن لم يبلغ فليستغفر الله تعالى ويضمر أن لا يعود إلى مثله . وروى أن رجلا أتى ابن سيرين فقال : إني اغتبتك فاجعلني في حل ، فقال وكيف أحل ما حرم الله فكأنه أشار اليه بالاستغفار والتوبة إلى الله تعالى مع استحلاله منه ، فإن لم تبلغ إلى صاحبه تلك الغيبة فتوبته أن يستغفر الله تعالى ويتوب إليه ولا يخبر صاحبه فهو أحسن لكيلا يشتغل قلبه به ، والأصح كما قال العلامة بابصيل : أنه لابد من الاستحلال . وزعم بعضهم أن العرض لا عوض له فلايجب الاستحلال منه بخلاف المال مردود بأنه وجب في العرض حق حد القذف ، وفي الحديث الصحيح « الأمر بالاستحلال من المظالم قبل يوم لا درهم فيه ولا دينار ، وإنما هي حسنات الظالم تؤخذ للمظلوم وسيئات المظلوم تطرح على الظالم » فتعين الاستحلال ، نعم الغائب والميت ينبغي أن يكثر لهما من الاستغفار والدعاء ، ويندب لمن سئل في التحليل : وهو العفو أن يحلل ولا يلزمه لأن ذلك تبرع منه وفضل ، وكان جمع من السلف يمتنعون من التحليل ، ولو أنه قال بهتانا لم يكن ذلك فيه فإنه يحتاج إلى التوبة في ثلاثة مواضع : أحدها أن يرجع إلى القوم الذين تكلم بالبهتان عندهم ويقول إني قد ذكرت عندكم فلانا بكذا وكذا فاعلموا أني كاذب في ذلك . والثاني أن يذهب إلى الذي قال عليه البهتان ، ويطلب منه أن يجعله في حل . والثالث أن يستغفر الله تعالى ويتوب إليه فليس شيء من الذنوب أعظم من البهتان فإن سائر الذنوب تحتاج إلى توبة واحدة . وفي البهتان يحتاج إلى التوبة في ثلاثة مواضع ، وقد قرن الله تعالى البهتان بالكفر ، فقال تعالى « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » ويقال لا تكون الغيبة إلا في قوم معلومين حتى لو ذكر أهل مصر من الأمصار ؛ فقال هم بخلاء أو قوم سوء لا يكون غيبة لأن فيهم البر والفاجر وعلم أنه لم يرد به الجميع والكف عن ذلك أفضل ،

وذكر عن بعض الزهاد أنه اشترى قطنا لامرأته ، فقالت المرأة : إن باعة القطن قوم سوء قد خانوك في هذا القطن فطلق الرجل امرأته ، فسئل عن ذلك فقال : إني رجل غيور فأخاف أن يكون القطانون كلهم خصماءها يوم القيامة فيقال إن امرأة فلان تعلق بها القطانون فلأجل ذلك طلقتها . وقال : «ثلاثة لا يكون غيبتهم غيبة: سلطان جائر وفاسق معلن وصاحب بدعة» يعني إذا ذكر فعلهم ومذهبهم ، ولو ذكر شيئا من أبدانهم بعيب فيهم لكان ذلك غيبة ، ولكن إذا ذكر فعلهم ومذهبهم فلا بأس لكي يحذرهم الناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اذكروا الفاجر بما فيه لكي يحذره الناس » . قال أبو الليث الغيبة على أربعة أوجه : في وجه هي كفر ، وفي وجه هي نفاق ، وفي وجه هي معصية ، والرابع مباح وهو مأجور ؛ فأما الوجه الذي هو كفر فهو أن يغتاب المسلم فيقال له لا تغتب فيقول ليس هذا غيبة وأنا صادق في ذلك فقد استحل ما حرم الله تعالى ومن استحل ماحرم الله تعالى صار كافرا نعوذ بالله ، وأما الوجه الذي هو نفاق فهو أن يغتاب إنسانا فلا يسميه عند من يعرف أنه يريد منه فلانا فهو يغتابه ويرى من نفسه أنه متورع فهذا هو النفاق . وأما الذي هو معصية ، فهو أن يغتاب إنسانا ويسميه ويعلم أنها معصية فهو عاص وعليه التوبة . والرابع أن يغتاب فاسقا معلنا بفسقه أو صاحب بدعة فهو مأجور لأنهم يحذرون منه إذا عرفوا حاله كما في الخبر السابق .

وحكي عن محمد بن إبراهيم السمرقندي: أن الأنبياء الذين لم يكونوا مرسلين عليهم الصلاة والسلام بعضهم كانوا يرون في المنام وبعضهم كانوا يسمعون الصوت ولا يرون شيئا وكان نبي من الأنبياء ممن يرى في المنام رأى ذات ليلة في المنام قيل له : إذا أصبحت فأول شيء يستقبلك فكله ، والثاني اكتمه ، والثالث اقبله . والرابع لا تؤيسه . والخامس اهرب منه ، فلما أصبح أول شيء استقبله جبل أسود عظيم ، فوقف وتحير وقال أمرني ربي أن آكله أآكل هذا ؟ ثم رجع إلى نفسه وقال إن ربي لا يأمرني بما لا أطيق ، فلما عزم على أكله ومشى إليه ليأكله ، فلما دنا منه صغر ذلك الجبل ، فلما انتهى إليه وجده لقمة أحلى من العسل فأكله وحمد الله تعالى ومضى فاستقبله طست من ذهب وقال أمرت بأن أكتمه ، فحفر بئرا في الأرض ودفنه فيها ومضى ، والتفت فإذا الطست فوق الأرض ، فرجع مرتين أو ثلاثا وهو يدفنه فيها ، ومضى فالتفت فإذا هو على وجه الأرض قال إني فعلت ما أمرت به ، فذهب فاستقبله طائر خلفه بازي يريد أن يأخذه ، فقال يا نبي الله أغثني ، فقبله وجعله في كمه فجاء البازي فقال يا نبي الله إني كنت جائعا وإني كنت في طلب هذا الصيد من منذ الغداء حتى أردت أخذه فلا تؤيسني من رزقي ، فقال في نفسه إني قد أمرت أن أقبل الثالث وقد قبلته ، وقد أمرت أن لا أؤيس الرابع والرابع هذا البازي فكيف أصنع ، فلما تحير في ذلك أخذ السكين وقطع من فخذ نفسه قطعة من لحم فرمي بها البازي حتى أخذها ومضى ثم أرسل الطائر ومضى، فرأى الخامس جيفة منتنة فهرب ، فلما أمسى قال يارب إني قد فعلت ما أمرتني فبين لي ما كان من أمر هذه الأشياء ، فرأى في منامه أنه قيل له: أما الأول الذي أكلته فهو الغضب يكون في الأول كالجبل وهو في آخره إذا صبر وكظم غيظه أحلى من العسل . والثاني فهو من

﴿ الفصل الرابع : القلب ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ بِحِفْظِهِ وَإِصْلَاحِهِ وَحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذَٰلِكَ وَبَذْلِ الْمَجْهُودِ ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُ هٰذِهِ الْأَعْضَاءِ خَطَرًا وَأَكْثَرُهَا أَثَرًا وَأَدَقُّهَا أَمْرًا وَأَشَقُّهَا إِصْلَاحًا وَأَصْعَبُهَا حَالًا ، وَأَذْكُرُ فِيهِ خَمْسَةَ أُصُولٍ مُقْنِعَةٍ : ﴿ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) كَمْ ذَكَرَهُ وَكَرَّرَ ذِكْرَهُ فِي الْقُرْآنِ ، وَكَفَى بِاطِّلَاعِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ تَحْذِيرًا وَتَهْدِيدًا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْعِبَادِ ، لِأَنَّ الْمُعَامَلَةَ مَعَ عَلَّامِ الْغُيُوبِ خَطَرٌ خَطِيرٌ ،

عمل حسنة فإن كتمه فإنه يظهر . والثالث من ائتمنك بأمانة فلا تخنه . وأما الرابع فإذا سألك إنسان حاجة فاجتهد فى قضائها وإن كنت محتاجا إليها . والخامس الغيبة فاهرب من الذين يغتابون الناس ، والله أعلم .

﴿الفصل الرابع﴾ من الفصول الخمسة (القلب) وهو كالراعى للجوارح ، فانبعاثها للطاعة أو ضدها من تلقائه ، ولا تحصل منها حركة أوسكون إلا وقدوقعت فيه إرادته والإقبال إليه بعد إرادته تعالى فتقوم به وتنشط لفعله إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما قال عليه الصلاة والسلام « ألا وإن فى الجسد مضغة » الحديث ، وكما قال القائل :

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت فى العبادة الأعضاء

(ثم عليك بحفظه وإصلاحه) أى القلب لتصلح به جوارحك (وحسن النظر فى ذلك) أى فى أمر القلب (وبذل المجهود ، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطرا وأكثرها) أى الأعضاء (أثرا) وفى نسخة : أشرا أى كفرانا للنعمة (وأدقها أمرا وأشقها إصلاحا وأصعبها حالا ، وأذكر فيه) أى فى هذا الفصل الرابع (خمسة أصول مقنعة) أى كافية لمن تأملها وتدبرها بخالص الفكر . ﴿ الأصل الأول ﴾ من هذه الخمسة (قوله تعالى: يعلم) الله (خائنة الأعين وما تخفى الصدور) أى القلوب (وقوله تعالى : والله يعلم مافى قلوبكم ، وقوله تعالي : إنه) عز وجل (عليم بذات الصدور) بالضمائر قبل أن يعبر عنها سرا وجهرا (كم ذكره) أى القلب (وكرر) تعالى (ذكره فى القرآن وكفي باطلاع العليم الخبير تحذيرا وتهديدا) أي تخويفا (للخواص من العباد لأن المعاملة) أى العبادة بمعنى عمل العبد لله فليست المفاعلة من الجانبين بل من جانب واحد إلا إن نظر لكون المولى يعامل عبده بالاثابة، كما أن العبد يعامل ربه بالعبادة فتكون من الجانبين (مع علام الغيوب خطر خطير) وفي أكثر النسخ خطيرة بدل خطر خطير : أى عظيمة كما فى سراج السالكين

فَانظُرْ مَاذَا يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِكَ .

﴿الْأَصْلُ الثَّانِي﴾ : قَوْلُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » فَالْقَلْبُ إِذَنْ مَوْضِعُ نَظَرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيَا عَجَبًا مِمَّنْ يَهْتَمُّ بِوَجْهِهِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ الْخَلْقِ فَيَغْسِلُهُ وَيُنَظِّفُهُ مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَدْنَاسِ وَيُزَيِّنُهُ بِمَا أَمْكَنَهُ لِئَلَّا يَطَّلِعَ مَخْلُوقٌ فِيهِ عَلَى عَيْبٍ وَلَا يَهْتَمُّ بِقَلْبِهِ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيُطَهِّرَهُ وَيُزَيِّنَهُ وَيُطَيِّبَهُ ، كَيْ لَا يَطَّلِعَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى دَنَسٍ فِيهِ وَشَيْنٍ وَآفَةٍ وَعَيْبٍ بَلْ يُهْمِلُهُ بِفَضَائِحَ وَأَقْذَارٍ وَقَبَائِحَ لَوِ اطَّلَعَ الْخَلْقُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا لَهَجَرُوهُ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُ وَطَرَدُوهُ ،

(فانظر ماذا) أى أى شئ (يعلم من قلبك . الأصل الثاني) من الأصول الخمسة (قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالي لا ينظر إلى صوركم) أى لا يجازيكم على ظاهرها (وأبشاركم) أي أبدانكم (وإنما ينظر إلى قلوبكم) أى إلي طهارة قلوبكم التى هى محل التقوى وأوعية الجواهر وكنز المعارف ؛ فمعنى النظر الاختيار والرحمة والعطف ، لأن النظر فى الشاهد دليل المحبة وتركه دليل البغض « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ « إن الله تعالى لا ينظر إلي صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . وأخرج الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى أحسابكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إلي أتقاكم » (فالقلب إذن) أى حين إذ عرفت هذا الحديث (موضع نظر رب العالمين ، فياعجبا ممن يهتم بوجهه الذي هو) أى الوجه (موضع نظر الخلق فيغسله) بالماء (وينظفه) بضم الظاء من باب ظرف : أى ينقيه (من الأقذار) جمع قذر : وهو الوسخ (والأدناس) جمع دنس ، وهو الوسخ فهما مترادفان (ويزينه) أى وجهه (بما أمكنه) من أنواع الزينة (لئلا يطلع مخلوق فيه) أى في وجهه (على عيب ، و) مع ذلك (لا يهتم) ولا يتفقد ولا يراقب (بقلبه الذى هو موضع نظر رب العالمين فيطهره) أى قلبه من الصفات المذمومات (ويزينه ويطيبه) بالصفات المحمودة (كيلا يطلع الرب جل جلاله علي دنس) ووسخ (فيه) أى القلب (وشين) بفتح الشين: ضد الزين (وآفة وعيب بل يهمله) أى يترك قلبه مهملا ومرسلا (بفضائح وأقذار وقبائح لو اطلع الخلق على واحد منها) أى من تلك الفضائح والأقذار والقبائح (لهجروه) أى تركوه (وتبرءوا) أى الخلق (منه) أى المتصف بما ذكر (وطردوه) أى أبعدوه

وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

﴿الْأَصْلُ الثَّالِثُ﴾ : أَنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ مطَاعٌ وَرَئِيسٌ مُتَّبَعٌ ، فَالْأَعْضَاء كُلُّهَا تَبَعٌ ، فَإِذَا صَلَحَ الْمَتْبُوعُ صَلَحَ التَّبَعُ ، وَإِذَا اسْتَقَامَ الْمَلِكُ اسْتَقَامَتِ الرَّعِيَّةُ ، وَيُبَيِّنُ لَكَ ذٰلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلم أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ » وَإِذَا كَانَ صَلاَحُ الْكُلِّ فِى ذٰلِكَ وَجَبَ صَرْفُ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ .

(والله المستعان) أى المطلوب منه الإعانة. ﴿الأصل الثالث﴾ من الأصول الخمسة (أن القلب ملك مطاع ورئيس متبع فالأعضاء كلها له) أى القلب (تبع فإذا صلح) بفتح اللام وضمها والفتح أفصح وأشهر (المتبوع صلح التبع) بفتح التاء والباء جمع التابع يكون واحدا وجمعا ويجمع على أتباع كسبب وأسباب (وإذا استقام الملك استقامت الرعية ، ويبين لك ذلك) أى تبعية الأعضاء للقلب (ماروى عن النبى صلي الله عليه وسلم أنه قال : إن في الجسد مضغة) أى قطعة لحم قدر ما يمضغ فى الفم تقريبا لكنها وإن صغرت فى الصورة عظمت فى الرتبة (إذا صلحت) أى بالإيمان والعلم والعرفان . وقال العلامة عبد الحق معناه انشرحت بالهداية (صلح) بها (الجسد كله) بالأعمال والإخلاص والأحوال (وإذا فسدت) تلك المضغة بالجحود والكفران والضلالة (فسد) بها (الجسد كله) بالفجور والعصيان والمنكرات (ألا) حرف تنبيه (وهى القلب) لأنه مبدأ الحركات البدنية والإرادات النفسانية ، فإن صدرت عند إرادة صالحة تحرّك البدن حركة صالحة ، أو فاسدة ففاسدة فهو ملك والأعضاء رعية وهذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير (وإذا كان صلاح الكل) أى جميع الأعضاء وفساده (فى ذلك) أى فى صلاح القلب وفساده (وجب) على سالك طريق الآخرة (صرف العناية) أى القصد (إليه) أى إلى إصلاح القلب ، وصلاح القلب يكون بملازمة المراقبة لله سبحانه وتعالى فى جميع الحركات والسكنات واللحظات والخطرات . وهى لغة دوام ملاحظة المقصود . واصطلاحا دوام النظر بالقلب إليه تعالى وترقب ما يبدو من أفعاله وأحكامه ، ويعبر عنه باشتشعارك نظر الله إليك فى حركاتك وسكناتك ، وسببها معرفة الله بصفاته ، ومعرفة وعده ووعيده وأحكامه . وثمرتها حسن الأدب والسلامة من شديد الحساب والتحلى بحلية الأولياء ذوى الألباب وهي ممدوحة ومطلوبة . قال تعالى « وكان الله على كلّ شيء رقيبا ، إن الله كان عليكم رقيبا » أى فراقبوه ، وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فأشار بقوله فإن لم تكن الخ إلى حالة المراقبة من العبد ، لأن ابتداءها علم العبد باطلاع الربّ سبحانه وتعالى عليه فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه . وقيل أشار بقوله : أن تعبد الله كأنك تراه لا بقوله فإن لم

تسكن ، وإن فى الحديث مراقبتين : مراقبة العبد للحق فى القول الأوّل وعكسه فى القول الثانى ، ومراقبة العبد للحق أصل كلّ خير وبركة ، ولا يكاد يصل إلى المراقبة إلا بعد فراغ المحاسبة لنفسه وهى التثبت قبل الفعل ليزنه بميزان الشرع ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله فى الوقت ولازم طريق الحق وأحسن ما بينه وبين الله تعالى مع مراعاة القلب وحفظ الأنفاس راقب الله تعالى فى عموم أحواله فيعلم أنه عليه رقيب ومن قلبه قريب يعلم حاله ويرى فعله ويسمع قوله ، ومن تغافل عن ذلك فهو بمعزل عن بداية الوصلة به تعالى ، فكيف عن حقائق المراقبة له ؟ فمن لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة ، والمراد بالكشف والمشاهدة قلة الغفلة وارتفاع الحال ويكونان بإحكام ذلك . قيل من راقب الله تعالى فى خواطره الواردة على قلبه عصمه الله فى جوارحه ، لأن أول عامل من الإنسان قلبه والخواطر تدعو عمل القلب والجوارح ، فتارة تكون شيطانية ، وتارة نفسانية ، وتارة بواسطة ملك ، وتارة بلا واسطة بأن تخلق فى قلب العبد ، فمن ثبت عند خواطره وعلم حكم ما دعت إليه ووزنه بالشرع ، وقبل ما ينبغى ونفى ما لا ينبغى سلم فى عقود قلبه وأفعال جوارحه . وقال ابن عمر رضى الله عنهما لعبد يرعى غنما : تبيع منها ؟ فقال العبد ليست لى ، فقال قل لصاحبها أكلها الذئب ، فقال العبد وأين الله ؟ فاشتراه والغنم من سيده وأعتقه ووهبها له . قال الجنيد : من تحقق أى ثبت فى المراقبة خاف على فوت حظه من ربه لأنها على درجات ، فقد يراقب العبد أحكام ربه ليسلم من العقاب أو لزيادة الثواب أو ليرتفع عنه الحجاب أو ليكون من الأحباب ، فإذا وصل لهذا الحال الشريف راقب ربه وأدام نظره لما يتفضل به عليه ليسلم من الغفلات التى يفوت بسببها حظه من مولاه ، فمراقبته له بهذا التقدير خوفا من فوات حظه منه أفضل المراقبات ، وكان بعض المشايخ يخص بعض تلامذته بإقبال أكثر من غيره . فسئل عن ذلك فقال لهم ليأخذ كل واحد منكم طيرا وليذبحه حيث لا يراه أحد فذبح كل منهم طيره إلا ذاك فرجع به حيا وقال لم أجد موضعا لا يرانى أحد فيه لأن الله يرانى ، فقال الشيخ بهذا أخصه ، وفيه دلالة على أن مقام المراقبة أفضل المقامات وإن ارتفعت مقامات العابدين وقوى اجتهادهم لشغلهم بصلاح القلوب والأحوال ، والمراقب قد غلب على قلبه نظره إليه . وقال ذو النون : المراقبة إيثار ما أمر الله تعالى في تعظيم ما عظم وتصغير ما صغر ولا يتم ذلك إلا باستشعار نظر الله فى حركاته وسكناته . قال الجنيد : من حسنت رعايته دامت ولايته . وقيل المراقبة : تورث المحاسبة فاذكر نظر الله إليك واطلاعه عليك . وعلامة المراقب ما حكى أن أبا محمد الجريرى جاور بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند لحائط ، وأن أبا بكر الكتانى جاور بها ثلاثين سنة تحت ميزاب الكعبة ليلا ونهارا شتاء وصيفا . وقال المحاسبى : حقيقة المراقبة مراقبة الله فى الطاعة بالفعل وفى المعصية بالترك ، ومراقبته تعالى أشد تعبا من مكابدة قيام الليل وصيام النهار وإنفاق المال فى سبيل الله ومن جميع العبادات البدنية . وقال ذو النون : تعلمت من الهر خصلتين : حسن السؤال ، وحسن المراقبة ، ومثل المراقب من له ضيعة وله خصماء فيها وكان يريد إخراجه منها ، فإن عجز عن إقامة حجته كان سببا لخروجه منها وهو لا يجد بدا منها لما فيها من كفاية مؤنته

فهو أبدا متيقظ من سقط الكلام ، لأن كلا يجتهد فى الخصام ، فالمؤمن صاحب المثل . والضيعة : الإيمان ، والخصماء : جميع الجوارح وكلها تريد إخراجه من إيمانه الذى يرجو به الثواب ، كذا ذكره العلامة ابن سعيد باصيل رحمه الله رحمة واسعة . وقد ذكر العلامة الزبيدى تفصيل ماأورده مشايخ السادة النقشبندية قدس الله أرواحهم الزكية فى هذا الباب فانهم أحظى الناس بهذه المرابطة دون سائر أرباب السلوك ، فقال : اعلم أنهم قالوا إن المراقبة نسبة زكية وعبودة خفية ، فمن تحقق بها نور الله قلبه بنور المعرفة وشرح صدره بكشف الحقيقة ، فلم تخطىء فراسته ولم تبطىء مكاشفته وصح له التصريف فى عالمى الملك والملكوت والتقريب فى حضرة الجبروت وحسنت معاملته مع لله تعالى فى جميع الحالات وتمت له عمارة الأوقات ، ولكونها أعظم العبادات كانت خواص الصحابة يشتغلون بدوامها فى سائر الحالات ، وهى من الطرق الموصلة إلى المشاهدات وهى على ثلاثة أنواع الأول استدامة العلم باطلاع الحق عليه فى جميع الأحوال مع مراعاة الاتباع بجميع الأحكام . الثانى مطالعة أثمار الأسماء والصفات والمسارعة إلى الله بالوصول بجميع العبادات . الثالث مكاشفة أسرار حقائق الأسماء والصفات ومشاهدة أنوار تجليات الذات ، وهذا النوع درجة ولاية الصغرى وهو مايبلغه السالكون بالمراقبة ، وفى هذه المراقبة يحصل له مقام الفناء فى الفناء وتنتفى الحالات وتثبت المقامات . وأما كيفية المراقبة فأن يكون السالك طاهر الظاهر والباطن والمكان حاضر القلب مع الله مرفوعا عن الوساوس والخيالات ، محفوظا عن سائر المشوشات يجلس مستقبل القبلة على ركبتيه غامض العينين متبرئا عن حوله وقوته ناسيا جميع علمه ومعرفته معطلا حواس ظاهره وقوى باطنه ثم يتوجه بالقلب المطلق مع الجذبة الإلهية إلى جناب ذات الحق على طريق الاستهلاك فيه حتى يزول عنه تزاحم الخواطر بالكلية وتغلب روحانيته على جسمانيته ولا ينفك عن هذه الحالة ، فاذا استقرت وكانت له كالصفة اللازمة أمكن له الاستقامة والتقرب بسائر الأعمال . وفى مقام المراقبة حالة أخرى تسمى عندهم بالوقوف القلبى ، وهو عبارة عن التوجه إلى حقيقة الروح الإنسانى من جهة القلب ، لأن الروح الإنسانى محيطة بجميع مافى حضرة الربوبية إحاطة انطباعية مطابقة للوجوه فى نفس الأمر ، فمن توجه إلى روحه من قلبه فقد ينكشف له مافى حضرة الربوبية من الأسرار فيصل بذلك إلى معرفة ربه بالمعرفة الشهودية ، لأن حقيقة الروح الإنسانى كالمرآة لتلك الحاضرة لما فيه من القوة العقلية التى هى جوهر إلهى ؛ فمن كشف ذلك الجوهر رأى فيه جميع صفات الله وأسمائه وذاته تعالى بالانطباع الظلى ورأى فيه أيضا جميع الموجودات العقلية والحسية . وكيفية الاشتغال بالوقوف القلبى أن يجرد السالك أولا عقله من جميع الادركات ثم يعطل جميع قواه وحواسه عن أحكامها ثم يسلخ نفسه عن الهيكل الجسمانى وبعد ذلك يتوجه بالبصيرة إلى حقيقة القلب على طريق الاستغراق والاستهلاك ويداوم على ذلك فكلما يزداد توجهه إلى حقيقة القلب تزداد معرفته لنفسه وكلما تزداد معرفته لنفسه تزداد معرفته لربه سبحانه . والحاصل أنه لابد فى هذه الصورة من التجرد عن الذوات الجسمانية ولواحقها ، ونحو العلوم الرسمية وملازمة التوجه

إلي حقيقة القلب على الدوام ليتم له الانجلاء الروحانى الغير المقيد بشيء من عوارض الأجسام فيرى حقيقة قلبه فى تلك الحالة نورا بسيطا محتويا بجميع ماكان وما يكون .

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه السالك إلى دائرة قلبه بعد تجريده عن الشواغل ثم يلاحظ بدنه فى وسط تلك الدائرة كالكرة ويخيل روحه نافذا من أقطار السموات والأرض ويستغرق فى تلك الملاحظة على الدوام ويرجع إليها كلما يذهل عنها إلى أن يفنى عن ملاحظة تلك الكرة المفروضة ويتعطل جميع قواه وحواسه عن أحكامها ، فعند حصول هذه الحالة يظهر له أن روحه نوراني محض ويستهلك جميع مافى ضمن السموات والأرض فى تلك النورانية حتى لايبقى فى الوجود فى نظره غير روحه الذى هو الأمر الإلهى ، وبعد ذلك تستهلك نورانية الروح أيضا فى نور الحق سبحانه ، لأن دائرة نور الروح متصلة بأفق نور الحق سبحانه ونور الحق غالب على جميع الأنور ، وجميع الأنوار متلاش عند ظهور نورالحق كتلاشى سائر الأضواء عند ظهور ضوء الشمس فحينئذ لايبقى فى الظهور إلا نوار الحق الذى هو الوجود المطلق جلت عظمته وهذا هو حقيقة الحقائق .

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه السالك إلى قلبه ثم يتصور روحه فى قلبه نورا محضا بلا نهاية ويتصور فى حق روحه النور إلى صورة بدنه وصور العالم كالطير فى الهواء ويتصور روحه محيطا بتلك الصورة ، وتلك الصور محاطة بذلك الروح ، وهو ينظر إلى تلك الصور فى جو الروح ويستغرق فى النظر إليها حتى يتحد بتلك الصور فى التصور ويزداد فى الاتحاد بتلك الصور بالتشوق إليها حتى يتخيل أنه تلك الصور ويداوم على ذلك التصور بالتكرار فيه حتى يكون كأنه هو الحقيقة النوعية الكلية لجميع العالم التى لانهاية ولا انقسام لها ، بل يكون وحدة صرفة بمجموع تلك الصور ، فمن جعل روحه متكيفا بهذه الكيفية عرف حقيقة روحه ، لأن حقائق العالم كلها منطوية فى الروح الإنسانى والروح الإنسانى حاو عليها ، فمن عرف روحه بتلك الجمعية للحقائق كلها فقد عرف روحه ، وبه يتصل إلى معرفة ربه جل وعز .

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه إلى قلبه بعد تجريد نفسه ويتصور فيه نورا بسيطا وحدانيا مجردا عن الكيفيات كلها غير متعلق بشيء ظاهرا على العالم الجسمانى كظهور الشمس على الجسمانيات بالنسبة إلى ذلك النور البسيط كالذرة فى شعاع الشمس ، ثم يعلق نظره بذلك النور البسيط ويداوم على ذلك النظر لذلك النور البسيط حتى يستغرق فى ذلك النظر بحيث لا يبقى له شعور لغير ذلك النظر ، فعند ذلك يتجلى له نور الحق سبحانه لأن جميع الأنوار المجردة ينتهى إلى نور الحق سبحانه .

وصورة أخرى من الوقوف القلبي أن يتوجه إلى قلبه ويلاحظ فيه أن نظر الله محيط به من جميع الجهات ويجعل ذاته محاطة بنظر الله تعالى ويستمر على تلك الملاحظة وبهذا الاستمرار تصغر ذاته تحت نظر الله تعالى حتي لا يبقى لها بالتدريج أثر من الوجود فيفنى عن وجوده الإمكانى ولا يشاهد فيه ولا فى الأشياء كلها إلا وجود الحق سبحانه وقد وصل .

﴿الْأَصْلُ الرَّابِعُ﴾ أَنَّ الْقَلْبَ خِزَانَةُ كُلِّ جَوْهَرٍ لِلْعَبْدِ نَفِيسٍ وَكُلِّ مَعْنًى خَطِيرٍ أَوَّلُهَا الْعَقْلُ ،

﴿تتمة﴾ قالوا المراقبة من أقرب الطرق إلى الله تعالى من حيث التقرب إليه ، وهذه الأقربية ليست على إطلاقها بالنسبة إلى أهل الجذبة فإنها أقرب الطرق فى حقهم . وأما بالنسبة إلى السالك فتكون أبعد الطرق ، لأن السلوك يقتضى الرياضات والمجاهدات فى أوائله فلا تنفعه المراقبة ابتداء وهذا موكول إلى فراسة الشيخ البصير العارف ، فإن رأى فى مريده الجذبة الإلهية غالبة عليه شغله بمراقبة اسم الذات وإن رآه عاريا عنها أمره بالنفى والإثبات وملازمة الرياضات حتى يتمكن الذكر من قلبه فينجذب إلى الله تعالى بقلبه فحينئذ يشغله بالمراقبة ، وذلك على الترتيب والتدريج ، وقد قالوا إن اسم الذات ذكر المجردين عن قيد السوى ، والنفى والإثبات ذكر المقيدين بقيد السوى لأن مقام صاحب اسم الذات فرق مجرد كما أشار إليه قوله تعالى « قل: اللهُ ثم ذرهم » الخ ، ومقام صاحب النفى والإثبات فرق مقيد كما أشار إليه الحديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله » فلكون اسم الذات من الأسماء الجبروتية والنفى والإثبات من الأسماء الملكية كان الوصول بذكر اسم الذات إلى عالم الجبروت لأهل الجذبة أقرب من الوصول إليه بذكر النفى والإثبات ، وحيث قد فرغنا من ذكر المراقبة ومتعلقاتها فلنعد إلى شرح كلام المصنف قال رحمه الله تعالى: ﴿الأصل الرابع﴾ من الأصول الخمسة (أن القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس ، و) خزانة (كل معنى خطير) أى شريف وعظيم (أولها) أى الجواهر المخزونة فى قلب العبد (العقل) وهو مشترك لمعان مختلفة ذكرها المصنف رحمه الله تعالى فى كتاب [العلم من إحياء العلوم] فانظر كلامه هناك تجد كلاما لا مزيد لحسنه ، ولكن المتعلق بهذا المقام من جملة تلك المعانى المذكورة معنيان : أحدهما أن العقل قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب . وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان عليهما السلام أين موضع العقل منك ؟ قال القلب لأنه قالب الروح والروح قالب الحياة . والثانى أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب لأنه كذلك ، أعنى بالقلب هنا اللطيفة لا المضغة ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال الله عز وجل وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب » . قال الشيخ نجم الدين راويه رحمه الله تعالى استدل به على أن العقل متهيئ لقبول الوحى والإيمان به ، وفى رواية : « وبك أعبد » إذ كان هو أول من اختص من الله بالوحى ، والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية والنبوة بأنباء الحق تعالى إذ نبؤه عن نفسه ومعرفة ربه ، وإذا أمعنت النظر وأيدت بنور الله تحقق لك أن المعرفة بالعقل . والموصوف باختصاص الوحى والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية

والنبوة هو روح حبيب الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه الذى قال «أول ماخلق الله روحى وفى رواية نورى» فروحه جوهر نورانى ، ونوره هو العقل وهوعرض قائم بجوهره، ومن هناقال صلى الله عليه وسلم «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» أى لم يكن بعد روحا ولا جسدا ، ومن هنا قال : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ، لأنه عرف نفسه بتعريف الله إذ قال له : «ما خلقت خلقا أحب إلى منك» . وعرف الله أيضا بتعريف الله نفسه إياه إذ قال : «وعزتى وجلالى ماخلقت خلقا أحب إلى منك» فعرف أنه الإله الذى من صفاته العزة والجلال والخالقية والمحبة وهو المعروف لكل عارف وله القدرة والحكم على الأخذ والعطاء والثواب والعقاب ، وهو المستحق للعبادة . وقد جاء عن بعض الكبراء من الأئمة : إن أول المخلوقات ملك كروبى يسمى العقل .وهو صاحب القلم بدليل توجه الخطاب إليه فى قوله « أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر » ولما سماه قلما قال له أخبر عما هو كائن إلى يوم القيامة ، وتسميته قلما كتسمية صاحب السيف سيفا ، ولا يبعد أن يسمى روح النبى صلى الله عليه وسلم ملكا لغلبة صفة الملكية عليه كما يسمى جبريل عليه السلام روحا لغلبة الروحانية عليه كقوله : فلان شعلة نار ، لحدة ذهنه ، ويسمى عقلا لوفور عقله ، وقلما لكتابة المكونات ونورا لنورانيته ؛ وقد يكون العقل فى اللغة بمعنى العاقل ، فعلى هذا التقدير والتأويل يكون روح النبى صلى الله عليه وسلم هو المخلوق الأول ، ولكنه بهذه الاعتبارات ملك وعقل ونور وقلم ، والقلم قريب المعنى من العقل قال تعالى « علم بالقلم » جاء فى التفسير عن بعضهم : أى بالعقل ؛ لأن الأشياء تعلم بالعقل ؛ وفى قوله أقبل إلى آخره إشارة إلا أن للعقل إقبالا وإدبارا فورث إقباله المقبلون وهم السابقون المقربون من الأنبياء والأولياء ، وهم أصحاب الميمنة وهم أهل الجنة ، وورث إدباره المدبرون ، وهم أصحاب المشأمة ، وهم أهل النار يدل عليه قوله تعالى « وكنتم أزواجا ثلاثة » الآية ، والله أعلم .

﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن من شأن العقل أن يرى و يختار أبدا الأفضل والأصلح فى العواقب وإن كان على النفس فى المبدأ مؤنة ومشقة ، والهوى على الضد من ذلك فإنه يؤثر ما يدفع به المؤذى فى الوقت . وإن كان يعقبه مضرة من غير نظر منه فى العواقب كالصبى الرمدالذى يؤثر أكل الحلوات واللعب فى الشمس على أكل الهليلج والحجامة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» وأيضا فإن العقل يرى صاحبه ماله وماعليه ، والهوى يريه ماله دون ما عليه ويعمى عليه ما يعقبه من المكروه ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشئ يعمى ويصم » ولذلك ينبغى للعاقل أن يتهم رأيه أبدا فى الأشياء التى هى له لاعليه ويظن أنه هوى لا عقل ويلزمه أن يستقصى النظر فيه قبل إمضاء العزيمة ، حتى قيل : إذا عرض لك أمران فلم تدر أيهما أصوب ؟ فعليك بما تكرهه لا بما تهواه فأكثر الخير فى الكراهة . قال الله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » وقال « وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . وأيضا فإن ما يرى العقل يتقوى عليه إذا فزع فيه إلى الله عز وجل بالاستخارة وتساعد عليه العقول الصحيحة إذا فزع إليها بالاستشارة ، وتنشرح له الصدور

إذا استعين فيه بالعبادة ، وما يشير به الهوى فبالضد من ذلك ، وأيضا فإن العقل يرى ما يرى بحجة وعذر ، والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل ، وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ومعذرة مموهة كالعاشق إذا سئل عن عشقه والتناول لطعام ردئ إذا سئل عن فعله . قال بعض العلماء : إذا مال العقل نحو مؤلم جميل ، والهوى نحو ملل قبيح فتنازعا بحسب عرضيهما وتحا كما إلى القوة المدبرة بادر نور الله إلى نصرة العقل ووساوس الشيطان إلى نصرة الهوى كما قال الله تعالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » فمن كانت القوة المدبرة فيه من أولياء الشيطان ومحبيه لم تر نور الحق فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل فجنحت إلى الهوى كما قال تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » الآية . ومتى كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره واستهانت بلذة العاجل وطلبت الآجل كما قال تعالى « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف » الآية . ومما نبه على فساد الهوى قوله تعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » : أى لو أعطى كل إنسان ما يهواه مع أن كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة ، وأن ينال فى الدنيا الخير الأبدى بلا مزاولة ولا تعلم لكان فى ذلك فساد العالم . وقيل فى قوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة » الآية . ضرب الله الشجرة الطيبة مثلا للعقل والخبيثة مثلا للهوى ففرع الطيبة النور والإسلام وفرع الخبيثة الكفر والضلال . إن قيل ما الفرق بين الشهوة والهوى ؟ قيل الشهوة ضربان : محمودة ، ومذمومة ، فالمحمودة من فعل الله تعالى ، وهى قوة جعلت فى الإنسان لينبعث بها النفس لنيل ما يظن فيه صلاح البدن ، والمذمومة من فعل الشر ، وهي استجابة النفس لما فيه لذاتها البدنية ، والهوى هو هذه الشهوة الغالبة إذ استتبعت الفكرة وذاك أن الفكرة بين العقل والشهوة والعقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن ، وإذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضيعة فولدت القبائح والنفس قد تريد بمشورة العقل تارة وبمشورة الهوى تارة ، ولهذا قد تسمى الهوى إرادة . وقال بعض الحكماء : خير ما أعطى الإنسان عقل يردعه ، فإن لم يكن فحياء يمنعه ، فإن لم يكن فخوف يقمعه ، فإن لم يكن فمال يستره ، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد ، وتحقيقه أن البواعث على فعل الخيرات الدنيوية ثلاث : أدناها الترغيب والترهيب مما يرجى نفعه ويخشى ضره . والثانى رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه . والثالث تحرى الخير وطلب الفضيلة ، وكذلك البواعث إلى الخيرات الأخروية ثلاثة : الأولى الرغبة فى ثواب الله والمخافة من عقابه وتلك منازل العامة . والثانية رجاء حمده ومخافة ذمه ، وتلك منازل الصالحين . والثانية طلب مرضاة الله فى المتحريات ، وتلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهى أعزها وجودا ؛ ولذلك قيل لرابعة : ألا تسألين فى دعائك الجنة ؟ فقالت الجار قبل الدار ، وبهذا النظر قال بعضهم : من عبدالله بعوض فهو لئيم . فان قال فما يقول فى حديث «أكثر أهل الجنة البله» وهو جمع أبله من لا عقل له

وَأَجَلُّهَا مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ سَبَبُ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ ،

فكيف يكون من لاعقل له من أكثر أهل الجنة ؟. والجواب عنه بوجوه : الأولّ أن المراد بالبله الجاهلون بأمر الدنيا العالمون بأمر الآخرة . الثانى أن من عبد الله للجنة فهو أبله فى جنب من يعبده لكونه ربا مالكا . الثالث المراد بهم أهل المعاصى الذين عفا الله عنهم ، وأما العقلاء المطيعون فهم أهل الدرجات العلى ، والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى (وأجلها) أى أعظم الجواهر فى القلب (معرفة الله تعالى التى هى سبب سعادة الدارين) أى الدنيا والآخرة . قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : المعرفة على لسان العلماء هو العلم ؛ فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله تعالى عارف ، وكل عارف عالم ، وعند هؤلاء الصوفية المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى فى معاملته ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله تعالى فى جميع أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبيا ومن آفات نفسه بريا ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، ودام فى السر مع الله تعالى مناجاته وحق فى كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك عارفا، وتسمى حالته معرفة ؛ وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عزّ وجلّ . وقد تكلم المشايخ فى المعرفة فكل منهم نطق بما وقع له وأشار إلى ما وجده فى وقته ؛ فقال الأستاذ أبو على الدقاق رحمه الله تعالى : من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته . وقال أيضا : المعرفة توجب السكينة فى القلب كما أن العلم يوجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وقال الشبلي: ليس لعارف علاقة، ولالمحبّ شكوى، ولالعبد دعوى،ولالخائف قرار، ولا لأحد من الله عز وجل فرار . وقد سئل عن المعرفة فقال : أولها الله تعالى وآخرها ما لا نهاية له . وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى : من كان بالله أعرف كان له أخوف . وقال بعضهم : من عرف الله تعالى تبرم بالبقاء وضاقت عليه الدنيا بسعتها ، فقد حكى الله عن كعب بن مالك وأصحابه لما تخلفوا عن غزوة تبوك وهجروا إلى أن نزل فيهم قرآن أنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وذلك لمعرفتهم بالله وعظمته وعظمة رسوله وتخلفهم عن الجهاد مع رسوله ، فكل من عرف الجليل العظيم لا يحتمل قلبه الاشتغال بغيره ولا البعد عنه . وقيل من عرف الله تعالى صفا له العيش وطابت له الحياة وهابه كل شىء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله تعالى ، وقيل من عرف الله تعالى ذهب عنه رغبة الأشياء ، وكان بلا فعل ولا وصل . وقيل المعرفة توجب الحياء والتعظيم كما أن التوحيد يوجب الرضى والتسليم . وقال الحسين بن منصور : إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله تعالى إليه بخواطره وحرس

ثُمَّ الْبَصَائِرُ الَّتِي بِهَا التَّقَدُّمُ وَالْوَجَاهَةُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ النِّيَّةُ الْخَالِصَةُ فِي الطَّاعَاتِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا ثَوَابُ الأَبَدِ ، ثُمَّ أَنْوَاعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ

سره أن يسنح فيه غير خاطر الحق . وقال أيضا : علامة العارف أن يكون فارغا من الدنيا والآخرة . وقال سهل بن عبد الله : المعرفة غايتها شيئان : الدهش ، والحيرة . وقال رجل للجنيد من أهل المعرفة أقوام يقولون : إن ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإلى الله تعالى رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة .

وقال أبو يعقوب النهرجورى : قلت لأبى يعقوب السوسى هل يتأسف العارف على شئ غير الله عز وجل ، فقال وهل يرى غيره فيتأسف عليه ؟ قلت : فبأى عين ينظر إلى الأشياء ؟ قال بعين الفناء والزوال . وقيل تبكى عينه ويضحك قلبه ، وكان يوسف بن على يقول : لايكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين . وقال أبو سليمان الدارانى : إن الله يفتح للعارف وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلى قال الجريرى : سئل أبو تراب عن صفة العارف؟ فقال : الذى لا يكدره شيء ويصفو به كل شئ . وسئل الجنيد عن قول ذى النون المصرى فى صفة العارف : كان ههنا فذهب فقال الجنيد : العارف الذى لا تحصره حال عن حال ولا يحجبه منزل عن التنقل فى المنازل فهو مع أهل كل مكان بمثل الذى هو فيه يجد مثل الذى يجدون وينطق بمعالمها لينتفعوا بها .

وسئل أبو سعيد الخراز هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء ، فقال نعم إنما البكاء فى أوقات سيرهم إلى الله تعالى ، فإذا نزلوا إلى حقائق القرب وذاقوا طعم الوصول من بره زال عنهم ذلك . وقال عبد الله الرازى سمعت محمد بن الفضل يقول : المعرفة حياء للقلب مع الله تبارك وتعالى (ثم البصائر) جمع بصيرة ، وهى قوة للقلب بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها ، وهي التى يسميها الحكماء القوة العاقلة ، والقوة القدسية ، كذا قاله السيد الجرجانى (التى بها) أى بالبصائر (التقدم) فى الرتبة على سائر الخلق فى الدارين (والوجاهة) أى القدر والشرف (عند الله عز وجل ، ثم النية الخالصة فى الطاعة التى يتعلق بها) أي النية الخالصة (ثواب الأبد ، ثم أنواع العلوم) وهى كثيرة لا تحصى (و) أنواع (الحكم) بكسر الحاء وفتح الكاف جمع حكمة وهي ما تكمل به نفس العبد من المعارف والأحكام. وقال ابن قتيبة : هى العلم والعمل ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما . وقال أبو بكر بن دريد كل حكمة وعظتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة . وقيل هي فهم القرآن . وقيل هى الفقه فى الدين . وقيل هى السنة ، وفسرها الخازن بأنها الإصابة فى القول والعمل ووضع كل

التي هِيَ شَرَفُ الْعَبْدِ وَسَائِرُ الْأَخْلَاقِ الشَّرِيفَةِ ، وَالْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ تَفَاضُلُ الرِّجَالِ عَلَى مَا فَصَّلْنَا وَشَرَحْنَا فِي كِتَابِ [أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ] وَحَقَّ لِمِثْلِ هٰذِهِ الْخِزَانَةِ أَنْ تُحْفَظَ وَتُصَانَ عَنِ الْأَدْنَاسِ وَالْآفَاتِ وَتُحْرَسَ وَتُحْرَزَ مِنَ السُّرَّاقِ وَالْقُطَّاعِ وَتُكَرَّمَ وَتُجَلَّ بِضُرُوبِ الْكَرَامَاتِ ، لِئَلَّا يَلْحَقَ تِلْكَ الْجَوَاهِرَ الْعَزِيزَةَ دَنَسٌ وَلَا يَظْفَرَ بِهَا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ عَدُوٌّ .

﴿الْأَصْلُ الْخَامِسُ﴾: أَنِّي تَأَمَّلْتُ حَالَهُ فَوَجَدْتُ لَهُ خَمْسَةَ أَحْوَالٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَعْضَاءِ ابْنِ آدَمَ ، أَحَدُهَا : أَنَّ الْعَدُوَّ قَاصِدٌ إِلَيْهِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ مُلَازِمٌ لَهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، فَهُوَ مَنْزِلُ الْإِلْهَامِ وَالْوَسْوَسَةِ يَقْرَعَانِهِ بِالدَّعْوَتَيْنِ أَبَدًا ، الْمَلَكُ وَالشَّيْطَانُ ،

شيء موضعه (التي هى) أى الحكم (شرف العبد وسائر الأخلاق الشريفة والخصال الحميدة) أى المحمودة (التى بها يحصل تفاضل الرجال على ما فصلنا) أي بيناه (وشرحنا فى كتاب : أسرار معاملات الدين) من إحياء علوم الدين . وقد أشبع رحمه الله تعالى الكلام على الصفات المحمودة هناك تركنا نقله فى هذا المقام روما للاختصار (وحق) أى وجب (لمثل هذه الخزانة) التى هى القلب (أن تحفظ وتصان) مرادف لما قبله (عن الأدناس والآفات وتحرس وتحرز) كلاهما بالبناء للمفعول بمعنى واحد (من السراق) جمع سارق (والقطاع) جمع قاطع (وتكرم وتجل) بناؤهما للمفعول : أى تعظم تلك الخزانة (بضروب الكرامات) أى أنواعها (لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس) من الأدناس (ولايظفر بها) أى الجواهر (والعياذ بالله) جملة معترضة بين الفعل وفاعله (عدو) من الشيطان .

﴿ الأصل الخامس ﴾ هـذا آخر الأصول الخمسة (إنى تأملت حاله) أى القلب (فوجدت له خمسة أحوال ليست لغيره) أى القلب (من أعضاء ابن آدم : أحدها) أى الأحوال الخمسة (أن العدو) وهو الشيطان (قاصد إليه) أى إلى القلب (مقبل عليه ملازم له) أى غير منفك عن القلب (فإن الشيطان جاثم) أى قائم (على قلب ابن آدم ، فهو) أى القلب (منزل الإلهام) أى محل نزوله من الملك (و) منزل (الوسوسة) من الشيطان (يقرعانه) أى يدقانه وينقرانه (بالدعوتين أبدا : الملك والشيطان) بدل من الضمير فى قوله يقرعانه على اللغة الفصحى ، ولتجاذب القلب بين هـذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» . رواه مسلم من حديث ابن عمر ، وذلك أن الله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ، ولكن روح الأصبع سرعة التقلب والقدرة على

التحريك والتغيير فإنك لا تريد أصبعك لشخصه ، بل لفعله فى التقليب والترديد ؛ كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك والله تعالى يفعل ما يفعله باستسخار الملك والشيطان ، وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب : أى يجرها إلى خير أو شر ؛ كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الأجسام مثلا والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا بطرفيه ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات والإعراض عنها ، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسليط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه بأن تنصل عنها واسترذلها وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم . قال حجة الإسلام وغيره : إن القلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة :

[أحدها] قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير ، وهى التى ترد من الله تعالى بواسطة الملائكة من خزائن الغيب ومداخل الملكوت الأعلى فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه ويتبين له أمره فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به ، وهذا القلب هو المتطلع إلى الروح العلوى الميال إليه ، وهو القلب المؤيد الذى ورد فيه أنه أجرد فيه سراج يزهو فينظر الملك إلى هذا القلب فيجده طيبا فى جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة مغمورا بأنوار اليقين فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا لتنزلاته ، فعند ذلك يمده بجنود معنوية لا ترى وبهداية إلى خيرات أخرى تتراءى حتى ينجر الخير إلى الخير وهلم جرا كذلك على الدوام ولا يتناهى إمداده بالترغيب فى الخير فى كل لحظة وبتيسير الأمر عليه فى كل حركة وسكون ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » فالإعطاء إشارة إلى تزكية العمل . والاتقاء هو عمارة القلب بالتقوى ، والتصديق بالحسنى هو التطهر عما يضاد الأخلاق المحمودة .

[القلب الثانى] القلب المخذول المضاد للتوفيق المشحون بالهوى المدنس بالأخلاق المذمومة مثل الجهل والطمع وحب الدنيا وغيرها ، المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة ، ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه ، لأن كل قلب اجتمع فيه ثلاثة معان لم تفارقه : خواطر الهوى ، وهى الجهل ، والطمع ، وحب الدنيا ، ثم يضعف خاطر الهوى ويقوى على قدر ضعف هذه الثلاثة وقوتها ، ويظهر خاطر الهوى فى القلب على قدر تمكن هذه الثلاثة من النفس وخفائها فبعد ذلك ينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتى منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل فى موافقة الهوى ومساعدته فتسول النفس وتزين وتساعد عليه ، وذلك لأن بين القلب والنفس منازعات ومحادثات وترددا وتألفا فيكون أنسه بالهوى إنما هو بتسويل النفس له من قول أو فعل فيواقعها أحيانا فتروم عليه النفس من نواحيه وتحسن له تلك الموافقة ، وحينئذ ينشرح الصدر بالهوى وتنبسط

فيه ظلماته لا نخناس جند العقل : أى تأخره عن مدافعته فيقوى سلطان الشيطان لا تساع مكانه بسبب انتشار الهوى فى جوانبه فيقبل عليه بالتزين والغرور والأماني الكاذبة ويخدعه بها ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة إذ يتصاعد من الهوى عند التمكن دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه فيحجب البصيرة حتى تنطفئ أنواره فيصير العقل فيه كالعين التى ملأ الدخان أجفانها فلا تقدر أن تنظر إلى شيء وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب إذا استولت عليه أعمت بصيرته حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار فى جليات الحقائق، ولو فرض أنه بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه وأفهمه بحسن تقريره عمى عن الفهم وصم عن السمع وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى وظهرت المعصية إلي عالم الشهادة من خزائن الغيب بقضاء من الله وقدر ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » وبقوله تعالى . « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » وبقوله تعالى « سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » وهذا هو القلب المنكوس الذى ذكر فى حديث حذيفة عند تقسيم القلوب وهو الميال إلى النفس ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « إن النفس لأمارة بالسوء » .

[القلب الثالث] قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلي الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر ، فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم والتلذذ ، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ، ويدفع فى وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب ، وهذا هو معاقبة القلب للنفس حين تكدره منها فيما انطلقت فيه بهواها ، وذلك يكون عند عود العبد من مواطن مطالبات النفس والإقبال على الذكر والمراقبة ، وعند دفع العقل فى وجه الشهوة تميل النفس إلى نصح العقل وتضعف قوتها ، فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد والتكلف الذى لا معنى له ولم تمنع هواك فتؤذى نفسك وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان أتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان ، وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا من التمتع بالملاذ ، أما ترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لا متنع عنها أتريد أن تكون أفضل منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه بمقتضى جبلتها الأصلية وتلقى نصح العقل إلى ورائها فيحمل الملك على الشيطان ويقول هل هلك إلا من اتبع لذة الحال في العاجل ونسى العاقبة، أفتقنع بلذة يسيرة قريبة الزوال وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد لاتنقطع ، أم تستثقل ألم الصبر عن شهوة زائلة ولا تستثقل ألم النار التى من عذب بها لم يفلح، أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخفى عنك بمعصية غيرك ، أرأيت لو كنت فى زمان صيف ووقف الناس كلهم فى الشمس

وَالثَّانِي : أَنَّ الشُّغْلَ لَهُ أَكْثَرُ ، فَإِنَّ الْعَقْلَ وَالْهَوَى كِلَاهُمَا فِيهِ فَهُوَ مُعْتَرَكُ الْعَسْكَرَيْنِ : الْهَوَى وَجُنُودِهِ ، وَالْعَقْلِ وَجُنُودِهِ ، فَهُوَ أَبَدًا بَيْنَ مُحَارَبَتِهِمَا وَتَقَاتُلِهِمَا وَتَنَاقُضِهِمَا ، وَحَقَّ بِالثَّغْرِ أَنْ يُحْرَسَ وَيُحْصَنَ وَلَا يُغْفَلَ عَنْهُ . وَالثَّالِثُ : أَنَّ الْعَوَارِضَ لَهُ أَكْثَرُ ، فَإِنَّ الْخَوَاطِرَ لَهُ كَالسِّهَامِ لَا تَزَالُ تَقَعُ فِيهِ ، وَكَالْمَطَرِ لَا تَزَالُ تَمْطُرُ عَلَيْهِ

وكان لك بيت بارد مظلل أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص؟ فكيف تخالف الناس خوفا من حرّ الشمس ولا تخالفهم خوفا من حرّ النار ، فعند ذلك تميل النفس إلى قول الملك فلا يزال متردّدا بين الجندين متجاذبا بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به ، فإن كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية من الجهل والطمع وحب الدنيا وغيرها غلب الشيطان وكانت تلك الصفات جندا له ومداخل إلى القلب ومال القلب بحكم الغلبة إلى جنسه من أحزاب الشياطين معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحزب الشيطان وأعدائه وجرى بسبب ذلك على أعضائه بسابق القضاء والقدر ما هو سبب بعده عن حضرة الله تعالى ، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآجلة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه ، وأما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو حزب الشياطين فنادر من الجانبين قليل الوقوع . (والثاني أن الشغل له) أى للقلب (أكثر) من غيره (فإن العقل والهوى كلاهما فيه) أى فى القلب. وقيل محل العقل الرأس (فهو) أى القلب (معترك) أى موضع حرب (العسكرين: الهوى وجنوده) أى جنود الهوى وهى عشرة : الحسد ، والتجبر ، والعجب ، والكبر ، والغل ، والمكر ، والوسوسة ، والمخالفة فى الأمر ، وسوء الظن ، والجدال ، كذا أفاده الهمدانى (والعقل وجنوده) أى جنود العقل وتوابعه ، وهى سبع وعشرون : العلم ، والمعرفة ، والدراية ، والحكمة والذكاء ، والذهن ، والفهم ، والفطنة ، وجودة الخاطر ، وجودة الوهم والخيال والبديهة ، والرؤية والكياسة ، والخبرة ، وإصابة الظن والفراسة ، والزكانة[1] ، والكهانة ، ودقة النظر ، والرأي ، والتدبير وصحة الفكر ، وسرعة الذكر ، وجودة الحفظ ، والبلاغة ، والفصاحة ، وهذا العقل أساس لكل واحد منها ومطلع لأسرار معارفها كذا أفاده الزبيدى (فهو) أى القلب (أبدا بين محاربتهما وتقاتلهما) أى العسكرين (وتناقضهما) وفى نسخة: وتناضلهما ، ناضله مناضلة نضالا ونيضالا كقيتال: باراه فى رمى السهم (وحق بالثغر) وهو مايلى دار الحرب وموضع المخافة من فروج البلدان (أن يحرس ويحصن) أى الثغر وهما بالبناء للمفعول ، وكذا قوله رحمه الله (ويغفل عنه) أى عن ذلك الثغر . (والثالث أن العوارض له) أى للقلب (أكثر فإن الخواطر له) أى القلب (كالسهام لا تزال تقع) أى الخواطر (فيه) أى فى القلب (وكالمطر لا تزال تمطر) أى الخواطر (عليه) أى

---

(١) الزكانة : الظن أو العلم كما فى القاموس اه .

لَيْلاً وَنَهَارًا لاَ تَنْقَطِعُ وَلاَ أَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهَا فَتَمْتَنِعَ ، وَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنِ الَّتِي بَيْنَ الْجَفْنَانِ تُغَمِّضُ فَتَسْتَرِيحُ ، أَوْ تَكُونُ فِي مَوْضِعٍ خَالٍ أَوْ لَيْلٍ مُظْلِمٍ فَتَكْفِي رُؤْيَتَهُمَا ، أَوْ كَاللِّسَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ الْحَاجِبَيْنِ : الْأَسْنَانِ وَالشَّفَتَيْنِ ، وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَتَسْكِينِهِ ، بَلِ الْقَلْبُ غَرَضٌ لِلْخَوَاطِرِ لاَ تَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهَا وَالتَّحَفُّظِ عَنْهَا بِحَالٍ ، وَهِيَ لاَ تَنْقَطِعُ عَنْكَ بِوَقْتٍ ؛ ثُمَّ النَّفْسُ مُسَارِعَةٌ إِلَى اتِّبَاعِهَا ، وَالْاِمْتِنَاعُ عَنْ ذَلِكَ فِي مَجْهُودِ الطَّاقَةِ أَمْرٌ شَدِيدٌ وَمِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ . وَالرَّابِعُ : أَنَّ عِلاَجَهُ عَسِيرٌ ، إِذْ هُوَ غَيْبٌ عَنْكَ فَلاَ تَكَادُ تَشْعُرُ حَتَّى تَدِبَّ فِيهِ آفَةٌ وَتَحْدُثَ لَهُ حَالَةٌ فَتَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَلِكَ أَتَمَّ الْبَحْثِ بِطُولِ الْجَهْدِ وَدَقِيقِ النَّظَرِ وَكَثْرَةِ الرِّيَاضَةِ .

على القلب (ليلا ونهارا لا تنقطع ولا أنت تقدر على منعها) أي تلك الخواطر (فتمتنع) أي عنك (وليس) القلب (بمنزلة العين التي بين الجفنين) تثنية جفن : وهو غطاء العين من أعلاها وأسفلها وهو مذكر كما في المصباح (تغمض) وفي محيط المحيط غمض عينه : أطبق جفنيها (فتستريح أو تكون) أنت (في موضع خال) عن الناس وغيرهم (أو) تكون في (ليل مظلم فتكفي رؤيتهما) أي العينين (أو كاللسان الذي هو من وراء الحاجبين) يعني بهما (الأسنان والشفتين وأنت القادر على منعه وتسكينه) أي اللسان (بل القلب غرض) بفتح الغين والراء : الهدف الذي يرمى إليه (للخواطر لا تقدر على منعها) أي الخواطر (و) لا تقدر على (التحفظ عنها) أي عن الخواطر الواردة على القلب(بحال) من الأحوال (وهي لا تنقطع) أي الخواطر (عنك بوقت) من الأوقات (ثم النفس مسارعة إلى اتباعها) أي الخواطر (والامتناع عن ذلك) أي عن اتباع النفس للخواطر (في مجهود الطاقة) الاضافة بيانية كما في سراج السالكين (أمر شديد ومحنة) أي مشقة (عظيمة) إلا على من يسره الله للتوفيق الخاص على ذلك . (والرابع أن علاجه) أي القلب (عسير) أي صعب (إذ هو غيب) أي خفي لا يطلع (عنك، فلا تكاد) أي تقرب (تشعر) أي تعلم (حتى تدب) أي تمشي (فيه) أي في القلب آفة) مهلكة (وتحدث) بضم الدال من باب دخل (له) أي للقلب (حالة فتحتاج) أنت (إلى أن تبحث) وتفحص (عن ذلك) أي عما في القلب من الآفة وغيرها (أتم البحث بطول الجهد) بالفتح : أي المشقة (ودقيق النظر) أي الفكر في ذلك (وكثرة الرياضة) أي رياضة النفس ، والرياضة مصدر راض. قال أهل اللغة: هي استبدال الحال المذمومة بالحال المحمودة ، وقال بعض الحكماء : هي الإعراض عن الأغراض الشهوانية . وقيل الرياضة ملازمة الصلاة والصوم ومحافظته أثناء الليل ، والنوم عن موجبات الإثم واللوم وسد باب النوم والبعد عن صحبة القوم . وقيل الرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية .

وَالْخَامِسُ : أَنَّ الآفَاتِ إِلَيْهِ أَسْرَعُ ، فَهُوَ إِلَى الِانْقِلَابِ أَقْرَبُ ، فَلَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْقَلْبَ أَسْرَعُ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ فِي غَلَيَانِهَا ، وَلِذٰلِكَ قِيلَ :

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ   وَالرَّأْيُ يَضْرِبُ بِالْإِنْسَانِ أَطْوَارَا

ثُمَّ إِنْ زَلَّ الْقَلْبُ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ، فَزَلَّتُهُ أَعْظَمُ ، وَوُقُوعُهُ أَصْعَبُ وَأَفْظَعُ ، إِذْ أَدْنَاهُ قَسْوَةٌ وَمَيْلٌ إِلَى غَيْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَمُنْتَهَاهُ خَتْمٌ بِكُفْرٍ ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) فَكَانَ الْكِبْرُ بِقَلْبِهِ فَحَمَلَهُ عَلَى الْإِبَاءِ وَالْكُفْرُ بِظَاهِرِهِ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ،

(والخامس أن الآفات إليه) أى الى القلب (أسرع فهو) أى القلب (إلى الانقلاب) والاضطراب (أقرب فلقد قيل : إن القلب أسرع انقلابا من القدر) بكسر القاف وهو إناء يطبخ فيه فهو مؤنث أو يذكر ويؤنث، والجمع قدور (فى غليانها) بفتحات أو ثوران القدر أى مافيها، وفى محيط المحيط غلت القدر تغلى غليا وغليانا: جاشت وثارت بقوة الحرارة ، ولا يقال غليت (ولذلك) أى لسرعة القلب انقلابا (قيل) من بحر البسيط (ما سمى القلب إلا من تقلبه) أى من جهة تقلبه من حال إلى حال فالتقلب والانتقال من شأن القلب (والرأى) أى العقل (يضرب بالإنسان أطوارا) أى يحول الإنسان ويصيره أطوارا فلما كان فى رأى كان طورا غير الآخر ، والأطوار جمع طور وهو الحال (ثم إن زل القلب) عن الايمان (والعياذ بالله فزلته) أى القلب (أعظم ووقوعه) أى سقوطه (أصعب) أى أشد (وأفظع) أى أهول وأقبح من وقوع غيره وسقوطه (إذ أدناه) أى أقل زلة القلب (قسوة وميل الى غير الله سبحانه وتعالى ، ومنتهاه) أى غاية زلته (ختم بكفر) . وفى نسخة ختم ونكرة بالله تعالى (والعياذ بالله تعالى، أما تسمع قوله تعالى : أبى واستكبر) أى امتنع إبليس عما أمر به استكبارا من أن يتخذه ، أى آدم عليه السلام وصلة فى عبادة ربه أو يعظمه ويتلقاه بالتحية أو يخدمه ويسعى فما فيه خيره وصلاحه ، والإباء : امتناع باختيار والتكبر أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع (وكان من الكافرين) أى فى علم الله تعالى فإنه وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته . روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله » : وفى رواية « يا ويلتاه أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة : وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار » (فكان الكبر بقلبه) أى إبليس اللعين (فحمله على الإباء) أى الامتناع (والكفر بظاهره ، أما تسمع قوله تعالى : ولكنه أخلد إلى الأرض) أى مال بلعم بن باعوراء

وَأَتبعَ هَوَاهُ) فَكانَ المَيْلُ وَاتِّباعُ الْهَوَى بِقَلْبِهِ فَحَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ المَشْئُومِ بِنَفْسِهِ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تعالى: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وَلِهَذَا المَعْنَى أَيُّهَا الرَّجُلُ خَافَ عِبَادُ اللهِ تعالى الخَوَاصُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَبَكَوْا عَلَيْهَا وَصَرَفُوا عِنَايَتَهُمْ إِلَيْهَا ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي وَصْفِهِمْ : (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ) جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ المُعْتَبِرِينَ بِالعِبَرِ المُهْتَمِّينَ بِمَوَاضِعِ الخَطَرِ المُوَفَّقِينَ لإِصْلاحِ قُلُوبِهِمْ بِحُسْنِ النَّظَرِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ أَمْرَ هَذَا القَلْبِ لَمُهِمٌّ جِدًّا ، فَأَخْبِرْنَا عَنِ المَعَانِي الَّتِي تُصْلِحُهُ ، وَعَنِ الآفاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فَتُفْسِدُهُ

الى الدنيا أو إلى السفلة (واتبع هواه) فى إيثار الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضى الآيات (فكان الميل) أى ميل بلعم الى الدنيا (واتباع الهوى) فى إيثارها (بقلبه فحمله) الميل واتباع الهوى (على ذلك الذنب المشئوم) الشؤم : ضد البركة (بنفسه ، أما تسمع قوله تعالى : ونقلب أفئدتهم) عن الحق فلا يفهمونه (وأبصارهم) فلا يبصرونه فلا يؤمنون بالآيات (كما لم يؤمنوا به) أى بما أنزل من الآيات (أول مرة ونذرهم فى طغيانهم) أى تجاوزهم الحد بالكفر (يعمهون) أى وندعهم متحيرين لانهديهم من الهول، أو تتقلب أحوالها فتفقه القلوب مالم تكن تفقه وتبصر الأبصار مالم تكن تبصر ، أوتتقلب القلوب من توقع النجاة وخوف الهلاك والأبصار من أى ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم ، كذا فسره البيضاوى ، والطغيان مصدر طغى يطغى طغيانا ، وطغيانا بكسر الطاء وضمها ، ولام طغى قيل ياء ، وقيل واو : يقال : طغيت وطغوت ، وأصل المادة مجاوزة الحد . ومنه « إنا لما طغى الماء » . والعمه : التردد والتحير ، وهو قريب من العمى إلا أن بينهما عموما وخصوصا ، لأن العمى يطلق على ذهاب ضوء العين ؟ وعلى الخطأ فى الرأى ، والعمه لايطلق إلا على الخطأ فى الرأى ، يقال: عمه يعمه من باب طرب عمها وعمهانا فهو عمه وعامه ، كذا أفاده السمين (ولهذا المعنى) وهو سرعة انقلاب القلب وعظم زلته (أيها الرجل) السالك لطريق الأخرة (خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم وبكوا عليها) أى القلوب (وصرفوا عنايتهم) واهتمامهم (إليها) أى إلى مراعاة قلوبهم . (قال الله سبحانه فى وصفهم) أى الخواص (يخافون يوما تتقلب فيه) أى فى ذلك اليوم (القلوب والأبصار) وهو يوم القيامة (جعلنا الله وإياكم) جملة دعائية (من المعتبرين بالعبر) جمع عبرة، وهى العظة يتعظ بها (المهتمين) والمجتهدين (بمواضع الخطر) أى الخوف (الموفقين لإصلاح قلوبهم بحسن النظر) والفكر (إنه) تعالى (أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين . (فإن قيل إن أمر هذا القلب لمهم جدا فأخبرنا عن المعانى التى تصلحه) أى القلب (و) أخبرنا (عن الآفات التى تعترضه فتفسده) أى تفسد الآفات هذا القلب

عَسَى أَنْ نُوَفَّقَ لِلْاجْتِهَادِ فِى الْعَمَلِ بِذٰلِكَ .

يُقَالُ لَهُ : اعْلَمْ أَنَّ تَفْصِيلَ هٰذِهِ الْمَعَانِى لَطَوِيلٌ لَا يَحْتَمِلُهُ هٰذَا الْكِتَابُ ، وَإِنَّمَا عُلَمَاءُ الْآخِرَةِ عُنُوا بِاسْتِخْرَاجِ ذٰلِكَ وَتَصْنِيفِهِ فِى هٰذِهِ النُّكْتَةِ لَا غَيْرُ ، وَقَدْ ذَكَرُوا فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ نَحْوًا مِنْ تِسْعِينَ خَصْلَةً مَحْمُودَةً ، وَفِى أَضْدَادِهَا الْمَذْمُومَةِ ، ثُمَّ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْمَسَاعِى الْوَاجِبَةِ وَالْمَحْظُورَةِ نَحْوَ ذٰلِكَ فِى سَائِرِ تَفَاصِيلِهَا ، وَلَعَمْرِى إِنَّ مَنْ أَهَمَّهُ أَمْرُ دِينِهِ وَانْتَبَهَ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ وَنَظَرَ لِنَفْسِهِ فَلَا يَكُونُ تَحْصِيلُ جَمِيعِ

(عسى أن نوفق) بالبناء للمفعول : أى وفقنى ربنا الكريم (للاجتهاد فى العمل بذلك) أى بما تصلح القلب عن المفسدات (يقال له) أى للقائل الذى سأل عن أمر القلب (اعلم أن تفصيل هذه المعانى) التى تصلح القلب (لطويل لا يحتمله) أى هذا التفصيل (هذا الكتاب) المختصر المسمى بالمنهاج (وإنما علماء الآخرة عنوا) أى قصدوا (باستخراج ذلك) أى التفصيل بما ذكر (وتصنيفه فى هذه النكتة) وهو العمل بما يصلح القلب والتطهير عن مفسداته كما قرره البعض (لا غير) هذه النكتة (وقد ذكروا) أى علماؤنا (فما يحتاج إليه من ذلك) أى المذكور من المعانى التى تصلح القلب والآفات التى تفسده (نحوا) أى مقدارا (من تسعين خصلة محمودة ، و) ذكروا (فى أضدادها المذمومة ، ثم من الأفعال والمساعى الواجبة والمحظورة) أى المحرمة (نحو ذلك) أى تسعين : وفى نسخة وغير ذلك كالمكروهات والمندوبات (فى سائر تفاصيلها) أى مع جميع تفاصيل الأضداد والأفعال (ولعمرى) فى محيط: المحيط العمر : الدين . ومنه لعمرى فى القسم أى لدينى انتهى . وقال فاضل الروم حلبى فى حاشية [المطول] قوله لعمرى يمكن أن يحمل على حذف المضاف : أى لواهب عمرى ، وكذا أمثاله مما أقسم به لغير الله تعالى ، كقوله تعالى « والشمس ، والليل » ونظائره : أى ورب الشمس الخ ؛ ويمكن أن يكون المراد بقولهم لعمرى وأمثاله ذكر صورة القسم لتأكيد مضمون الكلام وترويجه فقط لأنه أقوى من سائر المؤكدات وأسلم من التأكيد بالقسم بالله تعالى لوجوب البر به ، وليس الغرض اليمين الشرعى وتشبيه غير الله تعالى به فى التعظيم حتى يرد عليه أن الحلف بغير اسمه تعالى وصفاته مكروه كما صرح به النووى فى شرح مسلم بل الظاهر من كلام مشايخنا أنه كفر إن كان باعتقاد أنه حلف يجب البر به، وحرام إن كان بدونه كما صرح به بعض الفضلاء ، وذكر صورة القسم على الوجه المذكور لا بأس به ، ولهذا شاع بين العلماء كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام « قد أفلح وأبيه ؟ » . وقال عز من قائل « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » فهذا جرى على رسم اللغة ؛ وكذا إطلاق القسم على أمثاله (إن من أهمه) أي أحزنه (أمر دينه وانتبه من رقدة الغافلين) بفتح الراء : أى نومتهم (ونظر) أي تفكر (لنفسه) أى فيما يصلحها فى الدارين (فلا يكون تحصيل جميع

ذٰلِكَ وَالْعَمَلُ بِهِ عَلَيْهِ كَثِيرًا إِذَا وَفَّقَهُ اللّٰهُ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرْنَا نُبْذَةً مِنْهَا فِى شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ مِنْ كِتَابِ [إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ] وَأَتَيْنَا عَلَى شَرْحِ جَمِيعِهَا بِتَفَاصِيلِهَا

ذلك) أى ما يحتاج إليه من الصفات المذكورة مع أضدادها (و) لا يكون (العمل به) أى بجميع ما يحمد من الصفات والاجتناب على ما يذم منها (عليه) أى على من أهمه أمر دينه (كثيرا إذا وفقه الله تعالى . وقد ذكرنا نبذة) أى قطعة كافية . وفى محيط المحيط ربما استعملت النبذ للقطعة من الشىء على حدة كالنبذة من الكتاب (منها) أى من الصفات المحمودة والمذمومة (فى) كتابنا (شرح عجائب القلب من) جملة (كتاب إحياء علوم الدين) وتلخيص ما فى ذلك أن الإنسان اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، وهى الصفات السبعية ، والبهيمية ، والشيطانية والربانية وكل ذلك مجموع فى القلب فيجتمع فى الإنسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم ، فالخنزير هو الشهوة ؛ والكلب هو الغضب ، والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ، ويغرى أحدهما بالآخر ويحسن لهما ماهما مجبولان عليه ، والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح ، فطاعة خنزير الشهوة يصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها من الأوصاف الذميمة ، وطاعة كلب الغضب تنتشر منها إلى القلب صفة التهور ، وهو الإقدام على أمور لاتنبغى والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر ، وشهوة الظلم وغيرها من الأوصاف الذميمة ، وطاعة الشيطان بطاعة الشهوة ، والغضب يحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها من الأوصاف الذميمة ، ولو قهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقرّ فى القلب من الصفة الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هى عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم ونور البصيرة واستحقاق التقدم على الخلق بكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولا نتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة تضاد تلك الصفات المذكورة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة للاخوان على الخير وأمثالها من الصفات الحميدة ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس عن الوقوع فى رذيلة والصبر على المكاره والحلم والاحتمال والعفو والثبات فى الأمر والنبل : أى رفعة المقام إلى المطالب والشهامة والوقار وغيرها من الصفات الحميدة ، فالقلب فى حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التوالى والتتابع واصلة إلى القلب لا ينفك عنها . انتهى ما لخصناه من شرح العجائب روما للايجاز (وأتينا على شرح جميعها بتفاصيلها) أى

وَكَيْفِيةِ عِلاَجِهاَ فى كِتاَبِ [أَسْرَارِ مُعَامَلاَتِ الدِّينِ]

الصفات المذكورة (وكيفية علاجها فى كتاب أسرار معاملات الدين) وتفصيله وكيفيته طويلة لكنا لخصنا بعض ذلك فى هذا المقام ببيان علاج هذه الصفات الثلاث ، وهى الغضب ، والحسد والعجب للايجاز ، والاختصار فنقول : إن كل علة علاجها إنما يكون بضدها فعلاج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل ، أما العلم فهو ستة أمور :

[الأول] أن يتفكر فى الأخبار التى وردت فى فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال: منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كفّ غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته » رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب من حديث أنس. وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » وفى رواية « ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا » . رواه ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة إلى غير ذلك من الأخبار ، فعند ذلك يرغب فى ثوابه فيمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفى والانتقام وينطفىء عنه غيظه .

[الثانى] أن يخوف نفسه بعقاب الله ، وهو أن يقول : قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبى عليه فما آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ما أن أكون الى العفو فقد قال تعالى فى بعض الكتب التى أنزلها على رسله « يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق» أخرجه ابن شاهين فى الترغيب ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا الى حاجة فأبطأ عليه ، فلما جاء قال لولا القصاص لأوجعتك : أى القصاص فى القيامة . رواه أبو يعلى من حديث أم سلمة .

[الثالث] أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى فى هدم أغراضه والشماتة بمصائبه ، وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة ، والعلم بهذا مهم للغاية ، فإن عاقبة العداوة وخيمة ومن كان له عدو متشمر فى إيصال السوء إليه لا يرتاح فى معيشته مطلقا فإذا عصم نفسه من الغضب سلم من هذه الورطة .

[الرابع] أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب فى نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى والسبع العادى ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقى معه مسكة من عقل .

[الخامس] أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد أن يكون له سبب مثل قول الشيطان : إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيرا فى أعين الناس فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزى

يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين فمهما كظم فينبغى أن يكظمه لله .

[السادس] أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشىء على وفق مراد الله لا على وفق مراده فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه هذا ما يتعلق بالعلم . وأما العمل فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال يا عويش قولى : اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى من مضلات الفتن » فيستحب أن تقول ذلك ؛ فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائما واضطجع إن كنت جالسا واقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع بالسكون ، فإن سبب الغضب الحرارة وسبب والحرارة الحركة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا ، فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فلينم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء » . فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار » . وفى رواية « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء » .

وعلاج الحسد الذى هو من الأمراض العظيمة للقلوب بالعلم والعمل . أما العلم فهو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين وأنه لا ضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين ، بل ينتفع به فيهما ، ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة . أما كونه ضررا عليك فى الدين ، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله وكرهت نعمته التى قسمها بين عباده وعدله الذى أقامه فى ملكه بخفى حكمته فاستنكرت ذلك واستقبحته ، وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى فى عين الإيمان ، وناهيك بها جناية على الدين، وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه فى حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت إبليس وسائر الكفار فى محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم، وهذه خبائث تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب وتمحوها كما يمحو الليل النهار . وأما كونه ضررا عليك فى الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذب به ولا تزال فى كمد وغم ، إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموما محروما متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك فقد كنت تريد المحنة لعدوك فنجزت فى الحال محنتك وغمك نقدا ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك. وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا فواضح . أما منفعته فى الدين : فهو أنك مظلوم من جهتك لاسيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها اليه : أعنى أنك بذلك تهدى إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما

عن النعمة كما حرمت فى الدنيا عن النعمة فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل عنه نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت نعمة إلى نعمة، وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة. وأما منفعته فى الدنيا فهو أن أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد ، وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا فى نعمة وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ماهو مرادهم ومتمناهم ، ولذلك لايشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن فى عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسدا ، ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا   حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة   فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده ، فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذا تعاطيك ماتضررت به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك فيهما وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا في الحال والمآل ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت ليس بيدك شىء ، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلي إدخال أعظم سرور علي إبليس الذى هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذى اختص به عدوك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة ، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا فى الخير فخاف إبليس أن تحب ماأنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه إليك حتى لاتلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك ؛ فانظر كيف حسدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت ، وكيف لاوعساك تحاسد رجلا من أهل العلم وتحب فيه أن يخطىء يوما فى مسئلة فى دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح بين الناس ، وتحب أن يخرس لسانه حتى لايتكلم أو يمرض حتى لايعلم ولا يتعلم ، وأى إثم يزيد على ذلك إذا تأملت فيه فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة . وقد جاء فى الحديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن : أى فى عمله ، والمحب له ، والكاف عنه » أى من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة ، فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لاتكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك جسد إبليس وما نفذ حسدك في عدك بل على نفسك فهذه هي الأدوية العلمية ، فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف عن كدر الغش وقلب حاضر انطفأت نار الحسد فى الحال ، وعلم أنه مهلك نفسه ، ومفرح عدوه ، ومسخط ربه ومنغص عيشه ومشيت حاله . وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد ، فكل مايتقضاه الحسد من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه وضده ، فان بعثه الحسد على القدح فى محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعثه على

كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة فى الإنعام عليه ، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد وأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع وحسن الثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ماتكلفه أولا طبعا آخرا ، ولا يصدنه من ذلك قول الشيطان له فيما يوسوس إليه : لو تواضعت وأثنيت عليه حمله العدو على العجز منك أو على النفاق أو الخوف ، وأن ذلك مذلة ومهانة ، وذلك من خدع الشيطان ومكايده ، فإنما مقصود الشيطان أن تكون العداوة والبغضاء بين المسلمين على الأبد ، بل المجاملة على أى حال تكلفا كانت أو طبعا تكسر سورة العداوة من الجانبين وتكسر حدتها وتعود القلب إلى التألف والتحاب والتوادد ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض ، فهذه هى أدوية الحسد علما وعملا ، وهى نافعة جدا إلا أنها مرة على القلوب جدا ولكن النفع فى الدواء المر ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء .

وأما العجب فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ؛ لأن علة العجب الجهل المحض فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم ، فإن العجب بهذا أبلغ من العجب بالجمال والقوة والنسب وكل ما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه ، فنقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الذى يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته ، فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجرى فيه وعليه من جهة غيره ، فهذا جهل من المعجب ، لأن المحل إنما هو مسخر ومجرى لامدخل له فى الايجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس فيه ولا مدخل له فيه وإن كان يعجب به من حيث هو منه وإليه باختياره حصل وبقدرته تم ، فينبغى أن يتأمل فى قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له وكيف تيسرت له ، فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها ، فينبغى أن يكون إعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله إذ أفاض عليه مالا يستحقه وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة يمن بها ، فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لالصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة ، فينبغى أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره له من دونهم من غير استحقاق فإعجابه بنفسه من أين وما سببه ولم ينبغى أن يعجب هو بنفسه ، نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب خفى على مدركه ، فلولا أنه تفطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرنى بها فيقال له وتلك الصفة أيضا هى من خلعة الملك وعطيته التى خصصك بها عن غيرك من غير وسيلة أو هى عطية غيره ، فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها ، بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول إنما أعطانى غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له ، فيقال وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا

وَهُوَ كِتابٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ عَظِيمُ الْفَائِدَةِ وَلاَ يَنْتَفِعُ بِهِ إِلاَّ فُحُولُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ ،

أو يعطيك أحدهما بعد الآخر ، فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك، وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة ، وهذا يتصور فى حق الملوك فى الدنيا ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة ، فإنك إن عجبت بعبادتك وقلت وفقنى للعبادة لحبى له ، فيقال ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فستقول هو ، فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك ؟ فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعلمه ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغنى بغناه ، لأن كل ذلك من فضل الله ومن إحسانه وجوده وكرمه ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده والله أعلم (وهو) أى كتاب الإحياء الذى فيه شرح عجائب القلب وأسرار معاملات الدين وغيرهما (كتاب مستقل بنفسه) أى الكتاب الذى لم يسبق إليه (عظيم الفائدة ولا ينتفع به) أى الكتاب المنفرد (إلا فحول العلماء) أى رواتهم، فى محيط المحيط : الفحل الراوى ، والجمع فحول ، ويقال هم فحول : أى رواة (الراسخون) أى الثابتون (فى العلم) أى علم الآخرة كما فى نسخة ، وقد أثنى على كتاب الإحياء للمصنف عالم من علماء الاسلام وغير واحد من عارف الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد ، فقال فيه الحافظ الإمام الفقيه أبو الفضل العراقى فى تخريجه : إنه من أجل كتب الاسلام فى معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن ، ومزج معانيها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوساطه مقتديا بقول على كرم الله وجهه : خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى . قال بعض الأخيار فى مدحه قصيدة طويلة منها :

أيا طالبا شرح الكتاب وسنة ... وقانون قلب القلب بحر الرقائق
عليك بإحياء العلوم ولبها ... وأسرارها كم قد حوى من دقائق
كتاب جليل لم يصنف قبله ... ولا بعده مثل له فى الطرائق

وقال النووى . كاد الاحياء أن يكون قرآنا . وقال الشيخ أبو محمد الكازرونى: لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضى الله عنه يكاد يحفظه نقلا . وروى عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب [الإحياء] كل فصل وحرف منه ، وأعاوده وأتدبره فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة غير التى قبلها .

وَمَوْضُوعُ هٰذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الْمُبْتَدِي وَالْمُنْتَهِي وَالْقَوِيُّ

ومن كلامه رضى الله عنه: عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة ، أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية خصوصا كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد . وكتاب التوبة وكتاب رياضة النفس .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب [إحياء علوم الدين] فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة فى الدنيا والآخرة وصار عالما فى الملك والملكوت :

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما فى الإحياء .

ومن كلامه : اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل فى لحظة كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج فى العفص والماء ، وتأثير كتب الغزالى واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن .

ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شئ أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الاسلام الغزالى ومحبة كتبه ، فإن كتب الامام الغزالى لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول ، ومن طالع كتاب [إحياء علوم الدين] فهو من المهتدين .

ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع [إحياء علوم الدين] أو كتبه أو سمعه ، وكلامه رضى الله عنه فى تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الامام الغزالى وكتبه والحث على العمل بها خصوصا [إحياء علوم الدين] . وقال السيد الكبير العارف بالله على بن أبى بكر بن عبد الرحمن السقاف : لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ؛ ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس . قال العلامة عبد القادر بن عبد الله العيدروس باعلوى قدس سره: وهذا صحيح، فإنى مع خسيس قصدى وقساوة قلبي أجد عند مطالعتى له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالا مزيد عليه ثم يفتر رجوعى إلى ما أنا فيه ومخالطة أهل الكثافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وما ذاك إلا لشئ أودعه الله فيه وسر مصنفه وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل بعيوب النفس المحجوب عن إدراك الحق : أى فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه .

والحاصل أن فضائل [الإحياء] لا تحصى وفيما ذكرنا كفاية .

(وموضوع) أى مقصود (هذا الكتاب) يعنى هذا المختصر المسمى « بالمنهاج » (أن ينتفع به) أى بهذا المختصر (المبتدئ) وهو الآخذ فى صغار العلم ، وإن شئت قلت : المبتدى هو من لم يقدر علي تصوير المسئلة (والمنتهى) وهو الآخذ فى كباره ، وإن شئت قلت : هو من قدر على تصوير المسئلة وعلى إقامة الدليل عليها (والقوى)

وَالضَّعِيفُ ، فَنَظَرْنَا فِى الْأُصُولِ الَّتِى لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا فِى عِلَاجِ الْقَلْبِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهَا مَاسَّةٌ وَلَا غُنْيَةَ عَنْهَا أَلْبَتَّةَ فِى شَأْنِ الْعِبَادَةِ فَوَجَدْنَاهَا أَرْبَعَةَ أُمُورٍ : هِيَ مَدَاحِضُ الْعَابِدِينَ وَآفَاتُ الْمُجْتَهِدِينَ ؛ وَهِيَ فِتَنُ الْقُلُوبِ وَبَلِيَّاتُ النُّفُوسِ تَعُوقُ وَتَشِينُ وَتُفْسِدُ وَتُتْلِفُ ، وَأَرْبَعَةٌ فِى مُقَابَلَتِهَا فَبِهَا قِوَامُ الْعُبَّادِ وَانْتِظَامُ الْعِبَادَةِ وَصَلَاحُ الْقُلُوبِ فَالْآفَاتُ الْأَرْبَعُ : الْأَمَلُ وَالِاسْتِعْجَالُ وَالْحَسَدُ وَالْكِبْرُ ، وَالْمَنَاقِبُ الْأَرْبَعُ : قِصَرُ الْأَمَلِ وَالتَّأَنِّى فِى الْأُمُورِ وَالنَّصِيحَةُ لِلْخَلْقِ وَالتَّوَاضُعُ وَالْخُشُوعُ ، فَهَذِهِ هِيَ الْأُصُولُ فِى صَلَاحِ الْقُلُوبِ وَفَسَادِهَا ، وَالنُّكْتَةُ الَّتِى عَلَيْهَا الْمَدَارُ فَلْتَبْذُلِ الْمَجْهُودَ فِى التَّحَرُّزِ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ وَالتَّحْصِيلِ لِهَذِهِ الْمَنَاقِبِ تُكْفَ الْمُؤَنَ وَتَظْفَرْ بِالْمَقْصُودِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ هَذِهِ الْآفَاتِ بِكَلِمَاتٍ وَجِيزَةٍ مُقْنِعَةٍ .

أَمَّا طُولُ الْأَمَلِ ،

أى شديد الفهم (والضعيف) أى ضعيف الفهم (فنظرنا فى الأصول التى لابد من ذكرها فى علاج القلب) أى مداواته (والحاجة) أى لأن الحاجة (إليها) أى إلى معرفة هذه الأصول (ماسة ولا غنية) أي لا بد (عنها ألبتة) أى قطعا (فى شأن العبادة فوجدناها) أى تلك الأصول (أربعة أمور هى مداحض) أى موضع زلل (العابدين وآفات المجتهدين ،وهى) أىهذه الأربعة (فتن القلوب وبليات النفوس تعوق) أى تمنع الأمور الأربعة عن الخير (وتشين) أى تعيب القلوب والنفوس (وتفسد) هما (وتتلف) هما عطف مرادف (و) وجدنا أيضا (أربعة) من الأمور (فى مقابلتها) أى مقابلة الأمور الأربعة المدحضة لأقدام العابدين والمجتهدين (فبها) أى بسبب هذه الأربعة القابلة للأمور المدحضة (قوام العباد وانتظام العبادة وصلاح القلوب ، فالآفات الأربع : الأمل ، والاستعجال ، والحسد ، والكبر) وسيأتى تفصيلها (والمناقب) أى الفضائل (الأربع : قصر الأمل والتأنى) أى الترفق والتمهل والتثبت (فى الأمور) إلا ما استثنى منها كتزويج البكر وغيره (والنصيحة) أى إرادة الخير (للخلق والتواضع والخشوع) كلاهما بمعنى واحد ، ولذا صح عده أربعة (فهذه هى) أى الأمور الثانية (الأصول فى صلاح القلوب) بالنسبة للمناقب الأربع (وفسادها) أى القلوب بالنسبة للآفات الأربع (و) هى (النكتة التى عليها المدار) أى مدار شأن العبادة (فلتبذل المجهود) والطاقة (فى التحرز من هذه الآفات) الأربع (و) فى (التحصيل لهذه المناقب) الأربع (تكف المؤن) جمع مؤنة بمعنى الثقل والشدة (وتظفر) بفتح الفاء : أى تفز (بالمقصود إن شاء الله تعالى ، وسأخبرك عن هذه الآفات بكلمات وجيزة) أى قصيرة (مقنعة) أى مكفية فنقول : (أما طول الأمل) اعلم أن الأمل هو توقع حصول الشئ

فَإِنَّهُ الْعائِقُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَطاعَةٍ ، وَالْجالِبُ لِكُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ ، وَإِنَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي يُوقِعُ الْخَلْقَ فِي أَنْوَاعِ الْبَلِيَّاتِ ،

وأكثر مايستعمل فيما يبعد حصوله ، فمن عزم على سفر إلى بلد بعيد يقول: أملت الوصول ولا يقول طمعت إلا إن قرب منها ، فإن الطمع ليس إلا فى التقريب والرجاء بين الأمل والطمع ، فإن الراجى قد يخاف أن لا يحصل مأموله، ويقال لما فى القلب مما ينال من الخير أمل ، ومن الخوف إيحاش ، ولما لا يكون لصاحبه ولا عليه خطر ، ومن الشر وما لا خير فيه وسواس . وقصره : حبس النفس عنه ، يقال : قصرت نفسى عن هذا الأمر : إذا لم يطمح إلى غيره ، وقصرت من طرفى : لم أرفعه إلى مكروه (فإنه العائق) أى المانع (عن كل خير وطاعة ، والجالب) أى الباعث (لكل شر وفتنة وإنه) أى طول الأمل (الداء العضال) أى الشديد الذى أعجز الأطباء (الذى يوقع الخلق فى أنواع البليات) والمحن .

واعلم أن طول الأمل له سببان:أحدهما: الجهل، والآخر:حب الدنيا،أما حب الدنيا فهوأنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه عن الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه لا محالة، والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده وانما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وملابس وضياع وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه وحبسا لديه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه ، وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث فى روعى: أحبب من أحببت فانك مفارقه ، وعش ما شئت فانك ميت ، واعمل ماشئت فانك مجزى به » .

وأما الجهل فهوأن الانسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لوعدوا لكانوا أقل من عشرة من رجال البلد وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب ، وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعده فجأة ولا يدرى أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فانما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا؟ ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا طلباه إلى طول الأمل وإلى الغفلة من تقدير الموت القريب ، وإذا عرفت أن سبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه . أما الجهل فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة ، وأما حب الدنيا فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذى أعيا

فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا طَالَ أَمَلُكَ هَاجَ لَكَ مِنْهُ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ :

أَحَدُهَا : تَرْكُ الطَّاعَةِ وَالْكَسَلُ فِيهَا ، تَقُولُ : سَوْفَ أَفْعَلُ وَالْأَيَّامُ بَيْنَ يَدَيَّ وَلَا يَفُوتُنِي ذَلِكَ ، وَلَقَدْ صَدَقَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ : مَنْ خَافَ الْوَعِيدَ قَرُبَ عَلَيْهِ الْبَعِيدُ ، وَمَنْ طَالَ أَمَلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ ،

الأولين والآخرين علاجه ، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ؛ ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير ، فان رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها، وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلي المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ فى القلب حبها مع الإيمان بالآخرة إيمانا يقينا ، فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ، ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب إلا أن يفرغ قلبه عن كل فكر سواه ويجلس في خلوة ويباشر ذكر الموت عميم قلبه ولا أنفع فى ذلك مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا، ويتذكر مرضهم وأملهم وركونهم إلى الدنيا والجاه والمال ثم يذكر مصارعهم وتحسرهم على فوات العمر وتضييعه . أما من كان مستعدا لمجيئه فقد فاز فوزا عظيما ؛ وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا . هذا ، وإذا علمت ما ذكر (فاعلم أنك إذا طال أملك هاج) أى تحرك وانبعث (لك منه) أى من طول الأمل (أربعة أشياء : أحدها ترك الطاعة والكسل) بفتحتين : أى التثاقل عن الأمر (فيها) أى الطاعة (تقول سوف أفعل) كذا وكذا من الخير (والأيام بين يدى ولا يفوتنى ذلك) أي فعل الطاعة ولايدرى هذا المسكين المسوف أن الذى يدعوه إلي التسويف اليوم هو معه غدا ؛ وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا (ولقد صدق) أبو سليمان (داود) بن نصير (الطائى) الكوفى (رحمه الله) توفى سنة ستين أو خمس وستين ومائة (حيث قال : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن طال أمله ساء عمله) رواه أبو نعيم فى الحلية ، فقال : حدثنا إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا محمد بن إسحاق « ح » وحدثنا أبو حامد أحمد ابن محمد بن الحسين ، حدثنا الحسين بن إسمعيل قالا : حدثنا محمد بن يحي الأزدى ، حدثنا بشر ابن مصلح ، حدثنا أبو محمد صدقة الزاهد ، قال : خرجنا مع داود الطائى فى جنازة بالكوفة قال : فقعد داود ناحية وهى تدفن فجاء الناس فقعدوا قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ضعف عمله ، وكل ما هو آت قريب .

واعلم يا أخى أن كل شىء يشغلك عن ربك فهو عليك مشئوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون ، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون (وقال يحي بن معاذ الرازى

رَحِمَهُ اللهُ : الْأَمَلُ قَاطِعٌ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَالطَّمَعُ مانِعٌ مِنْ كُلِّ حَقٍّ ، وَالصَّبْرُ صَائِرٌ إِلى كُلِّ ظَفَرٍ ، وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلى كُلِّ شَرٍّ .

وَالثَّانِي : تَرْكُ التَّوْبَةِ وَتَسْوِيفُها ، تَقُولُ : سَوْفَ أَتُوبُ ، وَفِى الْأَيَّامِ السَّعَةُ وَأَنا شَابٌّ ، وَسِنِّي قَلِيلٌ ، والتَّوْبَةُ بَيْنَ يدَيَّ ، وَأَنا قَادِرٌ عَلَيْها مَتَى رُمْتُها ، وَرُبَّمَا اغْتالَهُ الحِمامُ فِى الْإِصْرَارِ فَاخْتَطَفَهُ الْأَجَلُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الْعَمَلِ .

وَالثَّالِثُ : الحِرْصُ عَلَى الجَمْعِ وَالِاشْتِغالِ بِالدُّنْيَا عَنِ الآخِرَةِ ،

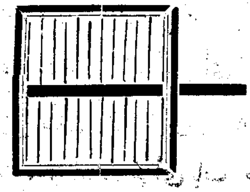
رحمه الله) توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين ، والرازى بالزاى نسبة إلى الرى مدينة من بلاد الديلم (الأمل قاطع عن كل خير، والطمع) بفتحتين (مانع من كل حق ، والصبر صائر) أى راجع (إلى كل ظفر) وفوز (والنفس) الأمارة (داعية إلى كل شر . والثانى) من الأمور الأربعة (ترك التوبة) أى ترك الرجوع عما لا يرضى الله إلى ما يرضيه مما هو محمود فى الشرع (وتسويفها) أى تأخيرها (تقول سوف أتوب ، وفى الأيام سعة وأنا شاب وسنى) أى عمرى (قليل والتوبة بين يدى وأنا قادر عليها) أى التوبة (متى رمتها) أى قصدتها وطلبتها (و) لا يدرى هـذا المسكين أنه (ربما اغتاله) أى أخذه فى غفلة . وفى المختار . غاله الشىء من باب قال ، واغتاله إذا أخـذه من حيث لم يدر (الحمام) بالكسر : أى قضاء الموت وقدره (في) حال (الإصرار)أى الإقامة فى الذنوب (فاختطفه) أى استلب هذا المسوف (الأجل) أى مدة حلول الموت (قبل إصلاح العمل) وذلك فى وقت لا يحتسبه ولم يكن فى باله فتطول عند ذلك حسرته . وأ كثر أهل النار صياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف كما ورد فى الخبر . (والثالث) من الأمور الأربعة (الحرص) أى الرغبة المذمومة (على الجمع) أى جمع المال كما فى سراج السالكين (والاشتغال بالدنيا) أى بطلبها (عن الآخرة) قال أبو الليث السمرقندى رحمه الله : الحرص على وجهين : حرص مذموم وحرص غير مذموم وتركه أفضل ، فالحرص الذى هو مذموم فهو أن يشغله عن أداء أوامر الله تعالى أو تريد جمع المال للتكاثر والتفاخر . وأما الذى هو غير مذموم فهو أن لا يترك شيئا من أوامر الله تعالى لأجل المال ولا يريد به التفاخر . فهذا غير مذموم ، لأن أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان بعضهم يجمع المال ولم ينـكر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن تركه أفضل . وروى عن مسروق قال . قلت لعائشة رضى الله عنها يا أماه ما أ كثر ما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل البيت ؟ قالت : أ كثر ما سمعته يقول إذا دخل البيت « لو أن لابن آدم واديين من ذهب لتمنى إليهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » . وإنما جعل الله هذا المال ليقام به الصلاة ويؤتى به الزكاة . وروى عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يهرم من ابن آدم

تَقُولُ : أَخَافُ الفَقْرَ فِى الْكِبَرِ وَرُبَّمَا أَضعفُ عَنِ الاُكْتِسَابِ . وَلاَ بُدَّ لِى مِنْ شَىْء فاضِلٍ أَدَّخِرُهُ لِمَرَضٍ أَوْ هَرَمٍ أَوْ فَقْرٍ ، هٰذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُحَرِّكُ إِلَى الرَّغْبَةِ فِى الدُّنْيَا وَالحِرْصِ عَلَيْهَا وَالاِهْتِمَامِ لِلرِّزْقِ ، تَقُولُ أَيْشٍ آكُلُ وَأَيْشٍ أَشْرَبُ وَأَيْشٍ أَلْبَسُ ، وَهٰذَا الشِّتَاء وَهٰذَا الصَّيْفُ وَمَالِى شَىْءٌ وَلَعَلَّ العُمْرَ يَطُولُ فَأَحْتَاجَ ، وَالحَاجَةُ مَعَ الشَّيْبِ شَدِيدَةٌ ، وَلاَ بُدَّ لِى مِنْ قُوتٍ وَغُنْيَةٍ عَنِ النَّاسِ ،هٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا تُحَرِّكُ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِيهَا وَالجَمْعِ لَهَا وَالمَنْعِ لِمَا عِنْدَكَ مِنْهَا . وَأَقَلُّ مَا فِى البَابِ أَنْ يَشْغَلَ قَلْبَكَ وَيُضِيعَ عَلَيْكَ عُمْرَكَ أَوْ وَقْتَكَ وَيُكْثِرَ هَمَّكَ وَغَمَّكَ بِلاَ فَائِدَةٍ وَلاَ طَائِلٍ عَلَى مَا رُوِىَ عَنْ أَبِى ذَرٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ،

كل شيء إلا اثنتان : الحرص والأمل » (تقول: أخاف) على نفسى (الفقر فى) حال (الكبر) بوزن العنب (وربما أضعف) أى أعجز أنا (عن الاكتساب ولا بد لى من شيء فاضل أدخره) أي أتخذه ذخرا (لمرض أو هرم) أى كبر سن (أو فقر . هذا) مبتدأ خبره قوله مما يحرك : أى هذا القول الذى صدر من الحريص على طلب الدنيا (ونحوه) أى القول المذكور (مما يحرك إلى الرغبة فى) طلب (الدنيا والحرص عليها والاهتمام) والاعتناء (للرزق تقول أيش) تحريف أى شىء (آكل) من الطعام (وأيش أشرب) من الماء (وأيش ألبس) من الملابس ، وهو بفتح الباء (وهذا الشتاء) أى هذا الزمان الحاضر فصل الشتاء ، وهو من رأس الجدى إلى رأس الحمل ، سمى بذلك لأن مدة حلول الشمس فيه هى زمان الشتاء (وهذا الصيف) وهو من رأس السرطان إلى رأس الميزان يسمى فصل الصيف ، لأن مدة حلول الشمس فيه هى زمان الصيف ، وهما فصلان من فصول السنة العربية ، وهى أربعة فصول : الربيع ، والخريف وما تقدم ، وهذا فى معظم المعمور ، وأما سكان خط الاستواء ففصولهم فى السنة ثمانية كما هو مقرر فى محله (ومالى) أى ليس لى (شىء) من المأكول والمشروب والملبوس أتخذها أو أدخرها للأزمنة المذكورة (ولعل العمر) أى مدة حياتى (يطول فأحتاج) لذلك الشىء المذكور (والحاجة مع الشيب) أى مع الكبر (شديدة ولا بد لى من قوة وغنية) فى محيط المحيط : الغنية . اسم بمعنى الغنى ، وماله غنية : أى بد (عن الناس ، هذه) أى أقاويل الحريص فى أمر الرزق واهتمامه بقلبه فى ذلك (وأمثالها تحرك إلى طلب الدنيا والرغبة فيها) أى الدنيا (والجمع لها والمنع) عن الإنفاق (لما عندك منها ، وأقل مافى الباب) أى باب طول الأمل (أن يشغل قلبك) بما لايعنيك بل يضرك (ويضيع عليك عمرك أو وقتك) الذى لاعوض له إن فات (ويكثر همك وغمك بلا فائدة ولا طائل) أى نفع ، وذلك (على ماروى عن أبى ذر رضى الله عنه) اسمه جندب بضم الجيم وبضم

أَنَّهُ قالَ : قَتَلَنِي هَمُّ يَوْمٍ لَمْ أُدْرِكْهُ ، قِيلَ وَكَيْفَ ذٰلِكَ يَا أَبَا ذَرٍّ ؟ قَالَ : إِنَّ أَمَلِي جَاوَزَ أَجَلِي .

الدال وفتحها ابن جنادة بضم الجيم، وكان أبو ذر رضى الله عنه من السابقين إلى الاسلام ، ثبت فى صحيح مسلم أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الإسلام ، فقال يا رسول الله : من اتبعك على هذا ؟ قال : حر وعبد ، وأنه أقام بمكة ثلاثين بين يوم وليلة وأسلم ، ثم رجع إلى بلاد قومه بإذن النبى صلى الله عليه وسلم ثم هاجر إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وصحبه حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتا حديث وأحد وثمانون حديثا، اتفق البخارى ومسلم منها على اثنى عشر حديثا ، وانفرد البخارى بحديثين، ومسلم بسبعة عشر . روى عنه ابن عباس رضى الله عنهما وأنس بن مالك وعبد الرحمن بن غنم وزيد بن وهب والمعرور بن سويد والأحنف بن قيس وقيس بن عباد بضم العين وتخفيف الباء وأبو الأسود الدؤلى وأبو مراح بضم الميم وبالحاء المهملة وابن أخيه عبد الله بن الصامت ويزيد بن شريك التيمي والد إبراهيم وجبير بن نفير وابن مسلم وأبو إدريس الخولانى وخرشة بن الحر وخلق سواهم . توفى أبو ذر بالربذة سنة اثنتين وثلاثين . قال المدائنى : وصلى عليه ابن مسعود ، ثم قدم ابن مسعود المدينة فأقام عشرة أيام ثم توفى . وكان أبو ذر طويلا عظيما وكان زاهدا متقللا من الدنيا ، وكان مذهبه أنه يحرم على الانسان ادخار مازاد على حاجته، وكان قوالا بالحق ، كذا فى سراج السالكين ، ووصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة أحاديث بأنه أصدق الناس لهجة : أى كلاما، وفى رواية « ماأظلت الخضراء : أى السماء ، ولا أقلت الغبراء : أى حملت الأرض أصدق لهجة من أبى ذر » وهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الاسلام ، وهى قوله : السلام عليكم . وقال على كرم الله وجهه فى حقه : وعاء ملئ علما ، ثم أوكئ عليه : أى غطى فلم يخرج منه شىء حتى قبض، وهذا كناية عن عدم نسيان شىء منه، أفاده فى شرح الأربعين وغيره (أنه قال قتلنى هم يوم لم أدركه) أى اليوم (قيل : وكيف ذلك) أى قتلك هم اليوم . (يا أباذر؟ قال إن أملى جاوز أجلى) أى مدة حلول موتى،ولقد صدق رضى الله عنه فى قوله إن الأمل جاوز الأجل ، فقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال « خط النبى صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط خطا فى الوسط ، وخط خطا خارجا ، وخط خطوطا صغارا إلى هذا الذى فى الوسط من حواليه فقال هذ الانسان .



يعنى الخط الذى فى الوسط وهذا أجله محيط به وذاك أمله خارج الخط وقد حال الأجل بينه وبين أمله ، وهذه الخطوط الصغار الأمراض . فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وان أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأته كلها أصابه الهرم » وقال أنس رضى الله عنه

وَالرَّابِعُ : الْقَسْوَةُ بِالْقَلْبِ وَالنِّسْيَانُ لِلْآخِرَةِ ، لِأَنَّكَ إِذَا أَمَّلْتَ الْعَيْشَ الطويلَ لَا تَذْكُرُ الْمَوْتَ وَالْقَبْرَ ، كما قالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللّٰهُ وَجْهَهُ :

«خط النبي صلى الله عليه وسلم خطوطا ، فقال: هذا الانسان ، وهذا الأمل ، وهذا الأجل ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب وهو أجله المحيط به » وهذا تنبيه منه صلى الله عليه وسلم على تقصير الأمل واستشعار الأجل خوف بغتته ومن غيب عنه أجله فهو حرى بتوقعه وانتظاره خشية هجومه عليه فى حال غرة وغفلة ، فينبغى للعاقل أن يجاهد أمله وهواه فإن ابن آدم مجبول على الأمل وورد أنه صلى الله عليه وسلم قال « لايزال قلب الكبير شابا فى حب الدنيا وطول الأمل » وقال ابن عمر: رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أصلح خصا: أى بيتا من القصب، فقال: « ماهذا ؟ فقلت: خص لنا نصلحه ، فقال ماأرى الأمر إلا أقرب من ذلك » فعلم أن قصر الأمل أصل كل خير وطوله أصل كل شر ، فإن من لايقدر فى نفسه أنه يعيش غدا لايسعى لكفايته ولا يهتم بها فيصير حرا من رق الحرص والطمع والذل لأبناء الدنيا ، ومن يقدر أنه يعيش عشر سنين مثلا يصير عبدا لهذه الأوصاف الذميمة ولا يكفيه شىء من الدنيا ، ولا يملأ عينه وبطنه إلا التراب كما جاء فى الحديث (والرابع) هذا آخر الأمور الأربعة (القسوة بالقلب) لأنه يقال قسوة القلب من أربعة أشياء : أولها بطن ممتلىء . والثانى صحبة صاحب السوء . والثالث نسيان الذنوب الماضية . والرابع طول الأمل فينبغى للمسلم أن يقصر أمله فانه لايدرى فى أى نفس يموت ، وفى أى قدم يموت . قال الله تعالى « وماتدرى نفس بأى أرض تموت » ،

قال بعض المفسرين : بأى قدم يموت ، وفى آية أخرى « إنك ميت وإنهم ميتون » . وقال تعالى « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » كما نبه عليه العلامة أبو الليث السمرقندى (والنسيان للآخرة ، لأنك إذا أملت العيش) أى الحياة (الطويل لاتذكر الموت والقبر كما قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه) ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى المكى المدنى الكوفى أمير المؤمنين ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا تراب فكان أحب ما ينادى به إليه ، وهو أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين وأبو السبطين وأول هاشمى ولد بين هاشميين وأول خليفة من بنى هاشم ، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين وأحد السابقين إلى الإسلام : أى من الصبيان . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة حديث وستة وثمانين حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على عشرين ، وانفرد البخارى بتسعة ، ومسلم بخمسة عشر ، توفى بالكوفة ليلة الأحد التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين ، كذا فى سراج السالكين ، وذكر العلامة ابن حجر فى الصواعق المحرقة أن سبب وفاته رضى الله عنه أنه لما

طال النزاع بينه وبين معاوية رضي الله عنها انتدب ثلاثة نفر من الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادى والبرك وعمرو التميميين فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة : عليا ومعاوية وعمرو بن العاصى ويريحوا العباد منهم ، فقال ابن ملجم : أنا لكم بعلىّ ، وقال البرك : أنا لكم بمعاوية ، وقال عمرو أنا لكم بعمرو بن العاصى وتعاهدوا على أن ذلك ليلة حادى عشر أو ليلة سابع عشر رمضان ثم توجه كل منهم إلى مصر صاحبه ، فقدم ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يريد ووافقه منهم شبيب بن عجرة الأشجعى وغيره ، فلما كانت ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين استيقظ علىّ سحرا وقال لابنه الحسن : رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يارسول الله ما لقيت من أمتك خيرا ؟ فقال ادع الله عليهم ، فقلت اللهم أبدلنى بهم خيرا لى منهم ، وأبدلهم بى شرّا لهم منى وأقبل عليه الأوز يصحن في وجهه فطردوهن ، فقال دعوهنّ فإنهنّ نوائح ، ودخل عليه المؤذن فقال الصلاة ، فخرج على الباب ينادى : أيها الناس الصلاة الصلاة ، فشد عليه شبيب فضربه بالسيف فوقع سيفه بالباب وضربه ابن ملجم بسيفه فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل دماغه وهرب ، فشبيب دخل منزله فدخل عليه رجل من بنى أمية فقتله ، وأما ابن ملجم فشد عليه الناس من كل جانب فلقيه رجل من همدان فطرح عليه قطيفة ثم صرعه وأخذ السيف منه وجاء به إلى على ، فنظر إليه وقال النفس بالنفس إذا مامت فاقتلوه كما قتلنى وإن سلمت رأيت فيه رأيى ، وفى رواية والجروح ، فأمسك وأوثق وأقام على الجمعة والسبت ، وتوفي ليلة الأحد وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، ومحمد بن الحنفية يصب الماء ، وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وصلى عليه الحسن وكبر عليه سبعا ، ودفن بدار الإمارة بالكوفة ليلا أو بالقرى موضع يزار الآن أو بين منزله والجامع الأعظم أقوال ، ثم قطعت أطراف ابن ملجم ، وجعل فى قوصرة وأحرقوه بالنار . وقيل : بل أمر الحسن بضرب عنقه ثم حرقت جيفته أم الهيثم بنت الأسود النخعية ، وكان على فى شهر رمضان الذى قتل فيه يفطر ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين ، وليلة عند عبد الله بن جعفر ولا يزيد علي ثلاث لقم ويقول : أحب أن ألقى الله وأنا خميص ، فلما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها أكثر الخروج والنظر إلى السماء . وجعل يقول : والله ما كذبت ولا كذبت وإنها الليلة التى وعدت ، فلما خرج وقت السحر ضربه ابن ملجم الضربة الموعود بها فى الحديث الذى أخرجه أحمد والحاكم بسند صحيح عن عمار بن ياسر « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى أشقى الناس رجلان أحيمر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك ياعلى على هذه : يعنى قرنه حتى يبل منه هذه » : يعنى لحيته ، وقد ورد ذلك من حديث على وصهيب وجابر بن سمرة وغيرهم . وأخرج أبو يعلى عن عائشة قالت « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم التزم عليا وقبله وهويقول بأبى الوحيدالشهيد » .وروى الطبرانى وأبو يعلى بسند رجاله ثقات إلا واحدا منهم فإنه موثق أيضا أنه صلي الله عليه وسلم قال له يوما من أشقى الأولين ؟ قال الذي عقر الناقة يارسول الله . قال : صدقت . قال فمن أشقى الآخرين ؟ قال لاعلم لى يارسول الله . قال «الذى يضربك على هذه» وأشار صلى الله عليه وسلم إلي يافوخه

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ : طُولُ الْأَمَلِ ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى » أَلاَ وَإِنَّ طُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الآخِرَةَ ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ،

فكان على رضى الله عنه يقول لأهل العراق : أى عند تضجره منهم : وددت أنه قد انبعث أشقاكم فخضب هذه : يعنى لحيته من هذه ووضع يده على مقدم رأسه ، وصح أيضا أن ابن سلام قال له لاتقدم العراق فإنى أخشى أن يصيبك بها ذباب السيف ، فقال على وايم الله لقد أخبرنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو الأسود : فما رأيت كاليوم قط محارب يخبر بذا عن نفسه ، وعمى أى أخفي قبر علي لئلا ينبشه الخوارج . وقال شريك : نقله ابنه الحسن إلى المدينة . وأخرج ابن عساكر أنه لما قتل حملوه ليدفنوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينماهم فى مسيرهم ليلا إذ ندّ الجمل الذى عليه فلم يدر أين ذهب ولم يقدرعليه ، فلذلك يقول أهل العراق هو فى السحاب وقال غيره : إن البعير وقع في بلاد طيء فأخذوه ودفنوه ، وكان لعلي حين قتل ثلاث وستون سنة . وقيل أربع وستون ، وقيل خمس وستون ، وقيل سبع وخمسون ، وقيل ثمان وخمسون وسئل وهو على المنبر بالكوفة عن قوله تعالى « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » فقال : اللهم غفرا هذه الآية نزلت فىّ وفى عمي حمزة وفى ابن عمى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، فأما عبيدة فقضى نحبه شهيدا يوم بدر ، وحمزة قضى نحبه شهيدا يوم أحد . وأما أنا فأنتظر أشقاها يخضب هذه من هذه ، وأشار بيده إلى لحيته ورأسه ، عهد عهده إلىّ حبيبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم . ولما أصيب دعا الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فقال لهما : أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا علي شيء زوى منها عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضعيف واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم أنصارا ، واعملا لله ولا تأخذكما فى الله لومة لائم ، ثم نظر إلى ولده محمد ابن الحنفية ، فقال له : هل حفظت ماأوصيت به أخويك ؟ قال : نعم ، فقال أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظم حقهما عليك ولا تواثق أمرا دونهما ، ثم قال : أوصيكما به ، فإنه أخوكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه ، ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله إلى أن قبض ، كرم الله وجهه .

وبالجملة إن فضائله كثيرة عظيمة حتى قال أحمد : ما جاء لأحد من الفضائل ماجاء لعلى . وقال إسمعيل القاضى والنسائى وأبو على النيسابورى لم يرد فى حق أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان أكثر ما جاء فى على رضى الله عنه (إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : طول الأمل ، واتباع الهوى ، ألا) أداة تنبيه (وإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد) أى يمنع (عن الحق) أى عن قبوله ، ثم قال : ألا وإن الدنيا قد ولت فداء فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء اصطبها صاحبها ، ألا وإن الآخرة قد أقبلت ولكل منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة ، وإنما اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب

فَإِذَنْ يَصِيرُ فِكْرُكَ وَمُعْظَمُ أَمْرِكَ فِي حَدِيثِ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِ الْعَيْشِ وَفِي صُحْبَةِ الْخَلْقِ وَنَحْوِهَا ، فَيَقْسُو الْقَلْبُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا رِقَّةُ الْقَلْبِ وَصَفْوَتُهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ ،

ولا عمل ، هكذا بطوله ذكره الشريف الموسوى فى نهج البلاغة ، ورواه الحاكم فى التاريخ والديلمى من حديث جابر بلفظ « إن أخوف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وهذه الدنيا مرتحلة ذاهبة ، وهذه الآخرة مقبلة صادقة ولكل واحدة منهما بنون ، فان استطعتم أن تكونوا من بنى الآخرة ولا تكونوا من بنى الدنيا فافعلوا ، فإنكم اليوم فى دار عمل ولا حساب ، وأنتم غدا فى دار حساب ولا عمل» وروى ابن النجار من حديث على « إن أشد ما أتخوف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فإنه يعدل عن الحق ، وأما طول الأمل فالحب للدنيا » . قال العراقى : روى ابن أبى الدنيا فى كتاب [قصر الأمل] « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ويبغض ، وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان : ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء ، فكونوا من أبناء الدين ولاتكونوا من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ، ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وإنكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل » ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف وروى ابن عدى من حديث جابر « أخوف ما أخوف على أمتى الهوى وطول الأمل » . ورواه ابن النجار من حديثه بلفظ « أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل واتباع الهوى ، فأما اتباع الهوى فيضل عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة والآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » قال العقيلى : فيه يحى بن مسلمة بن قعنب حدث بالمناكير . وقد رواه ابن عساكر فى التاريخ من حديث على موقوفا (فإذن) أى إن كنت لاتذكر الموت والقبر (يصير فكرك ومعظم أمرك فى حديث الدنيا وأسباب العيش ، و) يصير معظم فكرك وأمرك أيضا (فى صحبة الخلق ونحوها) من أمور الدنيا (فيقسو القلب من ذلك) أى من اشتغال فكرك وقصدك فى أمر الدنيا وغيره (وإنما رقة القلب وصفوته بذكر الموت) والأخبار التى تدل على فضيلة ذكره كثيرة منها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » معناه : نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . قال العراقى . رواه الترمذى من حديث أبى هريرة . وقال صلى الله عليه وسلم « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا » . قال العراقى : رواه البيهقى فى الشعب . وقالت عائشة رضى الله عنها : « قلت يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة» قال الزبيدى . رواه الطبرانى فى الأوسط . وقال أنس رضى الله عنه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا فإن ذكرتموه عند الغنى هذمه ، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم » . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى الموت . قال حجة الإسلام الغزالى : وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا . ومنها « أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال كيف ذكر صاحبكم للموت ؟ قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت ، قال فإن صاحبكم ليس هنالك » . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا من حديث أنس ؛ وقال ابن عمر رضى الله عنهما « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » . قال العراقى: رواه ابن ماجه بسند جيد .

ومن الآثار التى يناسب إيرادها فى فضل ذكر الموت والاستعداد له ما قال بعضهم فى قوله تعالى « ولا تنس نصيبك من الدنيا » هو الكفن ، فهو وعظ متصل بما تقدم من قوله «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » : أى اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا بصرفها فيما يوصل إليها ولا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذى هو الكفن كما قيل :

نصيبك مما تجمع الدهر كله ... رداءان تلوى فيهما وحنوط

وقال حامد اللفاف : من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضا بالكفاف ، والتكاسل بالعبادة . وقال بعضهم : لا يدخل ذكر الموت بيتا إلا رضى أهله بما قسم لهم . قال أبو نواس :

ألا أين الذين فنوا وماتوا ... أما والله ما ماتوا لتبقى

وقال أبو حمزة الخراسانى : من أكثر ذكر الموت حبب إليه كل باق وبغض إليه كل فان ؟ وروى ابن أبى الدنيا عن رجاء بن حيوة قال «ما أكثر عبد ذكر الموت إلا ترك الفرح والحسد » وروى ابن أبى شيبة فى المصنف وأحمد فى الزهد عن أبى الدرداء قال «من أكثر ذكر الموت قل حسده وقل فرحه » . وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت « أن صفية بنت شيبة رضى الله عنها قالت إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها ، فقالت أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة » . وقال الحسن البصرى رحمه الله : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا ، وروى أبو نعيم فى الحلية عن أبى عمران قال : قال عمر بن عبد العزيز: من قرب الموت من قلبه استكثر مافى يديه ، وروى عن القداح قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ويبكى حتى تجرى دموعه على لحيته . وعن عبد الوهاب عن عطاء عن سعيد قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله . وعن عمر بن ذر

قال ، قال عمر بن عبد العزيز : ما أحب أن يهون على الموت لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن . وعن الأوزاعي قال : قال عمر فذكر نحوه . وروى عن جابر بن نوح قال : كتب عمر بن العزيز إلى بعض أهل بيته : أما بعد فإنك إن استشعرت ذكر الموت فى ليلك ونهارك بغض إليك كل فان ، وحبب إليك كل باق والسلام ، وروى عن مجمع التيمى قال : ذكر الموت غنى . وعن سميط قال : من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها ، وروى ابن أبى الدنيا عن الحسن قال : ما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عنده وهان عليه جميع ما فيها . وعن قتادة قال : كان يقال طوبى لمن ذكر ساعة الموت . وعن مالك بن دينار قال : قال حكيم : كفي بذكر الموت للقلوب حياة للعمل : وعن أبى حازم قال : يا ابن آدم بعد الموت يأتيك الخبر . ويروى عن على رضى الله عنه قال « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . وقد نظم هذا المعنى الحافظ العراقى فقال :

وإنما الناس نيام من يمت … منهم أزال الموت عنه وسنه

وروى أبو نعيم فى الحلية : أن عمر بن عبد العزيز قال لميمون بن مهران يا ميمون ما أرى القبر إلا زيارة ، ولا بد للزائر أن يرجع إلى منزله : يعنى إلى الجنة أو النار . وعن رجاء بن حيوة قال : ذكر عمر بن عبد العزيز الموت يوما فقال يتمثل :

ألم تر أن الموت أدرك من مضى … فلم ينج منه ذو جناح ولا ظفر

اعلم أن أوقع طريق في تحقيق ذكر الموت فى القلب كما قاله حجة الإسلام الغزالى وغيره أن يكثر العبد ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم الجميلة فى مناصبهم وأحوالهم التى كانوا يتقلبون فيها ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم ، وأيتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت عنهم مساجدهم ومدارسهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، فمهما تذكر رجلا وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه ، وتردده ، وأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بموافقة الأسباب ، وركونه إلى القوة والثبات ، وميله إلى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وكيف كان ينطق والآن قد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك والآن قد أكل التراب أسنانه ، وأنه كيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج إلى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه فانكشفت له صورة الملك القابض للروح وهو عزرائيل عليه السلام وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار كما يشير اليه ما أخرجه الطبرانى فى الكبير عن عبد الله بن عمرو « إذا توفى الله المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء ، فيقولون اخرجى إلى روح الله ، فتخرج كأطيب ريح المسك ، وأما الكافر فتأتيه ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون اخرجى إلى غضب الله فتخرج كأنتن جيفة ، فعند ذلك ينظر العبد أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم » . قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا ذكرت الموت فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : السعيد من وعظ بغيره .

وَالقَبْرِ ،

وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل تضعونه فى صدع : أى شق من الأرض قد توسد التراب وخاف الأحباب وقطع الأسباب أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى وأهل البلاء هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور ، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى والفائدة فى التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشىء من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لابد من مفارقته . نظر عبد الله بن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى ، فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت ، ولذلك ينبغى للمؤمن كما قاله العلامة أبو الليث رحمه الله أن يكثر ذكر الموت فإنه لاغنية للمؤمن من ست خصال : أولها علم يدله على الآخرة . والثانى رفيق يعينه على طاعة الله ويمنعه عن معصيته . والثالث معرفة عدوه والحذر منه . والرابع عبرة يعتبر بها فى آيات الله وفى اختلاف الليل . والخامس إنصاف الخلق كيلا يكون يوم القيامة خصم . والسادس الاستعداد للموت قبل نزوله لكيلا يكون مفتضحا يوم القيامة (و) ذكر (القبر) . قال سفيان الثورى رحمه الله : من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عنه وجده حفرة من حفر النار ، وروى عن على كرم الله وجهه أنه قال فى خطبته : يا عباد الله الموت الموت ليس منه فوت إن أقمتم له أخذكم ، وإن فررتم منه أدرككم ، الموت معقود بنواصيكم ، فالنجاة النجاة الوحا الوحا ، فإن وراءكم طالبا حثيثا : وهو القبر ، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث مرات فيقول : أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الديدان ، ألا وإن وراء ذلك اليوم يوما أشد من ذلك اليوم ، يوما يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ألا وإن وراء ذلك اليوم نارا حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليها حديد ، وماؤها صديد ، ليس لله فيها رحمة . قال الراوى : فبكى المسلمون بكاء شديدا ، فقال كرم الله وجهه : وإن وراء ذلك اليوم جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، أجارنا الله وإياكم من العذاب الأليم ، وأحلنا وإياكم دار النعيم . وروى عن أسيد بن عبد الرحمن أنه قال : بلغنى أن المؤمن إذا مات فحمل قال أسرعوا بى ، فاذا وضع فى لحده كلمته الأرض وقالت إنى كنت أحبك وأنت على ظهرى فأنت الآن أحب إلى ، وإذا مات الكافر فحمل قال أرجعوا بى ، فإذا وضع فى لحده كلمته الأرض فقالت إنى كنت أبغضك وأنت على ظهرى ، فأنت الآن أبغض إلى . وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه وقف على قبر فبكى فقيل له إنك تذكر الجنة والنار ولا تبكى وتبكى من هذا فقال

وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَأَحْوَالِ الآخِرَةِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِقَلْبِكَ رِقَّةٌ وَصَفْوَةٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فَإِذَنْ أَنْتَ إِذَا طَوَّلْتَ أَمَلَكَ قَلَّتْ طَاعَتُكَ وَتَأَخَّرَتْ تَوْبَتُكَ وَكَثُرَتْ مَعْصِيَتُكَ وَاشْتَدَّ حِرْصُكَ وَقَسَا قَلْبُكَ وَعَظُمَتْ غَفْلَتُكَ عَنِ الْعَاقِبَةِ فَذَهَبَتْ ـ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللَّهُ تَعَالَى ـ آخِرَتُكَ ، فَأَيُّ حَالٍ أَسْوَأُ مِنْ هَذِهِ ؟ وَأَيُّ آفَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ ؟ وَكُلُّ هَذَا بِسَبَبِ طُولِ الْأَمَلِ ؛ وَأَمَّا إِنْ قَصَّرْتَ أَمَلَكَ وَقَرَّبْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَوْتَكَ وَتَذَكَّرْتَ حَالَ أَقْرَانِكَ وَإِخْوَانِكَ الَّذِينَ غَافَصَهُمُ الْمَوْتُ فِي وَقْتٍ لَمْ يَحْتَسِبُوهُ ،

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » ويقال : إن الأرض تنادى كل يوم خمس مرات: أول نداء تقول : يا ابن آدم تمشى على ظهرى ومصيرك إلى بطنى . والثاني تقول : يا ابن آدم تأكل الألوان على ظهرى وتأكلك الديدان فى بطنى . والثالث تقول : يا ابن آدم تضحك على ظهرى فسوف تبكي فى بطنى . والرابع تقول: يا ابن آدم تفرح على ظهرى فسوف تحزن فى بطنى . والخامس تقول : يا ابن آدم تذنب على ظهرى فسوف تعذب فى بطنى ، فينبغى للعاقل أن يكثر من ذكر القبر قبل أن يدخله (و) ذكر (الثواب) فى الجنة بأنواع نعيمها (و) ذكر (العقاب) فى النار (و) ذكر (أحوال الآخرة) وشدائدها ، وقد أشبع الكلام على ذلك حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء فانظره فانه مهم (وإذا لم يكن شيء من ذلك) أى من ذكر الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال الآخرة وأهوالها (فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة . قال الله تعالى «فطال عليهم الأمد) أى الزمان بطول أعمارهم وآمالهم، أو ما بينهم وبين أنبيائهم (فقست قلوبهم) وكثير منهم فاسقون» : أى خارجون عن دينهم رافضون لما فى كتبهم من أجل فرط القسوة (فاذن) أى حين إذ علمت قوله تعالى (أنت إذا طولت أملك) بطول العمر (قلت طاعتك وتأخرت توبتك وكثرت معصيتك واشتد حرصك) وطمعك بطلب الدنيا وجمعها (وقسا قلبك وعظمت غفلتك عن العاقبة) أى آخر أمرك (ـ فذهب والعياذ بالله إن لم يرحم الله تعالى) جملة معترضة بين الفعل وفاعله (آخرتك ـ فأى حال أسوأ) أى أكثر سوءا (من هذه) أى قسوة القلوب وعظم غفلتها عن العاقبة (وأى آفة أعظم من هذه) البليات المذكورة (وكل هذا) أى أسوأ الحالات وأعظم الآفات (بسبب طول الأمل ؛ وأما إن قصرت أملك وقربت من نفسك موتك وتذكرت) فى قلبك (حال أقرانك) أى أصحابك وإخوانك وأقاربك (الذين غافصهم) أى فاجأهم (الموت) فى سراج السالكين غافصه مغافصة : فاجأه وأخذه على غرة منه (فى وقت لم يحتسبوه) أى الموت

وَلَعَلَّ حَالَكَ مِثْلُ حَالِهِمْ ، فَاحْذَرِي يَا نَفْسِي الْغُرُورَ ، وَاذْكُرِي مَا قَالَ عَوْفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ : كَمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يَوْمًا لَمْ يَسْتَكْمِلْهُ ، وَمُنْتَظِرٍ غَدًا لَمْ يُدْرِكْهُ ، لَوْ رَأَيْتَ الْأَجَلَ وَمَسِيرَهُ لَأَبْغَضْتَ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « اَلدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ : أَمْسِ مَضَى مَابِيَدِكَ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَغَدًا لَاتَدْرِي أَتُدْرِكُهُ أَمْ لَا ؟ وَيَوْمٌ أَنْتَ فِيهِ فَاغْتَنِمْهُ »

فى ذلك الوقت (ولعل حالك مثل حالهم ؛ فاحذرى يانفسي الغرور) أى السكون إلى ما يوافق الهوي. قال فى التعريفات : الغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع : أى عن شبهة وخدعة من الشيطان . والغرور : الدنيا وتوصف به فيقال : دنيا غرور ، وما يتغرغر به من الأدوية وماغرك ، أو يخص بالشيطان (واذكرى ما قال عوف) صوابه كما فى سراج السالكين عون (بن عبد الله) الراوي عن ابن مسعود (رحمه الله) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفى أخو عبيد الله بن عبد الله أحد الفقهاء السبعة ، سمع ابن عمر وأبا هريرة ويوسف ابن عبد الله بن سلام وعائشة رضى الله عنهم ، وسمع من التابعين أخاه وأبا هريرة وغيرهما . روى عن ابن مسعود وابن عباس مرسلا لم يسمعهما . وروى عنه الزهرى وأبو الزبير وأبو إسحاق الشيبانى ومحمد بن عجلان وآخرون من التابعين . قال يحي بن معين وغيره ثقة . روى له مسلم مات قبل سنة عشرين ومائة (كم من مستقبل يوما) من الأيام (لم يستكمله) أى اليوم لمفاجأة الموت فى أثنائه(و)كم (منتظر غدا لم يدركه، لو رأيت الأجل) أى وقت حلول الموت (ومسيره) أى الأجل (لأبغضت الأمل وغروره) رواه ابن أبي شيبة عن عون بن عبد الله قال : « ما أحد ينزل الموت حق منزلته إلاعبدا عدّ غدا ليس من أجله ، كم من مستقبل يوما لايستكمله ، وراج غدا لا يبلغه، إنك لو ترى الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره» هكذا نقله الزبيدى (أما سمعت قول عيسي ابن مريم عليه السلام : الدنيا ثلاثة أيام) أحدها (أمس مضى ما بيدك منه) أى ليس بيدك من اليوم الماضى (شيء ، و) ثانيها (غد لا تدرى أتدركه أم لا . و) ثالثها (يوم أنت فيه فاغتنمه) أى اغتنم اليوم الذى أنت فيه بالعمل الصالح ، فان الموت قد يطرأ عليك فيمنعك منه فترحل بغير زاد ، ولله در القائل :

تأهب للذى لابد منه فان الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

وذلك لأن من مات انقطع عمله وفات أمله وحق ندمه وتوالى حزنه وهمه فاستسلف لك منك . واعلم أنه سيأتي عليك زمان طويل وأنت تحت الأرض لا يمكنك أن تذكر الله عز وجل ، فبادر

ثُمَّ قَوْلَ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : اَلدُّنْيَا ثَلَاثُ سَاعَاتٍ : سَاعَةٌ مَضَتْ ، وَسَاعَةٌ أَنْتَ فِيهَا ، وَسَاعَةٌ لَا تَدْرِي أَتُدْرِكُهَا أَمْ لَا ؛ فَلَسْتَ تَمْلِكُ بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا سَاعَةً وَاحِدَةً ، إِذِ الْمَوْتُ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ ، ثُمَّ قَوْلَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ : اَلدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَنْفَاسٍ : نَفَسٌ مَضَى عَمِلْتَ فِيهِ مَا عَمِلْتَ ، وَنَفَسٌ أَنْتَ فِيهِ ، وَنَفَسٌ لَا تَدْرِي أَتُدْرِكُهُ أَمْ لَا ؛ إِذْ كَمْ مِنْ مُتَنَفِّسٍ نَفَسًا فَفَاجَأَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ النَّفَسِ الْآخَرِ فَلَسْتَ تَمْلِكُ إِلَّا نَفَسًا وَاحِدًا بِالْحَقِيقَةِ لَا يَوْمًا وَلَا سَاعَةً ، فَبَادِرْ فِي هٰذَا النَّفَسِ الْوَاحِدِ إِلَى الطَّاعَةِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ وَإِلَى التَّوْبَةِ ، فَلَعَلَّكَ فِي النَّفَسِ الثَّانِي تَمُوتُ ، وَلَا تَهْتَمَّ بِالرِّزْقِ ، فَلَعَلَّكَ لَا تَعِيشُ

فبادر في حياتك واغتنم فرصة الإمكان لعل أن تسلم من العقاب والهوان ، وما أحسن ما قيل :

إذا هبت رياحك فاغتنمها   فعقبى كل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها   فما تدري السكون متى يكون
وإن تظفر بذاك فلا تقصر   فإن الدهر عادته يخون

وروى الترمذي « ما من ميت يموت إلا ندم ، قالوا وما ندامته ؟ قال: إن كان محسنا أن لا يكون زاد ، وإن كان مسيئا أن لا يكون استعتب » أي تاب وأصلح شأنه ، فلذا يتعين اغتنام ما بقي من العمر إذ هو لا قيمة له : قال ابن جبير : كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة (ثم) اسمع (قول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه) بكسر الغين وتخفيف الفاء ، نسبة إلى غفار بن مليك بن ضمرة بن بكر ابن عبد مناف بن كنانة ، وقد تقدمت ترجمته (الدنيا ثلاث ساعات : ساعة مضت . وساعة أنت فيها ، وساعة لا تدرى أتدركها) أي الساعة المستقبلة (أم لا) تدركها (فلست تملك بالحقيقة إلا ساعة واحدة إذ الموت من ساعة إلى ساعة ، ثم) اسمع أيضا (قول شيخنا) هو أبو بكر الوراق (رحمه الله : الدنيا ثلاثة أنفاس) جمع نفس بفتح الفاء ، وهو جزء من الهواء يخرج من البدن في جزء من الزمن (نفس مضى عملت فيه ما عملت) من العمل الصالح أو غيره (ونفس أنت فيه ونفس لا تدرى أتدركه أم لا ، إذ كم من متنفس نفسا ففاجأه الموت قبل النفس الآخر فلست تملك إلا نفسا واحدا بالحقيقة ، لا) تملك (يوما ولا ساعة فبادر) أي أسرع (في هذا النفس الواحد إلى الطاعة قبل أن يفوت) أي يذهب هذا النفس عنك ، فاذا فات فلا عود له ، فينبغي لك الأدب معه تعالى ومراقبته في كل نفس من أنفاسك فتكون في كل نفس سالكا طريقا إليه تعالي ، وهو معنى قولهم : الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق . قال بعضهم : إن اليوم ينادى كل وقت بقوله: يابن آدم أنا يوم جديد وأنا بما عملت فيه شهيد فاغتنمني فانك لا تدركني إذا غربت الشمس (و) بادر (إلى التوبة فلعلك في النفس الثاني تموت ولا تهتم بالرزق) أي بطلبه (فلعلك لا تعيش

فَتَحْتَاجَ إِلَيْهِ فَيَكُونُ وَقْتُكَ ضَائِعاً وَالْهَمُّ فَاضِلاً ، وَمَا عَسَى أَنْ يَهْتَمَّ الْإِنْسَانُ بِالرِّزْقِ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ أَوْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ نَفَسٍ وَاحِدٍ ، أَمَا تَذْكُرُ مَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِأُسَامَةَ : « أَمَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِى بِصَبْرِ شَهْرٍ ، إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ ، وَاللهِ مَا وَضَعْتُ قَدَمًا فَظَنَنْتُ أَنِّى أَرْفَعُهَا ، وَلاَ لُقْمَةً فَظَنَنْتُ أَنِّى أُسِيغُهَا حَتَّى يُدْرِكَنِى الْمَوْتُ ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

فتحتاج إليه) أى الرزق (فيكون وقتك ضائعا) أى ذاهبا لا فائدة ولا نفع فيه فتكون قد خسرت خسرانا مبينا (و) يكون (الهم فاضلا) أى زائدا لا حاجة إليه (وما عسى أن يهتم الإنسان بالرزق) يحتمل أن تكون ما نافية : أى ماينبغى أن يوجد رجاء اهتمام الإنسان بالرزق ويحتمل أن تكون استفهاما إنكاريا : أى أى شىء رجاء اهتمامه بالرزق (ليوم واحد أو ساعة واحدة أو نفس) بفتح الفاء (واحد ، أما تذكر ما قال النبى صلى الله عليه وسلم لأسامة) بن زيد هو مولي رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن مولاه وابن مولاته وحبه وابن حبه أبو محمد . وقيل أبو يزيد : وقيل أبو زيد: وقيل أبو خارجة أسامة بن زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي الهاشمى، وأمه أم أيمن بركة رضى الله عنهما . روى لأسامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وثمانية وعشرون حديثا اتفق البخارى ومسلم منها على خمسة وانفرد البخارى بحديثين ومسلم بحديثين، توفى بالمدينة . وقيل بوادى القرىٰ ، وحمل إلى المدينة سنة أربع وخمسين (أما تعجبون من أسامة المشترى) وليدة : أى جارية (بصبر شهر إن أسامة لطويل الأمل، والله ماوضعت قدما فظننت أنى أرفعها) أى القدم (ولا) لقمت (لقمة فظننت أنى أسيغها) أى أبتلع تلك اللقمة بسهولة ، ويقال ساغ الشراب يسوغ سوغا : سهل فى الحلق وسغته أنا أسوغه يتعدى ولا يتعدى ، كذا قاله الحريرى ، وفى المختار ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق ،وبابه قال، وساغه غيره وبابه قال وباع ، والأجود أساغه غيره . قال الله تعالى « يتجرعه ولا يكاد يسيغه » (حتى يدركنى الموت والذى نفسى بيده) أى روحى بقدرته وتصريفه كما أفاده العزيزى . وقال البركوى : والذى جار ومجرور متعلق بأقسم المقدر ، ونفسى مبتدأ وبيده ظرف مستقر خبره ، والجملة صلة الموصول والمعنى والله الذى روحى فى قبضة قدرته (إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) وفى الإحياء فى الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، قال أبو سعيد الخدرى : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا تعجبون من أسامة المشترى إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي ، ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتي أغص بها من الموت ثم قال يا ابن آدم : إنه

فَإِذا أَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ تَذَكَّرْتَ هٰذِهِ الْأَذْكَارَ وَوَاظَبْتَ عَلَى ذٰلِكَ بِالْإِعَادَةِ وَالتَّكْرَارِ قَصُرَ أَمَلُكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ تَعَالى ، فَحِينَئِذٍ تَرَى نَفْسَكَ تُبَادِرُ إِلى الطَّاعَاتِ وَتُعَجِّلُ تَوْبَتَكَ فَتَسْقُطُ عَنْكَ مَعْصِيَتُكَ وَتَزْهَدُ فى الدُّنْيَا وَطَلَبِهَا ، فَيَخِفُّ حِسَابُكَ وَتَبِعَتُكَ وَيَقَعُ قَلْبُكَ فى تَذَكُّرِ الآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا وَمَا هُوَ إِلاَّ مِنْ نَفْسٍ إِلَى نَفَسٍ تَصِيرُ إِلَيْهَا وَتُعَايِنُهَا وَاحِدًا فَوَاحِدًا فَتَزُولُ عَنْكَ الْقَسْوَةُ وَتَبْدُو لَكَ الرِّقَّةُ وَالصَّفْوَةُ وَتَسْتَشْعِرُ عِنْدَ ذٰلِكَ الْخَوْفَ مِنَ اللّٰهِ تَعَالى وَالْخَشْيَةَ ،

كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » انتهى : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل، والطبرانى فى مسند الشاميين، وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف . قال الزبيدى : ورواه كذلك ابن عساكر فى التاريخ وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج : أى إلى الخلاء يهريق الماء فيتمسح بالتراب : أى يتيمم به فأقول له : يا رسول الله إن المـاء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا أبلغه » (فإذا أنت أيها الرجل) الذى يريد قصر الأمل (تذكرت) أى بقلبك (هــذه الأذكار) المذكورة من قول عون بن عبــد الله وقول عيسى بن مريم عليهما السـلام وغيرها (وواظبت) أى لازمت (على ذلك) أى التذكر بهذه الأذكار (بالإعادة والتـكرار) عطف تفسير ، كذا قيــل (قصر أملك بإذن الله تعالى) وإرادته (فحينئذ) أى حين إذ قصر أملك (ترى نفسك تبادر) وتسارع (إلى الطاعات) وترك المعاصى والزلات (وتعجل توبتك فتسقط عنك معصيتك) أى التي قد فعلتها بسـبب التوبة النصوح (وتزهد فى الدنيا، و) عن (طلبها فيخف حسابك وتبعتك) أى ما يتبعك من حقوق الآدميين (و) عند ذلك (يقع قلبك فى تذكر الآخرة وأهوالها) وشدائدها (وما هو) أى ليس وقوع التذكر (إلا من نفس) بفتح الفاء كما قرره بعضهم وكذا قوله (إلى نفس تصير إليها) أى الآخرة (وتعاينها) أى تلك الآخرة (واحدا فواحدا فتزول عنك القسوة) أى قسوة قلبك(وتبدو) أى تظهر (لك الرقة والصفوة) أى رقة قلبك وصفوته (وتستشعر) أنت (عند ذلك) أى عند زوال القسوة وظهور الرقة والصفوة (الخوف من الله تعالى والخشية) أى من عظمته سبحانه وتعالى، والخوف منه تعالى هو أن يخاف عقابه ، وقد فرض الله على عباده أن يخافوه فقال « وخافون إن كنتم مؤمنين » وعنه عليه السلام « ومن خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله خاف كل شيء » وعن أبى حفص: الخوف سراج القلب به يبصر ما فيه الخير والشر ، ومن علم أن لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى لم يخف غيره من سبع ونار وغيرهما كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام ، فمن لم يخف غيره أمن من كل مخوف وإن خاف من بعض المخلوقات فإنما يخاف أن يسلطه الله عليه ، ويكون خوفه من البعوضة أن

فَيَسْتَقِيمُ لَكَ أَمْرُ عِبَادَتِكَ ، وَيَقْوَى الرَّجَاءُ فِى أَنْ تَسْتَعِدَّ فِى عَاقِبَتِكَ وَتَظْفَرَ بِالْمُرَادِ فِى عَاقِبَتِكَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ بَعْدَ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى بِسَبَبِ هَـٰذِهِ الْخَصْلَةِ الَّتِى هِىَ قِصَرُ الْأَمَلِ .

وَلَقَدْ حُكِىَ أَنَّ زُرَارَةَ بْنَ أَوْفَى رَحِمَهُ اللهُ ،

يسلطها الله عليه أشد منْ خوفه من الهرة ومن الهرة أشد من الفيل والأسد ، ومن خافه تعالى خافه كل شىء كما مر ، لأن عامة الخوف منه تعالى على باطن الخائف من آثار مشاهدة الجلال ، ومن تجلى عليه الجلال كساه ملابس الهيبة فهابه كل شىء ، فالخائف تارة يخاف المخلوقات ، وتارة يأمنها والثانى أعلى ، وعن أبى سليمان الدارانى أنه ينبغى أن يكون الغالب على القلب الخوف ، لأنه إذا غلب الرجاء فسد القلب . قال شيخ الإسلام : ومع ذلك فاذا استقامت أحوال العبد كان الكمال فى استوائهما فى قلبه ، وهو الذى أوصى به أبو بكر عمر رضى الله عنهما بقوله : ليكون العبد راغبا راهبا لا يتألى على الله ولا يقنط منْ رحمته (فيستقيم لك أمر عبادتك ويقوى الرجاء فى أن تستعد فى عاقبتك وتظفر) أى تفوز (بالمراد فى عاقبتك) أى فى آخر أمرك ، وفى نسخة فى آخرتك (وكل ذلك) أى المذكور من المبادرة إلى الطاعات وما بعدها (بعد فضل الله تعالى) حاصل (بسبب هذه الخصلة) العظيمة (التى هى قصر الأمل) وله أربع كرامات . قال الفقيه السمرقندى رحمه الله : من قصر أمله أكرمه الله تعالى بأربع كرامات : إحداها أن يقويه على طاعته لأن العبد إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه ويجتهد فى الطاعات فيكثر عمله . والثانى يقل همومه لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه . والثالث يجعله راضيا بالقليل لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب فانه لا يطلب الكثرة وإنما يكون همه هم آخرته . والرابع أن ينور قلبه لأنه يقال نور القلب من أربعة أشياء : أولها بطن جائع . والثانى صاحب صالح . والثالث حفظ الذنب القديم . والرابع قصر الأمل (ولقد حكى أن زرارة) بضم أوله (ابن أوفى رحمه الله) هو العامرى القرشى البصرى من التابعين يكنى أبا حاجب كان من العباد وثقه النسائى وابن حبان ، قال ابن سعد مات فجأة فى الصلاة سنة ثلاث وتسعين بعد المائة . قال الزبيدى : وهو فى أثناء قراءة قوله تعالى « فإذا نقر فى الناقور » وأخرجه أبو نعيم فى الحلية من وجهين : الأول قال حدثنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا أبو جناب القصاب واسمه عون بن ذكوان قال صلى بنا زرارة بن أوفى صلاة الصبح فقرأ « يا أيها المدثر » حتى إذا بلغ « فإذا نقر فى الناقور » خر ميتا . الثانى قال حدثنا أحمد بن عنبر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنا روح بن عبد المؤمن ، حدثنا غياث بن المثنى القشيرى ، حدثنا بهز بن حكيم قال صلى بنا زرارة بن أوفى فى مسجد بنى قشير فقرأ « فإذا نقر فى الناقور » فخر ميتا فحمل إلى داره

قِيلَ لَهُ فى النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ : أَىُّ الأَعْمَالِ أَبْلَغُ فِيمَا عِنْدَكُمْ ؟ قالَ الرِّضَا وَقِصَرُ الأَمَلِ ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الأَخُ ، وَابْذُلِ المَجْهُودَ فى هٰذَا الأَصْلِ الكَبِيرِ فَإِنَّهُ الأَهَمُّ وَالأَعْظَمُ فى صَلاَحِ القَلْبِ وَالنَّفْسِ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَأَمَّا الحَسَدُ فَإِنَّهُ المُفْسِدُ لِلطَّاعَاتِ البَاعِثُ عَلَى الخَطِيئَاتِ ،

وكنت فيمن حمله إلى داره (قيل له فى النوم بعد موته: أى الأعمال أبلغ فيما عندكم ؟ قال) ابن أوفى (الرضا) بحكمه تعالى (وقصر الأمل) . وقال الحسن البصرى رحمه الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال قصروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء » . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا ، وقال الثورى : ليس الزهد فى الدنيا بلبس الخشن ولا أكل الغليظ إنما الزهد قصر الأمل .

قال المصنف رحمه الله تعالى (فانظر لنفسك أيها الأخ وابذل المجهود) والطاقة (فى) تحصيل (هذا الأصل الكبير) الذى هو قصر الأمل (فانه) أى هذا الأصل (الأهم والأعظم فى صلاح القلب والنفس ، والله) سبحانه و (تعالى ولىّ التوفيق) والهداية (بفضله ورحمته) تعالى .

(وأما الحسد) وهو كما قال الراغب تمنى زوال نعمة على مستحقها ، وربما كان معه سعى فى إزالتها وفى الصحاح إنه تمنى زوال نعمة المحسود إليك، وعليه جرى ابن الأثير فى النهاية حيث قال إن الحسد أن يرى لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه ، فاتفقوا على أن الحسد تمنى زوال نعمة الغير ، وشرط الراغب كون الغير مستحقا ، والصحاح كون الحاسد يتمنى انقلاب النعمة إليه ، ولذلك قال الزبيدى : إن الحسد تمنى زوال نعمة من يستحق تلك النعمة ، فالحاسد يعاند المقادير الإلهية ويطلب وضع الحق فى غير موضعه أو زواله عن موضعه . وقال العلامة عبد الحق : هو سخط قضاء الله تعالى والاعتراض عليه فيما لاعذر للعبد فيه . وقيل تمنى زوال نعمة المحسود أو حصول معصية له ، وسببه الكبر والعداوة أو خبث النفس أو بخل بنعمة الله على عباده ، وهذا أحد مراتب الحسد ، والمرتبة الثانية أن يحب زوال النعمة إليه كما فى الصحاح لرغبته فى تلك النعمة مثل رغبته فى دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة من الرزق نالها غيره وهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لازوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لاتنعم غيره بها ، والمرتبة الثالثة أن لايشتهى عين تلك النعمة لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فان عجز عن مثلها أحب زوالها عن المنعم عليه كى لايظهر التفاوت بينه وبين غيره ، فالشق الأول غير مذموم وهو المسمى غبطة ومنافسة ، والشق الثانى مذموم ، والمرتبة الرابعة أن يشتهى لنفسه مثل تلك النعمة فان لم تحصل فلا يحب زوالها عن المنعم عليه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب إليه إن كان فى الدين (فانه المفسد للطاعات الباعث) أى الحامل (على الخطيئات) وهى كثيرة :

وَإِنَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ الذى يُبْتَلَى بِهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالْعُلَمَاءِ فَضْلاً عَنِ الْعَامَّةِ وَالْجُهَّالِ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ وَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ . أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِسِتَّةٍ : الْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ ، وَالْأُمَرَاءُ بِالْجَوْرِ ، وَالدَّهَاقِينُ بِالْكِبْرِ ، وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ ، وَأَهْلُ الرَّسَاتِيقِ بِالْجَهْلِ ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ ،

منها أن الحاسد يعترض على مولاه في القسمة ويضاد حكمه فيها ، ومنها إعانة إبليس اللعين . قال بعض الحكماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه : أولها قد أبغض كل نعمة قد ظهرت على غيره. والثانى سخط لقسمته : يعنى يقول لربه لم قسمت هكذا ، والثالث أنه ضن بفضله : يعنى أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضل الله تعالى ، والرابع خذل ولى الله تعالى ، لأنه يريد خذلانه وزوال النعمة عنه . والخامس أعان عدوه : يعنى إبليس لعنه الله ، ويقال الحاسد لاينال فى المجالس الا مذمة وذلا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا ، ولا ينال فى الخلوة إلا جزعا وغما ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا ، ولا ينال فى الموقف إلا فضيحة ونكالا ،ولا ينال فى النار إلا حارا واحتراقا (وإنه) أى الحسد (الداء العضال) أى المشكل مداواته (الذى يبتلى به الكثير من القراء والعلماء فضلا عن العامة) أى أكثر الناس (والجهال) أى إذا كان أكثر القراء والعلماء يبتلى بهذا الحسد، فابتلاؤه لكل العامة والجهال أولى ، وفضلا مصدر منصوب إما بفعل محذوف هو حال من الداء أو صفة له ، هذا ، وفى استعماله في الاثبات كما هنا نظر لقول ابن هشام لايستعمل إلا فى النفى نحو فلان لايملك درهما فضلا عن دينار : أى لايملك درهما ، ولا دينارا ، وأن عدم ملكه الدينار أولى من عدم ملكه الدرهم ، قاله القاضى زكريا ، وفى بعض التقارير أن بعضهم صرح بأنها تستعمل فى الاثبات إذا كان مؤولا بالنفى كما هنا فان قوله رحمه الله الذى يبتلى الخ فى قوة قولنا الذى لايترك به الكثير ، ولكن قال العلامة البنانى عن تقرير شيخه إنها تستعمل فى الاثبات بلا شرط (حتى أهلكهم) ذلك الحسد (وأوردهم) أى أدخلهم (النار ، أما تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ستة) أى ستة أصناف (يدخلون النار بستة) أى بسبب ستة أشياء يوم القيامة قبل الحساب كما فى رواية (العرب) وهم سكان البادية كما فى الإتحاف (بالعصبية) الجاهلية وهى الجدل فى النسب كما فى سراج السالكين (والأمراء بالجور) أى الظلم على الرعية (والدهاقين) جمع دهقان بالكسر وهو رئيس القرية (بالكبر) أى التكبر على أهل قريته (والتجار بالخيانة) فى معاملاتهم (وأهل الرساتيق) أى أصحاب القرى (بالجهل) فى أمور الدين (والعلماء بالحسد) يعنى العلماء الذين يطلبون الدنيا يحسد بعضهم بعضا ، فينبغى للعالم أن يتعلم العلم ليطلب به الآخرة ، فاذا كان العالم يطلب بعلمه الآخرة فانه لايحسد أحدا ولا يحسده أحد ، وإذا تعلم لطلب الدنيا فانه يحسد كما قال الله عن علماء اليهود « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » يعنى أن اليهود كانوا يحسدون رسول الله وأصحابه ، فكانوا يقولون :

وَإِنَّ بَلِيَّةً بَلَغَ شُؤْمُهَا أَنْ أَوْرَدَتِ الْعُلَمَاءَ النَّارَ لَحَقِيقٌ أَنْ يُحْذَرَ مِنْهَا

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَسَدَ يُهَيِّجُ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا : فَسَادُ الطَّاعَاتِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم : « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ »

لو كان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لشغله ذلك عن كثرة النساء . قال الله سبحانه وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » يعنى النبوة وكثرة النساء كذا أفاده العلامة أبو الليث السمرقندى ، وهذا الحديث رواه أبو منصور الديلمى من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين كما قاله العراقى . قال الزبيدى : ولفظ الديلمى من حديث أنس « ستة يعذبهم الله بذنوبهم يوم القيامة : الأمراء بالجور ، والعلماء بالحسد ، والعرب بالعصبية ، وأهل الأسواق بالخيانة ، والدهاقين بالكبر ، وأهل الرساتيق بالجهل » وأما حديث ابن عمر فأخرجه أبو نعيم فى الحلية بلفظ « ستة يدخلون النار بغير حساب : الأمراء بالجور ، والعرب بالعصبية ، والدهاقين بالكبر ، والتجار بالكذب ، والعلماء بالحسد ، والأغنياء بالبخل » : ومما جاء فى المرفوع « الحسد يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » . رواه الديلمى من حديث معاوية بن حيدة (و) إذا علمت ذلك فاعلم (أن بلية بلغ شؤمها أن أوردت) أى أدخلت البلية (العلماء النار ، لحقيق) وجدير (أن) أى بأن (يحذر منها) أى تلك البلية : (واعلم أن الحسد يهيج) أى يحرك (خمسة أشياء : أحدها فساد الطاعات . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسد) المذموم كما تقدم بيانه (يأكل الحسنات) : قال الطيبى : الأكل هنا استعارة لعدم القبول وإن حسناته مردودة عليه وليست بثابتة فى ديوان عمله الصالح حتى تحبط (كما تأكل النار الحطب) فتعدمه وتمحوه وذلك لأن الحسد اعتراض على الله فيما لاعذر للعبد فيه ، لأنه لاتضره نعمة الله على عبده ، والله لايعبث ولا يضع الشىء فى غير محله ، فكأنه نسب ربه للجهل والسفه ولم يرض بقضائه ، فلذلك ردّت حسناته من ديوان الأعمال . قال العراقى : رواه أبو داود من حديث أبى هريرة وابن ماجه من حديث أنس ، وأخرجه الخطيب بسند حسن .

وقد ورد فى ذم الحسد أخبار كثيرة : منها هذا الخبر . وقال صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الحسد وأسبابه وثمراته « لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا ، وكاد الحسد أن يغلب » أى كاد فى قلب الحاسد أن يغلب العلم بالقدر ، فلا يرى أن النعمة التى حسد عليها أنها صارت إليه بقدر الله تعالى وقضائه كما أنها لا تزول إلا بقضائه وقدره ، وغرض الحاسد زوال نعمة المحسود ولو تحقق لم يحسده واستسلم وعلم أن الكل بقدر كما أفاده العلامة الزبيدى . قال العراقى رواه أبو مسلم الكشى والبيهقى فى الشعب . وقال صلى الله عليه وسلم « أخوف ما أخاف على أمتى أن يكثر فيهم المال

فيتحاسدون ويقتتلون». أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي عامر الأشعري. وقال صلى الله عليه وسلم «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كلّ ذي نعمة محسود» . قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا .

ومن الآثار مما يدخل في الباب قال الأحنف بن قيس : لا راحة لحسود : أخرجه البيهقي في الشعب ، وروى ابن عمر : أن إبليس قال لنوح : اثنتان أهلك بهما بني آدم : الحسد ، وبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما ، والحرص أبيح آدم بالجنة كلها فأصبت حاجتي منه بالحرص : أخرجه ابن أبي الدّنيا في ذمّ الحسد .

ومن الحكمة : الحسود لا يسود : أي لا تحصل له سيادة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل يعود عليه فيهما ضرر الحسد ، وهو ألم الهم والحزن في الدنيا ، وألم العقوبة في الآخرة . وفي الرسالة وقيل في قوله تعالى « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » قيل : ما بطن من الحسد. قال الزبيدي: والمشهور ما بطن من معاصي القلب من حسد وغيره، كالعجب والحقد وسوء الظن ، وقيل أثر الحسد يستبين فيك قبل أن يتبين في عدوك . وقال الأصمعي : رأيت أعرابيا أتت عليه مائة وعشرون سنة فقلت ما أطول عمرك ؟ قال تركت الحسد فبقيت . وفي بعض الآثار : إن في السماء الخامسة ملكا يمر به عمل عبد له ضوء كضوء الشمس ، فيقول له الملك قف فأنا ملك الحسد أضرب به وجه صاحبه فانه حاسد . ويقال الحاسد ظالم غشوم لا يبقي ولا يذر. وقال معاوية : ليس في خلال الشر خلة أعدل من الحسد يقتل الحاسد غما قبل المحسود ، وقيل : أوحي الله إلى سليمان بن داود عليهما السلام : أوصيك بسبعة أشياء : لا تغتابن صالح عبادي ، ولا تحسدن أحدا من عبادي ، فقال سليمان عليه السلام يا رب حسبي : أي يكفيني هذان في الزجر فلا تذكر لي البقية ، ولعله ذكرها في وقت آخر ، وقيل : الحاسد إذا رأى نعمة بهت ، وإذا رأى عثرة شمت ، وقيل الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه ، وقيل : إياك أن تعتني مودة من يحسدوك فانه لا يقبل إحسانك . وقيل : إذا أراد الله سبحانه أن يسلط على عبد عدوا له لا يرحمه، سلط عليه حاسده ، وأنشدوا :

كل العداوة قد ترجى إماتتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال ابن المعتز :

قل للحسود إذا تنفس صعدة ... يا ظالما وكأنه مظلوم

وقال غيره : وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعد أن رماه بعض حساده بالزنا ، ونجاه الله تعالى من ذلك : هذين البيتين :

إن يحسدوني فاني غير لائمهم ... قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم مابي وما بهم ... ومات أكثرهم غيظا بما يجدوا

(والثاني) من الأشياء الخمسة (فعل المعاصي والشرور) وذلك (على ما قال) أبو عبد الله

وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللهُ : لِلْحَاسِدِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ : يَتَمَلَّقُ إِذَا شَهِدَ ، وَيَغْتَابُ إِذَا غَابَ ، وَيَشْمَتُ بِالْمُصِيبَةِ إِذَا نَزَلَتْ .

قُلْتُ : وَحَسْبُكَ ان اللهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : « وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذا حَسَدَ » كَمَا أَمَرَنَا بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَالسَّاحِرِ ، فَانْظُرْ كَمْ لَهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ حَتَّى أَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ الشَّيْطَانِ وَالسَّاحِرِ ، حَتَّى أَنْ لَا مُسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَلَا مُسْتَعَاذَ إِلَّا بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَالثَّالِثُ : التَّعَبُ وَالْهَمُّ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ ، بَلْ مَعَ ذَلِكَ وِزْرٌ وَمَعْصِيَةٌ ، كَمَا قَالَ

(وهب بن منبه رحمه) ويقال له الذماري بكسر الذال المعجمة منسوب إلى ذمار : قرية على مرحلتين من صنعاء اليمن ، وهو تابعي جليل من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية ، سمع جابر بن عبد الله وابن عباس وابن عمرو بن العاص وأبا سعيد الخدري وأبا هريرة وأنسا والنعمان بن بشير ، روى عنه عمرو بن دينار وعوف الأعرابي والمغيرة بن حكيم وآخرون ، واتفقوا على توثيقه ، توفي سنة أربع عشرة ومئة من الهجرة . وقال ابن سعد : سنة عشر ومائة (للحاسد ثلاث علامات : يتملق) أي يتودد ويتلطف (إذا شهد) المحسود في مجلس هذا الحاسد (ويغتاب) أي الحاسد (إذا غاب) المحسود عن المجلس (ويشمت) أي يفرح الحاسد (بالمصيبة) أي مصيبة محسوده (إذا نزلت) أي أصابت تلك المصيبة للمحسود (قلت : وحسبك) أي يكفيك (أن الله تعالى أمرنا بالاستعاذة من شرّ الحاسد ، فقال سبحانه) وتعالى (ومن شرّ حاسد إذا حسد) أي إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه ، لأنه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره ، وهو الأسف على الخير عند الغير ، والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأن شر هؤلاء أشد ، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها ، كذا قاله النسفي (كما أمرنا) الله تعالى (بالاستعاذة من شر الشيطان) في قوله « من شر ما خلق » . قيل : يريد به إبليس خاصة لأنه لم يخلق الله خلقا هو شر منه ، ولأن السحر لا يتم إلا به وبأعوانه وجنوده كما في الخازن (و) من شر (الساحر) في قوله سبحانه « ومن شر النفاثات في العقد » (فانظر كم له) أي للحاسد (من الشر والفتنة حتى أنزله) أي أنزل الله الحاسد وأقامه (منزلة الشيطان والساحر حتى أن لا مستعان عليه) أي على الحاسد (ولا مستعاذ إلا بالله رب العالمين . والثالث) من الأشياء الخمسة (التعب والهم من غير فائدة ، بل مع ذلك) أي التعب والهم (وزر ومعصية) عطف تفسير (كما قال) الزاهد المشهور أبو العباس محمد بن صبيح

ابْنُ السَّمَّاكِ رَحِمَهُ اللهُ : لَمْ أَرَ ظَالِماً أَشْبَهَ بِالْمَظْلُومِ مِنَ الْحَاسِدِ ، نَفْسٌ ذَائِمٌ وَعَقْلٌ هَائِمٌ وَغَمٌّ لَازِمٌ .

وَالرَّابِعُ : عَمَى الْقَلْبِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَفْهَمُ حُكْماً مِنْ أَحْكَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمْتِ

(ابن السماك رحمه الله) الكوفى مولى بنى عجل، كان كبير القدر دخل على الرشيد فوعظه وخوفه (لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد) وهو (نفس) أى شخص . قال العلامة عبد الحق : النفس مؤنث إن أريد بها الروح، نحو « خلقكم من نفس واحدة » وإن أريد بها الشخص فمذكر، يقال عندى خمسة عشر نفسا (ذائم) بالذال المعجمة : أى حقير ، يقال ذأمه يذؤمه ذأما: عابه وحقره وذمه وطرده وخزاه ، مثل ذأمه فهو مذءوم، كذا فى سراج السالكين (وعقل هائم) أى متحير (وغم لازم) أى لا ينفك ، وقد روى نحو ذلك من قول عمر بن عبد العزيز : مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد : غم دائم ونفس متتابع ، كذا فى الرسالة ، وروى أيضا من قول الخليل بن أحمد : مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد : نفس ذائم ، وعقل هائم ، وحزن لازم رواه البيهقى فى الشعب . (والرابع) من الأشياء الخمسة (عمى القلب) أى عدم اهتدائه (حتى لا يكاد يفهم حكما من أحكام الله عز وجل ، فلقد قال سفيان) بن سعيد (الثورى رحمه الله) وتقدمت ترجمته (عليك) أى الزم (بطول الصمت) الصمت هو السكوت والضم لغة فيه كالصمات بالضم أيضا ، وقد صمت صموتا . قال الطيبى : الصمت أبلغ من السكوت لأنه يستعمل فيما لا قوة له للمنطق وفيما له قوة النطق . قال القشيرى رحمه الله : الصمت سلامة وهو الأصل وعليه ندامة ، إذ ورد عنه الزجر ، فالواجب أن يعتبر فيه الشرع والأمر والنهى ، والسكوت فى وقته صفة الرجال كما أن النطق فى موضعه من أشرف الخصال ؛ ثم قال : والسكوت على قسمين : سكوت بالظاهر وسكوت بالقلب والضمائر ، فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضى الأرزاق ، والعارف يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق ، فهذا بجميل صنعه واثق ، وهذا بجميع حكمه قانع ، وفى معناه قالوا :

تجرى عليك صروفه وهموم سرك مطرقه

وربما يكون سبب السكوت حيرة البديهة فإنه إذا ورد كشف عن وصف البغتة خرست العبارات عند ذلك فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد هنالك فلا علم ولا حس . قال الله تعالى « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا » فأما إيثار أرباب المجاهدة السكوت ، فلما علموا ما فى الكلام من الآفات ثم ما فيه من حظ النفس وإظهار صفات المدح إلى أن يتميز بين أشكاله بحسن النطق وغير هذا من آفات الخلق ، وذلك نعت أرباب الرياضات ، وهو أحد أركانهم فى حكم المنازلة وتهذيب الخلق . وقال بعض الحكماء : إنما خلق للانسان لسان واحد وعينان وأذنان ليسمع ويبصر أكثر مما يقول ، أى فينبغي أن يكون كلامه أقل من سماعه ورؤيته ، ولذلك حكمة أخرى ، وهى أن العبد لما احتاج إلى أن يسمع ويرى من جهتيه تفضل

تَمْلِكِ الْوَرَعَ ، وَلاَ تَكُنْ حَرِيصاً عَلَى الدُّنْيَا تَكُنْ حَافِظاً ، وَلاَ تَكُنْ طَعَّاناً تَنْجُ مِنْ أَلْسُنِ النَّاس ، وَلاَ تَكُنْ حَاسِدًا تَكُنْ سَرِيعَ الْفَهْمِ .

وَالْخَامِسُ : الْحِرْمَانُ وَالْخِذْلاَنُ ، وَلاَ يَكَادُ يَظْفَرُ بِمُرَادٍ وَيُنْصَرُ عَلَى عَدُوٍّ كَمَا قَالَ حَاتِمُ الْأَصَمُّ رَحِمَهُ اللهُ : الضَّغِينُ غَيْرُ ذِي دِينٍ ،

عليه الحق بعينين وأذنين ، وأما اللسان فترجمان عما فى الضمير فلا يحتاج إلى تعدده كما قاله شيخ الإسلام ، وقيل صمت العوام بألسنتهم ؟ وصمت العارفين بقلوبهم ، وصمت المحبين من خواطر أسرارهم ، وقيل : لسان الجاهل مفتاح حتفه ، فان فعلت ذلك ، يعنى طول الصمت (تملك الورع) وهو ترك ما لايعنيك من الفضلات كما قاله ابراهيم بن أدهم . وقال يونس بن عبيد : الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس فى كل طرفة : وقال يحيى بن معاذ : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر ، وهو أن لا يتحرك إلا لله تعالى، وورع فى الباطن، وهو أن لايدخل قلبك سواه تعالى (ولا تكن حريصا على الدنيا تكن حافظا ولا تكن طعانا) أى عيابا (تنج من ألسن الناس ولا تكن حاسدا تكن سريع الفهم . والخامس) هذا آخر الأشياء الخمسة (الحرمان) أى المنع عن المقصود : قال صاحب سراج السالكين : الحرمان بالكسر مصدر بمعنى المنع ونقيض الرزق (والخذلان) مصدر : أى الإهانة وترك النصرة ، وفى المختار خذله يخذله بالضم خذلانا بكسر الخاء: ترك عونه ونصرته (ولا يكاد) أى لا يقرب (يظفر) أي ينال (بمراد وينصر على عدو كما قال) أبو عبد الرحمن (حاتم) بن علوان (الأصم رحمه الله) وقد تقدمت ترجمته (الضغين) أى الحاقد، أى المتصف بالحقد على عباد الله تعالى (غير ذى دين) أى كامل، والحقد ما ينشأ عن كتمان الغضب بسبب العجز عن التشفى حالا فيرجع إلى الباطن ويحتقن فيه فيتمكن به بعض من يحقد عليه وحسده وإضمار العداوة له فى قلبه دائما ، فيتمنى زوال نعمته ويغم بها ويفرح بمصيبته ويشمت ببليته ويطلق لسانه فيه بما لا يحل- ويؤذيه ويمنعه حقه من صلة ورد مظلمة وكل ذلك شديد التحريم وإذا صار طبيعة للشخص ولم يقدر على دفعه وعمل بمقتضاه ولم يكرهه حرم عليه من حيث إنه تعاطى سببه إذ هو مكلف بعدم تعاطى سبب المحرم وعدم العمل بمقتضاه وكراهيته ومثله فى ذلك العجب والكبر والحسد كما قاله العلامة السحيمى ، ثم هو من الكبائر لقوله عليه الصلاة والسلام « المؤمن ليس بحقود وإن الله يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم عليه » وفى حديث « فيغفر للمؤمنين ويملى الكافرين ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه » وورد « تعرض الأعمال فى كل يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد مؤمن إلا عبدا بينه وبين أخيه شحناء فيقال اتركوا هذين حتى يفيئا » أى يصطلحا كما فى حديث آخر ، وروى « ينزل الله : أى أمره ورحمته ، إلى سماء الدنيا ليلة النصف

وَالْعَائِبُ غَيْرُ عَابِدٍ ، وَالنَّمَّامُ غَيْرُ مَأْمُون

من شعبان فيغفر لكل مؤمن إلا العاق والمشاحن » وفى حديث « إلا رجل مشرك أو مشاحن » وكل ماورد فى ذم الغضب يشمله كالحسد إذهما من نتائجه (والعائب غير عابد) أي خالص (والنمام) أى الذى يتحدث مع القوم فينم عليهم فيكشف ما يكره كشفه (غير مأمون) ولا موثوق بصداقته وكيف لا وهو لاينفك عن الكذب ونحوه كما يأتى . قال في الزواجر : وعرفوا النميمة بأنها نقل كلام الناس بعضهم فى بعض على وجه الإفساد بينهم . قال فى الإحياء : هذا هو الأكثر ولا تختص بذلك ، بل هى كشف ما يكره كشفه سواء أكرهه المنقول عنه أو إليه أو ثالث ، وسواء كان كشفه بقول أو كتابة أو رمز أو إيماء ، وسواء كان المنقول فعلا أو قولا عيبا أو نقصا فى المنقول عنه أو غيره ، فحقيقتها إفشاء السر وهتك ما يكره كشفه ، وحينئذ فينبغى السكوت عن حكاية كل شيء شوهد من أحوال الناس إلا مافى حكايته نفع لمسلم أو دفع ضرر عنه كما لو رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به لا من يخفى ملك نفسه فذكره ، فان كان ما نم به نقصا وعيبا فى المحكى عنه فهو غيبة أيضا انتهى. قال العلامة بابصيل فى [إسعاد الرفيق على سلم التوفيق] والذي يتجه أن النميمة الأقبح من الغيبة ينبغى أن لا توجد بوصف كونها كبيرة إلا إذا كان فيما ينم به مفسدة تقارب مفسدة الإفساد الذى صرحوا به ، وينبغى لمن أطلق أنها كبيرة أن لا يشترط فيها إلا كونها فيها مفسدة كمفسدة الغيبة وإن لم تصل للافساد بين الناس ، وقد اتفقوا على عدها كبيرة ، وبه صرح الحديث . قال المنذرى ، أجمعت الأمة على تحريمها وأنها من أعظم الذنوب عند الله عز وجل ، قال تعالى – هماز مشاء بنميم – ثم قال – عتل بعد ذلك زنيم – أى دعى ، وأخذ منه أن ولد الزنا لا يكتم شيئا فعدم كتمه دليل على أنه ولد زنا ؛ وقال تعالى – ويل لكل همزة لمزة – قيل اللمزة النمام . وقيل إن حمالة الحطب كانت نمامة حمالة الحديث إفسادا بين الناس ، وسميت النميمة حطبا لأنها تنشر العداوة بين الناس كما أن الحطب ينشر النار ، وقال عليه الصلاة والسلام « لايدخل الجنة نمام » وفى رواية « قتات » وهو النمام أو الذى يستمع لكلامهم وهم لا يعلمون ثم ينم . وورد « إن ثلث عذاب القبر من الغيبة ، وثلثه من النميمة ؛ وثلثه من البول ، والنميمة والحقد فى النار لايجتمعان فى قلب مسلم ، وليس منى ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه ، وشر عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الإخوان ، وأيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار » واستسقى موسى عليه السلام فما أجيب فأوحى الله تعالى إليه أنى لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة ، فقال موسى يارب من هو حتى نخرجه من بيننا ؟ فقال ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ، فتابوا جميعهم فسقوا ، وزار بعض السلف أخوه فنم له عن صديقه ، فقال ياأخى : أطلت الغيبة وجئتنى بثلاث جنايات بغضت إلى أخى وشغلت قلبى بسببه واتهمت نفسك الأمينة ، وقبل من أخبرك بشتم غيرك

وَالْحَسُودُ غَيْرُ مَنْصُورِ .

قُلْتُ : الْحَسُودُ كَيْفَ يَظْفَرُ بِمُرَادِهِ ، وَمُرَادُهُ زَوَالُ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَيْفَ يُنْصَرُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَهُمْ عِبَادُ اللهِ الْمُؤْمِنُونَ ،

لك فهو الشاتم لك ؟ وجاء رجل إلى على بن الحسين رضى الله عنهما فنم له عن شخص فقال اذهب بنا إليه فذهب معه وهو يرى أنه ينتصر لنفسه ، فلما وصل إليه قال يا أخى إن كان ما قلت فى حقا فغفر الله لى ، أو باطلا فغفر الله لك . ويقال عمل النمام أضر من عمل الشيطان ، لأن عمله بالمواجهة ، وعمل الشيطان بالوسوسة .

وحكى أنه اشترى من استخف بالنميمة عبدا نودى عليه أنه غير معيب إلا أنه نمام فمكث أياما حتى فتن بينه وبين زوجته بأنه يريد التزوج أو التسرى وقال لها خذى الموسى واحلقى بها شعرات من حلقه ليسحره لها فصدقته ، ثم قال الغلام لزوجها إنها تريد ذبحك الليلة فتناوم لترى ذلك ففعل فجاءته لتحلق فقال صدق الغلام ، فلما أهوت إلى حلقه أخذ الموسى وذبحها فجاء أهلها وقتلوه فوقع القتال بين الفريقين بشؤم ذلك النمام ، ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى قبح النمام وعظيم الشر المترتب عليه بقوله ــ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق ــ الآية ، عافانا الله من ذلك بمنه وكرمه .

[تنبيه] الباعث على النميمة إرادة السوء بالمحكى عنه أو الحب للمحكي له أو الفرح بالخوض فى الفضول . وعلاجها بنحو ما مر فى الغيبة ، ويجب على من حملت النميمة إليه ستة أمور : أن لا يصدق الحامل ، لأن النمام فاسق إجماعا . وقال الله تعالى ــ إن جاءكم فاسق ــ وأن ينهاه عن العود لمثله وأن يبغضه فى الله إن لم تظهر له التوبة وأن لا يحمله ما حكى له علي التجسس والبحث حتي يتحقق لقوله تعالى « اجتنبوا كثيرا من الظن » الآية ، وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي نميمته فيقول قد حكي لى فلان كذا فانه يكون به نماما ومغتابا وآتيا بما عنه نهى. وقال الحسن رحمه الله : من نم لك نم عليك أشار به إلى أن النمام ينبغى أن يبغض وأن لا يؤتمن ولا يوثق بصداقته، وكيف لا ؟ وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والنميمة والقذف والخيانة والغل والحسد والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن سعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض . قال الله تعالى « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » والنمام منهم (والحسود غير منصور) بل هو مغضوب عليه لأنه جاحد لا يرضى بقضاء الواحد كما قاله بعضهم (قلت الحسود كيف يظفر) وينال (بمراده. ومراده) جملة حالية (زوال نعم الله تعالى عن عباده المسلمين، وكيف ينصر) أى الحسود (على أعدائه وهم) أى أعداء الحسود (عباد الله المؤمنون) بل الحسود هو المعذب فى قلبه الذى لا يرحم ولا يزال فى عذاب دائم فى الدنيا وهو حصول الغم والهيام فى العقل والوزر إلى موته، ولعذاب الآخرة أشد

وَلَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو يَعْقُوبَ رَحِمَهُ اللهُ فِيمَا قَالَ : اللَّهُمَّ صَبِّرْنَا عَلَى تَمَامِ النِّعَمِ عَلَى عِبَادِكَ وَحُسْنِ أَحْوَالِهِمْ ، وَإِنَّهُ دَاءٌ يُفْسِدُ عَلَيْكَ الطَّاعَةَ وَيُكْثِرُ شَرَّكَ وَمَعْصِيَتَكَ وَيَمْنَعُكَ رَاحَةَ النَّفْسِ وَفَهْمَ الْقَلْبِ، وَالنُّصْرَةَ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالظَّفَرَ بِالْمَطْلُوبِ ، فَأَيُّ دَاءٍ يَكُونُ أَدْوَأَ مِنْهُ ، فَعَلَيْكَ بِمُعَالَجَةِ نَفْسِكَ مِنْ ذٰلِكَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

﴿ وَأَمَّا الِاسْتِعْجَالُ وَالتَّرَقِّي فِي الْبِرِّ ﴾ فَإِنَّهُ الْخَصْلَةُ الْمُفَوِّتَةُ لِلْمَقَاصِدِ الْمُوقِعَةُ فِي الْمَعَاصِي فَإِنَّ مِنْهَا تَبْدُو آفَاتٌ أَرْبَعٌ : إِحْدَاهَا : أَنْ يَقْصِدَ الْعَابِدُ مَنْزِلَةً فِي الْخَيْرِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَيَجْتَهِدَ فَرُبَّمَا يَسْتَعْجِلُ فِي نَيْلِهَا ، وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِوَقْتِهَا ، فَإِمَّا أَنْ يَفْتُرَ وَيَيْأَسَ فَيَتْرُكَ الِاجْتِهَادَ فَيُحْرَمَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ ، وَإِمَّا أَنْ يَغْلُوَ فِي الْجُهْدِ وَإِتْعَابِ النَّفْسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ فَهُوَ بَيْنَ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ، وَكِلَاهُمَا نَتِيجَةُ الِاسْتِعْجَالِ .وَلَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ

وأكبر من العذاب الحاصل فى الدنيا (ولقد أحسن أبو يعقوب) إسحق بن محمد النهرجورى (رحمه الله) صحب أبا عمرو المكي وأبا يعقوب السوسى والجنيد وغيرهم ، مات بمكة مجاورا بها سنة ثلاثين وثلثمائة كما فى الرسالة القشيرية (فيما قال : اللهم صبرنا على تمام النعم على عبادك وحسن أحوالهم ، و) اعلم (أنه) أى الحسد (داء يفسد عليك الطاعة ويكثر شرك ومعصيتك ويمنعك) هذا الداء (راحة النفس وفهم القلب، و) يمنعك (النصرة على الأعداء والظفر بالمطلوب فأى داء) أى لاداء (يكون أدوأ) أى أكثر داء (منه) أى من ذلك الحسد (فعليك بمعالجة نفسك من ذلك) الداء الذى هو الحسد (والله تعالى ولى التوفيق) والهداية لأقوم الطريق (بمنه) تعالى (وكرمه . وأما الاستعجال والترقى فى البر) وفى نسخة والنزق أى العجلة والخفة (فانه الخصلة المفوتة للمقاصد) من أنواع الخيرات (الموقعة فى المعاصى) وأنواع الشرور (فإن منها) أى تلك الخصلة (تبدو) أى تظهر (آفات أربع : إحداها أن يقصد العابد) بعبادته (منزلة) أى رتبة (فى الخير والاستقامة) فيه (ويجتهد فربما يستعجل) أى العابد (فى نيلها) أى المنزلة (وليس ذلك) أى وقت الاستعجال (بوقتها) أى المنزلة ، أى نيلها (فإما أن يفتر) بفتح الياء وضم التاء من باب دخل أى ينقطع وينكسر العابد (وييأس) أى يقنط (فيترك الاجتهاد) فى تحصيل تلك المنزلة (فيحرم) بالبناء للمفعول : أى يحجب ويمنع (تلك المنزلة) التي يقصدها (وإما أن يغلو) أى يتجاوز الحد (فى الجهد وإتعاب النفس فينقطع) العابد بسبب غلوه فى ذلك الجهد (عن) نيل (تلك المنزلة فهو) أى هذا العابد المستعجل (بين إفراط) أى تجاوز للحد فى أمره (وتفريط) أى تقصير (وكلاهما) أى الإفراط والتفريط (نتيجة الاستعجال) وثمرته (ولقد روى عن النبى

صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ أَنَّهُ قالَ : « إنَّ دِينَنَا هٰذَا مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى » وَفِى الْمَثَلِ السَّائِرِ : إِنْ لَمْ تَسْتَعْجِلْ تَصِلْ . وَلِقَائِلٍ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّى بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وَالثَّانِيَةُ : أَنْ يَكُونَ لِلْعَابِدِ حَاجَةٌ فَيَدْعُوَ اللهَ تَعَالَى فِيهَا وَيُكْثِرَ الدُّعَاءَ ،

صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن ديننا) الذى نحن عليه، وهو ما شرعه الله تعالي ورسوله صلى الله عليه وسلم واستمر العمل به (هــذا) إشارة لجلالة الدين ومزيد رفعته وتعظيمه . قال العلامة ابن المدابغي : فالإشارة بلفظ «هذا» فى هذا الحديث لتعظيم المشار إليه الذى هو هنا الدين بالقرب تنزيلا باعتبار جلالته منزلة القريب ، لأن الأمر العظيم من شأنه أن يطلب القرب منه وتتوجه الهمم إلى الوصول إليه، ووافقه العلامة المناوى حيث قال فنكتة الإتيان به : أى باللفظ المذكور التنويه بشأن الدين وعظمته وإحضاره في ذهن السامع كأنه يخبره مشاهدا له ليتميز عنده أكمل تميز ، ولهذا أتى بما يشار به للقريب بيانا لحاله فى القرب (متين) أى صلب شديد (فأوغل فيه برفق) أى سر فى هذا الدين من غير تحمل ما لاتطيق والإيغال السير الشديد والوغول الدخول فى الشىء (فإن المنبت) اسم فاعل من الانبتات بمعنى الانقطاع : أى المنقطع عن أصحابه فى السفر وعطبت راحلته (لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) أى فلا هو قطع الأرض التى قصدها ولا هو أبقى ظهره ، أى راحلته ينتفع به ، وفى كتاب مجمع الأمثال أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلا اجتهد فى العبادة حتى هجمت عيناه، أى غارتا ، فقال له إن هذا الدين متين إلى آخره انتهى ، وهذا الحديث : رواه أحمد والبزار والبيهقى والعسكرى فى الأمثال من حديث جابر وضعف ، وقد روى مختصرا من حديث أنس «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» رواه هكذا أحمد والضياء،ويروى «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباده ، فان المنبت لايقطع سفرا ولا يستبقى ظهرا» . رواه البيهقى من حديث عائشة . وقال البيهقى : روى هذا الحديث من طرق موصولا ومرسلا ومرفوعا وموقوفا وفيه اضطراب ورجح البخارى في التاريخ إرساله ، كذا فى الإتحاف (وفى المثل السائر) أي الجارى بين ألسنة الناس (إن لم تستعجل تصل) إلى مطلوبك ، لأن من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه كذا قيل (ولقائل) شعرا من بحر البسيط (قد يدرك المتأنى) أى المتمهل والمتثبت ، يقال تأنى فى الأمر وبه واستأنى : ترفق وتمهل وتثبت واتأد وتوقر وانتظر، والرجل: انتظره (بعض حاجته ، وقد يكون مع المستعجل الزلل) مصدر اسم يكون : أى الهفوات والسقطات وقد يكنى به عن ارتكاب الذنوب (و) الآفة (الثانية أن يكون للعابد حاجة) إما دنيوية أو أخروية (فيدعو الله فيها) أى الحاجة (ويكثر) أى العابد (الدعاء

وَيَجِدَّ فَرُبَّمَا يَسْتَعْجِلُ الْإِجَابَةَ قَبْلَ وَقْتِهَا فَلَا يَجِدُهَا فَيَفْتُرُ وَيَسْأَمُ فَيَتْرُكُ الدُّعَاءَ فَيُحْرَمُ حَاجَتَهُ وَمَقْصُودَهُ ،

ويجد) أى يجتهد . قال العلامة عبد الحق : الجد الاجتهاد فى الأمر والمبالغة فيه (فربما يستعجل الاجابة قبل وقتها فلا يجدها) أى حاجته (فيفتر) أى يضعف (ويسأم) أى يمل (فيترك الدعاء فيحرم) بالبناء للمفعول : أى يمنع (حاجته ومقصوده) وهذا مذموم جدا لأنه جاهل من كل وجه قد يكره الشيء وهو خير له ويحب الشيء وهو شر له ، بل المحمود على العبد كما قاله بعض المشايخ رحمه الله أن يسلم نفسه إلى مولاه ويعلم أن الخيرة له فى جميع ما به يتولاه وإن خالف ذلك مراده وهواه ، فاذا دعا وطلب من مولاه شيئا يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالاجابة لامحالة . قال الله عز وجل « ادعونى أستجب لكم » . وقال تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ماسأل أو كف عنه من السوء مثله مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من داع يدعو إلا استجاب الله له دعوته أو صرف عنه مثلها سوءا أو حطّ من ذنوبه بقدرها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » فإذن الاجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق إلا أن الاجابة أمرها إلى الله تعالى يجعلها متى شاء ، وقد يكون المنع وتأخر العطاء إجابة وعطاء لمن فهم عن الله تعالى ذلك ، فلا ييأس العبد من فضل الله تعالى إذا رأى منعا أو تأخيرا وإن ألحّ فى دعائه وسؤاله ، وقد يكون تأخير ذلك إلى الآخرة خيرا له ، فقد جاء فى بعض الأخبار « يبعث عبد فيقول الله تعالى له ألم آمرك برفع حوائجك إلى ؟ فيقول نعم وقد رفعتها إليك ، فيقول الله تعالى ما سألت شيئا إلا أجبتك فيه ولكن نجزت لك البعض فى الدنيا ومالم أنجزه فى الدنيا فهو مدخر لك تخذه الآن حتى يقول ذلك العبد ليته لم يقض لى حاجة فى الدنيا » . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى النهى عن الاستعجال فى إجابة الدعاء فى قوله « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لى » . وقد دعا موسى وهرون عليهما السلام على فرعون فيما أخبر الله به عنهما حيث قالا « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالى « قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بين الدعاء وبين الاجابة بهلاك فرعون أربعون سنة . قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى قوله تعالى « فاستقيما » : أى على عدم استعجال ما طلبتما ، «ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون» هم الذين يستعجلون الإجابة ، وناهيك شرفا وحظا ما يتحصل له بسبب مداومة الدعاء من محبة الله تعالى وموافقة رضاه ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يحب الملحين فى الدعاء » . وقد جاء فى الحديث قال جبريل

وَالثَّالِثَةُ : أَنْ يَظْلِمَهُ إِنْسَانٌ فَيَغِيظَهُ فَيُعَجِّلَ بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِ فَيَهْلِكَ مُسْلِمٌ بِسَبَبِهِ ، وَرُبَّمَا يَتَجَاوَزُ عَنِ الْحَدِّ فَيَقَعُ فِى مَعْصِيَةٍ وَهَلَاكٍ . قَالَ اللّٰهُ تعالى : (وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً) وَالرَّابِعَةُ : أَنَّ أَصْلَ الْعِبَادَةِ وَمِلَاكَهَا الْوَرَعُ . وَالْوَرَعُ أَصْلُهُ النَّظَرُ الْبَالِغُ فِى كُلِّ شَىْءٍ ، وَالْبَحْثُ التَّامُّ عَنْ كُلِّ شَىْءٍ هُوَ بِصَدَدِهِ مِنْ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَلُبْسٍ وَكَلَامٍ وَفِعْلٍ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُسْتَعْجِلاً فِى الْأُمُورِ غَيْرَ مُتَأَنٍّ ،

عليه السلام يا رب عبدك فلان اقض له حاجته ، فيقول دعوا عبدى فإنى أحب أن أسمع صوته » رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومقتضى هذا أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته ، وقد روى هذا المعنى أيضا منصوصا ، فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه . قال أبو محمد عبد العزيز المهدوىّ رضى الله عنه : كل من لم يكن فى دعائه تاركا لاختياره وراضيا باختيار الحق فهو مستدرج ، وهو ممن قيل له: اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته ، فإذا كان فى دعائه مع اختيار الحق تعالى لامع اختيار نفسه كان مجابا وإن لم يعط ، والأعمال بخواتيمها انتهى ، وقد تكون الإجابة مرتبة على شروط لا علم للداعى بها فتؤخر لعدم وقوع ذلك أو بعضه ، وذلك مثل وجوب الاضطرار ، قال الله تعالى « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » فرتب الإجابة على الاضطرار . وقال بعض العارفين : إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد رزقه الاضطرار فى الدعاء ، والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه فى جميع حالاته . قال بعضهم: المضطر الذى رفع إلى الله تعالى يده لم ير لنفسه عملا ، وهذا حال شريف ومقام منيف يعسر على أكثر الناس الوصول إليه فكيف يتحقق ماينبنى عليه ﴿ و) الآفة (الثالثة أن يظلمه ﴾ أى العابد (إنسان) مسلم (فيغيظه) أى يغضب الإنسان ذلك العابد المظلوم (فيعجل) أى العابد (الدعاء عليه) أى على الظالم (فيهلك مسلم بسببه) أى بسبب دعائه عليه بالهلاك (وربما يتجاوز) العابد فى دعائه (عن الحد فيقع فى معصية وهلاك) ففى الحديث « إن المظلوم ليدعو على ظالمه حتى يكافئه ثم يبقى للظالم فضل عنده يطالبه به يوم القيامة » . (قال الله تعالى : ويدعو الإنسان بالشر) أى يدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله ، أو يدعوه بما يحسبه خيرا وهو شر (دعاءه) أى مثل دعائه (بالخير وكان الانسان عجولا) يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته . ﴿ و) الآفة (الرابعة أن أصل العبادة وملاكها ﴾ أى قوامها (الورع) وهو ترك الشبهات والفضلات وما لا تدعو إليه حاجة دينية كما قاله شيخ الاسلام (والورع أصله النظر البالغ) أى الفكر الكامل (فى كل شىء والبحث التام عن كل شىء هو) أى العابد (بصدده) أى بقصد كل شئ (من أكل وشرب ولبس) للثياب (وكلام وفعل ، فإذا كان الرجل) العابد (مستعجلا فى الأمور) أى (غير متأن

وَلاَ مُتَثَبِّتٍ مُتَبَيِّنٍ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ تَوَقُّفٌ وَنَظَرٌ فِى الْأُمُورِ كَمَا يَجِبُ ، وَيَتَسَارَعُ إِلَى كَلاَمٍ فَيَقَعُ فِى الزَّلَلِ ، وَإِلَى كُلِّ طَعَامٍ فَيَقَعُ فِى الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ ، وَكَذَلِكَ فِى كُلِّ أَمْرٍ فَيُفَوِّتُهُ الْوَرَعَ وَأَىُّ خَيْرٍ فِى عِبَادَةٍ بِلاَ وَرَعٍ ؟ وَإِذَا كَانَ فِى خَصْلَةِ الْاِنْقِطَاعِ عَنْ مَنَازِلِ الْخَيْرِ وَحِرْمَانِ الْحَاجَاتِ وَهَلاَكِ الْمُسْلِمِينَ وَهَلاَكِهِ ، ثُمَّ خَطَرِ فَوْتِ الْوَرَعِ الَّذِى هُوَ رَأْسُ الْمَالِ فَحَقَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَهْتَمَّ لَهَا بِالْإِزَالَةِ وَإِصْلاَحِ النَّفْسِ بَعْدَهَا ، وَاللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

(وَأَمَّا الْكِبْرُ) فَإِنَّهُ الْخَصْلَةُ الْمُهْلِكَةُ رَأْسًا ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

ولا متثبت متبين) أى طالب للبيان (لم يقع منه) أى من الرجل المستعجل (توقف ونظر فى الأمور كما يجب) من التوقف والتأمل فيها (ويتسارع إلى كلام فيقع فى الزلل و) يتسارع (إلى كل طعام) وشراب ولبس (فيقع فى الحرام والشبهة ، وكذلك) أى مثل الوقوع فى الزلل والحرام (فى كل أمر) يفعله (فيفوته) أى المستعجل (الورع ،وأى خير) أى لاخير (فى عبادة بلا ورع ،وإذا كان) المستعجل (فى خصلة الانقطاع عن منازل) أى مراتب (الخير وحرمان الحاجات وهلاك المسلمين وهلاكه ثم) فى (خطر فوت الورع الذى هو) أى الورع (رأس المال) أى أصله (فحق) أى وجب (للانسان) المريد لمنازل الخير والاستقامة (أن يهتم لها) أى للخصلة التى هى الآفات الأربع (بالإزالة وإصلاح النفس بعدها) أى بعد إزالتها (والله ولى التوفيق بمنه وفضله) تعالى. ﴿وأما الكبر﴾ بكسر فسكون اسم من التكبر . قال ابن القوطية : هو اسم من كبر الأمر إذا عظم ، والكبر العظمة والكبرياء مثله ، ويقال كبر الصغير وغيره يكبر من باب تعب كبرا وزان عنب ومكبرا كمسجد فهو كبير ، وكبر الشىء من باب قرب : عظم فهو كبير أيضا والاستكبار مثل التكبر ؛ فالكبر اسم لحالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وأن يرى نفسه أعظم من غيره (فإنه الخصلة المهلكة رأسا) أى ابتداء غير مستطرد إليه من غيره (أما تسمع قوله تعالى : أبى) أى امتنع إبليس من السجود فلم يسجد (واستكبر) أى تكبر وتعظم عن السجود لآدم (وكان من الكافرين) أى فى علم الله ، أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم واعتقادا بأنه أفضل منه والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول بالتوسل به كما أشعر به قوله « أنا خير منه » جوابا لقوله « مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين » لا بترك الواجب وحده كما فى البيضاوى وقد ذم الله تعالى الكبر فى مواضع من كتابه فقال تعالى « لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » وقال تعالى « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » وذم الكبر فى القرآن كثير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان »

وَلَيْسَتْ هٰذِهِ الْخَصْلَةُ بِمَنْزِلَةِ سَائِرِ الْخِصَالِ الَّتِى تَقْدَحُ فى عَمَلٍ وَتَضُرُّ بِفَرْعٍ وَإِنَّمَا تَضُرُّ بِالْأَصْلِ

وقال صلى الله عليه وسلم «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا الضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ، فقال الله للجنة إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها » وقال صلى الله عليه وسلم « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى» وعن ثابت أنه قال « بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان؟ فقال أليس بعده الموت » وعن محمد بن واسع قال : دخلت على بلال بن أبى بردة فقلت له: يا بلال إن أباك حدثنى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار ، فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه » وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء» وقال«من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدين والغلول »

ومن الآثار التى وردت فى ذم الكبر : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا يحقرن أحد أحدا فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال : أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك فى وجهه ، فقال الأحنف : عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين :أى مرة من مجرى بول أبيه ، وثانية من مجرى بول أمه . وقال الحسن البصرى رحمه الله: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات . وقال محمد ابن على بن الحسين بن على رضي الله عنهم : ما دخل قلب امرئ شىء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر .

وسئل سلمان الفارسى رضى الله عنه عن السيئة التى لا تنفع معها حسنة ؟ فقال الكبر . وقال النعمان بن بشير على المنبر : إن للشيطان مصالى وفخوخا وإن من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى فى غير ذات الله . والأدلة من الآيات والأخبار والآثار فى ذم الكبر كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية لأصحاب العقول الكاملة (وليست هذه الخصلة) التى هى الكبر (بمنزلة سائر الخصال التى تقدح فى عمل) من الأعمال (وتضر) أى الخصال (بفرع) من المسائل الفرعية (وإنما تضر) أى هذه الخصلة (بالأصل)

وَتَقْدَحُ فِى الدِّينِ وَالِاعْتِقَادِ ، وَإِذَا قَوِيَتْ وَغَلَبَتْ لَا تُتَدَارَكُ ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ، ثُمَّ أَقَلُّ مَايَهِيجُ مِنْهَا عَلَى صَاحِبِهَا أَرْبَعُ آفَاتٍ :

إِحْدَاهَا : حِرْمَانُ الْحَقِّ ، وَعَمَى الْقَلْبِ عَنْ مَعْرِفَةِ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى ، وَفِيهَا أَحْكَامُ اللهِ تَعَالَى . قَالَ اللهُ تَعَالَى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) . وَقَالَ تَعَالَى : (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) .

وَالثَّانِيَةُ : الْمَقْتُ وَالْبُغْضُ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) وَرُوِىَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : « يَا رَبِّ مَنْ أَبْغَضُ خَلْقِكَ إِلَيْكَ ؟ قَالَ مَنْ تَكَبَّرَ قَلْبُهُ ، وَغَلُظَ لِسَانُهُ ، وَصَفَّقَ عَيْنَهُ ، وَبَخِلَتْ يَدُهُ ، وَسَاءَ خُلُقُهُ » .

وَالثَّالِثَةُ : الْخِزْىُ وَالنَّكَالُ ،

أى الإيمان (وتقدح فى الدين والاعتقاد ، وإذا قويت وغلبت) أى تلك الخصلة (لا تتدارك) أى بالحسنة كما قاله الفارسى (والعياذ بالله) من تلك الخصلة المهلكة (ثم أقل ما يهيج) أى يتحرك (منها) أى الخصلة (على صاحبها أربع آفات : إحداها حرمان الحق وعمى القلب) كناية عن الضلالة والعلاقة عدم الاهتداء (عن معرفة آيات الله تعالى ، و) عن (فهم أحكام الله تعالى . قال الله تعالى : سأصرف عن آياتى) المنصوبة فى الآفاق والأنفس . قال ابن جريج: عن خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات (الذين يتكبرون فى الأرض) بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها (بغير الحق) صلة يتكبرون : أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل أو حال من فاعله . قيل فى التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم ؛ وذلك بالطبع عليها . رواه ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عيينة ، وفى بعض التفاسير: سأحجب قلوبهم عن الملكوت فلا يشاهدون أسرارها ، وقيل سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا (وقال تعالى كذلك) أى مثل إضلالهم (يطبع) يختم (الله) بالضلال (على كل قلب متكبر جبار) بتنوين قلب ودونه ، ومتى تكبر القلب تكبر صاحبه وبالعكس كما فسره بعض المفسرين (و) الآفة (الثانية المقت والبغض) عطف تفسير كما أفاده صنيع المختار (من الله تعالى ، قال الله تعالى: إنه) سبحانه وتعالى (لا يحب المستكبرين) فضلا عن الذين استكبروا عن توحيده أو اتباع رسوله (وروى أن موسى عليه السلام قال : يارب من أبغض خلقك إليك ؟ قال) الله تعالى (من تكبر قلبه وغلظ لسانه) أى بالكلام الفحش (وصفق عينه) أى ردها وغمضها عن أنواع الخيرات (وبخلت يده وساء خلقه) بضمتين . أى صورة باطنه ، ولذلك قيل: خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن: البخل وسوء الخلق. (و) الآفة (الثالثة الخزى) أى الهوان (والنكال) أى العقاب ، والنكال فى الأصل اسم للقيد من الحديد

فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، قَالَ حَاتِمٌ رَحِمَهُ اللهُ : أَجْتَنِبْ أَنْ يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ عَلَى ثَلَاثَةٍ : عَلَى الْكِبْرِ ، وَالْحِرْصِ ، وَالْخُيَلَاءِ ،

واللجام لأنه يمنع به ؛ وسمى العقاب نكالا لأنه يمنع به غير المعاقب أن يفعل فعله ويمنع المعاقب أن يعود إلى فعله الأول ، والتنكيل : إصابة الغير بالنكال ليرتدع غيره ، ونكل عن كذا ينكل نكولا : امتنع (فى الدنيا والآخرة. قال) أبو عبد الرحمن (حاتم) بن علوان (رحمه الله) توفى سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وتقدمت ترجمته (اجتنب أن يدركك الموت على ثلاثة : على الكبر) أى التكبر (والحرص) على المال والدنيا . قال صلى الله عليه وسلم كما فى مسلم وغيره « يهرم ابن آدم ، وتشب معه خصلتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر . قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : حب العيش والمال » وقال عليه الصلاة والسلام « أخوف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل » . وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله ليغضب للسائل الصدوق كما يغضب لنفسه » . وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة فى ذم ذلك .

واعلم أن الحرص من أسباب البخل ، وهو من الصفات الذميمة الوخيمة التى جبل عليها الإنسان كالطمع وقلة القناعة . حكى أن أعرابيا عتب أخاه على الحرص فقال : يا أخى أنت طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته ، وتطلب أنت ما قد تفيته ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخى لم تر حريصا محروما ولا زاهدا مرزوقا ، وفى ذلك قيل وأحسن من قاله :

أراك يزيدك الإثراء حرصا ... على الدنيا كأنك لا تموت

فهل لك غاية إن صرت يوما ... إليها قلت حسبى قد رضيت

ولأبى الطيب المتنبى :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ... مخافة فقر فالذى فعل الفقر

أى إنفاق نفيس عمره فى إتعاب النفس على مضمون خشية أن يفتقر هو عين الفقر الحاضر . وقد بسط الكلام وأطال فى بيان ذلك مصنفنا حجة الإسلام رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين (والخيلاء) بضم الخاء ، وحكى كسرها فى المحكم وغيره والياء مفتوحة ممدودا . قال النووى قال العلماء : الخيلاء والمخيلة والبطر والزهو والتبختر كلها بمعنى واحد ، وهو حرام . ويقال خال الرجل خالا واختال اختيالا إذا تكبر وهو رجل خال : أى متكبر وصاحب خال : أى صاحب كبر انتهى . وفى [محيط المحيط] : الخيلاء والمخيلة : العجب والكبر . وقال العراقى فى شرح الترمذى وكأنه مأخوذ من التخيل إلى الظن ، وهو أن يخيل له أنه بصفة عظيمة وهو مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان » وقد بسط

فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ لاَ يُخْرِجُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُرِيَهُ الْهَوَانَ مِنْ أَرْذَلِ أَهْلِهِ وَخُدَّامِهِ ، وَالْحَرِيصُ لاَ يُخْرِجُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُحْوِجَهُ إِلَى كِسْرَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ وَلاَ يَجِدُ مَسَاغاً ، وَالْمُخْتَالُ لاَ يُخْرِجُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُمَرِّغَهُ اللهُ بِبَوْلِهِ وَقَذَرِهِ ؛ وَقِيلَ: مَنْ تَكَبَّرَ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْرَثَهُ اللهُ تَعَالَى ذُلاًّ بِحَقٍّ .

وَالرَّابِعَةُ : النَّارُ وَالْعَذَابُ فِى الْعُقْبَى عَلَى مَا رُوِىَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى وَالْعَظَمَةُ إِزَارِى ، فَمَنْ نَازَعَنِى

الكلام فى ذلك حجة الاسلام رحمه الله تعالى (فإن المتكبر لايخرجه الله تعالى من) دار (الدنيا حتى يريه الهوان) نقيض العز (من أرذل أهله وخدامه) أى المتكبر (والحريص لايخرجه الله تعالى من الدنيا) أى من دارها (حتى يحوجه) الله عز وجل (إلى كسرة) أى قطعة من الخبز ، وفى [محيط المحيط]: الكسرة القطعة من الشيء المكسور، ومنه الكسرة من الخبز جمعه كسر وكسرات (أو شربة) من الماء ، وفى [محيط المحيط] الشربة المرة ، ومن الماء مايشرب دفعة واحدة ، وفيه أيضا الشربة مقدار الرى من الماء كالحسوة (ولا يجد) أى الحريص (مساغا) أى مدخلا سهلا فى الحلق (والمختال) أى المتكبر المعجب بنفسه (لايخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمرغه) بضم الياء وفتح الميم مع كسر الراء المشددة من التمريغ : أى يقلب الله ذلك المختال ويلوثه (ببوله وقذره) أى وسخه وغائطه . والجمع أقذار كما فى محيط المحيط (وقيل من تكبر بغير حق أورثه الله تعالى ذلا) أى هوانا (بحق . و) الآفة (الرابعة النار والعذاب فى العقبى) أى فى الآخرة وذلك (على ماروى أن الله تعالى يقول : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى) اختلفوا فى معنى ذلك ، فقال الكلاباذى : الرداء عبارة عن الجمال والبهاء، والإزار عبارة عن الجمال والستر والحجاب، فكأنه قال : لايليق الكبرياء إلا بى ، لأن من دونى صفات الحدوث ، لازمة له وسمة العجز ظاهرة عليه . والإزار عبارة عن الإقناع عن الإدراك والإحاطة به علما والكيفية لذاته وصفاته ، فكأنه قال : حجبت خلقى عن إدراك ذاتى وكيفية صفاتى بالجلال والعظمة . وقال عياض : الكبرياء الكبر ، وهو الترفع على الغير، بأن يرى لنفسه عليه شرفا، والعظمة كون الشيء فى نفسه كاملا شريفا مستغنيا. فالأول أرفع من الثانى ، إذ هو غاية العظمة فلذا مثله بالرداء . وقيل الكبرياء الترفع عن الانقياد، وذلك لايستحقه إلا الحق ؛ فكبرياء ألوهيته التى هى عبارة عن استغنائه واستعلائه ومثلهما بالرداء إبرازا للمعقول فى صورة المحسوس ، فكما لايشارك الرجل فى ردائه وإزاره لايشارك البارى فى هذين فانه الكامل المنعم المنفرد بالبقاء وما سواه ناقص محتاج . وقال العلامة الزبيدى الكبرياء كناية عن كمال الذات . وأعنى بكمال الذات كمال الوجود ، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين : أحدهما دوامه أزلا وأبدا . والثانى أن وجوده هو الوجود الذى يصدر عنه وجود كل موجود ، ومعنى كونهما إزاره ورداءه أنهما من خاص صفاته كما يليق به (فمن نازعنى) أى جاذبنى

فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ نَارَ جَهَنَّمَ .

وَالْمَعْنَى أَنَّ الْعَظَمَةَ وَالْكِبْرِيَاءَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِي ؛ فَلَا تَنْبَغِي لِأَحَدٍ غَيْرِي كَمَا أَنَّ رِدَاءَ الْإِنْسَانِ وَإِزَارَهُ يُخْتَصُّ بِهِ لَا يُشَارَكُ فِيهِ وَإِنَّ خَصْلَةً تُفَوِّتُكَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَفَهْمَ مَعَانِي آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَأَحْكَامِهِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْأَمْرِ كُلِّهِ تُثْمِرُ لَكَ الْمَقْتَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا وَالنَّارَ فِي الْآخِرَةِ ؛ لَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ نَفْسِهِ فَلَا يُصْلِحُهَا بِإِزَالَتِهَا بِالْحَذَرِ وَالتَّحَرُّزِ وَالِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ جَلَّ وَعَزَّ وَلِيُّ الْعِصْمَةِ

(فى واحد منهما) بأن تعظم على عبادى وتكبر (أدخلته نار جهنم) ولا أبالى كما فى رواية قال الزمخشرى هذا وارد عن غضب شديد ومناد على سخط عظيم. وقال صاحب الحكم : كن بأوصاف ربوبيته متعلقا ، وبأوصاف عبوديتك متحققا ، منعك أن تدعى ماليس لك مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين ؟ وقد أفاد هذا الوعيد أن التكبر والتعاظم من الكبائر ، قال العراقى : وهذا الحديث رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له . وقال أبو داود « قذفته فى النار » وقال مسلم : عذبته . وقال رداؤه وإزاره بالغيبة ، وزاد مع أبى هريرة أبا سعيد أيضا . وقال الزبيدى وبلفظ أبى داود رواه أيضا أحمد وهناد والدارقطنى فى الأفراد ، ورواه ابن حبان فى صحيحه بلفظ : ألقيته فى النار ، ورواه القضاعى فى مسنده من طريق عطاء ابن السائب عن أبيه عن أبى هريرة مثله ، ورواه سمويه فى فوائده من حديث أبى هريرة وأبى سعيد معا بلفظ مسلم إلا أنه قال : ردائى وإزارى ، ورواه الحاكم فى مستدركه من وجوه أخر بلفظ : قصمته وبدون ذكر العظمة ، وعند الحكيم الترمذى من حديث أنس « يقول الله عز وجل : لى العظمة والكبرياء والفخر والقدر سرى ، فمن نازعنى واحدة منهن كببته فى النار » (والمعنى) أى معنى هذا الحديث (أن العظمة والكبرياء من) جملة (الصفات التى تختص بى فلا تنبغى) ولا تليق (لأحد غيرى كما أن رداء الإنسان وإزاره يختص) بالبناء للمفعول : أى يختص الرداء والإزار (به) أى بالإنسان (لايشارك) أى لايشاركه أحد (فيه) أى فى ذلك الرداء والإزار (و) بعد أن عرفت ماذكر اعلم (أن خصلة) يعنى الكبر (تفوتك معرفة الحق و) تفوتك (فهم معانى آيات الله تعالى و) فهم (أحكامه الذى) نعت للمعرفة (هو أصل الأمر) أى أمر الدين (كله ثم تثمر) أى تلك الخصلة (لك المقت) والبغض (من الله سبحانه وتعالى و) تثمر (الخزى) أى الذل (فى الدنيا و) توجب (النار فى الآخرة لاينبغى) خبر أن خصلة (لعاقل أن يغفل) بضم الفاء (عن نفسه فلا يصلحها بازالتها) أى الخصلة (بالحذر والتحرز والاستعاذة بالله من ذلك) أى من الخصلة التى تثمر الخزى فى الدنيا والنار فى الآخرة (وهو جل وعز ولى العصمة) أى الحفظ

وَالتَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ ،

(والتوفيق بمنه) وكرمه تعالى . ولنذكر طريق معالجة الـكبر على الاختصار لأنه يتعين على كل إنسان الخلاص من ورطته إذ هو من المهلـكات ولا يخلو أحد من شيء منه ، فإزالته فرض عين كما قاله المصنف أبو حامد وغيره ، ولا تمـكن تلك الإزالة بمجرد التمنى بل بالمعالجة باستعمال أدويته النافعة فى إزالته من أصله ، فأقول : طريق ذلك كما ذكره العلامة ابن سعيد بابصيل مفتى الشافعية وغيره : أن يعرف الإنسان نفسه حق المعرفة ، وذلك بأن يتأمل أن بدايته من أذل الأشياء وأحقرها وهو التراب ، ثم المنى ووسطه من عدم التأهل لاكتساب العلوم والمعارف وحيازة المناصب ونهايته الزوال والفناء والعود إلى مثل بدايته ، ثم إعادته إلى ذلك الموقف الأكبر ، ثم إلى الجنة أو النار ، ومن أظهر ما أشار لـكل ذلك قوله تعالى « قتل الإنسان ما أكفره ؟ من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره » وقوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » الآيات ، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا ، بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته الذى هو العدم قبل حياته ، وهى الوجود ، وبضعفه قبل قوته ، وبجهله قبل علمه ، وبعماه قبل بصره ، وبصممه قبل سمعه ، وببكمه قبل نطقه ، وبضلالته قبل هداه ، وبفقره قبل غناه ، وبعجزه قبل قدرته ؟ فمن تأمل ذلك ونظائره علم أنه أذل وأحقر من كل ذليل وحقير ، ولا يليق به إلا الذل والتواضع والمهانة ، فتلك أخص أوصافه بأن يعرف ربه ليعلم أنه لا تليق العظمة والـكبرياء والجلال إلا له عز وجل بخلاف نفسه ، فإنه لا يليق به الفرح لحظة ، فـكيف البطر والخيلاء ولو ظهر له آخر أمره والعياذ بالله تعالى لربما اختار أن يكون بهيمة ولو كلبا ليصير معها ترابا ولا يكون إنسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا سيما إن كان فى علمه تعالى أنه من أهل النار ، فمن هذا حاله وعاقبته كيف يتـكبر ويرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا ؟ وأى عبد لم يذنب ذنبا يستحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الـكريم بفضله وإحسانه ويجبر الـكسر بمنه والرجاء منه ذلك لـكرمه وحسن الظن ؟ فمن تأمل ذلك حقيقة التأمل زال عنه النظر لعلمه وعمله ونحوهما وتواضع لله وفر إليه من كل شيء ، وعلم أنه أحقر وأذل شيء ، كيف وهو يجوز أن يكون عند الله شقيا . ومما يظهر التـكبر الـكامن فى النفس ويعلم به من سولت له نفسه أنها متنزهة عنه أن يناظر فى مسئلة مع بعض أقرانه ويظهر الحق على يد صاحبه فان اطمأن لقبوله وأعلن بشكره وفضله إذ ظهر له الحق على يديه وكان كذلك مع كل مناظر ظهرت القرائن على براءته من الـكبر ، وإن اختل شرط من ذلك فهو كامن فيه ، فعليه علاجه بالتفـكر فيما مر ونحوه إلى أن تنقطع عروقه من نفسه وبأن يقدم أقرانه على نفسه فى المجالس ونحوها ، لـكن على وجه لا يظن به فيه أظهر تواضعا وإلا كأن يترك صفهم ويجلس مع النعال كان ذلك عين الـكبر ، وبأن يجيب دعوة الفقير ويحادثه

فَهذَا بَعْضُ مَاحَضَرَنَا فِي هٰذِهِ الخِصَالِ الْأَرْبَعِ مِنَ الآفاتِ، وَحَسْبُ الْعَاقِلِ وَاحِدَةٌ مِنْهَا فَضْلاً عَنِ الْكُلِّ إِذَا أَهَمَّهُ أَمْرُ قَلْبِهِ وَحَامَى عَنْ أَمْرِ دِينِهِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنْ آفَاتِ هٰذِهِ الخِصَالِ وَلُزُومِ التَّحَفُّظِ مِنْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا وَحَدِّهَا ، فَبَيِّنْ لَنَا ذٰلِكَ لِنَعْرِفَ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى التَّحَفُّظِ عَنْهَا .

فَاعْلَمْ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كَلَامًا كَثِيرًا وَقَدْ أَشْبَعْنَا الْقَوْلَ فِيهِ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ وَالْأَسْرَارِ ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ مَالَابُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ وَلَا يَقَعُ الْغِنَى عَنْهُ فَنَقُولُ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ :

أَمَّا الْأَمَلُ فَقَالَ أَكْثَرُ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ : إِنَّهُ إِرَادَةُ الْحَيَاةِ لِلْوَقْتِ

ويجالسه ويمر فى الأسواق لحاجته وحاجة الفقراء والمنقطعين ، وبأن يحمل حاجته وحاجة غيره فان ذلك براءة من الكبر كما فى الحديث ، ويستوي ذلك عنده فى الخلا وبحضرة الملا ، وإلا فهو متكبر أو مراء وكل ذلك من أمراض القلوب وعللها المهلكة إن لم يتدارك وقد أهمل الناس طبها واشتغلوا بطب الأجساد مع أنه لاسلامة فى الآخرة إلا بسلامة القلوب . قال الله تعالى « إلا من أتى الله بقلب سليم » أى من الشرك أو مما سوى الله ، والله ولى التوفيق والهداية (فهذا) أى الذى ذكرناه فى هذا المختصر (بعض ماحضرنا فى هذه الخصال الأربع) وهى طول الأمل والاستعجال والحسد والكبر (من الآفات؛ وحسب) أى كاف (العاقل واحدة منها) أى من الخصال الأربع (فضلا عن الكل) أى كل هذه الخصال (إذا أهمه) أى العاقل (أمر قلبه وحامى عن أمر دينه) أى حافظ عليه (والله الموفق . فان قلت فانها كان الأمر بهذه المنزلة من آفات هذه الخصال) الأربع (ولزوم التحفظ منها) أى من آفاتها (فلا بد من معرفة حقيقتها وحدّها) أى الخصال الأربع (فبين لنا ذلك) أي المذكور من حقيقتها وحدّها (لنعرف الطريق إلى التحفظ منها) أى تلك الآفات (فاعلم أن فى كل واحدة منها) أى من الخصال الأربع (كلاما كثيرا) لا يحتمله هذا الكتاب لوفاء العهد بالاختصار كما علم من خطبته (وقد أشبعنا القول) استوفيناه وأكثرناه يقال أشبع الكلام : أى فخمه وأحكمه واستوفاه كما فى محيط المحيط (فيه) أى فى كل هذه الخصال (فى) تصنيفنا (كتاب الإحياء) أى إحياء علوم الدين.(والأسرار) أى أسرار معاملات الدين (ونحن نذكر ههنا) أى فى هذا المختصر المسمى بالمنهاج (ما) أى قولا مختصرا (لابد) أى لاغنى (من ذكره ولا يقع الغنى) مقصودا وهو الكفاية (عنه) أى عن القول المختصر (فنقول وبالله التوفيق : أما الأمل) أى طوله (فقال أكثر علمائنا رحمهم الله : إنه إرادة الحياة للوقت

الْمُتَرَاخِي بِالْحُكْمِ ، وَقِصَرُ الْأَمَلِ تَرْكُ الْحُكْمِ فِيهِ بِأَنْ تُقَيِّدَهُ بِالْاسْتِثْنَاءِ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ فِي الذِّكْرِ أَوْ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ فِي الْإِرَادَةِ ، فَإِذَنْ إِنْ ذَكَرْتَ حَيَاتَكَ بِأَنِّي أَعِيشُ بَعْدَ نَفَسٍ ثَانٍ أَوْ سَاعَةٍ ثَانِيَةٍ أَوْ يَوْمٍ ثَانٍ بِالْحُكْمِ وَالْقَطْعِ ، فَأَنْتَ آمِلٌ وَذَٰلِكَ مِنْكَ مَعْصِيَةٌ إِذْ هُوَ حُكْمٌ عَلَى الْغَيْبِ ، فَإِنْ قَيَّدْتَهُ بِالْمَشِيئَةِ وَالْعِلْمِ مِنَ اللهِ فَقُلْتَ أَعِيشُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَوْ إِنْ عَلِمَ اللهُ أَنْ أَعِيشَ فَقَدْ خَرَجْتَ عَنْ حُكْمِ الْأَمَلِ وَوُصِفْتَ بِتَرْكِ الْأَمَلِ ، وَكَذَٰلِكَ إِنْ أَرَدْتَ حَيَاتَكَ لِلْوَقْتِ الثَّانِي قَطْعاً فَأَنْتَ آمِلٌ ، وَإِنْ قَيَّدْتَ إِرَادَتَكَ بِشَرْطِ الصَّلَاحِ خَرَجْتَ عَنْ حُكْمِ الْأَمَلِ وَوُصِفْتَ بِقِصَرِ الْأَمَلِ مِنْ حَيْثُ تَرَكْتَ الْحُكْمَ فِيهِ فَعَلَيْكَ بِتَرْكِ الْحُكْمِ فِي ذِكْرِ الْبَقَاءِ وَإِرَادَتِهِ ، وَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ ذِكْرُ الْقَلْبِ ، ثُمَّ الْمُرَادُ مِنْهُ التَّوْطِينُ عَلَى ذَٰلِكَ وَالتَّثْبِيتُ لِلْقَلْبِ عَلَيْهِ ، فَافْهَمْ ذَٰلِكَ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

المتراخى) أى المتسع والمنتظر (بالحكم ، وقصر الأمل) هو (ترك الحكم فيه) أى فى الأمل (بأن تقيده) أى الأمل (بالاستثناء بمشيئة الله وعلمه) تعالى (فى الذكر) أى بأن تقول إن شاء الله أو تقول إن علم الله أن أعيش ونحو ذلك (أو) تقيده (بشرط الصلاح فى الارادة، فإذن) أى فحين إذ عرفت ما قاله هؤلاء الأعلام فى الأمل اعلم أنك (إن ذكرت حياتك بأنى أعيش بعد نفس) بفتح الفاء ريح يدخل ويخرج من فم وأنف الحى ذى الرئة حال التنفس والجمع أنفاس كما فى محيط المحيط (ثان أو) بعد (ساعة ثانية أو يوم ثان بالحكم والقطع) أى الجزم (فأنت آمل) أى ذوأمل طويل (وذلك) أى صدور الأمل بالحكم والقطع (منك معصية إذهو) أى الحكم والقطع أنك حى بعد لحظة من الزمان (حكم على الغيب) أى ما غاب عنك (فان قيدته) أى الأمل بمعنى إرادة الحياة للوقت المتراخي (بالمشيئة والعلم من الله فقلت : أعيش إن شاء الله أو إن علم الله أن أعيش فقد خرجت عن حكم الأمل ووصفت) بالبناء للمفعول (بترك الأمل ، وكذلك) أى مثل المعصية (إن أردت حياتك للوقت الثانى قطعا) أى جزما (فأنت آمل ، وإن قيدت إرادتك بشرط الصلاح خرجت عن حكم الأمل ووصفت) بالبناء المفعول (بقصر الأمل من حيث تركت الحكم فيه) أى الأمل (فعليك) أى الزم (بترك الحكم فى ذكر البقاء) أى الحياة (وإرادته) أى البقاء (والمراد بالذكر ذكر القلب)لاذكر اللسان(ثم المراد منه) أى من ذكر القلب (التوطين) أى تقرير القلب وتمهيده ، وفى [محيط المحيط] : وطن نفسه على الأمر مهدها لفعله وذللها وسكنها وأقرها عليه (على ذلك) أى على ترك الحكم فى الأمل (والتثبيت للقلب عليه) أى ترك الحكم فيه (فافهم ذلك) المراد الذى ذكر (راشدا) أى إصابة للرشد والصواب (إن شاء الله عز وجل.

ثم الْأَمَلُ ضربان: أَمَلُ الْعَامَّةِ وَأَمَلُ الخَاصَّةِ، فَأَمَلُ الْعَامَّةِ أَنْ تُرِيدَ الحَيَاةَ وَالْبَقَاءَ لِجَمْعِ الدُّنْيَا وَالتَّمَتُّعِ بِهَا، وَهٰذِهِ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ، وَضِدُّهَا قِصَرُ الْأَمَلِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (فَذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). وَأَمَّا الخَاصَّةُ فَأَنْ تُرِيدَ الْبَقَاءَ لِإِتْمَامِ عَمَلِ خَيْرٍ فِيهِ خَطَرٌ وَهُوَ مَالاَ يَسْتَيْقِنُ الصَّلاَحَ لَهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ خَيْرٌ مُعِينٍ لاَيَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ أَوْ فِى إِتْمَامِهِ صَلاَحٌ بِأَنْ يَقَعَ بِسَبَبِهِ فِى عُجْبٍ وَآفَةٍ لاَيَقُومُ بِهَا هٰذَا الْخَيْرُ، فَإِذَنْ لَيْسَ لِلْعَبْدِ إِذَا ابْتَدَأَ فِى صَلاَةٍ أَوْ صَوْمٍ أَوْ غَيْرِهِ أَنْ يَحْكُمَ بِأَنَّهُ يُتِمُّهُ إِذْ هُوَ غَيْبٌ وَلاَ أَنْ يَقْصِدَ ذلِكَ قَطْعاً، لِأَنَّهُ رُبَّمَا لاَيَكُونُ لَهُ فِيهِ صَلاَحٌ. بَلْ يُقَيِّدُ ذٰلِكَ بِالْاِسْتِثْنَاءِ أَوْ بِشَرْطِ الصَّلاَحِ لِيَخْلُصَ مِنْ عَيْبِ الْأَمَلِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: (وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ،

ثم الأمل ضربان) أى نوعان (أمل العامة) أى الجاهلين (وأمل الخاصة) أى العلماء (فأمل العامة أن تريد الحياة والبقاء لجمع) متاع (الدنيا والتمتع بها) أى الدنيا (وهـذه) أى إرادة الحياة والبقاء لذلك (معصية محضة) أى خالصة (وضدها) أى الإرادة المذكورة (قصر الأمل) أى حبسه (قال الله تعالى: فذرهم) أى اترك الكفار يامحمد (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم (ويلههم) أى يشغلهم (الأمل) بطول العمر وغيره عن الإيمان (فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم (وأما الخاصة) أى أملهم فهو (أن تريد) الحياة و (البقاء لإتمام عمل خير فيه) أى فى العمل (خطر) أى متردد بين أن يوجد وبين أن لا يوجد كما فى محيط المحيط (وهو) أى العمل الذى فيه الخطر (مالا يستيقن) أى العبد (الصلاح له) أى للعبد الذى يعمل (فيه) أى فى العمل (فانه) أى الحال والشأن (ربما يكون خير معين لا يكون للعبد فيه) أى الخير المعين (أو) لا يكون له (فى إتمامه صلاح) وذلك (بأن يقع) العبد (بسببه) أى عمل الخير (فى عجب وآفة) من الآفات المهلكات (لايقوم بها) أى بسبب تلك الآفات (هـذا الخير) المعين (فاذن) أى حين إذ قد يكون الخير ليس فيه ولا فى إتمامه صلاح (ليس) أى لايجوز (للعبد إذ ابتدأ فى صلاة أو صوم أو غيره) من أنواع الطاعات (أن يحكم) قطعا وجزما (بأنه) أى العبد (يتمه) أى العمل الذى ابتدأ به (إذ هو) أى الاتمام (غيب) أى خفى لايعلمه إلا الله (ولا) يجوز (أن يقصد) أى العبد (ذلك) الإتمام (قطعا لأنه) أى الشأن (ربما لا يكون له) أى للعبد (فيه) أى فى ذلك الإتمام (صلاح) كأن يقع بسببه فى الرياء والعجب وغير ذلك من الآفات (بل يقيد) العبد (ذلك) أى إتمام العمل (بالاستثناء) بمشيئة الله وعلمه (أو بشرط الصلاح ليخلص من عيب الأمل. قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ولا تقولن لشىء) أى لأجل شىء تعزم

إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) . وَضِدُّ هٰذَا الْأَمَلِ فِيما قَالَ الْعُلَمَاءُ النِّيَّةُ الْمَحْمُودَةُ

عليه (إنى فاعل ذلك) الشىء (غدا) أي فما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة كما ذكره النسفى (إلا أن يشاء الله) أى إلا متلبسا بمشيئة الله تعالى ، بأن تقول إن شاء الله ولا تقل لأجل الشيء بغير استثناء ، وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال أخبركم غدا ، ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحى أياما ثم نزلت هذه الآية ، كذا ذكره الخازن فى تفسيره (وضد هذا الأمل) أى أمل الخاصة (فيما قال العلماء) أى العارفون بالكتاب والسنة ، وورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم خطب للناس يوما فقال : « يا أيها الناس اتبعوا العلماء فانهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة» كذا فى العزيزى . وسرج الدنيا : أى منوروها جمع سراج ، وورد « ثلاثة تضىء فى الأرض لأهل السماء كما تضىء النجوم فى السماء لأهل الأرض ، وهى المساجد وبيت العالم وبيت حافظ القرآن» (النية المحمودة) .

واختلف العلماء فى حد النية ، فقال الجوهرى : النية العزم . وقال الخطابى : هى قصدك الشىء بقلبك وتحرى الطلب منك له . وقيل : هى:عزيمة القلب . وقال التيمى : هى وجهة القلب وقال البيضاوى : هى عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جانب نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا والشرع خصها بالارادة المتوجهة نحو الفعل ابتغاء لوجه الله تعالى وامتثالا لحكمه. وقال النووى : النية القصد، وهو عزيمة القلب . وتعقبه الكرمانى بأن المتكلمين قالوا: القصد إلى الفعل هو ما نجده فى أنفسنا حال الايجاد ، والعزم قد يتقدم عليه ويقبل الشدة والضعف بخلاف القصد ففرقوا بينهما من وجهين فلا يصح تفسيره به ، وكلام الخطابى أيضا مشعر بالمغايرة بينهما. وقال العراقي فى شرح التقريب : اختلف فى حقيقة النية ؛ فقيل هي الطلب ، وقيل الجد فى الطلب ، ومنه قول ابن مسعود: من ينوى الدنيا تعجزه ، أى يجد فى طلبها . وقيل القصد للشىء بالقلب . وقيل عزيمة القلب . وقال الزركشى فى قواعده : حقيقة النية ربط القصد بمقصود معين ، والمشهور أنها مطلق القصد إلى الفعل . وقال الماوردى : هى قصد الشيء مقترنا بفعله ، فان قصده وتراخى عنه فهو عزم .

[مهمة] قال القرافى فى كتاب الأمنية : إن جنس النية هو الارادة ، وهى الصفة المخصصة لأحد طرفى الممكن بما هو جائز عليه من وجود أو عدم أو هيئة دون هيئة أو حالة دون حالة أو زمان دون زمان ، وجميع ما يمكن أن يتصف الممكن به بدلا من خلافه أو ضده أو نقيضه أو مثله غير أنها فى الشاهد لا يجب لها حصول مرادها ، وفى حق الله تعالى يجب لها ذلك لأنها فى الشاهد عرض مخصوص مصرف بالقدرة الإلهية والمشيئة الربانية هي ومرادها ، وفي حق الله تعالى معنى ليس بعرض واجبة الوجود متعلقة بذاتها أزلية واجبة النفوذ فيما تعلقت به ؛ ثم الارادة متنوعة إلي العزم والهم والنية والشهوة والقصد والاختيار والقضاء والقدرة والعناية والمشيئة ، فهى عشرة

ألفاظ ، فالعزم هو الارادة الكائنة على وفق الداعية ، والداعية ميل يحصل فى النفس لما أشعرت به من اشتمال المراد على مصلحة خالصة أو راجحة ، والميل جائز على الخلق ممتنع على الله تعالى ، فلا جرم ، لايقال فى حق الله تعالى عزم بمعنى أراد الارادة الخالصة المصممة ، بل عزائم الله تعالى طلبه الراجع إلى كلامه النفسى ، فظهر الفرق بين العزم والارادة . وأما الهم فى مثل قوله تعالى « ولقد همت به وهم بها » . وفى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة » فالظاهر أنه مرادف وأن معناهما واحد ، ويستحيل على الله تعالى كما يستحيل العزم . وأما النيـة فهى إرادة تتعلق بإمالة الفعل إلى ما يقلبه لابنفس الفعل من حيث هو فعل ، ففرق بين قصدنا لفعل الصلاة وبين قصدنا لـكون ذلك قربة أو فرضا أو نفلا أو أداء أو قضاء أو غير ذلك مما هو جائز على الفعل ، فالارادة المتعلقة بأصل الـكسب والايجاد هى المسماة بالارادة ، ومن جهة أن هذه الارادة مميلة للفعل إلى بعض جهاته الجائزة عليه تسمى من هذا الوجهنية ، فصارت الارادة إذا أضيف إليها هذا الاعتبار نية وهذا الاعتبار هو تمييز الفعل عن بعض رتبه جائز على الله تعالى ، فانه سبحانه قد يريد بالفعل الواحد نفع قوم وضر قوم وهـداية قوم إلى غير ذلك ممـا هو جائز على فعله ، غير أن أسماء الله توقيفية ، فلا يسمى الله تعالى ناويا ويسمي مريدا : هذا إن اقتصر على هذا الاعتبار العام وهو مطلق إمالة الفعل إلى بعض جهاته حكم شرعى فينوى إيقاع الفعل على الوجه الذى أمر الله تعالى به أو نهى عنه أو أباحه . ومنهم من يقول : بل أخص من هذا ، وهو أن يميل الفعل إلى جهة التقريب والعبادة ، وعلى التقديرين فيستحيل على الله تعالى معناها ، بخلاف المعنى العام ، وتفارق النية الإرادة من وجه آخر ، وهو أن النية لا تتعلق إلا بفعل الناوى ، والارادة تتعلق بفعل الغير كما يريد معونة الله تعالى وإحسانه وليست فعلنا . وأما الشهوة فهى إرادة متعلقة براحات البشر كالملاذّ ودفع الآلام فيستحيل على الله تعالى . وأما القصد فهو الإرادة الـكائنة بين جهتين كمن قصد الحج من مصر ومن غيرها ، وهو بهذا المعنى مستحيل على الله تعالى . وأما الاختيار فهو الارادة الـكائنة بين شيئين فصاعدا ، ومنه قوله تعالى « واختار موسى قومه سبعين رجلا » أى أرادهم دون غيرهم مضافا إلى اعتقاد رجحان المختار ، وهو جائز على الله تعالى . قال تعالى « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » . وأما القضاء فهو الارادة المقرونة بالحـكم الخبري ، فقضاء الله تعالى لزيد بالسعادة إرادته سعادته مع إخباره بكلامه النفسى عن سعادته ، ومنه قضاء الحاكم إذا أخبر عن حكم الله تعالى فى تلك الواقعة إخبارا إنشائيا ، ولذلك تعذر نقضه بخلاف الفتيا ، وأما العناية فهى الارادة المتعلقة بالشيء على نوع من الحصر والتخصيص ، ولذلك قال العوفى :

* إياك أعنى واسمعى يا جاره *

أى أخصك دون غيرك ، ولم يقل إياك أريد ، ويقولون ما يعنى بكلامه أى ما يخصه به من المعانى التى يحتملها دون غيره ، وهذا التفسير جائز على الله تعالى غير أن أسماءه توقيفية ، فلا يقال الله عان وإن قيل مريد . وأما المشيئة فالظاهر أنها مرادفة للارادة . وقالت الحنفية : هي

وَإِنَّمَا قَالُوا ذٰلِكَ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الْاِتِّسَاعِ . لِأَنَّ النَّاوِيَ بِالنِّيَّةِ الْمَحْمُودَةِ يَكُونُ مُمْتَنِعاً مِنَ الْأَمَلِ ، فَهٰذَا حُكْمُ الْأَمَلِ، وَالنِّيَّةُ الْمَحْمُودَةُ إِذْ قَدْ مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا وَإِلَى مَعْرِفَتِهَا مَعَ أَنَّهَا الْأَصْلُ الْأَصِيلُ قَالُوا رَحِمَهُمُ اللهُ فِي حَدِّهَا الْجَامِعِ التَّامِّ : إِنَّ النِّيَّةَ الصَّحِيحَةَ الْمَحْمُودَةَ إِرَادَةُ أَخْذِ عَمَلٍ مُبْتَدَإٍ بِهِ قَبْلَ سَائِرِ الْأَعْمَالِ بِالْحُكْمِ مَعَ إِرَادَةِ إِتْمَامِهِ بِالتَّفْوِيضِ وَالِاسْتِثْنَاءِ.

مباينة وجعلوها مشتقة من الشيء ، والشيء اسم الموجود حتى قالوا : إذا قال الحالف إن شئت دخول الدار فعبدى حر فأراد دخول الدار لايعتق حتى يدخل ولا تكفي الإرادة ، وأطلنا فى كشف كتب اللغة ولم نجد للمشيئة معنى إلا الارادة ، فهذه التفاسير والتغايرات بين هذه المعانى العشرة يساعد عليها الاستعمال والأصول الموجودة لعدم الترادف ، فتلخص أن النية غير التسعة الباقية لما ذكر من خصوصيتها وخصوصيات كل من التسعة المفقودة فى النية ، فيجزم الناظر بالفرق حينئذ ولا يضر كون الاستعمال قد يتوسع فيه فيستعمل أراد ومراده نوى أو عزم أو قصد أو عنى، فانها متقاربة المعنى حتى يكاد يجزم فيها بالترادف تكثيرا لفوائد اللغة ، وبهذا تظهر الحكمة فى قوله صلى الله عليه وسلم « الأعمال بالنيات » ولم يقل بالإرادات أو غير ذلك فانه صلى الله عليه وسلم لم يرد إلا الإرادة الخاصة المميلة للفعل إلى جهة الأحكام الشرعية كما تقدم فى تفسير النية ، كذا أفاده الزبيدى (وإنما قالوا ذلك) أى النية المحمودة ضد الأمل (على ضرب) أى نوع (من الاتساع لأن الناوى بالنية المحمودة يكون ممتنعا من الأمل ، فهذا) أى الذى ذكرناه (حكم الأمل والنية المحمودة إذ قد مست الحاجة إليها) أى النية المحمودة (وإلى معرفتها مع أنها الأصل الأصيل) أى الحكم (قالوا) أى العلماء (رحمهم الله فى حدها) أى فى بيان حد النية المحمودة (الجامع التام : إن النية الصحيحة المحمودة) هى (إرادة أخذ عمل مبتدأ به) أى بذلك العمل (قبل سائر الأعمال بالحكم) والجزم (مع إرادة إتمامه) أى العمل بالتفويض إلى الله تعالى (والاستثناء) بمشيئه تعالى . قال الشهاب القرافى : النية قسمان : فعلية موجودة ، وحكمية معدومة فاذا نوى المكلف أول العبادة فهذه نية فعلية ، ثم إذا ذهل عن النية حكم صاحب الشرع بأنه ناو ومتقرب ، فهذه هى النية الحكمية ، أى حكم الشرع ببقاء حكمها لأنه موجود وكذلك الاخلاص والإيمان والنفاق والرياء وجميع أحوال القلب إذا شرع فيها واتصف القلب بها كانت فعلية ، وإذا ذهل عنها حكم صاحب الشرع ببقاء أحكامها لمن كان اتصف بها قبل ذلك حتى لو مات الانسان مغمورا بالمرض حكم صاحب الشرع له بالاسلام المتقدم بالولاية والصديقية وجميع المعارف المتقدمة وإن لم يتلفظ بالشهادة عند الموت ، وعكسه يحكم له بالكفر والنفاق وجميع مساوى الأخلاق وإن كان لايستحضر فيها شيئا عند الموت ولا يتصف بها ، بل يوم القيامة الأمر كذلك ، ومنه قوله تعالى « إنه من يأت ربه مجرما » مع أنه لا يكون يوم القيامة مجرما ولا كافرا ، ولا عاصيا لظهور

فَإِنْ قِيلَ فَلِمَ جَازَ الْحُكْمُ فِي الْابْتِدَاءِ وَوَجَبَ التَّفْوِيضُ وَالْاسْتِثْنَاءُ فِي الْإِتْمَامِ ؟ يُقَالُ لَهُ لِفَقْدِ الْخَطَرِ فِي الْابْتِدَاءِ إِذْ هُوَ فِي حَالِ الْابْتِدَاءِ لَيْسَ بِشَيْءٍ مُتَرَاخٍ عَنْكَ وَلِثُبُوتِ الْخَطَرِ فِي الْإِتْمَامِ إِذْ هُوَ يَقَعُ فِي وَقْتٍ مُتَرَاخٍ؛ فَفِيهِ الْخَطَرَانِ: خَطَرُ الْوُصُولِ لَا تَدْرِي هَلْ تَصِلُ إِلَى ذَلِكَ أَمْ لَا، وَخَطَرُ الْفَسَادِ لَا تَدْرِي هَلْ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ أَمْ لَا، فَإِذَا وَجَبَ الْاسْتِثْنَاءُ لِخَطَرِ الْوُصُولِ وَالتَّفْوِيضُ لِخَطَرِ الْفَسَادِ فَإِذَا حَصَلَتِ الْإِرَادَةُ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ تَكُونُ حِينَئِذٍ نِيَّةً مَحْمُودَةً مُخْرَجَةً عَنْ حَدِّ الْأَمَلِ وَآفَتِهِ فَتَأَمَّلْ جِدًّا، فَهَذِهِ هَذِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ حِصْنَ قِصَرِ الْأَمَلِ ذِكْرُ الْمَوْتِ ،

الحقائق عند الموت وصار الأمر ضروريا ، فمعناه محكوما له بالإجرام كما يحكم لغيره بالايمان ، واكتفى صاحب الشرع بالايمان والنية الحكمية للمشقة في استمرارها بالفعل . وقال أيضا فى نية الحسنة يثاب عليها حسنة واحدة ، وفعل الحسنة يثاب عليها عشرة ، لأن الأفعال هي المقاصد والنيات وسائل ، والوسائل أخفض رتبة من المقاصد . وقال الكرمانى : من جاء بنية الحسنة فقد جاء بالحسنة ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، فيلزم أن من جاء بنية الحسنة فله عشر أمثالها فلا يبقى فرق بين الحسنة ونية الحسنة . قال السيوطى : لا نسلم أن من جاء بنية الحسنة فقد جاء بالحسنة بل يثاب على نية الحسنة ، فظهر الفرق انتهى . قال الزبيدى : قال بعض الأفاضل وكنت بحثت مع السراج البلقيني بالخشابية بجامع عمرو هل تضعف هذه الحسنة أيضا ، وقلت : ينبغي أن تضعف ، لقوله تعالى « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها » الآية ، فقال نعم وتضعف من جنس ماهم فيه انتهى ، وهو كلام حسن . (فإن قيل فلم) أى لأى شيء (جاز الحكم فى الابتداء) أى ابتداء العمل (ووجب التفويض والاستثناء فى الاتمام) أى إتمام العمل (يقال له) أي للقائل إنما جاز، الحكم فى ابتداء العمل والتفويض والاستثناء فى إتمامه (لفقد الخطر فى الابتداء إذ هو) أى العمل (في حال الابتداء ليس بشيء متراخ عنك ولثبوت الخطر فى الإتمام إذ هو) أى الإتمام (يقع فى وقت متراخ ، ففيه) أى فى الاتمام (الخطران) الأول (خطر الوصول لا تدرى هل تصل إلى ذلك) أى إتمام العمل (أم لا) تصل إليه (و) الثانى (خطر الفساد) أي فساد العمل بسبب إتمامه (لا تدرى هل فى ذلك) الاتمام (صلاح أم لا ، فاذا) أي إذا كان فى الاتمام خطران (وجب الاستثناء) فى الابتداء (لخطر الوصول) إلى ذلك (و) جب (التفويض) فى الإتمام (لخطر الفساد ؟ فاذا حصلت الارادة على هذه الشروط) أى من الاستثناء والتفويض فى الحالين (تكون) أى الارادة (حينئذ) أى حين إذ حصلت على هذه الشروط (نية) صحيحة (محمودة مخرجة عن حد الأمل وآفته) أى الأمل (فتأمل جدا ، فهذه) أى الجملة المذكورة (هذه) أى عظيمة . (واعلم أن حصن قصر الأمل ذكر الموت) وسكرته ومرارة

كأسه وصعوبته ، فانه مقرح للقلوب ، ومبك للعيون ، ومفرق للجماعات ، وهاذم اللذات : أي قاطعها وقاطع للاقتيات . قال العلماء : الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقة وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار ، والروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، وهذا قول أهل السنة والجماعة وفقهاء الحجاز والعراق وغيرهم . ومعنى انقطاع تعلق الروح بالبدن انقطاع تصرفها عنه بخروجه عن طاعتها ، فان الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى إنها تبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب هنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ، ويتنعم بأنواع الفرح والسرور . وكل ذلك لايتعلق بالأعضاء ، فكل ماهو وصف للروح ، فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلي أن تعاد الروح إلىالجسد ، ولا يبعد أن تعاد إلى الجسد فى القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث . وأهل السنة أثبتوا الإحياء فى كل من الحالين ، وأما بين النفختين فهو حال خمود وهمود يموت الخلق بينهما من غير أن يكون بينهما حى سوى الملك الإله الواحد القهار . والدليل على الإحياء في القبر مبنى على صحة ماورد به الخبر ونزل عليه القرآن من عذاب القبر ، لأن العذاب والألم لايصح إلا لحي . ومما يعين على ذكر الموت زيارة القبور : أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زوروا القبور فإنها تذكر الموت » وأخرج ابن ماجه والحاكم عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة » . وأخرج الحاكم عن أبى سعيد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » . وأخرج أيضا عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة ولا تقولوا هجرا » . وأخرج أيضا عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولتزدكم زيارتها خيرا » وأخرج أيضا عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله صلىالله عليه وسلم « زر القبور تذكر بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله يتعرض لكل خير » . قال العلماء رضى الله عنهم . وينبغى لمن يزور القبور أن يكون جوعان فإن الشبع يحجب العبد عن الاعتبار بالموتى وأن يكون غير عازم على فعل شيء من المعاصى فان العازم فى حضرة الشياطين فلا يصح اعتبار ، وأن يكون زاهدا فى الدنيا فإن الراغب فيها من لازمه قساوة القلب ، ولذلك عدم غالب الناس الاتعاظ برؤية القبور ، وربما زار أحدهم مشاهد الأولياء ولم يحصل عنده بكاء ولارقة ، لأن غالب الناس صاروا يجعلون ذلك وسيلة إلى الاجتماع ببعضهم بعضا كالمواضع التى يتنزهون فيها من الأنهار والبساتين . فزر يا أخى القبور وأنت متفكر فما إليه مصيرك كما كان عليه السلف الصالح ، فسلم عليهم وأنت حاضر القلب خاشع بقولك : السلام عليكم دارقوم مؤمنين

وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » قاصدا بالمشيئة سرعة اللحوق بهم، لأن الموت محقق لايدخله مشيئة عادة ﴿ وإياك والمشى على قبور المسلمين بنعل أو بهيمة لاسيما إن بالت أو راثت فإن ثواب زيارتك كلها قد لايساوى بول دابتك على مسلم واحد ، فإذا وقف الزائر على قبر يزوره فليعتبر به كيف صار تحت التراب ، وانقطع عن الأهل والأحباب ، وعدم رد الجواب ، وصار يتمنى أنه يرجع إلى الدنيا فيعمل صالحا فلا يجاب ، وإن كان قبر سلطان أو أمير فينظر إلى حصول ذلك الذل بعد العز بعد أن قاد الجيوش والعساكر ، وتأنس بالأصحاب والعشائر ، وجمع الأموال والذخائر ، ثم أتاه الموت بغتة على غير ميعاد ، فلم يتركه يتهيأ للزاد ، وإن كانت المقبرة مما دفن فيها أخواته وأصحابه فليتأمل إلى ما كانوا فيه من بلوغ الآمال ، وجمع الأموال ، وبناء الدور ، وغرس البساتين ، وصحة الأجسام ، ولذيذ الطعام ، وينظر كيف انقطعت آمالهم ، ولم تغن عنهم دورهم وأموالهم ، وكيف محا التراب محاسن وجوههم ، وكيف تفرقت فى الأرض أعضاؤهم وسائر أجزائهم ، وكيف ترملت من بعدهم نساؤهم ، وتيتمت أطفالهم ، وذلوا بعدهم بعد ما كانوا فيه من العز فى حياتهم ؟ وليحذر من الاغترار بالصحة وطول الأمل ، فقد رأينا أصحابنا كلهم أتاهم الموت على غير ميعاد ، ولم يكن فى أمل أحد منهم أنه يموت تلك الأيام ، فعن قريب يقع لأحدنا ماوقع لهم ، ويندم أحدنا حيث لاينفعه الندم ، كذا ذكره أبو عبد الله القرطبي فى مختصره ، وبالجملة إن فوائد زيارة القبور غير الذى ذكرناه من الاعتبار كثيرة سيما زيارة قبور الأنبياء والصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء والصالحين : منها التوسل بهم إلى الله تعالى ، ومنها غير ذلك من أنواع الخيرات ، فقد روى البخارى عن أنس رضى الله عنه « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس فقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه وسلم فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا فيسقون » ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أعنى بالصالحين منهم فى قضاء حوائجه ومغفرة ذنوبه ، ثم يدعو لنفسه ولوالديه ولمشايخه ولأقاربه ولأهل تلك المقابر ولأموات المسلمين ولأحيائهم وذريتهم إلى يوم الدين ولمن غاب عنه من إخوانه ، ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى ، لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم وشرفهم وكرمهم ، فكما نفع بهم فى الدنيا ففى الآخرة أكثر ، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم ويتوسل بهم ، فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه ، ولقد تقرر فى الشرع وعلم ما لله تعالى بهم من الاعتناء وذلك كثير مشهور ، وما زال الناس من العلماء والأكابر كابرا عن كابر مشرقا ومغربا يتبركون بزيارة قبورهم ويجدون بركة ذلك حسا ومعنى . وقد ذكر الشيخ الامام أبو عبد الله بن النعمان رحمه الله فى كتابه المسمى بـ[سفينة النجاء لأهل الالتجاء] بعد كلام ماهذا لفظه : تحقق لدى البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين محبوبة لأجل التبرك مع الاعتبار فإن بركة الصالحين جارية بعد مماتهم كما كانت فى حياتهم ، والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عند علمائنا المحققين من أئمة الدين . قال العلامة ابن حجر ولا يعترض على ماذكر من أن من كانت له حاجة فليذهب إليهم وليتوسل بهم بقوله عليه الصلاة

والسلام «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ، ومسجدى ، والمسجد الأقصى » ، فقد قال الامام الجليل أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتاب [آداب السفر] من كتاب [الإحياء] له ماهذا نصه : القسم الثانى ، وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لجهاد أو حج إلى أن قال: ويدخل فى جملته زيارة قبور الأنبياء وقبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد موته . ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ، ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى والمسجد الأقصى » لأن ذلك فى المساجد لأنها متماثلة بعد هذه المساجد ولا فرق بين زيارة الأنبياء والأولياء والعلماء فى الفضل وإن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتاً عظيما بحسب اختلاف درجاتهم عند الله عز وجل . قال الإمام فخر الدين الرازى فى المطالب فى الفصل الثالث عشر فى بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى : إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوى النفس كامل الجوهر ووقف هناك ساعة وحصل تأثير فى نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة ، فلا يخفى أن لنفس ذلك الميت تعلقا بتلك التربة أيضا، فحينئذٍ يحصل لنفس الزائر الحى ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة ، فصار هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منها إلى الأخرى ، فكل ما حصل فى نفس هذا الزائر الحى من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخشوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت ، وكل ما حصل في ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة والآثار القوية الكاملة ينعكس منه نور إلى روح هذا الحى الزائر ، وبهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سببا لحصول تلك المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح هذا الزائر ، فهذا هو السبب والأصل فى مشروعية الزيارة ، ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرى أدق مما ذكرنا ، وتمام الحقائق ليس إلا عند الله تعالى انتهى كلام الرازى . قال سيدى العلامة أحمد دحلان رحمه الله فى [تقريب الأصول لتسهيل الوصول] : قد صرح كثير من العارفين أن الولى بعد وفاته تتعلق روحه بمريديه فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات ، وممن صرح بذلك قطب الإرشاد سيدى عبد الله بن علوى الحداد فإنه قال رضي الله عنه : الولى يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم فى حياته لأنه فى حياته كان مشغولا بالتكليف وبعد موته طرح عنه الأعباء ، والحى فيه خصوصية وبشرية وربما غلبت إحداها الأخرى وخصوصا فى هذا الزمان فإنها تغلب البشرية والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط . وقال القطب الحداد أيضا : إن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منهم إلا أعيانهم وصورهم ، وأما حقائقهم فموجودة فهم أحياء فى قبورهم ، وإذا كان الولى حيا فى قبره فإنه لم يفقد شيئا من علمه وعقله وقواه الروحانية بل تزداد أرواحهم بعد الموت بصيرة وعلما وحياة روحانية وتوجها إلى الله تعالى ، فإذا توجهت أرواحهم إلى الله تعالى فى شىء قضاه سبحانه وتعالى وأجراه إكراما لهم ، وهذا معنى قول بعضهم إن لهم التصرف فالتصرف الحقيقى الذى هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالي وحده لا شريك له ، ولا تأثير للولى ولا غيره

وَحِصْنَ حِصْنِهِ ذِكْرُ فَجْأَةِ الْمَوْتِ وَأَخْذُهُ عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ وَهُوَ فِى غُرُورٍ وَفُتُورٍ فَاحْتَفِظْ بِهٰذِهِ الْجُمْلَةِ وَحَصِّلْهَا مُوَفَّقًا فَإِنَّ الْحَاجَةَ مَاسَّةٌ إِلَيْهَا، وَدَعْ عَنْكَ تَضْيِيعَ الْوَقْتِ فِى الْقِيلِ وَالْقَالِ وَمُلَاحَاةِ الرِّجَالِ، وَاللّٰهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا الْحَسَدُ : فَهُوَ إِرَادَةُ زَوَالِ نِعَمِ اللّٰهِ تَعَالَى عَنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ مِمَّا لَهُ فِيهِ صَلَاحٌ ، فَإِنْ لَمْ تُرِدْ زَوَالَهَا عَنْهُ

فى شيء قط لا حيا ولا ميتا ، فمن إعتقد أن للولى أو غيره تأثيرا فى شيء فهو كافر بالله تعالى ، فأهل البرزخ من الأولياء فى حضرة الله تعالى ، فمن توجه إليهم وتوسل بهم فإنهم يتوجهون إلي الله تعالى فى حصول مطلوبه ، فالتصرف الحاصل منهم هو توجههم بأرواحهم إلى الله تعالى والتصرف الحقيقى لله وحده ، فالواقع منهم من جملة الأسباب العادية التى لا تأثير لها وإنما يوجد الأمر عندها لابها على حسب ما أجراه الله تعالى من العوائد ، ولا تغتر بالشبهات التى تمسك بها الوهابية فى منع التوسل والزيارة فإنها حجة باطلة ، وقد بسط الكلام على ردها العلامة السيد أحمد دحلان فى كتاب [خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام] ونقله العلامة يوسف النبهانى فى كتاب [شواهد الحق] فانظره فإنه مهم . ولنرجع إلى خدمة كلام المصنف قال رحمه الله تعالى (وحصن حصنه) أي قصر الأمل (ذكر فجأة الموت) أى هجومه بغتة من غير توقع ولا معرفة (وأخذه) أى الموت (على غرة) بكسر الغين (وغفلة) عطف تفسير ، لأن الغرة بالكسر الغفلة كما فى المصباح (وهو) أى العبد (فى غرور) بالضم : ما اغتر به من متاع الدنيا (وفتور) أى انكسار وضعف ، وذلك لأن الموت لايدخل فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص ، فلا بد من هجومه على كل حال (فاحتفظ بهذه الجملة) التى ذكرناها ، وهى أن حصن قصر الأمل ذكر الموت وحصن حصنه ذكر فجأته (وحصلها موفقا فإن الحاجة ماسة إليها) أى الجملة (ودع) أى اترك (عنك تضييع الوقت فى القيل والقال) أى المخاصمة والمراء والجدال . فى محيط المحيط: القال والقيل مصدران أو اسمان من القول ويعربان بحسب العوامل ، يقال : كثير قال الناس وقيلهم ، وقيل هما فى الأصل فعلان ماضيان جعلا اسمين واستعملا استعمال الأسماء وأبقى فتحهما ليدل على ما كانا عليه ، ويدل عليه مافى الحديث « نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيل وقال » بالفتح . قيل هو من قولهم قيل كذا ، وقال فلان كذا ، وقيل بناؤهما على كونهما فعلين محكيين متضمنين الضمير ، والقال الابتدا والسؤال ، والقيل الجواب انتهى (وملاحاة الرجال) أى منازعتهم وفى المختار لاحاه ملاحاة ولحاء : نازعه ، وفى المثل: من لاحاك فقد عاداك انتهى (والله الموفق بفضله) تعالى وإحسانه .

(وأما الحسد) المذموم (فهو إرادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما) أى من أنواع النعم (له) أى لأخيك المسلم (فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها) أى النعم (عنه) أى عن

وَلٰكِنْ تُرِيدُ لِنَفْسِكَ مِثْلَهَا فَهُوَ غِبْطَةٌ. وَعَلَى هٰذَا يُحْمَلُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ «لَا حَسَدَ إِلَّا فِى اثْنَتَيْنِ» الْخَبَرَ: أَىْ لَا غِبْطَةَ إِلَّا فِى ذٰلِكَ، فَعَبَّرَ عَنِ الْغِبْطَةِ بِالْحَسَدِ اتِّسَاعًا فِى ذٰلِكَ لِمُقَارَبَتِهِمَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهَا صَلَاحٌ فَأَرَدْتَ زَوَالَهَا عَنْهُ فَذٰلِكَ غَيْرَةٌ فَهٰذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ هٰذِهِ الْخِصَالِ.

وَأَمَّا ضِدُّ الْحَسَدِ فَالنَّصِيحَةُ: وَهِيَ إِرَادَةُ بَقَاءِ نِعَمِ

أخيك (ولكن تريد لنفسك مثلها) أى تلك النعم (فهو) أى تمنى حصول مثلها لك من غير أن تريد زوالها عن أخيك (غبطة) أى حسن الحال، وهى اسم من غبطته غبطا من باب ضرب : إذا تمنيت مثل ما ناله من غير أن تريد زواله عنه لما أعجبك منه وعظم عندك . وفى الحديث « أقوم مقاما يغبطنى فيه الأولون والآخرون » وهذا جائز فانه ليس بحسد، فان تمنيت زواله فهو الحسد كذا قاله الفيومى فى المصباح (وعلى هذا) أى المذكور من الغبطة (يحمل قوله عليه) الصلاة و (السلام : لاحسد إلا فى اثنتين) أى فى نفسين أو خصلتين . وروى بالتذكير : أى فى شأن اثنين . قال العلامة عبد الحق : والظاهر أن معناه لو جاز الحسد لما جاز إلا فيما ذكر. وأما ما قيل من أنه يؤخذ من الحديث إباحة نوع من الحسد لتضمنه المنفعة فى الدارين غيرصحيح (الخبر) منصوب على أنه مفعول لمحذوف : أى اقرأ تمامه ، وهو « رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجه عن ابن مسعود رضى الله عنه . وأخرج أحمد والبخارى والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالافهو يهلكه فى الحق فقال رجل ليتنى أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل» (أي لا غبطة إلا ذلك) المذكور من الخصلتين (فعبر عن الغبطة بالحسد اتساعا) أى مجازا (فى ذلك) أى فى التعبير بالحسد (لمقاربتهما) أى الغبطة والحسد (فان لم يكن له) أى لأخيك المسلم (فيها) أى فى تلك النعم (صلاح فأردت زوالها عنه) أى عن أخيك (فذلك) أى الذى أردته من زوال النعم عن أخيك من غير أن يكون له فيها صلاح (غيرة) أى حمية فى [محيط المحيط] غار الرجل على امرأته من فلان وهى عليه من فلانة يغار غيرة وغيرا وغارا من باب علم : أنف من الحمية وكره شركة الغير فى حقه بها فهو غيران وغيور ومغيار وهي غيرى وغيور ، والاسم الغيرة (فهذا) أى الذى ذكرناه (هو الفرق بين هذه الخصال) وهى الغبطة والحسد والغيرة . (وأما ضد الحسد فالنصيحة) وهى لغة : الإخلاص والتصفية . وشرعا : إخلاص الرأى من الغش للمنصوح وإيثار مصلحته ، كذا فى شرح الأربعين ، والمراد هنا ماقاله المصنف رحمه الله تعالى (وهى إرادة بقاء نعم

اللهِ تَعَالَى عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ مِمَّا لَهُ فِيهَا صَلَاحٌ . فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ نَعْلَمُ أَنَّ لَهُ فِيهَا صَلَاحًا أَوْ فَسَادًا لِنَنْصَحَهُ أَوْ نَحْسُدَهُ . فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لَنَا غَالِبُ الظَّنِّ بِذَلِكَ وَغَلَبَةُ الظَّنِّ مِنَّا تَجْرِي مَجْرَى الْعِلْمِ فِي هٰذِهِ الْمَوَاضِعِ ؛ ثُمَّ إِنِ اشْتَبَهَ عَلَيْكَ فَلَا تُرِيدَنَّ زَوَالَ نِعْمَةِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ بَقَاءَهَا إِلَّا مُقَيَّدًا بِالتَّفْوِيضِ وَشَرْطِ الصَّلَاحِ لِتَتَخَلَّصَ مِنْ حُكْمِ الْحَسَدِ وَيَحْصُلَ لَكَ فَائِدَةُ النَّصِيحَةِ . وَأَمَّا حِصْنُ النَّصِيحَةِ الْمَانِعِ مِنَ الْحَسَدِ فَهُوَ ذِكْرُ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ مُوَالَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَحِصْنُ هٰذَا الْحِصْنِ ذِكْرُ مَا عَظَّمَ اللهُ تَعَالَى مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ وَرَفَعَ مِنْ قَدْرِهِ

الله تعالى على أخيك المسلم مما له فيها) أى النعم (صلاح . فإن قيل كيف نعلم أن له) أى للمسلم (فيها) أى فى تلك النعم (صلاحا أوفسادا لننصحه) أى المسلم (أو نحسده) أى فى تلك النعم (فاعلم أنه) أى الحال والشأن (قد يكون لنا غالب الظن بذلك) أى بأن للمسلم فى تلك النعم صلاحا أو فسادا (وغلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى هذه المواضع ، ثم إن اشتبه) الأمر ، وهو كون النعم فى أخيك المسلم يقتضى الصلاح أو الفساد (عليك فلا تريدن زوال نعمة أحد من المسلمين أو) تريد (بقاءها) أى النعمة (إلا مقيدا بالتفويض وشرط الصلاح لتخلص) وتسلم (من حكم الحسد) المذموم (ويحصل لك فائدة النصيحة) وإرادة الخير (وأما حصن النصيحة المانع) بالرفع على أنه صفة للحصن (من الحسد فهو) أى حصن النصيحة (ذكر ما أوجبه الله تعالى من موالاة المسلمين) واستيفاء حقوقهم وهى كثيرة ، وقد بسط الكلام على ذلك حجة الإسلام الغزالى فى إحيائه (وحصن هذا الحصن ذكر ماعظم الله تعالى من حق المؤمن و) ما (رفع) الله سبحانه (من قدره) أى رتبة المؤمن ، فإنه سبحانه وتعالى قال « واخفض جناحك للمؤمنين » وقال تعالى « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » وقال تعالى « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » وقال تعالى « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه . وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ومن مر فى شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشيء » متفق عليه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » متفق عليه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قبل النبى

صلى الله عليه وسلم الحسن بن على رضى الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع إن لى عشرة من الولد ماقبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من لايرحم لايرحم » متفق عليه . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أتقبلون صبيانكم ؟ فقال نعم قالوا لكنا والله مانقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة » متفق عليه . وعن جرير ابن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لايرحم الناس لايرحمه الله » متفق عليه . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » متفق عليه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لايخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى هاهنا بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » رواه الترمذى وقال حديث حسن ، وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يحقره ولا يخذله التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » رواه مسلم . قال النووى : النجش أن يزيد فى ثمن سلعة ينادى عليها فى السوق ونحوه ولا رغبة له فى شرائها ، بل يقصد أن يغر غيره وهذا حرام . والتدابر أن يعرض عن الإنسان ويهجره ويجعله كالشىء الذى وراء الظهر والدبر ، وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » متفق عليه ، وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » رواه البخارى . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » متفق عليه، وفى رواية لمسلم «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » وعن أبى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنهما قال « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع ونهانا عن سبع ، أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعى ، وإفشاء السلام . ونهانا عن خواتيم أو تختم بالذهب ، وعن شرب بالفضة ، وعن المياثر الحمر ، وعن القسى ، وعن لبس الحرير والإستبرق والديباج »

متفق عليه ، وفى رواية « وإنشاد الضالة » فى السبع الأول . قال النووى : الميأثر بياء مثناة قبل الألف وثاء مثلثة بعدها ، وهى جمع ميثرة ، وهى شيء يتخذ من حرير ويحشى قطنا أو غيره ويجعل فى السرج وكور البعير يجلس عليه الراكب . والقسى بفتح القاف وكسر السين المهملة المشددة : وهى ثياب تنسج من حرير وكتان مختلطين وإنشاد الضالة تعريفها (وما له) أى وذكر ما للمؤمن (عند الله من الكرامات العظيمة فى العقبى) أى كالتنعم فى جنة النعيم ، والنظر إلى وجهه الكريم . قال الله تعالى « إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » وقال تعالى « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » وقال تعالى « إن المتقين فى مقام آمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم » . وقال تعالى « إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » والآيات فى الباب كثيرة معلومة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » متفق عليه. وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضا » متفق عليه . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة مايقطعها » متفق عليه، وروياه فى الصحيحين أيضا من رواية أبى هريرة رضى الله عنه قال « يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ما يقطعها » . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة ياأهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول: هل رضيتم فيقول وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك . فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » متفق عليه . وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم

وَمَا لَكَ فِيهِ مِنَ الفَوَائِدِ الجَلِيلَةِ فِى الدُّنْيَا مِنَ التَّعَاوُنِ وَالتَّظَاهُرِ وَالجَمَاعَاتِ وَالجُمُعَاتِ .

عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته» متفق عليه وعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالي تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم » رواه مسلم . قال الله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » والأحاديث فى ذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية لذوى العقول السليمة (و) ذكر (مالك فيه) أي في المؤمن (من الفوائد الجليلة في الدنيا من التعاون والتظاهر) بمعنى واحد . قال الله تعالي «وتعاونوا على البر والتقوى» وقال تعالى « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» قال الامام الشافعى رحمه الله كلاما معناه أن الناس أو أكثرهم فى غفلة عن تدبر هذه السورة (والجماعات) أى الفوائد الحاصلة من جماعات الصلوات . روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » متفق عليه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وسوقه خمسا وعشرين ضعفا ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة ، فاذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه مالم يحدث تقول اللهم صل عليه اللهم ارحمه ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » متفق عليه ، وهذا لفظ البخاري ، وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم » متفق عليه . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » رواه أبو داود باسناد حسن (و) من (الجمعات) روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، ومن مس الحصى فقد لغا » رواه مسلم . وعنه رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم . وعنه وعن ابن عمر رضي الله عنهم أنهما سمعا رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول على أعواد منبره « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم

ثُمَّ مَا تَرْجُو مَنْ شَفَاعَتِه فِى الآخِرَةِ

ثم ليكونن من الغافلين» رواه مسلم (ثم) ذكر (ما ترجو من شفاعته) أى المؤمن (فى الآخرة) لأن الله تعالى بفضله يقبل فى المؤمنين شفاعة الأنبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا ، فان الله تعالى خبأ ولايته فى عباده ، فلعل الذى تزدريه عنك هو ولى الله ، ولا تستصغر معصية أصلا فان الله خبأ غضبه فى معاصيه فلعل غضب الله تعالى فيه ، ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته ، فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة الصغيرة أو النية الحسنة أو ما يجرى مجراه، وشواهد الشفاعة فى القرآن والأخبار كثيرة . قال الله تعالى « ولسوف يعطيك ربك فترضى » قال الحسن : هى الشفاعة رواه ابن أبى حاتم . وقال صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد ، وجعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأعطيت الشفاعة ، وكل نبى بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا كما تقدم ذكره حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر » وقال صلى الله عليه وسلم « يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله » . وقال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يا فلان هل تعرفنى ؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول أنا الذى مررت بى في الدنيا فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت ، قال فاشفع لى بها عند ربك ، فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إنى أشرفت على أهل النار فنادانى رجل من أهلها فقال هل تعرفنى ؟ فقلت لا ، من أنت ؟ فقال أنا الذى استسقيتنى فى الدنيا فسقيتك فاشفع لى عند ربك فشفعنى فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار» والأخبار فى ذلك كثيرة .

﴿تنبيهان : الأول﴾ اعلم أنه قد أنكر بعض المعتزلة والخوارج الشفاعة فى إخراج من أدخل من المذنبين النار وتمسكوا بقوله تعالى « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » وقوله تعالى «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » . وأجاب أهل السنة بأن هذه الآيات فى الكفار . قال القاضى عياض : مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلا ووجوبها سمعا لصريح قوله تعالي « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » وقوله « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » وقوله « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » المفسر بها عند الأكثرين .

﴿الثاني﴾ فى تفصيل الشفاعة هى خمس كما قاله النووى تبعا لعياض : الأولى فى الإراحة من هول الموقف . الثانية فى إدخال قوم الجنة بغير حساب . الثالثة فى إدخال قوم حوسبوا واستحقوا العذاب أن لا يعذبوا . الرابعة فى إخراج من أدخل النار من العصاة . الخامسة فى رفع الدرجات انتهى . قال العراقي فى شرح التقريب : وإنما أنكر الخوارج وبعض المعتزلة من هذه الأقسام إخراج قوم من النار بعد دخولهم فيها ، والشفاعة فى إدخال قوم الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وفى قوم حوسبوا واستوجبوا النار فى عدم دخولهم إياها ، فهذه أقسام ثلاثة ولم ينكروا الشفاعة العظمى للاراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب ، والشفاعة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها انتهى .

ولكل هذه الأقسام دلائل مستنبطة من الأخبار الطويلة ، فالشفاعة الأولى يدل عليها حديث أبي هريرة وحديث أنس « حتي يريحنا من مكاننا فيأتون آدم » . وأما الثانية فيدل عليها مافى آخر حديث أبى هريرة « فأرفع رأسى فأقول أمتي يارب أمتى ، فيقال يامحمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن » . وأما الثالثة فيدل عليها قوله فى حديث حذيفة « ونبيكم على الصراط يقول رب سلم » . وأما الرابعة فحديث عمران بن الحصين عند البخارى « يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين » . وأما الخامسة وهى رفع الدرجات فقال النووى فى الروضة : إنها من خصائصه صلى الله عليه وسلم ولم يذكر لذلك مستندا ، وقد ذكر القاضى عياض شفاعة سادسة ، وهى شفاعته صلي الله عليه وسلم لعمه أبى طالب فى تخفيف العذاب كما فى الصحيح « وجدته فى غمرات النار فأخرجته إلى ضحضاح » . وزاد بعضهم سابعة ، وهى الشفاعة لأهل المدينة ، لحديث « كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » وتعقبه الحافظ ابن حجر فى الفتح بأن متعلقها لا يخرج من الخمس المذكورة ، وبأنه لو عد مثل ذلك لعد حديث عبد الملك بن عباد رفعه « أول من أشفع له أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف» رواه البزار وأخرى لمن زار قبره الشريف ، وأخري لمن أجاب المؤذن ثم صلي عليه صلى الله عليه وسلم ، وأخرى فى التجاوز عن تقصير الصلحاء لكن هذه مندرجة فى الخامسة ، وزاد القرطبي ، أنه أول شافع فى دخول أمته الجنة قبل الناس ، وزاد بالفتح أخرى ، فمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة ، وهم أهل الأعراف ؛ وشفاعة أخرى وهى شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن قال « لا إله إلا الله » ولم يعمل خيرا قط ، كما فى حديث أنس . قالوا ويرد الخمسة أربعة ؛ وما عداها لا يرد كما لا ترد الشفاعة فى التخفيف عن صاحبي القبرين وغير ذلك لكونه من جملة أحوال الدنيا . فإن قلت : فأى شفاعة ادخرها صلي الله عليه وسلم لأمته ، أما الأولى فلا تختص بهم بل هى لاراحة الجميع كلهم وهى المقام المحمود وكذلك باقى الشفاعات الظاهر أنه يشاركهم فيها بقية الأمم . والجواب أنه يحتمل أن المراد الشفاعة العظمي التى للاراحة من هول الموقف ، وهى وإن كانت غير مختصة بهذه الأمم لكنهم الأصل فيها وغيرهم تبع لهم ، ويحتمل أن تكون الشفاعة الثانية وهي التى فى إدخال قوم الجنة بغير حساب

فَهٰذِهِ وَنَحْوُهَا مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَيُجَنِّبُكَ مِنْ أَنْ تَحْسُدَهُ فِى نِعْمَةٍ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا الْعَجَلَةُ فَإِنَّهَا الْمَعْنَى الرَّاتِبُ فِى الْقَلْبِ الْبَاعِثُ عَلَى الْإِقْدَامِ عَلَى الْأَمْرِ بِأَوَّلِ خَاطِرٍ دُونَ التَّوَقُّفِ فِيهِ وَالِاسْتِطْلَاعِ مِنْهُ ، بَلْ الِاسْتِعْجَالُ فِى اتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَضِدُّهَا الْأَنَاةُ وَهُوَ الْمَعْنَى الرَّاتِبُ فِى الْقَلْبِ الْبَاعِثُ عَلَى الِاحْتِيَاطِ فِى الْأُمُورِ وَالنَّظَرِ فِيهَا وَالتَّأَنِّى فِى اتِّبَاعِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا .

وَأَمَّا التَّوَقُّفُ فَضِدُّهُ التَّعَسُّفُ . قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : الْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَقُّفِ وَالتَّأَنِّى أَنَّ التَّوَقُّفَ قَبْلَ الدُّخُولِ فِى الْأَمْرِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَهُ رُشْدُهُ . وَالتَّأَنِّى بَعْدَ الدخُولِ

وهي المختصة بهذه الأمة ؛ فإن الحديث الوارد فيها « يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغيرحساب » ولم ينقل ذلك فى بقية الأمم ، ويحتمل أن يكون المراد مطلق الشفاعة المشتركة بين الشفاعات الخمس .وكون هذه الأمة يشاركونهم فيها أو فى بعضهالاينافيأن يكون عليهالصلاة والسلام أخردعوته بشفاعته لأمته فلعله لايشفع لغيرهم من الأمم بل يشفع لهم أنبياؤهم ، ويحتمل أن تكون لغيرهم تبعا كما تقدم فى الشفاعة العظمى والله أعلم (فهذه) أى الأذكار لحقوق المؤمن ورفع منزلته عند الله وما حصل له من الكرامات وغير ذلك (ونحوها) أى مثل هذه الأذكار من الفوائد الجليلة (مما يبعث) أى يحملك (على النصح) وإرادة الخير (لكل مسلم ، ويجنبك) أى يبعدك (من أن تحسده فى نعمة أعطاه) أى المسلم (الله تعالى إياها) أى تلك النعمة (والله سبحانه) وتعالى (ولي التوفيق بفضله . وأما العجلة) أى الإسراع فى الأمور . وفى المختار : العَجلة ضد البطء (فإنها) أى العجلة (المعنى الراتب) أى الثابت . وفى المختار : رتب الشيء ثبت ودام وبابه دخل وأمر راتب : أى دائم ثابت (فى القلب الباعث) بالرفع : أى الحامل (علي الإقدام علي الأمر) أى الشجاعة عليه . فى محيط المحيط : أقدم على الأمر شجع . وفى المختار : الاقدام الشجاعة (بأول خاطر دون التوقف فيه) أى فى الأمر (و) دون (الاستطلاع) أى طلب الاطلاع والعلم (منه) أى الأمر الذى يخطر بأول خاطر (بل) حمله (الاستعجال فى اتباعه) أى هذا الأمر (والعمل به وضدها) أى تلك العجلة (الأناة) بوزن القناة : أى الحلم والرفق والانتظار والوقار (وهو المعنى الراتب فى القلب الباعث) بالرفع (على الاحتياط فى الأمور و) علي (النظر) والتأمل (فيها) أىالأمور (والتأنى) أى التمهل والتثبت (فىاتباعها و)فى (العمل بها)أى بتلك الأمور. (وأما التوقف فضده التعسف) أى التمشى فى غير الطريق . (قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : الفرق بين التوقف والتأنى أن التوقف قبل الدخول) أى الشروع (فى الأمر حتى يستبين له) أى للعبد (رشده) أى صواب الأمر وإصابته فيه (والتأنى) يكون (بعد الدخول

فِيهِ حَتَّى يُؤَدِّيَ لِـكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ حَقَّهُ . ثُمَّ مُقَدِّمَاتُ الْأَنَاةِ ذِكْرُ وُجُوهِ الْخَطَرِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَعْتَرِضُ لِلْإِنْسَانِ وَضُرُوبِ الآفَاتِ الْمَخُوفَةِ فِيهَا ، وَذِكْرُ مَا فِي النَّظَرِ التَّثَبُّتُ مِنَ السَّلَامَةِ وَمَا فِي التَّعَسُّفِ وَالِاسْتِعْجَالِ مِنَ النَّدَامَةِ وَالْمَلَامَةِ . وَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى التَّأَنِّي وَالتَّوَقُّفِ فِي الْأُمُورِ وَيَمْنَعُ مِنَ الِاسْتِعْجَالِ وَالتَّعَسُّفِ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْعِصْمَةِ بِرَحْمَتِهِ .

وَأَمَّا الْكِبْرُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ خَاطِرٌ فِي رَفْعِ النَّفْسِ وَاسْتِعْظَامِهَا ، وَالتَّكَبُّرُ اتِّبَاعُهُ ، وَالضَّعَةُ خَاطِرٌ فِي وَضْعِ النَّفْسِ وَاحْتِقَارِهَا ، وَالتَّوَاضُعُ اتِّبَاعُهُ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا

فيه) أى فى ذلك الأمر (حتى يؤدى) العبد (لـكل جزء منه) أى من الآمر (حقه) أى حق الجزء الذى يؤديه . (ثم مقدمات الأناة ذكر وجوه الخطر فى الأمور التى تعترض) وتحدث (للانسان و) فى (ضروب) أى أنواع (الآفات المخوفة فيها) أى فى الأمور (وذكر ما) بالرفع معطوف على ذكر وجوه (فى النظر) أى الفكر (والتثبت من السلامة) بيان لما : أي السلامة من الآفات المخوفة (و) ذكر (مافى التعسف والاستعجال من الندامة والملامة ، وهذه) أى الأذكار (وأمثالها مما يبعث على التأنى والتوقف فى الأمور ، و) مما (يمنع من الاستعجال والتعسف ، والله تعالى ولى العصمة) أى الحفظ (برحمته) ومنته . (وأما الكبر) بالكسر : اسم من التكبر (فاعلم أنه خاطر فى رفع النفس واستعظامها) أى النفس مع النظر إلى الغير بين الاحتقار والذل ؛ ولذلك يسمى الكبر أيضا عزة وتعظما (والتكبر اتباعه) أى اتباع خاطر الرفع والاستعظام مع ماذكر ؛ أما لو استعظم نفسه ولـكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يكون متكبرا عليه ولو استحقر غيره ، ومع ذلك رأى نفسه أحقر لم يتكبر : ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر ، بل المتكبر أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره كما قاله بعض المحققين (والضعة) بفتح الضاد وكسرها (خاطر فى وضع النفس واحتقارها ، والتواضع اتباعه) أى الخاطر ، والتواضع : تفاعل من الوضع بمعنى الخشوع والذل . والفرق بين التواضع والضعة أن التواضع رضا الانسان بمنزلة دون ماتستحقه منزلته ، والضعة وضع الانسان نفسه بمحل يزرى به . والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة ، والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ، ولذلك قيل : إذا تواضع القلب خشعت الجوارح . قاله الراغب . وقال ابن القيم : الفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله وصفاته ومحبته وإجلاله وبين معرفته بنفسه ونقائصها وعيوب عمله وآفاتها فيتولد من ذلك خلق هو التواضع ، وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل من الرحمة للخلق . والمهانة : الدناءة والخسة وابتذال النفس فى نيل حظوظها كتواضع الفاعل للمفعول به (وكل واحد منهما)

عاميٌّ وَخاصِيٌّ ؛ فالتَّواضُعُ الْعامِيُّ هُو الاكْتِفاءُ بِالدُّونِ مِنَ المَلْبَسِ وَالْمَسْكَنِ وَالمَرْكَبِ .

أى التكبر والتواضع (عامى وخاصى ، فالتواضع العامى هو الاكتفاء بالدون) أى الأدنى (من الملبس والمسكن والمركب) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « البذاذة من الإيمان » فقال هارون بن سعيد الأيلى أحد رواة هذا الحديث سألت معن بن عيسى القزاز عن معنى البذاذة ، فقال هو الدون من الثياب . وقال العلامة الزبيدى : هى رثاثة الهيئة وترك الترفه فى البدن والملبس ، وجعله من أخلاق أهل الايمان ، لأن المؤمن يؤثر الخمول بين الناس ، ويقصد التواضع ، ويزهد فى الدنيا ، ويكف نفسه عن الفخر والكبرياء ، فالبذاذة أليق به ؛ هذا إذا قصد به ذلك لاأن يظهر به الفقر ، ويصون المال فليس هذا من الايمان ؛ بل عرض النعمة للكفران ، وأعرض عن شكر المنعم المنان .

وقد مدح الله عباده المؤمنين بالتواضع فقال « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » يعنى متواضعين ، ومدحهم بتواضعهم وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالتواضع فقال « واخفض جناحك للمؤمنين ــ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بخلقه فقال « وإنك لعلى خلق عظيم » وكان خلقه التواضع ، لأنه روى فى الخبر « أنه كان يركب الحمار ويجيب دعوة المملوك » فثبت أن التواضع من أحسن الأخلاق ، وكان السلف الصالحون أخلاقهم التواضع فوجب علينا أن نقتدى بهم رضى الله عنهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه » رواه مسلم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » . رواه البخارى فى التاريخ ، والبغوى فى معجم الصحابة ، وقال صلى الله عليه وسلم « خيرنى ربي بين أمرين : أن أكون عبدا رسولا أو ملكا نبيا فلم أدر أيهما أختار ؟ وكان صفيي من الملائكة جبريل ، فرفعت رأسى إليه ، فقال تواضع لربك ، فقلت : عبدا رسولا » رواه الطبرانى من حديث ابن عباس . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتعاظم على خلقى وألزم قلبه خوفى وقطع نهاره بذكرى ؛ وكف نفسه عن الشهوات لأجلى » رواه الديلمى من حديث حارثة بن وهب رفعه . وقال صلى الله عليه وسلم « الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى » . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال صلى الله عليه وسلم « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة » رواه البيهقى فى الشعب . وقال صلى الله عليه وسلم « التواضع لايزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله » رواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوما « مالى لاأرى عليكم حلاوة العبادة ؟ قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع » . قال عمر رضى الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله

وَالتَّـكَبُّرُ فِي مُقَابَلَتِهِ التَّرَفُّعُ عَنْ ذٰلِكَ، وَالتوَاضُعُ الْخَاصِيُّ: هُوَ تَمْرِينُ النَّفْسِ عَلَى قَبُولِ الْحَقِّ مِمَّنْ كَانَ وَضِيعاً أَوْ شَرِيفاً ، وَالتَّـكَبُّرُ فِي مُقَابَلَتِهِ التَّرَفُّعُ عَنْ ذٰلِكَ ، وَهُوَ مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ وَخَطِيئَةٌ عَظِيمَةٌ ؛

حكمته وقال انتعش رفعك الله . وقال جرير بن عبد الله : انتهيت إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ماصنعت ، فقال لى يا جرير تواضع لله فى الدنيا فإنه من تواضع لله رفعه الله يوم القيامة، يا جرير أتدرى ماظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت :لا، قال : إنه ظلم الناس بعضهم بعضا فى الدنيا . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة التواضع . وقال يوسف ابن أسباط: يجزى قليل الورع من كثير العمل ، ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع كان عليه وبالا يوم القيامة . وقيل : أوحى الله تعالى إلي عيسى عليه السلام « إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك » وقال كعب الأحبار : ماأنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع له بها درجة فى الآخرة ، وما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز » وقيل لعبد الملك بن مروان : أىالرجال أفضل ؟ قال: من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة . وقال يونس بن عبيد البصرى وقد انصرف من عرفات لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت معهم إنى أخشى أنهم حرموا بسببى ، ويقال أرفع مايكون المؤمن عند الله أوضع مايكون عند نفسه ، وأوضع مايكون عند الله أرفع مايكون عند نفسه . وقال أبو على الجوزجانى : النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة ، وإذا أراد الله به خيرا لطف به فى ذلك ، فإذا هاجت فىنفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصر الله تعالى ، وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل ، وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل، ويقال: لاعز إلا لمن تذلل لله عزّ وجلّ ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزّ وجلّ ولا أمن إلا لمن خاف الله عزّ وجلّ ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عزّ وجلّ ، والأخبار والآثار فى هذا الباب أكثرمن أنتحصى وفيماذكرنا كفاية لمنتأمل حقالتأمل والتدبر (والتكبر) الذى (فى مقابلته) أى التواضع العامى (الترفع عن) ذلك أى الاكتفاء بالدون (والتواضع الخاصى هو تمرين) أى تليين (النفس على قبول الحق ممن كان) سواء كان (وضيعا) أى رجلا دنيئا ومحطوط القدر (أو شريفا ، والتكبر) الذى (فى مقابلته) أى التواضع الخاصى (الترفع عن ذلك) أى عن قبول الحق من الوضيع (وهو) أى الترفع عن القبول (معصية كبيرة وخطيئة عظيمة) وكان بعضهم يقول : التواضع هو الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم .

ثُمَّ حِصْنُ التَوَاضُعِ الْعَامِيُّ أَنْ تَذْكُرَ مَبْدَأَكَ وَمُنْتَهَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ فِى الْحَالِ مِنْ ضُرُوبِ الآفاتِ وَالْأَقْذَارِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ وَأَنْتَ فِيمَا بَيْنَهُمَا حَامِلُ الْعَذِرَةِ، وَحِصْنُ التَّوَاضُعِ الْخَاصِيُّ هُوَ ذِكْرُ عُقُوبَةِ الْعَادِلِ عَنِ الْحَقِّ الْمُتَمَادِى فِى الْبَاطِلِ فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ كَافِيَةٌ لِمَنِ اسْتَبْصَرَ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ وَوَلِيُّ التَّوْفِيق .

وسئل الفضيل عن التواضع ؟ فقال : تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله . وسئل الجنيد عن التواضع ، فقال : خفض الجناح للحق ، ولين الجانب لهم . وقال ابن عطاء : التواضع قبول الحق ممن كان . وقال ابن عباس : من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه : وقال حمدون القصار : التواضع أن لاترى لأحد إلى نفسك حاجة لافى الدين ولا فى الدنيا . وقال الشبلى : ذلى عطل ذل اليهود : أى المذكور فى قوله تعالى « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا » فهم أذل الخلق ، والمعنى ذلى فى نفسى أعظم من ذل اليهود فى أنفسهم ، لأن ذلهم قهرى وذلى عن علم بما عليه نفسى من النقص وهذا لايلزم منه جحده لفضل ربه عليه ، لأن ماذكر من الذل بالنظر إلى نفسه ، وما هو فيه من الفضل جار عليه ربه ، فهو ذليل عزيز كذا ذكره القشيرى (ثم حصن التواضع العامي أن تذكر مبدأك ومنتهاك و) تذكر (ماأنت عليه فى الحال) أى الحال الذى بين المبدإ والمنتهى (من ضروب الآفات) أى أنواعها (والأقذار كما قال بعضهم) وهو مالك بن دينار : (أولك نطفة مذرة) أى متغيرة (وآخرك جيفة قذرة) أى نتنة (وأنت فيما بينهما) أى الأول والآخر (حامل العذرة) بفتح العين وكسر الذال المعجمة : أى الغائط أخرجه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة مالك بن دينار ، فقال : حدثنا الحسن بن على بن الخطاب الوراق حدثنا محمد بن عثمان ابن أبي شيبة حدثنا إبراهيم بن العباس الكاتب حدثنا الأصمعى قال : مر المهلب بن أبي صفرة على مالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيته ، فقال له مالك ما علمت إلا هذه المشية تكره إلا بين الصفين، فقال له المهلب أما تعرفنى ؟ فقال مالك : أعرفك أحسن المعرفة . قال : وما يعرفك منى؟ قال : أما أولك فنطفة مذرة ، وأما آخرك فجيفة قذرة ، وأنت بينهما تحمل العذرة قال فقال المهلب الآن عرفتنى حق المعرفة . وأخرج من طريق سلام بن مسكين عن مالك بن دينار أنه لقى بلال بن أبى بردة والناس يطوفون حوله ، فقال له : أما تعرفنى ؟ قال بلي أعرفك ، أولك نطفة ، وأوسطك جيفة ، وأسفلك دودة . قال : فهموا به أن يضربوه . فقال لهم : أنا مالك ابن دينار فركب ومضى (وحصن التواضع الخاصى هو ذكر عقوبة العادل) أى المائل والمتجاوز (عن الحق المتمادى) أي مديم الغى . في محيط المحيط : تمادي فلان فى غيه تماديا لج ودام فى فعله (فى الباطل فهذه) أى الجملة التى ذكرناها (جملة كافية لمن استبصر) وتأمل بفكره الصافى عن الشواغل الدنيوية (والله الموفق وولى التوفيق) .

﴿ الفصل الخامسُ: فى البطن وحفظِه ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَاطَالِبَ الْعِبَادَةِ بِحِفْظِ الْبَطْنِ وَإِصْلَاحِهِ فَإِنَّهُ أَشَقُّ الْأَعْضَاءِ إِصْلَاحًا عَلَى الْمُجْتَهِدِ وَأَكْثَرُهَا مُؤْنَةً وَشُغْلًا وَأَعْظَمُهَا ضَرَرًا وَأَثَرًا لِأَنَّهُ الْمَنْبَعُ وَالْمَعْدِنُ وَمِنْهُ تَهِيجُ الْأُمُورُ فِى الْأَعْضَاءِ مِنْ قُوَّةٍ وَضَعْفٍ وَعِفَّةٍ وَجِمَاعٍ وَنَحْوِهِ؛ فَعَلَيْكَ إِذًا بِصِيَانَتِهِ عَنِ الْحَرَامِ

﴿ الفصل الخامس) هذا آخر الفصول الخمسة التى تتعلق بالأعضاء (فى البطن وحفظه ﴾ من تناول الحرام والشبهة . (ثم عليك يا طالب العبادة) الخالصة (بحفظ البطن) عما ذكر (وإصلاحه فانه أشق الأعضاء إصلاحا على المجتهد) فى العبادة (وأكثرها) أى الأعضاء (مؤنة) أى ثقلا وشدة (وشغلا وأعظمها) .أى تلك الأعضاء (ضررا وأثرا لأنه) أى البطن (المنبع والمعدن) أى للآفات (ومنه) أى من البطن (تهيج) أى تتحرك (الأمور فى الأعضاء من قوة وضعف وعفة) أى كف عن الحرام ونحوه . فى التعريفات العفة : هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذى هو إفراط هذه القوة والجمود الذى هو تفريطها ، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة (وجماح) بالكسر : أى غلبة . فى محيط المحيط: جمح الرجل ركب هواه فلم يمكن رده (ونحوه) أى المذكورة من القوة وما بعدها، وبالجملة إن أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم وحواء عليهما السلام من دار القرار التى هي الجنة إلى دار الذل والافتقار التى هى الأرض إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما بوسوسة إبليس ألقى فى خاطرهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبع الآفات إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق والهيجان إلى المنكوحات ، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة والميل فى الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع فى المنكوحات والمطعومات ، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ، ثم تتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى ارتكاب الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة، وترك سياستها وإهمال مايتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ، ولم تسلك سبيل البطر والطغيان على الله عز وجل ولم ينجر به ذلك إلي الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة علي العقبى ، وقد ذم الله تعالى هذا الإيثار فقال « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا ؛ وإذا عظمت آفة شهوة البطن (فعليك إذا) أى حين عظمت آفة البطن وشق إصلاحه على المجتهد (بصيانته) أى البطن (عن) تناول (الحرام

وَالشُّبْهَةِ أَوَّلاً ثُمَّ عَنْ فُضُولِ الْحَلاَلِ ثَانِياً إِنْ كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، فَأَمَّا الْحَرَامُ وَالشُّبْهَةُ فَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ التَّجَنُّبُ لِثَلاَثَةِ أُمُورٍ : أَوَّلُهَا حَذَرًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) . وَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم :«كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ» .

والشبهة أولا ، ثم) الصيانة (عن فضول الحلال ثانيا إن كانت لك همة) علية . قال الزبيدى : الهمة قوة راسخة في النفس طالبة لمعالى الأمور هاربة من سفسافها (فى عبادة الله تعالى ، فأما الحرام والشبهة فإنما يلزمك التجنب) أي التباعد (لثلاثة أمور: أولهاحذرا) أي تحرزاً واجتنابا(من نار جهنم . قال الله تعالى : إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلما) أى تعديا من غير أن يكون لهم فيها حق (إنما يأكلون فى بطونهم) أى ملء بطونهم (ناراً) أى مثل النار كما قاله الزبيدى . وقال بعضهم : أي يجر إلى النار ويئول إليها . وعن أبي بردة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « يبعث الله قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا ، فقيل من هم ؟ فقال ألم تر أن الله يقول (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) » أي سيدخلون نارا ، ووجه الاستدلال بها التعريف بأن أكل أموال اليتامي حرام ووعيده شديد . وقال الله تعالي « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » إلى قوله « ولا تقتلوا أنفسكم » قيل من أكل حراما فقد قتل نفسه لأنه سبب إهلاكها وتعذيبها، فعرف من ذلك أن أكل أموال الناس بالباطل حرام ، وفى ارتكابه إهلاك النفس ، وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين » ثم قال « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ثم قال « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم » ثم قال « ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فما توعد الله ولا تهدد فى معصية بمثل ماتوعد فى أكل الربا ، فإنه عز وجل عظم شأنه بوصفين عظيمين إعظاما له وترهيبا منه حيث جعل أكل الربا فى أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله عز وجل والرسول ، وفى آخره متعرضا للنار بالخلود فيها ، ومن ذلك اشترط للايمان ترك الربا بقوله « إن كنتم مؤمنين » وهي للشرط والجزاء ، ثم أوجب التوبة بعد إعلامه بالظلم منهم فى قوله « إن كنتم » إلى آخرها ، ثم نص على تحريمه بقوله تعالى « وأحل الله البيع وحرم الربا » ثم توعد بالخلود فى النار بقوله « هم فيها خالدون » وهذا من شديد الخطاب وعظيم العذاب ، فلذلك يخاف على مدمن الربا المختوم له به غير التائب منه أن يموت على الكفر لعلة ذكر الخلود ، والآيات الواردة فى ذلك لاتحصر . (و) أما الأخبار فقد (قال النبى صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من سحت) بضم السين والحاء وسكونها أى حرام (فالنار أولى به ») أى من الجنة لتطهره النار عن ذلك باحراقها إياه ، وهذا على ظاهر الاستحقاق : أما إذا تاب أو غفر له من غير توبة وأرضى خصومه أو نالته شفاعة شفيع فهو خارج من هذا الوعيد ، كذا أفاده العلامة

وَالثَّانِى: أَنَّ آكِلَ الْحَرَامِ وَالشُّبهةِ مَطْرُودٌ لاَيُوَفَّقُ لِلْعِبَادَةِ، إِذْ لاَيَصْلُحُ لِخِدْمَةِ اللهِ تَعَالَى إِلاَّ كُلُّ طَاهِرٍ مُطَهَّرٍ . قُلْتُ أَنَا : أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى قَدْ مَنَعَ الْجُنُبَ عَنِ الدُّخُولِ فِى بَيْتِهِ وَالْمُحْدِثَ عَنْ مَسِّ كِتَابِهِ ؟. قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: (وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا) . وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ) . مَعَ أَنَّ الْجَنَابَةَ وَالْحَدَثَ أَمْرٌ مُبَاحٌ فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ مُنْغَمِسٌ فِى قَذَرِ الْحَرَامِ وَنَجَاسَةِ السُّحْتِ وَالشُّبْهَةِ ؟ وَمَتَى يُدْعَى إِلَى خِدْمَةِ اللهِ الْعَزِيزِ وَذِكْرِهِ الشَّرِيفِ سُبْحَانَهُ ؟ كَلاَّ فَلاَ يَكُونُ ذَٰلِكَ أَبَدًا. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِى رَحِمَهُ اللهُ :

على القارى فى [مرقاة المفاتيح لمشكاة المصابيح] . قال العراقى . وهذا الحديث رواه الترمذى من حديث كعب بن عجرة وحسنه ، ووجد بخط الحافظ فى الحلية من حديث أبى بكر وعائشة وجابر « كل جسد نبت من سحت » ونحوه من حديث ابن عباس فى الصغير للطبرانى . وقال صلى الله عليه وسلم « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع الله ذلك جميعا ثم قذفه فى النار » رواه أبو داود فى المراسيل . وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » رواه الديلمى فى مسند الفردوس ، والأخبار فى ذا الباب أكثر (والثانى) من الأمور الثلاثة (أن آكل الحرام والشبهة مطرود) أى مبعد عن الخير (لايوفق) بالبناء للمفعول : أى لايوفقه الله تعالى (للعبادة) الخالصة (إذ لايصلح لخدمة الله تعالى) أى طاعته (إلا كل طاهر مطهر) عن الآثام وتناول الحرام ، وعن كل مايسخطه تعالى (قلت أنا : أليس الله تعالى قد منع الجنب عن الدخول فى بيته) أى مسجده تعالى ، والإضافة للتشريف كقوله ناقة الله (و) منع (المحدث) أى حدثا أصغر أو أكبر (عن مس كتابه) العزيز وهو القرآن (قال عز من قائل ولا جنبا) بالإيلاج أو الإنزال ونصبه على الحال ، وهو يطلق على المفرد وغيره (إلا عابرى) أى مجتازى (سبيل) طريق : أى مسافرين (حتى تغتسلوا) فلكم أن تصلوا واستثنى المسافر لأن له حكما آخر، وقيل المراد النهى عن قربان مواضع الصلاة : أى المساجد إلا عبورها من غير مكث (وقال الله تعالى لا يمسه) أى القرآن خبر بمعنى النهى (إلا المطهرون) أى الذين طهروا أنفسهم من الأحداث (مع أن الجنابة) بفتح الجيم (والحدث أمر مباح فكيف) الحال (بمن هو منغمس) أى داخل ؛ وفى [محيط المحيط] انغمس فى الماء واغتمس غاص فيه وفى الشىء دخل فيه (فى قذر الحرام) أى وسخه (ونجاسة السحت) أى الحرام (والشبهة ومتى يدعى) بالبناء للمفعول : أى ذلك المنغمس (إلى خدمة الله العزيز) وطاعته (وذكره الشريف سبحانه) وتعالى (كلا) أى حقا (فلا يكون ذلك) أى الدعوة إلى خدمة الله تعالى وطاعته (أبدا وقال) أبو زكريا (يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله) أحد رجال

الطَّاعَةُ مَخْزُونَةٌ فى خَزَائِنِ اللهِ تَعَالَى، وَمِفْتَاحُهَا الدُّعَاءُ ، وَأَسْنَانُهَا الْحَلَالُ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمِفْتَاحِ أَسْنَانٌ فَلَا يَنْفَتِحُ الْبَابُ وَإِذَا لَمْ يَنْفَتِحْ بَابُ الْخِزَانَةِ كَيْفَ يَصِلُ إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الطَّاعَةِ. وَالثَّالِثُ أَنَّ آكِلَ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ مَحْرُومٌ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ، فَإِنِ اتَّفَقَ لَهُ فِعْلُ خَيْرٍ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ غَيْرُ مَقْبُولٍ مِنْهُ ، فَإِذَنْ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ وَالْكَدُّ وَشَغْلُ الْوَقْتِ ، قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم « كَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إلا السَّهَرُ وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ » . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا : لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ امْرِئٍ

الطريقة ، توفى يوم الاثنين لستّ عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين ، وتقدم ذكر بعض ترجمته (الطاعة) أى طاعة الله تعالى ، وهى كل مافيه رضا وتقرب إلى الله تعالى وهي عندنا موافقة الأمر ، وعند المعتزلة موافقة الإرادة (مخزونة فى خزائن الله تعالى) قد جمع فيها كل خير ، وفى بعض النسخ: خزانة من خزائن الله تعالى (ومفتاحها) الذى تفتح به (الدعاء) أى حسن التضرع إلى الله تعالى (وأسنانه) أى المفتاح (الحلال) أى لقمة الحلال كما فى نسخة، فالمدار عليها كما أن مدار المفتاح على أسنانه (فإذا لم يكن للمفتاح أسنان فلا ينفتح الباب ، وإذا لم ينفتح باب الخزانة) بالفتح ولا تكسر كما قاله الزبيدى ، خلافا للعلامة عبد الحق حيث قال بالكسر واحدة الخزائن (كيف يصل) العبد (إلى مافيها) أى الخزانة (من الطاعة . والثالث) هذا آخر الأمور الثلاثة (أن آكل الحرام والشبهة محروم) أى ممنوع ومحجوب (من فعل الخير، فإن اتفق له) أى لآكل الحرام والشبهة (فعل خير فهو) أى فعله (مردود عليه) أى على فاعله الذى يأكل الحرام والشبهة (غير مقبول منه) أى من ذلك الآكل لما ذكر (فإذن) أي حين رد عمله عليه ولا يقبل منه (لايكون له) أى للمتصف بما ذكر (من ذلك) أى من فعل الخير (إلا العناء) بفتح العين : أى التعب (والكد) أى المشقة (وشغل الوقت) بما لافائدة فيه فذلك هو الخسران المبين . قال الشعرانى : إن أكل الحرام أو الشبهة يظلم القلب ويحجبه عن دخول حضرة الله تعالى ويخلق الثياب (قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم« كم من قائم ليس له من قيامه) أى صلاته (إلا السهر») بفتحتين أى اليقظة ، وذلك لعدم الكف عن المحرمات والشبهات رواه الدارمي عن أبى هريرة رضى الله عنه (و) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا («كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ ») أى بسبب عدم الكف عما ذكر ، وقيل هو الذى يصوم ويفطر على حرام ، رواه النسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى رواية الدارمي عن أبى هريرة « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ » وفى المختار الظمأ العطش انتهى والعطش خلاف الرى (و) روى (عن) ترجمان القرآن عبد الله (بن عباس رضى الله عنهما) أنه قال: (لايقبل الله صلاة امرىء) أى لم يكتب له صلاة مقبولة مع كونها مجزئة مسقطة

فى جَوْفِهِ حَرَامٌ فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

وَأَمَّا فُضُولُ الْحَلَالِ فَإِنَّهُ آفَةُ الْعُبَّادِ وَبَلِيَّةُ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ، فَإِنِّى تَأَمَّلْتُ فَوَجَدْتُ فِيهِ عَشْرَ آفَاتٍ هُنَّ أُصُولٌ فى هٰذَا الشَّأْنِ: الْأُولَى: أَنَّ فى كَثْرَةِ الْأَكْلِ قَسْوَةُ الْقَلْبِ وَذَهَابُ نُورِهِ .

للقضاء كالصلاة بمحل مغصوب كما صرح به الزبيدى (فى جوفه حرام) وقد روى عنه أيضا « من أكل حراما لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » وفى مسند الفردوس للديلمى من حديث ابن مسعود « من أكل لقمة من حرام لم يقبل منه صلاة أربعين ليلة ولم تستجب له دعوة أربعين ليلة وكل لحم ينبته الحرام فالنار أولى به ، وإن اللقمة الواحدة من الحرام لتنبت اللحم » . وقال سهل ابن عبد الله التسترى رحمه الله تعالى : من أكل الحرام عصت جوارحه : أى عن الطاعات شاء أم أبى علم أو لم يعلم ومن كانت طعمته حلالا أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات ، وقال أيضا : من لم يكن مطعمه من حلال لم يكشف الحجاب عن قلبه ولم ترفع العقوبة عنه ، وما يبالي بصلاته وصيامه إلا أن يعفو الله عنه . وقال أيضا : إنما حرموا مشاهدة الملكوت وحجبوا عن الوصول بشيئين : سوء الطعمة . وبذاء الخلق . وقال بعض العلماء : الدعاء محجوب عن السماء بفساد الطعمة . وقال على بن الفضيل لأبيه : يا أبت إن الحلال قليل وعزيز ، فقال: يابنى وإن عز فإن قليله عند الله كثير . وقال ابن المبارك : من صلي وفى بطنه طعام من حرام أو علي ظهره سلك من حرام لم تقبل صلاته . وقال يوسف بن أسباط وسفيان الثورى : لا طاعة للوالدين فى الشبهة .

وفى وجه التفسير فى قوله تعالى « فإن له معيشة ضنكا » قيل هو أكل الحرام كما قيل فى قوله تعالى « فلنحيينه حياة طيبة » قيل أكل الحلال ورزقه ، وكان بشر إذا ذكر الإمام أحمد يقول قد فضل علىّ بثلاثة ، وذكر أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسى . وقال سفيان الثورى رحمه الله : من أنفق من الحرام فى طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول ، والثوب النجس لا يطهره إلا الماء والذنب لا يكفره إلا الحلال (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة .

(وأما فضول الحلال) وهو ما أخذ من الحلال لشهوة النفس كما يأتى فى القسم الثانى من أقسام المباح للمصنف رحمه الله (فإنه) أى هذا الفضول (آفة العباد) بضم العين جمع عابد ، وفى نسخة العبادة (وبلية أهل الاجتهاد) فى العبادة (فإنى تأملت فوجدت فيه) أى فى فضول الحلال (عشر آفات هن أصول فى هذا الشأن: الأولى) منها (أن فى كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره) وصفائه وذهاب إيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة ، فإن الشبع يورث البلادة والجمود ، ويعمى القلب بتراكم الحجب عليه ، ويكثر البخار فى الدماغ بصعوده من المعدة إليه فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى ميدان الأفكار ، وعن سرعة الإدراك لما يلقى إليه بل الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه،

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قال : «لَا تُمِيتُوا الْقَلْبَ بِكَثْرَةِ الطعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقَلْبَ يَمُوتُ كَالزَّرْعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ» وَلَقَدْ شَبَّهَ فِي ذَٰلِكَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ بِأَنَّ الْمَعِدَةَ كَالْقِدْرِ تَحْتَ الْقَلْبِ تَغْلِي ، وَالْبُخَارُ يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ ، فَكَثْرَةُ الْبُخَارِ تُكَدِّرُهُ وَتُسَخِّمُهُ

وصار بطيء الفهم والإدراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبي صلي الله عليه وسلم « من شبع ونام قسا قلبه » .

وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق والشبع يمنع ، والجوع يفتح بابه ، والمعرفة باب من أبواب الجنة . فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة ، ولهذا قال لقمان لابنه : يابنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو يزيد البسطامى : الجوع سحاب ، فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع ، والقربة إلى الله تعالى حب المساكين والدنو منهم ، لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ، ومن بات فى خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح » رواه ابن عساكر فى التاريخ والديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . (روى عن النبى صلي الله عليه وسلم أنه قال « لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب يموت كالزرع) يموت (إذا كثر عليه) أى الزرع (الماء») قال العراقي : لم أقف له على أصل . وقال النبي صلي الله عليه وسلم « أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرا ، وأبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل نئوم أكول شروب » . وقال النبي صلي الله عليه وسلم « ثلاثة تورث قسوة القلب : حب النوم ، وحب الراحة ، وحب الأكل » . وقال صلي الله عليه وسلم « من شبع فى الدنيا جاع يوم القيامة ، ومن جاع فى الدنيا شبع يوم القيامة » . وقال صلي الله عليه وسلم « من أكل فوق الشبع فقد أكل الحرام » كذا ذكره السيوطى فى اللباب (ولقد شبه ذلك) أى القلب في أن موته بكثرة الطعام والشراب (بعض الصالحين) رحمه الله تعالى (بأن المعدة) أى مقر الطعام والشراب من الإنسان (كالقدر) بكسر القاف : آنية يطبخ فيها وهى مؤنثة ، ولهذا تدخل الهاء فى التصغير فيقال قديرة ، وجمعها قدور مثل حمل وحمول ، قاله فى المصباح (تحت القلب) أى اللحم الصنوبرى الشكل كما هو ظاهر (تغلي) من باب رمى : أى تثير بقوة الحرارة . وفى [محيط المحيط] غلت القدر تغلى غليا وغليانا يأتى : جاشت وثارت بقوة الحرارة ولا يقال غليت (والبخار) بضم الباء وهو كل شىء يسطع من الماء الحار أو من الندى وهو شبه الدخان كما فى حاشية التحفة (يرتفع إليه) أى إلى القلب (فكثرة البخار تكدره) أى ذلك القلب (وتسخمه) بضم التاء وفتح السين مع كسر الخاء المعجمة المشددة، من التسخيم : بمعنى التسويد كما

الثَّانِيَةُ : أَنّ فى كَثْرَةِ الأَكلِ فِتْنَةَ الأَعْضَاءِ وَهَيْجُهَا وَانْبِعَاثُهَا لِلْفُضُولِ وَالْفَسَادِ فَإِنّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ شَبْعَانَ بَطِرًا اشْتَهَتْ عَيْنُهُ النَّظَرَ إِلَى مَالاَ يَعْنِيهِ مِنْ حَرَامٍ أَوْ فُضُولٍ وَالأُذُنُ الاِسْتِمَاعَ إِلَيْهِ وَاللِّسَانُ التَّكَلُّمَ وَالْفَرْجُ الشَّهْوَةَ وَالرِّجْلُ الْمَشْىَ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ جَائِعًا تَكُونُ الأَعْضَاءُ كُلُّهَا سَاكِنَةً هَادِئَةً لاَتَطْمَحُ إِلَى شَىْءٍ مِنْ هٰذَا وَلاَ تَنْشَطُ لَهُ ، وَلَقَدْ قَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو جَعْفَرٍ رَحِمَهُ اللهُ : إِنّ الْبَطْنَ عُضْوٌ إِنْ جَاعَ هُوَ شَبِعَ سَائِرُ الأَعْضَاءِ ، يَعْنِى تَسْكُنُ فَلاَ تُطَالِبُكَ بِشَىْءٍ ، وَإِنْ شَبِعَ هُوَ جَاعَ سَائِرُ الأَعْضَاءِ ، وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنّ أَفْعَالَ الرَّجُلِ وَأَقْوَالَهُ عَلَى حَسَبِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، إِنْ دَخَلَ الْحَرَامُ خَرَجَ الْحَرَامُ

هو مقتضى صنيع المختار : أى تسود كثرة البخار القلب . (الثانية) من الآفات العشرة (أن فى كثره الأكل فتنة الأعضاء وهيجها) أى تحركها (وانبعاثها) عطف تفسير ، فى [محيط المحيط] هاج الشئ يهيج هيجا وهياجا وهيجانا : ثار وتحرك وانبعث (للفضول) أى مالا ينفع فيه من الأقوال والأفعال (والفساد ، فإن الرجل إذا كان شبعان) بوزن سكران ومؤنثه شبعى (بطرا) أى أشرا وهو شدة المرح وبابه طرب كما فى المختار : وعبارة [محيط المحيط] بطر الرجل يبطر بطرا نشط وأشر وحار ودهش من قلة احتمال النعمة ، وطغى بالنعمة أو اعتراه دهش مع سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها فهو بطر (اشتهت) جواب إذا (عينه) أى الشبعان (النظر إلى مالا يعنيه من حرام أو فضول و) اشتهت (الأذن الاستماع إليه) أى مالا يعنيه (و) اشتهى (اللسان التكلم) بمالا يفيده (و) اشتهى (الفرج الشهوة) أى إتيانها (و) دعت (الرجل المشي إليه) أي إلى ما لاينفع صاحبها ؟ بل قد يضره (وإن كان) الرجل (جائعا تكون الأعضاء كلها ساكنة) أى غير متحركة (هادئة) بمعنى ما قبله . وفى المختار هدأ : سكن وبابه قطع وخضع وأهدأه سكنه (لا تطمح) بفتح الميم من باب خضع : أى لا تنظر (إلى شئ من هذا) أى المذكور مما لا يعنيه من حرام أو فضول (ولا تنشط) أى تلك الأعضاء (له) أى لشئ من ذلك . (ولقد قال الأستاذ أبو جعفر رحمه الله : إن البطن عضو إن جاع هو) أى ذلك البطن (شبع) بكسر الباء من باب طرب كما فى المختار (سائر الأعضاء) . قال المصنف رحمه الله (يعنى) أى يريد الأستاذ أبو جعفر بقوله شبع (تسكن) أى سائر الأعضاء (فلا تطالبك بشىء ، وإن شبع هو) أى ذلك البطن (جاع سائر الأعضاء) وتحرك إلى طلب الشىء (وجملة الأمر) أى حاصله (أن أفعال الرجل وأقواله على حسب طعامه) أى على قدره وعلى وفقه وهو بفتح السين (و) قدر (شرابه إن دخل الحرام) من الطعام والشراب (خرج الحرام)

وَإِنْ دَخَلَ الْفُضُولُ خَرَجَ الْفَضُولُ كَأَنَّ الطَّعَامَ بَذْرُ الْأَفْعَالِ، وَالْأَفْعَالُ نَبْتٌ تَبْدُو مِنْهُ. الثَّالِثَةُ: أَنَّ فِى كَثْرَةِ الْأَكْلِ قِلَّةَ الْفِهْمِ وَالْعِلْمِ فَإِنَّ الْبِطْنَةَ تُذْهِبُ الْفِطْنَةَ، وَلَقَدْ صَدَقَ الدَّارَانِىُّ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ: إِذَا أَرَدْتَ حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَا تَأْكُلْ حَتَّى تَقْضِيَهَا فَإِنَّ الْأَكْلَ يُغَيِّرُ الْعَقْلَ، وَهٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ عَلِمَهُ مَنْ اخْتَبَرَهُ. الرَّابِعَةُ: أَنَّ فِى كَثْرَةِ الْأَكْلِ قِلَّةَ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكْثَرَ الْأَكْلَ ثَقُلَ بَدَنُهُ وَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ وَفَتَرَتْ أَعْضَاؤُهُ فَلَا يَجِىءُ مِنْهُ شَىْءٌ وَإِنِ اجْتَهَدَ إِلَّا النَّوْمَ كَالْجِيفَةِ الْمُلْقَاةِ؛ وَلَقَدْ قِيلَ: إِذَا كُنْتَ بَطِينًا فَعُدَّ نَفْسَكَ زَمِينًا؛

من الأفعال والأقوال (وإن دخل الفضول) أى فضول الطعام والشراب (خرج الفضول) مما ذكر من أحواله (كأن الطعام) والشراب (بذر الأفعال و) كأن (الأفعال نبت تبدو) أى تظهر تلك الأفعال (منه) أى من ذلك النبت. (الثالثة) من الآفات العشرة (أن فى كثرة الأكل قلة الفهم والعلم) بالحكمة الإلهية (فإن البطنة) بكسر الباء مع سكون الطاء: أى الامتلاء من الطعام. وفى أمثالهم: البطنة تأفن الفطنة: أى تنقص الفهم، كذا ذكره الحريرى فى مقاماته (تذهب) بضم التاء من أذهب الرباعى (الفطنة) بالكسر: أى الحذق والفهم، وقد تفسر بجودة تهيء النفس لتصور مايرد عليها من الغير ويقابلها الغباوة، بل ذكر المصنف فى الإحياء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم مااعتاد» (ولقد صدق) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الزاهد (الدارانى رحمه الله) المشهور أحد رجال الطريقة كان من جملة السادات وأرباب الجد فى المجاهدات، وكانت وفاته سنة خمس ومائتين، وقيل سنة خمس عشرة ومائتين، والدارانى بفتح الدال المهملة وبعد الألف راء مفتوحة، وبعد الألف الثانية نون نسبة إلى داريا: وهى قرية بغوطة دمشق، والنسبة إليها على هذه الصورة من شواذ النسب، والياء فى داريا مشددة كما فى سراج السالكين (حيث قال: إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها) أى تلك الحاجة (فإن الأكل يغير العقل). قال المصنف (وهذا) أى ماقاله الدارانى (أمر ظاهر) واضح (علمه) أى هذا الأمر (من اختبره) أى جربه وجهله من لم يختبره ولم يجربه. (الرابعة) من الآفات العشرة (أن فى كثرة الأكل قلة العبادة، فإن الإنسان إذا أكثر الأكل) أكثر الشرب وإذا أكثر الشرب (ثقل بدنه، و) إذا ثقل بدنه (غلبته عيناه وفترت) أى ضعفت (أعضاؤه فلا يجىء منه) أى الإنسان الذى يكثر الأكل (شىء، وإن اجتهد إلا النوم كالجيفة الملقاة) أى المطروحة فى الأرض. (ولقد قيل: إذا كنت بطينا) أى عظيم البطن من كثرة الأكل أو أكولا كما قاله العلامة عبد الحق (فعد نفسك زمينا) أى صاحب زمانة: وهو مرض يدوم زمانا طويلا كما فى المصباح، وذكر فى

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنْ يَحْيى عَلَيْهِ السَّلَامَ أَنَّ إِبْلِيسَ بَدَا لَهُ وَعَلَيْهِ مَعَالِيقُ فَقَالَ لَهُ يَحْيى: مَا هٰذِهِ ؟ فَقَالَ : هٰذِهِ الشَّهَوَاتُ الَّتِي أَصِيدُ بِهَا بَنِي آدَمَ ؛ فَقَالَ لَهُ ؟ هَلْ تَجِدُ لِي

[محيط المحيط] الزمين ذو الزمانة انتهى. وأيضا فيه الزمانة مصدر العاهة وعدم بعض الأعضاء وتعطيل القوى والأطباء يخصونها بالشلل وهو يبس في اليد . (ولقد ذكر عن يحي) بن زكريا (عليه السلام) .

قال الواحدى : قال المفسرون : أول من آمن بعيسى يحي عليهما السلام ، وكان يحي أسن من عيسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام . قال العلماء بالتاريخ : قتل يحي قبل أبيه زكريا ، وفضائله في القرآن مشهورة ، واتفقوا على أنه قتل ظلما شهيدا وأخذ رأسه ووضع في طست وغضب الله تعالى على قاتليه ، وسلط عليهم بختنصر وجيوشه « فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » . قال العلماء : أول من سمى بيحي يحي بن زكريا . قال الله تعالى « لم نجعل له من قبل سميا » وتولى الله تسميته تعظيما له ، وسماه بخصوص يحي ، لأن به حي رحم أمه بعد موته بالعقم . وفي يحي قولان : أحدهما ، وهو المشهور عند أهل التفسير أنه منقول من الفعل المضارع ، وقد سموا بالأفعال كثيرا نحو يعيش ويعمر . وقال قتادة : وسموه يحي لأن الله أحياه بالايمان . قال الزجاج حي بالعلم ، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل نحو يزيد ويشكر وتغلب. والثانى أنه أعجمى لا اشتقاق له ، وهذا هو الظاهر فامتناعه للعلمية والعجمة الشخصية ويقال فى جمعه على كلا القولين : يحيون رفعا ويحيين نصبا وجرا على حد قول الخلاصة :

واحذف من المقصور فى جمع على حد المثنى مابه تكملا

ويقال فى تثنيته : يحييان رفعا ، ويحيين نصبا وجرا على حد قوله فيها :

آخر مقصور تثنى اجعله يا إن كان عن ثلاثة مرتقيا

ويقال فى النسب إليه يحي بحذف الألف ، ويحيوى بقلبها واوا ، ويحياوي بزيادة ألف قبل الواو المنقلبة عن الألف الأصلية على حد قوله :

وإن تكن تربع ذا ثان سكن فقلبها واوا وحذفها حسن

ويقال فى تصغيره يحي بوزن فعيعل على حد قوله :

فعيعل مع فعيعيل لما فاق كجعل درهم دريهما

(إن إبليس) اللعين (بدا) أى ظهر (له) أى ليحي عليه السلام (وعليه) أى إبليس (معاليق) جمع معلاق بالكسر: مايعلق به اللحم وغيره ، وما يعلق بالزاملة أيضا نحو القمقمة والقربة والمطهرة كما فى المصباح (فقال له يحي) عليه السلام (ماهذه) المعاليق؟ (فقال) اللعين (هذه) أى المعاليق (الشهوات) أى آلة اصطيادها (التى أصيد بها بنى آدم ، فقال) عليه السلام (له هل تجد لى

فِيهَا شَيْئًا؟ قَالَ :لاَ إِلاَّ أَنَّكَ شَبِعْتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَثَقَّلْنَاكَ عَنِ الصَّلاَةِ، قَالَ يَحْيى عَلَيْهِ السَّلام: لاَجَرَمَ أَنِّى لاَ أَشْبَعُ بَعْدَهَا أَبَدًا . قَالَ إِبْلِيسُ : لاَجَرَمَ أَنِّى لاَ أَنْصَحُ بَعْدَهَا أَحَدًا أَبَدًا فَهٰذِهِ فِيمَنْ لَمْ يَشْبَعْ فى عُمْرِهِ إِلاَّ لَيْلَةً ، فَكَيْفَ بِمَنْ لاَ يَجُوعُ فى عُمْرِهِ لَيْلَةً . ثُمَّ يَطْمَعُ فى الْعِبَادَةِ؟ وَقالَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ اللهُ: الْعِبَادَةِ حِرْفَةٌ ، وَحَانُوتُهَا الْخَلْوَةُ وَآلَتُهَا الْمجَاعَةُ .
الْخَامِسَةُ أَنَّ فِى كَثْرَةِ الأَكْلِ فَقْدَ حَلاَوَةَ الْعِبَادَةِ .

فيها) أى المعاليق (شيئا) من الشهوات ؟ (قال) اللعين (لا) نجد لك فيها شيئا (إلا أنك شبعت ذات ليلة فثقلناك عن الصلاة. قال يحي عليه السلام: لاجرم) أى لابد ، وذكر فى الصحاح الجرم : القطع ، وقد جرم النخل واجترمه : أى صرمه، وقولهم : لاجرم ، قال الفراء : هي كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنه باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألاترى أنهم يقولون:لاجرم لآتينك . وقال قوم : إن لازائدة، ونقل فى المغنى عن الفراء أن «لا» لاتزاد فى أول الكلام، ويجوز أن يقال إن لاجرم نظير لابد، فعل من الجرم : وهو القطع كما أن بد فعل من التبديد: وهو التفريق (أنى لاأشبع بعدها) أى تلك الليلة (أبداً . قال إبليس) اللمون (لاجرم أنى لاأنصح) أى لا أذكر النصيحة التي ذكرتها لك (بعدها) أى بعد هذه المرة (أحدا أبدا) . قال المصنف رحمه الله تعالى (فهذه) أى القصة (فمن لم يشبع فى عمره إلا ليلة) واحدة كيحي عليه السلام (فكيف) الحال (بمن لايجوع فى عمره إلا ليلة ثم يطمع فى العبادة . وقال سفيان) بن سعيد الثورى الكوفى الجامع لأنواع المحاسن (رحمه الله) وهو من تابعى التابعين ، وتقدمت ترجمته (العبادة حرفة) أى صناعة (وحانوتها) أى دكانها .

واختلف فى وزن الحانوت فقيل أصلها فعلوت، مثل ملكوت من الملك، ورهبوت من الرهبة لكن قلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها كما فعل بطالوت وجالوت ونحوه، وقيل أصلها حانوة على فعلوة بسكون العين وضم اللام مثل عرقوة وترقوة ، لكن لما كثر استعمالها خففت بسكون الواو ثم قلبت الهاء تاء كما قيل فى تابوت وأصله تابوة فى قول بعضهم ، وقال الفارابى : الحانوت فاعول وأصلها الهاء لكن أبدلت تاء لسكون ما قبلها ، والجمع الحوانيت ، والحانوت يذكر ويؤنث فيقال هو الحانوت . وقال الزجاج، الحانوت مؤنثة فإن رأيتها مذكرة فإنما يعنى بها البيت ورجل حانوتى نسبة على القياس، والحانة : البيت الذى يباع فيه الخمر ،وهو الحانوت أيضا ، والجمع حانات والنسبة حانى على القياس كذا في المصباح (الخلوة وآلتها المجاعة) أى الجوع ، يشير بذلك إلى أن الخلوة والجوع ركنان عظيمان لأساس العبادة ، ولا تتم إلا بهما وفيهما سجن النفس وضيقها، ويتبع الخلوة الصمت ، ويتبع الجوع السهر ، فهى أركان أربعة كما صرح به الزبيدى . (الخامسة) من الآفات العشرة (أن فى كثرة الأكل فقد حلاوة العبادة) ولذة المناجاة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر

قالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا شَبِعْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ لِأَجِدَ حَلَاوَةَ عِبَادَةِ رَبِّي وَمَارَوِيتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ اشْتِيَاقًا إِلَى لِقَاءِ رَبِّي ،

يجرى على اللسان مع حضور القلب لما يذكر وفهم معانيه لكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر منه الفوات موجب الاستعداد الذى هو الرقة والصفاء الحاصلان من الجوع حتى كأن بين القلب وبين أثر الذكر حجابا من قساوة القلب ، وبالجملة إن خلو المعدة عن الطعام والشراب هو السبب الأظهر فى رقة القلب . قال الجنيد رحمه الله : يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة أو يسمع فهم الخطاب . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : إذا جاع القلب وعطش صفا ورق وإذا شبع عمى وغلظ (قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه) واسمه عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر ، واجتمعت الأمة على تسميته صديقا . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إن الله تعالى هو الذى سمى أبا بكر على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم صديقا ، وسبب تسميته أنه بادر إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولازم الصدق ، فلم يقع منه هناة ولا وقفة فى حال من الأحوال . روى للصديق رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة حديث واثنان وأربعون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على ستة، وانفرد البخارى بأحد عشر، ومسلم بحديث ، وسبب قلة رواياته مع تقدم صحبته وملازمته النبى صلى الله عليه وسلم أنه تقدمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها ، روى عنه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمرو بن العاص وزيد ابن ثابت والبراء بن عازب وأبو هريرة وعقبة بن الحارث وابنته عائشة ، وطارق بن شهاب ، روى عنه جماعات من التابعين : منهم قيس بن أبى حازم وأبو عبد الله الصنابحى وخلق غيرهم كذا فى سراج السالكين .

وأخرج سيف والحاكم عن ابن عمر قال : كان سبب موت أبى بكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمدا فما زال جسمه ينقص حتى مات. وأخرج الواقدى والحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أول بدء مرض أبى بكر أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوما باردا فحم خمسة عشر يوما لا يخرج إلى صلاة، وتوفي يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، وله رضى الله عنه ثلاث وستون سنة كذا ذكره العلامة ابن حجر فى الصواعق ، وبالجملة إن مناقب أبى بكر رضى الله عنه جليلة عظيمة واسعة جدا (ما شبعت منذ أسلمت لأجد) أى لأن أجد (حلاوة عبادة ربى، وما رويت) أى ارتويت من الماء (منذ أسلمت اشتياقا إلى لقاء ربى) جل وعز .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية من طريق موسى بن سعيد عن مالك بن دينار قال : بلغنى أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه : جوعوا بطونكم وأظمئوها وأعروها وانصبوها لعل قلوبكم أن ترى الله عز وجل . قال الزبيدى : يعنى بحقيقة الزهد وصفاء القلب ، فالجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة

وَهٰذِهِ صِفَاتُ الْمُكَاشَفِينَ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُكَاشَفاً، وَإِلَيْهِ أَشَارَ صلى الله عليه وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ « مَافَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ وَلاَ صَلاَةٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي نَفْسِهِ » وَقَالَ الدَّرَانِيُّ: أَحْلَى مَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ إِذَا الْتَزَقَ بَطْنِي بِظَهْرِي . السَّادِسَةُ أَنَّ فِيهِ خَطَرَ الْوُقُوعِ فِي الشُّبْهَةِ ،

وفيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها وفى ذلك حياة القلب وصلاحه (وهذه) أى الصفة التى هى ترك الشبع فى الأكل وترك الارتواء فى الشرب (صفات المكاشفين) رضوان الله عليهم أجمعين (فكان أبو بكر) عبد الله بن عثمان التيمى الصديق (رضى الله عنه مكاشفا) بصيغة اسم المفعول : أى يكشف بالأسرار الإلهية (وإليه) أى إلي كونه رضى الله عنه مكاشفا بما ذكر (أشار) رسول الله (صلى الله عليه وسلم بقوله : «مافضلكم أبو بكر) الصديق (بفضل صوم) أى بكثرته (ولا صلاة) ولا بكثرة رواية للحديث ولا فتوى ولا كلام (وإنما) فضلكم (هو) أى أبو بكر (بشىء) وفى رواية « بسر» (وقر) بالبناء للمفعول : أى وضع وأثبت ذلك الشىء (فى نفسه») أى فى قلبه . قال العراقى : لا أصل لهذا الحديث مرفوعا ، وإنما يعرف فى قول بكر بن عبد الله المزنى كذلك رواه الحكيم الترمذى فى نوادره انتهى . قال العلامة الزبيدى ولفظ الحكيم «ما فضل أبو بكر بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ولكن بسر وقر فى صدره » وبكر بن عبد الله المزني ثقة سمع من ابن عباس وابن عمر، وعنه سليمان التيمى ومبارك وخلق ؛ توفى سنة ١٨٠ وعزاه ابن القيم إلي أبى بكر بن عياش من قوله ولفظه « ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشىء وقر فى قلبه » قال وهذا موضع المثل المشهور :

من لى بمثل سيرك المذلل   تمشى رويدا وتجىء فى الأول

أورد ذلك فى بحث أفضلية العلم ، فقال: العلم يعرف بمقادير الأعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها وراجحها من مرجوحها فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا، ورب عمل فاضل ، والمفضول أكثر مشقة منه ، واعتبر هذا بحال الصديق رضى الله عنه فانه أفضل الأمة ، ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجا وصوما وقراءة ، ولذلك قال مصنفنا أبو حامد الغزالى رحمه الله : فليكن حرصك واجتهادك فى طلب ذلك السر المصون ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » ودع عنك ما تطابق أكثر الناس على تفخيمه وتبجيله وتعظيمه لأسباب ظاهرة ودواع متوافرة يطول تفصيلها فى هذا الموضع .(وقال) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد (الدارانى) رحمه الله: (أحلى ماتكون العبادة إذا التزق) أى التصق (بطنى بظهرى) هو إشارة إلى ما ذكر من وجدان التلذذ فى تلك الحالة ، والتصاق الظهر بالبطن كناية عن قلة الأكل . (السادسة) من الآفات العشرة (أن فيه) أى فى كثرة الأكل (خطر) أى خوف (الوقوع فى الشبهة

وَالْحَرَامِ ، لِأَنَّ الْحَلَالَ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتًا ؛ وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ الْحَلَالَ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا قُوتًا ، وَالْحَرَامَ يَأْتِيكَ جُزَافًا جُزَافًا » . السَّابِعَةُ أَنَّ فِيهِ شَغْلَ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ بِتَحْصِيلِهِ أَوَّلًا وَبِتَهْيِئَتِهِ ثَانِيًا ، ثُمَّ بِأَكْلِهِ ثَالِثًا ، ثُمَّ بِالْفَرَاغِ عَنْهُ وَالتَّخَلُّصِ . رَابِعًا بِالسَّلَامَةِ مِنْهُ . خَامِسًا بِأَنْ تَبْدُوَ مِنْهُ آفَةٌ فِي الْبَدَنِ بَلْ آفَاتٌ وَعِلَلٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرَدَةُ » يَعْنِي

والحرام) وذلك (لأن الحلال لايأتيك إلا قوتا) أى ما يقوتك (ولقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الحلال لا يأتيك إلا قوتا و) إن (الحرام يأتيك جزافا جزافا) هذا الثانى تأكيد للأول : أى بكثرة من غير تقدير ، والجزاف مثلثة الجيم ، والضم أفصح . (السابعة) من الآفات العشرة (أن فيه) أى فى كثرة الأكل (شغل القلب والبدن بتحصيله) أى الطعام بشراء أو غيره (أولا وبتهيئته) أى إصلاح ذلك الطعام وطبخه واحتياجه إلى آلات لذلك . وفى القاموس : هيأ تهيئة وتهييئا : أصلحه (ثانيا ثم بأكله ثالثا ثم بالفراغ عنه) أى عن أكله ، ثم الاحتياج إلى غسل اليد واستعمال الخلال فى أسنانه ليخرج فضول الطعام منها (والتخلص رابعا) بكثرة تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه وامتلاء معدته (ثم بالسلامة منه) أى الطعام (خامسا) وذلك (بأن تبدو) أى تظهر (منه) أى من أكله لذلك الطعام (آفة فى البدن بل آفات وعلل) جمع علة وهى المرض (فى الدين) ومعلوم أن كثرة الأكل يدعو إلى قعود الأعضاء عن العبادة ، وذلك من جملة آفات الدين ، والآفات المصروفة إلى ماذكر لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه وعظم أجره . قال السرى السقطى رحمه الله: رأيت مع على بن إبراهيم الجرجانى سويقا يستف منه ، فقلت له وما دعاك إلى هذا ؟ فقال إنى حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة ، فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه فى المضغ ، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاقيمة لها ؛ ولذلك قالوا : تضييع الوقت يورث المقت ، فينبغى أن يستوفى منها خزانة باقية فى الآخرة لاآخر لها ، وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته ولا يدعه يذهب مجانا ، ومن جملة مايتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فانه يحتاج إلى الخروج منه كل ساعة لكثرة شرب الماء وإراقته ضرورة ، ومن جملته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ويسهل عليه، فالصوم ودوام الاعتكاف فى المسجد ودوام الطهارة وصرف أوقات شغل الأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما استحقرها الغافلون الذين لايعرفون قدر الدين ، لكن هم كما قال الله تعالى فيهم « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (ولقد قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم « أصل كل داء البردة) . قال المصنف والجوهرى وصاحب القاموس بفتحتين (يعنى)

التُّخَمَةَ ، وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْأَزْمَةُ ، يَعْنِي الْجُوعَ وَالْحِمْيَةَ .

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينارٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : يَا هَؤُلاَءِ لَقَدِ اخْتَلَفْتُ إِلَى الْخَلاَءِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْأَكْلِ ، فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ رِزْقِي فِي حَصَاةٍ أَمَصُّهَا حَتَّى أَمُوتَ ،

أى يريد النبي صلى الله عليه وسلم بالبردة (التخمة) بوزن رطبة والجمع بحذف الهاء ، والتخمة بالسكون لغة ، والتاء مبدلة من واو لأنها من الوخامة بمعنى أن الطعام يثقل على المعدة فتضعف عن هضمه فيحدث منه الداء (وأصل كل دواء الأزمة) بفتح فسكون ، وأصلها الشدة والقحط . قال المصنف (يعنى) أى النبي عليه الصلاة والسلام بذلك (الجوع والحمية) أى الامتناع من الطعام الذى يضره ، فى [محيط المحيط] الحمية ماحمى من شىء ، والاسم من حمى المريض : إذا منعه عما يضره ، أو من احتمى بهذا المعنى . قال العراقى : لم أجد لهذا الحديث أصلا انتهى . قال الزبيدى رواه الخلال من حديث عائشة بلفظ « الأزم دواء ، والمعدة بيت الداء ، وعودوا بدنا ماعتاد » وقيل : الحمية رأس الدواء ، من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت من طريق وهب بن منبه قال : أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية ، وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت ، وبخط الحافظ ابن حجر : الجملة الأولى من الحديث لها أصل من حديث أوله « أصل كل داء البردة » وهو حديث ضعيف رواه ابن عدى فى الكامل وأبو نعيم فى الطب النبوى ، ورواه أيضا المستغفرى فى الطب النبوى والدارقطنى فى العلل كلهم من طريق تمام بن نجيح عن الحسن البصرى عن أنس رفعه بهذا ، وتمام ضعفه الدارقطنى وغيره ووثقه ابن معين وغيره ، ولأبى نعيم أيضا من حديث ابن المبارك عن السائب بن عبد الله عن على ابن زحر عن ابن عباس مرفوعا مثله ، ومن طريق عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد رفعه أصل «كل داء من البردة» ومفرداتها ضعيفة . وقد ذكر الدارقطنى عقب حديث أنس مالفظه ، وقد رواه عباد بن منصور عن الحسن من قوله ، وهو أشبه بالصواب ، وجعله الزمخشرى فى الفائق من كلام ابن مسعود رضى الله عنه (و) روى (عن) أبى يحيى (مالك ابن دينار) البصرى وهو من موالى بنى أسامة بن لؤى القرشى ، كان عالما زاهدا كثير الورع قنوعا لايأكل إلا من كسبه ، وكان يكتب المصاحف بالأجرة ، وروى عنه أنه قال : قرأت فى التوراة : إن الذى يعمل بيده طوبى لمحياه ومماته ، وله مناقب عديدة وآثار شهيرة ، توفى سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة قبل الطاعون بيسير رحمه الله تعالى (أنه كان يقول : يا هؤلاء) أى أهل البصرة (لقد اختلفت) أى ترددت (إلى الخلاء) أى محل قضاء الحاجة (حتى استحييت من ربى بسبب كثرة الأكل) والشرب (فياليت أن الله جعل رزقى فى حصاة أمصها) بضم الميم كما فى القاموس : أى أمص الحصاة بطرف لسانى (حتى) أى إلى أن (أموت) قال المصنف

ثُمَّ لَابُدَّ فِي هٰذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا وَالطَّمَعِ إِلَى النَّاسِ وَتَضْيِيعِ الْوَقْتِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْأَكْلِ مَالَمْ يَخِفَّ . الثَّامِنَةُ : مَا يَنَالُهُ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ وَشِدَّةِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ؛ وَرُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ «إِنَّ شِدَّةَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ عَلَى قَدْرِ لَذَّاتِ الدُّنْيَا» فَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ أَكْثَرَ لَهُ مِنْ تِلْكَ . التَّاسِعَةُ : نُقْصَانُ الثَّوَابِ فِي الْعُقْبَى ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ »

(ثم لابد فى هذه الجملة) التى ذكرناها (من) بيان مقدم لقوله مالم يخف (طلب الدنيا والطمع إلى) ما فى أيدى (الناس وتضييع الوقت بسبب كثرة الأكل مالم يخف) من باب رمى (الثامنة) من الآفات العشرة (مايناله) أى الذى يكثر الأكل (من أمور الآخرة) أى من أنواع العقوبة (وشدة) الألم فى (سكرات الموت . وروى فى الأخبار : إن شدة سكرات الموت على قدر لذات الدنيا ، فمن أكثر من) تناول (هذه) اللذات فقد (أكثر له) أى لنفسه (من تلك) أى شدة ألم سكرات الموت ، وذلك لأن كل لذيذ يشتهيه الإنسان وتدعو إليه نفسه وتطالبه به ، وأكله اقتضى ذلك بطرا فى نفسه وقسوة فى قلبه ، وأنسا بلذات الدنيا حتى يألفها ، ويأنس بها ، ويكره الموت ولقاء الله تعالى لامحالة ، لأن الفطم عن المألوف صعب ، وتصير الدنيا جنة فى حقه ، ويكون الموت سجنا له ومضيقا ، وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجنا عليه ومضيقا له فاشتهت نفسه الافلات منها ، فيكون الإفلات إطلاقها من ذلك المضيق والحبس ، وقد روى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » (التاسعة) من الآفات العشرة (نقصان الثواب فى العقبى) أى فى الآخرة (قال الله تعالى) « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » (أذهبتم) أى يقال لهم أذهبتم ، وهو ناصب اليوم (طيباتكم) لذائذكم (فى حياتكم الدنيا) باستيفائها ، فلم يبق لكم بعد الاستيفاء شىء منها ، وعن عمر رضى الله عنه : لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ، ولكن أستبقى طيباتى (واستمتعتم) استنفعتم (بها) بالطيبات (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى الذى فيه ذل وخزى (بما كنتم تستكبرون) تتكبرون (فى الأرض) عن الإيمان (بغير الحق) بلا حق كان لكم (وبما كنتم تفسقون) تكفرون وتعصون فى الأرض فى الدنيا كما فسره ابن عباس رضى الله عنهما .

واعلم أن الله تعالى لما وبخ الكافرين بالتمتع بالطيبات آثر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات فى الدنيا رجاء ثواب الآخرة . وروى الشيخان عن عمر بن الخطاب قال : «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو متكئ على رمال حصير قد أثر فى جنبه فقلت : أستأنس يا رسول الله ! قال نعم ، فجلست فرفعت رأسى ، فى البيت فوالله ما رأيت فيه شيئا

فَإِنَّهُ بِقَدْرِ مَا تَأْخُذُ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا يَنْقُصُ مِنْ لَذَّاتِ الآخِرَةِ ،

يرد البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت: ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون الله فاستوى جالسا ثم قال أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا فقلت استغفر لى يا رسول الله» . وروى الشيخان أيضا عن عائشة قالت « ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلي الله عليه وسلم » . ورويا أيضا عنها قالت « كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارا إنما هو الأسودان التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم » وفي رواية أخرى « قالت كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقد فى أبيات رسول الله صلي الله عليه وسلم نار . قال عروة : قلت يا خالة ، فما كان يعيشكم ! قالت : الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فتسقينا » وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير » أخرجه الترمذى ، وله عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أخفت فى الله مالم يخف أحد وأوذيت فى الله مالم يؤذ أحد ، ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام إلاشىء يوارى إبط بلال » . وروى البخارى عن أبى هريرة قال « لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا فى أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته » . وروى أيضا عن إبراهيم بن عبد الرحمن : أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما فقال : قتل مصعب بن عمير وهو خير منى فكفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه وإن غطى رجلاه بدا رأسه قال: وأراه قال : قتل حمزة وهو خير منى فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام . وقال جابر بن عبد الله : رأى عمر بن الخطاب لحما معلقا فى يدى فقال : ما هذا يا جابر ؟ قلت : اشتهيت لحما فاشتريته ، فقال عمر: أو كلما اشتهيت يا جابر اشتريت أما تخاف هذه الآية « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » (فانه) أى الشأن (بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا ينقص من لذات الآخرة) فكل من تنعم فى الدنيا ولو بسماع صوت من طائر حسن الصوت أو بالنظر إلى خضرة بجنب ماء جار أو تحت شجرة مثلا أو شربة ماء بارد ونحو ذلك فانه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه فان كل ذلك من نعيم الدنيا ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعمير رضى الله عنه « هذا من النعيم الذى تسأل عنه » أشار به إلى الماء البارد . والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار ، كل ذلك من نقصان الحظ كذا ذكره المصنف فى بعض كتبه ، وعلى هذا لا ينبغى للمريد أن يتنعم كل التنعم لأنه لا سبيل إلى إهمال النفس فى الشهوات فى المباحات واتباعها بكل حال ، فانه يخشى على المريد أن يتخذه عادة ولا يأمن من تألم

وَلِهٰذَا المَعْنَى أَنّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا عَرَضَ الدُّنْيَا عَلَى نَبِيِّنَا صلى اللهُ عليه وسلم قالَ لَهُ : وَلَا أَنْقُصُكَ مِنْ آخِرَتِكَ شَيْئاً ،

قلبه وتوقان نفسه إليه ومنازعتها إياه لا سيما إذا كان مبتدئا فى السلوك غمرا لا يعرف خبء النفس ودواهيها ، ولا يفطن لمكرها وآفاتها ، فان ترك ذلك أفضل ، فليتركه حينئذ لأجل الله تعالى خوفا أن يشتهيه فيحرص على مثله ويدخل مداخل السوء من أجله ويبيع دينه فمه أو خشية تمكن العادة منه فتتعذر عليه التوبة لدخوله فى الشبهات عند اعتياد الشهوات ، لأن العادة جند من جنود الله تعالى يقهر العلم لأجله تعذرت الاستقامة ولولا العادة لكنا تائبين ، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين فليترك حينئذ أكل الطيبات إذا صارت شهوات ، وخشى منها مطالبة العادات ودواعى النفس بالآفات ناويا بذلك صلاح قلبه وتمكين نفسه ليملك بذلك نفسه قبل أن تملكه وتعظم عادتها قبل أن تهلكه ويغلب بالترك طبعه وهواه قبل أن يكونا بالشهوة يغلباه وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهواته يتمتع فى الدار الآخرة بشهواته ، وقد كان هذا طريق طائفة من السلف إلى الله تعالى ثم انقرضوا فانمحى طريقهم وخلف من بعدهم خلف من العلماء اتبعوا الشهوات ولم يتغالوا فى هذه المقامات ولا سلك بهم هذه الطرقات فلم يتكلموا فى طرق الشهوات فلذلك درس هذا الطريق وعفا أثره لفقد سالكه وعدم كاشفه فمن عمل به وسلكه فقد أظهره ، ومن أظهره فقد أحيا أهله . قال صاحب القوت : حدثنى بعض علمائنا عن بعض المريدين من أهل البصرة قال : نازعتنى نفسى خبزا وسمكا فمنعتها فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة ، قال : فلما مات رآه بعضهم فى المنام قال : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : لا أحسن أن أصف لك ما تلقانى به ربى من النعيم والكرامة ، وكان أول شىء استقبلنى به خبز أرز وسمكا ، وقال كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب (ولهذا المعنى) وهو نقصان لذات الآخرة بقدر لذات الآخرة بقدر لذات الدنيا .
روى (أن الله تعالى لما عرض الدنيا) بمفاتيحها وخزائنها (على نبينا صلى الله عليه وسلم قال) سبحانه وتعالى (له) صلى الله عليه وسلم (ولا أنقصك من آخرتك شيئا) أى جناح بعوضة فأبى أن يقبلها ، قال العراقى هكذا أورده ابن أبى الدنيا مرسلا ، ورواه أحمد والطبرانى متصلا من حديث أبى مويهبة فى أثناء حديث فيه « إنى قد أعطيتك خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة » الحديث وسنده صحيح ، ورواه أيضا أحمد والترمذى وابن سعد والطبرانى والبيهقى من حديث أبى أمامة أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال « إن ربى عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يارب ، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه ، فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » . قال أبو طالب فى قوت القلوب : والفقر اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن اختيار الله لما خيره من أن يجرى له الأودية مالا ويجعل له ذهبا وفضة

خَصَّهُ بِذٰلِكَ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لِغَيْرِهِ النُّقْصَانَ إِلاَّ أَنْ يَتَفَضَّلَ اللهُ عَلَيْكَ بِذٰلِكَ .

وَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَضَافَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَهَيَّأَ لَهُ طَعَامًا ، فَقَالَ عُمَرُ : هٰذَا لَنَا فَمَا لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وَلَمْ يَشْبَعُوا مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ قَالَ خَالِدٌ : لَهُمُ الْجَنَّةُ

ولاينقصه ذلك من درجته ذلك عند الله شيئا فاختار بحسن توفيق الله وعصمته له الأحب إلي الله والأخير عند الله ، إذ قد ضمن له إن أعطاه لاينقصه فلم يبق إلا محبة الله ، فكانت آثر عنده من ترك نقيضه ، فقال « لاحاجة لى بذلك بل أجوع يوما وأشبع يوما أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت » وعن ابن عباس قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا ، فقال له النبي صلي الله عليه وسلم : ياجبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولاسفة دقيق ، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا ، فرفع رأسه إلى جبريل كأنه يستشيره ، فأوحى إليه جبريل أن تواضع لله ، فقال نبيا عبدا ثلاثا » . قال المصنف (خصه) أى خص الله النبي صلى الله عليه وسلم (بذلك) أى بعدم النقص (فدل) هذا الاختصاص (على أن لغيره) صلي الله عليه وسلم (النقصان) بالنصب اسم إن مؤخرا (إلا أن يتفضل الله عليه) أى على غير النبي عليه الصلاة والسلام (بذلك) أي المذكور من عدم النقص (ولقد روى أن خالد بن الوليد) هو أبو سليمان ، وقيل أبو الوليد القرشى المخزومي ، أسلم بعد الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة وشهد غزوة مؤتة وسماه النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ سيف الله وشهد خيبر وفتح مكة وحنينا . روى له عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ثمانية عشر حديثا اتفق البخارى ومسلم على حديث ، روى عنه ابن عباس وجابر والمقدام بن معدى كرب وأبوأمامة ابن سهل الصحابيون رضي الله عنهم ، وروى عنه من التابعين قيس بن أبى حازم وأبو وائل وغيرهما ، وكان من المشهورين بالشجاعة والشرف والرياسة توفى فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة إحدى وعشرين ، وكانت وفاته بحمص وقبره مشهور على نحو ميل من حمص ، وقيل توفى بالمدينة ، قاله أبو زرعة الدمشقى عن دحيم والصحيح الأول ، وحزن عليه عمر والمسلمون حزنا شديدا وفضائله كثيرة مشهورة (أضاف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما) أى عمر وخالد (وهيأ) خالد (له) أى لعمر (طعاما ،فقال عمر هذا) الطعام (لنا فما) أى أىّ الذى (للفقراء المهاجرين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ قال خالد: لهم) أى للفقراء المهاجرين (الجنة

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قالَ عُمَرُ : لَئِنْ فازُوا بِالْجَنةِ وَكانَ هٰذَا حَظُّنَا مِنَ الدُّنْيَا فَقَدْ بَانُوا مِنَّا بَوْنًا مُبِينًا .

وَرُوِىَ أَنَّ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَطِشَ يَوْمًا فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَعْطاهُ رَجُلٌ إِدَاوَةً فِيهَا مَاءٌ نُبِذَ فِيهِ تَمَرَاتٌ ، فَلَمَّا قَرَّبَهَا عُمَرُ مِنْ فِيهِ وَجَدَ الْمَاءَ بَارِدًا حُلْوًا فَأَمْسَكَ وَقالَ : أَوَّهْ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : وَاللهِ مَا أَلَوْتُهُ حَلَاوَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ : ذٰلِكَ الَّذِى مَنَعَنِى مِنْهُ ، وَيْحَكَ ، لَوْلاَ الآخِرَةُ لَشَارَكْنَاكُمْ فِى عَيْشِكُمْ . الْعَاشِرَةُ : الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ وَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ فِى تَرْكِ الْأَدَبِ فِى أَخْذِ الْفُضُولِ وَطَلَبِ الشَّهَوَاتِ ، فَإِنَّ « الدُّنْيَا حَلَالُهَا حِسَابٌ ، وَحَرَامُهَا عِقَابٌ »

يا أمير المؤمنين ، قال عمر) والله (لئن فازوا بالجنة وكان هذا) الطعام (حظنا) أى نصيبنا (من الدنيا فقد بانوا) أى فارقوا (منا بونا) أى فراقا وبعدا (مبينا . وروى أن عمر) بن الخطاب (رضى الله عنه عطش) من باب طرب ضد روى (يوما) من الأيام (فدعا) أى طلب (بماء فأعطاه) رضى الله عنه (رجل إداوة) أى مطهرة والجمع الأداوى بوزن المطايا كما فى المختار (فيها) أي فى الإداوة (ماء) بارد كما فى رواية (نبذ) بالبناء للمفعول : أى طرح الرجل (فيه) أى فى الماء البارد (تمرات) فيصير هذا الماء حلوا (فلما قربها) أي تلك الإداوة (عمر من فيه) أى فمه رضى الله عنه (وجد الماء باردا حلوا فأمسك) أى فامتنع من شربه (وقال) عمر (أوّه) كلمة تقال عند الشكاية أو التوجع (فقال الرجل) الذى أعطاه لما رأى من امتناع عمر (والله ماألوته) أى ماقصرت الماء (حلاوة ياأمير المؤمنين ، فقال عمر رضى اللهعنه ذلك) أى ماوجدته من الحلاوة (الذى منعنى منه) أى من شرب ذلك الماء (ويحك) كلمة رحمة (لولا الآخرة لشاركناكم فى عيشكم) رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : اشتهى عمر الشراب فأتى بشربة من عسل فجعل يدير الإناء فى يده ويقول : لاأشربها وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها ، ثم وضعها إلى رجل من القوم فشربها . وروى جعفر بن سليمان حدثنا حوشب عن الحسن قال : أتي عمر بشربة عسل فذاقها فإذا ماء وعسل ، فقال اعزلوا عنى حسابها : اعزلوا عنى مؤنتها ، وإنما قال ذلك لأنه علم أنه حلال ، وفى الحلال حساب ، وفى الحساب نوع عذاب ، فمن حوسب نوقش ، وقد أشار إلى ذلك أبو سعيد الخراز حين نوع الجوع ، فقال : ومنهم من وجد الشىء الصافى فتركه زهدا فيه من مخافة طول الحساب والوقوف والسؤال (العاشرة) هذه آخر الآفات العشرة (الحبس والحساب واللوم والتعيير فى ترك الأدب فى أخذ الفضول) أى فضول الحلال (وطلب الشهوات ، فان) رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب) وفى نسخة «عذاب»

وَزِينَتِهَا إِلَى تَبَابٍ » فَهٰذِهِ جُمْلَةُ الْعَشَرَةِ وَفِي إِحْدَاهَا كِفَايَةٌ لِمَنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ ؛ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُجْتَهِدُ بِالْاحْتِيَاطِ الْبَالِغِ فِي الْقُوتِ كَيْ لَا تَقَعَ فِي حَرَامٍ أَوْ شُبْهَةٍ فَيَلْزَمُكَ الْعَذَابُ ، ثُمَّ بِالِاقْتِصَارِ مِنَ الْحَلَالِ عَلَى مَا يَكُونُ عُدَّةً عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، فَلَا تَقَعْ فِي شَرٍّ فَتَبْقَى فِي الْحَبْسِ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَبَيِّنْ لَنَا أَوَّلًا حُكْمَ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ وَحَدَّهُمَا : فَأَقُولُ لَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَشْبَعْنَا الْقَوْلَ فِيهِ فِي أَسْرَارِ مُعَامَلَاتِ الدِّينِ ، وَذَكَرْنَا لَهُ كِتَابًا مُفْرَدًا فِي كِتَابِ : الْإِحْيَاءِ ، لٰكِنَّا نُشِيرُ إِلَى كَلِمَاتٍ مُفْرَدَةٍ بِحَيْثُ

(وزينتها إلى تباب) أى خسران وهلاك . قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه موقوفا على على بن أبى طالب باسناد منقطع بلفظ « وحرامها نار » ولم أجده مرفوعا انتهى ، لـكن صرح أبو حامد الغزالى بأنه مرفوع ، وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس بلفظ «ياابن آدم الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب» نبه عليه الحافظ السخاوى فى المقاصد وزاد آخرون «وشبهتها عقاب» وبيان ذلك في قول يوسف بن أسباط ووكيع بن الجراح قال : الدنيا عندنا على ثلاث مراتب : حلال وحرام وشبهات ، فحلالها حساب ، وحرامها عقاب ، وشبهاتها عتاب ، فخذ من الدنيا مالا بد منه ، فإن كان ذلك حلالا كنت زاهدا ، وإن كان شبهة كنت ورعا ، وإن كان حراما كان عقابا يسيرا ، ويؤيده ما رواه البيهقى من حديث ابن عمر ، «الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته ، ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان ورب متخوض فى مال الله ورسوله له النار إلى يوم القيامة » (فهذه) أى جمل الآفات التي ذكرناها بسبب كثرة الأكل (جملة) الآفات (والعشرة وفى إحداها) أى الجمل العشرة (كفاية لمن نظر) وتفكر (لنفسه ، فعليك) أى الزم (أيها المجتهد) فى العبادة (بالاحتياط البالغ) أى الواصل إلى نهاية الكمال (في) أمر (القوت كي لاتقع فى حرام أو شبهة فيلزمك العذاب) إن وقعت فى ذلك (ثم) عليك (بالاقتصار من الحلال على ما يكون عدة) بضم العين ، أى استعدادا (على عبادة الله تعالي ، فلا تقع فى شر فتبقى فى الحبس والله ولي التوفيق) والهداية بفضله تعالى وإحسانه (فإن قلت) لي (فبين لنا أولا حكم الحرام والشبهة و) بين (حدها فأقول) لك (لعمر الله) اللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف والتقدير لعمر الله قسمى ، ومعنى لعمر الله أحلف بدوام الله وبقائه (لقد أشبعنا القول فيه) أى المذكور من الحكم والحد (في) كتاب (أسرار معاملات الدين وذكرنا له) أى للمذكور منهما (كتابا مفردا) وهو كتاب الحلال والحرام (فى كتاب الإحياء) ولـكن تلخيص بعضه مذكور فى هذا الشرح (لـكنا نشير إلى كلمات مفردة) مختصرة (بحيث

تَصِلُ إِلَى فَهْمِ الضَّعِيفِ الْمُبْتَدِى ، إِذْ مَقْصُودُ هٰذَا الْكِتَابِ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الْمُبْتَدِى فِى الْعِبَادَةِ ، وَيُعِينُ الطَّالِبَ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : كُلُّ مَا تَيَقَّنْتَ كَوْنَهُ مِلْكاً لِلْغَيْرِ مَنْهِيًّا عَنْهُ فِى الشَّرْعِ فَهُوَ حَرَامٌ مَحْضٌ ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ يَقِينٌ بِذٰلِكَ وَلٰكِنْ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ كَذٰلِكَ فَهُوَ شُبْهَةٌ . وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْحَرَامُ الْمَحْضُ مَا يَكُونُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ غَالِبُ ظَنٍّ ، لِأَنَّ غَلَبَةَ الظَّنِّ مِنَّا تَجْرِى مَجْرَى الْعِلْمِ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ ، فَأَمَّا إِذَا تَسَاوَتِ الْأَمَارَتَانِ حَتَّى تَبْقَى شَاكًّا لَا يَكُونُ لِأَحَدِهِمَا تَرْجِيحٌ عِنْدَكَ ، فَذٰلِكَ شُبْهَةٌ يُشْبِهُ أَنَّهُ حَلَالٌ وَيُشْبِهُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَاشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَيْكَ وَالْتَبَسَ حَالُهُ

تصل) تلك الكلمات (إلى فهم الضعيف المبتدى إذ مقصود هذا الكتاب) المسمى بمنهاج العابدين (أن ينتفع به المبتدى فى العبادة ويعين) أى هذا الكتاب (الطالب . قال بعض العلماء : كل ما تيقنت كونه ملكا للغير منهيا عنه فى الشرع فهو حرام محض) أى خالص (وأما إذا لم يكن لك يقين بذلك) أى بكونه ملكا للغير (ولكن يغلب على ظنك أنه كذلك) أى ملك للغير (فهو شبهة) أى مشتبهة ، وقد ذكر العلامة ابن حجر أن المشتبه هو كل ما ليس بواضح الحل والحرمة مما تنازعته الأدلة وتجاذبته المعانى والأسباب ، فبعضها يعضده دليل الحرام وبعضها يعضده دليل الحلال ؛ ومن ثم فسر أحمد وإسحاق وغيرهما المشتبه بما اختلف في حلّه كالخيل أو شربه كالنبيذ أو لبسه كجلود السباع أو كسبه كبيع العينة ، وهو أن يبيع متاعا بثمن ثم بعد أن يقبضه المشترى يبيعه لبائعه بأقل مما اشتراه ، وهو حلال عندنا حرام عند الغير لأنه من حيل الربا ، وفسر أحمد ذلك المشتبه باختلاط الحلال والحرام ، وحكم هذا أنه يخرج قدر الحرام ويأكل الباقى عند كثيرين من العلماء سواء أقل الحرام أم كثر ، ومن المشتبه معاملة من فى ماله حرام فالورع تركها مطلقا وإن جازت ، وقيل واعتمده الغزالى إن كان أكثر ماله الحرام حرمت معاملته ، وقيل هو ما لم يرد فيه نص من الشارع بتحليل ولا تحريم كنبات غير مألوف لم تعرف العرب هل هو مضر أم لا بخلاف الحلال فإن الحلال فسره الإمام مالك والشافعى بما لم يرد بتحريمه دليل وأبو حنيفة بما دل دليل على حله وتظهر ثمرة الخلاف فى المسكوت عنه الذى جهل أصله ، فعند مالك والشافعى هو من الحلال إذ هو الأشبه بيسر الدين ؛ وعند أبى حنيفة هو من الحرام (وقال آخرون بل الحرام المحض ما يكون به علم) لك (أو غالب ظن) بكونه منهيا عنه فى الشرع (لأن غلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى كثير من الأحكام : فأما إذا تساوت الأمارتان) أى العلامتان الدالتان على الحل والحرمة (حتى تبقى شاكا لا يكون لأحدهما) أى الأمارتين (ترجيح) على الآخر (عندك فذلك) أى ما تساوت فيه الأمارتان (شبهة يشبه أنه حلال ويشبه أنه حرام فاشتبه أمره عليك والتبس حاله) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات

لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» رواه الشيخان، فهذا الحديث نص فى إثبات الأقسام الثلاثه والمشكل منها القسم المتوسط الذى لايعرفه كثير من الناس وهو الشبهة فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها فإن مالا يعرفه الكثير قد يعرفه القليل . فنقول : اعلم أن الحلال المطلق ما انتفى عن ذاته الصفات المحرمة له وعن أسبابه ما يجر إلي خلل فيه كنحو الغصب ، ومنه : أى الحلال صيد احتمل أنه صيد وانفلت من صائده ، ومعار احتمل موت المعير وانتقاله إلى ورثته وصورته أنه استعار ثوبا مثلا للبسه ثم خيل له أن يكون ذلك المعيرمات وانتقل ذلك الثوب لورثته فالملك فيه حينئذ لهم ولم يقع منهم إذن له فى الاستعمال وليس هذا مشتبها فلا ورع فى العمل بذلك الاحتمال لأنه هوس لعدم اعتضاده بشئ مع أن الأصل عدمه وإنما المشتبه الذى يتجاذبه سببان متعارضان يؤديان إلي وقوع التردد فى حله وحرمته كما مر ، وأن الحرام ما فى ذاته صفة محرمة كالإسكار أو فى سببه ما يجر إليه خللا كالبيع الفاسد . ومنه ما تحققت حرمته واحتمل حله كمغصوب احتمل إباحة مالكه فهو حرام صرف، وليس من المشتبه لما قررناه فى نظيره إذ الذى فيهما احتمال محض لا سبب له فى الخارج إلا مجرد التجويز العقلى : وهو لا عبرة به فليسا من المشكوك فيه . وأما المشتبه بالمعنى الذى قررناه آنفا فهو أقسام أربعة :

[القسم الأول] الشك فى المحلل والمحرم، فإن تعادلا استصحب السابق، وإن كان أحدهما أقوى لصدوره عن دلالة معتبرة فى العين فالحكم له : أى للأحد الأقوي ، فلو رمى صيدا فجرحه فوقع فى ماء أو نار أو على طرف سطح أو جبل فسقط منه أو على شجرة فصدمه غصنها أو أرسل كلبه وشركه فيه كلب آخر وشك فى قاتله منهما حرم ، لأن الأصل فى الميتة التحريم ، وقد وجد سبب يحال عليه الموت فلا يزال بالشك فى المبيح ، ولو جرح طير الماء وهو على وجهه ومات أو جرحه وهو خارج الماء فوقع فيه أو هو فى مائه والرامى فى سفينة فى الماء حل أو فى البر فلا إن لم ينته بالجرح إلى حركة مذبوح .

[القسم الثانى] الشك فى طرو محرم على الحل المتيقن فالأصل الحل، فلو قال إن كان ذا الطائر غرابا فامرأتى طالق ، وقال آخر إن لم يكنه فامرأتى طالق والتبس أمره لم يقض بالتحريم على واحد منهما علي الأصح ، لأن كلا منهما علي يقين الحل بالنسبة إلى نفسه ، إذ لم يعارضه بالنظر إليه وحده شئ ، وإنما عارضه يقين التحريم بالنظر إلى ضم غيره إليه ولا مسوغ لهذا الضم ، لأن المكلف إنما يكلف بما يخصه على انفراده ، ومن ثم لو قالهما واحد فى زوجتيه كأن علق طلاق إحداهما بكونه غرابا والأخرى بكونه غيره لزمه اجتنابهما ، لأن إحداهما طلقت منه يقينا ، وأصل الحل فيهما عارضه يقين التحريم فى إحداهما بالنظر إليه وحده فارتفع به ذلك الأصل .

[القسم الثالث] أن يكون الأصل التحريم ثم يطرأ ما يقتضى الحل بظن غالب فإن اعتبر سبب الظن شرعا حل وألغى ذلك النظر لذلك الأصل وإلا فلا ، فلو أرسل كلبا على صيد ثم غاب صاحبه

عنه بعد جرحه حل إن كان الجرح مذففا سواء كان فيه أثر غيره أم لا ، وكذا إن كان الجرح غير مذفف ولم يكن فيه أثر غيره ، بخلاف مالو غاب عنه قبل جرحه ثم وجده مجروحا ميتا فإنه يحرم وإن تضمخ الكلب بدمه؛ ولو وجدت شاة مذبوحة ولم يدرمن ذبحها ، فإن كان أهل البلدمسلمين فقط أو كانوا أغلب حلت ، وإن كان نحو المجوس أكثر أو استويا حرمت ، لأن أصل التحريم حينئذ لم يعارضه أقوى منه ،

[القسم الرابع] أن يعلم الحل ويغلب على الظن طرو محرم ، فإن لم تستند غلبته لعلامة تتعلق بعينه لم تعتبر ومن ثم حكمنا بطهارة ثياب الخمارين والجزارين والكفرة المتدينين باستعمال النجاسة ، وإن استندت لعلامة تتعلق بعينه اعتبرت وألغى أصل الحل لأنها أقوى منه ، فلو رأى ظبية تبول فى ماء كثير فوجده عقب البول متغيرا ، وشك هل تغيره به أو بمكث مثلا وأمكن تغيره بالبول فهو نجس؛ بخلاف مالو وجده متغيرا بعد مدة أو وجده عقبه غير متغير ثم ظهر التغير أو لم يمكن التغير بالبول لقلته فإنه طاهر عملا بالأصل الذى لم يعارضه حينئذ ما هو أقوى منه .

والحاصل أنه إذا تعارض أصلان أو أصل وظاهر ، فقال جماعة من متأخرى الخراسانيين : إن فى كل مسئلة من ذلك قولين ، لكن قال النووى فى شرح المهذب : هذا الإطلاق ليس على ظاهره فإن لنا مسائل يعمل فيها بالظاهر بلا خلاف كشهادة عدلين فإنها تفيد الظن ويعمل بها بالإجماع ولا نظر إلي أصل براءة الذمة ، ومسئلة بول الظبية وأشباهها ومسائل يعمل فيها بالأصل بلا خلاف ، كمن ظن حدثا أو طلاقا أو عتقا أو أصلى ثلاثا أم أربعا فإنه يعمل بالأصل بلا خلاف . قال : والصواب فى الضابط ماحرره ابن الصلاح ، فقال : إذا تعارض أصلان أو أصل وظاهر وجب النظر فى الترجيح كما في تعارض الدليلين ، فإن تردد فى الراجح فهى مسائل القولين ، وإن ترجح دليل الظاهر حكم به بلا خلاف ، وإن ترجح دليل الأصل حكم به بلا خلاف انتهى ، فالأقسام حينئذ أربعة :

[أولها] ماترجح فيه الأصل جزما ، وضابطه أن يعارضه احتمال مجرد كما مر فى مسئلتى الصيد والمعار .

[ثانيها] ماترجح فيه الظاهر جزما ، وضابطه أن يستند إلى سبب نصبه الشارع كشهادة العدلين واليد فى الدعوى ورواية الثقة وإخباره بدخول وقت أو برؤية ماء وإخبار المرأة بحيضها فى العدة أو يستند إلى سبب عرف عادة كأرض بشط نهر الظاهر أنها تغرق وتنهار فى الماء فلا يجوز استئجارها ، ومثل الزركشى له باستعمال السرجين فى أواني الفخار فيحكم بنجاستها قطعا ونقله عن الماوردى وبالماء الهارب من الحمام لاطراد العادة بالبول فيه ، وفى هذا التمثيل نظر كما بينه العلامة ابن حجر فى شرحى الإرشاد والعباب ، وعلى تسليمه فيعفي عن تلك الأوانى كما نص عليه الشافعي فإنه لما دخل مصر سئل عنها ؟ فقال : إذا ضاق الأمر اتسع ، أو يستند إلي سبب ضم إليه مايعضده كما مر فى بول الظبية .

ثُمَّ الِامْتِنَاعُ عَنِ الَّذِى هُوَ حَرَامٌ مَحْضٌ حَتْمٌ وَاجِبٌ ، وَعَنِ الَّذِى هُوَ شُبْهَةٌ تَقْوًى وَوَرَعٌ ، وَهٰذَا أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ عِنْدَنَا .

[ثالثها] ماترجح فيه الأصل على الأصح ، وضابطه أن يستند الاحتمال فيه إلى سبب ضعيف وأمثلته لاتكاد تنحصر . ومنها مامر فى نحو ثياب الخمارين ، ومالو أدخل كلب رأسه فى إناء وأخرجه وفمه رطب ولم يعلم ولوغه فهو طاهر ، وما لو تنحنح إمامه فظهر منه حرفان فلا يفارقه لأن الأصل بقاء صلاته ولعله معذور ، ومالو امتشط محرم فرأى شعرا وشك هل نتفه أو انتتف فلا فدية عليه لأن النتف لم يتحقق ، والأصل براءة الذمة .

[رابعها] ماترجح فيه الظاهر على الأصل ، وضابطه أن يكون سببا قويا منضبطا . فلو شك بعد الصلاة فى ترك ركن غير النية والتحرم أو شرط كأن تيقن الطهارة وشك فى ناقضها لم تلزمه الإعادة لأن الظاهر مضى عبادته على الصحة ، أو شك بعد فراغ الفاتحة أو الاستنجاء أو غسل الثوب فى بعض كلماتها أو هل استجمر بحجرين أو ثلاث أو هل استوعب الثوب لم يؤثر لذلك ، ولو اختلفا فى صحة عقد صدق مدعيها لأن الظاهر جريان العقود بين المسلمين على قانون الشرع ؛ وفى تعارض الأصلين تارة يجزم بأحدهما وتارة يجرى خلاف ، ويرجح ماعضده ظاهر وغيره . قال ابن الرفعة : ولو كان فى جهة أصل وفى أخرى أصلان قدما جزما . قال الامام : وليس المراد بتعارضهما تقابلهما على جهة واحدة فى الترجيح فإن هـذا كلام متناقض ، بل المراد التعارض بحيث يتخيل الناظر فى ابتداء نظره ، فإذا حقق فكره رجح (ثم الامتناع عن الذى هو حرام محض حتم واجب) بمعنى واحد (و) الامتناع (عن الذى هو شبهة تقوى وورع ، وهـذا) أى ماقاله آخرون (أولى القولين) أى أفضلهما (عندنا) .

واعلم أن الورع عن الحرام على أربع درجات :

[الأولى] ورع العدول والمزكين ، وهو الذى يجب الفسق باقتحامه والتعرض له وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه وهو الورع عن كل ماتحرمه فتاوى الفقهاء فى الظاهر وهو أول المراتب ، وفى هذا وقع النزاع بين الإمامين التقى السبكى وابن عدلان ، فأثبته السبكي ، ونفاه ابن عدلان كما هو مصرح به فى الطبقات الكبرى للتاج السبكى فى ترجمة ابن عدلان .

[الثانية] ورع الصالحين ، وهو الامتناع عما عسى يتطرق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتى إذا رفع إليه مثل هذه الحادثة يرخص فى التناول منه بناء على الظاهر ، ولا يلتفت إلى مايتطرق ويقول نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، ثم يقول : تطرق احتمال التحريم متوقع ولم يقع بعد فلا حكم له عندى فهو إذن من مواقع الشبهة على الجملة فلنسم هذا التحرج عن مثل ذلك ورع الصالحين لأنهم الذين يتجنبون عن مواقع الشبهة فى الحال والمتواقع ، وهو فى الدرجة الثانية بالنسبة إلى ورع العدول .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُ فِي قَبُولِ جَوَائِزِ السَّلَاطِينِ فِي هٰذَا الزَّمَانِ . فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَقَالَ قَوْمٌ : كُلُّ مَالَا يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَلَهُ أَخْذُهُ . وَقَالَ آخَرُونَ : لَا يَحِلُّ أَنْ يَأْخُذَ مَالَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ حَلَالٌ ، لِأَنَّ الْأَغْلَبَ فِي هٰذَا الْعَصْرِ عَلَى أَمْوَالِ السَّلَاطِينِ الْحَرَامُ ، وَالْحَلَالُ فِي أَيْدِيهِمْ مَعْدُومٌ أَوْ عَزِيزٌ . وَقَالَ قَوْمٌ : إِنَّ صِلَاتِ السَّلَاطِينِ تَحِلُّ لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ إِذَا لَمْ يَتَحَقَّقْ أَنَّهَا حَرَامٌ ، وَإِنَّمَا التَّبِعَةُ عَلَى الْمُعْطِي ، قَالُوا : لِأَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قَبِلَ هِدِيَّةَ الْمُقَوْقِسِ مَلِكِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ

[الثالثة] مالا تحرمه الفتوى الشرعية ومع ذلك لاشبهة فى حله فى الحال ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم شرعى وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس وهذا ورع المتقين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مابه بأس » أي يترك تناول الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام ، رواه ابن ماجه .

[الرابعة] مالا بأس به أصلا ولا يخاف أن يؤدى إلى مابه بأس ولكنه يتناول لغير الله عز وجل ، ولا يتناول على نية التقوى به علي عبادة الله وحسن طاعته أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة إليه كراهية أو معصية ، فالامتناع على هذه الصورة من التناول وهو ورع الصديقين هو أعلى المراتب فى الورع ، كما أن الصديقية أعلى المراتب بعد النبوة . (فإن قيل : فما تقول فى قبول جوائز) جمع جائزة : وهى العطية أى عطايا (السلاطين) والأمراء (فى هذا الزمان ، فاعلم أن العلماء) رحمهم الله تعالى (اختلفوا فيه) أى فى القبول (فقال قوم) منهم (كل مالا يتيقن أنه حرام فله) أى فيجوز للشخص (أخذه . وقال آخرون : لايحل أن يأخذ) من السلاطين (مالا يتحقق أنه حلال) فلا تحل شبهة أصلا (لأن الأغلب فى هذا العصر على أموال السلاطين الحرام والحلال في أيديهم) أى السلاطين (معدوم أو عزيز) أى قليل وجوده ؛ نقل كلا من القولين أبو طالب المكي فى القوت . قال حجة الإسلام وكلاهما إسراف والاعتدال ماذكرنا وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراما حرم ، وإن كان الأغلب حلالا وفيه يقين حرام فهوموضع توقفنا فيه . (وقال قوم : إن صلات السلاطين) جمع صلة بمعنى العطية (تحل للغنى والفقير إذا لم يتحقق أنها) أى تلك الصلات (حرام ، وإنما التبعة) أى الذنب (على المعطى ، قالوا) محتجين بذلك (لأن النبي صلي الله عليه وسلم قبل هدية المقوقس) بكسر الميم وسكون القاف الأولى مع فتح الواو والقاف الثانية (ملك الإسكندرية) مدينة مشهورة على ساحل البحر ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة .

ذكر السيوطى فى المحاضرة نقلا عن هشام وغيره أنه لما كانت سنة ست من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه إلى المقوقس بكتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط : سلام على من

وَاسْتَقْرَضَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ : (أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ) قالوا : وَقَدْ أَدْرَكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَيَّامَ الظَّلَمَةِ وَأَخَذُوا

اتبع الهدى : أما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، «يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » فلما قرأه أخذه وضمه إلى صدره وجعله في حق من عاج وختم عليه ، ثم دعا كاتبا يكتب بالعربية : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك : أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعوإليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج من الشأم وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك جاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبغلة شهباء وحمارا أشهب وثيابا من قباطى مصر وعسلا من بنها ، فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلمه أن كل ذلك هدية قبله رسول الله صلي الله عليه وسلم وأبقى عنده مارية أم إبراهيم ووهب أختها لجهم بن قيس العبدى ، وسمى البغلة دلدل ، وسمى الحمار يعفور ، وأعجبه العسل فدعا لبنها بالبركة فبقيت . وفى تهذيب الأسماء : المقوقس : صاحب الإسكندرية الكافر الذى أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مارية أم إبراهيم وأختها مسيرين والبغلة ، ذكره ابن منده وأبو نعيم فى كتاب الصحابة ، وما زال نصرانيا . ومنه فتح المسلمون مصر فى خلافة عمر رضى الله عنه . قال ابن ما كولا اسم المقوقس جريج ، يعنى بجيمين أولهما مضمومة (و) قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم (استقرض) أى طلب القرض ، وهو بفتح القاف أشهر من كسرها ، ويطلق اسما بمعنى الشيء المقرض ومصدرا بمعنى الإقراض وهو تمليك الشيء على أن يرد بدله ، وسمى بذلك لأن المقرض يقطع للمقترض من ماله ويسميه أهل الحجاز سلفا (من اليهود) . روى الشيخان عن عائشة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودى طعاما إلى أجل ورهنه درعا له حديد » انتهى ، واليهودى يقال له أبو الشحم رهن ذلك على ثلاثين صاعا من شعير لأهله ، وفارق صلي الله عليه وسلم الدنيا ولم يفتكه على الأصح كما فى [أسنى المطالب] وإنما افتكه سيدنا على كرم الله وجهه ، خلافا لما ذكره القليوبى على الخطيب ، وأما حديث « نفس المؤمن مرهونة بدينه حتى يقضى عنه » : أى محبوسة فى القبر غير منبسطة فهو محمول على غير الأنبياء تنزيها لهم ، على أنه فى حق من قصر بالاستدانة ولم يخلف وفاء ، أما من لم يقصر فى الاستدانة أو خلف وفاء فلا تحبس نفسه ، قال القسطلانى : وفي هذا الحديث بيان جواز معاملة غير المسلمين وإن كانوا يأكلون أموال الربا كما أخبر الله تعالى عنهم ولكن مبايعتهم وأكل طعامهم مأذون لنا فيه بإباحة الله . وقد ساقاهم النبي صلى الله عليه وسلم على خيبر كما فى الخبر ، وذلك (مع قول الله سبحانه : أكالون) أى اليهود (للسحت) أى الحرام كالرشا (قالوا) أى الذين جوزوا أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام (وقد أدرك جماعة من الصحابة) رضوان الله عليهم (أيام الظلمة) الجائرين (وأخذوا)

مِنْهُمْ ، فَمِنْهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمْ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

الأموال (منهم) أى من الظلمة (فمنهم) أى من هؤلاء الجماعة (أبو هريرة) أخـذ من مروان ابن الحكم ويزيد بن معاوية ومن عبد الملك بن مروان (و) عبد الله (بن عباس و) عبد الله (ابن عمر) أخذ من الحجاج بن يوسف الثقفى ، كان عاملا من طرف عبد الملك (وغيرهم) أى هؤلاء الثلاثة كأبى سعيد الخدرى وزيد بن ثابت وأبى أيوب الأنصارى وجرير بن عبـد الله وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك (رضوان الله عليهم أجمعين) وأخذ كثير من التابعين : منهم الشعبي وإبراهيم النخعى والحسن البصرى وابن أبى ليلى ، وأخذ الشافعى رحمـه الله من هارون الرشيد ألف دينار فى دفعة واحدة ، وأخذ مالك من الخلفاء أموالا جمة كالمنصور والمهدى . وقال على كرم الله وجهه : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر ، قال حجة الإسلام الغزالى . وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعا مخافة على دينه أن يحمل أخذه ذلك على مالا يحل : ألا ترى إلى قول أبى ذر رضى الله عنـه للأحنف بن قيس : خذوا العطاء ماكان نحلة ، فاذا كان أثمـان دينكم فدعوه . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إذا أعطينا قبلنا ، وإذا منعنا لم نسأل ، وهو مصداق الخبر المشهور « إذا أوتيت من غير سؤال فخذه وتموله » وعن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة : كان إذا أعطاه معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية سكت وإن منعه وقع فيه : أى تـكلم وعاتب على تأخير عطائه . وعن حبيب بن أبى ثابت قال : رأيت هدايا المختار بن عبيد تأتى إلى ابن عمر وابن عباس فيقبلانها . وعن الحسن أنه كان يأخذ هدايا الأمراء . وعن محمد بن الحسن عن أبى حنيفة عن حماد : أن ابراهيم النخعى خرج إلي زهير بن عبـد الله الأزدى وكان عاملا على حلوان يطلب جائزته هو وذر الهمدانى . قال محمد وبه نأخذ مالم نعرف شيئا حراما بعينه ، وهو قول أبى حنيفة . وعن الزبير بن عدى : أنه قال : قال سلمان الفارسى رضى الله عنه : إذا كان لك صديق عامل على عمل من أعمال السلطان أو تاجر يقارف الربا فى معاملته فدعاك إلى طعام أو نحوه أو أعطاك شيئا فاقبله ، فان المهنأ لك : أى حيث لم تعرفه وعليـه الوزر حيث علمه ، فإذا ثبت هذا فى المرابى فالظالم فى معناه : أى يجوز قبول عطيته والإجابة إلى دعوته كما صرح به المصنف . وقال النخعى : لا بأس بجائزة العمال أن للعامل مؤنة ورزقا يعطاه تحت عمالتـه ، ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فما أعطاك فهو من طيب ماله ، فقد ظهر لك أنه أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم فى معصية الله تعالى ، وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من أخذها لا يدل على التحريم ، بل على الورع والاحتياط كالخلفاء الراشدين وأبى ذر وغيرهم من الزهاد رضى الله عنهم فانهم امتنعوا من الحلال المطلق زهدا ، ومن الحلال الذى يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعا وتقوى ؛

وَقَالَ آخَرُونَ : لا يحلُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ لِغَنِيٍّ وَلاَ لِفَقِيرٍ ، إِذْ هُمْ مَوْسُومُونَ بِالظُّلْمِ ، والْغَالِبُ عَلَى مَالِهِمِ السُّحْتُ وَالْحَرَامُ وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ فَيَلْزَمُ الاجْتِنَابُ . وَقَالَ آخَرُونَ : مَالاَ يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ حَرَامٌ فَهُوَ حَلاَلٌ لِلْفَقِيرِ دُونَ الْغَنِيِّ إِلاّ أَنْ يَعْلَمَ الْفَقِيرُ أَنَّ ذٰلِكَ عَيْنُ الْغَصْبِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ إِلَّا لِيَرُدَّهُ عَلَى مَالِكِهِ ، وَلاَ حَرَجَ عَلَى الْفَقِيرِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ مِلْكَ السُّلْطَانِ فَأَعْطَى الْفَقِيرَ فَلَهُ أَخْذُهُ بِلاَ رَيْبٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فَيْءٍ أَوْ خِرَاجٍ أَوِ عُشْرٍ فَلِلْفَقِيرِ فِيهِ حَقٌّ وَكَذٰلِكَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ قَالَ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ : مَنْ دَخَلَ الْإِسْلاَمَ طَائِعاً وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ظَاهِرًا فَلَهُ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ سَنَةٍ مَائَتَا دِرْهَمٍ وَرُوِى مائتا دِينَارٍ إِنْ لَمْ يَأْخُذْهَا

فإقدام هؤلاء عليها يدل على الجواز ، وامتناع أولئك لا يدل على التحريم . (وقال آخرون : لا يحل من أموالهم) أى السلاطين الظلمة (شيء لغني ولا لفقير ، إذ هم) أى الظلمة (موسومون) أى معلومون (بالظلم والغالب على مالهم السحت والحرام) بمعنى واحد (والحكم للغالب ، فيلزم الاجتناب . وقال آخرون : مالا يتيقن) من أموالهم (أنه حرام فهو حلال للفقير دون الغنى إلا أن يعلم الفقير أن ذلك) المأخوذ من أموالهم (عين الغصب فليس) أى لا يجوز (له) أى للفقير أن يأخذه) أى المال الذى علم أنه عين الغصب (إلاليرده) أى يرد الفقير المال المغصوب (على مالكه) أى المغصوب ، وحينئذ جاز له الأخذ لقصد ذلك (ولاحرج) أى لا إثم (على الفقير أن يأخذ من أموال السلطان ، لأنها إن كانت) أى تلك الأموال (ملك السلطان) وحقه (فأعطى) السلطان (الفقير فله أخذه) أى المال الذى يعطيه السلطان (بلا ريب) أى بلا شك (وإن كانت) أى تلك الأموال (من فيء) وهو مانيل من الكفار بعد أن تضع الحرب أوزارها . وفي المصباح : الفيء : الخراج والغنيمة سمى فيئا تسمية بالمصدر لأنه فاء من قوم إلى قوم وهو بالهمزة ولا يجوز الإدغام (أو خراج) أى جزية مأخوذة عن الرءوس والأرضين (أو عشر) يؤخذ من الكفار إذا اختلفوا إلى بلاد المسلمين (فللفقير فيه) أى فى المأخوذ من الفيء أو الخراج أو العشر (حق ، وكذلك) أى يثبت الحق (لأهل العلم . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : من دخل الإسلام طائعا) غير مكره (وقرأ القرآن ظاهرا فله فى بيت مال المسلمين كل سنة مائتا درهم ، وروى مائتا دينار) الدينار : أىّ الذى هو مثقال عشرون قيراطا ، والدرهم أربعة عشر قيراطا ، والقيراط خمس شعيرات ، فيكون الدرهم الشرعى سبعين شعيرة ، والمثقال مائة شعيرة ، فهو درهم وثلاث أسباع درهم ، كذا ذكره العلامة عبد الحق نقلا من الدر المختار (إن لم يأخذها)

فى الدُّنيا أخذها فى الآخرة ، وإذا كانَ كَذلِكَ فالفقيرُ والعالِمُ يأخُذانِ مِنْ حقِّهما قالُوا : وَإِذا كانَ المالُ مُخْتلطاً بمالٍ مَغْصُوبٍ لايمكنُ تمييزُهُ أَوْ غَصْباً لايُمْكِنُ رَدُّه عَلى صاحِبه وَذُرِّيَّتِهِ فَلاَ مَخْلَصَ للسُّلْطَانِ مِنْهُ إلاَّ بأَنْ يَتصدَّقَ به ، وَما كانَ اللهُ لِيأمُرَهُ بالصَّدَقَةِ عَلى الْفَقِيرِ وَيَنْهى الْفَقِيرَ عَنْ قَبُولِها أَوْ يَأْذَنَ لِلفَقِيرِ فى الْقَبُولِ وَهُوَ عَلَيْهِ حَرَامٌ ، فَإِذنْ للفَقِيرِ أَنْ يأْخُذَ إلاَّ عَيْنَ الْغَصْبِ وَالْحَرامِ فَلَيْسَ لَهُ أَخْذُهُ .

أى تلك الدراهم والدنانير المذكورات (فى الدنيا أخذها فى الآخرة ، وإذا كان) الأمر (كذلك) أى ماقاله على بن أبى طالب كرم الله وجهه (فالفقير والعالم يأخذان من حقهما . قالوا) أى العلماء (وإذا كان المال مختلطا بمال مغصوب لايمكن تمييزه) أى المال عن المغصوب (أو) كان المال (غصبا لايمكن رده على صاحبه وذريته فلامخلص) أى لاخلوص (للسلطان منه) أى من المال المختلط (إلا بأن يتصدق) أى السلطان (به) أى بذلك المختلط (وما كان الله ليأمره) أى السلطان (بالصدقة على الفقير وينهى) الله (الفقير عن قبولها) أى الصدقة (أو يأذن) جل وعز (للفقير فى القبول ، وهو) أى هذا القبول (عليه) أي على الفقير (حرام ،فاذن) أى حين لايحرم القبول على الفقير (للفقير) أى يجوز له (أن يأخذ) مال السلطان (إلا عين الغصب والحرام فليس له أخذه) أى المال المأخوذ من عين الغصب .

والحاصل أن الورع فى حق السلاطين أربع درجات :

[الدرجة الأولى] أن لايأخذ من أموالهم أصلا كثر أو قل كما فعله الورعون وكما يفعله الخلفاء الراشدون ، حتى إن أبا بكر رضى الله عنه حسب جميع ماكان يأخذه من مال بيت المال ، فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال وردها إليه ؛ وحتى إن عمر رضى الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوما فدخلت أبنة له وكان يحبها حبا شديدا فأخذت درهما من المال فنهض عمر رضى الله عنه فى طلبها حتى سقطت الملحفة عن منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها فزعة تبكى وجعلت الدرهم فى فمها حرصا عليه فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطرحه على الخراج وقال : يا أيها الناس : ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم وكسح أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه بيت المال بعد تقسيم مافيه على المستحقين فوجد درهما فمر بنى لعمر رضى الله عنه فأعطاه أبو موسى الدرهم فرأى عمر فى يد الغلام الدرهم فسأله عنه ، فقال أعطانيه أبو موسى ، فقال : يا أبا موسى ماكان فى أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر ، أردت أن لايبقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد إلا طلبنا بمظلمة ورد الدرهم إلى بيت المال هذا مع أن المال كان حلالا لأنه كان مال الغنائم والفىء ولـكن خاف أن لايستحق هو ذلك القدر فـكان يستبرئ لدينه ويقتصر على الأقل امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » ولقوله « من ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » ولما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات والزواجر فى الأموال السلطانية حتى إنه قال

صلى الله عليه وسلم حين بعث أبا الوليد عبادة بن الصامت إلى الصدقة « اتق الله يا أبا الوليد لاتجىء يوم القيامة ببعير تحمله علي رقبتك له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثؤاج ، فقال يا رسول الله أهكذا يكون ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده إلا من رحم الله وتجاوز عنه ، قال عبادة فوالذى بعثك بالحق لا أعمل على شىء أبدا » وروى أن ابنا لطاوس افتعل كتابا على لسانه إلى عمر بن عبد العزيز فأعطاه ثلثمائة دينار فباع طاوس ضيعة له باليمن وبعث من ثمنها إلى عمر بثلثمائة دينار ، وهذا مع أن السلطان مثل عمر بن عبد العزيز وناهيك به زهدا وورعا ، فهذه هى الدرجة العليا فى الورع .

[الدرجة الثانية] هو أن يأخذ مال السلطان ولكن إنما يأخذه إذا علم أن مايأخذه من جهة حلال فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لايضره ، وعلى هذا ينزل جميع مانقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها بأكابر الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر رضى الله عنه فإنه كان من المبالغين فى الورع فكيف يتوسع فى مال السلطان وقد كان من أشدهم إنكارا عليهم وأشدهم ذما لأموالهم ، وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر وهو فى مرضه الذى مات فيه وأشفق على نفسه من ولايته للأعمال وكونه مأخوذا عند الله تعالى بها ، فقالوا له إنا لنرجو لك الخير من الله تعالى حفرت الآبار فى طريق البصرة إلى مكة وسقيت الحاج وصنعت كذا وصنعت كذا يعددون عليه من الخيرات وابن عمر ساكت لايتكلم ، فقال ابن عامر ماذا تقول يا ابن عمر ؟ فقال أقول ذلك إذا طاب المكسب وزكت النفقة وسترد يوم القيامة فترى وتعاين . وفى حديث آخر أنه قال « إن الخبيث لايكفر الخبيث » ، وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شرا ، فقال له ابن عامر ألا تدعو لى ؟ فقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول « لايقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » فهذا قوله فيم صرفه إلى الخيرات فما ظنك بغيرها . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى: ماشبعت من الطعام منذ انتهبت الدار يوم قتل عثمان إلى يومى هذا ، وروى عن على رضى الله عنه أنه كان له سويق فى إناء مختوم يشرب منه ، فقيل أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه ؟ فقال: أما إنى لاأختمه بخلا به ولكن أكره أن يجعل فيه ماليس منه وأكره أن يدخل بطنى غير طيب،فهذا هو المألوف منهم والمحكى فى سيرهم . وكان ابن عمر لايعجبه شىء إلا خرج منه فطلب منه نافع مولاه بثلاثين ألفا فقال إنى أخاف أن تفتننى دراهم ابن عامر وكان هو الطالب اذهب فأنت حر ، فبهذا يتضح أنه لايظن به وبمن كان فى منصبه من أمثاله أنه أخذ ما لايدرى أنه حلال حاشاهم من تلك .

[الدرجة الثالثة] أن يأخذ مايأخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين فإن كل مالا يتعين مالكه، هذا حكم الشرع فيه ، فإذا كان السلطان بحيث إن لم يؤخذ منه ذلك المال لم يفرقه على أرباب الاستحقاق واستعان به على ظلمه وما يحمله على ارتكاب أسبابه ، فقد قال المصنف رحمه الله : إن أخذه وتفرقته على من يستحقه أولى من تركه فى يد السلطان ، وهذا قد رآه بعض العلماء جائزا،وعلى هذا ينزل ماأخذه أكثرهم ، وكذا قال ابن المبارك

إن الذين يأخذون الجوائز اليوم من السلاطين ويحتجون بابن عمر وعائشة وبغيرهما ما يقتدون بهم ، لأن ابن عمر فرق ما أخذ جميعه حتى استقرض فى مجلسه بعد تفرقته ستين ألفا ، وعائشة فعلت مثل ذلك ، وجابر بن زيد قبل ما لا فتصدق به وقال رأيت أنى آخذه منهم وأتصدق أحب إلى من أن أدعها فى أيديهم ، وهكذا فعل الشافعى رحمه الله بما قبله من هارون الرشيد وهو ألف دينار فإنه فرقه على قريش كله عن قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة .

[الدرجة الرابعة] ألا يتحقق أن المأخوذ حلال ولا يفرقه بل يستبقى عنده ولكن يأخذه من سلطان أكثر ماله حلال، وهكذا كان الخلفاء فى زمان الصحابة والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر مالهم حراما، ويدل عليه تعليل على رضي الله عنه حيث قال فان ما يأخذه من الحلال أكثر وهذا مما جوزه جماعة من العلماء تعويلا على الأكثر . فاذا فهمت هذه الدرجات الأربع تحققت أن إدرارات الظلمة فى زماننا لا تجرى مجرى ذلك ، وأنها تفارقه من وجهين قاطعين للنزاع : [أحدهما] أن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها ؛ وكيف لا والحلال من أموالهم إنما هو بحسب مداخلها مثل الصدقات والفئ والغنيمة ولا وجود لهذه الثلاثة وليس يدخل منها شئ فى يد السلطان الآن ولم يبق إلا الجزية المضروبة على الكفار وإنما تؤخذ منهم بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به فإنهم يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء لهم بالشرط ، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره فلا حول ولا قوة إلا بالله .

[والوجه الثانى] أن الظلمة فى العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم . وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال منهم ولا إذلال لمنصبهم بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ما يرسلون ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون على المستحقين ، ولا يطيعون السلاطين فى أغراضهم صحيحة كانت أو فاسدة ، ولا يغشون مجالسهم ولا يكثرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم فى الدنيا بل يدعون عليهم بالويل والهلاك ، ويطلقون اللسان فيهم بالكلام ، وينكرون المنكرات منهم ، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم فلم يكن بأخذهم بأس ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا فى استخدامه واستصحابه والتكثر به لسوادهم والاستعانة به على أغراضهم الدنيوية والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية لهم ، والإطراء فى حضورهم ومغيبهم ، فلو لم يذل الآخذ منهم نفسه بالسؤال أولا ، وبالتردد فى الخدمة ثانيا ، وبالثناء الحسن والدعاء بالبقاء ثالثا ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة به رابعا ، وبتكثير جمعه فى مجلسه وموكبه خامسا وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا : وبالستر على ظلمه ومقابحه ومفاسده ومساوى أعماله سابعا ، وبالانتساب إليه فى أحواله ثامنا ، والتعويل عليه فى مهماته تاسعا ، وجر

وَهٰذِهِ الْمَسَائِلُ لَا يُمْكِنُ الْفَتْوَى فِيهَا إِلَّا بِبَسْطٍ وَتَشْقِيقٍ ، وَاسْتِيعَابُ الْقَوْلِ فِيهَا يُخْرِجُ عَنِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْكِتَابِ ، فَإِنْ أَرَدْتَ مَعْرِفَتَهَا فَطَالِعْ كِتَابَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مِنْ كِتَابِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ الَّذِي صَنَّفْنَاهُ تَجِدْهُ مَشْرُوحًا مبيَّنًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُ فِي صِلَاتِ أَهْلِ السُّوقِ وَغَيْرِهِمْ هَلْ يَلْزَمُ رَدُّهَا أَوِ الْبَحْثُ عَنْهَا وَقَدْ عَلِمْتَ مُجَازَفَتَهُمْ وَقِلَّةَ نَظَرِهِمْ فِي مُعَامَلَتِهِمْ وَكَذٰلِكَ صِلَاتُ الْإِخْوَانِ . فَالْجَوَابُ أَنَّهُ

أسباب تحصيل الأموال إليه عاشرا لم ينعم عليه بدرهم واحد ، بل لم يلتفت إليه ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلا . فإذن لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان مايعلم أنه حلال لا فضائه إلى هذه المعاني العشرة فكيف مايعلم أنه حرام أو يشك فيه ، فمن استجرأ على أخذ أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين بأنهم قد أخذوا من أمراء زمانهم ، فقد قاس الملائكة بالحدادين وأين هم من هؤلاء ، ففي أخذ الأموال منهم حاجة داعية إلى مجالسهم ومراعاتهم وخدمة عمالهم وأتباعهم المنسوبين إليهم واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلي أبوابهم بكرة وعشية ، وكل ذلك معصية كما بينه المصنف رحمه الله ، فاذا قد تبين مما ذكر مداخل أموالهم وما يحل منها ومالا يحل ، فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس في بيته ، فيساق إليه بلا سؤال ولا إرسال واسطة ولا إذلال لايحتاج فيه إلى تفقد عامل من عمالهم وخدمته ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم في المجالس ولا إلى مساعدتهم إن احتاجوا إليه ، فلا يحرم الأخذ من هذا الوجه ولكن يكره ذلك (وهذه المسائل) المذكورة (لايمكن الفتوى فيها إلا ببسط) أي زيادة طلب (وتشقيق) أي مشقة كما في سراج السالكين (و) أما (استيعاب القول فيها) أي في تلك المسائل فهو (يخرج عن المقصود) وهو الاختصار (من) هذا (الكتاب) المسمى : [المنهاج] (فان أردت معرفتها) أي المسائل (فطالع كتاب الحلال والحرام من كتاب إحياء علوم الدين الذي صنفناه تجده) أي ماأردت معرفته من مسائل الحلال والحرام والشبهات ونحوذلك (مشروحا مبينا إن شاء الله تعالى) ولكن بعض تلخيصه مسطور في هذا الشرح . (فان قيل : فما تقول في صلاة أهل السوق؟) أي عطاياهم (وغيرهم) أي من الذين يجازفون في معاملتهم (هل يلزم ردها) أي الصلات أم لا؟ (أو) هل يلزم (البحث عنها) أي تلك الصلات أم لا؟ (و) الحال أنهم (قد علمت مجازفتهم) أي مساهلتهم . قال الفيومي : الجزاف بيع الشيء لايعلم كيله ولا وزنه ، وهو اسم من جازف مجازفة من باب قتل . وقال ابن القطاع : جزف في الكيل جزفا : أكثر منه ، ومنه الجزاف والمجازفة في البيع وهو المساهلة والكلمة دخيلة في العربية ، ويؤيده قول ابن فارس : الجزف : الأخذ بكثرة كلة فارسية ، ويقال لمن يرسل كلامه إرسالا من غير قانون جازف في كلامه فأقيم نهج الصواب مقام الكيل والوزن (وقلة نظرهم في معاملتهم وكذلك) أي مثل صلات أهل السوق ومن في معناهم (صلات الإخوان) أي المسلمين(فالجواب أنه) أي الحال

إِذَا كَانَ ظَاهِرُ الإِنْسَانِ الصَّلَاحَ وَالسَّتْرَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ فِى قَبُولِ صِلَتِهِ وَصَدَقَتِهِ وَلَا يَلْزَمُ الْبَحْثُ بِأَنْ تَقُولَ قَدْ فَسَدَ الزَّمَانُ فَإِنَّ هٰذَا سُوءُ ظَنٍّ بِذٰلِكَ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ ،

والشأن (إذا كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر) عن الفسق (فلا حرج) أى لا إثم (عليك فى قبول صلته وصدقته) أى ذلك الإنسان (ولا يلزم) عليك (البحث) والتفتيش وذلك (بأن تقول قد فسد الزمان) والظلم غالب على الناس فهذا منهم (فان هذا) البحث والتجسس وسواس شيطانى و (سوء ظن بذلك الرجل المسلم) بعينه ، وإن بعض الظن إثم وباله على صاحبه وهذا الرجل المسلم يستحق باسلامه عليك ألا تسىء الظن به فانك قد نهيت عنه . قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » رواه الشيخان ، فان أسأت الظن بهذا المسلم بعينه لأنك رأيت فسادا من غيره بسوء ظنك فقد جنيت عليه وأثمت به فى الحال نقدا من غير شك ، ولو أخذت المال لكان كونه حراما مشكوكا فيه ، لأن كلا من الاعتقادين لهما سببان متقابلان ويدل على ذلك القبول من غير بحث أنا نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم فى أيام غزواتهم على الكفار وسائر أسفارهم وتحركاتهم كانوا ينزلون فى القرى بالضم جمع قرية ولا يردون القرى بالكسر الضيافة ويدخلون البلاد ولا يحترزون من الأسواق التى فيها ، وكان الحرام أيضا موجودا فى زمانهم بالكثرة ، وما نقل عنهم سؤال ولا بحث إلا عن ريبة وتهمة إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسأل عن كل ما يحمل إليه فى كل أحيانه بل سأل فى أول قدومه إلى المدينة مهاجرا عما يحمل إليه أصدقة أم هدية ؟ كما رواه أحمد والحاكم، لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين الأولين إلى المدينة وهم فقراء لكونهم خرجوا بأنفسهم مجردين عن أملاكهم فارين بدينهم فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم من الطعام يحمل بطريق الصدقة لا غير ، ثم إسلام المعطى ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة ، وكان صلى الله عليه وسلم يدعى إلى الضيافات فيجيب إليها، ولا يسأل أصدقة أم لا؟ كما هو مشهور معروف فى الصحيحين ، لأن العادة ما جرت بالتصدق بالضيافة ولذلك دعته أم سليم ودعاه الخياط كما فى الحديث الذى رواه أنس بن مالك ، وقدم إليه طعاما فيه قرع ودعاه الرجل الفارسى ، فقال صلى الله عليه وسلم أنا وعائشة ؟ فقال لا ثم أجابه بعده فذهب هو وعائشة رضى الله عنها يتساوقان فى المشى فقدم إليهما إهالة بالكسر: الودك الذاب ولم ينقل السؤال من ذلك أصدقة أم لا ؟ وسأل أبو بكر رضى الله عنه عبده عن كسبه لما رابه من أمره ، وسأل عمر رضى الله عنه الذى سقاه اللبن من إبل الصدقة إذ رابه فإنه أعجبه طعمه ، ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة وهذه أسباب الريبة فكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا باجابته من غير تفتيش وبحث ، بل لو رأى فى داره تجملا ومالا كثيرا فليس له أن يقول الحلال عزيز قليل ، وهذا الذى أراه كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال؟ لأن هذا الشخص

بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ مَأْمُورٌ بِهِ .

بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا من مورثه بطريق الشرع أو اكتسبه من وجه طيب فهو بعينه يستحق إحسان الظن به ولا يقول إنه حرام ، ولايجوز له أن يسأله بل إن كان يتورع ولا يدخل جوفه إلا مايدرى من أين هو فهو حسن لابأس به فليتلطف فى الترك ، وإن كان لابد له من أكله فليأكل بغير سؤال ولا بحث إذ السؤال إيذاء له وهتك سترعنه وإيحاش له وهو حرام بلاشك، إذ قد ورد الوعيد فيمن آذى أخاه وفيمن هتك ستره . فان قلت : لعل هـذا الشخص لايتأذى بذلك السؤال ، فاعلم أن هذا لعله يتأذى فأنت تسأل حذرا من لعل ، فان قنعت بلعل فلعله ماله حرام . وليس الإثم المحذور فى إيذاء مسلم قولا أو فعلا بأقل من الإثم فى أكل الشبهة والحرام، والغالب على الناس حصول الوحشة بالتفتيش والبحث الدقيق ، ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدرى هو به لأن الايذاء فى ذلك أكثر ، وإن سأل من حيث لايدرى هو ففيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه تجسس وفيه تحسين وتزيين للغيبة ، وكل ذلك منهى عنه فى الكتاب العزيز ؛ وكم من زاهد جاهل يوحش القلوب فى التفتيش ويتكلم بالكلام الخشن المؤذى ، وإنما يحسن الشيطان ذلك عنده ويزينه طلبا للشهرة بين الناس بأكل الحلال ، ولو كان باعثه محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى ويستوحش أشد من خوفه على بطنه أن يدخله مالايدرى وهو غير مؤاخذ بما لايدرى إذ لم يكن هناك علامة توجب الاجتناب . وأما الإيذاء والتجسس والاغتياب فانه مؤاخذ بكل من ذلك ، فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس ، وإذا لم يكن بد من الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن ، وهذا هو المألوف المعروف من أحوال الصحابة رضى الله عنهم كما يعرفه من سبر سيرهم ، ومن زاد عليهم فى الورع فهو ضال عن الرشد مبتدع وليس بمتبع سنتهم ، فلن يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه ، ولو أنفق مافى الأرض جميعا كما جاء ذلك فى الخبر . كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام بريرة مولاة عائشة رضى الله عنها فقيل إنه صدقة فقال «هو لها صدقة ولنا هدية» ولم يسأل عن المتصدق عليها ، فكان المتصدق به عليها مجهولا عنده صلي الله عليه وسلم ولم يمتنع كما أخرجه الشيخان من حديث أنس رضى الله عنه (بل حسن الظن بالمسلمين مأمور به) قال عليه الصلاة والسلام « خصلتان ليس فوقهما شىء من الخير حسن الظن بالله وحسن الظن بالمسلمين» . وعن الإمام الشافعى رضي الله عنه : من أحب أن يختم له بخير فليحسن الظن بالناس . وقال سيدى الحبيب أبو بكر السكران باعلوى : مانلت مانلت إلا بحسن الظن فى الصالحين وجميع المسلمين . وقال سيدى الحبيب أبو بكر بن عبدالله العيدروس باعلوى : ماخسر صاحب حسن الظن وإن أخطأ فانه غير ملوم ، حسن الظن الكنز الأكبر والاسم الأعظم. احذروا سوء الظن فانه دليل علي الشقاء ويخشى منه سوء الخاتمة ، وعليكم بزيارة الأولياء والتعرف بهم فهم الوسائط إلى الله تعالى . وقال والده سيدى الحبيب عبد الله الملقب بالعيدروس : ترك الغيبة مملكة ، وترك النميمة سلطة ، وحسن الظن ولاية ، وهو معنى قول الجنيد

ثُمَّ أَعْلَمْ مَاهُوَ الأَصْلُ فِى هٰذَا الْبَابِ وَهُوَ أَنَّ هٰهُنَا شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا حُكْمُ الشَّرْعِ وَظَاهِرُهُ؛ وَالثَّانِى حُكْمُ الْوَرَعِ وَحَقُّهُ، فَحُكْمُ الشَّرْعِ أَنْ تَأْخُذَ مَا أَتَاكَ مِمَّنْ ظَاهِرُهُ صَلَاحٌ وَلاَ تَسْأَلْ إِلاَّ أَنْ تَتَيَقَّنَ أَنَّهُ غَصْبٌ أَوْ حَرَامٌ بِعَيْنِهِ ، وَحُكْمُ الْوَرَعِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ شَيْئًا مِنْ أَحَدٍ حَتَّى تَبْحَثَ عَنْهُ غَايَةَ الْبَحْثِ وَتَسْتَقْصِى غَايَةَ الْاسْتِقْصَاءِ

قدس سره : التصديق بعلمنا ولاية . أى لأن التصديق لايحصل إلا من صاحب حسن ظن . وقال الديريني رحمه الله : من أحب أن الوجود كله يمده بالخير، فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم فان المدد مع الخلق كالماء ، وهو إنما يجري فى المواضع المنخفضة ، وفى العهود: أخذ عليناالعهد العام من رسول الله صلي الله عليه وسلم أن نبجل العلماء والصالحين والأكابر وإن لم يعملوا بعلمهم ، ونقوم بواجب حقهم ونكل أ مم إلي الله تعالى ، فمن أخل بواجب حقوقهم من الإكرام والتبجيل فقد خان الله ورسوله ، فان العلماء نواب الله ورسوله وذلك كفر، وقد كفر بعضهم من قال عميمة عالم بالتصغير وروى الطبرانى « ثلاثة لايستخف بهم إلا منافق ذو الشيبة المسلم وذو العلم والإمام المقسط » أى العادل . قال الخطيب البغدادى : كل من حمل العلم ولم يتكلم فيه بجرح فهو عدل ، فكيف بمن ظهرت عدالته وحسن هديه ودلالته من غير ثبوت مايقتضى خلاف ذلك ، فهذا الذي نعتقد ولايته وقال السيد السمهودى : كنت مع شيخى شرف الدين المناوى رحمه الله تعالى فمررنا بقوم فوقع فى نفسى من بعضهم شيء وجال ذلك فى نفسى فكاشفنى الشيخ عنه وقال : جميع هؤلاء أعتقد ولايتهم ، لأنى ماعلمت من أحد منهم تقصيرا فى شيء من حقوق الله وحقوق عباده ، وما أحسن قول من قال من بحر الوافر :

إلهى لاتعذبنى فاني ... مقر بالذى قد كان منى
ومالى حيلة إلا رجائى ... وعفوك إن عفوت وحسن ظنى
فكم من زلة لى والخطايا ... وأنت علىّ ذو فضل ومن
إذا فكرت فى ندمى عليها ... عضضت أناملى وقرعت سنى
يظن الناس بى خيرا وإنى ... لشر الناس إن لم تعف عنى
أجن لزهرة الدنيا جنونا ... وأفنى العمر فيها بالتمنى

(ثم اعلم) أرشدك الله تعالى (ماهو الأصل فى هذا الباب) أى باب قبول الجوائز (وهو) أى ماهو الأصل (أن هاهنا) أى فى هذا الباب (شيئين: أحدهما حكم الشرع وظاهره والثاني حكم الورع وحقه فحكم الشرع) هو (أن تأخذ ماأتاك ممن ظاهره صلاح ولا تسأل) من أين هو (إلا أن تتيقن أنه) أى ماأتاك (غصب أو حرام بعينه) فلا تأخذه (و) أما (حكم الورع) فهو (أن لاتأخذ شيئا من أحد حتى تبحث عنه) أى عن ذلك الشيء (غاية البحث وتستقصى غاية الاستقصاء) أى تستتبع غاية التتبع

فَتَسْتَيْقِنَ أَنَّهُ لَاشُبْهَةَ فِيهِ بِحَالٍ وَإِلَّا فَتَرُدَّهُ ، فَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ غُلَامًا لَهُ أَتَاهُ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ ، فَقَالَ الْغُلَامُ : كُنْتُ إِذَا جِئْتُكَ بِشَيْءٍ تَسْأَلُنِي عَنْهُ وَلِمَ لَمْ تَسْأَلْنِي عَنْ هٰذَا اللَّبَنِ ؟ فَقَالَ : وَمَا قِصَّتُهُ ؟ فَقَالَ : رَقَيْتُ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْطَوْنِي هٰذَا ، فَتَقَيَّأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ : اللَّهُمَّ هٰذِهِ مَقْدِرَتِي ، فَمَا بَقِيَ فِي الْعُرُوقِ فَأَنْتَ حَسْبُهُ ،

والبحث (فتستيقن أنه لاشبهة فيه) أى الشيء الذى أتاك من أحد (بحال) من الأحوال (وإلا) بأن كان فيه شبهة (فترده) ولا تأخذه (فلقد روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : أن غلاما له أتاه) أى أتى الغلام أبا بكر (بلبن) من كسبه (فشربه) أى شرب أبو بكر ذلك اللبن (فقال الغلام) لأبى بكر يا سيدى (كنت إذا جئتك بشيء تسألنى عنه) أى عن أصل ذلك الشيء (ولم) مااستفهامية حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها على حد قوله :

وما فى الاستفهام إن جرت حذف ألفها وأولها الها إن تقف

أى لأى شيء وسبب (لم تسألنى عن هذا اللبن ؟) الذى شربته (فقال) أبو بكر (وما قصته) أى كيف خبر هذا اللبن وأى سبب نلت هذا (فقال) الغلام (رقيت) بفتح الراء والقاف من باب رمي والجمع رقى مثل مدية ومدى أى عوذت بالله ونفثت (قوما) وفى رواية : تكهنت أى أخبرتهم عن بعض الأمور المغيبة ، وفى أخرى للبخارى: تكهنت لإنسان (فى الجاهلية) وهى الحالة التى كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الإسلام وقال بعضهم المشهور أن الجاهلية اسم للناس الذين كانوا قبل الإسلام أى قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم كما صرح به الشيخ أبو على سموا بذلك لكثرة جهالاتهم (فأعطونى هذا) اللبن (فتقيأ أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال اللهم هذه) الفعلة وهي تقيؤه رضى الله عنه (مقدرتي) أى قدرتى (فما بقى) من اللبن المشروب (فى العروق) ويخلط فى الأمعاء (فأنت حسبه) أى كافيه، وفى رواية وقال اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء قال الزبيدى رواه أبو نعيم فى الحلية ولفظه حدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا عمرو بن مضمر البصرى حدثنا عبد الواحد بن زيد عن أسلم الكوفى عن مشرف الطيب عن زيد بن أرقم قال كان لأبى بكر مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة قال حملنى علي ذلك الجوع من أين جئت بهذا قال مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى فلما كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطونى قال أف لك كدت أن تهلكنى فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ وجعل لايخرج فقيل له إن هذه لاتخرج إلا بالماء فدعا بعس من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمي بها فقيل له رحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة فقال لولم تخرج إلا

فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُوبِ الْبَحْثِ عَمَّا تَقَدَّمُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ لَكَ نَظَرٌ فِي الْوَرَعِ وَحَقُّهِ فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَكَأَنَّ الْوَرَعَ يُخَالِفُ الشَّرْعَ وَحُكْمَهُ . فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرْعَ مَوْضُوعٌ عَلَى الْيُسْرِ وَالسَّمَاحَةِ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » وَالْوَرَعُ مَوْضُوعٌ عَلَى التَّشْدِيدِ وَالِاحْتِيَاطِ ، كَمَا قِيلَ الْأَمْرُ عَلَى الْمُتَّقِي أَضْيَقُ مِنْ عَقْدِ التِّسْعِينَ

مع نفسي لأخرجتها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » فخشيت أن ينبت فيه شيء من جسدي من هذه اللقمة ورواه عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة نحوه ورواه محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر نحوه وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك قال «أو ماعلمتم أن الصديق لايدخل جوفه إلا طيبا» (فهذا) الحديث (يدلك علي وجوب) التفتيش و (البحث عما تقدم) بفتح التاء وسكون القاف مع ضم الدال من باب نصر أي تجيء (عليه) أي من الأطعمة وغيرها (إن كان لك نظر) أي فكر (في الورع وحقه فهذه) الجملة المذكورة (هذه) أي عظيمة (فإن قلت فكأن الورع يخالف الشرع وحكمه فاعلم أن الشرع موضوع) أي وضعه الشارع (على اليسر والسماحة) أي التساهل والسعة (ولذلك) أي لأجل الموضوع على ذلك (قال النبي صلى الله عليه وسلم « بعثت) أي أرسلت (بالحنيفية السمحة ») أي الشريعة المائلة عن كل دين باطل فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل أي سهلة وآخره « من خالف سنتي فليس مني» أخرجه الخطيب عن جابر بن عبد الله وهو حديث حسن لغيره (والورع موضوع على التشديد والاحتياط كما قيل الأمر على المتقي أضيق من عقد التسعين) لأنه أضيق العقود .

[فائدة جليلة] ضع في بطن الكف للواحد الخنصر وللاثنين البنصر وللثلاثة الوسطى وللأربعة أقم الخنصر وللخمسة البنصر وللستة ضع البنصر وأقمها ثم ضع على أعلى الكف للسبعة الخنصر وللثمانية البنصر وللتسعة الوسطى وللعشرة رأس السبابة على خط وسط الإبهام وافتح البواقي وللعشرين تمام ظفره بين أصلي السبابة والوسطى وللثلاثين رأس الإبهام على رأسها وللأربعين على ظهر الأسفل منها وللخمسين على الخط بينهما في جانب الكف وللستين علي الأوسط منها وللسبعين علي الأعلى منها وللثمانين رأسها علي ظهر المفصل الأعلى منه وللتسعين على الأدنى منه هذه في اليمنى وكذلك في اليسري إلا أن آحادها مئات وعشراتها ألوف وما بين العقود بتركيب ما تحتها يبلغ تسعة آلاف كذا أفاده العلامة المحدث رفيع الدين الدهلوي عليه رحمة الله الغني القوي، وأفاده العلامة ابن عابدين رحمه الله في رفع التردد من عقد الأصابع عند التسمية الواحد ضم الخنصر لأقرب باطن

ثُمَّ الْوَرَعُ مِنَ الشَّرْعِ أَيْضاً وَكِلَاهُمَا فِي الْأَصْلِ وَاحِدٌ ، وَلٰكِنْ لِلشَّرْعِ حُكْمَانِ : حُكْمُ الْجَوَازِ، وَحُكْمُ الْأَفْضَلِ الْأَحْوَطِ ؛ فَالْجَائِزُ يُقَالُ لَهُ: حُكْمُ الشَّرْعِ ، وَالْأَفْضَلُ الْأَحْوَطُ يُقَالُ لَهُ: حُكْمُ الْوَرَعِ ، فَهُمَا مَعَ تَمَيُّزِهِمَا وَاحِدٌ فِي الْأَصْلِ ،فَافْهَمْ ذٰلِكَ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِذَا جَازَ الْبَحْثُ وَالِاسْتِقْصَاءُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَسَدَ عَلَيْنَا مَا نَأْخُذُهُ فِي هٰذَا الزَّمَانِ ، وَتَعَذَّرَ الْأَمْرُ بِمَرَّةٍ عَلَى صَاحِبِ الْوَرَعِ إِذْ لَابُدَّ لَهُ مِنْ بَلَاغٍ يُبَلِّغُهُ إِلَى الطَّاعَةِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ طَرِيقَ الْوَرَعِ شَدِيدٌ

الكف منه ضما محكما الاثنان ضم البنصر معها كذلك الثلاثة ضمهما مع الوسطى الأربعة ضمها ورفع الخنصر الخمسة ضم الوسطى فقط الستة بضم البنصر فقط السبعة ضم الخنصر فقط مع مدها حتى تصل إلى لحمة أصل الإبهام الثمانية ضم البنصر معها كذلك التسعة ضمها مع الوسطى كذلك العشرة جعل طرف السبابة على باطن نصف الإبهام العشرون أدخل الإبهام بين السبابة والوسطى بحيث يكون ظهرها بين عقدى السبابة الثلاثون إلزاق طرف السبابة بطرف الإبهام الأربعون وضع باطن الإبهام على ظاهر السبابة الخمسون عطف الابهام كأنها راكعة السبعون وضع طرف الابهام على وسط السبابة مع عطف السبابة إليها قليلا الثمانون مد الإبهام والسبابة كأنهما ملتصقان خلقة التسعون ضم طرف السبابة إلى أصلها وعطف الابهام عليها ثم انقل الحساب إلى اليد اليسرى واجعل المائة كعقد الواحد وهكذا . والحاصل أن عقد الخنصر والبنصر والوسطى من اليمنى للآحاد والسبابة والابهام للعشرات بتبديل كيفية الوضع وكذلك عقد الخنصر والبنصر والوسطى من اليسرى للمئات والسبابة والابهام منها للألوف فغاية ماتجمع اليمنى من العدد تسعة وتسعون وما تجمعه اليسرى تسعمائة وتسعة آلاف . هذا ، وقد يوجد فى بعض المواضع اختلاف فى بعض الكيفيات التى ذكرناها وكأنه اختلاف اصطلاح والله أعلم (ثم الورع من الشرع أيضا وكلاهما) أى الورع والشرع (فى الأصل واحد ولكن للشرع حكمان) الأول (حكم الجواز و) الثانى (حكم الأفضل الأحوط فالجائز يقال له حكم الشرع والأفضل الأحوط يقال له حكم الورع فهما مع تميزهما) أى الجائز والأفضل (واحد فى الأصل فافهم ذلك) المذكور من اتحاد الجائز والأفضل فى الأصل (راشدا) أى موافقا للصواب (إن شاء الله تعالى. فان قلت فاذا جاز البحث والاستقصاء) فى [محيط المحيط] استقصى استقصاء بلغ الغاية (عن كل شىء فسد علينا ما نأخذه) من أموال السلطان وغيره (فى هذا الزمان وتعذر) أى تعسر (الأمر بمرة على صاحب الورع إذ لابد) أى لاغنى (له) أى لصاحب الورع (من بلاغ) أى كفاية (يبلغه) أى يوصله (إلى الطاعة فاعلم أن طريق الورع) أى سلوك ذلك (شديد) إلا على من وفقه الله

وَأَنَّ مَنْ قَصَدَ سُلُوكَهُ يُشْتَرَطُ أَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ عَلَى احْتِمَالِ الشِّدَّةِ وَإِلاَّ فَلاَ يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى صَارَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ وَالسَّابِقُونَ إِلَى جَبَلِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهِ فَاقْتَصَرُوا عَلَى أَكْلِ الْحَشِيشِ وَثَمَرَاتٍ تَافِهَةٍ لاَ شُبْهَةَ فِيهَا بِحَالٍ ، فَمَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَى نَيْلِ مَنْزِلَةِ الْوَرَعِ الْأَعْلَى فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْتَمِلَ الشَّدَائِدَ وَيَصْبِرَ عَلَيْهَا ، وَيَسْلُكَ طَرِيقَ أُولَئِكَ

تعالى وبسره على ذلك والورع ورعان ورع فرض وورع حذر فالورع الفرض الورع عن معاصى الله تعالى والورع الحذر الورع عن الشبهات ولذلك قال العلامة أبو الليث رحمه الله علامة الورع أن يرى عشرة أشياء فريضة على نفسه أولها حفظ اللسان عن الغيبة لقوله تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضا » والثاني الاجتناب عن سوء الظن لقوله تعالى «اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم» ولقول النبى صلى الله عليه وسلم «إياكم والظن فإنه أكذب الحديث» والثالث الاجتناب عن السخرية لقوله تعالى « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » والرابع غض البصر عن المحارم لقوله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » والخامس صدق اللسان لقوله تعالى « وإذا قلتم فاعدلوا » والسادس أن يعرف نعمة الله على نفسه لكيلا يعجب بنفسه لقوله تعالى « بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين » والسابع أن ينفق ماله فى الحق ولا ينفقه فى الباطل لقوله تعالى «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» يعنى لم ينفقوا فى المعصية ولم يمنعوا من الطاعة «وكان بين ذلك قواما » أى عدلا. والثامن أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر لقوله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا » والتاسع المحافظة على الصلوات الخمس فى أوقاتها بركوعها وسجودها لقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » والعاشر الاستقامة على السنة والجماعة لقوله تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (و) اعلم (أن من قصد سلوكه) أى الورع (يشترط أن يوطن) أى يقرر (نفسه وقلبه على احتمال الشدة) والمشقة (وإلا) أى وإن لم يوطن نفسه على ذلك (فلا يتم له ذلك) الورع أى سلوكه (ولهذا المعنى) المذكور وهو توطين النفس والقلب على احتمال الشدة والألم (سار) أي رحل (الكثير من أهل الورع و) سار (السابقون) إلى الخيرات (إلي جبل لبنان) بضم اللام : جبل بالشام (وغيره) أى غير هذا الجبل من بطون الأودية والفلوات (فاقتصروا على أكل الحشيش) أى الكلأ اليابس (و) أكل ثمرات تافهة) أى خسيسة تفه الشىء تفها من باب تعب وتفاهة أيضا إذا خس وحقر فهو تافه كذا فى المصباح (لا شبهة فيها) أى فى تلك الثمرات والحشيش (بحال)من الأحوال(فمن سمت) أى علت (همته إلى نيل منزلة الورع الأعلى فعليه أن يحتمل الشدائد و)أن (يصبر عليها) أى على مقاساة تلك الشدائد (و) أن (يسلك طريق أولئك) الذين هم أهل الورع والسابقون إلى الخيرات الساكنون

لِينَالَ مَنْزِلَتَهُمْ ، وَأَمَّا إِنْ أَقَامَ بَيْنَ النَّاسِ وَأَ كَلَ مِمَّا يَتَدَاوَلُونَهُ فِي أَيْدِيهِمْ فَلْيَكُنْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ لاَ يَقْدَمُ عَلَيْهَا إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، ثُمَّ لاَ يَتَنَاوَلُ مِنْهَا إِلاَّ بِمِقْدَارِ مَا يُبَلِّغُهُ إِلَى الطَّاعَةِ ، فَيَكُونُ لَهُ عُذْرٌ فِي ذَٰلِكَ وَلاَ يَضُرُّهُ وَإِنْ كَانَ فِي أَصْلِهِ شُبْهَةٌ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْلَى بِالْعُذْرِ ، وَلِهَٰذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : فَسَدَ السُّوقُ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُوتِ .

وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ وَهْبِ بْنِ الْوَرْدِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يُجَوِّعُ نَفْسَهُ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً ثُمَّ يَأْخُذُ رَغِيفاً وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لاَ أَقْوَى عَلَى الْعِبَادَةِ وَأَخْشَى الضَّعْفَ

فى لبنان وغيره (لينال) ذو همة علية (منزلتهم وأما إن أقام بين الناس وأ كل مما يتداولونه فى أيديهم) أى يتحصلونه مرة لهذا ومرة لهذا تداول القوم الشيء تداولا وهو حصوله فى يدهذا تارة وفى يد هذا أخرى والاسم الدولة بفتح الدال وضمها كذا في المصباح وقال صاحب المختار تداولته الأيدى أى أخذته هذه مرة وهذه أخرى (فليكن) أى أ كله مما يتداول الناس (عنده) أى السالك لطريق الورع (بمنزلة الميتة) وذلك أنه (لا يقدم عليها) أى علي أ كلها (إلا عند الضرورة) لسد الرمق (ثم لا يتناول منها) أى من المأ كولات التى بمنزله الميتة (إلا بمقدار مايبلغه إلى الطاعة فيكون له) أى لذلك السالك (عذر فى ذلك) أى فى أخذ المقدار (ولا يضره) تناول ذلك (وإن كان فى أصله) أى هذا المقدار (شبهة فإن الله تعالى أولى) أى أحق (بالعذر) أى بقبول العذر (ولهذا) المعنى وهو كون ذلك الأخذ عذرا له وعدم ضرره (قال الحسن البصرى رحمه الله فسد السوق) بسبب كثرة الخيانة ونحوها ولذلك قال محمد بن شمال رحمه الله لما دخل السوق يا أهل السوق سوقكم كاسد وبيعكم فاسد وجاركم حاسد ومأوا كم النار (فعليكم) أى الزموا (بالقوت) أى بما يقتات به فى إقامة البنية دون الفضول (ولقد بلغنى عن وهب بن الورد) بن أبى الورد المخزومى مولاهم المكى ويقال اسمه عبد الوهاب ووهيب لقب له وكنيته أبو عثمان ويقال أبو أمية روى عن عطاء مرسلا وعن عمر ابن محمد بن المنكدر روى عنه عبدالله بن المبارك وعمارة بن القعقاع ومحمد بن يزيد بن حنبش وقال يحي بن معين هو ثقة وقال أبو حاتم كان من العباد وكانت له أحاديث ومواعظ وزهد وكان سفيان الثورى إذا حدث الناس وفرغ من حديثهم قال قوموا بنا إلى الطبيب يعنى وهيبا توفى سنة ثلاث وخمسين ومائة روى له مسلم كذا نقله العلامة عبد الحق عن تهذيب الأسماء (رحمه الله أنه كان يجوع نفسه يوما أو يومين أو ثلاثة) من الأيام (ثم يأخذ) ابن الورد (رغيفا ويقول اللهم إنك تعلم أنى لا أقوى) أى ليس لى قوة فى [محيط المحيط] قوى يقوى قوة ضد ضعف فهو قوى وقوى على الأمر طاقه وليس به قوة أى طاقة (علي العبادة وأخشى الضعف) أى ضعف بدنى عن القيام على العبادة

وَإِلاَّ لَمْ آكُلْهُ ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ خَبَثٍ أَوْ حَرَامٍ فَلاَ تُؤَاخِذْنِي بِهِ ، ثُمَّ يَبُلُّ الرَّغِيفَ فِي الْمَاءِ فَيَأْكُلُهُ .

قُلْتُ : فَهٰذَانِ الطَّرِيقَانِ لِلطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ أَهْلِ الْوَرَعِ فِيمَا نَعْلَمُهُ ؛ وَأَمَّا مَنْ دُونَهُمْ فَلَهُمُ احْتِيَاطٌ وَبَحْثٌ عَلَى مِقْدَارٍ ، وَلَهُمْ أَيْضاً نَصِيبٌ مِنَ الْوَرَعِ عَلَى مِقْدَارٍ ، وَبِقَدْرِ مَا تَتَعَنَّى تَنَالُ مَا تَتَمَنَّى ، وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَهٰذَا جَانِبُ الْحَرَامِ فَأَخْبِرْنَا عَنْ جَانِبِ الْحَلاَلِ ، وَمَا حَدُّ الْفُضُولِ الَّذِي يَلْزَمُ مِنْهُ الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ ، وَمَا الْمِقْدَارُ الَّذِي إِذَا أَخَذَهُ الْعَبْدُ يَكُونُ ذٰلِكَ أَدَباً ، وَلاَ يَكُونُ فُضُولاً وَلاَ عَلَيْهِ فِيهِ حَبْسٌ وَلاَ حِسَابٌ

يُقَالُ لَهُ فَاعْلَمْ أَنَّ أَحْوَالَ الْمُبَاحِ

(وإلا) أى إن لم أخش الضعف (لم آكله) أى هذا الرغيف بل أتركه وأكله مع قوله ذلك هو المسمى بالأكل فى حال العذر مع ذكر الحجة وهو خير وحسنة وأدب كما يأتى فى مبحث المباح للمصنف رحمه الله تعالى (اللهم إن كان فيه) أى فى هذا الرغيف (شىء من خبث) أى شبهة (أو حرام فلا تؤاخذنى) أى لا تعاقبنى (به) أى بسبب الشىء الذى فى هذا الرغيف من الخبث والحرام (ثم يبل) من باب رد أى ابن الورد بعد دعائه (الرغيف بالماء فيأكله . قلت فهذان الطريقان) أى طريق احتمال الشدائد والصبر عليها وسلوك طريق أولئك السابقين إلى الجبل وغيره وطريق الإقامة بين الناس والأكل مما يتداولونه فى أيديهم بالأخذ على مقدار ما يبلغه إلى الطاعة (للطبقة العليا من أهل الورع فيما نعلمه وأما من دونهم) أى دون الطبقة العليا فى الرتبة (فلهم) أى لمن دونهم (احتياط وبحث على مقدار) أى قدر من مراتبهم (ولهم أيضا) أى كالطبقة العليا (نصيب) وحظ (من الورع على مقدار) أى قدر احتياطهم وبحثهم (وبقدر ما تتعنى) أى تتعب (تنال ما تتمنى) أى ما ترجوه (والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا) أى لا يترك أعمالهم تذهب ضياعا بل يجازيهم بأعمالهم الصالحة (وهو عليم بما يفعلون . فإن قيل فهذا) أى الذى ذكرته بقولك ثم اعلم ما هو الأصل فى هذا الباب (جانب الحرام فأخبرنا عن جانب الحلال و) أخبرنا (ما حد الفضول الذى يلزم منه) أى من أخذ الفضول (الحبس والحساب وما المقدار الذى إذا أخذه) أى ذلك المقدار (العبد يكون ذلك) أى أخذ المقدار (أدبا ولا يكون) أخذه (فضولا ولا عليه) أى العبد (فيه) أى فى أخذه ذلك (حبس ولا حساب يقال) فى الجواب (له) أى للقائل المذكور (فاعلم أن أحوال المباح

فى الْجُمْلَةِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ ، أَحَدُهَا : أَنْ يَأْخُذَهُ الْعَبْدُ مُفَاخِرًا مُكَاثِرًا مُبَاهِيًا مُرَائِيًا فَيَكُونُ الْأَخْذُ مِنْهُ فِعْلًا مُنْكَرًا يَسْتَوْجِبُ عَلَى ظَاهِرِ فِعْلِهِ الْحَبْسَ وَالْحِسَابَ وَاللَّوْمَ وَالتَّعْيِيرَ وَهُوَ مُنْكَرٌ وَشَرٌّ يَسْتَوْجِبُ عَلَى بَاطِنِ فِعْلِهِ وَهُوَ التَّكَاثُرُ وَالتَّفَاخُرُ عَذَابَ النَّارِ ، وَذَلِكَ الْقَصْدُ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ وَذَنْبٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ، إِلَى قَوْلِهِ وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ) .

فى الجملة ثلاثة أقسام أحدها أن يأخذه) أى المباح (العبد مفاخرا) على الفقراء (مكاثرا) أى طالبا كثرة المال (مباهيا) أى مفاخرا على الأقران (مرائيا فيكون الأخذ) أى أخذ العبد (منه) أي من المباح (فعلا منكرا) ينكره الشرع (يستوجب على ظاهر فعله) أى المباح (الحبس والحساب واللوم والتعيير وهو) أى ظاهر الفعل الذى يستوجب ما ذكر (منكر وشر يستوجب على باطن فعله) أى المباح (وهو) أى باطن الفعل (التكاثر) للأموال (والتفاخر) أى التباهي على الغير (عذاب النار) بالنصب مفعول يستوجب (وذلك القصد)أى قصد التفاخر والتكاثر والمباهاة والرياء في أخذ المباح (منه) أى من العبد (معصية وذنب لقوله تعالى)اعلموا (أنما الحياة الدنيا)أى مدة الحياة فى هذه الدار الدنيا وإنما أراد من صرف حياته فى غير طاعة الله فحياته مذمومة ومن صرف حياته فى طاعة الله فحياته خير كلها ثم وصفها بقوله (لعب) أى باطل لا حاصل له كلعب الصبيان (ولهو) أى فرح ساعة ثم ينقضى عن قريب (وزينة) أى منظر يتزينون به وقوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو» أى باطل وغرور لا بقاء لها وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر قولان أحدهما أن المراد بها حياة الكافر لأن المؤمن لا يزداد بحياته فى الدنيا إلا خيرا لأنه يحصل فى أيام حياته من الأعمال الصالحة والطاعة ما يكون سببا لحصول السعادة فى الآخرة، وأما الكافر فان كل حياته فى الدنيا وبال عليه قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد حياة أهل الشرك والنفاق والقول الثاني أن هذا عام فى حياة المؤمن والكافر لأن الإنسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لأن الذى كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لا بقاء له فبان بهذا التقرير أن المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر وأنه عام فيهما وإنما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشىء الذى يلعب به وقيل معناه أن أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وإن كان وقوعه فى الدنيا كذا ذكره الخازن (إلي قوله) تعالى (وفى الآخرة عذاب شديد) أى لمن كانت حياته بهذه الصفة قال أهل المعانى زهدالله بهذه الآية فى العمل للدنيا وهذه صفة حياة الكافرين وحياة من يشتغل باللعب واللهو وأول الآية « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد».

وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالاً مُبَاهِيًا مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا مُرَائِيًا لَقِيَ اللهُ تَعَالَى وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » فَالْوَعِيدُ عَلَى قَصْدِهِ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي : أَنْ يَأْخُذَ الْحَلَالَ لِشَهْوَةِ نَفْسِهِ لَا غَيْرُ ، فَذَلِكَ مِنْهُ شَرٌّ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ الْحَبْسَ وَالْحِسَابَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

(وقال النبي عليه) الصلاة و (السلام من طلب الدنيا حلالا) أي فضلا أن يطلب حرأما (مباهيا) على غيره (مكاثرا) حال كونه طالبا كثرة المال لا حسن الحال ولا صرفه في تحسين المآل (مفاخرا) أي على الفقراء كما هو دأب الأغنياء من الأغنياء (مرائيا) إن فرض عنه صدور خير أو عطاء (لقي الله تعالى وهو) جل وعز (عليه) أي علي الطالب بالصفات المذكورة (غضبان) رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (فالوعيد) في هذا الخبر إنما هو (على قصده) أي الطالب المذكور (ذلك) أي المباهاة والتكاثر وغيرهما (بقلبه. والقسم الثاني أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه) أي العبد (لا غير) بالضم أي لا يأخذ الحلال لغير شهوة نفسه بل يأخذ لشهواتها (فذلك) أي الأخذ بهذ القصد (منه) أي من الآخذ (شر يستوجب عليه) أي على الآخذ (الحبس والحساب لقوله تعالى: ثم لتسألن) حذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو ضمير الجمع لا لتقاء الساكنين (يومئذ) يوم رؤية الجحيم (عن النعيم) الذي ألهاكم والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه والنعيم مخصوص بما يشغله للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله « قل من حرم زينة الله ـ كلوا من الطيبات » وقيل الآية مخصوصة بالكفار كما في البيضاوي وقيل إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن وهو الأولى لكن سؤال الكافر توبيخ وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه والمؤمن يسئل سؤال تشريف وتكريم لأنه شكر ما أنعم الله به عليه وأطاع ربه فيكون السؤال في حقه تذكرة بنعم الله عليه يدل علي ذلك ما روى عن الزبير قال لما نزلت «ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم» قال الزبير يارسول الله وأي نعيم نسئل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء قال «أما إنه سيكون» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن واختلفوا في النعيم الذي يسئل العبد عنه فروى عن ابن مسعود رفعه قال «لتسئلن يومئذ عن النعيم قال الأمن والصحة» وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة من النعيم فيقال له ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال «خرج رسول الله صلي الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة فاذا هو بأبي بكر وعمر فقال صلي الله عليه وسلم: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا الجوع يارسول الله قال وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوموا فقاموا فأتى رجلا من الأنصار فاذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت مرحبا وأهلا فقال لها رسول الله صلي الله عليه وسلم أين فلان قالت ذهب يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا وأخذ المدية فقال

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « حَلَالُهَا حِسَابٌ » .

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْحَلَالِ فِى حَالِ الْعُذْرِ قَدْرًا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَيَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ فَذَلِكَ مِنْهُ خَيْرٌ وَحَسَنَةٌ وَأَدَبٌ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ وَلَا عِقَابَ بَلْ يَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ الْأَجْرَ وَالْمِدْحَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا) وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا اسْتِعْفَافًا عَنِ الْمَسْئَلَةِ وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ وَسَعْيًا عَلَى عِيَالِهِ

له رسول الله صلي الله عليه وسلم إياك والحلوب فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر والذى نفسى بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» وأخرجه الترمذى بأطول من هذا وفيه «ظل بارد ورطب طيب وماء بارد» وروى عن ابن عباس قال النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العبيد يوم القيامة فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال روى البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» وقيل الذى يسئل العبد عنه هو القدر الزائد على مايحتاج إليه فانه لابد لكل أحد من مطعم ومشرب وملبس ومسكن وقيل يسئل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن وقيل عن الإسلام فانه أكبر النعم وقيل يسئل عما أنعم به عليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنقذكم به من الضلال إلي الهدى والنور وامتن به عليكم (وقال) النبى (عليه الصلاة والسلام حلالها) أى الدنيا (حساب) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقي فى الشعب من طريقه موقوفا علي على بن أبى طالب وآخرها وحرامها النار (والقسم الثالث أن يأخذ) أى العبد (من الحلال فى حال العذر قدرا يستعين به) أى بهذا القدر المأخوذ (علي عبادة الله تعالي و) أن (يقتصر على ذلك) القدر الذى أخذه ولا يزيد عليه (فذلك) الأخذ (منه) أى من العبد (خير وحسنة وأدب لاحساب عليه) أى على العبد فى أخذه المذكور (ولا عقاب بل يستوجب) أخذه ذلك (عليه الأجر والمدحة) أى أحسن الثناء فى القاموس مدحه كمنعه مدحا ومدحة أحسن الثناء عليه (لقوله تعالى) «ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (أولئك) أى الداعون بالحسنتين (لهم نصيب) حظ وافر فى الجنة (مما كسبوا) أى من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذي هو النافع الحسنة أو من أجل ما كسبوا وسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال والأعمال موصوفة بالكسب كذا ذكره النسفي (وقال) رسول الله (صلي الله عليه وسلم: من طلب الدنيا حلالا) أى حال كون المطلوب حلالا (استعفافا) أي لأجل طلب العفة (عن المسئلة) أى من سؤال مخلوق مثله (وتعطفا) أى ترحما وتلطفا (علي جاره) من الفقراء فى تحسين حاله بما يكون زائدا لديه (وسعيا علي عياله) من زوجته وأطفاله ومن يجب عليه مؤنته

جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » وَذٰلِكَ لِمَا قَصَدَ بِهِ هٰذَا الْمَقْصُودَ الْمَحْمُودَ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ فَهٰذِهِ هٰذِهِ فَاعْلَمْهَا .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا شَرْطُ الْمُبَاحِ حَتَّى يَصِيرَ خَيْرًا وَحَسَنَةً كَمَا ذَكَرْتُمْ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ فِي كَوْنِهِ خَيْرًا فِي الْأَصْلِ إِلَى شَرْطَيْنِ :

(جاءيوم القيامة ووجهه) أي والحال أن وجهه من جهة كمال النور وغاية السرور (كالقمر ليلة البدر) قيد به لأنه وقت كماله قال بعض المحققين وإن لم يكن فى ليلة أربع عشرة وقولهم البدر هو القمر ليلة أربع عشرة تقريبي قال العراقي وهذا الحديث رواه أبو الشيخ فى الثواب وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أبى هريرة بسند ضعيف انتهى قال الزبيدى أورده أبو نعيم فى ترجمة ابن السماك عن الثورى عن الحجاج بن فرافصة عن مكحول عن أبى هريرة بلفظ «من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسئلة وسعيا على العلم وتلطفا على جاره بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ومن طلب الدنيا حلالا مكاثرا بها مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان» ثم قال غريب من حديث مكحول لا أعلم له راويا عنه إلا الحجاج وهو عند الخطيب والديلمى بلفظ « من طلب مكسبه من مال حلال يكف به وجهه عن مسئلة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين هكذا وأشار بأصبعه السبابة والوسطى » وكان صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم «لاتقولوا هذا فانه إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان » رواه الطبرانى من حديث كعب بن عجرة (وذلك) أى حصول الثواب الذى هو كمال النور وغاية السرور (لما قصد) أى طالب الحلال (به) أى بطلبه الحلال وأخذه (هذا المقصود) وهو الاستعفاف عن المسئلة والتعطف على الجار والسعى على العيال (المحمود لله سبحانه) وتعالى (فهذه) الجملة التى هى أقسام أحوال المباح (هذه) أى عظيمة (فاعلمها) أى هذه الجملة وتأملها تجد ماينشرح به صدرك إن شاء الله تعالى (فإن قيل فما شرط المباح حتى يصير خيرا وحسنة) يثاب عليها (كما ذكرتم) فى القسم الثالث (فاعلم أنه) أى الحال والشأن (يحتاج فى كونه) أي المباح (خيرا) وحسنة (فى الأصل إلى شرطين) وإنما احتاج إلى هذين لأن المباح من حيث وصفه بالاباحة خص باستواء فعله وتركه على السواء بأن أذن الشارع فى فعله وتركه على السواء من غير ترجيح أحدهما على الآخر باقتضاء مدح أو ذم كما قال بعضهم :

وخص مايباح باستواء الفعل والترك على السواء

أَحَدُهُمَا : الْحَالُ ، وَالثَّانِي : الْقَصْدُ ؛ فَالْحَالُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِى حَالِ عُذْرٍ ، وَهُوَ بِحَيْثُ إِنْ لَمْ يَأْخُذْهُ تُؤْخَذُ نَفْسُهُ ، وَتَفْسِيرُهُ أَنْ يَكُونَ حَالُهُ إِنْ لَمْ يُؤْخَذْ ذٰلِكَ الْمُبَاحُ يَنْقَطِعُ لِسَبَبِهِ عَنْ فَرْضٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ نَفْلٍ فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَفْضَلَ مِنْ تَرْكِ الْمُبَاحِ فَإِنَّ تَرْكَ مُبَاحِ الدُّنْيَا فَضِيلَةٌ ، فَإِذَا كَانَ الْحَالُ كَذٰلِكَ فَهُوَ حَالُ الْعُذْرِ ، وَأَمَّا الْقَصْدُ فَهُوَ أَنْ يَقْصِدَ بِهِ الْعُدَّةَ وَالِاسْتِعَانَةَ عَلَى عِبَادَةِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ بِقَلْبِهِ أَنَّهُ لَوْلَا مَا فِيهِ مِنَ التَّوَصُّلِ إِلَى عِبَادَةِ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ لَمَا أَخَذْتُ ذٰلِكَ، فَهٰذَا ذِكْرُ الْحُجَّةِ فَلَمَّا حَصَلَ ذِكْرُ الْحُجَّةِ فِى حَالِ الْعُذْرِ صَارَ ذٰلِكَ الْأَخْذُ مِنَ الدُّنْيَا لِلْحَلَالِ خَيْرًا وَحَسَنَةً وَأَدَبًا ، وَأَمَّا لَوْ كَانَ حَالُهُ حَالَ الْعُذْرِ وَلَا يَكُونُ لَهُ هٰذَا الْقَصْدُ وَالذِّكْرُ ، أَوْ يَكُونُ لَهُ هٰذَا الْقَصْدُ وَالذِّكْرُ ، وَلَا يَكُونُ فِى حَالِ الْعُذْرِ فَلَا يَصِيرُ ذٰلِكَ الْأَخْذُ مِنْ جُمْلَةِ الْخَيْرَاتِ ، ثُمَّ الِاسْتِقَامَةُ عَلَى حِفْظِ هٰذَا الْأَدَبِ تَحْتَاجُ إِلَى بَصِيرَةٍ وَقَصْدٍ مُجْمَلٍ بِأَنَّهُ

(أحدهما الحال والثانى والقصد فالحال يجب أن يكون فى حال عذر وهو) أى حال العذر (بحيث إن لم يأخذه) أى لم يأخذ العبد ذلك المباح (تؤخذ نفسه) وفى نسخة يؤاخذ عند الله (وتفسيره) أى بيان قولنا بحيث إن لم يأخذه تؤخذ نفسه (أن يكون حاله) أى العبد (إن لم يأخذ ذلك المباح ينقطع بسببه) أى عدم أخذه للمباح (عن فرض أو سنة أو نفل) هما مترادفان (فيكون ذلك) أى أخذ المباح (أفضل من ترك المباح فإن ترك مباح الدنيا فضيلة فإذا كان الحال كذلك) أى الانقطاع عن الفرض والنفل إن لم يأخذ ذلك المباح (فهو) أى هذا الحال (حال العذر، وأما القصد فهو أن يقصد) العبد (به) أى بأخذ المباح (العدة) بضم العين أى الاستعداد (والاستعانة على عبادة الله سبحانه) وتعالى (وهو) أى قصد العدة والاستعانة (أن يذكر) العبد (بقلبه أنه) أي الشأن (لولا مافيه) أي فى أخذ المباح (من التوصل إلى عبادة الله سبحانه لما أخذت ذلك) أى ليس لى أن آخذ ذلك المباح (فهذا) الذكر (ذكر الحجة فلما حصل ذكر الحجة) بقلبه (فى حال العذر صار ذلك الأخذ من الدنيا للحلال خيرا وحسنة وأدبا ، وأما لوكان حاله) أي العبد (حال العذر و) لـكن (لايكون) أى لايوجد (له هذا القصد) أى قصد الاستعداد والاستعانة على العبادة (والذكر) أى للحجة بالقلب (أو يكون له) أى للعبد (هـذا القصد والذكر و) لـكن (لايكون) حاله (فى حال العذر فلا يصير ذلك الأخذ) من الدنيا للحلال (من جملة الخيرات) التي يثاب عليها (ثم الاستقامة على حفظ هذا الأدب) أى أدب أخذ الحلال (تحتاج) أى الاستقامة على ذلك (إلى بصيرة) أى علم وخبرة (و) إلى (قصد مجمل) من غير تفصيل وذلك (بأنه) أى العبد

لاَ يَأْخُذُ مِنَ الدُّنْيَا بِحَالٍ إِلاَّ لِلْعُدَّةِ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تعالى حَتى إِنَّهُ إِنْ سَهَا عَنْ ذِكْرِ الْحُجَّةِ فِى حَالِ أَجْزَأَهُ ذٰلِكَ الْقَصْدُ الْمُجْمَلُ عَنْ تَجْدِيدِ ذِكْرِ الْحُجَّةِ . قالَ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللهُ : فَصَارَتِ الْأُمورُ الثَّلاَثَةُ مُعْتَبَرَةً فِيهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ وَجْهٍ ، يَعْنِي أَنَّ الذِّكْرَ وَالحَالَ مُعْتَبَرَانِ فى حُصُولِ كَوْنِهِ خَيْرًا أَصْلاً ، وَالْقَصْدُ الْمُجْمَلُ الْمُقْتَضِى عَنْ بَصِيرَةٍ بِمَنْزِلَةِ الْأَدَبِ مُعْتَبَرٌ فى الِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ ، فَافْهَمْ ذٰلِكَ رَاشِدًا .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا الْحَلاَلَ بِشَهْوَةٍ فَهَلْ يَكُونُ ذٰلِكَ مَعْصِيَةً ، وَهَلْ يَلْزَمُ عَلَيْهِ عَذَابٌ ، وَهَلِ الْأَخْذُ بِالْعُذْرِ فَرْضٌ أَمْ لاَ ؟

فاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ فَضِيلَةٌ وَنُسَمِّيهِ خَيْرًا وَحَسَنَةً ، وَالْأَمْرُ بِهِ أَمْرُ تَأْدِيبٍ ، وَالْأَخْذُ بِالشَّهَوَاتِ شَرٌّ وَسَيِّئَةٌ ، وَالنَّهْيُ عَنْهُ نَهْىُ زَجْرٍ وَأَدَبٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِمَعْصِيَةٍ ، وَلاَ يَكُونُ عَلَيْهِ عَذَابُ النَّارِ ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ وَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا هٰذَا الْحَبْسُ وَالْحِسَابُ اللَّذَانِ يَلْزَمَانِ الْعَبْدَ .

(لا يأخذ من الدنيا بحال إلا للعدة) والاستعانة (على عبادة الله تعالى حتى إنه إن سها) أى غفل (عن ذكر الحجة فى حال أجزأه) أى كفاه (ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة . قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله فصارت الأمور الثلاثة) أى الحال والقصد والبصيرة (معتبرة فيه) أي فى أخذ المباح (كل واحد) منها (من وجه) قال المصنف رحمه الله (يعنى) أى يريد شيخنا بذلك (أن الذكر) أى ذكر الحجة (والحال) أى حال العذر (معتبران فى حصول كونه) أى الأخذ (خيرا أصلا) أى فى الأصل (والقصد المجمل المقتضى) أى الطالب (عن بصيرة بمنزلة الأدب معتبر فى الاستقامة عليه) أى على الأخذ (فافهم ذلك) المذكور من صيرورة الأمور الثلاثة معتبرة فى الأخذ بالعذر (راشدا) إن شاء الله تعالى (فإن قيل فإن أخذ) العبد (من الدنيا الحلال بشهوة) أى شهوة نفسه (فهل يكون ذلك) أى أخذ الحلال بالشهوة (معصية) يعاقب عليها (وهل يلزم عليه) أىعلى الأخذ (عذاب وهل الأخذ) أى أخذ الحلال من الدنيا (بالعذر فرض أم لا) يكون عذرا (فاعلم أن ذلك) أى الأخذ بالعذر (فضيلة ونسميه خيرا وحسنة والأمر به) أى أخذ المباح بالعذر (أمر تأديب والأخذ بالشهوات) أى بما تشتهيه النفس (شر وسيئة والنهى عنه) أى عن الأخذ بالشهوات (نهى زجر وأدب وليس ذلك) أى الأخذ بالشهوات (بمعصية ولا يكون عليه) أىالعبد الآخذ بماذكر (عذاب النار وإنما عليه الحبس والحساب واللوم) أى العذل (والتعيير) أى التوبيخ (فإن قلت: فما هذا الحبس والحساب اللذان يلزمان العبد .

فاعْلَمْ أَنَّ الْحِسَابَ أَنْ تُسْأَلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّاذَا اكْتَسَبْتَ، وَفِيمَاذَا أَنْفَقْتَ، وَمَاذَا أَرَدْتَ بِذَلِكَ؟

فاعلم) أرشدك الله (أن الحساب أن تسئل يوم القيامة عماذا اكتسبت وفيماذا أنفقت وماذا أردت بذلك) أي بالاكتساب والإنفاق وبالجملة أنك تسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير والجليل والحقير روى الترمذي مرفوعا « أول مايسئل عنه العبد يوم القيامة أن يقال له ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد » وروى أبو نعيم مرفوعا « ما من عبد خطا خطوة إلا يسئل عنها ماأراد بها » وروى مسلم مرفوعا « لايزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعن جسده فيم أبلاه وعن عمله فيم عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه » زاد في رواية « وفيم أنفقه » وروى عن عمر رضى الله عنه مرفوعا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا كان يوم القيامة يأتى الله تعالى بعبد من عبيده فيوقفه بين يديه ويسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله وعلمه » وروى مسلم مرفوعا « يدني الله تعالى المؤمن يوم القيامة حتي يضع عليه كنفه أى ستره وكرمه وملاطفته فيقرره بذنوبه فيقول أتعرف ذنب كذا في يوم كذا فيقول أعرف فيقول الله عز وجل أنا سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته وأما الكافر والمنافق فينادى عليهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول « إذا كان يوم القيامة يختلى الله عز وجل بعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنبا ذنبا ثم يغفر له لايطلع على ذلك ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ويستر عليه من ذنوبه مايكره أن يوقف عليه ثم يقول لسيئاته كونى حسنات » ويقول على رضى الله عنه سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى مسلم ذلك بمعناه وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول « يدنى الله تعالى العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه ويستره عن الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه فى ذلك الستر يقول له يا ابن آدم اقرأ كتابك قال فيمر بالحسنة فيبيض بها وجهه ويمر بالسيئة فيسود بها وجهه فيقول الله عز وجل أنا أعرف بها منك قد غفرتها لك فلا يزال يسجد بين يدى الله تعالى إذا قبلت له حسنة أو غفرت له سيئة ولايرى الخلائق منه إلا ذلك السجود حتى إن الخلائق ينادى بعضهم بعضا طوبى لهذا العبد لم يعص ربه قط ولا يدرون ماذا لقى فيما بينه وبين الله عز وجل حتى أوقفه بين يديه انتهى ». قال القرطبي ومثل هذا لايقال من قبل الرأى فهو فى حكم المرفوع إن شاء الله تعالى وروى الحافظ أبو نعيم عن الامام عبد الرحمن الأوزاعى رحمه الله تعالى أنه كان يقول قد يغفر الله تعالى الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتي يوقف العبد عليها يوم القيامة وإن تاب منها وقال غيره إنما ذلك فى ذنوب تاب منها قبل موته والله أعلم . وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرفوعا أنه قال « ما ستر الله على عبد ذنوبا فى الدنيا إلا سترها عليه في الآخرة » ورواه غيره أيضا وفى صحيح مسلم مرفوعا عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « من ستر على مسلم عورته فى الدنيا ستر الله عورته يوم القيامة » واعلم أن الله تعالى يكلم العبد ليس بينه وبينه ترجمان وذلك لأنه كان يناجيه في الدنيا بحكم الإيمان فأكرمه الله تعالى بمناجاته فى الآخرة على الكشف والشهود فيا سرور أهل الخير بذلك ويا حزن

أهل الشر حين يقع لهم التوبيخ والتقريع وروى البخارى والترمذى مرفوعا « مامنكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر عن يمينه فلا يرى إلا ما قدم وينظر عن شماله فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمره » وفى رواية «ولو بكلمة طيبة» . قال العلماء وقوله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد» خطاب للمؤمنين فإن الكافرين لا يكلمهم الله تعالى ولا ينظر إليهم كما وردت به السنة فهو مخصوص بالمؤمنين . قال القرطبي : فتفكروا أيها الإخوان في عظيم جناياتكم إذا ذكرتم ذنوبكم شفاها جوابا لسؤال ربكم إذا قال لأحدكم يا عبدى أما استحيت منى حين بارزتنى بالقبائح فليتك جعلتنى كآحاد العباد الذين كنت تستحى منهم حال عصيانك ألم أكن رقيبا على عينيك حين تنظر بهما إلى ما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيبا علي أذنيك حين سمعت بهما ما لا يحل لك ألم أكن رقيبا على لسانك حين تكلمت به مالا يحل لك؟ ألم أكن رقيبا على فرجك حين زنيت به وهكذا على جميع جوارحكم الظاهرة والباطنة لابد من سؤال العبد إذا حصلت المناقشة فإن اعترف ذاب لحم وجهه من الخجل والحياء من الله وإن أنكر وشهدت عليه الجوارح بما فعلت اشتد عليه الحال أكثر وأكثر فنعوذ بالله من الفضيحة على رءوس الأشهاد والعاقل من أكثر فى هذه الدار من الاستغفار فإنه يطفىء غضب الجبار بل لو استغفر العبد بقية عمره من ذنب واحد كان قليلا فكيف بمن لا يحصر ذنوبه ديوان مباشر فاعلموا ذلك أيها الإخوان وتداركوا أنفسكم بالاستغفار فقد قال الله تعالى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » والحمد لله رب العالمين . واعلم أيضا أنه يجاء يوم القيامة لأجل القصاص من استطال فى حقوق الناس ولأجل حبسه لهم حتي ينتصفوا منه روى مسلم مرفوعا «لتؤدين الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتي يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » وروى البخارى مرفوعا «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ودرهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذت من سيئات صاحبه فتحمل عليه » وروى مسلم مرفوعا « أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل انقضاء ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» وروى مرفوعا « من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته يوم القيامة ليس ثم دينار ولا درهم » وروى مرفوعا « يحشر الله العباد وأومأ بيده إلى الشام فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ومن قرب أنا الملك الديان فلا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتي اللطمة ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى اللطمة فقالوا يارسول الله إنما نأتي لله حفاة عراة فقال بالحسنات والسيئات» وكان الربيع بن خثيم رحمه الله يقول: إن أهل الدين يوم القيامة أشد تقاضيا له منكم فى الدنيا يحبس أحدكم لهم حتى يأخذوا منه حقوقهم فيقول المديون يارب ألست ترانى عريانا حافيا فيقول تعالى خذوا من حسناته بقدر الذى لكم فإن لم تكن له حسنات قال زيدوا عليه من سيئاتكم . وفى الحديث مرفوعا « صاحب الدين مأسور يوم

القيامة بالدين » وفى الحديث « يقول الله عز وجل للملائكة خذوا من أعمال المديون الصالحة وأعطوا لكل إنسان بقدر مظلمته ، فإن كان المديون وليا لله عز وجل وفضل من حسناته مثقال حبة من خردل ضاعفها الحق تعالى له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ صلى الله عليه وسلم إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما وإن كان المديون عبدا شقيا قالت الملائكة يارب قد فنيت حسناته وبقى عليه مطالبون فيقول الله عزوجل للملائكة خذوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيآته وصكوا له صكا إلى النار » وفي الحديث أيضا مرفوعا « إنه ليكون للوالدين على ولدهما دين فإذا كان يوم القيامة يتعلقان به فيقول أنا ولدكما فيودان ويتمنيان لوكان أكثر من ذلك » وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول بلغنا أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه فيقول مالك وما بيني وبينك معرفة ولامعاملة فيقول إنك كنت ترانى على المنكر والخطايا فلا تنهانى. فإن قال أحد من ضعفاء العقول كيف توضع سيئات العبد على ظهر من لم يعملها وقد قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فالجواب أن الله تعالى هو صاحب الأحكام الشرعية فله أن يضعها حيث شاء وقد قال الله تعالى فى آية أخرى « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » فإياكم والاعتراض على شيء من أحكام ربكم التى حكم بها والحمد لله رب العالمين ، والذى يجب عليكم أن تحاسبوا أنفسكم قبل يوم الحساب . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم على أعمالكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزن عليكم . قال العلماء رضى الله عنهم حساب العبد نفسه أن يتوب من كل معصية فعلها قبل موته ويرد جميع المظالم إلى أهلها ويستحل كل من وقع فى عرضه حتى تطيب نفسه فإذا حاسب نفسه كذلك دخل الجنة بغير حساب إن شاء الله تعالى، إذ الحساب لايكون يوم القيامة إلا على مافرط العبد فيه بترك المحاسبة. وكان الإمام الغزالى مصنف هذا الكتاب رحمه الله يقول كم من متعلق بأخيه يوم القيامة يقول يارب قد ذكرنى فى غيبتى بما يسوءنى وكم ممن يقول يارب قد جاورنى فأساء جوارى وآذانى بلسانه وآذى أولادى بشم رائحة طعامه ولم يطعمهم منه شيئا وكم ممن يتعلق بأخيه يقول قد عاملتنى فغشيتنى وأخفيت عنى عيب متاعك حين بعتنى وكم ممن يتعلق بأخيه ويقول إنك رأيتنى في اليوم الفلانى محتاجا وأنت غنى فلم تعطنى حاجتي وكم ممن يتعلق بأخيه يقول يارب قد استحقرنى ورأى نفسه خيرا مني وكم ممن يقول لأخيه قد رأيتني مظلوما وكنت قادرا على رفع الظلم عنى فلم تفعل فلا يزال المظلومون يتعلقون بمن ظلمهم من إخوانهم والظالم بين أيديهم ذليل خاضع من هول ذلك اليوم مبهوت متحير من كثرة أرباب الحقوق عليه محبوس عن دخول الجنة حتى ينتصفوا كلهم منه وهناك ينادى المنادى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . قال القرطبى سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول: العاقل من أكثر من الأعمال الصالحة فى هذه الدار وأخلص فيها ليصل فى الدار الآخرة ويعطيها لأصحاب الحقوق التى عليه حتى يرضوا وإلا فلابد من طرح سيئات المظلومين على ظهر الظالم كما ثبت فى الأحاديث وكان يقول ربما أكثر العبد من الأعمال الصالحة حتى صارت فى عينه كالجبال وظن النجاة بها فنوقش فيها فطلعت كلها مخلوطة بالرياء فأحبطت فكان حكمه حكم من فتح مطلبا وأخذ منه جرابا يعتقده ذهبا ثم أتى به إلى داره ففتحه فاذا كله خنفس أو عذرة نسأل الله

وَالْحَبْسُ حَبْسٌ عَنِ الْجَنَّةِ مُدَّةَ الْحِسَابِ ، وَذَٰلِكَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَهْوَالِهَا وَمَخَاوِفِهَا عُرْيَانًا عَطْشَانَ وَكَفَى بِذَٰلِكَ بَلِيَّةً .

العافية وذكر الامام القشيرى فى شرحه المقسط الجامع أنه لو كان على العبد دانق وله عمل سبعين نبيا مادخل الجنة حتي يؤدى ذلك الدانق ، وذكر أنه يعطى لصاحب الدانق فى دانقه يوم القيامة سبعمائة صلاة مقبولة فلايرضيه ذلك وكانحجة الإسلام مصنف هذا الكتاب رحمه الله يقول لو تأمل العبد الصائم القائم فى عبادته طول الليل والنهار ورآها بعين الانصاف دون عين الاغترار لوجد ثوابها كلها قد لايرضي به واحد يوم القيامة فى مرور غيبة على خاطره إذا حكمه الله تعالى فيه لاسيما الأعداء والحاسدون . وكان رحمه الله يقول ربما يأتى العبد الصائم القائم فىعبادته طول الليل والنهار العالم العامل يوم القيامة فلا يجد فى صحيفته حسنة واحدة فيقول يارب أين ثواب أعمالى ؟ فيقول له نقلت إلى صحائف خصمائك كل يوم بيومه وربما يأتى العبد يوم القيامة فيعطى صحيفته فيجدها كلها سيئات فيقول يارب إنى لاأعلم أنى وقعت فى هذه السيئات فيقال له هذه سيئات خصومك الذين وقعت فى أعراضهم واحتقرتهم ورأيت نفسك أفضل منهم وظلمتهم فى المعاملة والمبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملات. وكانالأستاذ أبوالقاسم القشيرى رحمه الله يقول بلغنا أن الملائكة تقول للبهائم والوحوش إذا حشروا : إن الله لم يحشركم لثواب ولا لعقاب وإنما حشركم لتشهدوا فضائح بنى آدم التي كانوا يخفونها عن الناس انتهى . نسأل الله تعالى أن يستر فضائحنا فىذلك اليوم آمين اللهم آمين . وقال أبو بكر بن العربي رحمه الله تؤخذ المظالم من جميع الأعمال إلا الصوم لقوله تعالى « الصوم لى وأنا أجزى به » لكن بشرط أن يكون غير معلوم لأحد من الخلق ولا مكتوبا فى الصحف فإن هذا هو الذى يستره الله عن العباد ويخبئه للعبد حتي يكون عليه جنة من العذاب فإذا طرح المظلومون سيئاتهم على هذا الظالم الصائم الذى لم يعلم أحد بصيامه وجدوا الصوم جنة عليه ولا تضره تلك السيئات . قال القرطبى وهو تأويلحسن وجمع بين الآيات والأخبار. وقد ورد فى الصحيح «إن الله تعالى يصلح بين عباده فى الآخرة ويرضى عنهم خصماءهم » كما ورد « أن الله تعالى يقول لمن شدد فى استقصاء حقه ولم يبق للظالم حسنة أرفع بصرك وانظر فينظر فإذا قصر من ذهب وبساتين فيقول يارب لمن هذا؟ فيقول الحق جل وعلا لمن أعطى ثمنه فيقول ومن يقدر على ذلك ؟ فيقول له الحق تعالى أنت قال بماذا ؟ فيقول بعفوك عن أخيك قال يارب فإنى قد عفوت عنه فيقول خذ بيد أخيك وأدخله الجنة » قال العلماء رضى الله عنهم ويجب حمل هذا على من لم يرد الله أن يعذبه وأراد أن يعفو عنه ويرضى عنه خصماءه جمعا بين الأحاديث . قالالمصنف (والحبس حبس عن) دخول (الجنة مدة الحساب وذلك) الحبس (فىعرصات القيامة بين أهوالها ومخاوفها) وشدائدها (عريانا) بلالباس (عطشان وكفى بذلك) الباء زائدة أى كفىذلك الحبس مع تلكالأهوال والمخاوف (بلية) أى مصيبة : روى فى الآثار

« إن الله تعالى يحشر الأمم من الجن والإنس عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك أهل الأرض ولزمهم الذل والصغار بعد عزهم وتجبرهم على عباد الله فى أرضه ولم يعملوا بوصيته سبحانه وتعالى ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رءوسها بعد توحشها من الخلائق وانفرادها فى البرارى والقفار ذليلة خاضعة من هول ذلك اليوم مع أنها ليس عليها خطيئة ولا وقعت فى ريبة ثم وقفت من وراء الخلق كلهم ذليلة منكسرة لخالقها ثم أقبلت الشياطين بعد عتوها خاضعة ذليلة للعرض على الديان فإذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقها وطمست الشمس والقمر فأظلمت عليهم الدنيا وصارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت بعظمها فوق رءوسهم والخلق كلهم ينظرون إلى تلك الأهوال فبينما هم كذلك إذا انشقت السماء بغلظها فوق رءوسهم وهى مسيرة خمسمائة عام حتى يقطع سمكها فياشدة هول صوت انشقاقها فى أسماع الخلائق ثم تمزقت وانفطرت من هول ذلك اليوم ثم ذابت حتى صارت كالفضة المذابة كما أشار إليه قوله تعالى « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وقوله تعالى « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن » أى كالصوف المنفوش وهو أضعف الصوف ثم هبطت الملائكة من حافتها إلى الأرض بالتقديس لربها فتفزع جميع الخلائق من شدة عظم أجسامهم وهول أصواتهم ومخافة من أن يكونوا أمروا بأخذ الخلائق إلى النار ثم يأخذون مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رءوسهم لعظم هول ذلك اليوم ذليلين خاضعين لربهم وكذلك ملائكة السماء الثانية وما بعدها إلى السماء السابعة قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء التى بعدها فى العدد وكبر الأجسام والأصوات فإذا حضروا كلهم الموقف واجتمع أهل السموات السبع وأهل الأرضين السبع زاد حر الشمس مقدار حرها عشر سنين ثم أدنيت من الخلائق قاب قوس أو قوسين ولا ظل فى ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن فمن الناس من يكون فى ظل العرش ومنهم من يكون فى ضح الشمس أى حرها قد صهرته واشتد منها كربه وأقلقته مع شدة ازدحام الأمم وتضايقها ودفع بعضها بعضا وانقطاع الأعناق من شدة العطش قد اجتمع عليهم فى ذلك الموقف حر الشمس ووهج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم وفاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاوة فمنهم من يبلغ العرق إلى منكبيه ومنهم من يبلغ إلى حقويه ومنهم من يبلغ شحمة أذنيه ومنهم من قد ألجمه العرق وكاد أن يغيب فيه » .

وروى عن الضحاك رضى الله عنه أنه قال « إذا كان يوم القيامة أمر الله سماء الدنيا فتشققت بأهلها فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرها الرب بالنزول فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ثم يأمر الله أهل السماء التى تليها فينزلون فيكونون صفا خلف ذلك الصف ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ثم ينزل الملك الأعلى فى بهائه وجماله وملكه وبجنبته اليسرى جهنم فيسمعون زفيرها وشهيقها فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا قياما من الملائكة فذلك قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات

والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان » فالسلطان هو العدل فبينما هم كذلك إذ سمعوا المنادى للوقوف للحساب فأقبلوا إلى الحساب» نسأل الله تعالى اللطف. وذكر مصنفنا حجة الإسلام الغزالى في كتاب كشف علوم الآخرة أن الخلائق إذا اجتمعوا فى صعيد واحد من الأولين والآخرين أمر الله تعالى بملائكة سماء الدنيا فأحدقت من وراء الخلائق حلقة واحدة فاذاهم مثلهم عشر مرات ثم أمر بملائكة السماء الثانية أن يحدقوا بهم فإذا هم مثلهم عشرين مرة ثم أمر بملائكة السماء الثالثة أن يحدقوا بهم فإذا هم مثل ملائكة السماء الثانية ثلاثين مرة ثم أمر بملائكة السماء الرابعة أن يحدقوا بهم كذلك حلقة واحدة فإذا هم مثلهم أربع مرات ثم أمر بملائكة السماء الخامسة فإذا هم مثل ملائكة الرابعة خمسين مرة ثم بملائكة السادسة فإذا هم مثل ملائكة السماء الخامسة ستين مرة ثم بملائكة السماء السابعة فإذا هم مثل السادسة سبعين مرة حلقة واحدة على جميع من تقدم من خلق السموات والأرض وتزاحمت الخلائق فتدافعوا على بعضهم بعضا حتي يكون فوق القدم ألف قدم حتى يخوض الناس فى العرق. وفى حديث «لوأرسلت السفن فى عرق الخلائق فىذلك اليوم لجرت » كما جاءت به الأخبار. قال وربما يكون العرق على بعض المتقين يسيرا كالقاعد فى الحمام وربما يكون عليه بلة كالعطشان إذا شرب الماء. وكان بعض التابعين رضى الله عنه يقول: تدنو الشمس يوم القيامة من الخلائق حتى لو مد أحد يده لنالها ويضاعف حرها على قوم مقدار سبعين مرة من حرها الآن أيام الصيف وكان بعض السلف الصالح يقول: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض وذابت الجبال ونشفت الأنهار وصار الملوك فى الصغار والذل كالذر من دوسهم بأقدام الناس فليس المراد أن خلقهم يكون كهيئة الذر كما قد يتوهم إنما هم كالذر فى مذلتهم وانخفاض نفوسهم فعلى قدر ما تكبروا ذلوا وصغروا. قال المصنف الغزالي رحمه الله: وفى ذلك اليوم من كان من السعداء ومات له أولاد أطفال يخرجون له بكيزان من كيزان الجنة فيسقونه ماء باردا عذبا صافيا وقد رأى بعض الصالحين فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه فى الموقف عطشان والصبيان الصغار يسقون الناس. قال فقلت لهم ناولونى شربة فقال لى واحد منهم ألك فينا ولد؟ فقلت لا قال ليس لك عندنا نصيب من هذا الماء. قال المصنف رحمه الله: وأما أهل الصدقات فيكونون فى ذلك اليوم تحت ظل صدقاتهم لايحسون بحر ذلك اليوم فلا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور وجلت قلوب الخلائق وخشعت أبصارهم لعظيم نقرته وظنوا نزول العذاب بهم فبيناهم كذلك إذ برز لهم العرش العظيم تحمله ثمانية أملاك كما ذكر الله تعالى فى كتابه قدر كل ملك مسيرة عشرين ألف سنة ولهم زجل عظيم بالتسبيح لا تطيق العقول سماعه حتى يستقر العرش فى الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات لاستقرار العرش فيها إذا جاء وفى ذلك الوقت تطرق الناس رءوسهم وتشفق البرايا كلهم من الأهوال وترعب أجساد الأنبياء ويكثر خوف العلماء العاملين وتفزع الأولياء والصديقون والشهداء والصالحون من عذاب الله فبينما هم كذلك إذ غشيهم نور حتى يغلب على نور الشمس التى كانوا فى حرها فلا يزالون يموجون بعضهم فى بعض ألف عام. هذا

والجليل جل جلاله لاينظر إليهم ولا يكلمهم كلمة واحدة فحينئذ يذهبون إلى آدم عليه الصلاة والسلام ثم إلى نبي بعد نبي يشفع لهم ويعتذر كل واحد من الأنبياء عن عدم تقدمه للشفاعة فلا يزالون كذلك ألف عام حتى ينتهي الأمر إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها كما هو مذكور في الصحيحين وفي ذلك اليوم تكور الشمس وتنكدر النجوم وتمور السماء فوق الخلائق مورا وتنفطر انفطارا من عظيم هول ذلك اليوم وتشقق بالغمام المنزل عليهم من فوقهم وتكشط السموات وتنزل الملائكة تنزيلا وتقوم الخلائق على أقدامهم من مقدار أربعين عاما إلى ثلثمائة عام في الظلمة التي دون الصراط المسمى في الحديث بالجسر . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما تزدحم الخلائق يوم القيامة كازدحام النشاب في الجعبة، والسعيد في ذلك اليوم هو من يجد لقدمه موضعا يضعه عليه فإذا دعى الخلائق إلي الميزان كادت عقولهم تطير من الخوف فمن ثقلت موازينه نادى مناد ألا إن فلان ابن فلان ثقلت موازينه وسعد سعادة لايشقى بعدها أبدا، ومن خفت موازينه نادى منادألا إن فلان ابن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا فإن المسلمين والمؤمنين من سائر الأمم في الجنان متفاوتون في المراتب والمنازل. وأما الكفار فلا تقام لهم موازين مطلقا وفي حديث مسلم مرفوعا «إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا وإنه يبلغ إلى أفواه الناس أى حتي يلجمهم» كما في رواية أخرى . وعن ابن عباس في قوله تعالى « يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال يقومون في العرق في ذلك اليوم ألف عام . وروى الوائلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوما « كيف بكم إذا جمعكم الله تعالى كالنشاب في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم» وذكر أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله أن جبريل عليه السلام خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من يوم القيامة حتى أبكاه فقال يا جبريل ألم يغفر الله لى ماتقدم من ذنبي وما تأخر فقال يامحمد لتشهدن من هول ذلك اليوم مما ينسيك المغفرة انتهى. قال العلماء وإذا عرق الخلائق في ذلك اليوم من شدة حر الشمس كان كل واحد غارقا في عرقه لا يتعداه إلى من هو بجانبه كما لايمشى أحد في نور أحد يوم القيامة إنما نور كل إنسان على قدر نفسه وهذا من القدرة التي تكون في زمن الآيات يوم القيامة ، ونظير ذلك مايقع في الدنيا يكون المؤمن يمشى في نور إيمانه والكافر بجانبه في ظلمة كفره لا يناله من نور المؤمن شيء وكذلك البصير يمشى مع الأعمى ملاصقا لا يناله من نور بصره شيء فافهم . فإن قال قائل فمن أين يحصل ذلك العرق على كل من عرق في ذلك اليوم . فالجواب أنه يحصل عليه من عدم إخراجه في دار الدنيا في مرضاة الله تعالى من جهاد وحج وصيام وقيام وتردد في قضاء حوائج المسلمين وحفر الآبار والقبور لمصالح العباد ونحو ذلك فإذا كان يوم القيامة استخرجه الله منه في مواقف القيامة بواسطة ما يقع له من الحياء والخجل أو من الخوف والوجل. وقال سيدى علي الخواص رحمه الله إنما تعظم الأهوال على العبد يوم القيامة . لأجل تفريطه في عمل الخيرات هنا وكان حجة الإسلام يقول من سلم من الجهل والغرور علم أن تعب العرق وتحمل مصائب الدنيا أهون أمرا وأقصر زمنا من عرق الكرب والانتظار يوم القيامة . وقال أبو حازم رضى الله عنه لو نادى مناد من السماء ألا إن فلان بن فلان أمن من أهوال القيامة لكان الواجب عليه الخوف من دخول النار فنسأل الله تعالى من فضله

أن يلطف بنا فى ذلك اليوم ويحنن علينا من يأخذ بيدنا فى تلك الشدائد آمين . ومما ينجي العبد من أهوال يوم القيامة ويخفف عنه كربه العمل الصالح وإنظار المعسر أو وضعه، ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » وأخرج الترمذى فى نوادر الأصول عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة فقال : إنى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتى جاءه ملك ليقبض روحه فجاءه بدواء يداويه فرده عنه ورأيت رجلا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم وفى رواية من أيديهم ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما ورد حوضا منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فخلصته من أيديهم ورأيت رجلا من أمتى والنبيون حلقا حلقا كلما دنا من حلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأجلسه إلي جنبي ورأيت رجلا من أمتى بين يديه ظلمة ومن تحته ظلمة وعن شماله ظلمة فبينما هو متحير فيها إذ جاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يا معشر المؤمنين كلموه فكلموه ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلا على رأسه ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من أمتى جاثيا علي ركبتيه بينه وبين ربه حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده وأدخله على ربه ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلت موازينه ورأيت رجلا من أمتى قائما علي شفير جهنم فجاءه خوفه من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ورأيت رجلا من أمتى قد هوى للنار فجاءته دموعه التى كان يبكيها من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا ويتعلق أحيانا فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » وروى مسلم مرفوعا « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » . وفى رواية لمسلم مرفوعا أيضا « من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله » وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يقول من أنظر مديونا فله بكل يوم عند الله وزن أحد ما لم يطالبه . وفى الحديث مرفوعا « من كسا عاريا أو آوى مسافرا أعاذه الله من أهوال يوم القيامة » . وأخرج الطبرانى مرفوعا « من لقم أخاه لقمة حلواء صرف الله عنه مرارة الموقف فى القيامة » وروى الحافظ أبو نعيم مرفوعا « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة قالوا وما يكفرها يا رسول الله ؟ قال الهموم فى طلب المعيشة » فاعلموا ذلك أيها الإخوان وحصلوا

فَإِنْ قِيلَ : فَإِذَا قَدْ أَحَلَّ اللهُ لَنَا هٰذَا الْحَلَالَ ، فَاللَّوْمُ وَالتَّعْيِيرُ فِى أَخْذِهِ لِمَاذَا ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّوْمَ وَالتَّعْيِيرَ لِتَرْكِهِ الْأَدَبَ كَمَنْ أُجْلِسَ عَلَى مَائِدَةِ الْمَلِكِ فَتَرَكَ الْأَدَبَ فَإِنَّهُ يُعَيَّرُ بِذٰلِكَ وَيُلَامُ ، وَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ لَهُ مُبَاحًا فَالْأَصْلُ فِى هٰذَا الْبَابِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَبْدَ لِعِبَادَتِهِ ، وَهُوَ عَبْدٌ لِلّٰهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، فَحَقٌّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ تَعَالَى مِنْ وَجْهٍ يُمْكِنُهُ وَيَجْعَلَ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا عِبَادَةً مِنْ أَىِّ وَجْهٍ أَمْكَنَهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ وَاشْتَغَلَ بِذٰلِكَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ تَعَذُّرٍ ، وَالدَّارُ دَارُ خِدْمَةٍ وَعِبَادَةٍ ، لَا دَارُ تَنَعُّمٍ وَشَهْوَةٍ ، فَيَسْتَحِقُّ اللَّوْمَ بِذٰلِكَ وَالتَّعْيِيرَ مِنْ سَيِّدِهِ ؛ فَتَأَمَّلْ هٰذَا الْأَصْلَ رَاشِدًا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ .

الزاد قبل يوم الميعاد وافعلوا هذه الخصال لتخفف عنكم الأهوال والله يتولى هداكم وهو يتولى الصالحين والحمد لله رب العالمين . ثم قال المصنف رحمه الله (فإن قيل فإذا) كان الأمر (قد أحل الله لنا هذا الحلال فاللوم والتعيير فى أخذه) أى الحلال (لماذا) أى لأى شىء كان ذلك (فاعلم أن اللوم والتعيير لتركه) أى ترك العبد فى أخذ ذلك الحلال (الأدب) وذلك (كمن أجلس) بالبناء للمفعول (على مائدة الملك) ليأكلها (فترك الأدب فانه يعير بذلك) أى بترك الأدب (ويلام) عليه (وإن كان الطعام له) أى لمن أجلس على المائدة (مباحا فالأصل فى هذا الباب) أى باب أخذ المباح (أن الله تعالى خلق العبد لعبادته) كما هو مذكور فى نص كتابه « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (وهو عبد لله تعالى من كل وجه) وفى كل حال (فحق) أى وجب (للعبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه يمكنه و) أن (يجعل أفعاله) أى العبد (كلها عبادة من أى وجه أمكنه فإن لم يفعل) العبد (ذلك) أى الجعل المذكور (وآثر) أى اختار (شهوة نفسه واشتغل بذلك) أى بإيثار الشهوة واختيارها (عن عبادة ربه مع تمكنه من ذلك) أى العبادة (من غير تعذر ، والدار) أى والحال أن الدار التى هى الدنيا (دار خدمة و) دار (عبادة) لله تعالى (لا دار تنعم و) لا (شهوة فيستحق) أى العبد الذى آثر شهوته (اللوم بذلك) أى بسبب إيثار الشهوة والاشتغال عن العبادة مع التمكن منها (و) يستحق (التعيير) أى التوبيخ (من سيده) الخالق له (فتأمل هذا الأصل) وهو أن الله خلق العبد لعبادته (راشدا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) أى لا تحول عن معصية الله إلا بالله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله هكذا ورد تفسيره عنه عليه السلام عن جبريل أفاده العلامة يوسف السنبلاوينى ، والعلى المرتفع الرتبة المنزه عما سواه ، والعظيم ذو العظمة والكبرياء قاله الصاوى وإنما أتى المصنف رحمه الله بالحوقلة لأجل التبرى منها فهذه علامة الإخلاص منه رحمه الله كما قال بعضهم صحح عملك بالإخلاص وصحح

فَهٰذِهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي أَرَدْنَا بَيَانَهَا فِي إِصْلَاحِ النَّفْسِ وَإِلْجَامِهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى، فَارْعَهَا حَقَّهَا وَاحْتَفِظْ بِهَا جِدًّا تَفُزْ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ فِي الدَّارَيْنِ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى ، وَاللّٰهُ وَلِيُّ الْعِصْمَةِ وَالتَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ .

إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة . وأيضا هي غراس الجنة كما فى حديث المعراج لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا إبراهيم عليه السلام جالسا عندباب الجنة علي كرسى من زبرجد أخضر قال لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة فإن أرضها طيبة واسعة فقال وما غراس الجنة ؟ فقال له: لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ومن فوائدها ما فى فوائدالشرجى قال ابن أبىالدنيا بسنده إلي النبىصلىالله عليه وسلم أنه قال «منقال كل يوم لاحول ولا قوة إلا بالله العلىالعظيم مائة مرة لم يصبه فقر أبدا » . وروى فىالخبر أيضا « إذا نزل بالإنسان مهم وتلا لاحول ولا قوةإلا بالله العلي العظيم ثلاثمائة مرة فرج الله عنه» أى أقلها ذلك ذكره العلامة يوسف فى حاشيته علي المعراج .

[تنبيه] قال العلماء رضى الله عنهم اعلم أنه لايثاب ذاكر على ذكر إلا إذا عرف معناه ولو إجمالا بخلاف القرآن فيثاب قارئه مطلقا نبه علي ذلك القليوبى (فهذه الجملة) المذكورة هى (التى أردنا بيانها فى إصلاح النفس وإلجامها) أى النفس (بلجام التقوى) لتكون على صراط الله المستقيم (فارعها) اى احفظ هذه الجملة (حقها واحتفظ بها) أى بهذه الجملة (جدا تفز بالخير الكثير فى الدارين) اى دار الدنيا والآخرة (إن شاء الله تعالى ، والله ولى العصمة) والحفظ (و) ولى (التوفيق بفضله) وإحسانه .

تم الجزء الأول من سراج الطالبين

ويليـه :

الجزء الثانى وأوله : فصل فى الحث على بذل المجهود فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس

فهرس

الجزء الأول من سراج الطالبين

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

سراج الطالبين

شرح

الشيخ إحسان محمد دحلان

الجمفسى الكديرى

على

منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين

للإمام حجة الإسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

(تمتاز هذه الطبعة بوضع كتاب منهاج العابدين
مضبوطا بالشكل الكامل بأعلا الصحائف)

الجزء الثاني

دار الفكر

« يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً »

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فصل ﴾ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِى قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْعَظِيمَةِ الطَّوِيلَةِ ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْعَقَبَاتِ شِدَّةً وَأَكْثَرُهَا مُؤْنَةً وَأَكْثَرُهَا آفَةً وَفِتْنَةً ، فَإِنَّ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْخَلْقِ كُلُّهُمْ إِنَّمَا انْقَطَعُوا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِمَّا بِسَبَبِ دُنْيَا أَوْ خَلْقٍ أَوْ شَيْطَانٍ أَوْ نَفْسٍ وَلَقَدْ ذَكَرْنَا فِى كُتُبِنَا الْمُصَنَّفَةِ مِنْ كِتَابِ : [الْإِحْيَاءِ وَالْأَسْرَارِ وَالْقُرْبَةِ إِلَى اللهِ] مَا يَبْعَثُ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِذٰلِكَ ، وَمَقْصُودُ هٰذَا الْكِتَابِ :

فصـــل

فى الحث على بذل المجهود فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس

﴿ فصل ﴾ : الفصل هو الحاجز بين الشيئين، والفصل : القطع ، يقال فصلت الشىء فانفصل : أى قطعته فانقطع ، وهـذا قطع لما كان فيه وحجز بينه وبين مابعده ، والتقدير هذا فصل فى التحريض والحث على بذل المجهود فى قطع هذه العقبة، وبيان معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس (فعليك) أى الزم (أيها الرجل) المريد لسلوك طريق الآخرة (ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة العظيمة الطويلة فإنها) أى هذه العقبة (أعظم العقبات شدة) أى مشقة (وأكثرها مؤنة) أى ثقلا وتعبا (وأكثرها آفة وفتنة) وبلية (فإن من هلك من الخلق كلهم إنما انقطعوا) أى السالكون (عن طريق الحق) والصواب ، وهلاكهم (إما بسبب دنيا أو خلق أو شيطان أو نفس، ولقد ذكرنا فى كتبنا المصنفة من كتاب الإحياء و) كتاب (الأسرار) أى أسرار معاملات الدين (و) كتاب (القربة إلى الله مايبعث) أى مايحمل الرجل السالك (على الاهتمام بذلك) أى ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة لطلب المقصود وهو طريق الحق والصواب ، وقد لخصنا طرفا يسيرا فى هذا الشرح (ومقصود هذا الكتاب) الذى سميناه بـ [منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين]

أَنِّى سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يُطْلِعَنِي عَلَى سِرِّ مُعَالَجَةِ النَّفْسِ ، وَأَنْ يُصْلِحَنِي وَيُصْلِحَ بِي ، فَاقْتَصَرْتُ فِى هٰذَا الْكِتَابِ الشَّرِيفِ عَلَى نُكَتٍ وَجِيزَةِ اللَّفْظِ غَزِيرَةِ الْمَعْنَى ، تُقْنِعُ مَنْ تَأَمَّلَهَا ، وَتَدَعُهُ عَلَى وَاضِحَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَهٰذَا الْفَصْلُ يَخْتَصُّ بِنُكَتٍ فِى مُعَالَجَةِ الدُّنْيَا وَالْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ .

أَمَّا الدُّنْيَا : فَحَقٌّ لَكَ أَنْ تَحْذَرَهَا وَتَزْهَدَ فِيهَا ، لِأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِمَّا أَنْتَ مِنْ ذَوِى الْبَصَائِرِ وَالْفِطَنِ فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيَا عَدُوَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ حَبِيبُكَ وَوَلِيُّكَ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا نَقِيضَةُ عَقْلِكَ ، وَالْعَقْلُ قِيمَتُكَ ، وَإِمَّا أَنْتَ مِنْ ذَوِى الْهِمَمِ

أنى سألت الله) تعالى (أن يطلعني على سر معالجة النفس و) سألت الله (أن يصلحني و) أن (يصلح) سبحانه وتعالى (بى) أى بسببى غيرى (فاقتصرت فى هذا الكتاب الشريف على نكت وجيزة) أى قليلة (اللفظ غزيرة) أى كثيرة (المعنى تقنع) أى تكفى هذه النكت (من تأملها) حق التأمل (وتدعه) أى تترك تلك النكت من تأملها (على واضحة) أى جلية (من الطريق) أى طريق العبادة الخالصة (إن شاء الله تعالى ، وهذا الفصل يختص بنكت) شريفة (فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس . أما الدنيا فحق) أى ثبت (لك أن تحذرها وتزهد فيها) أى الدنيا (لأن الأمر) أى أمرك (لايخلو من ثلاثة : إما أنت من ذوى) أى أصحاب (البصائر) جمع بصيرة ، وهى العلم والخبرة (و) ذوى (الفطن) جمع فطنة: وهى الحذق والفهم، وقد تفسر بجودة تهيؤ النفس لتصور مايرد عليها من الغير ، ويقابلها الغباوة (فحسبك) أى فإن كنت منهم كفاك (أن الدنيا عدوة الله سبحانه) وعدوة لأولياء الله ، وعدوة لأعداء الله . أما عداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله السالكين إليه ، ولذلك لم ينظر الله إليها نظر عناية منذ خلقها كما ورد ذلك فى الخبر ، وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل فانها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر فى مقاطعتها وقطعوا النظر عن زينتها ، وأما عداوتها لأعداء الله فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسرون ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم «اخسئوا فيها ولا تكلمون ــ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون» (وهو) سبحانه وتعالى (حبيبك ووليك) أى متولى أمورك (فإن الدنيا نقيضة عقلك ، والعقل) أى والحال أن العقل (قيمتك) ولولا عقلك ما كانت لك قيمة أصلا (وإما أنت من ذوى الهمم) جمع همة

وَالِاجْتِهادِ فِي عِبادَةِ اللهِ تَعالَى ، فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيا بَلَغَ مِنْ شُؤْمِها ما يَمْنَعُكَ مِنْ إِرادَتِها وَتَشْغَلُكَ الْفِكْرَةُ فِيها عَنِ الْعِبادَةِ وَالْخَيْرِ فَكَيْفَ نَفْسُها .

(والاجتهاد فى عبادة الله تعالى فحسبك) أى فإن كنت من أصحاب الهمم والاجتهاد كفاك (أن الدنيا بلغ من شؤمها)وشررها (مايمنعك من إرادتها وتشغلك الفكرة فيها) أى الدنيا (عن العبادة و) أنواع (الخير فكيف نفسها) أى نفس الدنيا الدنية التى لم تزن عند الله تعالى جناح بعوضة، ومن هوانها عند الله تعالي أن وبخ أولى الرغبات فيها وذم أهل الحرص عليها ، فقال تعالي « من كان يريد العاجلة عجلنا له » الآية . وقال تعالى « من كان يريد حرث الآخرة » الآية ، ففى بغضها الراحة العاجلة والآجلة والعزوالإكرام فى الدنيا والأخرى. قال عليه الصلاة والسلام: «الزهادة فى الدنيا تريح القلب والبدن». وقال عليه الصلاة والسلام «ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس» وقال عليه الصلاة والسلام «إذا أحب الله عبدا زوى عنه الدنيا» وقال السرى: إن الله تعالى سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم . وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة . فالأصول : الحسد والحرص وحب الدنيا ، فمن أحبها ذهب خوف الآخرة من قلبه ولا يفتح عبد على نفسه بابا من الدنيا إلا سد عليه عشرة من أبواب الآخرة . وقال محمد بن واسع : من زهد فى الدنيا فهو ملك فى الدنيا والآخرة . وقال مالك بن دينار : القلب إذا غلبه حب الدنيا لم تنجح فيه الموعظة . وفى بعض الكتب إن الله تعالى قال « أهون ما أنا صانع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة ذكرى من قلبه » وقال عبد الواحد بن زيد : مامن عبد أعطى الدينار فابتغى إليه ثانيا إلا سلبه الله حب الخلوة معه وبدله بعد القرب بعدا وبعد الأنس وحشة . وكان الثورى يقول : لو أن عبدا عبد الله بجميع المأمورات إلا أنه يحب الدنيا إلا نودى عليه يوم القيامة على رءوس أهل الجمع: ألا إن هذا فلان بن فلان قد أحب ما أبغض الله فيكاد لحم وجهه يسقط من الخجل وإنى لأعرف محبة الرجل للدنيا بتملقه لأهلها . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضى بالقنوع زال عنه الخضوع لأهلها . وقال الفضيل رحمه الله : إذا أحب الله عبدا أكثر همه وغمه فإذا أبغض عبدا وسع عليه دنياه ، ولو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على لاأحاسب عليها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا قرب منها. قال الجنيد : لاتصفوا القلوب لعلم الآخرة إلا إذا تجردت عن الدنيا ، وما رأيت أحدا عظمها فقرت عينه فيها أبدا ، وكان بشر يتمثل بهذين البيتين :

مكرم الدنيا مهان مستذل فى القيامه
والذى هانت عليه فله ثم الكرامه

وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها

وَإِمَّا أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ لَا بَصِيرَةَ لَكَ تُبْصِرُ الْحَقَائِقَ ، وَلَا هِمَّةَ لَكَ تَبْعَثُ عَلَى الْمَكَارِمِ ؛ فَحَسْبُكَ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَبْقَى :

عذاب يستقل ماله ، ولا يستقل عمله ، ومن كلام سيدى الحبيب محمد بن حسن جمل الليل . قلت مرة أين الناس أين الناس ؟ فهتف بى هاتف راحوا فى الكاس راحوا فى الكاس ، والكاس حب الدنيا ، ولله در سيدنا الحبيب عبد الله الحداد فى قوله :

وازهد بقلبك فى الدار التى فتنت	طوائفا فرأوها غاية العجب
تنافسوها وأعطوها قوالبهم	مع القلوب فيا لله من عجب
وهى التى صغرت قدرا وما وزنت	عند الإله جناحا فالحريص غبى
وخذ بلاغك من دنياك واسع به	سعى المجد إلى مولاك واحتسب
واعلم بأن الذى يبتاع عاجله	بآجل من نعيم دائم يخب

والكلام فى ذمها من الآيات والأحاديث والنظم والنثر كثير جدا ، ويكفى فيه قوله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » . وقد اتفق أهل الملل على ذم حبها حتى روى أن بعض أهل الكتاب حبروا راهبا من الكنيسة فقيل لهم فى ذلك فقالوا إنا وجدنا فى طرف ثوبه درهما مربوطا فالشر كله فى حبها وامتزاجه بطينة الآدمي كامتزاج الأرواح بالأجساد . قال عليه الصلاة والسلام « لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى إليهما ثالثا ، ولا يملأ بطن ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » نسأل الله التوبة علينا وعلى جميع المسلمين والإماتة على الإسلام سالمين من فتنتها مبغضين لها بمنه وكرمه .

قال فى النصائح : ثم اعلم أن الدنيا عبارة عن كل ما على وجه الأرض من المشتهيات واللذات وأصناف الأمتعة التى تشتهيها النفوس وتميل إليها وتحرص عليها وقد جمع الله أصولها فى قولها « زين للناس حب الشهوات » الآية ، فمن أحب ذلك واشتد حرصه عليه وليس له غرض فيه إلا مجرد التمتع والتلذذ صار من جملة محبيها فإن أفرط حتى لم يبال من أين يأخذ من حل أو حرام واشتغل بسببه عما فرضه الله عليه وقع فيما حرم الله عليه من معصيته وتحقق فى حقه الوعيد الوارد فى المحبين لها بلا شك وصار أمره فى نهاية الخطر إلا أن يتداركه الله بالتوبة قبل مماته وخروجه من هذه الدار انتهى بمعناه (وإما أنت من أهل الغفلة) أى الجاهلين (لا بصيرة لك تبصر) أى تلك البصيرة (الحقائق ولا همة لك تبعث) أى تحمل تلك الهمة (على المكارم) أى مكارم الأخلاق (فحسبك) إن كنت منهم (أن الدنيا لاتبقى) بل تفنى لأنها دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له ، وعليها يعادى من لاعلم له ، وعليها يحسد من لافقه له ، ولها يسعى من لا يقين له هكذا ورد فى الخبر ، ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام « يا بنى آدم لدوا للموت وابنوا للخراب تفنى نفوسكم وتبلى دياركم» . وقد قيل فى معنى ذلك :

له ملك ينادى كل يوم   لدوا للموت وابنوا للخراب

إِمَّا أَنْ تُفَارِقَهَا ، وَإِمَّا أَنْ تُفَارِقَكَ ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ : إِنْ بَقِيَتْ لَكَ الدُّنْيَا لَمْ تَبْقَ لَهَا ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لَكَ إِذَنْ فِي طَلَبِهَا ، وَإِنْفَاقِ الْعُمُرِ الْعَزِيزِ عَلَيْهَا ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا ... أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ
فَمَا تَرْجُو بِعَيْشٍ لَيْسَ يَبْقَى ... وَشِيكًا قَدْ تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلَ ظِلٍّ ... أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِارْتِحَالِ

فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ إِذًا أَنْ يُخْدَعَ بِهَا ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ فِيمَا قَالَ :

وللحافظ ابن حجر فى المعنى :

بنى الدنيا أقلوا لهم فيها ... فما فيها يئول إلى الفوات
بناء للخراب وجمع مال ... ليفنى والتوالد للممات

وبالجملة أن الدنيا لا بقاء لها أصلا ولا لذة (إما أن تفارقها وإما أن تفارقك) الدنيا وذلك (كما قال الحسن) البصرى رحمه الله (إن بقيت لك الدنيا لم تبق) أنت (لها) أى لأجل الدنيا بل تموت (فأى فائدة لك إذن) أى حين إذ فهمت قول الحسن رحمه الله (فى طلبها و) فى (إنفاق العمر العزيز عليها) أى على طلبها (ولقد أحسن القائل) من بحر الوافر (هب) فعل أمر من وهب (الدنيا تساق) حال (إليك عفوا) أى فضلا من نفقتك ، وفى سراج السالكين العفو من المال ما يفضل من النفقة ولا عسر على صاحبه فى إعطائه (أليس مصير) أى مرجع (ذاك) أى الدنيا (إلى زوال . فما ترجو بعيش ليس يبقى ، وشيكا) أى قريبا وسريعا (قد تغيره) أى ما ترجوه (الليالى) والأيام (وما) أى ليس (دنياك إلا مثل ظل : أظلك ثم آذن) أى أعلم ذلك الظل (بارتحال) الارتحال السير والمضى والانتقال ، وقيل أيضا فى المعنى :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورا وأنعما
كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما

(فلا ينبغي للعاقل إذن) أى إذا عرفت ماتقدم من أن الدنيا كالظل (أن يخدع بها)أى بمتاعها وزهرتها وزينتها ، بل ينبغى للعاقل أن يرضى بالقوت من الدنيا ولا يشتغل بالجمع ويشتغل بعمل الآخرة ، لأن الآخرة هى دار القرار ودار النعيم .

قال بعض الحكماء : أربعة طلبناها فأخطأنا طرقها: طلبنا الغنى فى المال فإذا هو فى القناعة ؛ وطلبنا الراحة فى الكثرة فإذا هى فى القلة ، وطلبنا الكرامة فى الخلق فإذا هى فى التقوى، وطلبنا النعمة فى الطعام واللباس فإذا هى فى الستر والاسلام، ويعني فيما يستر الله من العيوب والذنوب (ولقد صدق القائل) وهو الحسن البصرى رحمه الله (فيما قال) من بحر الكامل فى وصف الدنيا

أَضْغَاثُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ   إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لاَ يُخْدَعُ

(أضغاث نوم) أى ما التبس من الأحلام أوهى رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها، والمراد كناية عن الشيء كأنه لم يكن (أو كظل زائل * إن اللبيب) أى العاقل (بمثلها) أى الدنيا المشبهة بالأحلام (لا يخدع) وكان الحسن بن على رضى الله عنهما يتمثل ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها   إن اغترارا بظل زائل حمق

ويقال نزل أعرابى بقوم فقدموا إليه طعاما فأكل ثم قام إلى ظل خيمة فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس ، فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل بنيته   ولا بد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل :

وإن امرأ دنياه أكبر همه   لمستمسك منها بحبل غرور

وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : شهدت مجلسا من مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل أبيض الوجه حسن الشعر واللون عليه ثياب بيض ، فقال : السلام عليك يارسول الله : فقال النبى صلى الله عليه وسلم: وعليك السلام ورحمة الله ، فقال يا رسول الله ما الدنيا ؟ قال : حلم المنام وأهلها مجازون ومعاقبون ، قال يا رسول الله وما الآخرة؟ قال الأبد فريق فى الجنة وفريق فى السعير . فقال يارسول الله وما الجنة ؟ قال : بدل الدنيا لتاركها نعيمها أبدا قال : فما جهنم ؟ قال بدل الدنيا لطالبها لا يفارقها أهلها أبدا ، قال : فمن خير هذه الأمة ؟ قال الذى يعمل فيها بطاعة الله تعالى قال: فكيف يكون الرجل فيها ؟ قال مشمرا : كطالب القافلة، قال : فكم القرار بها ؟ قال كقدر المتخلف عن القافلة، قال : فكم ما بين الدنيا والآخرة قال كغمضة عين قال: فذهب الرجل فلم ير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا جبريل أتاكم ليزهدكم فى الدنيا، ويرغبكم فى الآخرة » وذكر أن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه قيل له بأى شىء اتخذك الله خليلا ؟ قال بثلاثة أشياء : أولها ما خيرت بين أمرين إلا اخترت الذى لله على غيره : والثانى ما اهتممت فيما تكفل الله لى فى أمر رزقى . والثالث ما تغذيت ولا تعشيت إلا مع الضيف . قال بعض الحكماء : حياة القلب فى أربعة أشياء : العلم والرضا والقناعة والزهد ، فالعلم يرضيه ، وبالرضا يبلغ هذه الدرجة، فاذا بلغ درجة الرضا ، وصل إلى القناعة وتوصله القناعة إلى الزهد، وهو التهاون بالدنيا، قال: والزهد ثلاثة أشياء : أولها معرفة الدنيا ثم الترك لها. والثانى خدمة المولى ثم الأدب فيها ، والثالث الشوق إلى الآخرة ثم الطلب لها . وعن يحى بن معاذ الرازى قال الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب ، فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال : الركون إلى الدنيا وهم غد وحسد أخ وحب شرف ، وذكر أيضا عن يحى رحمه الله قال : العاقل المصيب من عمل ثلاثا : ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبرا قبل أن يدخل فيه . وأرضى خالقه قبل أن يلقاه ،

وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَحَسْبُكَ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ تَعالى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم : (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ

وروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ، ولا عن النار مهربا يعنى لم يترك الجهد فى طلب الجنة والهرب من النار : أولها عرف الله تعالى فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فأتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها .

(وأما الشيطان) فهو أعدى الأعداء . قال تعالى « إن الشيطان لـكم عدو فاتخذوه عدوا » فليتخذه الإنسان عدوا فى جميع أحواله ، ويحذره جهده ، فقد قيل : إنه يفتح للانسان تسعة وتسعين بابا من الخير ليوقعه فى باب من الشر ، وهو اسم لـكل خبيث متمرد من الجن، من شاط احترق أو شطن بعد لبعده عن الخير ؛ فالمراد به هنا الجنس إبليس وأعوانه ، وإذا زاد فى الخبث والتمرد يسمى عفريتا ، وعن ابن عباس أن إبليس إذا مرت عليه الدهور وهرم عاد ابن ثلاثين سنة ، وذلك قوله تعالى « فإنك من المنظرين » وروى عن كعب الأحبار أنه قال : لما حضر آدم الموت قال يارب يشمت بى عدوى ، فأجابه الحق يا آدم إنك سترد إلى الجنة ويؤخر اللعين إلى النظرة ليذوق ألم الموت بعد الأولين والآخرين ؛ ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت ، فلما وصفه قال حسبي ، وهو أنه تعالى يقول له عقب النفخة قد خلقت فيك قوة أهل السموات السبع والأرضين السبع ، وإنى ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها ، فانزل بغضبي وسطوتى على رجيمى فأذقه الموت ، واحمل عليه مرارة الأولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة ،وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد ملئوا غيظا وغضبا ، مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها . وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب ، فينزل بصورة لورآه أهل السموات والأرضين بها لماتوا بغتة من هولها ، ويقول له قف يا خبيث لأذيقك الموت ، فيهرب إلى المشرق فإذا ملك الموت بين عينيه ، فيهرب إلي المغرب فإذا هو كذلك فيغوص البحار فلا تقبله ، فلا يزال يهرب ثم يقوم وسط الدنيا عند قبر آدم عليه السلام ويتمرغ في التراب من المشرق إلى المغرب حتى إذا كان فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه السلام، وقد نصبت الزبانية له الـكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالـكلاليب وبقى فى النزع إلى حيث شاء الله . وقيل لآدم وحواء عليهما السلام اطلعا على عدوكما فينظرانه ويقولان ربنا أتممت علينا نعمتك، والله أعلم ، وقد ذكرنا بعض مداخله فى العائق الثالث من العوائق الأربعة .

وأما عداوة الشيطان اللعين ودعوته إلى الشر والضلال والغفلة والانهماك فى المعاصى والبطالة (فحسبك) أى كفاك (فيه) أى الشيطان أى فى اجتناب عداوته وغيرها (ما قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقل رب) أى يا رب (أعوذ بك) أى أمتنع وأعتصم بك (من همزات

الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) . فَهٰذَا خَيْرُ الْعَالَمِينَ وَأَعْلَمُهُمْ وَأَعْقَلُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، يَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ ، فَكَيْفَ بِكَ مَعَ جَهْلِكَ وَنَقْصِكَ وَغَفْلَتِكَ ؟

الشياطين) أى وساوسهم ونخاستهم ، والهمز : النخس، والهمزات جمع الهمزة ومنه مهماز الرائض . والمعنى أن الشياطين يحثون الناس على المعاصى كما تهمز الراضة الدواب حثالها على المشى ؛ كذا ذكره النسفى (وأعوذ بك رب أن يحضرون) ويحوموا حولى فى شىء من الأحوال وخصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن ، وحلول الموت لأنها أحرى الأحوال بأن يخاف عليه فيها كما فى البيضاوى وإنما ذكر الحضور ، لأن الشيطان إذا حضره يوسوس له . روى عن جبير بن مطعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال عمر : ولا أدرى أى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا ثلاثا ، والحمد لله كثيرا ثلاثا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا ، أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه . قال نفثه : الشعر ، ونفخه : الكبر ، وهمزه . الموتة » . أخرجه أبو داود ، وقد جاء تفسير هذه الألفاظ فى متن الحديث مع زيادة قول الخازن ليصير إيضاحا . قوله نفثه الشعر : أى لأن الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق . قوله ونفخة الكبر ، وذلك أن المتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه فيحتاج إلى أن ينفخ . وقوله وهمزه الموتة ، الموتة الجنون لأن المجنون ينخسه الشيطان (فهذا) أى المأمور بالتعوذ من وساوس الشيطان بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه بالتعوذ من أن يحضروه أصلا أو عند تلاوة القرآن أو عند النزع (خير العالمين) سيد الأولين والاخرين صلي الله عليه وسلم (وأعلمهم) بالله تعالى (وأعقلهم) بالأمور النافعة فى الدنيا والآخرة (وأفضلهم) أى أفضل المخلوقات على العموم الشامل للعلوية والسفلية من البشر والجنّ والملك فى الدنيا والآخرة فى سائر خصال الخير وأوصاف الكمال (عند الله تعالى يحتاج مع ذلك) أى الوصف المذكور (أن يستعيذ) عليه الصلاة والسلام (بالله من شر الشيطان) اللعين (فكيف) الحال (بك مع جهلك) بما ينفعك (ونقصك) وقصورك (وغفلتك) عن عاقبة أمرك مع كثرة أعدائك . قال العلامة أبو الليث رحمه الله : اعلم أن لك أربعة من الأعداء ، فتحتاج أن تجاهد مع كل واحد منهم : أحدها الدنيا وهي غرارة مكارة . قال الله تعالى ــ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ــ وقال تعالى ــ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ــ والثاني نفسك وهى شر الأعداء . والثالث الشيطان . والرابع شيطان الانس فاحذره فانه أشد عليك من شيطان الجن ، لأن شيطان الجن يكون أذاه بالوسوسة ، وشيطان الإنس هو رفيق السوء ، ويكون أذاه بالمواجهة والمعاينة لا يزال يطلب عليك وجها يردك عما أنت فيه . وروى شداد بن أوس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » : يعنى حاسب نفسه فى الدنيا وعمل الطاعة لكى تنفعه بعد

وَأَمَّا الْخَلْقُ : فَحَسْبُكَ فِيهِمْ أَنَّكَ لَوْ خَالَطْتَهُمْ وَوَافَقْتَهُمْ فِي أَهْوَائِهِمْ أَثِمْتَ وَأَفْسَدْتَ أَمْرَ آخِرَتِكَ ، وَإِنْ خَالَفْتَهُمْ تَعِبْتَ بِأَذِيَّاتِهِمْ وَجَفَوَاتِهِمْ وَكَدَّرْتَ عَلَيْكَ أَمْرَ دُنْيَاكَ ، ثُمَّ لَا تَأْمَنُ أَنْ يُلْجِئُوكَ إِلَى مُعَادَاتِهِمْ وَمُنَاوَأَتِهِمْ فَتَقَعَ فِي شَرِّهِمْ ، وَلِأَنَّهُمْ إِنْ مَدَحُوكَ وَعَظَّمُوكَ أَخَافُ عَلَيْكَ الْفِتْنَةَ وَالْعُجْبَ ،

الموت « والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل المغفرة » . وروى عن سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أنه قال : ليس العجب ممن هلك كيف هلك ولكن العجب ممن نجا كيف نجا : يعنى أن الجنة قد حفت بالمكاره ، والنار قد حفت بالشهوات ، وإن فى كل نفس شيطانا يمثل إليه . وملكا يلهمه ولا يزال الشيطان يزين ويخدع ، ولا يزال الملك يمنعه ، فأيهما كانت النفس معه كان هو الغالب ، والله أعلم.

(وأما الخلق) أى أكثرهم ، وإنما أولنا كذلك لأن من يدلك على الله مقاله بأن تكون همته متعلقة بالله مرتفعة عن المخلوقين لا يلجأ فى حوائجه إلا إلى الله تعالى ، ولا يتوكل فى أموره إلا عليه سبحانه وتعالى قد سقط اعتبار الناس من عينه فلا يرى منهم ضرا ولا نفعا ، وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا ولا يقتضى لها حظا ، ويكون فى أعماله كلها جاريا على مقتضى الشرع من غير إفراط ولاتفريط، فصحبة من هذه حاله ، وإن قلت عباداته ونوافله مأمونة الغائلة محمودة العاقبة جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية ، لأن الطبع يسرق من الطبع، والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله، ولا يشترط فى المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام ، فإن ذلك متعذر ، وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه فقط بحيث يكون أعلى منه حالا وأصوب منه مقالا . ومن لم يكن على هذا الوصف . وكان شأنه المعاملة بالظاهر لا غير فليس له فائدة فى صحبته بل ربما زادته شرا ، لأن خلطته تدعوه إلى الصنع له والتزين ويؤديه ذلك إلى كبائر معاصى القلوب وهى أشد عليه من معاصى الجوارح بكثير . قال يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله لأن ألقى الله بجميع المعاصى أحب إلي من ألقاه بذرة من التصنع فيدخل بذلك عليه النقص فى حاله من حيث رجاء الزيادة فيها (فحسبك فيهم أنك لو خالطتهم ووافقتهم فى أهوائهم) و[illegible] اضهم (أثمت وأفسدت أمر آخرتك) فتكون من الهالكين (وإن خالفتهم) فى أهوائهم ([illegible] أذياتهم) أى بعقاباتها (وجفواتهم) وإعراضهم عنك بالكلية (وكدرت عليك أمر دنياك ثم لا تأمن) من (أن يلجئوك) أى يضطروك (إلى معاداتهم ومناوأتهم) مرادف لما قبله فى لسان العرب المناوأة : المعاداة . كذا فى سراج السالكين (فتقع فى شرهم ولأنهم إن مدحوك) وأثنوا عليك بسبب الإحسان الذى صدر منك (وعظموك) بسبب جاهك أو مالك أو مايختص بك من الصفة الجميلة (أخاف عليك الفتنة والعجب) وغيرهما من الصفات المهلكات

وَإِنْ ذَمُّوكَ وَحَقَرُوكَ أَخَافُ عَلَيْكَ الْحُزْنَ تَارَةً وَالْغَضَبَ لِغَيْرِ اللهِ أُخْرَى ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ آفَةٌ مُهْلِكَةٌ ؛ ثُمَّ اذْكُرْ حَالَكَ مَعَهُمْ بَعْدَ مَا صِرْتَ فِى الْقَبْرِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَيْفَ يَتْرُكُونَكَ وَيَهْجُرُونَكَ وَيَنْسَوْنَكَ ، وَلَا يَكَادُونَ يَذْكُرُونَكَ كَأَنَّكَ لَمْ تَرَهُمْ يَوْماً وَلَمْ يَرَوْكَ ، فَلَا يَبْقَى هُنَالِكَ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ ، أَفَلَا يَكُونُ مِنَ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ .

وكان النورى رحمه الله يقول : من عاشر الناس داراهم ، ومن داراهم راآهم ومن راآهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا .

وفى الحكاية المذكورة عن لقمان وابنه تنبيه على أن شأن الناس صعب جدا ، ذكر أن لقمان دخل ذات يوم السوق وهو راكب حمارا وابنه يسوقه ، فقال الناس حين رأوه شيخ لم يشفق على صبي ، فأركبه خلفه ، فقالوا : اثنان على حمار هلا زاد ثالثا ، فنزل لقمان وبقى الولد ، فقالوا شيخ ماش وصبي راكب ، فنزل الولد يمشى مع والده وساقا الحمار جميعا ، فقالوا حمار فارغ وهذان يسوقانه، وكان غرض لقمان بهذا أن يرى ابنه شأن الناس مع من يراعى نظرهم، فإنه لايسلم منهم على أى حالة تكون ، فرضى الناس غاية لاتدرك ، وأحمق الناس من طلب مالا يدرك ، فهذا حال من انقاد إلى الأوهام من ضعفاء العقول وسخفاء الأحلام ، وأما من كان له عقل وافر وعلم فاخر فلا يميل إلا إلى ما هو حق ووجود صدق وهو مامن الله إليه من نظر وإقبال وجزيل عطاء وعظيم نوال فهو يعمل فيما يؤديه إلى هذه المطالب من غير اكتراث بذم ذام أو عتب عاتب ، ويقول ما قاله محمد بن أسلم رحمه الله : مالى ولهذا الخلق كنت فى صلب أبى وحدى ثم صرت فى بطن أمى وحدى ثم دخلت الدنيا وحدى ثم تقبض روحى وحدى فأدخل فى قبرى وحدى ويأتينى منكر ونكير فيسألانى وحدى ، فإن صرت إلى خير صرت وحدى ، وان صرت إلى شر صرت وحدى ، ثم أوقف بين يدى الله وحدى ، ثم يوضع عملى وذنوبى فى ميزانى وحدى ، فإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدى ، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدى فمالى وللناس ؟ (وإن ذموك وحقروك أخاف عليك) الهم و (الحزن تارة و) أخاف(الغضب لغيرالله تعالى) تارة (أخرى وكلا الأمرين) المذكورين من العجب والغضب لغير الله (آفة مهلكة . ثم اذكر) أنت (حالك معهم) أى الخلق (بعد ما صرت فى القبر بثلاثة أيام كيف يتركونك ويهجرونك) مرادف لما قبله كما هو ظاهر (وينسونك ولا يكادون يذكرونك كأنك) فى الدنيا (لم ترهم يوما ولم يروك) أصلا (فلا يبقى هنالك) أى فى القبر (إلا الله سبحانه) أى غفرانه ورحمته إن كنت من السعداء المقبولين أو عذابه وعقابه إن كنت من الأشقياء المردودين (أفلا يكون من الغبن) أى النقص (العظيم) فى المختار غبنه فى البيع : خدعه وبابه ضرب ، وقد غبن فهو مغبون . وغبن رأيه من باب طرب إذا نقصه

أَنْ تُضَيِّعَ أَيَّامَكَ مَعَ هٰؤُلَاءِ الْخَلْقِ مَعَ قِلَّةِ الْوَفَاءِ وَقِلَّةِ الْبَقَاءِ مَعَهُمْ وَتَتْرُكَ خِدْمَةَ اللّٰهِ تَعَالَى الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ وَحْدَهُ ، فَلَا يَبْقَى إِلَّا هُوَ أَبَدَ الْآبِدِينَ ؛ وَالْحَاجَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهِ ، وَالتُّكْلَانُ كُلُّهُ عَلَيْهِ ، وَالْاعْتِصَامُ كُلُّهُ فِي كُلِّ حَالٍ وَعِنْدَ كُلِّ شِدَّةٍ وَهَوْلٍ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ فَتَأَمَّلْ يَا مِسْكِينُ لَعَلَّكَ تُرْشَدُ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى ، وَاللّٰهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

وَأَمَّا النَّفْسُ : فَحَسْبُكَ مَا تُشَاهِدُهُ مِنْ حَالَاتِهَا وَرَدَاءَةِ إِرَادَتِهَا وَسُوءِ اخْتِيَارِهَا ،

فهو غبين : أى ضعيف الرأى انتهى (أن تضيع أيامك) أى أوقاتك (مع هؤلاء الخلق) الذين يشغلونك عن عبادة مولاك (مع قلة الوفاء) للعهد (وقلة البقاء معهم وتترك خدمة الله تعالى) أي طاعته (الذى يرجع إليه) تعالى (الأمر) كله (وحده) أى منفردا بذاته (فلا يبق لك إلا هو) عز وجل (أبد الآبدين والحاجات) أى الدنيوية والأخروية (كلها إليه) سبحانه وتعالى (والتكلان) أى التوكل والاعتماد (كله عليه) تعالى (والاعتصام) أى الاستمساك والالتجاء ، فى محيط المحيط: اعتصم به أمسكه بيده، وبصاحبه لزمه، وبالله امتنع بلطفه من المعصية وفلان من الشر والمكروه التجأ وامتنع (كله) أى كل الاعتصام (فى كل حال وعند كل شدة) وبلية (وهول) وألم النازل (به) تعالى (وحده لا شريك له فتأمل) هذه الجملة المذكورة (يا مسكين) أى يامن قل علمه (لعلك ترشد) إلى طريق الصواب والهداية (إن شاء الله تعالى والله ولى الهداية بفضله) تعالى . قال بعضهم : والفضل إعطاء الشيء لغير عوض لا عاجل ولا آجل ، ولذا لا يكون لغيره تعالى (وأما النفس فحسبك ماتشاهده)وتعاينه (من حالاتها) القبيحة (ورداءة إرادتها وبسوء اختيارها) وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وتعديلها وقودها بسلاسل القهر إلي عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وعصت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك واحتجت إلى معالجة شديدة . وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عبادة الله راضية مرضية كما قال الله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك، فقد ورد أنه أوحى الله إلى عيسى عليه السلام « يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى» رواه أحمد فى الزهد عن مالك بن دينار ، وقد ذكرنا أقسام النفس

فَهِيَ فِي حَالِ الشَّهْوَةِ بَهِيمَةٌ ، وَفِي حَالِ الْغَضَبِ سَبُعٌ ، وَفِي حَالِ الْمُصِيبَةِ تَرَاهَا طِفْلاً صَغِيرًا ، وَفِي حَالِ النِّعْمَةِ تَرَاهَا فِرْعَوْنًا ، وَفِي حَالِ الْجُوعِ تَرَاهَا مَجْنُونًا ، وَفِي حَالِ الشِّبَعِ تَرَاهَا مُخْتَالاً ، إِنْ أَشْبَعْتَهَا بَطِرَتْ وَمَرِحَتْ ، وَإِنْ جَوَّعْتَهَا صَاحَتْ وَجَزِعَتْ ، فَهِيَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

كَحِمَارِ السُّوءِ إِنْ أَشْبَعْتَهُ رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جَاعَ نَهَقْ

وَلَقَدْ صَدَقَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ حَيْثُ قَالَ : إِنَّ مِنْ رَدَاءَةِ هٰذِهِ النَّفْسِ وَجَهْلِهَا بِحَيْثُ إِذَا هَمَّتْ بِمَعْصِيَةٍ أَوِ انْبَعَثَتْ لِشَهْوَةٍ فَثَنَيْتَهَا ، أَوْ تَشَفَّعْتَ إِلَيْهَا بِاللهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ بِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِجَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِجَمِيعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ عِبَادِهِ ، وَتَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَالْقَبْرَ وَالْقِيَامَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، لَا تُعْطِي الْاِنْقِيَادَ

عند قول المصنف فتستقبله ههنا عقبة التوبة فلاعود ولا إعادة (فهى) أى النفس الأمارة بالسوء (فى حال الشهوة بهيمة) أى كأنها بهيمة فى عدم معرفة ضررها في العاقبة (وفى حال الغضب سبع) أى حيوان مفترس مطلقا والعامة تخصه بالأسد والجمع أسبع وسباع (وفى حال المصيبة) أى نزولها (تراها طفلا صغيرا) أى في البكاء والجزع وعدم الصبر لما أصابها مع الجهل لقضاء ربها وحكمه (وفى حال النعمة) والسعة فى العيش (تراها فرعونا) أى فى التكبر والعلو فى الأرض (وفى حال الجوع تراها مجنونا) فى التحير والدهش (وفى حال الشبع تراها مختالا) أى متكبرا (إن أشبعتها بطرت) أى طغت وانبعثت فى قضاء شهوتها (ومرحت) أى فرحت ونشطت. فى المختار المرح شدة الفرح والنشاط، وبابه طرب (وإن جوعتها صاحت) أى ارتفع صوتها مع نوع الغضب (وجزعت) أى عدمت الصبر (فهى) أى تلك النفس (كما قال القائل) هى (كحمار السوء إن أشبعته) بالشعير (رمح) أى ضرب رجله (الناس وإن جاع نهق) أى صوت . فى سراج السالكين نهق الحمار ينهق نهيقا ونهاقا: صوت (ولقد صدق بعض الصالحين) رحمه الله تعالى (حيث قال إن من رداءة) بفتح الراء (هذه النفس وجهلها بحيث إذا همت بمعصية أو انبعثت لشهوة فثنيتها) أى عطفتها وصرفتها وراجعتها (أو تشفعت إليها بالله سبحانه ثم) تشفعت (برسوله عليه السلام وبجميع أنبيائه) عليهم الصلاة والسلام (وبكتابه) المنزل على رسله (وبجميع السلف الصالح من عباده) رضوان الله عليهم أجمعين (وتعرض عليها) أى النفس (الموت) أى سكرته وشدته (والقبر) أى عذابه ونعيمه (والقيامة) أى أهوالها ومخاوفها (والجنة) أى أنواع نعيمها ولذاتها (والنار) أى سلاسلها وأغلالها وضروب آلامها (لاتعطي) أى تلك النفس (الانقياد) إلى

وَلَا تَتْرُكُ الشَّهْوَةَ ، ثُمَّ إِنِ اسْتَقْبَلْتَهَا بِمَنْعِ رَغِيفٍ تَسْكُنُ وَتَتْرُكُ شَهْوَتَهَا لِتَعْلَمَ خِسَّتَهَا وَجَهْلَهَا ، فَإِيَّاكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ أَنْ تَغْفُلَ عَنْهَا ، فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ خَالِقُهَا الْعَالِمُ بِهَا جَلَّ جَلَالُهُ (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) فَكَفَى بِهَذَا تَنْبِيهًا لِمَنْ عَقَلَ .

طاعة ربها (ولا تترك الشهوة ثم إن استقبلتها بمنع رغيف) أوشربة ماء (تسكن وتترك شهوتها) وذلك (لتعلم خستها وجهلها . فإياك) أى احذر (أيها الرجل) الطالب لطريق السلامة فى العقبى (أن تغفل) بضم الفاء (عنها) أى عن تذكير النفس الأمارة بالسوء وعن وعظها بالموعظة البليغة (فإنها كما قال خالقها العالم بها) أى بجميع أحوالها (جل جلاله : إن النفس لأمارة بالسوء) من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها وتستعمل القوى والجوارح فى آثارها كل الأوقات ، كذا فسره البيضاوى (فكفى بهذا) الباء زائدة : أى قول خالقها العالم بجميع أحوالها (تنبيها لمن عقل) وأنصف فى فكره ، وحينئذ ينبغى أن تراقب ربك وتحفظ جوارحك وقلبك ، فإن الإنسان قد يتحرك مثلا فى طلب الخير والعمل من أعمال البر ، فيتفق أن يقع بصره على شيء له فيه هوى وشهوة فتميل نفسه إليه بالشره والمحبة، فيتكدر عليه وقته ويظلم قلبه ويختل عليه فى لحظة ما كابد أمره فى سنة مثلا ، وكذلك سائر حواسه .

وقد شبه العلماء رضي الله عنهم النفس فى مثل هذا بدابة استعارها رجل من مالكها ليتصرف بها فى حاجاته ، وكانت دابة جموحة صعبة المراس فجاز بها المستعير فى بعض تصرفاته على دار مولاها فنزعت إلى دار سيدها فإنه لامحالة يحتاج إلى صرف عنانها ، فإن تقاعست ضربها بالسوط والعصا حتى يصرفها بذلك عما نزعت إليه ، وقد يكون عليه في ذلك تعب ومئونة ، وسبب ذلك إنما هو خطوره بها على دار مولاها الذى ألفته واعتادته ، ولو لم يمر بها عليه لسلم ولم يحتج إلى معاناة ولا مكابدة ، فإن تغافل عنها حتى أدخلت يديها فى عتبة الباب واستمكنت منها ثم أراد منعها من الدخول لم تطعه بوجه بل اقتحمت به باب الدار كرها ، وربما جرحت رأسه وآلمته ، وسبب ذلك إنما هو تمكينها من العمل بمقتضى طبعتها وموافقة جبلتها فكذلك حال النفس ، قال :

فالنفس إن أعطيتها هواها فاغرة نحو هواها فاها

والحاصل أن النفس من شأنها أبدا طلب الحظوظ والفرار من الحقوق ، فهى لاتسعى إلا في ذلك ولو فى عملها فى الطاعات فضلا عن المعاصى ، ومن حاسب نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا، وقد تجد من النشاط واللذة فى نوع من العبادة مالا تجده فى نوع آخر وإن كان هذا النوع الآخر أتم فضيلة منه وما ذاك إلا من أجل أن حظها فيه أكثر من الآخر ، فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم إذا ألفت بابا من أبواب العبادات لمعرفتهم بخداعها ومكايدها فيشوشون ذلك عليها وينتقلون منه، وقد حكي عن أبي محمد المرتعش رحمه الله: أنه قال : حججت كذا وكذا حجة على التجريد فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبا بحظى ، وذلك أن والدتى سألتنى يوما أن أستقي

وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ يُقَالُ لَهُ أَحْمَدُ بْنُ أَرْقَمَ الْبَلْخِيُّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: نَازَعَتْنِي نَفْسِي بِالْخُرُوجِ إِلَى الْغَزْوِ ، فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وَهٰذِهِ تَأْمُرُنِي بِالْخَيْرِ، لاَ يَكُونُ هٰذَا أَبَدًا ، وَلٰكِنَّهَا اسْتَوْحَشَتْ فَتُرِيدُ لِقَاءَ النَّاسِ لِتَسْتَرْوِحَ إِلَيْهِمْ وَيَتَسَامَعَ النَّاسُ بِهَا فَيَسْتَقْبِلُونَهَا بِالتَّعْظِيمِ وَالْبِرِّ وَالْإِكْرَامِ ، فَقُلْتُ لَهَا : لاَ أُنْزِلُكِ الْعُمْرَانَ وَلاَ أُنْزِلُكِ عَلَى مَعْرِفَةٍ ، فَأَجَابَتْ فَأَسَأْتُ الظَّنَّ بِهَا ، وَقُلْتُ : اللهُ تَعَالَى أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ، فَقُلْتُ لَهَا : أُقَاتِلُ الْعَدُوَّ حَاسِرًا فَتَكُونِينَ أَوَّلَ قَتِيلٍ ، فَأَجَابَتْ فَأَسَأْتُ الظَّنَّ بِهَا، وَعَدَّدَ أَشْيَاءَ مِمَّا أَرَادَهَا فَأَجَابَتْ إِلَى كُلِّ ذٰلِكَ ، قَالَ فَقُلْتُ :

لها جرة ماء فثقل ذلك على نفسى فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجات كانت بشوب وحظ من نفسى إذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها ماهو حق فى الشرع ، فهذا مما يبين أن حظ النفس فى الطاعة موجود ولكنه خفى على العامل ، فلذلك تعسر مداواته لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ إدراك فليتطلب بذلك آفات نفسه ولطائف خداعها وخفايا حظوظها فيعمل على تصفية عمله من ذلك ، فلا جرم إذ كان متعذرا يجب عليه اتهام نفسه ومخالفتها فى كل ماتدعو إليه كائنا ما كان (ولقد بلغنا) وذكر العلامة الرندى عن الشيخ أبي بكر الخفاف رحمه الله ، سمعت بعض مشايخى يقول (عن بعض الصالحين يقال له أحمد بن أرقم البلخي رحمه الله أنه قال : نازعتنى) أى حدثتنى كما فى رواية (نفسى بالخروج إلى) استيجاب لأجل (الغزو فقلت) متعجبا (سبحان الله إن الله) تعالى (يقول إن النفس لأمارة بالسوء ، وهذه) أى نفسى (تأمرنى بالخير) وهو الخروج إلى الغزو (لا يكون هذا) الخير الذى أمرتنى النفس به (أبدا ولكنها) أىهذه النفس (استوحشت فتريد لقاء الناس لتستروح) أى لأجل أنتطلب الراحة والسكون (إليهم و) لأجل أن (يتسامع الناس بها) أى بالنفس (فيستقبلونها بالتعظيم والبر) والإحسان (والإكرام فقلت لها) يانفسى (لا أنزلك العمران ولا أنزلك على معرفة) من الناس (فأجابت) أى تلك النفس (فأسأت الظن) أى ظنى (بها) أى بإجابتها وانقيادها لذلك (وقلت: الله تعالى أصدق القائلين) حيث قال سبحانه وتعالى « إن النفس لأمارة بالسوء » (فقلت لها أقاتل العدو حاسرا) أى كاشفا للبدن بلا درع ومغفر أو بلا جنة : أى ترس (فتكونين أول قتيل) أى مقتول فى سبيل الله (فأجابت فأسأت الظن) أى ظنى (بها وعدد) أحمد بن أرقم (أشياء) من أنواع الخير (مما أرادها) أى تلك الأشياء (فأجابت) نفسه (إلى كل ذلك) أى الذى أرادها . (قال) ابن أرقم (فقلت

يَا رَبِّ نَبِّهْنِي لَهَا فَإِنِّي مُتَّهِمٌ لَهَا مُصَدِّقٌ لَكَ ، فَكُوشِفْتُ بِهَا كَأَنَّهَا تَقُولُ : يَا أَحْمَدُ أَنْتَ تَقْتُلُنِي كُلَّ يَوْمٍ بِمَنْعِكَ إِيَّايَ مِنْ شَهَوَاتٍ مَرَّاتٍ وَبِمُخَالَفَتِكَ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ ، فَإِنْ قَاتَلْتَ قُتِلْتَ قَتْلَةً وَاحِدَةً فَنَجَوْتُ مِنْكَ ، وَيَتَسَامَعُ النَّاسُ فَيَقُولُونَ : اُسْتُشْهِدَ أَحْمَدُ ، وَيَكُونُ لِي شَرَفٌ وَذِكْرٌ ، قَالَ فَقَعَدْتُ وَلَمْ أَخْرُجْ إِلَى الْغَزْوِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ ، فَانْظُرْ إِلَى خِدَاعِ النَّفْسِ وَغُرُورِهَا ، تُرَائِي النَّاسَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِعَمَلٍ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ ،

يارب نبهنى لها) أى النفس : أى لإرادتها (فإنى متهم لها مصدق لك) أى لقولك (فكوشفت بها كأنها تقول) لى (يا أحمد أنت تقتلنى كل يوم بمنعك إياى من شهواتى مرات وبمخالفتك ولا يشعر) أى لايعلم (به) أى بما ذكر من المنع والمخالفة (أحد) من الناس (فإن قاتلت) الكفار فى صف القتال (قتلت) بالبناء للمفعول : أى قتلنى خصمك (قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقولون استشهد) بالبناء للمفعول : أى قتل شهيدا (أحمد) بن أرقم (ويكون لى شرف وذكر) فى الناس . (قال) ابن أرقم (فقعدت ولم أخرج إلى الغزو فى ذلك العام) . قال المصنف رحمه الله تعالى (فانظر إلى خداع) بكسر الخاء (النفس وغرورها ترائى الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد) أى إلى الآن ، فتبين من هذه القصة أن حظ النفس فى الطاعة باطن خفى بخلافه فى المعصية فإنه ظاهر جلى . قال بعض العارفين : منذ عشرين سنة ماسكن قلبى إلى نفسى ساعة ، وسكون القلب إلى النفس هو اتباعه للأخف عليها دون الأثقل وهو معدود عندهم من نفاق القلب ومن بقى عليه شىء من دواعى الهوى وإن قلّ لايؤمن عليه من مثل هذا ، فخفة العمل على النفس إنما تكون لأجل موافقة هواها لايميل إلا إلى الباطل ، فإذا التبس عليك أمران واجبان أو مندوبان ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتقدمه على الآخر فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به ، هذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس لأنها مجبولة على الشرّ والشره ، وإنما قلنا باعتبار غالب الأنفس لأن النفس المطمئنة لاتوصف بالجهل ولا بالشره فقد يخف العمل عليها ولا يدلّ ذلك على أنه باطل فليكن نظر العبد حينئذ إلى ماهو أكثر فائدة وأعظم مزية فليقدّمه على غيره ، وقد ذكر الشيخ أبو طالب صاحب القوت رحمه الله حكاية عجيبة فى شره النفس وكونها لاتميل إلا إلى الباطل . قال : حدّثنى بعض إخوانى عن بعض هذه الطائفة : قال قدم علينا بعض الفقراء فاشترينا من جار لنا حملا مشويا ودعوناه إليه فى جماعة من أصحابنا ، فلما مد يده أخذ لقمة وجعلها فى فيه ثم لفظها ثم اعتزل وقال : كلوا أنتم فإنه قد عرض لى عارض منعنى من الأكل ، فقلنا لا نأكل إن لم تأكل ، فقال أنتم أعلم أما أنا فغير آكل ثم انصرف ، قال فكرهنا أن نأكل

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ وَأَحْسَنَ فِيمَا قَالَ :

تَوَقَّ نَفْسَكَ لاَ تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا ... فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

فَتَنَبَّهْ رَحِمَكَ اللهُ لِهٰذِهِ الْخَدَّاعَةِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ، وَوَطِّنْ عَلَى مُخَالَفَتِهَا قَلْبَكَ بِكُلِّ حَالٍ تُصِبْ وَتَسْلَمْ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

دونه فقلنا لو دعونا الشواء فسألناه عن أصل هذا الحمل فلعلّ له سببا مكروها فدعوناه فلم نزل به نسأله عنه حتى أقرّ أنه ميتة وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصا على ثمنه فشواه ووافق أنكم اشتريتموه ، قال فرميناه للكلاب ، قال ثم إنى لقيت الرجل بعد وقت فسألته لأى معنى تركت أكله وبأى عارض ؟ فقال أخبرك ما شرهت نفسى إلى طعام منذ عشرين سنة للرياضة التى ريضتها بها فلما قدمتم إلى هذا شرهت نفسى إليه شرها ما عهدته قبل ذلك فعلمت أن فى الطعام علة فكرهت أكله لأجل شدة شره النفس إليه . قال الشيخ أبو طالب رحمه الله : فانظر رحمك الله كيف اتفقا فى شره النفس على قصة واحدة ، ثم اختلفا بالتوفيق والخذلان ، فعصم العالم بالورع والمحاسبة ، وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وترك المراقبة ، أعنى البائع للحمل ، وعصم الآخرون للتوفيق بحسن الأدب وهو قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم ، ثم تدارك البائع بعد وقوعه بصدق المشترى وحسن نيته (ولقد صدق القائل وأحسن فيما قال) نظما من بحر البسيط (توقّ) أى احفظ (نفسك لا تأمن غوائلها) أى النفس جمع غائلة وهى الفساد والشر والمهلكة والفجور (فالنفس أخبث من سبعين شيطانا) وذلك لأن آفات النفس غامضة جدا . قال القشيرى صاحب الرسالة : ومن غوامض آفات النفس ركونها إلى استحلاء المدح ، فان من تحسى منه جرعة حمل السموات والأرضين على شفر من أشفاره ؛ وأمارة ذلك أنه إذا انقطع عنه ذلك الشرب آل حاله إلى الكسل والفشل .

كان بعض المشايخ يصلى فى مسجده فى الصف الأول سنين كثيرة فعاقه يوما عن الابتكار إلى المسجد عائق ، فصلى فى الصف الأخير فلم ير مدة فسئل عن السبب ؟ فقال كنت أقضى صلاة كذا وكذا سنة صليتها ، وعندى أنى مخلص فيها لله فداخلنى يوم تأخرى عن المسجد من شهود الناس إياى فى الصف الأخير نوع خجل ، فعلمت أن نشاطى طول عمرى إنما كان على رؤيتهم فقضيت صلواتى . ومثل ذلك ما حكى عن أبى محمد المرتعش كما تقدم بيانه (فتنبه) أى تيقظ من نوم غفلتك (رحمك الله) جملة دعائية (لهذه) النفس (الخداعة الأمارة بالسوء ووطن) أى قرر أنت (على مخالفتها) أى هذه الخداعة (قلبك بكل حال تصب) إلى طريق الحق (وتسلم) عن المعاصى (إن شاء الله تعالى) وذلك لأن النفس هى الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى وأن بمجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالى . قال بعضهم : ما الحياة إلا فى الموت ؛

ثُمَّ عَلَيْكَ بِإِلْجَامِهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى لا حِيلَةَ لَهَا سِوَاهُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا أَصْلاً أَصِيلاً وَهُوَ أَنَّ الْعِبَادَةَ شَطْرَانِ : شَطْرُ الاكْتِسَابِ ، وَشَطْرُ الاجْتِنَابِ ؛ فَالاكْتِسَابُ: فِعْلُ الطَّاعَاتِ ، وَالاجْتِنَابُ: الامْتِنَاعُ عَنِ المَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ وَهُوَ التَّقْوَى ، وَأَنَّ شَطْرَ الاجْتِنَابِ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْلَمُ وَأَصْلَحُ وَأَفْضَلُ وَأَشْرَفُ لِلْعَبْدِ مِنْ شَطْرِ الاكْتِسَابِ ، وَلِذٰلِكَ يَشْتَغِلُ الْمُبْتَدِئُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِبَادَةِ الَّذِينَ هُمْ فِي أَوَّلِ دَرَجَةٍ مِنَ الاجْتِهَادِ بِشَطْرِ الاكْتِسَابِ ، كُلُّ هِمَّتِهِمْ أَنْ يَصُومُوا نَهَارَهُمْ وَيَقُومُوا لَيْلَهُمْ وَنَحْوَ ذٰلِكَ ، وَيَشْتَغِلُ الْمُنْتَهُونَ أُولُو الْبَصَائِرِ

أى ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس . وقيل: النعمة العظمى الخروج عن النفس لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالي . وقال أبو مدين قدس سره : من لم يمت لم ير الحق ؛ وقد عبر الإمام أبو القاسم القشيرى رحمه الله عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة فقال : قتل النفس فى الحقيقة التبرّى من حولها وقوتها أو شهود شيء منها ، ورد دعاويها إليها ، وتشويش تدبيرها عليها ، وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها ، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها ، وانمحاء آثار بشريتها عنها ، فأما بقاء الرسوم والهيا كل فلا خطر لها ولاعبرة انتهى ، فهذه هى السبيل إلي موت النفس المفضى إلى حضرة القدس لكونه جاريا على مقتضى الشريعة والحقيقة اللتين بأنوارهما يهتدى كل سالك ومريد . (ثم عليك) أى الزم (بالجامها) أي تلك الخداعة (بلجام التقوى لا حيلة لها سواه) أى سوى هذا الالجام باللجام المذكور . (واعلم أن ههنا) أى فى مبحث النفس (أصلا أصيلا) أى له أصل (وهو) أى ذلك الأصل الأصيل (أن العبادة شطران) أى جزآن : الأول (شطر الاكتساب . و) الثانى (شطر الاجتناب) ، فالاكتساب فعل الطاعات (والاجتناب الامتناع عن المعاصى والسيئات ، وهو) أى فعل الطاعات وامتناع المعاصى (التقوي) ولكن الاجتناب هو الأشد والأثقل من الاكتساب ، ولذلك كان أكثر ثوابا منه ، لأن الطاعة يقدر على فعلها كل أحد ، وترك المناهى لا يقدر عليه إلا الصديقون ، فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهاجرمن هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » (وأن شطر الاجتناب على كل حال أسلم وأصلح وأفضل وأشرف للعبد من شطر الاكتساب ، ولذلك) أى المذكور من أن شطر الاجتناب أسلم فى كل حال (يشتغل المبتدئون من أهل العبادة الذين هم فى أول درجة من الاجتهاد بشطر الاكتساب كل همتهم) أى المبتدئين (أن يصوموا نهارهم ويقوموا) أى يصلوا (ليلهم ونحو ذلك) أى صيام النهار وقيام الليل من العبادات الظاهرة (ويشتغل المنتهون أولو) أى أصحاب (البصائر) جمع بصيرة وهى ناظر القلب كما أن البصر ناظر العين وناظرالقلب إنما ينظر إلى العاقبة

مِنْ أَهْلِ الْعِبادَةِ بِشَطْرِ الِاجْتِنابِ ، إِنَّمَا هِمَّتُهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا قُلُوبَهُمْ عَنِ المَيْلِ إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى ، وَبُطُونَهُمْ عَنِ الْفُضُولِ ، وَأَلْسِنَتَهُمْ عَنِ اللَّغْوِ ، وَأَعْيُنَهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَعْنِيهِمْ عَنِ النَّظَرِ .

وَلِهَذَا الْمَعْنَى قالَ الْعابِدُ الثَّانِي مِنَ الْعُبَّادِ وَكَانُوا سَبْعَةً لِيُونُسَ ، يَا يُونُسُ : إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ فَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَيْهَا شَيْئًا ، وَهِيَ عَمُودُ الْعِبَادَةِ بِالثَّبَاتِ لِلهِ وَالصِّدْقِ وَالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ ،

والعاقبة للمتقين (من أهل العبادة بشطر الاجتناب إنما همتهم) أى المنتهين (أن يحفظوا قلوبهم عن الميل إلى غير الله تعالى ، و) يحفظوا (بطونهم عن الفضول) بأكل الشهوات (وألسنتهم عن اللغو) والكلام الذى لا فائدة فيه (وأعينهم عن النظر إلى مالا يعنيهم) أى مالا ينفعهم فى الدنيا والآخرة (ولهذا المعنى) الذى ذكر من اشتغال الفريقين بالشطرين (قال العابد الثانى من العباد) بضم العين جمع عابد (وكانوا سبعة ليونس) النبى عليه الصلاة والسلام (يا يونس إن من الناس من حبب) بالبناء للمفعول (إليهم) جمع الضمير مراعاة لمعنى من (الصلوات فلا يؤثرون) أى لا يختارون (عليها) أى الصلوات (شيئا ، وهى) أى تلك الصلوات (عمود العبادة) وأساسها (بالثبات لله والصدق والتضرع والابتهال) .

اعلم أن الصلاة المعتبرة الكاملة إنما هى صلاة الخاشعين لا صلاة الغافلين التى لا تنتهض لبلوغ المقاصد السنية وهى طهارة القلوب من أدناس الذنوب واستفتاح لباب الغيوب ، ولذلك كانت الصلاة أم العبادات وأساس الخيرات . قال الله تعالى « وأقم الصلاة لذكرى » فأخبر أن المراد من الصلاة الذكر ، وقد روى معنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله » ولذلك كانت قرة عين حبيب الله صلى الله عليه وسلم .

وفى بعض الأخبار « إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه مناد لو يعلم الناجى من يناجى ما انتقل ، وإن أبواب السماء تفتح للمصلى ، وإن الله يباهي ملائكته بصفوف المصلين » .

وفى التوراة « يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى مصليا باكيا فأنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى » وكانوا يرون أن تلك الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنو الرب من القلب . وقال محمد بن على الترمذى رحمه الله : دعا الله تعالى الموحدين

وَمِنْهُمْ مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الصَّوْمُ فَلاَ يُؤْثِرُونَ عَلَيْهِ شَيْئاً ، وَمِنْهُمْ مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ فَلاَ يُؤْثِرُونَ عَلَيْهَا شَيْئاً ، يَا يُونُسُ وَأَنَا مُفَسِّرٌ لَكَ هٰذِهِ الْخِصَالَ ، فَاجْعَلْ طُولَ صَلاَتِكَ الصَّبْرَ عَلَى الْبَأْسَاءِ وَالتَّسْلِيمَ لِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَاجْعَلْ صَوْمَكَ الصَّمْتَ عَنْ كُلِّ سُوءٍ ».

إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم وهيأ لهم ألوان الضيافات لينال العبد من كل فعل وقول شيئا من عطاياه ؛ فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة وهى عرس الموحدين هيأها رب العالمين لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس . وقال أبو طالب المكى رحمه الله : حدثت أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرض خوفا منه لأنه تأهب للدخول على الملك فاذا كبر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه ، وواجهه الجبار بوجهه الكريم ، فاذا قال الله أكبر اطلع الملك على قلبه ، فاذا كان ليس فى قلبه أكبر من الله فيقول الملك صدقت الله أكبر فى قلبك كما تقول ، قال فيشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش فيكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات . قال وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب نقطة العسل فاذا كبر اطلع الملك على قلبه فاذا كان كل شىء فى قلبه أكبر من الله عنده فيقول الملك كذبت ليس الله أكبر فى قلبك كما تقول . قال فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت . قال : فيرد ذلك الحجاب صلاته وتلتقم الشياطين قلبه ، فلا تزال تنفخ فيه وتنفث وتوسوس إليه وتزين له حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه (ومنهم) أى الناس (من حبب إليهم الصوم فلا يؤثرون عليه) أى الصوم (شيئا ، ومنهم من حبب إليهم الصدقة فلا يؤثرون عليها) أى الصدقة (شيئا ، يا يونس وأنا مفسر) أى مبين (لك هذه الخصال) المذكورة من الصلاة والصدقة والصوم (فاجعل طول صلاتك الصبر على البأساء) أى الشدة (و) اجعل ذلك (التسليم) والتفويض (لأمر الله عز وجل واجعل صومك الصمت) أى السكوت (عن كل سوء) ومن هنا قال وهب بن منبه : أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت : أى عن السوء . قال العلامة ابن حجر حتى عن المباح لأنه ربما أدى إلى محرم أو مكروه ؛ وعلى فرض أن لا يؤدى إليهما ففيه ضياع الوقت فيما لا يعنى . وفى الحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ». وقال الفضيل بن عياض : لا حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان . وقال لقمان لابنه : لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . قال ابن المبارك : معناه لو كان الكلام بطاعة الله تعالى من فضة كان السكوت عن معصية الله تعالى من ذهب وهو صريح فى أن الكف عن المعصية أفضل من عمل الطاعة وأن الصمت أفضل من الكلام . وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رحمه الله : الصمت سلامة وهو الأصل ، والسكوت فى وقته صفة الرجال كما أن النطق فى وقته من

أشرف الخصال ، وسمعت أبا على الدقاق يقول : من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس . قال : فأما إيثار أهل المجاهدة السكوت ، فلما عرفوا مافى الكلام من الآفات ثم مافيه من حظوظ النفس وإظهار صفات المدح والميل إلى أن يتميز من بين أشكاله بحسن النطق وغير هذا من الآفات وذلك نعت أرباب الرياضة ، وهذا أحد أركانهم فى المنازلة وتهذيب الخلق . وقال ذو النون : أصون الناس لنفسه أملكهم للسانه ، وبالجملة فاللائق بمن يؤمن بالله تعالى حق إيمانه وباليوم الآخر ، ووقوع الجزاء فيه أن يستعد له ويجتهد فيما يدفع به أهواله ومكارهه ، فيأتمر بأوامره تعالى ، وينتهى عن مخالفته ، ويعلم أن من أهم ما عليه ضبط جوارحه فانها رعاياه وهو مسئول عنها جارحة جارحة . قال الله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ويعلم أن من أكثر المعاصى عددا ، وأيسرها وقوعا معاصى اللسان ، إذ آفاته تزيد على العشرين ، ومن ثم قال تعالى « وقولوا قولا سديدا » . وقال صلى الله عليه وسلم « أمسك عليك لسانك » . وقال صلى الله عليه وسلم « وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » وأفاد هذا الحديث كما قاله ابن حجر أن قول الخير خير من الصمت لتقدمه عليه ولأنه إنما أمر به عند عدم قول الخير، وأن الصمت خير من قول الشر، وأن قول الخير غنيمة ، والسكوت عن الشر سلامة . وأن فوات الغنيمة والسلامة ينافى حال المؤمن وما يقتضيه شرف الإنسان المشتق من الأمان ولا أمان لمن فاتته الغنيمة والسلامة ، وأن الإنسان إما أن يتكلم أو يسكت ؛ فان تكلم فإما بخير وهو ربح ، وإما بشر وهو خسارة ؛ وإن سكت فاما عن شر وهو ربح ، وإما عن خير وهو خسارة ، فله فى كلامه وسكوته ربحان ، فينبغى أن يحصلهما أو خسارتان فينبغى أن يجتنبهما . قيل : وهذا الأمر عام مخصوص بما لو أكره على قول شر أو سكوت عن خير أو نسى أو خاف على نفسه من قول الخير ونحوه كخبر « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وخبر « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » انتهى، ولا يحتاج لذلك لأن رفع القلم عن الناسى والمكره من القواعد الشرعية المقررة ، فجميع الأوامر والنواهى مخصوصة بها فى ذهن كل عالم بذلك معتقدا له ، فلا خصوصية لتخصيص هذا الحديث بها على أن التعبير بالخير وبالسكوت فى مقابلته الدال على أنه خير أيضاً دليل على ذلك التخصيص . لأن المكره عليه منهما يصير خيرا أيضا : أى مباحا ، وعند النسيان هو خير أيضا لارتفاع العقاب ، فلا يحتاج مع ذلك إلى دعوى تخصيص كما نبه عليه العلامة ابن حجر .

[تنبيه] التزام الصمت مطلقا واعتقاده قربة إما مطلقا أو فى بعض العبادات كالصوم والحج منهى عنه ، ففي خبر أبي داود « لاصمات يوم إلي الليل » . وأخرج الاسماعيلى النهى عنه فى الاعتكاف، وروى أيضا فى الصوم، وآثر يصمت على يسكت لأنه أخص إذ هو السكوت مع القدرة وهذا هو المأمور به . وأما السكوت مع العجز لفساد آلة النطق فهو الخرس ، أو لتوقفها فهو العي وكلا هذين : أي الخرس والعى لايحسن الأمر معه بالسكوت، وذلك لأن الأمر إنما يكون بالأفعال

وَاجْعَلْ صَدَقَتَكَ كَفَّ الْأَذَى ، فَإِنَّكَ لاَ تَتَصَدَّقُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْهُ ، وَلا تَصُومُ بِشَيْءٍ أَزْكَى مِنْهُ ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ جَانِبَ الِاجْتِنَابِ أَوْلَى بِالرِّعَايَةِ وَالِاجْتِهَادِ فِيهِ ، فَإِنْ حَصَلَ لَكَ الشَّطْرَانِ جَمِيعاً : الِاكْتِسَابُ وَالِاجْتِنَابُ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَمْرُكَ وَحَصَلَ مُرَادُكَ وَقَدْ سَلِمْتَ وَغَنِمْتَ، وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلاَّ إِلى أَحَدِهِمَا فَلْيَكُنْ ذَلِكَ جَانِبَ الِاجْتِنَابِ فَتَسْلَمَ إِنْ لَمْ تَغْنَمْ وَإِلاَّ خَسِرْتَ الشَّطْرَيْنِ جَمِيعاً، وَمَا يَنْفَعُكَ قِيَامُ لَيْلٍ وَتَعَبُهُ ثُمَّ تُحْبِطُهُ بِإِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ ،

الاختيارية ، وكلا هذين اضطرارى فلا يتأتى التكليف به (واجعل صدقتك كف الأذى) أى دفعه وصرفه ومنعه ، وفى ذلك إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر فى المال ، كما دل عليه خبر الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » ثم شرط الثواب على هذه الأعمال كما قاله العلامة ابن حجر : خلوص النية فيها وفعلها لله تعالى وحده كما دل عليه حديث صحيح ابن حبان ، فانه صلى الله عليه وسلم ذكر فيه خصالا : كالتصدق ، وقول المعروف ، وإعانة الضعيف ، وترك الأذى ، ثم قال : « والذى نفسى بيده ما من عبد يعمل بخصلة منها يريد بها ما عند الله إلا أخذت بيده يوم القيامة حتى يدخل الجنة » وهو مستمد من قوله تعالى « إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » وبهذا يرد ماروى عن الحسن وابن سيرين « أن من أعطى آخر شيئا حياء منه له فيه أجر » وأبو نعيم فى الحلية عن ابن سيرين « أن من تبع جنازة حياء من أهلها له أجر لصلته الحى » (فإنك لاتتصدق بشىء أفضل منه) أى من كف الأذى ودفعه (ولا تصوم بشىء أزكى) أى أطهر (منه) أى من الصمت عن جميع السوء (فإذا) أى إذا كان الأمر كذلك (علمت أن جانب الاجتناب) عن المعاصى (أولى) أى أحق (بالرعاية والاجتهاد فيه) أى فى جانب الاجتناب عما ذكر (فإن حصل لك الشطران) أى الجزآن (جميعا) وهما (الاكتساب والاجتناب، فقد استكمل أمرك وحصل مرادك ، وقد سلمت وغنمت) وربحت ربحا عظيما (وإن لم تبلغ إلا إلى أحدهما) أى الشطرين (فليكن ذلك) أى الذى بلغته من أحدهما (جانب الاجتناب فتسلم إن لم تغنم ، وإلا) أى إن لم يكن الذى بلغته جانب الاجتناب ، بل هو الاكتساب مع عدم رعاية الاجتناب عن المعاصى (خسرت الشطرين) خسرانا مبينا (جميعا ، وما) أى ليس (ينفعك قيام ليل) أى صلاته وغيرها من الأوراد (وتعبه ثم تحبطه بإرادة واحدة) من الرياء والعجب والحسد ونحوها من الصفات

وَمَا يُغْنِيكَ صِيَامُ نَهَارٍ طَوِيلٍ ثُمَّ تُفْسِدُهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَلَقَدْ رَوَيْنَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : مَا تَقُولُ فِي رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا كَثِيرُ الْخَيْرِ كَثِيرُ الشَّرِّ ؛ وَالْآخَرُ قَلِيلُ الْخَيْرِ قَلِيلُ الشَّرِّ : قَالَ لَا أَعْدِلُ بِالسَّلَامَةِ شَيْئاً .

وَمِثَالُ مَا قُلْنَاهُ حَالُ الْمَرِيضِ ، وَذَٰلِكَ أَنَّ مُعَالَجَةَ الْمَرِيضِ نِصْفَانِ : نِصْفٌ هُوَ الدَّوَاءُ وَنِصْفٌ هُوَ الْاحْتِمَاءُ ، فَإِنِ اجْتَمَعَا فَكَأَنَّكَ بِالْمَرِيضِ قَدْ بَرِئَ وَصَحَّ ، وَإِلَّا فَالْاحْتِمَاءُ بِهِ أَوْلَى إِذْ لَا يَنْفَعُ دَوَاءٌ مَعَ تَرْكِ الْاحْتِمَاءِ ، وَلَقَدْ يَنْفَعُ الْاحْتِمَاءُ مَعَ تَرْكِ الدَّوَاءِ .

وَلَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَصْلُ كُلِّ دَوَاءٍ الْحِمْيَةُ » وَالْمَعْنِيُّ بِهَا وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا تُغْنِي عَنْ كُلِّ

المهلكات (وما يغنيك) أى ليس يكفيك (صيام نهار طويل ثم تفسده بكلمة واحدة) والمراد بها مافيه إيذاء مسلم ونحوه دون مجرد المزاح المباح ، ففي الخبر « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها أصحابه فيهوى بها فى قعر جهنم سبعين خريفا » .

وذكر بعضهم أن الكلام أربعة أقسام : ضرر محض ونفع محض وضرر ومنفعة ولا ضرر ولا منفعة ، فالضرر المحض لابد من السكوت عنه ، وكذلك مافيه ضرر ومنفعة ولا تفى المنفعة بالضرر ، وأما مالا ضرر فيه ولامنفعة فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الواحد فيسقط ثلاثة أرباع الكلام ، وفيه خطر إذاكان يجر مافيه إثم من الرياء والتصنع ونحوهما (ولقد روينا عن) ترجمان القرآن عبد الله (بن عباس رضى الله عنه أنه قيل لهماتقول فى) شأن (رجلين أحدهما كثير الخير كثير الشر، والآخر قليل الخيرقليل الشر؟ قال) ابن عباس (لا أعدل) ولا أسوى (بالسلامة شيئا) قال المصنف (ومثال ماقلناه) أى من أن للعبادة شطرين (حال المريض ، و) بيان (ذلك) أى المثال (أن معالجة المريض) أى مداواته (نصفان نصف هو الدواء ، ونصف هوالاحتماء) أى الامتناع عما يضره (فإن اجتمعا) أى الدواء والاحتماء (فكأنك) نظرت (بالمريض قد برئ) أى تعافى وشفى . فى المختار برئ من المرض بالكسر برءا بالضم ، وعند أهل الحجاز برأ من المرض من باب قطع (وصح) أى ذلك المريض من مرضه (وإلا) أى وإن لم يجتمع هذان النوعان (فالاحتماء به) أى بالمريض (أولى إذ لاينفع دواء مع ترك الاحتماء ، ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء ، ولقد قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : أصل كل دواء الحمية) أى الحفظ مما يتضرر به ، وهذا الحديث رواه ابن أبى الدنيا ، وقد تقدم مثله (والمعنى بها والله أعلم) جملة معترضة (أنها) أى الحمية (تغنى) أى تكفى (عن كل

دَوَاء ، وَلِذَا يُقَالُ إِنَّ أَهْلَ الْهِنْدِ جُلُّ مُعَالَجَتِهِمُ الْحِمْيَةُ بِمَنْعِ الْمَرِيضِ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْكَلَامِ عِدَّةَ أَيَّامٍ فَيَبْرَأُ وَيَصِحُّ بِذٰلِكَ لَاغَيْرُ. فَتَبَيَّنَ لَكَ بِهٰذِهِ أَنَّ التَّقْوَى مِلَاكُ الْأَمْرِ وَجَوْهَرُهُ ، أَهْلُهَا هُمُ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا مِنَ الْعُبَّادِ ، فَعَلَيْكَ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِى ذٰلِكَ وَصَرْفِ كُلِّ الْعِنَايَةِ إِلَى ذٰلِكَ ، وَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِرَحْمَتِهِ .

﴿ فصل ﴾ ثُمَّ رَاعِ هٰذِهِ الْأَعْضَاءَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِى هِيَ الْأُصُولُ .

الْأَوَّلُ : الْعَيْنُ وَحَسْبُكَ فِيهَا أَنَّ مَدَارَ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى الْقَلْبِ ، وَأَنَّ خَطَرَ الْقَلْبِ وَشُغْلَهُ وَفَسَادَهُ فِى الْأَكْثَرِ مِنَ الْعَيْنِ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ : مَنْ لَمْ يَمْلِكْ عَيْنَهُ فَلَيْسَ لِلْقَلْبِ عِنْدَهُ قِيمَةٌ .

وَالثَّانِى : اللِّسَانُ

دواء ، ولذا) أى لأجل أن الحمية تغني عن كل دواء (يقال إن أهل الهند جل) أى أكثر (معالجتهم الحمية) وذلك (بمنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدة أيام فيبرأ) المريض (ويصح) من مرضه (بذلك) أى بالاحتماء (لاغير) أى غير الحمية (فتبين لك بهذه الجملة) المذكورة (أن التقوى) أى امتثال الأوامر واجتناب النواهى (ملاك الأمر) أى أمر الدين . فى المختار ملاك بفتح الميم وكسرها مايقوم به (وجوهره) أى حقيقة أمر الدين، وفى [سراج السالكين] الجوهر والذات والحقيقة والماهية كلها ألفاظ مترادفة (وأهلها) أى التقوى (هم الطبقة العليا من العباد) جمع عابد (فعليك ببذل المجهود فى ذلك) أى فى تحصيل التقوى (وصرف كل العناية) أى القصد (إلي ذلك) أى ماذكر من التقوى (والله سبحانه ولى التوفيق برحمته) تعالى .

﴿ فصل ﴾

فى رعاية الأعضاء الأربعة التى هى العين واللسان والبطن والقلب

(ثم راع) أى احفظ (هذه الأعضاء الأربعة التى هي الأصول الأول العين وحسبك فيها) أى فى العين (أن مدار أمر الدين والدنيا على القلب و) حسبك (أن خطر القلب وشغله وفساده فى الأكثر من العين ، ولذلك) أى لأجل أن خطر القلب وشغله وغيره من العين (قال) أمير المؤمنين سيدنا (على) بن أبى طالب (رضى الله عنه : من لم يملك) أى يمسك (عينه) عما لايعنيه فى الدنيا والآخرة (فليس للقلب عنده قيمة والثانى) من الأعضاء الأربعة (اللسان)

وَحَسْبُكَ أَنَّ فِيهِ رِبْحَكَ وَغَنِيمَتَكَ وَثَمَرَةَ تَعَبِكَ وَاجْتِهَادِكَ كُلِّهِ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ ، وَأَنَّ خَطَرَ الْعِبَادَةِ وَإِحْبَاطَهَا وَإِفْسَادَهَا فِى الْأَكْثَرِ مِنْ قِبَلِ اللِّسَانِ بِالتَّصَنُّعِ وَالتَّزَيُّنِ وَالْغِيبَةِ وَنَحْوِهَا يُتْلِفُ عَلَيْكَ بِلَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ مَاتَعِبْتَ فِيهِ سَنَةً وَاحِدَةً بَلْ خَمْسًا وَعَشْرًا، وَلِذٰلِكَ قِيلَ : مَا شَىْءٌ أَحَقَّ بِطُولِ السِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ .

وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؛ فاطلب الغلبة عليه بغاية قوتك حتى لايكبك فى قعر جهنم (وحسبك أن فيه) أى فى اللسان (ربحك وغنيمتك وثمرة تعبك واجتهادك كله للعبادة والطاعة و) حسبك (أن خطر العبادة وإحباطها وإفسادها) بمعنى واحد ، يقال حبط العمل حبطا من باب تعب ، وحبوطا فسد وهدر وحبط يحبط من باب ضرب لغة وقرىء بها فى الشواذ ، وحبط دم فلان حبطا من باب تعب هدر وأحبطت العمل والدم بالألف أهدرته كذا قاله الفيومى (فى الأكثر) والأغلب (من قبل اللسان) بكسر القاف وفتح الباء : أى من جهته (بالتصنع) أى تكلف حسن الصمت والتزين مع الإظهار عن النفس فعلا ليس فيه (والتزين والغيبة ونحوها) أى من آفات اللسان (يتلف) بضم الياء : أى يفسد هذا اللسان (عليك بلفظة واحدة ماتعبت) أى من الطاعة (فيه) أى فى فعله (سنة واحدة بل خمسا وعشرا) من السنين (ولذلك) أى لأجل الإتلاف المذكور (قيل) أى قال ابن مسعود رضى الله عنه : والله الذى لا إله إلا هو (ماشىء أحق بطول السجن) والحبس (من اللسان) لأنه أقوى أسباب الهلاك فى الدنيا والآخرة . وذكر عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : يابنى من يصحب صاحب السوء لم يسلم ، ومن يدخل مدخل السوء يتهم ، ومن لايملك لسانه يندم ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « طوبى لمن ملك لسانه ووسعه بيته وبكى على خطيئته » . وروى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : كانوا يقولون إن لسان الحكيم من وراء قلبه ، فإذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه ، فإن كان له قال ، وإن كان عليه أمسك ، وإن الجاهل قلبه على طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن لقمان الحكيم دخل على داود النبى صلى الله عليه وسلم وكان داود يسرد الدرع فجعل يتعجب مما يرى ، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله فلما فرغ داود عليه السلام قام فلبس الدرع ثم قال : نعم الدرع للحرب ، ونعم عامله . قال لقمان : الصمت حكمة وقليل فاعله . وفى موضع أنه كان يختلف إليه سنة ويريد أن يسأله فلما فرغ منه لبسه وقال : ما أحسن هذا الدرع للحرب ، فقال لقمان : الصمت حكمة وقليل فاعله .

قال بعض الحكماء : إن جسد ابن آدم ثلاثة أجزاء ، جزء منها قلبه ، والثانى لسانه ، والثالث الجوارح ، وقد أكرم الله تعالى كل جزء بكرامة، فأكرم القلب بمعرفته وتوحيده ، وأكرم اللسان بشهادة أن لا إله إلا الله وتلاوة كتابه ، وأكرم الجوارح بالصلاة والصوم وسائر الطاعات ووكل

على كل جزء رقيبا وحفيظا ، فتولى حفظ القلب بنفسه فلا يعلم مافى ضمير العبد إلا الله ، ووكل على لسانه الحفظة . قال الله تعالى « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وسلط على الجوارح الأمر والنهى ، ثم إنه يريد من كل جزء وفاء ، فوفاء القلب أن يثبت على الإيمان وأن لا يحسد ولا يخون ولا يمكر ، ووفاء اللسان أن لا يغتاب ولا يكذب ولا يتكلم بما لا يعنيه ، ووفاء الجوارح أن لا يعصى الله تعالى ولا يؤذى أحدا من المسلمين ، فمن وقع من القلب فهو منافق ومن وقع من اللسان فهو كافر ومن وقع من الجوارح فهو عاص . وعن الحسن البصرى رحمه الله : نظر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلىّ شاب فقال يا شاب إن وقيت شر ثلاث فقد وقيت شر الشباب ؛ إن وقيت شر لقلقك يعنى لسانك وذبذبك يعنى فرجك وقبقبك يعنى بطنك .

وذكر أن لقمان الحكيم كان عبداً حبشيا ، فأول ما ظهر من حكمته أنه قال له مولاه يا غلام اذبح لنا هذه الشاة وائتنى بأطيب مضغتين منها فجاء بالقلب واللسان ، ثم قال مرة أخرى اذبح لنا هذه الشاة وائت بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله عن ذلك ، فقال : ليس فى الجسد مضغتان أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه لما بعث معاذاً إلي اليمن ، فقال يانبى الله أوصنى ، فأشار إلى لسانه يعنى عليك بحفظ اللسان فكأنه تهاون به فقال يا نبى الله أوصنى قال ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » . وروى عن سفيان الثورى أنه قال : لأن أرمي رجلا بسهم أحب إلي من أرميه بلسانى ، لأن رمى اللسان لا يخطىء ورمي السهم قد يخطىء . وروى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قام عند الكعبة فقال : ألا من عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة الغفارى أبو ذر هلموا إلي أخ ناصح شفيق عليكم فاجتمع الناس حوله ، فقال : يا أيها الناس من أراد منكم سفراً من أسفار الدنيا لا يفعل ذلك إلا بزاد فكيف من يريد سفر الآخرة بلا زاد ؟ قالوا وما زادنا يا أبا ذر ؟ قال : صلاة ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور ، وصوم فى حر شديد ليوم النشور ، وصدقة على المساكين لعلكم تنجون من عذاب يوم عسير ، وحج لعظائم الأمور واجعلوا الدنيا مجلسين : مجلسا فى طلب الدنيا ، ومجلسا فى طلب الآخرة ، والثالث يضر ولا ينفع ، واجعلوا الكلام كلمتين كلمة نافعة فى أمر دينكم ، وكلمة باقية فى أمر آخرتكم ، والثالث يضر ولا ينفع ، واجعلوا المال درهمين درهما أنفقه على عيالك ، ودرهما قدمه لنفسك ، والثالث يضرّ ولا ينفع ثم قال أوه قتلنى هم يوم لا أدركه قيل وما ذاك ؟ قال إن أملي قد جاوز أجلي فقعدت عن عملى ، وذكر عن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أنه قال لا تكثروا الكلام فى غير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم والقلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون وما أحسن قول بعضهم :

وإن من أبعد قلوب الناس ... من ربنا الرحيم قلب قاسى

وروى عن أبى بكر بن عياش أنه قال : أربعة من الملوك تكلم كل واحد منهم بكلمة كأنها رمية رميت من قوس واحدة . قال كسري : لا أندم على مالم أقل ، وقد أندم على ما قلت .

وَفِيمَا رُوِيَ أَنَّ أَحَدَ الْعُبَّادِ السَّبْعَةِ قَالَ لِيُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا يُونُسُ إِنَّ الْعُبَّادَ إِذَا اجْتَهَدُوا فِي الْعِبَادَةِ لَمْ يَتَقَوَّوا عَلَى عِبَادَتِهِمْ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الصَّبْرِ عَنْ تَرْكِ الْكَلَامِ فِي فَصْلٍ طَوِيلٍ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ : وَلَا يَكُونَنَّ

وقال ملك الصين : مالم أتكلم بالكلمة فأنا أملكها ، فان تكلمت بها ملكتنى ، وقال قيصر ملك الروم : أنا على رد مالم أقل أقدر منى على رد ما قلت . وقال ملك الهند : العجب ممن يتكلم بكلمة إن هي رفعت ضرته وإن لم ترفع لم تنفعه وروى عن الربيع بن خيثم أنه كان إذا أصبح وضع قرطاسا وقلما ولا يتكلم بشئ إلا كتبه وحفظه ثم يحاسب نفسه عند المساء . قال أبو الليث رحمه الله : هكذا كان عمل الزهاد أنهم كانوا يتكلمون لحفظ اللسان ويحاسبون أنفسهم فى الدنيا ، وهكذا ينبغى للمسلم أن يحاسب نفسه فى الدنيا قبل أن يحاسب فى الآخرة ، لأن حساب الدنيا أيسر من حساب الآخرة ، وحفظ اللسان فى الدنيا أيسر من ندامة الآخرة . وروى عن إبراهيم التيمى أنه قال : حدثني من صحب الربيع بن خيثم عشرين سنة فما سمع منه كلمة يعاب بها . وقال موسى بن سعيد : لما أصيب الحسين بن على رضى الله عنهما يعنى قتل ، فقال رجل من أصحاب الربيع إن تكلم الربيع فاليوم يتكلم ، فجاء حتى فتح الباب وأخبره بأن الحسين قد قتل فنظر إلى السماء ، فقال « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » ولم يزد على ذلك شيئا . وعن على بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى للعاقل أن لا يكون شاخصا إلا فى ثلاث : مرمة لمعاشه ، أو خلوة لمعاده ، أو لذة فى غير محرم » وقال « ينبغى للعاقل أن يكون له فى النهار أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يأتى فيها أهل العلم الذين يبصرونه بأمر دينه ودنياه وينصحونه ، وساعة يخلى بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويجمل » وقال « ينبغى للعاقل أن ينظر فى شأنه ويعرف أهل زمانه ويحفظ فرجه ولسانه» قال العلامة السمرقندى : وذكر أن هذه الكلمات مكتوبة فى حكمة آل داود ، وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع لاتصير إلا فى مؤمن : الصمت وهوأول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله تعالى وقلة الشر » وذكر عن عيسى بن مريم عليه السلام بهذا اللفظ (وفيما روى أن أحد العباد السبعة قال ليونس) النبي (عليه) الصلاة و (السلام : يايونس إن العباد) جمع عابد (إذا اجتهدوا فى العبادة لم يتقووا) أى لم يطلبوا القوة (على عبادتهم بشىء أفضل من الصبر عن ترك الكلام) فيما لا ينفعهم (فى فصل) أي زمن (طويل) فسكت العابد عن الكلام بما ذكر (ثم عاد إلى ذلك) أى إلى التكلم مخاطبا ليونس عليه السلام (فقال) العابد (ولا يكونن

عِنْدَكَ شَيْءٌ آثَرُ مِنْ حِفْظِ لِسَانِكَ ، وَلاَ تَكُونَنَّ لِشَيْءٍ أَعْنَى بِهِ مِنْ سَلاَمَةِ صَدْرِكَ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

ثُمَّ اذْكُرِ الْأَنْفَاسَ الَّتِي تَكَلَّمْتَ فِيهَا بِفُضُولِ مَا كَانَ يَضُرُّكَ لَوْ قُلْتَ : أَسْتَغْفِرُ اللهَ فَرُبَّمَا يُوَافِقُ سَاعَةً عَزِيزَةً فَيَغْفِرُ اللهُ لَكَ فَتَرْبَحُ رَأْسَ مَالِكَ ،

عندك شيء آثر) أى أفضل وأشد اختصاصا (من حفظ لسانك ولا تكونن لشيء أعنى) أى أحفظ وأكثر عناية (به) أى بذلك الشيء (من سلامة صدرك) أى قلبك (فهذه) الجملة (هذه) أى هى الموصوفة بالعظمة والكمال (ثم اذكر) بقلبك (الأنفاس التى تكلمت فيها) أى الأنفاس (بفضول ما كان) من الكلام (يضرك لو قلت) مكان كلامك بالفضول (أستغفر الله) ونحوه من عبارات الاستغفار (فربما يوافق) قولك بالاستغفار (ساعة عزيزة) وهى التى تسمى بساعة الإجابة كما ورد فى خبر مسلم « إن فى الليل لساعة لايوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » . قال النووى : فيه إثبات ساعة الإجابة كل ليلة ويتضمن الحديث على الدعاء فى جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها ، وورد أيضا فى الخبر الصحيح « ينزل ربنا » أى رحمته « تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفرنى فأغفر له » .

قال بعض المحققين : وتخصيصه بالليل وثلثه الأخير لأنه وقت التهجد وغفلة الناس عن التعرض لنفحات رحمة الله تعالى ، وعند ذلك تكون النية خالصة والرغبة إلى الله وافرة ، وذلك مظنة القبول والإجابة ، وهذه الرواية هى أصح الروايات كما قاله الترمذى ، وفى رواية « إذا مضى الثلث الأول أو النصف » وأخرى « النصف أو الثلث الأخير » وهناك رواية الإطلاق . قال بعض شراح الحديث : فجمع بينهما بحمل المطلقة على المقيدة . وأما التى بأو ؛ فإن كانت للشك فالجزم مقدم على الشك ، وإن كان للتردد بين حالتين ، فيجمع بأن ذلك يقع بحسب اختلاف الأحوال ، لأن أوقات الليل تختلف فى الزيادة ، وفى الأوقات باختلاف تقدم الليل عند قوم وتأخره عند قوم أو النزول يقع فى الثلث الأول ، والقول يقع فى النصف وفى الثلث الثانى أو يحمل ذلك على وقوعه فى جميع الأوقات التى وردت بها الأحاديث ، ويحمل على أنه صلى الله عليه وسلم أعلم بأحد الأمور فى وقت فأخبر به ، ثم أعلم به فى وقت آخر فأخبر به ، فنقل الصحابة ذلك عنه (فيغفر الله لك فتربح رأس مالك) وقد وردت فى فضيلة الاستغفار أخبار . قال النبى صلى الله عليه وسلم « لكل داء دواء ، ودواء الذنوب الاستغفار » رواه الديلمى عن على رضى الله عنه . قال النووى فى الأذكار : وروينا فى سنن أبى داود والترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح . وقال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » وقال صلى الله عليه وسلم « من استغفر بعد الذنوب

أَوْ قُلْتَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّاللهُ فَيَكُونُ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ وَالذُّخْرِ مَالاَ يُحِيطُ بِهِ وَهْمُكَ

غفر الله له فهو لها كفارة » . وقال صلي الله عليه وسلم « إذا كثر على أحدكم الذنوب فليطلب المغفرة بالاستغفار » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كثر ذنوب أحدكم فليستغفر الله » . وقال صلى الله عليه وسلم « الاستغفار يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب اليابس » . وقال صلى الله عليه وسلم « كثرة الاستغفار تجلب الرزق » وقد قال تعالى « استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » . وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا صليتم الصبح فأكثروا من الاستغفار ، فقلنا يارسول الله علمنا شيئا نستغفر الله تعالى به ، فقال قولوا اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك من كل ذنب علمناه أو لم نعلمه في ليل أو نهار ، فمن واظب عليه فتح الله له بابا من الرزق وغلق عنه بابا من أبواب الفقر » كذا فى رياض الصالحين . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الاستغفار فمن أكثر منه جعل الله له من كل غم وهم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب» . وفى رواية لأحمد عن ابن عباس « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه الله من حيث لا يحتسب » . وقال النووى فى الأذكار : وروينا في سنن أبي داود وابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » . وفي رواية أحمد عن عائشة « إذا كثرت ذنوب العبد فلم يكن له من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه به » وهو حديث حسن وفى رواية « بالهم » أى إذا كثرت ذنوب الانسان المسلم فلم يكن له من العمل الصالح ما يكفرها لفقده أو لقلته ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه فغالب ما يحصل من الهموم والغموم من التقصير فى الطاعة كذا في لباب الأخبار وغيره (أو) لو (قلت لا إله إلا الله فيكون لك من الأجر والذخر) فى الآخرة (مالا يحيط به وهمك) وعقلك وقد وردت فى فضيلة : لا إله إلا الله أحاديث كثيرة ، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « من قال كل يوم لا إله إلا الله محمد رسول الله مائة مرة جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر » . وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : لا إله إلا الله وأنا هو من قالها دخل حصنى ، ومن دخل حصنى أمن من عقابى » . وعن عبد الواحد بن زيد أنه قال : كنت فى مركب فطرحتنا الريح علي جزيرة فخرجنا إلى الجزيرة فرأينا شخصا يعبد صنما فقلنا له تعبد هذا الصنم وفينا من يصنع مثله ؟ فقال أنتم من تعبدون ؟ فقلنا نعبد إلها فى السماء عرشه ، وفى الأرض بطشه ، وفى البحر سبيله ، قال من أعلمكم به ؟ قلنا أرسل إلينا رسولا قال ما فعل بالرسول ؟ قلنا قبضه الملك إليه قال فهل ترك عندكم من علامة ؟ قلنا نعم كتاب الملك قال : هل عندكم منه شئ ، فشرعنا نقرأ عليه سورة الرحمن فما زال يبكى حتى ختمت . ثم قال

ماينبغى أن يعصى صاحب هذا الكلام ، ثم عرضنا عليه الإسلام فأسلم وحملناه معنا فى السفينة فلما جن الليل وصلينا العشاء أخذنا مضاجعنا للنوم ، فقال لنا هذا الاله الذى دللتمونى عليه ينام ؟ قلنا بل هو حى قيوم لاينام ، قال بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لاينام ، فلما وصلنا البر وأردنا الانصراف وجمعنا له شيئا من الدراهم ، فقال ما هذا ؟ قلنا تستعين به على نفسك ، فقال دللتمونى على طريق ما أراكم سلكتموها أنا كنت أعبد غيره فلم يضيعنى أفيضيعنى الآن بعد ما عرفته ؟ فلما كان بعد ثلاثة أيام قيل لى إنه فى النزع فجئت إليه وقلت له هل من حاجة ؟ فقال قضى حوائجى الذى أخرجنى من الجزيرة ونمت عنده فرأيت جارية فى روضة خضراء ، وهى تقول عجلوا به فى سلام فقد طال شوقى إليه فاستيقظت وقد مات فدفنته ونمت تلك الليلة فرأيته فى المنام وعلى رأسه تاج وبين يديه الحور العين وهو يقرأ « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » كذا فى تنقيح القول الحثيث . وقال صلى الله عليه وسلم « إن قول لا إله إلا الله تدفع عن قائلها تسعة وتسعين بابا من البلاء أدناها الهم » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله خرج من فيه طائر أخضر له جناحان أبيضان مكللان بالدر والياقوت يصعد إلى السماء فيسمع له دوى تحت العرش كدوى النحل ، فيقال له اسكن ، فيقول لا حتى تغفر لصاحبى فيغفر له ثم يجعل بعد ذلك للطائر سبعون لسانا تستغفر لصاحبه إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة جاء ذلك الطائر يكون قائده ودليله إلى الجنة » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا قال الله تعالى صدق عبدى أنا الله لا إله إلا أنا أشهدكم ياملائكتى أنى قد غفرت له ماتقدم من ذنبه وما تأخر » . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله خالصا مخلصا دخل الجنة » .

وأخرج الحكيم عن زيد بن الأرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل يارسول الله وما إخلاصها ؟ قال أن تحجزه عن المحارم » . وقال صلى الله عليه وسلم « من كان أول كلامه لا إله إلا الله ، وآخر كلامه لا إله إلا الله ، وعمل ألف سيئة إن عاش ألف سنة لايسأله الله عن ذنب واحد » . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لزيد الأنصارى «فإن صعب لك شىء من أمور الدنيا فأكثر من قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله من غير عجب طار بها طائر تحت العرش يسبح مع المسبحين إلى يوم القيامة ويكتب له ثوابه » . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة غفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مر المؤمن على المقابر فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير نور الله تلك القبور كلها ، وغفر لقائلها ، وكتب له ألف ألف حسنة ، ورفع له ألف ألف درجة ، وحط عنه

أَوْ تَقُولُ : أَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَرُبَّمَا يَتَّفِقُ حُسْنُ نَظَرٍ فَيَسْتَجِيبُ اللهُ تَعَالَى دَعْوَتَكَ فَتَنجَوْتَ مِنْ بَلِيَّةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَلَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْعَظِيمِ وَالْغَبْنِ الْفَظِيعِ أَنْ تُفَوِّتَ عَلَى نَفْسِكَ كُلَّ هٰذِهِ الْفَوَائِدِ الْكَرِيمَةِ وَتَجْعَلَ نَفْسَكَ وَوَقْتَكَ فِي فُضُولٍ أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكَ فِيهِ اللَّوْمُ وَالْحِسَابُ وَالْحَبْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ فِي قَوْلِهِ :

وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِالنُّطْقِ فِي الْبَا طِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحَا

الثَّالِثُ : الْبَطْنُ ، وَحَسْبُكَ أَنَّ مَقْصُودَكَ الْعِبَادَةُ وَأَنَّ الطَّعَامَ بَذْرُ الْعَمَلِ وَمَاؤُهُ مِنْهُ يَبْدُو وَيَنْبُتُ، وَإِذَا خَبُثَ الْبَذْرُ لَايَطِيبُ الزَّرْعُ؛ بَلْ فِيهِ خَطَرَانِ يُفْسِدُ عَلَيْكَ أَرْضَكَ فَلَا تُفْلِحُ أَبَدًا .

وَمِنْ ذٰلِكَ مَا بَلَغَنَا عَنْ مَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ

ألف ألف سيئة » كذا ذكره السيوطى فى اللباب (أو تقول : أسأل الله العافية ، فربما يتفق) قولك ذلك (حسن نظر) من الله تعالى (فيستجيب الله تعالى دعوتك فنجوت من بلية الدنيا والآخرة ألا يكون من الخسران العظيم والغبن الفظيع) أى الشنيع (أن تفوت) بضم التاء وفتح الفاء مع كسر الواو المشددة من التفويت (على نفسك كل هذه الفوائد الكريمة و) أن (تجعل نفسك) بفتح الفاء (ووقتك فى فضول) لايعنيك (أقل ما يلزمك فيه) أى فى الفضول (اللوم والحساب والحبس يوم القيامة ، ولقد أحسن القائل فى قوله) من بحر الخفيف (وإذا ماهممت) أى قصدت وما زائدة (بالنطق في البا * طل فاجعل مكانه) أى الباطل (تسبيحا) وقد تقدم مثله . (والثالث) من الأعضاء الأربعة (البطن وحسبك) فيه (أن مقصودك العبادة وأن الطعام بذر العمل) أى بمنزلتـه (وماؤه) عطف على بذر العمل (منه) أى من الطعام (يبدو) أى يظهر العمل (وينبت ، وإذا خبث البذر لايطيب الزرع بل فيه) أى فى خبث البذر (خطر) من (أن يفسد) أى البذر الخبث (عليك أرضك فلا تفلح) بعد ذلك (أبدا ومن ذلك) أى من خطر الإفساد الذى لافلاح بعده (مابلغنا عن معروف الكرخى) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الصالح المشهور ، كان من المشايخ الكبار : وهو من موالى على بن موسي الرضا وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى فكان المؤدب يقول له قل ثالث ثلاثة فيقول بل هو واحد ، فضربه المعلم يوما ضربا مبرحا فهرب معروف منه ، فكان أبواه يقولان ليته يرجع إلينا على أى دين يشاء فنوافقه عليه ، ثم إنه أسلم علي يدى على بن موسى الرضا ورجع إلي أبويه

أَنَّهُ قال : إذا صُمْتَ فَانْظُرْ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُفْطِرُ ، وَعِنْدَ مَنْ تُفْطِرُ ، وَطَعامِ مَنْ تَأْكُلُ؟ فَكَمْ مَنْ يَأْكُلُ أَكْلَةً فَيَنْقَلِبُ قَلْبُهُ عَمَّا كَانَ عليه ،

فدق الباب ، فقيل له من بالباب ؟ فقال معروف ، فقيل له على أى دين جئت ؟ فقال على الدين الحنيفى فأسلم أبواه .

وكان معروف مشهورا بإجابة الدعاء ، وأهل بغداد يستشفعون بقبره ويقولون : قبر معروف ترياق مجرب ، وكان أستاذ السرى السقطى وقد قال له يوما : إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بى . وأخبار معروف ، ومحاسنه أكثر من أن تحصى ، وتوفى سنة مائتين ، وقيل سنة إحدى ومائتين ببغداد ، وقبره مشهور بها يزار رحمه الله، والكرخى بفتح الكاف وسكون الراء وبعدها خاء معجمة هذه النسبة إلى الكرخ ، وهو اسم تسع مواضع : ذكرها ياقوت الحموى فى كتابه ، وأشهرها كرخ بغداد ، والصحيح أن معروفا الكرخى منه كذا فى سراج السالكين وكان السرى السقطى يقول : رأيت الكرخى فى النوم كأنه تحت العرش ، فيقول الله عز وجل لملائكته من هذا ؟ فيقولون أنت أعلم يارب ، فيقول : هذا معروف الكرخي سكر من حبى فلا يفيق إلا بلقائى . وقال معروف : قال لى بعض أصحاب داود الطائى : إياك أن تترك العمل فإن ذلك الذى يقربك إلى رضا مولاك ، فقلت وما ذلك العمل ؟ فقال دوام طاعة ربك ، وخدمة المسلمين والنصيحة لهم ، وكان محمد بن الحسين يقول : سمعت أبى يقول : رأيت معروفا الكرخى فى النوم بعد موته ، فقلت له مافعل الله بك ؟ فقال غفرلى ، فقلت بزهدك وورعك ؟ فقال لابقولي موعظة ابن السماك ، ولزوم الفقر ، ومحبتى للفقراء. وموعظة ابن السماك ماقاله معروف كنت مارا بالكوفة فوقفت على رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس، فقال فى خلال كلامه : من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ، ومن أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه ، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتا ما ، فوقع كلامه فى قلبى فأقبلت على الله تعالى ، وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاى على بن موسى الرضا ، وذكرت هذا الكلام لمولاى فقال يكفيك بهذا موعظة إن اتعظت . وقيل لمعروف فى مرض موته أوص ، فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصى فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا . قال شيخ الإسلام : ظاهره أنه لم يبق له ما يكفن فيه ، وكأنه أوصى بذلك حينئذ لما علم من إخوانه وأحبائه أنهم لايتركون تجهيزه ، بل يرغبون فيه انتهى ، ومر معروف وهو صائم نفلا بسقاء يقول : رحم الله من شرب ، فتقدم فشرب ، فقيل له ألم تكن صائما فقال بلى ولكنى رجوت دعاءه ، كذا ذكره العلامة أبو القاسم القشيرى فى الرسالة (أنه قال : إذا صمت فانظر على أى شيء) أي من المأكول والمشروب (تفطر وعند من تفطر وطعام من تأكل ، فكم من يأكل أكلة) الأكلة : المرة من الأكل ، والأكلة : اللقمة (فينقلب قلبه عما كان عليه

فَلاَ يَعُودُ إِلَى حَالِهِ أَبَدًا ، وَكَمْ مِنْ أَكْلَةٍ حَرَمَتْ قِيَامَ لَيْلَةٍ ، وَكَمْ مِنْ نَظْرَةٍ مَنَعَتْ قِرَاءَةَ سُورَةٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْكُلُ أَكْلَةً فَيُحْرَمُ بِهَا قِيَامَ سَنَةٍ ، فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِالنَّظَرِ الدَّقِيقِ وَالِاحْتِيَاطِ الْبَالِغِ الشَّدِيدِ فِي قُوتِكَ إِنْ كَانَتْ لَكَ عِنَايَةٌ بِقَلْبِكَ وَهِمَّةٌ فِي عِبَادَةِ رَبِّكَ ، هَـٰذَا فِي أَصْلِ الْقُوتِ حَتَّى يَكُونَ مِنْ وَجْهِهِ ، ثُمَّ عَلَيْكَ بِالْأَدَبِ فِيهِ ،

فلايعود) ذلك القلب (إلى حاله) الأول (أبدا ، وكم من أ كلة حرمت) أي منعت (قيام ليلة) أي صلاتها وذلك لخبث أصل تلك الأكلة (وكم من نظرة) إلى ما لا يفيدصاحبها (منعت قراءة سورة) من سور القرآن (وإن العبد ليأ كل أ كلة فيحرم) أي يمنع العبد (بها) أي بسبب تلك الأ كلة (قيام سنة ، فعليك أيها الرجل) المهذب للأخلاق السالك طريق الحق (بالنظر) والفكر (الدقيق والاحتياط البالغ) أى الواصل إلى الكمال (الشديد فى قوتك) أى طعامك (إن كانت لك عناية) أى قصد (بقلبك وهمة) عليه (فى عبادة ربك ، هذا) أى المذكور من النظر الدقيق والاحتياط البالغ (فى أصل القوت حتى يكون) أى هـذا القوت (من وجهه) أى جهة حله . (ثم عليك) أى الزم (بالأدب فيه) أى فى قوتك : أى فى أكله لأن الأ كل من الدين قدمه الله على العمل ، وعليه نبه سبحانه وهو أصدق القائلين — كلوا من الطيبات واعملوا صالحا — . وكان سهل يقول : من لم يحسن أدب الأ كل لم يحسن أدب العمل ، فمن يقدم على الأ كل بنيـة صالحة : وهى الاستعانة به على العلم والعمل ، ويقوى به على التقوى ، فلا ينبغى أن يترك نفسه مهملا سدى يسترسل فى الأ كل استرسال البهائم فى المرعى فيأ كل من غير قانون ينتهى إليه كما تأ كل الدواب ، فإنما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إلى إقامته ينبغى أن تظهر أشعة أنوار الدين عليه ، وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التى يزم العبد بزمامها ، ويلجم المتقى بلجامها حتى يتزن بميزان الشرع شهوة الطعام فى إقدامها وإحجامها ، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر وإن كان فيها أو فى حظ النفس . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليؤجر حتى فى اللقمة يرفعها إلى فيه ، وإلى فى امرأته » كذا أورده صاحب القوت ، وإنما ذلك اذا رفعها بالدين وللدين مراعيا فيه آدابه وهي كثيرة ، وقد استوفى الكلام على ذلك حجة الإسلام فى إحيائه ، ونذكر فى هذا المقام : عشرة للأ كل ، وستة للشرب روما للاختصار .

[الأدب الأول] غسل اليدين قبل الطعام وبعده . روى الحاكم فى تاريخه من رواية الحكم ابن عبد الله الأيلى عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن عائشة مرفوعا « الوضوء قبل الطعام حسنة وبعد الطعام حسنتان » . قال السيوطى فى الخصائص : إنما كان غسل اليدين بعد الطعام بحسنتين ، لأنه شرعه ، وقبله بحسنة لأنه شرع التوراة ، ثم إن المراد بالوضوء فى هذا الحديث

الوضوء اللغوى وهو غسل اليدين إلى الرسغين ، وهذا لا يناقضه ما رواه الترمذي « أنه صلى الله عليه وسلم قرّب إليه طعام فقالوا ألا نأتيك بوضوء ؟ قال إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة» لأن المراد بذلك الوضوء الشرعى ، وهنا الوضوء اللغوى ، وفيه رد على من زعم كراهة غسل اليد قبل الطعام وبعده ، وما تمسك به أنه من فعل الأعاجم لا يصلح حجة ولا يدل علي اعتباره دليل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر ، وبعده ينفى اللمم » : أى الجنون ، وفى رواية « ينفى الفقر قبل الطعام وبعده » رواه القضاعى فى مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آبائه متصلا كما ذكره العراقى ، قال صاحب العوارف : وإنما كان الوضوء قبل الطعام موجبا لنفى الفقر ، لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال للنعمة بالأدب ، وذلك من شكر النعمة ، والشكر يستوجب المزيد ، فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للفقر ، فقد روى أنس عن النبي صلي الله عليه وسلم « من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه وإذا رفع » . قال المنذرى فى الترغيب : المراد هنا غسل اليدين .

[الأدب الثانى] التسمية فى أول الأكل ، ولو قال مع كل لقمة يرفعها إلى فمه : بسم الله فهو أحسن حتي لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى ، ويقول مع اللقمة الأولى : بسم الله ، ومع الثانية بسم الله الرحمن ، ومع الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم ، هكذا ذكره صاحب القوت ، وإن أتم مع كل لقمة كان حسنا ويجهر به ليذكر غيره إن كان ناسيا . وعن أنس مرفوعا «من أحبّ أن يكثر خير بيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه ثم يسم الله تعالى » فقوله تعالى ـ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ـ تفسيره تسمية الله عند ذبح الحيوان .

واختلف الشافعى وأبو حنيفة فى وجوب ذلك ، وفهم الصوفى منه تقييد القيام بظاهر التفسير أن لا يأكل الطعام إلا مقترنا بالذكر وذلك فريضة وقته وأدبه ، ويرى أن تناول الطعام والماء داء ينتج من آفة النفس ومتابعة هواها ، ويرى ذكر الله دواءه وترياقه . ويروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين فقال صلى الله عليه وسلم « أما إنه لو كان يسمى الله كفاكم ، فإذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله ، فإن نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره » قال صاحب العوارف : واعلم أن ذكر اسم الله تعالى فى أول الطعام هو الدواء النافع لدفع عوارض القلب الحادثة من اللقمة المتناولة . قال : وحكى أن الإمام أبا حامد الغزالى قدس سره لما رجع إلى طوس وصف له فى بعض القرى عبدصالح فقصده زائرا فصادفه وهو فى صحراء له يبذر الحنطة فى الأرض، فلما رآه أقبل إليه وحادثه ، فجاءه رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ فى ذلك وقت اشتغاله بالغزالى ، فامتنع ولم يعطه البذر ، فسأله الغزالى عن سبب امتناعه ؟ فقال لأنى أبذر هذا البذر بقلب حاضر ذاكر أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا فلا أحب أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر . قال : وكان بعض الفقراء عند الأكل يشرع فى قراءة سورة من القرآن يخص الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ، ولا يعقب الطعام

مكروها يغير مزاج القلب . قال : وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول أنا آكل وأنا أصلى ، يشير إلى حضور القلب فى الطعام ، وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه وقت الأكل ويرى للذكر وحضور القلب فى الأكل أثرا كبيرا لايسعه الإهمال له قال : ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما هيأ الله له من الأسنان المعينة له على الأكل ، فمنها الكاسرة ، ومنها القاطعة ، ومنها الطاحنة ، وما جعل الله من الماء الحلو فى الفم حتى لايتغير الذوق كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لايتغير وكيف جعل النداوة تنبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ ، وكيف جعل القوة الهاضمة متسلطة على الطعام تفصله وتجذبه متعلقا مددها بالكبد ، والكبد بمثابة النار ، والمعدة بمثابة القدر ، وعلى قدر فساد الكبد تقل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يتصل إلى كل عضو نصيبه ، وهكذا تأثير الأعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك ، فمن أراد الاعتبار يطالع تشريح الأعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى فى تعاضد الأعضاء وتعاونها وتعلق بعضها بالبعض فى إصلاح الغذاء واستجلاب القوة منه للأعضاء وانقسامه إلى الدم والتفل واللبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، فالفكر فى ذلك وقت الطعام وتعرف لطيف الحكم والتدبير فيه من الذكر . قال : ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو فى أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة ويكون من دعائه : اللهم صل على محمد وآل محمد وما رزقتنا مما نحب ، واجعله عونا لنا إلى ماتحب ، وما زويت عنا مما نحب ، اجعله فراغا لنا فيما تحب . انتهى سياق صاحب العوارف ، كذا نقله العلامة الزبيدى .

[الأدب الثالث] الأكل باليمين تأدبا على الأصح ، وقيل وجوبا ، ويدل له مافى مسلم «أنه صلى الله عليه وسلم رأى من يأكل بشماله فنهاه ، فقال لاأستطيع فشلت يمينه فلم يرفعها إلى فيه حتى مات» . وروى أحمد والشيخان والأربعة من حديث عائشة رضى الله عنها «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن مااستطاع فى طهوره وتنعله وترجله وفى شأنه كله» . روى أحمد من حديث حفصة رضى الله عنها قالت «كان يجعل يمينه لأكله وثيابه وشربه ووضوئه وأخذه وعطائه وشماله لماسوى ذلك» . وقال صاحب القوت: ويبدأ يعنى الأكل بالملح ويختم به . قال صاحب العوارف روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ياعلى ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح فان الملح شفاء من سبعين داء : منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن ووجع الأضراس » وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

[الأدب الرابع] أن يأكل مما يليه فانه سنة وإن كان وجده وفى خبر ضعيف التفصيل بينهما إذا كان الطعام لونا واحدا فلا يتعدى الآكل ما يليه ، وأما إذا كان أكثر فيتعداه إلا الفاكهة ونحوها مما لايقذر فى الأكل من غير مايلى الآكل فان له أن يدير يده بلا كراهة فيه لأنه لاضرر فى ذلك ولاتقذر . قال صلى الله عليه وسلم « كل مما يليك » متفق عليه من حديث عمر بن أبى سلمة ثم كان صلى الله عليه وسلم يدور على الفاكهة فقيل له فى ذلك ؟ فقال ليس هو نوعا واحدا : أى

فلا ضرر فى إجالة اليد فيها ولا تقذر . رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عكراش بن ذؤيب وروى الخطيب فى ترجمة عبيد بن القاسم عن عائشة مرفوعا « كان إذا أتى بطعام أ كل مما يليه ، وإذا أتى بالتمر جالت يده فيه » .

[الأدب الخامس] أن يصغر اللقمة قدر مايسعه الفم تصغيرا وسطا ويجود مضغها ومالم يبتلعها لم يمد اليد إلى الأخرى فان ذلك عجلة فى الأ كل ، وفى تصغير اللقمة سد باب الشره والاعانة على الضغ ، وفى جودة المضغ فائدة طبية وهى سرعة انهضامه فى المعدة، فما لم يجود مضغه بطىء هضمه .

[الأدب السادس] أن لا يأ كل نائما أو متكئا إلا مايتنقل به من الحبوب ، بل ينبغى أن يجلس الجلسة على السفرة فى أول جلوسه ويستديمها ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما جثا للأ كل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه ، وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى وكان يقول « لا آكل متكئا إنما أنا عبد آكل كما يأ كل العبد وأجلس كما يجلس العبد » . رواه أبو داود من حديث عبد الله بن بسر . قال الزبيدى : ورد بسند حسن « أهديت للنبى صلى الله عليه وسلم شاة فجثا على ركبته يأ كل ، فقال له أعرابى ماهذه الجلسة ؟ فقال إن الله جعلنى كريما ولم يجعلنى جبارا عنيدا » وإنما فعل صلى الله عليه وسلم ذلك تواضعا لله تعالى ، ومن ثم قال « إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد ، وآ كل كما يأ كل العبد » وفى خبر مرسل أو معضل عن الزهرى « أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم ملك لم يأته قبلها ، فقال إن ربك يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا أو نبيا ملكا ، فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأومأ إليه أن تواضع ، فقال لا بل عبدا نبيا قال فما آ كل متكئا قط » لكنه أخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد أنه أ كل متكئا مرة فان صح فهو زيادة مقبولة ، ويؤيدها ما آخرجه ابن شاهين عن عطاء بن يسار : أن جبريل رأى النبى صلى الله عليه وسلم يأ كل متكئا فنهاه، وفسر الأ كثرون الاتكاء الميل بالميل على أحد الجانبين لأنه يضر بالآ كل فانه يمنع مجرى الطعام الطبيعى عن هيئته ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة وتضغط المعدة فلا يستحكم فتحها للغذاء . ونقل فى الشفاء عن المحققين أنهم فسروه بالتمكن للأ كل والقعود فى الجلوس كالمتربع المعتمد على وطاء تحته لأن هذه الهيئة تستدعى كثرة الأ كل والكبر ، وورد بسند ضعيف زجر النبى صلى الله عليه وسلم أن يعتمد الرجل على يده اليسرى عند الأ كل . قال مالك رحمه الله هو نوع من الاتكاء . قال بعض المتأخرين هنا فى هذا إشارة من مالك إلى كراهة كل مايعد الأ كل فيه متكئا ولا يختص بصفة بعينها .

واختلفوا فى حكم الاتكاء فى الأ كل ، فقال ابن القاص كراهته من خصائصه صلى الله عليه وسلم وقال غيره : يكره أيضا لغيره إلا لضرورة ، وعليه يحمل ماورد عن جمع من السلف ، وتعقب الحمل المذكور بأن ابن أبى شيبة أخرج عن جمع منهم الجواز مطلقا ، لكن يؤيد الأول ماأخرجه ابن أبى شيبة أيضا عن النخعى كانوا يكرهون أن يأ كلوا تكأة مخافة أن تعظم بطونهم وإن ثبت كون الاتكاء مكروها أو خلاف الأولى ، فالسنة أن يجلس جاثيا على ركبتيه وظهور قدميه

أو ينصب رجله اليمنى ويجلس على اليسرى . قال ابن القيم : ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يجلس للأكل متوركا على ركبتيه ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر اليمنى تواضعا لله عز وجل وأدبا بين يديه . قال : وهذه الهيئة أنفع الهيئات للأكل وأفضلها ، لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعى الذى خلقها الله تعالى عليه ، وأما حديث أنس «رأيته يأكل وهو مقع من الجوع » فقد أخرجه الترمذى أيضا فى الشمائل ، ومعناها : أى جالس على أليتيه ناصب ساقيه ، هذا هو الإقعاء المكروه فى الصلاة ، وإنما لم يكره هنا لأنه ثم تشبه بالكلاب ، وهنا تشبه بالأرقاء ففيه غاية التواضع ، ولهم إقعاء ثان لكنه مسنون فى الجلوس بين السجدتين لأنه صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه فعله فيه ، وهو أن ينصب ساقيه ويجلس على عقبيه . قيل وهذا هو المراد هنا ، والأصح الأول لأن هيئته تدل على أنه صلى الله عليه وسلم غير متكلف ولا يعتنى بشأن الأكل . وفى القاموس أقعى فى جلوسه : تساند إلى ماوراءه ، وهذا يشعر بمزيد الرغبة عن الأكل المناسب لحاله صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ فمعنى وهو مقع من الجوع : أى مستند إلى ما وراءه من الضعف الحاصل له بسبب الجوع ، وبما قررته يعلم أن الاستناد ليس من مندوبات الأكل لأنه صلى الله عليه وسلم لم يفعله إلا لذلك الضعف الحاصل له صلى الله عليه وسلم .

[الأدب السابع] أن لا يأكل فوق الشبع وفوق الجوع ، ويعتذر إذا شبع حتى لايخجل الضيف أو من به حاجة فان الشبع المفرط يمنع من العبادة ولا يقوى عليها . قال صلى الله عليه وسلم «ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس» رواه الترمذى .

[الأدب الثامن] أن لايأكل من ذروة القصعة ولا من وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكين ولا يقطع اللحم أيضا بالسكين كما هو عادة الأجلاف من الأتراك فقد نهى عنه وقال : « انهشوه نهشا» ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا مايؤكل به قال صلى الله عليه وسلم «أكرموا الخبز فان الله تعالى أنزله من بركات السماء» يعنى المطر وذلك لأن الخبز غذاء البدن والغذاء قوام الروح ، وقد شرفه الله وجعله من أشرف الأرزاق نعمة منه ، فمن تهاون به فوضع عليه غير إدامه فقد سخط النعمة وكفرها ، فاذا جفاها نفرت ، وإذا نفرت لم تكد ترجع ، رواه هكذا الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول .

[الأدب التاسع] أن لايمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فانه لايدرى فى أى طعامه البركة أى التغذية والقوة على الطاعة كما فى خبر مسلم .

[الأدب العاشر] أن يحمد الله تعالى بعد فراغه من الأكل .

وأما آداب الشرب فهى كثيرة أيضا :

[الأول] أن ينظر فى إنائه قبل شربه لئلا يكون به شئ مما يؤذى من قذى وغيره . [الثانى] أن يسمى الله تعالى قبل الشرب ويحمده بعده . [الثالث] أن يشربه مصا أى على مهلة شربا رقيقا لاعبا : أى تتابعا من غير تنفس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مصوا الماء مصا ولاتعبوه عبا» هكذا رواه البيهقى من حديث أنس ، وفى بعض الروايات زيادة « فان الكباد من العب » الكباد

كغراب وجع الكبد . قال ابن القيم : وقد علم بالتجربة أن هجوم الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها ويضعف حرارتها ، بخلاف وروده على التدريج ، ألا ترى أن صب الماء البارد على القدر وهي تفور يضر، وبالتدريج لا . ومن آفات النهل دفعة أن في أول الشرب يتصاعد البخار الدخاني الذي يغشى الكبد والقلب لورود البارد عليه ، فاذا شرب دفعة اتفق عند نزول الماء صعود البخار فيتصادمان ويتدافعان ، فتحدث من ذلك أمراض رديئة . [الرابع] أن يشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله في أواخرها ، ويسمى الله في أوائلها ، وهذا هو المراد بما رواه الترمذي في الشمائل وابن السني والطبراني من حديث ابن مسعود رفعه «كان يتنفس في الإناء ثلاثا» أي بأن يشرب ثم يزيله عن فمه ويتنفس ثم يشرب ثم يفعل كذلك ، فاذا أخره حمد الله ، يفعل ذلك ثلاث مرات . وفي الغيلانيات من حديث ابن مسعود رفعه «كان إذا شرب تنفس في الإناء ثلاثا يحمد على كل نفس ويشكر عند آخرهن» ، وأما ماورد من النهي عن التنفس في الإناء ، فالمراد به في جوف الإناء وذلك لأنه يغير الماء إما لتغير الفم بمأكول أو ترك سواك ، أو لأن النفس يصعد بخار المعدة وفي الشرب من غير تنفس ضرر كبير من جهة الطب ، ويندب أن يقول في آخر النفس الأول الحمد لله ، وفي الثاني يزيد : رب العالمين . وفي الثالث يزيد: الرحمن الرحيم . هكذا نقله صاحب القوت وصاحب العوارف . [الخامس] أن لايشرب قائما ولا مضطجعا «فانه صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب قائما» . رواه مسلم من حديث أنس ؛ وروى «أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما» . قال المصنف رحمه الله ولعله كان لعذر وهو الركوب . قال الطبري : ويجوز أن يحمل على ظاهره ، ويكون دليلا على إباحة الشرب قائما : وعن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقاه ، فقال العباس يافضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها ، فقال اسقني ، فقال يارسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه ، فقال اسقني ، فشرب ثم أتى زمزم وهم يسقون عليها ، فقال اعملوا فانكم على عمل صالح ، ثم قال لولا أن تغلبوا لنزعت حتى أضع الحبل على هذه» . وأشار إلى عاتقه . قال الطبري : وفي هذا دليل على ترجيح الاحتمال الأول في الحديث قبله ، لأن قوله لنزعت يدل على أنه كان راكبا إلا أنه صلى الله عليه وسلم مكث بمكة قبل الوقوف أربعة أيام بلياليها من صبيحة يوم الأحد إلى صبيحة يوم الخميس ، فلعل ابن عباس سقاه من زمزم وهو قائم في بعض تلك الأيام انتهى . وقال ابن حجر المكي في شرح الشمائل: قوله فشرب وهو قائم إنما فعله مع أن عادته الشرب قاعدا ونهيه عن الشرب قائما وقوله فيما رواه مسلم «لايشربن أحدكم قائما فمن نسي فليقئ» للبيان أن نهيه صلى الله عليه وسلم عن الشرب قائما ليس للتحريم بل للتنزيه ، وأن الأمر بالاستقاء ليس للايجاب بل للندب ، وقول من قال : ليس الشرب من ماء زمزم قائما اتباعا له صلى الله عليه وسلم إنما يسلم له لو لم يصح النهي عن الشرب قائما ، وأما بعد صحته قائما فيكون الفعل مبينا للجواز . لايقال النهي مطلقا ، وشربه من ماء زمزم مقيد فلم يتواردا على محل واحد . لأنا نقول : ليس النهي مطلقا ، بل هو عام ، فالشرب من ماء زمزم قائما من أفراده ، فدخل تحت النهي فوجب حمله على أنه لبيان الجواز

وَإِلاَّ كُنْتَ حَمَّالاً لِلطَّعَامِ مُضَيِّعاً لِلْأَيَّامِ ، إِذْ قَدْ عَلِمْنَا يَقِيناً بَلْ رَأَيْنَا عِيَاناً أَنَّ الْعِبَادَةَ لَاتَجِيءُ مِنْهَا شَيْءٌ إِذَا امْتَلَأَ الْبَطْنُ ،

ولو سلمنا أنه مطلق لـكان محمولا على المقيد ، فلم يفد القيد غير الجواز أيضا . لايقال النبي صلى الله عليه وسلم نزه عن فعل المكروه كالمحرم فكيف يشرب قائما ؟. لأنا نقول شربه قائما لبيان الجواز وهذا واجب عليه ، فلم يفعل مكروها بل واجبا ، وهكذا يقال في كل فعل فعله صلى الله عليه وسلم لبيان الجواز مع نهيه عنه أو عما يشمله .

واعلم أن كلا من حديث نهيه وفعله صلى الله عليه وسلم المذكورين صحيح ؛ وأن الجمع بينهما ماقررناه ، وحيث أمكن الجمع بين حديثين وجب المصير إليه ، ودعوى النسخ ليست فى محلها ، وتضعيف خبر النهى غير مسموع مع إخراج مسلم له ؛ والاستدلال لعدم الـكراهة بفعل الخلفاء الأربعة غير جار على قواعد الأصوليين مع أنه لايقاوم ماصح عنه صلى الله عليه وسلم سيما فى الشرب قائما ضرر ، ومن ثم ندب الاستقاء منه حتى للناسى لأنه محرك خلطا يكون القيء دواءه قال ابن القيم : وللشرب قائما آفات : منها أنه لايحصل به الرى التام ولا يستمر فى المعدة حتى يقسمه الـكبد على الأعضاء وينزل بسرعة إلى المعدة فيخشى منه أن يبرد حرارتها ويسرع النفوذ إلى أسافل البدن بغير تدريج ؛ وكل هذا يضر بالشارب قائما ؛ وعند أحمد عن أبي هريرة «أنه رأى رجلا يشرب قائما فقال قه ، فقال لم ؟ فقال أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ قال لا. قال شرب معك من هذا أشد منه الشيطان» وروى الترمذى فى الشمائل من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما وقاعدا» . قال الشارح : أى مرة قائما لبيان الجواز ومرارا كثيرة ، بل هى الأكثر المعروف المستقر من أحواله صلى الله عليه وسلم قاعدا . [السادس] أن يناول من كان على يمينه إن كان معه غيره ، فقد ورد « أنه شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا وأبو بكر قاعد عن شماله وأعرابى عن يمينه وعمر قاعد ناحية ، فقال عمر أعط أبا بكر فناول الأعرابى ولم يناول أبا بكر ، وقال الأيمن فالأيمن فالأيمن » . قال الزبيدى : وكرر لفظ الأيمن ثلاثا للتأكيد إشارة إلى ندب الابتداء بالأيمن ولو مفضولا، وحكى عليه الاتفاق. قال ابن العربى : وتقديم من على اليمين ليس لمعنى فيه بل لمعنى فى جهة اليمين (وإلا) أى وإن لم تلزم الأدب فى قوتك وشرابك (كنت حمالا للطعام) والشراب (مضيعا للأيام) والأوقات (إذ قد علمنا) علما (يقينا) لاشك فيه (بل رأينا عيانا) أى معاينة (أن العبادة لايجيء منها شيء إذا امتلأ البطن) ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه» الحديث ، وذلك لما فاته من خيور كثيرة جعل البطن كالأوعية التى تتخذ ظروفا توهينا لشأنه ثم جعله شر الأوعية لأنها تستعمل فى غير ماهى له ، والبطن خلق لأنه يتقوم به الصلب بالطعام وامتلاؤه يفضى إلى فساد الدين والدنيا ، فيـكون شرا منها ، ووجه تحقيق ثبوت الوصف

وَإِنْ أَكْرَهْتَ النَّفْسَ عَلَى ذٰلِكَ وَجَاهَدْتَ بِضُرُوبِ الْحِيَلِ فَلَا يَكُونُ لِتِلْكَ الْعِبَادَةِ لَذَّةٌ وَلَا حَلَاوَةٌ ، وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لَا تَطْمَعْ فِي حَلَاوَةِ الْعِبَادَةِ مَعَ كَثْرَةِ الْأَكْلِ ، وَأَيُّ نُورٍ فِي نَفْسٍ بِلَا عِبَادَةٍ وَفِي عِبَادَةٍ بِلَا لَذَّةٍ وَلَا حَلَاوَةٍ؟ وَلِهٰذَا الْمَعْنَى قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ : صَحِبْتُ أَكْثَرَ رِجَالِ اللهِ تَعَالَى فِي جَبَلِ لُبْنَانَ فَكَانُوا يُوصُونَنِي : إِذَا رَجَعْتَ إِلَى أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَعِظْهُمْ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ ، قُلْ لَهُمْ مَنْ يُكْثِرِ الْأَكْلَ لَا يَجِدُ لَذَّةَ الْعِبَادَةِ ، وَمَنْ يَنَمْ كَثِيرًا لَا يَجِدُ فِي عُمْرِهِ بَرَكَةً ،

فى المفضل عليه أن ملء الأوعية لايخلو عن طمع أو حرص فى الدنيا وكلاهما شر على الفاعل ، والشبع يوقع فى مداحض فيزيغ عن الحق ويغلب عليه الكسل فيمنعه من التعبد وتكثر فيه مواد الفضول فيكثر غضبه وشهوته ويزيد حرصه فيوقعه فى طلب مازاد على الحاجة (وإن أكرهت النفس على ذلك) أى العبادة (وجاهدت بضروب) أى بأنواع (الحيل) جمع حيلة (فلا يكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة ولذلك) أى لعدم وجدان لذة العبادة وحلاوتها مع امتلاء البطن (قيل لاتطمع فى حلاوة العبادة مع كثرة الأكل ، وأى نور فى نفس بلا عبادة ، و) أى نور (فى عبادة بلا لذة ولا حلاوة) ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع ، وذلك لأن الشبع يحرك شهوته التى منها شهوة الفرج ، والعبد إذا تزوج وسلم من الفساد كثرت كلفته ؛ وإن جاءته أولاد فقد حصلت عنده الأعداء وتوالت جهة الفساد ، قال تعالى «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» بخلاف الجوع فانه يحرك للطاعة ، ولذا قال يحيى ابن معاذ رحمه الله : الجوع نور والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الاحتراق ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه (ولهذا المعنى) وهو النهى عن الطمع فى حلاوة العبادة مع كثرة الأكل (قال إبراهيم بن أدهم) بن منصور (رحمه الله) توفى سنة إحدى وستين ومائة (صحبت أكثر رجال الله تعالى) من الأولياء (فى جبل لبنان) بالشام (فكانوا يوصوننى) أى يأمروننى ويقولون لى ياابن أدهم (إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فعظهم بأربع خصال) أحدها (قل لهم من يكثر الأكل لايجد لذة العبادة) لأن الله تعالى ما صافى أحدا إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ولا تولاهم الله تعالى إلابالجوع كما ذكره عبد الواحد بن زيد البصرى رحمه الله تعالى (و) ثانيها قل لهم (من ينم كثيرا لايجد فى عمره بركة) ولذلك قال بكر بن عبد الله المزنى رحمه الله : ثلاثة يحبهم الله تعالى . رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة : أى فى عبادة الله تعالى ، لأنها لاتحصل إلا بجهد ومشقة .

[تنبيه] قال العلامة الرازى : البركة فى العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة مايحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة إمكانه خشية فواته فيبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية ويستفرغ

وَمَنْ طَلَبَ إِرْضَاءَ النَّاسِ فَلاَ يَنْتَظِرُ رِضَاءَ الرَّبِّ ، وَمَنْ يُكْثِرِ الْكَلاَمَ بِالْفُضُولِ وَالْغِيبَةِ فَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى دِينِ الْإِسْلاَمِ .

فى ذلك مجهوده بالكلية ، وفى أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلهية ، ويشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه ولا تنتهى الإشارة إليه ؛ وكل ذلك فى زمن يسير وعمر قصير فيرتفع له فى شهر مثلا ما لا يرتفع لغيره في ألف شهر بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها خير من العمل فى ألف شهر . قال بعض العلماء : كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر . كان أبو العباس المرسى قدس سره يقول أوقاتنا والحمد لله كلها ليلة القدر فهذا هو البركة فى العمر لاتطويله وزيادة مدته ؛ وقيل هذا المعنى فى تأويل ماروى فى الخبر «البر يزيد فى العمر» (و) ثالثها قل لهم (من طلب رضاء الناس فلا ينتظر رضا الرب) لأن رضاهم غاية لاتدرك ، وأحمق الناس من طلب ما لايدرك ، وهذا أعنى طلب رضاء الناس عذاب أليم استعجله فى دنياه إذ يفوته بذلك راحة قلبه وطيب عيشه ويسلبه أثواب الغنى والعزة ويلبسه لباس الطمع والزلة فتردى بذلك همته وتقل قيمته — ولعذاب الآخرة أكبر ، وقد قال الشاعر :

من راقب الناس مات غما وفاز باللـــذة الجسور

ورأى سهل بن عبد الله رحمه الله رجلا من الفقهاء بمكة فقال له شيئا فقال له ياأستاذ لاأقدر على هذا من أجل الناس فالتفت سهل إلى أصحابه ، فقال لاينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى فى الدنيا إلاهو وخالقه ، فإن أحدا لايقدر أن يضره ولا ينفعه ، أو تسقط نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه انتهى ، ثم من له بحصول ما أراده منهم فأغراضهم مختلفة وطباعهم متباينة ، فربما استحسن من نفسه شيئا لم يستحسنه غيره ، وربما أرضى شخصا بما لايرضى الآخر فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وساع فيما يضره عندهم ، وعند الله تعالى مع مقاساة التعب والنصب فى نفسه (و) رابعها قل لهم (من يكثر الكلام بالفضول والغيبة) بكسر الغين (فلا يخرج) أي المكثر لما ذكر (من الدنيا على دين الاسلام) وذلك ، لأن فضول الكلام مذموم لاسيما إكثاره ، وهذا يتناول الخوض فيما لايعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة مع أن رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة ، فقد ضيع رأس ماله وخسر خسرانا مبينا ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه» رواه أحمد وأبويعلى والترمذى ، وإذا حسن الاسلام اقتضى ترك ما لايعنى كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لايحتاج إليها فهذا كله لايعنى المسلم إذا كمل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان ؛ فمن عبد الله على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه وعلى استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه فقد حسن إسلامه ، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لايعنيه فى الاسلام ويشتغل بما يعنيه فيه فانه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من

وَعَنْ سَهْلٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: جِمَاعُ الْخَيْرِ كُلِّهِ فِي هٰذِهِ الْخِصَالِ الْأَرْبَعِ وَبِهَا صَارَتِ الْأَبْدَالُ أَبْدَالًا : إِخْمَاصُ الْبُطُونِ وَالصَّمْتُ وَالِاعْتِزَالُ عَنِ الْخَلْقِ وَسَهَرُ اللَّيْلِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : الْجُوعُ رَأْسُ مَالِنَا، وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَا يَحْصُلُ لَنَا مِنْ فَرَاغٍ وَسَلَامَةٍ وَعِبَادَةٍ وَحَلَاوَةٍ وَعِلْمٍ وَعَمَلٍ نَافِعٍ بِسَبَبِ الْجُوعِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ .

الله تعالى، ومثل ماذكرمن فضول الكلام الغيبة بل هي الصاعقة المهلكة للطاعات كما تقدم فى حفظ اللسان ، ومعلوم أن الإكثار منها قد يؤدى العبد إلي الخروج عن دينه . روى ابن أبى الدنيا عن محمد بن أبى حاتم الأزدى ، حدثنا داودبن المحبر ، حدثنا الربيع بن صبيح قال : سمعت الحسن يقول « والله للغيبة أسرع فى دين المؤمن من الأكلة فى الجسد » . وروى ابن أبى الدنيا أيضا عن نصر بن طرخان ، حدثنا عمران بن خالد الخزاعى قال : كان الحسن يقول : ياابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتي لاتعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ؛ فاذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك ؛ وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال بكر بن عبد الله المزنى «إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس ناسيا لعيبه فاعلموا أنه قد مكر به» رواه ابن أبى الدنيا ، وقد تقدم حد الغيبة فى حفظ اللسان (وعن سهل) بن عبد الله التسترى (رحمه الله) أحد أئمة القوم لم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وقيل ثلاث وسبعين ومائتين (أنه قال :جماع الخير كله) أى الخير، فى[محيط المحيط]: جماع الشيء جمعه والخمر جماع الاثم، لأن الجماع ماجمع عددا انتهى، وأيضا فيه الجماع فعال من الجمع وهو من صيغ المبالغة ؛ والجماع كل ماتجمع وانضم بعضه إلى بعض ومن كل شيء مجتمع أصله ؛ وجماع الناس أخلاطهم من قبائل شتى (فى هذه الخصال الأربع وبها صارت الأبدال أبدالا) وتقدم بيانهم : أحدها (إخماص البطون) أى تجويعها وإخلاؤها من الطعام، فى[محيط المحيط]: خمص البطن خمصا وخموصا ومخمصة أيضا:خلا من الطعام : أى جاع وضمر وهو من باب نصر وكرم (و) ثانيها (الصمت) أى السكوت عن كل ما لانفع فيه (و) ثالثها (الاعتزال) أى الانفراد والخلوة (عن الخلق و) رابعها (سهر الليل) فى [محيط المحيط] : سهر الرجل البارحة يسهر سهرا:لم ينم ليلا وسهر أيضا ضد نام (وقال بعض العارفين: الجوع رأس مالنا) أى أصله. قال المصنف (ومعناه) أى معنى قول بعض العارفين (أن مايحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة) أى فى العبادة (وعلم وعمل نافع بسبب الجوع والصبر عليه) أى على الجوع (لله سبحانه) وتعالى ، ولذلك قال سهل بن عبد الله : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع . ورأس كل فجور بينهما الشبع . وقال أيضا : من جوع نفسه انقطعت عنه الوساوس . وقال أيضا إقبال الله على العبد بالجوع والسقم والبلاء نعمة من الله تعالى عليه ، إذ لولا أنه اختاره لما بلاه . وقال أيضا : اعلموا أن هذا زمان لاينال أحد فيه النجاة إلابذبح نفسه الأمارة بالسوء وقتلها

وَأَمَّا الْقَلْبُ فَحَسْبُكَ أَنَّهُ أَصْلُ الْكُلِّ ، إِنْ أَفْسَدْتَهُ فَسَدَ الْكُلُّ ، وَإِنْ أَصْلَحْتَهُ صَلَحَ الْكُلُّ ،

بالجوع والسهر والجهد فى طاعات الله تعالى . وقال أبو طالب المكى : مثل البطن مثل المزهر ، وهو العود المجوف ذو الأوتار إنما حسن صوته لخفته ورقته ، ولأنه أجوف غير ممتلىء ، ولو كان ثقيلا جاثيا ممتلئا لم يكن له صوت وكذلك الجوف إذا خلا عن الطعام والشرب كان أرق للقلب وأعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام . وروى أن موسى عليه السلام « لما قربه الله نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوما » وفى القوت روينا عن أبى سعيد الخراز قال : قال جماعة من الحكماء إن الله تعالى لا يكلم أحدا وفى بطنه شىء من الدنيا ، فهذا يدل على أمره لموسى عليه السلام بترك الأكل ليلقاه خاليا من الدنيا وبنفس ساكنة عن المنازعة إلى شىء من الملك وروح روحانية قد أحياها الحى بحياته ، فعند ذلك صلح هذا الشخص لمخاطبته قبلا بلا ترجمان . وروى عن مكحول قال : ثلاث خصال يحبها الله عز وجل : قلة الأكل وقلة النوم وقلة الكلام ، وكان بعض السلف يقول : أدنى أحوال المؤمن قلة الأكل والنوم ، وأفضل أحوال المنافق كثرة الأكل والنوم . وقال القشيرى فى الرسالة : قال يحى بن معاذ : لو أن الجوع يباع فى السوق لما كان ينبغى لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره ، وكان سهل التسترى إذا جاع قوى وإذا أكل ضعف . وقال أبو عثمان المغربى : الربانى لا يأكل أربعين يوما ؛ والصمدانى لا يأكل ثمانين يوما .

(وأما القلب) هذا هو الرابع من الأعضاء الأربعة التى هى الأصول (فحسبك) فيه (أنه أصل الكل) أى كل الجوارح التى هي جنوده ورعيته (إن أفسدته) أى القلب بالجحود والكفران (فسد الكل) بالفجور والعصيان (وإن أصلحته) بالإيمان والعلم والعرفان (صلح الكل) بالأعمال والإخلاص والأحوال ، وإذا كان صلاح الكل فى إصلاح القلب وجب صرف العناية إليه ، وذلك أى صلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها دقيقها وجليلها ، وهذه هى الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية ، وهى كثيرة مثل الكبر والعجب والرياء والسمعة والحقد والحسد وحب الجاه والمال ، ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وترك الثقة بمجىء الرزق وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر والغل والغش والمباهاة والتصنع والمداهنة والقسوة والفظاظة والغلظة والغفلة والجفاء والطيش والعجلة والحدة والحمية وضيق الصدر وقلة الرحمة وقلة الحياء وترك القناعة وحب الرياسة وطلب العلو والانتصار للنفس إذا نالها الذل وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللئيمة ، وأصل فروعها وعنصر ينابيعها : إنما هو رؤية النفس والرضا عنها وتعظيم قدرها وترفيع أمرها ، فبهذه الأمور كفر من كفر ونافق من نافق وعصى من عصى ، وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه عز وجل من

خلع ، وشأن الصوفى إنما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات . وقد بينوا طرق ذلك فى كتبهم . قال أبو طالب المكى : لايكون المريد بدلا حتى يبدل بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية ، وأخلاق الشياطين بأوصاف المؤمنين ، وطبائع البهائم بأوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم ، فعند ذلك يكون بدلا مقربا .

قال : والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها تسخرله ويسلط عليها ، فان أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيق عليها ولاتوسع لها ، فان ملكتها ملكتك ، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك ، وإذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحبسها عن معتاد ملائمها ، فان لم تمسكها انطلقت بك ، وإن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقطع أسبابها وحبس موادها ، وإلا قويت عليك فصرعتك انتهى .

فإذا قام العبد بذلك على الوجه الذى رسموه له ، والتزم الوظائف التي أمروه بها طهر قلبه وتزكت نفسه ، واتصفت بمحاسن الصفات التى تزينه بين العباد ، وينال بها من قرب ربه غاية المراد ، فيظهر حينئذ عليه آثار حميدة من التواضع لله والخشوع بين يديه والتعظيم لأمره والحفظ لحدوده والهيبة له والخوف منه والتذلل لربوبيته والإخلاص فى عبوديته والرضا بقضائه ورؤية المنة له عليه فى منعه وإعطائه ، ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر والحلم والاحتمال وا والنزاهة والأمانة والثقة والعطف والتأنى والوقار والسخاء والجود والحياء والبشاشة والنصيحة وسلامة الصدر إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان التي ينال بها العبد غاية السعادة والحسنى والزيادة . قال العلامة الرندى : وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية رضى الله عنهم بالتحلى والتخلى : أى التخلى عن الصفات المذمومة والتحلى بالصفات المحمودة ، ويعبرون عنهما أيضا بالتزكية والتحلية ، وهما حقيقة السلوك الذى يعبرون عنه أيضا ، فاذا صح للعبد هذا السفر وانقلب منه إلى أفضل مستقر ، تحققت عبوديته لربه عز وجل ، فلم يملكه غيره ولم يسترقه سواه ، وارتقى فى القرب من ربه إلى أشرف محل ، فيكون هناك منزله ومثواه . فيكون لنداء الحق مجيبا ، لأنه إذ ذاك يناديه باسم العبد ، فيقول له ياعبدى فيجيب حينئذ مولاه باسم الرب ، فيقول له : لبيك يارب ، فيكون صادقا فى إجابته متحققا فى نسبته ، فيكون أيضا من حضرته قريبا لوجود بعده عن نفسه التى من شأنها النفور عنها والفرار منها ، فاذا أقامه الحق تعالى مقام العبودية ، وحاز مرتبة القرب من حضرة الربوبية كان محفوظا من اقتحام الأوزار ميسرا عليه أعمال الأخيار ، متحليا فى الظاهر والباطن بأشرف الحلى ، محتظيا بفضيلة التشبه بالملأ الأعلى . قال الله عز وجل « ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لايفترون » وقد قال الله تعالى « إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » وقال عز من قائل « لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » فمرتبة العبودية أنالتهم هذه الخصوصية ، وكذلك من تشبه بهم فى محاسن صفاتهم من الصفوة

إِذْ هُوَ الشَّجَرَةُ ، وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ أَغْصَانٌ ، وَمِنَ الشَّجَرَةِ تَشْرَبُ الْأَغْصَانُ وَتَصْلُحُ وَتَفْسُدُ ، وَإِنَّهُ الْمَلِكُ ، وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ تَبَعٌ وَأَرْكَانٌ ، وَإِذَا صَلَحَ الْمَلِكُ صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتِ الرَّعِيَّةُ ، فَإِذَنْ صَلَاحُ الْعَيْنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَغَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى

الصوفية إلا أن هؤلاء محفوظون لامعصومون على مااصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة، والفرق بينهما هو ماقاله القشيرى : أن المعصوم لايلم بذنب ألبتة ، والمحفوظ قد تحصل منه هنات وقد يكون له فى الندرة زلات ، ولكن لايكون له إصرار ، أولئك الذين يتوبون إلى الله من قريب ، وقد وصف الله تعالى عباده ذوى التخصيص أولى التطهير والتمحيص فى آيات كريمة بصفات جليلة عظيمة ، وأعد لهم على ذلك خيرات جسيمة ، فقال تعالى «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» إلى قوله «خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما». وعليك النظر فيما قاله فيها أهل التفسير ، وما استنبطه منها أرباب الإشارات والتذكير . وأما من عدا هؤلاء فهم عبيد نفوسهم الشهوانية ومسترقو حظوظهم الدنيوية ، قال الله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم » الحديث ، وهؤلاء هم من عبيد العدد المعنيين بقوله عز وجل « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .

واعلم أنه لايتهيأ هذا السلوك إلى حضرة ملك الملوك إلا لمن وفقه الله تعالى لمعرفة نفسه وما ركبت عليه من مذام الصفات ، ومن عرف ذلك من نفسه لايزال متهما لها مسيئا ظنه بها آخذا حذره منها ، وإلا وقع فى المعاصى والذنوب من حيث لايشعر ، وقد شبه المصنف رحمه الله ذلك القلب بالشجرة والأعضاء بالأغصان فقال (إذ هو) أى القلب (الشجرة) أى بمنزلتها (وسائر الأعضاء أغصان) أى بمنزلة ذلك (ومن الشجرة تشرب الأغصان وتصلح) أى تلك الأغصان إن كان أصلها طيبا (وتفسد) إن كان أصلها خبيثا (وأنه) أى القلب (الملك وسائر الأعضاء تبع) جمع تابع كخدم وخادم (وأركان) أى جنود ، وقد خلقت مجبولة على طاعته لاتستطيع له خلافا ولاعليه تمردا وعصيانا فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم ، كل ذلك بسرعة وكذا سائر الأعضاء وتستخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فانهم مجبولون على الطاعة لايستطيعون له خلافا بل « لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون » وإنما يفترقان فى شئ وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها ، والأجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب (وإذا صلح الملك صلحت الرعية وإذا فسد) أى الملك (فسدت الرعية ، فإذن) أى إذا عرفت أن القلب أصل الكل (صلاح العين واللسان والبطن وغيره) أى المذكور من الثلاثة ، وذلك الغير كاليد والرجل والأذن (دليل على

صَلَاحِ الْقَلْبِ وَعِمْرَانِهِ وَإِذَا رَأَيْتَ فِيهِ خَلَلاً وَفَسَاداً فَاعْلَمْ أَن ذَلِكَ مِنْ خَلَلٍ فِي الْقَلْبِ وَفَسَادٍ وَقَعَ ثَمَّ ، بَلِ الْفَسَادُ فِيهِ أَكْثَرُ فَاصْرِفْ عِنَايَتَكَ إِلَيْهِ فَأَصْلِحْهُ يَصْلُحِ الْكُلُّ بِمَرَّةٍ فَتَسْتَرِيحَ ، ثُمَّ أَمْرُهُ دَقِيقٌ عَسِيرٌ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْخَوَاطِرِ وَهِيَ لَيْسَتْ تَحْتَ يَدِكَ وَالِامْتِنَاعُ مِنَ اتِّبَاعِهَا مَجْهُودُ طَاقَتِكَ فَفِيهِ أَقْصَى الْمَشَقَّةِ ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى صَارَ إِصْلَاحُهُ أَشَدَّ عَلَى أَهْلِ الِاجْتِهَادِ ، وَالِاهْتِمَامُ بِأَمْرِهِ أَكْثَرَ وَأَكْبَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَائِرِ .

وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : عَالَجْتُ قَلْبِي عَشْرًا وَلِسَانِي عَشْرًا وَنَفْسِي عَشْرًا فَكَانَ قَلْبِي أَصْعَبَ الثَّلَاثَةِ ، فَهَذِهِ هَذِهِ .

ثُمَّ عَلَيْكَ بِالِاهْتِمَامِ بِالْخِصَالِ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا : مِنَ الْأَمَلِ ،

صلاح القلب وعمرانه) أى حسن حاله، وفى[محيط المحيط] : العمران اسم للبنيان ولما يعمر به المكان ويحسن حاله بواسطة الفلاحة وكثرة الأهالى ونجح الأعمال والتمدن ، يقال العدل أساس العمران (وإذا رأيت فيه) أى فى المذكور من العين واللسان والبطن وغيره (خللا وفسادا) عطف تفسير لما قبله كما هو مقتضى صنيع المختار (فاعلم أن ذلك) الخلل والفساد ناشئ (من خلل فى القلب و) من (فساد وقع ثم) أى فى ذلك القلب (بل الفساد فيه) أى فى القلب (أكثر) من فساد غيره من الأعضاء (فاصرف عنايتك) أى قصدك (إليه) أى القلب (فأصلحه يصلح الكل) أى جميع الجوارح (بمرة فتستريح ، ثم أمره) أى أمر ذلك القلب (دقيق) أى أمر غامض : أى خلاف الواضح (عسير) أى صعب (إذ هو) أى أمره (مبنى على الخواطر ، وهى ليست تحت) طوع (يدك) واختيارك (والامتناع من اتباعها) أى تلك الخواطر (مجهود طاقتك ففيه) أى الامتناع (أقصى المشقة) أى غايتها (ولهذا المعنى) الذى ذكرناه من أن أمر القلب دقيق عسير (صار إصلاحه أشد) وأصعب (على أهل الاجتهاد و) صار (الاهتمام بأمره) أى القلب (أكثر وأكبر) من الاهتمام بغيره (عند ذوى البصائر . وعن أبى يزيد) طيفور بن عيسى البسطامى (رحمه الله) مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين (أنه قال عالجت قلبى عشرا) من السنين (ولسانى عشرا ونفسى عشرا فكان قلبى أصعب الثلاثة فهذه) الجملة (هذه) أى الموصوفة بالعظيمة ، وذلك لأن أمراض القلوب لايمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، ولهذا قال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة هكذا ذكره القشيرى فى الرسالة (ثم عليك بالاهتمام بالخصال الأربع التى ذكرناها من الأمل)

وَالْعَجَلَةِ فِي الْأُمُورِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبْرِ، وَإِنَّمَا خَصَّصْنَا هٰذِهِ الْأَرْبَعَةَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْخِصَالِ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ وَحَضَضْنَا عَلَى الْاِحْتِرَاسِ مِنْهَا لِأَنَّهَا عِلَلُ الْقُرَّاءِ خَاصَّةً ، إِذْ هِيَ تَعْتَرِي سَائِرَ النَّاسِ عُمُومًا وَالْقُرَّاءَ خُصُوصاً فَتَكُونُ أَقْبَحَ وَأَشْنَعَ ، تَرَى الرَّجُلَ الْقَارِئَ يُطَوِّلُ الْأَمَلَ وَيَعُدُّهُ نِيَّةَ خَيْرٍ فَيُوقِعُهُ فِي الْكَسَلِ وَالتَّوَانِي فِي الْعَمَلِ وَتَرَاهُ يَسْتَعْجِلُ فِي تَحْصِيلِ مَنَازِلِ الْخَيْرِ فَيَنْقَطِعُ عَنْهَا. أَوْ فِي إِجَابَةِ دُعَاءٍ صَالِحٍ فَيُحْرَمُ مِنْ ذٰلِكَ، أَوْ فِي الدُّعَاءِ عَلَى أَحَدٍ بِسُوءٍ فَيَنْدَمُ عَلَى ذٰلِكَ، كَمَا ذُكِرَ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،

أى أمل طول الحياة فى الدنيا (والعجلة فى الأمور والحسد والكبر وإنما خصصنا هذه الأربعة من بين سائر الخصال) بالذكر (فى هذا الموضع وحضضنا) أى حثثنا وحرضنا (على الاحتراس) أى التحفظ (منها لأنها) أى هذه الأربعة (علل القراء) أى العلماء (خاصة إذ هى) أى هذه الأربعة (تعترى) أى تصيب (سائر الناس عموما ، و) تعترى (القراء) والعلماء (خصوصا فتكون) أى الأربعة المذكورة (أقبح وأشنع) من غيرها (ترى الرجل القارئ يطول) من التطويل (الأمل ويعده) أى طول الأمل (نية خير فيوقعه فى الكسل) بفتحتين : أي التثاقل عن الأمر (والتوانى) أى التأخر والتأنى (فى العمل وتراه) أى الرجل المذكور (يستعجل فى تحصيل منازل الخير فينقطع عنها) أى عن منازل الخير (أو) يستعجل (فى إجابة دعاء صالح فيحرم) بالبناء للمفعول : أى يمنع (من ذلك) الإجابة (أو) يستعجل (فى الدعاء على أحد بسوء فيندم) من باب طرب (على ذلك) أى على دعائه بالسوء (كما ذكر عن نوح عليه) الصلاة و (السلام) أى من قوله « لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » وقصة هلاكهم ليس هذا المقام محل بسطها ، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن برد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام، وأمه قينوش بنت راكيل وقيل بنت كابيل بن محوئيل بن أخنوخ ، أرسله الله إلى ولد قابيل ومن تابعهم من ولد شيث . قال وهب بن منبه بعث إلى قومه وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما كما أخبر الله فى القرآن العظيم ، فلما استوفى نوح العمر الذى كتبه الله له جاء إليه ملك الموت وقال له السلام عليك يا نبى الله فقال وعليك السلام من أنت فقد أرعدت قلبى بسلامك فقال أنا ملك الموت جئتك لأقبض روحك فلما سمع نوح ذلك تغير وجهه وتلجلج لسانه فقال له ملك الموت ماهذا الجزع يا نوح ألم تشبع من الدنيا وأنت أطول الناس عمرا ، فقال نوح : إنما وجدت الدنيا دارا لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . ثم إن ملك الموت ناوله كأسا من شراب الجنة وقال له اشرب من هذا الشراب حتى يسكن روعك فتناوله وشربه فلما شربه خر ميتا صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، فلما مات شرع أولاده فى تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه

وَتَرَاهُ يَحْسُدُ نُظَرَاءَهُ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ حَتَّى رُبَّمَا يَبْلُغُ مِنْهُ ذٰلِكَ مَبْلَغاً يَحْمِلُهُ عَلَى قَبَائِحَ وفَضَائِحَ لاَ يَقْدَمُ عَلَيْهَا فَاسِقٌ وَلاَ فَاجِرٌ ، وَلِهٰذَا المَعْنَى قالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : مَا أَخَافُ عَلَى دِينِي إِلاَّ القُرَّاءَ وَالْعُلَماءَ فَاسْتَنْكَرُوا مِنْهُ ذٰلِكَ ، فَقَالَ : مَا أَنَا قُلْتُهُ إِنَّمَا قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ : قَالَ لِي الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : أُحْذَرُوا الْقُرَّاءَ وَاحْذَرُونِي مَعَهُمْ ، فَلَوْ خَالَفْتُ أَوَدَّهُمْ لِي فِي رُمَّانَةٍ فَأَقُولُ إِنَّهَا حُلْوَةٌ وَيَقُولُ إِنَّهَا حَامِضَةٌ مَا أَمِنْتُهُ أَنْ يَسْعَى بِدَمِي إِلَى سُلْطَانٍ جَائِرٍ .

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ

فى قرية قريبة من الكرك ، ويقال إن عند قبره عين ماء تجري انتهى (وتراه) أى الرجل المذكور (يحسد نظراءه) أى أمثاله (على ما آتاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ منه) أى الرجل المذكور (ذلك) أى الحسد (مبلغا يحمله على قبائح وفضائح) كما وقع لبنى يعقوب عليه السلام حين حسدوا يوسف لمكانته عند أبيهم (لا يقدم عليها) أى تلك القبائح والفضائح (فاسق ولا فاجر ، ولهذا المعنى قال سفيان) بن سعيد (الثورى) بفتح الثاء المثلثة وبعدها واو ساكنة وراء هذه النسبة إلى ثور بن عبد مناة (رحمه الله) ولد سنة سبع وتسعين وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة (ما أخاف على دمى إلا القراء والعلماء فاستنكروا) أى القوم الحاضرون عنده (منه) أى من الثورى (ذلك) أى القوم المذكور (فقال) الثوري لا تنكرونى فى هذا القول (ما أنا قلته) من جهة نفسى (إنما قاله) أى القول المذكور (إبراهيم) بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن سعد بن مالك بن النخع (النخعى) بفتحتين نسبة إلى النخع : قبيلة من مذحج، توفى (رحمه الله تعالى) سنة ست وتسعين وهو ابن تسع وأربعين سنة ، وقال البخارى : ابن ثمان وخمسين سنة (وعن عطاء) هو أبو محمد عطاء بن أبى رباح القرشي مولاهم المكى أحد الأعلام . روى عن عائشة وأبى هريرة وخلف ، وعنه الأوزاعى وابن جريج وأبو حنيفة والليث ، مات سنة خمسة عشر ومائتين عن ثمان وثمانين رحمه الله (قال: قال لى) سفيان (الثورى رحمه الله : احذروا القراء واحذرونى معهم ، فلو خالفت أودهم) أى أحبهم (لى فى رمانة فأقول إنها) أى الرمانة (حلوة ويقول) أودهم لى (إنها حامضة ما أمنته أن يسعى بدمى إلى سلطان جائر) أى ظالم، أخرجه أبو نعيم فى الحلية . (وعن) أبي يحي (مالك بن دينار) البصرى كان عالما زاهدا كثير الورع قنوعا لا يأكل إلا من كسبه ، وكان يكتب المصاحف بالأجرة . وروى عنه أنه قال : قرأت فى التوراة أن الذى يعمل بيده طوبى لمحياه ومماته ، وتوفى سنة إحدى

أَنَّهُ قالَ : إِنِّي أَقْبَلُ شَهَادَةَ الْقُرَّاءِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ وَلاَ أَقْبَلُ شَهَادَةَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ لِأَنِّي وَجَدْتُهُمْ حُسَّاداً .

وَعَنِ الْفُضَيْلِ أَنَّهُ قالَ لِابْنِهِ: اشْتَرِ لِي دَارًا بَعِيدَةً مِنَ الْقُرَّاءِ ، مَا لِي وَلِقَوْمٍ إِنْ ظَهَرَتْ مِنِّي زَلَّةٌ هَتَكُونِي وَإِنْ ظَهَرَتْ عَلَيَّ نِعْمَةٌ حَسَدُونِي ؛ وَكَذَلِكَ تَرَاهُ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ وَيَسْتَخِفُّ بِهِمْ مُصَعِّرًا خَدَّهُ مُعَبِّساً وَجْهَهُ ؛ كَأَنَّمَا يَمُنُّ عَلَى النَّاسِ بِمَا يُصَلِّي زِيَادَةَ رَكْعَتَيْنِ أَوْ كَأَنَّمَا جَاءَهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى مَنْشُورٌ بِالْجَنَّةِ أَوِ الْبَرَاءَةِ مِنَ النَّارِ أَوْ كَأَنَّهُ اسْتَيْقَنَ السَّعَادَةَ لِنَفْسِهِ وَالشَّقَاوَةَ لِسَائِرِ النَّاسِ؛ ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَلْبَسُ لِبَاسَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ صُوفٍ وَغَيْرِهِ وَيَتَمَاوَتُ وَهَذَا لاَ يَلِيقُ بِالتَّرَفُّعِ وَالْكِبْرِ وَلاَ يُلاَئِمُهُ بَلْ يُنَاقِضُهُ وَلَكِنِ الْأَعْمَى لاَ يُبْصِرُ . وَذُكِرَ أَنَّ فَرْقَدًا السَّبَخِيَّ

وثلاثين ومائة بالبصرة رحمه الله (أنه قال : إني أقبل شهادة القراء على جميع الخلق ولا أقبل شهادة بعضهم) أي القراء (على بعض ، لأني وجدتهم حسادا) يعني أن أكثر الحسد في القراء قاله أبو الليث (وعن) أبي علي (الفضيل) بن عياض التميمي اليربوعي، تقدمت ترجمته رحمه الله تعالى (أنه قال لابنه : اشتر لي دارا بعيدة من القراء ، مالي ولقوم) وهم القراء (إن ظهرت مني زلة هتكوني ، وإن ظهرت علي نعمة حسدوني ؛ وكذلك) أي كما تراه يحسد (تراه) أي الرجل القارئ (يتكبر على الناس ويستخف) أي يستحقر (بهم مصعرا) أي مائلا (خده) من الكبر . في المختار: الصعر بفتحتين الميل في الخد خاصة . وقد صعر خده تصعيرا وصاعره: ماله من الكبر ، ومنه قوله تعالى « ولا تصعر خدك للناس » (معبسا وجهه) عبس وجهه : كلح وفلان وجهه قطبه : أي زوى ما بين عينيه وكلح (كأنما يمن) أي ينعم (على الناس بما يصلي زيادة ركعتين أو كأنما جاءه) أي ذلك الرجل القارئ (من الله تعالى منشور) أي كتاب غير مختوم وفي نسخة مبشر (بالجنة أو البراءة من النار أو كأنه) أي ذلك الرجل (استيقن السعادة لنفسه و) استيقن (الشقاوة لسائر الناس ثم مع ذلك) التكبر الذي رأيته تراه (يلبس لباس المتواضعين من صوف وغيره ويتماوت) وفي سراج السالكين تماوت تماوتا ادعى الموت وليس به (وهذا) أي لبسه لباس المتواضعين (لا يليق) ولا يناسب (بالترفع والكبر ولا يلائمه) أي يوافقه (بل يناقضه) أي يخالفه (ولكن الأعمى لا يبصر . وذكر أن فرقدا) بفتح الفاء مع سكون الراء هو ابن يعقوب (السبخي) بفتح السين المهملة والموحدة وبخاء معجمة ، منسوب إلى سبخة محركة: موضع بالبصرة كما في القاموس، وهو عابد صدوق لين الحديث مات سنة إحدى وثلاثين ومائة، روى له الترمذي وابن ماجه ، وفي بعض النسخ السنجي بالكسر والسكون وبالجيم نسبة إلى

دَخَلَ عَلَى الحَسَنِ وَعَلَيْهِ كِسَاءٌ وَعَلَى الحَسَنِ حُلَّةٌ فَجَعَلَ يَلْمَسُهَا فَقَالَ الحَسَنُ مَالَكَ تَنْظُرُ إلى ثِيَابِي، ثِيَابِي ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَثِيَابُكَ ثِيَابُ أَهْلِ النَّارِ، بَلَغَنِي أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الأَكْسِيَةِ ثُمَّ قَالَ الحَسَنُ: جَعَلُوا الزُّهْدَ فِي ثِيَابِهِمْ وَالكِبْرَ فِي صُدُورِهِمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَأَحَدُكُمْ بِكِسَائِهِ أَعْظَمَ كِبْرًا مِنْ صَاحِبِ المِطْرَفِ بِمِطْرَفِهِ

سنج: قرية بمرو كما فى سراج السالكين. والأول هو الصحيح (دخل على الحسن) البصرى رحمه الله (وعليه) أى على الفرقد (كساء وعلى الحسن حلة) بالضم ما يحل على البدن من رداء وإزار (فجعل) الفرقد (يلمسها) أى تلك الحلة (فقال الحسن: مالك تنظر إلى ثيابى) هذه الحلة (ثيابى ثياب أهل الجنة وثيابك ثياب أهل النار) تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك (بلغني أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية) نفاقا: أى يلبسونها وباطنهم مخالف لظاهرهم كما يأتى، فالحسن رحمه الله خاطب فرقدا ينبهه أن لا يغره لبس الصوف. (ثم قال الحسن) فى معنى ذلك (جعلوا) أى أصحاب الأكسية (الزهد فى ثيابهم، و) جعلوا (الكبر فى صدورهم) أى قلوبهم (والذى) الواو للقسم (يحلف به) بالبناء للمفعول (لأحدكم) باللام الابتدائية (بكسائه أعظم كبرا من صاحب المطرف بمطرفه) بضم الميم وكسرها: رداء من خز مربع له أعلام، وأطرفته إطرافا: إذا جعلت فى طرفيه علمين فهو مطرف، وربما جعل اسما برأسه غير جار على فعله وكسرت الميم تشبيها بالآلة: والجمع مطارف. يعنى أن صاحب المطرف يذل لصاحب الكساء ويرى الفضل له، وصاحب الكساء يرى الفضل لنفسه، فهذا معنى قول الحسن رحمه الله. وهذه الآفة قلما ينفك عنها كثير من العباد، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له، ولا شك فى أنه صار ممقوتا عند الله، ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار، وذلك لعظم قدر نفسهُ عنده وهو جهل. وجمع بين العجب والكبر والاغترار بالله عز وجل، وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتصدى للمعارضة، ويقول سترون ما يجرى عليه من النكال، وإذا أصيب بمصيبة عرضت له زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله عدوا بغير علم، وعرف جماعة آذوا الأنبياء عليهم السلام بأشد أنواع الأذى، فمنهم من ضربهم ومنهم من قتلهم. ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة. ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه ورسله وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به، ولعله فى مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه، فهذه عقيدة المغترين وهى من أكبر الآفات، وأما الأكياس من العباد فيقولون مثل ما كان يقوله عطاء السلمى البصرى حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة أو نحو ذلك من الآيات المخوفة مايصيب الناس ماأصابهم إلا بسببى ولو مات عطاء يعنى نفسه لتخلصوا واستراحوا، أخرجه أبو نعيم

وَإِلَى هٰذَا الْمَعْنَى يُشِيرُ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ :

تَصَوَّفَ فَازْدَهَى بِالصُّوفِ جَهْلاً ... وَبَعْضُ النَّاسِ يَلْبَسُهُ مَجَانَهْ
يُرِيكَ مَهَانَةً وَيُرِيكَ كِبْرًا ... وَلَيْسَ الْكِبْرُ مِنْ شَكْلِ الْمَهَانَهْ
تَصَوَّفَ كَيْ يُقَالَ لَهُ أَمِينٌ ... وَمَا مَعْنَى تَصَوُّفِهِ الْأَمَانَهْ
وَلَمْ يُرِدِ الْإِلٰهَ بِهِ وَلٰكِنْ ... أَرَادَ بِهِ الطَّرِيقَ إِلَى الْخِيَانَهْ

فى الحلية (وإلى هذا المعنى) أى الذى قاله الحسن رحمه الله (يشير) أبو الفيض (ذو النون) المصرى (رحمه الله) واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن إبراهيم وأبوه كان نوبيا ، توفى يوم الاثنين ودفن بالقرافة الصغرى بمصر سنة خمس وأربعين ومائتين ، فائق هذا الشأن وأوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا ، سعوا به إلى المتوكل فاستحضروه من مصر ، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده إلى مصر مكرما ، وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكى ويقول : إذا ذكر أهل الورع فحيهلا بذى النون ، وكان رجلا نحيفا تعلوه حمرة ليس بأبيض اللحية . ومن كلامه رحمه الله: مدار الكلام على أربع: حب الجليل ، وبغض القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل . ومن كلامه أيضا : من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه كذا قاله القشيرى (حيث قال) من بحر الوافر (تصوف) المتصوف : هو الذى يجاهد لظلب درجة الصوفية (فازدهى) أى تكبر (بالصوف) أى بلبسه (جهلا * وبعض الناس يلبسه) أى الصوف (مجانه) بلا تصوف ، مجن الرجل مجنونا ومجانة ومجنا كان لايبالى قولا وفعلا: أى هزل ضد جد (يريك مهانة) فى لسان العرب: المهانة : الحقارة والصغر (ويريك كبرا * وليس الكبر من شكل) أى صورة (المهانة . تصوف كى يقال له أمين) أى مأمون (وما معنى تصوفه الأمانة . ولم يرد) أى المتصوف (الإله) جل وعز (به) أى بتصوفه (ولكن * أراد) المتصوف (به الطريق إلى الخيانة) مع الرياء والسمعة للناس وانتشار الصيت بينهم والشهرة واقتناص الأموال بطريق السؤال وأنواع الاحتيال ، وذلك لأن أكثر متصوفة هذه الأعصار لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال لفترات عرضتها ولم يقدروا على إزالتها ، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره فى الخلوة ووقفوا عن السير ومالوا إلى الغير ؛ وكانوا بطالين غير محترفين ولامشغولين ، قد ألفوا البطالة ومالت نفوسهم إليها ، واستثقلوا العمل واستوعروا طريق الكسب ، واستلانوا جانب السؤال والتكفف ، فلم يكن لهم فى الخانقاهات حكم نافذ ، ولا تأديب للمريدين نافع ، ولا حجر عليهم قاهر يقهرهم عما لايليق ، فلبسوا المرقعات واتخذوا فى الخانقاهات متنزهات من مياه جارية وأشجار مغروسة وفرش مبسوطة ، وربما تلقفوا ألفاظا مزخرفة من الطامات ؛ فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم فى خرقهم وفى لفظهم

فَلْتَحْذَرْ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ هٰذِهِ الآفاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا لاَ سِيَّمَا الْكِبْرَ ، فَإِنَّ الثَّلاَثَ الْأُوَلَ مَدَاحِضُ لَوْ زَلَلْتَ فِيهَا لَوَقَعْتَ فِى الْعِصْيَانِ ، وَالْكِبْرُ مَدْحَضٌ لَوْ زَلَلْتَ فِيهِ لَوَقَعْتَ فِى بِحَارِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَلاَ تَنْسَ حَدِيثَ إِبْلِيسَ وَفِتْنَتَهُ أَنَّهُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَالرُّجُوعُ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْصِمَنَا جَمِيعاً بِحُسْنِ نَظَرِهِ إِنَّهُ الْجَوادُ الْكَرِيمُ .

﴿ فصل ﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ فَعَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا لاَ بَقَاءَ لَهَا ،

وفى عباراتهم وفى آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيرا « ويحسبون أنهم يحسنون صنعا» ويعتقدون أن كل سوداء تمرة ، وأن كل بيضاء شحمة ؛ ويتوهمون أن المشاركة لهم فى الظاهر من الأقوال والأفعال توجب المساهمة والمقاسمة فى الحقائق الباطنة ، وهيهات فما أغزر حماقة من لايميز بين الشحم والورم ، فهؤلاء بغضاء الله تعالى ، فان الله تعالى يبغض الشاب الفارغ كما أخرجه سعد بن منصور فى سننه ، ويحتمل أن يكون المراد بالشاب هنا الصحيح ، فقد قال العسكرى فى الأمثال : الصحة عند بعضهم الشباب ، والعرب تجعل مكان الصحة الشباب كما قالوا القلب الفارغ والشباب المقبل يكسب الآثام ، وكان يقال إن لم يكن الشغل محمدة فالفارغ مفسدة والقلب الفارغ يبحث عن السوء (فلتحذر أيها الرجل) السالك طريق الآخرة (من هذه الآفات الأربع التى ذكرناها) وهى الأمل والعجلة فى الأمور والحسد والكبر (لاسيما الكبر فإن الثلاث الأول) بضم همزة الأول على إرادة الجمع ، وهى الأمل والعجلة والحسد (مداحض) أى مواضع الزلة ، فى المختار دحضت رجله: زلقت وبابه قطع (لو زللت فيها) أى فى تلك المداحض التى هى الثلاث الأول (لوقعت فى العصيان ، والكبر مدحض لو زللت فيه) أى فى هذا المدحض (لوقعت فى بحار الكفر والطغيان) أى تجاوز الحد فى العصيان (ولا تنس) أيها الرجل (حديث إبليس وفتنته) وقد تقدم ذلك (أنه أبى) أى امتنع اللعين عن السجود لآدم عليه السلام (واستكبر) أى تكبر (وكان من الكافرين) فى علم الله تعالى (والرجوع إلى الله عز وجل أن يعصمنا جميعا بحسن نظره إنه الجواد) أى الواسع العطاء (الكريم) فانه لايرد من سأله واعتمد عليه ، وفى الحديث «إن الله كريم يحب مكارم الأخلاق» .

﴿فصل﴾ : (وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا نظرت بعقلك أيها الرجل فعلمت) بعد النظر والتفكر (أن الدنيا لابقاء لها) وأنها لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء كما ورد فى الخبر. وروى البيهقى عن أبى بن كعب «إن من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة» قال الحفنى : هى بغى من بغايا بنى إسرائيل ؛ أى زانية من زناتهم ، قيل إنها ذبحته بيدها ، وقيل إنها

وَأَنَّ نَفْعَهَا لاَ يَفِى بِضُرِّهَا وَتَبِعَاتِهَا مِنْ كَدِّ الْبَدَنِ وَشُغْلِ الْقَلْبِ فى الدُّنْيا وَالعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالِحْسَابِ الطَّوِيلِ فى الآخِرَةِ الَّذِى لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهِ ،

أمرت رجلا تعلق بهواها أن يذبحه فصنع ذلك وأهدى رأسه إليها فى طست من ذهب طلبا لرضاها وقيل إن ملكا من ملوك بنى إسرائيل كان يحب بنت أخيه محبة شديدة ، وكان يقضى لها كل يوم حاجة فبلغ أمها أن سيدنا يحيى يحرم نكاح المحارم ، فقالت لها إذاً طلب عمك منك قضاء حاجتك ، فقولى حاجتى اليوم قتل يحيى ، فقالت له ذلك ، فقال لها اطلبى غير ذلك لكونه استعظمه فأبت ففعل ، فعلى القول الأول إسناد القتل للمرأة حقيقة وعلى الأخير مجاز : أى تسببت . قال العزيزى يعنى أن قتل يحيى حصل من هوان الدنيا : يعنى لو كان شأنها راتبا وأمرها باقيا لكان الأنبياء أحق بالحياة والاحترام فيها والرعاية والوقاية ، لكنها دار هوان (وأن نفعها لايفى) أى يقصرعنه ولا يوازيه (بضرها وتبعاتها من كد البدن) أى تعبه (وشغل القلب فى الدنيا و) من (العذاب الأليم) أليم فعيل إما بمعنى مفعل بكسر العين : أى المؤلم بكسر اللام ، وإما بمعنى مفعل بفتح العين أى المؤلم بفتح اللام ويكون كناية عن شدة الألم حتى كأن العذاب هو المؤلم بفتح اللام (والحساب الطويل) للأعمال (فى الآخرة الذى لاطاقة) أى لاقوة (لك به) أى بالحساب الطويل لشدته روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتهيئوا للعرض الأكبر ، وإنما يخفف الحساب على من حاسب نفسه فى الدنيا ، وكان عطاء الخراسانى رضى الله عنه يقول : بلغنا أن العبد الموحد يحاسب يوم القيامة بحضرة معارفه ليكون أشد عليه، ذكره الحافظ أبونعيم. وروى الترمذى مرفوعا «يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب مايتمنى معه أنه لم يقض بين اثنين فى عمره قط» وروى الترمذى أيضا مرفوعا « تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، فعند ذلك تتطاير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » وهى العرضة الثانية كما فى رواية . قال العلماء : والجدال خاص بأهل الأهواء ، فيجادل أحدهم حتى لايعرض على ربه ، ويظنون أنهم إذا جادلوا نجوا وقامت حجتهم . وأما المعاذير فهى لله تعالى ، ومن الله يعتذر الخلق إلى الله ، فيتقبل ممن شاء ويرد على من شاء ، ويعتذر الحق جل وعلا إلى آدم عليه السلام وإلى نبينا وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويقيم حجته عندهم على الأعداء ثم يبعثهم إلى النار ، فهو سبحانه وتعالى يحب أن يكون عذره عند أنبيائه وأوليائه ظاهرا حتى لاتأخذهم الحيرة ، ولذلك لاأحد أحب إليه المدح من الله ، ولاأحد أحب إليه العذر من الله . وقال بعض العلماء : إن العرضة الثالثة خاصة بالمؤمنين ، فيخلو بهم ربهم ويعاتبهم فى تلك الخلوات حتى يذوب أحدهم من الحياء ويرفض عرقا بين يديه ، ثم يغفر لهم ويرضى عنهم . قال الشعرانى : وبلغنا أن شخصا تاجرا وقفت عليه امرأة تشترى لها إزارا فكلمته فتحركت بشرته عليها ، فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت

فَإِذَا عَلِمْتَ ذٰلِكَ جِدًّا زَهِدْتَ فِى فُضُولِهَا فَلَا تَأْخُذُ مِنْهَا إِلَّا مَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ فِى عِبَادَةِ رَبِّكَ وَتَدَعُ التَّنَعُّمَ وَالتَّلَذُّذَ إِلَى الْجَنَّةِ، دَارِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِى جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمَلِكِ الْقَادِرِ الْغَنِيِّ الْكَرِيمِ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ الْخَلْقَ لَا وَفَاءَ لَهُمْ ، وَأَنَّ مُؤْنَتَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ مَعُونَتِهِمْ فِيمَا يَعْنِيكَ، وَتَرَكْتَ مُخَالَطَتَهُمْ إِلَّا فِيمَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ تَنْتَفِعُ بِخَيْرِهِمْ وَتَجْتَنِبُ مِنْ ضُرِّهِمْ وَتَجْعَلُ صُحْبَتَكَ لِمَنْ لَا تَخْسَرُ فِى صُحْبَتِهِ وَلَا تَنْدَمُ عَلَى خِدْمَتِهِ ،

وسأله الله عن ذلك فسقط لحم وجهه من الحياء . وروى أن عيسى عليه السلام مر بقبر فوكزه برجله وقال ياصاحب القبر قم بإذن الله ، فقام رجل من القبر وقال ياروح الله ماالذي أردت بى فانى لقائم فى الحساب منذ سبعين سنة حتى سمعت الصيحة أن أجب روح الله ، فقال عيسى ياهذا لقد كنت كثير الذنوب والخطايا ، فما كان عملك ؟ فقال ياروح الله كنت حطابا أحمل الحطب على رأسى وآكل حلالا وأتصدق ، فقال عيسى: سبحان الله ! حطاب يحمل الحطب على رأسه ويأكل حلالا ويتصدق وهو قائم فى الحساب منذ سبعين عاما ، ثم سأله عيسى عما قال له ربه فى الحساب فقال ياروح الله كان من توبيخ ربى لى أن قال: أتذكر يوم أكراك عبدى فلان لتحمل له حزمة حطب فأخذت منه عودا وخللت به أسنانك وألقيت به فى غير مكانه من الحزمة استهانة منك بى وأنت تعلم أنى أنا الله المطلع على فعالك ونيتك ، كذا ذكره الشعرانى فى التذكرة القرطبية (فإذا علمت ذلك) أى أن الدنيا لابقاء لها ونفعها لايفى بضرها (جدا زهدت فى فضولها) أى الدنيا (فلا تأخذ منها إلا ما لابد لك منه فى عبادة ربك وتدع) أى تترك (التنعم والتلذذ) بأنواع المستلذات والمشتهيات فى هذه الدار لتصل (إلى التنعم والتلذذ فى الجنة دار النعيم المقيم) أى الدائم الذى لاينعزل (فى جوار) بكسر الجيم (رب العالمين) الذى هو مالكهم ومربيهم والقائم بأمورهم والمصلح لما يفسد منها ولا ملجأ لهم إلا إليه (الملك) بالجر نعت لما قبله : أى ذى الملك والمراد به القدرة على الإيجاد والاختراع ، أو المتصرف فى جميع الأشياء يعز من يشاء ويذل من يشاء ولا يذل . وقال بعض المحققين : الملك هو الغنى مطلقا فى ذاته وصفاته عن كل ما سواه ، ويحتاج إليه كل ما سواه (القادر) أى المتمكن من الفعل بلا معالجة ولا واسطة (الغنى) أى المستغنى عن كل شئ لايفتقر إلى شئ (الكريم) أى المتفضل الذى يعطى من غير مسألة ولا وسيلة ، وقيل المتجاوز الذى لايستقصى فى العقاب ، وقيل المقدس عن النقائص والعيوب (وعلمت أن الخلق لاوفاء لهم ، وأن مئونتهم) أى مشقتهم (أكثر من معونتهم) أى إعانتهم (فيما يعنيك وتركت مخالطتهم إلا فيما لابد لك منه ، تنتفع بخيرهم ، وتجتنب من ضرهم ، وتجعل صحبتك لمن لا تخسر فى صحبته ولا تندم) من باب طرب (على خدمته) وطاعته وهو ربك وسيدك ومولاك

وَأُنْسَكَ بِكِتَابِهِ وَمُلَازَمَتِكَ إِيَّاهُ فَيَكُونُ لَكَ بِكُلِّ حَالٍ وَتَرَى مِنْهُ كُلَّ جَمِيلٍ وَإِفْضَالٍ، وَتَجِدُهُ عِنْدَ كُلِّ نَائِبَةٍ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ حَيْثُ اتَّجَهْتَ ».

وخالقك (و) تجعل (أنسك بكتابه) أى بمطالعة كتابه (وملازمتك إياه) وفى نسخة لبابه (فيكون) جل وعز (لك بكل حال وترى منه) سبحانه (كل جميل وإفضال) بكسر الهمزة : أى إحسان على وجه الفضل كما ذكره البنانى ، ومهما ذكرته بلسانك أو بقلبك أو بهما فهو جل وعز جليسك فلا ينساك ، إذ قال سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى « أنا جليس من ذكرنى » . وقال تعالى « عبدى أنا عند ظنك بى وأنا معك » أى بالتوفيق أو أنا معك بعلمى إذا ذكرتنى : أى إذا دعوتنى فأسمع ماتقول فأجيبك . هذا وما أشبهه فى ذكر عن يقظة لاعن غفلة وقال الله تعالى « ياابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيت إليك أهرول » والمعنى إن ذكرتنى سرا إخلاصا وتجنبا للرياء أسرع بثوابك على منوال عملك ، وإن ذكرتنى فى جماعة افتخارابى وإجلالالى بين خلق ذكرتك فى الملائكة المقربين وأرواح المرسلين مباهاة بك وإعظاما لقدرك ، وإن تقربت منى بالاجتهاد والإخلاص فى طاعتى قربتك بالهداية والتوفيق وإن زدت زدت ، كذا أفاده العزيزى (وتجده) أى تجد الله معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والإعانة (عند كل نائبة) أى مصيبة وشدة (فى الدنيا والآخرة كما قال) النبى (عليه) الصلاة و (السلام : احفظ الله) بحفظ فرائضه وحدوده وملازمة تقواه واجتناب نهيه وما لا يرضاه (تجده) سبحانه وتعالى معك (حيث) أى فى مكان (اتجهت) بالحفظ والإعانة حيثما كنت فتأنس به وتستغنى به عن خلقه ، وهذا من المجاز البليغ لاستحالة الجهة عليه تعالى فهو على حد قوله تعالى « إن الله مع الصابرين » . إن الله مع المتقين . فالمعية هنا معنوية لاظرفية ، فكأن المعنى تجده حيثما توجهت وتيممت وقصدت من أمر الدين والدنيا ، وهذا الحديث جزء من حديث طويل رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح ، وأوله كما فى الأربعين بلفظ « عن أبى العباس عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال : ياغلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن الله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» . وفى رواية عبد بن حميد والإمام أحمد «احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ماأخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن

وَعلمتَ أَنّ الشّيْطانَ خَبيثٌ قَدْ تجرَّدَ لِمُعادَاتِكَ فاسْتَعِذْ بِربِّكَ القادرِ القَاهرِ مِنْ هٰذَا الـكَلْبِ اللَّعِينِ وَلاَ تغفُلْ عَنْ مَكاَيِدِهِ وَمَصاَيِدِهِ فَتطْرُدَهُ بِذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَلاَ تعبَأَنَّ بِذٰلِكَ ، فَإنَّهُ يَسِيرٌ إذَا ظَهرَتْ مِنْكَ عَزِيمَةُ الرِّجَالِ، وَإنّهُ كَماَ قالَ اللهُ تَعالَى : (إِنّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتوَكَّلُونَ) .

ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج من الـكرب ، وأن مع العسر يسرا» (وعلمت أن الشيطان) اللعين (خبيث) مخبيث (قد تجرد) وتمحض (لمعاداتك) وإغوائك وإضلالك (فاستعذ بربك القادر) على كل شيء (القاهر) أى المستولى على جميع الأشياء الظاهرة والباطنة (من) وساوس (هذا الـكلب اللعين) المرجوم بالنجم المطرود من رحمة الله (ولا تغفل عن مكايده ومصايده) أى اللعين (فتطرده بذكر الله سبحانه) وتعالى . قال مصنفنا حجة الإسلام وغيره : ولا يمحو وسوسة الشيطان إلا ذكر ماسوى ما يوسوس به لأنه إذا خطر فى القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل . ولـكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به ، فيجوز أيضا أن يكون مجالا للشيطان ، وذكر الله هو الذى يؤمن جانبه ، ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ، ولا يعالج الشيء إلا بضده ليكون مخرجا له ومبطلا أثره ، وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله تعالى بالاستعاذة والتبرى عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الخاشعون الغالب عليهم ذكر الله تعالى فى سائر أوقاتهم ، وإنما الشيطان يطوف عليهم فى أوقات الفلتات والغفلات على سـبيل الخلسة والمخاتلة . قال الله تعالى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . وقال مجاهد فى معنى قول الله تعالى « من شر الوسواس الخناس » قال : هو منبسط على القلب ، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى انبسط على قلبه هكذا تمله صاحب القوت (ولا تعبأن) أى ولا تبالى (بذلك) أى اللعين (فإنه) أى اللعين أى طرده ودفعه (يسير) غير عسير (إذا ظهرت منك عزيمة) أى قصد (الرجال) الـكاملين (وأنه) أى الشيطان اللعين : أى شأنه (كما قال الله تعالى) « فإذا قرأت القرآن فاسـتعذ بالله من الشيطان الرجيم » (إنه ليس له) أى لإبليس (سـلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشـيطان ، فـكأن ذلك أوهم أن له قدرة على التصرف فى أبدان بنى آدم ، فأزال الله سـبحانه وتعالى هـذا الوهم بقوله « إنه ليس له سلطان » يعنى ليس له قدرة وولاية على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه ، فإنهم لا يطيعون أوامره ولا يقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرون على ندور وغفلة ؛ ولذلك أمروا بالاستعاذة . قال سفيان : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر ، ويظهر من هذا

وَلَقَدْ صَدَقَ أَبُو حَازِمٍ فِيمَا قالَ : مَا الدُّنْيَا وَمَا إِبْلِيسُ ؟ أَمَّا الدُّنْيَا فَمَا مَضَى مِنْهَا فَحُلْمٌ وَمَا بَقِيَ فَأَمَانِيٌّ ؛ وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَوَاللهِ لَقَدْ أُطِيعَ فَمَا نَفَعَ، وَلَقَدْ عُصِيَ فَمَا ضَرَّ ،

أن الاستعاذة إنما تفيد إذا حضر بقلب الإنسان كونه ضعيفا ، وأنه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان إلا بعصمة الله ، ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله (ولقد صدق أبوحازم) هو سلمة بن دينار التابعى المدني الأعرج الزاهد الفقيه المشهور بالمحاسن ، وهو مخزومي مولى الأسود بن سفيان المخزومى ، وقيل مولى لبنى ليث ، سمع سهل بن سعد الساعدى ، وأكثر الرواية عنه في الصحيحين وغيرهما والنعمان أبا عياش الزرقى وسعيد بن المسيب وعطاء وسعيد المقبرى وأبا صالح وعبد الله بن أبى قتادة وأبا سلمة بن عبد الرحمن وأبا إدريس الخولانى وعطاء بن يسار وعمرو بن شعيب وأم الدرداء الصغرى. وآخرين روى عنه ابناه عبد العزيز وعبد الجبار والزهرى ، وهو أكبر من أبى حازم ومحمد بن إسحاق ومحمد بن عجلان والمسعودى ومالك بن أنس وابن أبى ذؤيب وعبيد الله بن عمر وموسى بن عبيدة وسفيان الثورى وعمرو بن صهبان وسليمان بن بلال وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهشام بن سعد وأسامة بن زيد ومعمر وسفيان بن عيينة وأخوه محمد بن عيينة وخلائق لا يحصون ، وأجمعوا على توثيقه وجلالته والثناء عليه . قال محمد بن إسحاق بن خزيمة : لم يكن فى زمن أبى حازم مثله توفى سنة خمس وثلاثين ومائة رحمه الله تعالى (فيما قال : ما الدنيا وما إبليس ؟ أما الدنيا فما مضى منها فحلم) الحلم الرؤيا (وما بقى) منها (فأمانى) جمع أمنية ، وهى فى الأصل ما يقدره الإنسان فى نفسه ، من منى إذا قدر ، ولذلك يطلق على الكذب وعلى مايتمنى وما يقرأ (وأما الشيطان فوالله لقد أطيع فما نفع) طائعه (ولقد عصى) بالبناء للمفعول كسابقه (فما ضر) عاصيه . قال أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى قوله تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان ، فشغلهم ذلك من محبة الحبيب ، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو ، أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه . وقال بعضهم : الشيطان منديل هذه الدار: يعنى يمسح به أقذار النسب، وهى نسبة الشرور وأنواع المعاصى والفساد إليه أدبا مع الله عز وجل، وهذا سر إيجاده كما قال الله تعالى «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» وقوله تعالى « هذا من عمل الشيطان » وأما أن له حولا وقوة يضر بها أو ينفع فلا .قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : ما خلق الله عز وجل خلقا أهون عليه من إبليس ، ولولا أن الله أمرنى أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبدا . وقيل لبعض العارفين كيف مجاهدتك للشيطان ؟ . فقال وما الشيطان؟ نحن قوم صرفنا هممنا إليه تعالى فكفانا من دونه ، وسئل بعضهم: بم تدفع إبليس ؟ . فقال لا أدفع من لا أعرف ، فأما إن أهملت ذلك وغفلت عنه ولم تعبأ به غلبك لا محالة لثبوت سلطنته عليك ووصوله بالوسوسة إليك . قال أهل العلم : إن لكل أحد من الناس وسواسا موكلا

وَعَلِمْتَ جَهَالَةَ هٰذِهِ النفسِ وَجِمَاحَهَا إِلى مَا يَضُرُّهَا، وَيُهْلِكُهَا ، فَنَظَرْتَ إِلَيْهَا رَحْمَةً لَمَا نَظَرَ الْعُقَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِى الْعَوَاقِبِ لَا نَظَرَ الْجُهَّالِ وَالصِّبْيَانِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِى الْحَالِ، وَلَا يَفْطُنُونَ لِغَائِلَةِ الْأَذَى وَيَنْفِرُونَ

به مستبطنا قلبه واضعا رأسه : أو قال خرطومه عليه، فإذا غفل العبد وسوس وإذا ذكر الله خنس أى تأخر واستتر ، وتقدم مثل هذا . وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الشيطان قديم وأنت حديث والشيطان كبير وأنت سليم الناحية ، والشيطان لا ينساك وأنت لا تزال تنساه ، وله من نفسك عليك عون ، وقيل صدر ابن آدم مسكن له ومجراه من ابن آدم مجرى الدم ، وأنت لا تقاومه إلا بعون الله تعالى . وقال مالك بن دينار رحمه الله: إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المئونة إلا من عصمه الله ، وفيه يقول القائل :

أشكو عدوا كيده يرانى ولا أراه حيثما يرانى
وعند ما أنساه لا ينسانى ياسيدى إن لم تغث سبانى

وقال ذو النون المصرى رحمه الله إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه ، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال إبليس لربه عز وجل بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم قال له ربه وعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى » وقال بعضهم : عداوة الشيطان لك نعمة عظيمة من الله عليك ؛ إذ من مقتضاها أن لا يغفل عنك وأن يبذل جهده فى محاربتك ومقاتلتك بنفسه وبجنده وبخيله وبرجله ، ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك لأنك فى غاية الضعف والعجز فيضطرك الحال لا محالة إلى الاستعانة عليه بمولاك القوى المتين فيوجد منك حينئذ الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه فى دفعه عنك ، فعداوة الشيطان هى التى ردتك الحق تعالى بها إليه وجمعك بها عليه ، وهذا هو غاية المقصود لكن قال العلامة الشرقاوى هذا فى حق غير المحبوبين الذين صرفوا همتهم إلى جناب الحق . أما هم فلا يحتاجون إلى عدو يحوشهم ، لأن تعلقهم به تعالى كالطبيعى فيهم فلا يلتفتون إلى إبليس ، ولولا أمر الله تعالى لهم بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه ، ومن هو حتى يستعاذ بالله منه كما تقدم عن أبى سليمان الدارانى وغيره (وعلمت جهالة هذه النفس) الأمارة بالسوء (وجماحها) واعتزازها وغلبتها (إلى ما يضرها و) ما (يهلكها) ولا تعرف عاقبتها (فنظرت إليها رحمة) ورأفة (لها نظر العقلاء) أى كنظرهم (و) نظر (العلماء الذين ينظرون فى العواقب) أى فى أواخر أمرهم (لا) نظرت إلى هذه الأمارة بالسوء (نظر الجهال والصبيان الذين ينظرون فى الحال) ولا ينظرون فى المآل (ولا يفطنون) أى لا يفهمون (لغائلة الأذى) الغائلة الشر كما فى سراج السالكين (وينفرون) بفتح الياء

مِنْ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ فَأَلْجِمْهَا بِلِجَامِ التَّقْوَى بِأَنْ تَمْنَعَهَا عَمَّا لاَ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ بِالْحَقِيقَةِ مِنْ فُضُولِ كَلاَمٍ وَنَظَرٍ وَطَعَامٍ وَتَلَبُّسٍ بِخَصْلَةٍ فاسِدَةٍ مِنْ طُولِ أَمَلٍ أَوْ عَجَلَةٍ أَوْ حَسَدِ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكَبُّرٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَكْلٍ بِمَحْضِ شَهْوَةٍ وَشَرَهٍ وَتُعْطِيَهَا مَا لَيْسَ لَهَا مِنْهُ بُدٌّ وَلاَ تَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا إِذْ لاَ ضَرُورَةَ إِلَى الْفُضُولِ، وَقَدْ وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى الْأَمْرَ عَلَى عِبَادِهِ بِرَحْمَتِهِ وَأَغْنَاهُمْ عَنْ جَمِيعِ مَا يَضُرُّهُمْ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ فَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى ذَلِكَ ؟

وكسر الفاء من باب ضرب فى اللغة العالية : أى يعرضون ويصدون (من مرارة الدواء فألجمها بلجام التقوى) وذلك (بأن تمنعها) أى النفس (عما لاتحتاج إليه بالحقيقة من فضول كلام ونظر وطعام) أى فضولهما (و) من(تلبس) أى اختلاط (بخصلة فاسدة من طول أمل أو عجلة) فى الأمور (أو حسد مسلم أو تكبر فى غير موضع) أى موضع التكبر ، وذلك كالتكبر على المتواضعين فإنه مذموم ، بخلاف التكبر على المتكبرين فإنه محمود ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المتواضعين فتواضعوا لهم ، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك مذلة لهم وصغار » قال العراقى حديث غريب ، والمعنى أن المتكبر إذا تواضعت له تمادى فى تيهه وإذا تكبرت عليه يمكن أن يتنبه، ومن ثم قال الشافعى : ماتكبر على متكبر مرتين . وقال الزهرى : التجبر على أبناء الدنيا أوثق عرى الإسلام ، وفى بعض الآثار: التكبر على المتكبر صدقة ، ويؤيده ماروى عن ركب المصرى وله صحبة مرفوعا : «طوبى لمن تواضع فى غير منقصة وذل نفسه فى غير مسكنة، وذلك بأن لايضع نفسه بمكان يزرى به ويؤدى إلى تضييع حق الحق أو الخلق» فالقصد بالتواضع خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين ، ومن هذا الحديث يؤخذ أن الرجل إذا تغير صديقه وتكبر عليه لنحو منصب أن يفارقه ، ولذلك قيل :

سأصبر عن رفيقي إذا جفانى على كل الأذى إلا الهوان

وقال الشيخ الأكبر قدس سره : الخضوع واجب فى كل حال إلى الله باطنا وظاهرا فاذا اتفق أن يقام فى موطن الأولى فيه ظهور عزة الإيمان وجبروته وعظمته لعز المؤمن وعظمته وجبروته ويظهر فى المؤمن من الأنفة والجبروت ماينافض الخضوع والذلة ، فالأولى إظهار مايقتضيه ذلك الموطن فان للمواطن أحكاما فافعل بمقتضاها تكن حليما والله أعلم (أو أكل بمحض شهوة) أى الشهوة الخالصة عن نية التقوى لطاعة الله تعالى (وشره) أى غلبة الحرص (وتعطيها) أى النفس (ماليس لها منه بد) أى غنى (ولا تخاف منه ضررا إذ لاضرورة) ولاحاجة (إلى الفضول) المذكور (وقد وسع الله تعالى الأمر على عباده برحمته) التى وسعت كل شىء (وأغناهم) أى العباد (عن جميع مايضرهم فى أمر دينهم ، فأى حاجة) أى لاحاجة (إلى ذلك) أى الفضول وما يضرهم

فَإِنّ الْأَمْرَ كَمَا قال بَعْضُ الصَّالِحِينَ : إِنّ التَّقْوَى أَهْوَنُ شَيْءٍ إِذَا رَابَنِي شَيْءٌ تَرَكْتُهُ ، فَإِنّ النفسَ تَسْتَكِينُ وَتَتَعَوَّدُ مَا عَوَّدْتَهَا ، وَإِنَّهَا كَمَا قال القَائِلُ :

فالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا   وَإِذَا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وقال آخر :

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ

وَيُرْوَى : ما عَوَّدْتَهَا تَتَعَوَّدُ

وقال آخر :

صَبَرْتُ عَنِ اللَّذَّاتِ حَتَّى تَوَلَّتِ   وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتِ

فى أمر الدين (فان الأمر كما قال بعض الصالحين) وهو حسان بن أبى سنان البصرى أحد العباد الورعين . قال البخارى : كان من عباد أهل البصرة ، وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا سلام بن أبى مطيع قال : قال حسان: لولا المساكين ماأتجرت ، وقد ترجمه أبو نعيم فى الحلية (إن التقوى) أى اتقاء الشبهات والفضلات (أهون شئ إذا رابنى) أى شككنى (شئ تركته) وهذا القول عنه قد أخرجه البخارى فى كتاب البيوع معلقا ، ولفظه: وقال حسان بن أبى سنان : مارأيت شيئا أهون من الورع دع مايريبك إلى ما لايريبك ؛ وقد حكى عن يوسف بن أسباط وحذيفة المرعشى وغيرهما من عباد أهل الشام أن قائلهم يقول : منذ ثلاثين سنة ماحاك فى قلبى شئ إلا تركته (فان النفس تستكين) أى تخضع وتذل . فى [محيط المحيط] : استكان استكانة خضع وذل . وهو استفل من السكون : أى صار له كون خلاف كونه ، وقيل هو استفعل من الكين ، وهو لحم داخل فرج المرأة ، وهو نظيره لأنه فى أسفل موضع وأذله : أى صار مثله فى الحقارة والذل ، ويجوز أن يكون أصله استكن افتعل من السكون وزيدت الألف لإشباع الفتحة (وتتعود ماعودتها ، وإنها كما قال القائل) من بحر الكامل (فالنفس راغبة إذا رغبتها * وإذا ترد) أى النفس (إلى قليل تقنع) أى ترضى وإذا تركتها على ما ألفته من المعاصى دامت على حبه ، وإذا معنها عنه امتنعت كما قال صاحب البردة :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

(وقال آخر) وهو المتنبى من بحر الطويل (هى) ضمير القصة (النفس ماحملتها تتحمل) تمامه : *والدهر أيام تجور وتعدل* هكذا فى هامش البيضاوى (ويروى: ماعودتها تتعود) أى ما كلفتها أولا يصير طبعا آخرا ومثله قوله * لكل امرئ من دهره ماتعودا * كذا ذكره الزبيدى (وقال آخر) من بحر الطويل أيضا (صبرت عن اللذات) والمشتهيات (حتى تولت) بكسر التاء الثانية للضرورة أى أعرضت تلك اللذات عن نفسى ، وهذا كناية عن صبر النفس عن نيل تلك اللذات وانقيادها فى ترك ذلك (وألزمت نفسى صبرها فاستمرت) بكسر التاء الثانية للضرورة كما تقدم

وَمَا النَّفسُ إلاَّ حَيثُ يَجعَلُهَا الفَتى   فَإنْ أُطعِمَتْ تَاقَتْ وَإلاَّ تَسَلَّتِ

فَإِذَا عَلِمْتَ الَّذِي وَصَفْنَاهُ كُنتَ مِنَ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنيا الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ سُمِّيَ بِاسْمِ الزَّاهِدِ فَلَقَدْ سُمِّيَ بِأَلفِ اسْمٍ مَمْدُوحٍ، وَكُنتَ مِنَ المُنفَرِدِينَ المُنقَطِعِينَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الأُنسِ وَخَدَمُ رَبِّ العَالَمِينَ ، فَتَكُونُ كَمَا قَالَ القَائِلُ :

تَشَاغَلَ قَوْمٌ بِدُنْيَاهُمُ   وَقَوْمٌ تَخَلَّوْا لِمَوْلاَهُمُ
فَأَلْزَمَهُمْ بَابَ مَرْضَاتِهِ   وَعَنْ سَائِرِ الخَلْقِ أَغْنَاهُمُ

(وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى * فان أطعمت) بالبناء للمفعول (تاقت) أى اشتاقت (وإلا) بأن لم تطعم (تسلت) بكسر التاء الثانية كما تقدم : أى رضيت (فاذا علمت الذى وصفناه) أى من أول الفصل إلى هنا (كنت من الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة . واعلم أن من سمى باسم الزاهد فلقد سمى بألف اسم ممدوح) عند الله وعند الخلق ، وكفى بالزهد فوزا وسعادة ، وقد روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا . وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم كانوا خيرا منكم ، قيل ولم ذلك ؟ قال كانوا أزهد منكم فى الدنيا ، وعن بعض الصحابة أيضا قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد فى الدنيا . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله سألت معروفا الكرخى رحمه الله عن الطائعين لله بأى شيء قدروا على الطاعة؟ . فقال بإخراج الدنيا من قلوبهم ، ولو كان شيء منها فى قلوبهم ماصحت لهم سجدة . وقال أبو عبد الله القرشى رحمه الله: شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البر ولا يجد حلاوة فى قلبه ، فقال لأن عندك بنت إبليس وهى الدنيا ولا بد للأب أن يزور بنته فى بيتها وهو قلبك ولا يؤثر دخوله إلا فسادا، وكان سهل يقول: يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله قال ولا يرى فى القيامة أحد أفضل من ذى زهد عالم ورع (وكنت من المنفردين المنقطعين إلى الله سبحانه الذين هم أهل الأنس) قال بعضهم : الأنس سرور القلب بما يرد عليه من المعارف الربانية (وخدم رب العالمين فتكون) أنت (كما قال القائل) من بحر المتقارب (تشاغل قوم بدنياهم) بالاشباع للوزن (وقوم) آخر (تخلوا لمولاهم . فألزمهم) مولاهم (باب مرضاته * وعن سائر الخلق أغناهم) بالإشباع للوزن

يَصُفُّونَ بِاللَّيْلِ أَقْدَامَهُمْ   وَعَيْنُ الْمُهَيْمِنِ تَرْعَاهُمْ
فَطُوبَى لَهُمْ ثُمَّ طُوبَى لَهُمْ   إِذَا بِالتَّحِيَّــةِ حَيَّاهُمْ

وَكُنْتَ مِنَ الزَّاهِدِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِى اللهِ الْخَوَاصِّ مِنْ عِبَادِ اللهِ تَعَالى الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ سُبْحَانَهُ : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وَكُنْتَ مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ لَهُمْ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ ، وَصِرْتَ حِينَئِذٍ أَفْضَلَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَلاَئِـكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، إِذْ لَيْسَتْ لَهُمْ شَهْوَةٌ تَدْعُو إِلى قَبِيحٍ وَلاَ نَفْسٌ خَبِيثَةٌ ؛ وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الطَّوِيلَةَ الشَّدِيدَةَ وَرَاءَكَ وَسَبَقْتَ الْعَوَائِقَ كُلَّهَا إِلى مَقْصُودِكَ وَلاَ يَهُولَنَّكَ فَإِنَّهُ مَعَ الْاِسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَالْاِعْتِصَامِ بِهِ لَهَيِّنٌ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالى وَهُوَ خَيْرُ مَسْئُولٍ أَنْ يُمِدَّكَ

(يصفون) لعبادة ربهم ، يقال صففت الشيء صفا من باب قتل فهو مصفوف (بالليل أقدامهم * وعين المهيمن) أى الرقيب الحافظ لـكل شيء ، مفيعل من الأمن ، قلبت همزته هاء كما قاله البيضاوى (ترعاهم) أى تلحظهم (فطوبى) أى الحظ والعيش الطيب (لهم ثم طوبى لهم * إذا بالتحية حياهم) مولاهم جل وعز (وكنت من الزاهدين المجاهدين فى الله الخواص من عباد الله تعالى الذين قال) الله تعالى (فيهم سبحانه : إن عبادى ليس لك) والخطاب لإبليس (عليهم سلطان) أى سلطنة وولاية (وكنت من المتقين الذين لهم سعادة الدارين) أى الدنيا والآخرة (وصرت حينئذ) أى حين إذ كنت متصفا بالصفات المذكورة (أفضل من كثير من الملائـكة المقربين) وذلك (إذ ليست لهم) أى للملائـكة (شهوة تدعو إلى قبيح ولا نفس خبيثة) تدعو إلى الخبيث بل ـ يسبحون الليل والنهار لايفترون ـ ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون» . فان قيل يلزم على ماذكر تفضيل غير المعصوم على المعصوم . أجيب بأن العصمة لادخل لها فى التفضل فلا ينظر لها فيه وإنما ينظر فى الأكثرية فى الثواب على العبادة ، فعوام البشر أكثر ثوابا من عوام الملائـكة لحصول المشقة لعوام البشر فى عبادتهم بخلاف عوام الملائـكة فإن جبلتهم الطاعة فلا يحصل لهم فيها مشقة كذا فى تحفة المريد (وكنت قد خلفت) أى تركت (هذه العقبة الطويلة الشديدة) وهي عقبة العوائق (وراءك وسبقت العوائق) أى الموانع (كلها إلى مقصودك ولا يهولنك) بفتح الياء وضم الهاء وسكون الواو من باب قال أى لا يفزعنك ولا يخوفنك سبق العوائق (فانه) أى السبق (مع الاستعانة بالله والاعتصام به) تعالى (لهين) أى ليسير غير عسير (نسأل الله تعالى وهو خير مسئول أن يمدك) بضم الياء وكسر الميم أى يعينك من الإمداد ، وهو فى الأصل إعطاء الشيء حالا بعد حال ، والمراد به هنا الإعانة كما فى قوله تعالى « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائـكة منزلين » أي يعينكم

وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَعَوْنِهِ وَتَيْسِيرِهِ ، فَإِنَّهُ الْكَافِي لِكُلِّ مُهِمٍّ وَالْاِسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ مُعْضِلٍ فَبِيَدِهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . فَهٰذَا مَا أَرَدْنَا ذِكْرَهُ فِي هٰذَا الْبَابِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

(وإيانا بحسن توفيقه وعونه وتيسيره) لكل عسير (فانه) تعالى (الكافى لكل مهم ، والاستعانة به) جل وعز (فى كل معضل) أى الأمر الشاق الذى لايهتدى لوجهه . فى [محيط المحيط] : أعضل الأمر: اشتد واستغلق، والأمر فلانا: غلبه وأعياه، والمرأة والدجاجة وغيرها من الحيوان بولدها: عسر عليها ولادها فهى معضل ومعضلة جمع معاضيل ، وأعضل الداء الأطباء : غلبهم وعجزوا عن برئه ، وأعضلنى فلان: أعيانى أمره، وأيضا فيه المعضل اسم فاعل والشديد القبح، وداء معضل لادواء له (فبيده) أى فبقدرته تعالى (الخلق والأمر) فانه الموجد والمتصرف (وهو على) فعل (كل) هو لفظ وضع لضم أجزاء ذات الشيء ، ويستعمل فى ضم أجزائه وأحواله المختصة به ويفيد معنى التمام ، ولضمه وإحاطته كان من ألفاظ العموم وأسوار القضايا (شيء) شاءه (قدير) صيغة مبالغة بمعنى القادر ، وهو المتمكن من الفعل والترك بحسب الداعى الذى هو الإرادة (فهذا) أى الذى ذكرناه (ماأردنا ذكره فى هذا الباب) الثالث وهو باب عقبة العوائق (ولا حول) لنا نتحول به عن المعصية موجود (ولا قوة) لنا نتقوى بها على الطاعات موجودة (إلا) وهما (بالله) أى بإعانته سبحانه (العلى) الأعلى : أى البالغ في العلو إذ لارتبة إلا وهى منحطة عن رتبته ، أو الذى علا عن أن تدرك الخلق ذاته أو تتصور صفاته بالكنه والحقيقة ، فهو المرتفع (العظيم) فى ذاته على كل من سواه فليس لعظمته بداية ولا لكنه جلاله نهاية وليست بتعظيم الأغيار ، جل قدره عن الحد والمقدار وأظهر معانى العظمة القوة والقدرة ، وفيه إشارة لمجموع صفاته النفسية والمعنوية والقدسية وحظ العبد منه قوله صلى الله عليه وسلم « من تعلم وعلم فذلك يدعى فى ملكوت السماء عظيما » وأن يستحقر نفسه ويذللها بالإقبال والانقياد لأوامره تعالى واجتناب نواهيه .

[تنبيه] ينبغى الإكثار من: لاحول ولا قوة إلا بالله ، قال صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة «ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة ؟ تقول: لاحول ولا قوة إلا بالله فيقول الله أسلم عبدى واستسلم» أى فوض أمر الكائنات إليه تعالى وانقاد بنفسه له مخلصا، فإن لا حول يدل على نفي التدبير للكائنات وإثباته له تعالى . وقال عليه الصلاة والسلام لقيس بن سعد «ألا أدلك على باب الجنة ؟ وفى رواية : على كنز من كنوز الجنة ؟ قال بلى . قال لاحول ولا قوة إلابالله العلى العظيم» أى لأنها لما تضمنت براءة النفس من حولها وقوتها إلي حوله تعالى وقوته كانت موصلة إلى الجنة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ الباب الرابع فى العقبة الرابعة : وهى عقبة العوارض ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا طَالِبَ الْعِبَادَةِ وَفَّقَكَ اللهُ بِكَفِّ الْعَوَارِضِ الشَّاغِلَةِ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَسُدَّ سَبِيلَهَا عَنْكَ لِئَلَّا تُشْغَلَ عَنْ مَقْصُودِكَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا

الباب الرابع

قال العلامة ابن هشام فى بعض كتبه : الباب يذكر ويؤنث ، فيقال باب وبابة كما يقال طريق وطريقة . أما تذكيره فظاهر، وأما تأنيثه فباعتبار كونه ترجمة . وقال ابن محمود فى شرح أبى داود: قد استعمل لفظ باب فى زمن التابعين ، قاله المناوى ، ومثله فى حاشية الخرشى . قال بعضهم : وانظر لفظة كتاب وفصل استعملا فى أى زمن ؟ وفى الموطأ التعبير بكتاب فيكون لفظ كتاب استعمل فى زمن التابعين بناء على أن الإمام مالكا من التابعين أو فى زمن تابع التابعين ، وهو الصحيح . وقال شيخنا فى تقريره علي الخرشى : إن استعمال لفظ كتاب أقدم من استعمال باب انتهى . والباب فى اللغة مايتوصل به إلى الشىء ، وهو حقيقة فى الأجسام كباب المسجد مجاز فى المعانى كما هنا . وأما فى عرف العامة فهو الهيئة المركبة من خشب ومسمار أو من جريد أو من بوص أو نحو ذلك . وأما فى الاصطلاح فهو اسم لجملة مخصوصة من مسائل العلم . قال بعضهم : وقد يطلق الباب مجازا على كل شىء موصل ، ومنه قول بعض العارفين مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم :

وأنت باب الله أى امرئ أتاه من غيرك لايدخل

واعترض على ماتقدم من أنه مجاز فى المعانى كما هنا بأنه لاتصح إرادته هنا بهذا المعنى لأنه فى الاصطلاح اسم لألفاظ مخصوصة من العلم . وأجيب بأنه أريد بالمعانى ماقابل الذوات فيشمل الألفاظ فهى معان بهذا الاعتبار ، وعلى هذا يأتى اللغز المشهور ، وهو قول القائل :

وما شىء حقيقته مجاز وأوله وآخره سواء
وفيه صحة وبه اعتلال له الإعراب حقا والبناء
ثلاثى وفيه حرف مد أجب عن ذا يحق لك الثناء

وهناك فهم آخر للغز ، وهو أن المراد حقيقته اللغوية مجاز : أى طريق للناس وهذا ألطف (فى العقبة الرابعة) من السبع المتقدمة (وهى عقبة العوارض) الشاغلة عن الطاعة (ثم عليك) أى الزم (ياطالب العبادة وفقك الله بكف العوارض الشاغلة عن عبادة الله تعالى وسد سبيلها) أى العوارض (عنك لئلا تشغلك عن مقصودك) وهو التعبد لمولاك جل وعز (وقد ذكرنا)

أَنَّهَا أَرْبَعَةٌ : أَحَدُهَا : الرِّزْقُ وَمُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِذَلِكَ وَإِنَّمَا كِفَايَتُهُ فِي التَّوَكُّلِ ، فَعَلَيْكَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِي مَوْضِعِ الرِّزْقِ وَالْحَاجَةِ بِكُلِّ حَالٍ

فى أول الكتاب (أنها) أى تلك العوارض (أربعة : أحدها الرزق) وهو ماساقه الله إلى الحيوان فانتفع به بالفعل فشمل المأكول وغيره مما انتفع به ، أفاده عبد السلام (ومطالبة النفس بذلك) الرزق (وإنما كفايته) أى هذا العارض الأول (فى التوكل) أى اعتماد القلب على الله وحده ثقة بوعده واعتمادا على كمال كرمه ورحمته وهو منزل منيف من منازل الدين، ومقام شريف من مقامات الموقنين ، بل هو من معالى درجات المقربين وستأتى حقيقة التوكل وحكمه (فعليك بالتوكل على الله سبحانه) وتعالى (فى موضع الرزق والحاجة بكل حال) قال تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» فأتى سبحانه بلفظة «على» حملا للمكلف على الثقة به تعالى فى شأن الرزق والإعراض عن إتعاب النفس فى طلبه كما قال القائل :

يا طالب الرزق فى الآفاق مجتهدا ... أتعبت نفسك حتى شفك التعب
تسعى لرزق كفاك الله بغيته ... فاقعد فرزقك لا يأتى به الطلب
كم من ضعيف ضعيف العقل تعرفه ... له الولائد والأوراق والذهب
ومن حسيب له عقل يزينه ... بادى الخصاصة لم يعرف له سبب
فاسترزق الله مما فى خزائنه ... فالله يرزق لا عقل ولا حسب

قال فى روح البيان : اتفقوا على أن أربعة لا تقبل التغير أصلا : العمر ، والرزق ، والأجل ، والسعادة أو الشقاوة ؛ فعلى العاقل أن لا يهتم برزقه ويتوكل على الله فإنه حسبه . روى أن موسى عليه السلام لما أمر بالذهاب إلى فرعون تعلق قلبه بأهله قائلا من يقوم بأمرهم فأمره الله تعالى أن يضرب صخرة بعصاه فضربها فانشقت عن صخرة ، فضربها فانشقت عن أخرى ، فضربها فخرجت منها دودة فى فمها ما يجرى مجرى الغذاء فسمعها تقول : سبحان من يرانى ويسمع كلامى ويعرف مكانى ويذكرنى ولا ينسانى . وعن أنس « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مفازة فى حاجة فرأينا طيرا يلحن بصوت ، فقال عليه الصلاة والسلام أتدرى ما يقول هذا الطير يا أنس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم بذلك . قال إنه يقول يا رب أذهبت بصرى وخلقتنى أعمى فارزقنى فإنى جائع فجاء طير آخر وهو الجراد فدخل فى فمه فابتلعه ثم رفع صوته وجعل يلحن ، فقال عليه الصلاة والسلام: أتدرى مايقول؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال إنه يقول: الحمد لله الذى لم ينس من ذكره» قيل وكان مكتوبا على سيف الحسن رضى الله عنه : الرزق مقسوم والحريص محروم والبخيل مذموم والحاسد مذموم ، وفى الحديث « من جاع واحتاج وكتمه عن الناس وأفضى به إلى الله تعالى كان حقا عليه أن يفتح له رزق سنة » وحقيقة التوكل فى الرزق وغيره عند المشايخ الانقطاع عن الأسباب بالكلية ثقة بالله تعالى وهذا لأهل الخصوص ، وأما أهل العموم فلا بد لهم من

التسبب . وقال تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون » الآية ، فأقسم سبحانه وتعالى بأن ذلك حق حملا لعباده على التوثق بذلك ، قال الحداد فى عيون المجالس : يقال إن بعض الصوفية ضاقت يده فنازعته امرأته في الخروج لطلب رزق لهم فبات مهموما ، فرأى فى النوم أن قيل له : اذهب لمحل كذا واحفر فيه فإنك تجد فيه جبين مملوءين : أحدهما دراهم والآخر دنانير فأصبح وحدثها بذلك فأخذ فأسا وذهب إلى ذلك المحل فتذكر قوله « وفى السماء رزقكم » الآية وقال رزقي فى السماء وأطلبه فى الأرض وتركه ورجع ؛ فقالت له : لم رجعت ؟ فقال تذكرت قوله « وفى السماء رزقكم » ثم رأي ذلك ثلاث ليال كذلك فحدثت المرأة جارتها بذلك . فأخبرت الجارة زوجها فذهب وحفر فوجد جبين : أحدهما حيات والآخر عقارب فأخذهما ونوى أن يرمى بهما فى أثناء الليل إلى بيت جاره ، فلما كان جوف الليل رمي بهما فسمعت المرأة الوجبة فصعدت السطح فرأته مملوءا دراهم ودنانير بقدرته تعالى فأخبرت زوجها بذلك ، فقال ألم يقل الله تعالى « وفى السماء رزقكم » . وضاق الحسن بن على رضى الله عنهما ضيقة شديدة وكان عطاؤه من معاوية كل سنة مائة ألف فحبسها عنه فدعا بدواة ليكتب إليه ثم أمسك فرآه عليه الصلاة والسلام يقول له كيف أنت ؟ فقال بخير يا أبتي وحدثه بذلك ، فقال له: دعوت بدواة لتكتب إلى مخلوق مثلك تذكره نفسك فقال : كيف أصنع ؟ قال : قل اللهم اقذف فى قلبي رجاءك واقطع رجائى عمن سواك حتي لا أرجو أحدا بعدك ، اللهم ما ضعفت عنه قوتى وقصر عنه أملى ولم تنته إليه رغبتى ولم تبلغه مسئلتي ولم يجر على لسانى مما أعطيته الأولين والآخرين من اليقين فاخصصنى به يارب العالمين . قال فما ألححت بهن أسبوعا حتى بعث إلى معاوية بألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، فقلت : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ولايخيب من رجاه ومن دعاه ولايقطعه ، فرأيته صلي الله عليه وسلم فقال كيف أنت ؟ قلت بخير وحدثته حديثى فقال هكذا من رجا الخالق ولا يرجو المخلوق انتهى . وقال عليه الصلاة والسلام « إن روح القدس » أى جبريل « نفث فى روعى » بضم أوله : أى تفل فى قلبي والمراد ألقى الوحى فيه من غير أن أسمعه وأراه « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله » أى ثقوا بضمانه « وأجملوا فى الطلب » : أى اطلبوا الرزق بطريق حلال بلاحرص ولا تهافت على الحرام ، ولايحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله فإن الله تعالى لاينال ما عنده إلا بطاعته . ودخل جماعة على الجنيد فقالوا أين نطلب الرزق ؟ فقال إن علمتم فى أي موضع هو فاطلبوه منه ، قالوا فنسأل الله ذلك ؟ فقال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، فقالوا ندخل البيت فنتوكل ، فقال التجربة شك فى أنه تعالى ضامن للرزق . قال شيخ الإسلام وهو كلام بالغ فى تعليم التوكل سواء وجدت الأسباب أم لا ، لأن الرزق عند أهل الحق ماينتفع به العبد لامايملكه بل ولا كل مايأكله فإنه قد يأكل شيئا ثم يقذفه من جوفه ويكون رزق غيره فلا قدرة له على معرفة رزقه ، فإنه لايعرف ما الذى ينتفع به ثم قالوا له ما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة والاعتماد بالقلوب على الله والاشتغال بما أمر به .

وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : التَّفَرُّغُ لِلْعِبَادَةِ وَيَتَمَشَّى لَكَ مِنَ الْخَيْرِ حَقُّهُ ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَوَكِّلاً فَلَا بُدَّ مِنَ اشْتِغَالِهِ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ بِسَبَبِ الْحَاجَةِ وَالرِّزْقِ وَالْمَصْلَحَةِ إِمَّا ظَاهِرًا وَإِمَّا بَاطِنًا : إِمَّا بِطَلَبٍ وَكَسْبٍ بِالْبَدَنِ كَعَامَّةِ الرَّاغِبِينَ ، وَإِمَّا بِذِكْرٍ وَإِرَادَةٍ وَوَسْوَسَةٍ بِالْقَلْبِ كَالْمُجْتَهِدِينَ الْمُعَلَّقِينَ ، وَالْعِبَادَةُ تَحْتَاجُ إِلَى فَرَاغِ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ لِيَحْصُلَ حَقُّهَا ، وَالْفَرَاغُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْمُتَوَكِّلِينَ بَلْ أَقُولُ كُلُّ مَنْ هُوَ ضَعِيفُ الْقَلْبِ لَا يَكَادُ يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ إِلَّا بِشَيْءٍ مَعْلُومٍ ، فَلَا يَكَادُ يَتِمُّ لَهُ أَمْرٌ خَطِيرٌ مِنْ دُنْيَا وَآخِرَةٍ ، وَكَثِيرًا مَا سَمِعْتُ مِنْ شَيْخِي أَبِي مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّمَا الْأَمْرُ يَتَمَشَّى فِي الْعَالَمِ لِرَجُلَيْنِ : مُتَوَكِّلٍ أَوْ مُتَهَوِّرٍ .

قُلْتُ : وَهٰذَا كَلَامٌ جَامِعٌ فِي مَعْنَاهُ ، فَإِنَّ الْمُتَهَوِّرَ يَقْصِدُ

﴿ تنبيه ﴾ فى أمور ورد الحديث بأنها جالبة للرزق . فمنها الإكثار من لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ومن الاستغفار ؛ وورد أنه «من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كل يوم مائة مرة لم يصبه فقر أبدا . ومن قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة » ومن دعائه صلي الله عليه وسلم بعد العصر « اللهم إنى أسألك رزقا طيبا وعلما نافعا وعملا متقبلا » . ومنها غسل اليدين عند حضور الغذاء ورفعه ، وكتابة قوله تعالى «ولقد مكنا كم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون» بعد صلاة الجمعة وجعلها فى بيته أو حانوته وغير ذلك مما هو مبسوط فى الرسالة المسماة بحصول الرفق فى أصول الرزق (وذلك) أي لزوم التوكل عليه تعالى في الرزق والحاجة (لأمرين أحدهما التفرغ للعبادة ويتمشى) أى يجرى (لك من الخير حقه ، فان من لم يكن متوكلا) أى معتمدا على الله (فلا بد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة) أى مايصلحه فى أموره (إما ظاهرا وإما باطنا إما بطلب وكسب بالبدن كعامة) أى كثرة (الراغبين) فى الدنيا (وإما بذكر وإرادة ووسوسة بالقلب كالمجتهدين) فى العبادة (المعلقين) قلوبهم فى الدنيا (والعبادة تحتاج إلى فراغ القلب والبدن) من الشواغل (ليحصل حقها) أى العبادة (والفراغ لا يكون) أى لايوجد (إلا للمتوكلين ، بل أقول كل من هو ضعيف القلب) فى الدين (لايكاد) أى يقرب (يطمئن قلبه إلا بشئ معلوم) من الرزق (فلا يكاد يتم له أمر خطير) أى عظيم (من دنيا وآخرة ، وكثيرا ماسمعت من شيخى أبى محمد رحمه الله تعالى يقول إنما الأمر يتمشى) أى يجرى (فى العالم) أى فى الدنيا (لرجلين متوكل أو متهور) أى الذي يقدم علي الشئ بقلة مبالاة . فى [محيط المحيط] تهور الرجل: وقع فى الأمر بقلة مبالاة ، وفى المختار: التهور الوقوع فى الشئ بقلة مبالاة يقال فلان متهور (قلت وهذا) أى كلام أبى محمد رحمه الله (كلام جامع فى معناه فان المتهور يقصد

الْأُمُورَ عَلَى قُوَّةِ عَادَةٍ وَجُرْأَةِ قَلْبٍ لاَ يَلْتَفِتُ إِلى صَارِفٍ يَصْرِفُهُ أَوْ خَاطِرٍ يُضْعِفُهُ فَتَجْرِى لَهُ الْأُمُورُ ، وَالْمُتَوَكِّلُ يَقْصِدُ الْأُمُورَ عَلَى قُوَّةٍ وَبَصِيرَةٍ وَكَمَالِ يَقِينٍ بِوَعْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَمَامِ ثِقَةٍ بِضَمَانِهِ ، فَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَى إِنْسَانٍ يُخَوِّفُهُ وَلاَ شَيْطَانٍ يُوَسْوِسُهُ فَيَفُوزَ بِمَقَاصِدِهِ وَيَظْفَرَ بِمَطَالِبِهِ .

وَأَمَّا الْخَلْقُ الضَّعِيفُ فَهُوَ أَبَدًا يَكُونُ بَيْنَ تَوَكُّلٍ وَتَرَدُّدٍ وَفُتُورٍ وَتَحَيُّرٍ كَالْحِمَارِ فِى مَعْلَفِهِ وَالدَّجَاجِ فِى قَفَصِهِ يَرْمُقُ مَا تَعَوَّدَ مِنْ صَاحِبِهِ لاَ يَكَادُ يَنْفَكُّ مِنْ ذٰلِكَ ، قَدْ تَقَاعَدَتْ نَفْسُهُ عَنْ مَعَالِى الْأُمُورِ وَانْقَطَعَتْ هِمَّتُهُ فَلاَ يَكَادُ يَقْصِدُ أَمْرًا شَرِيفًا وَإِنْ قَصَدَهُ فَلاَ يَكَادُ يَظْفَرُ بِهِ وَلاَ يَتِمُّ لَهُ ذٰلِكَ ، أَمَا تَرَى أَصْحَابَ الْهِمَمِ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا لَمْ يَنَالُوا مَرْتَبَةً كَبِيرَةً وَمَنْزِلَةً خَطِيرَةً إِلاَّ بِانْقِطَاعِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ .

وَأَمَّا الْمُلُوكُ :

الأمور على قوة عادة وجرأة) بضم الجيم وسكون الراء (قلب لايلتفت) بقلبه (إلى صارف) ومانع (يصرفه) ويمنعه (أو) إلى (خاطر يضعفه) أى التهور (فتجرى له) أى لهذا التهور (الأمور ؛ والمتوكل يقصد الأمور على قوة وبصيرة) أى علم وخبرة (وكمال يقين بوعد الله سبحانه وتمام ثقة بضمانه فلا يلتفت) المتوكل بقلبه (إلي إنسان يخوفه) أى المتوكل (ولا) يلتفت إلى (شيطان يوسوسه فيفوز بمقاصده) أى المتوكل (ويظفر) أى ينال (بمطالبه . وأما الخلق الضعيف) أى ضعيف القلب فى الدين (فهو أبدا يكون بين توكل وتردد وفتور) أى انكسار وضعف (وتحير) ودهش (كالحمار في معلفه) أى موضع علفه (والدجاج) فى المختار : الدجاج معروف وفتح الدال أفصح من كسرها الواحدة دجاجة ذكرا كان أو أنثى والهاء للافراد كحمامة و بطة وفي [محيط المحيط] الدجاج بالتثليث والفتح أفصح (فى قفصه) أى محبسه (يرمق) بضم الميم من باب نصر : أى ينظر (ماتعود من صاحبه لايكاد ينفك من ذلك) أى من رمقه ونظره (قد تقاعدت نفسه) أى الضعيف (عن معالى الأمور وانقطعت همته) عنها (فلا يكاد يقصد) الضعيف (أمرا شريفا وإن) فرض أنه (قصده) أى الأمر الشريف (فلا يكاد يظفر به) أى بذلك الأمر لقصور همته (ولا يتم له) أى لهذا الضعيف (ذلك) أى مقصوده الذى هو الأمر الشريف (أما ترى أصحاب الهمم من أبناء الدنيا لم ينالوا مرتبة كبيرة ومنزلة خطيرة) أى عظيمة من مراتب الدنيا ومنازلها (إلا بانقطاع قلوبهم) أى أهل الدنيا (عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم . وأما الملوك

فَيُبَاشِرُونَ الْحُرُوبَ وَيُكَافِحُونَ الْأَعْدَاءَ إِمَّا هُلْكاً وَإِمَّا مُلْكاً حَتَّى تَحْصُلَ لَهُمْ مَرْتَبَةُ الْمُلْكِ وَعَقْدُ الْوِلَايَةِ .

وَقِيلَ : إِنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا نَظَرَ إِلَى الْعَسْكَرَيْنِ يَوْمَ صِفِّينَ

فيباشرون الحروب) جمع حرب (ويكافحون) أى يباشرون بأنفسهم (الأعداء إما هلكا) أي إما يهلكون هلكا (وإما ملكا) أى وإما يملكون ملكا (حتى تحصل لهم) أى للملوك (مرتبة الملك) والسلطان (وعقد الولاية) للامارة (وقيل إن معاوية بن أبى سفيان) الصحابي ابن الصحابي هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى القرشى الأموى ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يجتمع أبوه وأمه فى عبد شمس ، أسلم هو وأبوه أبو سفيان وأخوه يزيد بن أبى سفيان وأمه هند فى فتح مكة . وكان معاوية يقول إنه أسلم يوم الحديبية وكتم إسلامه من أبيه وأمه ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا فأعطاه من غنائم هوازن مائة بعير وأربعين أوقية . وكان هو وأبوه من المؤلفة قلوبهم ثم حسن إسلامهما ، وكان أحد الكتاب لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، ولما بعث أبو بكر رضى الله عنه الجيوش إلى الشام سار معاوية مع أخيه يزيد فلما مات يزيد استخلفه على عمله بالشام وهو دمشق فأقره عمر رضى الله عنه مكانه ، روى له عن رسول الله صلي الله عليه وسلم مائة حديث وثلاثة وستون حديثا اتفق البخارى ومسلم علي أربعة منها وانفرد البخارى بأربعة ومسلم بخمسة . روى عنه من الصحابة ابن عباس وأبو الدرداء وجرير بن عبد الله والنعمان بن بشير وابن الزبير وأبو سعيد الخدرى والسائب بن يزيد وأبو أمامة بن سهل ، ومن التابعين سعيدبن المسيب وحميد ابن عبد الرحمن وغيرهما ، ولما ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام مكان أخيه يزيد بقىأميرا خلافة عمر ثم أقره عثمان وولى الخلافة بعد ذلك عشرين سنة . قال محمد بن سعيد : بقى معاوية أميرا عشرين سنة وخليفة عشرين سنة تقريبا ، وقال الوليد بن مسلم . كانت خلافته تسع عشرة سنة ونصفا ، وقيل تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وعشرين يوما ، وولى دمشق أربع سنين من خلافة عمر واثنتى عشرة من خلافة عثمان مع ما أضاف إليه من باقى الشام وأربع سنين تقريبا أيام خلافة على وستة أشهر خلافة الحسن ، وسلم إليه الخلافة سنة إحدى وأربعين . وقيل سنة أربعين والأول أصح ، واتفقوا على أنه توفى بدمشق ثم المشهور أنه يوم الخميس لثمان بقين من رجب . وقيل لنصف رجب سنة ستين من الهجرة (لما نظر إلى العسكرين) أى عسكره رضى الله عنه وعسكر على كرم الله وجهه (يوم صفين) بكسر أوله وثانيه المشدد . وهو اسم إقليم أو بلد بالشام قال صاحب المصباح : صفين بكسر الصاد مثقل الفاء موضع علىالفرات من الجانب الغربى بطرف الشام مقابل قلعة نجم ، وكان هناك وقعة بين على عليه السلام وبين معاوية وهو فعلين

قَالَ : مَنْ أَرَادَ خَطِيرًا خَاطَرَ بِعَظِيمَتِهِ .

من الصف أو فعيل من الصفون ، فالنون أصلية على الثانى (قال) معاوية (من أراد خطيرا) أى أمرا رفيعا (خاطر) فى [محيط المحيط] خاطر بنفسه مخاطرة أشفاها على خطر هلك أو نيل ملك (بعظيمته) أى نازلته الشديدة كما فى المختار .

وقد ذكر العلامة إبراهيم بن محمد البيجورى أن أهل صفين كانوا مع معاوية ، وكان معه ثمانون ألفا ، وكان مع على عشرون ألفا ، ونصره الله عليه ، وكان كل منهما مجتهدا فظهر له باجتهاده أن يقاتل الآخر وإن كان الحق مع علي رضى الله عنه كما يدل له قوله صلى الله عليه وسلم « ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلي الجنة ويدعونه إلى النار » وهذا من الإخبار بالمغيبات وقد وقع ذلك بصفين ، فقد دعا عمار بن ياسر رضي الله عنه أهل صفين إلى طاعة الإمام التى هى سبب فى الجنة ، وهم دعوه إلى عصيانه ومقاتلته وذلك سبب فى النار وقتلوه فعلم من ذلك أنهم الفئة الباغية ، وأن الحق مع على كرم الله وجهه ، ولما لم يقدر معاوية على إنكار هذا الحديث لكونه من أنفس الأحاديث وأصحها كما قاله القرطبي ، قال إنما قتله من أخرجه ، فقال علي إذن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى قتل حمزة لأنه أخرجه وهذا من علي إلزام مفحم لاجواب عنه وحجة لا اعتراض عليها .

قال الإمام عبد القاهر الجرجانى : أجمع فقهاء الحجاز والعراق علي أن عليا مصيب فى قتاله لأهل صفين ، لكن لا يجوز الطعن فى معاوية كغيره من سائر الصحابة فإنهم كلهم عدول ، ولما جرى بينهم محامل ، ولذلك قال العلامة ذو الفيض الدانى : الشيخ إبراهيم اللقانى :

وأول التشاجر الذى ورد إن خضت فيه واجتنب داء الحسد

والمراد من تأويل ذلك أن يصرف إلى محمل حسن لتحسين الظن بهم ، فلم يخرج واحد منهم عن العدالة بما وقع بينهم لأنهم مجتهدون . وقد قال العلماء : المصيب بأجرين ، والمخطىء بأجر . وأما المراد بذلك الداء المذكور فهو داء الحسد الحامل على الميل مع أحد الطرفين علي وجه غير مرضى وقد قال صلى الله عليه وسلم « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا من بعدى من آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » أى اتقوا الله ثم اتقوا الله ، أو أنشدكم الله ثم أنشدكم الله فى حق أصحابى وتعظيمهم لاتتخذوهم كالغرض الذى يرمى إليه بالسهام فترموهم بالكلمات التى لا تناسب مقامهم فمن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله : أى تعدى حدوده وخالفه ، ففيه مشاكلة وإلا فحقيقة الإيذاء علي الله محالة ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه : أى يقرب أن يعذبه . وفى رواية « لا تسبوا أصحابى ، فمن سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا » ومعلوم جواز لعن غير المعين من العصاة . والصرف : الفرض ، والعدل : النفل . وقيل بالعكس ، وقيل غير ذلك ، وهذا فى المستحل

وَأَمَّا التُّجَّارُ : فَيَرْكَبُونَ الْمَهَالِكَ بَرًّا وَبَحْرًا وَيَطْرَحُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِى الْمَقَاطِعِ شَرْقًا وَغَرْبًا وَيُوَطِّنُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ : إِمَّا فَوْتِ الْأَرْوَاحِ ، وَإِمَّا حُصُولِ الْأَرْبَاحِ ، حَتَّى يَحْصُلَ لَهُمْ بِذٰلِكَ كُلُّ رِبْحٍ عَظِيمٍ وَمَالٍ جَسِيمٍ وَعِلْقٍ نَفِيسٍ .

وَأَمَّا السُّوقِيُّ الَّذِى ضَعُفَ قَلْبُهُ وَرَقَّ عَزْمُهُ فَلَا يَكَادُ يَقْطَعُ الْقَلْبَ عَنْ عَلَاقَتِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَهُوَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى دُكَّانِهِ طُولَ عُمْرِهِ لَا يَصِلُ إِلَى مَرْتَبَةٍ شَرِيفَةٍ كَالْمُلُوكِ ، وَلَا إِلَى رِبْحٍ عَظِيمٍ كَالتُّجَّارِ الْمُخَاطِرِينَ ، فَإِنْ نَالَ فِى سُوقِهِ رِبْحَ دِرْهَمٍ عَلَى بِضَاعَتِهِ فَذَاكَ لَهُ كَثِيرٌ ، وَذٰلِكَ لِتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِشَىْءٍ مَعْلُومٍ ، فَهٰذَا فِى الدُّنْيَا

أو خارج مخرج المبالغة فى الزجر (وأما التجار) بضم التاء مع التثقيل وبكسرها مع التخفيف جمع تاجر : أى الذين يقلبون فى أموالهم لغرض الربح (فيركبون المهالك برا وبحرا ويطرحون) بفتح الياء والراء من باب قطع : أى يرمون (أنفسهم وأموالهم فى المقاطع) أى المواضع المخاوف (شرقا وغربا) شمالا وجنوبا (ويوطنون) بضم الياء وفتح الواو مع كسر الطاء المشددة : أى يقررون ويمهدون (أنفسهم على أحد الأمرين : إما فوت الأرواح وإما حصول الأرباح حتى يحصل لهم) أى التجار (بذلك) أى بركوب المهالك وغيره (كل ربح عظيم ومال جسيم) أى عظيم (وعلق) بالكسر : النفيس من كل شئ وجمعه أعلاق كما فى المختار (نفيس) أى يتنافس فيه (وأما السوقى الذى ضعف قلبه ورق عزمه) أى قصده (فلا يكاد يقطع القلب عن علاقته) بفتح العين (من نفسه وماله ، فهو) أى السوقى يمشى (من بيته إلى دكانه) أى حانوته قال السرقسطى : النون زائدة عند سيبويه ، وكذلك قال الأخفش ، وهى مأخوذة من قولهم : أكمة دكان : أى منبسطة ، وهذا كما اشتق السلطان من السليط . وقال ابن القطاع وجماعة هى أصلية مأخوذة من دكنت المتاع : إذا نضدته ، ووزنه على الزيادة فعلان ، وعلى الأصالة فعال حكى القولين الأزهرى وغيره، ووقع فى كلام الغزالى فى غير هذا الكتاب حانوت أو دكان فاعترض بعضهم عليه وقال : الصواب حذف إحدى اللفظتين فإن الحانوت هى الدكان ، ولا وجه لهذا الاعتراض ، لأن الدكان يطلق على الحانوت وعلى الدكة كما في المصباح (طول عمره لا يصل إلى مرتبة شريفة كالملوك ، ولا) يصل (إلى ربح عظيم كالتجار المخاطرين) بأنفسهم وأموالهم (فإن نال فى سوقه) أى السوقى (ربح درهم على بضاعته) أى متاعه (فذاك) أى ربح درهم (له) أى بذلك السوقي الضعيف قلبه (كثير ، وذلك) أى كون هذا الربح كثيرا (لتعلق قلبه بشىء معلوم) عنده (فهذا) أى المذكور من اختلاف الهمم لطلب المنزلة والأرباح (فى الدنيا) أى شأنها

وَأَبْنَاؤُهَا ؛ وَأَمَّا أَبْنَاءُ الآخِرَةِ فَرَأْسُ مَالِهِمْ هَٰذِهِ الْخَصْلَةُ الَّتِي هِيَ التَّوَكُّلُ وَقَطْعُ الْقَلْبِ عَنِ الْعَلَائِقِ لَمَّا أَحْكَمُوهَا وَحَصَّلُوهَا حَقًّا ، تَفَرَّغُوا لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَمَكَّنُوا فِي التَّفَرُّدِ عَنِ الْخَلْقِ ، وَالسِّيَاحَةِ فِي الْأَرْضِ ، وَاقْتِحَامِ الْفَيَافِي ، وَاسْتِيطَانِ الْجِبَالِ وَالشِّعَابِ ، فَصَارُوا أَقْوِيَاءَ الْعِبَادِ وَرِجَالَ الدِّينِ وَأَحْرَارَ النَّاسِ وَمُلُوكَ الْأَرْضِ ، بِالْحَقِيقَةِ يَسِيرُونَ حَيْثُ يَشَاءُونَ وَيَنْزِلُونَ حَيْثُ يَشَاءُونَ وَيَقْصِدُونَ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ عِلْمًا وَعِبَادَةً مَا يَشَاءُونَ ، لَا عَائِقَ لَهُمْ وَلَا حَاجِزَ لَهُمْ دُونَهُمْ ، فَكُلُّ الْأَمَاكِنِ لَهُمْ وَاحِدٌ ، وَكُلُّ الْأَزْمَانِ عِنْدَهُمْ وَاحِدٌ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ »

(وأبناؤها) أى الملازمين لها (وأما أبناء الآخرة فرأس مالهم) أى أصله (هذه الخصلة التى هى التوكل) أى الاعتماد على الله تعالى (وقطع القلب عن) الالتفات إلى (العلائق لما أحكموها) أى أتقنوها (وحصلوها) أى التقوى (حقا تفرغوا) أى أبناء الآخرة (لعبادة الله تعالى وتمكنوا فى التفرد عن الخلق والسياحة) أى السير والذهاب (فى الأرض واقتحام الفيافى) أى دخول المفاوز . فى المختار الفيفاء : الصحراء الملساء والجمع الفيافى (واستيطان الجبال والشعاب) بكسر الشين جمع شعب : وهو الطريق فى الجبل (فصاروا أقوياء العباد ورجال الدين وأحرار الناس وملوك الأرض بالحقيقة يسيرون حيث) أى فى مكان (يشاءون، وينزلون حيث يشاءون، ويقصدون من الأمور العظام) بيان مقدم لقوله مايشاءون (علما وعبادة ما يشاءون لاعائق) يعوق (لهم ولا حاجز) أى مانع يحجز (لهم دونهم) أى عندهم (فكل الأماكن) سهلها وحزنها قراها وصحارها (لهم واحد ، وكل الأزمان) ليلها ونهارها (عندهم واحد ، وإليه) أى المذكور من أحوال هؤلاء (الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : من سره) أى أفرحه (أن يكون) أى أن يصير (أقوى الناس) فى جميع أموره (فليتوكل علي الله) أى يفوض أموره إليه وإن كان مكتسبا كما قاله الحفنى ، لأنه إذا قوى توكله قوى قلبه وذهبت مخافته ولم يبال بأحد ، أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب التوكل عن ابن عباس وإسناده حسن . قال الزبيدى ورواه كذلك الحاكم والبيهقى وعبد بن حميد وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى والطبرانى وصاحب الحلية كلهم من طريق هشام بن زياد أبى المقدام عن محمد القرظى عن ابن عباس . قال البيهقى فى الزهد : تكلموا فى هشام بسبب هذا الحديث (و) قوله صلي الله عليه وسلم (من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله) وهذا مصداق قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . قال المناوى : وهذا الحديث

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ » .

وَعَنْ سُلَيْمَانَ الْخَوَّاصِ : لَوْ أَنَّ رَجُلاً تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ لَاحْتَاجَ إِلَيْهِ الْأُمَرَاءُ وَمَنْ دُونَهُمْ ، وَكَيْفَ يَحْتَاجُ وَمَوْلاَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ؟. وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَوَّاصِ أَنَّهُ قَالَ : لَقِيتُ غُلاَمًا فِي التِّيهِ كَأَنَّهُ سَبِيكَةُ فِضَّةٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِلَى أَيْنَ يَا غُلاَمُ ؟ قَالَ إِلَى مَكَّةَ ، قُلْتُ : بِلاَ زَادٍ وَلاَ رَاحِلَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا ضَعِيفَ الْيَقِينِ ، الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى حِفْظِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُوَصِّلَنِي إِلَى مَكَّةَ بِلاَ زَادٍ وَلاَ رَاحِلَةٍ ،

أخرجه الحاكم (و) قوله صلى الله عليه وسلم (من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله) . وفى رواية « بما عند الله » (أوثق منه) أى من وثوقه (بما فى يده) . قال العراقى : رواه الحاكم والبيهقي فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف . (وعن سليمان الخواص) رحمه الله (لو أن رجلا توكل على الله سبحانه بصدق النية لاحتاج إليه الأمراء ومن دونهم) ولا يحتاج المتوكل إليهم (وكيف يحتاج) المتوكل إليهم (و) الحال أن (مولاه) هو (الغنى) . قيل هو الذى لا يفتقر لشىء ولا يحتاج له ، وعلى هذا فالغنى صفة سلبية : وهي عدم الافتقار لشىء ، والظاهر أن الغني هو المتصف بصفات الكمال ، ومن لوازم ذلك عدم الافتقار لشىء من الأشياء (الحميد) أى المحمود المستحق للثناء ، فإنه الموصوف بكل كمال والمولى لكل نوال (وعن) أبى إسحاق (إبراهيم) بن أحمد (الخواص) هو من أقران الجنيد والنورى ، وله فى التوكل والرياضات حظ كبير ، مات بالرى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، كان مبطونا فكان كلما قام توضأ وعاد إلى المسجد وصلى ركعتين فدخل مرة الماء فمات رحمه الله .

ومن كلامه : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله ، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم . ومن كلامه أيضا : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين ، ذكره القشيرى فى الرسالة (أنه قال) . وفى الرسالة للقشيرى قال: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت الحسين ابن يحيى يقول : سمعت جعفرا يقول : قال إبراهيم الخواص (لقيت غلاما فى التيه) أى المفازة (كأنه سبيكة فضة) فى سراج السالكين : السبيكة : القطعة المذوبة المفرغة فى القالب من الفضة ونحوها (فقلت له إلى أين) تتوجه (يا غلام ؟ قال إلى مكة ؛ قلت بلا زاد ولا راحلة ؟ فقال) الغلام لى (يا ضعيف اليقين) قال ذلك لقوة يقينه وإن كانت السنة حمل الزاد ولا يدل على ضعف اليقين مطلقا لأن الأنبياء والأئمة حملوه لكن بلا اعتماد عليه ؛ بل على الرب سبحانه وتعالى (الذى يقدر علي حفظ السموات والأرض قادر على أن يوصلنى إلى مكة بلا زاد ولا راحلة) . قال

فَلَمَّا دَخَلْتُ مَكَّةَ فَإِذَا هُوَ فِي الطَّوَافِ يَقُولُ :

يَا نَفْسُ سِيحِي أَبَدَا وَلَا تُحِبِّي أَحَدَا
إِلَّا الْجَلِيلَ الصَّمَدَا يَا نَفْسُ مُوتِي كَمَدَا

فَلَمَّا رَآنِي قَالَ يَا شَيْخُ أَنْتَ بَعْدُ عَلَى ذَلِكَ الضَّعْفِ ؛

الخواص (فلما دخلت مكة فإذا هو) أى الغلام (فى الطواف يقول) من مجزو الرجز (يا نفس سيحى) أى اسعى (أبدا * ولا تحى أحدا) من الخلق (إلا الجليل) أى المنعوت بنعوت الجلال (الصمدا) أى الذى يصمد إليه فى الحوائج ويقصد فى الرغائب ؛ أو الملجأ الذى لا يمكن الخروج عنه لإحاطة أمره ؛ كذا فى سراج السالكين : قال ابن عباس : الصمد : الذى لاجوف له ، وبه قال جماعة من المفسرين ؛ ووجه ذلك من حيث اللغة أن الصمد : الشئ المصمد الصلب الذى ليس فيه رطوبة ولا رخاوة ؛ ومنه يقال : لسداد القارورة الصماد . فإن فسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام ، ويتعالى الله جل وعز عن صفة الجسمية ؛ وقيل وجه هذا القول أن الصمد الذى ليس بأجوف : معناه هو الذى لا يأكل ولا يشرب وهو الغنى عن كل شئ؛ فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال . وروى البخارى فى أفراده عن أبى وائل شقيق بن سلمة قال : الصمد هو السيد الذى انتهى سؤدده وهى رواية عن ابن عباس أيضا ، قال هو السيد الذى كمل فيه جميع أوصاف السؤدد؛ وقيل هو السيد المقصود فى جميع الحوائج المرغوب إليه فى الرغائب ؛ المستعان به عند المصائب وتفريج الكرب ، وقيل هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله ، وتلك دالة على أنه المتناهى فى السؤدد والشرف والعلو والعظمة والكمال والإحسان ، وقيل الصمد : الدائم الباقى بعد فناء خلقه ، وقيل الصمد : الذى ليس فوقه أحد ، وهو قول على كرم الله وجهه ، وقيل هو الذى لاتعتريه الآفات ولا تغيره الأوقات ، وقيل هو الذى لاعيب فيه ، وقيل الصمد : هو الأول الذى ليس له زوال والآخر الذى ليس لملكه انتقال . والأولى أن يحمل لفظ الصمد على كل ماقيل فيه لأنه محتمل له ، فعلى هذا يقتضى أن لا يكون فى الوجود صمد سوى الله تعالى العظيم القادر على كل شئ وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا « ليس كمثله شئ وهو السميع البصير » كذا ذكره الخازن (يانفس موتى كمدا) أى حزنا . فى المختار : الكمد : الحزن المكتوم ، وبابه طرب . قال الخواص (فلما رآنى) الغلام (قال) لى (ياشيخ أنت بعد) أى إلى الآن (على ذلك الضعف) أى ضعف اليقين . قال أبو بكر الوراق : اليقين على ثلاثة أوجه : يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة . وقال أبو تراب : رأيت غلاما فى البادية يمشى بلا زاد ، فقلت إن لم يكن معه يقين فقد هلك ، فقلت ياغلام فى مثل هذا الموضع بلا زاد ؟ فقال ياشيخ ارفع رأسك هل ترى غير الله عز وجل ، فقلت الآن اذهب حيث شئت . وقال القشيرى : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت أبا نصر الأصبهانى يقول : سمعت محمد بن عيسى يقول : قال أبو سعيد الخراز : العلم مااستعملك

وَقالَ أَبُو مُطِيعٍ لِحَاتِمٍ الْأَصَمِّ: بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقْطَعُ الْمَفَاوِزَ بِالتَّوَكُّلِ مِنْ غَيْرِ زَادٍ، قالَ حَاتِمٌ: زَادِي أَرْبَعَةُ أَشْيَاء، قالَ مَا هِيَ؟ قالَ أَرَى الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ مَمْلَكَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَرَى الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عَبِيدَ اللهِ وَعِيَالَهُ، وَأَرَى الْأَرْزَاقَ وَالْأَسْبَابَ كُلَّهَا بِيَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَرَى قَضَاءَ اللهِ نَافِذًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ اللهِ،

واليقين ماحملك ، وهو العلم بأنه لافاعل إلا الله ، ولا معين سواه ، ولايجرى عليك إلاماسبق لك عنده . (وقال أبو مطيع) البلخى رحمه الله (لحاتم) بن علوان (الأصم : بلغنى أنك تقطع) أى تجاوز (المفاوز بالتوكل من غير زاد . قال حاتم) بل أقطعها بالزاد ، قال وما زادك ؟ قال حاتم (زادى) فيها (أربعة أشياء . قال) أبو مطيع (ماهى ؟ قال) حاتم : أحدها (أرى الدنيا) بحذافيرها (والآخرة مملكة لله تعالى . و) ثانيها (أرى الخلق كلهم عبيد الله وعياله) أى فقراءه وهو الذى يعولهم . (و) ثالثها (أرى الأرزاق والأسباب كلها بيد الله) أى بقدرته (عز وجل . و) رابعها (أرى قضاء الله) وحكمه (نافذا فى جميع أرض الله) وخلقه . قال أبو مطيع : نعم الزاد زادك ياحاتم ، وإنك لتجاوز بها مفاوز الآخرة ، فكيف مفاوز الدنيا ؟ .

وذكر أن رجلا جاء إلى شقيق الزاهد رحمه الله فقال له أوصنى ، فقال له شقيق : احفظ ثلاثة أشياء : اعبد الله فانه يثبتك ، وحارب عدو الله فانه ينصرك ، وصدقه بالوعد فانه يأتى به إليك . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لو أن أهل العلم صانوا علمهم وبذلوه لأهله لسادوا به أهل زمانهم ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دنياهم فهانوا على أهلها ، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول « من جعل الهموم هما واحدا : يعنى هم آخرته كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه ، ومن شغلته هموم أحوال الدنيا لم يبال الله تعالى فى أى أودية النار أهلكه وأى أودية النار عذبه » ويقال مكتوب فى التوراة « ياابن آدم حرك يدك أبسط لك فى رزقك ، وأطعنى فما أمرتك ولا تعلمنى مايصلحك » وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : قوام الإسلام بأربعة أركان : اليقين ، والعدل ، والصبر ، والجهاد . والعلماء رحمهم الله فسروا هذه الأربعة أشياء فقالوا أما اليقين فهو على وجهين : أحدهما أن يعمل لله خالصا ولا يطالب به عرض الدنيا ولا رضا المخلوقين . والثانى أن يكون آمنا بوعد الله وهو الرزق . وأما العدل فهو على وجهين . أحدهما أنه لو كان عليه حق يؤديه قبل الطلب . والثانى إذا كان له على غيره حق يرفق بطالبه ، وأما الصبر فهو على وجهين : أحدهما أن يصبر على أداء فرائض الله تعالى . والثانى أن يصبر عما نهاه الله عنه . وأما الجهاد فهو على وجهين : أحدهما أن لاتغفل عن عدوك وهو الشيطان ، فانك إن غفلت عنه فانه لم يغفل عنك فهو كالذئب إذا وقع فى الغنم فكل شاة غفلت عنها أخذها . والثانى أن أكثر فتنة بنى آدم لأجل المال فارض باليسير من المال لكيلا يغرك . وقال بعض الحكماء :

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :-

أَرَى الزُّهَّادَ فِى رَوْحٍ وَرَاحَهْ   قُلُوبُهُمُ عَنِ الدُّنْيَا مُزَاحَهْ
إِذَا أَبْصَرْتَهُمْ أَبْصَرْتَ قَوْمًا   مُلُوكَ الْأَرْضِ سِيمَتُهُمْ سَمَاحَهْ

صفة أولياء الله تعالى ثلاث خصال : الثقة بالله فى كل شئ ، والفقر إلى الله فى كل شئ ، والرجوع إلى الله فى كل شئ . وقال فضيل بن عياض رحمه الله : أحب الناس من استغنى عن الناس ولم يسألهم شيئا ، وأبغض الناس إليهم من احتاج إليهم ؛ وأحب الناس إلى الله من احتاج إليه وسأله ، وأبغض الناس إليه من استغنى عنه ولم يسأل منه شيئا .

وذكر أن لقمان الحكيم لما حضرته الوفاة قال لابنه : يابنى كثيرا ما أوصيتك إلى هذه الغاية وإنى لموصيك الآن بست خصال فيها علم الأولين الآخرين : أولها أن لاتشغل نفسك بالدنيا إلا بقدر مابقى من عمرك . والثانى اعبد ربك بقدرحوائجك إليه . والثالث اعمل للآخرة بقدرماتريد المقام بها . والرابع ليكن شغلك فى فكاك رقبتك من النار مالم تظهر لك النجاة منها . والخامس ليكن جراءتك على المعاصى بقدر صبرك على عذاب الله . والسادس إذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكانا لا يراك الله وملائكته . وقيل لبعض الحكماء : ماالفرق بين اليقين والتوكل ؟ قال أما اليقين فهو أن تصدق الله بجميع أسباب الآخرة ، والتوكل أن تصدق الله بجميع أسباب الدنيا ، ويقال : التوكل توكلان : أحدهما فى الرزق فلا يجوز فيه الا الأمن . والثانى فى طلب ثواب العمل فيكون آمنا بوعد الله فى الثواب ويكون خائفا فى عمله أن يقبل منه أم لا يقبل .

وروي عطاء بن السائب عن يعلي بن مرة قال : اجتمعنا مع نفر من أصحاب علي كرم الله وجهه فقلنا لو حرسنا أمير المؤمنين فانه محارب ولا نأمن عليه أن يغتال فبينا نحن عند باب حجرته حتى خرج للصلاة فقال ماشأنكم ؟ فقلنا حرسناك ياأمير المؤمنين لأنك محارب وخشينا أن تغتال ، فقال أمن أهل السماء حرستمونى أم من أهل الأرض ؟ قالوا بل من أهل الأرض فكيف نستطيع أن نحرسك من أهل السماء ، قال فانه لايكون في الأرض شئ حتى يقدره الله في السماء وليس من أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه حتى يجئ قدره ، فإذا جاء قدره خليا بينه وبين قدره ، كذا ذكره العلامة أبو الليث السمر قندى (ولقد أحسن من قال) من بحر الوافر (أرى الزهاد) جمع زاهد (فى روح) بالفتح : ما تلذ به النفس (وراحة) أى زوال مشقة وتعب (قلوبهم عن الدنيا مزاحة) أى بعيدة ، فى المختار زاح : بعد وذهب وبابه باع وأزاحه غيره (إذا أبصرتهم) أى هؤلاء الزهاد (أبصرت قوما * ملوك الأرض سيمتهم) أى طبيعتهم (سماحة) أى سخاوة . وتقدم فى الزهد أن العلماء اختلفوا فيه وحده ، وكل تكلم على حسب وقته وحاله ، قيل ومن صدق فى زهده فى الدنيا أتته وهى راغمة لأنه لارغبة له فيها وما قدره الله له آتيه رغما أو لأنه تعالى يمتحن بها أولياءه كما قال تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » وأحسن

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي الَّذِي اُقْتَضَى التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هٰذَا الشَّأْنِ فَهُوَ مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ وَالْأَمْرِ الْكَبِيرِ .

قُلْتُ : أَلَيْسَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَرَنَ الرِّزْقَ بِالْخَلْقِ فَقَالَ تَعَالَى : (خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ) فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ لَا غَيْرُ كَالْخَلْقِ ؛ ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالدَّلَالَةِ حَتَّى وَعَدَ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالْوَعْدِ حَتَّى ضَمِنَ فَقَالَ : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِالضَّمَانِ حَتَّى أَقْسَمَ فَقَالَ : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

العمل فيها الزهد . قال بعضهم : الله يعطى الزاهد فوق مايريد ، والراغب دون مايريد ، والمستقيم فوق مايريد . وقال الإمام أحمد: ترك الحرام زهد العوام وترك فضول الحلال زهد الخواص وترك مايشغل عن الرب بالقلب زهد العارفين . وعن الفضيل : جعل الله الشر كله فى بيت ومفتاحه حب الدنيا ، والخير كله فى بيت ومفتاحه الزهد فيها (وأما الأمر الثانى الذي اقتضى) أى طلب (التوكل على الله سبحانه وتعالى فى هذا الشأن) أى شأن الرزق (فهو) أى الأمر الثانى (ما فى تركه) أى التوكل (من الخطر العظيم والأمر الكبير . قلت أليس الله سبحانه قرن الرزق بالخلق فقال تعالى) الله الذى (خلقكم) نسما فى بطون أمهاتكم ثم أخرجكم وفيكم الروح (ثم رزقكم) الطيبات الرزق إلى الموت (فدل) هذا القول منه جل وعز (على أن الرزق من الله سبحانه لاغير) وذلك (كالخلق ، ثم لم يكتف) الله تعالى (بالدلالة) على أن الرزق منه (حتي وعد فقال عز وجل : إن الله هو الرزاق) أى خالق الأرزاق والأشياء التى يتمتع بها (ثم لم يكتف) سبحانه (بالوعد حتى ضمن فقال) جل وعز (وما من دابة فى الأرض) الدابة : اسم لكل حيوان دب على وجه الأرض ، وأطلق لفظ الدابة على كل ذى أربع من الحيوان على سبيل العرف ، والمراد منه الإطلاق فيدخل فيه الآدمى وغيره من جميع الحيوانات (إلا على الله رزقها) يعنى هو المتكفل برزقها فضلا منه لا على سبيل الوجوب فهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق . وقيل إن لفظة على بمعنى من ، أى من الله رزقها . وقال مجاهد : ماجاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا (ثم لم يكتف) سبحانه وتعالي (بالضمان حتى أقسم فقال : فورب السماء والأرض) أقسم بنفسه (إنه) أى ماذكر من الرزق وغيره (لحق) صدق كائن (مثل ماأنكم تنطقون) أى مثل نطقكم ، كما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لاتشكوا فى تحقق ذلك . وقال بعض الحكماء : معناه كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لايمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذى قسم له لايقدر أن يأكل رزق غيره . وقال يزيد بن مرثد: إن رجلا

ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِذَٰلِكَ كُلِّهِ حَتَّى أَمَرَ بِالتَّوَكُّلِ وَأَبْلَغَ وَأَنْذَرَ فَقَالَ: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) وَقَالَ سُبْحَانَهُ: (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ قَوْلَهُ وَلَمْ يَكْتَفِ بِوَعْدِهِ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى ضَمَانِهِ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِقَسَمِهِ، ثُمَّ لَمْ يُبَالِ بِأَمْرِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ فَانْظُرْ مَاذَا يَكُونُ حَالُهُ، وَأَيَّةُ مِحْنَةٍ تَجِيءُ مِنْ هَٰذَا؟ وَهَٰذِهِ وَاللَّهِ مُصِيبَةٌ شَدِيدَةٌ وَنَحْنُ مِنْهَا فِي غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ، وَلَقَدْ قَالَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ صلى الله عليه وسلم لِابْنِ عُمَرَ: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا بَقِيتَ بَيْنَ قَوْمٍ يَخْبَئُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ لِضَعْفِ الْيَقِينِ

جاع بمكان وليس فيه شيء فقال اللهم رزقك الذى وعدتنى فأتنى به فشبع وروى من غير طعام ولاشراب . وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لوأن أحدكم فرمن رزقه لتبعه كما يتبعه الموت » أسنده الثعلبي أفاده القرطبي (ثم لم يكتف) الله جل وعز (بذلك) أي المذكور من الدلالة والوعد والضمان والقسم (كله حتى أمر) سبحانه (بالتوكل وأبلغ وأنذر فقال: وتوكل) يامحمد (على الحى الذى لايموت) معناه أنه سبحانه وتعالى لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن لايطلب منهم أجرا ألبتة أمره أن يتوكل عليه فى جميع أموره ، وإنما قال «علي الحى الذى لايموت » لأن من توكل على حى يموت انقطع توكله عليه بموته ، وأما الله سبحانه وتعالى فانه حى لايموت فلا ينقطع توكل من توكل عليه ولا يضيع ألبتة . وقرأها بعض الصالحين فقال لايصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق (وقال سبحانه : وعلى الله فتوكلوا) بالنصرة (إن كنتم مؤمنين) أى مؤمنين به ومصدقين لوعده ، إذ الإيمان به يقتضى التوكل عليه ، وهو قطع العلائق وترك التملق للخلائق (فمن لم يعتبر قوله) جل وعز بالدلالة على أن الرزق منه (ولم يكتف بوعده) ولم يثق بجود هذا الغنى الرحيم (ولم يطمئن) قلبه (إلي ضمانه ولم يقنع) أى لم يرض (بقسمه) سبحانه (ثم لم يبال بأمره ووعده ووعيده فانظر ماذا يكون حاله) وكيف يستقر الإيمان فى قلبه ومن أين معرفته (وأية محنة) وبلية (تجيء من هذا) المتصف بما ذكر (وهذه) أى الحالة المذكورة من عدم الاعتبار بقوله جل وعز وعدم الاكتفاء بوعده وغير ذلك (والله) بواو القسم (مصيبة شديدة ، ونحن منها) أى من تلك المصيبة (فى غفلة عظيمة ، ولقد قال الصادق) المصدوق (الأمين) أى المأمون على سر وحى ربه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم لابن عمر) رضى الله عنهما (كيف أنت إذا بقيت بين قوم يخبئون) أى يسترون ويدخرون . وفى المصباح : خبأت الشيء خبئا مهموز من باب نفع : سترته (رزق سنتهم لضعف اليقين) وقد ذكر مصنفنا حجة الإسلام وغيره أن الادخار له ثلاث درجات : إحداها أن لايدخر إلا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين . والثانية أن يدخر لأربعين يوما ولا يزيد ، فإن مازاد عليه داخل فى طول الأمل وهو مذموم ، وقد فهم العلماء ذلك الحد من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام إذ كان ميقاته أربعين ليلة ، ففهم

منه الرخصة فى أمل الحياة أربعين يوما ، وهذه درجة المتقين . والثالثة أن يدخر لسنته وهى أقصى المراتب والدرجات فى الرخصة وهى رتبة الصالحين من خواص المؤمنين ، ومن زاد فى الادخار على هذا القدر فهو واقع فى غمار العموم من المؤمنين خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، فغنى الصالح الضعيف فى طمأنينة قلبه وفقد يقينه فى قوت سنته ، وغني الخصوص فى أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة . وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم لنسائه على مثل هذه الأقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول مايحصل ، وبعضهن قوت أربعين يوما ، وبعضهن يوما وليلة ، وهو قسم عائشة وحفصة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول مايدرينى لعلي لاأبلغه ، وقد كان صلي الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لايثق بما ادخره ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته . وادخر عليه الصلاة والسلام لعياله قوت سنة لالضعف قلب فيه وفى عياله ، حاشاهم من ذلك ، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته ، بل أخبر أن الله تعالى يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتي عزائمه . رواه أحمد والطبرانى والبيهقى من حديث ابن عمر ، وذلك تطييبا لقلوب الضعفاء حتي لاينتهى بهم الضعف إلى مرتبة اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله ، فيتركون الميسور من الخير عليهم لعجزهم عن منتهى الدرجات ، فما أرسل رسول الله صلي الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم . وفى القوت : وكان سهل رحمه الله تعالى يقول فى تأويل الخبر : إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، قال ما كان من أمر فخذ بالأوسع ، وما كان من نهى فخذ بالأشد فيه ، قال وكان يضرب للمدخر مثلا فى قصر الأمل وطوله فيقول : مثل من يترك الادخار مثل رجل يقول : أريد أن أخرج إلى الأبلة ، فيقال له خذ رغيفا ، فإن قال أريد أن أخرج إلى العسكر قيل له خذ أربعة أرغفة ، قال فكذلك ترك الادخار ينقص من فضائل الزاهدين بمقدار مايمنع من حقيقة الزهد إلا الزهاد العارفين لأنهم على عين اليقين قد أقيموا بشهادة عين التوحيد فينظرون بنور الأولية والآخرية ، فالموجودات عندهم عنده إذا كانت أيديهم يده وقبضهم قبضه فهو وكيلهم وهم خلفاؤه ينفقون مما جعلهم مستخلفين فيه ، فهو مزيد لهم لأن هذا مقام فوق الزهد قد جاوزه فكيف يعتبر به ، وهؤلاء لايوصفون بكدر الخلق والمراءاة فكيف يؤمرون بالتصفية والإخلاص إذ لايدخل عليهم الشرك لقيومية شهادة التوحيد بهم فهم بها قائمون . وأما تارك المكاسب وقاطع التسبب ممن لاعلوم له من الأولياء فانهم تركوا الادخار لأنه مقتضى حالهم ، وفيه استقامة مقامهم ، وصفاء قلوبهم لخلوصهم ولإفراد سيرهم انتهى .

وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لايضر ، ويدل عليه ماروى أبو أمامة الباهلي رضى الله عنه : أن بعض أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن ، فقال صلي الله عليه وسلم فتشوا ثوبه ، ففتشوه فوجدوا فيه دينارين فى داخل إزاره ، فقال صلى الله عليه وسلم

وَعَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : لَعَنَ اللهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ ؛ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ نُزُولِ هٰذِهِ الآيَةِ : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) هَلَكَتْ بَنُو آدَمَ أَغْضَبُوا الرَّبَّ حَتَّى أَقْسَمَ لَهُمْ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ . وَعَنْ أُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ عَبَدْتَ اللهَ عِبَادَةَ أَهْلِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَقْبَلُ مِنْكَ حَتَّى تُصَدِّقَهُ ،

« كيتان » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك في حقه ، وهذا يحتمل وجهين ، لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى « تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل وترك الادخار مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس، ولذلك شدد عليه وغلظ بكيتى نار ، وعلي هذا الوجه اقتصر صاحب القوت . والثانى أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه ، وذلك لا يكون عن تلبيس؛ فان كل مايخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة وهذا الوجه هو اللائق بمقام الصحابة كما لايخفي. وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروى عن أبى نصر بشر بن الحارث الحافى قدس سره . قال الحسين المغازلى من أصحابه: كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين فقام إليه بشر ، قال الحسين وما رأيته قام لأحد غيره قال ودفع إلى كفا من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ماتقدر عليه من الطعام قال وما قال لى قط مثل ذلك ، قال فجئت بالطعام فوضعته بين يديه فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، قال فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شئ كثير فأخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وجعله تحت يده وحمله معه وانصرف ، قال فعجبت من فعله ذلك وكرهته له إذ لم يأمره بذلك ولا هو استأذنه فيه ، فقال لى بشر بعد وقت لعلك أنكرت فعله ذلك، قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن ، فقال تعرفه ؟ قلت لا قال ذاك أخونا فتح بن شخرف الموصلى زارنا اليوم من الموصل وإنما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار هكذا نقله صاحب القوت (وعن الحسن) البصرى (رحمه الله تعالى: لعن الله أقواما أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه) ثم قرأ هذه الآية « وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق » الآية (وقالت الملائكة) عليهم السلام (عند نزول هذه الآية : فورب السماء والأرض) الآية (هلكت بنو آدم ، أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم . وعن أويس) ابن عامر (القرنى) منسوب إلى قرن بن درعان . روى عن على مرفوعا «خير التابعين أويس» وقد تقدمت ترجمته (رضى الله عنه أنه قال لو عبدت الله عبادة أهل السموات والأرض) أى كعبادتهم (لايقبل) الله عز وجل (منك) عبادتك (حتي تصدقه) سبحانه وتعالى

قِيلَ :وَكَيْفَ نُصَدِّقُهُ؟ قالَ تَكُونُ آمِناً بِمَا تَكَفَّلَ اللهُ لَكَ مِنْ أَمْرِ رِزْقِكَ وَتَرَى جَسَدَكَ فارِغاً لِعِبَادَتِهِ ، وَلَقَدْ قالَ لَهُ هَرِمُ بْنُ حَيّانَ : أَيْنَ تَأْمُرُنِي أَنْ أُقِيمَ ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ ، قالَ هَرِمٌ : كَيْفَ الْمَعِيشَةُ بِهَا ؟ قالَ أُفٍّ لِهٰذِهِ الْقُلُوبِ ، لَقَدْ خَالَطَهَا الشَّكُّ فَمَا تَنْفَعُهَا الْمَوَاعِظُ .

وَبَلَغَنَا أَنَّ نَبَّاشاً تابَ عَلَى يَدِ أَبِي يَزِيدَ الْبَسْطَامِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فَسَأَلَهُ أَبُو يَزِيدَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ : نَبَشْتُ عَنْ أَلْفِ قَبْرٍ فَلَمْ أَرَ وُجُوهَهُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ إِلاَّ رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ أَبُو يَزِيدَ مَسَاكِينُ أُولٰئِكَ

(قيل وكيف نصدقه؟ قال) أويس (تكون آمنا بما تكفل الله لك من أمر رزقك وترى جسدك فارغا لعبادته) تعالى (ولقد قال له) أى لأويس (هرم بن حيان) العبدى . قال ابن عبد البر وهو من صغار الصحابة ، وفى الزهد لأحمد أنه كان يصحب حممة الدوسى ، وحممة مات فى خلافة عثمان ؛ وفيه عن الحسن أنه لما مات دفن فى يوم صائف فجاءت سحابة فرشت قبره وما حوله وعده ابن أبى حاتم فى الزهاد الثمانية من كبار التابعين ، وقال ابن سعد ثقة له فضل وكان على عبد القيس فى الفتوح ، وأورده أبو نعيم فى الحلية وقد تقدمت ترجمته (أين تأمرني أن أقيم؟ فأومأ) أى أشار أويس (بيده إلى الشام : قال هرم كيف المعيشة بها) أى الشام (قال) أويس (أف) بفتح الفاء وكسرها منونا وغير منون ، أف يؤف أفا : بمعنى تبا وقبحا ، أو صوت يدل على تضجر ، أو اسم الفعل الذى هو أتضجر (لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنفعها)أى تلك القلوب (المواعظ) ولفظ القوت . وقال أبو السليل : قال رجل لأويس أصحبك : أستأنس بك ، فقال سبحان الله أما ظننت أن أحدا يعرف الله يستوحش معه ، فقال له الرجل ما المعيشة ؟ فقال أويس أف خالط القلوب الشك فما تنتفع بموعظة . وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، ومعنى الوكيل هو الموكول إليه الأمور كلها (وبلغنا أن نباشا) للقبر لأخذ الكفن فى المصباح نبشته نبشا من باب قتل : استخرجته من الأرض ، ونبشت الأرض نبشا : كشفتها ، ومنه نبش الرجل القبر ، والفاعل نباش للمبالغة ، ونبشت السر : أفشيته (تاب على يد أبى يزيد) طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على (البسطامى) بفتح الباء الموحدة نسبة إلى بسطام : وهى بلدة مشهورة من أعمال قومس ، ويقال إنها أول بلاد خراسان من جهة العراق ، وكانت وفاته سنة إحدى وستين ، وقيل أربع وستين ومائتين (رحمه الله تعالى ، فسأله) أى النباش (أبو يزيد عن حاله) قبل توبته (فقال) النباش (نبشت عن ألف قبر فلم أر وجوههم إلى القبلة) أى مستقبلة لها (إلا رجلين ، فقال أبو يزيد مساكين، أولئك)أى أصحاب القبور الذين لا يستقبلون

تُهَمَةُ الرِّزْقِ حَوَّلَتْ وُجُوهَهُمْ عَنِ الْقِبْلَةِ .

وَذَكَرَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الصَّلاَحِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ؟ فَقَالَ: هَلْ سَلِمْتَ بِإِيمَانِكَ ؟ فَقَالَ إِنَّمَا يَسْلَمُ الْإِيمَانُ لِلْمُتَوَكِّلِينَ ،

القبلة (تهمة الرزق) ولم يفوضوا أمره إلى ربهم (حولت وجوههم عن) استقبال (القبلة . وذكر لى بعض أصحابنا رحمه الله تعالى أنه رأى رجلا من أهل الصلاح فسأله عن حاله)أى الرجل الصالح (فقال) بعض أصحابنا (هل سلمت بإيمانك ؟ فقال) الرجل (إنما يسلم الإيمان للمتوكلين) وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ، ولا رازق سواه ، وأن كل ما يقدره سبحانه على العبد من فقر وغنى ، وموت وحياة ، وقبض وبسط ، فهو خير له مما يتمناه العبد لم يكمل حال التوكل فمبنى التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور ، وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان .

وبالجملة فالتوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال التسترى رحمه الله تعالى : من طعن على التكسب فقد طعن على التوحيد ، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الخلق وهم أصناف كما هم اليوم : منهم التاجر والصانع والقاعد ومن يسأل، فما قال للتاجر اترك تجارتك ، ولا قال للقاعد اكتسب ، ولا نهى السائل عن أن يسأل ، بل أمر أن يعطى ، ولكن بالايمان واليقين فى جميع أحوالهم وتركهم مع الله فى التدبير فعمل كل واحد بعمله ، كذا ذكره صاحب القوت . وأورده القشيرى فى الرسالة بعبارتين : الأولى قال سهل: التوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته . والثانية سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت عبدالله ابن على يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول : قرأت على محمد بن الحسين . قال سهل بن عبد الله من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ؛ ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الايمان انتهى . والمراد بحاله صلى الله عليه وسلم فى القول الأول أن يكون السابق لقلب العبد في تحصيل مقصوده على الله ، وسنته أن يكون السابق لقلب العبد العاجز عن الحال المذكور فى تحصيله مقصوده اعتماده على الكسب المعتاد من حيث إنه سنةالله ورسوله جرت به كما هو العادة فى ربط المسببات فى الأسباب مع اعتقاده أن الفاعل هو الله تعالى وأنه لا فعل للأسباب ،والمراد بالحركة فى القول الثانى الكسب والمراد بالطعن فى السنة الانكار بما جرت بذلك كحفر الخنادق ؟ ولبس الدرع والتحصن وحمل الزاد فى الأسفار ! وقد قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » الآية والمراد بالطعن فى التوكل أن يقول إن المقدر يحصل بفعل الله وبفعل غيره وكونه طعنا فى الإيمان أو التوحيد حيث أشرك معه تعالى فى الفعل غيره ، كذا قاله العلامة الزبيدى . قال صاحب القوت وأخبرنى أبو موسى قال : سمعت الحسين بن يحي يقول : سأل رجل شيخنا ابن سالم أنحن متعبدون بالكسب أو بالتوكل ؟ فقال التوكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والكسب سنته

نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يُصْلِحَنا بِفَضْلِهِ ، وَأَنْ لاَ يُؤاخِذَنا بِمَا نَحْنُ أَهْلُهُ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَأَخْبِرْنا مَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ وَحُكْمُهُ وَمَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ مِنْهُ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ؟

فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَتَبَيَّنُ لَكَ هٰذَا فِى أَرْبَعَةِ فُصُولٍ : بَيَانِ لَفْظِ التَّوَكُّلِ ، وَمَوْضِعِهِ ، وَحَدِّهِ ، وَحِصْنِهِ .

فَأَمَّا اللَّفْظُ : فَإِنَّمَا هُوَ تَوَكُّلٌ تَفَعُّلٌ مِنَ الْوَكَالَةِ ، فَالْمُتَوَكِّلُ عَلَى أَحَدٍ هُوَ الَّذِى

وإنما سن لهم الكسب لضعفهم حين سقطوا عن درجة التوكل فأباح لهم طلب المعاش بالمكاسب الذى هو سنته ولولا ذلك لهلكوا . وأما ابن عطاء فإنه كان يقول : ليس التوكل لزوم الكسب ولا تركه إنما التوكل طمأنينة فى القلب إلى الله تعالى . وقال أبو يعقوب السوسى : لا تطعنوا على أهل التوكل فإنهم خاصة الله سكنوا إلى الله واكتفوا به واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة ، وقال من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان لأنه مقرون به ، ومن أحب أهل التوكل فقد أحب الله (نسأل الله تعالى أن يصلحنا بفضله) وإحسانه (وأن لا يؤاخذنا بما نحن أهله) من الخطايا (إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة .

(فإن قلت : فأخبرنا ما حقيقة التوكل وحكمه وما يلزم العبد منه) أى من التوكل (فى أمر الرزق ؟ فاعلم) هداك الله تعالى (أنه) أى الحال والشأن (إنما يتبين)أى يظهر (لك هذا) أى الذى سألته من حقيقة التوكل وغيرها (فى أربعة فصول) الأول فى (بيان لفظ التوكل . و) الثانى فى (موضعه . و) الثالث فى (حده . و) الرابع فى (حصنه) أى حصن التوكل الباعث عليه (فأما اللفظ فإنما هو توكل) وهو (تفعل) مشتق (من) لفظ (الوكالة) بفتح الواو والكسر لغة فيه ، يقال وكل أمره إلى فلان من باب وعد ، وكلا بالفتح ووكولا بالضم : أى فوضه إليه واعتمد عليه فيه واكتفى به ، ويسمى الموكل إليه وكيلا فهو فعيل بمعنى مفعول ، وقد يكون بمعنى فاعل إذا كان بمعنى الحافظ ، ومنه قوله تعالى « ونعم الوكيل » وجمع الوكيل الوكلاء ، ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ومتوكلا عليه كلاهما بمعنى ، إلا أن الاتكال من باب الافتعال ؛ والاسم منه التكلان بالضم ، والتوكل من باب التفعل كما تقدم ، وذلك مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصيره ولم يعتقد فيه عجزا ولا قصورا ، فهذه المعانى لازمة للمفوض إليه ، فالتوكل حينئذ عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ووثوقه به (فالمتوكل على أحد هو الذى

يَتَّخِذُهُ بِمَنْزِلَةِ الْوَكِيلِ الْقَائِمِ بِأَمْرِهِ ، الضَّامِنِ لِإِصْلَاحِهِ ، الْكَافِي لَهُ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَاهْتِمَامٍ ، فَهٰذِهِ جُمْلَتُهُ ؛ وَأَمَّا الْمَوْضِعُ فَاعْلَمْ أَنَّ التَّوَكُّلَ اسْمٌ مُطْلَقٌ فى ثلاثةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا فِي مَوْضِعِ الْقِسْمَةِ ، وَهُوَ الثِّقَةُ بِاللهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَفُوتُكَ مَا قُسِمَ لَكَ فَإِنَّ حُكْمَهُ لَا يَتَبَدَّلُ وَهٰذَا وَاجِبٌ بِالسَّمْعِ . وَالثَّانِي فِي مَوْضِعِ النُّصْرَةِ ، وَهُوَ الْاعْتِمَادُ وَالْوَثَاقَةُ بِنَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ إِذَا نَصَرْتَهُ وَجَاهَدْتَ ، قَالَ تَعَالَى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) وَقَالَ : (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ) وقالَ تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) وَهٰذَا وَاجِبٌ بِالْوَعْدِ ، وَالثَّالِثُ : فى مَوْضِعِ الرِّزْقِ وَالْحَاجَةِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مُتَكَفِّلٌ بِمَا يُقِيمُ بِنْيَتَكَ لِخِدْمَتِهِ وَتَتَمَكَّنَ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، وَذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ

يتخذه بمنزلة الوكيل القائم بأمره) أى المتوكل (الضامن لإصلاحه الكافى له من غير تكلف واهتمام ، فهذه) أى الجملة التى ذكرناها (جملته) أى حاصل بيان لفظ التوكل (وأما الموضع فاعلم أن التوكل اسم مطلق فى ثلاثة مواضع : أحدها فى موضع القسمة) أى ما قسمه الله لك (وهو) أى حق هذا الموضع (الثقة بالله لأنه) تعالى (لايفوتك ما قسم لك فإن حكمه) جل وعز (لا يتبدل) ولا يتغير أبدا (وهذا) أى موضع القسمة (واجب بالسمع) أى بالقرآن . (والثانى فى موضع النصرة ، وهو) أى موضع النصرة (الاعتماد والوثاقة بنصر الله عز وجل لك إذا نصرته) أى نصرت دينه (وجاهدت) بعبادته . (قال تعالى) « وشاورهم فى الأمر (فإذا عزمت) يعنى على المشاورة (فتوكل على الله ») أى فاستعن بالله فى أمورك كلها وثق به لا تعتمد إلا عليه فإنه ولي الإعانة والعصمة والتسديد، والمقصود أن لا يكون للعبد اعتماد على شىء إلا على الله تعالى فى جميع أموره وأن المشاورة لا تنافى التوكل . (وقال) تعالى « يا أيها الذين آمنوا (إن تنصروا الله) يعنى تنصروا دين الله ورسوله ، وقيل تنصروا أولياء الله وحزبه (ينصركم ») الله بالغلبة على العدو (وقال تعالى) «ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا (وكان حقا علينا نصر المؤمنين») إشعار بأن الانتقام لهم وإظهار لكرامتهم حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم ، وعنه عليه الصلاة والسلام « ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم ثم تلا ذلك » وقد يوقف على حقا على أنه متعلق بالانتقام كما فى البيضاوى (وهذا) أى موضع النصرة (واجب بالوعد . والثالث فى موضع الرزق والحاجة ، فإن الله تعالى متكفل) وضامن (بما يقيم بنيتك) أى جسدك (لخدمته) أى لطاعته جل وعز (وتتمكن به من عبادته) تعالى (وذلك) أى الكفالة والضمان (قوله تعالى : ومن يتوكل على الله)

فَهُوَ حَسْبُهُ) وَقَالَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ صلى اللهُ عليه وسلم : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا »

يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه (فهو حسبه) كافيه فى الدارين (وقال الصادق) فى خبره ، فقد ورد فى الحديث الصحيح تسميته بالصادق المصدوق . وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما كذبه قومه حزن ، فقال له جبريل إنهم يعلمون أنك صادق ، وصدقه صلى الله عليه وسلم واجب لوجوب عصمته وثبوت أمانته وما فطر عليه من الطهارة والنزاهة والتقديس وعلو الهمة وعظم الأخلاق وكرم الأعراق وشدة الحياء وحصافة العقل وجزالة الرأى وغير ذلك من موجبات صدقه صلى الله عليه وسلم . والصدق هو مطابقة الخبر للواقع فى نفس الأمر ، وقيل مطابقته للاعتقاد ، وقيل مطابقته لهما معا (الأمين صلى الله عليه وسلم) فقدكان عليه الصلاة والسلام يعرف به وشهر به قبل النبوة وبعدها وكانت قريش تسميه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة محمدا الأمين . وفى الحديث « إني لأمين فى الأرض وأمين فى السماء » ، وقد سماه الله أمينا فقال « مطاع ثم أمين » إذا قلنا إن المراد به صلى الله عليه وسلم ، لاجبريل عليه السلام ، فهو أمين الله على وحيه ودينه ، وهو أمين فى السماء والأرض ، وفى الدر المنظم للعزفى : وأما اسمه أمين فهو الذى يلقى إليه بمقاليد المعانى ثقة بقيامه عليها وحفظها وقد تقدم بيانه . وقال فيما تقدم : وأما اسمه الأمين فإنه حفظ ما أوحى إليه وما كلف علمه وتبليغه وكان اسمه فى الجاهلية الأمين لثقته وأمانته ونزاهته عن الخيانة انتهى ، وكلامه فى الأسماء كله أو جله لابن العربى . وقال غيره : الأمين قيل معناه الأمين فى نفسه من عقاب ربه إشارة إلى ما بشره به ربه عز وجل فى سورة الفتح حيث قال « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » الآية فسمى بما يناسب قدره ، وقيل معناه الأمين فيما جاء به عن ربه من أمره ونهيه ووعيده ، بدليل المعجزات الظاهرة على يديه النازلة منزلة قول ربنا عز وجل « صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى » فسمى لهذا المعنى بما يناسب حقيقته (لو توكلتم على الله حق توكله) بأن تعلموا يقينا أن لا فاعل إلا الله ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع من الله ثم تسعون فى الطلب على الوجه الجميل (لرزقكم كما يرزق الطير) بضم المثناة التحتية علي صيغة المجهول : زاد فى رواية « فى جو السماء » (تغدو) أى تصبح من أوكارها (خماصا) جمع خميص : أى ضامرة البطون من الجوع (وتروح) أى تعود مساء إلى أوكارها (بطانا) جمع بطين : أى ممتلئة البطون ، وإنما مثل بالطير لأن الأركان المجتمعة فى الأبدان طوائر تطير إلى أوكارها ومراكزها ، فأخبر بأن الرزق فى التوكل على الله لا بالحيل والعلاج . وفى سراج السالكين فالكسب ليس برازق ، بل الرازق هو الله ، فأشار بذلك إلى أن التوكل ليس التبطل . بل لا بد فيه من التوصل بنوع من السبب ، لأن الطير ترزق بالطلب والسعى ، ولهذا قال أحمد : ليس فى الحديث ما يدل على ترك الكسب بل فيه ما يدل على طلب

وَهٰذَا فَرْضٌ لَازِمٌ لِلْعَبْدِ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ جَمِيعًا، وَهٰذَا هُوَ الْأَشْهَرُ؛ وَالْأَبْلَغُ مِنْهُ أَعْنِي التَّوَكُّلَ فِي مَوْضِعِ الرِّزْقِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ هٰذَا الْفَصْلِ، فَمَوْضِعُ التَّوَكُّلِ إِذَنْ هُوَ الرِّزْقُ،

الرزق، وإنما أراد لو توكلوا على الله فى ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم وعلموا أن الخير بيده جل وعز لم ينصرفوا إلا غانمين سالمين كالطير، لكن اعتمدوا على قوتهم وكسبهم وذلك ينافى التوكل، قال العراقى: رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمر. قال الترمذى: حسن صحيح. قال الزبيدى: ورواه أيضا ابن المبارك وأبو داود الطيالسى وأحمد كلهم فى الزهد، والنسائى وأبو يعلى والحاكم وصححه وأقره الذهبي، ورواه أيضا ابن حبان والبيهقي والضياء فى المختارة كلهم من حديث عمر رضى الله عنه، ولفظهم جميعا «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» (وهذا) أى التوكل في موضع الرزق والحاجة (فرض لازم للعبد بدليل العقل والشرع جميعا، وهذا) أى كون هذا التوكل فرضا لازما للعبد (هو الأشهر والأبلغ منه أعنى التوكل فى موضع الرزق) والحاجة (وهو) أى التوكل فى موضع الرزق (المقصود من هذا الفصل فموضع التوكل إذن) أى حين إذ كان هذا التوكل هو المقصود (هو الرزق).

[تنبيه] اختلف النحويون فى إذن، فقيل اسم، وقيل حرف. وهي على القول بالحرفية حرف جواب وجزاء عند سيبويه، وقال الشلوبين: هى كذلك في كل موضع. وقال الفارسى: في الأكثر وقد تتمحض للجواب بدليل أنه يقال أحبك فتقول فى الجواب إذن أظنك صادقا إذ لامجازاة هنا. قال الرضى: لأن الشرط والجزاء إما فى الاستقبال أو فى المضى ولا مدخل للجزاء فى الحال، والمراد بكونها للجواب أن تقع فى كلام يجاب به كلام آخر ملفوظ به أو مقدر سواء وقعت فى صدره أو فى حشوه أو فى آخره. والمراد بكونها للجزاء أن يكون مضمون الكلام الذى هى فيه جزاء لمضمون كلام آخر، وكان القياس إلغاءها لعدم اختصاصها ومن ثم اشترطوا لإعمالها الشروط الثلاثة: الأول: أن تكون مصدرة. الثانى: أن يكون الفعل بعدها مستقبلا. الثالث: أن يكون الفعل إما متصلا أو منفصلا بالقسم أو بلا النافية كما هو معلوم فى محله ولا تقع فى كلام مقتضب ابتداء ليس جوابا عن شىء فباعتبار ملابستها للجواب على هذا سميت حرف جواب. واعلم أن إذن بكسر الهمزة وفتح الذال المعجمة ثم نون: كلمة للزمان المستقبل وتقلب نونها فى الوقف ألفا على الصحيح تشبيها لها بتنوين المنصوب، ومبنى الخلاف فى الوقف عليها على الخلاف فى كتابتها فالجمهور يكتبونها بالألف، ولذا رسمت فى المصاحف بالألف. ونقل أن للنحويين فى رسمها ثلاثة مذاهب: الأول تكتب بالألف مطلقا. قيل وهو الأكثر. الثانى أنها تكتب بالنون مطلقا. الثالث التفصيل إن ألغيت كتبت بالألف لضعفها، وإن أعملت كتبت بالنون، ونقل

وَهُوَ الرِّزْقُ الْمَضْمُونُ فِيمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ بِاللهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا يَتَّضِحُ لَكَ هٰـذَا بِبَيَانِ أَقْسَامِ الرِّزْقِ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّزْقَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : مَضْمُونٌ ، وَمَقْسُومٌ ، وَمَمْلُوكٌ ، وَمَوْعُودٌ ؛ فَالْمَضْمُونُ هُوَ الْغِذَاءُ وَمَا بِهِ قِوَامُ الْبِنْيَةِ دُونَ سَائِرِ الْأَسْبَابِ ، فَالضَّمَانُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِهٰذَا النَّوْعِ ، وَالتَّوَكُّلُ يَجِبُ بِإِزَائِهِ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَلَّفَنَا خِدْمَتَهُ وَطَاعَتَهُ بِأَبْدَانِنَا فَضَمِنَ مَا يَسُدُّ خَلَلَ الْبِنْيَةِ لِنَقُومَ بِمَا كَلَّفَنَا . وَقَالَ بَعْضُ مَشَايِخِ الْكَرَّامِيَّةِ كَلَامًا حَسَنًا عَلَى أَصْلِهِ : ضَمَانُ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَاجِبٌ فِي حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى لِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ السَّيِّدُ وَنَحْنُ الْعَبِيدُ ، وَعَلَى السَّيِّدِ كِفَايَةُ مُؤْنَةِ الْعَبِيدِ ، كَمَا أَنَّ الْعَبِيدَ خَدَمَةُ السَّيِّدِ ، وَالثَّانِي : أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَى الرِّزْقِ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ سَبِيلًا إِلَى طَلَبِهِ إِذْ لَا يَدْرُونَ

عن الفراء عكسه وهو أنها إن أعملت كتبت بالألف إذ لا تلتبس حينئذ بإذ الظرفية لقيام المانع من اللبس وهو العمل وإن لم تعمل كتبت بالنون للفرق بينها وبين إذا ، وتبعه على ذلك ابن خروف كذا ذكره العلامة عبادة عن المدابغى (وهو الرزق المضمون فيما قال العلماء بالله تعالى) وصفاته (وإنما يتضح لك هذا) أى الرزق المضمون (ببيان أقسام الرزق، فاعلم أن الرزق أربعة أقسام : مضمون ومقسوم) أى ماقسمه الله لعباده (ومملوك) أى مايملكه كل واحد (وموعود) أى ماوعد الله به عباده (فالمضمون هو الغذاء وما به قوام البنية) أى الجسد (دون سائر الأسباب ، فالضمان من الله تعالى لهذا النوع) وهو الغذاء وما يقيم البنية (والتوكل يجب بإزائه) أى هذا النوع (بدليل العقل والشرع لأن الله تعالى كلفنا) وتعبدنا (خدمته وطاعته) مرادف لما قبله (بأبداننا فضمن) تعالى (مايسد خلل البنية لنقوم بما كلفنا) من طاعته (وقال بعض مشايخ الكرامية) فرقة من المشبهة شبهوا الله بالمخلوقات أصحاب عبد الله محمد بن كرام . قيل هو بكسر الكاف وتخفيف الراء وهو الذى نص على أن معبوده على العرش استقرارا وأطلق اسم الجوهر عليه ، تعالى الله عما يقوله المبطلون علوا كبيرا (كلاما حسنا) أى استحسنه (على أصله) أى أصل هذا البعض وقاعدته (ضمان أرزاق العباد واجب فى حكمة الله تعالى لثلاثة أشياء : أحدها أنه) تعالى (السيد) المربى (ونحن العبيد) المربوبون (وعلى السيد كفاية مؤنة العبيد كما أن العبيد خدمة) جمع خادم (السيد . والثانى أنه) سبحانه (خلقهم) أى العبيد (محتاجين إلى الرزق ولم يجعل) الله تعالى (لهم) أى لعبيده (سبيلا إلى طلبه) أى الرزق (إذ لايدرون)

مَا هُوَ رِزْقُهُمْ ، وَأَيْنَ هُوَ ، وَمَتَى هُوَ ؟ لِيَطْلُبُوهُ بِعَيْنِهِ مِنْ مَكَانِهِ ، وَفِي وَقْتِهِ لِيَصِلُوا إِلَيْهِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكْفِيَهُمْ أَمْرَ ذَلِكَ وَيُوَصِّلَهُمْ إِلَيْهِ . وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ كَلَّفَهُمُ الْخِدْمَةَ وَطَلَبُ الرِّزْقِ شَاغِلٌ عَنْهَا فَوَجَبَ أَنْ يَكْفِيَهُمُ الْمُؤْنَةَ لِيَتَفَرَّغُوا لِلْخِدْمَةِ ، وَهَذَا كَلَامُ مَنْ لَمْ يُحِطْ بِأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْقَائِلُ بِأَنَّ الرِّزْقَ عَلَى اللهِ وَاجِبٌ تَائِهٌ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا فِي فَنِّ الْكَلَامِ فَسَادَهُ ،

ولا يعلمون (ماهو رزقهم وأين هو؟) أى الرزق (ومتى هو) أى مجىء ذلك الرزق (ليطلبوه بعينه) أى الرزق (من مكانه وفى وقته ليصلوا) أى العباد (إليه ف) إذا كانت حالهم كذلك (وجب أن يكفيهم) الله (أمر ذلك) الرزق (و) أن (يوصلهم إليه) أى الرزق (والثالث أنه) تعالى (كلفهم) أى العباد (الخدمة) أى الطاعة (و) الحال أن (طلب الرزق شاغل عنها) أى عن الخدمة (فوجب أن يكفيهم) الله عز وجل (المؤنة ليتفرغوا للخدمة ، وهذا) أى الكلام المذكور (كلام من لم يحط) أى لم يعلم (بأسرار الربوبية) وذلك لقصور نظرهم فى المعارف الإلهية والعلوم المتعلقة بذاته وصفاته الثبوتية والسلبية ورسوخ قياس الغائب على الشاهد فى طباعهم الدنيا القاصرة عن إدراك الحقائق الغيبية (والقائل) من المعتزلة (بأن الرزق على الله واجب تائه) أى ضال (وقد أوضحنا فى فن الكلام) أى علم التوحيد (فساده) أى القول بأن الرزق على الله واجب . ولنذكر هنا طرفا يسيرا لبيان فساده بقولنا : وذلك لأن من وجب عليه شىء فهو مقهور ، وأن من أدى حقا واجبا عليه لامنة له على المؤدى إليه ، وهذا القول يبطل الحمد والشكر لأن من أدى شيئا واجبا عليه لايستحق حمدا ولا شكرا عليه مع أنهما ثابتان له سبحانه . قال سيدى أحمد الدردير فى خريدته :

ومن يقل فعل الصلاح وجبا على الإله قد أساء الأدبا

وبالجملة أنه تعالى يفعل بعباده مايشاء ، فلو أدخل جميعهم الجنة من غير طاعة سابقة كان له ذلك ولو أورد الكل منهم النار من غير زلة منهم كان له ذلك لأنه تصرف مالك الأعيان فى ملكه ليس عليه باستحقاق إن أثاب فبفضله يثيب وإن عذب فلحق ملكه يعذب فلا يجب رعاية الأصلح ، بل لايعقل فى حقه الوجوب مطلقا لانقلا ولا عقلا ولا عادة فانه تعالى « لايسئل عما يفعل» بحكم ربوبيته وملكه لكل شىء الملك الحقيق « وهم يسئلون » بحكم العبودية والمملوكية لاقتضائها أن العبد المملوك لااستقلال له بتصرف ، ولا يمكنه أن يلزم مولاه ويوجب عليه شيئا . قال العلامة سيدى أحمد الدردير : وأقوى ماتمسكوا به فى ذلك القول المذكور أن ترك الأصلح يستلزم المحال من سفه أو جهل أو عبث أو بخل ، وظاهر أنه رفض لقاعدة الاختيار وتمسك بالفلسفة الظاهرة العوار . وحكي أن الامام أبا الحسن الأشعرى رضى الله عنه سأل شيخه أبا على

الجبائى،وهو يقرر مسئلة وجوب الصلاح فقال له ماتقول فى ثلاثة إخوة مات أحدهم مطيعا والآخر عاصيا والثالث صغيرا ؟ فقال الأول يثاب فى الجنة والثانى يعاقب فى النار والثالث لايثاب ولا يعاقب فقال الأشعرى فإن قال الثالث يا رب لم أمتنى صغيرا ولم تبقنى إلى أن أكبر فأطيعك لأثابُ فى الجنة فقال الجبائى يقول الرب تعالى إنى كنت أعلم منك أنك لو كبرت لعصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك موتك صغيرا ، فقال الأشعرى: فان قال الثانى لم لم تمتنى صغيرا لئلا أعصى فأدخل النار فماذا يقول الرب فبهت الجبائى ، ويروي أنه قال للأشعرى أبك جنون ؟ فقال الأشعرى ولكن وقف حمار الشيخ فى العقبة فترك مذهبه واشتغل هو ومن معه بإبطال رأى المعتزلة وإثبات ماوردت به السنة ومضى عليه الجماعة فسموا أهل السنة والجماعة .

[تنبيهان : الأول] ذكر العلامة الزبيدى بعض أجوبة الماتريدية فى الرد على أهل الاعتزال المائل عن سمت الاعتدال من النقل والعقل . أما الأولى فقوله تعالى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا » ولو لم يكن فى مقدوره ما لو فعل بهم لآمنوا لم تكن لهذه الآية فائدة ادعاء قدرة ومشيئة ليستا له كفعل المكلف الذى يتحلى بماليس فيه ، وقوله « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ، ففي الآيتين دليل على بطلان القول بالأصلح إذ عندهم كل مايفعله تعالى عليه أن يفعل كذلك فى الحكمة وكل من فعل ما عليه فعله فانه لايوصف بالفضل والإفضال ، فمقتضى مذهبهم لايكون من الله تعالي تفضيل لبعض الرسل وهو خلاف النص . وبالسنة وهوقوله صلى الله عليه وسلم «ولو أراد الله تعالى بالنملة صلاحا ماأنبت لهاجناحا » والحديث صحيح من رواية على رضى الله عنه ؛ وبالوجود فان الله تعالي فعل بالكافر ما لاصلاح له فيه بل له فيه مفسدة حيث أبقاه إلى وقت بلوغه وركب فيه العقل مع علمه بأنه لايؤمن بل يكفر ، ولا شك أن إماتته فى صغره وعدم تمييزه أصلح له ، إذ علم أنه يكفر عند بلوغه واعتدال عقله ، وكذا من عاش مدة على الإسلام ثم ارتد بعد ذلك فان بقاءه مع علمه بأنه يرتد ليس بمصلحة له وقد فعل ذلك ، ولو كان تعالى قبض روحه قبل ارتداده بساعة لكان أصلح له ، وكذا إبقاء الكافرين وإبلامهم ليزدادوا إثما : وبالاجماع فان المسلمين وأهل الأديان كلهم يطلبون المعونة من الله تعالى على الطاعات والعصمة عن السيئات وكشف مابهم من البليات وقد نطق النص بذلك ، ثم الحال لايخلو إن كان ماسألوا من المعونة والعصمة آتاهم الله تعالى أو لم يؤتهم . فان كان آتاهم فسؤالهم سفه وكفران للنعم ، إذ السؤال لما كان عند العقلاء لما لم يكن موجودا فيسئل كان الاشتغال بالسؤال إلحاقا لهذه النعمة الموجودة بالمعدوم ، وجل تعالي أن يأمر فى كتبه المنزلة على الأنبياء أن يشتغلوا بما هوسفه وكفران للنعمة ، وإن لم يؤتهم فلا يخلو إما أن يجوز له أن لايؤتهم أو لايجوز، فإن كان لا يجوز له أن يؤتيهم ، بل يجب عليه على وجه كان بمنعه ظالما وكان السؤال فى الحقيقة كأنهم قالوا اللهم لا تظلمنا بمنع حقنا المستحق عليك ولا تجر علينا ، ومن ظن أن الأنبياء والأولياء اشتغلوا بمثل هذا الدعاء فقد كفر من ساعته وإن كان يجوز أن لا يؤتيهم ذلك فقد بطل مذهبهم ، وبالمعقول ففيه تسفيه الله تعالى فى طلب شكر ما أدى إذ الشكر يكون على الإفضال دون قضاء

الحق وتناهى قدرة الله تعالى حيث لايقدر على أن يفعل بأحد أصلح مما فعل ولم يسبق فى مقدوره ولا فى خزائن رحمته أنفع لهم مما أعطاهم وإبطال منة الله تعالى على عباده بالهداية حيث فعل ما فعل على طريق قضاء حق واجب عليه ، ولا منة فى هذا فيكون الله تعالى بقوله « والله ذو الفضل العظيم » وبقوله « بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان » متصلفا ، إذ لا فضل ولا منة فى قضاء مستحق عليه ، وبالله التوفيق .

[الثانى] ذكر العلامة الزبيدى أيضا معتقدين لأهل السنة والجماعة ، وهما مرتبان على إبطال التحسين والتقبيح العقليين ، ونحن نذكرهما هنا لئلا يخلو كتابنا عن زوائد الفوائد فنقول : ومن معتقد أهل السنة والجماعة أن الصانع جل وعلا لا يفعل شيئا لغرض لأنه لو فعل لغرض لكان ناقصا لذاته مستكملا بغيره وهو محال . لا يقال الغرض تحصيل مصلحة العبد . لأنا نقول تحصيل مصلحة العبد وعدم تحصيلها إن استويا بالنسبة إليه لم يصلح أن يكون غرضا ذاتيا للفعل لامتناع الترجيح بلا مرجح ، وإن لم يستويا بأن يكون تحصيل المصلحة بالنسبة إليه أولى لزم الاستكمال بما هو أولى بالنسبة إليه ، وأيضا فقد ثبت أنه تعالى قادر على أن يفعل ذلك الغرض من غير واسطة فعل والعبث عليه محال إجماعا واتفق عليه أهل السنة والجماعة إلا ما نقله الفخر الرازى عن أكثر الفقهاء من ظاهر قولهم حيث يشترطون فى العلة الشرعية أن تكون بمعنى الباعث للشارع على شرط الحكم من جلب مصلحة ودفع مفسدة . والصواب أن ما يقع من الفقهاء من الغرض والتعليل كما يقع من المعتزلة فإن الذى يقع من الفقهاء فى الأحكام الشرعية العملية لما يقولون مثلا الحكم بالقصاص إنما ورد من الشارع للزجر عن القتل وهذا هو الغرض منه ، فحيث يطلقون ذلك فليس قصدهم بذلك أنه مما يجب أن يكون كذلك عقلا ، وإنما يعتقدون أن ذلك كذلك بجعل الشارع وأن الشارع جعل على سبيل التكرم والإحسان الأحكام مرتبطة إما بجلب مصالح العباد أو دفع مفاسدهم ، لا على جهة الوجوب العقلي ، واستقراء حملة الشرع ذلك من تتبع أحكام الشرع أعطتهم تلك القواعد الكلية . وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى فى الفقه الأبسط : لا يطلب الله لاحتياج من العباد شيئا إنما هم يطلبون منه الخير ، فأشار بقوله الأخير إلى أن تعليل الإيجاب بالمنفعة ودفع الضرر مبنى على كون أفعاله تعالى وأحكامه معللة بالأغراض ، وهو فاسد لاستلزام كونها علة لعلية الفاعلية والاحتياج إليها فى العلية ، والله الغنى عن العالمين ، والمحدث يقول : اتفق السلف الصالح على أنه تنزه عن ذلك ، وأما الصوفى فيقول : ترتيب المسببات عن أسبابها حكمة الأسماء الإلهية ، والمسببات وأسبابها مستوية بالنسبة إلى العلم والارادة والقدرة ضرورة إمكانها المقتضى لتعلقها بذلك فما يصلح أن يكون مسببا عن شىء ، فمن حيث الحكمة الأسمائية حق وبهذا جاء الشرع ، ومن حيث الصفات المقتضيات للتكوين فلا سبب ولا مسبب لوجود ظهور الكل عن سبب الكل فلم يبق السبب إلا من حيث ارتباط ظهور هذا عند ظهور هذا من حيث تعلق الأسماء بها على ما سبق به العلم ، وقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » مع قوله تعالى « والله خلقكم

وَلْنَرْجِـعْ إلى المَقْصُودِ مِنْ غَرَضِنَا .

وَأَمَّا الرِّزْقُ المَقْسُومُ : فَهُوَ مَا قَسَمَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَكَتَبَهُ فى اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مِمَّا يَأْكُلُهُ وَيَشْرَبُهُ وَيَلْبَسُهُ كُلُّ وَاحِدٍ

وما تعملون » يوضح لك المقصود فاعرفه . الثانى ومما اتفق عليه أهل السنة والجماعة أن الصانع جل وعز خلقنا بمقتضى رحمته وكلفنا بمقتضى حكمته ، وجعل من أطاع له الجنه بمقتضى فضله ، ومن أبى له النار بمقتضى عدله من غير أن يكون طاعة المطيع علة لاستحقاق ماله جعل ، وإباية من أبى علة أيضا لماله جعل ، بل علة الجميع تخصيص إرادته وحكمته ومشيئته فلم تكن الأعمال إلا علامة لأربابها الذين خلقت فيهم على ما يئول إليه أمرهم من سعادة أو ضدها ، وقد اتفق حملة الشرع على أن الاعتماد على العمل شرك خفى ، ولو كانت الأعمال موجبة للثواب لكان الاعتماد عليها واجبا ؛ وفى الفقه الأبسط للامام أبى حنيفة رحمه الله : وحق الله عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، فإذا فعلوا ذلك فحقهم عليه أن يغفر لهم ويثيبهم عليه ، فأشار بالجملة الأخيرة إلى أن الأعمال لو كانت سببا موجبا للإثابة والعقاب لما تخلف واللازم باطل لثبوت العفو والمغفرة فى البعض كما فى التوبة اتفاقا وثبوت الهدم والإحباط عمن عاش على الكفر ثم آمن أو على الإيمان ثم كفر ، واشتراط الموت على ذلك للاستحقاق يبطل الاستحقاق أصلا لعدم الشرط عند تحقق العلة وانقضاء العلة عند تحققه كما فى شرح المقاصد ، والمحدث يتمسك بقوله صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وقوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » والأحاديث فى ذلك كثيرة والصوفى يقول : من تحقق بعبودية نفسه على أن لا شىء له يوجب الحظوة عند سيده إلا بفضله وإلا لو كان شىء يوجب الحظوة غير الفضل لكان منازعا للسيد فى سيادته فافهم . والله المستعان (ولنرجع إلى المقصود من غرضنا) وهو بيان أقسام الرزق (وأما الرزق المقسوم ، فهو ما قسمه الله سبحانه) لعباده (و) ما (كتبه) لهم (فى اللوح) هو فى الهواء فوق السماء السابعة وهو معلق بالعرش كما قاله القرطبى (المحفوظ) وهو أم الكتاب ، ومنه تنسخ الكتب ، وسمى محفوظا لأنه حفظ من الشياطين ومن الزيادة والنقص ، وهو عن يمين العرش . وروى البغوى بإسناد الثعلبى عن ابن عباس قال : إن فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة . وقال : واللوح لوح من درة بيضاء طوله مابين السماء والأرض ، وعرضه مابين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ؛ ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه من نور ، وكلامه سر معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك ، وفى رواية كتابته نور معقود بالعرش (مما يأكله) العبد من الطعام (و) ما (يشربه) من الشراب (و) ما (يلبسه) من الثياب (كل واحد) من المأكول والمشروب والملبوس

بِمِقْدَارٍ مُقَدَّرٍ وَوَقْتٍ مُؤَقَّتٍ لاَ يَزِيدُ وَلاَ يَنْقُصُ وَلاَ يَتَقَدَّمُ وَلاَ يَتَأَخَّرُ عَمَّا كُتِبَ بِعَيْنِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « الرِّزْقُ مَقْسُومٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ لَيْسَ تَقْوَى تَقِيٍّ بِزَائِدِهِ وَلاَ فُجُورُ فَاجِرٍ بِنَاقِصِهِ .

(بمقدار مقدر) في الكثرة والقلة (ووقت مؤقت لا يزيد) كل واحد مما ذكر عن مقداره ووقته (ولا ينقص) عما ذكر (ولا يتقدم ولا يتأخر) واحد مما ذكر (عما كتب) : أى قدر فى علم الله الأزلى (بعينه) ولهذا ينبغى للعبد أن يشتغل بالله تعالى بذكر وفكر ومراقبة ولا يهتم برزقه فإن الرزق مضمون يأتيه لا محالة حتى يظهر له ملك الموت فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا ويدخل فى رزق الآخرة ، وإليه يشير كلام أكثر الشيوخ فى معنى التوكل ؛ فمن كانت مشاهدته فى القسم المعلوم سقط عنه جملة من الهموم واستراح العباد من أذاه وشغل عنهم بخدمة مولاه ، وعند هذا يصح ماقاله بعض العلماء ، وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه ، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان فى سؤاله ذلك عاصيا ولقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ؟ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنه : اختلف الناس فى كل شيء إلا فى الرزق والأجل ، فانهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلا الله تعالى . وروى أحمد فى الزهد وابن أبى الدنيا عن سالم بن أبى الجعد . قال قال عيسى عليه السلام : اعملوا لله ولا تعملوا إلى بطونكم ، انظروا إلى هذا الطير يغدو ويروح لا يحرث ولا يحصد ، الله تعالى يرزقها . فان قلتم نحن أعظم بطونا من الطير ، فانظروا إلى هذه الأباقر من الوحش والحمر تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد ، الله سبحانه يرزقها ، اتقوا فضول الدنيا فان فضول الدنيا عند الله رجز . وقال أبو يعقوب السوسى رحمه الله : المتوكلون تجرى أرزاقهم بعلم الله واختياره على يد خصوص عباده بلا شغل ولا تعب ، وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم من المولى ثم يفترقون في المشاهدات ، فمنهم من يأكل رزقه بذل ، ومنهم من يأكل رزقه بامتهان ، ومنهم من يأكل رزقه بانتظار ، ومنهم من يأكل رزقه بلا مهنة ولا انتظار ولا ذلة ، فأما الذين يأكلون أرزاقهم بالذل فالسؤال يشهدون بأيدى الخلق فيذلون لهم ، والذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار ينتظر أحدهم نفاق سلعته فهو متعوب الخلق معذب بانتظاره ، والذين يأكلون أرزاقهم بامتهان فالصناع يأكل أحدهم رزقه بمهنته وكده ، والذين يأكلون أرزاقهم بعز بغير مهنة ولا انتظار ولا ذل فالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قسمهم من يده بعزة ولا يرون الواسطة ، كذا نقله بعض المحققين عن القوت لأبى طالب المكي رحمه الله (كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : الرزق مقسوم مفروغ منه) : أى من قسمته (ليس تقوى تقى) وعبادة عابد (بزائده) : أى الرزق على ماقسم له (ولا فجور فاجر) وكفر كافر (بناقصه) أى الرزق عن قسمته ، وهذا فى علم الله الأزلى الذى لا يتغير ولا يتبدل .

قال سعيد بن جبير وقتادة فى قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت » يعني يمحو الله مايشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت مايشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله . وقال ابن عباس : يمحو الله مايشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ، ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن حذيفة بن أسيد . قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى فيقضى ربك مايشاء فيكتب الملك ، ثم يقول يارب أجله فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك ، ثم يقول الملك يارب رزقه فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على أمر ولا ينقص » أخرجه مسلم . وروى الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه نطفة أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح ، فو الذى لاإله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » . فإن قلت هذا الحديث والذى قبله صريح بأن الآجال والأرزاق مقدرة ، وكذا السعادة والشقاوة لاتتغير عما قدره الله وعلمه فى الأزل فيستحيل زيادتها ونقصانها ، وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقيا أو الشقى سعيدا ، وقد صح فى فضل صلة الرحم أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، فكيف الجمع بين هذه الأحاديث وبين قوله تعالى « يمحو الله مايشاء ويثبت » . قلت قد تقرر بالدلائل القطعية أن الله عالم بالآجال والأرزاق وغيرها ، وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ماهو عليه ، فإذا علم الله أن زيدا يموت فى وقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده، وهوقوله تعالى « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » فدل ذلك على أن الآجال لاتزيد ولا تنقص . وأجاب العلماء عما ورد فى الحديث فى فضل صلة الرحم من أنها تزيد فى العمر بأجوبة الصحيح منها أن هذه الزيادة تكون بالبركة فى عمره بالتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه فى الآخرة وصيانتها عن الضياع وغير ذلك . والجواب الثانى منها أنها بالنسبة إلى مايظهر للملائكة فى اللوح المحفوظ أن عمر زيد مثلا ستون سنة إلا أن يصل رحمه ، فان وصلها زيد له أربعون سنة ، وقد علم الله فى الأزل ماسيقع من ذلك وهو معنى قوله تعالى « يمحو الله مايشاء ويثبت » : أى بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصور الزيادة . وأما انقلاب الشقي سعيدا والسعيد شقيا فيتصور فى الظاهر أيضا لأن الكافر قد يسلم فينقلب من الشقاوة إلى السعادة، وكذا العاصى ونحوه، وقديتوب فينقلب من الشقاوة إلى السعادة وقد يرتد المسلم والعياذ بالله تعالى فيموت على ردته فينقلب من السعادة إلى الشقاوة ، والأصل فى هذا الاعتبار بالخاتمة وما يختم الله به له ،وهو المراد من علم الله الأزلى الذى لايتغير ولا يبدل ، والله أعلم . وأصل المحو إذهاب أثر الكتابة وضده الإثبات ، فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها

وَأَمَّا الْمَمْلُوكُ : فَمَا يَمْلِكُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَمْوَالِ

فجعلها عامة فى كل شىء يقتضيه ظاهر اللفظ فيزيد الله ما يشاء فى الرزق والأجل ، وكذا القول فى السعادة والشقاوة والإيمان بالله والكفر، ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فانهما قالا: يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والأجل ويثبت مايشاء . وروى عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول « اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها وإن كنت كتبتنى من أهل الشقاوة فامحنى منها وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب» وروى مثله عن ابن مسعود ، وقد ورد فى بعض الآثار أن الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد إلي ثلاثين سنة هكذا ذكره البغوى بغير سند ، وروى بسنده عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينزل الله تبارك وتعالى فى ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لاينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت » ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص فى بعض الأشياء دون بعض . فقال المراد بالمحو والإثبات نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر عوضا عن الحكم المتقدم ، وقيل إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بنى آدم وأقوالهم فيمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة مما ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قول القائل : أكلت شربت دخلت خرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب وهذا قول الضحاك . وقال الكلبى : يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه شىء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، وقال ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو ، والذى يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت . وقال الحسن يمحو الله ما يشاء : يعنى من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجىء أجله . وقال سعيد بن جبير : يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها ؟ وقال عكرمة : يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات . وقال السدى . يمحو الله ما يشاء : يعنى القمر ويثبت الشمس وقال الربيع : هذا فى الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه ، وقيل إن الله يثبت فى أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة ، وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة ، وقيل هو المحن والمصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة ؛ وقيل إن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء لا اعتراض لأحد عليه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

فإن قلت : مذهب أهل السنة أن المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن إلي يوم القيامة فكيف يستقيم مع هذا المحو والاثبات . قلت : المحو والاثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيئا ولا يثبت شيئا إلا ما سبق به علمه فى الأزل وعليه يترتب القضاء والقدر هكذا ذكره الخازن . قال المصنف رحمه الله تعالى (وأما) الرزق (المملوك فما يملكه كل واحد من أموال

الدُّنْيَا عَلَى حَسَبِ مَاقَدَّرَ اللهُ تعالى وَقَسَمَ لَهُ أَنْ يَمْلِكَهُ وَهُوَ مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعَالَى، قالَ تعالى: (أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) أَيْ مِمَّا مَلَّكْنَاكُمْ.

وَأَمَّا المَوْعُودُ: فَهُوَ مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ المُتَّقِينَ بِشَرْطِ التَّقْوَى حَلَالاً مِنْ غَيْرِ كَدٍّ، قالَ اللهُ تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

الدنيا على حسب ماقدر الله تعالى و) ما (قسم له) أى لكل واحد (أن يملكه وهو) أى المملوك (من رزق الله تعالى. قال) الله (تعالى) «يا أيها الذين آمنوا (أنفقوا مما رزقناكم») قال المصنف (أى مما ملكناكم) قيل أراد به الزكاة الواجبة، وقيل أراد به صدقة التطوع والإنفاق فى وجوه الخير (وأما) الرزق (الموعود فهو ماوعد الله به عباده المتقين بشرط التقوى حلالا من غير كد) أى تعب ومشقة (قال الله تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا») من كرب الدنيا والآخرة (ويرزقه من حيث لايحتسب) من وجه لايخطر بباله ولا يحتسبه. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال: مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة. وقال صلى الله عليه وسلم «إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم: ومن يتق الله، فما زال يقرؤها ويعيدها» كذا ذكره النسفى. وقال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية فى عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى عوف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكي إليه الفاقة، وقال إن العدو أسر ابنى وجزعت الأم فما تأمرنى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اتق الله فاصبر وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول: لاحول ولا قوة إلا بالله» فعاد إلى بيته وقال لامرأته إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى وإياك أن نكثر من قول: لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقالت نعم ماأمرنا به فجعلا يقولان فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها إلى المدينة وهى أربعة آلاف شاة فنزلت الآية وجعل النبى صلى الله عليه وسلم تلك الأغنام له. وروى الحسن عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها» وقال الزجاج: أى إذا اتقى وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه إن كان ذا ضيق ورزقه من حيث لايحتسب. وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لايحتسب» والتوكل على الله لاينافى تعاطى الأسباب فترك تعاطيها اتكالا على الله خسة همة وعدم مروءة لأن فيه إبطال الحكمة التى أحكمها الله فى الدنيا من ترتيب المسببات على الأسباب كما ذكره الخطيب. فان قيل نرى كثيرا من الأتقياء مضيقا عليه فى الرزق. أجيب بأنه لايخلو عن رزق، والآية لم تدل على أن المتقى يوسع له فى الرزق بل دلت على أنه يرزق من حيث لايحتسب

فَهٰذِهِ أَقْسَامُ الرِّزْقِ ، وَالتَّوَكُّلُ إِنَّمَا يَجِبُ بِإِزَاءِ الْمَضْمُونِ مِنْهَا، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ .

وَأَمَّا حَدُّ التَّوَكُّلِ : فَقَدْ قَالَ بَعْضُ شُيُوخِنَا إِنَّهُ اتِّكَالُ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ بِالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِ وَالْإِيَاسِ عَمَّا دُونَهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حِفْظُ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ بِمَوْضِعِ الْمَصْلَحَةِ بِتَرْكِ تَعْلِيقِهِ عَلَى شَيْءٍ دُونَهُ .

وَقَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : التَّوَكُّلُ تَرْكُ التَّعَلُّقِ ، وَالتَّعَلُّقُ ذِكْرُ قِوَامِ بِنْيَتِكَ عَنْ شَيْءٍ دُونَ اللهِ تَعَالَى .

قَالَ شَيْخِي الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ : التَّوَكُّلُ وَالتَّعَلُّقُ ذِكْرَانِ ، فَالتَّوَكُّلُ هُوَ ذِكْرُ قِوَامِ بِنْيَتِكَ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى، وَالتَّعَلُّقُ ذِكْرُ قِوَامِهَا عَمَّنْ دُونَ اللهِ، وَالْأَقَاوِيلُ عِنْدِي تَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَنْ تُوَطِّنَ قَلْبَكَ عَلَى أَنَّ قِوَامَ بِنْيَتِكَ وَسَدَّ خَلَّتِكَ

وهذا أمر مطرد فى الأتقياء كما قاله العلامة الكرخى (فهذه) أي الأقسام المذكورة (أقسام الرزق) وهى أربعة كما تقدم (والتوكل إنما يجب بإزاء) الرزق (المضمون منها) أى من تلك الأقسام (فاعلم ذلك) أى كون التوكل إنما يجب بازاء المضمون (وأما حد التوكل فقد قال بعض شيوخنا : إنه) أى التوكل (اتكال القلب إلى الله بالانقطاع إليه) تعالى (والإياس) أى القنوط (عما دونه) أى غيره من الخلق ، فالحجة فى هذا القول قصة إبراهيم عليه السلام قال له جبريل : ألك حاجة وهو مربوط فى كفة المنجنيق بين السماء والأرض يهوى إلي نار وقد تأججت ؟ فقال أما إليك فلا . قال جبريل فسل من لك إليه حاجة فقال أحب الأمرين إلى أحبهما إليه . هكذا ذكره أحمد ، فكأنه جعل التوكل التفويض والرضا بجريان الأحكام من غير مسئلة ولا اعتراض، وهذا لعمرى هو حال المتوكلين (وقال بعضهم) إنه (حفظ القلب إلى الله بموضع المصلحة) وذلك (بترك تعليقه) أى القلب (على شئ دونه) أى غيره تعالى (وقال الشيخ الإمام أبو عمر رحمه الله تعالى) قيل أراد به أبا عمرو محمدبن إبراهيم الزجاجى النيسابورى جاور بمكة سنين كثيرة ومات بها صحب الجنيد وأباعثمان والنورى والخواص ورويما، مات سنة ثمان وأربعين وثلثمائة (التوكل ترك التعلق) أى تعلق القلب (والتعلق ذكر قوام بنيتك عن شيء دون الله تعالى. قال شيخى الإمام) أبوبكر الوراق (رحمه الله التوكل والتعلق ذكران) فى القلب (فالتوكل هو ذكر قوام بنيتك من قبل) بكسر القاف وفتح الباء (الله تعالى، والتعلق ذكر قوامها) أى البنية (عمن دون الله) قال المصنف رحمه الله تعالى (والأقاويل) المذكورة (عندى ترجع إلى أصل واحد ، وهو) أى الأصل الواحد (أن توطن) أى تقرر وتمهد (قلبك على أن قوام بنيتك وسد خلتك) الخلة الحاجة

وَكِفَايَتِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ بِأَحَدٍ دُونَ اللهِ ، وَلاَ بِحُطَامٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلاَ بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ ، ثُمَّ اللهُ سُبْحَانَهُ إِنْ شَاءَ سَبَّبَ لَهُ مَخْلُوقًا أَوْ حُطَامًا ، وَإِنْ شَاءَ كَفَاهُ بِقُدْرَتِهِ دُونَ الأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ ، وَإِذَا ذَكَرْتَ ذَلِكَ بِقَلْبِكَ وَتَوَطَّنْتَ عَلَيْهِ وَانْقَطَعَ الْقَلْبُ عَنِ الْمَخْلُوقِينَ وَالأَسْبَابِ بِمَرَّةٍ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ ، فَقَدْ حَصَّلَ التَّوَكُّلَ حَقَّهُ ، فَهَذَا حَدُّهُ .

والفقر والخصاصة ، كذا فى سراج السالكين (وكفايتك إنما هو) أى ماذكر من قوام البنية وسد الخلة (من الله عز وجل لا بأحد دون الله ولا بحطام من الدنيا) حطام الدنيا مافيها من مال قليل أو كثير (ولا بسبب من الأسباب ؛ ثم الله سبحانه إن شاء سبب) أى جعل السبب (له) أى للعبد المتوكل (مخلوقا أو حطاما) من الدنيا (وإن شاء كفاه) أى العبد (بقدرته) تعالى (دون الأسباب والوسائط) وذلك كما وقع لأبى الحسين النورى رحمه الله أنه جاع فى البادية فهتف هاتف أيما أحب إليك سبب أو كفاية ؟ فقال الكفاية فليس فوقها نهاية فبقى سبعة عشر يوما لم يأكل هكذا ذكره القشيرى (وإذا ذكرت ذلك) أى إن قوام البنية وسد الخلة إنما هو من الله دون غيره (بقلبك وتوطنت عليه) أى على ذكر ذلك (وانقطع القلب عن) الاعتماد على (المخلوقين والأسباب بمرة) بل كان اعتماد القلب وتوجهه وذكره (إلى الله سبحانه وحده) دون غيره (فقد حصل التوكل حقه فهذا) أي الذى ذكرناه من أن الأقاويل ترجع إلى أصل واحد (حده) أى التوكل ، وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ماذكره المصنف فلابأس أن نورد ماقاله الشيوخ ولاسيما فى بعض ماقالوه فى حقيقة التوكل ،وفى بعضه إشارة إلى أعلى مقاماته ومعرفة ذلك مهمة ، فنقول : قال أبو طالب المكى صاحب القوت : قال بعض العارفين لما سئل عن حقيقة التوكل ؟ هو الفرار من التوكل : أى يتوكل ولا ينظر إلى توكله أنه لأجله يكفى أويعافى أويوفى فجعل نظره إلى توكله علة فى توكله يلزمه الفرار منها حتى يدوم نظره إلى الوكيل وحده بلا خلل ويقوم له بشهادة منه بلا ملل ، ولا يكون بينه وبين الوكيل شئ ينظر إليه أو يعول عليه أويدل به حتى التوكيل أيضا الذى هو طريقه . وقد عبرت طائفة من أهل المعرفة عن هذا المعنى بعبارات ، فقال أبو تراب النخشبى : التوكل طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية . وقال الزقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد . وقال غيره : التوكل هو الخمود تحت الموارد ، وكان بعض أشياخنا إذا سئل عن التوكل أجاب عنه بعين الحقيقة : فيقول : هو أن تكون مع الحق كما لم تكن فان الحق الآن كما لم يزل . وقال الجريرى : التوكل معاينة الاضطرار : أى يكون بضاعته عند مولاه الإفلاس وحاله فى الأعمال الإياس . وقال سهل : التوكل هو التبرى من الحول والقوة .وقال غيره هو عدم الاهتمام بما قد كفى كما لايهتم الصحيح بالدواء إذا عوفى . وكان الحسن يقول :

التوكل هو الرضا وهو إشارة إلى أعظم ثمراته ، وقيل هو تسليم الأقدار كلها للقادر واعتقاد أن جميعها قضاؤه وقدره ، وهو إشارة إلى القدر المفروض منه . وقال ابن عطاء : ليس التوكل لزوم الكسب ولا تركه إنما التوكل طمأنينة فى القلب إلى النار ، وكذلك قال أبو عبد الله القرشى فى التوكل : إنما هو اطمأن إلى الله سرا وجهرا ورضى به كفيلا ونحوه . قال رويم إنما التوكل الثقة بالله فى كل ماضمن فى حال . وقال أبو موسى الديبلى : التوكل هو أن يستوى عندك البادية وباب الطاق . وقال غيره : التوكل استيلاء الوجد على إشارة وحذف التشرف إلى الإرفاق ، يعنى يغلب وجده إشارته بقول أوهمة فيشغله عن التفرغ إلى غيره . وقيل التوكل هو الكف عن الأغيار فى السر والعلانية والسكون إلى الخلق بلاواسطة . وقال سهل : التوكل هو التقوى ، واحتج بقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » فإن المعنى اعبدوه بالتوكل . وقال مرة : هو إظهار الفقر والفاقة إليه . ووافقه فى ذلك أبو بكر محمد بن موسى الواسطى فقال : التوكل هو قصد الفاقة والافتقار . وقال النهرجورى : التوكل نسيان حظوظ النفوس . وقال الخواص : التوكل الاكتفاء بعلم الله فيك من تعلق القلب بسواه ، وقال يحيي بن معاذ : من حقيقة التوكل ترك العبد محابه لمحاب الله واختياره لاختيار الله وتدبيره لتدبير الله بالغناء عن نفسه وبالنظر إلى مجارى الأحكام والقدر ، وهذا إشارة إلى المقام الثالث وهو أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لايفارقه فى حال إلا أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت يمينا وشمالا ، وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه وهذا بعينه مفاد قول سهل رحمه الله . قال القشيرى قال سهل بن عبد الله : أول مقام فى التوكل أن يكون العبد بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد لايكون له حركة ولا تدبير . وقال صاحب القوت وقد كان سهل يقول : تلق نفسك فى اللج وتحت جريان الحكم ، وقال مرة : تكون بين يديه مثل الميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء : وأنشدت لبعضهم :

ولما رأيت القضاء جاريا لاشك فيه ولا مرية
توكلت حقا على خالق وألقيت نفسى مع الجرية

وقال يحيي بن معاذ : التوكل على ثلاث درجات ترك الشكاية والرضا والمحبة ، فترك الشكاية أن لايشكو ربه ، والرضا أن يرضى بما قسم له ، والمحبة أن تكون محبته فى قضاء الله تعالى ، فأولها للصالحين ، والثانية للأولياء ، والثالثة للأبدال ، وهذا إشارة إلي درجات البداية . وأما توكل النبيين والصديقين فهو أن لايركن القلب إلي سبب ولا مخلوق ولاينظر إلى مادون الله نظرة وهو من عزائم التوكل . قال صاحب القوت وأخبرنى بعض الأشياخ عن أبى على الروذبارى أنه قال : التوكل على ثلاث درجات : الأولى منها إذا أعطى شكر وإذا منع صبر . والثانية المنع والعطاء عنده واحد ، والثالثة المنع مع الشكر أحب إليه من اختياره . وقال غيره : التوكل على ثلاث درجات

أولاها الصبر عند البلاء ، وأوسطها الشكر عند شهود البلاء ، وآخرها الرضا بمجاري الأقدار والأحكام ، هذا ماذكره العلامة الزبيدى من كتاب قوت القلوب مع الاختصار . وقد ذكر القشيرى فى الرسالة بعض ماهو فى القوت فلنذكر مالم يذكره صاحب القوت . قال حمدون القصار : التوكل هو الاعتصام بالله ، وقد أشار بذلك إلى عموم التوكل فى المقامات الثلاث ، وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلا ؟ قال : إذا رضى بالله وكيلا . وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل فقال : أن لايظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها ، وذكر القشيرى قول أبى تراب النخشبى السابق إلا أنه زاد بعد قوله بالربوبية : والطمأنينة إلى الكفاية ، فان أعطى شكر وإن منع صبر . وقال ذوالنون : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول والقوة ، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ماهو فيه . وقال سهل : التوكل الاسترسال مع الله على مايريد، وهذا إشارة إلى مقام التسليم وفيه ترك الاختيار . وقال غيره: التوكل أن يستوى عندك الإكثار والتقلل ، وهذا إشارة إلى مقام من مقامات التوكل . وقال ابن مسروق : التوكل الاستسلام لجريان القضاء والأحكام وهذا إشارة إلى مقام التفويض وفيه ترك الاختيار وهو المقام الثالث . وقال أبو عثمان الحيرى : التوكل الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه وهذا إشارة إلى المقام الثانى . وسئل الزقاق عن التوكل؟ فقال هو الأكل بلا طمع وهذا إشارة إلى إحدى أماراته . وقيل : التوكل نفى الشكوك والتفويض إلى ملك الملوك، أراد بنفى الشكوك قوة اليقين وأطلق التوكل على التفويض وهو أعلى منه لأنه من ثمراته كما أن اليقين من أصوله ففيه إشارة إلى الأصل والثمرة . وقيل التوكل الثقة بما فى يد الله تعالى واليأس عما فى أيدى الناس ، وهذا إشارة إلى سبب التوكل الذى هو الاعتماد على الله لاعلى نفسه ، وقيل التوكل فراغ السر عن التفكر فى التقاضى فى طلب الرزق وهذا إشارة إلى ثمرة من ثمرات التوكل لانفسه فإن من توكل على الله ولم يلتفت إلى غيره من الأسباب استراح قلبه من هم الاكتساب وإن أمر بالاكتساب .

﴿ تنبيه ﴾ تقدم أن التوكل مع شرفه منخفض الرتبة عن التسليم والتفويض ، وهل التفويض أعلى مقاما أو التسليم ؟ فمنهم من قال التفويض أعلى ، ومنهم من قال التسليم أعلي ، وعلي كل حال فالواجب علي العبد لجهله أن يستخير الرب تعالى لعلمه وكمال قدرته ، فما للعبد العاجز الجاهل إلا الذل والاذعان وترك الاختيار ، إذ لو فرضنا أن الله تعالى صب علي عباده بلاء عريا عن المصلحة لكان يجب على العبد التسليم والإذعان لأنه أحكم الحاكمين ، فقد قال صاحب القوت : اعلم أن العلماء بالله لم يتكلموا عليه لأجل أن يحفظ لهم دنياهم ولا لأجل تبليغهم رضاهم ومرادهم ولا ليشترطوا عليه حسن القضاء بما يحبون ولا ليبدل لهم جريان أحكامه عما يكرهون ولا ليغير لهم سابق مشيئته إلى مايعقلون ولا ليحول عنهم مامضى من سنته التى قد خلت فى عباده من الابتلاء والامتحان والاختبار إلى مايعملون هو أجل فى قلوبهم من ذلك وهم أعقل عنه وأعرف به من هذا لو اعتقد عارف بالله تعالى أحد هذه المعانى مع الله فى توكله

وَأَمَّا حِصْنُ التَّوَكُّلِ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ ذِكْرُ ضَمَانِ اللهِ ،

لكان كبيرة توجب عليه التوبة وكان توكله معصية وكان مافات عليه من حقيقة التوحيد أشد عليه مما أدرك من توهم التوكل ، وإنما أخذوا نفوسهم بالصبر علي أحكامه كيف جرت وطالبوا قلوبهم بالرضا عنه بأى معنى جرى انتهى. فان قال قائل إن كانت الإرادة قد خصصت الأشياء ووضعها في مراتبها والقدرة توجب ذلك بالضرورة فى الوقت المقدر ، إذ من المحال أن تخصص الإرادة شيئا ولا توجده القدرة على وفاق التخصيص فما فائدة التوكل ، وقد قال تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه» فالجواب عن هذا كالجواب فى مسئلة الدعاء ، فكما أن الدعاء عبادة فى نفسه فكذلك التوكل عبادة تعبدنا الله تعالى بها ، وهو والدعاء من جملة الأسباب التى رتب عليها مسبباتها ، ولذلك قال الله تعالى « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم » ومعلوم أن الله تعالى مولى المؤمنين والكافرين إلا أن للمؤمنين ولاية خاصة سوى الولاية العامة بسبب توكلهم علي مولاهم ؛ وكما أن الدعاء إذا وافق المشيئة حصل المدعو به بعينه وإن لم يوافق المشيئة عوض عن المدعو المطلوب أضعافا فكذلك المتوكل يتوكل على الله فى جميع أموره والرب تعالى يجرى عليه أحكامه التى سبقت بها مشيئته، فان وافقت غرض المتوكل فهو الزبد بالشهد وإن خالفت غرضه عوضه الله تعالى على توكله أضعاف ذلك، ومن هنا قالوا إن التسليم أفضل درجات التوكل لابتنائه على أعز أنواع العلم والحكمة كذا حققه الزبيدى . ثم شرع المصنف فى بيان حصن التوكل وحصن حصنه ، فقال رحمه الله تعالى (وأما حصن التوكل الباعث عليه) أى الحامل على التوكل (فهو ذكر ضمان الله) للرزق الذى تدوم به حياة العبد وهو الرزق الطالب ، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن جل جلاله واطمأن الى ضمانه وسكن إليه قلبه فإن الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لاتحصى ومجاريه لايهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وهى من عالم الملك ، وسببه فى السماء وهى من عالم الملكوت . قال الله تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون » . وأسرار السماء لايطلع علي تفاصيلها لأنها من عالم الملكوت . وذكر الشيخ ابن عطاء الله فى كتاب [التنوير] لهذه الآية فوائد ماملخصها: أي ياهذا المطلع للرزق من المخلوق الضعيف العاجز في الأرض ليس رزقك عنده إنما رزقك عندى وأنا الملك القادر ، ولأجل هذا لما سمع بعض الأعراب هذه الآية نحر ناقته وخرج فارا إلى الله تعالي وهو يقول : سبحان الله رزقي فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض . فانظر كيف فهم عن الله أن مراده بهذه الآية أن يرفع هم عباده إليه وأن تكون رغبتهم فما لديه كما قال فى الآية الأخرى « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» لتنحاش الهمم إلى بابه وتجنح القلوب إلى جنابه، فكن سماويا علويا ولا تكن سفليا أرضيا ولذلك قال بعضهم :

أبعد نفوذى فى علوم الحقائق ... وبعد انبساط فى مواهب خالق

وفى حين إشرافى على ملكوته ... أرى باسطا كفا إلى غير رازقى

وَحِصْنُ حِصْنِهِ ذِكْرُ جَلَالِ اللهِ وَكَمَالِهِ فِى عِلْمِهِ وَرِزْقِهِ وَقُدْرَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ عَنِ الْخُلْفِ وَالسَّهْوِ وَالْعَجْزِ وَالنَّقْصِ، فَإِذَا وَاظَبَ الْعَبْدُ عَلَى هٰذِهِ الْأَذْكَارِ بَعَثَتْهُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِى أَمْرِ الرِّزْقِ .

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ طَلَبُ الرِّزْقِ بِحَالٍ مَّا؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّزْقَ الْمَضْمُونَ الَّذِى هُوَ الْغِذَاءُ

وكيف تقر له بالربوبية يوم «ألست بربكم» وتعرفه وتوحده وتجهله ههنا وقد تواتر عليك إحسانه وغمرك فضله وامتنانه كما قيل :

في القلب لكم منزلة علياء لاتسكنها سعدى ولا لمياء
في الذر عرفتكم فهل يحمل بي أن أنكركم ولحيتى شمطاء

فهذه الآية هى التى غسلت الشكوك من قلوب المؤمنين وأشرقت فى قلوبهم أنوار اليقين . وقد تضمنت ذكر الرزق ومحله والتشبيه له بأمر لاخفاء فيه. وفيها فوائد : [الأولى] لما علم سبحانه كثرة اضطراب النفوس فى شأن الرزق كرر رزقه كما تكررت ورود عوارضه على القلوب كما تكرر الحجة . إذا علمت أن الشبه مستمكنة فى نفس الخصم ليكون ذلك أوكد فى الحجة فذكر فى هذه الآية محل الرزق وبينه لتسكن إليه القلوب ، وليس الضمان مع إبهام المحل كالضمان مع تبيينه فهذا أبلغ فى ثقة النفس به وأقوى فى دفع الشك فيه . [الثانية] يحتمل أنه أراد إثبات رزقكم أى إثباته من اللوح المحفوظ ، ففيه إعلام لهم أن الشئ الذى منه رزقكم أثبتناه عندنا فى كتابنا وقضيناه بمشيئتنا من قبل وجودكم فلأىّ شئ تضطربون ومالكم إلىّ لاتسكنون وبوعدى لاتثقون ؟ ويحتمل أنه أراد بالرزق الماء . وقال ابن عباس : هو المطر فيكون الشئ الذى منه أصل رزقكم ولأن الماء فى أصله رزق . [الثالثة] يمكن أن يكون مراد الحق بهذه الآية تعجيز العباد عن دعوى القدرة على الأسباب ، لأن الله تعالى لو أمسك الماء على الأرض لتعطل كل ذى سبب ، فكأنه يقول ليست أسبابكم هى الرازقة لكم ، ولكن أنا الرازق لكم ، وبيدى تيسير أسبابكم لأنى أنا المنزل لكم مابه كانت أسبابكم . [الرابعة] فى اقتران الرزق بالأمر فائدة جليلة، وذلك أن المؤمنين علموا أن ماوعدهم الحق لابد من كونه ولا قدرة لهم على تعجيله ولا تأجيله ، ولا حيلة لهم فى جلبه ، فكأنه تعالى يقول كما لاشك عندكم أن عندنا ماتوعدون كذلك لايكن عندكم شك فى أن عندنا ماترزقون ، وكما أنكم عن استعجال ماوعدنا قبل وقته عاجزون كذلك أنتم عاجزون عن أن تستعجلوا رزقا أجلته ربوبيتنا ووقتته إلهيتنا (وحصن حصنه) أى التوكل (ذكر جلال الله وكماله فى علمه وقدرته ونزاهته عن الخلف) اسم من الإخلاف (والسهو والعجز والنقص ، فاذا واظب العبد على هذه الأذكار) أى أذكار سبحان الله وجلاله وكماله ، وغير ذلك (بعثته) أى حملته هذه الأذكار (على التوكل على الله سبحانه فى أمر الرزق . فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما ، فاعلم) أرشدك الله (أن الرزق المضمون الذى هو الغذاء

وَالْقِوَامُ لاَ يُمْكِنُنَا طَلَبُهُ إِذْ هُوَ شَيْءٌ مِنْ فِعْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ كَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ لاَ يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَلاَ دَفْعِهِ .

وَأَمَّا الْمَقْسُومُ مِنَ الْأَسْبَابِ فَلاَ يَلْزَمُ الْعَبْدَ طَلَبُهُ ، إِذْ لاَ حَاجَةَ لِلْعَبْدِ إِلَى ذٰلِكَ ، وَإِنَّمَا حَاجَتُهُ إِلَى الْمَضْمُونِ ، وَهُوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَفِى ضَمَانِ اللهِ تَعَالَى .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ) فَالْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ وَالثَّوَابُ ، وَقِيلَ : بَلْ هُوَ رُخْصَةٌ إِذْ هُوَ أَمْرٌ وَارِدٌ بَعْدَ الْحَظْرِ فَيَكُونُ بِمَعْنَى الْإِبَاحَةِ ،

والقوام) أى مايقيم البنية (لايمكننا طلبه) أى المضمون (إذ هو) أى هذا المضمون (شئ من فعل الله سبحانه للعبد ، كالحياة والموت لايقدر العبد على تحصيله ولا دفعه) أى ذلك المضمون (وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه) أى المقسوم (إذ لاحاجة للعبد إلى ذلك) الطلب (وإنما حاجته) أى العبد (إلى المضمون ، وهو) أى المضمون (من الله تعالى وفى ضمان الله تعالى) فحينئذ عليك بالقناعة بالنزر اليسير مما هو فى يديك ، والرضا بالقوت المتيسر فانه سيأتيك لامحالة وإن فررت منه ؛ ولذلك قال علىّ كرم الله وجهه : الرزق رزقان : رزق يطلبك ، ورزق تطلبه . وفسره بعض العلماء ، فقال : الرزق الذى يطلبك هو رزق الغذاء ، والرزق الذى تطلبه رزق التملك ، وهو طلب فضول القوت ، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدى من لاتحتسب ، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب » إلا أنه تعالى لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة وغيرها من فضول الأقوات. فما ضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته ، وهو الرزق الطالب كما تقدم (وأما قوله تعالى) « ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » (وابتغوا من فضل الله) اطلبوا من رزق الله إن شئتم ، فهذه رخصة بعد النهى ، وهاهوجه آخريقول«فإذا قضيت الصلاة» : إذافرغ الإمام من صلاة الجمعة «فانتشروا فى الأرض» فتفرقوا فى المسجد ، وابتغوا من فضل الله اطلبوا ماهو أفضل لكم : يعنى علم السر والتوحيد والزهد والتوكل كذا ذكره أبو طاهر فى تنوير المقباس. وفى الحديث «وابتغوا من فضل الله» ليس بطلب الدنيا وإنما هو عيادة وحضور جنازة وزيارة أخ فى الله ، وقيل وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم ، وإلى هذين الوجهين أشار المصنف بقوله (فالمراد به) أى بالفضل (العلم والثواب ، وقيل بل هو) أي الأمر بقوله تعالى «وابتغوا من فضل الله» (رخصة إذ هو) أى هذا الأمر (أمر وارد بعد الحظر) أى المنع، وهوقوله «وذروا البيع» (فيكون) الأمر (بمعنى الإباحة) قال ابن عباس: إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد ، وإن شئت فصل إلى العصر. وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى

لَا بِمَعْنَى الْإِيجَابِ وَالْإِلْزَامِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَكِنْ لِهَذَا الرِّزْقِ الْمَضْمُونِ أَسْبَابٌ ، هَلْ يَلْزَمُنَا طَلَبُ الْأَسْبَابِ ؟

قِيلَ لَهُ : لَا يَلْزَمُكَ ذَلِكَ ، إِذْ لَا حَاجَةَ لِلْعَبْدِ إِلَيْهِ ، إِذِ اللهُ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ ، فَمِنْ أَيْنَ يَلْزَمُنَا طَلَبُ السَّبَبِ ؟

الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، وقال : اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتنى فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين (لا بمعنى الإيجاب والإلزام) وأما قولهم إن ما كان ممنوعا منه إذا جاز وجب كقطع اليد فى السرقة . فيجاب بأنها قاعدة أكثرية لا كلية بدليل سجودى السهو والتلاوة فى الصلاة كما صرح به شيخ الاسلام زكريا الأنصارى (فإن قيل : لكن لهذا الرزق المضمون أسباب هل يلزمنا طلب الأسباب) أم لا ؟ (قيل له) أى للقائل المذكور (لا يلزمك ذلك) أى طلب الأسباب (إذ لا حاجة للعبد إليه) أى الطلب (إذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب ؟) ولذلك قال أبو يعقوب السوسى : المتوكل إذا رأى السبب أو ذم أو مدح فهو مدع لا يصح له التوكل ، ولهذا قال الخواص . التوكل هو الاكتفاء بعلم الله فيك من تعلق القلب بسواه . قال عامر بن عبد الله : قرأت ثلاث آيات من كتاب الله استغنيت بهن على ما أنا فيه ، فاستغنيت بقوله تعالى « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله » . قلت إن أراد أن يضرني لم يقدر أحد أن ينفعني ، وإن أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى ، وقوله سبحانه « فاذكرونى أذكركم » فاستغنيت بذكره عن ذكر من سواه ، وقوله تعالى « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فوالله ماهممت برزقى منذ قرأتها فاسترحت . والحاصل أن حال المتوكل سكون القلب عن الاشتراك وقطع الهم عن التطلع لما بأيدى الناس وعكوف القلب على المدبر الحق مشغول الفكر بقدرة القدر لا يحمله عدم الأسباب على ماحذره العلم عليه وذمه ، ولا يمنعه أن يقول الحق وأن يعمل به أو يوالى فى الله ويعادى فيه جريان الأسباب على أيدى الخلق فيترك الحق حياء منهم أو طمعا فيهم أو خشية قطع المنافع المعتادة ولا يدخله طوارق الحاجات ونوازل الضرورات فى الانحطاط فى أهواء الناس والميل إلى الباطل أو فى السكوت عن حق أن يلزمه أو يوالى عدوًّا أو يعادى وليا ليرى بذلك حاله عندهم أو يشكر بذلك ما أسدوه إليه بالكف عنهم ولا يرى الصنعة التى قد عرف بها لقوة نظره إلى الصانع ولا يتصنع لمصنوع دخيلة لعلمه بسبق الصنع لدوام مشاهدته ولا يسكن إلى عادة عن خلق ولا يثق بمعتاد من مخلوق ، فهذه المعانى من فرض التوكل .

﴿فائدة﴾ لا يضر التصرف والتكسب ممن صح توكله ولا يقدح فى مقامه ولا ينقص حاله إذا أحكم فيه معنيين : النظر إلى الوكيل فى أول الحركة فيكون متحركا به ، والرضا فى الحكم بعد التصرف فيكون مطمئنا إليه ، وقد كان الصانع بيده أحب إليهم من التاجر والتاجر أحب إليهم من البطال ،

فإن كان حال المتوكل التصرف فيما قد وجه فيه دخل فى الأسباب وهو ناظر إلى المسبب فى تصريفه معتمد عليه واثق به فى حركته مكتسب فيما يقلبه فيه مولاه متيقن فيما يسببه له ويوجهه فيه وكيله ، وهو عالم بأن الله تعالى قد أودع الأشياء منافع خلقه وجعلها خزائن حكمته ومفاتيح رزقه مجتمع الخلق بجانبه غير متشتت بتفرق همه ، متبع للسنة والأثر تارك للترفه والنعمة ، فهو فى تكسبه وتصرفه أفضل ممن دخلت عليه العلل فى توكله فساكنها وسكن إلى سكون نفسه فى بطالتها وفراغها من هم الآخرة طلبا لراحتها ، ومن دخلت عليه الآفة فى ترك التكسب فليخرج منها إلى الاحتراف ، ومن دخل عليه اليقين واقتطع فليقعد عن الاكتساب ، ومن اعتل بالتكسب فليداو بتركه ، ومن صح فيه وأوجبه الحكم فليكتسب والتكسب خير من التشوف إلى الخلق ومن الطمع فيهم ، واعتياد المسألة وسالكه على طريقه فهو يصل وإن كان فى طريقه بعد ، والتوكل إذا اعتد به واقتطع عن أربه ناظرا إلى الوكيل منتظرا للوارد متفرغا للفوائد أفضل إذا صح فى ذلك وصدقت حاله واستقام عليه فهو طريق قريب وسالكه مقرب . قال السرى رحمه الله : فى قوله تعالى « واجعلنا للمتقين إماما » إن المتقى لايكون رزقه من كسبه لأن الله تعالى يقول « ويرزقه من حيث لايحتسب » فكأنه يقول اجعلنا إماما للمتوكلين الذين أرزاقهم لامن أكسابهم بل من حيث لايحتسبون ، وهؤلاء هم أهل الصفوة والصفاء الصوفيون الذين توكلوا على الله لله بالله لا فى الأرزاق ولا فى العالم يد عليهم من الإرفاق كما قال قائلهم : الدنيا فانية والآخرة باقية والأرزاق مفروغ منها فعلى ماذا أتوكل عليه أن لايبعدنى من قربه . وقال بعضهم : الاعتماد على الخلق هو الخذلان ومن اعتمد بسوى ربه فى توكله خاب سعيه . وقال إبراهيم الخواص : أكثر الخلق تعلقوا بالأسباب فاذا صحت المعرفة لله بالقلب سكن القلب إلى ما فى الغيب أشد من سكونه إلى مافى اليد من الأسباب الظاهرة ، لأن ما فى يد العبد لايدرى مايحدث الله فيه وماله عند الله هو الباقى يأتى به على أوقاته ، فاذا كان القلب قويا عند زوال الدنيا وإدبارها متبرما بما فى اليد منها صح التوكل وإذا ضعفت المرآة فى القلب ركن القلب إلى الأسباب وخاف من زوالها قبل أن تزول ، فان زال منها شئ لحق القلب الجزع والتغير من خوف الفقر . قال بعض المحققين فى قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » أى ماأريد أن يرزقوا خلقى « إن الله هو الرزاق » : أى إنه لايطالبهم أن يرزقوا نفوسهم إذا خدموه فذكر الله فى هذه الآية الوجوه الثلاثة من تصرف العبيد التى أباحها للموالى ، ثم اختار لنفسه أحدها وهو الخدمة وعليه الكفاية ، واختار من العبد أحدها لجعلها عديدة وتنزه عن أحدها وتعالى عنه وهو الإطعام من العبيد له وصرف عموم العبيد فى الوجه الثالث من الاطعام لأنفسهم وهو التكسب وضرب هذا مثلا بينه وبين خلقه فى الأرض « وله المثل الأعلى فى السموات والأرض » فبقى العبد من الله بحكمين : [أحدهما] مع اختياره لنفسه من العبادة ، وهى المعاملة وعليه الرزق كيف شاء ومتى شاء وهؤلاء عبيد الرحمن لاعبيد الدنيا . [والثانى] ماصرف العبيد من التكسب لأنفسهم جعل ذلك رزقا منهم لهم بجوارحهم ومدحهم على هذا الوصف ، وهؤلاء عموم العبيد منهم عبيد الدنيا وعبيد

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ لَكَ ضَمَانًا مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ شَرْطِ الطَّلَبِ وَالْكَسْبِ ، قالَ اللهُ تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) ثُمَّ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَأْمُرَ الْعَبْدَ بِطَلَبِ مَالَا يَعْرِفُ مَكَانَهُ فَيَطْلُبُهُ ، إِذْ لَا يَعْرِفُ أَىُّ سَبَبٍ مِنْهَا رِزْقُهُ الَّذِى يَتَنَاوَلُهُ لَا غَيْرُ ، وَالَّذِى يَصِيرُ سَبَبَ غِذَائِهِ وَتَرْبِيَتِهِ لَا غَيْرُ ، فَالْوَاحِدُ مِنَّا لَا يَعْرِفُ ذٰلِكَ السَّبَبَ بِعَيْنِهِ مِنْ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ فَلَا يَصِحُّ تَكْلِيفُهُ ، فَتَأَمَّلْ رَاشِدًا ، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ .

ثُمَّ حَسْبُكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَالْأَوْلِيَاءَ الْمُتَوَكِّلِينَ لَمْ يَطْلُبُوا رِزْقًا فِى الْأَكْثَرِ وَالْأَعَمِّ وَتَجَرَّدُوا لِلْعِبَادَةِ ، وَبِالْإِجْمَاعِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا تَارِكِينَ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَلَا عَاصِينَ لَهُ تَعَالَى فِى ذٰلِكَ ، فَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ وَأَسْبَابِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ لَازِمٍ لِلْعَبْدِ .

الهوى وبقى الموالى مع العبيد على الأحكام الثلاثة التى أباحها لهم وضرب بها المثل بينها وبينهم إن هم اختاروه كان ذلك لهم (ثم إن الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب قال الله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ثم كيف يصح أن يأمر) الله تعالى (العبد بطلب ما) أى من الرزق (لا يعرف إمكانه فيطلبه ، إذ لا يعرف) أى العبد (أى سبب منها) أى من الأسباب (رزقه الذى يتناوله) أى الرزق (لا غير) أى غير الرزق الذى يتناوله ويحصله (و) لا يعرف أى (الذى يصير سبب غذائه وتربيته) أى العبد (لا غير) أى غير الذى ذكر (فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه من أين يحصل) أى السبب (له) أى للواحد (فلا يصح تكليفه) أى الواحد لطلب السبب (فتأمل) أى تفكر هذا الذى ذكرناه من الجواب بقولنا قيل له (راشدا) أى إصابة للصواب (فانه) أى الذى ذكرناه (بين) أى واضح (ثم حسبك) أى كفاك (أن الأنبياء صلوات الله) وسلامه (عليهم) أجمعين (و) أن (الأولياء المتوكلين) على ربهم (لم يطلبوا رزقا فى الأكثر والأعم وتجردوا للعبادة ، وبالإجماع إنهم) أى الأنبياء والأولياء (لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى ولا عاصين له تعالى فى ذلك) أى أمره تعالى (فتبين) أى ظهر (لك) بهذا الذى ذكرناه من أنهم تجردوا لعبادة مولاهم (أن طلب الرزق وأسبابه ليس) أى ذلك الطلب (بأمر لازم للعبد) ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب الخفى لا إلى السبب . فإن قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ .

فإِنْ قُلْتَ : هَلْ يَزِيدُ الرِّزْقُ بِالطَّلَبِ وَهَلْ يَنقُصُ بِتَرْكِ الطَّلَبِ ؟ قُلْتُ : كَلَّا ، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِى اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مُقَدَّرٌ وَمُؤَقَّتٌ وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِ اللهِ وَلَا تَغْيِيرَ لِقِسْمَتِهِ وَكِتَابِهِ ، هٰذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ، خِلَافُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِ حَاتِمٍ وَشَقِيقٍ

فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأنه لايبعد أن يأتيه الرزق من حيث لايحتسب ؛ ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن إلى أن يتفق وصوله ، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لاطريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام ، لأنه تسبب لإهلاك النفس نظرا لظاهر الشرع ، وكان هذا لعموم المتوكلين ، وإلا فقد نقل صاحب القوت عن بعضهم قال : قلت لبعض السلف لو أن عبدا دخل بيتا وطين عليه بابا ولا يعلم به أحد أكان رزقه يأتيه ؟ فقال نعم . فقلت ومن أين يأتيه ؟ فقال من حيث يأتيه ملك الموت انتهى . وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة من ذكر وقراءة ومراقبة وغيرها من أنواعها فالكسب والخروج إلى الناس ومعاملتهم أولى له ، ولكن ليس فعله ذلك حراما إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال إن لم يمكنه الكسب والكسب إن كان مطيقا له ، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى مع كمال الحال وغلبة الأنس واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من جملة التوكل ، كما قاله المصنف فى غير هذا الكتاب (فإن قلت هل يزيد الرزق بالطلب) أم لا ؟ (وهل ينقص) الرزق (بترك الطلب) أم لا ؟ (قلت كلا) كلة ردع وزجر عن القول بزيادة الرزق بالطلب ونقصانه بتركه (فإنه) أى الرزق (مكتوب فى اللوح المحفوظ مقدر ومؤقت ، ولا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته) تعالى (وكتابته) أى لذلك الرزق (هذا) أى المذكور من الجواب (هو الصحيح عند علمائنا) معاشر الصوفية (رضى الله عنهم) حال كونه (خلاف ماذهب إليه بعض أصحاب حاتم) بن علوان الأصم ، وقد تقدمت ترجمته (و) أصحاب (شقيق) هو أبو على شقيق بن إبراهيم البلخى من مشايخ خراسان له لسان فى التوكل ، وكان أستاذ حاتم الأصم . قيل كان سبب توبته أنه كان من أبناء الأغنياء خرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث فدخل بيتا للأصنام فرأى خادما للأصنام فيه حلق رأسه ولحيته ولبس ثيابا أرجوانية ، فقال شقيق للخادم إن لك صانعا حيا عالما قادرا فاعبده ، ولا تعبد هذه الأصنام التى لاتضر ولا تنفع ، فقال : إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك فلم تعنيت إلى ها هنا للتجارة ، فانتبه شقيق وأخذ فى طريق الزهد . وقيل كان سبب زهده أنه رأى مملوكا يلعب ويمرح فى زمان قحط وكان الناس مهتمين به ، فقال شقيق ماهذا النشاط الذى فيك أما ترى مافيه الناس من الجدب والقحط ؟ فقال ذلك المملوك وما على من ذلك ولمولاى

قالُوا : إنّ الرِّزْقَ لاَ يَزِيدُ وَلاَ يَنقُصُ بِفِعْلِ الْعَبْدِ ، لَـكِنِ الْمَـالُ يَزِيدُ وَيَنقُصُ ، وَهٰذَا فاسِدٌ لِأَنّ الدَّلِيلَ فى الْمَوْضِعَيْنِ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْـكِتَابَةُ وَالْقِسْمَةُ ، وَإلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (لِـكَيْلاَ تَأْسَوْا

قرية خالصة يدخل له منها مانحتاج نحن إليه ؟ فانتبه شقيق وقال : إن كان لمولاه قرية ومولاه مخلوق فقير ثم إنه ليس يهتم لرزقه فـكيف ينبغى أن يهتم المسلم لرزقه ومولاه غنى . قال القشيرى: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله يقول : سمعت أبا الحسين بن أحمد العطار البلخى يقول : سمعت أحمد بن البخارى يقول : قال حاتم الأصم : كان شقيق بن إبراهيم موسرا ، وكان يتفتى ويعاشر الفتيان ، وكان على بن عيسى بن ماهان أمير بلخ وكان يحب كلاب الصيد فقد كلبا من كلابه فسعى برجل أنه عنده ، وكان الرجل فى جوار شقيق فطلب الرجل فهرب ، فدخل دار شقيق مستجيرا فمضى شقيق إلى الأمير وقال : خلوا سبيله فان الـكلب عندى أرده إليـكم إلى ثلاثة أيام فخلوا سبيله وانصرف شقيق مهتما لما صنع، فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقاء شقيق غائبا من بلخ رجع إليها فوجد فى الطريق كلبا عليه قلادة فأخذه وقال أهديه إلى شقيق فانه يشتغل بالنفتي فحمله إليه فنظر شقيق فاذا هو كلب الأمير فسر به وحمله إلي الأمير وتخلص من الضمان فرزقه الانتباه وتاب مما كان فيه وسلك طريق الزهد .

وحكى أن حاتما الأصم قال : كنا مع شقيق فى مصاف نحارب الترك في يوم لاترى فيه إلا رءوس تندر ورماح تنقصف وسيوف تنقطع ، فقال لي شقيق كيف ترى نفسك ياحاتم فى هذا اليوم؟ تراه مثل ما كنت فى الليلة التى زفت إليك امرأتك ؟ فقلت لا والله قال لـكنى والله أرى نفسى فى هذا اليوم مثل ما كنت تلك الليلة ثم نام بين الصفين ودرقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه .

ومن كلام شقيق رحمه الله : إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر إلى ماوعده الله ووعده الناس فبأيهما يكون قلبه أوثق . ومن كلامه أيضا : تعرف تقوى الرجل فى ثلاثة أشياء : فى أخذه ومنعه وكلامه هكذا ذكره القشيرى فى الرسالة (قالوا) أى بعض أصحاب حاتم وشقيق (إن الرزق لايزيد ولا ينقص بفعل العبد لـكن المال يزيد وينقص) بذلك قال المصنف (وهذا) القول الذى ذكروه (فاسد ، لأن الدليل فى الموضعين) أى من القولين المذكورين (واحد وهو الـكتابة) فى اللوح المحفوظ (والقسمة) التي لاتتغير (وإليه) أى إلى هذا الدليل (الإشارة بقوله تعالى) « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (لـكيلا) كى ناصبة للفعل بمعنى أن : أى أخبر تعالى بأنه فرغ من التقدير . وفى الخطيب لـكيلا : أى أعلمناكم بأنا قد فرغنا من التقدير فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير ، فلا الحزن يدفعه ولا السرور يجلبه ويجمعه (تأسوا) تحزنوا فعل مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل، وأصله تأسيون تحركت الياء وانفتح ماقبلها فقلبت ألفاً فصارت تأساون فالتقى

عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) وَلَوْ كَانَ بِالطَّلَبِ يَزِيدُ وَبِالتَّرْكِ يَنْقُصُ، لَكَانَ لِلْأَسَى وَالْفَرَحِ مَوْضِعٌ إِذَا هُوَ قَصَّرَ وَتَوَانَى، حَتَّى فَاتَهُ وَجَدَّ وَشَمَّرَ حَتَّى حَصَّلَهُ ، وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم لِلسَّائِلِ : « هَاكَ لَوْلَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ » .

ساكنان الألف والواو التى هى الفاعل فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فصار وزنه تفمون لأن لامه التى هى الياء المنقلبة ألفا قد حذفت والمصدر أسى فهو مقصور ، فيقال أسى أسى مثل جوى جوى . فقول بعض النحاة عند الاستشهاد بهذه الآية فى باب النواصب والتقدير لأجل عدم إساءتكم فيه نظر لما علمت من أن مصدر هذا الفعل أسى لا إساءة . وفى المصباح وأسى أسى من باب تعب حزن فهو أسى على فعيل مثل حزين . وفى المختار وأسى على مصيبته من باب عدا أى حزن ، وأسى له : أى حزن له (على ما فاتكم) من نعم الدنيا لأنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم كما ذكره القرطبي (ولا تفرحوا) فرح بطر ، بل فرح شكر على النعمة (بما آتاكم) أى بما أعطاكم الله من النعم : أى ولا بما فاتكم من المصائب لأنه لم يقدر لكم ولو قدر لحصل ، فان من علم أن الكل مقدر هان عليه الأمر ، وفى الحديث « من علم سر الله فى القدر هانت عليه المصائب » . قال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً . قال صاحب الكشاف : إن قلت ما من أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح . قلت المراد الحزن المخرج إلى مايذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر ، فأما الحزن الذى لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما والله أعلم . وقال جعفر بن محمد الصادق : يا ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده إليك الفوت ؟ ومالك تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت ؟ (ولو كان) الرزق (بالطلب يزيد وبالترك ينقص لكان للأسى) أي الحزن (والفرح موضع إذا هو) أى العبد (قصر وتوانى) أى تأخر فى الطلب (حتى فاته) الرزق (و) إذا هو (جد) أى اجتهد (وشمر) أي جد فى طلبه فهو مرادف لما قبله (حتى حصله) أى الرزق (وقال صلى الله عليه وسلم للسائل) الذى ناوله التمرة (هاك) ها اسم فعل بمعنى خذ ، ويجوز مد ألفها ويستعملان بكاف الخطاب وبدونها (لو لم تأتها) أى هذه التمرة (لأتتك) أى تلك التمرة . قال العراقى : رواه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ، ووصله الطبرانى عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح .

﴿ مهمة ﴾ قال الخواص : الذى قيد أن يسرح فى الأرض حيث شاء فله تصديقه بمجىء الأرزاق إليه حيث كان وضعف علمه بأن الله معه فى كل مكان ، وأن الله تعالى يضيق حيث يشاء ويوسع حيث يشاء ، ويؤمن حيث يشاء ، ويخيف حيث يشاء ، فمن كان ناظراً إلى الله تعالى فما يفتح له أسباب الرزق معتمداً عليه فى استخراجه كان البر والبحر والحضر عليه سواء ، لأن من

فَإِنْ قِيلَ : فالثّوَابُ وَالْعِقَابُ أَيْضاً مَكْتُوبٌ فى اللَّوْحِ المَحْفُوظِ ، ثُمَّ يَلْزَمُنَا طَلَبُ الثّوَابِ وَتَرْكُ مُوجِبِ الْعِقَابِ ، فَهَلْ يَزِيدُ بِالطَّلَبِ أَوْ يَنْقُصُ بِالتَّرْكِ ؟ .

فاعْلَمْ : أَنّ طَلَبَ الثّوَابِ إِنَّمَا وَجَبَ لِأَنّ اللهَ أَمَرَ بِهِ أَمْرًا حَتْماً ، وَأَوْعَدَ عَلَى تَرْكِهِ وَلَمْ يَضْمَنِ الثّوَابَ عَلَى غَيْرِ فِعْلٍ مِنَّا ، وَزِيَادَةُ الثّوَابِ وَالْعِقَابِ بِفِعْلِ الْعَبْدِ ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فى نُكْتَةٍ ، وَهِيَ مَا قالَهُ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: إِنَّ المَكْتُوبَ فى اللَّوْحِ قِسْمَانِ: قِسْمٌ مَكْتُوبٌ مُطْلَقاً مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَتَعْلِيقٍ بِفِعْلِ الْعَبْدِ ، وَهُوَ الْأَرْزَاقُ وَالآجَالُ ، أَمَا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَهُمَا اللهُ تَعَالَى مُطْلَقاً غَيْرَ مَشْرُوطٍ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فى الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) وَقالَ تَعَالَى : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

تولى الله كفايته فى الحضر تولى كفايته فى السفر ، ومن كان معتمدا على تكلفه وحيلته لم يتهيأ له أن يفارق العمران ، ولو أن عبدا مع مولاه فى السفر لكان قلبه قد سكن إليه أن يطعمه حيث سافر معه ؛ وهكذا من علم أن الله سبحانه معه لم يحتج أن يحمل زادا ولا إداوة ، ويصحح ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم للسائل وقد أعطاه تمرة : « لولم تأتها لأتتك » دلالة على ترك الحركة وتوبيخاً له فى حركته بعد حجة الضمان لمجيء الأرزاق لوقتها ونهيا له عن السعى إلا ما وقع التصديق بمجيئه لوقته . قال صاحب القوت : وهذا طريق الأقوياء الصابرين وليس هذا طريق الضعفاء المريدين ، إذ لايقاس الضعيف الجزوع بالقوى الصبور. وكان منهم إبراهيم الخواص وأبو تراب النخشبي وذو النون المصرى وحاتم الأصم وعلي الرازى فان هؤلاء خصوص المتوكلين وما جرى لهم من الوقائع يدل على أحوالهم (فان قيل فالثواب والعقاب أيضاً) أى كالرزق (مكتوب) مقدر (فى اللوح المحفوظ ثم يلزمنا طلب الثواب) بفعل الطاعة (وترك موجب العقاب) بترك المعصية (فهل يزيد) كل من الثواب والعقاب (بالطلب أو ينقص) أى كل منهما (بالترك) أى ترك الطلب (فاعلم أن طلب الثواب إنما وجب لأن الله أمر به) أى بالطلب (أمرا حتما) أى واجبا (وأوعد) تعالى بالعقاب (على تركه) أى الطلب (ولم يضمن الثواب على غير فعل منا وزيادة الثواب والعقاب بفعل العبد والفرق بينهما) أى الرزق والثواب (فى نكتة) لطيفة (وهي) أى تلك النكتة (ما قاله بعض علمائنا إن المكتوب فى اللوح) المحفوظ (قسمان) أحدهما (قسم مكتوب مطلقا من غير شرط وتعليق بفعل العبد وهو) أى المكتوب مطلقا (الأرزاق والآجال ، أما ترى كيف ذكرهما) أى الأرزاق والآجال (الله تعالى مطلقا غيرمشروط) بالطلب والكسب (قال الله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » وقال تعالى) « ولكل أمة أجل (فاذا جاء أجلهم) يعنى فإذا حل وقت عذابهم . الأجل : الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة ، ثم فى هذا الأجل

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ») وَقَالَ صَاحِبُ الشَّرْعِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَرْبَعَةٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُنَّ: الْخَلْقُ، وَالْخُلُقُ وَالرِّزْقُ ، وَالْأَجَلُ » وَقِسْمٌ مَكْتُوبٌ بِشَرْطٍ مُعَلَّقٍ مَشْرُوطٌ بِفِعْلِ الْعَبْدِ وَهُوَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، أَمَا تَرَى كَيْفَ ذَكَرَهُمَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مُعَلَّقًا بِفِعْلِ الْعَبْدِ قَالَ تَعَالَى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) وَهٰذَا بَيِّنٌ فَاعْلَمْهُ .

المذكور فى الآية قولان : أحدهما أنه أجل العذاب ، والمعنى أن لكل أمة كذبت رسلها وقتاً معينا وأجلا مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت فإذا جاء (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون») يعنى فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة ، وإنما ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الأوقات فى العرف ، وهذا حين سألوا نزول العذاب فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتاً إذا جاء ذلك الوقت وهو وقت إهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون . والقول الثانى أن المراد بهذا الأجل هو أجل الحياة والعمر ، فاذا انقضى ذلك الأجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة ، وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير ، وإنما قال الله تعالى «لكل أمة» لتقارب أعمار أهل كل عصر فكأنهم كالواحد فى مقدار العمر ، وعلى هذا القول أيضا يكون المقتول ميتاً بأجله خلافاً لمن يقول القاتل قطع عليه أجله ، ولله درّ اللقانى حيث يقول :

وميت بعمره من يقتل — وغير هذا باطل لا يقبل

(وقال صاحب الشرع) نبينا (عليه) الصلاة و(السلام : أربعة قد فرغ) بالبناء للمفعول : أى فرغ الله (منهن : الخلق) بفتح الخاء المعجمة وسكون اللام آخره قاف : أي الخلقة والهيئة والشكل (والخلق) بضمهما كذلك : أى الطبيعة والسجية (والرزق) أى قليلا أو كثيرا حلالا أو حراما من أى جهة هو ونحو ذلك وهو مايتناول لإقامة البدن أوانتفاعه ولو حراما خلافا للمعتزلة (والأجل) أى طويلا أو قصيرا ، وهو مدة الحياة (و) ثانيهما (قسم مكتوب بشرط معلق مشروط بفعل العبد ، وهو) أى المكتوب معلقا بذلك (الثواب والعقاب ، أما ترى كيف ذكرهما) أى الثواب والعقاب (الله تعالى فى كتابه) العزيز (معلقا بفعل العبد . قال تعالى : ولو أن أهل الكتاب) أى اليهود والنصارى (آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به (واتقوا) ما عددنا من معاصيهم ونحوه (لكفرنا عنهم سيئاتهم) يعنى لمحونا عنهم ذنوبهم التى فعلوها ولم نؤاخذهم بها (ولأدخلناهم جنات النعيم) مع المسلمين يوم القيامة ، وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم ، وأن الإسلام يجب ما قبله وإن جل ، وأن الكتابي لايدخل الجنة ما لم يسلم كما فى البيضاوى (وهذا) أى المذكور من الجواب بقوله فاعلم (بين) ظاهر (فاعلمه)

فَإِنْ قِيلَ : فَنَحْنُ نَجِدُ الطَّالِبِينَ يَجِدُونَ الْأَرْزَاقَ وَالْأَمْوَالَ وَالتارِكِينَ يَعْدِمُونَ وَيَفْتَقِرُونَ ؟.

قِيلَ لَهُ : كَأَنَّكَ لاَ تَجِدُ مَعَ ذٰلِكَ طَالِباً مَحْرُوماً فَقِيرًا وَتَارِكاً فَارِغاً مَرْزُوقاً غَنِيّاً بَلَى إِنَّ هٰذَا هُوَ الْأَكْثَرُ ، لِتَعْلَمَ أَنَّ هٰذَا هُوَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَتَدْبِيرُ الْمَلِكِ الْحَكِيمِ ، وَأَنْشَدَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ سَابِقٍ الْوَاعِظُ الصَّقَلِّي بِالشَّامِ رَحِمَهُ اللهُ :

كَمْ مِنْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِى تَقَلُّبِهِ مُهَذَّبِ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفُ
وَكَمْ ضَعِيفٍ ضَعِيفٍ فِى تَقَلُّبِهِ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ

أى المذكور راشدا موافقا للصواب ، والله المستعان (فان قيل فنحن نجد الطالبين) للمعاش (يجدون الأرزاق والأموال و) نجد (التاركين) للطلب (يعدمون ويفتقرون . قيل له) أى للقائل المذكور (كأنك لا تجد مع ذلك) أى الذى قلته وسألته من قولك فنحن نجد الطالبين إلى آخره (طالبا) للرزق (محروما) أى محجوباً وممنوعا عنه (فقيرا ، و) كأنك لا تجد مع سؤالك المذكور (تاركا) للطلب (فارغا) عن الكسب (مرزوقا غنيا بلى) تجد الفريقين كذلك ، وبلى حرف جواب وتختص بالنفى وتفيد إبطاله سواء كان مجردا أم مقرونا بالاستفهام ، بخلاف نعم فانه تصديق للخبر بنفي أو إيجاب (إن هذا) أى المذكور من الطالب المحروم والفارغ المرزوق (هو الأكثر لتعلم أن ذلك) أى أمر الرزق (هو تقدير العزيز) أي الغالب بقدرته على كل شئ مقدور : من قولهم : عز إذا غلب ، وقيل القوى الشديد من قولهم عز إذا قوى واشتد ، وقيل عديم المثل فيكون من أسماء التنزيه ، وقيل هو من يتعذر الإحاطة بوصفه ويعسر الوصول إليه (العليم) بناء مبالغة من العلم : أى العالم بجميع المخلوقات وهو من صفات الذات (وتدبير الملك) بكسر اللام: أى ذى الملك، وقيل الذى يستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود، وقيل من ملك نفوس العابدين فأقلقها ، وملك قلوب العارفين فأحرقها. وقيل من إذا شاء ملك وإذا شاء أهلك (الحكيم) أى ذى الحكمة المحكم الأشياء على ماهى عليه والإتيان بالأفعال على ما ينبغى ، فالحكمة بمعنى الإحكام كما فى العزيزى (وأنشد) الإنشاد : قراءة الشعر (أبو بكر محمد بن سابق الواعظ الصقلى) نسبة إلى جزيرة صقلية فى بحر الروم (بالشام رحمه الله) من بحر البسيط (كم من قوى قوى فى تقلبه) أى تردده (مهذب) أى مطهر (الرأى عنه) أى عن هذا القوى (الرزق منحرف) أى منصرف (وكم) من (ضعيف ضعيف فى تقلبه * كأنه) أى الضعيف فى سهولة الرزق وكثرته (من خليج البحر) أى شط البحر (يغترف) أى هذا الضعيف

هٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِلٰهَ لَهُ ... فِي الْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ

فَإِنْ قُلْتَ : هَلْ تَدْخُلُ الْبَادِيَةَ بِلاَ زَادٍ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنْ كَانَ لَكَ قُوَّةُ قَلْبٍ بِاللهِ تَعَالَى وَالثِّقَةِ الْبَالِغَةِ بِوَعْدِ اللهِ فَادْخُلْ

(هـذا) أى انحراف الرزق عن القوى وسهولته على الضعيف (دليل) ظاهر يدل (على أن الإله له) جل وعز (فى الخلق سر خفى) عن البشر (ليس) ذلك السر (ينـكشف) عنهم ، ولهـذا قال المصنف وغيره : من نظر بعين التأمل إلى مجارى سـنة الله تعالى التى خلت فى عباده علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ، فـكم من ذكى محروم ، وكم من غبي مجدود ، ولذلك سأل بعض ملوك الفرس حكيما من حكمائهم عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم عن الرزق ماالسر فيه ؟ فقال الحـكيم : أراد الصانع جل جلاله أن يدل بذلك على نفسه أنه الواحد الأحد الرازق ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن لا رازق غيره ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم . قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ... هلكن إذن من جهلهن البهائم

والحاصل أن من كان ذا معلوم من حرفة أو معتاد من الفئ لم يصح توكله مع سكونه إليه وطمأنينته به لأن ذلك علة فى حاله وحيرة لتوكله ، وقد يصح التوكل مع ذلك بثلاث معان : أن لا يعوض منه عوضاً يقوم مقام السبب الواصل إليه ، وأن يقطع همه عنه وعن جميع الخلق ، وأن يكون منقطعاً إلى الله تعالى مشغولا بخدمته لا بطالا مروحا لنفسه (فان قلت هل تدخل فى البادية بلا زاد) لأصحح توكلى أم لا تدخل ؟ (فاعلم أنه) أى الحال والشأن (إن كان لك قوة قلب بالله تعالى) بأن ترى أن الأفعال كلها لله تعالى فانه المحرك لك ، والمسكن لك (والثقة البالغة) أى الـكاملة (بوعد الله) وضمانه (فادخل) فى البادية على قدم التوكل، لـكن هذا ليس شرطاً فى صحة التوكل بل استصحاب الزاد فى البوادى سنة الأولين من السلف الصالحين ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى ، لا على الزاد ، ولـكن فعل ذلك : أى ترك استصحاب الزاد فى الأسفار جائز ؛ وهو من أعلى مقامات التوكل كما روى أن أبا سعيد أحمد بن عيسى الخراز رحمه الله تعالى ، وكان من المتوكلين قال : كنت فى البادية على قدم التوكل فنالنى جوع شديد بعد مضى عشرة أيام فغلبتنى نفسى أن أسال الله طعاما يرزقنيه فآكله فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فان مقتضى هذا المقام تغليب علمه تعالى بحال العبد وعدم المبادرة إلى السؤال فانه سوء أدب فطالبتنى أن أسأل الله صبرا على الجوع ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفاً يهتف بى ويقول :

ويزعم أنه منا قريب ... ونحن لا نضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهدا ... كأنا لا نراه ولا يرانا

فلما سمع ذلك سكن قلبه عن الاضطراب والقلق ، فقد فهمت من هذا أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله إياه فى سائر أحواله وشئونه كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عز وجل فى حسن وفائه وصدق ضمانه فان أسوأ حاله أن يموت ، ولا بد أن يأتيه الموت وإن طال كما يأتى من ليس مطمئنا فإذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب ، والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها بلطيف حكمته صادق فى وعده وضمانه فاقنع ليصح توكلك ، وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك ، ولم تخطر فى حسابك ، ولا تكن فى توكلك منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب فلا ينبغى أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد يحمله ، وكذا من يقعد فى الأمصار وهو خامل الذكر . وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام المتيسر مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ والأنواع المختلفة وثوب خشن من مستعمل ثياب بلده مما يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب على الدوام من غير انقطاع بل يأتيه أضعافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق أقوى من دخول الأمصار فى حق الخامل مع الاكتساب . فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين أولى الصلاح المتين ، وهو بالعلماء بالله وأحكامه أقبح لأن شرطهم القناعة ، وهذا الاهتمام يضادها وقبيح بذوى الإيمان أن ينزلوا حاجتهم بغير الله تعالى مع علمهم بوحدانيته وانفراده بربوبيته وهم يسمعون قوله تعالى «أليس الله بكاف عبده» وذلك من العلماء أقبح ، فرفع الهمة عن الخلق وعدم الاهتمام بالرزق هو ميزان العلماء وسبار الرجال ، وكما توزن الذوات توزن الأحوال والصفات «وأقيموا الوزن بالقسط» فيظهر الصادق بصدقه والمدعى بكذبه ، وقد ابتلى الله تعالى بحكمته العلماء الذين ليسوا بقانعين ولا فى وصفهم صادقين بإظهار ما كتموا من الحرص والشره والرغبة وأسروا فى أنفسهم من الشهوة فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا مباسطين لهم ملائمين موافقين لهم على مآربهم مدفوعين على أبوابهم ، فلقد وسمهم الحق سمة كشف بها عوارهم أولئك هم الكاذبون على الله الصادون للعباد عن صحبة أوليائه ، فهم حجب أهل التحقيق وسحب شموس أهل التوفيق ، ضربوا طبولهم ونشروا أعلامهم ولبسوا دروعهم ، فإذا وقعت الحملة ولوا على أعقابهم ناكصين . وأما العالم القانع فيأتيه رزقه بل ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد ذلك العالم القانع أن لا يأخذ رزقه من أيدى الناس ، ولا يأكل إلا من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل فقط ، ولم يكن له سير بالباطن بالتهذيب والرياضة ، فان الاشتغال بالكسب يمنع من السير بالفكر الباطن إلا أن يكون قويا ممن لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فاشتغاله بالسلوك الباطن حينئذ مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل ، وهذا هو المقصود الأعظم من التوكل بل ومن سائر مقامات الدين ، وفيه أيضا إعانة للمعطى على نيل الثواب وما به تقرب فائدتان إحداهما أفضل من واحدة ، ومن ذلك

وَإِلَّا فَكُنْ مَعَ الْعَوَامِّ بِعَلَائِقِهِمْ .
وَلَقَدْ سَمِعْتُ الْإِمَامَ أَبَا الْمَعَالِي رَحِمَهُ اللهُ

فى الخبر « أوحى الله إلى موسى أنى أجعل أرزاق أوليائى على أيدى العاصين ليؤجروا فيهم » فعلم هذا للمتوكلين ، ومعرفة هذه الحكمة لمن أوصل إليهم قسمهم من المؤملين مقام للجمع فى المعرفة واليقين فهو مال للمعطي الموصل وطريق للآخذ المتوكل كما فى الخبر «ماالمعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا» فسبحان مطرق الطرقات ومسبب الوصولات إلى الآخرة بزلف القربات .

فإن قلت إن الدخول فى البادية بغير خفير ولا قافلة ولا زاد سبب للهلاك وقد قال الله تعالى «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فكيف يصح توكله وكيف يكون ذلك مباحا ؟ . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه فى الحضر وجاهدها وسواها وعودها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشويش خاطر وتعذر فى ذكر الله تعالى بأن لاتسقط قوته فى القيام فى صلاته . والثانى قوة الحال وغلبة الأنس ، وهو أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة التي لاتعد قوتا فى الجملة ؛ فبعد هذين الشرطين لايخلو فى غالب الأمر فى البوادى فى كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهى إلى محلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزى به فيحيا به مجاهدا نفسه صابرا على الجوع والعطش ، والمجاهدة عماد التوكل وأساسه (وإلا) أى إن لم تكن لك قوة قلب بالله والثقة الكاملة بوعد الله كأن لاتطيق الصبر على الجوع مدة ويضطرب عليك قلبك وتتشوش عبادتك (فكن مع العوام) أى عوام الناس (بعلائقهم) ولم يجز لك ترك الزاد ، ولذلك روى أن أبا تراب النخشبي نظر إلى صوفى مد يده إلى قشر بطيخ مرمى فى الطريق ليأكله بعد ثلاثة أيام لم يأكل فيها شيئا ؛ فقال له لايصلح لك التصرف الزم السوق : أي لاتصوف إلا مع التوكل ، ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام ؛ يعنى أن حاله ذلك يدل على عدم كمال شغله بالله وعدم صبره وشدة ميله إلى الطعام . ومن هذه صفته بقاؤه مع سبب وانتقاله شيئا فشيئا عن عبادته أولى من خروجه عما بيده جملة كما أفاده الزبيدي ؛ وكذلك قال أبو على الروذبارى : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب نقله القشيرى فى الرسالة (ولقد سمعت الإمام أبا المعالى رحمه الله) هو ضياء الدين إمام الحرمين عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجوينى نسبة إلى جوين ، وهى ناحية كبيرة من نواحى نيسابور من أعمال خراسان ، العراقي الشافعى ، ولد رحمه الله تعالى فى ثامن عشر من المحرم عام تسع عشرة وأربعمائة وجاور بمكة والمدينة أربع سنين يفتى ويدرس ويجمع طرق الشافعى ، ومن ثم لقب بإمام الحرمين ، ثم عاد إلى نيسابور فبنى

يَقُولُ : إِنّ مَنْ جَرَى مَعَ اللهِ تَعَالَى عَلَى عَادَةِ النَّاسِ جَرَى اللهُ مَعَهُ عَلَى مَا هُوَ عَادَةُ النَّاسِ فِى كِفَايَةِ الْمُؤْنَةِ ، وَهٰذَا كَلَامٌ حَسَنٌ جِدًّا ، وَفِيهِ فَوَائِدُ جَمَّةٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا .

فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) فَاعْلَمْ أَنَّ فِيهِ

له الوزير نظام الدين المدرسة النظامية بنيسابور ، فخطب بها وجلس للوعظ والمناظرة واستعد للتدريس فيها واستقامة أمور الطلبة ، وبقي على ذلك قريبا من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع ، مسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس الذكر يوم الجمعة والمناظرة ، واتفق له من المواظبة علي التدريس والمناظرة ما لم يعهد لغيره مع الوجاهة الزائدة فى الدنيا . ومن تصانيفه [نهاية المطلب] في الفقه ، وهى أربعون مجلدا كبارا لم يصنف مثلها ومختصرها واختصرها بنفسه ، وهو من محاسن كتبه . قال هو نفسه فيه : إنه يقع فى الحجم من النهاية أقل من النصف ، وفى المعنى أكثر من الضعف . والشامل فى أصول الدين ، والإرشاد فيه أيضا ، والبرهان فى أصول الفقه ، والإرشاد فيه أيضا ، والورقات فيه أيضا وغير ذلك ومنه ديوان خطب مشهور ، ومن نظمه : أخى لن تنال العلم إلا بستة . البيتين ، وتوفى ليلة الأربعاء وقت العشاء الآخرة الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فعمره نحو تسع وخمسين سنة وأغلقت الأسواق يوم موته ، وكانت تلامذته يومئذ قريبا من أربعمائة . هذا ، وقد ترجم له التاج السبكى رحمه الله فى الطبقات ترجمة حافلة فى نحو ثلاثين صفحة فانظرها إن شئت . ويكفى فى فخره ما نقل من خط ابن الصلاح أنشد بعض من رأى إمام الحرمين :

لم ترعيني تحت أديم الفلك   مثل إمام الحرمين الثبت عبد الملك

وكان الفقيه الإمام غانم الوسيلى ينشد ويقول لغيره فى إمام الحرمين :

دعوا لبس المعانى فهو ثوب   على مقدار قد أبى المعالى

ورأيت فى شرح مولد البرزنجى للسيد جعفر مانصه : فائدة ذكر بعضهم أن الهتف وقع فى غير مايتعلق بالمصطفى عليه الصلاة والسلام فانه سمع يوم وفاة إمام الحرمين رحمه الله تعالى قائل من الجن يهتف بهذين البيتين وهما :

يادهر بع رتب المعالى بعده   بيع الكساد ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من تشاء من الورى   مات الذى قد كنت منه تستحى

(يقول : إن من جرى مع الله تعالى على عادة الناس جرى الله معه على ماهو عادة الناس فى كفاية المؤنة) قال المصنف (وهذا) أى كلام الإمام أبى المعالى (كلام حسن جدا ، وفيه) أى فى هذا الكلام (فوائدجمة) أى كثيرة (لمن تأملها) أى الفوائد حق التأمل (فان قلت أليس الله تعالى يقول : وتزودوا) مايبلغكم لسفركم (فإن خير الزادالتقوى ؛ فاعلم أن فيه) أى فى المراد بالزاد الذى

قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ زَادُ الآخِرَةِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ: خَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَلَمْ يَقُلْ حُطَامُ الدُّنْيَا وَأَسْبَابُهَا ، وَالثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ قَوْمٌ لاَ يَأْخُذُونَ زَادًا فِي طَرِيقِ الْحَجِّ لِأَنْفُسِهِمْ اتِّكَالاً عَلَى النَّاسِ ، وَيَسْأَلُونَ النَّاسَ وَيَشْكُونَ وَيُلِحُّونَ وَيُؤْذُونَ النَّاسَ ، فَأُمِرُوا بِالزَّادِ أَمْرَ تَنْبِيهٍ عَلَى أَنَّ أَخْذَ الزَّادِ مِنْ مَالِكَ خَيْرٌ مِنْ أَخْذِ مَالِ النَّاسِ وَالاتِّكَالِ عَلَيْهِمْ ، وَكَذَلِكَ نَقُولُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَالْمُتَوَكِّلُ هَلْ يَحْمِلُ الزَّادَ مَعَهُ

في قوله تعالى « وتزودوا » (قولين : أحدهما أنه) أى الزاد المذكور (زاد الآخرة) وهو تقوى الله والعمل بطاعته ، وهذا الزاد أفضل من زاد الدنيا لأنه يوصل إلى مراد النفس وشهواتها ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم فى الآخرة ؛ وفى هذا المعنى قال الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لاتكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

(ولذلك) أى لأجل أن المراد بالزاد زاد الآخرة (قال) سبحانه وتعالى : فإن (خير الزاد التقوى) وذلك لأن من تزود التقوى نجا ولم يخف فى طريقه لأن الله مع الذين اتقوا ، ومن التقوى أن لايقول العبد غدائى من أين لقول الحق « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب» . وقال وهب: يقول الله تعالى : ابن آدم اتق ونم حيث شئت فالرزق ليس فيه توكل ، وإنما فيه تدبر ويقوى على قدر معرفته بما صبر له ولمن صبر ، ومعنى الصبر حبس النفس على الوعد بمجىء المضمون ومنعها من الحركة والتطلع إلى مجيئه حتى يسوق الله الأقسام من أماكنها ، فمتى رجع الصابر إلى سبب يبتدىء فيه بالحركة من نفسه فقد خرج من حالة الصبر ضيقا من تحمل مؤنته ، وهذا مقام المؤمن القوى من المتوكلين (ولم يقل) جل وعز « فإن خير الزاد » (حطام الدنيا وأسبابها . والثانى) من القولين أن المراد بالزاد : هو زاد الدنيا ، وذلك سبب نزول هذه الآية (أنه) أى الحال والشأن (كان قوم) من أهل اليمن يخرجون للحج ومع ذلك (لايأخذون زادا فى طريق الحج لأنفسهم اتكالا على الناس) ويقولون نحن متوكلون ، نحن نحج بيت ربنا أفلا يطعمنا ؟ (و) إذا قدموا مكة (يسألون الناس ويشكون ويلحون ويؤذون الناس) وربما أفضى بهم الحال إلى النهب والغصب . ولذا قال ابن الجوزى : قد لبس إبليس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية من الخطأ . ذكره الكرخى (فأمروا) أى أهل اليمن (بالزاد) أى أخذه (أمر تنبيه على أن أخذ الزاد من مالك خير من أخذ مال الناس والاتكال عليهم ، وكذلك) أى مثل المذكور من السؤال . وجوابه (نقول . فإن قلت : فالمتوكل هل يحمل الزاد معه) أى مع المتوكل

فى الأَسْفَارِ ؟

فاعْلَمْ : أَنَّهُ رُبَّمَا يَحْمِلُ الزَّادَ وَلاَ يُعَلِّقُ الْقَلْبَ بِهِ بِأَنَّهُ لاَ مَحَالَةَ رِزْقُهُ ، وَفِيهِ قِوَامُهُ ، وَإِنَّمَا يُعَلِّقُ الْقَلْبَ بِاللهِ تعالى وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : إِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ ، وَاللهُ تعالى إنْ شَاءَ أَقَامَ بِنْيَتِى بِهٰذَا أَوْ بِغَيْرِهِ ، وَرُبَّمَا يَحْمِلُ بِنِيَّةٍ أُخْرَى بِأَنْ يُعِينَ مُسْلِماً أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ فى أَخْذِ الزَّادِ وَتَرْكِهِ ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فى الْقَلْبِ ، لاَ تُعَلِّقْ قَلْبَكَ إلاَّ بِوَعْدِ اللهِ تعالى وَحُسْنِ كِفَايَتِهِ وَضَمَانِهِ ، فَكَمْ مِنْ حَامِلٍ لِلزَّادِ وَقَلْبُهُ مَعَ اللهِ دُونَ الزَّادِ ، وَكَمْ مِنْ تَارِكٍ لِلزَّادِ وَقَلْبُهُ مَعَ الزَّادِ دُونَ اللهِ تعالى ، فالشَّأْنُ إذَنْ لِلْقَلْبِ ، فَافْهَمْ هٰذِهِ الأُصُولَ تُكْفَ الْمُؤْنَةَ إنْ شَاءَ اللهُ تعالى .

فَإِنْ قِيلَ : فَالنَّبِىُّ صلى اللهُ عليه وسلم كَانَ يَحْمِلُ الزَّادَ ، وَكَذٰلِكَ الصَّحَابَةُ وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ . يُقالُ لَهُ : لاَ جَرَمَ أَنَّ ذٰلِكَ مُبَاحٌ غَيْرُ حَرَامٍ ، وَإِنَّمَا الْحَرَامُ تَعْلِيقُ الْقَلْبِ بِالزَّادِ وَتَرْكُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فافْهَمْ ذٰلِكَ ،

(فى الأسفار) أى أم لا (فاعلم أنه) أى المتوكل (ربما يحمل الزاد ولا يعلق) أى لا يعتمد (القلب به) أى بذلك الزاد (بأنه) أى الزاد المحمول (لامحالة) أى قطعا (رزقه) أى المتوكل (وفيه) أى فى الزاد (قوامه) أى قوام بدن المتوكل (وإنما يعلق القلب بالله تعالى) أى بتدبيره وضمانه (ويتوكل عليه) تعالى (ويقول) أى المتوكل (إن الرزق مقسوم مفروغ منه والله تعالى إن شاء أقام) سبحانه وتعالى (بنيتى) أى جسدى (بهذا) أى الرزق المحمول (أو بغيره) أى غير هذا الرزق (وربما يحمل) المتوكل ذلك الزاد (بنية أخرى) حسنة ، وذلك (بأن يعين) أى المتوكل (مسلما أو نحو ذلك) أى إعانة المسلم من وجوه البر . (و) بالجملة (ليس الشأن) المعتبر فى التوكل (فى أخذ الزاد وتركه ، وإنما الشأن) المعتد به (فى القلب لا تعلق قلبك إلا بوعد الله تعالى وحسن كفايته و) صدق (ضمانه ، فكم من) شخص (حامل للزاد وقلبه) أى الحامل (مع الله دون) الاعتماد على (الزاد ، وكم من تارك للزاد وقلبه) أى التارك يتعلق (مع الزاد دون) التوكل والاعتماد على (الله تعالى ، فالشأن) المعتبر (إذن) أى حين إذ يختلف اعتماد الحامل للزاد والتارك له (فى القلب ، فافهم هذه الأصول) التى ذكرناها (تكف المؤنة) أى المشقة (إن شاء الله تعالى . فإن قيل : فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يحمل الزاد) فى سفره (وكذلك) أى حمل الزاد (الصحابة والسلف الصالح) فى أسفارهم رضوان الله عليهم أجمعين (يقال له) أى للقائل المذكور (لاجرم) أى قطعا (أن ذلك) أى حمل الزاد (مباح غير حرام ، وإنما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه ، فافهم ذلك) الذى ذكرناه من أن حمل الزاد

ثُمَّ مَا ظَنُّكَ بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حَيْثُ قالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) أَعْصَاهُ فِي ذَٰلِكَ وَعَلَّقَ قَلْبَهُ بِطَعَامٍ وَشَرَابٍ أَوْ دِرْهَمٍ أَوْ دِينَارٍ؟ كَلَّا وَحَاشَا أَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ ، بَلْ كَانَ قَلْبُهُ مَعَ اللهِ تَعَالَى ، وَتَوَكُّلُهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَهُ ، فَإِنَّهُ الَّذِي لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا وَلَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَى مَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ كُلِّهَا ،

مباح ، وأن تعليق القلب بالزاد وترك الاعتماد على الله حرام (ثم ماظنك برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الله تعالى له) عليه الصلاة والسلام (وتوكل على الحى الذى لايموت ، أعصاه) أى أخالف النبي صلى الله عليه وسلم ربه جل وعز (في ذلك) أى في أمره سبحانه وتعالى لرسول الله عليه الصلاة والسلام بالتوكل (وعلق قلبه) صلى الله عليه وسلم (بطعام أو شراب أو درهم أو دينار ؟ كلا) أى ليس الأمر كما ذكر من أن النبي صلى الله عليه وسلم خالف أمر ربه بالتوكل أو علق قلبه بالطعام والشراب ونحوهما (وحاشا) أى تنزيهاللنبي صلي الله عليه وسلم من (أن يكون) أي يوجد (ذلك) أى المذكور من مخالفة أمر ربه وتعلق قلبه إلى غيره جل وعز (بل كان قلبه) صلى الله عليه وسلم (مع الله تعالى ، و) كان (توكله) عليه الصلاة والسلام (على الله تعالى كما أمره) ربه بقوله « وتوكل على الحي الذي لايموت» (فإنه) صلى الله عليه وسلم (الذى لم يلتفت) بقلبه أصلا (إلى الدنيا بأسرها) أى بأجمعها (ولم يمد يده) الشريفة (إلى مفاتيح خزائن الأرض كلها) وهي موضوعة بين يديه عليه الصلاة والسلام كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة سندس » . وفي رواية « أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت بين يدى» . وروى أيضا « إن جبريل نزل عليه فقال : إن الله يقرئك السلام ويقول لك أتحب أن أجعل هذه الجبال — أى من أبي قبيس وغيره مما حوالى مكة وأطرافها — ذهبا وتكون : أى جبال الدنيا معك حيثما كنت ؟ فأطرق ساعة ، ثم قال يا جبريل : إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له : أي في الآخرة ، يجمعها من لاعقل له ، فقال له جبريل ثبتك الله يامحمد بالقول الثابت» كذا في الشفاء وشرحه . وقال الفقيه رضى الله تعالى عنه : حدثنى الثقة بإسناده عن طاوس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام معه . قال جبريل : هذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط إستأذن ربه في زيارتك فلم يمكث إلا قليلا حتى جاء الملك فقال : السلام عليك يارسول الله ، فقال وعليك السلام . قال الملك : فإن الله تعالى يخبرك أن يعطيك خزائن كل شيء ومفاتيح كل شيء لم يعطه أحدا قبلك ولا يعطه أحدا بعدك من غير أن ينقصك مما ادخر لك شيئا أو يجمعها لك يوم القيامة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل يجمعها إلى يوم القيامة » وعن صفوان بن سليم

وَإِنَّمَا كَانَ أَخْذُ الزَّادِ مِنْهُ وَمِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِنِيَّاتِ الْخَيْرِ لاَ لِمَيْلِ قُلُوبِهِمْ عَنِ اللهِ تَعَالَى إِلَى الزَّادِ ، وَالْمُعْتَبَرُ الْقَصْدُ عَلَى مَا أَعْلَمْنَاكَ ، فَافْهَمْ وَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَتِكَ وَأَفِقْ مِنْ غَفْلَتِكَ وَتَفَهَّمْ يُرْشِدْكَ اللهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : أَيُّهُمَا أَفْضَلُ : أَخْذُ الزَّادِ ، أَمْ تَرْكُهُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ الْحَالِ ، إِنْ كَانَ مُقْتَدًى بِهِ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ أَخْذَ الزَّادِ مُبَاحٌ أَوْ يَنْوِيَ بِهِ عَوْنَ مُسْلِمٍ أَوْ إِغَاثَةَ مَلْهُوفٍ وَنَحْوَ ذٰلِكَ ، فَالأَخْذُ أَفْضَلُ ، وَإِنْ كَانَ مُنْفَرِدًا قَوِيَّ الْقَلْبِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ يَشْغَلُهُ الزَّادُ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَالتَّرْكُ أَفْضَلُ ، فَتَفَهَّمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ وَاحْتَفِظْ بِهَا رَاشِدًا ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

عن عبد الوهاب بن بجيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « عرض على بطحاء مكة ذهبا وفضة قلت يا رب أشبع يوما وأجوع يوما فأحمدك إذا شبعت وأضرع إليك إذا جعت » (وإنما كان أخذ الزاد منه) أى من رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن السلف الصالح) رضوان الله عليهم (لنيات الخير لا لميل قلوبهم عن الله تعالى إلى الزاد ، و) الشأن (المعتبر القصد على ما أعلمناك) بقولنا : وإنما الشأن فى القلب (فافهم) هذه الجملة المذكورة (وانتبه من رقدتك) أى نومك (وأفق) أى انتبه وتيقظ ، فى المصباح وأفاق المجنون إفاقة : رجع إليه عقله ، وأفاق السكران إفاقة . والأصل أفاق من سكره كما يقال استيقظ من نومه (من غفلتك وتفهم يرشدك الله) وبالله التوفيق (فان قلت : أيهما) أى أخذ الزاد وتركه (أفضل : أخذ الزاد ، أم تركه ؟) بدّ مما قبله (فاعلم) أرشدك الله (أن هذا) أى ماذكر من أخذ الزاد وعدمه (يختلف باختلاف الحال) وبيانه أن العبد (إن كان مقتدى به يريد أن يبين أن أخذ الزاد مباح ، أو) يريد أن (ينوى به) أى بأخذ الزاد (عون مسلم أو إغاثة ملهوف) أى إعانة مظلوم (ونحو ذلك) أى إعانة المسلم وإغاثة الملهوف من الأمور المهمة (فالأخذ) أى أخذ الزاد (أفضل) من تركه (وإن كان) العبد (منفردا قوى القلب بالله) أي بتدبيره (سبحانه يشغله الزاد عن عبادة الله سبحانه وتعالى ، فالترك) أى ترك أخذ الزاد (أفضل) من أخذه (فتفهم هذه الجملة) التى ذكرناها (واحتفظ بها) أى هذه الجملة (راشدا) أى إصابة للصواب (وبالله التوفيق) .

[تتمة] فان قلت فما الأفضل فى حق السالك أن يقعد فى بيته أو يخرج إلى السوق ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان ممن يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر ومراقبة وإخلاص واستغراق وقت العبادة ما بين صلاة وقراءة وكان الكسب يشوش عليه ذلك ويفرق وقته وهمته

وهو مع هـذا لا تستشرف نفسه إلى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه من الدنيا ، بل يكون قوى القلب فى الصبر على شدائده والاتكال على الله تعالى فالقعود بهذه الشروط أولى من الخروج والكسب ، وإن كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف إلى الناس بما يأتى منهم فالكسب أولى لأن اضطراب القلب يشعر عن عدم قوة قلبه على الاتكال على مولاه واستشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وهو عندهم أشد من سؤال اللسان وتركه أهم من ترك الكسب ، كذا ذكره مصنفنا أبو حامد الغزالى وغيره ، وشواهد ذلك فى كلام القوم ، ففى القوت لأبى طالب المكى قال بعض المتوكلين : من فقد الأسباب فضعف قلبه أو كان وجودها أسكن لقلبه من عدمها لم يصح له القعود عن المكاسب لأن فيه انتظارا لغير الله تعالى .

وقال بعض العلماء : من طرقته فاقة سبعة أيام فتصور قلبه طمعاً فى خلق أو تشرفا إلى عبد فالسوق له أفضل من المسجد . وقال أبو سليمان : الدارانى لا خير فى عبد لزم القعود فى البيت وقلبه معلق بقرع الباب حتى يطرق بسبب . وقال بعض علمائنا : إذا استوى عنده وجود السبب وعدمه وكان قلبه ساكنا مطمئنا عند العدم لم يشغله ذلك عن الله ولم يتفرق همه فترك الكسب والقعود لهذا أفضل لشغله بحاله وتزوده لمعاده ، وقد صح له مقام فى التوكل . وقال سهل ، وقد سئل متى يصح للعبد التوكل ؟ فقال : إذا دخل عليه الضر فى جسده والنقص فى ماله فلم يلتفت إليه ولم يحزن عليه شغلا بحاله ونظرا إلى قيام الله عليه ، وقال الخواص فى كتاب التوكل : لا ينبغى للصوفى أن يتعرض للقعود عن الكسب إلا أن يكون مطلوبا قد أغنته الحال عن المكاسب . وأما ما كانت الحاجات فيه قائمة ولم يقع له عزوف يحول بينه وبين التكلف فالعمل أولى به والكسب أجل له وأبلغ ، لأن القعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلف : يعنى أن يكون كفى بالكفاية القاطعة من قلبه عن التكلف الظاهر من جوارحه وأن تكون حاله قوية تحمله بالصبر والرضا لايضعف إلى تطلع وتشرف بقول ، فمعلوم هذا من كسبه الذى أحل به أفضل له من طمعه فى غيره الذى كره له ، هذا كله كلام الخواص . وقال فى موضع آخر من الكتاب المذكور : ولم يؤت المريدون إلا من جهتين من قلة الصدق وإصابة الحق ومن ركون الأدلة إلى الدنيا فدلوهم على علو أنفسهم ، وصدق المريد فى إيثار الخمول ولزوم الباب وفراغ القلب وخوف فوت الوصول والتارك للتكسب والتصرف فى الأسواق إذا كان فى أدنى كفاية وأعين بالصبر والقناعة فى مثل زماننا هذا أفضل وأتم من المكتسب إذا خاف أن لاينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى من دخول فى شبهة أو خيانة لإخوانه المسلمين ؛ ولأنه قد تعذر القيام بشرط العلم مع مباشرة الأسباب وكثرة دخول الآفات والفساد فى الاكتساب فترك مباشرة أهل الأسواق ومخالطتهم على هذا الوصف المكروه أقرب إلى السلامة لبعده من رؤية الأسباب وفقد مباشرتها ، لأن الحكم متعلق بالرؤية ، ومثل الحرام مثل المنكر إذا لم تره سقط عنك حكمه ، وليس الخبر كالمعاينة ولا المحاورة كالمباشرة ولا الاستتار كالإظهار ولا المعاين كالمخبر ، والتكسب ليس بفرض ، وقد يفترض بأحد معنيين: بوجود العيال مع عدم كفايتهم عن وجه من الوجوه ، أو بأن

﴿ العارضُ الثّاني : الأخطارُ وإرادتُها وقصودُها ﴾

• وَإِنَّمَا كِفَايَتُها في التَّفْوِيضِ ، فَعَلَيْكَ بِتَفْوِيضِ

يقطع عدمه عن فرض ويضعف عنه مع فقد مايقام به الفرض مما لابد منه ، ولقدكان أبو معاذ رحمه الله يقول : ترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل والكسب مع الاستغناء عنه كلفة ، وقال في موضع آخر من كتابه المذكور : وبعض العارفين يفضلون من لامعلوم له على من له معلوم ، وهؤلاء يرون ترك التكسب أفضل والسكون عن التحرك أعلى لأن ذلك معلوم ، ويعد هؤلاء سكون القلب مع وجود المعلوم علة . ولكن إذا سكن قلبه مع غير معلوم واجتمع همه وانقطع طمعه في حال المعدوم فهذا هو المقام ، ولعمرى التحقيق أن الحركة في طلب المضمون المخصوص عقوبة فقد سكون القلب إلى الرب ، كما أن ترك الحركة في أعمال البر والقربات عقوبة سكون النفس إلى حظوظ الشهوات ، والعدول من القول في تفضيل ترك التكسب وفعله وفقد المعلوم ووجده أن العبد لا يفضل بفقد الغنى ووجد الفقر ، ولا يشرف بالقعود عن الحركة من غير إقعاد ولا يعلو بالتحرك إلى الأسباب بغير إيجاد ، وإنما يوصف في دينك بالفقر أو الإباحة . لكن يفضل بحاله من مقامه من زهد أو رضا ، أو صبر وتوكل ، أو انقطاع لخدمة ، أو إقامة بشغل متصل بصدق معاملة ، فبهذه المعاني يقع التفضيل عند العلماء ، فإن كان ذو المعلوم والتصرف أحسن معرفة وأقوى يقينا فضل على من لامعلوم له ممن نقصت معرفته ، ولا يكون سكون القلب وطمأنينة النفس أيضا مع وجود المعلوم علة في الحال اذا ثبت المقام وصحح القصد وحسن التصرف والعقد ، ولكن لا يكون مقاما يرفع به ولا حالا يفضل فيه عند طائفة من العارفين ، إلا أن الطمع في الخلق ، وتشبث القلب مع وجود معلوم أو الكفاية نقصان عند الكل وقطع الطمع في الخلق وفقد الاستشراف إلى معتاد منهم أو مألوف بهم واجتماع القلب مع العدم وفقد المعلوم أفضل وأعلى عند الجماعة . فأما سكون القلب واجتماع الهم وفقد الاستشراف إلى الخلق مع العيال وثبوت الأحكام فهو أفضل وأشرف ؛ وهذا حال الأقوياء وطريق الأنبياء اتفقوا على ذلك . وأما اضطراب القلب وتفرقة الهم مع وجود العيال ، فإن كان لأجلهم والقيام بحكم الله فيهم فلا نقص فيه وقد يؤجر عليه . وأما شتات الهم وتفرق القلب ووجد الاهتمام في حال الوحدة للمنفرد فنصيب من الرغبة موفور وصاحبه فيه غير معذور ، وقد يكون مأزورا فهذه النصوص كلها شواهد لسياق ماذكره أبو حامد الغزالي وغيره وبالله المستعان .

(العارض الثاني) من العوارض الأربعة الشاغلة عن عبادة الله تعالى وسد سبيلها عنك (الأخطار وإرادتها وقصودها ، وإنما كفايتها) أى تلك الأخطار (في التفويض) أى استسلام الأمور كلها لله .

واعلم أن التفويض الذى هو المسالمة فوق التوكل : لأن المتوكل له مراد وهو يطلب مراده بالاعتماد على ربه . والمفوض ليس له مراد كذا ذكره بعض المحققين (فعليك) أى الزم (بتفويض

الْأَمْرَ كُلَّهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ فِى الْحَالِ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ خَطِيرَةً مُبْهَمَةً لَا يُدْرَى صَلَاحُهَا مِنْ فَسَادِهَا تَكُونُ بِهَا مُضْطَرِبَ الْقَلْبِ هَائِمَ النَّفْسِ ، لَا تَدْرِى تَقَعُ فِى صَلَاحٍ أَوْ فَسَادٍ ، فَإِذَا فَوَّضْتَ الْأَمْرَ كُلَّهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَلِمْتَ أَنَّكَ لَا تَقَعُ إِلَّا فِى صَلَاحٍ وَخَيْرٍ فَتَكُونُ آمِنًا مِنَ الْخَطَرِ وَالْآفَةِ وَالْمُخَالَفَةِ مُطْمَئِنَّ الْقَلْبِ فِى الْحَالِ ، وَهٰذِهِ الطُّمَأْنِينَةُ وَالْأَمْنُ وَالرَّاحَةُ فِى الْقَلْبِ غَنِيمَةٌ عَظِيمَةٌ ؛ وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ فِى مَجَالِسِهِ كَثِيرًا : دَعِ التَّدْبِيرَ إِلَى مَنْ خَلَقَكَ تَسْتَرِحْ ، وَقَدْ أَنْشَدَ فِى ذٰلِكَ :

إِنَّ مَنْ كَانَ لَيْسَ يَدْرِى أَفِى الْمَحْـ ... بُوبِ نَفْعٌ لَهُ أَوِ الْمَكْرُوهِ
لَحَرِىٌّ بِأَنْ يُفَوِّضَ مَا يَعْـ ... ـجِزُ عَنْـــهُ إِلَى الَّذِى يَكْفِيهِ
الْإِلٰهِ الْـــبَرِّ الَّذِى هُوَ بِالرَّأْ ... فَةِ أَحْنَى مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيـــهِ

الأمر كله إلى الله سبحانه ، وذلك) أى وجوب التفويض إلى الله تعالى (لأمرين : أحدهما طمأنينة القلب فى الحال ، فإن الأمور إذا كانت خطيرة) أى عظيمة (مبهمة) أى غير معينة (لايدرى) أى لايعلم (صلاحها من فسادها) أى الأمور (تكون بها) أى بالأمور المبهمة (مضطرب القلب هائم) أى متحير (النفس لاتدرى تقع فى صلاح أو فساد ، فإذا فوضت الأمر كله إلى الله تعالى علمت) يقينا (أنك لاتقع إلا فى صلاح وخير فتكون آمنا من الخطر) أى الخوف (والآفة والمخالفة مطمئن القلب فى الحال ، وهذه الطمأنينة والأمن) من الخطر ونحوه (والراحة فى القلب غنيمة عظيمة . وكان شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله يقول فى مجالسه كثيرا : دع) أى اترك (التدبير) وفوض الأمر كله (إلى من خلقك) جل وعز (تسترح ، وقد أنشد) شيخنا (فى ذلك) أى فى هذا المعنى من بحر الخفيف (إن من كان ليس يدرى) أى يعلم صلاح أمره (أفى المحبوب نفع له) أى لنفسه (أو) فى (المكروه . لحرى) أى خليق وجدير (بأن يفوض مايعجز عنه إلى الذى يكفيه . الإله) بالجر بدل من الذى (البر) أى المحسن (الذى هو) عز وجل (بالرأفة) والرحمة (أحنى) أى أرحم واشفق (من أمه وأبيه) كما روى فى الأخبار الصحيحة أنه وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد : أى فى الثمن ، وذلك فى يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة فى خباء القوم ، فأقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبى وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : ابنى ابنى فبكى الناس وتركوا ماهم فيه ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحمتهم

وَالثَّانِى مِنَ الْأَمْرَيْنِ : حُصُولُ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ فى الِاسْتِقْبَالِ ، وَذٰلِكَ لِأَنَّ الْأُمُورَ بِالْعَوَاقِبِ مُبْهَمَةٌ ، فَكَمْ مِنْ شَرٍّ فى صُورَةِ خَيْرٍ ، وَكَمْ مِنْ ضُرٍّ فى حِلْيَةِ نَفْعٍ ، وَكَمْ مِنْ سُمٍّ فى هَيْئَةِ شَهْدٍ ، وَأَنْتَ الْجَاهِلُ بِالْعَوَاقِبِ وَالْأَسْرَارِ ، فَإِذَا أَرَدْتَ الْأُمُورَ قَطْعًا وَأَخَذْتَ فِيهَا بِاخْتِيَارِكَ مُتَحَكِّمًا ، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَقَعُ فى هَلَاكٍ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ .

وَلَقَدْ حُكِىَ أَنَّ بَعْضَ الْعُبَّادِ كَانَ يَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُرِيَهُ إِبْلِيسَ ، فَقِيلَ لَهُ : سَلِ الْعَافِيَةَ ، فَأَبَى إِلَّا ذٰلِكَ ، فَأَظْهَرَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ ، فَلَمَّا رَآهُ الْعَابِدُ قَصَدَهُ بِالضَّرْبِ ، فَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ : لَوْلَا أَنَّكَ تَعِيشُ مِائَةَ سَنَةٍ لَأَهْلَكْتُكَ وَعَاقَبْتُكَ ، فَاغْتَرَّ بِقَوْلِهِ وَقَالَ فى نَفْسِهِ : إِنَّ عُمْرِى بَعِيدٌ طَوِيلٌ فَأَفْعَلُ مَا أُرِيدُ ثُمَّ أَتُوبُ ، فَوَقَعَ فى الْفِسْقِ وَتَرَكَ الْعِبَادَةَ فَهَلَكَ . فَفِى هٰذِهِ مَا يُنَبِّهُكَ عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ فى إِرَادَتِكَ وَاللَّجَاجِ

ثم بشرهم ، فقال: أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ قالوا نعم . قال صلى الله عليه وسلم فإن الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها ، فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة (والثانى من الأمرين حصول الصلاح والخير فى) زمان (الاستقبال وذلك) أى مطلوبية التفويض في حصول الصلاح والخير فى الاستقبال (لأن الأمور بالعواقب مبهمة ، فكم من شر) فى نفس الأمر (فى صورة خير) فى الظاهر (وكم من ضر فى حلية) بالكسر أى صورة (نفع ، وكم من سم) قاتل (فى هيئة شهد) أى فى صفة عسل والجمع شهاد (وأنت الجاهل) أى الذى لايعلم (بالعواقب والأسرار ، فاذا أردت الأمور قطعا) أى جزما (وأخذت) أى دخلت (فيها) أى فى تلك الأمور (باختيارك متحكما) فى المصباح تحكم فى كذا فعل مارآه (فما أسرع) فعل تعجب (ماتقع فى هلاك وأنت لاتشعر) أى لاتعلم لجهلك وعدم احتياطك (ولقد حكى أن بعض العباد) جمع عابد (كان يسأل الله أن يريه) أى أن يطلع الله العابد (إبليس) اللعين (فقيل له) أى للعابد (سل الله العافية) من إبليس وغيره (فأبى) أى امتنع العابد (إلا ذلك) أى رؤية إبليس (فأظهره) أى اللعين (الله تعالى له فلما رآه) أى اللعين (العابد قصده) أى قصد العابد ذلك اللعين (بالضرب فقال له) أى للعابد (إبليس) على سبيل المكر والخداع كما هو عادته (لولا أنك تعيش مائة سنة لأهلكتك وعاقبتك فاغتر) أى انخدع العابد (بقوله) أى اللعين (وقال) العابد المغرور (فى نفسه) أى فى قلبه (إن عمرى بعيد طويل فأفعل ماأريد) أى من المشتهيات واللذات (ثم أتوب) إلى الله تعالى (فوقع) المغرور (فى الفسق) كشرب الخمر والزنا وغيرها (وترك العبادة فهلك) العابد هلاكا لايرجى فلاحه (ففي هذه) الحكاية (مايفبهك على ترك الحكم) والجزم (على إرادتك واللجاج) أى التمادى وفى بعض النسخ التجاج .

فى مَطْلُوبِكَ وَيُحَذِّرُكَ طُولَ الْأَمَلِ أَيْضاً فَإِنَّهُ الآفَةُ الْعَظِيمَةُ ، وَلَقَدْ صَدَقَ القَائِلُ :

وَإِيَّاكَ الْمَطَامِعَ وَالْأَمَانِى فَكَمْ أُمْنِيَّةٍ جَلَبَتْ مَنِيَّهْ

وَأَمَّا إِذَا فَوَّضْتَ أَمْرَكَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَسَأَلْتَهُ أَنْ يَخْتَارَ لَكَ مَا هُوَ صَلَاحُكَ لَمْ تَلْقَ إِلَّا الْخَيْرَ وَالسَّدَادَ ، وَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى الصَّلَاحِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ : (وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

أى الظفر (فى مطلوبك و) ما (يحذرك طول الأمل أيضا) أى كالحكم والجزم فى الإرادة (فانه) أى طول الأمل (الآفة العظيمة ، ولقد صدق القائل) من بحر الوافر (وإياك) أى احذر (المطامع والأمانى) جمع أمنية (فكم) من (أمنية) الأمنية : البغية وما يتمنى وما يقدر (جلبت منيه) وهى الموت (وأما إذا فوضت أمرك) كله (إلى الله سبحانه وسألته) تعالى (أن يختار) جل وعز (لك ماهو صلاحك) وخيرك (لم تلق إلا الخير والسداد) بالكسر أى الصواب (ولا تقع إلا على الصلاح) والخير (قال الله تعالى حكاية عن العبد الصالح) وكان اسم ذلك العبد الصالح حزقيل عند ابن عباس وأكثر العلماء ، وقال ابن إسحاق : كان اسمه جبريل ، وقيل حبيب ، وقال فى مبهمات القرآن : الأصح أن اسمه شمعان بفتح الشين المعجمة بوزن سلمان كذا فى سراج السالكين (وأفوض) أى أكل وأسلم (أمرى إلى الله) ليعصمنى من كل سوء ، وذلك أنهم توعدوه لمخالفته دينهم (إن الله بصير بالعباد) يعنى يعلم المحق من المبطل ثم خرج الرجل المؤمن من بينهم فطلبوه فلم يقدروا عليه ، وذلك قوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أى شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم ، ونجا ذلك الرجل مع موسى عليه السلام من الغرق كما ذكره أبو السعود (وحاق) نزل (بآل فرعون) بفرعون وقومه واستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك ، وقيل بطلبة المؤمن من قومه فانه فر إلى جبل فاتبعه طائفة فوجدوه يصلى والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم فرعون كما فى البيضاوى (سوء العذاب) أى شدة العذاب وهو الغرق فى الدنيا والنار فى الآخرة ، وذلك قوله تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا » قال ابن مسعود : أرواح آل فرعون فى أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار ، ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة ، وقيل تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشيا مادامت الدنيا ، ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه ، روى الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان

أَمَا تَرَى كَيْفَ أَعْقَبَ تَفْوِيضَهُ الْوِقَايَةَ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَبُلُوغَ الْمُرَادِ ، فَتَأَمَّلْ مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قُلْتَ : بَيِّنْ لَنَا مَعْنَى التَّفْوِيضِ وَحُكْمَهُ : فَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا فَصْلَيْنِ بِهِمَا يَتَّضِحُ الْكَلَامُ : أَحَدُهُمَا : مَوْضِعُ التَّفْوِيضِ وَحُكْمُهُ ؛ وَالثَّانِي : مَعْنَاهُ وَحَدُّهُ وَضِدُّهُ .

أَمَّا مَوْضِعُهُ : فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَاتِ ثَلَاثَةٌ : مُرَادٌ تَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ فَسَادٌ وَشَرٌّ لَاشَكَّ فِيهِ أَلْبَتَّةَ كَالنَّارِ وَالْعَذَابِ ، وَفِي الْأَفْعَالِ كَالْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى إِرَادَةِ ذٰلِكَ ، وَالثَّانِي : مُرَادٌ تَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ صَلَاحٌ كَالْجَنَّةِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ ، فَلَكَ إِرَادَتُهَا بِالْحُكْمِ ، لَا مَوْضِعَ لِلتَّفْوِيضِ فِيهِ ، إِذْ لَا خَطَرَ فِيهِ وَلَاشَكَّ أَنَّهُ خَيْرٌ وَصَلَاحٌ وَالثَّالِثُ : مُرَادٌ وَلَا تَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ لَكَ فِيهِ صَلَاحًا أَوْ فَسَادًا وَذٰلِكَ نَحْوُ النَّوَافِلِ وَالْمُبَاحَاتِ فَهٰذَا مَوْضِعُ التَّفْوِيضِ ، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تُرِيدَهَا قَطْعًا بَلْ بِالْإِسْتِثْنَاءِ وَشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، فَإِنْ قَيَّدْتَ إِرَادَتَكَ بِالْاُسْتِثْنَاءِ

من أهل النار يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة » قال المصنف (أما ترى كيف أعقب) سبحانه وتعالى (تفويضه) أى العبد الصالح (الوقاية من الأسـواء و) أعقب (النصر على الأعداء وبلوغ المراد فتأمل موفقا) راشدا (إن شاء الله تعالى . فان قلت بين) أى فصل وأظهر (لنا معنى التفويض وحكمه . فاعلم أن ههنا) أى التفويض (فصلين بهما يتضح الكلام : أحدهما) أى الفصلين (موضع التفويض وحكمه . و) الفصل (الثانى معناه) أى بيان معنى التفويض (وحده وضده . أما موضعه فاعلم أن المرادات) من الأمور (ثلاثة) الأول أمر (مراد تعـلم يقينا أنه) أى هذا المراد (فساد وشر لاشك فيه) أى فى فساده وشره (ألبتة) أى قطعا (كالنار والعذاب ، وفى الأفعال كالكفر والبدعة والمعصية فلا سبيل إلى إرادة ذلك) المراد المذكور (والثانى مراد تعـلم قطعا) بلا شك (أنه صلاح كالجنة والإيمان والسنة) أى الطريقة النبوية (ونحو ذلك) من أنواع الخيرات (فلك إرادتها) أى تلك المرادات كالجنة ونحوها (بالحكم) أى بالجزم بغير استثناء (لاموضع للتفويض فيه) أى فى هذا المراد الثانى (إذ لاخطر فيه ولا شك أنه خير وصـلاح . والثالث مراد لاتعلم يقينا أن لك فيه) أى فى الأمر المراد (صلاحا أو فسادا وذلك) المراد الثالث (نحـو النوافل والمباحات ، فهذا) أى المراد الثالث (موضع التفويض فليس لك أن تريدها) أى النوافل والمباحات (قطعا ، بل) لك أن تريدها (بالاستثناء وشرط الخـير والصلاح ، فان قيدت إرادتك بالاستثناء

فَهُوَ تَفْوِيضٌ ، وَإِنْ أَرَدْتَ دُونَ الِاسْتِثْنَاءِ فَهُوَ طَمَعٌ مَذْمُومٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ ، فَمَوْضِعُ التَّفْوِيضِ إِذَنْ كُلُّ مُرَادٍ فِيهِ الْخَطَرُ ، وَهُوَ أَنْ لَا تَسْتَيْقِنَ صَلَاحَكَ فِيهِ .

وَأَمَّا مَعْنَى التَّفْوِيضِ فَقَدْ قَالَ بَعْضُ شُيُوخِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ : هُوَ تَرْكُ اخْتِيَارِ مَا فِيهِ مُخَاطَرَةٌ إِلَى الْمُخْتَارِ الْمُدَبِّرِ الْعَالِمِ بِمَصْلَحَةِ الْخَلْقِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ؛ وَعِبَارَةُ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ السِّجْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ : هُوَ تَرْكُ اخْتِيَارِكَ الْمُخَاطَرَةَ عَلَى الْمُخْتَارِ لِيَخْتَارَ لَكَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ : هُوَ تَرْكُ الطَّمَعِ ، وَالطَّمَعُ هُوَ إِرَادَةُ الشَّيْءِ الْمُخَاطِرِ بِالْحُكْمِ ، فَهٰذِهِ عِبَارَاتُ الْمَشَايِخِ .

وَالَّذِي نَقُولُ لَكَ : إِنَّ التَّفْوِيضَ إِرَادَةُ أَنْ يَحْفَظَ اللهُ عَلَيْكَ مَصَالِحَكَ فِيمَا لَا تَأْمَنُ فِيهِ الْخَطَرَ ؛ وَضِدُّ التَّفْوِيضِ الطَّمَعُ ، وَالطَّمَعُ فِي الْجُمْلَةِ يَجْرِي عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : فِي مَعْنَى الرَّجَاءِ تُرِيدُ شَيْئًا لَا خَطَرَ فِيهِ ، أَوْ مُخَاطَرَةً بِالِاسْتِثْنَاءِ ، وَذٰلِكَ مَمْدُوحٌ غَيْرُ مَذْمُومٍ ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى :

• فهو) أى ماقيدته بالإرادة (تفويض ، وإن أردت دون الاستثناء فهو طمع مذموم منهى عنه) أى عن ذلك الطمع (فموضع التفويض إذن) أى حين اذ عرفت التفصيل المذكور (كل مراد فيه الخطر وهو) أى الخطر (أن لاتستيقن صلاحك فيه) أى فى المراد الذى أردته (وأما معنى التفويض فقد قال بعض شيوخنا رحمهم الله : هو) أى التفويض (ترك اختيار مافيه مخاطرة إلى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق لاإله الا هو ، وعبارة الشيخ أبى محمد السجزى) بالكسر والسكون وزاى نسبة إلى سجستان على غيرقياس (رحمه الله : هو ترك اختيارك المخاطرة على المختار) جل وعز (ليختار لك ماهو خير) وصلاح (لك ، وقال الشيخ أبو عمر رحمه الله : هو) أى التفويض (ترك الطمع والطمع هو إرادة الشىء المخاطر بالحكم) بغير استثناء ، قال القشيرى : وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : التوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين . قال شيخ الإسلام : وذلك لأن المتوكل يرى السبب ويعتمد على الله تعالى فى أموره ، والولى مسلم إلى الله تعالى فى سائر أموره ، والموحد صارت نفسه محلا لجريان قدر الله تعالى فيه لكمال تفويضه ، وقال القشيرى أيضا : فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص . والتفويض صفة خواص الخواص (فهذه) أى الأقاويل الثلاثة (عبارات المشايخ) رضوان الله عليهم (والذى نقول لك : أن التفويض إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لاتأمن فيه الخطر ، وضد التفويض الطمع ، والطمع فى الجملة) من غير تفصيل (يجرى على وجهين : أحدهما فى معنى الرجاء تريد شيئا لاخطرفيه أو) فيه (مخاطرة بالاستثناء وذلك) أى الوجه الأول (ممدوح غير مذموم كما قال الله تعالى) حكاية عن إبراهيم على

(وَالّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ) وَقالَ : (إِنّا نَطْمَعُ أَنْ يَغفِرَ لَنا رَبُّنا خَطَايانَا) وَهٰذَا القِسْمُ لَيْسَ مِمّا نَحْنُ فِيهِ بِسَبِيلٍ هٰهُنَا ، وَالثّانِى : طَمَعٌ مَذْمُومٌ ، قالَ النّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « إِيَّاكُمْ وَالطَّمَعَ فَإِنّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ » وَقِيلَ :

نبينا وعليه الصلاة والسلام (والذي أطمع) أرجو (أن يغفر لى خطيئتى) أى ذنبى (يوم الدين) أى يوم الجزاء والحساب . قال القاضى البيضاوى : ذكر ذلك هضما لنفسه وتعلما للأمـة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر ، وطلب لأن يغفر لهم مايفرط منهم ، واستغفارا لما عسى يندر منه من الصغائر ، وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث « إنى سقيم . بل فعله كبيرهم » وقوله لامرأته هى : أختى ضعيف لأنها معاريض جائزة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار . روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت « قلت يارسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين أكان ذلك نافعا له ؟ قال لاينفع إنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين » (وقال) تعالى حكاية عن السحرة « قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون (إنا نطمع) ـ نرجو ـ (أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أن كنا أول المؤمنين » أى من أهل المشهد أو من رعية فرعون أراد ولا ضرر علينا فى ذلك بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا ، أو لاضير لنا فيما تتوعدنا به أنه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت ، والقتل أهون أسبابه وأرجاها ، أو لاضير لنا فى قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقـلاب من يطمع فى مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق من الإيمان كذا ذكره النسفى (وهذا القسم) يعنى الوجه الأول (ليس مما نحن فيه بسبيل) أى من الـكلام على ضد التفويض (ههنا) أى فى باب التفويض (والثانى) من الوجهين (طمع مذموم . قال النبي صلي الله عليه وسلم : إياكم والطمع) الذى هو انبعاث هوى النفس إلى مافى أيدى الناس (فانه فقر حاضر) :

والحر عبد إن طمع والعبد حر إن قنع

والطمع فيما فى أيدى الناس انقطاع عن الله ، ومن انقطع عن الله فهو المخذول الخائب فانه عبد بطنه وفرجه وشهوته . وهـذا الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن جابر بلفظ « إياكم والطمع فانه الفقر الحاضر وإياكم وما يعتذر منه » أى قوا أنفسكم الـكلام فيمايحوج إلى الاعتذار .

والحاصل أن الطمع من أعظم العيوب القادحة فى العبودية ، بل هو أصل جميع الآفات لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم وعبودية لهم ، وفى ذلك من الذلة والمهانة ما لا مزيد عليه ، وسببه الشك فى المقدور ، ولذا قال بعضهم : لو قيل للطمع من أبوك لقال الشك فى المقدور ، ولو قيل ماحرفتك قال اكتساب الذل ، ولو قيل ماغايتك قال الحرمان ، فالطامع لامحالة فاسد الدين (و) لذلك (قيل) أى قال على بن أبى طالب رضى الله عنـه للحسن البصرى لما دخل جامع البصرة فوجد القصاص

هَلَاكُ الدِّينِ وَفَسَادُهُ الطَّمَعُ وَمِلَاكُهُ الْوَرَعُ .

يقصون فأقامهم حتى جاء على إليه : يافتى إنى سائلك عن امر فان أجبتنى فيه أبقيتك ، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك ، وكان قد رأى عليه سمتاً وهديا ، فقال الحسن سل عما شئت . قال مافساد الدين وملاكه ؟ فقال الحسن (هلاك الدين وفساده الطمع ، وملاكه) أى مايقوم به الدين (الورع) قال على: اجلس فمثلك من يتكلم على الناس . قال ابن عطاء فى التنوير : وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : كنت فى ابتداء أمرى بثغر الإسكندرية جئت إلى بعض من يعرفنى ، فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ، ثم قلت فى نفسى لعله لايأخذه منى فهتف بي هاتف : السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين . قال وسمعته يقول : صاحب الطمع لايشبع أبدا ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة الطاء والميم والعين . ثم قال بعد هذا: فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم فقد سبقت قسمتك وجودك وتقدم ثبوته ظهورك ، واسمع ما قاله بعض المشايخ : أيها الرجل ما قدر لما ضغيك أن يمضغاه فلابد أن يمضغاه فكله ويحك بعز ولا تأكله بذل ، وقد تقدم ذكر الورع فى مقابلة الطمع فى جواب الحسن لعلى رضى الله عنهما ، ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس : وهو ترك الشبهات والتحرج من اقتحام المشكلات لا يقابل الطمع كل المقابلة ، وإنما يقابله ورع الخاصة ، وهو صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين ووجود السكون إليه وعكوف الهمم عليه وطمأنينة القلب به ، ولا يكون له ركون إلى غيره ولا انتساب إلى خلق ولا كون ، فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد ، وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد كما نبه عليه الحسن فى جوابه المذكور . قال يحى بن معاذ رحمه الله : الورع على وجهين ، ورع فى الظاهر أن لا يتحرك إلا لله ، وورع فى الباطن وهو أن لا يدخل قلبك إلا الله . وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رحمه الله : اعلم أن الورع أن لايكون بينك وبين الخلق نسبة فى أخذ أو عطاء أو قبول أورد ، وأن يكون السبق لله تعالى وهو أن يأتى إليه طاهراً من جميع الأشياء والعلم والعمل كما قال « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » ، وقال أيضا : الورع أن لايخطر الرزق بالبال ولا يكون بينه وبينه نسبة لا فى التحصيل ولا عند المباشرة ، لأنه لا يدرى أيأكل أم لا ؟ وقال أيضا : الورع أن لا تتحرك ولا تسكن إلا وترى الله فى الحركة والسكون فاذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقى مع الله ، فالحركة ظرف لما فيها كما قال بعضهم : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه فاذا رأى الله ذهبت الأشياء . وقال ابن عطاء فى لطائف المنن : اعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل فان من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره تعالى أو يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم فى غير فضله وخيره ، ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب ، ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات والسكون إلى أنوار التجليات ، ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو ترفعهم الآخرة تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاء . قال الشيخ

قالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : الطَّمَعُ الْمَذْمُومُ شَيْئَانِ : سُكُونُ الْقَلْبِ إِلَى مَنْفَعَةٍ مَشْكُوكَةٍ . وَالثَّانِي : إِرَادَةُ الشَّيْءِ الْمُخَاطَرِ بِالْحُكْمِ ، وَهٰذِهِ الْإِرَادَةُ

عثمان بن عاشوراء : خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا أنا بالدنيا قد عرضت على بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها فأعرضت عنها ، فعرضت على الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وأثمارها فلم أشتغل بها . فقيل لى يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنافها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك؟ وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى وكان مقيما بشرقى الاسكندرية : حججت سنة من السنين فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الاسكندرية فاذا العلي يقول لى : إنك فى العام القابل عندنا فقلت فى نفسى إذا كنت فى العام القابل ههنا فلا أعود إلى الاسكندرية فخطر لى الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن فأنا يوما على ساحلها وإذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ، ثم نظرت فإذا رجل فرش سجادته على البحر ومشى على الماء ، فقلت فى نفسى لم أصلح للدنيا ولا للآخرة فإذا العلي يقول لى من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا . وقال الشيخ أبو الحسن رحمه الله : الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى . وأما أدنى الأدنى فالله يوزعهم عنه ثوابا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزان فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى وميراثه التعزز على خلقه والاستكبار على مثله والدلالة على الله بعلمه فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العلى العظيم من ذلك ، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه . ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقاراً لنفسه وافتقاراً إلى ربه وتواضعا لخلقه فهو هالك ، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم « فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » . قال ابن عطاء : فانظر فهمك الله سبيل أوليائه ومن عليك بمتابعة أحبابه هذا الورع الذى ذكره الشيخ أبو الحسن هل كان يصل فهمك إلى مثل هذا النوع ؟ ألا ترى قوله قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة . فهذا هو ورع الأبدال والصديقين لا ورع المنقطعين الذى نشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم انتهى . وإنما أوردنا هذه المعانى ههنا تتميما للفائدة المتعلقة بكلام المصنف عن الحسن من كون الورع مقابلا للطمع (قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : الطمع المذموم شيئان) الأول (سكون القلب إلى منفعة مشكوكة) غير متيقنة (والثانى إرادة الشىء المخاطر بالحكم) أى بغير استثناء (وهذه الإرادة

تُقَابِلُ التَّفْوِيضَ لاَ غَيْرُ ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ .

وَأَمَّا حِصْنُ التَّفْوِيضِ فَهُوَ ذِكْرُ خَطَرِ الْأُمُورِ وَإِمْكَانِ الْهَلَاكِ وَالْفَسَادِ فِيهَا ، وَحِصْنُ حِصْنِهِ ذِكْرُ عَجْزِكَ عَنِ الاِعْتِصَامِ عَنْ ضُرُوبِ الْخَطَرِ وَالاِمْتِنَاعِ عَنِ الْوُقُوعِ فِيهَا بِجَهْلِكَ وَغَفْلَتِكَ وَضَعْفِكَ ؛ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَى هٰذَيْنِ الذِّكْرَيْنِ تَحْمِلُكَ عَلَى تَفْوِيضِ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَالتَّحَفُّظِ عَنِ الْحُكْمِ فِيهَا وَالاِمْتِنَاعِ عَنْ إِرَادَتِهَا إِلاَّ بِشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

فَإِنْ قِيلَ لَكَ : مَاهٰذَا الْخَطَرُ الَّذِى

تقابل التفويض لا غير) أى لا تقابله غير هذه الإرادة (فاعلم ذلك) أي الطمع الذى يقابل التفويض ، وذلك لأن الطمع فى الشئ دليل على الحب له وفرط الاحتياج إلى نيله وذلك عبودية له ولذا يقابله التفويض ؛ وقيل لولا الأطماع الكاذبة لما استعبد الأحرار بكل شيء لاخطر له . قال العلامة الرندى : حكى عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدم التلميذ إليه خبزا قفارا ولم يكن له أدم فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له أدم يقدمه إلى أستاذه فقام الأستاذ وقال تعال معى فحمله إلى باب السجن فرأى الناس يضرب واحد ويقطع آخر ويعذب كل واحد بأنواع العذاب ، فقال الأستاذ للتلميذ ترى هؤلاء ؟ هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار ، وقيل إن العقاب يطير فى فضاء عزه بحيث لا يرتقى طرف إلى مطاره ولا تسمو همة إلى الوصول إليه فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبى يلعب به ، وقيل إن فتحا الموصلى رحمه الله كان قاعدا فسئل عمن تابع الشهوات كيف صفته وكان بقربه صبيان مع أحدهما خبز بلا أدم ومع الآخر خبز مع كامخ ، فقال الذى لم يكن معه كامخ لصاحبه أطعمنى من الكامخ ، فقال له بشرط أن تكون كلبى ، فقال نعم فجعل فى رقبته خيطا وجعل يجره كما يقاد الكلب ، فقال فتح للسائل أما إنه لو رضى بخبزه ولم يطمع في كامخ صاحبه لم يصر كلبا لصاحبه (وأما حصن التفويض فهو ذكر خطر الأمور وإمكان الهلاك والفساد فيها) أى فى تلك الأمور (وحصن حصنه) أى التفويض (ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب) أى أنواع (الخطر و) عن (الامتناع عن الوقوع فيها) أي فى ضروب الخطر (بجهلك وغفلتك وضعفك؛ والمواظبة على هذين الذكرين) أى ذكر خطر الأمور وذكر العجز عن الاعتصام عما ذكر (تحملك) أى تبعثك (على تفويض الأمور كلها إلى الله سبحانه و) تحملك على (التحفظ عن الحكم) بغير استثناء (فيها) أى فى الأمور (والامتناع عن إرادتها إلا بشرط الخير والصلاح فهذه) الجملة (هذه) أى موصوفة بالكمال والعظمة (وبالله التوفيق . فإن قيل لك : ماهذا الخطر الذى

يُوجِبُونَ التفويضَ لِأَجْلِهِ فى الْأُمُورِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَرَ فى الْجُمْلَةِ خطرَانِ : خَطَرُ الشَّكِّ بِأَنَّهُ يَكُونُ أَوْ لاَ يَكُونُ ، وَأَنَّكَ تَصِلُ إِلَيْهِ أَوْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ ، وَهٰذَا يَحْتَاجُ إِلى الْاِسْتِثْنَاءِ وَيَقَعُ فى بَابِ النِّيَّةِ وَالْأَمَلِ . وَالثَّانِى : خَطَرُ الْفَسَادِ بِأَنْ لاَ تَسْتَيْقِنَ فِيهِ الصَّلَاحَ لِنَفْسِكَ ، وَهٰذَا الَّذِى يُحْتَاجُ فِيهِ إِلى التَّفْوِيضِ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْأَئِمَّةِ فى الْخَطَرِ ؛ فَمَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْخَطَرَ فى الْفِعْلِ هُوَ أَنْ تَكُونَ دُونَهُ نَجَاةٌ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَامِعَهُ ذَنْبٌ ؛ فَالْإِيمَانُ وَالْاِسْتِقَامَةُ وَالسُّنَّةُ لاَ خَطَرَ فِيهَا ، إِذْ لاَ يُمْكِنُ دُونَ الْإِيمَانِ نَجَاةٌ أَلْبَتَّةَ ؛ وَالْاِسْتِقَامَةُ لاَ يُجَامِعُهَا ذَنْبٌ ، فَإِذَنْ تَصِحُّ إِرَادَةُ الْإِيمَانِ وَالْاِسْتِقَامَةِ بِالْحُكْمِ .

وَقالَ الْأُسْتاذُ رَحِمَهُ اللهُ : الْخَطَرُ فى الْفِعْلِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَرِضَ فِيهِ مَا يَكُونُ الْاِشْتِغالُ بِالْعَارِضِ أَوْلَى مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى ذٰلِكَ الْفِعْلِ ، وَذٰلِكَ

يوجبون) أى العلماء رضوان الله عليهم (التفويض لأجله) أى الخطر (فى الأمور ، فاعلم أن الخطر فى الجملة خطران) الأول (خطر الشك بأنه) أي الأمر (يكون) أى يوجد (أولا يكون) أى لايوجد (وأنك تصل إليه) أى إلى الأمر (أو لاتصل إليه ، وهذا) الخطر (يحتاج إلى الاستثناء ويقع) العبد (فى باب النية) أى نية الخير إن كان الاستثناء والتفويض (والأمل) أى ويقع فى طول الأمل إن لم يكن الاستثناء والتفويض (والثانى خطر الفساد بأن لاتستيقن فيه) أى فى الأمر الذى خطر (الصلاح) والخير (لنفسك وهذا) أى خطر الفساد (الذى يحتاج فيه) أى فى ذلك الخطر (إلى التفويض . ثم اختلفت عبارات الأئمة) رضى الله عنهم (فى الخطر ؛ فمن بعضهم أن الخطر فى الفعل هو أن تكون دونه) أى دون ذلك الفعل : أى فى عدمه (نجاة ويمكن أن يجامعه) أى ذلك الفعل (ذنب ؛ فالإيمان والاستقامة) على الطاعة (والسنة لاخطر فيها) أى فى هذه الثلاثة (إذ لا يمكن دون الإيمان نجاة ألبتة) أى قطعا (والاستقامة لايجامعها ذنب ، فإذن) أى حين إذ كانت تلك الثلاثة لاخطر فيها (تصح إرادة الإيمان والاستقامة) والسنة (بالحكم) أى بحكم القطع والجزم (وقال الأستاذ) قيل هو أبو إسحاق الاسفرايني الأستاذ إبراهيم ابن محمد الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى صاحب التصانيف الجليلة : توفى يوم عاشوراء سنة ثمان وعشرة وأربعمائة (رحمه الله : الخطر فى الفعل مايمكن) من الخطر (أن يعترض فيه) أى فى ذلك الخطر (مايكون الاشتغال بالعارض أولى من الإقدام على ذلك الفعل وذلك) الخطر المذكور

يَقَعُ فِي الْمُبَاحَاتِ وَالسُّنَنِ وَالْفَرَائِضِ ؛ أَلاَ تَرَى أَنَّ مَنْ تَضَيَّقَ عَلَيْهِ وَقْتُ الصَّلاَةِ وَقَصَدَ أَدَاءَهَا فَعَرَضَ لَهُ حَرِيقٌ أَوْ غَرِيقٌ يُمْكِنُهُ إِنْقَاذُهُ ، فَالاِشْتِغَالُ بِإِنْقَاذِهِ أَوْلَى مِنَ الإِقْبَالِ عَلَى صَلاَتِهِ ؛ فَلاَ تَصِحُّ إِذَنْ إِرَادَةُ الْمُبَاحَاتِ وَالنَّوَافِلِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْفَرَائِضِ بِالْحُكْمِ .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَفْتَرِضَ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ شَيْئاً وَيُوعِدَهُ عَلَى تَرْكِهِ ثُمَّ لاَ يَكُونُ لَهُ صَلاَحٌ فِي فِعْلِهِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ شَيْخَنَا رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَأْمُرُ الْعَبْدَ بِشَيْءٍ إِلاَّ وَفِيهِ صَلاَحُهُ إِذَا تَجَرَّدَ عَنِ الْعَوَارِضِ ، وَلاَ يُضَيِّقُ عَلَيْهِ فِعْلاً فَرْضاً بِحَيْثُ لاَ مَعْدِلَ لَهُ عَنْ ذٰلِكَ إِلاَّ وَلَهُ فِيهِ صَلاَحٌ ، وَإِنَّمَا رُبَّمَا يُسَبِّبُ اللهُ تَعَالَى لَهُ عُذْرًا لأَجْلِهِ يَكُونُ الْعُدُولُ عَنْ أَحَدِ الْمَأْمُورَيْنِ أَوْلَى مِنَ الاِشْتِغَالِ بِالآخَرِ كَمَا ذَكَرْنَا ، فَيَكُونُ الْعَبْدُ فِي ذٰلِكَ مَعْذُورًا بَلْ مَأْجُورًا لاَ بِتَرْكِ هٰذَا الْفَرْضِ بَلْ بِفِعْلِ الْفَرْضِ الثَّانِي

(يقع فى المباحات والسنن والفرائض ، ألا ترى أن من تضيق عليه وقت الصلاة وقصد أداءها) أى الصلاة فى ذلك الوقت (فعرض له حريق أو غريق يمكنه إنقاذه) أى الحريق أو الغريق (فالاشتغال بانقاذه أولى من الإقبال على صلاته) بل صرح بعضهم بأن من رأى حيوانا محترما يقصده ظالم : أى ولا يخشى منه قتالا أو نحوه أو يغرق لزمه تخليصه وتأخيرها أو إبطالها إن كان فيها أو مالا جاز له ذلك وكره له تركه كما فى التحفة (فلا تصح إذن) أى حين إذ يكون الاشتغال بالعارض أولى من الإقدام على ذلك الفعل (إرادة المباحات والنوافل والكثير من الفرائض بالحكم) بل تصح بالاستثناء (فإن قيل كيف يصح أن يفترض الله على عبده شيئا و) أن (يوعده) بالعقاب (على تركه) أى الشيء المفترض (ثم لايكون له) أى للعبد (صلاح فى فعله) أى الشيء المذكور (فاعلم أن شيخنا رحمه الله قال : إن الله تعالى لايأمر العبد بشيء إلا وفيه) أي فى ذلك الشيء (صلاحه) أى العبد (إذا تجرد) العبد (عن العوارض ولا يضيق) سبحانه وتعالى (عليه) أى على عبده (فعلا فرضا بحيث لامعدل) أى لاعدول (له) أى للعبد (عن ذلك) الفعل المذكور (إلا وله) أى للعبد (فيه) أى فى ذلك الفعل (صلاح وإنما) وفى نسخة إنه : أى الشأن كما فى سراج السالكين (ربما يسبب الله تعالى له) أى للعبد (عذرا لأجله) أى العذر (يكون العدول عن أحد المأمورين أولى من الاشتغال بالآخر كما ذكرنا) بقولنا : ألا ترى أن من تضيق عليه وقت الصلاة إلى آخره (فيكون العبد فى ذلك) أى العدول عن أحد المأمورين (معذورا بل مأجورا لابترك هذا الفرض بل) يكون أجره (بفعل الفرض الثانى)

الَّذِى هُوَ أَوْلَى .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ الْإِمَامَ رَحِمَهُ اللهُ فِى هٰذِهِ الْمَسْئَلَةِ يَقُولُ : إِنَّ كُلَّ مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِهِ ، فَفِيهَا صَلَاحٌ لَا مَحَالَةَ لِلْعَبْدِ ، وَصَحَّتْ إِرَادَتُهَا بِالْحُكْمِ ، قَالَ فَاتَّفَقَ رَأْيُنَا عَلَى ذٰلِكَ فَبَقِيَ الْمُبَاحَاتُ وَالنَّوَافِلُ إِذَنْ فِى هٰذَا الْحُكْمِ ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ غَوَامِضِ الْبَابِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

فَإِنْ قِيلَ : هَلْ يَأْمَنُ الْمُفَوِّضُ الْهَلَاكَ وَالْفَسَادَ وَالدَّارُ دَارُ مِحْنَةٍ ؟

فَاعْلَمْ أَنَّ فِى الْأَغْلَبِ لَا يُفْعَلُ بِالْمُفَوِّضِ إِلَّا الصَّلَاحُ ، وَقَدْ يُفْعَلُ بِهِ فِى النَّادِرِ غَيْرُ الصَّلَاحِ ، وَلِذٰلِكَ رُبَّمَا يَخْذُلُهُ فَيَقَعُ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ ، وَلَا صَلَاحَ لِلْعَبْدِ فِى الْخِذْلَانِ وَالْوُقُوعِ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ ، وَبِهِ قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ .

وَقِيلَ : لَا يُفْعَلُ بِالْمُفَوِّضِ إِلَّا مَا فِيهِ صَلَاحُهُ

الذى عدل إليه (الذى هو) أى الفرض الثانى (أولى) من الإقدام على الفرض الأول (ولقد سمعت الإمام) أبا المعالى المعروف بإمام الحرمين (رحمه الله) وقد تقدمت ترجمته (فى هذه المسئلة) المذكورة فى قول شيخه أبى بكر الوراق : إن الله تعالى لايأمر العبد بشئ إلا وفيه صلاحه إذا تجرد عن العوارض (يقول : إن كل ماافترض الله على عباده من الصلاة والصوم والحج ونحوه) أى المذكور من الثلاثة (ففيها) أى فى هذه الثلاثة ونحوها (صلاح لامحالة للعبد وصحت إرادتها بالحكم) أى حكم القطع (قال) الإمام رحمه الله (فاتفق رأينا على ذلك) أى صحة إرادتها (فبقى المباحات والنوافل إذن) أى حين اتفق ذلك (فى هذا الحكم) أى حكم التفويض (فاعلم ذلك) أى الذى ذكر من بقاء المباحات والنوافل فى هذا الحكم (فانه) أى المذكور من المباحات والنوافل (من غوامض الباب) أى باب التفويض ، والغوامض جمع غامض والغامض من الكلام خلاف الواضح (وبالله التوفيق ، فإن قيل هل يأمن المفوض الهلاك والفساد) أم لايأمن ذلك (والدار) أى دار الدنيا (دار محنة) وبلية (فاعلم أن فى الأغلب) والأكثر (لايفعل) بالبناء للمفعول (بالمفوض إلا الصلاح) والخير (وقد يفعل به) أى بالمفوض (فى النادر غير الصلاح ولذلك) أى لأجل أن يفعل بالمفوض فى النادر غير الصلاح (ربما يخذله فيقع) أى المفوض (عن منزلة التفويض ولا صلاح للعبد فى الخذلان والوقوع عن منزلة التفويض وبه) أى بالجواب المذكور (قال الشيخ أبو عمر رحمه الله . وقيل لايفعل بالمفوض إلا مافيه صلاحه) أى المفوض

فِيمَا فَوَّضَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ . وَالخِذْلاَنُ وَالْقُصُورُ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّفْوِيضِ مِمَّا لاَ يَقع فِيهِ التّفْوِيضُ إذْ لاَشَكَّ فِي فَسَادِ ذَلِكَ ؛ وَالتّفْوِيض إنَّمَا يَقَعُ فِيمَا يُشَكُّ فِي فَسَادِهِ وَصَلاَحِهِ، وَهـذَا أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ ، إذْ لَوْلاَ ذَلِكَ لَمَا قَوِيَتِ الْبَاعِثَةُ عَلَى التّفْوِيضِ .

(فيما فوض إلى الله سبحانه . و) أما (الخذلان والقصور عن منزلة التفويض) فهذا (مما لايقع فيه التفويض ، إذ لاشك فى فساد ذلك) أى الخذلان والقصور عن منزلة التفويض (والتفويض إنما يقع فيما) أى فى أمر (يشك فى فساده وصلاحه وهذا) أى القول الثاني (أولى القولين) أحدهما يفعل والآخر لايفعل به (عند شيخنا رحمه الله إذ لولا ذلك) أى أنه لايفعل بالمفوض إلا مافيه صلاحه فيما فوض إلى الله تعالى (لما قويت الباعثة على التفويض) .

﴿ تنبيهان : الأول ﴾ قال القشيرى : الفرق بين التفويض والتضييع أن التفويض فى حقك وهو محمود، والتضييع فى حق الله وهو مذموم . وقال صاحب القوت : حدثونا عن بعض السلف. قال : رأيت بعض العباد من أهل البصرة فى المنام فقلت : مافعل الله بك ؟ . قال غفر لى وأدخلنى الجنة ، فقلت : أى الأعمال وجدت هناك أفضل ؟ قال التوكل وقصر الأمل ، وفى وصية لقمان : ومن الإيمان بالله التوكل على الله ، وإن التوكل يحبب العبد إلى الله ، وإن التفويض إلى الله من هدى الله وبهدى الله يوافق العبد رضوان الله ، ومن موافقة العبد رضوان الله يستوجب كرامة الله ، وكان سهل يقول : التوكل هو التفويض ثم الرضا، وكان الحسن يقول : الغنى والعز يجولان فى طلب التوكل فإذا ظفرا به وطناه ، وفى هذا المعنى قيل :

يجول الغنى والعز فى كل موطن ليستوطنا قلب امرئ إن توكلا
ومن يتوكل كان مولاه حسبه وكان له فيما يجول معقلا
إذا رضيت نفسي بمقدور حظها تعالت وكانت أفضل الخلق منزلا

ويقال : إن الخوف من المخلوقات عقوبة نقصان الخوف من الخالق فإن ذلك من قلة الفقه عن الله وضعف التوكل عليه . ﴿ الثانى ﴾ التوكل على الله لايمنع دخول اللصوص ولا يمنع وقوع الاقتدار للبلوى بمحو الدار ، وقد قال أبو يزيد قدس سره وهو من أعلى المتوكلين : ماسافرت فى قافلة قط إلا قطع علي الطريق . وقال آخر من نظرائه : ماخرجت فى سفر قط ومعى سبب إلا سلط الله علي من يأخذه حتى أبقى مع الله بالله مجردا بلا سبب فهـذه آيات يرد الله بها أولياءه إليه فى تسليطات يدلهم بها عليه ليرجعوا إليـه ؛ فالتوكل على الله تعالى فى الأسباب لايوجب بقاءها للعبد ولا إيثاره بها ولا حفظها عليه ، ولا يقدم شيئا عن شئ ولا يؤخره لصلاح دنيا أو اختيار عبد بل هو إلى الإذهاب والإتلاف أقرب ، لأن التوكل قرين للزهد وعمرته ،

فَإِنْ قِيلَ : هَلْ يَجِبُ أَنْ يُفعَلَ بِالْمُفَوِّضِ مَاهُوَ الْأَفْضَلُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِيجَابَ مُسْتَحِيلٌ فِى حَقِّ اللهِ تَعَالَى فَلَا يَجِبُ لِعِبَادِهِ عَلَيْهِ شَىْءٌ ، وَقَدْ يَفْعَلُ

فهو يرد التوكل إلى أصله وذلك وصف صادق المتقين ، ولولا الامتحان لكثر الصادقون ، ولولا الإخراج من المعتاد والمألوف لكثر الصالحون ؛ فإذا كان مقام التوكل الرضا بجريان القضاء والمحبة لمواقيع البلاء لم يبال بقي ماله وسلم سببه الذى توكل عليه عنه أو عطب إذا كان محبة وكيله فيه ورضاه به، فما عرضه من موافقة محبته وحلاوة رضاه فضل من إتلاف نفسه ودنياه (فإن قيل: هل يجب أن يفعل) بالبناء للمفعول (بالمفوض ماهو الأفضل ، فاعلم أن الإيجاب مستحيل) أى باطل (فى حق الله تعالى فلا يجب لعباده عليه) تعالى (شيء) لأنه خالق الخلق أنعم عليهم بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، فكيف يجب لهم عليه شيء ، بل إن أنعم عليهم فبفضله ، وإن منعهم فبعدله ، وأما نحو قوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة» وقوله «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» فانما هو إحسان وتفضل لا لإيجاب وإلزام ، وما أحسن قول بعضهم :

وما إن فعل أصلح ذا افتراض　　على الهادى المقدس ذى التعالى

والحاصل أن مذهب أهل السنة أن الأصلح للعبد ليس بواجب على الله تعالى وجمهور المعتزلة نصوا على أنه واجب ، وذهب بعضهم إلى وجوب رعاية المصلحة لاوجوب الأصلح . قال العلامة النوبى : كلا القولين متقاربان لاتفاوت بينهما من حيث إضافة الوجوب إلى الله تعالى ، وشبهتهم في ذلك أنهم قالوا إن الله تعالى حكيم فى أمره ، وإذا أمر عبده بأمر اقتضت حكمته أن يعطى هذا العبد مايتهيأ به للاتيان بالمأمور ، وإذا أعطى الله هذا العبد شيئا ومنعه منه كان بخلا وهو محال عليه تعالى . والجواب أنه ليس ببخل لأن البخل إنما يكون إذا كان واجبا حقا مستحقا للمحتاج عندنا وترك إسعافه ليس ببخل وإنما هو عدل لمقتضى الحكمة الإلهية ، لأنه يعطى من يشاء من فضله ويمنع من يشاء بعدله ، فلا يجب عليه شيء من ذلك . وقال العلامة القارى وغيره : قد رد كلام جميع المعتزلة القائلين بوجوب الأصلح والمصلحة أولا بأن الألوهية تنافى الوجوب المختص بالعبودية ولا يسئل عما يفعل ، وثانيا بأن الأصلح بحسب الظاهر أن يهدى الخلق جميعا ، وقد قال سبحانه «يضل من يشاء ويهدى من يشاء» مع قوله « ولو شاء لهداكم أجمعين» فما أراد اختلاف العباد إلا إظهار عدله وإيثار فضله ، وأيضا قال تعالى «إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » مع أن الإملاء لزيادة الإثم ليس بصلاح عند العقلاء ، وكذلك خلق الكافر الفقير المعذب فى الدنيا والآخرة ، فإن العدم أصلح له من الوجود فى عالم الشهود فلله الحجة البالغة والحكم السابغة فلا خلل فى شيء من مقدوراته بل أتقن بحكمته جميع مصنوعاته وأبدع كل شيء من سائر مخلوقاته ، وإنما العقول قاصرة عن إدراك حقيقة سر الحكم الإلهية (وقد يفعل) الله تعالى

بِالْعَبْدِ الْأَصْلَحَ دُونَ الْأَفْضَلِ حِكْمَةً مِنْ فِعْلِهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدَّرَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ أَنْ يَنَامُوا طُولَ اللَّيْلِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ فِى بَعْضِ الْأَسْفَارِ حَتَّى فَاتَتْهُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ ، وَالصَّلَاةُ أَفْضَلُ مِنَ النَّوْمِ ؛ وَرُبَّمَا يُقَدِّرُ لِلْعَبْدِ الْغِنَى وَالنِّعْمَةَ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ الْفَقْرُ أَفْضَلَ ، وَرُبَّمَا يُقَدِّرُ لَهُ الْاشْتِغَالَ بِالْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ وَإِنْ كَانَ التَّجَرُّدُ لِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَفْضَلَ ، فَإِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ، وَهٰذَا

(بالعبد الأصلح دون الأفضل حكمة من فعله) تعالى (ألا ترى أنه قدر) أى قضى الله تعالى (للنبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه أن يناموا طول الليل) بوادي القرى شمالى المدينة النبوية (إلى طلوع الشمس) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من استيقظ والشمس فى ظهره فقام الصحابة رضى الله عنهم فزعين . ثم قال صلى الله عليه وسلم اركبوا فساروا حتى ارتفعت الشمس ثم نزلوا وتوضئوا ثم أذن بلال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ثم صلى الغداة فجعل بعض الصحابة يهمس إلى بعض ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم «أما لـكم فى أسوة؟ أما إنه ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها» . قال بعض المحققين : والقصة فى عدة مواضع من الصحيح : أى صحيح البخارى عن قتادة قال «سرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقال بعض القوم لو عرست بنا يارسول الله ؟ قال أخاف أن تناموا عن الصلاة . قال أنا أوقظكم فاضطجعوا فأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فقال يابلال أين ماقلت ؟ قال ماألقيت على نومة مثلها قط . قال عليه الصلاة والسلام إن الله قبض أرواحكم حيث شاء وردها عليكم حيث شاء قم يابلال فأذن بالصلاة» (فى بعض الأسفار) وذلك حين رجوعه صلي الله عليه وسلم من غزوة خيبر (حتى فاتتهم صلاة الليل وصلاة الفجر) أى الصبح . واستشكل ذلك بحديث «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا» . وأجيب بأن للأنبياء نومين فكان هذا النوم من النوم الثانى وهو خلاف نوم العين ، وبأن دخول الوقت من وظائف الأعين وهى كانت نائمة فهو لاينافى استيقاظ القلوب وبأن ذلك للتشريع ، لأن من نامت عيناه لا يخاطب بأداء الصلاة حال نومه وهو صلى الله عليه وسلم مشارك لأمته إلا فيما اختص به ، ولم يرد اختصاصه بالخطاب حال نوم عينيه دون قلبه فتأمل ومعلوم أن الصلاة أفضل من النوم (وربما يقدر) أى يقضى الله ويحكم (للعبد الغنى والنعمة فى الدنيا وإن كان الفقر أفضل) من ذلك (وربما يقدر) الله تعالى (له) أى للعبد (الاشتغال بالأزواج والأولاد وإن كان التجرد) عنهما (لعبادة الله عز وجل أفضل فانه) سبحانه وتعالى (بعباده خبير) أى عالم؛ من الخبرة: وهو العلم بالخفايا الباطنة (بصير) بأحوالهم (وهذا) أى المذكور من أن الله قد

كَمَا أَنَّ الطَّبِيبَ الْحَاذِقَ النَّاصِحَ يَخْتَارُ لِلْمَرِيضِ مَاءَ الشَّعِيرِ وَإِنْ كَانَ مَاءُ السُّكَّرِ أَفْضَلَ وَأَنْفَسَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ صَلَاحَ عِلَّتِهِ فِي مَاءِ الشَّعِيرِ ، وَالْمَقْصُودُ لِلْعَبْدِ النَّجَاةُ مِنَ الْهَلَاكِ لَا الْفَضْلُ وَالشَّرَفُ مَعَ الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَهَلْ يَكُونُ الْمُفَوِّضُ مُخْتَارًا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحِيحَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا أَنَّهُ يَكُونُ مُخْتَارًا وَلَا يَقْدَحُ فِي تَفْوِيضِهِ ، وَذَٰلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ إِذَا كَانَ لَهُ صَلَاحٌ فِي الْفُضُولِ وَالْأَفْضَلِ فَهُوَ يُرِيدُ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُسَبِّبَ لَهُ الْأَفْضَلَ ، كَمَا أَنَّ الْمَرِيضَ يَقُولُ لِلطَّبِيبِ : اجْعَلْ دَوَائِي مَاءَ السُّكَّرِ دُونَ مَاءِ الشَّعِيرِ إِذَا كَانَ لِي صَلَاحٌ فِي كِلَيْهِمَا لِيَحْصُلَ لِي الْفَضْلُ وَالصَّلَاحُ جَمِيعًا ، فَكَذَٰلِكَ الْعَبْدُ إِذَا سَأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ صَلَاحَهُ فِيمَا هُوَ الْأَفْضَلُ ؛ وَيُسَبِّبَ لَهُ ذَٰلِكَ لِيَجْمَعَ لَهُ الْفَضْلَ وَالصَّلَاحَ جَمِيعًا ، وَلَٰكِنْ بِشَرْطِ أَنَّهُ إِنِ اخْتَارَ اللهُ لَهُ الصَّلَاحَ فِي غَيْرِ الْأَفْضَلِ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِذَٰلِكَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَلِمَاذَا كَانَ

يفعل بالعبد الأصلح دون الأفضل حكمة من فعله (كما أن الطبيب الحاذق) أى الماهر فى علم الطب (الناصح) أى الذى يريد الخير (يختار للمريض ماء الشعير وإن كان ماء السكر) والسكر معروف، وهو أيضا نوع من الرطب شديد الحلاوة (أفضل وأنفس) وأحسن، وذلك (لما علم) الطبيب (أن صلاح علته) أى المريض (فى ماء الشعير والمقصود للعبد النجاة من الهلاك) والفساد (لاالفضل والشرف مع الفساد والهلاك . فإن قيل: فهل يكون المفوض مختار ا) أملا (فاعلم أن الصحيح عند علمائنا) رضوان الله عليهم(أنهيكون)أى المفوض(مختارا ولا يقدح) من باب قطع:أى لا يطعن اختياره (فى تفويضه) أى المفوض (وذلك) أى بيان أن الاختيار لايقدح فى تفويضه (أن المعنى) أي الحكمة (فيه) أى فى اختياره (إذا كان له) أى للمفوض (صلاح فى المفضول والأفضل فهو) أى المفوض (يريد من الله تعالى أن يسبب) أى يجعل سببا (له) أى للمفوض (الأفضل) وهذا (كما أن المريض يقول للطبيب اجعل دوائى ماء السكر دون ماء الشعير إذاكان لى صلاح فى كليهما) أى ماء السكر وماء الشعير (ليحصل لى الفضل والصلاح جميعا ، فكذلك) أى مثل المريض (العبد إذا سأل الله تعالى أن يجعل صلاحه) أى العبد (فيما هو الأفضل و) أن (يسبب) جل وعز (له) أى للعبد (ذلك) الصلاح فيه (ليجمع) سبحانه وتعالى (له) أى للعبد (الفضل والصلاح جميعا ولكن بشرط أنه) أى الشأن (إن اختار الله له الصلاح فى غير الأفضل أن يكون) العبد السائل (راضيا بذلك) أى باختيار الله له الصلاح (فان قيل : فلماذا) أى لأى شيء (كان

لِلْعَبْدِ أَنْ يَخْتَارَ الْأَفْضَلَ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَخْتَارَ الْأَصْلَحَ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ الْأَفْضَلَ مِنَ الْمَفْضُولِ ، وَلَا يَعْرِفُ الصَّلَاحَ مِنَ الْفَسَادِ لِيُرِيدَهُ بِالْحُكْمِ ؛ ثُمَّ إِنَّ مَعْنَى اخْتِيَارِهِ الْأَفْضَلَ أَنْ يُرِيدَ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ صَلَاحَهُ فِيمَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَيَخْتَارَ لَهُ ذَٰلِكَ وَيُقَدِّرَ لَا أَنَّ لِلْعَبْدِ تَحَكُّمًا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ فَاعْلَمْهُ .

فَهَٰذِهِ جُمْلَةٌ مِنْ دَقِيقِ هَٰذَا الْعِلْمِ وَأَسْرَارِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْحَاجَةَ مَسَّتْ إِلَيْهِ لَمَا تَعَرَّضْنَا لِإِيرَادِهِ لِأَنَّهُ تَلَاطُمُ بِحَارِ عُلُومِ الْمُكَاشَفَةِ مَعَ أَنِّي اقْتَصَرْتُ عَلَى النُّكْتَةِ الْمُقْنِعَةِ فِي هَٰذَا الْكِتَابِ وَقَصَدْتُ الْإِيضَاحَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فُحُولُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُبْتَدِئُونَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ العارضُ الثالث : القضاء ووُرُود أنواعه ﴾

وَإِنَّمَا كِفَايَتُهُ فِي الرِّضَا بِهِ

للعبد أن يختار الأفضل وليس له) أي للعبد (أن يختار الأصلح فاعلم أن الفرق بينهما) أي الأفضل والأصلح (أن العبد يعرف الأفضل من المفضول ولا يعرف الصلاح من الفساد ليريده) أي الصلاح (بالحكم) أي حكم الجزم بغير استثناء (ثم إن معنى اختياره) أي العبد (الأفضل) هو (أن يريد من الله تعالى أن يجعل) جل وعز (صلاحه) أي العبد (فيما هو الأفضل و) أن (يختار) سبحانه (له) أي للعبد (ذلك) أي صلاحه فيما هو الأفضل (و) أن (يقدره) أي الصلاح لذلك العبد (لا) أي لا يكون معنى الاختيار (أن للعبد تحكما في شيء من ذلك) أي ما هو الأفضل (فاعلمه) أي المعنى المذكور (فهذه) أي الجملة المذكورة (جملة من دقيق هذا العلم) أي علم التفويض (وأسراره) أي هذا العلم (ولولا أن الحاجة مست إليه) أي إلى هذا العلم (لما تعرضنا لايراده) أي ذكره (لأنه تلاطم بحار علوم المكاشفة) أي تضارب الأمواج بعضها بعضا (مع أني اقتصرت على النكتة المقنعة) أي المكفية (وفي هذا الكتاب) المسمى بالمنهاج (وقصدت الايضاح) والبيان (لينتفع به) أي بهذا الكتاب (فحول العلماء) أي أكابرهم (والمبتدئون إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق) والعصمة .

﴿ العارض الثالث ﴾

من العوارض الأربعة الشاغلة عن عبادة الله تعالى (القضاء) أي فيما حكم به في الأزل (وورود أنواعه) أي القضاء بالحلو والمر (وإنما كفايته في الرضا به) أي بالقضاء . قال أبو طالب صاحب القوت : واعلم أن الرضا من مقامات اليقين وأحوال المحبين ومشاهدة

المتوكلين ، وهو داخل فى كل أفعال الله تعالى لأنها عن قضائه ، لا يكون فى ملكه إلا ما قضاه ؛ فعلى العارفين به الرضا بالقضاء ، ثم يرد ذلك إلى تفصيل العلم وترتيب الأحكام؛ فما كان من خير وبر أمر به أو ندب إليه رضى به العبد وأحبه شرعا وفعلا ووجب عليه الشكر ، وما كان من شر نهى عنه وهدد عليه فعلى العبد أن يرضى به عدلا وقدرا ويسلمه لمولاه حكمة وحكما وعليه أن يصبر عنه ويقر به ذنبا ويعترف به لنفسه ظلما ويرضى بعود الأحكام عليه بالعقاب وإن اجترحه بجوارحه اكتسابا ، ويرضى بأن لله سبحانه عليه الحجة البالغة وأن لاعذر له فيه ، ويرضى بأنه فى مشيئة الله من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء أو عقوبة بعدله وحقه إن شاء ، لأن الموقنين والمحبين لا يسقطون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا ينكرون إنكار المعاصى وكراهتها بالألسنة والقلوب من قبل أن الإيمان فرضها والشرع ورد بها ، ولأن الحبيب كرهها فكانوا معه فيما كره كما كانوا معه فيما أحب . ومقام اليقين لايسقط فرائض الإيمان ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائع الرسول ولا تسقط اتباعه فمن زعم ذلك فقد افترى على الله ورسوله وكذب على الموقنين والمحبين؛ فمن رضي بالمعاصى والمناكير منه أو من غيره وأحب لأجلها ووالى ونصر عنها أو ادعى أن ذلك يدخل فى مقام الرضا الذى يجازى عليه أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم ، فهو من الذين ذمهم الله ومقتهم ثم ذكر جملة من الآيات والأخبار والآثار، ثم قال: وقد غلط فى باب الرضا بعض البطالين من المتأخرين ممن لا علم له ولا يقين فحمل الرضا على ما يكون منه من معصية وهوي فحمله بالتفصيل وقلة فقهه بعلم التأويل ولا تباعه ما تشابه من التنزيل طلبا للفتنة وغربة الحال ، وابتداعا فى القول والفعال أو لهواه فى العصيان والفسوق وأراد أن يقيم بذلك عند الجاهلين سوق معذرة له وتطريقا إليه ، ولو عصم من الهوى لاستراح ، ولو زهد فى الدنيا لأراح ، ولو كان علمه التأويل لله الفتاح العليم لأفلح ، ولعلم الناس من علمه فربح وأربح، وأنى له بذلك والهوى يقلبه والبلاء المعقود به يعمره ، وإنما يعلم التأويل منزل التنزيل، ألم تسمع إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وبطلان قول هذا أوضح من أنه يدل على فساده فكفونا عن مناظرته بطرده وإبعاده، والاشتغال بالبطال بطالة لأن أوقاته قد ضاعت فيضيع وقت غيره بذكرها ، ثم قال وقد يحتج أيضا بطال لبخله وقلة مواساته وبذله ، أو يعتل لاتساعه فى أمر الدنيا واستئثاره علي الفقراء أن الذى يمنعه من البذل والإيثار أو الزهد فيما فى يديه والاخراج رضاه بحاله وقلة اعتراضه على مجريه فيه وأن هذا من مقام الرضا خص به عند نفسه ، وهذا قول لاعب ذى هوى ، وهو من خدع النفوس وأمانيها ومن غرور العدو ومكايده لأن الرضا لايمنع من اختيار الفقر والضيقة لمعرفة الراضى بفضل الزهد وأوصافه. كيف ولحب مولاه للفقر ولمقته على التكاثر، فالرضا لا يأمر بالاستئثار والاتساع ما كره من النعمة والاستكثار لأن الرضا يأمر بما أمر الإيمان به إذا كان مقاما فيه ، فهو لايوقف عما ندب إليه العبد ، ولا يدخل فيما كره له من فضول الدنيا إنما يوقف من ذلك غلبة الهوى ويدخل فيه محبة الدنيا . وهما مذمومان فى العلم وعند العلماء تأمر به النفس الأمارة بالسوء ويوسوس به العدو

فَعَلَيْكَ أَنْ تَرْضَى بِقَضَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

بالهمز والخطم ، وهذه مذمومات وأحالها بجهله على الرضا ، وهذه اغترارات من النفس لها وتمويه على الخلق ليسلم منه ولا عذر له، فهذا عند مالكه ولا سلامة له فيه من خالقه ولا مقام له فى الرضا عند العلماء من أهل الرضا (فعليك) أى الزم (أن ترضى بقضاء الله عز وجل) قال الله تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وروى البيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخراز . قال فى معنى الآية هل جزاء من انقلع من نفسه إلا التعلق بربه ، وهل جزاء من انقطع عن أنس المخلوقين إلا الأنس برب العالمين ،وهل جزاء من صبر علينا إلا الوصول إلينا. ومن وصل إلينا هل يجمل به أن يختار علينا وهل جزاء التعب فى الدنيا والنصب فيها إلا الراحة فى الآخرة ، وهل جزاء من صبر على البلوى إلا التقرب إلى المكون ، وهل جزاء من سلم قلبه إلينا أن نجعل توليه إلى غيرنا، وهل جزاء من بعد عن الخلق إلا التقرب إلى الحق؟ وفى حديث ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » .

وسئل ذوالنون المصرىعن هذا، فقال معناه هل جزاء من أحسنت إليه إلا أن أحفظ إحسانى عليه فيكون إحسانا إلى إحسان . وقال تعالى « ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر » فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكرولذكر الله أكبر » فكما أن مشاهدة المذكور فىالصلاة أكبرمن الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنة ، وروى «أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ماأنتم؟ فقالوا مؤمنون، فقال ماعلامة إيمانكم ؟ قالوا نصبر على البلاء ونشكر عندالرخاء ونرضى بمواقع القضاء؟ فقال مؤمنون وربالكعبة» وفى خبر آخر «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» قال الزبيدى : فما شهد لهم بالإيمان إلا بعد وصف الرضا، وكذلك جعل لقمان الحكيم الرضا من شرط الإيمان لايصلح إلا به . فقال فى وصيته : للايمان أربعة أركان لايصلح إلا بهن كما لايصلح الجسد إلا باليدين والرجلين ذكر منها الرضا بقدر الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون مارأينا حسابا فتقول لهم هل جزتم الصراط ؟ فيقولون مارأينا صراطا ، فتقول لهم هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون مارأينا شيئا ، فتقول الملائكة من أمة من أنتم ؟ فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول نشدناكم الله حدثونا ماكانت أعمالكم فى الدنيا ؟ فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله فيقولون وما هما فيقولون كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه ونرضى باليسيرمما قسم لنا فتقول الملائكة يحق لكم هذا» . قال العراقى : رواه ابن حبان من حديث أنس ، وفى أخبار موسى عليه السلام : أن بنى إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا . فقال موسى عليه السلام : إلهى قد سمعت ماقالوا . فقال : ياموسى قل لهم

وَذٰلِكَ لِأَمْرَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : التَّفَرُّغُ لِلْعِبَادَةِ لِأَنَّكَ إِذَا لَمْ تَرْضَ بِالْقَضَاءِ فَتَكُونَ مَهْمُومًا مَشْغُولَ الْقَلْبِ أَبَدًا بِأَنَّهُ لِمَ كَانَ كَذَا وَلِمَ ذَا يَكُونُ كَذَا ؟

يرضون عنى حتى أرضى عنهم ، ويشهد لهذا الخبر ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر مالله عز وجل عنده فان الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه» . وقال القشيري : وقيل قال موسى عليه السلام إلهى دلني على عمل إذا عملته رضيت عنى فقال إنك لاتطيق ذلك فخر موسى ساجدا متضرعا فأوحى الله إليه : يا ابن عمران إن رضائى فى رضاك بقضائى . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : لقد أصبحت وما بقى لي سرور إلا فى مواقع القدر ، وقيل له ماتشتهى فقال مايقضى الله تعالى. وقال أبو عبد الرحمن البناجى: من عباد الله خلق يستحبون من الصبر يتلقفون مواقع الأقدار بالرضا تلقفا . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقال عبد العزيز بن أبى رواد: ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال الثورى يوما عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض؟ فقال أستغفر الله ، فهى ذكرته بأن رضا الله إنما هو ثمرة رضا العبد عن الله تعالى فتذكر الثورى ورجع إلى نفسه واستغفر، فقال سليمان بن جعفر فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى. وقال أحمد بن أبى الحوارى قال لى أبو سليمان الدارانى إن الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم . قلت وكيف ذلك ؟ قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه؟ قلت نعم قال فان محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه. وقال سهل بن عبدالله: حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط » قال العراقي : رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود . والآيات والأخبار والآثار فى فضيلة الرضا أكثر من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية لأولى الألباب (وذلك) أى مطلوب الرضا ولزومه (لأمرين : أحدهما للتفرغ للعبادة) وذلك (لأنك إذا لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشغول القلب أبدا بأنه) أى الشأن (لم) أى لأى شىء (كان) أى الأمر (كذا) أى تعبا ومشقة مثلا (ولم ذا) أى لأى شىء (يكون كذا) أى وديئا وعسرا مثلا ، وفى

فإذَا اشْتَغَلَ الْقَلْبُ بِشَىْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْهُمُومِ كَيْفَ يَتفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ إِذْ لَيْسَ لَكَ إِلاَّ قَلْبٌ وَاحِدٌ ، وَقَدْ مَلأْتَهُ مِنَ الْهُمُومِ ، وَمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ؟ فَأَىُّ مَوْضِعٍ بَقِىَ فِيهِ لِذِكْرِ اللهِ وَلِعِبَادَتِهِ وَفِكْرِ الآخِرَةِ .

وَلَقَدْ صَدَقَ شَقِيقٌ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ : إِنَّ حَسْرَةَ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَتَدْبِيرَ الآتِيَةِ قَدْ ذَهَبَتْ بِبَرَكَةِ سَاعَتِكَ هٰذِهِ .

وَالثَّانِى مِنَ الْأَمْرَيْنِ : خَطَرُ مَا فِى السُّخْطِ مِنْ غَضَبِ اللهِ تَعَالَى . وَلَقَدْ رَوَيْنَا فِى الْأَخْبَارِ أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ شَكَا بَعْضَ مَا نَالَهُ مِنَ الْمَكْرُوهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَتَشْكُونِى وَلَسْتُ بِأَهْلِ ذَمٍّ وَلاَ شَكْوَى ، هٰكَذَا بَدَا شَأْنُكَ فِى عِلْمِ الْغَيْبِ فَلِمَ تَسْخَطُ قَضَائِى عَلَيْكَ ، أَتُرِيدُ أَنْ أُغَيِّرَ الدُّنْيَا لِأَجْلِكَ ،

الخبر المشهور «يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف ؟ » كذا نقله فى القوت . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : «خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى لشىء فعلته لم فعلته ولا لشىء لم أفعله لم لافعلته ، ولاقال فى شىء كان ليته لم يكن ولا فى شىء لم يكن ليته وكان اذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول دعوه لوقضى شىء لكان » (فاذا اشتغل القلب بشىء من هـذه الهموم) والأحزان (كيف يتفرغ للعبادة إذ ليس لك إلا قلب واحد) قال الله تعالى « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » أى ماجمع قلبين فى جوف لأن القلب معدن الروح الحيوانى المتعلق للنفس الإنسانى أولا ومنبع القوى بأسرها وذلك يمنع التعدد (و) الحال أنك (قد ملأته من الهموم وما كان) عطف على الهموم (وما يكون من أمر الدنيا ، فأى موضع بقى فيـه لذكرالله ولعبادته وفـكر) أمور (الآخرة ؟ ولقد صدق) أبو على (شقيق) بن إبراهيم البلخى وقد تقدمت ترجمته (رحمه الله حيث قال : إن حسرة الأمور الماضية وتدبير) الأمور (الآتية قد ذهبت ببركة ساعتك هـذه) أى الساعة التى أنت فيها (والثانى من الأمرين خطر مافى السخط) وهو ترك الرضا (من غضب الله تعالي. ولقد روينا فى الأخبار) السالفة (أن نبيا من الأنبياء شكا بعض مانا له) أى أصابه (من المكروه) وهوالجوع والفقر والقمل عشرسنين كما فى الإحياء (إلى الله تعالى، فأوحي الله تعالى إليه أتشكونى ولست بأهل ذم ولا شكوى؟ هكذا بدا) أى ظهر (شأنك) عندى (فى علم الغيب) أى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا (فلم) أى لأى شىء (تسخط قضائى عليك؟أتريد أن أغيرالدنيا لأجلك،

أَمْ أُبَدِّلَ اللَّوْحَ المَحْفُوظَ بِسَبَبِكَ فَأَقْضِي مَا تُرِيدُ دُونَ مَا أُرِيدُ ، وَيَكُونُ مَا تُحِبُّ دُونَ مَا أُحِبُّ ، فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ لَئِنْ تَلَجْلَجَ هٰذَا فِي صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى لَأَسْلُبَنَّكَ ثَوْبَ النُّبُوَّةِ وَلَأُورِدَنَّكَ النَّارَ وَلَا أُبَالِي .

قُلْتُ : فَلْيَسْتَمِعِ الْعَاقِلُ هٰذِهِ السِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْوَعِيدَ الْهَائِلَ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ فَكَيْفَ مَعَ غَيْرِهِمْ ؟ ثُمَّ اسْتَمِعْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : لَئِنْ تَلَجْلَجَ هٰذَا فِي صَدْرِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَهٰذَا فِي حَدِيثِ النَّفْسِ وَتَرَدُّدِ الْقَلْبِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَصْرُخُ وَيَسْتَغِيثُ وَيَشْكُو وَيُنَادِي بِالْوَيْلِ وَالصُّرَاخِ مِنْ رَبِّهِ الْكَرِيمِ الْمُحْسِنِ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَإِ ؟ وَيَتَّخِذُ لَهُ أَعْوَانًا وَأَصْحَابًا ، وَهٰذَا لِمَنْ سَخِطَ مَرَّةً ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ فِي السُّخْطِ عَلَى اللهِ تَعَالَى جَمِيعَ عُمْرِهِ ؟

أم أبدل اللوح المحفوظ بسببك فأقضى ماتريد دون ماأريد ويكون ماتحب دون ماأحب فبعزتي) وجلالى (حلفت لئن تلجلج) أى تحرك (هذا) أى المذكور من الشكاية (فى صدرك مرة أخرى لأسلبنك ثوب النبوة ولأوردنك) أى أدخلنك (النار ولا أبالى) نقله صاحب القوت . وروى فى بعض الأخبار أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يجعل أحدهم رجلاه على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد الى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لاينطق ولا يرفع رأسه فقال له بعض ولده ياأبت أما ترى مايصنع هذا بك لو نهيته عن هذا؟ فقال يابنى إنى رأيت مالم تروا وعلمت مالم تعلموا إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن أتحرك حركة أخرى فيصيبنى مالا أعلم نقله صاحب القوت. قال: وروينا فى بعض الأخبار أنه قال: إن الله تعالى ضمن لى إن حفظت لسانى أن يردنى إلى الدار التى أخرجنى منها (قلت فليستمع العاقل هذه السياسة العظيمة والوعيد الهائل) أى المخيف (مع أنبيائه وأصفيائه) عليهم الصلاة والسلام (فكيف) الحال (مع غيرهم ثم استمع قوله عزوجل لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى فهذا) أى التلجلج والتحرك (فى حديث النفس وتردد القلب فكيف بمن يصرخ) أى يصوت وينادى. فى المختار: الصراخ الصوت ، وفى [محيط المحيط] : صرخ يصرخ صراخا وصريخا: صاح شديدا واستغاث وأغاث . والعامة تقول صرخ له بمعنى ناداه (ويستغيث ويشكو وينادى بالويل) أى الهلاك (والصراخ من ربه الكريم المحسن على رؤوس الملأ) أى الجماعة (ويتخذ له) أى لنفسه لأجل الصراخ المذكور (أعوانا وأصحابا ، وهذا) أى التخويف المذكور وهو قوله عز وجل : لئن تلجلج (لمن سخط مرة فكيف بمن هو فى السخط على الله تعالى جميع عمره؟

وَهٰذَا لِمَنْ شَكَا إِلَيْهِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ شَكَا إِلى غَيْرِهِ ؟ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنَّا وَيَغْفِرَ لَنَا سُوءَ آدَابِنَا وَيُصْلِحَنَا بِحُسْنِ نَظَرِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا مَعْنَى الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَحَقِيقَةُ ذٰلِكَ وَحُكْمُهُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ عُلَمَاءَنَا قَالُوا : إِنَّ الرِّضَا تَرْكُ السُّخْطِ ، وَالسُّخْطُ ذِكْرُ غَيْرِ مَا قَضَى اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ أَوْلى بِهِ وَأَصْلَحُ لَهُ فِيمَا لاَ يَسْتَيْقِنُ فَسَادَهُ وَصَلاَحَهُ ، فَهٰذَا شَرْطٌ فِيهِ ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ .

وهذا) أى التخويف المذكور (لمن شكا إليه) تعالى (فكيف ممن شكا إلى غيره ؟ نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، و) من (سيئات أعمالنا ، ونسأله)سبحانه وتعالى(أن يعفو عنا ويغفر لنا سوء آدابنا ويصلحنا بحسن نظره ، إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (فان قيل: فما معنى الرضا بالقضاء ، وحقيقة ذلك وحكمه ، فاعلم أن علماءنا) رضوان الله عليهم (قالوا إن الرضا ترك السخط والسخط ذكر غير ماقضى الله تعالى بأنه) أى ذلك الغير (أولى) أى أحق (به) أى بالعبد (وأصلح له فيما لايستيقن فساده وصلاحه ، فهذا) أى ترك السخط (شرط فيه) أى فى الرضا (فاعلم ذلك) أى المذكور مما قالوه فى الرضا . ومن ذلك قال أبو على الدقاق : ليس الرضا أن لاتحس بالبلاء إنما الرضا أن لاتعترض على الحكم والقضاء . وقال النصراباذى : من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ماجعل الله رضاه فيه ، وقال ابن خفيف: الرضاسكون القلب إلى أحكامه وموافقة القلب بما رضى الله به واختاره، وقيل قال الشبلى بين يدى الجنيد : لاحول ولا قوة إلا بالله، فقال الجنيد قولك ذا ضيق صدر وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء فسكت الشبلى. وقال أبوسليمان: الرضا أن لاتسأل الله تعالى الجنة ولا تستعيذ به من النار . وكان سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون المصرى يقول : ثلاثة من أعلام الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب فى حشو البلاء ، وذلك لأن الراضى يحسن ما يجريه الله عليه لااختيار له وإنما هو مذعن لما يختاره الله لعلمه بفضل ربه عليه وحسن اختياره له فما يجريه عليه ، ومتى كان له اختيار فى نفسه فهو مع نفسه راض بحكمها ، لا بحكم ربه كما أفاده شيخ الاسلام : وقيل للحسين ابن علي بن أبى طالب رضى الله عنهما : إن أبا ذر يقول : الفقر أحب إلى من الغنى ، والسقم أحب إلى من الصحة ، فقال رحم الله تعالى أباذر ، أما أنا فأقول من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمن غير مااختاره الله عز وجل له . وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافى : الرضا أفضل من الزهد فى الدنيا لأن الراضى لايتمنى فوق منزلته . وسئل أبو عثمان عن قول النبى صلى الله

فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ الشُّرُورُ وَالْمَعَاصِي بِقَضَاءِ اللهِ تَعالى وَقَدَرِهِ ، فَكَيْفَ يَرْضَى الْعَبْدُ بِالشَّرِّ وَيَلْزَمُهُ ذٰلِكَ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الرِّضَا إِنَّمَا يَلْزَمُ بِالْقَضَاءِ ، وَقَضَاءُ الشَّرِّ لَيْسَ بِشَرٍّ وَإِنَّمَا الشَّرُّ هُوَ الْمَقْضِيُّ فَلَا يَكُونُ رِضاً بِالشَّرِّ ؛

عليه وسلم « أسألك الرضا بعد القضاء » فقال لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا والرضا بعد القضاء هو الرضا . وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول : أرجو أن أكون عرفت طرفا من الرضا ، لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضيا . وقال أبو عمر الدمشقي : الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان . وقيل كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد، فإن الخير كله في الرضا؛ فان استطعت أن ترضى والافاصبر . وقيل إن عتبة الغلام بات ليلة يقول إلى الصباح إن تعذبني فأنا لك محب وإن ترحمني فأنا لك محب . وكان أبو علي الدقاق يقول : الإنسان خزف وليس للخزف من الخطر مايعارض فيه حكم الحق تعالي . وقال أبو عثمان الحيرى منذ أربعين سنة ماأقامني الله عز وجل في حال فكرهته وما نقلني إلى غيره فسخطته (فان قلت) فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (أليس الشرور والمعاصي بقضاء الله تعالى وقدره) أي بتقديره الأمور وإحاطته بها، فان كانت المعاصي بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وإن كانت بغير ذلك فهو محال وهو قادح في التوحيد (فكيف يرضى العبد بالشر ويلزمه) أي العبد (ذلك) أي الرضا بالشر (فاعلم أن الرضا إنما يلزم) أي يجب (بالقضاء) بمعنى أنا نرضي بخلق الله المعصية ولا نعترض عليه ، ويجب علينا كراهتها من حيث كونها معصية . قال الإمام الغزالي ونظيره ماإذا كان لك عدوان : أحدهما عدو للآخر فانك تكره موته من حيث أنه ساع في هلاك عدوك وتفرح به من حيث إنه عدوك ، وكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فترضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه . وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم (وقضاء الشر) بمعنى الإرادة الأزلية (ليس بشرّ وإنما الشرّ هو المقضى فلا يكون) أي الرضا بالقضاء (رضا بالشرّ) وقد يطلق القضاء على المقضى كما في حديث « اللهم إني أعوذ بك من درك الشقاء وسوء القضاء » وهذا لايجب الرضا به مطلقا، بل إن كان واجبا وجب أو مندوبا ندب أو مباحا أبيح أو مكروها كره أو حراما حرم بخلافه بمعنى إرادة الله الأشياء . وقال الكمال محمد بن إسحاق في مقاصد المنجيات: أفعال العباد على ثلاثة أقسام : طاعات ومباحات ومعاص ، فالطاعات يرضى بها مطلقا والمعاصي لايرضى بها مطلقا ، والمباحات منها ما تعين على الطاعات وفراغ القلب للذكر فيلتحق

بالطاعات . ومنها مايشغل القلب عن ذكر الله ويحث على المخالفة فيلحق بالمعاصى فى عدم الرضا ، والسر فى ذلك أن الله تعالى أراد مالا يرضى ولا يأمر إلا بما يرضى والعباد متعبدون بما يصدر من الأمر والنهى لابما يصدر عن مشيئته وتدبيره ؛ فالرب تعالى لايأمر العباد إلا بما فيه مصلحة لهم عاجلة أو آجلة ، وقد تعبدنا ربنا بكراهة المعاصى لمصلحتين : إحداهما مقصودة فى نفسها . والثانية وسيلة لغيرها. أما المصلحة المقصودة لنفسها فان الله تعالى تسمى بالخافض الرافع . ولهما آثار فى الوجود من الخفض والرفع فندب الله عباده إلى أن يكون المخفوض عنده المخفوض عندهم والمرفوع عنده المرفوع عندهم . ولا يوجد كمال هذه العبادة إلا عند المحبين لأن المحبة إذا قربت تعدت إلى كل مايتعلق بالمحبوب حتى يحب حبيبه ويبغض بغيضه وإليه الإشارة بقوله تعالى « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » أى قاتل نفسك وقوله تعالى « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » . وأما المصلحة المقصودة لغيرها فان الله جبل طباع العباد على النفرة عما يكرهونه ، فكراهة المعاصى على هذا وسيلة إلى تركها ونبذها لامن حيث إنها من فعل الله .

فان قلت الرضا والسخط أيضا مرادان وقد قلت إن الله أراد مالا يرضى، وما معنى قوله تعالى « ولا يرضى لعباده الكفر » فأقول الرضا والسخط مردّدان بين الإرادة والفعل . ومعنى الآية محمول على الصفة الفعلية لاعلى الصفة الذاتية فقوله تعالى « ولا يرضى لعباده الكفر » أى إذا كفروا عاملهم معاملة الساخط عليهم وهذا معنى قولك يريد مالا يرضى : أى خصهم بفعل يعاقبهم عليه لأن حقيقة لفظى الرضا والسخط محالان فى حق الله تعالى كذا أفاده العلامة الزبيدى . وقد ذكر مصنفنا الإمام الغزالى رحمه الله أن مقت الله لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره وإختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده أعنى تسليط دواعى المعصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته . فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادى من أبعده الله عن حضرته وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره ، والمبعد عن درجات القرب ينبغى ألا يكون مقيتا بغيضا إلى جميع المحبين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده ، وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة فى مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وبه يظهر معنى قوله تعالى « أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال « جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم » وكذلك أمر المؤمنين فى قوله تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لارخصة فى إفشائه إلا لأهله وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به ، فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق فى الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ،

وَقَدْ قالَ شُيُوخُنا رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالى : إنَّ المَقْضِيَّاتِ أَرْبَعَةٌ : نِعْمَةٌ ، وَشِدَّةٌ ، وَخَيْرٌ ، وَشَرٌّ .

فَالنِّعْمَةُ يَجِبُ الرِّضا فِيها بِالْقاضِي وَالْقَضاءِ وَالْمَقْضِيِّ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ الشُّكْرُ مِنْ حَيْثُ إِنَّها نِعْمَةٌ ، وَإِظْهارُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ بِإِبْداءِ أَثَرِ النِّعْمَةِ .

وَالشِّدَّةُ يَجِبُ أَيْضاً الرِّضا فِيها بِالْقاضِي وَالْقَضاءِ وَالْمَقْضِيِّ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ مِنْ حَيْثُ إِنَّها شِدَّةٌ .

وَالْخَيْرُ يَجِبُ فِيهِ الرِّضا بِالْقاضِي وَالْقَضاءِ وَالْمَقْضِيِّ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ ذِكْرُ المِنَّةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خَيْرٌ وُفِّقَ لَهُ .

وَالشَّرُّ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الرِّضا بِالْقاضِي وَالْقَضاءِ وَالْمَقْضِيِّ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَقْضِيٌّ لا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَرٌّ ، وَكَوْنُهُ

فالأولى السكوت والتأدب بآداب الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تفشوه» رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصى وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف، كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى فى العطش وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبة مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالى وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لايناقض التوكل ، فاعلم ذلك (وقد قال شيوخنا رحمهم الله تعالى: إن المقضيات) أى الأمور التى قضاها الله تعالى (أربعة: نعمة وشدة وخير وشر ، فالنعمة يجب الرضا فيها بالقاضى والقضاء والمقضى ويجب عليه) أى على العبد (الشكر من حيث إنها) أى النعمة (نعمة و) يجب (إظهار النعمة عليه) أي العبد (بإبداء) أى إظهار (أثر النعمة) وروى «أن شخصا كان جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فرآه رث الثياب ، فقال له صلى الله عليه وسلم ألك مال ؟ قال نعم فقال له صلى الله عليه وسلم : إذا آتاك الله مالا فلير أثره عليك» . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده » كذا ذكره الخطيب (والشدة يجب أيضا) أى كالنعمة (الرضا فيها بالقاضى والقضاء والمقضى ، ويجب عليه) أى العبد (الصبر من حيث إنها) أى تلك الشدة (شدة والخير يجب فيه الرضا بالقاضى والقضاء والمقضى ويجب عليه) أى العبد (ذكر المنة من حيث إنه) أى ذلك الخير (خير وفق) العبد (له) أى للخير (والشر يجب عليه) أى على العبد (فيه) أى فى الشر (الرضا بالقاضى والقضاء والمقضى من حيث إنه مقضى لا من حيث إنه شر وكونه)

مَقْضِيًّا يَرْجِعُ إِلَى الْقَضَاءِ وَالْقَاضِي بِالْحَقِيقَةِ ، وَهٰذَا كَمَا أَنَّكَ تَرْضَى مَذْهَبَ المُخَالِفِ أَنْ يَكُونَ مَعْلُوماً لَكَ لَا أَنْ يَكُونَ مَذْهَباً لَكَ ؛ ثُمَّ كَوْنُهُ مَعْلُوماً يَرْجِعُ إِلَى الْعِلْمِ ، فَالرِّضَا وَالمَحَبَّةُ إِنَّمَا يَكُونَانِ بِالْحَقِيقَةِ لِلْعِلْمِ بِمَذْهَبِ الْمُخَالِفِ لَا بِمَذْهَبِهِ ، فَكَذَلِكَ الرِّضَا بِالْمَقْضِيِّ .

فَإِنْ قِيلَ : فَالرَّاضِي هَلْ يَكُونُ مُسْتَزِيدًا ؟ قِيلَ لَهُ نَعَمْ بِشَرْطِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ دُونَ الْحُكْمِ ، فَلَا يُخْرِجُهُ ذَلِكَ عَنِ الرِّضَا ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى الرِّضَا فَهُوَ أَوْلَى ، لِأَنَّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ وَرَضِيَ ذَلِكَ اسْتَزَادَ مِنْهُ ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم إِذَا حَضَرَ اللَّبَنُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ ، وَفِي غَيْرِهِ يَقُولُ : وَزِدْنَا خَيْرًا مِنْهُ ،

أي الشر (مقضيا يرجع إلى القضاء والقاضى بالحقيقة وهذا) أى الرضا بالمذكور من حيث إنه مقضى (كما أنك ترضى مذهب المخالف أن يكون) أى المذهب (معلوما لك لا) أنك ترضى (أن يكون) أى مذهب المخالف (مذهبا لك ، ثم كونه) أي هذا المذهب (معلوما) لك (يرجع إلى العلم ، فالرضا والمحبة إنما يكونان بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه) أى لا يكون الرضا والمحبة بتلبس مذهب المخالف ، بل للعلم بذلك المذهب فما يظهر (فكذلك) أى مثل كون الرضا والمحبة بالحقيقة للعلم بما ذكر (الرضا بالمقضى . فان قيل فالراضى هل يكون مستزيدا) أى طالبا للزيادة والكثرة بالمال أم لا ؟ (قيل له) أى للقائل بما ذكر (نعم) يكون مستزيدا (بشرط الخير والصلاح دون الحكم) أى حكم القطع والجزم (فلا يخرجه) أى الراضى (ذلك) أى طلب الزيادة (عن الرضا بل يدل) ذلك الطلب لما ذكر (على الرضا فهو) أى الطلب المذكور (أولى) وذلك (لأن من أعجبه شيء ورضى ذلك) الشيء الذى أعجبه (استزاد) أى طلب للزيادة (منه) أى من ذلك الشيء (وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حضر اللبن يقول : اللهم بارك لنا فيه) أى فى اللبن (وزدنا منه) أى من هذا اللبن (وفى غيره) أى غير اللبن (يقول) صلى الله عليه وسلم «اللهم بارك لنا فيه (وزدنا خيراً منه)» أى مما رزقتنا من الطعام غير اللبن ، فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن لعموم نفعه ، ووجه ذلك أنه يجزىء مكان الطعام والشراب كما ورد ذلك فى حديث ابن عباس «فلا خير من اللبن» وبهذا يندفع قول بعضهم هل يلحق ماعدا اللبن من الأشربة به أو بالطعام ، ووجه اندفاعه أن الحديث صريح فى تخصيص ذلك باللبن قال ابن عباس : «دخلت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وخالد بن الوليد على ميمونة فجاءتنا بإناء من لبن فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عن يمينه وخالد عن شماله ، فقال لي الشربة لك فإن شئت آثرت بها خالدا ، فقلت ما كنت أوثر على سؤرك أحدا . ثم قال رسول الله صلى الله

وفى مَوْضِعٍ مِنَ الْمَوْضِعَيْنِ لَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ بِمَا قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ ذٰلِكَ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَلِمْ يُذْكَرْ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم الِاسْتِثْنَاء وَشَرْط الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الْأُمُورَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْقَلْبِ ، وَأَنَّ مَا يُقَالُ بِاللِّسَانِ عِبَارَةٌ عَنْ ذٰلِكَ ، فَلَا مُعْتَبَرَ بِتَرْكِ عِبَارَتِهِ مَعَ حُصُولِهِ بِالْقَلْبِ ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ مُوقِناً .

﴿ العارضُ الرّابع : الشّدائدُ والمصائبُ ﴾

وَإِنَّمَا كِفَايَتُهَا بِالصَّبْرِ ،

عليه وسلم : من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس شىء يجزىء مكان الطعام والشراب غيراللبن » رواه أبوداود والترمذى وابن ماجه . وقال الترمذيواللفظ له : هذا حديث حسن وروى النسائى الفصل الأول منه ، قاله صاحب سلاح المؤمن . ورواه كذلكأحمدوابنسعد وابن السنى فى عمل يوم وليلة ، وفى بعض ألفاظهم : «إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك فيه وأبدلنا خيراً منه» (وفى موضع منالموضعين) وهما الدعاء عند شرب اللبن والدعاء عند أكل غيره (لم يدل) أى هذا الدعاء بالزيادة وغيرها فى كل منهما (على أنه) صلى الله عليه وسلم (غير راض عما قدر الله تعالى له) عليه الصلاة والسلام (من ذلك) أى من اللبن وغيره (فان قلت : فلم يذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم الاستثناء وشرط الخير والصلاح . فاعلم أن هذه الأمور) أى من الاستثناء وشرط الخير والصلاح وعدم ذلك (إنما تكون بالقلب وأن مايقال باللسان عبارة عن ذلك) أى مافى القلب (فلا معتبر بترك عبارته) أى مافى القلب باللسان (مع حصوله بالقلبفاعلم ذلك) أى المذكور من أن هذه الأمور إنما تكون بالقلب وأن نطلق اللسان عبارة عما فيه (موقنا) بلا شك ، وبالله التوفيق .

﴿ العارض الرابع ﴾

هذا آخر العوارض الأربعة الشاغلة عن العبادة (الشدائد والمصائب) مرادف لما قبله كمرض وسقم وموت نحو ولد وفقد مال وتسلط أشرار (وإنما كفايتها) أى تلك الشدائد والمصائب (بالصبر) أى حبس النفس على كريه تتحمله أو لذيذ تفارقه . وهو ممدوح ومطلوب وذلك بأن تترك الشكوى لمخلوق وتوكل الأمر لعلام الغيوب كما قال بعضهم :

صبرت ولم أطلع هواك على صبرى   وأخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميرى صبابتى   إلى دمعتي سرا فتجرى ولا أدرى

قال ذوالنون : الصبر التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البليات بنزول الآلام

والأسقام وإظهار الغنى مع حلول الفقر به فى جميع الحالات . وقال ابن عطاء : هو الغناء فى البلوى بلا إظهار شكوى ؛ وقيل هو القيام مع البلاء بحسن الصحبة كالإقامة مع العافية .

واعلم أن الصبر هو الإيمان كله ومدار قطب الإسلام بأسره ، «لأنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن الإيمان ؟ قال : الصبر » وقد ذكر الصبر فى الكتاب العزيز نيفا وسبعين مرة ، ويطلق معناه على الشكر وعكسه ، مثل أن يصاب فيصبر ويرى أن هذه المصيبة نعمة من الله تعالى باطنة فيشكر عليها ويصبر فقد اجتمع له فى ذلك الصبر والشكر ؛ وفى الأربعين : «الصبر نصف الإيمان وأقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار» والصبر كنز من كنوز الجنة، وحقيقته ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى ولا يتصور إلا فى الإنسان لأن له جندين : حزب الله وهو العقل ودواعيه ، وحزب الشيطان وهو الشهوة ودواعيها والحاجة إليه داعية فى جميع الأحوال إذ مايلقاه الإنسان فى الدنيا إما أن يوافقه أولا ، فان وافقه كالصحة والجاه فما أحوجه له فانه إن لم يضبط نفسه طغى واتبع الهوى ، وإن خالفه كالطاعة احتاج له أول العمل بالإخلاص وحالته بالدوام على الأدب وبعده بترك إفشائه . قال بعض الصحابة: ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى ، وهو من أعلى المقامات . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر فى القرآن على ثلاث مقامات : صبر على أداء الفرائض وله ثلثمائة درجة ، وصبر على محارم الله وله ستمائة درجة ، وصبر على مصيبة الله عند الصدمة الأولى وله تسعمائة درجة. وقد قال عليه الصلاة والسلام «إن الله سبحانه وتعالى قال إذا واجهت عبدا من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا» وقال عليه الصلاة والسلام «انتظار الفرج بالصبر عبادة» فقد عرفت أنك لاتستغنى عنه فى جميع أحوالك ؛ وبه يظهر أنه شطر الإيمان والشطر الآخر فيما يتعلق بالأعمال وهو الشكر . وقد قال عليه الصلاة والسلام « الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » وهذا بالنظر إلى الأعمال والتعبير بالإيمان عنها .

يحكى أن أبا الحسن رأى امرأة فى الطواف قد أضاء حسن وجهها ، فقال والله ماراأيت قط نضارة وحسنا مثل هذه وماذاك إلا لقلة الهم والحزن ، فسمعته فقالت له : والله إنى لوثيقة بالأحزان مكلومة الفؤاد بالهموم والأشجان مايشركنى فيها أحد . ذبح زوجى شاة ضحينا بها ولى ولدان صغيران يلعبان وعلى يدى طفل يرضع ، فقمت لأصنع لهم طعاما إذ قال ابنى الكبير للصغير ألا أريك كيف صنع أبى بالشاة فأضجعه وذبحه وهرب فأكله الذئب فطلبه أبوه وأدركه العطش فمات فوضعت الطفل وخرجت أنظر ما فعل أبوهم فدب الطفل البرمة على النار فألقى يده فيها وصبها على نفسه وهى تغلى فانتثر لحمه عن عظمه فبلغ ذلك ابنة لى كانت عند زوجها فرمت بنفسها فوافقت أجلها فأفردنى الدهر من بينهم، فقال لها وكيف صبرك على ذلك ؟ فقالت مامن أحد ميز الصبر والجزع إلا وجد بينهما منهاجا متفاوتا، فأما الصبر بحسن العلانية فمحمود العاقبة ، وأما الجزع فصاحبه غير معوض ثم أعرضت وهى تقول :

فَعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ فِى الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : الْوُصُولُ إِلَى الْعِبَادَةِ وَحُصُولُ الْمَقْصُودِ مِنْهَا ، فَإِنَّ مَبْنَى أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلِّهَا عَلَى الصَّبْرِ وَاحْتِمَالِ الْمَشَقَّاتِ ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ صَبُورًا لَمْ يَصِلْ إِلَى شَىْءٍ مِنْهَا بِالْحَقِيقَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَصَدَ عِبَادَةَ اللهِ تَعَالَى وَتَجَرَّدَ لَهَا مُحِقًّا اسْتَقْبَلَتْهُ شَدَائِدُ وَمِحَنٌ وَمَصَائِبُ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا عِبَادَةَ إِلَّا وَفِى نَفْسِهَا مَشَقَّةٌ ، وَلِذَلِكَ

صبرت وكان الصبر خير معول وهل جزع يجدى علي فأجزع
صبرت على مالو تحمل بعضه جبال شرورى أصبحت تتصدع
ملكت دموع العين حتى رددتها إلي ناظرى فالعين فى القلب تدمع

وما أحسن قول الشاعر :

إنى وجدت وفى الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد فى شىء يطالبه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وكم ورد فى الصبر من آيات وأحاديث وآثار كثيرة عجيبة كقوله تعالى «إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب» فبين سبحانه وتعالى ثواب الطاعات كلها على لسان نبيه فلما انتهى إلى الصبر قال « إنما يوفى » الآية وقوله « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » فجعلهم أئمة لصبرهم وقوله « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم » أى على طاعة الله « فنعم عقبى الدار» الجنة ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة منازل لاينالها العبد بأعماله ليس لها علاقة من فوقها ولا عماد من تحتها، قيل يارسول الله كيف يدخلها أهلها ؟ قال يدخلها أهلها شبه الطير، قيل لمن تكون تلك المنازل ؟ قال لأصحاب البلايا والغموم والهموم والأمراض» ولبعضهم :

الدهر لايبقي على حالة لابد أن يقبل أو يدبرا
فان تلقاك بمكروهه فاصبر فان الدهر لن يصبرا

والكلام فيه كثير شهير وأقوالهم فيه لاتكاد تحصر (فعليك بالصبر فى المواطن كلها وإنما) يجب عليك (ذلك) أى الصبر فى جميع المواطن (لأمرين : أحدهما الوصول إلى العبادة وحصول المقصود منها) أى العبادة (فإن مبنى أمر العبادة كلها على الصبر واحتمال المشقات ، فمن لم يكن صبورا) أى كثير الصبر (لم يصل إلى شىء منها) أى العبادة (بالحقيقة وذلك) أى عدم وصوله إلى شىء منها بالحقيقة (أن من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها محقا استقبلته شدائد ومحن) جمع محنة ، فى المختار : المحنة واحدة المحن التى يمتحن بها الانسان من بلية (ومصائب من وجوه) أربعة (أحدها أنه) أى الشأن (لاعبادة إلا وفى نفسها مشقة ولذلك) أى لأجل المشقة فى نفس

كَانَ كُلُّ هٰذَا التَّرْغِيبُ فِيهِ وَوَعْدُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ ، إِذْ لَا يَتَأَتَّى فِعْلُ الْعِبَادَةِ إِلَّا بِقَمْعِ الْهَوَى وَقَهْرِ النَّفْسِ ، إِذْ هِيَ زَاجِرَةٌ عَنِ الْخَيْرِ ؛ وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى وَقَهْرُ النَّفْسِ مِنْ أَشَدِّ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ .

وَثَانِيهَا : أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا فَعَلَ الْخَيْرَ مَعَ الْمَشَقَّةِ لَزِمَهُ الْاحْتِيَاطُ لَهُ حَتَّى لَا يَفْسُدَ عَلَيْهِ وَالْاتِّقَاءُ عَلَى الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ .

وَثَالِثُهَا : أَنَّ الدَّارَ دَارُ مِحْنَةٍ ، فَمَنْ كَانَ فِيهَا فَلَابُدَّ لَهُ مِنَ الْابْتِلَاءِ بِشَدَائِدِهَا وَمَصَائِبِهَا

العبادة (كان كل هذا الترغيب فيه) أى الصبر عليها (ووعد الثواب عليه) أى على الصبر (إذ لا يتأتى) ولا يتحصل (فعل العبادة إلا) بالصبر وذلك (بقمع الهوي) أى قهره (وقهر النفس) الأمارة بالسوء (إذ هي) أى النفس (زاجرة) ومانعة (عن الخير ومخالفة الهوى وقهر النفس) أى والحال أن ذلك (من أشد الأمور) وأشقها (على الإنسان) ولذلك قال سهل التسترى رحمه الله : ما عبد الله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى ، وقال ذو النون المصرى : مفتاح العبادة الفكرة ، وعلامة الاصابة مخالفة النفس والهوى، ومخالفتهما ترك شهواتهما (وثانيها) أى الوجوه الأربعة (أن العبد إذا فعل الخير مع المشقة لزمه الاحتياط له) أى لفعل الخير (حتى لا يفسد) أى ذلك الفعل (عليه) أى العبد (والاتقاء) أى الاحتراز والاجتناب (على العمل) أى آفاته ومفسداته (أشد من العمل) ولذلك قال أيوب السختيانى : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكذا قال يوسف بن أسباط : تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد ، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل رضى الله عنه « أخلص العمل يجزك منه القليل» (وثالثها) أى الوجوه الأربعة (أن الدار) أى دار الدنيا (دار محنة) وبلية (فمن كان فيها) أى في الدنيا (فلا بد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها) ولا يجد لنفسه راحة ولهذا قال جعفر الصادق رضي الله عنه : من طلب من لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق ، فقيل له وما ذاك؟ قال الراحة فى الدنيا وفى معناه أنشدوا :

تطلب الراحة فى دار العنا   خاب من يطلب شيئا لايكون

وقال بعض البلغاء ملتمس السلامة فى دار المتالف والمعاطب كالمتمرغ على مزاحف الحيات ومداب العقارب . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : الدنيا كلها غموم فما كان منها فى سرور فهو ربح ، وقال الجنيد قدس سره : لست أستبشع مايرد علي من العالم لأنى قد أصلت أصلا وهو أن الدنيا دارهم وغم وبلاء وفتنة وأن العالم كله شر ، ومن حكمه أن يتلقانى بكل ماأكره فإن تلقانى بكل ما أحب فهو فضل وإلا فالأصل هو الأول ، وقال أبو تراب رحمه الله : ياأيها الناس

أنتم تحبون ثلاثة أشياء وليس هي لكم : تحبون النفس وهى لهواها وتحبون الروح والروح لله وتحبون المال والمال للورثة وتطلبون اثنين ولا تجدونهما الراحة والفرح وهما فى الجنة ، فالواجب على العبد أن لايوطن على الراحة فى الدنيا نفسا ولا يركن فيها إلى مايقتضى فرحا وأنسا وأن يعمل على قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه « الدنيا سجن المؤمن » فتوطين العبد على المحن فى دنياه يهون عليه مايلقاه ويجد السلوان عند فقدان مايهواه كما قيل فى المعنى :

يمثل ذو اللب فى لبه   شدائد قبل أن تنزلا
فان نزلت بغتة لم ترعه   لما كان فى نفسه مثلا
رأى الأمر يفضى إلى آخر   فصير آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه   وينسى مصارع من قدخلا
فان دهمته صروف الزمان   ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم فى نفسه   لعلمه الصبر عند البلا

فليتلق العبد مايرد عليه بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضاء فعن قريب ينجلى الأمر ويستوجب من الله تعالى جزيل الأجر والله تعالى ولى التوفيق . قال أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله قال لى أبو سليمان الدارانى : جوع قليل وعرى قليل وذل قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا ، فمن جعل الصبر معتمده فى نوازله واعتده من أعظم عدده ووسائله فهو مصيب فى رأيه منجح فى سعيه ، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب كان عاملا فيما يزيده ضرا ويكسبه وزرا ويفوته أجرا وناهيك به خسرا كما قيل :

وإذا تصبك مصيبة فاصبر لها   عظمت مصيبة مبتلى لايصبر

وكما قيل أيضا :

وعوضت أجرا من فقيد فلاتكن   فقيدك لايأتى وأجرك يذهب

قال بعض العارفين : ورود الأكدار الدنيوية على العبد نعم من الله تعالى عليه لأن ذلك لامحالة يدعوه إلى الزهادة فى الدنيا والتجافى عنها ويصرف عنه وجود الغباوة والجهالة لأجل تمسكه بالخيال وما يستضر به فى الحال والمآل ، لأن الموجب لرغبته فيها وحرصه على نيلها إنما هو مايتوهمه فيها من الحصول على منيته وبغيته وقضاء غرضه من شهوته ونهمته من غير مكدر ولا منغص ولو تصور له حصول على هذه الأشياء على حسب مايحبه ويهواه كان ينبغى له أن يرغب عنها عوضا عن الرغبة فيها إن كان عاقلا لأن مآل أمره إلى الفناء والزوال والافتقار والانقضاء والارتحال ، وقد قال الشاعر :

أشد الغم عندى فى سرور   تيقن عنه صاحبه ارتحالا
أرى الدنيا على من كان فيها   تدور فلا تديم عليه حالا

وَذٰلِكَ أَقْسَامٌ : فَمِنْهَا الْمُصِيبَةُ فى الْأَهْلِ وَالْقَرَابَاتِ وَالْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ بِالْمَوْتِ وَالْفَقْدِ وَالْفِرَاقِ ، وَفى النَّفْسِ بِأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ ، وَفى الْعِرْضِ بِقِتَالِ النَّاسِ إِيَّاهُ ، وَالطَّمَعِ فِيهِ وَالِازْدِرَاءِ بِهِ وَالْغِيبَةِ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِ ، وَفى الْمَالِ بِالذَّهَابِ وَالزَّوَالِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ الْمَصَائِبِ لَذْعَةٌ وَحُرْقَةٌ مِنْ نَوْعٍ غَيْرِ نَوْعِ الْآخَرِ ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ عَلَيْهَا كُلِّهَا وَ إِلَّا فَيَمْنَعُهُ الْجَزَعُ وَالتَّلَهُّفُ مِنَ التَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ .

وَرَابِعُهَا :

ثم هى مانعة له من سعادة الآخرة والقرب من الله عز وجل الذى هو غاية طلب الطالبين ونهاية رغبة الراغبين فكيف وهو معرض فيها لأنواع المصائب والفجائع ، فما من أحد فيها إلاوهو فى كل حال ووقت غرض لأسهم ثلاثة : سهم بلية وسهم رزية وسهم منية ، فإذا نزل به ذلك عادت النعمة نقمة وانقلبت الحيرة عبرة وصارت الفرحة ترحة ، وهكذا شأن الدنيا أبدا فلا يفى مرجوها بمخوفها ولا يقوم خيرها بشرها ولقد صدق الشاعر فى قوله :

إن الليالى لم تحسن إلى أحد ... إلا أساءت إليه بعد إحسان

وصدق أيضا من قال :

ماقام خيرك يازمان بشدة ... أولى بنا ماقل منك وما كفى

زمن إذا أعطى استرد عطاءه ... وإذا استقام بدا له متحرفا

قال أبو هاشم الزاهد رحمه الله إن الله وسم الدنيا بالوحشية ليكون أنس المريدين به دونها وليقبل المطيعون إليه بالإعراض عنها وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون وإلى الآخرة متشاقون وقيل أوحى الله تعالى إلى الدنيا تضيق وتشددى على أوليائى وترفهى وتوسعى على أعدائى: تضيقى على أوليائى حتى لايتعرفوا بك عنى وتوسعى على أعدائى حتى يشتغلوا بك عنى فلا يتفرغوا لذكرى (وذلك) أى الابتلاء بما ذكر (أقسام : فمنها المصيبة فى الأهل والقرابات والاخوان والأصحاب بالموت والفقد والفراق، و) منها المصيبة (فى النفس بأنواع الأمراض والأوجاع) مرادف لما قبله (و) منها المصيبة (فى العرض بقتال الناس إياه والطمع فيه والازدراء) أى الاحتقار (به) أى بالعبد (والغيبة والكذب عليه ، و) منها المصيبة (فى المال بالذهاب والزوال ولكل واحد من هذه المصائب لذعة) أى حرقة . فى المختار : لذعته النار أحرقته وبابه قطع (وحرقة) أى حرارة وعطفه لما قبله تفسيرى (من نوع غير نوع الآخر، فيحتاج) العبد (إلى الصبرعليها كلها) أى المصائب (وإلا) أى إن لم يصبر عليها (فيمنعه) أى العبد (الجزع) . فى المختار : والجزع ضد الصبر وبابه طرب (والتلهف). أى الحزن والتحسر (من التفرغ للعبادة . ورابعها) أى الوجوه

أَنَّ طَالِبَ الآخِرَةِ أَشَدُّ ابْتِلاَءً وَأَكْثَرُ مِحْنَةً أَبَدًا ، وَمَنْ كَانَ إِلَى اللهِ أَقْرَبَ فَالْمَصَائِبُ فِى الدُّنْيَا أَكْثَرُ ، وَالْبَلاَءُ عَلَيْهِ أَشَدُّ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ » فَإِذَن مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وَتَجَرَّدَ لِطَرِيقِ الآخِرَةِ اسْتَقْبَلَتْهُ هٰذِهِ الْمِحَنُ ، فَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا وَلاَ يَكُونُ بِحَيْثُ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا انْقَطَعَ عَنِ الطَّرِيقِ وَاشْتَغَلَ عَنِ الْعِبَادَةِ ، فَلاَ يَصِلُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ .

الأربعة (أن طالب الآخرة أشد ابتلاء وأكثر محنة أبداً ، ومن كان إلى الله أقرب فالمصائب فى الدنيا أكثر والبلاء عليه أشد ، أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : أشد الناس بلاء) أى محنة واختباراً (الأنبياء) والمراد بهم ما يشمل الرسل عليهم الصلاة والسلام كما فى [سراج السالكين] وبهذا لما قال إنسان يارسول الله إن بى حمى شديدة . قال صلى الله عليه وسلم « إنى لأمعك كما يعمك الرجلان منكم » وذكر الحديث : أى إذا أصاب أحدكم مرض ثم أصابنى ذلك المرض كان على فى المشقة مثل مشقته على رجلين . فان قيل أن المحب لايضر محبه : أجيب بأنه تعالى إذا أحب إنسانا ألقى فى قلبه محبته تعالى فيحدث الإنسان نفسه أنه يحبه تعالى فيختبره تعالى بالمرض من جهة أنه محب لامحبوب فكأنه يقول زعمتم محبتى فأختبركم حينئذ هل تصدقون فى ذلك كذا ذكره العلامة الحفنى (ثم العلماء) وفى رواية «ثم الصالحون» (ثم الأمثل فالأمثل) أى الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى فهم معرضون للمحن والبلاء، والسر فى ذلك أن البلاء فى مقابلة النعمة ، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشد إلا أنه كلما قويت المعرفة بالمبتلى هان عليه البلاء ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « ليس بمؤمن » أى مستكمل الإيمان « من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة » ومنهم من ينظر إلى أجر البلاء فيهون عليه البلاء ، وأعلى من ذلك درجة من يرى أن هذا تصرف المالك فى ملكه فيسلم ولايعترض، وأرفع منه من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء ، وهذا الحديث رواه الطبرانى فى الكبير عن فاطمة أخت حذيفة . قال العلقمى : بجانبه علامة الحسن (فإذن) أى حين إذ كان الأمر كما فى الحديث (من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة) أى بسلوكها (استقبلته هذه المحن) والمصائب (فان لم يصبر عليها) أى على هذه المحن والمصائب (ولا يكون بحيث لايلتفت إليها انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة فلا يصل إلى شىء من ذلك) أى قصده الخير وتجرده لطريق الآخرة .

[مهمة] ومما يخفف ألم البلاء على العبد علمه بأن الله تعالى رحيم به ومستعطف عليه وناظر إليه فكل مايورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغى له أن لا يكترث بذلك ولا يباليه فليحسن به ظنه وليعتقد أن ذلك اختيار له وأن فى ذلك مصالح خفية لا يعلمها إلا هو كما قال الله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » قال أبو طالب صاحب القوت فى هذه الآية : فالعبد يكره

وَلَقَدْ أَعْلَمَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِاتِّقَاءِ الْمِحَنِ وَالْمَصَائِبِ وَابْتِلَائِنَا بِهَا ، وَحَقَّقَ ذَٰلِكَ وَأَكَّدَهُ فَقَالَ تَعَالَى : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ

العيلة والفقر والخمول والضر وهو خير له فى الآخرة ، وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شر له عند الله تعالى وأسوأ عاقبة وفى معنى ذلك قوله تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » وقيل ظاهرة العوافى وباطنة البلايا لأنها نعمة الآخرة فإذن كل مايصيب المؤمن فهو نعمة كائنا ماكان فله الحمد على نعمه . قال ابن عطاء فى التنوير : إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره ، وأنشد فيه لنفسه بقوله :

وخفف عنى ماألاقى من العنا بأنك أنت المبتلى والمقدر

وما لامرىء عما قضى الله معدل وليس له منه الذى يتخير

وكان أبو على الدقاق رحمه الله يقول : جربت مرة وكنت فى صورة وحشة من ذلك فدخلت الحمام ففتح على قلبي شىء من الرضا فكنت ألثم كل واحدة من تلك القروح فخرجت ولم يبق منها أثر . وقال القشيرى رحمه الله : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول فى آخر عمره وقد اشتدت به العلة : من أمارات التأييد حفظ التوحيد فى أوقات الحكم ثم قال كالمفسر لقوله مشيرا إلى ماكان فيه من حاله هو أن يقرضك بمقاريض القدرة فى إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن خامد . وقال الجنيد رحمه الله : كنت نائما عند سرى السقطى رحمه الله فنبهنى وقال لى ياجنيد رأيت كأنى قد وقفت بين يديه جل وعز فقال لى : ياسرى خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتى فخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم وبقى معى العشر وخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر وبقى معى عشر العشر ، وخلقت النار فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر عشر العشر . فقلت للباقين معى : لاالدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولامن النار هربتم ولامن البلاء فررتم فماذاتريدون؟قالوا إنك لتعلم مانريد، فقلت لهم إنى أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا تقوم به الجبال الرواسى أتصبرون؟ قالوا إذا كنت أنت المبتلى فافعل ماشئت فهؤلاء عبادى حقا (ولقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى باتقاء المحن والمصائب وابتلائنا بها) أى بتلك المحن والمصائب (وحقق) سبحانه وتعالى (ذلك) أى المذكور من الاتقاء والابتلاء (وأكده) أى ماذكر منهما حق حسن ذكره (فقال تعالى « لتبلون) اللام لام القسم تقديره والله لتبلون : أى لتختبرن فتوقع عليكم المحن ليعلم المؤمن وغيره ، والاختبار طلب المعرفة ليعرف الجيد من الردىء وذلك فى وصف الله تعالى محال لأن الله تعالى عالم بحقائق الأشياء كلها قبل أن يخلقها، فعلى هذا يكون معنى الاختبار فى وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر (فى أموالكم) يعنى بالابتلاء فى الأموال بالنقصان منها ، وقيل بأداء مافرض فيها من الحقوق

وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا) ثُمَّ قَالَ : (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) فَكَأَنَّهُ يَقُولُ : وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَنَّهُ لَابُدَّ لَكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَايَا ، فَإِنْ تَصْبِرُوا فَأَنْتُمُ الرِّجَالُ وَعَزَائِمُكُمْ عَزَائِمُ الرِّجَالِ ؛ فَإِذَنْ مَنْ عَزَمَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ يَجِبُ أَوَّلاً أَنْ يَعْزِمَ عَلَى الصَّبْرِ الطَّوِيلِ وَيُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى احْتِمَالِ الْمَشَاقِّ الْعَظِيمَةِ الْمُتَوَالِيَةِ إِلَى الْمَوْتِ، وَإِلَّا فَقَدْ قَصَدَ الْأَمْرَ بِغَيْرِ آلَتِهِ وَأَتَاهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ .

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الْفُضَيْلِ رَحِمَهُ اللهُ

(وأنفسكم) يعنى بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والعشائر (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعنى اليهود والنصارى الشتم والطعن والكذب والزور على الله (ومن الذين أشركوا) يعنى مشركى العرب أيضا (أذى كثيرا) بالشتم والضرب والطعن والقتل والكذب والزور على الله تعالى (ثم قال) تعالى (وأن تصبروا) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين : يعنى على أذاهم (وتتقوا) فيما أمركم به ونهاكم عنه ، لأن الصبر عبارة عن احتمال الأذى والمكروه ، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لاينبغى (فان ذلك) يعني الصبر والتقوى (من عزم الأمور ») أى من صواب التدبير الذى لاشك أن الرشد فيه ولاينبغى لعاقل تركه ، وأصله من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا : أى ألزمتك أن تفعله لامحالة ولا تتركه ، وقيل معناه فان ذلك مما قد عزم عليكم فعله : أى ألزمتم الأخذ به . قال المصنف (فكأنه) سبحانه وتعالى (يقول وطنوا أنفسكم على أنه) أى الشأن (لابد لكم من أنواع البلايا فان تصبروا) على ذلك (فأنتم الرجال) الكرام (وعزائمكم عزائم الرجال) وفى الخازن : خوطب بهذه الآية المسلمون ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى وما سيلقون من الشدائد والمصائب ليصبروا على ذلك حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون بالصبر لها لايرهقهم مايرهق غيرهم ممن تصيبه الشدة بغتة فينكرها ويشمئز منها (فإذن) أى حين إذا فهمت المعنى المذكور (من عزم على عبادة الله سبحانه يجب أولا) أى قبل شروعه فى العبادة (أن يعزم على الصبر الطويل و) أن (يوطن) أى يقرر ويمهد (نفسه على احتمال المشاق العظيمة المتوالية إلى الموت وإلا) أى وإن لم يعزم على الصبر الطويل ولم يوطن نفسه على الاحتمال (فقد قصد الأمر بغير آلته وأتاه من غير وجهه) أى جهته (ولقد ذكر عن الفضيل) ابن عياض بن مسعود بن بشر أبي على التميمى اليربوعى الزاهد (رحمه الله) وتقدمت ترجمته

أَنَّهُ قَالَ : مَنْ عَزَمَ عَلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ لِلْآخِرَةِ فَلْيَجْعَلْ فِى نَفْسِهِ أَرْبَعَةَ أَلْوَانٍ مِنَ الْمَوْتِ : الْأَبْيَضِ ، وَالْأَحْمَرِ ، وَالْأَسْوَدِ ، وَالْأَخْضَرِ ؛ فَالْمَوْتُ الْأَبْيَضُ : الْجُوعُ ، وَالْأَسْوَدُ : ذَمُّ النَّاسِ ، وَالْأَحْمَرُ : مُخَالَفَةُ الشَّيْطَانِ ، وَالْأَخْضَرُ : الْوَقَائِعُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ

وَالثَّانِى مِنَ الْأَمْرَيْنِ : مَا فِى الصَّبْرِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَمِنْ ذٰلِكَ النَّجَاةُ وَالنَّجَاحُ . قَالَ تَعَالَى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

(أنه قال : من عزم على قطع طريق الآخرة فليجعل فى نفسه أربعة ألوان من الموت) أحدها (الأبيض و) ثانيها (الأحمر و) ثالثها (الأسود و) رابعها (الأخضر ، فالموت الأبيض) هو (الجوع و) الموت (الأسود) هو (ذم الناس) أى احتماله (و) الموت (الأحمر مخالفة) النفس و (الشيطان و)الموت (الأخضر الوقائع بعضها على بعض) أورده القشيرى فى الرسالة عن حاتم الأصم ولم يذكر الفضيل قال فيها سمعت عبدالله بن يوسف الأصبهانى يقول : سمعت أبا نصر منصور بن محمد بن إبراهيم الفقيه يقول سمعت أبا محمد جعفر بن محمد بن نصير يقول : روى عن حاتم أنه قال من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت : موتا أبيض وهو الجوع وموتا أسود وهو احتمال الأذى من الخلق وموتا أحمر وهو العمل الخالص من الشوب فى مخالفة الهوى وموتا أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض . قال العلامة الرندى ، قال سهل بن عبد الله رحمه الله : للنفس سر ماظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون فقال «أنا ربكم الأعلى» ولها سبعة حجب سماوية وسبعة حجب أرضية ، فكلما يدفن العبد نفسه أرضا سما قلبه سماء سماء ، فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش : يعنى إذا خالفها وفارقها ، وسبيل العبد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة إلى مولاه فى أن يعينه ويقويه على أمر نفسه ، ولذا قال بعض العارفين : لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما الخروج من النفس بالله ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة فى ظاهره وباطنه والتزام آدابهما ولكل عبد عمل مخصوص يقتضى لامحالة حكما مخصوصا يقوم بحقه وذلك مختلف باختلاف أحوال الناس ، فحركات العبد وسكناته هى أعماله الظاهرة ومقصوده وهمه وإرادته هى أعماله الباطنة وكل واحد من القسمين ينبغى أن يأخذ فيه بعزائم الأمور ويجتنب الرخص التى هى من شأن العامة والجمهور (والثانى من الأمرين مافى الصبر من خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك) أى مافى الصبر (النجاة والنجاح) أى الظفر بالمراد (قال) الله (تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب»)

مَعْنَاهُ : مَنْ يَتَّقِ اللهَ تَعَالَى بِالصَّبْرِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الشَّدَائِدِ ، وَمِنْهَا الظَّفَرُ بِالْأَعْدَاءِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) وَمِنْهَا الظَّفَرُ بِالْمُرَادِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) .

وَقِيلَ : كُتُبَ يُوسُفُ

قال المصنف رحمه الله (معناه من يتق الله تعالى بالصبر يجعل له مخرجا من الشدائد) وأورد أبو طاهر محمد بن يعقوب فى تفسيره عن ابن عباس مثله ، فقال : ومن يتق الله عند المصيبة فيصبر يجعل له مخرجا من الشدة ، ويقال من المصيبة إلى الطاعة ، ويقال من النار إلى الجنة (ومنها) أى من الخيرات الكائنة فى الصبر (الظفر بالأعداء . قال الله تعالى) «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا (فاصبر) يامحمد على أذى مشركى قومك كما صبر نوح على أذى قومه (إن العاقبة) يعني النصر والظفر على الأعداء والفوز بالسعادة الأخروية (للمتقين)» عن الشرك والمعاصي (ومنها) أى من الخيرات الكائنة فى الصبر(الظفر بالمراد، قال الله تعالى «وتمت كلة ربك الحسنى على بنى إسرائيل ») يعني وتمت كلة الله وهى وعدهم بالنصر على عدوهم والتمكين فى الأرض من بعدهم ، وقيل كلة الله هي قوله «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض» الآية والحسنى صفة للكلمة وهي تأنيث الأحسن وتمامها إنجاز ماوعدهم به من تمكينهم فى الأرض وإهلاك عدوهم (بما صبروا) بسبب صبرهم على الشدائد(وقيل كتب يوسف) بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وفى يوسف ست لغات أو ستة أوجه ضم السين وفتحها وكسرها مع الهمز وتركه ، والفصيح الذى جاء به القرآن ضمها بلا همز وهو اسم أعجمي . والصواب أنه لااشتقاق له ، ولبعض المفسرين وغيرهم تخبيط فى اشتقاقه ويوسف هذا نبى الله ابن نبى الله ابن نبي الله ابن نبي الله وخليله عليهم الصلاة والسلام ، وذكر الله تعالى قصته فى القرآن مبسوطة مفصلة أكمل البسط وسورته مختصة بقصته إلا ما انضم إليها ، والأحاديث الصحيحة متضافرة بفضائله ، منها حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» رواه البخارى، وعن أبى هريرة قال «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ قال أتقاهم لله . قالوا ليس عن هذا نسألك. قال فأكرم الناس يوسف ابن نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله وخليل الله» رواه البخارى، وعن أبى هريرة أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو لبثت فى السجن مالبث يوسف ثم أتانى الداعى لأجبته» رواه الشيخان وهذا لفظ البخارى ، وعن أنس فى حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثم عرج بى إلى السماء الثالثة ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير » . وذكر أبو إسحاق

فى جَوَابِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلَامُ: إِنَّ آبَاءَكَ صَبَرُوا فَظَفِرُوا فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا تَظْفَرْ كَمَا ظَفِرُوا؛

الثعلبى فى كتابه العرائس فى قصة يوسف : أنه كان أبيض اللون حسن الوجه جعد الشعر ضخم العين مستوى الخلق غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن أقنى الأنف صغير السرة ، وكان بخده الأيمن خال أسود وكان ذلك الخال يزين وجهه وبين عينيه شامة تزيده حسنا ، وكان جده إسحاق حسنا وكانت أم إسحاق سارة حسنة . قالوا : وأعطى الله يوسف من الحسن وصفاء اللون ونقاء البشرة مالم يعط أحداً . قالوا ورثت سارة هذا الحسن من جدتها حواء زوج آدم . قال الثعلبى عن العلماء بأخبار الماضين : أقام يعقوب وأولاده بعد قدومهم على يوسف بمصر أربعا وعشرين سنة بأغبط عيش فلما حضرته الوفاة أوصاهم بأن يحمل جسده الى بيت المقدس ويدفن عند أبيه وجده فخرج به يوسف بمصر وإخوته وعسكره محمولا فى تابوت ، كان عمر يعقوب مائة وسبعا وأربعين سنة وعاش يوسف بعد يعقوب ثلاثا وعشرين سنة ، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ودفن بمصر فى النيل ثم حمله موسى فى زمنه إلى الشام حين خرجت بنو إسرائيل من مصر إلى الشام ، كذا نقله العلامة عبد الحق عن تهذيب الأسماء (فى جواب) كتاب أبيه (يعقوب عليهما السلام : إن آباءك) من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (صبروا فظفروا فاصبر) أنت (كما صبروا تظفر كما ظفروا) قال صاحب البصائر نقلا عن بعض المشايخ كان صبر يوسف عليه السلام عن طاعة امرأة العزيز أكمل من صبره على إلقاء إخوته إياه فى الجب وبيعهم وتفريقهم بينه وبين أبيه فان هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد حيلة فيها عن الصبر . وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس ، ولاسيما مع أسباب تقوى معها داعية الموافقة فانه كان شابا وداعية الشاب إليها قوية ، وكان عزبا ليس له مايعوضه ويرد شهوته ، وغريبا والغريب لايستحى فى بلد غربته مما يستحى منه بين أصحابه وأهله ، ويحسبونه مملوكا والمملوك ليس وازعه كوازع الحر ، والمرأة جميلة وذات منصب وقد غاب الرقيب وهى الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص ومع ذلك توعدته بالسجن إن لم يفعل ، فمع هذه الدواعى كلها صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله ، وأين هذا من صبره فى الجب على ماليس من كسبه ؟ والصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات ، فان مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية .

واعلم أن الشكوى إلى الله عز وجل لاتنافى الصبر ، فان يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل والنبى إذا وعد لايخلف ، ثم قال «إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » وكذلك أيوب عليه السلام أخبر الله عنه أنه وجده صابرا مع قوله « مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » وإنما ينافى الصبر شكوى الله لاالشكوى إلي الله كما رؤى بعضهم يشكو إلى آخر فاقة وضرورة ، فقال ياهذا تشكو من يرحمك إلى من لايرحمك ، ثم أنشد :

وَفِى هٰذَا الْمَعْنَى قِيلَ :

لاَ تَيْأَسَنْ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ ... إِذَا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجًا

أَخْلِقْ بِذِى الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنُ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا

وَمِنْهَا التَّقَدُّمُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِمَامَةُ ، قَالَ تَعَالَى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) . وَمِنْهَا الثَّنَاءُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) . وَمِنْهَا الْبِشَارَةُ وَالصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فانه بك أرحم

وإذا شكوت إلى ابن آدم لا كما ... تشكو الرحيم إلى الذى لا يرحم

(وفى هذا المعنى قيل) من بحر البسيط (لاتيأسن) بالنون المخففة : أى لاتقنط من رحمة الله (وإن طالت مطالبة * إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا) أى سعة (أخلق بذى الصبر) فعل تعجب : أى أجدر بصاحب الصبر (أن يحظى) أى يظفر (بحاجته) أى ذى الصبر (ومدمن) أى مداوم (القرع للأبواب) قرع الباب يقرعه قرعا: دقه ونقرعليه ومنه المثل : من قرع بابا ولج ولج (أن يلجا) أى أن يدخل .

(ومنها) أى من الخيرات الكائنة فى الصبر (التقدم على الناس والإمامة قال تعالى) «وجعلناه» يعنى الكتاب «هدى لبنى إسرائيل» (وجعلنا منهم) أى من بنى اسرائيل (أئمة) أى قادة للخير يقتدى بهم وهم الأنبياء الذين كانوا فى بنى إسرائيل ، وقيل هم أتباع الأنبياء (يهدون) الناس الى مافى التوراة من دين الله وشرائعه (بأمرنا) إياهم به أو بتوفيقنا له (لما صبروا) حين صبروا على الحق بطاعة الله أو عن المعاصى ، وقرأ حمزة والكسائى وورش «لما صبروا» أى لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا ، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس .

(ومنها) أى من الخيرات الثابتة فى الصبر (الثناء من الله سبحانه وتعالى . قال سبحانه وتعالى: إنا وجدناه) أى أيوب بن عيص بن إسحاق عليهم الصلاة والسلام (صابرا) على البلاء . نعم قد شكا إلى الله مابه واسترحمه ، لكن الشكوى إلى الله لاتسمى جزعا ، فقد قال يعقوب عليه السلام «إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله» على أنه عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ماابتلى به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان كذا ذكره النسفي (نعم العبد) أيوب (إنه أواب) مقبل ورجاع إلى الله تعالى .

(ومنها البشارة والصلاة والرحمة . قال الله تعالى « وبشر الصابرين ») على هذه البلايا

إلى قوله تعالى : (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) الآية . وَمِنْهَا المَحَبَّةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى . قالَ اللهُ تَعالى : (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) . وَمِنْهَا الدَّرَجَاتُ الْعُلَى فِى الْجَنَّةِ ، قالَ اللهُ تعالى: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) . وَمِنْهَا الْكَرَامَةُ الْعَظِيمَةُ قالَ تعالى ، (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَاصَبَرْتُمْ) .

أو المسترجعين عند البلايا ، لأن الاسترجاع تسليم وإذعان ، وفى الحديث « من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقابه وجعل له خلفا صالحا يرضاه » وطفىء سراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، فقيل أمصيبة هى؟ قال نعم كل شىء يؤذى المؤمن فهو مصيبة» والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه البشارة كما ذكره النسفي (إلى قوله تعالى : أولئك) يعنى من هذه صفتهم (عليهم صلوات من ربهم) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى مغفرة من ربهم . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «اللهم صل على آل أبى أوفى » أى اغفر لهم وارحمهم وإنما جمع الصلوات ؛ لأنه عنى مغفرة بعد مغفرة ورحمة بعد رحمة (ورحمة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ونعمة ، والرحمة من الله إنعامه وإفضاله وإحسانه ، ومن الآدميين رقة وتعطف ، وقيل إنما ذكر الرحمة بعد الصلوات لأن الصلاة من الله الرحمة لاتساع المعنى واتساع اللفظ وتفعل ذلك العرب كثيرا إذا اختلف اللفظ واتفق المعنى ، وقيل كلاهما للتأكيد : أى عليهم رحمة بعد رحمة (الآية) بالنصب مفعول لفعل محذوف تقديره اقرأ بقية الآية ونصها من أولها « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» . (ومنها) أى من الخيرات المذكورة (المحبة من الله تعالى : قال الله تعالى « والله يحب الصابرين ») يعنى فى الجهاد : والمعنى أن من صبر على تحمل الشدائد فى طلب الآخرة ولم يظهر الجزع والعجز فإن الله يحبه ، ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن إرادة إكرامه وإعزازه وإيصال الثواب له وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه ذكره الخازن . (ومنها) أى الخيرات المذكورة (الدرجات العلا فى الجنة . قال الله تعالى) «والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما (أولئك) أهل هذه الصفة (يجزون) يثابون (الغرفة») أعلى مواضع الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى «وهم فى الغرفات آمنون » وللقراءة بها ، وقيل هى من أسماء الجنة (بما صبروا) بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات كذا فى البيضاوى ، وقوله من مضض بيان للمشاق وأصله الوجع ، والمراد به هنا ثقلها كما فى سراج السالكين . (ومنها) أى من الخيرات المذكورة (الكرامة العظيمة قال) الله (تعالى) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم) يعنى يقولون لهم سلام عليكم فأضمر القول ههنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم)

وَمِنْهَا ثَوَابٌ بِلاَ غَايَةٍ وَلاَ نِهَايَةٍ ، خَارِجًا عَنْ أَوْهَامِ الْخَلْقِ وَإِعْدَادِهِمْ وَتَحْصِيلِهِمْ .
قَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

يعنى يقولون لهم سلمكم الله من الآفات التى كنتم تخافونها فى الدنيا وأدخلكم بما صبرتم فى دار الدنيا على الطاعات وترك المحرمات الجنة ، وقيل إن السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثوابا للفعل فعلى هذا يكون قوله سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعنى سلمكم الله بما صبرتم . قال مقاتل : إن الملائكة يدخلون عليهم فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى يقولون « سلام عليكم بما صبرتم » . وروى البغوى بسنده عن أبى أمامة موقوفا عليه قال « إن المؤمن ليكون متكئا على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا بالملك يستأذن فيقول للذى يليه ملك يستأذن ويقول الآخر كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم إلي المؤمن ائذنوا له ويقول الذى يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف » .

(ومنها) أى من الخيرات المذكورة (ثواب بلا غاية ولانهاية) هما مترادفان (خارجا عن أوهام الخلق وإعدادهم وتحصيلهم ، قال تعالى إنما يوفى الصابرون) على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لها (أجرهم) ثوابهم (بغير حساب) أجرا لا يهتدى إليه حساب الحساب ، وفى الحديث « إنه تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صباحتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل » ! ولنذكر فى هذا المقام أحاديث وردت فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين : روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يصب منه » يعنى يبتليه بالمصائب « حتي يأجره على ذلك » وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنه عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها خطاياه » النصب : التعب والإعياء . والوصب : المرض ، ورويا أيضا عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » ، ورويا أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تفيئه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تحصد » الأرزة شجر معروف بالشام ، ويعرف فى العراق ومصر بالصنوبر والصنوبر ثمرة الأرز ، وقيل الأرزة الثابتة فى الأرض وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال :

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ سَيِّدٍ مَاجِدٍ مَا أَكْرَمَهُ ، وَكُلُّ هٰذِهِ الْكَرَامَاتِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ يُعْطِيهَا عَبْدَهُ عَلَى صَبْرِ سَاعَةٍ . فَبَانَ لَكَ أَنَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِى الصَّبْرِ . قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَا أُعْطِىَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٍ أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » وَعَنْ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : جَمِيعُ خَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فِى صَبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرْجَى وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُونْ

« إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد شرا أمسك عنه حتى يوافى يوم القيامة » وبهذا الإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » أخرجه الترمذى ، وله عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض» وله عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « مازال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» وقال حديث حسن صحيح ، وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى مالعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» وعن سعيد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: «قلت يارسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة هون عليه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » أخرجه الترمذى ، وقال حديث حسن (فسبحانه من إله سيد ماجد) أى كريم جواد (ما أكرمه) للتعجب (وكل هذه الكرامات فى الدنيا والآخرة يعطيها) الله تعالى (عبده على صبر ساعة) أى زمان قليل (فبان) أى ظهر (لك أن خير الدنيا والآخرة فى الصبر. قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : ماأعطى) بالبناء للمفعول (أحد من عطاء خير أوسع من الصبر) قال العلامة عبد الرءوف المناوى فى كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق رواه ابن منيع بلفظ « ماأعطى أحد عطاء هو خير وأوسع من الصبر » (وعن عمر) بن الخطاب (رضى الله عنه أنه قال : جميع خير المؤمنين فى صبر ساعة واحدة . ولقد أحسن القائل) فيما قال من مجزو البسيط (الصبر مفتاح ما يرجى) من أنواع الخير (وكل خير به) أى بالصبر (يكون) أى يوجد

فَاصْبِرْ وَإِنْ طَالَتِ اللَّيَالِي   فَرُبَّمَا أَمْكَنَ الْحَرُونْ
وَرُبَّمَا نِيلَ بِاصْطِبَارٍ   مَا قِيلَ هَيْهَاتَ لاَ يَكُونْ

وَلِقَائِلٍ آخَرَ :

صَبَرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ مِنِّي سَجِيَّةً   وَحَسْبُكَ أَنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَى الصَّبْرِ
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا   فَإِمَّا إِلَى يُسْرٍ وَإِمَّا إِلَى عُسْرِ

فَعَلَيْكَ بِاغْتِنَامِ هٰذِهِ الْخَصْلَةِ الشَّرِيفَةِ الْمَحْمُودَةِ وَبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِيهَا تَكُنْ مِنَ الْفَائِزِينَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

فَإِنْ قُلْتَ فَمَا حَقِيقَةُ الصَّبْرِ وَحُكْمُهُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَةَ الصَّبْرِ مِنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ الْحَبْسُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الآيَة . أَيِ احْبِسْ نَفْسَكَ مَعَهُمْ

(فاصبر وإن طالت الليالى) والأيام (فربما أمكن الحرون) أى الذى لاينقاد من الخيل (وربما) للتكثير (نيل باصطبار) أى بصبر (ماقيل) من الأمر (هيهات) أى بعد (لا يكون) أى لا يوجد الأمر (ولقائل آخر) من بحر الطويل (صبرت وكان الصبر منى سجية * وحسبك) أى كافيك (أن الله أثنى على الصبر. سأصبر حتي يحكم الله بيننا * فإما إلى يسر وإما إلى عسر . فعليك) أى الزم (باغتنام هذه الخصلة الشريفة المحمودة) وهى الصبر (وبذل المجهود فيها) أى فى تلك الخصلة (تكن من الفائزين) فى الدارين (والله تعالى ولى التوفيق . فان قلت فما حقيقة الصبر وحكمه ؟) أى حكم الصبر (فاعلم أن لفظة الصبر من طريق اللغة الحبس) والكف فى ضيق ومنه قتل فلان صبرا : إذا أمسك وحبس للقتل (قال الله تعالى « واصبر نفسك ») الآية نزلت فى عيينة بن حصن الفزارى «أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان وعليه شملة صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه ، فقال عيينة للنبي صلى الله عليه وسلم أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً فأنزل الله عز وجل «واصبر نفسك» أى احبس يا محمد نفسك (مع الذين يدعون) يعبدون (ربهم الآية) أى اقرأ تمامها وهو « بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا» قال المصنف (أى احبس نفسك معهم) والصبر ضربان : صبر بدنى وذلك كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها على قدر قوة البدن ونهايته معلومة وأكثرها لذوى الجسوم الخشنة وليس ذلك بفضيلة تامة ، ولهذا قال الشاعر :

والصبر بالأرواح يعرف فضله   صبر الملوك وليس بالأجسام

وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللهُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى مَعْنَى حَبْسِهِ الْعَذَابَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ فَلَا يُعَاجِلُهُمْ بِهِ، ثُمَّ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ مِنْ مَسَاعِي الْقَلْبِ سُمِّيَ صَبْرًا لِأَنَّهُ حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ ، وَالْجَزَعُ فِيمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ ذِكْرُ اضْطِرَابِكَ فِى الشِّدَّةِ ، وَقِيلَ بَلْ إِرَادَةُ الْخُرُوجِ عَنِ الشِّدَّةِ بِالْحُكْمِ وَالصَّبْرُ تَرْكُهُ ، وَحِصْنُ الصَّبْرِ ذِكْرُ مِقْدَارِ الشِّدَّةِ وَوَقْتِهَا وَأَنَّهَا لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ وَلَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ وَلَا فَائِدَةَ فِى الْجَزَعِ بَلْ فِيهِ الضَّرَرُ وَالْخَطَرُ وَحِصْنُ هٰذَا الْحِصْنِ ذِكْرُ حُسْنِ عِوَضِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَكَرِيمِ الذُّخْرِ فِى ذٰلِكَ لَدَيْهِ ،

وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة إما من العبادات كأن يصلى حتى ترم رجلاه أو يصوم مواصلا حتى تسقط قوته أو من غيرها كالمشي الكثير ورفع الحجر الثقيل ، وإما بالاحتمال وهو الانفعالى كالصبر على الضرب الشديد بالمقارع والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع نصا أو قياسا أو استحبابا ، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر عن النفس وذلك بأن يكف النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى وبه تتعلق الفضيلة (وإنما يوصف الله تعالى بالصبر على معنى حبسه) سبحانه (العذاب عن) القوم (المجرمين فلا يعاجلهم به) أى بالعذاب (ثم المعنى) أى معنى الصبر (الذى هو من مساعى) أى أعمال (القلب، سمي) هذا المعنى (صبرا لأنه حبس النفس عن الجزع) بفتحتين (والجزع) أى معناه (فيما قاله العلماء) رضى الله عنهم (ذكر اضطرابك) وقلقك (في) حال (الشدة ، وقيل بل إرادة الخروج عن الشدة بالحكم) أى بلا استثناء (والصبر تركه) أى الجزع (وحصن الصبر) هو (ذكر مقدار الشدة ووقتها و) ذكر (أنها) أى الشدة (لاتزيد ولا تنقص ولا تتقدم ولا تتأخر ولا فائدة فى الجزع بل فيه) أى فى الجزع (الضرر والخطر وحسن هذا الحصن ذكر حسن عوض الله تعالى عليه) أى على الصبر (و) ذكر (كريم الذخر) والأجر (في ذلك) الصبر (لديه) أى عنده تعالى يقول الله تعالى « ياابن آدم إذا أخذت منك كريمتيك فصبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرض لك ثوابا دون الجنة » رواه الطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فاذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فإلى رحمتى » وقال داود عليه السلام فى محض مخاطباته مع الله عز وجل : يارب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه ، وقرأ قوله تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . وقيل إن امرأة فتح الموصلى عثرت برجلها فانقطع ظفرها فضحكت

فَهٰذِهِ هٰذِهِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

(فصل) فَعَلَيْكَ بِقَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الشَّدِيدَةِ الْمَنِيعَةِ بِدَفْعِ هٰذِهِ الْعَوَارِضِ الْأَرْبَعَةِ وَإِزَاحَةِ عِلَّتِهَا وَإِلاَّ فَلاَ تَدَعُكَ تَذْكُرُ مَقْصُودَكَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَتَتَفَكَّرُ فِيهَا فَضْلاً عَنْ أَنْ تُدْرِكَهَا فَتُحَصِّلَهَا وَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا شُغْلاً شَاغِلاً عَاجِلاً وَآجِلاً . ثُمَّ إِنَّ أَعْظَمَهَا وَأَعْضَلَهَا أَمْرُ الرِّزْقِ وَتَدْبِيرُهُ ، فَإِنَّهُ الْبَلِيَّةُ الْكُبْرَى لِعَامَّةِ الْخَلْقِ أَتْعَبَتْ نُفُوسَهُمْ وَشَغَلَتْ قُلُوبَهُمْ وَأَكْثَرَتْ هُمُومَهُمْ وَضَيَّعَتْ أَعْمَارَهُمْ وَأَعْظَمَتْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَوْزَارَهُمْ ، وَعَدَلَتْ بِهِمْ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَخِدْمَتِهِ إِلَى خِدْمَةِ الدُّنْيَا وَخِدْمَةِ الْمَخْلُوقِينَ فَعَاشُوا فِى الدُّنْيَا فِى غَفْلَةٍ وَظُلْمَةٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ

فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه (فهذه) الجملة المذكورة (هذه) أى عظيمة (وبالله التوفيق) .

فصـــــل

(فعليك بقطع هذه العقبة الشديدة المنيعة) أى القوية ، وذلك (بدفع هذه العوارض الأربعة) المذكورة من الرزق والأخطار والقضاء والمصائب (وإزاحة) أى إزالة (علتها ، وإلا) أى إن لم تقطع ولم تجاوز هذه العقبة المذكورة (فلا تدعك) أى تتركك (تذكر مقصودك من العبادة وتتفكر فيها) أى فى العبادة (فضلا) . قال قطب الدين الشيرازى فى شرح المفتاح : اعلم أن فضلا يستعمل فى موضع يستبعد فيه الأدنى ويراد به استحالة مافوقه ، ولهذا يقع بين كلامين متغايرى المعنى . وأكثر استعماله أن يجئ بعد نفى كما هنا ، وقولهم لايملك درهما فضلا عن دينار وشبهه معناه لايملك درهما ولا دينارا وعدم ملكه للدينار أولى بالانتفاء ، وكأنه قال لايملك درهما فكيف يملك دينارا وانتصابه على المصدر ، والتقدير فقد ملك درهم فقدا يفضل عن فقد ملك دينار (عن أن تدركها فتحصلها وإن لكل واحد منها) أى من العوارض الأربعة (شغلا شاغلا عاجلا وآجلا ، ثم إن أعظمها) أى تلك العوارض الأربعة (وأعضلها) أى أشدها (أمر الرزق وتدبيره فإنه) أى أمر الرزق (البلية الكبرى) والداهية العظمى (لعامة الخلق) أى أكثرهم (أتعبت) أى تلك البلية (نفوسهم وشغلت قلوبهم وأكثرت همومهم) وأحزانهم (وضيعت أعمارهم وأعظمت تبعاتهم) أى حقوقهم (و) أعظمت (أوزارهم) وأثقلت أحمالهم (وعدلت) أى تجاوزت (بهم عن باب) رحمة (الله تعالى وخدمته) أى طاعته (إلى خدمة الدنيا) وطلبها (وخدمة المخلوقين فعاشوا) أى هؤلاء العامة (فى الدنيا فى غفلة) عن خدمة ربهم وطاعته (وظلمة) من دخان الشواغل (وتعب ونصب)

وَمَهَانَةٍ وَذُلٍّ وقدِمُوا إِلَى الآخِرَةِ مَفَالِيسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمُ الْحِسَابُ وَالْعَذَابُ، إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ ، وَانظُرْ كَمْ آيَةٍ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فى ذَلِكَ ، وَكَمْ ذِكْرٍ مِنْ وَعْدِهِ وَضَمَانِهِ وَقَسَمِهِ عَلَى ذَلِكَ . وَلَمْ تَزَلِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ يَعِظُونَ النَّاسَ وَيُبَيِّنُونَ لَهُمُ الطَّرِيقَ وَيُصَنِّفُونَ الْكُتُبَ وَيَضْرِبُونَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ وَيُخَوِّفُونَهُمْ بِاللهِ تَعَالَى وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَهْتَدُونَ وَلَا يَتَّقُونَ وَلَا يَطْمَئِنُّونَ ، بَلْ هُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ ذَلِكَ لَا يَزَالُونَ يَخَافُونَ أَنْ يَفُوتَهُمْ غَدَاءٌ أَوْ عَشَاءٌ وَأَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ قِلَّةُ التَّدَبُّرِ لِآيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَقِلَّةُ التَّفَكُّرِ فى صَنَائِعِ اللهِ ، وَتَرْكُ التَّذَكُّرِ لِكَلَامِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، وَتَرْكُ التَّأَمُّلِ لِأَقْوَالِ الصَّالِحِينَ مَعَ الْاسْتِرْسَالِ لِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَالْإِصْغَاءِ إِلَى كَلَامِ الْجَاهِلِينَ وَالِاغْتِرَارِ بِعَادَاتِ الْغَافِلِينَ حَتَّى تَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ وَرَسَخَتِ الْعَادَاتُ فى قُلُوبِهِمْ فَتَأَدَّى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ الْقَلْبِ وَرِقَّةِ الْيَقِينِ .

بمعنى واحد (ومهانة وذل) بمعنى واحد أيضا (وقدموا إلى الآخرة مفاليس) من الحسنات (بين أيديهم الحساب) للحلال (والعذاب) للحرام (إن لم يرحم الله تعالى بفضله) ورحمته (وانظركم آية) فى القرآن العزيز (أنزل الله تعالى فى ذلك) أى فى أمر الرزق (وكم ذكر) الله تعالى (من وعده) تعالى (وضمانه وقسمه على ذلك) أى الرزق (ولم تزل الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام (والعلماء) رضى الله عنهم (يعظون الناس ويبينون) أى الأنبياء والعلماء (لهم) أى للناس (الطريق ويصنفون) أى العلماء (لهم) أى لهؤلاء الناس (الكتب) التى فيها ذكر مايصلحهم فى أمر دينهم ودنياهم (ويضربون) أى يبينون (لهم الأمثال ويخوفونهم) أى يخوف الأنبياء والعلماء هؤلاء الناس (بالله تعالى) أى بعذابه (وهم) أى هؤلاء الناس (مع ذلك) أى المذكورة من الآيات المنزلة فى أمر الرزق والمواعظ من الأنبياء والعلماء وغيرهما (لايهتدون ولا يتقون ولا يطمئنون بل هم فى غمرة) أى شدة (من ذلك) أى الرزق (لايزالون يخافون) أى الناس من (أن يفوتهم غداء) أى طعام النهار (أو عشاء) أى طعام الليل (وأصل ذلك) أى خوف فوات الغداء أو العشاء (كله) بالجر (قلة التدبر لآيات الله سبحانه وقلة التفكر فى صنائع الله) وعجائب خلقه (وترك التذكر) والاتعاظ (لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك التأمل لأقوال الصالحين) والعلماء رضوان الله عليهم أجمعين (مع الاسترسال لوساوس الشيطان والإصغاء) أى الاستماع والميل (إلى كلام الجاهلين) المغرورين (والاغترار) أى الانخداع (بعادات الغافلين) عن طاعة مولاهم (حتى تمكن الشيطان منهم) أى من أولئك المذكورين (ورسخت) أى ثبتت (العادات فى قلوبهم فتأدى) أى أوصل (ذلك) أى الاسترسال لوساوس الشيطان وما بعده (إلى ضعف القلب ورقة اليقين) والحال أن اليقين مقام فوق الإيمان وهو الطمأنينة التى

وَأَمَّا الْأَخْيَارُ الَّذِينَ هُمْ أُولُو الْأَبْصَارِ وَأَرْبَابُ الْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ فَأَبْصَرُوا طَرِيقَ السَّمَاءِ فَلَمْ يَعْبَئُوا بِأَسْبَابِ الْأَرْضِ وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللهِ فَلَمْ يَكْتَرِثُوا بِعَلَائِقِ الْخَلْقِ وَتَيَقَّنُوا بِآيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَأَبْصَرُوا طَرِيقَهُ ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَالْخَلْقِ وَالنَّفْسِ ، فَإِذَا وَسْوَسَ لَهُمْ شَيْطَانٌ أَوْ نَفْسٌ أَوْ إِنْسَانٌ بِشَيْءٍ قَامُوا مَعَهُ بِالْمُنَاقَشَةِ وَالْمُدَافَعَةِ وَالْمُخَالَفَةِ حَتَّى وَلَّى الْخَلْقُ عَنْهُمْ وَاعْتَزَلَ عَنْهُمُ الشَّيْطَانُ وَانْقَادَتْ لَهُمُ النَّفْسُ وَاسْتَقَامَ لَهُمُ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ عَلَى مَا ذُكِرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْبَادِيَةَ أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَخَوَّفَهُ

حكاها الله سبحانه وتعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام بقوله « أو لم تؤمن قال بلي » الآية . قال ذو النون المصرى رحمه الله : ثلاثة من أعلام اليقين : قلة مخالطة الناس فى العشرة وترك المدح لهم فى العطية ولا ينافيه طلب الدعاء لهم وشكرهم لأنهما يحصلان بنحو جزاك الله خيرا وأكرمك الله ، والمدح ذكر المحاسن المقترن غالبا بدخول العجب على الممدوح والتنزه عن ذمهم عند منعهم العطية إذ المانع حقيقة هو الله تعالى ولا يليق الذم بغير الفاعل فذمه هنا يخشى منه ذم الفاعل حقيقة . وبالجملة من تيقن أن الله هو الرزاق في سائر الأحوال حصلت منه هذه الثلاثة (وأما الأخيار الذين هم أولو) أى أصحاب (الأبصار) والبصائر (وأرباب الجدو الاجتهاد فأبصروا طريق السماء) أى الذى يشار إليه بقوله تعالى «وفى السماء رزقكم» الآية (فلم يعبئوا) أى لم يبالوا (بأسباب الأرض واعتصموا) أى تمسك الأخيار أولو البصائر (بحبل الله) أى بدينه الإسلام أو بكتابه لقوله صلى الله عليه وسلم «القرآن حبل الله المتين» استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردى كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردى وللوثوق به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحا للمجاز . وفى أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ألا وإنى تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة » الحديث (فلم يكترثوا) أى لم يبالوا (بعلائق الخلق وتيقنوا) أى الأخيار (بآيات الله تعالى وأبصروا طريقه) أى دينه (فلم يلتفتوا) بقلوبهم (إلى وساوس الشيطان والخلق والنفس فاذا وسوس لهم) أى لهؤلاء الأخيار (شيطان أو نفس أو إنسان بشىء قاموا معه) أى مع الموسوس من الشيطان أو النفس أو الإنسان (بالمناقشة) أى بالمنازعة (والمدافعة والمخالفة حتى ولى الخلق) أى أعرضوا (عنهم) عن هؤلاء الأخيار (واعتزل عنهم) أى عن الأخيار (الشيطان وانقادت لهم النفس واستقام لهم الطريق المستقيم على ماذكر عن) أبى إسحاق (إبراهيم بن أدهم) بن منصور من كورة بلخ (رحمه الله) وكان كبير الشأن فى باب الورع (أنه) أى إبراهيم بن أدهم (لما أراد أن يدخل البادية بلا زاد (أتاه) أى إبراهيم بن أدهم (الشيطان فخوّفه) أى خوف الشيطان

بِأَنَّ هٰـذِهِ بَادِيَةٌ مُهْلِـكَةٌ وَلاَ زَادَ مَعَكَ وَلاَ سَبَبَ فَعَزَمَ عَلَى نَفْسِهِ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يَقْطَعَ الْبَادِيَةَ عَلَى تَجَرُّدِهِ ذٰلِكَ وَأَنْ لاَيَقْطَعَهَا حَتَّى يُصَلِّيَ تَحْتَ كُلِّ مِيلٍ مِنْ أَمْيَالِهَا أَلْفَ رَكْعَةٍ وَقَامَ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ وَبَقِيَ فِى الْبَادِيَةِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى إِنَّ الرَّشِيدَ حَجَّ فِى بَعْضِ تِلْكَ السِّنِينَ فَرَآهُ تَحْتَ مِيلٍ يُصَلِّى فَقِيلَ لَهُ هٰذَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يُصَلِّى فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا إِسْحٰقَ ؟ فَأَنْشَأَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا　　فَلاَ دِينُنَا يَبْقَى وَلاَ مَانُرَقِّعُ

فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللهَ رَبَّهُ　　وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ

ابن أدهم (بأن هذه) أى البادية التى أردت أن تدخلها (بادية مهلكة ولازاد معك ولاسبب فعزم على نفسه رحمه الله أن يقطع البادية) ولم يلتفت إلى وسواس الشيطان (على تجرده) أى ابن أدهم (ذلك) أى الزاد والسبب (و) عزم (أن لايقطعها) أى البادية (حتى يصلى تحت كل ميل) الميل قدر مد البصر من الأرض ومنار يبنى للمسافر أو مسافة من الأرض متراخية بلا حد أو مائة ألف أصبع إلا أربعة آلاف أصبع أو ثلاثة أو أربعة آلاف ذراع بحسب اختلافهم فى الفرسخ بل هو تسعة آلاف بذراع القدماء أو اثنا عشر ألف ذراع بذراع المحدثين كما فى القاموس (من أميالها) أى البادية (ألف ركعة وقام) ابن أدهم (بما عزم) أى قصد (عليه) أى من دخول البادية بغير زاد وصلاة ألف ركعة تحت كل ميل من أميالها (وبقى) ابن أدهم (فى البادية اثنتى عشرة سنة حتى إن) هرون (الرشيد) هو أحد الخلفاء العباسية . ولد هرون فى سنة تسع وأربعين ومائة ، وولى الخلافة بالعراق سنة سبعين ومائة ، فكانت مدته ثلاثا وعشرين سنة ، وكان يحج سنة ويغزو سنة (حج) إلى بيت الله الحرام (فى بعض تلك السنين فرآه) أى رأى الرشيد ابن أدهم (تحت ميل يصلى فقيل له) أى للرشيد (هذا) أى الشخص الذى تحت الميل (إبراهيم بن أدهم يصلى فأتاه) أى أتى الرشيد ابن أدهم (فقال) الرشيد (له) أى لابن أدهم (كيف تجدك) أى تجد نفسك (ياأبا إسحق) كنية إبراهيم (فأنشأ إبراهيم) ابن أدهم (يقول) من بحر الطويل (نرقع) أى نصلح ، رقع الثوب بمعنى رقعه ورقع الثوب ألحم خرقه وأصلحه بالرقاع كذا فى سراج السالكين (دنيانا بتمزيق) أى بتخريق وتشقيق (ديننا * فلا ديننا يبقى ولا مانرقع) يعنى الدنيا (فطوبى لعبد آثر) أى اختار (الله ربه * وجاد) أى سخى (بدنياه لما يتوقع) . وأخرج أبو نعيم فى الحلية من طريق يعلى بن عبيد قال : دخل إبراهيم بن أدهم على أبى جعفر أمير المؤمنين ، فقال كيف شأنكم ياأبا إسحاق ؟ قال ياأمير المؤمنين :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا　　فلا ديننا يبقى ولا مانرقع

وَعَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ فِى بَعْضِ الْبَوَادِي فَوَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ بِأَنَّكَ مُتَجَرِّدٌ وَهٰذِهِ بَادِيَةٌ مُهْلِكَةٌ لَا عُمْرَانَ فِيهَا وَلَا نَاسَ فَعَزَمَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنْ يَمْضِيَ عَلَى تَجَرُّدِهِ وَأَنْ يَطْرُقَ الطَّرِيقَ حَتَّى لَا يَأْخُذَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَأْكُلَ شَيْئًا حَتَّى يُجْعَلَ فِى فَمِهِ السَّمْنُ وَالْعَسَلُ ثُمَّ عَدَلَ عَنِ الشَّارِعِ وَمَرَّ عَلَى وَجْهِهِ سَائِحًا؛ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: فَسِرْتُ مَاشَاءَ اللهُ فَإِذَا بِقَافِلَةٍ قَدْ أَضَلَّتِ الطَّرِيقَ وَهُمْ يَسِيرُونَ فَلَمَّا أَبْصَرْتُهُمْ رَمَيْتُ بِنَفْسِي إِلَى الْأَرْضِ لَعَلَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَنِي فَسَيَّرَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيَّ فَغَمَضْتُ عَيْنِي فَدَنَوْا مِنِّي وَقَالُوا هٰذَا مُنْقَطِعٌ غُشِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ فَهَاتُوا سَمْنًا وَعَسَلًا نَجْعَلُهُ فِى فِيهِ لَعَلَّهُ يُفِيقُ فَأَتَوْا بِسَمْنٍ وَعَسَلٍ فَسَدَدْتُ فَمِي وَأَسْنَانِي فَأَتَوْا بِسِكِّينٍ

ومن طريق أبي عمير عن حمزة قال: دخل إبراهيم بن أدهم على بعض الولاة فقال له مم معيشتك قال نرقع دنيانا الخ ، فقال أخرجوه فقد استقبل (و) روى (بعض الصالحين رحمه الله أنه كان فى بعض البوادى فوسوس له الشيطان بأنك متجرد) عن الزاد (وهذه) أى البادية التي أنت فيها (بادية مهلكة لاعمران فيها) أى فى هذه البادية (ولا ناس فعزم) بعض الصالحين (على نفسه بأن يمضى على تجرده و) عزم (أن يترك الطريق حتى لايأخذ) مايأكله (من الناس ولا يأكل شيئا حتى يجعل فى فمه السمن والعسل ثم عدل) بعض الصالحين (عن الشارع) أى الطريق الكبير (ومر على وجهه سائحا) أى ذاهبا (قال) بعض الصالحين (رحمه الله فسرت) فى البادية (ماشاء الله فاذا) أنا (بقافلة قد أضلت الطريق وهم) أى القافلة (يسيرون ، فلما أبصرتهم رميت بنفسى إلى الأرض لعلهم) أى القافلة (لايبصروننى فسيرهم الله عز وجل حتى وقفوا على فغمضت عينى فدنوا) أى قربوا (منى وقالوا هذا) أى الرجل (منقطع) عن الطريق (غشى عليه من الجوع والعطش فهاتوا) أى ائتوا (سمنا وعسلا نجعله) أى ماأتيتم به من السمن والعسل (فى فيه) أى في فم هذا الرجل (لعله يفيق) من مغشيه (فأتوا) أى أتى أهل القافلة (بسمن وعسل) قال بعض الصالحين (فسددت فمى وأسنانى فأتوا بسكين) قال العلامة الفيومي : السكين معروف سمى بذلك لأنه يسكن حركة المذبوح . وحكى ابن الأنبارى فيه التذكير والتأنيث . وقال السجستانى : سألت أبا زيد الأنصارى والأصمعى وغيرهما ممن أدركنا فقالوا هو مذكر وأنكروا التأنيث ، وربما أنث فى الشعر على معنى الشفرة ، ولهذا قال الزجاج : السكين مذكر وربما أنث بالهاء لكنه شاذ غير مختار . ونونه أصلية فوزنه فعيل من التسكين ، وقيل النون زائدة فهو فعلين مثل غسلين فيكون من

يُعَالِجُونَ فِمى حَتَّى يَفْتَحُوهُ ، فَضَحِكْتُ فَفَتَحْتُ فَاىَ فَلَما رَأَوْا ذٰلِكَ مِنِّى قَالُوا مَجْنُونٌ أَنْتَ ؟ قُلْتُ لاَ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ تَعَالَى وَأَخْبَرْتُهُمْ بِبَعْضِ مَاجَرَى لِى مَعَ الشَّيْطَانِ ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذٰلِكَ .

وَعَنْ بَعْضِ مَشَايِخِنَا رَحِمَهُمُ اللّٰهُ قَالَ: نَزَلْتُ فى بَعْضِ أَسْفَارِى فى أَيَّامِ التَّعْلِيمِ مَسْجِداً بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ وَكُنْتُ مُتَجَرِّدًا عَلَى عَادَةِ أَوْلِيَائِنَا فَوَسْوَسَ إِلَىَّ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ هٰذَا مَسْجِدٌ بَعِيدٌ عَنِ النَّاسِ لَوْ سِرْتَ إِلى مَسْجِدٍ بَيْنَ النَّاسِ لَرَآكَ أَهْلُهُ وَقَامُوا بِكِفَايَتِكَ فَقُلْتُ لَا أَبِيتُ إِلاَّ هٰهُنَا وَعَلَىَّ عَهْدُ اللّٰهِ أَنْ لَا آكُلَ شَيْئًا إِلاَّ الْحَلْوَاءَ وَلاَ آكُلَ حَتَّى يُوضَعَ فى فِمى لُقْمَةً لُقْمَةً فَصَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ، فَلَمَّا مَضَى صَدْرٌ

المضاعف (يعالجون فمى حتى يفتحوه) أى فمى قال (فضحكت ففتحت فاى فلما رأوا ذلك) الضحك (منى قالوا مجنون أنت ؟ قلت لا) أى لست بمجنون (والحمد لله تعالى وأخبرتهم ببعض ماجرى لى مع الشيطان) من الوسواس المذكور (فتعجبوا من ذلك) أى مماجرى لى مع الشيطان. وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت البادية مرة بغير زاد لأصحح توكلى فأصابنى فيها فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأنى قد وصلت ثم فكرت أنى سكنت واتكلت على غيره تعالى فى تحصيل ماأنا محتاج إليه فعزمت على مخالفة نفسى وآليت أن لاأدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسى حفيرة وواريت فيها جسدى إلي صدرى تأديبا للنفس وتوبيخا لها فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا يقول . ياأهل المرحلة : إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة ممن سمع الصوت فأخرجونى وحملونى إلى القرية فقوى بذلك يقينى وتمكن توكلى على ربى ، وهذا وأمثاله يفعلون ذلك لتعلم اليقين ، وهو أن يغلب على القلب أن الله تعالى على كل شيء قدير . وفيما ذكر دلالة على مراعاة الوفاء بالعهد مع الله فيما عزم عليه العبد من نيل المقامات الرفيعة ، وفيه فضيلة للخراز حيث أقسم على الله فأبره .

(وعن بعض مشايخنا رحمهم الله قال: نزلت فى بعض أسفارى فى أيام التعليم مسجدا بعيدا عن الناس وكنت متجردا) عن الزاد على قدم التوكل (على عادة أوليائنا فوسوس إلى الشيطان بأن هذا) أى المسجد الذى نزلت فيه (مسجد بعيد عن الناس لو سرت إلى مسجد بين الناس لرآك أهله وقاموا) أى أهل المسجد (بكفايتك فقلت) مخالفا لمراد الشيطان (لا أبيت إلا ههنا) أى فى المسجد البعيد عن الناس (وعلي عهد الله أن لا آكل شيئا إلا الحلواء ولا آكل حتى يوضع) أي الحلواء (فى فمى لقمة لقمة) قال بعض مشايخنا (فصليت العتمة) أى العشاء (وأغلقت الباب) أى باب المسجد (فلما مضى صدر

مِنَ اللَّيْلِ إِذَا أَنَا بِإِنْسَانٍ يَدُقُّ الْبَابَ وَمَعَهُ سِرَاجٌ ، فَلَمَّا كَثُرَ الدَّقُّ فَتَحْتُ الْبَابَ فَإِذَا أَنَا بِعَجُوزٍ مَعَهَا شَابٌّ وَقَدْ دَخَلَتْ فَوَضَعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ طَبَقاً مِنَ الْخَبِيصِ وَقَالَتْ : هٰذَا الشَّابُّ وَلَدِي صَنَعْتُ لَهُ هٰذَا الْخَبِيصَ وَجَرَى بَيْنَنَا كَلَامٌ ، فَحَلَفَ أَنْ لَا يَأْكُلَ حَتَّى يَأْكُلَ مَعَهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ ، أَوْ قَالَتْ هٰذَا الْغَرِيبُ الَّذِي فِي الْمَسْجِدِ : فَكُلْ رَحِمَكَ اللهُ فَأَخَذَتْ تَضَعُ فِي فِمِي لُقْمَةً وَفِي فَمِ وَلَدِهَا لُقْمَةً حَتَّى اكْتَفَيْنَا ثُمَّ انْصَرَفَا وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ عَلَيَّ مُتَعَجِّباً مِمَّا جَرَى ، فَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِنْ مُجَاهَدَاتِ الصَّالِحِينَ وَمُنَاقَضَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ ، فَإِنَّ لَكَ فِي ذٰلِكَ فَوَائِدُ ثَلَاثَةٌ : إِحْدَاهَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الرِّزْقَ لَا يَفُوتُ مَنْ قُدِّرَ لَهُ بِحَالٍ . وَالثَّانِيَةُ : أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْرَ الرِّزْقِ وَالتَّوَكُّلِ لَمُهِمٌّ جِدًّا وَأَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ غَوَائِلَ وَوَسَاوِسَ عَظِيمَةً حَتَّى أَنَّ مِثْلَ أُولٰئِكَ الْأَئِمَّةِ الزُّهَّادِ لَمْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ذٰلِكَ وَلَمْ يَيْأَسْ

من الليل) صدر كل شيء أوله (إذا أنا بإنسان يدق الباب ومعه) أي الإنسان (سراج) أي مصباح (فلما أكثر) الإنسان (الدق) أي دق الباب وقرعه (فتحت الباب فاذا أنا بعجوز معها شاب وقد دخلت) أي تلك العجوز (فوضعت بين يدى طبقا من الخبيص) نوع من الحلاوات تعمله العرب من التمر والسمن والخضر من الأرز والدبس ، وهو مأخوذ من الخبص : بمعنى الخلط (وقالت) أي العجوز (هذا الشاب ولدى صنعت له هذا الخبيص وجرى بيننا كلام) أي نوع من الخصومة (فحلف) ولدى (أن لا يأكل) هذا الخبيص (حتى يأكل معه) أي مع ولدى (رجل غريب أو قالت) العجوز حتى يأكل معه (هذا) الرجل (الغريب الذى فى المسجد، فكل) هذا الخبيص (رحمك الله) قال بعض مشايخنا (فأخذت) أي شرعت تلك العجوز (تضع فى فمى لقمة) (و) تضع (فى فم ولدها لقمة حتى اكتفينا ثم انصرفا) أي العجوز وولدها من مكانى (وأغلقت الباب) أى باب المسجد (على متعجبا مما جرى) لى مع العجوز وولدها (فهذه) أي الحكاية المذكورة (وأمثالها من مجاهدات الصالحين) أي القائمين بحقوق الله وحقوق عباده (ومناقضتهم) ومخالفتهم (للشيطان فان لك فى ذلك) أي المذكور من هذه الحكاية وأمثالها (فوائدثلاثة : إحداها أن تعلم أن أمر الرزق لا يفوت من قدر) بالبناء للمفعول من التقدير والنائب عن الفاعل الرزق (له بحال) سواء طلب أو لم يطلب (والثانية أن تعلم أن أمر الرزق والتوكل لمهم جدا و) أن تعلم (أن للشيطان فيه) أي فى أمر الرزق والتوكل (غوائل) أي غرورا وشرورا (ووساوس عظيمة حتى إن مثل أولئك الأئمة الزهاد لم يتخلصوا من ذلك) المذكور من الغوائل والوساوس (ولم ييأس

مِنْهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْدَ طُولِ تِلْكَ الرِّيَاضَاتِ وَكَثْرَةِ الْمُجَاهَدَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُمْ ، حَتَّى يَحْتَاجُوا إِلَى دَفْعِهِ بِهٰذِهِ الْمُنَاقَضَاتِ ، وَلَعَمْرِي أَنَّ مَنْ جَاهَدَ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ سَبْعِينَ سَنَةً لَا يَأْمَنُ أَنْ يُوَسْوِسَا لَهُ كَمَا يُوَسْوِسَانِ لِلْمُبْتَدِئِ فِي الْعِبَادَةِ بَلْ لِغَافِلٍ لَمْ يَجْتَهِدْ سَاعَةً فِي الرِّيَاضَةِ وَلَوْ ظَفِرَا بِهِ لَفَضَحَاهُ وَأَهْلَكَاهُ هَلَاكَ الْغَافِلِينَ الْمُغْتَرِّينَ ، وَفِي ذٰلِكَ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ . وَالثَّالِثَةُ : أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْجِدِّ الْمَحْضِ وَالْمُجَاهَدَةِ الْبَالِغَةِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا لَحْمًا وَدَمًا وَبَدَنًا وَرُوحًا مِثْلَكَ بَلْ كَانُوا أَنْحَفَ أَبْدَانًا وَأَضْعَفَ أَرْكَانًا وَأَدَقَّ عِظَامًا مِنْكَ وَلٰكِنْ كَانَتْ لَهُمْ قُوَّةُ الْعِلْمِ وَنُورُ الْيَقِينِ وَهِمَّةُ أَمْرِ الدِّينِ حَتَّى قَوَوْا عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الْمُجَاهَدَاتِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَدَاوِهَا مِنْ هٰذَا الدَّاءِ الْمُعْضِلِ لَعَلَّكَ تُفْلِحُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

منهم الشيطان بعد طول تلك الرياضات و) بعد (كثرة المجاهدات التى سبقت لهم) أى الأئمة (حتى يحتاجوا إلى دفعه) أى الشيطان (بهذه المناقضات) والمجاهدات (ولعمرى) قسمى (إن من جاهد النفس والشيطان سبعين سنة) مثلا (لا يأمل أن يوسوسا) أى النفس والشيطان (له) أى لذلك المجاهد زمنا طويلا (كما يوسوسان) أى كوسوستهما (للمبتدىء فى العبادة ، بل) كما يوسوسان (لغافل) عن عاقبة أمره (لم يجتهد ساعة) أى قطعة من الزمن (فى الرياضة) والمجاهدة (ولو ظفرا) أى النفس والشيطان (به) أى بمن ذكر (لفضحاه) أى أوقعاه فى الفضيحة (وأهلكاه) أى أوقعاه فى الهلاك (هلاك الغافلين المغترين وفى ذلك) أى الوقوع فى الفضيحة والإهلاك (عبرة) اعتبار (لأولى الأبصار . والثالثة أن تعلم أن الأمر) أى أمر التوكل (لايتم إلا بالجد المحض والمجاهدة البالغة) أى الكاملة (فإنهم) أى أولئك الأئمة (كانوا لحما ودما وبدنا وروحا مثلك بل كانوا أنحف) أى أهزل (أبدانا وأضعف أركانا) أى جوارح وأعضاء (وأدق عظاما منك ولكن كانت لهم قوة العلم) والعمل (ونور اليقين وهمة أمر الدين حتى قووا على مثل تلك المجاهدات) الشديدة (و) على (القيام بحق تلك المقامات) الرفيعة (فانظر لنفسك رحمنا الله وإياك وداوها) أى النفس (من هذا الداء المعضل) الذى أعجز الأطباء (لعلك تفلح) أى تفوز (إن شاء الله تعالى) وبالله التوفيق والعصمة .

(فصل) ثُمَّ أَعْلَمْ بَعْدَ هٰذِهِ الْجُمْلَةِ أَنِّي مُجَرِّدٌ لَكَ نُكَتًا وَجَدْتُهَا بِحَيْثُ تَمْكُثُ فِي الْقَلْبِ إِذَا تَذَكَّرْتَهَا وَتَكْفِيكَ مُؤْنَةَ هٰذَا الْبَابِ وَتَدَعُكَ عَلَى وَاضِحَةٍ مِنَ الْحَقِّ إِنْ تَأَمَّلْتَهَا وَعَمِلْتَ بِهَا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ الْمُوَفِّقُ .

الْأُولَى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ، فَقَدْ ضَمِنَ رِزْقَكَ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِهِ فَمَا تَقُولُ لَوْ وَعَدَكَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا أَنَّهُ يُضِيفُكَ اللَّيْلَةَ وَيُعَشِّيكَ وَأَنْتَ حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ أَنَّهُ صَادِقٌ وَلَا يَكْذِبُ وَلَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ بَلْ لَوْ وَعَدَكَ بِذٰلِكَ سُوقِيٌّ أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ

فصل

(ثم اعلم بعد هذه الجملة) المذكورة (أنى مجرد) أى مظهر (لك نكتا) جمع نكتة (وجدتها بحيث تمكث) وفى نسخة تنكث ، أى تؤثر وتفيد (فى القلب إذا تذكرتها) أى النكت (وتكفيك) تلك النكت (مؤنة هذا الباب) أى باب التوكل (وتدعك) أى تتركك (على واضحة من الحق إن تأملتها) أى النكت (وعملت بها) أى بمقتضاها (والله سبحانه الموفق)

النكتة (الأولى : أن تعلم أن الله تعالى ضمن الرزق لعباده فى كتابه العزيز بقوله « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » (فقد ضمن) تعالى (رزقك وتكفل لك به) أى بالرزق (فما تقول لو وعدك ملك من ملوك الدنيا أنه) أى الملك (يضيفك) أى يكرمك بالضيافة (الليلة ويعشيك) أى يطعمك العشاء (وأنت حسن الظن به) أى بالملك (أنه) أى ذلك الملك (صادق) فيما وعده (ولا يكذب ولا يخلف الوعد بل لو وعدك بذلك) أى بالضيافة والعشاء (سوقى) منسوب إلى السوق . فى المصباح والسوق يذكر ويؤنث . وقال أبو إسحاق : السوق التى يباع فيها مؤنثة ، وهو أفصح وأصح وتصغيرها سويقة والتذكير خطأ لأنه قيل سوق نافقة ، ولم يسمع نافق بغيرها والنسبة إليها سوقى على لفظها وقولهم رجل سوقة ليس المراد أنه من أهل الأسواق كما تظنه العامة ، بل السوقة عند العرب خلاف الملك قال الشاعر :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

وتطلق السوقة على الواحد والمثنى والمجموع وربما جمعت على سوق مثل غرفة وغرف (أو يهودى) نسبة لليهود وهم قوم موسى عليه الصلاة والسلام سموا بذلك لأنهم هادوا : أى رجعوا عن عبادة العجل من هاد إذا رجع من خير إلى شر أو عكسه أو لأنهم كانوا يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة (أو نصرانى) واحد النصارى وهم قوم عيسى عليه الصلاة والسلام، سموا بذلك لأنهم

أَوْ مَجُوسِيٌّ مَسْتُورٌ عِنْدَكَ بِظَاهِرِهِ عَفِيفٌ فِي مَقَالَتِهِ أَلَسْتَ تَثِقُ بِهِ وَبِوَعْدِهِ وَتَطْمَئِنُّ بِقَوْلِهِ وَلَا تَهْتَمُّ لِعَشَائِكَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ اتِّكَالًا عَلَيْهِ، فَمَا بَالُكَ وَقَدْ وَعَدَكَ اللَّهُ تَعَالَى وَضَمِنَ لَكَ رِزْقَكَ وَتَكَفَّلَ بِهِ، بَلْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَأَنْتَ لَا تَطْمَئِنُّ بِوَعْدِهِ وَلَا تَسْكُنُ إِلَى قَوْلِهِ وَضَمَانِهِ، وَلَا تَنْظُرُ إِلَى قَسَمِهِ بَلْ يَضْطَرِبُ قَلْبُكَ وَيَهْتَمُّ، فَيَا لَهَا مِنْ فَضِيحَةٍ لَوْ رَأَتْ وَبَالَهَا، وَمِنْ مُصِيبَةٍ لَوْ عَلِمَتْ حَالَهَا.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

أَتَطْلُبُ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ ... وَتُصْبِحُ مِنْ خَوْفِ الْعَوَاقِبِ آمِنَا
وَتَرْضَى بِصَرَّافٍ وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا ... ضَمِينًا وَلَا تَرْضَى بِرَبِّكَ ضَامِنَا

نصروه قال تعالى «من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله» أو لنصرة بعضهم بعضا أو لأنهم كانوا فى قرية يقال لها نصرانة أو ناصرة أو نصرة والياء فى نصرانى للمبالغة كالياء فى أحمرى (أو مجوسى) نسبة إلى المجوس وهم أمة من الناس أثبتوا للعالم صانعين: خيرا ويسمونه يزدان وشرا ويسمونه أهرمن ورد زعمهم بقوله تعالى ـ الله خالق كل شىء ـ (مستور) أى حاله (عندك بظاهره) أى الذى وعدك ممن ذكر (عفيف فى مقالته ألست تثق به وبوعده) بالضيافة والعشاء (وتطمئن بقوله ولا تهتم لعشائك) بفتح العين ما يؤكل آخر النهار (تلك الليلة اتكالا) أى اعتمادا (عليه) أى الذى وعدك ممن ذكر وصفه (فما بالك) أى حالك . والبال يطلق لمعان منها الحال والقلب والحوت العظيم ويصح أن يراد به هنا الحال (وقد وعدك الله تعالى وضمن لك رزقك وتكفل به) أى برزقك وبالغ فى الإيجاب على نفسه فى كتابه حيث قال « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » (بل أقسم) تعالى (عليه فى غير موضع) واحد بل فى مواضع كثيرة كقوله جل وعز « وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (وأنت لا تطمئن بوعده) سبحانه وتعالى (ولا تسكن إلى قوله وضمانه) جل وعز (ولا تنظر إلى قسمه) تعالى (بل يضطرب قلبك ويهتم) بالرزق (فيالها) أى للنفس (من فضيحة لو رأت وبالها و) يالها (من مصيبة لو علمت حالها . وعن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال) من بحر الطويل (أتطلب رزق الله من عند غيره * وتصبح) أى تصير (من خوف العواقب آمنا . وترضى بصراف) مبالغة من الصيرفى ، وهو من يبيع الذهب بالدراهم . قال ابن فارس : الصرف فضل الدرهم فى الجودة على الدرهم ، ومنه اشتقاق الصيرفى (وإن كان) الصراف (مشركا) أى كافرا (ضمينا) أى ضامنا لك (ولا ترضى بربك ضامنا .

كَأَنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ بِمَا فِي كِتَابِهِ فَأَصْبَحْتَ مَنْحُولَ الْيَقِينِ مُبَايِنَا

وَلِهٰذَا المَعْنَى يَنْجَرُّ هٰذَا الْأَمْرُ إِلَى الشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ ، وَيُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ ـ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ـ سَلْبُ المَعْرِفَةِ وَالدِّينِ ، وَلِهٰذَا المَعْنَى قَالَ سُبْحَانَهُ : (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

كأنك لم تقرأ بما فى كتابه) العزيز من آية الضمان لرزق العباد (فأصبحت) أى صرت (منحول) أى ضعيف (اليقين مباينا) أى مبعدا عن اليقين (ولهذا المعنى) أى منحول اليقين (ينجر هـذا الأمر) أى أمر الرزق (إلى الشك والشبهة ويخاف) بالبناء للمفعول (على صاحبه) أى الشك (والعياذ بالله سلب المعرفة والدين ، ولهذا المعنى) أى انجرار هذا الأمر إلى الشك والشبهة والخيفة على صاحبه سلب المعرفة والدين (قال) الله (سبحانه ـ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) فمع شرفه قد أوجبه على سائر المؤمنين ، لأن الإيمان يوجب على المؤمن مدلوله ومدلولات الإيمان هى الناشئة عن نفس الإيمان بحسب الملاحظات ، فمن لاحظ عن زيد أنه قائم بالأمر عول عليه واعتمد على كفايته ، وإن لاحظ مع كونه قائما بالأمر أنه حكيم فى علمه وأفعاله فيما يقدم ويؤخر وفيما يرفع ويخفض سلم الأمر إليه واستسلم لحكمه ، لأن التفويض معناه ترك اختيار العبد لحسن اختيار الله له ، والاستسلام هو انقياد العبد وإذعانه لما اختاره الله له وبما حكم به عليه من الأمر والنهى وملازمة الحدود التي حدها له وإن لاحظ مع ذلك كمال صدقه ووفاء وعده وثق به ، لأن الثقة نتيجة التصديق ومعناه الربط على القلب وعدم الانفصام على ما حواه من التصديقات ، فالثقة إذن على هذا مكملة لجميع المقامات والأحوال ، ولهذا قال أبو إسماعيل الهروى : الثقة سواد عين التوكل ونقطة دائرة التفويض وسويداء قلب التسليم ، وإن لاحظ بعد ذلك ألوهيته مال إليه بوجهه وانصرف إليه بكليته ، وإن لاحظ المعنى الجامع لصفات ألوهيته هو المعبر عنه بقولك : الله حصل الدهش والتحير ، فهكذا ينبغى أن يفهم ملاحظة مدلولات الإيمان . وقال صاحب القوت : وقد أمر الله بالتوكل وقرنه بالإيمان ليدل بذلك أنهما شيئان إذ التوكل على الوكيل هو من الإيمان بالمؤمن لأنه عن حقيقة الإيمان وهو اليقين وبمشاهدة الوكيل وهو الحسب الحسيب ونعم الوكيل فأمر بالتوكل قولا وفعلا بعد الإخبار عن محبته المتوكل عليه فقال تعالى « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا » مع اشتراط التوكل للايمان بعد الأمر به فى قوله تعالى « وعلى الله فتوكلوا ، إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » فلم يخرج عموم المسلمين من شرط عموم المتوكل كما لم يخرج خصوص المؤمنين من شرط وجود الإسلام ، وكما كل مؤمن حقا مسلم لا بد عملا كذلك كل مسلم صدقا يكون على الله متوكلا فقد صار المتوكل من عباد الرحمن الذين أضافهم إلى وصف الرحمة ومن عباد التخصيص الذين ضمن لهم الكفاية وهم الذين وصفهم فى الكتاب بالهون والسكينة ونعتهم بالسلامة والخوف وذكرهم بالسجود والقيام

(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) فَحَسْبُ الْمُؤْمِنِ الْمُهْتَمِّ لِأَمْرِ دِينِهِ هٰذِهِ النُّكْتَةُ الْوَاحِدَةُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

وَالثَّانِيَةُ : أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ، صَحَّ ذٰلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى ،

ومدحهم بالاقتصاد والقوام في قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » . إلى آخر الآيات ، وقال تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي فليخصوه بالتوكل عليه لا علي غيره لأن الأمر كله لله ولا راد لقضائه ولا دافع لحكمه فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى لا على غيره ، وقيل التوكل أن لا تعصى الله من أجل رزقك ولا تطلب لنفسك ناصرا غيره ولا لعملك شاهدا سواه . روى مسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب قالوا : ومن هم يارسول الله ؟ قال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن رضى الله عنه فقال يارسول الله : ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال أنت منهم فقام آخر فقال : يانبي الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال : سبقك بها عكاشة » (فحسب المؤمن) أى كافيه (المهتم لأمر دينه هذه النكتة الواحدة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) ولما كان لا يتم شيء إلا بالله ومعونته وحسن توفيقه ناسب أن يأتى رحمه الله بالحوقلة : أى بقوله : لا حول ولا قوة إلا بالله لأن فيها التبرى من حول العبد وقوته والركون إلى حول الله وقوته ، فمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله لا تحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونة الله .

واعلم أنه جاء في فضائل: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم شيء كثير، فمن ذلك ما أخرجه الطبراني وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فإنها كنز من كنوز الجنة وفيها شفاء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم » ومن ذلك ما أخرجه الطبراني وابن عساكر عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أبطأ عليه رزقه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » وفى الفشنى عن الأربعين النووية : ومن الأدعية المستجابة أنه إذا حل بالشخص أمر ضيق يطبق أصابع يده اليمنى ثم يفتحها بكلمة : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اللهم لك الحمد ومنك الفرج وإليك المشتكى وبك المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وهى فائدة عظيمة انتهي .

وبالجملة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لها تأثيرعظيم فيطرد الشياطين والجن وفي جلب الرزق والغنى والشفاء وتحصيل القوة ودفع العجز وغير ذلك كذا قاله السيد بكرى المكي رحمه الله (و) النكتة (الثانية أن تعلم) وفى نسخة أنك تعلم (أن الرزق مقسوم صح ذلك) أي كون الرزق مقسوما (فى كتاب الله تعالى) كقوله تعالى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم » . قال النسفي : أى

وَأَخْبارِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَتَعْلَمَ أَنَّ قِسْمَتَهُ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ ، فَإِنْ أَنْكَرْتَ الْقِسْمَةَ أَوْ جَوَّزْتَ نَقْضَهَا ، فَذٰلِكَ بَابُ الْكُفْرِ تَقْرَعُهُ ، نَعُوذُ بِاللهِ ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ حَقٌّ لَا يَتَغَيَّرُ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِى الِاهْتِمَامِ وَالطَّلَبِ إِلَّا الذُّلُّ وَالْهَوَانُ فِى الدُّنْيَا وَالشِّدَّةُ وَالْخُسْرَانُ فِى الْآخِرَةِ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَكْتُوبٌ عَلَى ظَهْرِ الْحُوتِ وَالثَّوْرِ رِزْقُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ فَلَا يَزْدَادُ الْحَرِيصُ إِلَّا جُهْدًا » ، وَفِى ذٰلِكَ يَقُولُ شَيْخُنَا ،

ما يعيشون به وهو أرزاقهم فى الحياة الدنيا الآية معناه نحن أوقعنا هذا التفاوت بين العباد فجعلنا هذا غنيا وهذا فقيرا وهذا مالكا وهذا مملوكا وهذا قويا وهذا ضعيف ، ثم إن أحدا من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا ذكره الخازن (و) صح أيضا فى (أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم) كما روى عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » الحديث . وما روى عن عمرو مولى المطلب عن المطلب بن حنطب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما تركت شيئا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به وما تركت شيئا مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه ألا وإن الروح الأمين جبريل عليه السلام قد ألقى فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوعب كل الذى كتب لها فمن أبطأ عنه شىء من ذلك فليجمل فى الطلب فإنكم لا تدركون ما عند الله بمثل طاعته » (و) أن (تعلم أن قسمته) تعالى للرزق (لاتتبدل ولا تتغير فان أنكرت القسمة أو جوزت نقضها) أى القسمة (فذلك) أى إنكار القسمة أو تجويز نقضها وظن ذلك (باب الكفر تقرعه) بفتح أوله من باب قطع : أى طرقت هذا الباب ونقرت عليه (نعوذ بالله) من ذلك (وإن علمت أنه) أى تقسيم الرزق (حق لا يتغير فأى فائدة) اى لا فائدة (فى الاهتمام) للرزق (والطلب) له (إلا الذل والهوان) بمعنى واحد (فى الدنيا والشدة والخسران فى الآخرة ولذلك) أى لأجل عدم الفائدة فى الاهتمام والطلب إلا الذل والخسران فى الدارين (قال) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : مكتوب على ظهر الحوت) أي العظيم من السمك وهو مذكر . وفى التنزيل « فالتقمه الحوت » والجمع حيتان (والثور) أي الذكر من البقر والأنثى ثورة والجمع ثيران وأثوار وثيرة مثل عنبة (رزق فلان بن فلان فلا يزداد الحريص) على الدنيا (إلا جهدا) ومشقة ، وهذا لم أجد له إسنادا (وفى ذلك) أى لأجل هذا الخبر (يقول شيخنا) أبو بكر الوراق

رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ مَا قدِّرَ لِمَاضِغَيْكَ أَنْ يَمْضُغَاهُ فَلاَ يَمْضُغُهُ غَيْرُكَ، فَكُلْ رِزْقَكَ ـ وَيْحَكَ ـ بِالْعِزِّ، وَلاَ تَأْكُلْهُ بِالذُّلِّ، وَهٰذِهِ نُكْتَةٌ مُقْنِعَةٌ لِلرِّجَالِ.

وَالثَّالِثَةُ: مَا سَمِعْتُ مِنْ شَيْخِي الْإِمَامِ رَحِمَهُ اللهُ يَحْكِي عَنِ الْأُسْتَاذِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِمَّا يُقْنِعُنِي فِي أَمْرِ الرِّزْقِ أَنِّي تَذَكَّرْتُ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَلَيْسَ هٰذَا الرِّزْقُ لِلْحَيَاةِ وَالْعَيْشِ، وَالْمَيِّتُ مَا يَصْنَعُ بِالرِّزْقِ، فَإِذَا كَانَ حَيَاةُ الْعَبْدِ فِي خَزَانَةِ اللهِ تَعَالَى وَبِيَدِهِ، فَكَذٰلِكَ الرِّزْقُ إِنْ شَاءَ يُعْطِينِي وَإِنْ شَاءَ يَمْنَعُنِي، وَهُوَ غَيْبٌ عَنِّي مَوْكُولٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى يُدَبِّرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَأَنَا سَاكِنُ النَّفْسِ بِذٰلِكَ، وَهٰذِهِ نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ مُقْنِعَةٌ لِأَهْلِ التَّحْقِيقِ.

وَالرَّابِعَةُ مِمَّا ذَكَرْنَا فِي هٰذَا الْفَصْلِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ رِزْقَ الْعِبَادِ وَلَمْ يَضْمَنْ إِلاَّ الرِّزْقَ الْمَضْمُونَ الَّذِي هُوَ الْغِذَاءُ وَالتَّرْبِيَةُ، وَفِيهِ الْقِوَامُ وَالْعُدَّةُ.

(رحمه الله : إن ما قدر) بالبناء للمفعول : أى كتبه الله تعالى وقدره (لماضغيك) تثنية ماضغ ، والماضغان هما أصول اللحيين عند منبت الأضراس أو عرقان فى اللحيين (أن يمضغاه) أى ما قدر لهما ، فى المصباح : مضغت الطعام مضغا من بابى نفع وقتل: علكته ، والمضاغ بالفتح مايمضغ والمضاغة بالضم ما يبقى في الفم مما يمضغ (فلا يمضغه غيرك فكل رزقك ويحك) كلة رحمة (بالعز ولا تأكله بالذل) والهوان ، ولذلك بأن تهتم بطلبه لا سيما من غير حله (وهذه) النكتة الثانية (نكتة مقنعة) أى مكفية (للرجال) العقلاء والكرماء ، لأن العاقل تكفيه الإشارة والغافل لايفيده صريح العبارة (و) النكتة (الثالثة : ماسمعت من شيخى الإمام) أى إمام الحرمين (رحمه الله يحكى عن الأستاذ) أبى إسحاق (رحمه الله أنه) أى الأستاذ (كان يقول إن مما يقنعنى) أى يرضينى (فى امر الرزق أنى تذكرت وقلت فى نفسى اليس هذا الرزق للحياة والعيش والميت مايصنع بالرزق ، فاذا كان حياة العبد فى خزانة الله تعالى وبيده) أى بقدرته (فكذلك) أى فى خزانة الله تعالى (الرزق إن شاء) الله الإعطاء (يعطيني وإن شاء) عدم ذلك (يمنعنى وهو) اى الرزق (غيب) أى خفى (عنى موكول إلى الله تعالى يدبره) اى ذلك الرزق (كيف يشاء وأنا ساكن النفس) عن الاهتمام والطلب (بذلك) أى بسبب أنه موكول إلى الله تعالى (وهذه) الثالثة (نكتة لطيفة مقنعة لأهل التحقيق) والعرفان (و) النكتة (الرابعة مما ذكرنا فى هذا الفصل) أى فصل التوكل (أن الله تعالي ضمن رزق العباد ولم يضمن إلا الرزق المضمون الذى هو الغذاء والتربية) للبدن (وفيه) أى فى هذا المضمون (القوام) أى للجسد (والعدة) بضم

﴿ وأمَّا الأسبابُ ﴾ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ: فالْعَبْدُ إِذَا تَجَرَّدَ لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ فَرُبَّمَا يُحْبَسُ عَنْهُ الْأَسْبَابُ ، فَلَا يَعْبَأَنَّ بِذَلِكَ وَلَا يَضْجَرُ لِمَا عَلِمَ مِنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ أَنَّ الضَّمَانَ لِقِوَامِ الْبِنْيَةِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ، إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَا غَيْرُ وَالْمُنْتَظَرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا مَحَالَةَ يُمِدُّهُ بِالْقُوَّةِ لِيَقُومَ بِحَقِّ الْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ مَا دَامَ لَهُ أَجَلٌ وَتَكْلِيفٌ بِالْعِبَادَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَ بِنْيَةَ عَبْدِهِ بِطَعَامٍ وَشَرَابٍ أَوْ بِطِينٍ وَتُرَابٍ أَوْ بِتَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ كَالْمَلَائِكَةِ ،

العين : أى ماأعددته للطاعة (وأما الأسباب من الطعام والشراب فالعبد إذا تجرد لعبادة الله تعالى وتوكل على الله فربما يحبس عنه) أى عن العبد (الأسباب) مما ذكر (فلا يعبأن) أى فلا يبالى ، يقال ماعبأت بفلان : أى ماباليت به (بذلك) أى احتباس الأسباب عنه (ولا يضجر) بقلبه ، ومعنى الضجر القلق من الغم وذلك (لما علم) أى العبد (من حقيقة الأمر أن الضمان) أى ضمان الله لرزق عباده (لقوام البنية) بكسر الباء : أى الجسد (والتوكل على الله سبحانه إنما هو) أى التوكل (فى هذا المعنى) أى قوام البنية (لاغير والمنتظر) بصيغة اسم المفعول : أى الرزق الذي ينتظره العبد (من الله تعالى هذا المعنى) أى مايقيم البنية (و) علم العبد أيضا من حقيقة الأمر (أن الله تعالى لامحالة يمده) بضم الياء وكسر الميم من الإمداد : أى يعينه ويقويه (بالقوة ليقوم) أى العبد (بحق العبادة والخدمة) أى الطاعة (مادام له أجل) أى مدة العمر (وتكليف بالعبادة وهذا) أى الإمداد بالقوة (هو المقصود والله سبحانه) وتعالى (قادر على مايشاء إن شاء أن يقيم بنية عبده) أى جسده (بطعام وشراب أو بطين وتراب) أى أكل ذلك (أو) يقيم بنية عبده (بتسبيح) نحو سبحان الله وبحمده (أو بتهليل) وهو لاإله إلا الله فعل ذلك مايشاء هذا جواب الشرط (كالملائكة) عليهم الصلاة والسلام فانهم خلقهم الله تعالى من غير واسطة أب ولا أم ، فليسوا رجالا ولا نساء ولا خناثى ، فمن اعتقد ذكورتهم كان مبتدعا فاسقا، وفى كفره قولان: ومن اعتقد أنوثتهم كان كافرا بالإجماع لأن الذكورة أشرف من الأنوثة ، وقد بين الله تعالى كفر من اعتقد أنوثة الملائكة بقوله تعالى «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» : أى واعتقدهم الكافرون إناثا وأولى بالكفر من اعتقد خنوثتهم لمزيد التنقيص وهم غير الجن لايأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتناكحون ولا يتوالدون ، ولا تكتب أعمالهم لأنهم الكتاب ، ولا يحاسبون لأنهم الحساب ، ولا توزن أعمالهم لأنهم لاسيئات لهم ، ويحشرون مع الجن والإنس يشفعون فى عصاة بنى آدم ويراهم المؤمنون فى الجنة ، ويدخلون الجنة ويتناولون النعمة فيها بما شاء الله كذا قاله السحيمى والباجورى ، وقال بعضهم : تبعا لمجاهد

وَإِنْ شَاءَ بِغَيْرِ هٰذَا كُلِّهِ ، فَلَيْسَ مَطْلُوبُ الْعَبْدِ إِلاَّ الْقِوَامَ وَالْقُوَّةَ لِلْعِبَادَةِ لَيْسَ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ وَشِدَّةَ الشَّهْوَةِ وَنَيْلَ اللَّذَّةِ ، فَلاَ اعْتِبَارَ إِذَنْ بِالْأَسْبَابِ ، وَلِهٰذَا الْمَعْنَى قَوِيَتِ الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ عَلَى الْأَسْفَارِ وَطَيِّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَأْكُلْ عَشَرَةَ أَيَّامٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَأْكُلْ شَهْرًا وَشَهْرَيْنِ وَهُوَ عَلَى قُوَّتِهِ ،

إنهم لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون وأنهم يكونون فيها كما كانوا فى الدنيا، ورده السحيمى بقوله : وهذا يقتضى أن الحور والولدان كذلك انتهى وهم أجسام نورانية لطيفة بأرواح قادرون على التشكل بأشكال مختلفة فى أشكال حسنة شأنهم الطاعة ، ومسكنهم السموات غالبا ، ومنهم من يسكن الأرض صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى « يسبحون الليـل والنهار » لاينقطعون ولا يعصون الله فى الأمور التى قد أمرهم ويفعـلون الأمر الذى يؤمرون به ، ومنهم الموكل بالحجب والسموات والأرض والنار والتصوير فى الرحم والبحار والسحاب ، وورد أنه ينزل مع كل قطرة ملك ، ومنهم حملة العرش ، ومنهم سياحون فى الأرض يتبعون مجالس الذكر ، ومنهم المبلغون الصلاة إليه صلى الله عليه وسلم ممن صلى عليه ، ومنهم الحفظة لأبدان بنى آدم ولأعمالهم وغيرذلك ، وبالجملة فهم خدمة الملك كله وليس فى العالم من أعلاه إلى أسفله شبر إلا هو معمور بهم . قال بعضهم : ولذا نهى عن الاستقبال والاستدبار للقبلة ببول أو غائط إكراما للمصلى منهم إليها قال تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وقال صلى الله عليه وسلم « أطت السماء : أى صوتت وحق لها أن تئط مامن موضع إلا وفيه ملك ساجد أو راكع » والمراد كثرتهم وإن لم يكن هناك أطيط ، وورد أنه يدخل البيت المعمور كل يوم سبعون ألفا لايعودون إليه إلى يوم القيامة ويموتون بالنفخة الأولى إلا حملة العرش والرؤساء الأربعة فانهم يموتون بعدها ، وأما قبلها فلا يموت منهم أحد ولا يلزمنا معرفة حقيقة جنسهم ولا من أى شىء خلقوا ، ويجب الإيمان بأنهم بالغون فى الكثرة إلى حد لايعلمه إلا الله تعالى على الإجمال إلا من ورد تعيينه باسمه المخصوص أو نوعه فيجب الإيمان بهم تفصيلا . فالأول كجبريل ونحوه مما هو مقرر فى بابه ، والثانى كحملة العرش والحفظة والكتبة (وإن شاء) الله تعالى إقامة البنية (بغير هذا) أى المذكور من الطعام والشراب وما بعده (كله) بالجر تأكيد أقامها به والله يفعل مايشاء (فليس مطلوب العبد إلا القوام) أى قوام البنية (والقوة للعبادة ليس) أي مطلوبه (الأكل والشرب وشدة الشهوة ونيل اللذة فلا اعتبار إذن) أى حين كان المطلوب هو القوام والقوة للعبادة (بالأسباب) من الطعام والشراب (ولهذا المعنى قويت العباد) بضم العين جمع عابد (والزهاد على الأسفار وطي الليالى والأيام ، فمنهم) أى من العُباد والزهاد (من لم يأكل عشرة أيام ، ومنهم من لم يأكل شهرا وشهرين وهو) باق (على قوته) للعبادة

وَمِنْهُمْ: مَنْ كَانَ يَسْتَفُّ الرَّمْلَ فَيَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ غِذَاءً، نَحْوُ مَا ذُكِرَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ نَفِدَتْ نَفَقَتُهُ بِمَكَّةَ ، فَمَكَثَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا يَسْتَفُّ الرَّمْلَ . وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الْأَسْوَدُ : رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ يَأْكُلُ الطِّينَ عِشْرِينَ يَوْمًا . وَعَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ : قَالَ لِي إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : مَا أَكَلْتُ مُنْذُ شَهْرٍ ، قُلْتُ مُنْذُ شَهْرٍ؟ قَالَ : وَلَا شَهْرَيْنِ إِلَّا أَنَّ إِنْسَانًا نَاشَدَنِي اللهَ عَلَى عُنْقُودٍ مِنْ عِنَبٍ فَأَكَلْتُهُ، فَأَنَا أَشْتَكِي بَطْنِي .

(ومنهم من كان يستف الرمل) أي يرمي الرمل في الفم (فيجعله) أي الرمل (الله تعالى له غذاء نحو ما ذكر عن سفيان) بن سعيد (الثورى رحمه الله) وهو من تابعى التابعين وقد تقدمت ترجمته (أنه نفدت) أى فنيت وانقطعت (نفقته بمكة) زادها الله شرفا (فمكث) الثورى (خمسة عشر يوما يستف الرمل ، وقال أبو معاوية الأسود) رحمه الله تعالى (رأيت إبراهيم بن أدهم) بن منصور رحمه الله (يأكل الطين عشرين يوما . وعن الأعمش) هو أبو سليمان بن مهران الكوفى كان ثقة عالما فاضلا توفى سنة ثمان وأربعين ومائة فى شهر ربيع الأول ، وقيل سنة سبع وأربعين ، وقيل سنة تسع وأربعين رحمه الله تعالى (قال : قال لي إبراهيم) بن يزيد بن شريك (التيمى) تيم الرباب أبو أسماء الكوفى كان من العباد ثقة صالح الحديث قتله الحجاج ولم يبلغ أربعين سنة ، روى له الجماعة ، وفى سراج السالكين توفى فى حبس الحجاج سنة اثنتين وتسعين (رحمه الله تعالى: ما أكلت منذ شهر قلت منذ شهر ؟ قال) التيمى (ولا شهرين إلا أن إنسانا ناشدنى الله) أى سألنى بالله (على عنقود من عنب) العنقود ماتعقد وتراكم من حب فى عرق واحد (فأكلته) أى ذلك العنقود (فأنا اشتكى بطنى) وممن اشتهر بالطى حتى انتهى إلى ثلاثين يوما وأربعين يوما جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم محمد بن عمرو القرني وعبد الرحمن بن إبراهيم وإبراهيم التيمى وحجاج بن فرافصة وحفص العابد المصيصى والمسلم بن سعيد وزهير بن نعيم وسليمان الخواص وسهل بن عبد الله وإبراهيم الخواص ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام ، وكان ابن الزبير رضى الله عنه يطوى سبعة أيام ، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا ، وروى أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة . قال السهروردى فى العوارف : واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله المعروف بعمرويه وكان صاحب أحمد الأسود الدينورى أنه كان يطوى أربعين يوما وأقصى ما بلغ فى هذا المعنى من الطى رجل أدركنا زمانه وما رأيته كان بأبهر يقال زاهد خليفة كان يأكل فى كل شهر لوزة ولم يسمع أن أحدا بلغ فى هذه الأمة بالطى والتدريج إلى هذا الحد ، فكان فى أول أمره على ماحكي ينقص القوت بنشاف العود ، ثم يطوى حتى انتهى إلى

قُلْتُ أَنَا : وَلاَ تَعْجَبَنَّ مِنْ ذٰلِكَ ، فَإِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى الْقُدْرَةَ عَلَى مَايَشَاءُ ، مِثْلُ هٰذَا الْمَرِيضِ
- -اهُ لاَ يَأْكُلُ شَهْرًا ، وَهُوَ حَيٌّ يَعِيشُ ، وَالْمَرِيضُ

اللوزة فى الأربعين فقد سلك فى هذه الطريق جمع من الصادقين ، وقد سلك غير الصادق هذا الوجود هوى مستكن فى باطنه يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استحلاء نظر الخلق ، وهذا عين النفاق نعوذ بالله من ذلك ، والصادق ربما يقدر على الطى إذا لم يعلم بحاله أحد وربما يضعف إذا علم بأنه يطوى فان صدق فى الطي ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطى ، فاذا علم به أحد تضعف عزيمته فى ذلك وهذه علامة الصادق ، فمهما أحس فى نفسه أنه يحب أن يرى بعين التقلل فليتهم نفسه فإن فيه شائبة نفاق ، ومن يطوى لله خالصا يعوضه الله تعالى فرحا فى باطنه ينسيه الطعام وقد لاينسى الطعام لامتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحانى فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحانى ويقفو بذلك عن أرض الشهوة النفسانية ، ومن آثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير بأقل من جاذب المغناطيس للحديد ، إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح فى الحديد مشاكل للمغناطيس يجذبه بنسبته الجنسية الخاصة ، فاذا تجنس النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير فى النفس روح استمدها القلب من الروح وأداها إلى النفس فيجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادث فيه فيزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ويتحقق بمعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » ولا يقدر على ماذكرناه الا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة فيتناول من الطعام أيضا ضرورة، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع التهاب الحلفاء بالنار لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل مايوقظها واذا استيقظت نزعت الى هواها ، فالعبد المراد بهذا إذا فطن بسياسة النفس ورزق العلم سهل عليه الطى وتداركته المعونة من الله تعالى لاسيما إن كوشف بشىء من المنح الإلهية ، وقد حكى لى فقير أنه اشتد به الجوع وكان لايطلب ولا يتسبب . قال فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح على بتفاحة قال فتناولت التفاحة وقصدت أكلها فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقب كسر التفاحة فحدث عندى من الفرح بذلك مااستغنيت عن الطعام أياما ، ولذا قال سهل بن عبد الله من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت : أى كوشف ببعض الأسرار الإلهية .
قال المصنف رحمه الله تعالى (قلت أنا : ولا تعجبن من ذلك) أى المذكور من طى هؤلاء الأئمة الأعلام وجوعهم أياما كثيرة (فان لله تعالى القدرة) بالنصب اسم إن مؤخرا (على مايشاء) وذلك (مثل هذا المريض تراه لايأكل شهراً وهو) أى المريض (حى يعيش) ولايموت(و) معلوم أن (المريض

عَلَى كلِّ حَالٍ أَضْعَفُ نَفْساً وَأَرَقُّ طَبْعاً مِنَ القَوِيِّ .

وَأَمَّا الَّذِى يَمُوتُ جُوعًا فَذَلِكَ أَجَلٌ حَضَرَهُ ، كَالَّذِى يَمُوتُ شِبَعاً وَتُخَمَةً ، وَلَقَدْ بَلَغَنِى عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخَرَّازِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ حَالِى مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُطْعِمَنِى فِى كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَدَخَلْتُ الْبَادِيَةَ فَمَضَتْ عَلَىَّ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مَا طَعِمْتُ ، فَلَمَّا كَانَ فِى الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَجَدْتُ ضَعْفاً فَجَلَسْتُ مَكَانِى فَإِذَا بِهَاتِفٍ يَقُولُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: سَبَبٌ أَوْ قُوًى؟ فَقُلْتُ: لَا ، إِلَّا الْقُوَى، فَقُمْتُ مِنْ وَقْتِى وَقَدِ اسْتَقْلَلْتُ فَأَقَمْتُ اثْنَىْ عَشَرَ يَوْماً مَا طَعِمْتُ وَلَا وَجَدْتُ أَلَماً لِذَلِكَ .

فَأَمَّا إِذَا رَأَى الْعَبْدُ احْتِبَاسَ الْأَسْبَابِ عَنْهُ، وَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ فَلْيَسْتَيْقِنْ أَنْ يُمِدَّهُ اللهُ تَعَالَى بِالْقُوَّةِ فَلَا يَضْجَرَنَّ لِذَلِكَ ، بَلْ حَقُّهُ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ،

على كل حال أضعف نفسا) من الصحيح (وأرق طبعا من القوى وأما الذى يموت جوعا فذلك) أى موته (أجل) أى مدة حلول الموت (حضره) فى الوقت الذى علم الله حصول موته فيه أزلا بخلقه تعالى من غير مدخلية للجوع فيه (كالذى يموت شبعا) من الطعام (وتخمة) بضم ففتح أى بطنة . قال العلامة عبد الحق : التخمة الداء يصيب الإنسان من أكل الطعام الوخيم وعند الأطباء عبارة عن فسادالطعام واستحالته فى المعدة إلى كيفية غير صالحة وأصلها الوخمة جمع تخمات وتخم والعامة تسكن الخاء من التخمة (ولقد بلغنى عن أبى سعيد الخراز) البغدادى العارف شيخ الصوفية وصاحب التصانيف أحمد بن عيسى وكان من المتوكلين مات سنة سبع وسبعين وقيل سنة ست وثمانين ومائتين (رحمه الله) والخراز بتشديد الراء نسبة إلى خرز الجلود من القرب ونحوها (أنه قال كان حالي مع الله سبحانه أن يطعمنى فى كل ثلاثة أيام فدخلت البادية فمضت على ثلاثة أيام ماطعمت) أى ما أكلت طعاما (فلما كان) الحال (فى اليوم الرابع وجدت ضعفا) فى بدنى (فجلست مكانى فاذا)أنا (بهاتف) أى قائل لا يرى شخصه (يقول يا أبا سعيد أيما أحب اليك سبب) وذلك بالأكل (أو قوى) بلا أكل (فقلت : لا) أحب (إلا القوى) بضم القاف جمع قوة (فقمت من وقتى وقد استقللت) أى رأيت ثلاثة أيام قليلا (فأقمت اثنى عشر يوما ماطعمت ولا وجدت ألما لذلك)أى لعدم أكل الطعام (فأما إذا رأى العبد احتباس الأسباب) من الطعام والشراب (عنه) أى العبد (وعلم من نفسه التوكل على الله فليستيقن أن يمده) أى يعينه (الله تعالى بالقوة فلا يضجرن) أى العبد (لذلك) أى لاحتباس الأسباب مع إمداد القوة (بل حقه) أى العبد (أن يشكر الله تعالى على ذلك) الاحتباس

شُكْرًا كَثِيرًا ، فَإِنَّ لَهُ المِنَّةَ وَالصُّنْعَ اللَّطِيفَ إِذْ رَفَعَ عَنْهُ المُؤْنَةَ وَأَعْطَاهُ المَعُونَةَ وَحَصَلَ لَهُ الأَصْلُ وَالمَقْصُودُ وَدَفَعَ عَنْهُ الثِّقْلَ وَالْوَاسِطَةَ وَخَرَقَ لَهُ عَلَائِقَ الْعَادَةِ ، وَأَرَاهُ طَرِيقَ القُدْرَةِ وَشَبَّهَ حَالَهُ بِحَالِ المَلَائِكَةِ وَرَفَعَهُ عَنْ حَالَةِ الْبَهَائِمِ وَالْعَامَّةِ فِي تِلْكَ الْكَرَامَةِ ، فَتَأَمَّلْ هٰذَا الأَصْلَ الْكَبِيرَ تَغْنَمِ الرِّبْحَ الْكَثِيرَ الْعَظِيمَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

قُلتُ أَيضاً : وَلَعَلَّكَ تَقُولُ : إِنَّكَ أَطْنَبْتَ فِي هٰذَا الْفَصْلِ خِلَافَ شَرْطِ الْكِتَابِ .

فَأَقُولُ لَعَمْرُو اللهِ إِنَّهُ لَقَلِيلٌ فِي جَنْبِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذَا المَعْنَى ، إِذْ هُوَ أَهَمُّ شَأْنًا فِي الْعِبَادَةِ ، بَلْ عَلَيْهِ مَدَارُ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْعُبُودِيَّةِ ، فَمَنْ لَهُ هِمَّةٌ فِي هٰذَا الشَّأْنِ فَلْيَسْتَمْسِكْ بِذٰلِكَ وَلْيَرْعَهُ حَقَّهُ . وَإِلاَّ فَهُوَ عَنِ المَقْصُودِ بِمَعْزِلٍ ، وَالَّذِي يَدُلُّكَ عَلَى بَصِيرَةِ عُلَماءِ الآخِرَةِ وَالْعَارِفِينَ بِاللهِ : أَنَّهُمْ بَنَوْا أَمْرَهُمْ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ وَالتَّفَرُّغِ ،

مع الإيقان بما ذكر (شكرا كثيرا) ليزيده الله الإمداد قال تعالى «لئن شكرتم لأزيدنكم» (فان له) تعالى (المنة والصنع اللطيف إذ رفع) عز وجل (عنه) أى عن العبد (المؤنة) أى التعب فى الأسباب (وأعطاه) أي العبد (المعونة) أى الإعانة للعبادة (وحصل له) أىللعبد(الأصل والمقصود ودفع) تعالى (عنه الثقل) أى ثقل الطعام (والواسطة وخرق) الله (له علائق العادة وأراه) أى العبد (طريق القدرة وشبه) تعالى (حاله) أى حال العبد (بحال الملائكة) أى فى الاستغناء عن الأكل(ورفعه) الله تعالى (عن حالة البهائم و) حالة (العامة) الجاهلين (في تلك الكرامة) وهى المعونة ورفع المؤنة عن نفسه (فتأمل هذا الأصل الكبير تغنم الربح الكثير العظيم إن شاء الله تعالى . قلت أيضا) أى كما تقول ماتقدم (ولعلك تقول إنك أطنبت) أى بسطت الكلام (فى هذا الفصل) أى فصل التوكل فى أمر الرزق (خلاف شرط) هذا (الكتاب) المسمى بالمنهاج وشرطه الاختصار كما يعلم من أول الكتاب (فأقول: لعمرالله) أى بقاء الله واللام لتوكيدالابتداء والخبر محذوف والتقدير لعمرالله قسمى ولعمر الله ماأقسم به (إنه) أى ماأطنبت من الكلام فى هذا الفصل (لقليل فى جنب مايحتاج إليه فىهذا المعنى) أى فى التوكل فى أمر الرزق (إذ هو) أى هـذا المعنى (أهم شأنا فى العبادة بل عليه) أى على هذا المعنى (مدار الدنيا والعبودية فمن له همة) عالية (فى هذا الشأن) أى شأن العبادة (فليستمسك بذلك) المعنى المذكور (وليراعه) أى يحفظه (حقه وإلا) أى إن لم يستمسك بالمعنى المذكور ولم يراع حقه (فهو عن المقصود بمعزل) أى مجانب له (والذى يدلك على بصيرة علماء الآخرة العارفين بالله أنهم) أى علماء الآخرة (بنوا أمرهم على التوكل على الله والتفرغ

لِعِبَادَةِ اللهِ وَقَطْعِ الْعَلَائِقِ كُلِّهَا ، فَكَمْ صَنَّفُوا مِنْ كِتَابٍ ، وَكَمْ أَوْصَوْا بِوَصِيَّةٍ ، وَقَيَّضَ اللهُ لَهُمْ أَعْوَانًا مِنَ السَّادَةِ وَأَصْحَابًا، حَتَّى يَتَمَشَّى لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ الْمَحْضِ مَالَمْ يَتَمَشَّ لِطَائِفَةٍ مِنْ طَوَائِفِ الْأَئِمَّةِ الْأَزْهَادِ الْكَرَامِيَّةِ ، فَإِنَّهُمْ بَنَوْا مَذْهَبَهُمْ عَلَى أُصُولٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمَةٍ ، وَمَازِلْنَا أَعِزَّةً مَادُمْنَا عَلَى مِنْهَاجِ أَئِمَّتِنَا نَخْرُجُ مِنْ مَعَابِدِنَا وَمَدَارِسِنَا كُلَّ حِينٍ . إِمَّا إِمَامٌ فِى الْعِلْمِ كَالْأُسْتَاذِ أَبِى إِسْحٰقَ وَأَبِى حَامِدٍ وَأَبِى الطَّيِّبِ وَابْنِ فَوْرَكٍ وَشَيْخِنَا الْإِمَامِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ السَّادَةِ ، وَإِمَّا صِدِّيقٌ فِى الْعِبَادَةِ كَأَبِى إِسْحٰقَ الشِّيرَازِى ،

لعبادة الله وقطع العلائق كلها فكم صنفوا) أي علماء الآخرة (من كتاب وكم أوصوا بوصية وقيض الله) أى هيأه وبعثه . وقال بعضهم : أصل التقيض التيسير والتهيئة قيضته له أي هيأته ويسرته وهذان ثوبان قيضان : أى كل منهما مكافىء للآخر فى الثمن والمقايضة المعاوضة (لهم) أى لعلماء الآخرة (أعوانا) جمع عون بمعنى معين (من السادة) الأماثل (وأصحابا حتى يتمشى) أى يجرى (لهم من الخير المحض) أى الخالص (مالم يتمش) أى مالم يجر (لطائفة من طوائف الأئمة الأزهاد الكرامية) فرقة من المشبهة أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام (فانهم) أى الطائفة الكرامية (بنوا مذهبهم على أصول غير مستقيمة وما زلنا أعزة مادمنا) أى مدة دوامنا (على منهاج) أى طريق (أئمتنا) معاشر أهل السنة والجماعة (يخرج من معابدنا ومدارسنا كل حين) وزمن (إما إمام) أى مقتدى به (فى العلم كالأستاذ أبى إسحق) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفرايني الملقب بركن الدين الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى ذكره الحاكم أبو عبد الله . وقال أخذ عنه الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له بالعلم أهل العراق وخراسان وله التصانيف الجليلة منها كتابه الكبير الذى سماه جامع الحلى فى أصول الدين والرد على الملحدين وغير ذلك من المصنفات توفى يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة وأربعمائة (وأبى حامد) أحمد بن أبي طاهر محمد ابن أحمد الاسفرايني الفقيه الشافعى توفى ليلة السبت لأحدى عشرة ليلة بقيت من شوال سنه ست وأربعمائة ببغداد (وأبى الطيب) طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبرى القاضى الفقيه الشافعى توفى فى شهر ربيع الأول يوم السبت لعشر بقين منه سنة خمسين وأربعمائة (وابن فورك) أبى بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهانى بلغت مصنفاته فى أصول الفقه والدين ومعانى القرآن قريبا من مائة مصنف وكانت وفاته سنة ست وأربعمائة وفورك بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء وبعدها كاف ، وهو اسم علم (وشيخنا الإمام) أبى بكر الوراق (وأمثالهم) أى هؤلاء الأئمة (من السادة ، وإما) يخرج من ذلك (صديق) أى كثير الصدق (فى العبادة كأبى إسحق الشيرازي) إبراهيم بن على بن يوسف توفى ستة ست

وَأَبِي سَعِيدٍ الصُّوفِي وَنَصْرٍ الْمَقْدِسِي وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ فَاقَ الْأَئِمَّةَ عِلْماً وَزُهْداً حَتَّى ضَعُفَتِ الْقُلُوبُ مِنْ بَعْضِنَا وَتَلَطَّخْنَا بِشَيْءٍ مِنَ الْعَلاَئِقِ الَّتِي ضَرَرُهَا أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهَا ، فَتَرَاجَعَتِ الْأُمُورُ ، وَتَقَاعَدَتِ الْهِمَمُ ، وَطَارَتِ الْبَرَكَاتُ وَزَالَتِ اللَّذَّاتُ وَالْحَلاَوَاتُ ، فَلاَ يَكَادُ يَصْفُو لِأَحَدٍ عِبَادَتُهُ أَوْ يَحْصُلُ لَهُ عِلْمٌ وَحَقِيقَةٌ ، وَأَنَّ اللُّمْعَةَ الَّتِي تَظْهَرُ مِنَّا الْآنَ لَيْسَتْ إِلاَّ مِمَّنْ بَقِيَ عَلَى مِنْهَاجِ أَسْلاَفِنَا وَشُيُوخِنَا الْمُتَقَدِّمِينَ كَالْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ ،

وسبعين وأربعمائة ببغداد . والشيرازى بالكسر آخره زاى نسبة إلى شيراز بلدة بفارس (وأبى سعيد الصوفى) نسبة إلى التصوف (ونصر المقدسى) هو أبوالفتح نصربن إبراهيم بن نصر المقدسى بكسر الدال نسبة إلى بيت المقدس ثم الدمشقى الإمام الزاهدالمجمع على جلالته وفضيلته وله مصنفات كثيرة فى المذهب وغيره وصحبه الغزالى متبركا به حين قدم الغزالى دمشق متزاهدا توفى يوم الثلاثاء التاسع من المحرم سنة تسعين وأربعمائة بدمشق (وغيرهم) أى هؤلاء العباد الزهاد (ممن فاق الأمة علما) وعملا (وزهدا حتى ضعفت القلوب من بعضنا وتلطخنا بشئ من العلائق التى ضررها أكثر من نفعها) أى تلك العلائق (فتراجعت الأمور) بعد السلف الصالحين (وتقاعدت الهمم) عن تحصيل المنازل الرفيعة (وطارت البركات) أى ذهبت (وزالت اللذات والحلاوات) فى العبادة (فلا يكاد) أى يقرب (يصفو لأحد عبادة أو يحصل له علم) نافع (وحقيقة) فى العبودية (وإن اللمعــة) من العلم والعمل (التي ظهر منا الآن) أى فى آخر القرن الخامس (ليست إلا ممن بقي على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحارث)أى كأبى عبد الله الحارث بن أسد الزاهد البصرى صاحب التصانيف فى التصوف وغيره (المحاسبى) بالضم سمى به لكثرة محاسبته لنفسه . توفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين رحمه الله كذا فى سراج السالكين . قال القشيرى فى الرسالة قيل إنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئا . قيل لأن أباه كان يقول بالقدر فرأى فى الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئا ، وقال صحت الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايتوارث أهل ملتين » . قال القشيرى فيها : سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول سمعت محمد بن مسروق يقول : مات الحرث بن أسد المحاسبى وهو محتاج إلى درهم وخلف أبوه ضياعا وعقارا فلم يأخذ منه شيئا . قال سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله تعالي يقول : كان الحرث المحاسبى إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحوك على أصبعه عرق فكان يمتنع منه . قال أبو عبد الله بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم حالهم ، الحرث بن أسد المحاسبى والجنيد بن محمد وأبو محمد رويم وأبو العباس ابن عطاء وعمرو بن عثمان المكى لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق . قال شيخ الإسلام أى بين الشريعة والحقيقة ، ومن جمع بينهما كلم الناس بقدر ماتقضيه أحوالهم، وغيره وهو من غلب عليه

وَمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَالمُزَنِيِّ وَحَرْمَلَةَ ،

حاله إنما يكلمهم مما غلب عليه فلا يصلح أن يقتدى به ، فمن غلب عليه حال الجوع مثلا وفتح عليه به إنما يكلم الناس بحاله ، وليس كل سالك يصلح له ذلك فقد يكون بعض الناس إنما يفتح عليه من باب التبذل ولبس الثياب الخلقة وخدمة الفقراء لامن باب الجوع ، فالشيخ المقتدى به ينبغى أن يكون طبيبا عارفا بسائر الأدوية والأمراض فيداوى كل عليل بالدواء اللائق بمرضه .

ومن كلام الحرث المحاسبي : من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة . ويحكي عن الجنيد أنه قال : مر بي يوما الحرث المحاسبي فرأيت فيه أثر الجوع فقلت ياعم تدخل الدار وتتناول شيئا فقال نعم فدخلت الدار وطلبت شيئا أقدمه إليه ، فكان فى البيت شيء من طعام حمل إلى من عرس قوم فقدمته إليه فأخذ لقمة وأدارها فى فيه ، ثم إنه قام وألقاها فى الدهليز ومر ، فلما رأيته بعد ذلك بأيام قلت له فى ذلك ، فقال إنى كنت جائعا وأردت أن أسرك بأ كلى وأحفظ قلبك ولكن بينى وبين الله سبحانه علامة : أن لايسوغنى طعاما فيه شبهة فلم يمكن ابتلاعه فمن أين كان لك ذلك الطعام ؟ فقلت إنه حمل إلى من دار قريب لى من العرس . ثم قلت تدخل اليوم فقال نعم فقدمت إليه كسرا يابسة كانت لنا فأ كل . وقال إذا قدمت إلى فقير شيئا فقدم إليه مثل هذا (ومحمد بن إدريس) بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد القرشى المطلبى (الشافعى) نسبة إلى جده شافع . وكان الإمام الشافعى كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين اجتمع فيه من العلوم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والعربية والشعر ما لم يجتمع فى غيره ، مولده سنة خمسين ومائة . وقد قيل إنه ولد فى اليوم الذى توفى فيه الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله ، وتوفى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين (والمزنى) هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحي ابن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني صاحب الإمام الشافعى رحمه الله ، وهو من أهل مصر . وكان زاهدا عالما مجتهدا محجاجا غواصاً على المعانى الدقيقة ، وهو إمام الشافعين وأعرفهم بطرقه وفتاويه وما ينقله عنه ، صنف كتبا كثيرة فى مذهب الإمام الشافعى : منها الجامع الكبير والجامع الصغير ومختصر المختصر والمنثور والمسائل المعتبرة والترغيب فى العلم وكتاب الوثائق وغير ذلك . وقال الشافعى رحمه الله فى حقه : المزنى ناصر مذهبى ، وكان أحد الزهاد فى الدنيا ، وكان من خير خلق الله عز وجل ، ومناقبه كثيرة . وتوفى لست بقين من شهر رمضان سنة أربع وستين ومائتين بمصر ، والمزنى بضم الميم وفتح الزاى وبعدها نون نسبة إلى مزينة بنت كليب ، وهى قبيلة كبيرة مشهورة (وحرملة) هو أبو عبد الله حرملة بن يحي بن عبد الله التجيبى المصرى صاحب الامام الشافعى رحمه الله كان أكثر أصحابه اختلافا إليه واقتباساً منه ، وكان

وَغيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ، رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ ، فَهُمْ كَمَا قال الْقَائِلُ :

وَمَا صَحِبُوا الْأَيَّامَ إِلاَّ تعففًا ... وما وَجَدُوا مِنْ حُبِّ سَيِّدِهِمْ بُدًّا

أفاضِلُ صِدِّيقُونَ أَهْلُ وِلاَيَةٍ ... إِلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ قَدْ جَعَلُوا الْقَصْدَا

تَحَلَّلَ عَقْدُ الصَّبْرِ مِنْ كُلِّ صَابِرٍ ... وَمَا حَلَّتِ الْأَيَّامُ مِنْ عَقْدِهِمْ عَقْدَا

وَكُنَّا فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مُلُوكًا فَصِرْنَا سُوقَةً ، وَكُنَّا فُرْسَانًا فَصِرْنَا رِجَالَةً ، وَلَيْتَنَا لاَ نَنْقَطِعُ عَنِ الطَّرِيقِ بِمَرَّةٍ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى الْمَصَائِبِ * وَهُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ لاَ يَسْلُبَنَا هٰذَا الرَّمَقَ ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ ،

حافظا للحديث ، وصنف المبسوط والمختصر . وروى عنه مسلم بن الحجاج فأكثر فى صحيحه من ذكره ومولده في سنة ست وستين ومائة وتوفى ليلة الخميس لتسع بقين من شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين بمصر وقيل أربع وأربعين رحمه الله تعالى . والتجيبى بضم التاء المثناة من فوقها وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة نسبة إلى تجيب وهو اسم امرأة فنسب إليها أولادها (وغيرهم من أئمة الدين رحمهم الله أجمعين ، فهم) أى هؤلاء الأئمة (كما قال القائل) من بحر الطويل (وما صحبوا) أى الأسلاف والشيوخ (الأيام إلا تعففاً *) عن غرور الدنيا (وما وجدوا من حب سيدهم) وهو الله سبحانه وتعالى (بدا) أى تفرقا (أفاضل) أى هم أفاضل ، والأفاضل جمع الأفضل (صديقون أهل ولاية) قال الله تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (إلى سيد السادات) متعلق بقد جعلوا (قد جعلوا القصدا . تحلل عقد الصبر من كل صابر * وما) نافية (حلت الأيام من عقدهم عقدا . وكنا فى الصدر) أى فى الزمان (الأول ملوكا فصرنا سوقة) أى رعية : قال العلامة عبد الحق : السوقة الرعية من الناس تحت سياسة الولاة للولاة . وتطلق على الجمع والمذكر والمؤنث ، سموا سوقة لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمر ومراد (وكنا) فى ذلك الصدر (فرسانا) جمع فارس والفارس الراكب على الحافر فرسا كان أو بغلا أو حمارا قاله ابن السكيت (فصرنا رجالة) جمع راجل ، والراجل من لم يكن له ظهر يركبه وهو خلاف الفارس (وليتنا لا تنقطع عن الطريق) أى طريق الهدى (بمرة والله المستعان على المصائب ، وهو) تعالى (المسئول) فى (أن لا يسلبنا هذا الرمق) أى البقية من العلم والمعرفة (إنه جواد) أى كثير الجود والعطاء (كريم) أى متفضل على من شاء بما شاء .

واختلفوا فى معنى الكريم على أقوال أحسنها ما قاله مصنفنا أبو حامد الغزالى فى المقصد الأسنى إن الكريم هو الذى إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ولا يبالى كم

مَنَّانٌ رَحِيمٌ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

﴿ وأمَّا التّفويضُ ﴾ فَتأَمَّلْ فِيهِ أَصْلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنّكَ تَعْلَمُ أَنّ الِاخْتِيَارَ لاَ يَصْلُحُ إلاَّ لِمَنْ كَانَ عَالِماً بِالْأُمُورِ بِجَمِيعِ جِهاتِهَا وَظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا وَحَالِهَا وَعَاقِبَتِهَا ، وَإلاَّ فَلاَ يَأْمَنُ أَنْ يَخْتَارَ الْفَسَادَ وَالْهلاَكَ عَلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلاَحُ ، أَلاَ تَرَى أَنّكَ لَوْ قُلْتَ لِبَدَوِيٍّ أَوْ قَرَوِيٍّ أَوْ رَاعِي غَنَمٍ : أنْقُدْ لِي هٰذِهِ الدّرَاهِمَ وَمَيِّزْ لِي بَيْنَ جَيِّدِهَا وَرَدِيئِهَا ، فَإنّهُ لاَ يَهْتَدِي لِذٰلِكَ ، وَلَوْ قُلْتَ لِسُوقِيٍّ غَيْرِ صَيْرَفِيٍّ فَرُبَّمَا يَعْسُرُ أَيضاً ، فَلاَ تَأْمَنْ إِذَنْ ،

أعطى ولاما أعطى وإن رفعت حاجتك إلى غيره لا يرضى وإن جافاه عاتب وما استقصى ولا يضيع من لاذ به والتجا ويغنيه عن الوسائل والشفعا ، فمن اجتمع له ذلك لا بالتكليف فهو الكريم المطلق (منان) أى كثير المن الذي هو الإنعام أو تعداد النعم وهو بالمعنى الثانى مذموم إلا بالنسبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم . واستثنى بعضهم الشيخ والوالد (رحيم) أى ذو الرحمة الكثيرة (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) أتى المصنف رحمه الله بالحوقلة للتبرى من حوله وقوته لتصحيح إخلاصه كما قيل : صحح عملك بالإخلاص ، وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة وبالله التوفيق (وأما التفويض) أى تسليم الأمر كله إلى الله تعالى (فتأمل فيه) أى فى التفويض (أصلين أحدهما أنك تعلم أن الاختيار) أى اختيار الفعل (لا يصلح إلا لمن كان عالما بالأمور بجميع جهاتها) أى الأمور (وظاهرها وباطنها) وخيرها وشرها (وحالها وعاقبتها وإلا) أى وإن لم يكن عالما بالأمور بجميع ما ذكر (فلا يأمن أن يختار الفساد والهلاك على ما فيه الخير والصلاح . ألا ترى أنك لو قلت لبدوى) نسبة إلى البادية على غير قياس (أو قروى) بفتح الراء نسبة إلى القرية على غير قياس ، وفى كفاية التحفظ القرية كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قرارا وتقع على المدن وغيرها والجمع قرى على غير قياس . قال بعضهم لأن ما كان علي فعلة من المعتل فبابه أن يجمع على فعال بالكسر مثل ظبية وظباء وركوة وركاء والنسبة إليها كما تقدم (أو راعى غنم: انقد لى هذه الدراهم) فى المصباح نقدت الدراهم نقدا من باب قتل والفاعل ناقد ، والجمع نقاد مثل كافر وكفار وانتقدت كذلك إذا نظرتها لتعرف جيدها وزيفها . وفى المختار ونقد الدراهم وانتقدها: أخرج منها الزيف من باب نصر (وميزلى بين جيدها ورديئها) أى الدراهم (فانه) أى من ذكر من البدوى وغيره (لا يهتدى لذلك) أى لنقد الدراهم والتمييز بين جيدها ورديئها (ولو قلت لسوقى غير صيرفى) قال الفيومي : وصرفت الذهب بالدراهم بعته واسم الفاعل من هذا صيرفى وصيرف وصراف المبالغة (فربما يعسر) ذلك (أيضا) أى كما يعسر علي من ذكر من البدوى ومن بعده (فلا تأمن إذن) أى حين لا يهتدى من ذكر إلى ذلك

إلا بِأَنْ تعرِضَهَا عَلَى الصَّيْرَفِيِّ الْخَبِيرِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْأَسْرَارِ ، وَهٰذَا الْعِلْمُ الْمُحِيطُ بِالْأُمُورِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَا يَسْتَحِقُّ إِذَنْ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْاخْتِيَارُ وَالتَّدْبِيرُ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِذٰلِكَ يَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) .

وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ قِيلَ لَهُ مِنْ قِبَلِ اللّٰهِ تَعَالَى : سَلْ تُعْطَ ، وَكَانَ مُوَفَّقًا فَقَالَ : إِنَّ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْوُجُوهِ يَقُولُ لِجَاهِلٍ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ :

النقد والتمييز (إلا بأن تعرضها) أى تلك الدراهم (على الصيرفى الخبير) أى العليم (بالذهب والفضة وما فيهما من الخواص والأسرار وهذا العلم المحيط بالأمور) كلها (من جميع الوجوه لايصلح) أى هذا العلم (إلا لله رب العالمين فلا يستحق إذن) أى حين إذ كان العلم المحيط بالأمور من جميع الوجوه لايصلح إلا لله رب العالمين (أحدأن يكون له الاختيار والتدبير إلا الله وحده لاشريك له ولذلك) أى لاستحقاقه تعالى الاختيار والتدبير دون غيره (يقول عز من قائل : وربك يخلق مايشاء) كما يشاء (ويختار) أى وربك يختار مايشاء نزلت هذه الآية جوابا للمشركين حين قالوا «لولا نزلا هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» يعنى الوليد بن المغيرة أوعروة بن مسعود الثقفى أخبر الله تعالى أنه لايبعث الرسل باختيارهم لأنه المالك المطلق ، وله أن يخص من يشاء بما يشاء لااعتراض عليه ألبتة كذا ذكره الخازن (ما كان لهم) لأهل مكة (الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير ، وظاهره نفي الاختيار عنهم رأسا والأمر كذلك عند التحقق فان اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها كما ذكره البيضاوى . وقال النسفى : معناه ليس لهم أن يختاروا على الله شيئا ما وله الخيرة عليهم ، ولم يدخل العاطف فى « ما كان لهم الخيرة » لأنه بيان لقوله : ويختار . إذ المعنى أن الخيرة لله وهو أعلم بوجوه الحكمة وأفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ومن وصل على معنى ويختار الذى لهم فيه الخيرة فقد أبعد ، بل مالنفي اختيار الخلق تقرير لاختيار الحق ومن قال ومعناه ويختار للعباد ما هوخير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال . والخيرة : من التخير يستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم محمد خيرة الله من خلقه (ثم قال تعالى : وربك يعلم ما تكن) أى تخفى (صدورهم) أى قلوبهم من البغض والعداوة (وما يعلنون) مايظهرون من المعاصى (وحكى أن بعض الصالحين) رحمه الله (قيل له من قبل الله تعالى) بكسر القاف وفتح الباء (سل) ماشئت (تعط) مسئولك (وكان) بعض الصالحين (موفقا) للخير (فقال) بعض الصالحين (إن عالما جل وعز بجميع الوجوه يقول لجاهل) يعنى نفسه (من جميع الوجوه :

سَلْ تُعطَ ، أَيْش أَعْلَمُ مَاذَا يَصْلُحُ لِي فَأَسْأَلُهُ وَلٰكِنِ اخْتَرْ أَنْتَ لِي ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

وَالْأَصْلُ الثَّانِي مَا تَقُولُ لَوْ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لَكَ : أَنَا أَقُومُ بِجَمِيعِ أُمُورِكَ وَأُدَبِّرُ جَمِيعَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَصَالِحِكَ ، فَفَوِّضِ الْأَمْرَ كُلَّهُ إِلَيَّ وَاشْتَغِلْ أَنْتَ بِشَأْنِكَ الَّذِي يَعْنِيكَ وَهُوَ عِنْدَكَ أَعْلَمُ أَهْلِ زَمَانِكَ ، وَأَحْكَمُهُمْ وَأَقْوَاهُمْ وَأَرْحَمُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ وَأَصْدَقُهُمْ وَأَوْفَاهُمْ . أَلَسْتَ تَغْتَنِمُ ذٰلِكَ وَتَعُدُّهُ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ وَتَمْتَنُّ مِنْهُ أَكْبَرَ مِنَّةٍ وَتُقَدِّمُ لَهُ أَوْفَرَ شُكْرٍ وَأَجْمَلَ ثَنَاءٍ ، ثُمَّ إِذَا اخْتَارَ لَكَ شَيْئاً لَا تَعْرِفُ وَجْهَ الصَّلَاحِ فِيهِ فَلَا تَضْجَرْ لِذٰلِكَ ، بَلْ تَثِقُ وَتَطْمَئِنُّ إِلَى تَدْبِيرِهِ ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَخْتَارُ لَكَ إِلَّا مَا هُوَ الْخَيْرُ ، وَمَا يَنْظُرُ لَكَ إِلَّا الصَّلَاحَ كَيْفَمَا كَانَ الْأَمْرُ ، بَعْدَ مَا وَكَلْتَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ وَضَمِنَ ذٰلِكَ ، فَمَا لَكَ إِذَنْ لَا تُفَوِّضُ الْأَمْرَ إِلَى اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ ؟ فَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ كُلَّهُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ

سل تعط ، أيش) أى أىّ شىء (أعلم ماذا يصلح لى فأسأله ، ولكن اختر أنت) يارب (لى) ماشئت (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة :

﴿ والأصل الثانى ﴾ من الأصلين (ما) أى أىّ شىء (تقول لو أن رجلا قال لك أنا أقوم بجميع أمورك وأدبر) أى أقضى وأنفذ (جميع ما تحتاج إليه من مصالحك ففوض الأمر كله إلى واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك) أى ينفعك (وهو) أى القائل لك ما ذكر (عندك أعلم أهل زمانك وأحكمهم) أى أعد لهم (وأقواهم وأرحمهم) للناس (وأتقاهم) لربه (وأصدقهم) فى كلامه (وأوفاهم) لوعده (ألست تغتنم ذلك) أى القول الذى صدر منه (وتعده) أى ذلك القول (أعظم نعمة وتمتن) أى تشعر بالمن (منه) أى من القائل المذكور (أكبر منة وتقدم له) أى لهذا القائل (أوفر شكر) أى أكمله (وأجمل ثناء) أى أحسنه (ثم إذا اختار) القائل (لك شيئا لا تعرف وجه الصلاح فيه) أى فى ذلك الشىء (فلا تضجر) ولا تقلق (لذلك) أى لاختياره ذلك (بل تثق وتطمئن) بقلبك (إلى تدبيره) ونظره (وتعلم أنه) أى الرجل المذكور (لا يختار لك إلا ما هو الخير وما ينظر لك إلا الصلاح كيفما كان الأمر بعد ما وكلت) أى فوضت (الأمر) كله (إليه) أى إلى الرجل المذكور (وضمن ذلك) الأمر كله (فمالك) أى أى شىء لك (إذن) أى حين وكلت أمرك كله إلى هذا الرجل مع الثقة والاطمئنان إلى تدبيره (لا تفوض الأمر إلى الله رب العالمين سبحانه فهو) تعالى (الذى يدبر الأمر كله من السماء إلى الأرض) يعنى أنه تعالى يدبر أمر العالم العلوى والسفلى ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال لا يشغله شأن عن شأن ، وقيل : يدبر الأمر بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة ، ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة ، لأن جميع

فَهُوَ أَعْلَمُ كُلِّ عَالِمٍ، وَأَقْدَرُ كُلِّ قَادِرٍ، وَأَرْحَمُ كُلِّ رَاحِمٍ، وَأَغْنَى كُلِّ غَنِيٍّ، لِيَخْتَارَ لَكَ بِلَطِيفِ عِلْمِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ عِلْمُكَ وَلَا يُدْرِكُهُ فَهْمُكَ، وَاشْتَغِلْ أَنْتَ بِشَأْنِكَ الَّذِي يَعْنِيكَ فِي عَاقِبَتِكَ، وَإِذَا اخْتَارَ لَكَ أَمْرًا لَا تَعْلَمُ وَجْهَ سِرِّهِ رَضِيتَ بِذَلِكَ وَاطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ كَيْفَمَا كَانَ، فَهُوَ الصَّلَاحُ وَالْخَيْرُ، فَتَأَمَّلْ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

وَأَمَّا الرِّضَا بِالْقَضَاءِ، فَتَأَمَّلْ فِيهِ أَصْلَيْنِ مُقْنِعَيْنِ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِمَا.

أَحَدُهُمَا: مَا فِي الرِّضَا مِنَ الْفَائِدَةِ فِي الْحَالِ وَالْمَآلِ.

أَمَّا الْفَائِدَةُ فِي الْحَالِ فَفَرَاغُ الْقَلْبِ وَقِلَّةُ الْهَمِّ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الزُّهَّادِ رَحِمَهُ اللهُ: إِذَا كَانَ الْقَدَرُ حَقًّا فَالْهَمُّ فَضْلَةٌ، وَأَصْلُهُ الْخَبَرُ الْمَأْثُورُ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته (فهو أعلم كل عالم وأقدر كل قادر وأرحم كل راحم وأغنى كل غنى ليختار) جل وعز (لك بلطيف علمه وحسن تدبيره ما لا يبلغه علمك ولا يدركه فهمك) لقصوره (واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك فى عاقبتك وإذا اختار) الله تعالى (لك أمراً لا تعلم وجه سره) أى الأمر (رضيت بذلك) أى باختياره سبحانه وتعالى (واطمأننت إليه كيفما كان فهو) أى الأمر المختار (الصلاح والخير . فتأمل راشدا إن شاء الله وبالله التوفيق) والعصمة .

(وأما الرضا بالقضاء) أى بقضاء الله تعالى (فتأمل فيه) أى فى الرضا (أصلين مقنعين) أى كافيين (لا مزيد عليهما . أحدهما ما فى الرضا) بالقضاء (من الفائدة فى الحال والمآل . أما الفائدة فى الحال ففراغ القلب) من الشواغل (وقلة الهم) والحزن (من غير فائدة ولذلك) أى لأجل فراغ القلب وقلة الهم (قال بعض الزهاد رحمه الله : إذا كان القدر) بفتح الدال وسكونها مصدر قدرت الشىء بتخفيف الدال إذا أحطت بمقداره : أى بتقدير الله الأمور وإحاطته بها وهو عند الأشاعرة إيجاده تعالى الأشياء على مقدار مخصوص فى ذواتها وأحوالها بطبق ما سبق به العلم . وعند الماتريدية تحديده تعالى فى الأزل كل مخلوق بصفته التى يوجد عليها ، من حسن ونفع وضدها وما يحويه من زمان ومكان وما يفعله من طاعة أو عصيان وغير ذلك فهو على الأول صفة فعل وعلى الثانى صفة ذات (حقا) أى صدقا (فالهم فضلة) أى زائد باطل (وأصله) أى قول بعض الزهاد (الخبر المأثور) أى المنقول (عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود) أى عبد الله بن مسعود ، وقد رآه حزينا (رضى الله عنه) روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثاً اتفق البخارى ومسلم منها على أربعة وستين وانفرد

«لِيقِلَّ هَمُّكَ وَمَا قُدِّرَ يَكُنْ وَمَا لَمْ يُقَدَّرْ لَمْ يَأْتِكَ» هٰذَا هُوَ الْكَلَامُ الْجَامِعُ النَّبَوِيُّ الْبَالِغُ فِي قِلَّةِ لَفْظِهِ وَكَثْرَةِ فَائِدَةِ مَعْنَاهُ .

وَأَمَّا الْفَائِدَةُ فِى الْمَآلِ فَثَوَابُ اللهِ تَعَالَى وَرِضْوَانُهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) وَمَا فِي السُّخْطِ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالضَّجَرِ فِى الْحَالِ ، وَالْوِزْرِ وَالْعُقُوبَةِ فِى الْمَآلِ بِلاَ فَائِدَةٍ إِذِ الْقَضَاءُ نَافِذٌ فَلاَ يَنْصَرِفُ بِهَمِّكَ وَسُخْطِكَ كَمَا قِيلَ :

مَاقَدْ قُضِي يَانَفْسُ فَاصْطَبِرِي لَهُ ... وَلَكِ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِى لَمْ يُقْدَرِ

البخارى بأحد وعشرين ، ومسلم بخمسة وثلاثين وكان من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ومقدميهم في القرآن والفقه والفتوى وأصحاب الحلق وأصحاب الاتباع فى العلم (ليقل همك وما قدر) بالبناء للمفعول : أى قدره الله (يكن وما لم يقدر لم يأتك) ففى هذا الحديث تقرير وحض على تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى مع شهود أنه الفاعل لما يشاء وأن ما قضاه وأبرمه لا يمكن أن يتعدى حده المقدر له ، وهذا راجع لقوله تعالى « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » الآية ، فان من علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب من خير وشر ونفع وضر . وأن اجتهاد الخلق كلهم بخلاف المقدور لا يفيد شيئا ألبتة علم أن الله تعالى وحده هو الضار النافع المعطى المانع فأفرده بالطاعة وحفظ حدوده وخافه ورجاه وأحبه وقدم طاعته على طاعة خلقه كلهم وأفرده بالاستعانة به والسؤال له والتضرع إليه والرضى بقضائه فى حال الشدة والرخاء . قال العراقى : رواه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع ، وقد اختلف فى صحبته، ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المعافى مرسلا انتهى . قال الزبيدى : وقد رواه أيضا ابن ماجه فى القدر والديلمى وابن النجار من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن يونس من تاريخ من دخل مصر من الصحابة من طريق عياش بن عياش عن أبى موسى الغافقى واسمه مالك بن عبد الله « أن النبى صلى الله عليه وسلم نظر إلى ابن مسعود فقال لايكثر همك مايقدر يكون وما ترزق يأتيك » (هذا هو الكلام الجامع النبوى البالغ فى قلة لفظه وكثرة فائدة معناه . وأما الفائدة فى المآل) أى فى العاقبة (فثواب الله تعالى ورضوانه . قال الله تعالى « رضى الله عنهم) بطاعتهم له (ورضوا عنه ») بما أعطاهم من ثوابه وجزيل كرامته (وما فى السخط من الهم والحزن والضجر) أى القلق من الغم (فى الحال والوزر والعقوبة فى المآل بلا فائدة ، إذ القضاء نافذ فلا ينصرف بهمك وسخطك كما قيل) من بحر الكامل (ما قد قضى يا نفس فاصطبرى له ٭ ولك الأمان) والسلامة (من الذى لم يقدر .

وَتَحَقَّقِي أَنَّ الْمُقَدَّرَ كَائِنٌ حَتْماً عَلَيْكِ صَبَرْتِ أمْ لَمْ تَصْبِرِي

وَالْعَاقِلُ لاَ يَخْتَارُ الهَمَّ بِلاَ فَائِدَةٍ مَعَ الْوِزْرِ وَالْعُقُوبَةِ عَلَى رَاحَةِ الْقَلْبِ وَثَوَابِ الْجَنَّةِ .

وَالأَصْلُ الثَّانِي مَا فِي السُّخْطِ مِنْ عِظَمِ الخَطَرِ وَالضَّرَرِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى «فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ»

وتحقق أن المقدر كائن* حتما) أي واجباً (عليك صبرت أم لم تصبري . والعاقل لايختارالهم) والحزن (بلا فائدة) فى الحال(مع الوزر والعقوبة) فى المآل (على راحة القلب وثواب الجنة . والأصل الثانى) من الأصلين (مافى السخط من عظم الخطر والضرر والكفر والنفاق إلا أن يتداركه الله تعالى) برحمته (وتأمل قوله تعالى « فلا وربك) أى فو ربك ولا مزيدة لتأكيد القسم لا لتظاهر «لا»فى قوله (لايؤمنون) لأنها تزاد أيضا فى الإثبات كقوله « لا أقسم بهذا البلد » (حتى يحكموك فيما شجر بينهم) فيما اختلف بينهم واختلط ، ومنه الشجر لتداخل أغصانه كذا فى البيضاوي ، وذكر الخازن أن هذه الآية نزلت فى الزبير بن العوام ورجل من الأنصار ، روى الشيخان عن عروة بن الزبير عن أبيه رضى الله عنه : أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير فى شراج الحرة التى يسقون بها النخل ، فقال الأنصارى سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عندرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : « اسق يازبير ثم أرسل إلى جارك فغضب الأنصارى ، ثم قال يارسول الله أن كان ابن عمتك فتلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال للزبير اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، فقال الزبير والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » زاد البخارى فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد أشار على الزبير رأيا : أى أراد سعة له وللأنصارى فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم قال الزبير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت فى ذلك . قوله فى شراج الحرة الشراج مسايل الماء التى تكون من الجبل وتنزل إلى السهل الواحدة شرجة بسكون الراء . والحرة الأرض الحمراء المتلبسة بالحجارة السود ، وقوله فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى تغير ، وقوله فلما أحفظ : أى أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله حتى يرجع إلى الجدر وهو بفتح الجيم : يعنى أصل الجدار ، وقوله فاستوعى له : أى استوفى حقه فى صريح الحكم وهو أن من كان أرضه أقرب إلى فم الوادى فهو أولي بأول الوادى وحقه تمام السقى فرسول الله صلى الله

ثمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) فنفى الإِيمَانَ وَأَقْسَمَ عَلَى فَقْدِ الإِيمَانِ عَمَّنْ سَخِطَ وَوَجَدَ فى نَفْسِهِ حَرَجًا مِنْ قَضَاءِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَهُ تعَالَى ؟ وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ اللهَ تَعَالَي يَقُولُ « مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِى وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلاَئى وَلَمْ يَشْكُرْ عَلَى نَعْمَائِى فَلْيَتَّخِذْ إِلٰهاً سِوَائِى »

عليه وسلم أذن للزبير فى السقى على وجه المسامحة فلما أبى خصمه ذلك ولم يعترف بما أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسامحة لأجله أمر الزبير باستيفاء حقه على التمام وحمل خصمه على مر الحق فعلى هذا القول تكون الآية مستأنفة لاتعلق لها بما قبلها . قال البغوى : وروى أنهما لما خرجا مرا على المقداد ، فقال لمن كان القضاء ؟ قال الأنصارى لابن عمته ولو شدقه ففطن له يهودى كان مع المقداد ، فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فىقضاء يقضى بينهم وايم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى فدعا موسى إلي التوبة ، فقال فاقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا ، فقال ثابت بن قيس ابن شماس : أما والله إن الله ليعلم منى الصدق ولو أمرنى محمد صلي الله عليه وسلم أن أقتل نفسى لفعلت ، وقال مجاهد والشعبى نزلت هذه الآية فى بشر المنافق واليهودى اللذين اختصما إلى الطاغوت ، وعلى هذا القول تكون الآية متصلة بما قبلها . فلا وربك معناه فوربك فعلى هذا تكون لامزيدة لتأكيد معنى القسم ، وقيل إن «لا» رد لكلام سبق كأنه قال : ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك ، ثم استأنف القسم ، فقال تعالى « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » يعنى فيما اختلفوا فيه من الأمور . وأشكل عليهم حكمه ، وقيل فيما التبس عليهم ، يقال شاجره فى الأمر إذا نازعه فيه ، وأصله التداخل والاختلاط وشجر الكلام إذا دخل بعضه فى بعض واختلط (ثم لايجدوا فى أنفسهم) فى قلوبهم (حرجا مما قضيت) ضيقا مما حكمت به ، أو من حكمك، أو شكا من أجله فان الشاكى فى ضيق من أمره (ويسلموا تسليما) يعنى وينقادوا لأمرك انقيادا بظاهرهم وباطنهم ولا يعارضونك فى شئ من أمرك ، وقيل معناها يسلموا ماتنازعوا فيه لحكمك (فنفى) سبحانه وتعالى (الإيمان وأقسم) جل وعز (علي فقد الإيمان عمن سخط ووجد فى نفسه حرجا) أى ضيقا وشكا (من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف حال من سخط قضاءه تعالى وقد روينا أن الله تعالى يقول) « أنا الله الذى لاإله إلا أنا» (من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر على نعمائى فليتخذ إلها سوائى) أى غيرى . قال العراقى رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله « من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سوائى » وإسناده ضعيف . قال الزبيدى وكذلك رواه أبو نعيم في الصحابة وابن عساكر كلهم من طريق

قِيلَ كأَنَّهُ يقُولُ : هٰذَا لاَيَرْضَانِي رَبًّا حِينَ يَسْخطُ فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا آخَرَ يَرْضَاهُ ، وَهٰذَا غَايَةُ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ لِمَنْ عقَلَ ، وَلَقَدْ صَدَقَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذْ قِيلَ لَهُ : مَاالْعُبُودِيَّةُ وَمَا الرُّبُوبِيَّةُ ؟ فَقَالَ : لِلرَّبِّ أَنْ يَقْضِيَ وَلِلْعَبْدِ أَنْ يَرْضَى ، فَإِذَا قَضَى الرَّبُّ وَلَمْ يَرْضَ الْعَبْدُ فَمَا هُنَاكَ عُبُودِيَّةٌ وَلاَ رُبُوبِيَّةٌ .

سعيد بن زياد بن فائد بن زياد بن أبي هند الداري عن أبيه زياد كشداد عن أبيه فائد بالفاء عن أبيه زياد عن أبيه أبي هند قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يعني عن ربه فساقه. قال الحافظ في الإصابة فائد وولده ضعيفان ، وروى الشيرازى فى الألقاب من حديث على « قال لى جبريل قال الله عز وجل : يا محمد من آمن بى ولم يؤمن بالقدرخيره وشره فليلتمس رباغيرى» وفيه محمد بن علاثة الكرمانى ، وروى البيهقى وابن النجار من حديث أنس . قال الله عز وجل « من لم يرض بقضائى وقدرى فليلتمس ربا غيرى » ورواه الخطيب بلفظ « من لم يرض بقضاءالله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلها غير الله عز وجل » (قيل كأنه) تعالى (يقول هذا) أى المتصف بما ذكر (لا يرضانى ربا حين يسخط فليتخذ ربا آخر يرضاه ، وهذا) الحديث (غاية الوعيد والتهديد لمن عقل) وفى نسخة لمن غفل عن الله تعالى (ولقد صدق بعض السلف) رحمه الله (إذ قيل له ما العبودية وما الربوبية ؟ فقال) بعض السلف (للرب أن يقضى) ما يشاء (وللعبد أن يرضى) بقضائه (فإذا قضى الرب ولم يرض العبد فما هناك عبودية ولا ربوبية) قال القشيرى : وسئل محمد بن خفيف متى تصح العبودية ، فقال إذا طرح كله على مولاه وصبر معه على بلواه قال: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت جعفر ابن محمد بن نصير يقول سمعت ابن مسروق يقول : سمعت سهل بن عبد الله يقول : لايصح التعبد لأحد حتى لا يجزع من أربعة أشياء : من الجوع والعرى والفقر والذل ، وقيل العبودية أن تسلم إليه كلك وتحمل عليه كلك ، وقيل من علامة العبودية ترك التدبير وشهود التقدير ، وقال ذو النون المصرى : العبودية أن تكون عبده فى كل حال كما أنه ربك فى كل حال ، وقال الجريرى : عبيد النعم كثير عديدهم وعبيد المنعم عزيز وجودهم . قال سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : أنت عبد من أنت فى رقه وأسره فإن كنت فى أسر نفسك فأنت عبد نفسك وإن كنت فى أسر دنياك فأنت عبد دنياك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدنيا تعس عبد الخميصة » وقيل العبودية شهود الربوبية . قال شيخ الإسلام وهو سبب عظيم فى دوام العبودية لأن العبد إذا توالت عليه مراقبته لجلال مولاه ذل فى نفسه بالنظر لما هى عليه من جهة طبعها لا بالنظر لما خصها به ربها من كرامته . وقال النصراباذى قيمة العابد بمعبوده

فَتَأَمَّلْ هٰذَا الْأَصْلَ وَانظُرْ لِنَفْسِكَ لَعَلَّكَ تَسْلَمُ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ .

وَأَمَّا الصَّبْرُ فَإِنَّهُ دَوَاءٌ مُرٌّ وَشُرْبَةٌ كَرِيهَةٌ مُبَارَكَةٌ تَجْلِبُ كُلَّ مَنْفَعَةٍ وَتَدْفَعُ عَنْكَ كُلَّ مَضَرَّةٍ ، فَإِذَا كَانَ الدَّوَاءُ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ فَالْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ يُكْرِهُ النَّفْسَ عَلَى شُرْبِهِ وَتَجَرُّعِهِ وَيُغَصُّ

كما أن شرف العارف بمعروفه ، وقال أبو حفص : العبودية زينة العبد ، فمن تركها تعطل من الزينة ، وكان ابن عطاء يقول : العبودية فى أربع خصال : الوفاء بالعهود والحفظ للحدود والرضى بالموجود والصبر عن المفقود ، وكان عمرو بن عثمان المكى يقول : ما رأيت أحدا من المتعبدين فى كثرة من لقيت بمكة حرسها الله تعالى وغيرها ، ولا أحدا ممن قدم علينا فى المواسم أشد اجتهادا ولا أدوم على العبادة من المزنى رحمه الله تعالى ولا رأيت أحدا أشد تعظيما لأوامر الله تعالى منه ، وما رأيت أحدا أشد تضييقا على نفسه وتوسعة على الناس منه . وقال أبو على الدقاق : ليس شىء أشرف من العبودية ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، وكان أشرف أوقاته فى الدنيا « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام » وقال تعالى « فأوحى إلى عبده ما أوحى » فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به ، وفى معناه أنشدوا :

يا عمرو ثارى عند زهرائى يعرفه السامع والرائى
لا تدعنى إلا بيا عبدها فانه أشرف أسمائى

وقال بعضهم: إنما هو شيئان سكونك إلى اللذة واعتمادك على الحركة ، فإذا أسقطت عنك هذين فقد أديت العبودية حقها كما قال الواسطى : احذروا لذة العطاء فإنها غطاء لأهل الصفاء . وقال أبو على الجوزجانى : الرضى دار العبودية والصبر بابه والتفويض بيته ، فالصوت على الباب والفراغة فى الدار والراحة فى البيت . وقال أبو على الدقاق : كما أن الربوبية نعت للحق سبحانه لا يزول فالعبودية صفة للعبد لا تفارقه مادام ، وأنشد بعضهم :

فان تسألونى قلت هاأنا عبده وان سألوه قال هذاك مولايا

وكان أبو عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت النصراباذى يقول : العبادات إلى طلب الصفح والعفو عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها ، وسمعت النصراباذى أيضا يقول: العبودية إسقاط رؤية التعبد فى مشاهدة المعبود . وقال الجندى : العبودية ترك الاشتغال والاشتغال بالشغل الذى هو أصل الفراغة (فتأمل هذا الأصل وانظر لنفسك) فيما يصلحها (لعلك تسلم بعون الله وتوفيقه . وأما الصبر فإنه دواء مرّ) ضد حلو (وشربة كريهة) أى مكروهة للنفس (مباركة تجلب كل منفعة وتدفع عنك كل مضرة ،فإذا كان الدواء بهذه الصفة) المذكورة (فالإنسان العاقل يكره) بضم الياء مع كسر الراء: أى يقهر(النفس على شربه)أى الدواء (و)على (تجرعه ويغص)

عَلَى مَرَارَتِهِ وَحِدَّتِهِ وَيَقُولُ : مَرَارَةُ سَاعَةٍ رَاحَةُ سَنَةٍ .

وَأَمَّا الْمَنَافِعُ الَّتِي يَجْلِبُهَا الصَّبْرُ، فَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَصَبْرٌ عَنْ فُضُولِ الدُّنْيَا ، وَصَبْرٌ عَلَى الْمِحَنِ وَالْمَصَائِبِ ؛ فَإِذَا احْتَمَلَ مَرَارَةَ الصَّبْرِ وَصَبَرَ فِي هٰذِهِ الْمَوَاطِنِ الْأَرْبَعَةِ تَحْصُلُ لَهُ الطَّاعَاتُ وَمَنَازِلُهَا مِنَ الْاسْتِقَامَةِ

أى العاقل فى سراج السالكين : غص الرجل بالطعام والماء يغص ويغص غصصا من باب علم ونصر : اعترض فى حلقه شيء منه فمنعه التنفس ، ويقال غص بالغيظ علي التشبيه وغص الشيء يغصه غصا : قطعه (على مرارته) أى الدواء، يقال مر الشيء يمرويمر مرارة من باب نصروعلم صارمرا ضد حلا (و) على (حدته ويقول) العاقل (مرارة ساعة راحة سنة . وأما المنافع التى يجلبها الصبر ، فاعلم أن الصبر أربعة أقسام : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصبر عن فضول الدنيا ، وصبر على المحن) جمع محنة (والمصائب) جمع مصيبة (فإذا احتمل) العبد (مرارة الصبر وصبر فى هذه المواطن الأربعة) التي هى الطاعة والمعصية وفضول الدنيا والمصائب (تحصل له) أى للعبد الذى احتمل ذلك (الطاعات ومنازلها من الاستقامة) وهى كما قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن لم يكن مستقيما فى حالته ضاع سعيه وخاب جهده . قال الله تعالى « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » ومن لم يكن مستقيما فى صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره ولم يبن سلوكه على صحة، فمن شرط المستأنف الاستقامة فى أحكام البداية كما أن من حق العارف الاستقامة فى آداب النهاية ، فمن أمارات استقامة أهل البداية أن لا تشوب معاملتهم فترة ، ومن أمارات استقامة أهل الوسائط أن لا يصحب منازلهم وقفة ، ومن أمارات استقامة أهل النهاية أن لا تتداخل مواصلتهم حجبة . وقال أبو على الدقاق الاستقامة لها ثلاثة مدارج: أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة، فالتقويم من حيث تأديب النفس والإقامة من حيث تهذيب القلوب والاستقامة من حيث تقريب الأسرار . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى معنى قوله ــ ثم استقاموا ــ لم يشركوا . وقال عمر رضى الله عنه : لم يروغوا روغان الثعالب ، فقول الصديق محمول علي مراعاة الوصول فى التوحيد ، وقول عمر محمول على ترك طلب التأويل والقيام بشرط العهود . وقال ابن عطاء : استقاموا على انفراد القلب بالله تعالى . وقال أبو علي الجوزجاني : كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك عز وجل يطالبك بالاستقامة . قال القشيرى : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت أبا على الشبوى يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت له روي عنك أنك قلت : شيبتنى هود ، فما الذى شيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال لا ولكن قوله تعالى « فاستقم كما أمرت » وقيل إن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات

وَثَوَابُهَا الْجَزِيلُ فى الْعَاقِبَةِ، ثُمَّ لاَ يَقَعُ فى الْمَعَاصِى وَبَلِيَّاتِهَا فى الدُّنْيَا وَتَبِعَاتِهَا فى الآخِرَةِ، ثُمَّ لاَ يُبْتَلَى بِطَلَبِ الدُّنْيَا وَمَا لَهَا مِنَ الشُّغْلِ فى الْحَالِ وَالتَّبِعَةِ فى الْمَآلِ ، ثُمَّ لاَ يُحْبَطُ أَجْرُهُ عَلَى مَا أُبْتُلِىَ بِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ ، فَحَصَلَ إِذَنْ بِسَبَبِ الصَّبْرِ الطَّاعَةُ وَمَنَازِلُهَا الشَّرِيفَةُ وَثَوَابُهَا وَالتَّقْوَى وَالزُّهْدُ وَالْعِوَضُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَتَفْصِيلُ ذٰلِكَ أَمْرٌ لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَأَمَّا دَفْعُ الْمَضَارِّ فَيُرِيحُهُ أَوَّلاً مِنْ مُؤْنَةِ الْجَزَعِ وَمُقَاسَاتِهِ ،

ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدى الله تعالى على حقيقة الصدق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « استقيموا ولن تحصوا » أى تستطيعوا الاستقامة : أى المخالفة للمعتاد . وقال الواسطى : الخصلة التى بها كملت المحاسن وبفقدها قبحت المحاسن الاستقامة . وحكى عن الشبلى أنه قال : الاستقامة أن تشهد الوقت قيامة ، ويقال الاستقامة فى الأقوال بترك الغيبة وفي الأفعال بنفي البدعة ، وفي الأعمال بنفى الفترة ، وفى الأحوال بنفى الحجبة . وقال الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسين : السين فى الاستقامة سين الطلب : أى طلبوا من الحق أن يقيمهم على توحيدهم ثم على استدامة عهودهم وحفظ حدودهم . قال القشيرى : واعلم أن الاستقامة توجب إدامة الكرامة : قال الله تعالى « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » لم يقل سقيناهم ، بل قال أسقيناهم ، يقال أسقيته إذا جعلت له سقيا فهو يشير إلى الدوام : أى دوام الخير من المطر وما يترتب عليه : قال سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن أحمد يقول سمعت أبا العباس الفرغانى يقول : قال الجنيد لقيت شابا من المريدين فى البادية تحت شجرة من شجر أم غيلان : فقلت ما أجلسك ههنا ؟ فقال حال افتقدته فمضيت وتركته ، فلما انصرفت من الحج إذا أنا بالشاب قد انتقل إلى موضع قريب من الشجرة : فقلت ما جلوسك ههنا ؟ فقال وجدت ما كنت أطلبه فى هذا الموضع فلزمته . قال الجنيد فلا أدرى أيهما كان أشرف لزومه لافتقاد حاله أو لزومه للموضع الذى نال فيه مراده (و) يحصل له (ثوابها) أى الطاعات (الجزيل فى العاقبة ، ثم لا يقع) أى العبد (فى المعاصى وبلياتها فى الدنيا وتبعاتها فى الآخرة ، ثم لا يبتلى بطلب الدنيا ومالها) أى للدنيا (من الشغل فى الحال والتبعة فى المآل . ثم لا يحبط أجره على ما ابتلى به و) ما (ذهب عنه) أى عن العبد (فحصل إذن بسبب الصبر الطاعة ومنازلها الشريفة) من الاستقامة (و) حصل (ثوابها والتقوى والزهد والعوض والثواب الجزيل) أى العظيم (من الله سبحانه ، وتفصيل ذلك) أى ما يحصل للعبد من الأجر بسبب الصبر (أمر لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وأما دفع المضار فيريحه) أى العبد (أولا من مؤنة الجزع ومقاساته) أى الجزع

فِي الدنيا ، ثُمَّ وِزْرِهِ وَعُقُوبَتِهِ فِي الْعُقْبَى .

وَأَمَّا إِنْ هُوَ ضَعُفَ عَنِ الصَّبْرِ وَسَلَكَ طَرِيقَ الْجَزَعِ فَاتَهُ كُلُّ مَنْفَعَةٍ وَلَحِقَهُ كُلُّ مَضَرَّةٍ ، إِذْ لَا يَصْبِرُ عَلَى مَشَقَّةِ الطَّاعَةِ فَلَا يَفْعَلُ الطَّاعَةَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى حِفْظِهَا فَيُحْبِطُهَا ، أَوْ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهَا فَلَا يَصِلُ إِلَى مَنْزِلَةٍ شَرِيفَةٍ فِيهَا مِنْ دَرَجَاتِ الْاسْتِقَامَةِ ، أَوْ لَا يَصْبِرُ عَنْ مَعْصِيَةٍ فَيَقَعُ فِيهَا أَوْ عَنْ فُضُولٍ فَيَشْتَغِلُ بِهِ ، أَوْ لَا يَصْبِرُ عَلَى مُصِيبَةٍ فَيُحْرَمُ ثَوَابَ الصَّبْرِ ، وَرُبَّمَا يُكْثِرُ الْجَزَعَ حَتَّى يَفُوتَ الْعِوَضُ بِسَبَبِ ذَلِكَ فَتَكُونُ لَهُ مُصِيبَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا : فَوْتُ الشَّيْءِ ، وَالْأُخْرَى : فَوْتُ الْأَجْرِ وَالْعِوَضِ ، وَحُلُولُ الْمَكْرُوهِ ، وَحِرْمَانُ الصَّبْرِ ، وَلَقَدْ قِيلَ : حِرْمَانُ الصَّبْرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ أَشَدُّ مِنَ الْمُصِيبَةِ ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي شَيْءٍ يَذْهَبُ بِالْحَاصِلِ الْمَوْجُودِ ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الذَّاهِبَ الْمَفْقُودَ ، فَاجْتَهِدْ إِذَا فَاتَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ لَا يَفُوتَكَ الْآخَرُ .

وَمِنَ الْكَلَامِ الْجَامِعِ مَا ذُكِرَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَزَّى رَجُلًا فَقَالَ :

(في الدنيا ثم وزره) أى إثمه (وعقوبته في العقبى ، وأما إن هو) أى العبد (ضعف عن الصبر وسلك طريق الجزع فاته) أى الضعيف عما ذكر (كل منفعة) في الدنيا والآخرة (ولحقه كل مضرة إذ لا يصبر) الضعيف (على) احتمال (مشقة الطاعة فلا يفعل الطاعة ولا يصبر على حفظها) أى الطاعة (فيحبطها ، أولا يصبر على المواظبة) والملازمة (عليها فلا يصل إلى منزلة شريفة فيها) أى الطاعة (من درجات الاستقامة أولا يصبر عن معصية فيقع فيها) أى في المعصية (أو) لا يصبر (عن فضول) أى ما لا يعنيه (فيشتغل به) أى بذلك الفضول (أولا يصبر على مصيبة فيحرم) أى يمنع (ثواب الصبر : وربما يكثر الجزع حتى يفوت العوض بسبب ذلك) أى كثرة الجزع (فتكون له) أى للعبد الضعيف الذى سلك طريق الجزع (مصيبتان : إحداهما فوت الشيء و) للمصيبة (الأخرى فوت الأجر والعوض وحلول المكروه وحرمان الصبر ، ولقد قيل حرمان الصبر على المصيبة أشد من المصيبة) ولذلك قال ابن المبارك : المصيبة واحدة ، فاذا جزع صاحبها صارت اثنتين إحداهما المصيبة والثانية ذهاب أجر المصيبة وهو أعظم من المصيبة ، وروى في الخبر عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بى فانها من أعظم المصائب » (فأى فائدة في شيء يذهب بالحاصل الموجود ولا يرد عليك الذاهب المفقود فاجتهد إذا فاتك أحدهما) أى الحاصل والمفقود (أن لا يفوتك الآخر . ومن الكلام الجامع ما ذكر أن عليا رضى الله عنه) وكرم وجهه (عزى رجلا) أى سلاه وأمره بالصبر (فقال)

إِنْ صَبَرْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرِ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ .

كرم الله وجهه (إن صبرت) على مصيبتك (جرت عليك المقادير) التي قدرها الله تعالى (وأنت مأجور) بسبب صبرك أجرا مضاعفا على أجر الشكر . قال أبو طالب المكي رحمه الله : قد روينا يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ؟ فيقول نعم يارب فيقول الله كلا، أنعمت عليه فشكروابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجرعليه فيعطي أضعاف جزاء الشاكرين . وجاء فى الخبر«إن لأبواب الجنة مصراعين يأتى بها زحام إلا باب الصبر فانه مصراع واحد لايدخل منه إلا الصابرون أهل البلاء فى الدنيا واحد بعد واحد » وللصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر لايتم كل واحد منهما إلا بصاحبه فمن كان التقوى مقامه كان الصبر حاله فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كان التقوى أفضل المقامات إذ الأتقى هو الأكرم عند الله ، والأكرم عند الله هو الأفضل ، وقيل لسفيان الثورى ماأفضل الأعمال ؟ قال الصبر عند الابتلاء . وقال بعض العلماء : لايطمئن طامع فى مدح الله تعالى وحسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له ، ولا يطمعن أحد فى حقيقة الإيمان وحسن اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى ويثنى عليه ولو أظهر الله تعالى على جوارحه سائر الأعمال ، ثم لم يمدحه بوصف ولم يثن عليه بخير لم يؤمن عليه سوء الخاتمة ، وذلك أن من رحمة الله تعالى أنه إذا أحب عبدا أو رضى عمله مدحه ووضعه فمن ابتلاه بكراهة ومشقة أو هوي أو شهوة فصبر لذلك أو صبرعن ذلك فانه تعالى يمدحه ويثنى عليه بكرمه وجوده فيدخل هذا العبد فى أسماء الموصوفين ، ويصير واحدا من الممدوحين فعندها يثبت قدمه من الزلل ويختم له بما سبق له من صالح العمل ، وأفضل الصبر الصبر على الله تعالى بالمجالسة والإصغاء إليه وعكوف الهمم عليه وقوة الوجد به، وهذا لخصوص المقربين أوحياء منه أو حبا له أو تسليما له أو تسليما إليه ، وهو السكون تحت جريان الأقدار وشهودهامن الإنعام ، ومن حسن تدبير الاقتسام وشهود المشيئة له والحكمة فيها والقصد بالابتلاء بها ، وهو داخل فى قوله تعالى « ولربك فاصبر » وفى قوله تعالى « فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » وقال سهل فى تأويل قول على رضى الله عنه : إن الله يحب كل عبد نؤمة . قال هو الساكن تحت جريان الأحكام عن الكراهة والاعتراض ، وقال عمر بن عبدالعزيز أصبحت ومالى سرور إلا فى مواضع القدر ، ويقال من علامات اليقين التسليم للقضاء بحسن الصبر والرضى وهو مقام العارفين، والصبر أيضا على إظهار الكرامات وهى الإخبار بكشف القدرة والآيات داخل فى حسن الأدب من المعاملات، وهذافى معنى الحياء من الله تعالى ، وهذا طريق المحبين لله وهو حقيقة الزهد ، ومن فضائل الصبر حبس النفس عن حب الحمد والمدح والرياسة، وقد روى فى خبر مقطوع «الصبر فى ثلاث : الصبر عن تزكية النفس والصبر عن شكوى المصيبة . والصبر على الرضى بقضاء الله تعالى خيره وشره» (وإن جزعت) فيما يصيبك من المصائب (جرت عليك المقادير وأنت مأزور) أى آثم وحسبك أن الجزع يحبط الأجر

ثُمَّ أَقولُ : فَجُمْلَةُ الْأَمرِ أَنَّ قَطْعَ الْقَلْبِ عَنِ الْعَلَائِقِ الْمَأْلُوفَةِ وَمَنْعَ النَّفْسِ عَنِ الْعادَاتِ الرَّاسِخَةِ بِالتَّوَكُّلِ الْمَحْضِ عَلَى اللهِ جَلَّ اسْمُهُ ، وَتَرْكِ التَّدْبِيرِ فِى الْأُمُورِ وَتَفْوِيضِهَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِمَا هُوَ السِّرُّ فِيهَا وَكَبْحِ النَّفْسِ عَنِ السخْطِ وَالْجَزَعِ مَعَ تَسَارُعِ النَّفْسِ إِلَيْهِ وَإِكْرَاهِهَا عَلَى لِجَامِ الرِّضَا وَتَجَرُّعِ شُرْبَةِ الصَّبْرِ مَعَ نُفْرَتِهَا عَنْ ذٰلِكَ ،

قال العلامة أبو الليث السمرقندى :حدثنا الفقيه أبوجعفر حدثنا أبويعقوب إسحاق بنعبد الرحمن القارىء حدثنا إبراهيم بن إسحاق القاضى بالكوفة حدثنا محمد بن عاصم صاحب الحكايات حدثنا سليمان بن عمرو عن مجاهد بن الحسن عن عبد الرحمن بن غانم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال « مات ابن لى فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :من محمد رسول الله إلى معاذبن جبل السلام عليك فإنى أحمد الله الذى لاإله إلا هو . أما بعد فعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر ، ثم إن نفوسنا وأموالنا وأهالينا وأولادنا وأموالهم من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة تتمتع بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم ، ثم افترض الله علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى وكان ابنك هذا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة متعك الله به فى غبطة وسرور وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت فلا تجمعن عليك يامعاذ أن يحبط جزعك أجرك فتندم على مافاتك ، فلو قدمت على ثواب مصيبتك عرفت أن المصيبة قصرت عنه . واعلم أن الجزع لايرد ميتا ولا يدفع حزنا فليذهب عنك أسفك بما هو نازل بك فكأنك قد نزل بك والسلام » قال السمرقندى : معنى قوله فليذهب عنك أسفك بما هو نازل بك : يعنى تفكر فى الموت الذى هو نازل بك حتى يذهب حزنك فكأن قد ، يعنى كأنه قد جاء الموت ، لأن الرجل إذا تفكر فى موت نفسه وعلم أنه يموت عن قريب فلا يجزع له لأن الجزع لايرد ميتا ، ويبطل ثواب المصيبة لأن الذى يجزع على المصيبة إنما يشكو ربه ويرد قضاءه . قال وهب بن منبه رحمه الله : وجدت فى التوراة أربعة أسطر متواليات : أحدها من قرأ كتاب الله تعالى فظن أنه لم يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله تعالى . والثانى من شكا مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه . والثالث من حزن على مافاته فقد سخط على قضاء ربه . والرابع : من تواضع لغنى ذهب ثلثا دينه ، يعنى نقص من بقينه (ثم أقول فجملة الأمر) أى حاصله (أن قطع القلب عن العلائق المألوفة ، و) أن (منع النفس عن العادات الراسخة) أى الثابتة (بالتوكل المحض) أى الخالص (على الله جل اسمه وترك التدبير فى الأمور وتفويضها إلى الله سبحانه من غير علم بما هو السر فيها) أى الأمور (وكبح النفس) أى منعها ، فى المختار كبح الدابة : جذبها إليه باللجام لكى تقف ولا تجرى وبابه قطع (عن السخط والجزع مع تسارع النفس إليه) أى السخط (وإكراهها) أى النفس (على لجام الرضا ، و) على (تجرع شربة الصبر مع نفرتها) أى النفس (عن ذلك) أى عن

لِأَمْرٍ مُرٍّ وَعِلَاجٌ شَدِيدٌ وَحِمْلٌ ثَقِيلٌ ، وَلٰكِنَّهُ تَدْبِيرٌ سَدِيدٌ وَطَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَهُ عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةٌ وَأَحْوَالٌ سَعِيدَةٌ مَسْعُودَةٌ ، وَمَا تَقُولُ فِي الْوَالِدِ الْمُشْفِقِ الْغَنِيِّ إِذَا مَنَعَ وَلَدَهُ الْعَزِيزَ رُطَبَةً أَوْ تُفَّاحَةً يَأْكُلُهَا وَهُوَ أَرْمَدُ ، وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَلِّمِ الْغَلِيظِ السَّائِسِ وَيَحْبِسُهُ طُولَ النَّهَارِ عِنْدَهُ وَيُضْجِرُهُ وَيَحْمِلُهُ إِلَى الْحَجَّامِ لِيَحْجُمَهُ فَيُوجِعَهُ وَيُقْلِقَهُ ، أَتَرَى أَنَّهُ مَنَعَ ذٰلِكَ مِنْ بُخْلٍ فِيهِ ؟ فَكَيْفَ وَهُوَ يُعْطِي الْأَجَانِبَ وَيُوَسِّعُ عَلَيْهِمْ ؟ أَوْ هَوَانٍ لِهٰذَا الْوَلَدِ عِنْدَهُ ، كَيْفَ وَهُوَ يَكْنِزُ لَهُ جَمِيعَ مَا فِي يَدَيْهِ أَوْ قَصَدَ بِذٰلِكَ

الرضا والصبر (لأمر) أى لشىء (مر) شديد المرارة ، وهذا خبر أن من قوله أن قطع القلب كما أفاده العلامة عبد الحق بن شاه رحمه الله (وعلاج شديد، وحمل) بالكسر (ثقيل ولكنه) أى هذا الأمر المر (تدبير سديد) أى صواب (وطريق مستقيم وله) أى لهذا الأمر (عاقبة محمودة وأحوال سعيدة مسعودة وما تقول فى الوالد المشفق) على ولده (الغنى إذا منع ولده العزيز) المحبوب عنده (رطبة) أى نضيج البسر واحدة الرطب (أو) منع (تفاحة) وهى فاكهة معروفة (يأكلها وهو) أى الولد (أرمد) رمد الرجل هاجت عينه فهو أرمد وزمد (وسلمه) أى سلم الأب ولده (إلى المعلم) ليعلم ما يصلحه من أمر دينه (الغليظ السائس) أى القائم على إصلاح الحال (ويحبسه) أى يحبس الأب ولده (طول النهار عنده) أى المعلم (ويضجره) بضم الياء من أضجر : أى يوقع الأب ولده فى الضجر والقلق (و) قد (يحمله) أى الولد (إلى الحجام) فى المصباح حجمه الحاجم حجما من باب قتل : شرطه وهو حجام أيضا واسم الصناعة حجامة بالكسر ، والقارورة محجمة بكسر الأول والهاء تثبت وتحذف والمحجم مثل جعفر : موضع الحجامة (ليحجمه) أى الولد (فيوجعه) أى يوقع الحجام هذا الولد فى الوجع والألم (ويقلقه) بضم الياء : أى يوقعه فى القلق والاضطراب ، وذلك لأن نظر الوالد فى حقه أتم فيما يئول إليه من النفع ، ونظر الولد قاصر على اللذة العاجلة (أترى) أى أتظن (أنه) أى الوالد (منع) ولده العزيز (ذلك) أى الرطبة والتفاحة (من بخل) أى لأجله (فيه) أى فى الوالد المشفق (فكيف) يكون ذلك المنع من البخل (و) الحال (هو) أى الوالد (يعطى الأجانب) أى الأباعد (ويوسع) الوالد (عليهم) أى الأجانب (أو) ترى أن الوالد منع ذلك من (هوان) أى ذل (لهذا الولد عنده) أى الأب (كيف) يكون لأجل إهانة الولد (وهو) أى الأب (يكنز) من باب ضرب : أى يجمع (له) أى لولده (جميع ما فى يديه) أى الأب من الأموال (أو) ترى أن الوالد المشفق (قصد بذلك) أى

إِتْعَابَهُ وَإِيذَاءَهُ لِبُغْضٍ لَهُ ، كَيْفَ وَهُوَ قُرَّةُ عَيْنِهِ وَثَمَرَةُ فُؤَادِهِ ، وَلَوْ هَبَّتْ عَلَيْهِ رِيحٌ لَعَزَّ عَلَيْهِ ذٰلِكَ ، كَلَّا ، وَلٰكِنْ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ صَلَاحَهُ فِي ذٰلِكَ ، وَأَنَّ بِهٰذَا التَّعَبِ الْقَلِيلِ يَصِلُ إِلَى خَيْرٍ كَثِيرٍ وَنَفْعٍ عَظِيمٍ .

وَمَا تَقُولُ فِي الطَّبِيبِ الْحَاذِقِ النَّاصِحِ الْمُحِبِّ إِذَا مَنَعَ الْمَرِيضَ الدَّنِفَ شُرْبَةَ مَاءٍ وَهُوَ ظَمْآنُ يَتَقَلَّى كَبِدُهُ وَسَقَاهُ شُرْبَةَ إِهْلِيلَجٍ كَرِيهَةً تَجْزَعُ عَنْ ذٰلِكَ نَفْسُهُ وَطَبْعُهُ ، أَتُرَى أَنَّ ذٰلِكَ مِنْهُ مُعَادَاةٌ وَإِيذَاءٌ ؟ كَلَّا ، بَلْ هُوَ نُصْحٌ وَإِحْسَانٌ لِمَا عَلِمَ

منع الولد مما ذكر ، وتسليمه إلى المعلم الغليظ وحمله إلى الحجام (إتعابه وإيذاءه) أى الولد (لبغض) من الوالد (له) أى لولده (كيف) قصد الأب ذلك الإتعاب والإيذاء لولده (وهو) أى الولد (قرة عينه) أى الأب (وثمرة فؤاده) أى قلبه (ولو هبت عليه) أى على الولد (ريح لعز) أى لشق (عليه) أى على أبيه (ذلك) أى هبوب الريح (كلا) كلمة زجر وردع : أى لا تظن أن منع الأب ولده لما ذكر من البخل والهوان وقصد الإيذاء (ولكن) فعل ما ذكر (لما علم) الأب المشفق (أن صلاحه) أى ولده (فى ذلك) أى المنع وغيره (و) علم (أن) مخففة من الثقيلة : أى أنه : أى الشأن (بهذا التعب القليل يصل) الولد (إلى خير كثير ونفع عظيم ، وما تقول فى الطبيب الحاذق) أى الماهر فى صنعته (الناصح) أى الذى يريد الخير (المحب إذا منع) الطبيب (المريض الدنف) أى الشديد والثقيل فى مرضه ، فى سراج السالكين: دنف المريض يدنف دنفا: ثقل من المرض وأشرف على الموت الدنف مصدر ، والمرض اللازم والذى لازمه المرض : يقال رجل دنف وامرأة دنف ورجلان وامرأتان دنف ورجال ونساء دنف فيستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع . فإن قلت رجل دنف بكسر النون قلت امرأة دنفة ورجلان دنفان وامرأتان دنفتان ورجال أدناف ونساء دنفات (شربة ماء وهو) المريض (ظمآن) أى عطشان (يتقلى) أى يتحرق (كبده وسقاه) أى الطبيب هذا المريض (شربة إهليلج) قال العلامة عبد الحق الإهليج يقال فيه هليلج بلا همزة خلافا لقوم : ثمر ، وهو أصناف كثيرة منه الأصفر الفج ومنه الأسود الهندي وهو البالغ النضيج ومنه كابلى وهو أكبر الجميع ومنه صينى وهو دقيق خفيف معرب هليلة بالفارسية الواحدة بالهاء (كريهة تجزع) بفتح أوله من باب طرب (عن ذلك) أى شربة الإهليلج (نفسه وطبعه) أى المريض (أترى) أى أتظن (أن ذلك) أى منع شرب الماء وسقى الإهليلج (منه) أى من الطبيب الحاذق (معاداة) أى عداوة (وإيذاء) لذلك المريض (كلا) أى لا تظن ذلك (بل هو) أى منع ما يشتهيه المريض وسقى ما يكرهه (نصح وإحسان) وذلك (لما علم) أى علمه الطبيب

يَقِيناً أَنَّ فِي إِعْطَائِهِ شَهْوَتَهُ سَاعَةً هَلاَكَهُ وَعَطَبَهُ رَأْساً ، وَفِي مَنْعِ ذٰلِكَ شِفَاؤُهُ وَبَقَاؤُهُ ؛ فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِذَا حَبَسَ اللهُ عَنْكَ رَغِيفاً أَوْ دِرْهَماً فَتَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّهُ يَمْلِكُ مَا تُرِيدُ ، وَيَقْدِرُ عَلَى إِيصَالِهِ إِلَيْكَ ، وَلَهُ الْجُودُ وَالْفَضْلُ ، وَيَعْلَمُ حَالَكَ فَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَلاَ عُدْمَ وَلاَ عَجْزَ وَلاَ خَفَاءَ وَلاَ بُخْلَ ، تَعَالَى عَنْ ذٰلِكَ وَتَقَدَّسَ ، فَإِنَّهُ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ وَأَقْدَرُ الْقَادِرِينَ ، وَأَعْلَمُ الْعُلَمَاءِ وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ ؛ فَتَعْلَمُ إِذَنْ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْكَ إِلاَّ لِصَلاَحٍ وَاخْتِيَارٍ ، كَيْفَ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ : (خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) كَيْفَ وَهُوَ الَّذِي جَادَ عَلَيْكَ بِمَعْرِفَتِهِ ، وَهِيَ الَّتِي تَتَلاَشَى فِي جَنْبِهَا الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا ،

(يقينا أن فى إعطائه شهوته) أى المريض (ساعة) واحدة (هلاكه وعطبه) اسم أن مؤخرا وهما بمعنى واحد (رأسا) أى ابتداء غير مستطرد إليه من غيره (وفى منع ذلك) أى ما يشتهيه المريض من شربة ماء (شفاؤه) من مرضه (وبقاؤه ، فتأمل أيها الرجل) العاقل (إذا حبس الله عنك رغيفا أو درهما فتعلم يقينا أنه) تعالى (يملك ماتريد، ويقدر على إيصاله) أى ما تريد (إليك وله الجود والفضل ويعلم) سبحانه (حالك فلا يخفى عليه) تعالى (شىء فلا عدم ولا عجز ولا خفاء ولا بخل ، تعالى) الله (عن ذلك) المذكور من العدم والعجز والخفاء والبخل (وتقدس) أى تطهر (فإنه) عز وجل (أغنى الأغنياء وأقدر القادرين ، وأعلم العلماء وأجود الأجودين فتعلم إذن) أى إذ كان الله يملك ما تريد ويقدر على إيصاله إليك (بالحقيقة أنه) سبحانه وتعالى (لم يمنعك) عن الرغيف أو الدرهم (إلا لصلاح واختيار ، كيف وهو) جل وعز (الذى يقول) فى كتابه العزيز : هو الذى (خلق لكم مافى الأرض جميعا) يعنى من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار . والمعنى كيف تكفرون بالله ، وقد خلق لكم ما فى الأرض جميعا لتنتفعوا فى مصالح الدين والدنيا؟ أما مصالح الدين فهو الاعتبار والتفكر فى عجائب مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته وأما مصالح الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها ، كذا ذكره الخازن (كيف وهو) تعالى (الذى جاد عليك بمعرفته وهى) أى المعرفة (التي تتلاشى) أى تهلك (فى جنبها الدنيا بأسرها) أى بجميعها . قال الأستاذ أبو القاسم : المعرفة على لسان العلماء: هو العلم، فكل علم معرفة وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله تعالى عارف وكل عارف عالم ، وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته . ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله ، وصدق الله تعالى فى جميع

أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فاذا صار من الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه بريا ، ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، ودام فى السر مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه ، وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة ، وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل ، وقد تكلم المشايخ فى المعرفة فكل نطق بما وقع له ، وأشار إلى ماوجده فى وقته . قال الأستاذ سمعت أبا على الدقاق رحمه الله يقول : من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته وسمعته يقول المعرفة توجب السكينة فى القلب كما أن العلم يوجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته وكان الشبلى يقول : ليس لعارف علاقة ولا لمحب شكوى ولا لعبد دعوى ولا لخائف قرار ولا لأحد من الله عز وجل فرار ، وكان يقول أيضا وقد سئل عن المعرفة : أولها الله تعالى وآخرها مالا نهاية له فقد تكلموا فى المعرفة وأكثروا . قال أحمد بن عاصم الأنطاكى : من كان بالله أعرف كان له أخوف ، وقال بعضهم : من عرف الله تعالى تبرم بالبقاء وضاقت عليه الدنيا بسعتها فقد حكى الله تعالى عن كعب بن مالك وأصحابه لما تخلفوا عن غزوة تبوك وهجروا إلى أن نزل فيهم قرآن أنهم « ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه » وذلك لمعرفتهم بالله وعظمته وعظمة رسوله ، فكل من عرف الجليل العظيم لايحتمل قلبه الاشتغال بغيره ولا البعد عنه ، وقيل من عرف الله تعالى صفا له العيش وطابت له الحياة وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله تعالى . وقيل من عرف الله تعالى ذهبت عنه رغبة الأشياء وكان بلا فصل ولا وصل ، وقيل المعرفة توجب الحياء والتعظيم كما أن التوحيد يوجب الرضا والتسليم ، وقال رويم : المعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه ، وقال ذو النون المصرى : ركضت أرواح الأنبياء فى ميدان المعرفة فسبقت روح نبينا صلى الله عليه وسلم أرواح الأنبياء عليهم السلام إلى روضة الوصال ، وقال ذو النون المصرى أيضا : معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقا بأخلاق الله عز وجل ، وسئل بن يزدانيار متى يشهد العارف الحق سبحانه ؟ فقال إذا بدأ الشاهد وفنى الشواهد وذهب الحواس واضمحل الإخلاص ، وقال الحسين بن منصور : إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله تعالى إليه بخواطره وحرس سره أن يسنح فيه غير خاطر الحق ، وقال علامة العارف : أن يكون فارغا من الدنيا والآخرة وقال سهل بن عبدالله المعرفة غايتها شيئان الدهش والحيرة ، وقال ذو النون : أعرف الناس بالله تعالى أشدهم تحيرا فيه وقال رجل للجنيد من أهل المعرفة أقوام يقولون إن ترك الحركات من باب البر والتقوى فقال الجنيد إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فان العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإلى الله تعالى رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة ، وقيل لأبى يزيد بماذا وجدت هذه المعرفة ؟

فقال ببطن جائع وبدن عار. وقال أبو يعقوب النهرجوري : قلت لأبي يعقوب السوسي هل يتأسف العارف على شيء غير الله عز وجل ؟ فقال وهل يرى غيره فيتأسف عليه . قلت فبأى عين ينظر إلى الأشياء ؟ فقال بعين الفناء والزوال . وقال أبو يزيد : العارف طيار والزاهد سيار ، وقيل العارف تبكي عينه ويضحك قلبه . وقال الجنيد : لايكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالمطر يسقى مايحب ومالايحب . وقال يحيي بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولا يقضى وطره من شيئين بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه عز وجل . وقال أبو يزيد : إنما نالوا المعرفة بتضييع مالهم والوقوف مع ماله . وقال يوسف بن على رحمه الله : لايكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين . وقال ابن عطاء : المعرفة على ثلاثة أركان : الهيبة والحياء والأنس ، وقيل لذى النون المصرى بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى وقيل العالم يقتدى به والعارف يهتدى به . وقال الشبلى : العارف لايكون لغيره لاحظا ولا بكلام غيره لافظا ولا يرى لنفسه غير الله تعالى حافظا ، وقيل العارف أنس بذكر الله تعالى فأوحشه من خلقه ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذل لله تعالى فأعزه فى خلقه . وقال أبو الطيب السامرى : المعرفة طلوع الحق : أي ظهوره وغلبته على محل الأسرار ، وهو القلب بمواصلة الأنوار : أى بتوالى أنوار معرفته عليه حتى لاينساه فى شيء من حالاته، وقال أبو سليمان الدارانى: إن الله تعالى يفتح للعارف وهو على فراشه مالا يفتح لغيره وهو قائم يصلى . وقال الجنيد : العارف من نطق الحق عن سره وهو ساكت ، وقال ذو النون : لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله تعالى . وقال رويم : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين وقال أبو بكر الوراق : سكوت العارف أنفع وكلامه أشهى وأطيب . وقال ذو النون : الزهاد ملوك الآخرة وهم فقراء العارفين ، وسئل الجنيد عن العارف فقال : لون الماء لون إنائه : يعنى أنه بحكم وقته ، وسئل أبو يزيد عن العارف فقال : لا يرى فى نومه غير الله تعالى ولا يقظته غير الله تعالى ، ولا يوافق غير الله تعالى ولا يطالع غير الله تعالى ، وسئل بعض المشايخ بم عرفت الله تعالى ؟ فقال : بلمعة لمعت بلسان مأخوذ عن التمييز المعهود ، ولفظة جرت على لسان هالك مفقود ، يشير إلى وجد ظاهر ، ويخبر عن سر ساتر هو هو بما أظهره وغيره بما أشكله ثم أنشد :

نطقت بلا نطق هو النطق انه لك النطق لفظا أويبين عن النطق
ترأيت كى أخفى وقد كنت خافيا وألمعت لى برقا فأنطقت بالبرق

وسئل أبو تراب عن صفة العارف فقال : الذى لا يكدره شيء ويصفو به شيء . وقال أبو عثمان المغربي : العارف تضيء له أنوار العلم فيبصر به عجائب الغيب . قال القشيرى : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : العارف مستهلك فى بحار التحقيق كما قال قائلهم : المعرفة أمواج

وَفِى الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ « إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى يَقُولُ : إِنِّى لَأَذُودُ أَوْلِيَائِى عَنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كَمَا يَذُودُ الرَّاعِى الشَّفِيقُ إِبِلَهُ عَنْ مَبَارِكِ الْعُرَّةِ » .

تغط وترفع وتحط ، وسئل يحي بن معاذ عن العارف فقال : رجل كائن بائن، ومرة قال كان فبان ، وقال ذو النون : علامة العارف ثلاثة : لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم يتقضى عليه ظاهرا من الحكم ، ولا تحمله كثرة نعم الله عز وجل عليه على هتك أستار محارم الله تعالى . وقيل ليس العارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة فكيف عند أبناء الدنيا وقال أبو سعيد الخراز : المعرفة تأتى من عين الجود وبذل المجهود ، وسئل الجنيد عن قول ذى النون المصرى فى صفة العارف كان هاهنا فذهب فقال الجنيد : العارف لا تحصره حال عن حال ولا يحجبه منزل عن التنقل فى المنازل ، فهو مع أهل كل مكان بمثل الذى هو فيه يجد مثل الذى يجدون وينطق بمعالمها لينتفعوا بها ، وكان محمد بن الفضل يقول : المعرفة حياة القلب مع الله تعالى وكان الكتانى يقول : سئل أبو سعيد الخراز هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء ؟ فقال نعم إنما البكاء فى أوقات سيرهم إلى الله تعالى ؛ فإذا نزلوا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصول من بره زال عنهم ذلك (و) روى (فى الخبر المشهور) وهو عند علماء المصطلح ما رواه ثلاثة فأكثر ، وذلك لأن الحديث إن رواه واحد فقط يسمى غريبا ؛ وإن رواه اثنان سمى عزيزا ، وإن رواه ثلاثة يسمى مشهورا . قال العراقي :

بالانفراد عن إمام يجمع ‏ ‏ ‏ حديثه فان عليـه يتبع

من واحد واثنين فالعزيزفو ‏ ‏ ‏ قه فمشهور وكل قد رأوا

(إن الله تعالي يقول : إنى لأذود) أى أمنع (أوليائى عن نعيم الدنيا كما يذود الراعى الشفيق) أى المشفق (إبله عن مبارك العرة) المبرك موضع بروك الإبل ؛ وهو كمدخل من دخل ، والعرة عذرة الناس والبعر والسرجين ، كذا فى لسان العرب : أى عن الاضطجاع بمكان الوحل ، كذا فى بعض الحواشى ، وأيضا فى لسان العرب العر والعرة الجرب ؛ وأيضا فيه فى حديث علقمة « لا تقربهم فإن على أبوابهم فتنا كمبارك الإبل » وهو الموضع الذى تبرك فيه أرداؤها تعدي كما أن الإبل الصحاح إذا أنيخت فى مبارك الجربى جربت انتهي ، وهكذا فى النهاية لابن الأثير ، وهذا الخبر أورده صاحب الحلية وصاحب القوت طويلا عن وهب بن منبه قال : لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يرو عنكما لباسه الذى لبس من الدنيا فان ناصيته بيدى ليس ينطق بحرف ولا يطرف بلحظ ولا يتنفس إلا بإذنى ولا يعجبنكما ما تمتع به منها ، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما فإنما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ولكنى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن

وَإِذَا ٱبْتَلَاكَ بِشِدَّةٍ فَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ ٱمْتِحَانِكَ وَٱبْتِلَائِكَ ، عَالِمٌ بِحَالِكَ ، بَصِيرٌ بِضَعْفِكَ ، وَهُوَ بِكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلم « لَلّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا »

مراتع الهلكة ، وإني لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة ، وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم ينقصه الهوى . واعلم ياموسى أنه لم يتزين إلى العباد بزينة هي أبلغ عندى من الزهد فى الدنيا فإنها زينة الأبرار عندى إنما يتزين لى أوليائى بالذل والخشوع والخوف والنحول والسجود والتقوى تثبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التي يلبسون ودثارهم الذى يظهرون وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التي بها يفوزون ورجاؤهم الذى إياه يأملون ومجدهم الذي به يفخرون وسيماهم التى بها يعرفون أولئك هم أوليائى حقا ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك . واعلم ياموسى أنه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ثم أنا الثائر له يوم القيامة : أى الآخذ بالثأر (وإذا ابتلاك) الله (بشدة) وبلية (فاعلم يقينا أنه) سبحانه (غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بحالك بصير بضعفك وهو) جل وعز (بك رءوف رحيم) والرءوف : هو المنعم بنعم نشأت عن محبته للمنعم عليه غنيا كان أو فقيرا ، والرحيم هو المنعم بنعم من أجل احتياج المنعم عليه وفاقته ولا يكون إلا فقيرا ، فإذا أنعم المولى علي أحد من عباده بنعمة فإن كانت النعمة ناشئة عن محبة الله لذلك العبد المنعم عليه قيل للمولى رءوف ، وإن كان إنعامه عليه بتلك النعمة لفاقة ذلك العبد واحتياجه قيل له رحيم ، فعلمت من هذا أن نعم الله تارة تكون ناشئة عن محبته للمنعم عليه ، وتارة تكون ناشئة لأجل احتياج المنعم عليه ، وأن الرءوف أبلغ من الرحيم ، لأن مبدأ الرأفة شفقة المحسن ومحبته والرحمة مبدؤها فاقة المحسن إليه ، ولأجل الأبلغية المذكورة قدم المصنف رحمه الله الرءوف أفاده بعض المحققين (أما تسمع قوله صلي الله عليه وسلم : لله تعالى) بلام الابتداء (أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها) قال العراقي : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ، وفى أوله قصة المرأة من السبى «إذ وجدت صبيا فى السبي فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول صلى الله عليه وسلم : أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أرحم بعباده من هذه بولدها» هذا لفظ مسلم وقال البخاري « فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسعى إذ وجدت صبيا » الحديث انتهى . قال الزبيدى : ورواه عبد بن حميد من حديث عبد الله بن أبي أوفى بلفظ : «أترون هذه رحيمة بولدها والذى نفسى بيده الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها » وفى هذا الحديث أعظم دليل على سعة رحمة الله تعالى ولله در القائل :

فإذا علمتَ هذا علمتَ أنَّه لم ينزلْ بكَ هذا المكروه إلاَّ لصلاحٍ لكنْ جهلتهُ أنت وهوَ عليمٌ بذلكَ ، ولهذا المعنى تراهُ يُكثرُ ابتلاءَ أوليائهِ وأصفيائهِ الَّذينَ همْ أعزُّ عبادِهِ حتَّى يقولَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إذا أحبَّ اللهُ قوماً ابتلاهُمْ » ويقولُ النَّبيُّ : « إنَّ أشدَّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ ثمَّ الشُّهداءُ ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ » .

لم لا يرجى العفو من ربنا أم كيف لا نطمع فى حلمه
وفى الصحيحين أتى أنه بعبده أرأف من أمه

وفيه أيضا حصول ذلك لعامة المؤمنين كما دلت بذلك رواية عبد بن حميد أو لعامة الخلق وقد روى الطبرانى والبيهقى فى البعث من حديث حذيفة رضى الله عنه « والذى نفسى بيده ليدخلن الجنة الفاجر فى دينه الأحمق فى معيشته ، والذى نفسى بيده ليدخلن الجنة الذى قد محشته النار بذنبه والذى نفسى بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ماخطرت على قلب بشر ، والذى نفسى بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها ابليس رجاء أن تصيبه » .

(فإذا علمت هذا) أى أن الله غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بأحوالك بصير بضعفك مع الرأفة والرحمة بك (علمت أنه) تعالى (لم ينزل بك هذا المكروه) من الامتحان والابتلاء (إلا لصلاح) لك (لكن جهلته أنت) أى كون نزول المكروه لأجل الصلاح (وهو) سبحانه وتعالى (عليم بذلك) الصلاح (ولهذا المعنى) وهو كون نزول البلية والمحنة صلاحا (تراه) جل وعز (يكثر ابتلاء أوليائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده حتى) روى « أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسمى فقال صلي الله عليهوسلم «لاخير فىعبد لايذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره» . وروىأن رسول اللهصلىالله عليه وسلمقال« إنالرجللتكون له الدرجة عندالله تعالى لا يبلغها بعمل حتىيبتلى ببلاء فىجسمه فيبلغها بذلك» وحتى(يقول) رسول الله (صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم) فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع» هكذا رواه أحمد من حديث محمود بن لبيد . وروى البيهقي من حديث أبى هريرة « إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ليسمع صوته » وعند هناد « ليسمع تضرعه » . وعن الحسن مرسلا « إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم » (و) حتى (يقول النبي) صلى الله عليه وسلم (إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الشهداء ، ثم الأمثل فالأمثل) أى الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى روى أحمد والبخارى والترمذى وابن ماجه من حديث سعد « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » الحديث . وروى الطبرانى في الكبير من حديث أخت حذيفة « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل » وروى ابن ماجه وأبو يعلى والحاكم من حديث أبى سعيد « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى مايجد إلا العباءة يحويها فيلبسها ويبتلى بالقمل حتى يقتله ، ولأحدهم كان أشد فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء » .

فَإِذا رَأَيْتَ اللهَ يَحْبِسُ عَنْكَ الدُّنْيا أَوْ يُكْثِرُ عَلَيْكَ الشَّدائِدَ وَالْبَلْوَى فَاعْلَمْ أَنَّكَ عِنْدَهُ عَزِيزٌ ، وَأَنَّكَ عِنْدَهُ بِمَكانٍ عَلِيٍّ ، وَأَنَّهُ يَسْلُكُ بِكَ طَرِيقَ أَوْلِيائِهِ ، فَإِنَّهُ يَراكَ وَلا يَحْتاجُ إِلَى ذٰلِكَ . أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعالَى : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا) بَلِ اعْرِفْ مِنَّتَهُ عَلَيْكَ فِيما يَحْفَظُهُ عَلَيْكَ مِنْ صَلاحِكَ وَيُكْثِرُ مِنْ أَجْرِكَ وَثَوابِكَ وَيُنْزِلُكَ مَنازِلَ الْأَبْرارِ وَالْأَعِزَّةِ عِنْدَهُ ، فَكَمْ تَرَى مِنْ عَواقِبَ حَمِيدَةٍ وَمَواهِبَ كَرِيمَةٍ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

﴿ فصل ﴾ وَبِالْجُمْلَةِ إِذَا عَلِمْتَ يَقِيناً أَنَّ اللهَ تَعالَى هُوَ الْمَلِيءُ

قال المصنف أبو حامد الغزالى : كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ويلزمه ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحبا له لابخلا عليه ، ولهذا الحديث قال بعضهم : فعلى قدر قرب العبد من ربه يقوم به المرض والمحن (فإذا رأيت الله يحبس) أى يمنع (عنك الدنيا أو يكثر عليك الشدائد والبلوى) والبلية (فاعلم أنك عنده) تعالى (عزيز وأنك عنده بمكان) أى رتبة ومنزلة (على) أى رفيعة (وأنه) تعالى (يسلك بك طريق أوليائه فإنه) سبحانه (يراك) ، إذ هو قائم على كل نفس بما كسبت مشاهد لكل أحد من خلقه فى حركته وسكونه (ولا يحتاج) سبحانه وتعالى (إلى ذلك) أى إلى حبس الدنيا عنك أو إكثار الشدائد والبلية عليك ، بل هو غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بحالك بصير بضعفك ، وهو بك رءوف رحيم (أما تسمع قوله تعالى « واصبر لحكم ربك ») بإمهالهم وإبقائك فى عنائهم إلى أن يقع بهم العذاب الذى حكمنا عليهم به ، ويقال : ارض بقضاء ربك فما يصيبك فى طاعة الله (فانك بأعيننا) فى حفظنا بحيث نراك ونكلؤك ، وجمع العين لجمع الضمير والمبالغة بكثرة أسباب الحفظ كذا ذكره البيضاوى . قال ابن عباس : نرى مايعمل بك (بل اعرف منته) وفضله (عليك فيما يحفظه عليك من صلاحك ويكثر من أجرك وثوابك) بمعنى واحد (وينزلك منازل الأبرار والأعزة) جمع عزيز (عنده) تعالى (فكم ترى من عواقب حميدة) أى محمودة (ومواهب كريمة ، والله ولى التوفيق بمنه وفضله) .

فصل

(و) أقول قولا ملتبسا (بالجملة) أى حاصل الكلام أنك (إذا علمت يقينا أن الله تعالى هو ملىء) بالهمز أو تركه مع الإدغام : أى الغنى . ويقال رجل ملىء مهموز على فعيل غنى مقتدر ،

بِضمانِ رِزْقِكَ الَّذِى لاَبُدَّ لَكَ مِنْهُ فِى بَقَائِكَ وَقِيامِكَ بِعِبادَتِهِ ، وَأَنَّهُ الْقادِرُ عَلَى مايَشاءُ كَيْفَ شاءَ ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِحاجَتِكَ حالاً فَحالاً ساعَةً فَساعَةً أَتَّكَلْتَ عَلَى ضَمانِهِ الْحَقِّ وَوَعْدِهِ الصِّدْقِ ، وَسَكَنَ قَلْبُكَ بِذٰلِكَ وَانْصَرَفْتَ عَنْ ذِكْرِ الْعَلاَئِقِ وَالْأَسْبابِ ، وَتَعَلُّقِ قَلْبِكَ بِها ، إِذِ الْعَلاَئِقُ لاَ تُغْنِيكَ وَلاَ تَكْفِيكَ دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّهُ تَعالَى يُيَسِّرُ أَكْلَهَا وَشُرْبَهَا، ثُمَّ هُوَ الَّذِى يُمْرِئُهَا وَيُهْنِئُهَا، ثُمَّ هُوَ الَّذِى يُلْحِقُكَ قُوَّتَهَا وَنَفْعَهَا، وَيَدْفَعُ عَنْكَ ثِقْلَهَا وَضُرَّهَا ، وَهُوَ تَعالَى يُغْنِيكَ وَيَكْفِيكَ دُونَها إِذَا شاءَ ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لاَشَرِيكَ لَهُ ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ لاَ غَيْرُ ؛ وَكَذٰلِكَ تَتْرُكُ التَّدْبِيرَ فِى أُمُورِكَ إِلَى مَنْ يُدَبِّرُ السَّماءَ وَالْأَرْضَ ، وَتُرِيحُ نَفْسَكَ عَنْ شَيْءٍ لاَ يَبْلُغُهُ

ويجوز البدل والإدغام كما فى المصباح (بضمان رزقك الذى لابد لك منه) أى الرزق (فى بقائك) أى فى حياتك (وقيامك بعبادته) تعالى (و) علمت (أنه القادر على مايشاء كيف شاء وهو البصير بحاجتك حالا فحالا ساعة فساعة) وقتا فوقتا (اتكلت) جواب إذا : أى اعتمدت (على ضمانه) سبحانه (الحق) بالجر نعت للضمان (ووعده الصدق وسكن قلبك بذلك) أى لضمانه ووعده (وانصرفت عن ذكر العلائق والأسباب و) عن (تعلق قلبك بها) أى بالعلائق والأسباب (إذ العلائق لاتغنيك ولا تكفيك) مرادف لماقبله (دون الله) أى دون إعانته وإرادته (عزوجل فانه تعالى ييسر) أى يسهل (أكلها) أى المطعومات (وشربها) أى المشروبات (ثم هو) تعالى (الذى يمرئها) أى يصيرها مريا قال العلامة عبد الحق : مرأ الطعام ومرىء يمرأ ومرؤ يمرؤ مراءة صار مريا وساغ عن غير غصص ، يقال هنأنى الطعام ومرأنى للازدواج فإن أفرد قيل أمرأنى من باب أفعل ، ومنهم من يقول مرأنى وأمرأنى لغتان مرأه تمرئة قال له هنيئا مريئا وطعام مرىء هنىء : أى حميد المغبة بين المراءة وهنيئا مريئا دعاء للشارب والآكل ، وقيل الهنىء ما يلذه الإنسان ، والمرىء ما يحمد عاقبته (ويهنئها) هنأه يهنؤه ويهنئه هنأ من باب نصر وضرب أطعمه وفلانا أعطاه وهنأه الطعام وهنأ له يهنىء ويهنأ ويهنؤ هنأ وهنأ وهنؤا من باب ضرب ومنع وكرم صار هنيئا وساغ ، وتقول هنأ تنيه العافية :أى جعلته هنيئا لى (ثم هو) تعالى (الذى يلحقك) بضم الياء من ألحق (قوتها) أى العلائق (ونفعها ويدفع) جل وعز (عنك ثقلها وضرها ، وهو تعالى يغنيك ويكفيك دونها) أى دون العلائق (إذا شاء فالأمر كله) مفوض (اليه) تعالى (وحده لا شريك له، فتوكل) أى اعتمد (عليه لاغير، وكذلك) أى مثل أنك توكلت على الله (تترك التدبير فى أمورك) وفوض (إلى من يدبر السماء والأرض) تبارك وتعالى (وتريح نفسك عن) طلب (شىء لايبلغه

عِلْمُكَ وَفِكْرُكَ مِنْ أَمْرِ غَدٍ ، وَنَظَرُكَ فِى أَمْرٍ يَكُونُ غَدًا أَوْ لَا يَكُونُ ، وَأَنَّهُ كَيْفَ يَكُونُ ، وَتَكُفُّ عَنْ لَعَلَّ وَلَوْ إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا شَغْلُ الْقَلْبِ وَتَضْيِيعُ الْوَقْتِ ، وَلَعَلَّهُ تَكُونُ أُمُورٌ لَمْ تَخْطُرْ بِبَالِكَ ، فَيَكُونُ مَا سَبَقَ فِى فِكْرِكَ وَتَدْبِيرِكَ وَتَضْيِيعِكَ الْوَقْتَ الْعَزِيزَ فِيهِ لَغْوًا بِلَا فَائِدَةٍ ، بَلْ خُسْرَانًا تَنْدَمُ عَلَيْهِ وَتُغْبَنُ فِيهِ لِمَكَانِ شُغْلِ الْقَلْبِ فِيهِ ، وَتَضْيِيعِ الْعُمْرِ فِى ذٰلِكَ ؛ وَفِى هٰذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ الزُّهَّادِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

سَبَقَتْ مَقَادِيرُ الْإِلٰهِ وَحُكْمُهُ فَأَرِحْ فُؤَادَكَ مِنْ لَعَلَّ وَمِنْ لَوْ

وقَالَ آخَرُ :

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِى وَقْتِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ

علمك وفكرك من أمر غد ونظرك فى أمر يكون غدا أو لايكون وأنه) أى الأمر (كيف يكون وتكف) بفتح التاء وضم الكاف من باب قتل : أي تمنع عن الاعتراض على أحكام الله (عن) قولك (لعل) أى بالنسبة للمستقبل بأن تقول لعلى أذهب إلى السلطان فيعطينى كذا وهو للتوقع وترجى المحبوب والاشفاق عن المكروه ، نحو : لعل الحبيب قادم ، ولعل القريب حاصل ، وتختص بالممكن الذى لا وثوق بحصوله ، وما أحسن قول بعضهم :

ولترج وتوقع لعل كقولهم لعل محبوبى وصل

(ولو) بالنسبة للماضى بأن تقول لو فعلت كذا لحصل لى كذا وهو للشرطية والتمنى (إذ ليس فيه) أى فى الاعتراض بقولك لعل ولو (إلا شغل القلب وتضييع الوقت ولعله) أى الشأن (تكون) أى توجد (أمور لم تخطر) بالبناء للمفعول (ببالك) أى بقلبك (فيكون ما سبق فى فكرك وتدبيرك وتضييعك الوقت العزيز فيه) أى فيما سبق فى فكرك (لغو بلا فائدة بل) يكون (خسرانا تندم) من باب طرب وسلم (عليه) أى على ما سبق في ذلك (وتغبن) على حد ضرب (فيه) أى فيما سبق (لمكان شغل القلب فيه وتضييع العمر) النفيس (فى ذلك) أى فيما سبق وجرى فى فكرك (وفى هذا المعنى لبعض الزهاد رضى الله عنه) من بحر الكامل (سبقت مقادير الإله وحكمه) فى الأزلي (فأرح) أمر من الراحة : وهو زوال المشقة والتعب كما فى المصباح (فؤادك) أى قلبك (من لعل ومن لو . وقال آخر) من بحر الكامل أيضا (سيكون ماهو كائن فى وقته) إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر (وأخو الجهالة متعب محزون) .

فَلعَلَّ مَا تَخْشَاهُ لَيْسَ بِكَائِنٍ   وَلَعَلَّ مَا تَرْجُوهُ لَيْسَ يَكُونُ
وَتَقُولُ لِنَفْسِكَ فِى الْجُمْلَةِ يَا نفسُ : (لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا

فلعل ما تخشاه) من الأمور المضرة (ليس بكائن) أى بموجود (ولعل ما ترجوه) من الأمور النافعة (ليس يكون) أى يوجد (وتقول لنفسك فى الجملة) أى من غير تفصيل (يانفس : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أي قدره الله لنا وعلينا ، وكتبه فى اللوح المحفوظ ، لأن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا أراده لم يقدر له ، وقد روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما حديث « رفعت الأقلام وجفت الصحف » قال العلامة ابن حجر وغيره : وهى التى فيها مقادير الكائنات كاللوح المحفوظ ، ومعناه فرغ من الأمر وجفت كتابته ، لأن الصحيفة حال كتابتها لا بد أن تكون رطبة المداد أو بعضه فلم يمكن بعد ذلك أن يقع فيها تبديل أو نسخ لما كتب من ذلك واستقر لما أنها أمور ثابتة لا تبدل ولا تغير عما هى عليه ، فذلك كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد ، ولا ينافى هذا قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت » لأن المحو والإثبات مما جفت به الصحف أيضا كما فى تفسير القاضى ، لأن القضاء قسمان مبرم ومعلق ، وحكى أن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له أشكل على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى . قوله تعالى « فأصبح من النادمين » وقد صح أن الندم توبة . وقوله « كل يوم هو فى شأن » ، وقد صح أن الصحف جفت بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله « وأن ليس للانسان إلا ماسعى » فما بال الأضعاف ، فقال الحسين : يجوز أن الندم لم يكن توبة إذ ذاك وإن كان توبة لنا ، لأن الله تعالى خص هـذه الأمة بخصائص لم تشاركها فيها الأمم ، وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله . أما قوله « كل يوم هو فى شأن » فانها شئون يبديها لا شئون يبتديها ، وأما قوله « وأن ليس للانسان إلا ماسعى » فمعناه ليس له إلا ذلك عدلا وله تعالى أن يجازيه على الواحدة ألفا فضلا فقام عبد الله وقبل رأسه ووسع خراجه . وهذا الخبر المذكور من أحسن الكنايات وأبلغها ، وقد دل الكتاب والسنة على ذلك فمن علم ذلك وشهده بعين بصيرته هان عليه التوكل على خالقه والإعراض عما سواه ويشهد لذلك الرفع والجفاف ، وما رواه ابن العربى بسنده أنه صلى الله عليه وسلم قال « أول ماخلق الله تعالى القلم ثم خلق النون وهى الدواة ، وذلك قوله تعالى « ن والقلم » ثم قال له اكتب . قال وما أكتب ؟ قال ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ثم ختم العمل فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة ، ثم خلق العقل فقال الجبار : ماخلقت خلقا أعجب إلى منك وعزتى لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت ثم قال صلى الله عليه وسلم : أكمل الناس عقلا أطوعهم لله سبحانه وتعالى وأعلمهم بطاعته » وروى مسلم « إن الله سبحانه

هُوَ مَوْلاَنَا) وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ؛ إِذْ هُوَ قَدِيرٌ لاَ نِهَايَةَ لِقُدْرَتِهِ ، حَكِيمٌ لاَ نِهَايَةَ لِحِكْمَتِهِ ، رَحِيمٌ لاَ نِهَايَةَ لِرَحْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ حَقِيقٌ أَنْ يُتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيُفَوَّضَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ ، فَعَلَيْكَ بِالتَّفْوِيضِ ، وَكَذٰلِكَ تُوَطِّنُ قَلْبَكَ عَلَى أَنَّ مَا قَضَى اللهُ وَيَقْضِي لَكَ فَهُوَ الْأَوْفَقُ وَالْأَصْلَحُ ، وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ لاَ يَبْلُغُ عِلْمُنَا كَيْفِيَّتَهُ وَسِرَّهُ ، وَتَقُولُ : يَا نَفْسُ الْمَقْدُورُ

وتعالى كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماء والأرض بخمسين ألف سنة ، وفيه أيضا يارسول الله ففيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟. قال بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قال ففيم العمل ؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ». وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى « أول ماخلق الله تعالى القلم ثم قال اكتب فى تلك الساعة ماهو كائن إلى يوم القيامة ». قيل وأول من كتب العربى وغيره آدم وقيل إسمعيل هو أول من كتب العربى وقيل غيرهما ولم يصح فى ذلك شىء ، وقول الكلبى أول من وضع الخط نفر من طيء مردود لأنه لا يوثق بنقله (هو) سبحانه وتعالى (مولانا) أى ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة (وهو) تعالى (حسبنا) أى كافينا فحسب بمعنى كافى فهو بمعنى اسم الفاعل ، وقيل إن حسب اسم فعل بمعنى يكفى قال الله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » فمن اكتفى بالله كفاه وأعطاه سؤاله ومناه وكشف همه وأزال غمه ، كيف لا ومن التجأ إلى ملك من الملوك حفظه وسلك به أحسن السلوك ؟ فالأولى بذلك من يحتسب رب العالمين ويكتفى به عن الخلق أجمعين (ونعم الوكيل) أى الله فالمخصوص بالمدح محذوف ثم إن وكيل فعيل بمعنى مفعول ، وقيل إنه بمعنى فاعل ، والمعنى على الأول ونعم الموكول إليه الأمر لأن عباده وكلوا أمورهم إليه واعتمدوا فى حوائجهم عليه ، والمعنى على الثانى ونعم القائم على خلقه بما يصلحهم فوكل أمور عباده إلى نفسه وقام بها فرزقهم وقضى حوائجهم ومنحهم كل خير ودفع عنهم كل ضير . اللهم اجعلنا من المعتمدين عليك المفوضين جميع أمورنا لديك (إذ هو) سبحانه وتعالى (قدير) أى قادر على مايشاء (لانهاية لقدرته) تعالى ، والقدرة صفة وجودية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة (حكيم لانهاية لحكمه) بكسر الحاء وفتح الكاف جمع حكمة (رحيم لانهاية لرحمته ، ومن كان بهذه الصفات) من القدرة وما بعدها (حقيق) أى جدير (أن يتوكل عليه) بالبناء للمفعول (ويفوض الأمر كله إليه) أى المتصف بما ذكر من الصفات (فعليك) أى الزم (بالتفويض ، وكذلك) أى مثل لزوم التفويض (توطن) أى تقرر وتمهد (قلبك علي أن ماقضى الله ويقضى لك فهو الأوفق والأصلح وإن كان ذلك) أى ماقضاه الله ويقضيه لك (لايبلغ علمنا كيفيته وسره وتقول) لنفسك (يانفس المقدور

كَائِنٌ لاَ مَحَالَةَ ؛ فَلاَ فَائِدَةَ فِى السُّخْطِ وَالْخِيرَةُ فِيمَا يَصْنَعُ اللهُ ، فَلاَ وَجْهَ لِلسُّخْطِ ، أَلَسْتِ تَقُولِينَ : رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا ، فَكَيْفَ لاَ تَرْضَيْنَ بِقَضَائِهِ ! وَالْقَضَاءُ مِنْ شَأْنِ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِّهَا ، فَعَلَيْكَ بِالرِّضَا ؛ وَكَذٰلِكَ إِذَا أَصَابَتْكَ مُصِيبَةٌ وَحَلَّ بِكَ مَكْرُوهٌ فَتُرَاعِي نَفْسَكَ عِنْدَ ذٰلِكَ ، وَتَضْبُطُ قَلْبَكَ حَتَّى لاَ تَجْزَعَ ، وَلاَ تَظْهَرُ مِنْكَ شِكَايَةٌ وَقَلَقٌ ، لاَ سِيَّمَا عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى ، فَإِنَّ الشَّأْنَ هُنَالِكَ

كائن لامحالة فلا فائدة فى السخط والخيرة) أى التخير (فيما يصنع الله فلا وجه) أى لاسبيل (للسخط ألست تقولين رضيت بالله ربا فكيف لاترضين بقضائه) وحكمه (والقضاء من شأن الربوبية وحقها فعليك بالرضا) بذلك الذى قضاه الله تعالى وقدره (وكذلك) أى مثل لزوم الرضا (إذا أصابتك مصيبة وحل) أى وقع (بك مكروه فتراعى) أى تحفظ (نفسك عند ذلك) أى عند إصابة المصيبة وحلول المكروه ونزوله (وتضبط قلبك حتى لاتجزع ولا تظهر منك شكاية وقلق) أى اضطراب (لاسيا) كلة يستثنى بها وهى مركبة من سى وما تستعمل لترجيح مابعدها على ماقبلها فيكون مخرجا عن مساواته إلى التفضيل عليه وبهذا الاعتبار ساغ جعلها للاستثناء (عند الصدمة الأولى) أصل الصدم الضرب فى شىء صلب ثم استعمل مجازا فى كل مكروه حصل بغتة (فان الشأن) فى أفضلية الصبر (هنا لك) أى فى الصدمة الأولى لأن كل شىء يوجد صغيرا ثم يأخذ فى النماء والزيادة إلا المصيبة فانها تبدو عظيمة ثم تصغر وتأخذ فى النقصان وهذا الصبر على المصائب بالثبت عند الصدمة الأولى واجب ، فان غفل وجزع ثم رجع عن غفلته وندم واسترجع كان ندمه واسترجاعه توبة له . وقد قلنا إن التوبة تصح من كل ذنب ويدخل فى هذا النوع الصبر على اللعن ومكافأة الجانى بما هو معصية حرام ومكافأته بما هو مباح مكروه لذهاب الملائكة وعدم إجابتها عنه وإن تألم فى باطنه ولكن ترك المكافأة عليه فى الظاهر فهو أحسن حالا من الأول ، ولا يدخل فى نهى التحريم لأن الألم لم يدخل تحت اختيار العبد والرب تعالى لايكلف العباد ولا يؤاخذهم إلا بما يدخل تحت اختيارهم ، ويستحب علاج الألم وتكسبه إلى أن يستوى عند القلب وجود الأذى وعدمه كما تكتسب الطاعة والمشقة وتجتنب المعاصى . فان فرح بالجناية ودعا للجاني ، فهذه هى القربة الصديقية ولا يحصل هذا إلا لعبد فتح نور التوحيد قلبه فارتفعت على قلبه رؤية الوسائط وشاهد المتوحد بالأفعال ويعرّفه إيمانه أن سيده اختار له ذلك ليزكى قلبه وينمى له نوره ، وقد روى صالح بن محمد باسناده عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر والصبر عند الصدمة الأولى يعظم الأجر وعظم الأجر على قدر عظم المصيبة ومن استرجع بعد المصيبة جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها »

وَالنَّفْسُ مُتَسَارِعَةٌ جِدًّا إِلَى عَادَةِ الْجَزَعِ عِنْدَ ذٰلِكَ وَتَقُولُ : يَا نَفْسُ هٰذِهِ قَدْ وَقَعَتْ فَلَا حِيلَةَ لِدَفْعِهَا ، وَقَدْ دَفَعَ اللهُ تَعَالَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ، فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْبَلَاءِ فِى خَزَائِنِهِ لَكَثِيرَةٌ ، وَإِنَّ هٰذِهِ سَتَنْقَضِى فَلَا تَبْقَى ، وَأَنَّهَا سَحَابَةٌ سَتَنْقَشِعُ . فَتَجَلَّدِى يَا نَفْسُ قَلِيلاً تَجِدِى لِذٰلِكَ سُرُورًا طَوِيلاً ، وَثَوَابًا جَزِيلاً بَعْدَ أَنْ لَا دَفْعَ لِلنَّازِلِ ، وَلَا فَائِدَةَ فِى الْجَزَعِ ، وَلَا مُصِيبَةَ فِى الْحَقِيقَةِ مَعَ الْعَزَاءِ وَالصَّبْرِ ، فَتَشْغَلُ لِسَانَكَ بِالْاسْتِرْجَاعِ

(والنفس) الأمارة بالسوء (متسارعة جدا إلى عادة الجزع) والسخط (عند ذلك) أى إصابة المصيبة ونزول المكروه ووقوعه (وتقول يانفس هذه) أى المصيبة (قد وقعت فلا حيلة) أى لاتدبير قال العلامة الفيومي : والحيلة الحذق فى تدبير الأمور ، وهو تقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود (لدفعها وقد دفع الله تعالى) عنك (ما هو أكبر منها) أى المصيبة التى أصابتك لأن كل مصيبة مرض فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى ؛ فلو ضعفها الله تعالى وزادهاماذا كنت ترده وتحجزه فلتشكرى، إذ لم تكن أعظم منها ويمكن أيضا أن يكون مصيبتك فى دينك .

حكى أنه قال رجل لسهل بن عبد الله التسترى رحمه الله دخل اللص بيتى وأخذ متاعى فقال له على وجه التذكير بما فوق ذلك من البلايا اشكر الله لو دخل اللص الذي هو الشيطان قلبك فأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ قال الزبيدى عرفه سهل بذلك نعمة الله عليه فيما عرفه عنه من البلاء الذى هو أعظم من بلائه فإن بلاء الآخرة أشد من بلاء الدنيا أورده القشيرى فى الرسالة ولذلك استعاذ عيسى عليه السلام فى دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى أى لأنها أعظم من مصيبة الدنيا (فإن أنواع البلاء فى خزائنه) تعالى (لكثيرة وإن هذه) المصيبة (ستنقضى) أى سوف تزول (فلا تبقى وأنها سحابة) أى مثلها (ستنقشع) أى تنكشف (فتجلدى) أى اشتدى (يا نفس قليلا) أى زمانا قليلا (تجدى لذلك) أى التجلد والشداد (سرورا طويلا وثوابا جزيلا) أى عظيما (بعد أن) عرفت أنه (لادفع للنازل) من المصيبة ونحوها (ولا فائدة فى الجزع ولا مصيبة فى الحقيقة مع الجزاء والصبر) بمعنى واحد (فتشغل لسانك بالاسترجاع) أى بقولك « إنا لله وإنا إليه راجعون » قال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم آجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله به ذلك » رواه مسلم من حديث أم سلمة . وروى أحمد وابن ماجه من حديث الحسين بن على « ما من مسلم ولا مسلمة يصاب مصيبة فيذكرها ، وإن طال عهدها فيحدث لذلك

وَقَلْبَكَ بِذِكْرِ مَا يَحْصُلُ لَكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْأَجْرِ ، وَتَتَذَكَّرُ صَبْرَ أُولِي الْعَزْمِ عَلَى الْمَصَائِبِ الْعِظَامِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ الْأَعِزَّةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى ،

استرجاعا إلا جعله الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب » (و) تشغل (قلبك بذكر ما يحصل لك عند الله تعالى من الأجر) والثواب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يرد الله به خيرا يصب منه» أي ينل منه بالمصائب ويبتليه بها قال العراقي رواه البخاري من حديث أبي هريرة . وقال صلى الله عليه وسلم «قال الله تعالى : إذا وجهت إلى عبدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا » رواه الحكيم في النوادر والديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة ، وقال صاحب القوت في قوله تعالى « إن الإنسان لربه لكنود » قيل وهو الذي يشكو المصائب وينسى النعم ولو علم أن مع كل مصيبة عشر نعم بحذائها وزيادة قلت شكواه وبدلها شكرا ، ثم إن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام كلها نعم من الله تعالى : إما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين ، أو تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار ، أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين فتعجيل العقوبة في الدنيا رحمة ونعمة ومعرفة هذه النعم طريق للشاكرين (وتتذكر صبر أولي العزم) أي أصحاب الجد والثبات والصبر (على المصائب العظام من) الرسل (والأنبياء والأولياء الأعزة) جمع عزيز (على الله تعالى) أي عنده . اعلم أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والأذى ، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالصبر فقال « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل» ؛ وروى عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال « أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا يارسول الله ألا تدعو الله ألا تستنصر الله لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال: إن من كان قبلكم كان يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه » وروى عن حميد عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الأرض فيغمس في النار غمسة فيخرج أسود محترقا : فيقال له هل مر بك نعيم قط . إذ كنت فيها فيقول لا لم أزل في هذا البلاء منذ خلقني ، ويؤتى بأشد أهل الدنيا بلاء فيغمس في الجنة غمسة » يعني يدخل فيها ساعة « فيخرج كأنه القمر ليلة البدر ؛ فيقال له هل مر بك شدة قط فيقول لا لم أزل في هذا النعيم منذ خلقني » ، وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون لله الذين يحمدون على السراء والضراء » فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ويعلم أن ما دفع الله عنه من البلاء أكثر مما أصابه ويحمد الله تعالى على ذلك وينبغي للعبد أن يقتدي بنبيه صلى الله عليه وسلم وينظر إلى صبره على أذى المشركين . وروى عن

وَإِذَا حَبَسَ

عمرو بن ميمون عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « بينما رسول الله صلي الله عليه وسلم يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل لعنه الله أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتف محمد إذ سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبى صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا وأنا قائم أنظر قلت لو كان لى منعة لطرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والنبى صلي الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضى الله عنها وجاءت وهى جويرية فطرحته ثم أقبلت عليهم تسبهم فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته فدعا عليهم فقال اللهم عليك بقريش ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته فقال عليك بأبى جهل وعقبة وعتبة وشيبة والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : والذي بعث محمدا بالحق لقد رأيت الذين سماهم صرعي يوم بدر » كذا ذكره العلامة السمرقندى .

﴿ تنبيه ﴾ اختلفوا فى أولى العزم من الرسل من هم ؟ فقال ابن زيد : كل الرسل كانوا أولى عزم لم يبعث الله نبيا إلا كان ذا عزم وحزم ورأى وكمال وعقل ، وهذا القول هو اختيار الإمام فخر الدين الرازى ، وقال بعضهم : الأنبياء كلهم أولو العزم إلا يونس لعجلة كانت فيه ، ألا ترى أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم ولا تكن كصاحب الحوت ، وقال قوم : أولو العزم هم نجباء الرسل المذكورين فى سورة الأنعام وهم : ثمانية عشر نبيا لقوله بعد ذكرهم « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » ، وقال الكلبى : هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشرة لأعداء الله . وقيل هم ستة هم : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ، وهم المذكورون على النسق فى سورة الأعراف والشعراء ، وقال مقاتل : هم ستة نوح صبر على أذى قومه ، وإبراهيم صبر على النار ، وإسحاق صبر على الذبح فى قول ، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره ، ويوسف صبر على الجب والسجن ، وأيوب صبر على الضر . وقال ابن عباس وقتادة : هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع فهم مع محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين خمسة ، وقد ذكرهم الله علي التخصيص والتعيين فى قوله « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » وفى قوله « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا » الآية ، روى البغوي بسنده عن عائشة قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عائشة إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ولم يرض إلا أن كلفنى ما كلفهم فقال : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . وإني والله لابد لى من طاعته ؛ والله لأصبرن كما صبروا ولأجهدن ولا قوة إلا بالله » (وإذا حبس) الله تعالى

عَنْكَ ٱلدُّنْيَا فِى وَقْتٍ فَتَقُولُ : يَا نَفْسُ هُوَ أَعْلَمُ بِالْحَالِ وَأَرْحَمُ بِكِ وَأَكْرَمُ ، وَأَنَّهُ ٱلَّذِى يُطْعِمُ الْكَلْبَ فِى خِسَّتِهِ ، وَيُطْعِمُ الْكَافِرَ فِي عَدَاوَتِهِ ، وَأَنَا عَبْدُهُ الْعَارِفُ الْمُوَحِّدُ ، أَلاَ أُسَاوِى عِنْدَهُ رَغِيفاً ! هٰذَا مُحَالٌ أَيْضًا ، فَاعْلَمِي بِالْحَقِيقَةِ أَنَّهُ لَمْ يَحْبِسْ ذٰلِكَ عَنْكِ إِلاَّ لِنَفْعٍ عَظِيمٍ ، وَسَيَجْعَلُ ٱللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ، فَاصْبِرِى قَلِيلاً تَرَى الْعَجَبَ مِنْ لَطِيفِ صُنْعِهِ ، أَمَا سَمِعْتِ قَوْلَ الْقَائِلِ :

تَوَقَّعْ صُنْعَ رَبِّكَ سَوْفَ يَأْتِى ... بِمَا تَهْوَاهُ مِنْ فَرَجٍ قَرِيبِ
وَلاَ تَيْأَسْ إِذَا مَا نَابَ خَطْبٌ ... فَكَمْ فِي الْغَيْبِ مِنْ عَجَبٍ عَجِيبِ

وقوْلَ الآخرِ مثْله :

أَلاَ يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ ... الَّذِى الْهَمُّ بِهِ بَرَّحْ
إذا اُشْتَدَّتْ بِكَ الْعُسْرَى ... فَفَكِّرْ فِى أَلَمْ نَشْرَحْ
فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ ... إِذَا كَرَّرْتَهُ فَافْرَحْ

ومنع (عنك الدنيا فى وقت) من الأوقات (فتقول يا نفس هو) تعالى (أعلم) أى عالم (بالحال وأرحم بك وأكرم وأنه) سبحانه (الذى يطعم الكلب فى خسته) أى الكلب والخنزير مع سوء حالته (ويطعم) الله تعالى (الكافر فى عداوته) لربه (وأنا عبده العارف الموحد ألا أساوي عنده) تعالي (رغيفا) أى خبزا ، وجمعه أرغفة ورغف بضمتين ورغفان (هذا) أى عدم التساوى (محال أيضا) أى كما يستحيل أن لا يطعمنى الله (فاعلمى) يا نفس (بالحقيقة أنه) جل وعز (لم يحبس ذلك) أى ماذكر من الدنيا (عنك إلا لنفع عظيم وسيجعل الله بعد عسر) أى بعد ضيق وشدة (يسرا) أى غنى وسعة ؛ فالمعسر ينتظر الرزق من الله كما نص الله تعالى فى كتابه العزيز « لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا » . قال البيضاوى : أي عاجلا وآجلا (فاصبرى) يا نفس (قليلا) أى زمانا قليلا (ترى العجب من لطيف صنعه) جل وعز وبديع حكمه (أما سمعت قول القائل) من بحر الوافر (توقع) أى انتظر (صنع ربك سوف يأتى * بما تهواه) أى تحبه (من فرج) أى كشف للكرب عن المكروب (قريب . ولا تيأس) من رحمة الله (إذا ماناب) أى أصاب وما زائدة (خطب) أى أمر عظيم (فكم فى الغيب) أى ماغاب عنك وخفى (من عجب عجيب . و) أما سمعت (قول الآخر مثله) أى مثل قول القائل فى المعنى ، وهذا من بحر الوافر المعصوب الأجزاء وبعض أجزائها منقوص (ألا ياأيها المرء * الذى الهم به) أى بالمرء (برح) أى اشتد وعظم كما فى المصباح (إذا اشتدت بك العسرى . ففكر فى) سورة (ألم نشرح . فعسر بين يسرين * إذا كررته فافرح) وذلك فى قوله « فإن مع

العسر يسرا إن مع العسر يسرا » وبيانه أن المعرفة وهي العسر أعيدت معرفة فكانت عين الأولى ولم تتعدد بخلاف اليسر فانه ذكر نكرة فكان متعددا فصار المعنى إن مع العسر يسرين . قال أبومعاذ : يقال إن مع الأميرغلاما إن مع الأميرغلاما ، فالأميرواحد ومعه غلامان ، وإذا قال إن مع أمير غلاما وإن مع الأمير الغلام فالأمير واحد والغلام واحد ، وإذا قيل إن معأمير غلاما وإن مع أمير غلاما فهما أميران وغلامان كذا فى شرح التأويلات نقله النسفى . قال الحسن : لما نزلت هذه الآية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين » وقال ابن مسعود : لوكان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتي يدخل عليه ويخرجه إنه لن يغلب عسر يسرين . قال المفسرون فى معنى قوله : لن يغلب عسر يسرين إن الله تعالى كرر لفظ العسر وذكره بلفظ المعرفة وكرر اليسر بلفظ النكرة ، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسما معرفا ثم أعادته كان الثانى هو الأول ، وإذا ذكرت اسما نكرة ثم أعادته كان الثانى غير الأول كقولك كسبت درهما فأنفقت درهما فالثانى غير الأول ، وإذا قلت كسبت درهما فأنفقت الدرهم فالثانى هو الأول فالعسر فى الآية مكرر بلفظ التعريف فكان عسرا واحدا واليسر مكرر بلفظ التنكير فكانا يسرين فكأنه قال فان مع العسر يسرا إن مع ذلك العسر يسرا آخر . وزيف أبوعلى الحسن بن يحي الجرجانى هذا القول وقال قد تكلم الناس فى قوله : لن يغلب عسر يسرين فلم يحصل منه غير قولهم : إن العسر معرفة واليسر نكرة فوجب أن يكون عسر واحد ويسران ، وهذا قول مدخول فيه إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفا إن مع الفارس سيفا ، فهذا لايوجب أن يكون الفارس واحدا والسيف اثنين فمجاز قوله : لن يغلب عسر يسرين أن الله عز وجل بعث نبيه صلى الله عليه وسلم وهو مقل مخف فكانت قريش تعيره بذلك حتى قالوا إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالا حتي تكون كأيسر أهل مكة فاغتم النبى صلى الله عليه وسلم لذلك وظن أن قومه إنما كذبوه لفقره فعدد الله نعمه عليه فى هذه السورة ووعده الغني ليسليه بذلك عما خامره من الغم ، فقال تعالى « فان مع العسر يسرا » : أى لا يحزنك الذى يقولون فان مع العسر الذى فى الدنيا يسرا عاجلا ، ثم أنجز ماوعده وفتح عليه القرى القريبة ووسع ذات يده حتي كان يعطى المئين من الإبل ويهب الهبة السنية، ثم ابتدأ فضلا آخر من أمور الآخرة فقال تعالى « إن مع العسر يسرا » والدليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو وهذا وعد لجميع المؤمنين ، والمعنى إن مع العسر الذى فى الدنيا للمؤمن يسرا فى الآخرة ، وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا وهو ماذكره فى الآية الأولى ويسر الآخرة وهو ماذكره فى الآية الثانية فقوله : لن يغلب عسر يسرين : أى إن عسر الدنيا لن يغلب اليسر الذي وعده الله المؤمنين فى الدنيا واليسر الذى وعدهم فى الآخرة إنما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا ، فأما يسر الآخرة فدائم أبدا غير زائل : أى لايجتمعان فى الغلبة ، فهو كقوله صلي الله عليه وسلم « شهرا عيد لاينقصان » أى لايجتمعان فى النقص . قال القشيرى : كنت يوما فى البادية بحالة من الغم فألقى فى روعى بيت شعر فقلت :

أرى الموت لمن أصـ　　بح مغموما له أروح

فَإِذَا أَجْرَيْتَ هٰذِهِ الْأَذْكَارَ وَنَحْوَهَا ، وَوَاظَبْتَ عَلَيْهَا بِالتَّكْرِيرِ وَالتَّمْرِينِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ سَيَهُونُ عَلَيْكَ إِذَا كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ وَاجْتِهَادٌ زَمَانًا غَيْرَ طَوِيلٍ .

وَلَقَدْ دَفَعْتَ هٰذِهِ الْعَوَارِضَ الْأَرْبَعَةَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَكُفِيتَ مُؤْنَتَهَا وَصِرْتَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ الْمُفَوِّضِينَ ، الرَّاضِينَ بِقَضَائِهِ ، الصَّابِرِينَ عَلَى بَلَائِهِ ؛ وَحَصَّلْتَ لِنَفْسِكَ رَاحَةَ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِى الدُّنْيَا ، وَعَظِيمَ الثَّوَابِ وَالذُّخْرِ فِى الْعُقْبَى ،

فلما جن الليل سمعت هاتفا يهتف فى الهواء :

ألا أيها المرء الـ* ذى الهم به برح
وقد أنشد بيتا لم يزل فى فكره يسنح
إذا اشتد بك العسر ففكر فى ألم نشرح
فعسر بين يسرين إذا أبصرته فافرح

قال فحفظت الأبيات ففرج الله عنى ، وقال إسحق بن بهلول القاضى :

فلا تيأس إذا أعسرت يوما فقد أيسرت فى دهر طويل
ولا تظنن بربك ظن سوء فان الله أولى بالجميل
فإن العسر يتبعه يسار وقول الله أصدق كل قيل

وقال أحمد بن سليمان فى المعنى :

توقع لعسر دهاك سرورا تر العسر عنك بيسر تسرى
فما الله يخلف ميعاده وقد قال إن مع العسر يسرا

وقال غيره : وكل الحادثات إذا تناهت يكون وراءها فرج قريب

(فإذا أجريت) فى قلبك (هـذه الأذكار) وهى ذكر ما يحصل لك عند الله من الأجر وذكر صبر أولى العزم على المصائب العظام وغير ذلك (ونحوها) أى الأذكار (وواظبت) أى لازمت (عليها بالتكرير والتمرين) أى التعويد (فإن ذلك) أى إجراء الأذكار فى القلب ومواظبتها بالتكرار (سيهون عليك) ما أنت عليه من الشدائد (إذا كانت لك همة) عالية (واجتهاد زمانا غير طويل ولقد دفعت) أيها الرجل (هذه العوارض الأربعة) المذكورة وهى الرزق والأخطار والمصائب وأنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى بالحلو والمر (عن نفسك وكفيت مؤنتها) أى تعبها وثقلها (وصرت عند الله تعالى من المتوكلين المفوضين) إلى الله تعالى (الراضين بقضائه الصابرين على بلائه) تعالى ومصيبته (وحصلت) أيها الرجل (لنفسك راحة القلب والبدن فى الدنيا و) حصلت (عظيم الثواب والذخر) أى الذخيرة (فى العقبى) أى فى الآخرة

وَجَلِيلَ الْقَدْرِ وَالْمَحَبَّةِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيَجْتَمِعُ لَكَ خَيْرُ الدَّارَيْنِ ، وَتَسْتَقِيمُ لَكَ طَرِيقُ الْعِبَادَةِ ، إِذْ لَا عَائِقَ وَلَا شَاغِلَ ، وَكُنْتَ حِينَئِذٍ قَدْ قَطَعْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْعَسِرَةَ ، وَاللّٰهُ تَعَالَى الْمَسْئُولُ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

﴿ البابُ الخامس : فى العقبة الخامسة : وهى عقبة البواعث ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِي بِالسَّيْرِ إِذَا اسْتَقَامَ لَكَ الطَّرِيقُ ، وَسَهُلَتِ السَّبِيلُ ،

(و) حصلت (جليل القدر) أى عظيم الرتبة والمنزلة (والمحبة عندرب العالمين فيجتمع لك خير الدارين) أى الدنيا والآخرة (وتستقيم لك طريق العبادة إذ لا عائق) أى لا مانع يمنعك عن العبادة (ولا شاغل) يشغلك عنها(وكنت حينئذ) أى حين إذ اجتمع لك خير الدارين (قد قطعت) وجاوزت (هذه العقبة العسرة) بضم العين وهى عقبة العوارض الأربعة (والله تعالى المسئول أن يمدك) أى يعينك (وإيانا بحسن توفيقه فإن الأمر كله بيده) أى بقدرته (وهو أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (ولا حول) أى لا تحول عن معصية الله إلا بعصمة الله (ولا قوة) على طاعة الله (إلا بالله) أى بمعونته (العلى) أى الرفيع فوق خلقه ، وليس فوقه شىء ، فالمراد به علو قدر ومنزلة ، وقيل العلى بالملك بالسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد (العظيم) أى شأنه وقدره وقد جاء فى فضائل لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم شىء كثير ، فمنه ما رواه ابن أبى الدنيا بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قال فى كل يوم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم مائة مرة لم يصبه فقر أبدا » ومن ذلك ماروى أن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أسرابنى وشكي إليه الفاقة فقال عليه الصلاة والسلام ما أمسى عند آل محمد إلا مد فاتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ففعل فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها ، ومن ذلك ما قد ذكرنا بيانه فليراجع والله أعلم .

الباب الخامس : فى العقبة الخامسة

(وهى عقبة البواعث) على الخير والطاعة

(ثم عليك يا أخى) فى الدين (بالسير) إلى طاعة الله (إذا استقام لك الطريق وسهلت السبيل

وَارْتَفَعَتِ الْعَوَائِقُ ، وَزَالَتِ الْعَوَارِضُ ؛ وَلاَ يَحْصُلُ لَكَ السَّيْرُ الْمُسْتَقِيمُ إِلاَّ بِاسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْتِزَامِهِمَا حَقَّهُمَا عَلَى حَدِّهِمَا . أَمَّا الْخَوْفُ فَإِنَّمَا يَجِبُ الْتِزَامُهُ لِأَمْرَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : الزَّجْرُ عَنِ الْمَعَاصِى ،

وارتفعت)عنك (العوائق) والموانع (وزالت العوارض ،ولا يحصل لك السير المستقيم إلا باستشعار الخوف والرجاء والتزامهما حقهما على حدها) وسيأتى بيان ذلك (أما الخوف) وهو الخامس من مقامات اليقين ، وهو باب عظيم من أبواب الإيمان . وأحوالُ القلوب تنقسم إلى مقامات ، وأحوال وحالات متوسطة بينهما ، وهذا بالنسبة إلى الثبات وسرعة الزوال ، والحالة المتوسطة متى دامت ألحقت بالمقام ومتى زالت ألحقت بالحال فالخوف لا يتعلق إلا بمشكوك فيه أو مظنون (فإنما يجب التزامه لأمرين : أحدهما الزجر عن المعاصى) .

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار . أما الاعتبار فسبيله أن تعرف أن فضيلة الشيء بقدر غنائه فى الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة إذ هى الغاية المطلوبة ولا سعادة للعبد إلا فى لقاء مولاه والقرب منه ، فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر إعانته ، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله فى الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به فى الدنيا فيموت على ذلك ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة لأنها فرعها من لم يعرف لم يحب ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر فى مشاهدة جلاله تعالى ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر لآلاء الله تعالى ولا يتيسر الذكر والفكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب وفراغه منه ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات وكف النفس عنها ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف . فاذا عرفت منزلته من الدين فلا تتعداها فالخوف هو النار المحرقة للشهوات والمزيل لآثار آفتها فإذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة ، وبقدر ما يكف عن المعاصى ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف . نعم يستحب إكسابه وتذكاره عند وجود أسبابه مثل قراءتك « مالك يوم الدين وغير المغضوب عليهم » وعند تذكر ما أعده الله للعصاة ؛ وعند الكسوف والخسوف والصواعق والزلازل وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة ؟ والورع والتقوى والمجاهدة ، وهى الأعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب إلى الله تعالى زلفى ، وفى هذا القدر مقنع لأهل التأمل والاعتبار وعبرة لأولي الأبصار ، وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر والإحصاء وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين ما فرقه على المؤمنين من الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، وهى مجامع مقامات أهل الجنان . قال الله تعالى « هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » والرهبة من لواحق الخوف ومقام من مقاماته . وقال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فوصفهم بالعلم لخشيتهم والخشية مقام من مقات الخوف . وقال تعالى

فَإِنّ هٰذِهِ النَّفسَ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ مَيَّالَةٌ إِلى الشَّرِّ ، طَمَّاحَةٌ إِلى الْفِتْنَةِ فَلَا تَنْتَهِي عَنْ ذٰلِكَ إِلاّ بِتَخْوِيفٍ عَظِيمٍ ، وَتَهْدِيدٍ بَالِغٍ ، وَلَيْسَتْ هِيَ فى طَبْعِها حُرَّةً ،يَهُمُّهَا الْوَفاء ، وَيَمْنَعُهَا الحَيَاء عَنِ الْجَفاءِ ، إِنَّمَا هِيَ كَمَا قالَ الْقائِلُ :

الْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْمَلَامَهْ

وَالتَّدْبِيرُ فى أَمْرِهَا أَنْ تُقْرِعَهَا أَيْضاً بِسَوْطِ التَّخْوِيفِ قَوْلًا وَفِعْلاً وَفِكْراً ، نَحْوَ مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنّ نَفْسَهُ دَعَتْهُ إِلى مَعْصِيَةٍ ، فَانْطَلَقَ وَنَزَعَ ثِيَابَهُ ، وَجَعَلَ يَتَمَرَّغُ فى الرَّمْضاءِ ،

« رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » والخشية كما ذكر من مقامات الخوف ، فخص الرضوان بأهل الخشية وكل مادل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم بالله تعالى ، ولذلك جاء فى خبر موسى عليه السلام: وأما الخائفون فان لهم الرفيق الأعلي لا يشاركون فيه . فانظر كيف أفردهم من غير مشاركة بمرافقة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ، ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم علي الله تعالى كان يقول : أسألك الرفيق الأعلى فاذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد فى فضائل الورع والتقوى حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد وآله أجمعين (فإن هذه النفس الأمارة بالسوء ميالة) أى كثيرة الميل (إلى الشر طماحة) فى المختار : طمح بصره إلى الشىء : ارتفع وبابه خضع وطماحا أيضا بالكسر وكل مرتفع طامح ورجل طماح بالتشديد أى شره (إلى الفتنة فلا تنتهى) أى هذه النفس (عن ذلك) أى عن كثرة ميلها إلى الشر وشرهها إلى الفتنة (إلا بتخويف عظيم وتهديد بالغ ، وليست هي فى طبعها) أى هذه النفس (حرة يهمها) أى يقصدها (الوفاء) بالعهد (ويمنعها الحياء عن الجفاء) فى المختار : الجفاء ممدودا ضد البر (إنما هى) أى النفس (كما قال القائل) من مجزو الكامل (العبد يقرع) أى يضرب (بالعصا * والحر تكفيه الملامه . والتدبير فى أمرها) أى النفس (أن تقرعها) أى تضربها (أبدا بسوط التخويف قولا وفعلا وفكرا) وذلك (نحو ماذكر عن بعض الصالحين) رحمه الله تعالى (أن نفسه دعته) أى طلبته (إلى معصية فانطلق) أى ذهب بعض الصالحين (ونزع ثيابه وجعل يتمرغ) أى صار يتدلك ويتقلب (فى الرمضاء) أى فى التراب الحار، فى المختار: الرمض بفتحتين : شدة وقع الشمس

وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ : ذُوقِى فَنَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا مِنْ هٰذِهِ ، أَىْ جِيفَةُ بِاللَّيْلِ بَطَّالَةُ بِالنَّهَارِ ، وَالثَّانِى : لَا يَعْجَبُ بِالطَّاعَاتِ فَيَهْلِكَ ، بَلْ يَقْمَعُهَا بِالذَّمِّ وَالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْأَوْزَارِ الَّتِى فِيهَا ضُرُوبُ الْأَخْطَارِ وَنَحْوُ ذٰلِكَ، وَذٰلِكَ نَحْوُ مَا ذُكِرَ عَنِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « لَوْ أَنِّى وَعِيسَى أُوخِذْنَا بِمَا اكْتَسَبَتْ هَاتَانِ لَعُذِّبْنَا عَذَابًا لَمْ يُعَذِّبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ » . وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ مَا يَأْمَنُ أَحَدُنَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ ذَنْبًا فَطُبِّقَ بَابُ الْمَغْفِرَةِ دُونَهُ فَهُوَ يَعْمَلُ فِى غَيْرِ مَعْمَلٍ .

وَعَنِ الْمُبَارَكِ فِيمَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ : تَقُولِينَ قَوْلَ الزَّاهِدِينَ ، وَتَعْمَلِينَ عَمَلَ الْمُنَافِقِينَ وَفِى الْجَنَّةِ تَطْمَعِينَ ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! إِنَّ لِلْجَنَّةِ قَوْمًا آخَرِينَ ،

على الرمل وغيره، والأرض رمضاء بوزن حمراء ، وقد رمض يومنا : اشتد حره وبابه طرب (ويقول) مخاطبا (لنفسه ذوقى) هـذه الرمضاء (فنار جهنم أشد حرا من هـذه) الرمضاء (أى جيفة) وأى ندائيـة (بالليـل) أى بسبب النوم (بطالة) أى عطالة (بالنهار) قال العلامة عبد الحق : البطالة الكسالة المؤدية إلى إهمال المهمات والتفرغ من العمل والبطال المتفرغ والمتعطل والكسل (والثانى) من الأمرين (لا يعجب) أى العبد (بالطاعات فيهلك) مع الهالكين (بل يقمعها) أى يقهرها : أى النفس (بالذم والعيب والنقص بما فيها) أى فى النفس (من الأسواء) جمع سوء (والأوزار) جمع وزر وهو الإثم (التى فيها) أى فى الأسواء والأوزار (ضروب الأخطار) أى أنواع المخاوف (ونحو ذلك) أى ضروب الأخطار (وذلك) أى الأخطار والمخاوف (نحو ماذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو أنى وعيسى أخذنا بما اكتسبت هاتان) إشارة إلي نفسه وإلى نفس عيسى عليهما الصلاة والسلام (لعذبنا) بالبناء للمفعول : أى لعذبنا الله (عذابا لم يعذبه) أى لم يعذب بذلك العذاب (أحـد من العالمين وأشار) صلى الله عليه وسلم (بأصبعيه) إلي نفسهما عليهما الصـلاة والسلام (وعن الحسن) البصرى التابعى ، توفى سنة عشر ومائة رحمه الله (أنه كان يقول : ما يأمن أحدنا أن يكون قد أصاب ذنبا فطبق) أى غلق (باب المغفرة دونه فهو يعمل فى غير معمل) أى فى موضع غير لائق (وعن ابن المبارك) وهو من تابعى التابعين ، توفى سنة إحدى وثمانين ومائة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة رحمه الله (فيما يعاتب نفسه) يانفس (تقولين قول الزاهدين ، وتعملين عمل المنافقين وفى الجنة تطمعين ، هيهات هيهات) أى بعد بعد (إن للجنة قوما آخرين ،

وَلَهُمْ أَعْمَالٌ غَيْرُ مَا تَعْمَلِينَ ؛ فَهٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِمَّا يَلْزَمُ الْعَبْدَ تَذْكِيرُهَا لِلنَّفْسِ وَتَكْرِيرُهَا عَلَيْهَا ، لِئَلَّا تَعْجَبَ بِطَاعَةٍ ، أَوْ تَقَعَ فِى مَعْصِيَةٍ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

ولهم أعمال غير ماتعملين ، فهذه) أى أقاويل هؤلاء الأئمة (وأمثالها مما يلزم العبد تذكيرها للنفس وتكريرها عليها) أى النفس (لئلا تعجب) النفس (بطاعة أو تقع فى معصية ، وبالله التوفيق) قال أبو حامد الغزالى وغيره : اعلم أن الخوف لايتحقق إلا بانتظار مكروه فى الاستقبال وذلك المكروه لايخلو ، إما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار مثلا ؛ وإما أن يكون مكروها لالذاته بل لأنه يفضى إلى المكروه فتكون كراهته عارضة كما تكره المعاصى لالذاتها ولكن لأدائها إلى مكروه في الآخرة وهو العتاب والعذاب ، وهذا كما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره فى قلبه حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ومقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة ، فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد بالخيانة ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف وهن العزم بعد القوة ، أوخوف قلة الوفاء بترك المعاملة بالصفاء ، أوخوف زوال الرقة القلب وتبديلها بالقساوة ، أو خوف حدوث الفترة بعد الشره عن المعاملة ، أو خوف ظهور الصفة بعد استتار الشهوة والآفة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة ، أوخوف الجنايات والاكساب ، أو خوف الوعد وسوء العقاب ، أوخوف التقصير عن الأمر بتسبيب الأسباب ، أو خوف مجاوزة الحد ، أو خوف سلب المريد ، أو خوف حجاب اليقظة عن القلب بالغفلة أو خوف قطع الفتنة من العقل بالوسوسة ، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة وإضمار السوء أو خوف الوقوع فى الفتنة بتسبيب الخدعة بالمحنة « إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » ، أو خوف البلوى بعود جرى العادة ، أو خوف الرجوع عن قصد الإرادة ، أو خوف استذلال المهانة بعد الكرامة ، أو خوف الحور بعد الكور وهو الرجوع عن المحجة بعد إيقاع الحكم عليه إلى طريق الهدى ، أو خوف ما لا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا أو الإفتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التى سبقت له فى الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين وطرقات الطالبين وبعضها أعلى من بعض ، وفيها ما هو أشد من بعض ولكل واحدة خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف

وَأَمَّا الرَّجاء : فَإِنمَا يَلْزَمُكَ اسْتِشْعَارُهُ لِأَمْرَيْنِ . أَحَدُهُمَا : لِلْبَعْثِ عَلَى الطاعَاتِ ، وَذٰلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ ثَقِيلٌ ، وَالشَّيْطَانُ عَنْهُ زَاجِرٌ ، وَالْهَوَى إِلى ضِدِّهِ دَاعٍ ، وَحَالُ أَهْلِ الغَفْلَةِ مِنْ عَامَّةِ الْخَلْقِ فِى النَّفسِ مُنْطَبِعٌ مُشَاهَدٌ ، وَالثَّوَابُ الَّذِى يُطْلَبُ بِالطَّاعَاتِ عَنِ الْعَيْنِ غَائِبٌ ، وَأَمَدُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ فِيمَا يَحْسِبُهُ بَعِيدٌ ، وَ إِذَا كَانَ الْحَالُ عَلَى هٰذِهِ الْحَالَةِ ، فَلَا تَنْبَعِثُ النَّفسُ لِلْخَيْرِ ، وَلاَ تَرْغَبُ فِيهِ حَقَّهُ ، وَلاَ تَهْتَزُّ لَهُ إِلاَّ بِأَمْرٍ يُقَابِلُ كُلَّ هٰذِهِ الموَانِعَ ، وَيُسَاوِيهَا ، بَلْ يَزِيدُ عَلَيْهَا ، وَذٰلِكَ الْأَمْرُ هُوَ الرَّجَاء الْقَوِىُّ فِى رَحْمَةِ اللهِ ، وَالتَّرْغِيبُ الْبَالِغُ فِى حُسْنِ ثَوَابِهِ وَ كَرِيمِ أَجْرِهِ ؛ وَلَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : الْحُزْنُ يَمْنَعُ عَنِ الطعَامِ ، وَالْخَوْفُ يَمْنَعُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَالرَّجَاء يُقَوِّى عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَذِكْرُ الْمَوْتِ يُزَهِّدُ فِى الْفُضُولِ . وَالثَّانِى : لِيُهَوِّنَ عَلَيْكَ احْتِمَالَ الشَّدَائِدِ وَالْمَشَقَّاتِ .

وَاعْلَمْ : أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ مَا يَبْذُلُ ، وَمَنْ طَابَ لَهُ شَيْءٌ وَرَغِبَ فِيهِ حَقَّ رَغْبَتِهِ ،

فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس والخطرات وهكذا إلى بقية الأقسام (وأما الرجاء فإنما يلزمك استشعاره) أى الرجاء (لأمرين : أحدهما للبعث) والحث (على الطاعات وذلك) أى بيان أن الرجاء باعث على الطاعات (أن الخير ثقيل والشيطان عنه) أى عن الخير (زاجر) ومانع (والهوى إلى ضده) أى الخير وهو الشر (داع وحال أهل الغفلة من عامة الخلق فى النفس منطبع مشاهد والثواب الذى يطلب بالطاعات عن العين غائب) غير مرئى (وأمد الوصول) أى مدته (إليه) أى إلى ذلك الثواب (فيما يحسبه) أى يظنه (بعيد وإذا كان الحال) وهو الطاعات (على هذه الحالة) أى الثقيلة ونحوها (فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه حقه) أى الخير (ولا تهتز) أى تتحرك النفس (له) أي لفعل الخير (إلا بأمر يقابل كل هذه الموانع ويساويها بل يزيد) الأمر (عليها) أى الموانع (وذلك الأمر هو الرجاء القوى فى رحمة الله والترغيب البالغ) أى الكامل (فى حسن ثوابه) تعالى (وكريم أجره ، ولقد قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : الحزن) الشديد (يمنع عن) أكل (الطعام والخوف) الصادق (يمنع من) ارتكاب (الذنوب ، والرجاء يقوى على الطاعات ، وذكر الموت يزهد فى الفضول) أى فيما لا يعنيه (والثانى) من الأمرين إنما يلزمك استشعار الخوف (ليهون) أى يسهل (عليك احتمال الشدائد والمشقات) فى العبادات (واعلم أن من عرف ما يطلب هان) أى يسهل (عليه ما يبذل) أى يعطى (ومن طاب له شئ ورغب فيه حق رغبته)

أُحْتَمَلَ شِدَّتَهُ وَلَمْ يُبَالِ بِمَا يَلْقَى مِنْ مُؤْنَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَحَدًا حَقَّ مَحَبَّتِهِ . أَحَبَّ أَيْضاً أُحْتِمَالَ مِحْنَتِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَجِدُ بِتِلْكَ الْمِحْنَةِ ضُرُوبًا مِنَ اللَّذَّةِ ، أَلاَ تَرَى مُشْتَارَ الْعَسَلِ لاَيُبَالِي بِلَسْعِ النَّحْلِ لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ حَلاَوَةِ الْعَسَلِ ، وَالْأَجِيرُ لاَ يَعْبَأُ بِارْتِقَاءِ السُّلَّمِ الطَّوِيلِ مَعَ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ طُولَ النَّهَارِ الصَّائِفِ الْمَدِيدِ ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنْ أَخْذِ دِرْهَمَيْنِ بِالْعَشِيِّ ، وَإِنَّ الْفَلاَّحَ لاَ يَتَفَكَّرُ بِمُقَاسَاةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَمُبَاشَرَةِ الشَّقَاءِ وَالْكَدِّ طُولَ السَّنَةِ ، لِمَا يَتَذَكَّرُ مِنَ الْبَيْدَرِ أَوَانَ الْغَلَّةِ ؛ وَكَذَلِكَ يَا أَخِي الْعُبَّادَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْاجْتِهَادِ إِذَا ذَكَرُوا الْجَنَّةَ فِي طِيبِ مَقِيلِهَا ، وَأَنْوَاعِ نَعِيمِهَا مِنْ حُورِهَا ، وَقُصُورِهَا ، وَطَعَامِهَا ، وَشَرَابِهَا ، وَحُلِيِّهَا ، وَحُلَلِهَا ،

أي الشيء (احتمل شدته ولم يبال بما يلقى من مؤنته) وثقله (ومن أحب أحدا حق محبته أحب أيضا) أي كمحبته لذلك الأحد (احتمال محنته حتى إنه) أي المحب (ليجد بتلك المحنة ضروبا) أي أنواعا (من اللذة، ألا ترى مشتار العسل) أي الذي يجتني ويستخرج عسل النحل من محله، في القاموس شار العسل شورا وشيارا وشيارة ومشارا ومشارة: استخرجه من الوقبة كأشاره واشتاره واستشاره ، وفي المختار وشار النحل اجتناها وبابه قال: واشتارها أيضا ،وأشارها لغة فيه نقلها أبو عمرو وأنكرها الأصمعي (لايبالي بلسع) أي بلدغ (النحل) وذلك (لما يتذكر) أي المشتار (من حلاوة العسل و) ألا ترى (الأجير لا يعبأ) أي لا يبالي (بارتقاء السلم الطويل) والسلم بضم السين وفتح اللام مع تشديدها بوزن سكر وهي المرقاة ،وقد تذكر والجمع سلاليم وسلالم كما في القاموس(مع الحمل) بالكسر (الثقيل طول النهار الصائف) أي الحار يقال يوم صائف : أي حار وصيف صائف تأكيد كليل لائل (المديد) أي الطويل (لما يتذكر) أي الأجير (من أخذ درهمين) ونحوهما للأجرة (بالعشي) في المختار : العشي من صلاة المغرب إلى العتمة(و) ألا ترى أيضا (أن الفلاح) أي الحارث (لايتفكر بمقاساة الحر والبرد ومباشرة الشقاء) بالفتح أي الشدة (والكد) أي الشدة في العمل (طول السنة لما يتذكر) أي الفلاح (من البيدر) أي الموضع الذي يداس فيه الطعام(أوان الغلة) أي زمانها والغلة فائدة أرض (وكذلك) أي مثل من ذكر من المشتار ومن بعده (يا أخي العباد) بضم العين(الذين هم أهل الاجتهاد إذا ذكروا) أي العباد (الجنة في طيب مقيلها) أي مكانها يؤوى إليه للاسترواح بالأزواج والتمتع بهن (وأنواع نعيمها) أي الجنة (من حورها وقصورها) ومنازلها (وطعامها وشرابها وحليها) والحلي مايزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة والجمع حلي ، وقد تكسر الحاء لمناسبة اللام المكسورة لمناسبة الياء مثل عصي ، وقرئ في سورة الأعراف «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا » بالضم والكسر (وحللها) أي الجنة، الحلل جمع حلة ، في المختار: الحلة

وَسَائِرِ مَا أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْلِهَا ، هَانَ عَلَيْهِمْ مَا احْتَمَلُوهُ مِنْ تَعَبٍ فِي عِبَادَةٍ ، أَوْ مَا فَاتَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ لَذَّةٍ وَنِعْمَةٍ ، أَوْ نَالَهُمْ مِنْ ضَرَرٍ وَذِلَّةٍ أَوْ نِقْمَةٍ أَوْ مَشَقَّةٍ لِأَجْلِهَا .

وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّ أَصْحَابَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كَلَّمُوهُ فِيمَا كَانُوا يَرَوْنَ مِنْ خَوْفِهِ وَاجْتِهَادِهِ وَرَثَاثَةِ حَالِهِ ، فَقَالُوا : يَا أُسْتَاذُ : لَوْ نَقَصْتَ مِنْ هَذَا الْجُهْدِ نِلْتَ مُرَادَكَ أَيْضًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى . فَقَالَ سُفْيَانُ : كَيْفَ لَا أَجْتَهِدُ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَكُونُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ نُورٌ تُضِيءُ لَهُ الْجِنَانُ الثَّمَانِيَةُ ،

إزار ورداء ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين (وسائر ما أعده الله تعالى لأهلها هان) جواب إذا : أى سهل (عليهم) أى العباد (ما احتملوه من تعب فى عبادة أو مافاتهم فى الدنيا من لذة ونعمة أو) ما (نالهم) فى الدنيا (من ضرر وذلة أو نقمة) اسم من الانتقام وهى المكافأة بالعقوبة والجمع نقم ونقمات (أو مشقة لأجلها) أى الجنة (ولقد حكى أن أصحاب سفيان) بن سعيد وهو من تابعى التابعين : ولد سنة سبع وتسعين ، وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة (الثورى) بفتح الثاء المثلثة وبعدها واو ساكنة وراء نسبة إلى ثور بن عبد مناة (رحمه الله تعالى كلموه فيما كانوا يرون من خوفه) أى الثورى (واجتهاده) فى العبادة (ورثاثة حاله) الرثاثة البذاذة وخلوقة الثياب وسوء الحال (فقالوا) أى أصحابه (يا أستاذ) أى يا معلم : قال العلامة عبد الحق : الأستاذ المعلم والمقرئ والمدبر والعالم وأستاذ الصناعة رئيسها فارسى معرب ، والجمع اساتيذ وأساتذة وأستاذون (لو نقصت من هذا الجهد) أى المشقة (نلت مرادك أيضا إن شاء الله تعالى فقال سفيان كيف لا أجتهد ، وقد بلغنى أن أهل الجنة يكونون فى منازلهم فيتجلى) أى يظهر (لهم نور تضيء له) أى لأجل النور (الجنان الثمانية) .

قال العلامة الزبيدى : اعلم أن للجنة أسماء عديدة باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار ذواتها فهى مترادفة من هذا الوجه مختلفة باعتبار صفاتها ، فاسم الجنة هو الاسم العام المتناول لتلك الذوات وما اشتملت عليه من النعيم والسرور وقرة العين ، وهذه اللفظة مشتقة من الجن وهو الستر ، ومنه سمي البستان جنة لأنه يستر داخله بالأشجار . والجنان كثيرة جدا كما جاء في الخبر « أنه صلى الله عليه وسلم قال لأم حارثة لما قتل ابنها حارثة في بدر : يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى » وقال تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فذكرهما ثم قال « ومن دونهما جنتان » وفى حديث أبى موسى عند الشيخين « جنتان من ذهب وجنتان من فضة » فهن أربع كما دلت عليه رواية الطبرانى « الجنان أربع » . قال القرطبي : هى سبع وعدها وأعلاهن جنة عدن وهي منازل المرسلين والشهداء والصديقين . وقد ورد في الخبر أنه تعالي غرسها بيده وهي قصبة

فيظنُّونَ أنّ ذلكَ نورٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فيَخِرُّونَ سَاجِدِينَ ، فيُنَادَوْنَ : أنِ ارْفَعُوا رُءوسَكُمْ ، لَيْسَ الّذِى تَظنُّونَ ، إنَّمَا هُوَ نُورُ جَارِيَةٍ تَبَسَّمَتْ فى وَجْهِ زَوْجِهَا ، ثمَّ أنْشأَ يَقُولُ :

مَا ضَرَّ مَنْ كانَتِ الفِرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ ... مَاذَا تَحَمَّلَ مِنْ بُؤْسٍ وَإقْتَارِ

تَرَاهُ يَمْشِى كَئِيباً خَائفاً وَجِلاً ... إلى المَسَاجِدِ يَمْشِى بَيْنَ أطْمَارِ

يَا نَفْسُ مَالَكِ مِنْ صَبْرٍ عَلَى لَهَبٍ ... قَدْ حَانَ أنْ تُقْبِلِى مِنْ بَعْدِ إدْبَارِ

قُلْتُ أنَا : فإذَا كَانَ مَدَارُ أمْرِ العُبُودِيَّةِ عَلَى الأمْرَيْنِ : القِيَامِ بِالطَّاعَةِ ، وَالانْتِهَاءِ عَنِ المَعْصِيَةِ ، وَذَلِكَ لاَ يَتِمُّ مَعَ هَذِهِ النَّفْسِ

الجنة ، وفيها الكثيب الذى تقع فيه الرؤية وعليها تدور ثمانية أسوار بين كل سورين جنة فالتى تلى جنة عدن من الجنان جنة الفردوس وأصلها البستان وهى أوسط الجنان الذى دون جنة عدن وأفضلها ثم جنة الخلد ثم جنة النعيم ثم جنة المأوى ثم دار السلام ، ثم دار المقامة ، ومنهم من قسم الجنان بالنسبة إلى الداخلين فيها ثلاثة: جنة اختصاص إلهى وهى التى تدخلها الأطفال وأهل الفترة . الثانية جنة ميراث ينالها كل من دخل الجنة من المؤمنين ، وهي الأماكن التى كانت معينة لأهل النار لو دخلوها . الثالثة جنة الأعمال وهى التى تنزل الناس فيها بأعمالهم فمن كان أفضل من غيره فى وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر ، وسواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن غير أن فضله فى هذا المقام بهذه الحالة فما من عمل من الأعمال إلا وله جنة ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضى أحوالهم (فيظنون) أى أهل الجنة (أن ذلك) أى النور (نور من قبل الرب) أى من جهته (سبحانه فيخرون ساجدين فينادون : أن ارفعوا رءوسكم ليس الذى تظنون إنما هو) أى النور (نور جارية تبسمت فى وجه زوجها ثم أنشأ) الثورى (يقول) من بحر البسيط (ما ضر من كانت الفردوس مسكنه * ماذا تحمل من بؤس) أي شدة (وإقتار) أى ضيق فى النفقة (تراه يمشى كئيبا) أى حزينا (خائفا وجلا) بمعنى واحد (إلى المساجد يمشى بين أطمار) جمع طمر بمعنى الثوب الخلق أو الكساء البالي من غير الصوف (يانفس مالك من صبر على لهب) أى اشتعال النار ، فى القاموس : اللهب اشتعال النار اذا خلص من الدخان أو لهيبها لسانها (قد حان) أى قرب الوقت (أن تقبلى) من الإقبال (من بعد إدبار) بكسر الهمزة (قلت أنا فإذا كان مدار أمر العبودية على الأمرين) الأول (القيام بالطاعة . و) الثانى (الانتهاء) والامتناع (عن المعصية وذلك) أى القيام والانتهاء (لا يتم مع هذه النفس) الأمارة بالسوء إلا بترغيب وترهيب وترجية وتخويف

الامَّارَةِ بِالسُّوءِ ، إلاَّ بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ وَتَرْجِيَةٍ وَتَخْوِيفٍ ، فَإِنَّ الدَّابَّةَ الحَرُونَ تَحْتَاجُ إِلى قَائِدٍ يَقُودُهَا ، وَإِلى سَائِقٍ يَسُوقُهَا ، وَإِذَا وَقَعَتْ فِى مَهْوَاةٍ فَرُبَّمَا تُضْرَبُ بِالسَّوْطِ مِنْ جَانِبٍ ، وَيُلَوَّحُ لَهَا الشَّعِيرُ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ حَتَّى تَنْهَضَ وَتَتَخَلَّصَ مِمَّا وَقَعَتْ فِيهِ ، وَإِنَّ الصَّبِيَّ الْعَرِمَ لاَ يَمُرُّ إِلى الْكُتَّابِ إِلاَّ بِتَرْجِيَةٍ مِنَ الْوَالِدَيْنِ ، وَتَخْوِيفٍ مِنَ الْمُعَلِّمِ ؛ فَكَذَٰلِكَ هٰذِهِ النَّفْسُ دَابَّةٌ حَرُونٌ وَقَعَتْ فِى مَهْوَاةِ الدُّنْيَا ، فَالْخَوْفُ سَوْطُهَا وَسَائِقُهَا ، وَالرَّجَاءُ شَعِيرُهَا وَقَائِدُهَا ، وَإِنَّهَا الصَّبِيُّ الْعَرِمُ يُحْمَلُ إِلى كُتَّابِ الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى ، فَذِكْرُ النَّارِ وَالْعِقَابِ تَخْوِيفُهُ ، وَذِكْرُ الْجَنَّةِ وَثَوَابِهَا تَرْجِيَتُهُ وَتَرْغِيبُهُ ، فَكَذَٰلِكَ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الطَّالِبَ لِلْعِبَادَةِ وَالرِّيَاضَةِ ، أَنْ يُشْعِرَ النَّفْسَ بِالْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا : الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ ، وَإِلاَّ فَلاَ تُسَاعِدُ النَّفْسُ الْجَمُوحُ عَلَى ذٰلِكَ ، وَبِهٰذَا الْمَعْنَى وَرَدَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ بِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ : الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ، وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّهْدِيدُ ، وَبَالَغَ فِى كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، فَذَكَرَ ،

فإن الدابة الحرون) أى التى لا تنقاد (تحتاج إلى قائد يقودها و) تحتاج (إلى سائق يسوقها وإذا وقعت) أى هـذه الدابة (فى مهواة) أى مهلكة (فربما تضرب بالسوط من جانب) واحـد (ويلوح) بالبناء للمفعول : أى يظهر (لها) أى للدابة (الشعير من جانب آخر حتى تنهض) أى تقوم (وتتخلص مما وقعت فيه وإن الصبى العرم) أى سيىء الخلق أو الجاهل (لا يمر إلى الكتاب) أى موضع التعليم (إلا بترجية من الوالدين وتخويف من المعلم فكذلك) أى مثل ماذكر من الدابة الحرون والصبى العرم (هذه النفس دابة حرون وقعت فى مهواة الدنيا فالخوف سوطها وسائقها) أى النفس (والرجاء شعيرها وقائدها وأنها) أى النفس (الصبى العرم يحمل إلى كتاب العبادة والتقوى فذكر النار والعقاب تخويفه) أى الصبى العرم (وذكر الجنة وثوابها ترجيته وترغيبه فكذلك) أى مثل الصبى العرم فى التخويف والترغيب (يلزم العبد الطالب للعبادة والرياضة أن يشعر) أى يعلم (النفس بالأمرين الذين هما الخوف والرجاء وإلا) أى وإن لم يشعر النفس بهذين الأمرين (فلا تساعد النفس الجموح على ذلك) أى العبادة (وبهذا المعنى) وهو وجوب إشعار النفس وإعلامها بالأمرين المذكورين (ورد الذكر) أى القرآن (الحكيم بمجموع الأمرين : الوعد) لمن أطاع الله تعالى بالثواب (والوعيد) لمن عصاه بالعقاب (والترغيب والتهديد وبالغ) أى الذكر الحكيم (فى كل واحد منهما) أى من الأمرين (فذكر) الذكر

مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ مَالاَ صَبْرَ عَنْهُ ، وَذَكَرَ مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ مَا لاَ صَبْرَ عَلَيْهِ : فَعَلَيْكَ إِذًا بِالْتِزَامِ هٰذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ ، يَحْصُلْ لَكَ مُرَادُكَ مِنَ الْعِبَادَةِ ، وَيَسْهُلُ عَلَيْكَ احْتِمَالُ الْمَشَقَّةِ ، وَاللّٰهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا حَقِيقَةُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ وَحُكْمُهُمَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللّٰهُ تَعَالَى يَرْجِعَانِ إِلَى قَبِيلِ الْخَوَاطِرِ ، وَإِنَّمَا الْمَقْدُورُ لِلْعَبْدِ مُقَدِّمَاتُهُمَا ، قَالُوا : فَالْخَوْفُ رَعْدَةٌ تَحْدُثُ فِي الْقَلْبِ عَنْ ظَنِّ مَكْرُوهٍ يَنَالُهُ ، وَالْخَشْيَةُ نَحْوُهُ ، لٰكِنِ الْخَشْيَةُ تَقْتَضِي ضَرْبًا مِنَ الِاسْتِعْظَامِ وَالْمَهَابَةِ ؛ وَضِدُّ الْخَوْفِ ، الْجَرَاءَةُ ، وَلٰكِنْ قَدْ يُقَابَلُ بِالْأَمْنِ ، يُقَالُ : خَائِفٌ ، وَآمِنٌ ، وَخَوْفٌ ، وَأَمْنٌ ، لِأَنَّ الْآمِنَ الَّذِي يَجْتَرِئُ عَلَى اللّٰهِ سُبْحَانَهُ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْجَرَاءَةَ تُضَادُّهُ ،

الحكيم (من الثواب الكريم ما لا صبر عنه وذكر من العقاب الأليم) أى المؤلم (مالا صبر عليه فعليك إذن) أى إذ ورد الذكر الحكيم بمجموع الأمرين (بالتزام هذين المعنيين) وهما الخوف والرجاء (يحصل لك مرادك من العبادة ويسهل عليك احتمال المشقة) فى العبادة (والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته . فان قلت فما حقيقة الرجاء والخوف و) ما (حكمهما فاعلم) هداك الله (أن الخوف والرجاء عند علمائنا) معاشر الصوفية (رحمهم الله تعالى يرجعان إلى قبيل الخواطر) أى أنواعها (وإنما المقدور للعبد مقدماتهما) أى الخوف والرجاء (قالوا) أى علماؤنا (فالخوف رعدة) بفتح الراء : أى اضطراب (تحدث فى القلب عن ظن مكروه يناله والخشية نحوه) أى الخوف (لكن الخشية تقتضى) أى تطلب (ضربا) أى نوعا (من الاستعظام والمهابة) أى الخوف من الله تعالى (وضد الخوف الجراءة) أى الشجاعة فى محيط المحيط : جرؤ الرجل يجرؤ جرأة وجرة بحذف الهمزة وجرأة وجرائية وجراية ، وهو نادر لإبدال الهمزة ياء بعد الفتح: شجع (ولكن قد يقابل) الخوف (بالأمن ، يقال) هو (خائف وآمن وخوف وأمن لأن الآمن الذى يجترئ على الله سبحانه ، والحقيقة أن الجرأة تضاده) أى الخوف . قال القشيرى فى الرسالة : الخوف معنى متعلقه فى المستقبل لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب ولا يكون هذا إلا لشىء يحصل فى المستقبل . فأما ما يكون فى الحال موجوداً فالخوف لا يتعلق به والخوف من الله تعالى هو أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ، وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه فقال تعالى « وخافون إن كنتم مؤمنين » ، وقال تعالى « وإياى فارهبون » ومدح المؤمنين بالخوف فقال تعالى « يخافون ربهم من فوقهم » قال القشيرى رحمه الله : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الخوف على مراتب الخوف والخشية والهيبة . فالخوف من شرط

الإيمان وقضيته . قال الله تعالى « وخافون إن كنتم مؤمنين » والخشية من شرط العلم . قال الله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » والهيبة من شرط المعرفة . قال الله تعالى « ويحذركم الله نفسه » . قال شيخ الإسلام : لما كان العارفون مشغولين بربهم عمن سواه حذرهم من نفسه ولم يذكر شيئا من عذابه وبما قاله علم أن الخوف يطلق على الثلاثة ، وأن الخوف الثانى أخص من الأول ، ونظيره: الهبة تنقسم إلى هبة وهدية وصدقة كما هو مقرر فى محله ، وهذا لا ينافى قول بعضهم الخشية حال من مقام الخوف ، والخوف اسم جامع لحقيقة التقوى ، والتقوى معنى جامع للعبادة ، وفسر بعضهم الخشية بأنها خوف مقترن بتعظيم . وبذلك فسرت قراءة « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع اسم الله ونصب العلماء : أى إنما يعظم الله من عباده العلماء .
قال رحمه الله : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت محمد بن علي الحبرى يقول سمعت محفوظاً يقول : سمعت أبا حفص يقول : الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين رهبة وخشية فصاحب الرهبة يلتجىء إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجىء إلى الرب . قال رحمه الله ورهب وهرب تصح أن يقال هما واحد مثل جذب وجبذ فاذا هرب انجذب فى مقتضى هواه كالرهبان الذين اتبعوا أهواءهم فإذا كبحهم لجام العلم وقاموا بحق الشرع فهو الخشية . قال سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت عبد الله بن محمد الرازى يقول سمعت أبا عثمان يقول سمعت أبا حفص يقول : الخوف سراج القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر . سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول: الخوف أن لاتعلل نفسك بعسى وسوف . سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت أباالقاسم الدمشقي يقول سمعت أبا عمرو الدمشقي يقول : الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان ، وقال ابن الجلاء : الخائف من تأمنه المخوفات ، وقيل: ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه ، وقيل للفضيل مالنا لا نرى خائفا؟ فقال لو كنتم خائفين لرأيتم الخائفين، إن الخائف لا يراه إلا الخائفون وإن الثكلى هى التى تحب أن ترى الثكلى ، وقال يحي بن معاذ : مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة . وقال شاه الكرمانى : علامة الخوف الحزن الدائم . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف من شىء هرب منه ومن خاف من الله عز وجل هرب إليه ، وسئل ذو النون المصرى رحمه الله تعالى متى يتيسر على العبد سبيل الخوف ؟ فقال إذا أنزل نفسه منزلة السقيم يحتمى من كل شىء مخافة طول السقام ، وقال معاذ بن جبل : إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه ، وقال بشر الحافى: الخوف ملك لايسكن إلا فى قلب متق . وقال أبو عثمان الحيرى: عيب الخائف فى خوفه السكون إلى خوفه لأنه أمر خفى . وقال الواسطى : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد ، وهذا اللفظ فيه إشكال ، ومعناه أن الخائف متطلع لوقت ثان وأبناء الوقت لا تطلع لهم فى المستقبل وحسنات الأبرار سيآت المقربين . سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت محمد بن على النهاودى يقول سمعت إبراهيم بن فاتك يقول سمعت النورى يقول : الخائف يهرب من ربه إلى ربه . وقال بعضهم :

علامة الخوف التحير على باب الغيب . سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول سمعت على بن إبراهيم العكبرى يقول سمعت الجنيد يقول وسئل عن الخوف فقال : توقع العقوبة مع مجارى الأنفاس . سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت الحسين بن أحمد الصفار يقول سمعت محمد بن المسيب يقول سمعت هاشم بن خالد يقول سمعت أبا سليمان الداراني يقول : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب وسمعته يقول سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن يقول سمعت أبا عثمان يقول : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرا وباطنا . وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فاذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق . وقال حاتم الأصم : لكل شيء زينة وزينة العبادة الخوف وعلامة الخوف قصر الأمل . وقال رجل لبشر الحافى أراك تخاف الموت ؟ فقال القدوم على الله شديد . سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول . دخلت على الإمام أبى بكر بن فورك عائدا فلما رآنى دمعت عيناه ، فقلت له إن شاء الله تعالى يعافيك ويشفيك ، فقال لن ترانى أخاف من الموت إنما أخاف مما وراء الموت . قال القشيرى . أخبرنا على بن أحمد الأهوازى . قال أخبرنا أحمد بن عبيد . قال حدثنا محمد بن عثمان قال حدثنا القاسم بن محمد قال حدثنا يحى بن يمان عن مالك ابن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن موهب عن عائشة رضى الله عنها قالت « قلت يا رسول الله الذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ؟ قال لا ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لايقبل منه » . وقال ابن المبارك الذى يهيج الخوف حتى يسكن فى القلب دوام المراقبة فى السر والعلانية ، إذ الحامل على دوامها إنما هو قوة الخوف من لحوق الضرر فبتوالى الخوف على القلب تحصل المراقبة . وعلامة سكون الخوف فى القلب تواليه فيه حتى يصير كأنه ساكن فان الأعراض لا بقاء لها كما قرره شيخ الإسلام. وكان إبراهيم بن شيبان يقول : إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه . وطرد رغبة الدنيا عنه . وقيل الخوف قوة العلم بمجارى الأحكام ، وقيل الخوف حركة القلب من جلال الرب وعظمته فمتى اشتعر القلب نظر الرب إليه فى حالته التى هو فيها وإن كانت أفضل عباداته اضطرب قلبه واقشعر جلده كما قال تعالى « إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » . وقال أبو سليمان الدارانى : ينبغى للقلب أن لايكون الغالب عليه إلا الخوف فانه إذا غلب الرجاء على القلب فسد القلب ، ثم قال يا أحمد بالخوف ارتفعوا فان ضيعوه نزلوا ، وقال الواسطى : الخوف والرجاء زمامان على النفوس لئلا تخرج إلى رعوناتها . وقال الواسطى : إذا ظهر الحق على السرائر لايبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف قال الأستاذ أبو القاسم وهذا فيه إشكال ومعناه إذا اصطلمت شواهد الحق الأسرار ملكتها فلا يبقى فيها مساغ بذكر حدثان والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية . وقال الحسين بن منصور : من خاف من شيء سوى الله عز وجل أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء وسلط عليه المخافة وحجبه بسبعين حجابا أيسرها الشك وإن مما أوجب شدة خوفهم فكرهم فى العواقب وخشية تغير أحوالهم قال الله تعالى « وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » وقال الله تعالى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم

وَمُقَدِّمَاتُ الْخَوْفِ أَرْبَعٌ ، الْأُولَى: ذِكْرُ الذُّنُوبِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي سَبَقَتْ ، وَكَثْرَةُ الْخُصُومِ الَّذِينَ مَضَوْا إِلَى الظَّالِمِ ، وَأَنْتَ مُرْتَهِنٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الْخَلَاصُ بَعْدُ . وَالثَّانِيَةُ : ذِكْرُ شِدَّةِ عُقُوبَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، الَّتِي لَا طَاقَةَ لَكَ بِهَا . وَالثَّالِثَةُ : ذِكْرُ ضَعْفِ نَفْسِكَ عَنِ احْتِمَالِ الْعُقُوبَةِ . وَالرَّابِعَةُ : ذِكْرُ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْكَ مَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ .

يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فكم من مغبوط فى أحواله انعكست عليه الحال ومنى بمقارفة قبيح الأفعال فبدل بالأنس وحشة وبالحضور رغيبة. وقيل لما ظهر على إبليس ماظهر طفق جبريل ومكائيل عليهما السلام يبكيان زمانا طويلا فأوحى الله تعالى إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا يا رب لا نأمن مكرك فقال الله تعالى «هكذا كونا لا تأمنا مكرى» . وقال حاتم الأصم: لاتغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة فلقى آدم عليه السلام فيها مالقى ، ولا تغتر بكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تعبده لقى مالقى ، ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعم بن باعوراء كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقى ، ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر قدرا من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه .

وسئل الشبلى لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ فقال لأنها عزلت عن مكان التمام فاصفرت لخوف المقام وكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه لأنه يخاف المقام ، فاذا طلعت الشمس طلعت مضيئة كذلك المؤمن إذا بعث من قبره خرج ووجهه مشرق . ويحكي عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال : سألت ربى عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلى فقلت يا رب أعطنى على قدر ماأطيق فسكن ذلك عنى ، ثم قال المصنف رحمه الله (ومقدمات الخوف أربع : الأولى ذكر الذنوب الكثيرة التى سبقت) منك (و) ذكر (كثرة الخصوم الذين مضوا إلى الظالم وأنت مرتهن) بعملك (لم يتبين لك الخلاص بعد) أى إلى الآن (والثانية ذكر شدة عقوبة الله سبحانه) فى الآخرة (التى لاطاقة) أى لاقوة (لك بها) أى بالعقوبة الشديدة (والثالثة ذكر ضعف نفسك عن احتمال العقوبة . والرابعة ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء) ولنذكر بعض مايتعلق بمقام الخوف مما ذكره أبو طالب المكى فى القوت . قال : الخوف اسم جامع لحقيقة الإيمان وهو علم لوجود الإيقان ، وهو سبب اجتناب كل نهى ومفتاح كل أمر ، وليس يحرق شهوات النفوس ويزيل آثارها إلا مقام الخوف . وقد قال ذو النون المصرى . لايسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه ، وقال سهل : كمال الايمان بالعلم وكمال العلم بالخوف . وقال مرة : العلم كسب الايمان والخوف كسب المعرفة وكل مؤمن بالله خائف لكن خوفه على قدر قربه . وشكا واعظ إلى بعض الحكماء ألا ترى إلى هؤلاء أعظهم

وأذكر فلا يرقون ؟ فقال كيف ينتفع بالموعظة من لم يكن فى قلبه من الله مخافة ؟ وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك « سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى » أى يتجنب التذكرة الشقى فجعل من عدم الخوف شقيا وحرمه التذكرة ، فخوف عموم المؤمنين بظاهر القلب عن ظاهر العلم بالعقل وخوف خصوصهم وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوجد ؛ فأما خوف اليقين فهو للصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ماأمر به من الصفة المخوفة ، وقد جاء فى الخبر « إن العبد إذا أدخل فى قبره لم يبق شىء كان يخافه دون الله تعالى إلا مثل له يفزعه ويرعبه إلي يوم القيامة » فأول خوف اليقين المحاسبة للنفس فى كل وقت والمراقبة للرقيب فى كل حين والورع عن الإقدام على الشبهات من كل شىء من العلوم بغير يقين بها ومن الأعمال بغير فقه فيها ، ثم سجن اللسان وحزن الكلام أن لايدخل فى دين الله ولا فى العلم ما لم يشرعه الله فى كتابه أو يذكره الرسول فى سنته أو لم ينطق به الأئمة من السلف فى سيرهم مما لم يكن أصله موجودا فى الكتاب والسنة ، وتسميته واضحة فى العلم فيجتنب ذلك كله، ولا يقف ماليس له به علم خوفا من المسألة عنه ولا يدخل فيه لدقيق هوى يدخل عليه ولا لعظم حظ دنيا يدخل فيه وأن ينصح نفسه لله لأنها أولى الخلق ثم ينصح الخلق فى الله ، وثمرة الخوف العلم بالله والحياء من الله ، وهو أعلى مثوبات أهل المزيد. وأكثر مايقع سوء الخاتمة بثلاثة طوائف: أهل البدع والزيغ فى الدين لأن إيمانهم مرتبط بالمعقول؛ فأول آية تظهر لهم من قدرة الله تعالى أن يطيح عقله عند معاينتها فيذهب إيمانه ولا يثبت لشهادتها كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح . الطبقة الثانية أهل الكبر والانكار لآيات الله وكراماته لأوليائه فى الحياة الدنيا لأنهم لم يكن لهم يقين يحمل القدرة ويمده الايمان فيعتورهم الشك ويقوى عليهم لفقد اليقين . والطبقة الثالثة ثلاثة أصناف متفرقون متفاوتون فى سوء الخاتمة وجميعهم دون تينك الطائفتين في سوء الخاتمة لأن سوء الختم على مقامات أيضا كمقامات اليقين والشرك فى عمر الحياة منهم المدعى المتظاهر الذى لم يزل إلى نفسه وعمله ناظرا ؛ والفاسق والمعلن والمقر المدمن تتصل بهم المعاصى إلى آخر العمر ويدوم تقليبهم فيها إلى كشف الغطاء ، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى الله بقلوبهم . وقد انقطعت أعمال الجوارح فليس يتأثر منهم فلا تقبل توبتهم ولا تقال عثرتهم ولاترحم عبرتهم ، وقد كان عبد الواحد بن زيد يقول : ماصدق خائف قط ظن أنه لا يدخل النار وما ظن أنه يدخل النار إلا خاف أن لا يخرج منها أبدا . وكان سهل يقول: خوف التعظيم من ميراث خوف السابقة . وقال زهير بن نعيم البابى : ما أكثر همى ذنوبى إنما أخاف ما هو أعظم على من الذنوب أن أسلب التوحيد وأموت على غيره؛ وروى ابن المبارك عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة قال : كان رجل يعتزل الناس إنما هو وحده فجاءه أبو الدرداء فقال أنشدك الله ما يحملك على أن تعتزل الناس ؟ قال إنى أخشى أن يسلب دينى وأنا لا أشعر قال أترى فى الحى مائة يخافون ما تخاف فلم يزل ينقص حتى بلغ عشرة قال فحدثت بذلك رجلا من أهل الشام ، فقال ذاك شرحبيل بن السمط هو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان سفيان الثورى يلتفت إلى حماد بن سلمة فيقول يا أبا سلمة ترجو لمثلي العفو أو يغفر لمثلي؟

فيقول له حماد نعم أرجو له . وكان بعض السلف يقول : لو أنى أعلم أنه يختم لي بالسعادة كان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس فى حياتي أجعله فى سبيل الله . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى إذا أعطى عبدا معرفة ثم لم يشكره عليها ولم يحسن معاملته بها لم يسلبه إياها بل أبقاها عليه ليحاسبه على قدرها ولكن يرفع منه البركة ويقطع عنه المزيد ، فمثل عيش هذا فى الدنيا كمثل البخيل الغنى يعيش عيش الفقراء ويحاسب حساب الأغنياء . كذلك العالم البطال يحيا حياة الجهال ويحاسب غدا محاسبة العلماء . ومن أعلى المخاوف خوف سلب الإيمان الذى هو عنده وديعة وفى خزانة المؤمن يظهره كيف شاء ويبديه ويعيده إلى الغيب متى شاء ويخفيه ذلك من صفة المكر وحكم الماكر وكثافة الستر ولطف الساتر لا تدرى أهبة وهبه لك فيبقيه عليك بكرمه وفضله أم وديعة وعرية أودعك إياه وأعارك فيأخذه إذن لا محالة بحكمته وعدله وقد أخفى عنك حقيقة ذلك واستأثر بعاقبته . وكان يحيى يقول ينبغى أن يشغلك خوف قوت تأكله لا تدرى أحلالا هو أم حرام عن تمنى الفضول وينبغى أن يشغلك خوف ذهاب الايمان عن تمنى درجات الأبدال ؟ فاذا لم تعطها استقللت ماقد أعطيت وأنت قد أعطيت خير شىء فى خزائن الله الايمان به ولعمرى إن الخوف على فقد الايمان علامة الغبطة بوجوده . وقال بعض العارفين : إنما قطع بالقوم عند الوصول وقال آخر : واخطراه ، ومن المخاوف خوف قطع المزيد من علم الايمان مع تبقية المعرفة المبدأة تكون مستدرجا بها ممنوعا من المزيد ، وقد لا يكون مدرجا إلا أن توقف المزيد عنه هو لعلة واقفة من الهوى فيه وقد يقسى قلبه ويجرى عنه وذلك من النقصان الذى يعرفه أهل التمام لأن عين الوجه من الملك للدنيا وعين القلب من الملكوت للآخرة فيمنعه ما ينفعه عنده ويعطيه ما يضره به ويفتتن عند الخلق كمن أعطي الصنو الأكول . وقال مجاهد : إن الرجل لتبكي عينه وقلبه أقسى من الجماد . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة إذا استكمل العبد النفاق ملك عينه فيبكى كما شاء .

وسئل أبو محمد سهل هل يعطى الله أحدا من المؤمنين من الخوف زنة مثقال ؟ فقال من المؤمنين من يعطى من الخوف وزن جبل أحد قيل فكيف يكون حالهم يأكلون وينكحون وينامون ؟ قال نعم يفعلون ذلك والمشاهدة لا تفارقهم قيل له فأين الخوف ؟ قال يحمله حجاب القدرة بلطيف الحكمة ويستتر القلب تحت الحجاب فى التصريف بصفات البشرية فيكون مثل هذا العبد مثل المرسلين . وقال أيضا : الخوف مباينة النهى ، والخشية الورع ، والاشفاق : هو الزهد ، وكان يقول : دخول الخوف على الجاهل يدعوه إلى العلم ، ودخوله على العالم يدعوه إلى الزهد ، ودخوله على العامل يدعوه إلى الاخلاص فقد صار الخوف يصلح للكافة ، إذ دخوله على العام يخرجه عن الحرام ودخوله على الخاص يدخله فى الورع والزهد . وقال أيضا : الإخلاص فريضة لا تنال إلا بالخوف ولا ينال الخوف إلا بالزهد . وقال : إنه لا يصح علم الرجاء إلا للخائف : يعنى لتعدل شهادتاه بتقدمه الخوف فيكون بشهادته قائما

وَأَمَّا الرَّجَاءُ : فَهُوَ ابْتِهَاجُ الْقَلْبِ بِمَعْرِفَةِ فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَاسْتِرْوَاحُهُ إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَهٰذَا مِنْ جُمْلَةِ الْخَوَاطِرِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْعَبْدِ ، وَرَجَاءٌ هُوَ مَقْدُورٌ لِلْعَبْدِ ، وَهُوَ تَذَكُّرُ فَضْلِ اللهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَقَدْ سُمِّيَ أَيْضاً إِرَادَةُ الْمُخَاطَرَةِ بِالِاسْتِثْنَاءِ رَجَاءً ، وَالْمُرَادُ مِنْ هٰذَا الْبَابِ

وإخلاء قلبه من الخوف وانفرادة بحال الرجاء يخرجه إلى الأمن والاغترار . وكان يقول : الخوف ذكر المحبة والمحبة أنثى. ألا ترى أن أكثر الناس يدعون المحبة يريد بهذا أن فضل الخوف على الرجاء كفضل الذكر على الأنثى وهو كما قال لأن الخوف حال العلماء والرجاء وصف العمال ففضله عليه كفضل العلم على العمل . وكان الحسن يقول : ما عبد الله بشيء أفضل من طول الحزن والخوف . وقال بعض السلف : حسبك من الخوف اجتناب المعاصي . وكان الثوري يقول : ما أحب أني عرفت الأمر حق معرفته إذن لطاش عقلي ، ومما يدلك على أن الخوف اسم لحقيقة العلم بالله تعالى أن في إحدى القراءتين من قراءة أبيّ وعبد الله في معنى قوله تعالى « فخشينا أن يرهقهما طغيانا » فخاف ربك وقال الفراء معناه فعلم ربك وقال الخوف من أسماء العلم . ومن معنى هذا أيضا سمي الحياء بمعنى الخشية وهي من الخوف فجعل الحياء اسم الخشية ، ومن ذلك فسر قوله تعالي « وتخشى الناس » أي تستحييهم ، ومما يدل على باطن الخوف كثرة الاستغفار في كل حال والخوف من يسير الأعمال ومن نقل عنه المخافة من حقير الأمر الذي لعله والله أعلم زنة ذرة من الشر أكثر من أن يحصى ، كما روى أن رجلا قال لعطاء السلمي ما هذا الخوف كله؟ قال لعظيم فقلت وما هو ؟ قال اصطدت حماما لجارتي منذ أربعين سنة فأنا أبكي منذ ذلك أما أني قد تصدقت بثمنه مرات . وقال ضيغم الراسي ذنب أذنبته أنا أبكي عليه منذ أربعين سنة وذلك أنه زارني أخ لي فاشتريت سمكا بدانق فأراد أن يغسل يده فأخذت قطعة طين من حائط جاري فغسلت به يده ، وقال آخر تكلمت بكلمة أنا أبكي عليها منذ كذا ، قيل وما هي ؟ قال رأيت درهما في يد رجل فقلت هذا الدرهم جرجاني ولعله لم يضرب بجرجان . وقال بعضهم وصفت لنا امرأة من العوابد فأتينا منزلها فإذا هي قد غلقت بابها لا يدخل عليها أحد فسألنا عنها فقيل لنا هي تبكي في جوف بيت قد غلقت عليها الباب منذ ثلاثة أيام لا ندري ما شأنها قال فسألناها بعد وقت فقالت قتلت نملة ، هذا لأنه قيل إن الأبرار لا يؤذون الذر ولا يقتلون النمل . وبكى نصر بن جرير على معصية ثلاثين سنة ،هكذا نقله العلامة الزبيدي (وأما الرجاء فهو ابتهاج) أي سرور (القلب بمعرفة الله سبحانه واسترواحه) أي القلب (إلى سعة رحمة الله تعالى ، وهذا) أي الابتهاج والاسترواح (من جملة الخواطر غير مقدور للعبد ورجاء هو مقدور للعبد ، وهو) أي المقدور له (تذكر فضل الله وسعة رحمته . وقد سمى أيضا) أي كما يسمى ما ذكر رجاء (إرادة المخاطرة بالاستثناء رجاء والمراد من هذا الباب) أي باب الرجاء

هُوَ الْأَوَّلُ وَهُوَ التَّذَكُّرُ عَلَى حَسَبِ الْإِبْتِهَاجِ وَالْإِسْتِرْوَاحِ ، وَضِدُّهُ الْيَأْسُ ، وَهُوَ تَذَكُّرُ فَوَاتِ رَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ وَقَطْعُ الْقَلْبِ عَنْ ذٰلِكَ ، وَهُوَ مَعْصِيَةٌ مَحْضَةٌ

(هو الأول وهو التذكر على حسب الابتهاج) والسرور بمعرفة فضل الله (والاستروواح) إلى سعة رحمته (وضده) أى الأول الذى هو التذكر (اليأس وهو) أى اليأس (تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك) أى التذكر (وهو) أى اليأس (معصية محضة) أى خالصة عن شائبة الخير . وقد ذكر الأستاذ أبو القاسم القشيرى الرجاء بقوله : هو تعلق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقبل ؛ وكما أن الخوف يقع فى مستقبل الزمان فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل فى الاستقبال : وبالرجاء عيش القلوب واستقلالها . والفرق بين الرجاء وبين التمنى أن التمنى يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد وبعكسه صاحب الرجاء ، فالرجاء محمود والتمنى معلول ، وتكلموا فى الرجاء فقال شاه الكرمانى : علامة الرجاء حسن الطاعة . ومن المعهود فى أعمال الدنيا أن من وضع حبة فى أرض طيبة قد رويت قوى رجاؤه وظنه بحصول مطلوبه ؛ وعكسه من وضع حبة فى أرض سبخة فى زمن الصيف وقال الله قادر أن ينبته فيها وهذا القول وإن كان صحيحا لكن المتبع ما أجراه الله من عادته فى خلقه كما قاله شيخ الإسلام . وقال ابن خبيق : الرجاء ثلاثة رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها . ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة . والثالث الرجل الكاذب يتمادى فى الذنوب ويقول أرجو المغفرة ، ومن عرف نفسه بالإساءة ينبغى أن يكون خوفه غالبا على رجائه . وقيل الرجاء ثقة الوجود من الكريم الودود ، وقيل الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال ، وقيل هو قرب القلب من ملاطفة الرب ، وهذا قريب مما قبله . وفيه إشارة إلى الحضور ودوام العلم بتوالى نعم الله تعالى على العبد . وقيل سرور الفؤاد بحسن المعاد . وقيل هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى . قال القشيرى : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت أبا على الروذبارى يقول : الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت . وسمعته يقول سمعت النصراباذى يقول سمعت ابن أبي حاتم يقول سمعت على بن شهمرذان يقول قال أحمد بن عاصم الأنطاكى وسئل ما علامة الرجاء فى العبد ؟ قال أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر راجيا لتمام النعمة من الله تعالى عليه في الدنيا وتمام عفوه فى الآخرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء استبشار بوجود فضله . وقال : ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب . سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من حمل نفسه على الرجاء تعطل ومن حمل نفسه على الخوف قنط ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة . وسمعته يقول حدثنا أبو العباس البغدادى قال حدثنا الحسن بن صفوان قال حدثنا ابن أبى الدنيا قال حدثت عن بكر بن سليم

الصواف قال: دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها فقلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك ؟ فقال ما أدرى ما أقول لكم غير أنكم ستعاينون من عفو الله تعالى مالم يكن لكم فى حساب ، ثم ما برحنا حتى أغمضناه . وقال يحي بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب يغالب رجائى لك مع الأعمال لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف . وكلموا ذا النون المصرى وهو فى النزع فقال : لا تشغلونى فقد تعجبت من كثرة لطف الله تعالى معى . وقال يحي بن معاذ : إلهي أحلى العطايا فى قلبي رجاؤك وأعذب الكلام على لسانى ثناؤك ، وأحب الساعات إلى ساعة يكون فيها لقاؤك . وفى بعض التفاسير « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أصحابه من باب بني شيبة فرآهم يضحكون فقال أتضحكون؟ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ثم مر ثم رجع القهقرى وقال : نزل على جبريل عليه السلام وأتى بقوله تعالى: نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » . قال القشيرى أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد الأهوازى قال حدثنا أبو الحسن الصفار قال حدثنا عباس بن تميم قال حدثنا يحي بن أيوب قال حدثنا مسلم بن سالم قال حدثنا خارجة بن مصعب عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى ليضحك من يأس العباد وقنوطهم وقرب الرحمة منهم ، فقلت بأبى وأمى يا رسول الله أو يضحك ربنا عز وجل ، فقال والذى نفسى بيده إنه ليضحك ، فقالت لا يعدمنا خيرا إذا ضحك » .

قال شيخ الإسلام : وذلك إذ الضحك علامة الرضا ، وبذلك علم أنه تعالى لاتضرة معصية ولا تنفعه طاعة ، فمن أطاعه فبركة طاعته عائدة عليه ، ومن عصاه فشؤم معصيته راجع إليه ، فإن تاب عنها فلا ييأس من رحمة الله فإن أيس منها فهو جاهل وضحك الله تعالى ممن ييأس لأنه أتى بشئ عجيب ، وهو غفلته عن سعة رحمة الله أو جهله واعتقاده أن معصيته رجع إلى ربه منها شيء فضحك ربه مقابلة له بضد حاله فإنه لما أيس من رحمته أسبغها عليه ، لا سيما بعد توبته .

واعلم أن الضحك فى وصفه تعالى من صفات فعله وهو إظهار فضله كما يقال ضحكت الأرض بالنبات وضحكه من قنوطهم إظهار تحقيق فضله الذى هو ضعف انتظارهم له . وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقال له إن أسلمت أضفتك ، فقال المجوسى إذا أسلمت فأى منة تكون لك على؟ فمر المجوسى فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبرهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه نحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا عليك فمر إبراهيم عليه السلام خلف المجوسى وأضافه فقال له المجوسى : ايش كان السبب فى الذى بدا لك فذكر له ذلك فقال له المجوسى أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال اعرض على الإسلام فأسلم . وكان أبو على الدقاق يقول : رأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاج ، وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الأمر أسهل مما توهمنا . وكان أبو بكر بن أشكيب يقول : رأيت أبا سهل الصعلوكى

فى المنام على هيئة حسنة لا توصف فقلت له يا أستاذ بم نلت هذا ؟ فقال بحسن ظنى بربى . ورؤى مالك بن دينار فى المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال قدمت على ربى عز وجل بذنوب كثيرة محاها عنى حسن ظني به تعالى . وقيل كان ابن المبارك يقاتل علجا مرة فدخل وقت صلاة العلج فاستمهله فأمهله فلما سجد للشمس أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه فسمع من الهواء قائلا يقول «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا» فأمسك فلما أسلم المجوسى قال له لم أمسكت عما هممت به فذكر له ماسمع ، فقال له المجوسى نعم الرب رب يعاتب وليه فى عدوه فأسلم وحسن إسلامه وقيل إنما أوقعهم فى الذنب حين سمى نفسه عفوا ، وقيل لو قال لا أغفر الذنوب لم يذنب مسلم قط كما أنه لما قال « إن الله لا يغفر أن يشرك به » لم يشرك مسلم قط ولكن لما قال « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » طمعوا فى مغفرته .

ويحكى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال : كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف لى فكانت ليلة ظلماء فيها مطر شديد فخلا المطاف فدخلت وكنت أقول فيه : اللهم اعصمنى اللهم اعصمنى فسمعت هاتفا يقول لى يا ابن أدهم أنت تسألنى العصمة وكل الناس يسألونى العصمة فإذا عصمتكم فلمن أرحم ؛ وقيل رأى أبو العباس بن سريج فى منامه فى مرض موته كأن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء قال فجاءوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال ، فقلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض به وأراد جوابا آخر فقلت : أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه فقال اذهبوا فقال غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال . وفى هذا دلالة على جواز الغفران لمن لم يشرك بالله كالآية التى أشار اليها وعلى بشرى عظيمة لابن سريج وهو انه مغفور له ! وقد اعترف هو ومن معه بالتقصير ، ومن اعترف بتقصيره رجى له المغفرة ، وقيل كان رجل شريب : أى كثير الشرب للخمر جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلام أربعة دراهم وكان الغلام صالحا ينكر عليه ذلك وأمره أن يشترى بها شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول من دفع له أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال : فدفع الغلام الدراهم لأنه رأى أن سيده يرضى بذلك أو رأى أن هذا أولى مما أمره به سيده وهان عليه مشقة الضرب و الألم من سيده حتى لا يقع فى هذا المنكر الشديد . وظن منصور أنه مالك الدراهم ، فقال منصور ما الذى تريد أن أدعو لك ؟ فقال لى سيدى أريد أن أتخلص منه فدعا لى منصور وقال ما الأخرى ؟ فقال أن يخلف الله تعالى على دراهمى فدعا ثم قال وما الأخرى؟ فقال أن يتوب الله على سيدى فدعا قال وما الأخرى؟ فقال أن يغفر الله تعالى لى ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام إلى سيده فقال لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة فقال وبم دعا ؟ فقال سألت لنفسى العتق فقال اذهب فأنت حر وأيش الثانى؟ فقال أن يخلف الله على الدراهم ، فقال لك أربعة آلاف درهم فقال وأيش الثالث؟ فقال أن يتوب الله عليك فقال تبت إلى الله تعالى ، فقال وأيش الرابع؟ فقال أن يغفر الله تعالى لك ولى وللقوم وللمذكر فقال هذا الواحد ليس إلى فلما بات رأى فى المنام كأن قائلا يقول له أنت فعلت ما كان

إليك تراني لا أفعل ما إلى قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين . وقيل حج رباح القيسى حجات كثيرة فقال يوما وقد وقف تحت الميزاب إلهى وهبت من حجاتى كذا كذا للرسول صلى الله عليه وسلم وعشرة منهـا لأصحابه العشرة وثنتين لوالدى والباقى للمسلمين ولم يحبس شيئا لنفسه فسمع هاتفا يقول : هو ذا يتسخى علينا لأغفرن لك ولأبويك ولمن شهـد شهادة الحق ؟ . وروى عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى قال : رأيت جنازة يحملها ثلاثة من الرجال وامرأة قال : فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة فصلينا عليهـا ودفناها فقلت للمرأة من كان هذا منك ؟ فقالت ابنى قلت أو لم يكن لـكم جيران ؟ قالت نعم ولـكنهم صغروا أمره فقلت وأيش كان هذا ؟ فقالت مخنثا قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا ونمت تلك الليلة فرأيت كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البـدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكر لي فقلت من أنت ؟ فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى عز وجل باحتقار الناس إياى ، وكان الأستاذ أبو على الدقاق يقول : مر أبو عمرو البيكندى يوما بسكة فرأى قوما أرادوا إخراج شاب من المحلة لفساده وامرأة تبكي قيل إنها أمه فرحمها أبو عمرو فشفع له إليهم ، وقال هبوه منى هذه المرة ، فإن عاد إلى فساده فشأنـكم فوهبوه منه فمضى أبو عمرو فلمـا كان بعد أيام اجتاز بتلك السكة فسمع بكاء العجوز من وراء ذلك الباب فقال فى نفسه لعل الشاب عاد إلى فساده فنفي من المحلة فدق عليها الباب وسألها عن حال الشاب فخرجت العجوز وقالت إنه مات فسألها عن حاله فقالت لما قرب أجله قال لا تخبرى بموتى الجيران فلقد آذيتهم وإنهم يشمتون بى ولا يحضرون جنازتى ، وإذا دفنتينى فهذا خاتم لى مكتوب عليه بسم الله فادفنيه معى فإذا فرغت من دفنى فتشفعى لى إلى ربى عز وجل قالت ففعلت وصيته فلما انصرفت عن رأس قبره سمعت صوته يقول : انصرفى يا أماه فقـد قدمت على رب كريم ، وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم إنى لم أخلقهم لأربح عليهم وإنما خلقتهم ليربحوا على وكان إبراهيم الأطروش يقول : كنا قعودا ببغداد مع معروف الـكرخى على الدجلة إذ مر بنا قوم أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقلنا لمعروف أما تراهم كيف يعصون الله تعالى مجاهرين ؟ ادع الله عليهم فرفع يده وقال : إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة . فقالوا إنما سألناك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم وإذا تابوا زال عنـكم ما تـكرهونه فيحصل مطلوبكم من الدعاء عليهم ، وهذا من كمال المعرفة والسياسة فى تغيير المنـكر الذى لا يتمكن العبد من إزالته لقوة الجاه والسطوة فسلك معروف فى إزالته مسلك السؤال وطلب الفضل من الله بأن يغـير أحوالهم عما هى عليه لأنه تعالى الفاعل بهم ماهم فيه ؛ فقال اللهم كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة فأعلمهم بذلك أن التغيير فى هذا الوقت لمثل هؤلاء إنما هو بالدعاء لهم بالتوبة .
وكان أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد يقول : كان يحي بن أكثم القاضى صديقا لى وكان يودنى وأوده فمات يحيى فـكنت أشتهى أن أراه فى المنام فأقول له ما فعل الله تعالى بك

وَهٰذَا الرَّجَاءُ فَرْضٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَبْدِ سَبِيلٌ إِلَى الْاِمْتِنَاعِ عَنِ الْيَأْسِ إِلَّا بِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ نَفْلٌ بَعْدَ اعْتِقَادِ الْجُمْلَةِ فِي فَضْلِ اللهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ . وَمُقَدِّمَاتُ الرَّجَاءِ أَرْبَعٌ : الْأُولَى ذِكْرُ سَوَابِقِ فَضْلِهِ إِلَيْكَ مِنْ غَيْرِ قَدَمٍ أَوْ شَفِيعٍ وَالثَّانِيَةُ ذِكْرُ مَا وَعَدَ اللهُ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ وَعَظِيمِ كَرَامَتِهِ عَلَى حَسَبِ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ، وَأَنَّ اسْتِحْقَاقَكَ إِيَّاهُ بِالْفِعْلِ ، إِذْ لَوْ كَانَ عَلَى حَسَبِ الْفِعْلِ لَكَانَ أَقَلَّ شَيْءٍ وَأَصْغَرَ أَمْرٍ . وَالثَّالِثَةُ ذِكْرُ كَثْرَةِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ فِي أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ فِي الْحَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِمْدَادِ وَالْأَلْطَافِ ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أَوْ سُؤَالٍ . وَالرَّابِعَةُ ذِكْرُ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى

فرأيته ليلة في المنام فقلت ما فعل الله تعالى بك قال غفر لي إلا أنه وبخني ثم قال لي يا يحيى خلطت علي في دار الدنيا فقلت : أي رب اتكلت على حديث حدثنيه أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك قلت إني لأستحي أن أعذب ذا شيبة في النار » فقال قد عفوت عنك يا يحيى وصدق نبيي إلا أنك خلطت على في دار الدنيا ، ثم قال المصنف رحمه الله تعالى (وهذا الرجاء فرض إذا لم يكن للعبد سبيل إلى الامتناع عن اليأس إلا به) أي الرجاء (وإلا) أي وإن كان للعبد سبيل إلى الامتناع عن اليأس (فهو نفل بعد اعتقاد الجملة في فضل الله وسعة رحمته. ومقدمات الرجاء أربع : الأولى ذكر سوابق فضله) تعالى (إليك من غير قدم) أي من غير عمل منك قبل (أو شفيع) أي من غير شفيع لك (والثانية ذكر ما وعد الله من جزيل) أي عظيم (ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك إياه) أي الثواب الجزيل (بالفعل إذ لو كان) هذا الثواب (على حسب الفعل لكان أقل شيء وأصغر أمر . والثالثة ذكر كثرة نعمة الله عليك في أمر دينك ودنياك في الحال من أنواع الإمداد) والتوفيق (و) أنواع (الألطاف من غير استحقاق أو سؤال . والرابعة ذكر سعة رحمة الله تعالى) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » رواه مسلم . قال النوربشتي : رحمة الله تعالى غير متناهية فلا يعتورها التقسيم والتجزئة ؛ وإنما قصد من ذكره ضرب المثل للأمة ليعرفوا التفاوت بين القسطين : قسط أهل الإيمان منها في الآخرة ، وقسط كافة المربوبين في الأولى ، فجعل مقدار حظ الفئتين من الرحمة في الدارين على الأقسام المذكورة تنبيها على المستعجم وتوقيفا على المستفهم ولم يرد به تحديد ماقد جل عن الحد أو تعديد ماتجاوز العد . وقال المهلب : الرحمة رحمتان : رحمة من صفة الذات وهي لاتتعدد ، ورحمة من صفة الفعل وهي هذه .

وَسَبَقَهَا غَضَبَهُ ، وَأَنَّهُ ٱلرَّحْمٰنُ ٱلرَّحِيمُ ، ٱلْغَنِيُّ ٱلْكَرِيمُ ، ٱلرَّءُوفُ بِعِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

وقال العارف البونى : رحمة الله تعالى الذاتية واحدة ورحمته المتعدية متعددة ، وهى كما فى هذا الخبر مائة ، ففى الأرض منها واحدة يقع بها الارتباط بين الأنواع وبها يكون حسن الطباع والميل بين الجن والإنس والبهائم كل شكل إلى شكله ، والتسعة والتسعين حظ الإنسان يوم القيامة تتصل بهذه الرحمة فتكمل مائة فيصعد بها فى صرح الجنة حتى يرى ذات الرحيم ويشاهد رحمته الذاتية (و) ذكر (سبقها) أى الرحمة (غضبه) تعالى كما روى « إنه إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه : إن رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة » قال العراقى متفق عليه . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف » رواه الطبرانى . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى ؟ فيقولون نعم يا ربنا فيقول؟ لم فيقول رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى » رواه أحمد والطبرانى ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام « يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينادى مناد تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى » . ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ قوله تعالى « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » فقال الأعرابى : والله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه ؛ وذلك لأن الأعراب الغالب على طبعهم عدم الإدراك للطائف المعانى (و) ذكر (أنه) تعالى (الرحمن الرحيم الغنى الكريم الرءوف) من الرأفة : شدة الرحمة (بعباده المؤمنين) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما نزلت هذه الآية « ورحمتى وسعت كل شىء » تطاول إبليس اللعين وقال أنا شىء من الأشياء يكون لى نصيب من رحمته وتطاولت اليهود والنصارى ، فلما نزل قوله تعالى « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » يئس إبليس من رحمته ، وقالت اليهود والنصارى نحن نتقى الشرك ونؤتى الزكاة ونؤمن بآياته . ثم نزل قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى » فيئس اليهود والنصارى وبقيت الرحمة للمؤمنين خاصة . فالواجب على كل مؤمن أن يحمد الله تعالى على ما أكرمه به من الإيمان وجعل اسمه من جملة المؤمنين ويسأل ربه أن يتجاوز عن ذنوبه كما روى عن يحيى بن معاذ الرازى أنه كان يقول : إلهى قد أنزلت إلينا رحمة واحدة وأكرمتنا بذلك الرحمة وهى الإسلام ، فاذا أنزلت علينا مائة رحمة فكيف لا نرجو مغفرتك ، وذكر عنه أنه قال : إلهى إن كان ثوابك للمطيعين ورحمتك للمذنبين ، فإنى وإن كنت لست مطيعا لا أرجو ثوابك فأنا من المذنبين فأرجو رحمتك ، وذكر عنه أنه قال : إلهى خلقت الجنة وجعلتها ولیمة

فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْأَذْكَارِ أَفْضَى بِكَ إِلَى اسْتِشْعَارِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بِكُلِّ حَالٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

لأوليائك وآيست الكفار منها وخلقت ملائكتك غير محتاجين إليها وأنت مستغن عنها ، فان لم تعطنا الجنة فلمن تكون الجنة ؟ وقال ابن مسعود : لن تزال الرحمة بالناس يوم القيامة حتى إن إبليس يرفع رأسه مما يرى من سعة رحمة الله وشفاعة الشافعين (فاذا واظبت) أيها الرجل (على هذين النوعين من الأذكار أفضى) ذلك المذكور من المواظبة (بك إلى استشعار الخوف والرجاء بكل حال والله تعالى ولى التوفيق بمنه وفضله) وكرمه ، وقد ذكر أبو طالب المكى فى القوت الكلام فيما يتعلق بالرجاء ونقله العلامة الزبيدى وقد أحببت أن أسوقه لتمام الفائدة .

قال صاحب القوت عن بعض السلف : كل عاص فانه يعصى تحت كنف الرحمن، فمن ألقى عليه كنفه ستر عورته، ومن رفع عنه كنفه افتضح. والرجاء اسم لقوة الطمع فى الشىء بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشىء ، ولذلك أقام الله الطمع مقام الرجاء فى التسمية ، وأقام الحذر مقام الخوف فقال تعالى « يدعون ربهم خوفا وطمعا » وقال تعالى « يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » وهو وصف من أوصاف المؤمنين ، وخلق من أخلاق الإيمان لا يصح إلا به كما لا يصح الإيمان إلا بالخوف ، فالرجاء بمنزلة أحد جناحى الطائر لا يطير إلا بجناحيه كذلك لا يؤمن حتى يرجو من آمن به ويخافه وكان ابن مسعود يحلف بالله ما أحسن عبد ظنه بالله إلا أعطاه الله ذلك لأن الخير كله بيده : أى فاذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه لأن الذى حسن ظنه به هو الذى أراد أن يحققه له . وروينا عن يوسف بن أسباط قال : سمعت سفيان الثورى يقول فى قول الله تعالى « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » قال : أى أحسنوا بالله الظن . والرجاء مقام جليل وحال شريف نبيل لا يصلح إلا للكرماء من أهل العلم والحياء ، وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف يروحون به الكرب ويستريحون إليه من مقارفة الذنب ، ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء ، ومن لم يقم فى مقامات الخوف لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء ورجاء كل عبد من حقيقة خوفه ومكاشفته عن أخلاق مرجوه من معنى ما كان كوشف به من صفات مخوفة ، فان كان أقيم مقام المخوفات من المخلوقات مثل الذنوب والعيوب والأسباب رفع من حيث تلك المقامات إلى مقامات الرجاء بتحقيق الوعد وغفران الذنب وتشويق الجنان وما فيها من الأوصاف الحسان ، وهذه مواجهات أصحاب اليمين ، وإن كان أقيم مقام مخاوف الصفات عن مشاهدة معانى الذات ، مثل سابق العلم وسوء الخاتمة وخفى المكر وباطن الاستدراك وبطش القدرة وحكم الكبر والجبرية رفع من حيث هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا فرجا من معانى الأخلاق والأسماء الكرم والإحسان والفضل والعطف واللطف والامتنان ، وليس يصلح أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء فى مقامات الرجاء من قبل أنه لا يصلح لعموم المؤمنين وهو يفسد من لم يرد به أشد الفساد ، فليس يصلح

إلا بخصوصه ولا يجذب ولا يستجيب له من المحبين ولا محبة إلا بعد نصح القلب من المخافة ، فالمؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه ، وكلسان الميزان بين كفتيه ، ومنه قول مطرف : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، وللمؤمن فى اعتدال الخوف والرجاء مقامان : أعلاهما مقام المقربين وهو ماحال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوفة والأخلاق المرجوة . والثانى مقام أصحاب اليمين وهو ماعرفوه من بدائع الأحكام وتفاوت الأقسام من ذلك أنه تعالى أنعم على الخلق بفضله عن كرمه اختيارا لا إجبارا فلما أعلمهم ذلك رجوا تمام النعمة من حيث ابتداؤها ، ومن ها هنا طمع السحرة فى المغفرة لما ابتدءوا بالايمان فقالوا « إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » أي من حيث جعلنا أول المؤمنين ، من هذا المكان نرجو بأن يغفر لنا بأن جعلنا مؤمنين به فرجوه منه ، وقد ذم الله تعالى عبدا أوجده نعمة ثم سلبها فأيس من عودها عليه . فقال تعالى « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور » ثم استثنى عباده الصابرين عليه الصالحين له فقال تعالى « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » ثم إن الخلق خلقوا على أربع طبقات فى كل طبقة طائفة . فمنهم من يعيش مؤمنا ويموت مؤمنا فمن هاهنا رجاؤهم لأنفسهم وغيرهم من المؤمنين إذ قد أعطاهم فرجوا أن يتم عليهم نعمته وأن لا يسلبهم بفضل ما به بدأهم ، ومنهم من يعيش مؤمنا ويموت كافرا فهذا موضع خوفهم عليه وعلى غيرهم لمكان علمهم بهذا الحكم ولغيب حكم الله تعالى بعلمه السابق فيهم ، ومن الناس من يعيش كافرا ويموت مؤمنا فهذان الحكمان أوجبا رجاءهم . الثانى للمشرك إذا رأوه فلم يقطعوه لظاهره أيضا خوف هذا الرجاء خوفا ثانيا أن يموت على تلك الحالة وإن كان ذلك هو حقيقة عند الله تعالى ، فعلم المؤمن بهذه الأحكام الأربعة وزن خوفه ورجائه معا فاعتدل حاله بذلك لاعتدال إيمانه به وحكم على الخلق بالظاهر ووكل إلى علام الغيوب السرائر ولم يقطع على عبد بظاهره من الشر بل يرجو له مايظن عند الله من الخير ولم يشهد لنفسه ولا لغيره بظاهر الخير ، بل يخاف أن يكون قد استسر عند الله باطن شر إلا أن حال التمام أن يخاف العبد على نفسه ويرجو لغيره لأن ذلك هو وجد المؤمنين من قبل أنهم مأمورون بحسن الظن فهم يحسنون الظن بالناس ويخرجون لهم المعاذير بسلامة الصدور وتسليم ما غاب إلى من إليه نصير الأمور ، ثم هم فى ذلك يسيئون الظن بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتها . ويوقعون الملام عليها ولا يحتجون لها لباطن الاشفاق منهم عليهم ولخوف التزكية منهم لهم ، فمن غلب عليه هذان المعنيان فقد مكر به حتى يحسن الظن بنفسه ويسيء ظنه بغيره فيكون خائفاً على الناس راجيا لنفسه عاذرا لنفسه محتجا لها لائم الناس ذاما لهم فهذه من أخلاق المنافقين ، ثم إن للراجي حالا من مقامه وللحال علامة من رجائه ، فمن علامة الرجاء عن مشاهدة المرجو دوام المعاملة وحسن التقرب إليه وكثرة التحبب بالنوافل لحسن ظنه به وجميل أمنه منه ، وأنه يتقبل صالح ما أمر به تفضلا منه من حيث كرمه لا من حيث الواجب عليه ولا الاستحقاق منا فانه أيضا يكفر سيء ماعمله إحسانا منه ورحمة من حيث لطفه بنا وعطفه علينا لأخلاقه السنية وألطافه الخفية لا من حيث اللزوم بل من حيث الظن به . ومقام الرجاء كسائر مقامات اليقين منها فرض

ونفل ، فعلى العبد فرض أن يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه من حيث كرمه وفضله لامن حيث نظره إلى صفات نفسه ولؤمه . وقد كان سهل يقول : من سأل الله شيئا فنظر إلى نفسه وأعماله لايرى الإجابة حتى يكون ناظرا إلى الله وحده وإلى لطفه وكرمه ويكون موقنا بالإجابه ولا يقبل الله عملا ولا دعاء إلا من موقن الأجابة مخلص ، فاذا شهد التوحيد ونظر إلى الوحدانية له فقد فتح له بابا من العبادة . ثم يتفاوت الراجون فى فضائل الرجاء ، فالمقربون منهم رجوا النصيب الأعلى من القرب والتجلى لمعانى الصفات مماعرفوه وهذا من علمهم به ، وأصحاب اليمين فى الراجين رجوا النصيب الأوفر من مزيده والفضل الأجزل من عطائه يقينا بما وعد ، ومن الرجاء انشراح الصدر بأعمال البر وسرعة السبق والمبادرة بها خوف فوتها ورجاء قبولها ، ثم مهاجرة السوء ومجاهدة النفس رجاء انتجاز الموعود ومنه قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » ومن الرجاء كثرة التلاوة لكلام الله تعالى ، وإقام الصلاة التى هى خدمة المعبود ، وبذل المال سرا وعلانية ، وأن لايشتغل عن ذلك بتجارة الدنيا كما وصف المحققين من الراجين إذ يقول الله تعالى « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » ومن الرجاء القنوت فى ساعات الليل وهو طول القيام للتهجد والدعاء عند تجافى الجنوب عن المضاجع لما وقر فى الصدور والقلوب من المخاوف ؛ وكذلك وصف الله تعالى الراجين بهذا فى قوله « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » فسمى أهل الرجاء والحذر وأهل التهجد آناء الليل علماء ، وحصل من دليل الكلام أن من لم يخف ولم يرج غير عالم لنفيه المساواة بينهما ، وهذا مما حذف خبره اكتفاء بأحد وصفيه إذ فى الكلام دليل عليه ، فالرجاء هو أول مقام من اليقين عند المقربين ، وهو ظاهر أوصاف الصديقين ولا يكمل فى قلب عبد ولا يتحقق به صاحبه حتى تجتمع فيه هذه الأوصاف : الايمان بالله والمهاجرة إليه والمجاهدة فيه وتلاوة القرآن وإقام الصلاة والإنفاق فى سبيل الله ثم السجود آناء الليل والقيام والحذر مع ذلك كله ؛ فهذه جمل أوصاف الراجين وهو أول أحوال الموقنين ، ثم تتزايد الأعمال فى ذلك ظاهرا وباطنا بالجوارح والقلوب عن تزايد الأنوار والعلوم ، ومكاشفات الغيوب بالأوصاف المرجوة ، وفصل الخطاب أن الخوف والرجاء طريقان إلى مقامين ، فالخوف طريق العلماء إلى مقام العلم ، والرجاء طريق العاملين إلى مقام العمل ، وقد وصف الله الراجين مع الأعمال الصالحة لقوة رجائهم بالخوف تكملة لصدق الرجاء وتتمة لعظيم الغبطة به ، فقال تعالى مخبرا عنهم فى حال وفائهم وأعمال برهم « إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا » وقال تعالى « يوفون بالنذر ويخافون يوما » من قبل أن الخوف مرتبط بالرجاء ، فمن تحقق بالرجاء صارعه الخوف أن يقطع به دون مارجا . وقال أهل العربية فى قوله تعالى « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله » أى الذين لايخافون عقوبات الله تعالى ، فاذا كان هذا أمره بالمغفرة لمن لايرجو فكيف يكون عفوه وفضله على من رجوه ، وبعضهم يقول فى معنى قوله تعالى « وترجون من الله مالا يرجون » أى تخافون

منه مالا يخافون ، فلولا أنهما عند العلماء كشيء واحد مافسر أحدهما بالآخر ، ومن الرجاء الأنس بالله تعالى فى الخلوات ، ومن الأنس به الأنس بالعلماء والتقرب إلى الأولياء وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير وسعة الصدور والروح عندهم ، ومن الرجاء سقوط ثقل المعاونة على البر والتقوى لوجود حلاوة الأعمال والمسارعة إليها والحث لأهلها عليها والحزن على فوتها والفرح بدركها ، ومن الرجاء التلذذ بدوام حسن الاقبال والتنعم بمناجاة ذى الجلال وحسن الاصغاء إلى محادثة القريب والتلطف فى التملق للحبيب وحسن الظن به فى العفو الجميل ومنال الفضل الجزيل. وقال بعض العارفين : للتوحيد نور وللشرك نار ، ونور التوحيد أحرق للسان الموحدين من نار الشرك لحسنات المشرك . وقدكان يحي بن معاذ يقول فى مقامات الرجاء : إذا كان توحيد ساعة يحبط ذنوب خمسين سنة فتوحيد خمسين سنة ماذا يصنع بالذنوب ؟ وقد قال سهل : لايصح الخوف إلا لأهل الرجاء . وقال مرة : العلماء مقطوعون إلا الخائفين والخائفون مقطوعون إلا الراجين . وكان يجعل الرجاء مقاما فى المحبة وهو عند العلماء أول مقام المحبة ثم يعلو فى الحب على قدر ارتفاعه فى الرجاء وحسن الظن . وفى الخبر «إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم وينفرهم» وقال بشر الحافى : سكون النفس إلى المدح أضر عليها من المعاصى . ورأى يوسف بن الحسين مخنثا فأعرض عنه إزراء عليه فالتفت المخنث إليه فقال وأنت أيضاً يكفيك ما بك ففزع من قوله وقال : أى شيء بى ؟ قال لأن عندك أنك خير منى فاعترف يوسف بذلك فتاب واستغفر ، وكان بعض الراجين يفهم من قوله تعالى إذا تلا « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » يرجو بذلك بوادى الجود والكرم والإحسان مالم يحتسبه فى الدنيا قط . ويقال إن حملة العرش يتجاوبون بأصوات : سبحانك على حلمك بعد علمك سبحانك على عفوك بعد قدرتك ، فللراجين من العارفين فهوم من السمع للكلام نحو علو نظرهم عن سمو علومهم بمعانى الصفات ، فكل صاحب مقام يشهد من مقامه ويسمع من حيث شهادته ، فأعلاهم شهادة الصديقين ثم الشهداء ثم الصالحين ثم خصوص المؤمنين ، فيه تبارك وتعالى استدلوا عليه وبه نظروا إليه « هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » وكان سهل يقول : المؤمن يعيش فى سعة الرحمة والمؤمن يعيش فى سعة الحلم فصفاته تعالى كاملات ، فمن شهد ترجيح بعضها على بعض دخل عليه النقص من مشاهدته لتضور علمه عن تمام علم من فوقه من الشهداء ولأجل مقامه المراد به دون طريق الصديقين من الأقوياء فعاد ذلك علي العبد فصار مقاما له فى القرب والبعد ، تعالى وصف المشهود عن النقصان والحد ومثل الرجاء من الخوف مثل الرخصة من العزائم . وفى الخبر «إن الله تعالى يحب أن يؤتى برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» وفى لفظ آخر أبلغ من هذا وأوكد « إن الله تعالى يحب أن تقبل رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » وفى الخبر « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض نفسك إلى عبادة الله تعالى وخير الدين أيسره » وقال «هلك المتعمقون هلك المتنطعون» وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى نظر إليه منتبذاً وحدانياً ، فقال مالك وحدانياً فقال عاديت الخلق فيك ، قال أو ما علمت أن محبتى أن تعطف على عبادي وتأخذ عليهم بالفضل هنالك أكتبك

من أوليائي وأحبابي ولا تنظر إلى عبيدى نظرة جفاء ولا قسوة فاذا أنت قد أبطلت أجرك فاحفظ عنى ثلاثاً : خالص حبيبي مخالصة وخالق أهل الدنيا مخالقة ودينك فقلدنيه ، وروينا عن الضحاك . « إن العبد ليدنو من ربه عند العرض فيقول له عبدى أتحصى عملك فيقول إلهى كيف أحصيه من دونك وأنت الحافظ للأشياء فيذكره الله تعالى جميع ذنوبه فى الدنيا ويقول لم أجعل للذنوب رائحة توجد منك ولم أجعل فى وجهك شبها وأنا أغفرها لك اليوم على ما كان منك بإيمانك بى وتصديقك المرسلين » ومن الرجاء بشدة الشوق إلى ما شوق إليه الكريم وسرعة التنافس فى كل نفيس ندب إليه الرحيم ، والأخبار فى حقيقة الرجاء تزيد المغترين اغترارا وتزيد المستدرجين باا تر والنعم خسارا ، وهو مزيد التوابين الصادقين وقرة عين للمحبين المخلصين وسرور لأهل الكرم والحياء وروح وارتياح لذوى العصمة والوفاء ينصح به كرمهم ويشتد عنده حياؤهم وترتاح إليه عقولهم فهؤلاء يستخرج منهم الرجاء وحسن الظن من العبادات مالا يستخرجه الخوف ، إن المخاوف تقطع عن أكثر المعاملات فصار الرجاء طريقا لأهله وصاروا واجدين به كما قال عمر رضى الله عنه . رحم الله صهيبا لو لم يخف الله لم يعصه : أى يترك المعاصي للرجاء لا للخوف فصار الرجاء طريقه فهؤلاء هم الراجون حقا وهذه علامتهم ، ولمثل هؤلاء ذكرنا الأسباب التى توجب الرجاء وتولد حسن الظن فى قلوب أهل الصفاء المعصومين من الهوى الموفقين لحسن خدمة المولى فهذه جمل أحكام الرجاء وأوصاف الراجين فمن تحقق بجميعها فقد استحق درجات أهل الرجاء وهو عند الله تعالى من المقربين ومن كان فيه وصف من هذه الأوصاف فله مقام من الرجاء .

واعلم أن مقامات اليقين لا يزيل بعضها بعضا ، فمن غلب عليه حال منها عن وجد مشاهدته وصف بما غلب عليه واستحق ما سوى ذلك من المقامات فيه ، ومن عمل بشرط مقام منها فقام بحكم الله فيه نقل إلى ما سواه وكان المقام الأول له علما . والثانى الذى أقيم فيه له وجدا فكتم الوجد لأنه سره وعبر عن العلم لأنه قد جاوزه فصار علانيته ومقام الرجاء هو جند من جنود الله يستخرج من بعض العباد مالا يستخرج غيره لأن بعض القلوب تلين وتستجيب عن مشاهدة الكرم والإحسان ويقبل ويطمئن معاملة النعم والامتنان مالا يوجد ذلك منها عند التخويف والترهيب بل قد يقطعها ذلك ويوحشها إذ قد جعل الرجاء طريقها فوجدت فيه قلوبها. إلى هنا انتهى كلام صاحب القوت ، وقد حذفت منها أشياء كثيرة .

قال المصنف رحمه الله :

فصل

(فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة) الخامسة : وهى عقبة البواعث (فى تمام الاحتياط

وَالتَّحَرُّزِ وَحَدِّ الرِّعَايَةِ ، فَإِنَّهَا عَقَبَةٌ دَقِيقَةُ الْمَسْلَكِ ، خَطِرَةُ الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ أَنَّ طَرِيقَهَا بَيْنَ طَرِيقَيْنِ مَخُوفَيْنِ مُهْلِكَيْنِ : أَحَدُهُمَا طَرِيقُ الْأَمْنِ . وَالثَّانِى طَرِيقُ الْيَأْسِ ، وَطَرِيقُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ هُوَ الطَّرِيقُ الْعَدْلُ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ الْجَائِرَيْنِ ، فَإِنْ غَلَبَ الرَّجَاءُ عَلَيْكَ حَتَّى فَقَدْتَ الْخَوْفَ أَلْبَتَّةَ وَقَعْتَ فِى طَرِيقِ الْأَمْنِ : (وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) وَإِنْ غَلَبَ عَلَيْكَ الْخَوْفُ حَتَّى فَقَدْتَ الرَّجَاءَ أَلْبَتَّةَ ، وَقَعْتَ فِى طَرِيقِ الْيَأْسِ (وَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) فَإِنْ كُنْتَ رَكِبْتَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَاعْتَصَمْتَ بِهِمَا جَمِيعاً فَهُوَ الطَّرِيقُ الْعَدْلُ الْمُسْتَقِيمُ ، الَّتِى هِىَ سَبِيلُ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَصْفِيَائِهِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً

والتحرز) والتحفظ (وحد الرعاية) أى الحفظ (فإنها) أى هذه العقبة (عقبة دقيقة المسلك) أى المدخل (خطرة الطريق وذلك) أى بيان الدقيقة والخطرة (أن طريقها) أى العقبة (بين طريقين مخوفين مهلكين أحدهما طريق الأمن) من مكر الله (والثاني طريق اليأس) من رحمة الله (وطريق الرجاء والخوف هو الطريق العدل) أى الوسط (بين الطريقين) أى طريق الأمن واليأس (الجائرين) أى المائلين عن الطريق المستقيم (فان غلب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف ألبتة) أى قطعا (وقعت فى طريق الأمن ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ألذين خسروا أنفسهم بالكفر وترك النظر والاعتبار وفى الكتاب العزيز « فلا يأمن مكر الله إلاالقوم الخاسرون » بالفاء : يعني أنه لا يأمن أن يكون ما أعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجا إلا من خسر في أخراه وهلك مع الهالكين كذا فى الخازن (وإن غلب عليك الخوف حتى فقدت الرجاء ألبتة وقعت فى طريق اليأس ولا ييأس من روح الله) أى ولا يقنط من فرجه وتنفيسه (إلا القوم الكافرون) بالله وصفاته فان العارف لا يقنط من رحمة الله فى شىء من الأحوال وفى الكتاب العزيز « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » قال النسفى : لأن من آمن يعلم أنه متقلب فى رحمة الله ونعمته ، وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه فى نعمته فييأس من رحمته (فان كنت ركبت بين الخوف والرجاء واعتصمت بهما) أى الخوف والرجاء (جميعا فهو) أى الركوب والسلوك بينهما (الطريق العدل المستقيم التى هى سبيل أولياء الله وأصفيائه الذين وصفهم الله تعالي بقوله إنهم) يعني المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (كانوا يسارعون فى الخيرات) يبادرون إلى أبواب الخيرات (ويدعوننا رغبا ورهبا)

وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) فَإِذَا ظَهَرَتْ لَكَ فِي هَٰذِهِ الْعَقَبَةِ طُرُقٌ ثَلَاثَةٌ : طَرِيقُ الْأَمْنِ وَالْجُرْأَةِ ، وَطَرِيقُ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ ، وَطَرِيقُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ مُمْتَدًّا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ مِلْتَ عَنْهُ بِقَدَمٍ إِلَى يَمِينِكَ أَوْ يَسَارِكَ وَقَعْتَ فِي الْمُهْلِكِينَ وَهَلَكْتَ مَعَ الْهَالِكِينَ ، ثُمَّ الشَّأْنُ أَنَّ الطَّرِيقَيْنِ الْجَائِرَيْنِ الْمُهْلِكَيْنِ أَوْسَعُ مَجَالاً وَأَكْثَرُ دَاعِيًا ، وَأَسْهَلُ سُلُوكًا مِنَ الطَّرِيقِ الْعَدْلِ ، لِأَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ مِنْ جَانِبِ الْأَمْنِ ، رَأَيْتَ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ وَكَثْرَةِ فَضْلِهِ وَغَايَةِ جُودِهِ ، مَالاَ يَبْقَى لَكَ مَعَهُ خَوْفٌ ، فَتَتَّكِلُ عَلَى ذَٰلِكَ بِمَرَّةٍ وَتَأْمَنُ ، وَإِنْ نَظَرْتَ مِنْ جَانِبِ الْخَوْفِ ، رَأَيْتَ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَسِيَاسَتِهِ وَكَثْرَةِ هَيْبَتِهِ ، وَدِقَّةِ أَمْرِهِ ، وَغَايَةِ مُنَاقَشَتِهِ ، مَعَ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ، مَا لاَ يَكَادُ يَبْقَى مَعَهُ رَجَاءٌ فَتَيْأَسُ بِمَرَّةٍ وَتَقْنَطُ ، فَتَحْتَاجُ إِذَنْ أَنْ لاَ تَنْظُرَ إِلَى سِعَةِ رَحْمَةِ اللهِ فَقَطْ حَتَّى تَتَّكِلَ وَتَأْمَنَ ، وَلاَ إِلَى عَظِيمِ الْهَيْبَةِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَقَطْ ،

ذوى رغب أو راغبين فى الثواب راجين للاجابة أوفى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية (وكانوا لنا خاشعين) أى متذللين مخبتين أو دائمي الوجل ، والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال (فإذا) أى إذا عرفت ما ذكر (ظهرت لك فى هذه العقبة طرق ثلاثة) : أحدها (طريق الأمن والجرأة) بضم الجيم : أى الشجاعة . (و) ثانيها (طريق اليأس والقنوط) عطف تفسير . فى المصباح : القنوط بالضم الإياس من رحمة الله تعالى (و) ثالثها (طريق الخوف والرجاء ممتدا) أى مطولا (بينهما) أى بين الطريقين الجائرين (فإن ملت) أى عدلت (عنه) أى عن طريق الخوف والرجاء (بقدم إلى يمينك أو يسارك وقعت فى المهلكين) وهما الأمن واليأس (وهلكت مع الهالكين ، ثم الشأن أن الطريقين الجائرين المهلكين أوسع مجالا) أى ميدانا ومدخلا (وأكثر داعيا وأسهل سلوكا من الطريق العدل) المستقيم الذى هو طريق الخوف والرجاء (لأنك إذا نظرت من جانب الأمن) والجرأة (رأيت من سعة رحمة الله وكثرة فضله وغاية جوده ما لا يبقى لك معه خوف فتتكل) أى تعتمد (على ذلك) أى سعة الرحمة وكثرة الفضل والجود (بمرة وتأمن وإن نظرت من جانب الخوف رأيت من عظيم قدرة الله تعالى وسياسته) أى تدبيره (وكثرة هيبته ودقة أمره وغاية مناقشته) أى استقصائه فى الحساب (مع أوليائه وأصفيائه مالا يكاد يبقى معه رجاء فتيأس) أى تقنط (بمرة وتقنط) بكسر النون أو فتحها من بابى ضرب وتعب كما فى المصباح (فتحتاج إذن) أى حين إذ عدم الخوف فى النظر الأول والرجاء فى الثاني (أن لاتنظر إلى سعة رحمة الله فقط) أى دون عظيم سياسته وهيبته (حتى تتكل وتأمن ولا) تنظر (إلى عظيم) السياسة و (الهيبة والمناقشة فقط) أى دون سعة رحمة الله (حتى

حَتَّى تَقْنَطَ وَتَيْأَسَ ، بَلْ تَنْظُرَ إِلَى هٰذَا وَإِلَى هٰذَا جَمِيعاً ، وَتَأْخُذَ مِنْ هٰذَا بَعْضًا وَمِنْ هٰذَا بَعْضاً ، فَتَرْكَبَ بَيْنَهُمَا طَرِيقاً دَقِيقاً وَتَسْلُكَ ذٰلِكَ لِتَسْلَمَ . فَإِنَّ طَرِيقَ الرَّجَاءِ الْمَحْضِ سَهْلٌ وَاسِعٌ عَرِيضٌ ، وَعَاقِبَتُهُ تُؤَدِّيكَ إِلَى الْأَمْنِ وَالْخُسْرَانِ . وَطَرِيقُ الْخَوْفِ الْمَحْضِ وَاسِعٌ عَرِيضٌ ، وَعَاقِبَتُهُ تُؤَدِّيكَ إِلَى الضَّلَالِ . وَطَرِيقُ الْعَدْلِ بَيْنَهُمَا ، أَعْنِي طَرِيقَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ طَرِيقاً دَقِيقاً عَسِرًا فَإِنَّهُ سَبِيلٌ سَالِمٌ ، وَمَنْهَجٌ بَيِّنٌ يُؤَدِّي إِلَى الْغُفْرَانِ وَالْإِحْسَانِ ، ثُمَّ إِلَى الْجِنَانِ وَالرِّضْوَانِ ، وَلِقَاءِ الْمَلِكِ الرَّحْمٰنِ سُبْحَانَهُ ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تعالى فى أَبْنَاءِ هٰذَا السَّبِيلِ : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً) ثُمَّ قَالَ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

حتى تقنط وتيأس بل تنظر إلى هذا) أى سعة رحمة الله (وإلى هذا) أى عظيم الهيبة (جميعا وتأخذ من هذا) أى الرحمة (بعضا و) تأخذ (من هذا) أى عظيم الهيبة (بعضا فتركب بينهما) أى بين الطريقين المذكورين (طريقا دقيقا وتسلك ذلك) أى الطريق الدقيق (لتسلم) من الهلاك (فإن طريق الرجاء المحض) أى الخالص عن شائبة الخوف (سهل واسع عريض ، وعاقبته) أى الرجاء المحض (تؤديك إلى الأمن والخسران ، وطريق الخوف المحض) أى الخالص عن شائبة الرجاء (واسع عريض وعاقبته) أى الخوف المحض (تؤديك إلى الضلال وطريق العدل بينهما . أعنى طريق الخوف والرجاء ، وذلك) أى الطريق العدل (وإن كان طريقا دقيقا عسرا فإنه) أى الطريق العدل (سبيل سالم ومنهج) أى طريق (بين) ظاهر (يؤدى إلى الغفران والإحسان ثم) يؤدى (إلى الجنان والرضوان ولقاء الملك الرحمن سبحانه . أما تسمع قوله تعالى فى أبناء هذا السبيل) أى الذين يقيمون فى طريق الخوف والرجاء . قال العلامة عبد الحق : الإبن الولد الذكر ويكنى به فى بعض الأشياء عن الصاحب كابن عرس وأبن ماء على الاستعارة والتشبيه ، ويقال أيضا لكل ما يحصل من جهة شىء أو تربيته أو كثرة خدمته أو قيامه بأمره أو توجهه إليه أو إقامته عليه هو ابنه كما يقال : أبناء العلم وأبناء السبيل وأبناء الدنيا (يدعون ربهم خوفا) من سخطه (وطمعا) فى رحمته (ثم قال) تعالى (فلا تعلم نفس) أى فليس تعلم أنفسهم (ما أخفى لهم) ما أعدلهم وما رفع لهم وما دخر لهم (من قرة أعين) أى مما تقربه أعينهم فلا يلتفتون إلى غيره . قال ابن عباس : هذا مما لا تفسير له . وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم (جزاء بما كانوا يعملون) أى من الطاعات فى دار الدنيا . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن

فَتَأَمَّلْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ جِدًّا وَتَشَمَّرْ وَتَنَبَّهْ لِلْأَمْرِ ، فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ بِالْهُوَيْنَا ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَتَأَتَّى لَكَ سُلُوكُ هٰذِهِ الطَّرِيقِ ، وَحَمْلُ هٰذِهِ النَّفْسِ الْجَمُوحِ الْكَسْلَى عَنِ الْخَيْرِ بِاجْتِنَابِ الْمَحْبُوبِ عِنْدَهَا ، وَاكْتِسَابِ الطَّاعَاتِ الثَّقِيلَةِ عَلَيْهَا ، إِلَّا بِالتَّحَفُّظِ بِثَلَاثَةِ أُصُولٍ ، وَالتَّذَكُّرِ لَهَا عَلَى سَبِيلِ الدَّوَامِ ، مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ وَلَا غَفْلَةٍ ، أَحَدُهَا : ذِكْرُ أَقْوَالِهِ تَعَالَى سُبْحَانَهُ فِى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ . وَالثَّانِى ذِكْرُ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ فِى الْأَخْذِ وَالْعَفْوِ . وَالثَّالِثُ ذِكْرُ جَزَائِهِ لِلْعِبَادِ فِى الْمَعَادِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ؛ وَتَفْصِيلُ كُلِّ فَصْلٍ مِنْهَا يَحْتَاجُ إِلَى صُحُفٍ كَثِيرَةٍ ، وَلِأَجْلِهَا صَنَّفْنَا كِتَابَ : [تَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ] وَنَحْنُ نُشِيرُ فِى هٰذَا الْكِتَابِ إِلَى كَلِمَاتٍ تُوقِفُكَ عَلَى الْمَقْصُودِ إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم «فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة عين » (فتأمل) أيها الرجل (هـذه الجملة) التى ذكرناها (جدا) أى نهاية ومبالغة (وتشمر) أى تهيأ (وتنبه) أى تيقظ (للأمر) وهو السلوك فى الطريق المستقيم (فإنه) أى هذا الأمر (لا يجىء بالهوينا) تصغير الهونى ، والهونى تأنيث الأهون : بمعنى الأسهل (والله ولى التوفيق) والعصمة (ثم اعلم أنه) أى الحال والشأن (لا يتأتى لك سلوك هذه الطريق) العدل بين الطريقين الجائرين (و) لا يتأتى لك (حمل هذه النفس الجموح) أى التى لاتنقاد (الكسلى) أى المتثاقلة (عن الخير باجتناب المحبوب) من المشتهيات (عندها واكتساب الطاعات الثقيلة عليها) أى النفس (إلا بالتحفظ بثلاثة أصول والتذكر لها) أى لهذه الثلاثة (على سبيل الدوام من غير فترة) أى ضعف وانقطاع (ولا غفلة : أحدها) أى الأصول الثلاثة (ذكر أقواله تعالى سبحانه فى الترغيب والترهيب) أى التخويف . (والثانى ذكر أفعاله سبحانه فى الأخذ) بالعذاب (والعفو . والثالث ذكر جزائه) تعالى (للعباد فى المعاد) أى فى الآخرة (من الثواب) للمطيعين (والعقاب) للعاصين (وتفصيل كل فصل منها) أى من الأصول الثلاثة (يحتاج) أى التفصيل (إلى صحف كثيرة) وذكره فى هذا الكتاب يخرجه عن شرطه وهو الاختصار (ولأجلها) أى الأصول الثلاثة (صنفنا كتاب تنبيه الغافلين ، ونحن نشير فى هذا الكتاب) أعنى منهاج العابدين (إلى كلمات توقفك على المقصود إن شاء الله عز وجل ، والله ولى التوفيق) .

﴿ الأصلُ الأوّل : أقواله سبحانهُ وتعالى ﴾

تَدَبَّرْ أيُّهَا الرجلُ مَافى الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، مِنْ آيَاتِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالتَّرْجِيَةِ ، وَالتَّخْوِيفِ ؛ فَمِنْ آيَاتِ الرَّجاء قَوْلُهُ تَعالى : (لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً

﴿الأصل الأول (من الثلاثة المذكورة) أقواله سبحانه وتعالى﴾ (تدبر) أى تفكر (أيها الرجل مافى الكتاب العزيز من آيات الترغيب والترهيب والترجية والتخويف ، فمن آيات الرجاء قوله تعالى) فى سورة الزمر (لا تقنطوا من رحمة الله) لا تيأسوا من مغفرته أولا وتفضله ثانيا . وذكر الخازن عن ابن عباس « أن سبب نزول هذه الآية أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا وانتهكوا الحرمات فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد إن الذى تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملنا كفارة فنزلت « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر إلى قوله : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » قال يبدل شركهم إيمانا وزناهم إحصانا ، ونزلت « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » أخرجه النسائى . وعن ابن عباس أيضا قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشى يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعونى إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب ، وأنا قد فعلت ذلك كله فأنزل الله تعالى « إلا من تاب وآمن وعمل صالحا » فقال وحشى هذا شرط شديد لعلى لا أقدر عليه فهل غير ذلك ؟ فأنزل الله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» فقال وحشى أرانى بعد فى شبهة ، فلا أدرى أيغفر لي أم لا فأنزل الله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ، فقال وحشى نعم هذا فجاء فأسلم . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآيات فى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا به فأنزل الله تعالى هذه الآية فكتبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيده ثم بعث بها إلى عياش بن أبى ربيعة والوليد ابن الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا جميعا وهاجروا . وعن ابن عمر أيضا قال: كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أو نقول : ليس شىء من حسناتنا إلا وهى مقبولة حتى نزلت « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » فلما نزلت هذه الآية قلنا ما هذا الذى يبطل أعمالنا؟ فقال الكبائر والفواحش . قال فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا هلك فنزلت هذه الآية فكففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا من أصحابنا من أصاب شيئا من ذلك خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئا رجونا له (إن الله يغفر الذنوب جميعا) عفوا ولو بعد تعذيب ، وتقييده

بالتوبة خلاف الظاهر . ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك قوله « إن الله لا يغفر أن يشرك به » الآية ذكره البيضاوى .

فصل : فى ذكر أحاديث تتعلق بالآية

روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه دخل المسجد فإذا قاص يقص وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال لم تقنط الناس ؟ ثم قرأ « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » . وروى عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى » أخرجه الترمذى ، وقال حديث حسن غريب . وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل هل له توبة ؟ فأتى راهبا فسأله ، فقال هل لى من توبة ؟ قال لا فقتله وجعل يسأل ، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فضرب صدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تقربى وأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى ، وقال قيسوا ما بينهما فوجد أقرب إلى هذه بشبر فغفر له » لفظ البخارى . ولمسلم قال « فدل على راهب فأتاه ، فقال له إن رجلا قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال لا فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا كان نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربى ، وإلى هذه أن تباعدى ، وقال : قيسوا ما بينهما فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض الذى أراد فقبضته ملائكة الرحمة » .

وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان رجل أسرف على نفسه » وفى رواية « لم يعمل خيرا قط فلما حضره الموت قال لبنيه إذا أنا مت فأحرقونى ثم اطحنونى ، ثم ذرونى فى الريح فو الله لئن قدر على ربى ليعذبنى عذابا ماعذبه أحدا فلما مات فعل به ذلك فأمر الله تعالى الأرض فقال اجمعى ما فيك منه ففعلت فإذا هو قائم فقال : ماحملك على ماصنعت ، قال : خشيتك يارب أوقال مخافتك فغفر له بذلك» وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كان فى بنى إسرائيل رجلان متحابان أحدهما مذنب والآخر فى العبادة مجتهد فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول له أقصر فوجده يوما على ذنب فقال له أقصر فقبض الله أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال الرب تبارك وتعالى للمجتهد أكنت على ما فى يدى قادرا ، وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر

وَمَنْ يَغْفِرُ الذنُوبَ إِلاَّ اللهُ ـ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقابِلُ التَّوْبِ ـ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ

اذهبوا به إلى النار » قال أبو هريرة تكلم والله بكلمة أو بقت دنياه وآخرته . أخرجه أبو داود عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل يا ابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى يا ابن آدم لو أنك أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » أخرجه الترمذى . قوله عنان السماء : العنان السحاب ، وقيل هو ما عن لك منها ، وقراب الأرض بضم القاف : هو مايقارب ملأها . ومن آيات الرجاء قوله تعالى فى سورة آل عمران « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » (ومن) أى لا أحد (يغفر الذنوب إلا الله) وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة ، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له وأنه لا مفزع للمذنبين إلا إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على أن العبد لا يطلب المغفرة إلا منه ، وأنه القادر على عقاب المذنب وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه فثبت أنه لا يجوز طلب المغفرة إلا منه . ومنها أيضا قوله تعالى فى سورة المؤمن « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (غافر الذنب) أى ساتر ذنب المؤمنين (وقابل التوب)» قابل توبة الراجعين ، والتوب والثوب والأوب أخوات ، وإدخال الواو فى وقابل التوب لنكتة وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها محاءة للذنوب كأن لم يذنب كأنه قال جامع المغفرة والقبول . وروى أن عمر رضى الله عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشأم فقيل له تتابع فى هذا الشراب فقال عمر لكاتبه اكتب من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو بسم الله الرحمن الرحيم « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » وختم الكتاب وقال لرسوله لاتدفعه إليه حتى تجده صاحيا، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى وحذرني عقابه فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته ، فلما بلغ عمر أمره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا كم زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا له الله أن يتوب عليه ولاتكونوا أعوانا للشياطين عليه . ومنها قوله تعالى فى سورة الشورى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه : يقال قبلت منه الشيء إذا أخذته منه وجعلته مبدأ قبولى ، ويقال قبلته عنه : أى عزلته عنه وأبنته عنه ! والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعود وإن كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التقضى على طريقه . وقال على رضى الله عنه

وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ـ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ـ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ـ

هو اسم يقع على ستة معان : على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته . وعن السدى هو صدق العزيمة على ترك الذنوب والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب . وعن غيره هو أن يجد حلاوة الذنب فى القلب عند ذكره . وعن سهل هو الانتقال من الأحوال المذمومة إلي الأحوال المحمودة . وعن الجنيد هو الإعراض عما دون الله (ويعفو عن السيئات) صغيرها وكبيرها لمن يشاء ، ومنها قوله تعالى فى سورة الأنعام (كتب ربكم) أى فرض وقضى (على نفسه الرحمة) وهذا يفيد الوجوب . وسبب هذا أنه تعالى يتصرف فى عباده كيف يشاء وأراد فأوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، كذا ذكره الخازن ، والمراد بالرحمة مايعم الدارين ومن ذلك الهداية إلى معرفته والعلم بتوحيده بنصب الأدلة وإنزال الكتب والإمهال على الكفر . ومنها قوله تعالى فى سورة الأعراف (ورحمتى وسعت كل شىء) يعنى أن رحمته سبحانه وتعالى عمت خلقه كلهم . وقال بعضهم هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر فى الدنيا وهى للمؤمنين خاصة فى الآخرة ، وقيل للمؤمنين خاصة فى الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله فاذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة . قال جماعة من المفسرين لما نزلت « ورحمتى وسعت كل شىء » تطاول إبليس إليها وقال أنا من ذلك الشىء فنزعها الله تعالى من إبليس فقال الله تعالى (فسأكتبها) فسأثبتها فى الآخرة أو فسأكتبها كتبة خاصة منكم يابنى إسرائيل (للذين يتقون) ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » فأيس إبليس منها . وقالت اليهود نحن نتقى ونؤتى الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الأمة . فقال تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى » الآية . وقال نوف البكالى : لما اختار موسى من قومه سبعين رجلا قال الله تعالى لموسى أجعل لك الأرض مسجدا وطهورا تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مرحاض أو حمام أو قبر ، وأجعل السكينة فى قلوبكم وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير . فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لانريد أن نصلى إلا فى الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة فى قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها إلا نظرا . قال الله تعالى « فسأكتبها للذين يتقون إلى قوله المفلحون » فجعلها الله تعالى لهذه الأمة فقال موسى رب اجعلنى نبيهم ، قال نبيهم منهم . قال اجعلنى منهم ، قال إنك لن تدركهم . قال موسى يا رب أتيتك بوفد بنى إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » فرضى موسى .

إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ — وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) فَهَذِهِ وَنَحْوُهَا آيَاتُ الرَّجَاءِ

وَمِنْ آيَاتِ الْخَوْفِ وَالسِّيَاسَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ — أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ — أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى —

أما التفسير فقوله « الذين يتقون » يعني الشرك وسائر مانهوا عنه لأن جميع التكاليف محصور في نوعين : الأول التروك وهي الأشياء التى يجب على الإنسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها وإليه الإشارة بقوله تعالى «للذين يتقون» . والثانى الأفعال المأمور بها وتلك الأعمال بدنية وقلبية : أما البدنية فإليها الإشارة بقوله «ويؤتون الزكاة» وهذه الآية وإن كانت فى حق المال لكن يختص البدن باخراجها ، والأعمال القلبية كالإيمان والمغفرة وإليها الإشارة بقوله تعالى « والذين هم بآياتنا يؤمنون » ومنها قوله تعالى فى سورة البقرة « وما كان الله ليضيع إيمانكم » (إن الله بالناس لرءوف رحيم) يعنى لا يضيع أجورهم ، والرأفة أخص من الرحمة ، وقيل الرأفة أشد من الرحمة ، وقيل الرأفة الرحمة ، وقيل فى الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهى دفع المكروه وإزالة الضرر . وأما الرحمة فانها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه أيضا جميع الأفضال والإنعام فذكر الله الرأفة أولا بمعنى أنه لايضيع أعمالهم ، ثم ذكر الرحمة ثانيا لأنها أعم وأشمل . ومنها قوله تعالى فى سورة الأحزاب « هو الذى يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور (وكان بالمؤمنين رحيما) » فيه بشارة لجميع المؤمنين وإشارة إلى أن قوله يصلى عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحى ، بل هو عام لجميع المسلمين كما فى الخازن (فهذه) أى الآيات المذكورة (ونحوها آيات الرجاء ، ومن آيات الخوف والسياسة قوله تعالى) فى سورة الزمر (ياعباد فاتقون) أى نخافون ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى ، ومن آيات الخوف والسياسة قوله تعالى فى سورة المؤمنين (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) توبيخ على تغافلهم وعبثا حال بمعنى عابثين أو مفعول له : أى إنا لم نخلقكم تلهيا بكم وإنما خلقناكم لتعبدكم ونجازيكم على أعمالكم . وهو كالدليل على البعث كما فى البيضاوى (وأنكم إلينا لاترجعون) أى فى دار الآخرة للجزاء . روى البغوى بسنده عن الحسن «أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه فى أذنه ـ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ـ حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا رقيت فى أذنه فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال » . ومن الآيات المذكورة قوله تعالى فى سورة القيامة (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) أى مهملا لا يؤمر ولا ينهى ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ — مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا —

فى الآخرة . ومنها قوله تعالى فى سورة النساء (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) أى ليس ما وعد الله من الثواب ينال بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأمانى أهل الكتاب وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح ، وقيل ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . روي «أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون نحن أولى بالله منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة فنزلت » وقيل الخطاب مع المشركين ويدل عليه تقدم ذكرهم : أى ليس الأمر بأمانى المشركين وهو قولهم لا جنة ولا نار وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيرا منهم وأحسن حالا «ولا أمانى أهل الكتاب» وهو قولهم «لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى» وقولهم « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » ، ثم قرر ذلك وقال (من يعمل سوءا يجز به) عاجلا أو آجلا لما روى « أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله عنه فمن ينجو مع هذا يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام أما تحزن أما تمرض أما يصيبك اللأواء ؟ قال بلى يا رسول الله . قال هو ذاك » كذا ذكره البيضاوى . وفى الخازن قال الضحاك يقول: ليس لكم ما تمنيتم وليس لأهل الكتاب ما تمنوا ، ولكن من عمل سوءا يعنى شركا فمات عليه يجز به النار . وقال الحسن : هذا فى حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ، ولا يجزى المؤمن بسيء عمله ولكن يجزى بأحسن عمله ويتجاوز عن سيئاته ، ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله (ولا يجد له من دون الله وليا) قريبا ينفعه (ولا نصيرا) مانعا يمنعه وهذا هو الكافر . فأما المؤمن فله ولى ونصير ، وقال آخرون : هذه الآية فى حق كل من عمل سوءا من مسلم ونصرانى وكافر . قال ابن عباس رضى الله عنهما هى عامة فى حق كل من عمل سوءا يجز به إلا أن يتوب قبل أن يموت فيتوب الله عليه ، وقال ابن عباس : فى رواية أبى صالح عنه « لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين مشقة شديدة وقالوا يا رسول الله وأينا من لم يعمل سوءا غيرك فكيف الجزاء ؟ قال : منه ما يكون فى الدنيا ، فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات ، ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته وبقيت له تسع حسنات ، فويل لمن غلبت آحاده أعشاره ، وأما من كان جزاؤه فى الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة فيؤتى كل ذى فضل فضله » . ويدل على صحة هذا القول ما روى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال « لما نزلت من يعمل سوءا يجز به » بلغت من المسلمين مبلغا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها » أخرجه مسلم . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال « كنت

وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا — وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ — وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءًا مَنْثُورًا) نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُسَلِّمَنَا بِرَحْمَتِهِ .

وَمِنَ الآيَاتِ اللَّطِيفَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْخَوفِ وَالرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (نَبِّئْ عِبَادِي

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت : « من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت علي؟ قلت: بلى يا رسول الله : فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني وجدت نقصا ما في ظهري فتمطأت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنك يا أبا بكر ؟ فقلت يارسول الله بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءا وإنا لمجزيون بأعمالنا ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجتمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة » أخرجه الترمذى ، وقال حديث غريب وفى إسناده مقال ، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى بكر وليس له إسناد صحيح . فإن قلنا هذه الآية خاصة فى حق الكفار فتأويلها ظاهر ؛ وإن قلنا إنها فى حق كل عامل سوءا من مسلم وكافر فانه لاولى لأحد من دون الله يوم القيامة ولا ناصر ، فالمؤمنون لا ولى لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون بإذن الله فليس يمنع أحد أحدا عن الله ، ومنها قوله تعالى فىسورة الكهف «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا (وهم يحسبون) أى يظنون (أنهم يحسنون صنعا ») أى عملا لعجبهم واعتقادهم أنهم على الحق . ومنها قوله تعالى فى سورة الزمر « ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ») أى ظهر لهم حين بعثوا مالم يحتسبوا أنه نازل بهم فى الآخرة ، وقيل ظنوا أن لهم حسنات فبدت لهم سيئات . المعنى أنهم يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأصنام فلما عوقبوا عليها بدالهم من الله مالم يحتسبوا ، وروى أن محمد بن المنكدر جزع عند الموت ، فقيل له فى ذلك فقال : أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب . ومنها قوله تعالى فى سورة الفرقان (« وقدمنا) عمدنا (إلى ما عملوا) فى كفرهم (من عمل) من الخير كصدقة وصلة رحم وقرى ضيف وإغاثة ملهوف فى الدنيا (فجعلناه هباء منثورا ») أي باطلا لا ثواب له لأنهم لم يعملوه لله عز وجل ، ومنه الحديث الصحيح « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » والهباء : هو ما يرى فى الكوة كالغبار إذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالأيدى ولا يرى فى الظل والمنثور المفرق . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر ، وقيل هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار (نسأل الله تعالى أن يسلمنا) من الوقوع فى المهالك (برحمته . ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء قوله تعالى) فىسورة الحجر (نبئ) خبر يا محمد (عبادى

أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ثُمَّ قَالَ فِي عَقِبِهِ : (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) لِئَلَّا يَسْتَوْلِي عَلَيْكَ الرَّجَاءُ بِمَرَّةٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (شَدِيدُ الْعِقَابِ) ثُمَّ قَالَ فِي عَقِبِهِ : (ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) لِئَلَّا يَسْتَوْلِي عَلَيْكَ الْخَوْفُ بِمَرَّةٍ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ . قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

أنى أنا الغفور الرحيم) . قال ابن عباس: يعني لمن تاب منهم ، وروى « أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال : أتضحكون وبين أيديكم النار ؟ فنزل جبريل بهذه الآية وقال : يقول لك ربك يا محمد مم تقنط عبادى ؟ » ذكره البغوى بغير سند (ثم قال) تعالى (فى عقبه) أى عقب هذا القول المذكور (وأن عذابى هو العذاب الأليم) . قال قتادة : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه » يعني لقتل نفسه . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأدخل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار » وفى الآية لطائف : منها أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه بقوله : « نبئ عبادى » وهذا تشريف وتعظيم لهم ، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحانه «الذى أسرى بعبده ليلا» فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل فى هذا التشريف العظيم . ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة : أولها قوله أنى ، وثانيها أنا ، وثالثها إدخال الألف واللام فى الغفور الرحيم ، وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ، ولما ذكر العذاب لم يقل إنى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك ، بل قال « وأن عذابى هو العذاب الأليم » على سبيل الإخبار . ومنها أنه سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ عباده هذا المعنى ، فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة (لئلا يستولى) أى وإنما قال ذلك لئلا يستولى : أى يغلب (عليك الرجاء بمرة . و) من الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء أيضا (قوله تعالى) فى سورة المؤمن (شديد العقاب) للكافرين : أي مشدده (ثم قال) تعالى (فى عقبة ــ ذى الطول) أى السعة والغنى ، وقيل ذى الفضل والنعم ، وأصل الطول : الإنعام الذى تطول مدته على صاحبه (لا إله إلا هو) أى هو الموصوف بصفات الوحدانية التى لا يوصف بها غيره فيجب الإقبال الكلى على عبادته (لئلا يستولى عليك الخوف بمرة وأعجب منه) أى من القول المذكور (قوله سبحانه وتعالى) فى سورة آل عمران (ويحذركم الله نفسه) أى ويخوفكم الله أن تعصوه بأن ترتكبوا المنهي عنه

ثُمَّ قالَ فى عقِبِهِ : (وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبادِ) وَأَعْجَبُ مِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : (مَنْ خَشِىَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ) عَلَّقَ الْخَشْيَةَ بِاسْمِ الرَّحْمٰنِ ، دُونَ اسْمِ الْجَبَّارِ ، وَالْمُنْتَقِمِ ، وَالْمُتَكَبِّرِ وَنَحْوِهِ ، لِتَكُونَ الْخَشْيَةُ مَعَ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ ، فَلا تَكُونُ الْخَشْيَةُ تُطِيرُ قَلْبَكَ بِمَرَّةٍ ، فَيَكُونُ تَخْوِيفاً فى تَأْمِينٍ وَتَحْرِيكاً فى تَسْكِينٍ كَما تَقُولُ : أَما تَخْشَى الْوالِدَةَ الرَّحِيمَةَ ؟ أَما تَخافُ الْوالِدَ الْمُشْفِقَ ؟ أَما تَحْذَرُ الْأَمِيرَ الْكَرِيمَ ؟ وَالْمُرادُ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ الطَّرِيقُ عَدْلاً ، فَلا تَذْهَبْ إِلى أَمْنٍ وَقُنُوطٍ . جَعَلَنا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمُتَدَبِّرِينَ لِهٰذا الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَالْعامِلِينَ بِما فِيهِ بِرَحْمَتِهِ ، إِنَّهُ هُوَ الْجَوادُ الْكَرِيمُ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ .

﴿ الأصلُ الثانى : فى أفعاله عزّ وجلّ ومعاملاته ﴾

أَمَّا مِنْ جانِبِ الْخَوْفِ : فَاعْلَمْ أَنَّ إِبْلِيسَ عَبَدَهُ ثَمانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ،

أو تخالفوا المأمور به أو توالوا الكفار فتستحقوا عقابه على ذلك كله . قال القاضى : وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهى عنه فى القبح . وذكر النفس ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة (ثم قال) تعالى (فى عقبه « والله رءوف بالعباد») إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم ، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم ، فيرجى رحمته ويخشى عذابه (وأعجب منه) أى من هذا القول (قوله سبحانه وتعالى) فى سورة قۤ (من خشى الرحمن بالغيب) أى خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره ، وقيل خافه فى الخلوة بحيث لا يراه أحد إذا ألقى الستر وأغلق الباب (علق) سبحانه وتعالى (الخشية باسم الرحمن دون اسم الجبار) جبر خلقه على ما أراده (و) دون اسم (المنتقم) أى المعاقب للعصاة (والمتكبر) عما لا يليق (ونحوه) أى نحو ماذكر من الجبار والمنتقم والمتكبر (لتكون الخشية مع ذكر الرحمة فلا تكون الخشية تطير قلبك بمرة فيكون ذكر الرحمة تخويفا فى تأمين) أى مع تأمين (وتحريكا فى تسكين) أى مع تسكين (كما تقول : أما تخشى الوالدة الرحيمة ، أما تخاف الوالد المشفق ، أما تحذر الأمير الكريم ؟ والمراد من ذلك) أى كون الخشية مع ذكر الرحمة (أن يكون الطريق عدلا) بين الطريقين المهلكين (فلا تذهب إلى أمن وقنوط ، جعلنا الله وإياكم من المتدبرين) والمتفكرين (لهذا الذكر) أى القرآن (الحكيم و) من (العاملين بما فيه) أى الذكر الحكيم (برحمته إنه) تعالى (هو الجواد الكريم ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) .

﴿ الأصل الثانى ﴾ : من الأصول الثلاثة (فى) ذكر (أفعاله عز وجل ومعاملاته ﴾ فى الأخذ والعفو (أما) ذكر أفعاله (من جانب الخوف . فاعلم أن إبليس) اللعين (عبده) تعالى (ثمانين ألف سنة)

فَلَمْ يَتْرُكْ فِيماَ قِيلَ مَوْضِعَ قَدَمٍ إلاّ وَسَجَدَ لِلّهِ تَعَالَى فِيهِ سَجْدَةً ، ثُمَّ تَرَكَ أَمْرًا وَاحِدًا فَطَرَدَهُ عَنْ بَابِهِ ، وَضَرَبَ بِوَجْهِهِ عِبَادَةَ ثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَلَعَنَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً أَلِيماً إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ .

حَتَّى رُوِيَ أَنَّ الصَّادِقَ الْأَمِينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ، رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مُتَعَلِّقًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَهُوَ يَصْرُخُ وَيُنَادِي : إِلَهِي وَسَيِّدِي : لاَ تُغَيِّرِ اسْمِي ، وَلاَ تُبَدِّلْ جِسْمِي .

بل أكثر منها كما قاله بعضهم (فلم يترك) إبليس اللعين (فيا قيل موضع قدم إلا وسجد لله تعالى فيه) أى فى ذلك الموضع (سجدة ، ثم) كان اللعين فى عاقبة أمره أنه (ترك أمرا واحدا) وهو السجود لآدم عليه السلام (فطرده) الله تعالى (عن بابه) أى باب رحمته (وضرب) سبحانه وتعالى (بوجهه) أى اللعين (عبادة ثمانين ألف سنة ولعنه) أى أبعده من رحمته (إلى يوم الدين) أى الجزاء (وأعد) تعالى (له) أى اللعين (عذابا أليما) أى مؤلما (إلى أبد الآبدين حتى روى أن الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه رأى جبريل عليه السلام متعلقا بأستار الكعبة وهو) أى جبريل (يصرخ) من باب قتل : أى يصيح ويستغيث (وينادى : إلهى وسيدى لا تغير اسمى ولا تبدل جسمى) وحتى روي في الخبر المشهور «أن النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك» وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب ، وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله قد أمنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما كما أن خليله إبراهيم عليه السلام اختبره تعالى لما وضع فى المنجنيق وأهوى به فى الهواء قال : حسبى الله وكانت هذه القولة من الدعاوى العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء حتى قال ، ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقه قوله : حسبى الله ، فأخبر الله تعالى عنه فقال « وإبراهيم الذى وفى » أى بموجب قوله : حسبى الله ، ومثل هذا المعنى أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال « إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة ، إذ لم يأمن مكر الله والتباس الأمر بأن يكون قد أسرعنه فى غيبه ، وقد استأثر عن نفسه تعالى مالم يظهره له فى القول لمعرفته عليه السلام بخفى المكر وباطن الوصف ولعلمه أنه لم يعطه الحكم إذ هو محكوم عليه مقهور فخاف خوفا ثانيا حتى جدد عليه الأمن بحكم ثان ، وقيل له «لا تخف إنك أنت الأعلى ، لا تخف إنك من الآمنين» فاطمأن إلى القائل ولم يسكن إلى الإظهار الأول لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التى لانهاية لها ولأن القول أحكام والحاكم لاتحكم

ثُمَّ آدَمُ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، صَفِيُّهُ وَنَبِيُّهُ الَّذِى خَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ إِلَى جِوَارِهِ ، أَنْبَسَطَ فَأَكَلَ أَكْلَةً وَاحِدَةً لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِيهَا ، فَنُودِىَ: أَلاَ لا يُجَاوِرُنِى مَنْ عَصَانِى ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ حَمَلُوا سَرِيرَهُ يَزُجُّونَهُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ ، حَتَّى أَوْقَعُوهُ بِالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ فِيمَا رُوِى ، حَتَّى بَكَى عَلَى ذٰلِكَ مِائَتَىْ سَنَةٍ ، وَلَحِقَهُ مِنَ الْهَوَانِ وَالْبَلَاءِ مَالَحِقَهُ ، وَبَقِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ فِى تَبِعَاتِ ذٰلِكَ عَلَى الْأَبَدِ .

ثُمَّ إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْخَ الْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، الَّذِى أَحْتَمَلَ فِى أَمْرِ دِينِهِ مَا أَحْتَمَلَ ، لَمْ يَقُلْ إِلاَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا إِذْ نُودِىَ : (فَلَا تَسْأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ،

عليه الأحكام كما لاتعود عليه الأحكام وإنما تفصل الأحكام من الحاكم العلام ثم تعود على الحكومات أبدا ولأنه جلت قدرته لا يلزمه ما ألزم الخلق الذين هم تحت الحكم ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (ثم) إن (آدم صلى الله عليه وسلم صفيه ونبيه الذى خلقه بيده) أى بقدرته (وأسجد) تعالى (له) أى لآدم عليه السلام (ملائكته وحمله على أعناقهم إلى جواره) فى جنة النعيم مجاورة معنوية (انبسط) أى اتسع فى الجنة (فأكل)عليه السلام(أكلة واحدة لم يؤذن له) أى لآدم (فيها) أىفى تلك الأكلة (فنودى : ألا لايجاورنى من عصانى وأمر) تعالى (الملائكة الذين حملوا سريره) عليه السلام (يزجونه) أى يسوقونه ويدفعونه زجاه يزجوه زجوا واوى : ساقه ودفعه برفق وزجى الشيء تزجية : دفعه برفق وأزجاه إزجاء بمعنى زجاه كذافى سراج السالكين (من سماء إلى سماء حتى أوقعوه) أى آدم عليه السلام (بالأرض ولم يقبل توبته فيما روى حتي بكى) عليه السلام (على ذلك) أى على انبساطه فى الأكل المنهى عنه (مائتى سنة ولحقه) أى آدم (من الهوان) أى الذل . هان الرجل هونا وهوانا ومهانة :ذل وحقر وضعف وسكن وقر (والبلاء ما لحقه وبقيت ذريته فى تبعات) أى حقوق (ذلك) الذنب (على الأبد . ثم إن نوحا عليه السلام شيخ المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين الذى احتمل) عليه السلام (فى أمر دينه ما احتمل) أى من الصبر على إيذاء قومه وغيره (لم يقل) نوح عليه السلام(إلا كلمة واحدة) وهي قوله «إن ابنى من أهلي» قيل له «إنه ليس من أهلك» إلى آخره (على غير وجهها)وفى نسخة علي غير موضعها (إذ نودى « فلا تسألن ماليس لك به علم») وذلك أن نوحا عليه السلام سأل ربه إنجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده ، وهو لا يعلم أن ذلك محذور لإصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسئلة وأعلمه أن ذلك لا يجوز .

إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) حَتَّى رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ لَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَيَاءً مِنَ اللهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً .

ثُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا هَفْوَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَكَمْ خَافَ وَتَضَرَّعَ وَقَالَ : (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) حَتَّى رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَبْكِي مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ، فَيُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ الْأَمِينَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيَقُولُ يَا إِبْرَاهِيمُ : هَلْ رَأَيْتَ خَلِيلاً يُعَذِّبُ خَلِيلَهُ بِالنَّارِ فَيَقُولُ : يَا جِبْرِيلُ إِذَا ذَكَرْتُ خَطِيئَتِي نَسِيتُ خُلَّتَهُ .

ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ صلى اللهُ عليه وسلم ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا لَطْمَةٌ وَاحِدَةٌ عَنْ حِدَّةٍ ،

فقال «فلا تسألن ماليس لك به علم» بجواز مسألته (إني أعظك) يعني أنهاك (أن تكون من الجاهلين) يعني لمثل هذا السؤال (حتى روى في بعض الأخبار أنه) أي نوحا عليه السلام (لم يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله أربعين سنة . ثم إن إبراهيم خليل الله عليه السلام لم يكن منه إلا هفوة) أي زلة (واحدة) وهي قوله واغفر لأبي (فكم خاف) إبراهيم عليه السلام (وتضرع وقال والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) أي يوم الجزاء وهو يوم القيامة لأن الناس يجزون فيه على أعمالهم وفي البيضاوي ذكر ذلك هضما لنفسه وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب لأن يغفر لهم ما يفرط منهم واستغفارا لما عسى يندر منه من الصغائر وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث «إني سقيم بل فعله كبيرهم» وقوله هي أختي ضعيف لأنها معاريض وليست خطايا وذكر الخازن حديث مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت « قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين أكان ذلك نافعا له ، قال لا ينفع إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » (حتى روى أنه) أي إبراهيم (كان يبكي من شدة الخوف فيرسل الله تعالى إليه الأمين جبريل عليه السلام فيقول) جبريل له : ربك يقرئك السلام ويقول (يا إبراهيم هل رأيت خليلا يعذب خليله بالنار؟ فيقول) إبراهيم (يا جبريل إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلته) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين (ثم) إن (موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم لم يكن منه إلا لطمة) أي ضربة على الوجه بباطن الراحة (واحدة عن حدة) هو ما يعترى الإنسان من الغضب قال ابن عباس رضي الله عنهما لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع ، وكان بنو إسرائيل قد عزوا

فَكَمْ خَافَ وَتَضَرَّعَ ، وَاسْتَغْفَرَ وَقَالَ : (رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى) ، ثُمَّ فِى زَمَانِهِ بَلْعَمُ بْنُ بَاعُورَاءَ ، كَانَ بِحَيْثُ إِذَا نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَرَى الْعَرْشَ ، وَهُوَ الْمَعْنِىُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا

بمكان موسى لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من القبط فاستغاثه الذى من شيعته يعنى الإسرائيلى على الذى من عدوه يعنى الفرعونى . والمعنى أنه سأله أن يخلصه منه وأن ينصره عليه .فغضب موسى واشتد غضبه لأنه أخذه وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة فقال موسى للفرعونى خل سبيله ، فقال إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه ، فقال الفرعونى لقد هممت أن أحمله عليك ، وكان موسى قد أوتى بسطة فى الخلق وشدة فى القوة «فوكزه موسى» أى ضربه بجمع كفه «فقضى عليه» أى قتله وفرغ من أمره فتندم موسى عليه ، ولم يكن قصده القتل ودفنه في الرمل (فكم خاف) موسى عليه السلام (وتضرع واستغفر) ربه (وقال رب إنى ظلمت نفسى) أى بقتل القبطى من غير أمر ، وقيل هو على سبيل الاتضاع لله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب (فاغفرلى) أى ترك هذا المندوب ، وقيل يحتمل أن يكون المراد رب إنى ظلمت نفسى حيث فعلت هذا فإن فرعون إذا عرف ذلك قتلنى به ، فقال فاغفر لى . أى فاستره علىّ ولا توصل خبره إلى فرعون (ثم) كان (فى زمانه) أى موسى عليه السلام (بلعم بن باعوراء) و (كان) ابن باعوراء (بحيث إذا نظر إلى السماء يرى العرش) أى عرش الرحمن قال النووي بن عمر فى ترغيبه ٧ والعرش جسم عظيم نورانى علوى ، وهو قبة ذات قوائم يحمله الآن أربعة وفى الآخرة ثمانية رؤوسهم فوق السماء السابعة وأقدامهم فى الأرض السفلى وإنما زيد فى حملته فى الآخرة لأنه يزداد تجلى الجلال عليه فيها ، وقد ورد أن له ثلثمائة وستين قائمة عرض كل قائمة منها قدر عرض الدنيا سبعين ألف مرة وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صخرة فى كل صخرة ستون ألف عالم وكل عالم كالثقلين من الجن والإنس ولذلك وصفه الله تعالى بالعظيم فى قوله تعالى «وهو رب العرش العظيم» بناء على قراءته بالجر كما هو القراءة المشهورة (وهو المعنىّ) أى المراد (بقوله تعالى واتل عليهم) أى على اليهودى (نبأ) خبر (الذى آتيناه آياتنا) وهى علوم الكتب القديمة والتصرف بالاسم الأعظم فكان يدعو به حيث شاء فيجاب بعين ماطلب فى الحال واختلفوا فيه أى فى الذى أوتى الآيات فقال ابن عباس رضي الله عنهما هو بلعم بن باعوراء ، وقال مجاهد بلعم بن باعر ، وقال بن مسعود هو بلعم بن أبر قال عطية قال ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان من بنى إسرائيل ، وفى رواية أخرى عنه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين ، وقال مقاتل هو من مدينة البلقاء . وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما ومحمد بن إسحاق والسدى وغيرهم من أصحاب الأخبار والسير قالوا إن موسى

عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه وكان عندهم اسم الله الأعظم فقالوا إن موسى رجل حديد وإن معه جنودا كثيرة وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحملها بنى إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع أن يردهم عنا ، فقال ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت هذا ذهب دنياى وآخرتى فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أؤامر ربى وكان لايدعو حتى يؤامر ربه فى المنام فأتى فى المنام فقيل له لا تدع عليهم ، فقال للقوم إنى قد آمرت ربى فنهانى أن أدعو عليهم فأهدوا له هدية فقبلها وراجعوه ، فقال حتى أؤامر ربى فآمر فلم يوح إليه بشىء فقال قد آمرت ربى فلم يوح إلى شىء فقالوا له لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه ، فافتتن فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسان ، فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى أذلقها فأذن الله عز وجل لها فى الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه ، فقالت ويحك يا بلعام أتدرى أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى يردونى عن وجهى هذا ؟ ويحك أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين فتدعو عليهم ؟ فلم ينزع فخلى الله سبيل الأتان فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على جبل حسان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشىء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بنى إسرائيل ، فقال له قومه يا بلعام أتدرى ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ، فقال هذا ما لا أملكه هذا شىء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره ، فقال لقومه قد ذهبت منى الدنيا والآخرة ولم يبق لى إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ، ثم قال جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلى عسكر بنى إسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنه إن زنى رجل منهم بواحدة منهن كفيتموه ففعلوا ذلك ، فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستى بنت صور على رجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له زمرى ابن شلوم سبط شمعون بن يعقوب فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام . وقال إنى لأظنك تقول هذه حرام عليك ، فقال أجل هى حرام عليك لا تقربها ، قال والله إنى لا أطيعك فى هذا ثم قام ودخل بها إلى قبته فوقع عليها فأرسل الله عز وجل الطاعون على بنى إسرائيل فى ذلك الوقت وكان فنحاص بن العيزار بن هارون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلا فظا قد أعطى بسطة فى الخلق وقوة البطش ، وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس فى بنى إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فطعنهما بحربته فانتظمهما ثم خرج بهما وهو رافعهما إلى السماء ، وقد أخذ الحربة بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند

فَانْسَلَخَ مِنهَا) وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إلاّ أنَّهُ مَالَ إلى الدُّنيَا وَأهْلِهَا مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَتَرَكَ لِوَلِيّ مِنْ أوْلِيَائِهِ .

الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بنى إسرائيل فحسب من مات منهم فى ذلك الطاعون فما بين أن أصاب ذلك الرجل المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه وقد هلك سبعون ألفا فى ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطى بنو إسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها الفشة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته ويعطوهن البكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار . وفى بلعام أنزل الله عز وجل « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » الآية . وقال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى : فقال بلعام إنه من أهل دينى ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها ، فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الأتان فضربها ، فقالت لم تضربنى وأنا مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتنى أن أمشى ؟ فرجع إلى الملك فأخبره بذلك ، فقال لتدعون عليه أو لأصلبنك فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بنى إسرائيل فى التية بدعاء بلعام عليه ، فقال موسى يارب بأى ذنب وقعت فى التيه ؟ قال بدعاء بلعام ، قال فكما سمعت دعاءه على فاسمع دعائى عليه ، فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء ، فذلك قوله تعالى «آتيناه آياتنا فانسلخ منها» .

فإن قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين ، وفيها أن موسى عليه السلام دعا على بلعام بأن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان ، وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه فى النبوة أن يدعو على إنسان بالكفر بعد الإيمان أو يرضى له بذلك ؟ . قلت : الجواب عنه من وجوه : أحدها: منع صحة هذه القصة لأنها من الإسرائيليات ، ولا يلتفت إلى ما يسطره أهل الأخبار إذا خالف الأصول . الوجه الثانى : أن سبب وقوع بنى إسرائيل فى التيه هو عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام «اجعل لنا إلها» فكان ذلك هو سبب وقوعهم فى التيه لادعاء بلعام عليهم الوجه الثالث : على تقدير صحة هذه القصة وأن موسى عليه السلام دعا على بلعام أن موسى عليه السلام لم يدع عليه إلا بعد أن ثبت عنده أن بلعام كفر وارتد عن الإيمان بدعائه على موسى وإيثاره الحياة الدنيا فدعا عليه مقابلة لدعائه عليه ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك كله ؛ والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله أصحاب الأخبار فى كتبهم من غير نظر فيه ولا بحث عن معناه (فانسلخ منها) يعنى نخرج من الآيات التى كان الله آتاه إياها كما تنسلخ الحية من جلدها . وقال ابن عباس : نزع منه العلم (ولم يكن منه) أى من بلعام (إلا أنه مال إلى الدنيا وأهلها) ورضى بها (ميلة واحدة وترك) بلعام (لولى) أى لموسى عليه السلام (من أوليائه) تعالى

حُرْمَةً وَاحِدَةً، فَسَلَبَهُ اللهُ مَعْرِفَتَهُ، وَجَعَلَهُ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ الْمَطْرُودِ، فَقَالَ: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ) الآيَةَ . فَأَوْقَعَهُ فِى بَحْرِ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ إِلَى آخِرِ الْأَبَدِ حَتَّى سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ فِى أَوَّلِ أَمْرِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ فِى مَجْلِسِهِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مِحْبَرَةٍ لِلْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ عَنْهُ ، ثُمَّ صَارَ بِحَيْثُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ صَنَّفَ كِتَابًا وَذَكَرَ فِيهِ : أَنَّ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعٌ ، نَعُوذُ بِاللهِ ، ثُمَّ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ

(حرمة واحدة فسلبه الله معرفته) وعلمه (وجعله) الله (بمنزلة الكلب المطرود، فقال) تعالى (فمثله) فصفته التى هى مثل فى الخسة (كمثل الكلب) كصفته فى أخس أحواله وهو (إن تحمل عليه يلهث » الآية) أى اقرأ بقيتها وهى قوله « أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الإعياء والتعب ، وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن آتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب فى أخس أحواله وهو اللهث ، لأن الكلب فى حال لهثه لايقدر على نفع نفسه ولا ضرها، كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضررها فى الآخرة ، لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال إن حملت عليه أو تركته كان لاهثا وذلك عادة منه وطبيعة وهى مواظبته على اللهث دائما ، فكذلك من آتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة ثم إنه مال إليها وطلبها كانت حاله كحال الكلب اللاهث ، وقيل إن العالم إذا توصل بعلمه إلى طلب الدنيا فإنه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه فى تقرير تلك العلوم وبيانها، وذلك لأجل مايحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة العطش إلى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذى أدلع لسانه من اللهث فى غير حاجة ولا ضرورة ؛ ومعنى إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث : أى إن شددت عليه وأهجته لهث وإن تركته على حاله لهث لأن اللهث طبيعة أصلية فيه ، فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه ؛ وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب (فأوقعه) أى أوقع بلعام كل من ميله إلى الدنيا ميلة واحدة وتركه احترام موسى عليه السلام حرمة واحدة (فى بحر الضلال والهلاك إلى آخر الأبد حتى سمعت بعض العلماء يقول : إنه) أى بلعام (كان فى أول أمره بحيث يكون فى مجلسه اثنا عشر ألف محبرة) بالكسر الدواة (للمتعلمين الذين يكتبون عنه) أى بلعام (ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا وذكر فيه) أى فى ذلك الكتاب (أن) أى أنه (ليس للعالم صانع ، نعوذ بالله ، ثم نعوذ بالله من سخطه

وَمِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ ، وَفَظِيعِ خِذْلاَنِهِ الَّذِى لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ . فَانْظُرْ إِلَى خُبْثِ الدُّنْيَا وَشُؤْمِهَا مَاذَا يَجْلِبُ لِلْعُلَمَاءِ خَاصَّةً فَتَنَبَّهْ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ خَطِيرٌ ، وَالْعُمْرُ قَصِيرٌ ، وَفِى الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ ؛ فَإِنْ خَتَمَ بِالْخَيْرِ أَعْمَالَنَا وَأَقَالَنَا عَثَرَاتِنَا ، فَمَا ذَلِكَ عَلَيْهِ بِعَسِيرٍ .

ثُمَّ إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَلِيفَتَهُ فِى أَرْضِهِ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَاحِدًا

ومن عذابه الأليم) أى المؤلم (وفظيع) أى شنيع (خذلانه الذى لاطاقة لنا به فانظر إلى خبث الدنيا وشؤمها) وشرورها (ماذا يجلب) أى يجر (للعلماء خاصة ، فتنبه) من نوم غفلتك (فإن الأمر خطير) أى مخوف (والعمر قصير وفى العمل تقصير والناقد بصير، فإن ختم) الله تعالى (بالخير أعمالنا وأقالنا عثراتنا) فى [محيط المحيط] أقال الله عثرتك وأقالكها : أى رفعك من سقوطك ؛ قيل ، ومنه الإقالة فى البيع لأنها رفع العقد (فما ذلك) أى ليس المذكور من الختم والإقالة(عليه) تعالى (بعسير . ثم إن داود عليه السلام خليفته فى أرضه أذنب ذنبا واحدا) . واختلف العلماء بأخبار الأنبياء فى سبب ذلك ، وسأذكر ماقاله المفسرون ثم أتبعه بفصل فيه ذكر نزاهة داود عليه الصلاة والسلام عما لايليق بمنصبه عليه السلام لأن منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فلا ينسب إليها إلا ما يليق بها . وأما ما قاله المفسرون : فهو أن داود عليه السلام تمنى يوما من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وذلك أنه كان قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوم يقضى فيه بين الناس ، ويوم يخلو فيه لعبادة ربه عز وجل ، ويوم لنسائه وأشغاله ، وكان يجد فما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فقال يارب أرى الخير كله قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى . فأوحى الله إليه إنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها: ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنمروذ وذبح ابنه ، وابتلى إسحاق بالذبح وبذهاب بصره ، وابتلى يعقوب بالحزن على يوسف ؛ فقال داود عليه الصلاة والسلام : رب لوابتليتنى بمثل ما ابتليتهم صبرت أيضا ؛ فأوحى الله عز وجل اليه إنك مبتلي فى شهر كذا فى يوم كذا فاحترس ، فلما كان اليوم الذى وعده الله به دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وقد تمثل له فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن وجناحاها من الدر والزبرجد فوقعت بين رجليه فأعجبه حسنها ، فمد يده ليأخذها ويريها بنى إسرائيل لينظروا إلى قدرة الله تعالى ، فلما قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن يؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت حتى وقعت فى كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها له فأبصر امرأة فى بستان على شاطئ بركة تغتسل ، وقيل رآها تغتسل علي سطح لها فرآها من أجمل النساء خلقا فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها فزاده ذلك إعجابا بها ، فسأل عنها فقيل هى نشابع بنت شايع

فَبَكَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ فِى الْأَرْضِ مِنْ دُمُوعِهِ وَقَالَ : إِلٰهِي أَمَا تَرْحَمُ بُكَائِى وَتَضَرُّعِي ، فَأُجِيبَ : يَا دَاوُدُ نَسِيتَ ذَنْبَكَ ، وَذَكَرْتَ بُكَاءَكَ ! وَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً ، وَقِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً

امرأة أوريا بن حنانا وزوجها فى غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود فكتب داود إلى ابن أخته أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وقدمه قبل التابوت وكان من قدم على التابوت لايحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه فبعثه فقتل المرة الثالثة ، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود فهي أم سليمان عليه السلام . وقيل إن داود أحب أن يقتل أوريا فتزوج امرأته فهذا كان ذنبه . وقال ابن مسعود : كان ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل له عن امرأته ، وقيل كان ذلك مباحا لهم غير أن الله عز وجل لم يرض لداود ذلك لأنه رغبة فى الدنيا وازدياد من النساء وقد أغناه الله تعالى عنها بما أعطاه من غيرها . وقيل فى سبب امتحان داود أنه كان جزأ الدهر أجزاء يوما لنسائه ويوما للعبادة ويوما للحكم بين بنى إسرائيل ويوما يذاكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه ، فلما كان يوم بنى إسرائيل ذكروا فقالوا هل يأتى على الإنسان يوم لايصيب فيه ذنبا فأضمر داود فى نفسه أنه سيطيق ذلك ، وقيل إنهم ذكروا فتنة النساء فأضمر داود في نفسه أنه إن ابتلى اعتصم فلما كان يوم عبادته أغلق عليه الأبواب وأمر أن لايدخل عليه أحد وأكب على قراءة التوراة فبينما هو يقرأ إذ دخلت حمامة وذكر نحو ماتقدم فلما دخل بالمرأة لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله عز وجل الملكين اليه ، وقيل إن داود عليه السلام مازال يجتهد فى العبادة حتى برز له حافظاه من الملائكة فكانوا يصلون معه ، فلما استأنس بهم قال أخبرونى بأى شيء أنتم موكلون ؟ قالوا نكتب صالح أعمالك ونوافقك ونصرف عنك السوء ، فقال فى نفسه ليت شعرى كيف أكون لوخلونى ونفسي وتمنى ذلك ليعلم كيف يكون، فأوحى الله تعالى إلى الملكين أن يعتزلاه ليعلم أنه لاغنى له عن الله تعالى فلما فقدهم جد واجتهد في العبادة إلى أن ظن أنه قد غلب نفسه فأرادَ الله تعالى أن يعرفه ضعفه فأرسل طائرا من طيور الجنة ، وذكر نحو ماتقدم . وقيل إن داود قال لبنى إسرائيل لأعدلن بينكم ولم يستثن فابتلي . وقيل إنه أعجبه عمله فابتلي فبعث الله إليه ملكين فى صورة رجلين وذلك فى يوم عبادته فطلبا أن يدخلا عليه فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان وهو يصلى يقال كانا جبريل وميكائيل فذلك قوله عز وجل «وهل آتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب» الآية (فبكى) داود عليه السلام (على ذلك) أى الذنب الواحد (حتى نبت العشب) أى الكلأ الرطب (فى الأرض من دموعه وقال إلهى) وسيدى (أما ترحم بكائى وتضرعي فأجيب) داود عليه السلام (يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ولم يقبل توبته) عليه السلام (أربعين يوما وقيل أربعين سنة)

وروى البغوى باسناد الثعلبي عن أنس بن مالك قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن داود النبى صلى الله عليه وسلم حين نظر إلى المرأة فهم فقطع على بنى إسرائيل أوصى صاحب البعث فقال إذا حضر العدو فقرب فلا نا بين يدى التابوت وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ، ومن قدم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل أو يهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة ونزل الملـكان يقصان عليه قصته ففطن داود فسجد فمـكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبهته وهو يقول فى سجوده : رب زل داود زلة أبعد مابين المشرق والمغرب . رب إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثا فى الخلق من بعده فجاءه جبريل من بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهم الذى هممت به ، فقال داود إن الرب قادر على أن يغفر لى الهم الذى هممت به وقد عرفت أن الله عدل لايميل فـكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال رب دمى الذى عند داود ؟ فقال جبريل ماسألت ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن قال نعم، فعرج جبريل وسجد داود ماشاء الله تعالى ثم نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال سألت الله يا داود عن الذى أرسلتني فيه فقال قل لداود إن الله تعـالى يجمعـكما يوم القيامة فيقول له هب لى دمك الذى عند داود فيقول هو لك يا رب فيقول الله تعالى فإن لك فى الجنة ماشئت وما اشتهيت عوضا عن دمك » فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير فى قصة امتحان داود .

فصـــل

فى تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لايليق به وما ينسب إليه

اعلم أن من خصه الله تعالى بنبوته وأكرمه برسالته وشرفه علي كثير من خلقه وائتمنه على وحيه وجعله واسطة بينه وبين خلقه لايليق أن ينسب إليه مالو نسب إلى آحاد الناس لاستنـكف أن يحدث به عنه فـكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمناء ذلك . روى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : من حدثـكم بحديث داود على مايرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء ، وقال القاضى عياض : لايجوز أن يلتفت إلى ماسطره الأخباريون من أهل الـكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين ولم ينص الله تعالى على شىء من ذلك ولا ورد فى حديث صحيح ، والذى نص عليه الله فى قصة داود « وظن داود أنما فتناه » وليس فى قصة داود وأوريا خبر ثابت ولا يظن بنبى محبة قتل مسلم ، وهذا هو الذى ينبغى أن يعول عليه من أمر داود . قال الإمام فخر الدين : حاصل القصة يرجع إلى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع فى زوجته وكلاهما منكر عظيم فلا يليق بعاقل أن يظن بداود عليه الصلاة والسلام هذا . وقال غيره : إن الله تعالى أثنى على داود قبل هذه القصة ومابعدها وذلك يدل على استحالة مانقلوه من القصة فـكيف

ثُمَّ إِنَّ يُونُسَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، غَضِبَ غَضْبَـةً وَاحِدَةً فِى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ،

يتوهم عاقل أن يقع بين مدحين ذم، ولو جرى ذلك من بعض الناس لاستهجنه العقلاء ولقالوا أنت فى مدح شخص كيف تجرى ذمه أثناء مدحك والله تعالى منزه عن مثل هذا فى كلامه القديم . فإن قلت فى الآية مايدل على صدور الذنب منه وهو قوله تعالى « وظن داود أنما فتناه » وقوله : «فاستغفر ربه» وقوله «وأناب» وقوله «فغفرنا له ذلك». قلت ليس فى هذه الألفاظ شىء ممايدل على ذلك وذلك لأن مقام النبوة أشرف المقامات وأعلاها فيطالبون بأكمل الأخلاق والأوصاف وأسناها فاذا نزلوا من ذلك إلى طبع البشرية عاتبهم الله تعالى على ذلك وغفره لهم كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن قلت فعلى هذا القول والاحتمال فما معنى الامتحان فى الآية. قلت ذهب المحققون من علماء التفسير وغيرهم فى هـذه القصة إلى أن داود عليه الصلاة والسلام ما زاد على أن قال للرجل انزل لى عن امرأتك واكفلنيها فعاتبه الله تعالى على ذلك ونبهه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا . وقيل إن داود تمنى أن تكون امرأة أوريا له فاتفق أن أوريا هلك فى الحرب فلما بلغ داود قتله لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده ثم تزوج امرأته فعاتبه الله تعالى على ذلك ، لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهى عظيمة عند الله تعالى . وقيل إن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها فلما غاب فى غزاته خطبها داود فزوجت نفسها منه لجلالته فاغتم لذلك أوريا فعاتبه الله تعالى على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسع وتسعون امرأة . ويدل على صحة هذا الوجه قوله « وعزنى فى الخطاب » فدل هذا على أن الكلام كان بينهما فى الخطبة ولم يكن قد تقدم تزوج أوريا لها فعوقب داود بسببين : أحدهما خطبته على خطبة أخيه ، والثانى إظهار الحرص على التزوج مع كثرة نسائه . وقيل إن ذنب داود الذى استغفر منه ليس هو بسبب أوريا والمرأة وإنما هو بسبب الخصمين وكونه قضى لأحدهما قبل سماع كلام الآخر ، وقيل هو قوله لأحد الخصمين « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » فحكم على خصمه بكونه ظالما بمجرد الدعوى ، فلما كان هذا الحكم مخالفا للصواب اشتغل داود بالاستغفار والتوبة فثبت بهذه الوجوه نزاهة داود عليه الصلاة والسلام مما نسب إليه، والله أعلم .

(ثم إن يونس) بن متى (نبيه عليه) الصلاة و (السلام غضب غضبة واحدة فى غيز موضعها) أى الغضبة. قال ابن عباس فى رواية عنه : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى منهم سبطان ونصف ، فأوحى الله إلى شعياء النبى أن سر إلى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا فإنى ألقى فى قلوب أولئك الرعب حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فقال له الملك فمن ترى ؟ وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء . قال يونس إنه قوى أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل الله أمرك باخراجي ؟ قال لا : قال فهل سمانى الله لك ؟ قال لا . قال فهاهنا غير أنبياء أقوياء فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبى وللملك وقومه وأتى بحر الروم فركب . وقيل ذهب عن قومه مغاضبا لربه لما كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم وكره أن يكون بين أظهر

فَسَجَنَهُ فى بَطْنِ الْحُوتِ تَحْتَ قَعْرِ الْبِحَارِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَهُوَ يُنَادِى : (أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) وَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ صَوْتَهُ ، فَقَالُوا : إِلٰهَنَا وَسَيِّدَنَا صَوْتٌ مَعْرُوفٌ مِنْ مَوْضِعٍ مَجْهُولٍ ، فَقَالَ اللّٰهُ تعالى : ذٰلِكَ صَوْتُ عَبْدِى يُونُسَ ، فَتَشَفَّعَتْ فِيهِ الْمَلاَئِكَةُ ، ثُمَّ مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ

قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأنه يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله . وفى بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أنهم يقتلون من جربوا عليه الكذب فخشى أن يقتلوه ما لم يأتهم العذاب للميعاد فذهب مغاضبا . وقال ابن عباس : أتى جبريل يونس فقال : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم فقال التمس دابة قال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلي السفينة . وقال وهب : إن يونس كان عبدا صالحا وكان فى خلقه ضيق فلما حمل أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها من يديه وخرج هاربا منها فلذلك أخرجه الله من أولى العزم من الرسل وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » وقال « ولا تكن كصاحب الحوت » (فسجنه) أى حبسه (فى) ظلمة (بطن الحوت تحت) ظلمة (قعر البحار) وظلمة الليل؛ وقعر البحر نهاية أسفله والجمع قعور مثل فلس وفلوس كما فى المصباح (أربعين يوما) وقيل سبعة أيام ، وقيل ثلاثة ، وقيل إن الحوت ذهب به حتى بلغ تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه وراجع نفسه فى بطن الحوت (وهو ينادى « أن) أى بأنه (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ») لنفسى فى خروجى من قومي قبل أن تأذن لى . فى الحديث « ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له » وعن الحسن ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم (وسمعت الملائكة صوته) عليه السلام (فقالوا) يا (إلهنا وسيدنا) هذا (صوت معروف من موضع مجهول) لا نعرفه (فقال الله تعالى ذلك) الصوت الذى سمعتم (صوت عبدى يونس فتشفعت فيه) أى يونس عليه السلام . (الملائكة) وروى أبو هريرة مرفوعا قال « أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه فى البحر فلما انتهى به إلي أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ماهذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه هذا تسبيح دواب البحر قال : فسبح هو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة » وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول؟ فقال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت ، فقالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل فذلك قوله تعالى « فاستجبنا له ونجيناه من الغم » (ثم مع ذلك) أى المذكور من السجن فى بطن الحوت وندائه فيه وغير ذلك (كله) بالجر

غَيَّرَ اسْمَهُ فَقَالَ : (وَذَا النُّونِ) فَنَسَبَهُ إِلَى سِجْنِهِ ثُمَّ قَالَ : (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ وَمِنَّتَهُ فَقَالَ : (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

فَانْظُرْ إِلَى هٰذِهِ السِّيَاسَةِ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ .

وَكَذٰلِكَ هَلُمَّ جَرًّا إِلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ أَكْرَمِ

(غير) سبحانه وتعالى (اسمه) أي يونس عليه السلام (فقال) تعالى فى سورة الأنبياء («وذا النون») أي واذكر صاحب الحوت يونس ابن متى (فنسبه إلى سجنه) وهو الحوت لابتلاعه إياه كما ذكره القاضي (ثم قال) تعالى فى سورة والصافات («فالتقمه الحوت») أي ابتلعه (وهو مليم) داخل فى الملامة أوآت بما يلام عليه أو مليم نفسه ، وقرئ بالفتح مبنيا من ليم كمشيب فى مشوب (فلولا أنه كان من المسبحين) الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أو فى بطن الحوت وهو قوله « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ». وقال ابن عباس، من المصلين : وقيل من العابدين . قال الحسن : ما كانت له صلاة فى بطن الحوت ولكنه قدم عملا صالحا فشكر الله تعالى له طاعته القديمة . قال بعضهم : اذكروا الله فى الرخاء يذكركم فى الشدة فإن يونس كان عبدا صالحا ذاكرا الله تعالى فلما وقع فى الشدة فى بطن الحوت شكر الله تعالى له ذلك فقال « فلولا أنه كان من المسبحين (للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ») حيا وقيل ميتا، وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه ، ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده عند الضراء (ثم ذكر) الله تعالى (نعمته ومنته عليه) (فقال) في سورة نٓ « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم (لولا أن تداركه نعمة من ربه») يعني التوفيق للتوبة وقبولها وحسن تذكير الفعل للفصل، وقرئ تداركته وتداركه : أي تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا أن كان يقال فيه تتداركه (لنبذ) لطرح من بطن الحوت (بالعراء) أي بالأرض الخالية عن الشجر والنبات، وقيل بالساحل . روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه (وهو مذموم) أي يذم ويلام بالذنب ، وقيل فى معنى الآية لولا تداركته نعمة من ربه لبقى فى بطن الحوت الي يوم القيامة ، ثم ينبذ بعراء القيامة : أي بأرضها وفضائها . فإن قلت هل يدل قوله وهو مذموم على كونه كان للذنب؟. قلت : الجواب عنه من ثلاثة أوجه : أحدها أن كلمة لولا دلت على أنه لم يحصل منه ما يوجب الذم . الثانى لعل المراد منه ترك الأفضل فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . الثالث لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة يدل عليه قوله تعالى « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » : أي النبيين (فانظر إلى هذه السياسة أيها المسكين وكذلك هلم جرا) بفتح الميم : أي احضر وهو اسم فعل وجر نصب على المصدرية أي جر جرا : أي جذب جذبا كذا فى سراج السالكين . وقال الفيومي فى مصباحه : هلم كلمة بمعنى الدعاء إلي الشيء كما يقال تعالى، إلى أن قال : وأهل الحجاز ينادون بها بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع وعليه قوله «والقائلين لإخوانهم هلم إلينا» (إلى سيد المرسلين أكرم

خَلْقِهِ عَلَيْهِ يَقُولُ لَهُ : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم يَقُولُ: « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » قِيلَ عَنَى هٰذِهِ الآيَةَ وَأَشْكَالَهَا فِى القُرْآنِ ،فَقَالَ اللَّهُ تَعالى : (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

خلقه عليه) أى عنده تعالى (يقول) الله تعالى (له) أى لسيد المرسلين (« فاستقم كما أمرت) يعنى فاستقم يا محمد على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك ، والأمر فى فاستقم للتأكيد لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك : أى دم على ماأنت عليه من القيام حتى آتيك (ومن تاب معك) يعنى ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضا على دين الله والعمل بطاعته . قال عمر بن الخطاب : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تروغ منه روغان الثعلب ، روى مسلم عن سفيان بن عبدالله الثقفى قال « قلت يا رسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : قل آمنت بالله ثم استقم » (ولا تطغوا) يعنى ولا تجاوزوا أمرى إلى غيرى ولا تعصونى ، وقيل معناه ولا تغلوا فى الدين فتجاوزوا ماأمرتكم به (إنه بما تعملون بصير») يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأعمالكم لايخفى عليه شىء منها فهو مجازيكم عليه وهو فى معنى التعليل للأمر والنهي ، وفى الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان (حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «شيبتنى هود) أى سورة هود (وأخواتها») أى وشبهها من السور التى فيها ذكر أحوال القيامة ، والحزن إذا تفاقم على الإنسان أسرع إليه الشيب قبل الأوان ، رواه الطبرانى فى الكبير عن عقبة بن عامر الجهنى وأبى جحيفة حسن أو صحيح كما ذكره العلامة عبد الحق (قيل عني) أى أراد صلى الله عليه وسلم بقوله هود وأخواتها (هذه الآية) وهى « فاستقم كما أمرت » الآية (وأشكالها) أى أمثالها (فى القرآن فقال الله تعالى «واستغفر لذنبك») أى لأجله قيل له ذلك مع عصمته لتستن به أمته وقد فعله قال صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله فى كل يوم مائة » هذا أحد وجوه فى تأويل الآية ؛ وفى القرطبي واستغفر لذنبك يحتمل وجهين : أحدهما يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب. الثانى استغفر الله ليعصمك من الذنوب، وقيل لما ذكر الله تعالى حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان : أي اثبت على ماأنت عليه من الإخلاص والتوحيد والحذر عما يحتاج معه إلى استغفار، وقيل الخطاب له والمراد به الأمة وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المؤمنين، وقيل كان عليه الصلاة والسلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين فنزلت ، أى فاعلم أنه لا كاشف يكشف مابك إلا الله فلا تعلق قلبك بأحد سواه ، وقيل أمر بالاستغفار لتقتدى به الأمة ، وفى الخازن « واستغفر لذنبك» أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم مع أنه مغفور له لتستن به أمته وليقتدوا به في ذلك ، روى مسلم عن الأغر المزنى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم مائة مرة » وفى رواية قال « توبوا إلى ربكم فو الله إنى لأتوب إلى ربى

إِلَى أَنْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِ بِالْغُفْرَانِ فَقَالَ : (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)
وَقَالَ تَعَالَى : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللّٰهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

عز وجل في اليوم مائة مرة » وروى البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة » وفى رواية « أكثر من سبعين مرة » وقوله : « إنه ليغان على قلبى ». الغين التغطية والستر : أى يلبس على قلبي ويغطى وسبب ذلك ما أطلعه الله عليه من أحوال أمته بعده فأحزنه ذلك حتى كان يستغفر لهم ، وقيل إنه لما كان يشغله النظر فى أحوال المسلمين ومصالحهم حتى يرى أنه قد شغل ذلك وإن كان من أعظم طاعة وأشرف عبادة وأرفع مقام مما هو فيه ، وهو التفرد بربه عز وجل وصفاء وقته معه وخلوص همه من كل شيء سواه فلهذا السبب كان صلى الله عليه وسلم يستغفر الله فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقيل هو مأخوذ من الغين ، وهو الغيم الرقيق الذى يغشى السماء فكان هذا الشغل والهم يغشى قلبه صلى الله عليه وسلم ويغطيه عن غيره ، فكان يستغفر الله عز وجل منه ، وقيل هذا الغين هو السكينة التى تغشى قلبه صلى الله عليه وسلم وسبب استغفاره لها إظهار العبودية والافتقار إلى الله عز وجل . وحكى الشيخ محي الدين النووى رحمه الله عن القاضى عياض أن المراد به الفترات والغفلات عن الذكر الذى كان شأنه صلى الله عليه وسلم الدوام عليه فإذا فتر وغفل وعد ذلك ذنبا واستغفر منه وحكى الوجوه المتقدمة عنه وعن غيره . وقال الحارث المحاسبي : خوف لأنبياء والملائكة خوف إعظام وإجلال وإن كانوا آمنين من عذاب الله ، وقيل يحتمل أن هذا الغين حالة حسنة وإعظام يغشى القلب ويكون استغفاره شكرا كما قال « أفلا أكون عبدا شكورا » وقيل فى معنى الآية استغفر لذنبك : أى لذنوب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات يعنى من غير أهل بيته وهذا إكرام من الله عز وجل لهذه الأمة حيث أمر صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم (إلى أن من الله عليه) صلى الله عليه وسلم (بالغفران فقال) تعالى (« ووضعنا) حططنا (عنك وزرك الذى أنقض) أثقل (ظهرك ») وهذا كقوله تعالى « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك » أى فهو مصروف عن ظاهره : أى إنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب لو كان ، وقيل مغفور لك ما كان من سهو وغفلة ، وقيل من ذنبك : أى ذنب أمتك ، وقيل المراد بالذنب ترك الأولى كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين وترك الأولى ليس بذنب كما فى المواهب . وقال الرازى معنى وضعنا عنك وزرك عصمناك من الوزر الذى ينقض ظهرك لو كان الوزر حاصلا، فوضع الوزر كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الأوزار ففيه استعارة تمثيلية حيث سمى العصمة وضعا مجازا (وقال تعالى) « إنا فتحنا لك فتحا مبينا (« ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ») قيل اللام فى قوله « ليغفر لك الله » لام كى . والمعنى فتحنا لك فتحا مبينا لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة بالفتح . وقال الحسن بن الفضل هو مردود

وَكَانَ بَعْدَ ذٰلِكَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ يُصَلِّى اللَّيْلَ حَتى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَيَقُولُونَ : أَتفعَلُ هٰذَا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَيَقُولُ : أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا

إلى قوله تعالى « واستغفرلذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ــ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وماتأخر ــ وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات » . وقال ابن جرير هو راجع إلى قوله فى سورة النصر « واستغفره إنه كان توابا ــ ليغفرلك الله ما تقدم من ذنبك» وقيل إن الفتح لم يجعل سببا للمغفرة، ولـكن لاجتماع ماقدر لم من الأمور الأربعة المذكورة ؛ وهى المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قال يسرنا لك الفتح ونصرناك على عدوك وغفرنا لك ذنبك وهديناك صراطا مستقيما ليجتمع لك عز الدارين وأغراض العاجل والآجل ، وقيل يجوز أن يكون الفتح سببا للغفران لأنه جهاد للعدو وفيه الثواب والمغفرة مع الظفر بالعدو والفوز بالفتح وقيل لما كان هذا الفتح سببا لدخول مكة والطواف بالبيت كان ذلك سببا للمغفرة ؛ ومعنى الآية ليغفر لك الله جميع ما فرط منك ما تقدم من ذنبك يعنى قبل النبوة وما تأخر يعنى بعدها ، وهذا على قول من يجوز الصغائر على الأنبياء . وقال عطاء الخراسانى ما تقدم من ذنبك يعنى من ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك ،وما تأخر من ذنوب أمتك بدعائك لهم . وقال سفيان الثورى ما تقدم من ذنبك مما كان منك قبل النبوة وما تأخر يعنى كل شيء لم تعمله ويذكر مثل هذا على طريق التأكيد كما تقول أعطى من تراه ومن لم تره واضرب من لقيت ومن لم تلقه ، فيكون المعنى ما وقع لك من ذنب ومالم يقع فهو مغفور لك ، وقيـل المراد منـه ما كان من سهو وغفلة وتأول لأن النبي صلى الله عليه وسـلم لم يكن له ذنب كذنوب غيره فالمراد بذكر الذنب هنا ماعسى أن يكون وقع منه من سهو ونحو ذلك لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين فسماه ذنبا فما كان من هـذا القبيل وغيره فهو مغفور له فأعلمه الله عز وجل بذلك وأنه مغفور له ليتم نعمته عليه وهو قوله تعالى « ويتم نعمته عليك » (وكان بعد ذلك) أى منه تعالى بالغفران (صلوات الله) وسلامه (عليه يصلى الليل حتى تورمت) أى انتفخت (قدماه) صلى الله عليه وسلم ، وسبب ورم القدمين من كثرة القيام انصباب المواد التى فى أعالى الجسم إليهما لطول القيام فإنه صلى الله عليه وسـلم وإن لم يكن يزيد بالليل على اثنتى عشرة ركعة لـكن كان يطيل القيام فيها ، وقد روى المغيرة « أنه صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له أتتـكلف هـذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا» ؟ وفى رواية أنه قال له جبريل أبق على نفسك ، فان لها عليك حقا فأنزل الله سبحانه وتعالى « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » كذا فى حاشية البردة (فيقولون) أى الصحابة (أتفعل هذا) أي قيام الليل (يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول) عليـه الصلاة والسلام (أفلا أكون عبدا شكورا) قال العراقى رواه

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: « لَوْ أَنِّي وَعِيسَى أُوخِذْنَا بِمَا كَسَبَتْ هَاتَانِ لَعُذِّبْنَا عَذَابًا لَمْ يُعَذَّبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ »

وَكَانَ يُصَلِّي اللَّيْلَ وَيَبْكِي وَيَقُولُ: « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ ».

الشيخ ابن حبان فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى عن عطاء بن أبى رباح قال «دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فبكت وقالت وأى شأنه لم يكن عجبا إنه أتانى ليلة فدخل معى في فراشى أو قالت فى لحافي حتى مس جلدى جلده. ثم قال يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى قالت قلت إنى أحب قربك لكنى أوثر هواك فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلى فبكى وهو قائم حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى وهو راكع، ثم رفع رأسه فبكى، ثم سجد فبكى: ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فاذنه بالصلاة، فقالت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا؟ ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله على: «إن فى خلق السموات والأرض الآية» «قال ابن حجر فى شرح الشمائل وقد ظن من سأله صلى الله عليه وسلم فى سبب تحمله المشقة فى العبادة أن سببها إما خوف الذنب أو رجاء المغفرة فأفادهم أن لها سببا آخر أتم وأكمل هو الشكر على التأهل لها مع المغفرة وإجزال النعمة وهو أعنى الشكر الاعتراف بالنعمة والقيام فى الخدمة ببذل المجهود فمن أدام ذلك كان شكورا وقليل ما هم، ولم يفز أحد بكمال هذه المرتبة غير نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم سائر الأنبياء عليهم السلام، وإنما ألزموا بذلك فى الجد فى العبادة وعظيم الخشية لعلمهم بعظيم نعمة ربهم عليهم ابتداء بها فضلا ومنة من غير سابقة توجب استحقاقها أداء لبعض الشكر وإلا فحقوقه تعالى أعظم من أن يقوم بها أحد من خلقه (وكان عليه السلام يقول: لو أنى وعيسى أخذنا بما كسبت هاتان) أشار بأصبعيه إلى نفسه وإلى نفس عيسى عليهما الصلاة والسلام (لعذبنا عذابا لم يعذبه) أي لم يعذب بذلك العذاب (أحد من العالمين. و) قد روى أنه (كان) صلى الله عليه وسلم (يصلى الليل ويبكى ويقول) فى سجوده: «اللهم إنى (أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك) أى لا أطيقه ولا آتى عليه، وقيل لا أحيط به. وقال مالك رحمه الله معناه لا أحصى نعمتك وإحسانك والثناء بها عليك وإن اجتهدت فى الثناء عليك (أنت كما أثنيت على نفسك») اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته ورد للثناء إلى الجملة دون التفصيل والاحصاء والتعيين فوكل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى المحيط بكل شىء جملة وتفصيلا، وكما أنه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه لأن تابع الثناء للمثنى عليه وكل ثناء أثنى به عليه وإن كثر وطال وبولغ فيه فقدر الله أعظم مع أنه متعال عن القدر وسلطانه أعز وصفاته أكبر

ثُمَّ الصَّحَابَةَ الذِينَ هُمْ خَيْرُ قَرْنٍ فِى خَيْرِ أُمَّةٍ ، كَانَ يَبْدُو مِنْهُمْ شَىْءٌ مِنَ المِزَاحِ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ) .

وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ . وفى هذا الحديث دليل لأهل السنة فى جواز إضافة الشر إلى الله تعالى كما يضاف إليه الخير لقوله «وبرضاك من سخطك». قال الإمام أبو سليمان الخطابى رحمه الله تعالى فى هذا معنى لطيف وذلك أنه استعاذ بالله تعالى وسأله أن يجيره برضاه من سخطه وبعفوه من عقابه والرضا. والسخط ضدان متقابلان ، وكذلك العفو والعقاب، فلما صار إلى ذكر مالا ضد له وهو الله سبحانه وتعالى استعاذ به منه لا غير ، ومعناه الاستغفار من التقصير فى بلوغ الواجب من حق عبادته والثناء عليه أخرجه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فى سجوده قاله العراقى . قلت قال مسلم حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أبو أسامة هو حماد بن أسامة عن عبد الله بن عمر عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبى هريرة عن عائشة رضى الله عنها قالت « فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأخرجه الإمام أحمد عن أبى أسامة قال الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث الأذكار : وفى السند لطيفة وهى رواية صحابى عن صحابى أبو هريرة عن عائشة (ثم الصحابة الذين هم خير قرن فى خير أمة) ومعنى القرن هو أهل زمان واحد متقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة كالصحابة فانهم اشتركوا فى الصحبة وهكذا من بعدهم، وقيل معناه الزمان الذى اشترك أهله فى الأمر المذكور ، وسمى قرنا لأنه يقرن أمة بأمة وعالما بعالم . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال« خير أمتي القرن الذين يلونى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وظاهره أن ما بعد القرون الثلاثة سواء فى الفضيلة وذهب جماعة إلى تفاوت بقية القرون بالسبقية فكل قرن أفضل من الذى بعده إلى يوم القيامة لحديث « مامن يوم إلا والذى بعده شر منه وإنما يسرع بخياركم » لكن قد ورد «مثل هذه الأمة مثل المطر لا يدرى أوله خير أو آخره» والعيان قاض بذلك (كان) أى الحال والشأن (يبدو) أى يظهر (منهم) أى الصحابة رضوان الله عليهم (شىء من المزاح فنزل قوله تعالى ألم يأن) يحن (للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم) أى تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن (لذكر الله) وفى الخازن : قيل نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسى ذات يوم : حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزل « نحن نقص عليك أحسن القصص » فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره فكفوا عن سؤال سلمان ماشاء الله ثم عادوا فسألوه مثل ذلك فنزل «الله نزل أحسن الحديث» الآية فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فسألوه فنزلت هذه الآية ، فعلى هذا القول يكون تأويل قوله « ألم يأن للذين آمنوا » يعنى فى العلانية باللسان ولم يؤمنوا بالقلب . وقيل نزلت فى المؤمنين وذلك أنهم لما قدموا

الآية ثُمَّ وَضَعَ فى هٰذِهِ الأُمَّةِ مَعَ كَوْنِهَا مَرْحُومَةً الْحُدُودِ وَالسِّيَاسَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالآدَابِ ، حَتَّى كَانَ يُونُسُ بْنِ عُبَيْدٍ يَقُولُ : لاَ تَأْمَنْ مَنْ قَطَعَ فى خَمْسَةِ دَرَاهِمَ خَيْرَ عُضْوٍ مِنْكَ أَنْ يَكُونَ غَدًا عَذَابَهُ هٰكَذَا ، نَسْأَلُ اللهَ تعالَى الرَّحِيمَ الْكَرِيمَ سُبْحَانَهُ ، أَنْ لاَ يُعَامِلَنَا إِلاَّ بِمَحْضِ كَرَمِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ؛ وَأَمَّا مِنْ جَانِبِ الرَّجَاءِ : فَحَدِّثْ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ وَلاَ حَرَجَ ، وَمَنِ الَّذِي يَعْرِفُ غَايَتَهَا أَوْ يَعْرِفَ وَصْفَهَا وَنِهَايَتَهَا ، فَإِنَّهُ الَّذِى يَهَبُ كُفْرَ سَبْعِينَ سَنَةٍ بِإِيمَانِ سَاعَةٍ ، قالَ اللهُ تَعَالَى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) .

المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزل فى ذلك « ألم يأن للذين آمنوا » الآية . قال ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين أخرجه مسلم. وقال ابن عباس: إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، فقال « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » أى لمواعظ الله (الآية) أى اقرأ آخرها وهو قوله تعالى « وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (ثم وضع) الله تعالى (فى هذه الأمة مع كونها مرحومة الحدود والسياسات العظيمة والآداب حتى كان يونس ابن عبيد)التابعى الجليل اتفقوا على جلالته وتوثيقه ، توفى سنة تسع وثلاثين ومائة (يقول:لاتأمن من قطع) أى الله سبحانه وتعالى (فى خمسة دراهم خير عضو منك أن يكون غدا) أي فى الا خرة (عذابه هكذا نسأل الله تعالى الرحيم الكريم سبحانه أن لا يعاملنا إلا بمحض كرمه إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (وأما) ذكر أفعاله تعالى (من جانب الرجاء فحدث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج) أى لا ضيق (ومن الذى يعرف غايتها) أى لا أحد يعرف غاية الرحمة (أو يعرف وصفها ونهايتها فإنه) تعالى (الذى يهب كفر سبعين سنة بإيمان ساعات . قال الله تعالى قل) يا محمد (للذين كفروا إن ينتهوا) عن الشرك (يغفر لهم ما قد سلف) يعنى ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الإسلام، تمام الآية « وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » يعنى فى إهلاك أعدائه ونصر أوليائه، ومعنى الآية أن هؤلاء الكفارإن انتهوا عن الكفر ودخلوا فى دين الإسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم ، وإن عادوا إلى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الأولين بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه . وأجمع العلماء على أن الإسلام يجب ما قبله ؟ وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه ، يعنى بذلك أنه ليس عليه ذنب . قال يحي بن معاذ الرازى : التوحيد لم يعجز ع

أَمَا تَرَى فى أَمْرِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ الذِينَ جَاءوا لِحَرْبِهِ ، وَحَلَفُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ عَدُوِّهِ ، فَمَا كَانَ إِلّا أَنْ رَأَوْا آيَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السّلاَمُ ، فَعَرَفُوا الحَقَّ فَقَالُوا : (آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ)

هدم ما قبله من كفر فارجعوا أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب (أما ترى فى أمر سحرة فرعون الذين جاءوا لحربه) أى حرب حبيبه موسى عليه الصلاة والسلام (وحلفوا) أى السحرة (بعزة فرعون عدوه). واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون ؟ فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بنى إسرائيل . وقال الكلبى كانوا سبعين غير رئيسهم . وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفا . وقال محمد بن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألفا . وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا . وقال محمد بن المنكدر : كانوا ثمانين ألفا وقال السدى: كانوا بضعا وثمانين؛ ويقال رئيس القوم شمعون. وقيل يوحنا (فما كان إلا أن رأوا) أى أولئك السحرة (آية موسى عليه السلام) وهى عصاه المنقلبة حية . قال المفسرون : أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن لا تخف وألق عصاك فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق. قال ابن زيد : كان اجتماعهم بالإسكندرية ، فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فإذا هى تلقف : يعنى تبتلع كل شىء أتوا به من السحر ، فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ، ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت فى يده عصا كما كانت أول مرة ، فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا أن ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم (فعرفوا الحق) الذى جاء به موسى عليه السلام (فقالوا آمنا برب العالمين) فقال فرعون : إياى تعنون ، فقالوا بل رب موسى وهرون . قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة تؤمن بى إن غلبتك ، فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتنى لأومنن بك . وقيل إن الحبال والعصى التى كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض : هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو إلا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه. فإن قلت كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الإيمان فى قوله تعالى « وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين » . قلت لما قذف الله عز وجل فى قلوبهم الإيمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على هدايتهم إليه وعلى ما ألهمهم من الإيمان بالله وتصديق رسوله ، ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم ، وقيل لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه فى أمر العصا وأنه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت فى قلوبهم بادروا إلى السجود لله تعظيما لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ، ثم أظهروا الإيمان باللسان . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخروا سجدا

وَلَمْ يُذْكَرْ أَنَّهُمْ زَادُوا عَلَيْهَا عَمَلاً ؛ ثُمَّ انْظُرْ كَمْ كَرَّرَ ذِكْرَهُمْ فِى مَعْنَى الْمَدْحِ فِى كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : وَكَمْ كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ غَفَرَهَا لَهُمْ بِإِيمَانِ سَاعَةٍ بَلْ لَحْظَةٍ ، فَمَا قَالُوا إِلاَّ أَنْ (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) عَنْ صِدْقِ الْقُلُوبِ كَيْفَ قَبِلَهُمْ وَوَهَبَ لَهُمْ جَمِيعَ مَا سَلَفَ، ثُمَّ كَيْفَ جَعَلَهُمْ رُءُوسَ الشُّهَدَاءِ فِى الْجَنَّةِ أَبَدَ الآبِدِينَ ،

وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون (ولم يذكر أنهم) أى السحرة (زادوا عليها) أى على هذه الكلمة (عملا ثم انظركم كرر) سبحانه وتعالى (ذكرهم فى معنى المدح فى كتابه العزيز ، وكم كبائر وصغائر) من ذنوبهم (غفرها) تعالى (لهم بإيمان ساعة بل لحظة ، فما قالوا إلا أن آمنا برب العالمين) رب موسى وهارون (عن صدق القلوب كيف قبلهم ووهب لهم جميع ما سلف ، ثم كيف جعلهم رءوس الشهداء فى الجنة أبد الآبدين) أى زمن الأشخاص الذى لا نهاية له . قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء . قال الكلبى إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم ، وقال غيره إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى « لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

قصة

قال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحق دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا : لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين ، وهو القحط ونقص الثمرات ، وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال : يارب إن عبدك فرعون علا فى الأرض وبغى وعتا وإن قومه قد نقضوا العهد ، رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة ، فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مختلطة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم . ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت بنى إسرائيل شىء وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على التحرك ولم يعملوا شيئا ، ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت . وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت . وقال وهب : الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن . وقال أبو قلابة : الطوفان الجدرى ، وهم أول من عذبوا به ثم بقى فى الأرض . وقال مقاتل : الطوفان الماء طفا فوق حروثهم ، وفي رواية ابن عباس رضى الله عنهما : أن الطوفان أمر من الله عز وجل طاف بهم ، فعند ذلك قالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا المطر نؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه

فرفع عنهم الطوفان وأنبت الله لهم تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم فقالوا : ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجر وأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة وأكل مسامير الحديد التى فى الأبواب وغيرها وابتلى الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بنى إسرائيل من ذلك شىء فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك فدعا موسى ربه عز وجل فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت .

وفى الخبر « مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم » . ويقال إن موسى عليه الصلاة والسلام خرج إلى الفضاء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد من حيث جاء ، وكان قد بقى من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا قد بقى لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركى ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا إلى أعمالهم الخبيثة فأقاموا شهرا فى عافية ، ثم بعث الله عز وجل عليهم القمل . واختلفوا فيه؛ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن القمل هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وقال مجاهد وقتادة والسدى والكلبى القمل الدبى وهو صغار الجراد الذى لا أجنحة له . وقال أبو عبيدة هو الحنان وهو ضرب من الجراد . وقال عطاء الخراسانى: هو القمل نفسه. وكان الحسن يقرأ بفتح القاف وسكون الميم. قال أصحاب الأخبار: أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام أن يمشى إلى كثيب رمل أعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين شمس فمشى إلى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقى من حروثهم وزروعهم وثمارهم فأكلها كلها ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه فإذا أكل أحدهم طعاما امتلأ قملا . قال سعيد بن المسيب : القمل السوس الذى يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبصارهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ولزم جلودهم كأنه الجدرى عليهم ومنعهم النوم والقرار ، فصرخوا بموسى إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذ البلاء فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم القمل بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا بعد ذلك ورجعوا إلى أخبث ما كانوا عليه من الأعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دواب ، فدعا موسى عليهم بعد ما أقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد إناء ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس فى الضفادع فتبلغ إلى حلقه ، فإذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل فى فيه ، وكانت تثب فى قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفئ نيرانهم ، وكان أحدهم إذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاما فلا يستطيع أن ينقلب إلى شقه الآخر، وإذا أراد أن يأكل سبقه الضفدع إلى فيه ولا يعجن أحدهم عجينا إلا امتلأت ضفادع ولا يفتح قدرا إلا امتلأت ضفادع

فَهٰذَا حَالُ مَنْ عَرَفَهُ وَوَحَّدَهُ سَاعَةً بَعْدَ كُلِّ ذٰلِكَ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِى تَوْحِيدِهِ ، وَلَا يَرَى لِذٰلِكَ أَهْلاً فِى الدَّارَيْنِ غَيْرَهُ . أَمَا تَرَى أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ طُولَ أَعْمَارِهِمْ ،

فلقوا من ذلك بلاء شديدا . وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله عز وجل على آل فرعون وسمعت وأطاعت وجعلت تقذف بأنفسها فى القدور وهى تغلى على النار وفى التنانير وهى تفور أثابها الله عز وجل بحسن طاعتها بردها إلى الماء ، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام ما يلقونه من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود ، فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله عز وجل فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقامت عليهم سبعا من السبت إلى السبت فأقاموا شهرا فى عافية ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فأرسل الله عز وجل عليهم الدم فسال النيل عليهم دما عبيطا وصارت مياههم كلها دما وكل ما يستقون من الآبار والأنهار يجدونه دما عبيطا فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا ليس لنا شراب إلا الدم فقال سحركم ، فقالوا من أين يسحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا دما عبيطا؛ فكان فرعون يجمع بين القبطى والإسرائيلى على إناء واحد فيكون ما يلى الإسرائيلي ماء وما يلى القبطى دما ويفرغان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطى دما وللاسرائيلى ماء حتى إن المرأة من آل فرعون تأتى إلى المرأة من بنى إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقينى من مائك فتصب لها فى قربتها فيصير فى الإناء دما حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فمى فتفعل ذلك فيصير دما ، ثم إن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم . وقال زيد بن أسلم إن الدم الذى سلط الله عز وجل عليهم كان الرعاف فأتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا إليه مايلقون وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا ، فذلك قوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » (فهذا) أى الحال المذكور (حال من عرفه) تعالى (ووحده ساعة بعد كل ذلك السحر والكفر والضلال والفساد فكيف حال من أفنى عمره فى توحيده ولا يرى لذلك) التوحيد (أهلا فى الدارين) أى الدنيا والآخرة (غيره ؟ أما ترى أصحاب الكهف) والكهف : الغار الواسع فى الجبل (وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم) وقد ذكر العلامة الخازن قصتهم الطويلة وأحببت إيرادها فى هذا المقام لتتميم الفائدة . قال محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار : مرج أمر أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده ، وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الأصنام

وذبح للطواغيت وقتل من خالفه ، وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحدا إلا فتنه عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله ، فلما نزل مدينة أصحاب الكهف واسمها أفسوس استخفى منه أهل الإيمان وهربوا فى كل وجه ، فاتخذ شرطا من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم فجعل أولئك الشرط يتبعون أهل الإيمان فى أماكنهم ويخرجونهم إلى دقيانوس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأصنام ، فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل ؛ فلما رأى ذلك أهل الشدة فى الإيمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ويجعل ما قطع من أجسادهم على أسوار المدينة وأبوابها ، فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من أشرف الروم وهم ثمانية نفر وبكوا وتضرعوا إلى الله عز وجل وجعلوا يقولون « ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا » اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجودا يبكون ويتضرعون إلى الله عز وجل ، فقال لهم الشرط ما خلفكم عن أمر الملك ثم انطلقوا إلى الملك فأخبروه خبر الفتية فبعث إليهم ، فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التى نعبد فى الأرض وتجعلوا أنفسكم أسوة أهل مدينتكم اختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا وإما أن أقتلكم ، فقال مكسلمينا وهو أكبرهم إن لنا إلها ملء السموات والأرض عظمته لن ندعو من دونه إلها أبدا له الحمد والتكبير من أنفسنا خالصا أبدا إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير ، فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع بنا ما بدالك . وقال أصحابه مثل ذلك ، فلما سمع الملك كلامهم أمر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما يمنعنى أن أعجل ذلك لكم إلا أنى أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تذكرون فيه فترجعون إلى عقولكم ، ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره ، فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا إذا قدم أن يذكرهم فأتمروا بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له ينجلوس فيمكثوا فيه ويعبدوا الله إذا جاء دقيانوس أتوه فيصنع بهم ما يشاء ، فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقى معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه . وقال كعب الأحبار : مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا ، فقال الكلب ما تريدون منى لا تخشوا منى أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم . وقال ابن عباس : هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد إلى الكهف . قال ابن عباس : فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله عز وجل وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم إسمه تمليخا فكان يبتاع لهم ارزاقهم من

المدينة سرا ، وكان من أجملهم وأجلدهم وكان إذا دخل المدينة لبس ثيابا رثة كثياب المساكين ثم يأخذ ورقه فينطلق إلى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشيء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا ، ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشترى لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل فأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة ، فقال لهم تمليخا يا إخوتاه ارفعوا رؤوسكم وأطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع ، وذلك عند غروب الشمس ، ثم جلسوا يتحدثون ويذكر بعضهم بعضا فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله عز وجل على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رءوسهم ، فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم ، فقال لبعض عظماء المدينة لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا أن بى غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمرى ما كنت لأجهل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتى ، فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا فى ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا ، فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا وأرسل إلى آبائهم فأتى بهم ، فقال أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى فقالوا أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة إنهم ذهبوا بأموالنا وأهلكوها فى أسواق المدينة ، ثم انطلقوا إلى جبل يدعى ينجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل مايدرى ما يصنع بالفتية فألقى الله سبحانه وتعالى فى نفسه أن يأمر بسد باب الكهف عليهم وأراد الله عز وجل أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، فأمر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم فى كهفهم يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله عز وجل أرواحهم وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم إن رجلين مؤمنين فى بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما بيدروس واسم الآخر روناس اهتما أن يكتبا شأن هؤلاء الفتية وأسماءهم وأنسابهم وأخبارهم فى لوحين من رصاص ويجعلاهما فى تابوت من نحاس ويجعلا التابوت فى البنيان وقالا لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقى دقيانوس ما بقى ، ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك . وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها ، وكان معهم كلب صيد لهم ، وكان أحدهم وزير الملك فقذف الله سبحانه وتعالى الإيمان فى قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد إيمانه وقال فى نفسه أخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنى عقاب بجرمهم فخرج

شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره وجلس إليه من غير أن يظهر على أمره ، ثم خرج آخر فخرجوا جميعا فاجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ماجمعكم وكل واحد يكتم إيمانه من صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ويفشى كل واحد سره إلى صاحبه ففعلوا ذلك فاذا هم جميعا على الإيمان وإذا الكهف في جبل عظيم قريب منهم ، فقال بعضهم لبعض « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته » فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيد فناموا ثلاثمائة ستين وازدادوا تسعا ، وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وأنسابهم فى لوح : فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم فى شهر كذا فى سنة كذا فى مملكة فلان بن فلان الملك ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا ليكون لهؤلاء شأن ، ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن . قال محمد بن إسحاق : ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح ، يقال له بيدروس فلما ملك بقي ملكه ثمانيا وستين سنة فتحزب الناس فى ملكه فكانوا أحزابا : منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع إلى الله وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون : لا حياة إلا الحياة الدنيا ، وإنما تبعث الأرواح دون الأجساد وجعل بيدروس الملك يرسل إلى من يظن فيهم خيرا وأنهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين ؟ فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكى ويقول : رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليه .

ثم إن الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذى يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين . فألقى الله سبحانه وتعالى فى نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى فيه ذلك الكهف . وكان اسمه أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف ويبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما كان على باب الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى عن الناس بالرعب . فلما فتح باب الكهف أذن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة والسلطان محي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون لا يرى فى وجوههم ولا ألوانهم شئ يكرهونه وأنهم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس فى طلبهم ، فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم : أنبئنا بما قال الناس فى شأننا أمس عند هذا الجبار وهم يظنون أنهم قد رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون ، وقد خيل إليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم ، فقال بعضهم لبعض « كم لبثتم » نياما « قالوا لبثنا

يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم » وكل ذلك فى أنفسهم يسير ، فقال لهم تمليخا : قد التمستم فى المدينة ، وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل ، فقال لهم مكسلمينا يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذ دعاكم عدو الله ، ثم قالوا لتمليخا : انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذى يذكر فينا عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتغ لنا طعاما فأتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس ، وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا ، فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس وأهله هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة . فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة كانت لأهل الايمان إذا كان أمر الايمان ظاهرا فيها . فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها يمينا وشمالا ثم ترك ذلك الباب ومضى إلى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل إليه أن المدينة ليست بالتى كان يعرف ورأى أشخاصاً كثيرة محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ، ثم رجع إلى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول : ياليت شعرى ما هذا ؟ أما عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة فى هذه المدينة ويستخفون بها واليوم ظاهرة لعلى نائم حالم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشى فى أسواقها فسمع ناسا يحلفون باسم عيسى ابن مريم فزاده ذلك تعجبا ورأى أنه حيران فقام مسندا ظهره إلى جدران المدينة وهو يقول فى نفسه : والله ما أدرى ماهذا . أما عشية أمس فليس كان على الأرض من يذكر عيسى بن مريم إلا قتل وأما اليوم فاسمع كل إنسان يذكر عيسى ابن مريم لا يخاف ، ثم قال فى نفسه : لعل هذه ليست بالمدينة التى أعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقى فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يافتى فقال اسمها أفسوس فقال فى نفسه : لعل بى مسا أو أمرا أذهب عقلي والله يحق لى أن أسرع الخروج قبل أن يصيبنى فيها شر فأهلك فمضى إلى الذين يبتاعون الطعام فأخرج لهم الورق التي كانت معه وأعطاها رجلا منهم وقال له : بعنى بهذه الورق طعاما فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها رجلا آخر من أصحابه فنظر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ويتعجبون منها ويتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض : إن هذا أصاب كنزا خبيئا فى الأرض منذ زمان طويل فلما رآهم تمليخا يتحدثوا فيه فرق فرقا شديدا وخاف وجعل يرعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس وجعل أناس يأتونه ويتعرفونه فلا يعرفونه ، فقال لهم وهو شديد الخوف منهم أفضلوا على قد أخذتم ورقى فأمسكوها . وأما طعامكم فلا حاجة لى به ، فقالوا له يا فتى : من أنت وما شأنك ، والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت ، وإنك إن لم تفعل

تحملك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك ، فلما سمع قولهم قال : والله قد وقعت فى كل شىء أحذر منه ، فقالوا له : يافتى إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت وجعل تمليخا ما يدرى ما يقول لهم وخاف حتى لم يجر على لسانه إليهم شىء ، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه فى عنقه وجعلوا يسحبونه فى سكك المدينة حتى سمع به من فيها . وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون إليه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه ، وجعل تمليخا لا يدرى ما يقول لهم ، وكان متيقنا أن أباه وإخوته بالمدينة وأنه من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به ، فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيس المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر طنطيوس فلما انطلقوا به إليهما ظن تمليخا أنه إنما ينطلق به إلى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وهو يبكى والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ علي اليوم صبرا وأولج معى روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار ، وجعل يقول فى نفسه : فرقوا بينى وبين إخوتى ، ياليتهم يعلمون ما لقيت وياليتهم يأتوننى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار ، فانا قد كنا تواثقنا على الإيمان بالله ، وأن لا نشرك به أحدا أبدا ، ولا نفترق فى حياة ولا موت ، فلما انتهى إلى الرجلين الصالحين أريوس ، وطنطيوس ورأى أنه لم يذهب إلي دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء ، وأخذ أريوس وطنطيوس الورق ونظرا إليها وعجبا منها وقالا : أين الكنز الذى وجدت يافتى؟ فقال تمليخا: ماوجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ما شأنى وما أقول لكم . فقال له أحدهما ممن أنت فقال تمليخا : أما أنا فكنت أرى أنى من أهل هذه المدينة ، فقيل له ومن أبوك ومن يعرفك بها ؟ فأخبرهم باسم أبيه فلم يوجد من يعرفه ولا أباه . فقال له أحدهما : أنت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حوله : هذا رجل مجنون ، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكى ينفلت منكم ، فقال له أحدهما ونظر إليه نظرا شديدا . أتظن أنا نرسلك ونصدقك بان هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها ولهذه الورق أكثر من ثلاثمائة سنة وأنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بأيدينا ، وليس عندنا من هذه الضرب درهم ولا دينار ؟ وإنى لأظننى سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذى وجدته فقال لهم تمليخا : أخبرونى عما أسألكم عنه ، فان أنتم فعلتم صدقتكم عما عندى ، فقالوا له سل لا نكتمك شيئا ، فقال : فما فعل الملك دقيانوس ؟ فقالا : ما نعرف على وجه الأرض من اسمه دقيانوس ولم يكن إلا ملك هلك فى الزمان الأول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة فقال تمليخا إنى إذا لحيران وما

وما يصدقنى من الناس فيما أقول لقد كنا فتية على دين واحد وإن الملك أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت فهربنا عنه عشية أمس فأتينا إلى الكهف الذى فى جبل ينجلوس فنمنا فيه فلما انتبهنا خرجت لأشترى لأصحابى طعاما أتجسس الأخبار فاذا أنا معكم كما ترون فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم أصحابى ، فلما سمع أريوس قول تمليخا قال : يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله عز وجل لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا أصحابه ، فانطلق أريوس وطنطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم ، فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى فيه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس ، فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث بهم إليهم ليؤتى بهم فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا فانه الآن بين يدى الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة إذ هم بأريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكى ، فلما رأوه يبكى بكوا معه ، ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا أنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمن الطويل وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة لا ريب فيها ، ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من علماء أهل المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما : مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وبيرونس وديموس وبطيوس وقالوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف ، فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر بهم ، فلما قرءوه عجبوا وحمدوا الله تعالى سبحانه الذى أراهم آية تدلهم على البعث ، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ، ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجودا لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذى أراهم آية من آياته ، ثم كلم بعضهم بعضا وأخبرهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ، ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريدا إلى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث وذلك أن فتية بعثهم الله ، وقد كان توفاهم منذ ثلاثمائة سنة وأكثر ، فلما أتى الملك الخبر رجع عقله إليه وذهب همه ، وقال أحمدك اللهم رب السموات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتنى ولم تطفىء النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح بيدروس ، ثم أخبر بذلك أهل مدينته فركب وركبوا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهلها وساروا معه نحو الكهف ، فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدروس فرح بهم

(إِذْ قَامُوا فَقَالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا)وَالْتَجَأُوا إِلَيْهِ ، كَيْفَ قَبِلَهُمْ وَوَهَبَ لَهُمْ ثُمَّ أَعَزَّهُمْ وَأَكْرَمَهُمْ فَقَالَ : (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) وَكَيْفَ أَعْظَمَ لَهُمُ الْحُرْمَةَ ، وَأَلْبَسَهُمُ الْمَهَابَةَ وَالْخَشْيَةَ ، حَتَّى يَقُولَ

وخر ساجدا على وجهه وقام بيدروس الملك قدامهم ، ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه ، ثم قال الفتية لبيدروس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الإنس والجن ، فبينما الملك قائم إذا هم رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم ، فقام الملك إليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب ، فلما أمسى ونام أتوه فى منامه فقالوا له إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه ، فأمر الله عند ذلك بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب ولم يقدر أحد أن يدخل عليهم ، وأمر الملك أن يتخذوا على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة ؛ وقيل إن تمليخا حمل إلى الملك الصالح ، فقال له الملك من أنت ؟ قال : أنا رجل من أهل هذه المدينة ، وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام ، وذكر منزله وأتوا مالم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية قد فقدوا فى الزمان الأول وأن أسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانة فدعا باللوح ونظر فى أسمائهم فإذا اسمه مكتوب ، وذكر أسماء الآخرين فقال : تمليخا هم أصحابى فلما سمع الملك ركب ومن معه من القوم ، فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى أدخل على أصحابى فأبشرهم فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم ، فدخل تمليخا فبشرهم فقبض الله روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدو إليهم فذلك قوله عز وجل « إذ أوى الفتية إلى الكهف » : أى صاروا إلى الكهف واسمه خيرم « فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة » : أى هداية في الدين « وهيء لنا » : أى يسر لنا « من أمرنا رشدا » : أى ما نلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا . وقال ابن عباس : أى مخرجا من الغار فى سلامة (إذ قاموا) يعنى بين يدى دقيانوس الجبار حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام (فقالوا) أى الفتية (ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه) لن نعبد من دون الله (إلها) ربنا ، إنما قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأصنام (والتجأوا) أى أصحاب الكهف (إليه) تعالى (كيف قبلهم ووهب لهم ، ثم أعزهم وأكرمهم) بأنواع الكرامات (فقال) تعالى (ونقلبهم) فى رقدتهم (ذات اليمين وذات الشمال) . قال ابن عباس : كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم ، قيل كانوا يقلبون فى يوم عاشوراء ؛ وقيل كان لهم فى السنة تقليبتان (وكيف أعظم) الله تعالى (لهم الحرمة وألبسهم المهابة والخشية حتى يقول)

لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَيْهِ : (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) بَلْ كَيْفَ أَكْرَمَ كَلْبًا تَبِعَهُمْ حَتَّى ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ جَعَلَهُ مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَحْجُورًا وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ فِي الْآخِرَةِ مُكَرَّمًا؟ فَهَذَا فَضْلُهُ مَعَ كَلْبٍ خَطَا خُطُوَاتٍ مَعَ قَوْمٍ عَرَفُوهُ وَوَحَّدُوهُ أَيَّامًا مَعْدُودَةً مِنْ غَيْرِ عِبَادَةٍ أَوْ خِدْمَةٍ ، فَكَيْفَ فَضْلُهُ مَعَ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي خَدَمَهُ وَوَحَّدَهُ وَعَبَدَهُ سَبْعِينَ سَنَةً ؟ وَكَيْفَ لَوْ عَاشَ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لَكَانَ قَاصِدًا لِلْعُبُودِيَّةِ ..

أَمَا تَرَى كَيْفَ عَاتَبَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ عَلَى الْمُجْرِمِينَ بِالْهَلَاكِ ؟

سبحانه وتعالى (لأكرم الخلق) صلى الله عليه وسلم (عليه) أى عنده تعالى (لو اطلعت عليهم) يا محمد فى تلك الحال (لوليت منهم فرارا) لهربت منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من رقدتهم (ولملئت منهم رعبا) أى خوفا من وحشة المكان ، وقيل لأن أعينهم منفتحة كالمتيقظ الذى يريد أن يتكلم وهم نيام ، وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا إشعار ، وقيل إن الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد . قال ابن عباس : غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف ، فقال معاوية : لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : قد منع ذلك من هو خير منك ، فقيل له « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا » فبعث معاوية ناسا فقال : اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم (بل كيف أكرم كلبا تبعهم) قال ابن عباس : كان كلبا أنمر ، وعنه أنه كان فوق القلطى ودون الكرزي والقلطى كلب صينى ، وقيل إنه كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب إلى حمرة ، وقال ابن عباس : كان اسمه قطمير ، وقيل ريان ، وقيل صهبان ، قيل ليس فى الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم (حتى ذكره) أى ذلك الكلب (فى كتابه العزيز مرات ، ثم جعله معهم فى الدنيا محجورا ويدخله الجنة فى الآخرة يكرما فهذا)أى الإكرام والإدخال (فضله) تعالى (مع كلب خطا خطوات مع قوم) وهم أصحاب الكهف (عرفوه)تعالى (ووحدوه أياما معدودة من غير عبادة أو خدمة فكيف فضله) تعالى (مع عبده المؤمن الذى خدمه) وأطاعه (ووحده وعبده سبعين سنة وكيف لو عاش) أى المؤمن (سبعين ألف سنة لكان قاصدا للعبودية ، أما ترى كيف عاتب) الله تعالى خليله (إبراهيم عليه السلام فى دعائه على) القوم (المجرمين بالهلاك) أى بهلاكهم وذلك كما روى عن قسامة بن زهير رضى الله عنه أنه قال : « بلغنى أن إبراهيم عليه السلام حدث نفسه أنه أرحم الخلق قال فرفعه الله تعالى حتى أشرف

وَكَيْفَ عَاتَبَ مُوسَى فِى أَمْرِ قَارُونَ ، فَقَالَ اسْتَغَاثَ بِكَ قَارُونُ فَلَمْ تُغِثْهُ فَوَعِزَّتِى لَوِ اسْتَغَاثَ بِى لَأَغَثْتُهُ وَعَفَوْتُ عَنْهُ .

على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون فقال يارب دمرهم فقال الله تعالى «أنا أرحم بعبادى منك يا إبراهيم اهبط فلعلهم يتوبون ويرجعون» ، وعن علىّ رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لما أرى الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل بمعصية من معاصى الله عز وجل فدعا الله عليه فهلك ، وكذلك على آخر وآخر فهلكوا فأوحى الله إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فإنهم منى على ثلاث خصال : إما أن يتوب العبد منهم فأتوب عليه ، وإما أن أخرج منه نسمة تسبح لى ، وإما أن يبعث إلى فان شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته » . وقيل إن سبب أمر الله له بذبح ولده هو هذا المعنى الذى ظهر منه من غلظته على العصاة وقلة رحمته لهم ، وقد ذكر في بعض التفاسير أنه عليه السلام كان يعرج به كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب على فاحشة فقال : اللهم أهلكه يأكل رزقك ويمشى على أرضك ويخالف أمرك فأهلكه الله تعالى ، فأطلع على آخر فقال : اللهم أهلكه فنودى كف عن عبادى رويدا رويدا فانى طالما رأيتهم عاصين فلما هبط أرى فى المنام ما ذكر الله تعالي حيث يقول : « إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » فلما تشمر وأخذ السكين بيده قال : اللهم هذا ولدى وثمرة فؤادى وأحب الناس إلى فسمع قائلا يقول : أما تذكر الليلة التي سألت فيها إهلاك عبدى أو ما تعلم أنى رحيم بعبادى كما أنت شفيق بولدك فاذا سألتنى إهلاك عبدى أسألك ذبح ولدك واحد بواحد والبادى أظلم كذا ذكره العلامة الرندى (وكيف عاتب) سبحانه وتعالى نبيه (موسي) عليه السلام (فى أمر قارون) قيل كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث ، وقيل كان عم موسى ، ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ منه للتوراة ، ولكنه نافق كما نافق السامرى (فقال) تعالى (استغاث بك قارون فلم تغثه فوعزتى) وجلالى (لو استغاث) قارون (بى لأغثته وعفوت عنه) ذنبه .

ذكر قصة قارون

قال أهل العلم بالأخبار والسير : كان قارون أعلم بنى إسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكروننى به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أنى منزل منها كلامى ، فقال موسى يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بنى إسرائيل تستصغر هذه الخيوط ، فقال له ربه : يا موسى إن

الصغير من أمري ليس بصغير ، فإذا لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير فدعاهم موسى فقال إن الله يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعل بنو إسرائيل ماأمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه ، وقال إنما فعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم فكان هذا بدء عصيانه وبغيه ، فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون وهي رياسة المذبح فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك في نفسه فأتى إلى موسى ، فقال له : ياموسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك وأنا أقرأ التوراة لا صبر لي على هذا ، فقال أما أنا ما جعلتها لهارون بل الله جعلها فقال له قارون والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل ، فقال هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها في قبته التي يتعبد فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى : يا قارون ترى هذا ؟ فقال له قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر واعتزل قارون موسى بأتباعه ، وجعل موسى يداريه للقرابة بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد إلا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى حتى بنى دارا وجعل لها بابا من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه . قال ابن عباس : فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه على كل ألف دينار عنها دينار وعلى كل ألف درهم عنها درهم ، وكل ألف شاة عنها شاة ، وكذلك سائر الأشياء ، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده شيئا كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بني إسرائيل وقال لهم إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعمتوه وهو يريد أخذ أموالكم ، فقالوا أنت كبيرنا فمرنا بما شئت قال آمركم أن تجيئوا فلانة البغي وتجعلوا عليكم لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل فرفضوه فدعوها فجعل لها قارون ألف دينار وألف درهم وقيل طستا من ذهب وقيل قال لها قارون أنزلك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم فخرج إليهم موسى وهم في مرج من الأرض فقام فيهم فقال : يابني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة ومن زنى وله امرأة رجمناه إلى أن يموت ، فقال قارون وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا قال : فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة البغي . قال ادعوها : فلما جاءت قال لها موسى بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله بالتوفيق ، فقالت في نفسها أحدث توبة أفضل من أن أوذي رسول الله فقالت لا والله ، ولكن قارون جعل لي جعلا على أن أقذفك بنفسي فخر موسى ساجدا يبكي ويقول اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله إليه إني أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت » فقال موسى يابني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ، ومن كان معي فليعتزل ، فاعتزلوا فلم يبق مع قارون إلا رجلان ، ثم

وَكَيْفَ عَاتَبَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِى شَأْنِ قَوْمِهِ : بِأَنَّكَ تَحْزَنُ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ يقطِينٍ أَنْبَتُّهَا فِى سَاعَةٍ وَأَيْبَسْتُهَا فِى سَاعَةٍ ، وَلَا تَحْزَنُ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ؛

قال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم بأقدامهم ، وقيل كان على سريره وفرشه فأخذته الأرض حتى غيبت سريره ، ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم إلى الركب ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وأصحابه فى ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون الله والرحم حتى قيل أنه ناشده أربعين مرة وقيل سبعين مرة وموسى فى ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه ثم قال ياأرض خذيهم فأطبقت عليهم الأرض فأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك يستغيث بك قارون سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتى وجلالى لو استغاث بى مرة لأغثته ، وفى بعض الآثار لا أجعل الأرض بعدك طوعا لأحد . قال قتادة : خسف به الأرض فهو يتجلجل فى الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قرارها إلى يوم القيامة وأصبح بنو إسرائيل يقولون فيما بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله تعالى « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين» (وكيف عاتب) الله تعالى نبيه (يونس عليه السلام فى شأن قومه بأنك تحزن على شجرة من يقطين) أى من شجر ينبسط على وجه الأرض ولا يقوم على ساقه كالقرع والقثاء والبطيخ ونحوه والأكثر على أنها كانت الدباء غطته بأوراقها عن الذباب لئلا يقع عليه وفى أخبار الدول وآثار الأول كان حين خرج من بطن الحوت كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش وهو قطعة لحم لم ينقص من خلقه شىء فأنبت الله عليه شجرة اليقطين وكان يوم خروجه من بطن الحوت سابع المحرم ، ثم أمر الله تعالى ظبية فأقبلت إليه ووقفت بين يدى يونس وكلمته باذن الله تعالى وأمرته أن يمص من لبنها ليقوى به فلما مص وشرب قوى فلم يزل على ذلك أربعين يوما فنام ثم انتبه فرأى اليقطينة قد يبست والظبية غابت عنه فجلس حزينا مغموما يبكى لفقدهما فأوحى الله تعالى إليه يا يونس إنك تبكى على ظبية لم ترزقها وعلى يقطينة لم تزرعها ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون من أولاد إبراهيم عليه السلام فعند ذلك هبط عليه ملك وأتاه بحلتين فلبسهما ، وقال له قم يا يونس إلى قومك فانهم يتمنون أن يروك فسار يونس عليه السلام (أنبتها) أى تلك الشجرة (فى ساعة وأيبستها فى ساعة) قيل أنبتها الله له لم تكن قبل ذلك وكانت معروشة ليحصل له الظل (ولا تحزن على مائة ألف) هم قومه الذين هرب عنهم وهم أهل نينوى (أو يزيدون) قال ابن عباس ويزيدون وقيل معناه بل يزيدون وقيل أو على أصلها . والمعنى أو يزيدون فى تقدير الرائى إذا رآهم قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على ذلك فالشك على تقدير المخلوقين والأصح هو قول ابن عباس الأول ، وأما الزيادة فقال ابن عباس كانوا عشرين ألفا ، ويعضده ما روى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى « وأرسلناه إلى مائة ألف

ثُمَّ كَيْفَ قَبِلَ عُذْرَهُمْ ، وَصَرَفَ عَذَابَهُ الْعَظِيمَ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا أَضَلَّهُمْ ؟

ثُمَّ كَيْفَ عَاتَبَ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ صلى اللهُ عليه وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ ، فِيمَا رُوِيَ أَنَّهُ دَخَلَ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ فَرَأَى قَوْمًا يَضْحَكُونَ ، فَقَالَ لِمَ تَضْحَكُونَ ؟ لاَ أَرَاكُمْ تَضْحَكُونَ ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ رَجَعَ إِلَيْهِمُ الْقَهْقَرَى وَقَالَ جَاءَنِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكَ : لِمَ تُقَنِّطُ عِبَادِي مِنْ رَحْمَتِي : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وَهٰذَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « للهُ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا » وَفِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم :

أويزيدون » قال يزيدون عشرين ألفا أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وقيل يزيدون بضعا وثلاثين ألفا وقيل سبعين ألفا (ثم كيف قبل) سبحانه وتعالى (عذرهم) أى قوم يونس عليه السلام (وصرف عذابه العظيم عنهم بعد ما أضلهم . ثم كيف عاتب) الله تعالى (سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله أجمعين فيما روى أنه دخل من باب بنى شيبة) ويقال له باب السلام وباب بنى عبد شمس بن عبد مناف وبه كان يعرف فى الجاهلية والإسلام (فرأى قوما يضحكون فقال) صلى الله عليه وسلم (لم) أى لأى شىء (تضحكون لا أراكم تضحكون حتي إذا كان) عليه الصلاة والسلام (عند الحجر الأسود رجع إليهم القهقرى) فى المختار : القهقرى الرجوع إلى خلف ورجع القهقرى : أى رجع الرجوع المعروف بهذا الاسم لأن القهقرى ضرب من الرجوع (وقال) عليه الصلاة والسلام (جاءنى جبريل فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لك لم) أى لأى شىء (تقنط) أى تؤيس . فى المختار : القنوط اليأس وبابه جلس ودخل وطرب وسلم فهو قنط وقنوط وقانط (عبادى من رحمتى نبئ) أي أخبر (عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) ولفظ القشيرى فى الرسالة : وفى بعض التفاسير « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أصحابه من باب بنى شيبة فرآهم يضحكون فقال : تضحكون لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ثم مر ورجع القهقرى وقال نزل على جبريل وأتى بقوله : نبىء عبادى أني أنا الغفور الرحيم » ولفظ المصنف فى الإحياء ، ولما قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادى فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم » . قال العراقي : رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة وأوله متفق عليه من حديث أنس (وهذا رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول لله أرحم بالعبد المؤمن من الوالدة الشفيقة) أى المشفقة (بولدها) قال العراقي : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب (وفى الخبر المشهور عن النبي صلي الله عليه وسلم

« إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ : فَوَاحِدَةٌ مِنْهَا قَسَّمَهَا بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ ؛ وَأَدَّخَرَ مِنْهَا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ لِنَفْسِهِ ، لِيَرْحَمَ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

«إن لله تعالى مائة رحمة) قال العزيزى حصره فى مائة على سبيل التمثيل وتسهيلا للفهم وتقليلا لما عند الخلق وتكثيرا لما عند الله سبحانه وتعالى . وأما مناسبة هذا العدد الخاص فقال ابن أبى جمرة : ثبت أن نار الآخرة تفضل نار الدنيا بتسعة وتسعين جزءا فإذا قوبل كل جزء برحمة زادت الرحمات ثلاثين جزءا، فالرحمة فى الآخرة أكثر من النقمة فيها ، ويؤيده قوله تعالى فى الحديث القدسى « غلبت رحمتى غضبى » انتهى . ويحتمل أن تكون مناسبة هذا الخاص لكونه مثل عدد درج الجنة والجنة هى محل الرحمة فكانت كل رحمة بازاء درجة . وقد ثبت أنه لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى فمن نالته منها رحمة واحدة كان أدنى أهل الجنة منزلة وأعلاهم من حصلت له جميع أنواع الرحمة ، وهذه الرحمات كلها للمؤمنين بدليل قوله تعالى « وكان بالمؤمنين رحيما » وأما الكفار فلا يبقى لهم حظ فى الرحمة لا من جنس رحمات الدنيا ولا غيرها (فواحدة) وهذه الرحمة الواحدة تعم كل موجود (منها) أى من المائة (قسمها) أى الواحدة (بين الجن والإنس والبهائم فبها) أى الرحمة الواحدة (يتعاطفون وبها يتراحمون، وادخر) أى أمسك (منها) أى من المائة (تسعة وتسعين) رحمة (لنفسه) جل وعز (ليرحم بها) أى بالتسعة والتسعين (عباده يوم القيامة») قال القرطبى : مقتضى هذا الحديث أن الله علم أنواع النعم التى ينعم بها على خلقه مائة نوع ، فأنعم عليهم فى هذه الدنيا بنوع واحد انتظمت به مصالحهم وحصلت به منافعهم . فإذا كان يوم القيامة أكمل لعباده المؤمنين ما بقى فبلغت مائة رحمة ، فالرحمة التى فى الدنيا يتراحمون بها أيضا يوم القيامة ويعطف بعضهم على بعض بها . وقال المهلب : الرحمة التى خلقها الله لعباده وجعلها فى نفوسهم فى الدنيا هى التى يتقاضون بها يوم القيامة التبعات بينهم ، وفى الحديث بشارة للمسلمين لأنه إذا حصل للانسان من رحمة واحدة فى هذه الدار المبنية على الأكدار الإسلام والقرآن والصلاة والرحمة فى قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به فكيف الظن بمائة رحمة فى الآخرة وهى دار القرار ودار الجزاء . قال العراقى : رواه مسلم من حديث أبى هريرة وسلمان وكذلك رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه بعد قوله يتراحمون «وبها تعطف الوحش على ولدها» ، ورواه البيهقى من حديث أبى هريرة بلفظ « إن لله تعالى مائة رحمة قسم منها رحمة فى دار الدنيا فمن ثم يعطف الرجل على ولده والطير على فراخه فإذا كان يوم القيامة صيرها مائة رحمة فعاد بها على الخلق » ورواه الحاكم بلفظ « إن لله تعالى مائة رحمة قسم منها رحمة بين أهل الدنيا فوسعتهم إلى آجالهم وأخر تسعا وتسعين رحمة لأوليائه وإن الله قابض تلك الرحمة التى قسمها بين أهل الدنيا إلى التسع والتسعين فيكملها مائة رحمة لأوليائه يوم القيامة» وروى مسدد فى مسنده من حديث سلمان بلفظ «إن لله تعالى مائة رحمة منها رحمة تتراحم

وَإِذْ قَدْ أَعْطَاكَ مِنَ الرَّحْمَةِ الْوَاحِدَةِ كُلَّ هٰذِهِ الْعَطَايَا الْكَرِيمَةِ الْعَزِيزَةِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ ، وَالْكَوْنِ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ ، مَعَ مَعْرِفَةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، إِلَى سَائِرِ مَا لَدَيْكَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، فَمَرْجُوٌّ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ أَنْ يُتِمَّ ذٰلِكَ ، فَإِنَّ مَنْ بَدَأَ بِالْإِحْسَانِ فَعَلَيْهِ الْإِتْمَامُ ، وَيَجْعَلُ مِنْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً لَكَ الْحَظَّ الْوَافِرَ ، فَنَسْأَلُ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يُخَيِّبَ

بها الخلق وتسعة وتسعين ليوم القيامة » ورواته ثقات . وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحيم ابن سليمان عن داود عن أبي عثمان عن سلمان قال : « خلق الله مائة رحمة فجعل منها رحمة بين الخلائق كل رحمة أعظم مما بين السماء والأرض ، فبها تعطف الوالدة على ولدها وبها يشرب الطير والوحش الماء فإذا كان يوم القيامة قبضها الله من الخلائق فجعلها والتسع والتسعين للمتقين ، فذلك قوله : ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون » هكذا رواه موقوفا ، ورواه الحاكم بنحوه من حديث أبي هريرة ، ورواه الشيخان من حديث أبي هريرة «خلق الله مائة رحمة فوضع رحمة واحدة بين خلقه يتراحمون بها وخبأ عنده مائة إلا واحدة » . وقال ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة فجعل في الأرض منها رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والبهائم بعضها على بعض وأخر تسعا وتسعين إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة رحمة» ومن هذا الوجه رواه أحمد وابن ماجه والضياء ورواه أحمد ومسلم وابن حبان من حديث أبي هريرة بزيادة كل رحمة «طباق ما بين السماء والأرض والباقي سواء» وروى الشيخان من حديث أبي هريرة « إن الله عز وجل خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة أرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بالذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار » وروى الطبراني من حديث ابن عباس «إن الله تعالى خلق مائة رحمة منها واحدة قسمها بين الخلائق وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». وروى تمام في فوائده وابن عساكر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رفعه: «إن الله خلق مائة رحمة فبث بين خلقه رحمة واحدة فهم يتراحمون بها وادخر عنده لأوليائه تسعة وتسعين» ورواه الطبراني بنحوه (وإذ قد أعطاك) الله تعالى (من الرحمة الواحدة كل هذه العطايا الكريمة العزيزة من معرفته سبحانه والكون) أي كونك (من هذه الأمة المرحومة مع معرفة السنة والجماعة إلى سائر ما لديك) أي عندك (من النعم الظاهرة والباطنة فمرجو من فضله العظيم أن يتم) سبحانه وتعالى (ذلك) أي النعم (فإن من بدأ بالإحسان فعليه الإتمام ويجعل من تسع وتسعين رحمة لك الحظ الوافر) أي النصيب الكامل (فنسأل الله سبحانه أن لا يخيب

آمَالَنا مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ بِفَضْلِهِ ، إِنَّهُ السَّيِّدُ الْكَرِيمُ ، الْجَوَادُ الرَّحِيمُ .

﴿ وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّالِثُ ﴾ : فِي ذِكْرِ مَا وَعَدَ وَأَوْعَدَ فِي الْمَعَادِ ، فَلْنَذْكُرْ فِي ذَلِكَ الْأَحْوَالَ الْخَمْسَةَ : الْمَوْتَ ، وَالْقَبْرَ ، وَالْقِيَامَةَ ، وَالْجَنَّةَ ،

آمالنا من فضله العظيم بفضله إنه السيد الكريم الجواد الرحيم . وأما الأصل الثالث فى ذكر ماوعد) من الثواب (و) ذكر (ماأوعد) من العقاب (فى المعاد) أى فى الآخرة لأنها معاد الخلق كلهم (فلنذكر فى ذلك أى الأصل الثالث (الأحوال الخمسة) الحالة الأولى (الموت) هو عند أهل السنة صفة وجودية قائمة بالميت يمكن رؤيتها تمنع اتصافه بالإدراك وعلى هذا فالتقابل بين الحياة والموت من تقابل الضدين ، ويدل لما قاله أهل السنة قوله تعالى «الذى خلق الموت والحياة» والخلق إنما يتعلق بالوجودى ، وقيل إن الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيا وعلى هذا فالتقابل بين الموت والحياة من تقابل العدم والملكة ، وأجابوا عن الآية بأن المراد بالخلق التقدير وهو يتعلق بالوجودى والعدمي ، أو فى الكلام حذف مضاف : أى خلق أسباب الموت ، وقيل إن الموت عدم الحياة مطلقا فالجماد يوصف بالموت على هذا القول دون القولين الأولين ، وعلى هذا القول فالتقابل بين الموت والحياة تقابل النقيضين (و) الحالة الثانية (القبر) وهو إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران كما ورد فى الخبر (و) الحالة الثالثة (القيامة) أى يومها ، وأوله من وقت الحشر إلى مالا يتناهى على الصحيح ، وقيل إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وسمى بيوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم وقيامهم بين يدى خالقهم وقيام الحجة لهم وعليهم ، وله ثلثمائة اسم وعلاماته كثيرة ، فمنها ما قد وقع ومنها مالا يقع . وعلاماته الكبرى عشرة : أولها ظهور المهدى ثم خروج الدجال ثم نزول عيسى ابن مريم ثم خروج يأجوج ومأجوج وخروج الدابة التى تكتب بين عينى المؤمن مؤمنا فيضىء وجهه وبين عينى الكافر كافرا فيسود وجهه وطلوع الشمس من مغربها وظهور الدخان يمكث فى الأرض أربعين يوما يخرج من أنف الكافر وعينيه وأذنيه ودبره حتى يصير كالسكران ويصيب المؤمن منه كهيئة الزكام ، وخراب الكعبة على أيدى الحبشة بعد موت عيسى ورفع القرآن من المصاحف والصدور ورجوع أهل الأرض كلهم كفارا (و) الحالة الرابعة (الجنة) وهى دار الثواب .

واختلف فى الجنة هل هى سبع جنات متجاورة أفضلها وأوسطها الفردوس ، وهى أعلاها والمجاورة لا تنافى العلو وفوقها عرش الرحمن ومنها تنفجر أنهار الجنة ، ويليها فى الأفضلية جنة عدن ثم جنة الخلد ثم جنة النعيم وجنة المأوى ودار السلام ودار الجلال ، والجنان كلها متصلة بمقام الوسيلة ليتنعم أهل الجنة بمشاهدته صلى الله عليه وسلم لظهوره صلى الله عليه وسلم لهم منها ، لأنها تشرق على أهل الجنة كما أن الشمس تشرق على أهل الدنيا ، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس ، أو أربع ورجحه جماعة لقوله تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » جنة النعيم وجنة المأوى ، ثم قال «ومن دونهما جنتان » جنة عدن وجنة الفردوس كما قال بعض المفسرين ، وهذا ما ذهب إليه الجمهور ، أو جنة

وَالنَّارُ وَمَا فِى كُلِّ مَقَامٍ مِنهاَ مِنَ الخَطَرِ العَظِيمِ ، لِلْمُطِيعِينَ ، وَالْعَاصِينَ ، وَالْمُقَصِّرِينَ ، وَالْمُجْتَهِدِينَ .

أَمَّا الْمَوْتُ فَأَذْكُرُ فِيهِ حَالَ رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَا رُوِىَ عَنِ ابْنِ شُبْرُمَةَ أَنَّهُ قَالَ : دَخَلْتُ مَعَ الشَّعْبِيِّ عَلَى مَرِيضٍ نَعُودُهُ وَهُوَ بِمَا بِهِ ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ آخَرُ يُلَقِّنُهُ : لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ : أَرْفُقْ بِهِ ، فَتَكَلَّمَ المَرِيضُ فَقَالَ : إِنْ تُلَقِّنِّي أَوْ لَمْ تُلَقِّنِّي فَإِنِّى لاَ أَدَعُهَا ! ثُمَّ قَرَأَ :

واحدة ، وهذه الأسماء كلها جارية عليها لتحقق معانيها فيها إذ يصدق على الجميع جنة عدن : أى إقامة وجنة المأوى : أى مأوى المؤمنين وجنة الخلد ودار السلام ، لأن جميعها للخلود والسلامة من كل خوف وحزن ، وجنة النعيم لأنها كلها مشحونة بأصنافه (و) الحالة الخامسة (النار) وهى دار العذاب ، وطبقات النار سبع أعلاها جهنم وهى لمن يعذب على قدر ذنبه من المؤمنين وتصير خرابا بخروجهم منها وتحتها لظى وهي لليهود ثم الحطمة وهى للنصارى ثم السعير وهى للصابئين وهم فرقة من اليهود ثم سقر وهى للمجوس ثم الجحيم وهى لعبدة الأصنام ثم الهاوية وهى للمنافقين ، والأكثرون على أن الجنة فوق السموات السبع وتحت العرش ، وأن النار تحت الأرضين السبع ، والحق تفويض علم ذلك إلى اللطيف الخبير ، وذكر ابن العربى أن هـذه النار التى فى الدنيا ما أخرجها الله إلى الناس من جهنم حتي غمست فى البحر مرتين ولولا ذلك لم ينتفع بها أحد من حرها وكفى بها زاجرا ، وبعد أخذ نار الدنيا منها أوقد عليها ألف سنة حتي ابيضت ثم ألف سنة حتي احمرت ثم ألف سنة حتي اسودت فهى سوداء مظلمة وحرها هواء محرق ولا جمر لها سوى بنى آدم والأحجار المتقدة آلهة من دون الله . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » (و) نذكر (ما فى كل مقام منها) أى من الأحوال الخمسة (من الخطر العظيم للمطيعين والعاصين والمقصرين والمجتهدين . أما الموت فأذكر فيه حال رجلين) وهما سعيد وشقي (أحدهما) وهو السعيد (ماروى عن ابن شبرمة أنه قال دخلت مع الشعبي) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل وهو كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم ، والشعبي بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان . وقال ابن الأثير من حمير . وقال مكحول : ما رأيت أفقه منه ، مات بعد المائة وله نحو من ثمانين أخرج حديثه الجماعة (على مريض نعوده وهو) أى المريض (بما به) من المرض (وعنده) أى عند المريض (رجل آخر يلقنه) ى المريض (لا إله إلا الله وحده لا شريك له فقال له) أى للرجل الملقن (الشعبي ارفق) وتلطف (به) أى بهذا المريض (فتكلم المريض فقال إن تلقنى) هذه الكلمة (أو لم تلقنى فإنى لا أدعها) أى لا أتركها (ثم قرأ) المريض « فأنزل الله

(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّى صَاحِبَنَا .

وَالآخَرُ مَا حُكِيَ أَنَّ تِلْمِيذًا لِلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْفُضَيْلُ وَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ وَقَرَأَ سُورَةَ (يس)

سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » (وألزمهم كلمة التقوى) قال ابن عباس : كلمة التقوى لا إله إلا الله أخرجه الترمذى وقال حديث غريب . وقال علي وابن عمر كلمة التقوى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . وقال عطاء الخراسانى : هى لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال الزهرى : بسم الله الرحمن الرحيم ، والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها سبب التقوى وأساسها وقيل كلة أهل التقوى (وكانوا) أى المؤمنون (أحق بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها فى علم الله لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أهل الخير والصلاح (فقال الشعبي : الحمد لله الذى نجى صاحبنا . و) الرجل (الآخر) وهو الشق (ما حكى أن تلميذا) قال العلامه عبد الحق : التلميذ والتلميذة المتعلم أوطالب العلم والتابع ومن قام فى مدرسة بقصد التعلم (للفضيل بن عياض) بن مسعود الزاهد وتقدمت ترجمته رحمه الله (حضرته الوفاة فدخل عليه) أى التلميذ (الفضيل وجلس عند رأسه وقرأ) الفضيل (سورة يس) وذلك لما روى عن معقل ابن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرءوا يس على موتاكم » وذكر الآجرى من حديث أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال « ما من ميت يقرأ عليه يس إلا هون الله عليه » .

ولنذكر فضيلة هذه السورة تتميما للفائدة ، فقد ذكر فى مسند الدارمى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له فى تلك الليلة » أخرجه أبو نعيم الحافظ ، وروى الترمذى عن أنس قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بها قراءة القرآن عشر مرات» وعن عائشة رضى الله عنها قالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن فى القرآن لسورة تشفع لقارئها وتغفر لمستمعها ألاوهي سورة يس تدعى فى التوراة المعمة، قيل يارسول الله وما المعمة ؟ قال تعم صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهوال الآخرة ، وتدعى أيضا الدافعة والقاضية ، قيل يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة » وفى حديث الدارمي عن شهر بن حوشب قال : قال ابن عباس « من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسى ، ومن قرأها فى صدر يومه أعطى يسر ليلته حتى يصبح » وروى الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرءون شيئا سوى طه ويس » وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قسوة فليكتب سورة يس فى جام : أى إناء

فَقَالَ : يَا أُسْتَاذُ لَا تَقْرَأْ هٰذَا ، فَسَكَتَ ثُمَّ لَقَّنَهُ فَقَالَ لَهُ قُلْ : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ فَقَالَ لَا أَقُولُهَا لِأَنِّى مِنْهَا بَرِىءٌ ، وَمَاتَ عَلَى ذٰلِكَ ، فَدَخَلَ الْفُضَيْلُ مَنْزِلَهُ وَجَعَلَ يَبْكِى أَرْبَعِينَ يَوْماً لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ ، ثُمَّ رَآهُ فِى النَّوْمِ وَهُوَ يُسْحَبُ إِلَى جَهَنَّمَ ، فَقَالَ بِأَىِّ شَىْءٍ نَزَعَ اللهُ الْمَعْرِفَةَ مِنْكَ وَكُنْتَ أَعْلَمَ تَلَامِذَتِى ؟ فَقَالَ :

بزعفران ثم يشربه ، وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفورا له » وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من دخل المقبرة فقرأ سورة يس خفف العذاب عن أهلها ذلك اليوم وكان له بعدد من فيها حسنات » وقال يحي بن أبي كثير : بلغنى أن من قرأ سورة يس ليلا لم يزل في فرح حتى يصبح ومن قرأها حين يصبح لم يزل فى فرح حتى يمسى ، وقد حدثنى بهذا من جربها ، ذكره الثعلبي وابن عطية وقال ابن عطية يصدق ذلك التجربة . وفى البيضاوى : وعن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن لكل شىء قلبا وقلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن عشر مرات ، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأيما مسلم قرأ سورة يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها ، وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان » (فقال) التلميذ (يا أستاذ لا تقرأ هذا) أى ما قرأته من سورة يس (فسكت) الفضيل عن القراءة (ثم لقنه) أى التلميذ (فقال) الفضيل (له) أى لذلك التلميذ (قل لا إله إلا الله) وذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فانها تهدم الذنوب هدما ، قالوا يا رسول الله فان قالها فى حياته ؟ قال هى أهدم وأهدم » وعنه صلى الله عليه وسلم « من لقن عند الموت لا إله إلا الله دخل الجنة » وعنه عليه الصلاة والسلام « من دخل القبر بلا إله إلا الله خلصه الله من النار » يعنى من مات وكان آخر كلامه من الدنيا قول لا إله إلا الله خلصه الله من النار إلي غير ذلك من الأخبار (فقال) التلميذ (لا أقولها لأنى منها) أى من هذه الكلمة (برىء ومات على ذلك) الحال من عدم النطق بهذه الكلمة (فدخل الفضيل منزله وجعل يبكى) حزينا لما رآه من حال تلميذه (أربعين يوما لم يخرج من البيت ثم رآه) أى رأى الفضيل تلميذه (فى النوم وهو) أى ذلك التلميذ (يسحب) أى يجر (إلى جهنم فقال) الفضيل (بأى شىء نزع الله المعرفة منك و) الحال أنك قد (كنت أعلم تلاميذى ، فقال) التلميذ

بِثَلَاثَةِ أَشْيَاء : أَوَّلُهَا : بِالنَّمِيمَةِ فَإِنِّي قُلْتُ لِأَصْحَابِي بِخِلَافِ مَا قُلْتُ لَكَ، وَالثَّانِي بِالْحَسَدِ : حَسَدْتُ أَصْحَابِي ، وَالثَّالِثُ : كَانَ بِي عِلَّةٌ فَجِئْتُ إِلَى الطَّبِيبِ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا فَقَالَ : تَشْرَبُ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَدَحًا مِنْ خَمْرٍ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ تَبْقَى بِكَ الْعِلَّةُ ؛ فَكُنْتُ أَشْرَبُهُ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ

ذلك (بثلاثة أشياء أولها بالنميمة، فانى قلت لأصحابي بخلاف ماقلت لك والثانى بالحسد حسدت أصحابي والثالث كان بي علة) باطنة (فجئت إلى الطبيب فسألته عنها) أي عن دوائها : أي العلة (فقال) الطبيب (تشرب فى كل سنة قدحا من خمر فان لم تفعل) شربه (تبقى بك العلة فكنت أشربه) أي قدحا فى كل سنة (نعوذ بالله من سخطه الذى لا طاقة لنا به) وأكثر ما يمكر عند الموت بأرباب البدع وأصحاب الآفات الباطنة والظلمة والمجاهرين بالمعاصى ، فمن كان فى ظاهره الصلاح ومكر به فلا فات باطنية كما ذكر من حال التلميذ المذكور ، ولذا قال سهل بن عبد الله : خوف الصديقين خوف سوء الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة ، وكان سفيان الثورى كثير البكاء والجزع فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو على ذنوبى أبكى لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأمثال الجبال من الخطايا .

﴿ مهمة ﴾ المكلفون على أربعة أقسام : القسم الأول قوم خلقهم الله تعالى لخدمته ولجنته وهم الأنبياء والأولياء والمؤمنون والصالحون . والقسم الثانى : قوم خلقهم الله تعالى لجنته دون خدمته وهم الذين عاشوا كفارا ثم ختم لهم بالإيمان ، أو فرطوا مدة حياتهم وانهمكوا فى العصيان ثم تاب الله عليهم عند الخاتمة فماتوا على حسن الخاتمة والتوبة والإحسان كسحرة فرعون . والقسم الثالث قوم خلقهم لا لخدمته ولا لجنته وهم الكفار الذين يموتون على الكفر حرموا فى الدنيا نعيم الايمان وفى الآخرة يعذبون بالعذاب والهوان . والقسم الرابع : قوم خلقهم الله تعالى لخدمته دون جنته وهم الذين كانوا عاملين بطاعة الله ثم مكر بهم فطردوا عن باب الله تعالى وماتوا على الكفر، كما حكى أن برصيصا العابد كان له ستون ألفا من التلامذة وكانوا يمشون فى الهواء ببركته فمات كافرا نعوذ بالله من ذلك وكان يعبد الله تعالى حتى تعجبت الملائكة من عبادته فقال الله تعالى لهم لماذا تعجبون منه إنى أعلم ما لا تعلمون فى علمى أنه يكفر ويدخل النار أبد الآبدين فسمع ذلك إبليس وعلم أن هلاكه على يده ، فجاء إلي صومعته على شبه عابد قد لبس المسوح فناداه فقال برصيصا من أنت وما تريد فقال أنا عابد أكون عونا لك على عبادة الله تعالى فقال له برصيصا من أراد عبادة الله تعالى فان الله يكفيه صاحبا فقام إبليس لعنه الله يعبد الله ثلاثة أيام لم ينم ولم يأكل ولم يشرب ، فقال برصيصا : أنا أفطر وأنام وآكل وأشرب وأنت لا تأكل وإنى عبدت الله تعالى مائتين وعشرين سنة ولا أقدر على ترك الأكل والشرب فما حيلتى حتى أصير مثلك ؟ قال اذهب فاعص الله تعالى ثم تب فانه رحيم حتى تجد حلاوة الطاعة قال كيف أعصيه بعد أن عبدته كذا وكذا سنة ، فقال إبليس

ثُمَّ أَذْكُرُ حَالَ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ : أَحَدُهُمَا مَا حُكِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، أَنَّهُ لَمَّا احْتُضِرَ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَضَحِكَ وَقَالَ : (لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

وَسَمِعْتُ إِمَامَ الْحَرَمَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَحْكِي عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ لِي صَاحِبٌ أَيَّامَ التَّعْلِيمِ ، وَكَانَ مُبْتَدِئًا كَثِيرَ الْجُهْدِ فِي التَّعَلُّمِ ، تَقِيًّا مُتَعَبِّدًا ، وَكَانَ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَعَ الِاجْتِهَادِ إِلَّا الْقَلِيلُ ، فَكُنَّا نَتَعَجَّبُ مِنْ حَالِهِ ، فَمَرِضَ فَلَزِمَ مَكَانَهُ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي الرِّبَاطِ ، وَلَمْ يَدْخُلْ إِلَى بَيْتِ الْمَرْضَى ،

الإنسان إذا أذنب يحتاج إلى المعذرة والمغفرة ، فقال بأى ذنب تشير على؟ قال الزنا قال لا أفعل قال تقتل مؤمنا قال لا أفعل . قال تشرب مسكرا فانه أهون وخصمك الله وحده . قال أين أجده قال اذهب إلى قرية كذا فذهب فرأى امرأة جميلة فاشترى منها الخمر فشرب وسكر وزني بها فدخل عليه زوجها فقتله ، ثم إن إبليس تمثل فى صورة إنسان وسعي به إلى السلطان فأخذه وجلده للخمر ثمانين جلدة وللزنا مائة جلدة وأمر بصلبه لأجل الدم فلما صلب جاء إليه إبليس فى تلك الصورة ، فقال كيف ترى حالك ؟ قال من أطاع قرين السوء فحاله كذا فقال ابليس كنت فى عبادتك مائتين وعشرين حتى صلبتك فلو أردت أنزلتك قال أريد وأعطيك ماتريد . قال اسجد لى سجدة فقال كيف أسجد على الخشب قال بالإيماء فأومأ برأسه ساجدا فكفر ، نعوذ بالله من ذلك فلما كفر قال الشيطان إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . اللهم اجعل الإيمان لنا سراجا ولا تجعله استدراجا آمين آمين والحمد لله رب العالمين (ثم أذكر حال رجلين آخرين أحدهما) وهو السعيد (ماحكى عن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى) وهو من تابعى التابعين (أنه لما احتضر) أى حضر وقت موته (نظر إلى السماء فضحك وقال لمثل هذا) أى الذى رأيته من النعيم (فليعمل العاملون) أى فيبادر المبادرون فى العمل الصالح ، ويقال فليباذل المباذلون بالنفقة فى سبيل الله ويقال فليجتهد المجتهدون بالعلم والعبادة (وسمعت) شيخى (إمام الحرمين) أبا المعالى عبد الملك ابن الشيخ أبى محمد أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، مولده سنة تسع عشرة وأربعمائة وتوفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة (رضى الله عنه يحكى عن الأستاذ أبي بكر رحمه الله) هو محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الاصبهاني توفى سنة ست وأربعمائة وفورك بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء وبعدها كاف وهواسم علم (أنه قال كان لى صاحب أيام التعليم وكان) صاحبي (مبتدئا) فى العلم (كثير الجهد فى التعلم تقيا متعبدا وكان لا يحصل له) أى لصاحبي (مع الاجتهاد إلا) العلم (القليل فكنا نتعجب من حاله فمرض فلزم مكانه بين الأولياء فى الرباط ولم يدخل إلى بيت المرضى) وهو المسمى بالمارستان

وَكَانَ يَجْتَهِدُ مَعَ مَرَضِهِ فَاشْتَدَّ بِهِ الْحَالُ وَأَنَا إِلَى جَانِبِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذٰلِكَ إِذْ شَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ لِي : يَا ابْنَ فُورَكَ : (لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) وَتُوُفِّيَ عِنْدَ ذٰلِكَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ .

وَأَمَّا الآخَرُ فَنَحْوُ مَا رُوِيَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى جَارٍ لَهُ احْتُضِرَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا مَالِكُ : جَبَلَانِ مِنْ نَارٍ بَيْنَ يَدَيَّ أُكَلَّفُ الصُّعُودَ عَلَيْهِمَا ، قَالَ فَسَأَلْتُ أَهْلَهُ فَقَالُوا : كَانَ لَهُ مِكْيَالَانِ يَكِيلُ بِأَحَدِهِمَا وَيَكْتَالُ بِالآخَرِ فَدَعَوْتُ بِهِمَا ، فَضَرَبْتُ أَحَدَهُمَا بِالآخَرِ حَتَّى كَسَرْتُهُمَا ، ثُمَّ سَأَلْتُ الرَّجُلَ فَقَالَ : مَا يَزْدَادُ الأَمْرُ عَلَيَّ إِلَّا عِظَمًا .

وَأَمَّا الْقَبْرُ وَالْحَالُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَأَذْكُرُ فِيهِ حَالَ رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ قَالَ : رَأَيْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، فَقُلْتُ :

(وكان يجتهد) فى تحصيل العلم (مع مرضه فاشتد به الحال) وهو مرضه (وأنا إلى جنبه فبينما هو كذلك) أى شدة المرض (إذ شخص) أى ارتفع (ببصره إلى السماء ثم قال لى يا ابن فورك لمثل هذا فليعمل العاملون) أى لنيل مثل هذا النعيم يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام (وتوفى عند ذلك) أى قوله ما ذكر (رحمة الله عليه . وأما) الرجل (الآخر) وهو الشقى (فنحو ما روى عن مالك بن دينار) أبى يحيى البصرى كان عالما زاهدا كثير الورع لا يأكل إلا من كسبه وكان يكتب المصاحف بالأجرة توفى سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة قبل الطاعون بيسير (رحمه الله أنه دخل على جار له احتضر) أى حضر وقت موت الجار (فقال) الجار (له يا مالك جبلان من نار بين يدى أكلف) بالبناء للمفعول (الصعود عليهما قال) مالك (فسألت أهله) أى أهل هذا المحتضر عن حاله أيام صحته (فقالوا كان له) أى لهذا المحتضر (مكيالان يكيل) متاع الناس (بأحدهما ويكتال بالآخرة فدعوت) أى طلبت (بهما) أى بالمكيالين (فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ثم سألت الرجل) الذى حضره الموت (فقال مايزداد الأمر على إلا عظما. وأما القبر والحال بعد الموت فأذكر فيه حال رجلين: أحدهما) وهو من جملة السعداء (ما ذكر عن بعض الصالحين) وهو أبو قبيصة كما يأتى فى عبارة البستان (قال رأيت) أبا عبد الله (سفيان) بن سعيد (الثورى) وهو من تابعى التابعين ، ولد سنة سبع وتسعين وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة رضى الله تعالى عنه (فى النوم بعد مماته فقلت :

كَيْفَ حَالُكَ يَا أَبَا عَبْدَ اللهِ ؟ فَأَعْرَضَ عَنِّى وَقَالَ : لَيْسَ هٰذَا زَمَانَ الْكُنَى ! فَقُلْتُ :
كَيْفَ حَالُكَ يَا سُفْيَانُ ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

نَظَرْتُ إِلَى رَبِّى عَيَانًا فَقَالَ لِى ... هَنِيئًا رِضَائِى عَنْكَ يَا ابْنَ سَعِيدِ
لَقَدْ كُنْتَ قَوَّامًا إِذَا اللَّيْلُ قَدْ دَجَا ... بِعَبْرَةِ مُشْتَاقٍ وَقَلْبٍ عَمِيدِ
فَدُونَكَ فَاخْتَرْ أَىَّ قَصْرٍ تُرِيدُهُ ... وَزُرْنِى فَإِنِّى عَنْكَ غَيْرُ بَعِيدِ

كيف حالك ياأبا عبدالله ؟ فأعرض) سفيان (عنى وقال ليس هذا) الزمان (زمان الكنى) الكنية مصدر واسم يعلق على الشخص للتعظيم نحو أبي حفص وأبي الحسن أو علامة عليه ، وعند النحاة قسم من العلم وهو ما يكون مصدرا بلفظ الأب أو الابن أو الأم أو البنت والجمع كنى بالضم والكسر لغة (فقلت كيف حالك يا سفيان فأنشأ يقول) من بحر الطويل (نظرت إلي ربى عيانا) العيان مصدر عاين ولقيه عيانا : أى معاينة لم يشك فى رؤيته إياه (فقال) عز وجل (لى . هنيئا) أي سهلا طيبا (رضائى عنك يا ابن سعيد . لقد كنت) فى الدنيا (قواما) أى كثير القيام للصلاة ونحوها (إذا الليل قد دجا .) أى أظلم (بعبرة) أى بديعة (مشتاق وقلب عميد) أى محب صادق الحب لله : قال أهل اللغة : العميد القلب الذى هزه العشق (فدونك) أى فاقترب منى (فاختر أى قصر) من قصور الجنان (تريده . وزرنى فإنى عنك غير بعيد) بل هو قريب قربا معنويا وقد ذكر النووى : نحو ذلك فى بستانه ، فقال أخبرنا شيخنا الإمام الحافظ أبو البقاء بقراءتى عليه قال : أخبرنا الحافظ عبد الغنى إجازة أخبرنا أبو طاهر السلفى أخبرنا أبو محمد عبدالرحمن بن محمد الدونى قال : سمعت أبا الحسن على بن محمد الأسدابادى أخبرنا على بن الحسين بن على أخبرنا أبو منصور يحي بن أحمد المروزى قال : سمعت أبا العباس أحمد بن منصور قال : سمعت أبا طاهر محمد بن الحسين بن ميمون يقول : سمعت أبا موسى هارون بن موسى يقول : قال أبو حاتم محمد ابن إدريس سمعت أبا قبيصة يقول : رأيت سفيان الثورى فى المنام ، فقلت ما فعل الله تعالي بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى ... هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما إذا أظلم الدجا ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته ... وزرنى فإني منك غير بعيد

ثم بين ما ذكره بقوله قلت: السلفي بكسر السين المهملة وفتح اللام منسوب إلى جده يقال له سلفة كان هذا الجد مشقوق الشفة ، فقلب بالفارسية سيه لفة بكسر السين وفتح اللام أى ذو ثلاث شفاه ثم عربت فقيل سلفة وكان أبوطاهر السلفي أحد حفاظ عصره وأما الدونى بضم الدال واسكان الواوفمنسوب إلى الدونقرية بخراسان من أعمالالدينور ، وأما الأسدابادى فمنسوب لأسداباد بليدة على مرحلة من همدان إذا توجهت إلى العراق ، وأما الثورى فمنسوب إلى بنى ثور

والرَّجُلُ الثاني : مَا ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ رُؤِيَ فى النَّوْمِ شَاحِبَ اللَّوْنِ ، مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ فَأَنْشَدَ يَقُولُ :

تَوَلَّى زَمَانٌ لَعِبْنَا بِهِ   وَهٰذَا زَمَانٌ بِنَا يَلْعَبُ

وَحَالَ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ : أَحَدُهُمَا مَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ لِي ابْنٌ اُسْتُشْهِدَ ، وَلَمْ أَرَهُ فى المَنَامِ إِلَى لَيْلَةٍ تُوُفِّيَ فِيهَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،

ابن عبد مناف بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وأما قوله نظرت إلى ربى كفاحا فهو بكسر الكاف ومعناها معاينة من غير حجاب ولا رسول (والرجل الثانى) وهو من جملة الأشقياء (ما ذكر أن بعضهم) أى بعض الناس (رؤى) أى رآه غيره (فى النوم شاحب) أى متغير (اللون مغلولة) أى مقيدة (يداه إلى عنقه فقيل له) أى لذلك البعض (مافعل الله بك ؟ فأنشد يقول من بحر المتقارب (تولى) أى أعرض (زمان لعبنا به .) أى بذلك الزمان فى الدنيا (وهذا) أى هذا الزمان الحاضر (زمان بنا يلعب . و) أذكر أيضا (حال رجلين آخرين أحدهما ما روى عن بعض الصالحين) رحمه الله (أنه قال كان لى ابن استشهد) بالبناء للمفعول أى قتل شهيدا (ولم أره) بعد ذلك (فى المنام إلى ليلة توفى فيها) أى فى تلك الليلة (عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه) وهو الخليفة الراشد والامام العادل أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى التابعى بإحسان ، سمع أنس ابن مالك والسائب بن يزيد ويوسف بن عبدالله بن سلام واستوهب من سهل بن سعد قدحا شرب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبه له . وروى عن خولة بنت حكيم وسمع جماعات من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب وعروة وأبو بكر بن عبد الرحمن والربيع بن سبرة وعبد الله ابن إبراهيم وعامر بن سعد والزهرى ، روى عنه خلائق من التابعين منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ومحمد بن المنكدر والزهرى ويحيى الأنصارى وحميد الطويل وآخرون ، وأجمعوا على جلالته ووفور علمه وصلاحه وزهده وورعه وعدله وشفقته على المسلمين وحسن سيرته فيهم وبذل وسعه فى الاجتهاد فى طاعة الله وحرصه على اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بسنته وسنة الخلفاء الراشدين ، وهو أحد الخلفاء الراشدين ، ومناقبه أكثر من أن تحصر .

وقد جمع ابن عبد الحكم فى مناقب عمر بن عبد العزيز مجلدا مشتملا على جميل سيرته وحسن طريقته ، وفيه من النفائس ما لا يستغنى عن معرفته والتأدب به . وذكر ابن سعد وغيره من المتقدمين أيضا له أشياء نفيسة . وأجمعوا أن أمه أم عاصم حفصة بنت عاصم بن عمر بن الخطاب واسمها ليلى سكنت بدمشق ، ولى الخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك ، وبويع عمر بن عبد العزيز

بالخلافة حين مات سليمان بن عبد الملك . ومات سليمان لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين ، وكانت خلافة عمر بن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر نحو خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنهما فملأ الأرض قسطا وعدلا وسن السنن الحسنة وأمات الطريق السيئة وصلى أنس بن مالك خلفه قبل خلافته ثم قال : ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى . وقال أيوب السختيانى : ولا أعلم أحدا ممن أدركنا كان أحذى بنبي الله صلى الله عليه وسلم منه ، وقال سفيان الثورى الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز. وقال مالك بن دينار لما ولى عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء فى رؤوس الجبال من هذا الخليفة الصالح الذى قام على الناس؟ فقيل لهم وما علمكم بذلك؟ فقالوا إنه إذا قام خليفة صالح كفت الذئاب والأسد عن شيائنا . وقال رجاء بن حيوة كان عمر بن عبد العزيز قبل خلافته من أعطر الناس وألبسهم ، فلما استخلف قوموا ثيابه باثنى عشر درهما . وقال حميد بن زنجويه قال أحمد بن حنبل يروى فى الحديث «يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها» فنظرنا فى المائة الأولى فاذاهو عمر بن عبد العزيز وهذا الحديث الذى ذكره أحمد رواه أبو داود فى سننه من رواية أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمله العلماء فى المائة الأولى على عمر بن عبد العزيز والثانية على الشافعى والثالثة على أبى العباس بن سريج . قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر عندى أنه يحمل على أبي الحسن الأشعرى ، والأشهر أنه بن سريج زراه الحاكم أبو عبد الله وأنشدوا فيه شعرا . وفى الرابعة قيل أبو سهل الصعلوكى . وقيل أبو حامد الاسفراينى . وفى الخامسة أبو حامد الغزالي رحمه الله .

وتوفى عمر بن عبد العزيز بدير سمعان قرية قريبة من حمص وقبره هناك مشهور ويزار ويتبرك به .

ولد عمر بمصر سنة إحدى وستين وتوفى يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رجب سنة إحدى ومائة وعمره تسع وثلاثون سنة وستة أشهر. وكان عمر أشج ، يقال له أشج بنى أمية ضربته دابة فى وجهه. وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول: من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا . وقال ابن قتيبة كان لعمر بن عبد العزيز أربعة عشر ابنا منهم عبد الملك الولد الصالح ابن الصالح كان من أعبد الناس . توفى فى خلافة أبيه وهو ابن سبع عشرة سنة وستة أشهر . وكان أحد المشيرين على عمر بمصالح الرعية والمعينين له فى الاهتمام بمصالح الناس ، وكان وزيرا صالحا وبطانة خير رحمه الله ، وكان أبر أهل عصره بوالده أو من أبرهم وله مناقب مشهورة . قال البخارى فى تاريخه. أصل عمر بن عبد العزيز مدنى . وفى الطبقات لمحمد بن سعد قال: قالوا ولد عمر بن عبد العزيز سنة ثلاث وستين ، وبإسناده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ليت شعرى من ذو الشين من ولدى الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وأراد بالشين الشجة التى كانت فى وجهه ، وبإسناده المتفق على صحته عن عمرو بن دينار عن ابن عمر قال: إنا كنا نتحدث أن هذا الأمر لا ينقضى حتى يلى هذه الأمة رجل من ولد عمر يسير فيها سيرة عمر بوجهه شامة . وقال وكنا نقول : هو هلال بن عبد الله بن عمر ، وكانت بوجهه شامة حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز ، وباسناده عن ابن شوذب قال لما أراد

عبدالعزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر بن عبدالعزيز قال لقيمه: اجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى فانى أريد أن أتزوج أهل بيت لهم صلاح فتزوج أم عمر ، وبإسناده عن حجاج الصواف قال أمرنى عمر وهو وال على المدينة أن أشترى له ثيابا فكان ثوب بأربعمائة فقطعه قميصا ثم لمسه بيده فقال ما أخشنه وأغلظه ثم آمر بشراء ثوب له وهو خليفة فاشتراه بأربعة عشر درهما فلمسه بيده فقال سبحان الله ما ألينه وأرقه ، وباسناده أن سليمان بن عبد الملك عهد الخلافة لعمر بن عبد العزيز . فلما توفى سليمان وانصرف عمر من قبره إذا دواب سليمان قد عرضت له فأشار إلى بغلة شهباء فأتى بها فركبها وانصرف وإذا فرش فقال لقد عجلتم ثم تناول وسادة أرمينية فطرحها بينه وبين الأرض، ثم قال : أما والله لولا أنى فى حوائج المسلمين ما جلست عليك . وعن عبد الحميد بن سهيل قال : لقد رأيت عمر بن عبد العزيز بدأ بأهل بيته فرد ما كان بأيديهم من المظالم ثم فعل ذلك بالناس بعد ، فقال عمر بن الوليد : جئتم برجل من ولد عمر بن الخطاب فوليتموه عليكم ففعل هذا بكم . وعن أبى الزناد كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق فى رد المظالم إلى أهلها بغير البينة فى بيت المال بالعراق حتى حمل إلينا المال من الشام ، قال أبو الزناد وكان عمر يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة وكان يكتفى بأيسر ذلك إذا عرف وجها من مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما كان يعرف من غشم الولاة . أى ظلمهم قبله. وعن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال ما كان يقدم على أبي بكر بن محمد كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قسم أو تقدير عطاء أو خير حتى خرج من الدنيا . وعن أبى بكر بن محمد قال كتب إلى عمر أن استبرئ الدواوين فأنظر إلى كل جور جاره من قبلى فى حق مسلم أو معاهد فرده عليه فان كان أهل المظلمة ماتوا فأذيعه إلى ورثتهم به. وعن أبى موسى بن عبيدة قال سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر ابن محمد : وإياك والجلوس فى بيتك اخرج إلى الناس آسى بينهم فى المجلس والمنظر ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين فان أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم اليوم سواء ، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم ، وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلى فيه. وعن حازم بن أبي حازم قال قال عمر فى كلام له : فلو كان بكل بدعة يميتها الله علي يدى وبكل سنة ينعشها الله على يدى بضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى كان فى الله يسيرا. وعن حماد بن أبى سليمان قال: قام عمر بن عبد العزيز فى جامع دمشق فقال بأعلى صوته : لا طاقة لنا فى معصية الله . وعن عبد الله بن واقد قال آخر خطبة خطبها عمر ابن عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس والله لولا أن أنعش سنة أو أصير بحق ما أحببت أن أعيش فواقا ، الفواق : ما بين الحلبتين ، وعن سالم بن عبد الله وخارجة بن زيد قالا: إنا لنرجو لسليمان بن عبد الملك باستخلافه عمر بن عبد العزيز، وباسناده أن عمر بن عبدالعزيز لما استخلف باع كل ما كان يملكه من الفضول من عبيد ولبوس وعطر وكل ما يستغنى عنه فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار فجعله فى السبيل ، وباسناده عن خادم عمر بن عبد العزيز أنه لم يمتلئ من طعام من يوم ولى حتى مات ، وأنه وضع المكس من كل أرض ، وأنه أمر بعمل

الخانات بطريق خراسان ، وأنه كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : وكان يأتيه أن أفرض للناس : يعني العطاء إلا لتاجر ، وأنه كتب إلى الناس : أن ارفعوا الينا كل منفوس نفرض له يعني المولود فإنما هو مالكم نرده عليكم ، وأن أبا بكر بن محمد كان يعمل بالليل كعمله بالنهار لاستحثاث عمر إياه . وعن محمد بن قيس قال رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى العشاء دعا بشمعة فيكتب في أمر المسلمين في رد المظالم فاذا أصبح جلس في رد المظالم وأمر بالصدقات أن تقسم لأهلها ، فلقد رأيت من يتصدق عليه له في العام القابل إبل فيها صدقة . وعن مهاجر بن يزيد قال بعثنا عمر بن عبد العزيز فقسمنا الصدقة فلقد رأيتنا وإنا لنأخذ الزكاة في العام القابل ممن يتصدق عليه في العام الماضي ، ولقد كنت أراه يغسل ثيابه فيخرج إلينا ماله غيرها ، وما أحدث بناء ، ولقد رأيت دارا له خربت فتكلم في إصلاحها ، ثم قال : يا مزاحم هل لك في تركها؟ فنخرج من الدنيا ولم نحدث شيئا ، قال وحرم الطلاء في كل أرض ، والطلاء نوع من الأنبذة كان أهل العراق يستبيحونه. وعن عاصم بن كليب قال فدا عمر بن عبد العزيز رجلا من العدو ورده بمائة ألف درهم ، وباسناده أن سيف عمر كان محلا بفضة فنزعها وحلاه بحديد ، وباسناد ضعيف أنه كان له ثلاثة عشر مؤذنا . وباسناد ضعيف أنه كان يمسح وجهه إذا توضأ ، وكان يتوضأ من مس الذكر ، ومن أكل ما مست النار حتى من السكر ويقنع رأسه إذا دخل الخلاء ويقول الشفق البياض بعد الحمرة وباسناده أن عمر بن عبد العزيز عزل كاتبا له كتب : بسم الله ، ولم يجعل السين ، وأنه كان يأمر الناس إذا بدأ المؤذن في الإقامة أن يستقبلوا القبلة . وعن ميمون بن مهران قال : كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء . وعن روح بن عبادة قال : أخرج مسك من الخزائن ، فلما وضع بين يدى عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد رائحته فقيل له في ذلك ، فقال وهل ينتفع من هذا إلا ريحه . وعن نعيم بن عبد الله قال قال عمر إنى لأدع كثيرا من الكلام مخافة المباهاة ، وبإسناده أن عمر كتب إلى المحبوسين : لا يقيد أحد بقيد يمنع من تمام الصلاة ، وأنه قال لا ينبغى أن يكون قاضيا إلا من هو عفيف حليم عالم بما كان قبله يستشير ذوى الرأى لا يخاف ملامة الناس ، وأن محمد ابن كعب القرظي دخل على عمر وكان عمر قبل الخلافة حسن الجسم فجعل ينظر إليه لا يطرف . فقال مالك يا أمير المؤمنين عهدى بك حسن الجسم وأراك قد اصفر لونك ونحل جسمك وذهب شعرك ، فقال كيف لو رأيتنى في قبرى بعد ثلاث وقد ابتدرت الحدقتان على وجنتى وسال منخراى وفمى صديداً ودودا لكنت أشد لى نكرة ، وبإسناده أن عمر خطب فقال : أيها الناس اتقوا الله فان في تقوى الله خلفا من كل شيء وليس لتقوى الله خلف ، وأنه قال معونة المؤمن الصبر . وبإسناده الصحيح أن رجلا سأل عمر عن شيء من الأهواء فقال الزم دين الصبى والأعرابى واله عما سوى ذلك . وبإسناده الصحيح عن عمرو بن ميمون قال كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة ، وباسناده أن رجلا نال من عمر فقيل له ما يمنعك منه فقال إن المتقى ملجم ، وإن عمر كتب إلى الأمراء لا تركبوا في الغزو إلا أضعف دابة في الجيش سيرا ، وأنه قال : إقامة الحدود عندى كإقامة الصلاة . وأنه كتب إلى عامله باليمن : أما بعد فانى أكتب اليك : أن ترد على المسلمين مظالمهم

إِذْ رَأَيْتُهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ

ولا تراجعني ، ولا تعلم بعد المسافة بيني وبينك ولا تعرف حدث الموت حتى لو كتبت إليك برد شاة رجل كتبت أردها عفراء أم سوداء فرد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني ، وإن رجلا قال له أبقاك الله فقال هذا قد فرغ منه ادع لي بالصلاح وأنه كان ينهى بناته أن ينمن مستلقيات . وقال لا يزال الشيطان مطلا علي إحدا كن إذا استلقت يطمع فيها ، وأنه سئل عن الجمل وصفين وما كان فيهما فقال تلك دماء كف الله يدي عنها ، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها ، وأن رجلا قال : لو تفرغت لنا. قال وأين الفراغ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله، وأنه قيل له أن يتحفظ في طعامه وشرابه من السم وفي خروجه بحرس كعادة من قبله فقال وأين هم ؟ فلما أكثر عليه . قال اللهم : إن كنت تعلم أني أخاف يوما دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي. وعن مجاهد قال : أتينا عمر بن عبدالعزيز ونحن نرى أنه سيحتاج الينا فما خرجنا من عنده حتى احتجنا إليه . وباسناده أن عمر كان إذا سهر في أمر العامة أسرج من بيت المال ، وإذا سهر في أمر نفسه أسرج من مال نفسه فبينما هو ذات ليلة إذ تغير السراج فقام فأصلحه فقلنا إنا نكفيك فقال أنا عمر حين قمت وأنا عمر حين جلست، وأنه قال ما كذبت منذ علمت أن الكذب شين وأنه أحبس غلاما له يحتطب له فقال له الغلام : الناس كلهم بخير غيري وغيرك فقال اذهب فأنت حر وأنه قال والله لوددت لو عدلت يوما واحدا وأن الله تعالى قبضني . وعن ميمون بن مهران قال أقمت عند عمر ستة أشهر ما رأيت غير ردائه إلا أنه كان يغسله من الجمعة إلى الجمعة . وعن سعيد بن سويد أن عمر صلى بهم الجمعة وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه . فلما فرغ جلس وجلسنا معه قال فقال له رجل من القوم : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست وتصدقت فنكس مليا حتي عرفنا أن ذلك قد ساءه ثم رفع رأسه فقال إن أفضل القصد عند الحدة وأفضل العفو عند القدرة . وأحوال عمر بن عبد العزيز وفضائله غير منحصرة وفيما أشرنا اليه كفاية . وكان مرضه الذى توفى فيه عشرين يوما . وقيل له من يوصى بأهلك فقال : إن ولي فيهم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وأوصى أن يدفن معه شيء كان عنده من شعر النبي صلي الله عليه وسلم وأظفار من أظفاره . وقال إذا مت فاجعلوه في كفني ففعلوا ذلك . وعن يوسف بن ماهك قال : بينما نحن نسوى التراب على قبر عمر ابن عبد العزيز سقط علينا رق من السماء فيه مكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار كذا في تهذيب الأسماء ، وفي تاريخ الخلفاء للجلال السيوطي رحمه الله ، كانت وفاته بالسم لأن بني أمية قد تبرموا به لكونه شدد عليهم وانتزع من أيديهم كثيرا مما غصبوه ، وكان قد أهمل التحرز فسقوه السم . قال مجاهد قال لي عمر بن عبد العزيز ما يقول الناس في . قلت يقولون مسحور ، قال ما أنا بمسحور وإني لأعلم الساعة التي سقيت فيها . ثم دعا غلاما فقال ويحك ما حملك على أن تسقيني السم قال ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق ، قال هاتها ، قال فجاء بها فألقاها في بيت المال وقال اذهب حيث لا يراك أحد . قال بعض الصالحين (إذ رأيته) أى ابني الذى مات شهيدا (تلك الليلة) التي توفى

فَقُلْتُ يَا بُنَيَّ أَلَمْ تَـكُنْ مَيِّتاً ؟ فَقَالَ لاَ ، وَلَـكِنِّي اُسْتُشْهِدْتُ ، وَأَنَا حَيٌّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أُرْزَقُ ،

فيها عمر بن عبد العزيز (فقلت يابنى ألم تـكن ميتا فقال لا ولـكنى استشهدت) بالبناء للمفعول أى قتلت شهيدا (وأنا حى عند الله أرزق) من ثمار الجنة ، ومصداق ذلك قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عندربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » الآية . روى مسلم عن مسروق رضى الله عنه قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » فقال أما أنا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال هل تشتهون شيئا فقالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

ذكر ما يتعلق بهذا الحديث

قول مسروق سألنا عبد الله كذا جاء عبد الله غير منسوب . وقد نسبه بعض الناس فقال عبد الله بن عمر ، وقد ذكره أبو مسعود الدمشقى والحميدى فى مسنده عن عبد الله بن مسعود وهو الصحيح . وهذا الحديث مرفوع لقوله : أما أنا قد سألنا عن ذلك . فقال يعنى النبى صلى الله عليه وسلم . وفى الحديث دليل على أن الجنة مخلوقة الآن خلافا للمعتزلة لقوله صلى الله عليه وسلم « تسرح من الجنة حيث شاءت » وهو مذهب أهل السنة . وفيه دليل على أن الأرواح باقية لا تفنى بفناء الجسد وأن المحسن ينعم ويجازى بالثواب ، وأن المسىء يعذب ويجازى بالعقاب قبل يوم القيامة وهو مذهب أهل السنة أيضا . قوله : أرواحهم فى جوف طير خضر : أى يجعل الله أرواح الشهداء فى جوف طير خضر وهذا ليس ببعيد لا سيما مع القول بأن الأرواح أجسام لطيفة . وقيل إن المنعم والمعذب من الأرواح والأجساد جزء من الجسد تبقى فيه الروح وهو الذى يتلذذ بالنعيم ويتألم بالعذاب فغير مستحيل أن يصور الله تعالى ذلك الجزء طائرا ويجعل فى جوف طير فتسرح فى الجنة وتأوى إلى تلك القناديل . وقد تعلق بهذا الحديث من يقول بالتناسخ من المبتدعة ويقول بانتقال الأرواح وتنعيمها فى الصور الحسان المرفهة وتعذيبها فى الصور القبيحة المسخرة ويزعمون أن هذا هو الثواب والعقاب ، وهذا ضلال بين وقول سخيف وبدعة باطلة لما فى هذا القول من إبطال ما جاءت به الشرائع من الحشر والنشر والمعاد والجنة والنار ، وقد جاء فى بعض روايات هذا الحديث ما يرد عليهم ، وهو قوله حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه يعنى يحيى جميع جسده يوم

يبعثه وهو يوم القيامة والله أعلم ، وظاهر الآية المذكورة يدل على كون من قتل فى سبيل الله حيا ، فإما أن يكون المراد أنهم سيصبرون أحياء فى الآخرة أو يكون المراد أنهم أحياء فى الحال ، وعلى تقدير أنهم أحياء فى الحال هل يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجسمانية ، فهذه ثلاثة أوجه فى معنى احتمال الحياة ، فمن قال بالوجه الأول وهو سيصيرون أحياء فى الآخرة قال معنى الآية بل هم أحياء فى الذكر وأنهم يذكرون بخير أعمالهم وأنهم استشهدوا فى سبيل الله ، وقيل بل هم أحياء فى الدين وهذا القول ليس بصواب لأن الله تعالى أثبت لهم الحياة فى الحال بقوله: بل أحياء يعنى فى حال مايقتلون فإنهم يحيون وهو الاحتمال الثانى . واختلفوا فى معنى هذه الحياة هل هي للروح أو للجسم والروح معا فمن أثبت الحياة للروح دون الجسم قال يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء في حواصل طير خضر » فخص الأرواح دون الأجساد ، وقال بعض المفسرين : إن أرواح الشهداء تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة ، ومن أثبت الحياة للروح والجسم معا قال يدل عليه سياق الآية وهو قوله «عند ربهم يرزقون» فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون كالأحياء ، وقيل إن الشهيد لا يبلي فى قبره ولا تأكله الأرض كغيره ، وروى أنه لما أراد معاوية أن يجرى الماء على قبور الشهداء أمر أن ينادى من كان له قتيل فليخرجه وليحوله من هذا الموضع . قال جابر فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان فأصابت المسحاة أصبع رجل منهم فانبعث دما ، و ذكر البغوى بغير سند عن عبيد الله بن عمير . قال : « مر رسول الله صلي الله عليه وسلم حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير ، وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه » .

ولنذكر فى هذا المقام فضيلة الشهادة فى سبيل الله لتتميم الفائدة، روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهادا فى سبيلى وإيمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة وأرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده مامن كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين يكلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل» هذا لفظ مسلم ، وروى الشيخان عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها» ورويا أيضا عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما عليها » وروى عن فضالة بن عبيد

فَقُلْتُ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قالَ نُودِيَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : أَلاَ لاَيَبْقَى نَبِيٌّ وَلاَ صِدِّيقٌ وَلاَ شَهِيدٌ إلاَّ وَحَضَرَ الصَّلاَةَ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَجِئْتُ لِأَشْهَدَ الصَّلاَةَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ جِئْتُكُمْ لِأُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ .

وَالآخَرُ : مَارُوِيَ عَنْ هِشَام

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل الله فانه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر » أخرجه أبو داود والترمذى ، وروى عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ، ومن سأل الله القتل فى سبيل الله صادقا من نفسه ثم مات أو قتل كان له أجر شهيد ؛ ومن جرح جرحا فى سبيل الله أو نكب نكبة فانها تجىء يوم القيامة كأغزر ماكانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك ، ومن خرج به خراج فى سبيل الله فان عليه طابع الشهداء » أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الترمذى مفرقا فى موضعين . وروى الشيخان عن أبى سعيد رضى الله عنه قال « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى الناس أفضل؟ قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قال ثم من ؟ قال رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله ، وفى رواية : يتقى الله ويدع الناس من شره » وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا واحتسابا وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات » وروى الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال ما أحد يدخل الجنة فيحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد تمنى أن يرجع إلي الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة ، وفى رواية لما يرى من فضل الشهادة» ، وروى مسلم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين » وعن أبى هريرة رضى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة» أخرجه الترمذى، وللنسائى نحوه ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته » أخرجه أبو داود .

ولنرجع إلى ذكر قصة بعض الصالحين . قال (فقلت ما جاء بك) يابني (قال) ابنه (نودى فى أهل السماء ألا لا يبقي نبي ولا صديق ولا شهيد إلا وحضر الصلاة على) جنازة (عمر بن عبد العزيز) قال ابنه (فجئت لأشهد) أى لأحضر (الصلاة عليه) أى عمر بن عبد العزيز (ثم جئتكم) بعد الفراغ من الصلاة (لأسلم عليكم . و) الرجل (الآخر ما روى عن هشام

ابْنِ حَسَّانَ أَنَّهُ قال : مَاتَ لِيَ ابْنٌ حَدَثٌ فَرَأَيْتُهُ فِي النَّوْمِ ، فَإِذَا هُوَ أَشْيَبُ ، فَقُلْتُ يَا بُنَيَّ مَا هٰذَا الشَّيْبُ ؟ قالَ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْنَا فُلَانٌ زَفَرَتْ جَهَنَّمُ لِقُدُومِهِ زَفْرَةً لَمْ يَبْقَ مِنَّا أَحَدٌ إلاَّ شَابَ . نَعُوذُ بِاللهِ الرَّحِيمِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ

ابن حسان أنه قال مات لى ابن حدث) فى السن أى شاب (فرأيته فى النوم فاذا هو أشيب فقلت يا بنى ما هذا الشيب ؟ قال) ابنه (لما قدم علينا فلان زفرت) أى صاحت (جهنم لقدومه زفرة لم يبق منا أحد إلا شاب) رأسه من هول ذلك اليوم وشدته ، وذلك لأن الهموم والأحزان إذا تعاقبت على الإنسان أسرع فيه الشيب، قال المتنبي :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

(نعوذ بالله الرحيم من العذاب الأليم) أى المؤلم . اعلم أن الأخبار الواردة فى مقر الروح بعد الموت كثيرة وفيها اختلاف فمنها فى أرواح المؤمنين عامة ومنها فى الشهداء منهم خاصة ومنها فى ولدان المؤمنين وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحنث ومنها فى أرواح الكفار فالوارد فى أرواح المؤمنين عامة هذا القول عن عبد الله بن عمر وإنها فى حواصل طير بيض فى ظل العرش ، وقول مالك إنها مرسلة تذهب حيث شاءت ونحو قول ابن عمرو مارواه ابن منده والطبراني وأبو الشيخ عن ضمرة بن حبيب مرسلا قال « سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أرواح المؤمنين ، فقال فى طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت قال يارسول الله وأرواح الكفارة قال فى سجين » ، وروى البيهقي فى البعث والطبرانى وأبو نعيم عن عبدالله بن عمرو قال : الجنة ملوية فى قرون الشمس تنشر فى كل عام مرتين وأرواح المؤمنين فى طير كالزرازير تأكل من ثمر الجنة. وأخرجه ابن منده عنه مرفوعا وأخرجه الخلال عنه موقوفا بلفظ «أرواح المؤمنين فى أجواف طير خضر كالزرازير يتعارفون فيها ويرزقون من ثمرها » وروى ابن منده عن أم كبشة بنت المعرور قالت «دخل علنا النبى صلى الله عليه وسلم فسألناه عن هذه الروح فوصفها صفة لكنه أبكى أهل البيت ، فقال إن أرواح المؤمنين فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة وتأكل من ثمارها وتشرب من مياهها وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا أخواننا وآتنا ما وعدتنا ، وإن أرواح الكفار فى حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوى إلي جحر فى النار يقولون ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ماوعدتنا» . ويقرب من ذلك مارواه مالك فى الموطأ وأحمد والنسائى بسند صحيح عن كعب بن مالك رفعه « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعث». وروى أحمد والطبرانى بسند حسن عن أم هانىء : أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضا فقال صلى الله عليه وسلم «تكون النسم طيرا تعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس فى جسدها» . وروى ابن سعد من طريق محمود بن لبيد

عن أم بشر بنت البراء أنها قالت: «يا رسول الله هل يتعارف الموتى ؟ قال تربت يداك النفس الطيبة طير خضر فى الجنة ، فان كان الطير يتعارفون فى رؤوس الشجرة فانهم يتعارفون » وروى ابن عساكر من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن أم فروة بنت معاذ السلمية عن أم بشر امرأة أبي معروف قالت: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتزاور يا رسول الله إذا متنا يزور بعضنا بعضا ؟ فقال تكون النسم طيرا تعلق شجرا حتى إذا كان يوم القيامة دخلت فى جثتها» وروى ابن ماجه والطبرانى والبيهقى فى البعث بسند حسن عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك . قال : لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء ، فقالت يا أبا عبد الرحمن إن لقيت فلانا فأقرئه منى السلام ، فقال يغفر الله لك يا أم بشر نحن أشغل من ذلك فقالت أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ونسمة الكافر فى سجين قال بلى قالت فذاك» . ومنها مارواه البيهقى فى الدلائل وابن مردويه فى تفسيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى « أتيت بالمعراج التى تعرج عليه أرواح بنى آدم فلم ير الخلائق أحسن من المعراج أما رأيت الميت يشق بصره طامحا إلى السماء ، فان ذلك عجبه بالمعراج فصعدت أنا وجبريل فاستفتح باب السماء فاذا أنا بآدم تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ، فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين » وروى أبو نعيم بسند ضعيف من حديث أبي هريرة « إن أرواح المؤمنين فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » وروى أبو نعيم أيضا عن وهب بن منبه قال : إن لله فى السماء السابعة دارا يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين ، فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح يسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم ، ومن ذلك ما قاله ابن عمر لأسماء حين عزاها فى ابنها عبد الله بن الزبير «لا تحزنى فان الأرواح عند الله فى السماء » رواه سعيد بن منصور فى سننه . وقيل إنها بين السماء والأرض ، روى سعيد بن منصور فى سننه وابن جرير فى كتاب الأدب له عن المغيرة بن عبد الرحمن قال : لقى سلمان الفارسى عبد الله بن سلام فقال له إن مت قبلى فأخبرنى بما تلقى وإن مت قبلك أخبرتك قال: وكيف وقد مت قال: إن الروح إذا خرج من الجسد كانت بين السماء والأرض حتى يرجع إلى جسده فقضى أن سلمان مات فرآه فى المنام فقال: أخبرنى أى شىء وجدته أفضل؟ قال: رأيت التوكل شيئا عجيبا، وروى ابن المبارك فى الزهد والحكيم فى النوادر وابن أبى الدنيا وابن منده عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال : «إن أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت ونفس الكافر فى سجين » . قال ابن القيم : البرزخ هو الحاجز بين الشيئين فكأنه أراد فى الأرض بين الدنيا والآخرة ، وروى الحكيم عن سلمان قال «أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردها الله إلى جسدها » ومنها ما رواه المروزى فى كتاب الجنائز عن العباس بن عبد المطلب قال « ترفع أرواح المؤمنين إلى جبريل فيقال : أنت ولي هذه إلى يوم القيامة » وروى ابن أبى الدنيا عن وهب بن منبه قال : أرواح المؤمنين إذ قبضت ترفع إلى ملك يقال له رومابيل وهو خازن أرواح المؤمنين ، وروى عن أبان بن تغلب

عن رجل من أهل الكتاب قال : الملك الذى على أرواح الكفار يقال له دومة ، وروى ابن منده من طريق سفيان عن أبان بن تغلب عن رجل قال : بت ليلة بوادى برهوت فكأنما حشرت فيه أصوات الناس وهم يقولون : يا دومة يا دومة وحدثنا رجال من أهل الكتاب أن دومة هو الملك الموكل بأرواح الكفار ،ومنهامارواه المروزى فى كتاب الجنائزوابن منده وابن عساكر عن عبدالله بن عمرو قال : « أرواح الكفار تجمع ببرهوت سبخة بحضرموت ، وأرواح المؤمنين تجمع بالجابية برهوت باليمن والجابية بالشام » وروى ابن عساكر عن عروة بن رويم قال « الجابية تجبى إليها كل روح طيبة » وروى أبو بكر بن النجار فى جزئه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: «خير وادى الناس وادى مكة وشر وادى الناس وادى الأحقاف واد بحضرموت وفيه أرواح الكفار» وروى ابن منده وابن أبى الدنيا عن على قال «أبغض بقعة فى الأرض إلى الله واد بحضرموت يقال له برهوت فيه أرواح الكفار » وروى ابن أبي الدنيا عن على قال : « أرواح المؤمنين فى بئر زمزم » وروى الحاكم فى المستدرك عن الأخنس بن خليفة الضبى «أن كعب الأحبار أرسل إلى عبد الله بن عمرو يسأله عن أرواح المسلمين أين تجتمع ، وأرواح أهل الشرك أين تجتمع ؟ فقال عبد الله : أما أرواح المسلمين فتجتمع بأريحاء ،وأما أرواح أهل الشرك فتجتمع بصنعاء فرجع رسول كعب إليه فأخبره بالذى قال ، فقال صدق .

فصـــل

وأما أرواح الشهداء ، فروى مسلم من حديث ابن مسعود : « أرواح الشهداء عند الله فى حواصل طير خضر تسرح فى أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش » وروى أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لما أصيب أصحابكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش » وروى سعيد بن منصور عن ابن عباس قال : « أرواح الشهداء تجول فى أجواف طير خضر تعلق فى ثمر الجنة » وروى عن أبى سعيد الخدرى رفعه « الشهداء يغدون ويروحون ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش فيقول الرب تعالى : هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتكموها فيقولون لا ، غير أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا إلى أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل فى سبيلك » وروى هناد فى الزهد وابن منده من حديث أبى سعيد « أن أرواح الشهداء فى طير خضر ترعى فى رياض الجنة ، ثم يكون مأواها إلى قناديل معلقة بالعرش فيقول الرب » وذكر نحوه ، وروى أبو الشيخ من حديث أنس « يبعث الله الشهداء من حواصل طير بيض كانوا فى قناديل معلقة بالعرش » وروى ابن منده عن سعيد ابن سويد أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين قال : « بلغنى أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو ثم تروح إلى رياض الجنة تأتى ربها سبحانه وتعالى تسلم عليه » وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال « إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر فى قناديل تحت العرش

تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديلها» وروى عن أبى الدرداء «أنه سئل عن أرواح الشهداء فقال : هى طيور خضر فى قناديل معلقة تحت العرش تسرح فى رياض الجنة حيث شاءت » وروى أحمد وعبد بن حميد وابن أبى شيبة والطبرانى والبيهقى بسند حسن من حدث ابن عباس « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشية » وروى هناد فى الزهد وابن أبى شيبة عن أبى بن كعب قال « الشهداء فى قباب فى رياض بفناء الجنة يبعث إليهم ثور وحوت فيعتركان فيلهون بهما فإذا احتاجوا إلى شىء عقر أحدهما صاحبه فيأكلون منه فيجدون فيه طعم كل شىء فى الجنة » وروى البخارى عن أنس قال « لما قتل حارثة قالت أمه يا رسول الله قد علمت منزلة حارثة منى فإن يكن فى الجنة فأصبر وإن يكن غير ذلك تري ما أصنع فقال رسول الله : إنها جنان كثيرة وإنه فى الفردوس الأعلى » وروى ابن أبى شيبة والبيهقى عن ابن عباس عن كعب قال : « جنة المأوى فيها طير خضر ترتقى فيها أرواح الشهداء تسرح فى الجنة ، وأرواح آل فرعون فى طير سود تغدو على النار وتروح » وروى هناد فى الزهد عن هزيل قال : « إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ، وأرواح آل فرعون فى أجواف طير سود تروح وتغدو على النار فذلك عرضها » وروى الترمذى من حديث كعب بن مالك «إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة» . قوله تعلق بضم اللام : أى تأكل العلقة وهى ما يتبلغ به من العيش . وروى ابن أبى شيبة عن عكرمة قال « أرواح الشهداء طير بيض فقاقيع فى الجنة » وروى عبد الرزاق عن قتادة قال : « بلغنا أن أرواح الشهداء فى صور طير بيض تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش» .

فصل

وأما أرواح أطفال المسلمين ، فروى ابن أبي حاتم فى التفسير عن أبى الدرداء قال «إن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت » وروى أحمد والحاكم وصححه والبيهقى وابن أبى الدنيا فى البعث وابن أبى الدنيا أيضاً فى كتاب العزاء بطرق من حديث أبى هريرة « أولاد المؤمنين فى جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردوهم إلى آبائهم يوم القيامة » وروى ابن أبى الدنيا أيضا فى كتاب العزاء من حديث بن عمر « كل مولود يولد فى الاسلام فهو فى الجنة شبعان ريان يقول يارب أورد على أبوى» وأخرج فيه أيضا عن خالد بن معدان قال« إن فى الجنة لشجرة يقال لها طوبى كلها ضروع ، فمن مات من الصبيان الذين يرضعون يرضع من طوبى وحاضنهم إبراهيم عليه السلام » وروى أيضاً عن عبيد بن عمير قال « إن فى الجنة لشجرة لها ضروع كضروع البقر يغذى بها ولدان أهل الجنة » وروى سعيد بن منصور من مرسل مكحول « إن ذرارى المسلمين أرواحهم فى عصافير خضر فى شجر فى الجنة يكفلهم أبوهم إبراهيم عليه السلام » وروى ابن أبى حاتم عن خالد بن معدان « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى كلها ضروع ترضع صبيان

أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة » وروى ابن أبى شيبة عن ابن عباس عن كعب قال : « إن أطفال المسلمين فى عصافير فى الجنة » وروى هناد فى الزهد عن هزيل قال « أولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحنث عصافير من عصافير الجنة ترعى وتسرح » .

تتمة

قال ابن القيم فى كتاب الروض مسئلة : الروح بعد الموت عظيمة لا تتلقى إلا من السمع ، فقيل إن أرواح المؤمنين كلهم فى الجنة الشهداء وغيرهم إذا لم تحبسهم كبيرة لظاهر حديث كعب وأم هانيء وأم بشر وأبى سعيد وضمرة ونحوها ولقوله تعالى « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » قسم الأرواح عقب خروجها من البدن إلى ثلاثة: مقربين ، وأخبر أنها فى جنة نعيم ، وأصحاب يمين وحكم بالسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب . ومكذبة ضالة وأخبر أن لها نزلا من حميم وتصلية جحيم وقال « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك » . الآية وقال جماعة من الصحابة والتابعين إنه يقال لها ذلك عند خروجها من الدنيا على لسان الملك بشارة ، ويؤيده قوله تعالى فى مؤمن آل يس « قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » وقيل الأحاديث مخصوصة بالشهداء كما صرح به فى رواية أخرى ، ولقوله فى غيرهم « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى » الحديث ولحديث أبى هريرة السابق « إنهم فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » وقال ابن حزم فى طائفة مستقرها حيث كانت قبل أجسادها : أى عن يمين آدم وشماله ، وقال هذا مادل عليه الكتاب والسنة قال الله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم » الآية ، وقال تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » الآية ، فصح أن الله تعالى خلق الأرواح جملة ، وكذلك أخبر صلى الله عليه وسلم « إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وأخذ الله عهدها وميثاقها وشهادتها بالربوبية ، وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن تؤمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها في الأجساد والأجساد يومئذ تراب وماء ثم أقرها حيث شاء وهوالبرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتوالدة من المنى . قال فصح أن الأرواح أجسام حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر وأنها عارفة مميزة فيبوئهم الله فى الدنيا كما يشاء ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى سماء الدنيا أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عند منقطع العناصر : الماء والهواء والتراب والنار تحت السماء ، ولا يدل ذلك على تعادلهم بل هؤلاء عن يمينه فى العلو والسعة وهؤلاء عن يساره فى السفل والسجن وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة . قال وقد ذكر محمد بن نصر المروزى عن إسحاق بن راهويه أنه ذكر هذا الذى قلناه بعينه ، وقال على هذا أجمع أهل العلم . وقال ابن حزم وهو قول جميع أهل

الإسلام وهو قول الله تعالى « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » وقوله « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان » الآية ، فلا تزال الأرواح هناك حتى يتم عددها بنفخها فى الأجسام ثم برجوعها إلى البرزخ فتقوم الساعة فيعيدها عز وجل إلى الأجساد وهي الحياة الثانية وهذا كله كلام ابن حزم وقيل هى على أفنية قبورها . قال ابن عبد البر وهذا أصح ماقيل . قال وأحاديث السؤال وعرض المقعد وعذاب القبر ونعيمه وزيارة القبور والسلام عليها ومخاطبتهم مخاطبة الحاضر العاقل دالة على ذلك . قال ابن القيم هذا القول إن أريد به أنها ملازمة للقبور لا تفارقها فهو خطأ يرده الكتاب والسنة .

﴿ تنبيه ﴾ عرض المقعد لا يدل على أن الأرواح فى القبر ولا على فنائه بل على أنها اتصالا به يصح أن يعرض عليها مقعدها ، فان للروح شأنا آخر فتكون فى الرفيق الأعلى وهى متصلة بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على صاحبها رد عليه السلام وهى في مكانها هناك ، وإنما يأتى الغلط هنا من قاس الغائب على الشاهد فيعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا أشغلت مكانا لم يمكن أن يكون فى غيره وهذا غلط محض ، وقد رأى النبي صلي الله عليه وسلم ليلة الاسراء موسى عليه السلام قائما يصلى في قبره ورآه فى السماء السادسة فالروح كانت هناك فى مثل البدن ولها اتصال فى البدن بحيث يصلى فى قبره ويرد على من يسلم عليه وهو في الرفيق الأعلى ، ولا تنافى بين الأمرين فان شأن الأرواح غير شأن الأبدان ، وقد مثل ذلك بعضهم بالشمس فى السماء وشعاعها فى الأرض وإن كان غير تام المطابقة من حيث إن الشعاع هو عرض للشمس . وأما الروح فهي نفسها تنزل ، وكذلك رؤية النبى صلى الله عليه وسلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليلة الإسراء فى السموات ، الصحيح أنه رأى فيها الأرواح فى مثال الأجساد مع ورود أنهم أحياء فى قبورهم يصلون ، فلا منافاة بين كون الروح فى عليين أو الجنة أو السماء وأن لها بالبدن اتصالا بحيث تدرك وتسمع وتصلى وتقرأ ، وإنما يستغرب هذا لكون الشاهد الدنيوى لأنه ليس فيه ما يشابه هذا وأمور البرزخ والآخرة على نمط غير المألوف فى الدنيا هذا كله كلام ابن القيم ، وحكى فى موضع آخر للروح من سرعة الحركة والانتقال الذى كلمح البصر ما يقتضى عروجها من القبر إلى السماء فى أدنى لحظة وشاهد ذلك روح النائم ، فقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخرق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان . ثم قال ابن القيم بعد أن أورد بقية الأقوال فى مستقر الأرواح : ولا نحكم على قول من هذه الأقوال بعينه بالصحة ولا غيره بالبطلان ، بل الصحيح أن الأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت ولا تعارض بين الأدلة فإن كلا منها وارد على فريق من الناس بحسب درجاتهم فى السعادة والشقاوة فمنها أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى وهم متفاوتون فى منازلهم كما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ، فإن منهم من يحبس عن دخول الجنة لدين أو غيره كما فى حديث محمد

ابن عبد الله بن جحش عند أحمد ، ومنهم من يكون على باب الجنة كما فى حديث ابن عباس ، ومنهم من يكون محبوسا فى قبره كحديث صاحب الشملة «إنها لتشتعل عليه نارا فى قبره» ومنهم من يكون محبوسا فى الأرض لم تصل روحه إلى الملأ الأعلى لأنها كانت روحا سفلية أرضية، فإن الأنفس الأرضية لاتجامع الأنفس السمائية، كما أنها لا تجامعها فى الدنيا ، فإن الروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأصحاب عملها فالمرء مع من أحب، ومنها أرواح تكون فى تنور الزانيات وأرواح فى نهر الدم إلى غير ذلك، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقرا واحدا وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها فى قبورها ليحصل له من النعيم أو العذاب ما كتب له انتهى كلام ابن القيم . وقال القرطبي : الأحاديث دالة على أن أرواح الشهداء خاصة فى الجنة دون غيرهم ، وحديث كعب ونحوه محمول على الشهداء ، وأما غيرهم فتارة يكون فى السماء لا فى الجنة وتارة على أفنية القبور ، وقد قيل إنها تزور قبورها كل جمعة على الدوام . وقال ابن العربى : بحديث الجريدة يستدل على أن الأرواح فى القبور تنعم أو تعذب . ثم قال القرطبي وبعض الشهداء أرواحهم خارج الجنة أيضا كما فى حديث ابن عباس على بارق نهر بباب الجنة وذلك إذا حبسهم عنها دين أو شىء من حقوق الآدميين . قال : وذهب بعض العلماء إلى أن أرواح المؤمنين كلهم فى جنة المأوى ولذلك سميت جنة المأوى لأنها تأوى إليها الأرواح تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب نسيمها . قال والأول أصح . وقال الحافظ ابن حجر فى فتاويه : أرواح المؤمنين فى عليين وأرواح الكفار فى سجين ولكل روح بجسدها اتصال معنوي لا يشبه الاتصال فى الحياة الدنيا بل أشبه شىء به حال النائم وإن كان هو أشد من حال النائم اتصالا قال وبهذا يجمع بين ما ورد أن مقرها فى عليين أوسجين وبين مانقله ابن عبد البر عن الجمهور أنها عند أفنية قبورها . قال ومع ذلك فهى مأذون لها فى التصرف وتأوى إلى محلها من عليين أو سجين قال : وإذا نقل الميت من قبره فالاتصال المذكور مستمر، وكذا لو تفرقت الأجزاء . وقال القرطبي فى حديثه كعب : «نسمة المؤمن طائر» وهو يدل على أن نفسها تكون طائرا : أى على صورته لا أنها تكون فيها ويكون الطائر ظرفا لها ، وكذا فى رواية عن ابن مسعود عند ابن ماجه «أرواح الشهداء عند الله كطير خضر» وقال فى لفظ عن ابن عباس «تجول فى طير خضر» ولفظ ابن عمرو «فى صورة طير بيض» وفى لفظ عن كعب : «الشهداء طير خضر» . قال وهذا كله أصح من رواية فى جوف طير . وقال القابسى : أنكر العلماء رواية : في حواصل طير خضر، لأنها حينئذ تكون محصورة مضيقا عليها ؟ ورد بأن الرواية ثابتة والتأويل محتمل بأن يجعل «فى» بمعنى على ، وجائز أن يسمى الطير جوفا إذ هو محيط به ويشتمل عليه قاله عبد الحق. وقال غيره: لا مانع من أن تكون فى الأجواف حقيقة ويوسعها الله تعالى لها حتى تكون أوسع من الفضاء . وقال العز بن عبد السلام فى أماليه فى قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء» فإن قيل : الأموات كلهم كذلك فكيف خصص هؤلاء ؟ فالجواب أن الكل ليس كذلك ، فالمجاهد تنقل روحه إلى طير أخضر فقد انتقل من جسد إلى آخر بخلاف غيره فإنها تنفي من الأجساد قال : وأما حديث كعب

نسمة المؤمن الخ ، فهذا العموم محمول على المجاهدين ، فقد ورد «إن الروح فى القبر يعرض عليها مقعدها من الجنة والنار » ولأنا أمرنا بالسلام على القبور ، ولولا أن الأرواح تدرك لما كان فيه فائدة انتهى . قال السيوطى : فأختار فى أرواح الشهداء أنها كائنة فى طير لا أنها نفسها طير ، ويؤيده ما روى عن ابن عمرو : أنها تركب فى جسد آخر ، وهو وإن كان موقوفا فله حكم المرفوع لأن مثله لا يقال من قبل الرأى . وقال صاحب الإفصاح : التنعم على جهات مختلفة : منها ما هو طائر فى شجر الجنة ، ومنها ماهو فى حواصل طير خضر ، ومنها ما يأوى فى قناديل تحت العرش ومنها ماهو فى حواصل طير بيض ، ومنهاما هو فى حواصل طير كالزرازير ، ومنها ما هو فى أشخاص صور من صور الجنة ، ومنها ما هو فى صورة تخلق لهم من ثواب أعمالهم ، ومنها ما تسرح وتتردد إلى جثتها تزورها ، وممن سوى ذلك ما هو فى كفالة آدم ، ومنها ما هو فى كفالة إبراهيم . قال القرطبى : وهذا قول حسن يجمع الأخبار حتى لا تتدافع . وقال الحكيم فى النوادر : الأرواح تجول فى البرزخ فتبصر أحوال الدنيا ، والملائكة تتحدث فى السماء عن أحوال الآدميين ، وأرواح تحت العرش . وأرواح طيارة إلى الجنان إلى حيث شاءت على أقدارهم من السعي إلي الله أيام حياتهم فى الدنيا . وقال ابن القيم : لامنافاة بين حديث أنه طائر يعلق فى شجر الجنة وبين حديث عرض المقعد بل ترد روحه أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ويعرض عليه مقعده لأنه لايدخله إلا يوم الجزاء ، فدخول الجنة التام إنما يكون للانسان التام روحا وبدنا ودخول الروح فقط أمر دون ذلك ، وفى بحر الكلام : الأرواح على أربعة أوجه : أرواح الأنبياء تخرج من جسدها وتصير مثل صورتها مثل المسك والكافور وتكون فى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم وتأوى بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش ، وأرواح الشهداء تخرج من جسدها وتكون فى أجواف طير خضر فى الجنة تأكل وتتنعم وتأوى بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش ، وأرواح المطيعين من المؤمنين بربض الجنة لاتأكل ولا تتنعم ولكن تنظر فى الجنة ، وأرواح العصاة من المؤمنين تكون بين السماء والأرض فى الهواء . وأما أرواح الكفار فهي فى سجين فى جوف طير سود تحت الأرض السابعة وهى متصلة بأجسادها فتعذب الأرواح وتتألم الأجساد منه كالشمس فى السماء ونورها فى الأرض انتهى .

وقال الحافظ ابن رجب فى كتاب أهوال القبور : الباب التاسع فى ذكر أحوال الموتى فى البرزخ : أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا شك أن أرواحهم عند الله فى أعلى عليين . وأما الشهداء فأكثر العلماء على أنهم فى الجنة ، وروى عن مجاهد أنه قال : ليس الشهداء في الجنة ولكن يرزقون منها . وروى آدم بن أبي إياس عنه قال : يرزقون من ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها . وأما حديث ابن عباس « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة » فلعله فى عموم الشهداء والذين فى القناديل حول العرش خواصهم ، أو المراد بالشهداء هنا غير قتيل المعركة كالمطعون والمبطون والغريق وغيرهم ممن ورد بالنص أنه شهيد أو سائر المؤمنين . فقد يطلق الشهيد على من حقق الإيمان كما دل عليه قوله تعالى « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون

والشهداء عند ربهم » وحكم بقية المؤمنين سوى الشهداء فأهل التكليف وغيرهم فأطفال المؤمنين الجمهور على أنهم فى الجنة . وأما المكلفون من المؤمنين سوى الشهداء فاختلف العلماء فيهم قديما وحديثا ، فنص الإمام أحمد على أن أرواح المؤمنين فى الجنة وأرواح الكفار فى النار . واستدل بحديث كعب بن مالك وأم هانئ وأبى هريرة وأم بشر وعبد الله بن عمر ونحوها. وروى عن هلال ابن يساف أن ابن عباس سأل كعبا عن عليين وسجين فقال كعب: أما عليون فالسماء السابعة ففيها أرواح المؤمنين. وأما سجين فالأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار تحت خد إبليس. وقد ثبت بالأدلة أن الجنة فوق السماء السابعة وأن النار تحت الأرض السابعة . وقالت طائفة : الأرواح فى الأرض ، ثم اختلفوا، فقالت فرقة: الأرواح تستقر على أفنية القبور قاله ابن وضاح وحكاه ابن حزم عن عامة أصحاب الحديث ، ورجح ابن عبد البر أن أرواح الشهداء فى الجنة وأرواح غيرهم على أفنية القبور فتسرح حيث شاءت ، واستدلوا بحديث السلام عليهم وعرض المقعد ، ولا دليل فى ذلك على أن الأرواح ليست فى الجنة فان العرض على الجثة وللروح بها اتصال والروح وحدها فى الجنة ، وكذا السلام على أهل القبور لا يدل على استقرار أرواحهم على أفنية قبورهم فانه يسلم على قبور الأنبياء والشهداء وأرواحهم فى أعلى عليين . ولكن لها مع ذلك اتصال سريع بالجسد لا يعلم كنه ذلك وكيفيته على الحقيقة إلا الله تعالى ويشهد لذلك الأحاديث المروية فى أن النائم يعرج بروحه إلى العرش هذا مع تعلقها ببدنه وسرعة عودها إليه عند استيقاظه فأرواح الموتى المجردة عن أبدانهم أولى بعروجها إلى السماء وعودها إلى القبر فى مثل تلك السرعة . وقالت فرقة : تجمع الأرواح بموضع من الأرض، فأرواح المؤمنين تجمع بالجابية وقيل ببئر زمزم وأرواح الكفار تجمع ببئر برهوت . ورجحه القاضى أبو على من الحنابلة فى كتاب المعتمد وهو مخالف لنص أحمد أن أرواح الكفار فى النار ، ولعل لبئر برهوت اتصالا بجهنم فى قعرها كما روى فى البحر أن تحته جهنم . وروى صفوان بن عمر قال «سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال: يقال إن الأرض التى يقول الله : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » هى الأرض التى تجتمع فيها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث . أخرجه ابن منده وهذا غريب جدا ، وتفسير الآية به أغرب ، وروى ابن منده عن شهر بن حوشب قال : كتب عبد الله بن عمرو إلى أبى بن كعب يسأله أين تلتقى أرواح أهل الجنة وأرواح أهل النار ؟ فقال أما أرواح أهل الجنة فبالجابية وأما أرواح الكفار فبحضرموت، وقالت طائفة من الصحابة الأرواح عند الله صح ذلك عن ابن عمر، وروى ابن منده من طريق الشعبى عن حذيفة قال: «إن الأرواح موقوفة عند الرحمن تنتظر موعدها حتى ينفخ فيها» وهذا لا ينافى ما وردت به الأخبار من محل الأرواح على ما سبق، وقالت طائفة: أرواح بنى آدم عند أبيهم آدم عن يمينه وشماله لما ثبت فى قصة المعراج فى الصحيحين فلما فتح علونا السماء فاذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقلت لجبريل من هذا ؟ فقال آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار الحديث ، فظاهر هذا اللفظ يقتضى أن أرواح الكفار فى السماء . وهو مخالف

وَأَمَّا الْقِيَامَةُ فَتَأَمَّلْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا) .

للقرآن والحديث أن السماء لا تفتح لروح الكافر . وقد ورد فى بعض طرق الحديث ما يزيل الإشكال ولفظه « وإذا هو يعرض عليه أرواح ذريته فاذا كان روح المؤمن قال روح طيبة اجعلوها فى عليين وإذا كان روح الكافر قال روح خبيثة اجعلوها فى سجين » الحديث ، ففى هذا أنه تعرض عليه أرواح ذريته من السماء الدنيا وأنه يأمر بجعل الأرواح فى مستقرها فدل على أن الأرواح على استقرارها فى السماء الدنيا . وزعم ابن حزم أن الله تعالى خلق الأرواح جملة قبل الأجساد وأنه جعل فى برزخ عند منقطع العناصر حيث لا ماء ولا هواء ولا تراب ولا نار إلى آخر ماقال حسبما أسلفناه . وهذا قول لم يقله أحد من المسلمين ولا هو من جنس كلامهم وإنما هو من جنس كلام المتفلسفة . قال والفرق بين حياة الشهداء وغيرهم من المؤمنين الذين أرواحهم فى الجنة من وجهين : أحدهما أن أرواح الشهداء تخلق لها أجساد وهى الطير التى تكون فى حواصلها ليكمل بذلك نعيمها ويكون أكمل من نعيم الأرواح المجردة عن الأجساد ، فان الشهداء بذلوا أجسادهم للقتل فى سبيل الله فعوضوا عنها بهذه الأجساد فى البرزخ . والثانى أنهم يرزقون من الجنة وغيرهم لم يثبت فى حقه مثل ذلك ، وإن جاء أنهم يعلقون فى شجر الجنة فقيل معناه التعلق وقيل الأكل من الشجرة فلا يلزم مساواتهم للشهداء فى كمال تنعيمهم فى الأكل والله أعلم انتهى كلام الحافظ ابن رجب رحمه الله وهو غاية فى بابه لا مزيد عليه . ولنرجع إلى شرح كلام المصنف قال رحمه الله تعالى (وأما القيامة فتأمل) أيها الرجل (قول الله تعالى « يوم نحشر المتقين) نجمعهم (إلى الرحمن) إلى ربهم الذى غمرهم برحمته ولاختيار هذا الاسم فى هذه السورة شأن ولعله لأن مساق الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها (وفدا) وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم . قال ابن عباس : وفدا : أى ركبانا . قال أبو هريرة : على الإبل وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) أى الكافرين كما تساق البهائم (إلى جهنم وردا») أي مشاة عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد إلا بعد العطش ، وقيل يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طرائق : راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى معهم حيث أمسوا » . قوله تقيل معهم حيث قالوا : من القيلولة وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامه ثلاثة أصناف : صنفا مشاة

فواحدٌ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ ، فَإِذَا الْبُرَاقُ عَلَى رَأْسِ الْقَبْرِ وَالتَّاجُ وَالْحُلَلُ ، فيَلْبَسُ وَيَرْكَبُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، لاَ يُخَلَّى مِنْ عِزَّتِهِ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى الْجَنَّةِ بِرِجْلَيْهِ ، وَآخَرُ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ ، فَإِذَا الزَّبَانِيَةُ وَالْأَغْلاَلُ وَالْأَنْكَالُ لاَ يَخْلُونَ الشَّقِيَّ يَمْشِي إِلَى النَّارِ بِرِجْلَيْهِ ، بَلْ يُسْحَبُ بِهِ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ عَلَى وَجْهِهِ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَرْوِي عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ قُبُورِهِمْ لَهُم نُجُبٌ يَرْكَبُونَهَا ، لَهَا أَجْنِحَةٌ خُضْرٌ ، فَتَطِيرُ بِهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى حِيطَانِ الْجَنَّةِ ، فَإِذَا رَأَتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنْ هؤُلاَءِ ؟ فَيَقُولُونَ: مَا نَدْرِي ، لَعَلَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم فَيَأْتِيهِمْ بَعْضُ الْمَلاَئِكَةِ فَيَقُولُ :

وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم . قيل يارسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك » أخرجه الترمذى (فواحد) من السعداء (يخرج من قبره فإذا البراق على رأس القبر والتاج والحلل) وقد ذكر العلامة عبد الرحيم بن أحمد القاضى صفة البراق فقال :وهو يعنى البراق ذوجناحين يطير بين السماء والأرض ووجهه كوجه الإنسان ولسانه كلسان العرب واضح الحاجبين ضخم القرنين رقيق الأذنين وهما من زبرجدة خضراء أسود العينين ، ويقال كالكوكب الدرى وناصيته من ياقوتة حمراء ذنبه كذنب البقر مكلل بالذهب الأحمر، ويقال هو فى الحسن كالطاوس فوق الحمار ودون البغل ، وإنما سمى البراق براقا لأن سيره وسرعته كالبرق (فيلبس) ذلك التاج والحلل (ويركب) البراق (إلى جنات النعيم لايخلى من عزته أن يمشى إلى الجنة برجليه وآخر) من الأشقياء (يخرج من قبره فاذا الزبانية) أى الملائكة الغلاظ الشداد (والأغلال) جمع غل بالضم : طوق من حديد يجمع فى العنق (والأنكال) أى القيود ، فى المختار النكل بوزن الطفل القيد ، وجمعه أنكال (لايخلون الشقى يمشى إلى النار برجليه بل يسحب) أى يجر (به إلى سواء) أى وسط (الجحيم على وجهه نعوذ بالله من سخطه) وغضبه (ولقد سمعت بعض العلماء) رحمه الله تعالى (يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إذاكان يوم القيامة يخرج قوم من قبورهم لهم نجب) بضمتين جمع نجيب من الإبل كما في المختار (يركبونها لها أجنحة خضر فتطير) أى تلك النجب (بهم فى عرصات القيامة حتى إذا أتوا على حيطان الجنة فاذا رأتهم) أى هؤلاء القوم الذين يركبون النجب (الملائكةقال بعضهم) أىالملائكة (لبعض من هؤلاء ؟) القوم(فيقولون) أى الملائكة (ماندرى لعلهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيأتيهم بعض الملائكة فيقول)

مَنْ أَنْـتُمْ ؟ وَمِنْ أَيِّ الْأُمَمِ أَنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَحْنُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم . فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِـكَةُ : هَلْ حُوسِبْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : لاَ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِـكَةُ : هَلْ وُزِنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِـكَةُ : هَلْ قَرَأْتُمْ كُتُبَـكُمْ ؟فَيَقُولُونَ : لاَ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِـكَةُ : ارْجِعُوا فَـكُلُّ ذٰلِكَ وَرَاءَكُمْ . فَيَقُولُونَ : هَلْ أَعْطَيْتُمُونَا شَيْئًا فَنُحَاسَبَ عَلَيْهِ ؟. وَفِى خَبَرٍ آخَرَ: مَا مَلَـكْنَا شَيْئًا فَنَعْدِلَ أَوْ نَجُورَ، وَلٰـكِنْ عَبَدْنَا رَبَّنَا حَتَّى دَعَانَا فَأَجَبْنَاهُ ،فَيُنَادِي مُنَادٍ :صَدَقَ عِبَادِي مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؛ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (أَفَمَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ؟.فَأَعْظِمْ بِرَجُلٍ يُشَاهِدُ تِلْكَ الْأَهْوَالَ وَالزَّلَازِلَ وَالْوَقَائِعَ ، وَهُوَ آمِنٌ لاَيَدْخُلُ قَلْبَهُ فَزَعٌ وَلاَ يَـكُونُ عَلَى قَلْبِهِ ثِقَلٌ . نَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ ، أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أُولٰئِكَ السُّعَدَاءِ وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِعَزِيزٍ .

البعض (من أنتم ومن أى الأمم أنتم ؟ فيقولون) أى هؤلاء القوم (نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتقول لهم الملائـكة هل حوسبتم فيقولون لا) نحاسب (فتقول الملائـكة هل وزنتم ؟ فيقولون لا ، فتقول الملائـكة هل قرأتم كتبكم) أى كتب أعمالـكم (فيقولون لافتقول الملائـكة ارجعوا فـكل ذلك) الذى ذكرناه من الحساب والوزن وقراءة الـكتاب (وراءكم فيقولون هل أعطيتمونا شيئا فنحاسب عليه» . وفى خبر آخر«ماملـكنا شيئا فنعدل أو نجور ولـكن عبدنا ربنا حتى دعانا) ربنا الـكريم (فأجبناه) سبحانه وتعالى (فينادى مناد) من قبل الرب (صدق عبادى) فى قولهم ماذكر فلا تأمروهم بالرجوع إلى ورائهم بل اتركوهم (ماعلي المحسنين من سبيل) أى ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل . قال بعض المفسرين :ويستنبط من قوله « ماعلى المحسنين من سبيل » أن كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله مخلصامن قلبه ليس عليه سبيل فى نفسه وماله إلا ما أباحه الشرع بدليل منفصل (والله غفور) متجاوز لمن تاب (رحيم) يعنى أنه تعالى رحيم بجميع عباده (أما تسمع قوله تعالى « أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا) من العذاب (يوم القيامة») قابل الإلقاء فى النار بالإتيان آمنا مبالغة فى إحماد المؤمنين كذا قاله القاضى (فأعظم) بوزن أفعل بكسر العين صيغة تعجب (برجل) من المؤمنين (يشاهد تلك الأهوال والزلازل والوقائع وهو آمن) منها (لايدخل قلبه فزع) أى خوف (ولا يكون على قلبه ثقل) أى شدة (نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من أولئك السعداء) المقبولين (وما ذلك) أى ليس الجعل المذكور (علي الله جل جلاله بعزيز) أى بمتعذر أو متعسر

وَأَمَّا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَتَأَمَّلْ فِيهِمَا آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى : إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ تَعالى: (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) وَقالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ آخَرِينَ : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ، فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) .

(وأما الجنة) التى هى دار الثواب (والنار) التى هى دار العقاب (فتأمل) أيها الرجل (فيهما آيتين من كتاب الله تعالى : إحداهما) أى الآيتين (قوله تعالى وسقاهم) أى أهل الجنة (ربهم) أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص ، وقيل إن الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم ويقولون لقد طال أخذنا من الوسائط فاذاهم بكاسات تلاقى أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد كذا ذكره النسفى (شرابا طهورا) يعنى طاهرا من الأقذار والأدران لم تمسه الأيدى ولم تدنسه الأرجل كخمر الدنيا ، وقيل إنه لا يستحيل بولا ولكنه يستحيل رشحا فى أبدانهم كرشح المسك ، وذلك أنهم يؤتون بالطعام ثم من بعده يؤتون بالشراب الطهور فيشربون منه فتطهر بطونهم ويصيرما أكلوا رشحا يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر وتضمر بطونهم وتعود شهواتهم وقيل الشراب الطهور هو عين ماء علي باب الجنة من شرب منه نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد . قاله الخازن («إن هذا) النعيم (كان لكم جزاء) أى يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها « إن هذا كان لكم جزاء » قد أعده الله لكم إلى هذا الوقت فهو لكم بأعمالكم ، وقيل هو إخبار من الله تعالى لعباده المؤمنين أنه قد أعده لهم فى الآخرة (وكان سعيكم مشكورا ») أى شكرتكم عليه وآتيتكم أفضل منه وهو الثواب ، وقيل شكر الله لعباده هو رضاه منهم بالقليل من الطاعة وإعطاؤه إياهم الكثير من الخيرات (و) الآية الثانية (قال تعالى حكاية عن آخرين) وهم الكفار («ربنا أخرجنا منها) من النار (فان عدنا) إلى الكفر والتكذيب (فاناظالمون) لأنفسنا (قال) الله لهم (اخسئوا فيها) أى فى النار : يعنى اسكتواسكوت هوان فانها ليست مقام سؤال من خسأت الكلب إذا زجرته خسأ (ولا تكلمون) فى رفع العذاب أولاتكلمون رأسا، قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فيجابون حق القول منى فيقولون ألفا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم فيقولون ألفا يامالك ليقض علينا ربك فيجابون إنكم ماكثون فيقولون ألفا ربنا أخرنا إلى أجل قريب فيجابون أولم تكونوا أقسمتم من قبل فيقولون ألفا ربنا أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فيقولون ألفا رب ارجعون فيجابون اخسئوا فيها ثم لايكون لهم فيها إلا زفير وشهيق وعواء كعواء الكلاب قاله القاضى ، وروى عن عبد الله بن عمرو أن أهل جهنم يدعون مالكا خازن جهنم أربعين عاما يامالك ليقض علينا ربك فلايجيبهم ثم يقول إنكم ماكثون ، ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسئوا

وَرُوِىَ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ كِلاَباً يَتَعَاوَوْنَ فى النارِ . نَعُوذُ بِاللهِ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِى رَحِمَهُ اللهُ :لاَ نَدْرى أَىُّ الْمُصِيبَتَيْنِ أَعْظَمُ : فَوْتُ الْجِنَانِ ، أَمْ دُخُولُ النِّيرَانِ ؟ أَمَّا الْجَنَّةُ : فَلاَ صَبْرَ عَنْهَا ، وَأَمَّا النَّارُ : فَلاَ صَبْرَ عَلَيْهَا ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَفَوْتُ النَّعِيمِ أَيْسَرُ مِنْ مُقَاسَاةِ الْجَحِيمِ ، ثُمَّ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى هِىَ الْخُلُودُ ، إِذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مُنْقَطِعاً لَكَانَ هَيِّناً ، وَلٰكِنِ الشَّأْنُ فى أَبَدٍ بِلاَ آخِرٍ ، فَأَىُّ قَلْبٍ يَحْتَمِلُ ذٰلِكَ ! وَأَىُّ نَفْسٍ تَصْبِرُ عَلَى ذٰلِكَ ؟ وَلِذٰلِكَ قالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ : « ذِكْرُ خُلُودِ الْخَالِدِينَ ، يَقْطَعُ قُلُوبَ الْخَائِفِينَ » .

وَذُكِرَ عِنْدَ الْحَسَنِ

فيها ولا تكلمون فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق . ذكره البغوى بغير سند وأخرجه الترمذى بمعناه عن أبى الدرداء . قوله فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة . أى سكتوا ولم يتكلموا بكلمة ، وقيل إذا قال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم (وروى أنهم) أى أهل النار (يصيرون عند ذلك) أى عند الجواب بقوله تعالى اخسئوا فيها (كلابا يتعاوون فى النار) أى يصيحون فيها : فى المختار عوى الكلب والذئب وابن آوى يعوى بالكسر عواء بالضم والمد : أى صاح (نعوذ بالله الرءوف الرحيم من عذابه الأليم فان الأمر كما قال يحيى بن معاذ) الواعظ أحد رجال الطريقة . ذكره أبو القاسم القشيرى فى الرسالة وعده من جملة المشايخ . وقال فيه نسيج وحده فى وقته لهلسان فى الرجاء خصوصا وكلام فى المعرفة خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين (الرازى) بالزاى نسبة إلى الرى من بلاد الديلم (رحمه الله : لا ندرى أى المصيبتين أعظم فوت) دخول (الجنان أم دخول النيران . أما الجنة فلا صبر عنها) أى عن اجتنابها (وأما النار فلا صبر عليها) أى على دخولها (وعلى كل حال ففوت النعيم أيسر من مقاساة الجحيم ، ثم الطامة) أن الداهية التي تطم : أى تعلو على سائر الدواهى (الكبرى) التى هى أكبر الطامات (والمصيبة العظمى هى الخلود) فى النار (إذ لو كان الأمر على كل حال منقطعا لكان) ذلك الأمر (هينا) سهلا (ولكن الشأن فى أبد بلا آخر ، فأى قلب يحتمل ذلك) الأبد (وأى نفس تصبر على ذلك ولذلك) أى لأجل أن الشأن فى أبد بلا آخر (قال عيسى عليه السلام : ذكر خلود الخالدين) فى النار (يقطع قلوب الخائفين . وذكر عند الحسن)

أَنَّ آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَى النَّارِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ هَنَّادٌ ، عُذِّبَ أَلْفَ عَامٍ يُنَادِي يَاحَنَّانُ يَامَنَّانُ ، فَبَكَى الْحَسَنُ وَقَالَ : يَالَيْتَنِي كُنْتُ هَنادًا ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ فَقَالَ وَيْحَكُمْ ، أَلَيْسَ يَوْمًا يَخْرُجُ ؟ .

قُلْتُ : فَرَجَعَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِذَنْ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَهِيَ النُّكْتَةُ الَّتِي تَقْصِمُ الظُّهُورَ ، وَتُصَفِّرُ الْوُجُوهَ ، وَتُذِيبُ الْأَكْبَادَ ، وَتَقَطَعُ الْقُلُوبَ ، وَتُدْمِي الْعُيُونَ مِنَ الْعِبَادِ ، وَهِيَ خَوْفُ نَزْعِ المَعْرِفَةِ ، فَهٰذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا خَوْفُ الْخَائِفِينَ ، وَتَبْكِي عَلَيْهَا أَعْيُنُ البَاكِينَ ، وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْغُمُومَ ثَلَاثَةٌ : غَمُّ الطَّاعَةِ أَنْ لَا تُقْبَلَ ،

البصرى رحمه الله (أن آخر من يخرج من النار رجل يقال له هناد عذب ألف عام ينادى يا حنان) معناه الرحيم أو الذى يقبل على من أعرض عنه (يامنان) معناه المعطى ابتداء (فبكى الحسن وقال : يا ليتنى كنت هنادا) يشير إلي ما رواه أحمد وابن خزيمة والبيهقى من حديث أنس « إن عبدا فى جهنم ينادى ألف سنة يا حنان يامنان فيقول الله لجبريل اذهب فائتنى بعبدى هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره فيقول : ائتنى به فإنه في مكان كذا وكذا فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول له يا عبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك فيقول يا رب شر مكان وشر مقيل فيقول ردوا عبدى فيقول يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتنى منها أن تعيدنى فيها فيقول دعوا عبدى » وهذا يدل على أن رجاءه كان سبب نجاته من النار كما قاله المصنف فى غير هذا الكتاب (فتعجبوا) أى الحاضرون عنده (منه) رحمه الله (فقال) الحسن (ويحكم أليس يوما يخرج) ذلك الرجل (قلت فرجع الأمر كله إذن) أي حين إذ عرفت قول الحسن وغيره (إلى أصل واحد وهى) أي ذلك الأصل وأنث الضمير مراعاة للخبر (النكتة التى تقصم الظهور) أو تكسرها وبابه ضرب ، قال العلامة الدسوقى : والقصم بالقاف الكسر سواء كان منه إبانة أولا ، وقيل الكسر مع الإبانة قصم بالقاف وبدون إبانة فصم بالفاء وهذا كناية عن شدة هذه النكتة ، وكذا قوله (وتصفر الوجوه) أى تجعلها صفرة وهى لون دون الحمرة كما فى المصباح (وتذيب) أى تفتت تلك النكتة (الأكباد) جمع كبد من الأمعاء معروفة وهى أنثى ، وقال الفراء تذكر وتؤنث (وتقطع القلوب وتدمي العيون) أى تجعل دمعها دما بسبب كثرة البكاء حتى انقطعت الدموع ، ثم تسيل كذلك (من العباد وهى) أى النكتة المذكورة (خوف نزع المعرفة فهذه) هى (الغاية التى ينتهى إليها) أى إلى تلك الغاية (خوف الخائفين) من السلف الصالحين (وتبكى عليها) أى لأجل تلك الغاية (أعين الباكين ، ولقد قال بعضهم إن الغموم ثلاثة : غم الطاعة) لأجل (أن لا تقبل ،

وَغَمُّ الْمَعْصِيَةِ أَنْ لَا تُغْفَرَ ، وَغَمُّ الْمَعْرِفَةِ أَنْ تُسْلَبَ ، وَقَالَ الْمُخْلِصُونَ : بَلِ الْغَمُّ كُلُّهُ وَاحِدٌ بِالْحَقِيقَةِ ، وَهُوَ غَمُّ سَلْبِ الْمَعْرِفَةِ ، وَكُلُّ غَمٍّ دُونَهُ جَلَلٌ إِذْ لَهُ انْقِضَاءٌ .

وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ يُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، فَبَكَى لَيْلَهُ أَجْمَعَ ، فَقُلْتُ : بُكَاؤُكَ هٰذَا عَلَى الذُّنُوبِ ؟ قَالَ فَحَمَلَ تِبْنًا وَقَالَ : الذُّنُوبُ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هٰذَا ، إِنَّمَا أَخْشَى أَنْ يَسْلُبَنِي اللهُ الْإِسْلَامَ ؛ نَسْأَلُ اللهَ رَبَّنَا الْمَنَّانَ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يَبْتَلِيَنَا بِمُصِيبَةٍ ، وَأَنْ يُتِمَّ عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ كَثِيرَ نِعْمَتِهِ ، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَبَبَ سُوءِ الْخَاتِمَةِ وَمَعْنَاهَا

وغم المعصية أن لا تغفر ، وغم المعرفة أن تسلب ، وقال المخلصون بل الغم كله واحد بالحقيقة ، وهو غم سلب المعرفة وكل غم دونه) أى غير غم سلب المعرفة (جلل) أى هين يسير ، والجلل أيضا الأمر العظيم وهو من الأضداد . والمراد هنا الأول (إذ) حرف تعليل (له) أى لكل الغم غير غم السلب (انقضاء) وإن طال الزمن (ولقد بلغنا عن يوسف بن أسباط) الشيبانى (رحمه الله تعالى) توفى سنة نيف وتسعين ومائة (أنه قال : دخلت على سفيان) الثورى وهو من تابعي التابعين (رحمه الله تعالي فبكى) سفيان (ليله أجمع فقلت بكاؤك هذا على الذنوب ؟ قال) ابن أسباط (فحمل) سفيان بيده (تبنا) قال العلامة عبد الحق : التبن عصيفة الزرع من بر ونحوه الواحدة تبنة (وقال) سفيان (الذنوب أهون على الله من هذا) التبن (إنما أخشى أن يسلبنى الله الاسلام) أخرجه أبو نعيم فى الحلية يقول هذا وهو إمام العلماء وذلك لخوفه الشديد من الخلود فى الأبدية وسوء الخاتمة . قال صاحب القوت : ولقد كان سفيان أحد الخائفين كان يبول الدم من شدة الخوف وكان يمرض المرضة من المخافة وعرض بوله على بعض أطباء الكتابيين فقال هذا بول راهب من الرهبان ، وروى أبو نعيم فى الحلية من طريق علي بن غنام قال : مرض سفيان الثورى بالكوفة فبعث بمائه إلى متطبب بالكوفة فلما نظر إليه قال : ويلك بول من هذا ؟ فقالوا ما نسأل انظر ماترى فيه قال : أرى بول رجل قد أحرق الحزن والخوف جوفه . وقال القشيري فى الرسالة ، وقيل مرض سفيان مرضة فعرض دليله : أى ما يستدل به على مرضه وهى القارورة على طبيب ذمي فقال : صاحب هذا رجل قطع الخوف كبده ، ثم جاء إليه وجس نبضه ثم قال : ما علمت أن فى الملة الحنيفية مثله فى كمال خوفه (نسأل الله ربنا المنان سبحانه أن لا يبتلينا بمصيبة وأن يتم علينا بفضله كثير نعمته وأن يتوفانا على ملة الاسلام إنه أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (وقد ذكرنا سبب سوء الخاتمة ومعناها

فِى كِتَابِ : [إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ] فَتَأَمَّلْهُ هُنَاكَ ، فَإِنَّ الْخَوْضَ فِيهِ هٰهُنَا خُرُوجٌ إِلَى الْإِكْثَارِ ، فَتَأَمَّلْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ رَاشِدًا ، فَإِنَّ التَّفْصِيلَ أَكْثَرُ مِمَّا يَأْتِى عَلَيْهِ الْوَهْمُ وَالذِّكْرُ لَعَلَّكَ تُفْلِحُ بِعَوْنِ اللهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَأَىُّ الطَّرِيقَيْنِ أَسْلُكُ : طَرِيقَ الْخَوْفِ ، أَوْ طَرِيقَ الرَّجَاءِ ؟

يُقَالُ لَكَ : بَلِ الْمُرَكَّبَ بَيْنَهُمَا ، فَلَقَدْ قِيلَ : مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ صَارَ مُرْجِئًا بِهِ رُبَّمَا يُخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَصِيرَ خُرَّمِيًّا ، وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ صَارَ حَرُورِيًّا ؛ وَالْمُرَادُ أَنْ لاَ يَنْفَرِدَ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ ، فَإِنَّ بِالْحَقِيقَةِ الرَّجَاءَ الْحَقِيقِيَّ لاَ يَنْفَكُّ

فى كتاب) الخوف من جملة كتب (إحياء علوم الدين فتأمله) أى سبب سوء الخاتمة ومعناها (هناك) أى فى كتاب الإحياء (فإن الخوض) أى الدخول (فيه) أى المذكور من السبب والمعنى (هاهنا أى فى هذا المختصر (خروج إلى الإكثار) أى بسط الكلام لأن غرضنا فى هذا الكتاب الاختصار ولذا تركنا الخوض فى ذلك ، وقد لخصنا مافى الإحياء من سبب سوء الخاتمة ومعناها فى عقبة العلم فانظر هناك (فتأمل هذه الجملة) التى ذكرناها (راشدا فإن التفصيل أكثر مما يأتى عليه الوهم والذكر لعلك تفلح بعون الله وحسن توفيقه ، فإن قلت فأى الطريقين أسلك) أى أدخل (طريق الخوف أو طريق الرجاء ؟ يقال لك بل) اسلك (المركب بينهما) أى الخوف والرجاء (فلقد قيل : من غلب عليه الرجاء صار مرجئا) فى شرح المواقف المرجئة لقبوا به لأنهم يرجئون العمل عن النية : أى يؤخرونه فى الرتبة عنها ، وعن الاعتقاد من أرجاه أى أخره ، ومنه « أرجه وأخاه » أى أمهله وأخره أو لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة فهم يعطون الرجاء وعلى هذا ينبغى أن لا يهمز لفظ المرجئة ، وفى المصباح المرجئة طائفة يرجئون الأعمال : أى يؤخرونها فلا يرتبون عليها ثوابا ولا عقابا بل يقولون المؤمن يستحق الجنة بالايمان دون بقية الطاعات ، والكافر يستحق النار بالكفر دون بقية المعاصى (بل ربما يخاف عليه) أى على من غلب رجاؤه على خوفه (أن يصير خرميا) بضم الخاء وتشديد الراء الخرميه أصحاب التاريخ والإباحة ، قاله العلامة عبد الحق (ومن غلب عليه الخوف صار حروريا) فى المغرب : الحروية فرقة من الخوارج منسوبة إلى حروراء قرية بالكوفة كان بها أول تحكيمهم واجتماعهم عن الأزهرى وقول عائشة رضى الله عنها لامرأة أحرورية أنت ؟ المراد أنها فى التعمق فى سؤالها كأنها خارجية لأنهم تعمقوا فى أمر الدين حتى خرجوا منه (والمراد) بالقول الذى ذكرناه (أن لاينفرد) العبد (بأحدهما) أى الخوف والرجاء (دون الآخر فإن بالحقيقة الرجاء الحقيقى لاينفك

عَنِ الْخَوْفِ الْحَقِيقِيِّ ، وَالْخَوْفُ الْحَقِيقِيُّ ، لاَ يَنْفَكُّ عَنِ الرَّجَاءِ الْحَقِيقِيِّ ، وَلِذٰلِكَ قِيلَ الرَّجَاءُ كُلُّهُ لِأَهْلِ الْخَوْفِ لاَ الْأَمْنِ ، وَالْخَوْفُ كُلُّهُ لِأَهْلِ الرَّجَاءِ لاَ الْيَأْسِ .

عن الخوف الحقيق ، والخوف الحقيق لاينفك عن الرجاء الحقيق ولذلك) أى لأجل عدم انفكاك أحدهما عن الآخر (قيل: الرجاء كله لأهل الخوف لا) لأهل (الأمن) من مكر الله والاغترار به (والخوف كله لأهل الرجاء لا) لأهل (اليأس) والقنوط من رحمة الله . والحاصل أن الخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه أو مظنون إذا المعلوم لايرجى ولا يخاف ، فاذا المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة ، فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهوالخوف والتقديران يتقابلان لامحالة إذا كان الأمر المنتظر مشكوكا فيه ، نعم أحد طرفى الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه وكذا بالعكس ، فهذا معنى غلبة أحدهما على الآخر ولو استويا فى التعلق بالأسباب ، وعلى كل حال فهما وصفان متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر ، ولذلك قال تعالى « يدعوننا رغبا ورهبا » وقال عز وجل « يدعون ربهم خوفا وطمعا » ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء وسموه به فقال تعالى على هذه اللغة « مالكم لاترجون لله وقارا » أى لاتخافون لله عظمة ، وكثيرا ماورد فى القرآن الرجاء بمعنى الخوف، كما فى قوله تعالى « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله » أى يخافون عقوبات الله ، وكذا قوله تعالى « وترجون من الله مالا يرجون » أى تخافون منه مالا يخافون وذلك لتلازمهما ، ولولا أنهما كشىء واحد لما فسر أحدهما بالآخر ، إذ عادة العرب التعبيرعن الشىء بما يلازمه ، ومثل أحدهما من الآخر مثل اليوم من الليلة لما لم ينفك أحدهما عن الآخر جاز أن يعبر عن المدة بأحدهما فيقال ثلاثة أيام ويقال ثلاث ليال ، ومنه قوله تعالى مخبرا عن قصة واحدة « قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاث ليال سويا » ثم قال « ثلاثة أيام إلا رمزا » فلما لم يكن اليوم ينفك عن ليلته والليلة لاتنفك عن يومها أخبر عن أحدهما بالآخر لأن أحدهما متصل بصاحبه فصار كشىء واحد فكيف وأن الليل والنهار لبسة والآخر مندرج فيه لايظهر إلا أحدهما بحكمة الله تعالى وقدرته لتفاوت أحكامه فيهما وافتراق إنعامه بهما ، فإذا ظهر النهار اندرج الليل فيه بقدرة الله تعالى وإذا ظهر الليل استتر النهار لحكمة الله تعالى وهو حقيقة إيلاجه أحدهما فى الآخر وتحقيق تكويره أجدهما على صاحبه ، فكذلك حقيقة الرجاء من الخوف فى معانى الملكوت إذا ظهر الخوف كان العبد خائفا وظهرت عليه أحكام الخوف من مشاهدة التجلي بوصف الخوف فسمى العبد خائفا لغلبته عليه ويظهر الرجاء

فَإِنْ قُلْتَ : فَهَلْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا أَرْجَحَ مِنَ الآخَرِ أَوْ أَكْثَرَ ذِكْرًا بِحَالٍ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ صَحِيحاً قَوِيًّا فَالْخَوْفُ أَوْلَى بِهِ ، وَإِذَا مَرِضَ وَضَعُفَ لَاسِيَّمَا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الآخِرَةِ ، فَالرَّجَاءُ أَوْلَى ، كَذَا سَمِعْتُ الْعُلَمَاءَ يَقُولُونَ .

من خوفه ، وإذا ظهر الرجاء كان العبد خائفا راجيا وظهرت منه أحكام الرجاء من مشاهدة تجلى الربوبية بوصف مرجو فوصف العبد به لأنه الأغلب عليه. وبأن الخوف فى رجائه ، ولذا قال صاحب القوت : ومن علامة صحة الرجاء فى العبد كون الخوف باطنا فى رجائه ، لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فوته لعظم المرجو فى قلبه وشدة اغتباطه به فهو لاينفك فى حال رجائه من الخوف لفوت الرجاء (فان قلت فهل يكون أحدهما) أى الخوف والرجاء (أرجح من الآخر أو أكثر ذكرا بحال) من الأحوال (فاعلم) هداك الله تعالى (أن العبد إذا كان صحيحا قويا فالخوف أولى به) من الرجاء (وإذا مرض وضعف لاسيما إذا أشرف على الآخرة) بأن يقرب أجله (فالرجاء أولى) به من الخوف (كذا) أى مثل الجواب المذكور (سمعت العلماء) رحمهم الله (يقولون) وأما قول القائل الخوف أفضل أم الرجاء فهو سؤال فاسد فان أعمال المقامات إذا اتحدت فلا يصح التفاضل فيها إلا بأسبابها وأحوالها التى هى حواث على الأعمال، بل يضاهى قول القائل الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان ، فان اجتمعا نظر إلى الأغلب ، فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لأن مايراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى فالرجاء أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ، ويجوز أن يقال مطلق الخوف الذى يراد لذاته هو أفضل مطلقا على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب فالخوف يربط به زمام ابتهاج المحبين وانبساطهم عن الافراط إلى الاعتدال ، فان نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب وشتان بينهما ، لأن من لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وموجبات الرحمة فى الوجود أكثر من موجبات الغضب وليس وراء المحبة مقام ، لأنها من الغايات . وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء ، وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصى وكثرة الاغترار

قُلْتُ: وَذٰلِكَ لَمَّا رُوِىَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قلوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي» فَيَصِيرُ رَجَاؤُهُ أَوْلَى فِى ذٰلِكَ الْوَقْتِ لِانْكِسَارِ قَلْبِهِ وَخَوْفِهِ الْمُتَقَدِّمِ زَمَانَ الصِّحَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالْإِمْكَانِ ، وَلِذٰلِكَ يُقَالُ لَهُمْ : (لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا) .

فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ قَدْ جَاءَتِ

فأما التقى الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يعظه : يا بنى خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك وارجه رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ، وكما أوصى لقمان لابنه فقال : يا بنى خف الله خوفا لاتيأس فيه من رحمته وارجه رجاء لاتأمن من مكره ، وفى لفظ آخر : وارجه رجاء أشد من خوفك ، فقال وكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد ؟ . قال أما علمت أن المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر . وفى القوت : وكان على رضى الله عنه يقول : عليكم بالنمط الأوسط يرجع إليه العالى ويرتفع عنه الدانى . وهذا قول فصل غير شطط ولا هزل ، وهو طريق أهل السنة ومذهب أولى المعرفة فصدق الرجاء واعتدال الخوف به من حقيقة العلم بالله ، والمؤمن حقا هو المعتدل بين الرجاء والخوف ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : لو نودى ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . رواه أبو نعيم فى الحلية وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوى خوفه ورجاؤه . فأما العاصى اذا ظن أنه الرجل الذى استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان دليلا على اغتراره (قلت وذلك) أى ماذكر من أولوية الرجاء (لما روى أن الله سبحانه وتعالى يقول) فى الحديث القدسى (أنا عند المنكسرة قلوبهم) أى أنا مع الخاشعين بالتوفيق (من مخافتى) أى لأجلها . قال العلامة عبد الرءوف المناوى رواه الغزالي بدون لفظ من مخافتى (فيصير رجاؤه أولى في ذلك الوقت) أى وقت الموت سواء عرف نفسه بالإساءة أم لا . وقال القشيرى : ومن عرف نفسه بالإساءة فينبغى أن يكون خوفه غالبا على رجائه انتهى ، وهذا غير مقيد وقت الموت . وفى القوت : ولولا أن الرجاء وحسن الظن من فواضل المقامات ما طلبه العلماء فى آخر الأوقات عند فراق العمر ولقاء المولى لتكون الخاتمة به وهم يسألون الله حسن الخاتمة لطول الحياة ، وكذلك قيل إن الخوف أفضل ما دام حيا فان حضر الموت فالرجاء أفضل (لانكسار قلبه وخوفه المتقدم زمان الصحة والقوة والإمكان ولذلك) أي لأجل أن انكسار قلوبهم خوفهم لربهم (يقال لهم) أى للمنكسرة قلوبهم (لا تخافوا) ما تقدمون عليه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم (فان قلت أليس) أى الحال والشأن (قد جاءت

الْأَخْبَارُ الْكَثِيرَةُ فى حُسْنِ الظنِّ بِاللهِ وَالتَّرْغِيبُ فى ذَٰلِكَ ؟

الأخبار الكثيرة فى حسن الظن بالله والترغيب فى ذلك) أى حسن الظن به تعالى كما روى فى أخبار يعقوب عليه السلام: إن الله تعالى أوحى اليه أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف هذه المدة ؟ قال لا، قال لأنك قلت لاخوته « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » لم خفت الذئب عليه ولم ترجنى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له . نقله صاحب القوت زاد فى رواية عن الله تعالى أنه أوحى إليه : من سبق عنايتى بك أن جعلت نفسى عندك أرحم الراحمين فرجوتنى ولولا ذلك لكنت أجعل نفسى عندك أبخل الباخلين . وقال صلى الله عليه وسلم « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » رواه مسلم من حديث جابر ، وروى ابن جميع فى معجمه والخطيب وابن عساكر من حديث أنس : «لا يموتن أحدكم حتى يحسن الظن بالله تعالى فان حسن الظن بالله ثمن الجنة» . وقال صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء» رواه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع ، وروى الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية وابن عساكر أن الله عز وجل يقول : « أنا عند ظن عبدى بى إن خيرا فخير وإن شرا فشر » ورواه كذلك الشيرازى فى الألقاب من حديث أنس ودخل النبى صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع : أى حالة نزع الروح منه فقال « كيف تجدك فقال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وآمنه مما يخاف» رواه الترمذى وقال غريب . وقال النووى إسناده جيد . وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك كذا فى القوت ؛ ورواه الشريف الموسوى فى نهج البلاغة . قال صاحب القوت صدق رضى الله عنه لأن اليأس من روح الله الذى يستريح إليه المكروب من الذنوب والقنوط من رحمة الله التى يرجوها بالغيوب أعظم من ذنوبه وهو أشد من جميع عيوبه لأنه قطع بهواه على صفات الله المرجوة وحكم على كرم الله بصفاته المذمومة وكان ذلك من أكبر الكبائر وإن كان ذنوبه كبائر؛ وفى الخبر الصحيح «أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر فلقى الله ولم يعمل خيرا قط . فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات » . رواه مسلم من حديث أبي مسعود ، وفى الخبر أن الله أوحى إلى داود عليه السلام « يا داود أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى إلى خلقى ، فقال يارب كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى وإحسانى وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون منى إلا الجميل » كذا فى القوت . ورؤى أبان بن أبى عياش البصرى فى النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء والرخص فقال له الرائى ما فعل الله بك ؟ فقال أوقفنى الله تعالى بين يديه فقال ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت يارب أحببت أن أحببك إلى خلقك فقال قد غفرت لك أورده صاحب القوت . ورؤى القاضى يحى بن أكثم بعد موته فى النوم فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال أوقفنى بين يديه وقال يا شيخ السوء فعلت

وفعلت ، قال فأخذنى من الرعب والفزع ما يعلم الله ، ثم قلت يارب ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عنى فقلت حدثنى عبدالرزاق بن همام عن معمربن راشد عن الزهرى عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت تباركت وتعاليت «أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء وقد كنت أظن بك أن لا تعذبنى فقال الله عزوجل صدق نبيى وصدق أنس وصدق الزهرى وصدق معمروصدق عبدالرزاق وصدقت أنت . قال فألبست من خلع الجنة ومشى بين يدى الولدان إلى الجنة فقلت يا لها من فرحة» هكذا أورده صاحب القوت . وروى ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن مسعود قال « والله الذى لا إله غيره لا يحسن أحد الظن بالله إلا أعطاه الله ظنه » وروى ابن المبارك وأحمد والطبرانى من حديث معاذ «إن شئتم أنبأتكم ما أول مايقول الله للمؤمنين يوم القيامة وماأول مايقولون له ؟ قلنا نعم يا رسول الله . قال فإن الله يقول للمؤمنين: هل أحببتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم ؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد وجبت لكم مغفرتى » وروى ابن أبى الدنيا فى حسن الظن والبيهقى فى الشعب وابن عساكر عن أبى غالب صاحب أبى أمامة قال : كنت بالشام فنزلت على رجل من قيس من خيار الناس وله ابن أخ مخالف له يأمره وينهاه ويضربه فلا يطيعه فمرض الفتى فبعث إلى عمه فأبى أن يأتيه فأتيته أنا به حتى أدخلته عليه فأقبل عليه يشتمه ويقول أى عدو الله ألم تفعل كذا ؟ قال : أرأيت أي عم لو أن الله دفعنى إلى والدتى ما كانت صانعة بى ؟ قال كانت والله تدخلك الجنة ، قال فوالله لله أرحم بى من والدتى فقبض الفتى ودفنه عمه ، فلما سوى اللبن سقطت منه لبنة فوثب عمه فتأخر . قلت ما شأنك ؟ قال ملىء قبره نورا وفسح له مد البصر ، وروى ابن أبى الدنيا فيه والبيهقى فى الشعب عن حميد قال : كان لى ابن أخت مراهق فمرض فأرسلت إلى أمه فأتيتها فاذا هى عند رأسه تبكى فقال يا خال ما يبكيها ؟ قلت مانعلم منك . قال أليس إنما ترحمنى قلت بلى ، قال فان الله أرحم بى منها ، فلما مات أنزلته القبر مع غيرى فذهبت أسوى لبنة فاطلعت فى اللحد فاذا هو مد بصرى ، فقلت لصاحبى وأنت ما رأيت ؟ قال نعم فليهنك ذاك قال فظننت أنه بالكلمة التى قالها ! وقال ثابت بن أسلم البنانى : كان شاب به حدة أى نشاط إلى اللهو واللعب ، وكانت له أم تعظه كثيرا وتقول له يابنى إن لك يوما فاذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له يابنى قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما فقال ياأمه إن لى ربا كثير المعروف وإنى لأرجو أن لايعدمنى اليوم بعض معروفه . قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه. رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله ، وقال جابر بن وداعة: كان شاب به رهق: أى نشاط فاحتضر ، فقالت له أمه يابنى توصى بشىء ؟ قال نعم خاتمى لاتسلبينيه فان فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمنى فلما دفن رؤى فى المنام فقال أخبروا أمى أن الكلمة قد نفعتنى وأن الله قد غفر لى رواه ابن أبى الدنيا فى الكتاب المذكور ، وقال المعتمر بن سليمان قال أبى لما حضرته الوفاة يامعتمر حدثنى بالرخص لعلى ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به رواه أبو نعيم فى الحلية وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكى يحسن ظنه بربه

فَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعالَى الْحَذَرَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَالْخَوْفَ مِنْ عِقَابِهِ، وَالاجْتِهَادَ فِي خِدْمَتِهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا أَصْلاً أَصِيلاً وَنُكْتَةً عَزِيزَةً يَغْلَطُ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْأُمْنِيَّةِ، أَنَّ الرَّجَاءَ يَكُونُ عَلَى أَصْلٍ، وَالتَّمَنِّي لَا يَكُونُ عَلَى أَصْلٍ؛ مِثَالُهُ: مَنْ زَرَعَ زَرْعًا وَاجْتَهَدَ وَجَمَعَ بَيْدَرًا ثُمَّ يَقُولُ أَرْجُو أَنْ يَحْصُلَ لِي مِنْهُ مِائَةُ قَفِيزٍ، فَذٰلِكَ مِنْهُ رَجَاءٌ، وَآخَرُ لَا يَزْرَعُ زَرْعًا، وَمَا يَعْمَلُ يَوْمًا عَمَلاً فَذَهَبَ وَنَامَ وَأَغْفَلَ سَنَتَهُ، فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ الْبَيَادِرِ يَقُولُ:

(اعلم أن من حسن الظن بالله تعالى الحذر) بالنصب اسم إن مؤخرا (من معصيته والخوف) بالنصب عطف على اسم إن (من عقابه والاجتهاد) بالنصب كما فى سابقه (فى خدمته) أى طاعة (واعلم أن هاهنا) أى فى باب الرجاء (أصلا أصيلا ونكتة عزيزة يغلط) بفتح اللام من باب طرب كما فى المختار (فيها الكثير من الناس وهو) أى الأصل الأصيل (أن الفرق بين الرجاء والأمنية) بضم الهمزة وسكون الميم وكسر النون وتشديد الياء مايتمنى ويقدر (أن الرجاء يكون على أصل والتمنى لايكون على أصل مثاله) أى ماذكر من الرجاء والتمنى (من زرع زرعا واجتهد) بتعهده وتربيته (وجمع بيلارا) أى موضعا يداس فيه الطعام (ثم يقول أرجو أن يحصل لى منه) أى من الزرع (مائة قفيز) قال العلامة الحضرى: مقدار القفيز من الأرض مائة وأربعة وأربعون ذراعا ومن الكيل وهو المراد هنا ثمانية مكاكيك والمكوك صاع كما فى الصبان . وفى السجاعى صاعان ونصف وفى الصحاح المكوك ثلاث كيلجات والكيلجة منا وسبعة أثمان منا والمنا كعصا أفصح من المن بالتشديد رطلان وتثنيته منوان وجمعه أمناء انتهى . فالقفيز مقدار مساحى وكيلى وقال العلامة عبد الحق فى سيراجه : القفيز المكيال ثمانية مكاكيك والمكاكيك جمع المكوك وهو مكيال يسع صاعا ونصفا أو نصف رطل إلى ثمان أواقى أو نصف الويبة والويبة اثنان وعشرون أو أربع وعشرون مدا بمد النبى صلى الله عليه وسلم أو ثلاث كيلجات والكيلجة منا وسبعة أثمان منا والمنا رطلان والرطل اثنتا عشرة أوقية والأوقية أستار وثلثا أستار والأستار أربعة مثاقيل ونصف والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوج والطسوج حبتان والحبة سدس ثمن درهم وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءا من درهم (فذلك) أى المذكور من الفعل والقول (منه) أى من الزارع (رجاء) إذ هو تعلق القلب بمرغوب فى حصوله فى المستقبل مع الأخذ فى أسباب الحصول ، فإن لم يأخذ فى الأسباب فهو طمع ولذا قال ابن الجوزى : إن مثل الراجى مع الإصرار على المعصية كمثل من رجا حصادا وما زرع أو ولدا وما نكح ، وأشار المصنف إلى ذلك بقوله (و) شخص (آخر لا يزرع زرعا وما يعمل يوما) من الأيام (عملا) من الأعمال (فذهب ونام وأغفل سنته فاذا جاء وقت البيادر يقول

أَرْجُو أَنْ يَحْصُلَ لِي مِنْهُ مِائَةُ قَفِيزٍ ، فَيُقَالُ لَهُ : مِنْ أَيْنَ لَكَ هٰذَا الرَّجَاءُ ؟ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ أُمْنِيَّةٌ بِلَا أَصْلٍ ، فَكَذٰلِكَ الْعَبْدُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَانْتَهَى عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى يَقُولُ : أَرْجُو أَنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ مِنِّي هٰذَا الْيَسِيرَ ، وَيُتِمَّ هٰذَا التَّقْصِيرَ ، وَيُعَظِّمَ هٰذَا الثَّوَابَ ، وَيَعْفُوَ عَنِ الزَّلَلِ ، وَأَحْسَنَ الظَّنَّ فَهٰذَا مِنْهُ رَجَاءٌ .

وَأَمَّا إِذَا غَفَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَتَرَكَ الطَّاعَاتِ وَارْتَكَبَ الْمَعَاصِيَ ، وَلَمْ يُبَالِ بِسَخَطِ اللهِ تَعَالَى وَلَا رِضَاهُ وَلَا وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَقُولُ : أَرْجُو مِنَ اللهِ الْجَنَّةَ ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ ، فَذٰلِكَ مِنْهُ أُمْنِيَّةٌ لَا حَاصِلَ تَحْتَهَا ، سَمَّاهَا رَجَاءً وَحُسْنَ ظَنٍّ ، وَذٰلِكَ مِنْهُ خَطَأٌ وَضَلَالٌ ، وَقَدْ نَظَمَ الْمَعْنَى الْقَائِلُ :

أرجو أن يحصل لى منه) أى من الزرع (مائة قفيز فيقال له) أى للقائل المذكور (من أين لك هذا الرجاء) وقد لا تزرع زرعا ولا تعمل عملا (وإنما ذلك) القول المذكور مع عدم أخذ الأسباب (أمنية بلا أصل فكذلك) أى مثل الزرع المذكور (العبد إذا اجتهد فى عبادة الله وانتهى عن معصية الله تعالى يقول أرجو أن يتقبل الله منى هذا اليسير) من العمل (و) أرجو أن (يتم) سبحانه وتعالى (هذا التقصير و) أن يعظم (هذا الثواب) أى ثواب العمل القليل (و) أن (يعفو عن الزلل) والخطايا (وأحسن) العبد (الظن فهذا) أى المذكور من الاجتهاد والقول (منه) أى من العبد (رجاء وأما إذا غفل) العبد (عن ذلك) أى الاجتهاد فى العبادة والانتهاء عن المعصية (وترك الطاعات وارتكب المعاصي ولم يبال بسخط الله تعالى) وغضبه (ولا رضاه ولا وعده) بالثواب (و) لا (وعيده) بالعقاب (ثم أخذ يقول أرجو من الله الجنة و) أرجو (النجاة من النار فذلك) القول الذى صدر (منه) أى من الغافل المذكور (أمنية لا حاصل تحتها سماها) أى الأمنية (رجاء وحسن ظن) بالله تعالى (وذلك) أى التسمية بما ذكر (منه) أي من الغافل (خطأ وضلال) ولذلك قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصى وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط فى أمل، وقيل الغرة بالله أن يعمل الرجل بمعصية الله ويتمنى مغفرته ورجاؤه كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية وإصلاح (وقد نظم) هذا (المعنى) المذكور (القائل) وهو عبد الله بن المبارك كما قاله ابن المدابغى من بحر البسيط :

ما بال دينك ترضى أن تدنسه   وثوبك الدهر مغسول من الدنس

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ

(ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس)

فى المختار: اليبس بفتحتين المكان رطبا ثم ييبس ، فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لامحالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لأنه باعث على العمل حاث عليه كالخوف واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء كما يتبادر إلى الأذهان بل هو رفيق له ، بل هو أى الخوف باعث آخر بطريق آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة لأن السبب الموجب للخوف هو بعينه سبب الرجاء لأن الصفات القديمة تعلقت بكل موجود فى الوجود ومتعلقاتها لا تنقضى سرمدا فهي التى يصدر عنها كل ما ساء وسر ونفع وضر فقد قهر وجبر وأعطى ومنع كل ذلك على أتم أنواع الكمال ، فمن عرف ذلك من صفاته تعالى خافه ورجاه ، وهذا هو الرجاء لذاته الذى يتوقع بحسنة ولا يندفع بسيئة إنما ينشأ من فضل الله الذى هو فضله لمن اختصه فى أزله من عباده كما أن الخوف ينشأ عن عدل الله الذى هو عدله لمن أبعده عن حضرته فى أزله ، وينتفع بهذا الرجاء من أخرجه خوف الذنوب والعيوب إلى اليأس والقنوط ، وينتفع بالخوف الذى يراد لذاته من أخرجه رؤية كثرة الأعمال إلى الإدلال والأمن والاغترار ، فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ؛ ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له عند الدعاء والسؤال ، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالي ؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى فليستأنف التوبة والاقبال على العمل بالجد والاجتهاد حتى تظهر عليه تلك الأحوال ، فهذا هو البيان المفصح لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه العمل ، ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل الطائى رضى الله عنه إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ؟ فقال كيف أصبحت ؟ قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شىء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه ، وإذا فاتنى منه شىء حزنت عليه وحننت إليه ؟ فقال هذه علامة الله فيمن يريد ، ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالى فى أى أوديتها هلكت » قال العراقى رواه الطبرانى فى الكبير من حديث بن مسعود ، فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة من

قُلْتُ : وَمِمَّا يُبَيِّنُ هٰذَا الْأَصْلَ مَا رَوَيْنَا عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلّم أَنَّهُ قالَ : « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنِ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمَانِيَّ » وَفِي ذٰلِكَ قالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : إِنَّ أَقْوَامًا أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا مَفَالِيسَ وَلَيْسَتْ لَهُمْ حَسَنَةٌ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : إِنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي ، كَذَبَ

أريد به الخير ، فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور فى وادى اللامات (قلت : ومما يبين هذا الأصل) فى الرجاء والتمنى (مارويناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الكيس) على وزن سيد : أى الظريف المتبصر فى الأمور الناظر فى العواقب (من دان نفسه) أى أذلها واستعبدها : يعنى جعل نفسه مطيعة منقادة لأوامر ربها (وعمل لما بعد الموت) من أنواع الطاعات قبل نزوله ليصير على نور من ربه فالموت عاقبة أمر الدنيا ، فالكيس من أبصر العاقبة (والعاجز) المقصر فى الأمور ، وفى رواية الأحمق ، وفى أخرى بلفظ الفاجر بالفاء (من أتبع نفسه هواها) أى ميلها فلم يكفها عن الشهوات ولم يمنعها عن مقارفة المنكرات فقوله نفسه مفعول أول وهواها مفعول ثان (وتمنى على الله عز وجل الأمانى) بتشديد الياء جمع أمنية : أى فهو مع تقصيره فى طاعة ربه واتباع شهوات نفسه لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنى على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والإستغفار . قال الطيبى : قوبل الكيس بالعاجز والمقابل الحقيقى للكيس إلسفيه الرأى ، وللعاجز القادر إيذانا بأن الكيس هو القادر وأن العاجز هو السفيه . قال العراقي : رواه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس انتهى. وقال الزبيدى : وكذلك رواه أحمد والحاكم فى الايمان والعسكرى والقضاعى كلهم من حديث ابن المبارك عن أبى بكر بن أبى مريم الغسانى عن ضمرة بن حبيب عن شداد . قال الحاكم صحيح على شرط البخارى . قال الذهبي : لا والله أبو بكر واه انتهى . وقال ابن طاهر : مدار الحديث عليه وهو ضعيف جدا . قال العسكرى : هذا الحديث فيه رد على المرجئة وإثبات للوعيد . وقال سعيد بن جبير : الاغترار بالله المقام على الذنب ورجاء المغفرة (وفى ذلك) أى فى تمنى العاجز (قال الحسن البصرى) بفتح الباء وكسرها التابعى الأنصارى (رحمه الله) أدرك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وثلاثين . وروى عنه قال: غزونا غزوة إلى خراسان معنا فيها ثلثمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرجل منهم يصلي بنا ويقرأ الآيات من السورة ثم يركع ومناقبه كثيرة مشهورة توفى سنة عشر ومائة (أن أقواما ألهتهم) أى شغلتهم عن الأعمال (أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس وليست لهم حسنة) واحدة (فيقول أحدهم) قبل خروجهم من الدنيا (إنى أحسن الظن بربى) قال الحسن (كذب) القائل بذلك

لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً) الآيَة (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وَعَنْ جَعْفَرٍ الضُّبُعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ أَبَا مَيْسَرَةَ الْعَابِدَ وَقَدْ بَدَتْ أَضْلَاعُهُ مِنَ الْاجْتِهَادِ ، قُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللهُ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَاسِعَةٌ ، فَغَضِبَ وَقَالَ : هَلْ رَأَيْتَ مِنِّي مَا يَدُلُّ

لأنه (لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له) جل وعز (ثم تلا) الحسن (قوله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه) أى يخاف المصير إليه ، وقيل يؤمل رؤية ربه (فليعمل عملا صالحا ») أى من حصل له رجاء لقاء الله تعالى والمصير إليه فليستعمل نفسه فى العمل الصالح . قال النسفى : عملا صالحا : أى خالصا لا يريد به إلا وجه ربه ولا يخلط به غيره ، وعن يحي بن معاذ هو مالايستحى منه (الآية) أى ولا يشرك بعبادة ربه أحدا : أى ولا يرائى بعمله ، ولما كان العمل الصالح قد يراد به وجه الله سبحانه وتعالى ، وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان : أحدهما أن يراد به سبحانه وتعالى . والثانى أن يكون مبرأ من جهات الشرك جميعها . روى الشيخان عن جندب ابن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سمع سمع الله به ومن يرائى يرائى الله به » يعنى من عمل عملا مراءاة للناس يشتهر بذلك شهره الله يوم القيامة ، وقيل سمع الله به : أى أسمعه المكروه . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه ، ولغير مسلم فأنا منه برئ هو والذى عمله » وعن سعيد بن أبى فضالة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا جمع الناس ليوم لاريب فيه نادى مناد من كان يشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه منه فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » أخرجه الترمذى . وقال حديث غريب (وذلكم) أى ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (ظنكم) أى قولكم بالظن (الذى ظننتم بربكم) وقلتم على ربكم بالكذب . قال سفيان الثورى : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله ذنبه ، قال لأن الله عير وعاب قوما فقال تعالى «وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم »(أرداكم) أى أهلككم قال ابن عباس طرحكم فى النار (فأصبحتم) صرتم (من الخاسرين) أى من المغبونين بالعقوبة . قال النسفى ، وذلكم مبتدأ وظنكم خبر ، والذى ظننتم بربكم صفته ، وأرداكم خبر ثان أو ظنكم بدل من ذلكم ، وأرداكم الخبر (وعن جعفر الضبعى) بالضم والفتح (رحمه الله أنه قال : رأيت أبا ميسرة العابد) رحمه الله (وقد بدت) أى ظهرت (أضلاعه) جمع ضلع بكسر الضاد . وأما اللام فتفتح فى لغة الحجاز وتسكن في لغة تميم ، وهى عظام الجنبين (من الاجتهاد) فى العبادة (قلت : يرحمك الله إن رحمة الله واسعة ، فغضب) أبو ميسرة (وقال هل رأيت منى ما يدل

عَلَى الْقُنُوطِ ؟ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قالَ جَعْفَرٌ فَأَبْكَانِى قَوْلُهُ . فَإِذَا كَانَ كُلُّ الرُّسُلِ وَالأَبْدَالِ وَالْأَوْلِيَاءِ مَعَ كُلِّ هٰذَا الاجْتِهَادِ فِى الطَّاعَةِ وَالْحَذَرِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ مُرْتَبِطِينَ فَأَيْشُ تَقُولُ ، أَمَا كَانَ لَهُمْ حُسْنُ ظَنٍّ بِاللهِ ؟ بَلَى فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَأَحْسَنَ ظَنًّا بِجُودِهِ ، وَلٰكِنْ عَلِمُوا أَنَّ ذٰلِكَ دُونَ الاجْتِهَادِ أُمْنِيَةٌ وَغُرُورٌ ، فَاعْتَبِرْ بِهٰذِهِ النُّكْتَةِ وَتَأَمَّلْ حَالَهُمْ وَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَتِكَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

على القنوط) واليأس من رحمة الله (إن رحمة الله) أصل الرحمة : رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، وتستعمل تارة فى الرقة المجردة عن الإحسان ، وتارة الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها البارى جل وعز فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة ، فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والإنعام على عباده وإيصال الخير لهم ، وقيل هى إرادة إيصال الخير والنعمة إلى عباده ، فعلى القول الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال ؛ وعلى القول الثانى تكون من صفات الذات (قريب من المحسنين) أى من المؤمنين المحسنين بالقول والفعل .

قال سعيد بن جبير : الرحمة هاهنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ . وقيل إن تأنيث الرحمة ليس بحقيق ، وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وكون الرحمة قريبة من المحسنين . لأن الإنسان فى كل ساعة من الساعات فى إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة ، وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التى هى الثواب في الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان كذا ذكره الخازن (قال جعفر فأبكاني قوله) أى قول أبى ميسرة ذلك (فاذا كان كل الرسل) والأنبياء عليهم الصلاة والسلام (والأبدال والأولياء) رضوان الله عليهم (مع كل هذا الاجتهاد فى الطاعة والحذر عن المعصية مرتبطين) أى ملازمين لذلك (فأيش) تحريف أى شىء (تقول أما كان لهم) أى لهؤلاء الرسل والأنبياء والأبدال والأولياء (حسن ظن بالله بلى) كان لهم ذلك (فانهم كانوا أعلم) منك (بسعة رحمته) تعالى (وأحسن ظنا بجوده) وكرمه (منك ولكن علموا) أى هؤلاء المذكورون (أن ذلك) أى حسن الظن بالله (دون الاجتهاد) فى الطاعة (أمنة وغرور . فاعتبر بهذه النكتة) التى ذكرناها (وتأمل حالهم) أى هؤلاء (وانتبه) أى استيقظ (من رقدتك) أى نومتك : يعنى غفلتك (والله تعالى ولى التوفيق) والعصمة .

﴿فصل﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا تَذَكَّرْتَ سَعَةَ رَحْمَةِ اللهِ تعالى الَّتِي سَبَقَتْ غَضَبَهُ وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِنْ كُنْتَ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى اللهِ تعالى ، ثُمَّ غَايَةُ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ ، وَكَمَالَ جُودِهِ الْكَرِيمِ ، وَجَعَلَ عُنْوَانَ كِتَابِهِ إِلَيْكَ : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

فصــــل

(وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا تذكرت سعة رحمة الله تعالى التى سبقت غضبه) كما ورد فى الخبر وهو « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » رواه البخارى ، وفى صحيح مسلم « كتب فى كتابه على نفسه : إن رحمتى تغلب غضبى » . وروى الدار قطنى بلفظ لما « خلق الله الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتى تغلب غضبى » وفى المقاصد للسخاوى « إن رحمتى تغلب غضبى » متفق عليه من حديث المغيرة بن عبد الرحمن الحرابي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه قال : « لما قضى » ولفظ آخر لمسلم : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى » ولفظ مسلم « تغلب غضبى » وهو عند البخارى فقط من حديث مالك عن أبى الزناد بلفظ « إن رحمتى سبقت غضبى » وعند مسلم من حديث ابن عيينة عن أبى الزناد بلفظ « قال الله : سبقت رحمتى غضبي » وممن رواه عن أبى هريرة أبو صالح وعطاء ابن مينا (ووسعت) رحمته تعالى (كل شيء) كما قال جل من قائل « ورحمتي وسعت كل شيء » يعنى أن رحمته تعالى عمت خلقه كلهم . وقال بعضهم هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر فى الدنيا ؛ وهى للمؤمنين خاصة فى الآخرة . وقيل هى للمؤمنين خاصة فى الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله له فاذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة (ثم) تذكرت (إن) مخففة من الثقيلة : أى أنك (كنت من هذه الأمة المرحومة الكريمة على الله تعالى) أى عنده (ثم) تذكرت (غاية فضله العظيم وكمال جوده الكريم وجعل عنوان) أى ابتداء (كتابه) العزيز (إليك : بسم الله الرحمن الرحيم) وقد وردت فى فضيلتها أخبار وآثار . روى عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال : لما نزل بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق وسكنت الرياح وهاج البحر وأصغت البهائم بآذانها ورجمت الشياطين من السماء وحلف الله عز وجل بعزته لا يسمى اسمه على سقم إلا شفاه ولا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه » ومن قرأ بسم الله الرحمن الرحيم دخل الجنة ذكره سيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى . وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول بسم الله الرحمن الرحيم إلا ذاب الشيطان كما يذوب الرصاص على النار » ذكره السيوطى فى اللباب . وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول بسم الله الرحمن الرحيم إلا أمر الله تعالى الكرام الكاتبين أن يكتبوا فى ديوانه أربعمائة حسنة » ذكره أيضا

ثُمَّ كَثْرَةَ أَيَادِيهِ

في اللباب . وذكر أن بشرا الحافى رأى رقعة فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » وكان معه ثلاثة دراهم فأخذ بها طيبا وطيبها فنودى فى سره كما طيبت اسمنا لنطيبن اسمك . وقال صلى الله عليه وسلم « من كتب بسم الله لجود تعظيما لله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمد الرحمن » أى حروفه بأن يمد اللام والميم ويجوف النون ويتأنق : أى يحسن فى ذلك رواه الخطيب والديلمى عن أنس بن مالك . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وتعالي زين السماء بالكواكب وزين الملائكة بجبريل وزين الأيام بيوم الجمعة وزين الليالى بليلة القدر وزين الشهور بشهر رمضان وزين المساجد بالكعبة وزين الجنة بالحور والقصور وزين الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وزين الكتب بالقرآن وزين القرآن بسم الله الرحمن الرحيم » . وقال صلى الله عليه وسلم « من قال بسم الله الرحمن الرحيم كتب اسمه من الأبرار وبرىء من الكفر والنفاق » كذا فى اللباب . وعن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال « من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسع عشرة فليقل بسم الله الرحمن الرحيم فانها تسعة عشر حرفا ليجعل الله تعالى كل حرف منها جنة : أى سترة ووقاية من واحد منهم » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قمتم : أى من المجلس أى مجلس كان فقولوا بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم فان الناس إذا اغتابوكم يمنعهم الملك عن ذلك » . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا جلستم مجلسا فقولوا بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، فان من فعل ذلك وكل الله به ملكا يمنعهم من الغيبة حتى لا يغتابوكم » ذكره السيوطى فى لبابه ، وقد نظم بعض أهل العلم رضى الله عنه المسائل التي تسن التسمية فيها ، فقال من بحر الطويل :

وتسمية الرحمن جل جلاله	لنا شرعت فاحرص عليها وأوصل
كذى الأكل والشرب اللذين تجملا	وغسل بها حال الطهور لغاسل
وعند ركوب جاز فى الشرع فعله	على البر أو فى البحر ثم لداخل
إلى مسجد أو بيته وللبسه	ونزع وإغلاق لباب المنازل
وإطفاء مصباح ووطء حليلة	له وصعود منبر خير حامل
وتغميض ميت ثم فى اللحد جعله	خروج من المرحاض ثم لداخل
وعند ابتداء للطواف بكعبة	لها شرف الرحمن تشريف عادل
وعند وضوء ثم عند تيمم	ونحر فواظب كالحبيب المواصل
وبعد صلاة الله ثم سلامه	على المصطفى المختار خير الأفاضل

ولنرجع إلى شرح كلام المصنف قال رحمه الله تعالى (ثم) نذكرت (كثرة أياديه) أى نعمه تعالى

إِلَيْكَ وَنِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، مِنْ غَيْرِ شَفِيعٍ أَوْ قَدَمٍ سَابِقَةٍ لَكَ ، وَتَذَكَّرْتَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ كَمَالَ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَعِظَمَ سُلْطَانِهِ وَهَيْبَتَهُ ، ثُمَّ شِدَّةَ غَضَبِهِ الَّذِى لَا تَقُومُ لَهُ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ، ثُمَّ غَايَةَ غَفْلَتِكَ وَكَثْرَةَ ذُنُوبِكَ وَجَفَوَاتِكَ مَعَ دِقَّةِ أَمْرِهِ وَخَطَرِ مُعَامَلَتِهِ فِى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ بِالْعُيُوبِ وَالْغُيُوبِ ، ثُمَّ حُسْنَ وَعْدِهِ وَثَوَابِهِ الَّذِى لَا يَبْلُغُ كُنْهَهُ الْأَوْهَامُ وَشِدَّةَ وَعِيدِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ الَّذِى لَا يَحْتَمِلُ ذِكْرَهُ الْقُلُوبُ ، تَارَةً تَنْظُرُ إِلَى فَضْلِهِ ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلَى عَذَابِهِ ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلَى رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَتَارَةً تَنْظُرُ إِلَى نَفْسِكَ فِى جَفَوَاتِهَا وَجِنَايَاتِهَا ، فَإِذَا فَعَلْتَ أَدَّى بِكَ جَمِيعُ ذٰلِكَ إِلَى الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَكُنْتَ قَدْ سَلَكْتَ السَّبِيلَ الشَّارِعَ الْقَصْدَ وَعَدَلْتَ عَنِ الْجَانِبَيْنِ الْمُهْلِكَيْنِ : الْأَمْنُ ، وَالْيَأْسُ ؛ وَلَا تَتِيهُ فِيهِمَا مَعَ التَّائِهِينَ

(إليك ونعمته عليك ظاهرة) كتناسب الأعضاء (وباطنة) كالعلم وغيره (من غير شفيع أو قدم سابقة لك وتذكرت) معطوف على قوله تذكرت سعة رحمة الله تعالى (من جانب آخر كمال جلاله) تعالى (وعظمته وعظم سلطانه وهيبته ثم) تذكرت (شدة غضبه) سبحانه وتعالى (الذى لاتقوم له) أى لغضبه (السموات والأرض ثم) تذكرت (غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وجفوتك) أى قسوتك (مع دقة أمره وخطر معاملته فى إحاطة علمه وبصره) جل وعز (بالعيوب والغيوب) وبين هذين اللفظين جناس المصحف وبعضهم يسميه جناس الخط ، وهو اختلاف الحروف فى النقط كما فى حديث الطبرانى «إذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن الله فى هلاكها» وقول على رضى الله عنه : قصر ثوبك فانه أتقى وأنقى وأبقى ، وهو فى نوع أو نوعين مختلفين ليس هذا محل بسطه (ثم) تذكرت (حسن وعده) الكريم (وثوابه) العظيم (الذى لا يبلغ كنهه) أى حقيقته (الأوهام و) تذكرت (شدة وعيده وأليم عقابه الذى لا يحتمل ذكره) أى أليم العقاب (القلوب) أصلا (تارة تنظر) جواب إذا تذكرت كما أفاده العلامة عبد الحق (إلى فضله) تعالى وكمال جوده (وتارة تنظر إلى عذابه وتارة تنظر إلى رأفته ورحمته وتارة تنظر إلى نفسك) الأمارة بالسوء (فى جفواتها وجناياتها) أى النفس (فإذا فعلت) النظر إلى ما ذكر (أدي بك جميع ذلك) أى ما فعلته من النظر إلى ذلك المذكور (الخوف والرجاء وكنت قد سلكت السبيل الشارع) أى الطريق الأعظم (القصد) أى الوسط (وعدلت عن الجانبين المهلكين) وهما (الأمن) من مكر الله (واليأس) من رحمته (ولا تتيه) أى لا تتحير (فيهما) أى فى المهلكين (مع التائهين) أى

وَلاَ تَهْلِكُ مَعَ الْهَالِكِينَ ، وَشَرِبْتَ الشَّرَابَ الْمَمْزُوجَ الْعَدْلَ ، فَلاَ تَهْلِكُ بِبُرُودَةِ الرَّجَاءِ الصِّرْفِ ، وَلاَ بِحَرَارَةِ الْخَوْفِ الصِّرْفِ ، وَكَأَنِّي بِكَ قَدْ وَصَلْتَ إِلَى الْمَقْصُودِ غَانِماً وَشُفِيتَ مِنَ الْعِلَّتَيْنِ سَالِماً ، وَوَجَدْتَ النَّفْسَ قَدِ انْبَعَثَتْ لِلطَّاعَةِ ، وَدَانَتْ فِي الْخِدْمَةِ لَيْلاً وَنَهَاراً مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ وَلاَ غَفْلَةٍ ، وَاجْتَنَبَتِ الْمَعَاصِيَ وَالْمَخَازِيَ وَهَجَرَتْهَا بِمَرَّةٍ .

كَمَا قَالَ نَوْفُ الْبِكَالِيُّ : إِنَّ نَوْفاً إِذَا ذَكَرَ الْجَنَّةَ طَالَ شَوْقُهُ ، وَإِذَا ذَكَرَ النَّارَ طَارَ نَوْمُهُ ، وَصِرْتَ حِينَئِذٍ مِنَ الْأَصْفِيَاءِ الْخَوَاصِّ الْعَابِدِينَ ، الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْخَطِيرَةَ وَرَاءَكَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى

المتحيرين (ولا تهلك مع الهالكين وشربت الشراب الممزوج) أى المخلوط (العدل فلا تهلك ببرودة الرجاء الصرف) أى الخالص (ولا بحرارة الخوف الصرف وكأنى بك) أى أظن بك (قد وصلت إلى المقصود غانما) ورابحا (وشفيت من العلتين) الأمن واليأس (سالما ووجدت النفس قد انبعثت) وقامت (للطاعة ودانت) أى أطاعت (فى الخدمة) أى العبادة لربها (ليلا ونهارا من غير فترة) أى انكسار وضعف (ولا غفلة واجتنبت) النفس (المعاصى والمخازى وهجرتها) أى تركها (بمرة كما قال نوف البكالى) بالكسر والتخفيف ولام نسبة إلى بنى بكال ككتاب بطن من حمير وهو نوف بن فضالة الشامي التابعى إمام أهل دمشق مات فى الغزو شهيدا بعد التسعين رحمه الله تعالى وهو ابن امرأة كعب الأحبار (إن نوفا) يعنى نفسه (إذا ذكر الجنة) وما فيها من النعيم المقيم (طال شوقه) إلى ذلك (وإذا ذكر النار) وما فيها من الأغلال والسلاسل وأنواع العذاب الأليم (طار نومه) عن عينيه (وصرت حينئذ) أى حين إذ فعلت الخوف والرجاء وسلكت الطريق العدل بينهما (من الأصفياء الخواص العابدين) وهم (الذين وصفهم الله تعالى بقوله) جل من قائل (إنهم) يعنى الأنبياء وقيل زكريا وأهل بيته (كانوا يسارعون فى الخيرات) يبادرون إلى الطاعات والمسارعة فى الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء لأنها تدل على حرص عظيم فى طاعة الله عز وجل (ويدعوننا رغبا ورهبا) يعني أنهم ضموا إلى فعل الطاعة أمرين : أحدهما الفزع إلى الله لمكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه والثانى الخشوع وهو قوله تعالى (وكانوا لنا خاشعين) متواضعين خائفين . قال العلامة الخازن : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب فيكون الخاشع هو الحذر الذى لا ينبسط فى الأمور خوفا من الوقوع فى الإثم (وكنت قد خلفت هذه العقبة) الخامسة التى هى عقبة البواعث (الخطيرة) أى العظيمة (وراءك) أى خلفك (بإذن الله تعالى)

وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، فَكَمْ لَكَ مِنْ حَلاَوَةٍ وَصَفْوَةٍ فِى الدُّنْيَا ، وَكَمْ لَكَ مِنْ ذُخْرٍ كَرِيمٍ وَأَجْرٍ عَظِيمٍ فِى الْعُقْبَى ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَسْئُولٌ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَأَجْوَدُ الأَجْوَدِينَ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ .

﴿ البابُ السَّادسِ : فى العقبة السَّادسة ، وهى عقبة القوادح ﴾

ثُمَّ عَلَيْكَ يَا أَخِى أَيَّدَكَ اللهُ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، بَعْدَ مَا اسْتَبَانَ لَكَ السَّبِيلُ ، وَاسْتَقَامَ لَكَ الْمَسِيرُ ، بِتَمْيِيزِ سَعْيِكَ وَصِيَانَتِهِ عَمَّا يُفْسِدُهُ وَيُضَيِّعُهُ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا لَزِمَكَ ذٰلِكَ بِإِقَامَةِ الإِخْلاَصِ وَذِكْرِ الْمِنَّةِ ، وَالاجْتِنَابِ عَنْ ضِدِّهِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِمَا فِى فِعْلِهِ مِنَ الْفَائِدَةِ ، وَهِىَ حُسْنُ الْقَبُولِ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَفَوْزُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ ، وَإِلاَّ فَتَكُونُ مَرْدُودًا ذَاهِبَ الثَّوَابِ كُلاًّ أَوْ بَعْضًا ، عَلَى مَا رُوِىَ فِى الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ عَنِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً فَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِى فَنَصِيبِى لَهُ » ،

وإرادته (وحسن توفيقه فكم لك من حلاوة وصفوة فى الدنيا وكم لك من ذخر كريم وأجر عظيم فى العقبى؟) أى فى الآخرة (والله سبحانه وتعالى مسئول أن يمدك) أى يعينك (وإيانا بحسن توفيقه وتسديده) أى تصويبه . فى المختار : التسديد التوفيق للسداد بالفتح وهو الصواب والقصد من القول والعمل (إنه أرحم الراحمين وأجود الأجودين ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم) والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب السادس : فى العقبة السادسة ، وهى عقبة القوادح

أى ما يقدح الأعمال ويعيبها (ثم عليك) أى الزم (يا أخى) فى الدين (أيدك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد ما استبان) أى تبين وظهر (لك السبيل) أى طريق الصواب (واستقام لك المسير) أى السير إلى الله تعالى (بتمييز سعيك) أى عملك وصيانته عما يفسده و) ما (يضيعه عليك وإنما لزمك ذلك) أى ما ذكر من التميز والصيانة (بإقامة الإخلاص وذكر المنة والاحتناب عن ضده أى الإخلاص وهو الرياء (لأمرين : أحدهما لما فعله) أى فى فعل الإخلاص (من الفائدة وهى حسن القبول من الله تعالى وفوز الثواب عليه) أى الإخلاص (وإلا) أى وإن لم تفعل بالإخلاص (فتكون مردودا) ذاهب الثواب كلا أو بعضا على ما روى فى الحديث المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله سبحانه وتعالى يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملا فأشرك فيه) أى فى عمله (غيرى فنصيبي له ») أى لغيرى ، ومعناه أنا أغنى عن المشاركة وغيرها فمن

فَإِنِّي لاَ أَقْبَلُ إِلاَّ مَا كَانَ لِي خَالِصًا » .

وَقِيلَ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِعَبْدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا الْتَمَسَ ثَوَابَ عَمَلِهِ : « أَلَمْ يُوَسَّعْ لَكَ فِي الْمَجَالِسِ؟ أَلَمْ تَكُنِ الْمَرْآسَ فِي الدُّنْيَا ؟ أَلَمْ يَرْخُصْ بَيْعُكَ وَشِرَاؤُكَ ؟ أَلَمْ تُكَرَّمْ ؟ هٰذَا وَأَشْبَاهُهُ مِنَ الْخَطَرِ وَالضَّرَرِ .

عمل شيئا لى ولغيرى لم أقبله بل أتركه لذلك الغير والمراد أن عمل المرائى باطل لاثواب فيه ويأثم كما نقله العزيزى عن النووى (فإنى لا أقبل إلا ما كان لى خالصا) قال العراقى رواه مالك فى الموطأ بلفظ « فهو له كله » قال الزبيدى : وروى نحوه من حديث الضحاك بن قيس إن الله تعالى يقول « أنا خير شريك فمن أشرك معى شيئا فهو لشريكى » رواه الدارقطني وابن عساكر والضياء ، ورواه الخطيب فى المتفق والمفترق بزيادة « يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله فان الله لا يقبل من الأعمال إلا ماخلص له» وروى من حديث شداد بن أوس بلفظ «إن الله عز وجل يقول: أناخير قسيم لمن أشرك بى ، من أشرك بى شيئا فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به بى أنا عنه غنى » رواه الطيالسى وأحمد وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية وإسناده ضعيف . وروى مسلم وابن خزيمة من حديث أبى هريرة بلفظ «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك» . قال الفقيه نصر بن محمد السمرقندى : ففي هذا الخبر دليل على أن الله تعالى لايقبل من العمل شيئا إلا ما كان خالصا لوجهه فاذا لم يكن خالصا فلا يقبل منه ولاثواب له فى الآخرة ومصيره إلى جهنم (وقيل) أى قال عبد الله بن حنيف الأنطاكى كما ذكره أبو الليث (إن الله تعالى يقول لعبده يوم القيامة إذا التمس) أى طلب العبد (ثواب عمله ألم يوسع لك فى المجالس) يوم حياتك فى الدنيا (ألم تكن المرآس) أى الذى يرأس فى تقدمه وسبقه (فى الدنيا ألم يرخص بيعك وشراؤك ألم تكرم) وألم تعظم (هذا) أى افهم هذا الذى ذكرناه (وأشباهه) أى أمثاله (من الخطر والضرر) كما روى عن عبد الله بن سلام « يقول الله للعبد يوم القيامة ألم تدعنى لمرض كذا وكذا فعافيتك ، ألم تدعنى أن أزوجك كريمة قومها فزوجتك ، ألم ألم » ورواه كذلك أبو الشيخ، وروى البيهقى فى البعث بلفظ «يقول الله لعبده يوم القيامة: يا ابن آدم ألم أحملك على الخيل والإبل وأزوجك النساء وأجعلك تربع وترأس ؟ فيقول بلى أى رب ، فيقول أين شكر ذلك ؟ » وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « إنهم قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب ؟ قالوا لا قال فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا لا . قال فو الذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول العبد بلى . فيقول أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا . فيقول

قلتُ : وَمِنْ خطرِ الرِّيَاءِ فَضِيحَتَانِ وَمُصِيبَتَانِ ؛ أَمَّا الْفَضِيحَتَانِ : فَإِحْدَاهُمَا فَضِيحَةُ السِّرِّ ، وَهِيَ اللَّوْمُ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَائِكَةِ ، وَذَلِكَ لِمَا رُوِيَ « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجِينَ بِهِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : رُدُّوهُ إِلَى سِجِّينٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهِ » ، فَيَفْتَضِحُ ذَلِكَ الْعَمَلُ وَالْعَبْدُ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَالثَّانِيَةُ : فَضِيحَةُ الْعَلَانِيَةِ وَهِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ،

فإنى أنساك كما نسيتنى » (قلت : ومن خطر الرياء فضيحتان ومصيبتان : أما الفضيحتان فإحداهما فضيحة السر وهى اللوم) ، والتعيير (على رءوس الملائكة ، وذلك) أى اللوم على رءوسهم (لما روى « إن الملائكة تصعد) بفتح العين من باب تعب (بعمل العبد مبتهجين) أى حال كونهم فرحين (به) أى بذلك العمل (فيقول الله تعالى) لهؤلاء الحفظة (ردوه إلى سجين) وهى دركة من دركات جهنم . قال مجاهد : هى تحت الأرض السفلى فيها أرواح الكفار وأعمالهم أعمال السوء (فإنه) أى العبد (لم يردنى به) أى بعمله . قال العراقى : رواه ابن المبارك فى الزهد ، ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى الاخلاص ، وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من رواية ضمرة بن حبيب مرسلا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات انتهى . قال الزبيدى رواه ابن المبارك عن أبى بكر ابن أبى مريم عن ضمرة بن أبى حبيب قال : قال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة يرفعون عمل عبد من عباد الله فيستكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به إلى حيث يشاء الله من سلطانه ، فيوحى الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدى وأنا رقيب على مافى نفسه إن عبدى هذا لم يخلص لى عمله فاكتبوه فى سجين ، ويصعدون بعمل عبد فيستقلونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه ، فيوحى الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدى وأنا رقيب على مافى نفسه إن عبدى هذا قد أخلص لى عمله فاكتبوه فى عليين » . وأخرج ابن مردويه فى التفسير من حديث جابر بن عبد الله قال : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الملك يرفع العمل للعبد يرى أن فى يديه منه سرورا حتى ينتهى إلى الميقات الذى وضعه الله فيضع العمل فيه ، فيناديه الجبار من فوقه ارم بما معك فى سجين ، فيقول الملك ما رجعت إليك إلا حقا ، فيقول صدقت ارم بما معك فى سجين » . وأخرج البزار والبيهقى من حديث أنس رفعه قال « تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة فى صحف مختمة ، فيقول الله عز وجل ألقوا هذا واقبلوا هذا ، وتقول الملائكة يارب والله ما رأيناه إلا خيرا ، فيقول إن عمله كان لغير وجهى ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى » . قال المصنف رحمه الله (فيفتضح ذلك العمل والعبد عند الملائكة . والثانية) من الفضيحتين (فضيحة العلانية ، وهى يوم القيامة على رءوس الخلائق) وذلك

رُوِىَ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « إِنَّ الْمُرَائِىَ يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ : يَا كَافِرُ، يَافَاجِرُ، يَاغَادِرُ، يَاخَاسِرُ، ضَلَّ سَعْيُكَ، وَبَطَلَ أَجْرُكَ، فَلَاخَلَاقَ لَكَ، الْيَوْمَ الْتَمِسِ الْأَجْرَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ يَا مُخَادِعُ » وَرُوِى « إِنَّهُ يُنَادِى مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ النَّاسَ ؟ قُومُوا خُذُوا أُجُورَكُمْ مِمَّنْ عَمِلْتُمْ لَهُ ، فَإِنِّى لَا أَقْبَلُ عَمَلًا خَالَطَهُ شَيْءٌ »

لما (روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء يا كافر يا فاجر يا غادر) الغدر ترك الوفاء (ياخاسر ضل سعيك) أى عملك (وبطل أجرك فلا خلاق) أى نصيب (لك اليوم التمس الأجر) أى اطلبه (ممن كنت تعمل له) أى لأجله (يا مخادع) قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا من رواية جبلة اليحصبى عن صحابى لم يسم وإسناده ضعيف . قال الزبيدى : هو فى الحديث الطويل الذى أورده أبو الليث السمرقندى باسناده إلى جبلة اليحصبى قال : كنا فى غزوة مع عبد الملك بن مروان فصحبنا رجل مسهار لاينام من الليل إلا أقله فمكثنا أياما لا نعرفه ثم عرفناه ، فإذا هو رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما حدثنا « إن قائلا من المسلمين قال : يارسول الله فيم النجاة غدا ؟ قال : أن لاتخادع الله . قال وكيف نخادع الله ؟ قال أن تعمل بما أمرك الله وتريد به غير وجه الله ، واتقوا الرياء فإنه الشرك بالله ، وإن المرائى ينادى يوم القيامة على رءوس الخلائق بأربعة أسماء يا كافر يافاجر ياغادر ياخاسر ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع ، قال فقلت له بالله الذى لا إله إلا هو أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال والله الذى لا إله إلا هو إنى لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أكون أخطأت شيئا لم أكن أتعمده ، ثم قرأ « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » (وروى « إنه ينادى مناد يوم القيامة يسمع الخلائق : أين الذين كانوا يعبدون الناس) وغيرهم من الأصنام والكواكب والشيطان (قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فإنى لاأقبل عملا خالطه شىء ») قال الشعرانى : روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يجمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين ، فيقول ألا ليتبع كل إنسان ماكان يعبد فيتمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون » وذكر الحديث بطوله ، وفى رواية لمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل إذا جمع الناس يوم القيامة من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، ومن كان يعبد المسيح شيطان المسيح ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فى صورة غير صورته

وَأَمَّا الْمصيبتَانِ فَإِحْدَاهُمَا : فَوْتُ الْجَنَّةِ ، وَذَلِكَ مَارُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ : « إِنَّ الْجَنَّةَ تَكَلَّمَتْ وَقالَتْ : أَنَا حَرَامٌ عَلَى كُلِّ بَخِيلٍ وَمُرَاءٍ » وَالْخَبَرُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا : أَنَّ هٰذَا الْبَخِيلَ مَنْ يَبْخَلُ بِأَحْسَنِ قَوْلٍ ، وَهُوَ قَوْلُ : لَاَ إِلٰهَ إِلَّاَ اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ؛ وَهٰذَا الْمُرَائِى مَنْ يُرَائِى بِأَقْبَحِ رِيَاءٍ ، وَهُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِى يُرَائِى بِإِيمَانِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَفِى هٰذَا الْقَوْلِ تَرْجِيَةٌ . وَالْمَعْنَى الثَّانِى : أَنَّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْبُخْلِ وَالرِّيَاءِ وَلَمْ يُرَاعِ نَفْسَهُ فَفِيهِ خَطَرَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَلْحَقَهُ شُؤْمُ ذٰلِكَ فَيَقَعَ فِى الْكُفْرِ فَتَفُوتَه الْجَنَّةُ رَأْسًا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ ؛ وَالْآخَرُ سَلْبُ الْإِيمَانِ الَّذِى يَسْتَحِقُّ بِهِ النَّارَ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُخْطِهِ وَشَدِيدِ غَضَبِهِ .

وَالْمصيبَةُ الثَّانِيَةُ : دُخُولُ النَّارِ ، وَذٰلِكَ

التى يعرفون فيقول أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم فى صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجوز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان ؟ قالوا نعم يا رسول الله . قال فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ، ومنهم المجازى وينجو » قال الامام القرطبى رحمه الله : وقوله وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها : الأشبه أن يكون المراد بالمنافقين هنا المرائين بأعمالهم بقرينة الرواية الأخرى وهى قوله « فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ، ولا يبقى إلا من كان يسجد رياء واتقاء فيجعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه » الحديث (وأما المصيبتان : فإحداهما فوت الجنة ، وذلك ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الجنة تكلمت وقالت: أنا حرام على كل بخيل ومراء ») قال المصنف فى تأويل هذا الخبر (والخبر يحتمل معنيين : أحدهما أن هذا البخيل من يبخل بأحسن قول ، وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . و) أن (هـذا المرائى من يرائى بأقبح رياء وهو المنافق الذى يرائى بإيمانه وتوحيده ، وفى هذا القول) الأول (ترجية . والمعنى الثانى أن من لم ينته عن البخل والرياء ولم يراع) أى لم يحفظ (نفسه) عنهما (ففيه) أى فيمن لم يراع ذلك (خطران أحدهما أن يلحقه شؤم ذلك) أى البخل والرياء (فيقع فى الكفر فتفوته الجنة رأسا والعياذ بالله) من ذلك (و) الخطر (الآخر سلب الإيمان الذى يستحق به) أى بسبب السلب (النار نعوذ بالله من سخطه وشديد غضبه . والمصيبة الثانية) من المصيبتين المذكورتين (دخول النار وذلك

لِما رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلم أَنَّهُ قالَ: « أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيامَةِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ ، وَرَجُلٌ قَدْ قاتَلَ فى سَبِيلِ اللهِ ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعالَى لِلْقارِئِ : أَلَمْ أُعَلِّمْكَ ما أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِى ؟ فَيَقُولُ : بَلَى يا رَبِّ ، فَيَقُولُ مَاذا عَمِلْتَ فِيما عَلِمْتَ؟ فَيَقُولُ يارَبِّ قُمْتُ بِهِ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرافَ النَّهارِ ، فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ المَلائِكَةُ كَذَبْتَ ، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ قارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ ، وَيُؤْتَى بِصاحِبِ المَالِ فَيَقُولُ : أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتاجُ إِلَى أَحَدٍ ؟ فَيَقُولُ بَلَى يا رَبِّ ، فَيَقُولُ : فَما عَمِلْتَ فِيما آتَيْتُكَ ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ ، فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ المَلائِكَةُ كَذَبْتَ ، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ إِنَّكَ جَوادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ ، وَيُؤْتَى بِالَّذِى قُتِلَ فى سَبِيلِ اللهِ فَيَقُولُ اللهُ مَا فَعَلْتَ ؟ فَيَقُولُ : أُمِرْتُ بِالْجِهادِ فى سَبِيلِكَ فَقاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعالَى كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ المَلائِكَةُ كَذَبْتَ ، وَيَقُولُ اللهُ : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ جَرِيءٌ

لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول من يدعى يوم القيامة) ثلاثة (رجل قد جمع القرآن، ورجل قد قاتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارئ ألم أعلمك ماأنزلت) من القرآن (على رسولى فيقول بلى) علمتنى ما أنزلت على رسولك (يا رب فيقول) الله عز وجل (ماذا عملت فيما علمت فيقول) الرجل (يارب قمت به) أى بالقرآن وقرأت فيك (آناء الليل) أى أجزاءه (وأطراف النهار فيقول الله كذبت) فى قولك (وتقول الملائكة كذبت ، فيقول الله سبحانه بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك) أى فلان قارئ لك وذلك المقول لك أجرك (ويؤتى بصاحب المال فيقول) الله سبحانه (له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد) من الناس (فيقول) صاحب المال (بلى يا رب فيقول) الله تعالى (فما) ذا (عملت فيما آتيتك) من المال (فيقول كنت أصل) به (الرحم وأتصدق) به (فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله سبحانه بل أردت أن يقال إنك جواد) أى سخى كريم (فقد قيل) أى فى الدنيا (ذلك) وذلك أجرك (ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله) له (مافعلت ؟ فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت) العدو (حتى قتلت) بالبناء للمفعول : أى قتلنى العدو (فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال) لك (فلان جرىء) فعيل من الجراءة مهموز وقد يدغم :

وَشُجَاعٌ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ ، قالَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِيَدِهِ عَلَى رُكْبَتِي وَقالَ يا أَبا هُرَيْرَةَ : أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ يُسْعَرُ بِهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ » .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ

أي شجاع (وشجاع) مثلث الشين ، الجرىء الشديد القلب عند البأس (فقد قيل ذلك . قال) أبو هريرة رضى الله عنه (ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده) الشريفة (على ركبتى وقال : يا أبا هريرة . أولئك) الثلاثة (أول خلق الله) تعالى (يسعر) أى يوقد (بهم نار جهنم) يوم القيامة . قال أبو هريرة : فبلغ ذلك الخبر إلى معاوية رضي الله عنه وهو إذ ذاك أمير الشام ، فبكى بكاءا شديدا ثم قال صدق الله إذ قال « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون » رواه أحمد ومسلم والنسائى من حديث أبى هريرة بلفظ « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى أستشهد . قال كذبت ولكنك قاتلت ليقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ . قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال فما عملت فيها ؟ قال ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال كذبت ولكنك فعلت ذلك ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار » قال العلامة الزبيدى أخبرناه عمر بن أحمد بن عقيل ، قال أخبرناه عبد الله بن سالم أخبرناه محمد بن العلاء الحافظ أخبرنا علي بن يحيي أخبرنا يوسف بن عبد الله أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الحافظ أخبرنا أبو الفضل أحمد بن على الحافظ أخبرنا أبو الخير أحمد بن الخليل العلائى أخبرنا والدى محمد بن مشرق أخبرنا على بن المنير عن الفضل بن سهل عن أحمد بن على الحافظ أخبرنا على بن أحمد المقرى حدثنا محمد ابن العباس بن الفضل ، حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا جعفر بن عون وعبد الوهاب : يعنى ابن عطاء قالا أخبرنا عبد الملك بن جريج ، أخبرنى يونس بن يوسف عن سليمان بن يسار قال : تفرق الناس عن أبى هريرة رضى الله عنه فقال له ناتل أخو أهل الشام ياأباهريرة حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أول الناس يقضى فيه يوم القيامة رجل» فذكره . وقد رواه الترمذى أطول من هذا من رواية شفى الأصبحى عن أبى هريرة (و) روى (عن) ترجمان القرآن عبد الله (بن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله

صلى ٱللهُ عليهِ وسلم يَقولُ : « إنَّ النَّارَ وَأَهْلَهَا يَعُجُّونَ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءِ ، قِيلَ : يارَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَعُجُّ النَّارُ ؟ قالَ مِنْ حَرِّ النَّارِ الَّتِي يُعَذَّبُونَ بِهَا » وَفي هٰذِهِ الْفَضَائِحِ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَبْصَارِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَأَخْبِرْنا عَنْ حَقِيقَةِ الْإِخْلَاصِ وَالرِّيَاءِ وَحُكْمِهِمَا وَتَأْثِيرِهِمَا فِى الْعَمَلِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِخْلَاصَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا إِخْلَاصَانِ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ ، وَإِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ .

فَأَمَّا إِخْلَاصُ الْعَمَلِ ، فَهُوَ إِرَادَةُ التَّقَرُّبِ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعْظِيمُ أَمْرِهِ وَإِجَابَةُ دَعْوَتِهِ ،

صلى الله عليه وسلم يقول : « إن النار وأهلها يعجون) أى يصيحون بالاستعاذة (من أهل الرياء . قيل يا رسول الله وكيف تعج) أى تصيح (النار ؟ قال) صلى الله عليه وسلم (من حر النار التى يعذبون بها » . وفى هذه الفضائح عبرة لأولى الأبصار) أى أصحاب البصائر (والله سبحانه ولى الهداية بفضله . فإن قلت فأخبرنا عن حقيقة الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما فى العمل فاعلم أن الإخلاص عند علمائنا) معاشر الصوفية رضوان الله عليهم (إخلاصان) : أحدهما (إخلاص العمل و) الثانى (إخلاص طلب الأجر ، فأما إخلاص العمل) الكامل (فهو إرادة التقرب إلى الله عز وجل وتعظيم أمره وإجابة دعوته) دون إرادة شىء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح منهم أو معنى من سائر المعانى سوى التقرب إليه تعالى كأن يريد بعبادته ثواب الآخرة أو إكرامه فى الدنيا وسلامته من آفاتها أو استعانته على أمور دينه كمن يراه والده ليدعو له بالخير أو شيخه ليعينه على مقاصده الدينية فليس ذلك من الاخلاص الكامل ولا مطلقه إلا فيما يريد به ثواب الآخرة أو الاكرام فى الدنيا والسلامة من آفاتها فلا يخرج عن حد الإخلاص ومراتبه ثلاث : عليا ؛ وهى أن يعمل لله وحده امتثالا لأمره وقياما بحق عبوديته . ووسطى ، وهى أن يعمل لثواب الآخرة . ودنيا ، وهى أن يعمل للإكرام فى الدنيا والسلامة من آفاتها وما عدا ذلك رياء وإن تفاوتت أفراده ، ويصح أن يقال الاخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين بأن لا يلتفت إلى مدحهم وذمهم وما فى أيديهم ، أو يقال هو التوقى عن ملاحظة الأشخاص ، وهو قريب مما قبله ، وورد أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن جبريل عنه تعالى : «الاخلاص سر من سرى استودعته من أحببت من عبادى » ولا يحصل ذلك إلا لمن بعد عن الأغيار فى معاملة الجبار ليحصل بينه وبينه السر : أى المعاملة الخفية . وقد قيل : من لم يكن بينه وبين الله سر فهو مصر : أى على شغل قلبه بغير ربه فلم يتب عنه . وسبب الإخلاص علم العبد باحتياجه إليه فى العمل النافع له فى دينه ودنياه ، وثمرته السلامة من العقاب والعتاب ونيل عالى

الدرجات فى المآب وهو ممدوح مطلوب وكم من آيات وأخبار وردت فيه . قال تعالى « ألا لله الدين الخالص » . وقال تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » . وقال « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » وقال تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لايغلّ عليهن قلب رجل مسلم أخلص العمل لله» الحديث رواه الترمذى . وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : «ظن أبى أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلي الله عليه وسلم؟ إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم» رواه النسائى. وقال ذو النون المصرى : الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه ، والصدق لايتم إلا بالإخلاص والمداومة عليه فمن أخلص فى مقام وصدق فى سلوكه وصبر عليه حتى أحكمه نقله الله تعالى إلى ما هو فوقه. وقال السوسى: متي شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم لإخلاص فحق المخلص أن لا يرى إخلاصه ولا يسكن إليه فان خالف لم يكمل إخلاصه بل سماه بعضهم رياء . وقال ذو النون : ثلاث من علامات الاخلاص استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال بأن لا تنظر لنفعها وضرها لتنسى مدح الخلق وذمهم عليها ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة. بأن لا يخطر لك جزاء على عملك دنيوى وأخروى . وقيل رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين : أى لأن غاية المبتدى أن يخلص عمله من الرياء المبطل له فيكون مخلصا ثم يدخله العجب لكونه أضافه لنفسه وقد سلم عمله من الرياء والعجب وتسكن إليه نفسه وتعتمد عليه فيكون نقصا ، والعارف يرى نفسه محلا لجريان طاعته بشروط كمالها ويكون مشغولا بإفراد ربه بعمله الشريف عن سكون نفسه لعمله فاذا سكنت نفسه لعمله عده رياء لكونه خطر بباله فى عمله غيره تعالى فاذا كان هذا رياء العارف فأين هو من إخلاص المريد الذي تخلصت أعماله من الرياء المحرم خاصة وبينه وبين ما عده العارفون رياء درجات ، وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء : أى من حيث يتوهم أنهم ينسبونه بعمله للرياء فيكره هذه النسبة ويحب دوام نظرهم إليه بالإخلاص فيكون مرائيا بتركه ليحبه لدوام نسبته للاخلاص لا للرياء والعمل من أجلهم شرك لكونه أشرك فيه غيره ، والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وعن مكحول : ما أخلص عبد أى فى جميع أفعاله قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه فلا ينطق إلا بما حققه قلبه وأحكمه ، وهذا معنى الحكمة وهو وضع الشىء فى موضعه فاذا وزن حوائجه بالعلم وأوقعها لله وحده كان مخلصا فى جميع أعماله فاذا داوم على ذلك أربعين يوما كان على أتم الوجوه وأحسنها ؛ وقيل أعز شىء فى الدنيا الإخلاص لأنه على خلاف ما تهواه النفس وإذا أخلص العبد فى عمله انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء لبعد القلب بالإخلاص عن ذلك ، وأقل الصدق استواء السر والعلانية ، والصادق من صدق فى أقواله ، والصديق من صدق فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله . قال الجنيد قدس سره : وحقيقة الصدق أن تصدق فى موطن لا ينجيك فيه إلا الكذب .

وَالْبَاعِثُ عَلَيْهِ الْاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ . وَضِدُّ هٰذَا الْإِخْلَاصِ النِّفَاقُ، وَهُوَ التَّقَرُّبُ إِلَى مَادُون اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : النِّفَاقُ هُوَ الْاعْتِقَادُ الْفَاسِدُ الَّذِى هُوَ لِلْمُنَافِقِ فِى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْإِرَادَاتِ لِعِلَّةٍ ذَكَرْنَاهَا فِى مَوْضِعِهَا .

تتمة

قال ابن حجر في الزواجر : هذه آيات وأحاديث دالة على مدح الاخلاص وثواب المخلصين وما أعد لهم أردنا ذكرها لتكون باعثة للخلق على تحرى الاخلاص ومباعدة الرياء إذ الأشياء لا تعرف كمالا وضده إلا بأضدادها، فمن ذلك قوله تعالى «وما أمروا إلا ليعبدوا الله الآية» ، وقوله « إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » أخرج الطبرانى « نية المؤمن خير من عمله وعمل المنافق خير من نيته وكل يعمل على نيته فاذا عمل المؤمن عملا نار في قلبه نور» والترمذى «أفضل العمل النية الصادقة» وابن أبى الدنيا والحاكم «أخلص دينك يكفك القليل من العمل» والدارقطنى « أخلصوا أعمالكم لله فان الله لايقبل إلا ما خلص له » وابن عدى والديلمى «اعمل لوجه واحد: أى لله وحده يكفك الوجوه كلها» والنسائى « إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه » وابن المبارك « طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء » وابن جرير «والذى نفس محمد بيده ماعمل أحدقط سرا إلا ألبسه الله رداء عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر » وسئل بعض الأئمة من المخلص ؟ فقال الذى يكتم حسناته كما يكتم سيئاته (والباعث عليه) أى على إخلاص العمل (الاعتقاد الصحيح وضد هذا الإخلاص النفاق وهو) أى النفاق (التقرب إلى مادون الله) أى غيره (سبحانه) فالإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية ، والشرك منه خفي وجلى وكذا الإخلاص وضده يتواردان على القلب فهو محلهما وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات فانها ترجع إلى إجابة البواعث . فمهما كان الباعث واحداً سمى الفعل الصادر منه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوى فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص بهذا الاعتبار، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص أيضا بهذا الاعتبار، فإطلاق لفظ الإخلاص على كل منهما جائز ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك (وقال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذى هو للمنافق فى) دين (الله عزوجل وليس هو) أى الاعتقاد الفاسد (من قبيل الإرادات لعلة ذكرنا فى موضعها) ومعنى الإرادة حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل : العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه ؛ وأيضا الارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة ، وصفة المنافق أن يعترف بلسانه بالإيمان ويقربه وينكره

وأَمَّا الْإِخْلَاصُ فى طَلَبِ الْأَجْرِ فَهُوَ إِرَادَةُ نَفْعِ الآخِرَةِ بِعَمَلِ الْخَيْرِ ، وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللّٰهُ يَقُولُ : إِنَّهُ إِرَادَةُ نَفْعِ الآخِرَةِ بِخَيْرٍ لَمْ يُرَدَّ رَدًّا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ خَيْرُهُ بِحَيْثُ تُرْجَى بِهِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةُ وَقَدْ شَرَحْنَا هٰذِهِ الشَّرَائِطَ ، وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا الْخَالِصُ مِنَ الْأَعْمَالِ ؟ قَالَ الَّذِى يَعْمَلُ لِلّٰهِ لَا يُحِبُّ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهٰذَا تَعَرُّضٌ لِتَرْكِ الرِّيَاءِ ، وَإِنَّمَا خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْمُشَوِّشَةِ لِلْإِخْلَاصِ ، وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الْإِخْلَاصُ تَصْفِيَةُ الْأَعْمَالِ مِنَ الْمُكَدِّرَاتِ . وَقَالَ الْفُضَيْلُ : الْإِخْلَاصُ دَوَامُ الْمُرَاقَبَةِ وَنِسْيَانُ الْحُظُوظِ كُلِّهَا ، وَهٰذَا هُوَ الْبَيَانُ الْكَامِلُ ،

بقلبه ويصبح على حال ويمسى على غيرها (وأما الاخلاص فى طلب الأجر فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير، وكان شيخنا رحمه الله يقول : إنه) أى الإخلاص فى طلب الأجر (إرادة نفع الآخرة بخير لم يرد ردا يتعذر عليه) أى على المخلص (خيره بحيث ترجي به تلك المنفعة) متعلق بخير (وقد شرحنا هذه الشرائط . وقال الحواريون) قال العلامة عبد الحق : حواري الرجل خالصته،من الحور وهو البياض الخالص ، سمى به أصحاب عيسى عليه السلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم، وقيل كانوا ملوكا يلبسون البيض استنصر بهم عيسى من اليهود ، وقيل قصارون يحورون الثياب : أى يبيضونها (لعيسى ابن مريم عليه السلام : ما الخالص من الأعمال) ولفظ القوت قالوا: ياروح الله ما الاخلاص لله عز وجل (قال الذى يعمل لله لا يحب أن يحمده عليه) أى على ذلك العمل (أحد) من الناس وتمامه عند صاحب القوت قالوا : فمن الناصح لله عز وجل ؟ قال الذى يبدأ بحق الله عز وجل قبل حق الناس ، وإذا عرض له أمران: أحدهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمر الله تعالى قبل أمر الدنيا انتهى . ويروى فى الخبر : «لكل حق حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن لا يحمد على كل شئ من عمل الله عز وجل» (وهذا) أى قول عيسى عليه السلام (تعرض لترك الرياء وإنما خصه) أى الرياء (بالذكر) دون غيره من الآفات(لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص) فنى الخبر « أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية» قيل حب الدنيا، وقيل العمل لأجل أن يؤجر العبد ويحمد (وقال الجنيد) بن محمد الزاهد المشهور قدس سره (الإخلاص تصفية الأعمال من المكدرات) ولا يتم ذلك إلا إذا ملك شيئين أحدهما عنده أولى به من الآخر صحة القصد لوجه الله ثم إخراج الآفات والحذر عليه من دخولها عليه إلى فراغه منه فبذلك يتم إخلاصه ويصفو من كدورات الهوى ويخلص من الشهوة الخفية فيكون خالصا من الرياء بالإخلاص صافيا من الشهوة بتفقد دخول الآفة (وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله (الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها ، وهذا هو) أى قول الفضيل(البيان الكامل)

وَالْأَقاوِيلُ فِى هٰذَا كَثِيرَةٌ ، فَلَا فَائِدَةَ فِى تَكْثِيرِ النَّقْلِ بَعْدَ انْكِشَافِ الْحَقَائِقِ ، وَقَدْ قالَ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ صلى الله عليه وسلم إِذْ سُئِلَ عَنِ الْإِخْلَاصِ فَقالَ : « تَقُولُ رَبِّىَ اللهُ تَعالَى ثُمَّ تَسْتَقِيمُ كَمَا أُمِرْتَ » أَىْ لَا تَعْبُدُ هَوَاكَ وَنَفْسَكَ وَلَا تَعْبُدُ إِلَّا رَبَّكَ وَتَسْتَقِيمُ فِى عِبَادَتِهِ كَمَا أُمِرْتَ ، وَهٰذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَطْعِ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ عَنْ مَجْرَى النَّظَرِ ، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ حَقًّا ،

فإن دوام المراقبة يستدعى الاستغراق فى العبودية والمستغرق فيها لا يلتفت فى سائر أحواله إلا إلى الله تعالى ونسيان الحظوظ يستدعى عدم الرؤية فى إخلاصه فصار بذلك جامعا لمعانى الإخلاص كلها (والأقاويل فى هذا) أى فى الاخلاص (كثيرة) فمن ذلك قولهم الاخلاص استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤية الأعمال ونسيان اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة . وهذا نقله القشيرى : عن ذى النون وهى من علامات الإخلاص . وقال سهل : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة . وفى معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى ، وقيل نقصان كل مخلص فى إخلاصه رؤية إخلاصه فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه فيكون مخلصا لا مخلصا نقله القشيرى عن أبى بكر الدقاق . وقال حذيفة المرعشى : الإخلاص أن تستوى أفعال العبد فى الظاهر والباطن ، وقيل الإخلاص ما أريد به الحق وقصد به الصدق ، وقيل الإخلاص الإغماض عن رؤية الأعمال . وقال السرى : من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله . وقال يوسف بن الحسين . أعز شئ فى الدنيا الإخلاص (فلا فائدة في تكثير النقل) أى نقل الأقاويل (بعد انكشاف الحقائق و) إنما البيان الشافى ما (قد قال سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم ، إذ سئل عن الاخلاص فقال « تقول ربى الله تعالى ثم تستقيم كما أمرت ») قال العراقى لم أره بهذا اللفظ . وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى « قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال : قل ربي الله ثم استقم » وهو عند مسلم بلفظ « قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعد قال : قل آمنت بالله ثم استقم » قال الزبيدى ذكر الحافظ فى ترجمة سفيان هذا فى الإصابة الحديث المذكور باللفظ الأول . وقال أخرج حديثه مسلم والترمذى والنسائى : أى فذكر النسائى بدل ابن ماجه ، والله أعلم . ووجدت فى القوت ما يشبه هذا السياق وقال فأحسن : تفسير النية ما فسره به رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإحسان فقال « تعبد الله كأنك تراه » فهذه شهادة العارفين ومعرفة الموقنين فهم مخلص المخلصين انتهى (أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذه) لا يطيقها إلا الأكابر ، إذ هي (إشارة إلى قطع كل ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا) وذكروا فى الاستقامة أنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم

وضِدُّ الْإِخْلَاصِ الرِّيَاءُ ، وَهُوَ إِرَادَةُ نَفعِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ . ثُمَّ الرِّيَاءُ ضَرْبَانِ : رِيَاءٌ مَحْضٌ ، وَرِيَاءُ تَخْلِيطٍ ؛ فَالْمَحْضُ : أَنْ تُرِيدَ بِهِ نَفعَ الدُّنْيَا لَا غَيْرُ ، وَالتَّخْلِيطُ : أَنْ تُرِيدَهُمَا جَمِيعاً نَفعَ الدُّنْيَا وَنَفعَ الآخِرَةِ ، هٰذَا حَدُّهُمَا ؛ وَأَمَّا تَأْثِيرُهُمَا : فَإِنَّ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ أَنْ تَجْعَلَ الْفِعْلَ قُرْبَةً ، وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ فَأَنْ تَجْعَلَهُ مَقْبُولاً وَافِرَ الْأَجْرِ وَالتَّعْظِيمِ . وَالنِّفَاقُ يُحْبِطُ الْعَمَلَ وَيُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ قُرْبَةً مُسْتَحَقًّا عَلَيْهِ الثَّوَابُ بِالْوَعْدِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ؛ فَالرِّيَاءُ الْمَحْضُ لَا يَكُونُ مِنَ الْعَارِفِ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أَبْطَلَ نِصْفَ الثَّوَابِ ، وَعِنْدَ آخَرِينَ قَدْ يَكُونُ الرِّيَاءُ

والعادات والقيام بين يدى الله على حقيقة الصدق (وضـد الاخلاص الرياء ، وهو إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة . ثم الرياء ضربان) أى نوعان (رياء محض) أى خالص عن شوائب الآخرة (ورياء تخليط ، فالمحض أن تريد به نفع الدنيا لا غير والتخليط أن تريدهما جميعا) أى (نفع الدنيا ونفع الآخرة ، هذا) أى الذى ذكرناه (حدهما) أى الاخلاص والرياء (وأما تأثيرهما) أى الاخلاص والرياء فى العمل (فإن إخلاص العمل أن تجعل الفعل قربة .وأما إخلاص طلب الأجر) فهو (أن تجعله) أى الفعل (مقبولا وافر الأجر والتعظيم . و) أما (النفاق) الذى هو ضـد إخلاص العمل فهو (يحبط العمل ويخرجه) أى العمل (عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله تعالى) بل هو سبب المقت والعقاب كما دلت بذلك الأخبار : منها حديث أبى هريرة الذى أوله « أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة » الحديث ، ومنها حديث ابن عمر « من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » رواه الترمذى والنسائى ، ومن حديث أبى هريرة « من تعلم علما يبتغى به غير وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعنى ريحها ، رواه أبو داود والحاكم وصححه ، ومنها حديث كعب بن مالك « من طلب العلم ليجارى به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » رواه الترمذى وقال غريب ، ومنها حديث أبى هريرة « إن فى جهنم واديا يقال له جب الحزن تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة يسكنه القراء المراءون بأعمالهم» رواه الترمذى ،وقال غريب ، فهذه الأخبار إنما تدل كلها على حبوط العمل وبطلانه لتمحضه للرياء وهذا لاخلاف فيه بين العلماء وأن كل ما كان بهذه المثابة فهو على المرء لا له ولا ينجو منه كفافا بل هو على خطر العقاب إلا أن يتوب من ذلك توبة يقبلها الله منه ويعفو عنه بكرمه كرما وفضلا (فالرياء المحض لا يكون من العارف) بالله (عند بعض العلماء وإن كان أبطل نصف الثواب وعند آخرين قد يكون الرياء

المحضُ مِنَ الْعَارِفِ ، وَأَنَّهُ يذْهَبُ بِنِصْفِ الْأَضْعَافِ ، وَالتَّخْلِيطُ يَذْهَبُ بِرُبُعِ الْأَضْعَافِ ، وَالصَّحِيحُ عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الرِّيَاءَ الْمَحْضَ لاَ يَكُونُ مِنَ الْعَارِفِ عِنْدَ تَذَكُّرِ الآخِرَةِ ، وَيَكُونُ مَعَ السَّهْوِ ، وَالْمُخْتَارُ أَنَّ مِنْ تَأْثِيرِ الرِّيَاءِ رَفْعُ الْقَبُولِ وَالنُّقْصَانِ فِى الثَّوَابِ ، وَلاَ تَقْدِيرَ لَهُ بِنِصْفٍ وَلاَ رُبْعٍ ، وَشَرْحُ هٰذِهِ المسَائِلِ يَطُولُ، وَقَدْ

المحض من العارف وأنه) أى الرياء المحض من العارف(يذهب بنصف الأضعاف) أى أضعاف الثواب (والتخليط يذهب بربع الأضعاف . والصحيح عند شيخنا رحمه الله أن الرياء المحض لا يكون من العارف عند تذكر الآخرة ويكون) ذلك منه (مع السهو ، والمختار أن من تأثير الرياء)فى العمل (رفع القبول والنقصان فى الثواب ولاتقدير له)أى للنقصان(بنصف ولاربع) ولنبين مايحبط العمل من الرياء وما لايحبطه على ما قاله مصنفنا أبوحامد الغزالى وغيره فنقول :إذا عقدالعبد العبادةمن الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ منه ، فان ورد عليه بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار منه فهذا لايحبط العمل إذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن ثواب الرياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لاينعطف عليه أثره هكذا ذهب إليه جماعة من العارفين لاسيما إذا لم يتكلف هوإظهاره والتحدث به للناس ولم يتمن إظهاره وذكره بين الناس ولكن اتفق ظهوره باظهار الله إياه ولم يكن منه إلا مادخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة فى الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف . وفى الأخبار والآثار بظواهرهما ما يدل على أنه محبط لذلك العمل ، فقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : قرأت البارحة سورة البقرة،فقال ذلك حظك منها، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه قال لرجل قال له صمت الدهر فقال له « ما صمت ولا أفطرت» فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره ، وقيل هو إشارة إلى كراهية صوم الدهر وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا القول ، ومن ابن مسعود فى قوله السابق استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعدالعمل مبطلا لثواب العمل فالأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذى قد مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعدالفراغ منها، بخلاف مالو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا،فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر فى العمل وإما أن يكون رياء باعثا على العمل ؛ فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره لأنه قد تخلل عقد ما أثر فيه فهو أحرى أن يوصف بالانحلال (وشرح هذه المسائل) أى مسائل الإخلاص والرياء (يط ، وقد

شَرَحْنَاهَا فى كِتَابِ : [إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ] شَرْحًا مُسْتَقْصِيًا ، وَأَشْبَعْنَا الْقَوْلَ فِي أَسْرَارِ مُعَامَلاتِ الدِّينِ .

شرحناها) أى تلك المسائل (فى) تصنيفنا (كتاب إحياء علوم الدين شرحا مستقصيا وأشبعنا القول) على المسائل المذكورة (فى أسرار معاملات الدين) وبعضه مسطور فى أثناء شرح هذا الباب وبعضه نذكره الآن مع بعض شرحه ملخصا فنقول : اعلم وفقك الله تعالى أن الاخلاص شرط فى سائر العبادات ، وهو معنى قوله «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين» وقوله « إياك نعبد » وقد قلنا إن رؤية المنة لله تعالى واجبة للنعمة وليس لها حقيقة إلا التبرى من الحول والقوة والرجوع إلى الله تعالى بالفقر والفاقة وطلب الاستعانة وهو معنى ما أمرنا به بقوله «وإياك نستعين» ولا نعمة لله على عبده أفضل من الإيمان به والعمل لأجله فهذا وجه وجوب الإخلاص فى سائر العبادات . وأما استحبابها فى سائر التقلبات فإن العبد البار لا يتحرك إلا لسيده لأن القوة التى يتحرك بها مكتسبة من تغذية نعمة سيده لأن حقيقة العبد أن لا يملك من نفسه ولا لنفسه شيئا إذ هو خالقه ورازقه وعليه توليه إن أحسن لحكمة الكرم وله أن يعاقبه إن أساء ، فما أوضح هذا وما أعزه فى القلوب علما وحالا وعملا ولأجل عزته أوجب الله تعالى تكريره على ألسنتنا وقلوبنا فى اليوم والليلة سبع عشرة مرة لتخلص لنا أعمالنا ونعتمد عليه فى جميع أحوالنا، فإذا كان الإخلاص هو الإيمان والطاعات وبه تمامهما ونماؤهما وجب شرح حقيقته وتفصيل درجاته ليظهر بذلك الواجب من المستحب، فاعلم أن كل شىء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا لخلوصه عن الشوب ، وسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا ، قال الله تعالى « من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » وإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص وهو تجرد الباعث الواحد يضاده الإشراك وهو أن يشترك باعثان فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات ، وقد تقدم أن الإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية والشرك منه خفى وجلى وكذا الإخلاص ، والإخلاص وضده يتواردان على القلب فهو محلهما بالاتفاق منهم . ونتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه بذلك طلب ما يكفيه من المال أو يكون عزيزا بين العشيرة بذلك أو ليكون عقاره وماله محروسا بعز العلم عن الأطماع فلا تمتد إليه ، إلى غير ذلك من الشوائب النفسانية فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك . وقد قال تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشركة » رواه ابن ماجه

والبزار من حديث أبي هريرة ؛ والخالص هو الذى لاباعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ولم يشبهُ شيءٌ من هذه الحظوظ . قال القشيري: سمعت أبا عبدالرحمن السلمي يقول سمعت أبا عبدالرحمن المغربي يقول : الاخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال وهذا إخلاص العوام وإخلاص الخواص ما يجرى عليهم لا بهم فتبدوا منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد انتهى . وكأنه يشير إلى كمال الاخلاص ولا يقدر عليه إلا بعد استغراق الحب قلبه فرجع جميع المباحات عنده كالأدوية لا يتناول منها إلا لضرورة ولأجل كمال الاخلاص بأصله شق على الناس علمه وعمله فصار حديث الاخلاص عند المتفقهة كالمستغرب وهو شرط فى صحة أعمالهم ، والكمال هو أن لا يلتفت فى سائر أحواله إلا إلى الله تعالى عبادة أو عادة وأن يكون وجود الناس عنده كعدمهم لأن وجودهم مجازى لا حقيقة إذ لا قوام لهم بنفوسهم إنما الموجود الثابت الحقيقى هو الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم الذى قامت ذاته بذاته وكل شيء سواه قائم به ومستند إلى قدرته ، فان عجز عن هذا المقام فليكن وجودهم عنده كوجود البهائم، بمعنى أنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولا عطاء ولا منعا ولا مدحا ولا ذما ، فمتى ما فرق فى مشاهدة الخلق بين أن يشهده رئيس أو بهيمة فى عبادة من عباداته فلا يخلو إصلاحه عن نقصان بحسب قوة النظر فى وجهة قلبه عن الله تعالى أو ضعفها ، ولهذا كان المخلصون على خطر عظيم وكانت أعمالهم أعمال المقربين فمن رزق هذه الحالة فنقصانها بالنظر إليها والاعتماد عليها . هذا ما يتعلق بكمال الإخلاص ، فالباعث على الفعل إما أن يكون روحانيا فقط وهو الإخلاص، أو شيطانيا فقط وهو الرياء، أو مركبا وهو ثلاثة أقسام: لأنه لا يخلو إما أن يكونا سواء أو الروحانى أقوى أو الشيطانى أقوى ، فاذا كان الباعث روحانيا فقط وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أنه لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى ، فمثل هذا الشخص لو أكل وشرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ، وإذا كان الباعث شيطانيا فقط ولا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا مستغرق الهم بها حيث لم يبق لحب الله فى قلبه مقر فتكتسب أفعاله تلك الصفة فلا يسلم له شيء من عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا ، وإذا استوى الباعثان يتعارضان ويتناقضان فيصير العمل لا له ولا عليه . وأما من غلب أحد الطرفين فيه فينحط منه ما يساوى الآخر وتبقى الزيادة موجبة أثرها اللائق بها . وسيأتى تحقيق ذلك والخالص لوجه الله هو سبب الثواب كما دلت بذلك الأخبار ، وإنما النظر فى العمل المشوب وهو أن يكون الباعث على طلب عمل من أعمال الطاعات مجموع القصدين : قصد وجه الله تعالى والقصد الدنيوى . وقد اختلف الأئمة فيه : فمنهم قال لا يقتضى هذا العمل ثوابا ولا

عقابا ، ومنهم من قال يثاب على ما فيه من الإخلاص ، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له أوأنه مقتض للعقاب وأن ما وقع فيه من الرياء أحبط العمل بالكلية . وهذا القول اختاره الحارث المحاسبي وكثير من الأئمة قالوا : إن العمل لا يترتب عليه الثواب حتى يكون جميعه خالصا وحده من غير شوب عرض دنيوي ، وأنه متى خالطه قصد غير التقرب إلى الله أبطله وكان حكمه حكم مالو تمحض ذلك القصد الدنيوي ، وهذا هو الذي اختاره الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى . قال الصلاح العلائي وهو الذي تقتضيه الأحاديث الصحيحة وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك ، وهي ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال « يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا أجر له فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلك لم تفهمه فقال يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغى عرضا من أعراض الدنيا ، فقال لا أجر له . فقالوا للرجل عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الثالثة ، فقال لا أجر له » وإسناده حسن وأخرجه الحاكم وصححه . وما روى عن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شيء له . ثم قال إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه » وإسناده صحيح وقد أخرجه الحاكم وصححه أيضا ، فهذان الخبران يبينان صحة ما ذهب إليه المحاسبي واختاره ابن عبد السلام وهما صريحان في المدعي . وأما مايعارض ذلك فحديث عبادة بن الصامت «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالا فله مانواه» رواه النسائي . قال العراقي في شرح التقريب: فإتيانه بصيغة الحصر يقتضى أنه إذا نوى مع القتال شيئا آخر كان له ما نواه انتهى . وقال السمعاني في أماليه : قوله صلى الله عليه وسلم « وإنما لكل امرىء ما نوى » فيه دلالة على أن الأعمال الخارجة عن العبادة قد تفيد الثواب إذا نوى بها فاعلها القربة كالأكل والشرب إذا نوى القوة بهما على العبادة والطاعة ، والنوم إذا قصد به ترويح البدن للعبادة ، والوطء إذا أريد به التعفف عن الفاحشة . واختار المصنف رحمه الله التفصيل في ذلك فقال : والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله تعالى أن ينظر إلى قدر قوة البواعث ، فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومقتض للعقاب ، نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم تمتزج به شائبة التقرب ، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني ، وهذا لقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ولقوله تعالى « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها » فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة . وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَوْضِعُ الْإِخْلَاصِ ، وَفِى أَىِّ طَاعَةٍ يَقَعُ وَيَجِبُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَقَعُ فِيهِ الْإِخْلَاصَانِ

عن هذا أن الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فاذا كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تنال من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما فهذا معنى تقومهما ، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر لا محالة ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفعك عن تأثير فى إنارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله أو إبعاده ، فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه ، فان كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر ؛ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه فاذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ، ويشهد لهذا التفصيل إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . وقال تعالى « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » وأنها نزلت لما تحرجوا من التجارة فى الحج . نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلى وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب . قال الصلاح العلائى فى مقدمة الأربعين : وقد يقال إن الآية محمولة على ما إذا عرضت التجارة فى موسم الحج من غير قصد لها بدليل الأحاديث السابقة ، ولو كان إنشاء السفر للحج والتجارة جميعا فنقول إنه لا يثاب على ذلك السفر كما دلت عليه الأحاديث . وأما أفعال الحج من الإحرام وما بعده فإذا وقعت خالصة أثيب عليها ولا تنافيها التجارة فيكون هو الذى دلت عليه الآية قالوا ويشهد لهذا التفصيل أيضا قوله صلى الله عليه وسلم « إن من خير معاش الناس الجهاد » فجعل الجهاد مما يصح أن يتخذ للمعاش ومن ضرورة ذلك أن يكون مقصودا . قال الصلاح : لم أره هكذا مسندا وبتقدير صحته فإنما سماه معاشا لما يعرض فيه غالبا من المغانم ، ولا يلزم من ذلك أن يكون مقصودا (فإن قلت : فما موضع الإخلاص وفى أى طاعة يقع ويجب) ذلك الإخلاص (فاعلم) أرشدك الله (أن الأعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام : قسم يقع فيه الاخلاصان) أى إخلاص

جَمِيعًا وَهُوَ الْعِبَادَةُ الظَّاهِرَةُ الْأَصْلِيَّةُ ، وَقِسْمٌ لَا يَقَعُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُمَا ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ الْبَاطِنَةُ الْأَصْلِيَّةُ ، وَقِسْمٌ يَقَعُ فِيهِ إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ دُونَ إِخْلَاصِ الْعَمَلِ ، وَهُوَ الْمُبَاحَاتُ الْمَأْخُوذَةُ لِلْعُدَّةِ . قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَحْتَمِلُ الصَّرْفَ إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْعِبَادَاتِ الْأَصْلِيَّةِ يَقَعُ فِيهِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ ، فَالْعِبَادَاتُ الْبَاطِنَةُ أَكْثَرُهَا يَقَعُ فِيهَا إِخْلَاصُ الْعَمَلِ .

وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ : قَالَ مَشَايِخُ الْكَرَّامِيَّةِ : لَا يَقَعُ فِي الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ ، إِذْ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ فَامْتَنَعَ فِيهَا دَوَاعِي الرِّيَاءِ ، فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى إِخْلَاصِ طَلَبِ الْأَجْرِ ، وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : إِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ الْمُتَقَرِّبُ مِنَ اللهِ بِالْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ نَفْعَ الدُّنْيَا فَهُوَ أَيْضًا رِيَاءٌ .

قُلْتُ أَنَا : وَلَا يَبْعُدُ إِذَنْ أَنْ يَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْبَاطِنَةِ الْإِخْلَاصَانِ ، وَكَذَلِكَ النَّوَافِلُ يَجِبُ فِيهَا الْإِخْلَاصَانِ جَمِيعًا عِنْدَ الشُّرُوعِ ، وَأَمَّا الْمُبَاحَاتُ الْمَأْخُوذَةُ

العمل وإخلاص طلب الأجر (جميعا ، وهو) أى القسم الذى يقع فيه الإخلاصان (العبادة الظاهرة الأصلية) كالصلاة ونحوها (وقسم لا يقع فيه شيء منهما) أى من الإخلاصين (وهو) أى هذا القسم (العبادة الباطنة الأصلية) كالإيمان والتوكل والتفويض (وقسم يقع فيه إخلاص طلب الأجر دون إخلاص العمل وهو) أى القسم الذى يقع فيه إخلاص الطلب دون غيره (المباحات المأخوذة للعدة) بضم العين . أى الاستعداد والتأهب للعبادة (قال شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله : إن كل عمل يحتمل الصرف إلى غير الله تعالى من العبادات الأصلية يقع فيه) أى فى العمل المذكور (إخلاص العمل فالعبادات الباطنة أكثرها يقع فيها) أى فى العبادات الباطنة أى أكثرها (إخلاص العمل . وأما إخلاص طلب الأجر) فقد (قال مشايخ الكرامية) فرقة من المشبهة أصحاب عبد الله محمد بن كرام (لا يقع) أى إخلاص طلب الأجر (فى العبادات الباطنة إذ لا يطلع عليها أحد إلا الله سبحانه فامتنع فيها) أى فى العبادات الباطنة (دواعى) أى أسباب (الرياء فلم يحتج) بالبناء للمفعول (إلى إخلاص طلب الأجر . وكان شيخنا رحمه الله يقول : إذا أراد العبد المتقرب من الله بالعبادات الباطنة نفع الدنيا فهو) أى طلب نفع الدنيا بالعبادات الباطنة (أيضا) أى كطلبه بالعبادات الظاهرة (رياء . قلت : أنا ولا يبعد إذا) أى حين وجد الرياء فى العبادات الباطنة (أن يقع فى كثير من العبادات الباطنة الإخلاصان وكذلك) أى وقوع الإخلاصين (النوافل يجب فيها) أى فى تلك النوافل (الإخلاصان جميعاً عند الشروع) فيها (وأما المباحات المأخوذة

لِلْعِدَّةِ ، فَإِنَّمَا يَقَعُ فِيهَا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ دُونَ إِخْلَاصِ الْعَمَلِ ، إِذْ هِيَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ بِنَفْسِهَا قُرْبَةً بَلْ هِيَ عُدَّةٌ عَلَى الْقُرْبَةِ .

فَإِنْ قُلْتَ : هٰذَا مَوْضِعُهُمَا فَبَيِّنْ لَنَا وَقْتَهُمَا مِنَ الْعَمَلِ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ مَعَ الْفِعْلِ يُقَارِنُهُ لَا مَحَالَةَ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، وَأَمَّا إِخْلَاصُ طَلَبِ الْأَجْرِ فَرُبَّمَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، وَعِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ يَعْتَبِرُونَ فِيهِ وَقْتَ الْفَرَاغِ مِنَ الْعَمَلِ ، فَإِذَا فَرَغَ عَلَى إِخْلَاصٍ أَوْ رِيَاءٍ فَقَدِ انْقَضَى الْأَمْرُ ، وَلَا يُمْكِنُهُ اسْتِدْرَاكُهُ بَعْدُ ، وَعِنْدَ غَيْرِنَا مِنْ مَشَايِخِ الْكَرَّامِيَّةِ مَالَمْ يَنَلِ الْمَنْفَعَةَ الْمَطْلُوبَةَ بِالرِّيَاءِ يُمْكِنُهُ إِقَامَةُ الْإِخْلَاصِ فِي ذٰلِكَ الْعَمَلِ ، فَإِذَا نَالَ الْمَطْلُوبَ فَقَدْ فَاتَ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ الْفَرِيضَةَ يُمْكِنُ إِقَامَةُ الْإِخْلَاصِ فِيهَا إِلَى الْمَوْتِ .

وَأَمَّا النَّوَافِلُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ذٰلِكَ ، قَالَ : وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَدْخَلَ الْعَبْدَ فِي الْفَرِيضَةِ ، فَمَأْمُولٌ مِنْهُ التَّفَضُّلُ وَالتَّيْسِيرُ فِيهَا ، وَأَمَّا النَّفْلُ فَالْعَبْدُ الَّذِي أَدْخَلَ نَفْسَهُ فِيهِ وَتَكَلَّفَهُ ،

العدة) على القربة (فانما يقع فيها إخلاص طلب الأجر دون إخلاص العمل إذ هى) أى تلك المباحات (لاتصلح أن تكون بنفسها قربة بل هى عدة على القربة . فان قلت : هذا) أى المذكور من العبادات الظاهرة وأكثر العبادات الباطنة والنوافل (موضعهما) أى الإخلاصين المذكورين (فبين لنا وقتهما من العمل فاعلم أن إخلاص العمل مع الفعل يقارنه) أى الفعل (لا محالة ولا يتأخر) أى الاخلاص (عنه) أى عن الفعل (وأما إخلاص طلب الأجر بما يتأخر عنه) أى الفعل (وعند بعض العلماء يعتبرون فيه) أى فى الاخلاص (وقت الفراغ من العمل فاذا فرغ) العبد من العمل (على إخلاص أو رياء فقد انقضى الأمر) أى أمر العمل (ولا يمكنه) أى العبد (استدراكه) أى العمل بالاخلاص أو الرياء (بعد) بالضم أى بعد الفراغ (وعند غيرنا) معاشر أهل السنة (من مشايخ الكرامية مالم ينل) العبد (المنفعة المطلوبة بالرياء يمكنه) أى العبد (إقامة الاخلاص فى ذلك العمل فاذا نال المطلوب) بالرياء (فقد فات) أى ما ذكر من إقامة الاخلاص (وقال بعض العلماء) رحمه الله تعالى (إن الفريضة يمكن إقامة الإخلاص فيها) أى فى الفريضة (إلى الموت . وأما النوافل فلا سبيل إلى ذلك) أى إقامة إخلاص إلى الموت بل عند الشروع كما سبق (قال) البعض (والفرق بينهما) أى بين الفريضة والنوافل (أن الله تعالى أدخل العبد فى الفريضة فمأمول) أى مرجو (منه) تعالى (التفضل والتيسير فيها) أى تلك الفريضة (وأما النفل فالعبد) هو (الذى أدخل نفسه فيه) أى فى النفل (وتكلفه) أى النفل

فَطُولِبَ بِحَقِّ مَا تَكَلَّفَ .

قُلْتُ أَنَا : وَفِى الْمَسْئَلَةِ فائِدَة ، وَهِىَ أَنَّ مَنْ سَبَقَ مِنْهُ الرِّيَاءُ أَوْ تَرَكَ الْإِخْلَاصَ فِى عَمَلٍ فَيُمْكِنُهُ اسْتِدْرَاكُ ذٰلِكَ وَتلَافِيهِ عَلَى أَحَدِ الْوُجُوهِ الَّتِى ذَكَرْنَاهَا قَبْلُ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ نَقْلِ مَذَاهِبِ النَّاسِ فِى هٰذِهِ الدَّقَائِقِ عِلْمُنَا الْآنَ بِقِلَّةِ الْعَامِلِينَ وَقِلَّةِ الرَّغَبَةِ فِى سُلُوكِ هٰذِهِ الطَّرِيقِ وَالتَّقْرِيبُ عَلَى الْمُبْتَدِى فِى الْعِبَادَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ لِعِلَّتِهِ دَوَاءً فِى هٰذَا الْقَوْلِ وَجَدَهُ فِى الْآخَرِ لِاخْتِلَافِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَغْرَاضِ وَعِلَلِ الْأَعْمَالِ وَآفَاتِهَا ، فَافْهَمْ رَاشِدًا إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قُلْتَ : أَكُلُّ عَمَلٍ يَحْتَاجُ إِلَى إِخْلَاصٍ مُفْرَدٍ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِى ذٰلِكَ فَقِيلَ إِنَّهُ يَجِبُ لِكُلِّ عَمَلٍ إِخْلَاصٌ مُفْرَدٌ ، وَقِيلَ إِنَّهُ يَجُوزُ تَنَاوُلُ إِخْلَاصٍ وَاحِدٍ بِجُمْلَةٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ ، أَمَّا الْعَمَلُ ذُو الْأَرْكَانِ كَالصَّلَاةِ وَالْوُضُوءِ فَيَكْفِيهِمَا إِخْلَاصٌ وَاحِدٌ ، لِأَنَّ بَعْضَهَا

(فطولب بحق ما تكلف) من النفل (قلت أنا: وفى المسئلة) أى الخلاف فى وقت الاخلاص (فائدة وهي أن من سبق منه الرياء أو ترك الاخلاص فى عمل) من الأعمال (فيمكنه) أى المرائى أو تارك الاخلاص (استدراك ذلك) أى الاخلاص (وتلافيه)أي تلافى ذلك الاخلاص واستلحاقه (على أحد الوجوه) أى الأقوال (التى ذكرناها) قريبا (قبل) بالضم : أى قبل هذه الفائدة (والمقصود من نقل مذاهب الناس) منهم مشايخ الكرامية (فى هذه الدقائق) وهى موضع الإخلاصين ووقتهما من العمل (علمنا الآن) يعنى فى زمانه رحمه الله (بقلة العاملين وقلة الرغبة) محركة جمع راغب (فى سلوك هذا الطريق) أى طريق الاخلاص فى العبادة (و) المقصود أيضا (التقريب) أى التسهيل (على المبتدى فى العبادة ، فان لم يجد) العبد (لعلته دواء فى هذا القول) أى الذى ذكرناه من أن إخلاص العمل مع الفعل يقارنه (وجده) أى دواء (فى) القول (الآخر) وهو قول بعضهم يعتبرون فى الاخلاص الفراغ من العمل أو قول مشايخ الكرامية (لاختلاف الأمراض والأغراض وعلل الأعمال وآفاتها فافهم) ما ذكرناه لك (راشدا إن شاء الله تعالى . فان قلت أكل عمل يحتاج إلى إخلاص مفرد فاعلم أنه) أى الحال والشأن (قد اختلفوا) أى علماؤنا رضوان الله عليهم (فى ذلك) أى فى احتياج كل عمل إلى إخلاص مفرد (فقيل إنه يجب لكل عمل إخلاص مفرد ، وقيل إنه يجوز تناول إخلاص واحد بجملة من العبادات . أما العمل ذو الأركان كالصلاة والوضوء فيكفيهما) أى الصلاة والوضوء (إخلاص واحد لأن بعضها) أى الأعمال ذوى الأركان

مُتَعَلِّقٌ بِبَعْضٍ صَلَاحًا وَفَسَادًا فَصَارَتْ كَشَيْءٍ وَاحِدٍ .

فَإِنْ قُلْتَ : إِنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الْخَيْرَ نَفْعًا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَلَا يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ شَيْئًا مِنْ مِدْحَةٍ أَوْ سُمْعَةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ أَيَكُونُ ذٰلِكَ رِيَاءً ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ مَحْضُ الرِّيَاءِ ، قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحِمَهُمُ اللهُ : الْاعْتِبَارُ فِي الرِّيَاءِ بِالْمُرَادِ ، لَا بِالَّذِي يُرِيدُ مِنْهُ ، فَإِنْ كَانَ مُرَادُكَ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ نَفْعًا دُنْيَوِيًّا فَإِنَّهُ رِيَاءٌ ، سَوَاءٌ أَرَدْتَهُ مِنَ اللهِ أَوْ مِنَ النَّاسِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) وَلَيْسَ الْاعْتِبَارُ بِلَفْظَةِ الرِّيَاءِ وَاشْتِقَاقِهَا مِنْ مَعْنَى الرُّؤْيَةِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ هٰذِهِ الْإِرَادَةُ الْفَاسِدَةُ بِهٰذَا الْاسْمِ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ مَا تَقَعُ ، وَتَكُونُ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ وَرُؤْيَتِهِمْ ، فَافْهَمْ .

(متعلق ببعض صلاحا وفسادا فصارت) أى تلك الأعمال المذكورة (كشىء واحد . فإن قلت إن أراد) العبد (بعمله الخير نفعا) دنيويا (من الله تعالى ولا يريد) بعمله (من الناس شيئا من مدحة) بكسر الميم (أو سمعة أو منفعة أيكون ذلك) أى قصد النفع الدنيوى بعمل الخير (رياء) أم لا؟ (فاعلم) هداك الله (أن ذلك) أى القصد المذكور (محض الرياء) أى خالصة (قال علماؤنا رحمهم الله : الاعتبار فى الرياء بالمراد لا بالذى يريد) العبد (منه ، فان كان مرادك من عمل الخير نفعاً دنيويا فانه رياء أردته) أى النفع الدنيوى (من الله) تعالى (أو) أردته (من الناس . قال الله تعالى من كان يريد) بعمله لله (حرث الآخرة) أى ثوابها شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ولذلك قيل . الدنيا مزرعة الآخرة ، والحرث فى الأصل إلقاء البذر فى الأرض ويقال للزرع الحاصل منه (نزد له فى حرثه)) أى بالتضعيف الواحدة إلى عشرة إلي ما يشاء الله من الزيادة وقيل أنا نزيد فى توفيقه وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات اليه (ومن كان يريد حرث الدنيا) يعنى يريد بعمله الدنيا مؤثرا لها على الآخرة (نؤته منها) أي ما قدر وقسم له من الدنيا (وماله فى الآخرة من نصيب) من ثواب لأنه عمل لغير الله . روى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والتمكين فى الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب » ذكره فى جامع الأصول ولم يعزه إلى أحد من الكتب الستة وأخرجه البغوى باسناده (وليس الاعتبار بلفظة الرياء) بالكسر ممدودا (واشتقاقها معنى الرؤية) وهى النظر بحاسة البصر ، وقد رأي الشخص رؤية (وإنما سميت هذه الإرادة الفاسدة) التى هي إرادة نفع الدنيا (بهذا الإسم) أى الرياء (لأنها) أى الإرادة الفاسدة (أكثر ما تقع وتكون من قبل الناس) أى جهتهم (ورؤيتهم فافهم) راشدا إن شاء الله تعالى :

فَإِنْ قُلْتَ : إِذَا كَانَ الْقَصْدُ مِنَ الدُّنْيَا الَّتِي يُرِيدُهَا مِنَ اللهِ التَّعَفُّفَ عَنِ النَّاسِ وَالْعُدَّةَ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ يَكُونُ ذَلِكَ رِيَاءً ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ التَّعَفُّفَ لَيْسَ فِي كَثْرَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْحُطَامِ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْقَنَاعَةِ وَالثِّقَةِ بِكِفَايَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ .

وَأَمَّا الْعُدَّةُ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، فَإِذَا كَانَ مُرَادُهُ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ رِيَاءً ، وَذَلِكَ مَا يَتَّصِلُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ وَأَسْبَابِهَا ، وَيَصِيرُ قَصْدُهُ قَطْعًا لِذَلِكَ ، فَإِنْ أُرِيدَ بِعَمَلِ الْخَيْرِ هَذَا النَّوْعُ لَا تَكُونُ تِلْكَ الْإِرَادَةُ رِيَاءً ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَصِيرُ بِتِلْكَ النِّيَّةِ خَيْرًا أَوْ تَصِيرُ فِي حُكْمِ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُ إِرَادَةُ الْخَيْرِ رِيَاءً ، وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ تَعْظِيمٌ عِنْدَ النَّاسِ ،

(فان قلت : إذا كان القصد من الدنيا التى يريدها من الله التعفف) أى طلب العفة والامتناع (عن الناس ، و) كان القصد منها أيضا (العدة على عبادة الله يكون ذلك) أى القصد والعدة (رياء) أم لا ؟ (فاعلم أن التعفف ليس فى كثرة المال والجاه والحطام) أى حطام الدنيا ومتاعها الذى يصير آخره فانيا (وإنما هو) أى التعفف (فى القناعة) أى الرضا باليسير من العطاء ، وفى شرح رسالة القشيرى أنها الاكتفاء بما تندفع به الحاجة من مأكل وملبس .

واعلم أنه لا شىء أعز من القناعة . قال عليه الصلاة والسلام « القناعة كنز لا يفني » ، وقد فسر بعض المفسرين الحياة الطيبة فى قوله تعالى « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة » بها ، وقال عليه الصلاة والسلام : « عز من قنع وذل من طمع » ، ولابن حجر العسقلانى :

أمتّ مطامعى ولزمت بيتى فطاب الأنس لى ونما السرور
وأدبنى الزمان فما أبالى أسار الجيش أم ركب الأمير
وأنسى والمجالس لى كتابى فريدا لا أزار ولا أزور

وكم ورد فى فضل القناعة من آيات وأخبار وآثار ليس هذا محل بسطها (و) فى (الثقة بكفاية الله سبحانه) فى شأن الرزق وغيره (وأما العدة على عبادة الله تعالى فاذا كان مراده) أى العبد (ذلك العدة) أى العدة (فلا يكون) قصده من الدنيا التى يريدها من الله بعمله (رياء وذلك) أى العدة (ما يتصل بأمر الآخرة وأسبابها ويصير قصده) أي العبد (قطعا) أى جزما (لذلك) العدة (فان أريد بعمل الخير هذا النوع) أى العدة (لا تكون تلك الإرادة رياء ، لأن هذه الأمور تصير بتلك النية) أى نية العدة للعبادة (خيرا أو تصير فى حكم أعمال الآخرة ولا تكون إرادة الخير رياء وكذلك) أى الصيرورة فى حكم أعمال الآخرة (إن أردت أن يكون لك تعظيم عند الناس

أَوْ مَحَبَّةٌ عِنْدَ الْمَشَايِخِ وَالْأَئِمَّةِ ، وَيَكُونُ قَصْدُكَ مِنْ ذٰلِكَ التَّمَكُّنَ مِنْ تَأْيِيدِ مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَقِّ أَوِ الرَّدَّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ أَوِ النَّشْرَ لِلْعِلْمِ أَوْ حَضَّ النَّاسِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَنَحْوَ ذٰلِكَ دُونَ أَنْ تَقْصِدَ بِذٰلِكَ شَرَفَ نَفْسِكَ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَوْ دُنْيَا تَنَالُهَا ، فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِرَادَةٌ شَدِيدَةٌ وَنِيَّاتٌ مَحْمُودَةٌ لَا يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنْهَا فِي بَابِ الرِّيَاءِ ، إِذِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا أَمْرُ الْآخِرَةِ بِالْحَقِيقَةِ .

وَاعْلَمْ أَنِّي سَأَلْتُ بَعْضَ مَشَايِخِنَا عَمَّا يَعْتَادُهُ أَوْلِيَاؤُنَا مِنْ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ فِي أَيَّامِ الْعُسْرَةِ ، أَلَيْسَ الْمُرَادُ بِذٰلِكَ أَنْ يَدْفَعَ اللّٰهُ تِلْكَ الشِّدَّةَ عَنْهُمْ ، وَيُوَسِّعَ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ ، فَكَيْفَ تَصِحُّ إِرَادَةُ مَتَاعِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ؟.

فَقَالَ فِي جَوَابِهِ رَحِمَهُ اللّٰهُ كَلَامًا مَعْنَاهُ : أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُمْ أَنْ يَرْزُقَهُمُ اللّٰهُ قَنَاعَةً أَوْ قُوتًا يَكُونُ لَهُمْ عُدَّةً عَلَى عِبَادَةِ اللّٰهِ وَقُوَّةً عَلَى دَرْسِ الْعِلْمِ ، وَهٰذِهِ مِنْ جُمْلَةِ إِرَادَاتِ الْخَيْرِ دُونَ الدُّنْيَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ السِّيرَةَ ،

أو محبة عند المشايخ والأئمة ويكون قصدك من ذلك) أى التعظيم أو المحبة (التمكن من تأييد) أى تقوية (مذهب أهل الحق ، أو) يكون قصدك من ذلك (الرد على أهل البدع أو النشر للعلم أو حض الناس على العبادة ونحو ذلك) من المقاصد الخيرات (دون أن تقصد بذلك) أى التعظيم أو المحبة (شرف نفسك من حيث هى ، أو) تقصد (دنيا تنالها فان هذه) المذكورات من قصد التمكن من تأييد مذهب أهل الحق وما بعده (كلها إرادة سديدة) أى مستقيمة (ونيات محمودة لا يدخل شيء منها) أى من الإرادات المذكورة (فى باب الرياء إذ المقصود منها أمر الآخرة بالحقيقة . واعلم أنى سألت بعض مشايخنا) رحمه الله (عما يعتاده أولياؤنا من قراءة سورة الواقعة فى أيام العسرة) أى فى زمان الشدة (أليس المراد بذلك) أى بقراءتها (أن يدفع الله تلك الشدة عنهم) أى عن أوليائنا (و) أن (يوسع عليهم شيئا من الدنيا على ما جرت به العادة فكيف تصح إرادة متاع الدنيا بعمل الآخرة ؟ فقال) بعض مشايخنا (فى جوابه رحمه الله كلاما معناه أن المراد منهم) أى من الأولياء الذين يقرءون سورة الواقعة حالة الشدة (أن يرزقهم الله قناعة أو قوتا يكون) ذلك القوت (لهم عدة على عبادة الله وقوة على درس العلم ، وهذه) الإرادة (من جملة إرادات الخير دون) جملة إرادات (الدنيا . واعلم أن هذه السيرة) بكسر

أَعْنِي قِرَاءَةَ هٰذِهِ السُّورَةِ عِنْدَ الشِّدَّةِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَالْخَصَاصَةِ ، إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ الْمَأْثُورَةُ عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وَعَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، حَتَّى أَنَّ أَبِي مَسْعُودٍ حِينَ عُوتِبَ فِي أَمْرِ وَلَدِهِ ، إِذْ لَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا ، قال لَقَدْ خَلَّفْتُ لَهُمْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ ، وَمِنْ ذٰلِكَ الْأَصْلِ فِي السَّنَةِ جَرَتْ هٰذِهِ الْخَصْلَةُ فِي سِيَرِ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ ، وَإِلَّا فَلَا مُبَالَاةَ لَهُمْ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى بِشِدَّةٍ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا أَوْ سَعَةٍ ، وَهُمْ

السين وسكون الياء : أى الطريقة والحالة (أعنى قراءة هذه السورة) أى سورة الواقعة (عند الشدة) والعسرة (فى أمر الرزق والخصاصة) أى الحاجة (إنما هو) أى المذكور من السيرة (شىء وردت به الأخبار المأثورة) أى المنقولة (عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين) منها ما رواه البغوى بسنده عن أبى ظبية عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » وكان أبو ظبية لا يدعها أبدا ، وأخرجه ابن الأثير فى كتابه جامع الأصول ولم يعزه (حتى إن) عبد الله (بن مسعود) الصحابى ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثا اتفق البخارى ومسلم منها على أربعة وستين وانفرد البخارى بأحد وعشرين ومسلم بخمسة وثلاثين (حين عوتب فى أمر ولده إذ لم يترك لهم) أى الأولاد (من الدنيا شيئا قال) ابن مسعود (لقد خلفت) أى تركت (لهم سورة الواقعة) وذكر أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد والتعليق والثعلبي أيضا أن عثمان بن عفان دخل على ابن مسعود يعوده فى مرضه الذى مات منه فقال ما تشتكي ؟ قال ذنوبى . قال فما تشتهى ؟ قال رحمة ربى . قال أفلا ندعو لك طبيبا ؟ قال الطبيب أمرضنى . قال أفلا نأمر لك بعطائك ؟ قال لا حاجة لى فيه ، حبسته عنى فى حياتى وتدفعه لى عند مماتى . قال يكون لبناتك من بعدك .قال : أتخشى على بناتى الفاقة من بعدى إنى أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة فانى سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » . قال العلامة عبد الحق : وكان لابن مسعود ثلاثة بنين وهم عبد الرحمن وبه كان يكنى وعتبة وأبو عبيدة ، واسم أبى عبيدة عامر ، وقيل اسمه كنيته واتفقوا على أن أبا عبيدة لم يسمع أباه ورواياته عنه كثيرة وكلها منقطعة ، وأما عبد الرحمن فقال على بن المدينى والأكثرون سمع أباه ، وقال أحمد بن حنبل توفى ابن مسعود ولابنه عبد الرحمن ست سنين ، وقال يحي بن معين : لم يسمع أباه (ومن ذلك الأصل) من الأخبار (فى السنة) أى القحط (جرت هذه الخصلة) وهى قراءة سورة الواقعة عند العسرة (فى سير علمائنا) أي طريقتهم فالسير بكسر السين وفتح الياء جمع سيرة بسكون الياء بمعنى الطريقة والحالة والهيئة (رحمهم الله وإلا) يكن الأصل فى السنة (فلا مبالاة لهم بحمد الله بشدة) أى بعسرة (فى أمر الدنيا أو سعة ، وهم) أى علماؤنا

الذِينَ يَفْتَنِمُونَ ضِيقَ الدُّنيا وَعُسْرَهَا ، وَيَتَغَالَوْنَ فِى ذَٰلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيَعُدُّونَهُ مِنَ اللهِ تَعالى مِنَّةً عَظِيمَةً ، وَيَخَافُونَ إِذَا بَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ سَعَةٌ مِنَ الدُّنْيَا الَّتِى لاَ يَعُدُّهَا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ الْإِحْسَانَ وَالنِّعْمَةَ ، أَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ اسْتِدْرَاجًا مِنَ اللهِ تَعَالى وَمُصِيبَةً ؛ كَيْفَ وَبِطَانَتُهُمُ الْأَسْفَارُ وَالطَّىُّ فِى عُمُومِ الْأَحْوَالِ ، وَمُقَدَّمُوهُمْ يَقُولُونَ : الْجُوعُ رَأْسُ مَالِنَا ، فَهَذَا وَضْعُ مَذْهَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَهُوَ مَذْهَبِى وَمَذْهَبُ أَشْيَاخِى ، وَبِذَٰلِكَ جَرَتْ سِيرَةُ سَلَفِنَا . وَأَمَّا تَقْصِيرُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ فَلاَ يُعْتَبَرُ بِهِ . وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هٰذَا الْفَصْلَ لِئَلاَّ يَغْمِزَ فِيهِمْ مُخَالِفٌ جَهْلاً مِنْهُ بِمَقَاصِدِ الْقَوْمِ ،

(الذين يغتنمون ضيق الدنيا وعسرها ويتغالون) أى يشددون حتى يتجاوزوا الحد (فى ذلك) أى ضيق الدنيا وعسرها (فيما بينهم ويعدونه) أى الضيق والعسر (من الله تعالى منة عظيمة ويخافون) أى هؤلاء السلف (إذا بدا) أى ظهر (لهم من الله : سعة من الدنيا التى لا يعدّها أكثر الناس إلا الإحسان والنعمة أن يكون ذلك) أى بدو السعة من الدنيا وظهورها (استدراجا) هو ترك المعاجلة، وأصله النقل من حال إلى حال . قال تعالى «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» أى سنأخذهم بعظمتنا على التدريج لا على غرة فى عذاب لا شك فيه : قال الحسن البصرى : كم مستدرج بالإحسان إليه وكم مفتون بالثناء عليه وكم مغرور بالستر عليه (من الله تعالى ومصيبة كيف وبطانتهم) أى محبوبهم (الأسفار والطىّ) أى الجوع (فى عموم الأحوال ، ومقدموهم يقولون الجوع رأس مالنا ، فهذا) الذى ذكرناه (وضع) أى أصل (مذهب أهل التصوف وهو مذهبى ومذهب أشياخى ، وبذلك) المذهب (جرت سيرة سلفنا) قال المحاسبى : ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته من الله تعالى وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين ، وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شىء أصبح كئيبا حزينا وإذا لم يكن عندهم شىء أصبح فرحا مسرورا فقيل له إن الناس إذا لم يكن عندهم شىء حزنوا وإذا كان عندهم شىء فرحوا وأنت لست كذلك . قال إنى إذا أصبحت وليس عند عيالى شىء فرحت إذ كان لى برسول الله ﷺ أسوة وإذا كان عند عيالى شىء اغتممت إذ لم يكن لى بآل محمد أسوة وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا : الآن تعاهدنا ربنا : أى نظر إلينا بالرضى فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا (وأما تقصير بعض المتأخرين فلا يعتبر به ، وإنما ذكرنا هذا الفصل لئلا يغمز) أي يعيب (فيهم) أى فى هؤلاء السلف (مخالف جهلا منه) أى من المخالف (بمقاصد القوم

فِي أُمُورِهِمْ أَوْ يَغْلَطُ فِيهِمْ مُبْتَدِئٌ سَلِيمُ الصَّدْرِ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْعِلْمِ حَقَّهُ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَلِيقُ هٰذَا بِحَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّجَرُّدِ وَالزُّهْدِ وَأَرْبَابِ الصَّبْرِ وَالرِّيَاضَةِ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا الشَّيْءَ مَأْخُوذٌ مِنَ السُّنَّةِ ثُمَّ الْمَقْصُودُ حُصُولُ الْقَنَاعَةِ وَالْعُدَّةُ لَا اتِّبَاعُ الشَّرَهِ وَالشَّهْوَةِ وَالضَّعْفِ عَنِ احْتِمَالِ الْعُسْرَةِ وَالشِّدَّةِ، وَأَكْثَرُ مَاتَرَى فِي عَقِبِ ذٰلِكَ قَنَاعَةُ الْقَلْبِ وَفَقْدُ كَلَبِ الْجُوعِ وَضَعْفُهُ وَسُلُوُّهُ عَنِ الطَّعَامِ وَنَهْمَتِهِ، وَقَدْ عَلِمَ ذٰلِكَ مَنِ امْتَحَنَهُ فَاعْلَمْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى.

الْقَادِحُ الثَّانِي الْعُجْبُ

فى أمورهم ، أو) لئلا (يغلط فيهم مبتدئ سليم الصدر لم يأخذ من العلم حقه . فان قيل كيف يليق هذا) أى جريان الخصلة المذكورة وهى قراءة سورة الواقعة فى أيام العسرة والشدة (بحال أهل العلم والتجرد) للعبادة (والزهد وأرباب) أى أصحاب (الصبر والرياضة فاعلم أن هذا) أى المذكور من القراءة فى الأوقات المذكورة (شيء مأخوذ من السنة) أى الطريقة النبوية (ثم المقصود) من القراءة (حصول القناعة والعدة) على عبادة الله والقوة على درس العلم (لا اتباع الشره) أى غلبة الحرص كما فى المختار (والشهوة والضعف عن احتمال العسرة والشدة وأكثر ما ترى فى عقب ذلك) أى قراءة سورة الواقعة (قناعة القلب وفقد كلب الجوع وضعفه وسلوه) أى إبعاده وصبره (عن الطعام و) فقد (نهمته) أي حرصه (وقد علم ذلك) المذكور من القناعة وما بعدها (من امتحنه) وجربه (فاعلم هذه الجملة) التى ذكرناها (موفقا إن شاء الله تعالى . القادح الثانى العجب) بطاعة الله سبحانه وتعالى من صلاة وغيرها ، وهو شهود العبادة صادرة من النفس حال كون المطيع غائبا عن المنة التى منّ الله تعالى عليه بها حتى تقوى لها فاعتقد كمال نفسه وفرح بذلك الكمال ونسى الكبير المتعال وماخاف عليها من الزوال ، وفى الزواجر أنه استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى الله تعالى فان انضم لذلك توقعه جزاء عليها لاعتقاده أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان سمى مدلا ، فالإدلال أخص من العجب وأنه من الكبائر المهلكات كما صرح به القرطبى وغيره لقوله عليه الصلاة والسلام « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب وان العجب يحبط عمل سبعين سنة ولو كان العجب رجلا لكان رجل سوء » وبينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه مرجل : أى ممشط رأسه مختال فى مشيه إذ خسف الله به فهو يتجلجل : أى يغوص فى الأرض إلى يوم القيامة . وقد ذمه الله سبحانه وتعالى بقوله « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم » وبقوله « أنهم يحسنون صنعا » فقد يعجب الانسان بعمله وهو مصيب فيه أو مخطىء . وعن ابن عباس « الهلاك فى اثنتين : القنوط والعجب » أى لأن القانط آيس من نفع الأعمال ومن لازمه تركها ،

وَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ اجْتِنَابُهُ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَحْجُبُ عَنِ التَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيدِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ الْمُعْجَبَ مَخْذُولٌ ، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنِ الْعَبْدِ التَّأْيِيدُ وَالتَّوْفِيقُ مِنَ اللهِ تَعَالَى فَمَا أَسْرَعَ مَا يَهْلِكُ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ ،

والمعجب يرى أنه ظفر بمراده فلا يحتاج إليها ، ولذا قال تعالى « فلا تزكوا أنفسكم » ومن تزكيتها اعتقاد أنها بارة وهو معنى العجب ، وعن مطرف رحمه الله : لأن أبيت نائما وأصبح نادما ، أحب إلى من أن أبيت قائما وأصبح معجبا .

واعلم أن له آفات كثيرة كتولد الكبر منه فآفات الكبر آفات له ، وكظنه أنه لا يؤاخذ بالذنوب فلا يتدارك فرطتها واستعظام عبادته ، ومنه على الله بها فيعمى عن تفقد آفاتها فيضيع سعيه أو أكثره إذ العمل ما لم يتنق لا ينفع ، وإنما يحمل على تنقيته منها الخوف ، والمعجب غرته نفسه وأعجب برأيه وعقله وعمله حتى استبد بذلك ولم تطمئن نفسه أن يرجع لغيره فى علم أو عمل فلايسمع نصحا ولا وعظاً لنظره غيره بعين الاحتقار فعلم أنه إنما يكون بوصف كمال فى حد ذاته لكن مادام صاحبه خائفا من سلبه فهو غير معجب به ، وكذا لو فرح به من حيث إنه نعمة من الله بخلافه من حيث إنه كمال متصف به مع قطعه النظر عن نسبته إلى الله فإنه العجب .

واعلم أن الفرق بينه وبين الكبر : إما باطن وهو خلق فى النفس ، واسم الكبر بذا أحق ، وإما ظاهر وهو أعمال تصدر من الجوارح ، وهى ثمرات ذلك الخلق وعند ظهورها يقال تكبر وعند عدمها يقال فى نفسه كبر ، فالأصل هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فهو يستدعى متكبرا عليه ومتكبرا به ، والعجب لا يستدعى غير المعجب به حتى لو فرض انفراده دائما أمكن أن يقع منه، ومجرد استعظام الشيء لايقتضى التكبر إلا إن كان ثم من يرى أنه فوقه (وإنما يلزمك اجتنابه) أى العجب (لأمرين : أحدهما أنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى فإن المعجب) بنفسه أو برأيه (مخذول فإذا انقطع عن العبد التأييد والتوفيق من الله تعالى فما أسرع) صيغة تعجب (ما يهلك، ولذلك) أى لأجل سرعة الهلاك عند انقطاع ما ذكر (قال النبى صلى الله عليه وسلم) فيما رواه أبو بكر البزار فى مسنده وأبو نعيم فى الحلية من رواية زائدة بن أبى الرقاد عن زياد النميرى عن أنس بن مالك رفعه : ثلاث كفارات وثلاث درجات وثلاث منجيات (وثلاث مهلكات) أى موقعات فى الهلاك لفاعلها ، أما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة وإسباغ الوضوء فى البردات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات . وأما الدرجات فإطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام . وأما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضى والقصد فى الفقر والغنى وخشية الله فى السر والعلانية . وأما المهلكات ف(شح مطاع) أى بخل يطيعه الانسان فلايؤدى ما عليه من حق الحق وحق الخلق . قال الراغب : خص المطاع لينبه أن الشح فى النفس ليس

وَهوًى مُتَّبَعٌ وَإِعجابُ المَرْءِ بِنفْسِهِ» وَالثَّانِي أَنَّهُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ الصّالِحَ، وَلِذٰلِكَ قالَ المَسِيحُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يَا مَعْشَرَ الحَوارِيِّينَ كَمْ مِنْ سِرَاجٍ قَدْ أَطْفَأَتْهُ الرِّيحُ، وَكَمْ مِنْ عَابِدٍ قَدْ أَفْسَدَهُ الْعُجْبُ. وَإِذَا كانَ المَقْصُودُ وَالْفَائِدَةُ الْعِبَادَةَ، وَهٰذِهِ الْخَصْلَةِ تَحْرِمُ الْعَبْدَ حَتَّى لَا يَحْصُلَ لَهُ خَيْرٌ فَإِنْ حَصَلَ لَهُ خَيْرٌ فَقَلِيلٌ مِنْ ذٰلِكَ يُفْسِدُهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى

مما يستحق به ذم إذ ليس هو من فعله وإنما يذم بالانقياد له (وهوى) بالقصر (متبع) بأن يتبع ما يأمره به هواه (وإعجاب المرء بنفسه) أى ملاحظته إياها بعين الكمال مع نسيان نعمة ذي الجلال والجمال . قال العلامة الزبيدى : وقد أخرج هذا الحديث بتلك الزيادة أيضا أبو الشيخ فى التوبيخ وقد روى مقتصرا على ذكر المهلكات كما هو للمصنف رحمه الله من رواية أيوب بن عتبة عن الفضل بن بكر عن قتادة عن أنس وهكذا رواه البيهقى فى شعب الإيمان وكلا الإسنادين ضعيف ، ورواه ابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من رواية حميد بن الحكم عن الحسن عن أنس ؛ ويروى أيضا عن ابن عمر أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية ابن لهيعة عن عطاء ابن دينار عن سعيد بن جبير عنه . وأخرج ابن حبان فى الضعفاء من رواية محمد بن عون الخراسانى عن محمد بن زيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه « المهلكات ثلاث : إعجاب المرء بنفسه وشح مطاع ، وهوى متبع » ورواه ابن عدى من هذا الوجه ، ومن رواية عيسى بن ميمون عن محمد بن كعب عن ابن عباس ، وفى الباب عن أبى هريرة وابن أبى أوفى وأبى ثعلبة (والثانى) من الأمرين (أنه) أى العجب (يفسد العمل الصالح ؛ ولذلك) أى لأجل أن العجب يفسد العمل الصالح (قال المسيح) عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام : يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته) أى سكنته وأخمدته (الريح) وهى الهواء المسخر بين السماء والأرض ، وأصلها الواو بدليل تصغيرها على رويحة لكن قلبت ياء لانكسار ما قبلها ، والجمع أرواح ورياح ، وبعضهم يقول : أرياح بالياء على لفظ الواحد، وغلطه أبو حاتم ، والريح مؤنثة على الأكثر فيقال هى الريح وقد تذكر على معنى الهواء فيقال هو الريح وهب الريح ، نقله أبو زيد . وقال ابن الأنبارى : الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر ، والريح أربع : الشمال وتأتى من ناحية الشام وهى حارة فى الصيف بارح ، والجنوب تقابلها وهى الريح اليمانية . والثالثة الصبا وتأتى من مطلع الشمس وهى القبول . والرابع الدبور وتأتى من ناحية المغرب (وكم من عابد قد أفسده العجب) بعبادته (وإذا كان المقصود والفائدة) هى (العبادة) الخالصة (وهذه الخصلة) أى العجب (تحرم العبد) أى تمنعه عن التأييد والتوفيق (حتى لا يحصل له) أى للعبد (خير فإن حصل له خير فقليل من ذلك) العجب (يفسده) أى الخير (حتى لا يبقى

بِيَدِهِ شيء فَحَقِيقٌ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ ذَلِكَ وَيَتَحَفَّظَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حَقِيقَةُ الْعُجْبِ وَمَا مَعْنَاهُ وَمَا تَأْثِيرُهُ وَمَا حُكْمُهُ فَبَيِّنْ لَنَا ذَلِكَ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ حَقِيقَةَ الْعُجْبِ اسْتِعْظَامُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَتَفْصِيلُهُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللهُ ذِكْرُ الْعَبْدِ حُصُولَ شَرَفِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ بِشَيْءٍ دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوِ النَّاسِ أَوِ النَّفْسِ قَالُوا : وَقَدْ يَكُونُ الْعُجْبُ مُثَلَّثاً بِأَنْ يَذْكُرَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعاً النَّفْسُ وَالْخَلْقُ وَالشَّيْءُ، وَمُثَنًّى بِأَنْ يَذْكُرَهُ مِنِ اثْنَيْنِ، وَمُوَحَّداً بِأَنْ يَذْكُرَهُ مِنْ وَاحِدٍ. وَضِدُّ الْعُجْبِ ذِكْرُ الْمِنَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ أَنَّهُ

بيده) أى العبد (شىء فحقيق أن) أى بأن (يحذر من ذلك) العجب (ويتحفظ ، والله تعالى ولى التوفيق والعصمة . فإن قيل : فما حقيقة العجب ، وما معناه وما تأثيره) ؟ فى العمل (وحكمه فبين لنا ذلك) المذكور من حقيقة العجب ومعناه وتأثيره وحكمه (فاعلم) هداك الله تعالى (أن حقيقة العجب استعظام العمل الصالح) والركون إليه مع نسيان إضافته إلى الله تعالى ، فإن انضاف إلى ذلك توقع الجزاء بعمله لاعتقاده أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان رفيع، سمى هذا إدلالا بالعمل كما تقدم فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وقال قتادة بن دعامة رحمه الله فى قوله تعالى « ولا تمنن تستكثر » أى ولا تدل بعملك ؛ وروى عبد بن حميد عن ابن عباس قال : معناه أن تستكثر عملك . وعن مجاهد قال : لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر الخير ، ورواه كذلك ابن المنذر ، وفى الخبر : «إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك » والإدلال وراء العجب فلا مدل إلا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ؛ والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء ، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق، ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه فإنه إذا وجد ذلك ترشح منه وصف الكبر(وتفصيله) أى العجب (عند علمائنا رحمهم الله : ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشىء دون الله) أى غيره (عز وجل أو الناس أو النفس ؛ قالوا) رحمهم الله (وقد يكون العجب مثلثا بأن يذكر) العبد (ذلك) أى حصول الشرف (من هذه الثلاثة جميعا) وهى(النفس والخلق والشىء و) قد يكون العجب (مثنى بأن يذكره) أى يذكر العبد حصول ذلك الشرف (من اثنين) من الثلاثة (و) قد يكون (موحدا بأن يذكره من واحد) منها (وضد العجب ذكر المنة ، وهو) أى ذكر المنة (أن يذكر) العبد (أنه) أى حصول شرف العمل

بِتَوْفِيقِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَأَنَّهُ الَّذِى شَرَّفَهُ وَعَظَّمَ ثَوَابَهُ وَقَدْرَهُ ، وَهٰذَا الذِّكْرُ فَرْضٌ عِنْدَ دَوَاعِي العُجْبِ نَفلٌ فى سَائِرِ الأَوْقَاتِ .

(بتوفيق الله سبحانه وأنه) تعالى هو (الذى شرفه) أى العمل (وعظم) سبحانه (ثوابه وقدره وهذا الذكر) أى ذكر المنة (فرض عند دواعى العجب) أى أسبابه (نفل فى سائر الأوقات).

واعلم أن كل علة علاجها إنما يكون بضدها ، وعلة العجب الجهل المحض وشفاؤها المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ؛ وهو النظر إلى ما لا ينكره أحد ، وهو أنه تعالى هو المقدر لك على نحو العلم والعمل والمنعم عليك بالتوفيق لحيازته ويجعلك ذا نسب أو مال أو جاه . وكيف يعجب الشخص بما ليس إليه ولا منه وكونه محلا له لا يجديه شيئا لأن المحل لا مدخل له فى الإيجاد والتحصيل، وكونه سببا فيه نزول ملاحظته له إذا تأمل أن الأسباب لا تأثير لها وإنما التأثير لموجدها ، فينبغى أن لا يكون إعجابه إلا بما أسداه إليه الحق وأجراه عليه وآثره به دون غيره من مزايا جوده وكرمه مع عدم سابقة استحقاق منه لذلك . فان قال لولا ما علم فيّ من صفات محمودة ما آثرنى بذلك ، قيل له. وتلك الصفات أيضا من خلقه . قال السمرقندى : ومن أراد أن يكسر العجب فعليه بأن يرى التوفيق من الله تعالى فيشتغل حينئذ بالشكر ولا يعجب بنفسه ، وأن ينظر لنعمائه عليه فيشتغل بالشكر عليها ويستقل عمله فلا يعجب به ، وأن يخاف عدم قبوله فيشتغل به ولا يعجب بنفسه ،وأن ينظر فى ذنوبه ويخاف أن ترجح سيئاته بحسناته . وكيف يعجب المرء بعمله ولا يدرى ما يخرج من كتابه يوم القيامة . قال ابن حجر فى الزواجر : وكيف يسوغ لمن انطوى عنه علم خاتمته أن يعجب بأي نوع من أنواعه ، فلا أعبد من إبليس وبلعام ولا أقرب ولا أشفق من أبى طالب على نبينا صلى الله عليه وسلم، ولاأشرف من الجنة ومكة ، وقد علمت ماوقع لأولئك من خاتمة السوء والعياذ بالله تعالى وماوقع لآدم فى الجنة ولكفار مكة فيها ، فاحذر العجب والغرور بنسب أو علم أو محل أوغير ذلك .

هذا كله إن كنت تعجب بحق فكيف وكثيرا ما يقع بباطل ، قال تعالى « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » الآية، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم « إن هذا يغلب على آخر هذه الأمة » إذ جميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم الفاسدة و بذلك هلكت الأمم السابقة لما افترقوا فرقا وأعجب كل برأيه « كل حزب بما لديهم فرحون ــ فذرهم فى غمرتهم حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون » أى أن ذلك كان مقتا واستدراجا « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » قال فى روح البيان فى سورة الحج: وفى الخبر « إن الله تعالى قال للنبى صلى الله عليه وسلم « قل للقوى لا تعجبنك قوتك فان أعجبتك قوتك فادفع الموت عن نفسك وقل للعالم لا يعجبنك علمك فأخبرنى متى أجلك؟ وقل للغنى لا يعجبنك مالك وغناك فان أعجبك فأطعم خلقى غداء واحدا » فالإنسان عاجز والله على كل شىء قدير ومنه النعمة إلى الصغير والكبير

وَأَمَّا تَأْثِيرُ الْعُجْبِ فِى الْعَمَلِ ، قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : الْمُعْجِبُ يَنْتَظِرُ الْإِحْبَاطَ فَإِنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ سَلِمَ وَإِلاَّ أُحْبِطَ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ صَابِرٍ مِنْ شُيُوخِ الْكَرَّامِيَّةِ ، وَالْإِحْبَاطُ عِنْدَهُ أَنْ يَذْهَبَ عَنِ الْعَمَلِ جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَةِ حَتَّى لاَ يَسْتَحِقَّ بِذَلِكَ ثَوَاباً وَلاَ مِدْحَةً أَلْبَتَّةَ ، وَفِى قَوْلِ غَيْرِهِ : هُوَ ذَهَابُ الْإِضْعَافِ لاَ غَيْرُ .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ يَلْتَبِسُ عَلَى الْعَبْدِ الْعَارِفِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِى وَفَّقَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَعَظَّمَ قَدْرَهُ وَأَكْثَرَ ثَوَابَهُ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ هٰهُنَا نُكْتَةً لَطِيفَةً وَذَخِيرَةً شَرِيفَةً ، وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ فِى الْعُجْبِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ هُمُ الْمُعْجَبُونَ بِكُلِّ حَالٍ ، وَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْقَدَرِيَّةُ ،

تأثير العجب فى العمل) فقد (قال بعض علمائنا : المعجب) بعمله (ينتظر الإحباط ، فان تاب قبل موته) أى المعجب (سلم) من الإحباط (وإلا) أى وإن لم يتب قبل موته بأن مات مصرا على ذلك الإعجاب (أحبط) عمله (واليه) أى إلى هذا القول (ذهب محمد بن صابر من شيوخ الكرامية ، والإحباط عنده) أى عند ابن صابر (أن يذهب عن العمل جميع الأسماء الحسنة حتى لا يستحق) العبد (بذلك) العمل الذى أحبط (ثوابا ولا مدحة) بكسر الميم (ألبتة) أى قطعا (وفى قول غيره) أى ابن صابر من الأئمة (هو) أى الاحباط (ذهاب الإضعاف لا غير) ذلك (فان قلت كيف يلتبس) أى يشتبه ويختلط (على العبد العارف) بربه جل وعز (أن الله تعالى هو الذى وفق للعمل الصالح وعظم قدره وأكثر ثوابه) أى ذلك العمل (بفضله) تعالى (ومنه) وكرمه (فاعلم أن ههنا) أى فى مسئلة العجب (نكتة لطيفة وذخيرة شريفة ، وهو) أى ما ذكر من النكتة اللطيفة (أن الناس فى العجب ثلاثة أصناف : صنف هم المعجبون بكل حال وهم المعتزلة) قال السعد التفتازانى : المعتزلة أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظواهر السنة ، وجرى عليه جماعة الصحابة فى باب العقائد . وذلك أن رئيسهم واصل بن عطاء اعتزل عن مجلس الحسن البصرى يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين . قال الحسن البصرى : قد اعتزل عنا فسموا المعتزلة وهم سموا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب إثابة المطيع وعقاب العاصى على الله تعالى ونفى الصفات القديمة عنه إلى آخر ما أطال به (والقدرية) قال العلامة عبدالحق : هم قوم جاحدو القدر ويقولون إن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصى . وقال بعضهم : هى لقب المعتزلة فى المواقف للعضد ويلقبون : أى المعتزلة بالقدرية لاسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم ، قالوا إن من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى أولى باسم القدرية منا . قال الإمام : هذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهتة وتواقع فان أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى ويضيفون القدرة والأفعال إلى الله

الذينَ لاَ يَرَوْنَ للهِ عَلَيْهِمْ مِنةً فى أَفْعَالِهِمْ ، وَيُنْكِرُونَ العَوْنَ وَالتَّوْفِيقَ الخَاصَّ وَاللُّطفَ وَذٰلِكَ لِشُبْهَةٍ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ. وَصِنْفٌ هُمُ الذَّاكِرُونَ للهِ المِنَّةَ بِكُلِّ حَالٍ، وَهُمُ المُسْتَقِيمُونَ لاَ يَعْجَبونَ بِشَىْءٍ مِنَ الأَعْمَالِ ، وَذٰلِكَ لبَصِيرَةٍ أُكْرِمُوا بِهَا وَتَأْيِيدٍ خُصُّوا بِهِ . وَالثَّالِثُ وَهُمُ المُخْلِطُونَ ، وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، تَارَةً يَنْتَبِهُونَ فَيَذْكُرُونَ مِنَّةَ اللهِ ، وَتَارَةً يَغْفُلُونَ فَيَعْجَبُونَ بِذٰلِكَ لِمَكَانِ الغَفْلَةِ العَارِضَةِ وَالْفَتْرَةِ فى الاجْتِهَادِ ، وَالنَّقْصِ فى البَصِيرَةِ .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ حَالُ القَدَرِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ فِى أَفْعَالِهِمْ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ فى ذٰلِكَ اخْتِلاَفَاتٍ .

تعالى وهؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم ومدعى الشيء لنفسه ومضيفه اليها أولى بأن ينسب اليه ممن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه ، وفى الحديث «القدرية مجوس هذه الأمة» ، رواه أبو داود والحاكم وصححه على شرط الشيخين شبهم لتقسيمهم الخير والشر فى حكم الإرادة كما قسمت المجوس فصرفت الخير إلى يزدان والشر إلى أهرمن ، ولا خفاء فى اختصاص هذا الحديث بالقدرية هذا كلام الإمام وهناك أوجه أخر فى وجه التشبيه (الذين لا يرون) أي لا يعتقدون (لله عليهم منة فى أفعالهم وينكرون العون والتوفيق الخاص واللطف وذلك) أى عدم اعتقادهم وإنكارهم ماذكر (لشبهة استولت) أى غلبت (عليهم) ومن جملة شبهاتهم قولهم : إن الخير من الله والشر من العبد مستدلين بقوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك.» والجواب عنه أن التقدير من فعل نفسك لئلا يضيف الشر إلى الله عند الانفراد مراعاة للأدب وإن كان ذلك بتخليق الله وتسميته شرا بالنسبة إلى تعلقه بنا وضرره لنا لا بالنسبة إلى صدوره منه سبحانه ، وهذا أحد معانى حديث « والشر ليس إليك» وذلك لأن الاضافة على نوعين إضافة تحقيق وإضافة إكرام . فأما إضافة التحقيق فمثل قوله تعالى « ولله ملك السموات والأرض » وأما إضافة الاكرام فمثل قوله تعالى « ناقة الله – ورسول الله » ثم الطاعة مكرمة مرضية فجاز أن تضاف إلى الله عند الانفراد فيقال الخير من الله والمعصية ليست بمحل الإكرام حتى تضاف إلى الله عند الانفراد بل عند الجملة كما قال « قل كل من عند الله » فانه لا يقال يا خالق الخنزير والعقارب والحيات مراعاة للأدب ، بل يقال يا خالق كل شيء كذا أفاده بعض المحققين (وصنف هم الذاكرون لله المنة بكل حال وهم المستقيمون)على عبادة ربهم (لا يعجبون بشيء من الأعمال ، وذلك) أى ذكرهم المنة لله واستقامتهم على العبادة (لبصيرة) أى علم وخبرة فى قلوبهم (أكرموا بها وتأييد) وتوفيق (خصوا به) أى بالتأييد (والثالث وهم المخلطون) أعمالهم (وهم عامة أهل السنة) والجماعة : أى أكثرهم (تارة ينتبهون فيذكرون منة الله وتارة يغفلون فيعجبون بذلك) أى بأعمالهم (لمكان) أى لأجل (الغفلة العارضة والفترة فى الاجتهاد والنقص فى البصيرة. فإن قلت : كيف حال القدرية والمعتزلة فى أفعالهم فاعلم أن فى ذلك) أى فى أعمالهم (اختلافات .

فَقِيلَ إِنَّهُ مُحْبِطٌ لِمَكَانِ اعْتِقَادِهِمْ .

وَقِيلَ : لاَ يُحْبِطُ عَمَلٌ بِاعْتِقَادٍ فِى الْجُمْلَةِ مِنْ فِرَقِ الْإِسْلاَمِ حَتَّى يَخُصَّ كُلَّ عَمَلٍ بِإِعْجَابٍ كَمَا أَنَّ اعْتِقَادَ أَهْلِ السُّنَّةِ لاَ يَمْنَعُ الْعُجْبَ فِى كُلِّ عَمَلٍ حَتَّى يَخُصَّهُ بِذِكْرِ الْمِنَّةِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَهَلْ سِوَى الْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ مِنْ قَادِحٍ فِى الْعَمَلِ ؟ قِيلَ لَهُ أَجَلْ : إِنَّ فِيهِ الْقَوَادِحَ سِوَاهُمَا لَكِنَّا خَصَّصْنَاهُمَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا الْأَصْلُ الَّذِى يَدُورُ عَلَيْهِمَا مُعْظَمُ الْأَبْوَابِ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ إِنَّ حَقَّ الْعَبْدِ أَنْ يَتَحَفَّظَ فِى الْعَمَلِ مِنْ عَشَرَةِ أَشْيَاءَ : النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ وَالتَّخْلِيطِ وَالْمَنِّ

فقيل إنه) أى عملهم (محبط لمكان اعتقادهم) أى القدرية والمعتزلة (وقيل لا يحبط عمل باعتقاد فى الجملة من فرق الاسلام حتى يخص كل عمل بإعجاب كما أن اعتقاد أهل السنة) قال الفاضل العدوى فى حاشيته على الشيخ عبدالسلام : وأهل السنة من اتصف بمزاولتها : أى السنة والعمل بمقتضاها من أشاعرة وماتريدية وهى أقواله صلى الله عليه وسلم وتقريراته وغيرذلك ، وإنما لم يسموا بأهل الكتاب لما فيه من الإبهام إذ أهل الكتاب المراد بهم اليهود والنصارى (لا يمنع العجب فى كل عمل حتى يخصه بذكر المنة) لله عز وجل (فان قيل فهل سوى العجب والرياء) أى غيرهما (من قادح فى العمل) أم لا يكون غير ذلك (قيل له) أى للقائل المذكور (أجل) حرف جواب مثل نعم (إن فيه) أى العمل (القوادح سواهما) أى العجب والرياء (لكنا خصصناهما بالذكر لأنهما الأصل الذى يدور عليهما معظم الأبواب) أى أكثر أبواب القوادح للأعمال (وقد قال بعض المشايخ) رحمه الله (إن حق العبد أن يتحفظ فى العمل من عشرة أشياء) : أحدها (النفاق) وهو التقرب إلى غير الله سبحانه ، وذلك لأنه يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد الكريم من الله العظيم (و) ثانيها (الرياء) وهو طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم خصال الخير ولا يقع غالبا إلا عن غفلة عن الخالق وعماية عنه ، ومطلوبية الحفظ عن هذا الرياء لأنه الشرك الأصغر كما ورد فى الخبر (و) ثالثها (التخليط) أى تخليط العمل بأن يريد به نفع الدنيا ونفع الآخرة ، وهذا يذهب بربع الأضعاف (و) رابعها (المن) وهو أن يمن على غيره بعطائه فيقول قد أعطيتك كذا وكذا فيعدد نعمه عليه والمن فى اللغة الإنعام ، والمنة النعمة الثقيلة ، يقال من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة ويكون ذلك بالقول أيضا ، ومنه قول الشاعر :

فمن علينا بالسلام فإنما ... كلامك ياقوت ودر منظم

ومن المن بالقول ما هو مستقبح بين الناس ، مثل أن يمن على الإنسان بما أعطاه . قال

عبد الرحمن بن يزيد : كان أبي يقول : إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه ، والعرب تمدح بترك المن وكتم النعمة وتذم على إظهارها والمن بها ، قال قائلهم فى المدح بترك المن :

زاد معروفك عندي عظما　　أنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته　　وهو فى العالم مشهور كبير

وقال قائلهم يذم المنان بالعطاء :

أتيت قليلا ثم أسرعت منة　　فنيلك ممنون لذاك قليل

وإذا عرفت هذا فاعلم أن المن هو إظهار المعروف إلى الناس والمن عليهم به ، وهو مذموم كما علمت . قال الفخر الرازى : وإنما كان المن مذموما لوجوه: الأول أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة غيره معترف باليد العليا للمعطى فاذا أضاف إلى ذلك إظهار ذلك الانعام زاد ذلك فى انكسار قلبه فيكون فى حكم المضرة بعد المنفعة ، وفى حكم المسىء إليه بعد أن أحسن إليه . والثانى إظهار المن يبعدأهل الحاجة عن الرغبة فى صدقته إذا اشتهر من طريقه ذلك والثالث أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله تعالى عليه وأن يعتقد أن لله عليه نعما عظيمة حيث وفقه لهذا العمل،وأن يخاف أنه هل قرن بهذا الانعام ما يخرجه عن قبول الله إياه ومتى كان الأمر كذلك امتنع أن يجعله منة على الغير . والرابع وهو السر الأصلى أنه إن علم أن ذلك إعطاء إنما تيسر لأن الله تعالى هيأ له أسباب الاعطاء وأزال أسباب المنع،ومتى كان الأمر كذلك كان المعطي هو الله فى الحقيقة لا العبد فالعبد إذا كان فى هذه الدرجة كان قلبه مستنيرا بنور الله تعالى وإذا لم يكن كذلك بل كان مشغولا بالأسباب الجسمانية الظاهرة ، وكان محروما عن مطالعة الأسباب الربانية فكان فى درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول وعن الآثار إلى المؤثر (و) خامسها (الأذى) وهو ما يصل إلى الانسان من ضرر بقول أو فعل كأن يعيره فيقول كم تسأل وأنت فقير أبدا وقد بليت بك وأراحنى الله منك وأمثال ذلك ، وهو مذموم (و) سادسها (الندامة) وذلك بأن لا يفعل ما يندم عليه من الأقوال والأفعال فى العاقبة (و)سابعها (العجب) أى تحسين المرء فعل نفسه على غيره وإن كان قبيحا وهو فتنة العلماء فأعظم بها من فتنة وهو من المهلكات كما ورد فى الخبر الذى تقدم ذكره (و) ثامنها (الحسرة) والندم على فوت الأعمال الصالحة وعدم الإخلاص فى فعلها والمطلوب ضد تلك الحسرة وذلك بأن يغتنم الخيرات فى جميع الأوقات (و) تاسعها (التهاون) بما عظم الله سبحانه من طاعة ، وورد فى الحديث « إن الله أخفى أربعا فى أربع أخفى رضاه فى طاعته فلا تهاون فى شىء منها فلعل فيه رضاه وأخفى غضبه فى معصيته فلا تحقرن شيئا منها فلعل فيه سخطه وأخفي سره فى خلقه فلا تحقرن منهم أحدا فلعل السر فيه وأخفى الموت فى وقته فاستعد له فلعله يأتى فيه » . قال العلامة بابصيل رحمه الله تعالى : فانظر إلى إبليس لما أمر بالسجود كيف أبعده الله من

وَخَوْفِ مَلاَمَةِ النَّاسِ ثُمَّ ذَكَرَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ ضِدَّ كُلِّ خَصْلَةٍ مِنْهَا وَإِضْرَارَهَا بِالْعَمَلِ فَضِدُّ النِّفَاقِ إِخْلاَصُ الْعَمَلِ وَضِدُّ الرِّيَاءِ إِخْلاَصُ طَلَبِ الْأَجْرِ وَضِدُّ التَّخْلِيطِ التَّفْرِيدُ وَضِدُّ الْمَنِّ تَسْلِيمُ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ ، وَضِدُّ الْأَذَى تَحْصِينُ الْعَمَلِ وَضِدُّ النَّدَامَةِ تَثْبِيتُ النَّفْسِ، وَضِدُّ الْعُجْبِ ذِكْرُ الْمِنَّةِ وَضِدُّ الْحَسْرَةِ اغْتِنَامُ الْخَيْرِ وَضِدُّ التَّهَاوُنِ تَعْظِيمُ التَّوْفِيقِ وَضِدُّ خَوْفِ الْمَلاَمَةِ الْخَشْيَةُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ النِّفَاقَ يُحْبِطُ الْعَمَلَ وَالرِّيَاءَ يُوجِبُ رَدَّهُ وَالْمَنَّ وَالْأَذَى يُحْبِطَانِ الصَّدَقَةَ أَصْلاً فِى الْوَقْتِ

رحمته لاستصغاره ما عظم الله حيث قال « أأسجد لمن خلقت طينا » وقال « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » وقد قال الله تعالى منوها بتعظيم ما عظمه « ومن يعظم حرمات الله » «ومن يعظم شعائر الله» (و) عاشرها (خوف ملامة الناس) وذمهم في دين الله تعالى، وقد بين الله تعالى فى قوله عز وجل « ولا يخافون لومة لائم » أن من كان قويا فى الدين فإنه لا يخاف فى نصره لدين الله بيده أو بلسانه لومة لائم وهذه صفة المؤمنين المخلصين إيمانهم لله تعالى . روى الشيخان عن عبادة بن الصامت قال « بايعت رسول الله صلي الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » (ثم ذكر شيخنا) أبو بكر الوراق (رحمه الله ضد كل خصلة منها) أى من تلك العشرة (وإضرارها بالعمل) فقال (فضد النفاق إخلاص العمل وضد الرياء إخلاص طلب الأجر وضد التخليط التفريد) أى إفراد العمل لنفع الآخرة (وضد المن تسليم العمل إلى الله) عز وجل (وضد الأذى تحصين العمل) أى حفظه عما يحبطه (وضد الندامة تثبيت النفس) على الأفعال المحمودة (وضد العجب ذكر المنة) لله تعالى (وضد الحسرة اغتنام الخير وضد التهاون تعظيم التوفيق وضد خوف الملامة الخشية) من الله تعالى (واعلم أن النفاق يحبط العمل والرياء يوجب رده) أى ذلك العمل (والمن والأذى يحبطان الصدقة) أى ثوابها (أصلا فى الوقت) أى فى الحال . قال العلامة بابصيل رحمه الله وإنما كان المن مما يحبط الصدقة ويبطل ثوابها لقوله عز وجل من قائل « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله » الآية . وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم « إياكم والمن بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر ثم تلا ـ ياأيها الذين آمنوا » فيشترط لنيل الثواب الذى أعده سبحانه وتعالى للمنفقين أن يسلم إنفاقه من المن كما بينه سبحانه وتعالي بقوله « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله» الآية . قال البلقيني : وقد يكون هذا الشرط ـ يعنى عدم المن والأذى معتبر أيضا فيمن ينفق على نفسه

كمن ينفق علي نفسه فى الجهاد مع النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولا يؤذى أحدا من المؤمنين مثل أن يقول لو لم أحضر لما تم هذا الأمر ويقول لغيره أنت ضعيف لامنفعة بك فى الجهاد انتهى ، والأذى فى الآية المراد به التعيير أوالشتم ، وقيل المن ذكر الصدقة والأذى إظهارها وقيل المن أن يتكبر على المتصدق عليه والأذى أن يوبخه بالمسئلة ويقهره . قال مصنفنا الغزالى وعندى أن للمن أصلا فى القلب ويتفرع منه على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إلى الفقير ومنعما عليه وحقه العكس بأن يرى الفقير منعما عليه بقبوله حق الله منه . واعلم أن المن من الكبائر كما فى الزواجر لقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم وقرأها ثلاثا فقيل له خابوا وخسروا من هم ؟ فقال المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » وفى رواية : « المنان لا يعطى شيئا إلا منه » ، وفى الحديث « أربعة لا ينظر الله تعالى إليهم يوم القيامة : عاق ومنان ومدمن خمر ومكذب بقدر ولا يدخل الجنة منان » وفى رواية « ثلاثة لا يحجبون عن النار عاق ومنان ومدمن الخمر » قال فيها وهو ظاهر من هذه الأحاديث للوعيد الشديد المذكور فيها .

﴿ تنبيه ﴾ إنما كان المن من صفاته تعالى العلية ومن صفاتنا المذمومة لأنه منه تعالى إفضال وتذكير بما يجب على الخلق من أداء واجب شكره ، ومنا تعيير وتكدير ، إذ آخذ الصدقة مثلا منكسر القلب لأجل حاجته إلى غيره معترف له باليد العليا ، فإذا أضاف المعطى إلى ذلك إظهار إنعامه تعديدا عليه أو ترفعا أو طلبا لمقابلته عليه بخدمة أو شكر زاد ذلك فى مضرة الآخذ وانكسار قلبه وإلحاق العار به والنقص به وهذه قبائح عظيمة على أن فيه أيضا النظر إلى أن له ملكا وفضلا وغفلة عن أنه تعالى هو الملك الحقيق وهو الذى يسر الأعطاء وأقدر عليه فوجب النظر إلى جناب الحق والقيام بشكره على ذلك والإعراض عما يؤدى إلى منازعة الحق فى فضله وجوده إذ لا يمن إلا من غفل عن أن الله تعالى هو المعطى والمتفضل ، وعن عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم أنه كان أبوه يقول : إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه : أى لكونه يتكلف لك قياما ونحوه لأجل إحسانك إليه فكف سلامك عنه وتقدم هذا ، وسمع ابن سيرين رجلا يقول لآخر أحسنت إليك وفعلت فقال له اسكت فلا خير فى المعروف إذا أحصى ، ومما أنشد للامام الشافعى رحمه الله تعالى :

لا تحملن من الأنا م عليك منه *
واختر لنفسك حظها واصبر فان الصبر جنه
منن الرجال على القلو ب أشد من وقع الأسنه

ولبعضهم :

وصاحب سلفت منه إلى يد أبطى عليه مكافاتى فعادانى
لما تيقن أن الدهر حاربني أبدى الندامة مما كان أولانى
أفسدت بالمن ماقدمت من حسن ليس الكريم إذا أعطى بمنان

وَعِنْدَ بَعْضِ الْمَشَايِخِ رَحِمَهُمُ اللهُ يُبْطِلاَنِ أَضْعَافَهَا .

وَأَمَّا النَّدَامَةُ فَإِنَّهَا تُحْبِطُ الْعَمَلَ فِى قَوْلِهِمْ جَمِيعاً وَالْعُجْبُ يُذْهِبُ أَضْعَافَ الْعَمَلِ وَالْحَسْرَةُ وَالتَّهَاوُنُ وَخَوْفُ الْمَلاَمَةِ تُخَفِّفُ الْعَمَلَ فَتُذْهِبُ رَزَانَتَهُ .

قُلْتُ : فَالْقَبُولُ وَالرَّدُّ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْصِيلِ يَرْجِعَانِ إِلَى ضُرُوبٍ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالاسْتِخْفَافِ وَالْإِحْبَاطُ إِبْطَالُ مَنَافِعَ تَكُونُ بِالْفِعْلِ وَبِسَبَبِهِ. ثُمَّ تَارَةً يَكُونُ بِإِبْطَالِ الثَّوَابِ وَأُخْرَى بِإِبْطَالِ التَّضْعِيفِ وَالثَّوَابُ مَنْفَعَةٌ يَقْتَضِيهَا الْعَقْلُ بِعَيْنِهِ وَقَرَائِنِهِ وَأَحْوَالِهِ وَالتَّضْعِيفُ زِيَادَةٌ عَلَى هٰذَا وَالرَّزَانَةُ زِيَادَةٌ تَحْصُلُ بِمُقْتَضَى قَرَائِنِ أَحْوَالٍ أُخَرَ كَالْإِحْسَانِ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ ثُمَّ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ثُمَّ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَفِي الشَّيْءِ يَكُونُ رَزَانَةٌ وَلاَ يَكُونُ تَضْعِيفٌ فَهٰذَا تَهْذِيبُ مَاتَحَقَّقْتُ فِى هٰذِهِ الْمَعَانِى فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

(وعند بعض المشايخ رحمهم الله) أن المن والأذى (يبطلان أضعافها) أى الصدقة : أى أضعاف ثوابها (وأما الندامة فانها تحبط العمل فى قولهم) أى المشايخ (جميعا والعجب يذهب أضعاف العمل ، و)أما (الحسرة والتهاون وخوف الملامة) فهذه (تخفف العمل فتذهب) أى هذه الثلاثة (رزانته) أى ثقله (قلت فالقبول والرد عند أهل التحصيل) أى تحصيل العلوم (يرجعان إلى ضروب) أى أنواع (من التعظيم والاستخفاف) فيه لف ونشر مرتب (والإحباط إبطال منافع تكون بالفعل وبسببه) أى الفعل (ثم تارة يكون) الإحباط (بابطال الثواب و) تارة (أخرى بإبطال التضعيف والثواب منفعة يقتضيها) أى يطلبها (الفعل بعينه) أى عين ذلك الفعل (وقرائنه) أى علاماته (وأحواله والتضعيف زيادة علي هذا) الثواب (والرزانة زيادة تحاصل بمقتضى قرائن أحوال أخر) وذلك (كالاحسان إلى أحد من أهل الخير) والصلاح . (ثم) الإحسان (إلى الوالدين ثم إلى نبي من الأنبياء) صلوات الله وسلامه عليهم (فنى الشىء يكون رزانة ولا يكون) أى يوجد (تضعيف فهذا) أى الذى ذكرناه (تهذيب) أى تخليص (ماتحققت فى هـذه المعانى فاعلم ذلك) أى ماتحققت فيها من الأقوال (وبالله التوفيق) والعصمة .

﴿ فصل ﴾ فَعَلَيْكَ بِقَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْمَخُوفَةِ ذَاتِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَتَالِفِ فِى غَايَةِ التَّحَرُّزِ فَإِنَّ صَاحِبَ بِضَاعَةِ الطَّاعَاتِ قَدْ قَطَعَ كُلَّ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ وَتَحَمَّلَ تِلْكَ الْمَشَقَّاتِ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ بِضَاعَةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ عَزِيزَةٌ شَرِيفَةٌ فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ عَلَى بِضَاعَتِهِ تِلْكَ إِلَّا فِى هٰذِهِ الْعَقَبَةِ فَإِنَّ فِيهَا مَقَاطِعَ يَحْذَرُ أَنْ تُسْلَبَ فِيهَا بِضَاعَتُهُ وَمَتَالِفَ يَحْذَرُ أَنْ يَبْدُوَ مِنْهَا آفَاتٌ تُفْسِدُ عَلَيْهِ طَاعَتَهُ ثُمَّ أَعْظَمُهَا خَطَرًا وَأَعَمُّهَا وُقُوعًا هٰذَانِ الْقَاطِعَانِ اللَّذَانِ هُمَا الرِّيَاءُ وَالْعُجْبُ فَلْنَذْكُرْ فِى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أُصُولًا مُقْنِعَةً نُجَرِّدُهَا لَكَ لَعَلَّكَ تُكْفَى مُؤْنَتَهَا بِإِذْنِ اللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ .

أَمَّا الرِّيَاءُ فَأَذْكُرُ فِيهِ أَوَّلًا قَوْلَ اللهِ سُبْحَانَهُ : (اَللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا) .

فصل

(فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة) وهى العقبة السادسة التى هى عقبة القوادح (ذات المقاطع والمتالف فى غاية التحرز) فى بمعنى مع (فان صاحب بضاعة الطاعات قد قطع) أى جاوز (كل تلك العقبات) المذكورة (وتحمل تلك المشقات) التى فى تلك العقبات (حتى حصلت له بضاعة من العبادة) والبضاعة فى الأصل طائفة من المال تقتطع للتجارة (عزيزة شريفة فإنه) أى صاحب البضاعة (لا يخاف على بضاعته تلك) أى بضاعة الطاعات (إلا فى هذه العقبة) أى عقبة القوادح (فان فيها) أى فى هـذه العقبة (مقاطع يحـذر أن تسلب فيها) أى فى تلك المقاطع (بضاعته و) أن فى هذه العقبة (متالف يحذر أن يبدو) أى يظهر (منها) أى من المتالف (آفات تفسد عليه طاعته ثم أعظمها) أى الآفات المفسدة على الطاعات (خطرا وأعمها) أى الآفات (وقوعا هذان القاطعان اللذان هما الرياء والعجب فلنذكر فى كل واحد منهما) أى الرياء والعجب (أصولا مقنعة) أى كافية (نجردها) أى نظهر تلك الأصول (لك لعلك تـكفى مؤنتها) أى ثقلها (باذن الله) أى بإرادته (إن شاء الله) فنقول (أما الرياء فأذكر فيه أولا قول الله سبحانه « الله الذى خلق سبع سموات) مبتدأ وخبر (ومن الأرض مثلهن) أى وخلق مثلهن فى العدد من الأرض ، وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر (يتنزل الأمر بينهن) أى يجرى أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حـكمه فيهن (لتعلموا أن الله على كل شىء) من أهل السموات والأرضين (قدير وأن الله قد أحاط بـكل شىء علما ») علة الخلق أو يتنزل أو مضمر يعمهما فان كلا منهما يدل

كأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : إِنِّي خَلَقْتُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهمَا ، فِي كُلِّ هٰذِهِ الصَّنَائِعِ وَالْبَدَائِعِ وَاكْتَفَيْتُ بِنظَرِكَ لِتَعْلَمَ أَنِّي قادِرٌ عَالِمٌ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مَعَ مَافِيهِمَا مِنَ المَعَايِبِ وَالتَّقْصِيرِ فَلَا تَكْتَفِي بِنظَرِي إِلَيْكَ وَبِعِلْمِي بِكَ وَثَنَائِي عَلَيْكَ وَشُكْرِي لَكَ حَتَّى تُحِبَّ أَنْ يَعْلَمَ الخَلْقُ لِيَمْدَحُوكَ بِذٰلِكَ أَيَكُونُ ذٰلِكَ وَفَاءً

على كمال قدرته وعلمه ذكره القاضي البيضاوى (كأن الله سبحانه يقول: إنى خلقت السموات والأرض وما بينهما فى كل هذه الصنائع) أى المصنوعات (والبدائع) أى المبدعات من الخلائق (واكتفيت بنظرك لتعلم أنى قادر) على كل الأشياء (وعالم) بجميع المعلومات (وأنت تصلى ركعتين) مثلا (مع مافيهما) أى الركعتين (من المعايب) والمفاسد (والتقصير فلا تكتفى بنظرى إليك وبعلمى بك وثنائى عليك وشكرى لك) بأن نعطيك الثواب الكثير على عملك الحقير (حتى تحب أن يعلم الخلق) وليس بيدهم شيء من النفع والضر (ليمدحوك بذلك) أى بفعلك الركعتين (أيكون ذلك) أى عدم الاكتفاء بنظرى وحب مدح الخلق (وفاء) بصدق العبودية : أى ليست وفاء به ، وذلك لأن الصدق فى العبودية هو طرح الأغيار وعدم الالتفات إليها رأسا فلو كنت صادقا فى عبودية الرب لقنعت بعلمه تعالى بك ولم تحب أن يعلمك غيره فتغار على حالك من رؤية الأغيار له ولهذا فضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا كما ورد فى الخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة العارف ؟ فقال : كتمان الطاعة ، هذا فى البداية . وأما إن تحقق العبد فى المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة فيجوز له الإخبار بأعماله والاظهار بمحاسن أحواله بناء منه على نفى الغير وأداء الواجب حق الشكر ، كان بعض السلف يصبح فيقول صليت البارحة كذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة ، فيقال له أما تخشى الرياء فيقول ويحكم وهل رأيتم من يرائى بفعل غيره ، وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له لم لا تكتم ذلك ؟ فيقول ألم يقل الله سبحانه وتعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » وأنتم تقولون لا تحدث فان قصد من هذا حاله إلى هداية عباد الله ودعائهم إلى الله تعالى فأظهر أحواله وأعماله للاقتداء به والاهتداء بهديه فهو خارج عن النمط الأول كله وداخل فى حكم هذا النوع الثانى وعلانية هذا أفضل من سره لأنه سلم من الآفات التى تعرض لها غيره وحصلت منه الفوائد التى تضمنها إظهاره وجهره ، وقد جاء فى الخبر « السر أفضل من العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء » وهذا أرجح الوجوه عند العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى سأله عن فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله « لك أجران أجر السر وأجر العلانية » وقد فصل ماذكرناه من إظهار الطاعة جماعة من الصحابة والتابعين منعنا من ذكر وقائعهم خشية الإطالة وكان ذلك منهم لأجل هذا الغرض ، ومقام هذا العبد مقام النصحاء لعباد الله والدعاة لهم إلى الله فلا جرم لهم الدرجات العلا عند الله تعالى لأنه من أئمة المتقين لله ، وقد أخبر الله تعالى بجزائهم وذكرهم عقيب دعائهم بذلك ،

أَيَكُونُ ذٰلِكَ عَقلاً يَرْضَاهُ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ وَيحَكَ أَفَلاَ تَعْقِلُ .

الأَصلُ الثّانى : أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْخُذَ فى ثَمَنِهِ أَلْفَ أَلْفَ دِينَارٍ فَبَاعَهُ بِفَلْسٍ ، أَلَيْسَ يَكُونُ ذٰلِكَ خُسْرَاناً عَظِيماً وَغُبْناً فَظِيعاً ، وَدَلِيلاً بَيِّناً عَلَى خِسَّةِ الْهِمَّةِ وَقُصُورِ الْعِلْمِ

فقال عز من قائل « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » . ثم قال المصنف رحمه الله (أيكون ذلك) أى عدم الاكتفاء وطلب المدح (عقلا يرضاه أحد لنفسه ويحك أفلا تعقل) أن ذلك نقص وعيب فى العبودية بل غفلة شنيعة . قال سهل ابن عبد الله التسترى رحمه الله : من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل . وقال أبو الخير الأقطع رحمه الله : من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء ، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب . وقال بعضهم لمن استوصاه : لا تحب أن تعرف ولا تحب أن تعرف أنك ممن لا يحب أن يعرف ، فعلى العبد إخفاء حاله جهده وأن يبلغ فى كتمانه أقصى ماعنده . قال الحسن رحمه الله : أدركت أقواما مامن أحد منهم يستطيع أن يسر شيئا من عمله إلا أسره وإن كان الرجل ليجلس مع القوم وإنه لفقيه وما يعلم به حتى يقوم ، ولقد أدركت أقواما يأتى أحدهم الزور فيقوم فيصلى وما يشعر به الزور ، ولقد أدركت أقواما وما من عمل يقدرون أن يعملوه لله سرا فيكون علانية أبدا ، ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره ، ولقد أدركت أقواما يجتهدون فى الدعاء وما يسمعهم أحد ، وقال محمد بن واسع رحمه الله : أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم فى الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذى إلى جنبه ، وفى رواية عنه : إن كان الرجل ليبكى عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم ، فان وقع منه إعلان وإظهار فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصونه عن أن يعمل فيه الفرح إطلاع الناس على حاله ولينكر ذلك على نفسه وليكرهه ولا يرضاه منها وليجاهد نفسه فى ذلك أشد المجاهدة فان خالف هذا واستشرف إلى معرفة غير الله بحاله وغفل عن مجاهدة نفسه فى حال ظهور ذلك منه ولو فى لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح فى قلبه فيقع عند ذلك فى الفتنة ، فان كان ضعيفا لم يسلم من الوقوع فى الرياء الجلى والخفى ، وإن كان قويا وسالكا سبيل المعرفة لم يسلم من السكون والركون فيفقد حينئذ الغيرة على الحال وينحط بذلك عن ذروة الكمال كما نبه عليه العلامة الزندى (الأصل الثانى : أن من كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ فى ثمنه) أى هذا الجوهر (ألف ألف دينار فباعه بفلس) بفتح الفاء أى جديد وهى قطع من النحاس كانت معروفة (أليس يكون ذلك) البيع (خسرانا عظيما وغبنا فظيعا) أى نقصا شديد القبح (ودليلا بينا على خسة) أى دناءة (الهمة وقصور العلم

وَضَعْفِ الرَّأْيِ وَرِكَّةِ الْعَقْلِ، فَمَا يَنَالُهُ الْعَبْدُ بِعَمَلِهِ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ مِدْحَةٍ وَحُطَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى رِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ وَشُكْرِهِ وَثَنَائِهِ وَثَوَابِهِ ، لَأَقَلُّ مِنْ فَلْسٍ فِى جَنْبِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَضْعَافِ ذَٰلِكَ ، بَلْ فِى جَنْبِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَأَكْثَرُ وَأَكْبَرُ ، أَلَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ أَنْ تُفَوِّتَ نَفْسَكَ تِلْكَ الْكَرَامَاتِ الْعَزِيزَةَ الشَّرِيفَةَ بِهَٰذِهِ الْأُمُورِ الْحَقِيرَةِ الدَّنِيَّةِ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ هَٰذِهِ الْهِمَّةِ الْخَسِيسَةِ فَاقْصِدْ أَنْ تَ الْآخِرَةَ تَتْبَعْكَ الدُّنْيَا ، بَلِ اُطْلُبِ الرَّبَّ وَحْدَهُ يُعْطِكَ الدَّارَيْنِ ، إِذْ هُوَ مَالِكُهُمَا جَمِيعاً وَذَٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُعْطِي الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ،وَلَا يُعْطِي الْآخِرَةَ

وضعف الرأى وركة العقل) بفتح الراء : أى قلته وضعفه (فما) موصول : أى الذى (يناله العبد بعمله من الخلق من مدحة) بكسر الميم بيان لما (وحطام) أى متاع من الدنيا (بالإضافة) أى بالنسبة (إلى رضا رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لأقل) بلام الابتداء : أى أشد قلة (من فلس فى جنب ألف دينار وأضعاف ذلك) أى أمثال ألف ألف دينار (بل) أقل (فى جنب الدنيا وما فيها وأكثر وأكبر) من الدنيا ومافيها (ألا يكون من الخسران المبين أن تفوت نفسك تلك الكرامات العزيزة الشريفة) التي هى رضوان الله وشكره وثناؤه وثوابه (بهذه الأمور الحقيرة الدنية) أى الخسيسة التى هى المدحة والحطام من الخلق (ثم إن كان) الحال (ولا بد لك من هذه الهمة الخسيسة فاقصد أنت الآخر تتبعك الدنيا بل اطلب الرب) سبحانه وتعالى (وحده) أى منفردا بذاته (يعطك) الرب عز وجل (الدارين) أى الدنيا والآخرة (إذ هو) تعالى (مالكهما) أى الدارين (جميعا وذلك) أى دليل ما قلناه من أنك إذا طلبت الرب وحده يعطك الدارين لأنه مالكهما وخالقهما (قوله تعالى « من كان يريد ثواب الدنيا) يعنى من كان يريد بعمله عرضا من الدنيا (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) يعنى الذين يطلبون بأعمالهم وجهادهم ثواب الدنيا وما ينالونه من الغنيمة مخطئون فى قصدهم ، لأن الله عنده ثواب الدنياوثواب الآخرة فلو كانوا عقلاء لطلبوا ثواب الآخرة حتى يحصل لهم ذلك ويحصل لهم ثواب الدنيا على سبيل التبعية ، والمعنى أن من أراد بعمله الدنيا آتاه الله منها ما أراد وصرف عنه من شرها ما أراد وليس له ثواب فى الآخرة يجزى به ، ومن أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة فعند الله ثواب الدنيا والآخرة يؤتيه من الدنيا ما قدر له ويجزيه فى الآخرة خير الجزاء ، هكذا ذكره الخازن (وقال عليه الصلاة والسلام إن الله تعالى ليعطى الدنيا بعمل الآخرة) لأن أعمال الآخرة محبوبة له تعالى فمن اشتغل بأعمال الآخرة سهل عليه حصول رزقه « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (ولا يعطى الآخرة) أى نعيمها

بِعَمَلِ الدُّنْيَا » فَإِذَا أَنْتَ أَخْلَصْتَ النِّيَّةَ وَجَرَّدْتَ الْهِمَّةَ لِلآخِرَةِ ، حَصَلَتْ لَكَ الآخِرَةُ وَالدُّنْيَا جَمِيعاً ، وَإِنْ أَنْتَ أَرَدْتَ الدُّنْيَا ذَهَبَتْ عَنْكَ الآخِرَةُ فِى الْوَقْتِ وَرُبَّمَا لاَ تَنَالُ فِى الدُّنْيَا كَمَا تُرِيدُ ، وَإِنْ نِلْتَهَا فَلاَ تَبْقَى لَكَ فَتَكُونُ قَدْ خَسِرْتَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ .

الأصلُ الثّالثُ : أَنَّ الْمَخْلُوقَ الَّذِى لِأَجْلِهِ تَعْمَلُ وَرِضَاهُ تَطْلُبُ لَوْ عَلِمَ أَنَّكَ تَعْمَلُ لِأَجْلِهِ لأَبْغَضَكَ وَلَسَخِطَ عَلَيْكَ وَاسْتَهَانَ بِكَ وَاسْتَخَفَّ بِكَ ، فَكَيْفَ يَعْمَلُ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ الْعَمَلَ لِأَجْلِ مَنْ لَوْ عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ يَطْلُبُ رِضَاهُ لَسَخِطَ عَلَيْهِ وَأَهَانَهُ ؟ فَاعْمَلْ يَا مِسْكِينُ لِأَجْلِ مَنْ إِذَا عَمِلْتَ لِأَجْلِهِ وَقَصَدْتَهُ بِسَعْيِكَ وَطَلَبْتَ رِضَاهُ بِذَلِكَ أَحَبَّكَ وَأَعْطَاكَ وَأَكْرَمَكَ حَتَّى أَرْضَاكَ وَأَغْنَاكَ عَنِ الْكُلِّ وَكَفَاكَ فَهَذِهِ هَذِهِ ، فَافْطُنْ لَهَا إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ .

(بعمل الدنيا) رواه ابن المبارك عن أنس ورواه أيضاً الديلمى باسناد ضعيف بلفظ « إن الله تعالى يعطى الدنيا على نية الآخرة وأبى أن يعطى الآخرة على نية الدنيا » (فاذا أنت أخلصت النية وجردت الهمة للآخرة حصلت لك الآخرة والدنيا جميعا ، وإن أنت أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة في الوقت وربما لا تنال فى الدنيا) أى متاعها (كما تريد ، وإن نلتها) أى حصلت لك كما تريد (فلا تبقى) الدنيا (لك) إما ذهبت عنك أو ذهبت عنها (فتكون قد خسرت) وهلكت (الدنيا والآخرة ، فتأمل أيها العاقل . الأصل الثالث أن المخلوق الذى لأجله تعمل ورضاه تطلب لو علم) أى هذا المخلوق (أنك تعمل لأجله لأبغضك ولسخط) وبابه طرب (عليك واستهان بك واستخف بك ، فكيف يعمل الرجل العاقل العمل لأجل من) أى الشخص (لو علم به) أى الرجل العاقل (أنه يطلب رضاه) أى الشخص (لسخط) أى هذا الشخص (عليه) أى الرجل (وأهانه ، فاعمل يا مسكين) أى يا من قل علمه (لأجل من) جل وعز (إذا عملت لأجله وقصدته بسعيك) أى بعملك (وطلبت رضاه بذلك) أى بسعيك (أحبك وأعطاك وأكرمك) بأنواع الكرامات (حتى أرضاك وأغناك عن الكل) أى كل المخلوقات (وكفاك) عن ذلك (فهذه) الجملة (هذه) أى الموصوفة بالعظمة والكمال (فافطن لها) أى فافهم لهذه الجملة (إن كنت تعقل) فى سراج السالكين فطن به وإليه وله يفطن وفطن يفطن فطنا مثلثة وفطنا وفطنة وفطونة وفطانة وفطانة وفطانية وفطانية حذق به وفهم وأدرك

الأصلُ الرّابع : أن مَنْ حَصَلَ لَهُ سَعْيٌ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكْتَسِبَ بِهِ رِضَا أَعْظَمِ مَلِكٍ فى الدُّنْيَا ، فَطَلَبَ بِهِ رِضَا كَنَّاسٍ خَسِيسٍ بَيْنَ النَّاسِ ، فَيَكُونَ ذٰلِكَ دَلِيلاً عَلَى السَّفَهِ وَرَدَاءَةِ الرَّأْيِ مِنْهُ وَسُوءِ الحَظِّ لَهُ ، وَيُقَالُ مَاحَاجَتُكَ إِلى رِضَا هٰذَا الكَنَّاسِ مَعَ إِمْكَانِكَ مِنْ رِضَا المَلِكِ ، فَكَيْفَ وَقَدْ سَخِطَ الكَنَّاسُ عَلَيْكَ بِسَبَبِ سَخَطِ المَلِكِ ؟ فَفَاتَكَ الكُلُّ ، فَهٰذَا حَالُ المُرَائِى ، فَأَىُّ حَاجَةٍ إِلى إِرْضَاءِ مَخْلُوقٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ ، وَأَنْتَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ تَحْصِيلِ رِضْوَانِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، الكَافِى عَنِ الكُلِّ ، فَإِنْ ضَعُفَتِ الهِمَّةُ ، وَكَلَّتِ البَصِيرَةُ ، حَتَّى طَلَبْتَ رِضَا مَخْلُوقٍ لاَ مَحَالَةَ ، فَسَبِيلُكَ أَنْ تُجَرِّدَ إِرَادَتَكَ وَتُخَلِّصَ سَعْيَكَ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ القُلُوبَ وَالنَّوَاصِىَ بِيَدِهِ ، فَهُوَ يُمِيلُ إِلَيْكَ القُلُوبَ وَيَجْمَعُ لَكَ النُّفُوسَ وَيَشْحَنُ مِنْ حُبِّكَ الصُّدُورَ ، فَتَنَالُ مِنْ ذٰلِكَ مَالاَ تَنَالُ بِجَهْدِكَ وَقَصْدِكَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ وَقَصَدْتَ بِعَمَلِكَ رِضَا المَخْلُوقِينَ دُونَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى

(الأصل الرابع أن من حصل له سعي ما يمكن أن يكتسب به رضا أعظم ملك فى الدنيا فطلب به رضا كناس) بفتح الكاف صيغة نسب : أى من يزيل الكناسة بالضم وهى الزبالة والسباطة (خسيس بين الناس فيكون ذلك) أى طلب رضا الكناس (دليلا على السفه) بفتحتين : أى النقص فى العقل (ورداءة الرأى) أى فساده (منه) أى من الطالب المذكور (وسوء الحظ) أى النصيب (له) أى لذلك الطالب (ويقال له ما حاجتك إلى رضا هذا الكناس مع إمكانك من رضا الملك الأعظم (فكيف وقد سخط الكناس عليك بسبب سخط الملك ففاتك الكل) أى كل رضا الملك ورضا الكناس (فهذا) أي حال الطالب لرضا الكناس مع إمكانه من رضا الملك (حال المرائى) بعمله (فأى حاجة إلى إرضاء مخلوق حقير ضعيف مهين) أى ذليل (وأنت متمكن من تحصيل رضوان الله رب العالمين الكافى عن الكل ، فان ضعفت الهمة وكلت البصيرة) أى عميت (حتى طلبت رضا مخلوق لا محالة) أى لا بد (فسبيلك أن تجرد إرادتك وتخلص سعيك لله سبحانه فان القلوب والنواصى) جمع ناصية : وهو مقدم الرأس (بيده) أى بقدرته جل وعز (فهو) تعالى (يميل إليك القلوب) أى قلوب الناس (ويجمع لك النفوس ويشحن) أي يملأ وبابه قطع (من حبك الصدور) أى القلوب (فتنال من ذلك) أى من تجريد إرادتك وتخليص سعيك لله تعالى (مالا تنال بجهدك وقصدك (فان لم تفعل) ذلك المذكور (وقصدت بعملك رضا المخلوقين) الذين هم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا (دونه) أى دون قصد رضاه (سبحانه وتعالى

فَإِنَّهُ يَصْرِفُ عَنْكَ الْقُلُوبَ ، وَيُنْفِرُ عَنْكَ النُّفُوسَ ، وَيُسْخِطُ عَلَيْكَ الْخَلْقَ، فَيَحْصُلُ لَكَ بِهٰذَا الْأَمْرِ سَخَطُ اللهِ وَسَخَطُ النَّاسِ جَمِيعاً ، فَيَالَهُ مِنْ خُسْرَانٍ وَحِرْمَانٍ .

وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ رَجُلٌ يَقُولُ : وَاللهِ لَأَعْبُدَنَّ اللهَ عِبَادَةً أُذْكَرُ بِهَا ، وَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ فِى الْمَسْجِدِ وَآخِرَ خَارِجٍ مِنْهُ ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ حِينَ الصَّلَاةِ إِلَّا قَائِماً يُصَلِّى وَصَائِماً لَا يُفْطِرُ ، وَيَجْلِسُ إِلَى حِلَقِ الذِّكْرِ ، فَلَبِثَ كَذَا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ ، فَكَانَ لَا يَمُرُّ بِقَوْمٍ إِلَّا قَالُوا فَعَلَ اللهُ بِهٰذَا الْمُرَائِى وَصَنَعَ فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ بِاللَّوْمِ ، وَقَالَ لَهَا : إِنِّى أَرَانِى فِى غَيْرِ شَىْءٍ لَأَجْعَلَنَّ عَمَلِى كُلَّهُ لِلهِ ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى عَمَلِهِ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُ قَبْلَ ذٰلِكَ شَيْئاً إِلَّا أَنَّهُ تَغَيَّرَتْ نِيَّتُهُ إِلَى الْخَيْرِ ، فَكَانَ بَعْدَ ذٰلِكَ

فانه يصرف عنك القلوب وينفر) من باب ضرب فى اللغة العالية : أى يعرض ويصد (عنك النفوس ويسخط) بضم الياء مع كسر الخاء من أسخط : أى يغضب (عليك الخلق فيحصل لك بهذا الأمر) أى القصد الفاسد ؛ وهو قصدك بعملك رضا المخلوقين (سخط الله وسخط الناس جميعا فياله من خسران وحرمان) عن مطلوبه . روى الطبرانى من حديث ابن عباس « من أسخط الله فى رضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه ، ومن أرضى الله من سخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخط فى رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينه » وروى أبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة « من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله » وروى الحليلى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « من أرضى الله بسخط المخلوقين كفاه الله مؤنة المخلوقين ومن أرضى المخلوقين بسخط الله سلط الله عليه المخلوقين » (ولقد ذكر عن الحسن) البصرى رحمه الله (أنه قال : كان رجل يقول والله لأعبدن الله عبادة أذكر) بالبناء للمفعول (بها) أى بتلك العبادة بين الناس (وكان) الرجل (أول داخل المسجد وآخر خارج منه) أى المسجد (لا يراه أحد حين الصلاة إلا قائما يصلى وصائما لا يفطر ويجلس إلى حلق الذكر) بكسر الحاء المهملة وفتح اللام أو بفتحهما على غير قياس جمع حلقة بفتح الحاء وسكون اللام : أى حلق القوم الذين يجتمعون مستديرين لذكر الله (فلبث) أى مكث الرجل (كذا سبعة أشهر فكان لا يمر بقوم إلا قالوا فعل الله بهذا المرائى وصنع فأقبل) الرجل لما سمع ذم القوم له (على نفسه باللوم وقال لها) أى لنفسه (إنى أرانى) أى أرى نفسى (فى غير شىء) نافع والله (لأجعلن عملى كله لله فلم يزد) أى الرجل (على عمله الذى كان يعمل قبل ذلك) أى جعل كل العمل لله سبحانه (شيئا إلا أنه تغيرت نيته) من طلب ذكر الناس (إلى الخير) وهو قصده بعمله وجه الله عز وجل (فكان بعد ذلك)

يَمُرُّ بِالنَّاسِ فَيَقُولُونَ : رَحِمَ اللهُ فُلاَنًا ، الآنَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَى الْخَيْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ الْحَسَنُ : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا) قَالَ يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ ،

أى تغيير النية (يمر بالناس فيقولون رحم الله فلانا) العابد (الآن قد أقبل على الخير) ويطلقون ألسنتهم بالمدح والثناء عليه مع أنه لا كمال فى مدحهم ولا نقصان فى ذمهم كما قال شاعر بنى تميم :

إن مدحى زين وإن ذمى شين

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذبت ذاك الله الذى لا إله إلا الله » رواه أحمد من حديث الأقرع بن حابس كما ذكره العراقى ؛ وذلك إذ لا زين إلا فى مدحه تعالى ، ولا شين إلا فى ذمه ، فأى خير لك فى مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ، وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود فى زمرة المقربين ، فمن أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والغمومات والمنغصات التى لا تكاد تفارق الأحوال واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذمومة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطفت من إخلاصه أنوار تشرق عليه ينشرح بها صدره وينفتح له من لطائف المكاشفات الإلهية ما يزيد به أنسه بالله ووحشته للخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة وسقط محل الخلق عن قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص (ثم قرأ الحسن) البصرى رحمه الله تعالى قوله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها . قاله القاضى (قال) الحسن (يحبهم) الله تعالى (ويحببهم إلى) عباده (المؤمنين) هكذا نقله أبو طاهر الفيروز فى تفسيره وفى الحديث « يعطى المؤمن مقة فى قلوب الأبرار ومهابة فى قلوب الفجار » نقله النسفى ، وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله سبحانه وتعالى عبدا دعا جبريل عليه السلام إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادى جبريل فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى أهل الأرض » ، وفي رواية لمسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول إنى أبغض فلانا فابغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض » . قال هرم ابن حيان : ماأقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم . وقال كعب مكتوب فى التوراة : لامحبة لأحد فى الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله عز وجل

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

يَا مُبْتَغِى الْحَمْدَ وَالثَّوَابَا   فِى عَمَلٍ تَبْتَغِى مُحَالَا
قَدْ خَيَّبَ اللَّهُ ذَا رِيَاءٍ   وَأَبْطَلَ السَّعْىَ وَالْكَلَالَا
مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبٍّ   أَخْلَصَ مِنْ خَوْفِهِ الْفِعَالَا
أَلْخُلْدُ وَالنَّارُ فِى يَدَيْهِ   فَرَائِهِ يُعْطِكَ النَّوَالَا
وَالنَّاسُ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا   فَكَيْفَ رَاءَيْتَهُمْ ضَلَالَا

أَمَّا الْعُجْبُ فَلْنَذْكُرْ فِيهِ أُصُولاً : أَحَدُهَا أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ إِنَّمَا صَارَتْ لَهُ قِيمَةٌ لِمَا وَقَعَ مِنَ اللَّهِ مَوْقِعَ الرِّضَا وَالْقَبُولِ ، وَإِلاَّ فَتَرَى الْأَجِيرَ يَعْمَلُ طُولَ النَّهَارِ بِدِرْهَمَيْنِ ، وَالْحَارِسُ يَسْهَرُ طُولَ اللَّيْلِ

ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض ، وتصديق ذلك فى القرآن « سيجعل لهم الرحمن ودا » (ولقد صدق القائل) من مجزو البسيط مع دخول علة القطع فيه (يامبتغى الحمد) أى طالب حمد الناس وثناءهم (والثواب) أى ثواب الآخرة (فى عمل تبتغى) أى تطلب (محالا) بضم الميم : أى باطلا غير الممكن الوقوع لأن الله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه عز وجل كما ورد فى الخبر (قد خيب الله) بتشديد الياء (ذارياء) أى جعله خائبا لم يظفر بمطلوبه وفى المثل : الهيبة خيبه أى الهيبة من الناس سبب فى الخيبة وهى عدم الفوز بالمطلوب (وأبطل) تعالى (السعى والكلالا) بألف الإطلاق : أى التعب فى المصباح وكل يكل من باب ضرب كلالة تعب وأعيا (من كان يرجو لقاء رب) أى من كان يأمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول (أخلص من خوفه الفعالا) قال الله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » (الخلد) أى الجنة (والنار فى يديه) جل وعز (فرائه) أعمالك (يعطيك النوالا) بفتح النون بمعنى العطاء (والناس لايملكون) لأنفسهم (شيئا) من الضر والنفع (فكيف رأيتهم) بأعمالك (ضلالا) وجهلا منك ، ومع ذلك أنهم لو علموا مافى باطنك من قصد الرياء لمقتوك وأبغضوك ، وسيكشف الله عن سرك وما فى باطنك حتى يبغضك إلى الناس ويعرفهم أنك مراء وممقوت عند الله ، ولو أخلصت لله لكشف الله لهم إخلاصك وحببك إليهم وسخرهم لك وكفاك المؤنة (وأما العجب فلنذكر فيه أصولا : أحدها أن فعل العبد إنما صارت له قيمة لما وقع من الله موقع الرضا والقبول وإلا) يقع موقعهما (فترى الأجير) أى من يعمل بالأجرة (يعمل طول النهار بدرهمين و) ترى (الحارس) أى الحافظ (يسهر) بفتح الياء وبابه ضرب : أى لاينام (طول الليل

بِدَانِقَيْنِ ، وَكَذٰلِكَ أَصْحَابُ الصِّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ كُلُّ وَاحِدٍ يَعْمَلُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَيَكُونُ قِيمَةُ ذٰلِكَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً ، فَإِنْ صَرَفْتَ الْفِعْلَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَصُمْتَ لِلّٰهِ تَعَالَى يَوْمًا ، فَيَكُونُ صَوْمُكَ ذٰلِكَ الْيَوْمَ لَا قِيمَةَ لَهُ إِذَا رَضِيَهُ وَتَقَبَّلَهُ قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وَفِي الْخَبَرِ : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّائِمِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » فَهٰذَا يَوْمُكَ الَّذِي قِيمَتُهُ دِرْهَمَانِ ، مَعَ احْتِمَالِكَ التَّعَبَ الْعَظِيمَ صَارَ لَهُ كُلُّ هٰذِهِ الْقِيمَةِ بِتَأْخِيرِ غَذَاءٍ إِلَى عَشَاءٍ ، وَلَوْ قُمْتَ لَيْلَةً لِلّٰهِ تَعَالَى وَأَخْلَصْتَهَا

بدانقين) تثنية دانق وهو سدس الدرهم معرب دانك بالفارسية قاله العلامةعبد الحق (وكذلك) أى مثل حال الأجير والحارس (أصحاب الصناعات) جمع صناعة (والحرف) بكسر الحاء المهملة جمع حرفة بمعنى الكسب (كل واحد) منهم (يعمل فى الليل والنهار فيكون قيمة ذلك) أى عمل كل واحد (دراهم معدودة ، فان صرفت) أيها الرجل (الفعل إلى الله تعالى) أى إلى طاعته (فصمت لله تعالى يوما) أو صليت ركعة (فيكون صومك) أو صلاتك (ذلك اليوم لاقيمة له) أى لصومك أو صلاتك لكثرة ثوابهما (إذا رضيه) الله (وتقبله . قال الله تعالى « إنما يوفى الصابرون) على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لها (أجرهم بغير حساب») أجرا لايهتدى إليه حساب الحساب . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : كل مطيع يكال له كيلا ويوزن له وزنا إلا الصابرون فانه يحثى لهم حثيا . وروى : « إنه يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبا بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا لو أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما يذهب به أهل البلاء من الفضل » . (وفى الخبر) الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى (أعددت لعبادى الصائمين) وفى رواية الصالحين (ما) أى شيئا أو الذى (لاعين رأت) فى الدنيا برفع عين لأن «لا» أخت ليس وحذف العائد المنصوب المتصل برأت ، وجملة لاعين رأت صفة ما أوصلتها كما ذكره الفاسى (ولا أذن سمعت) فيها وهذه جملة معطوفة على الجملة قبلها والكلام فيها كالتى قبلها (ولا خطر على قلب بشر) أى آدمى لأنه كثير الخواطر والتصوير والتشكيل للأشياء وأمور الآخرة خارجة عن طور هذا العقل الحسى ونطاقه وعالمه ذكره الفاسى (فهذا يومك الذى قيمته درهمان مع احتمالك التعب العظيم صار له) أى ليومك المذكور (كل هذه القيمة) العظيمة (بتأخير غداء) بالمد: مايؤكل أول النهار (إلى عشاء) بالكسر والمد : أى أول ظلام الليل ، والمراد بعد غروب الشمس الذى هو وقت فطر الصائم (ولو قمت ليلة لله تعالى وأخلصتها) أى الليلة

لَهُ كَانَ قِيَامُكَ لَا قِيمَةَ لَهُ فِى الشَّرَفِ وَالنَّفَاسَةِ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فَهٰذَا الَّذِى قِيمَتُهُ دَانِقَانِ أَوْ دِرْهَمَانِ صَارَ لَهُ كُلُّ هٰذِهِ الْقِيمَةِ وَالْقَدْرِ ، بَلْ لَوْ جَعَلْتَ لِلّٰهِ سَاعَةً تُصَلِّى فِيهَا رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ بَلْ نَفَسًا قُلْتَ فِيهِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ .

بقيامك فيها (له) تعالى (كان قيامك) فيها (لاقيمة له فى الشرف والنفاسة . قال الله تعالى « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم) لاملك مقرب ولا نبى مرسل (من قرة أعين) مما تقربه عيونهم وعنه عليه الصلاة والسلام « يقول الله : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ماأطلعتهم عليه اقرءوا إن شئتم : فلاتعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين » وقرأ حمزة ويعقوب أخفي على أنه مضارع أخفيت ؛ وقرئ نخفي وأخفى والفاعل للكل هو الله تعالى ، وقرأت أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة أو استفهامية معلق عنها العمل ذكره القاضى فى تفسيره (جزاء بما كانوا يعملون ») أى من الطاعات فى دار الدنيا . قال القاضى : أى جزوا جزاء أو أخفى للجزاء فان إخفاءه لعلو شأنه ، وقيل هذا القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم (فهذا) ليلك (الذى قيمته دانقان أودرهمان صار له) أى ليلك الذى قيمته ذلك (كل هذه القيمة والقدر) والمنزلة (بل) صار لك كل هذه القيمة العظيمة (لو جعلت لله ساعة تصلي فيها ركعتين خفيفتين بل) صار لك كل ذلك لو جعلت لله (نفسا) بفتح الفاء ، فهو جزء من الهواء يخرج من باطن البدن في جزء من الزمن (قلت فيه) أى فى ذلك النفس (لا إله إلا الله) وقدورد أن « من قال لاإله إلا الله ومدهاهدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر . قالوا يارسول الله فان لم يكن له شيء من الكبائر؟ قال يغفر لأهله ولجيرانه »رواه البخارى .وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : لاإله إلا الله كلامي وأنا هو من قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عقابى » أخرجه الشيرازى عن على . وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا قال الله تعالى صدق عبدى أنا الله الذى لا إله إلا أنا أشهدكم ياملائكتى قد غفرت له ماتقدم من ذنبه وما تأخر » وأخرج الحكيم عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « من قال لاإله إلا الله مخلصا دخل الجنة ، قيل يارسول الله وماإخلاصها ؟ قال أن تحجزه عن المحارم » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان أول كلامه لاإله إلاالله وآخر كلامه لاإله إلا الله وعمل ألف سيئة إن عاش ألف سنة لايسأله الله عن ذنب » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لاإله إلا الله من غير عجب طاربها طائر تحت العرش يسبح مع المسبحين إلى يوم القيامة ويكتب له ثوابه » وقال صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة غفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » كذا ذكره السيوطى فى لبابه ، والأدلة فى فضيلة هذه الكلمة أكثر

قالَ اللهُ تعالى : (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) فَهٰذَا نَفَسٌ مِنْ أَنْفَاسِكَ الَّتِي لاَقِيمَةَ لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلاَ عِنْدَكَ ، فَكَمْ تُضِيعُ أَمْثَالَ ذَٰلِكَ فِي لاَشَيْءٍ ، وَكَمْ يَمُرُّ عَلَيْكَ مِنَ الزَّمَانِ بِلاَ فَائِدَةٍ ، وَصَارَ لَهُ كُلُّ هٰذَا الْقَدْرِ الْعَظِيمِ ، لِمَا أَنَّهُ وَقَعَ مَرْضِيًّا لِلّٰهِ تَعَالَى فَعَظُمَ قَدْرُهُ وَكَثُرَتْ قِيمَتُهُ بِفَضْلِهِ ، فَحَقَّ لِلْعَاقِلِ إِذَنْ أَنْ يَرَى حَقَارَةَ عَمَلِهِ وَقِلَّةَ قَدْرِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، وَأَنْ لاَ يَرَى إِلاَّ مِنَّةَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فِيمَا شَرَّفَ مِنْ قَدْرِ عَمَلِهِ وَأَعْظَمَ مِنْ جَزَائِهِ ، وَأَنْ يَحْذَرَ عَلَى فِعْلِهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ عَلَى وَجْهٍ لاَ يَصْلُحُ لِلّٰهِ ، وَلاَ يَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا فَتَذْهَبَ عَنْهُ الْقِيمَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ ، وَيَعُودُ إِلَى مَا كَانَ فِي الْأَصْلِ مِنَ الثَّمَنِ الْحَقِيرِ مِنْ دَرَاهِمَ أَوْ دَوَانِقَ وَأَحْقَرَ وَأَخَسَّ مِنْ ذَٰلِكَ .

من أن تحصى وفيما ذكرناه كفاية للعاقل (قال الله تعالى ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) أى ومع ذلك مؤمن مخلص بإيمانه (فأولئك يدخلون الجنة يرزقون) يطعمون (فيها) فى الجنة (بغير حساب) بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة فضلا منه ورحمة ، ولعل تقسيم العمال وجعل الجزاء جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة وتفضيل الثواب لتغليب الرحمة وجعل العمدة عمدة ، والإيمان للدلالة على أنه شرط فى اعتبار العمل وأن ثوابه أعلي من ذلك قاله القاضى (فهذا) المذكور (نفس) بفتح الفاء (من أنفاسك التى لا قيمة لها عند أهل الدنيا ولا عندك فكم تضيع أمثال ذلك) النفس (فى لاشىء وكم يمر عليك من الزمان بلا فائدة وصار له) أى لذلك النفس (كل هذا القدر العظيم) وذلك (لما أنه) أى النفس (وقع مرضيا) مقبولا (لله تعالى فعظم قدره وكثرت قيمته بفضله) تعالى (فحق للعاقل إذن) أى حين إذ صار كل هذا القدر العظيم للعمل بسبب وقوعه فى مرضاة الله (أن يرى حقارة عمله وقلة قدره) أى العمل (من حيث هو) أى ذلك العمل (وأن لا يرى) أى العاقل (إلا منة الله تعالى عليه فيما شرف) الله سبحانه (من قدر عمله و) فيما (أعظم) تعالى (من جزائه) وثوابه (وأن يحذر على فعله) أى العاقل (من أن يقع) أى فعله (على وجه لا يصلح لله و) أن (لا يقع) فعله (منه) تعالى (موقع الرضى) والقبول (فتذهب عنه) أى عن ذلك الفعل (القيمة التى حصلت له) أى لما فعله من الأعمال (ويعود إلى ما كان فى الأصل من الثمن الحقير من دراهم أو دوانق) بل (وأحقر وأخس من ذلك) أى المذكور من الدراهم أو الدوانق

وَمِثَالُهُ أَنَّ الْعُنْقُودَ مِنَ الْعِنَبِ وَالإِضْبَارَةَ مِنَ الرَّيْحَانِ ، يَكُونُ قِيمَتُهُ فِي السُّوقِ دَانِقاً ، فَإِنْ أَهْدَاهُ وَاحِدٌ إِلَى مَلِكٍ مَعَ خِسَّتِهِ فَوَقَعَ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا ، يَهَبُ لَهُ عَلَى ذٰلِكَ أَلْفَ دِينَارٍ ، لِمَا وَقَعَ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا ، فَصَارَ مَاقِيمَتُهُ حَبَّةً بِأَلْفِ دِينَارٍ ، فَإِذَا لَمْ يَرْضَهُ الْمَلِكُ وَرَدَّهُ إِلَيْهِ رَجَعَ إِلَى قِيمَتِهِ الْخَسِيسَةِ مِنْ حَبَّةٍ أَوْ دَانِقٍ ، فَكَذٰلِكَ مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَتَنَبَّهْ وَأَبْصِرْ مِنَّةَ اللهِ وَصُنْ فِعْلَكَ عَمَّا يَشِينُهُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَالْأَصْلُ الثَّانِي : مَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمَلِكَ فِي الدُّنْيَا إِذَا أَجْرَى عَلَى أَحَدٍ جِرَايَةً مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ دَرَاهِمَ أَوْ دَنَانِيرَ مَعْدُودَةٍ فَانِيَةٍ ، فَإِنَّهُ يَسْتَخْدِمُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، مَعَ مَا فِي ذٰلِكَ مِنَ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ ، وَيَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ حَتَّى تَخَدَّرَ رِجْلَاهُ وَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا رَكِبَ ، وَرُبَّمَا يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ

(ومثاله) أي مثال وقوع العمل في مرضاة الله وعدم وقوعه في ذلك (أن العنقود من العنب) أي ما تعقد وتراكم من حبه في عرق واحد (والأضبارة) بفتح الألف وكسرها : الحزمة (من الريحان يكون قيمته في السوق دانقا) أو درهما (فإن أهداه واحد إلى ملك) من الملوك (مع خسته) أي ما أهداه من العنقود والأضبارة (فوقع) أي ما أهداه من ذلك (منه) أي من الملك (موقع الرضا يهب) الملك (له) أي للمهدي ما ذكر (على ذلك) أي لأجل هديته (ألف دينار) وذلك الجزاء الكثير (لما وقع منه) أي من الملك (موقع الرضا فصار ما) أي من العنقود والأضبارة (قيمته حبة) من دانق أو درهم (بألف دينار فإذا لم يرضه) أي ما أهداه (ورده) أي رد الملك ما ذكر (إليه) أي إلى المهدي (رجع) ما أهدى إلى الملك (إلى قيمته) الأصلية (الخسيسة من حبة أو دانق فكذلك) أي مثل ما أهداه الرجل إلى الملك (ما نحن فيه) من الأعمال (فتنبه) أيها العاقل (وأبصر منة الله وصن) أي احفظ (فعلك عما يشينه) أي فعلك، في المختار : الشين : ضد الزين وقد شانه من باب باع (عند الله عز وجل.
والأصل الثاني: ما تعلم أن الملك في الدنيا إذا أجرى على أحد جراية) قال العلامة عبدالحق : الجراية الجاري من الوظائف أو ما يناله الجندي من الطعام كل يوم (من طعام أو شراب أو كسوة أو دراهم أو دنانير معدودة فانية فإنه) أي الملك (يستخدمه) أي الذي أعطاه الجراية (آناء الليل) أي ساعاته (و) أطراف (النهار مع ما في ذلك) الاستخدام (من الذل والصغار) بمعنى واحد (ويقوم) أي الذي أعطي ما ذكر (على رأسه) أي بين يدي الملك (حتى تخدر رجلاه) أي حتى أصابهما الخدر ، وهو تشنج يعتري العضو لاحتباس الروح النفساني عن النفوذ فيه فلا يطيق الحركة (ويسعى بين يديه) أي الملك (إذا ركب) خيلا أو غيره (وربما يحتاج أن يكون) الرجل

عَلَى بَابِهِ طُولَ اللَّيْلِ حَارِسًا ، وَرُبَّمَا يَبْدُو لَهُ عَدُوٌّ فَيَحْتَاجُ أَنْ يُقَاتِلَ عَدُوَّهُ فَيَبْذُلَ رُوحَهُ الَّتِي لَا خَلَفَ عَنْهَا لِأَجْلِهِ ، وَيَحْتَمِلُ كُلَّ هٰذِهِ الْخِدْمَةِ وَالْكُلْفَةِ وَالْخَطَرِ وَالضَّرَرِ لِأَجْلِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةِ النَّكِدَةِ الْحَقِيرَةِ ، مَعَ أَنَّهَا بِالْحَقِيقَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ سَبَبٍ فِي ذٰلِكَ ، فَرَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ، ثُمَّ رَبَّاكَ فَأَحْسَنَ إِلَيْكَ التَّرْبِيَةَ ، ثُمَّ أَنْعَمَ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فِي دِينِكَ وَنَفْسِكَ وَدُنْيَاكَ مَالَا يَبْلُغُ كُنْهَهَا فَهْمُكَ وَوَهْمُكَ ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) الْآيَةَ ، ثُمَّ إِنَّكَ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَعَايِبِ وَالْآفَاتِ ، وَمَعَ مَا وَعَدَ عَلَيْهِمَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ وَضُرُوبِ الْكَرَامَاتِ حَتَّى تَسْتَعْظِمَ ذٰلِكَ وَتَعْجَبَ بِهِ ، فَلَيْسَ ذٰلِكَ

(على بابه) أى الملك (طول الليل حارسا) أى حافظا (وربما يبدو له) أى يظهر للملك (عدو فيحتاج أن يقاتل) الرجل (عدوه) أى الملك (فيبذل) ذلك الرجل (روحه التى لا خلف عنها) أى لا عوض عن الروح إن فاتت (لأجله) أى لأجل الملك (ويحتمل) أى الرجل (كل هذه الخدمة والكلفة) أى المشقة (والخطر والضرر لأجل تلك المنفعة النكدة) أى القليلة (الحقيرة) وهي الجراية المذكورة (مع أنها) أى تلك المنفعة (بالحقيقة) أى الالتفات لما فى نفس الأمر وقطع النظر عن كل شىء (من الله تعالى وإنما هو) أى الملك (بمنزلة سبب فى ذلك) أى فى إيصال تلك المنفعة (فربك الذي خلقك) أى أوجدك من العدم إلى الوجود (ولم تك شيئا) مذكورا لا يذكر ولايعرف ولايدرى ما اسمه ما وما يراد به إلاالله وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح كان شيئا ولم يكن شيئا يذكر (ثم رباك) أى قام بتدبيرك (فأحسن) جل وعز (إليك التربية) لجعلك سويا سالم الأعضاء تسمع وتبصر ، وعدل خلقك فى مناسبة الأعضاء فلم يجعل بعضها أطول من بعض (ثم أنعم) سبحانه وتعالى (عليك من النعم الظاهرة) كصحة البدن (والباطنة) كالعلم والحكمة (فى دينك ونفسك ودنياك مالا يبلغ كنهها) أى نهاية النعم . فى المختار : كنه الشىء نهايته (فهمك ووهمك . قال عز من قائل « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ») لا تحصروها ولاتطيقوا عد أنواعها فضلا عن أفرادها فانها غير متناهية ، وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق (الآية) أى اقرأ بقيتها وهى « إن الإنسان لظلوم كفار » (ثم إنك تصلي ركعتين مع ما فيهما من المعايب والآفات ومع ما وعد عليهما فى المستقبل) أى فى الآخرة (من حسن الثواب وضروب) أى أنواع (الكرامات حتى تستعظم ذلك) أى فعل الركعتين (وتعجب به) أى بذلك الفعل (فليس ذلك)

مِنْ شَأْنِ عَاقِلٍ إِذَا نَظَرْتَ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ : أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِى مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَخْدُمَهُ الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ ، وَتَقُومَ عَلَى رَأْسِهِ السَّادَاتُ وَالْعُظَمَاءُ وَيَتَوَلَّى خِدْمَتَهُ الْأَلِبَّاءُ وَالْحُكَمَاءُ ، وَيَطْلُبُ مِدْحَتَهُ الْعُقَلَاءُ وَالْعُلَمَاءُ ، وَيَمْشِى بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَكَابِرُ وَالرُّؤَسَاءُ ، إِذَا أَذِنَ لِسُوقِىٍّ أَوْ قُرَوِىٍّ بِمُقْتَضَى رَأْفَةٍ وَعِنَايَةٍ لَهُ فِى بَابِهِ حَتَّى زَاحَمَ أُولٰئِكَ الْمُلُوكَ وَالسَّادَاتِ وَالْأَكَابِرَ وَالْأَفَاضِلَ فِى خِدْمَتِهِ وَمِدْحَتِهِ ، وَجَعَلَ لَهُ مَقَامًا مِنْ حَضْرَتِهِ مَعْلُومًا ، وَنَظَرَ إِلَى خِدَمِهِ بِعَيْنِ الرِّضَا وَإِنْ كَانَتْ مُشَوَّشَةً مَعِيبَةً ، أَلَيْسَ يُقَالُ لَهُ : لَقَدْ كَبُرَتْ عَلَى هٰذَا الْحَقِيرِ الْمِنَّةُ مِنَ الْمَلِكِ وَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُ بِهِ ، فَإِنْ أَخَذَ هٰذَا الْحَقِيرُ يَمُنُّ عَلَى الْمَلِكِ بِتِلْكَ الْخِدْمَةِ الْمَعِيبَةِ وَيَسْتَعْظِمُ ذٰلِكَ وَيَعْجَبُ بِهِ ،

الاستعظام والعجب (من شأن عاقل إذا نظرت) وتأملت (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة. (والأصل الثالث أن الملك) أى ملك الملوك (الذى من شأنه أن يخدمه الملوك والأمراء) والسلاطين (وتقوم على رأسه) أى قدام الملك (السادات والعظماء ويتولى خدمته الألباء) أى العقلاء جمع لبيب بمعنى عاقل (والحكماء ويطلب مدحته) بكسر الميم : أى مدحة ذلك الملك وثناءه (العقلاء والعلماء ويمشى بين يديه الأكابر والرؤساء إذا أذن) أى أذن الملك الأعظم ، والجملة خبر أن (لسوقى أو قروى) أى ساكن القرية وهى الضيعة ، وفى كفاية المتحفظ : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قرارا وتقع على المدن وغيرها ، والجمع قرى على غير قياس . قال بعضهم : لأن ما كان على فعلة من المعتل فبابه أن يجمع على فعال بالكسر ، مثل ظبية وظباء وركوة وركاء ، والنسبة إليها قروى بفتح الراء على غير قياس ، قاله الفيومى فى المصباح (بمقتضى رأفة) ورحمة (وعناية له) أى للسوقى أو القروى (فى بابه) أى الملك الأعظم (حتى زاحم) السوقى أو القروى (أولئك الملوك والسادات والأكابر والأفاضل فى خدمته) أى الملك (ومدحته) أى طلب مدحته (وجعل) الملك (له) أى لهذا السوقى أو القروى (مقاما من حضرته معلوما ونظر) الملك (إلى خدمته) أى خدمة كل واحد منهما (بعين الرضا) والقبول (وإن كانت) تلك الخدمة (مشوشة) مكدرة (معيبة أليس) الحال (يقال له) أى لكل واحد منهما (لقد كبرت) أى عظمت (على هذا الحقير) أى الذى هو السوقى أو القروى (المنة) والنعمة (من الملك) الأعظم (وعظمت عنايته) أى الملك (به) أى بهذا الحقير (فان أخذ هذا الحقير) أى شرع (يمن) أى يعدد (على الملك بتلك الخدمة المعيبة ويستعظم) هذا الحقير (ذلك) المذكور من خدمته (ويعجب به) أى بذلك

أَلاَ يُقَالُ إِنَّ ذٰلِكَ لَسَفِيهٌ جِدًّا أَوْ مَجْنُونٌ لاَ يَعْقِلُ شَيْئًا، وَلَمَّا تَقَرَّرَ هٰذَا فَإِنَّ إِلٰهَنَا سُبْحَانَهُ هُوَ الْمَلِكُ الَّذِى يُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَعْبُودُ الَّذِى يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ؛

الخدمة (ألا يقال إن ذلك) الحقير الذى فعل ما فعل من الامتنان والاستعظام والإعجاب (لسفيه جدا أو مجنون لا يعقل شيئا ، ولما تقرر هذا) أي الأصل الثالث (فان إلهنا سبحانه هو الملك الذى تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) أى الملائكة والإنس والجن (وإن) أى ما (من شىء إلا يسبح بحمده) قال ابن عباس : وإن من شىء حى إلا يسبح بحمده . وقيل جميع الحيوانات والنباتات . قيل: إن الشجرة تسبح والأسطوانة لاتسبح . وقيل: إن التراب يسبح مالم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح ، وإن الخرزة تسبح مالم ترفع عن موضعها فاذا رفعت تركت التسبيح ، وإن الورقة تسبح مادامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح ، وإن الماء يسبح مادام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح ، وأن الثوب يسبح ما دام جديدا فاذا اتسخ ترك التسبيح ، وإن الوحش والطير لتسبح إذا صاحت فاذا سكنت تركت التسبيح . وقيل وإن من شىء جماد أوحى إلا يسبح بحمده حتى ضرير الباب ونقيض السقف . وقيل : كل الأشياء لله حيوانا كان أو جمادا وتسبيحها : سبحان الله وبحمده ، ويدل على ذلك ما روى عن ابن مسعود قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاءونا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده صلى الله عليه وسلم فى الإناء ثم قال حى على الطهور المبارك والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . أخرجه البخارى ، وروى مسلم عن جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن بمكة حجرا يسلم على ليالى بعثت وإني لا أعرفه الآن » وروى البخارى عن ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح بيده الشريفة عليه» . وفى رواية : «فنزل فاحتضنه وساره بشيء» فى هذه الأحاديث دليل على أن الجماد يتكلم وأنه يسبح . وقال بعض أهل المعانى : تسبيح السموات والأرض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال بحيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح ، والقول الأول أصح لما دلت عليه الأحاديث وأنه منقول عن السلف . واعلم أن لله تعالى علما فى الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغى أن نكل علمه إليه ، كذ قاله الخازن (و) هو تعالى (المعبود الذى يسجد له من فى السموات) من الملائكة (و) من فى (الأرض) من المؤمنين (طوعا) لأهل السماء لأن عبادتهم بغير مشقة (وكرها) لأهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة ، ويقال طوعا لأهل الاخلاص وكرها لأهل النفاق ، ويقال طوعا لمن ولد فى الاسلام جبرا ونص الكتاب العزيز « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها » قال بعض المفسرين فى معنى هذا

فَمِنَ الْخَدَمِ عَلَى بَابِهِ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ

السجود قولان : أحدهما أن المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الأرض ثم على هذا القول فى معنى الآية وجهان : أحدهما أن اللفظ وإن كان عاما إلا أن المراد منه الخصوص فقوله « ولله يسجد من فى السموات » يعنى من المؤمنين من يسجد طوعا وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة ، وكرها : يعني المنافقين الداخلين فى المؤمنين وليسوا منهم ، فان سجودهم لله على كره منهم لا يرجون على سجودهم ثوابا ولا يخافون على تركه عقابا ، بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين . الوجه الثانى : هو حمل اللفظ على العموم ، وعلى هذا فى اللفظ إشكال وهو أن جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والإنس يسجدون لله طوعا ومنهم من يسجد له كرها كما تقدم . وأما الكفار من الجن والانس فلا يسجدون لله ألبتة ، فهذا وجه الإشكال . والجواب عنه أن المعنى أنه يجب على كل من فى السموات ومن فى الأرض أن يسجد لله فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول . وجواب آخر : وهو أن يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فى السموات من ملك ومن فى الأرض من إنس وجن فانهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » والقول الثانى فى معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع ، فكل من فى السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى وهذا الاعتبار لأن قدرته ومشيئته نافذة فى الكل فهم خاضعون منقادون له (فمن الخدم على بابه) أي باب رحمة الله تعالى (جبريل الأمين) أى المأمون على وحى الله تعالى إلى أنبيائه .

﴿ تنبيه ﴾ قال بعضهم : إن جبريل اسم ملك وهو أعجمى فلذلك لم ينصرف : وقول من قال إنه مشتق من جبروت الله بعيد ، لأن الاشتقاق لا يكون فى الأسماء الأعجمية ، وكذا قول من قال إنه مركب تركيب الإضافة ، وإن جبر معناه عبد وإيل اسم من أسماء الله تعالى فهو بمنزلة عبد الله لأنه كان ينبغى أن يجرى الأول بوجوه الاعراب وأن ينصرف الثانى . وكذا قول المهدوى إنه تركب تركيب مزج نحو حضرموت لأنه كان ينبغي أن يبنى الأول على الفتح ليس إلا ، وقد تصرفت فيه العرب على عادتها فى الأسماء الأعجمية فيه بثلاث عشرة لغة أشهرها وأفصحها بزنة قنديل ، وهى قراءة أبى عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم وهى لغة الحجاز . والثانية كذلك إلا أنها بفتح الجيم ، وهى قراءة ابن كثير والحسن . الثالثة جبرئيل كسلسبيل ، وهى لغة قريش وتميم وبها قرأ حمزة والكسائى . الرابعة كذلك إلا أنه لا ياء بعد الهمزة ، وتروى عن عاصم ويحي بن يعمر . الخامسة كذلك إلا أن اللام مشددة ، وتروى أيضاً عن عاصم ويحي بن يعمر أيضا قالوا : وإل بالتشديد اسم من أسماء الله تعالى ، وفى بعض التفاسير « لا يرقبون فى مؤمن إلا » قيل معناه الله . السادسة جبرائل بألف بعد الراء وهمزة مكسورة بعد الألف ، وبها قرأ عكرمة . السابعة مثلها إلا أنها بياء بعد الهمزة . الثامنة جبراييل بياءين بعد الألف من غير همز وبها قرأ الأعمش ويحي أيضا . التاسعة جبرال . العاشرة جبريل بالياء والقصر ، وهى قراءة

وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ

طلحة بن مصرف . الحادية عشرة جبرين بفتح الجيم والنون . الثانية عشرة كذلك إلا أنها بكسر الجيم . الثالثة عشرة جبرائين . قال العلامة عبد الرحيم بن أحمد : إن جبريل خلقه الله تعالى بعد ميكائيل عليه السلام بخمسمائة عام وله ألف وستمائة جناح ومن رأسه إلى قدمه شعور من زعفران والشمس بين عينيه وعلى كل شعرة مثل القمر والكواكب وكل يوم يدخل في بحر النور ثلثمائة وسبعين مرة ، فإذا خرج سقط من كل جناح ألف ألف قطرة فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا واحدا على صورة جبريل عليه السلام يسبحون الله إلى يوم القيامة وهم الروحانيون (وميكائيل) اسم أعجمى والكلام فيه كالكلام فى جبريل فى كونه مشتقا من ملكوت الله ، أو أن ميك بمعنى عبد وإيل الله ، وأن تركيبه تركيب إضافة أو تركيبُ مزج ، وفيه سبع لغات : ميكال بوزن مفعال ، وهى لغة أهل الحجاز وبها قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم . الثانية كذلك إلا أن بعد الألف همزة وبها قرأ نافع . الثالثة كذلك إلا أنه بزيادة ياء بعد الهمزة وهى قراءة الباقين . الرابعة ميكئيل مثل ميكعيل وبها قرأ ابن محيصن . الخامسة كذلك إلا أنه لا ياء بعد الهمزة ، فهو مثل ميكعل وقرئ بها . السادسة ميكاييل بياءين بعد الألف وبها قرأ الأعمش . السابعة ميكاءل بهمزة مفتوحة بعد الألف كما يقال إسراءل . وحكى الماوردى عن ابن عباس أن جبر بمعنى عبد وميكا بمعنى عبيد بالتصغير فمعنى جبريل . عبد الله ومعنى ميكائيل . عبيد الله قال : ولا نعلم لابن عباس فى هذا مخالفا . قال العلامة عبد الرحيم بن أحمد : إن ميكائيل خلقه الله بعد إسرافيل عليه السلام بخمسمائة عام ومن رأسه إلى قدميه شعور من زعفران وأجنحته من زبرجد أخضر وعلى كل شعرة ألف ألف وجه ، وفى كل وجه ألف ألف عين ويبكى بكل عين رحمة للمذنبين من المؤمنين وفى كل وجه ألف ألف فم ، وفى كل فم ألف ألف لسان كل لسان ينطق بألف ألف لغة وكل لسان يستغفر الله للمؤمنين والمذنبين ويقطر من كل عين سبعون ألف قطرة فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا واحدا على صورة ميكائيل عليه السلام يسبحون الله تعالى إلى يوم القيامة ، وأسماؤهم كروبيون وهم أعوان لميكائيل عليه السلام موكلون على المطر والنباتات والأرزاق والثمار فما من شىء فى البحار والأثمار على الأشجار والنباتات على الأرض إلا وعليه ملك موكل به (وإسرافيل) عليه السلام صاحب القرن : أى الصور . قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن إسرافيل عليه السلام سأل الله تعالى أن يعطيه قوة سبع سموات فأعطاه وقوة سبع أرضين فأعطاه وقوة الرياح فأعطاه وقوة الجبال فأعطاه وقوة الثقلين فأعطاه وقوة السباع فأعطاه ومن تحت قدميه إلى رأسه شعور وأفواه وألسن مغطاة بالحجب يسبح الله تعالى بكل لسان بألف لغة ويخلق الله تعالى من نفسه ألف ألف ملك يسبحون الله إلى يوم القيامة وهم المقربون عند الله تعالى وحملة العرش والكرام الكاتبون وهم على صورة إسرافيل وينظر إسرافيل كل يوم وليلة ثلاث مرات إلى جهنم ويتضرع فيبكى ويذوب ويصير كوتر القوس ويبكى بكاءا شديدا ولولا أن الله تعالى يمنع دموع بكائه لامتلأت الأرض بدموعه فصارت

وَعَزْرَائِيلُ ، وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ وَالْكَرُوبِيُّونَ وَالرُّوحَانِيُّونَ ، وَسَائِرُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الَّذِينَ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، فِي مَنَازِلِهِمُ الرَّفِيعَةِ وَأَنْفُسِهِمُ الطَّاهِرَةِ وَعِبَادَاتِهِمُ الْعَظِيمَةِ ،

كطوفان نوح عليه السلام . ومن عظمه أنه لو صبت جميع مياه البحار والأنهار على رأسه ما وقع منها قطرة على الأرض (وعزرائيل) بفتح العين كما جزم به بعضهم ، ومعناه عبد الجبار . وهو موكل بقبض أرواح الخلائق : أي باخراج كل من له روح من مقرها ولو قملة أو بعوضة أو برغوثا كما ذهب إليه أهل الحق خلافا للمعتزله حيث ذهبوا إلى أنه لا يقبض أرواح أهل الثقلين من الملائكة والطيور وغيرهم ، وخلافا للمبتدعة حيث ذهبوا إلى أنه لا يقبض أرواح البهائم بل يقبضها أعوانه ، وهو ملك عظيم هائل المنظر رأسه فى السماء العليا ورجله فى تخوم الأرض السفلى : أى منتهاها ووجهه مقابل اللوح المحفوظ والخلق بين عينيه وله أعوان بعدد من يموت ، يترفق بالمؤمن ويأتيه فى صورة حسنة دون غيره كذا ذكره بعضهم ، ويقال إن ملك الموت له أربعة أوجه : وجه من أمامه ووجه من على رأسه ووجه خلف ظهره ووجه تحت قدميه ، فيأخذ أرواح الأنبياء والملائكة بالوجه الذى على رأسه وأرواح المؤمنين من الوجه الذى أمامه وأرواح الكفار من الوجه الذى خلف ظهره وأرواح الجن من الوجه الذى تحت قدميه ، ويقال إن ملك الموت يقلب الدنيا بين يديه كما يقلب الآدمى درهمه ، وله فى جسده عيون بعدد الخلائق فاذا مات مخلوق فى الدنيا ذهب عين من جسده كذا قاله السيوطي (وحملة العرش) وهم أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجودا وهم فى الدنيا أربعة وفى القيامة ثمانية . قال الله تعالى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، وهم على صورة الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاما للطائر المسرع . وأما صفة العرش فقيل إنه جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات خلقا ، ويكسى كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى والأشياء كلها فى العرش كحلقة فى فلاة ، وقيل إن العرش قبلة أهل السماء كما أن الكعبة قبلة أهل الأرض (والكروبيون) بفتح الكاف وتخفيف الراء هم سادات الملائكة وهم الذين حول العرش الطائفون به ، لقبوا بذلك لأنهم متصدون للدعاء برفع الكرب عن الأمة ، وقيل غير ذلك (والروحانيون) جمع الروحانى بضم الراء نسبة إلى الملائكة ، قيل هم فى أرض بيضاء كالرخام عرضها مسيرة الشمس أربعين يوما طولها لا يعلمه إلا الله ولهم زجل بالتسبيح والتهليل لو كشف عن صوت أحدهم لهلك أهل الأرض من هول صوته منتهاهم إلى حملة العرش (وسائر الملائكة المقربين) إلى الله عز وجل (الذين لا يحصى عددهم إلا الله رب العالمين فى منازلهم الرفيعة وأنفسهم الطاهرة وعباداتهم العظيمة) لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم مكرمون بالعصمة من الزلل لا يسبقون إذنه تعالى بالقول وهم بأمره تعالى إذا أمرهم يعملون لأنهم فى غاية المراقبة له تعالى فجمعوا فى الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية

ثُمَّ مِنَ الَّذِينَ هُمْ خَدَمَةٌ عَلَى بَابِهِ ، آدَمُ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ

الطاعة (ثم من الذين هم خدمة على بابه) سبحانه وتعالى (آدم) أبو البشر عليه السلام ، وآدم اسم أعجمى لا اشتقاق له ولا ينصرف ، ولذا قال السمين بعد كلام طويل : والحاصل أن ادعاء الاشتقاق فيه بعيد ، لأن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاق ولا تصريف ، وعاش عليه السلام من العمر تسعمائة سنة وستين قاله السيوطى فى التحبير فى علم التفسير ونقله بعضهم (ونوح) عليه الصلاة والسلام وهو ابن لامك بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام . قال الكسائى : كان اسمه عبد الغفار أو يشكر ، وسبب تسميته نوحا ما قيل إنه رأى كلبا له أربعة أعين فقال نوح إن هذا الكلب شنيع فقال له الكلب يا عبد الغفار أتعيب النقش أم النقاش ؟ فان كان العيب على النقش فان الأمر لو كان إلى لما اخترت أن أكون كلبا ، وإن كان العيب على النقاش فهو لا يلحقه عيب لأنه يفعل ما يشاء ، فكان عليه السلام كلما ذكر ذلك ينوح ويبكى على خطيئته وذنبه فلكثرة نوحه سمى نوحا . رواه السدى . قال وهب بن منبه : إن نوحا عاش بعد الطوفان مائتى سنة وحج بعد خروجه من السفينة وبعث إلى قومه وهو ابن مائتين وخمسين سنة ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما كما أخبر الله فى القرآن العظيم فلما استوفى نوح العمر الذى كتبه الله له جاء إليه ملك الموت وقال السلام عليك يانبى الله ، فقال وعليك السلام من أنت فقد أرعدت قلبى بسلامك ؟ فقال أنا ملك الموت ماهذا الجزع يانوح ألم تشبع من الدنيا ياأطول الناس عمرا ؟ فقال نوح : إنما وجدت الدنيا دارا لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . ثم إن ملك الموت ناوله كأسا من شراب الجنة وقال له اشرب من هذا الشراب حتى يسكن روعك فتناوله فشربه فلما شربه خرميتا صلوات الله وسلامه عليه . فلما مات شرع أولاده فى تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى قرية الكرك . ويقال إن عند قبره عين ماء تجرى . وقد قال القائل :

نح على نفسك يامسكين إن كنت تنوح لتموتن ولو عمرت ما عمر نوح

كذا ذكره صاحب البدائع وقصته مشهورة ليس هذا محل بسطها (وإبراهيم) الخليل عليه السلام وإبراهيم اسم أعجمى . ومعناه أب رحيم وهو إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور ابن شاروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام . وكان مولد إبراهيم بالسوس من أرض الأهواز . وقيل ببابل . وقيل بكوثى وهى قرية من سواد الكوفة . وقيل بحران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل وهى أرض نمروذ الجبار . وإبراهيم عليه الصلاة والسلام تعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا . فأما اليهود والنصارى فانهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة إليه وأنهم من أولاده . وأما العرب فى الجاهلية فانهم أيضا يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به لأنهم من أولاده ومن ساكنى حرمه وخدام بيته . ولما جاء الإسلام زاده الله شرفا وفضلا حكى الله تعالى عن إبراهيم أمورا توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلى الله عليه وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لأن ما أوجبه الله على إبراهيم

وَمُوسَى ،

عليه السلام هو من خصائص دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركى العرب فى وجوب الانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم والايمان به وتصديقه كذا ذكره الخازن. وأما وفاته فقد قال كعب الأحبار: خرج إبراهيم عليه السلام فى طلب الأضياف فمر به ملك الموت فى صورة شيخ كبير فسلم عليه فرد عليه السلام وقال له من أنت ؟ قال أنا عابر سبيل فأخذه بيده وأتى به إلى منزله وأتى بشىء من العنب فجعل الشيخ يأخذ من العنب ويمج ويرمي جلد العنب وماؤه يسيل على لحيته فتعجب منه إبراهيم ، فقال إبراهيم ياأيها الشيخ كم لك من العمر ؟ قال كذا وكذا سنة فإذا هو قدر عمر إبراهيم فعند ذلك قال إبراهيم: اللهم اقبضنى إليك حتى لا أصير إلى الهرم فكان إبراهيم أول من تمنى الموت ، فلما دنا منه ملك الموت قال يانبى الله على أى حالة تحب أقبض روحك ؟ فقال إبراهيم وأنا ساجد .

وقد اختلف جماعة من العلماء فى مدة حياة إبراهيم ، فمنهم من قال عاش مائتى سنة . قال السدى: إن سارة زوجته توفيت قبل إبراهيم بمدة طويلة وجاوزت من العمر مائة وسبعة وعشرين سنة فلما ماتت اشترى لها مغارة ودفنها ، وهى بقرية حبرون من أرض كنعان ، ولما مات إبراهيم دفن فى تلك المغارة (وموسى) بن عمران عليه السلام . وموسى اسم أعجمى غير منصرف وهو فى الأصل مركب والأصل موشى بالشين لأن الماء بالعبرانية يقال له مو والشجر يقال له شا فعربته العرب وقالوا موسى . قالوا وقد أخذه فرعون من الماء بين الأشجار لما وضعته أمه فى الصندوق كما ذكر فى القرآن العزيز فى سورة القصص . واختلافهم فى موسى هل هو مشتق من أوسيت رأسه إذا حلقته فهو موسى كأعطيته فهو معطى أو هو فعلى مشتق من ماس يميس : أى تبختر فى مشيته وتحرك فقلبت الياء واوا لانضمام ما قبلها كموقن من اليقين إنما هو فى موسى الحديد التى هى آلة الحلق ، لأنها تتحرك وتضطرب عند الحلق بها ، وليس لموسى اسم النبى عليه السلام اشتقاق لأنه أعجمى . وعاش موسى عليه السلام مائة وعشرين سنة . روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاء ملك الموت إلى موسى فقال له أجب أمر ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها . فقال ملك الموت يارب إنك أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت وقد فقأ عينى . قال فرد الله تعالى عينه وقال ارجع إلى عبدى فقل له : الحياة تريد ؟ فان كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فانك تعيش بعدده سنين ، قال ثم ماذا ؟ قال ثم تموت قال الآن من قريب . قال رب أدننى من الأرض المقدسة رمية حجر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أنى عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » . قال وهب : خرج موسى ليقضى حاجة فمر برهط من الملائكة يحفرون قبرا لم ير شيئا أحسن منه ولا مثل مافيه من الخضرة والنضرة

وَعِيسَى ،

والبهجة فقال لهم : ياملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا لعبد كريم على ربه ، فقال إن هذا العبد لمن الله بمنزلة مارأيت كاليوم أحسن منه مضجعا ، فقالت الملائكة ياصفي الله أتحب أن يكون لك ؟ قال وددت قالوا فانزل اضطجع فيه وتوجه إلى ربك قال فاضطجع فيه وتوجه إلى ربه ثم تنفس أسهل نفس فقبض الله تعالى روحه ثم سوت عليه الملائكة ، وقيل إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض الله تعالى روحه (وعيسى) بن مريم عليه السلام، ولقب بالمسيح . قال تعالى « اسمه المسيح عيسى بن مريم » واختلفوا لم سمى عيسى عليه الصلاة والسلام مسيحا وهل هو اسم مشتق أو موضوع ؟ فقيل إنه موضوع وأصله بالعبرانية مشيخا فغيرته العرب ، وأصل عيسى أيشوع كما قالوا موسى وأصله موشى أو ميشى ، وقال الأكثرون : إنه اسم مشتق ثم ذكروا فيه وجوها، قال ابن عباس رضى الله عنهما : سمى عيسى مسيحا لأنه مامسح ذا عاهة إلا برأ منها وقيل لأنه مسح بالبركة، وقيل لأنه مسح من الأقذار وطهر من الذنوب ، وقيل إنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن ، وقيل لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه حتى لايكون للشيطان فيه سبيل ، وقيل: لأنه كان يسيح فى الأرض ولا يقيم بمكان فكأنه يمسح الأرض : أى يقطعها مساحة ، فعلى هذا القول تكون الميم زائدة ، وقيل سمي مسيحا لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص له ، وسمى الدجال مسيحا لأنه ممسوح إحدى العينين ، وقيل المسيح هو الصديق ، وبه سمى عيسى عليه السلام ، وقد يكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمى الدجال فعلى هذا تكون هذه الكلمة من الأضداد . قال أهل التاريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض أورى شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل ، وأوحي الله إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين ، وقد ثبت فى الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال كما سيأتى ، وقيل لبعضهم هل تجد نزول عيسى إلى الأرض فى القرآن ؟ قال نعم قوله تعالي « وكهلا » وذلك لأنه لم يكتهل فى الدنيا ، وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء . روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتي لايقبله أحد » زاد فى رواية «حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وفى رواية « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ، وفى رواية : فأمكم منكم » . قال ابن أبى ذؤيب تدرى ما أمكم منكم . قلت فأخبرنى قال فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وبسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وفى أفراد مسلم من حديث النواس بن سمعان « فبينما هما كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق »

وَمُحَمَّدٌ خَيْرُ الْعَالَمِينَ ، مَعَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فِي مَرَاتِبِهِمُ الْمُنِيفَةِ وَمَنَاقِبِهِمُ الْعَزِيزَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَمَقَامَاتِهِمُ الْكَرِيمَةِ ، وَعَادَاتِهِمُ الْجَلِيلَةِ الْخَطِيرَةِ ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ الْأَئِمَّةُ الْأَبْرَارُ وَالزُّهَّادُ فِي مَرَاتِبِهِمُ الْعَظِيمَةِ الْفَاخِرَةِ ، وَأَبْدَانِهِمُ النَّقِيَّةِ الطَّاهِرَةِ ، وَعِبَادَاتِهِمُ الْكَثِيرَةِ الْخَالِصَةِ الْمُتَظَاهِرَةِ ، وَأَذَلُّ الْخَدَمِ عَلَى بَابِهِ مُلُوكُ الدُّنْيَا وَجَبَابِرَتُهَا يَخِرُّونَ لَهُ عَلَى الْأَذْقَانِ سَاجِدِينَ صَاغِرِينَ ، وَيُعَفِّرُونَ الْوُجُوهَ فِي التُّرَابِ خَاضِعِينَ ، وَيَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ بَاكِينَ بَاهِلِينَ ضَارِعِينَ وَيَعْتَرِفُونَ

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « ليس بيني وبينه يعني عيسى نبي وإنه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله الملل في زمانه كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » أخرجه أبو داود . ونقل بعضهم أن عيسى عليه الصلاة والسلام يدفن في حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام (و) نبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان من أولاد سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام (خير العالمين) وأفضل المخلوقات على العموم الشامل للعلوية والسفلية من البشر والجن والملك في الدنيا والآخرة في سائر خصال الخير وأوصاف الكمال (مع سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في مراتبهم المنيفة) أي المرتفعة (ومناقبهم) أي فضائلهم (العزيزة الشريفة ومقاماتهم الكريمة وعاداتهم الجليلة الخطيرة) أي العظيمة (ثم) من الذين هم خدمة على بابه جل وعز (العلماء الأئمة الأبرار والزهاد في مراتبهم العظيمة الفاخرة وأبدانهم النقية) أي الخالصة عن شوائب الأقذار (الطاهرة) من النجاسة والأكدار (وعباداتهم الكثيرة الخالصة المتظاهرة وأذل الخدم) وأهونهم (على بابه) تعالى (ملوك الدنيا وجبابرتها يخرون) أي يسقطون (له) أي لله تعالى (على الأذقان) أي على الوجوه (ساجدين) وإنما خص الذقن لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن ، يقال خر على وجهه سقط عليه (صاغرين) أي ذليلين (ويعفرون) أي يدلكون (الوجوه في التراب خاضعين ويرفعون حوائجهم إليه) تعالى (باكين باهلين ضارعين) إلى الله وهما بمعنى واحد ، في المصباح وابتهل إلى الله : ضرع إليه (ويعترفون

لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَلِأَنْفُسِهِمْ بِالنَّقْصِ ، سَاجِدِينَ صَاغِرِينَ ، حَتَّى رُبَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً وَيَقْضِي لَهُمْ بِفَضْلِهِ حَاجَةً أَوْ يَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ بِكَرَمِهِ زَلَّةً ، وَأَنَّهُ مَعَ هٰذِهِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالْمُلْكِ وَالْكَمَالِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي حَقَارَتِكَ وَعُيُوبِكَ وَقَذَارَتِكَ ، وَأَنْتَ الَّذِي لَوِ اسْتَأْذَنْتَ عَلَى رَئِيسِ بَلَدِكَ فَرُبَّمَا لَا يَأْذَنُ لَكَ ، وَإِنْ كَلَّمْتَ أَمِيرَ نَاحِيَتِكَ فَرُبَّمَا لَا يُكَلِّمُكَ وَإِنْ سَجَدْتَ لِسُلْطَانِ بَلَدِكَ بِالْأَرْضِ فَرُبَّمَا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْكَ ، وَقَدْ أَذِنَ لَكَ جَلَّ جَلَالُهُ حَتَّى تَعْبُدَهُ وَتُثْنِيَ عَلَيْهِ وَتُخَاطِبَهُ ، بَلْ تُدِلُّ عَلَيْهِ بِالْمَسْئَلَةِ وَتُبَاسِطُهُ فَتَسْتَقْضِيَهُ حَاجَتَكَ وَتَسْتَكْفِيَهُ مُهِمَّاتِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ يَرْضَى رَكْعَتَيْكَ فِي مَعَايِبِهِمَا بَلْ يُعِدُّ لَكَ عَلَيْهِمَا مِنَ الثَّوَابِ مَا لَا يَخْطُرُ بِقَلْبِ بَشَرٍ ، وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَعْجَبُ بِهَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ وَتَسْتَكْثِرُ ذٰلِكَ وَتَسْتَعْظِمُهُ ، وَلَا تَرَى مِنَّةَ اللهِ عَلَيْكَ فِي ذٰلِكَ ، فَمَا أَسْوَأَكَ مِنْ عَبْدٍ وَمَا أَجْهَلَكَ مِنْ إِنْسَانٍ وَاللهُ تَعَالَى الْمُسْتَعَانُ ، وَإِلَيْهِ الْمُشْتَكَى مِنْ هٰذِهِ

له) سبحانه وتعالى (بالعبودية ولأنفسهم بالنقص ساجدين صاغرين حتى ربما ينظر) الله (إليهم نظرة ويقضي لهم بفضله) تعالى وكرمه (حاجة أو يتجاوز عنهم بكرمه) وجوده (زلة) بفتح الزاى : أى خطأ (وأنه) تعالى (مع هذه العظمة والجلال والملك والكمال قد أذن) عز وجل (لك في حقارتك) في بمعنى مع كما ذكره العلامة عبد الحق (وعيوبك وقذارتك) بفتح القاف (وأنت الذى لو استأذنت على رئيس بلدك) أو قريتك (فربما لا يأذن) ذلك الرئيس (لك وإن كلمت أمير ناحيتك فربما لا يكلمك) الأمير استصغارا بك (وإن سجدت لسلطان بلدك بالأرض فربما لا يلتفت) السلطان (إليك وقد أذن) الله (لك جل جلاله حتى تعبده وتثنى عليه) تعالى وتحمده (وتخاطبه بل تدل) بكسر الدال من الإدلال (عليه) تعالى (بالمسئلة وتباسطه) يعني تطلب منه تعالى البسطة : أى السعة (فتستقضيه حاجاتك) أى تطلب منه جل وعز قضاءها (وتستكفيه مهماتك) أي تطلب منه تعالى كفاية ما يهمك من أمور دنياك ودينك (ثم إنه) تعالى (يرضى ركعتيك في معايبهما بل يعد) بضم الياء : أى يهيء الله (لك عليهما) أى الركعتين (من الثواب مالا يخطر بقلب بشر) أى آدمى (وأنت مع ذلك) المذكور من اذنه تعالى ورضاه لتلك الركعتين (تعجب بهاتين الركعتين) المعيبتين (وتستكثر ذلك) أى تعد ما فعلته من الركعتين كثيرا (وتستعظمه) أى تعده عظيما (ولا ترى منة الله عليك في ذلك) أى في إذنه تعالى ورضاه (فما أسوأك) فعل تعجب (من عبد وما أجهلك) صيغة تعجب أيضا (من إنسان، والله تعالى المستعان ، وإليه) تعالى (المشتكى) أى الشكوى (من هذه

النَّفْسِ الْجَاهِلَةِ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

﴿ فصل ﴾ وَعَلَى وَجْهٍ آخَرَ إِنَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ إِذَا أَذِنَ فِى إِدْخَالِ الْهَدَايَا إِلَيْهِ فَتَدْخُلُ بِحَضْرَتِهِ الْأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ وَالنُّبَلَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ بِأَنْوَاعِ الْهَدَايَا مِنَ الْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ وَالذَّخَائِرِ النَّفِيسَةِ وَالْأَمْوَالِ الْجَلِيلَةِ ، فَإِنْ جَاءَ بَقَّالٌ بِبَاقَةِ بَقْلٍ أَوْ قَرَوِىٌّ بِسَلَّةِ عِنَبٍ تُسَاوِى دَانِقًا أَوْ حَبَّةً فَيَدْخُلُ فِى حَضْرَتِهِ وَيُزَاحِمُ أُولٰئِكَ الْأَكَابِرَ وَالْأَغْنِيَاءَ بِهَدَايَاهُمُ الْكَثِيرَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَهٰذَا الْمَلِكُ يَقْبَلُ مِنْ هٰذَا الْفَقِيرِ هَدِيَّتَهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ بِنَظَرِ الْقَبُولِ وَالرِّضَا ، وَيَأْمُرُ لَهُ بِأَنْفَسِ خِلْعَةٍ

النفس الجاهلة) الأمارة بالسوء (وعليه) سبحانه (التكلان) أى التوكل (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة .

فصـــل

(وعلى وجه آخر إن الملك العظيم إذا أذن فى إدخال الهدايا) جمع هدية (إليه فتدخل بحضرته) أى الملك العظيم (الأمراء والكبراء والرؤساء والنبلاء) أى الأذكياء : يقال نبل الرجل ينبل نبالة كان ذا نبل : أى ذكاء ونجابة وفضل كذا فى سراج السالكين (والأغنياء بأنواع الهدايا من الجواهر الثمينة) أى رفيعة الثمن (والذخائر النفيسة والأموال الجليلة ، فإن جاء بقال) بوزن فعال صيغة نسب : أى من يبيع البقول . قال الحريرى :

وانسب أخا الحرفة كالبقال ومن يضاهيه إلى فعال

(بباقة بقل) الباقة : الحزمة من البقل (أو) جاء (قروى) أى ساكن القرية (بسلة عنب) والسلة : وعاء يحمل فيه الفاكهة والجمع سلات مثل جنة وجنات كذا فى المصباح (تساوى) أى تلك الباقة أو السلة (دانقا) أى سدس الدرهم (أو حبة) وهى مقدار وزن الشعيرتين وقد تطلق على ثلث الطسوج وعلى سدس عشر الدينار . وفى بحر الجواهر : الحبة شعيرتان ، وقيل شعيرة واحدة ، والمشهور فى زماننا أن المراد بها حبة الحنطة (فيدخل) أى البقال أو القروى (فى حضرته) أى الملك العظيم (ويزاحم) أى كل منهما (أولئك الأكابر) والأمراء والرؤساء والنبلاء (والأغنياء بهداياهم الكثيرة الشريفة وهذا الملك) العظيم (يقبل من هذا الفقير) وهو البقال أو القروى (هديته) التى هى الباقة أو السلة (وينظر) أى الملك (إليه) أى إلى الفقير (بنظر القبول والرضا ويأمر) الملك (له) أى للفقير (بأنفس خلعة) بكسر الخاء المعجمة : أى ثياب ، فى المصباح : والخلعة مايعطيه الإنسان غيره من الثياب منحة ، والجمع خلع مثل

وَكَرَامَةٍ ، أَلاَ يَكُونُ ذٰلِكَ مِنْهُ غَايَةَ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ ، فَإِنْ أَخَذَ هٰذَا الْفَقِيرُ يَمُنُّ بِذٰلِكَ عَلَى الْمَلِكِ وَيَعْجَبُ بِهِ وَيَسْتَعْظِمُهُ وَيَنْسَى ذِكْرَ مِنَّةِ الْمَلِكِ ، أَلاَ يُقَالُ إِنَّ هٰذَا مَجْنُونٌ مُضْطَرِبُ الْعَقْلِ أَوْ سَفِيهٌ سَيِّئُ الْأَدَبِ عَظِيمُ الْجَهْلِ ، فَالْآنَ يَجِبُ أَنَّكَ إِذَا قُمْتَ لِلّٰهِ لَيْلَةً وَصَلَّيْتَ لَهُ رَكْعَتَيْنِ ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَتَفَكَّرْ كَمْ قَامَ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ الْخَدَمِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ بَرِّهَا وَبَحْرِهَا وَجِبَالِهَا وَبِلاَدِهَا مِنْ أَصْنَافِ الْمُسْتَقِيمِينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالْخَائِفِينَ وَالْمُشْتَاقِينَ وَالْمُجْتَهِدِينَ وَالْمُتَضَرِّعِينَ ، وَكَمْ حَضَرَتْ فِي هٰذِهِ السَّاعَةِ بِبَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنْ عِبَادَةٍ صَافِيَةٍ وَخِدْمَةٍ خَالِصَةٍ عَنْ أَنْفُسٍ خَاشِعَةٍ وَأَلْسُنٍ طَاهِرَةٍ ، وَعُيُونٍ بَاكِيَةٍ

سدرة وسدر (وكرامة ألا يكون ذلك) أى القبول وإعطاء الخلعة والكرامة (منه) أى من الملك (غاية الفضل والكرم ، فان أخذ) أى شرع (هذا الفقير) المهدى بشيء حقير من الباقة أو السلة (يمن) أي يعد منة (بذلك) أى بما أهداه من الشيء الحقير (على الملك) العظيم (ويعجب) أى الفقير (به) أى بما أهداه (ويستعظمه) أى يعده عظما (وينسى) الفقير (ذكر منة الملك ألا يقال إن هذا) الفقير الذى يمن بما ذكر على الملك (مجنون مضطرب العقل أو) يقال إن هذا (سفيه) أى ذو سفه . والسفه : خفة الحلم أو نقيضه (سيء الأدب عظيم الجهل ، فالآن) بعد فهمك هذه المثال المذكورة (يجب) عليك أن تتفكر ، وذلك (أنك إذا قمت لله ليلة وصليت له) أى لأجله تعالى (ركعتين فاذا فرغت) من صلاتك (فتفكر) بضم التاء وفتحها وسكون الفاء وكسر الكاف مضارع أفكر بالهمزة وفكر من باب ضرب كما فى المصباح وغيره (كم قام لله سبحانه فى هذه الليلة من الخدم) جمع خادم (فىأقطارالأرض) أى أطرافها (برها) أى الأرض بفتح الباء : وهو خلاف البحر والبرية نسبة إليه هى الصحراء (وبحرها) والبحر معروف وجمعه بحور وأبحر وبحار ، سمى بذلك لاتساعه ومنه قيل فرس بحر إذا كان واسع الجرى (وجبالها) جمع جبل وهو معروف ، وقد يجمع على أجبل على قلة . قال بعضهم : ولا يكون جبلا إلا إذا كان مستطيلا (وبلادها) بكسر الباء الموحدة جمع بلدة مثل كلبة وكلاب ، وتطلق على كل موضع من الأرض عامرا كان أو خلاء كما فى المصباح (من أصناف المستقيمين) على طاعة ربهم (والصديقين) جمع صديق بكسر الصاد وتشديد الدال : وهو المبالغ فى الصدق (والخائفين) والخاشعين (والمشتاقين والمجتهدين والمتضرعين وكم حضرت) أي العبادة المفسرة بقوله الآتى من عبادة (فى هذه الساعة) أى الليلة (بباب الله سبحانه من عبادة صافية) من الآفات المهلكات (وخدمة) أى طاعة (خالصة) لله تعالى (عن أنفس خاشعة وألسن) جمع لسان (طاهرة) عن أنواع المعصية (وعيون باكية) من خشية الله تعالى

وَقُلُوبٍ عَامِرَةٍ وَصُدُورٍ نَقِيَّةٍ ، وَأَرْكَانٍ تَقِيَّةٍ ، وَصَلَوَاتُكَ إِنْ كُنْتَ بَذَلْتَ الْمَجْهُودَ فِى تَحْسِينِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِخْلَاصِهَا فَلَا تَكَادُ تَصْلُحُ لِحَضْرَةِ هٰذَا الْمَلِكِ الْعَظِيمِ ، وَلَا تَتَبَيَّنُ فِى جَنْبِ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ الَّتِى تُعْرَضُ هُنَاكَ ؛ كَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ مِنْكَ عَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ مُخْتَلِطٍ بِأَنْوَاعِ الْعُيُوبِ ، وَبَدَنٍ نَجِسٍ بِأَقْذَارِ الذُّنُوبِ ، وَلِسَانٍ مُتَلَطِّخٍ بِأَنْوَاعِ الْمَعْصِيَةِ وَالْفُضُولِ ، فَكَيْفَ يَصْلُحُ هٰذَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَى تِلْكَ الْحَضْرَةِ ، وَكَيْفَ يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُهْدَى إِلَى رَبِّ الْعِزَّةِ ؛ قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ : اُنْظُرْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ ، هَلْ وَجَّهْتَ قَطُّ صَلَاةً مِنْ صَلَوَاتِكَ إِلَى السَّمَاءِ كَمَائِدَةٍ بَعَثْتَهَا إِلَى بُيُوتِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ

(وقلوب عامرة) أى خائفة وممتلئة بالتقوى (وصدور نقية) من المشوشات والمكدرات (وأركان) أى جوارح (تقية) عن الفواحش . (و) أما (صلواتك) فإنك (إن كنت بذلت المجهود فى تحسينها) أى تلك الصلوات (وإحكامها) بكسر الهمزة : أى إتقانها (وإخلاصها فلا تكاد) أى تقرب (تصلح) أى الصلوات (لحضرة هذا الملك العظيم ولا تتبين فى جنب تلك العبادات التى تعرض هناك) أى فى حضرة الملك العظيم (كيف) تكاد تصلح الصلوات تلك الحضرة ، (و) الحال أنها (قد كانت) أى الصلوات (منك) صادرة (عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب و) عن (بدن نجس بأقذار الذنوب و) عن (لسان متلطخ) أى متلوث (بأنواع المعصية والفضول) أى مالا نفع فيه (فكيف يصلح هذا) أى مافعلته من الصلوات التى صدرت عما ذكر من القلب الغافل وما بعده (أن يحمل) أى هذا الذى فعلته منها (إلى تلك الحضرة) أى حضرة الملك العظيم (وكيف يستأهل) أى يصير ماذكر أهلا (أن يهدى) أى يعطى على سبيل الهدية (إلى رب العزة) أى الغلبة والقدرة ، أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل ذى العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه به ، ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد إلا وهو ربها ومالكها كقوله « تعز من تشاء » (قال شيخنا رحمه الله : انظر أيها العاقل هل وجهت) أى أرسلت (قط صلاة من صلواتك إلى السماء كمائدة) أى كطعام . قال بعض المفسرين المائدة : الخوان الذى عليه الطعام ولا يسمى مائدة إن لم يكن عليه طعام ، إنما يقال خوان أو طبق وأصلها من ماد يميد إذا تحرك كأنها تميد بما عليها من الطعام (بعثتها) أى أرسلت تلك المائدة (إلى بيوت الأغنياء ، وكان أبو بكر) محمد بن عمر (الوراق) الترمذى ثم البلخى رحمه الله صحب ابن خضرويه وصنف فى الرياضات والمعاملات له ذكر فى الرسالة القشيرية فى آخر باب

يَقُولُ : مَا فَرَغْتُ مِنْ صَلَاةٍ إِلاَّ اُسْتَحَيْتُ مِنْهَا حِينَ فَرَغْتُ مِنْهَا أَشَدَّ حَيَاءً مِنِ امْرَأَةٍ فَرَغَتْ مِنَ الزِّنَا .

ثُمَّ إِنَّ الرَّبَّ الْكَرِيمَ سُبْحَانَهُ بِمَحْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ عَظَّمَ قَدْرَ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ وَوَعَدَ عَلَيْهِمَا مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ مَا وَعَدَ وَأَنْتَ عَبْدُهُ وَفِي جِرَايَتِهِ ، وَعَمِلْتَ مَا عَمِلْتَ بِتَوْفِيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ مَعَ ذٰلِكَ كُلِّهِ تَعْجَبُ بِذٰلِكَ وَتَنْسَى مِنَّةَ اللهِ عَلَيْكَ ، هٰذَا وَاللهِ أَعْجَبُ الْعَجَبِ لَا يَكَادُ يَصْدُرُ مِثْلُهُ إِلاَّ عَنْ جَاهِلٍ لَا فِكْرَةَ لَهُ ، وَغَافِلٍ لَا ذِهْنَ لَهُ أَوْ قَلْبٍ مَيِّتٍ خَاوٍ لَا خَيْرَ فِيهِ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ ، نَسْأَلُ اللهَ حُسْنَ الْكِفَايَةِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

﴿ فصل ﴾ ثُمَّ أَقُولُ بَعْدَ هٰذِهِ الْجُمْلَةِ ، تَيَقَّظْ مِنْ رَقْدَتِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ فِي هٰذِهِ الْعَقَبَةِ وَإِلاَّ كُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، فَإِنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ أَشَدُّ وَأَشَقُّ وَأَمَرُّ

الحياء ذكره الزبيدى (يقول : مافرغت من صلاة إلا استحيت) ربى جل وعز (منها حين فرغت منها أشد حياء من) حياء (امرأة فرغت من الزنا . ثم) اعلم (إن الرب الكريم سبحانه بمحض كرمه وفضله) وإحسانه (عظم) جل وعز (قدر هاتين الركعتين ووعد) الرب (عليهما من جزيل الثواب) والأجر (ما وعد وأنت عبده وفى جرايته) أى فى رزقه تعالى والأصل فى الجراية الجارى من الوظائف (وعملت ما عملت بتوفيقه) تعالى (وتيسيره ثم مع ذلك) المذكور من تعظيم الرب قدر تلك الركعتين ووعده عليهما جزيل الثواب وغيرهما (كله) بالجر تأكيد لما قبله (تعجب بذلك) العمل المذكور (وتنسى منة الله عليك هذا) أى ما ذكر من العجب والنسيان (والله) العظيم (أعجب العجب لا يكاد يصدر مثله) أى مثل ماذكر منهما (إلا عن جاهل لا فكرة له) أى للجاهل (و) عن (غافل لا ذهن) ولا فطنة (له) أى للغافل (أو) عن (قلب ميت خاو) أى ساقط عن درجة المعرفة (لا خير فيه، فهذه) الجملة (هذه) أى الموصوفة بالعظمة والكمال (نسأل الله حسن الكفاية بمنه) تعالى (وفضله) .

فصـــــل

(ثم أقول بعد هذه الجملة) التى ذكرناها (تيقظ) أى تنبه (من رقدتك) بفتح الراء أى من نومك : يعنى غفلتك (أيها الرجل) السالك سبيل الخير (فى هذه العقبة) السادسة وهى عقبة القوادح (وإلا) تيقظت وتنبهت (كنت من الخاسرين ، فان هذه العقبة أشد وأشق وأمر) أى أشد

وَأَضَرُّ عَقَبَةٍ أَسْتَقْبَلَتْكَ فِى هٰذِهِ الطَّرِيقِ ، إِذْ إِلَيْهَا تَنْتَهِى ثَمَرَةُ كُلِّ مَا مَضَى مِنَ الْعَقَبَاتِ؛ فَإِنْ سَلِمْتَ غَنِمْتَ وَرَبِحْتَ ، وَإِنْ كَانَتِ الْأُخْرَى فَقَدْ ضَاعَ السَّعْىُ كُلُّهُ ، وَخَابَ الْأَمَلُ ، وَبَطَلَ الْعُمْرُ ، ثُمَّ الشَّأْنُ كُلُّهُ أَنَّهُ قَدِ اجْتَمَعَ فِى هٰذِهِ الْعَقَبَةِ هٰهُنَا ثَلَاثَةُ أُمُورٍ : الْأَوَّلُ مِنْهَا : أَنَّ الْأَمْرَ دَقِيقٌ جِدًّا ، وَالْغَبْنَ شَدِيدٌ ، وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ ؛ أَمَّا دِقَّةُ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ مَجَارِىَ الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ فِى الْأَعْمَالِ دَقِيقَةٌ خَفِيَّةٌ بِالْغَايَةِ ، فَلَا يَكَادُ يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا كُلُّ نِحْرِيرٍ فِى أَمْرِ الدِّينِ ، بَصِيرٍ يَقْظَانِ الْقَلْبِ مُتَحَرِّزٍ ، وَأَنَّى يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْجَاهِلُ اللَّغُوبُ ، وَالْغَافِلُ النَّئُومُ

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ عُلَمَائِنَا رَحِمَهُمُ اللّٰهُ بِنَيْسَابُور يَحْكِى أَنَّ عَطَاءَ السُّلَمِىَّ

مرارة فى المذاق (وأضر عقبة استقبلتك) هذه العقبة السادسة (في هذه الطريق، إذ إليها) أى إلى تلك العقبة (تنتهى ثمرة كل ما مضى من العقبات) المذكورة من العقبة الأولى إلي هنا (فان سلمت) فى هذه العقبة (غنمت وربحت ، وإن كانت) أى وجدت الحالة (الأخرى) وهو عدم سلامتك فى هذه العقبة (فقد ضاع السعى) أى هلك العمل (كله وخاب الأمل) أى المأمول (وبطل العمر) أى فسد نفعه وسقط (ثم الشأن) المعتبر (كله أنه) أى الحال والشأن (قد اجتمع فى هذه العقبة) السادسة (هاهنا) بدل مما قبله (ثلاثة أمور: الأول منها) أى من الثلاثة (أن الأمر دقيق جدا والغبن شديد والخطر عظيم ، أما دقة الأمر) أى دقيقه (فان مجارى الرياء والعجب فى الأعمال دقيقة خفية بالغاية) أى النهاية (فلا يكاد يتنبه لذلك) أى لمجارى الرياء والعجب الدقيقة (إلا كل نحرير) أى حاذق: قال العلامة عبدالحق : النحرير بالكسر الحاذق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن البصير بكل شىء (فى أمر الدين بصير يقظان القلب متحرز) أى متحفظ (وأنى) أى كيف (يطلع عليه) أى على خفى الرياء والعجب (الجاهل اللغوب) بالغين المعجمة : أى الأحمق، كذا فى سراج السالكين وبالعين المهملة : أى الكثير اللعب على نسخة (والغافل النئوم) أى الكثير النوم (ولقد سمعت بعض علمائنا رحمهم الله بنيسابور) قاعدة من قواعد خراسان (يحكى أن عطاء السلمى) كذا فى نسخ الكتاب والصواب السليمى بفتح المهملة وكسر اللام: نسبة إلى سلمة بن مالك، فهم بطن من الأزد زاهد مشهور، ويقال له العبدى أيضا وهو من رجال الحلية . روى عن أنس بن مالك ولم يسند عنه شيئا ولقى الحسن وعبد الله بن غالب الحرانى وجعفر بن زيد العبدى ، وسمع منهم ، وحكى عنهم ، وممن روى عنه بشر بن منصور وحماد بن زيد وصالح المرى وغيرهم ، وكان يسكن البصرة . قاله

رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ ، نَسَجَ ثَوْبًا فَأَحْكَمَهُ وَحَسَّنَهُ جِدًّا ، ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى السُّوقِ فعَرَضَهُ فَاسْتَرْخَصَهُ الْبَزَّازُ فَقَالَ : إِنَّ فِيهِ عُيُوبًا كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَأَخَذَهُ عَطَاءٌ وَجَلَسَ يَبْكِي بُكَاءً شَدِيدًا ، فَنَدِمَ الرَّجُلُ عَلَى ذٰلِكَ وَجَعَلَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ ويَبْذُلُ لَهُ فِى ثَمَنِهِ مَا يُرِيدُ ؛ فَقَالَ لهُ عَطَاءٌ : لَيْسَ ذٰلِكَ كَمَا تَظُنُّ ، إِنَّمَا أَنَا عَامِلٌ فِى هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ ، وَقَدِ اجْتَهَدْتُ فِى إِحْكَامِ هٰذَا الثَّوْبِ وَإِصْلَاحِهِ وَتَحْسِينِهِ حَتَّى لَا يُوجَدَ بِهِ عَيْبٌ ، فَلَمَّا عُرِضَ عَلَى الْبَصِيرِ بِعُيُوبِهِ أَظْهَرَ فِيهِ عُيُوبًا كُنْتُ عَنْهَا غَافِلاً ، فَكَيْفَ أَعْمَالُنَا هٰذِهِ إِذَا عُرِضَتْ غَدًا عَلَى اللهِ ! كَمْ يَبْدُو فِيهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالنُّقْصَانِ ، الَّذِى نَحْنُ الْيَوْمَ عَنْهَا غَافِلُونَ ؟ .

وَعَنْ بَعْضِ الصالِحِينَ قال : كُنْتُ لَيْلَةً فِي وَقْتِ السَّحَرِ فى غُرْفَةٍ

العلامة الزبيدى (رحمة الله عليه ورضوانه) أى عليه (نسج ثوبا فأحكمه) أى أتقنه (و) أصلحه و (حسنه جدا ثم حمله) أى حمل عطاء ذلك الثوب المنسوج (إلى السوق فعرضه) أى أظهر عطاء ذلك الثوب لذوى الرغبة ليشتروه (فاسترخصه) أى فطلبه بالثمن الرخيص: وهو ضد الغلاء (البزاز) أى بائع البز ، والبز بالفتح نوع من الثياب (فقال) البزاز (إن فيه) أى فى هذا الثوب (عيوبا كيت وكيت) بكسر آخرهما : أى كذا وكذا ، قاله العلامة عبدالحق (فأخذه عطاء وجلس يبكى بكاء شديدا فندم) من باب طرب (الرجل) أى ذلك البزاز (على ذلك) أى على طلبه الرخصة (وجعل) البزاز (يعتذر إليه) أى إلى عطاء (ويبذل) أى يعطى البزاز (له) أى لعطاء (فى ثمنه) أى الثوب المذكور (ما يريد) أى ما يريده عطاء من الثمن (فقال له) أى للبزاز (عطاء ليس ذلك) البكاء (كما تظن) من طلبك لهذا الثوب بالثمن الرخيص وقدحك أن فيه عيوبا (إنما) بكائى (أنا عامل فى هذه الصناعة) أى النساجة (وقد اجتهدت فى إحكام هذا الثوب) بكسر الهمزة : أى إتقانه (وإصلاحه وتحسينه حتى لا يوجد به) أى بهذا الثوب (عيب) من العيوب عندنا (فلما عرض) بالبناء للمفعول : أى أظهر الثوب وأبرز (على البصير بعيوبه أظهر) البصير بذلك (فيه) أى فى الثوب (عيوبا كنت) أنا (عنها) أى العيوب (غافلا فكيف أعمالنا هذه) أى الأعمال التى أنا فيها (إذا عرضت) بالبناء المفعول : أى أظهرت تلك الأعمال (غدا) أى فى الآخرة (على الله كم يبدو) أى يظهر (فيها) أى فى الأعمال (من العيوب والنقصان الذى نحن اليوم) أى فى الدنيا (عنها) أى عن العيوب والنقائص (غافلون . و) روى (عن بعض الصالحين) رحمه الله (قال: كنت ليلة) من الليالى (فى وقت السحر) وهو مابين الفجرين (فى غرفة) بضم الغين المعجمة : أى فى علية والجمع غرف ، ثم غرفات بفتح الراء جمع الجمع عند

لَدَى شَارِعَةٍ أَقْرَأُ سُورَةَ طٰهَ ، فَلَمَّا أَنْ خَتَمْتُهَا غَفَوْتُ غَفْوَةً فَرَأَيْتُ شَخْصًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِيَدِهِ صَحِيفَةٌ فَنَشَرَهَا بَيْنَ يَدَيَّ ، فَإِذَا فِيهَا سُورَةُ طٰهَ ، وَإِذَا تَحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ مُثْبَتَةٍ إِلاَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَكَانَهَا مَحْوًا وَلَمْ أَرَ تَحْتَهَا شَيْئًا، فَقُلْتُ : وَاللهِ لَقَدْ قَرَأْتُ هٰذِهِ الْكَلِمَةَ وَلاَ أَرَى لَهَا ثَوَابًا وَلاَ أَرَاهَا أُثْبِتَتْ . فَقَالَ الشَّخْصُ صَدَقْتَ ، قَدْ قَرَأْتَهَا وَكَتَبْنَاهَا إِلاَّ أَنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي مِنْ قِبَلِ الْعَرْشِ : اُمْحُوهَا وَأَسْقِطُوا ثَوَابَهَا ، فَمَحَوْنَاهَا ؛ قَالَ فَبَكَيْتُ فِي مَنَامِي وَقُلْتُ : لِمَ فَعَلْتُمْ ذٰلِكَ ؟ قَالَ : مَرَّ رَجُلٌ فَرَفَعْتَ بِهَا صَوْتَكَ لِأَجْلِهِ فَذَهَبَ ثَوَابُهَا ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

قوم، وهو تخفيف عند قوم وتضم الراء للاتباع وتسكن حملا على لفظ الواحد كما هو صريح عبارة المصباح (لدى شارعة) أى عند طريق كبير يسلكه الناس عامة (أقرأ) أنا (سورة طه) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين » ذكره البيضاوى ، وذكر النسفى حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال «لا يقرأ أهل الجنة إلا سورة طه ويس » (فلما أن ختمتها) أى تلك السورة وإن زائدة (غفوت غفوة) أى نمت نومة خفيفة. قال العلامة عبد الحق : الرجل يغفو غفوا وغفوا وأوى نام أونعس . وقيل نام نومة خفيفة . الغفوة: المرة . قال ابن السكيت وغيره: لا يقال غفوت . وقال الأزهرى: كلام العرب أغفيت وقل ما يقال غفوت (فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدى فإذا فيها) أى فى تلك الصحيفة (سورة طه وإذا تحت كل كلمة) من كلماتها (عشر حسنات مثبتة) فى تلك الصحيفة (إلا كلمة واحدة فإنى رأيت مكانها) أى الكلمة الواحدة (محوا) أى مزالا (ولم أر تحتها شيئا) من الثواب (فقلت) للشخص (والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى لها ثوابا ولا أراها أثبتت) أى فى تلك الصحيفة (فقال الشخص) المذكور (صدقت قد قرأتها وكتبناها) أى هذه الكلمة (إلا أنا سمعنا مناديا ينادى من قبل العرش) بكسر القاف وفتح الباء : أى من جهته (امحوها) أى أزيلوا تلك الكلمة (وأسقطوا ثوابها فمحوناها) أى أزلناها من الصحيفة (قال) بعض الصالحين (فبكيت فى منامى وقلت لم ؟) أى لأى شىء (فعلتم ذلك) المحو والإسقاط (قال) الذى نزل من السماء (مر رجل) فى هذه الطريق (فرفعت بها) أى بهذه الكلمة (صوتك لأجله) أى الرجل المار (فذهب ثوابها) أى الكلمة المذكورة ، وإنما أتى المصنف رحمه الله بهذه الرؤيا فى هذا الباب مثبتا لمقتضاها لأنها رؤيا حق ليست من أضغاث أحلام ولا من تلاعب الشيطان وتحزينه وتحديثه، ولا من حديث النفس ولا من أحكام الطبائع الأربع ومضمنها فى إحباط العمل بالرياء ثابت معلوم من الأخبار وغيرها كما أفاده الفاسى (فهذه) الجملة (هذه) أى عظيمة

وَأَمَّا شِدَّةُ الْغَبْنِ ، فَلِأَنَّ الرِّيَاءَ وَالْعُجْبَ آفَةٌ عَظِيمَةٌ تَقَعُ فِى لَحْظَةٍ ، فَرُبَّمَا تُفْسِدُ عَلَيْكَ عِبَادَةَ سَبْعِينَ سَنَةً .

وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلاً أَضَافَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ رَحِمَهُ اللهُ وَأَصْحَابَهُ فَقَالَ لِأَهْلِهِ : هَاتُوا الطَّبَقَ لَا الَّذِى أَتَيْتُ بِهِ فِى الْحَجَّةِ الْأُولَى ، بَلِ الَّذِى أَتَيْتُ بِهِ فِى الْحَجَّةِ الثَّانِيَةِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سُفْيَانُ وقَالَ : مِسْكِينٌ قَدْ أَفْسَدَ عَلَيْهِ بِهٰذَا حَجَّتَيْهِ ،

(وأماشدةالغبن)والنقص(فلأن الرياءوالعجب آفةعظيمةتقع فى لحظة فربماتفسد) أى هذه الآفة (عليك عبادة سبعين سنة . وحكى أن رجلا أضاف) أى أطعم على سبيل الضيافة (سفيان الثورى) وتقدمت ترجمته (رحمه الله وأصحابه فقال) الرجل (لأهله هاتوا) أى أعطوا (الطبق) وهو إناء يحمل فيه الطعام . فى المصباح : الطبق من أمتعة البيت .والجمع أطباق مثل سبب وأسباب، وطباق أيضاً مثل جبل وجبال(لا) الطبق (الذى أتيت) أنا(به) أى بالطبق (فى الحجة الأولى) إلى مكة المكرمة (بل هاتوا الطبق(الذى أتيت) أنا (به فى الحجة الثانية) لأنى حججت مرتين (فنظر إليه) أى إلى الرجل (سفيان) الثورى (وقال) هذا (مسكين قد أفسدعليه) أى على نفسه (بهذا) الذى قاله (حجتيه) وذلك لأن هذا المسكين يقول ما ذكر فرحا وسرورا باطلاع سفيان وأصحابه على حجته ومعرفتهم بذلك ، وهذا السرور يدل على رياء خفى منه ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند معرفة الناس واطلاعهم فلقد كان الرياء مستكنا فى القلب استكنان النار فى الحجر فأظهر منه اطلاع الخلق أثر السرور، كما صرح به الغزالى رحمه الله .

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ؛ فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم. فنقول أولا كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم فالمحمود أربعة أقسام :

الأول : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله تعالى منها، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم عليه وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله تعالى به ونظره إليه وألطافه به فإنه يستر الطاعة والمعصية، ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة فلا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله وحسن عنايته به ورعايته له لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم ، وقد قال تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به، ولكن ليس لكل أحد لم يختبر نفسه وعلم دسائسها أن يقول إنه مقبول عند الله ففيه خطر عظيم زلت بسببه أقدام خلق كثير .

الثانى : أن يستدل بإظهار الله تعالى الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا أنه كذلك يفعله فى الآخرة إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ستر الله على عبد ذنبا فى الدنيا إلا ستره عليه فى الآخرة

وَوَجْهٌ آخَرُ فى الْغَبْنِ ، أَنَّ أَقَلَّ طَاعَةٍ سَلِمَتْ عَنْ هٰذَا الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ يَكُونُ لَهَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْقِيمَةِ مَالاَ نِهَايَةَ لَهُ، وَأَكْثَرُ طَاعَةٍ إِذَا أَصَابَتْهَا هٰذِهِ الآفَةُ بَقِيَتْ لاَقِيمَةَ لَهَا إِلاَّ أَنْ يَتَدَارَكَهَا اللهُ تعالى عَلَى مَا رُوِىَ عَنْ عَلِىٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لاَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَقبُولٌ أَلْبَتَّةَ، وَكَيْفَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَقْبُولٌ؟

فلا يفضحه به على رءوس الأشهاد » رواه مسلم من حديث أبى هريرة فيكون الأول فرحا بالقبول فى الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا الثانى التفات إلى المستقبل ، وقد يجتمعان معا فى مؤمن فيكون سببا لمزيد فرحه ولكن بشرط أنه إذا صدر منه القبيح فرطا من غير تصميم العزم عليه ثم ستره الله تعالى عليه ندم وأحسن توبته فهذا الذى يرجى له الستر فى الآخرة . وأما من ستر الله عليه ذلك وهو مصمم على الوقوع فيه أو العود إليه فليس له فى الآخرة نصيب، وربما يفضحه الله فى جوف بيته فليحذر السالك من ذلك .

الثالث : أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به فى الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولا ، ومن اقتدى به فى طاعة ناله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شىء كما ورد فى الخبر ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لامحالة .

الرابع : أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله فى مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، ويغتنم ذلك منهم ويسره ذلك إذكم من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته بقلبه أو يحسده على ما أوتيه أو يذمه ويهزأ به ويسبه فى المجالس ، أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه ، فهذا الرابع فرح بحسن إيمان عباد الله . ولكن للشيطان فى هذا الاسم تغريرات وتلبيسات لذلك قلما يوجد معه الاخلاص وعلامة الاخلاص فى هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه ، ومهما رأى نفسه تستثقل حمدهم غيره في مجلسه فاعلم أنه لا إخلاص حينئذ . وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام فى مصادره حين يصدر وموارده حين يرد فهذا مكروه مذموم ، كذا ذكره الغزالى وغيره (ووجه آخر فى الغبن أن أقل طاعة سلمت عن هذا الرياء والعجب يكون لها من الله عز وجل من القيمة مالا نهاية له وأكثر طاعة إذا أصابتها هذه الآفة) التى هى الرياء والعجب (بقيت) أى الطاعة التى كثرت (لا قيمة لها إلا أن يتدارکها الله تعالى على ما روى عن على) بن أبى طالب (رضى الله عنه أنه قال : لا يقل عمل مقبول ألبتة) أى قطعا (وكيف يقل عمل مقبول) ولفظ القوت : قال على كرم الله وجهه : كونوا بقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل فإنه لا يقل عمل مع تقوى ، وكيف يقل عمل يتقبل

وَسُئِلَ النَّخَعِيُّ، عَنْ عَمَلِ كَذَا وَكَذَا: مَا ثَوَابُهُ؟ قَالَ: إِذَا قُبِلَ لَا يُحْصَى ثَوَابُهُ.

وَعَنْ وَهْبٍ قَالَ: كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ عَبَدَ اللهَ سَبْعِينَ عَامًا صَائِمًا يُفْطِرُ مِنْ سَبْتٍ إِلَى سَبْتٍ فَطَلَبَ إِلَى اللهِ حَاجَةً فَلَمْ تُقْضَ لَهُ، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُهَا وَقَالَ: مِنْ قِبَلِكِ أُتِيتُ، لَوْ كَانَ عِنْدَكِ خَيْرٌ لَقُضِيَتْ حَاجَتُكِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى مَلَكًا فَقَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ سَاعَتُكَ الَّتِي ازْدَرَيْتَ فِيهَا نَفْسَكَ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَتِكَ الَّتِي مَضَتْ.

قُلْتُ: فَلْيَنْظُرِ الْعَاقِلُ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ، أَلَيْسَ مِنَ الْغَبْنِ أَنَّ وَاحِدًا يَكْدَحُ وَيَتْعَبُ سَبْعِينَ سَنَةً،

(وسئل النخعي) رحمه الله هو أبو عمران وأبو عمار إبراهيم بن يزيد بن الأسود أحد الأئمة المشاهير تابعي توفي سنة ست، وقيل خمس وتسعين من الهجرة وله تسع وأربعون سنة، ونسبته إلى النخع بفتح النون والخاء المعجمة وبعدها عين مهملة، وهي قبيلة كبيرة من مذحج، باليمن، كذا في سراج السالكين (عن عمل كذا وكذا) عملا من أعمال الصالحات (ما ثوابه) أي العمل (قال) النخعي (إذا قبل) ذلك العمل (لا يحصى ثوابه. و) روى (عن وهب) بن منبه بن كامل اليماني الذماري أبو عبد الله الأنباري تابعي ثقة عالم زاهد، وكان على قضاء صنعاء، مكث أربعين سنة لم يرقد على فراش، روى له البخاري حديثا واحدا والباقون إلا ابن ماجه مات سنة ١١٦ ذكره العلامة الزبيدي. وقال عبد الحق: إن وهب بن منبه تابعي جليل من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية، سمع جابر بن عبد الله وابن عباس وابن عمرو بن العاص وأبا سعيد الخدري وأبا هريرة وأنسا والنعمان بن بشير. روى عنه عمرو بن دينار وعوف الأعرابي والمغيرة بن حكيم وآخرون واتفقوا على توثيقه، توفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة. وقال أبو سعيد: سنة عشر ومائة (قال كان فيمن كان قبلكم رجل عبد الله سبعين عاما صائما يفطر من سبت إلى سبت) ثم بدت له إلى الله حاجة فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة (فطلب) العبد (إلى الله حاجة فلم تقض) أي الحاجة (له) أي للعابد (فأقبل) العابد (على نفسه يلومها) أي النفس (وقال من قبلك) بكسر القاف والكاف: أي أكانت الحاجة من جهتك (أوتيت) أي تلك الحاجة هيهات (لو كان عندك خير لقضيت حاجتك فأنزل الله تعالى) إليه (ملكا فقال) الملك (يا ابن آدم ساعتك التي ازدريت) أي حقرت (فيها) أي في تلك الساعة (نفسك خير من عبادتك التي مضت) سبعين سنة وقد قضى الله حاجتك. رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (قلت: فلينظر العاقل إلى هذا الكلام) المروي عن ابن وهب وغيره (أليس من الفتن أن واحدا) من سالكي طريق الآخرة (يكدح) من باب قطع: أي يعمل ويسعى (ويتعب سبعين سنة

وَآخَرَ يَتَفَكَّرُ سَاعَةً وَاحِدَةً ، فَتَكُونُ فِكْرَةُ سَاعَةٍ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً ، أَلَيْسَ هٰذَا مِنَ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ أَنَّكَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً ، وَتَتْرُكُ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ، بَلَى وَاللهِ إِنَّهُ لَأَعْظَمُ الْغَبْنِ ، وَإِنَّ إِغْفَالَهُ لَأَشَدُّ خُسْرَانًا ، وَإِنَّ الْخَصْلَةَ الَّتِي لَهَا هٰذِهِ الْقِيمَةُ وَالْخَطَرُ ، يَجِبُ أَنْ تُحْذَرَ وَتُجْتَنَبَ ، وَلِمِثْلِ هٰذَا الْمَعْنَى إِنَّمَا وَقَعَ نَظَرُ أُولِي الْأَبْصَارِ مِنَ الْعُبَّادِ

وآخر) منهم (يتفكر ساعة واحدة فتكون فكرة ساعة أفضل عند الله من عبادة سبعين سنة) بل وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة ثمانين سنة . رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس . قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله : التفكر نعت كل طالب وثمرته الوصول بشرط العلم ، فإذا سلم الفكر من الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق . ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهدا فيها ، وفكر العابدين في جميل الثواب فيزدادون نشاطا عليه ورغبة فيه ، وفكر العارفين في الآلاء والنعماء فيزدادون محبة الخالق سبحانه . وقال الجنيد قدس سره : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد ، وخرج بما ذكر التفكر في ذات الله فإنه منهى عنه . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر قوما فقال: مالكم ؟ فقالوا نتفكر في الخالق . قال تفكروا في خلقه ولا تفكروا في الخالق فانكم لاتقدرون قدره » وقد ذكر المصنف فضيلة التفكر وحقيقته وثمرته وغير ذلك في الاحياء فانظر هناك (أليس هذا) الكدح المذكور (من الغبن العظيم) وذلك الغبن (أنك متمكن من ساعة) أي إلى ساعة (خير من سبعين سنة وتترك ذلك) أي تحصيل التفكر في الساعة الواحدة الذي هو خير من سبعين سنة (من غير حاجة بلى والله إنه) أي الترك لذلك التحصيل والاشتغال بالكدح (لأعظم الغبن) والنقص .

﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن بلى حرف إيجاب ، فاذا قيل ما قام زيد وقلت في الجواب بلى ، فمعناه إثبات القيام ، وإذا قيل: أليس كان كذا وقلت بلى فمعناه التقرير والاثبات ولا تكون إلا بعد نفى إما في أول الكلام كما تقدم وإما في أثنائه كقوله تعالى « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى » والتقدير بلى نجمعها . وقد يكون مع النفي استفهام وقد لايكون كما تقدم ، فهو أبدا يرفع حكم النفى ويوجب نقيضه وهو الاثبات ذكره الفيومي في مصباحه (وإن إغفاله) أي الترك المذكور (لأشد خسرانا ، وأن الخصلة التي لها هذه القيمة والخطر يجب أن تحذر) من الفوات (وتجتنب) منه (ولمثل هذا المعنى إنما وقع نظر أولى الأبصار) أي أصحاب البصائر (من العباد) بضم العين جمع

فى مِثْلِ هٰذِهِ الدَّقَائِقِ ، فَاهْتَمُّوا لِمِثْلِ هٰذِهِ الْأَسْرَارِ بِمَعْرِفَتِهَا أَوَّلاً ، ثُمَّ رِعَايَتِهَا وَالتَّحَفُّظِ عَنْهَا ثَانِياً ، وَلَمْ تُغْنِهِمْ كَثْرَةُ الْأَعْمَالِ بِالظَّاهِرِ وَقَالُوا الشَّأْنُ فى الصَّفْوَةِ لاَ فى الْكَثْرَةِ ، وَقَالُوا جَوْهَرَةٌ وَاحِدَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ خَرَزَةٍ ، وَأَمَّا الَّذِينَ قَلَّ عِلْمُهُمْ وَ كَلَّ فى هٰذَا الْبَابِ نَظَرُهُمْ ، فَجَهِلُوا الْمَعَانِىَ ، وَأَغْفَلُوا مَا فى الْقُلُوبِ مِنْ عُيُوبٍ ، وَاشْتَغَلُوا بِإِتْعَابِ النُّفُوسِ فى الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْإِمْسَاكِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَنَحْوِهِ ، فَغَرَّهُمُ الْعَدَدُ وَالْكَثْرَةُ وَلَمْ يَنْظُرُوا مَا فِيهَا مِنَ الْمِنَحِ وَالصَّفْوَةِ ، وَمَا يُغْنِى عَدَدُ الْجَوْزِ

عابد (فى مثل هذه الدقائق فاهتموا لمثل هذه الأسرار بمعرفتها) أى الأسرار (أولا ثم رعايتها والتحفظ عنها ثانيا ولم تغنهم) أى أصحاب البصائر (كثرة الأعمال بالظاهر وقالوا الشأن) المحمود (فى الصفوة) أى صفوة القلوب وتزكيتها عما يكدرها من الصفات المذمومة (لا فى الكثرة) أى كثرة الأعمال بالظاهر (وقالوا) أي أصحاب البصائر فى المثل (جوهرة واحدة خير من ألف خرزة) قال العلامة عبد الحق : الخرزة واحدة الخرز. فى [محيط المحيط] : الخرز الجوهر كالماس والياقوت ونحوها وما ينظم فى السلك من الجزع والودع . وعند المولدين يختص بالحب المثقوب من الزجاج ونحوه تنظم منه المسابح والقلائد ونحوها انتهى ؛ وأيضا فيه : الجزع الخرز اليمانى فيه سواد وبياض تشبه به الأعين اه ، وأيضا فيه: الودع خرز أبيض تخرج من البحر تتفاوت فى الصغر والكبر شقها كشق النواة تعلق لدفع العين الواحدة ودعة والجمع ودعات (وأما الذين قل علمهم وكل) أى عمى (فى هذا الباب) أى فى مثل هذه الدقائق (نظرهم فجهلوا المعانى) والأسرار (وأغفلوا) أى تركوا وأهملوا ، فى المصباح : وأغفلت الشيء إغفالا تركته إهمالا من غير نسيان (مافى القلوب من عيوب واشتغلوا بإتعاب النفوس فى الركوع والسجود والامساك عن الطعام والشراب ونحوه) أى ماذكر من الركوع وغيره (فغرهم) أى خدعهم (العدد والكثرة) فى الأعمال الظاهرة وأصل الغرور : الغفلة وسكون النفس إلى مايوافق الهوى ويميل إليه الطبع (ولم ينظروا ما فيها) أى فى القلوب (من المنح) بكسر الميم : أى العطايا (والصفوة) حتى إن طائفة منهم اغتروا بالصوم الكثير ، وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الكذب والغيبة ، وخواطرهم عن الرياء وحب المحمدة ، وبطونهم عن أكل الحرام أو الشبهة عند الافطار وفى السحور ، وألسنتهم من الهذيان واللغو بأنواع الفضول طول النهار ، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير فيهملوا الفرض ويطلبوا النفل ثم لا يقوموا بحقه وذلك غاية الغرور . وقد بسط الكلام على أنواع مداخل الغرور ومجاريه مصنفنا أبو حامد الغزالى فى كتاب [ذم الغرور] من كتب إحياء علوم الدين فانظره تجد ما ينشرح به صدرك (وما يغنى) أى لا يكفى (عدد الجوز)

وَلاَ لبَّ فِيهِ ، وَمَا يَنفَعُ رَفْعُ السقُوفِ ، وَلَمْ تحْكَمْ مَبَانِيهَا ، وَمَا يَعْقِلُ هٰذِهِ الحَقَائِقَ إلاّ العَالِمُونَ بِاللهِ المُكَاشِفُونَ ،

والجوز المأكول معرب وأصله كوز بالكاف (ولالب فيه) أى فى ذلك الجوز ، ولب الجوز واللوز ونحوهما ما فى جوفهما والجمع لبوب (وما) أى ليس (ينفع رفع السقوف) جمع سقف مثل فلس وفلوس (ولم تحكم) من الإحكام بكسر الهمزة بمعنى الاتقان (مبانيها) أي تلك السقوف (وما يعقل) ولا ينظر (هذه الحقائق إلا العالمون بالله المكاشفون) .

اعلم أن علم المكاشفة : هو العلم بالله عز وجل الدال عليه الراد إليه الشاهد بالتوحيد له من علم الايمان واليقين وعلم المعرفة ، وذلك غاية العلوم كلها وإليه تنتهي همم العارفين لايوجد وراءه مرمى للأنظار ، فقد قال بعض العارفين فيما نقله صاحب القوت : من لم يكن له نصيب من هذا العلم : أى علم الباطن أخاف عليه سوء الخاتمة ولا سبيل إلى معرفته إلا بالذوق الصحيح ، ولا يكاد يلتذ به إذا جاء من غير نبى إلا أصحاب الأذواق السليمة ، وهو فوق طور العقل ولذا ربما مجته العقول الضعيفة التى لم توف النظر والبحث حقه ، ولهذا كان صاحبه إذا أراد أن يفهم منه لأصحاب الظاهر فلا بد له من ضرب الأمثال الكثيرة والمخاطبات الشعرية ، وقد يتسارع إلى الانكار على صاحبه وذلك لأنه فوق طور العقل ، ويحصل من نفث روح القدس يخص به تعالى النبى والولى لا يكون لغيرهما ، وعلوم المجتهدين كلها من هذا الباب . لكنهم أفصحوا فى العبارة ففهمها الناس ولم ينكروها عليهم . وقال القطب الشعرانى رحمه الله تعالى : وكان أخى أفضل الدين يتكلم على الآية من سبعين وجها ويقول : حقيقة العلوم التى تسمى باطنا إنما هي من علوم الظاهر لأنها ظهرت للقائل بها ، ولو أنها بطنت منه لما اهتدى لفهمها ولا لذكرها . فقلت له صحيح ولكن ذلك خاص بأجل الكمل ، فقال نعم فان الظاهر هو المعقول والمقبول الذى تكون منه العلوم النافعة والأعمال الصالحة . وأما الباطن فإنما هو المعارف الالهية التى هى روح تلك العلوم والمعقولة والمقبولة انتهى . وأدنى النصيب منه إذا لم يمكنه التحلى به التصديق به جزما ، وتسليمه لأهله بعدم الانكار عليهم بقبول ما يرد من جهتهم بانشراح صدر وعدم اختلاج باطن فيكون فى منزلة المحبين لهم ، فإن من ينكر على أولياء الله الوارثين لعلوم أنبياء الله يخاف عليه سوء الخاتمة . وقال بعضهم : من كان فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم : أى علم الباطن بدعة : وهي الفعلة المخالفة للسنة ، أو كبر بأن يرى نفسه أكبر من غيره . وقال الجنيد قدس سره : أعلى درجات الكبر أن ترى نفسك ، وأدناها أن تخطر ببالك : يعنى نفسك ، وقيل من كان محبا للدنيا ، أو مصرا على هوى لم يتحقق به : أى بعلم الباطن ولا يكون له منه نصيب ، وقد يتحقق بسائر العلوم الظاهرة ، وأقل عقوبة من ينكره أن لايرزق منه شيئا أبدا ، هكذا عن أبى محمد سهل التسترى . وقال أبو تراب النخشبي : إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة فى أولياء الله : أى لأنه أدبر عن النور

وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ بِفَضْلِهِ .

﴿ وأمّا عظم الخطر فمن وجوه ﴾ أَحَدُهَا : أَنَّ الْمَعْبُودَ مَلِكٌ لاَ نِهَايَةَ لِجَلاَلِهِ وَعَظَمَتِهِ وَلَهُ عَلَيْكَ نِعَمٌ لاَ تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَى ، وَلَكَ بَدَنٌ مَعِيبٌ بِعُيُوبٍ خَفِيَّةٍ ، مَئُوفٍ بِآفَاتٍ كَثِيرَةٍ وَأَمْرٍ مَخُوفٍ إِنْ وَقَعَ لَكَ زَلَلٌ مَعَ تَسَارُعِ النَّفْسِ إِلَيْهِ ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ عَمَلاً صَافِيًا سَالِمًا مِنْ بَدَنٍ مَعِيبٍ وَنَفْسٍ مَيَّالَةٍ إِلَى الشَّرِّ ، أَمَّارَةٍ بِالسُّوءِ عَلَى وَجْهٍ يَصْلُحُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِى جَلاَلِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكَثْرَةِ أَيَادِيهِ وَمِنَّتِهِ ، وَيَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعَ الرِّضَا وَالْقَبُولِ ، وَإِلاَّ فَيَفُوتُكَ الرِّبْحُ الْعَظِيمُ الَّذِى لاَ تَسْمَحُ النَّفْسُ بِفَوْتِهِ ، بَلْ رُبَّمَا يُصِيبُكَ فِيهِ

وأقبل على الظلام فقاس حال أهل الله على حال نفسه . وفى القوت : من لم يكن له مشاهدة من هذا العلم لم يعر عن شك أو نفاق لأنه عار عن علم اليقين ومن عرى عن علم اليقين وجد فيه دقائق الشك ، انتهى . ونقل الشعرانى عن القطب أبى الحسن الشاذلى قدس سره : من لم يتغلغل فى علوم القوم مات على غير سنة فيخشى عليه سوء الخاتمة . وفى كتاب القصد والسداد لبعض السادة من أهل اليمن ، قال القطب السيد عبد الله بن أبى بكر العيدروس قدس الله سره : عليك بحسن الظن بالصالحين ومحب محبهم فهو من أعلى المراتب وأجل المواهب ولصاحبه سابقة وعناية وتخصيص وهداية وسوء الظن مذموم مطلقا . وقال آخر : عليك بحسن الظن فإنه دليل على نور البصيرة وصلاح السريرة ، وكفى به سببا لحصول السعادة ونيل الدرجات . ومن فوائده فائدة يندرج فيها كل فائدة ، وهى أنه يورث حسن الخاتمة وثمرته قد لا تظهر إلا عند خروج الروح فيفضى بصاحبه إلى السعادة المتضمنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (والله تعالى ولى الهداية بفضله . وأما عظم الخطر فمن وجوه : أحدها أن المعبود) سبحانه وتعالى (ملك لا نهاية لجلاله وعظمته ، وله) أى المعبود (عليك نعم) جمع نعمة (لا تعد ولا تحصى) قال عز وجل « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (ولك بدن) ضعيف (معيب بعيوب خفية مئوف) أى مصاب بالآفة . قال العلامة عبد الحق : أيف يوأف بالبناء للمجهول آفا : أصابته الآفة فهو مئوف ومئيف (بآفات كثيرة ، وأمر مخوف إن وقع لك زلل) أى خطأ (مع تسارع النفس إليه) أى إلى الزلل (فيحتاج أن يستخرج عملا صافيا سالما من بدن معيب و) من (نفس ميالة إلى الشر ، أمارة بالسوء على وجه يصلح لرب العالمين فى جلاله وعظمته وكثرة أياديه) أى نعمه (ومنته ويقع منه) عز وجل (موقع الرضا والقبول ، وإلا) يستخرج عملا صافيا سالما عن الآفات (فيفوتك الربح العظيم الذى لا تسمح النفس بفوته) أى الربح (بل ربما يصيبك فيه) أى فى فوت ذلك الربح

مُصيبَةٌ لاَ طَاقَةَ لكَ بِهَا ، وَهٰذَا وَاللهِ شَأْنٌ عَظِيمٌ وَخَطْبٌ جَسِيمٌ . وَأَمَّا جَلاَلُ المَلِكِ وَعَظَمَتُهُ بِحَيْثُ إِنَّ المَلاَئِكَةَ المُقَرَّبِينَ الأَبْرَارَ قَائِمُونَ لَهُ بِالخِدْمَةِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُنْذُ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى فِى قِيَامٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِى رُكُوعٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِى سُجُودٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِى تَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ ، فَلاَ يُتِمُّ القَائِمُ قِيَامَهُ ، وَلاَ الرَّاكِعُ رُكُوعَهُ ، وَلاَ السَّاجِدُ سُجُودَهُ ، وَلاَ المُسَبِّحُ تَسْبِيحَهُ ، وَلاَ المُهَلِّلُ تَهْلِيلَهُ ، مَادًّا بِهِ صَوْتَهُ إِلَى نَفْخِ الصُّورِ ؛ ثُمَّ لَمَّا فَرَغُوا مِنْ هٰذِهِ الخِدْمَةِ العَظِيمَةِ ، نَادَوْا بِأَجْمَعِهِمْ : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ،

(مصيبة لا طاقة لك بها) أى بالمصيبة (وهذا) المذكور من إصابة المصيبة (والله شأن عظيم وخطب) أى هول (جسيم) أى عظيم (وأما جلال الملك وعظمته بحيث إن الملائكة المقرّبين الأبرار قائمون له) أى للملك (بالخدمة) أى الطاعة (آناء الليل) أى ساعاته (و) أطراف (النهار حتى إن منهم) أى الملائكة (من هو مذ خلقه الله تعالى فى قيام ، ومنهم) أى من الملائكة (من هو فى ركوع ، ومنهم من هو فى سجود ، ومنهم من هو فى تسبيح وتهليل ، فلا يتم القائم قيامه ولا الراكع ركوعه ولا الساجد سجوده ولا المسبح تسبيحه ولا المهلل) أى من يقول لا إله إلا الله (تهليله مادا به) أى بما ذكر من التسبيح وغيره (صوته) أى صوت من ذكر من الملائكة (إلى نفخ الصور) قال مقاتل بن سليمان : الصور هو القرن وصاحب الصور : إسرافيل عليه السلام وهو واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى ، فاذا نفخ صعق من فى السموات والأرض : أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله (ثم لما فرغوا) أى هؤلاء الملائكة (من هــذه الخدمة العظيمة نادوا بأجمعهم سبحانك ما عبدناك حق عبادتك) وقد روى أبو الشيخ فى العظمة والبيهقى والخطيب وابن عساكر من حديث رجل من الصحابة « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته، ما منهم ملك تقطر من عينه دمعة إلا وقعت ملكا قائما يسبح . وملائكة سجودا منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وصفوفا لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة تجلى لهم ربهم فنظروا إليه وقالوا سبحانك ما عبدناك كما ينبغى لك » وروى الديلمى من حديث ابن عمر « إن لله ملائكة فى السماء الدنيا خشوعا منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون سبحان ذى الملكوت فاذا كان يوم القيامة يقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك . ولله ملائكة فى السماء الثانية ركوعا منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة فاذا كان يوم القيامة يقولون سبحانك

وهٰذَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَخَيْرُ الْعَالَمِينَ ، أَعْلَمُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُهُمْ ، مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عليه وسلم وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ يَقُولُ : « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » يَقُولُ : أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُثْنِيَ عَلَيْكَ ثَنَاءً أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ أَعْبُدَكَ كَمَا أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ ،

ماعبدناك حق عبادتك، ولله ملائكة فى السماء السادسة سجودا منذ خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة يقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » (وهذا) أي نبينا (سيد المرسلين وخير العالمين أعلم الخلق وأفضلهم) على الاطلاق (محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين يقول : لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) قال العراقى : أخرجه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها . وأخرجه الإمام أحمد عن أبي أسامة .

قال المصنف فى معنى هذا الحديث (يقول) صلى الله عليه وسلم (أنا لا أقدر أن أثنى عليك ثناء أنت له أهل فضلا) أى زائدا (عن أن أعبدك) حق عبادتك . اعلم أن فضلا يستعمل فى موضع يستبعد فيه الأدنى ويراد به استحالة ما فوقه ، ولهذا يقع بين كلامين متغايرى المعنى وأكثر استعماله أن يجيء بعد نفى كما هنا ، قاله الفيومى عن قطب الدين الشيرازى فى شرح المفتاح (كما أنت له أهل) .

قال المصنف فى المقصد الأسنى ولم يرد به أنه عرف منه ما لايطاوعه لسانه فى العبارة عنه ، بل معناه أني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك وأنت المحيط بها وحدك فإذا لا يحيط مخلوق من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة ، وأما اتساع المعرفة فإنما يكون فى معرفة أسمائه وصفاته ولذلك قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى بعض خطبه على المنبر: الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، ويروى عنه أيضا : العجز عن درك الإدراك إدراك قال المصنف فى كتابه المذكور نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هى أنهم لايعرفونه وأنهم لا يمكنهم ألبتة معرفته وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى فاذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا فقد عرفوه : أى بلغوا المنتهى الذى يمكن فى حق الخلق من معرفته ؛ ثم قال وللمعرفة سبيلان . أحدهما السبيل الحقيقى وذلك مسدود إلا فى حق الله تعالى فلا يهتم أحد من الخلق لنيله وإدراكه إلا ردته سبحات الجلال إلى الحيرة ولا يشرئب أحد لملاحظته إلا غطى الدهش طرفه . وأما السبيل الثانى وهو معرفة الصفات والأسماء فذلك مفتوح للخلق وفيه تتفاوت مراتبهم فليس من يعلم أنه عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته فى ملكوت السموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد واطلع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة

ممعنا في التفصيل ومستغرقا في دقائق الحكمة ومستوفيا لطائف التدبير ومتصفا بجميع الصفات الملكية المقربة من الله تعالى نائلا تلك الصفات نيل اتصاف بها ، بل بينهما البون البعيد ما لا يكاد يحصى، وفي تفاصيل ذلك ومقاديره تتفاوت الأنبياء والأولياء ولن يصل ذلك إلى فهمك إلا بمثال ولله المثل الأعلى ، ولكنك تعلم أن العالم التقي الكامل مثلا مثل الشافعي رضي الله عنه يعرفه بواب داره ويعرفه المزني تلميذه والبواب يعرفه أنه عالم بالشرع ومصنف فيه ومرشد خلق الله تعالى إليه على الجملة، والمزني يعرفه لا كمعرفة البواب بل يعرفه معرفة محيطة بتفاصيل صفاته ومعلوماته؛ بل العالم الذي يحسن عشرة أنواع من العلوم لا يعرفه بالحقيقة تلميذه الذي لم يحصل إلا نوعا واحدا فضلا عن خادمه الذي لم يحصل شيئا من علومه بل الذي حصل علما واحدا فإنما عرف على التحقيق عشره إذا ساواه في ذلك العلم حتى لم يقصر عنه فان قصر عنه فليس يعرف بالحقيقة ما قصر عنه إلا بالاسم وإيهام الجملة وهو أنه يعرف أنه يعلم شيئا سوى ماعلمه ، وكذلك فافهم تفاوت الخلق في معرفة الله تعالى فبقدر ما انكشف له من معلومات الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته في الدنيا والآخرة والملك والملكوت تزداد معرفتهم بالله تعالى وتقرب معرفتهم من معرفته الحقيقية . فإن قلت فاذا لم يعرفوا حقيقة الذات واستحال معرفتها فهل عرفوا الأسماء والصفات معرفة تامة حقيقية ؟ قلنا هيهات ذلك لا يعرفه بالكمال في الحقيقة إلا الله تعالى، لأنا إذا علمنا ذاتا عالمة فقد علمنا شيئا مبهما لا ندري حقيقته لكن ندري أن له صفة العلم ؛ فإن كانت صفة العلم معلومة لنا حقيقة كان علمنا بأنه عالم أيضا علما تاما بحقيقة هذه الصفة وإلا فلا ، ولا يعرف أحد حقيقة علم الله تعالى إلا من له مثل علمه وليس ذلك إلا له فلا يعرفه سواه تعالى وإنما يعرفه غيره بالتشبيه بعلم نفسه وعلم الله تعالى لا يشبهه علم الخلق ألبتة فلا يكون معرفته به معرفة تامة حقيقية أصلا بل إيهامية تشبيهية انتهى . وفي كتاب الأسماء والصفات لأبي منصور التميمي أنه صلى الله عليه وسلم وصف ربه عزوجل فقال حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركته ، وفي رواية : دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة انتهى . وقال العراقي : أخرج الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة « بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور» وإسناده ضعيف، وفيه أيضا من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل «هل ترى ربك ؟ قال إن بيني وبينه لسبعين حجابا من نور » ولمسلم من حديث أبي موسى « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » ولابن ماجه « كل شيء أدركه بصره » قال أبو منصور التميمي في كتابه المذكور : كل خبر ذكر فيه الحجاب فإنه يرجع معناه إلى الخلق لأنهم هم المحجوبون عن رؤية الله عز وجل وليس الخالق محجوبا عنهم لأنه يراهم ولا يجوز أن يكون مستورا بحجاب لأن ما ستره غيره فساتره أكبر منه وليس لله عز وجل حد ولا نهاية فلا يصح أن يكون بغيره مستورا ، ودليله قوله عز وجل « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » ولم يقل إنه محجوب عنهم . ويؤيد ذلك ما رواه ابن أبي ليلى عن علي رضي الله عنه أنه مر بقصاب فسمعه يقول في يمينه : لا والذي احتجب سبعة أطباق فعلاه بالدرة وقال له : يا لكع إن الله

لا يحتجب عن خلقه بشىء ، ولكنه حجب خلقه عنه ، فقال له القصاب أو لا أكفر عن يمينى يا أمير المؤمنين ؟ فقال لا ، إنك حلفت بغير الله ، فأما قوله لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه فقد تأوله أبو عبيد على أن المراد به لو كشف الرحمة عن النار لأحرقت من على الأرض ، وكذلك قوله دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ، معناه أنها أجمع حجاب لغيره لأنه غير محصور فى شىء ، وقيل معناه أن لله عز وجل علامات ودلالات على وحدانيته لو شاهدها الخلق لقامت مقام العيان فى الدلالة عليه غير أنه خلق دون تلك الدلائل سبعين ألف حجاب من نور وظلمة ليتوصل الخلق إلى معرفته بالأدلة النظرية دون المعارف الضرورية انتهى ، وفصل الخطاب فى هذا المقام ما قاله المصنف فى مشكاة الأنوار فى تفسير هذا الحديث ما نصه : إن الله متجلى فى ذاته بذاته لذاته ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة . وإن المحجوبين من الخلق ثلاثة أقسام : منهم من يحجب بمجرد الظلمة ، ومنهم من يحجب بالنور المحض ، ومنهم من يحجب بنور مقرون بظلمة وأصناف هذه الأقسام كثيرة ، ويمكنى أن أتكلف حصرها لكنى لا أثق بما يلوح من تحديد وحصر ، إذ لا أدرى أنه المراد بالحديث أم لا ؟ أما الحصر إلى السبعمائة أو سبعين ألفا فتلك لا يستقل بها إلا القوة النبوية مع أن ظاهر ظنى أن هذه الأعداد مذكورة للتكثير لا للتحديد ، وقد تجرى العادة بذكر أعداد ولا يراد به الحصر بل التكثير والله أعلم بتحقيق ذلك ، وذلك خارج عن الوسع وإنما الذى يمكنى الآن أن أعرفك هذه الأقسام وبعض أصناف كل قسم .

القسم الأول : المحجوبون بمحض الظلمة وهؤلاء صنفان ، والصنف الثانى منهما ينقسم أربعة فرق ؛ وأصناف الفرقة الرابعة لا يحصون ، وكلهم محجوبون عن الله بمحض الظلمة وهى نفوسهم المظلمة .

والقسم الثانى : طائفة حجبوا بنور مقرون بظلمة ، وهم ثلاثة أصناف : صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم عن مقايسات عقلية فاسدة . وفى الصنف الأول طوائف ستة لا يخلو واحد منهم عن مجاوزة الالتفات إلى نفسه والتشوق إلى معرفة ربه ، وفى الصنف الثانى أيضا طوائف وأحسنهم رتبة المجسمة ثم الكرامية ، وفى الثالث أيضا فرق فهؤلاء كلهم أصناف القسم الثانى الذين حجبوا بنور مقرون بظلمة .

والقسم الثالث : هم المحجوبون بمحض الأنوار وهم أربعة أصناف : الواصلون منهم . الصنف الرابع : وهم الذين تجلى لهم أن الرب المطاع موصوف بصفة لا تتناهى فى الوحدانية المحضة والكمال البالغ وأن نسبة هذا المطاع إلى الموجودات الحسية نسبة الشمس فى الأنوار المحسوسة منه فتوجهوا من الذى يحرك السموات ومن الذى أمر بتحريكها إلى الذى فطر السموات وفطر الأرض بتحريكها ؟ فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم ، إذ وجودهم من قبله فأحرقت سبحات وجهه وجه الأول الأعلى جميع ما أدركه الناظرون وبصيرتهم إذ وجدوه مقدسا منزها ، ثم هؤلاء انقسموا ، فمنهم من أحرق منه جميع ما أدركه بصره وامحق وتلاشى ولكن بقى هو ملاحظا للجمال والقدس وملاحظا ذاته فى جماله الذى ناله بالوصول إلى الحضرة

وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ : « لَيْسَ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ ، قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: وَلاَ أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ » .

﴿ وأمّا النِّعَمُ والأَيَادِي ﴾ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) وَعَلَى مَا رُوِيَ إِنَّهُ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلاَثَةِ دَوَاوِينَ : دِيوَانِ الْحَسَنَاتِ، وَدِيوَانِ السَّيِّئَاتِ ، وَدِيوَانِ النِّعَمِ ، فَتُقَابَلُ الْحَسَنَاتُ بِالنِّعَمِ ،

الإلهية وانمحقت منه المبصرات دون المبصر ، وجاوز هؤلاء طائفة منهم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه وغشيهم سلطان الجلال وانمحقوا وتلاشوا فى ذاته ولم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم بفنائهم عن أنفسهم ولم يبق إلا الواحد الحق، وصار معنى قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه » لهم ذوقا وحالا فهذه نهاية الواصلين ، ومنهم من لم يتدرج فى الترقى والعروج عن التفصيل الذى ذكرناه ولم يطل عليه العروج فسبقوا فى أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه فغلب عليهم أولا ما غلب على الآخرين آخرا وهجم عليهم التجلى دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسى أو بصيرة عقلية ، ويشبه أن يكون الأول طريق الخليل عليه السلام ، والثانى طريق الحبيب صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما، فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين ، ولا يبعد أن يبلغ عددهم إذا فصلت المقامات وتتبع حجب السالكين سبعين ألفا ، وإذا فتشت لاتجد منهم خارجا عن الأقسام التى حصرناها ، فانهم إنما يحجبون بصفاتهم البشرية ، أو بالحس أو بالخيال أو بمقايسة العقل أو بالنور المحض كما سبق انتهى . ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى شرح كلام المصنف .

قال رحمه الله (وهو) صلى الله عليه وسلم (الذى يقول « ليس أحد يدخل الجنة بعمله») وفى رواية «مامنكم من أحد ينجيه عمله» (قالوا) أى الصحابة (ولا أنت يا رسول الله قال) صلى الله عليه وسلم (ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته) أى غمره وعمه بها متفق عليه من حديث أبى هريرة كما قاله العراقى. قال الزبيدى: ورواه ابن حبان أيضا بزيادة «ولكن سددوا» وروى من حديث شريك ابن طارق وأبى موسى .

(وأما النعم والأيادى) بمعنى واحد (فكما قال تعالى : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعنى أن نعم الله كثيرة على عباده فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها (وعلى ماروى «إنه يحشر الناس على ثلاثة دواوين) جمع ديوان بالكسر وقد تفتح فارسى معرب . قال فى المغرب : هو الجريدة من دون الكتب إذا جمعها لأنها قطعة من دون القراطيس مجموعة . قال الطيبى : والمراد هنا صحائف الأعمال (ديوان الحسنات وديوان السيئات وديوان النعم فتقابل الحسنات بالنعم

فَلاَ يُؤْتَى بِحَسَنَةٍ إِلَّا أُتِيَ بِنِعْمَةٍ ، حَتَّى تَغْمُرَ الْحَسَنَاتِ النِّعَمُ ، وَتَبْقَى السَّيِّئَاتُ وَالذُّنُوبُ ؛ فَلِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا الْمَشِيئَةُ .

وَأَمَّا عُيُوبُ النَّفْسِ وَآفَاتُهَا فَقَدْ قَدَّمْنَاهَا فِى بَابِهَا ؛ وَالْأَمْرُ الْمَخُوفُ أَنَّ الْعَبْدَ يَكْدَحُ فِى الْعِبَادَةِ وَيَدْأَبُ سَبْعِينَ سَنَةً غَافِلاً عَنْ عُيُوبِهِ وَآفَاتِهِ ، فَرُبَّمَا لاَ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهَا مَقْبُولاً ، وَرُبَّمَا يَتْعَبُ أَعْوَاماً فَتُفْسِدُهُ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَأَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ أَنَّهُ رُبَّمَا يَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الْعَبْدِ وَهُوَ يُرَائِى النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ وَخِدْمَتِهِ ، حَيْثُ جَعَلَ ظَاهِرَهُ لِلَّهِ وَبَاطِنَهُ لِلْخَلْقِ فَيَطْرُدُهُ طَرْدًا لاَ مَرَدَّ لَهُ ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَحْكِى عَنِ

فلا يؤتى بحسنة إلا أتى بنعمة حتى تغمر) أى تعلو وتغطى وبابه نصر (الحسنات النعم وتبق السيئات والذنوب فلله تعالى فيها) أى فى تلك السيئات والذنوب (المشيئة) أى إن شاء عذب وإن شاء غفر ، وفى خبر آخر « الدواوين يوم القيامة ثلاثة : فديوان لايغفرالله منه شيئا وديوان لايعبأ الله به شيئا وديوان لا يترك الله منه شيئا ، فأما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا فالاشراك بالله . قال الله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها فان الله يغفر ذلك إن شاء أن يتجاوز ، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فمظالم العباد بينهم القصاص لامحالة» رواه أحمد والحاكم وصححه من طريق صدقة بن موسى عن عمران الجونى عن يزيدبن بابنوس عن عائشة ، وقد رد الذهبى على الحاكم تصحيحه وقال صدقة بن موسى ضعفه الجمهور ويزيد ابن بابنوس فيه جهالة (وأما عيوب النفس وآفاتها فقد قدمناها فى بابها) فى العائق الرابع من عوائق العبادة الأربعة وموانعها (والأمر المخوف أن العبد يكدح) من باب قطع أى يعمل ويسعى كما فى المختار (فى العبادة ويدأب) أى يتعب فى المختار ، دأب فى عمله جد وتعب وبابه قطع وخضع فهو دائب بالألف لاغير (سبعين سنة غافلا عن عيوبه وآفاته فربما لايكون واحدمنها) أى العبادة (مقبولا وربما يتعب) العبد (أعواما) أى سنين (فتفسده) أى العبد يعني عمله زمانا طويلا (ساعة واحدة . وأعظم خطرا من ذلك) أى المذكور من غفلته عن العيوب والآفات (كله أنه) أى الحال والشأن (ربما ينظر الله تعالى إلى العبد وهو) أى العبد (يرائى الناس بعبادته وخدمته) أى طاعته (حيث جعل) أى ذلك العبد (ظاهره لله و) جعل (باطنه للخلق فيطرده) من باب نصر أى يبعده (طردا لا مرد له ، والعياذ بالله) من ذلك الطرد والإبعاد (ولقد سمعت بعض العلماء يحكى عن

الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ رُؤِيَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ : أَقَامَنِي اللهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ يَا حَسَنُ : أَتَذْكُرُ يَوْمَ كُنْتَ تُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ ، إِذْ رَمَقَكَ النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ فَزِدْتَ حُسْناً لِصَلَاتِكَ ، فَلَوْلَا أَنَّ أَوَّلَ صَلَاتِكَ كَانَ لِي خَالِصاً لَطَرَدْتُكَ الْيَوْمَ عَنْ بَابِي ، وَلَقَطَعْتُكَ عَنِّي مَرَّةً وَاحِدَةً . وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْجُمْلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ وَالصُّعُوبَةِ إِلَى حَدٍّ عَظِيمٍ نَظَرَ أُولُو الْأَبْصَارِ فِيهِ ، فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى جَمِيعِ مَا يُظْهِرُ لِلنَّاسِ عَنْ أَعْمَالِهِ ، حَتَّى حُكِيَ عَنْ رَابِعَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : مَا ظَهَرَ لِي مِنْ أَعْمَالِي لَا أَعُدُّهُ شَيْئاً ، وَقَالَ آخَرُ : اُكْتُمْ حَسَنَاتِكَ كَمَا تَكْتُمُ سَيِّئَاتِكَ ، وَآخَرُ يَقُولُ : إِنْ أَمْكَنَكَ أَنْ تَجْعَلَ لَكَ خَبْئاً مِنَ الْخَيْرِ فَافْعَلْ ، وَلَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قِيلَ لِرَابِعَةَ : بِمَ تَرْتَجِينَ أَكْثَرَ مَا تَرْتَجِينَ ؟ قَالَتْ بِيَأْسِي مِنْ جُلِّ عَمَلِي .

الحسن البصرى) التابعى (رحمه الله أنه) أى الحسن (رؤى فى المنام بعد موته فسئل) الحسن (عن حاله) أى فقال السائل كيف حالك (فقال) أى الحسن (أقامنى الله بين يديه) عز وجل (وقال) سبحانه (يا حسن أتذكر يوم كنت تصلى فى المسجد إذ رمقك) أى نظرك (الناس بأبصارهم فزدت حسنا لصلاتك) أى لأجل نظرهم (فلولا أن أول صلاتك كان لى خالصا لطردتك) أى أبعدتك (اليوم عن بابى) أى باب رحمتى (ولقطعتك عنى مرة واحدة) .

قال المصنف رحمه الله (ولما كان الأمر) أي أمر العبادة الخالصة (فى الجملة من الدقة والصعوبة إلى حد عظيم نظر أولو الأبصار) أى أصحاب البصائر (فيه) أى فى هذا الأمر (فخافوا على أنفسهم حتى إن منهم من لا يلتفت إلى جميع مايظهر للناس من أعماله ، حتى حكى عن رابعة) بنت إسماعيل العدوية البصرية الصالحة المشهورة كانت من أعيان عصرها وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة وكانت وفاتها فى سنة خمس وثلاثين ومائة ذكر ابن الجوزى فى شذور العقود ، وقال غيره سنة خمس وثمانين ومائة رحمها الله تعالى ، وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور (أنها قالت ما ظهرلى من أعمالى لا أعده شيئا ، وقال آخر) هو أبو يعقوب المكفوف كما فى الإحياء (أكتم) بضم أوله على حد آنصر (حسناتك كما تكتم سيئاتك) وهو يرجع إلى قول من قال إن الإخلاص هو التوقى عن ملاحظة الأشخاص (وآخر يقول إن أمكنك أن تجعل لك خبئا) أى مخبوءا فهو معنى مفعول بلفظ المصدر : يقال خبأ الشىء يخبؤه خبئا ستره الخبء مصدر (من الخير فافعل ، ولقد حكى أنه قيل لرابعة) العدوية رحمها الله (بم) أى بأى شىء (ترتجين أكثر ماترتجين ؟ قالت بيأسى من جل عملى) بضم الجيم : أى معظمه وأكثره

وَحُكِيَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ ، فَقَالَ مَالِكٌ : إِمَّا طَاعَةُ اللهِ أَوِ النَّارُ . فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ : إِمَّا رَحْمَةُ اللهِ أَوِ النَّارُ ، فَقَالَ مَالِكٌ : مَا أَحْوَجَنِي إِلَى مُعَلِّمٍ مِثْلِكَ .

وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ الْبُسْطَامِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : كَابَدْتُ الْعِبَادَةَ ثَلَاثِينَ سَنَةً فَرَأَيْتُ قَائِلاً يَقُولُ لِي : يَا أَبَا يَزِيدَ : خَزَائِنُهُ مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ ، فَإِنْ أَرَدْتَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ فَعَلَيْكَ بِالذِّلَّةِ وَالِافْتِقَارِ .

وَسَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ أَبَا الْحَسَنِ ،

(وحكى أنه اجتمع) أبو عبد الله (محمد بن واسع) البصرى العابد ، وكان رحمه الله يقول من زهد فى الدنيا فهو ملك الدنيا والآخرة ، وكان يقول من أقبل بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد إليه (ومالك ابن دينار) البصرى الزاهد التابعى توفى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وقيل سنة تسع وعشرين رحمه الله (فقال مالك : إما طاعة الله أو النار ، فقال محمد بن واسع ، إما رحمة الله أو النار ، فقال مالك ما أحوجنى) فعل تعجب (إلى معلم مثلك ، وعن أبى يزيد) طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى ابن على (البسطامى) الزاهد المشهور كان جده مجوسيا ثم أسلم وكان له أخوان زاهدان عابدان أيضا آدم وعلى ، وكان أبو يزيد أجلهم ، وسئل أبو يزيد بأى شىء وجدت هذه المعرفة ؟ قال ببطن جائع وبدن عار ، وقيل لأبى يزيد ما أشد ما لقيته فى سبيل الله تعالى؟ فقال لا يمكننى وصفه فقيل له ما أهون ما لقيت نفسك منك . قال أما هذا فنعم ، دعوتها إلى شىء من الطاعات فلم تجبنى طوعا فمنعتها الماء سنة ، وكان يقول لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة ، وله مقالات كثيرة ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة وكانت وفاته سنة إحدى وستين وقيل أربع وستين ومائتين (رحمه الله) وطيفور بضم الطاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وضم الفاء وبعد الواو الساكنة راء ، والبسطامى بفتح الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم هذه النسبة إلى بسطام وهى بلدة مشهورة من أعمال قومس ، ويقال إنها أول بلاد خراسان من جهة العراق . كذا قال عبد الحق (قال كابدت العبادة) أى تحملت مشقتها (ثلاثين سنة فرأيت قائلا يقول لى يا أبا يزيد خزائنه) أى خزائن الله تعالى (مملوءة من العبادة فان أردت الوصول فعليك) أى الزم (بالذلة والافتقار) إلى مولاك وذلك لأن أعظم وسائل العبد إلى مولاه هو تحققه بما توجبه عبوديته وهو فقره إليه جل وعز فى كل حال من أحواله فلا يرى لنفسه حسنة يقتضى بها ثوابا ولا يدلى بحجة يستدفع بها عن نفسه عقابا ، وسئل أبو حفص رحمه الله بماذا يقدم الفقير على ربه فقال وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره (وسمعت الأستاذ أبا الحسن

يَحْكِي عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي الْفَضْلِ رَحِمَهُمَا اللهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا أَعْمَلُهُ مِنَ الطَّاعَاتِ غَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَأَجَابَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْفِعْلُ حَتَّى يَكُونَ مَقْبُولاً . وَأَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ أَقُومُ بِذَلِكَ فَعَلِمْتُ أَنَّهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ ، قِيلَ لَهُ : فَلِمَ تَفْعَلُهَا ؟ قَالَ عَسَى أَنْ يُصْلِحَنِي اللهُ تَعَالَى يَوْمًا فَتَكُونَ النَّفْسُ مُتَعَوِّدَةً لِعَمَلِ الْخَيْرِ : فَلَا أَحْتَاجُ إِلَى أَنْ أُعَوِّدَهَا ذَلِكَ مِنَ الرَّأْسِ ، فَهَذِهِ حَالُ هٰؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ ، وَذَوِي الْمُجَاهَدَاتِ وَالْأَخْطَارِ وَالْإِقْدَامِ ، فَكُنْتَ أَنْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ صُحْبَةً مَعْ غَيْرِهِمْ   وَقَعَ الْإِيَاسُ وَخَابَتِ الْآمَالُ
هَيْهَاتَ تُدْرِكُ بِالتَّوَانِي سَادَةً   كَدُّوا النُّفُوسَ وَسَاعَدَ الْإِقْبَالُ

ثُمَّ رَأَيْتُ أَنِّي أُثْبِتُ هٰهُنَا الْخَبَرَ الْمَأْثُورَ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ،

يحكى عن الأستاذ أبى الفضل رحمهما الله أنه) أى الأستاذ أبا الفضل (كان يقول إنى أعلم أن ما أعمله من الطاعات غير مقبول عند الله تعالى فقيل له فى ذلك) أى فى علمه بعدم القبول (فأجاب) الأستاذ أبو الفضل (إنى أعلم ما يحتاج إليه الفعل) يعنى من الإخلاص والتقوى (حتى يكون) الفعل مرضيا و (مقبولا وأعلم أني) أى بأنى (لست أقوم بذلك) أى بما يحتاج إليه الفعل (فعلمت أنها) أى تلك الطاعة (غير مقبولة) عند الله (قيل له) أى لأبى الفضل (فلم تفعلها) أى لأى شىء تفعل تلك الطاعة مع علمك بأنها غير مقبولة ؟ (قال) أبو الفضل (عسى أن يصلحنى الله تعالى يوما فتكون النفس متعودة لعمل الخير فلا أحتاج إلى أن أعودها) أى النفس (ذلك) أى عمل الخير (من الرأس) أى من الابتداء (فهذه) أى المذكورة من حال الأستاذ أبى الفضل (حال هؤلاء) الأئمة (الأعلام) جمع علم محركا كبطل وأبطال والعلم الراية ويطلق على الجبل . ولما كان العالم يهتدى بعلمه جعل علمه كالراية أو كالنار على الجبل لأن كلا منهما مما يهتدى به إلى المقصود كذا ذكره الأجهورى فالمناسب تشبيههم بالجبال فى الثبات على الحق وعدم التزلزل (وذوى المجاهدات والأخطار والإقدام فكنت أنت) وفى بعض النسخ فكن أنت (كما قال الشاعر) من بحر الكامل (فاطلب لنفسك صحبة مع غيرهم) أى مع غير الناس : أى فاطلب صحبة مع الله تعالى (وقع الإياس) أى ليقع اليأس من الناس (وخابت) أى خسرت (الآمال . هيهات) أى بعد (تدرك بالتوانى) أى بالتقصير (سادة * كدوا) صفة سادة : أى أتعبوا (النفوس وساعد) أى أعان (الإقبال) إلى الله تعالى (ثم رأيت أنى أثبت هاهنا) أى فى هذا الباب (الخبر المأثور) أى المنقول (عن الصادق) فى خبره (المصدوق)

صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَامُهُ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِ كِتَابٍ وَاحِدٍ .

رُوِيَ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ ، عَنْ رَجُلٍ وَهُوَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاذٍ : حَدِّثْنِي حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَحَفِظْتَهُ وَذَكَرْتَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ شِدَّتِهِ وَدِقَّتِهِ ، قَالَ نَعَمْ، ثُمَّ بَكَى بُكَاءً طَوِيلاً ثُمَّ قَالَ : وَاشَوْقَاهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَإِلَى لِقَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، إِذْ رَكِبَ وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ ، ثُمَّ سِرْنَا فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَقْضِي فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ . يَامُعَاذُ : قُلْتُ لَبَّيْكَ يَاسَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ ، قَالَ أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ

أى المصدق فيه أو الذى يأتيه غيره بالصدق فهو عليه الصلاة والسلام صادق فى قوله وفيما يأتيه من الوحى مصدوق ، إذ الله صدقه فيما وعده (صلوات الله عليه وعلى آله وسلامه، وقد ذكرناه) أى هذا الخبر المأثور (فى غير كتاب واحد) بل نذكره في مواضع من كتبنا كالإحيا والبداية والخبر المأثور ما ذكره بقوله (روى عن) القاضي المروزى عبد الله (بن المبارك) المجمع على إمامته وجلالته فى كل شىء الذى تستنزل الرحمة بذكره وترتجى المغفرة بحبه وهو من تابعى التابعين وتقدمت ترجمته (رحمه الله) بإسناده (عن رجل وهو خالد بن معدان) هو أبو عبد الله الكلاعى الشامى ثقة عابد يرسل كثيرا عن معاذ ، وربما كان بينهما اثنان كما ذكره الحافظ ابن حجر فى التهذيب ، قال العراقي هذا الحديث كما قال المصنف رواه ابن المبارك بطوله فى الزهد له ، وفى إسناده كما ذكر ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات وقال ابن عراق ذكر هذا الحديث الحافظ المنذرى فى ترغيبه مخرجا من الزهد لابن المبارك وأشار إلى بعض الطرق المذكورة وغيرها ثم قال وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه فى جميع طرقه وألفاظه ذكره الزبيدى (أنه قال لمعاذ) بن جبل بن عمرو بن أوس ابن عائذ بالمعجمة الأنصارى الخزرجى الجشمى المدنى الفقيه الفاضل الصالح وتقدمت ترجمته رضى الله عنه (حدثنى) يا معاذ (حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظته وذكرته فى كل يوم من شدته ودقته . قال) معاذ (نعم) حدثت لك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خالد بن معدان (ثم بكى) معاذ بكاءا طويلا حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت (ثم قال) معاذ تلهفا وتحسرا (واشوقاه) بهاء السكت (إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى لقائه ثم قال) معاذ (بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ركب) جواب بينا : أى ركب النبى صلى الله عليه وسلم مركوبه (وأردفنى) أى أركبني (خلفه ثم سرنا فرفع) عليه الصلاة والسلام (بصره إلى السماء ثم قال الحمد لله الذي يقضى) ويحكم (فى خلقه ما يشاء) فقال لى (يا معاذ قلت لبيك) بأبى أنت وأمى (يا سيد المرسلين) وفى الإحياء يا رسول الله (قال) إنى (أحدثك بحديث) أى واحد جامع

إنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ ، وَإِنْ ضَيَّعْتَهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ يا مُعَاذ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، لِكُلِّ سَمَاءٍ مَلَكاً بَوَّاباً خَازِناً، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ السَّمٰوَاتِ مَلَكاً بَوَّاباً عَلَى قَدْرِ الْبَابِ وَجَلَالَتِهِ ، فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ ، وَلَهُ نُورٌ وَشُعَاعٌ كَالشَّمْسِ ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا وَالْحَفَظَةُ تَسْتَكْثِرُ عَمَلَهُ وَتُزَكِّيهِ ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ قَالَ الْمَلَكُ لِلْحَفَظَةِ : اضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا صَاحِبُ الْغِيبَةِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ؛ ثُمَّ تَصْعَدُ الْحَفَظَةُ مِنَ الْغَدِ مَعَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ لَهُ نُورٌ تَسْتَكْثِرُهُ الْحَفَظَةُ وَتُزَكِّيهِ حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ قَالَ الْمَلَكُ : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، فَإِنَّهُ أَرَادَ بِهِ عَرَضَ الدُّنْيَا ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ،

(إن أنت حفظته نفعك) عند الله (وإن) أنت (ضيعته) أى نسيته ولم تحفظه (انقطعت حجتك عند الله عز وجل) يوم القيامة (يامعاذ إن الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض) ثم خلق السموات فجعل (لكل سماء) من السبعة (ملكا بوابا خازنا وجعل) سبحانه وتعالى (على باب من أبواب السموات ملكا بوابا على قدر الباب) أى حرمته وشرفه (وجلالته) أى ذلك الباب (فتصعد) بفتح العين من باب تعب (الحفظة) وهم الكرام الكاتبون كما قاله الزبيدى (بعمل العبد) من حين أصبح إلى حين أمسى (وله) أى لذلك العمل (نور وشعاع كالشمس حتى إذا بلغ) أى ذلك العمل ، وفى الإحياء والبداية إذا صعدت به (السماء الدنيا) قيل إنها من ذهب ومغاليقها من النور ومفاتيحها اسم الله الأعظم (والحفظة تستكثر عمله) أى تعده كثيرا (وتزكيه) أى تمدحه (فاذا انتهى) أى العمل مع حامله (إلى الباب . قال الملك) الموكل بتلك السماء (للحفظة) الصاعدين بذلك العمل (اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرنى ربى أن لا أدع) أى لا أترك (عمل من يغتاب الناس يتجاوزنى إلى غيرى) من بواب آخر (ثم تصعد الحفظة من الغد معهم) أى الحفظة (عمل صالح) من أعمال العبد (له) أى لذلك العمل (نور تستكثره الحفظة وتزكيه حتى إذا انتهوا به) أى بذلك العمل (إلى السماء الثانية) قيل هى من زمردة بيضاء (قال الملك) الموكل بتلك السماء (قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه فانه) أى صاحب هذا العمل (أراد به) أى بعمله (عرض الدنيا) أى متاعها أنا ملك الفخر (أمرني ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى) إنه كان يفتخر

فَتَلْعَنُهُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ، فِيهِ صَدَقَةٌ وَصِيَامٌ وَكَثِيرٌ مِنَ الْبِرِّ ، فَتَسْتَكْثِرُهُ الْحَفَظَةُ وَتُزَكِّيهِ ، فَإِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ . قَالَ الْمَلَكُ الْبَوَّابُ : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلَكُ صَاحِبِ الْكِبْرِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ، إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ وَهُوَ يَزْهُو كَمَا تَزْهُو النُّجُومُ وَالْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ ، لَهُ دَوِيٌّ وَتَسْبِيحٌ بِصَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ ، فَإِذَا انْتَهَوْا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا : قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلَكُ صَاحِبِ الْإِعْجَابِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ، إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِيهِ ؛ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يُزَفُّ كَمَا تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلَى أَهْلِهَا ، حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ بِذَٰلِكَ الْعَمَلِ الْحَسَنِ مِنْ جِهَادٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ لَهُ ضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ

على الناس فى مجالسهم (فتلعنه الملائكة حتى يمسى ، وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجا) أى مضيئا (به) أى بذلك العمل (فيه صدقة وصيام) وصلاة و (كثير من البر فتستكثره الحفظة وتزكيه فاذا انتهوا به) أى بالعمل المذكور (إلى السماء الثالثة) قيل من حديد : أى من صافى الحديد (قال الملك البواب) للحفظة (قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا ملك صاحب الكبر أمرنى ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى إنه) أى صاحب هذا العمل (كان يتكبر على الناس فى مجالسهم ، وتصعد الحفظة بعمل العبد وهو) أى العمل (يزهو) أى يضىء (كما تزهو النجوم والكوكب الدرى) بضم الدال وكسرها : أى المضىء (له) أى لذلك العمل (دوى) أى حفيف كحفيف النحل وحفيف جناح الطائر وحفيف الريح ، فى المختار ودوى الريح ، حفيفها وكذا دوى النحل والطائر (وتسبيح بصوم وصلاة وحج وعمرة فاذا انتهوا) أى الحفظة الصاعدون بذلك العمل (إلى السماء الرابعة) قيل من نحاس وقيل من فضة (قال) لهم (الملك الموكل بها) أى بتلك السماء (قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه) اضربوا ظهره وبطنه (أنا ملك صاحب الإعجاب أمرنى ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى إنه) أى صاحب هذا العمل (كان إذا عمل عملا أدخل العجب فيه) أى فى ذلك العمل (وتصعد الحفظة بعمل العبد) من جهاد وحج وعمرة له ضوء كضوء الشمس (يزف كما تزف العروس إلى أهلها) أى زوجها (حتى إذا انتهوا إلى السماء الخامسة) قيل إنها من فضة وقيل من ذهب (بذلك العمل الحسن من جهاد وحج وعمرة له) أى لذلك العمل (ضوء كضوء الشمس

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : أَنَا مَلَكُ صَاحِبُ الْحَسَدِ ، إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ سَخِطَ مَا أَرْضَى اللهَ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ، وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ بِوُضُوءٍ تَامٍّ ، وَصَلَاةٍ كَثِيرَةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يَتَجَاوَزُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَيَقُولُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالْبَابِ : أَنَا صَاحِبُ الرَّحْمَةِ ، اضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، إِنَّهُ كَانَ لَمْ يَرْحَمْ قَطُّ إِنْسَانًا ، وَإِنْ أُصِيبَ عَبْدٌ شَمِتَ بِهِ ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِي إِلَى غَيْرِي ، وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ ، بِنَفَقَةٍ كَثِيرَةٍ وَصَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَجِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ صَوْتٌ كَصَوْتِ الرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الْبَرْقِ ، فَإِذَا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالسَّمَاءِ :

(فيقول) لهم (الملك) الموكل بالسماء الخامسة قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه (أنا ملك صاحب الحسد إنه) أى صاحب هذا العمل الحسن (كان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد سخط ما أرضى الله) وفى الإحياء أنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم ويقع (أمرنى ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى ، وتصعد الحفظة بعمل العبد بوضوء تام وصلاة كثيرة وصيام وحج وعمرة) وزكاة وجهاد (حتى يتجاوزوا به) أى بذلك العمل (إلى السماء السادسة) قيل إنها من ذهب وقيل من جوهر (فيقول الملك الموكل بالباب) أى باب السماء السادسة (أنا) ملك (صاحب الرحمة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لم يرحم قط إنسانا) من عباد الله (وإن أصيب عبد) أى أصابه بلاء أو ضر (شمت به) أى فرح بمصيبة نزلت بذلك العبد (أمرني ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى . وتصعد الحفظة بعمل العبد بنفقة كثيرة وصوم وصلاة وجهاد) فى سبيل الله (وورع) أى اجتناب من الحرام والشبهة (له) أى لذلك العمل (صوت كصوت الرعد) أى الذى يسمع من السحاب (وضوء كضوء البرق) يعنى النار التي تخرج من السحاب . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الرعد اسم ملك يسوق السحاب ، والبرق لمعان سوط من نور يزجر به السحاب ، وقيل اسم ملك يزجر السحاب إذا تبددت جمعها وضمها فاذا اشتد غضبه تخرج من فيه النار فهي البرق والصواعق ، وقيل : الرعد تسبيح الملك ، وقيل اسمه ، والمشهور كما قاله القاضى أن سبب الرعد اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا حدثها الريح من الارتعاد (فاذا انتهوا به) أى بالعمل المذكور ومعه ثلاث آلاف ملك (إلى السماء السابعة) قيل إنها من ياقوتة حمراء (فيقول) لهم (الملك الموكل بالسماء) السابعة قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا

أَنَا صَاحِبُ الذِّكْرِ ، يَعْنِي السُّمْعَةَ وَالصِّيتِ فِى النَّاسِ ، إِنَّ صَاحِبَ هٰذَا الْعَمَلِ أَرَادَ بِهِ الذِّكْرَ فِى الْمَجَالِسِ وَالرِّفْعَةَ عِنْدَ الْقُرَنَاءِ ، وَالْجَاهَ عِنْدَ الْكُبَرَاءِ ، أَمَرَنِى رَبِّى أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يَتَجَاوَزُنِى إِلَى غَيْرِى ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلّٰهِ تَعَالَى خَالِصًا فَهُوَ رِيَاءٌ ، وَلَا يَقْبَلُ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلَ الْمُرَائِى . وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرِ اللّٰهِ تَعَالَى ، وَتُشَيِّعُهُ مَلَائِكَةُ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ حَتَّى تُقْطَعَ الْحُجُبُ كُلُّهَا إِلَى اللّٰهِ سُبْحَانَهُ ، فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَىِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ، وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُخْلِصِ لِلّٰهِ تَعَالَى ، فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى : « أَنْتُمُ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِى وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى مَافِى نَفْسِهِ ، إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِى بِهٰذَا الْعَمَلِ ، وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِى ، وَلَا أَخْلَصَهُ لِى ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ مِنْ عَمَلِهِ ، عَلَيْهِ لَعْنَتِى ، غَرَّ الْآدَمِيِّينَ وَغَرَّكُمْ وَلَمْ يَغُرَّنِى وَأَنَا عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، الْمُطَّلِعُ عَلَى مَافِى الْقُلُوبِ ، لَا تَخْفَى عَلَىَّ خَافِيَةٌ وَلَا تَعْزُبُ عَنِّى عَازِبَةٌ ، عِلْمِى بِمَا كَانَ كَعِلْمِى

به جوارحه واقفلوا به على قلبه (أنا) ملك (صاحب الذكر : يعنى السمعة) بضم السين (والصيت) أى الشهرة (فى الناس) فإنى أحجب عن ربى كل عمل لم يرد به وجه ربى (إن صاحب هذا العمل أراد به) أى بعمله (الذكر) بالجميل (فى المجالس ، و) أراد (الرفعة) أى ارتفاع القدر والمنزلة (عند القرناء و) أراد (الجاه عند الكبراء) والعلماء (وأمرنى ربى أن لا أدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى وكل عمل لم يكن لله تعالى خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عز وجل عمل المرائى ، وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق) بضمتين (حسن وصمت) أى سكوت عما لا ينفع فى الدنيا والآخرة (وذكر الله تعالى وتشيعه) أى تتبعه (ملائكة السموات السبع حتى تقطع الحجب) بالبناء للمفعول : أى يقطعوا بالعمل المذكور الحجب (كلها إلى الله سبحانه) أى إلى محل رحمته وسلطانه ، وليس المراد أنهم يرتفعون للرب جل جلاله لأنه ليس فى محل (فيقفون بين يدى الرب جل جلاله ويشهدون له) أى للعبد (بالعمل الصالح المخلص لله تعالى) بحسب علمهم (فيقول الله تعالى) لهم (أنتم الحفظة على عمل عبدى ، وأنا الرقيب) أى الحافظ (على مافى نفسه) أى فى قلبه (إنه) أى العبد (لم يردنى بهذا العمل وأراد به) أى بعمله (غيرى ولا أخلصه) ذلك العبد (لى) أى لأجلى (وأنا أعلم بما أراد من عمله ، عليه) أى على ذلك العبد (لعنتى غر) أى خدع صاحب هذا العمل (الآدميين وغركم) أيها الملائكة (ولم يغرنى وأنا علام الغيوب المطلع على مافى القلوب لا تخفى على خافية ولا تعزب) أى لا تغيب (عنى عازبة) أى غائبة (علمى بما كان كعلمى

بِمَا يَـكُونُ ، وَعِلْمِي بِمَا مَضَى كَعِلْمِي بِمَا بَقِيَ ، وَعِلْمِي بِالْأَوَّلِينَ كَعِلْمِي بِالآخِرِينَ ، أَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، فَـكَيْفَ يَغُرُّنِي عَبْدِي بِعَمَلِهِ ؟ إِنَّمَا يَغُرُّ الْمَخْلُوقِينَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، وَأَنَا عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، عَلَيْهِ لَعْنَتِي ، وَتَقُولُ الْمَلَائِـكَةُ السَّبْعَةُ وَالثَّلَاثَةُ الآلَافُ الْمُشَيِّعُونَ : يَا رَبَّنَا عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا ، فَتَقُولُ أَهْلُ السَّمٰوَاتِ : عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ » ثُمَّ بَـكَى مُعَاذٌ رَحِمَهُ اللّٰهُ ، وَانْتَحَبَ انْتِحَاباً شَدِيداً وَقَالَ يَا رَسُولَ اللّٰهِ : كَيْفَ النَّجَاةُ مِمَّا ذَكَرْتَ ؟ قَالَ : يَا مُعَاذُ اقْتَدِ بِنَبِيِّكَ فِي الْيَقِينِ ، قُلْتُ : أَنْتَ رَسُولُ اللّٰهِ ، وَأَنَا مُعَاذُ ابْنُ جَبَلٍ ، كَيْفَ لِي بِالنَّجَاةِ وَالْخَلَاصِ ؟ قَالَ نَعَمْ يَا مُعَاذُ إِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ تَقْصِيرٌ فَاقْطَعْ لِسَانَكَ عَنِ الْوَقِيعَةِ فِي النَّاسِ ، وَعَنْ إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ خَاصَّةً ، وَلْيَرُدَّكَ عَنِ الْوَقِيعَةِ فِي النَّاسِ مَا تَعْلَمُهُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِكَ ، وَلَا تُزَكِّ نَفْسَكَ بِذَمِّ إِخْوَانِكَ وَلَا تَرْفَعْ نَفْسَكَ بِوَضْعِ إِخْوَانِكَ ،

بما يكون، وعلمي بما مضى كعلمي بما بقي، وعلمي بالأولين كعلمي بالآخرين أعلم السر وأخفى) قال ابن عباس رضي الله عنهما : السر ماتسره فى نفسك ، وأخفى من السر هو مايلقيه الله تعالى فى قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا (فكيف يغرنى) أى يخدعنى (عبدى بعمله إنما يغر المخلوقين الذين لايعلمون، وأنا علام الغيوب، عليه) أى العبد (لعنتى وتقول الملائكة السبعة) أي سبعة سموات (والثلاثة الآلاف المشيعون يا ربنا عليه) أى على العبد صاحب هذا العمل (لعنتك ولعنتنا فتقول أهل السموات) كلهم حتى تقول السموات كلها (عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين، ثم بكى معاذ رحمه الله وانتحب) أى رفع صوته بالبكاء (انتحابا شديدا وقال يارسول الله كيف النجاة) والخلاص لى (مما ذكرت) من الغيبة والفخر والكبر والعجب والحسد والسمعة والرياء (قال) صلى الله عليه وسلم (يامعاذ اقتد بنبيك) يعنى نفسه عليه الصلاة والسلام (فى اليقين . قلت : أنت رسول الله) أى أنت معصوم من الذنوب (وأنا معاذ بن جبل) أى لست بمعصوم منها (كيف لى النجاة والخلاص ؟ قال نعم يا معاذ إن كان فى عملك تقصير فاقطع لسانك عن الوقيعة فى الناس) أى الغيبة والسب والثلب فيهم . فى المصباح: وقع فلان فى فلان وقوعا ووقيعة : سبه وثلبه ، انتهى، وأيضا فيه ثلبه ثلبا من باب ضرب : عابه وتنقصه (وعن إخوانك من حملة القرآن خاصة) وفى الناس عامة (وليردوك عن الوقيعة فى الناس ما تعلمه من عيب نفسك ولا تزك) أى لا تمدح (نفسك) متلبسا (بذم إخوانك ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك) على سبيل

وَلاَ تُرَاءِ بِعَمَلِكَ كَيْ تُعْرَفَ فِي النَّاسِ ، وَلاَ تَدْخُلْ فِى الدُّنْيَا دُخُولاً يُنْسِيكَ أَمْرَ الآخِرَةِ ، وَلاَ تُنَاجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ ، وَلاَ تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَتَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَلاَ تَفْحُشْ فِي مَجْلِسِكَ حَتَّى يَحْذَرُوكَ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ ، وَلاَ تَمُنَّ عَلَى النَّاسِ ، وَلاَ تُمَزِّقِ النَّاسَ بِلِسَانِكَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ جَهَنَّمَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا) يَقُولُ : تَنْزِعُ اللَّحْمَ عَنِ الْعِظَامِ ، قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ وَمَنْ يُطِيقُ هٰذِهِ الْخِصَالَ ؟ قَالَ : يَامُعَاذُ إِنَّ الَّذِى وَصَفْتُ لَكَ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، إِنَّمَا يَكْفِيكَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ ؛ فَإِذَنْ أَنْتَ قَدْ سَلِمْتَ وَنَجَوْتَ . قَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ : وَكَانَ مُعَاذٌ لاَ يُكْثِرُ مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرْآنِ كَمَا يُكْثِرُ مِنْ تِلاَوَةِ هٰذَا الْحَدِيثِ وَذِكْرِهِ فِى مَجْلِسِهِ ، فَلَمَّا سَمِعْتَ

التكبر (ولا تراء بعملك كى تعرف فى الناس) بل أره ليقتدى بك غيرك (ولا تدخل فى الدنيا دخولا ينسيك أمر الآخرة ولا تناج رجلا وعندك) رجل (آخر) لأنه مشوس له (ولا تتعظم على الناس فتنقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة) من نحو العلم والمال وذلك لتجنبهم عنك ولعدم تواضعك (ولا تفحش) بالقول والفعل (فى مجلسك حتى يحذروك من سوء خلقك ولا تمن على الناس ولا تمزق الناس) أى لا تشققهم بالغيبة والشتم (بلسانك فتمزقك) أى تشققك (كلاب جهنم) يوم القيامة (وهو) أى التمزيق المذكور يدل عليه (قوله تعالى « والناشطات نشطا) أتدرى ما هن يا معاذ ؟ قلت ما هن بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ قال عليه الصلاة والسلام (يقول) سبحانه وتعالى : هن كلاب النار تنشط و (تنزع اللحم عن العظام . قلت) بأبى أنت وأمى (يا رسول الله ومن يطيق) أى يقوى على (هذه الخصال) ومن ينجو منها (قال) صلى الله عليه وسلم (يا معاذ إن الذى وصفت لك) من الأمور المذكورة (ليسير) أى لهين غير عسير (على من يسره الله تعالى عليه إنما يكفيك من ذلك) المذكور من الذى وصفت لك (أن تحب للناس) أى المسلمين من الخير (ما) أى مثل ما (تحب لنفسك) فتكون معهم كالنفس الواحدة (وتكره لهم ما تكره لنفسك) من الشر (فإذن) أى حين إذ فعلت ما ذكر (أنت قد سلمت ونجوت) مما تخاف من المهالك (قال خالد بن معدان) رحمه الله (وكان معاذ) بن جبل رضى الله عنه (لا يكثر من تلاوة القرآن كما يكثر من) أجل (تلاوة هذا الحديث) حذرا مما فيه (وذكره فى مجلسه) وفى الإحياء فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما فى هذا الحديث . قال المصنف رحمه الله (فلما سمعت

أَيُّهَا الرَّجُلُ وَكُلُّكُمْ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِهٰذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ نَبَؤُهُ ، الْكَبِيرِ خَطَرُهُ الْأَلِيمِ أَثَرُهُ ، الذى تَطِيرُ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَحِيرُ لَهُ الْعُقُولُ ، وَتَضِيقُ عَنْ حَمْلِهِ الصُّدُورُ ، وَتَجْزَعُ لِهَوْلِهِ النُّفُوسُ ، فَاعْتَصِمْ بِمَوْلَاكَ إِلٰهِ الْعَالَمِينَ ، وَالْزَمِ الْبَابَ بِالتَّضَرُّعِ وَالْاِبْتِهَالِ وَالْبُكَاءِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ مَعَ الْمُتَضَرِّعِينَ الْمُبْتَهِلِينَ ، فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ وَلَا سَلَامَةَ مِنْ هٰذَا الْبَحْرِ إِلَّا بِنَظَرِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَعِنَايَتِهِ ، فَتَنَبَّهْ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ ، وَأَعْطِ الْأَمْرَ حَقَّهُ وَجَاهِدْ نَفْسَكَ فى هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْمَخُوفَةِ لَعَلَّكَ لَا تَهْلِكُ مَعَ الْهَالِكِينَ ، وَالْمُسْتَعَانُ بِاللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّهُ خَيْرُ مُعِينٍ ، وَهُوَ تَعَالَى أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

﴿ فصل ﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ النَّظَرَ ، فَرَأَيْتَ قَدْرَ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَرَأَيْتَ عَجْزَ الْخَلْقِ وَضَعْفَهُمْ وَجَهْلَهُمْ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ بِقَلْبِكَ وَكُنْ زَاهِدًا فى ثَنَائِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمُ الَّذِى لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ ،

أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل بهذا الحديث العظيم نبؤه) أى خبره (الكبير خطره الأليم أثره الذى تطير له) أى لأجل هذا الحديث (القلوب وتحير) وتدهش (له العقول وتضيق عن حمله الصدور وتجزع لهوله النفوس فاعتصم) جواب لما سمعت (بمولاك إله العالمين والزم الباب) أى باب مولاك (بالتضرع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين المبتهلين فإنه) أى الحال والشأن (لا نجاة من هذا الأمر) المذكور فى الحديث (إلا برحمته) جل وعز (ولا سلامة من هذا البحر) العظيم (إلا بنظره) سبحانه (وتوفيقه وعنايته فتنبه) أى تيقظ (من رقدة) بفتح الراء (الغافلين وأعط الأمر حقه وجاهد نفسك فى هذه العقبة المخوفة لعلك لا تهلك مع الهالكين . والمستعان بالله على كل حال فإنه) سبحانه (خير معين ، وهو تعالى أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) .

﴿ فصـــل ﴾

(وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا أحسنت النظر فرأيت قدر طاعة الله تعالى) أى منزلتها (ورأيت عجز الخلق وضعفهم وجهلهم فلا تلتفت إليهم بقلبك وكن زاهدا فى ثنائهم ومدحهم وتعظيمهم الذى لا فائدة) ولا نفع (تحته) أى المذكور من تعظيمهم وغيره ، وذلك لأن الاغترار

فَلاَ تُرِدْ بِطَاعَتِكَ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ ، وَإِذَا رَأَيْتَ خِسَّةَ الدُّنْيَا وَحَقَارَتَهَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا ، فَلاَ تُرِدْهَا أَيْضاً بِطَاعَتِكَ مِنَ اللهِ ، وَقُلْ : يَا نَفْسُ ثَنَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَشُكْرُهُ خَيْرٌ مِنْ ثَنَاءِ الْمَخْلُوقِينَ الْعَاجِزِينَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ قَدْرَ عَمَلِكَ بِالْحَقِيقَةِ وَمَا تَحَمَّلْتِ فِيهِ ، وَمَا يَبْلُغُونَ حَقَّكِ فِيمَا عَمِلْتِ وَتَحَمَّلْتِ ، بَلْ رُبَّمَا يُفَضِّلُونَ عَلَيْكِ مَنْ هُوَ أَدْوَنُ مِنْكِ حَالاً بِالْأَلْفِ دَرَجَةٍ ، وَيُضَيِّعُونَكِ فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ وَيَنْسَوْنَكِ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذٰلِكَ

بمدح الناس وثنائهم غاية فى الجهل والغباوة ، وذلك من علامات المقت ؛ لأن المغتر بذلك ترك يقين ما عنده من العيوب لظن ما عند الناس من الصلاح ، وهو على كل حال أعلم بعيوب نفسه وتقصيره مع ربه ، وقد شبه الحارث المحاسبي رحمه الله الراضى بالمدح بالباطل بمن يهزأ به ويقال له إن العذرة التى تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك ، وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية به انتهى ، ولا شك أن الذنوب والعيوب التى يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التى تخرج من جوفه ، ولا فرق بين الحالين إلا أنه فى حال المدح يعلم أن المادح لم يشاركه فى معرفة ذنوبه وعيوبه مشاركة ذلك المستهزئ للمستهزأ به فى معرفة حال ما يخرج من جوفه فهو بجهله وغباوته قد رضى بأن يكون له فى قلوب الجاهلين قدر وجاه من غير مبالاة بسقوطه من عين مولاه الذى يعلم من حاله ما لا يعلمه هو ولا غيره من حيث رضى بالمدحة وفرح بها ولم يقابل بالإباء والكراهية . هذا إذا كان المادح من أهل العلم والدين . وأما إن كان جاهلا أو فاسقا فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به . قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : تزكية الأشرار هجنة بك وحبهم لك عيب عليك ، وقيل لبعض الحكماء إن العامة يثنون عليك فأظهر الوحشة من ذلك وقال لعلهم رأوا منى شيئا أعجبهم ولا خير فى شىء يسرهم ويعجبهم كذا ذكره بعض المحققين (فلا ترد) أى لا تقصد (بطاعتك شيئا من ذلك) أى المذكور من التفاتهم إليك وثنائهم ومدحهم وتعظيمهم الذى لا فائدة تحته ، وإن ترد ذلك دخل عليك الشرك الخفى . هذا ، وأما إذا أطلق الله تعالى ألسنة الناس بالثناء عليك ولا أهلية فيك لذلك ، فينبغى أن تعرف الحق لأهله فتستعمل نفسك بالثناء على الله تعالى بما هو أهله ليكون ذلك شكرا لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليك من غير استحقاق لذلك ولا لثبوت أهلية (وإذا رأيت خسة الدنيا وحقارتها وسرعة زوالها) وأنها لا يفى مرجوها بمخوفها بل مكروهها أكثر (فلا تردها) أى الدنيا الخسيسة (أيضا) أى كما أنك لا تقصد بطاعتك التفاتهم إليك وثناءهم عليك (بطاعتك من الله وقل يا نفس ثناء رب العالمين) ومدحه (وشكره خير من ثناء المخلوقين العاجزين الجاهلين الذين لا يعرفون قدر عملك بالحقيقة و) لا يعرفون (ما تحملت فيه ومايبلغون حقك فيما عملت وتحملت ، بل ربما يفضلون عليك من هوأدون) أى أحقر (منك حالا بألف درجة ويضيعونك فى أحوج الأوقات وينسونك وإن لم يفعلوا ذلك) الثناء والمدح

فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بِأَيْدِيهِمْ وَإِلَى مَاذَا تَبْلُغُ قُدْرَتُهُمْ ، ثُمَّ هُمْ فِى قَبْضَةِ اللهِ تَعَالَى يُصَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَإِلَى مَا يَشَاءُ ، فَاعْقِلِى أَيَّتُهَا النَّفْسُ ، فَلَا تُضَيِّعِى طَاعَتَكِ الْعَزِيزَةَ بِهِمْ ، وَلَا يَفُوتُكِ ثَنَاءُ مَنْ ثَنَاؤُهُ كُلُّ فَخْرٍ وَعَطَاءُ مَنْ عَطَاؤُهُ كُلُّ ذُخْرٍ ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلٌ وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

وَقُلْ : يَانَفْسُ أَجَنَّةُ الْخُلْدِ خَيْرٌ أَمْ لَطْخَةٌ مِنْ حَرَامِ الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا النَّكِدِ الْفَانِى ، وَأَنْتِ مُتَمَكِّنَةٌ مِنْ أَنْ يَحْصُلَ لَكِ بِطَاعَتِكِ هٰذَا النَّعِيمُ الْمُقِيمُ ، فَلَا تَكُونِى خَسِيسَةَ الْهِمَّةِ رَدِيئَةَ الْإِرَادَةِ ، دَنِيئَةَ الْأَفْعَالِ ، أَمَا تَرَيْنَ الْحَمَامَ إِذَا كَانَ سَمَاوِيًّا ؟

(فماذا عسى أن يكون بأيديهم وإلى ماذا تبلغ قدرتهم ؟ ثم هم فى قبضة الله تعالى) وقدرته (يصرفهم) الله (كيف يشاء وإلى ما يشاء فاعقلى أيتها النفس فلا تضيعى طاعتك العزيزة بهم) أى بالمخلوقين (ولا يفوتك ثناء من) جل وعز (ثناؤه كل فخر ، و) لا يفوتك (عطاء من) سبحانه وتعالى (عطاؤه كل ذخر ، ولقد صدق القائل) حيث قال من بحر الكامل (سهر العيون) أى تيقظها (لغير وجهك) أى لغير ذاتك : أى طلب مرضاتك (باطل . وبكاؤهن) أى العيون (لغير فقدك ضائع) ولهذا قال بعضهم : رؤى الشبلي رحمه الله فى المنام بعدوفاته فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال لم يطالبنى بالبراهين على الدعاوى إلا على شيء واحد. قلت يوما لا خسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار ، فقال سبحانه وأى خسارة أعظم من خسران لقائى ؟ وقال بعضهم كان عندنا رجل مكث عندنا ثلاث عشرة سنة يصلى كل يوم وليلة ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فاذا صلى العصر احتبى واستقبل القبلة ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا ؟ بل عجبت للخليقة كيف استأنست بسواك ثم يسكت إلى المغرب (وقل: يانفس أجنة الخلد خير أم لطخة) فى محيط المحيط : لطخه بالمداد وغيره يلطخه لطخا : لوثه انتهى ، وأيضاً فيه: اللطخ مصدر . واليسير والقليل من كل شيء ، يقال فى السماء لطخ من السحاب : أى قليل منه ، وسمعت لطخا من خبر : أى يسيرا (من حرام الدنيا وحطامها النكد) أى القليل (الفانى وأنت) يا نفس (متمكنة من أن يحصل لك بطاعتك هذا النعيم المقيم) أى الدائم (فلا تكونى خسيسة الهمة رديئة الإرادة دنيئة الأفعال أما ترين الحمام) بكسر الحاء كما قاله الحريرى ، وهي عند العرب : ذوات الأطواق نحو الفواخت والقمارى الواحدة حمامة يقع على الذكر والأنثى والهاء للافراد لا للتأنيث كما هو مذكور فى المختار وغيره (إذا كان سماوياً) يعنى

كَيْفَ تَعْلُو قِيمَتُهُ وَيَزْدَادُ قَدْرُهُ ، فَارْفَعِي هِمَّتَكِ كُلَّهَا إِلَى السَّمَاءِ ، وَجَرِّدِي قَلْبَكِ لِلَّهِ تَعَالَى الْوَاحِدِ الَّذِي بِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَلَا تُضَيِّعِي مَا ظَفِرْتِ بِهِ مِنْ طَاعَتِكِ بِلَا شَيْءٍ وَكَذَٰلِكِ إِذَا أَحْسَنْتِ التَّأَمُّلَ فَرَأَيْتِ أَيَادِيَ اللهِ تَعَالَى وَمِنَنَهُ الْعِظَامَ عَلَيْكِ فِي هَٰذِهِ الطَّاعَةِ بِأَنْ أَمْكَنَكِ لَهَا وَأَعْطَاكِ الْآلَةَ أَوَّلًا ، ثُمَّ أَزَاحَ عَنْكِ الْعَوَائِقَ حَتَّى تَفَرَّغْتِ لِهَٰذِهِ الطَّاعَةِ ثَانِيًا ، ثُمَّ خَصَّكِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّأْيِيدِ وَيَسَّرَهَا عَلَيْكِ وَزَيَّنَهَا فِي قَلْبِكِ حَتَّى عَمِلْتِهَا ثَالِثًا ، ثُمَّ مَعَ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْكِ وَعَنْ طَاعَتِكِ وَكَثْرَةِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكِ أَعَدَّ لَكِ عَلَى هَٰذَا الْعَمَلِ الْيَسِيرِ ،

مرتفعا فى الطيران وسريعا فيه (كيف تعلو) وفى نسخة تغلو بالغين المعجمة (قيمته) أى الحمام السماوى (ويزداد قدره) أى رتبته على غيره (فارفعى) يانفس (همتك كلها إلى السماء) لكى تكونى من جملة السعداء . قال بعض المحققين . والهمة حالة للقلب وهى قوة إرادة وغلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما ، وتكون عالية إن تعلقت بمعالى الأمور وسافلة إن تعلقت بأدانيها . قال الشاعر وأجاد :

وقائلة لم علتك الهموم وأمرك ممتثل فى الأمم
فقلت ذرينى على حالتى فان الهموم بقدر الهمم

وقال الآخر :

إذا أعطشتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعا وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريا
فإن إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المحيا

(وجردى قلبك لله تعالى الواحد الذى بيده) أى بقدرته (الأمر كله ولا تضيعى ما ظفرت به من طاعتك بلا شيء وكذلك) أى مثل إحسانك النظر فيما ذكر من قدر طاعة الله وعجز الخلق وضعفهم وجهلهم (إذا أحسنت التأمل فرأيت أيادى) أى نعم (الله تعالى ومننه العظام عليك فى هذه الطاعة) وذلك (بأن أمكنك) الله (ومنها) أى من الطاعة (وأعطاك الآلة) أى آلة الطاعة (أولا ثم أزاح) أى أبعد سبحانه وتعالى (عنك العوائق) أى الموانع (حتى تفرغت لهذه الطاعة ثانيا ثم خصك بالتوفيق والتأييد ويسرها) أى سهلها (عليك وزينها) أى زين الله تعالى هذه الطاعة (فى قلبك حتى عملتها ثالثا ثم مع جلاله) تعالى (وعظمته واستغنائه عنك وعن طاعتك وكثرة نعمته) سبحانه (عليك أعد) أى هيأ سبحانه وتعالى (لك على هذا العمل اليسير

الثَّناء الجَزِيلَ وَالثَّوابَ الْعَظِيمَ الذى لاتَسْتَحِقِّينَهُ رَابِعاً ، ثُمَّ شَكَرَكِ عَلَى ذَلِكِ وَأَثْنَى عَلَيْكِ عَلَى هٰذَا الْعَمَلِ الْيَسِيرِ الثَّناءَ الجَزِيلَ وَأَحَبَّكِ بِذَلِكَ خَامِسًا ، فَهٰذِهِ كُلُّهَا بِفَضْلِهِ الْعَظِيمِ لاَ غَيْرُ ، وَإِلاَّ فَبِأَىِّ اسْتِحْقَاقٍ لَكِ ، وَأَىِّ قَدْرٍ لِعَمَلِكِ الْحَقِيرِ الْمَعِيبِ ، فَاذْكُرِى أَيَّتُهَا النَّفْسُ مِنَّةَ رَبِّكِ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَهُ فِيمَا أَحْسَنَ إِلَيْكِ فى هٰذِهِ الطَّاعَةِ ، وَاسْتَحْيِي مِنْ أَنْ تَلْتَفِتِي إِلَى عَمَلٍ ، بَلِ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ لِلّٰهِ تعالى عَلَيْنَا بِكُلِّ حَالٍ ، وَلاَ يَكُونُ لَكِ شُغْلٌ بَعْدَ حُصُولِ هٰذِهِ الطَّاعَةِ إِلاَّ التَّضَرُّعَ وَالابْتِهَالَ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ بِأَنْ يَتَقَبَّلَهَا ، أَمَا تَسْمَعِينَ قَوْلَ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَمَّا فَرَغَ مِنْ خِدْمَتِهِ فى بِنَاءِ بَيْتِهِ ،

الثناء الجزيل و) أعد (الثواب العظيم الذى تستحقينه رابعا، ثم شكرك على ذلك) العمل. قال العزيزى: والشكر فى حقه تعالى هو إعطاء عباده الثواب الجزيل على العمل القليل والثناء على عباده المطيعين أو جزاء عباده على شكره (وأثنى) تعالى (عليك على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل وأحبك بذلك) أى العمل (خامسا ، فهذه) أى الأمور الخمسة (كلها بفضله العظيم لاغير، وإلا) تكن هذه بفضله تعالى العظيم (فبأى استحقاق لك وأى قدر) أى رتبة (لعملك الحقير المعيب فاذكرى أيتها النفس منة ربك الكريم الرحيم سبحانه وتعالى فيما أحسن) عز وجل (إليك فى هذه الطاعة واستحيى من أن تلتفتى إلى عمل) من أعمالك (بل الفضل والمنة لله تعالى علينا بكل حال ولا يكون لك شغل بعد حصول الطاعة إلا التضرع والابتهال إلى الله سبحانه بأن يتقبلها) أى الطاعة (أما تسمعين) يا نفس (قول خليله إبراهيم عليه) الصلاة و (السلام لما فرغ) الخليل عليه السلام (من خدمته فى بناء بيته) تعالى وهي الكعبة المعظمة. وكانت قصة بناء البيت على ماذكر العلماء وأصحاب السير. أن الله تعالى خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفي عام فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها فلما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى فأنزل البيت المعمور ، وهو من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى فوضعه على موضع البيت وقال يا آدم : «إنى أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى» وأنزل الله عليه الحجر الأسود وكان أبيض فاسود من مس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم عليه الصلاة والسلام من الهند ماشيا إلى مكة وأرسل الله إليه ملكا يدله على البيت فحج آدم البيت وأقام المناسك فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام . قال ابن عباس رضى الله عنهما: حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله إلى السماء الرابعة وهو البيت المعمور يدخله

كَيْفَ اُبْتَهَلَ إِلَى اللهِ فِى أَنْ يَتفضَّلَ عَلَيْهِ بِالْقَبُولِ ، فَقَالَ : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ قَالَ : (رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء) فَلَئِنْ مَنَّ عَلَيْكَ بِقَبُولِ هٰذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُزْجَاةِ ، فَلَقَدْ أَكْمَلَ النِّعْمَةَ وَأَعْظَمَ الْمِنَّةَ ، فَيَا لَهَا

كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه وبعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه ويعبد فسأل الله أن يبين له موضعه فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت ، وهى ريح خجوج لها رأسان تشبه الحية ، والخجوج من الرياح وهى الشديدة السريعة الهبوب ، وقيل هى المتلوية فى هبوبها وأمر إبراهيم أن يبنى حتى تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه كتطويق الحجفة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت ونودى منها: يا إبراهيم ابن على قدر ظلها لا تزد ولا تنقص ، وقيل إن الريح كنست له ما حول الكعبة حتى ظهر له أساس البيت الأول فذلك قوله تعالى « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » فبنى إبراهيم وإسمعيل البيت فكان إبراهيم يبنيه وإسمعيل يناوله الحجارة ، فذلك قوله تعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » جمع قاعدة ، وهى أس البيت وقيل جدرة من البيت . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بنى إبراهيم البيت من خمسة أجبل : من طور سيناء، وطور زيتاء ، ولبنان جبل بالشام ، والجودى جبل بالجزيرة ، وبنى قواعده من حراء جبل بمكة ، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود . قال لإسماعيل ائتنى بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر ، فقال ائتنى بأحسن منه فمضى إسمعيل ليطلب حجرا أحسن منه فصاح أبو قبيس يا إبراهيم إن لك عندى وديعة فخذها فقذف بالحجر الأسود فأخذه إبراهيم فوضعه مكانه ، وقيل إن الله تعالى أمد إبراهيم وإسمعيل بسبعة أملاك يعينونهما فى بناء البيت ، فلما فرغ من بنائه (كيف ابتهل) إبراهيم مع ابنه عليهما الصلاة والسلام وتضرع (إلى الله فى أن يفضل عليه) أى على إبراهيم وابنه (بالقبول فقال) إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام (ربنا) أى يقولان وهذا الفعل فى محل النصب على الحال ، وقد أظهره عبد الله فى قراءته ومعناه يرفعانها قائلين ربنا كما ذكره النسفي (تقبل منا) تقربنا إليك ببناء هذا البيت (إنك أنت السميع) لدعائنا (العليم) بضمائرنا ونياتنا (ولما فرغ من دعائه) عليه السلام ، ومن جملة دعائه ما ذكر فى القرآن العزيز فى سورة إبراهيم (قال ربنا) أى يا ربنا (وتقبل دعاء) بالياء فى الوصل والوقف مكي وافقه أبو عمرو وحمزة فى الوصل الباقون بلا ياء : أى استجب دعائى أو عبادتى ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله (فلئن من) أى أنعم الله (عليك) يا نفس (بقبول هذه البضاعة) وهى الطاعة (المزجاة) أى الرديئة أو القليلة . والأصل فى البضاعة بالكسر قطعة من المال تعد للتجارة ، والمراد هنا ما ذكر (فلقد أكمل) سبحانه وتعالى (النعمة وأعظم المنة فيالها)

مِنْ سَعَادَةٍ وَدَوْلَةٍ وَعِزٍّ وَرِفْعَةٍ ، وَكَمْ تَزَيَّنَ إِذْ ذَاكَ لَكَ مِنْ خِلْعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَذُخْرٍ وَكَرَامَةٍ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَيَالَهُ مِنْ خُسْرَانٍ وَغَبْنٍ وَحِرْمَانٍ ، فَاهْتَمِّي وَاشْتَغِلِي بِهٰذَا الشَّأْنِ ، فَإِذَا وَاظَبْتَ عَلَى مِثْلِ ذٰلِكَ وَكَرَّرْتَهُ عَلَى قَلْبِكَ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْ طَاعَتِكَ ، وَاسْتَعَنْتَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ صَرَفَكَ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْخَلْقِ وَالنَّفْسِ وَشَغَلَكَ عَنْ مُرَآةٍ وَإِعْجَابٍ وَبَعَثَكَ عَلَى مَحْضِ الْإِخْلَاصِ لِلّٰهِ تَعَالَى فِى الطَّاعَاتِ وَالتَّمَسُّكِ بِذِكْرِ مِنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِى جَمِيعِ الْحَالَاتِ ، وَيَحْصُلُ لَكَ أَرْجَى طَاعَاتٍ طَاهِرَةٍ لَا عَيْبَ فِيهَا ، وَخَيْرَاتٍ خَالِصَةٍ لَا شَوْبَ فِيهَا ، وَعِبَادَاتٍ مَقْبُولَةٍ لَا نَقْصَ فِيهَا ، بَلْ مِثْلُ هٰذِهِ الطَّاعَةِ ، وَإِنْ حَصَلَتْ فِى الْعُمْرِ مَثَلاً مَرَّةً وَاحِدَةً لَا غَيْرُ، فَإِنَّهَا بِالْحَقِيقَةِ لَكَثِيرَةٌ وَلَعَمْرِى إِنَّهَا وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهَا لَقَدْ كَثُرَ مَعْنَاهَا وَعَظُمَ قَدْرُهَا ،

أى ما أعظمها (من سعادة) بيان للضمير ، واللام فى يا لها للتعجب مثلها فى قوله :

فيالك من خد أسيل ومنطق رخيم ومن وجـه تعلل عاذبه

(ودولة) أى غلبة (وعز ورفعة وكم تزين) أى زين الله تعالى (إذ ذاك) أى عند إكمال النعمة وإعظامها (لك من خلعة) بكسر الخاء المعجمة : أى عطية (ونعمة وذخر وكرامة وإن تكن) أى وجدت (الأخرى) أى الطريقة الأخرى ، وهى عدم امتنانه تعالى وإنعامه بقبول تلك البضاعة المزجاة (فياله) أى ما أعظمه (من خسران وغبن وحرمان) عن النعمة العظيمة (فاهتمى) يا نفس (واشتغلى بهذا الشأن) القويم والطريق المستقيم وهو ذكر منة ربك الكريم الرحيم فما أحسن إليك فى هذه الطاعة وغير ذلك (فإذا واظبت) أيها الرجل (على مثل ذلك) الشأن (وكررته) أى ذلك الشأن (على قلبك عند الفراغ من طاعتك واستعنت بالله عز وجل صرفك) الله (عن الالتفات إلى الخلق والنفس وشغلك عن مراءاة) للناس (وإعجاب) بعملك (وبعثك) أى حملك الله تعالى بسبب تلك المواظبة لما ذكر (على محض الإخلاص لله تعالى فى الطاعات و) على (التمسك بذكر الله تعالى فى جميع الحالات ، ويحصل لك أرجى طاعات طاهرة لا عيب فيها) أى فى تلك الطاعات (وخيرات خالصة لا شوب) أى لا خلط (فيها) أي فى تلك الخيرات (وعبادات مقبولة لا نقص فيها) أى فى هذه العبادات (بل مثل هذه الطاعة) الطاهرة المقبولة (وإن حصلت فى العمر مثلا مرة واحده لا غير) أى غير المرة الواحدة (فإنها) أى تلك الطاعة (بالحقيقة لكثيرة) فى الثواب والأجر (ولعمرى) أى لواهب عمرى (إنها) أى تلك الطاعة (وإن قل عددها لقد كثر معناها وعظم قدرها) أى

وَ كَثُرَ نَفعُهَا وَطَابَتْ عُقْبَاهَا ، وَإِنَّ التَّوْفِيقَ لِمِثْلِهَا لَعَزِيزٌ، وَالْفَضْلُ بِهِ لِلّٰهِ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ لَكَثِيرٌ ، فَأَيُّ هَدِيَّةٍ أَجَلُّ مِنْ هَدِيَّةٍ يَقْبَلُهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَأَيُّ سَعْيٍ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيٍ يَشْكُرُهُ مُجِيبُ الْمُضْطَرِّينَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَأَيُّ بِضَاعَةٍ أَعَزُّ مِنْ بِضَاعَةٍ اخْتَارَهَا وَرَضِيَهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؛ فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَغْبُونِينَ، وَإِذَا جَرَى الْأَمْرُ عَلَى هٰذِهِ الْجُمْلَةِ كُنْتَ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ الْخَائِفِينَ الذَّاكِرِينَ لِمِنَنِهِ الْمَرْضِيِّينَ ، وَكُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْمَخُوفَةَ وَرَاءَكَ وَسَلِمْتَ مِنْ آفَاتِهَا ، وَسَبَقْتَ بِخَيْرَاتِهَا وَثَمَرَاتِهَا فَائِزًا عَلَى الْأَبَدِ بِكَرَامَاتِهَا وَسَعَادَاتِهَا، وَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

﴿ العقبةُ السَّابعة : وهى عقبةُ الحمد والشكر ﴾

رتبتها (وكثر نفعها وطابت) أى حسنت (عقباها) أى عاقبتها (وإن التوفيق لمثلها لعزيز والفضل به) أى بالتوفيق لمثل الطاعة المذكورة (لله تعالى على العبد لكثير فأى هدية أجل) أى أعظم (من هدية يقبلها رب العالمين وأى سعى) أى عمل (أكرم من سعى يشكره مجيب المضطرين) سبحانه وتعالى (ويثنى عليه) أى على السعى (رب العالمين وأى بضاعة أعز من بضاعة اختارها ورضيها رب العالمين ، فتأمل أيها المسكين وإياك) أى احذر (أن تكون من المغبونين) والخاسرين (وإذا جرى الأمر على هذه الجملة) المذكورة (كنت من) العاملين (المخلصين لله سبحانه الخائفين) من عذابه (الذاكرين لمننه المرضيين وكنت قد خلفت هذه العقبة المخوفة) وهى عقبة القوادح (وراءك وسلمت من آفاتها) أى العقبة (وسبقت بخيراتها وثمراتها) حال كونك (فائزا على الأمل بكراماتها وسعاداتها) أى تلك العقبة (والله سبحانه ولى التوفيق والعصمة بمنه وكرمه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) والله أعلم .

﴿ العقبة السابعة ﴾ وهذه آخر العقبات (وهى عقبة الحمد والشكر) .

اعلم أن الفرق بين الحمد والشكر أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب، ومعنى هذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعا واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافا ، وبالجوارح طاعة وانقيادا ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية فلا يقال شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود بها كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان .

ثُمَّ عَلَيْكَ وَفَّقَكَ اللهُ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيقِهِ بَعْدَ قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ وَالظَّفْرِ بِالْمَقْصُودِ مِنْ هٰذِهِ الْعِبَادَةِ السَّالِمَةِ مِنَ الآفَاتِ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لِلهِ سُبْحَانَهُ عَلَى هٰذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْمِنَّةِ الْكَرِيمَةِ ،

واعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه العزيز وأمر به مع أنه تعالى عظم الذكر حيث قال « ولذكر الله أكبر » فقال تعالى « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » فصار الشكر أكبر لاقترانه به ورضى بالشكر مجازاة من عباده لفرط كرمه لأن قوله « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى » خرج فى لفظ المجازاة لتحقق الأمر وتعظيم الشكر ، لأن الفاء للشرط والجزاء والكاف المقدمة للتمثيل ، فقوله تعالى « فاذكرونى » متصل بقوله « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ، فاذكرونى ، واشكروا لى » والمعنى كمثل ما أرسلت فيكم رسولا منكم فاشكروا ، وهم يكتفون عن مثل بالكاف كما يكتفون عن سوف بالسين ، وهذا تفصيل للشكر عظيم لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى ، وقال تعالى « وسنجزى الشاكرين » وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » قيل هو طريق الشكر هذا أحد الوجوه فى الآية نقله صاحب القوت ؛ فلولا أن الشكر طريق قريب يوصل إلى الله تعالى لما عمل العدو فى قطعه ، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين فى الخلق . فقال « ولا تجد أكثرهم شاكرين » فلولا أن الشاكر حبيب رب العالمين ما قال ذلك ، وكذلك قال تعالى « وقليل من عبادى الشكور » كما قال تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين » وفى الآية تنبيه على أن توفية شكر الله صعب ، ولذلك لم يثن بالشكر من أوليائه ، إلا على اثنين . قال فى وصف إبراهيم عليه السلام « شاكرا لأنعمه » . وقال فى نوح عليه السلام « إنه كان عبدا شكورا » ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمادون ؟ قال الذين يشكرون الله على السراء والضراء » ولما نزل فى الكنوز ما نزل قال عمر رضى الله عنه: أى المال نتخذ ؟ فقال عليه السلام « ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال ، وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان ، والآيات والأخبار فى فضيلة الشكر كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب (ثم عليك وفقك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد قطع هذه العقبات و) بعد (الظفر بالمقصود من هذه العبادة السالمة من الآفات) المهلكات (بالحمد والشكر) متعلق بعليك (لله سبحانه على هذه النعمة العظيمة والمنة الكريمة) وهى العبادة السالمة من الآفات ، وهما أعنى الحمد والشكر عبادة الأولين والآخرين وعبادة الملائكة وعبادة الأنبياء عليهم السلام وعبادة أهل الأرض وعبادة أهل الجنة فأما عبادة الأنبياء عليهم السلام فهو أن آدم عليه السلام لما عطس قال الحمد لله وأن نوحا عليه الصلاة والسلام لما أغرق الله

وَإِنَّمَا يَلْزَمُكَ ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لِدَوَامِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَالثَّانِي : لِحُصُولِ الزِّيَادَةِ ، فَأَمَّا دَوَامُ النِّعْمَةِ فَلِأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعَمِ ، بِهِ تَدُومُ وَتَبْقَى ، وَبِتَرْكِهِ تَزُولُ وَتَحُولُ ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (فَكَفَرَتْ

قومه وأنجاه ومن معه من المؤمنين وأمره الله تعالى بأن يحمده ، فقال له «فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين » وقال إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام «الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسمعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء» وقال داود وسليمان عليهما السلام «الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين» وإن أهل الجنة يحمدون الله تعالى فى ستة مواضع : أحدها عند قوله تعالى « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » فاذا امتازوا يقولون : «الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين» والثانى حين جاوزوا الصراط قالوا «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » والثالث لما اغتسلوا بماء الحياة نظروا إلى الجنة ، فقالوا «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » والرابع حين دخلوها قالوا « الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض » والخامس حين استقروا في منازلهم قالوا «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله» الآية . والسادس حين فرغوا من الطعام قالوا «الحمد لله رب العالمين » وقال بعض الحكماء اشتغلت بشكر أربعة أشياء : أولها أن الله تعالى خلق ألف صنف من الخلق ورأيت بنى آدم أكرم الخلق فجعلنى من بنى آدم ؛ والثانى فضل الرجال على النساء فجعلنى من الرجال ، والثالث رأيت الإسلام أفضل الأديان وأحبها إلى الله تعالى فجعلنى مسلما ، والرابع رأيت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم فجعلنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .(وإنما يلزمك ذلك) أى الحمد والشكر (لأمرين :أحدهما لدوام النعمة العظيمة ، والثانى لحصول الزيادة ، فأما دوام النعمة فلأن الشكر قيد النعم ، به) أى بسبب الشكر (تدوم) تلك النعم (وتبقى وبتركه) أى الشكر (تزول) النعم وتحول . قال سبحانه « إن الله لا يغير ما بقوم » من العافية والنعمة التى أنعم بها عليهم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعنى من الحالة الجميلة بالحالة القبيحة فيعصون ربهم ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم ، وهو قوله تعالى « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال » . قال العلامة الزبيدي معنى الآية قيل لا يغير نعمه عليهم حتى يغيروها بتضييع الشكر فيعاقبهم بالتغير ، والوجه الآخر لا يغير ما بهم من عقوبة حتى يغيروا معاصيهم بالتوبة فذكر ذلك السبب الأول من حكمه ، ثم ذكر السبب الثانى من حكمته وهو مسبب الأسباب بمشيئته وحكمته (وقال عز من قائل) «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان (فكفرت) يعنى هذه القرية ، والمراد أهلها . قال الإمام فخر الدين الرازى بعد كلام : فهذه

بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ

القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئا مفروضا ، ويحتمل أن تكون قرية معينة وعلى التقدير الثانى فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها والأكثرون من المفسرين على أنها مكة ، والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة (بأنعم الله) جمع نعمة ، والمراد بها سائر النعم التى أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التي أنعم بها عليهم بالجحود والكفر لا جرم أن الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)وذلك أن الله تعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين قطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجيف ، والكلاب الميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حق يؤكل حتى كان أحدهم ينظر إلي السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وقالوا ماهذا ، هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فى حمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون والخوف يعنى خوف بعوث النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه التى كان يبعثها للاغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب ، فكان أهل مكة يخافونهم . فان قلت الإذاقة واللباس استعارتان ، فما وجه صحتهما والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟ وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس ، فيقال كساهم الله لباس الجوع ، أو يقال فأذاقهم الله طعم الجوع . قلت قال صاحب الكشاف : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقول ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب . شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع ، وأما اللباس فقد شبه به لإشتماله على اللابس ما غشى الانسان والتلبس به من بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشي منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف ، ثم ذكر بعده من علم المعانى والبيان ما يشهد لصحة ما قال . وقال الإمام فخر الدين الرازى : جوابه من وجوه : الأول أن الأحوال التى حصلت لهم عند الجوع نوعان . أحدهما أن المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع . والثانى أن ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس . والحاصل أنه حصل لهم فى ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال «فأذاقها الله لباس الجوع والخوف» . الوجه الثانى أن التقدير أن الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة ، وأصل الذوق بالضم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول : ناظر فلانا وذق ما عنده قال الشاعر :

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها   وسيق إلينا عذبها وعذابها

بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : (مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) وَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللّٰهُ عليه وسلم : « إِنَّ لِلنِّعَمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ ، فَقَيِّدُوهَا بِالشُّكْرِ » وَأَمَّا حُصُولُ الزِّيَادَةِ ، فَلَمَّا كَانَ الشُّكْرُ هُوَ قَيْدَ النِّعْمَةِ فَهُوَ يُثْمِرُ الزِّيَادَةَ وَقَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ —

ولباس الجوع والخوف ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغيير الحال وكسوف البال كما تقول تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان كذلك يجوز أن تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان . الوجه الثالث أن يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف (بما كانوا يصنعون) أى فعلنا بهم مافعلنا بسبب ما كانوا يصنعون (وقال سبحانه) وتعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) هذا استفهام تقرير معناه أنه تعالى لا يعذب الشاكر المؤمن فإن تعذيبه لا يزيد فى ملكه وتركه عقوبته لا ينقص من سلطانه لأنه الغنى الذى لا يحتاج إلى شىء من ذلك فإن عاقب أحدا فإنما يعاقبه لأمر أوجبه العدل والحكمة فان قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أنقذتم أنفسكم من عذابه . قال أهل المعانى فيه تقديم وتأخير تقديره إن آمنتم وشكرتم ، لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات ولأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان ، ولأن الواو لاتوجب الترتيب ، وقيل هو على أصله ، والمعنى أن العاقل ينظر بعين بصيرته أولا إلى ما عليه من النعمة العظيمة فى إيجاده وخلقه فيشكر على ذلك شكرا عظيما مبهما ثم إذا تم النظر ثانيا انتهى به النظر إلى معرفة النعم عليه فآمن به ثم شكره شكرا مفصلا فكان ذلك المبهم مقدما على الإيمان فلذلك قدم الشكر على الإيمان فى الذكر كذا ذكره العلامة الخازن (وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن للنعم أوابد كأوابد الوحش) جمع أبدة وهي التى توحشت ونفرت (فقيدوها) أى تلك النعم (بالشكر) لأن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ؛ ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . وفى الخبر: ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال كذا فى الاحياء (وأما حصول الزيادة) أى زيادة النعمة (فلما كان الشكر هو قيد النعمة فهو) أى ذلك الشكر (يثمر الزيادة . وقال الله سبحانه « لئن شكرتم ») يابنى إسرائيل ما أنعمت عليكم من الإنجاء وغيره من النعم بالإيمان والعمل الصالح (لأزيدنكم) يعنى نعمة إلى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم ، قيل شكر الموجود صيد المفقود ، وقيل « لئن شكرتم » بالطاعة « لأزيدنكم » فى الثواب ، وفى عيون المجالس للحدادى معنى الآية : لئن شكرتم نعمتى عليكم بالتوحيد والرزق وصحة الجسم لأزيدنكم سائر النعم « ولئن كفرتم » نعمائى « إن

— وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى — وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) فَالسَّيِّدُ الْحَكِيمُ إِذَا رَأَى الْعَبْدَ قَدْ قَامَ بِحَقِّ نِعْمَةٍ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِأُخْرَى وَيَرَاهُ أَهْلاً لَهَا ، وَإِلاَّ فَيَقْطَعُ ذَلِكَ عَنْهُ ، ثُمَّ النِّعَمُ قِسْمَانِ : دُنْيَوِيَّةٌ ، وَدِينِيَّةٌ ؛ فَالدُّنْيَوِيَّةُ ضَرْبَانِ : نِعْمَةُ نَفْعٍ ، وَنِعْمَةُ دَفْعٍ ، فَنِعْمَةُ النَّفْعِ أَنْ أَعْطَاكَ الْمَصَالِحَ وَالْمَنَافِعَ ، فَالْمَنَافِعُ ضَرْبَانِ : الْخِلْقَةُ السَّوِيَّةُ فِى سَلاَمَتِهَا وَعَافِيَتِهَا ، وَالْمَلاَذُّ الشَّهِيَّةُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَنْكَحِ وَغَيْرِهَا مِنْ فَوَائِدِهَا ،

عذابى لشديد » فى الآخرة ، أو لئن شكرتم نعيم الدنيا لأزيدنكم نعيم العقبى ، أو لئن شكرتم التصديق لأزيدنكم التوفيق ، أو لئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم المغفرة : أو لئن شكرتم البداية لأزيدنكم النهاية ، أو لئن شكرتم نعمة الطاعة إنها منتى لأزيدنكم من طاعتى وخدمتى ، كذا قاله العلامة بابصيل رحمه الله . وقال تعالى (والذين اهتدوا) بالإيمان (زادهم هدى) يعنى أنهم كلما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما جاء به عن الله عز وجل آمنوا بما سمعوا منه وصدقوه فيزيدهم ذلك هدى مع هدايتهم وإيمانا مع إيمانهم ، وقال عز من قائل (والذين جاهدوا فينا) فى حقنا ، فإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة بأنواعه (لنهدينهم سبلنا) سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا ، أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسالكها لقوله « والذين اهتدوا زادهم هدى » ، وفى الحديث « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » ، كذا ذكره القاضى ، وقيل لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة ، وهى التى توصل إلى رضى الله تعالى . قال سفيان بن عيينة : إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فإن الله تعالى يقول « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات ومخالفة الهوى ، وقال الفضيل بن عياض : والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به . وقال سهل بن عبدالله « والذين جاهدوا فينا » بإقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة . وقال ابن عباس : والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا (فالسيد الحكيم إذا رأى العبد قد قام بحق نعمة يمن) أى السيد الحكيم (عليه) أى على العبد (بأخرى) أى نعمة أخرى (ويراه) أى يرى السيد الحكيم ذلك العبد (أهلا لها) أى لتلك النعمة (وإلا) يقم العبد بحق تلك النعمة (فيقطع) السيد الحكيم (ذلك) أى ما أنعم السيد عليه (عنه) أى عن العبد الذى لا يقوم بحقه (ثم النعم قسمان دنيوية ودينية ، فالدنيوية ضربان) أى نوعان (نعمة نفع ونعمة دفع ، فنعمة النفع أن) أى بأن (أعطاك) الله (المصالح والمنافع ، فالمنافع ضربان) : الضرب الأول (الخلقة السوية) الكاملة (فى سلامتها) أى تلك الخلقة (وعافيتها ، و) الضرب الثانى (الملاذ الشهية من : المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من فوائدها) أى المذكورات من المطعم والمشرب والملبس والمنكح . قال حجة الإسلام وغيره : فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الآباء

هل هو من النعم أم لا ؟ . فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » ولذلك كان سلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام : الأرومة بالضم الأصل . وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، فقيل وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء » فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل ومن الناس من لا يعد شرف الأصل فضيلة ، وقال يعد المرء بنفسه لا بأبيه ، واستدل بقول على رضى الله عنه : الناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرئ ما يحسنه . وقول الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وقول الآخر :

بجد كل جد لا بمجد وهل جد بلا جد بمجد

وقول الحكيم : الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية وليس كما ظن لأن كرم الأعمام والأخوال مخيلة لكرم المرء ومظنة له ، والفرع وإن كان قد يفسد أحيانا فمعلوم أن أصله قد يورثه الفضيلة والرذيلة وأنه لا يكون من النخل الحنظل ولا من الحنظل النخل ، ولذلك قال الشاعر :

ومايك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل *
وهل ينبت الخطي إلا وشيجة وتغرس إلا فى منابتها النخل

وقيل : إن السرى إذا سرى فبنفسه وابن السرى إذا سرى إسراهما

وما ذكر من نحو قول على رضى الله عنه : الناس أبناء مايحسنون وقيمة كل امرئ مايحسنه لحث للناس على اقتباس العلم ونهي عن الاقتصار على مآثر الآباء ، فإن المآثر الموروثة قليلة الغناء مالم يضامها فضيلة النفس لأن ذلك إنما يحمد لكى يوجد الفرع مثله ، ومتى اختلف الفرع وتخلف فإنه يخبر بأحد شيئين : إما بتكذيب من يدعى الشرف لعنصره أو بتكذيبه فى انتسابه إلى ذلك العنصر وما فيهما حظ لمختار ، فالمحمود أن يكون الأصل فى الفضل راسخا والفرع به شامخا كما قال الشاعر :

زانوا قديمهم بحسن حديثهم وكريم أخلاق وحسن خصال

ومن لم يجتمع له الأمران فلأن يكون المرء شريف النفس دنىء الأصل أولى من أن يكون دنىء النفس شريف الأصل . قال الشاعر :

فما الشرف الموروث لا دردره بمحتسب إلا بآخر مكتسب
إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة من المثمرات اعتده الناس فى الحطب

وَنِعْمَةُ الدَّفْعِ : أَنْ صَرَفَ عَنْكَ الْمَفَاسِدَ وَالْمَضَارَّ ، وَهِيَ ضَرْبَانِ ، أَحَدُهَا : فِي النَّفْسِ بِأَنْ سَلَّمَكَ مِنْ زَمَانَتِهَا وَسَائِرِ آفَاتِهَا وَعِلَلِهَا . وَالثَّانِي : دَفْعُ مَا يَلْحَقُكَ بِهِ ضُرٌّ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَوَائِقِ أَوْ يَقْصِدُكَ بِهِ بَشَرٌ مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ وَسِبَاعٍ وَهَوَامَّ أَوْ نَحْوِهَا .

وَأَمَّا النِّعَمُ الدِّينِيَّةُ فَضَرْبَانِ : نِعْمَةُ التَّوْفِيقِ ، وَنِعْمَةُ الْعِصْمَةِ ؛ فَنِعْمَةُ التَّوْفِيقِ : أَنْ وَفَّقَكَ اللهُ أَوَّلاً لِلْإِسْلَامِ ، ثُمَّ لِلسُّنَّةِ ، ثُمَّ لِلطَّاعَةِ ، وَنِعْمَةُ الْعِصْمَةِ أَنْ عَصَمَكَ أَوَّلاً عَنِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ ، ثُمَّ عَنِ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ ، ثُمَّ عَنْ سَائِرِ الْمَعَاصِي ،

ومتى كان عنصره فى الحقيقة سنيا وهو فى نفسه دنيا ، فذلك آت إما من إهماله نفسه وشؤمها وإما لتعوده عادات قبيحة وصحبة أشرار وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة ، فليس سبب الرذيلة شيئا واحدا (ونعمة الدفع أن) أى بأن (صرف) الله تعالى (عنك المفاسد والمضار وهى) أى نعمة الدفع (ضربان : أحدهما فى النفس بأن سلمك) الله (من زمانتها) أي عاهتها قال العلامة عبد الحق : الزمانة العاهة وعدم بعض الأعضاء وتعطيل القوى ؛ والأطباء يخصونها بالشلل وهو يبس فى اليد (وسائر آفاتها وعللها) أى النفس (والثانى دفع ما يلحقك به ضرر من أنواع العوائق) والموانع (أو) دفع ما (يقصد بشر) من أنواع المهالك (من إنس أو جن أو سباع) جمع سبع ، وهو المفترس من الحيوان مطلقا والعامة تخصه بالأسد (أوهوام) جمع الهامة ماله سم يقتل كالحية مثل دابة ودواب ، قاله الأزهرى . وقد تطلق الهوام على ما يقتل كالحشرات ، ومنه حديث كعب بن عجرة وقد قال عليه الصلاة والسلام « أيؤذيك هوام رأسك » والمراد القمل على الاستعارة بجامع الأذى (أو نحوها) أى المذكورة من الإنس والجن والسباع والهوام (وأما النعم الدينية فضربان : نعمة التوفيق ونعمة العصمة . فنعمة التوفيق أن وفقك الله أولا للاسلام ثم للسنة) أى الطريقة النبوية (ثم للطاعة ، ونعمة العصمة أن عصمك) أى حفظك (أولا عن الكفر والشرك ، ثم عن البدعة والضلالة ، ثم عن سائر المعاصى) قال حجة الإسلام وغيره : فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية ؟ وهى الراجعة إلى أربعة أشياء الهداية والرشد والتأييد والتسديد ، فاعلم أن التوفيق لايستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وفعله وبين قضاء الله وقدره . ولكن هذا يشمل الخير والشر جميعا وما هو سعادة وما هو شقاوة فيقال اتفاق جيد واتفاق ردىء ، فالتوفيق وإن كان فى الأصل موضوعا على وجه يصلح استعماله فيهما جميعا ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة فقط من جملة قضاء الله وقدره كما أن الإلحاد فى الأصل عبارة عن الميل ومنه اللحد فى القبر ، فخصص بمن يميل إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد وأشباهها ، ولاخفاء بالحاجة إلى التوفيق كما قال الحكيم الذى

لا يستغنى الإنسان عنه في كل حال التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

وأما الهداية: فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها ويجب على كل إنسان أن يعلم ذلك لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة فى الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية فهى مبدأ الخيرات ومنتهاها كما قال تعالى «ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» وقال تعالى «ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء» وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله : أى بهدايته ، فقيل ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا » وللهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر المشار إليهما بقوله تعالى « وهديناه النجدين » هذا هو المشهور فى التفسير ، وقيل طريق الثواب والعقاب وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده المكلفين بعضه بالعقل والفطنة والمعارف الضرورية وبعضه على لسان الرسل ، ولذلك قال تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » فأسباب الهدى هى الكتب والرسل وبصائر العقول التى هى مبدأ الهداية وهى مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا ، والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، ومن جملة المعميات الإلف والعادة بالشيء وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» وكذا قوله صلى الله عليه وسلم «حبك للشيء يعمى ويصم » وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وقوله تعالى « أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر » فكل ذلك منشؤه التكبر على المؤمنين والتحاسد على ما أعطاهم الله تعالى فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء وأشدها حب الدنيا فانه رأس كل خطيئة . والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة التى هى الأولى وهى التى يمد الله بها العبد حالا بعد حال بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح وهى ثمرة المجاهدة . قال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا » وهو المراد بقوله تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » وقوله تعالى « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » ، والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم به وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات والذى شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى « قل إن هدى الله هو الهدى » وهو المسمى حياة فى قوله تعالى « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس » والمعنى بقوله تعالى « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه » .

وأما الرشد فنعنى به العناية الإلهية التى تعين الإنسان فى أموره عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره أى تكسله عما فيه فساده وأكثر ما يكون ذلك من الباطل

وَتَفْصِيلُ ذَٰلِكَ لاَ يُحْصِيهِ إلاَّ السَّيِّدُ الْعَالِمُ الَّذِى أَنْعَمَ عَلَيْكَ كما قالَ جَلَّ وَعَلاَ :

كما قال تعالى «ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين» ، فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها ، فالصبى إذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر فيه تبذيرا ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدا ، لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذى لا يدرى أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهى نعمة عظيمة من النعم التوفيقية .

وأما التسديد : فهو توجيه حركات العبد إلى صوب الغرض المطلوب وتيسيرها عليه بأن تقوم إرادته وحركته نحوه ليشتد فى صوب الصواب ويهجم عليه فى أسرع وقت يمكن الوصول اليه فيه وهو المراد بقوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » فى أحد الوجوه قال الهداية بمجردها لا تكفى بل لا بد من هداية محركة للداعية وهى الرشد ، والرشد لا يكفى بل لا بد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه ، فالهداية محض التعريف والدلالة بلطف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء فى صوب السداد والنصرة من الله تعالى معونة للأنبياء والأولياء وصالحى العباد بما يؤدى إلى صلاحهم عاجلا وآجلا ، وذلك تارة يكون من خارج بمن يقيضه الله تعالى فيعينه ، وتارة من داخل بأن يقوى قلوب الأولياء أو يلقى رعبا فى قلوب الأعداء ، وعلى ذلك قوله تعالى « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا » الآية وقوله تعالى « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » .

وأما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وهو المراد بقوله عز وجل « إذ أيدتك بروح القدس » وتقرب منه العصمة وهى عبارة عن جود إلهى يسنح فى الباطن : أى يعرض فيه يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه غير محسوس ، وإياه عنى بقوله تعالى « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » وقد روى أن يوسف عليه السلام رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو عاض على إبهاميه فأحجم ، وليس ذلك بمانع ينافى التكليف كما توهمه بعض المتكلمين فان ذلك كان تصورا منه وتذكرا لما كان قد حذره منه . وعلى هذا قال « لنصرف عنه السوء والفحشاء » الآية. ومن عصمته تعالى أن يكرر الوعيد على من يريد عصمته لئلا يغفل ساعة عن مراعاة نفسه ، كقوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » فهذه المذكورة هى مجامع النعم (وتفصيل ذلك) أى المذكور من النعم سواء كانت دنيوية أو دينية (لا يحصيه) أى التفصيل (إلا السيد العالم) جل جلاله (الذى أنعم عليك كما قال جل وعلا

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَتُحْصُوهَا) وَإِنَّ دَوَامَ هٰذِهِ النِّعَمِ كُلِّهَا بَعْدَ أَنْ مَنَّ عَلَيْكَ بِهَا ، وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْهَا مِمَّا لاَ يُحْصِيهِ وَلاَ يَبْلُغُهُ وَهْمُكَ ، وَكُلُّهَا تَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ ، وَإِنَّ خَصْلَةً تَكُونُ لَهَا هٰذِهِ الْقِيمَةُ ، وَتَكُونُ فِيهَا كُلُّ هٰذِهِ الْفَائِدَةِ ، لَحَقِيقٌ بِأَنْ يُتَمَسَّكَ بِهَا مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ بِحَالٍ فَإِنَّهُ جَوْهَرٌ ثَمِينٌ وَكِيمْيَاءُ عَزِيزَةٌ ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقُ

وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) قال النسفي: لاتطيقوا عدها وبلوغ آخرها. هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال ، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا الله ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » قال : إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان أن لينت أصلهـا وأن طمست رأسها ، وكذا ورد فى الأثر : إن من لم يعرف نعم الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه . نقله صاحب القوت وهو فى الحلية من قول أبى الدرداء كما ذكره الزبيدى . قال صاحب القوت : ويقال إن فى باطن الجسم من النعم سبعة أضعاف النعم التى فى ظاهره ، وأن فى القلب من النعم أضعاف ما فى الجسم كله من النعم ، وإن نعم الإيمان بالله والعلم واليقين أضعاف نعم الأجسام والقلوب ، فهذه كلها نعم مضاعفة على نعم مترادفة لا يحصيها إلا من أنعم بها ولا يعلمها إلا من خلقها « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » سوى نعم المطعم والمشرب والملبس والمنكح من دخول ذلك وخروجه وكثرة تكرره وتزايده بأن أدخل مهناه وأخرج أذاه وبقى فى الجسم قواه ، وبأن طيب مدخله ويسر مخرجه وبقى منفعته ، وما أحال من صورته وغير من صفته للتزهيد والذم والاعتبار والتذكرة وتلك أيضاً نعم .

(و) اعلم (أن دوام هذه النعم كلها بعد أن من) الله تعالى (عليك بها) أى النعم (و) أن (الزيادة عليها من كل باب منها) أى من تلك النعم (مما لا يحصيه ولا يبلغه وهمك وكلها) أى النعم (تتعلق بشىء واحد وهو الشكر والحمد لله . وأن خصلة) وهو الشكر والحمد (تكون لها) لتلك الخصلة (هذه القيمة وتكون فيها) أى فى الخصلة (كل هذه الفائدة لحقيق) وجدير (بأن يتمسك بها) أى بتلك الخصلة (من غير إغفال بحال) من الأحوال (فانه) أى ما ذكر من الخصلة (جوهر ثمين) أى رفيع الثمن (وكمياء) أى ذهب أو فضة (عزيزة) قال بعضهم : الكيمياء بكسر الكاف وسكون الياء وكسر الميم وبعدها ياء : هى الذهب أو الفضة الناشىء من وضع أجزاء معلومة عندهم على شىء من المعادن كنحاس أو رصاص أو قزدير لينقلب ذهبا أو فضة ، وشبهت تلك الخصلة بالكيمياء بجامع الرغبة فى كل وصح تشبيهها بالكيمياء وإن كانت أعظم من الكيمياء من حيث أن الكيمياء أمر محسوس فتكون الكيمياء أقوى بهذا الاعتبار (والله ولى التوفيق

بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حَقِيقَةُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَمَا مَعْنَاهُمَا وَحُكْمُهُمَا ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ فَرَّقُوا بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عِنْدَ التَّحْصِيلِ بِأَنَّ الْحَمْدَ مِنْ أَشْكَالِ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ ، فَيَكُونُ مِنَ الْمَسَاعِي الظَّاهِرَةِ ، وَالشُّكْرُ مِنْ أَشْكَالِ الصَّبْرِ وَالتَّفْوِيضِ ، فَيَكُونُ مِنَ الْمَسَاعِي الْبَاطِنَةِ ، لِأَنَّ الشُّكْرَ يُقَابِلُ الْكُفْرَ ، وَالْحَمْدَ يُقَابِلُ اللَّوْمَ ، وَلِأَنَّ الْحَمْدَ أَعَمُّ وَأَكْثَرُ وَالشُّكْرُ أَقَلُّ وَأَخَصُّ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) فَثَبَتَ أَنَّهُمَا مَعْنَيَانِ مُتَمَيِّزَانِ ، ثُمَّ الْحَمْدُ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى أَحَدٍ بِالْفِعْلِ الْحَسَنِ ، هٰذَا مُقْتَضَى كَلَامِ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللّٰهُ . وَأَمَّا الشُّكْرُ فَتَكَلَّمُوا فِى مَعْنَاهُ وَأَكْثَرُوا ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : الشُّكْرُ هُوَ الطَّاعَةُ بِجَمِيعِ الْجَوَارِحِ لِرَبِّ الْخَلَائِقِ فِى السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَإِلَى نَحْوِهِ ذَهَبَ بَعْضُ مَشَايِخِنَا فَقَالَ :

بفضله ورحمته . فان قيل فما حقيقة الحمد والشكر وما معناهما وحكمهما ؟ فاعلم أن العلماء) رضوان الله عليهم (فرقوا بين الحمد والشكر عند التحصيل) أى عند التفسير (بأن الحمد من أشكال) أي هيآت (التسبيح والتهليل فيكون) أى الحمد (من المساعى) أي الأعمال (الظاهرة ، والشكر من أشكال الصبر والتفويض فيكون) أى الشكر (من المساعى الباطنة لأن الشكر يقابل الكفر و) أن (الحمد يقابل اللوم ولأن الحمد أعم وأكثر) من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب (والشكر) أعم من جهة أنواعه وأسبابه و(أقل وأخص) من جهات متعلقاته فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل مايقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس فان الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان (قال الله تعالى : وقليل من عبادى الشكور) المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعى شكراً آخر لا إلى نهاية . ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر كذا ذكره القاضى (فثبت) بهذا (أنهما) أى الحمد والشكر (معنيان متميزان ثم الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن هذا) أي ما ذكر من أن الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن (مقتضى كلام شيخنا رحمه الله . وأما الشكر فتكلموا) أى العلماء رضوان الله عليهم (فى معناه) أى معنى الشكر (وأكثروا) الكلام على ذلك (فعن) عبد الله (بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق فى السر والعلانية) وقال الشبلى رحمه الله : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال بعضهم . الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه (وإلى نحوه) أى نحو قول ابن عباس رضي الله عنهما (ذهب بعض مشايخنا فقال :

الشُّكْرُ هُوَ أَدَاءُ الطَّاعَاتِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَنَّهُ اجْتِنَابُ المعاصي ظَاهِرًا وَ بَاطِنًا ، وَقَالَ غَيْرُهُ : الشُّكْرُ الاحْتِرَاسُ عَنِ اخْتِيَارِ مَعَاصِي اللهِ تَحْتَرِسُ عَلَى قَلْبِكَ وَلِسَانِكَ وَأَرْكَانِكَ حَتَّى لاَ تَعْصِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الثَّلاَثَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ وَبَيْنَ قَوْلِ الشَّيْخِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى جَعَلَ الاحْتِرَاسَ مَعْنًى مُثْبَتاً زَائِدًا عَلَى الاجْتِنَابِ عَنِ المَعَاصِي ، وَأَمَّا الاجْتِنَابُ عَنِ المَعْصِيَةِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ لاَ يَفْعَلَ المَعْصِيَةَ عِنْدَ دَوَاعِيهَا وَلاَ يَكُونُ فِي نَفْسِهِ مَعْنًى مُحَصَّلاً يَكُونُ الْعَبْدُ بِهِ مُشْتَغِلاً وَعَنِ الْكُفْرَانِ مُعْتَصِماً ، وَقَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : إِنَّ الشُّكْرَ تَعْظِيمُ الْمُنْعِمِ عَلَى مُقَابَلَةِ نِعْمَتِهِ عَلَى حَدٍّ يَمْنَعُهُ عَنْ جَفَاءِ الْمُنْعِمِ وَكُفْرَانِهِ ، وَلَوْ قُلْتَ : تَعْظِيمُ الْمُحْسِنِ عَلَى مُقَابَلَةِ إِحْسَانِهِ لَصَحَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللهِ الشُّكْرُ لِلْعَبْدِ فَحَسَنٌ ،

الشكر هو أداء الطاعات فى الظاهر والباطن . ثم رجع) أى بعض مشايخنا (إلى أنه) أى الشكر (اجتناب المعاصى ظاهرا وباطنا . وقال غيره) أى غير بعض مشايخنا (الشكر) هو (الاحتراس) أى الحفظ (عن اختيار معاصى الله ، تحترس على قلبك ولسانك وأركانك) أى جوارحك (حتى لا تعصى الله عز وجل بشىء من هذه الثلاثة) التى هى : القلب واللسان والأركان (بوجه من الوجوه . والفرق بين قوله) أي قول غيره (وبين قول الشيخ الأول) أى بعض مشايخنا (أنه) أى الشيخ الثانى وهو غير بعض مشايخنا (رحمه الله تعالى جعل الاحتراس معنى مثبتا زائدا على الاجتناب عن المعاصى ، وأما الاجتناب عن المعصية ما هو) أى ليس ذلك الاجتناب (إلا أن لا يفعل) العبد (المعصية عند دواعيها ولا يكون فى نفسه) أى العبد (معنى محصلا يكون العبد به) أى بذلك المعنى (مشتغلا ، وعن الكفران) أى الجحود للنعمة (معتصما . وقال شيخنا رحمه الله تعالى : إن الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته على حد يمنعه عن جفاء المنعم وكفرانه) أى المنعم (ولو قلت) الشكر هو (تعظيم المحسن على مقابلة إحسانه لصح أن يكون من الله الشكر للعبد فحسن) وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بذكر طاعته . قال الزبيدى : ومعنى شكره جل وعز هو أن يوفق عبيده لأن يشكروا وهو الذى ألهم على ألسنتهم وقلوبهم الثناء له ، فبهذا الاعتبار يسمى شاكرا .

ولنذكر فى هذا المقام بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى مختصرا من الاحياء وغيره فانه مهم .

اعلم أنه لعلك يخطر ببالك ويسبق إلى ذهنك أن الشكر إنما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ

في الشكر ينتفع به ، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم فى القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التى هى إعانة لهم على بعض أغراضهم أو غير ذلك ، وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين :

أحدهما : أنه منزه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والاعانة وغير ذلك فشكرنا إياه بما لا حظ له فيه يضاهى شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام فى بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لا حظ للملك فيه ولا حظ لله تعالى فى أعمالنا كلها لغناه عنها .

الوجه الثانى : أن كل ما نتعاطاه باختيارنا نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التى هى أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ، ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه وأعطانا مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا للأول منا بل كان الثانى يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول . ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين ، ولسنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فانه قد ثبت كل من تقديس الله تعالى عن الحظوظ والأغراض وتنزيهه عن الاحتياج إلى الإعانة وغيرها فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ، وفى لفظ آخر : وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك . فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى وفى لفظ آخر : إذا عرفت أن النعم منى فقد رضيت منك بذلك شكرا . فاذا قلت فقد فهمت سؤال موسى عليه السلام وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحي إليهم جوابا لسؤالهم فإنى أعلم استحالة الشكر لله تعالى ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا ، وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وهو غير ظاهر وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى . والفهم قاصر عن درك السر فيه لدقته وغموضه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه فاعلم أن هذا قرع باب من أبواب المعارف الذوقية وهى أعلى من علوم المعاملة لتعلقها بعالم الغيب ولا يليق كشف أسرارها ، ولكنا نشير إلى ملامح وإشارات . ونقول ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض ، وهذا النظر يعرفك قطعا أنه سبحانه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب كما يشير لذلك قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » . وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره وأن كل شىء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا لا أنه يصير هالكا فى وقت من الأوقات ، بل هو هالك أزلا وأبدا لا يتصور إلا كذلك لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير إن اعتبر فى ذاته من حيث ذاته فلا وجود له بل هو عدم محض ومحال أن يوجد . وإذا اعتبر من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول رؤى موجودا لا فى ذاته . لكن من الوجه الذى يلى موجوده فيكون

الموجود وجه الله فقط . ولكل شيء وجهان : وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ، فهو باعتبار وجه نفسه عدم وباعتبار وجه الله موجود فإذن لا موجود إلا الله ووجهه فإذا كل شيء هالك إلا وجهه وبيان ذلك أن الأشياء تنقسم إلى مالا يقوم بنفسه ويفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف فيقال فيهما إنها ليست قائمة بأنفسها وإلى ما لايحتاج إلى محل فيقال قائم بنفسه كالجوهر إلا أن الجوهر وإن استغنى عن محل يقوم به فليس مستغنيا عن أمور لابد منها لوجوده ويكون شرطا فى وجوده فلا يكون قائما بنفسه لأنه محتاج فى قوامه إلى وجود غيره وإن لم يحتج مع ذلك إلى محل، فان كان موجودا يكفى ذاته بذاته ولا قوام له بغيره ، ولايشترط فى وجوده وجود غيره فهو القائم بنفسه مطلقا فان مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور للأشياء وجود ولا دوام وجود إلا به فهو القيوم لأنه قوامه بذاته وقوام كل شيء به ولاقيوم إلا واحد ، ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس فى الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد الفرد الأحد جل شأنه . فان نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ، فانك إن نظرت إلى معنى الثناء فثناء كل شيء على فعل غيره والله تعالى إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه لأن أعمالهم من خلقه . قال الله تعالي « والله خلقكم وما تعملون » وإن كان الذى أعطى فأثنى شكورا فالذى أعطى وأثنى على المعطى أحق أن يكون شكورا ، ومن هاهنا نظر حبيب بن أبى حبيب البصرى حيث قرأ قوله تعالى « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » فقال واعجباه أعطى وأثنى ، وهو إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن هاهنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى رحمه الله حيث قرئ بين يديه قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم ودعهم يحبونه ، فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وفى تقديم يحبهم إشارة إلى أنه لولا سبق محبته لنا لما أحببناه ، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن الصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل ما فى الوجود سوي الله تعالى فهو تصنيف الله وصنعته بيد قدرته وبديع حكمته فإن أحبه فما أحب إلا نفسه بهذا الاعتبار فإذن لا يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب ، وهذا كله نظر بعين التوحيد المحض ، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى ، وذلك عند استيلاء أمر الحق سبحانه عليه فيغلب كون الحق على كونه فيسلب عنه اختياره وإرادته فلا يرى للغير وجود إلا بالحق فهذا أحد النظرين المذكورين .

النظر الثانى: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه . وهؤلاء قسمان : قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون المحجوبون بمحض الظلمة وعماهم فى كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا ، وهو القيوم المطلق الذى هو قائم بنفسه هو

وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فهو قائم به ، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا دوام لوجودهم بل ولاوجود لهموإنما وجودهم من حيث أوجدوا من الوجه الذى يلى الموجود لا من حيث وجدوا . وفرق بين الموجود بنفسه وبين الموجد بايجادغيره وليس فى الوجود إلاموجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان ، وإذا كان كل من عليها فان وزائل مضمحل أزلا وأبدا فلا يبقى إلاوجه ربك ذو الجلال والإكرام .

الفريق الثانى: ليس بهم عمى ولكن بهم عور لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فأثبت موجودا آخرمع الله تعالى وهذامشرك تحقيقالأنه أشرك مع الله موجودا آخر كما أن الذى قبله جاحد تحقيقا لأنه جحد ما هو الحق الثابت فان جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتا بين الموجودين فأثبت عبدا وربا وقسم الموجود إلى واجب وممكن فبهذا القدر من إثبات التفاوت بينهما والبعض من الموجود الآخر دخل فى أوائل التوحيد ثم إن كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلايزال يقضى به النقصان إلى المحو فينمحى عن رؤية ماسوى الله تعالى فلا يرى فى الوجود إلا الله تعالى فيكون بذلك قد بلغ كمال التوحيد ، وحيث أدرك نقصا فى وجود ما سوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فبهذا تتفاوت درجات الموحدين وتختلف مشاربهم وأذواقهم وكتب الله المنزلة على رسله هى الكحل الذى تحصل به أنوار الأبصار والأنبياء هم الكحالون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول «لا إله إلا الله» الدالة على التوحيد ومعناه فى الحقيقة أن لا يرى إلا الواحد الحق « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون ، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا بهذا الخيال القائم فى أذهانهم ، والمتوسطون هم الأكثرون، وفيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الأحوال والأحيان فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف يذهب سريعا ولا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام عزيز كما قيل :

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له « واسجد واقترب » قال فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فقوله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ، وهذا قسم من الفناء المطلق وهو أن يتجلى الحق لعبده بطريق الأفعال ويسلب عنه اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق ، ثم اقترب صلى الله عليه وسلم ففنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال : أعوذ برضاك من سخطك ، وهما : أى الرضا والسخط صفتان من

وَفِيهِ تَفَاصِيلُ قَدْ شَرَحْنَاهَا فِي كِتَابِ : [إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ] وَغَيْرِهِ ،

صفات الله تعالى ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب فرقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال : أعوذبك منك وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارّا منه إليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال : لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : أى إنى لا أطيق بمحامدك وصفات إلهيتك وإنما أنت المحيط بها وحدك فقوله صلى الله عليه وسلم : لا أحصى خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله : أنت كما أثنيت على نفسك بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شىء هالك إلا وجهه فكان أول مقامه صلى الله عليه وسلم نهاية مقام الموحدين وهو أن لا يرى فى الوجود إلا الله وأفعاله فيستعيذ بفعل من فعل فانظر إلى ما انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، وهذا المقام غاية ما ينتهى إليه من تم له مقام الفناء المطلق ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا من الله تعالى بالإضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصا فى سلوكه وتقصيرا فى مقامه وهو من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أولها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصا بالإضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك . ولما قالت عائشة رضى الله عنها للنبى صلى الله عليه وسلم « أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد ؟ فقال أفلا أكون عبدا شكورا » أفلا الفاء للسببية من محذوف : أى أأترك تلك الكلفة نظرا إلى تلك المغفرة فلا أكون عبدا شكورا ؟ لا ، بل ألزمها وإن غفر لى لأكون عبدا شكورا ، فالمعنى أن المغفرة سبب ذلك التكلف شكرا فكيف أتركه بل أفعله لأكون مبالغا فى الشكر بحسب الإمكان البشرى ، ومن ثم أتى بلفظ العبودية لأنها أخص أوصافه صلى الله عليه وسلم ، ولذا ذكرها تعالى فى أعلى المقامات وأفضل الأحوال إذ هى مقتضى النسبة المستلزمة للقيام بأعلى الخدمة وهو الشكر ، إذ العبد إذا لاحظ كونه عبدا وأن مالكه مع ذلك أنعم عليه بما لم يكن فى حسابه علم تأكد وجوب الشكر والمبالغة فيه عليه ، أو معناه أفلا أكون طالبا للمزيد فى المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال « لئن شكرتم لأزيدنكم » وقيل تقدير الكلام إذا أنعم على بالإنعام الواسع أفلا أكون عبدا شكورا : أى أيصير هذا الانعام سببا لخروجى عن دائرة المبالغين فى الشكر والاستفهام لإنكار سببية مثل هذا الإنعام لعدم كونه عبدا شكورا ولا يخفى تكلفه ، ويصح أن يكون التقدير غفر لى ما تقدم وما تأخر لعلمه بأنى أكون مبالغا فى عبادته فأكون عبدا شكورا فلا أكون كذلك وهذا قريب من الأول والله أعلم . ولنرجع إلى خدمة كلام المصنف قال رحمه الله تعالى (وفيه) أى فى الشكور (تفاصيل قدشرحناها فى كتاب) الصبر والشكر وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتب (إحياء علوم الدين وغيره) ولنذكر على طريق الاختصار ما ذكره المصنف فى الاحياء من جملة التفاصيل مع زيادة يسيرة من غيره . فنقول اعلم

أن الشكر ينتظم من حال وعلم وعمل . فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل . فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم · والحال الفرح الحاصل بانعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر . فان ما قيل فى حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال معانيه .

فالأصل الأول العلم: وهو علم بثلاثة أمور بعين النعمة ووجه كونها نعمة فى حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا فى حق غير الله تعالى فأما فى حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى فى معارف الايمان التقديس . وأعنى به تنزيه الرب عن الجسمية وتوابعها ، ثم إذا عرف العبد ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد وهي الرتبة الثانية ، ثم يعلم أن كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط وأنه هو الذى أفاض الوجود عليه فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة من رتب الايمان إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل .

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال فمن عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا فى يد الكاتب وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها فان الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل شاءت أم أبت فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الارادة وهيج عليه الدواعي والبواعث وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة فى أن يعطيك ما أعطاك وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى هو يرجوها فى نفسه . وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك وألقى فى قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا إلى الايصال إليك فان عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته : إلهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا فاذن لاتشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه تعالى فان خالجك ريب وشك فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأصل .

الأصل الثانى الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة التواضع والخشوع وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده : أي بمفرده كما أن المعرفة شكر بمفردها ، وإنما تكون

تلك الحالة شكرا إذا كان جامعا شروطه : أى الشكر وشروطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا ليتضح لك به فهم المقصود. فنقول: الملك الذى يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرسٍ على إنسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أنْ يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وأنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وأنه جواد نفيس للكر والفر وهذا فرح من لا حظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء مجانا فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح . الوجه الثانى أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراءأو أعطاه غير الملك لكان لايفرح بهأصلالاستغنائه عنالفرس أولاستحقاره له بالاضافة إلى مطلوبه من نيل المحل والمنزلة فى قلب الملك . الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه فيخرج فى خدمة الملك ويحتمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ويرتقى إلى درجة الوزارة وهى درجة تتلو درجة الملك من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشىء من ماله على أحد إلا بواسطته وعلى يده ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة نفس الوزارة أيضاً بل يريد مشاهدة الملك فى غالب أحواله والقرب منه فى سائر أحيانه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب منه لاختار القرب علىالوزارة فهذهثلاث درجات ، فالأولىلا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل وهـذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه ، وإنمـا الشكر التام فى الفرح الثالث وهو أن يكون فرحالعبد بنعمة الله تعالي من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام منغيرانقطاع ولاانصرام ، فهذا هو الرتبة العليا التي تنتهى الآمال والأمانى إليها وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بمـا هو مزرعة للآخرة ومعينة عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة وموافقة لطبعه كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج : أى سريع السير فى الركض ، بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه . ولذلك قال الشبلى رحمه الله : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة أى بأن يكون السابق منهما إلىالقلب رؤية المنعم . وهذا كما قال بعضهم : ما رأيت شيئا إلاورأيت الله قبله : أى الغالب على القلب رؤية الله ومراقبته فأى شىء حدث فيه لا يكون إلا مذكرا له رؤية الله فإنه ذاكر غير غافل عنه ، وهذه رتبة لايدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس الظاهرة من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب ، فان القلب لا يلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وهى اللذة المعنوية ، وإنمـا يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات .

وَلٰكِنِ التَّحْصِيلُ أَنَّ الشُّكْرَ مِنَ الْعَبْدِ تَعْظِيمٌ يَمْنَعُ مِنْ جَفَاءِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَذٰلِكَ بِتَذَكُّرِ إِحْسَانِهِ وَحُسْنِ حَالِ الشَّاكِرِ فِي شُكْرِهِ وَقُبْحِ حَالِ الْكَافِرِ فِي كُفْرَانِهِ .

قُلْتُ : إِنَّ أَقَلَّ مَا يَسْتَوْجِبُهُ الْمُنْعِمُ بِنِعْمَتِهِ أَنْ لَا يُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى مَعْصِيَةٍ ، وَمَا أَقْبَحَ حَالَ مَنْ جَعَلَ نِعْمَةَ الْمُنْعِمِ سِلَاحًا عَلَى عِصْيَانِهِ ، فَعَلَى الْعَبْدِ إِذَنْ مِنْ فَرْضِ الشُّكْرِ فِي حَقِيقَتِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ سُبْحَانَهُ مَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح . أما بالقلب فقصد الخير والصلاح وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه بأى صيغة كانت . وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته حتى إن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لإظهار الرضى عن الله تعالى وهو مأمور به . فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل « كيف أصبحت ؟ قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال الرجل فى المرة الثالثة بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذى أردت منك » يعنى إظهار الحمد والشكر والثناء . وكان السلف يتساءلون إذا التقوا عن أحوالهم ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا بشكره والمستنطق له به مطيعا باستخراجه إياه منه فيكون شركه فى ذلك لأنه سبب ذكره تعالى وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق . وكل عبد سئل عن حاله فهو بين أن يشكر الله أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به ضعف اليقين إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء . ولذا قال يعقوب عليه السلام « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » . وذل العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذل وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح انتهى ما اختصرناه من التفاصيل فاعلم ذلك فانه مهم (ولكن التحصيل أن الشكر من العبد) هو (تعظيم يمنع من جفاء من أحسن) أى المنعم (إليه وذلك) أى التعظيم المذكور (بتذكر إحسانه) أى المنعم (و) تذكر (حسن حال الشاكر فى شكره وقبح حال الكافر فى كفرانه) أى جحده لنعمة المنعم وإحسانه (قلت : إن أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته أن لا يتوصل بها) أى بتلك النعمة (إلى معصية وما أقبح) فعل تعجب (حال من جعل نعمة المنعم سلاحا على عصيانه) أى المنعم (فعلى العبد إذن) أى حين إذ كان أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته عدم التوصل بتلك النعمة إلى معصيته (من فرض الشكر فى حقيقته) أى الشكر (أن يكون له) أى للعبد (من تعظيم الله سبحانه ما يحول) أى ما يحجز ويمنع (بينه) أى بين العبد (وبين معاصيه) تعالى

عَلَى حَسَبِ تَذَكُّرِ نِعَمِهِ ، فَإِذَا أَتَى بِمَا هُوَ الْأَصْلُ فِيهِ ثُمَّ يُقَابِلُ ذَلِكَ بِجِدٍّ فِي الطَّاعَةِ وَجُهْدٍ فِي الْقِيَامِ بِالْخِدْمَةِ ، إِذْ هُوَ مِنْ حُقُوقِ النِّعْمَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الِاحْتِرَاسِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَوْضِعُ الشُّكْرِ فَاعْلَمْ أَنَّ مَوْضِعَهُ النِّعَمُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ عَلَى أَقْدَارِهَا . وَأَمَّا الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ فِى الدُّنْيَا فِى نَفْسٍ أَوْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ فَتَكَلَّمُوا فِى ذَلِكَ هَلْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ : لَا يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ وَإِنَّمَا يَجِبُ فِيهَا الصَّبْرُ . وَأَمَّا الشُّكْرُ فَهُوَ عَلَى النِّعْمَةِ لَا غَيْرُ ، قَالُوا وَلَا شِدَّةَ إِلَّا وَفِى جَنْبِهَا نِعَمُ اللهِ تَعَالَى ، فَلَزِمَ الشُّكْرُ عَلَى تِلْكَ النِّعَمِ الْمُقْتَرِنَةِ بِهَا دُونَ نَفْسِ الشِّدَّةِ

(على جسب تذكر نعمه) تعالى (فإذا أتى) العبد (بذلك) أى التعظيم الذى يحول بينه وبين المعاصى (فقد أتى) العبد (بما هو الأصل فيه) أى فى الشكر (ثم يقابل ذلك) أى التعظيم المذكور (بجد) بكسر الجيم : أى اجتهاد (فى الطاعة وجهد فى القيام بالخدمة إذ هو) أى الاجتهاد فى الطاعة والجهد فى الخدمة (من حقوق النعمة فلا بد من الاحتراس) أى الحفظ (عن المعصية وبالله التوفيق . فان قلت : فما موضع الشكر ؟ فاعلم أن موضعه النعم الدينية والدنيوية على أقدارها) وقد ذكر المصنف رحمه الله فى غير هـذا الكتاب أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه . أما فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول والقرب فى جوار الله تعالى . وأما فى الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما ، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذى يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه آخر ولذا عد من الخيرات المتوسطة (وأما الشدائد والمصائب فى الدنيا فى نفس أو أهل أو مال فتكلموا) أى العلماء (فى ذلك) أى فيما يصيب العبد من الشدائد والمصائب (هل يلزم العبد الشكر عليها) أى على تلك الشدائد والمصائب أم لا يلزمه ذلك (قال بعضهم لا يلزم العبد الشكر عليها من حيث هى وإنما يجب) على العبد (فيها الصبر . وأما الشكر فهو على النعمة لا غير) أى غير النعمة من البلايا (قالوا) أى العلماء (و) فى هـذا القول نظر وذلك لأنه (لا شدة) ولا مصيبة (إلا وفى جنبها) أى تلك الشدة والمصيبة (نعم الله تعالى فلزم) العبد (الشكر على تلك النعم المقترنة بها) أى بالشدة (دون) الشكر على (نفس الشدة) بل يلزم العبد الصبر على نفس تلك الشدة فلذلك يتصور أن تجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده وأنصاره ويؤخذ منه ذلك المال والصحة أيضا كذلك ، فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا

وَتِلْكَ النِّعَمُ مَا قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : مَا ٱبْتُلِيتُ بِبَلِيَّةٍ إِلَّا كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيَّ فِيهَا أَرْبَعُ نِعَمٍ : إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي ، وَإِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ مِنْهَا ، وَإِذْ لَمْ أُحْرَمِ الرِّضَا بِهَا ، وَإِذْ رَجَوْتُ الثَّوَابَ عَلَيْهَا ،

ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك ما من بلاء من البلايا التى تصيب العبد إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله ، فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى وتجاوز الحدود . قال الله تعالى «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء» وقال تعالى « إن الانسان ليطغي أن رآه استغنى » فجعل الطغيان ثمرة الاستغناء (وتلك النعم) المقترنة بالشدة (ما قاله) عبد الله (بن عمر رضى الله عنهما) وفى الإحياء قال عمر بن الخطاب ، ويحتمل أن ابنه روى عن أبيه (ما ابتليت ببلية إلا كان لله تعالى على فيها) أى فى تلك البلية (أربع نعم) أولها (إذ لم تكن) تلك البلية (فى دينى . و) الثانية (إذ لم تكن أعظم منها . و) الثالثة (إذ لم أحرم الرضى بها . و) الرابعة (إذ رجوت الثواب عليها) وقيل كان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له البعض أى كتب إليه : أشكر الله تعالى ، فضربه السلطان فكتب إليه يخبره فقال اشكر الله تعالى فجيء إليه فى الحبس بمجوسى فحبس عنده وكان المجوسى مبطونا وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى فأرسل الصديق إليه يخبره بخبره ، فقال اشكر الله تعالى فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم بسبب بطنه لبيت الخلاء مرات عديدة بالليل وهو أى هذا الصديق يحتاج أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ثم يرجعا مكانهما ، فكتب إليه بذلك فقال اشكر الله تعالى ، فقال إلى متى تقول هذا ؟ يعنى قولك اشكر الله وأى بلاء أعظم من هذا البلاء ؟ فقال : لو جعل الزنار وهو علامة الشرك الذى فى وسطه على وسطك كما وضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ماذا كنت تصنع ؟ نبهه بذلك على أنه ما من بلاء إلا وفوقه ما هو أعظم منه من بلايا الدين والدنيا وعلى أن كل ذلك بقضائه وقدره وقد سلمك الله من بلاء الشرك فاشكر الله تعالى على ذلك . أورده القشيرى فى الرسالة ونقله الزبيدى . وفى القوت وكذلك إذا رأيت مبتلى فى دينه بصفات المنافقين أو مبتلي فى نفسه بأخلاق المتكبرين أو منهمكا فما عليه من أفعال الفاسقين عددت جميع ذلك نعما عليك من الله تعالى إذ لم يجعلك كذلك لأنك قد كنت أنت ذاك لولا فضل الله عليك ورحمته ، فتحسب كل ما وجه إليك من الشر أو صرف عنك من الخير نعما عليك بمثل ما وجه به من الخير إليك وصرف من الشر عنك لأن النفوس كنفس واحدة فى الأمر بالسوء والمشيئة والقدرة واحدة فقد رحمك بما صرف من السوء عنك فذلك من نعم الله عليك ، ولذلك قال مصنفنا الغزالى وغيره : ما من إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا

وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً: مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ أَنَّ تِلْكَ الشِّدَّةَ زَائِلَةٌ غَيْرُ دَائِمَةٍ ، وَأَنَّهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى دُونَ غَيْرِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ بِسَبَبِ مَخْلُوقٍ فَإِنَّهَا لَكَ عَلَيْهِ لا لَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَنْ يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ

ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة مثلا فهو مستحق للشكر ، وكذا من استحق عليك أن يقطع يديك جميعا فترك احداهما فهو مستحق ولو ضربك مائة سوط كاملا أو قطع يديك جميعا ماذا كنت تصنع ، ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع فصب على رأسه طست من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر ولم يتغير حاله الذي كان عليه ، فقال له أصحابه الذين شاهدوا ذلك منه ما هذه السجدة فى هذه الحالة ؟ فقال كنت أنتظر أن تصب على النار فالاقتصار على الرماد نعمة . هذا نظر العارفين بالله حيث جعل صب الرماد عليه مصالحة عن النار التى كان يستحقها .

فان قلت : كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار ؟ فاعلم أن الكافر قد خبىء له من العذاب أكثر وإنما أمهل وترك حتى يستكثر من الاثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقال تعالى « وأملى لهم إن كيدى متين » وأما العاصى فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ورب خاطر يخطر بسوء أدب فى حق الله تعالى رفى صفاته ما هو أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ، ولذلك قال الله تعالى فى مثله « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا أحد الوجوه فى الشكر على المصيبة » وهو أنهما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة فيعظم عذابها ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها وأثرها ، ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي عنها بأسباب أخر إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين لانقطاع الأحساب والأنساب ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا إذ الجمع بين العقوبتين مما يخالف الكرم ، إذ قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث على رضى الله عنه كما ذكره العراقى (وقد قيل أيضاً) أى كما قاله ابن عمر رضى الله عنهما (من تلك النعم أن تلك الشدة زائلة غير دائمة وأنها) أى تلك الشدة (من الله تعالى دون غيره) وكانت مكتوبة عليك فى أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليك وقد وصلت ووقع الفراغ واسترحت من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة إن تأملت فيها (وإن كانت) تلك الشدة (بسبب مخلوق فانها) نافعة (لك) وضرر (عليه) أى على هذا المخلوق (لا) نافعة (له) أى لذلك المخلوق وضرر (عليك فاذن) أى إذ كان الأمر كما ذكر من أن تلك الشدة غير دائمة وأنها من الله تعالى وأنها نافعة لك (يلزم العبد الشكر

عَلَى النِّعَمِ الْمُقْتَرِنَةِ بِالشِّدَّةِ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ الْأَوْلَى عِنْدَ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : إِنَّ شَدَائِدَ الدُّنْيَا مِمَّا يَلْزَمُ الْعَبْدَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا ، لِأَنَّ تِلْكَ الشَّدَائِدَ نِعَمٌ بِالْحَقِيقَةِ بِدَلِيلِ أَنَّهَا تُعَرِّضُ الْعَبْدَ لِمَنَافِعَ عَظِيمَةٍ وَمَثُوبَاتٍ جَزِيلَةٍ وَأَعْوَاضٍ كَرِيمَةٍ فِي الْعَاقِبَةِ ، يَتَلَاشَى فِي جَنْبِهَا مَشَقَّةُ هٰذِهِ الشَّدَائِدِ ، وَأَيَّةُ نِعْمَةٍ تَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ هٰذِهِ ، وَمِثَالُ ذٰلِكَ مَنْ يَسْقِيكَ دَوَاءً كَرِيهاً مُرًّا لِدَاءٍ شَدِيدٍ ، أَوْ يَفْصِدُكَ أَوْ يَحْجُمُكَ لِعِلَّةٍ عَظِيمَةٍ مَخُوفَةِ الْخَطَرِ ، فَيُؤَدِّي ذٰلِكَ إِلَى صِحَّةِ النَّفْسِ وَسَلَامَةِ الْبَدَنِ وَصَفْوَةِ الْعَيْشِ ، فَيَكُونُ إِيلَامُهُ إِيَّاكَ بِمَرَارَةِ الدَّوَاءِ ، أَوْ جِرَاحَةِ الْفَصْدِ وَالْحِجَامَةِ نِعْمَةً بَالِغَةً بِالْحَقِيقَةِ وَمِنَّةً ظَاهِرَةً وَأَنْ كَانَ فِي صُورَتِهِ مَكْرُوهًا يَنْفِرُ عَنْهُ الطَّبْعُ ، وَتَسْتَوْحِشُ مِنْهُ النَّفْسُ ، وَأَنْتَ تَحْمَدُ الَّذِي تَوَلَّى مِنْكَ هٰذَا ، بَلْ تُحْسِنُ إِلَيْهِ بِمَا أَمْكَنَكَ ،

على النعم المقترنة بالشدة . وقال آخرون وهو) أى ما قاله هؤلاء الآخرون (الأولى) أى الأفضل (عند شيخنا رحمه الله تعالى أن شدائد الدنيا) ومصائبها (مما يلزم العبد الشكر عليها لأن تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل أنها) أى تلك الشدائد (تعرض العبد لمنافع عظيمة) لأن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام كلها نعم من الله تعالى : إما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين ، أو تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار ، أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين ، فتعجيل العقوبة فى الدنيا رحمة ونعمة ومعرفة هذه النعم طريق للشاكرين . كذا نقله الزبيدى عن صاحب القوت (ومثوبات جزيلة) أى عظيمة (وأعواض كريمة فى العاقبة يتلاشى) أى يهلك (فى جنبها) أى تلك المنافع (مشقة هذه الشدائد ، وأية نعمة تكون أكبر من هذه ؟) المنافع المذكورة (ومثال ذلك) أى المذكور من أن الشدائد والمصائب نعم بالحقيقة (من يسقيك دواء كريها مرا لداء شديد أو) من (يفصدك) بالفصد (أو يحجمك) بالحجامة (لعلة عظيمة مخوفة الخطر فيؤدى ذلك) أى سقى الدواء الكريه أو الفصد أو الحجامة (إلى صحة النفس وسلامة البدن وصفوة العيش فيكون إيلامه) أى من يسقيك ما ذكر أو يفصدك أو يحجمك (إياك بمرارة الدواء) الكريه (أو جراحة الفصد والحجامة نعمة بالغة)أى كاملة (بالحقيقة ومنة ظاهرة وأن) بالفتح أى أنه وضميره يرجع إلى الحال والشأن (كان)أى ما يؤدى إلى الصحة والسلامة والصفوة من الدواء المذكور وغيره (فى صورته) أى صورة ما يؤدى ذلك (مكروها ينفر) أى يعرض ويصد (عنه) أى عما يؤدى ذلك مما ذكر (الطبع وتستوحش منه النفس وأنت تحمد الذى تولى منك هذا) الدواء المذكور وغيره (بل تحسن إليه) أى إلى الذى تولى منك (بما أمكنك)

فَكَذٰلِكَ حُكْمُ هٰذِهِ الشَّدَائِدِ ، أَمَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كَيْفَ حَمَدَ اللهَ وَشَكَرَهُ عَلَى الشَّدَائِدِ كَشُكْرِهِ عَلَى المَسَارِّ حَيْثُ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى مَا سَاءَ وَسَرَّ » أَمَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) وَمَا سَمَّاهُ اللهُ خَيْرًا فَهُوَ أَكْثَرُ مِمَّا يَبْلُغُهُ وَهْمُكَ ، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هٰذَا الْقَوْلَ أَنَّ النِّعْمَةَ لَيْسَتْ خَيْرًا عَنِ اللَّذَّةِ وَمَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ بِمُقْتَضَى الطَّبْعِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَا يَزِيدُ فِي رِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ ، وَلِذٰلِكَ تُسَمَّى نِعْمَةً بِمَعْنَى الزِّيَادَةِ ، وَإِذَا كَانَتِ الشِّدَّةُ مِمَّا تَصِيرُ سَبَباً فِي زِيَادَةِ شَرَفِ الْعَبْدِ وَرِفْعَةِ دَرَجَتِهِ ، فَتَكُونُ نِعَماً بِالْحَقِيقَةِ وَإِنْ كَانَتْ تُعَدُّ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ بِظَاهِرِهَا ، فَاعْلَمْ بِذٰلِكَ مُوَفَّقاً .

فَإِنْ قُلْتَ : فَالشَّاكِرُ أَفْضَلُ أَمِ الصَّابِرُ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قِيلَ : إِنَّ الشَّاكِرَ أَفْضَلُ

من المال وغيره (فكذلك) أى مثل الدواء المذكور (حكم هذه الشدائد . أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كيف حمد الله وشكره على الشدائد كشكره) صلى الله عليه وسلم (على المسار) أى ما يسره ويفرح به (حيث قال : الحمد لله) أى كل الحمد له لا يستحقه غيره (على ما ساء) أى أحزن (و) ما (سر) أى أفرح (أما ترى كيف يقول) الله (جل جلاله « وعسى أن تكرهوا شيئا) وهو جميع ما كلفوا به فان الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم (ويجعل الله فيه) أى فى ذلك الشىء (خيرا كثيرا) لفظة عسى توهم الشك مثل لعل وهى من الله يقين ، وقيل إنها كلمة مطمعة فهى لاتدل على حصول الشك للقائل وتدل على حصول الشك للمستمع ، وقيل ربما كان الشىء شاقا فى الحال وهو سبب المنافع الجليلة فى المستقبل ومثله شرب الدواء المر فانه ينفر عنه الطبع فى الحال ويكرهه ، لكن يتحمل هذه الكراهة والمشقة لتوقع حصول الصحة فى المستقبل (وما سماه الله خيرا فهو أكثر مما يبلغه وهمك ومما يؤيد هذا القول) أى قول الآخرين (أن النعمة ليست خيرا) أى عبارة كما قاله العلامة عبد الحق (عن اللذة وما تشتهيه النفس بمقتضى الطبع وإنما هو) أى النعمة (ما يزيد فى رفعة الدرجات ولذلك) أى لأجل أن النعمة ما يزيد فى رفعة الدرجات (تسمى نعمة بمعنى الزيادة وإذا كانت الشدة) والمحنة والمصيبة (مما تصير سببا فى زيادة شرف العبد ورفعة درجته فتكون) أى الشدة (نعما بالحقيقة وإن كانت تعد) أى تلك الشدة (فى الشدائد والمحن) بكسر الميم جمع محنة المصائب (بظاهرها) أى ظاهر تلك الشدة (فاعلم ذلك) أن كون تلك الشدة نعما بالحقيقة (موفقا . فإن قلت : فالشاكر أفضل أم الصابر ؟ فاعلم أنه) اختلف العلماء فى ذلك فقد (قيل إن الشاكر أفضل) من الصابر

بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) فَجَعَلَهُمْ أَخَصَّ الْخَوَاصِّ. وَقَالَ فِي مَدْحِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) وَقَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) وَلِأَنَّهُ فِي مَنْزِلَةِ الْإِنْعَامِ وَالْعَافِيَةِ ، وَلِذَلِكَ

وقد ذهب إليه بعض العارفين ورجحوه بسبع ترجيحات : أحدها أن الله تعالى تسمى بهما جميعا فجاء فى الحديث الذى أخرجه الترمذى الصبور وجاء فى كتاب الله الشكور ، فكما قيل فى الصبور مضمن فى الشكور وزاد عليه بثنائه على نفسه وعلى عباده بكلامه القديم ولا يوجد مثل هذا فى اسمه الصبور . الثانى النظر فى سببهما وسبب الصبر معرفة الآلاء وسبب الشكر معرفة ذى النعماء وشتان بين المعرفتين . الثالث النظر فى حالهما فحال الصبر استدعاء المكابدة والمجاهدة للغلبة وحال الشكر استدعاء الفرح برؤية المنة والخادم الفرح أفضل من المتكلف عند المخدوم . الرابع النظر فى أعمالهما فعمل الصبر محنة وابتلاء وعمل الشكر نعمة مشكور عليها عند الشاكر ، وفرق بين من شهد التكاليف محنة وابتلاء فيصبر عليه ، وبين من يراها نعمة تشوقه إلى جوار الله تعالى فيشكر عليها . الخامس النظر في علاجهما وعلاج الصبر رؤية الجزاء للظفر وعلاج الشكر رؤية المريد لطاعة المجيد . السادس النظر فى استدامتهما فى السلوك فالشكر مستحب للسالك في كل مقام وحال من الأحوال والمقامات لانهاية لها ، فالشكر على ذلك لانهاية له والصبر ينقطع عنه أول مقام من مقامات الرضا بالاجماع من مشايخ السلوك . السابع النظر فى الاستدامة المطلقة إذ لو فرضنا أن الصبر دائم لكان إلى الموت والشكر فى الآخرة من المؤمن والكافر . قال الله تعالى « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » وقال تعالى « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » فهذا يعم المؤمن والكافر ، فهذه سبع ترجيحات كافية للمتأمل ، فهكذا ينبغى أن يكون الترجيح بين شيئين إذا رجح أحدهما عمل فى الارتقاء ، كذا قاله الكمال أبو بكر محمد بن إسحاق الصوفى فى كتابه مقاصد المنجيات ونقله الزبيدى . وبهذا الذى ذكره ظهرت فضيلة الشاكر على الصابر (بدليل قوله تعالى « وقليل من عبادى الشكور ») المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادا واعترافا وكدحا ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما من يشكر على أحواله كلها ، وقيل من يشكر على الشكر ، وقيل من يرى عجزه عن الشكر كذا ذكره النسفى (فجعلهم) أى الشكورين (أخص الخواص . وقال) سبحانه وتعالى (فى مدح نوح عليه السلام « إنه » أى نوحا (كان عبدا شكورا ») يحمد الله تعالى على مجامع حالاته وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره وحث للذرية على الاقتداء به (وقال) عز من قائل (فى) مدح (إبراهيم عليه) الصلاة و (السلام «شاكرا لأنعمه») تعالى ، يعني أنه عليه السلام كان شاكرا لله على أنعمه التى أنعم بها عليه . قال القاضى : ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة (ولأنه) أى الشاكر (فى منزلة الإنعام والعافية ولذلك

قِيلَ : لَأَنْ أُنعِمَ فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ ، وَقِيلَ : بَلِ الصَّابِرُ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مَشَقَّةً ، فَيَكُونُ أَعْظَمَ ثَوَابًا وَأَرْفَعَ مَنْزِلَةً ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ) . وَقَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

وَقَالَ تَعَالَى : (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

أى لأجل أن الشاكر فى منزلة الانعام والعافية (قيل لأن أنعم) بنعمة (فأشكر أحب إلي من أن ابتلي) ببلاء (فأصبر ، وقيل بل الصابر أفضل) من الشاكر وظاهر الكتاب والسنة يدلان عليه (لأنه) أى الصابر (أعظم مشقة فيكون أعظم ثوابا وأرفع منزلة) أى رتبة (قال الله تعالى « إنا وجدناه) أى علمناه : أى أيوب عليه السلام (صابرا) على البلاء نعم قد شكا إلى الله ما به واسترحمه . لكن الشكوى إلى الله لاتسمى جزعا ، فقد قال يعقوب عليه السلام « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » على أنه عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان (نعم العبد ») أيوب « إنه أواب » وهذا مدح لأيوب عليه السلام بصبره على البلاء ، وذلك يقتضى تفضيل الصبر على الشكر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله ، فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل ، أما من الكتاب فكقوله تعالى « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » فالشاكر يؤتى أجره مرة فأشبه مقام الصبر مقام الخوف وأشبه مقام الشكر مقام الرجاء ، وقد قال تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وقد اتفقوا على تفضيل الخوف على الرجاء من حيث اتفق أهل المعرفة على فضل العلم على العمل ، فالصبر من مقامه الخوف وقرب حال الصابر فى الفضل من مقامه ، والشكر حال من مقامات الرجاء كذلك يقرب حال الشاكر من مقامه ، ومن السنة كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أوتى خصلة منها لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار » فقرب الصبر باليقين الذى لاشىء أعز منه ولا أجل وارتفاع الأعمال وعلو العلوم به . وفى الخبر : « يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » كذا أورده صاحب القوت .

(و) قد يفضل الصبر على الشكر بوجه آخر : وهو أن الصبر حال البلاء والشكر حال النعمة والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق (قال تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ») والشاكر يؤتى أجره بحساب لأنه إنما هو تحقيق الوصف ونفى ما عداه (وقال تعالى « والله يحب الصابرين ») .

والمعنى كما فى الخازن أن من صبر على تحمل الشدائد فى طلب الآخرة ولم يظهر الجزع والعجز فان الله تعالى يحبه ؛ ومحبة الله للعبد عبارة عن إرادة إكرامه وإعزازه وإيصال الثواب له وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه ، وقد رفع على بن أبى طالب رضى الله عنه الصبر على أرفع مقامات اليقين فقال فى حديثه الطويل الذى وصف فيه شعب الايمان : والصبر على أربع دعائم : على الشوق والاشفاق والزهد والترقب ؛ فمن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصائب ، ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات ، فجعل هذه المقامات أركان الصبر لأنها توجد عنه ، ويحتاج إليه فى جميعها وجعل الزهد أحد أركانه .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، فهو دليل على أن الفضيلة فى الصبر ؛ إذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة فى الشكر ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل » وكقوله صلى الله عليه وسلم « شارب الخمر كعابد الوثن » ودائما المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة من المشبه وإلا لما حسن وجه التشبيه ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام « الصوم نصف الصبر » فان كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وإن كان بينهما تفاوت فى الدرجات كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الإيمان فلايدل ذلك على أن العلم يساوى العمل ، وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم : « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه ، وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه » وفى خبر آخر « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا » وفى الخبر : « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فانه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام » وكل ما ورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى ، فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم ، إذ ليس صرف عن ظواهر الكتاب والسنة . وقال آخرون هما : أى الصبر والشكر سيان فى الدرجة والمقام لا فضيلة لأحدهما على الآخر . إذ كل منهما مقام وليس يمكن الترجيح بين مقامين لأن فى كل مقام طبقات متفاوتة وهذا مذهب القدماء من العلماء ، إذ سئل بعضهم عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر وأنعم على الآخر فشكر ، فقال كلاهما سواء لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر بثناء واحد فقال فى وصف أيوب عليه السلام « نعم العبد إنه أواب » وقال فى وصف سليمان عليه السلام « نعم العبد إنه أواب » وهذا المذهب مرجوح لأن هذا غفلة عن لطائف الأفهام وذهاب عن حقيقة تدبر الكلام ، إذ بين ثناء الله تعالى على أيوب عليه السلام فى الفضل على ثنائه على سليمان عليه السلام ثلاثة عشر معنى وشرك سليمان عليه السلام بعد ذلك فى وصفين آخرين ، وأفرد أيوب عليه السلام بفضل ثناء ثلاثة عشر : أول ذلك قوله تعالى فى مدحه « واذكر » فهذه كلمة مباهاة باهى

بأيوب عليه السلام وعند رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم وشرفه وفضله بقوله تعالى « واذكر » يا محمد فأمره بذكره والاقتداء به كقوله تعالى « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » قيل هم أهل الشدائد والبلاء منهم أيوب عليه السلام قرضوا بالمقاريض ونشروا بالمناشر وكانوا سبعين نبيا ، وقيل هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهؤلاء آباء الأنبياء وأفاضلهم كقوله تعالى « واذكر فى الكتاب إبراهيم » وكقوله « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار » يعنى أصحاب القوة والتمكين وأهل البصائر واليقين ، ثم رفع أيوب إلى مقامهم فضمه إليهم وجعله سلوة له صلى الله عليه وسلم ثم ذكره إياه وذكر به ثم قال « عبدنا » فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب ولم يدخل بينه وبينه لام تعريف فيقول عبدا لنا فألحقه بنظرائه من أهل البلاء فى قوله « واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب » وهم أهل البلاء الذين باهى بهم الأنبياء وجعل من ذرياتهم الأصفياء فأضاف أيوب إليهم فى حسن الثناء ، وفى لفظ التذكرة به فى الثناء ، ثم قال « نادى ربه » فأفرد بنفسه لنفسه ، وانفرد له فى الخطاب بوصفه وقال « مسنى الضر وأنت أرحم الرحمين » فوصفه بمواجهة التملق له ولطيف المناجاة فظهر له بوصف الرحمة فاستراح إليه فناداه فشكا إليه واستغاث به فأشبه مقامه مقام موسى ويونس عليهما السلام فى قولهما « تبت إليك » وفي قول الآخر « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وهذا خطاب المشاهدة ونظر المواجهة ، ثم وصفه بالإستجابة له وأهله بكشف الضر عنه وجعل كلامه سببا لتنفيذ قدرته ومكانا لمجارى حكمته ومفتاحا لفتح إجابته ، ثم قال بعدذلك كله « ووهبنا له أهله » فزاد على سليمان عليه السلام فى الوصف إذ كان بين من وهب لأهله وبين من وهب له أهله فضل فى المدح ، لأنه قال فيوصف سليمان « ووهبنا لداود سليمان » فأشبه فضل أيوب فى ذلك على سليمان كفضل موسى على هارون عليهم السلام لأنه قال فى فضل موسى عليه السلام وتفضيله على هارون عليه السلام « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا » وكذلك قال فى مدح داود « ووهبنا لداود سليمان » فوهب لموسى أخاه كما وهب لدواد ابنه ، وأشبه مقام أيوب فى المباهاة والتذكرة به مقام داود عليه السلام ، لأنه قال أيضا فى وصفه لنبيه صلي الله عليه وسلم « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود » وكذلك قال فى نعت أيوب « واذكر عبدنا أيوب » فقد شبه أيوب بداود وموسى عليهما السلام فى المعنى ورفعه إليهما فى المقام وهما فى نفوسنا أفضل من سليمان عليه السلام فأشبه أن يكون حال أيوب أعلى من حال سليمان عليهما السلام وعلم الله المقدم ولكن هذا ألقى فى قلوبنا والله أعلم ، ثم قال بعد ذلك « رحمة منا » فذكر نفسه ووصفه عند عبده تشريفا له وتعظيما ، ثم قال « وذكرى لأولى الألباب » فجعله إماما للعقلاء وقدوة لأهل الصبر والبلاء وتذكرة وسلوة من الكروب للأصفياء ، ثم قال عز وجل « إنا وجدناه صابرا » فذكر نفسه سبحانه ذكرا ثانيا لعبده ووصل اسمه باسمه حبا له وقربا منه لأن النون والألف فى وجدناه اسمه تعالى ، والهاء اسم عبده أيوب ، ثم قال : صابرا فوصفه بالصبر فأظهره مكانه فى القوة ثم قال في آخر أوصافه « نعم العبد إنه أواب » فهذا أول وصف سليمان وآخره هاهنا شركه

قُلْتُ أَنَا : الشَّاكِرُ بِالْحَقِيقَةِ لاَ يَكُونُ إِلاَّ صَابِرًا ، وَالصَّابِرُ بِالْحَقِيقَةِ لاَ يَكُونُ إِلاَّ شَاكِرًا ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ فِي دَارِ الْمِحْنَةِ لاَ يَخْلُو مِنْ مِحْنَةٍ يَصْبِرُ عَلَيْهَا لاَ مَحَالَةَ وَلاَ يَجْزَعُ فَإِنَّ الشُّكْرَ تَعْظِيمُ الْمُنْعِمِ عَلَى حَدٍّ يَمْنَعُ مِنْ عِصْيَانِهِ ، وَالْجَزَعُ عِصْيَانٌ ، وَالصَّابِرُ لاَ يَخْلُو مِنْ نِعْمَةٍ ، كَمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الشَّدَائِدَ نِعَمٌ بِالْحَقِيقَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ فَإِنَّهُ شُكْرٌ بِالْحَقِيقَةِ إِذَا صَبَرَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُ حَبَسَ نَفْسَهُ عَنِ الْجَزَعِ تَعْظِيماً لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهٰذَا هُوَ الشُّكْرُ بِعَيْنِهِ إِذْ هُوَ تَعْظِيمٌ يَمْنَعُ عَنِ الْعِصْيَانِ ، وَلِأَنَّ الشَّاكِرَ يَمْنَعُ نَفْسَهُ عَنِ الْكُفْرِ إِنْ صَبَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَحَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الشُّكْرِ وَصَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ ، فَصَارَ صَابِرًا بِالْحَقِيقَةِ ، وَالصَّابِرُ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى حَتَّى مَنَعَهُ تَعْظِيمُهُ عَنِ الْجَزَعِ فِيمَا أَصَابَهُ وَحَمَلَهُ عَلَى الصَّبْرِ ، فَقَدْ شَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى فَصَارَ شَاكِرًا بِالْحَقِيقَةِ ، وَلِأَنَّ حَبْسَ النَّفْسِ عَنِ الْكُفْرَانِ مَعَ قَصْدِ النَّفْسِ لَهُ

فى الثناء ، وزاد أيوب بما تقدم من المدح والوصف الذى لا يقوم له شيء ، وذلك من قوله تعالى « واذكر عبدنا أيوب » إلى قوله « أواب » وجعل فى أول وصف سليمان بأنه وهبه لأبيه دواد فصار حسنة من حسنات داود ، واشتمل قوله : « نعم العبد إنه أواب » على أول وصفه وأوسطه وهو آخر وصف أيوب عليهم السلام أجمعين كذا حققه العلامة الزبيدى .

(قلت أنا : الشاكر بالحقيقة لايكون إلاصابرا والصابربالحقيقة لايكون إلاشاكرا) ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى فيشكر ، ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله فيصبر ، وهما معرفتان متلازمان متساويتان كما أشار إلى ذلك بقوله (لأن الشاكرفى دار المحنة لايخلو من محنة يصبر) أى الشاكر (عليها) أى تلك المحنة (لا محالة ولا يجزع) أى ذلك الشاكر (فإن الشكر تعظيم المنعم على حد يمنع من عصيانه ؛ والجزع عصيان والصابر لا يخلو من نعمة كما ذكرنا) وهو (أن الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المتقدم) وهو أنها تعرض العبد لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة وأعواض كريمة فى العاقبة يتلاشى فى جنبها مشقة هذه الشدائد (فانه شكر بالحقيقة إذا صبر عليها) أى الشدائد (لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيما لله تعالى وهذا) أى حبس النفس عن الجزع تعظيما لله تعالى (هو الشكر بعينه إذ هو) أى الشكر (تعظيم يمنع عن العصيان ، ولأن الشاكر يمنع نفسه عن الكفران) والجحود للنعمة (فصبر عن المعصية وحمل نفسه على الشكر وصبر على الطاعة فصار) الشاكر (صابرا بالحقيقة والصابر عظم الله تعالى حتى منعه تعظيمه عن الجزع فيما أصابه) من البلاء (وحمله) تعظيمه (على الصبر فقد شكر الله تعالى فصار) الصابر (شاكرا بالحقيقة ، ولأن حبس النفس عن الكفران مع قصد النفس له)

شِدَّةٌ يَصْبِرُ عَلَيْهَا الشَّاكِرُ ، وَتَوْفِيقُ الصَّابِرِ وَالْعِصْمَةُ نِعْمَةٌ يَشْكُرُ عَلَيْهَا الصَّابِرُ ، فَأَحَدُهُمَا لَا يَنفَكُّ عَنِ الآخَرِ ، وَلِأَنَّ الْبَصِيرَةَ الْبَاعِثَةَ عَلَيْهِمَا وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ بَصِيرَةُ الِاسْتِقَامَةِ فِي قَوْلِ بَعْضِ عُلَمَائِنَا ، فَمِنْ هٰذِهِ الْوُجُوهِ قُلْنَا إِنَّ أَحَدَهُمَا لَا يَنفَكُّ عَنِ الآخَرِ

أى لذلك الكفران (شدة يصبر عليها) أى الشدة (الشاكر وتوفيق الصابر والعصمة نعمة يشكر عليها) أى على تلك النعمة (الصابر فأحدهما) أى الصبر والشكر (لا ينفعك عن الآخر ولأن البصيرة الباعثة) أى الحاملة (عليهما) أى الصبر والشكر (واحدة وهى) أى الباعثة الواحدة (بصيرة الاستقامة فى قول بعض علمائنا) رحمهم الله (فمن هذه الوجوه) التى ذكرناها (قلنا إن أحدهما) أى الصبر والشكر (لا ينفك عن الآخر) بل هما متلازمان . قال صاحب القوت : فأما تفصيل التفضيل فعلى ثلاثة أوجه : أحدها أن المقامات أعلى من الأحوال وقد يكون الصبر والشكر حالين وقد يكونان مقامين فمن كان مقامه الصبر وكان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام؛ ومن كان مقامه الشكر وكان حاله الصبر عليه فحاله مزيد لمقامه فقد صار مزيدا للشاكر فى مقامه والوجه من التفضيل القربون أعلى مقاما من أصحاب اليمين فالصابرون من القربين أفضل من الشاكرين من أصحاب اليمين ، والشاكرون القربون أفضل من الصابرين من أصحاب اليمين .

فان قيل : فان كان الشاكر والصابر من القربين فأيهما أفضل عندك ؟ فقد قلنا إن اثنين لا يتفقان فى مقام من كل وجه لانفراد الوجه بمعاني لطائف اللطيفة بمثل ما انفردت الوجوه بلطيفة الصفة مع تشابه الصفات واشتباه الأدوات وأفضلهما حينئذ أعرفهما لأنه أحبهما إليه تعالى وأقربهما منه وأحسنهما يقينا لأن اليقين أعز ما أنزل الله عز وجل ، ثم قال : وجه آخر من بيان التفضيل .

نقول : إن الصبر عما يوجب الشكر أفضل وإن الشكر على ما يوجب الصبر أفضل ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ، تفسيره أن الصبر عن حظ النفس وعن التنعم والترفه أفضل إن كان عبدا حاله النعمة فالصبر عن النعيم والغنى مقام فى المعرفة ، وهو أفضل لأن فيه الزهد المجمع على تفضيله ونقول إن الشكر على الفقر والبلاء والمصائب أفضل إن كان عبدا حاله الجهد والبلاء فالشكر عليه مقام له فى المعرفة فهو حينئذ أفضل ، لأن فيه الرضى المتفق على فضله ، وقال فى موضع آخر من كتابه : ومن الناس من يقول إن الصبر أفضل من الشكر وليس يمكن بينهما تفضيل عند أهل التحصيل من قبل أن الشكر مقام لجملة من الموقنين ، والترجيح بين جماعة على جماعة لا يصح من قبل تفاوتهم فى اليقين والمشاهدات لأن بعض الصابرين أفضل من بعض الشاكرين بفضل معرفته وحسن صبره ، وخصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين لحسن يقينه وعلو شهادته ، ولكن تفصيل ذلك من طريق الأحوال والمقامات ، أنا نقول ، والله أعلم : إن الصبر عن النعيم أفضل لأن فيه الزهد والخوف وهما أعلى المقامات وإن الشكر على المكاره أفضل لأن فيه البلاء والرضى وإن الصبر على الشدائد والضراء أفضل من الشكر على النعم والسراء من قبل أنه أشق على النفس وأن الصبر مع حال الغنى والمقدرة أن يعصى بذلك أفضل من الشكر على النعم من

فَاعْرَفْ هٰذِهِ الْجُمْلَةَ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ فصل ﴾ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِي قَطْعِ هٰذِهِ الْعَقَبَةِ الْيَسِيرَةِ الْمُؤْنَةِ الْكَبِيرَةِ الْجَدْوَى الْعَزِيزَةِ الْعُنْصُرِ الْعَظِيمَةِ الْقَدْرِ ، وَتَأَمَّلْ أَصْلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنَّ النِّعْمَةَ إِنَّمَا تُعْطَى مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَهَا ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا الشَّاكِرُ .

وَدَلِيلُ مَا قُلْنَاهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْكُفَّارِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ (أَهٰؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟

قبل أن الصبر عن المعاصى بالنعم أفضل من الطاعة لمن جاهد نفسه فيها فإذا شكر على ما يصبر عليه فقد صار البلاء عنده نعمة وهذا أفضل لأنها مشاهدة المقربين ، وإذا صبر عما يشكر عليه من النعم كان أفضل لأنها حال الزاهدين ، وفى الخبر « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل » يعنى الأقرب شبها بنا فالأقرب فرفع أهل البلاء إليه ووصف نفسه به وجعلهم الأمثل فالأمثل منه فمن كان به صلى الله عليه وسلم أمثل كان هو الأفضل فقد كان صلى الله عليه وسلم شاكرا على شدة بلائه وكذلك الشاكر من الصابرين يكون أفضل لشكره على البلاء إذ هو الأمثل والأقرب إلى وصف الأنبياء وكل مقام من مقامات اليقين يحتاج إلى صبر وإلى شكر وأحدهما لا يتم إلا بالآخر لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمل والشكر يحتاج إلى صبر عليه ليستوجب المزيد ، وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما فقال « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » كذا نقله الزبيدى (فاعرف هذه الجملة) المذكورة راشدا إن شاء الله تعالى (وبالله التوفيق) .

فصـــل

(فعليك أيها الرجل) السالك طريق الآخرة (ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة) التى هى عقبة الحمد والشكر (اليسيرة) أى القليلة (المؤنة الكبيرة الجدوى) أى المنفعة (العزيزة العنصر) أى الأصل ووزنه فنعل بضم الفاء والعين ، وقد تفتح العين للتخفيف والجمع العناصر كما فى المصباح (العظيمة القدر) أى الرتبة .

(وتأمل) أيها الرجل (أصلين : أحدهما أن النعمة إنما تعطى من يعرف قدرها ، وإنما يعرف قدرها) أى تلك النعمة (الشاكر ، ودليل ما قلناه) من الأصل الأول (قوله سبحانه) وتعالى (فى الحكاية عن الكفار والرد عليهم « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) أى أهؤلاء الفقراء والضعفاء بالإسلام ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء وهذا اعتراض من الكفار على

أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ظَنَّ أُولٰئِكَ الْجُهَّالُ أَنَّ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْمِنَّةَ الْكَرِيمَةَ ، إِنَّمَا تُعْطَى مَنْ يَكُونُ أَكْثَرَهُمْ مَالاً وَأَشْرَفَهُمْ حَسَباً وَنَسَباً، فَقَالُوا مَا بَالُ هٰؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ بِزَعْمِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْأَحْرَارِ ، أُعْطُوا هٰذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِزَعْمِكُمْ دُونَنَا فَقَالُوا عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِكْبَارِ وَمَجْرَى الِاسْتِهْزَاءِ : (أَهٰؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟) فَأَجَابَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهٰذِهِ النُّكْتَةِ الزَّاهِرَةِ فَقَالَ : (أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّ السَّيِّدَ الْكَرِيمَ إِنَّمَا يُعْطِي نِعْمَتَهُ مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَهَا ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ وَقَلْبِهِ فَاخْتَارَهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَلَا يَعْبَأُ بِمَا تَحَمَّلَ مِنْ أَعْبَاءِ الْمَؤُنَةِ فِي تَحْصِيلِهَا ، ثُمَّ لَا يَزَالُ قَائِماً بِالْبَابِ يُؤَدِّي شُكْرَهَا ، وَكَانَ فِي عِلْمِنَا السَّابِقِ أَنَّ هٰؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ يَعْرِفُونَ قَدْرَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ وَيَقُومُونَ بِشُكْرِهَا فَكَانُوا أَوْلَى بِهٰذِهِ النِّعْمَةِ مِنْكُمْ ، فَلَا اعْتِبَارَ بِغِنَاكُمْ وَثَرْوَتِكُمْ ، وَلَا جَاهِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَحَشَمِكُمْ

الله تعالى فأجابهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) يعني أنه تعالى أعلم بخلقه وبأحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين : أي بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه ، وبمن لا يقع منه فيخذله (ظن أولئك الجهال) الكفار (أن النعمة العظيمة والمنة الكريمة إنما تعطى) بالبناء للمفعول (من يكون أكثرهم مالا وأشرفهم حسبا) أي شرفا (ونسبا ، فقالوا) أي أولئك الجهال الكفار (ما بال هؤلاء الفقراء بزعمهم من العبيد والأحرار أعطوا) أي هؤلاء الفقراء (هذه النعمة العظيمة بزعمكم دوننا فقالوا) أي أولئك الجهال (على طريق الاستكبار ومجرى الاستهزاء : أهؤلاء) الفقراء (من الله عليهم من بيننا ؟ فأجابهم) أي أولئك الجهال (الله تعالى بهذه النكتة الزاهرة) أي المضيئة (فقال) تعالى (أليس الله بأعلم بالشاكرين ، تقدير الكلام) وتفسير (أن السيد الكريم) جل وعز (إنما يعطي نعمته من يعرف قدرها) أي النعمة (وإنما يعرف قدرها من أقبل عليها) أي على تلك النعمة (بنفسه وقلبه فاختارها على غيرها ولا يعبأ) أي لا يبالي (بما تحمل من أعباء) أي أثقال (المؤنة في تحصيلها) أي تلك النعمة (ثم لا يزال) أي المقبل عليها (قائما بالباب يؤدي شكرها ، وكان في علمنا السابق) في الأزل (أن هؤلاء الضعفاء) من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم (يعرفون قدر هذه النعمة ويقومون بشكرها فكانوا) أي هؤلاء الضعفاء (أولى) أي أحق (بهذه النعمة منكم فلا اعتبار) ولا اعتداد (بغناكم وثروتكم) أي كثرة مالكم (ولا جاهكم في الدنيا وحشمكم) في محيط

وَلاَ نَسَبِكُمْ فِي الْأَنْسَابِ، وَلاَ حَسَبِكُمْ ، وَإِنَّمَا تَحْسِبُونَ النِّعْمَةَ كُلَّهَا الدُّنْيَا وَحُطَامُهَا وَالْحَسَبَ وَالنَّسَبَ وَعُلُوَّهُ ، لاَ الدِّينَ ، وَالْعِلْمَ وَالْحَقَّ وَمَعْرِفَتَهُ ، وَإِنَّمَا تُعَظِّمُونَ ذٰلِكَ وَتَتَفَاخَرُونَ بِهِ ، أَمَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ لاَ تَكَادُونَ تَقْبَلُونَ هٰذَا الدِّينَ وَالْعِلْمَ وَالْحَقَّ إِلَّا بِمِنَّةٍ عَلَى مَنْ أَتَاكُمْ بِهِ ، وَذٰلِكَ لِاسْتِحْقَارِكُمْ ذٰلِكَ وَقِلَّةِ مُبَالاَتِكُمْ بِهِ ، وَإِنَّ هٰؤُلاَءِ الضُّعَفَاءَ يَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَيَبْذُلُونَ فِيهِ مُهْجَتَهُمْ وَلاَ يُبَالُونَ بِمَا فَاتَهُمْ وَبِمَنْ عَادَاهُمْ مَعَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا قَدْرَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ وَرَسَخَ فِي قُلُوبِهِمْ تَعْظِيمُهَا ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ فَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهَا ، وَطَابَ لَهُمُ احْتِمَالُ كُلِّ شِدَّةٍ فِيهَا ، فَيَسْتَغْرِقُونَ جَمِيعَ الْعُمُرِ فِي شُكْرِهَا ، فَلِذٰلِكَ اسْتَأْهَلُوا هٰذِهِ الْمِنَّةَ الْكَرِيمَةَ وَالنِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ فِي سَابِقِ عِلْمِنَا وَخَصَّصْنَاهُمْ بِهَا ،

المحيط حشم الرجل خاصته الذين يغضبون له أو يغضب هو لهم من أهل وعبيد أو جيرة انتهى . وأيضا فيه الحشم أيضا العيال والقرابة للواحد والجمع (ولا نسبكم فى الأنساب ولا حسبكم وإنما تحسبون النعمة كلها الدنيا وحطامها) أى متاعها ومنفعتها (والحسب والنسب وعلوه) أى النسب (لا الدين والعلم والحق ومعرفته) أى لا تحسبون ذلك نعمة (وإنما تعظمون ذلك) المذكور من الدنيا وما بعدها (وتتفاخرون به) أى بذلك المذكور (أما ترون أنكم لا تكادون) أى تقربون (تقبلون هذا الدين والعلم والحق إلا بمنة على من أتاكم به) أى بما ذكر من الدين والعلم والحق (وذلك) أى عدم إقبالكم ما ذكر من الدين وما بعده (لاستحقاركم ذلك) أى ما ذكر من الدين وما بعده (وقلة مبالاتكم) أى اكتراثكم (به) أى بذلك المذكور . قال العلامة عبد الحق : بالاه وبالى به مبالاة وبلاء وبالا على غير قياس وأصلها بالية وباليا : اهتم به واكترث له (وأن هؤلاء الضعفاء يقتلون أنفسهم على ذلك) أى لأجل الدين والحق (ويبذلون فيه) أى فى ذلك الدين وغيره (مهجتهم) أى روحهم (ولا يبالون) أى هؤلاء الضعفاء (بما فاتهم) من الدنيا وغيرها (و) لا يبالون (بمن عاداهم مع ذلك) الدين وغيره (لتعلموا) أيها الجهال (أنهم) أى هؤلاء الضعفاء (هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة ورسخ) أى ثبت (فى قلوبهم تعظيمها) أى النعمة (وهان) أى سهل (عليهم فوت كل شىء دونها) أى غير تلك النعمة (وطاب لهم) أى لهؤلاء الضعفاء (احتمال كل شدة فيها) أى فى تلك النعمة (فيستغرقون جميع العمر فى شكرها فلذلك) أى لأجل استغراقهم عمرهم في شكر النعمة (استأهلوا) أى صاروا أهلا (هذه المنة الكريمة والنعمة العظيمة فى سابق علمنا وخصصناهم بها) أى بهذه المنة الكريمة

دُونَكُمْ ، فَهٰذِهِ هٰذِهِ .

ثُمَّ أَقُولُ : وَكَذٰلِكَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ خَصَّهُمُ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِنِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ ٱلدِّينِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ بِالْحَقِيقَةِ أَعْرَفَ النَّاسِ بِقَدْرِهَا وَأَشَدَّهُمْ تَعْظِيماً لَهَا ، وَأَجَدَّهُمْ فِى تَحْصِيلِهَا ، وَأَعْظَمَهُمْ فِى إِكْرَامِهَا ، وَأَقْوَمَهُمْ بِشُكْرِهَا ، وَالَّذِينَ حَرَمَهُمُ ٱللّٰهُ ذٰلِكَ ، فَلِقِلَّةِ ٱحْتِفَالِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ لِحَقِّهَا بَعْدَ الْقَدَرِ السَّابِقِ ، فَلَوْ كَانَ تَعْظِيمُ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ فِى قُلُوبِ الْعَامَّةِ وَالسُّوقَةِ مِثْلَ مَافِى قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ ، لَمَا آثَرُوا سُوقَهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَهَانَ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ فَقِيهاً إِذَا ظَفِرَ بِتَعْلِيمِ مَسْئَلَةٍ كَانَتْ مُلْتَبِسَةً عَلَيْهِ ، ثُمَّ ظَفِرَ بِهَا ، كَيْفَ يَرْتَاحُ قَلْبُهُ وَيَعْظُمُ سُرُورُهُ ، وَيَجِلُّ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا لَوْ وَجَدَ أَلْفَ دِينَارٍ مَا كَانَ يَعْدِلُ ذٰلِكَ ، وَرُبَّمَا يَهُمُّهُ أَمْرُ مَسْئَلَةٍ فِى بَابِ الدِّينِ فَيَتَفَكَّرُ فِيهَا ،

(دونكم فهذه) الجملة التى ذكرناها (هـذه) أى عظيمة كاملة (ثم أقول وكذلك) أى مثل حال الضعفاء (كل فريق من الناس خصهم الله تعالى بنعمة من نعم الدين من علم أو عمل فإنك تجدهم بالحقيقة أعرف الناس بقدرها) أي النعمة (وأشدهم تعظيما لها وأجدهم) أى أشد اجتهادهم (فى تحصيلها وأعظمهم فى إكرامها وأقومهم) أى أكثر قيامهم (بشكرها ، والذين حرمهم) أى منعهم (الله ذلك) أى ما ذكر من نعم الدين (فلقلة احتفالهم) أى مبالاتهم (وتعظيمهم لحقها بعد القدر السابق) فى علم الله (فلو كان تعظيم العلم والعبادة فى قلوب العامة) أى الجهلة (والسوقة مثل مافى قلوب العلماء والمتعبدين) من تعظيم العلم والعبادة (لما آثروا) أى اختار هؤلاء العامة والسوقة (سوقهم عليه) أى على ذلك التعظيم (وهان) أى سهل كما مر (عليهم تركه) أى السوق (ألا ترى أن فقيها إذا ظفر بتعليم مسئلة كانت) تلك المسئلة (ملتبسة) أى مشكلة (عليه) أى على الفقيه (ثم ظفر) أى الفقيه (بها) أى بالمسئلة الملتبسة (كيف يرتاح) أى يفرح (قلبه) أى الفقيه (ويعظم سروره ويجل) أى يعظم (موقعها) أى تلك المسئلة (من قلبه حتى إنه) أى الفقيه (ربما لو وجد ألف دينار ماكان) أى ليس ذلك الألف (يعدل) أى يساوى (ذلك) أى ظفر تلك المسئلة ونيلها ، ولهذا كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالى وانحلت له المشكلات يقول أين أبناء الملوك من هذه اللذات : يعنى أن أبناء الملوك بمعزل بعيد من اللذات لأنها لذات علمية لا يعرفها الجاهلون ولو كانوا أبناء الملوك لأن لذة العلم تفوق سائر لذات الدنيا (وربما يهمه) أى الفقيه (أمر مسئلة) واحدة (فى باب الدين فيتفكر فيها)

سَنَةً بَلْ عَشْرًا بَلْ عِشْرِينَ وَأَكْثَرَ لاَ يَسْتَكْثِرُ ذٰلِكَ وَلاَ يَمَلُّ ، حَتَّى رُبَّمَا رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى فَهْمَ ذٰلِكَ ، فَيَعُدُّهُ أَعْظَمَ مِنَّةٍ وَأَكْبَرَ نِعْمَةٍ ، وَيَرَى نَفْسَهُ بِذٰلِكَ أَغْنَى كُلِّ غَنِيٍّ وَأَشْرَفَ كُلِّ شَرِيفٍ ، بَلْ رُبَّمَا يَتَبَيَّنُ مِثْلَ هٰذِهِ الْمَسْئَلَةِ لِسُوقِيٍّ أَوْ لِمُتَعَلِّمٍ كَسْلاَنَ يَرَى مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مِثْلُهُ فِى الرَّغْبَةِ فِى الْعِلْمِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ فَلاَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ حَقَّهُ ، وَرُبَّمَا إِنْ طَالَ عَلَيْهِ الْكَلاَمُ يَمَلُّ أَوْ يَنَامُ ، وَإِنْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ لَهُ فَلاَ يَعُدُّهُ كَبِيرَ أَمْرٍ ، وَكَذٰلِكَ الْمُنِيبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى كَمْ يَجْتَهِدُ وَيَدْأَبُ بِالرِّيَاضَةِ وَصِيَانَةِ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَإِلْجَامِ الْأَرْكَانِ فِى الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، عَسَى أَنْ يُتَمِّمَ اللهُ لَهُ رَكْعَتَيْنِ فِى آدَابٍ وَطَهَارَةٍ ، وَكَمْ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَسَى أَنْ يَرْزُقَهُ سَاعَةَ مُنَاجَاةٍ بِصَفْوَةٍ وَحَلاَوَةٍ ، فَلَئِنْ ظَفِرَ فِى شَهْرٍ مَرَّةً ،

أى فى المسئلة الواحدة (سنة بل عشرا بل عشرين) سنة (وأكثر لا يستكثر) الفقيه (ذلك) أى التفكر فى الزمان الطويل (ولا يمل) أى لا يسأم من الملالة (حتى ربما رزقه الله تعالى فهم ذلك) أى الذى يتفكر فيه من المسئلة (فيعده) أى يعد الفقيه فهم ذلك (أعظم منة وأكبر نعمة ويرى نفسه بذلك) أى فهم المسئلة (أغنى كل غنى وأشرف كل شريف بل ربما يتبين مثل هذه المسئلة) الملتبسة (لسوقي أو لمتعلم كسلان يرى) أى يظن السوقى أو المتعلم المذكور (من نفسه أنه) أى السوقى أو غيره (مثله) أى الفقيه (فى الرغبه فى العلم والمحبة له) أى لذلك العلم (فلا يستمع) السوقى أو المتعلم المذكور (إليه) أى إلى مثل هذه المسئلة (حقه) أى حق الاستماع (وربما إن طال عليه) أى على كل منهما (الكلام) فى هذه المسئلة (يمل) ويسأم (أو ينام وإن تبين ذلك) أى مثل هذه المسئلة (له) أى لكل منهما (فلا يعده) أى لا يعد كل منهما تبين تلك المسئلة وظهورها (كبير أمر) وأعظم نعمة (وكذلك) أى كالفقيه (المنيب إلى الله تعالى كم يجتهد ويدأب) أى يتعب ، فى المختار دأب فى عمله : جد وتعب ، وبابه قطع وخضع فهو دائب بالألف لا غير (بالرياضة) أى تبديل الصفات المذمومة بالصفات المحمودة (وصيانة النفس عن الشهوات) أى المشتهيات (و) عن (اللذات وإلجام الأركان) أى الأعضاء (فى الحركات والسكنات عسى أن يتمم الله له) أى لذلك المنيب (ركعتين فى آداب وطهارة وكم يتضرع) المنيب (إلى الله تعالى عسى أن يرزقه ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة فلئن ظفر) المنيب (بذلك) إى ما ذكر من الركعتين بالآداب والطهارة وساعة المناجاة بالصفوة والحلاوة (فى شهر مرة

بَلْ فى سَنَةٍ مَرَّةً ، بَلْ فى عُمْرِهِ كُلِّهِ مَرَّةً ، عَدَّ ذٰلِكَ أَكْبَرَ مِنَّةٍ وَأَعْظَمَ نِعْمَةٍ ، وَكَمْ يُسَرُّ ، وَكَمْ يَشْكُرُ اللهَ تَعالى وَلاَ يَكْتَرِثُ بِمَا قاساهُ مِنَ الْمَشَقّاتِ وَكابَدَ مِنَ اللَّيالِى وَهَجَرَ مِنَ اللَّذّاتِ فِيهَا ، ثُمَّ تَرَى الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ رَاغِبٌ فى الْعِبَادَاتِ يُحِبُّ أَنْ يُحَصِّلَ مِنْهَا شَيْئاً ، لَوِ احْتاجَ أَحَدُهُمْ تَحْصِيلَ مِثْلِ هٰذِهِ الْعِبادَةِ الصَّافِيَةِ إِلى نُقْصَانِ لُقْمَةٍ مِنْ عَشَائِهِمْ أَوْ تَرْكِ كَلِمَةٍ لاَ تَعْنِيهِمْ ، أَوْ نَوْمِ سَاعَةٍ مِنْ أَعْيُنِهِمْ فَلاَ تَسْمَحُ أَنْفُسُهُمْ بِذٰلِكَ ، وَلاَ تَطِيبُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنِ اتَّفَقَ لَهُمْ فى النَّادِرِ حُصُولُ عِبادَةٍ فى صَفْوَةٍ فَلاَ يَعُدُّونَهُ خَطِيرَ أَمْرٍ وَلاَ يُقَدِّمُونَ فِيهِ كَثِيرَ شُكْرٍ ؛ وَإِنَّمَا يَعْظُمُ سُرُورُهُمْ وَيَكْثُرُ بِالظَّاهِرِ حَمْدُهُمْ إِذَا حَصَلَ لَهُمْ دِرْهَمٌ ، أَوِ اسْتَقَامَتْ لَهُمْ كِسْرَةٌ وَطَابَتْ لَهُمْ مَرَقَةٌ ، أَوْ طَالَتْ لَهُمْ فى سَلاَمَةِ الْبَدَنِ رَقْدَةٌ فَيَقُولُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ : الْحَمْدُ لِلهِ هٰذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ ،

بل فى سنة مرة بل فى عمره كله مرة عد ذلك) أى الظفر بما ذكر (أكبر منة وأعظم نعمة وكم يسر) أى يفرح الذى يظفر بما ذكر (وكم يشكر الله تعالى ولا يكترث) أى لا يبالى (بما قاساه من المشقات وكابد) أى تعب (من الليالى وهجر) أى ترك (من اللذات فيها) أى فى الليالى (ثم ترى الذى يزعم أنه راغب فى العبادات يحب أن يحصل) بضم الياء وفتح الحاء المهملة وكسر الصاد المشددة من التحصيل (منها) أى العبادات (شيئا لو احتاج أحدهم) أى الذين يزعمون ذلك (تحصيل مثل هذه العبادة الصافية) من المكدرات (إلى نقصان لقمة من عشائهم) بفتح العين ، وهو الطعام الذى يؤكل فى العشية (أو) إلى (ترك كلمة لا تعنيهم) أى لا تهمهم ولا تنفعهم (أو) إلى (دفع نوم ساعة عن أعينهم فلا تسمح أنفسهم بذلك) أى نقصان اللقمة من العشاء أو ترك الكلمة التى لا تنفع أو دفع النوم فى وقت من الأوقات (ولا تطيب قلوبهم وإن اتفق لهم فى النادر حصول عبادة فى صفوة فلا يعدونه) أى حصول تلك العبادة (خطير) أى عظيم (أمر ولا يقدمون فيه) أى فى حصول ذلك (كثير شكر وإنما يعظم سرورهم ويكثر بالظاهر حمدهم إذا حصل لهم درهم أو استقامت لهم كسرة) أى قطعة من الشىء المكسور ومنه الكسرة من الخبز (أو طابت لهم مرقة) فى محيط المحيط : المرق من الطعام السائل الرخو منه ، والمرقة من الطعام المرق ، وهى أخص منه (أو طالت لهم فى سلامة البدن) وصحته (رقدة) أى نومة (فيقولون عند ذلك) أى عند حصول ما ذكر من الدرهم أو استقامة الكسرة أو طيب المرقة أو طول الرقدة (الحمد لله) الشكر لله (هذا) أى حصول ما ذكر (من فضل الله) ورحمته ، وذلك لأنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها إذ من لم يعرفها كيف

يقوم بشكرها فالشكر فرع المعرفة فاذا جهل النعمة لم يعرفها وإذا لم يعرفها لم يشكر عليها وإذا لم يشكر انقطع مزيده ومن انقطع عنه المزيد فهو فى نقصان ما ادعى ، وأيضا فان لم يشكر النعم لجهله بها كفرها فإن كفرها أدركه العذاب الشديد إن لم تداركه نعمة من ربه ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها مجرد أن يقول بلسانه: الحمد لله الشكر لله من غير فهم معنى ما يقول ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول المعرفتين . الأولي معرفة النعمة ، والثانية معرفة بمعنى الشكر عليها إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على النعم التى فى أعضائهم فى حركاتها وسكناتها لأنها عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصا به فلا يعده نعمة ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار ولا منفذ له أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما ، فان ابتلى أحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها ، وهذ غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال ، والنعمة فى جميع الأحوال أولى بأن تشكر من النعمة فى بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا إن تعمى عينه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم فى جميع الأحوال فلم يعده الجاهلون فغفلوا عن الشكر عليها ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما لمخالفة سيده فى أوامره ونواهيه حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم فى سائر أحوالهم ، كما شكا بعضهم فقره لبعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به ، فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا ، فقال أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال : لا . فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا ، فقال أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا .

وحكى أن بعض الفقراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا ، فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا . قال فسورة هود ؟ قال لا . قال فسورة يوسف ؟ قال لا ، فعدد عليه سورا ثم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ، فأصبح وقد سرى عنه همه : أى انكشف وزال ، ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء العباسية وبيده كوز ماء يشربه ، فقال له عظني ، فقال لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشانا فهل كنت تعطيه ؟ قال نعم ، فقال لو لم تعط إلا بملكك كله فهل

فَأَنَّى يُسَاوِى هٰؤُلَاءِ الْغَافِلُونَ الْعَاجِزُونَ ، مَعَ أُولٰئِكَ السُّعَدَاءِ الْمُجِدِّينَ الْمُجْتَهِدِينَ وَلِذٰلِكَ صَارَ هٰؤُلَاءِ الْمَسَاكِينُ عَنْ هٰذَا الْخَيْرِ مَحْرُومِينَ ، وَأُولٰئِكَ الْمُؤَيَّدُونَ بِهِ ظَافِرِينَ فَائِزِينَ ، وَكَذٰلِكَ قَسَّمَ الْأَمْرَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ الْعَالَمِينَ ، فَهٰذَا تَفْصِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَلَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) فَتَفَهَّمْ وَرَاعِهِ حَقَّهُ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تُحْرَمْ قَطُّ خَيْرًا أَنْتَ تَتَمَنَّاهُ إِلَّا مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ ، فَابْذُلْ مَجْهُودَكَ لِتَعْرِفَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللّٰهِ تَعَالَى ، وَتُعَظِّمَهَا حَقَّ تَعْظِيمِهَا فَتَكُونَ أَهْلًا لَهَا وَلِإِعْطَائِهَا ، ثُمَّ يَمُنُّ عَلَيْكَ بِإِبْقَائِهَا كَمَا مَنَّ عَلَيْكَ بِابْتِدَائِهَا عَلَى مَا نَذْكُرُهُ فِى الْأَصْلِ الثَّانِى ، إِنَّهُ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ .

الْأَصْلُ الثَّانِى : أَنَّ النِّعْمَةَ إِنَّمَا تُسْلَبُ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا ، وَالَّذِى لَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا الْكَفُورُ الَّذِى كَفَرَهَا ، وَلَا يُؤَدِّى شُكْرَهَا .

كنت تركه؟ قال نعم . قال فلا تفرح بملك لايساوى شربة ماء ، فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، والجاهلون لا يعرفون ذلك (فأنى) أى كيف (يساوى هؤلاء الغافلون العاجزن مع أولئك السعداء المجدين المجتهدين) بمعني واحد (ولذلك) أى لأجل أن عظم سرور هؤلاء الغافلين وكثرة حمدهم بالظاهر إذا حصل لهم درهم أو استقامت لهم كسرة أو غير ذلك (صار هؤلاء المساكين) الغافلون (عن هذا الخير محرومين) أى ممنوعين (و) صار (أولئك المؤيدون) أى الموفقون (به) أى بهذا الخير (ظافرين فائزين وكذلك) المذكور من جعل هؤلاء الغافلين عن هذا الخير محرومين وجعل أولئك المؤيدين به فائزين (قسم الأمر أحكم الحاكمين) أى أقضى القاضين وأعدل العادلين (سبحانه وهو أعلم العالمين ، فهذا) الذى ذكرناه (تفصيل قوله تعالى « أليس الله بأعلم بالشاكرين » فتفهم) التفصيل المذكور (وراعه) أى احفظه (حقه) أى هذا التفصيل (واعلم أنك لم تحرم) أى لم تمنع (قط خيرا أنت تتمناه) وترجوه (إلا من قبل نفسك) أى جهتها (فابذل) أيها الرجل (مجهودك لتعرف قدر نعمة الله تعالى وتعظمها) أى تلك النعمة (حق تعظيمها فتكون أهلا لها ولاعطائها ثم يمن) سبحانه وتعالى (عليك بإبقائها) أى النعمة (كما من) الله (عليك بابتدائها على ما نذكره فى الأصل الثانى إنه الرءوف الرحيم) وبالله التوفيق .

(الأصل الثانى أن النعمة إنما تسلب) بالبناء للمفعول (ممن لايعرف قدرها) ورتبتها (والذى لايعرف قدرها الكفور الذى كفرها) أى الجحود الذى جحدها (ولا يؤدى) أى ذلك الكفور (شكرها ،

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) الآيَةَ ؛ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى هٰذَا الْعَبْدِ بِالنِّعَمِ الْعِظَامِ ، وَالْأَيَادِى الْجِسَامِ فِى بَابِ الدِّينِ ، بِمَا مَكَّنَّاهُ فِى ذَلِكَ مِنْ تَحْصِيلِ الرُّتْبَةِ الْكَبِيرَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ عَلَى بَابِنَا لِيَصِيرَ رَفِيعاً عِنْدَنَا عَظِيمَ الْقَدْرِ كَبِيرَ الْجَاهِ ؛ وَلٰكِنَّهُ جَهِلَ قَدْرَ نِعْمَتِنَا فَمَالَ إِلَى الدنْيَا الْخَسِيسَةِ الْحَقِيرَةِ ، وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ الدَّنِيئَةِ الرَّدِيئَةِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا

ودليل ذلك) أى الأصل الثاني (قوله تعالى «واتل عليهم) أى اقرأ على اليهودى يا محمد (نبأ) خبر (الذى آتيناه آياتنا) قال ابن عباس ؛ كان يعلم اسم الله الأكبر . وقال ابن زيد : كان لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه . وقال السدى : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنه أوتى كتابا ، وقيل إن الله آتاه حجة وأدلة وهي الآيات التى أوتيها (فانسلخ منها) أى خرج من الآيات التى كان الله آتاه إياها كما تنسلخ الحية من جلدها . وقال ابن عباس : نزع منه العلم ؛ وهو بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل ، سئل أن يدعو على موسى وأهدى إليه شيء فدعا فانقلب عليه دعاؤه واندلع : أى خرج لسانه على صدره (فأتبعه الشيطان) أى فلحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعا لنفسه فى معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهواه (فكان من الغاوين) أى فصار من الضالين الكافرين بما خالف ربه وأطاع هواه وشيطانه (ولو شئنا لرفعناه) إلى منازل الأبرار من العلماء (بها) بسبب تلك الآيات وملازمتها . وقال ابن عباس : لرفعناه بعمله بها . وقال مجاهد وعطاء معناه : ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات (الآية) أى اقرأ آخرها ، وهو قوله تعالى « ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

قال المصنف رحمه الله (تقدير الكلام) ومعناه (أنا أنعمنا على هذا العبد بالنعم العظام والأيادى الجسام) بمعنى ما قبله (فى باب الدين بما مكناه) أى هذا العبد (فى ذلك) أى النعم العظام فى باب الدين وأمره (من تحصيل الرتبة الكبيرة والمنزلة الرفيعة على بابنا ليصير) هذا العبد (رفيعا عندنا عظيم القدر) أى الرتبة (كبير الجاه ولكنه) أى ذلك العبد (جهل قدر نعمتنا فمال إلى الدنيا الخسيسة) أى الدنيئة (الحقيرة) أى الصغيرة وسكن إليها ورضي بها عوضا عن الآخرة (وآثر) أى اختار (شهوة نفسه الدنيئة الرديئة ولم يعلم) العبد أن الدنيا كلها

لاَ تَزِنُ عِنْدَ اللهِ أَدْنَى نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ ، وَلاَ تُسَاوِى عِنْدَهُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، فَكَانَ فِى ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْكَلْبِ الَّذِى لاَ يَعْرِفُ الإِكْرَامَ وَالرَّاحَةَ مِنَ الإِهَانَةِ وَالْمَشَقَّةِ ، وَلاَ الرِّفْعَةَ وَالشَّرَفَ مِنَ الْحَقَارَةِ وَالْخِسَّةِ ، فَهُوَ فِى الْحَالَتَيْنِ يَلْهَثُ ، وَإِنَّمَا الْكَرَامَةُ كُلُّهَا عِنْدَهُ فِى كِسْرَةٍ يُطْعَمُهَا أَوْ عَرْقِ مَائِدَةٍ يُرْمَى إِلَيْهِ ، سَوَاءٌ تُقْعِدُهُ عَلَى سَرِيرٍ مَعَكَ ، أَوْ تُقِيمُهُ فِى التُّرَابِ وَالْقَذَرِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَهِمَّتُهُ وَكَرَامَتُهُ وَنِعْمَتُهُ كُلُّهَا فِى ذَلِكَ ، فَهَذَا الْعَبْدُ السُّوءُ إِذَا جَهِلَ قَدْرَ نِعْمَتِنَا وَلَمْ يَعْرِفْ حَقَّ مَا آتَيْنَاهُ مِنْ كَرَامَتِنَا ، فَكَلَّتْ بَصِيرَتُهُ ، وَسَاءَ فِى مَقَامِ الْقُرْبَةِ أَدَبُهُ بِالاِلْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِنَا ، وَالاِشْتِغَالِ عَنْ ذِكْرِ نِعْمَتِنَا بِدُنْيَا حَقِيرَةٍ وَلَذَّةٍ خَسِيسَةٍ ، فَنَظَرْنَا إِلَيْهِ نَظَرَ السِّيَاسَةِ ، وَأَحْضَرْنَاهُ مَيْدَانَ الْعَدْلِ ، وَأَمَرْنَا فِيهِ بِحُكْمِ الْجَبَرُوتِ ،

لا تزن عند الله أدنى) أى أقل (نعمة من نعم الدين ولا تساوى) أى الدنيا (عنده) تعالى (جناح بعوضة) كما روى أنه قال صلي الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر جرعة ماء » (فكان) أى العبد (فى ذلك) أى فى ميله إلي الدنيا الخسيسة (بمنزلة الكلب الذى لا يعرف الإكرام والراحة من الإهانة والمشقة ولا) يعرف (الرفعة والشرف من الحقارة) والذلة (والخسة فهو) أى الكلب (فى الحالتين) أى حالة الإكرام وحالة الإهانة والرفعة والحقارة (يلهث) أى يدلع لسانه ، واللهث إدلاع اللسان عن النفس الشديد ، يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الإعياء والتعب (وإنما الكرامة كلها عنده) أى الكلب (فى كسرة) من خبز أو غيره (يطعمها) أى تلك الكسرة (أو عرق مائدة) أى عظامها (يرمى إليه) أى إلى الكلب ، فى محيط المحيط : العرق العظم أكل لحمه أو أخذ عنه اللحم ، والجمع عراق وعراق نادرانتهى، وأيضا فيه : العرق العظم بلحمه فإذا أكل لحمه فعراق أو كلاهما لكليهما . وقال أبو زيد العراق : قطعة من اللحم . قال ابن الأنبارى : قول أبى زيد هو الصواب لأن العرب تقول أكلت العراق ولا تقول أكلت العظم انتهى (سواء تقعده) أى الكلب على سرير معك أو تقيمه فى التراب والقذر بين يديك فهمته) أى همة الكلب (وكرامته ونعمته كلها) بالرفع تأكيد (فى ذلك) أى فى كسرة يطعمها أو عرق مائدة يرمى إليه (فهذا العبد السوء) يعنى بلعم بن باعوراء (إذا جهل قدر نعمتنا ولم يعرف حق ما آتيناه من كرامتنا فكلت) أى عميت (بصيرته وساء فى مقام القربة أدبه بالإلتفات) والميل (إلى غيرنا والاشتغال عن ذكر نعمتنا بدنيا حقيرة ولذة خسيسة فنظرنا إليه) أى إلى هذا العبد السوء (نظر السياسة) والتدبير (وأحضرناه) أى العبد السوء (ميدان العدل وأمرنا فيه بحكم الجبروت) أى حكم العظمة

فَسَلَبْنَاهُ جَمِيعَ خِلَعِنَا وَكَرَامَاتِنَا ، وَنَزَعْنَا مِنْ قَلْبِهِ مَعْرِفَتَنَا ، فَانسَلَخَ عَارِياً مِنْ جَمِيعِ مَا آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِنَا ، فَصَارَ كَلْباً طَرِيدًا ، وَشَيْطَانًا رَجِيمًا مَرِيدًا ، نَعُوذُ بِاللهِ ثُمَّ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ، إِنَّهُ بِنَا رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، ثُمَّ أَقْنِعْ بِمِثَالِ مَلِكٍ يُكْرِمُ عَبْدًا لَهُ فَيَخْلَعُ عَلَيْهِ خَاصَّةَ ثِيَابِهِ وَيُقَرِّبُهُ مِنْهُ ، وَيَجْعَلُهُ فَوْقَ سَائِرِ خُدَّامِهِ وَحُجَّابِهِ ، وَأَمَرَهُ بِمُلَازَمَةِ بَابِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُبْنَى لَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ الْقُصُورُ ، وَتُرْفَعَ لَهُ الْأَسِرَّةُ وَتُنْصَبَ لَهُ الْمَوَائِدُ ، وَتُزَيَّنَ لَهُ الْجَوَارِي وَتُقَامَ لَهُ الْغِلْمَانُ ، حَتَّى إِذَا رَجَعَ مِنَ الْخِدْمَةِ أَجْلَسَ هُنَالِكَ مَلِكاً مَخْدُومًا مُكَرَّمًا ، وَمَا بَيْنَ حَالِ خِدْمَتِهِ إِلَى مُلْكِهِ وَوِلَايَتِهِ إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ أَوْ أَقَلُّ ؛ فَإِنْ أَبْصَرَ هٰذَا الْعَبْدُ بِجَانِبِ بَابِ هٰذَا الْمَلِكِ سَائِساً لِلدَّوَابِّ يَأْكُلُ رَغِيفاً ،

والجلال والكبرياء والقدرة والسلطنة (فسلبناه جميع خلعنا) بكسر الخاء المعجمة وفتح اللام : أي جميع العطايا منا (وكرامتنا ونزعنا من قلبه) أي العبد السوء (معرفتنا فانسلخ) أي فخرج (عاريا من جميع ما آتيناه من فضلنا فصار) العبد السوء (كلبا) أي بمنزلته (طريدا) أي مطرودا (وشيطانا رجيما) أي مرجوما (مريدا) بفتح الميم : أي عاتيا (نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه إنه) تعالى (بنا رءوف رحيم ، ثم اقنع) أي ارض وا كتف (بمثال ملك) من الملوك (يكرم عبدا له فيخلع) أي يعطى الملك (عليه) أي على عبده (خاصة ثيابه) أي أحسن ثياب الملك (ويقربه) أي يقرب الملك ذلك العبد (منه) أي من الملك (ويجعله) أي ذلك العبد (فوق سائر خدامه) أي الملك (وحجابه) جمع حاجب مثل كافر وكفار وهو البواب لأنه يمنع من الدخول (وأمره) أي الملك عبده (بملازمة بابه) أي الملك (ثم أمر أن يبنى له) أي لذلك العبد (في موضع آخر) غير موضع الملك (القصور) جمع قصر ، وهو كل بيت من حجر كما قاله بعضهم (وترفع له) أي للعبد (الأسرة) جمع سرير (وتنصب له الموائد) جمع مائدة (وتزين له) أي لأجل هذا العبد (الجوارى) جمع جارية ، وهى الفتية من النساء أو الخادمة الفتية منهن عبدة كانت أو حرة ، قيل لها ذلك لخفتها وكثرة جريها بخلاف العجوز والعامة تستعمل الجارية للعبدة من دون اعتبار السن ، وتجمع أيضا جاريات وأكثر استعمال الجارية للصغيرة من النساء في مقابلة الغلام من الرجال كذا فى محيط المحيط (وتقام له الغلمان) جمع غلام (حتى إذا رجع) العبد(من الخدمة) أي خدمة الملك (أجلس) أى الملك ذلك العبد (هناك) أي فى تلك القصور (ملكا) أي صار ملكا (مخدوما مكرما) بعد أن كان عبدا خادما ذليلا (وما) أى ليس (بين حال خدمته) لذلك الملك (إلى ملكه وولايته إلا ساعة من نهار أو أقل فان أبصر هذا العبد) المكرم بما ذكر (بجانب باب هذا الملك) الذى أكرمه (سائسا) ومصلحا (للدواب يأكل) أي السائس (رغيفا

أَوْ كَلْبًا يَمْضَغُ عَظْمًا فَيَشْتَغِلُ عَنْ خِدْمَةِ الْمَلِكِ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَالَهُ مِنَ الْخِلَعِ وَالْكَرَامَةِ ، فَيَسْعَى إِلَى ذَلِكَ السَّائِسِ وَيَمُدُّ يَدَهُ وَيَسْأَلُهُ كِسْرَةً مِنْ رَغِيفٍ، أَوْ يُزَاحِمُ الْكَلْبَ عَلَى عَظْمَةٍ وَيَغْبِطُهُمَا وَيُعَظِّمُ مَاهُمَا فِيهِ ، أَلَيْسَ الْمَلِكُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ الْحَالَةِ يَقُولُ : هٰذَا سَفِيهٌ خَسِيسُ الْهِمَّةِ ، لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ كَرَامَتِنَا ، وَلَمْ يَرَ قَدْرَ إِعْزَازِنَا إِيَّاهُ بِخِلَعِنَا وَالتَّقْرِيبِ إِلَى حَضْرَتِنَا ، مَعَ مَا صَرَفْنَا إِلَيْهِ مِنْ عِنَايَتِنَا، وَأَمَرْنَا لَهُ مِنَ الذَّخَائِرِ وَضُرُوبِ الْأَيَادِي ، مَا هٰذَا إِلَّا سَاقِطُ الْهِمَّةِ عَظِيمُ الْجَهْلِ قَلِيلُ التَّمْيِيزِ ، اُسْلُبُوهُ الْخِلَعَ وَاطْرُدُوهُ عَنْ بَابِنَا ، فَهٰذَا حَالُ الْعَالِمِ إِذَا مَالَ إِلَى الدُّنْيَا ، وَالْعَابِدِ إِذَا اتَّبَعَ الْهَوَى بَعْدَ مَا أَكْرَمَهُ اللّٰهُ بِعِبَادَتِهِ وَمَعْرِفَةِ أَيَادِيهِ وَشَرِيعَتِهِ وَأَحْكَامِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ ذٰلِكَ ، فَيَصِيرَ إِلَى أَحْقَرِ شَيْءٍ عِنْدَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَهْوَنِهِ عِنْدَهُ ، فَيَرْغَبَ فِيهِ وَيَحْرِصَ عَلَيْهِ ،

أو) أبصر به (كلبا يمضغ عظما فيشتغل) أى هـذا العبد (عن خدمة الملك بنظره) .أى العبد (إليه) أى إلى السائس (وإقباله) أى العبد (عليه) أى السائس (ولا يلتفت) العبد (إلى ما) أى الذى (له من الخلع) بكسر المعجمة جمع خلعة بمعنى العطية (والكرامة فيسعى) أى العبد (إلى ذلك السائس ويمد) العبد (يده ويسأله) أى السائس (كسرة من رغيف أو يزاحم) العبد (الكلب على عظمة ويغبطهما) أى يحسد العبد ذلك السائس والكلب (ويعظم) أى يعظم العبد (ما هما) أى السائس والكلب (فيه) من الكسرة والعظمة (أليس الملك إذا نظر إليه) أى إلى العبد (فى مثل هذه الحالة) الرديئة (يقول) أى الملك (هذا) العبد (سفيه) أى جاهل (خسيس الهمة لم يعرف حق كرامتنا ولم ير) هذا العبد (قدر إعزازنا) وإكرامنا (إياه) أى العبد (بخلعنا والتقريب إلى حضرتنا مع ما صرفنا إليه) أى العبد (من عنايتنا وأمرنا له من الذخائر وضروب الأيادى) أى أنواع النعم (ما هذا) أى ليس هذا العبد المذكور (إلاساقط الهمة) عن الرتبة العالية (عظيم الجهل قليل التميز) والعقل ثم قال الملك لقومه (اسلبوه) أى هذا العبد (هذه الخلع واطردوه) أى أبعدوه (عن بابنا فهذا) المذكور من المثال (حال العالم إذا مال) وركن (إلى الدنيا و) حال (العابد إذا اتبع الهوى بعـد ما أكرمه الله بعبادته ومعرفة أياديه) أى نعمه (وشريعته وأحكامه ثم إنه) أى العالم أو العابد (لم يعرف قدر ذلك) الذى أكرمه الله به من العبادة وغيرها (فيصير) الرجل الذى لم يعرف قدر ذلك (إلى أحقر شىء عند الله عز وجل وأهونه عنده) تعالى (فيرغب) الرجل (فيه) أى فى الشىء الحقير (ويحرص عليه) أى

وَيَكُونَ أَعْظَمَ فِى قَلْبِهِ وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ مَاأُعْطِىَ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ الْعَزِيزَةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْحِكَمِ وَالْحَقَائِقِ ، وَكَذٰلِكَ مَنْ خَصَّهُ اللّٰهُ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ تَوْفِيقِهِ وَعِصْمَتِهِ ، وَزَيَّنَهُ بِأَنْوَارِ خِدْمَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَيُدِيمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ فِى أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ ، وَيُبَاهِى بِهِ مَلَائِكَتَهُ ، وَأَعْطَاهُ عَلَى بَابِهِ الْقِيَادَةَ وَالْوَجَاهَةَ ، وَأَحَلَّهُ مَحَلَّ الشَّفَاعَةِ ، وَأَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ الْأَعِزَّةِ ، حَتَّى إِذَا صَارَ بِحَيْثُ لَوْ دَعَاهُ لَأَجَابَهُ وَلَبَّاهُ ، وَلَوْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ وَأَغْنَاهُ ، وَلَوْ شَفَعَ فِى عَالَمٍ لَشَفَّعَهُ فِيهِمْ وَأَرْضَاهُ ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ لَأَبَرَّهُ وَأَوْفَاهُ ، وَلَوْ خَطَرَ بِبَالِهِ شَىْءٌ لَأَعْطَاهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ بِلِسَانِهِ ، فَمَنْ كَانَتْ هٰذِهِ حَالَهُ ثُمَّ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ هٰذِهِ النِّعَمِ ، أَوْ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى قَدْرِ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ فَيَعْدِلَ عَنْ ذٰلِكَ إِلَى شَهْوَةِ نَفْسٍ رَدِيئَةٍ لَاحَيَاءَ لَهَا ، أَوْ لَعْقَةٍ مِنَ الدُّنْيَا الدَّنِيئَةِ الَّتِى لَا بَقَاءَ لَهَا ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى تِلْكَ الْكَرَامَاتِ

على الشيء الحقير (ويكون) أى ذلك الشيء (أعظم) وأكرم (فى قلبه وأحب إليه) أى إلى الرجل (من جميع ما أعطى من تلك النعم العزيزة من العلم والعبادة والحكم) بكسر الحاء جمع حكمة (والحقائق . وكذلك) أى مثل العالم الذى يميل إلى الدنيا والعابد الذى يتبع الهوى (من خصه الله تعالى) واختاره (بأنواع توفيقه وعصمته) وحفظه (وزينه) الله (بأنوار خدمته وعبادته ويديم) الله عز وجل (النظر إليه بالرحمة) والرأفة (فى أكثر أوقاته ويباهى) الله (به) أى بالذي خصه بما ذكر (ملائكته وأعطاه على بابه) أى باب رحمته (القيادة) أى الرياسة ، قاد الأمير الجيش قيادة إذا كان رئيسا عليهم (والوجاهة) أى القدر والشرف (وأحله) أى أنزله (محل الشفاعة وأنزله منزلة الأعزة) جمع عزيز (حتى إذا صار) الرجل (بحيث لو دعاه) تعالى (لأجابه) الله (ولباه) أى أجابه فهو بمعنى ما قبله (ولو سأله أعطاه) أى أعطى مسئوله (وأغناه ، ولو شفع فى عالم) بفتح اللام (لشفعه) أي قبل الله شفاعة (فيهم) أى العالمين (وأرضاه) ولو أقسم الرجل (عليه) تعالى (لأبره) أى أبر قسمه (وأوفاه) أى أوفي الله ما أقسم به الرجل (ولو خطر) بالبناء للفاعل (بباله) أى بقلبه (شيء لأعطاه قبل أن يسأله بلسانه فمن كانت هذه) الحال المذكور (حاله ثم لم يعرف قدر هذه النعم ولم ينظر إلى قدر هذه المنزلة) وعظمها (فيعدل عن ذلك) أى ما ذكر من النعم (إلى شهوة نفس رديئة لاحياء لها) أى لتلك النفس (أو) إلى (لعقة) أى شيء قليل ، واللعقة فى الأصل اسم ما تأخذه فى الملعقة : آلة يلعق بها الطعام وغيره والجمع ملاعق (من الدنيا الدنيئة التى لا بقاء لها ولم ينظر) أى من ذكر (إلى تلك الكرامات

وَالخِلَعِ وَالْهَدَايَا وَالْمِنَنِ وَالْعَطَايَا ، ثُمَّ مَا وُعِدَ وَمَا أُعِدَّ لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ ، وَالنَّعِيمِ السَّابِغِ الْمُقِيمِ ، فَمَا أَحْقَرَهَا إِذَنْ مِنْ نَفْسٍ ، وَمَا أَسْوَأَهُ مِنْ عَبْدٍ ، وَمَا أَعْظَمَ خَطَرِهِ لَوْ عَلِمَ ، وَمَا أَفْحَشَ صُنْعَهُ لَوْ فَهِمَ ، نَسْأَلُ اللهَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ ، أَنْ يُصْلِحَنَا بِعَظِيمِ فَضْلِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ؛ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ حَتَّى تَعْرِفَ قَدْرَ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْكَ ، وَإِذَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعْمَةِ الدِّينِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْكَ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِضَرْبٍ مِنَ التَّهَاوُنِ بِمَا أَوْلاَكَ رَبُّكَ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ : (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ)

والخلع والهدايا) جمع هدية (والمنن) جمع منة (والعطايا) جمع عطية (ثم) لم ينظر إلى (ما وعد وما أعد) أى هيء له فى الآخرة (من الثواب العظيم والنعيم السابغ) أى المتسع (المقيم) أى الدائم (فما أحقرها) فعل تعجب (إذن) أى حين إذ عدل عن النعم إلى الشهوة الرديئة (من نفس) بيان للضمير فى أحقرها (وما أسوأه) فعل تعجب أيضا (من عبـد) بيان للضمير فى أسوأه (وما أعظم خطره لو علم) ما يفعله من الأمور الرديئة (وما أفحش صنعه لو فهم) ما يضمه منها (نسأل الله البر) بفتح الباء : أى المحسن (الرحيم أن يصلحنا بعظيم فضله) وإحسانه (وسعة رحمته إنه) تعالى (أرحم الراحمين) وأكرم الأكرمين (فعليك أيها الرجـل) العاقل (ببذل المجهود) أى الطاقة (حتى تعرف قدر نعم الله تعالى عليك وإذا أنعم) سـبحانه وتعالى (عليك بنعمة الدين فإياك) أى احـذر (أن تلتفت) وتميل (إلى الدنيا) الخسيسة (وحطامها فإن ذلك) الالتفات والميل إليها (منك لا يكون) ذلك (إلا بضرب) أى نوع (من التهاون) أى التحقير (بما أولاك) أى أعطاك (ربك من نعم الدين أما تسمع قوله تعالى لسـيد) الأنبياء و (المرسلين) صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظـيم) قال ابن الجوزى : سبب نزولها أن قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظـة والنضير فى يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هـذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فأنزل الله هذه الآية ، وقال « قد أعطيتـكم سبع آيات » هى خير من هذه السبع القوافل ، ويدل على صحة هـذا قوله « لا تمدن عينيك » الآية . قال الحسن بن الفضل قلت : وهذا القول ضعيف أولا يصح لأن هذه السورة ، أى سورة الحجر مكية بإجماع أهل التفسير وليس فيها من المدنى شىء ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة وكيف يصح

أن يقال إن سبع قوافل جاءت في يوم واحد فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية وأخبرهم أن هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل ، والله أعلم .

وفي المراد بالسبع المثاني أقوال : أحدها أنها فاتحة الكتاب وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود وفي رواية عنه وابن عباس ، وفي رواية الأكثرين عنه وأبي هريرة والحسن وسعيد بن جبير ، وفي رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة في آخرين ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » أخرجه أبو داود والترمذي ، روى الشيخان عن أبي سعيد المعلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » أخرجه البخاري ، وفيه زيادة .

أما السبب في تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني فلأنها سبع آيات بإجماع أهل العلم . واختلفوا في سبب تسميتها بالمثاني ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة ، وقيل لأنها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين ، فنصفها الأول ثناء على الله ونصفها الثاني دعاء ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » الحديث ، وقيل سميت مثاني لأن كلماتها مثناة مثل قوله « الرحمن الرحيم إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين » فكل هذه ألفاظ مثناة ، وقال الحسن بن الفضل لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك ، وقال مجاهد : لأن الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فلم يعطها لغيرهم ، وقال أبو زيد البلخي لأنها تثني أهل الشر عن الشر ، من قول العرب ثنيت عناني ، وقال ابن الزجاج : سميت فاتحة الكتاب مثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه ، وإذا ثبت كون الفاتحة هي السبع المثاني دل ذلك على فضلها وشرفها وأنها من أفضل سور القرآن لأن إفرادها بالذكر في قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » مع أنها جزء من أجزاء القرآن وإحدى سوره لا بد وأن يكون لاختصاصها بالشرف والفضيلة .

القول الثاني في تفسير قوله سبعا من المثاني أنها السبع الطوال ، وهذا قول ابن عمر وابن مسعود ، وفي رواية عنه وابن عباس ، وفي رواية عنه وسعيد بن جبير ، وفي رواية عنه السبع الطوال هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف . واختلفوا في السابعة فقيل الأنفال مع براءة ، لأنهما كالسورة الواحدة ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم وقيل السابعة هي سورة يونس ، ويدل على صحة هذا القول ما روى عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله سبحانه وتعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المثين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني وفضلني ربي بالمفصل » أخرجه البغوي بإسناد الثعلبي . قال ابن عباس : إنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) الآيَةَ ،

والعبر ثنيت فيها . وأورد على هذا القول أن هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها وهي مكية . وأجيب عن هذا الإيراد بأن الله سبحانه وتعالى حكم فى سابق علمه بإنزال هذه السور على النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الأمر كذلك صح أن تفسر هذه الآية بهذه السور .

القول الثالث أن السبع المثانى هى السور التى هى دون الطوال وفوق المفصل وهى المئين وحجة هذا القول الحديث المتقدم « وأعطانى مكان الزبور المثانى » .

القول الرابع أن السبع المثانى هى القرآن كله ، وهذا قول طاوس ، وحجة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى قال « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى » وسمى القرآن مثانى لأن الأخبار والقصص والأمثال ثنيت فيه .

فان قلت : كيف يصح عطف القرآن فى قوله «والقرآن العظيم» على قوله سبعا من المثانى» وهل هو إلا عطف الشىء على نفسه ؟ قلت إذا عنى بالسبع المثانى فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لأن القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله « بما أوحينا اليك هذا القرآن » يعنى سورة يوسف عليه السلام وإذا عنى بالسبع المثانى القرآن كله كان المعنى : ولقد آتيناك سبعاً من المثانى وهى القرآن العظيم ، وإنما سمى القرآن عظيما لأنه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم ، كذا ذكره الخازن (لا تمدن عينيك) أى لا تطمح ببصرك طموح راغب (إلى ما متعنا به أزواجا) يعنى أصنافا (منهم) يعنى من الكفار متمنيا لها ، نهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة فى الدنيا ومزاحمة أهلها عليها ، والمعنى : أنك قد أوتيت القرآن العظيم الذى فيه غنى عن كل شىء فلا تشغل قلبك وسرك بالإلتفات إلى الدنيا والرغبة فيها . روى أن سفيان بن عيينة تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » يعنى لم يستغن بالقرآن ، فتأول هذه الآية قيل إنما يكون مادا عينيه إلى الشىء إذا أدام النظر اليه مستحسنا له فيحسن له من ذلك تمنى ذلك الشىء المستحسن ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى شىء من متاع الدنيا ولا يلتفت اليه ولا يستحسنه (الآية) أى أقرأ آخرها ، وهو قوله « ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » يعنى ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم : أى الكفار فى الدنيا ، وقيل : ولا تحزن على إيمانهم إذا لم يؤمنوا ففيه النهى عن الالتفاف إلى أموال الكفار والالتفات إليهم أيضا . وروى البغوى بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى أسفل منه » هذا لفظ البخارى ولمسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم » قال

تَقْدِيرُهُ ، أَنَّ كُلَّ مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ حَقَّ لَهُ أَنْ لاَ يَنْظُرَ إِلى الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ نَظَرًا بِاسْتِحْلاَءٍ وَاسْتِحْسَانٍ قَطُّ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ ، فَلْيُدِمِ الشُّكْرَ لِلَّهِ عَلَى ذٰلِكَ ، فَإِنَّهَا الْكَرَامَةُ الَّتِي حَرَصَ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ ، أَنْ يَمُنَّ بِهَا عَلَى أَبِيهِ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَحَرَصَ حَبِيبُهُ الْمُصْطَفَى صلى اللهُ عليه وسلم أَنْ يَمُنَّ بِهَا عَلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فَلَمْ يَفْعَلْ، وَأَمَّا حُطَامُ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ الَّذِي يَصُبُّهُ عَلَى كُلِّ كَافِرٍ وَفِرْعَوْنٍ وَمُلْحِدٍ وَزِنْدِيقٍ وَجَاهِلٍ وَفَاسِقٍ ، الَّذِينَ هُمْ أَهْوَنُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يَغْرَقُوا فِيهِ وَيَصْرِفُهُ عَنْ كُلِّ نَبِيٍّ وَصَفِيٍّ وَصِدِّيقٍ وَعَالِمٍ وَعَابِدٍ ، الَّذِينَ هُمْ أَعَزُّ خَلْقِهِ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ لاَ يَكَادُونَ يُصِيبُونَ كِسْرَةً وَخِرْقَةً ، وَيَمُنُّ

عوف بن عبدالله بن عتبة : كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثرهما منى كنت أرى دابة خيرا من دابتى وثوبا خيرامن ثوبى فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت ، ولما نهاه الله سبحانه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين بقوله « واخفض جناحك للمؤمنين » وفسر المصنف هذه الآية بقوله (تقديره أن كل من أوتى القرآن العظيم حق) أى وجب (له أن لا ينظر إلى الدنيا الحقيرة نظرا باستحلاء) أى طلب حلو (واستحسان قط فضلا عن أن يكون له) أى لمن أوتى ما ذكر (فيها) أى فى الدنيا (رغبة) ومحبة (فليدم الشكر لله على ذلك) أى على ما أوتيه من القرآن العظيم (فإنها) أى هذه النعمة العظيمة من نعم الدين التي هى القرآن العظيم (الكرامة التى حرص خليله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يمن) الله تعالى (بها) أى بالكرامة (على أبيه) تارخ بن ناخور ، وأما آزر فقيل عمه (فلم يفعل) سبحانه وتعالى ما يحرصه (وحرص حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يمن) تعالى (بها على عمه) صلى الله عليه وسلم (أبى طالب) شقيق أبيه عبد الله واسمه عبدمناف ، وله من العمر سبع وثمانون سنة (فلم يفعل) سبحانه ماذكر (وأما حطام الدنيا فإنه الذى يصبه) الله تعالى (على كل كافر وفرعون) أى كل متمرد عات (وملحد) أى مائل عن الحق (وزنديق) هو الذي لا يؤمن بيوم القيامة ووحدانية الخالق ، وقيل من يظهر الإسلام ويخفى الكفر (وجاهل وفاسق الذين هم أهون) أى أذل (خلقه) تعالى (عليه) أى عنده جل وعز (حتى يغرقوا) أى هؤلاء الكفار والجاهلون (فيه) أى فى حطام الدنيا (ويصرفه) أى يصرف الله ذلك الحطام ويصده (عن كل نبى وصفى وصديق) بكسر الصاد : أى كثير الصدق (وعالم وعابد الذين هم أعز خلقه عليه) أى عند الله تعالى (حتى إنهم) أى هؤلاء الأعزة (لا يكادون يصيبون كسرة) من الخبز (وخرقة) من الثوب (ويمن) الله

عَلَيْهِمْ بِأَنْ لاَ يُلَطِّخَهُمْ بِقَذَرِهَا، حَتَّى قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ لِمُوسَى وَهٰرُونَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ: « وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أُزَيِّنَكُمَا بِزِينَةٍ لِيَعْلَمَ فِرْعَوْنُ حِينَ يَرَاهَا أَنَّ مَقْدِرَتَهُ تَعْجِزُ عَنْهَا لَفَعَلْتُ ، وَلٰكِنِّي أَزْوِي عَنْكُمَا الدُّنْيَا وَأَرْغَبُ بِكُمَا عَنْهَا ، وَكَذٰلِكَ أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي وَإِنِّي لَأَذُودُهُمْ عَنْ نَعِيمِهَا كَمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبِلَهُ عَنْ مَبَارِكِ الْعُرَّةِ ، وَإِنِّي لَأُجَنِّبُهُمْ سُكُونَهَا وَعَيْشَهَا ، وَلَيْسَ ذٰلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ ، وَلٰكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا حَظَّهُمْ مِنْ كَرَامَتِي » . وَقَالَ تَعَالَى: (وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً،

(عليهم بأن لا يلطخهم) أى لا يلوثهم (بقذرها) أى الدنيا (حتى قال عز من قائل لموسى وهرون عليهما السلام) لما بعثهما إلى فرعون : اسمع كلامى ، واسمع وصيتى لا يروعنكما لباسه الذى لبس من الدنيا فإن ناصيته بيدى ليس ينطق بحرف ولا يطرف بلحظ ولا يتنفس إلا بإذنى ولا يعجبنكما ما تمتع به منها ولا تمدا إلى ذلك أعينكما فانما هى زهرة الحياة الدنيا (ولو أشاء أن أزينكما بزينة) من الدنيا (ليعلم فرعون حين يراها) أى الزينة (أن مقدرته) أى فرعون (تعجز عنها) أى عن تلك الزينة (لفعلت) ذلك التزيين (ولكنى أزوى) أى أقبض (عنكما الدنيا وأرغب بكما عنها) أى عن الدنيا (وكذلك) أى أزوى الدنيا (أفعل بأوليائي وإنى لأذودهم) أى أطردهم (عن نعيمها كما يذود) أى يطرد (الراعى الشفيق) أى المشفق (إبله عن مبارك العرة) بالضم وهي الجرب . قال العلامة عبد الحق : ومبارك جمع مبرك موضع بروك البعير وهو كمدخل من دخل يدخل والبروك كالاضطجاع للانسان ، وفى لسان العرب: وفى حديث علقمة « لا تقربهم فإن على أبوابهم فتنا كمبارك الإبل » هو الموضع الذى يبرك فيه أراد أنها تعدى كما أن الإبل الصحاح إذا أنيخت فى مبارك الجربى جربت انتهى ، وأيضا فيه العرة الجرب (وإنى لأجنبهم) أى الأولياء (سكونها) أى الدنيا (وعيشها) يعنى ملاذها (وليس ذلك) أى تجنيبهم وتبعيدهم عن الدنيا (لهوانهم على ولكن ليستكملوا حظهم) أى نصيبهم (من كرامتي) سالما موفرا لم تكلمه الدنيا ولم تنقصه .

واعلم يا موسى أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ عندى من الزهد فى الدنيا فإنها زينة الأبرار عندى إنما يتزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تثبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم فهى ثيابهم التى يلبسون ودثارهم الذي يظهرون وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ورجاؤهم الذى إياه يأملون ومجدهم الذى يفخرون وسيماهم التى بها يعرفون أولئك هم أوليائى حقا فاذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك كذا قاله وهب بن منبه وأورده صاحب الحلية وصاحب القوت (وقال تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) أى

لجعلنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ) الآيتين ، فَانْظُرِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ إِنْ كُنْتَ مُبْصِرًا وَقُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمَنِّ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ، وَصَرَفَ عَنَّا فِتْنَةَ أَعْدَائِهِ لِنَحْظَى وَلْنُخَصَّ بِالشُّكْرِ الْأَوْفَرِ ، وَالْحَمْدُ الْأَكْبَرِ ، وَالْمِنَّةِ الْكُبْرَى ، وَالنِّعْمَةِ الْعُظْمَى الَّتِي هِيَ الْإِسْلَامُ فَإِنَّهَا الْأُولَى وَالْأُخْرَى بِأَنْ لَا تَفْتُرَ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ عَنْ شُكْرِهَا ، فَإِنْ كُنْتَ عَاجِزًا عَنْ عِرْفَانِ قَدْرِهَا ، فَاعْلَمْ بِالْحَقِيقَةِ أَنَّكَ لَوْ خُلِقْتَ مِنْ أَوَّلِ الدُّنْيَا وَأَخَذْتَ فِي شُكْرِ نِعْمَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَوَّلِ الْوَقْتِ إِلَى الْأَبَدِ مَا كُنْتَ تَقُومُ بِذَلِكَ ، وَلَمَّا قَضَيْتَ بَعْضَ الْحَقِّ لِمَا هُنَالِكَ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

قُلْتُ : وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَوْضِعَ لَا يَحْتَمِلُ ذِكْرَ مَا يَبْلُغُهُ عِلْمِي مِنْ قَدْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَلَوْ أَمْلَيْتُ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ وَرَقَةٍ لَكَانَ مَبْلَغُ عِلْمِي فَوْقَ ذَلِكَ ، مَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ مَا أَعْلَمُهُ فِي جَنْبِ مَا لَا أَعْلَمُهُ ،

على ملة واحدة ملة الكفر : يعني لولا أن يرغبوا في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا فيجتمعوا عليه (لجعلنا) لحقارة الدنيا عندنا (لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا) سماء بيوتهم (من فضة» الآيتين) يعني « ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » (فانظر الفرق بين الأمرين) المذكورين ، وهما انزواء الدنيا وطردها عن الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين وانصبابها على الكافرين والفاجرين والفاسقين (إن كنت مبصرا وقل الحمد لله الذي من علينا بمَنّ أوليائه وأصفيائه وصرف) أي صد سبحانه وتعالى (عنا فتنة أعدائه لنحظى ولنخص بالشكر الأوفر) أي الأكمل (والحمد الأكبر) أي الأعظم (والمنة الكبرى والنعمة العظمى التي هي) أي تلك النعمة (الإسلام فإنها الأولى) أي الأفضل (و) الأمر (الأحرى بأن لاتفتر) أي لاتكسل (ليلك ونهارك عن شكرها) أي تلك النعمة (فان كنت عاجزا عن عرفان قدرها فاعلم بالحقيقة أنك لوخلقت من أول الدنيا وأخذت في شكر نعمة الإسلام) والإيمان (من أول الوقت إلى الأبد ما كنت) أي لست (تقوم بذلك) أي شكرٌ نعمة الإسلام (ولما) نافية (قضيت بعض الحق لما هنالك) أي نعمة الاسلام (من الفضل العظيم . قلت واعلم أن الموضع) أي هذا الكتاب (لايحتمل ذكر مايبلغه علمي من قدر هذه النعمة ولو أمليت) أي قرأت (فيه) أي في هذا الموضع (ألف ألف ورقة لكان مبلغ علمي فوق ذلك) أي ماأمليته من ألف ألف ورقة (مع اعترافي) وإقراري (بأن ماأعلمه) من قدر هذه النعمة (في جنب مالا أعلمه) من ذلك

كَنفثَةٍ فى بِحَارِ الدُّنيَا بِأَسْرِهَا ؛ أَمَا تَسْمَعُ وَيْحَكَ قَوْلَهُ تَعَالَى لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ صلى ٱللهُ عليه وسلم : (مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ) إلى أَنْ قالَ لَهُ : (وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) . وَقالَ تَعَالَى لِقَوْمٍ : (بَلِ ٱللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ) الآيَة . أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ صلى ٱللهُ عليه وسلم، وَقَدْ سَمِعَ

(كنفثة) أى قطرة (فى بحار الدنيا بأسرها) أي بأجمعها (أما تسمع ويحك) كلمة رحمة (قوله تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم «ما كنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان») .

اختلف العلماء فى هذه الآية مع اتفاقهم على أن الأنبياء قبل النبوة كانوا مؤمنين ، فقيل معناه ما كنت تدرى قبل الوحى شرائع الإيمان ومعالمه . وقال محمد بن إسحق عن ابن خزيمة : الإيمان في هذا الموضع الصلاة، دليله «وما كان الله ليضيع إيمانكم» يعنى صلاتكم ولم يرد به الإيمان الذى هو الإقرار بالله تعالى لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة يوحد الله تعالى ويحج ويعتمر ويبغض اللات والعزى ولا يأكل ماذبح على النصب وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولم تتبين له شرائع دينه إلا بعد الوحى إليه (إلى أن قال) الله تعالى (له) صلى الله عليه وسلم «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة (وعلمك مالم تكن تعلم) من أحكام الشرع وأمور الدين ، وقيل علمك من علم الغيب مالم تكن تعلم ، وقيل معناه وعلمك من خفيات الأمور وأطلعك علي ضمائر القلوب وعلمك من أحوال المنافقين وكيدهم مالم تكن تعلم (وكان فضل الله عليك عظيما) يعنى ولم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيما فاشكره على ماأولاك من إحسانه ومن عليك بنبوته وعلمك ماأنزل عليك من كتابه وحكمته وعصمك ممن حاول إضلالك فإن الله هو الذي تولاك بفضله وشملك بإحسانه وكفاك غائلة من أرادك بسوء ، ففى هذه الآية تنبيه من الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما حباه من ألطافه وماشمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه (وقال تعالى لقوم) من بنى أسد «يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان») أى لله المنة عليكم أن أرشدكم وأمدكم بتوفيقه حيث هداكم للايمان على ما زعمتم وادعيتم ، وهو قوله تعالى (الآية) أى إن كنتم صادقين يعنى فى ادعاء الإيمان ، وجوابه محذوف يدل عليه ماقبله : أى فلله المنة عليكم ، وفى سياق الآية لطائف هى أنهم لما سموا ما صدر عنهم إيمانا ومنوا به نفي أنه إيمان وسماه إسلاما بأن قال يمنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام ، وليس بجدير أن يمن به عليك بل لو صح ادعاؤهم الإيمان فلله المنة عليهم بالهداية له لالهم . قاله القاضى (أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم وقد سمع

رَجُلاً يَقُولُ : الحَمْدُ لِلّهِ عَلَى الْإِسْلَامِ فقَالَ لَهُ : « إِنَّكَ لَتَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ » وَلَمَّا قَدِمَ الْبَشِيرُ عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،قالَ : عَلَى أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَهُ ؟ قالَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ، قالَ : الآنَ تَمَّتِ النِّعْمَةُ ، وَقِيلَ : مَامِنْ كَلِمَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ تعَالَى وَلاَ أَبْلَغَ عِنْدَهُ فى الشُّكْرِ مِنْ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَنْعَمَ عَلَيْنَا وَهَدَانَا إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْفُلَ الشُّكْرَ لِلْإِسْلَامِ وَتَغْتَرَّ بِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ فى الْحَالِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْعِصْمَةِ ، فَإِنَّ مَعَ ذٰلِكَ لاَ مَوْضِعَ لِلْأَمْنِ وَالْغَفْلَةِ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ بِالْعَوَاقِبِ ، وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِىُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يَقُولُ: مَا أَمِنَ أَحَدٌ عَلَى دِينِهِ إِلاَّ سُلِبَ ، وَكَانَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يَقُولُ : إِذَا سَمِعْتَ بِحَالِ الْكُفَّارِ وَخُلُودِهِمْ فى النَّارِ فَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ فَإِنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْخَطَرِ ، وَلاَ تَدْرِى مَاذَا يَكُونُ مِنَ الْعَاقِبَةِ وَمَاذَا سَبَقَ لَكَ فى حُكْمِ الْغَيْبِ ؟

رجلا يقول الحمد لله على الإسلام ، فقال) صلى الله عليه وسلم (إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة) وهى نعمة الاسلام (ولما قدم البشير) وهو المبشر بخبر يوسف . قال ابن مسعود : جاء البشير بين يدى العير . قال ابن مسعود رضى الله عنه : هو يهوذا . قال السدى : قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حى فأفرحه كما أحزنته . قال ابن عباس : حمله يهوذا وخرج به حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا (على يعقوب عليه السلام) سأل البشير كيف يوسف ؟ قال هو ملك مصر (قال) يعقوب ما أصنع بالملك (على أى دين تركته ؟) أى ذلك الملك وهو يوسف عليه السلام (قال) البشير تركناه (على دين الاسلام قال) يعقوب (الآن تمت النعمة) هكذا ذكره النسفي وغيره (وقيل ما من كلمة) أى كلام (أحب إلى الله تعالى ولا أبلغ عنده) سبحانه (فى الشكر من أن يقول العبد الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا إلى دين الإسلام وإياك) أى احذر (أن تغفل) بضم الفاء (الشكر للاسلام و) أن (تغتر) وتنخدع (بما أنت عليه فى الحال من الإسلام والمعرفة والتوفيق والعصمة فإن مع ذلك) أى ما أنت عليه فى الحال (لا موضع للأمن والغفلة فإن الأمور بالعواقب) والأعمال بخواتيمها (وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى يقول : ما أمن أحد على دينه إلا سلب ، وكان شيخنا رحمه الله تعالى يقول : إذا سمعت بحال الكفار وخلودهم فى النار فلا تأمن على نفسك فإن الأمر على الخطر ولا تدرى ماذا يكون من العاقبة وماذا سبق لك فى حكم الغيب) أكنت من السعداء

فلاَ تَغْـتَرَّ بِصفَاءِ الْأَوْقَاتِ ، فَإِنَّ تحتَهَا غَوَامِضَ الآفاتِ، وَقالَ بَعْضُهُمْ يَامَعْشَرَ الْمُغْتَرِّينَ بِالْعِصَمِ إِنَّ تحتَهَا أَنْوَاعَ النِّقَمِ ، زَيَّنَ اللّٰهُ إِبْلِيسَ بِأَنْوَاعِ عِصْمَتِهِ ، وَهُوَ عِنْدَهُ فِى حَقَائِقِ لَعْنَتِهِ ، وَزَيَّنَ بَلْعَامَ بِأَنْوَارِ وِلَايَتِهِ ، وَهُوَ عِنْدَهُ فِى حَقَائِقِ عَدَاوَتِهِ ، وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ، وَقِيلَ لِذِى النُّونِ : مَا أَقْصَى مَا يُخْدَعُ بِهِ الْعَبْدُ ؟ قَالَ بِالْأَلْطَافِ وَالْكَرَامَاتِ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) قَالَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ : نُسْبِغُ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ وَنُنْسِيهِمُ الشُّكْرَ ،

أو كنت من الأشقياء (فلا تغتر بصفاء الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات) والغوامض جمع غامض وهو خلاف الواضح (وقال بعضهم يا معشر المغترين بالعصم) جمع عصمة (إن تحتها) أى العصم (أنواع النقم) جمع نقمة (زين الله إبليس) اللعين (بأنواع عصمته وهو) أى إبليس (عنده) تعالى (فى حقائق لعنته وزين) الله (بلعام) بن باعوراء من علماء بنى إسرائيل (بأنوار ولايته وهو) أى بلعام (عنده) تعالى (فى حقائق عداوته ، و) روى (عن على) بن أبى طالب (رضى الله عنه أنه قال : كم من مستدرج) بصيغة اسم المفعول (بالإحسان إليه) أى إلى المستدرج (وكم من مفتون بحسن القول فيه ، وكم من مغرور بالستر عليه ، وقيل لذى النون) أبى الفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى الصالح المشهور أحد رجال الطريقة ، توفى فى ذى القعدة سنة خمس وأربعين ، وقيل ست وأربعين ، وقيل ثمان وأربعين ومائتين بمصر ودفن بالقرافة الصغرى (ما أقصى) أى غاية (ما يخدع به العبد . قال) ذو النون (بالألطاف والكرامات) ولذلك أى ما قاله ذو النون (قال) الله (سبحانه) وتعالى « والذين كذبوا بآياتنا (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ») قال الأزهرى : سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك أن الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون ، وقيل معناه : سنقربهم إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لأنهم كانوا إذا أتوا بجرم أو قدموا على ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة فى الدنيا فيزدادون بذلك تماديا فى الغى والضلال ويتدرجون فى الذنوب والمعاصى فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه . وقال الضحاك : معناه كلما جددوا معصية جددنا نعمة . وقال الكلبى : نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها ، و (قال أهل المعرفة) منهم سفيان الثورى (نسبغ) أى نكمل (عليهم النعم وننسيهم الشكر) روى أن عمر بن الخطاب لما حمل إليه كنوز كسرى قال : اللهم إنى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإنى سمعتك تقول « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » قال أهل المعانى : الاستدراج أن يتدرج الشىء إلى الشىء فى خفية قليلا قليلا

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

وَاعْلَمْ أَنَّكَ كُلَّمَا صِرْتَ أَقْرَبَ فَأَمْرُكَ أَخْوَفُ وَأَصْعَبُ ، وَالْمُعَامَلَةُ أَشَدُّ وَأَدَقُّ ، وَالْخَطَرُ عَلَيْكَ أَعْظَمُ ، فَإِنَّ الشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَبْلَغَ عُلُوًّا إِذَا انْقَلَبَ كَانَ أَصْعَبَ وُقُوعًا ، كَمَا قِيلَ :

مَا طَارَ طَيْرٌ فَارْتَفَعْ إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعْ

فَإِذَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْأَمْنِ وَإِغْفَالِ الشُّكْرِ وَتَرْكِ الِابْتِهَالِ فِي الْحِفْظِ بِحَالٍ ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يَقُولُ : كَيْفَ تَأْمَنُ وَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُ : (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

ومنه درج الصبي : إذا قارب بين خطاه فى المشى ، ومنه درج الكتاب : إذا طواه شيئا بعد شيء (كما قال الشاعر) من بحر البسيط (أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت) أى تلك الأيام (ولم تخف سوء ما يأتى به القدر) أى القضاء الذى يقدره الله تعالى (وسالمتك الليالى فاغتررت بها) أى تلك الليالى (وعند صفو الليالى يحدث) بضم الدال من باب قعد : أى يتجدد (الكدر) ويزول الصفاء (واعلم أنك كلما صرت أقرب) إلى الله تعالى (فأمرك أخوف وأصعب والمعاملة) أى العبادة (أشد وأدق والخطر عليك أعظم فإن الشيء كلما كان أبلغ علواً إذا انقلب) سفلا (كان) ذلك الشيء (أصعب وقوعا كما قيل) من بحر الكامل المضمر المجزوء (ما طار طير فارتفع) بسكون العين للوزن فى طيرانه إلى السماء (إلا كما طار) ذلك الطير (وقع) بسكون العين أيضاً : أى إلى الأرض (فإذن) أى إذا كان الأمر كلما صار أقرب فهو أخوف وأصعب (لا سبيل إلى الأمن وإغفال الشكر وترك الابتهال) والتضرع (فى الحفظ بحال) من الأحوال (وكان ابراهيم بن أدهم) بن منصور رحمة الله عليه ، توفى سنة إحدى وستين ومائة (يقول : كيف تأمن) ولا تخاف (و) نبي الله (ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه يقول) « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ») يعنى أبعدنى وإياهم أن نعبدها . فان قلت : قد توجه على هذه الآية إشكالات وهى من وجوه : الأول أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها . الوجه الثانى أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الأصنام وإذا كان كذلك فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادتها . الوجه

وَيُوسُفُ الصِّدِّيقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : (تَوَفَّنِي مُسْلِماً)

الثالث أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضاً أن يجنب بنيه عن عبادة الأصنام ، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام . قلت : الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه : فالجواب عن الوجه الأول من وجهين : أحدهما أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء ، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة ، وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » أخرجاه في الصحيحين وأجيب عنه بأن قوله « اجعل هذا البلد آمنا » يعني إلى قرب القيامة وخراب الدنيا ، وقيل : هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين فلا تعارض بين النصين . الوجه الثاني أن يكون المراد اجعل أهل هذا البلد آمنين ، وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله « ويتخطف الناس من حولهم » وأهل مكة آمنون من ذلك ، حتى إن من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وماله من ذلك ، وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فإذا دخلت الحرم أمنت واستأنست لعلمها أنه لا يهيجها أحد في الحرم ، وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها . وأما الجواب عن الوجه الثاني فمن وجوه أيضا : الوجه الأول أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبت فهو كقوله « واجعلنا مسلمين لك » . الوجه الثاني أن إبراهيم عليه السلام وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا بهذا الدعاء هضما للنفس وإظهارا للعجز والحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته وأن أحداً لا يقدر على نفع نفسه بشيء لم ينفعه الله به ، فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء . وأما دعاؤه لبنيه وهو الوجه الثالث من الإشكالات ، فالجواب عنه من وجوه : الأول أن ابراهيم دعا لبنيه من صلبه ولم يعبد أحدمنهم صنما قط . الوجه الثاني : أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولاشك أن إبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم . الوجه الثالث : قال الواحدي : دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال : وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم لأن دعاء الأنبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم ، فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص . الوجه الرابع أن هذا مختص بالمؤمنين من أولاده ، والدليل عليه أنه قال في آخر الآية « فمن تبعني فإنه مني » وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ذكره الخازن (ويوسف الصديق عليه السلام يقول:) «أنت ولي في الدنيا والآخرة (توفني مسلما») أي اقبضني إليك مسلما . واختلفوا هل هو طلب للوفاة في الحال أم لا على قولين : أحدهما أنه سأل الله الوفاة في الحال . قال قتادة : لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف . قال أصحاب هذا القول وإنه لم يأت عليه أسبوع حتي توفي ، والقول الثاني أنه سأل الوفاة على الإسلام ولم يتمن الموت في الحال . قال الحسن : إنه

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَا يَزَالُ يَقُولُ : اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، كَأَنَّهُ فِي سَفِينَةٍ يَخْشَى الْغَرَقَ .

وَبَلَغَنَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : تَأَمَّلْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ لَيْلَةً ، فَبَكَى اللَّيْلَ أَجْمَعَ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَبُكَاؤُكَ هٰذَا عَلَى الذُّنُوبِ ؟ قَالَ فَحَمَلَ تِبْنَةً وَقَالَ : اَلذَّنْبُ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هٰذَا ، وَإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ يَسْلُبَنِي اللهُ الْإِسْلَامَ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ .

وَسَمِعْتُ أَنَا بَعْضَ الْعَارِفِينَ يَقُولُ : إِنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى عَنْ أَمْرِ بَلْعَامَ وَطَرْدِهِ بَعْدَ

عاش بعد هذه سنين كثيرة ، فعلى هذا القول يكون معنى الآية : توفنى إذا توفيتنى على الإسلام فهو طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام وليس فى اللفظ ما يدل على أنه طلب الوفاة فى الحال . قال بعض العلماء : وكلا القولين محتمل لأن اللفظ صالح للأمرين ، ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه أن الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وأن نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال ، ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم « لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به» فإن تمنى الموت عند وجود الضرر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولي . قال علماء التاريخ : عاش يوسف مائة وعشرين سنة ، وفى التوراة مائة وعشر سنين ، وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفراشيم وميشا ورحمة امرأة أيوب ، وقيل : عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر ، ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه فى النيل فى صندوق من رخام ، وقيل من حجارة المرمر . وذلك أنه لما مات يوسف تشاح الناس فيه فطلب كل أهل محلة أن يدفن فى محلتهم رجاء بركته حتى هموا أن يقتتلوا ، ثم رأوا أن يدفنوه فى النيل بحيث يجرى الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته إلى جميعهم.. وقال عكرمة : إنه دفن فى الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر ، فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب وأجدب الجانب الأيمن فدفنوه فى وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان ، فبقى إلى أن أخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام فى الأرض المقدسة (وكان سفيان الثورى) رحمه الله (لا يزال يقول اللهم سلم سلم كأنه) أى الثورى (فى سفينة يخشى الغرق) أى الرسوب فى الماء (وبلغنا عن محمد بن يوسف رحمه الله أنه قال : تأملت سفيان الثورى ليلة فبكى) سفيان (الليل أجمع فقلت له أبكاؤك هذا على الذنوب ؟ قال) محمد بن يوسف (فحمل) سفيان (تبنة وقال) سفيان (الذنب أهون على الله من هذا) أى الذى حملته من التبنة (وإنما أخشى أن يسلبنى الله الإسلام والعياذ بالله) من ذلك السلب (وسمعت أنا بعض العارفين) رحمه الله (يقول : إن بعض الأنبياء عليهم) الصلاة و (السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعام) بن باعوراء (وطرده) عن رحمته تعالى (بعد) أن

تِلْكَ الآيَاتِ وَالْكَرَامَاتِ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: لَمْ يَشْكُرْنِى يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ عَلَى مَا أَعْطَيْتُهُ ، وَلَوْ شَكَرَنِى عَلَى ذَٰلِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَمَا سَلَبْتُهُ ، فَتَيَقَّظْ أَيُّهَا الرَّجُلُ وَاحْتَفِظْ بِرُكْنِ الشُّكْرِ جِدًّا ، وَاحْمَدِ اللهَ عَلَى نِعَمِهِ فِى الدِّينِ ، وَأَعْلَاهَا الْإِسْلَامُ وَالْمَعْرِفَةُ ، وَأَدْنَاهَا مَثَلًا تَوْفِيقُ تَسْبِيحٍ أَوْ عِصْمَةٍ عَنْ كَلِمَةٍ لَا تَعْنِيكَ ، عَسَى أَنْ يُتِمَّ نِعَمَهُ عَلَيْكَ وَلَا يَبْتَلِيَكَ بِمَرَارَةِ الزَّوَالِ ، فَإِنَّ أَمَرَّ الْأُمُورِ وَأَصْعَبَهَا الْإِهَانَةُ بَعْدَ الْإِكْرَامِ ، وَالطَّرْدُ بَعْدَ التَّقْرِيبِ ، وَالْفِرَاقُ بَعْدَ الْوِصَالِ ، وَاللهُ تَعَالَى الْمَاجِدُ الْكَرِيمُ ، الرءوفُ الرَّحِيمُ .

﴿ فصل ﴾ وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ النَّظَرَ فِى مِنَنِ اللهِ تَعَالَى الْعِظَامِ عَلَيْكَ ، وَأَيَادِيهِ الْجِسَامِ الْكِرَامِ لَدَيْكَ ، الَّتِى لَا يُحْصِيهَا

كان قد أوتى ما أوتيه من (تلك الآيات والكرامات ، فقال الله تعالى) إن بلعام (لم يشكرنى يوما من الأيام على ما أعطيته) من الآيات والكرامات (ولو شكرنى على ذلك) الذى أعطيته منها (مرة واحدة لما سلبته) وطردته (فتيقظ) أى تنبه من نوم الغفلة (أيها الرجل واحتفظ بركن الشكر جدا واحمد الله على نعمه) عز وجل (فى الدين وأعلاها) أى النعم (الإسلام والمعرفة وأدناها مثلا توفيق تسبيح أو عصمة عن كلة لا تعنيك عسى أن يتم) الله تعالى (نعمه عليك ولايبتليك بمرارة الزوال فإن أمر الأمور) أى أشد مرارتها (وأصعبها) أي الأمور (الإهانة بعد الإكرام والطرد) أى البعد عن رحمة الله (بعد التقريب) منها (والفراق بعد الوصال والله تعالى الماجد) أى الجيل الأفعال والكثير الإفضال ، وقيل : هو العالى المرتفع (الكريم) أى المتفضل الذي يعطى من غير مسئلة ولاوسيلة ، وقيل : المتجاوز الذى لايستقصى فى العقاب (الرءوف) أى ذو الرأفة وهي شدة الرحمة فهو أبلغ من الرحيم والراحم . والفرق بين الرأفة والرحمة أن الرحمة إحسان مبدؤه شفقة المحسن ، والرأفة إحسان مبدؤه فاقة المحسن إليه (الرحيم) أى المنعم بنعم من أجل احتياج المنعم عليه وفاقته .

فصــــــل

(وجملة الأمر) أى حاصله (أنك إذا أحسنت النظر فى منن الله تعالى العظام عليك وأياديه) أى نعمه (الجسام) أى العظام (الكرام لديك) أى عندك (التى لا يحصيها) أى المنن والنعم

قَلْبُكَ وَلاَ يُحِيطُ بِهَا وَهْمُكَ حَتَّى خَلَفْتَ هَذِهِ الْعَقَبَاتِ الصِّعَابَ، فَوَجَدْتَ الْعُلُومَ وَالْبَصَائِرَ، وَتَطَهَّرْتَ مِنَ الْأَوْزَارِ وَالْكَبَائِرِ ، وَسَبَقْتَ الْعَوَائِقَ ، وَدَفَعْتَ الْعَوَارِضَ ، وَظَفِرْتَ بِالْبَوَاعِثِ ، وَسَلِمْتَ مِنَ الْقَوَادِحِ ، فَكَمْ حَصَلَ لَكَ فِيهَا مِنْ خَصْلَةٍ شَرِيفَةٍ ، وَرُتْبَةٍ عَالِيَةٍ مُنِيفَةٍ ، أَوَّلُهَا التَّبْصِيرُ وَالتَّعْرِيفُ وَآخِرُهَا التَّقْرِيبُ وَالتَّشْرِيفُ ، فَتَأَمَّلْتَ فِيهَا بِمِقْدَارِ عَقْلِكَ وَتَوْفِيقِكَ ، وَشَكَرْتَ اللهَ عَلَى قَدْرِ طَوْقِكَ بِأَنْ يَشْغَلَ لِسَانَكَ بِحَمْدِهِ وَثَنَائِهِ ، وَيَمْلَأَ قَلْبَكَ بِعَظَمَتِهِ وَبَهَائِهِ ، وَيُبَلِّغَكَ مَبْلَغاً يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عِصْيَانِهِ ، وَيَبْعَثَكَ عَلَى الْخِدْمَةِ لَهُ بِمَا أَمْكَنَكَ ، أَوْ بِسَعَةِ طَاقَتِكَ ، مُعْتَرِفاً بِالْقُصُورِ عَنْ حَقِّ إِنْعَامِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَكُلَّمَا أَغْفَلْتَ شُكْرَهُ أَوْ فَتَرْتَ أَوْ زَلَلْتَ ، عَاوَدْتَ وَاجْتَهَدْتَ وَتَضَرَّعْتَ إِلَيْهِ وَابْتَهَلْتَ وَتَوَسَّلْتَ وَقُلْتَ : يَا أَللهُ يَامَوْلاَيَ كَمَا بَدَأْتَ بِالْإِحْسَانِ بِفَضْلِكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ فَأَتْمِمْهُ بِفَضْلِكَ أَيْضاً مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ وَتُنَادِيهِ بِنِدَاءِ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ وَجَدُوا تَاجَ هِدَايَتِهِ ، وَذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ ،

(قلبك ولا يحيط بها وهمك حتى خلفت هذه العقبات الصعاب فوجدت العلوم والبصائر وتطهرت من الأوزار أى الذنوب (والكبائر ، وسبقت العوائق) أى الموانع التى تمنع عن العبادة (ودفعت العوارض وظفرت بالبواعث وسلمت من القوادح فكم حصل لك فيها) أى فى تلك المنن والنعم (من خصلة شريفة ورتبة عالية منيفة) أى رفيعة (أولها) أى الخصلة (التبصير والتعريف وآخرها) أى تلك الخصلة (التقريب والتشريف فتأملت فيها) أى فى المنن المذكورة (بمقدار عقلك وتوفيقك وشكرت الله على قدر طوقك) أى طاقتك وقوتك ، وذلك (بأن يشغل) الله تعالى (لسانك بحمده) تعالى (وثنائه و) أن (يملأ) سبحانه (قلبك بعظمته وبهائه) أى جلاله تعالى (و) أن (يبلغك) الله (مبلغا يحول بينك وبين عصيانه و) أن (يبعثك) أى يحملك (على الخدمة) أى الطاعة (له) تعالى (بما أمكنك أو بسعة طاقتك) حال كونك (معترفا بالقصور عن حق إنعامه) تعالى (وإحسانه ، وكلما أغفلت شكره أو فترت أوزللت عاودت) أى رجعت (واجتهدت وتضرعت إليه) سبحانه (وابتهلت وتوسلت وقلت يا الله يامولاى كما بدأت بالإحسان بفضلك من غير استحقاق فأتممه) أي الإحسان (بفضلك أيضا) أى كما بدأت به (من غير استحقاق وتناديه) تعالى (بنداء أوليائه الذين وجدوا تاج هدايته) أى هداية الله التى كالتاج بمعنى الأكليل بجامع الإكرام على لابسه وصاحبه (وذاقوا) أى أولئك الأولياء (حلاوة معرفته)

فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ حُرْقَةَ الطَّرْدِ وَالْإِهَانَةِ ، وَوَحْشَةَ الْبُعْدِ وَالضَّلَالَةِ ، وَمَرَارَةَ الْعَزْلِ وَالْإِزَالَةِ ، فَتَضَرَّعُوا بِالْبَابِ مُسْتَغِيثِينَ ، وَمَدُّوا إِلَيْهِ الْأَكُفَّ مُبْتَهِلِينَ ، وَنَادَوْا فِي الْخَلَوَاتِ مُسْتَصْرِخِينَ : (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) .

قُلْتُ أَنَا : تَقْدِيرُهُ — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — أَنَّا وَجَدْنَا مِنْكَ نِعْمَةً فَطَمِعْنَا فِي أُخْرَى ،

تعالى (فخافوا على أنفسهم حرقة الطرد) أى حرارته (والإهانة ووحشة البعد والضلالة ومرارة العزل) عن مجلس القرب (والإزالة فتضرعوا بالباب) أى باب رحمته (مستغيثين) أى مستعينين ومستنصرين (ومدوا إليه) تعالى (الأكف مبتهلين) أى متضرعين (ونادوا فى الخلوات مستصرخين ومستغيثين (ربنا لا تزغ قلوبنا) أى لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين فى قلوبهم زيغ (بعد إذ هديتنا) أى وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك وهب لنا من لدنك رحمة أى أعطنا توفيقا وتثبتا للذى نحن عليه من الإيمان والهدى ، وقيل: هب لنا تجاوزاً ومغفرة (إنك أنت الوهاب) الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض ، والوهاب فى صفة الله تعالى أنه تعالى يعطى كل أحد على قدر استحقاقه . روى مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » هذا من أحاديث الصفات ، وللعلماء فيه قولان: أحدهما الإيمان به ، وإمراره كما جاء من غير تعرض لتأويل ولا تكييف ولا لمعرفة معناه ، بل نؤمن به كما جاء وأنه حق ونكل علمه إلى مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . هذا القول هو مذهب أهل السنة من سلف الأمة وخلفها من أهل الحديث وغيرهم . والقول الثانى : أنه يتأول بحسب ما يليق به وأن ظاهره غير مراد . قال تعالى « ليس كمثله شئ » فعلى هذا المراد هو المجاز كما يقال فلان فى قبضتى وفى كفى يريد أنه تحت قدرته وفى تصرفه لا أنه حال فى كفه ، فمعنى الحديث أنه سبحانه وتعالى متصرف فى قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شئ ولا يفوته ما أراد كما لا يمتنع على الإنسان ما بين أصبعيه . فخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما يفهمونه ويعلمونه من أنفسهم ، وإنما ثنى لفظ الأصبعين والقدرة واحدة لأنه جرى على المعهود من التمثيل بحسب ما اعتادوه وإن كان غير مقصود به التثنية أو الجمع ، وهذا مذهب جمهور المتكلمين وغيرهم من المتأخرين إنما خص القلوب بالذكر لفائدة ، وهى أن الله تعالى جعل القلوب محلا للخواطر والارادات والنيات وهى مقدمات الأفعال . ثم جعل سائر الجوارح تابعة للقلوب فى الحركات والسكنات (قلت أنا تقديره والله أعلم : إنا وجدنا منك نعمة فطمعنا فى) نعمة (أخرى

فَإِنَّكَ أَنْتَ الْجَوَادُ الْوَهَّابُ، فَكَمَا وَهَبْتَ لَنَا مَزِيَّةَ الْإِنْعَامِ فِي الْابْتِدَاءِ، فَهَبْ لَنَا رَحْمَةَ الْإِتْمَامِ فِي الْانْتِهَاءِ، أَمَا تَسْمَعُ - وَيْحَكَ - أَنَّ أَوَّلَ دُعَاءٍ عَلَّمَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِبَادَهُ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، هٰذَا الدُّعَاءُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) أَيْ ثَبِّتْنَا عَلَيْهِ وَأَدِمْهُ لَنَا، هٰكَذَا تَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ فَإِنَّ الْخَطْبَ عَظِيمٌ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْحُكَمَاءَ نَظَرُوا فَرَدُّوا مَصَائِبَ الْعَالَمِ وَمِحَنَهُمْ كُلَّهَا إِلَى خَمْسٍ الْمَرَضِ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْفَقْرِ فِي الشَّيْبِ، وَالْمَوْتِ فِي الشَّبَابِ، وَالْعَمَى بَعْدَ الْبَصَرِ، وَالْفِكْرَةِ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ، وَأَحْسَنُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ ... وَلَيْسَ لِلّٰهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

فإنك أنت الجواد الوهاب فكما وهبت لنا مزية الإنعام) أي فضيلته، في المصباح المزية فعيلة، وهي التمام والفضيلة، ولفلان مزية أي فضيلة يمتاز بها عن غيره قالوا: ولا يبنى منه فعل وهو ذو مزية في الحسب والشرف أي ذو فضيلة والجمع مزايا مثل عطية وعطايا (في الابتداء فهب لنا رحمة الاتمام في الانتهاء أما تسمع ويحك أن أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين الذين اصطفاهم) أي اختارهم الله (من بين خلقه هذا الدعاء) وهو (قوله تعالى «اهدنا الصراط المستقيم» أي ثبتنا عليه) أي على هذا الصراط (وأدمه لنا) وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى سؤال التثبت وطلب مزيد الهداية، لأن الألطاف والهدايات من الله لا تتناهى، وهذا مذهب أهل السنة، والصراط: الطريق. قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

أي على طريقة حسنة. قال ابن عباس: هو دين الإسلام، وقيل هو القرآن وروى ذلك مرفوعا، وقيل السنة والجماعة، وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة (هكذا) أي مثل تضرعهم (تتضرع) أنت أيها الرجل (إليه) تعالى (فان الخطب) أي الأمر (عظيم. وقيل إن الحكماء) أي الواضعين الشيء في محله وهم الأولياء الصالحون، وليس المراد بالحكماء هنا الأطباء بل المراد بهم أطباء القلوب (نظروا فردوا مصائب العالم) بفتح اللام (ومحنهم) أي العالمين (كلها إلى خمس) أحدها (المرض في الغربة) أي محل بعيد عن وطن المريض (و) ثانيها (الفقر في الشيب) أي ابيضاض الشعر المسود: يعني في حال الكبر (و) ثالثها (الموت في الشباب. و) رابعها (العمي بعد البصر. و) خامسها (النكرة) أي الكفر (بعد المعرفة) أي بعد معرفة الله تعالى وإيمانه (وأحسن من ذلك) أي قول الحكماء (قول من قال) من بحر البسيط (لكل شيء إذا فارقته عوض. وليس لله إن فارقت) دين الله بالنكرة (من عوض) وفي الإشارات عن الله سبحانه وتعالى

وَلِغَيْرِهِ :

إذا أَبقتِ الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ دِينَهُ   فَما فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرِ

وَكَذٰلِكَ فِى كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكَ وَتَأْيِيدٍ أَيَّدَكَ بِهِ فِى قَطْعِ عَقَبَةٍ مِنَ الْعَقَبَاتِ لِيُثَبِّتَ عَلَيْكَ مَا أَعْطَى وَيَزِيدَكَ فَوْقَ مَا تُرِيدُ وَتَتَمَنَّى، فَإِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ كُنْتَ قَدْ خَلَّفْتَ هٰذِهِ الْعَقَبَةَ الْخَطِيرَةَ ، وَكُنْتَ قَدْ ظَفِرْتَ بِالْكَنْزَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا الِاسْتِقَامَةُ وَالِاسْتِزَادَةُ فَتَدُومُ لَكَ النِّعَمُ الْمَوْجُودَةُ الَّتِى أَعْطَاكَهَا فَلَا تَخْشَى زَوَالَهَا وَيَزِيدُكَ مِنَ النِّعَمِ الْمَفْقُودَةِ الَّتِى لَمْ تُعْطَ بَعْدُ مَالَا تُحْسِنُ أَنْ تَسْأَلَهَا وَتَتَمَنَّاهَا ، فَلَا تَخْشَ فَوَاتَهَا وَكُنْتَ حِينَئِذٍ مِنَ الْعَارِفِينَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ بِالدِّينِ التَّائِبِينَ الطَّاهِرِينَ الزَّاهِدِينَ فِى الدُّنْيَا الْمُتَجَرِّدِينَ لِلْخِدْمَةِ الْقَاهِرِينَ لِلشَّيْطَانِ، الْمُتَّقِينَ حَقَّ التَّقْوَى بِالْقَلْبِ وَالْأَرْكَانِ الْقَاصِرِينَ لِلْأَمَلِ النَّاصِحِينَ ،

لا تركنن إلى شىء دوننا فانه وبال عليك وقاتل لك فان ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن أويت إلى العمل رددناه عليك ، وإن وثقت بالحال وقفناك معه ، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك اليهم ، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك ، فأى حيلة لك وأى قوة معك ؟ فارضنا لك ربا حتى نرضاك لنا عبدا (ولغيره) أى القائل المذكور من بحر الطويل (إذا أبقت الدنيا على المرء دينه. فما) أى الذى (فاته منها) أى من الدنيا (فليس بضائر) أى يضره (وكذلك) أى تتضرع (فى كل نعمة أنعم) الله تعالى (بها عليك وتأييد أيدك) الله (به فى قطع عقبة من العقبات) السبع (ليثبت) سبحانه وتعالى (عليك ماأعطى) من النعم (ويزيدك) تعالى (فوق ما تريد و) ما (تتمنى ، فإذا فعلت ذلك) أى التضرع والابتهال إليه تعالى عن كل نعمة وتأييد (كنت قد خلفت) وراءك (هذه العقبة الخطيرة) أى العظيمة وهى عقبة الحمد والشكر (وكنت قد ظفرت بالكنزين الكريمين العزيزين اللذين هما الاستقامة) على الطاعة (والاستزادة) أى طلب زيادة النعم (فتدوم لك النعم الموجودة التى أعطاكها) الله تعالى (فلا تخشى زاولها) أى تلك النعم (ويزيدك) الله (من النعم المفقودة) بيان مقدم لما فى قوله مالا تحسن (التى لم تعط بعد) أى إلى الآن (مالا تحسن أن تسألها وتتمناها) أى النعم المفقودة (فلا تخش فواتها) أى تلك النعم (وكنت حينئذ) أى حين إذ كنت قد ظفرت بالكنزين الكريمين (من العارفين العلماء العاملين بالدين) القويم (التائبين) من الذنوب (الطاهرين) من العيوب (الزاهدين فى الدنيا المتجردين للخدمة) أى الطاعة (القاهرين للشيطان) اللعين (المتقين حق التقوى بالقلب والأركان) أى الأعضاء (القاصرين للأمل الناصحين)

الْخَاشِعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ الْمُفَوِّضِينَ الرَّاضِينَ الصَّابِرِينَ الْخَائِفِينَ الرَّاجِينَ الْمُخْلِصِينَ الذَّاكِرِينَ الْمِنَّةَ الشَّاكِرِينَ لِأَنْعُمِ سَيِّدِهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ تَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْتَقِيمِينَ الْمُكَرَّمِينَ الصِّدِّيقِينَ. فَتَأَمَّلْ هَذَا الْكَلَامَ ، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ ، فَإِنْ قُلْتَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، لَقَدْ قَلَّ مِنَ النَّاسِ الْعَابِدُ لِهَذَا الْمَعْبُودِ وَالْوَاصِلُ إِلَى هَذَا الْمَقْصُودِ ، وَمَنِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى هَذِهِ الْمُؤَنِ وَتَحْصِيلِ هَذِهِ الشَّرَائِطِ وَالسُّنَنِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ، كَذَلِكَ يَقُولُ : وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ لَا يَعْقِلُونَ ، لَا يَعْلَمُونَ ، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَعَلَى الْعَبْدِ الْاجْتِهَادُ ، وَعَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ يَقُومُ بِمَا عَلَيْهِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالرَّبِّ الْقَدِيرِ الْغَنِيِّ الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ .

فَانْ قُلْتَ فَالْعُمْرُ قَصِيرٌ ، وَهَذِهِ :

أي المريدين للخير (الخاشعين المتواضعين المتوكلين المفوضين) لله تعالى (الراضين) بقضائه تعالى (الصابرين) على بلائه تعالى (الخائفين) عذابه (الراجين) رحمته (المخلصين الذاكرين المنة الشاكرين لأنعم سيدهم رب العالمين . ثم تصير بعد ذلك) أى بعد أن كنت من جملة العارفين (من المستقيمين المكرمين الصديقين فتأمل هذا الكلام) الذى ذكرناه (والله تعالى ولي التوفيق ، فان قلت إذا كان الأمر كذلك) أى الذى وصفته من المعرفة والعمل والتوبة وغير ذلك (لقد قل) وندر (من الناس العابد لهذا المعبود والواصل إلى هذا المقصود ومن الذى يقوى على) حمل (هذه المؤن وتحصيل هذه الشرائط والسنن، فاعلم أن الله تعالى كذلك) أى مثل القلة والندرة (يقول : وقليل من عبادى الشكور ولكن أكثر الناس لا يشكرون لا يعقلون لايعلمون ، ثم إن ذلك) أى المذكور من العبادة للمعبود والوصول إلى المقصود (يسير) أى سهل وهين (على من يسره) أى سهله (الله تعالى عليه) أى على ذلك المذكور منهما (وعلى العبد الاجتهاد) فى العبادة (وعلى الله سبحانه) أى تفضلا منه تعالى لا وجوبا (الهداية) لأقوم الطريق (قال الله تعالى : والذين جاهدوا فينا) أى فى حقنا (لنهدينهم سبلنا) أى سبيل السير إلينا والوصول إلى جنابنا أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها (وإذا كان العبد الضعيف يقوم بما) يجب (عليه) من الاجتهاد فى العبادة (فما ظنك بالرب القدير) أى المتمكن من الفعل بلا معالجة ولا واسطة (الغني) أى المستغنى عن كل شيء لا يفتقر إلي شيء (الكريم الرحيم ؟ فان قلت فالعمر قصير وهذه) العقبات المذكورة

عَقَبَاتٌ طَوِيلَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَكَيْفَ يَبْقَى الْعُمْرُ حَتَّى تَكْمُلَ هٰذِهِ الشَّرَائِطَ ، وَتَقْطَعَ هٰذِهِ الْعَقَبَاتُ . فَلَعَمْرِى إِنَّ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ طَوِيلَةٌ وَالشَّرَائِطُ فِيهَا شَدِيدَةٌ ، وَلٰكِنْ إِذَا أَرَادَ اللّٰهُ تَعَالَى أَنْ يَجْتَبِىَ عَبْدَهُ قَصَّرَ عَلَيْهِ طَوِيلَهَا وَهَوَّنَ عَلَيْهِ شَدِيدَهَا حَتَّى يَقُولَ بَعْدَ قَطْعِهَا : مَا أَقْرَبَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ وَأَقْصَرَهَا ، وَمَا أَهْوَنَ هٰذَا الْأَمْرَ وَأَيْسَرَهُ .

وَفِى مِثْلِ ذٰلِكَ قُلْتُ أَنَا عِنْدَ وُقُوفِى عَلَى هٰذِهِ الْغَايَةِ :

عَلَمُ الْمَحَجَّةِ وَاضِحٌ لِمُرِيدِهِ ... وَأَرَى الْقُلُوبَ عَنِ الْمَحَجَّةِ فِى عَمَى

وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِهَالِكٍ وَنَجَاتُهُ ... مَوْجُودَةٌ وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ نَجَا

حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُ هٰذِهِ الْعَقَبَاتِ فِى سَبْعِينَ سَنَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِى عِشْرِينَ سَنَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِى عَشْرِ سِنِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ فِى سَنَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهَا فِى شَهْرٍ بَلْ فِى جُمُعَةٍ ، بَلْ فِى سَاعَةٍ ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ فِى لَحْظَةٍ

(عقبات طويلة شديدة فكيف يبقى العمر حتى تكمل هذه الشرائط وتقطع هذه العقبات فلعمرى إن هذه العقبات طويلة) جداً كما تقول أيها القائل (والشرائط فيها) أى فى هذه العقبات (شديدة ولكن إذا أراد الله تعالى أن يجتبى) أى يصطفى ويختار (عبده قصر) سبحانه (عليه) أى العبد (طويلها) أى تلك العقبات (وهون) أى يسر الله (عليه) أى العبد (شديدها حتى يقول) العبد (بعد قطعها) أى مجاوزتها (ما أقرب) فعل تعجب (هذه الطريق وأقصرها) أى هذه الطريق (وما أهون) فعل تعجب أيضا : أى ما أيسر (هذا الأمر وأيسره) مرادف لما قبله (وفى مثل ذلك) الذى يقوله العبد بعد القطع والمجاوزة (قلت : أنا عند وقوفى على هذه الغاية) من بحر الكامل (علم) بفتحتين وهو شىء منصوب فى الطريق يهتدى به (المحجة) أى جادة الطريق (واضح) ظاهر (لمريده .) أى ذلك العلم (وأرى القلوب عن المحجة فى عمى . ولقد عجبت لهالك ونجاته * موجودة ولقد عجبت لمن نجا) أى وهلا كه موجود (حتى أن منهم) أى السالكين (من يقطع هذه العقبات فى سبعين سنة ، ومنهم من يقطعها فى عشرين سنة ، ومنهم من يقطعها فى عشرسنين ، ومنهم من يحصل) قطعها (له فى سنة ومنهم من يقطعها فى شهر بل فى جمعة) أى أسبوع من الأيام (بل فى ساعة حتى أن منهم من يحصل) القطع (له فى لحظة) أى مدة قليلة

بِتَوْفِيقٍ خَاصٍّ وَعِنَايَةٍ سَابِقَةٍ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ .

أَمَا تَذْكُرُ أَصْحَابَ الْكَهْفِ كَيْفَ كَانَتْ مُدَّتُهُمْ خَطِرَةً حَيْثُ رَأَوُا التَّغَيُّرَ فِي وَجْهِ مَلِكِهِمْ دِقْيَانُوسُ فَقَالُوا : (رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا) الْآيَةَ ، حَصَلَتْ لَهُمُ الْمَعْرِفَةُ وَأَبْصَرُوا مَا فِي هٰذِهِ الطَّرِيقِ مِنَ الْحَقَائِقِ ، وَقَطَعُوا هٰذِهِ الطَّرِيقَ فَصَارُوا مُفَوِّضِينَ مُتَوَكِّلِينَ مُسْتَقِيمِينَ ، إِذْ قَالُوا : (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) الْآيَةَ ، وَكُلُّ ذٰلِكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ فِي مِقْدَارِ سَاعَةٍ أَوْ لَحْظَةٍ .

أَمَا تَذْكُرُ سَحَرَةَ فِرْعَوْنَ مَا كَانَتْ مُدَّتُهُمْ إِلَّا لَحْظَةً حَيْثُ رَأَوْا مُعْجِزَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا : (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهٰرُونَ) فَأَبْصَرُوا الطَّرِيقَ وَقَطَعُوهُ فَصَارُوا مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ ، بَلْ أَقَلَّ

(بتوفيق خاص وعناية سابقة من الله سبحانه . أما تذكر أصحاب الكهف كيف كانت مدتهم خطرة حيث رأوا التغير فى وجه ملكهم دقيانوس) الجبار، وهو ممن عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه ، وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحد إلا فتنه عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله (فقالوا) أصحاب الكهف (ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه) لن نعبد من دون الله (إلها) ربا ، إنما قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأصنام (الآية) أى اقرأ آخرها وهو « لقد قلنا إذا شططا» (حصلت لهم) أى لأصحاب الكهف (المعرفة) أى معرفة ربهم (وأبصروا مافى هذه الطريق من الحقائق وقطعوا هذه الطريق فصاروا مفوضين متوكلين مستقيمين إذ قالوا «فأووا إلى الكهف») أى صيروا اليه أو اجعلوا الكهف مأواكم (ينشر لكم ربكم) أى يبسط الرزق لكم ويوسع لكم (من رحمته) فى الدارين (الآية) أى «ويهيء لكم من أمركم مرفقا» (وكل ذلك)أى المذكور من المعارف والحقائق (إنما حصل لهم فى مقدار ساعة أو لحظة . أما تذكر سحرة فرعون) أى السحرة التى جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل ساحر حبل وعصا ، وقيل كانوا أربعمائة ، وقيل كانوا إثنى عشر ألفا (ما كانت مدتهم إلا لحظة حيث رأوا) أى السحرة (معجزة موسى عليه السلام) وهى عصاه المنقلبة حية (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) وإنما قالوا رب موسى وهرون لأن فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا عزله ، كذا ذكره الخازن (فأبصروا الطريق وقطعوه) أى الطريق (فصاروا من ساعة إلى ساعة بل أقل) من ساعة

مِنَ الْعَارِفِينَ بِاللهِ تَعَالَى ، الرَّاضِينَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى ، الصَّابِرِينَ عَلَى بَلَائِهِ ، الشَّاكِرِينَ لِآلَائِهِ ، الْمُشْتَاقِينَ إِلَى لِقَائِهِ ، فَنَادَوْا : (لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) .

وَلَقَدْ حَكَيْنَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ، فَعَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَقَصَدَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مِقْدَارُ سَيْرِهِ مِنْ بَلْخٍ إِلَى مَرْوَرُوذَ حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ أَشَارَ إِلَى رَجُلٍ سَقَطَ مِنَ الْقَنْطَرَةِ فِى الْمَاءِ الْكَثِيرِ هُنَالِكَ أَنْ قِفْ ، فَوَقَفَ الرَّجُلُ مَكَانَهُ فِى الْهَوَاءِ فَتَخَلَّصَ .

وَأَنَّ رَابِعَةَ الْبَصْرِيَّةَ كَانَتْ أَمَةً كَبِيرَةَ السِّنِّ يُطَافُ بِهَا فِى سُوقِ الْبَصْرَةِ ، لَا يَرْغَبُ فِيهَا أَحَدٌ لِكِبَرِ سِنِّهَا ، فَرَحِمَهَا بَعْضُ التُّجَّارِ فَاشْتَرَاهَا بِنَحْوِ مِائَةِ دِرْهَمٍ وَأَعْتَقَهَا ، فَاخْتَارَتْ هٰذِهِ الطَّرِيقَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى الْعِبَادَةِ ، فَلَمَّا تَمَّتْ لَهَا سَنَةٌ حَتَّى زَارَهَا زُهَّادُ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهَا وَعُلَمَاؤُهَا لِعِظَمِ مَنْزِلَتِهَا .

وَأَمَّا الَّذِى لَمْ تَسْبِقْ لَهُ الْعِنَايَةُ وَلَمْ يُعَامَلْ بِالْفَضْلِ وَالْهِدَايَةِ فَيُوكَلُ

(من العارفين بالله تعالى الراضين بقضاء الله تعالى الصابرين على بلائه) تعالى (الشاكرين لآلائه) أى نعمائه ، وهو جمع إلى مقصورة بفتح الهمزة أو كسرها مثل سبب وأسباب لكن أبدلت الهمزة التى هى فاء ألفا استثقالا لاجتماع همزتين (المشتاقين إلى لقائه) جل وعز (فنادوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون) أى لاضرر علينا فيما ينالنا في الدنيا لأنا ننقلب ونصير إلى ربنا فى الآخرة مؤمنين مؤملين غفرانه وهو قولهم «إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين» (ولقد حكينا أن) أبا إسحاق (إبراهيم بن أدهم رحمه الله كان على ما كان عليه من أمر الدنيا) وكان من أبناء الملوك (فعدل) إبراهيم (عن ذلك) أى عما كان عليه من أمر الدنيا (وقصد هذه الطريق فلم يكن إلا مقدار سيره من) بلده (بلخ إلى مروروذ) بلد بخراسان (حتى صار) إبراهيم (بحيث أشار إلى رجل سقط من القنطرة فى الماء الكثير هنالك) أى فى مروروذ (أن قف فوقف الرجل مكانه فى الهواء فتخلص) أى نجا ذلك الرجل وسلم من السقوط (و) قد حكينا أيضا (أن رابعة البصرية كانت أمة كبيرة السن يطاف بها فى سوق البصرة لايرغب فيها) أى فى تلك الأمة الكبيرة (أحد لكبر سنها فرحمها بعض التجار فاشتراها بنحو مائة درهم وأعتقها) المشترى (فاختارت) رابعة (هذه الطريق وأقبلت على العبادة فما) نافية (تمت لها) أى لرابعة (سنة حتى زارها زهاد البصرة وقراؤها وعلماؤها) أى البصرة (لعظم منزلتها) أى رابعة (وأما) الشخص (الذى لم تسبق له العناية) الإلهية (ولم يعامل) بالبناء للمفعول (بالفضل والهداية فيوكل) بالبناء للمفعول أيضا

إلى نَفسِه ، فَرُبَّما يَبقَى فى شِعْبٍ مِنْ عَقَبَةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعِينَ سَنَةً وَلاَ يَقْطَعُهَا ، وَكَمْ يَصِيحُ وَيَصْرُخُ ، مَا أَظْلَمَ هٰذَا الطَّرِيقَ وَأَشْكَلَهُ ، وَأَعْسَرَ هٰذَا الْأَمْرَ وَأَعْضَلَهُ ، فَإِنَّ الشَّأْنَ كُلَّهُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، الْعَدْلِ الْحَكِيمِ

فَإِنْ قُلْتَ : لِمَ اخْتُصَّ هٰذَا بِالتَّوْفِيقِ الْخَاصِّ وَحُرِمَ هٰذَا ، وَكِلَاهُمَا مُشْتَرِكَانِ فى رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ ؟ فَعِنْدَ هٰذَا السُّؤَالِ يُنَادَى مِنْ سُرَادِقِ الْجَلَالِ : أَنِ الْزَمِ الْأَدَبَ وَاعْرِفْ سِرَّ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ : (فَإِنَّهُ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) .

قُلْتُ أَنَا : وَمِثَالُ هٰذَا الطَّرِيقِ فى الدُّنْيَا الصِّرَاطُ فى الآخِرَةِ ، فى عَقَبَاتِهَا وَمَسَافَاتِهَا وَمَقَاطِعِهَا ، وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْخَلْقِ فِيهَا ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ

(إلى نفسه فربما يبقى فى شعب) بالكسر الطريق وقيل الطريق فى الجبل والجمع شعاب (من عقبة واحدة سبعين سنة ولا يقطعها) أى لا يتجاوزها (وكم يصيح ويصرخ) بمعنى واحد (ما أظلم) فعل تعجب (هذا الطريق وأشكله وأعسر هذا الأمر وأعضله) أى أشكله وأصعبه (فإن الشأن كله إلى أصل واحد وذلك) الأصل (تقدير العزيز) أى الغالب بقدرته على كل مقدور (العليم) أى البالغ فى العدل وهو الذى لا يفعل إلا ماله فعله وهو مصدر نعت به للمبالغة فهو من صفات الأفعال (الحكيم) أى ذى الحكمة المحكم الأشياء على ما هى عليه والاتيان بالأفعال على ما ينبغى. فالحكمة بمعنى الأحكام (فان قلت لم) أى لأى شىء (اختص هذا) إشارة إلى من وفقه الله تعالى (بالتوفيق الخاص وحرم) أى منع (هذا) إشارة إلى من لا يوفقه الله تعالى (وكلاهما) أى هذين الرجلين (مشتركان فى ربقة العبودية) الربقة فى الأصل العروة التى يستوثق بها صغار الضأن وإضافتها لما بعدها للبيان : أى فى ربقة هى العبودية أو من إضافة المشبه به للمشبه : أى فى العبودية الشبيهة بالربقة (فعند هذا السؤال ينادى) بالبناء للمفعول (من سرادق الجلال) أى حجبه (أن ألزم الأدب واعرف سر الربوبية وحقيقة العبودية) وقد قيل : العبودية شهود الربوبية وهو سبب عظيم فى دوام العبودية لأن العبد إذا توالت عليه مراقبته لجلال مولاه ذل فى نفسه بالنظر لما هى عليه من جهة طبعها لا بالنظر لما خصها به ربها من كرامته وقيل : من علامات العبودية ترك التدبير وشهود التقدير ، وقال ذو النون المصرى : العبودية أن تكون عبده فى كل حال كما أنه ربك فى كل حال (فإنه) تعالى (لا يسئل عما يفعل) أى عن حكمة ما يفعل سؤال تعنت ، وأما سؤال استرشاد فلا مانع له (وهم) أى العباد (يسئلون . قلت أنا ومثال هذا الطريق) أى طريق العبادة (فى الدنيا الصراط) وهو جسر ممدود فى متن جهنم (فى الآخرة فى عقباتها) أى هذه الطريق (ومسافاتها ومقاطعها واختلاف أحوال الخلق فيها) أى فى تلك الطريق (فمنهم من يمر عليه)

كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالرِّيحِ الْعَاصِفِ ، وَآخَرُ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ ، وَآخَرُ كَالطَّائِرِ ، وَآخَرُ يَمْشِي ، وَآخَرُ يَزْحَفُ حَتَّى يَصِيرَ فَحْمَةً ، وَآخَرُ يَسْمَعُ حَسِيسَهَا ، وَآخَرُ يُؤْخَذُ بِكَلَالِيبَ فَيُطْرَحُ فِي جَهَنَّمَ ؛ فَكَذَٰلِكَ حَالُ هَٰذَا الطَّرِيقِ مَعَ سَالِكِيهِ فِي الدُّنْيَا ، فَهُمَا صِرَاطَانِ : صِرَاطُ الدُّنْيَا ، وَصِرَاطُ الآخِرَةِ ؛ فَصِرَاطُ الآخِرَةِ لِلْأَنْفُسِ يَرَى أَهْوَالَهَا أَهْلُ الْأَبْصَارِ ، وَصِرَاطُ الدُّنْيَا لِلْقُلُوبِ يَرَى أَهْوَالَهَا ذَوُو الْبَصَائِرِ وَالْأَلْبَابِ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتِ الْأَحْوَالُ لِلسَّالِكِينَ فِي الآخِرَةِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، فَتَأَمَّلْ ذَٰلِكَ حَقَّهُ ، فَهَٰذِهِ هَٰذِهِ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

﴿ فصل ﴾ ثُمَّ اعْلَمْ مَا هُوَ التَّحْقِيقُ فِي هَٰذَا الْبَابِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ هَٰذَا الطَّرِيقُ فِي طُولِهِ وَقِصَرِهِ مِثْلَ الْمَسَافَاتِ الْكَائِنَةِ الَّتِي تَسْلُكُهَا الْأَنْفُسُ فَتَقْطَعُهَا

أي على الصراط (كالبرق الخاطف) أي اللامع (ومنهم من يمر عليه) أي الصراط (كالريح العاصف) أي شديد هبوبها (وآخر) يمر عليه (كالفرس الجواد) أي الذي يتحرك بسرعة (وآخر) يمر عليه (كالطائر وآخر يمشي) برجليه وآخر يحبو حبوا (حتى يصير فحمة) وسوادا (وآخر يسمع حسيسها) أي صوت جهنم وآخر يؤخذ بكلاليب) بلا صرف لكونه على صيغة منتهى الجموع جمع كلاب بالضم أو كلوب بالفتح وبتشديد اللام فيهما وهي حديدة معوجة الرأس يختطف بها أو يعلق عليها اللحم ويرسل في التنور أو عود في رأسه حديد فيه اعوجاج يجر به الجمر (فيطرح) أي يرمى (في جهنم فكذلك) أي مثل صراط الآخرة (حال هذا الطريق مع سالكيه في الدنيا فهما صراطان: صراط الدنيا وصراط الآخرة فصراط الآخرة للأنفس يرى أهوالها) أي صراط الآخرة (أهل الأبصار وصراط الدنيا للقلوب يرى أهوالها) أي صراط الدنيا (ذوو البصائر) أي أصحابها (والألباب) أي العقول (إنما اختلفت أحوال السالكين في الآخرة لاختلاف أحوالهم) أي السالكين (في الدنيا فتأمل ذلك) الذي ذكرناه من اختلاف أحوال السالكين (حقه) أي حق ذلك المذكور (فهذه) الجملة (هذه) أي عظيمة (وبالله التوفيق) .

فصل

(ثم اعلم ما هو التحقيق في هذا الباب) أي باب سلوك طريق الآخرة (وهو) أي ما هو التحقيق (أنه) أي الحال والشأن (ليس هذا الطريق) أي طريق الآخرة (في طوله وقصره) أي الطريق (مثل المسافات) الحسية (الكائنة التي تسلكها الأنفس فتقطعها) أي تلك المسافات

بِالْأَقْدَامِ ، فَيَقَعُ قَطْعُهَا عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الْأَنْفُسِ وَضَعْفِهَا ، إِنَّمَا هُوَ طَرِيقٌ رَوْحَانِيٌّ تَسْلُكُهُ الْقُلُوبُ فَتَقْطَعُهُ بِالْأَفْكَارِ عَلَى حَسَبِ الْعَقَائِدِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَصْلُهُ نُورٌ سَمَاوِيٌّ ، وَنَظَرٌ إِلٰهِيٌّ ، يَقَعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ فَيَنْظُرُ بِهِ نَظْرَةً فَيَرَى بِهَا أَمْرَ الدَّارَيْنِ بِالْحَقِيقَةِ ، ثُمَّ هٰذَا النُّورُ رُبَّمَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ مِائَةَ سَنَةٍ فَلَا يَجِدُهُ وَلَا أَثَرًا مِنْهُ ، وَذٰلِكَ لِخَطَئِهِ فِي الطَّلَبِ وَتَقْصِيرِهِ فِي الْاِجْتِهَادِ وَجَهْلِهِ بِطَرِيقِ ذٰلِكَ ، وَآخَرُ يَجِدُهُ فِي خَمْسِينَ سَنَةً ، وَآخَرُ يَجِدُهُ فِي عَشْرٍ ، وَآخَرُ فِي يَوْمٍ ، وَآخَرُ فِي سَاعَةٍ وَلَحْظَةٍ بِعِنَايَةِ رَبِّ الْعِزَّةِ ، وَهُوَ تَعَالَى وَلِيُّ الْهِدَايَةِ ، لٰكِنِ الْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِالْاِجْتِهَادِ ، فَعَلَيْهِ بِمَا أُمِرَ ، وَالْأَمْرُ مَقْسُومٌ مَقْدُورٌ ، وَالرَّبُّ حَكَمٌ عَدْلٌ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا أَعْظَمَ هٰذَا الْخَطَرِ وَأَشَدَّ هٰذَا الْأَمْرِ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هٰذَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ . فَكُلُّ هٰذَا الْعَمَلُ وَالْجُهْدُ وَتَحْصِيلُ هٰذِهِ الشَّرَائِطِ لِمَاذَا ؟

فَأَقُولُ لَعَمْرِي : إِنَّكَ لَصَادِقٌ فِي قَوْلِكَ ، إِنَّ الْأَمْرَ شَدِيدٌ ، وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ تَعَالَى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)

(بالأقدام فيقع قطعها على حسب قوة النفس وضعفها إنما هو) أى هذا الطريق (طريق روحانى تسلكها القلوب فتقطعه) أى الطريق الروحانى (بالأفكار على حسب العقائد والبصائر وأصله نور سماوى ونظر إلهى يقع) أى ذلك النور (فى قلب العبد فينظر به) أى بذلك النور (نظرة فيرى بها) أى بتلك النظرة (أمر الدارين) أى الدنيا والآخرة (بالحقيقة ثم هذا النور ربما يطلبه العبد مائة سنة فلا يجده) أى النور (ولا) يجد (أثرا منه) أى من ذلك النور (وذلك) أى عدم وجدانه لذلك النور (لخطئه) أى العبد (فى الطلب وتقصيره فى الاجتهاد وجهله بطريق ذلك) الطلب (وآخر يجده) أى النور (فى خمسين سنة وآخر يجده فى عشر) من السنين (وآخر) يجده (فى يوم) واحد (وآخر يجده في ساعة ولحظة بعناية رب العزة وهو تعالى ولى الهداية لكن العبد مأمور بالاجتهاد فعليه) أى العبد (بما أمر) من الاجتهاد (والأمر مقسوم مقدور والرب حكم عدل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فان قلت فما أعظم) فعل تعجب (هذا الخطر وأشد هذا الأمر وما أكثر) فعل تعجب أيضاً (ما يحتاج اليه هذا العبد الضعيف فكل هذا العمل والجهد وتحصيل هذه الشرائط لماذا) أى لأى شىء (فأقول لعمرى) أى لواهب عمرى (إنك لصادق فى قولك إن الأمر شديد والخطر عظيم ولذلك) أى لأجل أن الأمر شديد والخطر عظيم (قال تعالى ـ لقد خلقنا الانسان) الجنس (فى كبد) قال ابن عباس: فى نصب ، وقيل يكابد مصائب

وَقَالَ تَعَالَى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ

الدنيا وشدائد الآخرة ، وعنه أيضاً قال فى شدة من حمله وولادته ورضاعه وفطامه وفصاله ومعاشه وحياته وموته ، وأصل الكبد الشدة ، وقيل لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق ، وعن ابن عباس أيضاً قال : الكبد الاستواء والاستقامة فعلى هذا يكون المعنى خلقنا الإنسان منتصبا معتدل القامة وكل شىء من الحيوان يمشى منكبا ، وقيل منتصبا رأسه فى بطن أمه فاذا أذن الله فى خروجه انقلب رأسه إلى أسفل ، وقيل فى كبد : أى فى قوة (وقال تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) قال ابن عباس : أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التى فرضها الله على عباده عرضها على السموات والأرض والجبال على أنهم إذا أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم ، وقال ابن مسعود : الأمانة أداء الصلوات وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل فى المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقيل جميع ما أمروا به ونهوا عنه ،وقيل هىَ الصوم وغسل الجنابة وما يخفى من الشرائع . وقال عبدالله ابن عمرو بن العاص : أول ما خلق الله من الإنسان الفرج وقال هذه الأمانة أستودعكها فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له ، وفى رواية عن ابن عباس : هى أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا فى شىء لا فى قليل ولا كثير فعرض الله تعالى هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف فقال لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها ؟ قلن وما فيها ؟ قال إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن . قلن لا يارب نحن مسخرات لأمرك لانريد ثوابا ولا عقابا وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لدين الله تعالى أن لا يقوموا بها لا معصية ولا مخالفة وكان العرض عليهن تخييرا لا إلزاما ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لأمره ساجدة له . قال بعض أهل العلم: ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة حتى عقلن وأجبن بما أجبن ، وقيل المراد من العرض على السموات والأرض هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها ، والقول الأول أصح وهو قول العلماء (فابين أن يحملنها وأشفقن منها) أى خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهن بالعقاب (وحملها الإنسان) يعنى آدم . قال الله تعالى عز وجل لآدم: إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها . قال يارب وما فيها . قال إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فتحملها آدم فقال بين أذنى وعاتقى . قال الله : أما إذا تحملت فسأعينك وأجعل لبصرك حجابا فإذا خشيت أن لا تنظر إلى مالا يحل فأرخ عليه حجابا وأجعل للسانك لحيين وغلاقا فإذا خشيت فأغلقه وأجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه على ما حرمت عليك . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها وبين أن أخرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر ، وقيل إن ما كلف الإنسان حمله بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الأجرام وأقواه وأشده أن يحتمله ويستقل به فأبى

إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) وَلِذَٰلِكَ قال سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ :
« لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً » .
وَمَا رُوِيَ أَنَّ الْمُنَادِي يُنَادِي مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ : «لَيْتَ الْخَلْقَ لَمْ يُخْلَقُوا وَلَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا

حمله وأشفق منه وحمله الانسان على ضعفه وضعف قوته (إنه كان ظلوما جهولا») قال ابن عباس : إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه وما تحمل من الأمانة ، وقيل ظلوما حين عصى ربه جهولا أى لايدري ما العقاب فى ترك الأمانة ، وقيل ظلوما جهولا حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ولم يف بضمانها . وقيل فى تفسير الآية أقوال أخر : وهو أن الله تعالى ائتمن السموات والأرض والجبال على كل شيء وائتمن آدم وأولاده على شيء فالأمانة فى حق الأجرام العظام هى الخضوع والطاعة لما خلقن له ، وقوله «فأبين أن يحملنها» : أى أدين الأمانة ولم يخن فيها . وأما الأمانة فى حق بنى آدم فهى ما ذكر من الطاعة والقيام بالفرائض ، وقوله «وحملها الانسان» : أى خان فيها وعلى هذا القول حكى عن الحسن أنه قال الانسان هو الكافر والمنافق حملا الأمانة وخانا فيها ، والقول الأول هو قول السلف ، وهو الأولى (ولذلك) أى لأجل قوله وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا (قال سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم : لو علمتم) كذا فى النسخ الكثيرة وفى بعضها : لو تعلمون وهو نسخة العراقى وهو نص الجماعة المخرجين لهذا الحديث (ما أعلم) أى من انتقام الله من أهل الجرائم وأهوال القيامة (لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا) أى كان ضحككم على القلة ، وقيل معناه لما ضحكتم أصلا ، وهذا لمناسبة السياق لأن لو حرف امتناع لامتناع وفيه من أنواع البديع مقابلة الضحك بالبكاء والقلة بالكثرة ومطابقة كل منهما بالآخر ، قال العراقى أخرجاه من حديث عائشة وأنس . وقال الزبيدى : أخرجه أيضا الامام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه كلهم عن أنس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ماسمعت قط بمثلها ثم ذكره : وأخرج الحاكم فى المستدرك من رواية يوسف بن حبان عن مجاهد عن أبى ذر رفعه «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما ساغ لكم الطعام والشراب» وقال على شرطهما ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي بأنه منقطع ، ورواه أيضا من طريقه ابن عساكر فى التاريخ بتلك الزيادة وأخرج الحاكم أيضا فى كتاب الرقاق والبيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء رفعه « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون لا تدرون تنجون أو لا تنجون» وقال الحاكم صحيح وأقره الذهبي . وقال الهيتمى : رواه الطبرانى من طريق ابنة أبى الدرداء عن أبيها ولم أعرفها وبقية رجاله رجال الصحيح . وأخرج الحاكم أيضا فى الأهوال عن أبى هريرة رفعه «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا يظهر النفاق وترتفع الأمانة وتقبض الرحمة ويتهم الأمين ويؤتمن غير الأمين أناخ بكم الشرف الجون : الفتن كأمثال الليل المظلم » وقال صحيح وأقره الذهبى (وما روي أن المنادى ينادى من قبل السماء) أى من جهتها (ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا

عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا ، وَلَيْتَهُمْ إِذْ عَلِمُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا » وَكَذَٰلِكَ يَقُولُ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ خَضْرَاءَ تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ مَخَافَةَ الْعَذَابِ ، وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ إِنْسَانًا يَقْرَأُ : (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) قَالَ لَيْتَهَا تَمَّتْ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَدِدْتُ أَنِّي كَبْشٌ لِأَهْلِي ، فَيَتَفَرَّقَ لَحْمِي وَيَتَحَسَّى مَرَقِي وَلَمْ أُخْلَقْ ، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ : خُلِقَ ابْنُ آدَمَ أَحْمَقَ ، وَلَوْلَا حُمْقُهُ مَا هَنَأَهُ عَيْشٌ . وَعَنِ الْفَضْلِ بْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ : إِنِّي لَا أَغْبِطُ

علموا لماذا) أى لأى شىء (خلقوا وليتهم إذ علموا عملوا بما علموا وكذلك) أى لأجل ماروى (يقول السلف رضى الله عنهم ، فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : وددت أنى كنت خضراء) بمعنى الأخضر (تأكلنى الدواب) وذلك (مخافة العذاب) وقال أبو ذر رضى الله عنه : والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم ولاتقاررتم على فرشكم ، والله لوددت أن الله خلقنى يوم خلقنى شجرة تعضد ويؤكل ثمرها ، وقال طلحة بن عبد الله : وددت أنى لم أخلق ، وقال عثمان رضى الله عنه : وددت أنى إذا مت لم أبعث ، وقالت عائشة رضى الله عنها : وددت أنى كنت نسيا منسيا (وعن عمر) بن الخطاب (رضى الله عنه أنه سمع إنسانا يقرأ) قوله تعالى (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . قال) عمر رضى الله عنه (ليتها) أى الحين (تمت) أى بقيت ولم يكن شيئا مذكورا ، وروى أن عمر أخذ يوما تبنة من الأرض فقال : ياليتنى كنت هذه التبنة ياليتنى لم أك شيئا مذكورا ياليتنى كنت نسيا منسيا ياليتنى لم تلدنى أمى ، وكان رضى الله عنه يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما (وقال أبو عبيدة بن الجراح) الصحابى هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال شهد بدرا ، وقتل أباه يومئذ وشهد ما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توفى أبو عبيدة (رضى الله عنه) سنة ثمان عشرة فى طاعون عمواس وهى قرية بالشام وتوفى وهو ابن ثمان وخمسين سنة وختم الله بالشهادة فانه توفى بالطاعون وهى شهادة لكل مسلم ، وفى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » وفى رواية لمسلم : هذا أمين هذه الأمة (وددت أنى كبش لأهلى فيتفرق لحمى ويتحسى مرقى) أى يشربه (ولم أخلق) بالبناء للمفعول (و) روى (عن وهب بن منبه) تقدمت ترجمته رضى الله عنه (أنه قال : خلق ابن آدم أحمق ولولا حمقه ما هنأه) وأطيبه (عيش و) روى (عن الفضيل بن عياض) تقدمت ترجمته (رحمه الله قال : إنى لا أغبط) أى لا أتمنى

مَلَـكاً مُقَرَّباً وَلاَ نَبِيًّا مُرْسَلاً وَلاَ عَبْدًا صَالِحًا ، أَلَيْسَ هٰؤُلاَءِ يُعَاتَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّمَا أَغْبِطُ مَنْ لَمْ يُخْلَقْ ؛ وَعَنْ عَطَاءٍ السُّلَمِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : لَوْ أَنَّ نَارًا أُوقِدَتْ وَقِيلَ مَنْ أَلْقَى نَفْسَهُ فِيهَا صَارَ لاَ شَيْءَ لَخَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ مِنَ الْفَرَحِ قَبْلَ أَنْ أَصِلَ النَّارَ ، فَالأَمْرُ إِذَنْ أَيُّهَا الرَّجُلُ شَدِيدٌ كَمَا تَقُولُ ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا تَظُنُّ وَتَتَوَهَّمُ ، وَلٰـكِنَّهُ أَمْرٌ سَبَقَ فِى الْعِلْمِ الْقَدِيمِ ، وَتَدْبِيرٍ أَجْرَاهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، فَلاَ حِيلَةَ لِلْعَبْدِ إِلاَّ بَذْلَ الْمَجْهُودِ فِى الْعُبُودِيَّةِ وَالاِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ وَالاِبْتِهَالِ دَائِمًا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ، عَسَى أَنْ يَرْحَمَهُ فَيُسَلِّمَ بِفَضْلِهِ ، وَأَمَّا قَوْلُكَ كُلُّ هٰذَا لِمَاذَا ؟ فَهٰذَا كَلاَمٌ يَدُلُّ مِنْكَ عَلَى غَفْلَةٍ عَظِيمَةٍ ،

(ملـكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاتبون يوم القيامة) وفى النسخ الصحيحة يعاينون : أى يشاهدون أهوالها (إنما أغبط من لم يخلق) قال أبو نعيم فى الحلية حدثنا أبو محمد بن حيان حدثنا أحمد بن الحسين حدثنا أحمـد بن إبراهيم حدثنى محمد بن عيسى عن فضيل بن عياض قال : ما أغبط ملـكا مقربا ولا نبيا مرسلا يعاين القيامة وأهوالها ما أغبط إلا من لم يكن شيئا نقله الزبيدى (و) روى (عن عطاء السلمى رحمه الله) كذا فى أكثر النسخ والصواب السليمى بفتح المهملة وكسر اللام نسبة إلى سليمة بن مالك بن فهم بطن من الأزد زاهد مشهور ويقال له العبدى أيضا ذكره العلامة الزبيدى وكان من الخائفين المشهورين بالخوف حتى يقال إنه نسى القرآن من الخوف ، وكان إذا رأى تنورا يسجر يسقط مغشيا عليه من الخوف وإذا فرغ من وضوئه ارتعد وبكى شديدا وكان لدموعه حوله أثر البلل كأنه أثر الوضوء ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل العفو قاله صاحب الحلية (أنه قال : لو أن نارا أوقدت ، وقيل من ألقى نفسه فيها) أى فى النار (صار لاشىء لخشيت أن أموت من الفرح) أى لأجله (قبل أن أصل النار فالأمر إذن) أى إذا علمت ماقاله عطاء السلمى وغيره (أيها الرجل شديد كما تقول) فيما تقدم : ماأعظم هذا الخطر وأشـد هـذا الأمر (بل هو) أى الأمر (أشـد وأعظم مما تظن وتتوهم ولـكنه) أى الأمر : أى شدته (أمر سبق فى العلم القديم وتدبير أجراه) الله (العزيز العليم فلا حيلة) ولا تدبير . قال الفيومي : والحيلة الحذق فى تدبير الأمور ، وهو تقليب الفـكر حتى يهتدى إلى المقصود (للعبد إلا بذل المجهود فى العبودية والاعتصام) أى الاستمساك (بحبل [illegible]) أى القرآن (والابتهال) أى التضرع (دائما إلى الله سـبحانه عسى أن يرحمه) الله ([illegible]) من العذاب (بفضله) تعالى ورحمته (وأما قولك كل هذا) العمل والجهد وتحصيل [illegible] (لماذا) أي لأى شىء (فهذا) الذى تقوله (كلام يدل منك على غفلة عظيمة

بَلِ الصَّوَابُ أَنْ تَقُولَ كُلَّ هٰذَا فِى جَنْبِ مَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ مَاذَا ؟ أَتَدْرِى مَا يَطْلُبُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ أَقَلَّ مَا يَطْلُبُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ شَيْئَانِ ، أَحَدُهُمَا : السَّلَامَةُ فِى الدَّارَيْنِ ، وَالثَّانِى : الْمُلْكُ فِى الدَّارَيْنِ ؛ أَمَّا السَّلَامَةُ فِى الدُّنْيَا فَإِنَّ الدُّنْيَا وَآفَاتِهَا وَفِتْنَتَهَا وَغَوَائِلَهَا بِحَيْثُ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَقَدْ سَمِعْتَ حَدِيثَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ حَتَّى رُوِىَ أَنَّهُ إِذَا عُرِجَ بِرُوحِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ تَقُولُ مَلَائِكَةُ السَّمٰوَاتِ مُتَعَجِّبِينَ : كَيْفَ نَجَا هٰذَا مِنْ دَارٍ فَسَدَ فِيهَا خِيَارُنَا ؟ وَأَنَّ الْآخِرَةَ فِى أَهْوَالِهَا وَشَدَائِدِهَا بِحَيْثُ تَصْرُخُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : نَفْسِى نَفْسِى ، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِى ،

بل الصواب أن تقول كل هذا) العمل وغيره (فى جنب مايطلبه العبد الضعيف ماذا) أى أى شىء (أتدرى مايطلب العبد الضعيف) و (أقل مايطلبه) العبد (على الجملة) من غير تفصيل (شيئآن : أحدهما السلامة فى الدارين) أى الدنيا والآخرة (والثانى الملك فى الدارين ، أما السلامة فى الدنيا فان الدنيا وآفاتها وفتنتها وغوائلها) أى دواهيها . قال العلامة عبد الحق : جمع غائلة وهى الداهية والفساد والشر والمهلكة (بحيث لم يسلم منها) أى من الدنيا يعنى آفاتها (الملائكة المقربون ، وقد سمعت حديث هاروت وماروت) اسمان سريانيان من أصلح الملائكة وأعبدهم وقد بسط الكلام على قصتهما الخازن فى تفسيره (حتى روى أنه) أى الشأن (إذا عرج بروح العبد إلى السماء تقول ملائكة السموات متعجبين كيف نجا هذا) العبد (من دار) أى دار الدنيا (فسد فيها) أى فى تلك الدار (خيارنا) أى هاروت وماروت وابليس (وأن الآخرة فى أهوالها وشدائدها بحيث تصرخ) أى تصيح (فيها) أى فى الآخرة (الأنبياء والرسل عليهم السلام نفسى نفسى لاأسألك اليوم إلا نفسى) روى أبو هريرة رضي الله عنه « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض ألا ترون ماقد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا . فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول لهم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده

حَتى إِنّهُ رُوِىَ : لَوْ كَانَ لِلرَّجُلِ عَمَلَ سَبْعِينَ نَبِيًّا لَظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ فِتَنِ هٰذِهِ فَلْيَخْرُجْ مِنْهَا بِالْإِسْلَامِ سَالِمًا لاَ تُصِيبُهُ بَلِيَّةٌ ، وَمِنْ أَهْوَالِ هٰذِهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ سَالِمًا لاَ تُصِيبُهُ نَكْبَةٌ ، أَيَكُونُ هٰذَا أَمْرًا هَيِّنًا ، وَأَمَّا الْمُلْكُ وَالْكَرَامَةُ ، فَإِنَّ الْمُلْكَ نَفَاذُ التَّصَرُّفِ وَالْمَشِيئَةِ ، وَأَنَّ ذٰلِكَ بِالْحَقِيقَةِ فِى الدُّنْيَا لِأَوْلِيَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَصْفِيَائِهِ الرَّاضِينَ بِقَضَائِهِ ، فَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ وَالْأَرْضُ لَهُمْ قَدَمٌ وَاحِدٌ ، وَالْحَجَرُ وَالْمَدَرُ

مثله وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومي نفسى نفسى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله عليه السلام فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول لهم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثلهولا يغضب بعده مثله وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول إن ربى قد غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام . فيأتون إلى عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى . ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول أمتى أمتى يا رب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . ثم قال والذى نفسى بيده إن بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى »

(حتى إنه) أى الشأن (روى لو كان للرجل عمل سبعين نبيا لظن أنه لا ينجو فمن أراد أن يسلم من فتن هـذه) أى الدنيا (فليخرج منها) أى من الدنيا (بالإسلام سالما لا تصيبه بلية ، ومن أهوال هذه) أى الآخرة (فليدخل الجنة سالما لا تصيبه نكبة) بفتح النون : أى مصيبة (أيكون هـذا) أى السلامة من ذلك (أمرا هينا) أى سهلا (وأما الملك والكرامة . فإن الملك نفاذ التصرف و) نفاذ (المشيئة وأن ذلك) أى نفاذ التصرف والمشيئة (بالحقيقة فى الدنيا لأولياء الله عز وجل وأصفيائه الراضين بقضائه) تعالى (البر والبحر والأرض لهم) أى للأولياء (قدم واحد والحجر والمدر) جمع مدرة مثل قصب وقصبة وهو التراب المتلبد . قال الأزهرى : المدر

لَهُمْ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ وَالْبَهَائِمُ وَالطَّيْرُ لَهُمْ مُسَخَّرُونَ لاَ يَشَاءُونَ شَيْئًا إلا وَهُوَ كَائِنٌ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ لاَ يَشَاءُونَ إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ ، وَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ ، وَلاَ يَهَابُونَ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ وَيَهَابُهُمْ كُلُّ الْخَلْقِ، وَلاَ يَخْدِمُونَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيَخْدُمُهُمْ كُلُّ مَنْ دُونِ اللهِ ، وَأَيْنَ لِمُلُوكِ الدُّنْيَا بِعُشْرِ مَعَاشِرَ هٰذِهِ الرُّتْبَةِ بَلْ هُمْ أَقَلُّ وَأَذَلُّ ، وَأَمَّا مُلْكُ الآخِرَةِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكاً كَبِيرًا) وَأَعْظِمْ بِمَا يَقُولُ فِيهِ رَبُّ الْعِزَّةِ : (إِنَّهُ مُلْكٌ كَبِيرٌ) وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا قَلِيلَةٌ ، وَأَنَّ بَقَاءَهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لَقَلِيلٌ ، وَنَصِيبُ أَحَدِنَا مِنْ هٰذَا الْقَلِيلِ قَلِيلٌ ، ثُمَّ الْوَاحِدُ مِنَّا قَدْ يَبْذُلُ مَالَهُ وَرُوحَهُ ، حَتَّى رُبَّمَا يَظْفَرُ بِقَدْرٍ قَلِيلٍ مِنْ هٰذَا الْقَلِيلِ فِى بَقَاءٍ قَلِيلٍ ،

قطع الطين ، وبعضهم يقول الطين العلك الذي لا يخالطه رمل ، والعرب تسمى القرية مدرة لأن بنيانها غالبا من مدر (لهم) أى للأولياء (ذهب وفضة والجن والإنس والبهائم والطير لهم مسخرون) أى مطيعون (لا يشاءون شيئا إلا وهو) أى ذلك الشيء (كائن لهم لا يشاءون إلا ما شاء وما شاء الله كان) وما لم يشأ لم يكن (ولا يهابون) أى لا يخافون (أحدا من الخلق ويهابهم) أى يخافهم (كل الخلق ولا يخدمون أحدا إلا الله عز وجل ويخدمهم كل من دون الله) أى غيره من الخلق (وأين لملوك الدنيا بعشر معاشر هذه الرتبة) وفى نسخة معشر بدل معاشر : العشر جزء من عشرة ، والعشير والمعشار أيضا جزء من عشرة ، ولا يقال مفعال فى شيء من الكسور إلا فى مرباع ومعشار . وقيل المعشار عشر العشير ، والعشير عشر العشر ، وعلى هذا فيكون المعشار واحدا من ألف لأنه عشر عشر العشر (بل هم) أى ملوك الدنيا (أقل وأذل) وأصغر (وأما ملك الآخرة فيقول الله تعالى) فيه (وإذا رأيت ثم) يعنى فى الجنة (رأيت نعيما) أى لا يوصف عظمه (وملكا كبيرا) أى واسعا ، قيل هو أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وقيل هو أن رسول رب العزة لا يدخل عليه إلا بإذنه وهو استئذان الملائكة عليهم ، وقيل معناه ملكا لا زوال له ولا انتقال (وأعظم بما يقول فيه) فعل تعجب (رب العزة إنه) أى ملك الجنة (ملك كبير وأنت تعلم أن الدنيا بأسرها) أى بأجمعها (قليلة وأن بقاءها) أى الدنيا (من أولها إلى آخرها لقليل ونصيب أحدنا من هذا القليل قليل ثم الواحد منا قد يبذل) أى يعطى ويجود ، فى المختار بذل الشيء أعطاه وجاد به وبابه نصر (ماله وروحه حتى ربما يظفر) من باب طرب (بقدر قليل من هذا القليل فى بقاء قليل

وَإِنْ حَصَلَ لَهُ ذٰلِكَ فَيعذَرُ بَلْ يُغْبَطُ ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُ مَا بَذَلَ فِيهِ مِنَ المَالِ وَالنفسِ ، نَحْوَ مَا ذُكِرَ عَنِ امْرِئِ القَيْسِ حَيْثُ يَقُولُ :

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

فَكَيْفَ حَالُ مَنْ يَطْلُبُ المُلْكَ الكَبِيرَ فِى دَارِ النَّعِيمِ الخَالِدِ المُقِيمِ ، أَيَسْتَكْثِرُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ لِلّٰهِ تَعالى أَوْ يُنْفِقَ دِرْهَمَيْنِ أَوْ يَسْهَرَ لَيْلَتَيْنِ كَلاَّ ، بَلْ لَوْ كَانَ لَهُ أَلْفُ أَلْفِ نَفْسٍ ، وَأَلْفُ أَلْفِ رُوحٍ ، وَأَلْفُ أَلْفِ عُمْرٍ ، كُلُّ عُمْرٍ مِثْلُ عُمْرِ الدُّنْيَا وَأَكْبَرُ وَأَكْثَرُ ، فَبَذَلَ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِى هٰذَا المَطْلُوبِ العَزِيزِ ، لَكَانَ ذٰلِكَ قَلِيلاً ، وَلَئِنْ ظَفِرَ بَعْدَهُ بِمَطْلَبٍ لَكَانَ ذٰلِكَ غُنْماً عَظِيماً ، وَفَضْلاً

وإن حصل له) أي لذلك الواحد (ذلك) أي الكدر القليل (فيعذر بل يغبط) أى الواحد . قال العلامة عبد الحق : وفى النسخ الصحيحة وإن حصل له فبعذاب بل يغبط (ولا يستكثر ما بذل فيه من المال والنفس) وذلك (نحو ما ذكر عن امرئ القيس) وهو الشاعر المشهور الجاهلى ابن حجر بضم الحاء المهملة والجيم الساكنة ويجوز ضمها ابن الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يغوث بن ثور بن مرتع بضم الميم وفتح الراء وكسر المثناة فوق المشددة ابن معاوية بن كندة (حيث يقول) من بحر الطويل (بكى صاحبي لما رأى الدرب) أى كل مدخل إلى بلاد الروم كما فى سراج السالكين (دونه *) أى عنده (وأيقن أنا لاحقان بقيصرا) قيصر لقب من ملك الروم (فقلت له) أى لصاحبي (لا تبك عينك إنما * نحاول) أى نريد ونطاب ، حاوله محاولة وحوالا : رامه وأراده ، قيل وطلبه بالحيلة (ملكا أونموت فنعذرا . فكيف حال من يطلب الملك الكبير فى دار النعيم الخالد المقيم) أى الدائم (أيستكثر) أى طالب ذلك (مع ذلك) أى طلب المطلوب العزيز (أن يصلى) الطالب (ركعتين لله تعالى أو ينفق درهمين أو يسهر) من باب طرب : أى لا ينام (ليلتين كلا) ردع عن الاستكثار المذكور (بل لو كان له) أى الطالب المذكور (ألف ألف نفس وألف ألف روح وألف ألف عمر كل عمر مثل عمر الدنيا) ، عمر الدنيا سبعة آلاف سنة كما قاله بعضهم (وأكبر وأكثر) من ذلك (فبذل) الطالب (ذلك) الألوف من النفس والعمر (كله فى هذا المطلوب العزيز) وهو الملك الكبير العظيم فى دار النعيم (لكان ذلك) أى بذله ما ذكر (قليلا ولئن ظفر) الطالب ونال (بعده) أى البذل المذكور (بما طلب) من المطلوب العزيز (لكان ذلك) أى ظفره بالمطلوب (غنما عظيما وفضلا

مِنَ الَّذِي أَعْطَاهُ كَثِيرًا ، فَتَنَبَّهْ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ ، ثُمَّ إِنِّي تَأَمَّلْتُ مَا يُعْطِيهِ اللهُ سُبْحَانَهُ الْعَبْدَ إِذَا أَطَاعَهُ وَلَزِمَ خِدْمَتَهُ وَسَلَكَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ عُمْرَهُ ، فَوَجَدْتُهَا عَلَى الْجُمْلَةِ أَرْبَعِينَ كَرَامَةً وَخِلْعَةً ، عِشْرِينَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا ، وَعِشْرِينَ مِنْهَا فِي الْعُقْبَى ؛ أَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا فَالْأُولَى : أَنْ يَذْكُرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ وَأَكْرِمْ بِعَبْدٍ يَكُونُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، يَمُنُّ عَلَيْهِ فِي ذِكْرِهِ وَثَنَائِهِ ، وَالثَّانِيَةُ : أَنْ يَشْكُرَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَيُعَظِّمَهُ ، وَلَوْ شَكَرَكَ مَخْلُوقٌ ضَعِيفٌ مِثْلُكَ وَعَظَّمَكَ لَشَرُفْتَ بِهِ ، فَكَيْفَ بِإِلٰهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَالثَّالِثَةُ : أَنْ يُحِبَّهُ ، وَلَوْ أَحَبَّكَ رَئِيسُ مَحَلَّةٍ أَوْ أَمِيرُ بَلْدَةٍ لَافْتَخَرْتَ بِذٰلِكَ وَانْتَفَعْتَ بِهِ فِي مَوَاطِنَ عَزِيزَةٍ ، فَكَيْفَ بِمَحَبَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَالرَّابِعَةُ : أَنْ يَكُونَ لَهُ وَكِيلًا يُدَبِّرُ أُمُورَهُ . وَالْخَامِسَةُ : أَنْ يَكُونَ لَهُ بِرِزْقِهِ كَفِيلًا يُوَجِّهُهُ إِلَيْهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ أَوْ وَبَالٍ . وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ

من الذى أعطاه كثيرا فتنبه) أى تيقظ (أيها المسكين من رقدة) أى نومة (الغافلين . ثم إنى تأملت ما يعطيه الله سبحانه العبد إذا أطاعه) وعبده (ولزم) أى العبد (خدمته) أى طاعته (وسلك هذه الطريق عمره فوجدتها) أى العطايا (على الجملة) أى من غير تفصيل (أربعين كرامة وخلعة) بكسر الخاء المعجمة : أى عطية (عشرين منها) أى من الأربعين (فى الدنيا وعشرين منها فى العقبى) أى فى الآخرة (أما) الكرامة (التى فى الدنيا فالأولى أن يذكره) أى العبد (الله سبحانه ويثنى عليه) أى على العبد (و أكرم بعبد) فعل تعجب (يكون الله رب العالمين يمن عليه فى ذكره وثنائه .) الكرامة (الثانية أن يشكره) الله (جل جلاله و) أن (يعظمه) الله سبحانه (ولو شكرك مخلوق ضعيف مثلك. وعظمك) ذلك المخلوق (لشرفت به) أى بسبب شكره (فكيف) ما تشرف (بإله الأولين والآخرين . و) الكرامة (الثالثة أن يحبه) أى يحب الله العبد (ولو أحبك رئيس محلة) وقرية (أو أمير بلدة لا فتخرت بذلك) أى محبة الرئيس أو الأمير (وانتفعت به) أى بذلك المحبة (فى مواطن عزيزة فكيف بمحبة رب العالمين . و) الكرامة (الرابعة أن يكون) الله (له) أى للعبد (وكيلا) أى موكولا إليه (يدبر) سبحانه وتعالى (أموره) أى العبد . (و) الكرامة (الخامسة أن يكون) سبحانه وتعالى (له) أى للعبد (برزقه كفيلا) أى ضامنا (يوجهه) أى يوجه الله الرزق (اليه) أى العبد (من حال إلى حال من غير تعب أو وبال) أى ثقيل . (و) الكرامة (السادسة أن يكون) تعالى

لَهُ نَصِيرًا يَكْفِيهِ كُلَّ عَدُوٍّ ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ قَاصِدٍ بِسُوءٍ ، وَالسَّابِعَةُ : أَنْ يَكُونَ لَهُ أَنِيسًا لَا يَسْتَوْحِشُ بِحَالٍ وَلَا يَخَافُ التَّغْيِيرَ وَالْإِسْتِبْدَالَ . وَالثَّامِنَةُ : عِزُّ النَّفْسِ ، فَلَا يَلْحَقُهُ ذُلُّ خِدْمَةِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا ، بَلْ لَا يَرْضَى أَنْ تَخْدُمَهُ مُلُوكُ الدُّنْيَا وَجَبَابِرَتُهَا ، وَالتَّاسِعَةُ : رَفْعُ الْهِمَّةِ ، فَيَتَرَفَّعُ عَنِ التَّلَطُّخِ بِأَقْذَارِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى زَخَارِفِهَا وَمَلَاهِيهَا تَرَفُّعَ الرِّجَالِ الْأَلِبَّاءِ عَنْ مَلَاعِبِ الصِّبْيَانِ وَالنِّسْوَانِ ، وَالْعَاشِرَةُ : غِنَى الْقَلْبِ ، فَيَكُونُ أَغْنَى مِنْ كُلِّ غَنِيٍّ فِى الدُّنْيَا لَا يَزَالُ طَيِّبَ النَّفْسِ ، فَسِيحَ الصَّدْرِ ، لَا يَفْزَعُهُ حَدَثٌ وَلَا يَهُمُّهُ عُدْمٌ ، وَالْإِحْدَى عَشْرَةَ : نُورُ الْقَلْبِ فَيَهْتَدِى بِنُورِ قَلْبِهِ إِلَى عُلُومٍ وَأَسْرَارٍ وَحِكَمٍ لَا يَهْتَدِى إِلَى بَعْضِهَا غَيْرُهُ إِلَّا بِجُهْدٍ جَهِيدٍ ، وَعُمْرٍ مَدِيدٍ . وَالثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : شَرْحُ الصَّدْرِ ، فَلَا يَضِيقُ ذَرْعًا بِشَىْءٍ مِنْ مِحَنِ الدُّنْيَا وَمَصَائِبِهَا وَمُؤَنِ النَّاسِ وَمَكَايِدِهِمْ . وَالثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : الْمَهَابَةُ ، وَالْمَوْقِعُ فِى نُفُوسِ النَّاسِ يَحْتَرِمُهُ الْأَخْيَارُ ، وَالْأَشْرَارُ ، وَيَهَابُهُ كُلُّ فِرْعَوْنَ

(له) أى للعبد (نصيرا يكفيه كل عدو ويدفع) سبحانه (عنه) أى عن العبد (كل قاصد بسوء و) الكرامة (السابعة أن يكون) تعالى (له أنيسا لا يستوحش) العبد (بحال) من أحواله (ولا يخاف التغيير والاستبدال . و) الكرامة (الثامنة عز النفس) وشرفها (فلا يلحقه) أى العبد (ذل خدمة الدنيا وأهلها ، بل لا يرضى أن تخدمه ملوك الدنيا وجبابرتها) أى الدنيا . (و) الكرامة (التاسعة رفع الهمة فيرتفع) العبد (عن التلطخ) والتلوث (بأقذار الدنيا وأهلها ولا يلتفت) بقلبه (إلى زخارف الدنيا وملاهيها ترفع الرجال) أى كترفع الرجال (الألباء) أى العقلاء (عن ملاعب الصبيان والنسوان و) الكرامة (العاشرة غنى القلب فيكون أغنى من كل غنى فى الدنيا لا يزال طيب النفس فسيح) أى واسع (الصدر لا يفزعه حدث) أى أمر حدث كوجود المال عنده (ولا يهمه) أى لا يحزنه (عدم) أى فقد المال مثلا . (و) الكرامة (الاحدى عشرة نور القلب فيهتدى) العبد (بنور قلبه إلى علوم وأسرار وحكم) بالكسرة جمع حكمة (لا يهتدى إلى بعضها) أى تلك العلوم والأسرار والحكم (غيره) أى غير العبد المنور قلبه (إلا بجهد جهيد) أى شديد (وعمر مديد) أى طويل . (و) الكرامة (الثانية عشرة شرح الصدر فلا يضيق) العبد (ذرعا) أى قلبا أو صدرا (بشىء من محن الدنيا ومصائبها و) من (مؤن الناس ومكايدهم) ومكرهم . (و) الكرامة (الثالثة عشرة المهابة) أى المخافة (والموقع فى نفوس الناس) أى قلوبهم (يحترمه) أى العبد (الأخيار والأشرار ويهابه) أى يخافه (كل فرعون) أى كل عات متمرد

وَجَبَّارٍ . وَالرَّابِعَةَ عَشْرَةَ الْمَحَبَّــةُ فِى الْقُلُوبِ ، يَجْعَلُ لَهُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا ، فَتَرَى الْقُلُوبَ كُلَّهَا مَجْبُولَةً عَلَى حُبِّهِ ، وَالنُّفُوسَ كُلَّهَا بِأَجْمَعِهَا مَطْبُوعَةً عَلَى تَعْظِيمِهِ وَإِكْرَامِهِ . وَالْخَامِسَةَ عَشْرَةَ الْبَرَكَةُ الْعَامَّةُ فِى كُلِّ شَىْءٍ مِنْ كَلَامٍ أَوْ نَفْسٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ ثَوْبٍ أَوْ مَكَانٍ ، حَتَّى يَتَبَرَّكَ بِتُرَابِ وَطْئِهِ ، وَبِمَكَانٍ جَلَسَ فِيهِ يَوْمًا ، وَبِإِنْسَانٍ صَحِبَهُ وَرَآهُ حِينًا ، وَالسَّادِسَةَ عَشْرَةَ تَسْخِيرُ الْأَرْضِ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِنْ شَاءَ سَارَ فِى الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ ، أَوْ قَطَعَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِأَقَلَّ مِنْ سَاعَةٍ . وَالسَّابِعَةَ عَشْرَةَ تَسْخِيرُ الْحَيَوَانِ مِنَ السِّبَاعِ وَالْوُحُوشِ ، وَالْهَوَامِّ وَغَيْرِهَا فَتُحِبُّهُ الْوُحُوشُ وَتُبَصْبِصُ لَهُ الْأُسُودُ ، وَالثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِلْكُ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ ، فَحِينَمَا يَضْرِبُ بِيَدِهِ فَلَهُ كَنْزَانِ أَرَادَ وَحَيْثُمَا يَضْرِبُ بِرِجْلِهِ فَلَهُ عَيْنُ مَاءٍ إِنِ احْتَاجَ وَأَيْنَمَا نَزَلَ فَلَهُ مَائِدَةٌ تَحْضُرُهُ إِنْ قَصَدَ ، وَالتَّاسِعَةَ عَشْرَةَ الْقِيَادَةُ وَالْوَجَاهَةُ عَلَى بَابِ رَبِّ الْعِزَّةِ فَيَبْتَغِى الْخَلْقُ الْوَسِيلَةَ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى بِخِدْمَتِهِ ، وَيَسْتَنْجِحَ الْحَاجَاتِ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى بِوَجَاهَتِهِ وَبَرَكَتِهِ ، وَالْعِشْرُونَ

(وجبار) أى متكبر . (و) الكرامة (الرابعة عشرة المحبة فى القلوب يجعل له الرحمن ودا) أى مودة (فترى القلوب كلها مجبولة) أى مطبوعة (على حبه) أى العبد (و) ترى (النفوس كلها بأجمعها مطبوعة على تعظيمه وإكرامه . و) الكرامة (الخامسة عشرة البركة العامة فى كل شىء من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس) أى العبد (فيه) أى فى ذلك المكان (يوما) من الأيام (وبإنسان صحبه) أى صحب الإنسان ذلك العبد المكرم (ورآه حينا) أى زمانا . (و) الكرامة (السادسة عشرة تسخير الأرض من البر والبحر حتى شاء) العبد (سار فى الهواء أو مشى على الماء أو قطع) أى جاوز (وجه الأرض بأقل من ساعة . و) الكرامة (السابعة عشرة تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها فتحبه) أى العبد (الوحوش وتبصبص له الأسود) أى تحرك ذنبها والأسود جمع أسد . (و) الكرامة (الثامنة عشرة ملك مفاتيح الأرض ، فحيثما يضرب) العبد (بيده فله كنزان أراد) ذلك الكنز (وحيثما يضرب برجله فله عين ماء) أى منبعه (إن احتاج) ذلك (وأينما نزل فله مائدة تحضره إن قصد) إحضارها . (و) الكرامة (التاسعة عشرة القيادة والوجاهة على باب رب العزة) جل جلاله (فيبتغى) أى يطلب (الخلق الوسيلة إلى الله تعالى بخدمته) أى خدمة ذلك العبد المكرم (ويستنجح الحاجات) أى يطلب الخلق نجاح الحاجات وظفرها (من الله تعالى بوجاهته) أى العبد (وبركته . والعشرون) من

إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَلاَ يَسْأَلِ اللهَ تَعَالَى شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ وَلاَ يَشْفَعُ لِأَحَدٍ إِلاَّ شُفِّعَ ، وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى لَأَبَرَّهُ بِمَا شَاءَ ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَشَارَ إِلَى جَبَلٍ لَزَالَ ، فَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى السُّؤَالِ بِاللِّسَانِ ، وَلَوْ خَطَرَ بِبَالِهِ شَيْءٌ لَحَضَرَ ، وَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ ، فَهَذِهِ كَرَامَاتٌ فِى الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الَّتِي فِي الْعُقْبَى : فَالْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ أَنْ يُهَوِّنَ اللهُ عَلَيْهِ أَوَّلاً سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَهِيَ الَّتِي وَجِلَتْ قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فِيهَا حَتَّى سَأَلُوا اللهَ أَنْ يُهَوِّنَهَا عَلَيْهِمْ ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ الْمَوْتُ عِنْدَهُ مِثْلَ شَرْبَةِ الْمَاءِ الزُّلاَلِ لِلظَّمْآنِ ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ

الكرامات (إجابة الدعوة) مرة من الدعاء (من الله تعالى فلا يسأل الله شيئا إلا أعطاه) أى أعطى الله مسئول ذلك العبد (ولا يشفع لأحد إلا شفع) أى قبلت شفاعته (ولو أقسم على الله تعالى لأبره) أى قسمه (بما شاء حتى إن منهم) أى السالكين (من لو أشار إلى جبل لزال) ذلك الجبل عن مكان قراره (فلا يحتاج إلى السؤال باللسان ولو خطر) بالبناء للمفعول (بباله) أى بقلبه (شيء لحضر) ذلك الشيء (ولا يحتاج إلى الإشارة باليد ، فهذه) العشرون (كرامات فى الدنيا . وأما) الكرامات (التى فى العقبى فالحادية والعشرون) من الكرامات (أن يهون) أى يسهل (الله عليه) أى العبد (أولا سكرة الموت) وشدته (وهى) أي السكرات (التى وجلت) أى خافت (قلوب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيها) أى فى تلك السكرات (حتى سألوا الله أن يهونها) أى يسهلها (عليهم) أى الأنبياء ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم هون على سكرات الموت » ، وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهون على هذه السكرة : يعنى الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفى من الموت على الموت رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت . وقال القرطبى : لتشديد الموت على الأنبياء عليهم السلام فائدتان : إحداهما تكميل فضائلهم ورفع درجاتهم ، وليس ذلك نقصا ولا عذابا ، بل هو كما جاء « إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » والثانية أن تعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن ، وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقا ، بل يرى سهولة خروج روحه فيظن سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه فلما ذكر الأنبياء الصادقون فى خبرهم شدة ألمه مع كرامتهم على الله تعالى قطع الخلق بشدة الموت الذى يقاسيه الميت مطلقا لأخبار الصادقين عنه ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما ثبت فى الحديث (حتى إن منهم) أى السالكين (من يكون الموت عنده مثل شربة الماء الزلال) أى العذب (للظمآن) أى للعطشان (قال الله عز وجل) « كذلك يجزى الله المتقين » (الذين تتوفاهم

الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ) وَالثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : الثَّبَاتُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ وَالْإِيمَانِ ، وَهُوَ الَّذِى مِنْهُ كُلُّ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ، وَعَلَيْهِ كُلُّ الْبُكَاءِ وَالْجَزَعِ ، قَالَ اللهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :(يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ)

الملائكة طيبين) يعنى ظاهرين من الشرك . قال مجاهد : زاكية أقوالهم وأفعالهم ، وقيل أن قول طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه أنهم أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل ما نهوا عنه من المكروهات مع الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة والمباعدة من الأخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة ، وقيل معناه أن أوقاتهم تكون طيبة سهلة لأنهم يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج فيسهل عليهم قبض أرواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة ،(و) الكرامة (الثانية والعشرون : الثبات على المعرفة والايمان وهو) أي الثبات عليهما (الذى منه كل الخوف والفزع) من أن يزول ذلك (وعليه) أى الثبات : أى زواله (كل البكاء والجزع ، قال الله عز من قائل « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ») وهى الكلمة الطيبة وهى شهادة أن لا إله إلا الله فى قول جمهور المفسرين (فى الحياة الدنيا) يعنى في القبر عند السؤال (وفى الآخرة) يعنى يوم القيامة عند البعث والحساب . وهذا القول واضح ويدل عليه ما روى عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ، فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » قال نزلت فى عذاب القبر . زاد فى رواية يقال له من ربك ؟ فيقول ربى الله ونبى محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه البخارى ومسلم ، روى عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهت إلى القبر ولما يلحد بعد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير وبيده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم «فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا» زاد فى رواية وقال إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له ياهذا من ربك وما دينك ومن نبيك ، وفى رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول الله ربى فيقولان له ومادينك؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان وما يدريك؟ فيقول قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت . زاد فى رواية فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ثم لقناه . قال فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفتح له فى قبره مد بصره . وإن كان الكافر فذكر موته . قال فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما هذا الرجل الذى بعث

وَالثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ إِرْسَالُ الرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ وَالْبُشْرَى وَالرِّضْوَانِ وَالْأَمَانِ ، قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فَلَا يَخَافُ مِمَّا يَقْدُمُ عَلَيْهِ فِي الْعُقْبَى ، وَلَا يَحْزَنُ عَلَى مَا خَلَّفَهُ فِي الدُّنْيَا . وَالرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : الْخُلُودُ فِي الْجِنَانِ ، وَمُجَاوَرَةِ الرَّحْمٰنِ . وَالْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ : الْجَلْوَةُ فِي السِّرِّ لِرُوحِهِ ، فَيَعْرُجُ عَلَى مَلَائِكَةِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْإِكْرَامِ وَالْإِلْطَافِ وَالْإِنْعَامِ وَلِبَدَنِهِ فِي الْعَلَانِيَةِ بِتَعْظِيمِ جَنَازَتِهِ وَالْمُزَاحَمَةِ عَلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى تَجْهِيزِهِ ، يَرْجُونَ بِذَلِكَ أَكْثَرَ ثَوَابٍ ، وَيَعُدُّونَهُ أَعْظَمَ غُنْمٍ .

فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن قد كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه . زاد فى رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبلا لصار ترابا فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح » أخرجه أبو داود ، عن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبت فانه الآن يسئل أخرجه أبو داود . (و) الكرامة (الثالثة والعشرون إرسال الروح) أى الاستراحة (والريحان) أى الرزق الطيب (والبشرى) بالجنة (والرضوان والأمان) يدل على ذلك (قوله سبحانه وتعالى) « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة » (أن لا تخافوا) أى من الموت ، وقيل لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة (ولا تحزنوا) أى على ما خلفتم من أهل وولد فإنا نخلفكم فى ذلك كله ، وقيل لا تخافوا من ذنوبكم ولا تحزنوا فأنا أغفرها لكم (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فى الدنيا على لسان الرسل . وقال محمد بن على الترمذى : تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند مفارقة الأرواح الأبدان أن تخافوا سلب الإيمان ولا تحزنوا على ما كان من العصيان وأبشروا بدخوله الجنان التى كنتم توعدون فى سالف الزمان (فلا يخاف العبد (مما يقدم عليه فى العقبى) أى فى الآخرة (ولا يحزن على ما خلفه) من أهل وولد (فى الدنيا و) الكرامة (الرابعة والعشرون الخلود فى الجنان ومجاورة الرحمن) مجاورة معنوية . (و) الكرامة (الخامسة والعشرون الجلوة فى السر لروحه) يقال جلوت : أى أوضحت وكشفت ، وفى نسخة الحياة فى السر لروحه كما قال العلامة عبد الحق (فيعرج) روحه (على ملائكة السموات والأرض بالإكرام والألطاف والانعام ولبدنه فى العلانية بتعظيم جنازته والمزاحمة على الصلاة عليه) أى على ميته (والمبادرة إلى تجهيزه يرجون) أى الناس (بذلك) أى بتعظيم جنازته وغيره (أكثر ثواب ويعدونه) أى ذلك التعظيم ونحوه (أعظم غنم) أى منفعة . (و) الكرامة

وَالسَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: الأَمَانُ مِنْ فِتْنَةِ سُؤَالِ الْقَبْرِ وَتَلْقِينِ الصَّوَابِ، فَيَأْمَنُ مِنْ ذَلِكَ الْهَوْلِ ، وَالسَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : تَوْسِيعُ الْقَبْرِ وَتَنْوِيرُهُ ، فَيَكُونُ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ : إِينَاسُ رُوحِهِ وَنَسَمَتِهِ وَإِكْرَامِهَا ، فَتُجْعَلُ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ مَعَ الإِخْوَانِ الصَّالِحِينَ ، فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالتَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : الْحَشْرُ فِي الْعِزِّ وَالْكَرَامَةِ ، مِنْ حُلَلٍ وَتَاجٍ وَبُرَاقٍ . وَالثَّلاَثُونَ : بَيَاضُ الْوَجْهِ وَنُورُهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) وَقَالَ (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) وَالْحَادِيَةُ وَالثَّلاَثُونَ : الأَمْنُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(السادسة والعشرون الأمان من فتنة سؤال القبر وتلقين الصواب) للجواب إن كان يسئل (فيأمن من ذلك الهول) أى هول السؤال . (و) الكرامة (السابعة والعشرون توسيع القبر وتنويره فيكون) العبد (فى روضة من رياض الجنة) أى والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من النار كما فى الخبر (إلى يوم القيامة . و) الكرامة (الثامنة والعشرون إيناس روحه) أى العبد (ونسمته) قال العلامة عبد الحق : النسمة نفس الروح (وإكرامها) أى الروح (فتجعل) أى تلك الروح (فى أجواف طير خضر مع الأخوان الصالحين فرحين مستبشرين بما آتاهم الله تعالى من فضله) ورحمته . (و) الكرامة (التاسعة والعشرون الحشر فى العز) والشرف (والكرامة من حلل وتاج) أى إكليل (وبراق) من دواب الجنة . (و) الكرامة (الثلاثون بياض الوجه ونوره . قال الله تعالى : وجوه) هى وجوه المؤمنين (يومئذ) أى يوم القيامة (ناضرة) من النضارة وهى الحسن ، وقال ابن عباس : حسنة وقيل مسرورة بالنعيم ، وقيل ناعمة . وقيل مسفرة مضيئة ، وقيل بيض يعلوها نور وبهاء ، وقيل مشرقة بالنعيم إلى (ربها ناظرة) بلا كيفية ولا جهة ولا ثبوت مسافة وحمل النظر على الانتظار لأمر ربها أو لثوابه لا يصح لأنه يقال نظرت فيه : أى تفكرت ونظرته انتظرت ولا يعدى بإلى إلا بمعنى الرؤية مع أنه لا يليق الانتظار فى دار القرار كما ذكره النسفى وقال عز وجل (وجوه) أى وجوه المؤمنين المصدقين فى إيمانهم (يومئذ) يوم القيامة (مسفرة) أى مشرقة مضيئة من أسفر الصبح إذا أضاء ، وقيل مسفرة من قيام الليل ، وقيل من أثر الوضوء وقيل من الغبار فى سبيل الله (ضاحكة) أى عند الفراغ من الحساب (مستبشرة) أى مسرورة بما تنال من كرامة الله ورضوانه . (و) الكرامة (الحادية والثلاثون الأمن من أهوال يوم القيامة قال الله تعالى) « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير (أم من يأتى آمنا يوم القيامة) المعنى الذين يلحدون فى آياتنا يلقون فى النار والذين يؤمنون بآياتنا

وَالثانيَةُ وَالثَّلاثُونَ : الْكِتَابُ بِالْيَمِينِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَى الْكِتَابَ رَأْسًا . وَالثَّالِثَةُ وَالثَّلاثُونَ : تَيْسِيرُ الْحِسَابِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُحَاسَبُ أَصْلاً . وَالرَّابِعَةُ وَالثَّلاثُونَ : ثِقَلُ الْمِيزَانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُوقَفُ لِلْوَزْنِ أَصْلاً . وَالْخَامِسَةُ وَالثَّلاثُونَ : وُرُودُ الْحَوْضِ عَلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فَيَشْرَبُ شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا . وَالسَّادِسَةُ وَالثَّلاثُونَ : جَوَازُ الصِّرَاطِ وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لاَ يَسْمَعُ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا أَشْتَهَتْ

آمنون يوم القيامة . قيل هو حمزة ، وقيل عثمان ، وقيل عمار بن ياسر . (و) الكرامة (الثانية والثلاثون الكتاب) أى أخذه (باليمين) قال الله تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » وقال تعالى « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا » (ومنهم) أى من عباد الله الصالحين (من كفى الكتاب رأسا . و) الكرامة (الثالثة والثلاثون تيسير الحساب ، ومنهم من لا يحاسب أصلا) ففي الحديث « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا ليس عليهم حساب فقيل له هلا استزدت ربك ؟ فقال استزدته فزادني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا فقيل له هلا استزدت ربك فقال استزدته فزادنى ثلاث حثيات بيده الكريمة » أو كما ورد والثلاث حثيات ثلاث دفعات من غير عدد فهؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب ، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى الرحمة فيدخل الجنة من غير حساب ، كان من الكافرين من يكون أدنى إلى الغضب فيدخل النار من غير حساب فطائفة تدخل الجنة بلا حساب وطائفة تدخل النار بلا حساب وطائفة توقف للحساب فلا تنافى بين النصوص فى مثل ذلك ، كذا قاله العلامة إبراهيم البيجورى . (و) الكرامة (الرابعة والثلاثون : ثقل الميزان) قال الله تعالى « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » (ومنهم من لا يوقف للوزن أصلا) وهم الأنبياء والملائكة ، ومن يدخل الجنة بغير حساب فإنه فرع عن الحساب ولا مانع من وزن سيئات الكفار ليجازوا عليها بالعقاب فقوله تعالى « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » معناه لا نقيم لهم يوم القيامة وزنا نافعاً . (و) الكرامة (الخامسة والثلاثون ورود الحوض على النبى صلى الله عليه وسلم فيشرب شربة لا يظمأ) أي لا يعطش (بعدها) أى بعد الشربة (أبدا) فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما : حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه أكثر من نجوم السماء من شرب منه فلا يظمأ أبدا . (و) الكرامة (السادسة والثلاثون جواز الصراط) أى مروره (والنجاة من النار) والحكمة فى مرورهم على الصراط ظهور النجاة من النار وأن يتحسر الكفار بفوز المؤمنين بعد اشتراكهم فى المرور (حتى إن منهم) أى من الصالحين (من لا يسمع حسيسها) أى صوتها : أي النار (وهم فيما اشتهت

أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ، وَتُخْمَدُ لَهُمُ النَّارُ . وَالسَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : الشَّفَاعَةُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ نَحْوًا مِنْ شَفَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ، وَالثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ : مِلْكُ الْأَبَدِ فِي الْجَنَّةِ . وَالتَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : الرِّضْوَانُ الْأَكْبَرُ ، وَالْأَرْبَعُونَ : لِقَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، إِلٰهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، بِلَا كَيْفٍ جَلَّ جَلَالُهُ

ثُمَّ أَقُولُ : وَإِنَّمَا عَدَدْتُ ذٰلِكَ عَلَى حَسَبِ فَهْمِي وَمَبْلَغِ عِلْمِي فِي قُصُورِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ أَجْمَلْتُ وَأَوْجَزْتُ ، وَذَكَرْتُ الْأُصُولَ وَالْجُمَلَ ، وَلَوْ فَصَّلْتُ بَعْضَ ذٰلِكَ لَمَا احْتَمَلَهُ الْكِتَابُ ، أَلَا تَرَى أَنِّي جَعَلْتُ مُلْكَ الْأَبَدِ خِلْعَةً وَاحِدَةً ، وَلَوْ فَصَّلْتُهَا لَارْتَفَعَتْ عَلَى أَرْبَعِينَ خِلْعَةً مِنْ نُورِ الْحُورِ وَالْقُصُورِ وَاللِّبَاسِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ ، ثُمَّ كُلُّ نَوْعٍ يَشْتَمِلُ عَلَى تَفَاصِيلَ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، الَّذِي هُوَ خَالِقُهَا وَمَالِكُهَا ، وَأَيُّ مَطْمَعٍ لَنَا فِي مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ ،

أنفسهم خالدون وتخمد) أي تموت (لهم النار . و) الكرامة (السابعة والثلاثون الشفاعة) وهي لغة الوسيلة والطلب ، وعرفا سؤال الخير من الغير للغير وشفاعة المولى عبارة عن عفوه فإنه تعالى يشفع فيمن قال لا إله إلا الله ، وأثبت الرسالة للرسول الذي أرسل اليه ولم يعمل خيرا قط فيتفضل الله تعالى عليه بعدم دخوله النار بلاشفاعة أحد (في عرصات القيامة نحوا من شفاعة الأنبياء والرسل) وغيرهم من الملائكة والصحابة والشهداء والعلماء العاملين والأولياء . (و) الكرامة (الثامنة والثلاثون ملك الأبد في الجنة . و) الكرامة (التاسعة والثلاثون الرضوان الأكبر) من الله تعالى . (و) الكرامة (الأربعون لقاء رب العالمين إله الأولين والآخرين بلا كيف) ولا جهة ولا انحصار بالزمان والمكان (جل جلاله) وبالله التوفيق (ثم أقول وإنما عددت ذلك) أي المذكور من الكرامات (على حسب فهمي ومبلغ علمي في قصوره) أي فهمي وعلمي (ونقصه ومع ذلك) أي حسب علمي ومبلغ فهمي (فقد أجملت وأوجزت) أي اختصرت (وذكرت الأصول والجمل) بضم الجيم وفتح الميم جمع جملة (ولو فصلت) وبينت (بعض ذلك) أي ما ذكر من الكرامات (لما احتمله) أي التفصيل هذا (الكتاب) لكثرة ذلك التفصيل وطوله (ألا ترى أني جعلت ملك الأبد خلعة واحدة ولو فصلتها) أي تلك الخلعة الواحدة (لارتفعت على أربعين خلعة من نوع الحور والقصور واللباس وغير ذلك) من النعيم .

(ثم كل نوع يشتمل على تفاصيل) كثيرة (لا يحيط بها) أي تلك التفاصيل (إلا عالم الغيب الشهادة الذي هو خالقها ومالكها ، وأي مطمع) أي طمع (لنا في معرفة ذلك) المذكور من

وَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ يَقُولُ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « خَلَقَ فِيهَا مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » وَإِنَّ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي) إِنَّ هٰذِهِ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي يَقُولُهَا اللهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ بِاللُّطْفِ وَالْإِكْرَامِ وَمَا تَكُونُ حَالُهُ هٰذِهِ ، فَأَنَّى نَبْلُغُ جُزْءًا مِنْ أَلْفِ أَلْفِ جُزْءٍ مِنْهُ وَنَحْنُ بَشَرٌ ، أَوْ كَيْفَ يُحِيطُ بِهِ عِلْمُ مَخْلُوقٍ ، كَلَّا بَلْ تَقَاعَدَتِ الْهِمَمُ ، وَتَقَاصَرَتْ دُونَهُ الْعُقُولُ ، وَحَقَّ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ ، وَهُوَ عَطَاءُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ عَلَى مُقْتَضَى الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، وَحَسَبِ الْجُودِ الْقَدِيمِ ، أَلَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ، وَلْيَبْذُلِ الْمُجْتَهِدُونَ جُهْدَهُمْ لِهٰذَا الْمَطْلُوبِ الْعَظِيمِ ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ أَقَلُّ قَلِيلٍ فِي جَنْبِ مَا هُمْ إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ ، وَإِيَّاهُ يَطْلُبُونَ ، وَلَهُ يَتَعَرَّضُونَ ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ لَهُ فِي الْجُمْلَةِ

التفاصيل (وربنا سبحانه) وتعالى (يقول « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين») أى مما تقر به أعينهم فلا يلتفتون إلى غيره . قال ابن عباس : هذا مما لاتفسير له ، وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم (ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خلق فيها) أى فى الجنة (مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) رواه الشيخان عن أبى هريرة (وأن المفسرين يقولون فى) تفسير (قوله تعالى لنفد البحر) أى لنفد جنس البحر بأسره لأن كل جنس متناه (قبل أن تنفد كلمات ربى) فانها غير متناهية لا تنفد كعلمه (أن هذه) الكلمات التى لا تنفد (هى الكلمات التى يقولها الله تعالى لأهل الجنة في الجنة باللطف والإكرام وما تكون حاله) من النعيم (هذه)الحال المذكورة من عدم الحصر (فأنى) أى كيف (نبلغ جزأ من ألف ألف جزء منه) أى من النعيم الذى تكون حاله ما ذكر (ونحن بشر) أى آدمى (أو كيف يحيط به علم مخلوق كلا) أى لا نبلغ جزأ مما ذكر ولا يحيط به علم مخلوق (بل تقاعدت الهمم) جمع همة (وتقاصرت دونه) أى عنده (العقول وحق أن يكون ذلك) أى ماتكون حاله ما ذكر (كذلك) أى تقاعدت الهمم وتقاصرت عنده العقول (وهو) أى الذى تكون الحال ما ذكر (عطاء العزيز العليم على مقتضى الفضل العظيم وحسب الجود القديم ، ألا فليعمل العاملون وليبذل المجتهدون جهدهم لهذا المطلوب العظيم وليعلموا) أى العاملون والمجتهدون (أن ذلك) أى عملهم واجتهادهم (كله أقل قليل فى جنب ما هم إليه محتاجون) من أنواع الكرامة (وإياه يطلبون) أى هؤلاء العاملون والمجتهدون (وله يتعرضون وليعلموا أن العبد لا بد له فى الجملة) من غير تفصيل

مِنْ أَرْبَعَةٍ : الْعِلْمُ ، وَالعَمَلُ ، وَالإِخْلَاصُ ، وَالْخَوْفُ ، فَيَعْلَمُ أَوَّلاً الطَّرِيقَ ، وَإِلاَّ فَهُوَ أَعْمَى ، ثُمَّ يَعْمَلُ بِالْعِلْمِ وَإِلَّا فَهُوَ مَحْجُوبٌ ، ثُمَّ يُخْلِصُ الْعَمَلَ وَإِلَّا فَهُوَ مَغْبُونٌ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَخَافُ وَيَحْذَرُ مِنَ الآفَاتِ إِلَى أَنْ يَجِدَ الْأَمَانَ ، وَإِلاَّ فَهُوَ مَغْرُورٌ ، وَلَقَدْ صَدَقَ ذُو النونِ حَيْثُ قَالَ : الْخَلْقُ كُلُّهُمْ مَوْتَى إِلَّا الْعُلَمَاء ، وَالْعُلَمَاء كُلهُمْ نِيَامٌ إِلاَّ الْعَامِلِينَ ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ مُغْتَرُّونَ إِلاَّ الْمُخْلِصِينَ ، وَالْمُخْلِصُونَ كُلُّهُمْ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ .

قُلْتُ أَنَا : وَالْعَجَبُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ أَرْبَعَةٍ ، أَحَدُهَا : مِنْ عَاقِلٍ غَيْرُ عَالِمٍ ، أَمَا يَهْتَمُّ بِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَمَا يَتَعَرَّفُ مَا هُوَ مُطَّلِعٌ بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي هٰذِهِ الدَّلَائِلِ وَالْعِبَرِ وَالاسْتِمَاعِ إِلَى هٰذِهِ الآيَاتِ وَالنُّذُرِ وَالانْزِعَاجِ بِهٰذِهِ الْخَوَاطِرِ وَالْهَوَاجِسِ فِي النَّفْسِ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ)

(من أربعة : العلم والعمل والإخلاص والخوف فيعلم) العبد (أولا) أى قبل الشروع فى العمل (الطريق وإلا) يعلم ذلك (فهو أعمى ثم يعمل بالعلم وإلا) يعمل بمقتضى علمه (فهو محجوب) عن مطلوبه (ثم يخلص العمل وإلا) يخلصه (فهو مغبون ثم لا يزال) العبد (يخاف ويحذر من الآفات) المهلكات لعمله (إلى أن يجد الأمان وإلا) يخاف ويحذر منها (فهو مغرور) ومخدوع (ولقد صدق ذوالنون) المصرى رحمه الله حيث قال : (الخلق كلهم موتى) جمع ميت (إلا العلماء ، والعلماء كلهم نيام) جمع نائم (إلا العاملين والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصين ، والمخلصون كلهم على خطر عظيم) وكذا قال سهل إن عبد الله رحمه الله : الناس كلهم موتى إلا العلماء ، والعلماء سكارى إلا العاملين ، والعاملون مغرورون إلا المخلصين ، والمخلصون على وجل حتى يعلم بما يختم لهم به هكذا أورده صاحب القوت (قلت أنا والعجب كل العجب من أربعة : أحدها من عاقل غير عالم أما يهتم بمعرفة ما بين يديه) من الأهوال (أما يتعرف) أى يطلب أن يعرف (ما هو مطلع بعد الموت عليه) من الثواب أو العقاب (بالنظر فى هذه الدلائل والعبر) . جمع عبرة (والاستماع إلى هذه الآيات والنذر) أى الأمور المنذرة (والانزعاج) أى، التحريك (بهذه الخواطر) جمع خاطر وهو ما يخطر فى القلب من تدبير أمر (والهواجس) بمعنى ما قبله ، فى المصباح هجس الأمر بالقلب هجسا من باب قتل وقع وخطر فهو هاجس (فى النفس) أى فى القلب (قال الله تعالى (أو لم ينظروا) يعنى أهل مكة نظر اعتبار واستدلال (فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) أى وفيما خلق مما يقع عليه اسم الشىء من أجناس لا يحصرها العدد والمقصود التنبيه

وقالَ تعالَى : (أَلاَ يَظُنُّ أُولئكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) وَالثَّانِى مِنْ عَالِمٍ غَيْرِ عَامِلٍ بِالْعِلْمِ ، أَمَا يتفكَّرُ ما يَعْلَمُ يَقِيناً مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعِظَامِ وَالْعَقَبَاتِ الصِّعَابِ ، وَهٰذَا هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ الَّذِى أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . وَالثَّالِثُ مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ مُخْلِصٍ ، أَمَا يَتَأَمَّلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) . وَالرَّابِعُ مِنْ مُخْلِصٍ غَيْرِ خَائِفٍ ، أَمَا يَنْظُرُ إِلَى مُعَامَلاَتِهِ جَلَّ جَلاَلُهُ مَعَ أَصْفِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَخَدَمِهِ الدَّالَّةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، حَتَّى يَقُولُ لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَيْهِ : (وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) الآيَاتِ

على أن الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والأرض ، بل كل شىء خلق الله سبحانه وتعالى وبرأه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

(وقال تعالى « ألا يظن) أى ألا يعلم ويستيقن (أولئك) أى الذين يفعلون هذا الفعل وهم المطففون (أنهم مبعوثون) محيون (ليوم عظيم) وهو يوم القيامة وعظمه لعظم ما يكون فيه (والثانى من عالم غير عامل بالعلم أما يتفكر ما يعلم يقينا مما بين يديه من الأهوال العظام والعقبات الصعاب وهذا) أى الذى يعلمه العالم غير العامل يقينا بعلمه مما ذكر (هو النبأ العظيم) أى الخبر العظيم الشأن (الذى أنتم عنه) أي عن ذلك النبأ (معرضون . والثالث من عامل غير مخلص ، أما يتأمل) ويتفكر (قوله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه) أى يأمل حسن لقائه (فليعمل عملا صالحا) يرتضيه الله (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) بأن يرائيه أو يطلب منه أجرا ، روى أن جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأعمل العمل لله فاذا اطلع عليه سرنى ، فقال عليه الصلاة والسلام « إن الله لا يقبل ما شورك فيه » فنزلت تصديقا له ، وعنه عليه الصلاة والسلام « اتقوا الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر ؟ قال الرياء » والآية جامعة لخلاصتى العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص فى الطاعة . (والرابع من مخلص غير خائف ، أما ينظر إلى معاملاته جل جلاله مع أصفيائه) تعالى (وأوليائه وخدمة الدالة بينه) سبحانه (وبين خلقه حتى يقول لأكرم الخلق) صلى الله عليه وسلم (عليه) أى عنده (ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك) أى من الرسل عليهم السلام (الآيات) أى اقرأ آخرها ، وهو قوله « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله

وَنَحْوِها ، حَتَّى حُكِيَ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَقُولُ : « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا »

ثُمَّ جُمْلَةُ الْأَمْرِ وَتَفْصِيلُهُ مَا قالَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لاَ تُرْجَعُونَ) ثُمَّ قالَ جَلَّ اسْمُهُ : (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ

الله فاعبد وكن من الشاكرين » (ونحوها) أى الآيات المذكورة (حتى حكى أنه عليه) الصلاة و (السلام يقول : شيبتنى هود وأخواتها) رواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر والترمذى فى الشمائل وأبو يعلى والطبرانى من حديث أبى جحيفة : وأخواتها سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون كما فى رواية الترمذى والحاكم من حديث ابن عباس . قال العلماء رضى الله عنهم لعل ذلك لما فى سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى « ألا بعدا لعاد قوم هود ، ألا بعدا لثمود ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » فهذا هو الذى شيبه صلى الله عليه وسلم مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لوشاء لآتى كل نفس هداها ، وفى سورة الواقعة قوله تعالى « ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة » أى جف القلم بما هو كائن ، وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانو مرفوعين فى الدنيا . وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا ، وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى « وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت» وفى عم يتساءلون «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه» الآية وقوله تعالى « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر وتأمل (ثم جملة الأمر وتفصيله ما قاله رب العالمين فى أربع آيات من الكتاب العزيز قوله عز وجل « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ») أى لعبا وباطلا لا لحكمة ، وقيل العبث معناه لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل (وأنكم إلينا لا ترجعون) أى فى دار الآخرة للجزاء روى البغوى بسنده عن الحسن « أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه فى أذنه » أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » حتى ختم السورة فبرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بماذا رقيت فى أذنه ؟ فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال » (ثم قال جل اسمه) « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » (ولتنظر نفس) نكر النفس تقليلا للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة (ما قدمت لغد) أى لينظر أحدكم : أى شىء قدم لنفسه من الأعمال عملا صالحا ينجيه أم سيئا يوبقه ، والمراد بالغد يوم القيامة وقربه على الناس كأن يوم القيامة يأتى غداً وكل ما هو آت فهو قريب واتقوا الله قيل كرر الأمر بالتقوى تأكيداً . وقيل معنى الأول اتقوا الله فى أداء الواجبات ، ومعنى الثانى واتقوا الله فلا تأتوا

إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) ثُمَّ قالَ جَلَّ مِنْ قائِلٍ : (وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) ثُمَّ أَجْمَلَ لِكُلٍّ فَقالَ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقائِلِينَ : (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ ٱللهَ تَعَالَى مِنْ كُلِّ مازَلَّ بِهِ الْقَدَمُ أَوْ طَغَا بِهِ الْقَلَمُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كُلِّ أَقاوِيلِنَا الَّتِي لَا تُوافِقُ أَعْمَالَنَا ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كُلِّ مَا ادَّعَيْنَاهُ وَأَظْهَرْنَاهُ مِنَ الْعِلْمِ بِدِينِ اللهِ تَعَالَى ، مَعَ التَّقْصِيرِ فِيهِ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ

المنهيات (إن الله خبير بما تعملون) فيه تحريض على المراقبة لأن من علم وقت فعله أن الله مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه (ثم قال جل من قائل « والذين جاهدوا) اطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين (فينا) اى فى حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا (لنهدينهم سبلنا) قال أبو عمرو : أى لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقا ، وعن الدارانى : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى مالم يعلموا . فقد قيل : من عمل بما علم وفق لما لا يعلم ، وقيل إن الذى نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو لتقصيرنا فيما نعلم ، وعن فضيل : والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به ، وعن سهل : والذين جاهدوا فى إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة ، وعن ابن عطاء جاهدوا فى رضانا لنهدينهم إلى الوصول محل الرضوان ، وعن ابن عباس : جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا . وعن الجنيد : جاهدوا فى التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص أو جاهدوا فى خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا أو جاهدوا فى طلبنا تحريا لرضانا لنهدينهم سبل الوصول الينا (ثم أجمل) الله تعالى (لكل ، فقال وهو أصدق القائلين ومن جاهد) نفسه بالصبر على طاعة الله أو الشيطان بدفع وساوسه أو الكفار (فإنما يجاهدلنفسه) لأن منفعة ذلك ترجع اليها (إن الله غنى عن العالمين) أى عن أعمالهم وعباداتهم ، وفيه بشارة وتخويف . أما البشارة فلأنه إذا كان غنيا عن الأشياء فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عبيده لا شىء عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام . وأما التخويف فلأن الله إذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلكهم بعذابه فلا شىء عليه لاستغنائه عنهم (ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازل به القدم أو طغا) أى جاوز الحد (به القلم) فى كتابنا هذا المسمى بالمنهاج وفى سائر كتبنا (ونستغفره) تعالى (من كل أقاويلنا التى لا توافق أعمالنا ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم) والبصيرة (بدين الله تعالى مع التقصير فيه) أى فيما ادعيناه وأظهرناه (ونستغفره) سبحانه وتعالى من علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير

مِنْ كلِّ خَطِرَةٍ دَعَتْنَا إِلَى تَصنُّعٍ وَتَزَيُّنٍ فى كِتابٍ سَطَّرْناهُ أَوْ كَلَامٍ نَظَمْنَاهُ أَوْ عِلْمٍ أَفَدْنَاهُ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الْإِخْوَانِ ، بِمَا عَلِمْنَاهُ عَامِلِينَ ، وَلِوَجْهِهِ بِهِ مُرِيدِينَ ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَهُ وَبَالًا عَلَيْنَا ، وَأَنْ يَضَعَهُ فى مِيزَانِ الصَّالِحَاتِ إِذَا ردَّتْ أَعْمَالُنَا إِلَيْهِ ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

قالَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَهذَا مَاأَردنا أَنْ نَذْكُرَهُ فِي شَرْحِ كَيْفِيَّةِ سُلُوكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ ، وَقد وُفِّينَا بِالْمَقْصُودِ وَالْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتِ ، وَبِفَضْلِهِ تَنْزِلُ الْبَرَكَاتُ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى خَيْرِ مَوْلُودٍ دَعَا إِلَى أَفْضَلِ مَعْبُودٍ ، مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا ، طَيِّبًا مُبَارَكاً فِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره (من كل خطرة دعتنا إلى تصنع) وتكلف (وتزين) للناس (فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه) أو استفدناه (ونسأله) تعالى (أن يجعلنا وإياكم يا معشر الإخوان بما علمناه عاملين ولوجهه) تعالى (به) أى بما علمناه (مريدين وأن لا يجعله) أى ما علمناه (وبالا) أى ثقيلا (علينا وأن يضعه فى ميزان) أعمالنا (الصالحات إذا ردت أعمالنا إلينا إنه) تعالى (جواد كريم . قال الشيخ) الأمام حجة الاسلام أبو حامد الغزالى مؤلف هذا الكتاب (رضى الله عنه فهذا) الذى ذكرناه (ما أردنا أن نذكره فى شرح كيفية سلوك طريق الآخرة ، وقد وفينا بالمقصود) من الشرح المذكور (والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تنزل البركات ، وصلى الله على خير مولود) وأفضله على جميع العالمين (دعا إلى) طاعة (أفضل معبود) سبحانه وتعالى (محمد النبى وعلى آله) أى أتباعه ولو عصاة لأن العاصى أحوج إلى الدعاء من غيره ، وقد قالوا إن المناسب لمقام الدعاء التعميم ، فالأولى تفسير الآل بمطلق الأتباع ، وأما فى مقام المدح ، فالمناسب تفسيرهم بالأتقياء ، وأما فى مقام الزكاة فيفسرون ببنى هاشم وبني المطلب عندنا معشر الشافعية ، وعند السادة المالكية يفسرون ببنى هاشم فقط (وسلم تسليما كثيرا) وإنما أكد السلام ولم يؤكد الصلاة كما فى الآية الشريفة لأنه اكتفى عن تأكيدها بقول الله وملائكته لها فى الآية كما قال الله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنو صلوا عليه وسلموا تسليما » (طيبا) أى خالصا عن الرياء والسمعة (مباركا فيه) أى كثير الخير الظاهر أنه تأكيد للأول ، وقيل الأول بمعنى الزيادة ، والثانى بمعنى البقاء ، قاله شيخ الإسلام فى تحفة البارى (على كل حال) وبه انتهى الكتاب والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال جامعه ومهذبه غفر الله ذنوبه وستر فى الدارين عيوبه بمنه وكرمه آمين : هذا آخر ما يسره الله تعالى من الشرح المبارك إن شاء الله ، وأرجو من الله أن يجعله فى حيز القبول فانه كريم جواد يعطى كل مأمول ، والمرجو ممن يطلع عليه أن يدعولى بالخير والمباعدة عن كل شروضير وأن يقيل العثرات ويعفو عن السيئات لأنى لم أكن مدعيا فيه البراءة من الغلط والنسيان ، والمقر بذنبه يسأل الصفح والغفران ، وأستودع الله تعالى نفسى ودينى وخواتيم عملى وما أنعم به على ربى ، وهذا الكتاب فانه سبحانه إذا استودع شيئا حفظه .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه ، وسلم تسليما كثيرا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وكانت مدة تهذيبه مع شواغل الدهر وإبلائه ثمانية أشهر إلا أياما آخرها فى نهار الثلاثاء التاسع والعشرين من شعبان المكرم الذى هو من شهور سنة إحدي وخمسين بعد الثلثمائة والألف من هجرة من له تمام العز والشرف ، وذلك بمنزلى فى محلة جمفس ببلد كديرى من بلاد جاوه حرسها الله تعالى وسائر بلاد المسلمين ، والحمد لله فى البدء والختام ماكرت الدهور ومرت الأعوام ، وصلى الله على نبيه وآله الكرام وسلم .

تقاريظ

أصحاب الفضيلة العلماء الكرام لكتاب سراج الطالبين

وحين أمعن النظر . وحقق أمر هذا الكتاب وسبر . حضرة العلامة شمس بهجة الفضلاء . ودرة عقد ذوى التحقيق النبلاء . الأستاذ الكبير . والفهامة الشهير . أعجوبة الزمان . ومعدن الفضل والعرفان . من أضاءت فى سماء الفضل شمس علاه . وتجلت بسنا أفهامه العقول والشفاه . الشيخ [محمد هاشم بن أشعرى الجبنى] لا زالت تتوالى عليه سحائب رحمة ربه الغنى ، قرظه فقال حفظه الله وأدام علاه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أوضح معالم الطريق للسالكين ، ونشر أعلام الحقائق للسائرين ، وألبس قلوب الخلاصة من عبيده ملابس العرفان ، وحفظهم من بين عبيده من الأهواء ووساوس الشيطان ، والصلاة والسلام على ينبوع الحكمة والحكم ؛ سيد العرب والعجم ، خاتم النبيين وأشرف المرسلين ، الهادى إلى منهاج العابدين ، وعلى آله وأصحابه حملة الكتاب المستبين ، الذابين عن الدين بالسيوف القواطع ، القائمين على استخراج الأدلة بالكلم الجوامع .

أما بعد : فان حياض العلوم على صفحات الدهر لا تزال متدفقة ، ورياض الفنون مثمرة مورقة موفقة ؛ وايم الله إنها لأشرف البضائع وأربح البضائع ، أربابها فى ترق وارتفاع ، والمشتغل بها لم يزل فى نفع وانتفاع ، وإن أعظمها قدرا ، وأجلها ذكرا هو علم التصوف ، الذى يصفي القلوب ويزكى الطبع ، فهو أصل وما سواه فرع ، إذ هو المتعلق بالحضرة الإلهية ، وسبيل النجاة والسعادة الأبدية ، هذا وإن من أحسن ما صنف فى هذا الباب ، وأحسن ما يقتنيه ذوو الألباب الكتاب المسمى (سراج الطالبين . على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين) للعالم العلامة ، الحبر البحر الفهامة ، الأديب الألمعى ، واللبيب اللوذعى الشيخ (إحسان بن المرحوم محمد دحلان الجمفسى الكديرى) حفظه الملك القوى عن الشين الدنيوى والأخروى ، وهو كتاب مشحون بالفوائد ، وبما يسر الطلاب من الفوائد ، وما يستلذ به من الفرائد ، شكر الله سعى مؤلفه المبرور ، وأفاض وضاعف له النور والأجور :

وهذا كتاب للتصوف زبدة ... سفر بأسرار الشريعة مفعم
وإنى أهنى كل من ظفرت به ... يداه فهذا مغنم المتفهم

البائس الفقير إلى ربه الغنى
محمد هاشم أشعرى الجبنى

وحين سرح نظره الكريم فى صفحات هذا الكتاب ، حضرة الأجل الأفخم ، والعلامة الجليل الأكرم ، الأستاذ الكامل ، والفهامة الفاضل الشيخ (عبد الرحمن بن عبد الكريم السكرفى ثم العنجوئى) قدس الله أسراره ، وحباه قربه ، وأجزل أنواره ، مدحه بقوله حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يامن هو المحمود على الحقيقة ، ونسألك أن توفقنا لاتباع الشريعة والطريقة ، ونصلى ونسلم على من أنزل عليه « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن نصره ووالاه .

وبعد : فإنى سرحت نظرى فى كتاب (سراج الطالبين على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين) فإذا هو منهج مستقيم لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ؛ ومرشد بالغ لكل ضال وحائر ؛ جمع فيه مؤلفه من خفايا الفوائد الشاردة ، وأوعي فيه من خبايا الفرائد العائدة ، فصار فلكا مشحونا لمريد الشريعة والطريقة ، وحبكا مكنونا بعبارته السهلة الرائقة الدقيقة ، ألا وهو العالم العلامة المسدد ، والحبر البحر الفهامة الممدد ، حضرة حى الشيخ (محمد إحسان بن المرحوم حضرة الشيخ محمد دحلان الجمفسى الكديرى) حفظه الله تعالى عما وصمه وشان ، ومتع بأيام بقائه بنى الإنسان ، وحقق لنا وله القبول ، وأنالنا وإياه غاية المأمول آمين :

كتاب به كل اللآلئ تبرقت وسفر غدا كل المعانى به محوى
كتاب به كل المعانى تجمعت وسفر بدا كل الغوالى به مروى
فحى على ذاك الكتاب فانه يقينا سراج الطالبين عن المهوى

(قاله بفهمه ورقمه بقلمه محبه عبد الرحمن بن عبد الكريم السكرفى عاملهم المولى بلطفه الجلى والخفى)

وقد قرظه الفاضل والملاذ الكامل الشيخ محمد يونس بن عبد الله الكديرى فقال حفظه الله : الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على أفضل خلقه ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد : فقد طالعت بعض المواضع من هذا الشرح البديع ، فألفيتها من خير ما يهدى للعلماء والطلاب فى هذا الباب ، جزى الله مؤلفها خير الجزاء وأكثر فى العلماء من أمثاله ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين .

(الفقير إلى رحمة ربه الرحيم : محمد يونس عبد الله الكديرى)

وقد اطلع على هذا الكتاب أعمامنا الأئمة الأعلام ، وأولوا الفضل والكرم فمدحوا عليه بالحسن والإتقان والأحكام ، منهم العلامة الشيخ محمد خازن بن صالح الساكن فى قرية بندافارى متع الله الأنام بوجوده ، وأعاد علينا من نفحاته وجوده ، ومنهم العلامة الشيخ محمد معروف ابن عبد المجيد الكدنلونى الكديرى أمده الله فى وجوده ، وجعله مقرا لبره وجوده ، ومنهم العلامة الشيخ عبد الكريم المشهور بالمناب الساكن فى ليربيا الكديرى ، أدام الله كماله وأعلى فى الدارين قدره .

فهرس

الجزء الثانى من سراج الطالبين

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

[تم]